

المقتطف

من عبود التفاسير

للمرحوم فضيلة الشيخ

مصطفى الطاهر المنصوري

حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ

خادم الكتاب والسنة

محمد علي الصابوني

المجلد الأول

الدار الشامية

بيروت

دار القلم

دمشق

الطبعة الثانية

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عبر طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

الفهرس العام

فهرس المجلد الأول

٥	<u>مقدمة التفسير</u>
٧	<u>ترجمة المؤلف</u>
٩	<u>تفسير السملة</u>
١٣	١ - <u>سورة فاتحة الكتاب</u>
٢٥	٢ - <u>سورة البقرة</u>
٢٩٩	٣ - <u>سورة آل عمران</u>
٤١١	٤ - <u>سورة النساء</u>

فهرس المجلد الثاني

٥	٥ - <u>سورة المائدة</u>
٩٣	٦ - <u>سورة الأنعام</u>
١٩٧	٧ - <u>سورة الأعراف</u>
٣١٧	٨ - <u>سورة الأنفال</u>
٣٦١	٩ - <u>سورة التوبة</u>
٤٤٧	١٠ - <u>سورة يونس</u>
٥٠٥	١١ - <u>سورة هود</u>
٥٧١	١٢ - <u>سورة يوسف</u>

فَهْرَسُ المَجْلَدِ الثَّالِثِ

٥ سورة الرعد	١٣ -
٣٩ سورة إبراهيم	١٤ -
٧١ سورة الحجر	١٥ -
١٠٣ سورة النحل	١٦ -
١٧٣ سورة الإسراء	١٧ -
٢٣٧ سورة الكهف	١٨ -
٢٨٩ سورة مريم	١٩ -
٣٢٥ سورة طه	٢٠ -
٣٧٣ سورة الأنبياء	٢١ -
٤١٧ سورة الحج	٢٢ -
٤٥٥ سورة المؤمنون	٢٣ -
٤٩٣ سورة النور	٢٤ -

فَهْرَسُ المَجْلَدِ الرَّابِعِ

٥ سورة الفرقان	٢٥ -
٤٣ سورة الشعراء	٢٦ -
٩٣ سورة النمل	٢٧ -
١٣١ سورة القصص	٢٨ -
١٦٧ سورة العنكبوت	٢٩ -
١٩٥ سورة الروم	٣٠ -
٢١٧ سورة لقمان	٣١ -
٢٣٣ سورة السجدة	٣٢ -
٢٤٧ سورة الأحزاب	٣٣ -
٢٨٧ سورة سبأ	٣٤ -
٣١٣ سورة فاطر	٣٥ -

٣٣٥	٣٦ - سورة يس
٣٦٧	٣٧ - سورة الصافات
٤٠٥	٣٨ - سورة ص
٤٣٧	٣٩ - سورة الزمر
٤٦٩	٤٠ - سورة غافر
٥٠٣	٤١ - سورة فصلت
٥٢٧	٤٢ - سورة الشورى
٥٥١	٤٣ - سورة الزخرف
٥٧٩	٤٤ - سورة الدخان
٥٩٥	٤٥ - سورة الجاثية

فَهْرَسُ الْمَجْلَدِ الْخَامِسِ

٥	٤٦ - سورة الأحقاف
٢٣	٤٧ - سورة محمد (ﷺ)
٣٩	٤٨ - سورة الفتح
٥٥	٤٩ - سورة الحجرات
٦٩	٥٠ - سورة ق
٨٣	٥١ - سورة الذاريات
٩٩	٥٢ - سورة الطور
١١٣	٥٣ - سورة النجم
١٣١	٥٤ - سورة القمر
١٤٧	٥٥ - سورة الرحمن
١٦٥	٥٦ - سورة الواقعة
١٨٧	٥٧ - سورة الحديد
٢٠٣	٥٨ - سورة المجادلة
٢١٥	٥٩ - سورة الحشر

٢٢٩.....	٦٠ - سورة الممتحنة
٢٣٩.....	٦١ - سورة الصف
٢٤٥.....	٦٢ - سورة الجمعة
٢٥١.....	٦٣ - سورة المنافقون
٢٥٧.....	٦٤ - سورة التغابن
٢٦٥.....	٦٥ - سورة الطلاق
٢٧٣.....	٦٦ - سورة التحريم
٢٨١.....	٦٧ - سورة الملك
٢٩٣.....	٦٨ - سورة القلم
٣٠٧.....	٦٩ - سورة الحاقة
٣١٩.....	٧٠ - سورة المعارج
٣٢٩.....	٧١ - سورة نوح
٣٣٩.....	٧٢ - سورة الجن
٣٤٩.....	٧٣ - سورة المزمل
٣٥٧.....	٧٤ - سورة المدثر
٣٧١.....	٧٥ - سورة القيامة
٣٨١.....	٧٦ - سورة الإنسان
٣٩١.....	٧٧ - سورة المرسلات
٤٠١.....	٧٨ - سورة النبأ
٤١٥.....	٧٩ - سورة النازعات
٤٢٧.....	٨٠ - سورة عبس
٤٣٧.....	٨١ - سورة التكويد
٤٤٥.....	٨٢ - سورة الانفطار
٤٥١.....	٨٣ - سورة المطففين
٤٥٩.....	٨٤ - سورة الانشقاق
٤٦٧.....	٨٥ - سورة البروج

٤٧٥	٨٦ - سورة الطارق
٤٧٩	٨٧ - سورة الأعلى
٤٨٥	٨٨ - سورة الغاشية
٤٩١	٨٩ - سورة الفجر
٤٩٩	٩٠ - سورة البلد
٥٠٥	٩١ - سورة الشمس
٥١١	٩٢ - سورة الليل
٥١٧	٩٣ - سورة الضحى
٥٢١	٩٤ - سورة الانشراح
٥٢٥	٩٥ - سورة التين
٥٢٩	٩٦ - سورة العلق
٥٣٥	٩٧ - سورة القدر
٥٣٩	٩٨ - سورة البيّنة
٥٤٣	٩٩ - سورة الزلزلة
٥٤٧	١٠٠ - سورة العاديات
٥٥١	١٠١ - سورة القارعة
٥٥٥	١٠٢ - سورة التكاثر
٥٥٩	١٠٣ - سورة العصر
٥٦٣	١٠٤ - سورة الهمزة
٥٦٧	١٠٥ - سورة الفيل
٥٧١	١٠٦ - سورة قريش
٥٧٣	١٠٧ - سورة الماعون
٥٧٥	١٠٨ - سورة الكوثر
٥٧٧	١٠٩ - سورة الكافرون
٥٧٩	١١٠ - سورة النصر
٥٨١	١١١ - سورة المسد

٥٨٥	١١٢ - سورة الإخلاص
٥٨٩	١١٣ - سورة الفلق
٥٩١	١١٤ - سورة الناس
٥٩٢	- ما ورد في فضل المعوذتين
٥٩٥	الفهرس العام

بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى تَمَّ انْتِهَاءُ الْكِتَابِ

مَقَرَّةُ النَّفْسِ

بقلم

الشيخ محمد علي الصابوني

الحمد لله منزل الكتاب، تبصرةً وذكرى لأولي الألباب، والصلاة والسلام على السراج المنير، المنزل عليه قول الإله العلي الكبير ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ سيدنا محمد البشير النذير، الذي ختم الله ببعثته رسالة الأنبياء والمرسلين، فكان ذلك ختام مسك، كما ختم بالقرآن العظيم الكتب السماوية، فكمل الدين، وتمت النعمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فحين كنت في مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة - حرسها الله - أستاذاً باحثاً أحقق بعض كتب التراث، قدم عليّ أخ فاضل تركي، يحمل معه مجلدات ضخمة مخطوطة، لقريب له من علماء الأتراك، توفي رحمه الله قبل زمن ليس بالبعيد، عرض عليّ هذه الأسفار الكبيرة، التي خطها المؤلف بيده، ثم أدركته الوفاة قبل أن تجد النور، وطلب مني أن أبحث له عن مطبع هذا الكتاب على نفقته من المحسنين، لأن المؤلف ترك لهم هذه المخطوطات «ثروة علمية» ثم عاجلته المنية قبل طباعتها، فتصفحت تلك المجلدات فوجدتها كتاباً كاملاً في علم التفسير، وثروة علمية لا يستهان بها في تراثنا الإسلامي، بذل

المؤلف جهداً كبيراً في إخراجِه في سنين عديدة، وفي زمن عصيب، طغت فيه المادية، ونجم فيه النفاق، وطلع قرن الشيطان، فنفخ في أنصاره وأتباعه، فحاربوا الدين وأهله، وقضوا على الخلافة الإسلامية، التي كانت رمز قوة المسلمين، وتماسكهم واتحادهم، وتعاون معهم شياطين أوروبا وأمريكا، وأرادوا بعملهم المنكر أن يقضوا على الإسلام، ويقوضوا دعائمه، ولكن الإسلام كان أقوى منهم وأرسخ، لأن الإسلام يستمد قوته من القوي المتين، رب العزة والجلال، فهو القادر الذي ينصر رسله وجنده المؤمنين، ولهذا بقي للدين عزته وقوته، وظهر من يكافح عنه ويناضل، ورجع أعداء الإسلام بالخيبة والخسران، من الصهاينة، والعلمانيين، والملاحدة. وفي هذا العصر المتأجج بالفتن، المشحون بالمشائقات، قيض الله لهذا الدين، من يحميه من العلماء العاملين، فظهر شيوخ أجلاء، وقفوا في وجه هذه الهجمة الشرسة على الإسلام، ينافحون عنه ويكافحون، منهم الشيخ الجليل العلامة الشيخ «مصطفى الخيري الحصري المنصوري» فقد بذل جهداً كبيراً لخدمة القرآن العظيم، وأخرج هذا التفسير الميسر النافع، اختاره من أمهات كتب التفسير وسمّاه «المقتطف من عيون التفاسير» أخرجه باللغة العربية خدمة للإسلام والمسلمين وهو بحق اسم على مسمى، فهو شذرات وزهرات يانة من رياض علم التفسير، وقد عرضته على الأخ الوجيه المحسن، الشيخ «عبد الله أبو الحسن» من وجهاء أهل جدة السعوديين، الذي يحرص دائماً على نشر ثقافة القرآن، ويهتم بالمخطوطات العلمية الدينية، فكلفني جزاءه الله خيراً بالعمل على طباعته والعناية به، ليخرج بالوجه الأنيق المناسب للعصر، تقبّل الله عمله، وأجزل مثوبته، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين أحسن الجزاء، وصلى الله على نبينا وحبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

خَادِمُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

الشيخ محمد علي الصابوني

ترجمة المؤلف

بِقَامِ أَحَدِ مُعَاَصِرِيهِ
الْأَسْتَاذِ إِبْرَاهِيمَ طَانِيَّ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على
رسولنا وشفيع ذنوبنا محمد ﷺ وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين أجمعين،
إلى يوم الدين.

أما بعد: فهذه ترجمة مختصرة لفضيلة المرحوم الشيخ مصطفى
الخيرى الحصني المنصوري مؤلف كتاب «المقتطف في التفسير» رحمه الله
تعالى، وجعل الجنة مسكنه ومأواه.

ولد الأستاذ الشيخ «مصطفى بن ميمش بن الحسين» في مدينة حصن
المنصور واسمها الآن «آدي يامان» مركز الولاية في الأناضول سنة
١٣٠٧ هـ ودرس العلوم الابتدائية والرشيديّة بمحل ولادته، وكان أبوه
طباخاً محباً للعلم وأهله، وقد حرص على أن يكون ابنه من أهل العلم،
ولذلك لم يعلمه صنعة الطبخ، بل أثر أن ينفق عليه ليكون من العلماء،
فأرسله إلى مدينة «عتاب» فتعلّم اللغة العربية وبرع فيها، على يد أستاذ
زمانه الشيخ «عبد الله خواجه». ثم رحل إلى استانبول بإشارة بعض أساتذته
والتحق بمدرسة الواعظين، فدرس فيها سنتين، ثم انتسب إلى مدرسة
القضاة، وبعد تكميل تحصيله في مدرسة القضاة، دُعي للخدمة العسكرية
الوطنية في صنف المدافع «طوبجي» وفي الحرب العالمية الأولى اشترك في
المحاربات في «جاناق قلعه» وسائر جبهات الحرب في «ماكدونيا» وفي

العراق، وقبل نهاية الحرب العالمية الأولى سُبي مع كثير من أفراد
العسكر، وجال في ممالك عديدة عدة سنين أسيراً.

وبعد خلاصه من الأسر، عُيِّن مدرساً في مدرسة النواب في مدرسة
«شمسني» فدرّس فيها ثماني سنوات، خمس سنين في القسم الثانوي،
وثلاث سنوات في القسم العالي، درّس فيها اللغة العربية، والفارسية،
وعلم الفقه، وعلم الأصول، والفرائض، وأصول الصلّ، وأحكام
الأوقاف.

وفي زمن اشتغاله بالتدريس ألّف كتابه «المقتطف في الفقه» سنة
١٩٢٢ م ثم نقل إلى دار الإفتاء في مدينة «صوفيا» ببلغاريا، وفي فترة
اشتغاله بدار الإفتاء في هيئة الديوان العالي الشرعي ابتداء بتأليف كتابه
«المقتطف في التفسير» واشتغل به سنين عديدة وطويلة، حتى انتهى منه،
وله كتاب «لغة الطب» وعلم الحال لأطفال المسلمين، ومجموعة الفوائد
بالتركي والعربي، وكتابه المقتطف في الفقه مطبوع.

كان الأستاذ الحاج مصطفى الخيري الحصني المنصوري عالماً
فاضلاً، ومرجعاً في علم الفقه، وكان زاهداً ورعاً، قوي الجسم، بسيماً،
قليل الكلام والمنام، مداوماً على صلاة الجماعة في الأوقات الخمس،
يشتغل بالمطالعة دائماً وكان محباً للفقراء وطلاب العلم والمساكين،
ويكتب ويتكلم باللغات الثلاث: التركية، والعربية، والفارسية.

توفي رحمه الله سنة ١٣٩٠ هـ ودفن في «استانبول» في مقبرة
«قوزلو» عن عمر يناهز ٨٢ / الثانية والثمانين، رحمه الله رحمة واسعة
وأسكنه فسيح جنانه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إِبْرَاهِيمَ طَائِرٍ

تفسير السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباء في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ للملاسة عند صاحب الكشاف، وعند البيضاوي للاستعانة، والقول بالاستعانة أولى، إذ فيه من الأدب، وإظهار العبودية، ما ليس في المصاحبة، وهذا المعنى أمر به المسلم بقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتعلقت الباء بمحذوف، وهو هنا ما جعلت التسمية مبدأ له، والأولى تقدير المتعلق مؤخراً، ليفيد قصد الاهتمام باسمه تعالى، وليكون أوقع في التعظيم، وأدل على الاختصاص، وأوفق للوجود، فإن اسمه تعالى مقدّم على القراءة، كيف لا وقد جعل آله لها من حيث إنّ الفعل لا يتم ويعتد به شرعاً، ما لم يُصدّر باسمه تعالى، لقوله ﷺ: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدأ فيه بيسم الله فهو أبتَرُ»^(١)، وتقديره: «بسم الله أقرأ» وهذا وما

(١) أخرجه ابن ماجه في النكاح بلفظ «كل أمر ذي بالٍ لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع» رقم ١٨٩٤ ورواه أحمد في المسند ٣٥٩/٢، وابن حبان في صحيحه رقم ٥٧٨، ومعنى «أبتَر» أي مقطوع، ناقص من الخير والفضيلة، وأما الرواية التي أوردها المصنّف فهي من إخراج الحافظ الزهاوي.

بعده مقولٌ على ألسنة العباد، ليعلموا كيف يُتبرك باسمه تعالى، ويُحمد على نعمه، ويُسأل من فضله.

والاسم لغة: علامة للشيء، وعرفاً: اللفظ الموضوع لمعنى، مفرداً كان أو مركباً، والمراد بالاسم هنا: ما قابل الكناية واللَّقب، فيشمل الصفات، ليدلَّ على أن التبرُّك والاستعانة بجميع أسمائه تعالى، وقد تكون الأسماء كثيرةً والمسمى واحداً، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(١).

والاسم إن أُريد به اللفظ فغير المسمى، لأنه يتألف من أصوات مقطعة ويختلف باختلاف الأمم، والمسمى لا يكون كذلك، وإن أُريد ذات الشيء فهو المسمى، لكنه لم يشتهر بهذا المعنى، وفي قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ و﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ المراد به اللفظ، لأنه كما يجب تنزيه ذاته وصفاته عن النقائص، يجب تنزيه الألفاظ الموضوععة لها عن الرّفث، وسوء الأدب.

ولأنما لم يقل «بالله» لأن التبرك والاستعانة بذكر اسمه، وللفرق بين اليمين واليمين^(٢)، ولم تكتب الألف لكثرة الاستعمال، وطوّلت الباء عوضاً عنها، قال عمر بن عبد العزيز لكتابه: طوّل الباء، وأظهر السين، ودوّر الميم، تعظيماً لكتاب الله عزّ وجلّ.

﴿الله﴾ اسم عَلَم خاص لله تعالى، تفرد به سبحانه، ولا يشركه فيه أحد، وهو الصحيح المختار، دليله قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٣)؟ وهو عَلَمٌ على المعبود بحق، واختير لفظ الجلالة من بين سائر الأسماء، لكونه أشهر في الألسن، وأدور في الاستعمال، ولكونه مستجمعاً لجميع

(١) سورة الأعراف، آية: ١٨٠.

(٢) التيمُّن: أي التبرك بذكر اسمه جلّ وعلا.

(٣) سورة مريم، آية: ٦٥.

الصفات الفاضلة، يصلح للتبرك بذكره، وكما تاهت العقول في ذاته وصفاته، لاحتجابها بنور العظمة، تحيرت أيضاً في اللفظة الدالة على الذات، والجمهور على أنَّ لفظ «الله» عربي، اسمٌ عَلِمَ مرتجل، من غير اعتبار أصلٍ منه.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ من الرحمة، والرحمة رقة القلب والانعطاف، ومنه الرحم لانعطافها على ما فيها، والرحمن من الصفات الغالبة، حيث لم يُطلق على غيره تعالى، وفيه من المبالغة ما ليس في الرحيم أو هما بمعنى واحد، كما قاله الجوهري، وهما صفتان جليلتان مشرقتان بنور الفيض الرباني، تشملان النعم، حسية أو معنوية، وإفرادهما بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة، وتقديم الرحمن لأنه باختصاصه به تعالى، صار حقيقياً بأن يكون قريناً للاسم الجليل.

«فصل»

البسملة آية من القرآن، أنزلت للفصل بين السور، وقال الشافعي آية من كل سورة ما عدا براءة، فحرّم قراءتها على الجنب، والحائض، والنفساء، وهذا لو قصد التلاوة، ومذهب الجمهور أنها من القرآن، ولم تجز الصلاة بها، نظراً إلى شبهة خلاف مالك، لأنه ادّعى عدم تواتر كونها قرآناً.

وَرَدَ الأمر بقراءة البسملة في مواضع من القرآن، كقوله سبحانه ﴿اقرأ باسم ربك﴾ والبسملة تجب عند الذبح، ورمي الصيد، والإرسال إليه، ولكن يقوم مقامها كلُّ ذكرٍ خالص، ولا يأتي بالرحمن الرحيم عند الذبح، لأن الذبح ليس بملائم للرحمة، لكن في الجوهرة لو قال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فهو حسن، وفي ابتداء الفاتحة في كل ركعة، قيل: تجب قراءتها لكن الأصحَّ أنها سنة، ويسنُّ في ابتداء الوضوء، والأكل،

وفي كل أمرٍ ذي بال، وتكره عند كشف العورة، أو في محل النجاسة، وعند شرب الدخان ونحوه، فمعنى «ذي بال» أي شريف يُهْتَم به.

وفي هذا الوصف فائدتان: إحداهما رعاية تعظيم اسم الله، بأن يبتدأ به في الأمور المعتد بها.

والأخرى كل أمرٍ يخطر بالبال، وفي هذا إظهار عظمة الله تعالى، وحثٌ على التبري عن القوة إلا بالله^(١)، نعم التسمية على الحرام حرام، ومكروهة في المكروه، إن لم يكن استخفافاً، وإن قصده والعياذُ بالله كفر.

(١) لهذه اللفظة «بسم الله الرحمن الرحيم» سرٌّ من أسرار العظمة الربانية، والكمالات القدسية، ما يجعلها شعاراً للمسلم في جميع شؤون الحياة، يلتجئ بها إلى الله، ويحتمي بها من شر كل ذي شر، فإن فيها ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى «الله» «الرحمن» «الرحيم» ولهذا رغبنا الرسول ﷺ أن نقولها في كل أمرٍ من أمورنا الدينية والدنيوية، تبركاً وتيمناً باسمه تعالى.. روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ كان راكباً على دابة، وخلفه بعض أصحابه، فعثرت بالنبي ﷺ، فقال الذي كان رديفه: تَعَسَ الشيطانُ، فقال له النبي ﷺ: «لا تقل تَعَسَ الشيطانُ فإنك إذا قلت ذلك تعظم وقال: بقوة صرعته، وإذا قلت «بسم الله» تصاغر حتى يصير مثل الذبابة»!!

قال الحافظ ابن كثير: وهذا من تأثير بركة «بسم الله الرحمن الرحيم» ولهذا تستحب في أول كل قولٍ وعمل، فتستحب في أول الخطبة لحديث «كل أمر لا يُبدأ فيه بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» فهو أجزم»، وتستحب البسمة في أول الوضوء لحديث «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»، وتستحب عند الذبيحة لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه﴾ وأوجبها بعضهم، وتستحب عند الأكل لقوله ﷺ للغلام «قل بسم الله، وكلْ بيمينك، وكلْ مما يليك»، وتستحب كذلك عند الجماع، لما في الصحيحين «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد، لم يضره الشيطان أبداً». فالمشروع ذكر اسم الله في ذلك كله تبركاً وتيمناً واستعانة به تعالى على الثقل والإتمام اهـ. من تفسير ابن كثير بشيء من الإيجاز.

سُورَةُ الْفَتْحَةِ

مكية وآياتها سبع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ
يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٦﴾ ۞ ﴾

السورة: من سور المدينة لإحاطتها بآياتها، وقد ثبتت أسماء جميعها بالأحاديث والآثار، والحكمة في التسوير، ليكون أنشط للقارىء، وأبعث على التحصيل، ولأن الجنس إذا انطوى تحته أنواع كان أحسن مع أن في ذلك تحقيق كون السورة بمجردها معجزة، وآية من آيات الله، والفتاحة في الأصل صفة جعلت اسماً لأول الشيء، وفتاحة الكتاب سميت بذلك لأن بها افتتح القرآن الكريم، وتسمى: «أم القرآن» لأنها مبدأه، فكانها أصله، ولذلك يسمى أساساً، وتسمى سورة الكثر، والوافية، والكافية، والشافية، وسورة الحمد والشكر والدعاء، لاشتمالها على ذلك، والسبع المثاني لأنها سبع آيات بالاتفاق ولأنها تكرر في الصلاة، وتثنى بسورة أخرى، والأكثر على أنها مكية، بل من أول ما نزل من القرآن، وهو المروي عن علي، وابن عباس، وأكثر الصحابة، وعن مجاهد أنها مدنية، وصح

أنها مكية لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾^(١) وهو مكِّي بالنص.

روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني^(٢).

الحمد: هو الثناء باللسان على الجميل، سواء تعلق بالفضائل أم بالفواضل، وقالوا في تحقق الحمد خمسة أمور:

- ١ - محمود به. ٢ - محمود عليه. ٣ - حامد. ٤ - محمود.
- ٥ - ما يدل على اتصاف المحمود بصفة.

وتعليق الحمد أولاً باسم الذات للإيذان بأنه عز وجل هو المستحق له بذاته ووصف بصفة الكمال للتنبيه على استحقاقه له باعتبار الصفة أيضاً.

والفرق بين الحمد والمدح من وجوه:

- ١ - الحمد يختص بالثناء على الفعل الاختياري لذوي العلم، والمدح في الاختياري وغيره.

- ٢ - صدور الحمد عن علم لا عن ظن، والمدح أعم.

(١) سورة الحجج، آية: ٨٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة رقم ١٤٥٧ باب فاتحة الكتاب، والترمذي رقم ٣١٢٣ في تفسير القرآن، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، ورواه البخاري ١٢٠/٧ باب ما جاء في فاتحة الكتاب، ولفظه عن أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه قال: «كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، ثم أتيت فقلت يا رسول الله: إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ ثم قال لي: ألا أعلمك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد!! ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت يا رسول الله: ألم تقل: لأعلمك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: ﴿الحمد لله رب العالمين...﴾ هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته» وانظر جامع الأصول ٤٦٥/٨.

٣ - في الحمد من التعظيم وهو أخص بالعظماء وأكثر إطلاقاً على الله تعالى، والمدح ليس كذلك.

٤ - الحمد مأمورٌ فيه، والمدح ليس كذلك.

٥ - المدح يكون قبل الإحسان وبعده، والحمد لا يكون إلا بعده.

٦ - المدح قد يكون منهياً عنه، والحمد مأمورٌ به وواجبٌ على العبد، والشكر أيضاً مغاير للحمد فإن الشكر ثناء عليه تعالى بسبب إنعام وصل إليه، والحمد ليس كذلك، فهو أظهر عبودية^(١).

والحمد من المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة لا تكاد تستعمل معها، وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته، والتعريف فيه للجنس، والمحلى بلام الجنس في المقامات الخطابية يتبادر منه الاستغراق، وهو الشائع لا سيما في المصادر، والحمد في الحقيقة كله له تعالى، إذ ما من خير إلا وهو موليه كما قال الله تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾^(٢).

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الربُّ: في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، وصف به الفاعل مبالغةً كالعدل، وسُمِّي به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه، ويطلق أيضاً على السيد، والمنعم، والمصلح، والصاحب، والمعبود، وأنه حقيقة في التربية، ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً، كرتب الدار، وهذا ونحوه جوازه مخصوصٌ بزمانه، وما في الصحيحين من أنه ﷺ قال: «لا يقل أحدكم ربي، وليقل سيدي ومولاي» فقد قيل إن النهي فيه للتنزيه.

والعالمُ: اسمٌ لما يُعلم به كالخاتم، غلب فيما يعلم به الصانع جلّ وعلا من المصنوعات، وهو من العلامة لأنه علامة لموجده وإنما جمّعه

(١) انظر تفسير القاضي البضاوي «أنوار التنزيل» الجزء الأول ص ٦.

(٢) سورة النحل، آية: ٥٣.

ليشمل ما تحته من الأجناس، يقال عالم الأفلاك، وعالم النبات، وعالم الإنس والجن، ويطلق على المجموع كما في قولنا: العالم بجميع أجزائه محدث، وإنما ورد بالياء والنون تغليبا للعقلاء، وبعضهم خص العالمين بذوي العلم من الملائكة والثقلين، وقيل: هم الإنس والجن. لقوله تعالى: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾^(١).

وفي الرب معنى التربية والتهذيب للعوالم العاقلة الناطقة، والإلهام بالنافع للعوالم غير الناطقة، فعناية الله عز وجل للعالمين جميعاً، ومن تأمل في مخلوقاته تعالى وتفكر في صنعه، ظهرت عظمة باريه وشمول تربيته للعوالم كلها، لأن آثار تربيته واضحة المنار، وساطعة الأنوار، فسبحانه من رب لا يضاهى، ومَنَّا لا يُحصى كرمه ولا يتناهى.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ صفتان جليلتان مشرقتان بنور الفيض الرباني، تשמلان النعم الحسية والمعنوية، وذكرهما هنا تعليل للحمد، فالرحمن يشير إلى التربية بالوسائط، والرحيم يشير إلى التربية بلا واسطة، والرحمن ينبئ بالنعم المادية، والرحيم بالمعنوية، وإيرادهما ههنا يدل على أن التسمية ليست من الفاتحة، ولو كانت منها لما أعادها.

﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ المالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف شاء، والمَلِك المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين في الملك، وقرىء بهما، والقراءتان صفة لله تعالى، الأولى إشارة إلى الفضل الكبير ويعضده قوله تعالى: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾^(٢) والثانية قراءة أهل الحرمين ويعضده قوله تعالى: ﴿لمن المُلْكُ اليوم؟﴾

واليوم عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها، وفي الشرع بين طلوع الفجر الثاني وغروب الشمس، والمراد هنا مطلق الوقت، إذ ليس عند ربنا

(١) سورة الفرقان، آية: ١.

(٢) سورة الانقطار، آية: ١٩.

صباح ولا مساء، والتعبيرات المختلفة بالنظر إلى حال المخاطب، ولم يقل «يوم القيامة» ترجيحاً للعموم، ومراعاةً للفاصلة، ولكونه أدخل في الترغيب والترهيب، وتخصيصُ اليوم بالإضافة مع أنه مالك الأشياء في جميع الأوقات، إمّا لتعظيمه وتهويله، أو لبيان تفردّه بإجراء الأمر فيه، وانقطاع العلائق بين المَلَك والأَمَلَك كلها، ولذا قال الله تعالى: ﴿لَمَنَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾^(١)؟ ويوم الدين، يوم الجزاء ومنه «كما تَدِينُ تُدَانُ»، ومنه الحديث المرسل عن أبي قلابة قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبُرُّ لَا يَبْلَى، وَالْإِثْمُ لَا يُنْسَى، وَالْدِّينَانُ لَا يَمُوتُ، أَعْمَلُ مَا شِئْتَ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ»^(٢)، والدينُ المطلق في اصطلاح أهل الإسلام والقرآن: الإسلام. أما سائر المذاهب فلا يسمّى ديناً إلا مقيّداً، كدين اليهود، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٣)، وإجراء هذه الأوصاف على الله تعالى، من كونه موجداً للعالمين، رباً لهم، منعماً عليهم بالنعم كلها، مالِكاً لأموالهم يوم الثواب والعقاب، للدلالة على أنه تعالى حقيقٌ بالحمد، لا أحد أحق به منه، بل لا يستحقه سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف يشعر بعليته له، وللإشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات، لا يستأهل لأن يُحمد، فضلاً عن أن يعبد.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ثم إنه تعالى لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصفه بصفاتٍ عظام تميز بها من سائر الذوات، تعلق العلم بمعلوم معيّن، فخطب بذلك، أي يا من هذا شأنه، نخصك بالعبادة

(١) سورة غافر، آية: ١٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق قال ابن حجر في الفتح ١٥٦/٨: وهو مرسل رجاله ثقات، وأخرج البخاري طرفاً منه تعليقاً فقال: والدينُ: الجزاء في الخير والشر، كما تدين تُدان، انظر تفسير سورة الفاتحة.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٩.

والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقى من البرهان إلى العيان، ومن عادة العرب التفتن في الكلام، والعدول من أسلوب إلى آخر، تنشيطاً للسامع، فتعدل من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَاهُ﴾^(١). وقُدِّمَ المفعول للتعظيم والاهتمام به، والدلالة على الحصر، والتنبيه على أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولاً وبالذات، ومنه إلى العبادة لا من حيث إنها عبادة صدرت عنه، بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه، ووصلةً بينه وبين الحق، وتكرير الضمير للتنخيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة، ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب، والعبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه طريق معبد أي مدلل، والعبودية أدنى منها، وقيل: العبادة فعل ما يرضى به الله، والعبودية: الرضاء بما فعل الله تعالى، ولا يجوز شرعاً ولا عقلاً فعل العبادة إلا لله تعالى، لأنه هو المستحق لذلك لا غيره، لأنه مولى أعظم النعم، من الحياة، والوجود وتوابعهما، ولذا يحرم السجود لغيره تعالى، وهي تستعمل بمعنى الطاعة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾^(٢)، وبمعنى الدعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾^(٣) وبمعنى التوحيد ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٤) وكلها متقاربة المعنى.

وقدِّمت العبادة، لأن تقديم الوسيلة، قبل طلب الحاجة، أقرب إلى الإجابة، ولأن العبادة من حقوق الله تعالى، والاستعانة من حقوق المستعين، ولأن العبادة واجبة حتماً، والاستعانة تابعة للمستعان فيه، وقد

(١) سورة فاطر، آية: ٩.

(٢) سورة يس، آية: ٦٠.

(٣) سورة غافر، آية: ٦٠.

(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

قيل: لما كان المسؤول هو المعونة في العبادة، وهو المناسب لحال الحامد، كأنه قيل: وإياك نستعين في ذلك، لذا كان وجه الترتيب واضحاً.

والاستعانة: طلب المعونة في أمر من الأمور، والمراد بها في الآية: طلب المعونة في المهمات كلها، ولهذا لم يخصصها هنا بل ورد اللفظ بالعموم ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي على أمور الدنيا والدين.

والضمير في الفعلين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ للقارئ ولجماعة الحاضرين، من المؤمنين الموحدين، أدرج عبادته في عبادتهم، وخلط حاجته ضمن حاجتهم، لعلها تقبل ببركة دعاء المؤمنين، ولذا شرعت صلاة الجماعة، وفُضِّلَت على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة.

وأمرنا المولى جلّ وعلا أن نكون مع الصادقين، وأن ننخرط في سلكهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ولهذا السر جاء التعبير في سورة الفاتحة بصيغة الجمع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما ورد في دعاء القنوت بصيغة الجمع أيضاً «اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت... الخ». وتخصيص العبادة والاستعانة بالله عزّ وجلّ أصل من أصول الإسلام. لقد كان المسلمون الأولون يعبدون الله تعالى مخلصين له الدين، ويستعينون به، ففازوا بما أدهش العالم، فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة، ولم يحسنوا العبادة والاستعانة، فضعفوا وذُلُّوا، وذهبت ريحهم.

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الهداية: دلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية وقيل: هي الدلالة الموصلة إليها، لأنه لا يقال مهدي إلا لمن اهتدى إلى المطلوب وهي تستعمل في الخير، وقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾^(١) على نهج التهكم، والأصل أن يعدى باللام أو إلى كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟ قُلْ اللَّهُ

(١) سورة الصافات، آية: ٢٣.

يَهْدِي لِلْحَقِّ^(١)، وهداية الله تعالى لا تكاد تنحصر، منها أنفسية، ومنها آفاقية، وهي الأدلة المودعة في كل فرد من أفراد العالم، وإما تنزيلية بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وفي قوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

ومنها الهداية الخاصة، وهي كشف الأستار عن قلب العبد المهدي، بالوحي وهو خاصٌّ بالأنبياء صلوات الله عليهم، أو بالإلهام والمناجات الصادقة، وهو يشمل الأنبياء، والأولياء، والصالحين، فقد ألهم الله أم موسى أن تلقي ولدها في اليمِّ ﴿فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي البحر وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الملهمين، كما جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ^(٢)».

أقسام الهداية

وقد منح الله سبحانه وتعالى الإنسان أربع هدايات:

- ١ - هداية الفطرة: فإن الطفل عندما يصل الثدي إلى فمه يُلهم امتصاصه.
- ٢ - هداية الحواس: وهي متممة للأولى، ويشارك الحيوان فيها الإنسان، فبالحواس يهتدي إلى أسباب عيشه كلٌّ من الإنسان والحيوان ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.
- ٣ - هداية العقل: وهي خاصة بالإنسان، وبالعقل يُصحَّح غلط الإنسان.
- ٤ - هداية الدين: فقد يغلط العقل في إدراك المصلحة كما تغلط

(١) سورة يونس، آية: ٣٥.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٣٦٨٣ في مناقب عمر، وقال: حديث حسن.

الحواس، فيحتاج إلى هداية الدين، لترشد الناس - في ظلمات الأهواء - إلى الطريق المستقيم.

والمطلوب في الآية ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إما الزيادة كما قال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ وإما الثبات على الهداية، كما فسرها علي رضي الله عنه ﴿أَهْدِنَا﴾ أي ثبتنا، وكما ورد في الحديث الشريف: «اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»^(١).

والصراط المستقيم: هو الطريق الذي لا التواء فيه، ولا اعوجاج، وهو جسر بين العبد والرب، ممدود على متن الشهوات المغرية: الفسق، والجهل، والبدع، والرذائل الدنيئة، والهداية هي: الاستقامة على ما ورد به الشرع الشريف، علماً، وعملاً، وخُلُقاً. وللتذكير بذلك قيل: ﴿الصِّرَاطُ﴾ ولم يقل السبيل، ولا الطريق، وإن كان الكل واحداً، فمن قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أراد: أرشدنا إلى الاستقامة على امثال أوامرك، واجتناب نواهيك، والسنة الإلهية في هذا الكون أن يظهر الشيء مجملاً، ثم يتبعه التفصيل تدريجاً، وما مثل الهداية الإلهية إلا مثل البذرة، والشجرة تنبت شيئاً فشيئاً ثم تصبح شجرة باسقة.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الأول، وفائدته التنصيص على أن طريق المسلمين، هو المشهود عليه بالاستقامة، لأنه جعل كالتفسير والبيان، بأن الصراط المستقيم هو طريق المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ بشهادة ما قبله من قوله تعالى: ﴿وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾.

والإنعام: إيصال النعمة إلى الغير من العقلاء، فلا يقال أنعم على فرسه، ولذا قيل: النعمة نفع الإنسان من دونه بغير عوض، ونِعِمَّ الله تعالى

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٢٤ وأحمد في المسند ١٨٢/٤.

وإن كانت لا تُحصى كما قال الله تعالى: ﴿وإن تُعَدُّوا نعمة الله لا تُحْصَوْهَا﴾^(١) منقسم إلى قسمين: دنيوية، وأخروية، والأول قسمان: وهبي، وكسبي، والوهبي قسمان: روحاني كنفع الروح فيه، وإشراقه بالعقل، وجسماني كتخليق البدن والقوى الحالة فيه من الصحة، وكمال الأعضاء، والكسبي: تزكية النفس من الرذائل وتحليتها بالأخلاق السنية والمَلَكَات الفاضلة، اللهم ارزقنا ذلك بفضلك العظيم، وفي بناء «أنعمت» للفاعل استعطاف، فكأن الداعي يقول: أطلب منك الهداية إذ سبق إنعامك، فاجعل من إنعامك إجابة دعائنا.

سبحان الله ما أكرمه، كيف يعلمنا الطلب، فيجود بالفضل على كل من طلب!!.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي الذين جمعوا بين النعمة المطلقة، التي هي نعمة الإيمان، وبين نعمة السلامة من الغضب والضلال، والعدول من إسناد الغضب والإضلال إليه تعالى كما أسند الإنعام، جرى على نهاية الآداب التنزيلية، في نسبة النعم والخيرات إليه تعالى، دون أضدادها.

والضلال: هو العدول عن الصراط السوي، ضلَّ الرجل: إذا انحرف عن الطريق المستقيم، أو أخطأ في سلوك الجادة. والمراد بالمغضوب عليهم: اليهود، والضالين: النصارى، لما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالُّون»^(٢) أخرجه الترمذي، ورواه أحمد في المسند، وحسنه ابن حبان، وصحَّحه ابن جرير، وقال ابن أبي حاتم: لا أعرف فيه خلاف المفسرين.

فمن زعم أن الحمل على ذلك ضعيف - لأن منكري الخالق

(١) سورة النحل، آية: ١٨.

(٢) أخرجه الترمذي في قصة إسلام عدي بن حاتم، في تفسير سورة الفاتحة رقم ٢٩٥٤.

والمشركين أخبث ديناً منهما - فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً، إن كان قد بلغه ما صَحَّ عن رسول الله ﷺ فليس بعد كلام الرسول مقال لأحد «ولا عطر بعد عروس» وإلاَّ فقد تجاسر على تفسير كتاب الله، مع الجهل بأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام!!.

ولا مانع أن نعمَّم الحكم، فنقول الآية كما وضَّحها عليه الصلاة والسلام يراد بها «اليهود والنصارى» ولكنَّ حكمها عام يشمل كلَّ ضالٍّ وكافر ومشرِك، من أهل الكتاب، ومن المشركين عبدة الأوثان، لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

(آمين): اسم فعل أمر بمعنى: استجب دعاءنا، وليست من القرآن بالاتفاق ولهذا لم تكتب في المصحف، ولكن يُسنُّ ختم السورة الكريمة بها، لما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الإمام ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقولوا: آمين، فمن وافق قوله قول الملائكة، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه»^(١) وفي رواية أخرى «إذا أمَّن الإمام فأمنوا، فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه».

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير رقم ٤٤٧٥.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مدنية وآياتها مئتان وست وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

﴿الْم﴾ قيل: إنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سر الله في القرآن، فنأخذ من ظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وعن أبي بكر الصديق أنه قال: في كل كتاب سرٌّ، وسرُّ الله في القرآن أوائل السور، وعن علي: إن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي. وقيل هي أسماء السور، وقال قطرب: كان العرب ينفرون من استماع القرآن، فلما نزل ﴿المص﴾ قرأ النبي ﷺ هذه الحروف استنكروا هذا اللفظ، وتاقت نفوسهم إلى تعرّف ما يتلوه من الكلام، فلما أنصتوا أقبل عليهم النبي ﷺ بالقرآن، أو إشارة إلى كلمات هي منها اقتصرت عليها كما رويت عن ابن عباس أنه قال: إن الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، أي القرآن منزلٌ من الله بجبريل على محمد ﷺ.

فصل

الحكمة من افتتاح بعض السور بالحروف المقطّعة

الحكيم إذا خاطب من كان محل الغفلة، أو مشغول البال، يقدّم على المقصود شيئاً غيره، ليلفت نظر المخاطب إلى كلامه، وذلك المقدم

قد يكون كلاماً «كاسمع» وقد يكون صوتاً كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه، وقد يكون بالتصفيق بيده!!

وكُلِّما كان المقصود أهم، والغفلة أتم، كان المقدم أكثر، ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال: «أزيد» والبعيد بيا فيقال «يا زيد» والغافل يُنبَّه بـ «الآ» فيقال: «الآ يا قوم، آلا يا زيد»، كما قال الشاعر:

أَلَا يَا حَمَزُ لِلشَّرْفِ النَّوَاءُ وَهُنَّ مُعَقَّلَاتٍ بِالْفَنَاءِ

فيحسن من الحكيم أن يقدم على المقصود حروفاً هي كالمنبهات، ثم إنَّ تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها، تكون أتم في التنبيه، وإذا كان المقدم مفهوماً فالسامع يظن أنه كل المقصود، فيقطع الالتفات عنه؛ وهذا هو السرُّ في افتتاح بعض السور الكريمة، بهذه الحروف الهجائية المقطّعة، مثل: ﴿الْم﴾ و﴿المص﴾ و﴿وحمق﴾ و﴿كهيعص﴾ و﴿وحم﴾ و﴿الز﴾ و﴿ق﴾ وأمثالها من الحروف المقطّعة، التي وردت في تسع وعشرين سورة، وكلها مكية إلا البقرة، وآل عمران.

قال قطرب: كان العرب ينفرون من استماع القرآن، ويوصي بعضهم بعضاً بعدم استماعه، كما قال سبحانه: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن، والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ فلما نزل ﴿المص﴾ و﴿كهيعص﴾ وقرأها النبي ﷺ استنكروا هذا اللفظ، وتاقت نفوسهم إلى معرفة ما يتلوه من الكلام، فلما أنصتوا أقبل عليهم القرآن بآياته البينات، مما اضطرهم إلى سماعه، وهذا من أحد أسباب الحكمة في افتتاح السور بالحروف المقطّعة.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ «ذلك» إشارة إلى القرآن الموعود إنزاله. بقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(١) والإشارة به للتعظيم، والكاف

(١) سورة المزمل، آية: ٥.

للخطاب، وما فيه من معنى البعد، مع قرب العهد بالمشار إليه، للتنويه بعلو شأنه.

والمعتبر في أسماء الإشارة هو الإشارة الحسية، فإن أشير بها إلى ما يستحيل إدراكه نحو ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ أو إلى محسوسة غير مشاهدة نحو ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ فلتصويره كالمشاهد، وتنزيلُ الإشارة العقلية منزلة الحسية، لا تخلو عن لُطْفٍ ﴿الْكِتَابُ﴾ مصدرٌ سمي به المفعول مبالغة، كالخلق للمخلوق، من الكتُب الذي هو ضم الحروف، وأصله الضم والجمع، ومنه الكتيبة للعسكر، ويطلق الكتاب على المنزل، وعلى المكتوب، وكتب أي حَكَمَ وأوجب، ومنه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ وكتب القاضي النفقة أي قضى بها، والكتابُ في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام، وهو اسم من أسماء القرآن، فالمعنى: إنَّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، الحقيق بأن يخص باسم الكتاب، لغاية تفوقه على بقية الأفراد.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا نافية للجنس مفيدة للاستغراق أي لا ريب فيه أنه من عند الله تعالى، وحقيقة الريبة، قلق النفس واضطرابها، والشك سبب الريب ومبدأه، كما أن العلم مبدأ اليقين، والشك، تردد بين الشكيتين، والريب استعمل في معنى الشك لأنه يزيل الطمأنينة. نَقَى سبحانه وتعالى الريب مع كثرة المرتابين، على معنى أنه في علو الشأن، وسطوع البرهان، بحيث لا يرتاب العاقل بعد النظر، في كونه وحياً من الله تعالى، لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلاً، ألا ترى كيف جوّز ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾^(١)؟!

وقيل: إنه على الحذف، كأنه قيل لا فيه سببُ الريب، لأن الأسباب التي توجب الريبة في الكلام التلبس، والتعقيد، والتناقض، والدعوى العارية عن البرهان، ونحو ذلك، وكلُّ ذلك منتفٍ عن كلام الله تعالى.

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الهدى مصدر هدى، والمراد هنا اسم الفاعل أي هادٍ للمتقين، واختصاصُ الهداية بهم، لأنهم هم المنتفعون به، وإن كانت دلالة الكتاب عامة لكل ناظر، من مسلم أو كافر، وبهذا الاعتبار قال الله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ والانتقاء من الوقاية، وهي فرط الصيانة من المكروه، والتقية والتقوى اسم منه، قال الشاعر:

خَلَّ الذَّنُوبَ كَبِيرَهَا وَصَغِيرَهَا ذَاكَ التَّقَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنْ الْحَصَى

مراتب التقوى

وللتقوى ثلاث مراتب:

الأولى: التبرؤ من الكفر، وعليه قوله تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾^(١).

الثانية: التجنب عن كل ما يؤثم به، وهو المتعارف في الشرع.

الثالثة: أن ينزه سرّه عن كلّ ما يشغله عن الله تعالى، وهو المأمور به في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾^(٢).

وهداية الكتاب شاملة لأصحاب هذه المراتب جميعاً. وقوله تعالى: ﴿الْم﴾ جملةٌ برأسها ﴿وذلك الكتاب﴾ جملةٌ ثانية ﴿ولا ريب فيه﴾ جملةٌ ثالثة ﴿وهدى للمتقين﴾ جملةٌ رابعة، جيء بها متناسقة من غير حرف عطف، ومتأخية أخذاً بعضها بعنق بعض، وهذا أرسخ قَدَمًا في البلاغة.

فإن قيل: لو كان الكتاب هادياً لكان هدىً للكفار أيضاً؟ أجيب بأن عدم هدايته إياهم، لتمردهم ولعدم تدبرهم فيه، كرجلٍ يغمض عينيه

(١) سورة الفتح، آية: ٢٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

ويمشي في طريق لا يعرفها، فيسقط في حفرة وتتحطم عظامه، هل ينقص ذلك من قدر بصره؟ وكما قال القائل:

والنجم تستصغر الأبصارُ رؤيته

والذنبُ للطرف لا للنجم في الصغر

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ تخصيص ما ذكر من الإيمان، والصلاة، والإنفاق، لإظهار شرفها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات، ولفظ «الذي» يصح للعاقل وغيره، والذين لا يستعمل إلا للعقلاء خاصة، وليس «الذين» جمع الذي، بل فيه زيادة لزيادة المعنى، ولذا جاء بالياء أبدأ في اللغة الفصيحة، التي عليها التنزيل ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ والإيمان من الأمن، ثم استعمل في التصديق، واستعماله بالياء لتضمنه معنى الاعتراف، وهو في الشرع لا يتحقق بدون التصديق بما علم ضرورة أنه من دين النبي ﷺ، كالتوحيد، والنبوة، والبعث، ونظائرها، وهل هو كافٍ في الإيمان أو لا بد من الإقرار للمتمكن منه؟ الحق هو الثاني، لأنه تعالى ذم المعاند أكثر مما ذم به الجاهل المقصر، والإيمان مجموع ثلاثة أمور: «التصديق»، والإقرار، والعمل بموجبه» فمن أخلّ بالاعتقاد فهو منافق، ومن أخلّ بالإقرار فهو كافر، ومن أخلّ بالعمل فهو فاسق و﴿بِالْغَيْبِ﴾ مصدر وصف به للمبالغة، والمراد به الشيء الخفي الذي لا يدركه الحس، ولا تقتضيه بديهة العقل، وهو قسمان: قسم لا دليل عليه، وهو الذي أريد بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾^(١) وقسم نصب عليه دليل، كالصانع وصفاته، والنبوة، واليوم الآخر، ونحو ذلك، وهو المراد

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

ههنا وإما بمعنى الغيبة أي يؤمنون بالله، والجنة، والنار، والملائكة، والصراط، والميزان، وإن لم يروها بمعنى أي غائبين عن الناس وعن المؤمنين، والفرق بين الغيب والغائب، فالغائب من لا يراك ولا تراه، والغيب من لا تراه وهو يراك، فالله تعالى غيب لا غائب.

﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ الصلاة: أصلها الدعاء، قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾^(١) أي ادع لهم، وقيل: من صليت العود بالنار إذا لبيتته، وفي الشرع: اسم لأفعال مخصصة، من قيام، وركوع، وسجود، وقعود، وإنما سميت بها لاشتغالها على الدعاء، وإقامتها عبارة عن تعديل الأركان، وحفظها أن يقع زيغ في شيء من فرائضها، وسننها، وآدابها، من أقام العود إذا قومه وعدّله، وهو المروي عن ابن عباس^(٢)، وعنه عليه السلام أنه قال: «الصلاة عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين»^(٣) والمراد هنا الصلاة المفروضة كما روي عن ابن عباس، أو الفرائض والنوافل، فمن راعى حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن، وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال إلى الله تعالى، دخل في من مدحهم الله بقوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون، وجُعِلت عماد الدين، لأنها جامعة لأنواع العبادات، النفسانية، والبدنية، من الطهارة، وستر العورة، والتوجه إلى الكعبة، والعكوف على العبادة، والخشوع بالجوارح، وإخلاص النية، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الرحمن، وقراءة القرآن، والتكلم بكلمة الشهادة، والصلوات على النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٢) قال ابن عباس: إقامتها الإتيان بها على الوجه الكامل، من الخشوع والاطمئنان، وأداء فرائضها، وسننها وآدابها، والمحافظة عليها في أوقاتها، رواه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) في سنن الترمذي ١٣/٥ «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ» وانظر الحديث في مستند أحمد ٢٣١/٥.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الرِّزْقُ: هو ما ينتفع به، ويستعمل بمعنى المرزوق، وهو ما ساقه الله تعالى إلى عباده، سواء كان حلالاً أو حراماً، مأكولاً أو مشروباً، أو ملبوساً أو غير ذلك، وقال المعتزلة: الحرام ليس برزق، والظواهر تشهد بانقسام الرزق إلى الحلال والحرام، قال الله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾^(١) ولو لم يكن الحرام رزقاً لم يكن المتغذي به طول عمره مرزوقاً، لحديث: «لقد رزقك الله طيباً، فاخترت ما حَرَّمَ الله عليك من رزقه»^(٢) والحرام رزقٌ من الله تعالى، ولكن يُتأدب في نسبته إلى الله تعالى، والمراد هنا الرزق الحلال، لأنه في معرض وصف المتقين.

والإنفاق: صرفُ المال إلى وجوه المصالح والخيرات، ويروى عن ابن عباس أن المراد بها الزكاة، وعن ابن مسعود: نفقة العيال، وقيل: نفقة الجهاد، ورجح كونها للزكاة المفروضة، اقترانها بالصلاة. وتقديم المفعول ﴿ومما رزقناهم﴾ للاهتمام، وإدخال «مِنْ» التبعيضية للكف عن التبذير، بأن ينفق ماله كله، ويترك نفسه وأهله دون نفقة.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه، وفي ذلك ترغيب أهل الكتاب في الإيمان، والإنزالُ

(١) سورة هود، آية: ٦.

(٢) طرف من حديث أخرجه ابن ماجه في الحدود رقم ٢٦٤٢ في قصة عمرو بن قُزّة، وفيه أنه أتى الرسول ﷺ فقال يا رسول الله: «إن الله قد كتب عليّ الشُّقوةَ، فما أراني أرزق إلا من دُفِّي بكفِّي، فأذن لي في الغناء؟ فقال له ﷺ: لا أذن لك، ولا كرامة، كذبت أي عدوّ الله، لقد رَزَقَكَ الله طيباً حلالاً، فاخترت ما حَرَّمَ الله عليك من رزقه.». الحديث.

والتنزيل في اللغة: نقل الشيء من مكان عالٍ إلى ما دونه، ويطلق العلو في الأمور المعنوية مجازاً كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ ومعنى إنزال القرآن أن جبريل عليه السلام سمع كلام الله تعالى ونزل به وأدّاه، ولا نعرف صفة تلقي النبي ﷺ الوحي من جبريل، لأنه من شأن النبوة ولسنا بأنبياء، ولكن الله تعالى أخبر عن تكليمه للبشر بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَبِشٍ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ يَرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِلَاذُنِهِ مَا يَشَاءُ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^(٢)، ووصفه لنا الرسول ﷺ في جوابه لمن سأل عنه فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني، وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»^(٣).

وقال الحكماء: إن نفوس الأنبياء قدسية، فتقوى على الاتصال بالملأ الأعلى، فينتقش فيها من الصور ما ينتقل إلى الحسن فيرى كالمشاهدة، وهو الوحي على رسل الله. ولا خلاف بين العلماء من أن المنزل هو اللفظ والمعنى، لا مدخل للمخلوق في شيء مما يتعلق بالقرآن الكريم، سوى إيصال جبريل عليه السلام، يدل على ذلك، قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَفْغَلْ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾^(٤).

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ التوراة والإنجيل وسائر الكتب السالفة، والإيمان بها جملة فرض، وبالقرآن تفصيلاً فرض عين على كل مؤمن

(١) سورة الشورى، آية: ٥١.

(٢) سورة الشعراء، آية: ١٩٣ - ١٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي رقم ٢، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف كان يأتيك الوحي؟ الحديث.

(٤) سورة القيامة، آية: ١٦ - ١٧.

بحيث لا ينكر شيئاً من القرآن والمراد بالإيمان بالكتب السالفة أنها منزلة منه تعالى على رسله الكرام لإرشاد الأمم، لا أن أحكام تلك الكتب باقية.

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ والآخرة تأنيث الآخر، كما أن الدنيا تأنيث الأدنى، غلبنا على الدارين، فجرتا مجرى الأسماء، والإيقان: إتقان العلم بالشيء، بنفي الشك، والشبهة عنه، بالاستدلال، ولذلك لا يوصف به علم الباري تعالى، واليقين من صفة العلم، فوق المعرفة والدراية، وهو نقيض الشك، والعلم نقيض الجهل، ولا يعتد بما دون اليقين في الإيمان، ويعرف اليقين بآثاره في الأعمال، ولم يقل «هم يؤمنون» دفعاً للتكرار، وفي تقديم الصلة تعريضاً بأهل الكتاب، فإن اعتقادهم في أمور الآخرة بمعزل من الصحة، فضلاً عن الوصول إلى مرتبة اليقين.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ إشارة إلى الذين حكيت خصالهم الحميدة، من حيث اتصافهم بها، وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك، منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد، للإشعار بعلو درجتهم في الصلاح ﴿على هدى﴾ في تنكير هدى إشارة إلى عظمته كأنه قيل: على هدى لا يُبلغ كنهه، ولا يُقادر قدره، وإيراد كلمة «على» المفيدة للاستعلاء، بناءً على تمثيل حالهم في ملابتهم بالهدى، بحال من يعتلي الشيء ويستولي عليه بحيث يتصرف فيه كيفما يريد، وذلك إنما يحصل باستفراغ الفكر، وإدامة النظر فيما نصب من الحجج، والمواظبة على محاسبة النفس في العمل، أي هم على هدى كائن من عند الله تعالى، وهو شامل لجميع أنواع هدايته وفنون توفيقه وإنما ذكر الرب، لما فيه من المناسبة الواضحة، لأنه تعالى لما كان ربهم، ناسب أن يهيء لهم الأسباب لسعادة الدارين، فهو سبحانه الموفق لهم، والمفيض عليهم من بحار لطفه وكرمه، وإن توسطت هناك أسباب مادية، هي كلها من توفيق الله.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تكرير اسم الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ لمزيد العناية بشأن المشار إليهم، وللتنبية على أن اتصافهم بتلك الصفات الجلية، يقتضي كل واحدة من الفضيلتين: التمكن من الهدى، والفوز بالفلاح، والفلاح في أصل اللغة: الشقُّ والقطع، ومنه قولهم: «إن الحديد بالحديد يُفلح» أي يُقطع ويُشق، فكان العبد انفتح له الظفر، وشق أمامه الطريق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

لَمَّا ذكر الله تعالى خاصة عباده، بصفاتهم التي أهلتهم للهدى والفلاح، عقَّبهم بأضدادهم العتاة، الذين لا ينفع فيهم الهدى، والتي لا تغني عنهم الآيات والنذر، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي سواء أخوفتهم يا محمد من عذاب الله، أم لم تخوفهم فإنهم لا يؤمنون، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، والمراد بهم أناس بأعيانهم، كأبي لهب، وأبي جهل، وأبي بن خلف، وأمثالهم، أو هي للجنس تتناول من صمَّ على الكفر ومات عليه، والكفر في اللغة: الستر، ويسمى الزارع كافراً لأنه يستر الحب في الأرض، كقوله تعالى: ﴿أَعَجَبَ الْكُفَّارُ نَبَأَهُ﴾ أي الرُّزَاع، وسمي الكافر كافراً لأنه يستر نعمة الله ويخفيها، والكفر في الشرع: إنكار الضروريات من الدين مما اشتهر عند الخاصة والعامة، كإنكار الصلاة وتحريم الخمر ونحوهما، والكافرون أقسام: منهم من يعرف الحق وينكره عناداً، ومنهم من لا يعرف ولا يريد أن يعرف، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١) فهؤلاء كلما صاح فيهم

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٢.

الحق نفروا وأعرضوا، وسبب ذلك أنهم لم يستعملوا عقولهم في فهم الحق، ومنهم من مرضت نفسه، واعتلّ وجدانه، فلا يذوق للحقّ لذة، ولا تجد نفسه فيه رغبة، وهذا القسم كثير في كل زمان ومكان، لأنهم اتبعوا الهوى، واتباع الهوى يعمي الإنسان.

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور، ولا يشرق فيها إيمان، والختم: الكتْم، سُمي به الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه، كالختم على الكتب والأبواب، وليس المراد به القفل على قلوبهم، بل إحداث حالة تجعلها - بسبب تماديهم في الغي وإعراضهم عن منهج النظر الصحيح - بحيث لا يؤثر فيها الإنذار، ولا ينفذ فيها الحق كما قال تعالى: ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾. ﴿ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ عطف على ما قبله داخل في حكم الختم، أي ختم على قلوبهم وختم على سمعهم، بدليل قوله سبحانه ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾^(١) والسمع يطلق على العضو الحامل للقوة السامعة، وهو المراد هنا إذ هو المختوم عليه ﴿ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً ﴾ أي وجعل على أبصارهم غطاء، يحجب عنهم رؤية نور الحق، فلا يبصرون هدى، ولا يفقهون ولا يعقلون.

وللإنسان بصرٌ وبصيرة، فالبصرُ يُبصرُ به الأضواء، والبصيرةُ هي القوة العاقلة التي يدرك بها الحقائق، ويعرف بها المنافع من المضار، ونورُ البصيرة أكمل من نور البصر، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَإِنهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾^(٢) ثم ختم الآية بقوله سبحانه:

(١) سورة الجاثية، آية: ٢٣.

(٢) سورة الحج، آية: ٤٦.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب دائم مستمر لا ينقطع، بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^٨
﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^٩.

لما ذكر تعالى صفات المؤمنين، وأعقبها بذكر صفات الكافرين، ذكر بعدها صفات المنافقين، وهم الصنف الثالث من البشر، أشرف خلق الله، لأنهم يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، وهم أخبت الكفرة، لأنهم خلطوا بالكفر الاستهزاء والخداع، ولذا طوّل تعالى في بيان خبثهم وطغيانهم، وفجورهم واستهزائهم، وضرب لهم الأمثال، توضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من النفاق والضلال، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ﴾ الناس، اسم جمع لإنسان، مأخوذ من الأنس ضد الوحشة، لأنسه بجنسه من البشر، كما قال الشاعر:

وما سُمِّي الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب

أي ومن الناس فريق ضلال، يقولون بالستهم آمنة بالله، وبما أنزل على رسوله من الآيات البينات، وصدّقنا بالجزاء والحساب، والبعث والنشور ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي وليسوا بصادقين في دعوى الإيمان، لأنهم يقولون تمويهاً على المؤمنين واستهزاء، والمراد باليوم الآخر يوم القيامة، الذي هو يوم البعث والجزاء.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي يعملون عمل المخادع لله وللمؤمنين، بإظهار الإيمان وإبطان الكفر، والخداع: أن يوهم صاحبه بخلاف ما يضمّره له من المكروه، ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب، ونسبة الخداع إلى الله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ إما على طريق الاستعارة التمثيلية أي يعملون عمل المخادعين لله، شبه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان

وإخفاء الكفر، بحال رعية تخادع السلطان، والله سبحانه لا يُخدع لأنه لا تخفى عليه خافية، وإما أن يكون المراد خداعهم للرسول أي يخادعون رسول الله، ونُسب إلى الله إبانة لمكانته عنده تعالى، فمخادعته كأنها مخادعة الله لأنه رسوله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾^(١) ولهذا سقاه صنيعهم، وأزرى بعقولهم فقال: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم في الحقيقة إنما يخدعون أنفسهم، لأن وبال فعلهم راجع عليهم، يظنون - بجهلهم - أنهم يخدعون الله والمؤمنين، وما دروا أنهم يضحكون على أنفسهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يحشون بذلك، ولا يفتنون له، لتمامي غفلتهم، وتكامل حماقتهم، لفقدان الشعور والإحساس، ونفي الشعور نهائية الذم، لأن من لا يشعر البديهي المحسوس، مرتبته أدنى من مرتبة الحيوان.

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق، فزادهم الله رجساً فوق رجسهم، وضلالاً فوق ضلالهم، والجملة وردت مورد الدعاء أو الخبر.

قال عبد الرحمن بن أسلم: هذا مرض في الدين، وليس مرضاً في الجسد، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام، وقرأ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^(٢).

والمرض: أصله ما يعرض للبدن، فيخرجه عن حد الاعتدال،

(١) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٥.

ويوجب الخلل في أفعاله، ويطلق على مرض القلب، ممّا يخلُّ بكمال الإنسان، كالحسد، والتفاق، وسوء الاعتقاد، وغير ذلك، ولا شك أن قلوب المنافقين ملأى من تلك الخبائث، ومرضُ القلب أخطر من مرض الجسد، لأن مرض البدن يُشفى بالدواء، ومرضُ القلب لا يشفيه إلا نار الجحيم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجه، يصل ألمه إلى قلوبهم.

قال ابن عباس: كلُّ شيء في القرآن أليم فهو بمعنى موجه^(١). ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي بسبب كذبهم على النبي والمؤمنين في قولهم: ﴿أَمَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهم غير مؤمنين، وترتيب العذاب على الكذب، للإشعار بنهاية قبحه، وللتنفير عنه، فإنه صفة غير المؤمنين كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾^(٢) والكذب: هو الإخبار بأمر على خلاف ما هو عليه، وهو حرام لأنه من الكبائر، وقد علّل به سبحانه استحقاق العذاب، حيث ترتّب عليه.

وكلُّ مقصودٍ محمود يمكن التوصلُ إليه بالصدق، فالكذب فيه حرامٌ، لعدم الحاجة إليه، وبياح في أمور صرّح بها الحديث الشريف وذلك في ثلاث مواطن: «في الحرب، وإصلاح ذات البين، وكذب الرجل لامرأته ليرضيها»^(٣) فينبغي أن يقابل المفسدة المترتبة على الصدق، فإن

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥١/١.

(٢) سورة النحل، آية: ١٠٥.

(٣) أشار المصنف إلى الحديث الشريف الذي رواه الترمذي عن أسماء بنت يزيد في كتاب البر رقم ١٩٣٩ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ الكذبُ إلا في ثلاث: يُحدّث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، فإن الحرب خدعة، والكذب ليصلح بين الناس» وفي البخاري ٢٢٠/٥ في الصلح «ليس الكذب الذي يصلح بين الناس فيقول خيراً، أو ينهي خيراً» ومعنى حديث الرجل امرأته لإرضائها، كأن يكون =

كانت المفسدة في الصدق أشد ضرراً فله الكذب، وإن كان عكسه أو شك حرم الكذب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾
﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ شروع في تعديد بعض قبائحهم، وأعمالهم الشنيعة، و«إذا» ظرف زمان، وهي تدخل في الأمر المحقق، أو المرجح وقوعه، وإذا جاءت مع الماضي كان معناها المستقبل، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ أي حين مجيء النصر في المستقبل، والمعنى: وإذا قال بعض المؤمنين لأولئك المنافقين: لا تسعوا في الأرض بالفساد، بإثارة الفتن، والصد عن سبيل الله، والاستهزاء والسخرية بالمؤمنين، وإطلاع الكفار على الأسرار، وأمثال ذلك ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي نحن مقصرون على الإصلاح، ليس شأننا الإفساد أبداً، وهذا إما ناشئ عن جهل مركب، حيث اعتقدوا الفساد صلاحاً، فأصرّوا واستكبروا، وإما جار على عادتهم في الكذب لما في قلوبهم من المرض، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾^(١) والصلاح يتناول جميع أقسام البر، كما أن الفساد يتناول جميع أنواع الإثم، فمن عمل بغير أمر الله فهو مفسد، ولهذا ردّ الله تعالى عليهم بقوله:

= عند إنسان زوجتان، فتقول إحداهما: إنك تحبّ ضررتي أكثر مني، فيقول لها: لا، بل أنت أغلى عندي منها، ويكون غير صادق في هذا الكلام، فأباحه الشرع لاستدامة الحب بين الزوجين، لئلا تنقلب حياته إلى جحيم، إن أخبرها أنه يحبّ فعلاً زوجته الأخرى أكثر منها، ولا يجوز أن يستعمل الكذب معها في جميع الأمور، فتنبه والله يربعاك.

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ والجملة دالة على سخط عظيم، حيث صُدّرت بحرفي التأكيد «أَلَا» المنبهة، و«إِنَّ» المؤكدة، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل «هم» والاستدراك «ولكن» وكل ذلك للردّ عليهم أبلغ ردّ، أي ألا فانتبهوا أيها الناس، فإنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم، ولكن لا يفتنون ولا يُحسنون، لانطماس نور البصيرة فيهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُنَّ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ أي وإذا قيل للمنافقين: آمنوا إيماناً صادقاً، لا يشوبه نفاق ولا رياء، كما آمن أصحاب محمد ﷺ، وأخلصوا إيمانكم وطاعتكم لله.

﴿قَالُوا أَنْتُمُنَّ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ أي قالوا أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة؟ يريدون بذلك الصحابة الكرام، وإنما نسبوهم إلى السفه، مع أنهم في الغاية القاصية من الرشد، والرزانة والوقار، لمنتهى غباثهم، حيث نسبوا قلة العقل إلى أولئك العقلاء أصحاب رسول الله ﷺ، وأرادوا بذلك تحقير شأنهم، فإن كثيراً من المؤمنين كانوا فقراء^(١).

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) ردّ الله عزّ وجلّ أبلغ ردّ،

(١) نسبوهم إلى السفه سخريّة وتهكمًا، لأنهم كانوا يعدّون المؤمنين مجانين، لاتباعهم لرسول ﷺ، وقد كان معظم أصحاب النبي ﷺ فقراء وضعفاء، وبعضهم كان من الموالى والعبيد، ومن غير العرب، كبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وكان المشركون والمنافقون يسخرون منهم ويهزؤون، وكان أبو جهل إذا رآهم قال لجماعته: أتاكم ملوك الدنيا، فلذلك كانوا يسمونهم سفهاء.

(٢) لتنظر إلى روعة البيان في تعبير القرآن، فقد جاءت الجملة مؤكدة بأربعة تأكيدات «أَلَا» التي تفيد التنبيه والتحذير، و«إِنَّ» التي تفيد التأكيد، وضمير الفصل «هم» ثم =

وَجُهِلُوا أَشْنَعُ تَجْهِيلٍ، حيث جعلت الجهالة والسفاهة مقصورة عليهم، فإن الجاهل بجهله، الجازم بخلاف ما هو الواقع، أعظم ضلالة، وأتم جهالةً من المعترف بجهله، فإنه ربما يعذر، وتنفعه الآيات والتذُّر، وإنما ختمت الآية بـ «لا يعلمون» والتي قبلها بـ «لا يشعرون» لأنه أكثر مطابقةً لذكر السفه، لأن الوقوف على أمر الدين، والتمييز بين الحق والباطل، مما يفترق إلى نظير وتفكر، وأما النفاق وما فيه من الفتنة والعناد، فإنما يدرك بأدنى تفتن وتأمل، فيما يشاهد من أقوالهم وأفعالهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ ليس هذا بتكرار، وإنما هو بيان لطريقة المنافقين، حسب تباين المخاطبين، لأن معنى الآية الأولى: ومن الناس من يتفوه بالإيمان، نفاقاً للخداع، وهنا عند ملاقاتهم للمؤمنين، لدفعهم عن أنفسهم، فقد ضُفُّوا إلى الخداع الاستهزاء، ولهذا قيَّده باللقاء هنا، أي إذا رأوا المؤمنين وصادفوه، أظهروا لهم الإيمان والموالة، نفاقاً ومصانعة. ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم في الكفر، الممائلين للشياطين في التمرد والعناد، قالوا لهم: نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد ﴿إِنَّمَا نَحْنُ

= تعريف الخبر «السفهاء» ثم ختمت بالاستدراك «لكن» لتسجل عليهم غاية السفه والجهالة في صنيعهم المنكر ﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ ولما كان الفساد يدرك بالبدية، دون جهد وتعب قال هناك ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ ولما كانت خفة العقل وسفه الرأي، يحتاج إلى نظر وتفكر قال هنا: ﴿ولكن لا يعلمون﴾ فما أدق التعبير القرآني المعجز!

مُسْتَهْزِئُونَ ﴿ أَي إِنَّمَا نَسَخَرُ وَنَسْتَهْزِئُ بِالْمُؤْمِنِينَ ، بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ لَهُمْ ، لِنَكْسِبَ وَكُذَّاهُمْ ، قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ :

﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أَي اللَّهُ يُجَازِيهِمْ عَلَى اسْتَهْزَائِهِمْ ، بِإِمْهَالِهِمْ ثُمَّ بِالنِّكَالِ بِهِمْ ، وَالْإِسْتَهْزَاءُ فِي اللُّغَةِ : السَّخَرَةُ وَالِاسْتِخْفَافُ ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْخَفَةِ ، لِأَنَّهُ كَانَ خَفِيفَ الْعَقْلِ ، سَخِرَ وَاسْتَهْزَأَ مِنْ غَيْرِهِ ، سَمَّى تَعَالَى جَزَاءَهُمْ بِاسْمِ الْإِسْتَهْزَاءِ عَلَى سَبِيلِ الْمَقَابَلَةِ .

قال الحافظ ابن كثير: هذا إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبتهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إيائهم، وعقابه لهم، مخرج خبره عن فعلهم، الذي استحقوا العقاب عليه في اللفظ، وإن اختلف المعنيان، كما قال سبحانه: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ وقوله: ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظهما لكن معنهما مختلف، وإلى هذا وجهوا كل ما في القرآن من نظائر، فأخبر تعالى أنه يستهزيء بهم، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا، خلاف الذي لهم عنده في الآخرة من العذاب والنكال، وقد وجه ابن جرير هذا القول ونصره، لأن المكر، والخداع، والسخرية، على وجه اللعب والعبث، منتف عن الله عز وجل بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة، فلا يمتنع ذلك^(١).
﴿ وَيَكْفُرُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ معطوف على قوله: ﴿ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ كالبيان له، أي يزيدهم ويقويهم، من مد الجيش وأمدّه: إذا زاده وقوّاه، وقيل: لفظ مد في الشرّ، كقوله تعالى: ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ وأمد في الخير، كقوله تعالى: ﴿ وَآمُدُّنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنِينَ ﴾ والمراد به هنا الأول الذي هو معنى الشرّ، أي نزيدهم في ضلالهم وكفرهم، يتخبطون ويترددون حيارى، لا يهتدون إلى طريق، ولا يعرفون الهدى، ولا يبصرون الرشداً،

(١) تفسير ابن كثير ٥٤/١ .

لأن الله تعالى طبع على قلوبهم، وأعمى أبصارهم، ونسبهُ المدُّ إلى الله تعالى حقيقةً يقينية، لأن جميع الأشياء مستندةٌ من حيثُ الخلق إلى الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ والطغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ في كل شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي لما جاوز الماء الحدَّ، وبلغ رؤوس الجبال، حملناكم في السفينة، وإنما أضيف الطغيان إليهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ لأنه فعلهم، ومعنى «يَعْمَهُونَ» أي يتردّدون في أمور آخرتهم، لا في كفرهم لأنهم مصرّون عليه، ومعتقدون أنه الحق، وأصل العمه: التردّد والتحيّر، والعمّة يكون في البصيرة، كما أن العمى يكون في البصر، كما قال سبحانه: ﴿فَإِنهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(١).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي أولئك الأشقياء السفهاء، هم الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، فنبذوا الهدى وأخذوا الضلالة، ﴿فَمَا رَبِحَت بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي فما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، بل خابوا وخسروا، وما كانوا راشدين في صنيعهم، لأن الغرض من التجارة الربح، فإذا ضيّع الإنسان رأس المال مع الربح، فهذا أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء، بل هو أخسر الخاسرين، لأنه فقد جميع الثروة. شبّه تعالى تركهم الإيمان وأخذهم الكفر، بإنسانٍ اشترى بضاعة، فدفّع فيها ثمنًا كبيراً، ثم ذهبت التجارة مع الربح، فعظمت خسارته، واشتدّ حزنه، كمن اشترى قطعة نحاس، ظنها جوهرة شريفة بكلِّ ما يملك، فإذا عرضها على أهل الصنعة، وظهر زيفها، خاب سعيه، وفات أمله، فأصبح من النادمين.

(١) سورة الحج، آية: ٤٦.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ (٧) ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ﴾ (٨).

ثم ضرب تعالى مثلاً للمنافقين، توضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق فقال جل شأنه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي حالتهم العجيبة، التي تشبه المثل في الغرابة، كمثل شخص أوقد ناراً، ليستضيء بها ويستدفئ، فما اشتعلت تلك النار حتى انطفأت، في وقتٍ هو أحوج ما يكون إليها ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي فلما أنارت المكان الذي حوله، فأبصر وأمن، واستأنس بتلك النار المضئية، أطفأها الله بالكلية، فخمدت النار، وعُدم النور ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ أي وتركهم في ظلماتٍ كثيفة، بعضها فوق بعض، يتخبطون فلا يهتدون إلى الطريق، ولا يرون ما حولهم.

﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ﴾ أي هؤلاء المنافقون كالصم لا يسمعون خيراً، وكالبكم - أي الخرس - لا يتكلمون بشيء ينفع، وكالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله، فهم لا يرجعون عن الضلال إلى الهدى، وفي الآية تشبيه بليغ حيث حذف أداة التشبيه ووجه الشبه، أي هم كالصم والبكم والعمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس. وجمع الظلمات لتعددتها في الواقع، ظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة سخط الله تعالى، وظلمة عقابه السرمدي، أي وتركهم في ظلمات حالكة لا يبصرون ما حولهم، متحيرين، كالتائهين عن الطريق وهم خائفون^(١).

(١) أشار تعالى إلى أن حال المنافقين العجيبة، وهي اشتراؤهم الضلالة - وهي عبارة عن ظلمة الكفر والنفاق - بالهدى الذي هو النور الفطري، المؤيد بما يشاهدونه من دلائل الحق، كحال من استوقد ناراً حتى كاد يتنفع بها، فأطفأ الله تعالى تلك النار، وتركهم في ظلمات يتخبطون، لا يعرفون طريق النجاة، والتشبيه في غاية الإبداع، لأنهم =

وَالصَّمَمُ: داءٌ في الأذن يمنع السمع، وَالْبَكَمُ: داءٌ في اللسان يمنع الكلام، والعمى: عدمُ الرؤية لما من شأنه أن يُبصر، وُصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم، لما أنهم سَدُّوا مسامعهم، عن الإصاحبة لما يُتلى عليهم من الآيات، وأبوا أن يتلقوها بالقبول، ولم ينطقوا بألسنتهم بها، ولم يجتلبوا بصائرهم بما شاهدوا من المعجزات، وأصروا على ذلك، فصاروا كفاقيدي تلك المشاعر، وهذا من التمثيل البليغ^(١)، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي فهم لا يعودون إلى الهدى الذي باعوه وضيعوه، متحيرين لا يدرون كيف يرجعون؟!.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي
عَازِلِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٩﴾ يَكَاذُ الْبَرَقُ يَخْطِفُ
أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ
بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٠﴾.

= بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حيرة عظيمة، لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين.
قال ابن القيم رحمه الله: تأمل قوله تعالى ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل: ذهب الله بنارهم، مع أنه مقتضى السياق لمطابقة أول الآية ﴿استوقد ناراً﴾ فإنه النار فيها إشراقٌ وفيها إحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقى ما فيها من الإحراق وهو النارية!! ثم تأمل كيف قال: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل: بضوئهم، لأن الضوء زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل!! وتأمل كيف قال: ﴿وتركهم في ظلمات﴾ فجمعها ووحد النور، فإن الحق واحد، وطرق الباطل متشعبة ومتعددة، والحق هو صراط الله المستقيم، الذي لا طريق يوصل سواه!!.

(١) لا يمكن حمل الآية على ظاهرها، فالمناقق والكافر له سمع وبصر، وقدرة على الكلام، ولكن الآية على التشبيه، أي هم كالصم لا يسمعون خيراً، وكالخرس لا يتكلمون بما ينفع، وكالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله، فالآية على التشبيه البليغ، وهذا معنى قول ابن عباس: لا يسمعون الهدى ولا يعقلونه، وانظر تفسير ابن كثير ٥٧/١.

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ هذا هو المثل الثاني الذي ضربه الله للمنافقين أي كمثل أصحاب صَيْب أي أصحاب مطر، وهو تمثيل إثر تمثيل، ليعمَّ البيان، فَإِنَّ تَفَنُّنَهُمْ فِي فَنُونِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، حَقِيقٌ بِأَن يَضْرِبَ فِي شَأْنِهِمُ الْأَمْثَالَ، وَالصَّيْبُ: مِنَ الصَّوْتِ، وهو شدة الانسكاب، وهو المطر النازل بشدة الذي له وقع وتأثير، يطلق على المطر والسحاب، وتنكيره لما أنه له وقع وتأثيرٌ شديد هائل، والسماء: ما نشاهده فوقنا كقبة زرقاء، محيطة بالأرض من الفضاء الواسع، ويطلق على كل ما علاك فأظلك كسقف البيت، وتعريفه باللام للإيذان بأن انبعاث الصَّيْب، ليس من أفقٍ واحد، فَإِنَّ كُلَّ أَفَقٍ مِنْ آفَاقِهَا سَمَاءٌ، فالمعنى أنه صَيْبٌ عام، نازل من غمامٍ مطبق، أَخَذَ بِالْأَفَاقِ ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ أي في الصيب يعني المطر ظلمات، فظلماته تكاثفه بتتابع القطرات، وظلمة غمامه، مع ظلمة الليل وجعله محلاً لها مع المبالغة، لشدة تهويلاً لأمره، وإيذاناً بأنه من الشدة والهول بحيث تغمر ظلمته، ظلمات الليل والغمام، والرعد: هو صوت يُسمع من السحاب عند اجتماعه أحياناً، والبرق: هو ما يلعب من السحاب، من بَرَقَ الشيءُ بريقاً أي لَمَعَ، والتنوينُ للتفخيم والتهويل، كأنه قيل: ورعدٌ قاصف، وبرقٌ خاطف، وقيل: الرعد والبرق يحدث عند احتكاك أجرام الهواء، وهذا قول أهل الهيئة وجميع ما يظهر من الآثار العلوية والسفلية، من إرادة الإله الواحد القهار. قال الله تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ وعن ابن عباس قال: سألوا النبي ﷺ عن الرعد فقال: «مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ»^(١) الحديث والمراد به الإشارة إلى أن

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١١٧ ولفظه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أقبلت يهوداً إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، معه مخاريق - أي آلة - من نار، يسوق بها السحاب حيث شاء الله، قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر، قالوا: صدقت... وذكر تمام الحديث.

هذه المظاهر الكونية، تقع بفعل ملكٍ موكلٍ بالسحاب، وأما حقيقة الرعد والبرق والصاعقة، وأسباب حدوثها، فليس من مباحث القرآن الكريم، لأنه من العلوم الطبيعية، وحوادث الجو لا تتوقف على الوحي، وإنما تذكر الظواهر الطبيعية، لأجل الاعتبار والاستدلال ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيهِ إِذَا غَمَّ﴾ الضمير لأصحاب الصيْب، وهو وإن حُذِفَ لفظه، وأقيم الصيْبُ مقامه، لكنَّ معناه باقٍ، ويمكن أن يكون هذا إيماءً إلى فرط دهشتهم، وبلوغهم إلى حيث لا يهتدون إلى استعمال الجوارح، على النهج المعتاد، وكذا الحال في عدم تعيين الأصابع ﴿مَنْ أَلْصَقَ﴾ أي من أجل الصواعق، والصاعقة قصفة رعد هائل، تنقضُّ معها شقة نار، لا تمرُّ بشيء إلاَّ أتت عليه، من الصَّعَقِ وهو شدة الصوت، وتطلق على كل هائل مسموع، صَعَقَ من باب تَعَبَ، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: «اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بغضبك، ولا تُهْلِكْنَا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»^(١). ﴿حَذَرُ الْمَوْتِ﴾ الحَذَرُ: شدةُ الخوف والتوقي من الضر ﴿وَاللَّهُ يُحِيطُ﴾ علماً وقدره ﴿بِالْكَافِرِينَ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط، ولا يخلصهم الخداع والحيل. شبه شمول قدرته تعالى لهم بإحاطة المحيط في استحالة الفوت، والجملة منبهةٌ على أن ما صنعوا من سد الآذان لا يغني عنهم شيئاً، ووضع الكافرين موضع الضمير للإيذان بأن ما دهمهم بسبب كفرهم.

﴿يَكَاذُ الْبَرْقِ﴾ يقرب، وكاد من أفعال المقاربة، يستعمل لتقريب الفعل يعني لمقاربة الخبر من الوجود، فقولنا كاد يفعل كذا معناه قرب من أن يفعله لكنه ما فعله ﴿يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾ أي يأخذها بسرعة، والخطفُ: الأخذ بسرعة، واختطف وتخطف مثله ﴿كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ كل: اسم

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات رقم ٣٤٤٦ باب ما يقول إذا سمع الرعد، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وأخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم من طرق متعددة، وانظر جامع الأصول ٤/ ٣٢٠.

موضوع لاستغراق الأفراد أو لعموم أجزاء الواحد، ولا يستعمل إلا مضافاً لفظاً أو تقديرأ، وتفيد التكرار بلحوق «ما» المصدرية الظرفية، كلما أتاك زيد فأكرمه والمفعول محذوف بمعنى كلما نور لهم ممشي مشوا فيه، بخطوات يسيرة مع خوف أن يخطف أبصارهم، والمشي جنس الحركة فإذا اشتد فهو السعي، فإذا زاد فهو العدو، وإيثار المشي على ما فوقه من السعي والعدو، للإشعار بعدم استطاعتهم له ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أي خفي البرق واستتر، وإنما قال مع الإضاءة «كلما» ومع الإظلام «إذا» لأنهم حراس على المشي، فكلما صادفوا فرصة انتهزوها ﴿قَامُوا﴾ أي وقفوا في أماكنهم، مترصدين لخفقة أخرى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لو من حروف الشرط، وظاهرها الدلالة على انتفاء الأول لانتفاء الثاني، ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء لازمه، وكلمة لو لتعليق حصول أمر هو الجزء، بحصول أمر هو الشرط، لما بينهما من الدوران وفائدة هذا الشرط إبداء المانع لذهاب سمعهم وأبصارهم، مع قيام ما يقتضيه، والتنبيه على أن تأثير الأسباب مشروط بميشئة الله تعالى، وأن وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته تعالى ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ أي لو شاء الله أن يذهب بسمعهم بقصيف الرعد، وأبصارهم بوميض البرق، لذهب بهما، ولكن لم يشأ لما تقتضيه الحكمة والمصلحة. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل وتقرير لمضمون الآية، الناطقة بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم، أي إن الله تعالى قادر على كل شيء، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء، فإذا أراد أن يذهب بحواسهم، أو يهلكهم عن بكرة أبيهم، لا يقف في وجهه شيء، لأنه قادر على كل شيء. والمراد من قدرة الباري نفى العجز عنه، والقدير أبلغ من القادر، وهو الفاعل لما يشاء على ما تقتضيه الحكمة، والمقتدر يقاربه لكن قد يوصف به البشر^(١).

(١) شبه الله عز وجل حال المنافقين في حيرتهم، وما خبطوا فيه من الضلالة، وما وصلوا إليه من الخزي والافتضاح، بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة، وكان في صحراء =

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

لَمَّا عَدَّدَ تَعَالَى فِرْقَ الْبَشَرِ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْكَافَرِ، وَالْمُنَافِقِينَ، وَبَيَّنَّ صِفَاتِهِمْ وَأَحْوَالَهُمْ، وَمَا تَمَيَّزُوا بِهِ مِنْ سَعَادَةٍ أَوْ شَقَاوَةٍ، وَضَرَبَ لِلْمُنَافِقِينَ الْأَمْثَالَ، وَوَضَّحَ لَهُمْ طَرِيقَ الضَّلَالِ، أَعْقَبَهُ بِذِكْرِ الْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ، عَلَى وَحْدَانِيَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَرَّفَهُمْ بِنِعْمَةِ الْجَلِيلَةِ لِعِبَادِهِ وَيَشْكُرُوهُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِم بِالْخُطَابِ بِقَوْلِهِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وَهُوَ خُطَابٌ عَامٌ لَجَمِيعِ الْفِئَاتِ، هِزْأً لَهُمْ إِلَى الْإِصْغَاءِ، وَتَنْشِيطاً لَهُمْ وَاهْتِمَاماً بِأَمْرِ الْعِبَادَةِ^(١)، وَالنِّدَاءِ فِيهِ تَكْرِيمٌ وَتَشْرِيفٌ لِلْبَشَرِ، حَيْثُ يَخَاطَبُهُمْ رَبُّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ، بِمَا يَسْعُدُهُمْ فِي الْحَالِ وَالْمَالِ، وَلِهَذَا جَاءَ الْخُطَابُ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ الْجَلِيلَةِ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أَيَّ يَا مَعْشَرَ

= مَفْرَعَةٌ، وَانْهَمَرَ عَلَيْهِ الْمَطَرُ بِشِدَّةٍ وَغَزَارَةٍ، وَمَعَ الْمَطَرُ رَعْدٌ قَاصِفٌ، وَبَرَقَ خَاطِفٌ، يَكَادُ يَذْهَبُ بِبَصَرِهِ، مِنْ شِدَّةِ ضَوْئِهِ وَلَمْعَانِهِ، وَأَصْبَحَ يَكَابِدُ شِدَائِدَ وَأَهْوَالَ، خَوْفًا مِنَ الصَّوَاعِقِ الْمُحْرِقَةِ، وَالرَّعْدِ الْهَائِلِ، وَالْبَرَقِ الْخَاطِفِ، أَضَاعَتْ هَذِهِ الْأَهْوَالُ رَشْدَهُ، فَأَصْبَحَ يَضَعُ أَصَابِعَهُ فِي أُذُنَيْهِ، لِيَنْجُو مِنْ هَذِهِ الْكَوَارِثِ وَالْبَلَايَا، وَلِيَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ، وَلَكِنْ هِيَاتُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ هَذَا شَبَحَ الْمَوْتِ أَوْ خَطَرَ الصَّوَاعِقِ، وَيَا لَهُ مِنْ تَمَثِيلٍ عَجِيبٍ، رَائِعٍ فِي الْإِبْدَاعِ وَالتَّمَثِيلِ!!

(١) قَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ١٨/١: لَمَّا عَدَّدَ تَعَالَى فِرْقَ الْمُكَلِّفِينَ، أَقْبَلَ عَلَيْهِم بِالْخُطَابِ عَلَى سَبِيلِ الْإِتِّفَاتِ، هِزْأً لِلْسَّامِعِ، وَتَنْشِيطاً لَهُ، وَاهْتِمَاماً بِأَمْرِ الْعِبَادَةِ، وَتَفْخِيمًا لَشَأْنِهَا، وَإِنَّمَا كَثُرَ النِّدَاءُ فِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ لِاسْتِقْلَالِهِ بِأَوَجِهِ عَدِيدَةٍ مِنَ التَّأْكِيدِ، لِأَنَّهُ كُلُّ مَا نَادَى اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ، أُمُورَ عَظَامٍ مِنْ حَقِّهَا أَنْ يَتَفَتَّحُوا لَهَا، وَيَقْبَلُوا بِقُلُوبِهِمْ عَلَيْهَا، وَأَكْثَرَهُمْ عَنْهَا غَافِلُونَ، حَقِيقُ أَنْ يُنَادِيَ لَهَا بِالْأَكْدِ الْأَبْلَغِ. اهـ.

البشر، اعبدوا ربكم العظيم الجليل، الذي خلقكم من العدم، ورباكم بأنواع النعم، وخلق آباءكم وأجدادكم، ومن سبقكم من الأمم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي راجين أنتم بعبادتكم لربكم، أن تدخلوا في سلك المتقين، الفائزين بالهدى والرضوان في جنات النعيم. والآية تدلُّ على أنَّ الطريق إلى معرفة الله، واستحقاقه للعبادة، هو النظر في خلقه وصنعه، فإن كل ما في الكون ناطق بعظمة الله، شاهد على ألوهيته ووحدانيته، ويا شقاوة من أنكر وجود الله، وكل ما حوله من مخلوقات، شاهدة على وجوده ووحدانيته، كما قال القائل:

وفي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه واحد
وبدا تعالى بتذكيرهم بنعمة الخلق، ثم أعقبها بتذكيرهم بنعمة الرزق، فقال تقدست أسماؤه.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أي جعل لكم الأرض مهداً وقراراً، تفرشونها وتستقرون عليها كالبساط المفروش^(١)، تنامون عليها وتبنون وتسكنون، ولو كانت نتوءات وارتفاعات كلها لما أمكن العيش ولا البناء عليها، فهي مع كرويتها فيها سهول واسعة، صالحة للزراعة والسكنى والاستقرار فوق سطحها، فسبحان من بسطها وكوّرها!! والأرضُ مؤنثة جمعتها أرضون، وأراضي، ولم يقع في القرآن جمعها لثقله، وكل ما أسفل فهو أرض، والفراشُ: ما يفرش أي ما ييسط لينام عليه

(١) جعلُ الأرض فراشاً من باب التشبيه أي جعلها كالفراش لكم، تنامون عليها وتزرعون وتسكنون، وليس في الآية ما يدلُّ على أنها مسطحة غير كروية، فإن كروية شكلها مع عظم حجمها، يجعلها كأنها مستوية منبسطة، ولنضرب مثلاً، القبة بالنسبة إلى النملة، ترى كل طرف منها مستوياً، فالتساع جرم الأرض يجعلها كأنها منبسطة، وهي كروية قطعاً، كما ثبّه علماؤنا السابقون على ذلك، وانظر كتابنا «حركة الأرض ودورانها» والأدلة الوافية فيها.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ البناء مصدر سمي به المبني بيتاً كان أو قبة، وإرادة الفلك المخصوص غير بعيدة، نظراً إلى القدرة الإلهية، وقَدَّم سبحانه حال الأرض، لما أَنَّ احتياجهم إليها، وانتفاعهم بها أكثر، وإذا تأملت في هذا العالم، وجدته كالبيت المعدّ فيه كل ما يُحتاج إليه، فالسمااء مرفوعة كالسقف، والأرض مبسوطة كالفرش، والنجوم منورة كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت، وما فيها من أنواع الحيوانات والنباتات مهياة لمنافعه، فهذه جملة دالة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل، وحكمة بالغة، دالة على خالقه وصانعه ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المراد من السماء جهة العلو، والسحاب، فالمطر ينزل من السحاب ومنه إلى الأرض^(١) والمعروف أن الشمس إذا طلعت أثارت من البحار بخاراً رطباً فإذا صعد البخار إلى طبقة الهواء تكاثف، فإذا كان البرد لم يكن قوياً اجتمع وتقاطر، فالمجتمعُ سحابٌ والمتقاطر مطرٌ، فإن كان قوياً كان ثلجاً أو بَرَدًا، وعلى هذا يراد بالتزول: نشأته من أسباب سماوية، وإنزاله من السماء الحقيقية بعيداً، لأن الإنسان ربما كان واقفاً على قمة جبل عالٍ، ويرى السحاب أسفل منه، فإذا نزل من ذلك الجبل، رأى المطر نازلاً على البشر، وإذا كان هذا أمراً مشاهداً، كان النزاع فيه من باب العناد، على أن من انجاب عن عين بصيرته سحابُ الجهل، رأى أنَّ كل ما في هذه الأرض، نازل من سماء القدرة الإلهية، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^(٢) فالكلُّ فعلُ الله وتدبيره ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ أي

(١) هذا أمرٌ قطعي بنص آيات القرآن ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلفُ بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق - أي المطر - يخرج من خلاله﴾ وقال تعالى: ﴿أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾ والمزن جمع مُزنَة وهي السحابة، وإنما قال سبحانه: ﴿من السماء﴾ لأن كل ما علاك فأظلك فهو سماء.

(٢) سورة الحجر، آية: ٢١.

فأخرج لكم ربكم بذلك المطر، أنواع النبات والثمر، وأخرج لكم الحبوب والفواكه والخضار، رزقاً منه تعالى لكم، وجعلها سبباً لحياتكم ومعاشكم.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي فلا تعبدوا معه غيره، ولا تشركوا به شيئاً، من صنم، أو بشر، أو حجر، وأنتم تعلمون أن هؤلاء الشركاء «الأنداد» الذين اتخذتموهم من دون الله، لا يخلقون ولا يرزقون، وأن الله وحده هو الرزاق ذو القوة المتين. والنِّد في اللغة: هو المثل والنظير، وسمي تعالى ما يعبدون من دون الله أنداداً، مع أنها لا تماثل الله عز وجل ولا تشابهه، سخرية وتهكماً بهم، فإنهم لما عبدوها من دون الله، وسموها آلهة، شابهت حالهم حال من يعتقد أنها قادرة على الخلق والرزق، فكانها تماثل الله في الربوبية والألوهية، وهذا نهاية الذم والتقييح لهم، وفي ذلك يقول موحد الجاهلية «زيد بن نفل»:

أَرَبًّا وَاحِدًا أَمْ أَلْفَ رَبٍّ أَدِينُ إِذَا تُقْسِمَتِ الْأُمُورُ
تَرَكْتُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى جَمِيعًا كَذَلِكَ يَفْعَلُ الرَّجُلُ الْبَصِيرُ

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

وبعد أن ذكر تعالى أدلة الإيمان والتوحيد، في مخلوقاته ومصنوعاته، أبرز لهم «معجزة القرآن» بأنصع بيان، وأوضح برهان، ليثبت لهم صدق رسالة محمد ﷺ، وليقتلع من قلوبهم جذور الشك والريب، فقال تقدست أسماؤه ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي إن كنتم أيها الناس في شك وارتياب، من أمر هذا القرآن، المعجز في نظمه وتشريعه وبيانه، الذي أنزلناه على خاتم الأنبياء، عبدنا ورسولنا محمد ﷺ، وهو رجل أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي فاتوا بسورة واحدة

من مثل هذا القرآن، في حسن النظم، والفصاحة والبيان، والأمر هنا من باب التعجيز، كقول إبراهيم في محاجته للنمرود: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ومعنى «فأتوا» أي هاتوا وجيئوا، وإنما أضاف العبد إلى نفسه ﴿على عبدنا﴾ تشریفاً له وتعظيماً، وتنبهها على أنه عليه السلام هو الكامل في العبودية.

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم من الإنس والجن، واستعينوا بمن شتمتم غير الله تعالى، فإنه لا يقدر على الإتيان بمثله، إلا الله رب العالمين، لأنه كلامه وهو الذي أنزله على خاتم المرسلين ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم، أنه من نظم محمد، وأنه كلام مختلق من عند البشر^(١). كأنه قيل: إن كان الأمر كما زعمتم، كونه من كلام البشر، فأتوا بمثله، لأنكم تقدرون على ما يقدر عليه مصاقع الخطباء، من العرب أرباب الفصاحة والبيان، والسورة: طائفة من القرآن الكريم أقلها ثلاث آيات، والتكثير في «سورة» للتبكيث والتخجيل أي اتوا بسورة أي سورة، والحكمة في تقطيع القرآن سوراً، تشييط القارئ، وتسهيل الحفظ، والترغيب في تلاوته، إلى غير ذلك من

(١) لقد كان الرسول ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وما سافر إلى بلدة لأجل التعلم، وما كانت بلدة مكة بلد العلماء، وما كان فيها شيء من كتب العلم، ثم أتى عليه السلام بهذا القرآن المعجز من عند ربه، برهاناً على صدق نبوته، مشتملاً على أقاصيص الأولين، ومخبراً عن بعض الغيوب، كقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ﴾، وقوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾، وقوله: ﴿لَيَسْتَخْلَفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ونحو ذلك مما حدث ووقع كما أخبر، ثم إن القرآن قد اشتمل على كثير من العلوم الدينية والدنيوية، فمن أين لرسول الله ﷺ وهو أمي أن يعرف هذا كله، ثم إن هذه الآية ونحوها دلالة على إعجاز القرآن، لأنه عليه السلام تحدى مصاقع العرب، وفرسان البلاغة، على أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فعجزوا وانقطعوا، فثبت بذلك إعجاز القرآن، ولا يزال القرآن يتحدى الأولين والآخرين، فكيف يكون من كلام أمي من البشر، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، كما زعم المشركون؟

الفوائد ﴿من مثله﴾ أي بسورة كائنة من مثله، في علو الرتبة، وسمو الطبقة، والنظم الرائق، والبيان البديع، وحياسة سائر الإعجاز، وقد فارت أساليب القرآن أساليبهم، ولذا عجزوا عنه، واعترفوا بفضله حتى قال الوليد في وصف القرآن: «والله إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أصله لمغدق، وما يستطيعه البشر»، ولأنه معجز في نفسه قال الله تعالى فيه: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(١) أي معينا وسندا وقوله تعالى: ﴿وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الدعاء: النداء والاستعانة، لأن الشخص إنما يُنادى ليستعان به، ومنه قوله تعالى: ﴿أَعْيَزَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾^(٢) أي استعينوا بمن شئتم من الإنس والجن غير الله تعالى.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي إذا عجزتم عن الإتيان بمثل سورة منه، مع استعانتكم بالفصحاء والبلغاء، وعباقر الأرض، ولن تقدرُوا في المستقبل أيضاً على أن تأتوا بمثله، أو بمثل سورة منه ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي فاتقوا نار جهنم، التي وقودها وحطبها الذي تُشعل به، ليس كنار الدنيا من الفحم والحطب، وإنما وقودها البشر وحجارة الكبريت ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي هيأها الله وأعدّها لكل كافر فاجر، لا يؤمن برب العالمين^(٣).

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٤٠.

(٣) قال الحافظ ابن كثير ٦٣/١: تجدهم القرآن وهم أفصح الأمم، بأن يأتوا بمثل سورة من القرآن فعجزوا، تحداهم متفرقين ومجتمعين، وذلك أكمل في التحدي وأشمل، ثم أخبر خبراً قاطعاً جازماً، غير خائف ولا مشفق، أنهم لن يستطيعوا بقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾ و«لن» لنفي التأييد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى حيث أخبر تعالى أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله، أبد الأبد، ودهر الدهرين، وكذلك وقع الأمر، لم يُعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء! ومن تدبر القرآن وجد فيه من =

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ
وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

وبعد أن ذكر سبحانه ما أعدّه لأعدائه، الكفرة المكذبين، ذكر ما أعدّه لأوليائه المؤمنين المتقين، على طريقة القرآن باقتران الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب، فقال عزُّ سلطانه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي وبشر يا محمد المؤمنين المتقين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، بشرهم بأن لهم حدائق وبساتين في جنات الخلد، تجري من تحتها قصورها ومساكنها أنهار الجنة، والبشارة هي الخبر السارُّ، الذي يظهر به أثر السرور في البشارة، والمأمور بالتبشير هو الرسول ﷺ، وتقديم الوعيد على الوعد، لأن الوعيد كالدواء، والوعد كالغذاء، فيقدَّم الدواء ليتنفع بعده بالغذاء، وعطفُ العمل على الإيمان، للإشعار بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الأمرين، فإن الإيمان أساسٌ، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غناء لأساسٍ لا بناء عليه، والصالحات جمع صالحة، وهي من الأعمال ما سوَّغه الشرع وحسنه، وتأنيتها على تأويل الخصلة، ثم كون مناط البشارة مجموع الأمرين، لا يقتضي انتفاء البشارة بالإيمان المجرد كما رأى المعتزلة، على أن مفهوم المخالفة ظنيٌّ، لا يعارضُ النصوصَ الدالة على أن الجنة جزاء الإيمان، وفي الآية دليل على أن العمل خارجٌ عن مسمى الإيمان، لأن الأصل أنَّ الشيء لا يُعطف على نفسه، ولا على ما هو داخل فيه، والجنة مخلوقة لقوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وهي

= وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ومن حيث المعنى، والقرآن جميعه فصيح، في غاية نهايات الفصاحة والبيان، فثبت بذلك معجزة محمد عليه الصلاة والسلام.

مراتب شتى، ودرجات متفاوتة، على حسب تفاوت الأعمال، كما ورد في الحديث الشريف: «في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجة ودرجة، كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، فإن سألتهم الله فاسألوه الفردوس»^(١) ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي كلما أعطوا عطاءً وأطعموا طعاماً من ثمار الجنة، وفواكهها الشهية، قالوا: هذا مثل الطعام الذي قُدِّمَ لنا قبل هذه المرة، قال الحسن: يُرزقون الثمرة، ثم يُرزقون بعدها مثل صورتها والطعم مختلف، فهم يتعجبون لذلك، فتقول له الملائكة: كُلْ يَا عَبْدَ اللَّهِ، فاللون واحد والطعم مختلف. وقال ابن عباس: ليس في الجنة مما في الدنيا سوى الأسماء^(٢) ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مَثَائِبُهَا﴾ أي جيء لهم بتلك الثمار، متشابهة في الشكل والمنظر، مختلفة في الطعم والمخبر ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي ولهم في الجنة نساء من الحور العين، مطهرات من القدر والدنس، والحيض والنفاس، والبول والغائط، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنّ يوم القيامة أجمل من الحور العين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، غُرُبًا أَتْرَابًا﴾، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون في الجنة، يعيشون في الجنة مع أزواجهم في هناء خالد، دون زوال أو انقطاع. روى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، قالوا: فما بال الطعام يا رسول الله؟ قال: جُشَاءٌ ورشخ كرشح المسك، يُلْهِمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ، كما تُلْهِمُونَ النَّفْسَ»^(٣) أي يُلْهِمُونَ

(١) أخرجه الترمذي في باب صفة الجنة رقم ٢٥٣٣ وهو حديث صحيح.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي في الدنيا، وهذا قول مرجوح، لأن عامة أهل الجنة من الفقراء، وهم لم يشبعوا من الطعام في الدنيا، فكيف يشبعون من الفواكه والثمار؟

(٣) صحيح مسلم ٢١٨٠/٤

التسييح بدون تعب ولا جهد، لأن الجنة ليس فيها تكليف، فيصبح حال المؤمن في الجنة كالملأئكة، وتكون العبادة طبعه وذوقه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

لَمَّا مَثَلُ اللَّهِ حال المنافقين وعُباد الأصنام، في الوهن والضعف بيت العنكبوت، وأخس قدرًا من الذباب، قالت الجهلة من الكفار: الله تعالى أعلى وأجلُّ من أن يضرب الأمثال، ويذكر الذباب والعنكبوت^(١)، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة، ترك من يستحي أن يمثل بها لحفارتها، ولا يخفى على أحد أن التمثيل ليس إلا إبرازاً للمعنى المقصود، في معرض الأمر المشهود، لإدراك الحقائق الخفية، ولذا شاعت الأمثال في الكتب السماوية، كما مثل في الإنجيل غلَّ الصدر بالنخالة، والقلوب القاسية بالحصاة، ومخاطبة السفهاء، بإثارة الزنابير، وجاء في كلام العرب: أسمع من فراد، وأطيش من فراشة، وأعز من مخ البعوض، فيمثل الحقير بالحقير، كما يمثل العظيم بالعظيم، وإن كان الممثل أعظم من كل عظيم، والحياء: تغيير النفس وانقباضها عما يعاب به أو يذم، بين الوقاحة، التي هي الجرأة على

(١) في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ سورة الحج، وفي قوله في سورة العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُنْدَادًا كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا...﴾ الآية.

القبائح، وبين الخجل الذي هو انحصار النفس عن الفعل مطلقاً؛ واشتقاق الحياة من الحياة، فإنه إنكسارٌ يعتري القوة البشرية، فيردُّها عن أفعالها، وإذا وصف البارئ تعالى كما جاء في الحديث: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيٌّ كَرِيمٌ، يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردَّهما صُفْراً»^(١) فالمراد به أنه تعالى يستحي أن لا يجيب دعاءه، ويردّه خائباً دون عطاء.

قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه لا يستنكف عن ضرب الأمثال أي مثل كان، بأي شيء كان، صغيراً كان أو كبيراً، لاشتغالها على الحكمة وإيضاح الحق، و«ما» هنا للتقليل فيصدق بأدنى شيء ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي فما دونها في الصغر والحقارة، قاله الكسائي وأكثر المحققين، أو فما هو أكبر منها كالذباب والعنكبوت، لأنه لا شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة، وهذا قول قتادة واختيار ابن جرير، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها^(٢)، وفي الحديث الشريف «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، لما سقى كافراً منها شربة ماء»^(٣).

والبعوض: صغارُ البق من عجيب خلق الله، فإنه في غاية الصغر، وله خرطوم مجوّف يغوص في جلد الفيل، والجاموس، والإنسان، وقرصته مؤلمة فقد ينقل مرض «الملاريا» من إنسان إلى إنسان ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي فأما المؤمنون الصادقون فيعلمون أن هذا المثل حق، لأن الله حق لا يقول إلا الحق، فيتفكرون في هذا المثل العجيب، ويوقنون أن الله خالق الصغير والكبير، وأنه تعالى يضرب الأمثال بما شاء من المخلوقات فيؤمنون به ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُوا مَاذَا ءَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي وأما الكافرون الجاحدون،

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٥٦ وحسنه الترمذي، وأخرجه أبو داود في باب الدعاء رقم ١٤٨٨ وزاد الترمذي: صُفْراً خائبين.

(٢) تفسير ابن كثير ٦٧/١.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد رقم ٢٣٢١ وابن ماجه رقم ٢٤١٠.

فيهزؤون ويسخرون، ويقولون: ماذا أراد الله بضرب المثل بهذه الأشياء الحقيرة؟ فيزدادون كفرًا وضلالًا بإنكار أن يكون هذا المثل من عند الله، والاستفهام إمّا لعدم العلم، أو للإنكار، وكلّ منهما يدل على الجهل دلالة واضحة كما قال القائل:

وَمَنْ قَالَ لِلْمِسْكِ أَيْنَ الشَّدَا يُكَذِّبُهُ رِيحُهُ الطَّيِّبُ
﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ أي يضل بهذا المثل الكفار الذين يعمون به، فينكرون أنه من عند الله، ويهدي به المؤمنين الذين يعلمون أنه الحق، لأن الغرض من ضرب المثل هو: التذكُّر والاعتبار، كما قال سبحانه ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيزداد المؤمنون هدى، والكافرون ضلالاً، وفي الآية ردُّ على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يخلق الضلال ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي وما يضل بهذا المثل الوارد في القرآن، إلا الفاسقين الخارجين عن طاعة الرحمن، وهم أهل الزيغ والضلال، من الكفرة والمنافقين. وأصلُ الفسق: الخروجُ عن الشيء من قولهم: فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت، والفاسقُ في الشرع: الخارجُ عن طاعة الله عزَّ وجلَّ، فيشمل الكفر وما هو دونه، وله درجات:

الأولى: السفه والخفة وهو أن يرتكب المعصية، معتقداً قبحها، لغلبة الشهوة على قلبه.

الثانية: الانهماك وهو أن يعتاد ارتكاب المعصية، غير مبالي بها ولا مكترث.

الثالثة: الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إيّاها، مستحلاً لها، فإذا شاربَ هذا المقام، خلع ربة الإيمان من عنقه، كمن يشرب الخمر معتقداً حلّها أو يستحلُّ الربا، وما دام في الأوليين لا يُسلب عنه اسم المؤمن.

ثم فصل تعالى صفات هؤلاء الفاسقين فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ النقضُ: فسخُّ التركيب من الأمور الحسية، من بناء، أو

حبل، أو عهد، أي ينقضون كل عهد وميثاق، من الإيمان بالله، والتصديق برسله، والعمل بشرائعه، من بعد ما وثقوه على أنفسهم، من الالتزام والقبول، كاليهود والنصارى جحدوا صفات محمد، المذكورة عندهم في التوراة والإنجيل، وكتبوا بيان الحق حسداً وبغضاً ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي قطعوا ما أمرهم الله به من عبادة الله، وإقامة شرائعه، وحفظ حدوده، وصلة الأرحام ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بأنواع البغي والفساد، وإثارة الفتن، وإشعال نار الحروب كما حكى تعالى عن اليهود: ﴿كَلِمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ وأمثال ذلك ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي خسروا سعادتهم في الآخرة، حيث عرّضوا أنفسهم لعذاب جهنم المؤبد، ولا خسارة أعظم ممن خسر دنياه وآخرته، وقصر الخسران عليهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم بإهمالهم للعقل، خسروا الحياة الأبدية.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ الأسلوب هنا أسلوب تقرير وتوبيخ ورد بطريق التعجب، و«كيف» اسم استفهام، وهي هنا للاستخبار، منضمّاً إليه الإنكار والتعجب، والمعنى: أخبروني على أيّ حال تكفرون بالله؟ ونعمه عليكم لا تتناهى، وقدرته في خلقكم عجيبة؟ ثم فصل ذلك بقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي وقد كنتم في العدم، تُطفأ وأخلاقاً في أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات، لا حياة لكم ولا وجود، فأخرجكم إلى الدنيا أحياء، بنفخ الأرواح فيكم ﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم، ثم يحييكم بالبعث من القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعكم إلى الله وحده، للحساب والجزاء، فيجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وكونُ الإمامة من دلائل القدرة

ظاهر، وأما كونها من النعم على البشر، فلكونها وسيلة إلى الحياة الثانية الأبدية، التي هي النعمة العظمى.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢١)

ثم ذكر تعالى برهاناً على الفضل والإنعام فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي خلق لكم ومن أجلكم، جميع ما في الأرض، من بحار وأنهار، ونبات وأشجار، ومعادن ومناجم، لتنتفعوا بها في أمور دنياكم، ولتعتبروا بها على أنه سبحانه هو الخالق الرازق، وهذه النعم المشاهدة تذكر بالمنعم جلّ وعلا، وتشوق النفوس، وتبعث الهمم على البحث والنظر، في كل ما خلق الله في هذا الكون، من مخلوقات وعجائب، ليشكر الإنسان ربه، ويستفيد بما أودعه الله فيها من منافع، تحقق له العيش الكريم على ظهر هذه الأرض، والمسلمون في العصور الأخيرة، صاروا وراء الأمم في العلوم الكونية، فجهلوا الأرض التي هم عليها، وضعفوا عن استخراج منافعها، فجاء الأجنبي يتخطفها من أيديهم وهم ينظرون، وكتابهم يصيح بهم منبهاً ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ولكنهم صمّ عمي لا يعقلون، إلّا من رحم الله تعالى، فمتى يستيقظون؟ ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي قصد إليها بإرادته قصداً سوياً أي قصد إلى خلقها بعد خلق الأرض ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أي صيّرهنّ وخلقهنّ سبع سموات، محكمة البناء، واسعة الأرجاء، من غير عوج ولا فطور ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي وهو سبحانه عالم بكل ما خلق وأوجد، لا تخفى عليه خافية، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك، قادر على إعادتكم بعد الموت؟ ورد لفظ الاستواء في القرآن الكريم على ثلاثة معانٍ:

الأول: بمعنى التمام والكمال، كما في قوله تعالى عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ أي كمل ورشد.

الثاني: بمعنى العلو والارتفاع، وذلك إذا عُدَّتْ بـ «على» كقوله سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وقوله سبحانه ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي علوتهم على ظهورها.

الثالث: بمعنى القصد إذا عُدَّتْ بـ «إلى» كما في هذه الآية ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي قصد إليها.

قال ابن كثير رحمه الله ٧١/١: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي قصد إلى السماء، والاستواء هنا متضمن معنى القصد والإقبال، لأنه عُدِّي بإلى، فسوّاهن أي خلق السماء سبعاً، وتفصيل هذه الآية في سورة السجدة، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١).

ودلالة خلق السموات على قدرة الله عز وجل من وجوه:

أولاً: أنها واقفة معلّقة بقدرة الله بدون عمد.

ثانياً: أنه ليس فيها صدوع ولا شقوق.

ثالثاً: أنها طبقات بعضها فوق بعض.

رابعاً: أنها واسعة محكمة البناء كما قال سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. والمراد من السموات هذه الأجرام العلوية، وهي سموات سبع، بعضها فوق بعض، محكمة البناء، ممتدة الأرجاء، وليست سديماً أو دخاناً كما يقول علماء الهيئة، قال تعالى عنها: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾^(٢). فسبحان من رفعها بقدرة، وخلقها بحكمته، وجعلها سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها غافلون!!

(١) تفسير ابن كثير ٧١/١.

(٢) سورة ق، آية: ٦.

«ذكرُ قصة بدء الخليقة»

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

تعداداً لنعمة ثلاثة تعمُّ الناس كلَّهم، فإنَّ خلق آدم وتكريمه، وتفضيله على الملائكة، بأن أمرهم بالسجود له، إنعامٌ يعمُّ ذريته جميعاً، فالإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، ولهذا ذكر تعالى هنا قصة آدم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الخليفة من يخلف غيره ويتوبُّ منابه^(١)، والمراد به هنا آدم عليه السلام، والمعنى: اذكر حين قال ربك لملائكته: إني متخذ في الأرض وخالق فيها خليفة من البشر، في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري، يعني بذلك آدم، وهذا قول ابن مسعود، وقيل: المراد آدم وذريته أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وفائدة قوله تعالى ذلك للملائكة، أربعة أمور:

الأول: تعليم المشاورة للعباد في أمورهم، وقد قيل: أعقلُ الرجال لا يستغني عن مشاورة أولي الألباب.

الثاني: تعظيم شأن آدم، فقد بشر بوجوده سكان ملكوته، ولقبه بالخليفة قبل خلقه.

الثالث: إظهار فضله الراجح كما أشار إليه بقوله: ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

الرابع: بيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره على شره كما في قصة خلق آدم وذريته.

(١) كما قال موسى لأخيه هارون ﴿اخلقني في قومي﴾.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟ أي قالت الملائكة على سبيل الاستعلام والاستفسار عن الحكمة: يا ربنا كيف تخلق من يفسد في الأرض بالمعاصي، ويريق الدماء بالبغي والاعتداء؟! ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي ونحن ننزهك عما لا يليق بك من صفات النقص، ونحمدك في جميع الأحوال، ونعظم أمرك، ولا نعصيك في حالٍ من الأحوال ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي قال الله تعالى: إني أعلم ما لا تعلمونه، من الحكمة في خلقه وخلق ذريته، ففيهم أنبياء وفضلاء يصلحون في الأرض ولا يفسدون، وهنالك مصالح لا تعرفونها.

فإن قيل: كيف عرفت الملائكة أن ذرية آدم يفسدون في الأرض، حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟

فالجواب: أن الملائكة رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن، وسفكهم الدماء في الأرض، لأن الجن خلقوا قبل البشر، فقاوسوا الإنس على الجن، في العصيان والفساد. وروي عن ابن عباس أن الله عز وجل أخبرهم بما تفعله ذرية آدم، من التحاسد والتباغض، وقتل بعضهم بعضاً، وإفسادهم في الأرض، فقالوا على سبيل الاستفسار عن الحكمة، لا على سبيل الاعتراض على حكم الله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَتَّكِدُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) .

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي علّمه الله أسماء الأشياء كلها، ما كان منها وما سيكون، وخواص هذه المسميات، وعلّمه أصول العلوم، وقوانين

الصناعات، وأسماء آلاتها مما يحتاج إليها ذرية آدم بطريق الإلهام، هذا فرس، وهذا بعير، وهذه سيارة، وهذه طيارة الخ مما لم يكن في علم الملائكة.

قال ابن عباس: علّمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة، وأسماء الأشياء كلها.

وقال مجاهد: علّمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء من أسماء الأشياء، كما علّمه أسماء الملائكة والذرية. ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَقْبِلُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ثم عرض هذه المسميات على الملائكة، وقال لهم: أخبروني بأسماء هذه الأشياء التي ترونها، إن كنتم صادقين في أنكم أحقاء بالخلافة من آدم وذريته؟

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي قالت الملائكة: ننزهك يا ربنا عما لا يليق بك من صفات النقص، ونقرّ ونعترف بعجزنا وضعفنا، فليس عندنا من العلم، إلّا ما علمتنا إياه، إنك أنت العليم بكل أمر، الحكيم في خلقك وتديريك، والحكيم هو: المحكم لمصنوعاته حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة. والحاصل إن الله تعالى أظهر فضل آدم، بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وخصّه بالمعرفة التامة دونهم، من معرفة الأسماء، والأشياء، والأجناس، واللغات، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور، وأسندوا العلم إلى علام الغيوب.

﴿قَالَ يَكَادُمُ إِلَهُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي قال الله لأدم: أعلمهم يا آدم وأخبرهم بأسماء الأشياء التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بقصورهم عن إدراكها ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي فلما أخبرهم آدم بكل الأسماء، وخصائصها، ومنافعها، والحكمة منها ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي قال تعالى للملائكة: ألم أخبركم بأني أعلم ما غاب عنكم في السموات والأرض، وأعلم ما تظهرونه وما تخفونه في نفوسكم؟.

روي أنه تعالى لمَّا خلق آدم عليه السلام، ورأت الملائكة خلقته العجيبة، قالوا: لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه مثاً. وهذه الآيات تدلُّ على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله، وأنه شرط في الخلافة في الأرض، وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ هذا من باب عطف القصة على القصة، أي واذكر حين قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتذلل، فإن العبادة لا تكون إلا لله عزَّ وجلَّ، وهذه هي النعمة الرابعة العامة لجميع البشر، فإن سجود الملائكة لآدم، فيه تعظيم له وتكريم لذريته، فإن آدم عليه السلام لمَّا أنبأهم بالأسماء، وعلمهم ما لم يعلموا، أمرهم الله بالسجود له، اعترافاً بفضله، وأداءً لحقه، واعتذاراً عما قالوا فيه، وكان السجود - في الحقيقة - لله تعالى، وجعل آدم كالقابلة للملائكة، تفخيماً لشأنه، حين رأوا فيه من بدائع العلم ما لم يعرفوه، ومن الاستعداد الروحي ما يؤهله للخلافة في الأرض ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي سجدت الملائكة له جميعاً غير إبليس، امتنع عن السجود، وتكبر عن امتثال أمر الله، حسداً لآدم على ما أعطاه الله من الكرامة، وكان في علم الله من القديم من الكافرين، والاستثناء هنا منقطع، لأن إبليس لم يكن من الملائكة، بل كان من الجنِّ بالنصِّ الصريح الواضح في سورة الكهف ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي خرج عن طاعة الله بامتناعه عن السجود لآدم، وإنما كُلف بالسجود بأمرٍ خاصٍ من الله تعالى ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ وهذا قول الحسن وقتادة أنه من الجن ولم يكن من الملائكة، حتى قال الحسن البصري: والله ما كان إبليس من

الملائكة طرفة عين، ولأنه خلق من نار، والملائكة خلقوا من النور، ولأنه أبى واستكبر، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ولا يستكبرون، والملائكة لا نسل لهم، ولا يتناكحون ولا يتناسلون، بل يخلقهم الله خلقاً استقلالاً، بخلاف الجن فإن لهم ذرية ونسلاً، قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟﴾ فكل هذه الدلائل تشير إلى أن إبليس لم يكن من الملائكة، بل كان من الجن^(١).

سُئِلَ الإمام الشعبي: «هل لإبليس زوجة؟ فقال: ذاك عرسٌ لم أشهده، قال ثم أخذت أقرأ القرآن بامعان، حتى قرأتُ قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ فعلمت أنه لا يكون لإبليس ذرية، إلا إذا كان له زوجة، فقلت: نعم له زوجة». وهذا استدلال لطيف.

والتكبر أن يرى نفسه أكبر من غيره، والاستكبار طلبُ ذلك بالغطرسة والإباء، وقد أدمج في معصية إبليس أربع معاصي:

- ١ - مخالفة أمر الله.
- ٢ - والاستكبار عن التنفيذ.
- ٣ - وتحقير آدم عليه السلام.
- ٤ - ومفارقة الجماعة.

وأول معصية وقعت كانت بسبب الكبر والتكبر.

ومثل المتكبر كمثل رجل فوق قمة الجبل، يرى الناس صغاراً وهم يرونه صغيراً، كما قال الشاعر:

مَثَلُ الْمُعْجَبِ فِي خِيَلِهِ مَثَلُ الْوَاقِفِ فِي أَعْلَى جَبَلٍ
يُنْصَرُّ النَّاسُ صِغَاراً وَهُوَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ صَغِيرٌ لَمْ يَزَلْ

(١) انظر تفصيل الأدلة في كتابنا «النبوة والأنبياء»، ص: ١٦٨.

﴿وَقُلْنَا يَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا
تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا
كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى
حِينٍ ﴿٢٦﴾ .

﴿وَقُلْنَا يَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ هذا تذكير لنعمة أخرى، موجبة
لالشكر، مانعة من الكفر، وفي قوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ ولم
يقُل: إِنَّ لَكُمَا الجنة، لأن في علمه تعالى أنهما يُخرجان منها، بسبب
المخالفة، وقال للمؤمنين: إن لهم الجنة لَمَّا لم يكن لهم خروج،
والسكنى من السكون وهو اللبث والإقامة، دون السكون الذي هو ضد
الحركة، وتخصيصُ الخطاب بآدم عليه السلام، لأن المرأة تابعة للرجل في
السكنى والمعيشة بمنطق الفطرة، والمراد بالزوج «حواء» عليها السلام،
وإن لم يتقدم لها ذكر، وهذه الآية تدل على خلقها قبل دخول الجنة،
والجنة هي دار الثواب، لأن اللام للعهد، ولا عهد لغيرها، وفي مكانها
ثلاثة أقوال:

١ - أنها في الأرض: وهو ما ذهب إليه أبو مسلم الأصفهاني،
واحتمج بأن خلقه عليه السلام كان في الأرض.

٢ - أنها بستان في السماء: وهو قول الجبائي بدليل قوله تعالى:
﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾.

٣ - أنها جنة الخلد: وهو قول الجمهور، بدليل أنها المعهودة عند
الذكر، فمتى سمع الإنسان الجنة، تبادر إلى ذهنه جنة الخلد، التي وُعد
بها المتقون، وهذا هو الحق الذي لا مناص عنه^(١).

(١) القول الفصل في هذا أنها جنة الخلد، كما ذهب إليه الجمهور، حيث وصفها تبارك
وتعالى في سورة طه بأوصاف، لا تصدق إلا عليها، في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ الْآءَ =

وقال أبو منصور الماتريدي في التأويلات: نعتقد أن هذه الجنة بستان، كان آدم وزوجته منعّمين فيها، وليس علينا تعيينها.

﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا﴾ أي كلا من ثمارها ونعمها أكلاً واسعاً رافهاً، من غير جهد، ولا تعب، يُقال: هو في رَغَدٍ من العيش، أي في سعة من الرزق، وفي سعادة ورفاهية ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي من أي مكان أردتما منها، وإنما وجّه الخطاب لهما تعميماً للتشريف والتكريم، وإيضاحاً بتساويهما في التمتع، فإن «حواء» أسوة له في الأكل، بخلاف السكنى فهي له تبع.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي لا تأكلا منها، وإنما علّق النهي بالقرب منها، مبالغة في تحريم الأكل، ووجوب الاجتناب بالكلية، كقوله سبحانه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى﴾ أي احتسروا من الزنى ودواعيه، من الخلوة، والنظر، والمصافحة، والاختلاط إلى غير ما هنالك، فإن القرب من الشيء، يورث ميلاً نحوه، يأخذ بمجامع القلب، كما ورد «حَبْكُ الشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ»^(١) فينبغي ألا يحوم العاقل حول ما حرّم الله، مخافة أن يقع فيه، واختلف في الشجرة فقيل: هي الكرم - أي العنب - وقيل: هي شجرة التين، والأولى عدمُ التعيين، فإن الله تعالى لم يعينها لنا، ولا جزم لأحد بدون دليل ساطع، من كتاب أو سنة. ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي من الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المنهي عنه، الذي يكون سبباً للظلم. والظلمُ المخلُ بالعصمة،

= تجوع فيها ولا تَعْرَى. وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ ومهما كان الإنسان منعماً في الدنيا، لا بدّ له أن يجوع، ويعطش، ويَعْرَى، ويصيبه حر الشمس، ولا يصدق ذلك الوصف إلا على جنة الخلد دار المتقين، فهي التي لا جوع فيها ولا عطش، ولا حرّ ولا نصب، لأنها دار السرور والحبور.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب في الهوى رقم ٥١٣٠ وأحمد في المسند ١٩٤/٥ عن أبي الدرداء مرفوعاً، وروي موقوفاً، والموقوف أشبه كما قاله المحققون، ومعنى الحديث أن من الحب ما يعمي الإنسان عن طريق الرشاد، ويصمّه عن استماع الحق، وأن الرجل إذا غلب الحبُّ على قلبه، أعمى بصره وبصيرته، ومن الحبِّ ما قتل!!

هو ما لا يكون مصحوباً بعذر كالنسيان، وآدم إنما أكل من الشجرة ناسياً للأمر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾^(١) وهذا بالنسبة إلى مقام آدم يعتبر معصيةً وتقصيراً، وهو من باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين» ولا حاجة إلى القول، بأن ما وقع من آدم، كان قبل النبوة كما يدعيه المعتزلة، فإن منصب النبوة يستدعي عدم الغفلة أو التقصير، والظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه، فإذا وُضع في غير موضعه كان صاحبه ظالماً، وإن وُضع في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه، كان الشخص أظلم، كمن يمنع ابنته من العفاف والحشمة، ويأمرها بالسفور والفجور، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي أوقعهما في الزلة، وحملهما على الزلة، وهي مخالفة الأمر حيث أكلا من الشجرة، والزلة: من الزلل وهو عثور القدم، يُقال: زَلْتُ قدمه أي زَلَقْتُ، ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة، زَلَّ الرجل إذا أتى ما ليس له إتيانه، وأزله غيره: سَبَّبَ له ذلك، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ وإزالتهما قوله لهما على ما حكى القرآن: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾^(٣) وقوله: ﴿هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكُ لِي يَنْبُلِي﴾^(٤).

واختلف في كيفية توصل إبليس إليهما على أقوال:

١ - أنه دخل عليهما ابتلاءً من الله تعالى بطريق الوسوسة، وبدل عليه قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾.

(١) سورة طه، آية: ١١٥.

(٢) سورة النور، آية: ٣٣.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٢٠.

(٤) سورة طه، آية: ١٢٠.

٢ - أن إبليس أغواهما مباشرةً بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ والمقاسمة تدل على المشافهة.

٣ - أنه قام عند باب الجنة، وتمثل لهما بصورة مَلَكٍ ناصح فنادهما، فأغوى حواء، ثم أغوى آدم.

وقالت طائفة من العلماء: إن إبليس لم يدخل الجنة بعد أن أُخرج منها، وإنما أغوى آدم بالوسواس.

قال في التأويلات: لا نقطع القول بلا دليل، والعلم عند الله، فالله تعالى طرد إبليس من مكان قدسه لكفره، ولكن لم ينزع عنه قوة الإغواء لحكمة الابتلاء، والوسوسة: القول الخفي، وهو حديث النفس والشيطان، فيقال لما يقع في النفس من عمل الشر: وسواس، ولما يقع من عمل الخير: إلهام.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من الكرامة والنعيم، والتعبير يؤذن بالفخامة أي بالمكان العظيم الذي كانا فيه. ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض، والخطاب لآدم وحواء وإبليس، اهبطوا حال كونكم أعداء، الشيطان عدو لكم، فكونوا أعداء له، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١) ولفظ عدو يُطلق على الواحد والجميع، والهبوط: النزول والانحدار من أعلى إلى أسفل، كما في هبوط الحَجَر، وإذا استعمل في الإنسان فهو على سبيل الاستخفاف، ولم يشترط بعضهم فيه سوى الانتقال من شريف إلى ما دونه كقوله سبحانه: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾. ﴿وَلَكُم فِي الْأَرْضِ مَسْكَنٌ وَمَتَّعَ الْآلِينَ﴾ أي ولكم في الأرض موضع استقرار، وتمتع بالعيش، وانتفاع بنعيم الحياة، إلى وقت انتهاء آجالكم، والحين: مقدار من الزمن قصيراً كان أو طويلاً، والمراد به هنا زمن الموت، والله تعالى خلق الأرض وما فيها للبشر، والإسكان في الجنة إنما كان موقتاً

(١) سورة فاطر، آية: ٦.

لآدم وحواء، ومقدمة للنزول إلى الأرض، وفي هذه الآية تحذير عظيم عن المعاصي، قال الشاعر:

يا ناظراً يزنو بعيني راقداً ومشاهداً للأمر غير مكابداً
تصلُ الذنوبُ إلى الذنوبِ وترتجي درج الجنانِ ونيل فوز العابدِ
أنسى أن الله أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنب واحدٍ؟

﴿فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ﴾ أي استقبل آدم دعواتٍ من ربه، ألهمه إياها، فتلقاها بالأخذ والقبول والعمل بها، وهذه الكلمات التي ألهمها هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهذا مروى عن ابن عباس، وقيل: هي «سبحانك اللهم لا إله إلا أنت، ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» وهذا مروى عن مجاهد وابن مسعود.

والتلقي هو القبول عن فطنة وفهم، ومعناه الإقبال على الأمر، والقبول له، وأصله من استقبال الناس بعض الأجرة، إذا قدم بعد غياب طويل ﴿فَلَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ أي قبل ربه توبته، ورجع عليه بالرحمة والتوفيق، لأنه تعالى واسع الرحمة للعباد، كثير التوبة على من تاب وأناب. وفي الجمع بين الوصفين «التواب» و«الرحيم» وعد بليغ بالقبول والإحسان، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) وإنما اكتفى بذكر آدم، لأن حواء تبع له في الحكم، ولذلك طوى ذكر النساء، في أكثر مواقع الكتاب والسنة، واعلم أن التوبة أصلها الرجوع، وإذا أسندت إلى العبد، كانت عبارة عن مجموع أمور ثلاثة:

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٤.

- ١ - العلمُ بالخطأ أي معرفة ضرر الذنب.
- ٢ - التَّذمُّ على ما فعل وهو تَأْلُمُ القلبِ.
- ٣ - العزمُ على عدم العودة إلى المعصية.

وإذا أسندت إلى الله تعالى، كان معناها القبول، والرجوع على العبد بالعفو والغفران، وذكرُ «الرحيم» إشارة إلى أن قبول التوبة، ليس بواجب على الله تعالى، بل هو بمحض الفضل والإحسان.

﴿قُلْنَا أَهْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْنَا أَهْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كَرَّرَ الأمر بالهبوط للتأكيد، وليبين أن إقامة آدم وذريته تكون في الأرض لا في الجنة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

وقيل: ليس هناك تكرار، لاختلاف المقصود، لأن الأول دلَّ على أن هبوطهم إلى دار البلاء للعداوة «بعضكم لبعض عدوٌّ» والثاني أشعر بأنهم اهبطوا للتكليف، فمن اهتدى نجا، ومن ضلَّ هلك. ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ «إمَّا» مركبة من «إن» الشرطية، و«ما» المزيدة للتأكيد، والمعنى: إن يأتكم مني هدىً بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، للهداية والسعادة، فمن تبع الهدى منكم نجا وفاز، ولا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة، لأن مقصدهم ليس إلا طاعة الله، ونيل رضوانه، وذلك مما لا ريب في حصوله بمقتضى الوعد الكريم، وأمَّا في الدنيا فقد يصيب المؤمن خوف أو حزن، لأنها دار الابتلاء، والآخرة هي دار التشريف والجزاء.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا

قسيم الأول ومقابل له، كأنه قيل: ومن لم يتبع الهدى، بل كفر وكذب، فهو مخلد في الجحيم. والآية في الأصل: العلامة، ويقال للمصنوعات من حيث دلالتها على الصانع تعالى آيات، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١) والمراد بالآيات هنا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الكتب المنزلة، أو القرآن الكريم. والمراد بأصحاب النار أهلها، ولفظ الصلبة يدل على الاقتران والملازمة، فكأن الكفار ملاءك لها، هي مقرهم وهي سكناهم، لا يخرجون منها أبداً، وكل ما كان في القرآن الكريم من «أصحاب النار» فالمراد به أهلها، إلا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾^(٢) فالمراد به خزنتها.

وفي الآية دلالة على أن الجنة مخلوقة، وأنها في جهة عالية، والتوبة عند الله مقبولة، وأن متبع الهدى مأمون العاقبة، وأن عذاب النار دائم، والكفار فيه مخلدون، وأن غير الكافر لا يخلد، والإخبار بهذه الأحوال، من خلق آدم، ومناظرته مع الملائكة، وما حدث من إبليس اللعين، في هذه القصة العجيبة، معجزة تدل على صدق نبوة محمد ﷺ كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ. إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٣).

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فََارِهُونٌ ﴿١﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٢﴾﴾.

(١) سورة الجاثية، آية: ٣ - ٤.

(٢) سورة المدثر، آية: ٣١.

(٣) سورة ص، آية: ٦٧ - ٧٠.

﴿يٰۤاَيُّهَا اِسْرٰىلُ اذْكُرُوْا نِعْمَتِيَ الَّتِيۤ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ «يا» حرف نداء متضمن معنى التنبيه، و«بني» جمع ابن وهو مخصوص بالذكر، وإذا أُضيفَ عمّ الذكور والإناث، فيكون بمعنى الأولاد، وهو المراد هنا، قال تعالى: ﴿يٰۤاَبْنِيۤ اٰدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَُمُ الشَّيْطٰنُ﴾ يعني يا أولاد ويا ذرية آدم، و«إسرائيل» لقب «يعقوب» عليه السلام، ومعناه بالعبرية صفوة الله، أضافهم تعالى إلى هذا اللقب، حثاً لهم وتحريكاً على الطاعة كقولك: يا ابن الرجل الصالح أطع الله تعالى، لأن الطباع تميل إلى اقتفاء أثر الآباء، بناءً على أن الحسنة في نفسها حسنة، ومن بيت النبوة أحسن، والسيئة سيئة ومن بيت النبوة أسوأ. ومعنى الآية: يا أولاد النبي الصالح يعقوب، اذكروا ما أنعمتُ به عليكم وعلى آبائكم، من نعم جليلة لا تُعدُّ ولا تحصى، والمراد بالذكر هنا: هو التفكير في هذه النعم، والقيام بشكرها وحقوقها، لا مجرد التفوه بها باللسان، فهو من ذكر القلب والفكر، الذي هو ضدُّ النسيان. وتقييد النعمة بهم ﴿الَّتِيۤ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ لأن الإنسان غيورٌ وحسود بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله تعالى به على غيره، حملته الغيرةُ والحسدُ على الكفرانِ والسخط، وإن نظر إلى ما أنعم الله تعالى عليه، حملته حبُّ النعمة على الرضى والشكر، وقيل: أراد ما أنعم الله به على آبائهم من إنجائهم من الغرق، ومن طغيان فرعون وجبروته، ومن المنِّ والسلوى، وتفجير الماء من الحجر، إلى آخر ما هنالك من النعم، ولكنَّ العموم في اللفظ أحسن، كما يقول ابن عطية لتشمل الأجداد والأحفاد.

﴿وَاَوْفُوا۟ بِعَهْدِيۤ اَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي أدوا عهدي وافيّاً تاماً، ذلك العهد الذي عهده إليكم، من الإيمان بمحمد ﷺ، وطاعة الله، وطاعة رسوله، أوفٍ لكم بما عاهدتكم عليه، من حسن الثواب، ودخول الجنة.

﴿وَاِتٰى قٰرَهٗبُوْنَ﴾ أي خافون دون غيري من الخلق، في جميع الأمور والأحوال، وخافون في ترك الوفاء دون غيري، ومعنى الرهبة: المخافةُ الشديدة مع تحرز واضطراب. والآية متضمنة للوعد والوعيد، دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي ألا يخاف إلا الله عزَّ

وجلّ، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ (١).

﴿وَمَا أَمْنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي وصدقوا يا بني إسرائيل، بهذا القرآن الذي أنزلته على محمد، مصدقاً لما معكم في التوراة، من أمور التوحيد والنبوة، فالقرآن العظيم مطابق للكتب الإلهية في الدعاء إلى التوحيد، والأمر بالعبادة، والعدل بين الناس، والنهي عن المعاصي والفواحش، وهو الكتاب الخاتم. ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي لا تكونوا أول جاحد ومكذب بالقرآن، ولا تسارعوا إلى الكفر به، فإن وظيفتكم أن تكونوا أول مؤمن به، والخطاب للموجودين في عصر النبي ﷺ من علماء أهل الكتاب، فإنهم كانوا أهل النظر في معجزاته، والعالمين بشأنه، والمبشرين بزمانه كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢). ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنَّي فَاظِقُونَ﴾ أي ولا تستبدلوا بآياتي البيّنات، التي في كتابكم من أوصافه ﷺ بتغيرها أو تحريفها، عوضاً يسيراً من حطام الدنيا الفانية ﴿وَرِئَاسِي فَاظِقُونَ﴾ بالإيمان واتباع الحق. بيّن تعالى لهم أن حظوظ الدنيا - وإن عظمت - فإنها قليلة مستزلة، بالنسبة لما يفوتهم من حظوظ الآخرة.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَآزَكُوا مَعَ الرَّكْعَيْنِ﴾ (١٣).

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ اللَّبْسُ: الخلط، يُقال: لَبَسْتُ الأمر أي خلطته حتى يشبهه بغيره، والمعنى: لا تخلطوا الحق بالمنزل من الله، بالباطل الذي تخرعونه، حتى يشبه أحدهما بالآخر، ولا

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٩.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٦.

تكتُموا صفات محمد ﷺ الموجودة في كتابكم التوراة، وأنتم تعلمون عاقبة جريمة الكتمان^(١).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي أدوا ما افترض الله عليكم، من أداء الصلاة، ودفع الزكاة للمستحقين، وصلوا مع المصلين من أمة محمد، وعَبَّرَ عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود، لأنه لا ركوع في صلاتهم. والمراد بالصلاة في الآية صلاة المسلمين وزكاتهم، فإن غيرهما كأنها لا صلاة ولا زكاة. والزكاة: من زكا الزرع إذا نما، فإن إخراجها يستجلب بركة في المال، وينمي في النفس فضيلة الكرم، وتُطَهَّرُ المال من الخُبث، والنَّفْس من البُخل^(٢)، كما قال سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(٣) واستدل بعض العلماء من الآية: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ على وجوب الجماعة، وكذا الأحكام الشرعية تدلُّ عليه، من أن تاركها لغير عذر تُردُّ شهادته، ويرى بعضهم أنها سنة مؤكدة، وأقوى السنن المؤكدة هي سنة الفجر، ومع ذلك رُخِّص في تركها لإدراك الجماعة، لأن ثواب الجماعة أعظم من فضيلة ركعتي الفجر، لأنها تفضل الفرض منفرداً بسبع وعشرين ضعفاً، لا تبلغ ركعتا الفجر ضعفاً واحداً منها^(٤).

(١) لَبَسَ الأمر من باب ضرب خَلَطَهُ، وفي البخاري عن عائشة مرفوعاً «المتشيع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور» والمتشيع هو الذي يظهر أنه شيعان وليس كذلك، شَبَّهَهُ بلباس ثوبي زور، وهو المرائي الذي يلبس ثياب الزهاد، وباطنه مملوء بالضلال.

(٢) قرن الله سبحانه الزكاة بالصلاة في اثنين وثمانين موضعاً من القرآن، وهذا دليل على كمال الاتصال بينهما، فالصلاة حقُّ الله عزَّ وجلَّ، والزكاة حقُّ العباد، ولا يكمل الإيمان إلا بأداء حق الله تعالى وحق عباده، وقد فرضت الزكاة في السنة الثانية من الهجرة قبل فرض الصيام مما يوحى بأهميتها.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٤) انظر إعلاء السنن ٤/٧.

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنُوا مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنُوا مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ الخطابُ هنا لأخبار اليهود ورؤسائهم، يقول لهم سبحانه على سبيل التوبيخ والتعجيب من حالهم: أَتَدْعُونَ النَّاسَ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ، وَتَتْرَكُونَ أَنْفُسَكُمْ فَلَا تَذْكُرُونَهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ؟ وَالْحَالُ أَنْكُمْ تَتْلُونَ التَّوْرَةَ وَتَقْرُؤُونَهَا، وَفِيهَا الْوَعْدُ لِمَنْ تَرَكَ الْبِرَّ، وَخَالَفَ قَوْلُهُ عَمَلَهُ ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيِ أَفَلَا تَفْطَنُونَ وَتَدْرِكُونَ، أَنْ ذَلِكَ قَبِيحٌ فَتَرْجِعُونَ عَنْهُ، أَمْ أَنْكُمْ لَا عَقْلَ لَكُمْ؟ وَالْبِرُّ بِكسر الباء: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ الطَّاعَاتِ، وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، الْمَوْجِبَةِ لِلثَّوَابِ، وَضِدُّهُ الْإِثْمُ، وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يُطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»^(١). عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَخْبَارِ الْمَدِينَةِ، كَانُوا يَأْمُرُونَ سِرًّا مِنْ نَصَحُوهُ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ وَلَا يَتَّبِعُونَهُ. ثُمَّ هَذَا التَّوْبِيخُ وَإِنْ كَانَ خُطَابًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، إِلَّا أَنَّهُ مَعْرُوفٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، أَنَّهُ لِكُلِّ وَاعِظٍ يَأْمُرُ وَلَا يَأْتِمِرُ، فَهُوَ كَالشَّمْعَةِ تَحْرَقُ نَفْسُهَا لِتُضِيءَ لِلنَّاسِ.

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَاوَرَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ لَمَّا أُمِرُوا بِمَا شَقَّ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْكِ الرِّيَاسَةِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمَالِ، بَيَّنَّ لَهُمْ تَعَالَى طَرِيقَ التَّغْلِبِ عَلَى الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَالتَّخْلُصِ مِنْ حُبِّ الرِّيَاسَةِ وَسُلْطَانِ الْمَالِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ أَيِ اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَانْتِظَارِ الْفَرَجِ، تَوَكَّلًا عَلَى اللَّهِ، وَبِالصَّلَاةِ

(١) الحديث أخرجه مسلم في البر رقم ٢٥٥٣ والترمذي في الزهد رقم ٢٣٩٠.

التي هي عماد الدين، والتوسل بالصلاة لأنها جامعة لأنواع العبادات النفسية والبدنية، من الطهارة، وستر العورة، والتوجه إلى الكعبة، والعكوف للعبادة، والخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومناجاة الرحمن، وقراءة القرآن، وقد روي أنه ﷺ كان إذا حَزَبَه - أي أهَمَّهُ - أمرٌ فَرَزَعَ إلى الصلاة^(١) وإنما خصَّ الصبر والصلاة بالذكر، لأن بالصبر تُنال كل فضيلة، والصلاة تنهى عن كل رذيلة. ﴿وإنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي وإن الصلاة لشاقة وثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَشِيعِينَ﴾ أي المتواضعين المخبتين، الذين صفت نفوسهم لله، وإنما لم تثقل عليهم، لأنهم يتوقعون ما أعدَّ الله لهم من الأجر بمقابلتها فتَهون عليهم.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي الذين يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم سيلقون ربهم يوم البعث، فيحاسبهم على أعمالهم، وأن معادهم إلى ربهم يوم الدين. والظنُّ في الأصل: الحُسْبَانُ، ويأتي بمعنى اليقين كقوله سبحانه: ﴿وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾^(٢) أي أيقنوا بدخولها والوقوع فيها وإنما فُسِّرَ الظنُّ هنا بمعنى اليقين، لأن قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ معطوف على قوله ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ والشلُّ في الآخرة كفرٌ، فلا ينفع الظنُّ بل يجب فيه القطع، ولذا فُسِّرَ باليقين. وكأنَّ النكتة في استعمال الظنِّ المبالغة، في أنَّ من ظنَّ لقاء الله لا يشقُّ عليه، فكيف بمن يتيقَّنه؟

﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ أَذْکُرُوا نِعْمَتَیَ الَّتِیْ أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَأَنِّ فَضَّلْتُکُمْ عَلَى الْعَالَمِیْنَ﴾^(١٧).

﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ أَذْکُرُوا نِعْمَتَیْ...﴾ الآية، كرَّر تبارک وتعالی التذکیر للتأکید، ولربط ما بعده من الوعيد، والمعنى: يا أولاد النبیِّ الصالح «يعقوب» عليه

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/١ والنسائي في المواقيت باب ٤٦.

(٢) سورة الكهف، آية: ٥٣.

السلام: اذكروا فضلي وإنعامي عليكم بصنوف النعم، حيث نَجَّيْتُ آبَاءَكُمْ من طغيان فرعون وجبروته، وَفَضَّلْتُهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ فِي زَمَانِهِمْ، وَفِي تَفْضِيلِ الْآبَاءِ شَرَفٌ لِلْأَبْنَاءِ! وَهَذَا التَّفْضِيلُ لِمُؤْمِنِيهِمُ الصَّالِحِينَ، أَمَا الْعَصَاةُ وَالْفَجْرَةُ فَقَدْ مَسَحُوا قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ. وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُفْهَمَ أَنَّ تَفْضِيلَهُمْ كَانَ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ عَنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١) فَذَلِكَ التَّفْضِيلُ يَخْتَصُّ بِعَالَمِ زَمَانِهِمْ، كَمَا نَقُولُ: شَوْقِي أَشْعَرُ الشُّعْرَاءِ أَيُّ فِي زَمَانِهِ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَشْعَرُ مِنْ حَسَّانَ وَابْحَرِيِّ، وَجَرِيرَ.

﴿وَأَنْقُؤْا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(٢).

﴿وَأَنْقُؤْا يَوْمًا﴾ أَيُّ خَافُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ الرَّهيبَ «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وَمَا فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْعَذَابِ، إِنْ لَمْ تَوْمِنُوا وَتَتُوبُوا الْيَوْمَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أَيُّ لَا تَقْضِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا مِنَ الْحَقُوقِ، وَتَنْكِيرُ النَّفْسِ لِلتَّعْمِيمِ، فَهُوَ يَوْمٌ عَصِيبٌ، يَفْرُ فِيهِ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ أَيُّ لَا تُقْبَلُ شَفَاعَةُ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ فِي نَفْسٍ كَافِرَةٍ بِاللَّهِ أَبَدًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(٣) فَالْمُرَادُ بِالشَّفَاعَةِ هُنَا الشَّفَاعَةُ فِي الْكُفَّارِ، وَتَمَسَّكَ الْمَعْتَزِلَةُ بِالْآيَةِ فِي نَفْيِ الشَّفَاعَةِ لِلْعَصَاةِ، وَهُوَ مُرَدُّدٌ، لِأَنَّ الْمُنْفِي الشَّفَاعَةَ فِي الْكُفَّارِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»^(٤) وَنَقُولُ أَيْضًا: إِنْ النُّفُوسُ مُخْصُوصَةٌ بِمَا قَبْلَ الْإِذْنِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾^(٥).

كَانَ الْيَهُودُ يَزْعُمُونَ أَنَّ آبَاءَهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْسَهُمُ اللَّهُ

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٢) سورة المدثر، آية: ٤٨.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٣٧ وأبو داود في باب الشفاعة رقم ٤٧٣٩

وهو حديث صحيح.

(٤) سورة سبأ، آية: ٢٣.

وقنطهم من تلك الشفاعة بقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ فهي إذا خاصة بمن كفر بالله ﴿وَلَا يُؤَخِّدُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يقبل من نفس كافرة فدية، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾^(١) ثم قال تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ليس لهم ناصرٌ ينجيهم ويخلصهم من عذاب الله.. وفي الآية أعظم تحذيرٍ عن المعاصي، لأن اللفظ جاء بلفظ العموم، فهي مخاطبةٌ للجميع، يعلم كل من يحضر في ذلك اليوم، وفيها إبطال أصل من أصول الكفرة وهو تقديم الفدية وشفاعة الشافعين.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(١١) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥١﴾

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم، حين نجَّيتُ آباءكم من بطش فرعون وأشياعه العتاة، وعدَّوها نعمةً لأنكم نجوتم بنجاة آبائكم، وأصل «آل»: أهل، لأن تصغيرها «أهليل» ولا يستعمل لفظ «آل» إلا فيما فيه شرف وخطر، كالملوك والعظماء، فلا يقال: آل الحجاج وآل الإسكاف. ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يذيقونكم، من سامة إذا أذاقه، أي ينكلون بكم، ويذيقونكم أشد أنواع العذاب وأفظعه وأسوأه، ثم فسّر هذا العذاب بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يذبحون الذكور من الأولاد، ويستبقون الإناث على قيد الحياة، لاستعمالهن في الخدمة، وسبب هذا الذبح أن فرعون خاف على ذهاب ملكه من بني إسرائيل - لرؤيا رآها في منامه - فأمر بذبح الذكور، وترك الإناث على قيد الحياة، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾^(٢). وقوله

(١) سورة المائدة، آية: ٣٦.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٩٣/١: إن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا حالته - أي أفزعته -

تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البلاء: الاختبار والمحنة أي وفيما حلَّ بآبائكم من العذاب المهيمن، من التسليط والذبح، محنة واختبار عظيم من جهته تعالى، ليميز البز من الفاجر، والبلاء يطلق على الخير، والشر، كما قال سبحانه: ﴿وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(١) فالله يختبر عباده تارة بالمحنة، وتارة بالمنحة ﴿وَبَلَّوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ والكلُّ فعله جلَّ وعلا. وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر، اختبار من الله تعالى، فعليه أن يشكر الله على مسأَّره، وأن يصبر على مضاره، ليكون من الناجحين في الاختبار.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ تذكير بنعمة أخرى أي واذكروا يا بني إسرائيل أيضاً حين فلقنا لكم البحر، وفصلنا بين بعضه وبعض، حتى صارت فيه طرق ومسالك لتمشوا عليها، اثنا عشر طريقاً، بعدد الأسباط، لكل سبط طريق ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ في الكلام حذف يدل عليه المعنى، والتقدير: فرقنا بكم البحر، وتبعكم فرعون وجنوده، فأنجيناكم من الغرق، وأغرقنا فرعون وقومه، وأنتم تشاهدون ذلك، وكان ذلك الغرق يوم عاشوراء، كما دل على ذلك الحديث الصحيح أنه ﷺ لما هاجر إلى المدينة المنورة رأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يومٌ عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فيه فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً لله، فنحن نصومه!! فقال رسول الله ﷺ: «نحن أحقُّ وأولى بموسى منكم، فصامه رسول الله وأمر بصيامه»^(٢).

= رأى ناراً خرجت من بيت المقدس، فدخلت بيوت القبط في مصر، إلّا بيوت بني إسرائيل، ومضمون هذه الرؤيا أن زوال ملك فرعون يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، فعند ذلك أمر فرعون بقتل كل ذكر يولد من بني إسرائيل.

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الصوم رقم ٢٤٤٤ ورواه البخاري ٢١٤/٤ ومسلم رقم ١١٣٠ بنحو رواية أبي داود.

فائدة التذكير بالنعم

وفائدة هذا أن هلاك العدو نعمة، ومشاهدة هلاكه نعمة أخرى، فذكّرهم تعالى بذلك ليشكروه. روي أن جبريل عليه السلام نزل بالعشي، وقال لموسى: أخرج قومك ليلاً، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعَبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾^(١) فخرج بهم، فلحقهم فرعون وجنوده بعد طلوع الشمس، وهو قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ. فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَضْحَبْتُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرَكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^(٢) فلما أتى البحر، أوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه، فانفلق فصار لهم طريقاً يابساً فسلكوه، فلما وصل فرعون رآه منفلقاً، فقال لجنده: انظروا كيف أن البحر انفلق بأمرى، وجمد هيئة مني!! فافتحمه هو وجنوده، فغشيهم ما غشيهم من الغرق والبلاء في لجة البحر. وهذه من الآيات الملجئة إلى معرفة الخالق جلّ وعلا، وتصديق موسى عليه السلام، ثم إن بني إسرائيل بعد ذلك قالوا لنبيهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(٣) وعبدوا العجل في غيبة موسى، وقالوا لرسولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ونحو ذلك، فهم على درجة من الغباء لا يحسدون عليها، وهم في معزل عن الفطنة والذكاء، ولذلك مسخهم الله إلى قردة وخنازير ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة التالية:

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ .

(١) سورة الدخان، آية: ٢٣.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٦٠ - ٦٢.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٣٨.

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ هذا تذكير لهم ثالث، بنعمة العفو بعد عبادة العجل، أي واذكروا حين وعدنا نبيكم موسى أن نعطيهِ التوراة، بعد أربعين ليلة - وهو الميثاق الذي حدّده الله له - وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون وقومه ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي ثم عبدتم العجل بعد غيبتة عنكم، حين ذهب لميثاق ربه، وأنتم معتدون في تلك العبادة، ظالمون لأنفسكم بارتكاب تلك الجريمة الشنيعة.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي عفونا عنكم حين تبتّم، ولم نستأصلكم على ذلك العمل القبيح، لكي تشكروا ربكم على ذلك الصّبح والآنعام، وتستمروا بعد ذلك على الطاعة والعبادة، ولكن هيهات أن يرجع المجرم عن ضلاله، فإن الطبع يغلب التطبع!!

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ تذكير لهم بنعمة إنزال التوراة وهي النعمة الرابعة، أي واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي أيضاً عليكم، حين أعطيت نبيكم موسى التوراة، الفارقة بين الحق والباطل، الجامعة بين كونها كتاباً منزلاً، وحجة واضحة، تفرق بين الهدى والضلال، لكي تهتدوا بتدبر الكتاب، والعمل بأحكامه، والتفكر في آياته.. سمى تعالى الكتاب «فرقانا» لأنه يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِنْكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْنُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ هذا توضيح وبيان لطريقة وكيفية العفو عنهم، بعد عبادتهم للعجل، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل حين قال موسى لقومه: ﴿يَنْقُومِ إِنْكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ أي لقد ظلمتم

أنفسكم حقاً بعبادتكم للعجل، وعرضتموها لعذاب الله ﴿فَتَوُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ أي فاعزموا على التوبة، والرجوع إلى خالقكم العظيم، الذي خلقكم بريثاً من التفاوت، والعيب والنقصان، ومعنى «البارى» الخالق المبدع، للخلق ﴿فَأَقِمْ وَفِئْتِ لِنَفْسِكَ﴾ أي ليقتل البريء منكم المجرم، وفي هذا بيان لحكم من شريعة موسى، بأنه لا تُقبل توبة المرتد حتى يُقتل، كما أن القاتل عمداً، لا يُقبل توبته إلا بتسليم نفسه، إلى أولياء القتل ليقتلوه، وجاءت شريعتنا الإسلامية بالعمو أو القصاص. وذكر «البارى» في الآية، وهي بمعنى الخالق المبدع الحكيم، للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها، حيث تركوا عبادة خالقهم العليم الحكيم، إلى عبادة البقر، الذي هو مثل في الغباوة، فلذا أمروا بالقتل. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ أي نزولكم عند أمر الله، ورضاكم بحكم الله، في تنفيذ حكم القتل بمن عبد العجل، خير لكم عند الخالق العظيم، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، ثم إنه طهرة من الشرك، ووصله إلى الحياة الأبدية التي أعدها الله للمؤمنين الصادقين. ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ في الآية حذف تقديره: ففعلتم ما أمرتم به من القتل، فتاب عليكم ربكم وقيل توبتكم، لأنه سبحانه عظيم المغفرة، واسع التوبة. وإنما لم يقل «تاب عليهم» مع أن الضمير للقوم الذين كانوا في زمن موسى وعبدوا العجل، وإنما قال ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لأنه هذه النعمة أريد بها التذكير للمخاطبين لا لأسلافهم، فإن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء، وفي الآية التفات من ضمير الغائب إلى المخاطب، وهو من المحسنات البديعة، كقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ﴾^(١) فتدبر روائع القرآن.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

(١) سورة يونس، آية: ٢٢.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ بعد أن ذكّرهم تعالى بالنعم التي أفاضها عليهم، بيّن لونا من ألوان طغيان اليهود وجحودهم، وتبديلهم لأوامر الله، وهم مع الكفر والعصيان، يُعاملون باللطف والإحسان، فما أقبحهم من أمة وما أخزاهم، حين طلبوا من نبيهم رؤية الله علانية وجهاراً!!.

قال الطبري: «لَمَّا تَابَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ مُوسَىٰ أَنْ يَخْتَارَ مِنْ قَوْمِهِ رَجُلًا، يَعْتَذِرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ، فَاخْتَارَ مُوسَىٰ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ خِيَارِهِمْ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾^(١) وَقَالَ لَهُمْ: صُومُوا وَتَطَهَّرُوا، وَطَهَّرُوا ثِيَابَكُمْ، فَفَعَلُوا، وَخَرَجَ بِهِمْ إِلَىٰ «طُورِ سِينَاءَ» فَقَالُوا لِمُوسَىٰ: اطْلُبْ لَنَا أَنْ نَسْمَعَ كَلَامَ رَبِّنَا! فَقَالَ: أَفْعَلْ، فَلَمَّا دَنَا مُوسَىٰ مِنَ الْجَبَلِ وَقَعَ عَلَيْهِ الْغَمَامُ، حَتَّىٰ تَغْشَىٰ الْجَبَلَ كُلَّهُ، وَدَنَا مُوسَىٰ فَدَخَلَ فِيهِ، وَقَالَ لِلْقَوْمِ: «أَدْنُوا - وَكَانَ مُوسَىٰ إِذَا كَلَّمَهُ اللَّهُ وَقَعَ عَلَىٰ جَبْهَتِهِ نُورٌ سَاطِعٌ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَضُرِبَ دُونَهُ بِالْحِجَابِ - وَدَنَا الْقَوْمُ حَتَّىٰ إِذَا دَخَلُوا فِي الْغَمَامِ وَقَعُوا سَجُودًا، فَسَمِعُوهُ وَهُوَ يَكْلِمُ مُوسَىٰ بِأَمْرِهِ وَيُنْهَاهُ، فَلَمَّا انْكَشَفَ عَنْ مُوسَىٰ الْغَمَامُ، أَقْبَلَ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا لِمُوسَىٰ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ وَهِيَ الصَّاعِقَةُ فَمَاتُوا جَمِيعًا...»^(٢) وَمَعْنَىٰ ﴿جَهْرَةً﴾ أَيْ عَلَانِيَةً، وَأَصْلُ الْجَهْرِ: الظُّهُورُ، وَمِنْهُ الْجَهْرُ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ، تَقُولُ: رَأَيْتُ الْأَمِيرَ جَهْرَةً وَجَهَارًا أَيْ رَأَيْتَهُ مَعَايِنَةً غَيْرَ مُسْتَتِرٍ بِشَيْءٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿جَهْرَةً﴾ أَيْ عَيَانًا، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: اذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ خَرَجْتُمْ مَعَ مُوسَىٰ، لَتَعْتَذِرُوا إِلَىٰ اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ، فَقُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ مُوسَىٰ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أَيْ لَنْ

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٥.

(٢) نقلًا عن تفسير ابن كثير ٩٧/١ مع شيء من الاختصار.

نصّدقك يا موسى بأنّ ما نسمعه كلام الله، حتى نرى الله علانية، قال هذا خياركم لفرط العناد والتعنّت ﴿فَأَخَذَتْكُمْ الصَّعِقَةُ﴾ أي فأخذتهم صاعقة من السماء - وهي نار محرقة كالصواعق الرعدية - حتى احترقوا وماتوا، وهمدت أجسامهم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى ما حلّ بكم من العذاب، حيث لم يموتوا دفعة واحدة، وإنما يسقط الواحد ميتاً، ثم يتلوه الآخر وهو يراه، وكانت مدة الموت أو الصعقة يوماً وليلة كما ذكر المفسرون. مات هؤلاء السبعون - وهم خيار بني إسرائيل - لأنهم تمرّدوا على نبيهم، فطلبوا رؤية البارئ جلّ وعلا عياناً، فأهلكهم الله تعالى، وأما موسى عليه السلام فإنه لم يمت، وإنما عُشي عليه بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) فلما ماتوا قام موسى يبكي، ويناشد ربه ويدعوه ويقول: ربّ ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم!! كما قال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا...﴾^(٢)؟ فما زال يدعو ربه ويتضرّع إليه، حتى أحياهم الله له، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ثم أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة، لتشكروا ربكم على نعمة الإحياء بعد الموت، والحياة بعد الفناء، وإنما قيّد تعالى البعث بعد الموت ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ لزيادة التوضيح والتأكيد، على أنه موتٌ حقيقي، ولدفع ما عساه يُتوهّم أن بعثهم كان بعد إغماء، أو بعد نوم، كما ذهب إليه بغضهم أنه أصابهم إغماء، ثم أفاقوا بعد الرجفة، فإنّ هذا القول ضعيفٌ، يرّده النصّ الواضح «مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ»^(٣) فالصحيح أنهم ماتوا ثم أحياهم الله عزّ وجلّ بدعوة الكليم موسى عليه السلام، واستغاثته بربه.

(١) سورة الأعراف، آية: ١٤٣.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٥.

(٣) ذكر تبارك وتعالى أمثلة على إحياء الموتى في سورة البقرة في خمسة مواضع: =

﴿وَزَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٧).

هذا تذكير لهم بنعمة أخرى، في طيِّبها نَعَمٌ عديدة، من تظليل الغمام، وإكرامهم بالشراب الحلو السائغ «المنَّ» والإِنعام عليهم بالطعام اللذيذ الشهي، لحم الطير، المسَّمَّى بالسَّلْوَى، بدون جهد منهم ولا تعب، حين وقعوا في أرض التِّيه، في الصحراء الشاسعة المحرقة، بسبب معصيتهم لنييهم، وقولتهم الشيعة، حين أمرهم أن يدخلوا أرض الجبارين، ويقاتلوا قومها فقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(١) فكان جزاؤهم أن عوقبوا بالضياح أربعين سنة، يتيهون في الأرض، مشرّدين كما قال سبحانه: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢).

يقول تعالى مذكراً لهم بنعمته: ﴿وَزَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي سترناكم يا بني إسرائيل بالسحاب من حرّ الشمس، وجعلناه لكم كالظِّلَّة، يقيكم لفح الشمس المحرقة، حين كنتم في أرض التِّيه، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾ أي وأكرمناكم بأنواع من الشراب والطعام، من غير كدٍ

= الأول: في هذه الآية التي معنا ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾. الثاني: في قصة البقرة ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾. الثالث: في قصة الألوف المؤلفة الذين خرجوا فراراً من الموت ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾. الرابع: في قصة عزيز ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾. الخامس: في قصة إبراهيم لما طلب من ربه أن يطلعه على كيفية الإحياء للخلق ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى؟ وكلها آيات باهرة على قنطرة رب العالمين في الإحياء للخلق بعد الموت.

(١) سورة المائدة، آية: ٢٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٦.

ولا تعب، والمن: هو ممّا منّ الله به عليهم، كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، والسّلوى: هو طير يشبه السّماني لذيذ الطعم، وقد عدّ رسول الله ﷺ الكمأة من المنّ، فقال ﷺ فيما رواه عنه البخاري: «الكمأة من المنّ، وماؤها شفاء للعين»^(١) ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي وقلنا لهم حين كانوا في أرض التيه: كلوا من لذائذ نعم الله، ممّا هيأه لكم من أنواع الطيبات، من الحلال اللذيذ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في الكلام حذف واختصار، وهذا من ضروب الإبداع البياني، على حدّ قول البلغاء: «البلاغة الإيجاز» والمحذوف أصله: فظلموا بأن كفروا هذه النعم، وما ظلمونا بالكفر ولكنّ ظلموا أنفسهم، لأن وبال العصيان راجع عليهم، والظلم قاصرٌ عليهم، وهذا ما أفادته صيغة القصر ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: ومعنى الآية: أمرناهم بالأكل ممّا رزقناهم، وأن يعبدوا ربهم ويشكروه، فخالفوا وكفروا، فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات، والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات.. ومن هنا تتبيّن فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء، في صبرهم وثباتهم، وعدم تعثّتهم، مع ما كانوا معه من الشدّة في أسفاره وغزواته، منها «عام تبوك» في ذلك القيظ، والحر الشديد، والجهد المضني، لم يسألوا خرق عادة، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ، ولكنّ لما أجهدهم الجوع، سألوه في تكثير طعامهم، فجمعوا ما عندهم، فجاء قدر مبرك الشاة - أي قليلاً لا يجاوز حجم قعود الشاة - فدعا الله فيه، وأمرهم فملّؤوا كلّ وعاء كان معهم، وكذلك لما احتاجوا إلى الماء، سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا

(١) أخرجه البخاري في الطب ١٣٧/١٠ ومسلم في الأشربة رقم ٢٠٤٩ والترمذي في الطب رقم ٢٠٦٨ باب الكمأة والعجوة.

الإبل، وملؤوا أسقيتهم، ثم نظروا فإذا هي لم تتجاوز العسكر، فهذا هو الأكمل في متابعة الرسول ﷺ (١).

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي واذكروا أيضاً نعمتي عليكم وقت قولنا
لأبائكم: ادخلوا بلدة بيت المقدس - بعد خروجكم من التيه - ﴿فَكُلُوا
مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي كلوا من طعام القرية وثمارها، أكلاً واسعاً هنيئاً،
والرَّغْدُ في اللغة: سعة العيش، يقال: القوم في رَغْد العيش، إذا كانوا في
رِزْق واسع ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي وادخلوا باب البلدة ساجدين لله،
شكراً على خلاصكم من التيه، ادخلوه خاشعين تائبين متواضعين لله عزَّ
وجلَّ ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي وقولوا: رجاؤنا يا ربَّ أن تحطَّ عنا ذنوبنا،
وحِطَّة: كلمة استغفار، مثل قول المسلم: استغفر الله، بدليل قوله بعده:
﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي نمحو عنكم ذنوبكم، ونكفر سيئاتكم ﴿وَسَنَزِيدُ
الْمُحْسِنِينَ﴾ أي سنزيد المحسنين ثواباً، وندخلهم جنات تجري من تحتها
الأنهار، والمراد بالقرية هي بيت المقدس في قول الجمهور، ويدل عليه
قول الله تعالى في سورة المائدة على لسان موسى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ
الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢).

قال الحافظ ابن كثير: لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع
«يوشع بن نون» أمروا أن يدخلوا باب البلد سُجَّدًا، شكراً لله تعالى، على

(١) تفسير ابن كثير ١/١٠١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢١.

ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم عليهم، وإنقاذهم من التيه والضلال، وأن يقولوا عند دخولهم «حِطَّةٌ» أي احطط عنا خطايانا، فبدّلوا أمر الله لهم، ودخلوا يزحفون على أستاههم - أي مقاعدهم - رافعي رؤوسهم، واستهزؤوا فقالوا: حنطة في شعيرة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه، بفسقهم وهو خروجهم عن طاعة الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَسُّ مَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي عذاباً بسبب فسقهم، قال ابن عباس: «كلُّ شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب»^(١) ولم يقل: فأنزلنا عليهم، وإنما قال ﴿على الذين ظلموا﴾ زيادة في التقييح، ومبالغة في الذم والتقريع، وتنكير ﴿رجزاً﴾ للتهويل والتفخيم.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «قيل لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِر لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة»^(٢).

وفي رواية الترمذي: «حنطة في شعيرة» وكلُّ هذا منهم على سبيل السخرية والاستهزاء - لعنهم الله - فاستحقوا غضب الله ولعنته، وقد روي أنه مات منهم بالطاعون سبعون ألفاً في ساعة واحدة.

(١) تفسير ابن كثير ١/١٠١، أقول: الأستاذ جمع ستته: مقعد الرجل، قال في الصحاح: الاسْتُ: العَجْزُ، وقد يراد به حلقة الدُّبُرِ، وأصلها ستته جمعه أستاذ، كجمل وأجمال، ورجلُ أسته إذا كان كبير العجز. اهـ.

فاليهود اللعناء بدل أن يدخلوا خاضعين ساجدين، دخلوا يزحفون على أديبارهم سخرية واستهزاء ويقولون: حبة في شعيرة، فبدلوا السجود بالزحف، وقالوا: حنطة بدل حطة، وزادوا بقولهم: حبة في شعيرة.

(٢) البخاري ٦/٣١٢ في الأنبياء.

﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۚ ﴾

هذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه، وعطشوا عطشاً شديداً كادوا يهلكون معه، فدعا موسى ربه أن يغيثهم ويسقيهم، فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر، فضربه وتفتجت منه عيون بقدر قبائلهم، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة، فجرى لكلٍ منهم عين ماء خاص، يأخذون منه حاجتهم لئلا يختصموا ويقتتلوا، وكان موضوع السقيا آية باهرة، ومعجزة ظاهرة لسيدنا موسى عليه السلام، ومع ذلك كفروا وجحدوا!!!

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ فيه تذكير لهم بنعمة أخرى جلييلة، غير التظليل والإطعام، «استسقى» أي طلب السقيا لقومه، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب لكم نبيكم موسى السقيا من الله عز وجل، لما عطشتم في أرض التيه ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ أي قلنا له: اضرب بالعصا التي معك أي حجر كان^(١)، تتفجر منه بقدرتنا عيون الماء، فضربه: ﴿ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ أي فانشقت وسالت منه اثنتا عشرة عينا، يعدد الأسباط لئلا يتنازعا. ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ﴾ أي علمت كل قبيلة وكل جماعة مكان شربهم، فلا يشركهم فيه غيرهم، وإنما قال: ﴿ مشربهم ﴾ ولم يقل: عينهم، للإشارة إلى معجزة

(١) حكى المفسرون أقوالاً كثيرة، في الحجر الذي ضربه موسى فتفتجت منه العيون ما هو؟ وكيف وصفه؟ وقد ضربنا صفحاً عن هذه الأقوال، والذي يكفي في فهم معنى الآية، أن واقعة انفجار الماء إنما كان على وجه المعجزة، وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصم، الذي ليس من شأنه الانفجار بعيون الماء، وبهذا تكون الآية أوضح، والبرهان أسطع، وتحقق المعجزة، حتى قال الحسن البصري: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، وهذا أظهر في الحجة، وأبين في القدرة.

أخرى، حيث حدث مع انفجار الماء جداول جرت بالماء كالعيون التي تجري على سطح الأرض، وقلنا لهم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ أي كلوا مما رزقكم الله تعالى من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء العذب الذي فجّره لكم ربكم ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تعتدوا وتطغوا في الأرض بأنواع البغي والإفساد، يقال: عَثِيَ يَعْثِي، ويعثو^(١) إذا أفسد في الأرض، وأصل العثو: شدة الإفساد، فيكون قوله تعالى ﴿مُفْسِدِينَ﴾ تأكيداً للنهي، أي لا تفسدوا في الأرض إفساداً بأنواع البغي والعدوان.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَجِدْ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقِيلِهَا وَقَشَائِبِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَبَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَيُّوا مِضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

هذا تذكير لليهود بجناية أخرى لأسلافهم، وكفرانهم نعمة الله عز وجلّ، واليهود هم اليهود، جهلاء مكابرون معاندون، سواء في ذلك السلف «الآباء» أو الخلف من الأبناء، فالحية لا تلد إلا حية، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى، وأنتم في الصحراء في أرض التيه، تأكلون من المن والسلوى ﴿لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَجِدْ﴾ أي على نوع واحد من الطعام، وهو المن والسلوى، وكئى عنهما بطعام واحد وهما

(١) انظر الصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور.

طعامان، لأنهم أرادوا أنه لا يختلف ولا يتبدل، فهو غذاؤهم في كل يوم، وقد كانوا أصحاب مزاج فاسد، كرهوا «المن» وهو طعام حلو يشبه العسل، وكرهوا «السلوى» وهو أطيب أنواع لحوم الطير، وطلبوا بدلها العدس، والثوم، والبصل، ولا غرابة في ذلك، فإن من فسد عقله فسد مزاجه، فالبصل عندهم أطيب من العسل، والعدس أطيب من اللحم، ولهذا طلبوا من نبيهم ما يوافق مزاجهم حين قالوا: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِتُ الْآرْضُ﴾ أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام فقد سئمناه وكرهناه، ونريد ما تخرجه لنا الأرض من أنواع البقول، ثم وضحه وبيّنه بقوله: ﴿مِنْ بَقِيلِهَا وَقَيْلِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا﴾.

أما البقل: فهو كل ما تنبت الأرض من الخضرة كالجرجير، والكراث، والتنع، والنبته الحمقاء «الرجلة».

وأما القثاء: فيعني بها القثّة التي هي من فصيلة الخيار، وقيل: هو الخيار.

وأما الفوم: ففسره بعضهم بالحنطة، وفسره بعضهم بـ«الثوم» وهو أشبه بما بعده، فإن الثوم يشاكل البصل، وبديل قراءة ابن مسعود «وثومها» بالثاء، قال الرازي: الثوم أوفق للعدس والبصل من الحنطة، واستدل الإمام القرطبي ببيت شعر لحسان، يهجو به أعداء الإسلام حيث يقول:

وَأَنْتُمْ أَنْاسٌ لِنَامِ الْأُصُولِ طَعَامُكُمْ الْفُومُ وَالْحَوْقُلُ^(١)
أي طعامكم الثوم، والبصل.

وأما العدس: فهو معروف ومشهور، وهو من أنواع الحبوب التي تطبخ، ومنه «شوربة العدس».

وأما البصل: فهو البصل المعروف، ذو الرائحة الكريهة، الذي قال

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٤٥/١.

فيه النبي الكريم «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة، فلا يقربن مسجدنا، فإنَّ الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس»^(١).

يا لهم من حمقى جهلاء!! فضّلوا الثوم والبصل، على اللحم والحلوى التي تشبه العسل، ولهذا قال لهم نبيّهم منكراً عليهم هذا الانحراف في الذوق: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟﴾ أي أتعبدلون الخسيس بالنفيس، وتؤثرون البصل والثوم على المنّ والسلوى؟ ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي ادخلوا أيّ بلد من البلدان، لتروا فيه ما تحبون وتشتهون!! والمراد بقوله ﴿مِصْرًا﴾ أي بلداً من البلاد أيّ بلد كان، لأنها جاءت بالتثنية، ولو كان المراد بها «مصر» المعروفة التي هي مسكن فرعون لجاءت بغير تنوين، كما قال سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ فرعونُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي..﴾^(٢)؟

قال ابن كثير: والحق أن المراد بقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ مصر من الأمصار - أي بلد من البلاد - كما روي عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك، لأن موسى عليه السلام يقول لهم: «هذا الذي سألتهم ليس بأمر عزيز - أي نادر - بل هو كثير، ففي أيّ بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار، أن أسأل الله فيه»^(٣) وبعد أن حكى سبحانه كثيراً عن سفاهات اليهود وجرائمهم، وعن تعنتهم وطغيانهم، أخبر عمّا أذاقهم إياه من أنواع الذل والهوان، وما حكم به عليهم من السخط والغضب فقال سبحانه: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾ أي لزمهم الذل والهوان، وضرب عليهم الصغار

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الأطعمة رقم ١٨٠٧ والنسائي في المساجد ٤٣/٢ ورواه البخاري بلفظ «من أكل ثوماً وبصلًا فليعتزل مسجدنا» ٤٩٨/٩ في الأطعمة.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٥١.

(٣) تفسير ابن كثير ١٠٥/١.

والخزي، وأحاط بهم ذلك، كإحاطة القُبَّة بمن ضُربت عليه، مجازاةً لهم على كفران النعمة. واليهود في غالب الأزمان أذلاء، من فقر النفس وشُحِّها، فلا ترى ملَّةً من الملل أحرص منهم على المال، ولا على الحياة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾^(١) والمسكنة: الفاقة والخشوع، وهذا وصف ملازم لهم، لا ينفك عنهم أبداً، كما أن الذلَّ لا يفارقهم، إلا في بعض فترات، وهي التي عبَّر عنها القرآن بقوله سبحانه: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مَنْ النَّاسِ﴾^(٢). وإنما أورد اللفظ بضمير الغائب ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ﴾ للإشارة إلى أن ذلك الذل والهوان والصغار، راجعٌ إلى جميع اليهود إلى يوم القيامة وليس في أسلافهم فحسب ﴿وَبَاءُوا بِمَضْجِرٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ذلك الذل والغضب والسخط، بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة، من كفرهم بآيات الله التنزيلية والتكوينية ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي وقتلهم أنبياء الله ورسله، ظملاً وعدواناً، كقتلهم لزكريا ويحيى، وغيرهما من أنبياء الله، وإنما حملهم على ذلك حبُّ الدنيا، واتباع الهوى، والغلو في العصيان.

قال ابن مسعود: «كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبيٍّ، ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار»^(٣) ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك الجزاء والعقوبة، بسبب عصيانهم وطغيانهم، وتمردهم على أحكام الله.

(١) سورة البقرة، آية: ٩٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٢، ونُضِّها ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَمَا ثَقَفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مَنْ النَّاسِ﴾ أي بعهده من الله وعهده من الناس، كما تفعل أمريكا اليوم في احتضان هؤلاء الخنازير، والدفاع عنهم بشتى الوسائل، وسترول أمريكا بإذن الله كما زالت روسيا، لأن نهاية الطغيان والجبروت لا تدوم، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

(٣) تفسير ابن كثير ١/١٠٦.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِغِينَ مَن ءَامَنَ بِاللّٰهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ هم المؤمنون الذين صدّقوا برسالة محمد ﷺ،
وتمسكوا بشريعته ودينه. ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ هم اليهود أتباع موسى عليه
السلام، وسموا «هوداً» لأنهم تابوا بعد عبادة العجل، و«هاد» في اللغة
بمعنى تاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِنَّا إِلَيْكَ﴾^(١) أي تبنا ورجعنا. ﴿ وَالصَّٰبِغِينَ ﴾ جمع نصْران
كسكاري جمع سكران، بمعنى نصراني، سمّوا بذلك لأنهم نصروا
المسيح، وهم أتباع عيسى عليه السلام. ﴿ وَالصَّٰبِغِينَ ﴾ هم قوم على
القطرة، لا دين لهم يتبعونه ويقتفونه، يقولون: لا إله إلا الله، وقيل: هم
قوم تركوا اليهودية والنصرانية ووحدوا الله، والصابيُّ في اللغة: من ترك
دينه إلى دين آخر، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم: قد صبأ، وبعضُ
الصابئين عبد الملائكة. ﴿ مَن ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي من آمن
منهم في زمانه، إيماناً صادقاً خالصاً، دون أن يشوبه شيء من الشرك،
وعمل بطاعة الله في دار الدنيا ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي لهم ثوابهم
الكامل عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي
لا خوف عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا كقوله
تعالى: ﴿تَنْتَزِلُّ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي
كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٢).

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٢) سورة فصلت، آية: ٣١.

توضيح وبيان للآية الكريمة

أخبر تبارك وتعالى أن أهل الملل والأديان، كل من آمن منهم بنبيه، وبكتابه في زمانه، إيماناً صادقاً، وعمل صالحاً دون أن يشرك بالله شيئاً، فإن أجره لا يضيع عند الله، وهو يوم القيامة ناج من عذاب الله، وأنه يدخل الجنة مع المؤمنين، فاليهودي الذي تمسك بشريعة موسى في زمانه، والنصراني الذي تمسك بشريعة عيسى في زمانه، والذي مات على الفطرة وهو يؤمن بالله، كل هؤلاء يدخلون الجنة، لأنهم في زمانهم كانوا مؤمنين موحدين، وأما بعد بعثة محمد ﷺ فلا يقبل من اليهودي أو النصراني أن يتمسك أحدهم بدينه، بل من شروط دخول الجنة الإيمان بمحمد ﷺ، والدخول في دين الإسلام، لأن كل دين قبله نُسَخ، وانتهى العمل به، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١) نعم من آمن من أهل الأديان بنبيه في زمانه، فهو من أهل الجنة، لا يضيع من عمله شيء، وأما بعد مجيء الإسلام فلا يقبل الله من أحد إلا الإسلام، وإلا الإيمان برسالة محمد عليه السلام، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»^(٢).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١٤).

بعد أن ذكّر تعالى بني إسرائيل بالنعم الجليلة التي أنعم بها عليهم،

(١) سورة آل عمران، آية: ٨٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٢٤٠.

أخبر ببيان ما حلَّ بهم من نقم ونكبات، جزاء لهم على كفرهم وعصيانهم، وتمردهم على أوامر الله عزَّ وجلَّ!! ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل، حين أخذنا منكم العهد المؤكَّد، الموثَّق بأنواع المواثيق، على العمل بما في التوراة، فلما جاءكم موسى بالكتاب المنير، رفضتم العمل به ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ أي رفعناه حتى صار كالمظلة فوقكم، وقلنا لكم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي اعملوا بما في الكتاب بجِدٍّ وعزيمة، وادرسوه ولا تنسوه، ولا تغفلوا عنه، فهو الكتاب الذي به سعادتكم، ونجاتكم من شقاء الدارين ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لكي تتقوا المعاصي وما يسخط الله، ولتكونوا في زمرة المتقين. روي أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة، ورأوا ما فيها من التكاليف، ثقلت عليهم، وأبوا قبولها، فأمر الله جبريل بقلع جبل الطور، فاقتلعه ورفع فوق رؤوسهم، حتى أصبح كالظلة عليهم، وقيل لهم: إمَّا أن تطبقوا أحكام التوراة، وإمَّا أن نسحقكم بهذا الجبل^(١)، فأذعنوا ورضخوا، ثم عادوا ونكسوا، فذلك قوله تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي ثم نكتم وأعرضتم عن الميثاق بعد قبوله، فلولا فضل الله عليكم بتوفيقكم للتوبة، ورحمته بقبولها والعفو عن الزلة، لكنتم من الهالكين الخاسرين في الدنيا والآخرة، وهذه هي الجناية الأولى التي تحدث عنها الآيات، ثم أخبر تعالى عما حلَّ بهم من مسخ وتشويه في الصورة والشكل، إلى قردة بسبب ما فعلوا من جرائم وعصيان، فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٥﴾ فَعَمَلْنَاهَا تَكَلًّا ﴿١٦﴾ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

(١) وهذا ما أشارت إليه سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُمْ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَقَعَ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ آية: ١٧١.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي ولقد عرفتم يا بني إسرائيل، ما فعلنا بمن عصى أمرنا من أسلافكم، حين خالفوا أمر الله، واصطادوا يوم السبت، وكان محرماً ذلك عليهم، فمسخناهم قردة بعد أن كانوا بشراً، مع الذلة والهوان ﴿فَجَعَلْنَاهَا تَكْلِلاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي فجعلنا هذا المسخ عقوبة زاجرة، لمن شهدا وعانيتها، وعبرة لمن جاء بعدها ولم يشاهدها ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وعظة وذكرى لكل عبد صالح، صادق الإيمان، متقي للرحمن.

إلى الله يُدْعَى بِالْبَرَاهِينِ مَنْ أَبَى

فَإِنْ لَمْ يُجِبْ نَادَتْهُ بِيضُ الصَّوَارِمِ^(١)

المسخ الحقيقي لا معنوي

لقد كان مسخهم قردة مسخاً حقيقياً، تغيّرت صورهم من صورة بشر، إلى صورة قردة وخنازير، وقد فصلت سورة الأعراف، قصة هؤلاء المعتدين في السبت، وذكرت أنهم مسخوا إلى قردة حقيقة، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِبَشَرٍ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ؟ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾^(٣) فهذه النصوص صريحة على أنهم مسخوا إلى قردة وخنازير، وعلى ذلك جمهور المفسرين، وهو الصحيح، وما روي عن بعض المفسرين أن المسخ كان معنوياً لا صورياً مردود، كما

(١) الصوارم جمع صارم وهو السيف، أي من لم تنفعه الموعظة والبرهان، فليس له علاج إلا بالسيف الصارم.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٦٦.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٠.

قال الحافظ ابن كثير والصحيح أنه كان للصورة، وروي عن قتادة أن القوم لما اصطادوا وخالفوا أمر الله، صاروا قردةً تتعاوى، لها أذنان، بعد ما كانوا رجالاً ونساءً، وروي عن ابن عباس أن الله عز وجل مسحهم قردةً بمعصيتهم، ثم هلكوا، ولم يعيش مسح قط فوق ثلاثة أيام، ولم يكن لهم نسل. ويؤيد هذا القول ما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال يا رسول الله: القردة والخنازير أهى ممّا مُسَخ؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله عز وجل لم يهلك قومًا، أو يعذب قومًا، فيجعل لهم نسلًا!! وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك»^(١) أي كانوا قبل مسخ بني إسرائيل، فدل ذلك على أن الذين مُسخوا ليس لهم نسل، وأن القردة الموجودين ليسوا من المسخ^(٢).

قصة أصحاب البقرة

ثم ذكر تبارك وتعالى قصة أصحاب البقرة، كنموذج عن تمرد بني إسرائيل على أنبيائهم، ومعاندتهم وعصيانهم ومخالفتهم لأوامر الرسل، وكبيان على قدرة الله عز وجل في إحياء الموتى، وأن الله يبعث من في القبور. وخلاصة القصة أن بني إسرائيل كان فيهم شيخ موسر، قُتل ابن أخيه طمعاً في ميراثه، ثم احتمله فطرحه على باب المدينة ليلاً، ولما أصبح الصباح جاء يطالب بدمه، ويزعم أن أهل البلدة قتلوه، حتى كاد يقع بينهم قتال بسبب القتل، ثم أمرهم الله أن يذبحوا بقرة، ويضربوه ببعضها، حتى يخبر عن قاتله وإلى هذه القصة العجيبة تشير الآيات الكريمة، وهي قوله تعالى:

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب القدر رقم ٣٣.

(٢) انظر البحث مفصلاً في تفسير ابن كثير ١/ ١١٠.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٦٧).

والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل، حين قال لكم نبيكم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ وذلك بعد أن قُتل بينكم قتيل، ولم تعرفوا قاتله ﴿قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا﴾؟ أي أنهزأ وتسخر مني يا موسى؟ نسألك عن القاتل، فتقول لنا: اذبحوا بقرة؟ ما دخل البقرة بالقتيل؟ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي أستجير بالله أن أكون في زمرة الساخرين، المستهزئين بالناس، فإن السخرية بالناس جهل وسفة!! وعبر بالاستعاذة ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ استعظاماً لما أقدموا عليه، من رميه عليه السلام بهذه العظيمة المنكرة، فإن الهزؤ في أثناء تبليغ أمر الله، وفي مقام الإرشاد يكاد يكون كفراً، فكيف يليق ذلك بنبي من الأنبياء الكرام؟! ولو كانوا أذكيا لفهموا مغزى كلامه عليه السلام، فإنه وضح لهم أن هذا ليس من عنده، وإنما هو أمر الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ ولم يقل لهم: إنني آمركم أن تذبحوا بقرة، ولكنهم أناس جهلاء، مشاغبون معاندون، لا يعرفون قدر الرسل!!

ولمّا تحقق لهم أنه عليه السلام جاد في كلامه، غير ساخر ولا عابث.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْتُهَا تُسْرُ النَّظِيرِ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشْبَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيعَةَ فِيهَا قَالُوا أَإِنَّنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧١).

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾؟ أي ادع لنا يا موسى ربك، حتى يبين لنا ما هي هذه البقرة؟ ما سئها؟ ما صفتها المميزة لها عن غيرها؟ وهذا تعنتٌ منهم وعناد، ولو امثلوا الأمر فذبحوا أي بقرة لأجزأتهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم كما قال ابن عباس^(١) ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أي قال لهم موسى: إن هذه البقرة التي أمركم الله بذبحها ﴿ لَا فَارِضٌ ﴾ أي ليست كبيرة مسنة هرمة، ﴿ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أي وليست صغيرة فتية ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴾ أي فنفذوا أمر الله، ولا تكثروا الجدل، ولا تتعنتوا وتشددوا، فيشدد الله عليكم.

قال ابن كثير: الفارض: الهرمة التي لا تولد، والبكر: التي لم تلد إلاً ولداً واحداً، والعوان: التصف - أي الوسط - التي بين ذلك، التي قد ولدت، وولدت ولدها^(٢).

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾؟ لم يمثلوا الأمر، وعادوا إلى الجدل والتعنت، فطلبوا من موسى أن يدعو ربه، حتى يخبرهم عن لونها، بعد أن أخبرهم عن سئها! أي هل لونها أبيض، أم أسود، أم أصفر؟ نريد أن نخبرنا عن لونها بقول قاطع. ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴾ أي قال لهم موسى: إن ربي يقول إن هذه البقرة صفراء اللون، شديدة الصفرة، حسنة المنظر، تسرُّ كلَّ من رآها، ولفظ «فاقع» من صفات الألوان، وهو وصف خاصٌّ بالصفرة، كما نقول: أسود حالكٌ، وأبيض ناصع، وأصفر فاقع أي شديد الصفرة، قال الطبري: وهو نظير النصوع في البياض^(٣). وكان يكفي هذا البيان لهم، ولكنهم كانوا مغرمين بالتعنت والجدل، والمعاندة لأوامر الله، فرجعوا يطلبون من نبيهم أن يسأل ربه، عن علامة خاصة تعرف بها، لأن هذه الأوصاف عندهم غير كافية.

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ١١٢.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١١٣.

(٣) مختصر الطبري ١/ ٩٧.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي يوضح لنا وصفاً خاصاً بها يميّزها من غيرها، وكانهم أحسّوا بمقت المعصية، فاعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عواناً، وبالصفرة الفاقعة كثير، فقالوا: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أي تشابه علينا البقر، والتبس أمره علينا، فلم ندر ما هي البقرة المأمور بذبحها، وسنهندي إن شاء الله إلى معرفتها، وفي الحديث «إنما أمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم، وإيم الله لو أنهم لم يستثنوا - أي يقولوا إن شاء الله - لما بُيِّنَتْ لهم آخر الأبد»^(١) وما تشابه عليهم البقر، إلا لأنهم أغبياء من جنس البقرا!!

﴿قَالَ إِنَّكُمْ يَقُولُونَ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ أي ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض، وجملة ﴿تثير الأرض﴾ صفة للذلول داخله في النفي، ومعنى إثارة الأرض حرائثها لإلقاء البذر فيها ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي وليست لسقاية الزرع، وإنما هي للدر والنسل، لا للحراثة والسقاية ﴿مُسْلَمَةٌ لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ أي سليمة من العيوب، ليس فيها لون آخر يخالف لون جلدها، فهي صفراء كلها حتى قرننها وظلفها ﴿قَالُوا أَفَلَن جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي في هذا الوقت جئت بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكال في أمرها، وفي قولهم: ﴿الآن جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ إساءة أدب مع رسولهم، كأنه ما كان يخبرهم بالحق قبل ذلك، والآن قال لهم الحق، أي الآن صدقت، وكان يكفيهم أن يقولوا: الآن عرفناها تمام المعرفة، ولكنهم كانوا غير راشدين في تعبيرهم، قال تعالى: ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ فيه اختصار، والتقدير: فحصلوا البقرة الجامعة لكل الأوصاف، فاشتروها بثمن غالٍ جداً، فذبحوها وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها، أو خوف الفضيحة، أو ضئاً بذبح البقرة، فإنهم كانوا يعبدون البقر، كما قال سبحانه: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعاً، وابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١١٤/١.

العجل* أي امتزج بدمائهم حبّ عبادة العجل، وهو الذكّر من البقر، فمن أجل ذلك ما كادوا يقدمون على ذبحها، وفي هذا ذمّ لهم، لأن غرضهم لم يكن إلا التعنت، والشغب على نبيّ الله موسى الكليم عليه السلام^(١).

قصة البقرة

وقصة هذه البقرة على ما رُوي أن رجلاً من بني إسرائيل، كان صالحاً، ووُلد له ابن، وكانت له عجلة - بقرة فتية - فأرسلها لترعى في الحقل، وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة لهذا الصبي، ومات الرجل، فلما كبر الصبيّ قالت له أمه: إن أباك كان قد استودعَ الله لك عجلة، فاذهب فخذها، فذهب فلما رآته البقرة حنّت إليه حتى أخذ بقرنيها - وكانت مستوحشة - فجعل يقودها نحو أمه، فلقيه بنو إسرائيل، ووجدوا بقرته على الصفة التي أمروا بها، فاشتروها بثمن غالٍ^(٢).

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٦﴾ فَقُلْنَا أَصْرَبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

هذه أول القصة، وهي من المؤخر لفظاً، المقدم معنى، لأن الغرض إنما هو ذبح البقرة، للكشف عن القاتل^(٣)، فقلوه تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ

(١) اختار الطبري أنهم ما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة، ورجح ابن كثير رواية الضحاك عن ابن عباس، أنهم أرادوا ألا يذبحوها، لأنهم ما كانوا يريدون إلا التعنت، ومع هذا البيان وهذه الأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وانظر ابن كثير ١١٥/١.

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ٣٤٨/١.

(٣) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٧٣/١، وهذه الواقعة «قتل النفس» جرت قبل =

نَفْسًا ﴿بداية ذكر القصة أي واذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم شخصاً، والخطاب لليهود المعاصرين لزمن النبي ﷺ، يذكّرهم بفعل أسلافهم، وأضيف القتل إليهم لرضاهم بفعل أولئك، وهذا على طريقة العرب في إسناد الأشياء إلى القبيلة، إذا وُجد من بعضهم سكوت أو رضى بما حدث ﴿فَأَذَرَتْهُمُ فِيهَا﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم في شأنها، إذ كل واحد من الخصماء صار يدفع التهمة عن نفسه، وينسبها لغيره، والدَّرء: معناه الدفع، ومنه قوله تعالى ﴿وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾^(١) أي يدفع عنها الحدَّ ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهرٌ لا محالة ما تكتُمونه من أمر القتل، لا يتركه مستوراً مكتوماً، لا يُعرف من هو القاتل؟

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي فقلنا لكم على لسان نبينا: اضربوا القاتل ببعض البقرة، أي بعض كان، يحيا القاتل ويخبركم عن قاتله ﴿كَذَلِكَ يُخْرِجُ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ في الآية شيء محذوف، تقديره: فضربوه فحيي، فحذف ذلك لدلالة السياق ﴿كَذَلِكَ يَحْيِي﴾ أي كما أحيا الله هذا القاتل أمام أبصاركم، كذلك يحيي الموتى من قبورهم، روي أنهم لما ضربوه ببعضها، قام بإذن الله، وأوداجه تشخب دماً، وقال: قتلني فلان لابن عمه، ثم سقط ميتاً فأخذ وقُتل، ولم يُورث قاتل بعد ذلك. ثم إن موسى عليه السلام أمرهم بضربه ببعضها، وما ضربه بنفسه نفيّاً للتهمة، كيلا يُنسب إلى السحر أو الحيلة ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ويريكُم دلائله على كمال قدرته، لكي تعقلوا وتتبصّروا، وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس بعد موتها، قادرٌ على إحياء الأنفس كلها. وفي هذه القصة تعليم من الله

= أمرهم بذبح البقرة - كما بيّنا - وإن وردت في الذكر بعده، والسُرُّ في ذلك التشويق إلى معرفة السبب في ذبح البقرة، والتكرير في التوبيخ والتقريع، لأن كل واحد من قتل النفس، والاستهزاء بموسى عليه السلام، والاعتراض على أمر الله، جناية عظيمة تستحق كمال التوبيخ.

(١) سورة النور، آية: ٨.

لعباده، بترك التشديد في الأمور، والمصارعة إلى امتثال أوامر الله، والتحذير من كثرة السؤال، والاعتبار بما يرى الإنسان من دلائل كمال القدرة.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٦١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ خطابٌ لأهل عصر النبي ﷺ من أحبار اليهود، والقسوة: عبارة عن الغلظ مع الصلابة كما في الحجر الصلد، و«ثم» لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يزيلها، كقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(١) والمعنى: ثم صلبت قلوبكم يا معشر اليهود وغلظت، فلا يؤثر فيها وعظٌ ولا تذكير ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد رؤية تلك المعجزات الباهرات، ومنها معجزة إحياء القتيل ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي فهي في قساوتها مثل الحجارة، بل أشد منها قسوة، كقسوة الحديد ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ أي إن من الأحجار ما تتدفق منها الأنهار بالماء الزلال، الذي به حياة الناس والنبات، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ أي ومن الحجارة لما يتصدع إشفاقاً من عظمة الله، فينبع منه الماء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي ومن الحجارة ما يتصدع ويتردى من أعالي الجبال، خوفاً من الله عز وجل، فالحجارة تلبين وقلوبكم لا تخشع ولا تلبين ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي هو تعالى رقيب على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية، وهو وعيد شديد على ما هم عليه من قساوة القلب، وجفاء الطبع.

ترقئ سبحانه في بيان التفضيل على الحجارة، التي تتأثر تأثراً بليغاً، بما يترتب عليه منفعة عظيمة من تفجّر الأنهار. ثم على الحجارة المتأثرة

(١) سورة الأنعام، آية: ١.

تأثراً ضعيفاً، يترتب عليه منفعة قليلة من خروج الماء، يعني بها العيون دون الأنهار، ثم على الحجارة المتأثرة بنفسها من غير منفعة الناس، وهي التي تنفتت وتهبط خشية من عظمة الله، كما قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(١) فالحجارة تتأثر وقلوب هؤلاء لا تتأثر أصلاً، فهي أشد قسوة من الحجارة!!

فإن قلت: إن الحجارة جماد فكيف تخشى وتتأثر؟

فالجواب: أن مذهب أهل السنة أن الله تعالى أودع في الحيوانات والجمادات حساً لا يعرفه الناس، فلها تسبيح وخشية لا ندركه نحن، كما قال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٢). والخشية: خوف يشوبه تعظيم وإكرام، وفي الحديث الذي رواه مسلم عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسَلِّم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»^(٣).

ثم بعد أن ذكر تعالى عناد اليهود، ومجادلتهم للأنبياء الكرام، وعدم الانقياد والإذعان لأوامر الرحمن، نبّه تعالى المؤمنين إلى بعض جرائمهم وقبائحهم، لئلا يطمعوا في إيمانهم وهدايتهم فقال سبحانه:

﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا قُلُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ يَمَافَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسِرُونَ وَمَا يُوَلُّونَ ﴿٧٧﴾﴾

(١) سورة الحشر، آية: ٢٢.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل رقم ٢٢٧٧ والترمذي في المناقب رقم ٣٦٢٤.

الخطابُ لرسول الله ﷺ والمؤمنين، والاستفهام للاستبعاد وإنكار الواقع، كما في قولك: أنضرب أباك؟ لا لإنكار الوقوع، فقوله تعالى: ﴿أَفَنظْمُعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ؟﴾ أي أستمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم، فترجون وتطمعون أن يؤمن اليهود لأجل دعوتكم، وضمير الغيبة ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ لليهود المعاصرين له ﷺ لأنهم هم المطموع في إيمانهم ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِّنْهُمْ﴾ أي والحال أنه كان طائفة من أخبارهم وعلمائهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي يسمعون به بيتاً جليلاً ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي ثم يغيثرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل الباطل، من بعد ما فهموه وضبطوه، كتحريفهم نعت النبي ﷺ وآية الرجم، والتحريفُ يصدق على تحريف الألفاظ، والمعاني، بالحذف، والزيادة، والنقصان، وهي واقعة في كتب اليهود والنصارى كما قال سبحانه: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾^(١) ومما يؤيد وقوع التغير، وأنها لم تبق كيوم نزلت، وقوع التناقض في الأناجيل، وتعارضها وتكاذبها، ومصادمة بعضها ببعض، فإنها في زماننا أربعة أناجيل، وقد تضمن كل إنجيل من الحكايات والقصص ما أغفله الآخر، واشتمل على أمور وأشياء قد اشتمل الآخر على نقيضها أو ما يخالفها، وفيها ما يدركه الإنسان بدهاة أنه ليس من كلام الله تعالى مطلقاً، فهل أنزل الله على عيسى إنجيلاً واحداً أم أربعة أناجيل؟ وكذلك التوراة التحريف فيها أشد وأفظع، وصيغة المضارع ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ للدلالة على التجدد والاستمرار، فالتحريف عندهم مستمر، على حسب الأزمان والأهواء، لأن الله تعالى ما تكفل بحفظ كتاب، إلا هذا القرآن العظيم!! ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي فهموه بعقولهم، ولم يبق لهم فيه ريبة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مفترون مبطلون، والمراد أن أخبار هؤلاء وعلماءهم، كانوا على هذه الحالة، فما طمعكم بجهالهم؟ وقيل: المراد بكلام الله:

(١) سورة المائدة، آية: ٤١.

الوحي المنزّل على رسول الله ﷺ، وقد كان جماعة من اليهود يسمعون فيحرفونه قصداً، ليدخلوا في الدين ما ليس منه، ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره، والقول الأول أصح.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أي وإذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ قال المنافقون من اليهود: آمنا بأنكم على الحق، وأن رسولكم هو المبشر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي وإذا اختلى بعضهم ببعض، وانفردوا عن المؤمنين ﴿قَالُوا اتَّخَذُوا آلَهُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ أي قال بعض أحبارهم توبيخاً لهم عاتبين على من نافق: اتخبرون أصحاب محمد بما بيّن الله لكم في التوراة، من نعت رسول الله وصفته ﴿لِيَحْجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم، في ترك اتباع الرسول، مع العلم بصدقه؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفليست لكم عقول تدركون بها هذا الخطأ الفاحش؟ وهذا من تمام الحكاية عنهم. وإنما عبّروا عن الحديث بالفتح ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ للإيذان بأنه سرٌّ مكنون، لا يقف عليه أحد، وهم وحدهم يعرفون ذلك من أخبار التوراة.

قال تعالى ردّاً عليهم، وتوبيخاً لهم على إجرامهم ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي ألا يعلم هؤلاء اليهود، المحرفون لكلام الله، والكاتمون لأوصاف رسول الله، أن الله جلّ وعلا، عالمٌ بما يخفونه وما يعلنونه، ومطلّعٌ على أحوالهم، لا تخفى عليه من أحوالهم خافية؟ فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان!

وقدّم السرّ على العلانية، لأن مرتبة السرّ مقدمة على مرتبة العلن، إذ ما من شيء يُعلن، إلّا وهو قبل ذلك مضمّر في القلب.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

لما ذكر تعالى علماء السوء، من اليهود الذين حرفوا وبدّلوا كلام

الله، ذكر العوام الذين قلّدوهم بدون عقل، وثبّه أنهم في الكفر والضلال سواء، العامة والعلماء فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أي من اليهود جماعة عوام جهلاء، جمع أمي وهو الذي لا يعرف القراءة والكتابة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ﴾ أي لا يعرفون التوراة ليطالعوها، ويتحققوا بأنفسهم بما فيها، ولذلك يقلّدون الأخبار، ويصدّقونهم بما يقولون، بدون عقل ولا فهم ﴿إِلَّا أَمَانِيٌّ﴾ جمع أمانة وهي في الأصل ما يقدره الإنسان في نفسه والمروى عن ابن عباس أن الأمانى: المواعيد التي سمعوها من أحبارهم، من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً، والتمني: هو الكلام المتمنى به بقوله ليت لي كذا ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ أي وما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا قومٌ قُصارى أمرهم الظنُّ والتقليد، فأنى يرجى لهم الإيمان على قواعد اليقين؟! .

﴿قَوِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ .

﴿قَوِيلٌ﴾ شدة عذاب، وهي كلمة تحشّر وهلكة، وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «الويلُ وادٍ في جهنم»^(١) ومعناه أن في جهنم موضعاً يتبوأ فيها من جعل له الويل^(٢) وهو في الأصل مصدرٌ لا فعل له، وإنما ساغ

(١) أخرجه الترمذي ولفظه: «ويل وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره» .

(٢) لا يراد أنه في اللغة موضوع لاسم وادٍ في جهنم، وإنما يُراد أن من قال الله تعالى فيه «ويلٌ» فقد استحق مقراً من النار، وثبت له ذلك، مثل قوله: ﴿ويل للمطففين﴾ و﴿ويل لكل هُمزة لُمزة﴾ و﴿ويل للمصلين﴾ الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ .

الابتداء به نكرة، لأنه دعاء، كأمثاله من وَفَّح، وَوَيْس^(١)، فإذا أضيف نصب نحو وَيْلَكَ، وَوَيْحَكَ، وإذا فصل رُفِع «وَيْلٌ لَهُ» وهذا دعاء عليهم بالهلاك ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ﴾ يعني المحرّف، ولعله أراد به ما كتبه من التأويلات الزائفة ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد كقولك كتبه يميني ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ إعظاماً لشأنه، وتمكيناً في قلوب أتباعهم، و«ثم» للتراخي المرتبي، فإن نسبة المحرّف إلى الله عزّ وجلّ أشدّ شناعة من نفس التحريف، روي أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مكانتهم حين قدم النبي ﷺ المدينة، فاحتالوا في تعويق أسافل اليهود عن الإيمان به ﷺ فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ فغيروها ﴿لِيَشْتَرُوا بِوَيْهِ﴾ أي يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ﴿ثُمَّنَا﴾ كي يحصلوا به عرضاً من أعراض الدنيا ﴿قَلِيلًا﴾ فإنه وإن جلّ قليل، بالنسبة إلى ما استوجبه من العقاب الدائم ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ تكرير لما سبق للتأكيد وتصريح لتعليقه ﴿مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المختلق ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من السُّخْت وهذا يدل على أنهم ما فعلوا ذلك التحريف للديانة، بل إنما فعلوه طلباً للمال، ويدل أيضاً على أن أخذ المال على الباطل وإن كان بالتراضي فهو محرم، واليهود جنوا ثلاث جنایات:

- ١ - تغيير صفة النبي ﷺ.
- ٢ - الافتراء على الله تعالى.
- ٣ - وأخذ الرشوة، فهتدوا بكل هذه الجنایات بالويل والشبور.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ أي قال اليهود لن ندخل النار إلا أياماً

(١) وَيْسٌ: كلمة تستعمل في موضع رافة واستملاح، يقال: وَيْسَهُ ما أملحه، وَوَيْسًا له. اهـ المعجم الوسيط.

قلائل، هي مدة عبادتنا للعجل، ولا نخلد في نار جهنم، ومرادهم بقولهم: ﴿إِلَّا أَنْكَامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي محصورة قليلة، روي أنهم قالوا إنما نُعَذَّبُ بعدد أيام عبادة العجل، أربعين يوماً^(١)، وكفى بالمعدودة عن القليلة، لأن العرب - لعدم علمهم بالحساب - تصوّروا القليلة ميسرة العدد، والكثيرة متعسرة، فقالوا: شيء معدود أي قليل ﴿قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ وعداً بما تزعمون، فإن ما تدّعون لا يكون إلا بناءً على وعدٍ قويٍّ، ولذلك عبر عنه بالعهد ﴿فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ جواب شرط مقدر، أي إن اتخذتم عند الله عهداً، فلن يخلف الله عهده، وفيه دليل على أن الخُلف في خبره محالٌّ، وإظهار الاسم الجليل، للإشعار بعلّة الحكم، فإن عدم الإخلاف من قضية الألوهية ﴿أَمْ نَقُولُونَ﴾ مفترين ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقوعه، وإنما علق التوبيخ بإسنادهم إليه سبحانه ما لا يعلمون للمبالغة في التوبيخ، وقولهم المحكي وإن لم يكن تصريحاً بالافتراء عليه سبحانه، لكنه مستلزم له ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ «أم منقطعة بمعنى «بل» أي بل أتقولون على التقرير والتقرير ثم قال تعالى:

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ .

(١) روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ لما فتح خيبر، أهديت له شاة فيها سمٌ، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لي من كان ههنا من اليهود، فجمعوا له، فقال: إني سألتكم عن شيء، فهل أنتم صادقون عنه؟ فقالوا: نعم، قال لهم: من أبوكم؟ قالوا: فلان، فقال: كذبتُم بل أبوكم فلان، قالوا: صدقت، قال: فهل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في آيينا!! فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً... الحديث وانظر تمامه في فتح الباري على البخاري ٢٧٢/٦.

﴿بَلَى﴾ إثبات لما نفوه من مساس النار لهم زماناً مديداً، ودهراً طويلاً، على وجه أعم، ليكون كالبرهان على بطلان قولهم، ويختص «بلى» بجواب النفي لأنها تقع تصديقاً للنفي، ولا يقع للمثبت أصلاً، ولهذا قيل بلى في جواب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ لأنه في قوة بلى أنت ربنا، ولو قالوا، نعم لكفروا، لأنه في قوة نعم لست ربنا، فإن «نعم» يقع تصديقاً للإيجاب والنفي، في الخبر والاستفهام، ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ قبيحة، والكسب استجلاب النفع، وتعليقه بالسيئة للتهكم على طريق فبشرهم بعذاب ﴿وَأَخْطَأْتُ بِهِ خَطِئْتُهُ﴾ أي استولت عليه، وشملت جميع أحواله، وهذا إنما يصح في شأن الكافر، ولذا فسرهما السلف بالكفر، وتحقيق ذلك، أن من أذنب ذنباً ولم يُقلع عنه، استجره إلى معاودة مثله، وانهماكه فيه، حتى تستولي عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه، فيصير بطبعه مائلاً إليها مستحسناً لها، كما قال سبحانه: ﴿كَأَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي غشاها وغطاها الإجمام والضلال ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي فهم في نار جهنم دائمون فيها أبداً، فأنى لهم الخروج منها بعد أربعين كما زعموا؟^(١)

(١) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أَهْدَيْتُ لِلرَّسُولِ ﷺ شاةً فِيهَا سُمَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اجْمَعُوا لِي مِنْ كَانَ هَهُنَا مِنَ الْيَهُودِ! فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ لَهُمْ: مِنْ أَبُوكُمْ؟ قَالُوا: فَلَانٌ، قَالَ: كَذَبْتُمْ بَلْ أَبُوكُمْ فَلَانٌ! قَالُوا صَدَقْتَ وَبَرَرْتَ، فَقَالَ: هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَاكَ عَرَفْتَ كَذَبْنَا كَمَا عَرَفْتُمْ فِي آبِنَا! فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اخْسَرُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا! ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سَمًا؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى هَذَا؟ قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا لَمْ يَضُرَّكَ! أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْجِهَادِ ١٩٥/٦.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾
 وضع تعالى الإيمان في مقابلة السيئة، والعمل الصالح في مقابلة الخطيئة،
 للمقارنة بين جزاء الأبرار، وجزاء الفجار، أي وأما المؤمنون الصادقون،
 الذين قَدَّموا الأعمال الصالحة، فهؤلاء لا تمسهم النار، بل هم مخلَّدون
 في رياض الجنة، يُسْرُونَ فيها ويحبسون.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَا لَوَالِدِينَ
 إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ قَوَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ
 مُّعْرِضُونَ﴾.

شروع في تعداد بعض آخر، من جرائم وقبائح اليهود، حيث نقضوا
 الميثاق، وأزهقوا الأرواح، وطغوا في الأرض بالإفساد، واعتدوا على
 حرمت إخوانهم المؤمنين بالبغي والعدوان ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾
 أي اذكروا يا معشر اليهود، حين أخذنا على أسلافكم العهد الموثق المؤكَّد
 غاية التأكيد، وقلنا لهم ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ على إرادة القول أي قلنا
 لهم: لا تعبدون إلا الله ﴿وَيَا لَوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾ إخبار في معنى النهي، كقوله
 تعالى: ﴿لَا يَضَارَّ كَاتِبٌ﴾ وهو أبلغ من صريح النهي، لما فيه من إيهام أن
 المنهي سارع إلى الانتهاء، فهو يخبر عنه، وهو متعلق بمضمر تقديره
 وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً، والإحسان: الإتيان بالعمل على الوجه
 اللائق، وفسره عليه السلام: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه
 يراك»^(١) والوالدان تثنية والد، يطلق على الأب، والأم. ودلت الآية على

(١) هذا طرف من حديث جبريل المشهور، وفيه: فسأله جبريل: قال: «فأخبرني عن
 الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...» الحديث
 أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، وانظره بتمامه رقم ٨.

الحث على برّ الوالدين، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة، وناهيك احتفالاً بهما أن الله تعالى قرن ذلك بعبادته، لأن أعظم أنواع النعم نعمة الوجود، وهي نعمة الحفظ في وقت الصغر ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ عطف على الوالدين، والقربى مصدر كالرُّجْعَى، وهو قرابة الرحم والصلب، أي أحسنوا إلى ذي القربى، وقال الله تعالى: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ يريد المحاوِيج منهم، قدّمهم لأنهم أحق بالمعروف، عن سلمان بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة، وَصِلَةٌ»^(١) وفيه دليل على وجوب النفقة على المحارم ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ جمع يتيم، ومعناه في الأصل الانفراد، ومنه الدُّرَّةُ اليتيمة، وهو الذي مات أبوه وهو صغير حتى يبلغ الحلم، وفي الحديث الشريف: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، وأشار بالسبابة والوسطى^(٢). ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ والمسكين من السكون، كأنَّ الفقر أسكنه من الحراك، وأثخنه من التقلب وهو أشد فقرًا من الفقير، فالفقير الذي له بلغة من العيش، والمسكين الذي لا شيء له أصلاً عند أكثر أهل اللغة، وهو قول أبي حنيفة، واحتج بقوله تعالى: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ وعند الشافعي الفقير أسوأ حالاً، واحتج بقوله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قولاً حَسَنًا، وسَمَاءُ حُسْنًا للمبالغة، والمراد به ما فيه تخلق وإرشاد، والظاهر أن هذا الأمر من جملة الميثاق، والقول الحسن مع المؤمنين والكفار لأن موسى أمر بالرفق مع فرعون، وكذا الرسول ﷺ أمر بالرفق والموعظة الحسنة، فإذا أمكن التوصل إلى الغرض باللطف، لم يحسن سواه مع الجميع

(١) أخرجه النسائي في الزكاة ٩٢/٥ والترمذي رقم ٦٥٨ وقال: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري ٤٣/١٣ في الأدب، وأبو داود رقم ٥١٥٠ وزاد البخاري: وفرج بينهما شيئاً.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يريد بهما ما فُرض عليهم في ملتهم، لأنه حكاية لما وقع في زمان موسى، ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمَا عَلَى طَرِيقَةِ الْاِلْتِفَاتِ، ولعلَّ الخطاب مع الموجودين في عهد رسول الله ﷺ على التغليب، أي أعرضتم عن الميثاق ورفضتم وثمَّ للاستبعاد، فيكون توبيخاً لهم بالارتداد بعد الانقياد، وهو أشنع في العصيان من الأول ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ يريد من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ﴿وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي أنتم قوم عادتكم الإعراض عن الوفاء، والطاعة، وأصل الإعراض الذهاب والانصراف عن الشيء، احتقاراً له.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ نعى عليهم إخلالهم بموجب الميثاق، المأخوذ منهم في حقوق العباد، إثر بيان ما فعلوا بالميثاق، المأخوذ منهم في حقوق الله تعالى أي اذكروا وقت أخذنا ميثاقكم في التوراة، وقلنا ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي تريقونها بقتل بعضكم بعضاً، وإنما جعل قتل الرجل نفسه، لأنه يوجب القصاص، وقيل معناه: لا ترتكبوا ما يبيح سفك دمائكم، أو لا تفعلوا ما يُريدكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي لا يخرج بعضكم بعضاً من داره، ولا يتعرض بالإجلاء عن الوطن، والتعبير عن ذلك للمبالغة في الحمل على مراعاة حقوق الميثاق ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي قبلتم ذلك الميثاق، واعترفتُم بلزومه، خلفاً بعد سلف، والإقرار: ضد الجحود ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ توكيد كقولك: أقرَّ فلانُ شاهداً على نفسه، وهو أبلغ في بيان قبيح صنيعهم، أي ثم اعترفتُم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه، وأنتم تشهدون على أنفسكم بلزومه.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ .

نزلت هذه الآيات في يهود بني قريظة، ويهود بني النضير، فقد كانوا فريقين، حالفت بنو قريظة الأوس، وحالفت بنو النضير الخزرج - والأوس والخزرج سكان المدينة من العرب - فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي من الفريق الآخر، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من المتاع والأثاث والمال، وذلك حرام عليهم بنص التوراة، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، افتكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، فذلك قوله تعالى موبخاً لهم: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي ثم أنتم يا معشر اليهود، بعد إقراركم بالميثاق، تقتلون إخوانكم في الدين، وتطردونهم من ديارهم، من غير التزام بالميثاق ومن غير مراعاة لأوامر الله في التوراة ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي تتعاونون على قتلهم وطردهم من أوطانهم بالبغي والظلم، والإثم: الذنب الذي يستحق فاعله الذم واللوم، وفي الحديث الشريف «الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(١) والعدوان: الظلم، ومجازاة الحد

(١) الحديث أخرجه مسلم في البر رقم ٢٥٥٣ والترمذي في الزهد رقم ٢٣٩٠ ولفظه عن =

في المعاصي ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْكِرْتُمْ يُفْضِدُوهُمْ﴾ أي وإن وقعوا في الأسر في أيدي حلفائكم، استنفذتموهم بدفع المال لتخليصهم من الأسر ﴿وَهُوَ حَرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي وإخراجهم من أوطانهم حرام عليكم، فكيف تستبيحون القتل والإخراج، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي الأعداء؟ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾؟ بفداء الأسارى ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ بالقتال، والإجلاء، والمظاهرة، مع أن من قضية الإيمان ببعضه، الإيمان بالباقي، لكون الكل من عند الله تعالى، فمناط التوبيخ كفرهم بالبعض ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب، أو إلى ما فعلوه من القتل والإجلاء ﴿مِنْكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ فضيحة وهوان يقال: خِزْيٌ خِزْيًا: ذُلٌّ وهان ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي خِزْيٌ كائن في الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ هو الخلود في جهنم، كما أن معصيتهم أشدَّ المعاصي، ولعل بيان جزائهم بطريق القصر، لقطع أطماعهم من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب، وإظهار بأنه لا أثر له أصلاً ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد للوعيد أي والله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد، لا يغفل عن أفعالهم من القبائح، التي من جملتها هذا المنكر.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ آثروا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ واستبدلوها ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ وأعرضوا عنها مع تمكنهم من تحصيلها، وإن ما ذكر من الكفر ببعض الكتاب، إنما كان لمراعاة جانب حلفائهم، لما يعود منهم من بعض المنافع الدنيوية ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ دنيوياً كان أو أخروياً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفعهما عنهم، والأكثر من حملوه على نفي النصرة في الآخرة، لأنه تعالى قال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي المعهود وهذا في الآخرة، ولأنهم قد يصيرون غالبين للمؤمنين في بعض الأوقات.

= النّوَّاس بن سَمْعَانَ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ؟ فَقَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ.» الحديث.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْبُحْيَةَ وَالْعِزَّةَ وَالْقُدُسَ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَفَرِيقًا نَقْلُوكَ﴾ (٤٧)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ شروع لبعض آخر من جنایاتهم، وهذا من النعم التي أفاض الله تعالى عليهم فقابلوها بالكفر، واللام في «لقد» جواب قسم محذوف، أي والله لقد أعطينا موسى الكتاب، ولا تكاد اللام ترتبط إلا مع «قد» لأنها مظنة التوقع، والمخاطب إذا سمعها توقع وقوع ما صُدِّر بها من الخبر، ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ المراد من الإتيان إنزال التوراة عليه، ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي أتبعناه وأردفناه، يقال: قَفَّاه إذا اتبعه، وقَفَّاه به: إذا أتبعه إياه ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد موسى ﴿بِالرُّسُلِ﴾ أي أرسلنا على أثره الرسل، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾^(١) وهم داود وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ عيسى بالعبرية معناه المبارك، ومريم في لغتهم العابدة، وقال القرطبي: معناه خادم الرب ﴿أَلْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه، أو الحجج الواضحات، الدالة على نبوته، وأفرده عن الرسل لأنه من أولي العزم، وصاحب كتاب، وإضافته إلى أمه، رداً على اليهود زعموا أن له أباً ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي بالروح المقدسة الطاهرة، أراد به «جبريل» عليه السلام، ووصفها به لطهارته عن مسّ الشيطان، أو لكرامته على الله تعالى، وإطلاق «روح القدس» على جبريل شائع^(٢)، والقدُّس:

(١) سورة المؤمنون، آية ٤٤.
(٢) قال الحافظ ابن كثير: والدليل على أن «روح القدس» هو جبريل عليه السلام قول الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ وقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَيِّدْ حَسَانَ بَرُوحِ الْقُدُسِ كَمَا نَافِعَ عَنْ نَبِيِّكَ» وحديث «إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها...» الحديث.

الطهارة والبركة، والتقدّيسُ التطهير، قال مجاهد والربيع: القدّس من أسماء الله تعالى، كالقدّوس، وخصَّ عيسى بذكر التأيد، لأنه تعالى خصه به من وقت صباه، إلى حال كبره، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَيْدُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾^(١) ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أُولَئِكَ الرَّسِلُ يَمَأْ لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ﴾ بما لا تحبّه من الحق الذي لا يحيد عنه، والهوى مقصور من هويته إذا أحببته، ثم أطلق على ميل النفس إلى شيء مذموم، فيقال: اتَّبَعَ هَوَاهُ، وهو من أهل الهوى، وقال الشعبي: «ما ذكر الله تعالى الهوى في القرآن إلّا وذمّه» ولم يوضع إلّا موضع الشر، فلا يقال: فلانٌ يهوى الخير، بل يقال يحب الخير، وعبر عن المحبة بالهوى، للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم، هو المخالفة لأهوائهم، فإذا أتاها الرسول بخلاف ما يَهْوُونَ كَذَّبُوهُ، أو قتلوه، والرسولُ فعول بمعنى مفعول جمعه رسل بضمّتين، وهو من بعث بشريعة جديدة يدعو الناس إليها والنبِيُّ: من بعث لتقرير شريعة سالفة ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبرتم عن اتباعه، والمراد التوبيخ، ومتعلق «استكبرتم» محذوف أي عن الإيمان بما جاء به من عند الله ﴿فَفَرِّقُوا كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى ونحوه ﴿وَفَرِّقَانِ قَتَلُوا﴾ كزكريا ويحيى ونحوهما، وإيثار صيغة المستقبل في القتل لاستحضار صورته الهائلة، أو للإيماء إلى أنهم بعدُ على تلك النية الخبيثة، حيث همّوا بما لم ينالوه من جهته ﷺ وسحروه وأرادوا سمّه. وبدأ بالكذب لأنه أول ما يفعلونه من الشر، ونسب القتل إليهم لرضائهم به وقيل: إنه ﷺ قُتل حقيقةً بالسم الذي وضعوه في الشاة، على ما جاء في الصحيح بلفظ «وهذا أوانٌ وجدتُ انقطاع أبهري من ذلك السم»^(٢).

(١) سورة المائدة، آية ١١٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢١٩/٤ وحديث السم أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ١٩٥/٦ ولفظه: لَمَّا قُتِحَتْ خَيْرُ أَهْدِيَتٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ شاة فيها سمٌّ.. الحديث، وفي رواية للبخاري في كتاب الهبة: «فما زلتُ أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ» أي أثر هذه الأكلة في أقصى فم النبي ﷺ جمع لهاة وهي أقصى الفم.

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا ﴾ للنبي ﷺ استهزاء، بيان لفن آخر من قبائحهم، على طريق الالتفات إلى الغيبة، إشعاراً بإبعادهم عن رتبة الخطاب، والقائلون هم الموجودون في عصره ﷺ ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ جمع أغلف أي هي مغشاة بأغطية، لا يصل إليها ما جاء به ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ (١) قال تعالى تكذيباً لهم: ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ ردّ لما قالوا، والمعنى: أنها خلقت على الفطرة، والتمكن من قبول الحق، ولكن الله تعالى خذلهم بكفرهم، فأبطل استعدادهم، كما قال الله ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴾ (٢) واللعن: أشد ما يعبر الله به عن غضبه، فالملعون هو المحروم من لطفه وقد يكون بمعنى الإبعاد عن درجة الأبرار، وهو المراد في حديث الاحتكار، والمراد للمحلل، والمحلل الخساسة لا حقيقة اللعن، لأن النبي ﷺ قال «إني لم أبعث لعناً» (٣) واللعن لا يكون إلا لكافر، وعلى غير معين كالظالمين ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ «ما» مزيدة للمبالغة في التقليل، أي فإيماناً قليلاً يؤمنون، وهو إيمانهم ببعض الكتاب، وقيل: أراد بالقلة العدم قاله الزمخشري.

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

(١) سورة فصلت، آية: ٥.

(٢) سورة محمد، آية: ٢٣.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥٩ في البر، ولفظه: «قيل يا رسول الله: ادع على المشركين، قال: إني لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة».

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي اليهود ﴿كِتَابٌ﴾ أي القرآن الكريم، وتنكيره للتفخيم ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي الكائن من عند الله ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي من التوراة، أي مصدق فيما يختص بالنبوة وصفاته عليه السلام المذكورة في التوراة وصارت تلك الأوصاف كالمؤكدَة ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل مجيئه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أي يستنصرون ويسألون الله الفتح والنصرة ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي على المشركين ويقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان، المنعوت في التوراة، وقيل: يستفتحون بمعنى يستخبرون عنه ﷺ هل ولد مولود صفته كذا وكذا؟ نقله الراغب وغيره^(١) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ تكرير للأول ﴿مَا عَرَفُوا﴾ من الحق ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ حسداً وخوفاً على زوال الرياسة، لأنهم يظنون أن المبعوث يكون من بني إسرائيل، فلما بعثه الله تعالى من العرب، عظم ذلك عليهم، وحسده و كفروا به ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ اللام للعهد، أي عليهم، ووضع المظهر للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم، فاليهود لما بالغوا في الكفر والعناد، وكتمان أمر الرسول ﷺ صار الكفر كأنه صفة غير مفارقة لذكورهم.

﴿يَسْكَمَا أَشْتَرُوا بِهٖ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

(١) عن ابن عباس قال: كان اليهود يستفتحون - أي يطلبون النصر - على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ، قبل مبعثه، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا في التوراة، حتى نعذب المشركين ونقتلهم، فلما بعث الله محمداً ورأوا أنه من العرب، وليس منهم، كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ انظر تفسير ابن كثير ١/١٢٩.

﴿يَشْكَمَ﴾ ما نكرة بمعنى شيء أي بشئ شيئاً ﴿أَشْرَوْا بِهِ﴾ باعوا به ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ بمنزلة المثلث ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ بمنزلة الثمن، وهو المخصوص بالذم، لأن أنفسهم الخبيثة لا تشتري أي أنهم اختاروا الكفر على الإيمان، وبذلوا أنفسهم فيه ﴿بَغْيًا﴾ حسداً، وهو علة لأن يكفروا والمعنى: بشئ شيئاً باعوا به أنفسهم كفرهم بسبب البغي الكائن ﴿أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الذي هو الوحي ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ ويصطفيه ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ المستأهلين لتحمل أعباء الرسالة، والبغي في الأصل: الظلم والفساد، وقد يراد به الخروج على السلطان، بغى أي سعى بالفساد والمراد هنا: الحسد، يدلُّ عليه أن كفرهم كان لمجرد العناد، وهو نتيجة الحسد لا للجهل ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ مترادف ومتكاثر، للكفر والحسد على من هو أفضل الخلق ﷺ ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِيتٌ﴾ يراد به إذلالهم، بخلاف عذاب العصاة فإنه طهرة لذنوبهم، وسبب إذلالهم لما أن كفرهم كان مبنياً على الحسد والاستهانة بمن أنزل عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ من جانب المؤمنين لليهود ﴿ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني الكتب المنزلة بأسرها ﴿قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ أي بالتوراة يعنون بها ما نزل على بني إسرائيل، ويدشون فيه أن ما عدا ذلك غير منزل عليهم، وفيه إيماء أن عدم إيمانهم بالقرآن، لبغيهم وحسدهم على نزوله على من ليس منهم ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ والتعبير بالمضارع لحكاية الحال، استغراباً للكفر بالشيء بعد العلم بحقيقته، وقوله تعالى ﴿بِمَا وَرَاءَهُ﴾ المراد به بما سواه من الكتب الإلهية، والمقصود به هنا القرآن الكريم خاتمة

الكتب السماوية ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي مع أن القرآن هو الحق، الموافق لما معهم في التوراة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي مُصَدِّقًا لما معهم من كلام الله، لأن كتب الله المنزلة، يُصَدِّق بعضها بعضاً في الأصول، كالتوحيد، والإيمان بالآخرة، والبعث والجزاء ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي قل لهم توبيخاً وتقريعاً: إن كنتم حقاً مؤمنين بما في التوراة، فلم كنتم تقتلون رسل الله، مع أن قتلهم من أعظم الجرائم عند الله؟ وهل يقدم مؤمن على قتل نبيٍّ من أنبياء الله؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي ولقد جاءكم نبيكم موسى بالحجج الباهرات، والمعجزات الساطعات، الدالة على صدقه ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي ثم عبدتم العجل من بعد ذهابه إلى الطور، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع، والآية إبطال لقولهم ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ وللتنبية على أن طريقتهم مع الرسول ﷺ هي طريقة أسلافهم مع موسى عليه السلام، عادتهم في ذلك الكذب والعدوان، والظلم والطغيان «وَمَنْ يُشَابِهْ أَبُوهُ فَمَا ظَلَمَ»!

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْمَا يَا مُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا على أسلافكم، العهد المؤكَّد الموثَّق بالإيمان، على العمل بما في التوراة، ورفعنا فوقهم جبل الطور قائلين ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ أي خذوا هذه الأحكام بعزم وحزم، واسمعوا سماع قبول وطاعة، وإلاً طرحنا عليكم الجبل فسحقناكم به ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي قالوا سمعنا قولك وعصينا أمرك، فإذا قابل أسلافهم مثل ذلك الخطاب

المؤكد، مع مشاهدتهم مثل تلك المعجزات، بمثل هذه العظيمة، فكيف يتصور من أخلافهم الإيمان بما فيها؟ ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي خالط حب العجل قلوبهم، وامتزج بدمائهم، لفرط شغفهم به ومحبتهم له كما يدخل الصَّبْغُ في الثوب، والماء في البدن ﴿يَكْفُرْهُمْ﴾ أي بسبب كفرهم، وتعلق قلوبهم بالوثنية ﴿قُلْ يَتُكَمَّرُ بِكُمْ بِمِثْلِ مَا كُنْتُمْ تُكَمَّرُونَ﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم: بشس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل!! والأسلوب ورد بصيغة التهكم، فالإيمان يدعو إلى التقوى، لا إلى الكفر وعبادة البقر، والغرض من الآية القدح في صحة دعواهم الإيمان، ولهذا قال بعده ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم تزعمون الإيمان، فبشس هذا العمل والصنيع، فمن ادعى أنه مؤمن، ينبغي أن يكون فعله مصدقاً لقوله، وإلا لم يكن مؤمناً!!

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١١٢﴾ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١١٣﴾﴾

الآية توبيخ لليهود، على دعواهم الكاذبة، أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة لهم دون سائر الخلق، فأمر الله رسوله أن يدعوهم إلى تمني الموت، إن كانوا صادقين في تلك الدعوى، فأحجموا وظهر كذب دعواهم، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن كانت لكم الجنة خاصة، لا يشارككم في نعيمها أحد كما زعمتم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ أي خاصة بكم دون سائر الخلق، كما قلتم ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ (١)

(١) سورة البقرة، آية: ١١١.

﴿فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي فاطلبوا من الله أن يميتكم، واشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة، فإن من أيقن بدخول الجنة، اشتاق إلى التخلص إليها من دار البوار.

قال تعالى ردّاً على كذبهم وافتراءهم ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا، ولن يطلبوا ذلك بحال من الأحوال ﴿يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي والله عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك. وهذه الآية الكريمة من المعجزات، لأنها إخبار بالغيب، وكان الأمر كما أخبر، فلم يقع من أحد من اليهود، الذين كانوا في عصره عليه السلام، أنه تمنى الموت، ولو تمناه لمات، كما جاء في الحديث الصحيح «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ﴾ أي ولتجدن يا محمد اليهود، أشدّ الناس حرصاً على الحياة، لمعرفةهم بذنوبهم وإجرامهم، فلا تكاد تجد يهودياً يحبّ الموت ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي ولتجدنهم أحرص من المشركين على الحياة، لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار، والمراد بالمشركين هنا مشركو العرب كفار مكة ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ تَوَيْمَنُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي يتمنى الواحد من اليهود أن يعيش ألف سنة، والمراد بالألف هنا الكثرة أي يتمنى أن لا يموت، وأن يعيش في الدنيا خالداً مخلداً ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يَعْمُرَ﴾ أي ومهما عمّر وطالت حياته، فليس ذلك بمبعده ولا منجيه من عذاب الله ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ يَمَا يَعْمَلُونَ﴾ البصير: العالم بكنه الشيء، أي والله عالم بخفيات أعمالهم، وهو مجازيهم بها لا محالة، وفيه وعيد شديد لليهود، مع القطع بخلودهم في النار.

(١) أخرجه ابن جرير عن النبي ﷺ مرفوعاً، ورواه أحمد في المسند وانظر كمال الحديث في تفسير ابن كثير ١/ ١٣١ قال ابن كثير: ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات.

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾.

أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود، من كان عدوًّا لجبريل فإنه عدوٌّ لله، لأن الله أرسله بالوحي على رسله، فمن عاداه فقد عادى الله، والعدوُّ ضدُّ الصديق، يستوي فيه المذكر والمؤنث، والمثنى والجمع، و «جبريل» اسم ملك كان ينزل بالوحي على رسل الله المقربين، فهو الأمين على وحي السماء كما قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾^(١) روي أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ يمتحنونه، فقالوا: يا محمد نسألك عن أربعة أشياء، فإن عرفتها وأجبتنا عنها اتبعناك!! فأخذ عليهم العهد على ذلك، وقال لهم: سلُّوا عما شئتم!! فسألوه عما حرم إسرائيل على نفسه، فقال: لحوم الإبل والأبناها، وسألوه كيف يأتي الولد له شَبَّةٌ بأبيه أو بأمه؟ فقال: إذا علا - أي سبق - ماء الرجل ماء المرأة كان له شَبَّةٌ بأبيه وكان ذكرًا، وإذا علا ماء المرأة كان له شبه بأمه وجاءت به أنثى، وقالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه، ولا ينام قلبه، قالوا: بقيت واحدة إن أجبنا عنها اتبعناك، أخبرنا من يجيئك بالوحي من الملائكة؟ قال: جبريل عليه السلام، قالوا: جبريل؟ ذاك عدُّونا، لأنه ينزل بالحرب، والقتال، والعذاب، ولو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والخصب والمطر لاتبعناك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ... ﴾^(٢) الآية. وهناك روايات أخرى، اتفقت كلها أن الآية نزلت بسبب قول اليهود:

(١) سورة الشعراء، آية: ١٩٣.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي، وقال: الترمذي: حسن غريب، وانظر الروايات

في تفسير ابن كثير ١/ ١٣٤.

«جبريل عدونا، وميكائيل صديقنا» فأنزل الله الآية ردّاً عليهم ذلك الضلال والبهتان، ثم قال تعالى ﴿فَإِنَّمْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي فإن جبريل الأمين، نزل هذا القرآن على قلبك يا محمد، بأمر الله تعالى وإذنه وتيسيره، وخصّ القلب بالذكر، لأنه موضع العقل، وموطن العلم، ومحل الفهم والحفظ، كما أنه عليه السلام كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فلذلك قال ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ لأنه ﷺ كان يعتمد على حفظ القرآن عن ظهر قلب، والقلب هو محل الثبات والحفظ. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدقاً لما سبقه من الكتب الإلهية ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وفيه الهداية والإرشاد، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم، والبشرى أكثر ما تستعمل في الخير، ولا تجيء في الشر إلا مقيّدة، كقوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١) وقوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٢) ومقصود هذه الآية تشريف جبريل عليه السلام، وذم من عاداه.

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي من عادى الله عز وجل، وملائكته الأبرار، ورسله الأطهار، فهو كافر عدو لله ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ أي ومن كان عدواً على وجه الخصوص لجبريل وميكائيل، خصهما بالذكر مع دخولهما في لفظ ﴿وملائكته﴾ تشريفاً لهما، وتفخيماً لشأنهما^(٣)، فإنهما من سادة الملائكة، ومن الرؤساء الكبراء كمحمد وإبراهيم في الأنبياء، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ دفع لليهود بالكفر، فإن معاداة أحد الملائكة، أو أحد الأنبياء، كفر بجميع الملائكة والرسل، لأنهم جميعاً مرسلون من عند الله، فمن كذب واحداً منهم فقد كذب الجميع، وكذلك من عادى بعضهم عادى الجميع.

(١) سورة التوبة، آية: ٣٤.

(٢) سورة النساء، آية: ١٣٨.

(٣) هذا كما يقوله أهل البيان من باب «ذكر الخاص بعد العام» للتعظيم والتشريف.

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا
الْفَاسِقُونَ ﴾ (٩٩).

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ المراد بالبينات: الواضحات الدلالة على معانيها، والمعنى: لقد أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحة، دالات على صدق نبوتك، فإنك أمي وهذا الكتاب الذي جئتكم به معجز، فنبوتك واضحة صادقة، لا تحتاج إلى برهان آخر غير القرآن ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ أي ما يجحد بها وينكرها إلا المتمردون من الكفرة، الخارجون عن الطاعة، الممعنون في الضلال.

﴿ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذُوا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٠٠).

قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر محذوف، تقديره: أكذبوا بالآيات وهي في غاية الوضوح؟ وكلما أعطوا عهداً نقضه جماعة منهم، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ نَبَذُوا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ وهم الذين كانوا يقولون قبل مبعثه عليه السلام: لئن خرج النبي لنؤمنن به، ولنخرجن المشركين من ديارهم وأوطانهم، وأصل النبذ: الطرح والإلقاء، ثم استعمل فيما يُسَى ويُهمل، من أمور الدين الهامة. كقول الشاعر:

إِنَّ الَّذِينَ أَمَرْتُهُمْ أَنْ يَغْدِلُوا نَبَذُوا كِتَابَكَ وَاسْتَحْلُوا الْمَحْرَمَا

والمراد أن اليهود أخلفوا العهود، ولم يلتزموا بها، مع أنها موثقة بالآيمان المغلظة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي بل أكثر اليهود لا يصدق بالتوراة التي أنزلت عليهم، فضلاً عن الإيمان بالقرآن العظيم، فلذلك

ينقضون العهود، ولا يفون بالمواثيق، وهذا في غاية الذم لهم، والتشنيع عليهم، لأنهم لا يعدّون نقض المواثيق ذنباً يؤخذون عليه!!.

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ذمّهم تعالى على نقض العهود، التي أمروا في التوراة بالوفاء بها، ثم ذكر طرفاً آخر من إجرامهم، وهو تكذيبهم لخاتم الرسل ﷺ، المذكور صفته في كتبهم، وقد أمروا باتباعه، ومؤازرته، ونصرته، وكانوا ينتظرون بعثته بفارغ الصبر.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ أي ولما جاءهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وهو الرسول الأمين المرسل من عند الله عز وجل بالكتاب المعجز ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ أي مصدقاً للتوراة، وموافقاً لها في أصول الدين، ومقرراً لنبوة موسى عليه السلام وإنما ذكر في الآية ﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ أي مرسل من عند الله، لإفادة مزيد تعظيمه، إذ قدر الرسول على قدر المرسل وهو الله رب العالمين جلّ جلاله ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ أي طرح علماؤهم وأحبارهم التوراة، والمراد بهم اليهود الذين كانوا في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، طرحوا التوراة لأنها تدل على نبوة محمد ﷺ، فجددوا وأصرّوا على إنكار نبوته ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ هذا مثل يضرب لمن يستخفّ بالشيء فلا يعمل به، أي جعلوه نسياً منسياً، والعرب تقول: جعل هذا الأمر وراء ظهره، ودبر أذنه، إذا لم يلتفت إليه أصلاً ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي كأنهم لا يعلمون من صفات ودلائل نبوته شيئاً، شبّههم بمن لا يعلم، إذ فعلوا فعل

الجاهل الغيبي، فهم يتجاهلون عناداً، فقد كفروا على علم، كما قال سبحانه: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وهذا أقبح الكفر، وأعظم الضلال.

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلِيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

أخبر تعالى عن اليهود أنهم قوم مجرمون، يهجرون كتاب الله، ويلقونه وراء ظهورهم، ويتبعون ما تلقى إليهم الشياطين، من كتب السحر والشعوذة، وهذا حالهم مع رسالات الله وأنبيائه.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ معنى «تتلوا» أي تحدث وتروي، من التلاوة بمعنى القراءة، أي سلكوا طرق السحر والشعوذة، التي كانت تحدثهم بها الشياطين، في عهد ولاية سليمان عليه السلام ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ أي وما كان نبي الله سليمان عليه السلام ساحراً، ولا كفر بتعلمه السحر، ولكن الشياطين هم الذين علّموا الناس طرق السحر، حتى فشا أمره بينهم، فنسبه اليهود إلى السحر. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ تبرئة من الله تعالى لسليمان، والمراد بالكفر هنا: «السحر» فإن اليهود - لعنهم الله - نسبوه إلى السحر، والسحر والعمل به كفر، أو مؤدّ إلى الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي ما سحر ولا كان

ساحراً، إنما هو رسول، فعبر عن السحر بالكفر، لينبه على أنه كفر، وأن من كان نبياً فهو معصوم عنه.

روي أن رسول الله ﷺ لما ذكر «سليمان» في الأنبياء، قال بعض اليهود: ألا تعجبون لأمر محمد؟ يزعم أن «سليمان» كان نبياً!! والله ما كان إلا ساحراً، فأنزل الله ﴿وما كفر سليمان﴾^(١) الآية.

فصل في السحر

واعلم أن السحر من قبيل التمويه والخداع، كما قال سبحانه: ﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾^(٢) وهو في عُرف الشرع: كلُّ أمرٍ خفي سببه، وجرى على غير حقيقته، كما أخبر سبحانه عن سحرة فرعون أنهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾^(٣) يعني مؤهوا عليهم، حتى ظنوا أن الحبال والعصي تسعى، والساحر لا تقبل توبته ولا يستتاب، بسعيه في الأرض بالفساد، وقد عدّه رسول الله ﷺ من الكبائر فقال: «اجتنبوا السبع الموبقات: قالوا: وما هنَّ؟ يا رسول الله؟ قال: الإشرak بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي - أي الهرب - يوم الزحف، وقذف المحصنات، المؤمنات الغافلات»^(٤).

والسحر ليس من الخوارق، لأنه مما يترتب على الأسباب، كالإسهال

(١) زاد المسير تفسير ابن الجوزي ١/ ١٢٠.

(٢) سورة طه، آية: ٦٦.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١١٦.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في الوصايا ٢٩٤/٥ ومسلم في الإيمان رقم ٨٩.

بعد شرب المسهل، وكالشفاء بعد تناول الدواء، ولم تجر سُنَّةُ الله تعالى بتمكين الساحر من فلقِ البحر، وإحياء الموتى، وشفاء الأعمى، وغيرها من معجزات الرسل، صنواً لمنصب النبوة الجليل، وإنما السحر له ضرر وتأثير بإرادة الله عزَّ وجلَّ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ و«حدُّ الساحر ضربةً بالسيف»^(١) كما ورد في الحديث الشريف.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هُنُوتَ وَمُرُوتَ﴾ «هاروت» و «ماروت» اسم لمَلَكَينِ من ملائكة الله، أنزلهما الله إلى الأرض بصورة البشر، ابتلاءً منه سبحانه للناس، وتمييزاً بين السحر والمعجزة، لئلا يغتر بالسحر الناس، إذ السحرة كثرت في ذلك الزمان، فأرسلهما الله ليعلِّما الناس خطر السحر، وطريق التخلص من السحر، ومعنى الآية: وكما اتبع رؤساء اليهود السحر، كذلك اتبعوا ما أنزل على الملكين بمملكة «بابل» من أرض الكوفة بالعراق ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي إنَّ الملكين لا يعلمان أحداً من الناس السحر، حتى يبذلا له النصيحة ويقولوا له: إن هذا الذي نصفه لك، إنما هو امتحانٌ من الله وابتلاء، فلا تستعمله للإضرار بعباد الله، ولا تكفر بسببه والعمل به، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس نجا، ومن تعلَّمه ليؤذي به العباد هلك وضلَّ، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي يتعلمون منهما من السحر، ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين، بأن يحدث الله بينهما التباغض والنشوز، بعد أن كانت المودة والمحبة بينهما، وهذا على حسب جري العادة الإلهية، من خلق المصائب عقب حصول الأسباب ابتلاء، ولهذا قال بعده ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وما يستطيع هؤلاء السحرة، الإضرار بأحد من الخلق، إلا بمشيئته تبارك وتعالى، وبإرادته وتمكينه، فقد يحدث الضرر وقد لا يحدث، ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي والحال أنهم بتعلمهم السحر، إنما يحصلون على الضرر

(١) أخرجه الترمذي في الحدود رقم ١٤٦٠ والحديث روي مرفوعاً وموقوفاً.

لا على النفع، لأن تعلم ما لا ينفع سفة وجهالة، وهو غير نافع في الدارين، لأنه لا تعلق له بانتظام المعاش أو المعاد ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله، واستبدلوا به السحر، أن من أثر السحر على كتاب الله، ليس له حظ ولا نصيب من رحمة الله ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولبس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم، لو كان لهم عقل وفهم، لما عرّضوا أنفسهم للهلكة، ولما باعوها بما لا يزيدهم إلا تباراً. أما الحكمة من تعليم الملكين للناس السحر، فهو أن السحرة كثروا في ذلك الوقت، واخترعوا فنوناً غريبة من السحر، وربما زعم بعضهم أنهم أنبياء يوحى إليهم، فبعث الله الملكين ليعلموا الناس وجوه السحر، حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة، ويعرفوا أن هؤلاء المدعين للنبوة سحرة لا أنبياء، وكل هذا من ابتلاء الله للعباد كما قال سبحانه: ﴿وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(١).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

بعد أن ذكر تعالى الوعيد لليهود، أتبعه بالوعد، على عادة القرآن الكريم، في الجمع بين عنصرى التهيب والترغيب.

فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي لو أن هؤلاء اليهود، الذين تعلموا السحر ليفتنوا به الناس، آمنوا إيماناً صادقاً بالرسول والكتاب، وخافوا عذاب الله فكفوا عن الغي والضلال ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي لأنابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، ولأكرمهم الله بأنواع الكرامة، والمثوبة، والمثابة، والثواب بمعنى واحد،

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

وهو الأجر والجزاء الحسن ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان لهم فهم وإدراك، وهذه الجملة جارية على الأسلوب المعروف في فنون البيان، من أن العالم بالشيء إذا لم يتتبع بعلمه، يُنزل منزلة الجاهل به، ويُنفى عنه العلم كما يُنفى عن المتعمي البصر.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠١﴾﴾.

لما ذكر تعالى قبائح اليهود، وما اختصّوا به من ضروب السحر والشعوذة، أعقبه ببيان نوع آخر، من ضروب خبثهم وشرهم، وهو ما يضمرونه للنبي والمؤمنين من الحسد والحقد والبغضاء، وتمني زوال النعمة، وما كانوا يقولونه من كلمات السبِّ والشتيمة، يتظاهرون بأنهم يريدون بها الخير والتكريم، كقولهم «راعنا» يقصدون بها الرعونة، التي هي الجهلُ والحمقُ، فنهى الله المؤمنين عن أمثال هذه الكلمة سداً للدريعة، بقوله سبحانه:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ أي يا أيها المؤمنون لا تقولوا في خطابكم للرسول: راعنا ﴿وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾ أي قولوا عوضاً عنها: انتظرنا ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي واسمعوا سماع قبول، فاطيعوا أمر الله وأمر رسوله، ولا تكونوا كاليهود الذين قالوا: سمعنا وعصينا ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولليهود الكفار، الذين توصلوا بقولهم المذكور «راعنا» إلى شتم الرسول ﷺ عذابٌ وجيع، يصلُ وجعُه إلى قلوبهم!

وكلمة ﴿رَاعِنَا﴾ في معناها الأساسي أصلها من «الرعاية» وهي النظر في مصالح الإنسان، وقد حرّفها اليهود اللعناء فجعلوها كلمة مسبّة من

«الرعونة» وهي الجهل والحمق، يظهرون أنهم يريدون المراعاة، ويبتغون إرادة الرعونة، فلذلك نهى عنها المسلمون. روي أن «سعد بن عباد» رضي الله عنه سمعها منهم، فقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم، يقولها لرسول الله عليه الصلاة والسلام، لأضربن عنقه!! قالوا: أولستم تقولونها لنبيكم؟ فنزلت الآية ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ ونهى عنها المؤمنون، قطعاً لتدليس اليهود الخبيثاء.

ثم قال تعالى: ﴿مَا يَوْذُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمَشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى، ولا المشركون الوثنيون من العرب «عبدة الأوثان» أن ينزل عليكم يا معشر المؤمنين شيء من الخير، لشدة بغضهم وحسدهم لكم ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي والله سبحانه يمنح فضله ونعمته - ومنها النبوة والرسالة - لمن شاء من عباده ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي والله واسع الفضل والإحسان، فلا يظن اليهود والنصارى أنهم أحق بالنبوة من العرب لأنهم أهل كتاب، ولا يظن المشركون أنهم أحق بالوحي من محمد ﷺ لأنهم أغنياء وهو فقير، كما كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(١) وقولهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾^(٢).

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

(١) سورة الزخرف، آية: ٣١.

(٢) سورة سبأ، آية: ٣٥.

روي أن اليهود قالوا: ألا تعجبون لأمر محمد، يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه؟ ما يقول ذلك إلا من تلقاء نفسه، يقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، فما هذا القرآن إلا من كلام محمد؟ فأنزل الله عز وجل الآية مبيناً الحكمة من النسخ بقوله:

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ أي ما نبذل حكم آية فنغيه بآخر، على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أي أو نمحها من قلبك يا محمد ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ أي نأت بما هو أصلح وأنفع لكم أيها المؤمنون، في العاجل أو الآجل، إما برفع المشقة عنكم، أو بزيادة الأجر والثواب لكم.

ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها، أو نسخ الحكم المستفاد منها، وكل ذلك مبني على علم وحكمة، ولهذا قال تعالى بعده: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾؟ أي ألم تعلم أيها المؤمن العاقل، أن الله عليم حكيم قدير، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان للعباد؟.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ألم تعلم أن الله تعالى هو المالك المتصرف في شؤون الخلق، له ملك كل ما في السموات والأرض، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؟ ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي وما لكم أيها المؤمنون ولي يرعى شؤونكم، ولا ناصر ينصركم غير الله تعالى، فهو نعم الناصر والمعين، والمقصود من الآية التوسكين لقلوب المؤمنين، بأن الله وليهم وناصرهم دون غيره، فلا يجوز الاعتماد إلا عليه، ولا يصح الالتجاء إلا إليه، ولا ينبغي للمؤمن أن يصغي إلى أقاويل أهل الكفر والضلال، في أمر نسخ الآيات والأحكام، فإن مقتضى الإيمان بعلم الله، وقدرته الله، وحكمة الله، الإيقان والجزم بأنه تعالى لا يفعل بهم إلا ما هو خير لهم. ثم حذر تعالى المؤمنين، من مجارة اليهود في تعنتهم واقتراحاتهم على أنبيائهم ورسلم فقال سبحانه: ﴿ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ أي بل أنريدون

يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم، كما سأل قوم موسى نبيهم من قبل، ويكون مثلكم مثل اليهود، الذين قالوا لرسولهم موسى: «أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً» فتضلُّوا كما ضلُّوا؟ ﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ لِّلْكَفْرِ الْإِيمَانَ﴾ أي ومن يختار الكفر بدل الإيمان، ويستبدل الضلال بالهدى ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي فقد عدل وجار عن الطريق المستقيم، وضلَّ طريق الهدى الموصل إلى جنات النعيم. والغرض من الآية توصية المسلمين بالثقة برسول الله ﷺ وترك الاقتراح عليه بشيء من الأمور، فالأصل في المسلم الإذعان والتسليم.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُثْهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾

ثم أخبر تعالى عمَّا يضره أهل الكتاب للنبي والمؤمنين، من ضروب الكيد، والحسد، والبغضاء، وتمني زوال النعمة عن المسلمين، وذلك ليحذروهم ويجتنبوا طريقهم، فليس عند أعداء الله «اليهود والنصارى» إلا كل خبث وسوء وكيد للمؤمنين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي أحبَّ وتمنى كثير من اليهود والنصارى، أن يصرفوكم عن الإيمان والتوحيد، وأن يجعلوكم من بعد إيمانكم كفاراً، مرتدين عن دينكم، بعد أن هداكم الله للدين الحق ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي حسداً منهم لكم، منبعثاً من نفوسهم الخبيثة التي تكرهكم ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة، أنكم على هدى، وأن دين الإسلام هو الحق، والحسد: تمني زوال النعمة عن المحسود، وهو مرض قلبي

خطير، يعصف بدين المرء، كما قال المصطفى ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلُقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلُقُ الدِّينَ»^(١) ﴿فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ﴾ العفو: ترك عقوبة المذنب، والصفح: ترك تأنيبه، والمراد ترك المقابلة، والإعراض عنهم، لأن ذلك أقرب إلى تسكين الثائرة في الوقت، لا العفو على وجه الرضا، ولذلك لم يأمر سبحانه بذلك على الدوام، بل علقه بغاية، فقال: ﴿حَقَّ يَأْتِي اللَّهَ بِأَمْرِهِ﴾ الذي هو الإذن في قتالهم، وفيه إشعار بالانتقام من الكفار، ووعد للمؤمنين بالنصرة، وتهديد لمن يخالف أمره ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم، إذا حان حينه، فهو تعليل لما قبله.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ عطف على ﴿فاعفوا﴾ كأنه أمرهم بالصبر، والمخالفة، واللجوء إلى الله تعالى بالعبادة، لأنها تدفع عنهم ما يكرهون ﴿وَمَا لَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ كصلاة، وصدقة، وغيرهما. أي أي شيء من الخيرات تقدمون لأنفسكم ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ثوابه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يضيع عنده عمل، وهو وعد للمؤمنين، وعبر عن «علمه» تعالى بالبصر، لأن أعمال البشر كلها كالمبصرات، بالنسبة إلى علمه سبحانه وتعالى، حيث يعلم الصغير والكبير، والفتيل والقطير.

ثم أخبر تعالى عن عقائد اليهود والنصارى، وتكفير بعضهم لبعض، فاليهود يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم، والنصارى يعتقدون بكفر اليهود، وكل منهم يلعن الآخر، وفي ذلك يقول سبحانه:

(١) أخرجه الترمذي في القيامة رقم ٢٥١٢.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٦﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٨﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾ أي قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، جمع الله بين قولَي الفريقين ثقةً بفهم السامع، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ فكلُّ منهما يكفر الآخر، ولما كانت أقوالهم كلها كاذبة باطلة، في ادعائهم أن الجنة خاصة بهم، جمع الله أقوالهم، وردَّ عليهم جميعاً، فقال سبحانه: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي تلك مزاعمهم، ورغباتهم الفاسدة، وشهواتهم التي يتمنونها، وليس لها في الواقع ظلٌّ من الحقيقة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل لهم تسفيهاً وتكذيباً لما زعموه: أحضروا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة، إن كنتم صادقين في دعوكم أن الجنة لليهود، أو للنصارى؟! وفي هذا تسفيهٌ للفريقين في مزاعمهم الباطلة.

ثم قال تعالى تكذيباً لهم: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي بلى يدخل الجنة، من استسلم وخضع لله، وأخلص نفسه لرب العالمين، لا يشرك به شيئاً، وليس الأمر كما تزعمون، أن الجنة لا يدخلها إلا اليهودي أو النصراني!! والوجه يُطلق ويراد به ذات الإنسان، كقوله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وإنما عبّر بالوجه لأنه أشرف الأعضاء، ومجمع المشاعر والحواس، وموضع السجود، وبه يحصل التوجه إلى كل شيء،

والمراد بإسلام الوجه: الإقبال على عبادة الله، وجعل توجهه إليه سبحانه بجملته وبالكلية، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي وهو مع تسليم نفسه، وإخلاصه لربه، مؤمنٌ مصدّقٌ متَّبِعٌ لرسول الله ﷺ، فلا بدّ في كل عبادة صادقة من أمرين هامين: الإخلاص لله، وأن يكون عمله موافقاً لطريقة رسول الله ﷺ ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي فله ثواب عمله عند ربه، لا يضيع منه شيء، والعندية للتشريف، وإظهار مزيد اللطف بالعبد ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ولا خوف عليهم في الآخرة، ولا يعتريهم حزن ولا كدر، لأنهم في نعيم مقيم، في دار الخلد والكرامة.

ثم أخبر تعالى عن ضلال اليهود والنصارى، وتكفير بعضهم لبعض في الدنيا، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ أي قال اليهود عن النصارى: ليسوا على دين صحيح معتدّ به، مقبول عند الله، فدينهم باطل، ونهايتهم إلى نار الجحيم ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي وقال النصارى في اليهود مثل مقالتهم: ليس اليهود على دين صحيح، مقبول عند الله، فدينهم باطل، ونهايتهم إلى نار الجحيم ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي والحال أن كلا من الفريقين، يقرأ التوراة والإنجيل، ويعلم أن الإيمان بجميع كتب الله ورسله، من لوازم الإيمان، فقد كفر بعضهم بعضاً عن علم، لا عن جهل ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي كذلك قال الوثنيون الجهلة «مشركو العرب» مثل قول أهل الكتاب، قالوا: إن دين الإسلام باطل، ومحمد ليس برسولهم، فقد اجتمعت آراء أهل الضلال على مذهب واحد، يقولون لأهل كل دين: ليسوا على شيء ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فالله يحكم بين العباد، ويفصل بينهم بقضائه العادل، فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، ويظهر الحق ويُهْزِقُ الباطل. روي في سبب نزول هذه الآية، ما رواه ابن كثير عن ابن عباس أنه قال: «لَمَّا قَدِمَ أَهْلُ نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَتَتْهُمْ أَحْبَارُ الْيَهُودِ - أَيِ أَكْبَارِ عِلْمَائِهِمْ - فَتَنَازَعُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَافِعُ بْنُ حَرْمَلَةَ: مَا أَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ، وَكَفَرَ

بعيسى وبالإنجيل، وقال قسيس من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفر بموسى وبالتوراة، فأنزل الله عز وجل ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ الآية^(١).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ عام لكل من فعل ذلك، في أي مسجد كان، وإن كان سبب النزول في مسجد مخصوص، ومما يدل على أنه عام في سائر المساجد، إطلاقه ذلك، واختلف في سبب النزول، فقال الحسن وقتادة: نزلت في بختنصر المجوسي، خرّب بيت المقدس، وبقي خراباً إلى أن بناه المسلمون في أيام عمر رضي الله عنه، وعن ابن عباس أنها نزلت في مشركي العرب، لأنهم منعوا المسلمين، عن ذكر الله في المسجد الحرام، وظاهر الآية العموم، وخصوص السبب لا يمنعه ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُُ﴾ كُنِيَ بذكر الله تعالى، عما يحصل في المساجد من الصلاة، ومجالس العلم المأذون بفعلها، ومدارسة القرآن، واليهود كانوا سبباً لتخريب بيت المقدس، بعصيانهم، وقتلهم الأنبياء عليهم السلام، ولا يراد بالاستفهام حقيقته وإنما هو بمعنى النفي، فيؤول إلى الخبر، أي لا أحد أظلم من ذلك، واستشكل بأن هذا اللفظ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ قد تكرر في القرآن والكلام خرج مخرج المبالغة، في التهديد والزجر ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ أي عمل في خرابها بالهدم، أو بتعطيلها من العبادة ﴿أُولَئِكَ﴾ المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي ما كان ينبغي

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٦٠.

لهم أن يدخلوها إلا بخشية، وخشوع، فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها، أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، وفيه وعد للمؤمنين بالنصرة، وتخليص المساجد من الكفار، وقد أنجز الله وعده، ونصر عبده ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي هوان وذلة في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بكفرهم وظلمهم، أشد مما لهم في الدنيا.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ يريد بهما ناحيتي الأرض، أي له سبحانه الأرض كلها، لا يختص به مكان دون مكان، فَإِنْ مُنِعْتُمْ أَنْ تَصَلُّوا في المسجد الحرام، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا﴾ ففي أي مكان فعلتم التولية شطر القبلة ﴿فَنَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي هناك جهته التي أمركم بها، ورضيها لعباده، وفي هذا تسلية للمؤمنين بجعل الذكر، والصلاة في جميع الأرض، وفي الحديث الصحيح «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»^(١). و﴿ثُمَّ﴾ بالفتح اسم إشارة إلى مكان مبني على الفتح، ولا يتصرف سوى الجر بمن فيقال: مِنْ ثَمَّ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ بإحاطته بالأشياء، أو برحمته، يريد التوسعة على عباده، فلذا وَسَّعَ عليكم القبلة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها. عن ابن عمر قال كان ﷺ يصلي وهو مقبلٌ من مكة إلى المدينة على راحلته، حيث كان وجهه، وفيه نزلت ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٢).

(١) هذا طرفٌ من حديث أخرجه البخاري ٣٧٠/١ في التيمم، ومسلم في المساجد رقم ٥٢١ ولفظه: «أُعْطِيَ خَمْسًا لَمْ يَعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا..» إلى آخر الحديث.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ٧٠٠ ورواه البخاري رقم ١١٠٥ وليس فيه جملة «وفيه نزلت» ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وروى الترمذي روايةً أخرى في سبب نزول هذه الآية، فأخرج عن عامر بن ربيعة قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفره، في ليلة مظلمة، فلم ندر أين القبلة؟ فصلَّى كُلُّ رَجُلٍ مَنَّا عَلَى حِيَالِهِ - أي تلقاء وجهه - فلمَّا أَصْبَحْنَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فنزلت ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ سنن الترمذي ١٨٨/٥.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَلِيلُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَمْ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ نزلت لما قالت اليهود: «عزير ابنُ الله» والنصارى «المسيحُ ابنُ الله» ومشركو العرب «الملائكة بناتُ الله» ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك، فإنه يقتضي التشبيه، والحاجة، وسرعة الفناء، والسبب في ضلالهم أن أرباب الشرائع المتقدمة، كانوا يطلقون الأب على الله تعالى، باعتبار أنه هو السبب الأول، ثم ظنَّت الجُهْلَةُ منهم أن المراد منه معنى الولادة، فاعتقدوا ذلك تقليداً ولذلك كُفِّرَ قائله، ومنع منه مطلقاً، حسماً لمادة الفساد.

والنصارى في التسمية فريقان ١ - منهم من قال: عيسى حقيقة ولدُ الله ٢ - ومنهم من قال: اتخذه ولداً، كإبراهيم خليل الله، فنفى الله تعالى الأول بقوله ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ والثاني بقوله ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ولهذا قال بعد ذلك ﴿سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ردُّ لما قالوه، واستدلال على فساده والمعنى: تقدَّس الله وتنزه عما قاله أولئك السفهاء تنزهاً بليغاً، فإنه تعالى خالق جميع ما في السموات والأرض، التي من جملةتها: الملائكة، وعزير، والمسيح ابن مريم، فكيف يكون له ولد، وكلُّ ما في الكون خلقه وعبيده؟ ثم إن الولد يكون عن حاجة، ولا بدَّ أن يشبه أباه، وكل ذلك ممتنع على الله عزَّ وجلَّ، فإنه الغنيُّ المطلق، المنزَّه عن مماثلة المخلوقات، ولما كانت الدعوى خطيرة، بدأ الآية بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزه الله كلَّ التنزه، عن مثل تلك المزاعم الباطلة الكاذبة، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ لَمْ قَلِيلُونَ﴾ أي كلُّ ما في السموات والأرض، منقادٌ لأمر الله، لا يستعصي شيء منهم، على مشيئته وتكوينه.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقها ومبدعها على غير مثالٍ سابق، وهذه حجة ثانية لإبطال مقالتهم الشنيعة، فإذا كان الله مبدع الأشياء كلها،

وليس له مثيل ولا شبيه من مخلوقاته، وقد خلق السموات والأرض - وهي أعظم من خلق الإنسان - فكيف لا يقدر على خلق عيسى، من أم بدون أب؟ ولهذا قال بعده ﴿وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي وإذا أراد إيجاد شيء من الأشياء، حصل من غير امتناع ولا مهلة، لأنه سبحانه يقول له كن فيكون، أي أحدث فيحدث، من غير تأخر ولا تباطؤ، وفي الآية تقرير لمعنى الإبداع، وتلويح لحجة أخرى، وهي أنه تعالى لو أراد الولد - وتنزه الباري عن ذلك - لما احتاج إلى ما زعموه من اتخاذ زوجة!!

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَوْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي وقال جهلة المشركين وهم كفار مكة ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ لولا بمعنى هلاً، أي هلاً يكلمنا الله مشافهة، أو تأتينا بحجة ساطعة على صدق نبوتك؟! والأول منهم استكبار، والثاني جحود وعناد، فقد بلغوا من العتوّ، أن يطلبوا مرتبة المفاوضة الإلهية، دون وساطة ملك أو رسول، ومن الجحود والعناد أن يعتبروا جميع ما جاءهم به الرسول ﷺ من المعجزات الساطعات، والآيات البينات، من قبيل الأساطير، ولهذا يطلبون معجزات أخرى ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك القول الباطل الشنيع ﴿قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية، كقولهم ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(١) و﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ﴾^(٢)؟ ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا البهتان ﴿تَشَبَّهَتْ

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ١١٢.

﴿قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء ومن قبلهم، في العمى والعناد، والتشابه: أن يشبه كل واحد من الشيثين بالآخر، كقول الشاعر:

رَقَّ الرُّجَا جُ وَرَقَّتِ الْخَمْرُ فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ الْأَمْرُ
فَكَأَنَّهُ خَمْرٌ وَلَا قَدَحٌ وَكَأَنَّهُ قَدَحٌ وَلَا خَمْرُ

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي وضَّحناها لقوم يطلبون اليقين الصادق، لا يعتريهم شبهة ولا عناد، وفيه إشارة إلى أنهم ما قالوا ذلك، الخفاء في الآيات، وإنما قالوه عُتُوءاً أو عناداً، والمراد من الآيات، الآيات القرآنية، الدالة على نبوته ﷺ، وما جاءهم به من المعجزات الباهرات، وفي تعريف الآيات وجمعها، وإيراد التبيين مكان الإتيان، ما لا يخفى من الجزالة، والمعنى: إنهم اقترحوا آيةً فذَّة، ونحن قد بيَّنا الآيات العظام، لقوم يطلبون الحق واليقين، وإنما لم يتعرض لرد قولهم ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ إيداناً بأنه منهم أشبه بكلام الأحمق، وجواب الأحمق السكوت.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً ومؤيداً به، وفُسر الحق بالقرآن، وبالإسلام، وبقاؤه على عمومته أولى، والمعنى: نحن يا محمد أرسلناك بالشرعية النيرة، والدين القويم، وبالهدى الساطع، والحق المبين ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي تبشر المؤمنين بجنات النعيم، وتنذر الكافرين بعذاب الجحيم، وأكثر ما يستعمل الإنذار في التخويف، والبشارة بالخبر السار ﴿وَلَا تَسْتَلْ عَنْ أَهْوَائِ الْجَحِيمِ﴾ أي ولست يا محمد مسؤولاً عن أصحاب النار إن لم يؤمنوا، بعد أن أدَّيت الأمانة، وبلغت الرسالة!! والجحيم: المتأجج من النار، وفي التعبير عنهم «بأصحاب الجحيم» دون قوله عن الكفار والمشركين، للإيدان بأنهم مطبوع على قلوبهم، لا يرجى منهم خير ولا إيمان، وفي الآية وعيد شديد لأولئك المجرمين.

﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ
الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن
يَكْفُرْ بِهِ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

بعد أن بيّن تعالى ضلالات أهل الكتاب والمشرّكين، نبّه رسوله ﷺ إلى أن اليهود والنصارى أعداء ألداء لدين الإسلام، لن يرضوا عن أحدٍ من المسلمين، حتى ينسلخ عن دينه، ويتبع دينهم الأعوج.

فقال سبحانه: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي ولن يرضى عنك اليهود والنصارى، مهما تودّدت لهم، حتى تترك الإسلام الواضح النير، وتتبع دينهم الباطل المحرّف، وفي الآية مبالغة في إقناط الرسول عليه الصلاة والسلام من إسلامهم، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتّبع ملّتهم وهذا أمر مستحيل، فكيف يتّبعون هم ملّته؟ قال الله عزّ شأنه ذلك له، لأنه عليه السلام كان شديد الحرص على إيمانهم، حيث كان يتلطف معهم ليسلموا، فأخبره تعالى أنهم لن يرضوا عنه، ما دام مستمسكاً بالإسلام، حتى يدخل في دينهم، ويترك دينه الحنيف، وإنما وُحّد المِلَّةُ، مع أن ملّة اليهود، غير ملّة النصارى، فكان السياق يقتضي أن يقال: حتى تتّبع ملّتهما، للتنبيه على أن الكفر ملّة واحدة، ومعنى المِلّة: الدين، وهي خاص لا تُستعمل إلا في الشرائع، فلا يقال: ملّة العصر، ولا ملّة الدهر ﴿قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ وهذا صريح في أن ما وقع كان جواباً لما قالوه: ﴿كُونُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ أي قل رداً عليهم: إنّ هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى الحق، ليس وراءه هدى، وما تدعون إليه ليس بهدى، بل هو هوى، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي آراءهم الزائفة، الصادرة عنهم بشهوات أنفسهم، وأمّا ما شرع الله لهم، على لسان الأنبياء، فقد غيروه وبدّلوه، وفي صيغة الجمع ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾

إشارة إلى كثرة الاختلاف بينهم ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي الوحي، أو الدين المعروف صحته ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ جواب القسم، أي من جهته العزيزة ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يلي أمرك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عقابه، وهذا من باب التهيج والإلهاب، وإلا فأنى يتوهم إمكان اتباعه ﷺ لملتهم؟ وقيل: الخطاب للرسول والمراد به أمته^(١)، لأن من عادات الناس أن يوجهوا أمرهم ونهيمهم إلى من هو أعظم درجة بينهم.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمُ الْكِتَابُ﴾ قيل: هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام، وقيل هم أصحاب النبي ﷺ والكتاب: القرآن، وقيل المؤمنون عامة ﴿يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ بمراعاة اللفظ، عن التحريف، والتدبر في معناه، والعمل بمقتضاه ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب، وتلاوته ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي بكتابهم، دون الأشرار المحرفين لكتاب الله، فإنهم بمعزل عن الإيمان ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي ومن يكفر بالكتاب المنزل، الذي أنزله الله على رسوله ﷺ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان، فחסروا سعادة الدارين.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

تقدم تفسير هذه الآيات، ومعنى تفضيلهم على العالمين، أن بني إسرائيل الدين آمنوا بموسى، وتمسكوا بالثورة، هم أفضل عالمي زمانهم،

(١) قال الحافظ ابن كثير ١/١٦٨: وفي الآية تهديد ووعيد شديد للأمم، عن اتباع طرائق اليهود والنصارى، بعد ما علموا من القرآن والسنة - عياداً بالله من ذلك - فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمنته، وقد استدلل كثير من الفقهاء بقوله تعالى ﴿حتى تتبع ملثهم﴾ حيث أفرد الملة، على أن الكفر كله ملّة واحدة.

لا أَنَّهُمْ أَفْضَلُ الْعَالَمِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَمَةِ مُحَمَّدٍ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وَإِنَّمَا كَرَّرَ النِّدَاءَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَمْرَهُمْ بِذِكْرِ النِّعَمِ، مَبَالِغَةً فِي النَّصِيحِ وَالتَّذْكِيرِ، وَإِذْنًا بِأَنَّهُ مَضْمُونُ الْقَضِيَّةِ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْقِصَّةِ، حَتَّى لَا يَغْفُلُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ.

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٥).

الابتلاء في الأصل: التكليفُ بالأمر الشاق، ومعناه: الامتحان والاختبار، مشتق من البلاء كما قال سبحانه: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ فيه تقديم المفعول على الفاعل، للاهتمام بشأن المبتلى أي المختبر، وهو إبراهيم أبو الأنبياء، الذي يقرُّ جميع أهل الأديان بفضله، والمعنى: اذكر يا محمد حين اختبر الله عبده ورسوله إبراهيم الخليل، وامتحنه بأنواع من الامتحان الشاق، والمراد بالكلمات هنا ما ابتلاه به من وجوه المحن، وكلَّفه من أنواع التكاليف الشرعية، منها: فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، وصبره على قذفهم له بالنار ليحرقوه، والهجرة من وطنه حين أمر بالخروج عنهم، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه، ومحااجة نمرود في الله، فهذا أصحُّ ما نُقل عن ابن عباس، في الكلمات التي امتحنه الله بها، كما ذكره السيوطي في الدر المنثور^(١) ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي أتى بهن على وجه الكمال والتمام، وقام بهنَّ حقَّ القيام. قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ والابتلاء إنما يتصور حقيقة ممن لا وقوف له على عواقب الأمور، وأمَّا من العليم الخبير، فإنه لإظهار الطائع من العاصي. حكى الله سبحانه عن

(١) الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٢٥.

إبراهيم أموراً، فإنَّ إبراهيم عليه السلام شخصٌ يعترف بفضلِه جميع أهل الملل، فالمشركون كانوا معترفين بفضلِه، ومتشرفين بأنهم من أولاده، وأهل الكتاب أيضاً مقرون بفضلِه ومتشرفون بأنهم من أولاده، ويدَّعون أنهم على دينه وملته، فبيَّن اللهُ عزَّ وجلَّ أن هدى الله هو ما يدَّعيه الرسول ﷺ من التوحيد، والإسلام، الذي هو مِلَّة إبراهيم، وأن ما يدَّعيه أهل الكتابيين أهواءٌ زائفة، ودعاوى كاذبة، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ والجعل بمعنى التصيير، أي إني جاعلك قدوة للناس، ومناراً يهتدي بك البشر، والإمام اسم لمن يؤتم به، وإمامته عامة مؤبدة، إذ لم يبعث بعده نبي، إلا كان من ذريته، مأموراً باتباعه ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ خبرٌ في معنى الطلب، وكان أصله: واجعل يارب بعض ذريتي أئمة، عدل عن صيغة الأمر مراعاةً للأدب، والذرية نسل الرجل، من الذر بمعنى التفريق، والمرادُ في قوله تعالى: ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الآباء والأولاد، أصلها الأولاد الصغار، ثم عمت الكبار. قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إجابة إلى ملتمسه، وتنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمة، وأنهم لا ينالون الإمامة، لأنها أمانة من الله تعالى وعهد، والظالم لا يصلح لها، وفيه دليل على عصمة الأنبياء، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة، والمتبادر من العهد الإمامة، وليست هي هنا إلا النبوة، وعبر عنها به، للإشارة إلى أنها أمانة الله تعالى، لا يقوم بها إلا من شاء الله من عباده، والمتبادر من «الظالم» الكفر، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١).

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آبِلَيْثَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٤.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ﴾ أي الكعبة، غلب عليها كالنجم على الشريا وليس المراد نفس الكعبة، لأنه تعالى وصفه بكونه آمناً، وهذا صفة جميع الحرم، كما في قوله تعالى: ﴿هَذِيَا بِالْغِ الْكُفَّةِ﴾ والمراد الحرم، لأنه لا يُذبح في الكعبة ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ أي مرجعاً يشوب إليه الزَّوَار ويرجعون، من ثاب يشوب إذا رجع، وقال ابن عباس: ﴿مَثَابَةً﴾ ملجأ، والتاء فيه للمبالغة كالعلامة ﴿وَأَنَّا﴾ موضع أمن، لا يتعرض لأهله كقوله تعالى: ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ أو يأمن حاجه من عذاب الآخرة من حيث إن الحجَّ يهدم ما قبله، ولا يؤخذ الجاني، الملتجئ إليه، حتى يخرج وهذا مذهب أبي حنيفة، كمن قتل أو سرق في الحل، ثم دخل الحرم فإنه لا يؤذى حتى يخرج، فيؤخذ، ويجوز إرادة العموم بالأمن في الدنيا والآخرة ولم يذكر للناس هنا إشارة إلى العموم، حتى الحيوانات والنباتات، ولا يمكن أن يكون المراد، الإخبار عن عدم وقوع القتل في الحرم، لأننا نشاهد أن القتل الحرام قد يقع فيه، وأيضاً قد يوجد القتل المباح، قال الله تعالى ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ عن ابن عباس قال: قال ﷺ يوم فتح مكة «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا لِمَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهُ»^(١)، فقال العباس يا رسول الله إِلَّا الْإِذْخَرُ، فَإِنَّهُ لِقَيْنُهُمْ وَلِبِئَتِهِمْ، فقال: «إِلَّا الْإِذْخَرُ»^(٢) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ مِنْ مَقَامِرٍ

(١) لا يُخْتَلَى خِلَاهُ: الْحَلَى: الرطب من المرعى، أي لا يُقَطَّعُ نَبَاتُهُ الرطب.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ٤٠/٤ ومسلم برقم ١٣٥٣ في الحج أيضاً باب تحريم مكة وصيدها، والقَيْنُ: الحِدَادُ والصائغ، أي يحتاج إليه الحداد، ويحتاج إليه الناس لسقوف البيوت.

إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴿١﴾ على إرادة القول، أي وقفنا اتخذوا مصلًى عند مقام إبراهيم أي صلُّوا فيه، والخطابُ لأمة محمد ﷺ و«من» للتبويض، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي فيه أثر قدميه، الذي وقف عليه حين رفع قواعد البيت، وفي فتح الباري: المقامُ من عهد إبراهيم لزيق البيت إلى أن أخرجه عمر رضي الله عنه إلى المكان الذي هو فيه^(١) وقيل: «مقام إبراهيم الحرم كله»، والقول الأول أولى، لحديث جابر رضي الله عنه، فقد روى جابر أنه ﷺ لَمَّا فرغ من طوافه، عمد إلى مقام إبراهيم، فصلى خلفه ركعتين، وقرأ ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي أمرناهما ووصيناهما وقفنا لهما ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ بأن طهَّرا، يريد طهَّراه من الأوثان، والأنجاس، وما لا يليق به، وإضافة البيت إلى ضمير الجلالة للتشريف، كناية الله، وتوجيه الأمر ههنا إليهما لا ينافي ما في سورة الحج من تخصيصه بإبراهيم عليه السلام، فإن ذلك قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾^(٣) وكان إسماعيل عليه السلام صغيراً، بمعزل من مقام الخطاب، والظاهر أن هذا بعد بلوغه وتمام البناء ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ حوله، والمراد كل من يطوف من حاضر وباد، وقال ابن جبير: المراد الغرباء ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين عنده، والمعتكفين فيه، وفي سورة الحج ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ والمراد المقيمون، وغاير بينهما جرياً على عادة العرب، من تفتنهم في الكلام ﴿وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ﴾ أي المصلين جمع راع، وساجد أي أخلصاه لهؤلاء لئلا يغشاه غيرهم ،

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند قوي.

(٢) هذا طرف من حديث جابر بن عبد الله في بيان حجة النبي ﷺ رواه مسلم في كتاب الحج رقم ١٢١٨ وفيه: فجعل المقام بينه وبين البيت، أي صلى خلف مقام إبراهيم، وكان يقرأ في الركعتين ﴿قل هو الله أحد﴾ و﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه... الحديث.

(٣) سورة الحج، آية: ٢٦.

فإنَّ عبادة غير المؤمنين، من قبيل تلويثه وتدنيسه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَضِيدَةً﴾^(١).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَتَبَسَّ الْمُصِيرُ﴾^(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ يريد البلد أو المكان، وهو إشارة إلى الوادي المذكور في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ﴾^(٣) أي اجعل هذا المكان القفر ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ أي أهله، أي اجعل أهله آمنين، طلب من الله نعمة الأمان، لأنها أعظم أنواع النعم، وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا بها، وهل الأمان من الجبابرة، أو من الخسف، أو من القحط، فيه أقوال للعلماء، واختلف في أن مكة هل كانت آمنة قبل دعوة إبراهيم، أو صارت بدعوته آمنة؟ فقليل إنها كذلك أبداً لقوله ﷺ: «إن الله حَرَّمَ مكة يوم خلق السماوات والأرض»^(٤) الحديث، وقال آخرون: إنها صارت آمناً بدعاء إبراهيم عليه السلام بدليل قوله ﷺ: «اللهم إن إبراهيم حَرَّمَ مكة، وإنِّي حَرَّمْتُ المدينة»^(٥). ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ خصهم بالدعاء إظهاراً لشرف الإيمان، ومراعاةً لحسن الأدب، وفيه ترغيب لقومه بالإيمان، كما أن حكايته ترغيباً وترهيباً لقريش وغيرهم وقوله ﴿مَنْ الثَّمَرَاتِ﴾ أي من أنواعها، بأن تجعل بقرب منه قُرَى، يحصل فيها ذلك كالطائف، أو يجيء من الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلاهما حتى إنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية، والصيفية، والخريفية،

(١) سورة الأنفال آية: ٣٥.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

(٣) الحديث تقدّم بكماله وهو في الصحيحين، وانظر صفحة ١٥٢ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه مسلم رقم ١٣٦٢ في كتاب الحج باب فضل المدينة.

في يوم واحد. قال الله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ﴾ أيضاً ﴿فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا﴾ أي متاعاً قليلاً، وزماناً قليلاً، فأرزقه في الدنيا، إلى منتهى أجله، وذلك قليل بالنسبة للآخرة، لأنه ينقطع، ونعمة المؤمن في الدنيا، موصولة بالنعمة في الآخرة ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أي الْجِئْتُ ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ لكفره، وتضييعه ما مته به من النعم، والاضطرار: ضئ الاختيار، وهو أن يُكره على الشيء من غير اختياره، كمن اضطر لأكل الميتة أو لحم الخنزير، والمضطر هو الذي لا يملك الامتناع عما اضطر إليه، والمراد به هنا الإلجاء إلى دخول النار الموقدة ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي وبئس المآل والمرجع للكافر ناز الجحيم. قاس إبراهيم الخليل الرزق على الإمامة، فنبهه تعالى على أن الرزق رحمة دنيوية، شاملة للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، بخلاف النبوة والإمامة فإنها نعمة خاصة لا تكون إلا لمن آمن بالله، واستقام على شرعه المبين.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ أي اذكر يا محمد ذلك الحدث العجيب، وقت رفع إبراهيم، وولده إسماعيل، قواعد البيت العتيق، ورفع القواعد كناية عن البناء، وأتى بصيغة المضارع ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾ حكاية عن الماضي، وهو وجه معروف في أساليب البيان، لاستحضار الصورة الماضية، وكأنها مشاهدة بالعيان، فكأن السامع ينظر ويرى إبراهيم وإسماعيل وهما يقومان الآن بالبناء، وهما يدعوان الله عز وجل بهذه الدعوات المباركات ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي تقبل منا عملنا هذا، واجعله خالصاً لوجهك الكريم، فإنك أنت يارب السميع لدعاء من

دعاك، العليم بأحوالنا ونياتنا. وشرف البيت إنما هو بتسمية الله تعالى إيَّاه بيته، لا لفضل أحجاره عن سائر الأحجار، وقد أفصح عن هذا المعنى أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه حين قال عند استلامه للحجر الأسود، وتقبيله له: «والله إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولولا أني رأيتُ رسولَ الله ﷺ يقبلكَ ما قبَلْتُكَ»^(١)!! وهذا غاية ما يقصده المخلصون.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ مخلصين لك، من أسلم وجهه أي أخلص القصد، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص، والثبات عليه ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةً لَكَ﴾ أي واجعل بعض ذريتنا، وإنما خصا الذرية بالدعاء، لأنهم أحق بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي عرّفنا وعلمنا مواضع نسكنا، وشرائع متعبداتنا في الحج، والنسك في الأصل: غاية العبادة، وشاع في الحج لما فيه من الكلفة، والبعد عن العادة، ومناسك الحج عباداته، وقيل: مواضع العبادات، كمنى، وعرفات، ومزدلفة، والمعنى: علمنا كيف نعبدك؟ وأين نعبدك؟ وبماذا نتقرب إليك؟ أجاب الله دعاءهما، وبعث جبريل عليه السلام، فأراهما المناسك، فقال أعرفت يا إبراهيم؟ فقال نعم، فسمي ذلك عرفة، والموضع عرفات ﴿وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي وتب علينا يا رب، واعف عمنّا فرط منا، فإنك عظيم المغفرة، واسع الرحمة، لا يخيب من دعاك، و «تَوَّابٌ» من صيغ المبالغة، أطلق عليه تعالى لكثرة توبته على عباده، وكثرة قبوله توبة المذنبين، وهو تعليلٌ للتوبة، ومزيد استدعاء للإجابة، وإذا أراد العبد أن يُستجاب له، فليدعُ الله عزَّ وجلَّ بما يناسبه من أسمائه وصفاته، كما جاء في دعاء إبراهيم الخليل.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي ربنا وابعث في هذه الأمة المسلمة،

(١) انظر تمام الحديث في صحيح مسلم في كتاب الحج رقم ١٢٧٠.

رسولاً من أنفسهم من العرب ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِكَ﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن المجيد ﴿وَنُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي ويعلم الأمة الإسلامية - وإن لم يكن يعرف القراءة والكتابة - القرآن العظيم، والسنة النبوية المطهرة، فالمراد بالحكمة السنة المطهرة، لأن بها تكميل نفوس المؤمنين، وإذا قرنت الحكمة بالقرآن، أريد بها سنته ﷺ المطهرة ﴿وَوَزَّكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من رجس الشرك وعبادة الأوثان ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ «العزیز» أي الغالب الذي لا يُقهر ولا يُغلب «الحكيم» أي الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه المصلحة والحكمة. وقد استجاب الله دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فبعث محمداً ﷺ من ذريتهما، وختم به الرسائل السماوية، فلم يبعث من ذريتهما غير النبي عليه السلام، ولهذا قال صلوات الله وسلامه عليه «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعت بي، أنه قد خرج منها نور ساطع، أضاءت له قصور الشام» (١).

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٦) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٢٨).

لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم، وقصة بنائه للبيت العتيق، منار الإيمان والتوحيد، ذكر بعده سفه من خالف دينه وشرعه، وهو أبو الأنبياء وإمام الموحدين.

فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي لا يرغب عن دين إبراهيم، وملته الحنيفية السمحة، إلا من استخف نفسه،

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي أمامة مرفوعاً، ١٢٨/٤.

فأهانها وامتنعها ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي اخترناه بالنبوة والحكمة والإمامة في الدنيا ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَيْمٌ الصَّالِحِينَ﴾ أي وهو في الآخرة من أصحاب الدرجات العالية. والآية بيان لخطأ رأي من يرغب عن ملته، فإن من كان خليل الرحمن، ومشهوداً له بالتقى والصلاح في الدارين، كان حقيقاً بالاتباع، لا يرغب عنه إلا سفيه ومتسفة، والتأكيد باللام في قوله «لَكَيْمٌ» لأن أمور الآخرة خفية عند المخاطبين، ولذا أكد الجملة بمؤكدين «إِنَّ» و«اللام» لينبه تعالى على تحقق خلوصه في الصلاح في الآخرة.

﴿إِذْ قَالَ لِرَبِّهِ أَتَسْلِمُ﴾ أي استسلم لأمر ربك، وأخلص دينك لله واستقم، ومعنى الإسلام: الانقياد والخضوع، ولا يراد به إحداث الإسلام والإيمان، لأن الأنبياء عليهم السلام معصومون قبل النبوة وبعدها، فهم مسلمون قبل أن ينزل عليهم الوحي، يدل عليه قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾^(١) أي آتيناه هداه وصلاحه من الصغر، وإنما المراد به الخضوع والانقياد ﴿قَالَ أَتَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي قال: استسلمت لأمر الله، وخضعت لحكمه، وأيقنت وأخلصت لوجهه، وإضافة الرب للعالمين لا لنفسه، للإيدان بكمال قوة إسلامه، حيث أيقن بشمول ربوبيته تعالى لجميع الخلق، لا لنفسه وحده.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي وصى الخليل أبناءه باتباع ملة الإسلام، وكذلك وصى يعقوب بنيه بها أيضاً، والتوصية: هي التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة، وتتضمن هنا معنى الأمر، أي أمر إبراهيم بنيه بالاستمسك بالإسلام. فإن قيل: لم وصى ولم يأمرهم؟ فالجواب أن الوصية أوكد، لأنها أكثر ما يكون عند خوف الموت، وفي ذلك الوقت يكون قبولها أقرب، وإنما خص بنيه لأنهم كانوا أئمة يقتدى بهم. ثم فصل الوصية التي أوصى بها فقال: ﴿يَبْنِيَنَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ﴾ أي أعطاكم

(١) سورة الأنبياء، آية: ٥١.

الدين الذي هو صفوة الأديان، وهو دين الإسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ والمراد من الأمر الثبات على الإسلام^(١)، لأن الإسلام كان حاصلًا لهم، وإنما أدخل حرف النفي ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ للدلالة على أنَّ موتهم على غير الإسلام موتٌ لا خير فيه، يجب أن يحذروه غاية الحذر، وما مزج بهذه الوصية وصية أخرى، لشدة الاهتمام بها.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَاكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاتِنَا وَنَحْنُ أَكْبَرُ مُسْلِمُونَ﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مِمَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشِتُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

روي أن اليهود قالوا لرسول الله ألسنت تعلم أن يعقوب أوصى بنيهِ باليهودية يوم مات؟ فنزلت ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ وهذا انتقالٌ عن توبيخهم على رغبتهم عن ملة إبراهيم عليه السلام، إلى توبيخهم على افترائهم على يعقوب عليه السلام باليهودية، والمراد بحضور الموت حضور أسبابه^(٢)، أي ما كنتم حاضرين حين احتضاره عليه السلام، فلم تدَّعون ما تدَّعون؟ ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾؟ أي أي شيء تعبدونه؟ أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على

(١) هذا النهي ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ إنما ورد بصيغة الحصر، للمبالغة في التحذير من الموت على غير الإسلام، والمراد به الثبات على الإسلام، أي اثبتوا على الإسلام، ولا تفارقوه أبداً، حتى يدرككم الموت وأنتم على الإسلام الكامل، وقد تكرر هذا في القرآن، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

(٢) في قوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ كنايةٌ غريبة لطيفة، فقد شبه الموت بمسافر غائب، لا بدَّ أن يرجع إلى أهله، ويقدم على ذويه، فإذا رجع من السفر، حضر عندهم، ولذا يقال في الدعاء: «واجعل الموتَ خيرَ غائبٍ ننتظره».

الثبات عليهما، وكان هذا بعد أن دخل مصر، ورأى فيها من يعبد النار، فخاف على ولده، فحثهم على ما حثهم عليه، ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابَاكَ﴾ أعيد ذكر الإله لثلاثا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ عطف بيان لآبائك، وعد إسماعيل من آبائه لأنه كالأب لقوله ﷺ «عم الرجل صنو أبيه»^(١) والمعنى: قالوا نعبد إلهك، وإله آبائك المتفقة على وجوده تعالى وألوهيته، ووجوب عبادته ﴿إِلَهًا وَحْدًا﴾ بدل من إله آبائك، وفائدته التصريح بالتوحيد ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون في العبودية، ومتقادون لأمره ونهيه.

ثم بين تعالى أن كل أمة تُجزى بعملها، ولا تحمل وزر غيرها، فقال: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني إبراهيم، ويعقوب، وما بينهما من الأمم الموحدة، ومعنى ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت، وأصله صارت إلى الخلاء، وهي الأرض التي لا أنيس بها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي لكل أجر عمله، والمعنى: إن اتسابقكم إليهم، لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم ﴿وَلَا تُنْقَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ولا تؤاخذون بسيئاتهم، كما لا تُتابون بحسناتهم، فالمراد تخيب المخاطبين، وقطع أطماعهم عن الانتفاع بحسنات الأمة، وما قيل أي «لا تؤاخذون بسيئاتهم» ممّا لا يليق بشأن الأنبياء. كيف وهم منزهون من كسب السيئات، فمن أين يتصور تحميلها على غيرهم؟.

(١) أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٧٦٢ وهو طرف من حديث طويل وله قصة، فقد روى الترمذي أن العباس دخل على رسول الله ﷺ مغضباً، فقال له رسول الله ﷺ: ما أغضبك؟ فقال: يا رسول الله أرى قوماً من قريش يتلاقون بينهم بوجوه مسفرة - أي فيها بشاشة - وإذا لقونا لقونا بغير ذلك!! فغضب رسول الله ﷺ حتى احمر وجهه، وقال: والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل إيماناً، حتى يحبكم الله ورسوله، ثم قال: «يا أيها الناس، من أذى عمي فقد آذاني، إنما عم الرجل صنو أبيه» ومعنى الصنو المثل والشبيه، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ شروع في بيان إضلال أهل الكتاب، إثر بيان ضلالهم في أنفسهم، أي قالوا للمؤمنين ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أو للتنوع لا للتخير، ومعنى الآية قالت اليهود كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى ﴿تَهْتَدُوا﴾ جواب للأمر، أي إن تكونوا كذلك تهتدوا ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ خطاب للرسول ﷺ أي قل لهم على سبيل الرد، وبيان ما هو الحق، لا نكون كما تقولون، بل نكون على ملة إبراهيم عليه السلام، أي نحن أهل ملته ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الباطل إلى الحق، والحنيف: المائل عن كل دين باطل، إلى الدين الحق، مأخوذ من الحنَف وهو الميلُ عن الضلال، وضدّه الجَنَفُ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريضُ بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدعون أتباعه وهم مشركون.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٠) ﴿فَإِنَّمَا آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنَتْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣١) ﴿صَبَغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَكِيدُونَ﴾ (١٣٢).

﴿قُولُوا﴾ هذا خطاب للمؤمنين أي قولوا لهم بمقابلة ما قالوا تحقيقاً وإرشاداً لهم. ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي القرآن، قدّم ذكره لأنه الكتاب المحفوظ الذي جاء مصداقاً لغيره ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ من الصحف المنزلة من عند الله كما أن القرآن، منزل إلينا، والأسباط جمع سبط وهو الحافد، يريد بها حفدة يعقوب، وأبنائه، وذريتهم،

واختلف الناس في أولاد يعقوب أخوة يوسف، هل كانوا أنبياء أم لا؟ والصحيح الثاني، أنهم غير أنبياء، وإليه ذهب الإمام السيوطي، وألّف فيه، لأن ما وقع منهم مع يوسف عليه السلام، ينافي النبوة قطعاً، وليس في القرآن ما يدلّ على نبوتهم^(١) ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ من التوراة، والإنجيل، أفردهما بالذكر، لما أن الكلام مع اليهود والنصارى، ولكون أهل الكتاب حَرَفُوا، وادَّعُوا أَنَّهُمَا نَزَلَا كَذَلِكَ، اهتَمَّ بشأنهما فأفردهما، بالذكر ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من الآيات والمعجزات، وهو تعميم بعد التخصيص ﴿لَا تَفْرُقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي لا تؤمن ببعض، وتكفر ببعض، كما فعلت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ﴾ الله تعالى ﴿مُسْلِمُونَ﴾ مذكرون مخلصون، أي إسلامنا لأجل طاعة الله، لا لأجل اليهود والنصارى.

﴿فَإِنَّمَا آمَنُوا﴾ أي فإن آمن اليهود والنصارى ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنَ بِهِ﴾ أي آمنوا إيماناً مثل إيمانكم به، من الإذعان، والإخلاص، وعدم التفريق بين الرسل الكرام، بأن يؤمن الإنسان ببعض ويكفر ببعض ﴿فَقَدْ أَهْتَدَوْا﴾ إلى الحق، وإن لمجرد الفرض، والكلام من باب الاستدراج مع الخصم، حيث يراد تبكيته، يعني نحن لا نقول إننا على الحق، وأنتم على الباطل، ولكن إن حصلتم شيئاً مساوياً لما نحن عليه من الإيمان، فقد اهتديتم، ومقصودنا هدايتكم ليس إلّا، والخصم إذا نظر بعين الإنصاف في هذا الكلام، علم أن الحق ما عليه المسلمون لا غير ﴿وَلِئَلَّا تُؤْمِنُوا﴾ أي أعرضوا عن الإيمان، أو عمّا تقولون لهم، بأن أدخلوا بشيء من ذلك ﴿فَلَمَّا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي فما هم إلا في خلاف وعداوة، فإن كل واحد من المتخالفين في شقٍّ غير شقٍّ

(١) قال الحافظ ابن كثير ٤٨٧/٢: ولم يقم دليل على نبوة أخوة يوسف، ومن الناس من يزعم أنه أوحى إليهم، لهذه الآية ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾ وهذا لا يدل عليه، لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يُقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب، فالله عزّ وجلّ أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، وكل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان بني إسرائيل، وما فعلوه مع يوسف من الحسد، وإلقائه في الجب، وكذبهم على أبيهم، يدل على أنهم ليسوا أنبياء!!

الآخر، والتنوين للتفخيم، أي هم مستقرون في خلاف عظيم، والجملة الاسمية للدلالة على ثباتهم في ذلك، ولما دلَّ الشقاق على العداوة العظيمة، عَقَّب ذلك بتسليية النبي ﷺ وتفريح المؤمنين بالنصر، فقال ﴿فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ﴾ وعدُّ لهم بالحفظ، والنصر على من ناوأهم، وهو ضمانٌ من الله تعالى، لإظهار دين الإسلام، لأنه تعالى إذا تكفل بشيء أنجز وعده، وهو إخبار بالغيب وقد أنجز وعده، ونصر عبده، والمراد سيكفيكم كيدهم لأن الكفاية لا تتعلق بالأعبان، بل بالأفعال ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي أنه تعالى يسمع ما يدون، ويعلم ما يخفون، وهو معاقب لهم على ما يضمرونه من الشر.

﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ﴾ الصبغة من الصبغ وهو ما يلون به الثياب، أي صَبَّغَنَا اللهُ صبغة، وهي «فطرة الله التي فطر الناس عليها» فإنها حِلْيَةُ المؤمن، كما أن الصبغ حلية المصبوغ، وسماه صبغة لأنه تداخل قلوبهم، تداخل الصبغ بالثوب، وإضافته إلى الله تعالى للتشريف، والإيدان بأنها عطية منه تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً﴾ أي لا أحد أحسن من الله صبغة ودينًا، فهو استفهام بمعنى النفي ﴿وَمَنْ لَمْ﴾ أي الله الذي أولانا تلك النعمة الجليلة ﴿عَبْدُونَ﴾ شكرًا لها ولسائر نعمه.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَمَنْ لَمْ يُخْلِصُونَ ﴿١٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ مَا أَنَا بِأَعْلَمُ أَمْرَ اللَّهِ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

أتجادلوننا في دين الله؟ وتدعون أن دينه الحق، هو اليهودية والنصرانية؟ والمحااجة: المجادلة والمغالبة في إقامة الحجة، والهمزة للإنكار.

وقوله تعالى: ﴿فِي اللَّهِ﴾ أي في شأن الله، وفي أمر دينه، فترعمون أن دينكم هو الحق، وأنكم أبناء الله وأحباؤه؟! وهذه الآية ردٌ على اليهود، حيث قالوا: الأنبياء كلهم من بني إسرائيل، فلو كنت يا محمد نبياً لكنت متناً، وما هو إلا من باب الحسد، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ؟﴾ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا اختصاص له تعالى بقوم دون قوم، يصيب برحمته من يشاء من عباده. أي والحال أنه لا وجه للمجادلة أصلاً، لأنه تعالى ربُّنا وربكم، نشترك جميعاً في كوننا عباده تعالى ﴿وَلَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا﴾ أي لنا جزاء أعمالنا، ولكم جزاء أعمالكم، لا يحتمل أحد وزر غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي موحدون، نخلصه بالإيمان والطاعة دونكم، والإخلاص جعل الشيء خالصاً لله، والمخلص هو الذي يأتي بالعمل الصالح لا يريد به رياء ولا سمعة ويقابل الإخلاص الرياء، وعلاماته الكسل عند العبادة وحب الثناء على العمل.

﴿أَمْ يَقُولُونَ إِنَّا إِذْ هُمْ لَا سَمْعٌ وَلَا بَصِيرٌ وَلَا عِلْمٌ وَأَسْمَاءٌ﴾ يعني أنزعمون أن إبراهيم وبنيه كانوا على دينكم الأعوج ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ؟﴾ أي هل أنتم أعلم بديانتهم أم الله؟ وقد نفى الله الأمرين عن إبراهيم بقوله ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ واحتج عليهم بقوله: ﴿مَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ وهؤلاء الرسل المذكورون أتباعه في الدين، فكيف تدعون له ولهم، ما نفى الله تعالى عنهم، فما ذلك إلا جهل وضلال ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً﴾ ثابتة ﴿عِنْدَهُ﴾ كائنة ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ يعني شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية، والبراءة من اليهودية والنصرانية، والمعنى لا أحد أظلم من أهل الكتاب، لأنهم كتموا هذه الشهادة، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيدٌ لهم أي هو محيط بجميع ما تأتون وما تذكرون، فيعاقبكم بذلك.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ مرّ تفسيره، وهو تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحکم في الطباع، من الافتخار بالآباء، والاتكال عليهم.

وقيل: الخطاب فيما سبق لهم، وفي الآية هنا لنا تحذيراً عن الاقتداء

بهم.

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَنَهُمْ عَنِ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٦﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكِبْرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٧﴾ ﴾

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ يريد به المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين، واليهود، والمشرّكين، وإنما قال المنافقون لمجرد الطعن في الإسلام والاستهزاء، لا لاعتقادهم حقبة القبلة، والمشرّكون كانوا يقولون رغب عن قبلة آبائهم ثم رجع إليها، وليرجعن إلى دينهم أيضاً، واليهود كانوا يظنون أن موافقته لهم في القبلة ربما تدعوه إلى أن يصير موافقاً لهم بالدين، فلما تحوّل يشعروا، وقالوا قد عاد إلى طريقة آبائهم وذلك القول المحكي، لم يصدر عن كل فرد من تلك الطوائف، بل عن سفهائهم وأشقيائهم، المعتادين للخوض في الفساد، وفائدة الإخبار به توطین النفس، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه، أقطع للخصم، والعلم به قبل الوقوع يكون معجزة، وقال القفال: هذه الآية نزلت بعد تحويل القبلة، ويؤيده ما رواه البخاري عن البراء بن عازب قال: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدَسِ، سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا،

وكان ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل الله ﷻ ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ فقال السفهاء وهم اليهود ﴿مَا وَلَّيْنَاهُمْ﴾ أي أي شيء صرفهم ﴿عَنْ قِبَلِهِمْ﴾^(١) والقبلة من الاستقبال والمراد بها ههنا «بيت المقدس» ووصفها بقوله تعالى: ﴿أَلَيْكَ كَافُؤُاَعْلِيَّهَا﴾ أي مستمرُّون على التوجه إليها، لتأكيد الإنكار، ومدارُ هذا الإنكار بالنسبة إلى اليهود، زعمهم استحالة النسخ، وكرامتهم مخالفته ﷺ لهم ﴿قُلْ﴾ يارسول الله ﷻ ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ لا يختص به مكان دون مكان لخاصة ذاتية، وإنما العبرة بامثال أمره، لا بخصوص المكان، لأن الأماكن كلها لله، فيأمر بالتوجه إلى حيث شاء، لا اعتراض عليه لأنه المالك وحده ولا يمنع اختلاف المصالح، بحسب اختلاف الجهات، وقد بيَّن الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا، إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ الآية، فأمر الله تعالى المؤمنين حين كانوا بمكة، أن يتوجهوا إلى بيت المقدس، ليمتدوا من المشركين، فلما هاجروا إلى المدينة، أمروا بالتوجه إلى الكعبة، ليمتدوا من اليهود ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو ما توجه الحكمة، وتقتضيه المصلحة والتولية هداية يخصُّ الله تعالى بها من يشاء من عباده.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة، أي كما جعلناكم مهديين إلى الصراط المستقيم، وجعلنا قبلكم أفضل القبل، كذلك جعل البديع ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي خياراً وعدولاً، والوسط في الأصل اسم المكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحموده، لوقوعها بين طرفي إفراط وتفریط، كالجود بين الإسراف والبخل، ولما كان العباد لا يحيطون إلا بالظاهر، أقام الفقهاء الاجتناب عن الكبائر، وعدم الإصرار على الصغائر، مقياس الأفضلية، وسمَّوه عدالة في إحياء الحقوق أي جعلناكم أمةً وسطاً بين الأمم،

(١) فتح الباري على صحيح البخاري ٥٠٢/١.

لتمسككم بالخصال الحميدة ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لتعلموا بالتأمل فيما نصب الله لكم من الحجج، وما أنزل عليكم من الكتاب، أنه تعالى أوضح السبل، وأرسل الرسل، فبلغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وتشهدوا بذلك يوم القيامة على الأمم.

طريقة أداء الشهادة

روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله ببينة، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق، على لسان نبيه الصادق. أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بنوح وأمه يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول نعم، فيقال لأمه: هل بلغتكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير!! فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمه، فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ والوسط: العدل^(١). ثم يُسأل الرسول ﷺ عن حال أمته، فيشهد بعد التهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وهذه الشهادة وإن كانت لهم، لكن لما كان الرسول كالرقيب، المهيم على أمته، عُدِّي بعلی ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ أي وما شرعنا ﴿الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ وهي الكعبة المشرفة فإنه ﷺ كان يصلي إليها بمكة، ثم لما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس، وقال ابن عباس: كانت قبلته بمكة «بيت المقدس» إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه، والمعنى: إن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة،

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير رقم ٤٤٨٧ والترمذي رقم ٢٩٦١ ولفظ البخاري «يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمه: هل بلغتكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير!! فيقول من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمه، فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونِ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والوسط: العدل الذي تُقبل شهادته، اهـ.

وما جعلنا قبلك بيت المقدس، لشيء من الأشياء ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي إلا لنتحن الناس، فنعلم من يتبعك في الصلاة إليها، ممن يرتد عن دينك؟ فإن قيل: كيف قال ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ وهو لم يزل عالماً؟ أجيب عن هذا ونحوه أنه باعتبار التعلق أي ليتعلق علمنا به موجوداً، أو ليعلم رسولنا والمؤمنون، فالتغيير على المعلوم لا على العلم، ونبين هذا بمثال، وهو أن المرأة الصافية، إذا علقت في موضع، ثم عبر عليها زيد لباساً ثوبه الأبيض، ظهر فيها في ثوبه الأبيض، ثم إذا عبر عليها عمرو في ثوب أسود يظهر فيها كذلك، فهل يقع في ذهن أحد أن المرأة تغيرت؟ فعلم الله تعالى أعلى، لأن المرأة ممكنة التغيير، وعلم الله لا يتغير^(١) ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ إن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفاصلة، أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً فمعنى كبيرة أي شاقة وثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي هداهم إلى معرفة سر أحكامه الشرعية، المبنية على الحكم والمصالح، وهم المهديون الثابتون على الإيمان ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ أي ثباتكم على الإيمان، أو صلاتكم إليها، لما روي في الصحيح أنه ﷺ لما توجه إلى الكعبة، قالوا: كيف من مات قبل التحويل من إخواننا^(٢)؟ فنزلت الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَءَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا يضيع أجورهم، ولا أعمالهم الصالحة التي فعلوها، وهو تقرير للحكم، وتعليل له، فإن اتصافه عز وجل بهما، يقتضي أن لا يضيع عملهم، والرافة: عبارة عن إيصال النعم الصافية من الآلام، والرحمة أعم منه.

(١) خلاصة هذا أن علم الله تعالى لا يتبدل ولا يتغير، فهو سبحانه عالم بما كان، وما سيكون، وما هو كائن، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي لنظهر علمنا لعبادنا المؤمنين، فيعرفوا الحقيقة وينكشف لهم ما كان خفياً عنهم، وإنما أسنده إليه تعالى تشريفاً لرسوله والمؤمنين، وهذا الأسلوب شائع في لسان العرب يقولون: فتح عمر العراق، وجبى خراجها، وإنما فعل ذلك جنده وأتباعه.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٢٩٦٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلَبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٨)

قوله تعالى: ﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلَبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي قد رأينا يا محمد تردُّد وتصرُّف نظرك جهة السماء، انتظاراً للوحي، وكان ﷺ يتوقع من ربه أن تُحول القبلة إلى الكعبة، لأنها قبله آباؤه، وأقدم القبلتين، وأدعى للعرب إلى الإيمان، ولمخالفة اليهود، وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل، عن وجهه إلى وجه آخر ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً ﴾ فلممكننك من استقبالها ولنجعلنك تلي جهتها، وهذا الوعد كان قبل الأمر، لفرح النفس بالإجابة، ثم بإنجاز الوعد، ﴿ تَرْضَاهَا ﴾ أي تحبها وتتشوق إليها، وليس في اللفظ ما يدل على أنه ﷺ كان يطلب قبله معينة ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ الفاء لتفريع الأمر بالتولية على الوعد الكريم، وتخصيص التولية بالوجه لأنه أشرف الأعضاء وبه يتميز الإنسان، والتولية إذا كانت متعدية إلى واحد فمعناه الصرف أي اصرف وجهك ﴿ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ نحوه، والشطر جزء الشيء، وهو في الأصل لما انفصل عن الشيء، ويأتي بمعنى الجهة، والحرام أي المحرَّم فيه القتال، أو الممنوع عن الظلمة أن يتعرضوه، وإنما ذكر المسجد دون الكعبة، لأنه ﷺ كان في المدينة، والبعيد يكفيه الجهة، بخلاف القريب، عن ابن عمر قال: «بينما الناس بقاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن النبي ﷺ قد أنزل عليه قرآنٌ، وقد أمر أن يستقبل القبلة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة^(١)، وخص الرسول ﷺ بالخطاب، تعظيماً له، وإيجاباً لرغبته، ثم عمم الحكم

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٢٤/١ ومسلم في المساجد رقم ٥٢٦ والترمذي رقم ٣٤١ في باب ما جاء في ابتداء القبلة.

فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ أي من برّ أو بحر، من شرقي أو غرب، وأردتم الصلاة ﴿قُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي توجهوا نحو البيت الحرام وفائدة تعميم الأمكنة على ما ذهب إليه البعض، دفع توهم أن هذه القبلة مختصة بأهل المدينة ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أحبار اليهود، وعلماء النصارى ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي التحويل ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لعلمهم بأن الرسول ﷺ لا يأمر بالباطل، إذ هو المبشر به في كتبهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي عالم بجميع ما يعمله العباد، وسيجازيهم عليه، وفيه وعد ووعد للفريقين.

﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَيْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ أي ولئن جئتهم بكل حجة قاطعة، والآية برهان وحجة على أن الكعبة قبلة، وأن التوجه إليها هو الحق ﴿مَا تَتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ وهذا تسلية للنبي ﷺ، والمعنى: إنهم ما تركوا قبلك، لشبهة تزيلها الحجة، إنما هو عن مكابرة وعناد ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ مسوقة لقطع أطماعهم، أي ولست يا محمد متبعاً قبلتهم أبداً، قيل إن قبلة الطائفتين في الأصل بيت المقدس، وعيسى عليه السلام لم يصلّ جهة الشرق حتى رفع، وإنما كانت قبلته بيت المقدس، ثم بعد رفعه شرع أشياخ النصارى لهم الاستقبال إلى الشرق، واعتذروا بأن المسيح فوض إليهم تشريع الأحكام، وذكروا أن في الشرق أسراراً ليست في غيره، وأن المسيح حين صُلب استقبل الشرق، وقال ابن القيم: إنّ قبلة الطائفتين الآن، لم تكن قبلةً بوحي بل بمشورة، وليس في التوراة الأمر بذلك، والسامرة منهم يصلون إلى طورهم بالشام قرب بلدة نابلس، وهذان القولان - إن صحّا - لأشكل القول بأنه تعالى لم يخصص كل شريعة بقبلة ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة، والنصارى مطلع

الشمس، ولا يُرجى توافقهم كما لا يُرجى موافقتهم لك، لتصلبهم في الهوى وعنادهم ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ مَرَّ تفسيره، أي لئن اتبعت أهواءهم فَرَضاً ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه تحذير عن متابعة الهوى، ولقد بولغ في التأكيد، أولاً بالقسم، وإنَّ التحقيقية ﴿إِنَّكَ﴾ واللام في خبرها، وتعريف الظالمين، والجملة الاسمية، وفي هذه المبالغة تعظيمُ أمر الحق، والتحريض على اقتفائه، والتحذير عن متابعة الهوى، واستعظام لصدور الذنب عن الأنبياء، وقيل: الخطاب في الظاهر للرسول ﷺ والمراد أمته.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤١) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٢﴾

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ علماءهم، إذ هم العمدة في إيتائه، وقيل: أراد بهم مؤمني أهل الكتاب ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي الرسول ﷺ وإن لم يسبق ذكره، لدلالة الكلام عليه ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ كمعرفتهم أبناءهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم، يروى أن عمر رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال: نعم والله وأكثر، نزل أمينُ السماء جبريل، على أمين الأرض محمد بنعته، فعرفته كما وصفه تعالى بالتوراة، وأما ابني فلا أدري ما كان من أمه، فقد تكون قد خانتني فيه!! فقال له عمر: وفَّقَكَ اللهُ، ولهذا قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾^(١) ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أي وإن جماعة من رؤسائهم وأخبارهم، ليخفون الحق ولا يعلنونه، ويكتمون صفة محمد المذكورة عندهم في التوراة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وهم يعلمون حقيقة الأمر، ولكنهم فجرة يكابرون ويعاندون، وفي الآية تنبيه على كمال شناعة من يكتم الحق، وأنه لا يليق بالعلماء الكتمان.

(١) ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢٠٠/١ نقلاً عن القرطبي.

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أي ما أوحاه الله إليك يا محمد، من أمر القبله، ومن خبر الأحبار والرهبان، الذين يعرفون محمداً بصفته في التوراة والإنجيل، هو الحق القاطع، واليقين الساطع، فلا تكوننَّ من الشاكِّين فيما أخبرناك عنه. والخطابُ للرسول ﷺ والمراد أمته، يقال: امتري في الشيء أي شك فيهِ.

﴿ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا ﴾ أي ولكل أمة من الأمم، قبله ومنهاج يسير عليها أصحاب الملل، يتوجهون بها إلى الله - على زعمهم - فتوجهوا يا معشر المؤمنين إلى ما أرشدكم إليه ربكم، من أمر القبله والدين ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ أي سارعوا إلى فعل الخيرات ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً ﴾ أي في أي مكان أو موضع، تكونون فيه بعد موتكم، من أغوار الأرض، أو قُلل الجبال، أو أعماق البحار، يجمعكم الله للحساب، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي قادر على كل شيء، لا يعجزه أمر من الأمور مهما كان، فلا تشكُّوا في قدرة الرحمن.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِتَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ أي من أي مكان خرجت للسفر، تأكيد لحكم التحويل، وتصريح بعدم تفاوت الأمر، في حالتَي السفر

وَالْحَضَر ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إِذَا صَلَّيْتَ ﴿وَأَيْنُهُ﴾ وَإِنَّ هَذَا الْأَمْر ﴿لَلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِذَلِكَ.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ كرر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه تعالى ذكر للتحويل ثلاث علل: تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته؛ وجري العادة الإلهية على أن يؤلَّى كلُّ أهل ملة وجهةً يستقبلها ويتميز بها، ودفع حجج المخالفين، فإن القبلة لها شأن عظيم، والنسخ من مظان الفتنة، فبالحري. أن يؤكد أمرها، ويعاد ذكرها مرة بعد أخرى ﴿لِتَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ متعلق بمحذوف كأنه قيل: فعلنا ذلك لئلا يبقى لأحد عليكم حجة، كاحتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة، وأنه يتبعنا في قبلتنا، والمشركون بأنه يدَّعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي لئلا يكون لأحد من الناس حجة، إلا المعاندين منهم، فإنهم يقولون: ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه، وحباً لبلده، والحجة: الدليل والبرهان، كان من أقامها يقصد إثبات الحكم بها، فتقسم إلى حجة ناهضة يثبت بها الحق، وحجة داحضة^(١)، يُمَوِّه بها الباطل ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوهم، لأنهم لا يقدرُونَ على نفع ولا ضرر ﴿وَآخِشُونِي﴾ أي وخافوني فلا تخالفوا أمري ﴿وَلَا تَيْمَنَنَّ عَلَيْنَا﴾ بهدائتي إياكم إلى الكعبة المشرفة قبله أبيكم إبراهيم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولا إرادتي اهتداءكم إلى الصراط المستقيم، وعن علي: تمام النعمة الموت على الإسلام.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾
﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(١٥٦)

(١) الحجة الداحضة يعني الباطلة كما قال تعالى في سورة الشورى ﴿وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَغْدٍ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ، حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ﴾ متصل بما قبله أي ولأنتم نعمتي عليكم في أمر القبلة، كما أتممتها بإرسال رسول منكم، فإن إرسال الرسول، نعمة لا تكافئها نعمة، لما فيه من الشرف لهم، فإن البعثة منهم وفيهم، أقرب إلى قبول قوله، والانقياد له فيما كان سبباً لسعادة الدين والدنيا ﴿ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾ صفة ثانية للرسول، كاشفة لكمال النعمة، يعني القرآن، وذلك من أعظم النعم، وفيه إشارة إلى إثبات نبوته ﷺ لأن تلاوة الأمي، الآيات الخارجة عن طوق البشر، واشتمالها على المصالح التي ينتظم بها أمر المعاش والمعاد، أقوى دليل على نبوته ﴿ وَزَيَّنَّاكُمْ ﴾ يحملكم على ما تصيرون به مطهرين من دنس الشرك وقبيح الأعمال ﴿ وَنُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ صفة أخرى مترتبة في الوجود على التلاوة، وإنما وسط بينهما التزكية، للإيدان بأن كلاً من الأمور المترتبة نعمة جليلة بانفرادها مستوجبة للشكر، وهو السر في التعبير عن القرآن تارة بالآيات، وأخرى بالكتاب، وثالثاً بالحكمة، رمزاً إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ﴿ وَنُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ أي ما لا سبيل لكم إلى معرفته إلا بالوحي، وهو تخصيص بعد التعميم، مبين لكون إرساله ﷺ نعمة عظيمة، ولولاه لكان الخلق متحيرين في أمر دينهم، لا يدرون ماذا يصنعون.

﴿ فَأَذْكُرُوا فِي ﴾ بالطاعة والعبادة ﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾ بالمغفرة والثواب، واذكروني في النعمة والرخاء، أذكركم في الشدة والبلاء، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه، كمثل الحي والميت»^(١) فالمعنى: ﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾ أي أجازيكم بها، وعبر بالذكر للمشكلة، ولأنه نتيجه، والذكر يكون باللسان، وهو أن يستحبه، ويحمده،

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٧٥/١١ في الدعوات، ومسلم في صلاة المسافرين رقم ٧٧٩.

ونحو ذلك، ويكون بالقلب، وهو أن يتفكر في عظمة الله، وفي الدلائل الدالة على وحدانيته، ويكون بالجوارح مثل الطاعات والصلاة ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾ ما أنعمت به عليكم من النعم ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ بحمد النعم، وعصيان الأمر، فمن أطاع الله فقد شكره، ومن عصاه فقد كفره.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١٥٧)
 وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٨﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وصفهم بالإيمان إثر تعداد ما يوجبه، تنشيطاً لهم، وحثاً على مراعاة ما يعقبه من الأمر ﴿أَسْتَعِينُوا﴾ في كل ما تأتون وما تذكرون ﴿بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي، وحفظ النفس، وعلى الأمور الشاقة على النفس، التي من جملتها معاداة الكفرة، المؤدية إلى مقاتلتهم ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ أي وبأداء الصلاة التي هي أهم أركان الإسلام، فبالصبر تنالون كل فضيلة، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصرة، وإجابة الدعوة، ومعنى المعية: الولاية الدائمة المستتبعة للنصرة.

﴿وَلَا نَقُولُوا﴾ عطف على استعينوا ﴿لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقتل في سبيل نصرته دين الله ويموت شهيداً، وسبيلُ الله: كلُّ ما أمر الله تعالى به من الخير فهو سبيله، كالجهاد، والحج، وطلب العلم ﴿أَمُوتَ﴾ أي هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ بل هم أحياء ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ما حالهم؟ وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد، ولا من جنس ما يحسُّ به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل بل بالوحي، وعن الحسن البصري أن الشهداء أحياء عند ربهم، تُعرض أرواحهم على أرواحهم، فيصل إليهم الروح والفرح بالنعيم، كما تُعرض النار على أرواح آل فرعون، غدواً وعشياً، فيدخل إليها الألم والوجع، وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها، تبقى بعد الموت ذرّاة، وعليه جمهور الصحابة والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا فتخصيص الشهداء، لاختصاصهم بالقرب من الله، ومزيد البهجة والكرامة، قال أبو السعود رحمه الله: رأيت

في المنام سنة تسع وثلاثين وتسعمائة، أني أزور قبور شهداء أحد رضي الله عنهم وأنا أتلو هذه الآية، متفكراً في أمرهم، وفي نفسي أن حياتهم روحانية، فبينما أنا على ذلك، إذ رأيتُ شاباً منهم قاعداً في قبره تام الجسد في أحسن ما يكون من الهيئة، فنظرتُ إلى وجهه فرأيتُه ينظر إليَّ مبتسماً، كأنه ينهني على أن الأمر بخلاف رأيي!! فسبحان من علت كلمته، وجلّت حكمته^(١) واختلف في هذه الحياة، فذهب كثير من السلف إلى أنها حقيقة بالروح والجسد، ولكننا لا ندرکها في هذه النشأة، واستدلوا بسياق قوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وبأن الحياة الروحانية ليست من خواصهم، فلا يكون لهم امتياز بذلك على من عداهم، وذهب البعض إلى أنها روحانية، وكونهم يرزقون لا ينافي ذلك، وأنها من خصائص الشهداء .

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ
وَالشَّمْرِ تَبَشِيرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا
إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولنصيبكم إصابة من يختبر أحوالكم، هل تصبرون على البلاء، وتستسلمون للفضاء؟ وهل تشكرون فيما تحبونه وتصبرون فيما تكرهونه؟ وفيه إيماء إلى أنَّ المقصود من هذه الحياة الابتلاء، واللام جواب القسم، تقديره والله لنبلونكم، والخطاب للمؤمنين أي لنعاملنكم معاملة المختبر ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أي بقليل من ذلك، وإنما قلله بالإضافة إلى ما وقاهم منه، ليخفف عليهم، ويريهم أن رحمته لا تفارقهم، وإنما أخبرهم به قبل وقوعه، ليوطنوا عليه نفوسهم، ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له، وليعلموا أنه شيء يسير، له عاقبة حميدة،

(١) انظر هذه الرؤيا في إرشاد العقل السليم «تفسير أبي السعود» ١/ ١٨٠ .

والجوع: القحط وعدم حصول القوت ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي وشيء من نقص الأموال بموت المواشي ونحوه، ونقص الأنفس كموت الأصحاب والأحباب، ونحو ذلك، ونقص الثمرات أي ثمرات الحرث والأشجار، بحيث لا تغل الحقائق والمزارع ﴿وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يتأتى منه البشارة.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ المصيبة ما يصيب الإنسان من مكروه، في النفس، أو في الأهل، أو في المال، قليلاً كان أو كثيراً طفىء سراج رسول الله ﷺ فقال: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» فقبل أمصيبة هي يا رسول الله؟ قال: نعم، كل شيء يؤذي المؤمن فهو مصيبة وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُصَبِّ منه»^(١) يعني يبتليه بالمصائب، حتى يأجره على ذلك، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللهم أَوْجِرْني في مصيبتِي، وأخلف لي خيراً منها، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ في مصيبتِهِ، وأخلف له خيراً منها»^(٢) وليس الصبر والاسترجاع باللسان، بل به وبالقلب، والمصيبة إذا كانت من قبل الله، يجب الصبر عليها كالأمراض؛ ووفاة بعض الأولاد، وأما إذا جاءت من الظلمة، فالصبر عليها غير واجب، بل إن أمكن أن يدفع ذلك ولو بالمقاتلة، والمبشر به محذوف، دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ «أولئك» إشارة إلى الصابرين، والأجر لمن صبر عليها وقت إصابتها، كما في الحديث: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(٣) والصلاة في الأصل الدعاء، ومن الله تعالى التزكية

(١) الحديث أخرجه البخاري في المرضى ٩٣/١٠ ومالك في الموطأ ٩٤١/٢.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنائز رقم ٩١٨ وفيه قالت: أم سلمة فلما توفي أبو سلمة قلتُ كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ.

(٣) هذا طرف من حديث أخرجه الشيخان، من رواية أنس قال: مرَّ النبي ﷺ على امرأة =

والمغفرة، وجمعها للتنبية على كثرتها وتنوعها ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ أي هم المهتدون للحق والصواب، والفائزون بمطالبهم الدينية والدنيوية، فإن من نال رافة الله ورحمته، لم يفته مطلب.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ هما جبلان بمقربة من البيت الحرام، لهما مكانة جليلة في شريعة الإسلام، ولهذا قال: ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي من أعلام دينه، ومناسك حجه، التي تعبدنا الله بها، والشعائر جمع شعيرة وهي العلامة، وكل ما تعبدنا الله به من أمور الدين فهو من الشعائر، كالطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والأذان، والإقامة، وغير ذلك ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي فمن قصد بيت الله، للحج أو للعمرة، فلا إثم عليه أن يسعى بينهما، أي بين الصفا والمروة ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي ومن فعل خيراً، سواء كان فرضاً أو نفلاً، فإن الله شاكر له طاعته، ومجازيه عليها أفضل الجزاء، فإنه سبحانه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال، فلا ينقص من أجورهم شيئاً. وظاهر الآية: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ يشير إلى عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة، مع أنه من أركان الحج أو واجباته، ولهذا أشكل على عروة بن الزبير فهم الآية، حتى سأل خالته «عائشة» أم المؤمنين رضي الله عنها فقال: يا خالة، ما أرى بأساً على من ترك السعي بين الصفا والمروة! فقالت له: بشما قلت يا ابن أختي، لو كان الأمر كما ذكرت، لقال الله تعالى: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما،

= تبكي عند قبر علي صبي لها فقال لها: اتقي الله واصبري، فقالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي - ولم تعرفه - فقيل لها: إنه النبي ﷺ فأنت النبي تعتذر إليه وقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى.

ولكنَّ أهل الجاهلية كانوا يسعون بين الصفا والمروة لصنمَيْن: أحدهما على الصفا يسمى «إسافاً» والثاني على المروة يسمى «نائلة» فلما دخلوا في الإسلام كره المسلمون الطواف بينهما لأنه فعل الجاهلية، فنزلت الآية الكريمة تدفع عنهم الإثم والحرَج، وتخبر أنهما من شعائر الله، وأنه ينبغي أن يكون السعي بينهما للرحمن لا للأوثان، قالت عائشة: وقد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما^(١). وعن عاصم بن سليمان قال: قلت لأنس: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ فقال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية!! فهذا هو السرُّ في نفي الحرَج.

أما الحكمة من السعي بين الصفا والمروة، فهي لإحياء ذكرى قصة «هاجر» أم إسماعيل عليهما السلام، فإنه لما تركها إبراهيم عليه السلام مع طفلها الرضيع في الصحراء - قبل بناء البيت العتيق - وعطشت وعطش ابنها، أغاثها الله بماء زمزم، بعد أن سعت بين جبل الصفا، وجبل المروة عدة مرات، وهي تبحث عن الماء، لتنقذ حياتها وحياة وليدها، فبعث الله إليها «جبريل» عليه السلام، فضرب برجله الأرض، ونبع منه ماء زمزم، وقال لها: إن الله ههنا بيتاً يبنيه هذا الغلام وأبوه، فجعل الله أفعالها وسعيها طاعةً لجميع المكلفين، ليعلم الناس أن الله تعالى لا يضيع أجر الصابرين، وهذا هو السرُّ في مشروعية الطواف بين الصفا والمروة.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَاُولَٰئِكَ أَثُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾

(١) انظر تفصيل القصة في صحيح البخاري ٣/٣٩٨ وصحيح مسلم كتاب الحج رقم ١٢٧٧.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ نزلت في أحبار اليهود الخائنين، وهي عامة في كل من كتم شيئاً من أحكام الدين، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، والمعنى: إن الذين يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات، والدلائل الساطعات الواضحات، التي تدل على صدق محمد ﷺ في أمر النبوة والوحي ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ أي من بعدما أوضحناه لكل الناس، في كتب الله المنزلة على رسله، كالطورا والإنجيل والزبور، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ، الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^(١) فالمراد بالكتاب جنس الكتب الإلهية ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ أي أولئك المجرمون، الكاتمون لأوصاف الرسول عليه السلام، المحرّفون لأحكام التورا والإنجيل ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أي يطردهم ويُبْعِدُهُم من رحمته، ويذيقهم أليم نقمته. ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ أي يلعنهم أهل السماء والأرض، الملائكة، والمؤمنون، وجميع الخلائق من الإنس والجن، حتى البهائم والدواب، فكما أن العالم المبلغ لشريعة الله، يستغفر له كل شيء، حتى الطير في الهواء، والحيتان في الماء، كما ورد به الحديث الشريف، فكذلك الكاتمون لوحي الله، يلعنهم كل شيء في السموات والأرض.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي إلا الذين تابوا عن الكتمان، وندموا على ما صنعوا من العصيان ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أي وأصلحوا ما أفسدوه بالتدارك، ببيان حقوق الحق والخلق، ومن ذلك أن يصلحوا قومهم بالإرشاد إلى الدين الحق «دين الإسلام» ﴿وَبَيَّنَّا﴾ أي أظهرنا للناس حقيقة ما أنزل الله في كتبه المقدسة، لتتم توبتهم من التحريف والكتمان ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي فأولئك التائبون الصادقون، أقبل توبتهم، وأشملمهم برحمتي الواسعة، فأنا الرب الجليل، واسع التوبة، عظيم الرحمة.

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

قال ابن كثير: والآية وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل، من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدى النافع للقلوب، من بعدما بينه الله تعالى لعباده، في كتبه التي أنزلها على رسله^(١)، ولهذا جاء في الحديث «من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي إن الذين كفروا بالله، وماتوا ولم يتوبوا كأمثال هؤلاء الكافرين، واستمروا على الكفر، حتى داهمهم الموت، وهم على تلك الحالة الشنيعة ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي استقرَّ عليهم اللعن والطرْد، من الله والملائكة وأهل الأرض جميعاً، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً، ومعنى اللعن: الطرد والإبعاد من رحمة الله عزَّ وجلَّ، فالكافر يلعنه أهل السماء والأرض، لأنه مفسدٌ مخربٌ لنظام الله، حائد عن الصراط المستقيم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي خالدين في نار الجحيم، وفي إضمارها تفخيم لشأنها ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع، لا يخفُّ عنهم طرفة عين، كما قال سبحانه: ﴿لَا يُفْتَر عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾^(٣) ثم قال تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي ولا يُمهلون أو يُؤجَّلون،

(١) تفسير ابن كثير ٢٠٦/١.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٢٦٥١ وأبو داود رقم ٣٦٥٨ وفي رواية أبي داود «ألجمه الله

بلجام من نار يوم القيامة».

(٣) سورة الزخرف، آية: ٧٥.

بل يلاقيهم العذاب من حين مفارقة الروح للجسد، فهم في سكرات الموت معذبون، وفي القبر يرون أشد العذاب، وفي الآخرة لهم نار الجحيم، وهذه الصفات الثلاثة للعقاب: الخلود، وعدم الإمهال، وعدم التخفيف، تشير إلى يأس الكفار من الخروج من نار الجحيم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾^(١).

﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لنعم الله، وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة، أعقبه بذكر أدلة الوجدانية، وأتى بالبراهين الساطعة الدالة على وجود الإله الخالق، المدبر الحكيم فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة أيها الناس إله واحد، لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو جلّ وعلا، المتصف بالرحمة التامة، المفيض أنواع النعم على العباد، وفي الآية تقرير للتوحيد، فإنه تعالى حيث كان المولي لجميع النعم، صغيرها وكبيرها، وكان كل ما سواه مفتقراً إليه في وجوده وإمداده، تحققت وحدانيته بلا ريب، وانحصر استحقاق العبادة فيه وحده جلّ وعلا.

عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وفاتحة آل عمران: ﴿أَلَمْ يَلَمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(٢).

(١) سورة الزخرف، آية: ٧٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة رقم ١٤٩٦ والترمذي في الدعوات رقم ٣٤٧٢ وقال: حديث حسن.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْبَتَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١٦٦).

روي عن عطاء أنه قال: أنزل على النبي ﷺ بالمدينة ﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ الآية، فقال الكفار بمكة: كيف يَسْعُ الناسَ إلهٌ واحد؟ أي كيف يكفيهم إله واحد؟ حيث كان عندهم حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١) الآية. أي إن في إبداع السموات والأرض، بما فيهما من عجائب الصنعة، ودلائل القدرة، بما يعجز عن فهمها عقول البشر، وإنما جمع السموات لأنها طبقات منفصل بعضها عن بعض، بخلاف الأرض، والآية في السماء هي: ارتفاعها بغير عمد، وما يرى فيها من الشمس، والقمر، والنجوم، والمجرات، وحركة هذه الكواكب ودورانها، كما قال سبحانه ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والآية في الأرض ما يرى فيها من الجبال، والبحار، والمعادن، والأنهار، والنباتات، والثمار، والأشجار ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي تعاقبهما بنظام محكم، يأتي الليل فيعقبه النهار، ويمضي النهار فيعقبه الليل، ويأخذ هذا من هذا، فأحياناً يطول الليل ويقصر النهار، وأحياناً يقصر الليل ويطول النهار، حسب الأمكنة والأوقات، وحسب قرب البلاد وبعدها عن القطب الشمالي، أو خط الاستواء، فالبلاد القريبة من القطب الشمالي، أيامها الصيفية أطول، وليلها أقصر، من أيام البلاد البعيدة عنه، وهكذا يتعاقب الليل والنهار، لتحصل مصالح العباد، لأن انتظام أحوال البشر، بسبب الكسب والمعيشة يكون في النهار، وطلب الراحة والنوم يكون في الليل

(١) انظر أسباب النزول للواحدي، ص: ٢٥.

﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي والسفن الضخمة الكبيرة، التي تسير في البحر، وتجري على سطح الماء، وهي موقرة بالأثقال والرجال، بما فيه تحصيل مصالح الناس، من أنواع البضائع والسلع التجارية، والآية في هذه السفن، هي تسخيرها وجريانها على وجه الماء، مع ضخامتها وما تحمله على ظهرها من أثقال، والماء خفيف لطيف، فكيف حمل هذه السفن الضخمة على سطحه ولم تغص فيه، مع أن الحصاة الصغيرة لو طرحناها في الماء لنزلت إلى قعره؟ فسبحان من سيّرنا بقدرته، وأجراها برحمته، لتنقل ذرية بني آدم، من قطر إلى قطر ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا دُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾^(١) ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي وما أنزله الله من المطر، من السحاب الذي يعلو في السماء، فينزل قطرات قطرات، به حياة البلاد والعباد، وبه إنعاش البشر، وإخراج النبات والأرزاق، والآية في إنزال المطر، أن الله تعالى جعله سبباً لإحياء الجميع، من حيوان، ونبات، وشجر، وثمر، ولولاه لما عاش إنسان ولا حيوان ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^(٢) ثم نزوله عند وقت الحاجة بمقدار المنفعة كما قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾^(٣) فلو زاد على القدر المطلوب، لأهلك الحرث والنسل، وخرب ودمر، كما يحدث في بعض الأوقات من السيول المدمرة وسمى تعالى السحاب سماء، لأن كل ما علاك فأظلك فهو سماء كما قال أهل اللغة، والمطر إنما ينزل من السحاب، بنص القرآن العظيم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾^(٤) والودق: هو المطر

(١) سورة يس، آية: ٤١.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٣٠.

(٣) سورة المؤمنون آية ١٧.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ١٨.

﴿وَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ عطفٌ على «أنزل» أي وما نشر وفرَّق في الأرض، من كل ما يدبُّ عليها من إنسان، وحيوان، وهوام، وزواحف، المختلفة في أشكالها، وألوانها، وأحجامها، والدابة تجمع الحيوان كله «الفيل، والبعير، والغزال، والشاة، والزواحف» وغيرها مما لا يحصى من أنواع الدواب، وكلها من مخلوقات الله، كما قال سبحانه: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) والآية فيها اختلاف الأصوات، والأشكال، والألوان، والأحجام، فمنها المنتصب القامة كالإنسان، ومنها الذي يمشي على بطنه كالزواحف، ومنها الذي يمشي على أربع كالبعير وسائر الحيوانات ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ أي تقليب الرياح في هبوبها، جنوباً وشمالاً، حارة وباردة، ليئة وعاصفة، عقيماً وملقحة، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾^(٢) ومنها رياح تأتي بالخير والمطر وهي رياح الرحمة، ومنها ما يأتي بالعذاب والبلاء، كرياح الهلاك والتدمير ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيْحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالْزَمِيمِ﴾^(٣) وفي تصريف الرياح تربية للنباتات، وبقاء للحيوانات، ولو أمسك الله الرياح ساعة، لأنتن ما بين السماء والأرض، والرياح جسم لطيف وهي مع ذلك في غاية الشدة والقوة، تفلع الأشجار والصخور، وتخرب البنيان والدور ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي والسحاب المذلل بين السماء والأرض بقدرة الله، يسير حيث شاء الله، وهو يحمل الأطنان من المياه العذبة، ثم يصبه على الأرض قطرات قطرات، والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة، التي تسيل منها الأودية الواسعة، يبقى معلقاً بين

(١) سورة النور، آية: ٤٣.

(٢) سورة النور، آية: ٤٥.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٤١ - ٤٢.

السماء والأرض، فكيف حمل السحاب هذه الملايين من الأطنان من الماء؟ ثم قال تعالى: ﴿لَا يَنْتَظِرُ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾ أي لدلائل وبراهين عظيمة، دالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، والرحمة الواسعة، وختم الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾ أي يتفكرون بعقولهم في دلائل وجود الله ووحدانيته، ويدركون عظمة الله وجلاله، وقدرته وسلطانه، فيعرفون الخالق من آثار الخلق، والمبدع من بدائع الصنع.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة، من دلائل القدرة والوحدانية، ومن عجائب المخلوقات، التي بثها سبحانه في هذا الكون، ثمانية أنواع، تنبئها على ما فيها من العظمت والعبر، فإن المتفكر في هذه الأمور، يقطع بأنها من صنع إله قادر، مدبر حكيم، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿لَا يَنْتَظِرُ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾ وفي الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ سَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٤﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ أي ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة والحماقة، أن يعبد غير الله، من الأوثان والأصنام، ويجعلها أشباهاً ونظراء مع الله، كأنها تخلق وترزق، وهي حجارة صماء بكماء، لا تسمع ولا تنفع، ولا تدري من دعاها ممن دحاها ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي يعظمونهم ويطيعونهم ويخضعون لهم، كحب المؤمن لله، فيسوّون بين محبة الله ومحبة الأوثان، كأنهم في المنزلة سواء، وهذا عين الزيغ

والضلال، إذ كيف يُسوَّى بين الإله والحجر؟ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أي وحب المؤمنين لله أشدُّ من حب المشركين للأنداد، لأن محبتهم لله لا تنقطع، بخلاف محبة الأنداد فإنها لأغراض موهومة فاسدة، ولذلك كان المشركون يعدلون عن آلهتهم إلى الله عند الشدائد، ويعبدون الصنم زمناً ثم يعبدون غيره ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي ولو رأى الظالمون الذين عبدوا غير الله، حين يشاهدون العذاب الأليم، المعدَّ لهم يوم القيامة، أن القدرة كلها لله وحده، لا ينفع ولا يضُرُّ غيره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي وأن عذاب الله أليم شديداً! وجواب «لو» محذوف للتهويل أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة، ولاستعظم الإنسان ما حلَّ بهم من العذاب.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أي حين تبرأ المتبوعون من الأتباع، والرؤساء المضلون من الأنصار الأشقياء الذين قلَّدوهم ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَنَقَطَتِ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي وعانوا عذاب الله الشديد، وتقطعت بينهم روابط المحبة والألفة، وانقلبت إلى عداوة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي فَنَتَّبِعَ لِمِثْلِهِمْ﴾ أي وتمنى الأتباع لو أن لهم عودة ورجعة إلى الدنيا، ليتبرأوا من أولئك الزعماء الذين أضلوهم، كما تبرءوا هم منهم في ذلك الموقف العصيب، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أي كما أراهم الله العذاب، فذاقوه وعانوه، كذلك يريهم أعمالهم القبيحة، ندامات شديدة، وحسرات تتبعها زفرات، تتردّد في صدورهم، وليس لهم سبيل إلى الخروج من النار، لأنهم في عذاب سرمدي في نار جهنم.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ نزلت في المشركين الذين حرّموا على أنفسهم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، والخطاب عام يشمل جميع البشر، والمعنى: كلوا يا معشر الناس ممّا أحله الله لكم ممّا في الأرض ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي حال كونه حلالاً مستطاباً في نفسه، غير ضار للأبدان والعقول، والمراد بالطيب الحلال الذي أباحه الله لعباده ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي ولا تسلكوا طرق الشيطان، فيما يزيّنه لكم من المنكرات والفواحش، والخطوات جمع خطوة وهي ما بين قدمي الماشي، يقال: اتّبع خطواته: إذا اقتدى به ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ بيان لعداوته، ووجوب التحرز عن متابعته، والسوء والفحشاء ما أنكره العقل، واستقبحه الشرع، وقيل: السوء يعمّ القبائح، والفحشاء ما يجاوز الحد من الكبائر ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كقولكم هذا حلال، وهذا حرام بغير علم، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز إسناده عليه ومعنى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما لا تعلمون أن الله تعالى أمر به، والقول على الله تعالى بغير علم، من أعظم أصول المحرمات، فإنه أصل الأديان الباطلة، ومنشأ تحريف الأديان المحرّفة، كما فعل اليهود والنصارى في شرائعهم، ومن عموم الجهل أن أكثر المسلمين لا يشعرون بهذا، فيقولون: هذا حرام، هذا حلال، هذا مندوب أو مكروه من غير معرفة ولا دليل، والتحليل والتحريم حق الله وحده، كما نبّه سبحانه بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ وقد أمر الله بالتثبت والرجوع إلى أهل العلم عند عدم المعرفة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَّلُ
كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي وإذا قيل للمشركين، على وجه النصيحة والإرشاد: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والإرشاد، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والفساد ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي قالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا من العقائد والعبادات، أمروا باتباع القرآن فجنحوا إلى التقليد الأعمى للآباء والأجداد، قال تعالى رداً عليهم ﴿أَوَلَوْ كُنَّا آبَاءَهُمْ لَا يَقُولُوكُمْ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي أتتبعون آباءهم ولو كانوا أغبياء سفهاء؟ ليس لهم عقل، يردعهم عن الغي والضلال، ولا بصيرة تنير لهم طريق الهدى والخير؟.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٧)

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ هذا مثلٌ ضربه للكفار، في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الواضحة، أي ومثل هؤلاء الكفار، العمي عن هداية الله، كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها، فهي لا تفهم مراده، ولا تدرك غرضه، إنما تسمع النداء والصوت، دون أن تفهم الكلام والمراد، والمعنى: إن الكفرة لانهماكهم في التقليد، لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم، ولا يتأملون فيما يقرر، فهم في ذلك كالبهائم، التي ينق عليها، وهي لا تسمع إلا دوي الصوت، ولا تفهم ما تحته^(١)، يُقال: نعق الراعي: إذا صاح بغنمه

(١) ضرب تعالى مثلاً للكافرين في غاية الروعة والإبداع، فمثل لهم في عدم انتفاعهم بالقرآن، وحججه الساطعة، بمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها، فهي تسمع الصوت، دون أن تفهم المراد والكلام، فهؤلاء الكفار كالدواب السارحة، لا تفهم ولا تعقل ما يُقال لها، يسمعون القرآن ويصنّون عنه الأذان، فمثلهم كمثّل من يصيح بالماشية، يمر النداء على آذانهم يسمعون ولا يفقهونه.

﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَهَمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ شيئاً لأن طرق التعقل هو التدبر في مبادئ الأمور المعقولة، وذلك إنما يحصل باستماع آيات الله، ومشاهدة حججه، فإذا كانوا صمّاً، بكماً، عمياً، فقد انسَدَّ عليهم أبواب التعقل، وطرق الفهم بالكلية.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٦) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٧٧).

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لَمَّا وَسَّع الأمر على الناس كافة، وأباح لهم ما في الأرض، سوى ما حَرَّمَ عليهم، أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا، وأمرهم أن يقوموا بحقوق النعم، فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على ما رزقكم وأحل لكم ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي تخصونه بالعبادة، وتقرون أنه تعالى مُولي النعم، فإن عبادته تعالى لا تتم إلا بالشكر له، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء، يقول: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام، فأنى يُستجاب لذلك»^(١).

(١) أخرجه مسلم في الزكاة رقم ١٠١٥ والترمذي في التفسير رقم ٢٩٩٢.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ أي أكلها والانتفاع بها، وهي التي ماتت من غير ذكاة شرعية، وأُبيح من الميتة: السمك، والجراد، للحديث الشريف قال ﷺ: «أَحَلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ، وَدَمَانِ: السَّمَكُ وَالْجَرَادُ، وَالْكَبَدُ، وَالطُّحَالُ»^(١) وحكمه تحريم الميتة، أنَّ الدم يكون ضاراً، وإذا احتبس دمه فيفسد، وتفسد العضلات ويحصل منه ضرر عظيم ﴿وَالْدَّمَ﴾ أي مسفوحاً لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ وكانت العرب في الجاهلية، تجعل الدم في مصارين ثم تشويه وتأكله، فحَرَّمَ الله تعالى ذلك ﴿وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾ إنما خص اللحم بالذكر لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان، وسائر أجزائه كالتابع له، وقد أجمعت الأمة على أن الخنزير بجميع أجزائه محرم، وحكمة تحريم الخنزير للضرر والاستقذار، لملازمته للقطارات، وأما كون لحم الخنزير ضاراً، فهو مما يثبت الطب الحديث ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي رفع به الصوت عند ذبحه للصنم، والإهلال: أصله من رؤية الهلال، فقد جرت العادة أن يُرفع الصوت بالتكبير، إذا رُوي الهلال، لذلك سمي إهلالاً، أي وما ذبح للأصنام، وهذا حرام لسبب ديني محض، لا لأجل الصحة والنظافة، والمراد قول أهل الجاهلية: باسم اللات والعزى، وكانوا يرفعون أصواتهم بذكرهما ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ ألجىء وأُخْرِجَ إلى أكل الميتة ﴿غَيْرِ بَاطِلٍ﴾ متجاوز بالاستئثار على مضطر آخر ﴿وَلَا عَاقِبَ﴾ متعدد مقدار الحاجة، والإباحة للاضطرار فيقدر بقدر ما تندفع الضرورة، واستدل بعموم الآية على جواز أكل المضطر ميتة الخنزير والادمي خلافاً لمن منع ذلك ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الأكل، بل يأثم بترك التناول ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فلذا أسقط الحرمة في تناوله، وقيل: الحرمة باقية إلا أنه يسقط الإثم لاضطراره، كما هو الظاهر من تقييد عدم الإثم، والمغفرة إذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها أنه تعالى ستر عيبه، ثم رآه مفلساً فرحمه، وإذا ذكرت بعد الرحمة، يكون معناها أنه تعالى رأى عجزه، فترك عقابه، وستر ذنبه.

(١) أخرجه ابن ماجه في الأطعمه من حديث ابن عمر مرفوعاً رقم ٣٣٥٧.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (١٧٦) .

نزلت في رؤساء اليهود، الذين كتموا ما أنزل الله تعالى من صفة الرسول ﷺ طمعاً في حطام الدنيا، وحفاظاً على رياستهم الموهومة التي كانوا يتسلطون بها على رقاب الناس، فيأكلون أموالهم بالباطل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أي يخفون صفة النبي المذكورة في التوراة ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي يأخذون به عوضاً حقيراً من حطام الدنيا مقابل هذا الكتمان ﴿ أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ أي أولئك الأشرار الفجار، إنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة، شبه تعالى المال الحرام الذي أكلوه، برضف من جهنم يأكلونه يوم القيامة، زيادة في التقيح لهم والتشنيع عليهم، بتصويرهم بصورة من امتلأ بطنه من الشح، فأردى به في نار جهنم، وسمي مأكلهم ناراً لأنه يؤول بهم إلى النار، وهذا أسلوب معروف في لغة العرب، وجاء به القرآن، كقوله تعالى في آكل مال اليتيم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾ (١) وهكذا يلتقي الكاتمون مع آكلي أموال الأيتام في الإجمام ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ أي لا يكلمهم سبحانه كلام رضى كما يكلم المؤمنين، بل كلام سخط وغضب، كقوله سبحانه في الكفار ﴿ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا ﴾ فالمنفي هنا هو كلام اللطف والرضا، لا كلام الغضب والسخط، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَقَفَّوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مَا

(١) سورة النساء، آية: ١٠.

لَكُمْ لَا تَنَاصِرُونَ؟ وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثم زاد تبارك وتعالى لهم في العقوبة والنكال فقال: ﴿وَلَا يَرْحِمُهُمُ﴾ أي لا يطهرهم من دنس الذنوب، يوم يتطهر المؤمنون من ذنوبهم بالمغفرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم فوق ذلك عذاب مؤلم وجيع يصل ألمه إلى قلوبهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِالضَّلَالَةِ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي استعاضوا عن الهدى بالضلالة، وأخذوا الكفر بدل الإيمان، والعذاب بدل المغفرة ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾؟ أي ما أشد صبرهم على نار جهنم؟! وهو تعجب للمؤمنين من جرأة أولئك الفجار، على اقتحام النار مع ما نالهم من غضب الله وسخطه.

ثم بين تعالى سبب هذا السخط والعذاب فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي ذلك العذاب الذي ذاقوه، بسبب أن الله أنزل كتابه «التوراة» بالحق، فكنتموا وحرّفوا ما فيه طمعاً في حطام الدنيا ﴿وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِيَشْتَقِقَ بَعِيدٌ﴾ أي وإن اليهود والنصارى الذين اختلفوا في تأويل التوراة وتحريفها، وتحريف الإنجيل، لفي خلافٍ بعيد عن الحق والصواب، مستوجب لأشد العذاب.

﴿لَيْسَ إِلَهَ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤَفَّقُونَ يَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

الخطاب لأهل الكتاب «اليهود والنصارى» الذين اختلفوا في كتابهم اختلافاً كبيراً، صاروا بسببه في جدالٍ وشقاق، ومن أسباب شقاقهم خوضهم في أمر القبلة، حين حولت إلى الكعبة المشرفة، وادعت كل

طائفة أن البرّ هو التوجه إلى قبلته، فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي ليس فعل الخير وعمل الصالحات، مقصوراً على أمر القبلة، أن تتوجهوا في صلاتكم جهة المشرق والمغرب ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ أي ولكن البرّ الذي ينبغي أن يهتم بشأنه، والذي ينال به الإنسان رضى ربه، هو برّ من آمن بالله وحده، إيماناً بريئاً من شائبة الضلال والإشراك، وآمن باليوم الآخر، وبجميع الملائكة، والكتب، والرسل الكرام، من غير تفريق بين أحد منهم ﴿وَعَاتَىٰ أَمْوَالٌ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ أي وأعطى المال على محبته له، وشحّه به، ذوي القرابة منه، فمنهم أولى بالمعروف، وأعطى المال أيضاً لليتامى الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، والمساكين المعدمين الذين لا مال لهم، وفي الحديث الشريف «أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أيّ الصدقة أعظم أجراً عند الله؟ قال: أن تصدّق وأنت صحيحٌ شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان»^(١) ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي وأعطى المال أيضاً لابن السبيل وهو المسافر البعيد عن ماله، سُمّي به لملازمته للطريق، فكأنه ولد منه، وهو الغريب الذي فقد ماله، وللوسائل المحتاج الذي يسأل المال بدافع الحاجة، وفي فكّ الأسرى والأرقاء لتخليصهم من الرق، وهو الذي عناه تعالى بقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي فكّ الرقاب، فهذا هو البرّ ببذل الأموال على وفق مراد الله، في المصارف المذكورة ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾ أي أدى الصلاة المفروضة عليه، التي هي أهم أركان الإسلام، ودفع زكاة ماله إلى المحتاجين، فأدى حقّ الله وحقّ عباده ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ أي إذا وعدوا أنجزوا، وإذا نذروا أوفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، والعهد هنا عام يشمل حقوق الحق، وحقوق

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة من حديث أبي هريرة مرفوعاً رقم ١٠٣٢.

الخلق ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي والصابرين على الشدائد والمكاره، في الأنفس والأموال، وحين اشتداد القتال، وهو منصوب على المدح، لبيان فضل الصبر على سائر الأعمال، و﴿البأساء﴾ المراد بها: الفقر والفاقة، و﴿الضراء﴾ المراد بها: المرض ومصائب البدن ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي وقت اشتداد الحرب في المعركة، ومجاهدة العدو، ومنه حديث: «كنا والله إذا حمي الوطيس، واشتدَّ البأس، واحمَرَّتِ الحَدَقُ نتقي برسول الله ﷺ»^(١)، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي أهل هذه الأوصاف، هم الصادقون في إيمانهم، والكاملون في خشيتهم لله، والفائزون بمرتبة التقوى. والآية كما ترى جامعة للكلمات الإنسانية بأسرها، دالة عليها تصريحاً أو تلويحاً، فإنها - بكثرتها - منحصرة في ثلاثة أشياء: ١ - صحة الاعتقاد. ٢ - وحسن المعاشرة. ٣ - وتهذيب النفس، وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين﴾ وإلى الثاني بقوله: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ إلى آخر الآية. ولذلك وُصِفَ المستجمع لها بالصدق نظراً إلى إيمانه، وبالتقوى اعتباراً بمعاشرته للخلق، ومعاملته مع الحق، ومن عمل بهذه الآية، فقد استكمل الإيمان.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ
وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْيَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ
ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾
وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ أَلْبَابٍ لَّعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

(١) أخرجه مسلم في الجهاد رقم ١٧٧٦ ولفظه عند مسلم «قال البراء: كنا والله إذا احمرَّ البأس - أي اشتدت الحرب - نتقي برسول الله ﷺ، وإن الشجاع منا للذي يُحَاذِي به».

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ شروع في بيان بعض الأحكام الشرعية التي يبتنى عليها أمر المعاش والمعاد ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي فُرض عليكم عند مطالبة صاحب الحق، والوجوب بالنسبة إلى الحكام، أو القاتلين، ﴿الْقصاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ أي بسبب قتلهم، عُدي القصاصُ بفي لتضمنه معنى المساواة، إذ معناه أن يفعل بالإنسان مثل ما فعل، والمعنى: فُرض عليكم اعتبار المساواة بين القتلى ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ مبتدأ وخبر، أي الحرُّ مقتولٌ بالحرِّ، ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ أي والعبد يُقتل بالعبد، ولا يُقتل به الحرُّ، والأنثى تُقتل بالأنثى ولا يُقتل بها الرجل، فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به، وإذا قتل العبدُ العبدَ فاقتلوه به، ولا تعتدوا بقتل غير القاتل، والآية نزلت ردّاً على عدوان أهل الجاهلية، فقد كانوا إذا كان لبعضهم قوة وفضل، وقتل عبداً منهم قالوا: لا نقتل به إلّا حراً، وإذا قتلت أنثى قالوا: لا نقتل بها إلّا رجلاً، وإذا قُتل واحد قالوا لا نقتل به إلّا اثنين أو خمسة، فنزلت الآية تأمر بقتل الجاني فقط دون العدوان.

يروى أن واحداً قتل إنساناً من أشراف العرب، فاجتمع أقارب القاتل عند والد المقتول، وقالوا: ماذا تريد؟ فقال: إحدى الثلاث، قالوا: ما هي؟ قال: إما تحيون ولدي، أو تملؤون داري من نجوم السماء، أو تدفعوا جملة قومكم حتى أقتلهم، ثم لا أرى أنني أخذت عوضاً، وظلموا بمثل ذلك، فلما بعث الله الرسول ﷺ أوجب رعاية العدل، وسوّى بين العباد ﴿فَمَنْ عَفَى لَكُمْ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي شيء من العفو، وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التام، في إسقاط القصاص، والمراد من الأخ ولي المقتول، وفيه الإشارة إلى أن الأخوة الإسلامية لا تنقطع بالقتل ﴿فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ أي فليكن اتباع أو فالأمر اتباع والمراد به وصية العافي بأن يطالب الدية بالمعروف من غير تعنيف، والمعفو عنه بأن يؤديها بالإحسان، وهو أن لا يمطل ولا يبخس، ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم المذكور من العفو وأخذ الدية ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع،

فشرعة العفو تسهيل على القاتل، وشرعة الدية تنفيح لأولياء المقتول ﴿فَمَنْ
 اَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التخفيف فتجاوز بأن قتل غير القاتل، أو بعد أخذ الدية
 ﴿فَلَهُ﴾ باعتدائه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إما في الدنيا بالاقتصاص بما قتله بغير
 حق، وإما في الآخرة بعذاب النار.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة، من حيث
 جعل الشيء محل ضده، وعرف القصاص ونكر الحياة، ليدل على أن في
 هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع
 القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة النفسين، ولأنهم كانوا يقتلون غير
 القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتصر من القاتل، سلم
 الباقيون ويصير ذلك سبباً لحياتهم ﴿يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي يا ذوي العقول
 الكاملة، ناداهم للتأمل في حكمة القصاص، فمن لا عقل له يهديه إلى
 هذا الفكر، لا يحصل له ذلك التأمل، فلهذا أخص الله سبحانه بهذا
 الخطاب أولي الأبواب^(١)، واللب: العقل الخالص من الشوائب،
 ﴿لَمَّا لَكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون محارم الله، وتزجرون عن العدوان وسفك
 الدماء.

(١) اتفق علماء البيان على أن الآية الكريمة: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ بالغة أعلى
 درجات الفصاحة والبيان، ونُقل عن العرب في هذا المعنى قولهم «القتل أنفى للقتل»
 وفضل الآية عليه من وجوه: ١ - قلة الحروف. ٢ - الاطراد في الآية، إذ في كل
 قصاص حياة، وليس كل قتل أنفى للقتل، فإن القتل ظلماً أدعى للقتل. ٣ - خلو
 الآية من التكرار اللفظي، بخلاف حكمة العرب. ٤ - عذوبة اللفظ في الآية.
 ٥ - الطباق بين لفظ «القصاص» و«الحياة» إلى غير ما هنالك من الفوارق التي تجدها
 في نفحات الإعجاز، حيث جعلت الآية القصاص سبباً للحياة، والمثل جعل القتل
 سبباً لنفي القتل، وهو لا يستلزم الحياة، وانظر بقية الوجوه البيانية، في كتاب الإنشاد
 للسيوطي.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨) ﴿فَمَنْ بَدَّلُوا بَعْدَ مَا سَمِعُوا فَإِنَّمَا إِثْمُهُ
عَلَى الَّذِينَ يَبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٩) ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا
فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٠).

قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي حضر أسبابه،
وظهرت أماراته ومعنى حضر الموت أي أشرف على الموت وصار في النزع
﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ أي مالا، وقيل: مالا كثيرا، لما روي عن علي رضي الله عنه
أن مولى له أراد أن يوصي، وله سبعمائة درهم فمنعه، وقال: قال الله
تعالى: ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ والخير المال الكثير^(١)، وعن عائشة رضي الله عنها
أن رجلاً أراد أن يوصي، فسألت كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف، فقالت: كم
عيالك؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله تعالى: ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ فإن هذا
الشيء يسير، فاتركه لعيالك^(٢)، والظاهر أن الكثرة غير مقدرة، بل تختلف
 باختلاف حال الرجل، وكثرة عياله، وذهب الزهري أن الوصية مشروعة،
 قلَّ أو كثر المال ﴿ الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ مرفوع بكتب وكان
 هذا الحكم في بدء الإسلام، ثم نسخ عند نزول آية الموارث، بقوله ﷺ:
 «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، ألا لا وصية لوارث»^(٣) والحديث تلقته
 الأمة بالقبول، فانتظم في سلك المتواتر، في صلاحية النسخ، على أن
 التحقيق أن الناسخ هي آية الموارث وهي مستحبة في حق الذين لا يرثون،
 وإليه ذهب الأكثرون ﴿ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ أي حق على المؤمنين الذين يتقون.
 ﴿ فَمَنْ بَدَّلُوا ﴾ غيره من الأوصياء والشهود ﴿ بَعْدَ مَا سَمِعُوا ﴾ أي وصل
 إليه وتحقق عنده ﴿ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ ﴾ أي إثم التبديل ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَبَدِّلُونَهُ ﴾ على

(١) رواه البيهقي وجماعة عن عروة بن الزبير.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد والبيهقي من حديث أبي أمامة مرفوعاً.

مبدله، لأنه هو الذي حاف وخالف الشرع وإيثار الجمع للإيذان بشمول الإثم لجميع الأفراد ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعيد للمبدل بغير حق. ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ﴾ أي توقع وعلم، والمراد بالخوف الظنُّ الغالبُ الجاري مجرى العلم ﴿جَنَفًا﴾ أي ميلاً بالخطأ في الوصية ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تعمداً للحيف في الوصية ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصي وبين الموصى لهم، بإجرائهم على طريق الشرع ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في هذا التبديل، لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول، وقيل هذا في حياة الموصى أي فمن حضر وصيته فرآه على خلاف الشرع فنهاه، وحمله على الصلاح ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وعد للمصلح، وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت، فيضاران في الوصية فتجب لهما النار»^(١).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ مَمْلُكُتُمْ تَتَقُونَ ﴿١٨٧﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٩﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الوصايا رقم ٢١١٧ وزاد في آخره ثم قرأ علي أبو هريرة =

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بيان لحكم آخر، وتكرير النداء لإظهار الاعتناء بهم ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ الصيام لغة: الإمساك، ومنه يقال للصمت: صوم، لأنه إمساك عن الكلام، وشرعاً: إمساك عن أشياء مخصوصة، على وجه مخصوص، والمراد به صيام شهر رمضان، خُصَّ هذا الشهر بهذه العبادة، لأن فيه إنزال القرآن، وأضيفت فيه هداية الرحمن، وحصل فيه الظفر بيد بنصر العزيز المنان، وكان جبريل عليه السلام يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أي فرض عليكم صومه كما فرض ﴿عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأنبياء والأمم، وعن ابن عباس ومجاهد أنهم أهل الكتاب، وفيه تأكيد الحكم، وترغيب على الفعل، وتطبيب للنفس، فإنَّ الأمور الشاقة إذا عُمَّت طابت وسهل عملها، والمماثلة في أصل الوجوب، وقد كتب الصوم على أهل الملل السابقة، فكان ركناً من كل دين، لأنه من أقوى العبادة، وأعظم ذرائع التهذيب، وفي إعلام الله تعالى لنا بأنه فرضه على الذين من قبلنا، إشعاراً بوحدة الدين في أصوله ومقصده، ويروى أن صوم رمضان كان مكتوباً على اليهود والنصارى، ثم غيروه فتركه اليهود، إلّا صوم يوم من السنة، زعموا أنه اليوم الذي أغرق فيه فرعون، وزاد النصارى فيه حتى بلغ خمسين، فصعب عليهم في الحر فنقلوه إلى زمن الربيع ﴿لَمَّا كُمُ تَنَقُّونَ﴾ أي لعلكم تنتظمون به في زمرة المتقين، فالصوم إنما فُرض لمنفعتنا، لأنه يعدُّنا للسعادة، وإعداد الصيام نفوس الصائمين بتقوى الله سبحانه من وجوه:

١ - أعظمها أن الصوم أمرٌ داخلي، موكل إلى نفس الصائم، لا رقيب لأحد عليه، إلّا الله سبحانه وتعالى، وهو سرٌّ بين العبد وربّه، فإذا ترك الصائم شهوته ولذته، مدة شهر، امتثالاً لأمر ربه، ملاحظاً عند

= ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار...﴾ الآية وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

عروض كل رغبة جسدية، من أكل نفيس، وشراب لذيذ، وزوجة فاتنة، أنه لولا اطلاع الله عليها، لما صبر على ترك تلك الشهوات، لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة «ملكة المراقبة» لله تعالى، والحياء منه أن يراه حيث نهاه، وهذه المراقبة الدائمة من كمال الإيمان، كما جاء في الحديث القدسي: «يَدْعُ طَعَامَهُ وشهوَتَهُ من أَجَلِي» وهي أكبر وسيلة لسعادة الروح، فهل يُقدم من ثُلبس هذه المراقبة قلبه، على غشّ الناس ومخادعتهم؟ كلا!! إن صاحب هذه المراقبة لا يسترسل في المعاصي، لأن الصوم ربي نفسه.

٢ - ومن الوجوه الاجتماعية، أن الصائم عندما يجوع، يتذكر الفقير الذي لا يجد قوتاً، فيحثُّه التذكر على الرأفة والرحمة بعباد الله، فيمدُّ إليهم يد العون والإحسان.

٣ - ومن الوجوه أيضاً أن الصوم يُصَفِّي نفس الإنسان، ويهذِّب لسانه وسلوكه، وينقل الإنسان من «حيوانية» الأرض، إلى «ملائكية» السماء، فيجعله كالملائكة الأبرار الأطهار، الذين ليس لديهم ميل إلى المخالفة والعصيان، ومن أجل ذلك شُرع الصيام.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي هذا الصيام أيامه معدودات، وهي أيام قلائل، فلم يفرض الله على عباده صيام الدهر، حتى لا يشقَّ عليهم، وإنما جعله شهراً واحداً في السنة، رأفة ورحمة بهم، وأحد عشر شهراً يتقلبون في لذائذ الطعام، والشراب، والمتعة الجسدية، فما أرحم الله عزَّ وجلَّ بعباده!؟

متى شُرع الصيام؟

عن عائشة قالت: «كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان

ترك عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه»^(١) وكانت فريضة رمضان في السنة الثانية من الهجرة، قبل غزوة بدر، لسبع عشرة خلت من رمضان ﴿فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ مرضاً يضُرُّه الصوم، ويعسر معه، أو يخاف من الصوم زيادة المرض، ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أو راكب سفر، وفيه إيماء بأن من سافر أثناء اليوم لم يفطر، ولهذا أثر على قوله «أو مسافراً» فمعنى الآية: من كان عند دخول رمضان مريضاً، أو مشغلاً بالسفر فعلاً، فأفطر فعلة من أيام آخر، وهذا يسمونه فحوى الخطاب، وأكثر العلماء على تقييده بما يلزمه العسر غالباً، وهو السفر إلى المسافة المقدرة في الشرع ﴿فَوَسَدَةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فعلية صوم عدة أيام المرض، أو السفر، من أيام آخر، إن أفطر، فالمرضى والمسافر إن شاء صاماً، وإن شاء أفطراً، ومذهب الظاهرية وجوب الإفطار وهو غريب ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا ﴿فَذِيَّةٌ طَعَامٌ لِلسَّكِينِ﴾ هي قدر ما يأكله كل يوم، وهي نصف صاع من بر، أو صاع من غيره، وكان ذلك في بدء الإسلام، لما أنه قد فرض عليهم الصوم، وما كانوا متعودين له، فاشتد عليهم، فرخص لهم في الإفطار والفدية، ثم نُسخ، كما روي عن سلمة بن الأكوع قال: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ كان من شاء متاً صام، ومن شاء أفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فصارت هذه الآية ناسخة للتخيير»^(٢) ومن الناس من لم يقل بالنسخ، وفسرها بأن المراد يصومونه على جهدهم، لأن الإطاقة أدنى درجة الممكنة، والقدرة على الشيء، فلا تقول العرب: أطاق الشيء إلا إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف، بحيث يتحمل به مشقة شديدة، قالوا: والآية نزلت في الشيخ الكبير، والعجوز الهرمة، وقيل معناه: «لا يُطِيقُونَهُ» فأضمر «لا» لقراءة حفصة كذلك ﴿فَمَنْ نَظَّوَعَ خَيْرًا﴾ فزاد في الفدية، قاله

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة رقم ٥٤٠٤ في كتاب التفسير.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التفسير رقم ٤٥٠٧ ومسلم رقم ١١٤٥ في الصيام.

مجاهد، أو جمع بين الإطعام والصوم، قاله ابن شهاب ﴿فَهُوَ﴾ فالتطوع ﴿حَيْرٌ لَّهُ﴾ عند ربه ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي والصوم خير لكم من الفدية، أو من التأخير إلى أيام آخر ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصوم من الفضيلة والأجر العظيم ١١.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي ابتدئ فيه نزول القرآن الكريم، وإلا فإن القرآن نزل في جميع شهور السنة، في مدة ثلاث وعشرين سنة، وأما ابتداء نزوله فكان في شهر رمضان، وفي ليلة القدر منه على وجه الخصوص لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقيل: نزل جميع القرآن من اللوح المحفوظ، إلى بيت العزة في السماء الدنيا، في ليلة القدر من شهر رمضان، ثم نزل مفزقاً في مدة ثلاث وعشرين سنة، وهو مروي عن ابن عباس ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ أي أنزله الله هداية للناس بما فيه من الإيجاز والإعجاز، وبما فيه من الآيات الواضحات، التي تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فهو كتاب فريد، معجز في بيانه، واضح في أحكامه، جمع الله فيه الحلال والحرام، والحكم والأحكام ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي فمن حضره الشهر^(١)، ولم يكن مريضاً أو مسافراً، فليصم شهر رمضان، فإن الله ما فرض صيامه إلا لتذكيرنا بنعمة القرآن، التي هي أجل النعم بعد نعمة الإيمان ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي ومن كان مريضاً مرضاً يشق عليه، أو مسافراً سفرًا طويلاً شرعياً، فأفطر بسبب المرض أو السفر، فعليه صيام أيام أخر، بعدد الأيام التي أفطرها، ولا يشترط في السفر أن يكون على الدواب أو الأقدام، بل يحق له

(١) المراد بقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ هو حضور الشهر أي من حضره دخول الشهر، وهو حي غير ميت، ومقيم غير مسافر، فعليه أن يصومه، وليس معنى «شهد» أنه رأى الهلال وشاهده بنفسه، فإن الصوم يجب برؤية شاهد عدل لقوله ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» فتنبه الله يرباك. الصابوني.

الإفطار ولو كان بالسيارة أو الطائرة، بشرط أن تزيد المسافة على تسعين كيلو متراً، وهي مقدار ثلاثة أيام على الدواب مع الاستراحة، وهي المسافة التي تقصر فيها الصلاة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ أي يريد الله أن يسّر عليكم ولا يُعسر، فلذلك أباح لكم الفطر في السفر والمرض ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي ولتكمّلوا عدة صيام الأيام التي أفطرتُم فيها، بسبب السفر أو المرض ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ أي ولتحمّدوا ربكم، على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا الله على فضله وإحسانه.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ سببها أن قوماً من الأعراب قالوا يا رسول الله: أقریب ربُّنا فنناجيه - أي ندعوه سرّاً - أم بعيدٌ فنناديه؟ فنزلت الآية، أي إنني مع عبادي، أسمع دعاءهم، وأعلم حالهم، وأعرف تضرعهم، وأقضي حوائج السائلين، فأنا قريب منهم، وفي الصحيح: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»^(١) ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي أجيب دعاء من دعاني، إذا كان عن إيمان، وصدق طلب.

قال ابن كثير: والمراد من هذا أنه تعالى لا يُخَيِّبُ دعاء داع، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء، ففيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه^(٢)، وفي الحديث الشريف: «ما على ظهر الأرض من رجل مسلم، يدعو الله عزّ وجلّ بدعوة، إلّا آتاه الله إيّاها، أو كفّ - أي صرف - عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»^(٣) ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا إِلَى دَعْوَتِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي فليستجيبوا لي فيما دعوتهم إليه، من الإيمان والطاعة، كما أجيبهم إذا دعوني لمهمّاتهم، وليثبتوا على إيمانهم،

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان، وانظره في جامع الأصول ١٦١/٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٢٢٤/١.

(٣) الحديث أخرجه أحمد في المسند، ورواه الترمذي رقم ٣٥٦٨ وقال: حديث حسن صحيح غريب وزاد فيه «فقال رجل من القوم: إذا نُكِّيرُ، قال الله أكثر».

في أن ربهم سميع مجيب، راجين إصابة الرشد والسداد، وإنما وردت آية الدعاء ضمن آيات الصيام، للتنبيه على أن هناك أوقاتاً للإجابة، منها يوم الجمعة، ووقت السحر، وعند فطر الصائمين، كما جاء في الحديث الشريف: «إن للصائمين عند فطره دعوة ما تُردُّ»^(١)!! فينبغي للداعي أن يحرص على الأوقات الفاضلة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْتَنَ بِشُرُوهِنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا تَبْشُرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

وبعد أن ذكر آيات الدعاء، شرع في بيان تنمة الأحكام التي تتعلق بالصيام، فقال سبحانه:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ أي أبيع لكم يا معشر الصائمين جماع النساء في ليالي رمضان، ولفظة «أُحِلَّ» تقتضي أنه كان محرماً قبل ذلك، روي أن المسلمين كانوا إذا دخل المساء، أُحِلَّ لهم الأكل والشرب والجماع، إلى أن يصلُّوا العشاء أو يناموا، ثم إن جماعة من المسلمين اختانوا أنفسهم، وأصابوا النساء بعد النوم، منهم «عمر بن الخطاب» جاء إلى امرأته فأرادها، فقالت له: قد نمتُ، فظنَّ أنها تعتلُّ فوقع بها، ثم تحقق أنها كانت قد نامت، فجاء إلى رسول الله ﷺ يشكو

(١) أخرجه البيهقي كما في الترغيب والترهيب للمنذري ٨٩/٢ ورواه الترمذي بلفظ: «ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم».

أمره، وجاء رجال كذلك فاعترفوا بما صنعوا واعتذروا، فأنزل الله ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ أي أبيح لكم طيلة الليل في رمضان، معاشرة النساء وجماعهن، والرفث: كناية عن الجماع، وأصله قول الفحش وإنما ذكره هنا بلفظ الرفث، استقباحاً لما وُجد منهم قبل الإباحة، قال الزجاج: الرفث كل ما يأتيه الرجل مع المرأة من قبله، ولمس، وملاعبة، وجماع؛ قال الشاعر:

وَيُرَيْنَ مِنْ أُنْسِ الْحَدِيثِ زَوَانِيًا وَبِهِنَّ عَنْ رَفَثِ الرِّجَالِ نِفَارَ

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أي هنَّ سكنٌ لكم وسِتْرٌ، وأنتم سكنٌ لهنَّ وسِتْرٌ^(١)، وهو استئفافٌ يبين سبب الإحلال، وهو قلة الصبر عنهن، وصعوبة اجتنابهن، لكثرة المخالطة وشدة الملابس، ولما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل منهما على صاحبه، شُبِّهَ باللباس، ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تظلمونها بتعريضها للعقاب والاختيان أبلغ من الخيانة، ويقال للعاصي خائن لأنه مؤتمن على دينه ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لما تبتم مما اقترتموه ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ ومحا عنكم أثره أي ما فعلتم قبل الرخصة، فكان ذلك مما نفع الله به الناس ورخص لهم

(١) قال ابن عباس: أراد الله به الجماع، ولكن الله عز وجل كريمٌ حلِيمٌ يَكْنِي، فكلٌّ من الزوجين سكنٌ للآخر.

أقول: الآية جاءت في غاية الروعة والإبداع في تصوير «العلاقة الجنسية» وسلكت - بطريق الاستعارة - مسلكاً أفاض عليها البهاء والجمال، فقد شُبِّهَ المرأة باللباس، الذي يزيّن الإنسان، ويستر قبحه، ولولا اللباس لبدت سوءة الرجل، فكان منظره قبيحاً تنفر منه الطباع، فالمرأة ستر للرجل وسكن له، تزيّنه وتكمّله وتجمّله، والرجل ستر للمرأة، يزيّنها ويجملها ويسترها، وهما حالة الجماع كأنهما روحان حلاّ في جسد واحد، بثوب واحد، فستر كل منهما الآخر، فانظر إلى روعة البيان في تصوير القرآن ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ قال الشاعر:

إِذَا مَا الضَّجِيعُ نَسِيَ جِيدَهَا تَدَاعَتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاساً

﴿فَالَّذِينَ بَشِرُوا هُنَّ﴾ أي بعد نسخ التحريم، آن يثين، كحان يحين وزناً ومعنى ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ أي جامعوهن في ليالي الصوم، وهو أمر إباحة وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن، والمباشرة إلزاق البشرة بالبشرة، كنى به عن الجماع لالتصاق بشرتهما ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قدره الله لكم من الولد، فإنه الحكمة من خلق الشهوة وشرع النكاح. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَقًّا يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، وما يبدو معه من غلس الليل، بخيطين: أبيض، وأسود، واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله ﴿من الفجر﴾ عن بيان الخيط الأسود، لدلالته عليه، عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقال أسود، وعقال أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي وجعلت أنظر في الليل، فغدوت على رسول الله ﷺ وذكرت له ذلك، فقال: إنما ذلك سواد الليل، وبياض النهار^(١) وفي تجويز المباشرة إلى الفجر، دلالة على جواز تأخير الغسل إليه، وصحة صوم من أصبح جنباً ﴿ثُمَّ آتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ﴾ بيان آخر وقته، وإخراج الليل عنه ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ كِفَّةٍ فِي الْمَسْجِدِ﴾ معتكفون فيها، والاعتكاف هو اللبث في المسجد بقصد القرية، والمراد بالمباشرة: الوطء، وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون في المسجد، وأن الوطء فيه حرام ومفسد له، لأن النهي في العبادات يوجب الفساد. عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل»^(٢) ﴿تِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة، المشتملة على إيجاب، وتحريم، وإباحة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ حدود وضعها الله تعالى لعباده وقيل يجوز أن يراد بحدود الله محارمه لأن الأوامر تستلزم النواهي، والحد بمعنى المنع والحاجز بين الشيئين ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ نهى أن يقرب الحد الحاجز

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١٤/٤ ومسلم رقم ١٠٩١ في الصوم.

(٢) أخرجه البخاري في التراويح ٢٢٦/٤ ومسلم في الاعتكاف رقم ١١٨٣.

بين الحق والباطل، لئلا يداني الباطل، فضلاً عن أن يتخطى عنه، وهو أبلغ من قوله ﴿لَا تَعْتَدُوا﴾ وقال ﷺ «أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ جِمِّي، أَلَا وَإِنْ جِمِّي اللَّهُ مُحَارَمُهُ»^(١) ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ الدالة على أحكام الشرع ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مخالفة الأوامر والنواهي.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١٨٨) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٨٩).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ولما ذكر الله سبحانه الصيام: عقبه بالنهي عن أكل الحرام، المفضي إلى عدم قبول عبادته من صيامه واعتكافه، والمراد من الأكل ما يعمُّ الأخذ والاستيلاء، والمراد بالباطل الحرام ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ الإدلاء: الإلقاء، أي لا تتوصلوا بالخصومة فيها إلى الحكام على وجه الرشوة ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ بالرفع إليهم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بما يوجب إثمًا، كشهادة الزور واليمين الكاذبة، أو ملتبسين بالإثم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون، فإن ارتكاب المعصية مع العلم بها أقبح، وصاحبه بالتوبيخ أحق، عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سمع جَلِيَّةً خَضَمَ بَابَ حُجْرَتِهِ، فخرج إليهم، فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصمُ، فلعلَّ بعضهم أن يكون

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في الإيمان ١١٧/١ وأوله: إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهاة. . الحديث ورواه مسلم رقم ١٥٩٩.

الحنَّ بحجته من بعض، فأقضي له على ما أسمع منه، فمن قضيتُ له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»^(١).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ سألَه معاذ وثعلبة فقالا، يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو دقيقاً، ثم يزيد، ثم ينقص فنزلت الآية، وكان هذا سؤالاً على وجه الفائدة، أي ما سبب اختلافها؟ ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ فأمر الله تعالى أن يجيب، بأن الحكمة الظاهرة في ذلك، أن تكون معالم للناس، يوقتون بها أمورهم، ومعالم للعبادات، والمواقيت جمع ميقات من الوقت، استعير للمكان، وكان الجواب مبنياً على الحكمة الظاهرة اللاتقة بشأن التبليغ العام، المذكرة لنعمة الله تعالى، وهي أن يكون معالم للناس، يوقتون أمورهم الدينية والدنيوية، ولو كان الهلال مدوراً كالشمس، لم يكد ييسر التوقيت به، والحكمة الباطنة لم يذكرها لأنه لم يطلع عليه كل أحد، وهذا من الأسلوب الحكيم، وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيهاً على أنه الأولى بحاله، فإن السؤال عن الحكمة لا يتعلق به صلاح معاشهم ومعادهم^(٢) ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ روي عن البراء رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا فجاؤوا لم يدخلوا من قِبَلِ أبواب البيوت، فجاء رجل من الأنصار، فدخل من قِبَلِ بابه، فكانه عُبِّرَ بذلك، فنزلت^(٣) ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ إذ ليس

(١) الحديث أخرجه البخاري في الشهادات ٢١٢/٥ ومسلم في الأقضية رقم ١٧١٣.

(٢) يسمى هذا في علم البديع «الأسلوب الحكيم» فالصحابة رضوان الله عليهم سألوا رسول الله عن الهلال يبدو صغيراً، ثم يكبر حتى يصبح بداراً منيراً، فصرّفهم تعالى إلى ما هو أهم من هذا الأمر الظاهر، وكأنه يقول لهم: كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة، لا عن كيفية بدنه صغيراً دقيقاً ثم اكتماله في منتصف الشهر، فاعرفوا الحكمة من ذلك.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الحج ٤٩٤/٣ ومسلم في التفسير رقم ٣٠٢٦.

في العدول بڑ فباشروا الأمور من وجوها^(١) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تظفروا بالهدى والبر، فإن من اتقى الله تعالى، تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه، وانكشفت له دقائق الأسرار الإلهية حسب تقواه، وإتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُّوا إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعَدِّينَ﴾ ﴿١٩١﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ^٢ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلَكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩٢﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٣﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٩٤﴾

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جاهدوا لإعلاء كلمته، وإعزاز دينه، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»^(٢) قيل كان ذلك قبل ما أمروا بقتال المشركين كافة ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ وقيل معناه الذين يتوقع منهم القتال دون غيرهم من المشايخ والولدان والنساء ﴿وَلَا تَعَدُّوا﴾ بابتداء القتال، أو بقتال المعاهد، أو بالمثلة، أو نحو ذلك. وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا أمر أميراً على جيش، أو سرية،

(١) إنما كانوا يتخرجون من الدخول من الباب، حتى لا يحول سقف الباب بينهم وبين السماء، وهذا جهل منهم بحقائق الدين وتشريع الله.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦/٢١ ومسلم في الإمارة رقم ١٩٠٤.

أوصاه بتقوى الله في خاصته، ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: أُغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، أُغْزُوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً^(١) الحديث، فلا يقتل الشيوخ والنساء منهم قياساً عليهم بتلك العلة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ولا يريد بهم الخير، وهو تعليل للنهي، ونهي عن العدوان.

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفِفْتُهُمْ﴾ أي حيث وجدتموهم في حِلٍّ وحرم، وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء، وهو يتضمن معنى الغلبة، ولذلك استعمل فيها. رُوي أَنَّ الْمُشْرِكِينَ صَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَصَالِحُوهُ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ مِنْ قَابِلٍ، وَخَافَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ لَا يُؤْفُوا لَهُمْ، وَيَقَاتِلُوهُمْ فِي الْحَرَمِ وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَكَرَهُوا ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي من مكة وقد فعل ذلك من لم يسلم يوم الفتح ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي المحنة التي يُفْتَنُ بِهَا الْإِنْسَانُ، كَالْإِخْرَاجِ مِنَ الْوَطَنِ، أَصْعَبُ مِنَ الْقَتْلِ لِدَوَامِ أَلَمِ النَّفْسِ بِهَا، وَقِيلَ: شَرَكُهُمْ فِي الْحَرَمِ أَشَدُّ مِنْ قَتْلِكُمْ إِيَّاهُمْ فِيهِ، لِأَنَّهُ ارْتِكَابُ الْقَبِيحِ لِدَفْعِ الْأَقْبَحِ ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي لا تفتاحوهم بالقتال وهتك حرمة المسجد الحرام ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ فَإِنَّهُمْ هَتَكُوا حِرْمَةَ الْمَسْجِدِ، فَاسْتَحَقُّوا أَشَدَّ الْعَذَابِ، فَلَا تَبَالُوا بِقَاتِلِهِمْ، ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي مثل ذلك جزاؤهم، يُفْعَلُ بِهِمْ مِثْلُ مَا فَعَلُوا، لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا فَجَرَةً، لَا يَتَوَرَّعُونَ عَنْ انْتِهَاكِ مَحَارِمِ اللَّهِ.

﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ عن القتال والكفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف، واستدل به بعض المفسرين على قبول توبة القاتل العمد، لأن الكفر أعظم من القتل، والله يغفره لمن تاب وأتاب.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك ﴿وَيَكُونَ لِلدِّينِ لِلَّهِ﴾ خالصاً له، ليس

(١) الحديث أخرجه مسلم في الجهاد رقم ١٧٣١ والترمذي في السير رقم ١٦١٧ وأبو داود في الجهاد رقم ٢٦١٢ وهو حديث طويل وفيه أحكام كثيرة.

للسيطان فيه نصيب، والمراد من الفتنة: الشرك على ما هو المأثور، ويؤيده أن مشركي العرب ليس في حقهم إلا الإسلام، أو السيف، لقوله تعالى: ﴿تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُوا﴾ بخلاف الكتابي فأمرهم الله بحرمة تلك الكتب من القتل ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ عن الشرك ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي فإن انتهوا وأسلموا فلا تعتدوا عليهم، إذ لا يحسن الظلم إلا لمن ظلم، وتسمية الجزاء بالعدوان للمشكلة^(١)، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾^(٢).

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١٩٥) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٩٥).

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة واتفق خروجهم لعمره القضاء فيه، وكرهوا أن يقتلوه في حرمته، فقبل لهم: هذا الشهر بذاك الشهر، وهتك بهتكم، فلا تبالوا به ﴿وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ احتجاج عليه أي كل حرمة يجري فيها القصاص، فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله، فادخلوا عليهم عنوة، واقتلوه إن قاتلوكم ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ سمي مقابلته بأنه اعتداء لشبهها بالمقابل به في الصورة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الانتصار ولا تعتدوا إلى ما لم يُرخص لكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فيحرسهم ويصلح شأنهم.

(١) معنى المشكلة: الاتفاق باللفظ مع الاختلاف في المعنى، فالعدوان ظلم، ورد العدوان ليس بظلم بل هو عدل محض، وإنما جاء اللفظ ﴿فاعتدوا عليه﴾ بطريق المشكلة، ومثله قوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٤.

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في الجهاد، فإنه إذا قيد الإنفاق بذكر «سبيل الله» فالمراد به في طريق الدين، لأن سبيل الله هو دينه، فكل ما أمر الله تعالى في دينه من الإنفاق، فهو داخل في الآية، سواء كان إنفاقاً في حجة، أو عمرة، أو جهاد، أو في الزكاة، والكفارات، أو على العيال والأقارب وغير ذلك، إلا أن الأقرب في هذه الآية، أن يُراد بالإنفاق في الجهاد لتقدم ذكره ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ بالبخل عن الإنفاق في جهاد الأعداء، أو بالكف عن الغزو والإنفاق، فإن ذلك يُقَوِّي العدوَّ، ويسلطهم على إهلاككم، ويؤيده ما رُوي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: «لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ أَهْلُهُ، رَجَعْنَا إِلَى أَهْلِينَا وَأَمْوَالِنَا، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سَرًّا: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، فَلَوْ أَقْمْنَا فِي أَمْوَالِنَا فَأَصْلَحْنَاهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قَلْنَا، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ تَرَكُ الْغَزْوَ»^(١). والمراد لا توقعوا أنفسكم في الهلاك، واستدل بالآية على تحريم

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٩٧٦ وأبو داود رقم ٢٥١٢ وله قصة بديعة ذكرها المحدثون، ونحن نذكرها لما فيها من العظة والعبرة، حيث كانت في غزوة هامة غزاها جماعة من سادات الصحابة، لبلاد الروم، ولنستمع للرواية كما في سنن الترمذي عن «أسلم أبي عمران قال: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا لنا صفاً عظيماً من الروم، فخرج لهم من المسلمين مثلهم، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم، حتى اقتحم صفوفهم ودخل فيهم، فصاح الناس: سبحان الله! يلقي بيديه إلى التهلكة؟ فقام أبو أيوب الأنصاري، فقال: (يا أيها الناس، إنكم لتتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سَرًّا: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقْمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَاهَا مَا ضَاعَ مِنْهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ يَرُدُّ عَلَيْنَا ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ «فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةُ عَلَى الْأَمْوَالِ وَإِصْلَاحُهَا، وَتَرَكْنَا الْغَزْوَ، فَمَا زَالَ أَبُو أَيُوبَ شَاخِصاً - أَي مَسَافِراً - فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ» يعني في القسطنطينية، وهي التي تسمى اسطنبول)، وانظر جامع الأصول ٣٢/٢.

الإقدام على ما يخاف فيه تلفُ النفس ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم وأخلاقكم، أو تفضلوا على المحاويع بمساعدتهم ومعونتهم، وأمره بالإحسان مطلقاً، يدخل فيه الإعانة بالمال، وطلاقة الوجه، وحسن اللقاء، وحسن الذكر، والإحسان خلاف الإساءة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى المحتاجين فيثبتهم ويرضى عنهم.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا
رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن
صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَن تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ
فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ
يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ بيان لوجوب إتمام أفعالهما عند التصدي لأدائهما، وإرشاد للناس إلى تدارك ما عسى يعتريهم، من العوارض المخلة بذلك، من الإحصار ونحوه، والعمرة سنة على الراجح لقوله ﷺ: «الحجُّ جهادٌ، والعمرة تطوعٌ»^(١) وإتمامهما أداؤهما بشرائطهما، بلا توائٍ ولا نقصان، فهو دليل على أن من شرع فيهما لزمه إتمامهما ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي منعتم، يُقال: حصره العدو، وأحصره، إذا حبسه ومنعه من المضى، وكل منع من عدوٍّ أو مريضٍ أو غيرهما فهو إحصار، لما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كُسِرَ، أو عَرِجَ، فقد حلَّ، وعليه حجةٌ أخرى»^(٢) قوله فقد

(١) أخرجه ابن ماجه في المناسك رقم ٣٠٢٣ وأخرج الترمذي عن جابر أن النبي ﷺ سئل عن العمرة أواجبة هي؟ قال: «لا، وأن تعتمروا هو أفضل» قال الترمذي: حديث حسن، وروي عن ابن عباس الوجوب.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في الحج رقم ٩٤٠ وأبو داود في المناسك رقم ١٨٦٢ وحسنه الترمذي.

حَلَّ أَي جاز له أن يحلَّ ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي فعليكم أو الواجب ما استيسر، والسينُّ ليست للطلب، والمعنى: إن المحرم إذا أُحْصِرَ وأراد أن يتحلل، تحلل بذبح هدي يتيسر عليه، من بدنة، أو بقرة، أو شاة، حيث أُحْصِرَ عند الأكثر ولا يتحلل قبل الذبح، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ حَلَقُ الرَّأْسِ كناية عن التحلل، والخطاب للمحصرين لأنه أقرب، وحمل الكثيرون بلوغ الهدي محله، على ذبحه حيث يُحْصِرُ ويتحلل فيه، لما روي عن ابن عمر قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين، فحال كفار قريش دون البيت، فنحر ﷺ وحلق رأسه»^(١) ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا﴾ مرضاً يحوجه إلى الحلق ﴿أَوْ يَدُوعًا أَوْ مِنْ رَأْسِهِ﴾ كجراحة أو قمل ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فعليه فدية إن حلق ﴿مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بيان لجنس الفدية، وأما قدرها فقد روى الشيخان عن كعب بن عُجرة، قال: «أتى رسول الله ﷺ عليّ، وأنا أوقد تحت قدر لي، والقمل يتناثر على وجهي، فقال: أيؤذيك هوائُ رأسك؟ قال: قلت نعم، قال: فاحلق، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسكة، لا أدري بأي ذلك بدأ» النسكُ واحدتها نسكة أي ذبيحة، وأعلاها بدنة، وأوسطها بقرة، وأدناها شاة، ولم يبين محل الفدية، والظاهر العموم في المواضع كلها وهو مذهب الإمام مالك ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي فإذا لم تُحْصِرُوا، وكنتم في حال أمن وسعة ﴿فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ أي فمن انتفع بالتقرب إلى الله بالعمرة، قبل الانتفاع بتقربه بالحج في شهره، وقيل: من استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي فعليه دم استيسر عليه بسبب التمتع، شكراً لله للجمع بين النسكين، فهو كالأضحية ويذبح يوم النحر عند أبي حنيفة، وعند الشافعي دمٌ جبر يذبحه إذا أحرم. ولا يأكل منه ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الهدي ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ في أشهره بين الإحرامين، والأحب أن يصوم سابع ذي الحجة

(١) الحديث أخرجه البخاري في الحج ٨/٤.

وثامنه وتاسعه، فلا يصح في النحر وأيام التشريق لكون الصوم منهاً فيها، ﴿وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي نفرتم وفرغتم من أعمال الحج ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ﴾ أي هذه مجموع عشرة أيام، وفائدتها أن لا يتوهم أن الواو بمعنى «أو» وأن المراد بالسبعة العدد دون الكثرة، فإنها يطلق لها ﴿كَامِلَةٌ﴾ صفة مؤكدة تفيد المبالغة، محافظة على العدد^(١) ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى التمتع عند أبي حنيفة، إذ لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام، في حق أهل مكة، ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم أهل المواقيت فمن دونها إلى مكة عند أبي حنيفة، وعند الشافعي من كان من الحرم مسافة القصر، وعند مالك أهل مكة، وللمسجد الحرام إطلاقان: أحدهما نفس المسجد، والثاني الحرم كله، وإرادة المعنى الأخير في الآية هنا هو قول أكثر أئمة الدين ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه، وخصوصاً في الحج ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره، وتهاون بحدوده، وارتكب مناهيه، والعقاب هو مجازاة المسيء على إساءته.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَأْتُوا فِي الْأَلْبَابِ ١١٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ١١٨ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١١٩﴾

(١) لما جاز أن يتوهم متوهم التخيير بين الثلاثة في الحج، والسبعة إذا رجع إلى وطنه، أزيل ذلك بالجملة بقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ﴾ وأكد ذلك بقوله ﴿كَامِلَةٌ﴾ أي عشرة أيام كاملة تجزى عن الذبح، وثوابها كثوابه من غير نقصان.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ أي وقته، كقولك البرد شهران ﴿مَعْلُومَتٌ﴾ معروفات بين الناس، هي شوال، وذو القعدة، وعشر ذي الحجة عندنا، وهو المروي عن ابن عباس وابن مسعود وعند الشافعي تسعة بليلة النحر، لأن الحج يفوت بطلوع الفجر من يوم النحر، وعند مالك كل ذي الحجة، عملاً بظاهر لفظ الأشهر ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي أوجبه على نفسه بالإحرام والتلبية، أو بالإحرام والنية ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ هو الجماع أو ذكره عند النساء أو الكلام الفاحش ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ هو المعاصي، أو السباب، لقوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق»^(١) أو التنايز بالألقاب لقوله تعالى: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ وقال ابن عمر ما نهى الله تعالى عنه المحرم في حال الإحرام ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ ولا مرء ولا خصومة مع الخدم والرفقة، يقال: جادل إذا اشتدت خصومته ﴿فِي الْحَجِّ﴾ في أيامه، حرّم تعالى الرفث، والفسوق، والجدال، على قصد النهي للمبالغة، وللدلالة على أنها حقيقٌ بأن لا تكون، وما كانت منها مستقبحة في أنفسها ففي الحج أقبح فإن زيارة البيت المعظم، والقرب بها إلى الله تعالى، من موجبات ترك الأمور المذكورة، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حجّ ولم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمّه»^(٢) ثم حث على الخير عقيب النهي فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ فيجزى به خير الجزاء، فالخير أن يستعملوا مكان الرفث الكلام الحسن، ومكان الفسق البر والتقوى، ومكان الجدال الوفاق وحسن الأخلاق ﴿وَكَزَوْدُوا فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾ أي تزودوا لمعادكم التقوى فإنه خير زاد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت في أهل اليمن، كانوا يحبّون ولا يتزوّدون، ويقولون: نحن المتوكلون، فيكونون كلاً - أي

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن ٢٢/١٣ ونصّه الكامل «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر» وأخرجه مسلم والنسائي والترمذي.

(٢) الحديث أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم.

عَالَةً - على الناس، فأمرُوا أن يتزودوا، ويتَّقُوا الإبرام في السؤال^(١).
﴿وَأَتَّقُوا﴾ أي خافوا من عقابي أي أخلصوا في التقوى لله عزَّ وجلَّ
﴿يَكْأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فإن قضية العاقل خشية الله وتقواه، حثهم على التقوى،
ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى، فلذلك خصَّ أولي الألباب
بهذا الخطاب.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا﴾ أي في أن تبتغوا أي تطلبوا،
والجناح: الإثم ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي عطاء ورزقاً منه تعالى، يريد
الربح بالتجارة لما روي عن ابن عباس قال: «كانت عكاظ، ومجنة، وذو
المجاز، أسواقاً في الجاهلية، فلما كان الإسلام فكأنهم تأثموا بأن يتجروا
في المواسم، فنزلت^(٢)». ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ أي دفعتم منها
بكثرة، من أفضت الماء إذا صببته بكثرة، وإنما سمي الموقف «عرفة» لأنه
نُعت لإبراهيم عليه السلام، فلما أبصره عرفه، أو لأن جبريل عليه السلام
كان يدور به في المشاعر، فلما أراه قال: عرفت، والناس يتعارفون فيها،
وعرفات للمبالغة في ذلك، وهي من الأسماء المرتجلة ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾
بالتلبية، والتلهيل، والدعاء ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ جبل يقف عليه
الإمام ويسمى قزح، وقيل المشعر الحرام هو مزدلفة، وإنما سمي مشعراً
لأنه معلَّم العبادة، ومعنى عند المشعر الحرام ما يليه وما يقرب منه، فإنه
أفضل، وإلا فمزدلفة كلها موقف، إلا وادي محسر ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا
هَدَانَكُمْ﴾ أي كما علمكم وكما هداكم هداية حسنة إلى المناسك
وغيرها ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي الهدى ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي الجاهلين،

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢٤٦/١ وأصله في صحيح البخاري، ٣/٣٠٣ بلفظ «كان أهل
اليمن يحجُّون فلا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا
الناس، فنزلت الآية».

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الحج ٤٧٣/٣ وأبو داود رقم ١٧٣٢ في الحج
أيضاً.

لا تعرفون كيف تذكرونه، وتعبدونه، وتؤمنون به، عن ابن عباس قال: «إن أسامة بن زيد كان رديف النبي ﷺ من عرفة إلى المزدلفة من ثم أردف الفضل من مزدلفة إلى منى، فكلاهما قالا: لم يزل النبي ﷺ يلبي حتى رمى جمرة العقبة»^(١).

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي من عرفة لا من المزدلفة والخطاب مع قريش كانوا يقفون بجمع - أي مزدلفة - وسائر الناس، يقفون بعرفة، ويرون ذلك ترفعاً عليهم، فأمرُوا بأن يساووهم، وأن يفيضوا من عرفات ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من جاهليتهم في تغيير المناسك ونحوه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنب المستغفر، وينعم عليه، عن ابن عباس أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: «يا أيها الناس عليكم بالسكينة، فإن البرَّ ليس بالإيضاع»^(٢) أي بالسير السريع الشديد.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ﴿٢٠﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ عباداتكم المتعلقة بالحج، وفرغتم منها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ فأكثرُوا ذكره، وبالغوا فيه، كما تفعلون بذكر آبائكم في المفاخر، وكانت العرب إذا قضاوا مناسكهم، وقفوا

(١) أخرجه البخاري في الحج ٥٣٢/٣ باب التلبية والتكبير غداة النحر.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ٥٢٢/٣ وأحمد في المسند ٢١١/١.

بمنى، بين المسجد والجبل، يذكرون مفاخر آبائهم، ومحاسن أيامهم، فيقول بعضهم: أبي كبير الجفنة، رحب الفناء، كان يقرى الضيف، وكان كذا وكذا، يعدُّ مفاخره، ويتناشدون الأشعار في ذلك، وغرضهم الشهرة والسمعة ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ بل أكثر ذكراً من ذكر آبائكم، لأنه هو المنعم عليكم وعلى آبائكم، اذكروه بالتسيحات والدعوات ﴿فَمِنْ النَّاسِ﴾ تفصيل للذاكرين أي من الناس من لا يطلب بذكر الله إلا الدنيا ولا يريد شيئاً سواها، وهو المراد بقوله ﴿مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ أي اجعل إيتاءنا في الدنيا خاصة، يعني الجاه والغنى، والمشركون كانوا يقولون: اللهم أعطنا إبلاً، وغنماً، وعبيداً، ولم يطلبوا نعيم الآخرة، لأنهم ينكرون البعث ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ من نصيب، فهو بيان لحاله في الآخرة، أنه ما كان ينبغي بحجّه ثواب الله، وإنما همّه في نيل حطام الدنيا، ولذلك فقد نصيبه من نعيم الآخرة.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يعني الإيمان والأعمال الصالحة، والصحة، والكفاف، وتوفيق الخير، والعلم، والنصر، والعافية ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ المغفرة، والرحمة، والثواب، والجنة ﴿وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بالعفو والمغفرة، وعن الحسن معناه احفظنا من الذنوب المؤدية إلى النار، وعن علي: الحسنه في الدنيا: المرأة الصالحة.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي لكل منهم نوع نصيب، من جنس ما كسبوا، أو مما دعوا به، نعطيهم منه ما قدرناه، وتسمية الدعاء كسباً لما أنه من الأعمال ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب العباد على كثرتهم، وكثرة أعمالهم، في مقدار لمحجة بصر.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي كَبَرُوهُ أَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ، وعند ذبح القرابين، ورمي الجمار، وغيرها في أيام التشريع، روي عن ابن عمر: «أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام جميعاً، فيسمعه أهل المسجد، فيكبرون ويكبر أهل الأسواق، حتى ترتج منى»^(١) ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ أي استعجل النفر ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ في تمام يومين، أي بعد النحر، والمراد فمن نفر في ثاني أيام التشريق قبل الغروب بعد رمي الجمار ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ باستعجاله ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ أي النفر حتى رمى في اليوم الثالث ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ والمراد التأخير بين التعجل والتأخر، ولا يقدح في أفضلية الثاني، وإنما ورد بنفي الإثم تصريحاً، لرد أهل الجاهلية حيث كانوا مختلفين فيه ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ لمن اتقى المحظورات أو اتقى فيما بقي من عمره، ولم يرتكب ما يستوجب به العذاب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مجامع أموركم بفعل الواجبات وترك المحظورات، أو احذروا الإخلال بما ذكر من الأحكام وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء والحساب، وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق، وهو تأكيد للأمر بالتقوى، وموجب للامثال به، فإن من علم الحشر والمحاسبة والجزاء، كان ذلك من أقوى الدواعي عنده إلى ملازمة التقوى والمراد بقوله ﴿إِلَيْهِ﴾ أنه حيث لا مالك سواه، ولا ملجأ إلا إياه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ وَلِبَاسُ الْمِهَادِ ﴿٢٠٧﴾ .

(١) أخرجه البخاري في العيدين ٤٦١/٢ من فتح الباري ولفظه: «كان عمر يكبر في قبه بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون، ويكبر أهل الأسواق، حتى ترتج منى تكبيراً».

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ كلام مبتدأ سيق لبيان تحزب الناس في شأن التقوى إلى حزبين، وفيه تحذير من الاغترار بظاهر القول، أي ومنهم من يروفك كلامه، ويعظم موقعه في نفسك، لما تشاهد فيه من لطف الأداء، وحلاوة اللسان، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي في هذه الدنيا فقط، أما الآخرة فالحاكم فيها علّام الغيوب، الذي لا يخفى عليه سريرة ﴿وَيُثْبِتُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ يحلف، ويقول: الله يعلم أن ما في قلبي موافق لما في لساني، من محبتك ومن محبة الإسلام ﴿وَهُوَ الَّذِي أَخْصَارُ﴾ أي شديد العداوة والجدل للمسلمين في الباطن، وفي الآية إشارة إلى أن شدة الخصومة مذمومة، وهي من صفات المنافقين، لأنهم يحبون الدنيا فيكثرّون الخصومة عليها وفي الحديث الشريف: «تجدون من شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»^(١) والآية نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، كان حلو الكلام والمنظر، أقبل إلى النبي ﷺ في المدينة فأظهر له الإسلام، وأعجب النبي ﷺ منه، ثم خرج من عند رسول الله ﷺ فمرّ بزرع من المسلمين، وحُمِر، فأحرق الزرع، وعقر الحُمِر، وارتد عن الإسلام، وهذه الآية عامة في حق كل من كان موصوفاً بهذه الصفات، ونزولها في الأخنس لا يمنع من العموم^(٢).

﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ أدبر وانصرف عنك ﴿سَكَتَ فِي الْأَرْضِ﴾ أسرع جاهداً ﴿لِيُقْسِدَ فِيهَا وَهُلَكَ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ﴾ كما يفعله ولادة السوء بالقتل والإتلاف بالظلم، حتى يخرب الزرع والبهائم، والنسل: كل ذات روح، والمراد به نتاج الحيوان ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ لا يرتضيه ويكره ويبغض كل مفسد.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ٣٩٥/١٠ ومسلم في البر والصلة رقم ٢٥٢٦.

(٢) نزلت في الأخنس، كان منافقاً كذاباً، يخدع الناس بحلاوة لسانه، وحسن بيانه، وهي عامة في كل منافق، كما قال القائل:

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً وَيَسْرُوغُ فِيكَ كَمَا يَسْرُوغُ الثَّغْلَبُ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم والتكبر عن قبول الحق ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ أي كافيه جهنم، جزاء وعذاباً ﴿وَلَيْسَ الْمَهَادُ﴾ المهاد: الفراش أي بش الفراش نار الجحيم، والتعبير به للتهكم، وفي الآية ذم لمن يغضب إذا قيل له: اتق الله، روي عن ابن مسعود أنه قال: إن من أكبر الذنب، أن يقول الرجل لأخيه: اتق الله، فيقول: عليك بنفسك.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ يبيعها ويذلها في الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حتى يقتل في سبيل الله، فصار كالبائع، والله تعالى كالمشتري، والتمن ثواب الله ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ طلباً لرضاء، وهذا كمال التقوى ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ حيث أرشدهم إلى مثل هذا الشراء، وكلفهم بالجهاد، فعرضهم لثواب الشهداء، ومن رأفته أن النفس والمال له، ثم يشتري ملكه بملكه فضلاً منه^(١).

(١) نزلت هذه الآية في قصة صُهَيْبِ الرُّومِيِّ رضي الله عنه، فإنه لما هاجر إلى المدينة المنورة، لحقه رجال من قريش يريدون منعه، فنزل عن راحلته، ونثر ما في كنانته من السهام، وأخذ قوسه، ثم قال: يا معشر قريش تعلمون أنني من أربابكم رجلاً - أي لا أخطيء الرمي - والله لا تصلون إليّ، حتى أرمي بما عندي من السهام، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي حتى ينكسر، ثم افعلوا بي ما شئتم؟! قالوا: جئنا صعلوكاً - أي فقيراً - لا تملك شيئاً من المال، وأنت الآن ذو مالٍ وفير! قال: أرايتم إن دلتكم على مالي تخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، فدلّهم على ماله بمكة فذهبوا فأخذوه، ثم انطلق مهاجراً في سبيل الله، فلما وصل المدينة كان الوحى قد سبقه بالخبر، فدخل على رسول الله ﷺ فقال له الرسول: ربح البيع يا صهيب، ربح البيع، فنزلت الآية.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ
إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ
تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٢٣٠﴾﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ السِّلْمُ بالكسر
الإسلام، والاستسلام، والطاعة، وكافة بمعنى جميعاً، والمعنى استسلموا
لله تعالى وأطيعوه جملةً، ظاهراً وباطناً، وزُوي عن ابن عباس أنها نزلت
في أهل الكتاب، لما أسلموا أقاموا على تعظيم شرائع موسى فعظموا
السبت، وكرهوا لحوم الإبل والبانها، وقالوا: إن ترك هذه الأشياء مباح
في الإسلام، وواجب في التوراة، فأنزل الله هذه الآية، وأمرهم أن يدخلوا
في شرائع الإسلام، ولا يتمسكوا بالتوراة المنسوخة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ
الشَّيْطَانِ﴾ بمخالفة ما أُمِرتم به وبوساوسه فيما زَيَّن لكم ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، فإن قلت: إنا لا نرى هذه العداوة! قلت إن الله
تعالى بيَّن عداوته لنا، وأنه أغشَّ عباد الله لعبيد الله، وأنه كيف خدع آدم
حتى أكل من الشجرة.

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ أي انحرفتم عن الدخول في الإسلام أي ملتزم
وضللتهم، وأصل الزلة: السقوط ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآيات
والحجج، الشاهدة على أنه الحق، الموجبة للدخول في الإسلام ﴿فَاَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره، لا يعجزه الانتقام منكم ﴿حَكِيمٌ﴾
لا يترك ما تقتضيه الحكمة من مؤاخذه المجرمين، ولا ينتقم إلا بالحق.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي، أي ما ينتظر هؤلاء
المتبعون خطوات الشيطان ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ بالمعنى اللائق به، منزهاً

عن مشابهة المحدثات، وإيراد الانتظار للإشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة، كأنهم طالبون لها مترقبون لوقوعها ﴿فِي ظُلُلٍ﴾ جمع ظُلَّة كقلل جمع قُلَّة، وهي ما أظلك^(١) ﴿مِنَ الْغَمَامِ﴾ أي السحاب الأبيض، وإنما أتاهم العذاب فيه لما أنه مظنة الرحمة، فإذا أتى منه العذاب كان أفظع وأوجع ﴿وَالْمَلَكُ﴾ أي وتأتبهم الملائكة الذين وكلوا بتعذيبهم ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي وتم أمر إهلاكهم وفرغ منه، وضع الماضي موضع المستقبل لتيقن وقوعه ﴿وَالِإِلَهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ أي إلى الله تصير أمور العباد، في الدنيا والآخرة، فيجازيهم عليها بالثواب أو بالعقاب، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٢١﴾ زُنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أمر للرسول ﷺ أو لكل أحد من أهل الخطاب، والمراد بالسؤال تبكيتهم بذلك، وتقرير لمجيء البيئات، لا أن يجيبوا فيعلم من جوابهم، كما إذا أراد واحد منا توبيخ أحد، يقول لمن حضر: سلّه كم أنعمت عليه؟ وليس المراد بهذا السؤال العلم بالآيات، لأنه كان ﷺ قد علمها بإعلام الله تعالى: ﴿كَمَا آتَيْنَهُمْ مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ معجزة ظاهرة شاهدة على الحق، دالة على صدق رسول الله ﷺ وأهل الكتاب أعرف بالمعجزات، وكيفية دلالتها على الصدق، ﴿وَمَنْ يُدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي آيات الله، فإنها سبب الهدى، الذي هو أجل النعم، وتبديلها بالتحريف،

(١) الظُّلُّ جمع ظُلَّة وهي ما أظلك من فوقك كالسحاب والغمام، والتنكير فيها للتحويل فإنها في غاية المهابة والهول، لما لها من الكثافة التي تغم النفس.

والتأويل الزائع ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ من بعد ما وصلت إليه، وتمكّن من معرفتها، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١) ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة.

﴿رُئِيَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي حُسنت في أعينهم، وأشربت محبتها في قلوبهم، حتى تهالكوا عليها، وأعرضوا عن غيرها، والمزِينُ على الحقيقة هو الله تعالى، أو الشيطان بالأشياء الشهية، والوسوسة الخفية. ﴿وَيَسْتَحِرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يريد فقراء المؤمنين كبلال، وعمّار، وصهيب، أي يسترذلونهم، ويستهزئون بهم، على رفضهم الدنيا، وإقبالهم على الآخرة، والآية نزلت في أبي جهل وأضرابه، وهو مروى عن ابن عباس، وقيل: في رؤساء اليهود ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ هم الذين آمنوا، وإنما ذكروا بعنوان التقوى للإيذان بأنهم أعرضوا عن الدنيا زهداً فيها، لكونها مخلة بتوجههم إلى جناب القدس، ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لأنهم في أعلى العالين وأولئك في أسفل السافلين، ولأنهم في كرامة، وأولئك في مذلة ومهانة ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ في الدارين ﴿بِفَرِّحَسَابٍ﴾ بغير تقدير، فيوسع في الدنيا استدراجاً تارة، وابتلاءً أخرى، أو يرزق أوليائه المؤمنين في الآخرة، رزقاً واسعاً رغداً، لا زوال له ولا انقطاع.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي كان الناس على الفطرة وعلى

(١) سورة البقرة، آية: ٧٥.

الإيمان، فاختلّفوا وتنازعوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي فاختلّفوا فبعث الله، وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿فِيمَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد به الجنس، ولا يريد به أنزل مع كل واحد كتاباً يخصه، فإن أكثرهم لم يكن معهم كتاب، فالمعنى أنزل جنس الكتاب مقدار مصاحبته للنبيين حيث كان كل واحد منهم يأخذ الأحكام إما من كتاب يخصه أو من كتاب من قبله ﴿وَالْحَقُّ﴾ أي ملتبساً بالحق شاهداً به ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ الْتَّائِينَ﴾ علة للإنزال المذكور، أي ليحكم الله بما أنزله في كتابه بين عباده ﴿فِيمَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي في الحق الذي اختلفوا فيه، أو فيما التبس عليهم ﴿وَمَا اُخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي في الكتاب المنزل ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي الكتاب المنزل لإزالة الخلاف، أي عكسوا الأمر، فجعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف، سبباً لاستحكامه، والمراد من الذين أوتوه «اليهود والنصارى» واختلافهم هو تكفير بعضهم بعضاً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي الدلالات الواضحة على صدق الكتاب ﴿بَيِّنَاتٌ بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم، لحرصهم على الدنيا والرياسة، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالكتاب ﴿لِمَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي للحق الذي اختلف فيه ﴿مِنْ الْحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه، وفي إبهامه أولاً وتفسيره ثانياً ما لا يخفى من التفتيح ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بأمره وبارادته ولطفه ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو طريق الحق، الذي لا يضلّ سالكه، ويصل به إلى طريق السعادة والنجاة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٩﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآقَرِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ نزلت في غزوة الخندق، حين أصاب

المسلمين ما أصابهم، من الشدة والخوف، والبرد وسوء العيش، وأنواع الأذى، حتى بلغت القلوب الحناجر، والمعنى أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي والحال لم يأتكم مثلهم بعد، ولم تبتلوا بما ابتلوا به، من الأحوال الهائلة التي هي مثل في الفظاعة والشدة، وهو متوقع ومنتظر ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ﴾ أي أصابتهم الشدة، من الخوف والفاقة ﴿وَالضَّرَاءُ﴾ أي الآلام والأمراض ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أي أزعجوا إزعاجاً شديداً بما دهمهم من الأهوال والأفزع^(١) ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ أي انتهى أمرهم من الشدة، إلى حيث اضطربهم إلى أن يقول الرسول - وهو أعلم الناس بشؤون الله تعالى - والمؤمنون المقتدون بآثاره ﴿مَتَى﴾ أي متى يأتي ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾؟ طلباً وتمنياً له، واستطالة لمدة الشدة، ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ على تقدير القول أي فليل لهم: إن نصر الله قريب، فكونوا يا معشر المؤمنين كذلك، فإن نصر الله قريب، فلا تيأسوا من الفرج^(٢)، وفي الآية إشارة إلى أن الوصول إلى نصرة الله، والفوز بالكرامة، برفض الهوى واللذات، ومكابدة الشدائد والأهوال.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ شروع في بيان الأحكام، لأن من عادة القرآن الكريم أن يكون بيان التوحيد، والوعظ، والأحكام مختلطاً، ليكون كل واحد مقوياً للآخر، ومؤكداً له. روي عن ابن عباس أن الآية نزلت في

(١) هذا غاية الغايات في تصوير شدة المحنة، فإذا كان الرسل - مع علو منزلتهم في الصبر والثبات - قد استبطأوا نزول النصر، كان ذلك دليلاً على أن الشدة قد بلغت منتهاها، وأن الأمر في غاية الهول.

(٢) روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردة له في ظل الكعبة: فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحقر له في الأرض حفرة، فيجعل فيها، ثم يجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه - أي ما يطرده - والله ليمتنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

«عمرو بن الجموح» وكان شيخاً كبيراً وله مال كثير، فقال يا رسول الله: ماذا ننفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟ فتزلت الآية ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ من أصناف أموالهم ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي خير كان، ففيه تجويز الإنفاق من جميع أنواع المال ﴿فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ للإيذان بأن الأهم بيان المصارف، وليس في السؤال ما يقتضيه، لأن السؤال للتعليم، وحق المعلم فيه أن يكون كطبيب رفيق، يتحرى الشفاء، طلبه المريض أم لم يطلبه، ولما كانت حاجتهم إلى من ينفق عليه، بين الأمرين وهذا من الأسلوب الحكيم ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي المحتاجين منهم ﴿وَالْمَسْكِينِ وَالْبَنِي السَّبِيلِ﴾ ولم يتعرض للسائلين وفي الرقاب، إما اكتفاء بما ذكر في مواضع أخرى، وإما بناء على دخولهم تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ فإنه شامل لكل خير، وفي أي مصرف كان، فمن أحب التقرب إلى الله تعالى بالإنفاق، فالأولى به أن ينفق في الوجوه المذكورة في الآية، فيقدم الأول والأول ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِمُ عَلِيمٌ﴾ أي فإن الله يعلم ما تفعلونه من الخير، ويوفي ثوابه.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ أي فرض عليكم جهاد الكفار، ﴿وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ أي والقتال شاق عليكم، مكروه طبعاً، وهذا الكره من حيث نفور

الطبع، لما فيه من مؤنة المال، ومشقة النفس، وخطر الروح، لا أنهم كرهوا أمر الله تعالى، لأن هذا ينافي الإيمان، وذلك ككراهة الشارب للدواء البشع ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وهو جميع ما كلفوا به فإن الطبع يكرهه، وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم، ولفظة «عسى» توهم الشك مثل لعل، وهو من الله يقين، والمعنى: إن الغزو فيه إحدى الحسنتين: إما الظفر والغنيمة، وإما الشهادة والجنة، وربما كان الشيء الشاق سبباً للمنافع الجليلة، كشرب الدواء المر ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ وهو جميع ما نُهِوا عنه، فإن النفس تحبه وتهواه، وهو يُفْضي بها إلى الردى، ومن ذلك ترك الجهاد مع الأعداء، فإن فيه الذل، وضعف الأمر، وسبي الذراري، ونهب الأموال، وخروج الوطن من اليد، وإنما ذكر «عسى» الدال على عدم القطع، لأنه لما كانت النفس قابلة لعكس ما تهوى، لم يقطع بأنها تكبره ما هو خير لها وتحب ما هو شر لها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم وما هو شر لكم، وحُذِفَ المفعول للإيجاز ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك فبادروا إلى ما يأمركم، به، لأنه تعالى لا يأمركم إلا بما علم أن فيه خيراً لكم، وانتهوا عما نهاكم عنه، لأنه تعالى لا ينهاكم إلا عما هو شرٌّ لكم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش في سرية في جمادى الآخرة، ليرصدوا عيراً لقريش فيهم «عمرو الحضرمي» وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين، واستاقوا العير وكان ذلك غرة رجب، وهم يظنون من جمادى الآخرة، فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام، وعير بذلك أهل مكة من كان بها من المسلمين، وعنف المسلمون عبد الله وأصحابه فيما صنعوا، فعظم ذلك على أصحاب السرية، وقالوا يا رسول الله: لا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ ﴿فَقَالَ فِيهِ﴾ أي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام، أهو حلال

أم حرام؟ ﴿قُلْ﴾ في جوابهم ﴿فِتْنًا فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي إثم كبير، وفيه تقريرٌ لحرمة القتال في الشهر الحرام، والأكثرون أن هذا الحكم منسوخ، بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ فإن المراد من الأشهر الحرم أشهر معينة، أبيح للمشركين السياحة فيها ﴿وَصَدُّ﴾ صرفٌ ومنع ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الإسلام وما يوصل العبد إلى الله تعالى من الطاعات ﴿وَكُفْرٍ بِهِ﴾ أي بالله تعالى: ﴿وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ أي وصدٌ عن المسجد الحرام ﴿وإِخْرَاجَ أَهْلِهِ﴾ وهو النبي ﷺ والمؤمنون ﴿مِنْهُ﴾ أي من المسجد الحرام ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ مما فعلته السرية خطأ وبناءً على الظن، ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ أي ما فعلوه من الإخراج، والصد عن الإسلام، وما يعذبون به المسلمين ليكفروا ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي من قتل الحضرمي ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ﴾ بيان لاستحكام عداوتهم، وإصرارهم على الفتنة في الدين ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ الحق إلى دينهم الباطل، إخبار عن دوام عداوة الكفار لهم، وأنهم لا ينفكون عنها تحذيراً للمؤمنين عنهم ﴿إِنْ أَسْطَلَعُوا﴾ وهو استبعاد لاستطاعتهم ذلك، وإشارة إلى تصلب المؤمنين في الدين، كأنه قيل: أنى لهم ذلك؟ ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ الحق، تحذير من الارتداد أي ومن يفعل ذلك بإضلالهم، أو الخوف من عداوتهم ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ بأن لم يرجع إلى الإسلام، وفيه ترغيب إلى الرجوع إلى الإسلام ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول، باعتبار اتصافه بالارتداد، والموت عليه ﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي أعمالهم الحسنة التي كانوا عملوها في حالة الإسلام ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بحيث لم يبق لها حكم من الأحكام الدنيوية والآخرية، لبطلان ما تخیلوه من الفوائد، يقال: أحبط الله عمله أي أبطله ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كسائر الكفرة لا يخرجون من النار أبداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢١٨).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نزلت في أصحاب السرية، لما ظن بهم أنهم إن سلموا من الإثم، فليس لهم أجر ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد، فكأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ ثوابه، أثبت لهم الرجاء، إشعاراً بأن العمل غير موجب، ولا قاطع لدخول الجنة، سيما والعبرة بالخواتيم، والهجرة هي الخروج من أرض إلى أرض، والمجاهدة أصلها من الجهد وهو المشقة لنصرة الدين ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ لما فعلوه خطأ ﴿رَجِيمٌ﴾ بإجزال الأجر والثواب لهم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكَبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْمَوْفُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَمَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢٢٠﴾ .

روي أن عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل مع نفر من الأنصار، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: أفيتنا يا رسول الله في الخمر، والميسر؟ فإنهما مذهبة للعقل، ومسليّة للمال؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الخمر مصدر خمره أي ستره، سمي به لتغطيتها العقل، والتميز والخمر النبيء من ماء العنب، إذا غلى واشتد وقذف بالزبد، وهو حقيقة في كل مسكر، لما في الصحيحين «كل مسكر خمر»^(١) ومن أنكر حرمة

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة ٣٥/١٠ ومسلم رقم ٢٠٠٣ في الأشربة أيضاً ولفظه «كل مسكر خمر»، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يدمنها، لم ينب منها، لم يشربها في الآخرة» وانظر الروايات في جامع الأصول ٩٨/٥.

الخمير، فقد كفر لجحوده الكتاب، إذ سمّاه الله، رجساً، والرجس محرم العين فيحرم ولو قطرة والحق الذي لا ينبغي العدول عنه، أن الشراب المتخذ من العنب وغيره كيفما كان، وبأي اسم سُمّي، متى كان بحيث يسكر حراماً، وقليله ككثيره، ونجاسته غليظة، ويحد شاربه لما ورد في الصحيح «كل شراب أسكر فهو حرام»^(١) والأحاديث فيه متضاربة، والميسر من اليُسْر سُمّي به، لأنه أخذ المال يُيسر، من غير كد ولا تعب وقد كان لأهل الجاهلية عشرة أزلام أي أقداح: الفدّ، والتوأم، والرقيب، والحلّس، والنفاس، والمسبل، والمعلّى، والمنيع، والسفيح، والوغد، فلكل منها نصيب من جزور ينحرونها، ويجزئونها ثمانية وعشرين جزءاً؛ فلفدّ سهم، وللتوأم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحّلّس أربعة، وللنفاس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلّى سبعة، ولا سهم للمنيع، والسفيح، والوغد، ويجعلونها في خريطة، ويضعونها على عدل عندهم، ثم يجلبجلبها - أي يخلطها - ويدخل يده فيخرج باسم رجل زلماً - قدحاً - فمن خرج له نصيب من ذوات الأنصباء، أخذ نصيبه، ومن خرج له من تلك الثلاثة التي لا نصيب لها، غرم ثمن الجزور، مع حرمانهم، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء، ولا يأكلون منها، ويفتخرون بها، وفي حكمه أنواع القمار، من النرد، والشطرنج وغيرهما^(٢) ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ لأن الخمير مسلبة للعقول، التي هي قطب الدين والدنيا، مع كون كل منهما متلفة للأموال، ومسببة للتخاصم والتشاتم، وقول الزور، والمقاتلة،

(١) أخرجه البخاري في الأشربة ٤١/١٠ ولفظه: عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن - البتع - وهو نبيذ العسل، وكان أهل اليمن يشربونه - فقال رسول الله ﷺ «كل شراب أسكر فهو حرام».

(٢) ومن القمار المحرّم، ما انتشر في هذا الزمان باسم «أوراق اليانصيب» ولو كان القصد منها جمع المال للمؤسسات الخيرية، كالمستشفيات، والمدارس، وصندوق الإعانات الخيرية، فالشأن فيها جميعاً شأن الجزور في الجاهلية فهو حرام، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

والانتحار، وترك المأمور، وفعل المحذور، وفي تقديم إثمه ووصفه
 بالكبير، وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس من الدلالة على غلبة
 الأول ﴿وَمَنْفَعُ النَّاسِ﴾ وهي كسب الطرب واللذة، وتشجيع الجبان،
 وتسخية البخيل، وأخذ المال باليسر في الميسر^(١)، ونصّ على غلبة الأول
 بقوله ﴿وَأَثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أي المقاسد التي تنشأ منهما، أعظم من
 المنافع المتوقعة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي يسألونك ماذا ينفقون من
 أموالهم، وماذا يتركون؟ ﴿قُلِ الْمَفْهُومُ﴾ أي أنفقوا ما تيسر من أموالكم، وما
 فضل عن حاجتكم، وكان التصديق في أول الإسلام بالفضل فرضاً، فإذا
 كان الرجل صاحب زرع، أمسك قوت سنة، وتصدق بالفضل، فنسخت
 بآية الزكاة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان
 عن ظهر غنى»، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول^(٢)
 وقيل: هو في صدقة التطوع، إذ لو كان المراد بهذا الإنفاق الواجب لتبين
 قدره ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة
 على الأحكام الشرعية، وتبيين الآيات تنزيلها مبينة الفحوى، واضحة
 المدلول، لا أنه تعالى يبينها بعد أن كانت مجملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي
 لكي تتفكروا فيها، وتقفوا على مقاصدها، وتستنبطوا الأحكام، وتفهموا
 المصالح المنوطة بها.

-
- (١) المنافع في الخمر مادية، وليست منافع صحيّة أو روحية، فقد كانوا يبيعون الخمر
 بأثمان غالية، فيربحون منها مباح خيالية، وليس في الخمر أي منافع بدنية، اللهم
 إلا تلك التصورات والأوهام، التي عبّر عنها شعراء الجاهلية:
 وَتَشْرِبُهَا فَتَتْرَكُنَا مُلُوكاً وَأُسْدَاءَ لَا يَنْهَتُنَا اللَّقَاءُ
 أي تجعلهم الخمرة كأنهم ملوك وشجعان لا يغلبهم أحد، والجنون فنون.
 (٢) الحديث أخرجه البخاري في الزكاة ٢٩٤/٣ ومسلم رقم ١٠٣٤.

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في أمور الدارين، فتأخذوا بالأصلح والأنفع منهما، وتجتنبوا ما يضرُّكم ولا ينفعكم، أو لتفكروا في الدنيا وزوالها، والآخرة وبقائها، وهو المروي عن ابن عباس والحسن ﴿وَيَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ روي أنه لما نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ الآية، تحرَّج المسلمون تحرجاً شديداً، حتى عزلوا أموال اليتامى عن أموالهم، وتركوا مخالطتهم، فاشتد ذلك عليهم، فسألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي مداخلتهم لإصلاحهم وإصلاح أموالهم، خير من مجانبتهم^(١) ﴿وَلِنْ تَخْلَطُوهُمْ﴾ وتعاشروهم على وجه ينفعهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين، الذي هو أقوى من العلاقة النسبية، ومن حقوق الأخوة، وموجبها، المخالطة بالإصلاح والنفع أي أن تخلطوهم في الطعام والمسكن، وفي الآية دليل خلط مال الولي بمال اليتيم، والتصرف فيه بالبيع والشراء، إذا وافق الإصلاح، وعلى أنه لا بأس بتأديب اليتيم، وفيها دلالة على جواز الاجتهاد، لأن الإصلاح يعلم بالاجتهاد ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ وعيدٌ ووعد، لمن خالطهم لإفساد وإصلاح، أي يعلم أمره فيجزيه عليه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ﴾ أي لو شاء الله لأوقعكم في الحرج والضيق والمشقة، ولكنه يسر عليكم الدين فلم يكلفكم ما يشق عليكم، والعنتُ: شدة المشقة، والضرر، وأصله حمل الإنسان على مشقة لا تُطاق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ «عزيز» أي غالبٌ على أمره، حكيم أي لا يفعل إلا ما تقتضيه المصلحة، ولهذا لم يكلفكم بما لا تطيقون.

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا رقم ٢٨٧١ والنسائي ٢٥٦/٦ ولفظه عن ابن عباس قال: «لَمَّا نَزَلَ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ وَنَزَلَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ انطلق من كان عنده يتيماً، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فإذا فضل من طعام اليتيم وشرابه شيء، حُسب له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ...﴾ الآية فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم».

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَا مُمْسِكَةً ۚ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۚ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۚ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَسُبْحَنَ ۚ آيَتِهِ ۚ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾ أي لا تتزوجوا يا معشر المسلمين بالمشركات الوثنيات، اللواتي ليس لهن دين سماوي، حتى يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا يدخل بالمشركات هنا اليهوديات والنصرانيات، لأن لهن حكماً خاصاً لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي العفيفات من الكتابيات^(١) ﴿وَلَا مُمْسِكَةً ۚ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي ولأمة مملوكة مؤمنة، خير وأفضل من حرة مشركة كافرة، لا تؤمن بالله ورسوله، ولو أعجبتكم المشركة بحسنها وجمالها ومالها، فالإيمان أساس في الزواج ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ من الإنكاح، والمراد بهم الكفار على الإطلاق، أي لا تتزوجوا المشركين بالمؤمنات، سواء كن حرائر أو إماء ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ ويتركوا ما هم فيه من الكفر، واستدل بها على اعتبار الولي في النكاح مطلقاً، وانعقد الإجماع على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج بالكافر ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ مع ما به من ذل المملوكية ﴿خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ﴾ مع ما له من الحرية ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ بما فيه من دواعي الرغبة تعليل للنهي عن مواصلتهم وترغيب في مواصلة المؤمنين

(١) هذا الحكم بشرط أن يكون للزوج المسلم، السلطة الكاملة على أولاده، وأن يكونوا تبعاً له عند الفراق، كما هو في النظام الإسلامي، أما إذا خاف أن يتبعوا أمهم كما هو الحال في النظام الغربي والأمريكي، أو كان للأُم الكتابية السلطة على تربية الأولاد، فيحرم الزواج بها خشية ضياع الأولاد، وتعريضهم للتنصّر على يد أمهم النصرانية، فتدبر الأحكام والله يردعك.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي المذكورون من المشركات والمشركين ﴿يَدْعُونَ﴾ من يقارنهم ويعاشرهم ﴿إِلَى النَّارِ﴾ أي إلى ما يؤدي إليها من الكفر والفسوق، فلا بد من الاجتناب عن مقارنتهم والمقصود أن المؤمن يجب أن يكون حذرا عما يضره في الآخرة، ويجتنب ما يُفضي إلى العذاب، مع أن النفس والشيطان يعاونان على ما يؤدي إلى النار ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي إلى الاعتقاد الحق، والعمل الصالح، الموصِلين إليهما، ﴿يَاذِنُوهُ﴾ بتوفيق الله تعالى، وتيسيره ﴿وَبَيِّنْ أَيْتِيَهُ لِلنَّاسِ﴾ المشتملة على الحكم الرائعة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتذكروا ويعملوا بما فيها، فيفوزوا بما دُعوا إليه من الجنة والغفران.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٢٣﴾.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ روي عن أنس أنه قال: «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت - أي لم يسكنوها في بيت واحد ولم يخالطوها - فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»^(١) أي اصنعوا كل شيء من الملاعبة والمضاجعة إلا

(١) هذا طرف من حديث أخرجه مسلم في كتاب الحيض ٢٤٦/١ وتتمته: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل - يعنون محمداً ﷺ - أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَعَبَادُ بْنُ بَشْرٍ فقالا «يا رسول الله: إن اليهود تقول: كذا، وكذا، أفلا نجامعن؟ فتغير وجه رسول =

الجماع، والمحيض مصدر بمعنى الحيض، كالمعيش بمعنى العيش، وأصله: السيلان، يُقال: حاض السيل وفاض ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ أي إنه شيء مستقدر، مؤذٍ لمن يقربه، لأنه دم منتن، خارج من مجرى البول ﴿فَاعْتَرَلُوا﴾ النساء في المَحِيضِ ﴿أي اجتنبوا مجامعتهم في حالة الحيض﴾ وَلَا تَقْرَبُواهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴿أي ولا تجمعوهُنَّ حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن، وهو تأكيد لحكم الاعتزال، وتنبيه على أن المراد به عدم قربانهن - أي جماعهن - لا عدم القرب منهن، أو عدم مؤاكلتهن ومجالستهن، كما كان يفعل اليهود ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فإذا انقطع عنهن دم الحيض، وتطهرن بالماء، فأتوهنَّ في المكان الذي أحله الله لكم، وهو القُبْل - الفرج - مكان الذرية والنسل، لا الدبر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أي التائبين من الذنوب ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي المتزهرين عن الفواحش والأفذار كمجامعة الحائض، والإتيان في غير المأتي، وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهير.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ مواضع حرث لكم، شُبَّهَ بها تشبيهاً، لما يُلقى في أرحامهنَّ من الثُّفِّ بالبذور، والحرث: إلقاء البذر في الأرض ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ﴾ أي فاتوهن في مكان الزرع، وهو كالبيان لقوله ﴿فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ ﴿أَنِّي شَتَّمْتُ﴾ من أيِّ جهة شتتم، بركة، أو مستلقية، أو مضطجعة، بعد أن يكون المأتي واحداً، وهو موضع الحرث، لا مكان الفرث، قال مجاهد: كيف شتتم، وقال الضحاك: متى شتتم، عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها في قُبْلها، جاء الولد أحول، فنزلت ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شَتَّمْتُ﴾^(١) وعن أبي

= الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما - أي غضب - فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاها، فعرفا أن لم يجد عليهما» رواه مسلم.

(١) أخرجه البخاري في التفسير ١٤٣/٨ ومسلم في النكاح رقم ١٤٣٥.

هريرة قال: قال ﷺ: «ملعون من أتى امرأة في دبرها»^(١) وأجمع العلماء على تحريم إتيان النساء في أدبارهن، وقالوا لأن الله نص على ذكر الحرث -الزرع- فلا يحل العدول عنه إلى غيره ﴿وَقَدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ فعل الخير، والعمل الصالح، ومنه التسمية وطلب الولد المؤمن، عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك، لم يضره الشيطان أبداً»^(٢) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا ربكم بامثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّكَلَّفُونَ﴾ أي أيقنوا أن مرجعكم إليه بالبعث، فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بشرهم بالفوز العظيم في جنات النعيم، وفي هذا تذكير وتحذير.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ عُرْضَةً: أي حاجزاً ومانعاً، والمعنى: لا تجعلوا الحلف بالله، سبباً مانعاً عن فعل الخير ﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي من أن تبرؤوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس، فتتعطلوا باليمين بأن يقول أحدكم: قد حلفت بالله ألا أفعله، وأريد أن أبرّ بيمينني، بل افعلوا الخير وكفروا عن أيمانكم، فيكون الله كأنه السبب المانع عن فعل البرّ والخير والإصلاح بين الناس. قيل: إنها نزلت في الصديق رضي الله عنه لما حلف ألا ينفق على مسطح، لخوضه في حديث الإفك، وقيل: نزلت في ابن رواحة حين حلف ألا يكلم ختنته،

(١) أخرجه أبو داود في النكاح رقم ٢١٦٢ ورواه الترمذي رقم ١١٧٦ بلفظ قال ﷺ: «لا ينظر الله عز وجل إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في دبرها».

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب النكاح ٢٢٨/٩ فتح الباري.

وروي عن عائشة أن المعنى: لا تكثرُوا الحلف بالله، في كل حق وباطل، فتبتدلوا اسمه الأعظم في كل كثير وحقير، إذا أردتم لأنفسكم البر... فيكون الغرض النهي عن كثرة الأيمان ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع أيمانكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يعلم تياتكم، فحافظوا على ما كلفتموه، ولا تكثرُوا الحلف بالله، فإنه ضربٌ من الجرأة على الله تعالى.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٢٥) لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧).

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو ما سقط من الكلام عن درجة الاعتبار، والمراد به في الأيمان ما لا عقد معه ولا قصد، وقد اختلف فيه، فقال أبو حنيفة: هو أن يحلف على شيء يظنه على ما حلف عليه، ثم يظهر خلافه، فإنه لا قصد فيه إلى الكذب، وعند الشافعي هو قول العرب: لا والله، وبلى والله، مما يؤكّدون به كلامهم، عن عائشة رضي الله عنها هو قول الرجل: لا والله، وبلى والله^(١). ومذهب أبي حنيفة هو قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والنخعي، والزهري، وقتادة ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمُ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولكن يعاقبكم، بما اقترفته قلوبكم، من إثم القصد إلى الكذب باليمين، وهو أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله، وهو اليمين الغموس ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخذة، تربصاً للتوبة، والحليم المتأنّي الذي لا يعجل بالعقوبة.

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٢٠٧/٧ موقوفاً على عائشة، ورواه أبو داود مرفوعاً، وإذا ثبت هذا مرفوعاً فهو القول الفصل، لأنه لا عطر بعد عروس، ويكون معنى الآية: لا يؤاخذكم الله بما جرى على لسانكم، من غير قصد الحلف، كقول أحدكم: بلى والله، ولا والله، لا يقصد به الحلف، وإنما يقصد تأكيد الكلام.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ الإيلاء: القَسَمُ والحلف، وفي عرف الشرع الإيلاء: اليمينُ على ترك الوطء، روي أن الإيلاء في الجاهلية، كان طلاقاً، وإذا كان الرجل لا يريد المرأة، ولا يحب أن يتزوج بها غيره فيحلف أن لا يقربها، فكان يتركها بذلك لا أَيْمناً، ولا ذات بعل، والغرض منه مضارة المرأة، فأزال الله ذلك ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي لهم أن ينتظروا أربعة أشهر، من غير مطالبة بفيء أو طلاق، والإيلاء من المرأة أن يقول: والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعداً، أو لا أقربك على الإطلاق، ولا يكون فيما دون ذلك، وحكمه أنه إن رجع إليها في المدة بالوطء صح الفيء وحنت، ولزمته كفارة اليمين، وإذا مضت الأربعة بانت بتطليقة بائنة ﴿فَإِنْ قَامُوا﴾ أي رجعوا عن اليمين بالحنث في الأشهر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر للمولي ما قصد بالإيلاء من الإضرار بالمرأة.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ أي صمموا قصد الطلاق وأجمعوا عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بما جرى منهم من الطلاق ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم، وفيه من الوعيد على الإصرار وترك الفئنة.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَعُولُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ يريد بها المدخول بهن، من ذوات الأقراء ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبر في معنى الأمر، مفيد للتأكيد، فكانهن امثلن الأمر بالتربص، فيخبر به موجوداً متحققاً ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ تهيجُ وبعثُ لهن على

التربص، لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويجبرنها على التربص ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي يتربصن مدة ثلاثة قروء - أي حيض - لقوله ﷺ «دعي الصلاة أيام أقرائك»^(١) والقرء: اسم يقع على الحيض، والطهر، وبحسب اختلاف أهل اللغة في الأقرء، اختلف الفقهاء على قولين: أحدهما: هو الحيض، روي ذلك عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وأحمد، القول الثاني: أنه الأطهار يروى ذلك عن زيد بن ثابت، وابن عمر، وعائشة وهو مذهب مالك والشافعي، ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد والحيض، استعجالاً في العدة، وإبطالاً لحق الرجعة ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي فلا يجترئن على ذلك، فإن قضية الإيمان منافية له قطعاً، وهذا وعيدٌ شديد، لتأكيد تحريم الكتمان ﴿وَيُؤْمِنُنَّ﴾ جمع بعل كعم وعمومة، أي أزواجهن الذين طلقوهن طلاقاً رجعياً، كما ينبىء عنه التعبير عنهم بالبعولة، والضمير لبعض أفراد المطلقات ﴿أَتَقِرُّوهُنَّ﴾ إلى النكاح، والرجعة إليهن ﴿فِي ذَلِكَ﴾ في زمان التربص، والحكمة في إثبات الرجعة، أن الإنسان لا يدري هل تشق عليه مفارقتها أولاً، فجعل الله ذلك للتجربة، وهذا التدرج يدل على كمال رحمته تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوا﴾ أي الأزواج ﴿إِصْلَاحًا﴾ لما بينهم وبينهن، وإحساناً إليهن، ولم يريدوا مضارتهن بتطويل العدة، وليس المراد به شرطية الإصلاح بصحة الرجعة، بل هو الحث عليه، والزجر عن قصد الإضرار ﴿وَهُنَّ﴾ عليهم من الحقوق ﴿مِثْلُ الَّذِي﴾ لهم ﴿عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ من الحقوق، التي يجب مراعاتها، ويتحتم المحافظة عليها، فقد قال ﷺ في خطبة حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك، فاضربوهن ضرباً غير

(١) أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، ولفظه عند الترمذي ٢٢٠/١ قال ﷺ في المستحاضة: «تدع الصلاة أيام أقرائها التي كانت تحيض فيها.». الحديث.

مَبْرَح، وَلَهْنٌ عَلَيْكُمْ رَزَقَهُنَّ وَكَسَوْتَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»^(١) الحديث، وقوله «لا يوطئن فرشكم» معناه: لا يأذن لأحد أن يتحدث إليهن، وليس المراد بوطء الفرش الزنا، ولو كان المراد ذلك لوجب الحد لا الضرب ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي زيادة في الحق، لأن حقوقهم في أنفسهن، وحقوقهن في المهر والكفاف، وترك الضرار، ونحوها، أو مزية في الفضل، لما أنهم قوامون عليهن، يَخْصُونَ بفضيلة الرعاية والانفاق، والدرجة يُعْتَبَرُ بها عن المنزلة الرفيعة، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقدر على الانتقام، ممن خالف الأحكام ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله وأحكامه.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ هو بمعنى التطلق، كالسلام بمعنى التسليم، والمراد به الرجعي، أي عدد الطلاق الذي يستحق الزوج فيه الرجعة: مرتان أي اثنان، وإيثار لفظ، مرتان، للإيدان بأن حقهما أن يقعا مرة بعد مرة، لا دفعة واحدة، والجمع بين تطليقتين، وثلاثة، بدعة في طهر واحد، لأنه تعالى أمرنا بالتفريق، ومعنى الآية: إن عدد الطلاق الذي

(١) هذا طرف من حديث طويل رواه مسلم عن جابر في خطبة حجة الوداع ٨٨٦/٢ وهي خطبته ﷺ المشهورة التي حدّد فيها الحقوق والواجبات العامة والخاصة وهو واقف في عرفات صلوات الله وسلامه عليه، وهي من جوامع الكلم.

لكم فيه رجعة إلى أزواجكم إذا كن مدخولاً بهن تطليقتان، وأنه لا رجعة لكم بعد التطليقتين ﴿فَأَمْسَاكُ﴾ أي فالحكم بعدها إمساك لهنَّ بالرجعة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي بحسن عشرة ولطف معاملة، والمعروف: هو كل ما عرف في الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن المعاشرة ﴿أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾ هو أن يؤدي إليها جميع حقوقها المالية، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء، روي أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أسمع الله تعالى يقول: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ فأين الثالثة؟ فقال ﷺ: «التسريح بإحسان»^(١) ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا﴾ منهن بمقابلة الطلاق ﴿مِمَّا آتَيْنَهُنَّ﴾ من المهور فإن ذلك منافٍ للإحسان ﴿شَيْئًا﴾ أي نذراً يسيراً، فضلاً عن الكثير، ثم استثنى الخلع فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي الزوجان ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ بترك إقامة أحكامه، من موجب الزوجية ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكماء ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ بمشاهدة بعض الأمارات ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ لا على الزوج في أخذ ما اقتدت، ولا عليها في إعطائه، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: إن ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خُلُقٍ ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، والله لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبداً، إني رفعتُ جانب الخباء، فرأيتَه أقبل في جماعة من الرجال، فإذا هو أشدهم سواداً، وأقصرهم قامه، وأقبحهم وجهاً، وقال زوجها: يا رسول الله، إني أعطيتها أفضل مالي، حديقةً لي، فإن رَدَّتْ عَلَيَّ حديقتي طلقتها!! قال ﷺ: ما تقولين؟ قالت: نعم يا رسول الله، وإن شاء زدتَه، قال: ففرق بينهما^(٢) وهو أول خلع في الإسلام

(١) أخرجه أبو داود من حديث أبي رزين الأسدي.

(٢) الحديث بهذا اللفظ أخرجه ابن جرير الطبري، ورواه البخاري في كتاب الطلاق ٤٦٤/٩ بأوجز من هذا بدون قصة رفع الخباء، ولفظه بعد جملة أكره الكفر في الإسلام، فقال لها رسول ﷺ: أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فقال له الرسول ﷺ: اقبل الحديقة، وطلقها تطليقة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ بالمخالفة ﴿وَمَنْ يَعْصِ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقابه، وتعقيب النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي بعد الطلقتين السابقتين ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي من بعد هذا الطلاق، أي إن طلقها بعد اثنتين، فلا تحل له من بعد ذلك الطلاق ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ حتى تتزوج غيره، واتفق الأئمة على أنه لا بد من الإصابة لما روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: إن رفاعة طلقني فبثت طلاقي، وإني نكحت بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنما معه مثل هدية الثوب، فقال لها الرسول ﷺ: تريدان أن ترجعي إلى رفاعة؟ قالت: نعم، قال: لا، حتى يذوق عُسَيْلَتِكَ، وتذوقي عُسَيْلَتِهِ»^(١) والحكمة في هذا الحكم، الردع عن التسرع إلى الطلاق، والعود إلى المطلقة الثلاث، والرغبة فيها، والنكاح بشرط التحليل مكروه لما روي عن ابن مسعود أنه قال: «لعن رسول الله ﷺ المحلل، والمحلل له»^(٢) ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ على الزوج الأول والمرأة ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ يرجع كل منهما إلى الآخر بالعقد بعد المدة ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يَفِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ما شرعه الله من حقوق الزوجية، ﴿وَتِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة إلى هنا ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي أحكامه المحمية من التعرض لها بالتغيير والمخالفة ﴿يُنَبِّئُهَا﴾ بهذا البيان اللائق ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون ويعملون بمقتضى العلم، وتخصيصهم بالذكر للإشادة بهم، لأنهم المنتفعون بالمواعظ والتعاليم الإلهية.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الطلاق ٣٦١/٩ ورواه الترمذي رقم ١١١٨.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح ٤٢٨/٣.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣٦﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٧﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ﴾ أي آخر عدتهن، فإنَّ الأجل كما يُطلق على المدة يطلق على منتهاها ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فراجعوهن من غير إضرار، أو خلّوا سبيلهن من غير إضرار، والإمسك مجازٌ عن المراجعة، والتسريح بمعنى الإطلاق، مجازٌ عن الترك، وهذا كما ترى إعادة للحكم في بعض صورته، اعتناءً بشأنه، ومبالغة في إيجاب المحافظة عليه ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ تأكيد للأمر بالإمسك بمعروف، وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه. أي لا تراجعوهنَّ إرادة الإضرار بهن، وكانوا يضارونها لتفتدي المرأة منه بمالها ﴿لِنَعْدُوا﴾ متعلق بـ ﴿ضِرَارًا﴾ أي لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ ما ذكر من الإمساك المؤذي إلى الظلم ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضها للعقاب والعذاب، وفوّت على نفسه منافع الدين، من الثواب على حسن المعاشرة، ومنافع الدنيا من عدم رغبة النساء به، لاشتهاره بفعل القبيح ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا﴾ المنطوية على الأحكام المذكورة ﴿هُزُوعًا﴾ أي مهزوءاً بها، أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال: كان الرجل يطلق ثم يقول: لعبتُ، فنزلت. نهى تعالى عن الهزء، وأراد ما يستلزمه من الأمر بضده أي جدّوا في الأخذ بها، وارعوها حقَّ رعايتها، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثَلَاثُ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ،

وَالرَّجْعَةُ^(١) ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾ التي من جملتها الهداية، وبعثة الرسول، بالشكر والقيام بحقوقها ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ القرآن، والسنة، أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ بما أنزل عليكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في شأن المحافظة على أوامره، والقيام بحقوقه الواجبة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء مما تأتون وما تذرّون فاحذروا من جزائه وعقابه، وهو وعدٌ ووعيد.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ﴾ أي انقضت عدتهن، دلّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين، ففي الآية الأولى معناه المشاركة أي مقاربة انقضاء العدة، وفي الآية الثانية انتهاء العدة ﴿فَلَا تَعْصُلُوهُنَّ﴾ العَصْلُ: الحبس والتضييق، وفي الشرع المنع، يقال: عَصَلَ فلان ابنته إذا منعها من التزوج، والخطاب للأزواج الذين يعصلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً، أو للأولياء في عصلهن لبناتهن أن يرجعن إلى أزواجهن، أو الخطاب للناس كافة، والمعنى: إذا وجد فيكم طلاق، فلا يقع فيما بينكم عصل، ﴿أَنْ يَنْكِحَنَّ﴾ من أن ينكحن، وفيه دلالة على صحة النكاح بعبارتهم ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾ أي لا يمنعونهن من الرجوع إلى أزواجهن ﴿إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بما لا يكون مستكراً شرعاً، ومروءة، وفيه إشعار بأن المنع من التزوج بغير كفؤ، أو بما دون مهر المثل، ليس من باب العصل ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما فصل من الأحكام ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيسارع إلى الامثال بأوامره ونواهيهِ، خوفاً من عقابه، فالمواعظ إنما تنجع فيهم، أمّا الذين لا يؤمنون ببقاء الله، فلا يخيفهم إنذار ولا تحذير ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي التمسك بأوامر الله، واجتناب نواهيهِ، أفضل لكم وأطهر، من الوقوع في الآثام، والتعرض لعذاب الرحمن ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي والله عز وجل يعلم ما هو أصلح لكم من الشرائع والأحكام، وما فيه لكم من النفع والصلاح، وأنتم لا تعلمون ذلك، فدعوا رأيكم وهواكم، وامثلوا أمر ربكم تفلحوا.

(١) أخرجه أبو داود رقم ٢١٩٤ والترمذي رقم ١١٨٤ في الطلاق، وصححه الحاكم.

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزِعِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَانَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَقْبُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ ﴾ الحديث هنا عن الأمهات المطلقات، بدليل السياق والسباق، والتعبير عنهن بالوالدات دون «المطلقات» لاستعفافهن نحو أولادهن، فلا ينبغي أن يضيع الطفل، نتيجة نزاع الوالدين، وافتراق الزوجة عن الزوج، فليس للطفل جناية في هذا الأمر، فالمرأة وإن طُلقَت هي والدَة وأُم، لا ينبغي أن تفرط في ولدها، وهو خبر بمعنى الأمر، أي الواجب على الأمهات، سواء كنَّ مطلقات أو غير مطلقات، أن يرضعن أولادهن ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ أي عامين تامين، والتأكيد بقوله ﴿ كاملين ﴾ لبيان أن التقدير تحقيقي لا تقريبي، فأكثر مدة للرضاع سنتان كاملتان ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ أي لمن شاء من الوالدين إتمام الرضاعة، ولا زيادة على هذه المدة، وفي الآية دلالة على جواز النقص، إذا استغنى الطفل بالطعام عن حليب أمه، ويجب على المطلقة إرضاعه، إذا لم يقبل الولد إلاّ ثدي أمه، أو لم يجد الأب له ظئراً - أي مرضعة - ترضعه، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار، فإن أرضعت المطلقة وليدها وجب لها أجرٌ على الرضاعة، كما سيأتي في قوله سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَاتَّمَرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ (١)

(١) سورة الطلاق، الآية: ٦.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وعلى الوالد - الذي ينتسب إليه الأولاد^(١) - الإنفاق على الأمهات المطلقات، وكسوتهن، بما هو مشروع ومتعارف، بدون إسراف ولا تقتير، ليقمن بخدمة الأولاد خير قيام ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا يُكَلَّفُ العبد بما لا يطيقه ولا يستطيعه، ولهذا تكون النفقة بقدر الطاقة ﴿لَا تُضَاكَّرُ وَلَا لِدَا يُؤَلِّدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولِّدُهَا﴾ أي لا ينبغي أن تقع المضارة بين الزوجين، فيضُرَّ أحدهما الآخر، بسبب الولد، فترفض الأم مثلاً إرضاعه لتضر أباه بتربيته، وأن يضارها الأب فينتزع منها الولد - مع رغبتها في إرضاعه - ليغيظ أحدهما صاحبه، وإضافة الولد إليها تارة ﴿وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا﴾ وإليه أخرى ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولِّدُهَا﴾ فيه استعطاف لهما عليه، وتنبية لهما على أن هذا الطفل، جدير بأن يتفقا على استصلاحه، والإشفاق عليه، فلا ينبغي أن يكون ضحية لنزاعهما، الرجل أبوه، والمرأة أمه، فهو ابن كل منهما، ومن حقهما الإشفاق عليه ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ المراد بالوارث وارث الولد، وهو التفسير المأثور عن عمر، وابن عباس، ومجاهد، أي وعلى وارث الصبي كالجد، والأخ، والعم، الإنفاق على المرضع المطلقة، والقيام بحقوقها، مثل ما على والد الطفل من النفقة والسكنى، وقال الشافعي: المراد وارث الأب، وهو الصبي أي ثمن المرضعة من ماله، ولا نزاع فيه، وإنما الكلام فيما إذا لم يكن للصبي مال ﴿فَإِنْ أَرَادَ فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا﴾ أي من الوالدين لا من أحدهما فقط، لاحتمال الإقدام على ما يضرُّ بالولد، بأن تملَّ المرأة من الإرضاع، أو يبخل الأب بإعطاء الأجرة ﴿وَتَشَاوُرَ﴾ في شأن الولد من الفطام قبل الحولين، أو يشاوران أهل النظر، ليستيقنا أن الفطام قبل الحولين، لا يضرُّ بالولد، ومعنى الفصال: الفطام ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في

(١) لم يقل تعالى: وعلى الوالد، وإنما قال: ﴿وعلى المولود له﴾ لينبّه إلى أن النسب للأب دون الأم فالأولاد جميعاً ينتسبون إلى أبيهم، وهذا الحكم عند الفقهاء يسمى «إشارة النص».

ذلك، واعتبر اتفاقهما، لما أن للأب النسبة والولاية، وللأم الشفقة والعناية لصالح الطفل ﴿وَلِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا وَلَدَكُمْ﴾ أي أن تسترضعوا المراضع لأولادكم أي تطلبوا من يرضعهم، يقال: أرضعت المرأة الطفل، واسترضعتها إياه ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فلا إثم ولا حرج عليكم، أن تطلبوا مرضعة لأولادكم غير الأم، إذا عجزت عن إرضاعه أو استنكفت، وفيه دلالة على أن للأب أن يسترضع لولده، ويمنع الأم من الإرضاع، وهو مذهب الشافعي وعند أبي حنيفة أن الأم أحقُّ برضاع ولدها لقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وليس للأب أن يسترضع غيرها، إذا رضيت أن ترضعه، والآية محمولة على إذا عجزت أو امتنعت عن الإرضاع، ثم قال تعالى: ﴿إِذَا سَأَلْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي إذا دفعتم للمرضع ما اتفقتم عليه من الأجر، فإنها إذا لم تكرم لا تهتم بالطفل، ولا تعتني بإرضاعه، والتسليم ندب لا شرط للجواز، وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بالوجه المتعارف بطيب نفس وسرور ﴿وَالْقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء، وسيجازيكم عليها، وهو حثٌّ وتهديد.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ أي والذين يموتون وتقبضُ أرواحهم بالموت، فإن التوفي هو القبض، يقال: توفيتُ مالي من فلان أي أخذته، فمن مات استوفى عمره كافياً وافياً ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ أي ويتركون زوجاتهم من بعد وفاتهم ﴿يَرِيضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي على هؤلاء الزوجات، أن ينتظرن ويمكثن في العدة، أربعة أشهر وعشرة أيام، حداً على أزواجهن، ورعاية لحقوقهن، وهذا الحكم لغير الحامل، أما

الحامل فعدتها وضع الحمل، لقوله سبحانه: ﴿وَأُولَٰئُ الْأَخْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ والسُّرُّ في هذا لثلاث تختلط الأنساب، وتضيع الحقوق، ولعل المقتضى لهذا أن الجنين في غالب الأحوال، يتحرك لأربعة أشهر، وزيد عليه العشر استظهاراً لجلية الأمر، ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الحكام، أو المسلمون جميعاً ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من التزوج، وسائر ما حُرِّمَ على المعتدة، عن أم عطية قالت: «كنا نُنْهَى أَنْ تُحَدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى الزَّوْجِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وَلَا نَكْتَحِلُ، وَلَا نَنْتَظِبُ، وَلَا نَلْبَسُ ثَوْبًا مَصْبُوغًا»^(١)، الحديث وقوله تعالى: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي الوجه الذي لا ينكره الشرع، وفيه إشارة إلى أنهم لو فعلن ما ينكره الشرع، فعليهم أن يكفوهن ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه، فلا تعملوا خلاف ما أمرتم به، والخير هو العالم بكنه الشيء، الذي يعلم عواقب الأمور.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُوْنَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوْهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوْهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ التعريض والتلويح إيهام المقصود، بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً، وهو ضد التصريح، مثل أن تقول لها: إنك لجميلة أو صالحة، ومن غرضي أن أتزوج امرأة صالحة، ونحو ذلك من الكلام، الموهم أنه يريد نكاحها، ولا يصرح

(١) أخرجه البخاري ٤٣٣/٩ في الطلاق، ومسلم رقم ٩٣٨ باب وجوب الإحداد وأبو داود رقم ٢٣٠٢ في الطلاق أيضاً، وللحديث بقية.

بالنكاح، والمراد بالنساء المعتدات للوفاة ﴿أَوْ أَكَنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي أضمرتم وسترتم في قلوبكم، فلم تذكروه تصريحاً ولا تعريضاً ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن الرغبة فيهن ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي لا تواعدوهن بالنكاح في السر ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ هو أن تُعَرِّضُوا ولا تُصَرِّحُوا ﴿وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ الْنِكَاحِ﴾ أي ولا تعزموا عقدة النكاح حتى تنتهي العدة، وفي النهي عن مقدمة الشيء، نهْيٌ عن الشيء أبلغ، ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ حتى ينتهي ما كتب من العدة غايته ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما نهيتهم عنه ﴿فَأَحْذَرُوهُ﴾ أي احذروا عقابه وعذابه بالاحتراز منه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَافُوهُ﴾ لمن عزم ولم يفعل، خشية من الله تعالى ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة على عصيانكم أوامره، وفيه دليل على حرمة تصريح خطبة المعتدة من الوفاة، والمعتدة من الطلاق كذلك من باب أولى.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى التَّوَسُّعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تبعية عليكم من مهر، وهو الأظهر وقيل: من وزر، لأنه لا بدعة في الطلاق قبل المسيس، إذا كان الفراق أروح من الإمساك ﴿إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ ما لم تجمعهن، اتفقوا على أن المراد بالمسيس، في هذه الآية: الدخول، وإنما كنى به تأديباً للعباد ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي إلا أن تفرضوا لهنَّ فريضة، فالمعنى: أنه لا تبعية

على المطلق بمطالبة المهر أصلاً، إلا إذا كانت ممسوسة، فلها المهر ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أي ادفعوا لهن المتعة، والمتعة والمتاع: ما ينتفع به انتفاعاً غير باق، ولهذا قيل للدنيا: متاع، وظاهر الأمر الإيجاب، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي، والحكمة في إيجابها جبراً لإيحاش الطلاق وتقديرها مفوض إلى رأي الحاكم، ويؤيده قوله تعالى ﴿عَلَى الْمُوسِيعَ﴾ الذي له سعة ﴿قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ﴾ الضيق الحال ﴿قَدَرُهُ﴾ أي ما يليق بحال كل منهما المتعة، بالنظر إلى حال المطلق إيساراً وإعساراً والمتعة درع وملحفة وخمار على حسب حاله، ولا تجب المتعة إلا لهذه، ويستحب لسائر المطلقات، وقال الشافعي لها المتعة لقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ﴾ ﴿مَتَاعاً﴾ أي تمتيعاً ﴿بِالمَعْرُوفِ حَقّاً﴾ أي حق ذلك حقاً ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي الذين يحسنون إلى أنفسهم، بالمسارعة إلى الامتثال، وإنما سُموا «محسين» ترغيباً وتحريضاً على البر والإحسان.

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي حال كونكم مسمين لهن عند النكاح مهراً ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي فلهن نصف ما سميتن من المهر، وهذا صريح في أنَّ المنفي في الصورة السابقة، إنما هو تبعه المهر ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُوَا﴾ أي فلهن النصف في كل حال، إلا حال عفوهم، فإنه يسقط بعد وجوبه ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ أي يترك الزوج ما يعود إليه من نصف المهر، الذي ساقه إليها كاملاً، تكرمناً منه وتفضلاً، وهو التفسير المأثور، كما أخرجه البيهقي بسند حسن عن ابن عمر مرفوعاً، وبه قال جمع من الصحابة^(١) وقيل: الولي الذي يلي عقد

(١) مستند هذا القول أن الذي بيده عَقْدَةُ النكاح حقيقة: هو الزوج، فإن بيده العقد والإبرام، والنقض والطلاق، وقد روي عن شريح أنه قال: سألتني علي عن الذي بيده عَقْدَةُ النكاح؟ فقلت: هو ولي المرأة، فقال علي: لا، بل هو الزوج، وروي عن النبي ﷺ مرفوعاً «ولي عقد النكاح الزوج» وانظر تفسير ابن كثير ٢٩٦/١.

نكاحهن إذا كانت المرأة صغيرة، وقوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ يؤيد الوجه الأول فإن إسقاط حق الصغيرة ليس في شيء من التقوى، روي أن جُبَيْر بن مطعم تزوج امرأة، وطلقها قبل الدخول بها، فأكمل لها الصداق، وقال: أنا أحق بالعتق ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي ولا تنسوا الإحسان والجميل الذي بينكم، والخطاب للرجال والنساء بطريق التغليب ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يكاد يضيع ما عملتم، من التفضل والإحسان.

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَآلًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢٩﴾.

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ أي داوموا عليها بمواقيتها، وأركانها، وشرائطها، من غير إخلال بشيء منها، ولعل الأمر بها، في تضعيف بيان أحكام الأزواج والأولاد، لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها^(١)، ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ أي المتوسطة بينها، والوسطى تأنث الأوسط، وهي صلاة العصر، وعليه الجمهور، ويدل عليها ما روي، عن علي أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: «ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً، شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر»^(٢) ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿قَانِتِينَ﴾ أي مطيعين خاشعين، وقيل: هو السكوت، ويدل على ذلك ما روي عن زيد

(١) إنما وردت آية المحافظة على الصلوات، ضمن آيات الزواج والطلاق، لأن الصلاة أعظم منبه للمؤمن، للمحافظة على أوامر الله، واجتناب نواهيه، ودفع الحقوق كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فبالصلاة يحفظ الإنسان حقوق الله وحقوق العباد.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد ٧٦/٦ ومسلم رقم ٦٢٧ وزاد في بعض الروايات: ثم صلاها بين المغرب والعشاء.

ابن أرقم، قال: «كُنَّا نَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ، يَكَلِّمُ أَحَدُنَا أَخَاهُ فِي حَاجَتِهِ، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فَأَمَرْنَا بِالسُّكُوتِ»^(١).

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو غيره ﴿فَرَجُلًا﴾ أي فصلوا راجلين جمع راجل، وهو الماشي على رجله، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ جمع راكب أي فصلوا راجلين أو راكبين، حسبما تقتضيه الحال، ولا تُخْلُوا بها ما أمكن وقال أبو حنيفة لا يصلي الماشي، بل يؤخر الصلاة، لأن الرسول ﷺ أخر الصلاة يوم الخندق، وظاهر الآية جواز الصلاة ماشياً عند الضرورة، والدين يسر لا عسر، والمقامات مختلفة، والميسور لا يسقط بالمعسور، وما لا يدرك لا يترك ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ وزال خوفكم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي فصلوا صلاة الأمن، أو اشكروه على الأمن ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ كتعليمه إياكم ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من كيفية الصلاة، حالتي: الخوف، والأمن، على الوجه الذي شرعه لكم، وعلمكم إياه.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتْعَةً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ عودٌ إلى بيان بقية الأحكام، المفصلة فيما سلف ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي يوصون،

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ١٩٨/٨ قال ابن حجر في الفتح: وأصح ما دل عليه حديث الباب، أن المراد بالقنوت: السكوت، والمراد به السكوت عن كلام الناس، لا مطلق الصمت، لأن الصلاة لا صمت فيها، بل جميعها قرآن وذكر. اهـ.

أو عليهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا، بأن تمتع زوجاتهم بعدهم حولاً كاملاً ﴿مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ منصوب بيوصون ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي من غير إخراج لهن من المسكن، والمعنى: يجب على الذين يتوفون، أن يوصوا قبل الاحتضار، لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولاً، بالنفقة والسكنى من تركته، وكان ذلك أول الإسلام، ثم نسخت المدة بقوله تعالى: ﴿أَزْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(١) ﴿فَإِنْ حَرَجْنَ﴾ بعد الحول، ومضي العدة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ لا ينكره الشرع كالترتين، والتطبيب، وترك الحداد، والتعرض للخطاب، ﴿وَاللَّهُ غَفِيرٌ﴾ غالب على أمره، يعاقب من خالفه ﴿حَكِيمٌ﴾ يراعي في أحكامه مصالح عباده.

﴿وَالْمُطَلَّاتِ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي واجب على الأزواج أن يمتنعوا المطلقات، بقدر استطاعتهم، بالمعروف الذي شرعه الله، وعرفه الناس، جبراً لوحشة الطلاق، والمتعة لكل مطلقة، دخل بها أو لم يدخل، فرض لها أو لم يفرض، لعموم لفظ المطلقات، وهذه المتعة إما واجبة، إن لم يذكر لها مهر، أو مندوبة إن كان لها مهر مقدر ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي هي حق واجب، وأمر لازم على المؤمنين الصادقين، المتقين لله عز وجل.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح الشافي، الذي يوجه القلوب نحو المودة والمحبة، يبين الله لكم آياته الشرعية، الدالة على الحلال والحرام ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي كي تعقلوا وتفهّموا حكمة ربكم، في تشريع هذه الأحكام، وتعملوا بمقتضاها.

(١) هذا الحكم منسوخ بالآية السابقة ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ رحمة من الله تعالى، وتخفيفاً عن عباده، وهذا متفق عليه بين الفقهاء، فالآية وإن كانت متقدمة في التلاوة، لكنها متأخرة في النزول.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٧﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٨﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٩﴾ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ هذه رؤية القلب، وليست رؤية بصرية، أي ألم تعلم، ويصل إلى سمعك أيها الإنسان، خبر أولئك القوم، الذين خرجوا من أوطانهم وهم أُلُوف مؤلفة؟ قال ابن عباس: كانوا أربعة آلاف، وقيل: أربعون ألفاً ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ أي خوفاً من الموت، وفراراً منه ﴿ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ أي فأماتهم الله عزَّ وجلَّ ثم أحياهم، ليكون ذلك أعظم برهان، على قدرة رب العالمين في إحياء البشر بعد موتهم! وقصة هؤلاء - كما قال الضحاك - هم قوم من بني إسرائيل، دعاهم ملكهم إلى الجهاد، فهربوا خوفاً من الموت، وتركوا ديارهم وأوطانهم، فأماتهم الله ثمانية أيام، ثم أحياهم بدعوة نبيهم «حزقيل» عليه السلام، فعاشوا بعد ذلك دهراً، وقاموا أحياء ينظرون، ثم ماتوا بعد انتهاء آجالهم.

وقيل: إنهم جماعة وقع فيهم وباء الطاعون، فخرجوا فراراً من الموت، هاربين إلى الصحراء، فنزلوا وادياً واسعاً، حتى ملأوه، فأرسل الله إليهم ملكين، صاحبا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم^(١). ﴿ وَابْتَ

(١) قال الحافظ ابن كثير ٣٠٦/١: وكان في إحيائهم عبرة، ودليل قاطع، على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لا يغني حذر من قَدَر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء، طلباً لطول الحياة، فعملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد. اهـ.

اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴿١﴾ أي إنه سبحانه لذو إحسان وإنعام على الناس، حيث أحياهم ليعتبروا، وقصَّ عليكم حالهم لتستبصروا ﴿٢﴾ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣﴾ أي لا يشكرون الله على نعمه كما ينبغي، بل يكفرون ويجحدون، وفائدة القصة: تشجيع المسلمين على الجهاد، وحثهم على التوكل والاستسلام.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي قاتلوا يا معشر المؤمنين الكفار، من أجل إعلاء كلمة الله، لا لحفظ النفس والغنائم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأحوالكم.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؟ أي من ذا الذي يبذل ماله في سبيل الله، طلب رضوانه؟ والقرض في اللغة: القطع، سُمي به لأن المقرض يقطع من ماله شيئاً فيعطيه للفقير، واقتراضُ الله تعالى، مثلُ تقديم العمل العاجل، طلباً للثواب الآجل، والمراد ههنا الجهاد، الذي هو عبارة عن بذل النفس، والمال، في سبيل الله عزَّ وجلَّ، ابتغاء لمرضاة الله، أو المراد مطلق العمل الصالح، وهذا تلطّف منه تعالى، في استدعاء عباده إلى أعمال البرِّ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾^(١) أي خالصاً لوجه الله، لا يطلب من ورائه مديحاً، ولا عطاء من أحد، ولا يكون القرض حسناً إلا بشرائط: ١ - أن يكون من الحلال. ٢ - ومن أجود المال. ٣ - خالصاً لوجه الله تعالى. ٤ - بطيب النفس. ٥ - لا رياء فيه ولا سمعة ﴿فَيُضَاعَفْ لَهُمْ﴾

(١) روي أنه لما نزلت هذه الآية ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهَ﴾ جاء أبو الدحداح إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: أو يريد الله منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله!! فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطاً لي - أي بستاناً - فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، فجاء إلى البستان ولم يدخل فيه، فنادها يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عزَّ وجلَّ!! فقالت: ربح بيعك، وخرجت منه مع أولادها رواه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ٣٠٦/١.

فيضاعف جزاءه، ﴿أَضَاعَافًا كَثِيرَةً﴾ كثرة لا يقدّر لها ولا يعلم مقدارها، إلا الله سبحانه، وإنما أبهم الله ذلك، لأن ذكر المبهم في باب الترغيب، أقوى من ذكر المحدود، والضعف: مثل الشيء في المقدار، مثل العشرة ضعفها عشرون ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ يقتر على بعض، ويوسّع على بعض، حسب ما اقتضت حكمته، فلا تبخلوا عليه بما وسّع عليكم، كيلا يبذل حالكم ﴿وَالَيْسَ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم حسب ما قدمتم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ
أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنَاقِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ
عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ
أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا
مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي ألم يصل إليك خبر القوم من بني إسرائيل؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع، ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ أي من بعد وفاته ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ﴾ هو شمعون من نسل هارون عليهم السلام ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنَاقِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أقم لنا أميراً ننهض معه للقتال، وسبب طلبهم ذلك على ما في بعض الآثار، أنه لما مات موسى، خلفه يوشع، ثم خلفه كالب، ثم حزقيل، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم ظهر لهم عدو، وهم عمالقة قوم جالوت، وظهروا عليهم، وأسروا من أبنائهم، وضربوا عليهم الجزية، وأخفوا توراتهم، ثم أرسل الله تعالى إليهم شمعون، فقالوا إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً، وكان قوام أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك، وطاعة أنبيائهم، وكان الملك يسير بالجموع، والنبى يقيم أمره ويرشده ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ هذا استفهام شك بمعنى لعلكم ﴿إِنْ كُتِبَ﴾ أي فرض ﴿عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ﴾ مع ذلك الملك

﴿أَلَا لَقِيتُكُمْ﴾ أي لا تقفوا بما قلتكم، وتجنبوا عن القتال معه ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَا نُقَاتِلَ﴾ كأنهم قالوا: عدم القتال غير متوقع منا، وإنما لم يصرحوا به تحاشياً عن رد كلام نبيهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ أي غرض لنا في ترك القتال، وقد عرّض لنا ما يوجب، من الإخراج عن الأوطان، والبعد عن الأولاد، وكان العمالة أخذوا ديارهم، وسبوا أولادهم، قال تعالى بياناً لما انطوت عليه نفوسهم من الجبن والهلع ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي فلما فرض عليهم القتال، نكل أكثرهم عن الجهاد، وتخلفوا بعد مشاهدة العدو، إلا قليلاً منهم، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي والله عالم بظلم هؤلاء الناكثين العهد، وسيجازيهم عليه، والآية وعيد لهم على توليهم عن القتال، وتنافي أقوالهم وأفعالهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وقال لهم نبيهم إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ شروع في تفصيل ما جرى بينه عليه السلام، وبينهم من الأقوال والأفعال، أي قال لهم نبيهم بعد ما أوحى الله إليه: إن الله قد ملك عليكم طالوت، و«طالوت» اسم عبري كداود، وهو من سبط بنيامين بن يعقوب عليهم السلام ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ أي كيف يكون ملكاً

علينا؟ والحال أننا أحقُّ بالملك منه، لأننا من أولاد الملوك، وهذا منهم تعنتٌ واعتراض على أمر الله ﴿وَلَمْ يَأْتِ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ﴾ أي وهو عدا عن ذلك فقير لا يملك المال، الذي يجمع القلوب حوله، فكيف يكون ملكاً علينا؟ ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي قال لهم نبههم، لما استبعدوا تملكه عليهم لفقره: إن الله عز وجل قد اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، والعمدة في الاختيار أمران: سعة العلم، وقوة الجسم، وقد خصه الله منهما بحظٍ وافر، والعمدة في اختيار الرجال، وفور العلم ليتمكن من معرفة أمور السياسة، وجسامة البدن ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء، ثم تم كلامه بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومَ مَنْ يَشَاءُ﴾ لأنه سبحانه مالك الملك، فله أن يؤتیه من يشاء من عباده، وهذه تدل على بطلان من يقول من الشيعة: إن الإمامة موروثه ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ يوسع على الفقير ويغنيه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصطفيه للملك، وفي اختياره تعالى ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ من حسن المناسبة ما لا يخفى، حيث تَبَّه فيما سبق على سعة العلم، وبسطة الجسم.

ومن ثمَّ طلبوا من نبههم آية، على اصطفاء الله لطالوت، فأجابهم إلى ذلك ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ الصندوق، يريد به صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدّمه بين يديه، فتسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرّون، ولهذا قال: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي في التابوت السكون والطمأنينة، والوقار، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك، وتأنس به وتقوى، والله ينصر الحق ببعض ما شاء من آياته ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ وفيه أيضاً بقية من آثار آل موسى وآل هارون، وهي عصا موسى وثيابه، وعمامة هارون، وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة ﴿تَحْمِلُهَا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي حال كونه محمولاً للملائكة^(١)، ثم قرّر تعالى أن مجيء التابوت آية لهم،

(١) قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعت =

إن كانوا ممن يؤمن ويبصر بعين الحقيقة فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ﴾ إن كنتم مؤمنين ﴿أي إن في نزول التابوت على هذا الوصف، لآية عظيمة على اصطفاء الله لطالوت، ليكون ملكاً عليهم، إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ. فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوهَا اللَّهُ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَةٌ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ في هذه القصة إيجاز، يدل عليه السياق ويدركه العالم، وهو: فاتفق بنو إسرائيل، على أن يكون طالوت ملكاً عليهم، وأذعنوا له وانقادوا، وتهيئوا لغزو عدوهم ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي فلما خرج طالوت بالجيش، وانفصل عن بلده لقتال العمالقة، وجاوز الديار، وكانوا ثمانين ألفاً، فيهم المؤمن والمنافق، والشجاع والجبان، أخذ بهم في أرض قفرة، لا ظل فيها ولا ماء، فأصابهم حر وعطش شديد، أراد أن يختبر صبرهم وطاعتهم ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ أي قال لجنوده: إن الله مختبركم بنهر من ماء - وهو نهر بين الأردن وفلسطين - ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي فمن شرب من مائه، فلا يصحبني في هذه الحرب ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي ومن لم يذقه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي، أراد بذلك أن يختبر طاعتهم

= بين يدي طالوت، والناس ينظرون، فكان ذلك علامة لهم على اصطفاء طالوت للملك، والإمارة عليهم.

وصبرهم على تحمل المكاره والشدائد، فإنما يعرف الرجال وقت الشدة، ومعنى ﴿يَطْعَمُهُ﴾ أي يذقه، قال ابن قتيبة: يقال: لم أطعم خبزاً، ولا ماءً، ولا نوماً. واستثنى من ذلك من أخذ بيده حفنة ماء، ليبلّ عطشه، وينقع غُلَّتَه، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ الغُرْفَةُ: هي الحفنة التي تحصل في الكف من الماء، أي إلا من اغترف بيده، قليلاً من الماء فشربه، فلا حرج عليه، لأنه يخفّف العناء، ولا يُذهب العطش، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء، علم أنه يطيع فيما سواه، فيصلح لخوض غمار الحرب، ومن غلبت شهوته في الماء، وعصا الأمر، فهو في الشدائد أحرى بالعصيان، فلا يصلح للحرب، قال تعالى مخبراً عنهم ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ أي فشربوا من ماء النهر وأفرطوا، إلا فئة قليلة منهم صبروا على العطش.

قال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً، وتبقى معه أربعة آلاف^(١) ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي فلما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش والحر، ورأوا كثرة عدوهم، اعتراهم الخوف والضعف، فقال فريق منهم ﴿فَكُلُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي لا قدرة لنا على قتال الأعداء، مع قائد جيشهم «جالوت» فنحن قلة قليلة، وهم كثرة كثيرة ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ﴾ أي قال المؤمنون الصادقون، الذين يعتقدون لقاء الله، وهم الصفوة من العلماء الأبرار ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ليس النصر عن كثرة العدد، فكثيراً ما غلبت الجماعة القليلة الجماعة الكثيرة، بإرادة الله ومشيئته ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالحفظ والرعاية والتأييد، فالمراد بالمعية هنا: معية نصره تعالى وتوفيقه.

(١) تفسير ابن كثير ٣١٠/١.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَتَسَيِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ فَهَزَمُوهُمْ
يَاذَنَ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ
وَعَلَّمَهُ مَتَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ تِلْكَ
آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي ولما ظهوروا أمام
أعدائهم الكثيرين، أمام طالوت وجنوده، وشاهدوا العدو، بما هم عليه من
العدد والعدد، وأيقنوا أنهم غير مطيقين لقتالهم ﴿قَالُوا﴾ جميعاً متضرعين
إلى الله تعالى، متبرئين من الحول والقوة ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ والمراد
حبس النفس على القتال، وعلى مقاساة شدائد الحرب، والإفراغ الصب،
يُقال: أفرغْتُ الإناء إذا صببت ما فيه، وهو أبلغ من «أنزل علينا صبراً»
﴿وَتَسَيِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في ميدان القتال، وثبات القدم: عبارة الرسوخ عند
المقارعة، وعدم التزلزل وقت المقاومة ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾
بقهرهم وهزمهم، ووضع «الكافرين» موضع ضميرهم، للإشعار بعلّة النصر
عليهم، لأن قوم جالوت كانوا عبدة أصنام، وقد راعوا في الدعاء ترتيباً
بديعاً، حيث قدّموا سؤال إفراغ الصبر، ثم تثبيت القدم، ثم النصر الذي
هو الغاية.

﴿فَهَزَمُوهُمْ﴾ أي استجاب الله دعاءهم، فصبروا وثبتوا ونصروا
﴿يَاذَنَ اللَّهِ﴾ بنصر الله وتأيده ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ أي وقتل البطل
«داود» - وكان في ضمن جيش طالوت - قتل رأس الطغيان «جالوت»
واندحر جيشه ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي ملك بني إسرائيل
﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة، ولم يجتمع في بني إسرائيل الملك والنبوة في

شخص قبله، بل كانت النبوة في سِنْبِط، والمُلْكُ في سِنْبِط ﴿وَعَلَّمَهُ مَكًا يَشَاءُ﴾ تعليمه إياه من صنعة الدروع وكلام الطيور، وسياسة الملك وغير ذلك ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ بدل من الناس ﴿يَبْغِضُ﴾ آخر ﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي ولولا أن الله تعالى يدفع بعض الناس بنصر المسلمين على الكفار، ويكف بهم فسادهم، لأفسدوا في الأرض ولفسدت الأرض بشؤمهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إشارة إلى ما قص من حديث الألوف وتمليك طالوت وقتل داود جالوت ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ﴾ بالوجه المطابق، الذي لا يشك فيه أرباب التواريخ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لما أخبرت بها من غير تعرف واستماع، وهذا رد لمن أنكر نبوته ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إشارة إلى ما قص من حديث الألوف وتمليك طالوت وقتل داود جالوت ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ﴾ بالوجه المطابق، الذي لا يشك فيه أرباب التواريخ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لما أخبرت بها من غير تعرف واستماع، وهذا رد لمن أنكر نبوته ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إشارة إلى ما قص من حديث الألوف وتمليك طالوت وقتل داود جالوت ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ﴾ بالوجه المطابق، الذي لا يشك فيه أرباب التواريخ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لما أخبرت بها من غير تعرف واستماع، وهذا رد لمن أنكر نبوته ﷺ.

وبين موسى بن بعيد ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ بأن فضله على غيره من وجوه متعددة، وهو الرسول ﷺ، فإنه خص بالدعوة العامة، والحجج المتكاثرة والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر، والإبهام لتفخيم شأنه، كأنه العَلَمُ المتعين لهذا الوصف، المستغني عن التعيين، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنَصَرْتُ بِالرَّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهوراً، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخَتَمَ بِيَ النَّبِيُّونَ»^(١) ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ﴾ يعني الحجج والمعجزات الظاهرة كإحياء الموتى، وإبراء الأكمة ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي بالروح المقدسة، وهي روح عيسى، وقيل بجبريل، وخص عليه السلام بالتأييد، لإفراط اليهود في التحقير، والنصارى في التعظيم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هدى الناس جميعاً ﴿مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد الرسل من الأمم المختلفة لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل المتفقة على الحق ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ من جهة أولئك الرسل، جاءتهم المعجزات والآيات الظاهرة الدالة على حقيقة الحق ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ أي ولكن لم يشأ عدم اقتتالهم لأنهم اختلفوا اختلافاً فاحشاً، ثم بيّن الاختلاف ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ﴾ بما جاءت به أولئك الرسل من البينات وعملوا به ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ بذلك لا ارعواء لهم عنه، فاقتضت الحكمة عدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم فاقتتلوا بموجب اقتضاء أحوالهم واختيارهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ عدم اقتتالهم بعد هذه المرتبة أيضاً من الاختلاف والشقاق ﴿مَا أَقْتَلْتُمُوهُمْ﴾ وما نبض منهم عرق من التطاول والتعادي لما أن الكل تحت ملكوته تعالى، فالتكرير ليس للتأكيد بل للتنبيه على أن اختلافهم ذلك ليس موجباً لعدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي من الأمور الوجودية والعدمية فيوفق من يشاء فضلاً، ويخذل من يشاء عدلاً، لا اعتراض عليه في ملكه

(١) رواه مسلم في المساجد رقم ٥٢٣ والترمذي في السير رقم ١٥٥٣.

وفعله، وفيه دليل بَيِّنٌ على أن الحوادث تابعة لمشيئته خيراً كان أو شراً، إيماناً أو كفراً، وعلى أن الأنبياء عليهم السلام متفاوتة الأقدار، وأنه يجوز تفضيل بعضهم على بعض.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٥﴾﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ما أوجبنا عليكم إنفاقه وهو المروي عن الحسن وقيل يدخل فيه الفرض والنفل، وهو المروي عن ابن جريج واختاره البلخي ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ لا تقدرُونَ فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق لأنه ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ حتى تبتاعوا ما تنفقونه ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ ولا مودة ولا صداقة حتى يغنيكم والخلة بمعنى الخصلة وزناً ومعنى جمعه خلال ﴿وَلَا شَفْعَةٌ﴾ للكافرين وأما المؤمنون فلهم الشفاعة بإذنه تعالى ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يريد التاركون للزكاة، فوضع «الكافرون» موضعه تغليظاً وتهديداً كقوله تعالى: ﴿ومن كفر﴾ مكان من لم يحج، وإيضاحاً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار، لقوله تعالى: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ والله سبحانه يذكر شيئاً من الأحكام ثم يذكر عقبيه الوعد والوعيد، ويجمع علم التوحيد، وعلم الأحكام، والقصص، لئلا يوجب الملل، وهذا أحسن في الترغيب، كما أن الإنسان إذا انتقل من بستان إلى بستان آخر، يشرح به صدره، يكون أسعد وأبهج.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

﴿ اَللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ ﴾ أي هو المستحق للعبادة لا غيره، وهو واحد، أحد، فرد صمد، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يصفون ﴿ اَلْحَيُّ ﴾ والحياة فيه سبحانه صفة موجودة حقيقة، قائمة بذاته تعالى، لا تعلم حقيقتها كسائر صفاته، الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء ﴿ اَلْقَيُّومُ ﴾ صيغة مبالغة للقيام أي الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه، والقائم بذاته والمقوم لغيره ﴿ لَا تَاْخُذُهٗ سِنَةٌ وَّلَا نَوْمٌ ﴾ السَّنة: فتورٌ يتقدم النوم، ويقال لها: النعاس، أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس قال: «إن بني إسرائيل قالوا يا موسى: هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله، فناداه ربُّه يا موسى يسألونك هل ينام ربك، فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل، ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلثاه نعس، فسقطت الزجاجتان فانكسرتا، فقال: يا موسى، لو كنت أنام، لسقطت السماوات والأرض فهلكن، كما هلكت الزجاجتان في يديك»^(١) فأنزل الله على نبيه آية الكرسي. ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ ﴾ ملكاً، وتصرفاً، يتصرف فيهما كما يشاء، وهو تقريرٌ لقيوميته، واحتجاج على تفردِهِ في الألوهية، ولم يقل «من في السماوات والأرض» للتنبيه على أن كل المخلوقات، مسخرون في قبضة قدرته، وقهره، وهم في ذلك كالجمادات، التي لا قدرة لها ﴿ مَن ذَا الَّذِي ﴾ بيانٌ لكبرياء شأنه، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه، وهذا استفهام انكاري ﴿ يَشْفَعُ عِنْدَهُ ﴾ أي لا يستطيع أحد أن يشفع لأحد، إلا إذا أذن له الباري جلَّ وعلا، ولا يظنُّ أحد أن الشفاعة تحويل القَدَر، بمعنى أن الله تعالى يريد تعذيب شخص، فتنتقذه الشفاعة، فهذا غير لائق بكبرياء ذاته عزَّ وجل، بل الشفاعة مظهرٌ لتكريم الشافع، ودليلٌ على إذنه تعالى ورضائه، كما في

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وذكره ابن كثير في تفسيره ٣١٦/١ وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط - الميزان - ويرفعه، حجابهُ النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه - أي أنوار وجهه - ما انتهى إليه بصره من خلقه».

قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي إلا أن يأذن الله بذلك، فالمعنى: لا يشفع أحد إلا بإرادته ورضائه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما أمامهم من أمور الدنيا وما خلفهم من أمور الآخرة، لا يغيب عنه شيء من أحوال الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ من معلوماته يقال أحاط بالشيء علماً: إذا علمه بوجوده، وجنسه، وحقيقته، وقدره، وعطفه على ما قبله، لما أنهما جميعاً دليل على تفرد العلم الذاتي، الدال على وحدانيته تعالى ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أن يعلموه وهم الأنبياء عليهم السلام، ليكون دليلاً على نبوتهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الكرسي ما يجلس عليه، والكلام مساق على سبيل التمثيل لعظمته تعالى^(١)، وشأنه، وسعة سلطانه، وإحاطة علمه وأكثر السلف الصالح فوضوا علمه إلى الله تعالى ﴿وَلَا يَتُودُّهُ﴾ ولا يُثقله، ولا يشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي حفظ السماوات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ المتعالي عن الأنداد والأشباه، ذو العظمة والجلال، الكبير المتعال. ﴿الْعَظِيمُ﴾ في عزه وجلاله، الذي يُستحقر بالإضافة إليه كل ما سواه أخرج مسلم وأحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي»^(٢). وأكثر الأحاديث في هذا الباب، حجة لمن قال إن بعض القرآن يفضل على بعض، فمنع منه الأشعري والباقلاني لاقتضائه نقص المفضول وأجازه إسحق بن راهويه وكثير من المتكلمين، وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية، دالة على أنه تعالى موجود، واحد

(١) فسّر ابن عباس الكرسي بأنه العلم كما حكاه عنه ابن جرير، وابن كثير، وقال ابن كثير: وفسّره بعضهم بالعرش، والصحيح أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المسافرين ٢٥٥٦/١ عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم... الحديث.

أحد، واجب الوجود، القائم بنفسه، المقيم لغيره، المنزه عن التحيز والحلول، المبرأ عن التغير والفتور، مالك الملك والملكوت، متعالٍ لا يدركه الوهم، عظيم لا يحيط به الفهم.

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٢٥٧ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ٢٥٨ .

قوله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ الإكراه: إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً، يقال: أكرهته على الأمر: أي حملته عليه قهراً وقسراً والمعنى: لا إيجاب ولا إكراه لأحد، على الدخول في الإسلام ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ تميّز الإيمان من الكفر، بالآيات الواضحة، فالإيمان رشدٌ، يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غيٌّ، يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾ بالشیطان والأصنام، وكلّ ما عبّد من دون الله ﴿ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ ﴾ بالتوحيد، وتصديق الرسل ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ ﴾ تمسك ﴿ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ من الحبل الوثيق، والمراد بالعروة الوثقى هنا: الدين الحق، الذي جاء به خاتم المرسلين، وهو دين الإسلام، شبه المستمسك بدين الإسلام، بالمستمسك بالحبل المحكم، وهو تشبيه تمثيلي، والوثقى: تأنيث الأوثق أي الأشد ﴿ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ أي لا انقطاع لها ولا زوال ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع لأقوال العباد، عليم بأفعالهم ونياتهم، ولما كان الكفر والإيمان ممّا ينطق به اللسان، ويعتقده القلب، حسن ختم الآية بقوله: ﴿ سَمِيعٌ ﴾ من أجل النطق، و﴿ عَلِيمٌ ﴾ من أجل النية والمعتقد.

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي الله جلّ وعلا ناصر المؤمنين، ومتولي

أمرهم ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي يخرجهم بهدأته وتوفيقه، من ظلمات الكفر والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، وحَّد تعالى «النور» لوحدة الحق، وجمع «الظلمات» لتعدد فنون الضلالات، وإنما سُمِّي الكفر بالظلمات، لأن الظلمة تحجب الأبصار، كذلك الكفر يحجب البصيرة، حتى لا يدرك الإنسان حقائق الإيمان ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي والكافرون المكذبون لرسول الله، أولياؤهم وأنصارهم الشياطين الغاؤون ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ أي يخرجونهم بالوساوس وإلقاء الشبهة، من نور الإيمان، إلى ظلمات الكفر والضلال ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي أولئك الأشقياء الكفار، هم أهل النار وأصحابها، لا يخرجون منها أبداً، بسبب تمردهم في الطغيان.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِرُ قَالَ أَنَا أُخِي - وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَأَبَتْ لَهُ إِلَهٌ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَبَتْ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ تعجيبٌ للسامع، وتنبيه لأمر هذا الكافر، الذي بلغ به الكفر والطغيان، إلى درجة الحماسة، أن يجادل ويخاصم «إبراهيم» عليه السلام في وجود الله ووحدانيته، زاعماً أنه لا ربَّ في الوجود، غير «النمرود» وهو «نمرود بن كنعان» ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي لأجل أن آتاه الله الملك، حيث حمله بطره، وأورثه كبره، على إنكار وجود الله، فقابل الفضل والإحسان، بالكفر والطغيان، وهذا أقبح الكفر، وأظلم الظلم، لأنه وضع الكفر بنعم الخالق موضع الشكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِرُ وَيُؤْمِنُ﴾ أي حين قال له إبراهيم عليه السلام - أثناء المحاوراة والمناظرة - إن ربي هو الذي ينشئ الحياة والموت في الأجساد، فيحيي ويميت، وهو وحده رب العالمين ﴿قَالَ أَنَا أُخِي -

وَأُمِيتَ أَي فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الْأَحْمَقُ السَّفِيهَ : وَأَنَا أَيْضاً أَحْيِي وَأُمِيتُ ، فَدَعَا النمرود برجلين ، كان قد حكم عليهما بالقتل ، فأخرجهما من السجن ، فأمر بقتل أحدهما ثم قال : هذا أمته ، وأمر بإطلاق سراح الآخر ، ثم قال : وهذا أحبيته !! ولما رأى إبراهيم حماقته ، وشغبه في الدليل ، عدل إلى برهان آخر ، أجدى وأنفع في إفحام الخصم ، لئلا يجد ذلك الشقي مجالاً للتمويه ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ أَي قَالَ لَهُ إبراهيم : إذا كنت تدعي الربوبية ، وأنتك تحيي وتُمِيت ، كما يفعل ربُّ العزة والجلال ، فهذه الشمس أمامك ، تطلع كل يوم من المشرق ، وتغرب من المغرب ، فأرنا قدرتك ، واجعلها تطلع من المغرب ، وتغرب من المشرق ، ولو مرة واحدة ، حتى نرى آثار ربوبيتك !! ﴿ قَبِهُتَ الَّذِي كَفَرْتُ ﴾ أَي فَأَصْبَحَ مَبْهُوتاً مَتَحِيرًا ذَلِكَ الشَّقِي ، لَا يَسْتَطِيعُ الْجَوَابَ ، وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ أَمَامَ الْخَلْقِ ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أَي لَا يُوَفِّقُهُمْ ، وَلَا يُلْهِمُهُمُ الْحُجَّةَ وَالْبَيَانَ ، فِي مَقَامِ الْمُنَاطَرَةِ ، لَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمَ رَئِعاً وَبَارِعاً ، فِي إِفْحَامِ خَصْمِهِ ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى إِبْطَالِ مَقَالَتِهِ الْأُولَى حِينَ سَمِعَ جَوَابَهُ الْأَحْمَقَ ﴿ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ بَلْ انْتَقَلَ مُبَاشَرَةً إِلَى مَثَالٍ آخَرَ ، لَا يَسْتَطِيعُ اللَّفَّ وَالِدُورَانَ حَوْلَهُ ، لِيَبْهَتَهُ وَيُلْقِمَهُ الْحَجَرَ ، وَلِهَذَا بُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَهَذَا مِنْ قُوَّةِ ذِكَاةِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقُوَّةِ حُجَّتِهِ وَبَيَانِهِ .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمْتُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

هذا من باب عطف القصة على القصة، وكأنه يقول: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه؟ وهل رأيت مثل الذي مرَّ على قرية؟ ولهذا عطفها على القصة السابقة، والغرضُ التعجيب في الحالتين: من صنيع النمروذ، واستغراب الرجل الصالح «عزير» إعادة الحياة إلى المدينة المخربة على أهلها، وكلتا القصتين فيها إشارة إلى قدرة رب العالمين، في الإحياء والإماتة. قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ جمهور المفسرين على أنه «عزير» الذي زعم اليهود، أنه ابن الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ بْنُ اللَّهِ﴾ لأن الله أماته في الدنيا ثم أحياه، فقالوا: إنه ابن الله، والمعنى: ألم يصل إلى سمعك، وبلغك خبر الرجل الذي مرَّ على مدينة بيت المقدس، بعد أن خربها «بختنصر» المجوسي ودمرها على أهلها؟ ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أعاده كهيئته يوم موته، عاقلاً فاهماً مستعداً للاستدلال ﴿قَالَ﴾ أي قال له بعد بعثه ﴿كَمْ لَيْسَتْ﴾؟ ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشؤونه تعالى، ويطلع في تضاعيفه على أمر آخر، من بدائع قدرته تعالى، وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهرًا طويلاً، من غير تغير ﴿قَالَ لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناءً على الظن والتقريب ﴿قَالَ بَلْ لَيْسَتْ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي مكثت مدة طويلة وهي مائة سنة ﴿فَانْظُرْ﴾ لتعاین أمراً آخر من دلائل قدرتنا ﴿إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير في هذه المدة ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه، ليتبين لك ما ذكر، من اللبث المديد، وتطمئن به نفسك ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي فعلنا ذلك لنجعلك آية للناس، الموجودين في هذا القرن ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ أي عظام الحمار، لتشهد كيفية الإحياء ﴿كَيْفَ نُنشِرُهَا﴾ أي نردُّها إلى أماكنها من الجسد، فتركبها تركيباً لا نفقاً بها ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ نسترها به كما يُستر الجسد باللباس، روي أنه نودي أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تتجمعي، فاجتمع والتصق كل عضو بما يليق به، ثم انبسط عليه اللحم، ثم الجلد، ثم خرج منه الشَّعْرُ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو ينهق ﴿فَلَمَّا

تَبَيَّنَ لَكُمْ أَيُّ اتَّضَحَ اتِّضاحاً تاماً ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما شاهده في نفسه وفي غيره.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تَوْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين ﴿رَبِّ﴾ كلمة استعطاف قُدمت بين الدعاء، مبالغة في استدعاء الإجابة ﴿ارْنِي﴾ من الرؤية البصرية ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ بأن يحييها وأنا أنظر إليها، وإنما سأله لينقل من مرتبة علم اليقين، إلى مرتبة عين اليقين، وفي الخبر «ليس الخبر كالمعاينة» روى محمد بن إسحق أن سبب السؤال، منازعة النمرود إياه في الإحياء حيث رد عليه السلام عليه لمّا زعم أن العفو إحياء، وتوعّده بالقتل إن لم يُحيي الله الميت بحيث يشاهده فدعا عليه السلام حينئذ ﴿قَالَ أُولَئِمُ تَوْمِنٌ﴾ أو ألم تعلم ولم تؤمن بأني قادر على الإحياء كيف أشاء، حتى تسألني إراءته؟ قال عزّ وجلّ وهو أعلم بأنه عليه السلام أثبت الناس إيماناً وأقواهم يقيناً، ليجيب بما أجابه، فيكون ذلك لطفاً للسامعين، فيعلموا غرضه ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ علمت وآمنت بأنك قادر على الإحياء على أيّ كيفية شئت ﴿وَلَٰكِن﴾ سألت ما سألت ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ بانضمام العيان إلى الإيمان، وأزداد بصيرة بمشاهدته على كيفية معينة، وهذا لا ينافي منصب النبوة أصلاً، ويدل على ذلك ورود السؤال بلفظ «كيف» فهو لا يشكّ أنه قادر، ولكنه سأل عن الكيفية، والطمأنينة إنما تكون بقوة اليقين، والاضطراب بالشك، وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة ﴿قَالَ فَخُذْ﴾ أي إن أردت فخذ ﴿أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ قيل هي طاووس، وديك، وغراب، وحمامة، وإنما خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان واجمع

لخواص الحيوان، ولسهولة تأني ما يفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك ﴿فَصَرُّهُنَّ﴾ صار يصور ويصير لغتان، بمعنى قطعته أو أماله، أي أملهن أو قطعهن واجمعهن ﴿إِلَيْكَ﴾ لتأملها حتى تعلم بعد الإحياء، أن جزءاً من الأجزاء لم ينتقل من موضعه الأول، أمره تعالى بأن يذبحها، ويفرق أجزاءها، ويمسك رؤوسها، ثم أمره بأن يجعل أجزائها على الجبال ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ﴾ أي قل لهن تعالين بإذن الله ﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ أي ساعيات، والحكمة في سعيهن دون الطيران، لأن ذلك أبعد من الشبهة، لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطيور. روي أنه عليه السلام نادى، فجعل كل جزء منهن يصير إلى صاحبه، حتى صارت جثثاً ثم أقبلن إلى رؤوسهن، فانضمت كل جثة إلى رأسها، فعادت كل واحدة منهن، إلى ما كانت عليه من الهيئة ﴿وَأَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره، لا يعجزه شيء عما يريد ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة في أفعاله.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في وجوه الخيرات، من الواجب والنفل قيل: المراد هنا الإنفاق في الجهاد، لأنه هو الذي يضاعف هذه الأضعاف، وأما الإنفاق في غيره فلا يضاعف كذلك، وإنما تُجزى الحسنة بعشر أمثالها ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي مثل نفقتهم كمثال حبة والحب اسم جنس للحنطة ونحوها، مما يكون في السنبل ﴿أَنْبَتَتْ﴾ أخرجت تلك الحبة ﴿سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾ أي ساقاً تشعب منها سبع شعب ﴿فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ أسند الإنبات إلى الحبة، لما كانت من الأسباب، كما يسند إلى الأرض والماء النبات، والمنبت على الحقيقة هو الله، والمعنى أنه يخرج منها ساق، يتشعب منها سبع شعب، لكل منها سنبلة فيها مائة حبة، وهو

تمثيل لا يقتضي وقوعه، وقد يكون في الذرة والدخن وفي البر في الأراضي المغلة ﴿وَاللَّهُ يُصَنِّعُ﴾ تلك المضاعفة، أو فوقها إلى ما شاء الله تعالى ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بفضله، على حسب حال المنفق، من إخلاصه، وتعبه، وإيقاع الإنفاق في أحسن مواقعه، ومن أجل ذلك تفاوتت الأعمال في مقادير الثواب ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي واسع الجود والفضل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بنية المنفق وقدر إنفاقه.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى﴾ وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقًا وَالنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بيان لكيفية الإنفاق الذي بيّن فضله بالتمثيل المذكور ﴿ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي ما أنفقوه ﴿مَتًّا﴾ هو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، منتت عليه أي عدت له ما فعلت له من الصنائع، نهى الشارع تعالى عنه، ومن هنا يقال: «الْمَنُّ أَخُ الْمَنِّ» أي الامتنان أخ القطع، ويقال إذا صنعت صنعة فانسوها ﴿وَلَا أَدَى﴾ الأذى أن يتناول عليه بسبب ما أنعم عليه، فيقول كم تسأل، وقد بليت بك، وأمثال ذلك، وقدم المَنُّ لكثرة وقوعه، وهذه الآيات نزلت في عثمان رضي الله عنه فإنه جهّز جيش العسرة بألف بعير، وألف دينار، وعبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، ولم يكد يخطر ببالهما شيء من المَنِّ والأذى ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ثواب إنفاقهم حسبما وعدهم في التمثيل ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ رد جميل يُردُّ به السائل، من غير إعطاء شيء،

مثل قوله يرزقك الله ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وعفو عن السائل، إذا وُجد منه ما يثقل على المسؤول من الإلحاح وغيره ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ لكونها مشوبة بضر ما يتبعها ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ عن صدقات العباد، وإنما أمرهم لمصلحة تعود إليهم، ولا حاجة له إلى منفق يُمْنٌ ويؤذي ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معاجلته بالعقوبة.

﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أقبل عليهم بالخطاب إثر بيان ما بيّن، بطريق الغيبة مبالغة في إيجاب العمل بموجب النهي ﴿لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ﴾ أي لا تضيعوها، والصدقة: ما يخرجها الإنسان من ماله، على وجه القربة ﴿بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ أي لا تحبطوا أجرها بكل واحد منهما ﴿كَالَّذِي﴾ أي إبطالاً مثل إبطال الذي ﴿يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةً نَّاسٍ﴾ أي مراعاة لهم وسمعة، ليروا نفقته، ويقولوا عنه إنه سخي، والرياء إظهار الجميل ليراه الناس ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي كإبطال المنافق الذي لا يريد به رضاء الله تعالى، ولا ثواب الآخرة، لأنه لا يؤمن بالله حتى يرجو ثواباً أو يخشى عقاباً ﴿فَمَثَلُهُ﴾ مثل من لا ينفق لوجه الله ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ كمثّل حجر كبير أمّلس ﴿عَلَيْهِ رِثَابٌ﴾ يسير ﴿فَأَصَابَهُ وَايْلٌ﴾ مطر شديد دافق، عظيم القطر ﴿فَفَرَّكَهُ صَلْدًا﴾ نقياً من التراب فالصفوان والتراب إنفاقه، والوايل كالرياء والمن والأذى، يحبط عمل هذا ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا﴾ لا يتفعلون بما فعلوا، ولا يجدون له ثواباً والضمير للذي ينفق باعتبار المعنى لأن المراد به الجنس ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إلى ما ينفعهم، وفيه تعريض بأن كلاً من الرياء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار، ولا بد للمؤمنين أن يجتنبوا.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَلْبِيسًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنِّ بِرِّيَّةٍ أَصَابَهَا وَايْلٌ فَتَأْتَتْ أَكْطَاهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَايْلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ لطلب رضا
﴿وَتَثْبِيحًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وتثبيناً لأنفسهم على الإيمان، فإن المال شقيق
الروح، فمن بذله لوجه الله، فقد ثبتت نفسه على الإيمان والإخلاص، وفيه
تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق، تزكية النفس عن البخل، وحب المال
الذي هو رأس كل خطيئة، والمعنى ومثل هؤلاء في زكائها عند الله
﴿كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي كمثال بستان بموضع مرتفع، خصّها بذلك لأن
الشجر فيها أزكى، وأحسن ثمرأً ومنظراً، للطاقة هوائها، وعدم كثافته
﴿أَصَابَهَا وَايْلٌ فَقَانَتْ أَكْلَهَا﴾ ثمرتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي مثلي ما كانت تُثمر
قبل، فالتشبيه للكثرة، وحاصلُ هذا التشبيه أن نفقات هؤلاء، زاكية عند
الله تعالى لا تضيع بحال، وإن كانت تتفاوت بحسب تفاوت الإخلاص،
وجيد المال ﴿فَإِنْ لَّمْ يُصِيبْهَا وَايْلٌ فَطُلَّ﴾ أي رُشاشٌ خفيف، وهو مطر
ضعيف القطر، يكفيها للطاقة هوائها، وارتفاع مكانها فكذاك نفقتهم كثيرة
كانت أو قليلة، بعد أن تكون لوجه الله، زاكية عند الله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى أعمالكم ويعلم نيتكم فيها، وهو ترغيب في
الإخلاص، وتحذير من الرياء ونحوه.

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١)

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ هذا متصل بقوله تعالى: ﴿لَا
تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾ والهمزة لإنكار الوقوع ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ تخصيصها
بالذكر، لأنهما أشرف الفواكه وأحسنهما، لما فيهما من الغذاء والتفكه
﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ جري الأنهار من تمام حسنهما، وسبب لزيادة

ثمرتها ﴿لَوْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي تحتوي سائر أنواع الأشجار، ويجوز أن يكون المراد بالثمرات المنافع ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ أي كبر السن والشيخوخة، وهي مظنة الاحتياج إلى منافعها، لأنه إذا أصابه الكبر، عجز عن الاكتساب، وكثرت حاجاته ﴿وَلَوْ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ صغار ولا قدرة لهم على الكسب ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ والإعصار ريح ترتفع بتراب نحو السماء كالعمود، والعرب تسميه أيضاً الزوبعة. روى البخاري عن ابن عباس قال: «قال عمر رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي ﷺ فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم!! فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضُرِبَتْ مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله^(١)، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح، الجاري في الظهور مجرى الأمور المحسوسة ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ﴾ في التوحيد والدين ﴿الْآيَاتِ لَكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ كي تتفكروا فيها فتتبهوا بها، وتعملوا بموجبها.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَكِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي أنفقوا من حلال ما كسبتم وجيده، كقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٢٠٢/٨.

تتفقوا مما تحبون ﴿ وفيه دليل على وجوب الزكاة في أموال التجارة، وعلى إباحة الكسب، وعلى أن المال ينقسم إلى طيب، وخبيث ﴾ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴿ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحب، والتمر، والمعادن وغير ذلك، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يفرس غرساً، أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»^(١). ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ ﴾ تيممته أي قصدته، والخبيث الرديء الخسيس ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من المال الخبيث ﴿ تُنْفِقُونَ ﴾ تخصصونه بالإنفاق، عن البراء بن عازب قال: نزلت فينا كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله بالقنو فيعلقه بالمسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه، فسقط البسر أو التمر فيأكل، وكان أناس مما لا يرغب الخير يأتي بالقنو فيه الشيص والحشو فيعلقه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ الآية قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده»^(٢). وعن علي قال: نزلت في الزكاة المفروضة، كان الرجل يعمد إلى الثمر فيصرمه - أي يقطعه - فيعزل الجيد ناجية، فإذا جاء صاحب الصدقة، أعطاه من الرديء ﴿وَلَسْتُمْ بِتَّائِدِينَ﴾ أي والحال أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لرداءته، في أي وقت من الأوقات ﴿إِلَّا أَنْ تُقِيمُوا فِيهِ﴾ إلا وقت إغماضكم فيه، وهو عبارة عن المسامحة، من قولك: أغمض فلان عن بعض حقه، إذا غض بصره كأنه لا يبصر، وأصله من الغموض وهو الخفاء ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم، وفي الأمر بأن يعلموا ذلك مع علمهم به، توبيخ لهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث، وإيدان بأن ذلك من آثار الجهل بشأن الله تعالى ﴿حَكِيمٌ﴾ مستحق للحمد على نعمه.

(١) أخرجه البخاري ٣/٥ ومسلم رقم ١٥٥٣ باب فضل الغرس والزرع.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ٣٢٨/١.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ^(٢١٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ^(٢١٩).

قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ قيل: إبليس، وقيل: شياطين الإنس والجن، وكلٌّ من منع فعل الخير والإحسان.

ولما رَغِبَ الله تعالى الإنسان في الإنفاق حذَّره بهذا من وسوسة الشيطان ﴿يَعِدُكُمُ﴾ الوعد هو الإخبار بما سيكون، قالوا في الخير وعده وعداً، وعدة، وفي الشر وعده وعيداً، فالمصدرُ فارق ﴿الْفَقْرَ﴾ في الإنفاق، لأن الفقر مما يراه الإنسان شراً، ولهذا يخوف الشيطان به المتصدقين، فيقول لهم: لا تنفقوا، فإن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا. ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي يُغريكم على البخل ومنع الصدقات ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم﴾ في الإنفاق على لسان نبيكم ﴿مَّغْفِرَةً مِنْهُ﴾ لذنوبكم ﴿وَفَضْلاً﴾ أي وأن يخلفكم أفضل مما أنفقتم ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي واسع الفضل لمن أنفق ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تنفقونه فيجازيكم عليه.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ الحكمة: تحقيق العلم، وإتقان العمل، والمراد بها علم القرآن والسنة، وروي عن ابن عباس قال: إنها النبوة. وهي في الأصل مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في علم، أو عمل، أو قول، ومعنى إيتائها تبينها والتوفيق للعمل بها ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده بموجب سعة فضله، وإحاطة علمه ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ أي ومن يؤته الله الحكمة، والإظهار في موضع الإضمار للاعتناء بشأنها ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ إذ جمع له خير الدارين، أخرج الطبراني عن أبي أمامة مرفوعاً: «إنَّ لقمان قال لابنه: يا بني عليك مجالس العلماء، واسمع كلام الحكماء، فإن الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة، كما يحيي الأرض

الميت بوابل المطر»^(١) وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حَسَدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه الله تعالى مالاً فسلَّطه على هَلَكَته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»^(٢) وهذا بالنسبة إلى حملة العلم الشرعي الذي جاء به حكيم الأنبياء ﷺ، لا ما وضعه الفلاسفة اليونان في وقت كثرت فيه الأوهام ﴿وَمَا يَذْكُرُ﴾ أي وما يتعظ بما قص من الآيات ﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي إلا ذوو العقول الخالصة عن شوائب الوهم، واتباع الهوى وهؤلاء هم الذين أوتوا الحكمة.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧) **﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَدَقْتُمْ فَنِعْمَ هِيَ وَإِنْ تَخَفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** (٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ قليلة أو كثيرة، سراً أو علانية، في طاعة أو معصية في سبيل الله ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية، متعلق بالمال أو بالأفعال، كالصلاة والصيام ونحوهما، والنذر عقد القلب على شيء والتزامه على وجه مخصوص ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ أي يجازي عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين يمنعون الصدقات أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو لا يوفون بالنذور، وغير ذلك مما ينتظمه من أنواع الظلم ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ممن ينصرهم من بأس الله، ويمنعهم من عقابه، وفيه وعيد عظيم لكل ظالم.

﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَدَقْتُمْ﴾ سئل رسول الله ﷺ هل صدقة السر أفضل، أم صدقة العلانية؟ فنزلت، والمراد من الصدقات على ما ذهب إليه جمهور

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة مرفوعاً، وأمثال هذا كثير من حِكَم لقمان.

(٢) أخرجه البخاري ١٥٣/١ في العلم، ومسلم رقم ٨١٦.

المفسرين صدقات التطوع أي إن تُظهروا الصدقات ﴿فَنِعْمَ أَهْلُهَا﴾ فنعم شيئاً إبداءها إن لم تكن رياءً أو سمعة، ويُستحب إخفاؤها للخائف من الرياء، والكبرياء، والإبداء أفضل في الصدقات المفروضة، وأما التطوع فالإخفاء أفضل، وهي التي أريد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْفُوهَا﴾ أي تعطوها خفية ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ ولعل التصريح بإيتائها الفقراء لحث المتصدق على أن يتحرى موضع الصدقة، فيميز الفقراء من غيرهم، فإذا عجز بعض الناس عن الكسب، لآفة في فكره، أو علة في بدنه، فيجب على الأغنياء الأخذ بيده شكراً لله تعالى ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي فالإخفاء خير لكم من الإبداء. عن أبي أمامة أن أبا ذر قال: يا رسول الله: أي الصدقة أفضل؟ قال: صدقة سرٍّ إلى فقير^(١)، ثم قرأ الآية: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أصل التكفير: السِّرُّ والتغطية، فتكفير السيئات دفع العقاب ورفعته عن الإنسان، بثواب أو بتوبة، حتى تصير بمنزلة ما لم يُعْمَل ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ عالم بما تفعلونه، فهو ترغيب في الإسرار.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسُكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أي لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين، وإنما عليك الإرشاد على المحاسن، والنهي عن القبائح، بما أوحى إليك من الآيات ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ﴿مَن يَشَاءُ﴾ هدايته إلى ذلك ممن يتذكر بما دُكِّر، ويختار الخير ﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾ النفقات إلى خطاب المكلفين، لزيادة هزهم نحو الامتثال ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ من أي شيء تنفقون ﴿فَلَا تُنْفِسُكُمْ﴾ فنفعه الديني

(١) الحديث رواه أحمد، وابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٠.

لأنفسكم، لا ينتفع به غيركم، فلا تمثوا على الفقراء، ولا تؤذوهم ولا تنفقوا من خبيث أموالكم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لَابِتْغَاءِ وَجْهِ اللَّهِ﴾ وطلب ثوابه، أي وليس نفقتكم إلا لابتغاء وجهه، فما بالكم تمثون بها؟ وقيل: نفق في معنى النهي ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، روي أن الصدقة إذا خرجت من يد صاحبها قالت: كنت صغيرة فكبرتني، وكنت حارسي فالآن أنا حارسك، وكنت فانياً فأبقيتني!! وروي عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أنفقي ولا تحصي فيحصي عليك، ولا توعي فيوعي عليك^(١)» والمعنى: أنفقي ولا تشخي فيجازيك بالتقتير ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ أي لا تنقصون ثواب نفقتكم شيئاً مما وعد.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٧) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٨).

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ بين تعالى في هذه الآية أشد الناس استحقاقاً للصدقة فقال ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ أي اجعلوا ما تنفقونه للفقراء ﴿الَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري ٢٤٠/٣ عن أسماء قالت: قلت يا رسول الله، مالي مالٌ إلا ما أدخل عليّ الزبير، أفأتصدق؟ قال: «تصدقني، ولا توعي فيوعي الله عليك» ورواه مسلم رقم ١٠٢٤ والترمذي رقم ٦٧٢.

أَحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١﴾ أَي أَحْصِرْهُمْ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَنْعَهُمْ مِنَ
التَّصَرُّفِ ﴿٢﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٣﴾ لاشتغالهم بالجهاد ﴿٤﴾ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴿٥﴾
الكسب والتجارة، وهم أصحاب الصُّفَّة، كانوا نحواً من أربعمئة من فقراء
المهاجرين، يسكنون صُفَّةَ المسجد يستغرقون أوقانهم بالعلم والعبادة،
وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ وعن سعيد بن جبير: هم
قوم أصابتهم الجراحات في سبيل الله فصاروا زمنى ﴿٦﴾ يَحْصِبُهُمُ الْجَاهِلُ ﴿٧﴾
بحالهم ﴿٨﴾ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴿٩﴾ من أجل تعففهم عن السؤال وهو من العفة
وهي ترك الشيء والكف عنه، مع القدرة على تعاطيه ﴿١٠﴾ تَعْرِفُهُمْ ﴿١١﴾ أي
تعرف فقرهم ﴿١٢﴾ بِسِمَتِهِمْ ﴿١٣﴾ من صُفرة الوجه، وريثة الحال، وأثر الجهد،
وقد كان رسول الله ﷺ إذا صَلَّى بالناس «يخزُّ رجال من قيامهم في
صلاتهم، لما بهم من الخصاصة، وهم أهل الصفة»^(١) والخطاب لكل من
له حظ من الخطاب، والسبب: العلامة التي يُعرف بها الشيء ﴿١٤﴾ لَا يَسْتَأْذِنُ
النَّاسُ إِلَّا حَقًّا ﴿١٥﴾ أي إلحافاً هو أن يلزم المسؤول حتى يعطيه،
والمعنى: لا يسألون شيئاً وإن سألوا الحاجة اضطرتهم إليه لم يُلْحُوا، وعن
أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكنَّ
الغنى غنى النفس»^(٢) وعن ابن مسعود قال: قال ﷺ: «من سأل الناس وله
ما يغنيه، جاء يوم القيامة ومسأله في وجهه خموش، أو خدوش أو
كدوخ، قيل: ما يغنيه يا رسول الله؟ قال: خمسون درهماً، أو قيمتها من
الذهب»^(٣) ﴿١٦﴾ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ لا يضيع عنده ويجازي
عليها فهو ترغيب في التصديق لا سيما على هؤلاء.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْأَنَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي مسرين

(١) أخرجه أبو نعيم عن فضالة بن عبيدة، ويؤيده قول أبي هريرة: إن كدث لأخز من الجوع.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٢٣١/١١ ومسلم في الزكاة رقم ١٠٥١.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود رقم ١٦٢٦ والترمذي رقم ٦٥٠ والنسائي ٩٧/٥ في الزكاة.

ومعلنين، يعني يعمّون الأوقات بالصدقة، فالمراد بالليل والنهار جميع الأوقات، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ المنخبوء لهم في خزائن الفضل ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ. (٢٧٦)

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أي الآخذون له، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، أو أريد بالأكل الانتفاع، كما يقال: فلان أكل ماله كله، والربا في اللغة مطلق الزيادة، وفي الشرع هو فضل مال خالي عن العوض في المبادعات. عن جابر قال: «لعن رسول الله ﷺ أكل الربا، وموكله وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء»^(١) ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم يوم القيامة ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ إلا قياماً كقيام المصروع الذي يتخبطه الشيطان ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ أي الجنون يقال: مُسَّ الرجل فهو ممسوس إذا جُنَّ، وأصله اللمس باليد، وسمي به لأن الشيطان قد يمس الرجل فيحدث الجنون، وفي الحديث: «ما من، مولود يولد، إلا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهل صارخاً»^(٢)، أي يصبح أي لا يقومون إلا كما يقوم المصروع، فيكون نهوضهم وسقوطهم، كالمصروعين، لا لاختلال عقولهم بل لأن الله تعالى أربى في بطونهم ما أكلوا من الربا،

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٥٩٨ باب لعن أكل الربا وموكله.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٨/٦ ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٦٦ وتتمة

الحديث: فيستهل صارخاً من مسّ الشيطان إياه، إلا مريم وابنها.

فأثقلهم فصارو مخبّلين، ينهضون ويسقطون، تلك سيماهم عند أهل الموقف ﴿ذَلِكَ﴾ العقاب ﴿يَأْتُهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ فنظّموا الربا والبيع في سلك واحد، لإفضائهما إلى الربح بناءً على ما فهموه، أن البيع إنما حل لأجل الكسب، وذلك في الربا متحقق فكذبهم الله بقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ إنكار لتسويتهم بينهما، إذ الحلّ والحرمة ضدّان، فأنى يتماثلان؟ فإن من أعطى درهمين بدرهم ضيّع درهماً، فلا يقال إن عوضه هو الإمهال، لأن الإمهال ليس مالاً أو شيئاً يشار إليه حتى يجعله عوضاً ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ وعظ وزجر ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ وفي ذكر الرب تأنيس لقبول الموعظة، إذ فيه إشعار بإصلاح أمر عبده، أي فمن بلغه وعظ من الله وزجر عن الربا ﴿فَأَنتهَى﴾ واتعظ وانتهى بلا تراخ ﴿فَلَمْ مَّا سَلَفَ﴾ أي ما تقدم فلا يؤاخذ فيما مضى، وليس عليه رد ما سلف، لأنه أخذه قبل نزول التحريم، فأما من لم يقبض بعد، فلا يجوز له أخذه، وإنما له رأس ماله فقط، كما بينه تعالى في قوله: ﴿وَأَن تَبْتَغُوا فَلَكم رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ والسلف: المتقدّم وكلّ شيء قدمته أمامك فهو سلف ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يجازيه على انتهائه، إن كان عن قبول الموعظة، وصدق النية ﴿وَمَرَّتْ عَادَ﴾ إلى تحليل الربا إذ الكلام فيه ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من عاد ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿﴾ ماكثون أبداً لكفرهم بالاستحلال.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ يذهب بركته، ويهلك المال الذي يدخل فيه والمحق: نقصان الشيء حالاً بعد حال ومنه المحاق في الهلال ﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ ينميها ويزيدها، ويبارك في المال الذي أخرجت منه الصدقة، ويزداد كل يوم جاء المتصدق، وذكره الجميل، وميل القلوب إليه، وذلك أفضل من المال ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ عظيم الكفر، المصرّ على تحليل المحرمات ﴿أَنِي﴾ منهمك في ارتكابه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٧٧) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُهُوسٌ آمُونًا لَّكُمْ لَا تَقْلِبُوهُمْ وَلَا تَقْلِبُوهُمْ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٨١) .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بالله ورسله وبما جاءهم منه، ومن جملتها تحريم الربا ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ على الوجه الذي أمروا به ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ ﴾ عطفهما على ما يعمهما، لفضلهما على سائر الأعمال الصالحة ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ الموعود لهم ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من آت ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على فائت .

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ في الظاهر ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي قوا أنفسكم عقابه ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ واركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا تركاً كلياً، نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مالٌ، فطالبوهم عند المحل بالمال والربا، وقالت قريش: والله ما نعطي الربا في الإسلام، وقد وضع الله تعالى عن المسلمين، واختصموا إلى عتاب بن أسيد وكان عامل رسول الله ﷺ على مكة، فكتب عتاب إلى رسول الله ﷺ بقضية الفريقين، وكان ذلك مالاً عظيماً، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ فقالوا نتوب إلى الله، ونذر ما بقي من الربا، فتركوه كلهم^(١). وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ على الحقيقة كاملي الإيمان، فإن دليل كماله امتثال الأمور به .

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٣٨/١ فقد ذكر هذه القصة من رواية زيد بن أسلم والسدي .

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتم به من الاتقاء وترك الربا ﴿فَأَذْنُوا﴾ أي فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا علم به وقيل: فأذنوا أي فأيقنوا. وهو التفسير المأثور عن ابن عباس ﴿يَحَرِّبُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهو كحرب المرتدين على الأول. وقيل هذا تهديد لا حرب، وجمهور المفسرين على الأول روي أنها لما نزلت قالت ثقيف: لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله ﴿وَإِنْ تُبْتَمِرْ﴾ من أكل الربا مع الإيمان بحرمتها بعد ما سمعوا من الوعيد ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ تأخذونها تماماً ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالمطل والنقصان فلما نزلت قالت ثقيف: نتوب إلى الله، ورضوا برؤوس أموالهم، فشكا من كان عليهم دين، وقالوا: آخرونا إلى أن نتدارك الغلات فأبوا أن يؤخروهم، فأنزل الله تعالى:

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أي إن كان غريم من غرمائكم ذو إعسار، فالحكم إنظاره وإمهاله إلى يساره ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بحذف إحدى التائين برؤوس أموالكم على من أعسر بالإبراء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تأخذونه لمضاعفة ثوابه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم، لأن فيه الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، وفيه تحريض للتصدق على المُعْسرين.

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال ﷺ: «من سرّه أن ينجيّه الله من كُرب يوم القيامة، فلينفُس عن معسر، أو ليضع عنه»^(١) ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا

(١) أخرجه الطبراني، وانظر تفسير ابن كثير ٣٣٩/١ وروى الإمام أحمد في المسند رواية أخرى، أنَّ أبا قتادة كان له دَيْنٌ على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه فيخْتَبِئُ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبيٌّ فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خَزِيرَةً - حساء فيه لحم ودسم - فناداه فقال: يا فلان، اخرج فقد أُخْبِرْتُ أنك ههنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عتي؟ فقال: إني معسرٌ وليس عندي شيء، قال: اللَّهُ إِنَّكَ معسرٌ، قال: نعم، فبكى أبو قتادة ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من نفَس عن غريمه أو محا عنه، كان في ظل عرش الله يوم القيامة».

تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴿١٠﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أو يوم الموت فتأهبوا لمصيركم إليه ﴿١١﴾ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴿١٢﴾ أي تُعْطَى جزاءها كاملاً ﴿١٣﴾ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٤﴾ بنقص ثواب، أو تضعيف عقاب، عن ابن عباس أنها آخر آية نزلت، وعاش ﷺ بعدها إحدى وعشرين يوماً.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُعْلِلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ قَرَضُونَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسَوْفَ يَكُمُ النَّقْوُ وَاللَّهُ يَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ شروع في بيان حال المدائنة، فإنه تعالى لما بالغ في الوصية، بحفظ المال الحلال عن التلف، لأنه سبب لمصالح المعاش والمعاد، حث على الاحتياط في أمر الأموال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ﴾ أي إذا دايين بعضكم بعضاً، تقول: دايته إذا عاملته نسيئة معطياً أو آخذاً، قال ابن عباس: لما حرم الله الربا أباح السلف، وقيل: المراد بها كل ما يؤجل من المعاوزات ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾

مُسَكَّى ﴿ معلوم بالأيام والأشهر، عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «من أسلم في تمر، ففي كيل معلوم، أو وزن معلوم، إلى أجل معلوم»^(١) وفي رواية «من أسلف» ومعناها واحد ﴿ فَأَكْتَبُوهُ ﴾ أي الدين، لأنه أوثق وأدفع للنزاع، وآمن من النسيان، وأبعد من الجحود، والأمر للندب، وعليه الجمهور، ﴿ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ ﴾ بيان كيفية الكتابة المأمور بها وقال ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ للإيذان بأن الكاتب ينبغي أن يتوسط بين المتدائنين، باختيار كاتب فقيه دين، حتى يكتب ما هو متفق عليه، من غير زيادة ولا نقصان ﴿ بِالْمَكْدَلِ ﴾ أي كاتب مأمون على ما يكتب وفيه دليل على أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدلاً بالشرع ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ ﴾ أي لا يمتنع أحد من الكُتَّاب أن يكتب كتاب الدين ﴿ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾ أي مثل ما علمه الله تعالى كتابة الوثائق، أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته، كما نفعه الله تعالى بتعليم الكتابة، كقوله تعالى: ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ﴿ فَلْيَكْتُبْ ﴾ تلك الكتابة التي أمر بها ﴿ وَلْيُمْلَأِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ ولا يكون المملئ إلا من وجب عليه الحق، لأنه هو المشهود عليه، وعلى ثبوته في ذمته، فيكون ذلك إقراراً على نفسه والإملاء والإملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد، ﴿ وَلْيَسْقِ اللَّهَ رَبُّهُ ﴾ أي المملئ المدين على الكاتب، جَمَعَ ما بين الاسم الجليل، والنعت الجميل، للمبالغة في التحذير ﴿ وَلَا يَبْخَسُ مِنْهُ شَيْئاً ﴾ وإن كان حقيراً، بَخَسَهُ أي نقصه، والبخسُ أعمُّ من نقص المكيل والموزون، فإنه يشمل غيرهما من المبيعات ويشمل أيضاً الغل والغش والحيل ﴿ إِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ صرح بذلك لزيادة الكشف والبيان ﴿ سَفِيهاً ﴾ أحمق أو جاهلاً بالإملاء أو مبدراً لماله ومفسداً لدينه ﴿ أَوْ ضَعِيفاً ﴾ أي صبيهاً أو شيخاً خرقاً

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب السلم ٣٥٥/٤ ومسلم في المساقاة رقم ١٦٠٤ ورواية البخاري عن ابن عباس قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يسلفون في التمر العام والعامين، فقال لهم: من أسلف في تمر... الحديث.

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلِكَ هُوَ﴾ بنفسه لخَرَسٍ كما روي عن ابن عباس، أو لما هو أعم منه، من الجهل باللغة، وسائر العوارض المانعة ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ أي متولي أمره وإن لم يكن له خصوص الولي الشرعي، فيشمل القيم والوكيل والمترجم ﴿يَا لَعَدْلٍ﴾ بين صاحب الحق والمولى عليه فلا يزيد ولا ينقص ﴿وَأَسْتَشْهِدُ وَأَشْهَدُ بَيْنَ يَدَيَّ﴾ واطلبوا أن يشهد لكم شاهدان على الدين، والأمر للندب، أو للوجوب على الخلاف في ذلك ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ من الرجال المؤمنين، والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام، إذ الكلام في معاملتهم، أما إذا كانت المداينة بين الكفرة، أو كان من عليه الحق كافراً، فيجوز استشهاد الكافر ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ فيما عدا الحدود والقصاص ﴿مِمَّنْ رَضَوْا مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ ممن تعرفون عدالتهم. روي عن عائشة أنها قالت: قال ﷺ: «لا تجوز شهادة خائن، ولا خائنة، ولا مجلود حداً، ولا ذي غمٍ على أخيه، ولا القانع لأهل البيت، ولا ظنين في ولاء ولا قرابة»^(١) أراد بالخيانة: الخيانة في الدين والأمانة، ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ تعليل لاعتبار العدد في النساء، أي لأجل أن تذكر إحداها الأخرى إن ضلت الشهادة، بأن نسيتهما، لأن الغالب على طباع النساء النسيان ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لأداء الشهادة، أو للتحمل، لثلا تضييع الحقوق، وقيل: نزلت الآية حين كان الرجل يطوف بالقوم، فيدعوهم إلى الشهادة، فلا يتبعه أحد منهم ﴿وَلَا سَعَوْا﴾ ولا تملأوا ولا تضجروا ﴿أَنْ تَكْتُوبُوهُ﴾ أي الدين أو الحق من كثرة مدايناتكم ﴿صَغِيرًا﴾ كان الحق أو الدين ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾ أي كثيراً، أو مختصراً قليلاً ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾ إلى وقت حلوله الذي أقر به المديون، أو الوقت الذي اتفق الغريمان على

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الشهادات رقم ٢٢٩٩ وقال: حديث غريب، ومعنى ذي الغم: أي ذي الحقد، والقانع لأهل البيت: هو المنقطع إلى القوم يخدمهم مثل الأجير، والخادم، تردُّ شهادته للثمة بانتفاعه منهم، والظنين هو المتهم بسبب قرابة أو ولاء.

تسميته ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي ذلك الكتب والتسجيل ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في حكمه سبحانه ﴿وَأَقَوْمٌ لِلشَّهَدَةِ﴾ وأثبت لها، وأعون على إقامتها، لأن الكتابة تذكر الشهود ﴿وَأَذَىٰ آلَا تَرَائِبًا﴾ أي وأقرب من انتفاء الريب، للشاهد، والحاكم، وصاحب الحق، فإنه قد يقع الريب في المقدار، والصفة، والأجل، والشهود، وإذا رجعوا إلى المكتوب، زال ذلك الريب ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾ أي إلا أن تكون المعاملة يداً بيد ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي فيما بينكم ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي لا بأس أن لا تكتبوها، لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين، ولكثرته بين الناس، فلو كُلفوا فيه الكتابة والإشهاد، لشق ذلك عليهم، ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا بَيَّعْتُمْ﴾ الأمر في هذه الآية للاستحباب، عند أكثر الأئمة ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ والمعنى نهى الكاتب والشاهد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما، وعن التحريف والزيادة والنقصان، أو النهي عن الضرار بهما بأن يعجلا عن مهم، أو لا يُعطى الكاتب حقه، ويحمل الشاهد مؤنة مجيئه، ونحو ذلك ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا﴾ ما نهيتم عنه أو الضرار ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ مأثم وخروج عن الطاعة، لاحق بكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أمره ونهيه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بجميع مصالح عباده، كرر لفظ الجلالة لتربية المهابة، وللتنبية على استقلال كل جملة بمعنى، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعدٌ باستمرار التعليم، والثالثة وعد ووعد وتعظيم لأمر الله تعالى.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَتَىٰ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها المتدائنون ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي مسافرين أو متوجهين إليه ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ أو آلة الكتابة ﴿فَرِهَنْ﴾ فالذي يُستوثق

به رهان، واتفق العلماء على جواز الرهن في الحضر والسفر، ومع وجود الكاتب وعدمه، وقد صح أن الرسول ﷺ رهن درعه عند يهودي بعشرين صاعاً من شعير، أخذه طعاماً لأهله، والرهن ما وضع عند إنسان مقابل ما أخذ منه ﴿مَقْبُوضَةً﴾ يذل على اشتراط القبض وعليه الجمهور، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي بعض الدائنين بعض المديونين، واستغنى بأمانته عن الارتهان، فلم يوثق بالكتابة، والشهادة، والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِيَ﴾ وهو المديون، وإنما عبر عنه بذلك لحمله على الأداء ﴿أَمْتَهُ﴾ دينه، سماء أمانة لا ثمنه عليه، بترك الارتهان ﴿وَلَسَقَى اللَّهُ رَبِّكَ﴾ في الخيانة، وإنكار الحق ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أيها الشهود أو المديونون، والشهادة شهادتهم على أنفسهم ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ الإثم أسند إلى القلب لأنه رئيس الأعضاء، وكأنه قيل تمكّن الإثم في نفسه، وأشرف مكانه، ألا ترى أن أصل الحسنات الإيمان، وأصل السيئات الكفر، وهما من أفعال القلوب ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تهديد، لا يخفى عليه شيء فيجازيكم به .

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ .

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً، لا شركة لغيره في شيء منها بوجه من الوجوه، لأنه الخالق لهما ولما فيهما ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا﴾ بأن تظهروه للناس، بالقول أو بالفعل ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من السوء أو العزم به ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ بأن تكتموه منهم، ولا يندرج فيه مالا

يخلو عنه البشر من الوسائس، وأحاديث النفس، التي لا عقد ولا عزيمة فيها وفي الحديث: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»^(١) إذ التكليف بحسب الوسع ﴿يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ يوم القيامة وهو حجة على منكري الحساب، والجمهور على أن الحديث في الخطرة دون العزم، وأن المؤاخذة ثابتة في العزم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحْبُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنْ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ولأن أعظم المؤاخذات إنما يكون بأفعال القلوب، كاعتقاد الكفر والبدع ﴿فَعَقَفُورٌ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مغفرته بفضلته ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بعدله حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح، فذم المغفرة رحمة منه للعباد، ترغيباً لهم في المسارعة إلى موجباته ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يثيب من أطاعه، ويعاقب من عصاه.

﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ شهادة وتنصيب من الله تعالى لرسوله ﷺ على صحة إيمانه، وأنه جازم في أمره غير شك، والمراد إيمانه بذلك إيماناً تفصيلياً متعلقاً بجميع مافيه من الشرائع والأحكام المذكورة، وفائدة هذه الأخبار أن يبين للمؤمنين زيادة شرف الإيمان، حيث مُدح به رسوله ﷺ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ﴾ وحده من غير شريك له، وتغيير سبك النظم الكريم عما قبله، لتأكيد الإشعار لما بين إيمانه ﷺ والمنبىء عن المشاهدة والعيان، وبين إيمانهم الناشئ عن الحجة والبرهان، من التفاوت البين والاختلاف الجلي، كأنهما متخالفان من كل وجه، أي كل واحد منهم آمن بالله ﴿وَمَلَئِكِهِ﴾ من حيث إنهم عباد مكرمون، معصومون ومطهرون، «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون». ﴿وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ من حيث مجيئهما من عند الله تعالى، على وجه يليق

(١) الحديث أخرجه البخاري ٤٧٨/١١ ومسلم رقم ١٢٧ في الإيمان، وأبو داود رقم ٢٢٠٩ باب الوسوسة في الطلاق، وهذه رواية أبي داود، وفي البخاري «ما لم يعملوا به أو يتكلموا» بصيغة الجمع.

بشأن كل منهما، وإنما لم يذكر ههنا الإيمان «باليوم الآخر» لاندراجہ بكتبه ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ أي يقولون: لا نفرق بينهم بل نؤمن بالكل، قیدوا به إيمانهم تحقيقاً للحق، وتخطئة لأهل الكتاب، حيث أجمعوا على الكفر بالرسول ﷺ واستقلت اليهود بالكفر بعیسی عليه السلام ﴿وَقَالُوا﴾ هو حكاية لامثالهم بالأوامر، إثر حكاية إيمانهم ﴿سَمِعْنَا﴾ بأذان قلوبنا، وعلمنا صحته وتيقنا أن كل تكليف ورد بواسطة الرسول ﷺ إلينا حقٌ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرک وقبلناه عن طوع، واجتبتنا عن نهیک ﴿عُفِّرْنَا رِئًا﴾ نطلب غفرانک ذنوبنا، وتقديمُ السمع والطاعة على طلب الغفران، لِمَا أن تقديم الوسيلة أَدْعَى إلى الإجابة ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي الرجوع بالموت والنشور، وفيه إقرار بالبعث والحساب والجزاء.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما تسع قدرتها، فضلاً ورحمة وتيسيراً عليها لقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ فهو يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من شر، لا ينتفع بطاعتها، ولا يتضرر بمعاصيها غيرها، وهو للترغيب في المحافظة على موجب التكليف، والتحذير عن الإخلال بها، قال الله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ وعن الحسن أن ذلك على تقدير الأمر، أي قولوا في دعائكم ذلك، فهو تعليم لعباده كيفية الدعاء، وهذا من غاية الكرم، أي لا تؤاخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية إلى النسيان والخطأ من تفریط، وقلة

مبالاة، والمعاصي كالسوم فكما أن تناولها ولو سهواً مؤد إلى الهلاك، فتعاطي المعاصي خطأ أيضاً، لا يبعد أن يفضي إلى العقاب ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ عطف على ما قبله، والإصرُ: العهد، والذنب والمراد به التكليف الشاقة من نحو قتل النفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة، وغير ذلك ﴿كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي حملاً مثل حملك إياه على من قبلنا، وهو ما كلفه على بني إسرائيل من قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة في اليوم والليله ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من البلاء والعقوبة أو من التكليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية استعفاء عن العقوبات التي لا تطاق بعد الاستعفاء عما يؤدي إليها، قيل: هو الفرقة والقطيعة، وقيل: هو المسخ والخسف ونحو ذلك ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ وامح ذنوبنا وأثار ذنوبنا ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذه ﴿وَارْحَمْنَا﴾ وتعطف بنا وتفضل ولم يؤت في هذه الجمل الثلاث بلفظ ربنا لأنها نتائج ما تقدم، فجاء فاعف عنا مقابلاً بلا تؤاخذنا، واغفر لنا مقابل: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ وارحمنا مقابل: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي مالكننا وسيدنا وناصرنا ومتولي أمورنا ونحن عبيدك ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فإن حق المولى أن ينصر مواليه على الأعداء، والمراد به عامة الكفرة، حكى عن المؤمنين هذه الأدعية بصيغة الجمع، لأن قبول الدعاء عند الاجتماع أكمل، فإذا اجتمعت الأرواح والدواعي على شيء واحد، كان لهمم تأثيرات ولحصوله تلميحات. عن ابن مسعود: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه» كفى بمعنى أغنى أو بمعنى دفع.

وأخرج الحاكم والبيهقي عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيها الله تعالى من كنز الذي تحت العرش فتعلموها وعلموها نساءكم وأبناءكم فإنيهما صلاة وقرآن ودعاء»^(١).

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي من رواية أبي ذر مرفوعاً.

اللهم اجعل لنا من إجابة هذه الدعوات أوفر نصيب، ووفقنا للعمل
الصالح والقول المصيب، واجعل القرآن ربيع قلوبنا وجزاء أسماعنا،
وضياء أبصارنا، ونزهة أرواحنا، ويسر لنا إتمام ما قصدناه فلا تجعل لنا
مانعاً عما أردناه، وسهل بتوفيقك ما نويناه، وصل وسلم على خير خلقك
محمد وعلى آله الواقفين على أسرار كتابك، وأصحابه الفائزين بحكم
خطابك.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البقرة»

* * *

سُورَةُ الْغَمْرِ

مدنية وآيتها مئتا آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تُسَمَّى هي والبقرة بالزهرابين، وتسمى الأمان والكنز، وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة. سبب نزول هذه السورة الكريمة، وفد نصارى نجران، فقد روى محمد بن إسحق قال: «قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً فخاصموا في عيسى عليه السلام، فقال لهم ﷺ: أستم تعلمون أن الله تعالى حي لا يموت، وعيسى يموت؟ وأن ربنا قيّم على العباد يحفظهم ويرزقهم، وعيسى لا يقدر على ذلك؟ وأنه تعالى صوّر عيسى في الرحم، وحملته أمه ووضعت وأرضعته، وكان يأكل ويحدث، وربنا منزّه عن ذلك كله؟ قالوا: بلى، ثم قالوا يا محمد: ألسن تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى، قالوا: فحسبنا»^(١).

﴿الْعَمَّ ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

(١) انظر كامل القصة في تفسير ابن كثير ٣٧٦/١ وهي من رواية محمد بن إسحق.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أي الباقي الدائم، القائم على تدبير شؤون العباد ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن منجماً ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي نزله محققاً في تنزيله على ما هو عليه، أو ملتبساً بالعدل في أحكامه، وبالصدق في أخباره ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي لما قبله من الكتب السالفة، وفائدة التقييد بها، حث أهل الكتاب على الإيمان به ﴿وَأَنزَلَ التَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ تأكيد لما قبله، وتمهيد لما بعده، إذ بذلك يترقى شأن ما يصدقه رفعةً ووجاهة، ويزداد في القلوب قبولاً ومهابة، ويتفاحش حال من كفر به شناعة.

﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل القرآن، والتصريح به للمبالغة في البيان ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أي أنزلهما هداية للناس، والمراد بالناس الأمم الماضية، من حين نزولهما إلى زمان نسخهما ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ يريد به جنس الكتب الإلهية، فإنها فارقة بين الحق والباطل، ذكر ذلك ليعم ما عداها، كأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل، أو المعجزات ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها من المعجزات ﴿لَهُمْ﴾ بسبب كفرهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وهو وعيد، جيء به إثر تقرير التوحيد، زجراً عن الكفر والعصيان ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يمنع من التعذيب ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ لا يقدر على مثله منتقم، والنتمة عقوبة المجرم، ولم يقل المنتقم، لأنه أبلغ منه، إذ لا يقال صاحب سيف إلا لمن يكثر منه القتل، لا لمن معه سيف.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي شيء كائن في العالم، كلياً كان أو جزئياً والمراد من الأرض والسماء العالم بأسره والتعبير بعدم الخفاء أبلغ من التعبير بالعلم، وهو كالل دليل على كونه تعالى حياً قديراً، مالكا لكل الأشياء.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تصويركم من الصور المختلفة المتفاوتة في البخلقة، أبيض أو أسود، حسناً أو قبيحاً، كاملاً أو ناقصاً، والتصوير جعل الشيء على صورة لم يكن عليها، أي يصوركم وأنتم في الأرحام مُضْغ، وفيه من الدلالة على بطلان زعم ربوبية عيسى،

وهو في جملة أبناء الأرحام ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يعلم غيره ما يعلمه، ولا يقدر على مثل ما يفعله ﴿الْمَرِئُ الْحَكِيمُ﴾ المتناهي في القدرة والحكمة، ولذلك يخلقكم على نمط بديع، كرر الجملة للدلالة على نفي الإلهية عن غيره تعالى، توكيداً لما قبلها، ومبالغة في الرد على من ادعى إلهية عيسى عليه السلام، ثم أتى بالحكمة لأن خلقهم على ما ذكر من النمط البديع، أثر من آثار تلك القدرة الباهرة.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٩﴾﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ شروع في إبطال شبه الضالين، ولام الكتاب للعهد، أي القرآن الكريم ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أحكمت عبارتها، لظهورها ووضوحها ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصله، تُرَدُّ إليها غيرها في الأحكام، والعرب تسمي كل جامع يكون مرجعاً أمّا ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ آخر جمع «أخرى» مؤنث آخر، ومتشابهات صفة لمحذوف أي محتملات لمعان متشابهات، لا يمتاز بعضها من بعض، ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق، وحكمة ورود المتشابهات، إظهار فضل العلماء فيها، والتشويق على أن يجتهدوا في تدبرها، واختبار للإيمان بالغيب ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ عدول عن الحق، قال الراغب: الزيغ الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين؛ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ فيتعلقون بظاهره، معرضين عن المحكمات، لا تحريراً للحق بعد الإيمان بكونه من عند الله تعالى، بل

﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم، ويضلّوهم بالتشكيك والتلبيس، ومتى أوقعوا تلك الفتنة، صار بعضهم مخالفاً للبعض، وذلك يفضي إلى التقاتل، والهرج، والمرج، فذلك هو الفتنة ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ هو أن يأخذ ظاهر المتشابه، ويحمل لفظه أحد المحتملات التي توافق أغراضه الفاسدة، ويقرر البدعة والباطل، ويؤول حسبما يشتهي^(١) ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ الذي يجب أن يحمل عليه ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ والخال لا يهتدي إلى تأويله إلا الله، والوقف لازم عند الجمهور على قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وفسيروا المتشابه بما استأثر الله بعلمه، كوقت قيام الساعة ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي الذين ثبتوا وتمكنوا فيه، ولم يتزلزلوا في مزالّ الأقدام، ومداحض الأفهام، والمراد بالعلم «العلم الشرعي» المقتبس من مشكاة النبوة، فإن أهله هم الممدوحون بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أي بالمتشابه، وهو ثناء عليهم بالإيمان واعتقاد الحقيقة بلا تكيف، وهذا قول أكثر المفسرين ﴿كُلُّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ من عند الله تعالى، لا مناقضة ولا مخالفة بينهما، وفي التعبير بالرب، إشارة إلى سر إنزال المتشابهات، والحكمة فيه لما أنه متضمن معنى التربية، والإيصال إلى معارج الكمال، وقد قالوا: إنما أنزل المتشابه لذلك، وليظهر فضل العلماء، ويزداد حرصهم على الاجتهاد في تدبره، وتحصيل العلوم التي نيط بها استنباط ما أريد به من الأحكام الفقهية، فينالوا بذلك المدارج العالية، وذلك من التربية والإرشاد ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَئِكَ﴾ مدح للراسخين بجودة الذهن، وحسن النظر، للاهتمام إلى تأويله، لما أنهم قد تجردوا عن الأهواء الزائغة.

(١) التأويل: كشف المراد عن المشكل من الآية، وأكثر استعمال التأويل في المعاني، فلو قلنا في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ إنه أريد به إخراج الفرخ من البيضة كان تفسيراً، وإذا قلنا: يراد به إخراج المؤمن من الكافر، أو بالعكس كان تأويلاً، فالتأويل بيان المراد من اللفظ غير الظاهر منه، مشتق من آل، يؤل، أولاً ومآلاً: إذا رجع، وأما التفسير فهو توضيح المعنى المراد، فتنبيه الله برعاك.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ أي قولوا: ربنا لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق، إلى اتباع المتشابه بتأويل فاسد لا يرضيك، والزيف إنما هو ثمرة لما يحدث في القلب، بسبب اختيار الإنسان ما يوافق له، فإن كانت تلك الداعية الكفر فهي: الخذلان، والإزاعة، والختم، والطبع، وغيرها، وإن كانت تلك الداعية الإيمان فهي: التوفيق، والرشاد، والهداية، والسداد، والتثبيت، والعصمة وغيرها، ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قلت يا رسول الله: ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء؟ فقال: «ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيعه أزاعه»^(١) ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الحق والإيمان ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي امنحنا من فضلك وكرمك ﴿رَحْمَةً﴾ واسعة تزلفنا إليك، للثبات على الحق، وسؤال ذلك، إشارة إلى أنه منه تعالى فضل محض، من غير شائبة وجوب عليه تعالى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ الهبة: العطيّة الخالية عن الأعواض والأغراض، أي أنت المتفضل بالعطاء والإحسان.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَمِيعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ ﴾ لحساب يوم، أو لجزائه، فحذف المضاف تهديداً لما يقع فيه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا ينبغي أن يرتاب في وقوعه، ومقصودهم من هذا كمال افتقارهم إلى الرحمة، والتأكيد لإظهار ما هم عليه من كمال الطمأنينة بالآخرة، فإنها المقصد والمآل ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ فإن الإلهية تنافيه، وإظهار الاسم الجليل، لابرار كمال التعظيم، والميعاد مصدر ميمي بمعنى الوعد، أي لا تخلف وعدك.

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات رقم/٣٥١٧/ وقال: هذا حديث حسن.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝١١ ﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۖ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١٢﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَتَسَاءَلُونَ الْمُهَادِثِينَ ۝١٣﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ آلِ قَتْنَةَ فِتْنَةً تُفْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِمَّا يَنْهَوْنَ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝١٤﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ اللهُ تعالى دين التوحيد والحق، شرع في بيان من كفر به، والموصول عام في الكفرة ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي لن تنفع أو تدفع عنهم ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ التي أعدوها لدفع المضار، وجلب المصالح ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ الذين يتناصرون في الأمور المهمة ويعولون عليهم في الملمات ﴿مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ من الإغناء، والمعنى: لن تغني عنهم أموالهم وأولادهم من عذاب الله تعالى شيئاً من الإغناء ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي حطبها الذي تُسَعَّرُ به نار جهنم.

﴿ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ الدأب: استمرار الشيء على حالة واحدة، يقال: هو دأب يفعل كذا، إذا استمر في فعله، أي دأب حال هؤلاء الكفرة، في تكذيب الحق، وعدم النجاة من عذاب الله، كحال آل فرعون، من دأب في العمل إذا كدح فيه ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مثل عاد وثمود ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بيان وتفسير لدأبهم، كأنه قيل: كيف كان دأبهم؟ فقيل كذبوا الخ ﴿فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم، ولم يجدوا محيصاً، فيكون هؤلاء الكفرة كحالهم أيضاً والذنب: الإثم يُستعمل فيما بين الرب والعبد، والجُنَاح بين الله والناس، وبين الناس والناس ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تهويل للمؤاخذه، وتنبيه على أن لهم عذاباً مؤخراً، سوى ما نزل بهم من العذاب العاجل.

﴿ قَدْ لَلَّيْتَ كَفْرًا ﴾ رُوي عن ابن عباس أن يهود أهل المدينة، قالوا لما هُزم المشركون يوم بدر: هذا والله النبي الأمي، الذي بشرنا به موسى عليه السلام، وأرادوا التصديق؛ ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة له أخرى، فلما كان يوم أحد شكوا وقالوا: لا والله ما هو به، فلم يسلموا، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فنقضوا ذلك العهد، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ سَتُغْلَبُونَ ﴾ عن قريب، فالمراد من الموصول اليهود، وقيل: الآية في مشركي مكة وهي من دلائل النبوة، وقد صدق الله وعده، ونصر عبده، فقتل وأجلى ﴿ وَتُحْشَرُونَ ﴾ في الآخرة ﴿ إِنْ جَهَنَّمُ وَيُنْسَرِ الْيَهُادُ ﴾ المستقر، وهو غاية حشرهم.

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم أنكم ستغلبون ﴿ فِي فِتْنَتَيْنِ ﴾ أي فرقتين، وأجمع المفسرون على أن المراد بهما رسول الله وأصحابه، ومشركو مكة ﴿ أَلْتَقَاتَا ﴾ أي تلاقيا بالقتال يوم بدر ﴿ فِتْنَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهم المؤمنون، لكن ذكر مكانه من أحكام الإيمان، الجهاد في سبيل الله، مدحاً لهم، وإيضاحاً بأنه المدار في تحقيق النصر ﴿ وَأُخْرَى ﴾ أي فتن أخرى ﴿ كَافَّةً ﴾ وإنما لم توصف هذه الفتن، لإسقاطهم عن درجة الاعتبار ﴿ يَرَوْنَهُمْ ﴾ أي ترى الفتن الأخيرة الفتن الأولى ﴿ مَثَلِيَّتِهِمْ ﴾ يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين ﴿ رَأَى أَلَمَيْنِ ﴾ رؤية ظاهرة معانية، رُوي عن سعيد بن أوس أنه قال: أسرى المشركون رجلاً من المؤمنين، فسأله كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشرة، قالوا: ما كنا نراكم إلاّ تضعفون علينا!! أراهم الله تعالى كذلك مع قتلهم، ليهابوهم، ويجتنبوا قتالهم، فتن الكفار كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً، وهم شاكو السلاح، وفيهم صناديد قريش، ومن الإبل سبعمائة بعير، ومائة فرس، وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان معهم سبعون بعيراً، ومن الخيل فرسان فقط، وكان ذلك اليوم في السابع عشر من شهر رمضان، سنة اثنتين من الهجرة النبوية ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ ﴾ يقوي

من غير توسط الأسباب المعتادة ﴿يَصْرِفُهُ﴾ بعونه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من أراد نصرته، كما أكد المؤمنين في بدر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي التقليل أو التكثير، وغلبة القليل على الكثير ﴿لَعِبْرَةٌ﴾ أي لعبرة عظيمة ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ لذوي البصائر والعقول السليمة، التي تستفيد من الدلائل الإلهية.

﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتْلَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾﴾ قُلْ أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّاكَ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَارِ ﴿١٧﴾﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿زَيْنَ النَّاسِ﴾ بيانٌ لحقارة شأن الحظوظ الدنيوية، وترهيد الناس فيها، وتوجيه رغباتهم إلى ما عند الله تعالى، إثر بيان عدم نفعها للكفرة، الذين يتعززون بها، والمراد بالناس الجنس، والمزين هو الله تعالى عند الجمهور، وإنما زينها للابتلاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ﴾ الآية، وعن الحسن: المزيّن هو الشيطان، لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ والتزيين للشهوات، يُطلق ويراد بها حبها في القلوب، وهو بهذا المعنى مضاف إليه تعالى حقيقة، وأن يراد به الحض على تعاطي الشهوات، وهو مضاف إلى الشيطان، تنزيلاً لوسوسته منزلة الأمر بها، وكلامُ الحسن محمولٌ على التزيين بالمعنى الثاني ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ أي المشتهايات، سمّاها شهوات مبالغة، وإيماء إلى أنهم انهمكوا

في محبتها، حتى أحبوا شهوتها، والشهوة نزوع النفس وتوقاؤها إلى ما تريده ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ وإنما بدأ بهن لأن الالتذاذ بهن أكثر، ولأنهن حبايل الشيطان، وأقرب إلى الافتتان، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «ما تركتُ بعدي فتنةً هي أضرُّ على الرجال من النساء»^(١) ﴿وَالْبَيْنِ﴾ لأن حبهم فطرة وغريزة، وهم فلذات الأكباد، ولأنهم من ثمرات النساء في الفتن، واللفظ يشمل البنات أيضاً، بطريق التغليب ﴿وَالْقَنْطِيرِ﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير ﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾ مأخوذ من القنطار للتأكيد، كقولهم بكرة مبدرة أي منضم بعضها على بعض ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ بيان للقناطر ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة من السومة وهي العلامة، أو المرعية من أسام الدابة إذا أرسلها للمرعى، والخيال جمع لا واحد له من لفظه، كالقوم، والرهط ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ جمع نعم وهي الإبل، والبقر، والغنم ﴿وَالْحَرْثِ﴾ الزرع مصدر، من مفعول ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مَتَكُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ ما يتمتع بها في الدنيا أياماً قلائل، وهي زائلة وفانية ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ﴾ أي المرجع وحسن المنقلب، وهي الجنة دار المتقين.

﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ﴾ أمر النبي ﷺ بتفصيل ذلك المجمل للناس، مبالغة في الترغيب أي هل أخبركم ﴿بِخَيْرٍ﴾ أي بما هو خير، وإيهام الخير لتفخيم شأنه، والتشويق إليه ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾ أي مما فُصِّل من تلك المستلذات، المزيّنة لكم، لأن نِعَمَ الدنيا مشوية بالمضرة، ومنقطعة لا محالة، ونِعَمُ الآخرة خالية عن المضار، وباقية ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يدخل في هذا كل من انقضى الشرك والمعاصي ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي منزهة عن الدنس والقذر الحسّي، والمعنوي ﴿وَرِضْوَانٌ عَظِيمٌ﴾ أي رضوان عظيم ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي رضا الله تعالى، وقد نبه الله سبحانه بهذه الآية على نعمه، فأدناها نعم الدنيا،

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ١١٨/٩ ومسلم في الذكر والدعاء رقم ٢٧٤٠.

وأعلاها رضوان الله تعالى، لقوله: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وأوسطها الجنة ونعيمها ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْمَكِيدِ﴾ أي بأعمالهم، فيشيب أو يعاقب، وبصير بأحوال الذين اتقوا، ولذا أعدَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل: مَنْ أولئك المتقون؟ فقيل: هم الذين يقولون ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَاكَ﴾ إجابة لدعوتك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ إنجازاً لوعدك ﴿ذُنُوبَنَا﴾ المراد بها الصغائر والكبائر ﴿وَقِنَا﴾ بفضلِكَ ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ أي أجراً من عذاب جهنم.

﴿الصَّابِرِينَ﴾ أي أعني بهم الصابرين على الإيمان، والطاعات، والمصائب ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ قولاً بإخبار الحق، وإخلاص النية ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ المداومين على الإيمان والطاعة، المواظبين على العبادات ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ أموالهم في سبيل الله ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ الأسحار جمع سحر، بفتح الحاء أواخر الليالي، وخص الأسحار لأنها وقت إجابة الدعاء، لأنه وقت الخلو والنفس أصفى، والروح أجمع، سيّما للمتجهّدين!!

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي بيّن وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها، وإنزال الآيات الناطقة بها، عبّر عنه بالشهادة إيداناً بقوته في إثبات المطلوب، فشبه سبحانه تلك الدلائل، بشهادة الشاهد في البيان ﴿وَأَمَلَتْكُمْ﴾ بالإقرار لما عاينوا من عظيم قدرته ﴿وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ﴾ أي الأنبياء والعلماء الذين عرفوا وحدانيته بالدلائل القاطعة شهدوا بالإيمان ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ مقيماً للعدل في جميع أموره ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرر للتأكيد، أي لا معبود بحق إلا الله ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يعني أنه العزيز الذي لا يُغالب، والحكيم الذي لا يعدل عن الحق.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَمْتُ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٢٥) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٢٧) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ ﴾ أي لا دين مرضياً لله تعالى سوى الإسلام، الذي هو التوحيد والتدُّع بشريعة الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله وإخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ هم اليهود، والنصارى والذي اختلفوا فيه الإسلام، كما يشعر به السياق، والتعبير عنهم بهذا العنوان، زيادة تقبيح لهم، فإن الاختلاف بعد إتيان الكتاب أقبح، ثم اختلفهم في دين الإسلام حيث قال قوم: إنه حق، وقال قوم: إنه مخصوص بالعرب، ونفاه آخرون، واختلفهم في التوحيد، فثلث النصارى، وقالت اليهود عزيز ابن الله ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ ﴾ أي بعدما علموا حقيقة الأمر، وتمكنوا من العلم بالآيات والحجج ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي ما كان ذلك الاختلاف إلا حسداً بينهم، وطلباً للرياسة لا لشبهة وخفاء في الأمر ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الناطقة بوحدانيته، أو بأي آية كانت من آياته تعالى وبحججه ودلائله، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي فإنه تعالى سريع الحساب يأتي حسابه عن قريب، ويتم بسرعة.

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ في الدين وجادلوك فيه، بعدما أقمت الحجج،

والضمير للذين أوتوا الكتاب من وفد نجران ﴿فَقُلْ أَسَلْتُكُمْ إِلَهًا﴾ أي أخلصت نفسي، وقلبي، وجملتي لله وحده، وفيه إشارة إلى أن الجدل معهم ليس في موقعه، لأن الجدل إنما يكون في أمر خفي، والذي جادلوا به أمر مكشوف، وهو الدين القويم الذي ثبتت صحته ﴿وَمَنْ أَتَّبَعِنِي﴾ أي أنا وأتباعي على الإسلام ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي وقل لليهود والنصارى عامة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي الوثنيين من العرب ﴿مَا أَسَلْتُمُ﴾ كما فعل المؤمنون، فإنه قد جاءكم من الآيات ما يوجب، أم أنتم على كفركم، وإصراركم على العناد؟ وفي ذلك تعبير لهم بالمعاندة، وقلة الإنصاف، وتوبيخ بالبلادة ﴿فَإِنْ أَسَلْتُمُوهُ﴾ أي اتصفوا بالإسلام، والدين الحق ﴿فَقَدْ أَهْتَدَوْا﴾ فقد أصابوا الرشd، حيث خرجوا من الضلالة إلى الهدى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن قبول الإسلام ﴿فَمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ أي لن يضرك شيئاً فإنك رسول، وما عليك إلا أن تبلغ الرسالة، وقد بلغت ﴿وَاللَّهُ بِصِيرَتِهِ بِالْعَبَادِ﴾ أي عالم بجميع أحوالهم، فيجازيهم على أعمالهم، وهو وعد ووعد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي آية كانت، فيدخل فيهم الكافرون بالآيات الناطقة بحقيقة الإسلام ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بْنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿مِنْ النَّاسِ﴾ سوى الأنبياء عليهم السلام، ولعل تكرير الفعل للإشعار بما بين القتيلين من التفاوت ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو أسلوب تهكم وسخرية.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المتصفين بتلك الصفات القبيحة ﴿الَّذِينَ حَبِطَتْ﴾ ضاعت وبطلت ﴿أَعْمَلُهُمْ﴾ التي عملوها من البر والإحسان، فلهم اللعنة والخزي ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يدفعون عنهم العذاب.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ
بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ
إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا
جُمِعَتْ لَهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٥) قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ
مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْغَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴾ (٢٦) تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢٧) .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ أي التوراة، وفيه تقبيح
لصنيعهم، حيث رفضوا حكم التوراة ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي إلى كتابهم
المنزل من عند الله وإضافته إلى اسم الله الجليل لتشريفه، وتأکید وجوب
المراجعة إليه ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ روي أن رجلاً وامرأة من أهل خيبر زنيا،
وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما فرفعوا أمرهما إلى رسول الله ﷺ
ورجوا أن تكون عنده رخصة، فحكم عليهما بالرجم، فقال علماؤهم ليس
عليهما الرجم، فقال ﷺ بيني وبينكم التوراة فأبيا ﴿ ثُمَّ يُتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾
استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ﴿ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي وهم
قوم ديدنهم الإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل.

﴿ ذَلِكَ ﴾ التولي والإعراض ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ
إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي خدعهم في زعمهم
ذلك قولهم ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ وقولهم: إن الله وعد يعقوب أن لا
يعذب أبناءه.

﴿ فَكَيْفَ ﴾ رد لقولهم المذكور وإبطال بما سيحيق بهم من الأهوال
أي فكيف يكون حالهم ﴿ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ لَيَوْمٍ ﴾ لجزاء يوم ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا

شك في وقوعه ووقوع ما فيه. روي أن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما كسبت، من غير نقص أصلاً كما يزعمون وفيه دلالة على أن العبادة لا تحبط، وأن المؤمن لا يخلد في النار، لأن توفية جزاء إيمانه وعمله لا تكون في النار ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ الميم عوض عن يا، ولذلك لا يجتمعان، وهو من خصائص هذا الاسم وأصله يا الله ﴿مَلِكِ الْمُلْكِ﴾ مالك جنس الملك بحيث يتصرف فيه كيفما يشاء إيجاداً وإعداماً، إحياء وإماتة، من غير مشارك فيه وهو نداء ثان أي يا مالك الملك ﴿تَوَفِّي الْمَلَائِكَةَ مَن تَشَاءُ﴾ مفعوله محذوف أي من تشاء إيتاءه إياه ﴿وَنَزِجُ الْمَلَائِكَةَ مَن تَشَاءُ﴾ أي ممن تشاء نزعه منه وهذا بيان لبعض وجوه التصرف، الذي تستدعيه مالكية الملك، وتحقيق اختصاصها به تعالى، المُلْكُ، والمَالُ، والجاه، الكل لا يحصل إلا من الله عز وجل، أما تكثير المال، فقد نرى الرجل في غاية الكياسة، لا يحصل له مع الكد الشديد قليل من المال، ونرى الأبله الغافل، قد يحصل له من الأموال ما لا يُحصى، وأما الظفر فكم شاهدنا من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، وعند هذا يظهر قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ﴾ ﴿وَتُؤْخِزُ مَن تَشَاءُ﴾ أن تعزه في الدنيا ﴿وَتُزِيلُ مَن تَشَاءُ﴾ بالإدبار والخذلان ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ أي ما تفعله الخير كله، لا بقدرة أحد من غيرك تتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئتك، والخير والشر بيده تعالى، فاكتمى بذكر أحد الضدين عن الآخر، لرعاية الأدب، وتبه على أن الشر بيده، بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما سبق، والشر غير مقصود بالذات بل إنما قضاها الله تعالى لحكمة ومصلحة، ألا ترى أن الحجامة، والجراحة، وشرب الدواء الكريه ونحوها من الأمور المؤلمة لكونه وسيلة إلى حصول الصحة، يُعدُّ خيراً لا شراً، وكل قضاء الله تعالى من هذا القبيل.

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ الإيلاجُ: الإدخالُ، واستعير لزيادة النهار في الليل وعكسه، بحسب المطالع والمغارب في أكثر البلدان، ولا يضر تساوي الليل والنهار دائماً عند خط الاستواء، لأنه يكفي الزيادة والنقصان فيهما في الأغلب، أي تنقص من ساعات الليل، وتزيد في النهار، وتنقص من ساعات النهار، وتزيد في الليل ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ إخراج الحي من الميت وبالعكس إنشاء الحيوانات والنباتات من موادها، مثل إخراج الزرع من الحب، والنخلة من النواة، والفرخة من البيضة، والإنسان الحي من النطفة، وعكس ذلك، وقيل: إخراج المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل، وعكسه، والأكثر على الأول، وهو للحقيقة أقرب ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي لا يعرف الخلق مقداره، وإن كان معلوماً عنده، ولمَّا بَيَّنَّ سبحانه أن إعطاء الملك والإعزاز منه تعالى، نَبَّه المؤمنين على أنه لا ينبغي أن يوالوا أعداء الله تعالى.

فقال تقدمت أسماؤه:

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٢٨) قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُشِّرُوا بِمَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْخَصِراً وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) .

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ نَهَوْا أَنْ يُوَالُوا الْكَافِرِينَ، لِقَرَابَةِ
 بَيْنِهِمْ، أَوْ لَصَدَاقَةٍ وَنَحْوَهُمَا، حَتَّى لَا يَكُونَ حُبُّهُمْ وَبَغْضُهُمْ إِلَّا فِي اللَّهِ،
 فَإِنْ قِيلَ: إِنْ الْمَحَبَّةُ لِلْقَرَابَةِ خَارِجَةٌ عَنِ الْإِخْتِيَارِ؟ قُلْنَا: الْمُرَادُ هُنَا مَا
 يَقْتَضِيهِ الْإِسْلَامُ، مِنْ بَغْضٍ وَحُبٍّ شَرْعِيِّينَ، يَصِحُّ التَّكْلِيفُ بِهِمَا، وَقَدْ كُرِّرَ
 هَذَا النَّهْيُ فِي الْقُرْآنِ، وَحُمِلَ الْمَوَالَاةُ عَلَى مَا يَعْمُرُ الْإِسْتِعَانَةَ بِهِمْ فِي
 الْغَزْوِ، وَجَوِّزَ بَعْضُهُمُ الْإِسْتِعَانَةَ بِشَرَطِ الْحَاجَةِ وَالْوَثُوقِ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ
 اسْتَدَلَّ بِالْآيَةِ، عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ جَعْلُهُمْ عَمَالاً وَلَا اسْتِخْدَامَهُمْ فِي أُمُورِ
 الدِّيْوَانِ، وَكَذَا أُدْخِلُوا فِي الْمَوَالَاةِ الْمَنْهِيَّةِ عَنْهَا السَّلَامُ، وَالتَّعْظِيمُ، وَالتَّوْقِيرُ
 فِي الْمَجَالِسِ ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ مُتَجَاوِزِينَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْكَافِرِينَ
 ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أَيُّ اتَّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالْفِعْلِ، لِلْإِسْتِهْجَانِ
 بِذِكْرِهِ ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ الْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ، أَيُّ لَيْسَ مِنْ
 وَلَايَتِهِ أَوْ دِينِهِ، وَتَنْوِينِ شَيْءٍ لِلتَّحْقِيرِ، أَيُّ لَيْسَ فِي شَيْءٍ يَصِحُّ أَنْ يُطْلَقَ
 عَلَيْهِ اسْمُ الْوَلَايَةِ، أَوْ الدِّينِ، لِأَنَّ مَوَالَاةَ الْمُتَضَادِّينَ مِمَّا لَا تَكَادُ تَدْخُلُ فِي
 الْخَاطَرِ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

تَوَدُّ عَدُوِّي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنِّي صَدِيقُكَ لَيْسَ التَّوَكُّعُ عَنْكَ بِعَازِبٍ

التَّوَكُّعُ: الْحُمُوقُ وَالْجَنُوقُ. . . وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا وَالَّى صَدِيقُكَ مِنْ تُعَادِي فَقَدْ عَادَاكَ وَانْقَطَعَ الْكَلَامُ

الْمَوَالَاةُ خِلَافُ الْمَعَادَاةِ وَهِيَ مِنَ الْوَلَى وَهُوَ الْقَرَبُ ﴿إِلَّا أَنْ تَكْتَفُوا﴾
 اسْتِثْنَاءٌ مَفْرُغٌ كَأَنَّهُ قِيلَ لَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، إِلَّا حَالِ
 اتِّقَائِكُمْ ﴿مِنْهُمْ ثِقَلٌ﴾ أَيُّ إِلَّا أَنْ تَخَافُوا مِنْ جِهَتِهِمْ، أَمْرًا يَجِبُ اتِّقَاؤُهُ،
 فَحِينَئِذٍ يَجُوزُ لَكَ إِظْهَارُ الْمَوَالَاةِ، وَإِبْطَانُ الْمَعَادَاةِ، مَعَ اطمئنان النفس
 بِالْعِدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَحِلَّ حَرَامًا مِنَ الْمَحْرَمَاتِ، كَنَقْلِ أَخْبَارِ
 الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ، وَالْإِسْتِعَانَةَ بِهِمْ، وَالْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَةِ التَّقِيَّةِ،

وعرفوها بمحافضة النفس، والمال، والعرض، من شر الأعداء، وعدّ قوم من باب التقية، مداراة الكفار، والفسقة، والظلمة، وإلانة الكلام لهم، والتبسم في وجوههم لكفّ أذاهم، ولا يعد ذلك من باب الموالة المنهي عنها، لحديث «إِنَّا لَنَبْشُ فِي وَجْهِ قَوْمٍ وَقُلُوبُنَا لَتَلْعَنُهُمْ»^(١) ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ أي عقاب نفسه وفيه تهديد عظيم، حيث علق التحذير بنفسه أي ذاته المقدسة، فلا تتعرضوا لسخطه بموالة أعدائه ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ إلى حكمه، وإلى جزائه تعالى فيجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ ما في قلوبكم، ومن جعلتها موالة الكفرة، وإنما ذكر الصدر لأنه وعاء القلب ﴿أَوْ تَبْدُوهُ﴾ فيما بينكم مما لا يرضي الله ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ فيؤاخذكم بذلك ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا من باب إيراد العام بعد الخاص، تأكيداً له وتقريراً ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وبذلك يكمل وجه التحذير، فكأنه سبحانه قال: ويحذركم الله عقابه لأنه متصف بالعلم الذاتي، محيط بالمعلومات كلها، فلا تجترئوا على عصيانه، وموالة أعدائه، إذ ما من معصية إلا وهو مطلع عليها، وقادر على العقاب لمن فعلها.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِّنْ النَّفُوسِ جِزَاءً﴾ ما عملت في الدنيا ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ وإن كان مثقال ذرة ﴿مُحْضَرًّا﴾ تجد جزاءها محضراً بأمر الله ﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ﴾ أي وما فعلته ﴿تَوَدُّ﴾ وتتمنى يوم ذلك ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ﴾ أي بينها وبين ما عملت من السوء ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾ الأمد: غاية الشيء

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب تعليقاً عن أبي الدرداء ٥٢٧/١٠ بلفظ: «إِنَّا لَنَكْشِرُ - أي نبسم - في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم» ويؤيد هذا حديث عائشة: استأذن على النبي رجل، فقال: «اتذنوا له فبش أخو العشيرة، فلمّا دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله، قلت ما قلت ثم ألنت له في القول؟ فقال: أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله، من تركه الناس اتقاء فُحْشه» رواه البخاري.

نزل في حقهم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء بحيث يحملها على ما يقربها إليه، أي قل لهم: إن كنتم حقاً تحبون الله فاتبعوني لأنني رسوله ﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾ جواب للأمر أي يرض عنكم، فيقرّبكم من جنبه عز وجل ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن يتحّب إليه بطاعته، واتباع نبيه، فيغفر له ويرحمه.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ٢١٤/١٣.

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ٢٣ ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٢٤ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ٢٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرِّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ٢٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكُمْ إِنِّي لِلَّهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ٢٧ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ لما بين الله تعالى، أن الدين المرضي عنده هو الإسلام والتوحيد، وأن اختلاف أهل الكتاب إنما هو للبغي والحسد، وأن الفوز برضوانه ومغفرته منوط باتباع الرسول ﷺ، شرع في تحقيق رسالته، وكونه من أهل النبوة، ثم نص على أن جميع الرسل دعاة إلى عبادة الله وحده، والمراد بآل إبراهيم: إسماعيل، وإسحق والأنبياء من أولادهم الذين من جملتهم النبي ﷺ والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم.

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ يعني ذرية واحدة، متسلسلة، بعضها يتشعب عن بعض في التقى والصلاح والدين ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لأقوال العباد ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأعمالهم البادية والخافية، فيصطفى من كان مستقيم القول والعمل، كقوله تعالى ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾ أي اذكر وقت قول امرأة عمران واسمها «حَنَّة» روي أنها كانت عاقراً لا تلد، فبينما هي في ظل شجرة، إذ رأت طائراً

يطعم فرخه، فحَثَّ إلى الولد وتمنته، فقالت: اللهم إِنَّ لَكَ عَلَيَّ نَذراً إن رزقتني ولداً، أن أَتَصَدَّقَ به على بيت المقدس، فيكون من خَدَمَتِهِ، فحملت وقالت ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ وكان هذا النذر مشروعاً عندهم في الغلمان ﴿مُحَرَّراً﴾ مخلصاً للعبادة ﴿فَتَقَبَّلَ مِنْهُ﴾ أي ما نذرته، وهذا في الحقيقة استدعاء الولد، إذ لا يتصور القبول بدون تحقق المقبول، وهذا سؤال من لا يريد بما فعله إلا طلب رضا الله تعالى والإخلاص في دعائه ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات، ومن جعلتها تضرعي ودعائي ﴿أَعْلِيَمُ﴾ بكل المعلومات، التي من زمرتها ما في ضميري من النية.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أي فلما ولدت المولود وكان أنثى، قالت على وجه التحسر والاعتذار، مظهرة الأسى والحسرة:

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ وهذا الكلام ليس من قبيل الإخبار، بل تحسرت إلى مولاهما، لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرت تحريره ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ تعظيم من جهته تعالى لموضوعها، أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت، وجعلها وابنها آية للعالمين، وهي غافلة عن ذلك ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ أي ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت، فإن دائرة علمها لا تحيط بما فيها من جلائل الأمور، أو اعتذار آخر منها ببيان أن الذكر ليس كالأنثى، في المزية وصلاحية خدمة المتعبدات، فإنهن بمعزل من ذلك ﴿وَلِيَّ سَمِئْتًا مَّرِيَمَ﴾ وإنما ذكرت ذلك لربها، تقرباً إليه، وطلباً لأن يعصمها ويصلحها ﴿وَلِيَّ أُمَيَّةَ يَتِيمَ﴾ أجيروها بحفظك، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، وفي ذكر «ذريتها» رمز إلى طلب بقائها، وطلب التناسل منها، والإعادة: الالتجاء إلى الغير، يقال عاذ فلان بفلان إذا استجار به ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي من شر الشيطان الرجيم، المطرود من رحمة الله ويؤيد هذا ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد،

فيستهل من مسه صارخاً إلا مريم وابنها^(١) فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

﴿فَقَبَّلَهَا﴾ قبل الله مريم، ورضي بها في النذر مكان الغلام الذكور، ﴿رَبُّهَا﴾ مالكا ومبلغها إلى كمالها اللائق ﴿يَقْبُولُ حَسَنًا﴾ أي تقبلها قبولاً حسناً ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ربّاه تربية كاملة بما يصلحها في جميع أحوالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي جعله كافلاً لها، وضامناً لمصالحها، وقائماً بأمورها، وضمها إلى خالتها أم يحيى، حتى إذا بلغت مبالغ النساء، بنى لها محراباً في المسجد، أي غرفة في المسجد يصعد إليها بسلم. روي أنه عليه السلام كان يأتيها بطعامها وشرابها، كل يوم، وكان لا يدخل عليها إلا وحده، وإذا خرج أغلق عليها الأبواب، وذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّمَادْخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس أو نوعاً منها غير معتاد فيتعجب: ﴿قَالَ يَتَرَمَّ أَنَّ لِّلرَّبِّ هَذَا؟﴾ أي من أين لك هذا الرزق، الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آت في غير حينه؟ والآية دليل جواز الكرامة للأولياء ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني من الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يرزقه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرتة، أو بغير استحقاق تفضلاً به.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيٰى مُصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِيْنَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَآذْكُر رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾ .

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ٣٣٨/٦ وفي تفسير سورة آل عمران، ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٦٦ باب فضل عيسى عليه السلام.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ أي: في ذلك المكان أو الوقت، روي عن الحسن قال: لما وجد زكريا عند مريم ثمر الصيف في الشتاء وسألها أنى لك هذا؟ قالت: هو رزق من عند الله، طمع زكريا في الولد، وقام واغتسل، ثم ابتهل في الدعاء لله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أعطني من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ مباركة صالحة وطلبه بلفظه الهبة لأن الهبة إحسان محض، وهو يناسب ما لا دخل فيه للوالد لكبر سنه ولا للوالدة لكونها عاقر، فكأنه قال: أعطني ذرية من غير طريق معتاد، والمراد من الذرية الولد الواحد ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أراد كثير الإجابة، وهو تعليل لما قبله، وتحريك لسلسلة الإجابة، وفي ذلك اقتداء بجده الأعلى إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (١).

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ المنادي كان جبريل وحده، والجمع للتعظيم ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ﴾ أي قائماً في الصلاة ﴿أَنْ أَلَّهِ يَبَشِّرُكَ بِغَيٍّ﴾ أي بأن الله يبشرك بولادة غلام اسمه يحيى، سمي بذلك، لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والطاعة، حتى لم يقم بمعصية قط، وفيه تلميح أن في الصلاة إجابة الدعوات، وقضاء الحاجات ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ المراد بالكلمة عيسى عليه السلام، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، وإنما سمي عيسى بذلك، لأنه خُلِقَ بكلمة «كن» من دون سبب عادي، ويحيى أول من آمن بعيسى عليه السلام، وكان أكبر من عيسى بستة أشهر كما قال الضحاك وغيره ﴿وَسَيِّدًا﴾ فسر ابن عباس بالكريم، وأصل معنى السيد من يسود قومه، ويكون له أتباع وأنصار، ثم أطلق على كل فائق في الدين، فإنه عليه السلام كان سيد قومه، وله أتباع منهم ﴿وَحَصُورًا﴾ هو

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٩.

الذي لا يقرب النساء، مع القدرة على ذلك، قاله ابن عباس، ومن فسّره بأنه كان عتيماً فباطل، إذ العِنَّة عيبٌ لا يجوز على الأنبياء ﴿وَنَبِيّاً مِّنَ الصّٰلِحِيْنَ﴾ أي ناشئاً منهم، وكائناً من عدادهم، والمراد من الصلاح صلاح الدين.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ لم يخاطب المَلَكَ المنادي له، بل جرى على نهج دعائه السابق، مبالغة في التضرع والمناجاة ﴿أَنِّيْ يَكُوْنُ لِيْ عٰلَمٌ﴾؟ استبعاد من حيث العادة واستعظام للقدرة، لشك منه، وفيه دلالة على أنه قد أخبر بكونه غلاماً عند التبشير (وَأَنِّي) بمعنى كيف، أي: كيف يكون لي غلام ﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ﴾ أدركني كبر السن، ويأثر فيّ وكانت له تسع وتسعون سنة، ولأمراته ثمان وتسعون ﴿وَأَمْرًا نِّي عَاقِرٌ﴾ أي لا تلد، من العقر وهو القطع من الأولاد، قال ذلك مع سبق لدعائه، وقوة يقينه بقدرة الله، استعظاماً لقدرته تعالى ﴿قَالَ﴾ أي الرب تعالى ﴿كَذٰلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي ما يشاء أن يفعله، من الأفعال العجيبة.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّيْ ءَايَةً﴾ أي علامة أعرف بها الحَبَل، وإنما سألها استعجالاً للسرور، ليتلقى تلك النعمة بالشكر ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أن لا تقدر على تكلم الناس، وإنما حبس لسانه عن مكالمتهم خاصة، لتخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره، قضاء لحق النعمة، وإنما خص «الناس» للإشارة إلى أنه غير ممنوع من الذكر، والتسبيح ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ إشارة بنحو يد، أو رأس، قال جمهور المفسرين: عُقِدَ لِسَانُهُ عَنْ تَكْلِيمِ النَّاسِ خاصة، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيْرًا﴾ في أيام الحُبْسَةِ، أي ذكراً كثيراً، أو زماناً كثيراً ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ﴾ من الزوال إلى الغروب ﴿وَالْإِبْكَرِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى وفي أصل اللغة أبكر: إذا خرج للأمر في أول النهار، ومنه بَكَرَ وابتكر، إذا تكلف الخروج في بداية الصباح.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرَيْمُ اقْنِطِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ .

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ كَلِّمُوها شفاهاً كرامة لها، والاصطفاء الأول تقبلها من أمها، وتفرغها للعبادة، وإغناؤها برزق الجنة، وتطهيرها عما يُستقذر من النساء، والثاني هدايتها وإرسال الملائكة إليها، وتخصيصها بالكرامات، وتبرئتها مما قذفته اليهود بإنطاق الطفل، وجعلها وابناً آيةً للعالمين، والمراد بالملائكة هو جبريل عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ﴿يَمْرَيْمُ﴾ وهذه المقالة قبل بشارتها بعيسى عليه السلام، وهي من باب التربية الروحانية، بالتكاليف الشرعية ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ اختارك حين تقبلك من أمك، حيث ربّاكِ، ورزقك من أرزاق الجنة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مما يستقذر من الحيض والنفاس، أو من الذنوب ﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ قيل المراد بالاصطفائين واحد والتكرير للتأكيد، وقيل: الأول لخدمة بيت المقدس، والثاني لولادة عيسى عليه السلام.

﴿يَمْرَيْمُ اقْنِطِي لِرَبِّكِ﴾ أي أديمي الطاعة ﴿وَأَسْجُدِي﴾ تقديم السجود على الركوع ليقرن بالراكعين، والواو تفيد الاشتراك لا الترتيب ﴿وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي ولتكن صلاتك مع المصلين، وكانت رضي الله عنها مقدمة

على الطاعات والعبادات، متبتلة إليه عز وجل، مستعدة لفيضان الروح عليها.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق، من قصة حنة أم مريم، وزكريا، ومريم ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ التي لم تعرفها إلا بالوحي ﴿تُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ نلقيه إليك خفياً، والوحي يُطلق على الإشارة الخفية، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ وعلى الإلهام الذي يقع في النفس، وهو أخفى من الإيمان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ ويُطلق على ما يكون غريزة دائمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ﴾ وعلى الإعلام في الخفاء كما قال سبحانه: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ووحي الله على أنبيائه، وهو ما يلقيه عليهم من العلم الضروري الذي يخفيه عن غيرهم، وهو صلة بين عالم الغيب والشهادة، كما قال سبحانه ﴿وَمَا كَانَ لَبَشِيرٍ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ..﴾^(١) الآية. وصيغة الاستقبال للإيذان بأن الوحي لم ينقطع ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ عندهم أي عند الذين اختلفوا في تربية مريم، وهو تقرير وتحقيق لكونه وحياً، فإن أمثال هاتيك الحوادث، إما المشاهدة، وإما السماع، وعدمُ السماع محققٌ فبقي المعاينة، فنفيت في هذه الآية. ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ وهي قداحهم التي طرحوها في النهر، أو هي الأقلام التي يكتبون التوراة بها اختاروها للقرعة تبركاً ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ روي أن حنة لما حملت مريم إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار، قالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت ابنة إمامهم، فقال لهم زكريا عليه السلام: إني أحقُّ بها، عندي خالتها، فقالوا: لا حتى نقرعَ بيننا، فانطلقوا إلى نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا، ورست أقلام غيره، فتكفلها زكريا ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ

(١) سورة الشورى، آية ٥١.

يَخْصِمُونَ ﴿ في شأنها تنافساً في التكفل بها وتكرير ﴿وما كنت لديهم﴾ للدلالة على نبوته ﷺ، فإنه لم يكن حاضراً في الحالين، فمن أين عرف بذلك؟ لا شك أنه كان بطريق الوحي الإلهي.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ﴾ بدل ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ الأولى، وما بينهما اعتراض، وهذا شروع في قصة عيسى عليه السلام ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ أي بعيسى، والمراد بالكلمة قوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ باعتبار أنه خلق من غير أب بل بواسطة «كن» ﴿وَمِنْهُ﴾ أي كائنة منه تعالى، فالمعنى قال جبريل لمريم يا مريم: إن الله يبشرك من عنده ببشرى، وهي ولد يولد منك، من غير بعلى، وذلك الولد ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ وهو من الألقاب المشرفة، كالصديق، والفاروق، أصله المسيح بالعبرانية، ومعناه المبارك كقوله تعالى: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بدل من المسيح، وإنما قال ابن مريم إعلماً لها أنه يولد من غير أب، إذ الأولاد تنسب إلى الآباء، ولا تنسب إلى الأم إلا إذا فقد الأب، وفيه رد على النصارى فيما زعموه من بنوته لله تعالى، ومن كان منسوباً لوالدته كيف يكون إلهاً، أو ابن إله؟ ولم يذكر الله امرأة باسمها في كتابه العزيز إلا مريم لهذه الحكمة ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالنبوة، والتقدم على الناس ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالشفاعة، وعلو الدرجة، والوجية: ذو الجاه، وهو القوة والمنعة والشرف ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله تعالى يوم القيامة.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي يكلمهم حال كونه طفلاً، وكهلاً^(١).

(١) ذكر علماء اللغة أن المولود ما دام في الرحم فهو جنين، فإذا وُلِدَ فهو وليدٌ، ثم ما دام يرضع فهو رضيع، وإذا استغنى عن اللبن فهو فطيم، فإذا نبتت أسنانه فهو مشعر، فإذا قارب عشر سنين فهو ناشئ، فإذا قارب الحلم فهو مراهق، فإذا احتلم فهو غلام، فإذا ظهر شاربه فهو فتى، ثم ما بين الثلاثين إلى الأربعين هو شاب، ثم كهلاً إلى أن يبلغ الستين، ثم إذا جاوزها فهو هرم.

والمقصود بيان التسوية بين الكلامين، والمهد: مقرّ الصبي حال رضاعه، وكان كلامه في المهد ساعة واحدة، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام، قاله ابن عباس^(١) وقوله: ﴿وجعلني نبياً﴾ إخبار عما يؤول إليه، وجوّز أن يكون ذلك كرامة لمريم، دالة على براءة ساحتها، وتكليمه كهلاً بعد نزوله من السماء، بناءً على ما ذهب إليه سعيد بن المسيب أنه عليه السلام رفع إلى السماء، وهو ابن ثلاث وثلاثين^(٢) وأنه سينزل إلى الأرض ويبقى حياً فيها مدة طويلة من الزمن، كما أخرج ابن جرير بسند صحيح عن كعب الأحبار ﴿وَمِنَ الصّٰلِحِيْنَ﴾ وإنما ختم بكونه من الصالحين، لأن مقام الصالحين في مراتب الأنبياء أعظم المراتب، وذكر أحواله المختلفة إرشاداً إلى أنه بمعزل عن صفة الألوهية.

﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ متضرعة ﴿أَنِّي يَكُونُ﴾ أي من أين يكون ﴿لِي وَلَدٌ﴾ على وجه التعجب، واستعظام قدرة الله تعالى ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾؟ أي لم يصنني رجل، والمسيس هنا كناية عن الوطاء، وهذا نفي عام للزوج وغيره، ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إيراد «يخلق» ههنا مكان «يفعل» هناك، لِمَا أن ولادة العذراء، من غير أن يمسّ بها بشر، أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر، فكان الخلق المنبئ عن الاختراع أنسب بهذا المقام، ولذلك عقب ببيان كيفية الخلق فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ والمراد من هذا الجواب، بيان أن الله تعالى لا يعجزه أن يخلق ولداً بلا أب، لأنه أمر ممكن في نفسه، كيف لا وكثيراً ما نشاهد حدوث بعض الحيوانات على غير سبيل التولد، كحدوث الفأر عن المدر، والحيات عن

(١) كان أوّل كلامه عليه السلام قوله: «إني عبد الله آتاني الكتاب..» وتكلّم ببراءة أمه.
(٢) واختلف في زمن رسالته، فقيل: كانت في الصّبا، والمشهور أنه كان ابن ثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين، ثم رفع إلى السماء، وسينزل في آخر الزمان، لإكمال دعوته، فيكسر الصليب، ويقتل الدّجال، ويحكم بشريعة الإسلام، كما ورد ذلك في كتب الصحاح، صلوات الله عليه، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

الشعر المتعفن، والعقارب عن الأراضي الملوثة، والذباب عن الباقلاء، إلى غير ذلك.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ^(١٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُزَيِّتُ الْأَكْمَامَ وَالْأَنْبِرَاصَ وَأُنْخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ^(٢٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٢١﴾

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ أي الكتابة وكان عليه السلام أحسن الناس خطاً في زمانه، أو جنس الكتب الإلهية ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي الفقه، قاله ابن عباس، وقيل: سنن الأنبياء ﴿وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ إنما ذكر الإنجيل، لكونه معلوماً عند الأنبياء أنه سينزل، وقيل: علمه موهبة إلهية ^(١) ﴿وَرَسُولًا﴾ أي يجعله رسولا ﴿إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي إلى كلهم، وتخصيص بني إسرائيل لخصوص بعثته إليهم، واليهود في أمره فرقتان: فرقة ترميه بأقبح ما رمت وهم أكثرهم، يرمونه بأنه ابن زنى، وفرقة يصدّقون بمواعظه أنه لم يخالف التوراة، ويعتقدون أنه عابد من عبّاد بني إسرائيل وليس برسول ﴿أَنِّي﴾ أي ناطقاً بأني ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بمعجزة واضحة وإنما قاله وجاء بآيات، لأن الكل دلّ على شيء واحد، وهو صدقه في الرسالة

(١) كما وهب الله خاتم المرسلين، العلم الواسع دون معلّم ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿أَنِّي أَنشَأْتُ﴾ أصور وأقدّر ﴿لَكُمْ﴾ لأجل تحصيل إيمانكم ﴿مِنَ الطَّيْرِ﴾ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ: الهيئة: الصورة المهيأة أي مثل صورة الطير، والمراد بالخلق التصوير لا الإيجاد ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للهيئة المقدرة وذكر الضمير هنا مراعاة للمعنى، كما أتت في المائدة مراعاةً لِلْفَظِ ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ حياً طياراً كسائر الطيور ﴿يَاذَنُ اللَّهُ﴾ بأمره تعالى، نبه به على أن إحيائه من الله تعالى لا منه، ولكن بسبب النفخ فيه، وفي هذه المعجزة مناسبة لخلقه بنفخة جبريل من غير أب، ذُكِرَ أن بني إسرائيل طلبوا منه على سبيل التعنت - جرياً على عاداتهم مع أنبيائهم - أن يخلق لهم خفاشاً، فلما فعل قالوا: ساحر، ﴿وَأُتْرِثُ آلَكُمْ﴾ والأكمه: هو الذي ولد أعمى ﴿وَالأَبْرَصَ﴾ وهو مرض يحدث في الجسم، يسبب للمريض حكاً مؤلماً، يقال له: الوَضْحُ، ولم تكن العرب تنفر من شيء نفرتها منه، وتخصيص هذين الأمرين، لأنهما ممّا أعيا الأطباء، وكان الغالب على زمان عيسى الطب، فكان إبراهيم معجزةً له، ودليلاً على صدقه، كما أرى قوم موسى المعجزة بالعصا، حيث كان الغالب عليهم السحر وكان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان ﴿وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كرر بإذن الله، دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس أفعال البشر ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم ﴿بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكوّن فيها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي المذكور من الخوارق الأربعة، وهذا من كلام عيسى عليه السلام، حكاه الله تعالى عنه، وقيل: هو من كلام الله ﴿لَايَةً لَّكُمْ﴾ دالة على صحة الرسالة دلالة واضحة حيث لم تكن أسباباً عادية كما يفعلها الأطباء ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مصدّقين للحق غير معاندين، وجواب الشرط محذوف أي: إن كنتم موفّقين للإيمان انتفعتم بذلك البيان الساطع، بظهور الخوارق من العادات.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي جئتكم ملتبساً بآية، ومصدّقاً بالتوراة، ومعنى تصديقه الإيمان بجميع ما فيه ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ﴾ أي

وجنتكم لأحل لكم ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في شريعة موسى كالشحوم، والتروب والسّمك، ولحوم الإبل، والعمل في السبت، وهو يدل على أن شرعه كان ناسخاً لشرع موسى عليه السلام، وقيل: إن الإنجيل لم يخص أحكاماً، ولا حوى حلالاً وحراماً، ولكنه رموز وأمثال، ومواعظ وزواجر ﴿وَجَعَلُوا بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ كرر للتأكيد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يا معشر بني إسرائيل، فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَاطِيعُونَ﴾ فيما أدعوكم إليه، ثم وضحه بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فإنها دعوة الحق، المجمع عليها فيما بين الرسل، أي أطيعوني فيما أدعوكم إليه، وكان عليه السلام يصلي نحو بيت المقدس، ويحرم لحم الخنزير، ويقول بالختان، إلا أن النصاري غيروا ذلك بعد رفعه، فاتخذوا يوم الأحد بدل يوم السبت وصلوا نحو المشرق، وأحلوا لحم الخنزير، وحملوا الختان على ختان القلب وغير ذلك.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ رَبَّنَا
ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٨﴾
وَمَكَّرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى إِنِّي
مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ
فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٠﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٦١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ تحقق كفرهم عنده تحقق ما يدرك

بالحواس، وأصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، وقد استعير هنا للعلم بلا شبهة، والمراد بالكفر إصرارهم عليه، وعتوهم فيه مع العزيمة على إيقاع مكروه به، وقد صح أنه لقي من اليهود - قاتلهم الله - شذائد كثيرة، عن ابن عباس قال: كان اليهود يجتمعون على عيسى ويستهزئون به، ويقولون: يا عيسى ما أكل فلان البارحة؟ وما ادخر في بيته؟ فيخبرهم ويسخرون منه، وكانوا عارفين بأنه المسيح المبشر به، في التوراة، فلما أظهر الدعوة اشتد ذلك عليهم، فأخذوا في أذاه وكفروا به، أي فلماً أحسن كونه صادراً منهم ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف أي ملتجئاً إلى الله، وقيل معناه: من ينصرتي مُنْهياً نصره إلى الله؟ كأنه طلب منهم أن ينصروه لوجه الله تعالى، لا لغرض آخر ﴿قَالَ الْخَوَارِثُوتُ﴾ حوارئي الرجل: خاصته، من الحَوْر وهو البياض الخالص، سمي به أصحاب عيسى لخلوص نيتهم ﴿تَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي أنصار دين الله ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي صدقنا بأن الله ربنا ورب كل شيء ﴿وَأَشْهَدُ﴾ أنت يا عيسى ﴿يَأْتِنَا مُسْلِمُونَ﴾ وإنما طلبوا شهادته تأكيداً لإيمانهم، وإيداناً بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية، وكانوا اثني عشر رجلاً.

﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنْزِلَتْ﴾ تضرعوا إلى الله عز وجل، مبالغة في إظهار أمرهم ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ في كل ما يأتي به من أمور الدين ﴿فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي مع الشاهدين بوحدايتك.

﴿وَمَكُرُوا﴾ أي الذين أحسن منهم الكفر من اليهود بأن وكلوا عليه من يقتله غيلة، والمكر في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة، ولا يسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة ﴿وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾^(١) أي جازاهم

(١) المكر في الأصل الخداع، وإذا تُسب إلى الله سبحانه، فالمراد به استدراج العبد الكافر والعاصي في غفلته، حتى يوقعه في الهلكة، كما قال سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تشبيهاً لذلك بالخداع، فتنبه والله يرداك!!

على مكرهم، حين رفع عيسى عليه السلام وألقى شَبَهَهُ على من قصد اغتياله، حتى قُتِلَ. روي أنهم قصدوا قتله، فدخل عيسى بيتاً فيها روزنة - أي طاقة - فرفعه جبريل من تلك الروزنة، فدخل الرجل الخبيث الذي أراد قتله البيت، فألقى الله عليه شَبَهَهُ، فخرج يخبرهم بأنه ليس في البيت، فقتلوه وصلبوه، فلم يلتفتوا إلى قوله، ثم اختلفوا وقالوا: وجهه وجه عيسى، وبدنه بدن صاحبنا، فإذا كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمُنْكَرِينَ﴾ أقوامهم مكرراً وأقدرهم على إيصال الضرر للظالم والفاجر من حيث لا يحتسب.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي مستوفي أجلك، ومؤخرك إلى أجلك المسمى، عاصماً إياك من قتلهم، أو قابضك من الأرض وزعم النصراني أن الله تعالى، أماته سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء والصحيح كما قاله القرطبي أن الله رفعه من غير وفاة ولا نوم، وهو اختيار الطبري، والرواية الصحيحة عن ابن عباس ﴿وَرَأَيْتُكَ إِنِّي﴾ إلى محل كرامتي، ومقر ملائكتي ﴿وَمُظْهِرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من سوء جوارهم وقصدهم الخبيث ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ في التوحيد وهم أهل الإسلام، دون الذين كذبوه من اليهود والنصارى، روي هذا عن قتادة والربيع، وقيل: هم النصارى، والمراد من الاتباع مجرد الاتباع والمحبة ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بدين التوحيد ونبوة عيسى، أي يعلنونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر، ومتبعوه من آمن بنبوته، من المسلمين والنصارى ﴿إِنِّي يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ غاية للجعل، وأما بعدها فيفعل الله بهم ما يشاء ﴿ثُمَّ إِنِّي مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة وغلب المخاطب على الغائبين ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ إثر رجوعكم إليَّ ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في أمر الدين.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أتباعك ﴿فَاعَذِّبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي ليس لهم ما نعين يمنعونهم من عذابنا في الدارين. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما أرسلت به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بما

فرضت عليهم، وشرعت لهم ﴿فَيُوقِيهِمْ أَجُورَهُمْ﴾ جزاء أعمالهم كاملة ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبغضهم ولا يرحمهم، وإيراد الظلم للإشعار بأنهم بكفرهم متجاوزون الحدود.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ .

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى عليه السلام وغيره ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ نخبرك به، وإنما أضاف التلاوة إلى ذاته تعالى لأنه بأمره ﴿مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٥٨﴾ أي المحكم الممنوع من تطرق الخلل إليه، أو المشتمل على الحكم، يريد به القرآن.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي حاله وشأنه ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في تقديره وحكمه ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ كشأن آدم عليه السلام، وحاله العجيبة التي لا يرتاب فيها مرتاب، وهذه الآية نزلت في محاجة نصارى وفد نجران، فقد روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: مالك تحقر صاحبنا؟ قال: ما أقول؟ قالوا تقول: إنه عبد الله قال: أجل هو عبد الله ورسوله، فغضبوا وقالوا: هل رأيت أحداً من غير أب، فأبوه هو الله، وهو ابنه لا عبده، فقال ﷺ: إن آدم ما كان له أب ولا أم، فكذا حال عيسى ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ توضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما، فإن إنكار خلق عيسى بلا أب، ممن يعترف بخلق

آدم بغير أب وأم، مكابرةً وعناد ﴿ثُمَّ قَالَ لِمَنْ كَانَ فَيَكُونُ﴾ أي صِرَ بشراً فصار، وفي الآية دلالة على صحة النظر والاستدلال، ثم إن الظاهر أن عيسى خلقه سبحانه من مريم، بجعلها قابلة لذلك ومستعدة له.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي هذا هو الحق، الذي أخبرتك به من نبي عيسى، لا ما يزعمه النصارى من ألوهيته ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُنْزِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ على طريقة التهيج لزيادة الثبات أو لكل سامع، وفي هذا الأسلوب فائدتان: إحداهما: أنه ﷺ إذا سمع مثل هذا الخطاب ليزداد ثباته، فيكون نوراً على نور، والثاني: أن السامع يتنبه بهذا ويتزجر عما يورث الامتراء.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ أي جادلَكَ في شأن عيسى من النصارى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَحْيِ﴾ من الآيات الموجبة للعلم ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا بالرأي والعزم ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أي يدع كل منا ومنكم نفسه، وأعرزة أهله، وفي تقديمهم على النفس، مع أن الرجل يخاطر بنفسه من أجلهم، ويحارب دونهم، للإيدان بكمال أمنه ﷺ عليهم، وأنه لن يصيبهم شائبة من الأذى، لثقتهم بأنه على الحق ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نتباهل ونتضرع إلى الله أن يهلك الكاذب منا، والبهلة: الدعاء باللعنة ثم شاعت في مطلق الدعاء، كما يقال: فلان يبتهل إلى الله تعالى في حاجته، إلا أنه هنا يفسر باللعن، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أي نقول لعنة الله على الكاذبين، ولما قرأ ﷺ هذه الآية على وفد نجران، ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: نرجع وننظر في أمرنا، ثم نأتيك غداً، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي معه وعلي خلفها^(١)، وقال ﷺ: إذا أنا دعوتُ

(١) لما أنزل الله هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً، وفاطمة، وحسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي» أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٢١٠/٥.

فَأَمْتُوا، فقال أسقف نجران يا معشرَ النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يُزِيلَ جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تَبَاهِلُوا فتهلكوا، فقالوا يا أبا القاسم: رأينا أن لا نباهلك اليوم، قال ﷺ: فإذا أبيتم المباهلة أسلموا، فأبوا فقال ﷺ: أناجزكم أي أحاربكم فقالوا: لا نحارب، ولكن نصالحكم على أن ندفع لكم كل عام ألفي حلة، وثلاثين درعاً من حديد، فصالحهم على ذلك، قال بعض العارفين: إِنَّ لمباهلة الأنبياء، تأثيراً عظيماً، لاتصال نفوسهم بروح القدس، وتأيد الله إياهم به، وهو المؤثر بإذن الله تعالى، ولذا خاف النصارى، وقبلوا دفع الجزية للنبي ﷺ.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما قص من نبأ عيسى ومريم ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ دون ما ذكروه من أكاذيب النصارى واليهود، والقصص من القصص وهو تتبع الأثر، قصصت الخبر قصاً حَدَّثْتُ به على وجهه ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ صرح فيه بمن المزیدة للاستغراق، تأكيداً للرد على النصارى ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لا أحد سواه يساويه، في القدرة التامة، والحكمة البالغة، ليشركه في الألوهية.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن التوحيد، وقبول الحق الذي جاءك من عند الله، بعدما عاينوا تلك الحجج النيرة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم، ووضع المظهر ليدل على أن الإعراض عن التوحيد، إفسادٌ للدين، والاعتقاد، المؤدي إلى فساد النفس، بل إلى فساد العالم.

﴿قُلْ يَتَاَهَلُ الْكَتِّبُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَزْ إِلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿قُلْ يَتَاَهَلُ الْكَتِّبُ﴾ نزلت في وفد نصارى نجران ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا ﴿إِلَى كَلِمَةٍ﴾ أي كلام، وإطلاقها على ذلك من باب المجاز ﴿سَوَّامٍ﴾ عدل،

قاله ابن عباس: أي مستوية ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا يختلف فيها الرسل والخلق ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي نوحده بالعبادة، ونخلص فيها ﴿وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له، في استحقاق العبادة ﴿وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولا نقول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع الأحبار، فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلاً منهم بشرٌ مثلنا، فكيف يكونون أرباباً؟! ولما نزلت هذه الآية، قال عدي ابن حاتم: «ما كنا نعبدكم يا رسول الله» فقال ﷺ: «أما كانوا يحللون لكم، ويحرمون، فتأخذون بقولهم؟ قال نعم، فقال ﷺ هو ذاك؟^(١) قال ابن جريج: أي لا يطع بعضنا بعضاً في معصية الله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن موافقتكم بعد عرضكم عليهم، فاعلموا أنهم لزمتمهم الحجة، وإنما أبوا عناداً ﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا﴾ أي أنصفوا واعترفوا ﴿إِنَّا مُسْلِمُونَ﴾ دونكم، انظروا إلى ما روعي في هذه القصة، من المبالغة في الإرشاد، وحسن التدرج في المحاجة، حيث بين تعالى أولاً أحوال عيسى، وما توارد عليه من الأطوار، المنافية للإلهية، فلما ظهر عنادهم، دُعوا إلى المباهلة، بنوع من الإعجاز، ثم لما أعرضوا عنها، دعوا إلى ما اتفق عليه عيسى، وسائر الأنبياء من التوحيد، ثم لما ظهر عدم إجدائه أمروا أن يجهروا بالإيمان ﴿قولوا بأنا مسلمون﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هَاتَانِ هَاتَانِ هَاتَانِ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾.

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التوبة بنحوه ٢٦٠/٥.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبَ لَمْ تُعَاجُوتَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الكلام على حذف المضاف، أي دين إبراهيم، لأن في ذاته ليس فيه مجادلة، روي أنه اجتمع عند رسول الله ﷺ نصارى نجران، وأحبار اليهود، فتنازعوا، فقال الأحبار: ما كان إبراهيم إلّا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إلّا نصرانياً، فأنزل الله تعالى الآية، أي فقل لهم ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي إن اليهودية والنصرانية، إنما حدثتا بعد نزول التوراة والإنجيل، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلّا بعد عهده بأزمة متطاولة، فقد كان بين موسى وإبراهيم قرابة ألف سنة، وبين موسى وعيسى ألف وتسعمائة وخمس وعشرون سنة، وقيل ألفا سنة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تتفكرون فتعقلون بطلان قولكم؟.

﴿هَكَأُنْتُمْ﴾ ها، للتنبيه وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره، تُبْهَوْا بها على حالتهم التي غفلوا عنها، أي أنتم ﴿هَكَأَؤَ﴾ الأشخاص الحمقى ﴿حَبَجْتُمْ﴾ أي جادلتم ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي في شأن عيسى، وفي التوراة والإنجيل ﴿فَلَمْ تُعَاجُوتَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾؟ من أمر إبراهيم، ولا ذكر لدين إبراهيم في كتابكم قطعاً ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي والله يعلم الحق، وأنتم جاهلون به ثم كذبهم بقوله:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ تصريح بمقتضى ما قرره من البرهان، من أن إبراهيم عليه السلام، ما كان موجوداً عند نزول التوراة والإنجيل، فكيف يكون يهودياً أو نصرانياً؟ ﴿وَلَكِنْ كَانَتْ حَافِيًّا﴾ مائلاً عن العقائد الزائفة ﴿مُسْلِمًا﴾ مؤمناً منقاداً لله تعالى ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأنهم المشركون، لإشراكهم بالله عزيزاً، والمسيح، ورد لادعاء المشركين أنهم على ملّة إبراهيم.

﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ أولى أفعال تفضيل أي أقرب الناس وأحقهم بإبراهيم ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ من أمته، وكانوا على شريعته في زمانه وبعده ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ أي والنبي محمد ﷺ الذي جاء بالحنيفية السمحة، كما قال

سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا.﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي والمؤمنون من أمة محمد ﷺ فهم الجديرون بهذا الفضل، وكون المتبعين لإبراهيم في زمانه أولى الناس به ظاهر، وكون نبينا ﷺ أولاهم لموافقة شريعته لشريعة إبراهيم^(١)، وكون المؤمنين من هذه الأمة كذلك لتبعيتهم له فيما جاء به ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ينصرهم ويجازيهم بالحسنى لإيمانهم، كما هو شأن الولي، ولم يقل «وليهم» تنبيهاً على الوصف الذي يكون الله تعالى ولياً لعباده، وهو الإيمان.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَو يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ يَتَّاهِلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ يَتَّاهِلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٧٠﴾ يَخْضُضُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧١﴾.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الطائفة: فرقة من الناس وأقلها ثلاثة، والمشهور أنها نزلت، حين دعا اليهود حذيفة، وعماراً، ومعاذاً، إلى اليهودية ﴿لَو يُضِلُّوكُمْ﴾ كلمة لو تفيد التمني^(٢) ﴿وَمَا يُضِلُّوكُمْ﴾ جملة

(١) في الحديث الشريف «إن لكل نبي ولاية من النبيين، وإن وليي أبي وخليل ربي - يعني إبراهيم - ثم قرأ ﷺ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سنن الترمذي ٢٠٨/٥.

(٢) جواب «لو» محذوف تقديره: ودَّت إضلالكم لو يضلونكم لسُرُّوا وفرحوا بذلك.

حالية جيء بها للدلالة على رسوخ المخاطبين، وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم، وفيه الإخبار بالغيب، إذ لم يتهود مسلمٌ والله الحمد ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم، وعذابهم يضاعف بضلالهم وإضلالهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، وفي نفى الشعور عنهم مبالغة في ذمهم.

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بما نطقت به التوراة والإنجيل، ودلت على نبوته ﷺ أو لم تكفرون بآيات القرآن وأنتم تعلمون ما يدل على صحتها؟ ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي تعلمون بالمعجزات أن القرآن حق، والإخبار بما يكتمون في أنفسهم معجز.

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ بتحريفكم، وإبراز الباطل في صورة الحق ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ نعت الرسول ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بما تكتُمونه؟

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هم رؤساؤهم وأخباروهم، قالوا لأتباعهم ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي أظهروا الإيمان بالقرآن المنزل على المؤمنين ﴿وَجَهَ النَّهَارِ﴾ أول النهار ﴿وَأَكْفُرُوا ءَاخِرُهُ﴾ أي واكفروا به آخره، وقولوا لهم: إنا آمنا به بادي الرأي، من غير تأمل فيه، فوقفنا على خللٍ فيه فرجعنا عنه ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي المؤمنون ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الإيمان به، أو يشكُّون فيه، ظناً بأنكم رجعتُم لخللٍ ظهر لكم^(١)، وهذا نوعٌ آخر من تليسات اليهود.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ اتفق المفسرون على أن هذا بقية كلام اليهود، أي وقالوا أيضاً ولا تصدقوا ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ﴾ وافق ﴿وَيَنْكُرُ﴾ قال الله تعالى:

(١) هذه مكيدة دبَّرها اليهود، ليلبسوا على الضعفاء أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا عن الإسلام، ليظن الناس أن في الدين عيباً وخللاً فيرتدوا عنه!!

﴿قُلْ﴾ لهم يا رسول الله ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام، وما عداه ضلال، والجملة اعتراض ﴿أَنْ﴾ بأن ﴿يُؤْتِي أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ﴾ من الكتاب والحكمة والفضائل، والمعنى لا تقرّوا بأن يؤتى ذلك إلا لمن تبع دينكم ﴿أَوْ﴾ بأن ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾ أي المؤمنون يغلبوكم ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يوم القيامة، لأنكم أصبح ديناً، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فمن أين لكم أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم؟ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهله.

﴿يَخْصُ بِرَحْمَتِهِ﴾ رد وإبطال لما زعموه، أي يجعل رحمته بالنبوة مقصورة على ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، وفيه دليل على أن النبوة بالاختصاص لا بالاستحقاق ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وقيل الفضل نعم الدين والدنيا ويدخل فيه ما يناسب المقام.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ شروع في بيان خيانتهم في المال، بعد بيان خيانتهم في الدين ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ﴾ أي ومن أهل الكتاب من بحيث إن تأمنه ﴿بِقِطَارٍ﴾ أي مال كثير ﴿يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ﴾ كعبد الله بن سلام، استودعه قرشي ألفاً ومائة أوقية ذهباً، فأداه إليه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ﴾ المراد منه مال قليل ﴿لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ﴾ كفنحاص بن عازوراء اليهودي، استودعه رجل ديناراً فجحدته وخانه، وقيل: أشد الناس في الخيانة اليهود لأن مذهبهم أنه يحل لهم أخذ مال من خالفهم في الدين، بأي طريق كان ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ استثناء مفرغ أي إلا وقت دوامك قائماً على رأسه، مبالغاً في مطالبته، بالتقاضي وإقامة البينة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ أي ذلك الصنيع بسبب

قولهم ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ﴾ أي ليس علينا في شأن من لم يكونوا على ديننا، عتابٌ وذم، وقد ادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فقال الله تعالى رداً عليهم: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بادعائهم ذلك ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم^(١).

﴿بَلَى﴾ إثبات لما نفوه، أي بلى عليهم فيه إثم، لكن ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ الذي عهد إليه في التوراة، من الإيمان بالرسول ﷺ وبالقرآن، وبإداء الأمانات إلى من اتمنه عليها ﴿وَأَتَقَى﴾ أي اجتنب الكفر، والخيانة، ونقض العهد ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي يحبهم ويكرمهم، وهذه الآية من الجوامع، لأن الطاعة محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، والوفاء بالعهد مشتمل عليهما، والتقوى: هي الاجتناب عن المناهي، وفعل الأوامر الطاعات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَآيْمَانَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ بما عاهدوا الله عليه، من الإيمان، والوفاء بالأمانات ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا من التروس، والارتشاء، ونحو ذلك، أخرج البخاري عن ابن أبي أوفى «أن رجلاً أقام سلعة له في

(١) رُوي أن رجلاً سأل ابن عباس فقال: «إِنَّا نُصِيبُ فِي غَزَوْنَا مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الذِّمَّةِ: الدَّجَاجَةَ، وَالشَّاةَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَمَاذَا تَقُولُونَ؟ قَالَ: نَقُولُ: لَيْسَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ بَأْسٌ، قَالَ: هَذَا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ﴾ إِنَّهُمْ إِذَا أَدَّوْا الْجِزْيَةَ، لَمْ تَحُلْ لَكُمْ أَمْوَالُهُمْ، إِلَّا بِطَيْبِ أَنْفُسِهِمْ» انظر تفسير ابن كثير ٣٨٢/١.

السوق، فحلف بالله لقد أُعطي بها ما لم يُعطه، ليقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية^(١)، وأخرج أحمد وابن جرير عن عدي بن عمرة قال: كان بين امرئ القيس، ورجل من حضرموت خصومة، وارتفعا إلى النبي ﷺ فقال للحضرمي: بَيِّنْكَ وَالْأُفَمِينَةَ!! قال يا رسول الله: إن حلف ذهب بأرضي، فقال ﷺ: «من حلف على يمين كاذبة، ليقنطع حق أخيه، لقي الله وهو عليه غضبان»^(٢)، فقال امرؤ القيس: يا رسول الله فما لمن تركها، وهو يعلم أنها حق؟ قال: الجنة، قال: فإني أشهدك أنني تركتها، فنزلت الآية^(٣)، وقيل: إنها نزلت في أحبار حرفوا التوراة، وحكم الأمانات، ولا مانع من تعدد سبب النزول ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿لَا خَلْقَ﴾ لا نصيب ﴿لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ من نعيم الجنة، بسبب ذلك الظلم والفجور ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ بما يسرهم كلام أنس وملاطفة، والظاهر أنه كناية عن غضبه تعالى عليهم لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فَإِنَّ مِنْ سَخِطَ عَلَى غَيْرِهِ، أَعْرَضَ عَنْهُ، وَعَنِ التَّكَلُّمِ مَعَهُ، وَالْإِلْتِفَاتِ نَحْوَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ تهويل للوعيد ﴿وَلَا يُرْزِقُهُمْ﴾ ولا يطهرهم من الآثام بالمغفرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما فعلوه من المعاصي.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾ لجماعة هم المحرفون

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة آل عمران ٢١٣/٨.

(٢) أخرج طرفاً منه البخاري في كتاب التفسير بلفظ: «من حلف على يمين صبر، يقطع بها مال امرئ مسلم، وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان».

(٣) انظر كامل القصة في تفسير ابن كثير ٣٨٣/١.

ككعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحُيَّ بن أخطب ﴿يَلُونُ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ يفتلون بقراءته، فيميلونها عن المنزل إلى المحرّف أو يعطفونها بشبه الكتاب والليّ: الفتل، لويث الحبل، فتلته، ولوى رأسه أماله، والمراد تحريفهم له، كآية الرجم، وصفة النبي ﷺ^(١) ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أي المحرّف ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي التوراة ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ والحال أنه ليس منه في نفس الأمر من كلام الله ﴿وَيَقُولُونَ﴾ كذباً ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وما هو من الكتاب﴾ وبيان لأنهم يزعمون ذلك تصريحاً لا تعريضاً ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ والحال أنه ليس من عند الله في اعتقادهم أيضاً ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله، والتعمد فيه.

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيُنَا بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ أي ما صحّ، وما استقام لأحد، وإنما قال «لبشر» إشعاراً بعلّة الحكم، فإن البشرية منافية للأمر الذي أسنده الكفرة، إلى الأنبياء عليهم السلام ﴿أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ﴾ الأمر بالتوحيد، والناهي عن الشرك ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة التي ينطق بها النبيون ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي الرسالة ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ ذلك البشر، بعدما شرفه الله تعالى بما ذكر، وعرفه الحق، وأطلعه على شؤونه العالية ثم يقول: ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

(١) المراد أنهم يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلّة إلى العبارات المحرّفة، فهم يصرفون الكلام من جانب الخير إلى جانب الشر، ويتلاعبون في كلام الله عز وجل بالليّ والتحريف.

تكذيب ورد على عبدة عيسى، عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي والسيد النجراني: قالا يا محمد أتريد أن نعبدك، ونتخذك رباً؟ فقال ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، فترلت هذه الآية^(١) ﴿وَلَكِنْ﴾ يقول: ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ أي يقول: كونوا ربانين، والرباني منسوب إلى الرب، وهو الكامل في العلم والعمل، والألف والنون للمبالغة، ﴿يَمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَيَمَا كُنْتُمْ تُدْرِسُونَ﴾ الباء للسببية، أي كونوا كذلك بسبب مثابرتكم على تعليمكم الكتاب، ودراستكم له، والغرض أن لا ينفك العلم عن العمل، إذ لا يعتد بأحدهما بدون الآخر.

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ عطف على ثم يقول: أي وما كان لبشر أن يستنبهه الله تعالى، ثم يأمر الناس ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكَفَّةِ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا﴾ أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله، ملائكة كانوا أو أنبياء، لأن مهمة الرسول الدعوة لعبادة الله وحده ﴿أَيَاكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؟ لا ينبغي له هذا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فمن تولي بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴿٤١﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ أي اذكر وقت ذلك، ومعنى ميثاق النبيين ما وثقوه على أنفسهم أن يؤمن كل رسول بمن يأتي بعده من الأنبياء، وينصره، وإن لم يدركه أن يأمر قومه بنصرته، وقيل: إنما أخذ الميثاق من النبيين في أمره ﷺ خاصة، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس

(١) أخرجه ابن إسحاق عن ابن عباس، وانظر تفسير ابن كثير ٣٨٥/١.

قال: لم يبعث الله تعالى نبياً إلا أخذ العهد عليه في محمد ﷺ لئن بعثه الله وهو حي، ليؤمننَّ به ولينصرنه، فيأخذ العهد على قومه^(١)، ثم تلا الآية ﴿لَمَّا أَتَيْنَكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ أي لتصدقنَّ به ولتنصرنه ﴿قَالَ﴾ الله تعالى بعد أخذ الميثاق للتأكيد ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بما ذكر ﴿وَأَخَذْتُم عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي أقبلتم عهدي، وسمي إصراً لأنه يشدُّ ويعقد ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أي فليشهد بعضكم لبعض بالإقرار ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي على إقراركم هذا.

﴿فَمَن تَوَلَّى﴾ أعرض عما ذكر من العهد والميثاق ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التوكيد بالإقرار، ونقض العهد بعد قبوله ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون، الخارجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٨٩﴾

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾؟ عطف على الجملة المتقدمة أي يتولون فيبغون غير دين الله، بعد أخذ هذا الميثاق المؤكد؟ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ جملة حالية، أي كيف يطلبون غير دينه، والحال وله أسلم ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الملائكة، والإنس، والجنان ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي طائعين ومكرهين، لا يُقال كيف قيل أسلم، مع أن الأكثر من الإنس والجن كفار؟

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٨٦.

لأن كل من فيهما منقادٌ وخاضع لجلال الله، في تكوينه ووجوده، والطوع: الانقياد بسهولة، والإكراه ما كان ذلك بمشقة وإباء من النفس ﴿وَالَّذِي يُرْجَمُونَ﴾ وفيه وعيد أي فيجازيهم على أعمالهم.

﴿قُلْ ءَامَنَّا﴾ أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعن من معه بالإيمان ولذا وحد الضمير في قل وجمع في آمنة ﴿يَاللَّهُ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهو القرآن الكريم لما أنه منزل عليهم أيضاً بتوسطه ﷺ وإنما قدمه على المنزل على سائر الرسل، لأنه المعرف له، والعُمدَةُ عليه ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا إِلَّا بَرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أَوْفَى مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مقرون له بالالوهية والربوبية، نؤمن بجميع رسل الله، ولا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى، كدأب المشركين، والمدعين للتوحيد مع إشراكهم من أهل الكتاب ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ذلك، بل يردُّ أشدَّ رد ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الواقعين في الخسران، وهو حرمان الثواب، وحصول العقاب، وأصل الخسران ذهاب رأس المال، والمراد به هنا تضييع الأعمال الصالحة، لأن الله لا يقبل عملاً من كافر.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكِئَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٨٩﴾

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ إلى دين الحق ﴿قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ هم جماعة من المنافقين، أبو عامر وأصحابه في اثني عشر رجلاً لحقوا بقریش

فنزلت الآية فيهم، وهو استبعاد لأن يهديهم الله عز وجل، فإن الحائد عن الحق، منهمك في الضلال، بعيد عن الرشاد ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ﴾ أي وقد شهدوا أن الرسول حق لا شك في رسالته ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي الشواهد كالقرآن، وسائر المعجزات الدالة على صحة نبوته ﷺ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يوفق إلى الحق ما داموا مختارين الكفر ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بوضع الكفر موضع الإيمان.

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي جزاؤهم على كفرهم، اللعنة من الله والملائكة، وجميع الخلائق، مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، فالمراد به العموم، لأن الكافر أيضاً يلعن منكر الحق، ولكنه لا يعرف الحق.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة أو النار وإن لم يجر ذكره لدلالة الكلام ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد الارتداد ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ وأصلحوا ما أفسدوا، وقيل: أي أصلحوا باطنهم مع الحق، وظاهرهم مع الخلق، بالعبادات والطاعات ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقبل توبتهم، ويغفر لعصيانهم، ويتفضل عليهم باللطف والإحسان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّالُونَ﴾ (٩١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٩٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ قال عطاء: نزلت في اليهود، كفروا بعبسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً برسول الله ﷺ والقرآن ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّالُونَ﴾ الثابتون على الضلال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾
 ملء الشيء مقدار ما يملؤه ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ أي فلن يقبل من أحدهم
 فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، والكلام ورد على سبيل الفرض والتقدير،
 لأنهم لا يملكون شيئاً في الآخرة، وقيل: معناه لو بذله في الدنيا ثم مات
 على كفره لم ينفعه ذلك ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من مات على الكفر ﴿لَهُمْ﴾
 عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ في دفع العذاب عنهم أو تخفيفه.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ﴾ البرُّ: الإحسانُ وكمالُ الخير، أي لن تبلغوا حقيقة
 البر، الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا الرضى، والجنة ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا﴾
 تُحِبُّونَ وقيل: لن تنالوا ثواب البر، حتى تنفقوا من أفضل أموالكم، مما
 تحبونه وتشتهونه لأنفسكم، وكان السلف إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله تعالى،
 روي عن نافع أنه قال: كان ابن عمر يشتري الحلوى يتصدق بها، فنقول
 له: لو اشتريت لهم طعاماً كان أنفع لهم فيقول: أنا أعرف الذي تقولونه،
 ولكن سمعت الله تعالى يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾
 وإن ابن عمر يحب السكر والحلوى ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي من أي شيء
 كان محبوباً أو غيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم بحسبه، وفيه تحذير
 من إنفاق الرديء، والترغيب في إنفاق الجيد المحبوب.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى
 نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ﴾ (١٣) ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الظَّالِمُونَ﴾ (١٤) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٥).

﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ أي المطعومات ﴿كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي حلالاً لهم، وهو مصدر يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث قال الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ روي أنه حين قال رسول الله ﷺ: أنا على ملة إبراهيم، قالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً له ﷺ وتكذيباً لهم ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ وكان قد حرم لحوم الإبل وألبانها، وسبب تحريم ذلك، ما روي عن ابن عباس أن يعقوب كان به «عِزُّ الشَّيْءِ» فنذر إن شفاه الله ألا يأكل أحب الطعام إليه، فحرمها على نفسه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب ألبانها ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أي من قبل إنزالها مشتملة على تحريم ما حرم عليهم، لظلمهم وبغيهم، عقوبة وتشديداً، بقوله تعالى: ﴿فَظَلَمُوا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا﴾ الآية. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ﴾ أمر له ﷺ بأن يحاجهم بكتابهم، الناطق بصحة ما يقول، في أمر التحليل والتحريم ﴿فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في دعواكم. روي أنه ﷺ لما قال لهم ذلك؛ لم يجروا أن يخرجوا التوراة وبُهِتُوا، ورجعوا صاغرين.

﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي اخترع ذلك، بزعمه أن التحريم كان على الأنبياء وأممهم، قبل نزول التوراة، ومعنى الافتراء: الابتداع والاختلاق، والكذب إذا كان عن قصد يكون إفكاً، والإفك إذا كان على الغير يكون افتراءً، والافتراء إذا كان بحضرة المقول يكون بهتاناً، وهو الكذب الذي يبهت سامعه أي يدهش له، وهو أفحش الكذب ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد ما لزمتهم الحجة ﴿فَأُولَئِكَ﴾ أي المفترون ﴿هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم، ولأشيعهم بإضلالهم، وإنما قيّد بالبعدية للدلالة على كمال القبح.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي ثبت صدقه تعالى، في أن كل الطعام كان حلالاً

لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب، في التوحيد، والاستقامة في الدين، وتعرض بشرك اليهود والنصارى.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله، هو المسجد الحرام الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، روي عن ابن جريج قال: بلغنا أن اليهود قالت بيت المقدس أعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه في الأرض المقدسة فنزلت الآية، والمراد بالأولية بحسب الزمان. أخرج الشيخان عن أبي ذر قال: سئل رسول الله ﷺ عن أول بيت وضع للناس، فقال: «المسجد الحرام، ثم بيت المقدس...»^(١) الحديث. ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي البيت الذي ببكة، وهي لغة في مكة، من بكه إذا دقه، فإنها تدق أعناق الجبابة، أو لازدحام الحجيج فيها ﴿مُبَارَكًا﴾ أي كثير الخير والنفع، لمن حجه واعتمره، وطاف حوله ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ هادٍ لهم إلى الجنة دار المتقين.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي فيه علامات واضحة كثيرة، تدل على شرفه

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٢٩٠ ومسلم في المساجد رقم ٥٢٠ ولفظه عن أبي ذر قال: «سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً، ثم الأرض لك مسجد، فأينما أدرتلك الصلاة فصل.»

وفضله على سائر مساجد الأرض ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي منها مقام إبراهيم، ومن الآيات أثر القدم في الصخرة، وإبقاؤه مع كثرة الأعداء ألوف السنين، ومنها زمزم والحطيم، والصفاء والمروة ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ هذه آية أخرى، وهي أمن الداخل للحرم بدعوة إبراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال: «كان الرجل في الجاهلية يقتل الرجل، ثم يدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول أو أبوه، فلا يحركه» وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لو وجدت فيه قاتل الخطأ ما مسسته حتى يخرج منه» وقال أبو حنيفة: من لزمه القتل في الحل، فالتجأ إلى الحرم، لم يتعرض له، إلا أنه لا يؤوى، ولا يطعم ولا يسقى، حتى يضطر إلى الخروج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ أي استقر له عليهم فرض الحج، أي قصده وزيارته، فيجب الحج في أول أوقات الإمكان ويكره تأخيره تحريماً، لقوله ﷺ: «يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»^(١) ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أي فرض الحج على القادر المستطيع له، والقدرة إما بالبدن أو بالمال، أو بهما، ويؤيده ما أخرجه الدارقطني عن جابر بن عبد الله قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا السَّبِيلُ؟ قَالَ: الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ»^(٢) ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ يراد به «مَنْ كَفَرَ» من لم يحج، تشديداً وتأكيذاً لوجوبه، ولقد حازت الآية الكريمة كمال الاعتناء بأمر الحج، حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق، و أبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار، وسلك فيها مسلك التعميم، ثم التخصيص، والإبهام ثم التبيين، لما في ذلك من مزيد تحقيق وتقرير، وعبر عن تركه بالكفر وجعل

(١) أخرجه مسلم رقم ١٣٣٧ وتتمته «فقال رجل: أفني كل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها الرجل ثلاثاً، فقال ﷺ: ذروني ما تركتكم، ولو قلت: نعم لوجبت، ولَمَّا استطعتم».

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الحج رقم ٨١٣ وله طُرُق يقوي بعضها بعضاً.

جزاءه استغناؤه تعالى، المؤذن بشدة المقت، وعظيم السخط، تنبيهاً على وجوبه وفرضيته على المؤمنين.

﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾
قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنۢ ءَامَنَ تَبَغُّوهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ
شُهَدَآءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ۝ ﴾

﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ هم اليهود والنصارى، خوطبوا بها مبالغة في تقييح حالهم، في كفرهم بالقرآن الكريم، لأن معرفتهم بالآيات أقوى ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ السمعية والعقلية الدالة على صدق رسول الله تعالى فيما يدعيه؟ والاستفهام للتوبيخ، والإشارة إلى تعجيزهم عن إقامة العذر في الكفر، كأنه قيل: هاتوا عذرکم إن أمكنکم ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ﴾ وإظهار لفظ الجلالة لتربية المهابة ﴿عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أي والحال أنه تعالى مطلع على أعمالکم، فيجازيکم عليها.

﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ أمر ﷺ بتوبيخهم والتكرير للمبالغة ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ أي تصرفون، والصدُّ: المنع، يقال: صدَّته أي منعته وأهل الكتاب كانوا يعرضون عن سلوك سبيل الله، ويضلون الناس عنها ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الطريقة الموصلة إلى الله تعالى، وهي طريقة الإسلام ﴿مَنۢ ءَامَنَ﴾ كانوا يمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم، ويحتالون لصدِّهم عنه ﴿تَبَغُّوهَا﴾ أي السبيل ﴿عِوَجًا﴾ أي باغين، طالبين لها اعوجاجاً، بأن توهموا أن فيه عوجاً عن الحق، عوجاً بكسر العين في الدين^(١) ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ أي عالمون بأنها سبيل الله، والصدُّ عنها ضلال وإضلال ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد لهم، ولما كان المنكر في الآية الأولى كفرهم، ختمها بقوله: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ ولما كان في هذه صدِّهم،

(١) العِوَجُ: بكسر العين يكون في الدين والطريق، وبالفتح «عَوَج» في الخَلْفَةِ، يقال: في سافه عَوَجٌ، وفي دينه عَوَجٌ، وانظر الصحاح للجوهري.

قال الله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصادقين فقال عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ خطاب للأنصار على ما يقتضيه سبب النزول، ويدخل غيرهم من المؤمنين في عموم اللفظ، خاطبهم الله تعالى بنفسه، بعدما أمر رسوله ﷺ بخطاب أهل الكتاب، إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله تعالى، وسبب نزولها ما أخرجه ابن إسحق وجماعة عن زيد بن أسلم قال: «مر شماس بن قيس اليهودي، على جماعة من أصحاب النبي ﷺ، من الأوس والخزرج، في مجلس يتحدثون، فغاضه من ألفتهم، فأمر شاباً معه من اليهود فقال: اجلس معهم وذكرهم يوم بعث - وكان هذا اليوم يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج - وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار، ففعل فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وغضبوا وقالوا: السلاح، السلاح، فاجتمع من القبيلتين خلقٌ كثير، فوصل الخبر إلى الرسول ﷺ، فجاء فيمن معه من المهاجرين، فقال ﷺ: «يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله إلى الإسلام؟» فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد لهم من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا واستغفروا، وعانق الرجال بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ مطيعين، قد أطفأ الله عدو الله شماس فنزلت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿لعلكم تهتدون﴾^(١) قال جابر: ما رأيت

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٩٧/١ وصفوة التفاسير ٢١٧/١ .

يوماً أفتح أولاً، وأحسن آخراً من ذلك اليوم، والمراد من الفريق، بعضٌ غير معين، وتعليق الرد بطاعة فريق منهم، للمبالغة في التحذير عن طاعتهم، وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية، وقوله تعالى: ﴿يُرْذُوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ فيه تثبيت المؤمنين وإظهار لشناعة الكفرة المجرمين.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ استفهام إنكاري وتعجيب من حالهم بعد أن اجتمع لهم من الأسباب الداعية إلى تثبيت الإيمان، الصارفة لهم عن الكفر ﴿وَأَنْتُمْ تُثَلِّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيده، ونبوة رسوله ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ ﷺ يعلمكم الكتاب، ويزكيكم، بتحقيق الحق وإزالة الشبهة، والمراد استبعاد أن يقع منهم الكفر، وعندهم من الدواعي ما يأباه ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ﴾ الاعتصام التمسك أي ومن يتمسك بدينه، أو يلتجئ إليه في جميع أموره، وأصل العصمة الامتناع من الوقوع في آفة، وفيه حث لهم في الالتجاء إلى الله في دفع شر الكفار ﴿فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أفاد الكلام تحقق الهدى، حتى كأنه حصل، والتنوين للتفخيم، والصراط المستقيم وإن كان هو الدين الحق، والاهتداء إليه هو الاعتصام به، لكن أبرز في معرض الجواب، للحث على الاستمسك به والترغيب فيه، أخرج الحكيم الترمذي عن الزهري قال: أوحى الله تعالى إلى داود، ما من عبد يعتصم بي من دون خلقي، وتكيد السموات والأرض، إلا جعلت له من ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق من دوني، إلا قطعت أسباب السماء بين يديه، وأسخت الأرض من تحت قدميه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ
أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِّنَ
النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كرر الخطاب بهذا العنوان تشريفاً لهم ﴿أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ يُقَالِهِ﴾ حق تقواه، وما يجب منها هو استفراغ الوسع في القيام بالواجب، والاجتناب عن المحارم، كقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه: هو أن يُطاع فلا يُعصى ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا ينسى، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا بِمَا نَسَلْتُمْ مَسْلُومُونَ﴾ أي مخلصون نفوسكم لله تعالى، أي لا تموتون على حال من الأحوال، إلّا حال تحقق إسلامكم، وثباتكم عليه، وذكر بعض المحققين، أن الإسلام هنا لا يُراد به الأعمال، بل الإيمان القلبي، لأن الأعمال حال الموت مما لا تكاد تتأدى، ولذا ورد في دعاء صلاة الجنازة «اللهم من أحييته ممّا فأحيه على الإسلام، ومن توفّيته ممّا فتوفه على الإيمان».

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ بدين الإسلام، أو بكتابه، روي ذلك بسند صحيح عن ابن مسعود، لحديث «كتابُ الله هو حبلُ الله الممدودُ، من السماء إلى الأرض»^(١) استعار له الحبل، من حيث إن التمسك به، سبب النجاة من الردى، كما أن التمسك بالحبل، سببٌ للسلامة عن التردى في الهلاك ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين عليها ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ولا تفرقوا عن الحق، بوقوع الاختلاف بينكم كما كنتم في الجاهلية ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام، المؤدي إلى التآلف، وزوال الشقاق والخلاف ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ أي في الجاهلية ﴿فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلام، وقيل: أراد سبحانه ما كان بين الأوس والخزرج، التي تناولت العداوة بينهما مائة وعشرين سنة ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة في الله ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي وكنتم على

(١) هذا طرف من حديث مشهور أخرجه مسلم في فضائل الصحابة رقم ٢٤٠٩ والترمذي في المناقب.

طرف حفرة من جهنم، إذ لم يكن بينكم وبينها إلا الموت، والشفاء: هو الطرف في اللغة، أي وكنتم مشرفين على أن تقعوا في نار جهنم لكفركم ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بأن هداكم للإسلام، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان البليغ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ القرآن الكريم فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إرادة ثباتكم على الهدى، وازديادكم فيه.

وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١١٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِمَا رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٣﴾

﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أمرهم سبحانه بتكميل الغير، بعدما أمرهم بتكميل النفس، ليكونوا هادين ومهدين، على ضد أعدائهم، الذين هم ضالون مضلون ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أي إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما استحسنته الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عما استقبضه الشرع والعقل، وقد اتفق العلماء على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من فروض الكفايات، وقد سئل ﷺ من خير الناس؟ قال: «أمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله تعالى، وأوصلهم للرحم»^(١) وقوله: ﴿منكم﴾ للتبويض، لأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، من عظام الأمور، التي لا يتولاها إلا العلماء بأحكامه

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ١٦/٣.

تعالى، ومراتب الاحتساب، وكيفية إقامتها، فإنَّ من لا يعلمها، يوشك أن يأمر بمنكر، وينهى عن معروف، ويُغلظ في مقام اللين، ويلين في مقام الغلظة، وقيل: «مِنْ» بيانية، فالمعنى: كونوا أمة يدعون إلى الخير كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ الآية. ولا يقتضي ذلك كون الدعوة فرض عين، لأنَّ الجهاد فرض كفاية بالإجماع، مع ثبوته بالخطابات العامة، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً - هو ما ليس فيه رضا الله، من قول أو فعل، والمعروف ضده - فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه - معناه فليكرهه بقلبه - وذلك أضعف الإيمان»^(١) أي أضعف ثمرات الإيمان. وقيل على الأمراء باليد، وعلى العلماء باللسان، وعلى العوام بالقلب ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل محبوب، وفي الحديث «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَمِ»^(٢) بفتحيتين يُطلق على جماعة الإبل يعني ثوابه أكثر من ثواب صدقات الإبل النفيسة.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ بالعداوة ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في الديانة، بالتأويلات الزائغة، وكنتم آيات الله الناطقة بالرسالة، وتحريفها بحطام الدنيا الدنيئة، كاليهود والنصارى، حيث تفرقوا فرقا كثيرة، وكفر بعضهم بعضاً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي الآيات والحجج المبينة للحق، الموجبة لاتحاد الكلمة، والأظهر أن النهي فيه مخصوص بالتفرق في الأصول، أصول العقيدة، وأما في الفروع فهو رحمة لما روي «اختلاف أمتي رحمة» رواه البزار، وعزاه الزركشي في الأحاديث المشتهرة إلى كتاب الحجة، والحق أن المراد منه اختلاف الصحابة، ومن شاركهم في الاجتهاد، كالمجتهدين المعتدِّ بهم من علماء الدين، الذين ليسوا بمبتدعين ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ عَظِيمٍ﴾ وعيد شديد للذين تفرقوا، وفي الحديث الشريف:

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان رقم ٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب قتال الخوارج رقم ٤٧٥٨.

«مَنْ فارق الجماعة شبراً، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»^(١).

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ بياض الوجه وسواده، كنياتان عن ظهور بهجة السرور، وكآبة الخوف فيه، وقيل: يوسم أهل الحق، ببياض الوجه والصحيفة، وإشراق البشرة، وسعي النور بين يديه، وأهل الباطل بأضداد ذلك ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ ابتداء بحال الفريق الثاني، لِمَا أَنَّ المقام مقام التحذير، فيقال لهم: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ الهمزة للتوبيخ والمراد بهم جميع الكفار من أهل النار، وقال الحسن: إنهم المنافقون، وقيل: إنهم أهل البدع والأهواء ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الشديد الموصوف بالعظيم، والأمر للإهانة ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم وصيغة المستقبل للدلالة على استمرار كفرهم، روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يرد عليّ يوم القيامة رهطٌ من أمتي، فيجلّون عن الحوض - أي يتردون - فأقول: يا رب أصحابي!! فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم»^(٢).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي في الجنة، عبّر عن ذلك بالجنة، تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى، لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله، كما ورد في الحديث الشريف «لن يدخل أحدكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله!! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(٣). ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يظعنون عنها ولا يموتون.

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، البخاري في الفتن ٥/١٣ بلفظ: «من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتة جاهلية» ومسلم رقم ١٨٤٩ في الإمارة بنحوه.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٤١٣/١١ ومسلم في الطهارة رقم ٢٤٧ وفي رواية في الصحيحين بعده: فأقول «سُخْفًا سُخْفًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي» انظر جامع الأصول ٤٦٩/١٠.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٢٥٢/١١ ومسلم رقم ٢٨١٦ في المنافقين.

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ الواردة في الوعد والوعيد ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ شيئاً فشيئاً وإسناد التلاوة إليه تعالى مما لا يخفى من العناية بالتلاوة والتمتو عليه ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ إذ يستحيل الظلم منه، لأنه لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله، لأنه المالك على الإطلاق وفيه تعريض بأن الكافرين هم الظالمون، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ونفي الشيء لا يقتضي إمكانه، فقد يُنْفَى المستحيل، كما في قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾.

﴿ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ التعبير بما للتغليب، أي له ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي أمورهم، فيجازي كلًّا بعمله.

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١١١) لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ (١١٢) ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (١١٣).

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ كان ههنا تامة بمعنى الوقوع والحدوث، والمعنى: خلقتكم خير أمة، وهذا قول جمع من المفسرين، وإن كانت ناقصة فالمعنى: كنتم في علم الله، أو صرتم خير أمة ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ أي أظهرت لهم، والخطابُ قيل لأصحاب النبي خاصة، وقيل: إنه عام وهو الصحيح ويؤيده ما أخرجه الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «أعطيْتُ ما لم يُعط أحد من الأنبياء، نصرتُ بالرعب، وأعطيْتُ مفاتيح الأرض، وسميت بأحمد، وجُعِل الترابُ لي طهوراً، وجُعِلت أمتي خيرَ الأمم»^(١) وقال عمر رضي الله عنه «يا أيها الناسُ من سرّه أن يكون من تلك الأمة، فليؤدّ الشرط» وأشار بذلك، إلى قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو كلام مستأنف، مبين لكونهم خير أمة، وقوله تعالى: ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي عن الكفر، وكل محظور ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وتدومون على الإيمان به تعالى، وهو يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به، فلو أخلّ بشيء منه لم يكن مؤمناً، وإنما آخر الإيمان مع تقدمه وجوداً ورتبةً للاهتمام به، لأنه من وظيفة الأنبياء ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ إيماناً صادقاً كما ينبغي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ مما هم فيه من الكفر، وليس ﴿خيراً﴾ هنا أفعل تفضيل، بل هو لبيان أن الإيمان فاضل، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ؟﴾ ﴿مَنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قيل: الكافر قد يكون عدلاً في دينه، وهؤلاء مع كفرهم فاسقون متمردون، خارجون عن طاعة الله.

﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ أي ضرراً يسيراً، كطعن وتهديد أي لن يضرّوكم ضرراً ما إلا أذى باللسان أو الطعن ﴿وَأَن يُفْتَلُوْكُمْ يُؤَلُّوْكُمْ الْأَذْبَارُ﴾ أي ينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشيء، وتولية الأدبار كناية عن انهزامهم ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ أي لا أحد ينصرهم عليكم، أو يدفع بأسكم عنهم، وفي هذه الآية، دلالة واضحة على نبوة نبينا ﷺ، لكونها من الإخبار بالغيب، الذي وافقه الواقع، لأن يهود بني قينقاع، وبني قريظة، حاربوا المسلمين ولم يثبتوا، ولم ينالوا شيئاً منهم، ولم يتحقق لهم بعد ذلك راية.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٦٤ وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: «خير الناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام» يريد تنقلدوهم من النار.

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ ﴾ أُلْزِمَتْ عَلَى الْيَهُودِ الذَّلَّةُ، وَقَدْ أَذْلَهُمُ اللَّهُ ﴿ أَيْنَ مَا تُقِفُوا ﴾ حَيْثَمَا وَجَدُوا وَصُودِفُوا ﴿ إِلَّا يَجْعَلِ مِنَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ بَدِينِ الْإِسْلَامِ ﴿ وَجَعَلَ مِنَ النَّاسِ ﴾ أَيُّ بَعْدِ الذِّمَّةِ ﴿ وَيَأْؤُوهُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ رَجَعُوا بِهِ مُسْتَوْجِبِينَ لِلْغَضَبِ ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾ فَهِيَ مُحِيطَةٌ بِهِمْ، إِحَاطَةُ الْبَيْتِ الْمَضْرُوبِ عَلَى أَهْلِهِ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أَيُّ ظُلْمًا وَطُغْيَانًا، وَالتَّقْيِيدُ ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَقًّا بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِمْ أَيْضًا ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ حُدُودَ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٦﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُسْرِعُوا فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٧﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٩﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢٠﴾ ۝

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ الضَّمِيرُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ جَمِيعًا، سَيِّئَتْ لَتَعْدَادٍ مُحَاسِنٍ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ مُسْتَقِيمَةٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، ثَابِتَةٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَالْقَائِمَةُ: الْمُسْتَقِيمَةُ الْعَادِلَةُ، مِنْ أَقَمْتُ الْعَوْدَ فَقَامَ بِمَعْنَى اسْتِقَامٍ ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ الْقُرْآنَ ﴿ آَنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ أَيُّ سَاعَاتِهِ، وَاحِدَتُهُ إِنِّي بَوَزَنَ مَعَى ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ أَيُّ يَصَلُّونَ، عَبَّرَ عَنْ تَهَجُّدِهِمْ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، لِأَنَّ التِّلَاوَةَ أَهَمُّ الْأَرْكَانِ فِي صَلَاةِ الْقِيَامِ، حَيْثُ تَطَوَّلَ الصَّلَاةُ لَطَوَّلَ

القراءة، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي في حال صلاتهم وقيامهم وسجودهم.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ صفة أخرى للأمة أي يؤمنون بها على الوجه الذي نطق به الشرع ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ تحقيقاً لمخالفتهم لليهود، لأنهم مع ضلالهم، يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويصدون الناس عن سبيل الله ﴿وَيُسْرِضُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ صفة أخرى جامعة لفنون المحاسن، وأحسن المسارعة المبادرة بالرغبة والاختيار، لأن من رغب في الأمر سارع فيه، وصيغة المفاعلة للمبالغة، ولم يعبر عنها بالعجلة، لأن العجلة التقدم فيما لا ينبغي، وهي مذمومة، والمسارعة مقبولة، وضد العجلة الأناة، وضد المسارعة الإبطاء، وهو مذموم، لقواه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْغِضَنَّ﴾.

وصفهم الله بخصائص، ما كانت في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق، غير متعبدين في الليل، مشركون بالله، ملحدون في صفاته، مDAHون في الاحتساب، متباطئون في الخيرات ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بالأوصاف الجميلة ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من عداد الذين صلحت عند الله حالهم، وهذا رد لقول اليهود: ما آمن به إلا شرارنا.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ كائناً ما كان ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوا﴾ فلن يحرموا جزاء البتة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ بشارة لهم، وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير، وحسن العمل، وأن الفائز عند الله هو «أهل التقوى».

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد به عموم الكفار، لأنهم كانوا يتعززون بكثرة الأموال والأولاد حيث قالوا ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً﴾ وكانوا يعتبرون الرسول ﷺ وأتباعه بالفقر ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من عذاب الله ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً، والمراد من الإغناء الدفع، وإنما خصص الأموال والأولاد بالذكر، لأن الإنسان يدفع العذاب عن نفسه تارة بالفداء

بالمال، وتارة بالاستعانة بالأولاد ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾
دائمون مخلدون في عذاب جهنم.

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ﴾ ما ينفق الكفرة مفاخرة وسُمتعة، ورياء وعُجباً،
بقصد الشناء، والإشارة للتحقير ﴿فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي في هذه الدنيا
الزائلة ﴿كَمَثَلِ رَيْحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي برد شديد ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ﴾ زرع ﴿قَوِّمَ﴾
ظلموا أنفسهم ﴿بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي﴾ ﴿فَأَهْلَكْتَهُ﴾ عقوبة على كفرهم،
والمراد من التشبيه، الإشارة إلى عدم الفائدة، في الدنيا والآخرة، لأنه إن
كان إنفاقهم في عداوة الإسلام، لم ينتفعوا بها، لأنه انقلب الأمر عليهم،
وإن كان لمنافع الآخرة، فإن الكفر مانع من الانتفاع بها، فثبت أن جميع
نفقات الكفار وصدقاتهم، لا فائدة لهم بها في الدارين ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾
الله عز وجل والضمير للمنفقين أي ما ظلمهم بضياغ نفقاتهم، وإهلاك
الحَرْث ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكنهم ظلموا أنفسهم، بارتكاب ما
استحقوا به العقوبة الشديدة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ
بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٧﴾ هَٰئِنتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ
وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ
الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٨﴾ إِن
تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسَؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا
وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كان رجال من المسلمين، يواصلون رجالاً من
اليهود، لما كان بينهم من الجوار، والقراية، والصدقة، والحلف في
الجاهلية، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية، وقال مجاهد: نزلت في قوم

من المؤمنين، كانوا يوالون رجالاً من المنافقين، فنهوا عن ذلك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ الخ وهي صفة المنافقين ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً﴾ وليجة، وهو الذي يُعرِّفه الرجل أحواله، ويُطلعه على أسرارِهِ، ثقةً به، مأخوذ من بطانة الثوب، لأنه يلي البدن^(١) ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ أي كائنة من غير المسلمين، ﴿لَا يَأْتُونَكُمْ خَبَآلًا﴾ أي لا يقصِّرون لكم في الفساد، وأصل الخبال: الفساد الذي يلحق الإنسان، فيورثه اضطراباً كالمرض والجنون، ويُستعمل في الشر والفساد مطلقاً، فالمعنى: أنهم يفعلون معكم ما يقدرون عليه من الفساد ﴿وَدُّوْا مَا عَنِتُّمْ﴾ تمنُّوا عنَّتكم، وهو شدة الضرر والمشقة أي تمنوا شدة ضرركم، في دينكم ودنياكم، لفرط بغضهم لكم ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾ البغضاء أشد البغض، كالضَّرِّ مع الضراء ﴿مِنْ أَقْوَاهِمُ﴾ أي ظهرت أمارات البغض والعداوة من فلتات ألسنتهم، لأنهم لشدة بغضهم لكم، لا يقدرون أن يحفظوا ألسنتهم ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي وما يبطنونه من البغض لكم، أكبر مما يظهرونه ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالة المؤمنين، ومعاداة الكافرين والمنافقين، أو قد أظهرنا لكم الآيات الدالة التي يتميز بها الولي من العدو ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ مابِّين لكم، أي إن كنتم عقلاء، فلا تتخذوهم أولياء.

﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ﴾ أي أنتم أولاء خاطئون في موالة اليهود والمنافقين ﴿مُحِبُّوهُمْ﴾ بسبب ما بينكم وبينهم من القرابة أو الصداقة ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بسبب كونكم مسلمين ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله، وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم، وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم، أصلب منكم في حقكم ﴿وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقاً وتغريراً

(١) البطانة يراد بها خواصُّ الرجل، وأصدقائه الذين يوح لهم بسرّه، مأخوذ من بطانة الثوب، تشبيهاً لذلك الصاحب والصديق بالبطانة التي تكون داخل الثوب، وهي استعارة لطيفة.

﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَنْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْفَيْظِ ﴾ تحسراً وتأسفاً، حيث لم يجدوا إلى الشففي سبيلاً^(١) ﴿ قُلْ مَوْتُوْا بِغَيْظِكُمْ ﴾ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم، حتى يهلكوا به، والمراد به ما يغيبهم من قوة الإسلام وعزّ أهله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي يعلم ما في قلوبهم من البغضاء والحسد، والمراد ﴿ بذات الصدور ﴾: الخواطر القائمة بالقلب.

﴿ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً ﴾ بيان لتناهي عداوتهم إلى حدّ الحسد، أي ما ينالكم من خير وظفر، ومنفعة ورخاء ﴿ تَسُوْهُمُ ﴾ أي يحزنهم ويغيبهم ذلك ﴿ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ من شدة وجذب، وبلاء وهزيمة ﴿ يَفْرَحُوا ﴾ يتتهجوا ويشمتوا ﴿ بِهَا ﴾ بإصابتها، فهم لا ترجى موالاتهم أصلاً، فكيف تتخذونهم بطانة؟ ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا ﴾ على عداوتهم وعلى مشاق التكاليف ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ الله فتكفوا عن موالاتهم، وسائر ما حرّم الله تعالى عليكم ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ ﴾ مكرهم وحيلتهم التي دبروها لأجلكم ﴿ شَيْئاً ﴾ أي شيئاً من الضرر، وهذا تعليم من الله تعالى، وإرشاد إلى أن يُستعان على كيد العدو، بالصبر والتقوى، يقال: كادَهُ كيداً، خدعه ومكر به، وهو أن يحتال الإنسان ليقع غيره في مكروه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ من الصبر والتقوى ﴿ يُحِيطُ ﴾ علماً فيجازيكم بما أنتم أهله، ويجازيهم على نفاقهم وإجرامهم.

﴿ وَإِذَا عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمَ أَذَلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

(١) عضّ الأنامل عادة العاجز النادم، الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً، أمام ما عرض له من مصاعب ومتاعب، فيعض على أصابعه تحسراً وأسى، وهذا من مجاز الأمثال.

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ﴾ أي اذكر للمؤمنين وقت غدوك، ليتذكروا ما وقع فيه، من عدم الصبر والتقوى، فيعلموا أنهم إن لزموا الصبر والتقوى، لا يضرهم كيد الكفرة، والمراد به خروجه ﷺ إلى أحد، وكان ذلك من منزل عائشة رضي الله عنها ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي من عند أهلك ﴿تَبَوَّءُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تنزلهم وتهيئ لهم ﴿مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ مواقف وأماكن للقتال ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم، وعليم بنياتكم، وفيه إيذان بأنه قد صدر عنهم من الأقوال والأفعال، ما لا ينبغي صدورهم.

روي أنه اجتمع كفار قريش لحرب رسول الله ﷺ، ومن تابعهم من بني كنانة، وأهل تهامة، بقيادة أبي سفيان، فلما سمع ﷺ خروجهم استشار أصحابه، فقال أكثر الأنصار يا رسول الله اخرج بنا إليهم، لئلا يعيروننا أنا جُبُنَّا عنهم، فلم يزل الناس به حتى دخل ولبس لأمتة - لباس الحرب - فخرج بألف، فلما قاربوا عسكر الكفرة، انخذه «عبد الله» بن أبي بثلث الناس ومضى ﷺ حتى نزل الشُعْب من أحد، فجعل ظهر عسكره إلى أحد، وتعباً للقتال، وأمر على الرماة «عبد الله بن جبير» وكانوا خمسين رجلاً، وقال لهم: ادفعوا عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، وتعبات قريش وهم ثلاثة آلاف، ووقع القتال، فأعانهم الله تعالى حتى هزموا الكفار، فلما رأى الرماة انهزام الكفار طمعوا وخالفوا أمر رسول الله ﷺ، وتركوا مواقعهم، فنزع الله الرعب من قلوب المشركين، فكروا عليهم وكان ما كان.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، همؤا بعد انخزال ابن سلول بالرجوع، فعصمهم الله تعالى، فمضوا مع رسول الله ﷺ، والظاهر أنه ما كانت عزيمة، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي عاصمهما عن اتباع تلك الخطرة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على أحد غيره.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ تذكير ببعض ما أفادهم التوكل، وبدّر ماء

بين مكة والمدينة، كان لرجل يسمى بدرأ فسمي به، وكانت وقعة بدر في يوم الجمعة، في السابع عشر من رمضان، في الثانية من الهجرة ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ المراد بالذلة هو ضعف الحال، بقلة العدد، والعدد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات مع رسول الله ﷺ، والصبر على طاعاته، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون ربكم على ما أنعم الله به عليكم من النصر.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ .

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لنصركم، أي إذ نصركم في وقت قولك ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حين أظهروا العجز عن المقاتلة، قال الشعبي: بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر الحنفي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المؤمنين فنزل حينئذ ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ إنكار أن لا يكفيهم ذلك، إشعاراً بأنهم كانوا كاليائسين من النصر، لضعفهم وقتلهم، وقوة العدو وكثرتهم ﴿أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ﴾ وفي التعبير بعنوان الربوبية لإظهار العناية بهم، والإشعار بعله الإمداد ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ للنصرة.

﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعدها أي بلى يكفيكم، ثم وعد لهم الزيادة على الصبر والتقوى، حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم، فقال: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي إن تصبروا على القتال، وما أمرتم به، وتتقوا ربكم في ما حذركم منه من مخالفة رسوله ﷺ ﴿وَيَأْتُوكُمْ﴾ المشركون ﴿مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ أي من

ساعتهم هذه، وهو في الأصل مصدر فارت القدر، إذا غلّت، ومنه: «إن شدة الحر من فور جهنم» يطلق على الغضب، ثم إنه استعير للسرعة، ووُصف بهذا إيداناً بتحقيق سرعة الإمداد ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ في حال إتيانهم ولا يتأخرون عن إتيانهم ﴿بِخَمْسَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ من التسويم وهو إظهار علامة الشيء، والمراد معلمين أنفسهم أو خيلهم، عن ابن عباس قال: كانت سيماء الملائكة يوم بدر، عمائم بيض، قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمراء، واختلف المفسرون في إمدادهم فقال ابن جرير: وعدهم بثلاثة آلاف، ثم وعدهم بخمسة آلاف في غزوة أحد، ولكن لم يقع ذلك، لعدم وقوع الشرط بالأمور الثلاثة: وهي الصبر، والتقوى، وإتيان أصحاب الكفر، وقد ثبت بالنص أنهم أمّدوا يوم بدر بألف، كما في سورة الأنفال، وأما يوم «أحد» فاللدالة على أنهم لم يمدوا، لأنهم لو أمّدوا لم ينهزموا، وإنما قدّم لهم الوعد بنزول الملائكة، لتقوية قلوبهم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي الإمداد لبيان أن الأسباب الظاهرة، بمعزلٍ من التأثير، وأن حقيقة النصر مختص به عزّ وجل، ليثق به المؤمنون، ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه ﴿إِلَّا بُشِّرْ لَكُمْ﴾ أي ما جعل الله إمدادكم لشيء من الأشياء، إلا للبشرى لكم، بأنكم تنصرون ﴿وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ﴾ أي بالإمداد، وفي الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا يومئذ القتال، وإنما كان إمدادهم بتقوية قلوب المؤمنين، ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ أي حقيقة النصر على الإطلاق ﴿إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ بتمكين الله تعالى لهم من رقاب الأعداء، على أن مجرد القتال، لا يستدعي النصر، بل لا بد من انضمام ضعف المقاتلين وأمور أخرى، وما النصر المعهود إلا من عنده تعالى، لا من عند الملائكة ولا غيرهم ﴿الْمُزَيَّنِّ﴾ الغالب الذي لا يُغالب فيما قضى به ﴿الْحَكِيمِ﴾ الذي يفعل على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نصركم الله ببدر﴾،

والمعنى لقد نصركم الله يومئذ ليقطع أي يهلك وينقص ﴿طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي طائفة منهم، بقتل وأسر، وقد وقع ذلك حيث قتل من رؤسائهم سبعون، وأسر سبعون ﴿أَوْ يَكْتُمُهُمُ﴾ أي يخزيهم والكتب: شدة الغيظ، أو وهن يقع في القلب، وقيل: الكتب الإصابة بمكروه ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ غير فائزين، والخيبة الحرمان بعد الأمل، واليأس يكون قبله وبعده، ونقيض الخيبة الظفر، ونقيض اليأس الرجاء.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ لَمَّا شُجَّ وجهُ الرسول ﷺ كان يقول: كيف يفلح قوم صنعوا هذا بنبيهم؟ فأنزل الله هذه الآية^(١)، وعن ابن عمر قال: قال ﷺ يوم أحد: «اللهم العن أبا سفيان، والعن الحارث بن هشام»، فنزلت هذه الآية والمعنى: ليس لك من أمر هؤلاء شيء، يعني لا تقدر أن تجبرهم على الإيمان، ولا على التوبة، ولا تمنعهم عنها، ولا تقدر أن تعذبهم، فإن الأمور كلها بيد الله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عطف على قوله: ﴿أَوْ يَكْتُمُهُمُ﴾ والمعنى: إن الله مالك أمرهم، فلما أن يهلكهم، أو يكتبهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا، وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد بأمور بإنذارهم وجهادهم ﴿فَلَا تُهَمُّ ظَالِمُوكَ﴾ أي جزاء لظلمهم قد استحقوا التعذيب.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً، فله الأمر كله لا مدخل لأحد في ذلك، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ مشيئة مبنية على الحكم، والمصالح ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أن يعذبه عدلاً منه، وتقديم المغفرة للإيذان بسبق رحمته تعالى على غضبه ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ

(١) هذه الآية في قصة أحد، وقد وردت اعتراضاً في ثنايا الحديث عن غزوة بدر، وذلك لما كُسرَت ربابيته ﷺ، وشُجَّ وجهه الشريف، قال صلوات الله عليه: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾ الآية، وانظر صفوة التفاسير.

رَحِيمٌ ﴿ لعباده المتقين، وتخصيصه بالذكر ﴿غفور رحيم﴾ إشارة إلى ترجيح جهة الإحسان، نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ويرحمنا.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٢٣﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٢٤﴾ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٥﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالضَّيْفِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٧﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خاطبهم بوصف الإيمان، لأنهم أهل للاستفادة من الخطاب، وتذكيراً لهم بما هو أصلح وأنفع في أمر الدنيا والدين ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ المراد من الأكل الأخذ ﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ ضعف الشيء: مثله، وليست هذه الحال لتقييد المنهي عنه، بل لمرعاة الواقع، فقد روي أنه كان الرجل يُربي إلى أجل، فإذا حلَّ قال للمديون: زدني في المال، حتى أزيدك بالأجل، فيفعل عند كل أجل هكذا، فيستغرق الشيء الطفيف ماله بالكلية، فنهوا عن ذلك ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهيتهم عنه من الربا ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين للفلاح، واقتران الرجا بالتقوى، يفيدان أن يكون العبد بين الخوف والرجا، فهما جناحان يطير العبد بهما إلى منازل القدس، ومعارج الفضل والكمال.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي احترزوا من أكل الربا ونحوه، من المعاصي

المفضية إلى دخول النار ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ﴾ هُتِيت ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ وهي غير النار التي يدخلها عصاة المؤمنين، وفيها إشارة إلى أن أكلة الربا على شفا حفرة الكفر وفيها تنبيه على أن النار بالذات معدة للكفار، وبالعرض للعصاة، وقال أبو حنيفة رحمه الله: هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين، بالنار المعدة للكافرين.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أطيعوا أمرهما راجين لرحمة الله تعالى في جميع أحوالكم، وإيراد لعل في الآيتين للإشعار بعزة منال الفلاح والرحمة.

﴿وَسَارِعُوا﴾ بادروا وأقبلوا عطف على أطيعوا ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى ما يستحق به المغفرة، كالإسلام، والتوبة، والإخلاص، وقيل: إلى الهجرة، والجهاد، والظاهر العموم لأن اللفظ عام ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي عرضها كعرضهما، وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة، والعرب كثيراً ما تصف الشيء بالعرض، إذا أرادوا المبالغة، فليس المقصود تحديد عرضها بل هو كناية عن السعة، بما هو واردٌ على تصور السامعين ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هيئت لهم، وإنما أضيفت إليهم، لأنهم المقصودون بالذات.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ صفة مادحة للمتقين، ومفعول ﴿يُنْفِقُونَ﴾ محذوف، ليتناول كل ما يصلح للإنفاق ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ في حالتي الرخاء والشدة، أي في جميع الأحوال، إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة، والمعنى: لا يخلون عن إنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير، وفي الحديث الشريف: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»، وافتتح بذكر الإنفاق، لأنه أشق شيء على النفس، وأدله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال، للحاجة إليه في مجاهدة العدو، ومواساة المسلمين ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ الممسكين عليه، الكافرين عن إمضائه مع القدرة

والغيظ: هيجان الطبع عند رؤية ما يكرهه أو ينكره^(١) ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل الجنس، ويدخل تحته هؤلاء، أو العهد فتكون للكاظمين للغيظ، والإحسان إما أن يكون بإيصال النفع إليه، أو بدفع الضر عنه، فالأول هو المراد بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ينفقون﴾ ويدخل فيه إنفاق العلم، والمال، وأما دفع الضرر فهو إما في الدنيا فهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فصارت هذه الآية من هذا الوجه، دالة على جميع جهات الإحسان، ولما كانت هذه الخصال إحساناً ومن فعلها فهو محسن، ذكر الله تعالى ثوابه بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهو أعظم درجات الثواب.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ فعلت بالغة في القبح، كالزنى، والقتل، والتعري عن الثياب ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن أتوا ذنباً أي ذنب كان، وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ تذكروا وعيده وحقه العظيم ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ بالتوبة والندم، وإلا فطلب المغفرة مع الإصرار كالاستهزاء، قالت رابعة العدوية: استغفارنا هذا يحتاج إلى الاستغفار ﴿وَمَنْ يَقْفُرْ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهَ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا يغفر الذنوب إلا رب العزة والجلال، والمراد وصفه تعالى بسعة الرحمة، والحث على الاستغفار، والوعد بقبول التوبة، والإشعار بأن الذنوب وإن جلّت، فإن عفوه تعالى أجلّ أي هل تعرفون أحداً يقدر على غفر الذنوب، غير من وسعت رحمته كلّ شيء ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ ولم يقيموا على

(١) روى البيهقي أن جارية لعلي بن الحسين - من آل البيت - جعلت تسكب عليه الماء ليتهاى للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجّه، فرفع رأسه إليها وهو مغضب، فقالت: إن الله تعالى يقول: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ فقال لها: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ قال: قد عفوت عنك، قالت: ﴿والله يحب المحسنين﴾ قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى.

ذنوبهم غير مستغفرين والإصرار: المداومة في المعصية، ولا يقال في الخير أصر أي ولم يصروا على ما فعلوه من الذنوب^(١) ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون قبح فعلهم، والوعيد عليه، والتقيد بذلك، لما أنه قد يُعذر من لا يعلم الأمر، إذا لم يكن عن تقصير في تحصيله.

﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون بالصفات الحميدة ﴿جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي ستر لذنوبهم كائنة من جهته تعالى لتوبتهم ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ عرضها السماوات والأرض ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ المغفرة، والجنات، والتعبير ههنا بالأجر، مشعر بأنه مستحق بمقابلة العمل، لمزيد الرغبة في الطاعة، والزجر عن المعاصي، وفي هذه الآيات دلالة على أن المؤمنين ثلاث طبقات: «المتقين، التائبين، والمصرين» والمغفرة تكون للصنفين الأولين دون المصرين.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ تَذَكُّرٌ لِّالنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَخِّصَ اللَّهُ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ .

(١) في الحديث الشريف: «ما من عبد مؤمن يذنب ذنباً، فيقوم ويتطهر، ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ...﴾ الآية أخرجه أبو داود والترمذي.

﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ مضت رجوع إلى تفصيل بقية القصة ﴿ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أي وقائع سنّها الله في الأمم المكذبة، ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بأقدامكم، والخطاب للمؤمنين ﴿ فَأَنْظُرُوا ﴾ تأملوا ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي آخر أمرهم، الذي أدى إليه تكذيبهم لأنبيائهم، واعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم، فالعاقلة من اعتبر بغيره.

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي هذا إيضاح لسوء عاقبة المكذبين، يهتدي ويتعظ به المتقون، والمراد أنه هدى وبيان لجميع الناس، لكن المتعظ به المتقون، لأنهم يهتدون به.

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ تشجيع للمؤمنين، وتقوية لقلوبهم، وتسليّة عما أصابهم يوم أحد من القتل، والجراحات والوهن: الضعف أي ولا تضعفوا عن الجهاد في سبيل الله عما نالكم، ولا تحزنوا على من قتل ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أي والحال أنكم الأعلون الغالبون فإنكم على الحق، وقتالكم الله سبحانه، وقتلاككم في الجنة، وإنهم على الباطل، وقتالهم للشيطان، وقتلاهم في النار، وهو تصريح بالوعد والغلبة، وحكى القرطبي أنهم لم يخرجوا بعد ذلك للغزو، إلا أظفروا في كل غزوة في عهده ﷺ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالنهي، أي لا تهنوا إن رسخ إيمانكم، وإن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون.

﴿ إِنْ يَمْسِكُكُمْ قَرْحٌ ﴾ القَرْح: بالفتح والضم الجراح ﴿ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهَا ﴾ يوم بدر ويوم أحد، فإن المسلمين نالوا منهم، وانتصروا عليهم، قبل أن يخالفوا أمر الرسول ﷺ ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا ﴾ نصرفها ﴿ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ والأيام يراد بها الأوقات، لا الأيام العرفية، وهي أيام الظفر الجارية فيما بين الأمم، والمداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر، ومن كلامهم: «الأيام دُول»، أي تنقل من أمة إلى أمة والمعنى: لا يدوم مسارّها، ولا مضارّها، فيوم علينا، ويوم لنا، وفيه تسليّة للمؤمنين ﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ عطف على علة محذوفة، كأنه قيل: نداولها

بين الناس، لتكون حِكْماً وفوائد، وليعلم، والكلام من باب التمثيل، أي يعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين، الثابتين على الإيمان من غيرهم، والعلم فيه مجاز عن التمييز، أي ليميز الثابتين على الإيمان من غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ جمع شهيد أي يكرم أناساً منكم بالشهادة، وهم شهداء أحد، روي عن عكرمة أنه قال: لَمَّا أَبْطَأَ عَلَى النِّسَاءِ الْخَبْرُ، خَرَجْنَ يَسْتَخْبِرْنَ، فإذا رجلاً مقتولان على دابة، فقالت امرأة من الأنصار: من هذان؟ قالوا: زوجك وابنك!! فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، ثم قالت يتخذ الله من عباده شهداء، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي الكافرين، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة، وإنما يغلبهم أحياناً استدراجاً لهم، وابتلاءً للمؤمنين، ولو كان النصر دائماً للمؤمنين، لكان الناس يدخلون في الإيمان، لأنهم يعرفون أنه الحق وقيل: المراد بالظالمين المنافقين، كابن أبي ابن سلول، ومن تبعه، الذين فارقوا جيش الإسلام، ورجعوا ولم يقاتلوا.

﴿وَلِيَمِخَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليظهرهم ويصفيهم من الذنوب، إن كانت الدولة عليهم، وأصل التمحيص: تخليص من كل عيب، يقال: محصت الذهب إذا أزلت خبثه ﴿وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم، ومعنى الآية: إن قتلكم الكافرون فهو شهادة، وتطهير لكم، وإن قتلتموهم أنتم، فهو استئصال لهم وشفاء لصدوركم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بل أحسبتم، ومعناه الإنكار، والخطاب للذين انهزموا يوم أحد ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي والحال أنه لم يتبين المجاهدون منكم في سبيل الله، والصابرون على ما ينالهم في ذات الله؟ ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ الذين يتحملون أقسى الشدائد نصرة لدين الله، والمراد من الآية أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر، أي الجمع بينهما.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ خطاب لطائفة من المؤمنين، لم يشهدوا غزوة بدر، فالمراد بالموت، الموت في سبيل الله، وهي الشهادة، ولا بأس بتمنيها، ولا يرد أنَّ في تمني الموت غلبة الكفار، لأن قصد المتمني الوصول إلى كرامة الشهداء لا غير، وكان المتمنون ألحوا على الرسول ﷺ في الخروج إلى غزوة أحد، ثم ظهر خلاف ذلك منهم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدَّته ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ أي فقد رأيتموه معانين له، حين قُتل من قُتل من إخوانكم، وهو عتاب في حق من انهزم، وتوبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب، وتسببوا لها، ثم جئوا وانهزموا عنها.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٨) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأٌ مُوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٩) ﴿وَكَايْنٍ مَنِ نَجَّى قَتَلَ مَعَهُ رَيْثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٠) ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَفِيَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٥١) ﴿فَعَالَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٥٢).

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ محمد اسم علم لبنينا ﷺ سَمَّاهُ به جده عبد المطلب لرؤية رآها، قال: رجوت أن يحمد في السماء والأرض، وقد كان المشركون يسمونه «مذمماً» لأنه عاب دينهم، وحقر أصنامهم، وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول: ألم تروا كيف صرف الله

لعن قريش، وشتهمهم لي، يشتمون مذمماً وأنا محمد!! روي أنه لما رمى ابن قمئة رسول الله ﷺ بحجر، فكسر ربايعيته، وشجَّ وجهه، وذبح عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وقتله ابن قمئة، وهو يرى أنه قتل النبي ﷺ فقال عدوُّ الله: قد قُلتُ محمداً، وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قُتل، فجعل الرسول ﷺ يدعو المؤمنين: إليَّ يا عبادَ الله، فانهاز إليه ثلاثون من أصحابه، وحموه، حتى كشفوا عنه المشركين، وتفرق الباقيون وقال بعضهم ليت ابن أبيي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين: لو كان نبياً لما قُتل، فارجعوا إلى إخوانكم ودينكم، فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإنَّ رب محمد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله، فقاتلوا على ما قاتل عليه، ثم شدَّ بسيفه فقاتل حتى قتل، فنزلت الآية أي وما محمد إلا رسول، قد مضت من قبله الرسل، والرسل منهم من مات ومنهم من قتل، فعليكم أن تمسكوا بدينه، بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، لأن المقصود من بعثة الرسل، تبليغ الرسالة، لا وجوده بين أظهر قومه ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾؟ إنكار لارتدادهم عن الدين، بخلوه ﷺ بموتٍ أو قتل، وليس المراد ارتدادهم حقيقة، وإنما هو تغليظ عليهم، فيما كان منهم من الفرار، فما ارتد أحد يومئذ من المسلمين، إلا من كان من المنافقين ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ مجاز عن الارتداد، وهو في الأصل الرجوع القهقري ﴿فَلَنَ يَصْرَِّ اللَّهُ شَيْئاً﴾ من الضر، وإنما يضر نفسه، بتعريضها للسخط والعذاب ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ المراد بالشاكرين: الثابتين الطائعين.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي إلا بمشيئة الله تعالى والمعنى: إن لكل نفس أجلاً مسمى في علمه تعالى، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، بالإحجام عن القتال، أو الإقدام عليه، وفيه تحريض وتشجيع على القتال لإعلاء كلمة الله ﴿كِتَاباً﴾ أي كتب الله تعالى كتاباً ﴿مُوجَّلاً﴾ موقتاً بوقت معلوم، لا يتقدم ولا يتأخر، وظاهر الآية يؤيد

مذهب أهل السنة، القائلين بأن المقتول ميتٌ بأجله ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ تعريض لمن شغلته الغنائم يوم أحد، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم، وأخذوا يجمعون الغنائم، فلما رأى الرماة ذلك، أقبلوا على الغنائم وخلوا مكانهم، فانتهز المشركون ذلك، وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم، والمعنى: من أراد بعمله ثواب الدنيا، نُؤْتِه منها ما نشاء أن نُؤْتِه إياه، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ إعلاء كلمة الله ﴿نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ من ثوابها، حسبما جرى به الوعد الكريم، والآية وإن نزلت في الجهاد، لكنَّ حكمها أنها عامة في جميع الأعمال الحسنة ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ المراد إمَّا المجاهدون من الشهداء وغيرهم، وإمَّا جنس الشاكر، وهم داخلون فيها دخولاً أولياً، وتصدير الجملة بالسین وإبهام الجزاء، من التأكيد، والدلالة على فخامة الجزاء ما لا يخفى.

﴿وَكَأَيِّنْ﴾ كلام ناعٍ عليهم سوء صنيعهم، حيث لم يستثوا بسنن الربانيين، المجاهدين بنبيهم، مع أنهم أولى بذلك منهم، حيث كانوا خير أمة أخرجت للناس «كأين» فيها معنى التكثير بمعنى كم ﴿مَنْ لَّيَّ﴾ المراد من النبي هنا الرسول ﴿قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ﴾ أي كثير من الأنبياء، قاتل معه جموع كثيرة، والربيُّ المنسوب إلى الرب، أي قاتل معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، العلماء والعابدون أو أتباع كثيرة ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ الوهن: العجز والضعف أي فما عجزوا وما جبنوا، ولم تضعف همتهم ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ من القتل والجراح ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أثناء القتال، فإن كون ذلك في سبيله عز وجل، ممَّا يقوِّي قلوبهم، ويزيل وهنهم ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن الجهاد أمام الأعداء ﴿وَمَا اسْتَكَاثُوا﴾ أي ما خضعوا لعدوهم وأصله من السكون، لأن الخاضع يسكن لصاحبه، ليفعل به ما يريدہ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فينالهم الضرر ليعظم قدرهم، وهم الذين يصبرون على مقاساة الشدائد في سبيل الله.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾ أي قول المجاهدين الفعلية ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أي ما

كان قولهم عند الشدائد والآلام، إلا أن قالوا ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي صفائنا ﴿وَلِإِسْرَافِنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي تجاوزنا عن الكبائر أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم، مع كونهم ربانيين، هضماً لأنفسهم ﴿وَكَيْتَ أَقْدَامَنَا﴾ في مواطن الحرب، بتقوية قلوبنا أو وثبّت أقدامنا على دينك الحق ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي على الكفار، وقولهم هذا، كالتميم لبيان صلابتهم في الدين والمقصود من الآية الكريمة حكاية ما جرى لسائر الأنبياء وأتباعهم، لتفتدي هذه الأمة بهم، وفيه من التعريض بالمنهزمين، وكيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن.

﴿فَكَانَهُمُ اللَّهُ﴾ بسبب ثباتهم ودعائهم ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ النصر والغنيمة والعز والذكر الجميل ﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ أي وثواب الآخرة الحسن، وهو الجنة، والنعيم المخلد فيها ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي يحب أهل الفضل والإحسان.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمُ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١١٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٢٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٢١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبَعَكُمْ بَعْمًا يَغْمِرُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به، وقيل المراد بهم أهل الكتاب حيث كانوا يقولون: لو كان نبياً لما غلب، وإنما هو رجل حاله كحال غيره، يومٌ له ويومٌ عليه، ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي يرجعونكم إلى أول أمركم، وهو الشرك ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي غير فائزين بشيء من الدنيا والآخرة، وذلك أعظم الخسران.

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ إضراب عما يفهم من مضمون الشرطية، كأنه قيل: فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم، بل الله ناصركم ومولاكم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ فخصوه بالطاعة والاستعانة، لأنه القوي القادر الذي لا يُغلب، والناصر في الحقيقة لأوليائه وأحبابه المتقين.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ السين لتأكيد الإلقاء، والرعب: الخوف والفرع، والمراد من الموصول أبو سفيان وأصحابه من كفار قريش، وفي الحديث: «نصرتُ بالرعب مسيرة شهر»^(١) يعني نصرني الله بإلقاء الخوف في قلوب أعدائي، من مسيرة شهر بيني وبينهم، يريد ما قذف الله في قلوبهم من الخوف، يوم أحد، حتى تركوا القتال ﴿يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللهِ﴾ أي بسبب إشراكهم به تعالى فإنه من موجبات خذلانهم ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ﴾ أي بإشراكه ﴿سُلْطَانًا﴾ أي حجة، سُميت به لوضوحها وإنارتها ﴿وَمَا أَوْثَقُ النَّارِ﴾ أي مسكنهم الذي يأوون إليه في الآخرة النار لا مأوى لهم غيرها ﴿وَيَسْتَسْثَوِي الظَّالِمِينَ﴾ أي بثست جهنم مسكناً ومأوى للظالمين، وإنما وضع الظاهر للتغليظ، والإشعار بأنهم في إشراكهم ظالمون، وفي جعلها مثواهم، بعد جعلها مأواهم، نوع رمز إلى خلودهم فيها، فإن المَثْوَى مكان الإقامة الدائمة.

(١) طرف من حديث شريف رواه البخاري ٣٦٩/١ ومسلم رقم ٥٢١ وأوله: «أُعْطِيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر...» الحديث، وانظر جامع الأصول ٥٢٩/٨.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ روي أنه لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، قال ناس من المؤمنين: من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله بالنصر؟ فنزل ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ ووعدهم بإيهم بالنصر بشرط التقوى والصبر، بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ وقال ﷺ للرماة: لا تبرحوا عن هذا المكان، فإننا لا نزال غالبين ما دمت، وقد كان كذلك، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم بالنبل، والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحْسَبُونَهُمْ﴾ أي تقتلونهم قتلاً كثيراً، من حسه إذا أبطل حسه، وقوله تعالى ﴿يَا ذِي نَاصِيَةٍ﴾ أي بتيسيره وتوفيقه، وتقييد صدق وعده تعالى، بوقت قتلهم بإذنه، صريح في أن الموعد هو النصر العملي ﴿حَتَّى إِذَا فُشِيتُمْ﴾ جيتم وضعف رأيكم، وملتم إلى الغنيمة، فإن الحرص من ضعف العقل ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ في أمره ﷺ يعني اختلاف الرماة بعد انهزام المشركين ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أمر نبيكم بترككم الثغر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ﴾ من انهزام المشركين والغنيمة ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين انهالوا لجمع الغنائم، وتركوا الجبل، وخالفوا أمر الرسول ﷺ ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا مكانهم، حتى نالوا شرف الشهادة ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي كفكم عنهم حتى تحولت الحال ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي يعاملكم معاملة من يمتحنكم بالمصائب، ليظهر ثباتكم على الإيمان ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ تفضلاً لما علم من ندمكم، والمراد بالعفو هنا عدم العقوبة ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ التنوين للتفخيم أي ذو منّ وفضل عظيم على عباده المؤمنين.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ متعلق بصرفكم، والإصعاد الذهاب في الأرض، أصعد ذهب أينما توجه ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾ أي لا يقف أحد لأحد، ولا ينتظره، ولا يلتفت إلى ما ورائه، وهو غاية انهزامهم، يقال: فلان لا يلوي على شيء أي لا يعطف ولا يلتفت إليه ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ يقول إليّ يا عباد الله، أنا رسول الله، وإيراده بعنوان

الرسالة، لتعظيم شأنه ﷺ توبخ للمنهزمين ﴿فِي أُخْرَيْنَكُمْ﴾ أي من ورائكم يقال جئت في آخر الناس وأخراهم فالمعنى كان ﷺ يدعوهم وهو واقف في آخرهم ﴿فَأَثْبَكُمْ﴾ أي فجازاكم الله بما صنعتم، والتعبير بالإثابة من باب التهكم على حد قولهم: «تحيةً بينهم ضربٌ وجيع» ﴿غَمًّا يَغْمِرُ﴾ أي غمًّا على غم^(١)، بالقتل، والجراح، وظفر المشركين، والإرجاف بقتل النبي ﷺ وفوت الغنيمة، فالتنكير للتكثير ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ أي فجازاكم على عصيانكم غمًّا متصلاً بغم، لتتمرنوا على الصبر في الشدائد، فلا تحزنوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة، وعلى ما أصابكم من الجراح والهزيمة، عقوبة لكم ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عليهم بأعمالكم، وبما قصدتم بها.

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نَاعَسًا يَفْشَى طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٥﴾﴾
الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾﴾.

(١) هذا ما ذهب إليه شيخ المفسرين الإمام الطبري أن المعنى: غمًّا على غم، فتكون الباء بمعنى «على» ورجح هذا القول ابن القيم والحافظ ابن كثير، وقيل المعنى: جازاكم على صنعكم غمًّا بسبب غمكم الرسول ﷺ ومخالفتكم أمره، فيكون ذلك عقوبة لهم، وجزاء وفاقاً على ما أدخلوه من الغم على رسول الله ﷺ، ولعل هذا الرأي أظهر والله أعلم.

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ﴾ عطف على فائابكم، والخطاب للمؤمنين ﴿مِنْ بَعْدِ
الْفَتْحِ﴾ الذي اعتراكم ﴿أَمْنَةً﴾ مصدر كالمنعة ﴿نُعَاسًا﴾ وذلك أن
المشركين لما انصرفوا يتوعدون المسلمين بالرجوع، فلم يأمنوا كثرتهم،
وكانوا تحت السلاح متاهبين للقتال، فأنزل الله عليهم أمنة، فأخذهم
النعاس، وهو النوم الخفيف، وفائدة النوم أن السهر يوجب الضعف
والكلال، والنوم يفيد عودة القوة والنشأة ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ فيه إشعار
بأنه لم يغش الكل. عن أبي طلحة قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم
أحد، سقط سيفي من يدي مراراً وآخذه^(١) ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾
هم المنافقون أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهتمهم إلا هم أنفسهم
وطلب خلاصها ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي والحال أنهم يظنون
به تعالى غير ظن الحق الذي يجب أن يظن به سبحانه ﴿يَقُولُونَ﴾ أي
يقول بعضهم لبعض على سبيل الإنكار ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هل لنا
مما أمر الله ووعد من النصر والظفر نصيب قط ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ أي
إن الشأن والغلبة الحقيقية لحزب الله وأوليائه، وغلبة الكفار على المسلمين
ليس بنصر، لأن النصر ما كانت عاقبته سليمة، والمسلمون وإن انهزموا في
الحال فالعاقبة للمتقين، فالنصر لهم في الحقيقة، فإن حزب الله هم
الغالبون، وأما قول الكفار: «لو كان هذا رسول الله لما سُلط عليه الكفار»
فهذا ظن فاسد، لأن الله يبتلي عباده بما شاء، ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي
يضمرون فيها أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية ﴿مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ﴾ أي
يقولون مظهرين النصرة، مبطنين الإنكار والتكذيب ﴿يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم،
أو إذا خلا بعضهم إلى بعض ﴿لَوْ كُنَّا لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كما وعد محمد
﴿مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا﴾ أي لما غلبنا، ولما قُتل من قُتل منا في هذه المعركة، عن
الزبير قال: رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف، أرسل الله تعالى

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣٠٠٨.

علينا النوم، فما منا رجلٌ إلا ذقته في صدره، فوالله إني لأسمع قول: «معتب بن قشير» ما أسمعته إلا كالحلُم «لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلنا ههنا» فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله تعالى هذه الآية ^(١) ﴿قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أَي لَوْ لَمْ تَخْرُجُوا إِلَى أَحَدٍ، وَقَعَدْتُمْ فِي الْمَدِينَةِ ﴿لَبَرَزْتُ﴾ لَخَرَجَ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الدَّاعِيَةِ إِلَى الْبُرُوزِ ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ ﴿إِلَّا مَضَاجِعِهِمْ﴾ إِلَى مَصَارِعِهِمْ وَلَمْ تَنْفَعِهِ الْإِقَامَةُ بِالْمَدِينَةِ قَطْعًا، فَإِنْ قَضَاءُ اللَّهِ لَا يَرُدُّ وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُ أَحَدٌ ﴿وَلَيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أَي لِيَعَامِلَكُمْ مَعَامِلَةً مِنْ يَبْتَلِي مَا فِي صُدُورِكُمْ مِنَ الْإِخْلَاصِ، وَالنِّفَاقِ، وَهُوَ عِلَّةٌ لِفَعْلٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَعَلَّ مَا فَعَلَ لِمَصَالِحِ جَمَّةٍ وَلِيَبْتَلِيَ الْخَبْرَ ﴿وَلَيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وَلِيَكْشِفَهُ وَيُمَيِّزَهُ مِنْ مَخْفِيَّاتِ الْأُمُورِ، وَيُذَكِّرَ الصُّدُورَ مَعَ الْإِسْلَامِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ وَالْقَلْبَ مَقَرَّ الْإِيمَانِ، وَالْفُؤَادَ مَشْرِقَ الْمَشَاهِدَةِ، وَاللُبَّ مَقَامَ التَّوْحِيدِ وَعَلَى هَذَا تَوَوَّلَ لِيَبْتَلِيَ إِسْلَامَكُمْ، وَلِيُمَحِّصَ إِيْمَانَكُمْ، وَرَبَّمَا يَقَالُ: عَبَّرَ بِذَلِكَ لِلتَّفَتُّنِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْجَمْعَيْنِ وَاحِدٌ ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَي السَّرَائِرِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي لَا تَكَادُ تَفَارِقُ الصُّدُورَ، وَالْجُمْلَةَ حَالِ أَي فَعَلَ مَا فَعَلَ وَالْحَالُ أَنَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنِ الْإِبْتِلَاءِ، مُحِيطٌ بِخَفِيَّاتِ الْأُمُورِ، وَفِيهِ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ أَي هَرَبُوا مِنْكُمْ فَهُوَ خُطَابٌ لِمَنْ كَانَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ ﴿يَوْمَ اتَّخَذَ الْجَمْعَانِ﴾ جَمَعَ الرَّسُولُ ﷺ وَجَمَعَ أَبِي سَفْيَانَ لِلْقِتَالِ بِأَحَدٍ ﴿إِنَّمَا أَسْأَرُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أَي إِنَّمَا كَانَ السَّبَبُ فِي انْهِزَامِهِمْ، أَنَّ الشَّيْطَانَ طَلَبَ مِنْهُمْ الزَّلْزَلُ فَأَطَاعُوهُ، وَهِيَ الْخَطِيئَةُ، وَذَلِكَ بِإِلْقَاءِ الْوَسْوسَةِ فِي قُلُوبِهِمْ ﴿يَبْعِضُ مَا كَسَبُوا﴾ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ الْمَخَالَفَةُ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَرْكِ الْمَرْكَزِ، وَالْحَرَصِ عَلَى الْغَنِيمَةِ، وَالذَّنْبُ يَجْرِي الذَّنْبُ، كَمَا

(١) أخرجه ابن إسحق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ٤٢٧/١.

أن الطاعة تجر الطاعة، لأن مخالفة أمره ﷺ سبب لهم الهزيمة ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عنهم لتوبتهم واعتذارهم، أعاد سبحانه ذكر العفو تأكيداً لطمع المذنبين فيه، ومنعاً لهم عن اليأس وتحسيناً للظنون وكان المتولون أكثر القوم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿١٥٨﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني المنافقين، وهم القائلون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ وإنما ذكر كفرهم صريحاً، لمباينة حالهم لحال المؤمنين، وتنفيراً عن مماثلتهم، وفيه دليل على أن الإيمان ليس عبارة عن مجرد الإقرار باللسان، بل هو تصديق وقول وعمل ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في المذهب، أي قالوا لأجلهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا سافروا فيها للتجارة أو غيرها قال الزجاج: إذا ههنا لمجرد الوقت، أي حين ضربوا ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ جمع غاز وإنما لم يقل: أو غَزَوْا، للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ بأن لم يسافروا أو لم يغزوا ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ بل كانوا يبقون أحياء بمضمونه كما أنه المنكر على قائله ألا يرى قوله عز وجل: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللام لام العاقبة أي قالوا ذلك واعتقدوه، ليكون ذلك حسرة وغمماً، وحرزناً في قلوبهم ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ردّ لقولهم الباطل، أي هو سبحانه المؤثر في الحياة والممات وحده، من غير أن يكون للإقامة

والسفر، مدخل في ذلك، فإنه تعالى يحيي المسافر والمحارب، مع اقتحامهما لموارد الحتوف، ويميت المقيم والقاعد مع حيازتهم لأسباب السلامة والراحة، ولا محيص عما قَدَّرَ الله، وفيه المنع عن التخلف عن الجهاد ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوا المنافقين، وترغيب لهم في الطاعة، لأن ابتلاء الله كعلمه، يستعمل في القرآن للمجازاة على العمل، ولا حاجة لله عز وجل للامتحان والاختبار.

﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ أي في سبيله وأنتم متلبسون به فعلاً ﴿لَمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ جواب القسم والمعنى: إن السفر، والغزو في سبيل الله، ليس ممّا يجلب الموت، وإن وقع ذلك في سبيل الله، فَمَا تَنَالُونَ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ بِالْمَوْتِ، خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها، وهذا ترغيب للمؤمنين في الجهاد، وفيه تعزية لهم وتسلية عما أصابهم في سبيل الله، وقدم القتل على الموت، لأنه أكثر ثواباً، وأعظم عند الله كما قال الشاعر:

فإن كانت الأبدان للموت أنشئت فقتل امرئ بالسيف - والله - أفضل

﴿وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ على أي وجه اتفق هلاككم، حسب تعلق الإرادة الإلهية ﴿لِإِلَى اللَّهِ﴾ الرحيم الواسع الرحمة ﴿تُخْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره فيجازي كلاً منكم بعمله، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فِطْرًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والباء متعلق بـ«لنت» قُدمت للقصر، و«ما» مزيدة للتأكيد، والتنوين للتفخيم، أي

فبرحمة عظيمة كائنة من الله تعالى ﴿إِنْتَ لَهُمْ﴾ أي كنت لئن الجانب لهم، وعاملتهم بالرفق والتلطف، بعدما كان منهم ما كان، أفاد الكلام فائدتين: إحداهما: شجاعته ﷺ والثانية: رفقته حيث ثبت حتى كَرَّ عليه أصحابه، ثم ما زجرهم ولا عَنَّفهم على الفرار، بل آسأهم في الغم ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا﴾ أي خشن الجانب، شرس الأخلاق، جافياً في المعاشرة ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ قاسيه، وفي الكلام حذف، أي لو كنت كذلك ولم تَلن لهم ﴿لَا نَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك، ولم يسكنوا إليك، ولم ينتظم أمر ما بعثت به من إرشادهم إلى صراط مستقيم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يتعلق بحقوقك كما عفى الله عنهم ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يتعلق بحقوقه سبحانه، إتماماً للشفقة، وإكمالاً للبرِّ بهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ في أمر الحرب إذ الكلام فيه، أو فيما يصح أن يُشاور فيه استظهاراً لأربهم، وتطبيياً لنفوسهم، وتمهيداً لُسنة المشاورة للامة، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ قال ﷺ: أما إن الله ورسوله لَغَتَيَانِ عنها، ولكنَّ الله جعلها رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيأً^(١). وفي الحديث: «ما تشاور قومٌ إلَّا هُدُوا لأرشد أمرهم»^(٢) ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ عقيب المشاورة على شيء، واطمأننت به نفسك ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فاعتمد عليه وثق به، وفوضْ أمرك إليه، فإنه الأعلم بما هو الأصلح، أصل التوكل إظهار العجز والاعتماد على الغير، وهو عندنا على الله سبحانه، ولا ينافي مراعاة الأسباب بل يكون بمراعاتها مع تفويض الأمر إليه تعالى، وفي الحديث: «اعقلها وتوكل»^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، الواثقين به، فينصرهم ويرشدهم إلى ما هو خير لهم، لأنه سبحانه الملجأ الأعظم، الذي لا تنقضي الحاجة إلا عند بابه.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وابن عدي في الكامل.

(٢) رواه الطبري في تفسيره.

(٣) الحديث رواه الترمذي رقم ٢٥١٩ وسببه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أطلق ناقتي وأتوكل؟ فقال له ﷺ: «اعقلها وتوكل» وانظر مع الأصول ٧٩٢/١١.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم، سبقت لإيجاب التوكل عليه تعالى، والترغيب لطاعته والتحذير عن معصيته ﴿وَأَنْ يَخْذَلَ لَكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد ويمنعكم معونته ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ﴾ استفهام إنكاري مفيد لانتفاء الناصر بطريق المبالغة ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد خذلانه تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المراد بهم جنس المؤمنين، لأن الأمر كله لله، ولا راداً لقضائه، ولا دافع لحكمه، فيجب أن يتوكل العبد في كل الأمور على الله تعالى لا على غيره.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ يَرْسَسُ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١١٧﴾ ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرَاتِهِمُ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي وما صحَّ لنبيٍّ ولا استقام أن يخون في الغنائم، فإن النبوة تنافي الخيانة، يقال: غل، من المغنم: إذا أخذه خفية عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية في قطيفة فُقدت يوم بدر، فقال بعض المنافقين: لعلَّ رسول الله ﷺ أخذها^(١). ﴿وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي يأتي بالذي غلَّه بعينه، يحمله على عنقه، أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكر الغلول فعظمه، وعظم أمره، حتى قال: «لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ...»^(٢) الحديث ولعل السر في ذلك، أن يفضح به على رؤوس

(١) الحديث أخرجه أبو داود، والترمذي في التفسير ٢١٤/٥.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ١٢٩/٦ ومسلم في الإمارة رقم ١٨٣١ وأحمد في المسند ٤٢٦/٢.

الأشهاد، زيادة في عقوبته ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يعني تعطى جزاء ما كسبت وافياً، خيراً أو شراً، قليلاً أو كثيراً، وضع الكسب موضع الجزاء، تحقيقاً للعدل ببيان ما بينهما من تمام التناسب ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب، أو نقص ثواب.

﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ رضاء الله، أي سعى في تحصيله، بفعل الطاعات، وترك المنكرات ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ﴾ أي غضب عظيم كائن ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ تعالى، والمراد بمن ﴿أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ﴾: المؤمنون، والمراد بمن ﴿بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ﴾: المنافقون، وهم الذين باؤوا بسخط الله وغضبه، وقيل: الأول فيمن لم يغلّ، والثاني فيمن غلّ، والقول الأول أصح وأظهر ﴿وَمَا أَوْثَقُ بِهِمْ﴾ أي مصيره ذلك بيان لحال من باء بسخط ﴿وَيُؤَسِّسُ الْمَصِيرُ﴾ ونظير هذه الآية: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾.

﴿هُمْ﴾ عائد على الموصولين باعتبار المعنى ﴿دَرَجَتٌ﴾ طبقات متفاوتة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في علمه تعالى وحكمه، شَبَّهُوا في تفاوت الأحوال بالدرجات، إيذاناً بأن بينهم تفاوتاً ذاتياً كالدرجات ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُكُمْ يَعْمَلُونَ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتهم، ويجازيهم على حسبها.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنعم وتفضل وأحسن على المؤمنين من أمة محمد ﷺ، وتخصيصهم مع أن نعمة البعثة عامة للناس لزيادة انتفاعهم بها ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي من جنسهم، لا ملكاً ولا جنيّاً، والامتنان بذلك إما لحصول الأُنس فيسهل التلقّي، وتزول

الوحشة والنفرة الطبيعية التي تكون بين الجنسين المختلفين ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي يقرأ عليهم القرآن، ويطهرهم من رجس الكفر والعصيان، ويعلمهم آيات الذكر الحكيم، والسنة النبوية المطهرة التي جاء بها سيد المرسلين وهي الحكمة ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال ظاهر، لا شبهة في كونه ضلالاً.

﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٩) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْقِ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلْيَعْلَمْ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَنْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ فَنَنْتَلَا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِأَخْوَاهِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٨)

﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ الهمزة للتقرير والتفريع، والواو عاطفة على ما سبق من قصة أحد، ولَمَّا ظرف بمعنى «حين»، والمراد من المصيبة ما أصابهم يوم أحد ﴿قَدْ أَصَابَتْكُمْ مِثْلَيْهَا﴾ يوم بدر من قتل سبعين، وأسر سبعين، وجعل ذلك مثلين بجعل الأسر كالقتل، لأنهم قادرون على قتلهم، والمعنى: أحياناً أصابكم من المشركين، نصف ما أصابهم منكم، جزعتم ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا؟﴾ وقلتم من أين أصابنا هذا، وقد تقدم الوعد بالنصر؟ وكون مصيبة عدوهم ضعف مصيبتهم، ممّا يهون الخطب، ويورث السلوة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ تبكيث لهم ببيان أن ما نالهم إنما هو من جهتهم، بتركهم المركز وحرصهم على الغنيمة، فالوعد بالنصر كان

مشروطاً بالشبات والطاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن جملة النصر عند الطاعة، والخذلان عند المخالفة.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين، وجمع المشركين، يريد يوم أحد ﴿فَإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو كائن بقضائه لمخالفتكم الأمر ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بالعلم التمييز أي يميز أهل الإيمان من أهل النفاق.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ إعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في سلك المنافقين، والمعنى: وما أصابكم يومئذ فهو كائن لتمييز الشابتين على الإيمان، والذين أظهروا النفاق، وفيه تطييب لأنفس المؤمنين، بإزالة مرارة التفرع، أي أنه سبحانه قادر على نصركم بعد فلا تياسوا ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على نافقوا وهم «عبد الله بن أبي»، وأصحابه حيث انصرفوا يوم أحد ﴿تَمَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ عنا العدو، بتكثير سوادنا، أو ادفعوا عن أهليكم وبلدكم، إن لم تقاتلوا في سبيل الله ﴿قَالُوا﴾ مستهزئين ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ﴾ أي لو نعلم ما يصح أن يُسَمَّى قتالاً لاتبعناكم فيه، لكن ما أنتم عليه ليس بقتال، بل إلقاء بالأنفس إلى التهلكة ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ لانخذالهم، وكلامهم هذا واعتذارهم على وجه الدغل، أمارات ظهرت منهم، وهو مؤذن بكفرهم، فإنَّ تقليل سواد المسلمين تقوية للمشركين ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ المعنى: يتفوهون بقول لا وجود له، فإنهم أظهروا فيه أمرين: الأول عدم العلم بالقتال، والآخر الاتباع على تقدير العلم، وقد كذبوا فيهما، حيث كانوا عالمين به، غير ناوين للاتباع، وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتصغير لشأنهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق وما يخلو به بعضهم إلى بعض من المكر والخديعة.

﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ المراد بهم «عبد الله بن أبي»، وأصحابه ﴿لَا إِخْوَانَهُمْ﴾ لأجلهم، يريد من قُتل يوم أحد من جنسهم وأقاربهم ﴿وَقَعَدُوا﴾ أي قالوا قاعدين عن القتال ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ في القعود ﴿مَا قَاتَلُوا﴾ كما لم تُقتل، وفيه

إِذْ بَانَ بَأْنَهُمْ أَمْرُهُمْ بِالْإِنْخِلَالِ، حِينَ انْخَلَدُوا وَأَغْوَوْهُمْ ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ عَلَى دَفْعِ الْقَتْلِ عَنْ كُتِبَ عَلَيْهِمْ، فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ وَأَسْبَابَهُ فَإِنَّهُ أُخْرَى بِكُمْ، وَالْقَعُودَ غَيْرَ مَغْنٍ عَنِ الْمَوْتِ، فَإِنَّ أَسْبَابَ الْمَوْتِ كَثِيرَةٌ، وَالْحَذَرُ لَا يَدْفَعُ شَيْئًا مِنَ الْقَدَرِ.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَاءِ آتَانَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبَشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبَشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ كلام مسوق لبيان أن القتل الذي يحذرونه، ويحذرون الناس منه، هو أجلُّ المطالب عند المؤمن، نزلت هذه الآيات في شهداء أحد^(١)، الذين قتلوا في تلك المعركة، وفيهم

(١) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب، معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء في الجنة لئلا يزهّدوا في الجنة، ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أَمْوَاتًا﴾. الآية رواه أبو داود في الجهاد رقم ٢٥٢٠.

«حمزة بن عبد المطلب» عم الرسول ﷺ ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ مستمرون على ذلك ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ذوو زلفى بالقرب والشرف ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من الجنة، وهو تأكيد لكونهم أحياء.

﴿فَرِحِينَ﴾ أي مسرورين ﴿يَمَّا أَتَتْهُمْ آلَهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو شرف الشهادة، والفوز بالحياة الأبدية، والتمتع بنعيم الجنة ﴿وَسَتَّبِشِرُونَ﴾ يسرون بالبشارة وأصل الاستبشار: طلبُ البشارة، إلا أن المعنى هنا هو الفرح التام ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي بإخوانهم المؤمنين، الذين لم يقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ والمعنى أنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة، وحال من تركوا خلفهم من المؤمنين، إذا ماتوا أو قُتلوا كانوا أحياء، حياة لا يكدرها خوف ولا حزن، وفيها حث على الجهاد، وترغيب في الشهادة، وامتداح لمن يتمنى لإخوانه، مثل ما أنعم الله عليه.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كرهه للتأكيد، وليتعلق به قوله بنعمة ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ ثواباً لأعمالهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة عليه كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، وتنكيرهما للتعظيم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمراد منهم إما الشهداء وإما كافة أهل الإيمان، للإشعار بأن كل مؤمن يستحق الأجر، وليس مخصوصاً بالشهداء.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ صفة مادحة للمؤمنين أي أطاعوا الله ورسوله ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ بامثال الأوامر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ الجراحات ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا﴾ الجمع بين الوصفين، للمدح والتعليل ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ روى ابن إسحق وغيره، أن أباسفیان وأصحابه، لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء، ندموا وهُمُّوا بالرجوع، فبلغ الأمرُ رسول الله ﷺ، فأراد أن يرهبهم، فخرج بسبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد، وهو على بعد ثمانية أميال من المدينة، وكان بأصحابه قرح فتحاملوا، وألقى الله تعالى الرعب في قلوب المشركين، فذهبوا فترلت الآية، وهذا من المعجزات،

لأن المسلمين قد انهزموا، والعادة جارية بأنه إذا انهزم أحد الخصمين، يحصل في قلب الغالب قوة وشدة، وفي قلب المغلوب خوف وخشية، والحال أنه عز وجل قلب القضية ههنا، فهو معجز خارق للعادة.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ روي عن مجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم أنهم قالوا نزلت هذه الآية في «غزوة بدر الصغرى»، وذلك أن أبا سفيان حين أراد أن ينصرف، قال يا محمد موعدنا موسم بدر القابل، فقال ﷺ إن شاء الله، فلما كان القابل، خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل حرّ الظهران، فالتقى الله تعالى الرعب في قلبه، ولقي «نعيم ابن مسعود»، فقال له أبو سفيان: إني واعدتُ محمداً أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عام جذب لا يصلحنا، وأكره أن يخرج محمد، ولا أخرج أنا فيزيدهم جرأة، فالحق المدينة فنبطهم، ولك عندي عشرة من الإبل، فأتى نعيم المدينة ووجد المسلمين يتجهزون للخروج، فقال لهم: تريدون أن تخرجوا إليهم، وقد جمعوا لكم؟ فوالله لا يفلت منكم أحد، فكره أصحاب الرسول ﷺ الخروج فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو وحدي»، فخرج ومعه سبعون، وهم يقولون: «حسبنا الله ونعم الوكيل» ففي هذا نزلت الآية ﴿فَأَخْشَوْهُمْ﴾ أي فخافوهم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ والمعنى أنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا بل ثبت يقينهم بالله سبحانه وازداد إيمانهم، وأظهروا حمية الإسلام، وهو دليل على أن الإيمان يتفاوت زيادةً ونقصاناً ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي كافينا الله، من أحسبه إذا كفاه ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي نعم الموكول إليه هو تعالى: وفي الحديث: «إذا وقعت في الأمر العظيم فقولوا: حسبي الله ونعم الوكيل»^(١).

(١) أخرجه ابن مردويه، وذكره ابن كثير في تفسيره من حديث أنس بن مالك مرفوعاً ٤٤٠/١ وفي صحيح البخاري ما يؤيده، فقد روى عن ابن عباس ١٧٢/٨ أنه قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

﴿فَانْقَلَبُوا﴾ فرجعوا من بدر ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ وهي العافية والسلامة والثبات على الإيمان، وطاعة الله ورسوله ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي ربح في التجارة، فإنهم لما أتوا بدرأً وكان في أيام الموسم، اتجروا وربحوا ﴿لَمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ﴾ من كيد عدو، وجراحة، وقتال ﴿وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بجرأتهم وخروجهم إلى وجه العدو طلباً لرضاء الله، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا، وحفظهم عن كل ما يسؤهم، مع إصابة النفع، وفيه تحسير لمن تخلف عنهم.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ﴾ إشارة إلى المشبطين، والخطابُ للمؤمنين ﴿الشَّيْطَانُ﴾ إبليس ﴿يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي المنافقين، والقاعدين عن الخروج مع الرسول ﷺ، وقيل: المعنى «يخوفكم بأوليائه» وعلى هذا المعنى أكثر المفسرين، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الضمير للناس ﴿وَخَافُونَ﴾ في مخالفة أمري، فجاهدوا مع رسولي، والخطابُ للقاعدين ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي إثارة خوف الله، على خوف الناس، ويستدعي الأمن من شر الشيطان.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَوْا كَفَرُوا بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطْعِمُهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطْعِمُهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١٧٨) ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَابِعُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٩) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ (١٨٠).

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ﴾ توجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ لتشريفه بتخصيصه بالتسلية، والإيذان بأصالته في تدبير أمور الدين والاهتمام بشؤونه، والمراد بالموصول أما المنافقون قاله مجاهد، وإمّا قوم من المرتدين قاله علي الجبائي وإمّا العموم قاله الحسن ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يقعون فيه سريعاً، حرصاً عليه، وشدة رغبتهم فيه، ولتضمن المسارعة معنى الوقوع تعدت بفي دون إلى ﴿إِنَّهُمْ كَنِ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ تعليل للنهي، وتكميل للتسلية أي لن يضرّوا أولياء الله ضرراً ما ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطّاً فِي الْآخِرَةِ﴾ لما هم فيه من الانهماك في الكفر، وتمادي طغيانهم، وموتهم على الكفر وصيغته الاستقبال ﴿يريد الله﴾ للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها، ويرجع إلى دوام منشأ هذا المراد وهو الكفر، وفي الآية دليل على أن الخير والشر بإرادة الله تعالى ﴿وَهُمْ﴾ مع هذا الحرمان ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان رغبة فيما أخذوه وإعراضاً عما تركوه، ولهذا وضع اشتروا موضع بدلوا ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٧٧﴾ لما جرت العادة باغتيال المشتري بما اشتراه، وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة، وبتألمه عند كونها خاسرة، وصف عذابهم بالشدة والألم، والآية تكرير للتأكيد، أو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تَمْلِكُ لَهُمْ حَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ﴾ خطاب للرسول ﷺ أو لكل من يحسب، والإملاء والإمهال: إطالة العمر، وقيل تخليتهم وشأنهم، من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول - أي الحبل - ليرعى كيف شاء ﴿إِنَّمَا تَمْلِكُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ تعليل لما قبلها، واللام في (لهم) لام الإرادة، وعند المعتزلة لام العاقبة، والآية حجة لأهل السنة، في عدم وجوب الأصلح ﴿وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي لهم عذاب مؤلم موجه، مع الإهانة

والتحقير لتكبرهم عن طاعة الله، ولمّا تضمن الإماء التمتع بطيبات الدنيا وزينتها، وذلك مما يستدعي التعزّز، وصف عذابهم بالإهانة، ليكون جزاؤهم وفاقاً لعملهم، والآية نزلت في مشركي مكة، وهو المروي عن مقاتل، وقيل في بني قريظة قاله عطاء.

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ كلام مستأنف مسوق لوعده المؤمنين، ووعيد المنافقين، والمراد بالمؤمنين المخلصون، والمراد بما هم عليه: اختلاط بعضهم ببعض، واستواؤهم في إجراء الأحكام الدنيوية عليهم ﴿ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أي ما يتركهم الله تعالى على ذلك الاختلاط، بل يوحى إلى الرسول ﷺ بأحوالهم، ويبتليهم بالتكاليف التي لا يقدر عليها إلا الخُلص، كبذل الأموال، والأنفس في سبيل الله، حتى يعزل المنافق من المؤمن، وتعلق التمييز بالخيث إشعار برداة ذلك الجنس، فإن الملقى من الشينين هو الأدون واختلفوا بما يحصل التمييز، ف قيل: بالمحن والمصائب، وقيل بإعلاء كلمة الله، وقيل بالوحي، ولهذا أردفه بقوله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ تمهيد لبيان المميز الموعود وقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ إشارة إلى كيفية وقوعه على سبيل الإجمال، والإظهار في الموضعين لتربية المهابة، فالمعنى: ما كان الله ليترك المؤمنين، على الاختلاط بالمنافقين، بل يخرج المنافقين من بينهم، وما يفعل ذلك باطلاعكم على ما في قلوبهم، ولكنه تعالى يجتبي لرسالته من يشاء، فيوحى إليه ويخبره ببعض المغيبات، واجتباء الله تعالى لرسله، تخصيصه إياهم بفيض إلهي، بلا سعي من العبد ﴿ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ سوق النظم الكريم، للإيمان بالرسول ﷺ، ولكنه ورد بالتعميم للإشعار بأن ذلك مستلزم للإيمان بالكل، لأنه مصدق لما بين يديه من الرسل ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ بكل ما جاء به ﷺ حق الإيمان ﴿ وَتَقَوْا ﴾ النفاق أو المخالفة في الأمر والنهي ﴿ فَلَكُمْ ﴾ بمقابلة ذلك الإيمان ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ بيان لحال البخل، ووخامة عاقبته أي لا يظن أولئك البخلاء الذين يمنعون زكاة أموالهم، ولا يمدون يد العون للفقراء والمساكين ﴿يَمَاءَ آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إيراد ما بخلوا به، بعنوان إيتاء الله إياهم من فضله، للمبالغة في بيان سوء صنيعهم، فإن ذلك من موجبات بذله في سبيله تعالى، والبخلاء يمنعون حقوق الله كالزكاة، والفطرة، والأضحية، والنفقات، أو بحكم المروءة نحو الصدقة والهدية، وأشد البخل الإمساك عن نفسه، بأن لا يأكل، أو لا يلبس، أو لا يتداوى، وهذا البخل يسمى شحاً^(١) ﴿هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ﴾ أي لا يحسبن البخلاء بخلهم هو خيراً لهم ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ عَظِيمٌ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم، ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الكلام عند الأكثرين على ظاهره^(٢) أي سيكون هذا الذي بخلوا به طوقاً في أعناقهم يوم القيامة، وقال بعضهم: سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وله ما فيهما مما يتوارث به أهلها من مال وغيره، فما لهم يبخلون عليه، ولا ينفقون في سبيله تعالى، أو أنه تعالى يرث منهم ما يمسون بهلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة ﴿وَاللَّهُ يَكْتُمُونَ خَيْرٌ﴾ من المنع والبخل، فيجازيكم على ذلك.

(١) هذا أشع أنواع البخل، أن يبخل من الإنفاق على نفسه، كما قال الشاعر في شخص

بدعى عيسى:

يُقْتَرُ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ يَبَاقُو وَلَا خَالِدٍ
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لَتَقْتِيرَهُ تَنْفَسَ مِنْ مَنَحَرٍ وَاجِدٍ

(٢) أخرج البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع - أي ثعباناً كبيراً ضخماً - يطوقه فيأخذ بلهزمته - أي شدقيه - ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ الآية.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأُنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٦﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٨﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٩﴾﴾ لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّن عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قاله اليهود لما سمعوا قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ قالوه على سبيل الطعن والاستهزاء^(١)، وظاهر الآية يدل على أن القائلين هذا

(١) روي في سبب نزول هذه الآية، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل بيت مجتمع اليهود، فوجدهم قد اجتمعوا على عظيم فيهم اسمه «فِنْحاص» كان من علمائهم وأجبارهم، فقال له أبو بكر: اتَّقِ الله وأَسْلِم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال له فِنْحاص: والله يا أبا بكر، ليس لنا من حاجة إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً عتاً ما استقرض منا! فغضب أبو بكر وضرب وجهه فِنْحاص، فَشَجَّهُ شَجَّةً عَنيفَةً، وقال له: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم، لضربت عنقك يا عدو الله، فذهب فِنْحاص إلى رسول الله ﷺ يشكو أبا بكر، وجاء أبو بكر فأخبر =

كانوا جماعة، ومعنى الآية: أنه تعالى سمع مقاتلتهم ولم يخف عليه أمرهم، وأنه عز وجل أعد لهم ما يكفيهم من العذاب ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ في صحائف الحفظ أو سنحفظه أي لا نهمله ولا ننساه لأنه كفر بالله، واستهزاء بالقرآن وقرنه تعالى بقوله ﴿وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ إيداناً بأنهما أخوان في العظم، وتنبيهاً على أن من اجترأ على قتل الأنبياء، لم يستبعد منه أمثال هذا القول، ونسبة هذا القتل إلى هؤلاء، باعتبار رضائهم بقتل أسلافهم ﴿بِعَمَلِهِمْ﴾ في اعتقادهم أيضاً، ونتقم منهم بسبب هذا القول ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي يقول لهم خزنة جهنم، وإنما أضيف إلى الله تعالى، لأنه بأمره، والحريق بمعنى المُحْرِق، والدُّوقُ: إدراك الطعوم، وعلى الاتساع يستعمل لإدراك سائر المحسوسات والأمور العقلية، فيقال: ذقتُ الشقاء، ومزارة العيش.

﴿ذَلِكَ﴾ شهادة إلى العذاب المذكور ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي بسبب ما اقترفتموه من قتل الأنبياء، والتفوه بمثل تلك العظيمة وغيرها من الكفر والمعاصي، عبّر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي والله تعالى ليس بمعذب لعبيده، والتعبير عن ذلك ينفي الظلم، لكمال نزاهته تعالى عن ذلك، وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى، أو الصيغة هنا للنسبة، أي لا يُنسب إليه ظلم، فالمعنى ليس بذي ظلم، ولا يقع منه ظلم لأحد أصلاً.

﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ المراد من الموصول جماعة من اليهود، ككعب بن الأشرف، ومالك بن حُيَيٍّ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَمْدًا لِّتَنَّا﴾ أي أمرنا في التوراة ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ أي بأن لا نصدق أحداً ممن ادعى الرسالة ﴿حَتَّى يَأْتِيََنَا

= الرسول بما قاله ذلك الفاجر، فأنكر فنحاص تلك المقالة، فنزلت الآية تصديقاً لأبي بكر ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ الآية. من تفسير ابن الجوزي ٥١٤/١.

يُشْرَبَانِ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴿﴾ القربان أصله مصدر كالرجحان، وهو كل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى، والمراد به هنا تقديم شيء تأكله النار، من كبش، أو حَبّ، أو طعام، قيل كانت بنو إسرائيل يذبحون الشاة فيضعونها وسط بيتٍ والسقفُ مكشوف، فيدعو نبيهم في البيت وبنو إسرائيل في الخارج، فتنزل نار فتأكله، وقيل إن هذا الشرط كذبٌ على التوراة، من كذب اليهود ﴿قُلْ﴾ يارسول الله تبكيتاً لهم، وإظهاراً لكذبهم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي المعجزات ﴿وَيَا لَذَى قُلْتُمْ﴾ أي بالقربان الذي تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ في قولكم إننا نؤمن بما جاء به، فإن زكريا ويحيى وغيرهما قد جاؤوكم بما قلتم، فما لكم لم تؤمنوا بهم، حتى اجترأتم على قتلهم؟ بيّن الله عز وجل أنهم يطلبون هذه المعجزة على سبيل العناد، لا على سبيل الاسترشاد، ولذلك لم يسعف مطلوبهم.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ شروع في تسلية النبي ﷺ، إثر ما أوحى إليه ما يحزنه من مقالات الكفرة ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعني فإن كذّبك هؤلاء الكفار، فلا يهولنك أمرهم يارسول الله، فقد فعلت الأمم السالفة بأنبيائهم كذلك ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي المعجزات الواضحات ﴿وَالرُّبُوبِ﴾ جمع زبور كالرسول، يقال زبرت الكتاب: أي كتبتة ﴿وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي الكتاب الهادي، وهو القرآن العظيم، المنير لطريق الحق والهداية والسعادة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ هذا يدل على أن الأرواح لا تموت بموت الأبدان، لأن ذائق الشيء، لا بد أن يكون باقياً حال حصول الذوق، ولفظ «كل» يقتضي الشمول، بدليل قوله تعالى ﴿فَصَبَقَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وذلك يقتضي أن لا يموت الداخلون في هذا الاستثناء فالمعنى: لا يحزنك تكذيبهم، فمرجع الخلق إلى الفناء ﴿وَلِئَمَا تُوَفَّتْ أَجُورُكُمْ﴾ تعطون جزاء أعمالكم، خيراً كان أو شراً، تاماً وافياً ﴿يَوْمَ أَلْقَيْكُمْ﴾ أي وقت قيامكم من القبور وفي لفظ التوفية، إشارة إلى

أن بعض أجورهم، تصل إليهم قبل ذلك اليوم، وفي الحديث الشريف «القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران»^(١) وقال ﷺ: «إذا مات الرجل عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»^(٢) وهذه الأحاديث الشريفة تثبت الحياة في القبر ﴿فَمَنْ ذُحِرَ عَنِ الْكَارِ﴾ بُعد عنها، والزحزحة في الأصل: تكرير الزح، وهو الجذب بعجلة ﴿وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ بالنجاة ونيل المراد، والفوز: الظفر بالبغية فاز، يفوز: نجا وظفر بمراده ﴿وَمَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ أي لذاتها وزخارفها وشهواتها ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ المتاع: كل ما ينتفع به، كالطعام، واللباس، وأثاث البيت، مما يباع ويشتري، وقد شبهها سبحانه بالمتاع إشارة إلى رداءتها، والغرور: الخداع، غرته الدنيا أي خدعته بزینتها وهذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب بها الآخرة فهي متاع بلاغ إلى انتهاء الأجل.

﴿لَتَبْلُوَنَّ﴾ أي والله لتختبرن، جواب قسم محذوف، وفيه تسلية للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، عما سيلقونه من جهة الكفار من المكاره، ليوطنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه، ويقابلوه بالصبر والثبات ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بتكليف الإنفاق، وما يصيبه من الآفات ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ بالقتل، والأسر، والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخائف ﴿وَلَسَّمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ آوَوْا إِلَيْكُم مِّن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى، عبّر عنهم بذلك، للإشعار بمدار الشقاق، وهو الكيد والحسد ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾ من هجاء الرسول ﷺ، والظعن في الدين، وإغراء الكفرة على المسلمين، وصد من أراد الإيمان وهجر المؤمنين، والافتراء على الله وعلى الرسول ونحو ذلك ﴿وَإِن

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٩٣/٣ ومسلم رقم ٢٨٦٦.

تَصَبَّرُوا ﴿ على تلك الشدائد والمصاعب عند ورودها ﴾ وَتَتَّقُوا ﴿ أي
 تتمسكوا بتقوى الله وطاعته، بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب،
 ولقاء المكروه ﴾ فَإِنَّ ذَلِكَ ﴿ أي الصبر والتقوى ﴾ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿ أي
 مما يجب العزم عليه من الأمور، التي ينبغي أن يعزمها كل أحد، لما فيها
 من كمال المزية والشرف.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ
 فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ، ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا
 تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ
 بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ بيان لبعض إدايتهم، وهو كتمانهم ما فيه
 من الشواهد على نبوته ﷺ، أي اذكروا وقت أخذه تعالى ﴿مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ﴾ وهم علماء اليهود والنصارى، ذكروا بعنوان «أوتوا الكتاب»
 مبالغة في تقييح حالهم، ورمزاً إلى أن أخذ الميثاق كان في كتابهم الذي
 أوتوه ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ الضمير للكتاب، وهو جواب القسم، ينبىء عنه أخذ
 الميثاق، كأنه قيل لهم: بالله لتبيئنه ﴿لِلنَّاسِ﴾ وتظهرون ما فيه من الأحكام
 والأخبار، والتي من جملتها أمر نبوته ﷺ ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ نهى عن الكتمان
 بعد الأمر بالبيان، إما للمبالغة في إيجاب الأمور به، وإما لبيان الأمور
 به أو بالكتمان المنهي عنه، بالقاء التأويلات الزائفة، والشبهات الباطلة
 ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ أي طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثق ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾
 ولم يراعوه ولم يلتفتوا إليه أصلاً، وفيه من الدلالة على أنه يجب على
 العلماء، أن يبينوا الحق للناس، وأن لا يكتُموا منه شيئاً لغرض فاسد، من
 تسهيل على الظلمة، أو تطيب نفوسهم، أو لجر منفعة، أو دفع أذية

﴿وَأَشْتَرُوا بِهِ﴾ بالكتاب الذي أمروا ببيانه، ونهوا عن كتمانهم أي تركوا ما أمروا به وأخذوا بدله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ شيئاً تافهاً حقيراً من حُطام الدنيا وأعراضها ﴿فَبَيْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أي ما يختارون لأنفسهم.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ الخطاب له ﷺ أو لكل من يصلح له ﴿الَّذِينَ يَقْرَحُونَ بِمَا أَنْتُوا﴾ بما فعلوا، روي عن أبي سعيد الخدري قال: إن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ، كانوا إذا خرج رسول الله إلى الغزو، تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم، فإذا قدم رسول الله اعتدروا إليه، وحلفوا له، وأحبوا أن يحمداً بما لم يفعلوا، فتزلت هذه الآية^(١)، والفرح: لذة تحصل في القلب بنيل المراد يستعمل في معان أحدها البطر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ الثاني الرضاء وعليه قوله سبحانه: ﴿كُلَّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ والثالث السرور وعليه قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أي يحبون أن يحمدهم الناس، لأنهم كانوا يفرحون بما فعلوا، من إظهار الإيمان، وقلوبهم قاسية بالكفر والعداوة ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ تأكيد له، والفاء زائدة قال الزجاج: إذا طالت القصة، تعيد حسب ما أشبهها تأكيداً، فتقول: لا تظنّ زيداً إذا جاءك وكلمك بكذا وكذا، فلا تظننه صادقاً، فيفيد لا تظنن تأكيداً وتوضيحاً ﴿بِمَقَارِقٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي ملتبسين بنجاة منه، لأن لباس الزور لا يبقى، ويكشف حال صاحبه، ويفتضح، والمفازة مصدر ميمي بمعنى الفوز والنجاة، والآية للتنبيه على بطلان آرائهم، حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون

(١) أخرج البخاري ومسلم أن مروان بن الحكم - وهو أمير المدينة - قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمداً بما لم يفعل معذباً لعذبته أجمعون!! فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما دعا النبي ﷺ اليهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه، وفرحوا بما أنتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية، وانظر فتح الباري ٨/٢٣٣.

بما صنعوا من عذاب الآخرة، كما نجوا به من المؤاخذه الدنيوية، ولذلك كان فرحهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم لا غاية له في المدة والشدة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له خاصة دون غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على عقوبتهم كيفما يشاء.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١٥﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١١٦﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١١٧﴾ رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١١٨﴾ .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي في إنشائهما في ذاتهما وصفاتهما، التي تحار فيه العقول ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في تعاقبهما وتفاوتتهما ﴿لَآيَاتٍ﴾ التنكير للتفخيم، أي آيات كثيرة عظيمة، دالة على وحدته، وكمال علمه، وعلى عجائب شؤونه تعالى، وفيه رمز إلى أن الآيات الظاهرة - وإن كانت كثيرة في نفسها - إلا أنها قليلة في جنب ما خفي عنها في خزائن الغيب ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي لذوي العقول السليمة، المتفكرين في بدائع صنائع الخالق جل وعلا، الممثلين لقوله سبحانه: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فإن كل ما ظهر في مظاهر الإبداع، دليل قوي على الصانع المجيد ﴿الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ المراد بهم الذين لا يغفلون عنه تعالى، في عامة أوقاتهم، لاطمئنان قلوبهم بذكر الله، حين أيقنوا بأن كل ما سواه، فائض

منه وعائد إليه^(١) ﴿فِيكُمْ وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ فالمراد به ذكره تعالى مطلقاً، في جميع الأحوال، وليس المراد الدوام الحقيقي لاستحالاته، بل في غالب أحوالهم، لا يغفلون عنه تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ استدلالاً واعتباراً وهو أفضل العبادات، لما رُوي عن ابن عباس «تفكر ساعة خير من قيام ليلة» وأصل الفكر إعمال الخاطر في الشيء، والتفكر إنما يكون بالقلب والروح وهو لا يمكن إلا فيما له صورة في القلب، ولهذا فإنه سبحانه خصّ التفكير في الخلق، ونهى عن التفكير في الخالق، لعدم الوصول إلى كنه ذاته، وصفاته، وقد رُوي عن عبد الله بن سلام قال: «خرج النبي ﷺ على أصحابه وهم يتفكرون، فقال: تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله^(٢)»، قدّم الذكر على التفكير، للتنبيه على أن العقل لا يفي بالهداية، ما لم يتنور بنور ذكر الله، أي يتفكرون في إبداعهما، بما فيهما من عجائب المصنوعات، ولطائف الحكم، ويستدلون بذلك على الصانع ووحدته وقدرته وعلمه، لأن عظم آثاره تدل على عظم مبدعها، كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أي يقولون ذلك، وهذا إشارة إلى السماوات والأرض، متضمنة لضرب من التعظيم، أي ما خلقت هذا المخلوق البديع عبثاً عن الحكمة، خالياً عن المصلحة، بل منتظماً لحكم جليلة، ومصالح عظيمة، من جملتها أن يكون مداراً لمعاش المخلوقات،

(١) الذكر على أقسام: ذكرٌ باللسان، وذكرٌ بالأركان، وذكرٌ بالجَنَان يعني القلب، فالذكر باللسان إنما يكون بالتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، وحمد الله، والثناء عليه بشئ صيغ الذكر، والذكرٌ بالأركان أن تصير الجوارح والأعضاء مشغلةً بالعبادات، متبهةً عن المنهيات، والذكر بالقلب أن يتفكر المؤمن في دلائل القدرة والوحدانية، ويتفكر في مخلوقات الله، ليستدل بها على عظمة الخالق جلّ وعلا كما قال سبحانه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ الآية.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية، وانظر الفتح الكبير ٣٥/٢.

ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي تنزيهاً لك، عما لا يليق بك من الأمور، التي من جملتها خلق ما لا حكمة فيه، ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي احمنا من نار جهنم، كأنهم قالوا: فكّرنا في خلقك، وعرفنا سرّك، وأطعنا أمرك، ونزّهناك عما لا ينبغي، فقنا عذاب النار، الذي هو جزاء الذين لا يعرفون ذلك.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ مبالغة في استدعاء الوقاية، وبيان لسببه، وتصدير الجملة بالنداء للمبالغة في التضرع، وتأكيداً لإظهار كمال اليقين بمضمونها، يقال: أخزاه الله، أي أبعدّه، وأهانّه، وقيل: فضحه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ المراد بالظالمين الكفار، وضع المظهر موضع المضمّر، للدلالة على أن ظلمهم، تسبّب لإدخالهم النار، فالمعنى: ما للظالمين نصيرٌ من الأنصار.

﴿رَبَّنَا إِنَّا أَسَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ حكاية دعائهم المبني على الدليل السمعي، بعد حكاية دعائهم المبني على التفكير في الأدلة العقلية، وفي تنكير المنادي تعظيم لشأنه، والمراد به الرسول ﷺ، وقيل: القرآن، والأول أظهر وأشهر، وإيثاره على الداعي، للدلالة على كمال اعتناؤه بشأن الدعوة، وتبليغها إلى الداني والقاصي، لأن النداء برفع الصوت، ومعناه نداء منادٍ، كما يقول: سمعتُ زيداً، أي سمعتُ قوله ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أي لأجل الإيمان، وهذا أصل بديع، يُصار إليه للمبالغة، في تحقيق السماع، وللإيدان بوقوعه بلا واسطة ﴿أَنۡ ءَامِنُوا﴾ بأن آمنوا ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ بمالككم ومبلغكم إلى الكمال ﴿فَتَأْمَنُوا﴾ أي فامتثلنا أمره، وأجبنا نداءه ﴿رَبَّنَا﴾ تكرير للتضرع، وإظهار لكمال الخضوع^(١) ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي كبائرنا ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أي صغائرنا، وإنما ذكرهما للتأكيد، أي

(١) في هذه الآيات، تعليمٌ من الله لعباده، كيف يدعونه ويبتهلون إليه، وتكرير «ربنا» من باب التضرع، وإظهار كمال الخضوع، وهو مما يوجب حسن الإجابة.

غَطُّ ذُنُوبِنَا فَلَا تَظْهَرِهَا بِالْعِقَابِ عَلَيْهَا ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ أي اقْبَضْ أَرْوَاحَنَا فِي جَمْلَةِ الْأَبْرَارِ وَبِصَحْبَتِهِمْ وَزِمْرَتِهِمْ، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَحِبُّونَ لِقَاءَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَبْرَارَ جَمْعُ الْبَارِ، وَهُوَ الصَّالِحُ الْكَثِيرُ الْبَرُّ الصَّادِقُ فِي قَوْلِهِ وَفَعْلُهُ.

﴿ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْنَا عَلَى رُسْلِكَ ﴾ أي عَلَى السَّنَةِ رُسْلِكَ، جَمَعَ الرُّسُلَ مَعَ أَنَّ الْمُنَادِيَ الرَّسُولَ ﷺ وَحْدَهُ، لَمَّا أَنَّ دَعْوَتَهُ ﷺ مَنْطُوبَةٌ عَلَى دَعْوَةِ الْكُلِّ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا إِنْجَازَ مَا وَعَدَ اللَّهُ، وَاللَّهُ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ، لِأَنَّ مَرَادَهُمْ أَن يَقُولُوا اجْعَلْنَا مِمَّنْ لَهُ الْوَعْدُ، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ بَابِ اللُّجُوءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَقْصِدُونَ بِذَلِكَ التَّذَلُّلَ لِرَبِّهِمْ ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ بِأَن تَعْصِمَنَا عَمَّا يَوْقَعُنَا فِي الْخِزْيِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، قَصَدُوا بِذَلِكَ وَعْدَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ وَالْخِزْيُ: الذُّلُّ وَالْهَوَانُ، وَالْإِخْزَاءُ هُوَ الْإِذْلَالُ بِمَا فِيهِ فَضِيحَةٌ أَوْ عَارٌ ﴿ إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ بِإِثَابَةِ الْمُؤْمِنِ وَإِجَابَةِ الدَّاعِي، وَالْمِيعَادُ: الْوَعْدُ، وَهَذِهِ الدَّعَوَاتُ لَيْسَتْ لَخَوْفِهِمْ مِنْ إِخْلَافِ الْمِيعَادِ، بَلْ مِنْ أَنَّ لَا يَكُونُوا مِنْ جَمْلَةِ الْمُوَعُودِينَ، بِتَغْيِيرِ الْحَالِ، وَسُوءِ الْخَاتَمَةِ.

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ
بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي
وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذْخَلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ نَوَافِلًا ۖ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ۝١١٩﴾

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ دَعَاءُهُمْ، وَصِيغَةُ الْمَاضِي لِلْإِثْبَانِ بِتَحَقُّقِ الْإِجَابَةِ ﴿ أَنِّي ﴾ أَيِّ بَأْنِي، الْبَاءُ لِلْسَّبِيَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ لِسَبَبِ أَنِّي ﴿ لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ ﴾ أَيِ سُنَّتِي مُسْتَمِرَّةٌ عَلَى ذَلِكَ، وَالْمَرَادُ الْإِشْعَارُ بِأَنَّ مَدَارَ الِاسْتِجَابَةِ، أَعْمَالُهُمُ الَّتِي قَدَّمُوهَا، لَا مَجْرَدُ الدَّعَاءِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَضْلَ فِي بَابِ الدِّينِ، بِالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ لَا بِصِفَاتِ الْعَامِلِينَ ﴿ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ﴾ بَيَانٌ لِلْعَامِلِ، وَتَأْكِيدٌ لِعُمُومِهِ ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ أَيِ

الذكور والإناث كائن ﴿مِنْ بَعْضٍ﴾ لأنهما من أصل واحد، ولاتفاقهما في الدين والعمل، روي عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: قلت يا رسول الله ما أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله تعالى الآية^(١) ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ تفصيل لأعمال العمال، وما أعد لهم من الثواب على سبيل المدح، والتعظيم، والمعنى: فالذين هاجروا من الأوطان من أجل الدين ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ التي ولدوا فيها ونشأوا ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِ﴾ بسبب إيمانهم بالله، ومن أجله، وهو متناول لكل أذية نالتهم، بالشتم والضرب والتحقير، ونهب الأموال، فالهجرة كائنة في آخر الزمان، كما كانت في أول الإسلام ﴿وَقَتَلُوا﴾ الكفار في سبيل الله ﴿وَقُتِلُوا﴾ استشهدوا في الجهاد ﴿لَا كُفِرْنَ﴾ جواب قسم محذوف أي والله لا كفر عنهم سقائهم ﴿لأَمْحُوها وَأَسْتَرْها بالمغفرة، وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون ﴿وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتُ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذا ما عبّر عنه الداعون بقولهم: ﴿وَأَتْنَا مَا وَعَدْتَنَا﴾ وتفسير له ﴿ثَوَابًا﴾ مصدر مؤكد أي أثيبهم بذلك إثابة ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تفضلاً منه تعالى ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ الجزاء يختص به جلّ وعلا، ولا يقدر عليه غيره.

﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١١٦﴾ مَتَّعْتُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١١٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزِّلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١١٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَٰبِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣٠٣٢.

﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْاَلَمِ﴾ بالتجارة والكسب، بيان لقبح ما أوتي الكفرة من حظوظ الدنيا، والخطاب لكل أحد ممن يصلح للخطاب، أو للرسول ﷺ والمراد به غيره، والمعنى: لا تنظر إلى ما عليه الكفرة من السعة، والحظ، ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم، ومتاجرهم، ومزارعهم.

روي أن بعض المسلمين كانوا يرون المشركين في رخاء، فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، ونحن في الجهد، والجوع، والبلاء، فنزلت الآية.

﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾ أي ذلك التقلب، متاع يتمتعون به يسيراً في الدنيا ويفنى، أو قليل في جنب ما أعد الله للمؤمنين ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ﴾ أي مصيرهم الذي يأوون إليه ﴿جَهَنَّمَ وَيَتَسَاءَلُونَ﴾ أي ما مهّدوا لأنفسهم، عن عمر بن الخطاب قال: «جئتُ رسول الله ﷺ فإذا هو على حصير، ما بينه وبينه شيء، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيْتُ، فقال: ما يبكيك يا عمر؟ قلت يا رسول الله: إن كسرى وقيصر على فُرُش الديباج والاستبرق، وأنت رسول الله تنام على الحصير؟ فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ أولئك أقوامٌ عَجَّلْتُ لَهُمْ طِبَاءَهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا»^(١).. الحديث.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين ﴿اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ وإيراد التقوى للإشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى والمراد به الاتقاء من الشرك والمعاصي ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ النَّزْلُ: ما يُعَدُّ لِلنَّازِلِ وَالضَّيْفُ، من طعام، أو شراب ونحوها ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي الثواب ﴿خَيْرٌ﴾ لكثرته ودوامه كائن ﴿لِلْآبَرَارِ﴾ مما يتقلب فيه الفجار من متاع الدنيا، لقلته وسرعة زواله، والتعبير عنهم بالأبرار

(١) هذا طرف من حديث رواه الشيخان، وانظر كامل الحديث في فتح الباري ٦٥٨/٨.

للإشعار بأن الصفات المذكورة من أعمال البر، كما أنها من التقوى، التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمنون.

﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين، وقدّم الإيمان بالقرآن، لأنه آخر الكتب الإلهية، ولا يصح إيمان أحد حتى يؤمن بجميع كتب الله ﴿خَلَّشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل يؤمن والجمع باعتبار معنى من ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا يغيرون كتبهم، ولا يكتمون صفته ﷺ لأجل الرياسة، والمتاع القليل ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إليهم بما عُدَّ من صفاتهم الحميدة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي المختص بهم الموعد بقوله تعالى ﴿يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ والمراد به التشريف ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لنفوذ علمه لجميع الأشياء.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ختمت السورة بما يوجب المحافظة عليها فقل ﴿أَصْبِرُوا﴾ على مشاق الطاعة، وتكاليف الدين، وما يصيبكم من الشدائد في الدنيا ﴿وَصَابِرُوا﴾ أي غالبوا أعداء الله، بالصبر في مواطن الحرب، أو على مخالفة الهوى والمعاصي، وتخصيصه بعد الأمر بالصبر لكونها أشد منه وأشق ﴿وَرَابِطُوا﴾ أي أقيموا الثغور رابطين، مترصدين ومستعدين للغزو، وفي الحديث الشريف: «رباطُ يوم في سبيل الله، خير من الدنيا وما عليها»^(١) الرباط مصدر رباط إذا أقام في ثغر من ثغور الإسلام حارساً له من العدو، وعن سلمان «رباط يوم، وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، وإذا مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل» يعني يكتب له أجر رباطه إلى يوم القيامة، وفيه فضيلة مختصة للمرابطين لما

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/٦ في الجهاد، ومسلم رقم ١٨٨٠ وتتمته «وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله - أي رجوعه من الغزو - أو الغدوة، خير من الدنيا وما عليها» وانظر جامع الأصول ٤٧١/٩.

جاء في صحيح مسلم «كل ميت يُختم عليه عمله إلا المرباط^(١)» ﴿وَأَنْقُوا
اللَّهَ﴾ في مخالفة أمره على الإطلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ كي تنتظموا في
زمرة المفلحين، الفائزين بكل مطلوب، الناجين من كل الكرب.

«تم تفسير سورة آل عمران والحمد لله رب العالمين»

(١) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي رقم ١٦٢١ وأما رواية مسلم ١٥٢٠/٣ فهي بلفظ «رباط»
يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعملُه،
وأجرى عليه رزقُه، وأمين الفتان.

سُورَةُ النَّسَاءِ

مدنية وآياتها مائة وسبعون وست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَوْهُ وَلَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب يعُمُّ بني آدم، لأن الناس اسم جمع، دخله الألف واللام فيفيد الاستغراق ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ المعروف عند أهل اللسان تغليب المذكر على المؤنث، ولو لم تدخل الإناث في ذلك، لما شاركن في الأحكام، لثبوت أكثرها بمثل هذه الصيغة، أي خافوا ربكم وعقابه في مخالفة أوامره ونواهيه، والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد الأمر، وتأكيد إيجاب الامتثال، وكذا وصف الرب بقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ لأن خلقه تعالى إياهم على هذا النمط البديع، لإنبائه عن قدرة شاملة لجميع المقدورات وعن نعمة كاملة لا يقادر قدرها وذلك من دواعي الاتقاء، ومن موجبات الانقياد لجميع أوامره ﴿مِنْ نَفْسٍ وَجَدَوْهُ﴾ من أصل واحد، وهو آدم عليه السلام، وكان قبل آدم الملائكة والجن، وأما البشر فكلهم من آدم، وهو أول مخلوق منهم ﴿وَلَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ مسوق لتقرير وحدة المبدأ،

وتفصيل ما أجمل أولاً، والمراد من الزوج «حواء» فقد خلقت من ضلع من أضلاع آدم، كما ورد في الحديث: «إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه»^(١) ولعل الفائدة في خلقها من ضلع، إظهار أنه سبحانه قادر على أن يخلق حياً من حي، لا على سبيل التوالد، كما أنه قادر أن يخلق حياً من جماد، وقيل: المعنى وخلق من جنسها، وهو كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وهو اختيار أبي مسلم، والقول الأول أقوى، لكي يصح قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ولو كان الأمر كما ذهب إليه أبو مسلم، لكان الناس مخلوقين من نفسين، وهو خلاف النص، وخلاف ما نطقت به الأخبار الصحيحة ﴿وَيَتَّ﴾ فرّق ونشر ﴿مِنْهُمَا﴾ آدم وحواء بطريق التوالد ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ كثيرة، والمراد من الرجال والنساء الذكور والإناث، لا البالغين والبالغات ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ تكرير للأمر، وتذكير لبعض آخر من موجبات الامتثال، فإن السؤال باسم الجلالة، يقتضي الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه، وأصل تساءلون: تتساءلون، فحذفت إحدى التائين تخفيفاً ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ أي واتقوا الأرحام فصلوها ولا تقطعوها، وقد قرن سبحانه الأرحام باسمه، على أن صلتها بمكان منه تعالى وفي الحديث: «الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»^(٢) وهذا يحتمل أن يكون إخباراً، وأن يكون دعاءً وعن أنس «من سرّه أن ييسط له في رزقه» أي يكثر رزقه «ويُنْسَأُ» أي يؤخّر «له في أثره» أجله «فليصل رحمه»^(٣) وفي الآية والأحاديث، دليل على تعظيم حق الرحم، والنهي عن قطعها، وللصلة درجات وأدناها ترك المهاجرة، ووصلها بالكلام، ولو كان بالسلام

(١) طرف من حديث أخرجه مسلم رقم ١٤٦٨ والبخاري ٢١٨/٩.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٣٥٠/١٠ ومسلم في البرّ رقم ٢٥٥٥.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٣٤٨/١٠ ومسلم في البرّ رقم ٢٥٥٧ وأبو داود في الزكاة

رقم ١٦٩٣.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ حافظاً مطلعاً على ما يصدر عنكم، من الأفعال والأقوال، وهو وعد ووعيد.

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِّنْهُنَّ وَتِلْكَ أَرْبَعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ٣ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ مَخْلَّةً ٤ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ٥ .

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ الخطاب للأولياء والأوصياء، والمراد بإيتائها تركها سالمة غير متعرض لها بسوء، لا الإعطاء بالفعل، فإنه مشروط بالبلوغ والرشد، وقيل: الإعطاء بالفعل أول بلوغهم قبل أن يزول هذا الاسم ورجح غير واحد الوجه الأول، لقوله تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى﴾ الآية، فإنه كالدليل على أن الآية في الحض على حفظها لهم، ليؤتوها عند بلوغهم ورشدهم ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ﴾ أي ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم، بالحلال من أموالكم، أو الأمر الخبيث وهو اختزال أموالهم، بالأمر الطيب الذي هو حفظها، عبر بذلك تنفيراً عما أخذوه، وتصويراً لمعاملتهم بصورة ما لا يصدر عن العاقل، فحقُّ الأولياء أن يكونوا في المعاملات عاملين لليتيم لا لأنفسهم ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي لا تأكلوها مضافة إلى أموالكم، وظاهر هذا النهي عدم جواز أكل شيء من أموال اليتامى، وقد خصَّ من هذا مقدار أجر المثل، عند كون الولي فقيراً بقوله تعالى: ﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ والمراد بالأكل مطلق الانتفاع، وعبر عنه بذلك، لأنه أغلب أحواله، ومعظم المقصود منه ﴿إِنَّهُ﴾ أي أكل أموالهم ﴿كَانَ حُوبًا﴾ أي ذنباً، ثم وصفه بقوله: ﴿كَبِيرًا﴾ للمبالغة وتهويل أمر المنهي عنه، كأنه قيل إنه من كبار الذنوب العظيمة.

﴿وَلَا تَخْفَتُمْ إِلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمَنِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ شروع في النهي عن منكر آخر كانوا يباشرونه، أي إن خفتن أن لا تعدلوا في يتامى النساء، إذا تزوجتم بهن، فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن، وذلك أنهم كانوا يتزوجون بهن طمعاً في مالهن، ويسيثون المعاشرة ويتربصون بهن أن يمتن فيرثوهن، أخرج البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير، أنه سأل عائشة عن هذه الآية، فقالت: «يا بن أخي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، يشركها في مالها، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد أن يتزوجها، من غير أن يُقسط في صداقها فنهوا أن ينكحوهن، إلا أن يُقسطوا لهن في صداقهن...»^(١) والإقساط العدل والإنصاف، والمراد بالخوف العلم، عبّر عنه بذلك، إيداناً بكون المعلوم مخوفاً ومحذوراً، وفي الآية دليل لجواز نكاح اليتيمة، وهي الصغيرة، إلا عند خوف الجور، والمراد بما طاب لكم: ما مالت له نفوسكم، وقيل: ما حلّ لكم، والتعبير عن الأجنبية بهذا العنوان، فيه من المبالغة في الاستمالة إليهن، والترغيب فيهن، ما لا يخفى ﴿مَتْنٌ وَفُلُكْتَ وَرَبَّعٌ﴾ معناه الإذن لكل ناكح، أن ينكح أي عدد من الأعداد المذكورة. روي أن «غيلان بن سلمة الثقفي»، أسلم وتحتة عشر نسوة، فقال ﷺ له: «أمسك أربعاً، وفارق باقيهن»^(٢) وروي عن قيس بن الحارث الأسدي قال: «أسلمتُ وعندي ثمان نسوة، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: اختر منهن أربعاً»^(٣) وأجمع فقهاء الأمصار على أنه لا يجوز الزيادة على الأربع ﴿فَلَا تَخْفَتُمْ إِلَّا تُقْسِطُوا﴾ بين هذه الأعداد أيضاً^(٤) كما

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٢٣٩/٨ فتح الباري.

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح رقم ١١٢٨ وابن ماجه رقم ١٩٥٣ في النكاح أيضاً.

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق رقم ٢٢٤١ وهو حديث حسن، وانظر جامع الأصول ٥٠٦/١١.

(٤) الحكمة في جواز التعدد، أن الرجل بمقتضى قوته، وبدافع شهوته الطبيعية، قد لا يكتفي بامرأة واحدة، وبخاصة في حالة الحيض والنفاس، فقد لا يستطيع أن يكبح =

خفتم في حق اليتامى ﴿فَوَيْحَةً﴾ فاختاروا واحدة وذرّوا الجمع ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من السراري مهما كان العدد، لأن الاستمتاع بهن بطريق التسري، لا بطريق النكاح ﴿ذَلِكَ﴾ أي اختيار الواحدة، أو التسري ﴿أَذْنًا أَلَّا تَقُولُوا﴾ العول: الميل، من قولهن: عال الميزان إذا مال، وعال الحاكم إذا جار، والمراد هنا الميل المحظور، المقابل للعدل، أي ما ذكر من اختيار الواحدة، أو التسري، أقرب من أن تميلوا ميلاً محظوراً.

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ﴾ أي أعطوا النساء التي أمرتم بنكاحهن ﴿صَدَقْتِهِنَّ﴾ جمع صدقة بفتح الصاد وضم الدال، وهي كالصداق بمعنى المهر ﴿نَحْلَةً﴾ قال ابن عباس وقتادة: فريضة من الله تعالى، لأنها مما فرض الله في الديانة، والتعبير عن الإتيان بالنحلة، مع كونها واجبة، لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا، وطيب خاطر، كأنه قيل: أعطوهنّ مهورهنّ عن طيب أنفسكم وقال الكلبي: عطية من الله تعالى، والنحلة: العطية، والخطاب للأزواج، وقيل: للأولياء، لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم، وهذه عادة كثير من العرب اليوم، وهو حرام كأكل الأزواج شيئاً من مهور النساء، بغير رضاهن ﴿فَإِنْ طَبَنَ﴾ يعني النساء المتزوجات ﴿لَكُمْ﴾ يعني للأزواج ﴿عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ﴾ يعني من المهر ﴿نَفْسًا﴾ أي فإن وهبن لكم شيئاً من الصّداق، عن طيب نفس، من غير أن تضطروهن إلى البذل بسوء معاملتكم، ﴿فَكُلُوهُ﴾ أي فخذوا ذلك الشيء، وتصرفوا فيه، تملكاً ﴿هَيِّئًا

= جماع شهوته، وأن يظل مدة عشرة أيام، أو أربعين يوماً مجتنباً لممارسة الجنس، فلتلا ينحرف بارتكاب فاحشة الزنى، أباح له الإسلام التزوج بامرأة أخرى، ثم إن عدد النساء يزيد على عدد الرجال في أكثر الحالات والبلدان، وذلك داعية إلى انحراف المرأة إذا ما حرمت نعمة الأمومة، وفي ذلك بلايا وكوارث تحل بالمجتمع؛ فلهذه الأسباب وغيرها كان إباحة التعدد علاجاً واقعياً لبعض الحالات الاضطرابية، أما في الغرب فالرجل كل يوم يجد من يقع في أحضانها بطريق الرذيلة ليقضي شهوته البهيمية.

مَرِيئًا ﴿ صفتان من هُنُوِّ الطعامِ وَمَرُوٍّ، إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه، وقيل: الهنيء: الذي يلذه الأكل، والمريء ما يُحمد عاقبته.

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ وَأَنْبَلُوا إِلَيْنِي حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ الخطاب للأولياء، نهوا عن أن يؤتوا المبذرين، من اليتامى الذين لا رُشد لهم أموالهم، مخافة أن يضيعوها، وإنما أضيفت إليهم وهي لليتامى، تنزيلاً لها منزلة أموالهم الخاصة، فكان أموالهم عين أموالهم، مبالغة في حملهم على المحافظة عليها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ﴾ أي بها قوام حياتكم، وصف اليتامى بأنهم سفهاء، باعتبار خفة أحلامهم، واضطراب آرائهم، لما فيهم من الصغر، وعدم التدريب، وأصل السفه: الخِفَةُ، يُقال: تسفت الريح الشجر أي أمالته، وقوله قياماً أي يقومون وتتعشون بها، يعني قواماً لأبدانكم، ومعاشاً لأهلكم وأولادكم وفي الآية إشارة إلى مدح المال، فنعيم المال الصالح للرجل الصالح، وكان السلف يقولون: المالُ سلاح المؤمن، ولأن أترك ما لا يحاسبني الله تعالى عليه، خير من أن أحتاج إلى الناس، وفي الحقيقة لا يمكن القيام بتحصيل مصالح الدنيا والآخرة، إلا بواسطة المال، وبه يتمكن من جلب المنافع ودفع المضار، وسمى الله تعالى في القرآن الخير للمال، فقال: ﴿ وَإِنَّهُ لَحَبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ وأمر بحفظ الأموال فقال:

﴿وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾^(١). ثم قال: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ أي اجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم، بأن تتجروا وترتبحوا، وتحصلوا من نفعها ما تحتاجون إليه، حتى تكون نفقاتهم وكسوتهم من الأرباح، لا من صلب المال، ولذلك قال: «فيها» ولم يقل: «منها» ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْغُوبًا﴾ أي كلاماً تطيب به نفوسهم، كأن يقول الولي لليتيم مالك عندي، وأنا أمين عليه، فإذا بلغت ورشدت، أعطيتك مالك، وقال ابن عباس هو مثل أن يقول إذا ربحت فعلت بك ما أنت أهله.

﴿وَابْتَالُوا أَلَيْتَنِي﴾ شروع في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم، أي واختبروا مَنْ عندكم من اليتامى، بتتبع أحوالهم، في الاهتمام إلى ضبط الأموال، وحسن التصرف فيها، وجربوهم بما يليق بحالهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أي حتى إذا بلغوا سنَّ البلوغ، لأنه يصلح عنده النكاح، والبلوغ يكون بخمسة أشياء، ثلاثة منها يشترك فيها الذكور والإناث، وهي: الاحتلام، والسنُّ، ونباتُ شعر العانة، واثنان يختصان بالأنثى، وهما: الحيض، والحمل، ولم يختلف العلماء فيها إلّا في السن، فقال الشافعي: خمسة عشر سنة، وهو قول أبي يوسف ومحمد ورواية عن أبي حنيفة وعليه الفتوى عند الحنفية، وهذا قول أكثر أهل العلم، وعند مالك سبعة عشر سنة ﴿فَإِنْ أَتَيْتُمْ﴾ أي شاهدتم، وتبينتم، وعرفتم، وقال مجاهد: أحسستم ﴿مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ أي اهتماماً إلى وجوه التصرف، من غير عجز وتبذير وصلاًحاً في المعاملات ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ، وظاهر الآية الكريمة أنه لا يدفع أموالهم إليهم ولو بلغوا ما لم يؤنس منهم الرشد ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ أي لا تأكلوا أموالهم مسرفين مبادرين كبرهم، بأن تسرعوا في إنفاقها وتقولوا: ننفق كما نشتهي، قبل أن يكبر اليتامى، فينتزعوها من أيدينا، والإسراف: التباعد

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٦.

عن الاعتدال في أمور المال^(١)، أو في أمور الدنيا، والمبادرة: المسارعة وتصح المفاعلة فيها بأن يبادر الولي أكل مال اليتيم، واليتيم يبادر نزعه منه، وأصلها من البدار وهو الامتلاء ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي ومن كان من الأولياء والأوصياء غنياً فليكتف نفسه عن أكلها، وليقنع بما آتاه الله تعالى من الغنى، إشفاقاً على اليتيم وإبقاءً على ماله ﴿وَمَنْ كَانَ﴾ من الأولياء والأوصياء ﴿فَقِيْرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر حاجته الضرورية، وأجرة سعيه وخدمته، وفيه ما يدل على أن للوصي حقاً لقيامه عليها، واختلف العلماء في حكم هذه الآية: فروي عن عمر، وابن عباس، أنه يأخذ على وجه القرض، فإن أيسر قضاءه، وقال قوم: لا ضمان عليه، بل يكون ما يأكله كالأجرة له على عمله، لما روي عن ابن عمر أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: ليس لي مال، ولي يتيم، فقال ﷺ: كل من مال يتيمك، غير مسرف ولا متأنل مالا، ومن غير أن تقي مالك بماله^(٢). روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: إني أنزلت نفسي من مال الله تعالى، بمنزلة مال اليتيم، إن استغنيت استعفت، وإن احتجت أخذت منه بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ بعدما راعيتم الشرائط المذكورة ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم قبضوها، فإنه أنفى للتهمة، وأبعد من الخصومة ﴿وَكُنْ بِاللهِ حَسِيبًا﴾ محاسباً، فلا تخالفوا ما أمرتم به، ولا تتجاوزوا ما حُدَّ لكم، والحسيب بمعنى المحاسب، أو الكافي، قال ابن جبير: لا شاهد أفضل من الله عز وجل.

(١) سرف المال إنفاقه في غير منفعة وإن كان قليلاً، قال مجاهد: «لو أنفقت درهماً في معصية الله كنت مسرفاً، ولو كان لرجل مثل جبل أبي قبيس ذهباً أنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفاً» وأخرج أبو نعيم عن عمر بن الخطاب أنه قال: إياكم والبطنة من الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه. وقال طبيب العرب ابن كلداء: المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وأعط كل بدن ما اعتاد.

(٢) أخرجه أبو داود في الوصايا رقم ٢٨٧٢ والنسائي ٢٥٦/٦.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ٧ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٨ وَلِيَخَشِ الَّذِينَ تَلَوْتُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ٩ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ١٠ .

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ شروع في بيان أحكام الموارث، والمراد بالأقربين: المتوارثون منهم ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ إيراد حكمهن على الاستقلال، للاعتناء بأمرهن، والإيدان بأصالتهن في استحقاق الإرث، ولإبطال حكم الجاهلية، فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال، ويقولون: إنما يرث من يحارب، ويذب عن الحوزة والمراد من الرجال، الذكور كباراً أو صغاراً، ومن النساء البنات مطلقاً ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل مما ترك، وفائدته دفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة، كآلات الحرب للرجال، فالآية تفيد أن لكل فريق حقاً في التركة ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي مقطوعاً بأمر الله عز وجل وحكمه.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أي قسمة التركة، ﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ ممن لا يرث، لكونه محجوباً، أو من ذوي الأرحام والقرينة على ذلك ذكر الورثة قبل ذلك ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾ من الأجانب ﴿فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي أعطوهم شيئاً من المال المقسوم، وهو أمر ندب كُلف به البالغون من الورثة، تطيباً لقلوبهم، وتصدقاً عليهم وأما إذا كان الورثة صغاراً فليس إلا قول المعروف، بأن يقول الولي: إني لا أملك هذا المال، وهو لهؤلاء الضعفاء

﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ وهو أن يدعو لهم، ويعتذر من ذلك، ولا يمين عليهم.

﴿ وَلَيْخَشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه، في أمر اليتامى، فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذرايرهم الضعاف، بعد وفاتهم، والمقصود من الأمر، أن لا يضيعوا اليتامى، حتى لا تضيع أولادهم، وإن راعوا الأمر، حفظ الله أولادهم ﴿ فَلْيَسْتَقُوا اللَّهَ ﴾ في ذلك ﴿ وَلْيَقُولُوا ﴾ لليتامى ﴿ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ وإنما أمرهم بالتقوى التي هي غاية الخشية، مراعاة للمبدأ والمنتهى، ثم أمرهم بأن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم، بالشفقة وحسن الأدب، ومحاسن الأفعال، والقول السديد: هو الموافق للشرع والعقل.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا ﴾ وإنما علق الوعيد على الأكل ظلماً، لأنه قد يؤكل على وجه الاستحقاق، كالأجرة، والقرض، فلا يكون ظلماً ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ أي ملأ بطونهم ما يجرؤ إلى النار ويؤدي إليها، وفي حديث الإسراء قال: «نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار، فيقذف في أجوافهم حتى تخرج من أسافلهم، ولهم خوار وصراخ، فقلت يا جبريل: من هؤلاء قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً»^(١) ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ سيدخلون ناراً هائلة، يقال: صلى النار قاس حرها وصلبته شويته وأصلبته وصلبته ألقيته فيها، والسعير فعيل بمعنى مفعول من سعرت النار ألهبته، روي أنه لما نزلت هذه الآية، ثقل ذلك على الناس، واحترزوا عن مخالطة اليتامى وأموالهم، فشق ذلك على اليتامى، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمْ فَإِيَّاكُمْ ﴾ الآية.

(١) هذا طرف من حديث الإسراء الطويل أخرجه ابن أبي حاتم، وابن جرير الطبري.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِلنِّسَاءِ ثُلُثُ مَا كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١﴾ .

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ شروع في تفصيل أحكام الموارث المجملة في قوله تعالى: ﴿للرجال نصيب﴾ الآية، أي يأمركم ويعهد إليكم وعدل عن الأمر إلى الإيضاء، لأنه أبلغ وأدل على الاهتمام، وطلب الحصول بسرعة ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أي ميراث أولاد كل واحد منكم، ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي للذكر منهم حظ مثل حظ الأنثيين، والبداية ببيان حكم الذكر، لإظهار مزيته، وإثبات اسمي الذكر والأنثى، للتخصيص على استواء الكبار والصغار في الاستحقاق، من غير دخل للبلوغ والكبر، كما هو زعم الجاهلية، حيث كانوا لا يورثون الأطفال والنساء، والمراد حال الاجتماع، وأما في حال الانفراد، فالابن يأخذ المال كله ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ أي إن كان الأولاد نساء خُلصاً ليس معهن ذكر، ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي نساء زائدات على اثنتين ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ المتوفى ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ أي امرأة واحدة، ليس معها أخ ولا أخت ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ مما ترك ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي لأبوي الميت ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي للأب السدس وللأم السدس ﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي للميت ﴿وَلَدٌ﴾ أو ولد الابن، ذكراً كان أو أنثى، واحداً كان أو متعدداً، غير أن الأب في صورة الأنوثة، بعدما أخذ فرضه المذكور، يأخذ ما بقي بالعصوبة ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾ ولا ولد ابن ﴿وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ﴾ فحسب ﴿فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ مما ترك، والباقي للأب، هذا إذا لم يكن معهما أحد الزوجين، أما إذا كان معهما ذلك، فللأم ثلث ما بقي

بعد فرض أحدهما، لا ثلث الكل فإنه يفضي إلى تفضيل الأم على الأب، مع كونه أقوى منها في الإرث، وذلك خلاف وضع الشرع، فقد أخرج البيهقي عن عكرمة قال: أرسلني ابن عباس إلى زيد بن ثابت أسأله عن زوج وأبوين، فقال زيد: للزوج النصف وللأم ثلث ما بقي، وللأب بقية المال، فأرسل إليه ابن عباس أفي كتاب الله تجد هذا؟ قال: لا، ولكن أكره أن أفضل أمّاً على أب ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ أي عدد ممن له إخوة، سواء كانت من جهة الأبوين، أو من جهة أحدهما، وسواء كانوا ذكوراً أو إناثاً، أو مختلطين، وسواء كان لهم ميراث أو كانوا محجوبين بالأب ﴿فَلِأُمَّةٍ الشُّدُشْ﴾ أي سندس التركة لا الثلث ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ﴾ أي بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ديونه، فلا تُقسم التركة إلا بعد إخراج الوصية، وسداد الديون عن الميت. ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ الجملة مؤكدة لأمر القسمة، والآباء والأبناء عبارة عن الورثة، الأصول والفروع، والخطاب للمورثين، وتوجيه ذلك أنه تعالى بين القسمة، وكانت الأنصاء مختلفة، والعقول لا تهتدي إلى كمية ذلك، فربما يخطر للإنسان أن القسمة لو وقعت على غير هذا الوجه كانت أنفع وأصلح، كما تعارفه أهل الجاهلية، حيث كانوا يورثون الرجال الأقوياء، ولا يورثون الصبيان والنسوان، فأنكر الله تعالى عليهم، ما عسى أن يخطر ببالهم من هذا القبيل، وأشار إلى قصور أذهانهم، فكأنه قال: إن عقولكم لا تحيط بمصالحكم، فلا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم، في عاجلكم وأجلكم، فاتركوا تقديركم بعقولكم، وكونوا مطيعين لأمر الله تعالى، فإنه العالم بمغيبات الأمور وعواقبها ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ أي فرض ذلك فريضة من الله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ أي بالمصالح والرتب ﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما قضى وقدر، والخبر عن الله تعالى بمثل هذه الألفاظ، كالخبر بالحال والاستقبال، لأنه تعالى منزّه عن الدخول تحت الزمان، أي لم يزل موصوفاً بهذه الصفات.

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ﴾
فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ
يُوصِيَتُ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ
وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ
وَصِيَّتِهِ تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ
أَمْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ
مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٌ غَيْرَ
مُضَاكَرٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ .

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ﴾ أي زوجاتكم ﴿ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ﴾ ذكرًا كان أو أنثى، واحداً كان أو متعدداً، منكم كان أو من غيركم، من بطنها أو من صلب بنيتها أو بني بنيتها وإن سفل، لأن لفظ الولد ينتظم الجميع، والباقي لورثتهن من ذوي الفروض والعصبات ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ ﴾ على ما فصل من التفصيل ﴿ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ ﴾ من المال، والباقي للورثة ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِيَتُ بِهَا أَوْ دَيْنٌ ﴾ متعلق بكلتا الصورتين والكلام فيه مرّ آنفاً ﴿ وَلَهُنَّ ﴾ أي للزوجات، تعدّدن أو لا ﴿ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ﴾ على التفصيل المتقدم ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تَوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ ﴾ فرض للرجل ضعف ما فرض للمرأة، كما في النسب لاحتياجه إلى المال أكثر منها ﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ ﴾ المراد بالرجل: الميِّت ﴿ يُورِثُ كَلَلَةً ﴾ هي في الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو الإعياء، ثم استعيرت للقراية من غير جهة الوالد والولد، لضعفها بالنسبة إلى قرابتهما، وتطلق على من لم يخلّف والداً ولا ولداً، وعلى ما ليس بوالد ولا ولد، ﴿ أَوْ أَمْرَأَةً ﴾ أي امرأة تورث كذلك ﴿ وَلَهُ ﴾ أي للرجل أو لكل منهما ﴿ أَخٌ أَوْ أُخْتُ ﴾ من

الأم فقط، وعلى ذلك عامة المفسرين، وأخرج غير واحد عن سعد بن أبي وقاص أنه كان يقرأ «وله أخ أو أخت من أمه» وإن كانت هذه القراءة شاذة، إلا أن كثيراً من العلماء استند إليها، بناءً على أن الشاذة من القراءة إذا صح سندها كان كخبر الواحد في وجوب العمل به ﴿فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا﴾ أي الأخت والأخ ﴿السُّدُسُ﴾ مما ترك، من غير تفضيل للذكر على الأنثى، لأن الإدلاء على الميت بمحض الأنوثة ﴿فَإِنْ كَانُوا﴾ أي الأخوة والأخوات من الأم، والتذكير للتغليب ﴿أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي أكثر من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾ يقتسمونه بالسوية، والباقي لباقي الورثة، وهذا مما لا خلاف فيه لأحد من الأمة ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾ أي من غير ضرار لورثته، فلا يقر بحق ليس عليه، ولا يوصي بأكثر من الثلث، فالدين هنا مقيد بالوصية، كأنه قال: أو دين يوصي به وعن ابن عباس أن الإضرار بالوصية من الكبائر، لحديث: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله، فيدخل النار»^(١) الحديث ﴿وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي يوصيكم الله بذلك وصية، والتنوين للتفخيم ونظير ذلك (فريضة من الله) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما دبره لخلقه من الفرائض ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فلا يَغْتَرَّنَ المضار بالإمهال.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ^(١٤).

(١) أخرجه الترمذي في الوصايا رقم ٢١١٨ وأبو داود في الوصايا كذلك رقم ٢٨٦٧ ولفظ الترمذي: «إن الرجل ليعمل والطاعة لله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية، فتجب لهما النار» ثم قرأ أبو هريرة «من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار».

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام التي قدمت في أمر اليتامى والوصايا والموارث ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ شرائعه التي هي كالحدود التي لا يجوز مجاوزتها وأطلقت عليها الحدود لشبهها بها من حيث إن المكلف لا يجوز له أن يتجاوزها إلى غيرها ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في جميع الأوامر والنواهي، التي من جملتها ما فصل ههنا ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ﴾ دخول الجنة ﴿الْفَوْزُ الْمَغْظِيُّ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمر به الأحكام، ولو في بعض الأوامر والنواهي، وقال ابن جريج: من لا يؤمن بما فصل سبحانه من الموارث، وحكي مثله عن ابن جبير ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ شرائعه المحدودة في جميع الأحكام استحقاقاً ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ هائلة عظيمة لا يُقادر قدرها ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ ولعل إيثار الأفراد ههنا ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ واختيار الجمع هناك ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ للإيذان بأن الخلود في دار الثواب، بصفة الاجتماع، أجلب للأنس، كما أن الخلود في دار العذاب، بصفة الأفراد أشد في استجلاب الوحشة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي مذلٌّ له أي وله عذاب جسماني، وعذاب آخر لا يعرف كنهه، وهو العذاب الروحاني كما يؤذن به وصفه. وفي ختم آيات الموارث بهذه الآية، إشارة إلى عظم أمر الميراث، ولزوم الاحتياط، وعدم الظلم فيه، لحديث «من قطع ميراثاً فرضه الله ورسوله، قطع الله ميراثه من الجنة»^(١).

(١) أخرجه ابن ماجه بلفظ «من قرَّ من ميراث وارثه، قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة» سنن ابن ماجه، أبواب الوصايا رقم ٢٧٣٥ باب الحيف في الوصية.

﴿وَالَّتِي يَأْتِيكَ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ ١٥ ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ ١٦ .

﴿وَالَّتِي يَأْتِيكَ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ شروع في بيان بعض الأحكام، المتعلقة بالرجال والنساء، واللاتي جمع التي على غير قياس، وقيل هي صيغة موضوعة للجمع، والفاحشة: الفعلُ القبيحة، يراد بها الزنا، لزيادة قبحه، أي والنساء اللاتي يفعلن الزنا، أي يزني ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ أي فاطلبوا أن يشهد عليهن، بإتيانهنَّ الفاحشة، أربعة منكم أي من رجال المؤمنين وأحرارهم، ويشترط في هذه الشهادة العدالة، والذكورة، واشترط الأربعة في الزنا تغليظاً على المدعي، وسترأ على العباد ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ عليهن بالإتيان ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ فاحبسوهن عقوبة لهن ﴿فِي الْبُيُوتِ﴾ واجعلوها سجنأ عليهن ﴿حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ إسناد التوفي إلى الموت، باعتبار تشبيهه بشخص يفعل ذلك، والكلام على حذف المضاف، والمعنى: حتى يقبض أرواحهنَّ الموت ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي مخرجاً من الحبس، بما يشرعه من الحد لهن وكان ذلك عقوبتهن في أوائل الإسلام، ففسخ بالحد.

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾ هما الزاني والزانية، وقال ابن زيد: أراد بهما البكران، ويؤيد ذلك كون عقوبتهما أخف من الحبس المخلد، وبذلك يندفع التكرار ﴿فَأَذَوْهُمَا﴾ بالتوبيخ والتفريع ﴿فَإِنْ تَابَا﴾ عما فعلا من الفاحشة بسبب الإيذاء ﴿وَأَصْلَحَا﴾ أعمالهما ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي اصفحوا عنهما، وكفوا عن أذاهما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾ مبالغاً في قبول التوبة ﴿رَحِيمًا﴾ واسع الرحمة، والخطاب هنا للحكام.

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ١٧ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَكُنْ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ١٨ .

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ ﴾ أي إن قبول التوبة ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ وليس به الوجوب، إذ لا يجب على الله تعالى شيء، ولكنه تأكيد للوعد، يعني أنه يكون لا مَحَالَةً، كالواجب الذي لا يُتْرَك وقيل «على» بمعنى «عند» وعليه الطبري أي إنما التوبة عند الله ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ ﴾ المراد بالسوء المعصية، صغيرة أو كبيرة ﴿ بِجَهْلَةٍ ﴾ أي يعملون السوء ملتبسين بها سفهاً، وليس المراد به عدم العلم بكونه سوءاً، بل عدم التفكير في العاقبة، كما يفعله الجاهل ﴿ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ من زمان قريب، وهو ما قبل حضور الموت، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ فإنه صريح في أن وقت الاحتضار، هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة وفي الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(١). وفي الإتيان بضم إيذان بسعة عفوه تعالى ﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾ المتصفون بما ذكر ﴿ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وهذا وعد بالوفاء بما وعد أولاً فلا تكرار ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ مبالغاً في العلم والحكمة، فيبني أحكامه وأفعاله على أساس الحكمة والمصلحة.

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ ﴾ على الله ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ جمع السيئات باعتبار تكرر وقوعها، لا لجميع أنواعها ﴿ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ بأن شاهد الأحوال التي لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا ﴿ قَالَ ﴾

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٣١ وأحمد في المسند رقم ٦٦٦٠ والحاكم في المستدرک ٢٥٧/٤ من حديث ابن عمر، وهو حديث حسن.

إِنِّي نَبْتُ الْفَنِّ ﴿١﴾ أَيِ هَذَا الْوَقْتِ الْحَاضِرِ، ﴿٢﴾ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴿٣﴾ أَيِ وَلَيْسَ قَبُولُ التَّوْبَةِ لِهَؤُلَاءِ الْعَصَاةِ، وَلَا لِلَّذِينَ يَمُوتُونَ كُفَّارًا، وَذَكَرَ هَؤُلَاءِ، مَعَ أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لَهُمْ رَأْسًا، مِبَالِغَةً فِي بَيَانِ عَدَمِ قَبُولِ تَوْبَةِ الْمُسَوِّفِينَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ ﴿٥﴾ الْمَذْكُورُونَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿٦﴾ أَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴿٧﴾ أَيِ هَيَاثَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ مُوجَعًا، وَالْإِعْتَادُ: التَّهْيِئَةُ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَقْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١١﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ هَذَا نَهَى عَنْ أَعْمَالِ الْجَاهِلِيَّةِ. رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ إِذَا مَاتَ قَرِيبٌ رَجُلٍ، يَلْقَى ثَوْبَهُ عَلَى امْرَأَتِهِ، أَوْ عَلَى خِبَائِهَا فَيَمْنَعُهَا مِنَ النَّاسِ، فَإِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ كَانَتْ دَمِيمَةً حَبَسَهَا حَتَّى تَمُوتَ فَيَرِثَهَا، وَإِنْ شَاءَ زَوَّجَهَا غَيْرَهُ وَأَخَذَ صَدَاقَهَا، فَنَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ ذَلِكَ ﴿وَلَا تَقْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ الْخُطَابُ لِلزَّوْجِ، وَالْعَضْلُ: الْحَبْسُ وَالتَّضْيِيقُ، أَيِ وَلَا أَنْ تَضْيَقُوا عَلَيْهِنَّ، لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ مِنَ الصَّدَاقِ، بِأَنْ يَدْفَعَنَّ إِلَيْكُمْ بَعْضُهُ اضْطِرَارًا ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ الْمُرَادُ بِالْفَاحِشَةِ هُنَا: النِّشُوزُ وَسُوءُ الْخُلُقِ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَابْنُ عَبَّاسٍ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنْ الْمُرَادُ بِهَا الزَّنا، وَفِي الْآيَةِ إِبَاحَةُ الْخُلْعِ عِنْدَ النِّشُوزِ، لِقِيَامِ الْعَذْرِ، بِوُجُودِ السَّبَبِ مِنْ جِهَتِهِنَّ ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾

خطاب للذين يسيئون العشرة معهن، والمعروف ما لا ينكره الشرع والمروءة، والمراد ههنا: النصفة في المبيت، و النفقة، والإحسان في المقال، والفعل، ونحو ذلك ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ أي كرهتم صحبتهم، من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك، فلا تفارقوهن، بمجرد كراهة النفس، واصبروا على معاشرتهم ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ كالولد الصالح، أو الإلفة والمحبة، وبذلك قال ابن عباس ومجاهد، والمعنى: فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً، وفيه من المبالغة في الحمل على ترك المفارقة، وتعميم الإرشاد ولذا استدل بالآية، على أن الطلاق مكروه ومبغوض عند الله.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ﴾ إقامة امرأة ترغبون فيها ﴿مَكَانَ زَوْجٍ﴾ أي امرأة ترغبون عنها، بأن تطلقوها ﴿وَأَتَيْتُمْ﴾ أي أعطى أحدكم ﴿إِحْدَهُنَّ﴾ أي إحدى الزوجات التي تريدون أن تطلقوها وتجعلوا مكانها غيرها ﴿فَنَظَارًا﴾ أي مالا كثيراً ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾ أي من القنطار ﴿شَيْئًا﴾ يسيراً فضلاً عن الكثير ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ مسوق للتفسير عن المنهي عنه، والبهتان: الكذب الذي يبهت المكذوب عليه ويدهشه، وقد يستعمل في الفعل الباطل، ولذلك فسر ههنا بالظلم، وكان في الجاهلية إذا أراد أحدهم أن يتزوج امرأة، بهت التي تحته بفاحشة، حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها، ليصرفه إلى تزوج الجديدة، فنهوا عن ذلك.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ إنكار بعد إنكار، وقد بولغ فيه، حيث وجه الإنكار إلى كيفية الأخذ، إيذاناً بأنه مما لا سبيل له إلى التحقق ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي على أي حال تأخذونه، والحال أنه قد جرى بينكم وبينهن، أحوالٌ منافية له، من الخلوة، والاستمتاع بهن بالمغازلة والمعاشرة الزوجية، قال ابن عباس: «الإفضاء في هذه الآية: الجماع، ولكن الله كريم يكني» وهذه كناية لطيفة ﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا

غَلِيظًا ﴿ أَي عَهْدًا وَثِيقًا وَهُوَ مَا أُوثِقَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ﴾ وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ»^(١).

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾
 إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ
 أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ
 وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ
 الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ
 نِسَائِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا
 جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْنَابِكُمْ وَأَنْ
 تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا
 رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ
 اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ
 مُسَفِّحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا
 جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
 حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ﴾ شروع في بيان من يحرم نكاحها من النساء مبالغة في الزجر عنه، حيث كان ذلك ديدناً لهم، فقد كان الرجل في الجاهلية، إذا توفي عن امرأته، كان ابنه أحق بها من نفسها، إن شاء أن ينكحها إن لم تكن أمه، أو يُنكحها من شاء، فلما مات أبو قيس،

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه مسلم في خطبة حجة الوداع، رقم ١٢١٨.

قام ابنه حصن، فورث امرأته، ولم ينفق عليها، ولم يورثها من المال شيئاً فأتت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: ارجعي لعل الله ينزل فيك شيئاً، فنزلت ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ الآية، واسم الآباء ينتظم الأجداد، فثبت حرمة ما نكحوها نصاً وإجماعاً، والمعنى: ولا تنكحوا التي نكحها آباؤكم بعقد صحيح، ودخل بها ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ بيان لمن نكح كأنه قيل: أي امرأة كانت ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَكَفْتُ﴾ فإنه موجب للعقاب، إلا ما قد مضى فإنه معفو عنه، حيث إن الإسلام يهدم ما قبله ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فَحِشَّةً وَمَقْتًا﴾ بيان لكون المنهي عنه في غاية القبح، وأنه لم يزل في حكم الله موصوفاً بذلك، وقد كان هذا النكاح يسمى في الجاهلية «نكاح المقت» أي مبعوض ومستحقر ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي بئس طريقاً ذلك النكاح المشؤوم ومما يدل على فظاعة أمره، ما أخرجه أحمد والحاكم، والبيهقي عن البراء، قال: لقيت خالي ومعه الراية، قلت: أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده، فأمرني أن أضرب عنقه، وأخذ ماله^(١).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ ليس المراد به تحريم ذواتهن، بل تحريم نكاحهن، والأمهات تعم الجدات وإن علون، والبنات تتناول بناتهن، وإن سفلن، والأخوات يتضمن الأخوات الشقيقات أو من الأب، أو الأم، والعمة كل أنثى ولدها من ولد والدك، والخالة كل أنثى ولدها من ولد والدتك، قريباً أو بعيداً، وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القربى والبعدى، وكل امرأة حرّم الله نكاحها بالنسب فحرمتها مؤبدة ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ والرضاعة بفتح الراء والرضاعة بالكسر، معناها مصّ الثدي، وشرعاً مصّ الرضيع من ثدي الأدمية في المدة، وهي سنتان، وقد نزل الله سبحانه الرضاعة منزلة النسب، حتى سمى المرضعة أمّاً للرضيع ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾

(١) أخرجه أحمد، والحاكم، والبيهقي من حديث البراء بن عازب، المسند ٢٩٢/٤.

والمراضعة أختاً، وكذلك زوج المرضعة أبوه، وقد قال ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»^(١) وظاهر الآية أنه لا فرق بين قليل الرضاع، وكثيره في التحريم ﴿وَأَمْهَنَتْ نِسَائِكُمْ﴾ شروع في بيان المحرمات من جهة المصاهرة، والمراد بالنساء الزوجات المنكوحات على الإطلاق، سواء كنَّ مدخولاً بهنَّ أو لا، وهو مجمع عليه عند الأئمة الأربعة وهنَّ محرماتٍ بمجرد العقد، لكنَّ يُشترط أن يكون النكاح صحيحاً، ويدخل في لفظ الأمهات الجدات من قبل الأب والأم، وإن علون ﴿وَرَبِّبْتُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ الربائب جمع ربيبة وهي ولد المرأة من زوج آخر، لأنه يربيها غالباً كما يربي ولده، وإن لم يكن ذلك أمراً مطرداً وهو المعنى في الحجور، والحجور جمع حجر بالفتح والكسر، وهو في اللغة حضنُ الإنسان، وقالوا فلان في حجر فلان أي كنفه وَمَنْعَتِهِ، وهو المراد في الآية، ووصف الربائب بكونهن في الحجور، خارج مخرج الغالب، وليس بشرط، وفائدته تقوية علة الحرمة، كما أنها النكته في إيرادهن باسم الربائب، دون بنات النساء ويدخل في الحرمة بنات الربيبة، والريب، وإن سفلن ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ اللاتي صفة للنساء وهي للتقيد، إذ ربيبة الزوجة غير المدخول بها ليست بحرام، ومعنى الدخول بهن إدخالهن الستر، وهي كناية عن الجماع، كقولهم: بنى عليها ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أصلاً أي بأمهات الربائب ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي فلا إثم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في نكاح الربائب، إذا فارقتموهن أو متن، وفيه إشارة إلى أن المعتبر في الحرمة، هو الدخول لا غيره ﴿وَحَلَلْتُ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي زوجاتهم جمع حليلة، سميت الزوجة بذلك لحملها للزوج، وكذا يقال للزوج: حليلٌ، إذ كلُّ منهما حلالٌ لصاحبه، ثم يراد بالأبناء الفروع، فتحرم حليلة الابن السافل على الجد الأعلى، وكذا ابن البنت وإن سفل ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ لإخراج

(١) أخرجه البخاري في النكاح ١٤٠/٩ ومسلم في الرضاع رقم ١٤٤٧.

الأدعياء من التبنّي ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ المراد به جمعهما في النكاح، لا في ملك اليمين، روي أن رجلاً سأل عثمان عن أختين مملوكتين لرجل، هل يجمع بينهما؟ فقال عثمان: أحلتها آية وهي قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وحرمتها آية، فأما أنا فلا أحب أن أضيع ذلك^(١) فرجع علي التحريم، وعثمان التحليل، وقول علي أظهر، ويشترك في هذا الحكم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، لقوله ﷺ: «لا تُنكح العمة على ابنة الأخ، ولا ابنة الأخت على الخالة»^(٢) لأن ذلك يفضي إلى قطيعة الرحم، ولا فرق بين كونهما أختين من النسب، أو الرضاعة ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء منقطع أي لكن ما قد مضى لا تؤخذون به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي ساتراً لذنوب عباده، يغفر لهم ما حصل قبل التحريم، رحيماً بعباده ولذلك لم يعاقبهم.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ هنّ ذوات الأزواج، أحصنهنّ الزوج عن الوقوع في الحرام، والإحصان ورد في القرآن بأربعة معان: الأول: الزوج كما في هذه الآية، الثاني: العفة كما في قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ الثالث: الحرية، كما في قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الرابع: الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَيَّ أَسْلَمْنَ﴾ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي حرمت عليكم المحصنات، إلا المحصنات اللاتي ملكتموهن فتحل بملك اليمين بعد الاستبراء ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي كتب الله عليكم تحريم هؤلاء كتاباً، وفرضها فرضاً، وهو تحريم ما حرم الله تعالى من النساء ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي أحل لكم نكاح ما سواهن ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ أي بين لكم تحريم المحرمات، أي إحلال ما سواهن، إرادة أن تبتغوا النساء ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ بأن

(١) أخرجه مالك في الموطأ.

(٢) أخرجه مسلم في النكاح رقم ١٤٠٨ وفي رواية أخرى «نهى رسول الله ﷺ أن يجمع الرجل بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها».

تصرفوها إلى مهورهن ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أي أَعْقَاءَ متزوجين بطريق شرعي ﴿عَيْرَ مُسْتَفْجِينَ﴾ السفاح: الزنا من السفح وهو صب الماء، وسمي الزنا به لأنه لا غرض له إلا الصب فقط لتفريغ الشهوة، وفي الآية دليل على أن النكاح لا يكون إلا بمهر، وأنه يجب وإن لم يُسم، وأن غير المال لا يصلح مهراً، وقال بعض الشافعية: يجوز النكاح على ما ليس بمال، ويؤيده «أذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن» وروى البخاري عنه قال جاءت امرأة فقالت يا رسول الله: إني وهبت نفسي لك، فقام رجل فقال زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة؟ فقال: «هل عندك ما تصدقها إياه؟» فقال: ما عندي إلا إزار، فقال ﷺ: هل معك شيء من القرآن؟ قال: نعم، سورة كذا، وكذا، قال ﷺ: زوجتكها بما معك من القرآن»^(١) قيل: الحديث يدل على جواز تعليم القرآن صداقاً، لأن الباء تقتضي المقابلة في العقود، وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: لا يكون التعليم مهراً، والتعليم ليس له ذكر في الخبر، فيجوز أن يكون مراده ﷺ زوجتك تعظيماً للقرآن، ولأجل ما معك منه ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ أي استمتعتم بالنكاح من النساء، والسين للتأكيد لا للطلب، قال الحسن ومجاهد: معناه ما انتفعتم وتلذذتم بالجماع بنكاح صحيح ﴿فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ مهورهن إنما سمي أجراً لأنه بدل المنافع ﴿فَرِيضَةً﴾ بمعنى مفروضة أي فريضة فرضها الله عليكم ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ أي لا إثم ﴿عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ﴾ من الحط عن المهر، أو الإبراء منه ﴿مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ أي الشيء المقدر، وقيل: الآية في المتعة، وهي النكاح إلى أجل معلوم، من يوم أو أكثر وإلى ذلك ذهبت، الشيعة الإمامية، ولا نزاع عندنا في أنها أُحِلَّت ثم حُرِّمَتْ، وكان هذا في ابتداء الإسلام، وأنه ﷺ لم يكن أباحها وهم في بيوتهم، وإنما أباحها لهم في أوقات الضرورات، حتى حرَّمها عليهم في آخر الأمر، تحريم تأييد، لما روي عن علي كرم الله وجهه قال: «نهى رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ١٥١/٩.

عن متعة النساء..»^(١) الحديث. وعن سبرة الجهني، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إني كنت أذنُّ لكم في الاستمتاع من النساء، وإنَّ الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة..»^(٢) الحديث. وإلى هذا ذهب جمهور العلماء، من الصحابة ومن بعدهم، واحتج الجمهور على حرمة المتعة بوجوه: أولاً: إن الوطء لا يحل إلا في الزوجة أو المملوكة لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾^(٣) والمرأة المتمتع بها ليست مملوكة، ولا زوجة، لانتفاء لوازم الزوجية كال ميراث، والعدة، والطلاق، والنفقة فيها. ثانياً: إنه تعالى قال: ﴿مُحْصِنِينَ﴾ والإحصان لا يكون إلا في النكاح الصحيح، ثالثاً: وقال تعالى: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ والمتعة لا يراد بها إلا سفح الماء، فكان سفاحاً، ولذا تجد المتمتع بها، في كل شهر تحت سافح، وفي كل سنة بحجرٍ ملاعب ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرع لهم، ومن ذلك النكاح الذي يحفظ الأموال والأنساب.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَتِ الْمُؤْمِنَتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَتِكُمُ الْمُؤْمِنَتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٣٦٩/٧ ومسلم في النكاح رقم ١٤٠٧ ولفظه كما في الصحيحين أن علياً قال لابن عباس: إن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحُمُر الإنسية.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٤٠٦ وأبو داود رقم ٢٠٧٢ في كتاب النكاح.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٥ و٦.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ المراد بالطول: الغنى والسعة، وبذلك
فسره ابن عباس ومجاهد وأصله الفضل والزيادة ﴿أَنْ يَصْحَحَ الْمُحْصَنَاتِ
الْمُؤْمِنَاتِ﴾ حرائر المسلمات، بدليل مقابلتهن بالمملوكات، فإن حريتهن
أحصنتهن عن ذل الرق والابتدال ﴿فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي فلينكح ما
ملكته أيمانكم ﴿مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي من الإماء المسلمات، والفتى:
العبد، والأمة فتاة والمعنى: ومن لم يستطع سعة في المال، يبلغ بها نكاح
الحرّة، فلينكح أمة، وظاهر النظم الكريم، يفيد عدم جواز نكاح الأمة
للمستطيع، كما ذهب إليه الشافعي للشرط المذكور في الآية الكريمة
﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ جملة معترضة جيء بها لتأنيسهم بنكاح الإماء، ببيان
أن مناط التفاضل، ومداد التفاخر، هو الإيمان دون الأحساب والأنساب،
على ما نطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ والمعنى: إنه
تعالى أعلم منكم بمراتبكم في الإيمان، ورب أمة يفوق إيمانها إيمان
الحرائر، فليكن هو مطمح نظركم ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي لا تستنكفوا من
نكاح الإماء فكلكم بنو آدم، ودينكم دين الإسلام وهو تحذير عن التعبير
بالأنساب ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ﴾ إعادة الأمر لزيادة الترغيب ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي واذ
وقفت على جليلة الأمر فانكحوهن بإذن مواليهن، وهذا الإذن شرط لجواز
نكاح الأمة فلا يجوز بلا إذن، والمراد بعدم الجواز عدم النفاذ، مثل ذلك
نكاح العبد، فقد قال النبي ﷺ «أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ مُوَالِيهِ فَهُوَ
عَاهِرٌ»^(١) والعهر الزنا ﴿وَأَنْتَوُهْنَ أَجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي
أدوا إليهن من غير مماطلة وإضرار ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ أي حال كونهن عفاف
عن الزنا ﴿غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ﴾ أي غير مجاهرات بالزنا ﴿وَلَا مُتَّخَذَاتٍ
أَخْدَانٍ﴾ الأخدان: الأصدقاء على الفاحشة أي مسوّات به، وكان الزنا في
الجاهلية منقسماً إلى سرّ، وعلانية، وكانوا يحرمون ما ظهر منه،

(١) أخرجه أبو داود رقم ٢٠٧٨ والترمذي رقم ١١١٢ في كتاب النكاح.

ويستحلّون ما خفي، ويقولون: لا بأس به، ولتحريم القسمين نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ﴾ بالأزواج، وذهب كثير من العلماء، إلى أن المراد من الإحصان: الإسلام، لا الزوج ﴿فَإِنْ أَتَيْتُمْ بِفَحِشَةٍ﴾ أي فعلن فاحشة الزنا، وثبت ذلك ﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾ فثبت عليهن شرعاً ﴿يُضْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي الحرائر الأبكار ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي الحد الذي هو جلدٌ مائة، فنصفه خمسون جلدة، ولا رجم عليهن، لأنه لا يُنصف، ويُجلد العبد للزنا خمسين جلدة، ولا فرق بين المتزوج وغير المتزوج، وعُلم هذا بدلالة النص، وقال بعضهم: يُجلد كالحر لعموم قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ الآية والآية المنصّفة في الإماماء، والصحيح الأول ﴿ذَلِكَ﴾ أي نكاح الإماماء ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أي لمن خاف الزنا بسبب غلبة الشهوة عليه، وهو ماثور عن ابن عباس، وهو شرط آخر، لجواز تزوج الإماماء عند الشافعي، ومذهب الإمام الأعظم ليس بشرط، وإنما هو إرشاد للأصلح ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾ أي وصبركم عن نكاح الإماماء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من نكاحهن، وإن رُخص لكم فيه، لما فيه من تعريض الولد للرق، ولأن حق المولى فيه أقوى، فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر، والمولى يقدر على استخدامها كيفما يريد، في الحضر والسفر، وعلى بيعها للحاضر والباد، وفي ذلك مشقة عظيمة على الأزواج، ولا يكاد يتحمل ذلك غيور ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ فيغفر لمن لم يصبر ﴿رَحِيمٌ﴾ مبالغ في الرحمة، لذلك رُخص لكم في نكاحهن.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي فِي قُلُوبِكُمْ وَيُبَيِّنَ لَكُمْ مَا يَحِلُّ فِي شَعَائِرِ اللَّهِ وَمَا يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ مِمَّا عَمِلُوا وَهُوَ الْحَرَامُ وَالْحَلَالُ﴾
 ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي فِي قُلُوبِكُمْ وَيُبَيِّنَ لَكُمْ مَا يَحِلُّ فِي شَعَائِرِ اللَّهِ وَمَا يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ مِمَّا عَمِلُوا وَهُوَ الْحَرَامُ وَالْحَلَالُ﴾
 ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي فِي قُلُوبِكُمْ وَيُبَيِّنَ لَكُمْ مَا يَحِلُّ فِي شَعَائِرِ اللَّهِ وَمَا يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ مِمَّا عَمِلُوا وَهُوَ الْحَرَامُ وَالْحَلَالُ﴾
 ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي فِي قُلُوبِكُمْ وَيُبَيِّنَ لَكُمْ مَا يَحِلُّ فِي شَعَائِرِ اللَّهِ وَمَا يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ مِمَّا عَمِلُوا وَهُوَ الْحَرَامُ وَالْحَلَالُ﴾

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي فِي قُلُوبِكُمْ وَيُبَيِّنَ لَكُمْ مَا يَحِلُّ فِي شَعَائِرِ اللَّهِ وَمَا يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ مِمَّا عَمِلُوا وَهُوَ الْحَرَامُ وَالْحَلَالُ﴾ أي يريد الله أن يبين لكم ما خفي عنكم من

مُصَالِحِكُمْ، وَمَحَاسِنُ أَعْمَالِكُمْ ﴿وَيَهْدِيكُمْ﴾ أي يرشدكم ﴿سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الأنبياء والصالحين أي مناهج من تقدّمكم منهم، لتقتفوا أثرهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويوفّقكم للتوبة، ويتجاوز عنكم ما أصبتم، قبل أن يبين لكم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بالأشياء، فيعلم ما شرع لكم من الأحكام ﴿حَكِيمٌ﴾ مراعي في جميع أفعاله الحكمة والمصلحة.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يوفّقكم لما فيه صلاح دينكم ودنياكم ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ يعني الفسقة، لأنهم يدورون مع شهواتهم البهيمية، من غير تحاشٍ عنها، فكأنهم بانهماكهم فيها امثلوا أمرها، واتّبعوها، قال ابن عباس: إنهم الزناة، وقيل: إنهم اليهود، والمجوس، والعموم أولى لكل من سار في طريق الشهوات والمحرمات ﴿أَنْ يَمِيلُوا﴾ عن الحق، بموافقتهم على اتباع الشهوات، واستحلال المحرمات ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة على الندرة، من غير استحلال.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي في أمر التكاليف، فلذلك شرع لكم الشريعة الحنيفة، السهلة السهلة، ما لم يخفف عن غيرها من الأمم ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ أي في أمر النساء، عاجزاً عن مخالفة هواه، حيث لا يصبر عن اتباع الشهوات، ولا يستخدم قواه في مشاق الطاعة.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢١﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٢﴾ إِنْ جَحْتَبُوا كِبَارَ مَا لَمْ يَكُنْ عَنْهُ نُكْفَرْ عَنْكُمْ سِعْيَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ شروع في بيان بعض الحرمات، المتعلقة بالأموال والأنفس، والمراد بالباطل ما يخالف الشرع، والتصرفات، وعبر به لأنه معظم المنافع، والمراد بالباطل ما يخالف الشرع، كالربا، والقمار، والبخس، والظلم ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ أي إلا أن تكون التجارة، تجارة صادرة عن تراضي كائن منكم، والمراد من التراضي، مراعاة العاقدَيْن فيما تعافدا عليه، وقت الإيجاب والقبول، والآية تدل على جواز البيع بالتعاطي، والبيع الموقوف، إذا وجدت الإجازة، لوجود الرضا، وفي الحديث الشريف «أطيب الكسب كسبُ التجار، الذين إذا حدَّثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذمُّوا، وإذا باعوا لم يمدحوا، وإذا كان عليهم لم يَطمَلُوا، وإذا كان لهم لم يُعَسَّرُوا»^(١) والمراد بالتراضي انتقال المال بطريق شرعي، سواء كان تجارة، أو إرثاً، أو هبة، أو غير ذلك، وهو من استعمال الخاص وإرادة العام ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ بالانتحار^(٢)، أو بإلقاء النفس إلى التهلكة، ويؤيده ما روي عن عمرو بن العاص في قصة التيمم^(٣)، أو بارتكاب ما يؤدي إلى قتلها، وقيل: المراد بالأنفس من كان من أهل دينهم، فإن المؤمنين كنفس واحدة، وعبر بذلك للمبالغة في الزجر، جَمَعَ في التوصية بين حفظ النفس، والمال، الذي هو شقيقها، من

(١) أخرجه الأصبهاني عن معاذ بن جبل مرفوعاً، والبيهقي في الشعب، وانظر نصَّ الحديث في المتجر الرابح للدمياطي ص ٦٣٥.

(٢) قال ﷺ: «من تردَّى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم، يتردَّى فيها، خالداً مخلداً فيها أبداً.» الحديث رواه مسلم.

(٣) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «لما بعثني النبي ﷺ عام ذات السلاسل، احتلمتُ في ليلة شديدة البرد، فأشفقتُ إن اغتسلتُ أن أهلك، فتيَمَّمْتُ ثم صليتُ بأصحابي صلاة الصبح، فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ ذكرتُ ذلك له، فضحك ﷺ ولم يقل شيئاً.» أخرجه أحمد وأبو داود.

حيث إنه سبب قوامها، رأفة بهم، ورحمة، كما أشار إليه بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي أمر ما أمر، ونهى ما نهى، لفرط رحمته تعالى بكم.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي يفعل ما نهى الله عنه بقتل النفس، وأكل الأموال بالباطل، والإشارة بقوله ﴿ذَلِكَ﴾ يدل على فظاعة قتل النفس، وبعد منزلته في الفساد ﴿عُدْوَانًا﴾ أي معتدياً ظالماً، إفراطاً في التجاوز عن الحد ﴿وظُلماً﴾ وإتياناً بما لا يستحقه لا خطأ ولا قصاصاً، ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي ندخله إياها ونحرقه بها، والتنوين للتعظيم أي ناراً شديدة هائلة ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا عسر فيه ولا صارف عنه، لأن الله تعالى لا يعجزه شيء.

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ﴾ أي كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها، والكبيرة: ما كُبر وعُظم من الذنوب، وهي كل ذنب رتب الشارع عليه الحد، أو صرح بالوعيد فيه، وقال الواحدي: الصحيح أن الكبيرة ليس لها حدٌ يعرفها العباد به، أخفى الله تعالى ذلك عن العباد، ليجتهدوا في اجتناب المنهي، رجاء أن تجتنب الكبائر، ونظير ذلك إخفاء الصلاة الوسطى، وليلة القدر وساعة الإجابة، وفي الحديث الشريف «أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ الْإِشْرَاقُ بِاللَّهِ، وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ ..» الحديث^(١) وقال ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(٢) أي البريئات من الزنا وروى ابن جبير عن ابن عباس أنه قيل له: هل الكبائر سبع؟ فقال: هي إلى السبعمائة أقرب منها

(١) أخرجه البخاري ١٨٢/٥ في الشهادات، ومسلم في الإيمان رقم ٨٨.

(٢) أخرجه البخاري ٢٩٤/٥ في الوصايا ومسلم رقم ٨٩ في الإيمان، والنسائي

إلى السبع ﴿تُكَفِّرُ عَنْكُمْ﴾ أي نغفر لكم ﴿سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا﴾
هو الجنة ﴿كَرِيمًا﴾ أي حسناً مرضياً مع الكرامة والإعزاز.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا
اَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اَكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ
الْوَلَدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي عليكم، لما نهاهم
الله تعالى عن أكل أموال الناس بالباطل، عقبه بالنهي عما يؤدي إليه من
الطمع في أموالهم، على سبيل الحسد، لتطهر أعمالهم الظاهرة والباطنة،
والمعنى: لا تتمنوا ما أعطاه الله تعالى بعضكم من المال، والجاه، فإنه
ذريعة إلى التحاسد والتعادي، وعدم الرضى بما قسم الله له وهي قسمة
صادرة من حكيم خبير، كما قال الشاعر:

وأظلم خلق الله من بات حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلب

وقيل: لما جعل الله في الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين، قالت النساء:
نحن أحوج لأن يكون لنا سهمان لأننا ضعفاء، وهم أقوياء، وأقدر على طلب
المعاش منا، فنزلت، وهذا هو الأنسب بتعليل النهي بقوله سبحانه: ﴿لِلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِمَّا اَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اَكْتَسَبْنَ﴾ فإنه صريح في جريان
التمني بين فريقَي الرجال والنساء، والمعنى لكل من الفريقين في الميراث
نصيب معين المقدار، مما أصابه بحسب استعداده، عن أم سلمة قالت:
قلتُ يا رسول الله يغزو الرجال ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث؟
فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ

بعضكم على بعض.. ﴿١﴾ ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي لا تتمنوا ما للناس وأسألوا الله مثله من خزائنه التي لا تنفذ، وهو يدل على أن النهي عنه هو الحسد، وفي الأثر: لا يتمنئ أحدكم مال أخيه، ولكن ليقل: اللهم ارزقني مثله، وأعطني ما يكون صلاحاً لي في ديني ودنياي ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ولذلك جعل الناس على طبقات، ورفع بعضهم على بعض درجات، حسب مراتب استعداداتهم الفائضة عليهم، بموجب المشيئة المبنية على الحكيم والمصالح وقال ابن عيينة: لم يأمر سبحانه بالمسألة إلا ليعطي ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى وَمِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي ولكل تركة جعلنا ورثة متفاوتة في الدرجة يلونها ويحرزون منها أنصباءهم بحسب استحقاقهم المنوط بينهم وبين المورث من العلاقة ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ هم موالي الموالاة، أخرج ابن جرير عن قتادة قال: كان الرجل يعاقد الرجل في الجاهلية، فيقول: دمي دمك، ترثني وأرثك، فجعل له السدس من جميع المال في الإسلام، ثم يقسم أهل الميراث ميراثهم، فنسخ ذلك بقوله سبحانه ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ ﴿فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ الضمير للموالي، أي من التركة عند عدم الورثة، وفي رواية عن ابن عباس أخرجها البخاري والنسائي أنه قال في الآية «كان المهاجرون لما قدموا المدينة، يرث المهاجر الأنصاري، دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ من النصر، والرفادة، والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصي له» ﴿٢﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي لم يزل سبحانه عالماً بجميع الأشياء جليتها، وخفيها، فيجازي كل حسب فعله، وفيه وعد ووعد.

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٢٤٧/٨.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ قَالَ الصَّدِّيقُ قَتْنَتُ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيْ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَنْبِئُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ، وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٢﴾ .

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي شأنهم القيام عليهن، بالأمر والنهي، قيام الولاية على الرعية، وعلى ذلك بأمر وهيي، وكسبي فقال سبحانه: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء، بكمال العقل، وحسن التدبير، ومزيد القوة، ولذلك حُصِّوا بالنبوة، والإمامة، والولاية، ووجوب الجهاد والجمعة، ونحوها ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي وبسبب إنفاقهم من أموالهم، وهو ما أنفقوه من المهر والنفقة وفيه دليل وجوب نفقتهم عليهم، واستدل بالآية على أن للزوج تأديب زوجته، ومنعها من الخروج، وأن عليها طاعته، واستدل بها أيضاً مَنْ جَعَلَ للزوج الحجرَ لزوجته في نفسها ومالها، فلا تتصرف فيه إلا بإذنه، لأنه سبحانه جعل الرجل قوَّاماً، وهو الناظر على الشيء الحافظ له ﴿قَالَ الصَّدِّيقُ﴾ منهم ﴿قَتْنَتُ﴾ أي مطيعات لله تعالى، فائتمات بحقوق الأزواج ﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾ أي حافظات لما يجب عليهن حفظه، في حال غيبة الزوج، من الفروج والأموال وقيل: المراد حافظات لأسرار أزواجهن، أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها، ثم قرأ ﷻ ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ﴾» (١) الآية

(١) أخرجه البيهقي وابن جرير الطبري، وأخرجه أبو داود رقم ١٦٦٤ في الزكاة بلفظ «ألا =

﴿يَمَّا حَفِظَ اللَّهُ﴾ بحفظ الله إياهن وأمره إياهن بحفظ الغيب، وكنتم أسرار أزواجهن ﴿وَاللَّيْ نَخَافُونَ فُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن، وترفعهن عن مطاوعة الأزواج، من النشز وهو المكان المرتفع، وهو خطاب للأزواج، وإرشاد لهم إلى طريق القيام عليهن، أي تظنون عصيانهن وترفعهن عن مطاوعتكم ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ فانصحوهن بالترغيب والترهيب، وقولوا لهن: اتقين الله، وارجعن عما أنتنَّ عليه، واعلمن أن طاعتي فرض عليك ونحو ذلك ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ في المراقد ولا تباشروهن، فيكون كناية عن الجماع، وقيل: أن يعتزل عنها إلى فراش آخر ﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾ ضرباً غير مبرح ولا شائن، والأمور الثلاثة مترتبة، ينبغي أن يتدرج فيها، قيل: للزوج أن يضرب المرأة على أربع: ١ - ترك الزينة والزوج يريد بها، ٢ - وترك الإجابة إذا دعاها إلى فراشه، ٣ - وترك الصلاة والغسل من الجنابة، ٤ - والخروج من البيت إلا لعذر شرعي. وتحمل أذى النساء، والصبر عليهن، أفضل من ضربهن ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ بترك النشوز، وانقذن لما أوجب الله عليهن من طاعتكم ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ بالتوبيخ والإيذاء، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وحاصل المعنى: إذا استقام ظاهرهن وأطعنكم فلا تعلوا عليهن، ولا تلتمسوا طريقاً لإيذاتهن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ فاحذروه، فإنه تعالى أقدر عليكم على من تحت أيديكم، أو أنه على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم، ويتوب عليكم، فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم عند طاعتهم لكم^(١).

= أخبرك بخير ما يكتز المرأة الصالحة: إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته» وانظر الحديث في جامع الأصول ١٦٣/٢.

(١) انظر كيف يعلمنا سبحانه أن نؤدب نساءنا، ونرعى شؤونهن، وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها، حيث أمرنا بالوعظ، ثم بالهجران، ثم بالضرب ضرباً رفيقاً من غير إيذاء، ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر، لينبه تعالى العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها، وإنه تعالى عون الضعفاء، وملاذ المظلومين!!.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الحكام، وقيل: لأهل الزوجين، أي وإن خشيتم مخالفة وعداوة بين الزوجين فابعثوا أيها الحكام رجلاً وسطاً، يصلح للحكومة والإصلاح من أهله، وآخر من أهلها، فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال، وأطلب للإصلاح، وهذا على وجه الاستحباب، فلو نصبا من الأجانب جاز، والخوف ههنا بمعنى العلم أي إن علمتم أو ظننتم تأكيد المخالفة، بحيث لا يقدر الزوج على إزالته، فابعثوا لفض النزاع حكماً من أهله، وحكماً من أهلها، وللحكّمين حق التوفيق أو التفريق بين الزوجين، لما روي أنّ رجلاً وامرأة جاءا إلى علي كرم الله وجهه، فأمر أن يبعث رجلاً حكماً من أهله، ورجلاً حكماً من أهلها، ثم قال للحكّمين: تدریان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا تجمععا، وإن رأيتما أن تفرقا تفرقا، قالت المرأة: رضيتُ بكتاب الله تعالى، بما عليّ فيه ولي، وقال الرجل: أما الفرقة فلا، فقال علي: كذبت والله، حتى تقرّ بمثل الذي أقرّرت به^(١). قال ابن العربي في الأحكام: إنهما قاضيان لا وكيلان، فإن الحَكَم، اسم في الشرع له ﴿إِنْ يُرِيدَا﴾ الحكمان ﴿إِصْلَحَا﴾ أي بين الزوجين، وتأليفاً، وكانت نيتهما صحيحة، وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى ﴿يُوفِّقَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ يوقع بين الزوجين الموافقة، والألفة، والمودة، أي إن قصدا الإصلاح وزوال الشقاق، أوقع الله بينهما الألفة والوفاق، وفيه تنبيه على أنّ من أصلح نيته فيما يتحراه، أصلح الله مبتغاه، وعدم التعرض للذكر الفراق، للإيذان بأن ذلك ليس مما ينبغي أن يحدث صدوره عنهما، وأن الذي يليق بشأنهما هو إرادة الإصلاح ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يعلم كيف يرفع الشقاق، ويوقع الوفاق، وفيه من الوعيد، للحكّمين والزوجين، في سلوك ما يخالف طريق الحق والإصلاح.

(١) أخرجه الشافعي في الأم، والبيهقي في السنن.

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ
وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (٣٦) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ
وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا
مُهِينًا ﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ (٣٨)

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بحقوق الوالدين
والأقارب، إثر بيان الأحكام المتعلقة بحقوق الأزواج، وقدم الأمر بما
يتعلق بحقوق الله، لأنها المدار الأعظم ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ صنماً أو
غيره، أو شيئاً من الإشراك، جلياً أو خفياً، وهذا النهي إشارة إلى الأمر
بالإخلاص، فكانه قيل: اعبدوا الله مخلصين له العبادة، روي أن النبي ﷺ
قال لمعاذ بن جبل: «يا معاذ، هل تدري ما حقُّ الله على العباد؟ قلت: الله
ورسوله أعلم، قال: فإنَّ حقَّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به
شيئاً، ثم سار ساعة فقال يامعاذ: هل تدري ما حقُّ العباد على الله، إذا
فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم» (١) ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا ﴾ أي أحسنوا بهما إحساناً ﴿ وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أي أحسنوا إلى ذِي
القرباة ﴿ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ ﴾ من الأجانب ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ الذي
قرب جواره وقيل: الذي له مع الجوار قرب واتصال بنسب ﴿ وَالْجَارِ
الْجُنُبِ ﴾ أي البعيد. عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ما زال

(١) أخرجه البخاري في اللباس ٣٩٨/٨ ومسلم في الإيمان رقم ٤٨ والترمذي رقم ١٨
في الإيمان أيضاً.

جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه»^(١) أي سيحكم جبريل بميراث أحد الجارين من الآخر، وفي الحديث الشريف: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»^(٢) يعني شره وأذاه. والجيران ثلاثة: فجار له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام، وجار له حقان: حق الجوار، وحق الإسلام، وجار له حق واحد: حق الجوار، وهو غير المسلم من أهل الكتاب.. ويبدأ بالأقرب فالأقرب ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ هو الرفيق في السفر، وقيل: الرفيق في أي أمر من الأمور، كتعلم، وصناعة، وسفر، ومن قعد بجنبك في مسجد، أو في مجلس لما فيه من العموم، وروي عن علي كرم الله تعالى وجهه ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ المرأة، وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: خير الأصحاب عند الله، خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله تعالى، خيرهم لجاره^(٣). ﴿وَأَبْنِ السَّكِيلِ﴾ هو المسافر أو الضيف، فقد قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»^(٤). قيل: إكرامه تلقية بطلاقة الوجه، وتعجيل قرأه، والقيام بنفسه في خدمته ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ العبيد، والإماء والإحسان إليهم. أن لا يكلفهم ما لا يطيقون، ولا يؤذيهم، وأن يعطيهم من الطعام والكسوة، ما يحتاجون إليه بقدر الكفاية، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبراً، يأنف عن أقاربه وجيرانه، وأصحابه، ولا يلتفت إليهم ﴿فَخُورًا﴾ يتفاخر عليهم تكبراً، وإنما خص الله هذين الوصفين في هذا الموضع، لأن المختال قلماً يقوم برعاية الحقوق، أخرج الطبراني عن ثابت ابن قيس قال: «كنت عند

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٣٦٩/١٠ ومسلم في البر والصلة رقم ٢٦٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٣٧١/١٠ ومسلم في الإيمان رقم ٤٦ باب تحريم إيذاء الجار.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة رقم ١٩٤٥.

(٤) أخرجه البخاري ٣٧٣/١٠ ومسلم رقم ٤٧.

رسول الله ﷺ، فقرأ هذه الآية، فذكر الكبير وعظمه، فبكى ثابت فقال له رسول الله ﷺ ما يبكيك؟ فقال: يا رسول الله، إني أحب الجمال، حتى إنه ليعجبني أن يحسن شراك نعلي!! قال ﷺ: فأنت من أهل الجنة، إنه ليس بالكبر أن تحسن راحلتك، ورحلك، ولكنَّ الكبيرَ سفةُ الحق، وغمط الناس^(١) أي احتقارهم.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ بما في أيديهم ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ فيأمرونهم به مقتناً للسخاء ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الغنى، والعلم، فهم أحقاء بكل ملامة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي أعددنا لهم ذلك، ووضَعَ المظهر موضع المضمر، إشعاراً بأن من هذا شأنه، فهو كافر لنعم الله، ومن كان كافراً لنعم الله، فله عذاب يهينه، كما أهان النعم بالبخل والإخفاء، وسبب نزول الآية ما روي عن ابن عباس أن حلفاء كعب بن الأشرف من اليهود، أتوا رجالاً من الأنصار، فقالوا لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإننا نخشى عليكم الفقر، فإنكم لا تدرون ما يكون لكم؟ فنزلت الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي ينفقونها للفخار والشهرة، وإنما شاركوهم في الدم والوعيد، لأن البخل والسرف، طرفا إفراط، وتفریط، وهما سواء في القبح، واستجلاب الدم ﴿رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي للفخار، لا لوجه الله العظيم المتعال ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ليتحروا بالإنفاق مرضيه تعالى وثوابه، وهم اليهود ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ﴾ إبليس وأعوانه التابعين له والرفقة الأشرار ﴿لَوْ قَرَّبْنَا﴾ أي صاحباً في الدنيا

(١) أخرجه الطبراني وابن مردويه، وفي رواية أبي داود أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ - وكان رجلاً جميلاً - فقال يا رسول الله: «إني رجل حُبِّب إليَّ الجمال، وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحبُّ أن يفوقني أحدٍ بشراك نعل - أي رباط النعل - أفمن الكبير ذلك؟ قال: لا، ولكن الكبير: من بَطَر الحق، وغمَط الناس» أي لم يقبل الحق، واحتقر الناس، وانظر جامع الأصول ٦١٥/١٠.

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿فَسَاءَ﴾ فبئس الشيطان ﴿قَرِينًا﴾ لأنه يدعو إلى المعصية المؤدية إلى النار، وفي الآية تنبيه على أن الشيطان حملهم على ذلك، وزينه لهم، ويجوز أن يكون وعيداً لهم، بأن يُقرن بهم الشيطان في النار كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (١).

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٢) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (٥).

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أي وبالٍ وضرر يحيق بهم ﴿لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا﴾ ابتغاء وجه الله تعالى ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من فضله من الأموال؟ المراد توبيخهم على الجهل بمكان المنفعة، وهذا أسلوب بديع، كثيراً ما استعمله العرب في كلامهم، كما يقال للمتق: ما ضُرَّكَ لو عفوت؟ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد لهم، تنبيهاً على سوء بواطنهم، وأنه تعالى مطلع على ما أخفوه في أنفسهم، فيجازيهم به.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ المِثْقَال من الثقل ومعناه المقدار والوزن، أي إن الله لا يظلم مقدار ذرة، وهي النملة الحمراء الصغيرة، وعن ابن عباس: أنه أدخل يده في الغبار، ثم نفخ فيه، فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة، فقد ذكر سبحانه الذرة، لأنها أقل شيء مما يدخل في نظر البشر ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً﴾ وإن يكن مثقال الذرة حسنة ﴿يَضْعَفْهَا﴾ أي يضاعفها

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

أضعافاً كثيرة والمراد يضاعف ثوابها، كما في الحديث: «أن ثمرة الصدقة يربّيها الرحمن حتى تصير مثل الجبل»^(١) ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي يعطي صاحبها من عنده، على سبيل التفضل، زائداً على ما وعد في مقابلة العمل ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ عطاءً جزيلاً وهو الجنة دار المتقين.

﴿فَكَيْفَ﴾ حال هؤلاء الكفرة ﴿إِذَا جِئْنَا﴾ يوم القيامة ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿بَشِيرٍ﴾ يشهد عليهم بما كانوا عليه من قبائح الأعمال، وهو نبهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا خاتم النبيين ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ تشهد على صدق الأنبياء، وعلى العصاة من أمتك، فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ القرآن، فقلت يا رسول الله: أقرأ عليك وعليك أنزل!! قال: نعم، فإني أحب أن أسمع من غيري، فقرأت عليه سورة النساء، حتى أتيتُ إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: حسبك الآن، فنظرت فإذا عيناه تذرفان»^(٢).

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة، والإشارة لبيان شدة هول القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ ﴿أَيَ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْكُفْرِ وَعِصْيَانِ الْأَمْرِ، مِنَ الْكُفْرَةِ وَالْعِصْيَانِ، يودون في ذلك اليوم لمزيد شدته ﴿لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي يودون أن يدفنوا، وتُسَوَّى الأرض بهم، وأنهم لم يُبعثوا ولم يُخلقوا، أو يكونوا تراباً كما في قوله تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ وجواب لو محذوف لظهوره أي لو تسوى لسُرُوا واستراحوا من العذاب ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ولا يقدرّون على كتمانهم، لأن جوارحهم تشهد عليهم، روى الحاكم وضححه عن ابن عباس أنهم إذا قالوا: ﴿والله ربّنا

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، ولفظه «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَذْلٍ - أي قيمة - ثمرة من كسب طيّبٍ، ولا يقبل الله إلا الطيّب، فإن الله يقبلها بيمينه، قم يربّيها لصاحبها كما يربّي أحذكم قُلُوهُ - أي فرسه - حتى تكون مثل الجبل».

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٢٥٠/٨.

ما كنا مشركين ﴿ ختم الله على أفواههم، فتشهد عليهم جوارحهم، فيتمنون أن تُسوى بهم الأرض ﴾^(١) وقال الحسن: إنها في موطن: ففي موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلا همساً، وفي موطن يتكلمون ويكذبون، ويقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، وفي موطن يعترفون بكفوله تعالى: ﴿فاعترفوا بذنبهم﴾ وآخر تلك المواطن أن يُختم على أفواههم، وتتكلم جوارحهم.

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْرَةً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣﴾ .

﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ لما نُهوا فيما سلف عن الإشراك به تعالى، نُهوا ههنا عما يؤدي إليه من حيث لا يحتسبون، روي في سبب نزول هذه الآية عن علي رضي الله عنه قال: صنع عبدالرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدّموني، فقرأت: ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. ونحن نعبد ما تعبدون﴾ فخلطت فيها، فنزلت هذه الآية^(٢). وكانت الصلاة صلاة المغرب كما ذكر المفسرون، والمراد بقربها القيام إليها، إلا أنه نهى عن القرب مبالغة، والمعنى لا تصلّوا في حالة السكر، حتى تعلموا قبل الشروع ما تقرؤونه، والمراد من

(١) رواه الحاكم في المستدرک، وروی نحوه ابن کثیر ٥١١/١.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٢٦ وقال: حديث حسن صحيح غريب، ورواه أبو داود في الأشربة «باب في تحريم الخمر» والحاكم وصححه.

السكر: السكر من الخمر، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين، ولفظ السكر حقيقة فيه، وما قيل: إنه السكر من النوم والنعاس فبعيد ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على وأنتم سكارى، كأنه قيل: لا تقربوا الصلاة سكارى، ولا في حالة الجنابة، والجُنُب: يستوي فيه المذكر والمؤنث، والواحد، والتثنية، والجمع، لجريانه مجرى المصدر واشتقاقه من المجانبة وهي المباحدة، وقيل: للذي يجب عليه الغسل جنب، لأنه يجتنب الصلاة، ودخول المسجد، وقراءة القرآن حتى يتطهر ﴿لَا عَارِيَ﴾ مجتازي ﴿سَبِيلٍ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي ولا تقربوا الصلاة جنباً في حال من الأحوال، إلا حال كونكم مسافرين، وقيل: إن رجالاً من الأنصار، كانت أبوابهم في المسجد، وكانت تصيهم الجنابة، ولا يجدون ممراً إلا في المسجد، فرخص لهم ذلك، وبه قال الشافعي، والمشهور منع دخول الجنب المسجد مطلقاً ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ غاية للنهي عن قربان الصلاة حالة الجنابة، والاعتسال أن يغسل بدنه كله، من فرقه إلى قدمه، كما حُكي في غسل النبي ﷺ أنه كان يتوضأ ثم يفيض الماء على سائر جسده^(١). وفي الآية الكريمة رمزٌ إلى أنه ينبغي للمصلي أن يحترز عما يلهيه، ويشغل قلبه، وأن يزكي نفسه عما يدنسها، لأنه إذا وجب تطهير البدن، فتطهير القلب عن خاطر غير طاهر أولى ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ شروع في تفصيل ما أجمل في الاستثناء، والمراد من الممرض ما يمنع من استعمال الماء مطلقاً، سواء كان بتعذر الوصول إليه، أو بتعذر استعماله، فإن الواجد له عند التعذر كالفقْد، والذي تقرر في الفقه، أن المريض

(١) روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها «أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة غسل يديه، ثم يُفرغ يمينه على شماله، فيغسل فرجه، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يدخل أصابعه في الماء ويخلل بها أصول شعره، ثم يصب على رأسه ثلاث غرفات بيديه، ثم يفيض الماء على سائر جسده» متفق عليه. وروى أبو داود أن النبي ﷺ قال: «بلوا الشعر، وأنقروا البشرة، فإن تحت كل شعرة جنابة».

الذي يخاف إذا استعمل الماء أن يشتد مرضه يتيمم، ولم يشترط الفقهاء خوف التلف لظاهر النص، وهو بإطلاقه يبيح التيمم لكل مريض ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي أو كنتم على سفرٍ ما، طال أو قَصُر ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ هو المكان المنخفض من الأرض، والمجيء منه كناية عن الحدث، لأن المعتاد أن من يريد قضاء الحاجة يذهب إليه، ليواري شخصه عن أعين الناس، ولا يجلس في مكان مرتفع، وفي ذكر «أحد» دون غيره، إيماء إلى أن الإنسان ينفرد عند قضاء الحاجة، وهو أدب الإسلام، أي وإن جاء أحد منكم من الغائط ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ يريد سبحانه أو جامعتم النساء، إلا أنه كنى بالملامسة عن الجماع، لأنه مما يُستهجن التصريح به، وهو المروي عن علي، وابن عباس، ومجاهد، ولفظ اللمس، والمس، وردا في القرآن بمعنى الجماع، فيكون إشارة إلى الحدث الأكبر، وعن ابن مسعود والتَّخْفِي والشَّعْبِي أن المراد بالملامسة هنا: التقاء البشريتين، سواء كان بجماع أو بغير جماع، ووجه هذا القول أن اللمس حقيقة في اللمس باليد، وأما من حمله على الجماع فمجاز، والأصل حمل الكلام على الحقيقة، وبه استدل الشافعي على أن اللمس ينقض الوضوء، وقال مالك وأحمد: إن كان اللمس بشهوة ينقض، وإلا فلا، ومذهب أبي حنيفة لا ينقض ولو بشهوة، لأن المراد بالآية الجماع دون اللمس باليد ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾ وهذا هو السبب في الحقيقة، وهو فقدان الماء، كأنه قيل: أو لم تكونوا مرضى، أو مسافرين، بل كنتم فاقدين للماء ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي فاقصدوا عند عدم وجود الماء، شيئاً من وجه الأرض طاهراً، فتيمموا به بشرط أن يكون طاهراً، والصعيد: وجه الأرض تراباً أو غيره، وإن كان صخراً لا تراب عليه، وقال الزجاج: لا أعلم خلافاً بين أهل اللغة في أن الصعيد وجه الأرض، والطيب: الطاهر، وقال بعضهم: هو التراب المنبت دون السبخة، والتيمم لغة: القصد، والمعنى فتعمدوا واقصدوا، شيئاً من وجه الأرض طاهراً، وهذا دليل واضح على جواز التيمم بالحجر والصخر، وإن لم يكن عليه تراب،

وإلى ذلك ذهب أبو حنيفة ومحمد، وقال أبو يوسف والشافعي وأحمد: إنه لا يجوز التيمم، إلا أن يعلق باليد شيء من التراب، لتقييد المسح به في المائدة بقوله سبحانه: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ وكلمة «من» للتبويض ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي وجوهكم وأيديكم إلى المرفقين، لما روى أبو داود أن رسول الله ﷺ تيمم ومسح يديه إلى مرفقيه، كما روي عن جابر «التيمم ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين» هذا مذهب الشافعي والجمهور، ويشهد لهم القياس على الوضوء، والمراد استيعاب هذين العضوين بالمسح، كما في الوضوء، وهو ظاهر الرواية، وجه الظاهر أن التيمم قائم مقام الوضوء، ولهذا قالوا يخلل الأصابع، وينزع الخاتم، ليتيم المسح، وحكم المحدث، والجنب، والحائض، والنفساء واحد، وهو ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين، ومن قال: إن التيمم للجنب لا يصح فهو مخطيء، فإن الآية كالصريح في جواز تيمم الجنب، على أن الأحاديث ناطقة بذلك، فقد أخرج البخاري عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً لم يصل في القوم، فقال يا فلان: «ما منعك أن تصلي؟ فقال: يا رسول الله أصابتنى جنابة ولا ماء، فقال ﷺ: عليك بالصعيد فإنه يكفيك»^(١) وعن عمار قال: «أجنب فلم أجد ماء، فتمرغت في الصعيد، ثم أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال ﷺ: إنما يكفيك أن تقول بيدك هكذا، ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة ثم مسح الشمال على اليمين وكذا اليمين على الشمال، وظاهر كفيه ووجهه»^(٢) ففي الحديث دلالة على أن المحدث

(١) أخرجه البخاري في التيمم ٣٧٩/١ باب الصعيد الطيب وضوء المسلم، وفي كتاب الأنبياء، وأخرجه مسلم أيضاً في كتاب المساجد رقم ٦٨٢ والنسائي في الطهارة ١٧١/١.

(٢) أخرجه البخاري ٣٨٥/١ في التيمم، ومسلم في كتاب الحيض باب التيمم رقم ٣٦٨ والنسائي في الطهارة ١٧٠/١.

والجنب في التيمم سواء ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ فلذلك يسر الأمر عليكم، ورخص لكم في التيمم وهو تعليل للترخيص والتيسير.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾
 مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يَحْرِفُونَ الْحِكْمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
 وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا
 وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
 إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ كلام مستأنف مسوق لتعجيب المؤمنين من سوء حال اليهود، والتحذير عن موالاتهم، روي عن ابن عباس أنها نزلت في بعض أحبار اليهود، كانوا إذا تكلم رسول الله ﷺ لوَّوا لسانهم، وعابوه، ويأتون رأس المنافقين «عبد الله بن أبي» ورهطه يتآمرون معهم على الإسلام، والمراد من الكتاب التوراة، و«من» للتبعيض أي حظاً سيراً من علم التوراة ﴿يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ﴾ بيان لمناط التشنيع، ومدار التعجيب، كأنه قيل: ماذا يصنعون حتى ينظروا إليهم؟ فقيل: يأخذون الضلالة ويتركون ما أوتوه من الهداية، بإنكارهم نبوته ﷺ بعد ما علموا وتيقنوا بحقية دينه، وأنه هو المبشَّر به في التوراة ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ أي لا يكتفون بضلal أنفسهم بل يريدون ﴿أَن تَضَلُّوا﴾ أنتم أيها المؤمنون ﴿السَّبِيلَ﴾ المستقيم الموصل إلى الحق، والتعبير بصيغة المضارع في الموضعين، للإيذان بالاستمرار التجديدي، أي هم مستمرُّون دائبون في إرادة ذلك، وفي ذلك أيضاً تقييح لهم.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم أيها المؤمنون ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعداوتهم وما يريدون بكم، لتكونوا على حذر منهم، ومن مخالطتهم، فلا تلتفتوا

إليهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ في جميع أموركم ومصالحكم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي ناصراً لكم على أعدائكم، فثقفوا به، واكتفوا بولايته ونصرته، ولا تتولوا غيره، ففي الآية وعدٌ ووعد، وترغيب وترهيب.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ بيان للموصول الأول أي من هؤلاء اليهود فريق مجرمون خبيثاء، مفسدون في الأرض ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي يبدلون كلام الله، ويحرفونه قصداً وعمداً، كما يحرفون الكلام عن مقصده الأساسي فيشتمون الناس باسم التحية، ويتظاهرون بالمحبة والوثام، وهذا من خبيثهم وفجورهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لك إذا دعوتهم للإيمان: سمعنا قولك، وعصينا أمرك، والمراد أنهم مع ذلك التحريف، يقولون في كل أمر مخالف لأهوائهم، عناداً وتحقيراً للمخالفة ﴿سَمِعْنَا﴾ أي فهمنا ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك، وذلك أنهم كانوا إذا أمرهم النبي ﷺ بأمر، قالوا في الظاهر: سمعنا، وقالوا في الباطن: عصينا، وقيل: إنهم كانوا يظهرون ذلك عناداً واستخفافاً ﴿وَأَسْمَعَ خَيْرٌ مُّسْمِعٍ﴾ أي يقولون ذلك في أثناء مخاطبته ﷺ، وهو كلام ذو وجهين: محتمل للشر، بأن يحمل على معنى: اسمع حال كونك غير سامع كلاماً أصلاً، وهو دعاء عليه بالصَّمم أو الموت، ومحتمل للخير، بأن يحمل على اسمع منا غير سامع كلاماً مكروهاً، وهم يضمرون في أنفسهم المعنى الأول ﴿وَرَدَعْنَا﴾ أي ويقولون هذا أيضاً ﴿رَاعِنَا﴾ وهي كلمة مسبة وشتيمة، من الرعونة وهي الحمق ﴿لَيَّا بِالْأَيْسَنِهِمْ﴾ أي فتلاً بها أي يفتلون ما يضمرونه من الشتم، إلى ما يظهرونه من التوقير ﴿وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ أي قدحاً فيه بالاستهزاء، أي يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه إلى السب والطعن في الدين كما فعل الخبيثاء حين دخلوا على الرسول ﷺ فقالوا: السَّامُ عليك يا محمد، أي الموت عليك، وأظهروا أنهم يريدون السلام عليه، وكانوا يقولون لو كان نبياً حقاً، لأخبر بما قلنا له، فأظهره الله تعالى على خبث ضمائرهم، من العداوة والبغضاء، فكان ذلك دلالة على نبوته ﷺ، لأن الإخبار عن الغيب معجز ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ إذا سمعوا شيئاً

من أوامر الله تعالى ﴿قَالُوا﴾ بلسان المقال ﴿سَمِعْنَا﴾ سماع قبول، مكان قولهم سماع الرد ﴿وَأَطَعْنَا﴾ مكان قولهم عصينا ﴿وَأَسْمَعُ﴾ مكان قولهم اسمع غير مسمع ﴿وَأَنْظَرْنَا﴾ بدل قولهم راعنا، ﴿لَكَانَ﴾ قولهم هذا ﴿خَيْرًا هُمْ﴾ وأنفع من قولهم ذلك ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي أعدل في نفسه وأصوب ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي ولكن لم يقولوا ما ينفع، بل قالوا ما يضر، ولذلك أبعدهم الله عن الهدى، وطردهم من رحمته، بسبب كفرهم وعنادهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا إيماناً قليلاً لا يُعْبَأُ به، وهو الإيمان ببعض الرسل والكتب، ويجوز أن يُراد بالقلّة العدم، ثم عَقِبَ ذلك بالمبادرة إلى سلوك محجة الهدى، مشفوعاً بالتحذير والتخويف فقال سبحانه :

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبَٰبُ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ .

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا﴾ إيماناً شرعياً ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ أي بالذي أنزلناه من عندنا على رسولنا من القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي مصدقاً للتوراة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ أي من قبل أن نمحو ما خطّه البارئ في صحائف الوجوه، فنجعلها كخف البعير، أي نطمس منها الحواس من أنف، وعين، وحاجب، فتصبح كالأدبار، وهو تشويه لمحاسن الوجه ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أي نخزيهم بالمسخ، كما أخزينا به أصحاب السبت، فقد مسخهم الله إلى قردة وخنازير، قال المبرد:

إنه منتظر، ولا بدّ من طمسٍ ومسحٍ في اليهود، قبل قيام الساعة، وقد جرت عادةُ الله سبحانه مع اليهود، بأن يتقم من أخلافهم لرضاهم بما صنعت أسلافهم، وقيل: هذا الوعيد كان متوجهاً إليهم، لو لم يؤمن أحد منهم، وقد آمن جماعة من أحبارهم، فلم يقع، وُرفِع عن الباقيين، وقيل: كان الوعيد أحد الأمرين، كما ينطق قوله تعالى: ﴿أَوْ نُلْعَنَهُمْ﴾ فإن لم يقع الأمر الأول، فلا نزاع في وقوع الأمر الثاني، فإن اليهود ملعونون بكل لسان، وفي كل زمان ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بإيقاع شيء ما أراده، وحكم به وقضاه ﴿مَفْعُولًا﴾ نافذاً واقعاً في الحال، أو كائناً في المستقبل لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ كلام مستأنف، لتقرير ما قبله من الوعيد، فإنهم كانوا يفعلون ما يفعلون، من التحريف والتدليس، ويطمعون في المغفرة، كما في قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾^(١) والمراد من الشرك: الكفر، أي لا يغفر الكفر لأنه ذنب كبير لا ينمحي عنه أثره، ويغفر ما دونه من الذنوب ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي ما دون الشرك، وإن كانت كبيرة مع عدم التوبة، تفضلاً وإحساناً، لكن لا لكل أحد بل ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يغفر له، وذهب المعتزلة إلى أنه لا فرق بين الشرك وما دونه من الكبائر، في أنهما يُغفران بالتوبة، ولا يُغفران بدونها، فهم قد أخطأوا الفهم الصحيح، لأن مساق النظم الكريم، لإظهار عظم جريمة الكفر، ببيان استحالة مغفرته، دون غيره من الذنوب، ولو شرطنا التوبة، لم يظهر بينهما فرق، ولم يحصل المقصود من الزجر عن الكفر، وفيه ردٌّ أيضاً على الخوارج، الذين زعموا أن كل ذنب شرك ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي ومن يشرك بالله أي شرك كان ﴿فَقَدْ أَفْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي ارتكب ما تُستحقر دونه الآثام، فلا تتعلق به المغفرة قطعاً، وقد استبشر

(١) سورة الأعراف، آية: ١٦٩.

الصحابه رضوان الله عليهم بهذه الآية، وقال علي بن أبي طالب: «ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾»^(١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ تعجيب من حالهم، المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان، نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وقالت اليهود: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ ويدخل في الآية، من زكى نفسه، وأثنى عليها لغير غرض صحيح، أي يزكون أنفسهم بزكاء العمل، أو بزيادة الطاعة والتقوى، فهذه الأشياء لا يعلمها إلا الله تعالى، فلهذا قال الله: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ وقال هنا ﴿يَلِ اللَّهُ يَرْكِي مَنْ يَشَاءُ﴾ تنبيه على أن تزكيتة تعالى هي المعتد بها، دون تزكية غيره، فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان، من حُسن وقبح، وأصل التزكية نفي ما يستقبح فعلاً أو قولاً ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي يُعاقبون بتلك الفعلة القبيحة، ولا يظلمون في ذلك العقاب ﴿فَتِيلاً﴾ أي أدنى ظلم، وهو الخيط الذي في شق النواة، يضرب به المثل في القلة والحقارة، كالنقير للنقرة التي في ظهرها، والقطمير وهو قشرتها الرقيقة، وهذه الأشياء «الفتيل، النقير، القطمير» تُضرب أمثالا للشيء التافه الحقير.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرُؤُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِتَابَ﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله، وأزكياؤه، وأن ذنوبهم مغفورة، ولشناعة هذا الافتراء، أكدته تعالى بما ينبه على شناعة وقبح هذا الأمر فقال: ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ أي لا يخفى كونه إثماً، من بين آثامهم الكثيرة، وذنباً يستحقون عليه أشد العقاب.

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٣٧ وقال: هذا حديث حسن غريب. أقول: إنما استبشر المسلمون بهذه الآية، لأن المؤمن إذا مات على الإيمان، فله أملٌ بدخول الجنة، مهما كثرت وعظمت ذنوبه، لأن الله تعالى يغفر كل ذنب إلا الشرك، فلم ينقطع الرجاء من الرحمة والغفران.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن مَّجِدْ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ
الْمُلْكِ فَلَا يَذَّأِلُ الْمُؤْمِنُونَ الْإِنْسَانَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ
مِّن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا
﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّن ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ۝

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ تعجب من حال أخرى
اليهود، زيادة في التقيح والتشنيع عليهم، والآية نزلت، - كما روى ابن
عباس - في كعب بن الأشرف، من رؤساء اليهود، خرج إلى مكة في
سبعين راكباً من اليهود، ليحالفوا قريشاً بعد غزوة أحد، على محاربة
رسول الله ﷺ، وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ فنزل
كعب على أبي سفيان، فأجسن مثواه، وقال أبو سفيان لكعب: إنك تقرأ
الكتاب، ونحن أميون لا نعلم، فأئنا أهدى طريقاً، نحن أم محمد؟ قال:
ما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت، نسقي الحاج، ونحرق الجزور، ونقري
الضيف، ونعمر بيت ربنا، ونصل الرحم، ومحمد فارق دين آبائه، وقطع
الرحم، فقال: أنتم أهدى منه سبيلاً، فأنزل الله في ذلك الآية ﴿يُؤْمِنُونَ
بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾^(١) . والجبت في الأصل صنم، ثم استعير في كل
معبود غير الله تعالى، والطاغوت يطلق على كل باطل، من معبود أو
غيره، ورؤي عن عمر بن الخطاب أنه قال: الجبت: الساحر،
والطاغوت: الشيطان، ومعنى الإيمان بهما: أي أنهم يصدقون بالوهية
الأوثان والشيطان، وكل ما عبد من دون الرحمن ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(١) انظر أسباب النزول للواحي ص: ٨٩، وجامع البيان للطبري ٤٦٨/٨.

أي لأجلهم وفي حقهم ﴿هَكَذَا﴾ أي الكفار من أهل مكة ﴿أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ أي أقوم ديناً، وأرشد طريقة، من محمد وأصحابه، يفضلون الكفار على المسلمين، ولفظ ﴿من الذين آمنوا﴾ ليس من كلام القائلين، بل من جهة الله تعالى، تعريفاً لهم بالوصف الجميل، وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح القبائح، وإنما قال اليهود الضالون: أهدى من محمد وأصحابه، فوصف الله الرسول وأصحابه بالإيمان إشادة بهم وتكذيباً لأعدائهم.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ القائلون المبعدون في الضلالة ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أبعدهم عن رحمته وطردهم ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ﴾ أي يبعده ﴿اللَّهُ﴾ من رحمته ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي ناصراً، يمنع عنه العذاب، وفيه تنصيب على حرمانهم من نصره قريش، ووعد المؤمنين بأنهم المنصورون ثم شرع في تفصيل بعض آخر من قبائحهم فقال سبحانه:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ أي بل ألهم نصيب من الملك؟ والمراد جحد ما تدعيه اليهود، من أن الملك يعود إليهم في آخر الزمان ﴿فَإِذَا لَا يَأْتِيَنَّ النَّاسَ﴾ أي أحداً أو الرسول ﷺ وأتباعه، كما روي عن ابن عباس ﴿نَقِيرًا﴾ أي ما يوازي نقيراً، وهو النقرة في ظهر النواة، وهو مثل في القلة والحقارة، وهذا توضيح وبيان لشحهم وبخلهم، فإذا بخلوا بالنقير وهم ملوك، فما ظنك بهم إذا كانوا فقراء؟ ويجوز أن تكون الهمزة لإنكار الواقع، على معنى: ألهم نصيب وافر من الملك، حيث كانوا أصحاب أموال وبساتين، وقصور مشيدة كالملوك، فلا يؤتون مع ذلك نقيراً، كما تقول لغني لا ينفق على أبيه الفقير، ألك هذا القدر من المال فلا تنفق على أهلك شيئاً؟

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ انتفال من توبيخهم بالبخل، إلى توبيخهم بالحسد، الذي هو أقبح الرذائل، والإشارة إلى الرسول ﷺ والمؤمنين، فإن اليهود كانوا يطمعون أن يكون النبي الموعود منهم، فلما خص الله تعالى

العرب، فبعث محمداً ﷺ منهم، ولم يبعثه من بني إسرائيل، حسدوهم، أي بل أتחסدوهم ﴿عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني النبوة، والكتاب، وازدياد العز والنصر، يوماً فيوماً ﴿فَقَدْ آتَيْنَا﴾ إلزام لهم بما هو مسلم عندهم، أي إن حسدوا الناس على ما أوتوا، فقد أعطينا أسلافكم مثل هذا فليس الإيتاء ببذع منا، لأننا قد آتيناه من قبل هذا ﴿إِنَّا آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي جنسه، والمراد به التوراة، والإنجيل، والزبور ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة وإتقان العلم والعمل ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ مع ذلك ﴿مُلْكًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادر قدره، فكيف يستبعدون نبوته ﷺ؟ وكيف يحسدونه عليها؟ وتكرير الإيتاء للتفصيل والإشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة، والمراد ﴿بِآلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أنبياء ذريته ووصفُ الملك بالعِظَم، وتنكيره التفضيحي ﴿مُلْكًا﴾ من تأكيد الإلزام، وتشديد الإنكار ما لا يخفى.

﴿فَعَنَّهُمْ﴾ أي من هؤلاء اليهود الحاسدين وآبائهم ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي بما أوتي آل إبراهيم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ﴾ أي أعرض ﴿عَنَّهُ﴾ ولم يؤمن به، ولم يكن في ذلك توهين أمره، فكذلك لا يوهن كفر هؤلاء أمره، وفيه تسلية للرسول ﷺ ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي ناراً مسعرة موقدة إيقاداً شديداً، يُعَذِّبون بها أي إن لم يُعَجَّلوا بالعقوبة، فقد كفاهم ما أعد الله لهم من سعير جهنم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَرْوَاحٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ ﴿٥٧﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي هؤلاء الكفار، من اليهود والنصارى، والوثنيين، الذين أنكروا وحدانية الله، وكذبوا رسله ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي

سوف ندخلهم ناراً عظيمة هائلة، وسوف كلمة تذكر للتهديد والوعيد، وتنوب عنها السين، كقوله تعالى: ﴿سَأَصْلِيهِ سَقَرًا﴾ وقد تذكر للوعد، كما في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وكثيراً ما تفيد هي والسين تأكيد الوعيد، وتنكير «ناراً» للتفخيم، أي يدخلون ناراً هائلة ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أي احترقت وتلاشت، من نضج الثمر واللحم نضجاً، إذا أدرك ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أي أعطيناهم مكان كل جلد محترق، جلداً جديداً مغايراً للمحترق صورة، وإن كانت مادته الأصلية موجودة، بأن يزال عنه الإحراق، فلا يقال: إن الجلد الثاني لم يعصر؟ وهذا السؤال مما لا يكاد يسأله عاقل، فضلاً عن فاضل، ذلك لأن عصيان الجلد وتألمه وتلذذه غير معقول، لأنه من حيث ذاته لا فرق بينه وبين سائر الجمادات، فالحق إن العذاب على النفس الحساسة، بأي بدن حلّت، وفي أي جلد كانت، وكذا يقال في النعيم ﴿يَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ليدوم ذوقه ولا ينقطع، والتعبير عن إدراك العذاب بالذوق، ليس لبيان قلته، بل لبيان إحساسهم في كل مرة بالعذاب، كإحساس الذائق بالمذوق، وللإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه، ولعلّ السرّ في تبديل الجلود، مع قدرته تعالى على إبقاء إدراك العذاب، مع إبقاء أبدانهم على حالها؟ أن الإنسان ربما يتوهم زوال الإدراك بالاحتراق، ففي النضج والتبديل نوع إياس لهم، وتجديد حزن على حزن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَرِيبًا﴾ لا يمتنع عليه ما يريده، مما أوعده به أو وعد، ولا يمانعه أحد ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره وتقديره وتعذيب من يعذبه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بعد ذكر سوء حال الكفرة، ذكر تعالى حسن حال المؤمنين، تكميلاً للترهيب والترغيب، أي إن الذين آمنوا بما يجب الإيمان به، وعملوا الأعمال الحسنة ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وفي السين تأكيد للوعد، وفي اختيارها هنا واختيار سوف في آية الكفر ما لا يخفى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ الأبد: الدهر الطويل، الذي ليس بمحدود، أي سندخلهم حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، مغلّدين فيها أبداً، لا يموتون فيها ولا

يخرجون منها، ولهم مع ذلك النعيم زوجات مطهرات من الأقدار، من الحيض، والنفاس، والبول، والغائط، وأمثال ذلك، لأن الجنة دار السرور والحبور ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي ظلاً دائماً لا تخترمه الشمس، وسَجَسَجاً^(١) لا حرَّ فيه ولا قَرَّ، وفيه الإشارة إلى النعمة الدائمة التامة، رزقنا الله التفيؤ فيه، والظليل صيغة مشتقة من لفظ الظل للتأكيد، كما هو عادتهم في نحو قولهم: يومٌ أيوم، وليلٌ أليل، وإنما خاطبهم به، لأن بلاد العرب في غاية الحرارة، فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة، والظليل: كناية عن الراحة، فلا شمس في الجنة، قال الله تعالى: ﴿لَا يَرُونَ فِيهَا شمساً ولا زمهريراً﴾^(٢)، ولما شرح الله تعالى بعض أحوال الكفار عاد إلى ذكر التكاليف الشرعية، التي كلف بها عباده المؤمنين، منها أداء الأمانات، والحكم بين الناس بالعدل، وطاعة الله وطاعة رسوله فقال تقدست أسماؤه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وهو خطاب يعمُّ حكمه المكلفين، كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق، المتعلقة بدمهم، من حقوق الله تعالى، وحقوق العباد، سواء كانت فعلية، أو قولية، أو اعتقادية وعموم الحكم لا ينافي بخصوص السبب^(٣)، روى البخاري عن عبد الله بن

(١) السَّجَسَجُ: اللطيف المعتدل، الذي لا حرَّ فيه ولا برد. اهـ الوسيط في اللغة.

(٢) سورة الدهر، آية: ١٣.

(٣) روي في سبب نزول هذه الآية، أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، طلب مفتاح الكعبة =

عمر أن رسول الله ﷺ قال: أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: «إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(١) أي مال عن الحق ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي إذا قضيتم بين الناس في الخصومات ﴿أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي بالإنصاف والسوية، وهذا أمر للولاة بإيصال الحقوق إلى أصحابها، وينبغي للحاكم أن يسوي بين الخصمين في خمسة: في الدخول عليه، والجلوس بين يديه، والإقبال عليهما، والاستماع منهما، والحكم بالحق إلى مستحقه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَنْظُرُ بِرَبِّهِ﴾ أي نعم شيئاً يعظكم به، والمخصوص بالمدح محذوف، وهو المأمور به، من أداء الأمانات، والعدل في الحكومات ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ بأفعالكم، فهو وعد ووعد.

وبعد أن أمر الولاة بالعدل، أمر الرعية بالطاعة فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يريد بهم أمراء المسلمين، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة، أمر الناس بطاعتهم، بعدما أمرهم بالعدل، تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق، وأمّا أمراء الجور، فبمعزل من استحقاق العطف على الله ورسوله، وإعادة الفعل اعتناءً بشأنه ﷺ، وإيذاناً بأن له ﷺ استقلالاً بالطاعة، لم تثبت لغيره، وأمّا

= من «عثمان بن طلحة» فصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله عليه الصلاة والسلام وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه، فلوى عليّ يده وأخذه منه وفتح بابها، فدخل رسول الله ﷺ الكعبة وصلى بها ركعتين، فلما خرج أمر علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان بن طلحة، وأن يعتذر إليه، فقال له عثمان: أذيتَ وأكرهت ثم جئت تترفق!! فقال: لقد أنزل الله فيك قرآناً يتلى، وقرأ عليه الآية، فكان ذلك سبب إسلامه، وقال له الرسول ﷺ: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبؤ» وانظر تفسير ابن كثير ٥٢٨/١.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٨٤/١ باب علامات المنافق، ومسلم في الإيمان أيضاً رقم ٥٨.

أولو الأمر فقد شرط فيهم أن يكونوا مسلمين، وأن يكونوا متمسكين بشرع الله، ولهذا قال: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الخطاب عام للمؤمنين والشيء خاص بأمر الدين، بدليل ما بعده، والمعنى: فإن تنازعتم أيها المؤمنون، أنتم وأولو الأمر منكم، في أمر من أمور الدين ﴿فَرُدُّوهُ﴾ فارجعوا فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ أي إلى كتابه ﴿وَالرَّسُولِ﴾ أي إلى سنته، ووجوب الطاعة لهم ما داموا على الحق، فلا تجب طاعتهم فيما خالف الشرع فقد قال ﷺ: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»^(١) ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ متعلق بالأمر الأخير، إذ هو المحتاج إلى التحذير، وجواب الشرط محذوف، أي إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فردوه إلى الله والرسول، فإن الإيمان بهما يوجب ذلك ﴿ذَلِكَ﴾ أي الرد والطاعة لأمر الله ورسوله ﴿خَيْرٌ﴾ لكم وأصلح عاجلاً ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي عاقبة ومالاً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنُزِّلَ إِلَيْهِ﴾ ﴿وَالرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوْفِيقًا﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

(١) طرف من حديث أخرجه البخاري في المغازي ٤٧/٨ ومسلم في الإمارة رقم ١٨٤٠ وله قصة وهي كما في البخاري «بعث الرسول ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا حطباً وأوقدوا ناراً، فأوقدها فقال: ادخلوها، فهشوا وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبي من النار، فقال ﷺ: لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً إلى يوم القيامة، لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف».

﴿الَّذِينَ يَرْمِزُونَ﴾ خطاب للنبي ﷺ وتعجيب له، أي ألم ينته علمك ﴿إِلَى الَّذِينَ يَرْمِزُونَ﴾ زعم يطلق بمعنى القول والظن، وأكثر ما يستعمل فيما كان باطلاً، أو فيه ارتياب، والمراد به هنا مجرد الادعاء، وظاهر الآية يدل أنها نزلت في بعض المنافقين، أرادوا أن يتحاكموا إلي بعض أهل الطغيان، ولم يريدوا التحاكم إلى النبي ﷺ ﴿أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي القرآن ﴿وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وهو التوراة، ووصفوا بهذا الادعاء لتأكيد التعجيب، بيان المباعدة بين دعواهم، وبين ما صدر عنهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ روي عن ابن عباس قال: حادثة وقعت في قتل بين بني قريظة وبني النضير، وكان بعضهم يريد التحاكم إلى الرسول ﷺ، فأبى المنافقون منهم إلا التحاكم إلى أبي برزة الكاهن الأسلمي، فانطلقوا إليه فسألوه فقال: أعظموا اللقمة، فقالوا: لك عشرة أوساق، فقال لا بل ما مائة وسق، فانزل الله فيهم ^(١) ﴿وَقَدْ أَمَرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ الضمير راجع إلى الطاغوت ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ الآية في حكم التعجيب، فإن اتباعهم لمن يريد إضلالهم، أعجب من كل عجب وقوله: ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي إضلالاً بعيداً، أي مستمراً إلى الموت، والمعنى يريدون أن يتحاكموا إلى الشيطان، وهو في صدد إرادة إضلالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي لأولئك الزاعمين للإيمان ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ في القرآن من الأحكام ﴿وَالِإِلَى الرَّسُولِ﴾ ليفصل بينكم فيما تنازعتم فيه ﴿رَأَيْتَ﴾ أبصرت أو علمت ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ الزاعمين للإيمان والتصديق به، وإظهار المنافقين في مقام الإضرار، للتسجيل عليهم بالنفاق ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ أي يعرضون عنك إعراضاً.

(١) وذكر الحافظ ابن كثير وغيره، أن الآية نزلت في خصومة وقعت بين يهودي، ورجل من الأنصار مناق «بشر» يزعم الإيمان، فقال له اليهودي: تعال نتحاكم إلى محمد، فقال له المنافق: لا، بل تعال نتحاكم إلى «كعب بن الأشرف» الذي سمّاه الله بالطاغوت. . وانظر صفوة التفاسير ٢٨٥/١.

﴿فَكَيْفَ﴾ أي كيف يكون حالهم ﴿إِذَا أَصَبَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ نكبة تظهر نفاقهم ﴿يَمَّا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي بسبب ما عملوا من الجنايات، التي من جملتها التحاكم إلى الطاغوت، والإعراض عن حكمك ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ للاعتذار عما صنعوا ﴿يَحْلِفُونَ﴾ أي خالفين لك ﴿يَا اللَّهُ إِنْ أَرَدْنَا﴾ أي ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿إِلَّا إِحْسَنًا﴾ إلى الخصوم ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ بينهم، ولم نرد بالمرافعة إلى غيرك، عدم الرضا بحكمك، فلا تؤاخذنا بما فعلنا، وفي هذه الآيات دلائل على أن من رد شيئاً من أوامر الله تعالى، أو أمر الرسول ﷺ فهو خارج عن الإسلام كما حَكَمَ الصحابة بارتداد مانعي الزكاة.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المنافقين ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق، وفنون المكر والخديعة ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عن عقابهم للمصلحة، ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وِجَلٍ وحذر ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي ازجرهم بلسانك، وكفهم عن النفاق والكيد والكذب ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي قل لهم خالياً، لا يكون معهم أحد، لأنه ادعى إلى قبول النصيحة، ولذا قيل: النصيحة بين الملاء تقريع ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ مؤثراً يبلغ فيهم ويؤثر، ليكون لهم زاداً، ولنفاقهم زاجراً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿١٥﴾﴾ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ﴾ أي وما أرسلنا رسولا من الرسل، لشيء من

الأمور ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بسبب إذنه تعالى في طاعته، وأمر الناس بأن يطيعوه ويتبعوه، لأن طاعته طاعة الله، ومعصيته معصية الله، و«من يطع الرسول فقد أطاع الله» ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالنفاق وعرضوها إلى العذاب ﴿جَاءُوكَ﴾ تائبين من ذلك، من غير تأخير، مستغفرين الله من ذنوبهم، متوسلين إليك للتوصل عن جنائياتهم، ولم يزدادوا جنابة بسترها بالإيمان الفاجرة ﴿فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ لذنوبهم بالتوبة والإخلاص وبالغوا في التضرع ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ أي واستغفرت لهم، وإنما أتى به على طريقة الالتفات، تفخيماً لشأنه ﷺ، وتعظيماً لاستغفاره، وتنبهاً على أن من حق الرسول، أن يقبل اعتذار التائب، وإن عظم جرمه ﴿لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ لعلموه قابلاً لتوبتهم، متفضلاً عليهم بالرحمة.

﴿فَلَا وَرَيْكَ﴾ أي فوربك، ولا مزيدة لتأكيد القسم^(١) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يستحقون اسم الإيمان في السر والحقبة ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ أي يتحاكموا إليك، وإنما جيء بصيغة التحكيم، إيذاناً بأن اللاتق بهم، أن يجعلوه حكماً بينهم، ويرضوا بحكمه، مع قطع النظر عن كونه حاكماً بأمر الله ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلف بينهم من الأمور واختلط ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا﴾ عطف على مقدر ينساق إليه الكلام، أي فتقضي بينهم، ثم لا يجدوا ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ أي ضيقاً مما حكمت به ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه، من غير تردد ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي ينقادوا لك انقياداً، بظاهرهم وباطنهم، يقال: سلم نفسه لله وأسلمها: إذا جعلها

(١) إن الله تعالى لما أرسل ﷺ بالدين الحق، ومنحه الحجة وأعطاه كل ما ينبغي له من الحكمة، والبراهين القاطعة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بأحسن الطرق ولم يؤمنوا مع كل هذا، فلم يبق له إلا أن يقسم لهم، فأنزل الله تعالى عليه أنواعاً من القسم، ولهذا كثرت في أوائل سور التنزيل، وفي السبع الأخير خاصة، وهذا هو السر من القسم في القرآن الكريم.

خالصة له، وحكم هذه الآية باق إلى يوم القيامة، وليس مخصوصاً بالذين كانوا في عصر النبي ﷺ، فإن قضاء شريعته قضاؤه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِنَ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي فرضنا وأوجبنا عليهم، وهذه الآية متصلة بما تقدم من أمر المنافقين، وترغيبهم في الإخلاص وترك النفاق ﴿أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كما أمرنا بني إسرائيل حين عبدوا العجل ﴿أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ كما أمرنا بني إسرائيل بالخروج من مصر ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي المكتوب عليهم لضعف إيمانهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ وهم المخلصون من المؤمنين ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي ما يؤمرون من متابعة الرسول ﷺ، والانقياد إلى حكمه، ظاهراً وباطناً ﴿لَكَانَ﴾ فعلهم ذلك ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ عاجلاً وآجلاً ﴿وَأَشَدَّ تَنبِيئًا﴾ لهم على الحق والثواب، وأبعد لهم عن النفاق والضلال.

﴿وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ﴾ أعطيناهم ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ثواباً كبيراً جليلاً، لا يعرف أحد مبدأه، ولا منتهاه.

﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يصلون بسلوكه إلى عالم القدس، ويدخلون به جنان النعيم، وفي الأثر: «من عمل بما علم، أورثه الله تعالى علم ما لم يعلم».

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ﴾ بالانقياد لأمره ونهيه ﴿وَالرَّسُولَ﴾ باتباع شريعته، والرضا بحكمه، بالانقياد التام ﴿فَأُولَئِكَ﴾ أي المطيعون الذين علت درجاتهم شرفاً وفضلاً ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بما تقصر العبارة عن تفصيله وبيانها ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ بيان للمنعم عليهم، وفي الحديث الشريف: «المرء مع من أحب»^(١) وقال النبي ﷺ لأبي ذر: «أنت مع من أحببت» يعني أنت تكون مع محبوبك في الآخرة. وأخرج الطبراني والضياء المقدسي وحسنه، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إنك لأحب إلي من نفسي، وإنني أذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك رفعت مع النبيين، وخشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً، حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ الآية^(٢). ثم قال تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ﴾ الصديق: صيغة مبالغة بمعنى: المبالغ في الصدق، والإخلاص، في الأقوال، والأفعال، والشهداء جمع شهيد، والمراد بهم الذين بذلوا أرواحهم في سبيل إعلاء كلمة الله، وهم المقتولون بأيدي الكفار من المسلمين، والصالحون الصارفون أعمارهم في طاعة الله، وأموالهم في مرضاته سبحانه، فالمنازل أربعة بعضها دون بعض ﴿وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ الرفيق: صاحب، مأخوذ من الرفق، وهو لين الجانب، واللطافة في المعاشرة وهو كالصديق، في استواء الواحد، والجمع فيه.

(١) حديث «المرء مع من أحب» أخرجه البخاري في الأدب ٤٦١/١٠ وله قصة وهي أن أعرابياً سأل النبي ﷺ متى الساعة؟ فقال: وما أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: أنت مع من أحببت!! وفي رواية: «المرء مع من أحب» قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت!! قال أنس: «فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم» ورواه مسلم رقم ٢٦٤١ في البر.

(٢) أخرجه الطبراني، وقال المقدسي: لا أرى بإسناده بأساً، وانظر تفسير ابن كثير ٥٣٥/١.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما للمطيعين من عظم الأجر، ومزيد الهداية، والإشارة إلى فضلهم ومزيتهم ﴿الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي ذلك الفضل العظيم كائن من الله تعالى ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بجزاء من أطاعه وبالعصاة والمطيعين، ومن يصلح لمرافقة هؤلاء، ومن لا يصلح لمرافقة الصالحين.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ (٧١) وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَاطِلَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِسْكُمْ كُنتُمْ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ تيقظوا واستعدوا للأعداء، وخذوا عدتكم من السلاح، واحترزوا منهم، ولا تمكنوهم من أنفسكم ﴿فَانْفِرُوا﴾ فاخرجوا إلى الجهاد ﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات متفرقة، جمع ثبة، وهي الجماعة من الرجال، فوق العشرة، أي انفروا جماعات متفرقة ﴿أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ مجتمعين جماعة واحدة، والآية وإن نزلت في الحرب، لكن يقتضي إطلاق لفظها، وجوب المبادرة إلى الخيرات كلها.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَاطِلَنَّ﴾ الخطاب لمعسكر رسول الله ﷺ المؤمنين منهم والمنافقين، والمبطلون المنافقون، الذين تخلفوا عن الجهاد، من بطاً بمعنى أبطأ، أو تباطؤوا غيرهم كما ثبت ابن أبي يوم أحد، أي وإن منكم لمن يتأقل ويتخلف عن الجهاد ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ كقتل، وهزيمة ﴿قَالَ﴾ أي المبطل فرحاً لصنعه ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ بالعود ﴿إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي حاضراً في المعركة، فيصيني ما أصابهم.

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ ﴾ كفتح وغنيمة كائن ﴿ مِنْ اللَّهِ ﴾ تعالى، وفي نسبة الفضل إلى الله، دون إصابة المصيبة، تعليم لحسن الأدب مع الله تعالى ﴿ لَيَقُولَنَّ ﴾ ندامة على تشبطه، وتحسراً على فواته، وقوله تعالى: ﴿ كَانَ لَمْ تَكُنْ يَنْتَكُمُ وَيَنْتَهُ مَوْدَّةٌ ﴾ اعتراض بين الفعل ومفعوله، الذي هو قوله: ﴿ يَنْتَكُنِي ﴾ الخ، لثلاثتهم من كلامه أن تمنيه لمعية المؤمنين لنصرتهم، بل هو للحرص على المال ﴿ كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أي أخذ من الغنيمة حظاً وافراً، فالفوز العظيم الذي عناءه، هو حطام الدنيا.

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قدم الظروف على الفاعل للاهتمام به ﴿ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ يشرون مضارع شرى، ويكون بمعنى باع، واشترى، من الأضداد، أي فليقاتل المخلصون، الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية، الذين تركوا الدنيا واختاروا الآخرة، أمروا بالثبات على القتال، وعدم الالتفات إلى تشيط المبطلين ﴿ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وهذا وعد له بالأجر العظيم، سواء استشهد أو انتصر، ترغيباً في القتال، وتكديباً لقولهم: ﴿ قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً ﴾ وإنما قال: ﴿ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ ﴾ للتنبيه على أن المجاهد، ينبغي أن يثبت في المعركة، وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحق، وإعزاز الدين ولا يحدث نفسه بالهرب، ولذا لم يقل فَيُغْلِبْ أَوْ يَغْلِبْ.

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾ خطاب للمأمرين بالقتال مبالغة في التحريض ﴿لَا تُقَاتِلُوا﴾ في سَبِيلِ اللَّهِ ﴿أَيُّ شَيْءٍ لَكُمْ﴾ لكم غير مقاتلين، والمراد لا عذر لكم في ترك المقاتلة ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي وفي سبيل المستضعفين، وهو تخليصهم من الأسر، ومن أيدي الكفار. ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ هم المسلمون الذين بقوا بمكة، مستلدين لضعفهم عن الهجرة، وإنما ذكر الولدان، مبالغة في الحث، وتنبهاً على تناهي ظلم المشركين، بحيث بلغ أذاهم الصبيان، والتعبير بالولدان على طريق التغليب، ليشمل الذكور والإناث .
﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بالشرك، الذي هو ظلم عظيم، وبأذية المؤمنين وقوله تعالى: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ وصفٌ للقرية، إلا أنه أسند إلى أهلها، فوُفِّرَتْ عن نسبة الظلم إليها، تشريعاً لها، والمراد بها مكة ﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ يتولى أمرنا، وينقذنا من أعدائنا ﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا عليهم، كانوا يدعون الله بالإخلاص، فاستجاب الله دعاءهم حيث يسَّرَ لبعضهم الخروج إلى المدينة، ثم فتح مكة على يدي رسول الله ﷺ فتولاهم ونصرهم حتى صاروا أهلها. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كلامٌ مبتدأ، سبق لترغيب المؤمنين للقتال ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، فالله وليهم وناصرهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أي الشيطان، الداعي إلى الكفر والطغيان ﴿فَقَاتِلُوا﴾ أي فقاتلوا يا أولياء الله ﴿أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أي الكفار، فإنكم تغلبونهم، فشتان بين من يقاتل في سبيل الرحمن، ومن يقاتل في سبيل الشيطان ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ لأنه غرور، لا يؤول إلى محصول، فكيف بالقياس إلى قدرته عز وجل؟.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٧٧) أَيْتِنَا تَكُونُوا يَذَرِكُمْ أَلْمُوتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٧٩).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ من قوم طلبوا القتال وهم بمكة، فقليل لهم: أمسكوا أيديكم وكفُّوا عن قتال المشركين، فلم يحزن وقتنه، واشتغلوا بعبادة الله تعالى. قال الكلبي: إن جماعة من أصحاب الرسول ﷺ منهم عبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم كانوا يلقون من مشركي مكة أذى شديداً قبل الهجرة، فيشكون إلى رسول الله ﷺ ويقولون: ائذن لنا يارسول الله في قتال هؤلاء الكفرة، فقد كُتِّبَ في عِزَّةٍ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة!! ويقول لهم الرسول ﷺ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ فَإِنِّي لَمْ أُمِرْ بِذَلِكَ^(١)، فهو قوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ أي كفوا أيديكم عن القتال ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ واشتغلوا بما أُمِرْتُمْ بِهِ، وفيه دليل على أن فرض الصلاة والزكاة، كان قبل فرض الجهاد ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ ﴾ فلما هاجروا إلى المدينة وأمروا بالقتال، كرهه بعضهم، لكن لا شكاً في الدين، بل خوفاً من الموت، بموجب الطبيعة البشرية ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ يخشون الكفار أن يقتلوهم، كما يخشون الله أن يُنزلَ عليهم بأسه، والمراد بهم المنافقون

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ٥٣٨/١.

أو ضعفاء الإيمان، ولا يصدر هذا عن صحابي كريم ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي أشد خشية من المؤمنين لربهم الذين هم أهل خشية الله ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ في هذا الوقت، لا على وجه الاعتراض على حكمه تعالى، بل على طريق تمنٍ للتخفيف ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ حذراً من الموت، والظاهر أنهم ما تفوهوا به، لكن قالوه في أنفسهم، فحكى الله عنهم، بدليل أنهم لم يوبّخوا على هذا السؤال ﴿قُلْ﴾ ترهيداً لهم فيما يؤملونه ﴿مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي جميع ما يُستمتع به في الدنيا، تافهة قليل، سريع الزوال، بل أقلُّ من قليل بالنسبة إلى ما في الآخرة^(١) ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ أي ثوابها ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من ذلك المتاع القليل وإنما قيل ﴿لِمَنْ أُنْفِيَ﴾ حثاً لهم على تقوى الله ﴿وَلَا تَطْلُمُونَ قَيْلًا﴾ ولا تنقصون أدنى شيء من ثوابكم، والفَيْلُ: هو الخيط الذي في شق النواة، وهو مثل في الفلة.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ في الحضر أو السفر، أو في البرِّ أو في البحر ﴿يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ الذي لأجله تكرهون القتال، وتحبون القعود عنه، وفي التعبير بالإدراك إشعار بأن القوم، لشدة تباعدهم عن أسباب الموت، كأنهم في الهرب منه، وهو مجذّب في طلبهم، لا يفتر لحظة عنهم إلى أن يدركهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ ولأن الحذر لا ينجي من القدر ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ أي في قصور أو حصون مرتفعة، والبروج البيوت على أطراف القصر، من تبرجت المرأة إذا ظهرت ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ نزلت في المنافقين واليهود، وذلك أنهم كانوا قد بسط عليهم الرزق، فلما قدم النبي ﷺ المدينة، فدعاهم إلى الإيمان وكفروا، أمسك الله عنهم بعض الإمساك، فقالوا: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا، منذ قدم هذا الرجل ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ فالمعنى: إن تصيبهم نعمة

(١) يدل عليه قوله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليمِّ - يعني البحر - فلينظر بم يرجع» رواه مسلم.

ورخاء، نسبوها إلى الله تعالى، وإن تصبهم بلية من جذبٍ وغلاء، أضافوها إليك متشائمين، كما حُكي عن أسلافهم بقوله تعالى: ﴿وإن تصبهم سيئةً يطّيروا بموسى ومن معه﴾ الآية ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي كل واحدة من النعمة والبلية، من جهة الله تعالى، خلقاً وإيجاداً، لا خالق سواه، فهو وحده النافع الضار، أمر ﷺ بأن يردّ زعمهم الباطل، ويلقمهم الحجر، ببيان أن الخير والشرّ بتقدير الله تبارك وتعالى من غير أن يكون له مدخل في وقوع شيء منهما ثم قال تعالى تقيحاً لهم: ﴿فَالِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾ اليهود والمنافقين المحترقين ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ أي يفهمون ﴿حَدِيثًا﴾ أي كلاماً يوعظون به، وهو تعبير لهم بالجهل، وتقيحٌ لحالهم، والمعنى أي شيء حصل لهؤلاء، لكنّي يفهموا نصوص القرآن الناطقة بأن الكلّ من عند الله تعالى؟.

ثم وضح تعالى الأمر فقال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ الخطاب عام لكل سامع، أي ما أصابك يا إنسان من نعمة وإحسان، فمن الله تعالى تفضلاً منه وكرماً، وما أصابك من بلية ومصيبة ﴿فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ أي فهي منها بسبب اقترافها المعاصي الموجبة لها، وإن كانت من حيث الإيجاد منتسبة إليه تعالى، نازلة من عنده عقوبة، لقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يصيب عبداً نكبةٌ إلا بذنب»^(١) وهو لا ينافي قوله سبحانه ﴿قل كل من عند الله﴾ فإن الكلّ منه تعالى إيجاداً، غير أن الحسنة إحسان، والسيئة مجازاة وانتقام، ثم اعلم أن المراد بالحسنة والسيئة: النعمة والبلية، لا الطاعة والمعصية ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ بيانٌ لجلالة منصبه ﷺ، ومكانته عند الله تعالى، بعد بيان

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٢٥٢ في التفسير، ولفظه «لا يصيب عبداً نكبةً - أي مصيبة - فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم قرأ ﷺ ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾».

بطلان زعمهم الفاسد، في حقه ﷺ أي مرسلًا لكل الناس، وفيه ردُّ على من زعم اختصاص رسالته ﷺ بالعرب ﴿وَكُفِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي حسبك أن الله تعالى شاهد على صدق نبوتك.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفِيَ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُتْرَةَ الَّتِي كَانُوا مِنَ اللَّهِ لَاجِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ كَانُوا فِيهَا كُفْرًا كَثِيرًا﴾.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ أي من أطاع الرسول فقد أطاع الله، لأنه ﷺ مبلغ لأمره ونهيه، فمرجع الطاعة وعدمها هو الله سبحانه، ولَمَّا قال هذا قال المنافقون: ألا تسمعون ما يقول هذا الرجل؟ ينهى أن يُعبد غير الله، ثم هو يريد أن نتخذه ربًّا، كما اتخذت النصراني عيسى إلهًا، فنزلت لبيان أن طاعته طاعة له تعالى، لأنه مبلغ عن الله ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عن الطاعة وأعرض عنها ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ الضمير للمنافقين كما روي عن ابن عباس والحسن ﴿طَاعَةٌ﴾ أي أمرنا طاعة، ورفعها للدلالة على الثبات ﴿فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي خرجوا من مجلسك ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي دبر جماعة من رؤساء المنافقين، أمرًا غير الذي أمرتهم به، وهو الخلاف والعصيان لما تأمرهم به ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي خلاف ما قلت لهم، من طاعة الله وطاعة رسوله، والتبييت من البيتوتة لأن الأمور تدبر بالليل، ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يثبت في صحائفهم للمجازاة ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي تجاف عنهم، ولا تبال بهم وبما صنعوا، ولا تتصدَّ للانتقام منهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في

الأمور كلها وفوض أمرك إليه تعالى، وثق به ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي قائماً بتدبير شؤونك، فيكيفك مضرتهم. وينتقم لك منهم ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَ الْبُصَيْرَ فِي مَعَانِيهِ، وَيَتَبَصَّرُونَ مَا فِيهِ؟ وَفِي الْآيَةِ إِنكَارٌ وَاسْتِقْبَاحٌ لِعَدَمِ تَدْبِيرِهِمُ الْقُرْآنَ، أَيِ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ، لِيَعْلَمُوا كَوْنَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، بِمُشَاهَدَةِ مَا فِيهِ مِنَ الشُّوَاهِدِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي الْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ كما يزعمون ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع، إذ لا علم بالأمور الغيبية لغيره سبحانه، وحيث كان كلها مطابقاً للواقع، تعيّن كونه من عند الله تعالى.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (A7) ﴿فَقَلِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (A8) ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا﴾ (A9) ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَحِيَةٍ فَنَحِيَةٌ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (A10).

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ﴾ أي المنافقين وبعض ضعفاء الإيمان ﴿أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ﴾ أي خبر من الأخبار، عن المؤمنين بالظفر والغنيمة، أو النكبة والهزيمة، ممّا يوجب الأمن أو الخوف ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ أي أفشوه، والباء مزيدة، والكلام مسوق لبيان جناية أخرى من جنایات المنافقين، وذلك أنه إذا غزت سرية من المسلمين أخبروا الناس عنها، فقالوا: أصاب المسلمون من عدوهم، كذا وكذا، فأفشوه بينهم من غير أن يكون لهم خبر، وكان إذاعتهم له مفسدة على المسلمين، يذيعونه قبل أن يتحققوا منه، فيعود

ذلك وبالأعلى المؤمنين ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي ذلك الأمر الذي جاءهم ﴿إِلَى
الرَّسُولِ وَالْأُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ وهم كبار الصحابة، البصراء في الأمور
﴿لَعِلْمُهُ﴾ أي لعلم تدبير ذلك الأمر الذي أخبروا به ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ
مِنْهُمْ﴾ أي هؤلاء الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر أي يستخرجون
علمه عن جهتهم، وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء يخرج من البئر
أول ما تحفر، فاستعير لما يخرج الرجل بفضل ذكائه من المعاني، يقال:
استنبط الفقيه المسألة: إذا استخرجها باجتهاده وفهمه ﴿وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ الخطاب للطائفة المذكورة أي لولا فضله تعالى عليكم
ورحمته، بإرشادكم إلى طريق الحق الذي هو المراجعة في مظان الاشتباه
إلى الرسول وإلى أولي الأمر الواقفين على أسرار الكتاب والراسخين في
معرفة الأمور ﴿لَا تَبْعَتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ وعملتم بأرائكم الضعيفة أو بآراء
المنافقين، ولم تهتدوا إلى الصواب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهم أولو الأمر،
المستتيرة عقولهم بأنوار الإيمان، بواسطة الاقتباس من مشكاة النبوة، وفيه
إنكار على كل من يحدث بكل ما سمع قبل تحقيقه، وفي الحديث
الشريف: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»^(١) يعني لو لم يكن
للرجل كذب، إلا تحدّثه بكل ما سمع، بشيء لم يعلم صدقه.

﴿فَقَنِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو جواب شرط محذوف، أي إن لم يقاتلوا
وتركوك وحدك، فقاتل في سبيل الله ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي لا يضرك
فخالفتهم وتقيعدهم، فتقدم إلى الجهاد، فإن الله ناصر لك لا الجنود
﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حثهم على القتال، ورغبهم فيه، وذكرهم أنهم آثمون
بالتخلف ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وعد منه سبحانه محقق
الإنجاز، وقد كان كذلك، فقد روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ واعد أبا
سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى، فلما بلغ الميعاد دعا ﷺ الناس

(١) أخرجه مسلم في المقدمة ١٠/١ باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، وأبو داود في
الأدب رقم ٤٩٩٢.

إلى الخروج فكرمه بعضهم، فنزلت فخرج ﷺ مع جماعة من أصحابه، حتى أتى موسم بدر، فكفاهم الله سبحانه بأس العدو، وألقى الله تعالى الرعب في قلب أبي سفيان، فلم يخرج ولم يكن القتال يومئذ، وانصرف ﷺ بمن معه سالمين ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا﴾ من الذين كفروا ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي تعذيباً، وأشدُّ بطشاً ونكالاً، والمقصود من الجملة التهديد والتشجيع.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً﴾ الشفاعة: هي التوسط بالقول، في وصول شخص إلى منفعة من المنافع، وكون التحريض الذي فعله ﷺ من باب الشفاعة ظاهر، فإن المؤمنين تخلصوا بذلك من مضرة الشيطان، وتعيير العدو، وفازوا بالأجر الجزيل، وربحوا أموالاً جسيمة بسبب ذلك، وكان معهم أموال التجارة فباعوها، وأصابوا خيراً كثيراً ﴿يَكُنْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ وهو ثواب الشفاعة، والتسبب في الخير الواقع بها ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً﴾ هي خلاف الشفاعة الحسنة، ومنها الشفاعة في حد من حدود الله تعالى، والقصاص، ﴿يَكُنْ لَهُمْ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ نصيب من وزرها، مساوٍ لها في القدر، من غير أن ينقص منه شيء، والتعبير بالكفل قيل: للتفنن، وقال بعضهم: إن الكفل غلب في الشر، فجزاء الحسنة يضاعف، وأما الكفل فهو المثل المساوي، فمن جاء بالسيئة لا يُجزى إلا مثلها، وفي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ مقتدراً من أقات على الشيء إذا قدر عليه، وقيل إنه المجازي أي يجازي على كل شيء.

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾ التحية مصدر حيّ تحية وأصلها الدعاء بالحياة وطولها، ثم استعملت في كل دعاء، وكانت العرب تقول عند اللقاء: حيّاك الله^(١)، أي أطال الله حياتك، فأبدلها الإسلام بالسلام قال الله تعالى

(١) أما التحية بقول الإنسان: أهلاً وسهلاً ومرحباً، أو كيف أصبحتم، فسنة عند لقاء الإخوان، لكن ينبغي أن يكون هذا بعد السلام.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ والتَّحِيَّاتُ لله أي البقاء لله، ومعنى الآية: إذا سَلَّمَ عليكم أحد من المسلمين، فَرَّدُوا عليه بأحسن مما سَلَّمَ ﴿فَحَيَّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أي بتحية أحسن منها، بأن تقولوا «وعليكم السلام ورحمة الله» إذا اقتصر المسلم على الأول، وبأن تزيدوا «وبركاته» إن جمعها المسلم، وهي النهاية لانظامها فنون المطالب، التي هي السلامة عن المضار، ونيل المنافع ودوامها. أخرج البيهقي عن عروة بن الزبير رضي الله عنه أن رجلاً سَلَّمَ عليه، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال عروة: ما ترك لنا فضلاً، إن السلام قد انتهى إلى وبركاته ﴿أَوْرُدُوهَا﴾ أي أجيبوها وردوا عليه بمثل ما سَلَّمَ، ووجوب رد التسليم على الكفاية، والدليل ما أخرجه البيهقي: «يجزىء عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم، ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم» ولو سَلَّمَ يهودي، أو مجوسي، فلا بأس بالرد، ولكن لا يزيد، ولا يسلم ابتداءً وعن الحسن وقتادة أنهما قالا في الآية: ﴿فَحَيَّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ للمسلمين ﴿أَوْ رَدُّوْهَا﴾ لأهل الكتاب^(١). ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ فيجاسبكم على كل شيء من أعمالكم، ومن جملتها ما أمرتم به من التحية، فحافظوا على مراعاتها، رَوَى مسلم عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(٢).

(١) قال الفقهاء: يكره السلام في مواضع: على مصل، وتالي للقرآن، وذاكر لله، ومحدث، وخطيب، ومكشوف عورة، وعلى مغن، ومتغوط، وعلى الكافر، والفتاة الأجنبية، وحكم النساء مع النساء، كحكم الرجال مع الرجال، يسلم بعضهن على بعض، أما سلام الرجل على النساء، فإن كنَّ جمعاً جالسات، فيستحب أن يسلم عليهن، إذا لم يخف على نفسه أو عليهن فتنة، لما روي عن أسماء بنت يزيد قالت: «مر علينا رسول الله ﷺ فسَلَّمَ علينا» أخرجه أبو داود والترمذي.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٤٥ ولفظه «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا». الحديث، ورواه أبو داود في الأدب رقم ٥١٩٣.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ﴿٨٩﴾ .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ جواب قسم محذوف أي والله ليجمعنكم، والجمع بمعنى الحشر، ولهذا عُدِّي بِإِلَى ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾ أي والله ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة، سميت القيامة لقيام الناس من قبورهم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في يوم القيامة أو في الجمع ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي، والمعنى: لا أحد أكثر صدقاً منه تعالى في وعده وكلامه .

﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾ الاستفهام للإنكار، والخطاب فيه معنى التوبيخ ﴿فِي الْمُنَافِقِينَ﴾ أي أي شيء كائن لكم في أمرهم وحالهم، تفترون ﴿فِتْنَةً﴾ رُوِيَ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى أَحَدٍ، فَرَجَعَ نَاسٌ، فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ فِرْقَتَانِ: فِرْقَةٌ تَقُولُ نَقَلْنَاهُمْ، وَفِرْقَةٌ تَقُولُ لَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ (١). ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ﴾ رَدَّهُمْ إِلَى الْكُفْرِ ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ بسبب ما كسبوه من الارتداد ﴿أُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي أُرِيدُونَ هِدَايَةَ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ؟ وَهُوَ تَوْبِيخٌ لَهُمْ عَلَى زَعْمِهِمْ هِدَايَةَ الْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ أَضَلَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي وَمَنْ يَخْلُقُ اللَّهُ فِيهِ الضَّلَالَةَ، كَائِنًا مِنْ كَانَ، فَلَنْ تَجِدَ سَبِيلًا مِنَ السَّبِيلِ لِهَدَايَتِهِ وَفَلَاحِهِ .

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٢٥٦/١ وثمة الحديث أن النبي ﷺ قال: «إنها طيبة تنفي الحَبَثَ، كما تنفي النار حَبَثَ الفضة» .

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ودوا أن تكفروا ﴿كَمَا كَفَرُوا﴾ أي مثل كفرهم ﴿فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أي فتكونون مستوين في الكفر ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ الفاء جواب شرط محذوف، أي إذا كان حالهم ما ذكر فلا توالوهم ولا تصادقوا منهم أحداً ﴿حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم، بهجرة كائنة لله تعالى، لا لغرض من أغراض الدنيا ﴿فَإِنْ قَالُوا﴾ عن الإيمان والهجرة الصحيحة ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ إذا قدرتم عليهم ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ من الحل والحرم، فإن حكمهم حكم سائر المشركين، أسراً وقتلاً ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي جانبوهم مجانبة كلية، ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة أبداً، كما يشعر بذلك المضارع الدال على الاستمرار والتكرير المفيد للتأكيد.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْبِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبَلُواكُمْ فَإِنْ ائْتَرَوْكُمْ فَلَمْ يَقْبِلُواكُمْ وَلَقُوا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ مَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿١١﴾ سَتَجِدُونَ أَخْرَيْنَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُواكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَئْتَرُواكُمْ وَلَقُوا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٢﴾﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ﴾ استثناء من قوله سبحانه فخذوهم واقتلوهم، أي إلا الذين يتصلون ويتهون إلى قوم عاهدوكم ولم يحاربوكم، وهم بنو مدلج، فقد روي عن الحسن أن «سراقه بن مالك المدلجي» قال: لما ظهر رسول الله ﷺ على أهل بدر، قال سراقه بلغني أنه ﷺ يريد أن يبعث «خالد بن الوليد» إلى قومي، من بني مدلج فأتيته، فقلت بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فأخذ

رسول الله ﷺ بيد خالد، فقال اذهب معه فافعل ما يريد، فصالحهم خالد، فهم الذين حالفوا رسول الله ﷺ وصالحوه^(١) ﴿أَوْجَأَكُمْ﴾ أي أو الذين جاؤوكم كافرين عن قتالكم وقاتل قومهم، فقد استثنى تعالى من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان: أحدهما من لحق بالمعاهدين، والآخر من جاء محايداً، لا يريد قتال المسلمين، ولا قتال قومه المشركين ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ والحصر الضيق والانقباض ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي من أن يقاتلوكم وهم «بنو مدلج» وكانوا عاهدوا أن لا يقاتلوا المسلمين، ولا يريدون قتال المشركين لأنهم أقاربهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ببسط أيديهم، وتقوية قلوبهم، وإزالة الرعب عنها ﴿فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾ ببسط ذلك ولم يكفوا عنكم، والمقصود من ذلك الامتنان على المؤمنين ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ﴾ ولم يتعرضوا لكم ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ مع ما علمتم من تمكنهم من ذلك بمشيئة الله تعالى ﴿وَالْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ الصلح، فانقادوا واستسلموا ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ طريقاً، أي فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم، بالأسر أو بالقتل.

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ﴾ بالنفاق ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ بالوفاق، وهم أناس كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياءً، ثم يرجعون إلى كفار قريش فيرتكسون إلى الأوثان، ليأمنوا المسلمين، وليأمنوا قومهم، وهم قوم من أسد، وغطفان، وبنو عبد الدار ﴿كُلَّ مَا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ أي دعوا إلى الكفر وقاتل المسلمين ﴿أُزْكُوا فِيهَا﴾ أي قلبوا فيها أبيض قلب، وكانوا فيها شراً من كل عدو وشرير ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوا عَنْكُمْ﴾ بالكف عن التعرض لكم بوجه ما ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي لم يلقوا إليكم الصلح ﴿وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي ولم يكفوا أنفسهم عن قتالكم ﴿فَخَذُواهُمْ وَأَقْبَلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾

(١) انظر القصة في تفسير ابن كثير ٥٤٦/١ وفي القصة: فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم، فنزلت ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾ الآية.

أي تمكنتم منهم ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة واضحة في أخذهم وقتلهم لظهور عداوتهم، ووضوح كفرهم وخباثتهم.

﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانِ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٢٨﴾﴾

﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ما صحَّ له وليس من شأنه ﴿أَنْ يَقْتُلَ﴾ بغير حق ﴿مُؤْمِنًا﴾ فإن الإيمان زاجرٌ عن العدوان ﴿إِلَّا خَطَاً﴾ أي إلا على وجه الخطأ، فإنه ربما يقع دون قصد ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعله إعتاق نسمة لوجه الله تعالى، عتبر عن الكل بالجزء ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ محكوم بإيمانها وإن كانت صغيرة ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي مؤدة إلى ورثته، يقتسمونها كسائر الموارث، والدية على العاقلة، والكفارة على القاتل ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أي إلا أن يتصدق أهله عليه فيسقطوا الدية، سُمي العفو عنها صدقة، حثاً عليه، وتنبهاً على فضله ﴿فَإِنْ كَانِ﴾ أي المقتول خطأ ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ كفار محاربين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ولم يعلم به القاتل، لكونه بين أظهر قومه ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي فعلى قاتله الكفارة، دون الدية: إذ لا وراثة بينه وبين أهله، لأنهم محاربون، فتجب الكفارة للعصمة وهي الإسلام، ولا تجب الدية لثلاث يستعينوا بها على المسلمين ﴿وَإِنْ كَانِ﴾ المقتول المؤمن ﴿مِنْ

قَوْمٍ ﴿ كَفْرَةٌ ﴾ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴿ أي عهد موثق ﴾ فِدْيَةٌ ﴿ أي فعلى قاتله دية ﴾ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ﴿ من أهل الإسلام إن وُجدوا وقيل: إلى أهل الكافرين للعهد، واستدل بالآية على أن دية الذمي كدية المسلم ﴾ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴿ كما هو حكم سائر المسلمين، وكونه فيما بين المعاهدين، لا يمنع وجوب الدية، وهذا منتهى العدالة والاعتراف بالمواثيق والعهود ﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴿ أي رقة ليحررها، أو لم يجد الثمن ﴾ فَصِيَامٌ ﴿ فعليه صيام ﴾ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴿ لم يتخلل بين أيامها إفطار، ولو أفطر يوماً ولو بعدد، كالمرض والسفر، استأنفه لانقطاع التابع بالفطر، والعذر يمكن الاحتراز عنه، لأنه قد يجد شهرين لا عذر فيهما ﴾ تَوْبَةً ﴿ أي شرع لكم ذلك توبة أي قبولاً لها، وفيه إشارة إلى التقصير بترك الاحتياط ﴾ مِّنَ اللَّهِ ﴿ أي توبة كائنة من الله تعالى ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴿ بجميع الأشياء ﴾ حَكِيمًا ﴿ في كل ما شرع وقضى من الشرائع والأحكام.

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى حُكْمَ الْقَتْلِ خَطَا، عَقَّبَ ذَلِكَ بَيَانِ الْقَتْلِ عَمْدًا، وَاقْتَصَرَ هُنَا عَلَى حُكْمِهِ الْآخِرِيِّ ﴿ مُتَعَمِّدًا ﴾ أَي قَاصِدًا قَتْلَهُ عَالِمًا بِإِيْمَانِهِ ﴿ فَجَزَاؤُهُ ﴾ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ بِجَنَابَتِهِ ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ حَكِيمًا فِيهَا ﴾ حَالُ كَانِهِ قِيلَ: فَجَزَاؤُهُ أَنْ يَدْخُلَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَي مَآكِنًا طَوِيلًا إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أَي انْتَقَمَ مِنْهُ ﴿ وَلَعَنَهُ ﴾ أَي أَبْعَدَهُ عَنْ رَحْمَتِهِ ﴿ وَأَعَدَّ لَهُ ﴾ فِي جَهَنَّمَ ﴿ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، لِارْتِكَابِهِ أَمْرًا عَظِيمًا، فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَغْفِرَهُ، إِلَّا الرَّجُلَ يَمُوتُ كَافِرًا، أَوْ الرَّجُلَ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا»^(١) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَعَانَ عَلَى دَمِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِشَطْرٍ كَلِمَةٍ، كُتِبَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ

(١) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم رقم ٤٢٧٠ ورواه النسائي ٨١/٧ وهو حديث حسن.

الله»^(١) تمسكت الخوارج والمعتزلة بهذه الآية، في خلود من قتل المؤمن عمداً في النار، وأجاب بعض المحققين، بأن ذلك خارج مخرج التغليب في الزجر، فقول المعتزلة بالخروج من الإيمان يخالف قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقصاصَ فِي الْقَتْلِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسَيِّئٌ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَتَى اللَّهَ عَلَىٰكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ شروع في التحذير عما يوجب الندم، من قتل من لا ينبغي قتله، ومن قلة المبالاة في الأمور ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي سافرتم للغزو على ما يدل عليه السياق والضرب كناية عن الإسراع في السير ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾^(٢) أي فاطلبوا بيان الأمر، ولا تتعجلوا فيه بغير تدبير، وتحققوا ليتبين لكم المؤمن، من الكافر ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ

(١) أخرجه ابن عدي والبيهقي، وانظر تفسير ابن كثير ٥٤٨/١.

(٢) روى أحمد والترمذي عن ابن عباس قال: مرَّ رجل من بني سُليم على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ ومعه غنم له، فسلم عليهم، قالوا: ما سلم عليكم إلا ليتعوذ منكم - أي ليتخلص منكم - فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية، سنن الترمذي ٢٢٤/٥. وروى السدي أن رسول الله ﷺ بعث سرية عليها أسامة بن زيد إلى بني سُليم، فلقوا رجلاً منهم مع غنم له، فأقبل عليهم فقال: السلام عليكم، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فشدَّ عليه أسامة فقتله واستاق غنمه، فأخبروا رسول الله ﷺ فحزن حزناً شديداً وقال: قتلوه من أجل الغنم، فقال أسامة: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السيف، فقال ﷺ: هلاً شققت عن قلبه!! الحديث.

إِلَيْكُمْ السَّلَامُ ﴿ لمن حيّاكم بتحية الإسلام، والمعنى: ولا تقولوا لمن أظهر لكم ما يدُّ على إسلامه، أو لمن ألقى إليكم الاستسلام والانقياد ﴿ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ وإنما فعلت ذلك خوف القتل، بل اقبلوا منه ما أظهره، وعاملوه بموجبه، والاقتصار على ذكر تحية الإسلام، للمبالغة في النهي والزجر، والتنبيه على كمال ظهور خطئهم، ببيان أن تحية الإسلام، كانت كافية في الانزجار عن التعرض لصاحبها، فكيف وهي مقرونة بكلمة الشهادة؟ ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ تطلبون ماله، الذي هو حطام الدنيا السريع النفاذ ﴿ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ تعليل للنهي، أي فعند الله مغنم كثيرة تغنيكم عن قتل أمثاله لأخذ ماله ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي أول ما دخلتم في الإسلام، تفوهتم بكلمتي الشهادة، فحضنتم بها دماءكم وأموالكم، فمن الله عليكم بالإيمان، فقيسوا حاله على حالكم ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ فاطلبوا بيان هذا الأمر، وافعلوا به ما فعل بكم في أوائل أموركم، من قبول ظاهر الحال ﴿ إِنْ بَكَ اللَّهُ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال الظاهرة والخفية وبكيفيةها ﴿ خَيْرًا ﴾ مطلعاً أتم اطلاع، فيجازيكم بحسب ذلك، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فلا تتهافتوا في القتل واحتاطوا فيه.

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥﴾ دَرَجَتَيْنِ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ ﴾ بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجاتهم في الجهاد، روى البخاري عن ابن عباس: هم القاعدون عن بدر، ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وفائدة التقييد الإيذان بعدم إخلال وصف القعود بإيمانهم، والإشعار بعلّة استحقاقهم لما سيأتي من الحسنی ﴿ غَيْرُ أُولِي

الضَّرَرُ ﴿الضررُ: المرضُ، والعِلْلُ التي لا سبيل معها إلى الجهاد، كالعمى، والزمانة، أو نحوهما، وفي معناها العجز عن الأبهة ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء كلمته ﴿يَأْمُرُهُمْ﴾ إنفاقاً فيما يوهن كيد الأعداء ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ حملاً لها على الكفاح عند اللقاء ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ﴾ في سبيله ﴿يَأْمُرُهُمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَتْعِ﴾ من المؤمنين غير أولي الضرر ﴿دَرَجَةً﴾ لا يقادر قدرها، وهذا التصريح بما أفهمه نفى المساوات فإنه يستلزم التفضيل، ودرجة منصوب على المصدر لتضمنها التفضيل، كأنه قيل: فضلهم تفضيله واللائق بهم ﴿وَكُلًّا﴾ أي وكل واحد من الفريقين: المجاهدين، والقاعدين ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ المثوبة ﴿الْحَسَنَى﴾ وهي الجنة، والجملة اعتراضٌ جيء به تداركاً لما عسى يوهمه تفضيل أحدهما على الآخر، من حرمان المفضول، وإنما التفاضل في زيادة العمل المقتضي لمزيد الثواب ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مصدر مؤكد أي أجراً لأعمالهم. ﴿دَرَجَتَيْنِ﴾ بدل من أجراً بدل الكل، مبين لكمية التفضيل أي درجات كائنة ﴿رَتْنَةً﴾ تعالى ﴿وَمَغْفَرَةً﴾ أي ومغفرة عظيمة ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي ورحمة واسعة، كزّر تفضيل المجاهدين وبالحق فيه، تعظيماً للجهاد وترغيباً فيه، والمراد بالتفضيل الأول، ما خولهم الله عاجلاً في الدنيا من الظفر والغنيمة، والذكر الجميل، وبالثاني ما أنعم الله عليهم في الآخرة، من الدرجات العالية، هذا حكم ما بين المجاهدين وبين القاعدين، وأما أولو الضرر فهم مساوون للمجاهدين في الأجر والمنزلة، لما رواه مسلم عن جابر قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فقال: إِنَّ بِالْمَدِينَةِ رَجُلًا مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وادياً، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ»^(١)

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة رقم ١٩١١ وأخرجه البخاري في الجهاد ٣٤/٦ بلفظ «إِنْ قَوْمًا خَلَفْنَا بِالْمَدِينَةِ، مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وادياً، إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا، حَبَسَهُمُ الْعَذْرُ» وزاد في رواية أبي داود: قالوا يا رسول الله: وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حَبَسَهُمُ الْعَذْرُ».

واحتج بالآية من فضل الغنى على الفقر، بناءً على أنه سبحانه فضل المجاهدين بأموالهم على القاعدين، وقدمهم على المجاهدين بأنفسهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر الذنوب، ويرحم العباد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ بيان لحال القاعدين عن الهجرة، إثر بيان حال القاعدين عن الجهاد ﴿تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ التوفي هنا قبض الروح، والمراد من الملائكة ملك الموت وأعوانه، وقيل: المراد به ملك الموت فقط، وهو من باب إطلاق الكل وإرادة البعض، والتحقيق أنه لا مانع من نسبة التوفي إلى الله تعالى، وإلى ملك الموت وإلى أعوانه، وفي القرآن الكريم: ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ و﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾ و﴿تَوَفَّيْنَاهُمْ﴾ ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بترك الهجرة، واختيار مجاورة الكفار، ولما خرج المشركون إلى بدر، خرجوا معهم، فقتلوا مع الكفار، فنزلت الآية في حقهم ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة للمتوفين لتقاعدهم عن نصره الله ورسوله ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ ﴿قَالُوا﴾ متعللين بما يوجب التقصير ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرض مكة، عاجزين عن القيام بواجب الدين، فأخرجونا كارهين ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة تكذيباً لهم، وإبطالاً لتعللهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾؟ إلى بلد آخر منها تقدرون فيه إقامة الدين، كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة، فأكذبهم الله تعالى، فقد كانوا متمكنين من المهاجرة والخروج في سبيل الله ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الذين

شرحت حالهم الفظيعة ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي مسكنهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ﴾ لتركهم الفريضة المحتومة، فقد كانت الهجرة واجبة في صدر الإسلام أو لنفاقهم ونصرتهم أعداء الله تعالى على خير أحياء الله عز وجل ﴿وَسَاءَتْ﴾ أي بثت جهنم ﴿مَصِيرًا﴾ أي مصيرهم ومسكنهم، وفي الآية إشارة إلى وجوب المهاجرة، من موضع لا يتمكن الرجل من إقامة دينه، بأي سبب كان.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ﴾ استثناء منقطع، أي إلا الذين عجزوا عن الهجرة وضعفوا ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ أي لكن من كان منهم عاجزاً مستضعفاً كالرجال المسنين، والنساء والأطفال الصغار، والمراد التسوية بين هؤلاء في عدم الإثم والتكليف ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة وما يتوقف عليه ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ واهتداء السبيل معرفة الطريق بنفسه أو بدليل.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المستضعفين ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ ذكر بكلمة الإطماع، ولفظ العفو إيذاناً بأن ترك الهجرة أمر خطير، حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن، ويترصده الفرصة، ويجب طلب العفو، رجاء وطمعاً ﴿وَكَاثَ اللَّهُ عَفْوَاً عَفْوَاً﴾ لعباده، يعفو ويغفر لأهل الأعذار، وقد كان ﷺ يدعو للضعفاء الذين منعهم المشركون من الهجرة فيقول في دعائه: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن ربيعة المستضعفين بمكة، قال ابن عباس: «كنت أنا وأبي، ممن عذر الله تعالى، يعني من المستضعفين»^(١).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٢٥٥/٨ قال ابن حجر: أراد بذلك حكاية الآية: ﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ فهو من الولدان، وأمه من المستضعفين.

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١) وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا أَعْدَاؤُكُمْ مُبِينًا ﴾ (٢).

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ترغب في المهاجرة، وتأنس لها ﴿ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا ﴾ أي يجد فيها متحولاً ومهاجراً، وإنما عبّر عنه بذلك، تأكيداً للترغيب، لما فيه من الإشعار بكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجر من الخير والنعمة إلى ما يكون سبباً لرغم أنف قومه الذين هاجروهم، والرغم: الذل والهوان، وأصله لصوق الأنف بالرغام وهو التراب ﴿ وَسَعَةً ﴾ أي في الرزق، وإظهار الدين، فأرض الله واسعة، ورزقه وافر سابغ على العباد ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ ﴾ أي قبل أن يصل المقصد، وإن كل ذلك خارج باب، كما ينبىء عنه إيثار الخروج على المهاجرة ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي ثبت أجره عند الله، ثبوت الأمر الواجب، بوعد الله تعالى، وهو تأكيد للوعد، فلا شيء يجب على الله لأحد من خلقه، وفي الشرطين دلالة، على أن المهاجر له إحدى الحسنين: إما أن يُرغم أنف أعداء الله تعالى، بالوصول إلى الخير والسعة، وإما أن يدركه الموت ويصل إلى السعادة الحقيقية، والنعيم الدائم، وكل هجرة في غرض ديني، من طلب علم، أو حج، أو جهاد، أو نحو ذلك، فهي هجرة إلى الله عز وجل لحديث «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» (١) ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ مبالغاً في المغفرة، فيغفر له ما فرط

(١) أخرجه الشيخان البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو حديث مشهور.

منكم من الذنوب، التي من جعلتها القعود عن الهجرة إلى وقت العودة ﴿رَّحِيمًا﴾ مبالغاً في الرحمة، فيرحمه بإكمال ثواب هجرته ونيته.

﴿وَإِذَا ضَرَأْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي إذا سافرتُم أي سفر كان، ولذلك لم يقيده بما قيّد به الهجرة، والمراد من الأرض ما يشمل البر والبحر ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي حرج ومأثم ﴿أَنْ تَقْصُرُوا﴾ أي في أن تقصروا، ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي فليس عليكم جناح في أن تقصروا بعض الصلاة، بتنصيفها، وظاهر الآية الكريمة التخيير، وبه تعلق الشافعي، وعند أبي حنيفة ومالك يجب القصر، وهو قول عمر، وعلي، وابن عباس، أخرج النسائي وابن ماجه عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «صلاة السفر ركعتان، تمامٌ غيرُ قصر، على لسان نبيكم ﷺ»^(١) وروى الشيخان عن عائشة أنها قالت: «أولُ ما فرض الله تعالى الصلاة ركعتين، ركعتين، فأُقِرَّت في السفر، وزيدت في الحضر»^(٢) ووروده بنفي الجناح، لأنهم أَلْفُوا الإِتِمَامَ، فكانوا مظنة أن يخطر ببالهم أن عليهم نقصاناً، فصَرَحَ بنفي الجناح لِتَطْيِبِ نفوسهم، وتطمئن إليه كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ مع أن ذلك الطواف واجب ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبِلَ الْذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن خشيتُم أن يقصدكم الكفار بقتل أو جراح وأنتم في الصلاة، وجواب الشرط محذوف، لدلالة ما قبله عليه، أي إن خفتُم أن يتعرضوا لكم ما تكرهونه، فليس عليكم جناح النخ وهو شرط معتبر في شرعية صلاة الخوف، أما في حق مطلق التقصير، فلا اعتبار اتفاقاً، لتظاهر السنن على مشروعيته في حالة الأمن أيضاً، لما رُوي عن يعلى بن أمية أنه قال: قلتُ لعمر بن الخطاب إنما قال الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ فقد أمن الناسُ، فقال عجبْتُ مما عجبْتُ منه، فسألتُ رسول الله ﷺ عن

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الصلاة رقم /١٠٥٠/ وأخرجه النسائي أيضاً.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب قصر الصلاة ٥٦٩/٢ من فتح الباري.

ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»^(١) يعني القصر في السفر مع الأمن. وهذا تيسير من الله على عباده، في قصر الصلاة في السفر، سواء كان الناس في خوف أو أمن، والقصر ثابت بهذه الآية في حال الخوف خاصة، وأما في حال الأمن فبالسنة المطهرة، لما تقدم من حديث يعلى بن أمية، ولما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «سافر رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، لا يخاف إلا الله، فصلّى الرابعة ركعتين». وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ هو كالتعليل لقصر الصلاة، فإن كمال العداوة من موجبات تعرضهم للخطر، واشتغالهم بالصلاة مظنة لوقوعهم في الفتنة، والمعنى: إن الكافرين أعداء لكم، ظاهر العداوة، ولا يمنعهم فرصة اشتغالكم بعبادة الله أن يقتلوكم، لأنهم أعداء لكم ألداء، فخذوا حذرهم منهم، وقد خفف الله عنكم الصلاة، فصلّوا كما علمكم الله.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَالدِّينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٢٧﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

(١) أخرجه الطحاوي في شرح الآثار مسنداً إلى يعلى بن أمية، ورواه ابن ماجه في كتاب الصلاة رقم ١٠٥١ عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت: ﴿ليس عليكم جناح﴾ فذكره.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ولا يخفى أن الأئمة بعده نوابه، فيتناولهم الحكم الوارد في حقه عليه الصلاة والسلام، أي وإذا كنت يا محمد مع هؤلاء المؤمنين الخائفين في المعركة، وأردت أن تقيم بهم الصلاة ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ أي فاجعلهم طائفتين، طائفة تصلي معك وهم مدججون بالسلاح، وطائفة أخرى تقف بإزاء العدو ليحرسوكم منهم، وإنما لم يصرح بالطائفة الثانية لظهورها ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي ولتأخذ هذه الطائفة القائمة معك أسلحتهم، فلا يضعوها ولا يلقوها، بل تكون مصاحبة لهم، تحرساً من العدوان.. أخرج أبو داود والنسائي عن ثعلبة بن زهدم قال: «كنا مع سعيد بن العاص بطبرستان، فقام فقال: أيكم صلى مع رسول الله صلاة الخوف؟ فقال حذيفة: أنا، فصلى بهؤلاء ركعة، وبهؤلاء ركعة، ثم لم يقضوا»^(١) وكان هذا بمحض من الصحابة، ولم ينكره أحد ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي القائمين معك وأتموا الركعة ﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ أي فلينصرفوا إلى مقابلة العدو للحراسة ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا﴾ وهي الطائفة الواقفة تجاه العدو، ونكرها لأنها لم تذكر قبل ﴿فَلْيَصَلُّوا مَعَكَ﴾ الركعة الباقية، ولم يبين في الآية الكريمة حال الركعة الباقية من الطائفتين، وقد بين ذلك بالسنة. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ حين صلى صلاة الخوف صلى بالطائفة الأولى ركعة، وبالثانية ركعة كما في الآية، فجاءت الطائفة الأولى وذهبت الأخرى إلى مقابلة العدو، حتى قضت الأولى الركعة الثانية، بلا قراءة وسلموا، ثم جاءت الأخرى وقضوا الركعة الأولى بقراءة، حتى صار لكل طائفة ركعتان، وهذا ما ذهب إليه إمامنا الأعظم وإنما سقطت القراءة عن الطائفة الأولى في الركعة الثانية لأنهم في حكم المتابعة ولا كذلك

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة رقم ١٢٤٦ والنسائي في صلاة الخوف ١٦٧/٣ قال أبو داود: وروى بعضهم أنهم قضوا ركعة، وانظر الروايات في جامع الأصول ٧٤٤/٥.

الطائفة الأخرى لأنهم في الركعة الأولى لم يكونوا مقتدين بالإمام، وذهب بعضهم إلى أن صلاة الخوف ركعة ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾ الطائفة الأخرى ﴿حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتْهُمْ﴾ ولعل زيادة الأمر بالحذر في هذه المرة، لكونها مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبي ﷺ في شغل، وأما قبلها فربما يظنون أنهم قائمون للحرب ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمِينِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي تمنوا أن ينالوا منكم غرة وينتهزوا فرصة، فيشدوا عليكم شدة واحدة، وهذا الأمر للوجوب لقوله تعالى ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ حيث رخص لهم في وضعها، إذا ثقل عليهم حملها، بسبب مطر أو مرض، وأمروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط فقل ﴿وَحَذُوا حِذْرَكُمْ﴾ لئلا يهجم العدو عليكم غيلة أي بعد إلقاء السلاح للحذر، وفيه دلالة على وجوب الحذر، عن جميع المضار المظنونة، كالاحتراز عن الوباء والأمراض المعدية ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ وعد للمؤمنين بالنصر، بعد الأمر بالحزم، ليقوي قلوبهم وليعلموا أن الواجب أن يحافظوا على ضرورة التيقظ والتدبر، ويعلموا أن التحرز في نفسه عبادة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي صلاة الخوف إذا أدبتموها على الوجه المبين، وفرغتم منها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي فداوموا على ذكر الله تعالى، ومناجاته ودعائه، في جميع الأحوال، حتى في حال القتال، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) وقيل في معنى الآية: إذا أردتم الصلاة، فصلوا قياماً، وقعوداً إن عجزتم عن القيام، ومضطجعين إن عجزتم عن القعود، ولا يخفى أن حمل الآية على ذلك في غاية البعد، لأن حمل لفظ الذكر على الصلاة مجاز، فلا يُصار إليه إلا لضرورة ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾ أي أقمتم كما قال قتادة ومجاهد، ولما كان الضرب كني به عن السفر، ناسب أن

(١) سورة الأنفال، آية: ٤٥.

يكنى بالاطمئنان عن الإقامة، وأصل الاطمئنان السكون والاستقرار، أي إذا سكتتم عن السفر، واستقررتم في أمصاركم ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ﴾ أي أدوا الصلاة التي دخل وقتها وأتموها، وعدلوا أركانها، وراعوا شروطها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ مكتوباً محدوداً بأوقات معلومة، لا يجوز إخراجها عن أوقاتها.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي لا تضعفوا ولا تتوانوا في طلب الكفار بالقتال، والتعرض لهم ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ تشجيع لهم أي ليس ما تجدون من الألم بالجراح، والقتل، مختصاً بكم، بل هو مشترك بينكم وبينهم، يصيبهم كما يصيبكم، فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم، مع أنكم أجدر منهم بالصبر، لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون من الثواب في الآخرة، لأنهم لا يعتقدون بالجزاء ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ فيعلم أعمالكم وضمائركم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمر وينهى، فجدوا في الامتثال، فإن فيه عواقب حميدة وفوزاً بالمطلوب.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿هَتَانِمْ هَتَوْلَاءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْقُرْآنَ لِبَيَانِ الْحَقِّ
أو ملتبساً بالحق ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ برهم وفاجرهم ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ أي
بما عَرَّفَكَ وَأَوْحَى بِهِ إِلَيْكَ ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴾ أي مخاصماً،
نزلت في «طُعْمَةُ بَنِي أُبَيْرِقٍ» سَرَقَ دَرَعًا مِنْ جَارِهِ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، فِي
جِرَابٍ دَقِيقٍ، فَجَعَلَ الدَّقِيقَ يَنْتَثِرُ مِنْ خَرَقٍ فِيهِ، وَخَبَأَهَا عِنْدَ «زَيْدِ الْيَهُودِيِّ»
فَالْتَمَسَتْ الدَّرْعُ عِنْدَ طُعْمَةٍ فَلَمْ تَوْجِدْ، وَحَلَفَ مَا أَخَذَهَا، وَمَا لَهُ بِهَا عِلْمٌ،
فَتَرَكُوهُ، وَاتَّبَعُوا أَثَرَ الدَّقِيقِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَنْزِلِ الْيَهُودِيِّ، فَأَخَذُوهَا،
فَقَالَ دَفَعُوهَا إِلَيَّ «طُعْمَةُ» وَشَهِدَ لَهُ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ قَوْمُ طُعْمَةٍ:
انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْأَلُوهُ أَنْ يَجَادَلَ عَنْ صَاحِبِهِمْ «طُعْمَةُ» فَهَمَّ
النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَعِينَهُمْ، لِأَنَّ طُعْمَةَ فِي الظَّاهِرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَوْمُهُ شَهِدُوا
بِبِرَائَتِهِ فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ أي استغفر الله تعالى مِمَّا هَمَّتَ بِهِ، تَعْوِيلًا عَلَى
شَهَادَتِهِمْ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى وَقُوعِ ذَنْبٍ حَتَّى يَسْتَغْفِرَ مِنْهُ وَلَكِنْ
لِعَظَمَتِهِ، وَمَقَامِهِ الْمَحْمُودِ، يَوْشِكُ أَنْ يَكُونَ كَالذَّنْبِ، فَلَا مَتَمَسِكَ بِالْأَمْرِ
بِالِاسْتِغْفَارِ فِي عَدَمِ الْعَصْمَةِ، كَمَا زَعَمَهُ الْبَعْضُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ وَاسْتَغْفِرَ
لِأُولَئِكَ الَّذِينَ بَرَّوْا ذَلِكَ الْخَائِنَ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي إِنْ كَانَ
مُبَالِغًا فِي الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِمَنْ يَسْتَغْفِرُهُ، رَوَى أَنَّ طُعْمَةَ هَرَبَ إِلَى مَكَّةَ
وَارْتَدَتْ، وَنَقِبَ حَائِطًا لِأَجْلِ السَّرْقَةِ فَسَقَطَ الْحَائِطُ عَلَيْهِ وَمَاتَ.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي يَخُونُونَهَا، وَجَعَلَتْ خِيَانَةَ
الْغَيْرِ خِيَانَةً لِنَفْسِهِمْ، لِأَنَّ وَبَالَهَا وَضَرَرَهَا عَائِدٌ عَلَيْهِمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ جَعَلَتْ
الْمَعْصِيَةَ خِيَانَةً، فَمَعْنَى يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَهَا بِاِكْتِسَابِ الْمَعَاصِي،
وَالْمُرَادُ طُعْمَةُ وَمَنْ عَاوَنَهُ بِبِرَائَتِهِ مِنْ قَوْمِهِ، فَإِنَّهُمْ شُرَكَاءُ فِي الْإِثْمِ وَالْخِيَانَةِ
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا﴾ كَثِيرَ الْخِيَانَةِ، مَفْرُطًا فِيهَا، وَمَصْرُوعًا عَلَيْهَا
﴿أَثِيمًا﴾ مِنْهُمْ كَمَا فِيهَا، وَصِيغَةُ الْمُبَالِغَةِ لِبَيَانِ إِفْرَاطِهِمْ فِي الْخِيَانَةِ وَالْإِثْمِ،

فإن قيل لم قيل : ﴿خَوَّانًا﴾ مع أنَّ طعمة صدر عنه خيانة واحدة؟ قلنا: علم الله أنه كان فيه خيانة كثيرة، فلذلك جاء بصيغة المبالغة، روي أن عمر رضي الله عنه أمر بقطع يد سارق، فجاءت أمه تبكي وتقول: هذه أول سرقة سرقها، فاعفُ عنه، فقال: كذبت، إن الله تعالى لا يؤاخذ في أول مرة!!.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ يستترون منهم حياءً وخوفاً ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا يستحيون منه سبحانه، وهو أحق أن يُستحيى منه، ويُخاف من عقابه، وإنما فسّر الاستخفاء بالاستحياء، لأن الاستتار منه تعالى محال، فلا فائدة لنفيه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ عالم بهم وبأحوالهم، فلا طريق إلى الاستخفاء منه سوى ترك ما يؤاخذ به، وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ أي يدبرون ويزورون ﴿مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ من رمي البريء، وشهادة الزور، ولعلمهم اجتمعوا في الليل، وربّوا كيفية المكر، فسمى الله تعالى كلامهم ذلك، بالقول الميِّت الذي لا يرضاه سبحانه ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والخافية ﴿مُحِيطًا﴾ لا يعزب عنه شيء منها ولا يفوته، بل هو سبحانه مطلع على الخفايا والنوايا.

﴿هَآئِنًا هَآئِلًا﴾ خطابٌ لقوم طعمة، أي ها أنتم يا معشر القوم ﴿جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي خاصمتم عن طعمة وأمثاله في الدنيا ﴿فَمَنْ يُجَدِّلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؟ عند تعذيبهم، ومن يدفع عنهم إذا أخذهم الله بعقابه؟ ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾؟ حافظاً من بأس الله تعالى وعقابه؟ والاستفهام في الموضعين للنفي أي لا أحد يجادل عنهم، ولا أحد يكون عليهم وكيلاً.

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَحْدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾
 ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِثْمًا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾
 ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾
 وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا ﴾ قبيحاً يسوء به غيره، كما فعل «طعمة» ﴿ أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ أي يرتكب جريمة يظلم بها نفسه كالسرقة ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ ﴾ بالتوبة الصادقة، ولو قبل الموت بيسير ﴿ يَحْدِ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ لما استغفره منه كائناً ما كان ﴿ رَحِيمًا ﴾ متفضلاً عليه، وفيه مزيد ترغيب في التوبة والاستغفار.

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ ﴾ أي يفعل ﴿ إِثْمًا ﴾ ذنباً من الذنوب ﴿ فَإِثْمًا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ بحيث لا يتعدى ضرره إلى غيرها، فليحترز عن تعريضها للعقاب عاجلاً أو آجلاً ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ مبالغاً في العلم ﴿ حَكِيمًا ﴾ مراعيّاً للحكمة ومن ذلك أن لا تحمل وازرة وزر أخرى.

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً ﴾ أي صغيرة، أو ما لا عمد فيه من الذنوب ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾ أي كبيرة، أو ما كان عن عمد ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِ ﴾ أي يقذف به ﴿ بَرِيئًا ﴾ مما رماه به، كما فعل طعمة باليهودي ﴿ فَقَدِ احْتَمَلَ ﴾ أي بما فعله من تحميل جريمته على البريء ﴿ بُهْتَانًا ﴾ هو الكذب الذي يتحير في عظمته ﴿ وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ أي جرماً وذنوباً فاحشاً.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بإعلام الله لك بالوحي ﴿ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ﴾ أي من الذين دافعوا بالباطل عن طعمة ﴿ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ أي بأن يضلوك عن القضاء بالحق ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي وبالإضلال لهم راجع إليهم ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فإن الله عصمك، وما خطر

بإالك كان اعتماداً منك على أقوالهم، لا ميلاً عن الحكم ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن الجامع بين العنوانين، وقيل: المراد بالحكمة السنة ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ بالوحي أمور الدين، وأحكام الشرع ﴿مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ من الشرائع والأمور الغيبية ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة العامة، والرياسة التامة، والشفاعة العظمى، وهذا أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل، لأن الفضل العظيم كان بتعليم العلم.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٦) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُؤْتِهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٨) .

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾ الضمير للناس والنجوى في الكلام ما ينفرد به الجماعة أو اثنان يقال ناجيته أي ساررته، والاسم النجوى، وتكون بمعنى التناجي، ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي لكن في نجوى من أمر بصدقة ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو كل ما عرفه الشرع، واستحسنه، فيشمل جميع أصناف البر كإغاثة ملهوف، وإرشاد ضال وغير ذلك ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ عند وقوع المعاداة بينهم، من غير أن يجاوز في ذلك حدود الشرع، نعم أبيع الكذب لضرورة الإصلاح كما جاء في الحديث الشريف: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس»^(١) وعن أبي الدرداء قال: قال ﷺ:

(١) أخرجه البخاري في الصلح ٢٢٠/٥ ومسلم رقم ٢٦٠٥ وتتمته: «يصلح بين الناس فيقول خيراً، أو ينمي خيراً» أي ينقل كلاماً فيه خير وهو غير صادق فيه.

«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين»^(١) ولا يخفى أن هذا ونحوه مُخْرِجٌ مُخْرِجٌ الترغيب، وليس المراد ظاهره، إلا أن يكون إصلاحاً، يترتب على عدمه شر عظيم بين الناس ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي المذكور من الصدقة، وعمل الخير، والإصلاح بين الناس ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي لأجل طلب رضا الله تعالى، والتقييد به لأن الأعمال بالنيات، وأن من فعل خيراً لغير ذلك، لم يستحق به غير الحرمان ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يحيط به نطاق الوصف.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ أي يخالفه والتعرض لعنوان الرسالة لإظهار كمال شناعة ما اجترؤوا عليه من المشاقة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ ظهر له الحق، قال الزجاج: والآية نزلت في «طُعْمَة» لما ارتد بعد أن أسلم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي غير ما هم عليه من عقد، وعمل، وهو الدين القيم ﴿تُولَّوْهُ مَا تَوَلَّوْهُ﴾ أي نجعله والياً لما تولاه من الضلال، بأن نخلي بينه وبين ما اختاره في الدنيا ﴿وَنُصَلِّهِمْ جَهَنَّمَ﴾ في العقبي أي ندخله إياها ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي جهنم، والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع، لأنه تعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة، واتباع غير سبيل المؤمنين، لحرمة كل واحد منهما^(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كرر للتأكيد، وخص هذا الموضع به ليكون كالتكميل لقصة من سبق، بذكر الوعد بعد

(١) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٤٩١٩ والترمذي في صفة القيامة رقم ٢٥١١ قال الترمذي: صحيح، وتتمته: «فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين».

(٢) جعل تعالى أثباع غير طريق المؤمنين ضلالاً، لأن هذه الأمة المحمدية معصومة بمجموعها، لا بأفرادها، كما قال ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة» فدل ذلك على لزوم الجماعة، وسلوك طريق المؤمنين «وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» كما جاء في الحديث الشريف ١١.

ذكر الوعيد ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ شيئاً من الشرك أو أحداً من الخلق مع الله تعالى ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الحق، وإنما جعل الجزاء ههنا ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وفيما تقدم ﴿فقد افترى﴾ لما أن تلك كانت في أهل الكتاب، وهم مطلعون من كتبهم على صحة أمر الرسول ﷺ ومع ذلك كفروا، فصار ذلك افتراء واختلاقاً على الله تعالى، وهذه الآية في أناس لم يعلموا كتاباً، ولا عرفوا من قبل وحيّاً، فأشركوا وضلوا مع وضوح الحجة، وكان ضلالهم بعيداً.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضُلَّتْهُمْ وَلَا امْتَنَيْنَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتَكَنَّ إِذَاكَ الْأَنْعَامُ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِصًّا ﴿١٢١﴾

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي ما يعبدون من دونه عز وجل ﴿إِلَّا إِنْتَا﴾ جمع أنتي، كالكالات، والعزّي ومناة، ونحوها، وكان لكل حي صنم يعبدونه، ويسمونه أنتي بني فلان لأنها كانت جمادات، والجمادات تؤنث؛ ليكون دليلاً على تناهي جهلهم وفرط حماقتهم، وقيل: المراد الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله ويقولون في أصنامهم هن بنات الله وكانوا يجعلون عليها أنواع الحلّي ويزينونها على هيئة النسوة، وقيل سماها الله تعالى إناثاً لضعفها وقلة خيرها ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ﴾ أي وما يعبدون ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أي شيطاناً طاعياً متمرداً، بلغ الغاية في العتو والفجور هو الذي أغواهم على عبادتها، فكانت طاعتهم له عبادة، والمريد والمراد هو العاري عن الخير.

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي طرده وأبعده عن رحمته ﴿وَقَالَ لَا يُخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي شيطاناً مریداً، جامعاً بين الفجور، وبين لعنة الله، وقد

أقسم على أن يضل البشر، ويجعل منهم حظاً مقدراً معلوماً من أتباعه المجرمين^(١).

﴿وَلَا ضَلَّاهُمْ﴾ عن الحق بالدعاء إلى الضلالة ﴿وَلَا مَيَّنَّاهُمْ﴾ الأمانى الباطلة ويقول لهم ليس وراءكم بعث ولا نشر، ولا جنة ولا نار، فافعلوا ما شئتم ﴿وَلَا مُرَّاهُمْ﴾ بالتبنيك ﴿فَلْيَبْتَكَنَّ﴾ إِذَا بَكَتِ الْأَنْعَامُ ﴿أَيَّ﴾ فليقطعنها. وليشقنها بموجب أمري، وهذا إشارة إلى ما كانت الجاهلية تفعله، من شق أو قطع أذن الناقة، إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكراً، وتحريم ركوبها والحمل عليها، وسائر وجوه الانتفاع بها ﴿وَلَا مُرَّاهُمْ﴾ فليغيرت ﴿مَمْتَلِينَ﴾ بلا ريث ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ عن نهجه صورة أو صفة، ويندرج فيه خصاء العبيد، والوشم، والوشر، اللواط، والسحاق، ونحو ذلك، وخص من تغيير خلق الله، الختان، والوشم لحاجة، وقص ما زاد من اللحية ونحو ذلك ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ بإيثار ما يدعو إليه، على ما أمر الله تعالى به، ومجاوزته عن طاعة الله إلى طاعته ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي ظاهراً وأيّ خسرانٍ أعظم من أن يضيع رأس ماله، ويبدل مكانه من الجنة، بمكانه من النار.

﴿يَعِدُّهُمْ﴾ أي ما لا يكاد ينجزه ﴿وَيُمَيِّنُهُمُ﴾ الأمانى الفارغة وما لا ينالون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر، وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة، أو بلسان أوليائه.

﴿أُولَئِكَ﴾ الشيطان وأولياء الشيطان ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مرجعهم ومستقرهم جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي معدلاً ومهرباً، وهو اسم مكان من حَاصَ يحيص إذا عدل وولَّى، ومنه: «وقعوا في حَيْصَ بَيْصٍ» أي في أمرٍ يعسر التخلص منه، أي مالهم من معدلٍ يلجأون إليه.

(١) هذا النصيب من أتباع الشيطان هم بعث النار، كما جاء في الحديث الصحيح، يقول الله عز وجل لآدم يوم القيامة: «يا آدمُ أخرجُ بعث النار من ذريتكَ!! قال يا ربُّ وما بعثُ النار؟ - أي ما مقداره وما عدده؟ - فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون...» الحديث أخرجه مسلم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ۚ﴾^(١٢٦) لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۚ﴾^(١٢٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۚ﴾^(١٢٨)

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يتبعه الشيطان وإخوانه ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وهذا وعد إلهي وعيد الكافرين، وإنما قرنهما زيادةً لمسرة هؤلاء، ومساءة أولئك ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ وعد الله الذي ذكره وعد حق لا شك فيه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أي قولاً جملةً بليغة مؤكدة، والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه بوعده الله الصادق لأوليائه، ترغيباً للعباد في تحصيله، والقيـل: مصدر كالقول، والقال، وقال ابن السكيت: القيلُ والقالُ اسمان لا مصدران.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي ليس ما وعد الله من الثواب ينال بأمانيتكم أيها المسلمون، ولا بأمانيت أهل الكتاب، وإنما يُنال بالإيمان، والعمل الصالح، قال الحسن البصري: «ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل»^(١) والآية رُدُّ على اليهود والنصارى الذين قالوا ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارًا﴾ ولهذا أتبعه بقوله ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ عاجلاً أو آجلاً، وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَشَكُوا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: سَدُّوا وَقَارِبُوا فَإِنْ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وانظر تفسير ابن كثير ٥٧٠/١.

في كل ما أصاب المسلم كفارة، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة يُنكبها»^(١) والأحاديث في هذا المعنى أكثر، ولهذا قال العلماء: إن الأمراض ومصائب الدنيا وهمومها، يكفر الله بها الخطيئات ﴿وَلَا يَجِدُ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ولا يجد لنفسه، إذا جاوز موالاة الله ونصرته، من يواليه وينصره، في دفع العذاب عنه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي بعضها أو شيئاً منها، فإن كل أحد لا يتمكن من كلها. ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ في موضع الحال أي سواء كان العامل ذكراً أو أنثى ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بشرط اقتران العمل به، فلا اعتداد بالعمل بدون الإيمان، وفيه دفع توهم أن العمل الصالح ينفع الكافر ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من اتصف بالإيمان، والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ بنقص شيء من الثواب، وإذا لم ينقص ثواب المطيع، فبالحري أن لا يزداد في عقاب العاصي، لأن المجازي أرحم الراحمين، ولذلك اقتصر على ذكره عقيب الثواب.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ^(١٢٩) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ مُحِيطًا ^(١٣٠) وَسْتَغْفِرُونَكَ فِي الْإِنْسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى الْإِنْسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ^(١٣١) .

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة رقم ٢٥٧٤ والترمذي في التفسير رقم ٣٠٤ وهذه رواية الترمذي، وانظر جامع الأصول في أحاديث الرسول ١١٠/٢.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله، لا يعرف لها رباً سواه، وهذا غاية العبودية أن يستسلم العبد وينقاد لأمر الله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي آت بالحسنات، وبالأعمال الصالحة، على الوجه اللائق الذي فسر به ﷺ «أن تعبد الله كأنك تراه» ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الموافقة لدين الإسلام، مستقيماً على سبيله ومنهاجه ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الأديان الزائفة إلى الدين الحق ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي اصطفاه وخصصه بكرامة، تشبه كرامة الخليل عند خليله، وإنما أعاد ذكره تفخيماً لشأنه عليه السلام، والخليل: الصديق الحميم، سمي خليلاً لأن المحبة لله تتخلل القلب حتى لا تدع فيه مكاناً إلا ملأته وخالطته، وهي صفة اختص بها إبراهيم عليه السلام.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ جملة مبتدأة سيقت لتقرير وجوب طاعة الله على أهل السماوات والأرض، ببيان أن ما فيهما من الموجودات له تعالى، فيختار منهما من يشاء، وما يشاء، وهو دليل على أن اتخاذه خليلاً، لاحتياج الخليل إليه، لا لاحتياجه تعالى، وفيه أيضاً إشارة إلى أن خلته لا تخرجه عن العبودية لله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكُلِّ شَيْءً مُحِيطًا﴾ إحاطة علم وقدره، فكان عالماً بأعمالهم، فيجازيهم على خيرها وشرها.

﴿وَسَتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ الاستفتاء طلب الفتوى، يقال: استفتيت الرجل فافتاني، أي يطلبون منك تبين المشكل من الأحكام في النساء، مما يجب لهن وعليهن، وقال غير واحد: إن المراد يستفتون في ميراثهن والقرينة على ذلك سبب النزول، وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء، ولا الصبيان شيئاً، وكانوا يقولون: لا يغزون، ولا يغنمون فترلت ﴿قُلْ اللَّهُ يُقْتَبِكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين الله تعالى لكم حكمه فيهن ﴿وَمَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي وما يتلى عليكم في القرآن يبين لكم ﴿فِي يَتَمَى النِّسَاءِ﴾ أي ما يتلى عليكم في شأنهن، وإضافة اليتامى إلى النساء، بمعنى «من» لأنها إضافة الشيء إلى جنسه ﴿الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا

كُتِبَ لَهُنَّ ﴿١﴾ أَي ما كتب الله لَهُنَّ من الميراث ومن الصداق ﴿٢﴾ وَرَغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴿٣﴾ فِي أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ أَوْ عَنْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ، فَإِنْ أَوْلِيَاءُ الْيَتَامَى كَانُوا يَرْغَبُونَ فِيهِنَّ، إِنْ كُنَّ جَمِيلَاتٍ، لَا لِأَجْلِ الْمَعَاشِرَةِ بَلْ لِأَكْلِ مَالِهِنَّ، وَإِلَّا كَانُوا يَعْضِلُوهُنَّ طَمَعاً فِي مِيرَاثِهِنَّ ﴿٤﴾ وَالْمُسْتَضْعِفَيْنِ مِنَ الْوِلْدَانِ ﴿٥﴾ عَطْفٌ عَلَى يَتَامَى النِّسَاءِ وَقَدْ كَانُوا لَا يورَثُونَهُمْ كَمَا لَا يورَثُونَ النِّسَاءَ ﴿٦﴾ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ﴿٧﴾ أَي وَيَأْمُرْكُمْ أَنْ تَقُومُوا وَهُوَ خُطَابٌ لِلْأُتَمَّةِ أَنْ يَنْظُرُوا لَهُمْ وَيَسْتَوْفُوا حَقُوقَهُمْ، أَوْ لِلْأَوْلِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ بِالنِّصْفَةِ فِي حَقِّهِمْ ﴿٨﴾ وَمَا تَفْعَلُوا ﴿٩﴾ فِي حَقِّ الْمَذْكُورِينَ ﴿١٠﴾ مِنْ خَيْرٍ ﴿١١﴾ حَسْبَمَا أَمَرْتُمْ بِهِ، أَوْ مَا تَفْعَلُونَهُ مِنْ خَيْرٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَيَنْدَرِجُ فِيهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَؤُلَاءِ ائْتِدَاجاً أَوْلِيَاءَ ﴿١٢﴾ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٣﴾ فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ، وَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ الْخَيْرِ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي رَغِبَ فِيهِ، وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الشَّرَّ مِمَّا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ مِنْهُمْ.

﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ هَذَا مِنْ جُمْلَةٍ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَفْتِيهِمْ بِهِ فِي النِّسَاءِ، مِمَّا لَمْ يَتَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَالْخَوْفُ إِمَّا عَلَى حَقِيقَةٍ، أَوْ عَلَى التَّوَقُّعِ، أَي وَإِنْ أَمْرَأَةٌ تَوَقَّعَتْ لِمَا ظَهَرَ لَهَا مِنَ الْمَخَايِلِ وَالْأَمَارَاتِ ﴿مِنْ بَعْلِهَا﴾ أَي زَوْجِهَا ﴿نُشُوزًا﴾ تَجَافِيًا عَنْهَا، وَتَرْفَعًا عَنْ صَحْبَتِهَا، كِرَاهَةً لَهَا، وَمَنْعًا لِحَقُوقِهَا مَسِيئًا عَشْرَتِهَا، وَأَنْ يُوْذِيَهَا بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ وَيَطْلُقَ عَلَى كُلِّ مِنْ صِفَةِ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ بِأَنْ يَقِلَّ

مجالستها ومحادثتها ومضاجعتها، وهي أخف من النشوز، لكبر في سن، أو دمامة، أو ملال، أو غير ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي فلا حرج ولا إثم ﴿عَلَيْهِمَا﴾ أي المرأة وبعلاها حينئذ ﴿أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أن يتصالحا بأن تحطَّ له بعض المهر، أو القَسَم، أو تهبَّ له شيئاً لتستعطفه بذلك، وتستديم المودة بينهما، وصدَّر ذلك بنفي الجُنَاح، لبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة، وذكر «بينهما» تنبيهاً على أنه ينبغي أن لا يطلع الناس على ما بينهما، أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال: «خشيْتُ سودة رضي الله عنها أن يطلقها رسولُ الله ﷺ، فقالت يا رسول الله: لا تطلقني وأجعلُ يومي لعائشة، ففعل، فنزلت هذه الآية»^(١). وأخرج الشافعي عن ابن المسيب أن ابنة محمد بن مسلمة، كانت عند رافع بن خديج، فكره منها أمراً، فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلقني، وأقسِم ما بدا لك، فاصطلحا، فجرت السُّنَّة، ونزل القرآن ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة وسوء العشرة، أو من الخصومة، ويجوز أن لا يراد به التفضيل، بل بيان أنه من الخير، كما أن الخصومة من الشر ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ والجملتان اعتراضٌ، الأول للترغيب في المصالحة، والثاني لتمهيد العذر في المماكسة والشقاق، ومعنى إحضار الأنفس الشح: جعلها حاضرة له، مطبوعة عليه^(٢) فلا تكاد المرأة تسمح بالإعراض عنها، والتقصير في حقها، ولا الرجل يسمح بأن يمسكها، ويقوم بحقها على ما ينبغي، إذا كرهها أو أحبَّ غيرها... ثم حثَّ الله تعالى على متابعة الشريعة بقوله تعالى: ﴿وَلِنْ تَحْسِنُوا﴾ في العشرة مع النساء، بالإقامة على نساكنكم وإن كرهتموهن وأحببتهم غيرهن ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز والإعراض، وتصبروا على ذلك مراعاة لحقوق الصعبة، ولم تضطروهن إلى بذل شيء من حقوقهن، أو بذل ما يعزُّ عليهنَّ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان،

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/٢٣٢.

(٢) الشُّحُّ: هو البخل الشديد مع الحرص على عدم الإنفاق، فالشُّحُّ أقبح من البخل.

والخصومة، وغير ذلك من أعمالكم ﴿حَيْرًا﴾ عليمًا به فيجازيكم عليه، وفي خطاب الأزواج بطريق الالتفات، والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان، ولفظ التقوى، من لفظ الاستمالة والترغيب في حسن المعاملة ما لا يخفى.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ لأن العدل أن لا يقع ميل البتة، لا في المعاملة، ولا في ميل القلب إلى جانب إحداهن، وهذا غير ممكن بين البشر، رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك، ولا أملك»^(١). ومراده ﷺ «بما لا أملك» ميل القلب فإنه ليس بطاقة الإنسان ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ على تحري ذلك، وبالغتم فيه ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ أي فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور، واعدلوا ما استطعتم، ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ أي التي ملتم عنها فتدعوها ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ التي ليست ذا بعل، ولا مطلقة، وفي الحديث الشريف «من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط»^(٢) ﴿وَلِنْ تَصْلِحُوا﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن ﴿وَتَتَّقُوا﴾ فيما يستقبل من الجور والميل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ يغفر لكم ما مضى من الحيف والظلم ﴿رَحِيمًا﴾ يتفضل عليكم برحمته.

﴿وَلِنْ يَنْفَرَقَا يُعْنِ اللَّهُ كُلاً﴾ أي وإن لم يتفقا على شيء، وتفرقا بالخلع أو بالطلاق، يغني الله كلا منهما عن الآخر، أي يجعله مستغنياً عن الآخر ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ من غناه وقدرته أي يرزقه زوجاً خيراً من زوجه، وعيشاً أهناً من عيشه، وفيه تسلية للزوجين بعد المفارقة، وقيل زجر لهما

(١) أخرجه أبو داود في النكاح رقم ٢١٣٤ والترمذي رقم ١١٤٠ باب التسوية بين الضرائر.

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح رقم ١١٤١ وأبو داود في النكاح أيضاً رقم ٢١٣٣ والنسائي في عشرة النساء ٦٣/٧ وفي رواية أبي داود: «جاء يوم القيامة وشقه مائل».

عن المفارقة، وكيفما كان فهو مقيد بمشيئة الله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾
كافياً للخلق ﴿حَكِيمًا﴾ متقناً في أفعاله وأحكامه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٢١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى
بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٢٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٢٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ جملة منبهة على كمال سعته
وعظيم قدرته ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود
والنصارى ومن سبقهم من الأمم، ومساق الآية لتأكيد الأمر بالإخلاص
﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي كما وصيناكم أنتم ﴿إِنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي أمرنا كلاً منكم
ومنهم، بأن اتقوا الله، فالمعنى أن الأمر بالتقوى قديمة، أوصى الله تعالى
بها جميع عباده ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وقلنا
لكم ولهم: إن تكفروا فاعلموا أنه سبحانه مالك الملك والملكوت، فلا
يضره كفركم، كما أنه لا ينفعه شكركم وتقواكم، وصّاكم بذلك، لرحمته
لا لحاجته، ثم قرر ذلك بقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن الخلق وعبادتهم
﴿حَمِيدًا﴾ في ذاته، محموداً، في ملكوته، سواء حمدتموه أو لم تحمدوه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي له سبحانه ما فيهما من
الخلائق، يتصرف فيهم كيف يشاء ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ في تدبير أمور الكل.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي إن يرز إذهابكم يهلككم ﴿أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ
بِآخَرِينَ﴾ قال ابن عباس: المراد من «الناس» المشركون والمنافقون، أي
يوجد قوماً آخرين من البشر، وفيه تهديد للكفار، يعني أن إبقاءكم على ما

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أي همُّه الدنيا فقط، كالمجاهد يريد بجهاذه الغنيمة، والمنافع الدنيوية ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فَمَالُهُ يطلب أحسهما؟ فليطلبهما أو ليطلب الأشرَف منهما، وهو ثواب الآخرة حتى يحصل له ذلك، ويحصل له ثواب الدنيا على سبيل التَّبَع، كما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْآخِرَةُ، جَمَعَ اللَّهُ لَهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غَنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَزَقَ اللَّهُ تَعَالَى شَمْلَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ^(١)».

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فيه معنى التوبيخ أي يرائي المرائي، والله تعالى سميع بما يهجس في خاطره، بصيرٌ بأحواله فيجازيه على ذلك.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوِّمِينَ بِالْقِسْطِ شَهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ
أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا
تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴿١٢٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ
رَسُولِهِ ۚ وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ ۚ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٠﴾ إِنَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا
ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَدُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
سَبِيلًا ﴿١٣١﴾﴾ .

٥١٣

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته حقَّ الاجتهاد، نَبَّه سبحانه بلفظ القَوَّامِينَ، على أن مراعاة العدالة يجب أن تكون على الدوام، فإن من عدل مرة أو مرتين، لا يكون في الحقيقة عادلاً بل ينبغي أن يكون مستمراً في العدل ﴿شُهَدَاءَ﴾ بالحق ﴿لِلّٰهِ﴾ بأن تقيموا شهادتكم لوجه الله تعالى، لا لغرض دنيوي ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم، بأن تُقَرُّوا عليها، لأن الشهادة بيان للحق، سواء كان عليه أو على غيره ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ ولو كانت على والديكم وأقاربكم، أو أقرب الناس إليكم ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ أي المشهود عليه ﴿غَنِيًّا﴾ يُبتغى في العادة رضاؤه ويُتقى سخطه ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة، ولا تجوروا فيها ميلاً أو ترحموا ﴿فَاللَّهُ أَوَّْلُ بِهِمَا﴾ بالغني والفقير، وبالنظر لهما، فلو لم تكن الشهادة - عليهما أو لهما - صلاحاً لما شرعهما ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ﴾ أي هوى أنفسكم، إرادة ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ عن الحق من العدول، أي تظلموا وتجوروا في شهادتكم ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا﴾ أُلستكم عن شهادة الحق، بأن تأتوا بها لا على وجهها ﴿أَوْ تُعَرِّضُوا﴾ أي تتركوا إقامتها فيكنمها أو لا يقيمها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من اللَّيِّ والإعراض ومن جميع أعمالكم ﴿حَيِّرًا﴾ فيجازيكم عليها لا محالة.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خطاب للمسلمين ﴿ءَامِنُوا﴾ اثبتوا على الإيمان، وداوموا عليه، وازدادوا فيه طمأنينةً و يقيناً، وقيل: الخطاب للمنافقين فمعنى «آمنوا» أي أخلصوا الإيمان واختاره الزجاج ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي القرآن الكريم ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي جنس ما أنزل على الأنبياء ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك، فقد ضل بعيداً عن المقصد، لا يكاد يعود إلى طريقه ويستفاد منه أن الكفر بأي بعضٍ كان ضلال مبين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني اليهود آمنوا بموسى ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ حين عبدوا العجل ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ بعد عوده إليهم ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بعبسى ﴿ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ، روي ذلك عن قتادة، والذي يميل القلب إليه، أن المراد قوم تكرر منهم الارتداد، ويؤيده ما أخرجه ابن جرير عن علي أنه قال، في المرتد: يُستتاب ثلاثاً، ثم قرأ هذه الآية ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إذ يُستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر، ويثبتوا على الإيمان، فإن قلوبهم خربت بالكفر، وبصائرهم عميت عن الحق، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم، ولم يغفر لهم.

﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ يعني إلى النجاة، أو إلى الجنة.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَغُوتُ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنَ اللَّهِ فَالَوْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ فَأَلَوْ أَلَمْ تَسْتَحِذُوا عَلَيْهِمْ وَتَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ .

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ وضع «بشّر» موضع «أنذّر» نهكم بهم ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وجيعاً يصل وجعه إلى قلوبهم، وهذا يدل أن الآية في المنافقين، فهم قد آمنوا في الظاهر، وكفروا في السر، مرة بعد أخرى، ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ والمراد بالكافرين اليهود والمشركين

﴿ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ متجاوزين ولاية المؤمنين المخلصين ﴿ أَيْبُغُوت ﴾ أي المنافقون ﴿ عِنْدَهُمْ ﴾ أي عند الكافرين ﴿ الْعِزَّة ﴾ القوة والغلبة والمنعة؟ والاستفهام للإنكار ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي إنها مختصة به تعالى، يعطيها من يشاء، وقد كتبها سبحانه لأوليائه فقال: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ الخطاب للمنافقين لزيادة التوبيخ، كأنه قيل: أتتخذونهم أولياء وأصدقاء توالونهم، والحال أنه تعالى قد نزل عليكم ﴿ فِي الْكِتَابِ ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ ﴾ أي أنه إذا سمعتم آيات القرآن، يكفر بها الكافرون، ويستهزئ بها المستهزون، فلا تجالسوهم ولا تسمعوا لهم وقوله تعالى: ﴿ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ﴾ حالان من الآيات، جيء بهما لتقييد النهي عن المجالسة في قوله: ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ كان المنافقون يجالسون اليهود ويخوضون معهم مع الاستهزاء، فنهوا أن يقعدوا معهم، كما نهى المسلمون عن مجالسة المشركين بمكة، وهذا يقتضي الانزجار عن مجالستهم، فكيف بمولاتهم والاعتزاز بهم؟! ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ﴾ في الإثم، لأنكم قادرون على الإعراض عنهم، والإنكار عليهم، قال العلماء: وهذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكر أو خالط أهله، كان في الإثم بمنزلتهم، إذا رضي به، وإن لم يباشره، فإن جلس ولم يرض بفعالهم، بل كان ساخطاً عليهم، وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر فيه أهون وقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ

(١) العزة غير الكبر، فهي إكرام المرء نفسه فلا يضعها موضع الذلة والهوان، وأما الكبر فهو جهل وغرور، وهو أن ينزل الإنسان نفسه فوق منزلتها، قال رجل لعلي رضي الله عنه: إن الناس يزعمون أن فيك كبراً!! قال ليس ذاك بالكبر، ولكنه عزة المؤمن، وتلا الآية ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١﴾ تعليل لكونهم مثلهم في الكفر، وقد وضع موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالنفاق، وتعليلاً للحكم بمأخذ الاشتقاق. قال بعض المحققين: إن المقصود من الخطاب هنا المؤمنون الصادقون، والمراد بمن يكفر ويستهزئ المنافقون والكافرون، ويؤيد ذلك ما نقل عن الواحدي أنه قال: كان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن، فنهى الله تعالى المسلمين عن مجالستهم، واستدل بعضهم بالآية على تحريم مجالسة الفساق والمبتدعين، والمراد بالإعراض إظهار المخالفة بالقيام عن مجالستهم، لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ﴾ صفة للمنافقين، والخطاب للمؤمنين الصادقين أي ينتظرون أمركم وما يحدث لكم من ظفر أو إخفاق ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي فإن كان فتح وظفر على الأعداء ﴿فَقَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ نجاهد عدوكم، فأعطونا نصيباً من الغنيمة ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ في الحرب وغلبة على المسلمين، سمى ظفر المسلمين فتحاً، تعظيماً لشأنهم، ولتضمنه إعلاء كلمة الله، ونصرة الدين، وظفر الكافرين نصيباً تخسباً لحظهم، لأنه مقصور على أمر دنيوي، سريع الزوال ﴿قَالُوا﴾ للكفرة ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي ألم نغلبكم، ونتمكن من قتلكم، وأسركم، ونطلعكم على أسرار محمد وأصحابه؟ ﴿وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن ثبطناهم عنكم حتى ضعفت قلوبهم، فهاتوا لنا نصيباً مما أصبتم منهم، ومراد المنافقين إظهار المنة على المشركين، في أنهم كانوا السبب في انتصار الكفار على المؤمنين ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون والمنافقون ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ حكماً يليق بشأن كل منكم، من الثواب والعقاب ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي يوم القيامة، وهو قول علي بن أبي طالب، وابن عباس، بدليل أنه عطفه على قوله ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يوم القيامة أو في الدنيا، أي لم يجعل لهم على المؤمنين سلطاناً تاماً بالاستئصال، أو حجة قائمة عليهم.

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٤٦) مَذْبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ (١٤٧) بَيَّاتُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ (١٤٨) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (١٤٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١٥٠) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (١٥١).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾ أي يفعلون ما يفعل المخادع، فيظهرون الإيمان ويضمرون الكفر، وعن الحسن البصري أن المراد يخادعون النبي ﷺ على حد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ ﴿ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ أي فاعل بهم ما يفعل في الخداع، حيث تركهم في الدنيا كأنهم مسلمون، معصومو الدم والمال، وأعد لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى ﴾ متناقلين متباطئين، لا نشاط لهم كالمكره على الفعل، لأنهم لا يعتقدون ثواباً في فعلها، ولا عقاباً في تركها ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ أي يقصدون بصلاتهم الرياء ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي إلا ذكراً قليلاً باللسان، واستدل بالآية على استحباب دخول الصلاة بنشاط.

﴿ مَذْبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الإيمان، والكفر أي مترددين بينهما، متحيرين، قد ذبذبهم الشيطان^(١)، وأصل الذب: الطرد، ذبذبه إذا تركه

(١) في الحديث الشريف «مثل المنافق كمثل الغنم العائرة بين الغنمين - أي المترددة بين القطيعين من الغنم - تُعبر إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة» أخرجه مسلم والنسائي، وزاد=

متردداً ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا منسوبين إلى المؤمنين حقيقة، لإضمارهم الكفر، ولا إلى الكافرين لإظهارهم الإيمان ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ لعدم استعداده للهداية والتوفيق ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ موصلاً إلى الحق والصواب، فضلاً أن يهديه إليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه صنيع المنافقين وديدنهم فلا تشبهوا بهم ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي حجة بينة، فإن موالاتهم دليل على النفاق، وفيه دلالة على أن الله تعالى، لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وتوجيه الإنكار إلى الإرادة، دون متعلقها، بأن يقال: أتجعلون لله عليكم سلطاناً، للمبالغة في إنكاره، وتهويل أمره، ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته، فضلاً عن صدور نفسه.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ وهي الطبقة التي في قعر جهنم، وإنما كان عذابهم كذلك، لأنهم أخبث الكفرة، إذ ضموا إلى الكفر استهزاءً، بالإسلام، وخداعاً للمسلمين، وأما قوله ﷺ: «ثلاث من كن فيه فهو منافق» الحديث، فمن باب التشديد والتهديد، مبالغة في الزجر، والدرك كالدرج، إلا أنه يقال باعتبار الهبوط، والدرك باعتبار الصعود ﴿وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخلصهم منه أو يخفف عنهم ما هم فيه^(٢).

= النسائي: «لا تدري أيها تنبع».

(١) سورة النور، آية: ٤٠.

(٢) تدبر هذه الآيات الكريمة، وانظر بعين العظة والاعتبار، إلى حال هؤلاء المنافقين الأشرار، فقد شرط تبارك وتعالى للتوبة على الكفار شرطاً واحداً، وهو الانتهاء عن الكفر ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وأما المنافقون فقد شرط للتوبة عليهم أربعة شروط وهي: التوبة الصادقة، وإصلاح ما فسد من العمل، والاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله، ومع كل هذه الشروط فقد جعلهم في ضمن =

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ وثقوا به، وتمسكوا بدينه ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ أي جعلوه خالصاً ﴿لِلَّهِ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ورضاه ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين لم يصدر عنهم نفاق أصلاً منذ آمنوا ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يُقَادَرُ قدره.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ؟﴾ أي أي شيء يفعل الله تعالى بتعذيبكم؟ أيتشفى به من الغيظ؟ أم يدرك به الثأر؟ أم يستدفع به الضر، كما هو شأن الملوك، فإنه الغني المتعالي عن أمثال ذلك، وإنما هو أمر يقتضيه الكفر، فإذا زال ذلك بالإيمان والشكر، انتفى التعذيب ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ أي مثيباً على الشكر، يقبل اليسير، ويعطي الجزيل ﴿عَلِيمًا﴾ بجميع أحوالكم وأعمالكم، فيجازيكم على ذلك.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١١٨) ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (١١٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٢٠) ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (١٢١).

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ المراد بالجهر هنا الإظهار، أي لا يحب الله سبحانه أن يُعلن أحد بالسوء بين المؤمنين، بذكر العيوب والسيئات، لأن في هذا الجهر مفسدتين: الأولى: أنها مجلبة للعداوة وقد

= المؤمنين تبعاً، ولم يقل: هم المؤمنون، وجعل الأجر لأهل الإيمان دونهم، للتنبيه على عظم جريمة النفاق والمنافقين.

تفضي إلى سفك الدماء. الثانية: أنها تؤثر في نفوس السامعين بما تورث من الضغائن، وفي الحديث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً، يهوي بها سبعين خريفاً في النار»^(١) ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ إلا جَهْر من ظلم، بالدعاء على الظالم، ويذكره بما فيه من سوء، فإن ذلك غير مسخوط عنده سبحانه، روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «المستبَّان ما قالَا - يعني إثم ما قالَا من السباب - فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم»^(٢) يعني إذا تجاوز المسبوب في السب، يكون آثماً أيضاً، وقيل: إن الله تعالى لا يحب لعباده أن يسكتوا على الظلم، بل يحب لهم أن يكونوا أعزة، أباة، وقال ﷺ في الحديث الشريف: «لِيُ الْوَاجِدُ ظَلَمٌ، يُحَلُّ عِزُّهُ، وَعُقُوبَتُهُ»^(٣) واللي: المطل، والواجد: القادر على وفاء دينه، يُحَلُّ عرضه بأن يقال: فلان ظالم يمطل، ويبيح للإمام عقوبته وتعزيره ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ بجميع المسموعات، فيندرج فيه كلامُ المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾ بجميع المعلومات، ومن جملتها حال الظالم والمظلوم.

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ أي تظهروا أي خير كان، من الأقوال والأفعال ﴿أَوْ تُخْفَوْهُ﴾ أي تفعلوه سراً ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ مع ما سُوء لكم من مؤاخذه المسيء، والتنصيص عليه مع اندراجهِ في إبداء الخير، لما أنه التحقيق بالبيان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً قَدِيرًا﴾ أي يكثر العفو عن العصاة، مع كمال قدرته على الانتقام، فأنتم أولى بذلك، وهو حثٌ للمظلوم على تقديم العفو،

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الزهد رقم ٢٣١٥ ورواه البخاري في الرقاق ٢٦٦/١١ بلفظ «إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم، أبعد ما بين المشرق والمغرب».

(٢) أخرجه مسلم في البر رقم ٢٥٨٧ وأبو داود في الأدب رقم ٤٨٩٤ والترمذي رقم ١٩٨٢ ولفظه عندهم «فعلى البادىء منهما ما لم يعتد المظلوم».

(٣) أخرجه أبو داود في الأقضية رقم ٣٦٢٨ والنسائي في البيوع ٣١٦/٧ ورواه البخاري تعليقاً ٤٦/٥ في الاستقراض، قال الحافظ في الفتح: وصله أحمد وإسحق في مسنديهما.

بعدما رخص له في الانتصار حملاً على مكارم الأخلاق، ففي هذه الألفاظ اليسيرة معان كثيرة لأن جميع الخيرات تنحصر في قسمين: أحدهما: صدق النية والعمل مع الحق، والثاني: التخلق بحسن الخلق مع الخلق، فتدخل في هذه الكلمات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ هم اليهود والنصارى، وهو ما يقتضيه رأيهم، لا أنهم يصرحون بذلك ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بأن يؤمنوا بالله تعالى، ويكفروا بالرسول ﴿وَيَقُولُونَ نُوْنٌ بَعْضُ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ كما فعل أهل الكتاب، وما ذلك إلا كفر بالله، وتفریق بين الله تعالى ورسوله، لأنه عز وجل قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء، فمن كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل، وبالله تعالى أيضاً ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ بقولهم ذلك ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي بين الإيمان والكفر ﴿سَبِيلًا﴾ أي طريقاً يسلكونه، مع أنه لا واسطة بينهما، إذ الحق لا يختلف، كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾؟

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ هم الكاملون في الكفر محققاً، ولا عبرة بإيمانهم هذا ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ أي لهم، وإنما وضع الاسم الظاهر، ذماً لهم ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ يهينهم ويذلهم. قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَى سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٦﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٧﴾ .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِمْ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي لم يؤمنوا ببعض الرسل ويكفروا بالبعض ﴿أُولَئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت المذكورة ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾ نعطيمهم، وتصديره بسوف للتأكيد، والدلالة على أن الوعد كائن لا محالة، وإن تأخر ﴿أُجُورُهُمْ﴾ الموعودة لهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما فرط منهم ﴿رَحِيمًا﴾ مبالغاً في الرحمة، فيضاعف حسناتهم.

﴿يَسْأَلُكَ﴾ يا رسول الله ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ هم أحوار اليهود ﴿أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ حيث قالوا: إن موسى جاء بالوواح من عند الله، فأتنا بالوواح من عند الله، فطلبوا أن يكون المنزل جملة، وأن يكون بخط سماوي، وقال قتادة: إنهم سألوا أن يُنْزِلَ عليهم كتاباً خاصاً لهم ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى﴾ شيئاً ﴿أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ المذكور وأعظم، فإن استعظمت ما سألوه منك، فقد سألوا موسى أكبر منه، والمعنى: أن لهم في ذلك عرقاً راسخاً، وأن ما اقترحوا عليك ليس أول جهالتهم وخبالاتهم، وكل ذلك يدل على أنهم مجبولون على اللجاج والعناد، والفسق والفساد، ففيه تسلية للنبي ﷺ ﴿فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً﴾ أي مجاهرين معانين ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ﴾ أي نار جاءت من السماء فأهلكتهم ﴿يُظْلِمُهُمْ﴾ وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل في الدنيا ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي المعجزات التي أظهرها لفرعون وقومه، لا التوراة لأنها لم تنزل عليهم في وقت الاتخاذ ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ حين تابوا، وهذا استدعاء لهم إلى التوبة، كأنه قيل: إن الذين أجرموا وتابوا عفونا عنهم، فتوبوا أنتم أيضاً حتى نغفو عنكم ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة ظاهرة على من خالفه كالعصا، واليد، يعني أن قوم موسى وإن كانوا قد بالغوا في العناد معه لكننا نصرناه وفيه بشارة للرسول ﷺ بأن هؤلاء الكفار وإن كانوا يعاندونه فإنه ﷺ في العاقبة يستولي عليهم.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ أي رفعنا الطور كائناً فوقهم ﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾ أي بسبب ميثاقهم، روي أنهم همؤا بنقضه فرفع عليهم، فخافوا وأقلعوا عن

النقض ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ على لسان يوشع عليه السلام بعد مضي زمان التيه ﴿أَدْخُلُوا الْبَابَ مُجْعَدًا﴾ خاضعين شكراً لله ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ على لسان داود ﴿لَا تَعْدُوا﴾ لا تتجاوزوا ﴿فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً وثيقاً بأن يأتَمروا بأوامر الله تعالى، وينتهوا عن مناهيه، والمراد بعدم اعتدائهم في السبت، عدم اصطيادهم يوم السبت، فقد كان محرماً ذلك عليهم.

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ﴾ أي فبسبب نقضهم ميثاقهم، فعلنا بهم ما فعلنا، من اللعن، والمسخ، وغيرهما من العقوبات ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالقرآن، أو بما في كتبهم ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي قتلهم رسل الله بغياً وعدواناً، وهذه أعظم الجرائم ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي مستورة بأغطية فلا نفهم ما تقول ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي ليس عدم وصول الحق إلى قلوبهم لكونها غُلْفاً، بل ختم الله عليها بسبب كفرهم، وهذا الطبع بمعنى الخذلان ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الإيمان، أو قليلاً منهم.

﴿وَيَكْفُرِهِمْ﴾ عطف على «كفرهم» الذي قبله، والمراد بالكفر الكفر بعيسى عليه السلام ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ لا يقادر قدره، حيث نسبوها إلى الزنى فقالوا إنها زانية، وتمادوا على ذلك، غير مكترئين بقيام المعجزة بالبراءة.

﴿ وَقَوْلِهِمْ ﴾ على سبيل التبجح ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾
نظم قولهم هذا في سلك جنائياتهم، لابتهاجهم بقتل النبي، والاستهزاء به،
فإن وصفهم له بعنوان الرسالة، إنما هو بطريق التهكم به، كقول المشركين
لرسولنا ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا
صَلَبُوهُ ﴾ ادَّعَى اليهود أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، وصدَّقَهم النصارى
على ذلك، فكذبهم الله عزَّ وجلَّ جميعاً، وردَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا
قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ روي عن ابن عباس أنَّ رهباً من اليهود سبَّوه وأمه،
فدعا عليهم فمسخوا قردةً وخنزيراً، فبلغ ذلك يهوذا فجمع اليهود، فاتفقوا
على قتله، فساروا إليه ليقتلوه، فأدخله جبريل بيتاً ورفعَه منه إلى السماء،
ولم يشعروا بذلك، فدخل عليه «طيطانوس» ليقتله فلم يجده، وألقى الله
تعالى عليه شبه عيسى، فلما خرج قتلوه ظناً منهم أنه عيسى وصلبوه،
والمراد من قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ وقع لهم تشبيه بين عيسى، ومن
صُلب ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ في شأن عيسى وهو يعمُّ اليهود والنصارى،
فقال اليهود قتلناه، وتردد الآخرون فقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين
صاحبنا؟ وأما النصارى فهم متفقون على أن اليهود قتلوه، والنسبورية
منهم يدَّعون أن المسيح صُلب من جهة ناسوته، لا من جهة لاهوته ﴿ لَفِي
شَكِّ مَنَّة ﴾ أي لفي تردد ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ الاستثناء منقطع،
أي لكنهم يتبعون الظنَّ، وفي الأناجيل «أن المسيح قال لتلاميذه: كلِّكم
تشكُّون في هذه الليلة»^(١) أي الليلة التي يُطلب فيها للقتل، فإذا كانت
أناجيلهم ناطقة، بأنه أخبر أن تلاميذه وهم أعرف الناس به، يشكُّون فيه
في ذلك الوقت، فهل يستغرب اشتباه غيرهم؟ ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ أي قتلاً
يقيناً كما زعموه بقوله: ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ وقيل معناه:
ما علموه يقيناً بل بطريق الظن.

(١) إنجيل متى ٢٦ - ٣١، ومرقس ١٤ - ٢٧.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا﴾ أي إلى سمائه قال أبو حيان: وهو حي في السماء الثانية، على ما صحَّ عن النبي ﷺ في حديث المعراج، وهو هناك مقيم، حتى ينزل إلى الأرض، يقتل الدجال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يُغالب فيما يريد ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع أفعاله.

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ «إِنْ» نافية بمعنى «ما» ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ جملة قسمة، والمعنى: ما من اليهود والنصارى أحد، إلا يؤمنَنَّ بأن عيسى عبدُ الله ورسولُه، قبل أن يموت، ولو حين أن تزهر روحه، ولا ينفعه إيمانه، وقيل: الضميران لعيسى، والمعنى: إنه إذا نزل من السماء، آمن به أهل الملل جميعاً، حتى تكون الملة واحدة، وهي ملة الإسلام وروي ذلك عن ابن عباس والحسن وقتادة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ﴾ عيسى ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على أهل الكتاب ﴿شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود بالكذب، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

﴿فَيُظْلَمُ مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١٦﴾ لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعَالَمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَيُظْلَمُ مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ التعبير عنهم بهذا العنوان، إيذان بعظم ظلمهم، أي بسبب ظلم عظيم صادر عنهم ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ فإنهم كانوا كلما ارتكبوا معصية، يحرم عليهم نوع من الطيبات، التي كانت محللة لهم، عقوبة من الله، ومع ذلك كانوا يفترون

على الله الكذب، ويقولون: لسنا بأول من حُرِّمت عليه، وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما، فكذبهم الله تعالى ﴿وَيَصِدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي ناساً كثيراً، أو صدأً كثيراً.

﴿وَآخِذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ كان الربا محرماً عليهم كما هو محرم علينا، لكن التوراة التي بين أيديهم إنما تصرح بتحريم أخذ الربا من شعبهم، دون الأجانب، وهذا كذب على الله، فقد ثبت تحريفها بالشواهد الكثيرة ﴿وَأَكْثِيهِمْ آمَنُوا النَّاسَ بِالْبَاطِلِ﴾ كالرشوة، والخيانة ونحوهما ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بيان لجزائهم في الآخرة هياه الله عز وجل لهم.

﴿لَنَكِينِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أي لكن الثابتون في العلم منهم، كعبد الله بن سلام وأصحابه، نزلت الآية فيهم كما أخرجه البيهقي ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي منهم وصفوا بالإيمان زيادة في البيان ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ حال من المؤمنين، مبنية لكيفية إيمانهم، أي يصدقون بالقرآن، كما يصدقون بالكتب السماوية السابقة حق التصديق ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ منصوب على المدح أي أخص بالذكر المقيمين الصلاة منهم، والنصب على المدح لا يأتي في كلام البليغ إلا لنكتة، والنكتة ههنا مزية الصلاة، وكون إقامتها آية كمال الإيمان، فتقدير الآية أي أعني المقيمين الصلاة.

﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وصفوا أولاً بكونهم راسخين، ثم بكونهم مؤمنين بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء، ثم بكونهم عاملين بما فيها من الشرائع، ثم بكونهم مؤمنين بالمبدأ والمعاد، تحقيقاً لحيازتهم الإيمان الكامل ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ تنكير الأجر للتفخيم، ولا يخفى ما فيه من المناسبة بين طرفي الاستدراك، حيث أوعد الأولون بالعذاب الأليم، ووعد الآخرون بالأجر العظيم.

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ ﴿١١٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١١٥﴾ لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ يُعَلِّمُهُ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ﴿١١٧﴾ .

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاجاً عليهم بأنه ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وإنما شأنه ﷺ كشأن سائر الأنبياء عليهم السلام، الذين لا ريب لأحد في نبوتهم، فلما لم يكن عدم إنزال الكتاب دفعةً واحدةً قادحاً في نبوتهم، علمنا أن إصرار اليهود على طلب هذا باطل ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي كما أوحينا إلى إبراهيم ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ خُصُّوا بالذكر مع انتظامهم في سلك النبيين، تشریفاً لهم، وتصريحاً بمن ينتمي إليهم من اليهود ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ عطف على أوحينا لأن إيتاء الزبور من باب الإيحاء، والزبور جعل اسماً للكتاب المنزل على داود عليه السلام، وكان إنزاله عليه منجماً، قال القرطبي: كان فيه مائة وخمسون سورة، ليس فيها حكم من الأحكام، وإنما هي حِكْمٌ، ومواعظ، وتحميدٌ وتمجيدٌ.

﴿ وَرُسُلًا ﴾ أي أرسلنا رُسُلًا ﴿ قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أي حكينا أخبارهم لك. ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذه السورة ﴿ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ ﴾

عَلَيْكَ ﴿ أَي من قبل، وقد ورد في الخبر أن الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر، والأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً^(١)، ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ مصدرٌ مؤكد رافع لاحتمال المجاز، قال الفراء: العرب تسمي ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل، ما لم يؤكد بالمصدر، فإذا أكد به لم يكن إلا حقيقة الكلام، والظاهر أن التكليم كان من وراء حجاب، لقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لَبِشٍ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ ١١.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ﴾ نصب على المدح، أو بإضمار أرسلنا، أي مبشرين من آمن ومن عمل صالحاً بالأجر العظيم ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ من كفر وعصى بالعذاب الأليم ﴿لِتَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ أي معذرة يعتذرون بها، قائلين: لولا أرسلت إلينا رسولاً فيبين لنا شرائعك؟ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتُنَبِّئَ آيَاتِكَ؟ وَإِنَّمَا سَمِيتُ حُجَّةً مَعَ اسْتِحَالَةِ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ سَبْحَانَهُ حُجَّةً فِي فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِهِ، لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنْ الْمَعْذَرَةُ فِي الْقَبُولِ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ الْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ وَلِذَلِكَ قَالَ سَبْحَانَهُ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وفي الآية دلالة على أنه لا بد من الشرع، وإرسال الرسل، وأن العقل لا يغني عن ذلك، وزعم المعتزلة أن العقل كافٍ، وأن إرسال الرسل للتنبيه ﴿بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي بعد إرسالهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يُغَالِبُ فِي أَمْرِهِ ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع أفعاله، ومن ذلك قطع الحجة بإرسال الرسل الكرام مبشرين ومنذرين.

﴿لَئِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾ استدراك عن تعنتهم في سؤالهم إنزال كتاب عليهم من السماء، أي إن كانوا قد أنكروا نبوتك يا محمد، فإن الله يشهد بأنك رسوله، أي يثبت ذلك ويقرره ﴿يَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن المعجز الدال

(١) وذلك في حديث أخرجه أحمد في المسند ١٧٨/٥ وفيه: «أن الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر جمّاً غفيراً».

على نبوتك ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أنزل ملتبساً بعلمه بحال من يستعد للنبوة، ويستأهل نزول الكتاب عليه ﴿وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ أيضاً بنبوتك ﴿وَكُفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على ما شهد به لك، حيث نصب الدليل، وأزال الشبه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما أنزل إليك، والمراد بهم اليهود، ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهو دين الإسلام، صدّوا من أراد سلوكه، بقولهم: ما نعرف صفة الرسول في كتابنا ونحو ذلك، من إلقاء الشبهات في قلوب الناس ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ بالكفر والصدّ ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، لأن المضلّ اغرق في الضلال، وأبعد عن الانقلاع عنه من الضالّ بنفسه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٦﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٧﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَقَامُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٦٨﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما ذكر آنفاً ﴿وظلموا﴾ أنفسهم بإنكار نبوته، وبتغيير نعته، وظلموا الناس بصدّهم عن الصراط المستقيم، الذي فيه صلاحهم في المعاش والمعاد ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ما داموا في الكفر، لاستحالة تعلق المغفرة بالكافر، والآية في اليهود على الصحيح، وقيل: إنها بالمشرّكين ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ أي إلا الطريق الموصل لهم إلى نار جهنم لأعمالهم السيئة، المؤدية بهم إلى نار الجحيم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لأن من مات على كفره، فهو خالد في النار، وقوله تعالى: ﴿أبدًا﴾ رافع لاحتمال حمل الخلود على المكث الطويل، فيكون المراد بالتأبيد: الخلود الدائم الذي لا نهاية له ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي جعلهم خالدين في جهنم أبداً ﴿عَلَى اللَّهِ

يَسِيرًا ﴿ سَهْلًا لَا صَارَفَ لَهُ عَنْهُ، وَهَذَا تَحْقِيرُ لَأَمْرِهِمْ، وَبَيَانٌ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَعْأُ بِهِمْ، وَلَا يَبَالِي بِكُفْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ.

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾ لَمَّا قَرَّرَ أَمْرَ النُّبُوَّةِ، وَبَيَّنَّ الطَّرِيقَ الْمَوْصِلَ إِلَى الْعِلْمِ بِهَا، وَنَبَّهَ عَلَى أَنَّ الْحُجَّةَ قَدْ وَضَحَتْ، فَلَمْ يَبْقَ لِأَحَدٍ عَذْرٌ فِي عَدَمِ الْقَبُولِ، خَاطَبَ النَّاسَ عَامَةً، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ تَكْرِيرٌ لِلشَّهَادَةِ، وَتَقْرِيرٌ لِحَقِّيَّةِ الْمَشْهُودِ بِهِ، لِتَأْكِيدِ وَجُوبِ طَاعَتِهِ، وَقَوْلُهُ ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أَيَّ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَبِدِينِ الْإِسْلَامِ ﴿ فَآمَنُوا ﴾ بِالرَّسُولِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ﴿ خَيْرًا لَكُمْ ﴾ أَيَّ إِيمَانًا خَيْرًا لَكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ يَزْكِيكُمْ وَيُطَهِّرُكُمْ، مِنَ الْأَدْنَسِ الْحَسِيَةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا ﴾ أَيَّ إِنْ تَسْتَمِرُّوْا عَلَى الْكُفْرِ ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، أَيَّ كُلِّهَا لَهُ عِزٌّ وَجَلٌّ خَلْقًا، وَمَلَكًا، وَتَصَرُّفًا، لَا يَخْرُجُ مِنْ مَلَكُوتِهِ شَيْءٌ مِنْهَا، فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنْ غَيْرِكُمْ، لَا يَنْتُزِرُ بِكُفْرِكُمْ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَعْذِيبِكُمْ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بِأَحْوَالِ الْكُلِّ ﴿ حَكِيمًا ﴾ فِيمَا دَبَّرَ لَهُمْ.

﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧٦﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٧﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٨﴾.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتِّبُ﴾ تجريد للخطاب وتخصيص له بالنصارى، زجراً لهم عما هم عليه من الضلال البعيد ﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي لا تجاوزوا الحد في أمر الدين، بادعائكم ألوهية المسيح ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي لا تعتقدوا إلا القول الحق، دون دعوى الاتحاد والحلول، واتخاذ الصاحبة والولد، وفي الحديث الشريف «لا تطروني - أي لا تجاوزوا الحد في مدحي - كما أطرى النصارى ابن مريم - أي كما بالغ النصارى في مدحه - فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسوله»^(١) ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ذكر اسم أمه «ابن مريم» لبطلان ما وصفوه به من نبوته لله تعالى ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي أنه مقصور على رتبة الرسالة، لا يتخطاها إلى ما تقولون من الألوهية ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ أي مكوّن بكلمته، سبحانه وأمره، الذي هو «كن» من غير واسطة الأب ولا بنطفة، وأوضحه بقوله ﴿أَلْقَنَهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي أوصلها إليها فجعله كالمني الذي يلقي في الرحم، وقيل: أعلمها إياها بطريق البشارة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمَ الْمَسِيحِ﴾ الآية، والإلقاء يستعمل في المعاني والكلام، كما يُستعمل في المتاع، ﴿فَالْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ الآية ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ والروح: هي النفس الناطقة، المستعدة للبيان، وفهم الخطاب، ولا تفنى بفناء الجسد، وأنها جوهر لا عَرَضٌ، فلما كان عيسى مكوّناً من النفخ وصف بالروح، و «مِنْ» في قوله تعالى ﴿مِنْهُ﴾ لا ابتداء الغاية، لا تبعيضية كما زعمت النصارى، يحكى أن طبيباً نصرانياً ناظر الواقدي ذات يوم، فقال له: إن في كتابكم ما يدلُّ على أن عيسى جزءٌ مِنْهُ تعالى وتلا هذه الآية، ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ فقرأ الواقدي ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ فقال إذاً يلزم أن تكون جميع الأشياء جزءاً مِنْهُ سبحانه، فافحمه وأخرسه ﴿فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ﴾ وخصوه بالألوهية ﴿وَرُسُلِهِ﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٥٤/٦.

أجمعين، وصفوهم بالرسالة، ولا تخرجوا بعضهم عن سلوكهم بوصفه بالالهوية ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ الله، والمسيح، ومريم، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ والنصارى يعبرون عن أقانيم ثلاثة فيقولون: الأب، والابن، وروح القدس، ويريدون بالأول الذات، وبالثاني العلم، وبالثالث الحياة، فذهب الملكانية منهم، أن كل واحد منها إله، وصرحوا بإثبات التثليث، وهو أن الإله ثلاثة، وذهب بعض اليعقوبية إلى أن الكلمة انقلبت لحماً، ودماً، فصار الإله هو المسيح، وحكى المؤرخون أن رؤساء النصارى، اجتمعوا لبحثوا عن القول المرضي، فاتفق قولهم على شيء فحرروه، وسمّوه بالأمانة، وأكثرهم اليوم عليها، وهي أن يؤمن بالله الواحد، الأب صانع كل شيء، المسيح ابن الله من أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسّد من روح القدس، وولد من مريم وصُلب، وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وجلس على يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى، وهذه الأقاويل مع مخالفتها للعقول، مما لا مستند لها، ولا أصل لها في شرع الإنجيل، ولا مأخوذة من قول المسيح، ولا من أقوال تلامذته، ومع ذلك فهي متناقضة، يكذب بعضها بعضاً، واعلم أنه سبحانه إنما حكى في بعض الآيات قول بعض منهم، وفي بعض آخر قول الآخرين، وحكاية دعواهم ألوهية مريم، وألوهية عيسى، إنما نطق بها القرآن، وهو معتقد الأكثرين منهم، يقولون: الرب يسوع أي عيسى، ويؤلهونه وأمه، ثم إنه سبحانه لمّا بالغ في زجر القائلين، أردف النهي بقوله: ﴿أَنْتَهُوا﴾ أي عن القول بالتثليث يكن ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ هذا الانتهاء ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ بالذات، لا تعدد فيه بوجه ما، منفرد في ألوهيته ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَمْ وَلَدٌ﴾ أسبحة تسبيحاً أي أنزّهه تنزيهاً من أن يكون له ولد، لأن الولد يشابه الأب، ويكون مثله، والله تعالى منزّه عن الشبه والمثل، ولا يتطرق إليه الفناء ﴿لَمْ يَمَلِكْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي له ما فيهما من الموجودات، والمسيح من جملتها، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه، على أن الجزء إنما يصح في الأجسام، وهو

يتعالى عن أن يكون جسماً ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ تنبيه على غناه عن الولد، فإن الحاجة إليه ليكون وكيلاً لأبيه، والله سبحانه قائم بحفظ الأشياء، مستغني عن من يخلفه أو يعينه!!.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ أي لن يأنف، والاستنكاف: الاستكبار مع الأنفة، وعن ابن عباس أي لن يستكبر المسيح ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ من أن يكون عبداً له، فإن عبوديته شرفٌ يتباهى به، وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره، روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا؟ قال ﷺ: وأي شيء أقول؟ قالوا تقول: إنه عبد الله ورسوله، قال: إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله، قالوا: بلى، فنزلت الآية^(١)، ومما يدل على عبوديته من كتب النصارى، أن بولس قال في رسالته الثانية: انظروا إلى هذا الرسول «يسوع» المؤمن من عند من خلقه، مثل موسى في جميع أحواله، غير أنه أفضل من موسى!! وقال مرقس في إنجيله: قال يسوع: إن نفسي حزينة حتى الموت، ثم خرَّ على وجهه يصلي لله تعالى، ونصوصُ الأناجيل ناطقة بعبوديته عليه السلام لله تعالى ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ عطف على المسيح، أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله تعالى، والملائكة المقربون: هم الذين حول العرش، واحتج بالآية المعتزلة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء، لأن كلام العرب، الترقى من الفاضل إلى الأفضل، فيكون المعنى: لا يستنكف المسيح ولا من فوقه، كما يقال: لن يستنكف من هذا الأمر الوزير، ولا السلطان، وهو استدلال في غير محله، لأن المراد في الآية: القوة والافتدار، وهو المناسب لسياق الآية، لأن المقصود الرد على النصارى، في اعتقادهم ألوهية عيسى، مستندين إلى كون إحياء الموتى، وإبراء

(١) أوَّل كلمةٍ نطق بها السيد المسيح وهو طفل في المهد - كما سمعها النصارى - هي قوله ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ فكيف يزعمون ألوهيته وهو يقول لهم: أنا عبدُ الله، ولستُ إلهاً ولا ابناً لله، أفلا يعقل النصارى هذا الكلام؟.

الأكمه، والأبرص، خوارق، فناسب أن يقال: بل من هو أكثر خوارقاً وأظهر آثاراً، كالملائكة المقربين، الذين من جملتهم جبريل، فيكون تفضيل الملائكة بهذا الاعتبار ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي عن طاعته ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ عن ذلك، غروراً وإعجاباً، فيحملها بذلك على غمط الحق، سواء كان الله تعالى، أو لخلقه، وعلى احتقار الناس، كما جاء في الحديث «الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١) أي استحقارهم وتعييبهم ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ أي المتكبرين على الله، والمستكفين، لينالوا جزاءهم يوم الدين.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بيان لحال الفريق الفائز برضوان الله، وهم الذين جمعوا بين الإيمان، والعمل الصالح ﴿فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ من غير أن ينقص منها شيئاً أصلاً ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بتضعيفها أضعافاً مضاعفة، وبإعطائهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أخرج الطبراني عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ﴿فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ يدخلهم الجنة ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الشفاعة فيمن وجبت لهم النار، ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا﴾ عن عبادته عز وجل وطاعته ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا﴾ عنها ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ﴾ بسبب استنكافهم واستكبارهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لا يحيط به الوصف ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يلي أمورهم، ويدبر مصالحهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم وينجيهم من العذاب.

(١) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٩١ وأبو داود في الأدب رقم ٤٠٩١ ولفظ مسلم «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس».

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (١٧٢)
 فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ
 وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٣﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِي
 الْكَلِمَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ
 يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا
 إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ أَن تَصَلُّوا
 وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ خطاب لكافة المكلفين ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ أناكم ووصل
 إليكم، ﴿بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي حجة قاطعة، والمراد بها المعجزات، وقيل
 هو النبي ﷺ، وقوله سبحانه ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي كائن من ربكم، والتعرض
 لعنوان الربوبية لإظهار اللطف بهم، وللإيدان بأن مجيئه إليهم، لتربيتهم
 وتكميلهم ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ بواسطة النبي ﷺ ﴿نُورًا مُّبِينًا﴾ وهو القرآن،
 وإطلاق النور المبين لأنه بيّن بنفسه، غير محتاج إلى غيره، هادٍ للخلق
 بإخراجهم من ظلمات الكفر، إلى نور الإيمان، أي قد جاءكم دلائل
 العقل، وشواهد النقل، ولم يبق لكم عذر.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ﴾ إيماناً صادقاً لا يشوبه شك ولا ارتياب
 ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي اعتصموا به سبحانه ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾
 الرحمة: الجنة، لأنها موضع تنزل رحمة الله ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي إحسان لا
 يُقَادِرُ قَدْرَهُ، زائد على ذلك ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ أي طريقاً مستقيماً يبلغون به الغاية، أما في الدنيا فالسيادة
 والعزة، وأما في الآخرة فبالجنة والرضوان.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي في الكلالة، استغنى عن ذكره بوروده في قوله

تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ عن جابر رضي الله عنه أنه قال: «مرضتُ فأتاني رسولُ الله ﷺ، فأغمي عليّ فتوضأ النبي ﷺ ثم صبَّ عليّ من وضوئه، فأفقتُ، فقلتُ، يا رسول الله: كيف أصنع في مالي؟ فلم يردَّ عليّ شيئاً حتى نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾^(١) ﴿إِنْ أَمْرًا هَلَكًا﴾ استنباط مبين للفتيا أي إن أحد مات ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ ذكراً كان أو أنثى، واقتصر على ذكر عدم الولد، مع أن عدم الوالد أيضاً معتبر في الكلاله، ثقةً بظهور الأمر، ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ والمراد بالأخت من ليست لأم فقط، فإن فرضها السدس ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي بالفرض، والباقي للعصبة، أو لها بالرد إن لم يكن عصبة ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ أي والأخ يرث أخته، إن كان الأمر بالعكس ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ ذكراً كان أو أنثى، فالمراد بإرثه لها إحراز جميع مالها ﴿فَإِنْ كَانَتْ أَثْنَتَيْنِ﴾ فصاعداً ﴿فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ المعتبر في الحكم هو العدد، دون الصغير والكبير ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ أي من يرث بطريق الأخوة ﴿إِخْوَةً﴾ أي مختلطة ﴿رِجَالًا وَنِسَاءً﴾ وَلِلذَّكَرِ مِنْهُمْ ﴿مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ يقتسمون التركة على طريقة التعصيب^(٢)

-
- (١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ٢٩٠/١٣ ومسلم في الفرائض رقم ١٦٢٦.
- (٢) الإسلام دين العدالة والإنصاف، لا يحابي ولا يداري أحداً على حساب آخر، ولهذا شرَّك المرأة في الإرث، على خلاف عادات الجاهلية، حيث كانوا لا يؤرثون النساء ولا الصغار من الأطفال، ويقولون: كيف نعطي المال من لا يركب فرساً، ولا يحمل سلاحاً، ولا يقاتل عدواً؟! فجاء الإسلام فرفع عن كاهلها الظلم، ودفع عنها العدوان، وجعل لها نصيباً مفروضاً في التركة، على كُثر من الرجال، بتشريع الخالد العادل ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، ممَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ نصيباً مفروضاً. وإنما كان نصيب الذكر ضعف الأنثى، لضخامة مسؤولية الرجل، وكثرة نفقاته، فالرجل مكلف بالإنفاق على الأسرة والأولاد، والمرأة لا تكلف بالإنفاق على أحد، والرجل يدفع المهر للزوجة، والمرأة تأخذ المهر، والرجل يكلف بنفقة المطعم، والملبس، وأجور السكن، وتكاليف العلاج والدواء، للزوجة والأبناء، والمرأة لا تكلف بشيء من ذلك، فكان من العدالة أن يكون حظُّه من الميراث، أوفر من حظِّ المرأة، لكثرة نفقاته =

﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي حكم الكلالة ﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي لئلا تضلُّوا في ذلك
﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي بكل شيء من الأشياء، التي من جملتها أحوالكم
المتعلقة بمحياكم ومماتكم ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فيبين مصلحتكم
ومنفعتكم، خُتِمت هذه السورة بآية الفرائض، وفيها أحكام الموت الذي هو
آخر أمر كل حيٍّ، وهي أيضاً آخر ما نزل من الأحكام، فحَسُنَ لذلك الختام.

«تمَّ بتوفيقه تعالى تفسير سورة النساء»

= ومسؤولياته المالية، فهذه بعض وجوه أخذ الرجل أكثر من الأنثى، فبمقدار الإنفاق
يكون الأخذ والعطاء، والعُنْمُ بالْعُرْمِ، كما يقول العرب في الأمثال!!.

فَهْرَسُ الْمَجْلَدِ الْأَوَّلِ

٥ مقدمة التفسير
٧ ترجمة المؤلف
٩ تفسير البسملة
١٣	١- سورة فاتحة الكتاب
٢٠	- أقسام الهداية
٢٥	٢- سورة البقرة
٢٥	- الحكمة من افتتاح بعض السور بالحروف المقطعة
٢٨	- مراتب التقوى
٦٣	- ذكر قصة بدء الخليقة
٨٣	- فائدة التذكير بالنعم
٩٨	- توضيح وبيان للآية ٦٢
١٠٠	- المسخ حقيقي لا معنوي
١٠١	- قصة أصحاب البقرة
١٠٥	- قصة البقرة
١٣٣	- فصل في السحر
١٦٧	- طريقة أداء الشهادة
٢٠١	- متى شرع الصيام؟
٢٩٩	٣- سورة آل عمران
٤١١	٤- سورة النساء
٥٣٩	فهرس المجلد الأول

بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى تَمَّ انْتِهَاءُ الْمَجْلَدِ الْأَوَّلِ
وَعَلَيْهِ الْمَجْلَدُ الثَّانِي وَيَبْدَأُ بِتَفْسِيرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ

المقتطف من عبود التقياسية

للمرحوم فضيلة الشيخ
مصطفى الطاهر (المنصوري)

حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ
خادم الكتاب والسنة
محمد علي الصابوني

المجلد الثاني

دار الشريعة
بيروت

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

مدنية وهي مائة وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَوْفُوا بِالْعُقُودِ اُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْاَنۡعَامِ اِلَّا مَا يَتَلٰى عَلَيْكُمۡ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيۡدِ وَاَنْتُمْ حُرۡمٌ اِنَّ اللّٰهَ يَحۡكُمُ مَا يَرِىۡدُ ﴿١﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِيۡنَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوْا شَعۡبَرَ اللّٰهِ وَلَا الشَّهۡرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدٰى وَلَا الْفَلَاحِیۡدَ وَلَا ءَامِنَ الْبَیۡتِ الْحَرَامِ یَبۡتَغُوۡنَ فَضۡلاً مِّنۡ رَبِّہِمۡ وَرِضۡوَانًا وَاِذَا حَلَلْتُمْ فَاصۡطَادُوْا وَلَا یَجۡرِمُکُمۡ شَتَاۡنُ قَوۡمٍ اَنْ صَدُّوْکُمۡ عَنِ الْمَسۡجِدِ الْحَرَامِ اَنْ تَعۡتَدُوْا وَتَعَاوَنُوْا عَلٰی الْبِرِّ وَالۡتَقٰوٰی وَلَا تَعَاوَنُوْا عَلٰی الْاِیۡمِ وَالۡعَدُوۡنَ وَاَتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ شَدِیۡدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ العقود جمع عقد، وأصل العقد الربط محكماً، ثم أطلق على العهد الموثق، واختلفوا في المراد بهذه العقود، فروي عن ابن عباس أن العقود هي ما أخذه الله تعالى على عباده من الإيمان به، وطاعته في الأمر، والنهي. وروي عن زيد بن أسلم العقود بين الناس كعقد النكاح، والبيع، ونحوهما، والأظهر أنه يعم جميع ما ألزمه الله تعالى عباده، وما يعقدون فيما بينهم، مما يجب الوفاء به، أو يحسن ديناً، وبه قال الراغب لأنه أوفق بعموم اللفظ ﴿اُحِلَّتْ لَكُمْ

بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ ﴿ وهي الأزواج الثمانية الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، وألحق بها الظباء وبقر الوحش مما يماثل الأنعام في الاجترار، وعدم الأنياب، والبهيمة: ما لا عقل له مطلقاً، سميت بهيمة لما في صوتها من الإبهام، وفي الآية رد على المجوس، فإنهم حرموا ذبح الحيوانات وأكلها، وقالوا: لأن ذبحها إيلاً وهو قبيح، ولا يرضى به الإله الرحيم الحكيم !! وهذا منهم سفه وجهل، فإن الله خلقها لمنافع البشر، وفي ذبحها بالطريق الشرعي راحة لها، كما قال ﷺ: «وَلْيُحَدِّثْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِخْ ذَبِيحَتَهُ» (١) ﴿ إِلَّا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ من المحرمات، وهي الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وغيرها من المحرمات التي نهى الله عنها ﴿ غَيْرَ مُجْلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ أي غير مستحلين للصيد وأنتم محرمون، والحُرْم: جمع حرام وهو المحرم، ومحضّل المعنى: أحلت لكم هذه الأشياء، غير مستحلين الاصطياد، أو أكل الصيد، في الإحرام بالحج أو العمرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ من الأحكام، حسبما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكيم البالغة.

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوْا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ إحلال الشعائر أن يتهاون بحرمتها، وإضافتها إلى الله تعالى لتشريفها، وتهويل الخطب في إحلالها ﴿ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ أي لا تحلوه بالقتال فيه، والمراد به: الأشهر الحُرْم والإفراد لإرادة الجنس ﴿ وَلَا الْهَدْيَ ﴾ بأن يتعرض له بالغصب، أو بالمنع عن بلوغ محله، والهدي، ما يُهدى إلى الكعبة من الأنعام، خصه بالذكر مع أنه داخل في الشعائر، تعظيماً له ﴿ وَلَا الْقَلَائِدَ ﴾ جمع قلادة، وهي: ما يقلد به الهدى، من نعل، أو لحاء شجر، ليعلم به أنه هدي، وعطفها على الهدى مع دخولها فيه، لمزيد التوصية بها، وهي سنة إبراهيم عليه السلام، وأقرّها الإسلام قالت عائشة رضي الله عنها: «أهدى رسول الله ﷺ مرة إلى

(١) طرف من حديث شريف أخرجه مسلم رقم ١٩٥٥ والترمذي رقم ١٤٠٩، ولفظه الكامل «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليريح ذبيحته».

البيت غنماً فقلدها»^(١) ﴿وَلَا آمِينَ أَلَيْتَ الْحَرَامَ﴾ أي لا تُحلوا قوماً قاصدين زيارته، بأن تصدوهم عن ذلك بأي وجه كان، بقتال، أو بأذى ﴿يَتَنَعَوْنَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ أي قاصدين زيارته، حال كونهم طالبين أن يثيبهم الله، ويرضى عنهم، وتكثير الفضل والرضوان للتفخيم والمراد بهم المسلمون خاصة ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ من الإحرام ﴿فَأَصْطَادُوا﴾ أي فلا جناح عليكم بالاصطياد، لزوال المانع، فالأمر للإباحة بعد الحظر ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يحملنكم، أو لا يكسبنكم، وجرم من باب ضرب، اكتسب ذنباً، ويستعمل غالباً في كسب ما لا خير فيه ﴿شَتَانُ قَوْمٍ﴾ أي شدة بغضكم لهم، والشتان: هو شدة البغض والعداوة ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ أي لأن صدوكم عام الحديبية ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عن زيارته، وطوافه للعمرة ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾ أي عليهم وإنما حذف تعويلاً على ظهوره وإيماء إلى أن المقصد الأصلي منع صدور الاعتداء من المخاطبين محافظة على تعظيم الشعائر ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ عطف على ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ كأنه قيل: لا تعتدوا على قاصدي المسجد الحرام، لأجل أن صددتم عنه، وتعاونوا على العفو والإغضاء، واختار غير واحد أن المراد بالبر متابعة الأمر مطلقاً، وبالتقوى اجتناب الهوى، لتصير الآية من جوامع الكلم، فيدخل في البر والتقوى جميع مناسك الحج ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ليعم النهي كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي، فاندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء، وعن ابن عباس وأبي العالية أنهما فسرا الإثم بترك ما أمر الله تعالى به، وارتكاب ما نهاهم عنه، والعدوان بمجاوزة ما حده سبحانه لعباده في دينهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع الأمور التي من جملتها مخالفة ما ذكر من الأوامر والنواهي، ثم علل ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يتق الله، فيعاقبكم إن لم تتقوه.

(١) أخرجه البخاري ٤٧٣/٣ ومسلم رقم ١٣٢١ في الحج، وهذه رواية مسلم، وانظر جامع الأصول ٣/٣٤١.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِۦ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَيسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣﴾﴾

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِۦ﴾ شروع في بيان المحرمات التي أشير بقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ ﴿وَالْمُنْخَفَقَةُ﴾ التي ماتت بالخنق مطلقاً، إما في وثاقها، أو بإدخال رأسها في موضع لا تقدر على التخلص منه، أو بغير ذلك، وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة وإذا ماتت أكلوها ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي قُتِلَتْ بالضرب كان أهل الجاهلية يضربون الشاة بالعصا حتى تموت ويأكلونها ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تردت من علو، أو في بئر فتموت ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ أي التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي وما أكل منه السبع فمات ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي إلا ما أدركتم ذكاته، وفيه بقية حياة، وذكيموه، والاستثناء يرجع إلى المنخفة وما بعدها، سوى ما لا يقبل الذكاة من الميتة، والدم، والخنزير، وهذا قول ابن عباس والحسن، وقال الكلبي: مما أكل السبع خاصة، وقيل: هو استثناء من التحريم لا من المحرمات، فالمعنى: حُرِّمَ عليكم سائر ما ذُكِرَ، لكن ما ذكيتم مما أحله الله تعالى بالتذكية فإنه حلال لكم، وروي ذلك عن مالك وجماعة من أهل المدينة، والتذكية: قطع الحلقوم، والمريء بمحدد ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ جمع نصاب وهي أحجار

كانت منصوبة حول البيت، يذبحون عليها ويعذّون ذلك قربة، وقيل: هي الأصنام وعلى بمعنى اللام أي وما ذُبح للأصنام، أو ما ذبح مسمّى على الأصنام ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ روي عن مجاهد أنه فسّر الأزلام بسهام العرب التي يتقامرون بها، أي وحُرّم عليكم الاستقسام بالأقداح، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً، ضربوا ثلاثة أقداح مكتوبٌ على أحدهما أمرني ربي، وعلى الثاني نهاني ربي، وأبقوا الثالث غُفلاً، فإن خرج الأمر مضوا إلى حاجتهم، وإن خرج الناهي اجتنبوا، وإن خرج الغُفل أعادوها ثانياً، وإذا كان لأحدهم أمر عظيم، جاء إلى «هَبْل» واستشفع منها، وأعطى مائة درهم لصاحب القداح حتى يحلها له ﴿ذَلِكَكُمْ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام ﴿فَسَقُ﴾ تمرّد وخروج عن الحدود، وضلال باعتقاد أنه طريق إلى العلم بالغيب، وعن ابن عباس أن ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى تناول جميع ما تقدّم من المحرمات ﴿الْيَوْمَ﴾ أي الزمان الحاضر. وقيل يوم نزول الآية، وقد نزلت بعد عصر الجمعة، يوم عرفة، في حجة الوداع والنبى ﷺ واقف بعرفات على العضباء، كما رواه الشيخان ﴿يَسْأَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ اليأس انقطاع الرجاء، والمراد انقطاع رجائهم من إبطال دينكم، أو من أن يغلبوكم عليه، حيث أظهره الله على الدين كله، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أن يظهروا عليكم ﴿وَأَخْشَوْنِ﴾ أن أحلّ بكم عقابي، إن خالفتُم أمري، وارتكبتُم معصيتي ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالتوقيف على أصول الشرائع، وقوانين الاجتهاد، وعن ابن عباس المعنى: أكملت لكم حدودي وفرائضي، وحلالي وحرامي، وهو الأظهر حيث لم ينزل بعد ذلك من الفرائض تحليل ولا تحريم، وأنه ﷺ لم يلبث بعدها سوى إحدى وثمانين يوماً، ومضى إلى الرفيق الأعلى ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ وإتمام النعمة بفتح مكة، وهدم منار الجاهلية، وقيل: بإتمام الهداية والتوفيق ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي اخترته لكم من بين الأديان، وهو الدين المقبول عند الله لا غيره قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ متصل بذكر

المحرمات، وما بينهما اعتراض، أي فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿فِي مَخَصَّةٍ﴾ أي مجاعة يخاف الموت أو مباديه، يُقال: خَمَصَ الشخص مثل قَرْبٍ فهو خُمِصٌ: إذا جاع ﴿عَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ غير مائل إليه، بأن يأكلها تِلْذَذًا، أو مجاوزاً حَدَّ الرخصة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذ به بأكله، لأنه عن ضرورة، والضرورات تُبيح المحظورات.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي يسألك المؤمنون ما أُحِلَّ من المطاعم والمأكَل، ومن الصيد والذبائح ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ﴾ أي ما لم تستخبه الطباع السليمة، وما لم يدل نص أو قياس على حرمة، قال الله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي صيد ما علمتموه، والجوارح جمع جارحة، والهاء فيها للمبالغة، وفُسرَت بالكواسب من سباع البهائم والطيور، سميت جوارح لأنها تجرح الصيد غالباً، كالكلب، والفهد، والبازي، والشاهين، ويشترط للحل الجرح ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ من التكليب وهو تعليم الجوارح، مشتق من الكَلَب لأن التأديب يكون أكثر فيه، والمُكَلَّبُ: مؤدَّب الجوارح ومغريها ﴿تُعَلِّمُونَهُمْ مَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام، أو مما علمكم أن تعلموه، من اتباع الصيد بإرسال صاحبه، وينزجر بزجره، ويمسك عليه الصيد، ولا يأكل منه ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ما لم يأكل منه، أي فكلوا بعض ما أمسكنه لأجلكم، وقد قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله عليه، فكل»^(١) ففي الحديث أن إرسال الصائد، وكون الكلب معلماً، وذكر اسم الله تعالى عليه وقت

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٤٤/١ ولفظه عن عدي بن حاتم قال: سألت الرسول ﷺ فقلت: إنا قومٌ نَتَصَيْدُ بهذه الكلاب، فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلمَ وسميتَ، فأمسكَ وقتلَ فكلْ، وإن أكل فلا تأكل...» الحديث، ورواه مسلم في الصيد رقم ١٩٢٩.

الإرسال شرط لقوله ﷺ: «فإن أكل منه فلا تأكل» وإلى هذا ذهب أكثر الفقهاء، وقال أبو حنيفة: إذا أكل الكلب من الصيد وهو غير معلّم لا يؤكل صيده، وإذا أكل الصقر فكل، لأن الكلب تستطيع أن تضربه، والصقر لا تستطيع أن تضربه، وقال مالك: يؤكل وإن أكل الكلب منه، لحديث: «إذا أرسلت كلبك، وذكرت اسم الله عليه، فكل وإن أكل منه»^(١) ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي سئوا عليه عند إرساله، والأمر للوجوب عند أبي حنيفة، وعند الشافعي للندب ﴿وَأَلْفُوا اللَّهَ﴾ في محرّماته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبكم بما جَلّ ودق.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مَخْذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني الآن ﴿أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ كُرّر تأكيداً للّميّة، وتوطئة لما بعده ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، ويعمّ اليهود والنصارى، ولا يلحق بهم المجوس، لقوله ﷺ: «سئوا بهم سنة أهل الكتاب، غير ناكحي نسائهم، ولا أكلي ذبائحهم»^(٢) وهو وإن كان مرسلًا إلا أن إجماع أكثر المسلمين يؤكده، واختلف العلماء في حل ذبيحة اليهودي والنصراني، إذا ذكر عليها، غير اسم الله، فقال ابن عمر: لا تحل، وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تحل، وقال الحسن: إذا

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصيد رقم ٢٨٥٠ وعلى هذه الرواية يجوز الأكل من الصيد وإن أكل منه الكلب وهو مذهب مالك رحمه الله.

(٢) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

ذبح اليهودي والنصراني، فذكر اسم غير الله وأنت تسمع فلا تأكل، فإذا غاب عنك فكل ﴿وَطَعَامُكُمْ حَلَالٌ مِّنْهُ﴾ فلا حرج عليكم أن تطعموهم، وتبيعوا منهم فإن قيل: ما الحكمة في هذه الجملة وهم كفار؟ أجيب بأن المعنى انظروا إلى ما أحل لكم في شريعتكم، فإن أطعموكم فكلوه، ولا تنظروا إلى ما كان محرماً عليهم، فإن لحوم الإبل ونحوها كانت محرمة عليهم، فالآية بيان لنا لا لهم، فحاصل المعنى: طعامهم حل لكم إذا كان من الطعام الذي أحلته لكم ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي الحرائر العفاف، وتخصيصهن بعث على ما هو أولى، لا لنفي ما عداهن، فإن نكاح الإماء المسلمات صحيح بالاتفاق، وكذا نكاح غير العفاف منهن ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ذهب أكثر الفقهاء إلى أنه يحل التزوج بالذمية من اليهود والنصارى، وتمسكوا بهذه الآية، وكان ابن عمر لا يرى ذلك، ويحتج بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ ويؤيد هذا القول الآية الدالة على وجوب المباحة عن الكفار، كقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ قال كثير من الفقهاء: إنما يحل نكاح الكتابية التي دانت بالتوراة والانجيل قبل نزول القرآن، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَكُمْ﴾.

﴿إِذَا عَانِيتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، وتقيد الحل بإيثانها لتأكيد وجوبها والحث على الأولى ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أعفاء بالنكاح ﴿غَيْرَ مُسْكِفِينَ﴾ أي غير مجاهرين بالزنا، وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه سئل عن المسافحة، قال: هي التي إذا ألمح الرجل إليها بعينه أتبعته ﴿وَلَا مَتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي ولا مسرinen به، والخدن: الصديق، يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ أي ومن ينكر شرائع الإسلام التي من جملتها ما بين ههنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة، ويمتنع عن قبولها ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ الصالح الذي عمله قبل ذلك ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ إذا مات على ذلك.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ
وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ
كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ
الْمَاطِئِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ
وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾
وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَأَنْقَضَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ شروع في بيان الشرائع التي تتعلق بدينهم، بعد بيان ما يتعلق بدينهم ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إليها كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ وظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إليها، وإن لم يكن محدثاً، لما أن الأمر للوجوب، والإجماع على خلافه، لما روي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم صلى الخمس بوضوء واحد يوم الفتح، ومسح على خفيه فقال عمر: «لقد صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال ﷺ: عمداً صنعتُهُ يا عمر»^(١) يعني بياناً للجواز، فظهر أن الآية مفيدة، والمعنى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين، بقرينة دلالة الحال واشتراط الحدث في التيمم، الذي هو بدل، وما نقل عن النبي ﷺ والخلفاء أنهم كانوا يتوضؤون لكل صلاة، فلا يدُّ على أكثر من الندب ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي أسيلوا عليها الماء، وحذِّ الإسالة أن يتقاطر الماء ولو قطرة، ولا حاجة إلى الدلك، خلافاً لمالك ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ الجمهور على دخول المرفقين، ولذلك

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الطهارة رقم ٢٧٧، باب جواز الصلوات كلها بوضوء واحد.

قيل: إلى بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ وقال الشافعي: لا أعلم خلافاً في أن المرافق يجب غسلها ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ المراد إصاؤ المسح بالرأس، فكأنه قيل ألقوا المسح برؤوسكم، وذلك لا يقتضي الاستيعاب كما يقتضيه ما لو قيل: وامسحوا برؤوسكم، فإنه كقوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ واختلف العلماء في قدر الواجب، فأوجب الشافعي أقل ما ينطلق عليه الاسم أخذاً باليقين، وأبو حنيفة أخذ ببيان رسول الله ﷺ حيث مسح ناصيته، وقدرها ربع الرأس، ومالك مسح الكل أخذاً بالاحتياط، والإمام أحمد في أظهر الرواية عنه، إلى أنه يجب استيعاب الرأس بالمسح ﴿وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ منصوب عطفاً على ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ ويؤيده السنة الشائعة وعمل الصحابة، والتحديد إذ المسح لم يحدّد وذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة إلى أن فرض الرجلين هو الغسل، وشذت الشيعة فقالوا: إن الواجب في الرجلين المسح وما يزعمه الشيعة من نسبة المسح إلى ابن عباس كذب عليه^(١) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا﴾ اغسلوا أبدانكم، والمعنى: إذا قمتم إلى الصلاة وكنتم جنباً فطهروا أبدانكم كاملاً، والدليل على إرادة الغسل قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ والمضمضة والاستنشاق هنا فرض، لأنه سبحانه أضاف التطهير لجملة البدن، فيدخل كل ما يمكن الإيصال إليه ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾

(١) روى البخاري ومسلم عن حمran مولى عثمان بن عفان أن عثمان رضي الله عنه دعا بإناء، فأفرغ على كفيه ثلاث مرات فغسلها، ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ويديه إلى المرفقين ثلاثاً، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجله ثلاث مرات، ثم قال: «رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا». وعن خالد أن النبي ﷺ: «رأى رجلاً يصلي، وفي قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره النبي ﷺ أن يعيد الوضوء والصلاة» أخرجه أبو داود، فدلّت هذه الأحاديث على وجوب غسل الرجلين، بأمره ﷺ وفعله، فتنبّه والله يرعاك.

أي اقصدوا التراب الطاهر، إذا لم تجدوا الماء، فامسحوا بذلك التراب وجوهكم وأيديكم، للحدث الأصغر والأكبر، نيابةً عن الوضوء والغسل ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بما فرض عليكم من الوضوء، والغسل، والتيمم ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ من ضيق في الامتثال ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ﴾ بذلك ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أي ليطهركم من الذنوب، فإن الوضوء تكفير للذنوب والخطايا، لما روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرجت كل خطيئة مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب»^(١) فالطهارة معنوية بمعنى تكفير الذنوب لا بمعنى إزالة النجاسة لأن الحدث ليس نجاسة بلا خلاف ﴿وَلَيْسَتْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي لستم بشرعية ما هو مطهرة لأبدانكم، نعمته عليكم في الدين، أوليته برخصه إنعامه عليكم بعزائمه ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته بطاعتكم فيما أمركم به، ونهاكم عنه.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام لتذكركم المنعم وترغبكم في شكره ﴿وَرَمِيقَهُ الَّذِي وَأَنْفَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين، حين بايعهم النبي ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وإضافة الميثاق إليه تعالى مع صدوره عنه ﷺ لكون المرجع إليه تعالى، كما نطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكُمْ﴾^(٢) ﴿وَأَنْفَقُوا اللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذكرون ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بخفياتها فيجازيكم عليها، فضلاً عن جليات أعمالكم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة رقم ٢٣٤ ولفظه: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب» فدلَّ الحديث على وجوب غسل الرجلين.

(٢) سورة الفتح، آية: ١٠.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْا اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَّاجْرٌ عَظِيْمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوْا بِآيٰتِنَاۤ اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ الْجَحِيْمِ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْا﴾ أي لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين، على ترك العدل فيهم، فتعدتوا عليهم، بارتكاب ما لا يحل كقتل نساء وصبية، ونقض عهد، تشفياً مما في قلوبكم ﴿اَعْدِلُوْا﴾ أيها المؤمنون في أوليائكم وأعدائكم ﴿هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى﴾ أي العدل أقرب للتقوى، وإذا كان هذا العدل مع الكفار، فما ظنك بالعدل مع المؤمنين؟ ﴿وَاتَّقُوا اللّٰهَ﴾ أمر سبحانه بالتقوى اعتناء بشأنها، وتنبيهاً على أنها ملاك الأمر كله ﴿اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ فيجازيكم به، روي أنه لما فتحت مكة كلف الله المسلمين بهذه الآية، أن لا يكافئوا كفار مكة بما سلف منهم، ولذلك عفا الرسول ﷺ عنهم، وسمّوا الطلقاء.

﴿وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ﴾ من الواجبات والمندوبات التي من جملتها العدالة والتقوى ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لخطيئاتهم ﴿وَّاجْرٌ عَظِيْمٌ﴾ أي ثواب عظيم لأعمالهم.

﴿وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوْا بِآيٰتِنَا﴾ القرآنية التي من جملتها ما تليت من النصوص الناطقة بالعدل والتقوى ﴿اُولٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿اَصْحٰبُ الْجَحِيْمِ﴾ أي ملابسو النار المؤبدة.

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن
يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١١) ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ
الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ
السَّبِيلِ ﴾ (١٢) .

قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ تذكير
لنعمة الإنجاء من الأشرار، الذين أرادوا الفتك بالمؤمنين وتذكير لهم نعمة
إيصال الخير، وهو نعمة الإسلام وما يتبعها من الميثاق ﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ ﴾ أي
قصد قوم ﴿ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ بأن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك،
يقال: بَسَطَ إِلَيْهِ يَدَهُ، إِذَا بَطَشَ بِهِ، وبَسَطَ إِلَيْهِ لِسَانَهُ، إِذَا شَتَمَهُ ﴿ فَكَفَّ
أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ أي منع أيديهم أن تمت إليكم عقيب همهم بذلك والآية
إشارة إلى ما أخرجه مسلم من حديث جابر: «أن المشركين رأوا أن رسول
الله ﷺ وأصحابه بعسفان، قاموا إلى صلاة الظهر معاً، فلما صلوا ندموا ألا
كانوا أكتبوا عليهم، وهُمُّوا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى صلاة العصر، فرد
الله تعالى كيدهم، بأن أنزل صلاة الخوف»^(١) وقيل: إشارة إلى ما رواه
جابر أن النبي ﷺ نزل منزلاً، فتفرق الناس في العِصَاء - أي الشجر -
يستظلون تحتها، فعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيفه
فأخذه فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟ قال: الله

(١) أخرجه مسلم في باب صلاة الخوف ١/ ٥٧٤.

تعالى فسقط السيف من يده...»^(١) الحديث، ولا يخفى أن سبب النزول يجوز تعدده ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتقوه في حقوق نعمته، ولا تُخلوا بشكرها ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ أي عليه تعالى خاصة دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه تعالى يكفيهم في إيصال كل خير، ودفع كل شر.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كلام مستأنف، مشتمل على ذكر بعض ما صدر عن بني إسرائيل من الخيانة، ونقض الميثاق، وما أدى إليه من التبعات، مسوقاً لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله، ومراعاة حق الميثاق، الذي واثقهم به، وتحذيرهم من نقضه ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ النقيب مشتق من النقب، وهو التفتيش ومنه قوله تعالى: ﴿فَنَقِبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ فسُمِّي بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم، ومعناه العريف، وهو شاهد القوم وضمينهم، روي أن بني إسرائيل لما فرغوا من أمر فرعون، أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا، وكان يسكنها الجبابرة وأمر جل شأنه موسى أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم، بالوفاء فيما أمروا به، فأخذ عليهم الميثاق، واختار منهم النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان، بعث النقباء يتجسسون الأخبار، ونهاهم أن يحدثوا قومهم فرأوا أجراماً عظاماً وبأساً شديداً فهابوا فرجعوا وحدثوا قومهم وعند ذلك قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٢) ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ أي لبني إسرائيل ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعلم والقدرة والنصرة ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ أي بجميعهم، وتأخير الإيمان عن الصلاة والزكاة، لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما، مع ارتكابهم تكذيب بعض الرسل، ولمراعاة المقارنة بينه وبين قوله تعالى ﴿وَعَزَّزْتُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم، قال الراغب:

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٣٢٨/٧ ومسلم في صلاة المسافرين رقم ٨٤١. وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٣٧٨/١١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٤.

التعزير: النصره مع التعظيم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ﴾ بالإنفاق في سبيل الخير ﴿فَرَضًا حَسَنًا﴾ وهو ما كان عن طيب نفس، من مالٍ حلال ﴿لَا كُفْرًا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي إذا فعلتم ما أمرتكم به، لأمحو عنكم سيئاتكم ﴿وَلَا دَخَلْنَاكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ عطف على ما قبله، داخل معه في حكمه ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ أي برسلي، أو بشيء مما ذكر من الأمور ﴿بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ أي بعد الشرط المؤكد، المعلق بالوعد العظيم، وليس المراد بالكفر إحدائه بعد الإيمان، بل ما يعم الاستمرار عليه، كأنه قيل: فمن اتصف بالكفر بعد ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي وسط الطريق الواضح، ضلالاً بيناً لا عذر معه أصلاً.

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم ميثاقهم المؤكد لا بشيء آخر ﴿لَعْنَتُهُمْ﴾ طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، عقوبة لهم ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ بحيث لا تتأثر من الآيات واللُّدْرِ، ومعنى جعل قلوبهم قاسية، أن نقض الميثاق كان مبعداً لهم عن رحمة الله، ومقسباً لقلوبهم، حتى لم تؤثر فيها حجة وموعظة، وليس كما يزعمه الجبرية، من أنه شيء عاقبهم الله به، ولم يكن متسبباً عن أعمالهم الاختيارية، وإنما هو ناشئ عن ضلالهم، وهذا كما تقول لغيرك: أفسدت

الاختيارية، وإنما هو ناشئ عن ضلالهم، وهذا كما تقول لغيرك: أفسدت سيفك، إذا تركَ تعاهده حتى صدىء، وجعلتَ أظافرك سلاحك، إذا لم يقصّها ﴿يُخْرِقُونَ الْكِلَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ استئنافٌ لبيان سبب قساوة قلوبهم، وهو الاجترأ على تغيير كلام الله تعالى، والافتراء عليه، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة، وللدلالة على التجدد والاستمرار ﴿وَفَسُّوا حَظًّا﴾ أي تركوا نصيباً وافرأ، واستعمال النسيان بهذا المعنى كثير ﴿وَمِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من التوراة، فقد حرّفوها فسقطت أشياء منها عن حفظهم، وأضاعوا كتابهم عندما أحرق البابليّون بلادهم ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي خيانة منهم، والمعنى أن الخيانة والغدر من عاداتهم، وعادة أسلافهم، لا تزال ترى ذلك منهم ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ الذين آمنوا، منهم ﴿فَأَعَفَّ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ أي إن تابوا وآمنوا، أو عاهدوا والتزموا الجزية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر، وحثٌّ على الامتثال به، وتنبيةٌ على أنَّ العفو على الإطلاق من باب الإحسان.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَا أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ شروع في بيان قبائح النصارى إثر بيان قبائح اليهود أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم، كما أخذنا ممن قبلهم من الإيمان بالله والرسول، وإنما نسب تسميتهم نصارى إلى أنفسهم، دون أن يقال: ومن النصارى إيذاناً بأنهم في قولهم: «نحن أنصار الله» بمعزل من الصديق، إنما هو تقوُّلٌ محضٌ منهم، وليسوا من نصرة الله في شيء، فإن ادعاءهم لنصرته تعالى، يستدعي ثباتهم على طاعته سبحانه ومراعاة ميثاقه ﴿فَسُّوا﴾ إثر أخذ الميثاق ﴿حَظًّا﴾ نصيباً وافرأ ﴿وَمِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من الإيمان بالله، والإيمان بالنبى ﷺ فنبذوه وراء ظهورهم، واتبعوا أهواءهم وتفرقوا ﴿فَأَعْرَبْنَا﴾ أي ألزمتنا وألصقنا، والغراء الذي يلصق به الشيء، أي فآلقينا ﴿يَبْنِيهِمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِنَّ يَوْمَ الْفَيْصَمَةِ﴾ أي يتعادون إلى يوم القيامة، حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة، المؤدية إلى التفرق، فضمير بينهم لهم خاصة ﴿وَسَوْفَ يَنْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا

كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾ وعيد شديد بالعقاب، كقول الرجل لمن يتوعده
سأخبرك بما فعلت، أي يجازيهم بما عملوه.

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا
مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ
جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ
مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ
كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَن
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ﴾ التفات إلى خطاب الفريقين إثر
بيان أحوالهما، ودعوة لهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ والقرآن الكريم،
وإيرادهم بعنوان أهل الكتاب للمبالغة في التشنيع، فإن أهلية الكتاب من
موجبات مراعاته وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا ﴿قَدْ جَاءَكُمْ
رَسُولُنَا﴾ الإضافة للتشريف، والإيدان بوجوب اتباعه ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ حال
من رسولنا، أي قد جاءكم رسولنا حال كونه مبيناً لكم على التدرج،
حسبما تقتضيه المصلحة ﴿كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾
أي التوراة والإنجيل، كبعضة الرسول ﷺ وآية الرجم، ونحوهما، مع
استمرارهم على الكتم والإخفاء، أي يبين لكم كثيراً من الذي تخفونه على
الاستمرار، من الكتاب الذي أنتم المتمسكون به ﴿وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾
مما تخفونه لا يخبر به إذ لم تدع إليه داعية دينية صيانة لكم مما فيه

افتضحكم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ عظيم، وهو نور لأنوار النبي المختار ﷺ وإلى هذا ذهب قتادة، واختاره الزجاج، وقال الجبائي: عني بالنور القرآن، لكشفه طرق الهدى واليقين، واقتصر على ذلك الزمخشري فالعطف في قوله تعالى: ﴿وَكُتِبَ مُبِينٌ﴾ لتنزيل المغايرة بالعنوان، منزلة المغايرة بالذات، والمبين من بَانَ اللازم بمعنى ظهر، فمعناه الظاهر الإعجاز.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ أي بما ذكر ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ أي من كان يريد رضا الله ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي طرق السلامة من العذاب، أو سبل الله تعالى وهي شريعته ﴿وَيُخْرِجُهُمُ﴾ الجمع باعتبار المعنى ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات فنون الكفر والضلال ﴿إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ إلى الإيمان والإسلام ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو أقرب الطرق المؤدي إلى الله سبحانه.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي لا غيره، وهم اليعقوبية القائلون بأنه تعالى قد يحل في بدن إنسان أو في روحه، وأنه قد حل في بدن عيسى، ولا يزالون يقولون بالوهية المسيح، وبالتثليث ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم وإظهاراً لبطلان قولهم ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ استفهام للإنكار، أي إن كان الأمر كما تزعمون، فمن يمنع عن قوة الله شيئاً ﴿إِنِ ارَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ ومن حق من يكون إلهاً أن لا يتعلق به قدرة غيره، فضلاً عن أن يعجز عن دفع شيء منها، فلما كان عجزه بيّناً، ظهر كونه بمعزل مما تقولون في حقه!! ومن الغريب أنهم قالوا إن شر نوع الإهلاك، وهو الصلب، نزل بالمسيح، ومع ذلك يعتقدون بالوهيته، والمراد بالإهلاك الإمامة مطلقاً، وإظهار المسيح في مقام الإضمار لبيان أن الكل تحت قهره وملكوته، وأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات، في كونه عرضة للإهلاك ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي له تعالى وحده، ملك

جميع الموجودات، والتصرف المطلق فيها، إيجاداً وإعداداً لا لأحد سواه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ جملة مسوقة لبيان بعض أحكام الألوهية، على وجه يزيح ما اعتراه من الشبهة في أمر المسيح، لولادته من غير أب، وخلق الطير، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه، أي يخلق ما يشاء فتارة من غير أصل، كخلق السماوات والأرض، ومن غير جنسه كخلق آدم، أو من أنثى وحدها، كخلق عيسى، وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر، كخلق الطير على يد عيسى معجزة له، فيجب أن ينسب كله إلى الله تعالى، لا إلى من أجري ذلك على يده ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ فَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ﴾ حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة، روي عن ابن عباس أنه قال إن النبي ﷺ دعا جماعة من اليهود إلى دين الإسلام، وخوفهم بعقاب الله تعالى، فقالوا: كيف نخوفنا به، ونحن أبناء الله وأحباؤه؟ وقالت النصارى مثل ذلك قبلهم، فأنزل الله هذه الآية ردّاً على الفريقين ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ﴾ وفيها تكذيبٌ لهم جميعاً، ومقصود الفريقين، أن لهم فضلاً عند الله تعالى، على سائر الخلق، فردّ الله تعالى عليهم ذلك، وقال لرسول الله ﷺ ﴿قُلْ﴾ إلزاماً لهم ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي فإن صح ما زعمتم، فلم يعذبكم بذنوبكم؟ فإن من كان

بهذا المنصب، لا يفعل ما يوجب تعذيبه، وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسوخ، وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم في الآخرة وقلتم: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ مدة عبادتكم العجل، هل رأيتم والداً يعذب ولده؟ وهل تطيب نفس محباً أن يعذب حبيبه في النار؟ وقوله تعالى: ﴿بَلَى أَنشَأَ بَشَرًا﴾ عطف على مقدر أي ليس الأمر كذلك بل أنتم بشر ﴿وَمَنْ خَلَقَ﴾ أي بشر كائن من جنس خلق الله تعالى، من غير مزية لكم عليهم ﴿يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يغفر له من أولئك المخلوقين، وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسله ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يعذبه منهم، وهم الذين كفروا بالله وبرسله مثلكم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات، لا ينتمي إليه سبحانه شيء منها، إلا بالعبودية تحت ملكوته، يتصرف فيهم كيف يشاء، فأنى لهم ادعاء ما زعموا؟! ﴿وَأِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ في الآخرة خاصة لا إلى غيره، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ﴾ تكرير للخطاب بطريق الالتفات، واللفظ في الدعوة ﴿فَدَجَّكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الشرائع والأحكام، الدينية، وإنما حذف اعتماداً على الظهور، إذ من المعلوم أن ما بينه الرسول هو الشرائع والأحكام، والجملة في موضع الحال أي جاءكم رسولنا مبيناً لكم ﴿عَلَى فَرْقٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي على حين فتورٍ من إرسال الرسل، وانقطاع زمان الوحي، والفترة ما بين الرسلين وهي انقطاع بعثهم، واختلف في مدتها بين نبينا ﷺ وعيسى عليه السلام، فقال قتادة: خمسمائة وستون سنة، وقال الكلبي: خمسمائة وأربعون ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي لثلاث تقولوا معتردين من تفريطكم، في أحكام الدين يوم القيامة ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ وقد انطمست آثار الشريعة السابقة، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ تفصح عن محذوف، والتقدير: لا تعتذروا فقد جاءكم وتنوين «بشير» و«نذير» للتفخيم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على إرسال الرسل ترى، وعلى الإرسال بعد الفترة.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ يَنْقُورِ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمْوَسِي إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمْوَسِي إِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ ﴿٢٦﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية نقضهم للميثاق، ليُعلم أن مكابرة الحق، ومعاودة الرسول، خُلُقٌ مستمر من أخلاقهم، أي اذكر أيها الرسول للناس حين قال موسى لقومه، بعد أن أنقذهم من ظلم فرعون، ناصحاً لهم: ﴿ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾ أي من أقربائكم، من أولاد يعقوب، والمراد بهم موسى، وهرون، ويوسف، وغيرهم ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ بعد أن كانوا عبيداً للقبط، فهي نعمة جليلة، نعمة الحرية والاستقلال، حتى صاروا كلهم كأنهم ملوك في السعة والترف ﴿ وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها والمراد بالعالمين عالمو زمانهم.

﴿ يَنْقُورِ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾ كرر النداء، اهتماماً بشأن الأمر،

ومبالغة في حثهم على الامتثال، والأرض المقدسة هي كما روي عن ابن عباس وابن زيد: «بيت المقدس» وقال الزجاج: دمشق وفلسطين ومعنى المقدسة: المطهرة أو المباركة، سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء، ومساكن المؤمنين ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي أنها تكون مسكناً لكم، إن آمنتم وأطعتم، لقوله تعالى بعدما عصوه ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِدُوا عَلَيْهِمْ أَعْدَاءَكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ الأدبار: جمع دُبر أي: لا ترجعوا مدبرين خوفاً من العجاجة، فترجعوا خاسرين، وهذا يدل على اشتراط الكتب ﴿التي كتب الله لكم﴾ بالمجاهدة المترتبة على الإيمان والطاعة.

﴿قَالُوا يَكُونُ مِنْكُمْ مَقَامٌ﴾ متغلبين، لا تتأتى مقاومتهم، والجبار: فعال، هو الذي يجبر الناس على ما يريد، والجبار من أسماء الله الحسنى، فيه معنى العظمة والقدرة، مدحٌ للخالق، وذمٌ للمخلوق، وما روي في بعض التفاسير من وصف هؤلاء الجبارين فأكثره من الخرافات الإسرائيلية، بثها اليهود منها ما حكى عن بعضهم أنه قال: استظل سبعون رجلاً من قوم موسى في قحف^(١) رجل من العمالقة، وحكى عن ابن أسلم قال: بلغني أنه رؤيت ضبع وأولادها، رابضة في فجاج عين رجل منهم، وأخبار عوج بن عُنُق، وغير ذلك، ولما قرب موسى حدود الأرض المقدسة، وأمرهم بدخولها أبوا واعتذروا بضعفهم، وقوة أهل تلك البلاد، وقالوا: ﴿وَأَنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنَهَا﴾ من غير جهد من قبلنا، فإنه لا طاقة لنا بإخراجهم منها ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بسبب من الأسباب، التي لا تعلق لنا بها ﴿فَأَنَّا دَاخِلُونَ﴾ حينئذ تلك البلاد، وكأنهم يريدون أن يخرجهم منها بقوة الخوارق، كما كان كل ما يحتاجون إليه، وجعلوا السنة الإلهية.

(١) القحف: ما انفلق من جمجمة الإنسان، أي جلس سبعون في طرف من جمجمة أحدهم، وكل هذه خرافات. وأساطير، وإنما وصفوا بالجبروت لقوتهم وشدة نفوذهم وبسطة أجسامهم.

﴿ قَالَ رَجُلَانِ ﴾ روي عن ابن عباس أنهما: يوشع بن نون، وكالب ﴿ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي يخافون الله، ويتقونه في مخالفة أمره، وفيه تعريض بأن بعضهم لا يخافونه تعالى، بل يخافون العدو ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ بالإيمان، والتثبيت، وربط الجأش، أي قالوا مخاطبين لهم ومشجعين ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ﴾ أي باب بلدهم، أي باغتهم، وضاعطوهم في المضيق، وامنعوهم من الاستعداد، لئلا يجدوا في الحرب مجالاً ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ ﴾ أي باب بلدهم وهم فيه ﴿ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ من غير حاجة إلى القتال، فإننا قد رأيناهم، قلوبهم ضعيفة وإن كانت أجسامهم عظيمة، فلا تخشوهم واهجموا عليهم في المضايق، فإنهم لا يقدرُونَ على الكرِّ والفرِّ. وقيل: إنما علما ذلك، من سننه تعالى في نصرته رسله ﴿ وَعَلَى اللَّهِ ﴾ تعالى خاصة ﴿ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ به تعالى ومصدقين لوعده، فإن ذلك يوجب التوكل.

﴿ قَالُوا ﴾ غير مباليين بهما مخاطبين لموسى عليه السلام إظهاراً لإصرارهم على القول الأول، وتصريحاً بمخالفتهم له ﴿ يَمْوَسَّىٰ إِنَّا كُنَّا نَدْعُهُمَا ﴾ أرض الجابرة وهم في بلدهم ﴿ أَهْدَاكَ ﴾ دهرأ طويلاً ﴿ مَا دَامُوا فِيهَا ﴾ أي في تلك الأرض ﴿ فَأَذْهَبَ ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فاذهب ﴿ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا ﴾ أي فقاتلاهم، وإنما قالوا ذلك استهزاء برسولهم، وعدم مبالاة بأمره. ﴿ إِنَّا هَهُنَا قَلِيلٌ ﴾ وأرادوا بذلك عدم التقدم، ولم يذكروا أخاه هارون ولا الرجلين، كأنهم لم يعبأوا بقتالهم.

﴿ قَالَ ﴾ موسى لما رأى منهم ما رأى، على طريقة البثِّ والحزن ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ أي لا أملك إلا نفسي، وإن أخي لا يملك إلا نفسه، فليس قوله عليه السلام ردّاً لما أمر الله تعالى به، بل الشكوى إلى الله تعالى، مع رقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة ﴿ فَأَفْرَقَ بَيْنَنَا ﴾ يريد نفسه وأخاه ﴿ وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي الخارجين

عن طاعتك، المصّرّين على عصيانك، بأن تحكم لنا ما نستحقّه، وعليهم ما يستحقونه كما هو المروي عن ابن عباس والضحاك.

﴿قَالَ﴾ الله عزّ وجل ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا يدخلونها ولا يملكونها، لأن دخولها مشروط بالإيمان والطاعة، وحيث نكثوا على أديبارهم حرموا، وانقلبوا خاسرين ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فالمراد بتحريمها عليهم، أنه لا يدخلها أحدٌ منهم في هذه المدة، ﴿يَتَبَهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يسرون فيها متحيرين، يقال: تاهَ يتيه تيهاً وتيهاناً ذهب متحيراً، وكان ذلك من خوارق العادات، إذ التحير في مثل تلك المسافة هذه المدة الطويلة، مما تحيله العادة، وأكثر المفسرين على أن موسى وهارون كانا معهم في التيه، لكن لم ينلها من المشقة ما نالهم، وكان ذلك لهما روحاً وسلامة كالنار لإبراهيم ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فلا تحزن عليهم، لأنهم أحقاء بذلك لفسقهم، وهذه القصة مفصلة في التوراة، وهي ناعيةٌ عليهم عصيانهم وطغيانهم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَا قُلْتُكَ قَالَ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَدِّي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُكَذِّبَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَدِّيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ ضمير عليهم يعود على بني إسرائيل كما هو الظاهر وقيل: هم هذه الأمة أي اتل يا رسول الله على قومك ﴿نَبَأَ﴾

أَبَقَى آدَمَ ﴿ هَابِيل عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ، وَقَابِيل عَلَيْهِ مَا يَسْتَحِقُّهُ، وَكَانَا بِإِجْمَاعِ الْمَفْسُرِينَ ابْنِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَصْلِبِهِ، وَكَانَ مِنْ قِصَّتِهِمَا مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ لَا يُولَدُ لآدَمَ إِلَّا وَلَدٌ وَجَارِيَةٌ، وَكَانَ يَزُوجُ غُلَامَ هَذَا الْبَطْنِ جَارِيَةً بَطْنِ الْآخَرِ، وَقَدْ جَعَلَ افْتِرَاقَ الْبَطُونِ، بِمَنْزِلَةِ افْتِرَاقِ النَّسَبِ لِلضَّرُورَةِ، وَلَدَ لَهُ ابْنَانِ: هَابِيلُ وَقَابِيلُ، وَإِنْ هَابِيلُ طَلَبَ أَنْ يَنْكِحَ أُخْتَ قَابِيلَ فَأَبَى عَلَيْهِ، فَأَمَرَهُ أَبُوهُ فَأَبَى، وَكَانَتْ تَوَامُةُ قَابِيلَ أَجْمَلُ، فَحَسَدَهُ عَلَيْهَا أَخُوهُ وَسَخَطَهُ، وَأَرَادَ أَنْ يَحْظِيَ هُوَ بِهَا، فَقَالَ لَهُمَا آدَمُ: قَرَّبَا قَرْبَانًا، فَمِنْ أَيْكُمَا قُبِلَ تَزَوَّجَهَا فَفَعَلَا، فَتَزَلَّتْ نَارٌ عَلَى قَرْبَانِ هَابِيلَ فَأَكَلَتْهُ، وَلَمْ تَتَعَرَّضْ لِقَرْبَانِ قَابِيلَ، فَازْدَادَ قَابِيلُ حَسَدًا وَسَخَطًا، وَفَعَلَ مَا قَضَاهُ عَلَيْنَا الْقُرْآنُ ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أَيُّ تِلَاوَةِ مُلْتَبَسَةٍ بِالْصَّدَقِ وَالصَّحَةِ ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ إِذْ قَرَّبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَرْبَانَهُ ﴿ فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ﴾ قَرْبَانَهُ وَهُوَ هَابِيلُ ﴿ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ﴾ قَرْبَانَهُ وَهُوَ قَابِيلُ، لِأَنَّهُ سَخَطَ حَكَمَ اللَّهُ ﴿ قَالَ ﴾ أَيُّ قَابِيلَ ﴿ لَا أَقْبَلُكَ ﴾ قَالَ هَابِيلُ: وَلَمْ تَقْتُلْنِي؟ قَالَ قَابِيلُ: لِأَنَّ اللَّهَ قَبِلَ قَرْبَانَكَ، وَتَرِيدُ أَنْ تَنْكِحَ أُخْتِي ﴿ قَالَ ﴾ هَابِيلُ ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ ﴾ أَيُّ الْقَرْبَانِ ﴿ مِنْ الْمُتَّقِينَ ﴾ فِي ذَلِكَ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِيهِ اللَّهُ تَعَالَى، وَمُرَادُهُ مِنْ هَذَا الْجَوَابِ أَنْ يَقُولَ: إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ، لَا مِنْ قِبَلِي، فَلَمْ تَقْتُلْنِي؟ وَلَمْ يَصْرَحْ ذَلِكَ حَذَرًا مِنْ تَهْيِيجِ غَضَبِهِ، وَحِمْلًا لَهُ عَلَى التَّقْوَى، وَالْإِقْلَاعِ عَمَّا نَوَاهُ، ثُمَّ صَرَحَ بِتَقْوَاهُ عَلَى وَجْهِ يَسْتَدْعِي سَكُونَ غَيْظِهِ، لَوْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ حَيْثُ قَالَ:

﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ﴾ أَيُّ وَاللَّهُ لَشَنِّ بَاسَرْتُ قَتْلِي حَسْبَمَا أَوْعَدْتَنِي بِهِ، وَتَحَقَّقَ ذَلِكَ مِنْكَ، مَا أَنَا بِفَاعِلٍ مِثْلِهِ لَكَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ قِيلَ كَانَ هَابِيلُ أَقْوَى مِنْهُ، وَلَكِنْ تَحَرَّجَ عَنْ قَتْلِهِ لَهُ، خَوْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْمَعْنَى: لَشَنِّ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ عَلَى سَبِيلِ الظُّلْمِ وَالْإِبْتِدَاءِ، مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدِي إِلَيْكَ عَلَى وَجْهِ الظُّلْمِ وَالْإِبْتِدَاءِ، وَفِي قَوْلِهِ

تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ الخ. تعليل للامتناع، وإرشاد قابل إلى خشية الله،
وتعريض بأن القاتل لا يخاف الله تعالى:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ تعليل ثانٍ للامتناع عن المعارضة
والمعنى: إني أريد بامتناعي عن التعرض لك، أن ترجع بإثم قتلي وإيأثمك
الذي لأجله لم يتقبل قربانك ﴿فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي تكون بما
حملت من الإثمين من أهل النار، لأنك حينئذ تكون ظالماً ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ﴾ وهذا من كلام هابيل على ما هو الظاهر أي ودخول النار جزاء
كل ظالم فاجر، عاصٍ لأوامر الله، وهو عقاب من لم يرض بحكم الله
تعالى.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أي سهّلت وزيّنت له نفسه الشريرة قتل
أخيه الشقيق، فقتله فخر وشقي، والتصريح بأخوته، لكمال تقبيح ما
سوّته نفسه ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْمُنْزِلِينَ﴾ خسر الدنيا والآخرة، أما في
الدنيا فقد أسخط والديه، وبقي بلا أخ، وأما آخرته فأسخط ربه وصار
مستحقاً للعقاب، أخرج البخاري عن ابن مسعود قال: قال ﷺ: «لا تُقتل
نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها، لأنه أول من سنّ
القتل»^(١) وروي أنه لما قتله تركه بالعراء، لا يدري ما يصنع به، حتى رأى
طيراً يقتل طيراً، ثم يحفر حفرةً ويضعه فيها، ففعل بأخيه مثل ذلك.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَثُ سَوَاءَ أَخِيهِ﴾ عادة
الغراب دفن الأشياء، فجاء فدفن شيئاً، فتعلم منه والمتبادر أن الغراب
أطال البحث، لأن المضارع يفيد الاستمرار، فلما رأى قابيل فعل الغراب
زالت حيرته ﴿قَالَ يَوَيْلَئِي﴾ كلمة جزع وتحسر، والألف فيها بدل من ياء
المتكلم، والمعنى: يا ويلتي احضري فهذا أوانك، والويل الهلكة تستعمل

(١) الحديث أخرجه البخاري في الديات ١٦٩/١٢ ومسلم في القسامة رقم ١٦٧٧ وفي
رواية البخاري: «ليس من نفس تقتل ظلماً.» الحديث.

عند وقوع الداهية ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أي عن أن أكون ﴿مِثْلَ هَذَا الْغَرَابِ فَأُوْرِي سَوَاءَ أَحْيٍ﴾ تعجب من عدم اهتدائه، إلى ما اهتدى إليه الغراب ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتله، لما كابد فيه من التحير في أمره وحمله، وعدم الظفر بما فعله من أجله، والعبرة في الآية، أن الحسد كان منار أول جناية في البشر، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس أمر اجتماعهم، وينغص عليهم عيشتهم.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ ذلك إشارة إلى عظم شأن القتل، وإفراط قبحه ﴿كَتَبْنَا﴾ أي قضينا ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ خصهم بالذكر لما أن الحسد كان منشأ لذلك الفساد، وهو غالب عليهم، ولأن التوراة أول كتاب نزل فيه تعظيم القتل، ومع ذلك كانوا أشد طغياناً فيه، حتى قتلوا الأنبياء عليهم السلام ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي الشأن ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا﴾ واحدة من النفوس الإنسانية ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فساد فيها يوجب هدر الدم، كالشرك، والارتداد، وقطع الطريق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ومناط التشبيه: اشتراط الفعلين في

هتك حرمة الدماء، وتجزؤ الناس على القتل، واستجلاب غضب الله وعذابه ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي تسبب لبقاء نفس واحدة، إما بنهي قاتلها عن قتلها، أو استنقاذها من سائر أسباب الهلكة بوجه من الوجوه، كالحرق، والغرق، والهدم ونحوها ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وجه التشبيه ظاهر، والمقصود تهويل أمر القتل، وتفخيم شأن الإحياء، بتصوير كل منهما بصورة لا تفتقر به، في إيجاب الرهبة والرغبة، فالآية الكريمة تعلمنا ما يجب من وحدة البشر، ومن وظيفة كل منها على حياة الجميع ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ إنما لم يقل ولقد أرسلنا، للتصريح بوصول الرسالة إليهم، أي وبالله لقد جاءتهم رسلنا بالآيات الواضحة، بتقرير ما كتبنا عليهم، تأكيداً بوجوب مراعاتها ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي من بعد ما ذكر من التوضيح، وتأكيد الأمر ﴿فِي الْأَرْضِ لَمْ يَسْرِفُونَ﴾ كثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يبالون به، وذكر الأرض للإيذان بأن إسرافهم انتشر شره في الأرض حتى عمّ وطم.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يحاربون أولياءهما وهم المسلمون، جعل محاربتهم محاربتهم تعظيماً لشأن المسلمين، والمراد به ههنا قطع الطريق، والمكابرة بالصوصية ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يسعون مفسدين، نزلت في قطاع الطريق وهذا قول أكثر الفقهاء، والفساد ضد الصلاح، فإزالة الأمن عن الأنفس، والأموال، ومعارضة تنفيذ الشريعة ونحوها، كل ذلك إفساد في الأرض، ولما كانت المحاربة والفساد على مراتب، شرعت لكل مرتبة عقوبة معينة فقال سبحانه ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ أي حداً إن أفردوا القتل، ولو عفا الأولياء لا يلتفت إليه، لأنه حق الشرع ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ مع القتل إذا جمعوا بين القتل والأخذ للمال، والصلب قبل القتل، بأن يصلبوا أحياء، والأولى أن يكون على الطريق في ممر الناس، ليكون ذلك زجراً للغير ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ أي أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى، إن اقتصرنا على أخذ المال، وفي ظاهر الرواية أن الإمام مخير إن شاء اكتفى بالصلب، وإن شاء قطع أيديهم

وأرجلهم من خلاف ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ إن لم يفعلوا غير الإخافة، والسعي للفساد، والمراد من النفي عندنا هو الحبس، فإنه نفي عن وجه الأرض، وعند الشافعي من بلد إلى بلد آخر، والعرب تستعمل النفي للسجن، قال بعض المسجونين:

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا فَلَسْنَا مِنَ الْأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الْأَحْيَا
إِذَا جَاءَنَا السَّجَانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ عَجِبْنَا وَقَلْنَا جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا

قال مكحول: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من حبس من هذه الأمة، وقال أحسبه حتى أعلم منه التوبة، ولا أنفيه إلى بلد آخر فيؤذيبهم ﴿ذَلِكَ﴾ ما فصل من الأحكام ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم ذنوبهم، واقتصر في الدنيا على الخزي، مع أن لهم عذاباً أيضاً، وفي الآخرة على العذاب مع أن لهم فيها خزيّاً أيضاً، لأن الخزي في الدنيا أعظم من عذابها، والعذاب في الآخرة أشد من خزيها، والآية أقوى دليل لمن يقول: إن الحدود لا تسقط العقوبة، والقائلون بالإسقاط يستدلون بقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «من ارتكب شيئاً فعوقب به كان كفارة له»^(١)، فإنه يقتضي سقوط الإثم عنه، وأن لا يعاقب في الآخرة، وهو مشكل مع هذه الآية، وأجاب النووي بأن الحد يكفر به عنه حق الله تعالى، وأما حقوق العباد فلا، وههنا حقان، حق الله، وحق العبد.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ استثناء مخصوص بما هو حق الله تعالى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في التفسير ٦٣٨/٨ ولفظه: عن عبادة بن الصامت قال: «كنا عند النبي ﷺ فقال: أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا؟ وقرأ الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ فمن وقى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له... الحديث.

وأما ما هو من حقوق الأولياء من القصاص ونحوه، فالإيهام بذلك، إن شاؤوا عفووا وإن أحبوا استوفوا، وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة، يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد، وإن أسقطت العذاب والآية في قطاع المسلمين، لأن توبة المشرك، تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ لما ذكر الله تعالى عظم القتل والفساد، أمر المؤمنين بأن يتقوه في كل ما يأتون وما يذرون، ومن جملة القتل والفساد ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ﴾ أي اطلبوا لأنفسكم ثوابه والزلزلة منه ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ أي ما تتوصلون به من فعل الطاعات، وترك المعاصي والوسيلة ما يتوصل ويتقرب به إلى الغير، توسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل، وفي القرآن الكريم اسم لكل ما يتوصل به إلى مرضاة الله تعالى، من علم، وعمل، وفي الحديث: «اللهم آت محمداً الوسيلة» هي منزلة في الجنة، بين تعالى بهذه الآية للمؤمنين، بأن مجامع التكليف محصورة في نوعين: أحدهما ترك المنهيات وإليه أشار بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وثانيهما فعل المأمورات وإليه أشار بقوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ وهي القربة لا غير،

وحيث كان في كل منهما كلفة ومشقة، عَقِبَ الأمر بهما بقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ بمحاربة أعدائه البارزة والباطنة بما أمكنكم في طاعته تعالى، وبكف أنفسهم عن الأهواء الفاسدة ﴿لَمَلَكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ بنيل النعيم المؤبد، والخلاص من كل نكد، وتقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة، أقرب إلى الإجابة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كلام مبتدأ مسوق لتأكيد وجوب الامتثال بالأوامر السابقة ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي كل واحد منهم ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من أصناف الأموال ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد للموصول ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ وفائدة «معه» التصريح بفرض كونهما لهم بطريق المعية، لا بطريق التعاقب ﴿لَيَقْتَدُوا بِهِ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ متعلق بالافتداء أي لو أن لهم كل ذلك، لدفع العذاب الواقع يومئذ ﴿مَا نُقِلَ مِنْهُمْ﴾ ذلك ﴿وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ تصريح بالمقصود منه، وبيان لهوله ولشدته.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ﴾ الإرادة بمعنى التمني أي يتمنون ذلك ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ فإيثار الجملة الاسمية لبيان سوء حالهم، باستمرار عدم خروجهم منها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم، تصريح بعدم تناهي مدته، بعد بيان شدته، وهذه الآية كما ترى في حق الكفار، فلا تنافي القول بالشفاعة لعصاة المؤمنين في الخروج، كما لا يخفى على من له أدنى إيمان، روي عن جابر رضي الله عنه قال: «يخرج قومٌ من النار بالشفاعة»^(١) قيل لجابر: يقول الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ قال اتل أول الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهي في الكفار لا في المؤمنين.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ شروع في بيان حكم السرقة الصغرى، بعد بيان أحكام السرقة الكبرى بقطع الطريق، والسرقة: أخذ مال الغير خفية، وصرح بالسارقة مع أن المعهود في الكتاب والسنة إدراج النساء في

(١) طرف من حديث طويل رواه الشيخان في باب الشفاعة للمؤمنين.

الأحكام الواردة، لمزيد الاعتناء بالبيان، والمبالغة في الزجر ﴿فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ أي أيماهما كما يفصح عنه قراءة ابن مسعود «فاقطعوا أيماهما»، واليد اسم لتمام الجارحة، والجمهور على أن المقطع هو الرسغ، فقد أخرج البغوي أنه عليه السلام أتى بسارق، فأمر بقطع يمينه منه، والمخاطب بقوله سبحانه: ﴿فَاقْطِعُوا﴾ ولاية الأمور كالسلطان، ومن أذن له في إقامة الحدود، وإنما توجب القطع إذا كان الأخذ من حِزْبٍ، والمأخوذ يساوي عشرة دراهيم فما فوقها، وقُطعت اليدُ لأنها آلة السرقة، ولم تقطع آلة الزنا تفادياً عن قطع النسل، روى الشيخان عن عائشة قالت: قال عليه السلام: «إنما هلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(١) ﴿حَزَاءٌ يَمَّا كَسَبَا﴾ أي بسبب كسبهما من السرقة ﴿فَكَفَلَا﴾ أي عقوبة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ تعالى عبرة لغيرهما ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾^(٢) غالب على أمره، يمضيه كيف يشاء، من غير ند ينازعه ولا ضد يمانعه ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرائعه وفرائضه، لا يحكم إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿فَن تَابَ﴾ أي من السُّرَّاق إلى الله تعالى ﴿مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ الذي هو سرقته، والتصريح به لبيان عظم نعمته تعالى، بتذكير عظم جنايته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أمره بأن يرد مال السرقة، ويعزم على ترك المعاودة، ويستغفر ويتوب ﴿فَارَبَّكَ اللَّهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة، وأما

(١) الحديث رواه البخاري في الحدود ٧٦/١٢ ومسلم رقم ١٦٨٨ وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٥٦١/٣.

(٢) حكاية لطيفة قال الأصمعي: كنت أقرأ القرآن، وبيجانيي أعرابي جاء من البادية يسمع ما أقرأ، فقرأت هذه الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ...﴾ فقلت: ﴿والله غفور رحيم﴾ سهواً، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ فقلت: كلام الله عز وجل، قال: ليس هذا كلام الله، أعد ما قرأت، فأعدتها فتنبعت فقلت في ختامها: ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال: الآن أصبت، هذا كلام الله، فقلت له: كيف عرفت؟ فقال الأعرابي: عز، فحكم، فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع!!

القطع فلا تسقطه التوبة، لأن فيه حق المسروق منه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
مبالغ فيهما، وفيه إشارة إلى أن قبول التوبة فضلٌ من الله تعالى.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد صالح للخطاب،
والمراد به الاستشهاد على قدرته تعالى على التصرف الكلي من التعذيب
والمغفرة حسبما تقتضيه مشيئته ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ
يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ قدم التعذيب لأن التعذيب للمصرِّ على السرقة،
والمغفرة للتائب منها، فجاء هذا اللاحق على ترتيب السابق ﴿وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على ما ذكر من التعذيب والمغفرة.

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ
الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا
سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَكَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ
الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ
فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ
الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلشُّحِّ فَإِنْ
جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ
شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ﴾ خطوب ﷺ بعنوان الرسالة
للتشريف^(١)، والإشعار بما يوجب عدم الحزن ﴿لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ

(١) وفي هذا التشريف، تعليم من الله وتاديب لعباده المؤمنين، أن يعظموا رسول الله ﷺ عند=

فِي الْكُفْرِ ﴿إِثَارَ كَلِمَةِ «فِي» عَلَى كَلِمَةِ «إِلَى» لِلْإِيْمَاءِ إِلَى أَنَّهُمْ مُسْتَقَرُونَ فِي الْكُفْرِ، لَا يَبْرَحُونَهُ، أَيُّ لَا تَحْزَنُ وَلَا تَبَالُ تَهَافُتُهُمْ فِي الْكُفْرِ بِسُرْعَةٍ، وَالْغَرَضُ مِنْهُ مَجْرَدُ التَّسْلِيَةِ عَلَى أَبْلَغِ وَجْهِ ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بَيَانُ لِلْمَسَارِعِينَ فِي الْكُفْرِ، وَالْبَاءُ مُتَعَلِّقَةٌ بِقَالُوا ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيُّ مِنْ الْمُنَافِقِينَ ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أَيُّ هُمْ سَمَاعُونَ، وَالضَّمِيرُ لِلْفَرِيقَيْنِ أَيُّ مَبَالِغُونَ فِي سَمَاعِ الْكَذِبِ، وَفِي قَبُولِ مَا يَفْتَرِيهِ أَجْبَارُهُمْ وَرُؤُسَاؤُهُمْ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَتَحْرِيفِ كِتَابِهِ، فَإِنْ كُونَهُمْ سَمَاعِينَ لِلْكَذِبِ، مِمَّا يَقْتَضِي عَدَمَ الْمَبَالَاةِ بِهِمْ، فَهَمْ عَيُونَ وَجَوَاسِيسُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، كَالَّذِينَ يَفْتَرُونَ الْكَذِبَ عَلَى الْإِسْلَامِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَمَعْنَى ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يَسْمَعُونَ مِنْكَ لِيَكْذِبُوا عَلَيْكَ، وَلِيَحْرِفُوا مَا سَمِعُوا مِنْكَ، بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ وَالتَّبْدِيلِ ﴿سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أَيُّ سَمَاعُونَ كَلَامَهُ ﷺ لِيَكْذِبُوا عَلَيْهِ، لِأَجْلِ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ عَيُونَ عَلَيْهِ ﷺ لِأُولَئِكَ الْقَوْمِ ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أَيُّ لَمْ يَقْصِدُوكَ بِالْإِتْيَانِ، بَلْ قَصَدُوا السَّمَاعَ لِلْكَذِبِ فِيهِ ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ وَصَفُوا بِاسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى التَّحْرِيفِ، بَيَانًا لِإِفْرَاطِهِمْ فِي الْعَتْوِ، وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، أَيُّ يَمِيلُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ بَعْدَ أَنْ وَضَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا ﴿يَقُولُونَ﴾ أَيُّ يَقُولُونَ لِاتِّبَاعِهِمُ السَّمَاعِينَ لَهُمْ ﴿إِنْ أَوْتَيْتُمْ﴾ مِنْ جِهَةِ الرِّسُولِ ﷺ ﴿هَذَا فَخَذُّوهُ﴾ وَاعْمَلُوا بِمَوْجِبِهِ فَإِنَّهُ الْحَقُّ ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بَلْ أَوْتَيْمُ غَيْرِهِ ﴿فَأَحْذَرُوا﴾ قَبُولُهُ، رَوَى عَنْ ابْنِ عَمْرٍ أَنَّهُ قَالَ: «إِنْ الْيَهُودُ جَاؤُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،

= مَخَاطَبَتُهُ وَالتَّحَدُّثُ مَعَهُ، فَيَخَاطِبُونَهُ بِلَفْظٍ فِيهِ إِجْلَالٌ وَتَوْقِيرٌ، كَقَوْلِهِمْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَالْأَوَّلُ يَنَادُوهُ بِاسْمِهِ الْعِلْمُ يَا مُحَمَّدَ، كَمَا كَانَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ الْجَفَاءِ يَقْفُونَ عِنْدَ بَابِ مَنْزِلِهِ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْرِجْ إِلَيْنَا، فَتَزِلُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَاعِيًا عَلَيْهِمْ هَذَا الصَّنِيعَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وَجَاءَ النَّهْيُ لِجَمِيعِ النَّاسِ بِالْتَّحْذِيرِ مِنْ ذَلِكَ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرِّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ وَحَقًّا إِنَّهُ لَتَوْجِيهِ كَرِيمٌ لِتَعْلِيمِهِمُ الْأَدَبَ مَعَ الرِّسُولِ ﷺ.

فذكروا له أن امرأة منهم ورجلاً زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأنهما؟ فقالوا نفصحههم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتهم، إنَّ فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما النبي ﷺ فرجما^(١) ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ أي ضلّالته أو فضيخته ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ فلن تستطيع له من الله شيئاً في دفعها ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من المنافقين واليهود ﴿الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ﴾ من رجس الكفر والضلالة، لانهما كُفِرَ فيهما، وإصرارهم عليها بسبب اختيارهم، وقبح صنيعهم ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أما المنافقون فخزيهم فضيحتهم، بظهور نفاقهم، وازدياد غمهم بمزيد انتشار الإسلام، وقوة شوكتهم، وأما خزي اليهود فالذلة والجزية وظهور كذبهم ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ مع الخزي الدنيوي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُقادر قدره، وهو الخلود في النار في الجملتين للمنافقين واليهود جميعاً، وتكريره لزيادة التقرير.

﴿سَمِعْتُمْ بِالْكَذِبِ﴾ ذَكَرَهُ تَأْكِيداً لما قبله وتمهيداً لما بعده ﴿أَكَلْتُمُ اللَّسْعَتَ﴾ السَّحْتُ: بسكون الحاء وضمها الحرام، نزلت في حكام اليهود، كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل لحم نبت من السُّحْتِ، فَالْتَّارُ أَوْلَى بِهِ»^(٢) وأخرج عبد ابن حميد عن علي كَرَّمَ الله وجهه، أنه سئل عن السحت، فقال الرشاء - أي

(١) الحديث أخرجه الشيخان، البخاري ١٤٨/١٢ في المحاربين، وفي تفسير سورة آل عمران ٢٢٤/٨ ومسلم في الحدود رقم ١٦٩ والترمذي رقم ١٤٣٦ في الحدود أيضاً.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/٣٢١ ورواه الترمذي رقم ٦١٤ بلفظ «يا كعب بن عُجرة، إنه لا يربو لحم نَبَتٍ من سُحْتٍ إلا كانت النار أولى به».

الرشوة - فقليل له في الحكم؟ قال: «ذاك الكفر»^(١) ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ أي فإن جاؤوك متحاكمين إليك، فيما شجر بينهم من الخصومات ﴿فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وهذا تخيير له ﷺ فقليل: هذا في أمر خاص، هو ما ذكر من الزنا، وقيل هو عام في جميع الحكومات، ثم اختلفوا فمن قائل إنه ثابت، وهو قول عطاء وقتادة، وقائل إنه منسوخ، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة، وأهل الذمة محمولون على أحكام الإسلام في البيوع، وسائر العقود، إلا في بيع الخمر والخزير، فإنهم يقررون عليه، ويمنعون من الزنا فإنهم نهوا عنه، ولا يرجمون، وتما في التفصيل في الفروع ﴿وَلَا تَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ تقديم حال الإعراض للمسارعة إلى بيان أنه لا ضرر فيه، حيث كان مظنة الضرر، لما أنهم إذا أعرض عنهم شق ذلك عليهم، فتشتد عداوتهم، فأمن الله تعالى رسوله بقوله: ﴿فَكَانَ يَصُورُكَ﴾ بسبب ذلك ﴿شَيْعًا﴾ من الضرر، فإن الله يحفظك من ضررهم ﴿وَأِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل الذي أمرت به، وهو ما تضمنه القرآن، واشتملت عليه شريعة الإسلام ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين فيحفظهم من كل مكروه، ويعظم شأنهم، وفي الحديث الشريف: «إن المقسطين - أي العادلين - عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم - أي فيما تقلدوا من خلافة، وإمارة أو قضاء - وأهلهم وما ولوا»^(٢) بالتخفيف من الولاية على يتيم، أو صدقة أو وقف، ونحو ذلك.

(١) أخرجه عبد بن حميد، والبيهقي في سننه، وابن المنذر، وأخرج البخاري في كتاب الإجارة في ترجمة باب ٤٥٣/٨ قال ابن سيرين: كان يُقال للسحت: الرشوة في الحكم.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة رقم ١٨٢٧ باب فضيلة الإمام العادل، والنسائي في آداب القضاة ٢٢١/٨ وأحمد في المسند ١٦٠/٢.

﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيِّنُونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ تعجيب من تحكيمهم من لا يؤمنون به، والحال أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم، وتنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق، وإنما طلبوا به ما يكون أهون عليهم، وإن لم يكن حكم الله تعالى في زعمهم، والآية تقرع لليهود، بإظهار جهلهم وذلتهم ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ ﴾ عطف على يحكمونك، داخل في حكم التعجيب ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ من بعدما حكموك، أي ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم ﴿ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ بك وبكتابهم.

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان علو شأن التوراة، ﴿ فِيهَا هُدًى ﴾ يهدي إلى الحق ﴿ وَنُورٌ ﴾ يكشف ما اشتبه من الأحكام ﴿ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل، من لدن موسى إلى عيسى عليه السلام، ﴿ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ انقادوا لحكم الله تعالى، أجريت على النبيين على سبيل المدح، وفيه رفع لشأن المسلمين، وتعريض لليهود، وأنهم بمعزل من الانقياد والإسلام والافتداء بدين الأنبياء ﴿ لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾

وهو متعلق بيحكم ويدل على أن النبيين أنبياءهم ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي العُباد والعلماء قاله قتادة، وقال مجاهد: الربانيون العلماء والفقهاء وهم فوق الأحبار أي هم أيضاً يحكمون بها ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي بالذي استحفظوه من جهة النبيين، وهو التوراة حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل، وضمير الجمع عائد إلى الربانيين والأحبار أي ويحكم الربانيون والأحبار أيضاً بالتوراة، بسبب ما حفظوه من كتاب الله، حسبما وصّاهم به أنبياءهم ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أي رقباء يبينون ما يخفى منه للناس ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْكَاسَ﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم، وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهي بطريق الدلالة كما روي عن ابن عباس، أي إذا كان الشأن كما ذكر يا أيها الأحبار، فلا تخشوا الناس كائناً من كان، واقتدوا في مراعاة أحكام التوراة وحفظها بمن قبلكم من النبيين، والربانيين، ولا تحزفوا خشيةً من أحد ﴿وَأَخْشَوْا﴾ في الإخلال بحقوق مراعاتها ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِكَايَتِي﴾ أي لا تستبدلوا بآياتي التي فيها بأن تركوا العمل بها، وتأخذوا لأنفسكم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ كائناً من كان، دون المخاطبين خاصة، فإنهم مندرجون فيه اندراجاً أولياً، ومن لم يحكم بذلك مستهيناً به، منكراً له، كما يقتضيه ما فعلوه من تحريف آيات الله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لاستهانتهم به، وفي الآية أشد تحذير، حيث علّق الحكم بالكفر، بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى، فكيف وقد انضم إليه الحكم بخلافه ١٢.

﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ﴾ أي فرضنا على اليهود ﴿فِيهَا﴾ أي في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالْنَفْسِ﴾ أي تُقَاد بها إذا قتلها بغير حق ﴿وَالْعَيْنَ﴾ تفقأ ﴿بِالْعَيْنِ﴾ إذا فقت بغير حق ﴿وَالْأَنْفَ﴾ يُجْدَع ﴿بِالْأَنْفِ﴾ المقطوع بغير حق ﴿وَالْأَذُنَ﴾ تُقَطَع ﴿بِالْأَذُنِ﴾ المقطوعة ظلماً ﴿وَاللِّسَنَ﴾ تقلع ﴿بِاللِّسَنِ﴾ المقلوعة بغير حق ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي ذات قصاص إذا

كانت بحيث تعرف المساواة مثل الشفتين والدَّكْر، والأنثيين، والقدمين، واليدين وغيرها، وما لا يمكن فيه القصاص من كسر في عظم أو جراحة يخاف منه التلف ففيه حكومة عدل ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين ﴿بِهِ﴾ بالقصاص، أي فمن عفا عنه، والتعير عنه بالتصدُّق، للمبالغة في الترغيب فيه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ يكفر الله به ذنوبه ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ﴾ كائناً من كان ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من شرائع الله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المتعدون لحدود الله تعالى، قال الضحاك: لم يجعل في التوراة دية في النفس، ولا في الجراح، وإنما كان العفو أو القصاص، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١١) ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٢).

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ شروع في بيان أحكام الإنجيل، أي أتبعناهم على آثارهم ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أرسلنا عيسى عقيهم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي مصدقاً لما تقدّمه من التوراة، فإن ذلك من لازم الرسول ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ كما في التوراة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي معترفاً بأحكامها وأنها من عند الله، والتكرير لزيادة التقرير ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تخصيص المتقين بالذكر، لأنهم المنتفعون بهذه الأحكام.

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أمر مبتدأ لهم بأن يعملوا بما فيه، من الأمور والأحكام التي لم تنسخ، التي من جملتها دلائل رسالته ﷺ، وأما أحكامه المنسوخة، فليس الحكم بها حكماً بما أنزل الله تعالى، كما يزعم دعاة النصرانية بما يغالطون به عوام المسلمين ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ منكراً له، ومستهيناً به ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

المتمردون، والخارجون عن الإيمان^(١)، والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام، وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسى عليه السلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي الكتاب الكامل، وهو القرآن الكريم ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي ملتبساً بالحق ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي مصدقاً للكتب السماوية التي سبقتها ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ رقيباً على سائر الكتب، يحفظها عن التغيير ويشهد لها بالصحة ويقرر أصول شرائعها، ومن الغرائب أن البعض من دعاة النصارى، فهم من هيمنة القرآن، الشهادة بحفظ الإنجيل من التحريف، واللفظ لا يدل على هذا، على أن النص شاهد على التحريف ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ أي إذا كان شأن القرآن كما ذكر، فاحكم بين أهل الكتابين ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ إليك فإنه مشتمل على جميع

(١) وصف تعالى من لم يحكم بما أنزل الله بأوصاف ثلاثة: «الكفر، والظلم، والفسق» وهذا غاية في التنبيه على عظم الجريمة، وخطورة الأمر، أن يوصف المعرض عن تحكيم شريعة الله، بأنه كافر، ظالم، فاسق، فيا خيبة حكام العرب والمسلمين!؟

الأحكام الشرعية الباقية في الكتب الإلهية ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغة كما حَرَفُوا من أمر الرجم ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهون، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ لكن المراد به غيره، لأن الاتباع غير متصور فيه ﷺ ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ كلام مستأنف، لحمل أهل الكتاب على الانقياد لحكم القرآن الكريم، والمعنى: لكل أمة منكم، وضعنا شرعة ومنهاجاً خاصين بتلك الأمة، فالأمة التي من مبعث موسى إلى مبعث عيسى شرعتهم بالتوراة، ومن مبعث عيسى إلى مبعث النبي ﷺ شرعتهم الإنجيل، أما أنتم أيها الموجودون في هذا العصر، فشرعتكم القرآن الكريم، فأمنوا به، والشرعة: الشريعة يعني الطريقة، شبه بها الدين، لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية ﴿ومنهاجاً﴾ أي طريقاً واضحاً في الدين، من نهج الأمر إذا وضح.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعة متفقة على دين واحد، في جميع الأعصار، ومفعول المشيئة محذوف أي لو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة لجعلكم، بأن خلقكم على استعداد واحد، وملة واحدة، من غير اختلاف بينكم، في وقت من الأوقات، في شيء من الأحكام الدينية ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يتليكم ﴿فِي مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لأعصارها هل تعملون بها أم لا؟ وبهذا اتضح أن مدار عدم المشيئة ليس مجرد الابتلاء بل العمدة في ذلك من انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتهم معاشاً ومعاداً، كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي فسارعوا إلى ما هو خير لكم في الدارين، من العقائد الحقّة، والأعمال الصالحة المندرجة في القرآن الكريم وابتدروها انتهزاً للفرصة، وحيازة لفضل سبق، فالسابقون السابقون أولئك المقربون ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ فيه وعدٌ ووعدٌ للمبادرين والمقصرين، أي سترجعون إلى الله تعالى وتحشرون إلى دار الجزاء ﴿فَيُنَظِّقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّقُونَ﴾ بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل، بما لا يبقى لكم معه شك فيما كنتم فيه تختلفون في الدنيا.

﴿وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ عطف على الكتاب كأنه قيل: وأنزلنا إليك الكتاب وقلنا احكم أي الأمر بالحكم لأن المنزل الأمر بالحكم لا الحكم ﴿وَاحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن أحبار يهود، قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد ﷺ لعلنا نفتنه عن دينه فقالوا يا محمد: قد عرفت أننا أحبار يهود، وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك!! فأبى ذلك رسول الله ﷺ فنزلت، الآية: ﴿وَاحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾^(١) ثم قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله تعالى، وأرادوا غيره، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّا يَرْبُؤُا اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي بذنب إجرامهم، وإعراضهم، وإنما عبّر عنه بذلك، إيداناً بأن لهم ذنوباً كثيرة، وهذا من جملتها ﴿وَأَنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ متمرّدون في الكفر، معتدون فيه، وفيه تسليّة للنبي ﷺ والمراد من الناس العموم، وقيل اليهود خاصة.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ إنكار وتعجيب من حالهم، وتوبيخ لهم أي يتولون عن حكمك، فيبغون حكم الجاهلية؟ والمراد به متابعة الهوى والمداهنة في الأحكام، وتقديم المفعول للتخصيص، المفيد لتأكيد الإنكار والتعجيب، لأن التولي عن حكمه ﷺ منكر وعجيب، وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ إنكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكمه تعالى، أو مساوٍ له ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ عند قوم يتدبرون الأمور، ويتحققون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون أنه لا أحسن حكماً من حكم الله سبحانه، ومن الجهالة أن نرى ونسمع من بعض المسلمين في هذا العصر، من يقول لا ننكر الدين، ولكننا لا نريد الشريعة، وهؤلاء هم أشد فساداً في دينهم وأخلاقهم، من أولئك الذين نزلت الآية فيهم، فإنهم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي، وانظر تفسير ابن كثير ٧٠/٢.

يرغبون عن حكم الله إلى حكم غيره، لا يعرفون شرائع الله ومحسناته،
فهم ينتقدون كثيراً منها، لعدم موافقتها لأهوائهم، وهم في ضلالٍ مبين!!.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ
بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيمَةً ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ
الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ
فَاصْبِحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خطاب يعم كافة المؤمنين، ووصفهم بعنوان الإيمان
لحملهم على الانزجار عما نهوا عنه ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ أي لا
يتخذ أحد منكم أحداً منهم ولياً ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ﴾ أي بعض كل فريق
منهم أولياء بعض، متفقون على كلمة واحدة، وهي إجماع الكل على
مضارتكم، بحيث ييغونكم الغوائل، فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة^(١)؟
﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾ أي من جملتهم، والآية محمولة على التشديد،
والمبالغة في الزجر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم
بموالاة الكفار، أي لا يهديهم إلى الإيمان، بل يخليهم وشأنهم، فيقعون
في الكفر والضلالة، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم، تنبيهاً على أن
توليهم ظلم، لما أنه تعريض لأنفسهم للعذاب الخالد، والنهي لأفراد

(١) رُوي عن أبي موسى، الأشعري أنه قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن
لي كاتباً نصرانياً، فقال: مالك - قاتلك الله - ألا تتخذُ حنفيّاً؟ أي مسلماً - أما
سمعتُ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾.
قلت: له دينه، ولي كتابته، فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله!! قلت: لا يتم أمر
البصرة إلّا به، فقال: مات النصراني!! - يعني هب أنه مات - فماذا تصنع بعده؟.

المسلمين دون جملتهم، لأنه ليس من أصول الدين، أن لا يحالف ويعاهد من يخالفهم فيه، كيف وقد كان ﷺ حالف يهود المدينة عقيب الهجرة؟ وقد قيّد ابن جرير الولاية بكونها لأجل الدين فهذا هو الممنوع والمحرم.

﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ نفاق كابن أبي وأضرابه، والخطاب للرسول ﷺ أو لمن له أهلية للخطاب، وإنما وضع المظهر ليشير إلى أن ما ارتكبه من التولي، بسبب ما في قلوبهم من مرض النفاق، ورخاوة العقل ﴿يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي في موالاتهم ومعاونتهم^(١) والرؤية بصرية، وإنما قال «فيهم» مبالغة في رغبتهم فيها، وتهالكهم عليها، وللدلالة على أنهم مستقرون في الموالاته ﴿يَقُولُونَ﴾ أي يقول بعضهم لبعض ﴿تَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ الدائرة أصلها ما يحيط بالشيء، والمراد بها هنا مصائب الدهر، ودائرة السوء النوائب تنزل وتهلك جمعها الدوائر، أي يقولون تدور علينا دائرة، بأن ينقلب الأمر، وتكون الدولة للكفار على المسلمين، فنحتاج إليهم، قاله مجاهد وقتادة، وقد ردّ الله عليهم عللهم الباطلة، وبشر المؤمنين بقوله سبحانه ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ الْفَتْحُ﴾ فَإِنَّ «عسى» منه عزّ وجلّ وعدّ محتوم، والمراد بالفتح فتح مكة قاله الكلبي، وقال الضحاك: فتح قرى اليهود، وقال قتادة: هو القضاء بنصره ﷺ على من خالفه، وإعزاز الدين ﴿أَوْ أَمْرَيْنِ عِنْدِي﴾ بقطع شأفة اليهود، من القتل والإجلاء، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين ﴿فَيُصِيبُكَ﴾ أولئك المنافقون المعلنون بما ذكر ﴿عَلَى مَا أَسْرَأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينٌ﴾ على ما أبطنوه من الكفر والشك، في أمر الرسول ﷺ وما أظهروه مما أشعر على نفاقهم، وتعليق الندامة بما يكتُمونه من الموالاته، لما أنه هو الذي كان يحملهم على موالاته الكفرة.

(١) المراد أن المنافقين من أهل المدينة، يسارعون في مودة اليهود، ونصارى نجران، لأنهم كانوا أهل ثروة وغنى، فكانوا يخالطونهم من أجل منافعهم الخسيسة وهذه من علامات أهل النفاق، لأن حبهم للدنيا أعظم من حبهم للدين.

﴿وَقُولِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هذا القول إنما يصدر عن المؤمنين، عند ظهور ندامة المنافقين، والمعنى: ويقول المؤمنون مخاطبين لليهود، مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ﴿أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَمَعَكُمْ﴾؟ أي يقول المؤمنون الصادقون بعضهم لبعض: أهؤلاء أقسموا لليهود إنهم لمعكم، فلما حلّ باليهود ما حلّ، أظهروا، ما يسرونه من الموالاة، ومعنى جهد الأيمان: أغلظها ﴿حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ﴾ هذا من جملة القول، أو من قول الله تعالى، شهادة عليهم بحسبوت أعمالهم، وفيه معنى التعجب، كأنه قيل ما أحبط أعمالهم؟ وما أشقاهم في الدنيا والآخرة ١٩.

﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوا مَن يَّرْتَدَّ مِنكُمۡ عَنۡ دِينِهِۦٓ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوۡمٍ مُّحِبِّهِمْ وَيُحِبُّوۡنَهُۥٓ اٰذِلَّةٍ عَلٰى الْمُؤْمِنِيْنَ اَعَزَّ عَلٰى الْكٰفِرِيْنَ يُجٰهَدُوۡنَ فِيۡ سَبِيْلِ اللّٰهِ وَلَا يَخَافُوۡنَ لَوۡمَةً لَّاۤ يَمُرُّۢ بِذٰلِكَ فَضَلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنۡ يَّشَآءُ وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيۡمٌ ﴿٥٤﴾ اِنَّا وَلِيُّكُمْ اللّٰهُ وَرَسُوْلُهُ وَالَّذِيْنَ ءَامَنُوا الَّذِيْنَ يُقِيۡمُوۡنَ الصَّلٰوةَ وَيُؤْتُوۡنَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ رٰكِعُوۡنَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللّٰهُ وَرَسُوْلَهُ وَالَّذِيْنَ ءَامَنُوا فَاِنَّ حِزۡبَ اللّٰهِ هُمُ الْمُغْلِبُوۡنَ ﴿٥٦﴾ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِيْنَ اتَّخَذُوۡا دِيۡنَكُمۡ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِيۡنَ اٰتَوۡا الْكِتٰبَ مِنۡ قَبْلِكُمۡ وَالْكَفٰرَ اَوْلِيَآءَ وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنۡ كُنۡتُمۡ مُّؤْمِنِيۡنَ ﴿٥٧﴾ وَاِذَا نَادَيْتُمۡ اِلَى الصَّلٰوةِ اَتَّخِذُوۡهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذٰلِكَ بِاَنَّهُمۡ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُوۡنَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوا مَن يَّرْتَدَّ مِنكُمۡ عَنۡ دِينِهِۦٓ﴾ لما نهى الله تعالى عن موالاة اليهود والنصارى، وفصل مصير المنافقين، شرع في بيان حال المرتدين، والمراد من المرتدين، المرتدون عقيدة وعملاً كما نعي الزكاة، روي أنه ارتد عن الإسلام في عهد رسول الله ﷺ بعض الناس، فنزلت الآية تذكر وتحذر ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوۡمٍ مُّحِبِّهِمْ﴾ أي يريد بهم خيري الدنيا والآخرة ﴿وَيُحِبُّوۡنَهُۥٓ﴾ أي يريدون طاعته، ويحترزون عن معاصيه، والمراد بالقوم في

الآية، يعلم كل قوم يوصفون بأوصاف المسلمين، الذين يحبونه تعالى، وينشرون كلمة الله بين الناس، سواء كانوا من العرب أو العجم، ﴿أَذَلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ هو كقوله تعالى: ﴿رَحِمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ أي متواضعون لهم، والذلُّ بالكسر: اللين، ضد الصعوبة واستعماله بعلی لتضمين معنى العطف والخون ﴿أَعَزُّوا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي أشدء متغلبين عليهم كقوله تعالى: ﴿أَشَدَّاءَ عَلَى الْكَافِرِ﴾ أي أنهم جامعون المجاهدة في سبيل الله، وبين التصلب في الدين، وفيه تعريض بالمنافقين، فإنهم كانوا إذا خرجوا في جيش المسلمين، خافوا لوم أوليائهم من اليهود^(١) ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما وُصف به القوم ﴿فَضَّلُ اللَّهِ﴾ لطفه وإحسانه إليهم ﴿يُؤْتِيهِمْ مِّنْ يَّشَاءُ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير القواضل، والألطف ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالغ العلم بجميع الأشياء، فيعطي الفضل والعزة لمن يشاء!

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لما نهى عن موالة الكفرة، ذكر عقيبها من هو حقيق بها، وإنما قال: ﴿وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ ولم يقل أولياؤكم للتنبيه على أن الولاية لله على الأصالة، ولرسوله وللمؤمنين على التبع ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ صفة للذين آمنوا لجريانه مجرى الاسم، أي الذين يحافظون على الصلاة، ويؤدُّون الزكاة لمستحقيها، فهم يؤدُّون حقَّ الله، وحقَّ عباده ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أي خاشعون ومتواضعون لله تعالى في الصلاة، وإيتاء الزكاة، لا يريدون بذلك إلا وجه الله تعالى^(٢).

(١) اللوم: العذل على أمر من الأمور، وإذا كان الفعل مذموماً يقال لفاعله: لم فعلت هذا الفعل القبيح، فهذا هو اللوم، وقد يلام الإنسان على فعل حسن محبوب، قال الشاعر:

وإذا الفتى عرف الرشاد لنفسه هانت عليه ملامة العذال
(٢) ظن بعضهم أن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أنهم يؤدُّون الزكاة في حال ركوعهم، حتى زعم بعضهم أن علي بن أبي طالب تصدَّق وهو راكع، وهذا خطأ =

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ومن يتخذهم أولياء ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الحزب، الطائفة من الناس جعلوا حزب الله تعظيماً لهم، كأنه قيل: ومن يتولهم فإنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية النهي العام عن موالاة جميع الكفار، ونبه على العلة، بأن من هذا شأنه، جمع بالمعاداة، فكيف بالموالاة؟ ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ التعرض لعنوان إتياء الكتاب، لبيان شناعتهم، لما أن إتياء الكتاب وازع لهم عن الاستهزاء بالدين، المؤسس على الكتاب المصدق لكتابهم ﴿وَالْكَافَرِ﴾ أي المشركين لتضاعف كفرهم ﴿أُولَئِكَ﴾ في العون والنصرة ﴿وَأَقْفُوا اللَّهَ﴾ في ذلك بترك موالاتهم، أو بترك المناهي على الإطلاق، فيدخل فيه ترك الموالاة ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حقاً فإن قضية الإيمان توجب الاتقاء لا محالة.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا﴾ أي الصلاة، أو المناداة، وفيه دليل على أن الأذان مشروع للصلاة بالنص، لا بالتمام وحده، وتمام «عبد الله بن زيد» كان أول ما قدم ﷺ المدينة، وسورة المائدة من آخر القرآن نزولاً، حيث ورد بعد ثبوته، فيكون النص تقريراً له ﴿هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ روى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس، أنه قال: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى بالصلاة، فقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا، لا قاموا، فإذا رأوهم ركعاً وسُجّداً، استهزؤوا بهم، وضحكوا منهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق، والهزؤ به، والعقل يمنع منه، ولو كان لهم عقلٌ لما اجتروا على تلك العظيمة، وسمى تعالى الأذان مناداةً، لقول المؤذن فيه: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح.

= وفهم غريب لمعنى الآية، وإنما المراد أنهم خاشعون متواضعون لعظمة الله جلّ وعلا، وانظر ما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧٤/٢ في الردّ على من زعم ذلك.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَن ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْثَرُكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ ٱلَّذِينَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءَ وَكُم مِّنْهُم قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِٱلْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بأن يخاطبهم، ويبين أنَّ الدين منزلة عما صدر عنهم من الاستهزاء، أي قل لأولئك الفجرة ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ نعم الأمر كرهه، أي هل تنكرون وتعيبون منا ﴿إِلَّآ أَن ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن المجيد ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ من التوراة والإنجيل المنزلين عليكم، وسائر الكتب الإلهية ﴿وَأَن أَكْثَرُكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي متمردون خارجون عن دائرة الإيمان، فإن الكفر بالقرآن العظيم، مستلزم للكفر بسائر الكتب الإلهية، ومعنى الآية: ما تنقمون منا ديننا لعلنا من العلل، إلَّا لإيماننا بالله تعالى، وما أنزل إلينا وما أنزل من قبلنا، ولأن أكثركم متمردون غير مؤمنين بشيء مما ذكر، وقيل: ﴿أكثركم﴾ لإخراج المؤمنين منهم، فإن منهم من قد آمن، وحسن إيمانه.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكَ﴾ لما أمر ﷺ بالزامهم، ببيان أن مدار نقيمتهم على الدين أولاً، هو اشتماله على كفرهم، أمر عقيبه بأن يوبخهم ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب، ما هم عليه من الدين المحرّف، أي هل أخبركم بما هو شرُّ في الحقيقة مما تعتقدونه شراً؟ هو أنتم المفسدون المكذبون لرسول الله، عن ابن عباس قال: أتى النبي ﷺ نفرٌ من اليهود، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، قال: أومن بالله ﴿وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى...﴾ إلى قوله تعالى - ونحن له مسلمون ﴿فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا لا نؤمن بعيسى، ولا بمن آمن به، ثم قالوا: لا نعلم ديناً شراً من

دينكم، فأنزل الله الآية^(١) ﴿مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي جزاء ثابتاً في حكمه تعالى، والمثوبة مختصة بالخير، كالعقوبة مختصة بالشر، فوضعت ههنا موضعها على طريقة التهكم، كقول الشاعر: «تحية بينهم ضرب وجيع» ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِمَ عَلَيْهِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، بتقدير مضاف، أي هو دين من لعنه الله ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير، وهم اليهود أبعدهم الله من رحمته بكفرهم، وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، قال ابن عباس: إن المسخين بالقردة والخنازير، كانا في أصحاب السبت، مُسخت شبانهم قردة، وشيوخهم خنازير ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ عطف على صلة «مَنْ» كأنه قيل: ومن عبد الطاغوت ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الموصوفون بتلك الفضائح ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ أي شرٌّ مصيراً ومآلاً في الآخرة، لأن مكانهم الجحيم، ولا مكان أشر منه ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي وأكثر ضلالاً وبعداً عن الطريق المستقيم، وفيه دلالة على أن دينهم شرٌّ محض، بعيد عن الحق، فمن هذا حاله، كيف يتجاسر على الاستهزاء بدين الإسلام ولكنهم اليهود اللعناء، لا يتورعون عن كل جريمة.؟

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ قال قتادة: نزلت في ناس من اليهود، كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ ويظهرون له الإيمان نفاقاً، وقيل: هم عامة المنافقين ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أي يخرجون من عندك كما دخلوا، لا يؤثر فيهم ما سمعوا منك وكلمة «هم» للتأكيد في إضافة الكفر إليهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي من الكفر، وفيه وعيد لهم، وإنما لم يقل سبحانه «وقد خرجوا» إفادة لتأكيد الكفر، دون لفظ الخروج، لأنه خلاف الظاهر، إذ كان الظاهر بعد تنور أبصارهم، برؤية مطلع شمس الرسالة، وتشنف أسماعهم بلآلئ درر النبوة، أن يرجعوا عما هم عليه من الغواية، فلما سمعوا قول النبي ﷺ وأنكروه، ازداد كفرهم وضلالهم.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ٤٥٢/١٠.

﴿ وَرَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿ وَرَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ ﴾ أي من أولئك اليهود، والخطاب لسيد الرسل ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب ﴿ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ ﴾ المراد بالإثم الكذب ﴿ وَالْعُدْوَانِ ﴾ الظلم ومجاوزة الحد في الطغيان، والكلام مسوق لوصفهم بسوء الأعمال، بعد وصفهم بسوء الاعتقاد ﴿ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ ﴾ أي الحرام مطلقاً، وقال الحسن: الرشوة في الحكم، خصه بالذكر مع اندراجه في الإثم، للمبالغة في التقييح ﴿ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي لبس شيئاً يعملونه من تلك الأفعال الشنيعة.

﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ «لولا» هنا للتحضيض أي الحث على فعل الشيء المحبوب فهي بمعنى «هلاً» أي هلاً يزجرهم علماءهم وأحبارهم ﴿ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ ﴾ أي عن فعل المعاصي والآثام، وأكلهم المال الحرام؟ قال أبو حيان في تفسيره البحر المحيط: هذا التحضيض يتضمن توبيخهم على السكوت وترك النهي ﴿ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ وهذا أبلغ مما تقدم من الفعل والعمل، لما تقرّر في اللغة، أن الفعل ما صدر عن الإنسان مطلقاً، فإن كان عن قصد سُمي عملاً، ثم إن حصل بمزاولة وتكرر، حتى رسخ وصار ملكة له، سُمي صنعة وصنعة، فلذا كان الصنع أبلغ، لانتضائه الرسوخ، ففي الآية إشارة إلى أن ترك النهي أقبح من الارتكاب.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قال ابن عباس: إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود، حتى كانوا من أكثر الناس مالاً، فلما عصوا الله سبحانه، وكفروا برسول الله ﷺ، كف عنهم ما بسط عليهم، فعند ذلك قال: «فنحاص بن عازواء» يد الله مغلولة، وحيث لم ينكر الآخرون نسبت إلى الكل، وأرادوا بذلك لعنهم الله تعالى، أنه ممسكٌ فإن كلاً من غلُّ اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾^(٢) وهذا من أشنع جرائم اليهود، حيث اتهموا الله بالبخل لعنهم الله ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم، والفقر والنكد، وما زالوا أبخل الأمم، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئاً سيراً، إلا إذا كان يرى أن له من ورائه ربحاً كبيراً، أو يُراد بغلُّ الأيدي حقيقة، يُغلون أسارى في الدنيا، ويقيدون بالسلاسل إلى النار في الآخرة ﴿وَلَعْنُوا﴾ أي أبعدوا عن رحمة الله تعالى ﴿يَمَّا قَالُوا﴾ أي بسبب ما قالوا ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ عطف على مقدر، أي كلا ليس كذلك، بل هو في غاية ما يكون من الجود والسخاء ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي هو مختار في إنفاقه، يوسع تارة، ويضيق أخرى، على حسب مشيئته، ومقتضى حكمته، وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي، أن يضيق عليهم، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ الآية ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من اليهود، وهم علماؤهم ورؤساؤهم، أو المقيمون على الكفر منهم مطلقاً ﴿مَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿مِنْ رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي يزدادون طغياناً وكفراً مما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح، والزيادة من حيث الكم والكثرة،

(١) العرب تقول: فلان مغلول اليد إذا كان بخيلاً لا يتفق، وفلان يده مبسوطة إذا كان سخياً كريماً، فالآية كناية عن البخل والجود، والقرآن نزل بأساليب العرب المعروفة عندهم التي يتخاطبون بها.
(٢) سورة الإسراء، آية: ٢٩.

إذ كلما نزلت آية كفروا بها، فيزداد طغيانهم وكفرهم ﴿وَالْفِتْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ﴾ أي بين اليهود، وقيل: بين اليهود والنصارى، لأنه قد جرى ذكرهم في قوله سبحانه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى﴾ ولشمول قوله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ للفريقين ﴿وَالْبَعْضَةَ﴾ فلا تتوافق قلوبهم، ولا تتطابق آراؤهم، قال أبو حيان: لا يزال اليهود والنصارى متعادين، وفي ذلك إخبار بالغيب، فإنه لم يجتمع لحرب المسلمين جيش يهود ونصارى، منذ سلَّ الإسلامُ السيف ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فلا تتوافق قلوبهم ﴿كُلَّمَا أَقْدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أي كلما أرادوا محاربة الرسول ﷺ، ورتبوا مباديها، ردَّهم الله تعالى بفرق آرائهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، بإيقاد النار كناية عن إرادة الحرب، وقد كانت العرب إذا تواعدت للقتال جعلوا علامتهم إيقاد نار على جبل أو ربوة، ويسمونها نار الحرب، والمراد من إيقاد النار، إظهار الكيد بالمؤمنين، وإطفائها صرف ذلك عن المؤمنين، وقيل هو أعم من ذلك، أي كلما أرادوا حرب أحد غلبوا، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة، سلَّط الله عليهم يختنصر المجوسي، ثم أفسدوا فسلَّط عليهم قطرس الرومي، ثم أفسدوا فسلَّط عليهم الفرس، ثم أفسدوا فسلَّط الله عليهم المسلمين ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يسعون سعي فساد، فيما يأتونه من إيقاد الحرب، وتهيج الفتن، ولم يكن سعيهم للإصلاح والشؤون الاجتماعية، بل كانوا يسعون للفساد بين الناس، كانوا يحرضون المشركين على الرسول ﷺ، فكانوا سبباً للغزوات الكثيرة، كما أنهم يغرون الدول بعضهم على بعض في هذا الزمان، نعوذ بالله من شرورهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون!! ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يبغضهم، ولذلك أطفأ الله نائرة فسادهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَا دَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِمَّنْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْمِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا﴾ أي اليهود والنصارى والمراد بهم معاصرو رسول الله ﷺ أي لو أنهم - مع ما صدر عنهم من فنون الجنيات - آمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به ﴿وَاتَّقُوا﴾ أي ما حَرَّمَ الله تعالى ﴿لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي افترفوها وإن كانت في غاية العظم ﴿وَلَا دَخَلْنَاهُمْ﴾ مع ذلك ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ تكفير السيئات في مقابلة الإيمان، وإدخال الجنة في مقابلة التقوى، وتكرير اللام لتأكيد الوعد، وفيه تنبيه على عظم معاصيهم، وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يَجُبُّ^(١) ما قبله.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ بمراعاة ما فيها من الأحكام، التي من جملتها شواهد النبوة ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من القرآن الكريم، وإيراده بهذا العنوان، للإيذان بوجوب إيمانهم به لنزوله عليهم أيضاً، لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب، وفي إضافة الرب إلى ضميرهم، مزيد لطفٍ بهم في الدعوة إلى الإقامة ﴿لَا تَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ وَمِنْ حَتَّىٰ أَرْجُلُهُمْ﴾ أي لأوسع الله عليهم أرزاقهم، بأن يفيض عليهم بركات السماء والأرض، وفي هاتين الشرطيتين من حثهم على الإيمان والتقوى، لنيل سعادة الدارين، وتنبيههم على أن ما أصابهم من الضنك والضييق، إنما هو من جنایاتهم، لا لقصورٍ في فيض الفياض جل وعلا، ودلت الآية على أن الإيمان والتقوى، سببٌ لسعة الرزق، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي عادلة، غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي وكثير منهم أشرار فجار لتحريفهم الحق، والإعراض عنه، وهم الأجلاف المتعصبون.

(١) في اللغة جَبَّ يَجُبُّ جَبًّا وَجَبًا أي يقطع، فالإسلام يقطع ويهدم ما قبله من الكفر والذنوب، وانظر المعجم الوسيط مادة جيب.

(٢) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧) قُلْ يَتَاهِلُ الْكِتَابُ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالتَّصْرِي مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ﴾ نداء تشریف ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى الثقلين كافة، بلغهم جميع ما أنزل إليك من الأحكام، وما يتعلق بها كائناً ما كان ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ أي مالك أمورك ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ ما أمرت به من التبليغ كافة ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي فما بلغت شيئاً من رسالته، لأن كتمان بعضها يضيع ما أَدَّى منها، كترك بعض أركان الصلاة، واستدل بالآية على أنه ﷺ لم يكتم شيئاً من الوحي، وأما ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: «حفظتُ من رسول الله ﷺ وعائين: فأما أحدهما فبشئته، وأما الآخر فلو بشئته قُطِعَ مني هذا البلعوم»^(١) أي مجرى الطعام، فإنما هو في غير الأحكام الشرعية، كأمور المنافقين وأسمائهم، وبعض الأمور الغيبية التي لو كشفها لَجَزَّتْ إلى فتنه، وجميع ما عند النبي ﷺ من الأسرار الإلهية، والأحكام الشرعية، قد اشتمل عليه القرآن الكريم، قال الله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وقال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وفي الحديث الشريف: «أما إنها ستكون فتنه، قيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ٢١٦/١ قال البخاري: البلعوم مجرى الطعام.

بينكم...»^(١) الحديث. ومن زعم أن هناك أسراراً خارجة عن كتاب الله تعالى فقد أعظم الفرية، وجاء بالضلال بلا مرية، وزعمت الشيعة أن في الآية: ﴿مِمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ خلافة علي فقد رَوَوْا بأسانيدهم عن أبي جعفر أن الله تعالى أوحى إلى نبيه ﷺ أن يستخلف علياً، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه، فأنزل الله هذه الآية، ومن وقف على ما يرويه الشيعة فيها، وكان له أدنى خبرة، رأى العجب العُجاب، وتحقق أن أقوال القوم كصير باب، أو كطين ذباب، ومما يبعد دعوى الشيعة قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فإن الناس فيه يراد بهم الكفار، بدليل ختم الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فإنه في موضع التعليل لعصمته ﷺ. روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يحرس ليلاً، حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رأسه من القبة فقال: يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله تعالى»^(٢).

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ﴾ مخاطباً للفريقين: اليهود، والنصارى ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي دين يُعتدُّ به، ويليق بأن يُسمَّى شيئاً، وفي هذا التعبير من التحقير ما لا غاية وراءه ﴿حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي تراعهما وتحافظوا على ما فيهما من الأمور، التي من جملتها دلائل رسول الله ﷺ وأما مراعاة أحكامهما المنسوخة، فليست مرادة، لانتهاء وقت العمل بهما بنسخهما ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي القرآن المجيد، بالإيمان به، فإن إقامة الجميع لا تتأتى بغير ذلك، وفي هذا بيان بأن أهل الكتاب لم يقيموا دين الله تعالى، لا وسائله، ولا مقاصده على الوجه الذي كان عليه سلفهم قبل مجيء خاتم الأنبياء ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي وليزيدن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد الكثير منهم الغلو.

(١) أخرجه الترمذي في فضل القرآن رقم ٢٩٠٨ وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٤٦٢/٨.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٤٦.

في التكذيب، والإصرار على جحود نبوتك ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي فلا تحزن لطغيانهم، فإن غائلته عائدة عليهم، ووضع المظهر موضع المضممر، لتسجيل الكفر عليهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّابِقَاتُ مِنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي من آمن من هؤلاء
المذكورين، إيماناً صادقاً خالصاً، لا يشوبه شك ولا ارتياب بالله واليوم
الآخر، وعمل لآخرته، فإنه ينال جزاءه بدخول الجنة، من غير أن يصيبه
خوف ولا فرع.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمَا
جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٧﴾
وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا
وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لَكُمْ دِينًا يُقْبَلُ
وَرَبِّكُمْ إِنَّكُمْ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا النَّارَ وَمَا لِلظَّالِمِينَ
أَنْصَارٌ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بيان لبعض آخر من
جناياتهم ﴿وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ذوي عدد كثير، ليبينوا لهم أمر دينهم
ويتعهدوهم بالعظة والتذكير ﴿كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ أي
بما لا تحبه أنفسهم، ولا تميل إليه من الشرائع، ومشاق التكليف، عصوه
﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لأنهم كانوا يعتقدون أن النسخ ممتنع على
شرع موسى، والواجب عليهم في كل رسول جاء بشرع آخر تكذيبه وقتله،
فلذلك كذبوا بعضهم، وقتلوا بعضهم، وإنما أوتر صيغة المضارع،
لاستحضار صورتها الهائلة للتعجيب، وللتنبية على أن ذلك ديدنهم المستمر.

﴿وَحَسِبُوا أَنَّا لَنَكُونُ فَتْنَةً﴾ أي حسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب، بقتل الأنبياء عليهم السلام وتكذيبهم ﴿فَعَمُوا﴾ أي تهادوا في فنون الغي والفساد، وعموا عن الدين، بعدما هداهم الرسل، وبيّنوا لهم مناهجه ﴿وَصَكُّوا﴾ عن استماع الحق الذي ألقوه إليهم ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد، بعدما كانوا ببابل دهرأ طويلاً، تحت قهر بختنصر، أسارى في غاية الذل والمهانة، فوجه الله ملكاً من ملوك فارس إلى بيت المقدس فعمره، وردّ من بقي من بني إسرائيل إلى وطنهم، فاستقروا وكثروا، وكانوا كأحسن ما كانوا عليه من الحال، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَكُّوا﴾ وهو إشارة إلى المرة الآخرة، من مرّتي إفسادهم، وذلك في سلسلة جرائمهم الشنيعة المتلاحقة، فقد أوغلوا في الضلال، واجتروا على قتل زكريا، ويحيى، ثم قصدوا قتل عيسى ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ أي كثيرون منهم ضالون، وإنما قال سبحانه: ﴿كثير منهم﴾ لأن بعضاً منهم لم يكونوا كذلك ﴿وَاللَّهُ بِصِيرِيكُمْ أَصْلَحُونَ﴾ بما عملوا، وهذا وعيد لهم وتهديد.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ شروع في تفصيل قبائح النصارى، وهم فرقة تسمى الملكانية يقولون: إن الله اسمٌ يجمع أمأ، وابناً، وروح القدس، فصار كلهم إلهاً واحداً، فعيسى هو الله، واليعقوبية منهم يقولون: إن الله سبحانه حلّ في ذات عيسى، واتحد بذاته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾ أي وقد قال المسيح مخاطباً لهم ﴿يَنْبَغِي لِمَنْ يُعْبَدُ اللَّهُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي إني عبدٌ مربوب مثلكم، فاعبدوا خالقي وخالقكم، ولا يزال أمره هذا محفوظاً عندهم ﴿إِنَّكُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي شيئاً من عبادته سبحانه كنسبة علم الغيب وإحياء الموتى بالذات إلى عيسى ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ لأنها دار الموحّدين ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾

(١) سورة الإسراء، آية: ٧.

فإنها معدة للمشركين ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي ما لهم من أحد ينصرهم، بإنقاذهم من النار.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣) ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٤) ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥) ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦) ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ معنى قولهم: ﴿ثالث ثلاثة﴾ أي أحد هذه الأعداد، لا الثالث خاصة، فإنهم يقولون: إن الإلهية مشتركة بين الله سبحانه، وعيسى، ومريم، ويؤكد قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ (١) وهو المتبادر من قوله تعالى ﴿وَمِمَّا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي وما في الوجود ذات واجب مستحق للعبادة إلا إله موصوف بالوحدانية، مستحق للعبادة، متعال عن قبول الشراكة، ولا ترى أظهر بطلاناً من مقالة النصارى، فإن الثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة آلهة، بوجه من الوجوه، وهل يجوز أن يتحد موجودان، بحيث لا يبقى بينهما الإثنية؟ هذا شيء

(١) سورة المائدة، آية: ١١٦.

مستحيل، ممتنع بالشرع والعقل^(١) ﴿وَأِنْ لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي إن لم يرجعوا عما هم عليه إلى التوحيد والإيمان ﴿لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي بالله ليمس الذين بقوا منهم على الكفر ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي نوع شديد الألم من العذاب.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾؟ الاستفهام للإنكار الواقع واستبعاده، وتعجيب من إصرارهم على الكفر، أي ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة، فلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه عما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول؟ ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا، وهي مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ استئناف مسوق لتحقيق الحق، وبيان حقيقة حاله، وحال أمه عليه السلام، أي ليس المسيح ابن مريم إلا رسول كسائر الرسل قبله، وليس فيه من صفات الألوهية شيء ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي ما هو إلا رسول كالرسل قبله، خصه الله بآيات، كما خصهم بها، فإن أحياء الموتى على يده فقد أحياء العصا في يد موسى، وإن خلقه من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب وأم، وكل ذلك من جنابه عز وجل، وإنما موسى وعيسى مظاهر لشؤونه وأفعاله تعالى، فأين لكم وصفه بالألوهية؟ ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي وما أمه أيضاً، إلا كسائر النساء، اللواتي لازمن الصديق، فكانت عفيفة أمينة شريفة، وليست زوجة لله كما يزعم النصارى، واستدل بالآية من ذهب إلى عدم نبوة مريم، لأنه تعالى أشار

(١) الأقسام الثلاثة «الآب، الابن، روح القدس» على زعم النصارى وهي مختلفة كل الاختلاف، فالآب غير الابن، والابن غير روح القدس، فكيف تكون الثلاثة واحداً؟ وإذا قلنا: هذه طاولة، وهذا كرسي، وهذا سرير، فهل يقبل عاقل أن تقول له: إن هذه الثلاثة واحد؟ هل هي ثلاث كراسي؟ هل هي ثلاث طاولات؟ لا، هل هي ثلاثة أسرة؟ لا، كيف تكون إذاً الثلاثة واحداً؟ ولذلك يقولون: لا يجتمع عقل ونصرانية، إذ كيف يكون الآب والابن وروح القدس ثلاثتها واحداً؟

في معرض بيان أشرف خصائصها «الصدقية» ولو كان لها مرتبة «النبوة» لذكرها ﴿كَأَنَّا يَاقِلَانِ الطَّعَامُ﴾ أي كان عيسى وأمه كسائر البشر، يأكلان الطعام، ويحدثان الحدث، فكيف يكونان إلهين؟^(١) ثم عَجَبَ تعالى ممن يدعي الربوبية لهما، مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة فقال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُنِيتُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي انظر كيف نبين لهم الآيات الباهرة ببطلان ما يقولون عليهما ﴿ثُمَّ أَنْظُرْ أَفْ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يُصرفون عن الحق، وثم لتفاوت ما بين العَجَبَيْنِ، أي أن بياننا عَجَبٌ، وإعراضهم عنها أعجبٌ، والإفك: الكذب، وأصله الصرف والقلب، ويقال للكذب إفك، لأنه صرفٌ عن الحق، قيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا؟﴾ أي أتعبدون من دون الله من لا يقدر لكم على النفع والضرر؟ يعني عيسى عليه السلام، فإنه عاجز عن دفع الضر عن نفسه فضلاً عن غيره؟ فلا يملك مثل ما يفعل الله تعالى بالخلق، من البلايا والمصائب، وما ينفع به من الصحة والسعة، وقيل: المراد بـ «ما» كل ما يعبد من دون الله، كالأصنام وغيرها، غلب ما لا يعقل على ما يعقل ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي سميع لأقوالكم، عليم بضمائرکم، وهو متضمن للوعيد لمن عبد غير الله تعالى.

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى فريقَي أهل الكتاب، بعد إبطال مسلك كل منهما، للمبالغة في زجرهم عما سلكوه واختار الطبري كونه خطاباً للنصارى خاصة، لأن الكلام معهم ﴿لَا تَقْلُوبُوا فِي دِينِكُمْ﴾ غلا في الدين غلواً تصلباً وشدداً حتى جاوز الحد، أي لا تجاوزوا الحد وهو نهى للنصارى عن رفع عيسى عليه السلام عن رتبة

(١) في الآية الكريمة إشارة بارعة رائعة إلى بطلان ألوهية عيسى، فإن من يأكل الطعام، ويشرب الشراب، يحتاج إلى التغوط والتبول، وإخراج الفضلات من بطنه، فكيف يكون عيسى إلهاً، وهو يأكل ويشرب، ويحدث الحدث، ثم هو قد خرج من فرج امرأة؟ أليس هذا كافياً على بطلان دعوى الألوهية؟

الرسالة إلى ما يقولون، إنه إله، وللإهود عن وضعهم له عن الرتبة العلية، إلى ما يقولون إنه ابن زنى ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي لا تغلوا غلوّاً باطلاً، وذكرهم بعنوان: «أهل الكتاب» للإيماء إلى أن كتابهم ينهاهم عن الغلو في دينهم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم، الذين ضلُّوا قبل مبعث الرسول ﷺ ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي أناساً كثيرين ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم، أو إضلالاً كثيراً ﴿وَضَلُّوا﴾ عند بعثة النبي ﷺ ووضوح محجة الحق ﴿عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام، بعد مبعثه ﷺ كذبوه وبغوا عليه.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا أَتَوْا بِهَذَا بَغْيًا وَلَئِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لعن الله عز وجل، وبناء الفعل للمفعول، للجري على سنن الكبرياء ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله في الزبور، والإنجيل على لسانهما ﴿ذَلِكَ﴾ أي اللعن المذكور، والطرء من رحمة الله ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ بسبب عصيانهم ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وبسبب اعتدائهم المستمر.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ مؤذن باستمرار الاعتداء منهم، وعدم التناهي عن تعاطي المنكرات، أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر والمراد بالمنكر، قيل صيد السمك يوم السبت، وقيل أخذ الرشوة،

وقيل: أكل الربا، والأولى العموم، وهو أن يراد به نوع المنكر ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تقييح لسوء أعمالهم، وتعجيب منه بالتأكيد القسمي، أي لبس شيئاً فعلوه في الدنيا، وفي هذه الآية زجر شديد، لمن يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقد روى حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله تعالى أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم تدعونهم فلا يستجيب لكم»^(١). والأحاديث في هذا الباب كثيرة، فيا حسرة على المسلمين، في إعراضهم عن هذا الواجب الكبير.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب ككعب بن أشرف وأضرابه ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد من ﴿الذين كفروا﴾ مشركو مكة، روي أن جماعة من اليهود، خرجوا إلى مكة، ليتفقوا مع مشركيها على محاربة النبي ﷺ والمؤمنين، فلم يتم لهم ذلك ﴿لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي لبس شيئاً قدّموه ليردوا عليه يوم القيامة ﴿أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هو المخصوص بالذم، أي موجب سخط الله وغضبه عليهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ﴾ عذاب جهنم ﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾ أبد الأبدين أي لبس ذلك لأنه أكسبهم السخط والخلود.

﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي الذين يتولون المشركين من أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله تعالى إيماناً صحيحاً وبنبينا ﷺ وبالقرآن الكريم ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أي ما اتخذوا المشركين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ فإن الإيمان الصادق وازعج عن توليهم قطعاً ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون من دينهم، متمردون في نفاقهم.

(١) أخرجه الترمذي في الفتن رقم ٢١٧٠ ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم» وانظر مجمع الزوائد ٢٦٦/٧.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾
 وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا قَيْسِيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٧﴾
 ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِعَافِرُوهَا مِنْ
 الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا
 جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٩﴾ فَأَنْبِئْهُمْ أَنَّ اللَّهَ
 بِمَا قَالُوا خَبِيرٌ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
 الْجَحِيمِ ﴿٩١﴾

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الخطاب
 للرسول ﷺ أو لكل أحد، يخبر أن اليهود أشد الناس عداوة للمسلمين،
 لتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى وركونهم إلى التقليد،
 وتكذيبهم لأنبياء الله ومعاداتهم، وقد قيل: إن من مذهب اليهود، أنه
 يجب عليهم إيصال الشر، إلى من يخالفهم في الدين، بأي طريق كان،
 وفي تقديم اليهود على المشركين، إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة،
 فالوثنيون واليهود أشد الطوائف عداوة للمؤمنين ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم
 مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ﴾ المراد منهم - ما روي عن ابن
 عباس -: النجاشي وأصحابه ﴿ذَلِكَ﴾ أي كونهم أقرب مودة للذين
 آمنوا، للين جانبهم، ورقة قلوبهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا قَيْسِيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا
 يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، ولا يتكبرون كاليهود، والقيس
 صيغة مبالغة من تقسس الشيء إذا تتبعه، سموا بذلك لمبالغتهم في تتبع
 العلم، والرهبان جمع راهب وهو العابد، وأصله من الرهبة أي الخوف،
 والتكثير في «رهباناً» لإفادة الكثرة، وفي الآية دليل على أن التواضع،

والإقبال على العلم، والإعراض عن الشهوات، محمودة أينما كانت، لا سيما ممن ينتسب إلى العلم والدين!

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وهذا بيان لرقة قلوبهم، وشدة خشيتهم، والفيض: أن يمتلئ الإناء ويسيل من شدة الامتلاء، جُعِلَتْ أَعْيُنُهُمْ من قَرَطِ البكاء، كأنها تفيض أنفسها، قال ابن عباس يريد النجاشي وأصحابه، قال لجعفر بن أبي طالب: هل في كتابكم ذكر لمريم؟ قال: فيه سورة مريم، فقرأها، فبكى النجاشي وأصحابه، والمراد بالنصارى «نصارى الحبشة» الذين سمعوا القرآن فبكوا وآمنوا، لا النصارى عامة، بدليل قوله بعده ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مع الشاهدين﴾ وليس كل النصارى كذلك^(١) ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي وذلك من أجل ما عرفوه من الحق، الذي بيّنه لهم القرآن الكريم ﴿يَقُولُونَ﴾ كأنه قيل ماذا يقولون؟ فأجيب بقوله ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ أي صدّقنا بنبيك وبكتابك ﴿فَاكْتُبْنَا مع الشَّاهِدِينَ﴾ أي من الذين شهدوا بأن الإسلام حق، أو من الشاهدين من أمته، الذين هم شهداء الله على الأمم يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا شهداء على الناس﴾.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ هذا من تنمة قولهم، قالوه تحقيقاً لإيمانهم، ومعنى الإيمان بالله: الإيمان بوحْدانيته سبحانه، على الوجه الذي جاءت به الشريعة المحمدية ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني القرآن الكريم ﴿وَنَطْمَعُ﴾

(١) هذا هو الحق وهو الصحيح، أن الآية نزلت في نصارى الحبشة - زمن النجاشي - فإنهم لما سمعوا القرآن، بكوا حتى اخضلت لحاهم بالدموع، وأعلنوا إيمانهم هم والنجاشي، بالقرآن والرسول، بدليل قوله تعالى بعده ﴿تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ يقولون ربنا آمنا فاكْتُبْنَا مع الشَّاهِدِينَ، وليست في النصارى عامة كما نرى من حال الصرب المجرمين، فالنصارى إخوة اليهود في المكر والخبث والعداء، فتنبه رعاك الله

ونحن نطمع ﴿أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ أي ونحن نطمع في صحبة الصالحين في الجنة.

﴿فَأَنْبَهُهُ اللَّهُ﴾ أي فجزاهم الله تعالى ﴿بِمَا قَالُوا﴾ أي بقولهم الذي عبّروا عنه عن الإيمان وإخلاصهم ﴿جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا النظر والعمل، واعتادوا الإحسان في الأمور كلها من أهل الإيمان، أقيم الظاهر مقام ضميرهم مدحاً لهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ بيان لحال المكذبين، وذكرهم في معرض المصدقين بها جمعاً بين الترغيب والترهيب، وبغيرها تبيين الأشياء.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنشَأَ بِهِ ءَإِمْثُوتَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ ۖ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ءَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ما طاب ولذ منه، أي لا تمنعوها أنفسكم وتحرموا الطيبات بنحو يمين، روي أن رسول الله ﷺ جلس يوماً، فذكر الناس، ووصف القيامة، واجتمع عشرة من الصحابة في بيت «عثمان بن مظعون» واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآية، فقال لهم الرسول ﷺ: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي

وأرقد، وأنزج النساء، فمن رغب عن ستي فليس مني^(١) أي ليس من المتقين، فلا ينافي هذا النهي أن الله تعالى مدح النصارى بالرهبانية، فرب ممدوح بالنسبة إلى قوم، مذموم بالنسبة إلى آخرين، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ تأكيد للنهي السابق، والاعتداء يكون كذلك، بتجاوز الحلال إلى الحرام، أو بالإسراف في تناول الطيبات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في موضع التعليل لما قبله، أي يبغضهم ويمقتهم لتجاوزهم حدود الله.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي وكلوا مما أحل الله لكم وطاب مما رزقكم الله، والآية دليل على شمول الرزق للحلال والحرام، إذ لو لم يقع الرزق على الحرام، لم يكن لذكر الحلال فائدة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الإيمان به تعالى، يوجب المبالغة في التقوى، والانتهاز عما نهى عنه، وأكل اللذائذ لا ينافي التقوى، فقد أكل النبي ﷺ ثريد اللحم، ومدحه، وكان يحب الحلوى.

﴿لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِئْتِمِنَكُمْ﴾ عن ابن عباس أنه قال لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتٍ...﴾ الآية في القوم الذين حرّموا على أنفسهم اللحم، والنساء، قالوا يا رسول الله: كيف نصنع بأيماننا؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٢) ﴿وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي بما عقدتموه ووثقتموه بالقصد والنية، إذا حنّتم فيه، وحذف للعلم به ﴿فَكَفَّرْنَاهُ﴾ فكفارة نكته، التي من شأنها أن تكفر الخطيئة، واستدل بظاهره على جواز التكفير قبل الحنث، وعندنا لا يجوز لقوله ﷺ: «إذا حلفت على يمين،

(١) أصل الحديث في الصحيحين من رواية أنس بن مالك. ولفظ الحديث كما في رواية البخاري «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، قالوا: فأين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه!!» الحديث.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان ٥١٤/١٠.

ورأيت غيرها خيراً، فأت الذي هو خير، ثم ليكفر عن يمينه»^(١) ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ أي فكفارته أن يطعم الحانث عشرة مساكين ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي من أقصده في النوع والمقدار، وهو لكل مسكين عندنا نصف صاع من بر، أو صاع من شعير، وعن ابن عمر أن الأوسط الخبز والتمر، والخبز والزيت، والخبز والسمن، والأفضل الخبز واللحم ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ وهو ثوب يستر عامة بدنه، فلم يُجْزِ السراويل فقط ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبٍ﴾ أي إعتاق إنسان كيفما كان، مؤمنة كانت أو كافرة لإطلاق النص، وشرط الشافعي الإيمان حملاً للمطلق على المقيّد، ومعنى «أو» التخيير في إيجاب إحدى الكفارات الثلاث، وتفاوتها قدراً وثواباً، لا ينافي التخيير المفوض، وبدأ سبحانه بالإطعام تسهياً على العباد ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ شيئاً من الأمور المذكورة ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ متتابعة، واعتبر عدم الوجدان وقت الأداء، ويشترط استمرار العجز إلى الفراغ من الصوم، واختلف في الواجد، روي عن قتادة قال: إذا كان عنده خمسون درهماً فهو ممن يجد، ويجب عليه الإطعام، وعن الشافعي وأحمد ومالك، من عنده فضل عن قوته وقوت من تلزمه يومه وليلته، وعن الإمام أبي حنيفة إذا لم يكن عنده نصاب فهو غير واجد^(٢) ﴿ذَلِكَ﴾ الذي مضى ذكره ﴿كَفَرَةٌ أَيْمَنَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ﴾ فبروا فيها ولا تحنثوا إذا لم يكن الحنث خيراً، أو ولا تحلفوا أصلاً ولا تبدلوا لكل أمر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ أو بأن تكفروها إذا حنثتم، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كذلك البيان البديع ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ﴾ أحكام شريعته ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيما يعلمكم أو نعمة الواجب شكرها.

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٣٣٠ ومسلم في الإيمان رقم ١٦٥٤ والنسائي ٢٥/٧ في الإيمان أيضاً.

(٢) النصاب يراد به نصاب الزكاة، فكل من ملك/٢٠٠/ مائتي درهم فضة فهذا لا يجزئه الصوم لأنه غني ويجب عليه أن يطعم أو يُعتق.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ اَلْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٩٢﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٣﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ﴾ وهي الأصنام المنصوبة للعبادة، وفرق بعضهم بأن الأنصاب حجارة لم تصوّر، كانوا ينصبونها للعبادة ويذبحون عندها، والأصنام ما صُوّر، وعُبد من دون الله عز وجل ﴿وَالْأَزْلَامُ﴾ وهي الأقداح التي كانوا يستقسمون بها كاستشارة لآلهتهما المزعومة ﴿رِجْسٌ﴾ قدر تعاف عنه العقول، وعن الزجاج: الرجس كل ما استقدر من عمل قبيح ﴿مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ لأنه مسبب عن تسويله وتزيينه، أي رجس كائن من عمله ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي الرجس، وابتعدوا عن هذه القذارات الحسية والمعنوية ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب عنه، لقد أكد الله تحريم الخمر والميسر، في هذه الآية الكريمة، بفنون التأكيد، حيث صُدّرت الجملة بإثما، وقرنا بالأنصاب والأزلام، وسُمّيا رجساً من عمل الشيطان، تنبيهاً على أن تعاطيها شرٌّ بَخْتٌ، وأمر بالاجتناب عنها لا عَنْ عَيْنِهِمَا، وجعل ذلك سبباً يُرجى منه الفلاح، فيكون ارتكابها خيبة وضلّالاً، ثم قرر ذلك ببيان ما فيها من المفاصد الدنيوية والدينية.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ اَلْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ وتخصيصهما بإعادة الذكر، للتنبيه على أن المقصود بيان حالهما، وذكر الأصنام والأزلام، للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة

والشر، وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ تخصيص الصلاة بالإفراد، مع دخولها في الذكر للتعظيم، وللإشعار بأن الصاء عنها كالصاء عن الإيمان، لما أنها عماد الدين، ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام، فقال سبحانه ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟﴾ إيداناً بأن الأمر في الزجر والتحذير، وكشف ما فيهما من المفساد والشرور، قد بلغ الغاية، وأن الأعداء قد انقطعت، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون؟ أم أنتم على ما كنتم عليه؟ ولذا قال عمر رضي الله عنه: انتهينا ربنا انتهينا!

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي أطيعوهما في جميع ما أمرا به، ونهيا عنه ﴿وَأَحْذَرُوا﴾ مخالفتهما في ذلك، أمروا بالاحذر لأنه يدعوهم إلى اتقاء كل سيئة، وعمل كل حسنة ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الامتثال بما أمرتم به ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ أي إنما عليه تبليغكم وقد فعل ذلك، وقامت عليكم الحجة، وانتهت الأعذار، فلم يبق بعد ذلك إلا العقاب، الذي ينتهي بكم إلى الدمار.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ أي إثم وخرج ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ أي تناولوا أكلاً أو شرباً، عن البراء بن عازب قال: مات ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ وهم يشربون الخمر، فلما نزل تحريم الخمر، قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(١) الآية. والطعمُ كالطعام، يُستعمل في الأكل والشرب ﴿إِذَا مَا أَنْقَوْا﴾ أي ليس عليهم جناح، فيما تناولوه من المأكول والمشروب، إذا اتقوا أن يكون في ذلك شيء من المحرمات ﴿وَأَمَّنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي استمروا على الإيمان، والأعمال الصالحة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْقَوْا﴾ أي اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك ﴿وَأَمَّنُوا﴾ بتحريمه واستمروا على الإيمان ﴿ثُمَّ أَنْقَوْا﴾ أي ما حرم عليهم بعد ذلك

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم/٣٠٥١/ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿وَأَحْسَنُوا﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة، والمعنى إذا اتقوا المحرمات واستمروا على ما هم عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، فلا جناح عليهم فيما طعموه من المطاعم والمشارب، إذ ليس فيها شيء محرم عند طعمه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء من ذلك ومن صار محسناً، صار لله محبوباً.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَنْ تَكُلُوا مِمَّا قُتِلَ مِنْ دَابَّاهُ اِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ ذِي زُلْفَةٍ فَذَلِكُمْ فَخْرَةٌ لَكُمْ وَتَكْلُوفٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ اْكُلِ الْبَاسِ اَوْ يَكْفُرْ بِالْاِيْمَانِ اَوْ يَكْفُرْ بِالْعُرْسِ اَوْ يَنْكُرْ اِلَافَاقَهُمْ اُولَٰئِكَ يَكْفُرُ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا اُولَٰئِكَ اَصْحَابُ السَّعِيرِ﴾

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خطاب فيه تكريم لأهل الإيمان ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَنْ تَكُلُوا مِمَّا قُتِلَ مِنْ دَابَّاهُ﴾ أي من صيد البر، مأكولاً أو غير مأكول ﴿اِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ ذِي زُلْفَةٍ﴾ أي من صيد البر، مأكولاً أو غير مأكول ﴿فَذَلِكُمْ فَخْرَةٌ لَكُمْ﴾ أي من صيد البر، مأكولاً أو غير مأكول ﴿وَتَكْلُوفٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي من صيد البر، مأكولاً أو غير مأكول ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ اْكُلِ الْبَاسِ اَوْ يَكْفُرْ بِالْاِيْمَانِ اَوْ يَكْفُرْ بِالْعُرْسِ اَوْ يَنْكُرْ اِلَافَاقَهُمْ اُولَٰئِكَ يَكْفُرُ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا اُولَٰئِكَ اَصْحَابُ السَّعِيرِ﴾

الرماح الكبار من الصيد ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ الْغَيْبَ﴾ أي ليميز الخائف من عقابه الأخروي، وهو غائب مترقب، لقوة إيمانه فلا يتعرض للصيد، ممن لا يخافه كذلك لضعف إيمانه فيقدم عليه ﴿فَمَنْ أَعَدَّتْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد ذلك النهي، فصاد في حالة الإحرام ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدارين، لأن من لا يملك زمام نفسه، ولا يراعي حكم الله تعالى، في أمثال هذه البلايا الهينة، لا يكاد يراعيه في عظام الأمور.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ والتصريح للنهي مع كونه معلوماً من قوله تعالى ﴿غير محلي الصيد﴾ لتأكيد الحرمة، وترتيب ما تعقبه عليه، و﴿حُرْمٌ﴾ جمع حرام، وهو المحرم، أي لا تقتلوه وأنتم محرمون، وذكر القتل دون الذبح ونحوه، للإيذان بأن الصيد وإن ذبح، في حكم الميتة، وإليه ذهب أبو حنيفة وأحمد ومالك، وهو القول الجديد للشافعي، وفي القديم لا يكون في حكم الميتة، يحل أكله للغير ويحرم على المحرم ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً﴾ أي ذاكراً لإحرامه، عالماً بحرمة قتل ما يقتله ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ أي فعلية جزاء مماثل لما قتله، والمراد به عند الشيخين: المثل باعتبار القيمة، يُقَوِّمُ الصيدُ حيثُ صيدُ فإن بلغت قيمته قيمة هدي، يُخَيَّرُ الجاني أن يشتري بها ما قيمته قيمة الصيد، فيهديه إلى الحرم، وبين أن يشتري بها طعاماً، فيعطي كل مسكين نصف صاع من بُزٍّ، أو صاعاً من غيره، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً ﴿مِنَ النَّعْوِ﴾ بيان للهدي المشتري بالقيمة، وعند مالك والشافعي: هو المثل باعتبار الخلقة، لأن الله أوجب المثل مقيداً بالنعيم، ولنا أن النص أوجب المثل، والمثل المطلق هو المثل صورة ومعنى، وهو غير مراد هنا بالإجماع، فبقي أن يراد المثل معنى وهو القيمة، ومما يرشد إلى أن المراد بالمثل هو القيمة، قوله عز وجل ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ أي بمثل ما قتل ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي حكمان عدلان من المسلمين، لأن التقويم هو الذي يحتاج إلى النظر والاجتهاد، دون المماثلة في الصورة، التي يستوي في معرفتها كل أحد من

الناس، والمراد من ﴿ذُوا عَدْلٍ﴾ التعدد، ويراد منه اثنان، لأنه أقل مراتبه، يروى أنه جاء أعرابي إلى أبي بكر فقال: أني أصبت من الصيد كذا، فسأل أبو بكر «أبي بن كعب» فقال الأعرابي: أتيتك أسألك وأنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: قال الله تعالى: ﴿يُحْكَمْ بِهِ ذُوا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ فشاورت صاحبي، فإذا اتفقنا على شيء أمرناك به ﴿هَدْيًا﴾ أي يحكم به في حال الهدى ﴿بَلِغِ الْكُفَّةَ﴾ معنى بلوغه الكعبة أن يذبح في الحرم ﴿أَوْ كَفَّرَةً طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ إشارة إلى الطعام كأنه قيل: فعليه جزاء مماثل للمقتول من النعم، أو طعام مساكين، أو صيام أيام بعددهم، فحينئذ يجزىء، لكون المماثلة وصفاً لازماً للجزاء، ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي فعليه جزاء ليدوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾ أي من قتل الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل الصيد بعد النهي ﴿فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي فإن الله ينتقم منه في الآخرة، لأنه انتهك محارم الله، وأما الكفارة فإذا تكرر من المحرم قتل الصيد، تكرر عليه الجزاء، وعن ابن عباس يعزَّر بالضرب ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يغالب ﴿ذُوَانِيقَايَ﴾ شديد فينتقم ممن يتعدى حدوده، ويصر على معاصيه.

﴿أَحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها المحرمون ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ أي ما يصاد في المياه كلها، بحراً كان أو نهراً وهو ما يعيش في الماء، مأكولاً أو غير مأكول ﴿وَطَعَامُهُ﴾ أي ما يطعم من صيده، والمعنى: أحل لكم التعرض لجميع ما يُصاد في المياه، والانتفاع به، وأكل ما يؤكل وهو السمك، وقيل المراد بصيد البحر: ما صيد، ويطعمه ما قذفه البحر ميتاً ﴿مَتَعَالَكُمْ﴾ تمتعاً لكم للمقيمين منكم ﴿وَاللَّسْيَارَةَ﴾ أي المسافرين يتزودونه قديداً ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ﴾ وهو ما يفرخ فيه، وإن كان يعيش في الماء كطير الماء ﴿مَا دُمَّتْ حُرُمًا﴾ أي محرمين، وظاهره يوجب حرمة ما صاده الحلال على المحرم، وإن لم يكن له مدخل فيه، وهو قول عمر، وابن عباس، وجماعة من السلف، وعن أبي هريرة وسعيد بن جبير أنه يحل له ما صاده الحلال، إذا لم يشر إليه، ولم يدل عليه، وهذا مذهب أبي حنيفة لأن

الخطاب للمحرمين دون غيرهم، واستدل بما روي عن أبي قتادة قال: «كنت يوماً جالساً مع رجال من أصحاب النبي ﷺ والقوم محرمون، وأنا غير محرم، فأبصروا حماراً وحشياً، فقمْتُ إلى الفرس فشددت على الحمار فعقرته، ثم جثت به، فوقعوا فيه يأكلون، ثم إنهم شكوا في أكلهم إياه، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال لهم: «هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها، أو أشار إليها؟ قالوا: لا، قال: كلوا ما بقي من لحمها»^(١). ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره، فيجازيكم على أعمالكم، وهو وعيد وتهديد.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١٧) ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٨) ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾^(١٩) ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢٠).

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ﴾ أي صيَّرها ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ سمي البيت الحرام، لأن الله تعالى حرَّمه، وعظَّمه، وشرفه، وحرَّم أن يُصاد فيه، وأن يُعضد شجره، وأراد بالبيت الحرام جميع الحرم، فإنَّ الحرم كما أنه سبب لأمن الوحش، فكذلك هو لحصول الخيرات ﴿قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ أي سبب انتعاشهم، في أمر معاشهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجه إليه الحجاج والعمار ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الذي يؤدي فيه

(١) أخرجه البخاري في الحج ٢٢/٤ باب إذا رأى المحرمون صيداً، ومسلم في الحج أيضاً رقم ١١٩٦ باب تحريم الصيد للمحرم، ومالك في الموطأ ١/٣٥٠.

الحج، أي وجعل الشهر الحرام ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَ﴾ أيضاً قياماً لهم، والمراد بالقائد: البدن خصت بالذكر، لأن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر، والهدي الذي يُهدى للحرم من الأنعام ﴿ذَلِكَ﴾ أي شرع ذلك ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فإن تشريع هذه الشرائع، المستتبعة لدفع المضار الدينية والدنيوية، من أوضح الدلائل على حكمة الشارع، وعدم خروج شيء عن علمه المحيط ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالح العباد، وما فيه خيرهم وسعادتهم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وعيد لمن انتهك محارمه أو أصرَّ على ذلك ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وعد بالمغفرة والرحمة، لمن حافظ على مراعاة حرمانه تعالى، وأقلع عن الانتهاك.

﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة، وقد بلغ ما وجب عليه، فأني عذر لكم بعد هذا؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي لا يخفى عليه تعالى شيء من أحوالكم وأعمالكم، فيؤاخذكم بذلك.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ أي الرديء والجيد من كل شيء، فهو حكم عام، في نفي المساواة عند الله تعالى بين النوعين، في الأشخاص، والأعمال، والأموال، فُضد به الترغيب في جيد كل منها، والتحذير عن رديئها ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ أي وإن سرك أيها الناظر كثرة الخبيث، فإن العبرة بالرداءة والجودة، دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل، خير من المذموم الكثير، وهو مثل ضربه الله تعالى للتمييز بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والحلال والحرام، ولهذا قال تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرْ أَلَّا تُكْسِبُوا﴾ أي فاتقوه بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين أن تبلغوا الفوز بالثواب العظيم، والنعيم المقيم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٦٦﴾﴾
 قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٦٧﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٦٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَٰئِكَ هُمُ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٦٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْهِمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ أي لا تسألوا عن أمور لا حاجة لكم إليها، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس قد فُرض عليكم الحج فحجُّوا، فقال رجل: أفني كل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، ثم قال ﷺ: ذروني ما تركتكم، ولو قلت: نعم، لوجبت ولما استطعتم، وإنما أهلك من كان قبلكم، كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»^(١). و«أشياء» هو اسم جمع وقيل هو جمع شيء ﴿إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ أي إن ظهرت لكم وكلفتكم بها، شقت عليكم وساءتكم لأنكم لا تحتملونها ﴿وَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ﴾ والمراد ما يشق عليهم من التكاليف الصعبة، التي لا يطيقون حملها، والأسرار الخفية التي يفتضحون بظهورها، ونحو ذلك مما لا خير فيه، لإيجابها عليهم بطريق التشديد،

(١) أخرجه مسلم في الحج رقم ١٣٣٧ باب فرض الحج مرة في العمر، والنسائي ١١٠/٥ باب وجوب الحج.

لإساءتهم الأدب، أي لا تكثروا مساءلة رسول الله ﷺ عما لا يعنيتكم، إن أفتاكم بها حسبما أوحى إليه لم تطبقوا حملها، والآية تتضمن النهي عن الفضول، وما لا يعني. وفي الحديث الشريف: «إن أعظم المسلمين جُرماً، من سأل عن شيء، لم يُحرّم على الناس، فحُرّم من أجل مسألته»^(١) والسؤال على نوعين: أحدهما: ما كان على وجه التبيين فيما يحتاج إليه من أمر الدين، وذلك جائز، كسؤال عمر وغيره في الخمر، وثانيهما: ما كان على وجه التعنت، نظيره سؤال الأقرع حين وجب الحج، والمراد بما في الحديث هذا النوع^(٢) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ عما سلف من مسألتكم، فلا تعودوا إلى مثلها، وفيه حثهم على الجد في الانتهاء عنها يعني كره الله لكم السؤال عنها فلم يؤخذكم بها ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم، ويعفو عن كثير.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ أي سألوا مثل هذه المسألة المحظورة، المستحقة للوبال، والضمير في موقع المفعول به، وذلك من باب الحذف والإيصال، والمراد سأل عنها، واختلف في تعيين القوم فعن ابن عباس هم قوم عيسى سألوه إنزال المائدة، وقيل هم قوم موسى سألوه بيان البقرة ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا﴾ أي صاروا بسببها ﴿كَافِرِينَ﴾ لأنهم سألوا أنبياءهم أشياء، فلما أمروا بها تركوها فهلكوا.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ﴾ ردٌّ وإنكارٌ لما ابتدعه

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٢٢٦/١٣ ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٥٨ باب توقيره ﷺ.

(٢) ورد عن جبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس في تفسير هذه الآية أن المعنى: لا تسألوا عن أشياء خفية، يكون في الإخبار عنها مساءة لكم، إمّا لتكليف شرعي يلزمكم، وإمّا لخبر محزن يسوءكم، مثل الذي سأل الرسول ﷺ: مَنْ أَبِي؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء، وابتدأكم بركم بأمر، فحيثئذ إن سألتهم عن بيانه بُيِّنَ لكم. نقله صاحب البحر المحيط ٣١/٤.

أهل الجاهلية، وهو أنهم كانوا إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن، آخرها ذكر، بَحَرُوا أذنّها - أي شقّوها - وخلّوا سبيلها، فلا تُركب ولا تُحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شفيتُ فناقتي سائبة، ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، فإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً فهو لآلئتهم، وإذا ولدتهما قالوا وصلت الأنثى أخاها فلا يُذبح لها الذكر، وإذا جاء من صلب الفحل عشرة أبطن حرّموا ظهره، ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى، وقالوا: حمى ظهره، ومعنى ﴿ما جعل﴾ أي ما شرع ووضع ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون، ويقولون: الله أمرنا بهذا، وأول من سبّ السوائب، ونصب الأنصاب، وغير دين إبراهيم هو «عمرو بن لُحَيّ» ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أن ذلك افتراء باطل، ولا يعرفون الحلال من الحرام، ولكنهم يقلّدون كبارهم، ومنهم من يعرف بطلان ذلك، ولكن منعهم حبّ الرياسة، وتقليد الآباء أن يعترفوا به.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي لأولئك المشركين على سبيل الإرشاد إلى الحق ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الكتاب المبين للحلال والحرام ﴿وَأِلَى الرُّسُولِ﴾ الذي أنزل عليه ذلك، لتمييزوا الحرام من الحلال ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ في هذا الشأن فلا نلتفت لغيره، وفي الآية بيان لعنادهم، وانهماكهم في التقليد، واستعصائهم على الهادي إلى الحق ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي يقولون هذا القول، ولو لم يكن آبأؤهم يعقلون شيئاً من الدين، ولا يهتدون إلى الحق؟ والهمزة للإنكار، والتعجب، وفائدة التعجب المبالغة في الإنكار، ودلت الآية أن الاقتداء إنما يصح، بمن عُلِمَ أنه عالم مهتد، فلا يكفي التقليد للجاهل الذي ليس له حجة صحيحة من شرع ودين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة، الذين ماتوا على الكفر، ف قيل لهم ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أي الزموا أمر أنفسكم وإصلاحها ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي لا يضركم ضلال من ضلّ، إذا كنتم

مهتدين، ومن جملة الاهتداء أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، لحديث «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرن على أن يُغَيَّرُوا ولا يُغَيَّرُوا، إلَّا يوشك أن يعمَّهم الله بعقاب»^(١) وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال يا رسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مِمَّا فُتِنُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فقال ﷺ يا معاذ: «مروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيتم شحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، وإعجاب كل امرئ برأيه، فعليكم أنفسكم، لا يضركم ضلالة غيركم»^(٢) ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى أحد سواه ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم يوم القيامة ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لا يتخلف عنه أحد ﴿فَيُنْشِئُكُمْ﴾ بالثواب والعقاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من أعمال الهداية والضلال.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتَيْنَ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١١٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَيْهِ آتَاهُمَا اسْتَحَقَّا إِنَّمَا فَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٧﴾ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا وَلِلَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم رقم ٤٣٣٨ والترمذي في التفسير رقم ٣٠٥٩ وفي الفتن رقم ٢١٦٩.

(٢) أخرجه ابن مردويه، ورواه الترمذي بأوسع من هذا رقم ٣٠٥٨ في كتاب التفسير.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله ﴿شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ المراد ههنا الإشهاد في الوصية، أي أشهدوا بعض المسلمين العدول عند الوصية ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي شارفه وظهرت علامته ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ أي حين تريدون تقرير الوصية على أنفسكم، ونبهت الآية على أن الوصية من المهمات المقررة، التي لا ينبغي أن يتهاون بها المسلم، ويذهل عنها ﴿أَتَشَانِ﴾ أي شهادة اثنين، لفظه خبر ومعناه أمر، يعني ليشهد اثنان ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي من أقاربكم المسلمين، لأن الأقارب أعلم بأحوال الميت، وأنصح له، وأقرب إلى تحري ما هو أصلح له ﴿أَوْ آخَرَانِ﴾ أي شهادة آخرين ﴿مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي من غير المسلمين، كما روي عن ابن عباس، وابن مسعود، واختاره جماعة من المتأخرين ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم فيها ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أي فقاربكم الأجل حينئذ، وليس معكم من أهل الإسلام من يتولى أمر الشهادة، كما هو الغالب المعتاد في الأسفار، فليشهد آخران على الوصية ﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾ أي تقفونهما للتحليف ﴿مِّنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أي من بعد صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس، ولأن جميع الأديان يعظمونه ويجتنبون فيه عن الحلف الكاذب، والخطاب للموصي لهم، وقيل للورثة، وقيل للحكام والقضاة ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ فيحلفان به تعالى ﴿إِنْ أَرَبَّيْتُمْ﴾ معترضة بين القسم وجوابه، أي إن ارتبتم في شأنهما بخيانة، وأخذ شيء من التركة فحلفوهما ﴿لَا نَشْرِي بِهِنَّ ثَمَنًا﴾ جواب القسم والمعنى: لا نأخذ لأنفسنا عَرَضًا من الدنيا، بالحلف الكاذب أي لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي المقسم له ﴿ذَاقُورَيْنِ﴾ أي قريباً منا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ﴾ أي الشهادة التي أمر الله، بحفظها وتعظيمها ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيَّامِ﴾ أي إن كتمناها نكون من الظالمين، المستحقين للعقوبة.

﴿فَإِنْ عُرِيَ﴾ أي اطلع بعد التحليف ﴿عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي فعلاً يوجب إثمًا من تحريف، أو كتم، بأن ظهر بأيديهما شيء من التركة

﴿فَأَخْرَانِ﴾ أي فرجلان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي يقومان مقام الذين
 عثر على خيانتهم، لإظهار الحق، وإبراز كذبهما ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ
 الْأُولَئِينَ﴾ أي من أهل الميت والمراد من ﴿الْأُولَئِينَ﴾ الأقرباء إليه وهما
 في الحقيقة الآخران القائمان مقام الذين استحقا إثماً ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ
 لَشَهِدْتُنَا﴾ أي ليميننا ﴿أَحَقُّ﴾ بالقبول ﴿مِنَ شَهِدَتِيهِمَا﴾ أي من يمينهما
 ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ عليهما بإبطال حقهما ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الظالمين
 أنفسهم، والمراد بالشهادة عند الكثيرين ومنهم ابن عباس اليمين، ﴿وما
 اعتدينا﴾ أي ما تجاوزنا في شهادتنا الحق، وما اعتدينا عليهما بإبطال
 حقهما، ومعنى الآيتين عند المفسرين: أن المحتضر إذا أراد الوصية،
 ينبغي أن يشهد عدلين من ذوي دينه، أو نسبه، فإن لم يجدهما، بأن كان
 في سفر فأخران من غيرهم، ثم إن وقع ارتياب في صدقهما، أقسما على
 صدق ما يقولان، بالتغليظ في الوقت، فإن اطلع على كذبهما بأمانة،
 حلف آخران من أهل الميت، وادعى أن الحكم منسوخ. قال الزجاج: إن
 هذه الآية من أشكال ما في القرآن، وقال الفخر الرازي: إن هذه الآية في
 غاية الصعوبة، إعراباً وحكماً وسبحان الخبير بحقائق كلامه.

﴿ذَلِكَ﴾ أي الحكم المذكور ﴿أَدْفَعُ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ أي
 أقرب أن يؤدي الشهود، الشهادة على وجهها الذي تحمّلوها عليه، من غير
 تحريف ولا خيانة فيها، خوفاً من العذاب الأخروي ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ
 أَيْمَنِهِمْ﴾ معطوف على مقدر كأنه قيل: ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على
 وجهها، ويخافوا عذاب الآخرة، بسبب اليمين الكاذبة، أو يخافوا الافتضاح
 بإبطال أيمانهم، والعمل بأيمان الورثة، فينزعجوا عن الخيانة، فأَيُّ
 الخوفين وقع حصل المقصد، الذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها
 ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أحكامه التي من جملتها ما ذكر ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ ما
 تؤمرون به سماع طاعة وقبول ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن
 الطاعة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
 عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى
 وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ
 عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ
 كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ
 وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ
 عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
 مُبِينٌ﴾ (١١٠).

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ منصوب بمضمر، أي واحذروا يوم يجمع
 الله الرسل، فإن تذكر ذلك اليوم الهائل، مما يضطرهم إلى تقوى الله عز
 وجل، وتخصيص الرسل بالذكر لبيان شرفهم وفضلهم، وتعظيم شهادتهم،
 فالشهود في الآخرة رسل الله المكرمون، وأما الحشر فلجميع الخلائق كما
 قال سبحانه: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾^(١) ﴿فَيَقُولُ﴾
 لهم مشيراً إلى خروجهم عن عهدة الرسالة، ماذا أجابتكم به أممكم؟ ولما
 كان سبحانه مطلعاً على أحوال الرسل، لم يقل لهم: هل بلغت رسالاتي؟
 وإنما قال: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ؟﴾ أي ما الذي أجابتكم أممكم، حين دعوتهم
 إلى الإيمان؟ هل أجابوكم إجابة قبول، أو إجابة رد ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
 عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ قالوا ذلك تادباً أي علمنا ساقطاً مع علمك، كأنه لا علم
 لنا، فوضوا الأمر إلى علمه تعالى، لما اعتراهم من مقاساة الأهوال
 والشدائد من أممهم، إظهاراً لعجزهم عن بيانه لكثرتهم وفظاعته، وفيه
 التشكي منهم، ورد الأمر إلى علمه تعالى، والعلامة صيغة مبالغة،
 والمراد به الكامل في العلم.

(١) سورة هود، آية: ١٠٣.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ في الآية تذكير بعبودية عيسى، وتوبيخ لمن عبدوه من دون الله، وتخصيصه بالخطاب من بين الرسل، لِمَا أن شأنه متعلق بكلا الفريقين، من أهل الكتاب اليهود والنصارى ﴿أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ أي اذكر إنعامي إليكما، وفضلي عليكما، وتذكيره بالنعمة ليكون توبيخاً ومزجراً للكفرة المختلفين في شأنه، ثم وضح طرفاً من هذا الإنعام فقال: ﴿إِذْ أَيْدَيْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي حين أمددتك وقويتك بالروح الطاهرة المقدسة «جبريل» عليه السلام ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي تكلم الناس وأنت طفل رضيع في فراشك، وهذه معجزة ظاهرة، حيث لم تجر العادة بكلام الصبي حديث الولادة، كما تكلمهم في سن الكهولة والشيخوخة، وهذه معجزة أخرى، تدل على حياته في السماء، حيث رفعه الله إليه، وسينزل إلى الأرض في آخر الزمان، ليكلّم الناس بحقيقة أمره ورسالته، وليس كما زعم اليهود أنهم صلبوه واعتقد به النصارى ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أشارت الآية إلى أن تلك الخوارق، ليست من قبل عيسى بل من جهته سبحانه، أظهرها على يديه معجزة له ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ أعيدت «إذ» لكون إخراج الموتى من قبورهم، لا سيما بعدما صاروا رميماً، معجزة باهرة، حُرِيَّةٌ بتذكير وقتها صريحاً ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ يعني اليهود، حين همّوا بقتله، ولم يتمكنوا منه ﴿إِذْ جَسَّتْهُمُ الْبِلَاسُ﴾ أي حين جثتهم بالمعجزات الواضحة، مما ذكر ومما لم يذكر، كالإخبار بما يأكلون، ويدخرون في بيوتهم، ونحو ذلك ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَمِرٌ﴾ فإن قولهم ذلك مما يدل على أنهم قصدوا اغتياله، أي كفتهم عنك حين قالوا ذلك، عند مجيئك إليهم بالبينات، فزعموا أن هذه الخوارق، ما هي إلا من قبيل السحر الواضح.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّتَيْنِ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (١١٦) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٩﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنَّ أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّتَيْنِ ﴾ معنى الإيحاء إليهم، أمره تعالى إليهم في الإنجيل، أي حين أمرت الحواريين وقذفت في قلوبهم، فجاء استعمال الوحي بمعنى الأمر، وإنما لم يترك الوحي على ظاهره، لأنه مخصوص بالأنبياء، والحواريون ليسوا كذلك ﴿ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَرَسُولِي ﴾ أن مفسرة لما في الإيحاء من معنى القول، كأنه قيل: آمنوا بوحدايتي، وبرسالة رسولي، وفيه إشارة إلى عدم إخراجه عن حد الرسالة، فهو رسول وليس بإله ﴿ قَالُوا ءَامَنَّا ﴾ طبق ما أمرنا به ﴿ وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون في إيماننا، وهذا القول منهم نعمة جليلة، كسائر النعم عليه وعلى والدته أيضاً.

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ كلام مستأنف، مسوق لبيان ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه، منقطع عما قبله كما ينبىء عنه الإظهار ﴿ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ الأظهر من أقوال المفسرين، أن هذا السؤال من الحواريين، لم يكن عن شك وارتباب في قدرة رب الأرباب، وإنما كان سؤال استفسار واستخبار، عن إنزال الله المائدة من السماء، فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت، ولكنهم أخطأوا في التعبير فقالوا: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ ﴾ ويريدون به: هل يفعل ربك ذلك، فإنهم كانوا مؤمنين، وأيد ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ ﴾ الآية، ومعنى: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ ﴾ هل يجيئنا ربك إلى هذا الطلب، فينزل علينا

مائدة، والمائدة في المشهور الخوان الذي عليه الطعام، ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال، واقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بكمال قدرته تعالى وصحة نبوتي، أو صدقتكم في ادعائكم الإيمان.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال وهو أن يتمتعوا منها ولسنا نريد من السؤال إزالة شبهتنا في قدرته سبحانه وفي صحة نبوتك وليس مرادنا اقتراح الآيات بل مرادنا ما ذكر ﴿وَنُظَمِينَ قُلُوبَنَا﴾ بازدياد اليقين ﴿وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقَتُنَا﴾ علم مشاهدة على ما قدمناه ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهِمُ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عند من لم يحضرها ليزداد المؤمنون بشهادتنا إيماناً.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لما رأى عليه السلام أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، قام فالتقى عنه الصوف، ولبس الشعر الأسود، ثم توضأ واغتسل، ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله، ثم دعا الله فقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ ناداه سبحانه وتعالى مرتين مرة بوصف الألوهية، ومرة بوصف الربوبية، إظهاراً لغاية التضرع، ومبالغة في الاستدعاء، حذف حرف النداء في الأول وعوض عنه الميم، أي يا الله يا ربنا ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي أنزل علينا مائدة فيها الطعام، من محض فضلك وعطائك، من عندك، قال عمار بن ياسر: إن المائدة التي نزلت كان عليها من ثمر الجنة، ومن طعام الجنة، وقال سلمان الفارسي: إن المائدة لما نزلت قال شمعون رئيس الحواريين: يا روح الله!! أمن طعام الدنيا هذا، أم من طعام الجنة؟ فقال له: ليس من طعام الجنة، ولا من طعام الدنيا، إنما هو شيء ابتدعه الله فقال له كن فكان ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي يكون يوم نزولها عيداً نعظمه، ويكون يوم فرح ﴿لَاَوْلِيَانَا وَآخِرُنَا﴾ أي لمن في زماننا من أهل ديننا، ولمن يأتي بعدنا ﴿وَأَيَّةٌ مِنْكَ﴾ أي آية كائنة منك، دالة على كمال قدرتك، وصحة نبوتي ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ صنوف الطعام في هذه المائدة ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي خير من يرزق، لأنه خالق الأرزاق، ومعطيها بلا عوض.

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ إجابة لسؤالكم، أي سأنزل المائدة من السماء حسب طلبكم ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ ﴾ أي بعد تنزيلها ﴿ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ ﴾ بسبب كفره بعد معاينة هذه الآية ﴿ عَذَابًا ﴾ اسم مصدر بمعنى التعذيب ﴿ لَا أُعَذِّبُهُ ﴾ أي أعذبه تعذيباً لا أعذبه مثل ذلك التعذيب ﴿ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي أحداً من البشر. روى الترمذي عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت المائدة من السماء، خبزاً ولحماً، وأمرُوا أن لا يخونوا، ولا يدخروا لغد، فخانوا، وادخروا ورفعوا لغد، فمسخوا قرده وخنازير»^(١).

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۖ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ ۖ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝١١٧﴾
 مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ۖ إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝١١٨﴾
 إِنْ تُعَذِّبِهِمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ ۝١١٩﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٢٠﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٢١﴾ .

﴿ وَإِذْ قَالَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ أي اذكر وقت قوله تعالى لعيسى ابن مريم في الآخرة، توبيخاً للكفرة ﴿ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ ﴾ أي أنت دعوت الناس إلى عبادتك، والاعتقاد بالوحياتك والوهية أمك؟ ﴿ مِنْ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٢٤٢/٥ برقم ٣٠٦١.

دُونَ اللَّهِ ﴿١٠﴾ أي من غير الله تعالى، فجعلت نفسك في مقام الألوهية، وإنما سأله ذلك على رؤوس الأشهاد في الآخرة، توبيخاً لمن عبد المسيح، ليكون إنكاره أبلغ في التكذيب، وأشد في التقريع والتأنيب ﴿قَالَ﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي تنزيهاً لك يا رب من أن أقول ذلك، وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي ما ينبغي لي أن أقول قولاً، لا يحق لي أن أقوله، فأنا عبد لك ولست برب، وأنت وحدك المعبود في هذا الوجود، فكيف أدعوهم إلى عبادتي؟ وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ أي لا ينبغي ولا يليق بي، أبلغ من «لم أفله» فلذا أوثر عليه، ثم أكد ذلك بحجة أخرى، على سبيل الترقى، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ مقرر لعدم صدور القول المذكور، لأن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى، فحيث انتفى علمه سبحانه به، انتفى صدوره عنه ﴿تَعَلَّمْتُ مَا فِي نَفْسِي﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك، وقوله: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ للمشاكلة، أو المراد بالنفس الذات، أي تعلم ما أضمره في ذاتي، ولا أعلم حقيقة ذاتك وما فيها من صفات الكمال، والآية مبالغة في الأدب، وتفويض الأمر إليه سبحانه ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْقُيُوبِ﴾ تعليل وتقرير للجملتين باعتبار منطوقه ومفهومه أي إنك أنت العالم بالخفايا والنوايا، وعلمك محيط بما كان ويكون.

ثم بين ما قاله عليه السلام لقومه بقوله:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ أي ما أمرتهم إلا ما أمرتني به، ثم فسر ما أمر به ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أن مفسرة والمعنى: قلت لهم: اعبدوا الله خالقي وخالقكم، فأنا عبد الله مثلكم ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رقيباً أراعي أحوالهم، وأمنعهم عن المخالفة، وشاهداً لأفعالهم من إيمان وكفر، وفي أناجيلهم ما رواه يوحنا عنه: «وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك» ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي كنت شهيداً عليهم مدة دوامي فيما بينهم ﴿فَلَمَّا تَوَقَّيْتَنِي﴾ بالرفع إلى جنابك ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي

الحافظ لأعمالهم، والمراقب لحركاتهم، والشاهد على أفعالهم ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي وأنت المطلع على كل شيء، لا يخفى عليك أمر من أمور العباد.

﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَبُوءُوا بِعِبَادَتِكُمْ﴾ وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك، أي إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك، ولا اعتراض على المالك فيما يفعل بملكه، فانت مالكم تتصرف فيهم كيف شئت، لا اعتراض عليك في فعلك ﴿وَلِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي وإن تغفر لهم ما اقترفوا من جرائم وذنوب، ومقصوده تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى وترك التعرض لهذا الباب ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي القوي القادر على جميع المقدورات، ومن جعلتها الثواب والعقاب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة.

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ أي يقول الله تعالى يومئذ، عقيب جواب عيسى مشيراً إلى صدقه ﴿هَلَّا﴾ أي هذا اليوم ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي المستمرين على الصدق، الذين صدّقوا رسل الله في الدنيا، وصدّقوا في إيمانهم وطاعتهم لله، ينفعهم صدقهم لأنه يوم الجزاء على العمل، ويوم فوز المؤمنين الصادقين ﴿كُنْتُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي لهم حدائق وبساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي نالوا رضوان الله لصدقهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لحصول المقصد الأقصى، وهو الفوز بجنت النعيم ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ كما أن عظم شأن الفوز، تابع لعظم شأن المطلوب، وهو الجنة دار السرور والحبور.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ تحقيق للحق، وتنبية على كذب النصاري، وفساد ما زعموا، أي له خاصة ملك جميع ما في الكون، خلقاً وملكاً، وتصرفاً لا مالك سواه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي القادر على كل شيء، هذه السورة اشتملت على أنواع من العلوم، منها بيان الشرائع

والأحكام، ومنها المناظرة مع اليهود والنصارى، فختتم بهذه الآية للإشارة إلى أن كل ما سوى الحق سبحانه موجود بإيجاده، يتصرف في الكل، بالأمر والنهي، والإيجاد والإعدام، وهو الملك العلام، نسأل الله أن يوفقنا لمرضاته، ويجعلنا من الفائزين بجناته ورضوانه.

«تم تفسير سورة المائدة والحمد لله رب العالمين»

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

مكية وهي مائة وخمس وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقْدِرُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تعليقُ الحمد باسم الذات، للإيذان بأنه عزَّ وجل هو المستحقُّ له بذاته، ووصفه بقوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ للتنبيه على استحقاقه تعالى له باعتبار أفعاله العظام، وتخصيصي خلقهما بالذكر، لاشتمالهما على جملة الآثار العلوية والسفلية، التي أجلها نعمة الوجود، الكافية في إيجاب حمده تعالى على كل موجود، أخبر تعالى بأنه حقيقُّ بالحمد، ونَبَّه على أنه المستحق للحمد، على هذه النعم الجسام، حَمْدُ أو لم يُحمد، ليكون حجةً على الذين هم بربهم يعدلون، وَجَمَعَ السَّمَاءَ وَقَدَّمَهَا لشرفها، وأشرفية السماء لأنها محلُّ الملائكة، وقبله الدعاء، ومعراجُ الأرواح الطاهرة، ومعظم آيات الله فيها، وغير ذلك، والمراد من

الخلق: الإنشاء والإيجاد، أي أوجد السماوات والأرض، على ما هما عليه، ممّا فيه آياتٌ للمتفكرين ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ جَمَعَ الظلمات لكثرة أسبابها، ولم يذكر النور في القرآن إلا مفرداً، والظلمات إلا جمعاً، لأن النور شيء واحد، وإن تعددت مصادره، وأما الظلمات فهي تحدث بما يحجب النور من الأجسام، وهي كثيرة، والمراد من الظلمات: ظلمة الشرك، والنفاق، ومن النور: نور الإسلام، وقيل: المراد حقيقة النور والظلام، فهما مظهر من مظاهر القدرة الباهرة، عبّر تعالى عن إحداث النور والظلمات بالجعل، تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما، بل لا بدّ لهما من خالق مبدع، وهو الله رب العالمين ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ العدل بمعنى العدول أي الانصراف، والمعنى: أنه سبحانه خلق هذه الأجرام العظام، التي دخل فيها كل ما سواه ثم هؤلاء الكفرة، الجاحدون للنعم، يسوون به تعالى غيره، ممن لا يقدر عليها، وهم في قبضة تصرفه، وثُمَّ، لاستبعاد ما وقع من الكفرة وللتوبيخ، أي وبعد كل هذه الدلائل، يشرك الكفار فيسوون بين الأوثان والرحمن.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أي ابتداء خلقكم منه، فإنه المادة الأولى للكل، وآدم هو أصل البشر خلق منه، وتخصيص خلقهم بالذكر، من بين دلائل البعث، لما أن محل النزاع بعثهم، وكلُّ البشر له حظ من إنشائه منه، حيث لم تكن فطرة آدم مقصورة على نفسه، بل كان أنموذجاً منطوياً على فطرة آحاد الجنس، وقيل معنى خلقكم منه، من النطفة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض، وأياً ما كان ففيه من وضوح الدلالة، على كمال قدرته تعالى على البعث، فإن من قَدَّر على إحياء ما لم يشم رائحة الحياة قط، كان إحياء ما قارنها أظهر قدرة ﴿ثُمَّ قَضَىٰ﴾ أي كتب لموت كل واحد منكم ﴿أَجَلاً﴾ خاصاً به من الزمان، يفنى عند حلوله لا محالة، وكلمة «ثم» للإيدان بتفاوت ما بين خلقهم، وبين تقدير آجالهم ﴿وَأَجَلَ مُّسَمًّى﴾ هو أجل القيامة، وقيل: الأول ما بين الخلق والموت، والثاني ما بين الموت والبعث، وهو الأوفق لما روي عن ابن عباس قال: إن الله

قضى لكل أحد أجلين: أجلاً من مولده إلى موته، وأجلاً من موته إلى مبعثه، فإن كان براً وصولاً إلى الرحم زيد له من أجل البعث إلى أجل العمر وإن كان فاجراً قاطعاً نقص من أجل العمر، وزيد في أجل البعث، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾^(١) ﴿عِنْدُ﴾ أي وأجلٌ مثبتٌ ومبينٌ في علمه تعالى، لا يتغير، وتسميته أجلاً باعتبار كونه مبدأً لمدة القيامة ﴿ثُمَّ أُنْشِرُ الْمُتَمَرُّونَ﴾ استبعاد لامتراثهم، بعدما ثبت أنه خالقهم، وخالق أصولهم، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها، وإبداع الحياة فيها، وإبقائها ما شاء، كان أقدر على جمعها ثانياً، والامتراء في الشيء: الشكُّ فيه، ولا شك في أن لكل فرد أجلاً في علم الله تعالى، فلا يتغير، ولا يقتضي هذا نفي الأسباب، فإن صلة الرحم من أهم أسباب هناء المعيشة، وهناء المعيشة من أهم أسباب طول العمر، وكذلك الدعاء الذي منشؤه قوة الإيمان، التي تقاوم الهموم والأكدار، اللذان يهرمان قبل أوان الهرم.

﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ مسوقة لبيان شمول أحكام إلهية لجميع المخلوقات، وإحاطة علمه بأعمال العباد ﴿فِي السَّمَكَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي هو المستحق للعبادة فيهما لا غيره، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾^(٢) كأنه قيل: وهو المعبود فيهما ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي ما أسررتهم، وما جهرتهم به، من الأقوال، والأفعال. والمراد من السر ما يخفيه الإنسان في ضميره، وبالجهر ما يظهره، وفائدة ذكر الجهر للمقابلة، والتأكيد ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير وشر، فيثيب عليه ويعاقب وقيل: أريد بالسر والجهر: ما يخفى وما يظهر من أحوال النفس، وبالمكتسب أعمال الجوارح وتخصيصها بالذكر لإظهار كمال الاعتناء بها، لأنها التي يتعلق بها الجزاء.

(١) سورة فاطر، آية: ١١.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٨٤.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِطْرًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ما يظهر لهم دليل من الأدلة، أو معجزة من المعجزات، أو آية من آيات القرآن، التي من جملتها تلك الآيات الناطقة ببذائع صنع الله تعالى ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه، وإثارة الجملة على أن يقال: «إلا أعرضوا عنها» للدلالة على استمرارهم على الإعراض، حسب استمرار الإتيان، كما يفصح عنه كلمة «لَمَّا» في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعني كذبوا بالقرآن المنير الواضح، وهو كاللزام لما قبله وكالدليل عليه، على أنهم لما أعرضوا عن القرآن، وكذبوا به، وهو أعظم الآيات، فكيف لا يعرضون عن غيره؟ والمراد من الحق القرآن الذي أعرضوا عنه، عبّر عنه بذلك، إبانةً لكمال قبح ما فعلوه، فإنّ تكذيب الحق مما لا يتصور صدوره عن عاقل ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم و«سوف» لتأكيد مضمون الجملة وتقريره، أي فسيأتي البتة وإن تأخر، و«ما» عبارة عن الحق المذكور، عبّر عنه بذلك تهويلاً لأمره بإيهامه، والأنباء جمع نبأ، وهو الخبر الذي يعظم وقعه، وأنباؤه تعالى عبارة عما سيحلّ بهم من العقوبات العاجلة، من القتل، والسبي، والجلاء، ونحو ذلك. رتب الله تعالى أحوال الكفار على ثلاث مراتب: الأولى: كونهم معرضين، والثانية: مكذّبين، والثالثة: مستهزئين فبين الله

تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب، وسينالون جزاء هذا التكذيب.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ مسوق لتعيين ما هو المراد بالأنباء، التي سبق بها الوعيد، والقرن: عبارة عن أهل عصر من الأعصار^(١)، والمعنى: ألم يعرف هؤلاء المكذبون المستهزئون، بمعينة الآثار، وتواتر الأخبار، كم أمة أهلكنا من قبل خلقهم؟ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأضرابهم؟ ﴿مَكَثَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً، وأعطيناهم ما تمكنوا به من أنواع التصرف فيها ﴿مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ ما لم نجعل لكم من القوة والسعة في المال، والاستظهار بالعدد والأسباب والخطاب لكفرة قريش ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمُ﴾ المطر ﴿مِدْرَارًا﴾ مغزراً كثيراً الصب، وهو صيغة مبالغة من قولهم: درّ اللبن، ويقال: سحب مدرار إذا تتابعت أمطاره ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ جَرًى مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أي من تحت مساكنهم، وفيه من الدلالة على كونها مسخرة لهم، مستمرة على الجريان، والمراد أنهم عاشوا في الخصب والريف، بين الأنهار والثمار، وأعطيناهم ما لم نعط أهل مكة، ففعلوا ما فعلوا ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُوبُهُمْ﴾ فما أغنت عنهم تلك العُدَد والأسباب ﴿وَأَنْشَأْنَا﴾ أوجدنا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ بعد إهلاك كل قرن ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ بدلاً من الهالكين، والمعنى: أنه تعالى كما قدر أن يهلك من قبلكم وينشئ مكانهم آخرين، يقدر أن يهلككم يا أهل مكة، وهذا بيان لكمال قدرته تعالى، وفي الآية ما يوجب الاعتبار، فإنهم مع ما كانوا عليه من العُدَد والعُدَد أهلكوا لكفرهم، فكيف بمن هم أضعف منهم؟

(١) القرون جمع قرن، وهو أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتران، كأن أهل ذلك الزمان اقترنوا في أعمالهم وأحوالهم، وقيل: القرن مائة سنة.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧ ﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ٨ ﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِ مَا يَلْبَسُونَ ٩ ﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ١٠ ﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ١١ ﴾ .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ ﴾ نزلت في النضر بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل، لما قالوا لرسول الله ﷺ: لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة، يشهدون أنه من عند الله وأنت رسول الله، والقرطاس: الورق الذي يكتب فيه ﴿ فَلَمَسُوهُ ﴾ أي الكتاب ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ بعدما راوه بأعينهم، بحيث لم يبق لهم في شأنه اشتباه، والرؤية واللمس أقوى اليقينيات الحسية، ولا سيما إذا اجتماعا ﴿ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا ﴾ جواب «لو» أي لقالوا تعتنا وعناداً للحق، وإنما وضع الموصول موضع الضمير، لتسجيل الكفر عليهم ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي ما هذا، مشيرين إلى ذلك الكتاب ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي بين كونه سحراً.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ هلاً أنزل عليه ملك، يكلمنا أنه نبي كقوله تعالى: ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (١) ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي ولو أنزلنا عليهم ملكاً على صورته الحقيقية، فشاهدوه بأعينهم، لتم أمر إهلاكهم بسبب مشاهدتهم له، لمزيد هول المنظر، وقد قيل: إن جميع الأنبياء وهم هم إنما رأوا الملك في صورة البشر، ولم يره أحد منهم على صورته غير النبي ﷺ كما صحَّ من رواية الترمذي عن

(١) سورة الفرقان، آية: ٧.

عائشة: «أن النبي ﷺ رأى جبريل مرتين، على صورته الأصلية»^(١) ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون بعد إنزاله ومشاهدتهم له طرفة عين.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ الضمير الأول للنذير، والضمير الثاني للملك، والمعنى: لو جعلنا النذير الذي اقترحوه ملكاً، لمثلنا ذلك الملك رجلاً لعدم استطاعة البشر لمعاينة الملك على هيكله وفي إشار رجلاً على «بشراً» إيذاناً بأن الجعل بطريق التمثيل، لا بطريق قلب الحقيقة، وفيه إشعار بأن الرسول لا يكون امرأة، وهو متفق عليه ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمُ﴾ اللبس: الخلط، لبس عليه الأمر خلطه ﴿مَّا يَلْبَسُونَ﴾ بأن يقولوا له: إنما أنت بشر، ولست بملك، فيلبس الأمر عليهم ويختلط، وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكاً!!

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسُلِي مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ على ما يرى من قومه، أي وبالله لقد استهزى برسلي أولي شأن خطير، ذوي عدد كثير، كائنين من قبلك، ولست أول رسول استهزأ به قومه ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذا متضمن أن من استهزأ بالرسول عوقب، فكانه سبحانه وعده بعقوبة من استهزأ به، و«حَاقَ» بمعنى أحاط، ولا يكاد يُستعمل إلا في الشر، أي فأصابهم الذي كانوا يستهزئون به، حيث أهلكوا لأجله، أو نزل بهم وبال استهزائهم، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٢).

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بعد بيان ما فعلت الأمم الخالية، وما فعل بهم، أمر الله رسوله بإنذار قومه، تحذيراً لهم عما هم عليه، وتكملةً للتسلية، بما ضمنه من العدة اللطيفة، بأنه سيحيق بهم، مثل ما حاق

(١) رواه الترمذي في التفسير ٣٦٨/٥ من حيث عائشة، ولفظه «ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين: مرة عند سلوة المنتهى، ومرة في جباد، له ستمائة جناح، قد سدّ الأفق».

(٢) سورة فاطر، آية: ٤٣.

بأضرابهم الأولين، أي سيروا في الأرض لتعرف أحوال أولئك الأمم ﴿ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي تفكروا في أنهم كيف أهلكوا بعذاب الاستئصال، والعاقبة: هي منتهى الأمر ومآله، ووضع المكذبين موضع المستهزئين، لتحقيق أن مدار إصابة ما أصابهم، هو التكذيب لا الاستهزاء فقط، ولما بين الله تعالى في الآيات السابقة، أصول الدين، وشبهات الكفار على الرسالة، وما يدحضها، فقي سبحانه على ذلك، بتلقيه أسلوباً آخر، وهو أسلوب السؤال والجواب.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنْزٌ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧) ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْبَلِّ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٨) ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ الْفَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُسْرِكِينَ﴾ (١٩) ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢٠) ﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (٢١).

فقال: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ أي قل يا رسول الله على سبيل التقرير: ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ أي لمن الكائنات جميعاً، خلقاً، ومُلْكاً وتصرفاً؟ فإن أجابوك وإلاً ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ تقرير الجواب نيابة عنهم، بأن الكل له سبحانه، وفيه إشارة إلى أن الجواب، قد بلغ من الظهور، إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر، ولا على دفعه دافع، كما نطق به تعالى في قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿كُنْزٌ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ جملة مستقلة داخلية تحت الأمر، ناطقة بشمول رحمته الواسعة للجميع، لبيان أنه تعالى رؤوف

(١) سورة لقمان، آية: ٢٥.

بعباده، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ومعنى كتب الرحمة إيجابها بطريق التفضل والإحسان، ومن رحمته أنه تعالى خلقهم على الفطرة السليمة، وهداهم إلى معرفته وتوحيده، بنصب الآيات، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، لاجتناب مقتضيات سخطه ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ﴾ جواب قسم محذوف، أي والله ليجمعنكم مبعوثين إلى يوم القيامة، وهذا من مقتضيات تلك الرحمة، لأن الجمع لأجل الحساب والجزاء رحمة بالمكلفين، والعلم به رحمة أيضاً، لأنه لولا خوف الحساب والعذاب، لحصل الهرج والمرج، ولحصل الظلم، فصار الإيمان بيوم القيامة، من أعظم أسباب الرحمة، والخطاب للكافرين، وقيل عام، أي ليجمعنكم أيها الناس إلى يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه، لوضوح أدلته ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو الفطرة، والعقل السليم، واستماع الوحي ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عدم إيمانهم بسبب خسرانهم، فإن إبطال العقل، والانهماك في التقليد، أدى بهم إلى الإصرار على الكفر، والجملة لتقبيح حالهم، غير داخلة تحت الأمر.

﴿وَلَكُمْ مَأْسَكَنٌ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ احتجاج ثانٍ على المشركين، أي له جلّ وعلا ما ثبت واستقر في الليل والنهار، الجميع عباده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه، فهو الخالق، وهو المالك لجميع الكائنات والأشياء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ مبالغ في كل مسموع ﴿الْعَلِيمُ﴾ مبالغ في العلم بكل معلوم، فلا يخفى عليه شيء من الأفعال والأقوال.

﴿قُلْ﴾ للمشركين ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُ وَلِيًّا﴾ الاستفهام للتوبيخ، أي قل لهؤلاء المشركين: أغير الله أتخذ معبوداً؟ قيل: إن المشركين من أهل مكة، قالوا له ﷺ: يا محمد، تركت ملة قومك وقد علمنا أنه لم يحملك على ذلك إلا الفقر، فارجع فإننا نجمع لك من أموالنا، حتى تكون من أغنيائنا، فنزلت الآية ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما على غير مثال سابق، أي هو المخترع والموجد لهما ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ يرزق ولا يُرزق،

فالمراد من الطعام: الرزق بمعناه اللغوي، وهو كل ما يُنتفع به ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبي ﷺ سابق أمته في الدين، وينبغي لكل امر، أن يكون هو العامل أولاً بما أمر به، ليكون أدعى للمثال ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي: ولا تكونن في أمر من أمور الدين من المشركين.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بمخالفة أمره ونهيه أي عصيان كان، وفيه بيان لكمال اجتنابه ﷺ عن المعاصي على الإطلاق ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عذاب يوم القيامة، وفيه تعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب، وعظم اليوم لعظم ما يقع فيه، وليس في الآية دلالة على أنه ﷺ يخاف على نفسه الكفر والمعصية، لأن الشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾^(١).

﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ﴾ أي العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي الرحمة العظمى وهي النجاة، وقيل: المراد فقد أدخله الجنة، فذكر الملزوم وأريد اللازم، لأن إدخال الجنة من لوازم الرحمة ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ الفوز المبين: هو بدخول الجنة لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ رُحِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ والفوز: الظفر بالبُغية، ونيل المطلوب.

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْفَاحِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَيْبُكُمْ لَنَشْهَدُونَ أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرًا قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحِيدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾

(١) سورة الزخرف، آية: ٨١.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْ﴾ أي ببلية كمرض، وفقير، ونحو ذلك، والخطابُ للرسول ﷺ وحكمه عام ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا قادر على كشفه سواه سبحانه ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٌ﴾ من صحة وغنى وغير ذلك ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيمسكه ويحفظه عليك، من غير أن يقدر على دفعه أو رفعه أحد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾^(١) ومن دقائق بلاغة القرآن المقابلة بين الضر والخير، والنكتة فيه أن الضر من الله تعالى ليس شراً في الحقيقة بل هو تربية واختبار، ثم ذكر الخير في مقابلة الضر، فأفاد أن ما ينفع الناس من النعم، إنما يحسن إذا كان خيراً لهم، وقدم الضر إيذاناً على أن المصرة يعقبها الخير والسلامة^(٢)، روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا غلامُ إني أعلمك كلمات: احفظ الله تعالى يحفظك، احفظ الله تعالى تجده أمامك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجُفت الصُّحُفُ»^(٣).

﴿وَهُوَ أَلْقَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ تصويرٌ لقهره تعالى، وغُلُوّه بالغلبة والقدرة، والقاهر والقهار الذي يدبر ما يريد، فلا يستطيع أحد ردَّ تدبيره، وظاهر الآية يقتضي القول بالجهة، والله تعالى منزّه عنها، لأنها محدثة بإحداث العالم، ومذهب السلف إثبات الفوقية لله تعالى، كما نص عليه الإمام الطحاوي، واستدلوا بما روى أبو داود من قوله ﷺ للرجل الذي

(١) سورة يونس، آية: ١٠٧.

(٢) إنما قدم الضر على النفع، لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً، ثم طمعاً في ثوابه ثانياً، كما قال سبحانه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٦٠ وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند رقم ٢٦٦٩.

استشفع بالله تعالى عليه: «ويحك، أتدري ما الله تعالى؟ إن الله تعالى فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته» وبالجملة يجب تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات، وتفويض علم ما جاء من المتشابهات إليه عز وجل، والإيمان بها، والله تعالى أعلم ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي ذو الحكمة البالغة، وهي العلم بالأشياء على ما هي عليه ﴿الْحَيُّ﴾ أي العالم بما دق من أفعال العباد.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾؟ روى الكلبي أن كفار مكة قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر، فأتنا بمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزلت ومعنى ﴿أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أعظم وأصدق أي قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين: أي شيء أكبر شهادة؟ فإن أجابوك، وإلا ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي الله أكبر شهادة، شهيد بيني وبينكم أني رسوله ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من قبله تعالى ﴿هَذَا الْقُرْآنُ﴾ العظيم الشاهد برسالتي ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ﴾ بما فيه من الوعيد والاعتصار على الإنذار، لما أن الكلام مع الكفار ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي لأنذركم به يا أهل مكة، وسائر من بلغه من الثقلين، إلى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن الكريم تعم الموجودين، وقت نزوله ومن بعدهم، روي عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من بلغه القرآن فكأنما شافهته»^(١) ﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد لدعواهم ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَا أَشْهَدُ﴾ بذلك وإن شهدتم به، فإنه باطل صرف ﴿قُلْ﴾ تكرر الأمر للتأكيد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي بل أشهد أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿وَلِئَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأصنام، قال العلماء: المستحب لمن أسلم ابتداءً، أن يأتي بالشهادتين، ويتبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية، ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال «من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه» وانظر تفسير ابن كثير ١٣٠/٢.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ هذا جواب عما سبق من قولهم: سألنا اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي يعرفون رسول الله، بحليته المذكورة في التوراة والإنجيل ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ بصفاتهم ونعوتهم، بحيث لا يشكون في ذلك أصلاً ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ من أهل الكتاب والمشركين، بأن ضيعوا الفطرة السليمة، وأعرضوا عن البينات الموجبة للإيمان بالكلية ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ روي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: فكيف هذه المعرفة؟ قال: لأننا بمحمد أشد معرفة مني بابني، لأنني لا أدري ما أحدثت أمه، فقال عمر: قد وفقت وصدقت^(١).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بادعائه أن له سبحانه شريكاً، ويقول الملائكة بنات الله، وأمثال ذلك، الاستفهام إنكار لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساوياً له ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المنزلة كالقرآن المجيد والمعجزات التي سموها سحراً، وكلمة «أو» للإيدان بأن كلا من الافتراء، والتكذيب وحده، بالغ غاية الإفراط في الظلم، كيف وقد جمعوا بينهما؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الشأن الخطير هذا، وهو ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ أي لا يفوز بمطلوب، ولا ينجو من مكروه ﴿الظَّالِمُونَ﴾ من حيث إنهم ظالمون، وإذا كان حال الظالمين هذا، فما ظنك فيمن هو في غاية الظلم والفجور؟

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّاوُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ثُمَّ لَوْ كُنْ فَتَنَّاهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَهِيًّا لَا يُوَاسِعُوهُهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي ويوم نحشر الكفار وآلهتهم جميعاً، على اختلاف درجاتهم في ظلم أنفسهم ﴿ ثُمَّ نَقُولُ ﴾ للتوبيخ والتفريع على رؤوس الأشهاد ﴿ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ بالله تعالى ﴿ أَئِنْ شُرَكَاءُكُمْ ﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله سبحانه؟ وإضافتها إليهم، لما أنَّ شركتها ليست إلا بتسميتهم، وتقولهم الكذب، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي تزعمونها شركاء، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علّقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أن يشاهدوهم ولكن لما لم ينفعوهم فكانهم غيب عنهم.

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّاهُمْ ﴾ الفتنة: اختلف في المراد منها هنا: ف قيل: الشرك واختاره الزجاج^(١)، وهو مروي عن ابن عباس وقيل: معذرتهم، وقيل: جوابهم، وإنما سماه فتنة، لأنه كذب قصدوا به الخلاص ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾ أي لم يكن كفرهم الذي لزمه مدة أعمارهم، إلا جحوده والتبرؤ منه، بأن يقولوا ﴿ وَاللَّوْزَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ يكذبون ويحلفون عليه، مع علمهم بأنه لا ينفع، من فرط الحيرة والدهشة، كما يقولون ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ وقد أيقنوا بالخلود.

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ تعجيب من كذبهم، بإنكار صدور الشرك عنهم في الدنيا، أي انظر كيف كذبوا على أنفسهم؟ فإنه أمر عجيب ﴿ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴾ المراد بها الأصنام التي كانوا يعبدونها، أي زالت وذهبت عنهم أو ثانهم، فلم تغن عنهم من الله شيئاً.

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ أي فريق منهم يستمعون إليك، ومفعوله مقدر وهو القرآن، قال ابن عباس: إن أبا سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن، فقالوا للنضر:

(١) قال الزجاج: مثلاً الآية أن ترى إنساناً يحث غاوباً، فإذا وقع في مهلكة، تبرأ منه، فيقال له: ما كان حبك لفلان إلا أن تبرأ منه؟

ما يقول محمد؟ قال: ما يقول إلا أساطير الأولين، مثل ما كنت أحدثكم به، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الأكِنََّةُ جمع كِنَان، وهو ما يُسْتَر به الشيء، والكِنَان: الغطاء وزناً ومعنى أي يستمعون إليك، وقد ألقينا على قلوبهم أغطية ﴿أَنْ يَقْفَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوا ما يستمعونه من القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمماً وثقلاً مانعاً من سماعه، وهذا تمثيلٌ معرَّبٌ عن كمال جهلهم بشؤون النبي ﷺ، وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُذُّبًا﴾ أي يشاهدوا ويبصروا كل معجزة، دالة على صدق الرسول ﷺ، كأنشقاق القمر، ونبع الماء بين أصابعه الشريفة، وتكثير القليل من الطعام، ونحو ذلك ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ لفرط عنادهم، والمراد ذمهم بعدم الانتفاع بحاسة البصر، بعد أن ذكر سبحانه عدم انتفاعهم، بعقولهم وأسماعهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ يعني إنهم إذا جاؤوك إنما جاؤوا ليخاصموك ويجادلوك، و"حتى" هي التي يقال لها: حتّى الابتدائية ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إنما وضع الموصول ذماً لهم، وإشعاراً بعله الحكم، أي بلغوا من التكذيب إلى أنهم إذا جاؤوك مجادلين لك لا يكتفون بعدم الإيمان، بل يقولون ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ الأساطير^(١) جمع أسطورة، ومعناها الخرافة، وعدّ أحسن الحديث وأصدق، من قبيل الخرافات، رتبة من الكفر، لا غاية وراءها.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الضمير عنه للقرآن، أي وهم لا يقنعون بما ذكر، بل ينهون الناس عن استماعه، لئلا يقفوا على حقيقته، فيؤمنوا به ﴿وَيَتَّبِعُونَ عَنْهُ﴾ أي يتباعدون عنه بأنفسهم، إظهاراً لغاية نفورهم عنه، ويحتمل أن يكون الضمير للرسول، على معنى ينهون الناس عن الإيمان به ﷺ، ويتباعدون عنه، وهذا مروي عن ابن عباس رواه ابن جرير وغيره،

(١) قال في القاموس: الأساطير: الأحاديث التي لا نظام لها، وأرادوا ما هذا إلا كقصص وأخبار الأولين التي سطرّوها، وليس كلام الله تعالى!!.

ولا يخفى ما في «ينهون» و «يتأون» من التجنيس البديع ^(١) ﴿وَلَا يَهْلِكُونَ﴾ أي وما يهلكون بذلك ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ بتعريضها لأشد العذاب، وهو عذاب الضلال والإضلال ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي والحال أنهم غير شاعرين بهلاك أنفسهم، على أن مقصدهم ليس منع الناس عن استماع القرآن، بل إغراقهم في الطغيان، فقد كانوا ييغون الغوائل لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، ونفي الشعور أبلغ من نفي العلم، كأنه قيل وما يدركون ذلك أصلاً.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيِّنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٢٧) بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ^(٢٨) وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ^(٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ^(٣٠)﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ الخطاب إمّا لرسول الله ﷺ أو لكل أحد، وجواب «لو» محذوف إيداناً بقصور العبارة عن تفصيله أي لو تراهم حين يوقفون على النار لرأيت ما لا يسعه التعبير، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿فَقَالُوا﴾ لعظم أمر ما تحققوه ﴿يَلَيِّنَا نُرَدُّ﴾ أي إلى الدنيا، تمنياً للرجوع والخلاص ولكن هيهات ﴿وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ أي بآيات الله الناطقة بصدق الرسل، والمخبرة عن أحوال النار وأهوالها ﴿وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بها حتى لا نرى هذا الموقف الهائل.

(١) الجناس قر من فنون علم البديع، يزيد الكلام رونقاً وجمالاً، فقد اتفقت الحروف بين «ينهون» و «يتأون» إلا في حرف واحد، ويسمى هذا بالجناس الناقص، وهناك الجناس التام كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ يراد بالساعة الأولى القيامة، وبالثانية المدة من الزمن، فقد اتفقا في اللفظ، واختلفا في المعنى.

﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يَحْفَقُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ إضرابٌ عما ينبىء عنه التمني، أي ليس ذلك ناشئاً عن رغبة في الإيمان، بل ظهر لهم في موقفهم ما كانوا يخفونه في الدنيا، والمراد بها النار التي وقفوا عليها ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ من موقفهم ذلك إلى الدنيا حسبما تمنوه ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من فنون القبائح، ونسوا ما عاينوه من أنواع العذاب، لخبث طبيعتهم، وسوء استعدادهم، ولهذا لا ينفعهم مشاهدة ما شاهدوه ﴿وَلَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لأن ديدنهم الكذب، في كل ما يأتون وما يذرون.

﴿وَقَالُوا إِنَّا هِيَ﴾ أي ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي ليس هناك بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا عودة إلى الحياة بعد الموت.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الوقوف هنا مجازٌ عن الحبس، للتوبيخ والتأنيب، أي لو رأيت حالهم لأشفقت عليهم ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا﴾ مشيراً إلى ما شاهدوه من البعث وما يتبعه ﴿يَا الْحَقُّ﴾ أي حقاً لا باطلاً كما زعمتم، والهمزة للتفريع على التكذيب ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا﴾ أكدوا إقرارهم باليمين، إظهاراً لكمال يقينهم بحقيقته، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الذي عاينتموه ﴿يَمَّا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا، ولعل هذا التوبيخ إنما يقع بعدما وقفوا على النار، إذ الظاهر أنه لا يبقى بعد هذا الأمر إلا العذاب.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَكْهَنُونَ﴾ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُونُ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أي البعث وما يتبعه من الحساب والجزاء ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ﴾ غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم، فإنه أبدي لا

حدّ له، والساعة: القيامة، أطلق على القيامة، إمّا لوقوعها بغتة، أو لأنها تقوم في آخر ساعة الدنيا ﴿بَقْتَةً﴾ أي فجأة ﴿قَالُوا﴾ جواب إذا ﴿يَحْسَرُنَا﴾ تعالي فهذا أوانك، والحسرة أشدّ الندم، والتلهف على الشيء الفاتت، والحسرة لا تطلب ولا يتأتى إقبالها، وإنما المعنى على المبالغة في ذلك، كأنهم ذهلوا فنادَوْها، ومثل ذلك نداء الويل ونحوه، ولا يخفى حسنه ﴿عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ أي على تفريطنا وتقصيرنا في اكتساب الأعمال الصالحة، في الحياة الدنيا، والتفريط: التقصير في الشيء مع القدرة على فعله، فَرَطَ في الأمر تفريطاً قَصَرَ فيه وضيَّعه ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ الوزر في الأصل: الحمل الثقيل، سُمِّي به الإثم لثقله على صاحبه، وذكر الظهور لأن المعتاد حمل الأثقال على الظهور، والغرض أنهم يتحسرون على ما لم يعملوا من الحسنات، والحال أنهم يحملون أوزار ما عملوا من السيئات ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أي بش شيناً صنعوه وارتكبوه، أوزدهم نار الجحيم.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لَمَّا حَقَّقَ أَنَّ وراء الحياة الدنيا حياةً أخرى، يلقون فيها ما يلقون، بَيَّنَ هنا حال تلك الحياتين في أنفسهما فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ واللهو: صرف النفس عن الجد إلى الهزل، لها بالشيء يلهو لعب به، والمعنى: وما أعمال الدنيا إلا لعب ولهو، تشغل الناس بما فيها من منفعة سريعة الزوال، عما فيه منفعة جليلة باقية، من الإيمان والعمل الصالح، والكلام من «التشبيه البليغ» جعلت الدنيا نفسها لعباً ولهواً مبالغة، كما في قول الشاعر: «وإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ» أي ليست الدنيا إلا كلعب الأطفال، يتلهى بها الصبيان، وعما قريب تزول ﴿وَلِلْآخِرَةِ﴾ أي الآخرة والاستعداد لها ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي يخشون الله ويخافون عقابه، لأن منافع الآخرة خالصة عن المضار، ولذاتها غير منغصة بالآلام، مستمرة على الدوام، خَصَّ المتقين لأنهم الأصل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ ذلك حتى تنفوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان؟

والفاء للعطف على محذوف أي ألا تتفكرون فلا تعقلون؟ والاستفهام للتنبيه والحث على التأمل.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
بِعَايِنَتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا
وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ نَصْرًا وَلَا مُبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلَغِيَ نَفَقًا
فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى
الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٦﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ
يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٢٧﴾ ۞

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ الآية مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ، عن
الحزن الذي كان يعتريه، من إصرار المشركين على التكذيب ببيان أنه ﷺ
بمكانة من الله تعالى، وكلمة «قد» لتأكيد العلم، وقد كانوا يقولون: إنه
شاعر، وكاهن، ومجنون^(١). وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أبا
جهل قال للنبي ﷺ: إِنَّا لَا نَكْذُبُكَ، ولكن نكذبُ بما جئتُ به، فأنزل الله
هذه الآية^(٢) ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ ﴾ على الحقيقة لعلمهم بصدقك، وفيها
بيان لبلوغه ﷺ في جلاله القدر، غاية ليس وراءها غاية، حيث نفى

(١) وقيل معنى الآية: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون بالاستهم، روي
ذلك عن قتادة وغيره، ويؤيده ما رواه الشَّذِّي أَنَّهُ التَّقِيُّ الْأَخْنَسُ بْنُ شُرَيْقٍ، وَأَبُو جَهْلٍ
فَقَالَ الْأَخْنَسُ لِأَبِي جَهْلٍ: يَا أَبَا الْحَكَمِ أَخْبِرْنِي عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ أَصَادِقٌ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ؟
فإِنَّهُ لَيْسَ هَهُنَا أَحَدٌ يَسْمَعُ كَلَامَكَ غَيْرِي، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللَّهِ إِنْ مُحَمَّدًا لَصَادِقٌ وَمَا
كَذَبَ قَطُّ، وَلَكِنْ إِذَا ذَهَبَ بَنُو قُصَيٍّ بِاللَّوَاءِ، وَالسَّقَايَةُ، وَالْحَجَابَةُ، وَالنَّبُوءَةُ، فَمَاذَا
يَكُونُ لِسَائِرِ قُرَيْشٍ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٢٤٤/٥ باب تفسير سورة الأنعام.

تكذيبهم له ﷺ وأثبتته لآياته، على طريقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾^(١) إيداناً بكمال القرب، واضمحلال شؤونه ﷺ في شأن الله عز وجل، وفيه أيضاً استعظام جنايتهم، كأنه قيل لا تعتدّ به وكله إلى الله تعالى، فإنهم في تكذيبهم ذلك لا يكذبونك في الحقيقة ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَعَاثَ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ أي ولكنهم يجحدون آيات الله ويكذبونها، لتمرنهم على الظلم، وإيراد الجحود في موضع التكذيب، للإيدان بأن آيات الله تعالى من الوضوح، بحيث يشاهد صدقها كل أحد، وأن من ينكرها إنما ينكرها بطريق الجحود، الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(٢).

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تفنن في تسليته ﷺ فإن عموم البليّة، يهون أمرها بعض تهوين، وإرشاد له ﷺ إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام، أي وبالله لقد كذّبت من قبل تكذيبك رسولٌ أولو شأن خطير، وذوو عدد كثير، ﴿فَصَبِرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا﴾ فتأسّ بهم، واصطبر على ما نالك من قومك، فانت أولى بالصبر لأنك مبعوث إلى العالمين، فاصبر كما صبروا، وفيه تأكيد للتسلية ﴿حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾ فيه إيدان بأن نصره تعالى لهم أمر مقرّر للصابرين ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ المراد بكلماته تعالى ما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾^(٣) أي لا مغيّر لوعده الله الذي وعد به رسله، والالتفات إلى الاسم الجليل، للإشعار بعلّة الحكم، فإن من موجبات الألوهية أن لا يغالبه أحد، ولا يقع منه خلف ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ جملة قسمية لتحقيق ما منحوا من النصر، أي ولقد جاءك يا محمد من خبر

(١) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٢) سورة النحل، آية: ١٤.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٧١ - ١٧٢.

الرسول، وخبر أممهم ماذا حلَّ بهم، فالمراد بنبيهم نصره تعالى للرسول،
وجميع ما جرى بينهم وبين أممهم.

﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي إن عظم عليك يا محمد إعراض
هؤلاء المشركين، يُروى أن الحارث بن عامر أتى رسول الله ﷺ في محضر
من قريش، فقالوا: يا محمد اثنتا بآية من عند الله تعالى ونحن نصدّك،
فأبى الله أن يأتيهم بآية مما اقترحوا، فأعرضوا عنه ﷺ فشق ذلك عليه لما
أنه كان شديد الحرص على إيمان قومه، وكان يؤدُّ أن ينزلها الله تعالى
طمعاً في إيمانهم، فزلت الآية، يقال كَبُرَ على فلان الأمر، أي: شقَّ عليه
المعنى: إن شقَّ عليك إعراضهم عن الإيمان، وأحببت أن تجيبهم إلى ما
سألوه ﴿فَإِنْ أَسْطَظَمْتَ﴾ أي فإن قدرت ﴿أَنْ تَبْنِغِي﴾ أي تطلب ﴿نَفَقًا﴾ أي
سرباً ومنفذاً، والنَّفَقُ بفتح نين سَرَبٌ في الأرض له مخلص إلى مكان ﴿فِي
الْأَرْضِ﴾ تنفذ فيه إلى جوفها ﴿أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ﴾ أي مِرْقَاةً ومصعداً
﴿فَتَأْتِيهِمْ بَيَاطِرٌ﴾ مما اقترحوه من الآيات فافعل، أي لا تستطيع أيها الرسول
الإتيان بشيء من تلك الآيات، ولا اقتضت مشيئة ربك أن يؤتيك ذلك،
لعلمه بأنه لا يكون سبباً لما تحب من هدايتهم، والمقصود من هذا أن
يقطع الرسول ﷺ طمعه من إيمانهم، وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم عن
الإيمان ﴿وَكُلُّهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ أي ولو شاء الله تعالى أن يجمعهم
على الهدى والرشاد لفعله، بأن يوفقهم للإيمان، ولكن لم يفعل لخروجه
عن الحكمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي الجاهلين بدقائق شؤون الله تعالى،
الذين لا يعرفون حكمة الله، وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثله، كما
أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ﴾ لا يدل أنه ﷺ أطاعهم، على أن
الجهل هنا ضد العلم، لا ضد الإيمان، وكلُّ جهل بهذا المعنى ليس عيباً،
لأن المخلوق لا يحيط بكل شيء علماً، وإنما يُذم الإنسان بجهل ما يجب
عليه معرفته.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي إنما يقبل دعوتك إلى الإيمان،

الذين يسمعون ما يُلقى إليهم سماع تفهم وتدبر، دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ والمراد من السماع هو سماع الفهم والتدبر، وما عداه كلا سماع ﴿وَالْمَوْتَى﴾ أي الكفار^(١) كما قال الحسن ﴿يَعْتَهُمُ اللَّهُ﴾ من قبورهم إلى المحشر ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ للجزاء فيجازيهم على كفرهم، فحينئذ يسمعون.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُفِّرُوا بَعْثُهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

﴿وَقَالُوا﴾ أي رؤساء قريش الذين بلغ بهم الضلال، إلى حيث لم يقنعوا بما شاهدوه من الآيات، التي تخزُّ لها صُفُّ الجبال ولم يعتدوا به ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ أي هلاً نزل على محمد ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ملجئة للإيمان ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ من الآيات الملجئة ﴿وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لما أن في تنزيلها إبطالاً لأساس التكليف، المبني على قاعدة الاختيار، ولأنها إذا نزلت فلم يؤمنوا، استوجبوا عذاب الاستتصال، فيقترحونها جهلاً، ويتخذونها ذريعة إلى التكذيب، وتخصيص عدم العلم بأكثرهم، لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال، وإنما يفعلون ما يفعلون، مكابرةً وعناداً.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كلامٌ مستأنف، مسوقٌ لبيان كمال قدرته عز

(١) شبه تعالى الكفار بالأموات، لأنهم موتى القلوب، لا يفقهون ولا يعقلون ولا يسمعون، وكأنهم خشب مسندة، قال قتادة: الآية مثلٌ للمؤمن والكافر، فالمؤمن يسمع كلام الله فينتفع به ويعقله، والكافر أصمٌ أبكم، لا يبصر هدى ولا ينتفع به «تفسير الطبري».

وجل، ليكون كالدليل على أنه تعالى، قادرٌ على تنزيل الآية، وإنما لا يُنزلها رحمةً بالعباد، أي ما من شيء يدب على وجه الأرض من صغير ولا كبير ﴿وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قَيْدُ بالجنّاحين، لنفي المجاز، لأن غير الطائر قد يقال فيه: طار، إذا أسرع ﴿إِلَّا أَسْمُ﴾ أي طوائف مخلوقة ﴿أَمْثَالِكُمْ﴾ كل أمة منها مثلكم، أحوالها محفوظة، ومصالحها مرعية ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ، فإنه مشتمل على ما يجري في العالم، من جليل ودقيق، لم يُهمل فيه أمر حيوان ولا جماد، وفيه بيان أنه تعالى مراعى لمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغي، أي ما أغفلنا وما تركنا في الكتاب من شيء من الأشياء ﴿ثُمَّ إِلَيْكَ رَيْبِهِمْ يَمْشُرُونَ﴾ يعني الأمم كلها، فينصف بعضها من بعض، كما روي أنه يأخذ للجماء من القرآن^(١) أي ثم مرجعهم ومآلهم إلى ربهم فيجازيهم على أعمالهم^(٢).

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بالقرآن، وسائر الحجج العقلية، والشرعية ﴿صُورُكُمْ﴾ هذا من التشبيه البليغ، أي إنهم كالصم، وكالبكم، لا يسمعون الآيات سماعاً تتأثر منه نفوسهم، ولا يقدرون أن ينطقوا بالحق، ولذلك لا يستجيبون ويقولون في الآيات ما يقولون ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي في ظلمة الكفر، وفي ظلمة الجهل، وظلمة العناد، وظلمة التقليد، والمراد أنهم غارقون في الجهل وسوء الحال، فإن الأصم الأبكم، إذا كان بصيراً، ربما يفهم شيئاً بإشارة غيره، وأما إذا كان مع ذلك أعمى، فينسُدُّ عليه باب الفهم بالكلية، ولذا شَبَّهُوا بالموتى ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ أي أمره إلى ربه،

(١) روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «لنودنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

(٢) قال الطبري: فالرب الذي لم يَضِيعْ حفظ أعمال البهائم، والدواب، والطير، حتى حفظ عليها حركاتها، وأفعالها، وأثبت ذلك في أم الكتاب - اللوح المحفوظ - وحشَرها ثم جازاها على ما سَلَفَ منها في دار البلاء، كيف يَضِيعُ أعمالكم، ويفرط في حفظها، ويترك جزءكم في الآخرة؟ مع ما خصكم من العقل والفهم الذي لم يعطه الطير والبهائم؟.

فمن يشأ الله إضلاله، يخلق فيه الضلال، لا بطريق الجبر، لا بطريق الكسب والاختيار منه ﴿وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بأن يرشده إلى الهدى ويحملة عليه، والآية دليل لأهل السنة على أن الإيمان والكفر بإرادته سبحانه ﴿يُضِلْ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤١) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٤٣) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ، فَتَخَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُزِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٥) فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦)﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ هذا قول أمر الله رسوله أن يوجهه إلى الكفار، مذكراً لياهم بما أودع في فطرتهم، من توحيده عز وجل، ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض يفسد فطرتهم وعقولهم، قال الفراء: للعرب في (أرأيت) لغتان: إحداهما رؤية العين، فإذا قلت للرجل أرأيتك، كان المراد هل رأيت نفسك، ثم يثنى ويجمع، والثاني أن تقول: أرأيتك وتريد أخبرني، وإذا أردت هذا المعنى تركت التاء مفتوحة على كل حال، تقول: أرأيتك أرأيتكما أرأيتكم أي أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ حسبما أتى الأمم السابقة ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ التي لا محيص عنها البتة ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ هذا مناط الاستخبار ومحط التبكيت ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أي إن كنتم من الصادقين أخبروني من تدعون؟ والمراد إقامة الحجة عليهم، أنهم يفرعون إلى الله وقت الشدة، لينجيهم من عظيم البلاء، ولهذا قال بعده.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ أي بل تخصصونه تعالى بالدعاء، وتقديم المفعول لإفادة التخصيص ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي فيفترج عنكم عظيم البلاء ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أن يتفضل عليكم، يعني أن قبول دعائهم تابع لمشئته الله المبنية على حكم خفية، قد يقبل وقد لا يقبل ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت، لما ركز في العقول، من أنه تعالى القادر على كشف الضر، دون غيره من الخلق، والنسيان مجاز عن الترك، كما روي عن ابن عباس، ويحتمل أن يكون على حقيقته، فإنهم لشدة الهول ينسون ذلك حقيقة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي والله لقد أرسلنا رسلاً كثيرين بعثناهم ﴿إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ قبل زمانك يا محمد فكذبوا رسلهم ﴿فَأَخَذْتَهُمُ بِالْبَاسِ ۖ وَأَلْضَرُّوا﴾ أي فامتحنناهم بأنواع الشدائد، بالباساء وهي شدة الفقر في العيش، والضراء وهي الأمراض والأسقام ﴿لَقَلَّهْمُ يَضْرَعُونَ﴾ أي لكي يدعوا الله تعالى في كشفها، بالتضرع والتذلل، ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أي هلاً تضرعوا بالتوبة حين جاءهم العذاب ليصرف الله عنهم البلاء؟ أي فلم يتضرعوا حينئذ مع وجود المقتضي، وانتفاء المانع، و«لولا» هنا ليست تحضيضية لأنها تختص بالمضارع، ولما كان التضرع من لين القلب، أخبر عن قساوة قلوبهم فقال: ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فكانه قيل: فما لانت قلوبهم، ولكن قست، أي استمرت على ما هي عليه من القساوة، وازدادت عناداً وفجوراً ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بيان للصارف لهم عن التضرع، وأنه لا مانع عندهم إلا قساوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

﴿فَلَمَّا تَسَاءَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي تركوا ما دعاهم الرسل إليه، وانهمكوا في معاصيهم، ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء ﴿فَتَحَنَّنَ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من السعة، والصحة، وصنوف النعمة، على منهاج

الاستدراج، إلزاماً للحق، وإزاحة للعلة، وامتحاناً لهم بالشدة والرخاء، فقد روي من حديث عُقْبَةَ بن عامر مرفوعاً: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الْعَبْدَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ الْآيَةَ»^(١) ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا﴾ بطروا ﴿بِمَا أُوتُوا﴾ من النعم، يعني حتى إذا اطمأنوا بما أُتِيحَ لهم، وبَطَرُوا وأشَبَرُوا ﴿أَخَذْنَاهُمْ بِفِتْنَةٍ﴾ بعذاب الاستتصال فجأة، ليكون أشد عليهم وقعاً ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ متحسرون غاية الحسرة، آيسون من كل خير، والإبلاس: الانكسار والحزن، يقال أبلس فلان: إذا سكت غمماً، وقيل: للإبلاس ثلاثة معان في اللغة: الحزن، والحسرة، واليأس، وهي معانٍ متقاربة.

﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ﴾ أي آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد، قال الأصمعي: الدابر الأصل، ومنه قطع الله دابره أي أصله، والمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب، ولم يبق منهم أحد، ووضع الظاهر ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ للإشعار بعلة الحكم، فإن هلاكهم بسبب ظلمهم، لأنهم وضعوا الكفر موضع الشكر، والمعاصي مقام الطاعات ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما جرى عليهم من النكال والإهلاك، فإن إهلاك الكفار والعصاة، تخلص لأهل الأرض من أعمالهم الخبيثة، نعمة جليلة، مستوجبة للحمد.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾^(١٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بِفِتْنَةٍ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٩﴾ .

(١) الحديث أخرجه الطبراني والبيهقي ورواه أحمد في المسند ١٤٥/٤ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بتكرير التبكيت عليهم، وهذا أيضاً استخبار أي قل أخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ بأن أصمكم، وأعماكم بالكلية ﴿وَحُخِّمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بأن غطى عليها، بما لا يبقى لكم معه عقل وفهم، فأصبحتم لا تسمعون قولاً، ولا تبصرون طريقاً، ولا تعقلون نفعاً ولا ضرراً ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ؟﴾ من استفهامية أي أخبروني إن سلب الله مشاعركم، من إله غيره تعالى يأتيكم بها؟ ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ تُصْرِفُ الْآيَاتِ﴾ تعجب لرسول الله ﷺ، من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة، أي انظر كيف نكثرتها، تارة من جهة المقدمات العقلية، وتارة من جهة التهيب والترغيب، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون عن ذلك، و«ثم» لاستبعاد الإعراض، بعد تصريف الآيات، يقال: صدف عنه: أي أعرض، وأصدفه عن كذا أماله عنه، فالجملة داخلية في التعجب، أي إنهم بعد ذلك التصريف، الموجب للإقبال والإيمان، يذبّون ويكفرون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ تبكيت آخر لهم يالجهائم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ أي العاجل الخاص بكم، كما أتى من قبلكم من الأمم ﴿بِقِتَّةٍ﴾ أي فجأة بأن لم تظهر أماراته ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ معانيه بعد ظهور أماراته، وتقديم البغته لكونه أهول ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي إلا أنتم، وضع الظاهر موضع الضمير، تسجيلاً عليهم بالظلم، وإيداناً بأن مناط إهلاكهم ظلمهم، والهلاك وإن عمّ الأبرار والأشرار، يكون الهلاك يختص بالشريرين، لأن الأخيار يستوجبون بسبب نزول المضار الثواب، والأشرار يكونون خسروا الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وما نرسل المرسلين إلى الأمم ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاع منهم بالثواب ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ من عصى منهم بالعذاب، ولم نرسلهم ليقترح عليهم، ويتلهم بهم ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به

﴿وَأَصْلَحَ﴾ ما يجب إصلاحه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فلا خوف عليهم فيما يقدمون عليه، ولا هم يحزنون على ما خلفوه في الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي التي بلغتها الرسل لهم، عند التبشير والإنذار ﴿يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ﴾ أي يصيبهم العذاب الذي أنذروه عاجلاً، أو أجلاً، جعل العذاب ماساً لهم، كأنه الطالب للوصول إليهم، واستغنى بتعريفه عن التوصيف ﴿يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر، الذي هو الإصرار على التكذيب.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

﴿قُلْ﴾ أيها الرسول للكفرة الذين يقترحون عليك ما يقترحون ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي مقدوراته، مفردا خزينة أو خزانة، وهي في الأصل ما يُحفظ فيه الأشياء النفيسة، أي قل للكفرة الذين يقترحون عليك، لا أدعي أن خزائن مقدوراته تعالى، مفوضة إليّ، أنصرف فيها حتى تقترحوا عليّ تنزيل الآيات، أو إنزال العذاب، أو قلب الجبال ذهباً، أو غير ذلك مما لا يليق بشأني ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ما لم يُوحَ إليّ حتى

تسألوني عن الساعة أو نحوها ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي من جنس الملائكة، أقدر على ما يقدرون عليه، حتى تكلفوني مما لا يطيق به البشر، من الرقي في السماء ونحوه ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يوْحَىٰ إليَّ من ربي. تَبَرَأَ ﷺ عن دعوى الألوهية، والمَلَكِيَّة، وادعى النبوة التي هي من كمالات البشر، رداً لاستبعادهم دعواه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ مَثَلٌ للضال والمهتدي، والمؤمن والكافر، والاستفهام إنكاري، والمراد هل يتساوى من يعلم الحقائق، ومن لا يعلمها؟ كذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، وفيه التنفير عن الضلال، والترغيب في الاهتداء ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾؟ أي ألا تسمعون هذا الكلام الحق، فلا تتفكرون فيه؟ لتميِّزوا بين ادعاء الحق والباطل؟.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي أنذر وخوِّف يا رسول الله بالقرآن المؤمنين الصادقين، الذين يُرجى إيمانهم، لا الأموات الذين لا ينجع فيهم دواء الإنذار، إنما الذين يتوقع منهم الانتفاع ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المجوزون للحشر، المؤمنون بالحساب والجزاء، فإن الإنذار ينجع فيهم، دون الفارغين الجازمين باستحالته ﴿لَيْسَ لَهُمْ دُونِي وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ حال من ضمير يُحشَرُوا، والمعنى: أنذر به الذين يخافون حشرهم، غير منصوريين من جهة أنصارهم بزعمهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لكي يتقوا الكفر والمعاصي في الدنيا.

﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ سبب نزول الآية ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: مرَّ المَلَأُ من قريش على النبي ﷺ، وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا يا محمد: أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء منَّ الله تعالى عليهم من بيننا؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن تنبِّعك، فأنزل الله هذه الآية^(١) ﴿يَا لَعَدُوَّةَ الْأَعَشَىٰ﴾ أي

(١) أخرجه الطبراني وأحمد في المسند، وأخرجه مسلم بنحوه في فضائل الصحابة رقم ٢٥٠٤.

في الصباح والمساء، وأصلُ الغَدَاةِ البكرةُ، ومعنى العشيّ آخرُ النهار، والمراد بهما ههنا الدوام، كما يُقال: فعله مساءً وصباحاً، إذا داوم عليه، ولم يحصل منه وَجْهٌ أنه طردهم، وقَرَّبَ منه زعماء قريش، وإنما همُّ أن يجعل لأولئك المؤمنين وقتاً خاصاً، ولأشراف قريش وقتاً آخر، ليتألفهم، فيقودهم إلى الإيمان، فنزلت الآية توجّهه إلى الطريق الأسلم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي يدعون ربهم مخلصين فيه، قيّد الدعاء بالإخلاص، تنبيهاً على أنه ملاك الأمر، ورتب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامهم، وينافي إبعادهم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما عليك شيء من حساب إشرافهم وأعمالهم الباطلة، ولا تؤخذ بذنوبهم وإجرامهم، وإنما وظيفتك حسبما هو شأن منصب الرسالة، النظر إلى ظواهر الأمور، وإجراء الأحكام على موجبها، وتفويض الباطن إلى اللطيف الخبير ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ذكره للمبالغة أي: لا تؤاخذ بحسابهم، حتى يهتك إيمانهم، ولا هم ينفعونك حتى تجاملهم وتعطيهم ما يريدون ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فالمعنى: إن أولئك الفقراء يستحقون التقريب، فبطردهم تضع الشيء في غير موضعه، فتكون ظالماً بتعديك حدود الله، وهذا لبيان الأحكام، وحاشاه من وقوع ذلك منه عليه السلام.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي ابتلينا بعضهم ببعض، ابتلينا الغني بالفقير، والشريف بالوضيع، فقلدنا هؤلاء الضعفاء، على أشراف قريش، بالسبق إلى الإيمان، وقد مضت سنة الله تعالى، بأن يسبق الفقراء، إلى إجابة دعوة الرسل الكرام، وإلى دعوة كل إصلاح، لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تبعاً لغيرهم، وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون، لأنه يشقّ عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم، وعلى هذه السنة جرى الملأ من قوم نوح، وهود، وصالح وغيرهم ﴿لِيَقُولُوا﴾ اللام للعاقبة أي ليقول بعض الأغنياء، مشيرين إلى الفقراء، محقرين لهم، نظراً لما بينهما من التفاوت الدنيوي ﴿أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ بأن وفّقهم لإصابة الحق، والفوز بما يسعدهم عنده سبحانه ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي من دوننا، ونحن الرؤساء وهم

الفقراء؟ وهو إنكار لأن يُحَصَّن هؤلاء من بينهم بإصابة الحق، والسَّبق إلى الخير، كقولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾^(١) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوقفه، وبمن لا يقع منه فيخذله؟ والاستفهام لتقرير علمه البالغ بذلك، والمعنى: أليس الله عالماً على أتم وجه، محيطاً علمه بالشاكرين لنعمه حتى يستبعدوا إنعامه!!

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَائِدَتِنَا﴾ وُصفوا بالإيمان، كما وُصفوا بالإخلاص، تنبيهاً على إحرازهم لفضيلتي: العلم، والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يُقَرَّب ولا يطرد، ويُعَزَّز ولا يُذَلَّ، ويُبَشَّر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة^(٢) ﴿فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ أمرٌ منه تعالى بتبشيرهم بالسلامة عن كل مكروه، وأن يبدأهم بالسلام ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الرَّحْمَةُ﴾ أي أوجبها على ذاته المقدسة، بطريق التفضل والإحسان، بسعة رحمته تعالى، وفي التعرض لعنوان الربوبية، إظهار لغاية اللطف بهم ﴿أَنْتُمْ مَنَ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُكُمْ﴾ أي من عمل ذنباً، جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، ﴿ثُمَّ تَأْتِي﴾ عن ذلك ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد عمل المنكر والسوء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي في توبته، بأن أتى بشروطها، من التدارك، والعزم على عدم العود أبداً^(٣) ﴿فَأَنْتُمْ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ أي فشانه سبحانه أنه مبالغ في المغفرة والرحمة له.

(١) سورة الأحقاف، آية: ١١.

(٢) قال القرطبي ٤٣٥/٦: نزلت هذه الآية في الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرني أن أبدأهم بالسلام».

(٣) هذه قاعدة من قواعد الدين، أمر ﷺ بأن يبلغها لأمته، الذين يقعون في بعض المنكرات جاهلين عاقبتها، بأن يتوبوا وينبوا ويصلحوا عملهم، وألاً يغتروا بمغفرة الله ورحمته، فيحملهم الغرور على التفريط في جنب الله فإن ﴿رحمة الله قريب من المحسنين﴾.

﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّا يُفْقَهُونَ﴾ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ
أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِئُكُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا
مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا
تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ
أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا قَسُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا
وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التفصيل الواضح ﴿نَقُصِّلُ﴾ دائماً ﴿الْآيَاتِ﴾ أي القرآنية في صفة أهل الطاعة، وأهل الإجماع، المصرين منهم والأوابين ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ولتستوضح يا رسول الله سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يستحقه، ولذلك فصلنا هذا التفصيل، ولم يذكر سبيل المؤمنين، لأن ذكر أحد القسمين، يدلُّ على الآخر.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين، قطعاً لأطماعهم الفارغة عن ركونك إليهم إني صُرفت ومُنعت بالأدلة الحقانية، والآيات القرآنية ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ﴾ أي عن عبادة الآلهة الذين ﴿تَدْعُونَ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ والمراد بهم الأصنام، إلا أنه عبَّر بصيغة العقلاء، جرياً على زعمهم ﴿قُلْ لَا آتِئُكُمْ أَهْوَاءُكُمْ﴾ تكرير الأمر اعتناءً بشأن المأمور به، وفي هذا القول استجهاً لهم، وتنقيص على أنهم تابعون لأهواء باطلة، ليسوا على شيء من الدين ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت، ولن أكون في زمرة أهل الرشاد، ولهذا قال بعده ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ والمراد وما أنا في شيء من الهدى، حتى أعد في عدادهم، إن أنا سايرتكم على أهوائكم في عبادة غير الله.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ تبيين للحق الذي عليه ﷺ أي: أنا على بصيرة من شريعة الله عز وجل، والمراد بها الوحي والحجج العقلية، والتنوين للتفخيم أي بينة جليلة الشأن ﴿مِنْ رَبِّي﴾ أي كائنه من جهته سبحانه ﴿وَكَذَّبْتُ بِهِ﴾ الضمير للرب، أي كذبتهم به حيث أشركتم به غيره والمعنى: إني على بينة كائنه من ربي، وكذبتهم بالله، بالأخبار التي من جملتها الوعيد بمجيء العذاب، وقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي من العذاب الذي كانوا يستعجلونه، بقولهم بطريق الاستهزاء: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ أي ليس ما تستعجلونه في حكمي وقدرتي، حتى أجيء به ﴿إِنَّ الْحَكْمَ﴾ أي ما الحكم في تأخير ذلك ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وحده من غير أن يكون لغيره دخل بما فيه بوجه من الوجوه ﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾ أي يتبع الحق والحكمة، فيما يحكم به ويُقدَّرُهُ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلَيْنِ﴾ أي خير الحاكمين بين عباده، يحكم بالعدل، ويفصل بين الحق والباطل، ولا يظلم أحداً.

﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي﴾ أي في قدرتي ومكتبي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ﴿لَفَضَيْتُ الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لأهلككم عاجلاً غضباً لربي لأستريح منكم، ولكن الأمر بيد الله عز وجل، قال ابن عباس: أي لو كان الأمر بيدي، لم أنهلكم ساعة ولأهلككم. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي بحالهم، بأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج، لتشديد العذاب، ولذلك لم يفوض الأمر إليّ، ولم يقض بتعجيل العذاب.

﴿وَعِنْدُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ﴾ خزائنه مستعار من المفاتيح التي جمع مفتاح بالكسر، وهو المفتاح الذي تفتح به الخزائن والأبواب، والمقصود أنه سبحانه، هو العالم بالمغيبات جميعها كما هي ابتداء ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لمضمون ما قبله، والمعنى: إن ما تستعجلونه من العذاب، ليس مقدوراً لي حتى ألزمكم به، ولا معلوماً لدي لأخبركم وقت نزوله، بل هو مما يختص به عز وجل، قدرة وعلماً، حسبما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكم والمصالح. روى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «مفاتيح الغيب

خمس، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلا الله، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله، وما تعلم نفس ماذا تكسب غداً، وما تعلم نفس بأي أرض تموت، ولا يدري أحد متى يجيء المطر، إلا الله»^(١) فإن قلت: لم عدّ هذه الخمس، وكلّ المغيبات لا يعلمها إلا الله؟ الجواب لأن شأنهم في الجاهلية الاهتمام بهذه الأشياء فخصّها بالذكر ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هذه تكملة له وتنبيه، على أن الكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء، أي يعلم ما فيهما على اختلاف أجناسها، وكثرة أفرادها سواء كانت في البر والبحر ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها، والمكان الذي سقطت فيه ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ﴾ أي في بطن الأرض، وكفى بالظلمة عن البطن، لأنه لا يدرك ما فيه، كما لا يدرك في الظلمة ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ قيل: الرطب الماء، واليابس البادية، أو ما ينبت، وما لا ينبت^(٢) ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ في علمه تعالى مسجّل في اللوح المحفوظ، الذي هو محل معلوماته سبحانه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦﴾﴾
 وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿١١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿١٢﴾﴾

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرعد ٨/ ٣٧٥ فتح الباري.

(٢) قال في البحر المحيط: وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات، حيث بدأ أولاً بأمر لا ندركه نحن بالحس وهو «مفاتيح الغيب» ثم بأمر ندرك كثيراً منه بالحس وهو «البر والبحر» ثم ثالثاً بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علو، والثاني سفلي وهو اختفاء حبة في بطن الأرض، فدلّ ذلك على أنه تعالى عالم بالكمالات والجزئيات، لا يغيب عن علمه شيء، في الأرض ولا في السماء.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ ينيمكم فيه، استعير التوفي من الموت للنوم، لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أي يعلم ما كسبتم فيه، حصَّ الليل بالنوم، والنهار بالكسب، جرياً على المعتاد ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي يوقظكم في النهار، أطلق البعث ترشيحاً للتوفي، وتوسيط قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ بينهما، لبيان ما في بعثهم من عظيم الإحسان إليهم، بالتنبيه على أن ما يكتسبونه من السيئات، مع كونها موجبة لإهلاكهم، يفيض عليهم الحياة، ويمهلهم كما ينبيء عنه كلمة التراخي ﴿ثُمَّ﴾ كأنه قيل: هو الذي يتوفاكم في جنس الليالي، ثم يبعثكم في جنس النهار، مع علمه بما ستجرحون فيها ﴿لِيُقَضَّىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معيّن لكل فرد، بحيث لا يكاد يتخطى أحد ما عُيِّن له طرفة عين، وهو أجل بقائه في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره أصلاً ﴿مَرَجِعُكُمْ﴾ أي مرجعكم ومصيركم بالموت ﴿ثُمَّ يُنْفِثُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة بأعمالكم التي كنتم تعملونها في تلك الليالي والأيام قيل: الحواس تقبض عند النوم، فأما الروح لا تقبض، إلا إذا انقضى الأجل، وكما يُردُّ الإحساس بعد الإيقاظ، فكذا الأنفس تحيا بعد موتها.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي المتصرف في أمورهم، يفعل بهم ما يشاء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون، والحكمة فيه أن المكلف، إذا علم أن أعماله تُكتب عليه، وتعرض على رؤوس الأشهاد، كان ذلك أزجر له عن المعاصي، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ والمقصود ضبط الأعمال، فمنهم من يقول: إنهم يكتبون الطاعات والمعاصي، بأسرها، بدليل قوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً

(١) سورة ق، آية: ١٨.

وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴿١١﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ حتى للغاية تجعل ما بعدها غاية لما قبلها، كأنه قيل: ويرسل عليكم حفظة مدة حياتكم، حتى إذا انتهت مدة أحدكم، وجاءت أسباب الموت ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ المفوضون لذلك وهم ملك الموت وأعوانه، وانتهى هناك حفظ الحفظة قال الكلبي: إن ملك الموت هو الذي يلي ذلك، ثم يدفع الروح إن كانت مؤمنة إلى ملك الرحمة، وإن كانت كافرة إلى ملك العذاب، وقد جاء إسناد الفعل إلى ملك الموت فقط باعتبار أنه المباشر، وإلى الله تعالى باعتبار أنه سبحانه الأمر الحقيقي ﴿وَهُمْ﴾ أي الرسل ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بالتواني والتأخير.

﴿ثُمَّ رُدُّوْا﴾ أي رُدَّ العباد بعد البعث ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ أي إلى حكمه وجزائه ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ أي مالكمهم وخالفهم ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ لأن المولى هناك يراد به الناصر ﴿الْحَقِّ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره بوجه من الوجوه ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسَيْنِ﴾ يحاسب جميع الخلائق بنفسه في أسرع زمان، لأنه لا يحتاج إلى فكر وروية، ولا يشغله حساب عن حساب، ثم إن كيفية الحساب مما لا تحيط بتفصيلها عقول البشر، وليس لنا إلا الإيمان به، مع تفويض كيفية ذلك إلى الله عز وجل.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَنْجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسَكُمْ شَيْعًا وَيَذِقَ بَعْضُكُم بِأَسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴿١٥﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين: من ينجيكم من شدائد البر والبحر الهائلة، التي تبطل الحواس، وتدهش العقول، والظلمات: كناية عن مخاوفهما وأهوالهما ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي إعلاناً وإسراراً كما روي عن ابن عباس والحسن، ويحتمل أن يُراد بهما باللسان، والقلب ﴿لَئِنْ أُنْجَيْنَا﴾ أي تدعونه قائلين لئن أنجيتنا ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ الشدة والورطة التي عبّر عنها بالظلمات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي الراسخين في الشكر، المداومين عليه لأجل هذه النعمة، لأن الإنسان في هذه الحالة، ينقطع رجاؤه عن كل ما سواه، وتشهد الفطرة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله عز وجل، ولهذا أخلصوا وتضرعوا.

﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ أي الله وحده ينجيكم من هذه الشدائد ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ أي غم يأخذ بالنفس كسائر الهموم والأكدار، والأمراض والأسقام ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تعودون إلى الشرك، ولا توفون بالعهد.

﴿قُلْ هُوَ الْفَائِزُ عَلَيْكَ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ هذا تذكير بقدرته تعالى على تعذيبهم، إثر التذكير بقدرته على تنجيهم، وإنذار بأن عاقبة كفران النعم، أن تزول وتحل محلها النقم، والتنوين للتفخيم أي عذاباً عظيماً ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي من جهة العلو كالصيحة، والحجارة، والريح ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالرجفة، والخسف، والإغراق ﴿أَوْ يَلْسَكُمْ﴾ أي يخلط أمركم عليكم بجعلهم مختلفي الأهواء ﴿شَيْعًا﴾ جمع شيعة أي يجعلكم فرقا متحزبين وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي يقاتل بعضهم بعضاً، أخرج أحمد ومسلم عن ثوبان أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إني سألتُ ربي لأمتي، أن لا يهلكها بسنة عامة - أي بقحط أو جذب - فأعطينيها، وسألتُه أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطينيها، وسألتُه أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها»^(١) الحديث. ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ تُصْرِفُ الْآيَاتِ﴾ على

(١) طرف من حديث طويل أخرجه مسلم رقم ٢٨٨٩ أوله «إن الله زوى لي الأرض فرأيت»

أنحاء شتى من الطريق الخسي، والعقلي، بالوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي كي يعلموا جليلة الأمر، فيرجعوا عما هم عليه، من المكابرة والعناد.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِرَكِيلٍ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوِّيرِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكِّرْهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ﴾ ﴿٦٩﴾

﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أي وكذب بهذا القرآن المجيد ﴿قَوْمُكَ﴾ أي المعاندون منهم لغاية عتوهم وضلالهم ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي كذبوا به والحال أنه الكتاب المنزل بالحق ﴿قُلْ﴾ لهم منها ﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِرَكِيلٍ﴾ أي بحفيظ لأمنعكم من التكذيب، وأجبركم على التصديق، إنما أنا منذر وقد خرجت عن العهدة حيث أخبرتكم.

﴿لِكُلِّ نَبَأٍ﴾ أي لكل شيء من الأنباء، التي من جملتها عذابكم ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ أي وقت استقرار ووقوع البتة ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند وقوعه ما يحل بكم من العذاب.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ الخوض: الدخول فيها بالتكذيب، والاستهزاء، والطعن فيها، كما هو دأب قريش في أنديتهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بترك مجالستهم، والقيام عن مجلسهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي كلام ﴿غَيْرِهِ﴾ أي غير آياتنا ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ بأن يشغلك فتنسى النهي فتجالسهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى﴾ أي بعد تذكر النهي، والخطاب

= مشارفها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيلغ ما رُوي لي منها.. الحديث وأخرجه الترمذي رقم ٢١٧٧ وأبو داود رقم ٤٢٥٢ كلهم في باب الفتن.

لِلرَّسُولِ ﷺ وَالْمَرَادُ غَيْرُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ النِّسْيَانَ الَّذِي مَشَّوَهُ الْوَسَاوِسُ الشَّيْطَانِيَّةُ مُحَالٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيِ مَعَهُمْ، فَوَضَعَ الْمَظْهَرُ مَوْضِعَ الْمَضْمَرِ نَعِيًّا عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ بِذَلِكَ الْخَوْضِ ظَالِمُونَ، وَاضْعُونَ التَّكْذِيبَ وَالِاسْتِهْزَاءَ مَوْضِعَ التَّصْدِيقِ وَالتَّعْظِيمِ، رَاسِخُونَ فِي ذَلِكَ.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وَمَا يُلْزَمُ الْمُتَّقِينَ، مِنْ قَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ ﴿مِنْ حَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيِ مِمَّا يَحَاسِبُونَ عَلَيْهِ مِنْ قَبَائِحِهِمْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: كَيْفَ نَقْعُدُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَنَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَهُمْ يَخُوضُونَ فِيهِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَكِنْ ذَكَّرْنِي﴾ اسْتَدْرَاكُ أَيِ وَلَكِنْ يَذْكُرُونَهُمْ وَيَمْنَعُونَهُمْ، بِمَا أَمَكُنْ، وَيُظْهِرُونَ لَهُمُ الْكَرَاهَةَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَيِ يَجْتَنِبُونَ الْخَوْضَ حَيَاءً أَوْ كَرَاهَةً لِمَسَاءَتِهِمْ.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ غُرَّتُهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُتْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٥٦).

﴿وَذَرِ الَّذِينَ﴾ الْخَطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَيِ دَعِ هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ الَّذِينَ ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الَّذِي كُلَّفُوهُ، وَأَمَرُوا بِإِقَامَةِ أَحْكَامِهِ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ ﴿لِبَآءٍ وَلَهُوَ﴾ حَيْثُ سَخَرُوا بِهِ وَاسْتَهْزَؤُوا، أَوْ اتَّخَذُوا مَا يَتَدِينُونَ بِهِ، شَيْئًا مِنَ اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ ﴿وَغُرَّتُهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ الْفَانِيَّةُ، وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا، حَتَّى زَعَمُوا أَنَّ لَا حَيَاةَ بَعْدَهَا، وَالْمَرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ﴾ تَرَكَ مَعَاشَرَتَهُمْ وَمَخَالَطَتَهُمْ، لَا تَرَكَ الْإِنْذَارَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَكَّرَ بِهِ﴾ أَيِ بِالْقُرْآنِ مِنْ يَصْلُحُ لِلتَّذْكِيرِ، وَقَدْ جَاءَ مُصْرَحًا بِهِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدُ﴾ (١)

(١) سُورَةُ ق، آيَةُ: ٤٥.

والقرآن يفسر بعضه بعضاً ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي لئلا تبسل أي تُسلم للهلكة، والمعنى: وذكر الناس بالقرآن، لئلا تُبْسَلَ كل نفس بما كسبت، أي تُسلم وتُحسب وتُترك في العذاب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(١) ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي ليس للنفس من غير الله تعالى ناصر ينصرها، أو قريب يتولى أمرها ولا شفيع يشفع لها، كقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾^(٢) ﴿وَإِنْ تَعَدَّلْ﴾ تفدي تلك النفس ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ كل فداء مما في الأرض ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أي ذلك الفداء، ولو جاءت بملء الأرض ذهباً ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أي أولئك المتخذون دينهم لعباً ولهواً، المغترون بالحياة الدنيا، هم الذين أهلكوا بما كسبوا ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ من ماء مغلي، تقطع منه أمعاؤهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بنار تشتعل بأبدانهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم المستمر في الدنيا، مع أنهم معذبون بسائر معاصيهم أيضاً حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ لأنه العمدة في أسباب العذاب، والأهم في باب التحذير.

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُمْ أَصْحَابٌ يُدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أِقْنَتًا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُدىً هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

(١) سورة المدثر، آية: ٣٨

(٢) سورة غافر، آية: ١٨

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي أنعبد متجاوزين عبادة الله، الجامع لجميع صفات الألوهية، التي من جملتها القدرة على النفع والضرر، ما لا يقدر على نفعنا إذا عبدناه، ولا على ضررنا إذا تركناه، وأدنى مراتب المعبودية القدرة على ذلك ﴿وَوَرَدُ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ أي ونرد إلى الشرك، والتعبير عنه بالرد على الأعقاب، لزيادة قبحه، مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك، حالة قد بُذت وراء الظهر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ أي هداانا للإسلام، وأنقذنا من عبادة الأصنام ﴿كَأَلَيْكَ أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي أنرُدُّ رداً مثل ردِّ الذي استهوته الشياطين، والاستهواء: من هوى في الأرض إذا ذهب فيها، أي كالذي تخطفته مردة الشياطين وأضلته، فذهبت به في المفاوز والقفار، والكلام وارد على التمثيل، حيث شبه فيه من خلص من الشرك، ثم نكص على عقبيه، بحال من ذهب به الشياطين في أغوار الأرض وأضلته، بعد ما كان على الجادة المستقيمة^(١) ﴿حَيْرَانَ﴾ أي تائهاً ضالاً عن الجادة، لا يدري ما يصنع؟ ﴿لَهُ﴾ أي للمستهوى ﴿أَصْحَابٌ﴾ رفقة ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهَدَى﴾ أي إلى الطريق المستقيم ﴿أَقْبَتَنَا﴾ أي يقولون ائتنا، وفيه إشارة إلى أنهم مهتدون، ثابتون على الطريق المستقيم، قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله، لمن يدعو إلى عبادة الأصنام، ولمن يدعو إلى عبادة الله تعالى، كمثّل رجل في رفقة، ضلّ به الشيطان عن الطريق المستقيم، وجعل أصحابه يدعونه إليهم، وجعل الشيطان يدعوه إليه، فيبقى حيران لا يدري أين يذهب؟ ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الكفار ﴿إِنِّي هَدَى اللَّهُ﴾ الذي هداانا إليه، وهو الإسلام ﴿هُوَ الْهَدَى﴾ أي وحده وما عداه ضلال محض ﴿وَأَمْرَنَا لِلْإِسْلَامِ﴾

(١) هذا مثل ضربه الله عز وجل لمن عبد غير الله، من وثني وصنم، فهو في تخطئه وضلاله، كمثّل الذي اختطفته الشياطين وأضلته، وسارت به في المفاوز والمهالك، فألقته في هوةٍ سحيقة، ولم يستجب لداعي الهدى والفلاح.

الْعَلَمِينَ ﴿١﴾ أي وأمرنا بأن نستسلم لله عز وجل، ونخلص العبادة له في جميع أمورنا وأحوالنا.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ عطف على موضع لنسلم، كأنه قيل: أمرنا أن نسلم، وبأن نقيم الصلاة ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وإلى الله وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أريد بخلقهما خلق ما فيهما أيضاً، وعدم التصريح لظهور اشتمالهما على جميع العلويات والسفليات ﴿يَا الْحَقُّ﴾ أي قائماً بالحق، لا عبثاً وباطلاً، وإظهاراً للحق، لأن صنعه تعالى دليل على وحدانيته عز وجل، ونظير الآية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾^(١) ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ استئناف لبيان أن خلقه للأشياء، ليس مما يتوقف على مادة أو مدة، بل يتم بمحض الأمر، أي وقضاؤه سبحانه كائن، حين يقول لشيء من الأشياء «كن» فيكون ذلك الشيء بدون تأخير ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي استقر الملك له في ذلك اليوم، صورة ومعنى، بانقطاع العلائق الكائنة في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٢) والصور: قرن يُنفخ فيه، ويعرف الناس أمور الآخرة، بأمثال ما شاهدوا في الدنيا، ومن عادة الناس، النفخ بالبوق، عند الأسفار، وهو تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش، إذا نفخ بالبوق، روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور يا رسول الله؟ قال: قرن يُنفخ فيه»^(٣) ﴿عَلَيْكُمُ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ﴾ أي كل غيب وشهادة ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في كل ما يفعله ﴿الْخَيْرُ﴾ بجميع الأمور الخفية والجلية.

(١) سورة ص، آية: ٢٧.

(٢) سورة غافر، آية: ١٦.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١٢٦/٢ وأبو داود رقم ٤٧٤٢ والترمذي رقم ٢٤٣٢ ورواه مسلم بلفظ «إن إسرافيل قد التقم الصور وحني جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ».

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْبَحُ مَا إِلَهَ إِيَّيْكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغْوِمُنِي إِلَى بَرٍّ أَوْ إِلَى سَمٍّ ثُمَّ شَرِكُونِ ﴿٨٠﴾ إِيَّيَّاهُ وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَشِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي اذكر يا رسول الله لهؤلاء الكفار، وقت قول إبراهيم عليه السلام، الذي يدعون أنهم على ملته، موبخاً ﴿لِأَبِيهِ أَسْبَحُ﴾ على عبادة الأصنام، فإن ذلك ممّا ينادي بفساد طريقتهم ﴿أَسْبَحُ مَا إِلَهَ إِيَّيْكَ؟﴾ أي أتجعلها لنفسك آلهة؟ على توجيه الإنكار إلى اتخاذ الجنس ﴿إِيَّيْكَ أَرْبَابَكَ وَقَوْمَكَ﴾ الذين يتبعونك في عبادتها ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ عظيم عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ أي بَيِّن في كونه ضلالاً، لا اشتباه فيه أصلاً، وحكمة كون بعض أقارب الرسل كافرين، هي تقرير أصل التوحيد، الهادم لقاعدة الوثنية، والرسل لا يملكون لأحد ضرراً ولا نفعاً، ولو كان أقرب الناس إليهم، فكيف بغيرهم من البشر؟

﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ﴾ أي مثل ذلك التبصير البديع، نُبَصِّر إبراهيم بملكنا الواسع ونعرّفه به، وإنما عدل عن صيغة الماضي إلى صيغة المستقبل، استحضاراً لصورتها، حتى كأنها حاضرة ومشاهدة ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ربوبيته تعالى وملكيته لهما، وكونهما بما فيهما مربوباً ومملوكاً له تعالى، والملكوت معناه الملك العظيم، والتاء فيه للمبالغة وقيل: ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ أي من زمرة الراسخين في الإيقان، البالغين درجة عين اليقين، من معرفة الله

تعالى، واللام متعلقة بمحذوف أي فعلنا ما فعلنا وأريناه تلك الآيات الباهرة، ليكون من الراسخين في اليقين، لا يخالجه أدنى شك أو ارتياب.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ جنَّ عليه: ستره فمعنى: ﴿جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ ستره بظلامه، وهذه المادة بتصرفاتها تدل على الستر ﴿رَأَى الْكُوكَبَ﴾ جواب لَمَّا، والمراد بالكوكب فيما روي عن قتادة: أنه الزهرة ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وهذا منه عليه السلام على سبيل الفرض، وإرخاء العنان، مجارة مع أبيه وقومه، الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فإن المستدل على فساد قول، يحكيه ثم يكرُّ عليه بالإبطال، وهذا هو الحقُّ الحقيقيُّ بالقبول ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي غاب ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ المتغيرين من حال إلى حال، فإنهم بمعزل من استحقاق الربوبية قطعاً، أفل الشيء أفولاً: غاب.

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أي مبتدأ في الطلوع، منتشر الضوء، قال الأزهري: مأخوذ من البزغ وهو الشق، كأنه بنوره يشق الظلمة، وظاهر الآية أن هذه الرؤية، بعد غروب الكوكب ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وهو على منهاج الكلام السابق ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ كما أفل الكوكب ﴿قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِ رَبِّي﴾ إلى جنبه الحق الذي لا مجيد عنه ﴿لَا كُوتِرَ مِنَّا الْقَوْمُ الضَّالِّينَ﴾ استعان بربه في درك الحق، فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه، إرشاداً لقومه وتبييناً لهم على أن القمر أيضاً، لتغيير حاله لا يصلح للالوهية، وأن من اتخذها آلهاً فهو ضال، والتعريض بضلالهم هنا أصرح وأقوى من قوله: ﴿لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ وفي هذه الجملة دليل على أن استدلاله عليه السلام ليس لنفسه، بل محاجة لقومه، ولما ذكر هذه القصة قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ ولم يقل على نفسه.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وإنما لم يؤنث لصيانة الرب عن وصمة التأنيث، ولأن الشمس تأنثها غير حقيقي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ تأكيد لما رامه من إظهار النصفة، مع إشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى، ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر، وكون الشمس أكبر مما قبلها

مما لا خفاء فيه ﴿فَلَمَّا أَفْلَتْ﴾ كما أفل ما قبلها ﴿قَالَ﴾ لقومه صاعداً بالحق بين ظهرانيهم ﴿يَنْقُومِ إِيَّايَ بِرِيٍّ وَمَا تَشْرِكُونَ﴾ أي من إشراككم، وإنما احتج عليه السلام بالأفول دون البزوغ، مع أنه أيضاً انتقال من حالة إلى حالة، لأنه انتقال مع احتجاب، وأن دلالة الأفول على المقصود ظاهرة، يعرفها كل أحد، ثم لما تبرأ منها، توجه إلى موجدها، الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ﴾ أي أوجد وأنشأ ﴿السَّمَوَاتِ﴾ التي هذه الأجرام من أجزائها ﴿وَالْأَرْضِ﴾ التي تلك الأصنام من أجزائها ﴿حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، ولست من المشركين.. تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه^(١)، والمراد من توجيه الوجه قصده سبحانه بالعبادة وحده.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجِجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(١٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١١) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(١٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّنَا حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(١٣)

(١) قال الحافظ ابن كثير: والحق أن إبراهيم عليه السلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة، وأشدّهم إضاءة الشمس، ثم القمر، ثم الكوكب «الزهرة» فلما انتفت الألوهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع تبرأ منهم فقال ﴿إني بريء مما تشركون﴾.

﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ﴾ أي شرعوا في مغالبته في أمر التوحيد، تارة بإيراد أدلة فاسدة، وأخرى بالتخويف والتهديد ﴿قَالَ﴾ منكرأ عليهم لما اجترؤوا عليه من حاجته بعد وضوح الحق ﴿أَتُحَكِّجُونِي فِي اللَّهِ﴾ في وحدانيته سبحانه ﴿وَقَدْ هَدَانِي﴾ في موضع الحال مؤكد للإنكار، أي وقد هداني ربي وبصّرني بالحق بإقامة الدليل عليكم بوحدانيته، وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ جواب عما خوفوه به، من إصابة مكروه من جهة أصنامهم، كما قال لهود قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾^(١) وهذا التخويف كان على ترك عبادة الأصنام، وقيل: بل على الاستخفاف والاستهزاء بها ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي لا أخاف في وقت من الأوقات، إلا في وقت مشيئته تعالى شيئاً من إصابة مكروه بي، وذلك إنما هو من جهته تعالى، من غير دخل لآلهتكم فيه أصلاً ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء، ومنها أن يكون في علمه تعالى أن يحيق بي مكروه من قبلها ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أنعرضون عن التأمل في أن آلهتكم بمعزل عن القدرة، على شيء ما من النفع والضرر، فلا تتذكرون أنها غير قادرة على إضراري؟ وفي إيراد التذكر دون التفكير، إشارة إلى أن أمر آلهتهم مركوز في العقول، لا يتوقف إلا على التذكير.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي وكيف أخاف آلهتكم المزعومة، التي أشركتموها مع الله في العبادة ﴿وَلَا تَخَافُونِ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ أي ولا تخافون الله الجليل القادر، وهو حقيق بأن يخاف منه، لأنه إشارك بالمدع الصانع، وتسوية للضعيف العاجز بالقادر؟ أي كيف أخاف أنا ما ليس في حيز الخوف أصلاً، وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخوفات، وهو إشارككم بالله الذي فطر السموات والأرض؟ وعبر عنه بقوله سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ يُنَزِّلُ بِهِ﴾ أي بإشارككم ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ على طريقة التهكم، مع

(١) سورة هود، آية: ٥٤.

الإيمان بأن الأمور الدينية لا يعول فيها إلا على الحجة المنزلة من عند الله تعالى ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾؟ أي أينما أحق بالأمن؟ ونحن وقد عرفنا الله بالأدلة الساطعة، أم أنتم وقد أشركتم معه الأوثان، وكفرتم بالواحد الديان؟ أينما أحق بالأمن أنا أم أنتم؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم، فأخبروني بذلك.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ أي لم يخلطوا ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك كما يفعله المشركون، حيث يزعمون أنهم مؤمنون بالله، وأن عبادتهم لغيره من تتمات إيمانهم، لكونها لأجل التقريب والشفاعة.. روي أن هذه الآية لما نزلت على رسول الله ﷺ أشفق منها أصحاب النبي فقالوا: وأينما لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١) فقد ظنوا أن المراد من الظلم المعاصي، فقالوا: أينما لم يظلم نفسه؟ فبين النبي ﷺ أن المراد من الظلم هنا: الشرك ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْآمِنُونَ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر، من الإيمان الخالص عن شائبة الشرك، لهم الأمن فقط ﴿وَهُمْ مُتَهَدُونَ﴾ ومن عداهم في ضلال.

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه ﴿حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أي أرشدناه إليها وعلمناه إياها ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ أي حجة على قومه ﴿رَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ شَأْنٍ﴾ أي رتباً عظيمة عالية، من العلم، والحكمة وما تستدعيه المصلحة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في كل ما فعل من رفع وخفض ﴿عَلِيمٌ﴾ بحال من يرفعه.

(١) الحديث في الصحيحين، فقد أخرجه البخاري في الإيمان ٨٢/١ ومسلم رقم ١٢٤ في الإيمان أيضاً، وفي رواية أخرى: ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٦﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَخُوشًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾ وَمِنْ
آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٩﴾ ذَلِكَ
هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ
فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَفْرِينَ ﴿٩١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ
أَقْتَدِ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي كلا منهما أرشدناه إلى طريق السعادة، لا أحدهما دون الآخر ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل إبراهيم، وعدَّ هداية نعمة، لأن شرف الوالد سارٍ إلى الولد ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ الضمير لإبراهيم عليه السلام، لأن مساق النظم الكريم، لبيان شؤونه الجليلة، من إتياء الحجة، ورفع الدرجات، وهبة الأولاد الأنبياء، وكل ذلك لإلزام من ينتمي إلى ملته، من المشركين واليهود، بأن إبراهيم كان مؤمناً موحداً، لا كما يدعون أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إنما بدأ بذكرهما، لأنهما جمعا بين النبوة والملك، وسليمان هو ابن داود ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما يفهم من النظم الكريم من جزاء إبراهيم ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ جزاء مثل ذلك الجزاء، والمراد بالمحسنين الجنس، ومطلق المشابهة في مقابلة الإحسان بالإحسان من غير بغض، لا المماثلة من كل وجه.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾ وفيه دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنات ﴿وَالْيَاسَ﴾ هو من أسباط هارون ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من

أولئك المذكورين ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ والجملة اعتراض جيء به للثناء عليهم.

﴿وِإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا﴾ إسماعيل هو ابن إبراهيم، ولوط هو ابن أخ إبراهيم ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا﴾ بالنبوة ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي على عالمي عصرهم، وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق، وقد ذكر الله تعالى أربعة عشر نبياً، لم يرتبهم على حسب تاريخهم، لأنه تعالى أنزل كتابه هدى وموعظة، لا لسرد أخبار التاريخ.

﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ﴾ آدم، وشيث، ونوح، وهود، وصالح ﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم الجماعات الكثيرين، وإن لم يكونوا جميعاً أنبياء، فهم مؤمنون مهتدون. ﴿وَأَجَبْنَاهُمْ﴾ أي اصطفيناهم ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لبيان ما هدوا إليه.

﴿ذَلِكَ﴾ الهدى إلى الطريق المستقيم ﴿هُدًى اللَّهِ﴾ الإضافة للتشريف ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ هدايته ﴿مِنَ عِبَادِهِ﴾ وهم المستعدون لذلك، وتفيد الآية على أنه تعالى متفضل بالهداية عليهم ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ أي أولئك المذكورون مع فضلهم وتقدمهم ﴿لَحِطْنَا عَنْهُمْ﴾ لبطل وسقط عنهم مع علو شأنهم ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال المرضية، فكيف بمن عداهم؟.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من الأنبياء، باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الجليلة ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي فصل الأمر بين الناس بالحق، أو الحكمة وهي معرفة حقائق الأشياء ﴿وَالنَّبُوءَةَ﴾ إنما ذكر الأعم، لأن بعض من دخل في آبائهم وذرياتهم، ليسوا برسول ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ﴾ أي كفار قريش، فإنهم بكفرهم برسول الله ﷺ وما أنزل عليه كفارون بجميع الرسل ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي أمرنا بمراعاتها، ووفقنا للإيمان بها، والقيام بحقوقها ﴿قَوْمًا لِّيَسْؤُلَهَا يَكْفُرِينَ﴾ في وقت من الأوقات، بل مستمرين على الإيمان بها،

وفي الآية دليل على أنه عز وجل ينصر رسوله ﷺ، ويقوي دينه، وقد حقق له ذلك.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من الأنبياء ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ إلى الحق، والنهج المستقيم ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ اقْتَدَاهُ﴾ المراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله تعالى، وتوحيده، وأصول الدين والافتداء المأمور به ليس إلا في الأخلاق الفاضلة، كالحلم، والصبر، والزهد، والشكر، والتضرع، ونحوها، وأنه ﷺ قد امثل وأتى بجميع ذلك، فاجتمع فيه من خصال الكمال، ما كان متفرقاً فيهم، وفي أمره ﷺ بالافتداء بهداهم، دون الافتداء بهم، ما لا يخفى من الإشارة إلى علو مقامه!! ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ أي لا أطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ، أو القرآن، فإن مساق الكلام يدل عليهما، وإن لم يجز ذكرهما ﴿أَجْرًا﴾ أي جُعلاً من جهتك، كما لم يسأل من قبلي من النبيين، وهذا من جملة ما أمر بالافتداء بهداهم، لأن عدم أخذ الأجر في مقابلة الإحسان، من مكارم الأخلاق ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي تذكير وعظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ كافة من جهته سبحانه فلا يختص بقوم دون قوم وفيه دليل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى جميع الخلق من الإنس والجن.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُهُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّهُ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ شَأْنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّهُ نِعْمَةٌ جَلِيلَةٌ عَلَى كَافَّةِ الْأُمَمِ، عَقَّبَ ذَلِكَ بَبَيَانِ كُفْرِهِمْ بِهِ، عَلَى وَجْهِ سَرَرٍ ذَلِكَ إِلَى الْكُفْرِ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْمَعْنَى: مَا عَرَفُوا اللَّهَ تَعَالَى ﴿حَقَّ قَدْرَهُ﴾ أَيَّ حَقِّ مَعْرِفَتِهِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ: مَا عَظَمُوا اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ تَعْظِيمِهِ، وَمَا قَالَهُ الْأَخْفَشُ أَوْفَقَ بِالْمَقَامِ، أَيَّ مَا عَرَفُوهُ سُبْحَانَهُ، فِي اللَّطْفِ بِعِبَادِهِ، وَالرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَرَاعُوا حَقُوقَهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ، بَلْ أَخْلَوْا إِخْلَالًا عَظِيمًا ﴿إِذْ قَالُوا﴾ مُنْكَرِينَ لِبَعْثَةِ الرَّسُولِ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّهُمْ مُشْرِكُوا قَرِيشَ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُمْ الْيَهُودُ، وَمَرَادُهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْمُبَالَغَةُ فِي إنْكَارِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، بِدَلِيلِ نَقْضِ كَلَامِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ أَيَّ قُلْ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقَةِ التَّبْكِيتِ وَالتَّقْرِيعِ عَلَى سُوءِ جَهْلِهِمْ.

رَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ أَنَّ مَالِكَ بْنَ الصَّيْفِ - مِنْ أَحْبَابِ الْيَهُودِ - قَالَ ﷺ لَهُ: أَنْشُدْكَ اللَّهَ تَعَالَى الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَجِدُ فِيهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُغْضِ الْخَبَرَ السَّمِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ ﷺ: فَأَنْتَ الْخَبَرُ السَّمِينُ، فَضَحَكَ الْقَوْمُ، فَغَضِبَ فَقَالَ: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ الْآيَةُ، ثُمَّ إِنَّ وَصَفَ الْكِتَابِ، بِالْوُصُولِ إِلَيْهِمْ، لَزِيَادَةِ التَّقْرِيرِ، وَكَذَا تَقْيِيدِهِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿تُورَا وَهْدَى﴾ فَإِنَّ كَوْنَهُ بَيِّنًا بِنَفْسِهِ، وَمَبِينًا لْغَيْرِهِ، مِمَّا يُؤَكِّدُ الْإِلْزَامَ ﴿لِلنَّاسِ﴾ أَيَّ هَدًى كَانَتْ لِلنَّاسِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا، مُجَرَّدُ الْإِلْزَامِ بِالْاعْتِرَافِ فَقَطْ، بَلْ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ أَيْضًا، فَإِنَّ الْاعْتِرَافَ بِإِنْزَالِهَا مُسْتَلْزَمٌ لِإِنْزَالِهِ، لَمَّا فِيهَا مِنَ الشُّوَاهِدِ، وَقَدْ نَعَى عَلَيْهِمْ مَا فَعَلَ بِهَا مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ، حَيْثُ قِيلَ: ﴿تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا﴾ أَيَّ تَضَعُونَهُ فِي قُرَاطِيسَ مَقْطَعَةٍ، وَوَرَقَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَفِيهِ زِيَادَةُ تَوْبِيخٍ لَهُمْ بِسُوءِ صَنِيعِهِمْ، كَأَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ مِنْ جَنْسِ الْكِتَابِ، وَنَزَلُوهُ مُنْزَلَةَ الْقُرَاطِيسِ الْخَالِيَةِ عَنِ الْكِتَابَةِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ وَضْعُهُمْ لَهُ فِي قُرَاطِيسَ، إِذْ كُلُّ كِتَابٍ لَا يَدَّ أَنْ يُوَدَعَ فِي الْقُرَاطِيسِ، بَلْ الْمُرَادُ التَّوْبِيخُ عَلَى الْجَعْلِ فِي قُرَاطِيسَ مَوْصُوفَةً بِقَوْلِهِ

سبحانه: ﴿تُبَدُّوْنَهَا وَتُخَفُّوْنَ كَثِيْرًا﴾ أي كثيراً منها، والمراد من الكثير نعوت النبي ﷺ وسائر ما كتّموه من الأحكام، كرجم الزاني المحصن، وهذا خطاب لليهود بلا مرية، وكانوا يفعلون ذلك مع عوامهم متواطئين عليه ﴿وَعَلِمْتُمْ﴾ يا أهل الكتاب بالكتاب ﴿مَا لَمْ تَقْلَمُوا أَشْرَ وَلَا أَبَاؤُكُمْ﴾ من أمور دينكم ودنياكم ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بأن يجيب عنهم، إشعاراً بتعيين الجواب، بحيث لا محيد عنه، وإيداناً بأنهم أفرحوا ولم يقدروا على التكلم ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ﴾ دعهم ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه، ولا عليك بعد إلزام الحجة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ولفظة ﴿الله﴾ جملة حُذِفَ أحد جزئها، أي الله أنزله.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ هذا تحقيقٌ لنزول القرآن على محمد ﷺ وتكذيبٌ لهم في كلمتهم الشنيعة ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع، لاشتماله على منافع الدارين، وعلوم الأولين والآخرين ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الكتب التي قبله، وتصديقه للكل، في إثبات التوحيد، ونفي الشرك، وأصول الشرائع التي لا تُنسخ ﴿وَلِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أي لإندارك أهل مكة، سُمِّيت بذلك لأنها قبله أهل البلاد، وَمَحْجُّهُمْ، وأعظم القرى شأناً وهم يجتمعون عندها كاجتماع الأولاد عند الأم، ويعظمونها تعظيم الأم ﴿وَمَنْ حَوَّلَهَا﴾ من أهل المدر والوبر، في المشارق والمغارب، لعموم بعثته ﷺ لجميع الناس ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وبما فيها من الثواب والعقاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن الكريم، فإن من صدّق بالآخرة، خاف العاقبة، ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر، حتى يؤمن بالنبي والكتاب، ويحافظ على الطاعة، وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين، وعلم الإيمان، وأما المنكرون للبعث والجزاء، فلا يشعرون بشدة الحاجة إلى هداية القرآن، ومشركو مكة أعرضوا عن القرآن لأنهم لا يعتقدون البعث ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يؤدونها في أوقاتها، بأركانها وشرائطها وآدابها، فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها من العبادات.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾
 وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ
 وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
 الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٦﴾
 وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ
 وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ
 وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٧﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي لا أحد أظلم منه ^(١)، كالذين
 قالوا: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ من جهته تعالى
 ﴿ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أي أنا قادر على مثل ذلك، كالذين قالوا: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ
 هَذَا ﴾ وقد دخل في حكم هذه الآية، كلٌ من افتري على الله كذباً، في
 ذلك الزمان وبعده، لأن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم ﴿ وَلَوْ تَرَى
 إِذِ الظَّالِمُونَ ﴾ أي ولو ترى الظالمين إذ هم ﴿ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ أي
 شدائده، من غمره إذا غشيه، والغمرة: الشدة، ومنه غمرات الموت،
 وتقييد الرؤية بهذا الوقت ليفيد رؤيتهم على حال فظيعة عند كل ناظر،
 وجواب الشرط محذوف، أي لرأيت أمراً فظيماً هائلاً ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ وهم
 أعوان ملك الموت ﴿ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ لقبض أرواحهم، كالمقتاضي الملح،
 يبسط يده إلى من عليه الحق، ويُعْتَفَ عليه في المطالبة، من غير إمهال،
 أو باسطو أيديهم بالعذاب، قائلين ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي أرواحكم من

(١) الاستفهام إنكاري معناه النفي، أي لا أحد أظلم منه على معنى: إنه أظلم من كل
 ظالم، وزيادة قوله: ﴿ كَذِبًا ﴾ مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك، للإيذان بأن ما قالوه
 مع أنه افتراء هو كذب في نفسه، فقد جمعوا بين الكذب، وجريمة الافتراء على الله.

أجسادكم، أو خلصوا أنفسكم من العذاب ﴿الْيَوْمَ﴾ أي وقت الإمامة أو الوقت الممتد إلى ما لا نهاية له ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي العذاب المتضمن للشدة والإهانة، وحاصل المعنى: ولو ترى أيها المخاطب ما يحلُّ بالظالمين عند الموت، وما بعده، لرأيت أمراً فظيماً ﴿يَمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ مفترين ﴿عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من ادعاء الوحي، ودعوى النبوة كذباً ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تتأملون فيها، ولا تؤمنون بها.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء ﴿فُرْدَى﴾ أي منفردين عن الأعوان والأوثان التي زعمتم أنها شفعاؤكم، وعن الأولاد والأموال ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي على الهيئة التي وُلدتم عليها، عُراً، وحُفَاة، كما روي عن عائشة أنها قرأت هذه الآية، قالت يا رسول الله واسوأته، النساء والرجال سيحشرون جميعاً، ينظر بعضهم إلى سوءة بعض؟ فقال ﷺ: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه»^(١) ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا، من الأموال، والأولاد، والخدم ﴿وَرَأَى ظُهُورَكُمْ﴾ أي في الدنيا، ولم تحملوا فقيراً وهذا يدل على أن ما يكتسبه الإنسان، ولم يصرفه في الخيرات، فصفتة هذه التي ذكرها، أمّا إذا صرفها إليها، فما تركها وراء ظهره، بل قدّمها تلقاء وجهه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي شركاء الله في ربوبيته واستحقاق عبادتكم لها، تعالى الله عن ذلك، وبخ الله تعالى المشركين بذلك، ثم يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي وقع التقطع بينكم، وأصله لقد تقطع ما بينكم ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ ضاع وبطل ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاؤكم، أو أن لا بعث ولا جزاء.

(١) أخرجه الحاكم وصححه، ورواه الترمذي في التفسير ٤٠٣/٥ بلفظ: «تُحْشَرُونَ حُفَاة، عُراً، غُرْلًا - أي غير مختونين - فقالت امرأة أبيضر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: يا فلانة ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ ﴿١٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ .

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ شروع في تقرير بعض بدائع الله تعالى، الدالة على كمال علمه وقدرته، إثر تقرير أدلة التوحيد، والفلق: الشق أي شاق الحب بالنبات، والنوى بالشجر، ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي مخرج ما ينمو من الحيوان والنبات، مما لا ينمو من النطفة والحب ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كالنطفة والحب ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾ كالحيوان والنبات، أو المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، ولما كان الحي أشرف من الميت، وجب الاعتناء بإخراج الحي أكثر من الاعتناء بإخراج الميت، فلذا وقع التعبير عن الأول بصيغة الفعل ﴿يُخْرِجُ﴾ وعن الثاني بصيغة الاسم ﴿وَمُخْرِجُ﴾ تنبيهاً على أن الاعتناء بإيجاد الحي أكثر وأكمل، من الاعتناء بإيجاد الميت من الحي ﴿ذَلِكَمُ﴾ القادر العظيم الشأن هو ﴿اللَّهُ﴾ المستحق للعبادة وحده ﴿فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته، وتشركون به من لا يقدر على شيء أصلاً؟ .

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ الإصباح في الأصل مصدر أصبح، إذا دخل في الصباح، سُمِّيَ به الصبحُ والصبحُ مثله وهو أول النهار، فلقه عن بياض النهار، أي فالق ظلمة الإصباح بالإصباح، وذلك لأن الأفق مملوء من الظلمة، فشق سبحانه ذلك بالنور الذي ظهر في الجانب الشرقي ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي يسكن إليه من يتعب بالنهار، ويستأنس به، لاسترواحه فيه، وكل ما يسكن إليه الرجل ويطمئن به، من زوج أو حبيب يقال له: سكن، والمعنى سكن فيه كل طير ودابة أي: جعل الليل مسكوناً فيه، أخذاً له من السكون ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ معطوفان على الليل أي مجعولان ﴿حُسْبَانًا﴾ على أدوار مختلفة، تُحسب بهما الأوقات التي نيطت بها العبادات، والمعاملات، والحُسبان بالضم مصدر حسبت، والمصدر حساباً

بالكسر، وحُسباناً بالضم، أي أحصيت عدداً ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره في هذه الآية ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الغالب القاهر، الذي لا يتعاصاه شيء من الأشياء، ومبالغ في العلم بجميع المعلومات، التي من جملتها المصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ أي أنشأ لأجلكم النجوم ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ أي جعلها كائنة لاهتدائكم في أسفاركم، عند دخولكم المفاوز أو البحار، إذا ضللتكم وتحيرتم فيه، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي في ظلمات الليل، في البر والبحر، ذكر تعالى هنا بعض منافعها، وهو الاهتداء إلى البلدان في الأسفار، ومن منافعها يستدلون بالنجوم على القبلة، ومنها أنها زينة السماء، ولا بأس في تعلم علم النجوم ومعرفة البروج والمنازل، ونحو ذلك، مما يتوصل به إلى مصلحة دينية، قال العلامة ابن حجر: والمنهي عنه من علم النجوم، ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في المستقبل، يزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب، فمن ادعى علمه بذلك فهو فاسق، فأما الإخبار عما يُدرك بطريق المشاهدة من علم النجوم، الذي يُعلم به الزوال، وجهة القبلة، وكم مضى، وكم بقي من الوقت، فإنه لا إثم فيه، بل هو فرض كفاية ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي بينا الآيات التكوينية، والحجج الدالة على شؤونه تعالى، فصلاً، فصلاً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي معاني الآيات المذكورة، ويفكرون في عظمة الخالق جلّ وعلا، وتخصيص التفصيل بهم، لأنهم المنتفعون به.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ تذكير لنعمة أخرى، فإن رجوع الكثرة إلى أصل واحد، أقرب إلى التواضع والتعاطف، وفيه أيضاً دلالة على عظيم قدرته سبحانه ﴿مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ هي آدم عليه السلام ﴿فَسَتَرُواْ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي فلکم استقرار في الأصلاب، واستيداع في الأرحام، وقيل: المستودع: القبر، والمستقر: إما الجنة أو النار، وقال مجاهد: المستقر على الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ والمستودع القبر ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ذكر تعالى مع النجوم. ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لأن أمرها ظاهر، وذكر مع تخليق آدم ﴿يَفْقَهُونَ﴾ لأن إنشاء بني آدم من نفس واحدة دقيق يحتاج إلى استعمال فطنة، وتدقيق نظر^(١).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تذكير لنعمة أخرى، منبئة عن كمال قدرته عز وجل ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي بسبب الماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي أخرجنا بهذا الماء من جميع أنواع النبات ما هو غذاء للبشر ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ خَضِر اللون، خَضِرًا من باب تعب فهو خَضِر وأكثر ما يستعمل الخضر، فيما تكون خضرته خلقية، والخَضِرُ بمعنى الأخضر، والمعنى: فأخرجنا من النبات الذي لا ساق له، شيئاً غصاً أخضر، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿تُخْرِجُ مِنْهُ﴾ أي تُخرج من ذلك الخَضِر ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ أي بعضه فوق بعض، وهو السنبل المنتظم للحبوب، متراكبة على هيئة مخصوصة، مثل سنبل القمح، والشعير، والأرز ونحوها،

(١) في القرآن أسرار دقيقة، لا يفطن لها الإنسان إلا بإمعان النظر، وهذه ظاهرة من ظواهر الإعجاز، فقد عبّر تعالى عن الأمور التي تحتاج إلى تفكير وتبصر بقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ إشارة إلى أن أطوار الخلق في الإنسان، وما احتوى عليه من العجائب، أمر خفيّ تحيّر فيه الألباب، فلذلك ختمت الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي يفهمون ويدركون الأسرار والدقائق، بخلاف النجوم فإن أمرها ظاهر مشاهد، لا تحتاج إلى كثير عناء، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فتدبر دقائق أسرار القرآن!!

وتقديم الزرع على الأشجار، لأن حاجة الناس إليه أكثر ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ النخل يستعمل في الواحد والجمع ﴿مِنْ طَلْمِهَا﴾ الطلع شيء يخرج من النخل كأنه عُبَارٌ، والَطَّلُعُ أول ما يبدو من ثمر النخل، فإذا شق كيزانه سمي عِدْقاً وهو القِنُؤُ ﴿قِنُونٌ﴾ وهو جمع قنو وهو عنقود النخلة، وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب ﴿دَانِيَةٌ﴾ سهلة للمجتنى، قريبة من القاطف، وقيل: المراد دانية من الأرض بكثرة ثمرها وثقل حملها ﴿وَجَعَلَتْ مِنْ أَغْطَبٍ﴾ أي وأخرجنا به جنات من أغناب ﴿وَالزَّيْتُونِ وَالرَّمَّانِ﴾ منصوبان على الاختصاص، وتخصيصهما بالذكر لعزة هذين الصنفين عندهم، ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ﴾ يقال اشتبه الشيطان وتشابها، نحو استويا وتساويا، أي مختلفاً في الطعم، والقدر، واللون، وغير ذلك من الأوصاف، الدالة على كمال قدرة صانعها، قال قتادة: مشتبهاً ورقه، مختلفاً ثمره ﴿أَنْظُرُوا﴾ نظر اعتبار واستبصار ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾ أي ثمر كل واحد من ذلك ﴿إِذَا أَمَرَ﴾ أي إذا أخرج ثمره، كيف يشمر ضئيلاً، لا يكاد ينتفع به ﴿وَسَوَّوْهُ﴾ أي نضجه وإدراكه كيف يصير إلى كماله اللائق به، ويكون شيئاً جامعاً لمنافع جمّة؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكُمْ﴾ إشارة إلى ما أمر بالنظر إليه ﴿لَا يَكُنْ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لآيات عظيمة، دالة على وجود القادر الحكيم ووحدانيته، فإن حدوث الأجناس المختلفة من أصل واحد، وانتقالها من حال إلى حال، بشكل بديع، تحار في فهمه الأبواب، لا يكون إلا بإحداث عالم، قادر، يعلم تفصيلها، ويرجح ما تقتضيه حكمته، ولا يقدر على ذلك أحد، إلا الله عز وجل، ولذلك عقب الله بتوبيخ من أشرك فقال سبحانه:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهِ بَيْنَ وَبَيْنَ يَغْيِرِ عِلْمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾

فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ﴾ الذي شأنه ما فُصِّل ﴿شُرَكَاءَ﴾ في الألوهية ﴿الْجِنَّ﴾ أي الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة الأوثان ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ حال

من فاعل جعلوا، والمعنى: وقد علموا أن الله تعالى خالقهم، دون الجن، وليس من يخلق كمن لا يخلق؟ ﴿وَحَرِّقُوا لَهُمْ﴾ افعلوا وافتروا له، قال الفراء: يقال خُلِقَ الإفك، واختلقه، وحرَّقه بمعنى، وقال الراغب: أصل الخرق قطع الشيء على سبيل الفساد، من غير تفكير ولا تدبر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَخْرَجْنَاهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهو ضدُّ الخلق، فإنه فعل الشيء بتقدير ورفق، أي وزوروا له ونسبوا إليه ﴿بَيْنَ وَبَيْنَ﴾ فقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله، والله تعالى منزلة عما قاله السفهاء ﴿يَغْيِرُ عِلْمَ﴾ أي بغير علم بمرتبة ما قالوه، وأنه من الشناعة بحيث لا يُقادر قدره ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزهه وتقدس عما قالوه، من أن له شريكاً أو ولداً، وهذه غاية السفاهة والجهالة، فكيف يجعلونهم شركاء وهو المنزه عن المثل والنظير؟

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي موجدتهما بغير آلة، ولا مادة، ولا زمان، ولا مكان، ومعنى ذلك: أن إبداعه لهما لا نظير له، لأنهما أعظم المخلوقات الظاهرة ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾؟ أي من أين يكون أو كيف يكون له ولد؟ لأن الولد جزء الوالد، والله تعالى منزلة عن الجزئية والبعضية بالكلية، فكيف يمكن أن يكون له ولد؟ ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ أي كيف يكون له ولد، وليس له زوجة؟ والولد لا يكون إلا من زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه^(١) ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم، فلا تخفى عليه خافية.

(١) الغرض من الآية الردُّ على من نسب لله الولد، من وجهين: أحدهما: أن الولد لا يكون إلا من جنس والده، والله تعالى متعالٍ عن الأجناس لأنه مبدعها.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْآَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآَبْصَرَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٧﴾﴾

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ الخطاب للمشركين، والإشارة إلى المنعوت بجلال النعوت ﴿رَبُّكُمْ﴾ مالك أمركم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أخبار أربعة مترادفة، أي ذلك الموصوف، هو الله المستحق للعبادة خاصة، مالك أمركم، لا شريك له أصلاً، وخالق كل شيء مما كان وما سيكون ﴿فَأَعْبُدُوهُ﴾ فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة، أي فاعبدوه، ولا تعبدوا من دونه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي وهو مع تلك الصفات، متولي أموركم، فكلوها إليه، وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم.

﴿لَا تَدْرِكُهُ الْآَبْصَارُ﴾ أي لا تحيط به تعالى الأبصار، جمع بصر، وهي حاسة النظر، والإدراك: اللحاظ والإحاطة، والآية نفت الإحاطة ولم تنف الرؤية، فلم يقل تعالى: لا تراه الأبصار، وإنما قال ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْآَبْصَارُ﴾ أي لا تحيط به إحاطة معرفة وشمول كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ واستدلال المعتزلة بالآية على نفي رؤية الله في الآخرة وهو خطأ كبير، لمعارضتها للنصوص الثابتة الصريحة في رؤية المؤمنين لربهم في الجنة. قالوا: إن رؤيته تعالى مستحيلة، ومذهب أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، واحتجوا بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة، قال الله تعالى: ﴿وَجُودُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾^(١) واستدلوا بما رواه

= الثاني: أن الله خلق السموات والأرض، ومن كان بهذه العظمة، فهو غني عن الولد، وعن كل شيء، وهذا غاية الوضوح والجلال.

(١) سورة القيامة، آية: ٢٢ - ٢٣.

الشيخان عن جرير قال: كنا جلوساً ليلة مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر وكان بدرأ فقال: «إنكم سترون ربكم، كما ترون القمر ليلة البدر...» الحديث. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي لا يحيط ببصر أحد بالله تعالى، وإليه ذهب الكثير من أئمة اللغة، يقال: رأيتُه وما أدركه بصري، أي ما أحاط به من جوانبه ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي يراها على وجه الإحاطة والشمول، إذ لا تخفى عليه خافية، وخص إدراك الأبصار، مع أنه تعالى يدرك كل شيء، لرعاية المقابلة وهو نوع من البلاغة لطيف ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أي اللطيف بعباده، الخبير بشؤونهم ومصالحهم فيدرك ما لا تدركه الأبصار.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أَلْفَسُوا وَلَيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنَبَيِّنَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة، وهي للنفس كالبصر للبدن، سُميت بصائر لأنها تجلي الحق وتبصره، وهي نورٌ في القلب تستبصر به النفس، كما أن البصر نورٌ تبصر به العين، والمراد بها ههنا الآيات القرآنية، أي جاءكم القرآن بالآيات البينات، والحجج الواضحات، التي تبصرون بها الهدى من الضلال، فهو كالْبصائر للقلوب ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحق بتلك البصائر، وآمن وعمل صالحاً ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ فلنفسه أبصر، ونفعه مخصوص بها ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ أي ومن لم يبصر الحق، بعدما ظهر له بتلك البصائر وضل عنه ﴿فَعَلَيْهَا﴾ أي وباله وضرره عليها، لا يضُرُّ غيره، وإنما عبر عنه بالعمى تقييحاً وتنفيراً عنه، وعمى البصائر شرٌّ من عمى الأبصار ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وإنما أنا منذر، والله تعالى هو الذي يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي مثل ذلك التصريف نصرف الآيات، أي نوضحها ونبينها ليعتبروا ويتعظوا ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ أي قرأت وتعلمت، وليس هذا بوحى منزل، وقد قالوا هذا إفكاً وزوراً، وزعموا أنه ﷺ تعلم من غلام رومي، كان يصنع السيوف بمكة، أو تعلم من اليهود هذه الأخبار ﴿وَلَنُبَيِّنَنَّ﴾ أي ولنبين هذا القرآن ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحق من الباطل، فإنهم هم المتفعلون به.

﴿أَتَبِعَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١١٧﴾.

﴿أَتَبِعَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي دم على ما أنت عليه من الشرائع والأحكام، التي عمدتها التوحيد، ولا تلتفت لأفعالهم وأقوالهم، والمقصود تقوية قلبه، وإزالة حزنه ﷺ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تحتفل بأهوائهم، ولا تلتفت إلى أذاهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ عدم إشراكهم ﴿مَا أَشْرَكُوا﴾ وهذا دليل على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر، لعدم صرف اختياره نحو الإيمان، وإصراره على الكفر، ولو اختاروا الإيمان لهداهم إليه ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أي رقيباً مهيمناً تحفظ عليهم أعمالهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي من جهتهم تقوم بأمورهم، وتدبير مصالحهم، إنما أنت مبلغ.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٨﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي لا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح، كأن تقولوا: تبا لكم ولآلهتكم وقيل: إن سبَّ الآلهة، سبَّ لهم، كما يقال: ضربت الدابة صفعاً لراكبها ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل، بأن يقولوا لكم مثل قولكم لهم ﴿يَغْيِرُ عَلِيمٌ﴾ أي لعدم معرفتهم بعظمة الله وجلاله. أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: قالوا يا محمد لتنتهين عن سبِّ آلهتنا أو لنهجون ربك!! فنهاهم الله تعالى أن يسبوا أوثانهم، وظاهر الآية وإن كان نهياً عن سب الأصنام، فالغرض النهي عن السبِّ الذي يكون وسيلة إلى سبِّ الله عز وجل، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية وجب تركها، فإن ما يؤدي إلى الشر شرٌّ، والسبُّ عن جهل يقع كثيراً من المختلفين في الدين، يسبُّ يهودي نبيَّ نصراني، والنصراني يسبُّ نبي اليهودي، ويسب شيوعي سنياً وينتقص أبا بكر، فيسب السني علماً، وهذا كله من الجهل والغضب والغيظ ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك التزيين القوي ﴿زِينًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ﴾ من الخير والشر، بإحداث ما يمكنهم منه، قال ابن عباس: زيناً لأهل الطاعة الطاعة، ولأهل الكفر الكفر ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ﴾ مالك أمرهم ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ أي رجوعهم ومصيرهم، بالبعث بعد الموت ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي فيجازيهم على أعمالهم، وهو وعيد بالجزاء، كقول الرجل لمن يتوعدده: سأخبرك بما فعلت، وفيه نكتة خفية، مبنية على حكمة، وهي أن كل ما يظهر في هذه النشأة من الأعيان والأعراض، فإنما يظهر مخالفاً لصورته الحقيقية، فإن المعاصي سموم قاتلة، قد برزت في الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة، كالمرأة الفاتنة الحسناء، ستظهر في الآخرة بصورة منكرة قبيحة، عند ذلك يعرفون حقيقة أعمالهم المنكرة.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿وَأَقْسَمُوا﴾ أي المشركون ﴿يَاللَّهُ جَهَدْ أَيْمَانَهُمْ﴾ الجَهْد بفتح الجيم وضمها: الطاقة والمشقة، يُقال: جهد الرجل في كذا أي جدَّ فيه وبالع، والمعنى هنا أنهم حلفوا، واجتهدوا في الحلف، أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من مقترحاتهم التي طلبوها، والداعي إلى هذا القسم، التحكم على الرسول ﷺ في طلب الآيات، واستحقار ما رأوا منها، فاقترحوا غيرها، وحالهم هو المكابرة والعناد، والتمادي في العتو والفساد ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾. والمراد من الإيمان بها: التصديق بالنبي ﷺ ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي أمر هذه المعجزات عند الله وحده، وفي حكمه خاصة، يتصرف فيها حسب مشيئته، لا قدرة لي على الإتيان بها، وهذا سدُّ لباب الاقتراح من المشركين ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كلام مستأنف لبيان الحكمة الداعية لعدم مجيء الآيات، خوطب به المسلمون لأنهم كانوا راغبين في نزولها، طمعاً في إسلامهم، أي أي شيء يعلمكم أيها المسلمون حالهم، وما سيكون عند مجيء الآيات، فلعلها إذا جاءت لا يؤمنون بها، فما لكم تطلبون مجيئها؟!.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ أي وما يشعركم أنا نقَلِّبُ أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يدركونه، وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه، لإعراضهم بالكلية عن النظر في الآيات الكونية ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي كما كفروا بالقرآن أول مرة، واستمروا على الكفر والضلال ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي نخليهم وشأنهم، بعدما علّم فساد استعدادهم، وفرط نبوهم عن الحق، وندعهم في طغيانهم متحيرين، لا نهديهم هداية المؤمنين الصادقين!!.

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَهُهُمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكَّةَ﴾ أي ولو أنزلنا إليهم الملائكة كما سألوه بقولهم: ﴿لَوْلا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَاكُكَّةَ﴾ فأروهم بأعينهم، وسمعوا شهادتهم لك بالرسالة بأذانهم، ﴿وَكَلَّمَهمُ الْوَقْ﴾ بأن أحييناهم، وشهدوا بحقية الإيمان، وشهدوا بصدق محمد عليه السلام ﴿وَحَشَرْنا﴾ أي جمعنا ﴿عَلَيْهِمُ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ أي لو أحضرنا لديهم كل شيء عياناً ومشاهدة ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي ما صح لهم الإيمان، لتماديهم في العصيان ولا ينظرون في شيء من الآيات، نظر استدلال ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماع ما ذكر من الأمور الموجبة للإيمان، في حال من الأحوال، إلا في حال مشيئته تعالى لإيمانهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًاهَا﴾^(١) والآية بيان لاستحالة وقوع إيمانهم، كأنه قيل: ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، وهيهات ذلك، وحالهم حالهم بدليل قوله تعالى: ﴿وَنَقَلْنا أَفْئِدَتَهُمْ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أي ولكن أكثر المسلمين، يجهلون أنهم لا يؤمنون، فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم، أو ولكن أكثر المشركين يجهلون ذلك.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾^(١١٧)
 وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفَعِدَّةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾^(١١٨).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ كلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عما كان يشاهده من عداوة قريش له، ببيان أن ذلك ليس مختصاً به، بل

(١) سورة السجدة، آية: ١٣.

هو أمر ابتلي به كل من سبقه من الأنبياء الكرام، لأن القدر والمنزلة، إنما تظهر بالعدو والأضداد، ألا ترى أن إبراهيم كان خليلاً، سُلِّطَ عليه نمرود، وموسى كان كليماً سُلِّطَ عليه فرعون، ونبينا ﷺ كان حبيباً سُلِّطَ عليه أبو جهل وكفار قريش، أي وجعلنا لكل نبي عدواً، فعلوا بهم ما فعل بك قومك، فاصبر كما صبروا ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ أي مرده الفريقين من شياطين الإنس وشياطين الجن، ومعنى هذا الجعل أن سنة الله في الخلق مضت، بأن يكون الشرير المتمرد، العاتي عن الحق، يكون عدواً للدعاة من الأنبياء عليهم السلام وورثتهم ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي يلقي ويوسوس بعض كل من الفريقين، إلى البعض الآخر، قال مالك بن دينار: إِنَّ شَيْطَانَ الْإِنْسِ أَشَدُّ مِنْ شَيْطَانِ الْجِنِّ، لأنني إذا تعوذت بالله تعالى، ذهب شيطان الجن عني، وشيطان الإنس يجيئني فيجبرني إلى المعاصي عياناً ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ أي الممبوه منه، المزين ظاهره الباطل، من زخرفه إذا زينه ﴿عُرُوراً﴾ مفعول له أي ليغرّوهم أو مصدر لفعل مقرر، أي يغرونهم غروراً والتغريز بالزخرفة قد ارتقى عند شياطين هذا الزمان، ولا سيما شياطين السياسة، ارتقاء عجبياً، فإنهم يخدعون الأحزاب، والأمم، والشعوب، فيصوّرون الاستعباد حرية، والشقاوة سعادة، والشيوعية عدالة، بتغيير الأسماء، وتزيين أقبح المنكرات، نعوذ بالله تعالى من شرورهم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم، ولكن هناك حكمة الابتلاء ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ أي اتركهم وما يدبرونه من مكائد، فإن الله ناصرهم عليهم وإنما قال هنا ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ وفيما يأتي ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ فغاير بين الاسمين، فهذه الآية من عداوتهم له ﷺ، التي لو شاء منعهم عنها، ويقتضي ذكره جل شأنه بهذا العنوان، إشارة إلى أنه تعالى مربيه، وهو في كنف حمايته، وأما الآية الأخرى - ١٣٧ - فذكر قبلها إشراكهم فناسب ذكره عز اسمه بعنوان الألوهية، التي تقتضي عدم الإشراك،

فكانه قيل ههنا إذا كان ما فعلوه من عداوتك من فنون المفسد، فاتركهم وما يفترونه من أنواع المكاييد، ولا تبال بهم، فإن لهم في ذلك عقوبات شديدة، ولك عواقب حميدة، لِتَضْمُنَ مشيئته سبحانه، على الحكم البالغة.

﴿وَلِيَصْفَىٰ إِلَيْهِ﴾ صَغَا إِلَى الشَّيْءِ: مال، أي يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول، ليغترهم به، ولتميل إليه ﴿أَفَعِدَّةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وإنما حَصَّ بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة، إشعاراً بتعمقهم في الضلال وعدم إيمانهم بالآخرة، بما يلقي إليهم، فإن لذات الآخرة محفوفة في هذه النشأة بالمكارة، وآلامها مزينة بالشهوات، فالذين لا يؤمنون بها، لا يدرون أن وراء تلك المكارة لذات، ودون هذه الشهوات آلاماً، وإنما ينظرون إلى ما بدا لهم في الدنيا بادي الرأي، فهم مضطرون إلى حب الشهوات، التي من جملتها مزخرفات الأقاويل، وأما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال، ناظرين إلى عواقب الأمور، لم يتصور منهم الميل إلى المزخرفات، لعلمهم ببطلانها، ووخامة عاقبتها ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم، بعدما مالت إليه أفئدتهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ أي ليكتسبوا بموجب ارتضاءهم له ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ له من القبائح، التي لا يليق ذكرها.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٨﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٩﴾﴾

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا﴾ أي قل لهم: أغير الله أطلب من يحكم بيني وبينكم؟ والحكم أبلغ من الحاكم، لأنه لا يوصف به إلا العادل، يروى أنَّ مشركي قريش قالوا لرسول الله ﷺ: «اجعل بيننا وبينك حكماً من أخبار اليهود، أو من أساقفة النصارى، ليخبرونا عنك بما في كتابهم من

أمرك، فنزلت الآية^(١) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي أغير الله أبتغي حكماً، والحال أنه هو الذي أنزل إليكم القرآن، الناطق بالحق والصواب، مبيناً فيه الحق والباطل، والحلال والحرام، وغير ذلك من العقائد والشرائع؟ فأى حاجة بعد ذلك إلى الحكم؟ فكفي به حاكماً بيني وبينكم ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم، أن القرآن حق وأنه كلام الله تعالى لموافقته لما عندهم من التوراة والإنجيل، وفي التعبير عن التوراة والإنجيل باسم الكتاب، إيماء إلى ما بينهما وبين القرآن من المجانسة، المقتضية للاشتراك في الحقيقة والنزول من عند الله تعالى، حيث وجدوه حسبما نعت فيه، وعاینوه موافقاً له في الأصول، ومخبراً عن أمور لا طريق إلى معرفتها سوى الوحي، مع أنه ﷺ لم يمارس كتبهم، ولم يخالط علماءهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ﴾ أي الشاكين في أنه منزل من ربك بالحق، فيكون من باب التهيج، وقيل: الخطاب للأمة وإن كان له ﷺ صورة، فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه، لأنه حق منزل من عند الرحمن.

﴿وَقَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ شروع في بيان كمال القرآن، أي تمّ كلام الله المنزل على خاتم النبيين ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ مصدران نصباً على الحال، أي صدقاً فيما أخبر، وعدلاً فيما قدر، ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي لا أحد يبدل شيئاً من كلماته، بما هو أصدق وأعدل منه، فكيف يتصور ابتغاء حكم غيره تعالى؟ فيكون هذا ضماناً للقرآن وآياته بالحفظ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فلا نبي، ولا كتاب بعدها ينسخها، ويبدل أحكامها ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل ما يتعلق به السمع ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل ما يمكن أن يعلم، فيدخل في ذلك أقوال وأحوال البشر، ثم إنه تعالى لما أجاب عن شبهات الكفار، وبين بالدليل صحة النبوة، أرشد إلى أنه بعد ظهور الحجة لا ينبغي أن يلتفت العاقل إلى كلمات الجاهال، فقال عزّ شأنه:

(١) انظر زاد المسير في التفسير لابن الجوزي ١١٠/٣ ونسبه إلى الماوردي.

﴿وَأَنْ تَقْطَعَ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

قوله سبحانه: ﴿وَأَنْ تَقْطَعَ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المراد بـ ﴿مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ الناس، وبأكثرهم: الكفار الضالون المضلون، أي إن تطعمهم بمخالفة ما شرع لك، يضلوك عن الحق، وعن الشريعة التي شرعها الله لعباده، لأن الضال لا يأمر إلا بما فيه ضلال ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعون فيما هم عليه من الشرك والضلال ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ وظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، فهم على آثارهم يهتدون ﴿وَأِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يكذبون، وأصل الخرص: القول بالظن والتخمين، وهو أقبح أنواع الكذب، أي يكذبون على الله سبحانه، فيما ينسبونه إليه، كاتخاذ الزوجة، والولد، وعبادة الأوثان، وتحليل المُنْتَعَةِ، وتحريم البحائر، وغير ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي هو تعالى أعلم بالفريقين، بمن ضل عن سبيل الرشاد، وبمن اهتدى إلى طريق الإيمان والسعادة.

﴿فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِعَايَنَتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أمر مرتب على النهي عن اتباع المضلين، رُوي عن ابن عباس قال: جاء اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما يقتل الله تعالى؟ فأنزل الله الآية. أي إذا كان

أمر أكثر الناس على الضلال، فكلوا مما ذكر اسم الله تعالى عليه، ولو كان من البحائر، والسوائب، ونحوها^(١) ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِقَايَتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان بها يقتضي استباحة ما أحل الله، واجتناب ما حرّمه، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله، تقديره: فكلوا مما ذكر عليه اسم الله.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ؟﴾ وأي غرض لكم في أن تخرجوا عن أكله، وما يمنعكم عنه؟ إنكار لأن يكون لهم شيء يدعوهم إلى الاجتناب، عن أكل ما ذكر عليه اسم الله تعالى من البحائر والسوائب، ونحو ذلك، وسبب نزول الآية، أن المسلمين كانوا يخرجون من أكل الطيبات ترهداً، فنزلت^(٢) ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية، فبقي ما عدا ذلك على الحل ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرّم عليكم فإنه أيضاً حلال حال الضرورة ﴿وَلَا كَثِيرًا يَظُنُّونَ﴾ أي كثير من الكفار، يظنون الناس بتحليل الحرام، وتحريم الحلال ﴿يَاهَوَاهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بتشبههم من غير تعلق بدليل يفيد العلم، المقتبس من الشريعة، بل بمجرد الأهواء والشهوات، يظنون غيرهم كما ضلوا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ بالمتجاوزين الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، فيجازيهم على صنيعهم، والمراد بهم هذا الكثير، ووضع الظاهر موضع ضميرهم، لوصفهم بصفة الاعتداء.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْآئِمِّ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْآئِمَّ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٢٤٦/٥ ولفظه: أتى أناس النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله: أناكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه﴾ الآية.

(٢) انظر تفسير ابن الجوزي ١١٢/٣.

﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ أي اتركوا المعاصي ما يعلن منها وما يسرّ، وما بالجوارح وما بالقلب، روي أن أهل الجاهلية، كانوا يرون أن الزنا إذا ظهر كان إثماً، وإذا استتر فلا إثم فيه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتَسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ أي يكتسبون الإثم من الظاهر والباطن ﴿سَيَجْزَوْنَ يَمَّا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ أي سيلقون جزاء إجرامهم في الآخرة، بقدر ما كانوا يبالغون في إفساد فطرتهم، بالإصرار عليه.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ظاهر الآية في تحريم متروك التسمية، عمداً أو نسياناً، وإليه ذهب أحمد وقال مالك والشافعي ذبيحة المسلم حلال، وإن لم يذكر اسم الله عليها، وفَرَّقَ أبو حنيفة بين العمد والنسيان قال: إن ترك التسمية عمداً حرم، وإن تركها نسياناً حلّ لحديث «رُفِعَ عَنْ أُمِّي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهَا عَلَيْهِ»^(١) ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي وإن الأكل منه لمعصيةٌ وخروج عن طاعة الله ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ أي يوسوسون ﴿إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ الذين اتبعوهم من المشركين فيما أنهوا إليهم بقولهم: إن محمداً وأصحابه، يزعمون أنهم يتبعون أمر الله، ثم يزعمون أن ما يقتلونه حلال، وما يقتله الله حرام، يعنون الميتة ﴿لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ﴾ بالوساوس الشيطانية ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال الحرام، وساعدتموهم على أباطيلهم ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ ضرورة أن من ترك طاعة الله إلى طاعة غيره، فقد أشرك به تعالى، بل أثره عليه سبحانه، والظاهر أن التعبير عن هذه الإطاعة بالشرك، من باب التغليظ.

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٤٤٠٠ في الحدود، وإسناده حسن.

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ هذا تمثيل للمؤمنين والكفار، فالمؤمنون مستنيرون بأنوار الوحي الإلهي، والمشركون خابطون في ظلمات الكفر، فكيف يُعقل إطاعتهم لهم؟ والهمزة للإنكار والنفي، أي أو من كان ﴿مَيِّتًا﴾ أي كافرًا ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي فأعطيناه الحياة المعنوية، لأن الإيمان حياة القلوب ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ﴾ مع ذلك ﴿نُورًا﴾ عظيمًا، يميز به الحق والباطل، وهو نور القرآن لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(١) ﴿يَمْشِي بِهِ﴾ أي بسببه ﴿فِي النَّاسِ﴾ أي فيما بينهم آمنًا ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي خابطٌ فيها ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ ولا يتخلص منها، لأنها قد أحاطت به، ولم يشعر بالحاجة إلى الخروج منها إلى النور، قال ابن عباس: إن المراد بالميت الكافر، وبالإحياء: الهداية، وبالنور: القرآن، وبالظلمات: الكفر والضلالة^(٢)، والآية نزلت في عمر رضي الله عنه وهو المراد بمن أحياء الله تعالى، وأبي جهل الذي بقي يتخبط في ظلمات الكفر والجهل، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيدخل في ذلك كل من انقاد لأمر الله، ومن بقي على الضلالة ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى التزيين المذكور، أي كما أبقينا هذا الكافر يتخبط في الظلمات كذلك ﴿زُيِّنَ﴾ من جهته تعالى خلقاً، ومن جهة الشيطان وسوسة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ كأبي جهل وأضرابه ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصي، التي من جملتها ما حكى عنهم من القبائح.

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٧.

(٢) شبه تعالى المؤمن بالحي، الذي استنار قلبه بنور المعرفة والإيمان، فهو يعرف الطريق ويهتدي إلى منافع الدنيا والآخرة، كما شبه الكافر بالميت، الذي يتخبط في ظلمات الضلالة والكفر، لا يعرف المنفذ ولا المخلص، ففي الآية استعارة بديعة.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي كما جعلنا في مكة مجرمين ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ وجعلنا بمعنى صيّرنا، وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس، والمكر بهم، أي جعلناهم مزيناً لهم أعمالهم، مصرين على الباطل، مجادلين به الحق، ليمكروا فيها، وهذا تسليّة للرسول ﷺ ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لأن وباله يحقّ بهم، اعتراض على سبيل الوعد لرسول الله ﷺ، والوعيد للكفرة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي والحال أنهم ما يشعرون بذلك أصلاً، بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم، نظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (١) وهذا بيان من معجزات القرآن الكريم، فأولئك المجرمون الذين يعادون الرسول ﷺ ويمكرون في عصرهم، ولا يحقّ مكرهم إلا بأنفسهم، قد وقع الأمر كما أنبا الله ذو الجلال، ويكون كذلك من يعادون الحق، ويمكرون بأهله.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ هذا رجوع إلى بيان حال مجرمي أهل مكة، بعدما بيّن بطريق التسليّة أن حال غيرهم أيضاً كذلك، أي إذا جاءتهم معجزة أو آية من القرآن، تأمرهم بالإيمان ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ قال المفسرون: قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوة حقاً، لكنتُ أحقّ بها، فإني أكثر منه مالاً وولداً، وقال مقاتل: نزلت الآية في أبي جهل حين قال: «زاحمنا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا

(١) سورة فاطر، آية: ٤٣.

كفرسي رهان، قالوا: منّا نبيّ يُوحى إليه؟ والله لا نرضى به، ولا نتّبعه أبداً حتى يأتينا وحيّ كما يأتية»، وقال الضحاك: سأل كلّ واحد من القوم أن يختص بالرسالة والوحي، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشُورَةً﴾^(١) ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي الله أعلم من هو أهل للرسالة، فإن النبوة ليست بالنسب والمال، وإنما هي بفضائل نفسانية، يخصّ الله تعالى بها من يشاء من عباده، فيجتبي لرسالته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه، فقد جرت عادة الله تعالى، أن يبعث من كل قوم أشرفهم، وأطهرهم جبلةً ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ استئناف ناع عليهم ما سيلقونه من فنون الشر، بعدما نعى عليهم حرمانهم، مما أمّلوه من عزّ النبوة، وشرف الرسالة، والسين للتأكيد أي سيصيب هؤلاء، المجرمين، على وجه التحقيق واليقين ﴿صَغَارٌ﴾ أي ذلّ وحقارة بعد تكبرهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي من عند الله يذلّهم به، ويُهينهم في هذه الحياة الدنيا ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أي بسبب مكرهم المستمر، وجزاء مكرهم الشرير.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ أي يعرفه طريق الحق، ويوفقه للإيمان ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فيتسع له، وينفسح لقبوله وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق، مهتأة لحلوله، مصفاة عما يمنعه وينافيه، وإليه أشار ﷺ حين سئل عنه فقال: نورٌ يقذفه الله في قلب المؤمن، فيشرح له،

(١) سورة المدثر، آية: ٥٢.

وينفسح، فقالوا: هل لذلك أَمَارَةٌ؟ فقال، ﷺ: الإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالاستعدادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ النُّزُولِ^(١) ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُمْ﴾ أي يخلق فيه الضلالة، لسوء اختياره ﴿يَجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيْقًا﴾ بحيث ينبو عن الحق، فلا يدخله الإيمان ﴿حَرْجًا﴾ شديد الضيق، وهو مأخوذ من الحرجة، وهي الأشجار الملتفتُ بعضها على بعض، لا يصل إليها شيء ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ شَبَّهَ مبالغة في ضيق صدره، بمن يزاوُل ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مثلاً فيما يبعد عن الاستطاعة، ونَبَّهَ به على الإيمان يمتنع عنه، كما يمتنع عنه الصعود، وأصل يَصْعَدُ يَتَصَعَّدُ ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجعل ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ﴾ أي العذاب والخذلان ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي على الكفرة المجرمين الذين لا يؤمنون بآيات الله.

قال مجاهد: الرجسُ ما لا خير فيه، وقال الزجاج: هو اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وهذه الآية الكريمة، معترك أهل الكلام، فالفقدية ينكرون خلق الخلق بتقدير سابق من الله تعالى، ويقولون: إن الآية ظاهرة في أن هداية الإنسان يخلق في صدره انشراحاً للإسلام، وهذا الخلق يحصل أنفاً أي جديداً غير مرتب على تقدير سابق، والجبرية يقولون إسلام المرء بفعل الله وحده، ليس باختيار العبد وكسبه، والأشعرية يقولون: له فيه كسب، ولكنه بخلق الله جل وعلا، والإنسان مسؤول عن كسبه وفعله، ويقول المعتزلة إيمان المرء وكفره بفعله المستقل، ومن نظر في الكتاب الكريم، يتجلى له الحق، فقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقال ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فإن كل شيء بإرادته ومشيئته، وفيه أن المكلف بفعله وكسبه واختياره، ولا يكون فعله منافياً لخلق الله ومشيئته، ولا مستغنياً عن توفيقه وإمداده.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري ١٠٠/١٢ وانظر ابن كثير ١٨١/٢.

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَةَ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾
﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ وَهَذَا ﴾ الذي جاء به القرآن ﴿ صِرَاطُ رَبِّكَ ﴾ الطريق الذي ارتضاه لعباده، وذكرُ الربوبية، إيذان بأن تقويم ذلك الصراط للتربية، وإفاضة الكمال ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ أي لا عوج فيه، أو عادلاً مطرداً فاستمسك به ﴿ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَةَ ﴾ بينها مفصلة ﴿ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾ يتذكرون ما في تضاعيفها، فيعلمون أن كل ما يحدث من الحوادث، خيراً كان أو شراً، فإنما يحدث بقضاء الله وخلقه، وأنه تعالى عالم بأفعال العباد، حكيم عادل فيما يفعل ويريد، وتخصيصُ القوم بالذكر لأنهم هم المنتفعون.

﴿ لَهُمْ ﴾ أي للمتذكرين ﴿ دَارُ السَّلَامِ ﴾ أي دار الله أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ذخيرة لهم عنده، لا يعلم كنهها غيره ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ أي مولاهم وناصرهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالهم الصالحة، التي كانوا يتقربون بها إليه في الدنيا.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ نصب بإضمار اذكر والضمير لمن يُحشر من الثقلين ﴿ يَمْعَشَرُ الْجِنِّ ﴾ يعني الشياطين بدليل قوله تعالى: ﴿ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ والمعشرُ: الجماعةُ من الناس، أمرهم واحد، المعشر، والنَّفَرُ، والقومُ، والرهطُ، معنهم الجمع لا واحد لهم، للرجال دون النساء ﴿ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أتباعكم أي استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم، فحشروا معكم، كقولهم: استكثر الأمير من الجنود، وهذا

بطريق التوبيخ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ الذين أطاعوهم ﴿رَبَّنَا أَسْتَمِعْ بَعْضَنَا يَبْعُضَ﴾ أي انتفع الإنس بالجن، بأن دلّوهم على الشهوات، وما يتوصل به إليها، والجن بالإنس، بأن أطاعوهم، وحصلوا مرادهم، وكانوا وسطاء في الإغواء والتضليل، وهو اعتراف بما فعلوه من طاعة الشيطان، واتباع الهوى، وإظهار الندامة عليها ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي البعث، ولعل الاختصار على حكاية كلام الضالين، للإيذان بأن المضلين قد أفسدوا، فلم يقدروا على الكلام أصلاً ﴿قَالَ﴾ ربنا عز وجل ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ﴾ منزلكم ومحل إقامتكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين في نار جهنم أبداً ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قبل الدخول، وهو ما بين الحشر إلى دخول النار، كأنه قيل: النار مثواكم أبداً، إلا ما أمهلكم الله، وقيل: هذا الاستثناء معلق بمشيئة الله تعالى، وفائدته إظهار القدرة، وكان من الجائز العقلي في مشيئته تعالى أن لا يعذبهم، ولو عذبهم ألا يُخلدوهم، وليس بأمر واجب عليه، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال الثقلين وأحوالهم، وبما يليق بهم من الجزاء.

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ مثل ما سبق من تمكين الجن من إغواء الإنس ﴿نُؤَيِّ بَعْضَ الظَّالِمِينَ﴾ من الإنس ﴿بَعْضًا﴾ آخر منهم، أي نجعلهم بحيث يتولونهم، بالإغواء والإضلال وغير ذلك، واستدل به على أن الرعية إذا كانوا ظالمين، فالله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم، كما ورد في الأثر «كما تكونون يولّ عليكم»^(١) ﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ما كسبوه من الكفر.

(١) روي عن ابن عباس أنه قال: «إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم، وإذا سخط على قوم ولّى أمرهم شرارهم» وعن مالك بن دينار قال: قرأت في بعض كتب الحكمة أن الله تعالى يقول: «إني أنا الله ملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليهم رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة» التفسير الكبير للفخر الرازي.

﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرُّوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاٰفِرِيْنَ﴾ (١٢٠).

﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ توبيخ المعشرين بتفريطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ في الدنيا ﴿رُسُلٌ﴾ من عند الله عز وجل ﴿مِّنكُمْ﴾ من جملتكم، لأن الرسل من الإنس خاصة، وإنما جعلوا منهما للإيذان بتقاربهما واتحادهما، تكليفاً وخطاباً، كأنهما جنس واحد، فقد ثبت أن الجن استمعوا القرآن، وأندروا به قومهم، كما أخبر الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾^(١) الآية وقال الضحاك: إن الله تعالى أرسل للجن رسلاً منهم، كذلك، وادعى البعض قيام الإجماع على أن الله لم يرسل إلى الجن رسولاً منهم كما يدل عليه ظاهر الآيات، كحصر الرسالة في الرجال وجعلها في ذرية نوح، وإبراهيم، وجملة القول أنه ليس في المسألة نص قطعي، فنحن نؤمن بما ورد، ونفوض الأمر إلى الله تعالى ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ أي يتلون عليكم آيات ربكم التي بها سعادتكم وفلاحكم ﴿وَيُذَرُّوكُمْ﴾ أي يخوفونكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يوم الحشر، الذي عاينوا فيه أفانين العقاب ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ أي بإتيان الرسل وإنذارهم، وبمقابلتهم بالكفر والتكذيب، كما حكي تعالى عنهم: ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ اعتراض لبيان ما أداهم إلى ارتكاب القبائح، أي اغتروا في الدنيا بالحياة الفانية ﴿وَشَهِدُوا﴾ في الآخرة ﴿عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاٰفِرُوْنَ﴾ في الدنيا ﴿كَافِرِيْنَ﴾ بالآيات والنذر التي أتى بها الرسل.

(١) سورة الأحقاف، آية: ٢٩.

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣٧)
 وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قص من أمرهم ﴿ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ «أَنَّ» مخففة من «إِنَّ» وضمير الشأن اسمها، والمعنى ذلك ثابت لأن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ بسبب أي ظلم فعلوه، قبل أن ينهوا عنه، بإنزال كتاب، وإرسال رسول، لأن الله عادل فلا يعاقب أحداً إلا بعد الإنذار ﴿ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ أي وهم غافلون لم ينهوا برسول، وإنما علل بما ذكر لبيان كمال نزاهته سبحانه عن الظلم.

﴿ وَلِكُلِّ ﴾ من المكلفين من الثقلين، الذين بلغتهم الدعوة ﴿ دَرَجَةٍ ﴾ أي مراتب متفاوتة ﴿ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ أي من أعمالهم، صالحة كانت أو سيئة، سيجازون عليها ﴿ وَمَا رُبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ليس الله غافلاً ولا ناسياً لأعمال العباد، بل هو رقيب عليهم، مطلع على أقوالهم وأفعالهم، وفيه تهديد ووعد للإنس والجن، وأنه سبحانه سيجازيهم بما يستحقونه من ثواب أو عقاب.

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأْ كَمَا أَنْشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ (١٣٩) إِنَّ
 مَا تُوَعَّدُونَ لَا تَلَّابٌ وَمَا أَنْشَأَكُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٤٠﴾ قُلْ يَتَّقُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ
 مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ
 لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤١﴾ .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ﴾ عن العباد والعبادة، المعروف بالغنى عن كل ما سواه، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ﷻ لإظهار

اللفظ به، وتنزيه ساحته عن شمول الوعيد الآتي له ﴿ذُو الرِّحْمَةِ﴾ أي الموصوف بالرحمة العامة، فيترحم على العباد، ويمهلهم على المعاصي إلى ما شاء، وفيه تنبيه على أن الإرسال للرسول، ليس لنفسه، بل رحمة من الله على العباد ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ما به إليكم حاجة، إن يشأ يذهبكم أيها العصاة، ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ﴾ أي وينشأ من بعد إذهابكم ﴿مَّا يَشَاءُ﴾ من الخلق والعباد، يكونون أعبد منكم لله، وأطوع ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي قرناً بعد قرن، لكنه أبقاكم ترحماً عليكم، وتضمنت الآية التحذير من بطش الله عز وجل وانتقامه من العصاة المجرمين.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث وأحواله، والحساب والثواب والعقاب ﴿لَآتٍ﴾ لكائن لا محالة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾^(١) وإيثاره عليه لبيان كمال سرعة وقوعه، بتصويره بصورة طالب حثيث، لا يفوته هارب ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ولستم معجزين ربكم، ولا خارجين عن قدرته وعقابه وإن ركبتكم في الهرب، متن كل صعب وذلول.

﴿قُلْ يَقَوْمِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ وهو أمر له عليه السلام بطريق التلوين، بأن يواجههم بتشديد التهديد، وتكرير الوعيد، ويظهر لهم ما هو عليه من غاية التصلب في الدين، وعدم المبالاة بهم، أي قل يا رسول الله ﴿يَا قَوْمِ﴾ وفي هذا النداء ضرب من الاستمالة لهم، يذكّرهم بأنهم قوم الرسول، الذين يحرص على خيرهم ومنفعتهم ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِرِكُمْ﴾ أي على غاية تمكنكم واستطاعتكم، والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمعاداة، والغرض منه التهديد والتخويف، لا أنه أمر وطلب ﴿إِنِّي عَاكِفٌ﴾ ما كنت عليه من المصابرة، والثبات على الإسلام ﴿فَسَوْفَ

(١) سورة المرسلات، آية: ٧.

تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ ﴿١٢٢﴾ سوف لتأكيد مضمون الجملة، أي فسوف تعلمون أينما له العاقبة الحسنى، التي خلق الله تعالى لها هذه الدار، وفيه مع الإنذار، إنصافٌ في المقال، وحسن الأدب، وتنبيه على وثوق المنذر بأنه محق ﴿إِنَّكُمْ﴾ أي الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وضع الظلم موضع الكفر، إيذاناً بأن امتناع الفلاح، يترتب على أي فرد من أفراد الظلم.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٢٣)

﴿وَجَعَلُوا﴾ شروع في تقييح أحوالهم، بحكاية أقوالهم وأفعالهم السخيفة، تنبيهاً على ضعف عقولهم، وتنفيراً للعقلاء عن الالتفات إلى كلامهم، أي وجعل مشركو العرب ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي ممّا خلق وأوجد من أنواع المخلوقات ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ يعني الزرع والثمر ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ يعني من نتاج الإبل، والبقر، والغنم، جعلوا لله تعالى أشياء، وأشياء منها لآلهتهم، فإذا رأوا ما جعلوه لله زاكياً نامياً، أخذوه فجعلوه لآلهتهم، وإذا زكا ما جعلوه لآلهتهم تركوه، وإذا انتقص شيء مما جعلوه للأوثان، جبروه مما جعلوه لله، معتلين بأن الله تعالى غني، وما ذلك إلا لحب آلهتهم، وإيثارهم لها، فما جعلوه لله صرفوه للضيّفان والمساكين، وما جعلوه للأصنام أنفقوه عليها، وعلى خدامها، وفيه تنبيه على فرط جهالتهم، حيث أشركوا الخالق في خلقه، جماداً لا يقدر على شيء، ثم رجّحوه عليه تعالى^(١) ﴿نَصِيبًا﴾ أي جعلوا لله نصيباً، ولأصنامهم نصيباً،

(١) قال ابن عباس: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله =

ولم يذكر اكتفاء بقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُ رَبِّعِمِهِمْ وَهَذَا إِشْرَاقُنَا﴾ وفي قوله تعالى: ﴿بِرَّعِمِهِمْ﴾ تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه، ولم يأمر الله تعالى به، والمراد بالشركاء الأوثان، وسموهم شركاءهم لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، ﴿فَمَا كَانَتْ إِشْرَاقُهُمْ فَلَا يَصِلُ إِلَيْكَ اللَّهُ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْكَ شُرَكَائِهِمْ﴾ أي فما عيَّنه لشركائهم لا يصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عيَّنه الله تعالى، وما عيَّنه لله يُصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عينوه لألهتهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ من إثارة مخلوق عاجز عن كل شيء، على خالقٍ قادرٍ على كل شيء، وعملهم العجيب لا يقبله عقل ولا شرع، ولذا نسب إلى الإساءة.

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ
أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلَيْكَلِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١٧٦).

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي ومثل ذلك التزيين في قسمة الحرث والأنعام ﴿زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي مشركي العرب ﴿قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ فكانوا يتدون البنات الصغار، بأن يدفنوهن أحياء، وكانوا في ذلك فريقين: أحدهما يقول: إن الملائكة بنات الله سبحانه، فألحقوا البنات بالله تعالى، والآخر يقتلن خشية الإنفاق وكانوا ينذر أحدهم إذا بلغ بنوه عشرة أن ينحر واحداً منهم ﴿شُرَكَائُهُمْ﴾ من الشياطين أو من السدنة، سميت الشياطين شركاء، لأنهم أطاعوهم في المعصية، وقتل الأولاد، وقال الكلبي: هم سدنة آلهتهم، لأنهم كانوا يزيّنون قتل الأولاد

= منه جزءاً، وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة من نصيب الأوثان، حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سُمّي الله، ردّوه إلى الوثن وقالوا: إن الوثن فقير، والله غني، وأخذوا حق الله فجعلوه للأصنام أهد، تفسير ابن كثير ١٨٦/٢.

﴿لِيُرَدُّوهُمْ﴾ أي يهلكوهم بالإغواء، والتزيين الرديء الفاسد، الذي يذهب بما أودع الله في قلوب الوالدين من عواطف الرحمة والرفقة، بل يقليبها إلى منتهى الوحشية، حتى يقتل ربحانة قلبه ﴿وَلَيْسَ لِسُوءِ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، حتى انحرفوا عنه إلى الشرك ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ عدم فعلهم ذلك ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ ما فعل المشركون ما زين لهم الشياطين ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي فدعهم وما يختلفونه من الإفك والكذب على الله، وهو وعيد وتهديد للمشركين شديد.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أُنْعَمٌ وَحَرَّتْ جِبْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٢٦)

﴿وَقَالُوا﴾ حكاية لنوع آخر من أنواع كفرهم ﴿هَذِهِ﴾ إشارة إلى ما جعلوه لآلهتهم ﴿أَنْعَمٌ وَحَرَّتْ جِبْرٌ﴾ أي ممنوع منها ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ يعنون خدم الأوثان، من الرجال دون النساء ﴿بِرَعْمِهِمْ﴾ أي قالوا ذلك متلبسين بزعمهم الباطل، من غير حجة ﴿وَأَنْعَمٌ﴾ أي وهذه أنعام ﴿حُرِّمَتْ طُهُورُهَا﴾ يعنون بها البحائر والسواحب والحوامي ﴿وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي عند الذبح وإنما يذكرون عليها اسم الأوثان والأصنام ﴿افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ﴾ أي على الله سبحانه، وجملته القول أنهم قسموا أنعامهم إلى هذا التقسيم، وجعلوه من أحكام الدين، ونسبوه إلى الله تعالى افتراء عليه سبحانه ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي بسببه، وفي إبهام الجزاء من التهويل ما لا يخفى.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢٧)

﴿ وَقَالُوا ﴾ حكاية لفن آخر من فنون كفرهم ﴿ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ ﴾ يعنون به أجنة البحائر، والسوائب، كما روي عن مجاهد ﴿ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ أي حلال لهم خاصة، إن وُلد حياً، دون الإناث ﴿ وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ وهن الإناث باعتبار اللفظ ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مَيِّتَةً ﴾ أي وإن ولدت ميتة ﴿ فَهِنَّ ﴾ أي الذكور والإناث ﴿ فِيهِ ﴾ أي فيما خرج من بطون الأنعام ﴿ شُرَكَاءُ ﴾ أي يأكلون من الميتة جميعاً ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي جزاء وصفهم الكذب على الله تعالى، في التحليل والتحريم، كقوله تعالى: ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أي حكيم في تدبيره، عليم بخلقه، والحكيم العليم لا يترك جزاءهم، الذي هو من مقتضيات الحكمة، واستدل بالآية، على أنه لا يجوز الوقف على أولاده الذكور، دون الإناث، وأن ذلك الوقف يفسخ، ولو بعد موت الواقف، لأن ذلك فعل الجاهلية، واستدل بعض المالكية بمثل ذلك في الهبة، وأخرج البخاري عن عائشة قالت: «يعمد أحدكم إلى المال فيجعله للذكور من ولده، إن هذا إلا كما قال الله تعالى: ﴿ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾»^(١).

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أُفْرَاءً عَلَىٰ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ ﴾ وهم قبيلة ربيعة، ومضر، وأضرابهم من العرب، الذين كانوا يثدنون بناتهم، مخافة السبي والفقر، أي خسروا دينهم ودنياهم ﴿ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ لخفة عقولهم، وجهلهم بأن الله رازق أولادهم لا هم، ولذا سُمُّوا جاهلية ﴿ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ من البحائر والسوائب ونحوهما وهذا أيضاً من الجهالة ﴿ أُفْرَاءً عَلَىٰ اللَّهِ ﴾ وهذا أيضاً من الجهالة لأن الجرأة على الله تعالى، والكذب عليه من أعظم الذنوب ﴿ قَدْ ضَلُّوا ﴾ عن

(١) أخرجه البخاري موقوفاً على عائشة رضي الله عنها.

الطريق المستقيم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إليه وأن هدوا بفنون الهداية، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^(١).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتُ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(١٢).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ أي هو الله الذي خلق بساتين من غير شركة لأحد فيها ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ المعروشات من الكرم: ما يُحمل على العريش، وهي عيدان تصنع كهيئة السقف يُوضع الكرم عليها ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ملقيات على وجه الأرض على حالها، وقيل: إن المعروش ما يحتاج إلى العريش من الكرم، وغير المعروش هو القائم من الشجر، المستغني باستوائه، وقوة ساقه ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ﴾ أي أنشأهما كذلك ﴿مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ﴾ أي ثمره الذي يؤكل، مختلفاً في الهيئة والكيفية ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتُ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ يتشابه بعض أفرادهما في اللون والشكل ولا يتشابه في الطعم ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ وإن لم يدرك ولم ينضج، وفائدة رخصته في الأكل منه قبل أداء حقه، ولا يتوهم أنه لا يُباح إلا إذا أدرك، وإنما قدم ذكر الأكل على التصديق، لأن رعاية النفس مقدمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾^(٢) وفي الخبر

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ٥٥١/٦ فتح الباري.

(٢) سورة القصص، آية: ٧٧.

«ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ﴾ الذي أوجبه الله تعالى فيه ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وهو في رواية ابن عباس العشر، أو نصف العشر كما ذهب إليه الحسن وقتادة ﴿وَلَا تُشْرِقُوا﴾ في التصديق كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ روي عن ابن جريج قال: نزلت في «ثابت بن قيس» قطف خمسمائة نخلة، ففرق ثمرها كلها، ولم يدخل منه إلى منزله شيئاً^(١) ﴿إِكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ بل يبغضهم من حيث إسرافهم.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ﴾ أي خلق لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال، وما يفرش، أي يوضع للذبح والأكل، والمراد بها الكبار الصالحة للحمل، والصغار التي تذبح للأكل كأنها فرش ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي كلوا بعض ما رزقكم الله منها من الحلال، وفيه تصريح بأن إنشاءها لأجلهم ومصلحتهم، ولا تحرموها كما في الجاهلية، وقيل معنى الآية: استحلوا الأكل مما أعطاكم الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ في أمر التحليل والتحريم، تقليد أسلافكم المفتريين على الله سبحانه ﴿خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي طريقه، فإن ذلك بإغوائه واستتباعه إياهم أي طريقه، فإن ذلك بإغوائه واستتباعه إياهم ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لكم، فقد أخرج أبيكم من الجنة.

﴿ثُمَّ نَبَا أَرْوَجَ مِنَ الضَّحَانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِيُّنِي يَعْلَمُ إِنَّكُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٧﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ ظَلَمَ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١٣٨/١٢ قال: والمختار قول عطاء أنه نهى عن الإسراف في كل شيء.

﴿ثَمِينَةَ أَرْوَاحٍ﴾ أي خلق لكم من الأنعام ثمانية أنواع، أحل لكم أكلها ﴿وَمِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي أنشأ من الضأن اثنين: الكبش والنعجة، وهي: ذوات الصوف من الغنم، الواحد ضأن، والأنثى ضائنة ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ التيس، والعنز، جمع ماعز كصاحب وصحب، وهي ذوات الشعر من الغنم وهذه الأربعة تفصيل للفرش، الذي هو معظم ما يتعلق به الحل والحرمه ﴿قُلْ﴾ تبكيئاً لهم، وإظهاراً لعجزهم عن الجواب ﴿الَّذِينَ﴾ من ذينك النوعين وهما: الكبش، والتيس ﴿حَرَّمَ﴾ الله عز وجل كما تزعمون أنه هو المحرم ﴿أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾؟ وهما النعجة والعنز ﴿أَمَّا أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾؟ أي أم ما حملت إناث النوعين حرم، ذكراً كان أو أنثى؟ ﴿يَتَّبِعُونِي بِعِلْمٍ﴾ أي أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى، جاءت به الأنبياء يدل على أنه تعالى حرم شيئاً مما ذكر ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى التحريم عليه سبحانه.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ هما الجمل، والناقة ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ هما الثور، والبقرة ﴿قُلْ﴾ إباحاً لهم ﴿الَّذِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾؟ كرّره مبالغة في التوبيخ والتقريع، والمعنى كما قال كثير من العلماء: إنكار أنه تعالى حرم عليهم شيئاً من هذه الأنواع الأربعة، وإظهار كذبهم في ذلك، وإنما عقب كل واحد مما ذكر من الأمر والإنكار، لما في التكرير من المبالغة في التبكيث والإلزام ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ تكرر للإفحام، أي بل أكنتم شاهدين ﴿إِذْ وَصَّلَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ أي حين وصاكم بهذا التحريم، إذ أنتم لا تؤمنون بنبي، فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك، إلا المشاهدة والسمع، وفيه من التهكم بهم ما لا يخفى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي من أظلم ممن نسب إليه تعالى تحريم ما لم يحرم بغير دليل ولا برهان؟ ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جاهلاً بصدور التحريم عنه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ كأننا من كان، أي لا يوفقه ولا يرشده إلى طريق الخير والسعادة.

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٦٩).

﴿ قُلْ ﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ، بعد إلزام المشركين وتبكيتهم، بأن يبين لهم ما حرّم الله تعالى عليهم، أي قل يا رسول الله ﴿ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ في القرآن الذي أوحاه الله إليّ، وفيه تنبيه على أنّ التحريم إنما يُعلم بالوحي، أي لا أجِدُ بعدما تفحصتُ ما أوحى الله إليّ ﴿ مُحَرَّمًا ﴾ أي محرّمًا من المطاعم التي حرّموها ﴿ عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ أي طاعم كان، من ذكرٍ أو أنثى ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ﴾ ذلك الطعام ﴿ مَيْتَةً ﴾ أي بهيمة ماتت حتف أنفها والمراد بها ما لم يذبح ذبحاً شرعياً، فيتناول المنخنة ونحوها ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ أي دمًا سائلاً مصبوحاً، وقد رُخص في دم العروق بعد الذبح ﴿ أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ ﴾ أي أو أن يكون لحم خنزير ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ أي الخنزير ﴿ رِجْسٌ ﴾ أي قذرٌ ونَجَسٌ، لتعود الخنزير أكل النجاسة ﴿ أَوْ فِسْقًا ﴾ أي أو أن يكون المذبوح فسقاً ذبح على اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام ﴿ أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ أي ذُبح على غير اسم الله ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ ﴾ أي أصابته الضرورة، الداعية إلى تناول شيء من ذلك ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ أي غير طالب ما ليس له طلبه، أو غير قاصِدِ التلذذ بأكله ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ أي متجاوزٍ قدر الضرورة ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ مبالغٌ في المغفرة، والرحمة، ولا يؤاخذ به بذلك، والاستثناء منقطع، أي لا أجِدُ ما حرّمه، لكن أجِدُ الأربعة المذكورة التي حرّمها الله، ولا دلالة في الآية على الحصر، وإنما هو ردّ لمزاعم أهل الجاهلية، فيما حرّمه من تلقاء أنفسهم.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ مِنَ الْبَقَرِ وَالنَّمْرِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (١٧٠).

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي اليهود خاصة عقوبة لهم ﴿حَرَمْنَا﴾ فوق ما ذكر من المحرمات الأربعة ﴿كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ أي ما ليس منفرج الأصابع، كالإبل، والنعام، والأوز، والبط، قاله ابن عباس ومجاهد، وعن ابن زيد أنه الإبل فقط ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا﴾ لا لحومهما، فإنها باقية على الحل ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ استثناء من الشحوم، أي ما علق بظهورهما والجنب، من داخل بطونهما من الشحم، ﴿أَوْ الْحَوَائِجَ﴾ أي ما حملته الحوايا وهي ما على الأمعاء من المباعر والمصارين ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وهو كل شحم متصل بالعظم من الأضلاع وغيرها ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك التحريم ﴿جَزَيْتُهُمْ بِغَيْبِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم، وهو قتلهم الأنبياء، وأكلهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وكانوا كلما أتوا بمعصية، عُوقبوا بتحريم شيء مما أحل لهم، وهم ينكرون ذلك، ويدّعون أنها لم تنزل محرمة على الأمم، فردّ ذلك عليهم بقوله عز وجل ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ في جميع أخبارنا التي من جملتها هذا الخبر.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شَهِدَافَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٥٠﴾ .

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ الضمير لليهود والمشركين، أي فإن كذبك اليهود، وأصروا على ادعاء قدم التحريم، وكذلك المشركون فيما نقل من أحكام

التحليل والتحريم ﴿فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ لا يؤاخذكم بكل ما تأتونه من المعاصي، بل يمهلكم ﴿وَلَا يَرْدُّ بَاسُهُ﴾ أي لا يدفع عذابه ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ حين ينزل، فلا تغتروا بذلك، فإنه إمهال لا إهمال، وهو مع رحمته ذو بأس شديد، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ حكاية لفن آخر من كفرهم، وإخباره قبل وقوعه، ثم وقوعه حسبما أخبر، برهان ساطع على أنه كلام الله تعالى، لأنه إخبار عن غيب ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا نشرك ﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾ لما فعلنا الإشراك نحن ﴿وَلَا آبَاؤُنَا﴾ من قبلنا ﴿وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ مما حرّمنا، أرادوا به أن مافعلوه مرضي عند الله تعالى، كما أخبر الله عنهم في سورة الأعراف ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾^(١) فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾. ولو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله، وإجلالاً له، ومعرفة بحقه، لما عابهم، ولكنهم قالوا هذا تكديماً واستهزاء، وجدلاً من غير معرفة بالله تعالى، ويؤيده قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل ما كذب هؤلاء، كذب أسلافهم المشركون قبلهم كذبوا أنبياءهم بمثل مقاتلتهم ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَاسَنَا﴾ أي حتى ذاقوا عذابنا، الذي أنزلناه عليهم بتكذيبهم، وهو عذاب الاستئصال. وبعد هذا التذكير، أمر الله النبي ﷺ أن يطالب المشركين، بدليل علمي على زعمهم فقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي من أمر معلوم، يصح الاحتجاج به على ما زعمتم؟ ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي فتظهره لنا على أتم وجه؟ والاستفهام للتعجيز والتوبيخ، ولذلك عقب تعالى عليه، ببيان حقيقة حالهم، فقال ﴿إِن تَلْعَبُوا﴾ أي ما تتبعون في ذلك ﴿إِلَّا آلَظَنِّ﴾ الباطل الذي لا يغني من الحق شيئاً^(٢) ﴿وَأَن تَأْتُوا بَدِلًا﴾ أي

(١) الأعراف، آية: ٢٨.

(٢) قال ابن الجوزي ١٤٥/٣: جعلوا هذا حجة لهم في إقامتهم على الباطل، فكانهم =

تكذبون على الله تعالى، وليس فيه دلالة على المنع من اتباع الظن على الإطلاق، بل فيما يعارضه نصّ قطعي .

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ الفاء جواب شرط محذوف أي إذا ظهر أن لا حجة لكم فقل ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ التي بلغت غاية الظهور والإقناع، والمراد بها الكتاب المبين ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق لها، والحمل عليها، ولكن شاء أن يترك للعباد، أمر الاختيار في الإيمان والكفر، ليتم التكليف ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.

﴿قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ﴾ أي أحضروهم للشهادة على صحة ما تزعمون و«هلم» اسم فعل أمر، بمعنى أحضر، وهات، ويستوي فيه الواحد، والجمع، والمذكر، والمؤنث، بمعنى الدعاء إلى الشيء، كما قال تعالى: ﴿هَلَمْ إِلَيْنَا﴾ ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ وهم كبارهم الذين أسسوا ضلالهم، والمقصود من إحضارهم فضيحتهم، وإظهار أن لا متمسك لهم، وقوله ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما حرّمه من الأنعام وهو طلب تعجيز ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ بعدما حضروا بأن الله حرّم هذا ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي فلا تصدقهم فإنه كذبٌ بحث، وبيّن لهم فسادهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي لا تتبع أهواء الضالين المكذبين لآيات الله، فإنما يتبعون الهوى، وهو شقاء وضلال ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ كعبدة الأوثان ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يجعلون له عديلاً أي شريكاً، والمعنى لا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله، وبين الكفر بالآخرة، وبين الإشراف به سبحانه فإنهم جامعون لها متصفون بها.

= قالوا: لو لم يرض الله ما نحن عليه لحال بيننا وبينه، وإنما قالوا ذلك مستهزئين، ودافعين للاحتجاج عليهم، فيقال لهم: لم تقولون عن مخالفكم إنهم ضالون، فهم على المشيئة أيضاً، فلا حجة لهم لأنهم تعلقوا بالمشيئة وتركوا الأمر. أ.هـ.

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَيَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ
وَأَيْتَاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ أمرٌ له عليه السلام بعدما ظهر له بطلان ما
ادَّعوا على الأسلوب الحكيم، أي تعالوا أقرأ ما حرَّمه ربكم عليكم على
وجه اليقين، لا بالظن والتخمين ﴿ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ﴾ أي أقرأ
الذي حرَّمه ربكم عليكم، وفي ذكر الرب وإضافته إليهم ﴿ رَبُّكُمْ ﴾
لاستمالتهم إلى امتثال الأمر، لأنه يرييهم لما فيه خيرهم وصلاحهم ﴿ أَلَّا
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ بدأ سبحانه بأمر الشرك، لأنه أعظم المحرمات،
وأكبر الكبائر ﴿ وَيَالْوَالِدَيْنِ ﴾ أي أحسنوا بهما ﴿ إِحْسَنًا ﴾ كاملاً، لا إساءة
معه، وإنما ذكر ضمن المحرمات، لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده، فكانه
قال: ولا تسيئوا إلى الوالدين، بل أحسنوا إليهما إحساناً، والسرُّ في الأمر
بالإحسان، المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة إليهما، غير كافٍ في
قضاء حقوقهما، ولهذا لم يقل: ولا تسيئوا إليهما، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ
مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ إملق إملاقاً: افتقر، أي لا تقتلوهم خشية الفقر، لئلا تروهم
جياً ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَأَيْتَاهُمْ ﴾ أي نحن نرزق الفريقين، رزقكم ورزقهم
علينا، فلا تخافوا الفقر، وتقدموا على ما نهيتهم عنه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ ﴾
أي المنكرات الكبائر، كالزنى وشرب الخمر ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾
أي ما يفعل علانية في الحوانيت، كما هو دأب أراذلهم، وما يفعل سراً
باتخاذ الأخدان، كما هو عادة رؤسائهم وكبرائهم، وتعليق النهي بقربانها،
للمبالغة في الزجر، قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً
في السرِّ، ويستقبحونه في العلانية، فحرَّمه الله في السرِّ والعلانية ﴿ وَلَا
تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ أي حرَّم قتلها، بأن عصمها بالإسلام أو
بالعهد، فيخرج الحربي ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ كالقصاص، وقتل المرتد، ورجم

المحصى^(١) ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي ما ذُكر من التكاليف الخمسة ﴿وَصَنَكُمْ بِهِ﴾ أي أمركم به أمراً مؤكداً، ولما كانت الأمور المنهي عنها، مما تقتضي بديهة العقل بقبحها، ختمت الآية الكريمة بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾ أي تستعملون عقولكم التي تحبسها عن مباشرة القبائح المحرمة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدُّهُ وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ أي لا تتعرضوا بوجه من الوجوه لمال اليتيم
﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي إلا بالفعللة التي هي أحسن الأفعال بماله، كحفظه
وتشميره، ونحو ذلك، والخطابُ للأولياء، والأوصياء، لقوله تعالى: ﴿حَتَّى
يَبْلُغَ أَشُدُّهُ﴾ فإنه غاية لما يفهم من الاستثناء، لا للنهي، كأنه قيل: احفظوه
حتى يبلغ، فإذا بلغ فسلموه إليه، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ
رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾^(٢) والأشدُّ جمع لا واحد له، والمراد به بلوغ
الحلم ﴿وَأَوْفُوا﴾ أي اتموا ﴿الْكَيْلَ﴾ أي المكيال ﴿وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي
بالعدل، والتسوية، من غير زيادة ونقصان ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا
ما يسعها ولا يعسر عليها، وهو اعتراض جيء به عقيب الأمر بالعدل،
للإيذان بأن مراعاة العدل على وجه الدقة، لا يتحقق في كل مكيال
وموزون، إلا إذا كان بميزانٍ دقيق كميزان الذهب، وفي التزام ذلك في

(١) لما رواه الشيخان عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا يحلُّ دم امرئ مسلم، يشهد أن
لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب - أي المتزوج - الزاني، والنفس
بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

(٢) سورة النساء، آية: ٦.

بيوع الحبوب والفواكه، حرجٌ عظيم، كأنه قيل عليكم بما في وسعكم، بحيث يعتقد أنه لم يظلم بزيادة ولا نقص يعتد به، وما وراء ذلك معفو عنكم، ويجوز أن يكون المعنى: جميع ما كلفناكم به ممكنٌ غير شاق، ونحن لا نكلف ما لا يُطاق ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً في حكومة أو شهادة الواجب ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه وقولوا الحق ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَى﴾ أي ذا قرابة منكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾^(١) فالعدل واجبٌ في الأقوال، كما أنه واجب في الأفعال، لأنه هو الذي تصلح به شؤون الناس، فهو ركنُ العمران، وقطبُ رَحَى النظام ﴿وَيَعْهَدُ اللَّهُ أَوْفُوا﴾ أي ما عهد إليكم من الأمور، أو أيَّ عهد كان، كنذرٍ ونحوه ﴿ذَلِكَمُ وَصَّيْكُمْ بِهِ﴾ أي أمركم به أمراً مؤكداً ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تذكرون وتعتظون، وتعملون بمقتضاه، وهذه الأحكام العشرة لا تختلف باختلاف الأمم، والأعصار، وهنَّ محرمات على بني آدم جميعاً، ولما كانت هذه التكاليف الخمسة في هذه الآية، تحتاج إلى تبصر وتذكر، لذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١٥٦).

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ إشارة إلى ما ذكر في هذه السورة، فإنها بأسرها في إثبات التوحيد، والنبوة، وبيان الشريعة الغراء، وقال ابن عباس ﴿هذا﴾ الإشارة إلى شريعة الإسلام، ويلائمه النهي الآتي ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الأديان المختلفة، أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحدٌ، ومقتضى الهوى متعدد، لاختلاف الطبائع والعادات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ والأصل «تَفَرَّقَ» أي فتفرقكم عن سبيل الهدى ودين

(١) سورة النساء، آية: ١٣٥.

الإسلام، الذي لا عوج فيه ولا انحراف. روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: هذا سبيلُ الله تعالى مستقيماً، ثم خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخطِّ وعن شماله، ثم قال: هذه السُّبُل، ليس منها سبيلٌ إلَّا عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية (١) ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما مر من اتباع سبيله، وترك اتباع سائر السبل ﴿وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عن اتباع سبل الكفر والضلالة، ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف، وأمر سبحانه باتباعه، ونهى عن اتباع غيره، ختم ذلك بالتقوى، التي هي اتقاء النار، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية، وحصل على السعادة السرمدية (٢)، وكرر سبحانه الوصية، ويالها من وصية، ما أعظم شأنها!! ولهذا ورد عن ابن مسعود أنه قال: من سرَّه أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ بخاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا... تَتَّقُونَ﴾.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ شافياً كافياً، والمراد بالكتاب التوراة ﴿تَمَامًا﴾

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤٣٥/١ ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٠٠/٥ حيث كانت المحرمات الأول واضحة لا يقع فيها عاقلٌ نظرٌ بعقله، جاءت العبارة ﴿لعلكم تعقلون﴾ والمحرمات الأخر شهواتٌ، وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر، جاءت العبارة ﴿لعلكم تذكرون﴾ ثم لما كان ركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل، وتلك درجة التقوى جاءت العبارة ﴿لعلكم تتقون﴾!!

عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴿١٥٦﴾ أَي أعطيناه التوراة تماماً للكرامة والنعمة، على من كان محسناً وصالحاً، وهو موسى عليه السلام الذي أحسن العبادة والطاعة لله مئةً عليه منّا، لما سلف منه من حسن العبادة والمجاهدة في سبيل الله ﴿وَنَقْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي بياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين ﴿وَهُدًى﴾ أي دلالة الحق ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالمكلفين من أتباعه من بني إسرائيل ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَآؤَ رَبِّهِمْ﴾ أي بالبعث والثواب والعقاب ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون، وعن ابن عباس المعنى: كي يؤمنوا بالبعث، ويصدقوا بالثواب والعقاب.

﴿وَهَذَا﴾ أي القرآن الكريم، الذي تليت عليكم أوامره ونواهيه ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم الشأن، لا يُقادر قدره ﴿أُنزِلْنَاهُ﴾ بواسطة الروح الأمين، مشتملاً على فنون الفوائد الدينية والدنيوية ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي كثير الخيرات والمنافع ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أي فاستمسكوا به واجعلوه إماماً لكم، فإنَّ عظم شأن الكتاب في نفسه، وكونه منزلاً من جنابه عزَّ وجل، موجبٌ لاتباعه ﴿وَاتَّقُوا﴾ مخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكون رحمته تعالى مرجوة لكم.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾ ﴿١٥٧﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ ﴿١٥٨﴾.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ وهما اليهود والنصارى، وتخصيص الإنزال بكتابهما، لأنهما اللذان اشتهرا حينئذ من الكتب السماوية ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ أي وقد كنا عن تلاوة كتبهم ﴿لَغَفِيلِينَ﴾ لا ندرى ما هي؟ وهذا خطاب لأهل مكة، لقطع عذرهم بإنزال القرآن الكريم بلغتهم.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ﴾ كما أنزل عليهم ﴿لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾

إلى الحق الذي هو المقصد الأقصى ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أي لا تعتذروا يا أهل مكة بذلك فقد جاءكم ﴿يَسَنَةٌ﴾ أي حجة واضحة تعرفونها لظهورها وكونها بلسانكم، وهذا هو الجواب القاطع لكل من اعتذر، فإن القرآن بينة عظيمة، مبينة للحق، في العقائد، والفضائل، والشرائع، كائنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الذي يريكم ويتعهد مصالحكم ﴿وَهْدًى وَرَحْمَةً﴾ أي وهداية ورحمة من رب الأرباب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ؟﴾ أي لا أحد أظلم وأفجر ﴿وَمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي ممن كذب بالقرآن، ولم يؤمن بآياته البينات، وعبر عما جاءهم ﴿بآيات الله﴾، تهويلاً للأمر، وتنبهاً على أن تكذيب أي آية من آيات الله، كافية في الكفر، فما ظنك بتكذيب القرآن المنطوي على الكل؟ ﴿وَصَدَقَ﴾ أي صرف الناس ﴿عَنْهَا﴾ عن الآيات، فجمع بين الضلال والإضلال ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدُقُونَ عَنْ آيَاتِنَا﴾ وعيد لهم ببيان جزاء إضلالهم وضلالهم أيضاً ﴿سَوْءَ الْعَذَابِ﴾ أي العذاب القبيح السيئ، الشديد النكاية ﴿بِمَا كَانُوا﴾ أي بسبب ما كانوا ﴿يَصْدُقُونَ﴾ أي يعرضون عن آيات الله، ويمنعون الناس عن الهداية والإيمان، وذكره بصيغة المضارع ﴿يَصْدُقُونَ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، أي هم في كفر دائم، وإعراض مستمر.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ (١٥٨).

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أو يأتي أمر ربك بالعذاب ^(١) ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ

(١) قال الطبري ٢٤٥/١٢ ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي يأتيهم ربك في موقف القيامة للفصل بين خلقه.

رَبِّكَ ﴿ أَيُّ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى، كَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجِ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ، وَالسِّيَاقُ النَّاطِقُ بَعْدَ نَفْعِ الْإِيمَانِ، عِنْدَ إِتْيَانِ مَا يَنْتَظِرُونَهُ، يَسْتَدْعِي أَنْ يُحْمَلَ ذَلِكَ عَلَى أُمُورٍ هَائِلَةٍ، وَهُوَ الْأَنْسَبُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ ﴿ لَمَّا رَوَاهُ الشَّيْخَانُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ، آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَلِكَ حِينَ: ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ »^(١) وَإِنَّمَا لَمْ يَقْبَلِ الْإِيمَانُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِإِيمَانٍ اخْتِيَارِيٍّ، وَإِنَّمَا هُوَ إِيمَانٌ لَخَوْفِ الْهَلَاكِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾^(٢) فَيَكُونُ الْإِيمَانُ حِينَئِذٍ كَالْإِيمَانِ عِنْدَ الْغُرْغُرَةِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ الْإِيمَانُ حِينَئِذٍ نَفْسًا، لَمْ تَقْدَمْ إِيمَانُهَا، أَوْ قَدَمَتْهُ وَلَمْ تَكْسِبْ فِيهِ خَيْرًا، وَمِنْ ضَرُورَةِ اشْتِرَاطِ النِّفْعِ بِتَحْقِيقِ الْأُمُورِ مَعًا، أَنَّ الْإِيمَانُ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي فِي ذَلِكَ الْحِينِ، وَفِي ذَلِكَ خِلَافٌ بَيْنَ الْمَعْتَزِلَةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ، وَلِلْمَعْتَزِلَةِ جِدَالٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، يَسْتَدْلُونَ بِهَا أَنَّ الْإِيمَانُ لَا يَنْفَعُ بِدُونِ عَمَلِ الْخَيْرِ، وَيَمْنَعُ ذَلِكَ الْآخَرُونَ، وَالتَّحْقِيقُ فِي الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الْإِيمَانُ الصَّحِيحَ، يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ فِي الْجُمْلَةِ، دُونَ الشُّمُولِ، فَيَجُوزُ عَقْلًا أَنْ يَتْرَكَ الْمُؤْمِنُ بَعْضَ الْوَاجِبَاتِ، أَوْ يَرْتَكِبَ بَعْضَ الْمَحْرَمَاتِ، وَلَكِنَّهُ يَتُوبُ وَيَمُوتُ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّكَنَ مِنَ الْعَمَلِ، وَمَا أَظُنُّ أَنَّهُ يَوْجَدُ عَاقِلٌ يَخْتَلِفُ فِي نَجَاةٍ مِثْلِ هَذَا بِمَجْرَدِ الْإِيمَانِ ﴿ قُلْ ﴾ لَهُمْ بَعْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ الْحَالِ عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ ﴿ أَنْتَظِرُوا ﴾ مَا تَنْتَظِرُونَهُ مِنْ إِتْيَانِ أَحَدِ هَذِهِ الْأُمُورِ ﴿ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ لِذَلِكَ، وَحِينَئِذٍ نَشَاهِدُ مَا يَحُلُّ بِكُمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَفِيهِ تَأْيِيدٌ لَكُنْ مَا يَنْتَظِرُونَهُ إِتْيَانُ أَمْرِهِ تَعَالَى بِالْعَذَابِ، وَوَعْدُ اللَّهِ لِلرَّسُولِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، بِمَعَايِنَتِهِمْ لَمَّا يَحِيقُ بِهِمْ.

(١) الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ٢٩٧/٨ وَمُسْلِمٌ ١٩٤/٢ وَأَبُو دَاوُدَ ١٦٣/٤ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى فِي الصَّحِيحِ «فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ، آمَنُوا أَجْمَعُونَ، وَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ».

(٢) سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ، آيَةُ: ٨٤.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١٥٩).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ روي عن ابن عباس وقتادة أن الآية نزلت في اليهود والنصارى، أي بدّدوا دينهم، وفَرَّقُوهُ أبعاضاً، فتمسك بكلّ بعضٍ منهم ﴿ وَكَانُوا شِيعًا ﴾ أي فِرَقاً وأحزاباً، كل فرقة تعادي الأخرى. أخرج أبو داود والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افتقرت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة، وافتقرت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلهم في الهاوية إلا واحدة»^(١) قال الخطابي: في هذا الحديث، دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من الدين، إذ جعلهم من أمته ﷺ، ومجموع الآثار الواردة في تفسير الآية تدل على شمولها للتفرق في أصول الدين، بحيث يعادي المسلمون بعضهم بعضاً، كما قالت أم المؤمنين عائشة (رضي) في الثورة يوم قتل عثمان رضي الله عنه: «إلا إن الله ورسوله، بريثان من الذين فارقوا دينهم، فكانوا شِيعاً» ﴿ وَكَانُوا شِيعًا ﴾ أي فِرَقاً وأحزاباً كل فرقة مختلفة عن الأخرى، تتخذ لها إماماً ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ أنت بريء منهم، وهم منك براءء ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ يتولى جزاءهم يوم القيامة كيف يشاء، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة وقيل: المفرقون هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة^(٢) ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ ﴾ يوم القيامة

(١) الحديث أخرجه أبو داود في السنة رقم ٤٥٩٧ والترمذي في الإيمان رقم ٢٦٤١ ولفظ الترمذي: «إن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي».

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢٠٤: والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه =

﴿يَا كَاثِبُونَ﴾ في الدنيا بعد تعذيبهم بأيديهم، بما مضت سنته عز وجل في الاجتماع البشري، من ضعف المتفرقين، وتسلب الأقوياء عليهم، فيذيق بعضهم بأس بعض، بما تثيره عداوة التفرق بينهم من الحروب والشور، ثم ينبتهم عند الحساب، عاقبة ما ارتكبوه من تفرق وتمزق، أنهم كانوا جاهلين بما ارتكبوه.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١١٦) قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١١٧) قُلْ إِن صَلَاحِي وَفُسْكِ وَحْيَايَ وَمَمَافٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١١٨) لَا شَرِيكَ لَكَ وَلِبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١١٩).

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ المراد من الحسنة ههنا: الإيمان، والأعمال الصالحة، أي من جاء بالأعمال الحسنة من المؤمنين ﴿فَلَهُ عَشْرُ﴾ حسنات ﴿أَمْثَالِهَا﴾ فضلاً من الله تعالى، وهذا أقل ما وعد تعالى من الأضعاف، وقد جاء الوعد بسبعين، وبسبعمئة، وبغير حساب ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي بالأعمال السيئة، كالكفر، والعصيان ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ بحكم الوعد واحدة بواحدة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب، أو زيادة العقاب، وأما إيجاب كفر ساعة بعقاب الأبد، فلا للكاfer على عزم وتصميم أنه لو عاش أبداً، لبقى على ذلك الاعتقاد أبداً، فيعامل بنيته.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي﴾ أي قل يا محمد لأولئك الضالين إن ربي أرشدني بالوحي، وبما نصب في الآفاق والأنفس، من الآيات التكوينية ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي طريق قويم، موصل إلى الحق، وهو دين الإسلام ﴿وَدِينًا﴾

= واحد لا اختلاف فيه، ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي فرقا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله قد برأ رسوله منهم.

أي هداني ديناً ﴿فِيمَا﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه، مصدرٌ نُعت به مبالغة، وهو أبلغ من القائم قال الزجاج: وهو مصدر كالصَّغر، والكَبَر، وكان الأصل أن يأتي بالواو «قَوْمًا» كما قالوا: عَوْض، ولكنه شدَّ عن القياس، يعني: ديناً مستقيماً لا اعوجاج فيه ﴿يَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي دين الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، مائلاً عن الأديان الباطلة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي ما كان منهم في أمر من الأمور أصلاً، لأن الحنيفية تنافي الشرك، ففيه تكذيب لهم، في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم، لأنه عليه السلام كان على دين التوحيد، وفيه ردُّ على الذين يدعون أنهم على ملته، من أهل مكة القائلين: الملائكة بنات الله، واليهود القائلين: عزير ابن الله، والنصارى القائلين: عيسى ابن الله.

﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ﴾ أي عبادتي كلها ﴿وَنُكِّسِي﴾ أي ذبحي وقرباني ﴿وَحَيَّيْتُ وَمَمَاتِي﴾ أي حياتي وموتي، وما أقدمه في هذه الحياة من الإيمان والعمل الصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالصة لوجهه عز وجل.

﴿لَا شَرِيكَ لَّهِ﴾ أي لا أشرك فيها غيره ﴿وَبِذَلِكَ﴾ أي بإخلاص العبادة لله وحده، والإخلاص في العمل ﴿أُمِرْتُ﴾ لا بشيء غيره ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته أي وأنا أول من خضع وأذعن، وانقاد إلى امتثال ما أمر الله تعالى به.

﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزْرٌ وَازِرَةٌ وَزِرَةٌ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَيْكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾

﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا﴾؟ الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي قل لهم يا محمد: أغير الله تعالى أطلب رباً، فأشركه في العبادة؟ ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي والحال أنه خالق مالك كل شيء، وكلُّ ما سواه مربوب له

تعالى، فكيف يُتصور أن يكون شريكاً له في الربوبية؟ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ يروى أنهم كانوا يقولون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم، فردّ عليهم بأن ما كسبته كل نفس من الخطايا محمولٌ عليها، لا على غيرها، وعلى هذا يكون قوله سبحانه ﴿وَلَا تُزْوَازُهُ﴾ أي نفسُ آئمةٍ ﴿وَزَرْأَتُهَا﴾ تأكيداً لما قبله، أي لا تحمل حاملاً حِمْلَ أخرى من الذنوب والآثام، وفي الحديث «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ - أَي من بعد ممات من سنّها - من غير أن ينقص من أجورهم شيء»، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا، وَوَزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١) ولا تعارض بين الآية والحديث، فكلٌّ من هذا وذاك، من عمل الهادين والمضلين، لأنهم الذين دعوهم إلى الهدى أو الضلال ﴿ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيهٌ له إلى الكل، لتأكيد الوعد، وتشديد الوعيد، أي رجوعكم أيها الناس إلى مالك أمركم يوم القيامة، وهو الله رب العالمين ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي من أمر الدين، ببيان الرشد من الغي، وتمييز الحق من الباطل.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ أي الله الذي جعلكم ﴿خَلِيفَةَ الْأَرْضِ﴾ أي يخلف بعضكم بعضاً، كلما مضى قرنٌ جاء قرنٌ، تتصرفون فيها كما يتصرف المالك بملكه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الفضل، والغنى، والرزق، وغير

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزكاة رقم ١٠١٧ وهو طرفٌ من حديث طويل في القوم العراة من مضر الذين قدموا على رسول الله ﷺ وقد اشتد بهم الفقر، وأنظر تمام الحديث في جامع الأصول ٤٥٧/٦.

ذلك ﴿دَرَجَتٍ﴾ كثيرة متفاوتة ﴿لِيَسْبُلُوكُمْ فِي مَاءٍ اتَّكِرُ﴾ من المال والجاه، أي ليعاملكم معاملة من يتليكم، لينظر ماذا تعملون؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ تجريد للخطاب لرسول الله ﷺ، مع إضافة اسم الرب إليه، لإبراز مزيد اللطف به ﷺ ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أي عقابه الأخروي سريع الإتيان، لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله، لأن كل آت قريب ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن رعاها حق رعايتها، وأطاع الله في هذه الحياة، ويجوز أن يُراد بالعقاب عقاب الدنيا، كالذي يغقب المجرم من البعد عن الفطرة، وقساوة القلب، وغشاوة الأبصار، وصمم الأسماع ونحو ذلك، وفي الوصفين الواردين على بناء المبالغة، مع التأكيد باللام ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ما لا يخفى من التنبيه على أنه سبحانه غفور رحيم بالذات، لا تتوقف مغفرته ورحمته على شيء، مبالغ في ذلك.

وما أَلطف افتتاح هذه السورة بالحمد، وختمها بالمغفرة والرحمة، نسأل الله تعالى أن يجعل لنا الحظ الأوفر منهما، إنه ولي الإنعام، وله الحمد في كل ابتداء وختام. وهذا آخر الكلام في تفسير سورة الإنعام، والحمد لله الملك العلام، وصلى الله على رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنعام»

سُورَةُ الْاِعرَافِ

مكية وهي مائتان وست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبْنَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ
وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ .

﴿الْمَصَّ﴾ سبق الكلام في مثله^(١) وأخرج البيهقي عن ابن عباس أن
المعنى: أنا الله أعلم، وأفصل.

﴿كَتَبْنَا﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هو كتاب، والمراد به القرآن
العظيم، الحائز للكمالات المختصة به ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ من جهته تعالى رب
العزة والجلال، وهي صفة مشرفة لقدره ﷻ وقدّر ما أنزل إليه، بُني الفعل
للمجهول جرياً على سنن الكبرياء، إيداناً بالاستغناء عن التصريح بالفاعل،
لغاية ظهور تعينه ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ أي لا يكن فيك ضيق صدر

(١) تقدم في أول سورة البقرة، أن الحكمة من ابتداء بعض السور، بالحروف الهجائية
المقطعة، هو بيان «إعجاز القرآن» وأنه منظوم ومرتب من أمثال هذه الحروف
المقطعة، ومع ذلك فقد عجز بلغاؤهم وفصحاؤهم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله، وهو
ما اختاره المحققون من المفسرين.

من تبليغه، مخافة أن يكذبوك ﴿لِنُنذِرَ بِهِ﴾ تعليل للإنزال أي لتنذر به جميع الثقلين ﴿وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ذكرى اسم بمعنى التذكير، أي ولتذكّر به المؤمنون تذكيراً، وتخصيص التذكير بالمؤمنين، لأنهم هم المنتفعون به، وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين، أي اتبعوا أيها الناس القرآن الذي أنزله إليكم ربكم، ففيه الهدى والشفاء والبيان، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين، مزيد لطف بهم، وترغيب لهم في الامتثال بما أمروا به ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله، كالأوثان والرهبان والكهّان، تقبلون منهم ما يلقونه إليكم، ليضلّوكم عن الحق، ويحملوكم على البدع والأهواء ﴿فَلْيَلَا مَا تَذْكُرُونَ﴾ أي تذكر أقليلاً حيث لا تتأثرون بذلك فتركوا دين الله، وتبعوا غيره.

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ فَلَنَقْضِ عَنْهُمْ يَعْلُوَ وَمَا كُنَّا غَافِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ ذكرهم تعالى بما نزل بمن قبلهم من العذاب، بسبب إعراضهم عن دين الله تعالى، والمراد بقوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ إرادة إهلاكها، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي أردتم القيام إلى الصلاة، وهنا يراد أردنا إهلاكها ﴿فَجَاءَهَا﴾ أي فجاء أهلها وقيل: المراد إهلاك نفس القرية مع أهلها، بهدم أو خسف ﴿بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ﴿بَيِّنًا﴾ مصدر واقع موقع الحال، أي بائتين، والبيات: الإغارة على العدو ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ من القيلولة، وهي الاستراحة وسط النهار،

وإن لم يكن مع ذلك النوم، قال تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ في حق الجنة، والواقع أنه لا نوم فيها، فحاصل المعنى: أتاها عذابنا تارةً ليلًا، كعذاب قوم لوط، وتارةً وقت القيلولة، كعذاب قوم شعيب، وتخصيصُ الحاليتين بالعذاب، لما أن نزول المكروه عند الغفلة أفضح وحكايته للسامعين أزر وأردع، فلا ينبغي للعاقل أن يأمن صفو الليالي، ولا يَغْتَرَّ بالأيام الخوالي، وفيه إشارة إلى أنهم أرباب أشر وبطر، لأن القيلولة أظهر في إرادة الدَّعة، وخفض العيش، فإنها من دأب المترفين، دون من اعتاد الكدح والتعب في النهار.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ﴾ أي دعاؤهم واستغاثتهم كقوله تعالى: ﴿دَعُواهُمْ﴾ فيها سبحانهك اللهم ﴿أي دعاؤهم﴾ ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ عذابنا وعاینوا أماراته ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي إلا اعترافهم بظلمهم، تحسراً وندامة، وطمعاً في الخلاص، وهيهات!!

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ هذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١) أي فلنسألن الأمم قاطبة، قائلين: ماذا أجبتكم المرسلين؟ فإن قلت: قد أخبر الله عنهم في الآية الأولى، بأنهم اعترفوا على أنفسهم بالظلم، فما فائدة هذا السؤال؟ الجواب أن هذا السؤال للتوبيخ والتفريع، والمنفي في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ سؤال الاستعلام، فإن الله عالم بما صنعوا لا يحتاج إلى سؤالهم، ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي نسأل الرسل الكرام ماذا أجيبوا؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾^(٢) لأن الكفار يقولون: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ والمراد من هذا السؤال: توبيخ الكفرة، وتفريعهم أيضاً، والحاصل أن المكلفين يسألون عن أمور أخرى،

(١) سورة الحجر، آية: ٩٢ - ٩٣.

(٢) سورة المائدة، آية: ١٠٩.

والمواقف يوم القيامة شتى، ويسأل ربُّ العزة والجلال عباده فيها عن أمور عديدة، فطوبى لمن أخذ بعضده السعد، فأجاب بما ينجيهِ!!

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ﴾ أي على الرسل حين يقولون: ﴿لَا عَلِمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أو عليهم وعلى المرسل إليهم جميعاً ﴿يَعْلَمُ﴾ عالمين بظواهرهم وبواطنهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم، والمراد الإحاطة بأقوالهم وأفعالهم، لا يشدُّ منها شيء عن علمه سبحانه.

﴿وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَمَآيَنَتِنَا
يَظْلِمُونَ ﴿٦﴾.

﴿وَالْوِزْنُ﴾ أي وزن الأعمال، والتمييز بين الراجح منها والخفيف، والجيد والرديء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم السؤال والحساب ﴿الْحَقُّ﴾ أي الوزن الحقُّ للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل، واختلف في كيفية الوزن، والجمهور على أن صحائف الأعمال تُوزَنُ بميزان له لسانٌ وكفتان، ينظر إليه الخلائق، إظهاراً للعدل، وقطعاً للمعذرة، ويؤيده ما روي عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلصُ رجلاً من أمتي، على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سِجْلاً، كلُّ سِجْلٍ مثلُ مدِّ البصر، فيقول سبحانه: أتُنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كُتُبِي الحافظون؟ فيقول: لا، يا رب، فيقول سبحانه: أفلك عذرٌ؟ فيهاب الرجل فيقول: لا، يا رب، فيقول جلَّ شأنه: بلى إنَّ لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج له بطاقة فيها «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» فيقول: احضُر وزنك!! فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة، مع هذه السِّجَلَات؟ فيقال: إنك لا تُظلم، فتوضع السِّجَلَاتُ في كِفَّة، والبطاقة في كِفَّة، فطاشت السِّجَلَاتُ، وثقلت البطاقة، ولا يثقل

مع اسم الله تعالى شيء»^(١) وشأن الميزان أن يوضع في إحدى كفتيه شيء، وفي الأخرى ضده، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة، فالنطق بهذه الكلمة الطيبة حسنة، فتوضع كسائر الحسنات، وأيد ذلك بقوله: «إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حِسْنَ» دون أن يقول إيماناً، وقيل الوزن: عبارة عن القضاء والحكم العادل، وإليه ذهب المعتزلة، قال ابن فورك: أنكرت المعتزلة الميزان، بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها، والحال أن البشر قد اخترعوا موازين الأعراض، كالحر، والبرد، ونحوهما، أفيعجز القادر على كل شيء، عن وضع ميزان للأعمال؟ والأصل فيه أن كل ما ثبت من الأخبار، في الكتاب والسنة، فهو حقٌّ نؤمن به، ولا نحكم في صفاته وكيفياته ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ تفصيلٌ للأحكام المترتبة على الوزن، والموازين جمعٌ موزون، وهو العمل الذي له وزن عند الله سبحانه، والمراد به الحسنات، أي فمن رجحت موازينه التي تُوزن بها حسناته ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالجنة والثواب، الناجون من العذاب.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي موازين أعماله القبيحة السيئة، بسبب الكفر واجتراح المنكرات ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي ضيعوا الفطرة السليمة، فخسروا سعادتهم وحياتهم بالهلاك والخلود في النار ﴿يَمَا كَانُوا بِغَايَتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي جزاء على ظلمهم وتكذيبهم لآيات الرحمن، واستدل بهذه الآية على أن عذاب الكفار متفاوت، ولا يُعقل أن يكون عذاب أبي جهل، كعذاب أبي طالب، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (١١).

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان رقم ٢٦٤١ ورواه أيضاً ابن ماجه، والحاكم وصححه.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ لَمَّا أَمَرَ اللهُ سبحانه أهل مكة، باتباع ما أنزل إليهم، ونهاهم عن اتباع غيره، ذكّرهم بما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر، ترغيباً في الامتثال بالأمر والنهي، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ أي جعلنا لكم في الأرض مكاناً وقراراً، وأقدرناكم على التصرف فيها، من سكنائها وزرعها وغير ذلك ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ أي ما تعيشون به وتحيون، من المطاعم والمشارب ونحوها ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة الجسيمة، وفيه تحذير لهم من كفران النعمة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ تذكير لنعمة عظيمة فائضة على آدم، سارية إلى ذريته، موجبة لشكرهم كافة ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي خلقنا أباكم «آدم» طيناً غير مصوراً، ثم صورناه، وإنما نُسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين، توفيةً لمقام الامتنان، وتأكيذاً لوجوب الشكر عليهم، إذ الكل مخلوق في ضمن خلقه، ومصنوع على شاكلته ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، تكريماً له ولذريته، فامتثلوا الأمر، وسجدوا إلا إبليس اللعين، فقد أبى واستكبر وكان من الكافرين. وهذا صريح في أن الأمر ورد بعد خلقه عليه السلام وهو المراد بما حُكي في سائر السور، وكلمة «ثُمَّ» تقتضي التراخي عن التصوير، والمعنى: أننا ابتدأنا خلق آدم من تراب، ثم صورناه، ثم بعد الفراغ قلنا... الخ.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ﴾ أي قال الله تعالى لإبليس: أي شيء منعك من السجود، و﴿لَا﴾ زائدة، بدليل قوله تعالى: في سورة ص: ﴿مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ ومثلها ﴿لَيْلًا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾^(١) أي ليعلم، وفائدة الزيادة التأكيد، وأنها منبهة على أن الموبّخ عليه ترك السجود، فإن قلت: لم سألوه وهو أعلم به؟ قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته، وكفره، وافتخاره بأصله، وحسده لآدم ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي حين أمرتك بالسجود له، وفيه دليل على أن هناك أمراً خاصاً لإبليس بالسجود لآدم، وإن لم يكن من الملائكة، وقد جاء في سورة الحجر: ﴿مَالِكٌ أَنْ لَا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾؟ واختلاف العبارات عند الحكاية، يدلُّ على أن اللعين قد أدمج في معصية واحدة، ثلاث معاصي: مخالفة الأمر، ومفارقة الجماعة، والاستكبار، وقد وُيِّخ حينئذ على كل واحد منها، لكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن، على ما ذكر فيه، اكتفاء بما ذكر في موطن آخر ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ هذا في الحقيقة ليس بجواب، بل هو جواب من حيث المعنى^(٢) استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله، كأنه قال: المانع أنني خير منه، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول، فكيف يحسن أن يؤمر به؟ فهو الذي سنَّ التكبر، وأخطأ في القياس، حين قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾ وهو تعليل لما ادعاه - عليه اللعنة - من فضله على آدم، وحاصله إنني أشرف منه، لأنك خلقتني من نار، وهي جوهر نوراني، وخلقته من طين، وهو ظلماني، وقد غلِط في ذلك، بأن رأى الفضل كله باعتبار العنصر، وغفل عما يكون باعتبار السرِّ الإلهي المودع فيه، كما نبّه عليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رَوْحِي﴾ وبالعلم الذي وهبه له، ولذلك أمر

(١) سورة الحديد، آية: ٢٩.

(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٤١/٥: وجواب إبليس اللعين ليس عما سُئل عنه، ولكنه جاء بكلام يتضمن الجواب والحجة عليه، فكأنه قال: منعني فضلي عليه، إذ أنا خير منه حين خلقتني من نار وخلقته من طين!!.

الملائكة بالسجود له، فهو أعلم منهم، وله خواص ليست لغيره، وقد أخطأ إبليس أيضاً في قوله: النار أفضل، بل الطين أفضل، لرزاقته ووقاره، ومنه الحلم والحياء والصبر، وفي النار الطيش والحدة والترفع، وذلك الذي دعاه إلى الاستكبار، والترابُ عدة الممالك، والنار عدة المهالك، والتراب منه الأمانة والإنماء، والنار مظنة الخيانة والإفناء، والتراب يطفئ النار، والنار لا تطفئه، وهذه فضائل غفل عنها إبليس، حتى نزل بفاسد من المقاييس، قال جعفر الصادق: «أولُ من قاس أمر الدين برأيه إبليس، قال الله تعالى له: اسجد لآدم، فقال: أنا خير منه!!».

﴿ قَالَ فَأَهِيطَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾
 قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ۞ ﴾

﴿ قَالَ فَأَهِيطَ مِنْهَا ﴾ من الجنة التي هي في السماء، التي يسكنها المؤمنون يوم القيامة، وقيل: إنها روضة بعدن، وكانت على نشر من الأرض^(١)، وبعد العصيان حُجب اللعين من السماء، التي هي مقره ومعبدته ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ أي فما يصح ولا يستقيم لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ تعليل للأمر بالهبوط، وفيه تنبيه على أن التكبر، لا يليق بأهل الجنة، وأنه تعالى طرده لتكبره، لا لمجرد عصيانه، ولا يخفى لطافة التعبير به دون الخروج، في مقابلة قوله: ﴿أنا خير منه﴾ والمراد بالتكبر التكبر على الله، وهو أعظم التكبر ﴿فاخرج﴾ تأكيد للأمر بالهبوط ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي ممن أهانه الله لكبره، والصَّغَارُ بالفتح: الذلُّ أي إنك من الأذلاء، يذمُّك كلُّ إنسان،

(١) القول الأول أنها الجنة التي في السماء هو الصحيح، لأن الله تعالى ذكر في سورة «طه» وصفاً لا ينطبق إلا على جنة الخلد التي في السماء، وهو قوله سبحانه: ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ وانظر المسألة مفصلة في كتابنا النبوة والأنبياء ص ١٧٠.

ويلعنك كلُّ لسان. عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من تواضع لله تعالى رفعه الله، ومن تكبرَ وضعه الله»^(١).

﴿قَالَ﴾ أي قال اللعين بعدما سمع هذا الطرد ﴿أَنْظِرْنِي﴾ أي أمهلني ولا تمتني ﴿إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ﴾ أي آدم وذريته، وهو وقت النفخة الثانية، وأراد اللعين بذلك أن يجد فُسحة من إغوائهم، ويأخذ منهم ثأره لاستحاله بعد البعث.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أي إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلاً، حسبما تقتضيه الحكمة، وظاهره إلى يوم يبعثون، حيث وقع في مقابلة كلامه، لكن في سورة الحجر، وصَّ التقيّد بيوم الوقت المعلوم، والمشهور أنه يوم النفخة الأولى^(٢)، دون يوم البعث، لأنه ليس بيوم موت، وفي إنظاره ابتلاء للعباد، وحكمه حكم ما خلق الله تعالى في الدنيا، من صنوف الزخارف، وأنواع الملاهي والملاذ، وما رُكِب في الأنفس من الشهوات، ليمتنحن بها عباده.

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي﴾ الباء للقسمة كما في قوله تعالى: ﴿فَيَعِزِّتِكَ لِأَغْوَيْنَهُمْ﴾ والإغواء خلق الغي، وأصل الغي الفساد، وجاء بمعنى الجهل كما في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ وبمعنى الخيبة، ومنه

(١) أخرجه البيهقي في سننه.

(٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير ١٧٥/٣ ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي﴾ أي أمهلني وأخرنني ﴿إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ﴾ أي إلى يوم البعث، فأراد أن يعبر قطرة الموت، وسأل الخلود، فلم يجبه إلى ذلك، وأنظره إلى النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم، وقد بيّن إمهاله في سورة الحجر بقوله سبحانه: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ولا مانع عند أهل السنة، أن يُراد بالإغواء خلق الغيِّ بمعنى الضلال، أي بما أضللتني، وهو المروي عن ابن عباس لعموم قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أي لآدم وذريته ترصداً بهم، كما يقعد القطّاع لقطع الطريق على الناس ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي طريق الإسلام الموصل إلى الجنة، فالقعود مجازٌ عن الإغواء، والآية تدل على أن إبليس كان عالماً بالدين الحق، ولذا قيل: كُفِّرَ إبليس كفر عناد، لا كفر جهل، وفي الحديث الشريف إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: «اتَّسَلُمُ وتَذَرُ دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال، فقال: تُقَاتِلُ فتُقْتَلُ فتتَّكح المرأة، ويُقسَم المال؟ فعصاه فجاهد، فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»^(١).

﴿ثُمَّ لَآتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي من الجهات الأربع، التي يعتاد هجوم العدو منها، ولذلك لم يذكر الفوق والتحت ﴿وَلَا يَحِذُّ أَكْثَرَهُمْ شِكْرِي﴾ أي مطيعين، وإنما قال ذلك ظناً منه، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ لما رأى مبدا الشهوة متعددة، شهوة النساء، والمال، والجاه، والتسلط كما قال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ وأنها تدعو النفس إلى عالم الجسم، وليس هناك ما يدعو إلى عالم الروح إلا قوة واحدة، وهي العقل، وما يصنع واحدٌ مع متعدد؟.

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٤٨٣/٣ من حديث سبرة بن فاكه مرفوعاً، وأخرجه النسائي ٢٢/٦ في الجهاد، قال الحافظ ابن حجر: إسناده حسن، وصححه ابن حبان.

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿مَذْمُومًا﴾ أي مذموماً كما روي عن ابن زيد، أو مهاناً لعيناً كما روي عن ابن عباس يقال: ذأمه: إذا عابه وحقّره فهو مذموم^(١) ﴿مَدْحُورًا﴾ مطروداً، دَحَرَه طرده وأبعده ﴿لَمَنْ يَلْعَكَ مِنْهُمْ﴾ اللام موطئة للقسم، وجوابه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ومعنى ﴿مِنْكُمْ﴾ منك ومنهم على تغليب المخاطب، وهذه الآية تدل على أن جميع أصحاب البدع، والضلالات، يدخلون جهنم لأن كلهم متابعون لإبليس، ثمّ الظاهر أن هذه المخاطبات لإبليس عليه اللعنة، كانت منه عز وجل من غير واسطة، وليس المقصود بها الإكرام، بل التعذيب والتعنيف.

﴿وَبَعَادُمْ أَسْكَنْ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ نِيهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴿٢١﴾ .

﴿وَبَعَادُمْ أَسْكَنْ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي وقلنا يا آدم اسكن مع زوجك حواء الجنة، وكلا من ثمارها وخيراتها من أي مكان شئتما، ولا تقربا شجرة معينة، فتصبحا خاسرين، نادمين بظلمكما لأنفسكما.

﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي ألقى إليهما الوسوسة ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات، التي يقبح كشفها، وأراد بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتهما، ولذلك عبّر عنها بالسوء، وفيه دليل على أن كشف العورة من غير حاجة، قبيحٌ ومستهجنٌ في الطبع ﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ نِيهِمَا﴾ أي كشف العورة من غير حاجة، قبيحٌ ومستهجنٌ في الطبع.

(١) قال ابن قتيبة: المذموم: المذموم بأبلغ الذم، والمدحور: المقتضي المبعد من رحمة الله، وانظر زاد المسير لابن الجوزي ١٧٨/٣.

سَوَاءَ تَهُمَا ﴿ مَا غُطِّي وَسْتَر عَنْهُمَا مِنْ عَوْرَاتِهِمَا، وَكَانَا لَا يَرِيَانَهَا مِنْ أَنْفُسِهِمَا، وَلَا أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخَرِ ﴾ وَقَالَ ﴿ إِبْلِيسُ لَهُمَا ﴾ مَا تَهَكُّمَارَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ﴿ أَيِ عَنْ أَكْلِهَا ﴾ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴿ أَيِ إِلَّا كَرَاهَةً أَنْ تَكُونَ مَلَكَيْنِ ﴾ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿ الَّذِينَ لَا يَمُوتُونَ وَيَخْلُدُونَ فِي الْجَنَّةِ .

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴾ أَيِ أَقْسَمُ لَهُمَا، وَصِيغَةُ الْمَفَاعَلَةِ لِلْمِبالِغَةِ، لِأَن مِنْ يَبَارِي أَحَدًا فِي فَعْلٍ يَجِدُّ فِيهِ، وَقِيلَ: الْمَفَاعَلَةُ عَلَى بَابِهَا وَالْقَسَمُ وَقَعَ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، قَالَا لَهُ: أَنْتَقَسِمُ بِاللَّهِ تَعَالَى لَنَا أَنْتَ لِمَنْ النَّاصِحِينَ؟ فَاقْسَمُ لَهُمَا، فَجَعَلَ ذَلِكَ مَقَاسِمَةً .

﴿ فَذَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ .

﴿ فَذَلَّلَهُمَا ﴾ أَيِ فَخَدَعَهُمَا وَأَطْمَعَهُمَا ﴿ بِغُرُورٍ ﴾ بِمَا غَرَّهُمَا بِهِ مِنْ الْقَسَمِ، فَإِنَّهُمَا ظَنَّا أَنْ أَحَدًا لَا يَقْسِمُ بِاللَّهِ كَاذِبًا، وَيُمْكِنُ أَنْ يَقَالَ: إِنْ اللَّعِينِ لَمَا وَسَّوسَ لَهُمَا فَلَمْ يَقْبَلَا مِنْهُ، عَدَلَ إِلَى الْيَمِينِ فَلَمْ يَصْدَقَاهُ أَيْضًا، فَعَدَلَ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ، وَهُوَ أَنَّهُ شَغَلَهُمَا بَنِيْلُ اللَّذَاتِ حَتَّى صَارَا مُسْتَغْرَقَيْنِ فَنَسِيَ النَّهْيَ، كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (١) ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا ﴾ أَيِ فَلَمَّا وَجَدَا طَعْمَهَا، أَخَذَتْهُمَا الْعُقُوبَةُ، وَشَوَّمُ الْمَعْصِيَةِ، فَظَهَرَتْ لَهُمَا عَوْرَاتُهُمَا، وَأَبْصَرَ كُلُّ مِنْهُمَا عَوْرَةَ صَاحِبِهِ فَاسْتَحْيَا، وَكَانَ لِبَاسُهُمَا مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ. ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ طَفِقَ مِنْ أَفْعَالِ الشَّرْعِ، كَأَخَذَ، وَجَعَلَ، أَيِ أَخَذَا يَضْمَانِ وَرَقَةً

(١) سورة طه، آية: ١١٥ .

على ورقة، ويلصقانها على أجسامهما، والخصف: ضمُّ الورق بعضه إلى بعض، أشبه بالخز للنعْل ﴿عَلَيْهِمَا﴾ أي على سواتهما ﴿مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيل كان ذلك من ورق التين أو الموز ﴿وَفَادَنَّهُمَا رِثْمًا﴾ بطريق العتاب والتوبيخ ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ أي ألم أحذركما من الأكل من تلك الشجرة ﴿وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة، وهذا عتاب على الاغترار بقول العدو اللعين.

﴿فَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ أي أضربنا بها بالمعصية، والإخراج من الجنة ﴿وَأَن لَّزَغْتَنَا﴾ ذلك بعدم العقاب عليه ﴿وَوَرَّحْتَنَا﴾ بالرضا علينا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي ممن خسروا أنفسهم وسعادتهم.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ .

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي اهبطوا من سماء القدس إلى الأرض، بعضكم عدو لبعض، ولكم في الأرض موضع استقرار وتمتع إلى حين انقضاء آجالكم.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي تحيون في الأرض، مدة العمر المقدر لكل منكم، نظيره قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (١).

﴿يَنْبَغِي ۚ آدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُؤَرِّى سَوَاءَ نِكَمَ وَرِشًا وَلِيَاسُ النَّقَوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ .

(١) سورة طه، آية: ٥٥.

﴿يَبْقَىٰ عَادَمَ﴾ خطاب لكافة الناس، أي يا أبناء آدم ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا﴾ أي خلقنا لكم ذلك، بأسباب نازلة من السماء، كالمطر الذي ينبت به القطن، الذي يُجعل لباساً، وجميع بركات الأرض، تُنسب إلى السماء، والإنزال بمعنى الخلق كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي خلقنا الحديد، وفي التعبير بالإنزال تعظيم للنعمة، كما تقول: رفعت حاجتي إلى فلان ﴿يُؤْزَى﴾ أي يستر ويخفي ﴿سَوَاتِكُمْ﴾ أي عوراتكم التي قصد إبليس إبداءها، وقد كان العرب يطوفون بالبيت عرياناً، كما تلاعب فيهم الشيطان، فأغواهم بخلع الملابس، كما أغوى آدم وحواء بالأكل من الشجرة، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد، عقيب ذكر ظهور السوءات، إظهاراً للمنة فيما خلق الله من اللباس، ولما في العري وكشف العورة، من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن التستر بابٌ عظيم من أبواب التقوى ﴿وَرِيشًا﴾ لباس الزينة^(١)، استعير من ريش الطير، لأنه لباسه وزينته، أي أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري عوراتكم، ولباساً يزينكم ويجملكم في المساجد والمجالس، وتفسير الريش بالزينة مروى عن ابن زيد ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَى﴾ أي خشية الله والورع، خير ما يلبسه الإنسان^(٢) ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي لباس التقوى خير ﴿ذَلِكَ﴾ أي إنزال اللباس ﴿مِنْ أَيْنِ اللَّهِ﴾ الدالة على فضله، وعميم رحمته على عباده ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ فيعرفون نعمته ويشكرونها، ويتورعون من العصيان والقباح.

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢١٦: يمتن الله على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات وهي السوءات، والريش الريش ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من الزيادات والكماليات. اهـ.

(٢) في الآية الكريمة استعارة لطيفة فقد شبه تعالى الإيمان والورع والخشية باللباس الذي يستر الجسم والعورة، ويخفي القباح، ويزين الإنسان ويجمله، ولهذا قال: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَى﴾ ذلك خير كما أن الريش في قوله تعالى: ﴿يُوَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ مستعار من ريش الطير، لأنه زينته ولباسه.

﴿يَنْبَغِيءَآدَمَ لَا يَقْنَنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَرِيَهُمَا إِنَّهُ يَرَئَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿يَنْبَغِيءَآدَمَ﴾ تكرير النداء في مقام الوعظ والتذكير من أقوى الأساليب في التأثير ﴿لَا يَقْنَنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ أي لا يوقعنكم في الفتنة والمحنة بأن يوسوس لكم ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ أي لا تغفلوا عن وسوسة الشيطان لكم، والنهي وإن كان متوجهاً إلى الشيطان، لكنه في الحقيقة متوجه إلى المخاطبين كما في قولك لا أرينك ههنا ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَرِيَهُمَا﴾ أي ينزع عنهما اللباس لتظهر منهما العورات، وسميت العورة سؤاء، لأن العاقل يسوؤه كشفها ﴿إِنَّهُ يَرَئَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ القبيل جمع قبيلة، وهي الجماعة المجتمعة، التي يقابل بعضهم بعضاً، أي إن الشيطان يراكم هو وجنوده وأتباعه ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أي من حيث لا ترونهم أنتم، فهو لكم بالمرصاد، فاحذروا كيده ومكره، ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم، لا يقتضي امتناع رؤيتهم وتمثلهم، قال ذو النون: إن كان الشيطان يراك من حيث لا تراه، فاستعن بمن يراه من حيث لا يراه، وهو الله البصير الستار، ويشهد لما قلنا ما صح لرؤيته ﷺ للشيطان، ولبعض الجن ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي جعلناهم بما أوجدنا بينهم من المقارنة في الشر، أولياء، أي أعواناً وقرناء مسلطين عليهم، بسبب الكفر والضلال.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَةِ أَنْتُمْ لَنْ تَعْلَمُوا ﴿٢٨﴾﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ .

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً﴾ أي وإذا فعل المشركون عملاً قبيحاً كالطواف حول البيت عراً^(١)، وهو المراد بالفاحشة ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ احتجوا بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء عليه سبحانه، وقد كانت شبهتهم الشيطانية، هي أنهم يقولون: لا نطوف ببيت الله في لباس عصينا فيها الله، ونطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَطَعَّاهُ﴾ أي لا يأمر بالقبيح، وعادته تعالى جارية على الأمر بمحاسن الأعمال، والحث على مكارم الخصال، وهذا تكذيب لهم على ذلك الافتراء ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ الهمزة للإنكار والتوبيخ، أي أنكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح، من غير علم ولا دراية؟.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي قل يا أيها الرسول، لهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، أمر ربي بالعدل في الأمور كلها ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ وتوجهوا إلى عبادته تعالى، مستقيمين غير عادلين عن شرعه ودينه ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كل وقت سجود ﴿وَأَذِيعُهُ﴾ وابعدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي الطاعة، فإن مصيركم إليه بالآخرة ﴿كَأَبْدَانِكُمْ﴾ كما أنشأكم من الأرض تعودون إليها، بقدرته ابتداء ﴿تَعُودُونَ﴾ إليه بإعادته فيجازيكم على أعمالكم، وإنما شبه الإعادة بالإبداء، تقريراً لإمكانها والقدرة عليها، والآية كقوله سبحانه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ وفي الخبر «تبعث كل نفس على ما ماتت عليه».

﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ بأن وفقهم للإيمان ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ وهم الكافرون ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي حقت عليهم الضلالة،

(١) أخرج مسلم في صحيحه قال: كانت العرب تطوف حول البيت عراً، وكانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول: من يعيرني تطوفاً؟ تجعله على فرجها وتقول: اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله فأمر الرسول ﷺ ألا يطوف بالبيت عريان. وانظر جامع الأصول ١٣٩/٤.

لاتباعهم إغواء الشيطان، وإعراضهم عن طاعة الرحمن، ومعنى ﴿حق﴾ أي ثبت بأسبابها الكسبية، لا أنها جعلت غريزة لهم، وهذا دليل على أن علم الله تعالى لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليهم الشياطين ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أي يظنون أنهم على هدى ورشاد.

﴿يَنْبَغِي مَادَمَ خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿يَنْبَغِي مَادَمَ خُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي ثيابكم لموازة عوراتكم، والزينة: ما يزين الشيء، والمراد هنا الثياب الحسنة المعتادة، بدليل الإضافة، وأقل هذه الزينة ما يستر عورته، وما زاد على ذلك من التجميل عند الصلاة، ولا سيما في صلاة الجمعة والعيدين سنة لا واجب، ولكن إطلاق الأمر يدل على وجوب الزينة بحسب عرف الناس ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مما طاب لكم، قال الكلبي: كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم اللحم والدسم، يعظمون بذلك حجهم، فهم المسلمون أن يفعلوا مثله، فنزلت الآية ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بتحريم الحلال، وبالإفراط في الطعام، قال ابن واقد: جمع الله تعالى الطب في نصف آية، فقال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا يرضى فعلهم، ولا يحب طريقتهم، وهذا وعيد شديد لمن أسرف.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الثياب وما يتجمل به ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من النبات كالقطن والكتان، والحيوان كالحرير والصوف ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

الرِّزْقِ ﴿المستلذات من المآكل، والمشارب، والملابس، وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والمشارب، والملابس الإباحة، لأن الاستفهام إنكاري، وفي الحديث: «إن الله تعالى إذا أنعم على عبد أحب أن يرى أثر نعمته عليه»^(١) ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالأصالة، و الكفرة وإن شاركوهم فيها فبالتبع، وفي الآية إضمار تقديره: قل هي للذين آمنوا غير خالصة في الدنيا و﴿خَالِصَةً﴾ للمؤمنين ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْآيَاتِ﴾ أي مثل هذا التفصيل والبيان نفصل الأحكام، ونبين ونوضح الآيات التشريعية ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ما في تضاعيفها من المعاني الرائقة، وسنن الاجتماع، وطبائع البشر، وهذا التفصيل من الآيات العلمية، شاهدة على نبوته ﷺ لأنه خلاصة علوم كثيرة، فاصلة بين النافع والضار لا يعلمه ﷺ وإنما هي وحي من الله تعالى له.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ أي ما تزايد قبحه من الذنوب ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي جهرها وسرها وعن ابن عباس ﴿مَا ظَهَرَ﴾ الزنا علانية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنا سراً ﴿وَالْإِثْمَ﴾ أي ما يوجب الإثم، وهو تعميم بعد تخصيص، ويراد به جميع المعاصي، وقيل: إن الإثم هو شرب الخمر، كما نُقل عن ابن عباس، والحسن، وذكره أهل اللغة وأشدوا قول الشاعر: نَهَانَا رَسُولُ اللَّهِ أَنْ نَشْرَبَ الزُّنَا وَأَنْ نَشْرَبَ الْإِثْمَ الَّذِي يُوجِبُ السُّوْرَا

(١) أخرجه الترمذي في الأدب رقم ٢٨٢٠ بلفظ «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» وقال ﷺ للأحوص: «إذا آتاك الله مالاً، فليثر أثر نعمته الله عليك وكرامته» أخرجه النسائي في الزينة، وانظر جامع الأصول ٦٥٨/١٠.

وقال الآخر: شربت الإثم حتى ضلّ عقلي ﴿وَالْبَتَى﴾ أي الظلم والاستطالة على الناس، أفرد بالذكر للمبالغة في الزجر عنه ﴿بَغْيِرِ الْحَقِّ﴾ زيادة توضيح وبيان، لأن البغي لا يكون إلا بغير الحق ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُرْسَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي حجة وبرهاناً، وفيه تهكم بالمشرّكين، وتحريم اتباع ما لا يدل عليه برهان ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته، والافتراء عليه، كقولهم: ﴿وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ وهو أعظم أصول المحرمات، بل هو أصل الأديان الباطلة، فما من أمة ارتكبت هذا إلا سلبها الله سعادتها، فإنّ الكذب على الله أساس الكفر والضلال.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢٤)
يَبْنِيءَ آدَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المهلكة ﴿أَجَلٌ﴾ أي وقت معيّن لنزول العذاب بهم، وفيه وعيد لأهل مكة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ أي فإذا جاء وقت هلاكها المقدّر، والمراد من مجيء الأجل قربّه، أي إذا حان وقرب ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ منه ﴿سَاعَةً﴾ برهة من الزمان، فإنها مثلٌ في غاية القلة، وليس المراد بها الساعة في مصطلح الناس ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي ولا يتقدمون عليه، وهو عطف على يستأخرون للمبالغة في انتفاء التأخر، بنظمه في سلك المستحيل عقلاً، وأجل الأمة على نوعين: أحدهما: أجل من يبعثه الله فيهم. من الرسل لهدايتهم، فيردّون دعوتهم، كبراً وعناداً، فيكذبون فيهلكون، وبهذا هلك قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم، وهذا النوع من الهلاك كان خاصاً بأقوام الرسل، وانتهى ببعثة صاحب الرسالة العامة ﷺ. والنوع الثاني: الأجل المقدّر لحياة الأمم، سعيدة، وعزيزة بالاستقلال،

والرفاه، التي تنتهي بالشقاء والمهانة، وهذا النوع منوط بسنن الله تعالى في الاجتماع البشري والعمراني، وأسبابه محصورة في مخالفة هدى الآيات، بالإسراف باقتراف الفواحش والآثام، والبغي على الناس، فما من أمة من أمم الأرض، ارتكبت هذه الضلالات وكثرت فيها المنكرات، إلا أهلكها الله^(١).

﴿يَنْفِي آدَمَ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى كافة الناس، اهتماماً بشأن البشر ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي إن جاءكم رسل كائنون من جنسكم، لأنهم إذا كانوا من جنسهم، كان أقطع لعذرهم، لأنهم يعرفونه وأحواله ﴿يَقْضُونَ﴾ أي يبينون ﴿عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ أحكامي وشرائعي، ويخبرونكم بها ﴿فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فمن اتقى منكم الشرك والتكذيب، وأصلح عمله، فلا خوف عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة التي تَقْضَى وتبين أحوال الأمم، وأمور الدين ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ ولم يقبلوها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لتكذيبهم، وإدخال الفناء في خبر ﴿من اتقى﴾ ولم يدخل في خبر ﴿الذين كذبوا﴾ للمبالغة في الوعد، والمسامحة في الوعيد.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكَفْلِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن

(١) يدل على هذا قول الرسول ﷺ لأم المؤمنين زينب رضي الله عنها حين سألت الرسول فقالت: «يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثرت الحَبَثُ» أي إذا كثرت الفسوق والفجور، رواه البخاري.

تَقُولُ عَلَى اللَّهِ مَا لَمْ يَقُلْهُ، أَوْ كَذَبَ مَا قَالَهُ، فَإِنَّهُ أَظْلَمُ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكِرَ، من الافتراء والتكذيب ﴿يَنَاهَهُمْ﴾ أي يصيهم ﴿نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْكَذِبِ﴾ أي مما كُتِبَ لهم وقُدِّرَ من الأرزاق، والآجال، مع ظلمهم وافتراءهم، لا يُحْرَمُونَ مَا قُدِّرَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَى انْقِضَاءِ أَجْلِهِمْ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا﴾ أي ملك الموت وأعوانه، والمراد بهم هنا ملائكة العذاب ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي لِقْبْضِ أرواحهم ﴿قَالُوا﴾ أي الرسل لهم توبيخاً وتهكماً: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا، وتستعينون بها في المهمات؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي غابوا عنا، لا ندري أين مكانهم؟ ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي اعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿كَافِرِينَ﴾ أي عابدين لما لا يستحق العبادة، حيث اتضح لهم حاله وضلاله، وما ذُكِرَ إنما هو للتحسر والاعتراف بما هم عليه من الخسران، ولا تعارض بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لأن الطوائف مختلفة والمواقف عديدة، والأحوال شتى.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْتُمْ لِأَوْلِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَاءَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرَيْتُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿٢٩﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى يوم القيامة بالذات أو بواسطة الملك ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي مع أمم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ يعني كفار الجن والإنس، قدم الجن لمزيد شرهم ﴿فِي النَّارِ﴾ وفيه إشعار بأنهم يدخلون النار فوجاً فوجاً ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلت بالافتداء بها، فيلعن الأتباع القادة، يقولون: أنتم أوردتمونا هذه الموارد

فلعنكم الله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ غاية لما قبله أي يدخلون فوجاً فوجاً لاعتنا بعضهم بعضاً، إلى انتهاء تلاحقهم، باجتماعهم في النار، والإدراك: اللحاق ﴿قَالَتْ أَخْرِثُهُمْ﴾ منزلة وهم الأتباع ﴿لِأُولَئِهِمْ﴾ أي لأجلهم، إذ الخطاب مع الله تعالى لا معهم ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ أي دعونا إلى الضلال فافتدينا بهم ﴿فَقَاتِلْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي مضاعفاً كما روي عن مجاهد ﴿مِنَ النَّارِ﴾ أي من نار جهنم، لأنهم سبب ضلالنا ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أمّا القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأمّا الأتباع فبكفرهم وتقليدهم ﴿وَلَكِنَّ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الآخر، فلذا طلبتم استحقاق الرؤساء الضعف دونكم.

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرِثُهُمْ﴾ حين سمعوا جواب الله تعالى ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب، فنحن متساوون في الضلال، وفي استحقاق العذاب الأليم، عتونا بالفضل تخفيف العذاب ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم وكفركم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذا نوع آخر من جزاء المكذبين ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ عن الإيمان بها، والعمل بمقتضاها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي لا تقبل أديعتهم ولا أعمالهم، ولا تعرج إليها أرواحهم، كما هو شأن أدعية المؤمنين وأعمالهم وأرواحهم لتتصل بالملائكة وفي الحديث الشريف: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً، قالوا اخرجي أيتها النفس الطيبة، التي كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى

السماء السابعة»^(١) الحديث. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ هو البعير زوج الناقة، والعرب تضرب به المثل، في عظم الخلقة، كقول الشاعر: لقد عظم البعيرُ بغير لُبٍّ ﴿فِي مَسَرِّ الْخَيْاطِ﴾ أي حتى يدخل ما هو مثلٌ في عظم الجرم وهو البعير، فيما هو مثل في ضيق المسلك، وهو ثقب الإبرة، وذلك مستحيل لا يكون أبداً، فكذلك ما توقف عليه^(٢)، وقد كثر مثل هذا في كلامهم، فيقولون: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب، وحتى يَبْيَضَ القَارُ، ومرادهم لا أفعل كذا أبداً ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿يَجْزَى الْمُجْرِمِينَ﴾ أهل العصيان والإجرام.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي لهم فراش ومسكن ومضجع من نار جهنم، وتنوينه للتفخيم ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ﴾ أي أغطية وهي اللُحْف، والآية مثل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾^(٣) والمراد أنَّ النار محيطة بهم من جميع الجوانب، وأخرج ابن مردويه عن عائشة أن النبي ﷺ تلا هذه الآية ثم قال: «هي طبقات من فوقه، وطبقات من تحته». ^(٤) الحديث ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء الشديد ﴿يَجْزَى الظَّالِمِينَ﴾ عبَّر عنهم بالمجرمين تارة، وبالظالمين أخرى، للتنبيه على أنهم بتكذيبهم الآيات، واستكبارهم عنها، جمعوا صفتين: الإجرام، والظلم، ولا يخفى على المتأمل في لطائف القرآن العظيم، ما في إعداد المهاد، والغواش لهؤلاء المستكبرين عن الآيات، ومنعهم من العروج إلى الملكوت، وتقيد عدم دخولهم الجنة بدخول البعير بخرق الإبرة من اللطافة ما فيه!!.

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه أحمد في المسند ٣/٣٦٤ ورواه النسائي، والبيهقي، والحاكم وصححه، وانظر تمامه في تفسير ابن كثير ٢/٢٢٢.

(٢) هذا تمثيل بالغ الروعة في تصوير استحالة دخول الكفار جنة النعيم، أي إنهم لا يدخلون الجنة، إلا إذا أمكن دخول الجملة على ضخامته في ثقب الإبرة على ضيقه وصغره.

(٣) سورة الزمر، آية: ١٦.

(٤) أخرجه ابن مردويه، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بآياتنا ولم يكذبوا بها ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال الصَّالِحَاتِ ﴿على الوجه الذي دعتهم إليه الرسل، وهذا بمقابلة الاستكبار عنها﴾ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴿أي ما تقدر عليه بسهولة﴾ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهذا على عادته سبحانه في أن يشفع الوعد بالوعد و﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ اعتراض بين المبتدأ وخبره، للترغيب في اكتساب النعيم المقيم، بما تسعه طاقتهم، ولا يشق عليهم.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ أي أخرجنا من قلوبهم أسباب الغِلِّ، حتى لا يكون بينهم إلا التواد، وعن علي كرم الله وجهه: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزبير منهم»^(١) وصيغة الماضي للإيذان بتحقيقه والغل: الحقد. روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصن لبعضهم من بعض، مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقِّوا - أي خلصوا من الذنوب كلها - أذن لهم في دخول الجنة»^(٢) الحديث. ﴿تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ زيادة في لذتهم وسرورهم

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن قتادة عن علي رضي الله عنه، وانظر تفسير ابن كثير ٢٢٤/٢.

(٢) الحديث أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب المظالم ٧٠/٥ وتتمته: «فو الذي نفس محمد بيده، لأحذهم أهدي بمنزله في الجنة، منه بمنزله كان في الدنيا».

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أي للإيمان الصحيح، والعمل الصالح، لتحصيل هذا النعيم العظيم ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي ولولا هداية الله وتوفيقه، لما وصلنا إلى هذه السعادة، وهذا القول من أهل الجنة، لإظهار السرور بما نالوا، والتلذذ بالتكلم به، لا للتعبد، فإن الدار ليست دار تكليف، بل هي دار تشریف ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ﴾ فاهتدينا بإرشادهم، يقولون ذلك اغتباطاً وسروراً، أي والله لقد جاؤوا بالحق، وهذا مصداق ما وعدونا من الجزاء على التوحيد، والعمل الصالح، ولا يخفى ما في هذه الآية، من الرد الواضح على المعتزلة، الزاعمين أن كل مهتدٍ خَلَقَ لنفسه الهدى، فاعرض قول المعتزلة في الدنيا: المهتدي من اهتدى بنفسه على قول الله تعالى حكاية عن قول الموحدين ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ واختر لنفسك أي الفريقين تقتدي به ﴿وَتُؤَدُّوْنَ﴾ أي نادتهم الملائكة ﴿أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ ومعنى البعد في اسم الإشارة، لرفع منزلتها، وعلو شأن أهلها ﴿أَوْرِثُوهَا﴾ أي أعطيتموها ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالكم الصالحة، سمّاها ميراثاً، لأنها لا تُستحق بالعمل، بل هي محض فضل الله كالميراث، وزعم المعتزلة أن دخول الجنة بسبب الأعمال ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لا بالفضل، ولا يخفى أنه لا محيص لأحدٍ عن فضل الله تعالى، لأن اقتضاء الأعمال لذاتها دخول الجنة مما لا يكاد يعقل، وقصارى ما يُعقل أن الله تعالى تفضّل فرتب عليها دخول الجنة، فلولا فضله لم يكن ذلك، فإنّ مآل كلامهم فيه، أن الجنة ونعيمها مستحق على الله تعالى، لا تفضل له عليهم في ذلك، بل هو بمثابة دينٍ أدي إلى صاحبه، سبحانه الله هذا بهتان عظيم، وتكذيب لخبر صحيح: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(١).

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٢٥٢/١١ ومسلم رقم ٢٨١٦ في المناقبين.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ بعد الاستقرار فيها، وصيغة الماضي لتحقيق الوقوع والمعنى ينادي ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أي من كان يعرفه في الدنيا من أهلها، تبجحاً بحالهم وشماتةً بأعدائهم، وتحسيراً لهم، لا لمجرد الإخبار والاستخبار ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ على السنة رسله ﴿حَقًّا﴾ حيث نلنا هذا المنال الجليل والكرامة العظمى ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾؟ من العذاب والخزي والهوان؟ ولا يستبعد هذا النداء هناك، على بعد ما بين الجنة والنار من المسافة ﴿قَالُوا﴾ في جواب أهل الجنة ﴿نَعَمْ﴾ قد وجدنا ذلك حقاً ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ قيل: هو «مالك» خازن النار، وقيل: ملكٌ من الملائكة، يأمره الله تعالى بذلك ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي الفريقين ﴿أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ والمراد الإعلام بلعنة الله تعالى لهم، زيادة لسرور أصحاب الجنة، وجزع أصحاب النار.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يستكبرون بأنفسهم عن دينه سبحانه، ويمنعون الناس عن دين الإسلام، بالنهي عنه، وإدخال الشبه في دلائله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبون الاعوجاج والتناقض لها، ويصفونها بالزيف، والميل عن الحق ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ﴾ أي غير معترفين بالقيامة وما فيها.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ .

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي بين الفريقين حجاب عظيم يمنع وصول أحدهما

على الآخر، وإن لم يمنع وصول النداء، وأمور الآخرة لا تُقاس بأمور الدنيا ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ أي على أعاليه وهو السور المضروب بينهما، جمع عرف، مستعار من عرف الفرس ﴿رِجَالٌ﴾ طائفة من الموحدين، قَصُرَتْ بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، جُعلوا هناك حتى يُفْضَى بين الناس، لأن المقالات الآتية وما تتفرع عليه لا تليق بغيرهم ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة، والنار ﴿يَسْمِعُهُمْ﴾ بعلاماتهم كيباض الوجوه وحسنها في أهل الجنة، وسوادها وقبحها في أهل النار، والسيما العلامة ﴿وَنَادُوا﴾ أي رجال الأعراف ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ حين رأوهم وعرفوهم ﴿أَنْ سَلَّمْتُمْ عَلَيْهِمْ﴾ بطريق الدعاء والتحية، أي سلمتم من المكاره ﴿لَتَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ جملة حالية، أي نادوهم وهم لم يدخلوها بعد، وهم طامعون في دخولها (١).

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أي أبصار أصحاب الأعراف، وفيه إشارة إلى أن صارفاً صرف أبصارهم، لينظروا من غير رغبة منهم، وهي تدل على هول المطلع ﴿يَلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ تلقاء مصدر بمعنى الجهة، أي وإذا صرفت أبصارهم جهة أهل النار ﴿قَالُوا﴾ متعوذين بالله تعالى من سوء حالهم ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي مع هؤلاء الأشقياء في النار، وهذا دعاء أهل الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، وكان مصيرهم مجهولاً.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمِئِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ أَهْلُؤَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَسْأَلُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ .

(١) قال ابن مسعود والحسن: والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم، إلا لخير أرادهم لهم، وإنما طمع أصحاب الأعراف، لأن النور الذي كان في أيديهم، لم يُطفأ حين طُفِئ كل ما بأيدي المنافقين ١. هـ المحرر الوجيز لابن عطية ٥١٦/٥.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ كَرَّرَ ذِكْرَهُمْ مع كفاية الإضمار، لزيادة التقرير والتأكيد ﴿يَبَايَا﴾ من رؤساء الكفرة، حين رأوهم بين أصحاب النار ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ الدالة على سوء حالهم يومئذ وعلى رياستهم في الدنيا بأسمائهم وما يدعون به من الصفات ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ؟﴾ أي ما الذي دفع عنكم؟ وهل نفعكم أتباعكم وأنصاركم وجمعكم للمال؟ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي واستكباركم عن قبول الحق؟.

﴿أَهْلُؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ أي أهؤلاء الضعفاء في الدنيا الذين حلفت أن الله لا يعبا بهم؟ والإشارة إلى ضعفاء أهل الجنة، الذين كان الكفرة يحقرونهم في الدنيا، ويحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة، كسلمان، وصهيب، وبلال، ونحوهم ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ كلام أصحاب الأعراف أيضاً، أي قالوا لهم: ادخلوا الجنة على رغم أنوفهم ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ بعد هذا اليوم ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي غير خائفين ولا محزونين، ادخلوا الجنة على أكمل سرور، وأتم حبور، مع الخلود في دار النعيم.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلِعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار، واطمأنت به الدار ﴿أَنْ أَفِضُوا﴾ أي صبوا ﴿عَلَيْنَا﴾ شيئاً ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ وفيه دلالة على أن الجنة فوق النار ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من سائر الأشربة والأطعمة، على أن الإفاضة عبارة عن الإعطاء بكثرة، وفي الآية دليل على نهاية عطشهم، وشدة جوعهم، يقولون ذلك مع اليأس، وهذا كما يقال في المثل: «الغريق يتعلق بالزبد، وإن علم أنه لا يغيثه» ﴿قَالُوا﴾

في جوابهم ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي منعهما منع المحرّم عن المكلف، ولما كانت شهواتهم في الدنيا في لذة الأكل والشرب، عذبهم الله في الآخرة بشدة الجوع، والعطش، جزاء وفاقاً.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أي جعلوا الدين سخرية ولعباً فحرموا ما شاؤوا، وأحلوا ما شاؤوا ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزخارفها العاجلة، ومواعيدها الباطلة، وخدعهم ما هم فيه من خصب العيش عن الإيمان، والعمل الصالح ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿نَنْسَهُمْ﴾ أي نفعل بهم ما يفعل الناسي بالمنسي، من عدم الاعتداد بهم، وتركهم في النار، تركاً كلياً^(١) ﴿كَمَا تَسْأَلُ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فلم يخطروه ببالهم، ولم يستعدوا له، والجزاء من جنس العمل.

شبه عدم إخطارهم يوم القيامة ببالهم، وعدم استعدادهم له، بحال من عرف شيئاً ثم نسيه ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي وكما كانوا منكبين أنها من عند الله، فالمعنى: نتركهم في النار تركاً مستمراً، كما كانوا منكبين أن الآيات من عند الله تعالى إنكاراً مستمراً.

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾
هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ ذُنُوبُهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ أي بيّنا معانيه من العقائد، والأحكام، والمواعظ، مفصلة تمام التفصيل، هادية إلى الرشد ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على

(١) قال ابن عطية: النسيان في هذه الآية بمعنى الترك، أي نتركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم ١. هـ المحرر الوجيز ٥٢١/٥.

علم منا بوجه تفصيله، مما يحتاج إليه المكلفون لتزكية أنفسهم، وتكميل فطرتهم وسعادتهم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يؤمنون به إيمان إذعان، يبعث على العمل بما أمر به، والانتفاء عما نهى عنه، لأنهم هم المغتزمون من آثاره، والمقتبسون من أنواره.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾؟ أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة، إلا وقوع ما يؤول إليه أمره؟ بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ وهو يوم القيامة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ سُئِلُوا مِن قَبْلُ﴾ أي تركوه ترك الناسي له، فأعرضوا عنه، ولم يعملوا به ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ أي تبين لنا أنهم جاؤوا بالحق، فأعرضنا عنه حتى جاء وقت الجزاء ^(١) ﴿فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أي هل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا العذاب، أو يدفع عنا ما نحن فيه ﴿أَوْ نُؤَدُّ﴾ أو هل لنا عودة إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلُ﴾ أي فنحن نعمل ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي في الدنيا من الشرك والمعاصي، وقبيح الأعمال ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم التي هي رأس مالهم، إلى الشرك والمعاصي ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ غاب وفقد ﴿مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي ظهر لهم بطلان ما كانوا يفترونه من أن الأصنام شفعاؤهم يوم القيامة.

﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إن خالقكم ومالككم الذي خلق الأجرام العلوية والسفلية في مقدار ستة أيام

(١) قال الطبري: أقسم المساكين حين حلَّ بهم العقاب، أن رسل الله قد بلغتهم الرسالة، ونصحت لهم، وصدقتهم حين لا ينفعهم ولا ينجيهم من سخط الله كثرة القيل والقال. جامع البيان ٤٠٨/١٢.

من أيام الدنيا، وفي خلق الأشياء بالتدرُّج مع القدرة على إبداعها دفعة، دليل على الاختيار، واعتبار للنُّظار، وحث على التأني في الأمور^(١) ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الاستواء على العرش، صفةُ الله تعالى بلا كيف، والمعنى أن له تعالى استواءً على العرش على الوجه الذي عناه، منزهاً عن المشابهة لأنه تعالى كان قبل العرش، ولا مكان له وهو الآن كما كان، منزَّه عن كل ما يشابهه الخلق في جميع صفاته جل وعلا^(٢) ﴿يُغْشَى الْيَلَّ النَّهَارَ﴾ أي يغطيه به، ولم يذكر العكس للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملهما، غشي الشيء الشيء أي: غطاه، والمعنى: أن الله تعالى قد جعل الليل وهو الظلمة، يغطي النهار وهو ضوء الشمس ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ﴾ أي يعقبه سريعاً، كالمطالب له، لا يفصل بينهما شيء، محمولاً على السرعة حتى يدركه ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي خلقها حال كونها مسخرات بقضائه وتصريفه، إذ هي ليست قادرة بنفسها، وإنما يتصرفن على إرادة المدبر لهنَّ، وهذه الأجرام العظيمة منقادة لإرادته تعالى، وإفراد الشمس والقمر بالذكر مع دخولهما في النجوم، لإظهار شرفهما عليها، لما فيهما من مزيد الإشراق والنور، وبسيرهما في المنازل تُعرف الأوقات ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فإنه الموجد والمتصرف، الموجد للكل، والمتصرف فيه على الإطلاق، يفعل

(١) قال القرطبي ٢١٩/٧: لو أراد الله لخلقها في لحظة، ولكنه أراد أن يعلم العباد الثبوت في الأمور.

(٢) قال الإمام أحمد رحمه الله: أخبار الصفات تمزُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل، فلا يقال: كيف؟ ولا أين؟ نقرأ الآية والخبر، ونؤمن بما فيهما، ونكِل الكيفية في الصفات إلى علم الله عزَّ وجلَّ. اهـ أقول: هذا مذهب السلف - وهو الحق - أننا نؤمن بما ورد في القرآن العظيم، من صفات الرب الجليل، بلا تشبيه ولا تعطيل، ونترك الكيفية في الصفات إلى علم علام الغيوب. قال الحافظ ابن كثير ٢٣٠/٢: نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمراؤها كما جاءت، من غير تكليف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين، منفي عن الله عزَّ وجلَّ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

ما يشاء، ويحكم ما يريد^(١) ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي تقدس وتنزه جلّ وعلا عن كل نقص، فهو الخالق المبدع للكائنات، الذي أتقن كل شيء خلقه.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ بعد أن بيّن التوحيد، وأخبر أنه المنفرد بالربوبية، والمنفرد بالخلق والأمر، أمر عباده أن يدعوه مخلصين له الدين، والدعاء هو معُ العبادة، أي ادعوه بخشوع واستكانة، فلا ينبغي الجهر الكثير والصياح، والخفية ضد العلانية. قال الحسن البصري: «كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوتٌ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أنه تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وإنه سبحانه ذكر عبداً صالحاً رضي له فعله، فقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ ١١» وأخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال ﷺ: أيها الناس إزبِعُوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم...»^(٢) الحديث، قوله: «اربعوا» أي ارفقوا واقصروا، والمراد عدم رفع الصوت بالدعاء، وحسبك في فضل الأسرار به، اقترانه في الآية بالتضرع، وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع، لقليل الجدوى، عديم الوقار.

-
- (١) هذا من الأسلوب البياني البليغ، فقد جمعت هذه الآية - على وجازتها - جميع الأمور والشؤون على وجه الاستقصاء، فله سبحانه الملك والملكوت، والأشياء والمخلوقات، وله الحكم والفصل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فقد جمعت الألفاظ القليلة، والمعاني الكثيرة، وهذا ضرب من إعجاز القرآن ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.
- (٢) الحديث أخرجه البخاري في الدعوات ١٥٩/١١ ومسلم في الذكر رقم ٢٧٠٤ باب استحباب خفض الصوت بالذكر.

وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ في الدعاء، خصوصاً في الجوامع، حتى يعظم اللَّغَطُ ويشتدَّ، وتستك المسامع وتستدَّ، ولا يدرون أنهم جمعوا بين بدعتين: رفع الصوت في الدعاء، وكون ذلك في المسجد، روي عن ابن جريج أن رفع الصوت بالدعاء، من الاعتداء المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا يحب المجاوزين لما أمروا به في كل شيء، فيدخل فيه الاعتداء في الدعاء، دخولاً أولياً، ونَبَّه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق به، كرتبة الأنبياء، والصعود إلى السماء، وقيل: هو الصياح في الدعاء والإسهاب فيه، وفي الحديث الشريف: «سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول وعمل، ثم قرأ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾»^(١).

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ نهي عن سائر أنواع الإفساد، كإفساد النفوس، والعقول، والدين، والأموال، والأنساب، والآداب، ونحو ذلك ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي إصلاح الله تعالى لها، وخلقها على الوجه الملائم، لمنافع الخلق، ومصالح المكلفين، وبعث الأنبياء فيها ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، وقيل معناه: كونوا جامعين بين الخوف، والرجاء، والآية الأولى لبيان شرط الدعاء، وهذه لبيان فائدته ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي رحمته تعالى قريب من المحسنين في أعمالهم، وشؤونهم وسائر أمورهم، لأن الجزاء من جنس العمل، فمن

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٤٢٨/٣ وأبو داود رقم ١٤٠٨ ولفظه عن ابن سعد بن أبي وقاص قال: سمعني أبي وأنا أقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا، فقال لي يا بُنَيَّ سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيكون قوم يعتدون في الدعاء، فإياك أن تكون منهم، إنك إن أعطيت الجنة أعطيتها وما فيها من الخير، وإن أعذت من النار أعذت منها وما فيها من الشر.

أحسن العبادة نال الثواب، ومن أحسن في الدعاء، استجيب له، ومن أحسن في أمور الدنيا نال حسن النجاح، وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنه فسّر المحسنين بالمؤمنين. وقال مطر الوراق: «استنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين»^(١).

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِقَالَا سُقْنَاهُ لِبَكْرِ مَيْمَنٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ يَخْرِجُ الْمَوْتَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا﴾ أي مبشرات بالخير، لأن الرياح تبشر بالمطر ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي قُدَّام رحمته التي هي المطر، والمطر سمي رحمة، لأنه سبب لحياة الأرض الميتة، وعن ابن عمر أن الرياح ثمانية: أربع منها عذاب، وهي: القاصف، والعاصف، والصرصر، والعقيم، وأربع منها رحمة، وهي: الناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذاريات، وفي الحديث عن أبي هريرة أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرياح من رَوْحِ الله تعالى، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتوها فلا تسبوا، واسألوا الله تعالى من خيرها، واستعيذوا من شرها»^(٢) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ﴾ أي رفعت وحملت ﴿سَحَابًا﴾ أي غيماً، سمي بذلك لانسحابه في

(١) رواه ابن أبي حاتم، كذا في تفسير الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٣١.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٥٠٩٧ باب ما يقول إذا هاجت الرياح، ورواه الترمذي في الفتن رقم ٢٢٥٣ بلفظ «لا تسبوا الرياح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الرياح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الرياح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

الهواء ﴿ثِقَالًا﴾ من الثقل، فهو ثقیل، وثقلُ السحاب بما فيه من الماء ﴿سُقْنَتُهُ لِيَكْلِمَ مَيِّتٍ﴾ لمنفعته وإحيائه ﴿فَأَنْزَلْنَاهُ أَلْمَاءً﴾ أي بالبلد القاحل المعذب ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي بالماء ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي من كل أنواعها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما نحييه بإحداث القوة النامية فيه، وتطريتها بأنواع النبات والثمرات ﴿تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ من القبور، ونحييها برّد النفوس إلى مواد أبدانها، بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون فتعلمون أن من قدر على ذلك، قدر على هذا من غير شبهة.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ أي الأرض الكريمة التربة ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بمشيئته وتيسيره، والمراد بذلك أن يكون حسناً، وافية غزير النفع^(١) ﴿وَالَّذِي خَبَتْ﴾ كالحرّة والسنبعة ﴿لَا يُخْرِجُ إِلَّا كَيْدًا﴾ أي قليلاً لا خير فيه ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التصريف البديع ﴿نُصْرِفُ الْآيَاتِ﴾ أي نردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة، وأصلُ التصريف: تبدلُ حال بحال، ومنه تصريف الرياح ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله تعالى، وشكرُ ذلك بالتفكر فيها، والاعتبار بها، وهذا مثلٌ لإرسال الرسل بالشرائع، التي هي ماء حياة القلوب وللمكلفين المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها، والمحرومين من مغاير آثارها، قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن، يقول هو طيبٌ، وعمله طيب، والذي خَبَتْ مَثَلٌ للكافر، يقول: هو خبيث، وعمله خبيث وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به، من الهدى والعلم، كمثل غيثٍ أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة - أي قطعة طيبة - قبلت الماء، وأنبت الكلاً والعشب الكثير،

(١) هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالأرض إذا كانت طيبة التربة، يخرج النبات فيها أخضر زاهياً وافية، كذلك مثل المؤمن يسمع الموعظة فيستفيع بها، فالمؤمن طيب وعمله طيب، كالبالد الطيب ثمره طيب، والكافر خبيث وعمله خبيث، كالأرض السخنة المالحّة التي لا خير فيها ولا بركة، ولا يستفاد منها بشيء إلا ظهور البعوض والحشرات، وانظر الطبري ٢١٢/٨.

وكانت منها أجادب - جمع أجذب وهي الأرض التي لا تثبت - أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منه، وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان - جمع قاع، وهي الأرض المستوية - لا تمسك ماء ولا تثبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه الله ما بعثني به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» (١).

ثم إنه سبحانه وتعالى عقب ذلك بما يحققه ويقرره من قصص الأمم الخالية، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ فقال تقდست أسماؤه:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٦٠ قَالَ يَتَّقُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٦١ أَبْلِغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مَنَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦٢﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ هو جواب قسم محذوف، أي والله لقد أرسلنا نوحاً شيخ الأنبياء، إلى قومه الكفرة المفسدين، الذين عبدوا الأصنام، فمكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، وهو أول نبي عذب الله تعالى قومه بالغرق بالطوفان ﴿فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي وحده ولا تشركوا معه أحداً، فناداهم بصفة القوم ﴿يَا قَوْمِ﴾ مضافة إليه، لاستمالتهم إلى العبادة ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ﴾ أي مستحق للعبادة ﴿غَيْرُهُ﴾ أي ما لكم في الوجود إله غيره ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ أي إن لم تعبدوه حسبما أمرت به ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، ووصف اليوم بالعظم، لبيان ما يقع فيه، وإنما قال عليه السلام ﴿أَخَافُ﴾ ولم يقطع حنواً عليهم، واستجلاباً لهم بلطف.

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٨٥/١ في العلم، ومسلم رقم ٢٢٨٢ في الفضائل.

﴿ قَالَ أَمَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي الرؤساء من قومه ﴿ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ ﴾ أي ذهب عن طريق الحق والصواب ﴿ مُبِينٍ ﴾ أي واضح كونه ضلالاً، بنهيك لنا عن عبادة آلهتنا، الذين هم شفعاء لنا عند الله .

﴿ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ أي شيء من الضلال، رداً على الكفرة، حيث بالغوا في إثباته له، بحيث جعلوه مستقراً في الضلال، ولم يقل: ضلال فإن التاء للمرة، فيرجع حاصل المعنى: ليس بي أقل قليل من الضلال، فضلاً عن الضلال المبين!! ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لأن كونه رسولاً من الله تعالى مبلغاً لرسالاته، في معنى كونه على الصراط المستقيم، فكان في الغاية القصوى من الهدى، أي أنا رسول وأني رسول كائن من رب العالمين .

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبي ﴾ أي أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم، وجمع الرسائل لتنوع معانيها، كالعقائد، والأحكام، والمواعظ ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ عطف على أبلغكم، والمعنى: أبلغكم جميع تكاليف الله تعالى، وأرشدكم إلى الوجه الأصلىح، وأحذركم عقابه إن عصيتموه وقوله تعالى ﴿ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أعلم من جهته تعالى بالوحي ما لا تعلمونه من الأمور الآتية، أو أعلم من شؤونه عز وجل وقدرته على أعدائه، وسننه، في نظام العالم وما ينتهي إليه ما لا تعلمونه أنتم، قيل: كانوا لم يسمعوا يقوم حل بهم العذاب قبلهم، فكانوا غافلين لا يعلمون ما يعلمه نوح .

﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ فكذبوه فأنجيتنه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتينا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ ﴿ ١١ ﴾ .

﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدّر كأنه قيل: استبعدتم وعجبتم من أن جاءكم وحي من ربكم

﴿عَلَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ من قومكم، وقتلتم لأجل ذلك ما قتلتم؟ كانوا يقولون: لا مناسبة بينه تعالى وبين البشر، من حيث إنه تعالى في غاية المقدس، والبشر في غاية الضعف والتكدر، فأنكر نوح عليهم بأن الرسول يكون ذا جهتين: يستفيض من عالم الغيب بتجرده، وصفاء روحه، ويُفيض لبني نوعه بجهة مشاركته لهم في البشرية ﴿يُنذِرُكُمْ﴾ أي لأجل أن يحذركم عاقبة كفركم ومعاصيكم ﴿وَلَنُنْفِثُوا﴾ منهما بسبب الإنذار ﴿وَلَنُلَاقِيَنَّكُمْ﴾ أي ولتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي استمروا على تكذيبه، وأصرُّوا بعد أن قال لهم ما قال، ودعاهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي من الغرق، والإنجاء من قصد أعداء الله تعالى له ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين وكانوا على ما قيل أربعين رجلاً وأربعين امرأة ﴿فِي الْفُلِّ﴾ أي في السفينة ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بسبب تكذيبهم المستمر وليس المراد بهم الملائكة فقط، بل كل من أصرَّ على التكذيب منهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي عُمي القلوب، غير مستبصرين، يقال عم في البصيرة، وأعمى في البصر، أي عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد، والنبوة، والمعاد.

﴿وَالَّذِينَ عَادُوا أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ رَبُّكَ عَلَى الْكَافِرِينَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ سَفَاهَةٍ﴾ ﴿١٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّكُم لَنظُنُّكُمْ مِّنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ يَنْقُومُ رَبِّي فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أَتُلْفَعُكُمْ بِرَبِّي وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ أَوْ يَحِبَّكُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾

﴿وَالَّذِينَ عَادُوا أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً منهم

كقولهم يا أخا العرب للواحد منهم ﴿قَالَ يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون عذاب الله؟ والاستفهام للإنكار. ولما كان قوم هود، قد علموا ما حلّ بقوم نوح من الغرق، حسن قوله هنا ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني أفلا تخافون ما نزل بهم من العذاب؟.

﴿قَالَ أَمَلَأْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي﴾ الوصف هنا للذم، ومقتضى المقام يقتضي ذمهم، لشدة عنادهم، كما يدل عليه جوابهم بما حكاه الله تعالى من قولهم ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي متمكناً في خفة عقل، حيث فارقت دين آبائك ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴿وَإِنَّا لَنُظَنِّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي فيما ادعيت من الرسالة.

﴿قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ليس بي والحمد لله، أدنى شيء من شوائب السفاهة، والخفة، ولكنني مرسل لهدايتكم من رب العزة والجلال.

﴿أَتُفَكِّكُم بِمَا كُنْتُمْ تَفَكِّكُونَ وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي ليس بي ما تزعمون وإنما أنا رسول ناصح مرسل إليكم بالهداية من رب العالمين.

﴿أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي هل عجبتم لأن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم، لينذركم لقاء الله، ويخوفكم عذابه؟ وفي الآية دلالة على جواز مدخ الإنسان نفسه للحاجة إليه ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي بعد أن أهلكهم وجعلكم خلفاء من بعدهم ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ﴾ أي زادكم في الناس على أمثالكم ﴿بَصُطَةً﴾ قوة وزيادة جسم ﴿فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ﴾ أي اذكروا نعم الله واشكروها له ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي لكي يفضي شكرها المؤدي لكم إلى الفلاح والنجاح.

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رِجْسِكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدُّونَنِي فِي أَسمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٧٢﴾

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا ﴾ يا هود تنوعدنا بالعذاب ﴿ لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ﴾ أي لنخصه بالعبادة ﴿ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ أي نهجر ما كانا عليه آباؤنا من عبادة الأوثان والأصنام ﴿ فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ في إنذارك لنا بنزول العذاب، وهذا منهم متى العناد والطغيان.

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي وجب وحق عليكم بإصراركم على الكفر والضلال ﴿ مِنْ رِجْسِكُمْ ﴾ أي من جهته تعالى: ﴿ رِجْسٌ ﴾ عذاب مهين كأنه نتن وقذر ﴿ وَغَضَبٌ ﴾ وهو إرادة الانتقام، وتوبيخهما للتفخيم والتهويل ﴿ أَتُجَدُّونَنِي فِي أَسمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا ﴾ أي آلهة ﴿ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ﴾ يعني وضعتم لها أسماء من عند أنفسكم ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي ليس عندكم حجة ولا برهان من عند الله على عبادتها ﴿ فَانْظُرُوا ﴾ نزول العذاب الذي طلبتموه. ﴿ إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ لنزوله بكم.

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ الفاء فصيحة، أي فوق ما وقع فأنجيناها ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ في الدين ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ عظيمة لا يقادر قدرها ﴿ مِنَّا ﴾ من جهتنا ﴿ وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ الدابر أصل الشيء أو آخره، وهو هنا كناية عن عذاب الاستتصال، أي أهلكناهم بالكلية حيث جاءتهم ريح عقيم فأهلكتهم ﴿ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي أصرّوا على الكفر والتكذيب، ولم يرفعوا عن ذلك أصلاً، وفائدة هذا النفي، التنبيه على أن مناط النجاة، هو

الإيمان بالله تعالى، كما أن مدار البوار، هو الكفر والتكذيب، فهو كالعذر عن عدم إيمانهم.

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ نَكْمٌ بَيْنَهُ مِن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ إِلَهِ ۖ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۖ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۖ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا نَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ۖ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ ثمود قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحجر، بين الحجاز والشام، وسميت باسم أبيهم الأكبر ثمود المنتسب إلى سام بن نوح ﴿قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ نَكْمٌ بَيْنَهُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى وإن غاير بين الرسل من حيث الشرائع، إلا أنه جمع بينهم في التوحيد، حيث سلك كل واحد منهم مسلك الآخر، ومن سنة القرآن الكريم في قصص الأنبياء، أن يذكر ما كان منها للعبارة والموعظة، لا أخبار حوادث الأمم مرتبة بحسب الزمان، وقد حكى هنا عن صالح، وأنه ذكر الآية التي أيده الله تعالى بها، وفي قصته من سورة هود أنه ذكر الآية بعد رد الدعوة، وكل ذلك صحيح ﴿هَٰذِهِ

نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴿١﴾ إضافة الناقة إلى الاسم الجليل، لتعظيمها، كبيت الله، ولمجيئها بلا أسباب من صخر أصم، ولأنها حجة الله تعالى على نبوته، وقوله ﴿لَكُمْ﴾ بيان لمن هي آية ﴿فَذَرُوهَا﴾ تفريع على كونها آية من آيات الله تعالى أي فاتركوها ﴿تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ العشب، وهو جواب الأمر أي الناقة ناقة الله، والأرض أرض الله، فاتركوها تأكل في أرض الله، وعدم التعرض للشرب، إما للاكتفاء بذكر الأكل، ولتعميمه له أيضاً كما في قول القائل: «علفتها تبناً وماءً بارداً» أي وسقيتها ماءً بارداً وقد ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (١) ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءُوا﴾ نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالشر، مبالغة في النهي، أي لا تتعرضوا إليها بشيء مما يسوءها أصلاً، إكراماً لآية الله تعالى: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب أذاها (٢).

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي خلفاء في الأرض، ولم يقل خلفاء عاد مع أنه أخصر، إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أنزلكم، ومكنكم وجعل لكم مباءةً ومنزلاً في أرض الحجر ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ ربيعة ف «مِنْ» بمعنى «في» كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ ﴿وَلَتَجِدُنَ الْجِبَالَ يَبُوتًا﴾ أي تنحتون الجبال لسكنائكم، لطول أعمارهم، قيل: إنهم كانوا يسكنون الجبال في الشتاء، في البيوت المنحوتة، لما فيها من القوة التي لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في سائر الفصول للزراعة

(١) سورة الشعراء، آية: ١٥٥.

(٢) يروى أن قوم صالح خرجوا في عيد لهم، وطلبوا من نبيهم أن يأتيهم بآية باهرة تدل على صدق رسالته، وأن يُخرج لهم من صخرة معينة ناقة عُشراء - أي حاملاً - فدعا ربه فخرجت الناقة كما طلبوا، وكانت معجزة من وجوه: أولاً خلقها من الصخرة، وثانياً أنها كانت حاملاً وولدت أمامهم، وثالثاً: كان لها شرب يوم ولأهل المدينة شرب يوم آخر، ومع ذلك أقدموا على قتلها فاهلكهم الله.

والعمل ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ﴾ التي أنعم الله بها عليكم، وآلاء جمع ألى بالقصر والفتح أي نعمة ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإن حق الآلاء أن تُشكر، فلا يُغفل عنها، فكيف بالكفر؟!.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان، وعتوا وتكبروا ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ من قوم صالح ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ أي عُدُّوا ضعفاء أذلاء ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ أي قالوا للمؤمنين بصالح ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاحًا مَّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟﴾ الاستفهام للاستهزاء بهم، لأنهم يعلمون أنهم عالمون بذلك، ولذلك لم يُجبهم المؤمنون بأن يقولوا نعم، بل ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ وهذا من الأسلوب الحكيم، فكانهم قالوا: العلم بإرساله لا كلام فيه ولا شبهة فيه لوضوحه، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم أنا به مؤمنون^(١).

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ وضعوا ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ موضع أرسل به، للتخلص عن الإشعار بالإيمان بالرسالة، غلوا في الإصرار على الكفر، نكاية بالمؤمنين.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ العقر: الجرح، وأصله قطع ساق البعير، واستعمل في النحر، لأن ناجر البعير يعقره ثم ينحره، أسند العقر إلى جميعهم، لأنه كان برضاهم، فكانه فعل كلهم، كما قال الله تعالى في سورة القمر ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾^(٢) ومثل هذا من أعمال الأفراد، ينسب إلى الأمة في جملتها ﴿وَعَتَوُا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي استكبروا عن امتثال أمر الله، واستعجلوا النعمة ﴿وَقَالُوا﴾ مخاطبين له بطريق التعجيز والسخرية

(١) قال في البحر ٣٣١/٤: هذا الجواب في غاية الحسن، إذ أمر رسالته معلوم واضح مسلم، لا يدخله ريب، لما أتى به من المعجز الخارق العظيم، فلا يحتاج أن يسأل عن رسالته، ولهذا قالوا في جوابهم ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

(٢) سورة القمر، آية: ٢٩.

﴿يَصْلَحُ أَتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا﴾ أي من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فإن كونك من جملتهم، يستدعي صدق ما تقول، من الوعد والوعيد، وإنما قالوا ذلك، لأنهم كانوا مكذبين بكل ما أخبرهم به من العذاب، فعبّل الله لهم ذلك، ولهذا جاء اللفظ معطوفاً بالفاء، التي تفيد التعقيب.

فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة وقد رجفت بهم الأرض، وقال مجاهد هي الصيحة، وجمع بين القولين، بأنه أخذتهم الزلزلة من تحتهم، والصيحة من فوقهم^(١)، وجاء في موضع آخر الطاغية ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ ولا منافاة بين ذلك، فإن الصيحة العظيمة حصل منها الرجفة لقلوبهم، ولعظمتها وخروجها عن الحد المعتاد تسمى الطاغية، لأن الطغيان مجاوزة الحد ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ هامدين، وفي أرضهم خامدين، وأصل الجثوم البروك يقال: الناس جثوم أي قعود لا حراك بهم، أي أصبحوا هلكى عند نزول العذاب بهم، لا حركة ولا كلام، فقد خمدت أنفاسهم على التمام.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ بعد أن جرى عليهم ما جرى، مغتماً متحسراً متحزناً عليهم ﴿وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي أسديت لكم النصيح بالترغيب والترهيب، ولم آل جهداً فلم تقبلوا مني ﴿وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ أي شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم، وخطابه عليه السلام كخطاب رسول الله ﷺ لأهل القلب بيدر حين نادى

(١) الرجفة: الزلزلة، والاضطراب الشديد، وقد اجتمع على قوم صالح الصيحة، والرجفة، وكانت مفرطة شقت قلوبهم، فجثموا على الأرض موتى لا حركة فيهم، فقد جمع الله بين الرجفة والصيحة، عقوبة على إجرامهم.

يا فلان، يا فلان بأسمائهم، وقال: لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ رُوي أن صالح عليه السلام لما نجا هو والذين معه، قال لهم: يا قوم إن هذه دار قد سخط الله تعالى عليها، فالحقوا بحرم الله تعالى وأمنه، فاهلّوا من ساعتهم بالحج، وانطلقوا حتى وردوا مكة، فلم يزلوا بها حتى ماتوا، وأنه عليه السلام توفي بمكة، وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وفي الحديث «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم...»^(١) الحديث. وفي الحديث حث على الاعتبار، والخوف عند المرور على ديار الظلمة، المهلكين بالعذاب والدمار.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٧﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٨٩﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُهُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَلُوطًا﴾ معطوف على ما سبق أي وأرسلنا لوطاً إلى قومه، وإنما لم يذكر اسم المرسل إليهم، لأن قومه لم يُعهدوا باسم معروف، ولوط هو ابن هارون ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وقد هاجر مع إبراهيم إلى الشام، فأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم، وهي بلدة بحمص ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي اذكر وقت قوله لقومه ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ بطريق الإنكار والتوبيخ أي أتفعلون تلك الفعل، المتناهية في القبح، وهي اللواط؟ ﴿مَا

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٢٧٠ ومسلم في الزهد رقم ٢٩٨٠ وتتمة الحديث: «ثم قَتَعَ رأسه وأسرع السير حتى جاز الوادي».

سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ؟ أي ما عمل قبلكم أحد مثل هذا المنكر الشنيع، فإن مباشرة القبيح قبيح، واختراعه أقبح، وهو أمر مستقذر، تعافه طباع الحيوانات، قال عمرو بن دينار: «ما نَزَا ذَكَرٌ عَلَى ذَكَرٍ قَبْلَ قَوْمِ لُوطٍ^(١)».

يعني أنهم أول من اخترع وابتكر هذه الفعلة الشنيعة، وهي إتيان الذكور في أدبارهم.

ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ لتأكيد الإنكار، وفي زيادة إن، واللام، مزيد توبيخ، كأن ذلك أمر لا يتحقق من البشر، وفي إيراد لفظ ﴿الرِّجَالَ﴾ دون الغلمان مبالغة في التوبيخ، والإتيان كناية عن الاستمتاع، الذي عُهد بين الزوجين ﴿شَهْوَةً﴾ أي لأجل الاشتهاه لا غير، وفي التقييد بها، بيان لخروجهم عن مقتضى الفطرة، ولا ذَمٌّ أعظم منه، لأنه وصفٌ لهم بالبهيمة، وتنبه على أن العاقل، ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة، طلب الولد، لا قضاء الشهوة فقط، وعمل تلك الفعلة القدرة الخبيثة ﴿مِنْ دُورِ النِّسَاءِ﴾ أي متجاوزين النساء، اللاتي هن أماكن الاشتهاه عند ذوي الطباع السليمة، كما يؤذن به قوله سبحانه ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي عادتكم الإسراف في كل شيء، وتجاوز الحدود فيها، فلهذا أقدمتم على هذه الرذيلة القبيحة.

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ أي المستكبرين منهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ إلا قول بعضهم لبعض مستخفين بنبيهم والمؤمنين ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ أي لوطاً ومن معه من المؤمنين ﴿مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي من بلدتكم ﴿إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَبْطَهُرُونَ﴾ مقصود الأشقياء الاستهزاء والسخرية بلوط ومن معه، وبتطهرهم من الفواحش وتباعدهم عنها، والافتخار بما كانوا فيه من القدرة، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم أخرجوه عنا وأريحونا من هذا المترهد.

(١) ذكره الحافظ ابن كثير ٢/ ٢٤٠ ونقل عن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك قوله: «لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً».

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أي المؤمنين منهم، وأتباعه من المؤمنين، سواء كانوا من ذوي قرابته أم لا ﴿ إِلَّا أَمْرًا تَهُمُّ ﴾ استثناء من أهله فإنها كانت تُسرُّ بالكفر ﴿ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴾ من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ أي نوعاً عجيباً من المطر، بمعنى أرسلنا عليهم إرسال المطر، وهي حجارة من سجيل كما قال سبحانه: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾^(١) ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ خطاب لكل من يأتي منه التأمل والنظر، تعجباً من حالهم، وتحذيراً عن أعمالهم، وقد مكث لوط عليه السلام فيهم ثلاثين سنة، يدعوهم إلى ما فيه صلاحهم فلم يجيبوه، وروي عن الزهري لما عذَّب قومه، لحق لوط بإبراهيم عليه السلام، وفي هذه الآيات دليل على أن اللوطة من أعظم الفواحش. أخرج البيهقي عن أبي هريرة وصححه الحاكم عن النبي ﷺ قال: «لعن الله تعالى سبعة من خلقه، فردَّد لعنة على واحد منها ثلاثاً، فقال: ملعونٌ، ملعونٌ، ملعونٌ، من عمِلَ عَمَلَ قوم لوط..»^(٢) الحديث.

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوِّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ ﴾ أي وأرسلنا إليهم، وهم أولاد مدين ابن إبراهيم،

(١) سورة هود، آية: ٨٢.

(٢) أخرجه البيهقي والحاكم وصححه، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

واختلفوا في مدين، ف قيل: إنه اسم البلد، وقيل: إنه اسم القبيلة وقيل هو اسم لماء كانوا عليه ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي من النسب، وشعيب عليه السلام أعطي قوة البيان والحجة، ولهذا قال ابن عباس: كان إذا ذكر شعيب يقول ﷺ: «ذلك خطيب الأنبياء»^(١). ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثِيرُهُ بَيْنَكُمْ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ المراد من البينة ههنا: المعجزة، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، فهذه الآية دلت على أنها حصلت له، ودالة على صدقه، فأمَّا تلك المعجزة ما هي؟ فليس في القرآن دلالة عليها، كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ فكانه قيل: قد جاء تكلم معجزة شاهدة بصحة نبوتي، توجب عليكم الإيمان بها، والأخذ بما أمرتكم به ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي المكيال كما وقع في سورة هود، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ فإن المتبادر منه الآلة، بدأ تعالى بالتوحيد لأنه أساس العقيدة، وقفى عليه بالأمر بإيفاء الكيل والوزن، لأن سنة الأنبياء إذا رأوا قومهم على نوع من أنواع المفساد، بدؤوا بمنعهم عنه، وكان قوم شعيب مشغوفين بالبخس والتطفيف ﴿وَلَا يَبْخَسُوا الْكَيْسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي ولا تنقصوا الناس حقوقهم، وإنما قال أشياءهم للتعميم، تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير، والقليل والكثير، والبخس من خسارة النفس، ودناءة الهمة، ومتابعة الهوى والظلم، ف الله تعالى يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والظلم، وهذا يشمل إفساد نظام الاجتماع البشري، والعدوان على الأنفس، والأعراض، وإفساد الأخلاق والآداب ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي بعد ما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء بالشرائع والأحكام ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء، وترك البخس والإفساد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه من الكفر والظلم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين لي في قولي.

(١) أخرجه ابن عساكر وذكره ابن كثير ٤٧٤/٢ عن الثوري أنه يقال له خطيب الأنبياء.

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ. وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ. وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾.

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ أي طريق من الطرق الحسية ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ تخوفون من آمن بالقتل. روي عن ابن عباس أنهم كانوا يقعدون على الطريق، يخوفون الناس أن يأتوا شعيباً، ويقولون لهم: إنه كذاب فلا يفتنكم عن دينكم ﴿ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي الطريق الموصلة إليه سبحانه وهي الإيمان ﴿ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ أي بالله تعالى ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي تطلبون لسبيل الله الاعوجاج والانحراف، بإلقاء الشبه، والتشويه لمحاسن الدين ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا ﴾ أي وتذكروا ذلك الزمن الذي كنتم فيه قليلي العدد ﴿ فَكَثَرَكُمْ ﴾ فوَفَّرَ عددكم بالبركة في النسل، وكنتم فقراء فجعلكم موسرين، وكنتم أذلة فأعزكم وقواكم، فاشكروا الله تعالى بعبادته واتباع رسوله، وترك الفساد ﴿ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ من الأمم الماضية كقوم نوح، وهود، ولوط، واعتبروا بهم، واحذروا من سلوك مسالكهم.

﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ ﴾ من الشرائع والأحكام ﴿ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا ﴾ أي انتظروا، وفيه تهديد ووعد ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ بحكمه العادل ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ إذ لا معقب لحكمه، ولا حيف فيه ولا ظلم^(١).

(١) قال أبو حيان: وهذا الكلام من أحسن ما تَلَطَّفَ به في المحاوراة، إذ أُبْرَزَ المتحقق في صورة المشكوك، وهو من بارع التقسيم، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر، ووعداً للكافرين بالعقوبة والخسار.

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَؤُ كَا كَرِهِينَ ﴾ ﴿٨٨﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَعْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ ﴾ ﴿٨٩﴾

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي قال المستكبرون، البالغون من العتو والجبروت أقصاه، وهم أشراف القوم وقادتهم ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾ أي والله لنخرجنك وأتباعك من بلدتنا، بغضاً لكم، ودفعاً لفتنتكم، وكرهية لجواركم ﴿ أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أي ترجعون إلى ديننا وتصبحون مثلنا ﴿ قَالَ ﴾ شعيب رداً لمقاتلتهم الباطلة وتكذيباً لهم في أيمانهم الفاجرة ﴿ أُولَؤُ كَا كَرِهِينَ ﴾ أي أتجبروننا وتكرهوننا على العودة في دينكم، ولو كنا كارهين لملتكم؟ وهو استفهام يُراد منه الإنكار على سوء صنيعهم القبيح، حيث يريدون إكراههم على الكفر.

﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَعْنَا اللَّهَ مِنْهَا ﴾ يقولون: إن عدنا إلى دينكم الأعوج، واتبعنا ما أنتم عليه من الباطل، بعد إذ أنقذنا الله منه بالإيمان، نكون قد اختلقنا وافترينا على الله أعظم أنواع الكذب!! وهذا تبييس للكفار من العودة إلى دينهم ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ أي ما يصح ولا ينبغي ولا يستقيم، أن نرجع إلى ملتكم ودينكم، في حال من الأحوال، إلا إذا شاء الله لنا الانتكاس والخذلان، فيمضي فينا قضاؤه. أرادوا بذلك حسم طمعهم في العودة إلى دينهم، بالتعليق على مشيئة الله، وهذا ما لا يكون أبداً، لأن الله لا يرضى لعباده الكفر. وهذا شأن المؤمن يرد كل شيء إلى مشيئة الله، مع عزمه الجازم بالشبات على الإيمان، ولم يزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة، ألا ترى قول خليل الرحمن عليه السلام ﴿ وَاجْتَنِبْني وَبَنِيَّ أَنْ

نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ؟^(١) وكان ﷺ كثيراً ما يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ فهو سبحانه يعلم كل حكمة ومصلحة، ومشيئته على موجب الحكمة، أي أحاط علمه بكل شيء، مما كان وما يكون، فمحال من لطفه أن يشاء عودنا إلى الكفر ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ التوكل عليه سبحانه: إظهار العجز، والاعتماد عليه، أي اعتمدنا على الله وحده، وإظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرع ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق، لتمييز المحق من المبطل ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ﴾ أي خير الحاكمين، لخلو حكمك عن الجور والحيث.

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ﴾^(١١) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ^(١٢) الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَان لَمْ يَنْفَعُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ^(١٣) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْفَوِرُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَنِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾^(١٤)

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي قال أشrafهم بعدما شاهدوا صلابة شعيب عليه السلام ومن معه في الإيمان، وخافوا أن يؤمن قومهم ﴿لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ ودخلتم في دينه، وتركتم دين آبائكم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ﴾ أي مغبونون خاسرون مضيعون لسعادتكم، لاستبدالكم الضلالة بالهدى، جعلوا اتباع شعيب على ما هو عليه من الهدى والإيمان، خسارة وشقاوة، ويا لهم من سفهاء!!

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة، وهكذا في سورة العنكبوت وفي سورة هود: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾^(٢) أي صيحة جبريل عليه السلام

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٥.

(٢) سورة هود، آية: ٩٤.

ولعلها كانت من مبادي الرجفة، فأسند إهلاكهم إلى السبب القريب تارة، وإلى البعيد أخرى ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا﴾ أي في مدينتهم^(١).

﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي لم يقيموا في دارهم، وحاصل المعنى: أنهم عوقبوا بتوعدهم السابق لنبيهم بالإخراج، وصاروا هم المخرجين من القرية، إخراجاً لا دخول بعده، دون شعيب عليه السلام ومن معه، وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ أي الذين كذبوه عوقبوا بقولهم: ﴿لَئِن آتَيْتُم شُعَيْبًا إِنكُم إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ فصاروا هم الخاسرين، لا المتبعون له.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمُ﴾ قاله عليه السلام بعدما هلكوا تأسفاً عليهم، ثم أنكر على نفسه ذلك، فقال: ﴿فَكَيْفَ أَتَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؟ آسى: بمعنى أحزن، والمعنى: لقد أعدرت لكم في الإبلاغ والنصيحة، والتحذير، مما حلّ بكم، فلم تسمعوا قولي، ولم تصدقوني، فكيف أحزن عليكم؟ أي لا آسى عليكم، لأنكم لستم أحقاء بالآسى والتفجع. وفي قوله: ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ دون قوله: عليكم، وبإقامة الظاهر مقام الضمير، للإشعار بعدم استحقاقهم التأسف عليهم، لكفرهم وتماديهم في الضلال، كأنهم ليسوا قومه؟ ثم إن شعيباً عليه السلام بعد هلاك قومه، نزل مع المؤمنين بمكة حتى ماتوا هناك.

ثم ذكر تعالى سنته الإلهية، في الانتقام ممن كفر به، وكذب رسله، وعاقبة الطغاة المجرمين، بالاستدراج لهم من الشدة إلى الرخاء، ومن الفقر إلى الغنى، فقال سبحانه:

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢٤٢: وقد اجتمع لهم أنواع العقوبة: الرجفة، والصيحة، وعذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم، فيها شرر من نار ولهب، ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ٩٥ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ في الكلام حذف تقديره: وما أرسلنا في قرية من نبي، فكذب أهلها، إلا أخذنا أصحابها، وعاقبناهم بالبؤس والفقر، والجوع والمرض، وأنواع البلى والنكبات ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أي كي يتضرعوا ويخضعوا، ويلجؤوا إلى ربهم، ويتوبوا من ذنوبهم ١١.

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾ أي ثم أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة، والفقر والمرض: الرخاء والسعة، والغنى والصحة، ابتلاء لهم بالأمرين ﴿ حَتَّى عَفَوْا ﴾ أي حتى كثروا ونموا، وأبطرتهم النعمة، يُقال: عفا النبات إذا كثر ونما ﴿ وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ أي قالوا كفراناً للنعمة: هذه عادة الدهر، وقد أصاب آباءنا مثل ذلك من البلى والمصائب، فلا ينبغي لنا أن ننكره، وليست هذه بعقوبة من الله لنا، فكما أن آباءنا قد ثبتوا على دينهم، ولم ينتقلوا عنه، مع ما أصابهم، فاثبتوا أنتم على دينكم ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك، ولا يخطر ببالهم شيء من المكاره، والأخذ فجأة أشد، وحسرتة أعظم، لأن المرء إذا رأى مقدمات الابتلاء، يوطن نفسه عليها، بخلاف حال الفجأة.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ٩٦ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقِيمُونَ ﴿ ٩٧ ﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿ ٩٨ ﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ٩٩ .

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ أي القرى المهلكة، الذين كذبوا رسلهم ﴿ءَامَنُوا﴾ بالله بدل كفرهم وعصيانهم، معتبرين بما جرى عليهم من السراء والضراء ﴿وَاتَّقُوا﴾ ما حَرَّمَ الله تعالى عليهم ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لو سَعْنَا عليهم الخير، ويسرناه لهم من كل جانب، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات، والبركة: الزيادة والنماء، وبركات السماء بالمطر، وبركات الأرض بالنبات والثمار، والمواشي والأنعام، وكل ذلك بخلق الله تعالى وتدبيره ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا﴾ أي ولكن لم يؤمنوا ولم يتقوا، وقد اكتفى بذكر الأول، لاستلزامه الثاني، وللإشارة إلى أنه أعظم الأمرين ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي، وفي الآية إشارة إلى أن الكفاية والسعة في الرزق، من سعادة المرء إذا كان شاكراً، ووبالاً إذا لم يشكر الله تعالى.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ الهمزة للإنكار أي هل أمن أهل القرى المكذبون لرسول الله ﷺ ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ﴿يَنَاءُ﴾ أي ليلاً وقت نومهم وراحتهم، يقال: بات يفعل كذا، إذا فعله ليلاً، والاسم البيات، وهو في الأصل مصدر بمعنى البيوتة ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي وهم في فرشهم لا يشعرون.

﴿أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ إنكار بعد إنكار، للمبالغة في التوبيخ، ولم يقصد الترتيب بينهما، فلذا لم يؤت بالفاء ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ أي ضحوة النهار، بعد طلوع الشمس، والضُّحى: امتداد النهار، والضُّحوة مثله، وجمعه ضحى، مثل قرية وقرى ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي يلهون من فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم، كأنهم يلعبون.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟﴾ مكرُ الله استعارة لاستدراج العبد، وأخذه من حيث لا يحتسب^(١) ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا

(١) سمى تعالى إمهاله لهم، واستدراجه لهم بأنواع النعم مكرًا، لأنه في صورة من يمكر بصاحبه، ليوقعه في المهلكة، كما قال سبحانه ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين﴾ فهذا الفعل بالنسبة لله كمال، وهو على الكفار والفجار وبال.

بالكفر وترك النظر والاعتبار، وأضاعوا فطرة الله، التي فطر الناس عليها، قال بعض العلماء: إن الأمن من مكر الله كفرٌ، ومثله اليأس من رحمة الله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَنَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١) وقال بعض المحققين: إن كان في الأمن، اعتقاد أن الله تعالى لا يقدر على الانتقام منه، وكذا إذا كان في اليأس، اعتقاد عدم القدرة على الرحمة، فذلك مما لا ريب في أنه كفر، وإن خلا عن نحو هذا الاعتقاد ولم يكن فيه تهاون، وعدم مبالاة بالله تعالى، فذلك كبيرة، وهو الأظهر، والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أولم يتبين ويتضح ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ أي يخلفون من خلا قبلهم، ويرثون ديارهم بعد هلاكهم، والمراد بهم أهل مكة ومن حولها ﴿مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي من بعد إهلاك أهلها ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي لو أردنا لأهلكناهم بجزاء ذنوبهم، كما أهلكنا من قبلهم؟ ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي ونختم على قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا نصحاً، نطبع على قلب من لم نرد منه الإيمان، حتى لا يتعظ بأحوال من قبله ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يسمعون سماع تفهم، الوعظ والنصيحة، وأخبار الأمم المهلكة، فضلاً عن التدبر فيها.

﴿تِلْكَ الْأَقْرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾^(١١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتْسِقِينَ^(١٢).

(١) سورة يوسف، آية: ٨٧.

﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ يعني القرى المارّة ذكرهم، من قوم نوح، وعاد، وثمود، وأضرابهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ أي نقص عليك بعض أخبارها، من أنباء الماضين، لتبين العبر، وتعلم المثالات التي أوقعها الله بالماضين من المكذبين، مما فيه عظة وتذكير ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي ولقد جاءتهم رسلهم الكرام، بالمعجزات الواضحات، والحجج القاطعات، الدالة على صحة رسالتهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل، ولجؤا في كفرهم وعنادهم، لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات وبعده، فحالهم واحد في العقوّ والضلال. والغرض بيان أنهم استمروا على التكذيب، من لدن مجيء الرسل إليهم، إلى أن ماتوا مصرّين على الكفر والاستهزاء، لا يزعون ولا يتوبون، مع تكرار المواعظ، وتتابع الآيات ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي ومثل ذلك الختم الشديد المحكم، على قلوب أولئك الضالين، نطبع على قلوب الكافرين المعاندين، فلا تكاد تؤثر فيهم النذر والآيات.. وفي الآية تحذير للسامعين من كفار مكة الذين كذبوا سيد المرسلين، أن يحلّ بهم ما حلّ بمن سبقهم من الطغاة المفسدين.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ أي وما وجدنا لأكثر الخلق من وفاء للعهد، بل إن أكثرهم نقضوا ما عهد الله إليهم، من الإيمان وتقوى الرحمن، بعد إنزال الآيات، ونصب الحجج، كما كانوا إذا وقعوا في ضرّ وكره، عاهدوا الله بقولهم: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْغُوْنَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾^(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أي وما وجدنا أكثرهم إلّا عُصاة فاسقين، خارجين عن الطاعة والامتثال لأمر الله.

قال ابن كثير: والعهد الذي أخذه عليهم، هو ما فطروهم عليه،

(١) سورة يونس، آية: ٢٣.

وأخذه عليهم وهم في الأصلاب، أنه ربهم ومليكمهم، فخالفوه وعبدوا مع الله غيره، بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١١٠).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذكرهم، رسولنا «موسى بن عمران» بالمعجزات الباهرات، والحجج الساطعات، وهي الآيات التسع الآتي ذكرها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أرسلناه إلى ملك مصر «فرعون» وأشراف قومه ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي فكفروا وجحدوا بها ظلماً وعدواناً، وأصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فلما كفروا بها جعلوا موضع ما يجب من الإيمان الكفر، ف قيل ﴿ظَلَمُوا بِهَا﴾ أي كفروا بها. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾؟ أي فانظر أيها السامع ماذا آل إليه أمر المفسدين الظالمين؟ كيف أغرقناهم أجمعين، فلم نبق منهم أحداً ووضع ﴿المُفْسِدِينَ﴾ موضع ضميرهم، للإيذان بأن الظلم يستلزم الإفساد.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١١﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١١٢﴾ قَالَ إِن كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ كلام مبتدأ مسوق لتفصيل ما أجمل ﴿يٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ﴾ أي إليكم، كما يشعر به ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي مالك أمركم.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ أي جدير بي، وحق علي أن لا أقول على الله إلا ما هو حق وصدق!! يعني أني رسول، والرسول لا

يقول على الله إلا الحق ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لم يكن هذا القول منه عليه السلام، إثر ما ذكر ههنا، بل بعدما جرى بينهما من المحاوراة، المحكية بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى؟﴾ وقوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟﴾ وقد طوى ههنا ذكره للإيجاز ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي فخل بني إسرائيل حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة.

﴿قَالَ﴾ فرعون له ﴿إِنْ كُنْتَ حَتَّىٰ بِتَائِيَةٍ﴾ من عند من أرسلك، كما تدعيه ﴿فَأَتِ بِهَا﴾ أي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك في دعواك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك، فإن كونك من جملة المعروفين بالصدق، يقتضي إظهار الآية.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنِّظِيرِينَ﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ أي رماها من يده ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾ إذا للمفاجأة أي ففاجأ أن صارت حية ضخمة طويلة، والثعبان هو الذكُر العظيم من الحيات، وقال آخرون: إنه الحية مطلقاً، وإيثار الجملة الاسمية، للدلالة على سرعة الانقلاب، قال هنا ﴿ثعبان﴾ وفي آية أخرى وصفها بأنها ﴿جان﴾ والجان الحية الصغيرة، والجمع بين هذين، بأنها كانت في عظم الجثة كالثعبان، وفي خفة الحركة كالجان، وقيل: انقلبت جانا ثم أصبحت ثعبانا ﴿مُبِينٌ﴾ أي ظاهر أمره، لا يُشك في كونه ثعباناً، وبذلك تتميز معجزات الأنبياء، عن دجل السحرة.

رُوي أن موسى عليه السلام، لما ألقى العصا، صارت حية عظيمة، فاغرة فاها، وتوجهت نحو فرعون، فوثب عن سريره هارباً وأحدث، وصاح يا موسى أشدك بالذي أرسلك أن تأخذها، وأنا أومن بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها فعادت عصا، والآية من أقوى أدلة جواز انقلاب الشيء عن حقيقته، إذ لو كان تخيلاً لبطل الإعجاز، ولم يكن

لقوله ﴿ثُبِينٌ﴾ معنى، وما حدث إنما كان بفعل الله، ولهذا كانت معجزة.
 ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أي أخرجها من جيبه لقوله تعالى: ﴿أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أو من تحت إبطه، لقوله سبحانه: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ والجمع بينهما ممكن، لأن الجيب فتحة الصدر ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة، فقد كانت تظهر منيرة شفافة كالشمس تأتلق، وكان موسى عليه السلام آدم - أي أسمر - شديد السمرة، فكان إذا أخرجها ظهرت مضيئة كأنها فلقة قمر.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحِرُ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرِجُهُ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكُّ بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم أصحاب مشورته ﴿إِنَّ هَذَا السَّحِرُ عَلِيمٌ﴾ أي مبالغ في علم السحر، وماهرٌ فيه، قالوه تصديقاً لفرعون، لأن هذا القول بعينه هو قول فرعون، كما في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي من أرض مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ هذا من كلام فرعون، أيّ تشيرون عليّ في أمره؟ فهو من الأمر بمعنى المشاورة.

﴿قَالُوا أَرِجُهُ وَأَخَاهُ﴾ كأنه اتفقت آراؤهم عليه، فأشاروا على فرعون بذلك، والإرجاء: التأخير، أي أخره وأخاه، حتى ترى رأيك فيهما، وتتدبر شأنهما ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أي أرسل رجالاً يحشرون، أي يجمعون إليك السحرة، من جميع مدائن مصر، فإن غلبهم موسى صدّقناه، وإن غلبوه علمنا أنه ساحر، والمدائن جمع مدينة.

﴿يَا تَوَكُّ بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي ماهر في السحر، توهموا أنهم بالتأخير والتدبير، يغيثون شيئاً من التقدير، ولم يعلموا أن الحق غالب.

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ
الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ۝

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ بعدما أرسل إليهم يُجمِعهم من البلدان قال سبحانه: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ للإيذان بمسارعة فرعون إلى الإرسال، ومبادرة الحاشرين والسحرة إلى الامتثال، واختلف في عددهم، فعن كعب أنهم اثنا عشر ألفاً، وعن ابن إسحق أنهم كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال عكرمة: كانوا سبعين ألف ساجر^(١) ﴿ قَالُوا ﴾ أي السحرة واثقين بغلبتهم ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ أي أجره وعوضاً وجزاء ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ والمقصود من الإخبار بإيجاب الأجر واشترائه، كأنهم قالوا بشرط أن تجعل لنا أجراً كبيراً إن غلبناه.

﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ إن لكم لأجراً كما تحبون ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي إن لكم لأجراً وإنكم مع ذلك لمن المقربين عندي، وفي ذلك من الترغيب والتحفيز ما لا يخفى.

﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۝

﴿ قَالُوا ﴾ أي السحرة ﴿ يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى ﴾ ما تلقي أولاً ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ خيروهم مراعاةً للأدب، فكان ذلك سبب إيمانهم، وصاروا من المقربين عند الله، لا عند فرعون^(٢).

(١) ليس في هذه الأقوال سند يوثق به، ولكنهم كانوا جمعاً كبيراً، جاؤوا من أقصى البلاد من مصر لنصرة فرعون، والله أعلم بعددهم!!

(٢) هذا القول لبعض المفسرين ذكره الزمخشري في الكشاف وغيره، والأظهر - والله أعلم - أنهم قالوا ذلك من باب الاعتزاز بالنفس، واليقين بالغلبة، وعدم الاكتراث بأمر موسى كما يقول الواصل من نفسه: هل أبداً أنا أولاً أم تبدأ أنت؟

﴿قَالَ﴾ أي موسى وثوقاً بشأنه ﴿الْقَوَا﴾ أنتم ما تلقون أولاً، وثق نبي الله موسى بالحق والغلبة فأعطاهم التقدم، وذلك ليظهر الله أمر نبوته ويقوي يقينه ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ أي فلما ألقوا حبالهم وعصيهم، وكان مع كل واحد منهم حبل وعصى ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ بأن خيلوا إليها ما لا حقيقة له، ولذا لم يقل سبحانه «سحروا الناس» فالآية على حدّ قوله تعالى: ﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى﴾^(١) وهذا هو الفرق بين المعجزة، والسحر، لأن السحر قلب الأعين عن إدراك ذلك الشيء، والمعجزة قلب ذلك الشيء حقيقة، كقلب العصا إلى ثعبان، وإخراج الناقة من الحجر الأصم ﴿وَأَسْرَهَبُوهُمْ وَجَاءُ وَبِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ أي أفرعوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً، حيث خيلوها حيات تسعى، وجاؤوا بسحر عظيم يهابه من رآه، يروى أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً، وخشباً طوالاً، وكانوا قد طلوا تلك الحبال بالزئبق ولوثوها، وجعلوا داخل العصي زئبقاً أيضاً، ثم ألقوها على الأرض، فلما أثر حرّ الشمس فيها، تحركت والتوى بعضها على بعض، فإذا هي تتحرك تشبه الحيات، وقد ملأت الوادي، ففزع الناس، والسحر عند أهل السنة أقسام: منه ما هو تخيل كما هنا في عمل السحرة، ومنه ما له حقيقة وتأثير كما قال سبحانه: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾^(٢) وأجمع المسلمون على أنه ليس من السحر، ما يفعله الله تعالى تأييداً لرسله، كقلب العصا إلى ثعبان، وإحياء الموتى، وإنطاق الحجر أو الشجر، وأمثال ذلك من معجزات الرسل الكرام.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(١١٧)
﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١١٨) ﴿فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾^(١١٩) ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَدِينٍ﴾^(١٢٠) ﴿قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٢١) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾^(١٢٢).

(١) سورة طه، آية: ٦٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٠٢.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أي أوحينا إليه بأن ألق عصاك لترى العجب العجاب ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي فآلقاها فإذا هي تبتلع وتزدد ما صوروه من الإفك والكذب.

﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي ثبت وظهر الحق لمن شاهده وحضره، وبطل إفك السحرة وكذبهم، وسعي فرعون وشيعته.

﴿ فَقُلُوبُهُمْ ﴾ أي فرعون وقومه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك المجمع العظيم ﴿ وَأَنْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴾ أي صاروا أذلاء مبهوتين، والضمير لفرعون وقومه.

﴿ وَالْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ أي جعلهم ما شاهدوه خارين على وجوههم، تنبيهاً على أن الحق بهرمهم، واضطهرهم إلى السجود، بحيث لم يبق لهم تمالك، فكان أحداً دفعهم وألقاهم، يروى أن الاجتماع كان بالاسكندرية، وأن الحية فتحت فاهاً فابتعلت ما صنعوا واحداً بعد واحد، وقصدت الناس ففرعوا، ووقع الزحام، ثم أخذها موسى فعادت في يده عصا كما كانت، فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه معجزة، وليس من السحر، فعند ذلك خرّوا سجداً لله رب العالمين.

﴿ قَالُوا ﴾ يعني أنهم خروا ساجدين معلنين إيمانهم قائلين ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي آمنا بالله الواحد الأحد، مالك الملك رب العالمين.

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ بدل مما قبل، أبدلوا لثلاث يتوهم أنهم أرادوا به فرعون، وأكدوا ذلك بذكر هارون مع موسى، قال قتادة: كانوا أول النهار سحرة كفرة، وفي آخر النهار شهداء برة.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا ءَٰهْلَهَا فُتَقَاتُ فَرْعَوْنَ ۖ فَسَوْفَ نَغْلِبُكُمْ ۖ لَنَقُطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَنزِلُكُمْ مِّنْ خِلْفٍ ثُمَّ لَأَقْبِلَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۖ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ۖ وَمَا نَنفِقُ مِنَّا إِلَّا أَن تَأْتِيَنَا رِبَا لَّمَّا جَاءَ تَأْرِبُنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوْفَنَا مُسْلِمِينَ ۖ ﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْنَتُمْ بِمُوسَى﴾ أي قال فرعون موبخاً ومتوعداً للسحرة: آمتمتم بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي قبل أن أمركم أنا بذلك ﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما صنعتموه ﴿لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ﴾ لحيلة احتلتموها أنتم وموسى، وهذا تمويه من فرعون على القبط، يريدهم أنهم ما غلبوا، وإنما تأمروا عليه ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ يعني في مصر، قبل أن تخرجوا إلى الميعاد ﴿لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي القبط، وتخلص لكم ولبنى إسرائيل، خاف فرعون أن يصير إيمان السحرة، حجةً عند قومه، فألقى هاتين الشبهتين على أسماع عوام القبط، تشبهاً لهم على ما هم عليه، وتهيجاً لعداوتهم لموسى عليه السلام، ثم عَقَّبَ بالوعيد ليريهـم أن له قوة، فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم، وهذا وعيد ساقه بالإجمال للتهويل، ثم عَقَّبَهُ بالتفصيل فقال:

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ أي من كل جانب عضواً كاليد من جانب والرجل من آخر^(١) ﴿ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم، والتصليب: مأخوذ من الصلب، وهو الشدُّ والربط بعد القتل على شجرة أو عمود. أياماً أو شهوراً، ليكون زجراً للآخرين.

﴿قَالُوا﴾ ثابتين على الإيمان ﴿إِنَّا إِلَهُكُمُ مُّقْبِلُونَ﴾ أي إنا جميعاً إلى ربنا راجعون، فيحكم بيننا وبينك.

إلى دَيَّانٍ يَوْمَ الدِّينِ نَمُضِي وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ ﴿وَمَا لَنَقُمُ مِنَّا﴾ وما تُنكر منا؟ وما تعيب علينا ﴿إِلَّا أَتَاءَ أَمَنَّا بِآيَاتِكَ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ وذلك أصلُ المفاخر، وأعظم المحاسن، ليس نتخلى عنه طلباً لمرضاتك، ثم أعرضوا عن مخاطبة فرعون وفزعوا إلى الله عز وجل فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي أفض علينا صبراً يغمرنا عند تعذيب

(١) قال الطبري ٣٤/١٣: ومعنى ﴿من خلف﴾ هو أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالف بين العضوين في القطع.

فرعون لنا ﴿وَوَقَّانَا مُتْسَلِّمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام، روي أن فرعون بعدما رأى ذلك خاف من موسى أشد الخوف، فلذلك لم يتعرض له بسوء.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقِيلُ آثَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٩).

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ مخاطبين له بعدما شاهدوا ﴿أَنْذَرُ مُوسَى﴾ أي أتركه ﴿وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر، والمراد بالفساد، دعوة الناس إلى دين موسى والخروج على فرعون، روي عن ابن عباس قال: لما آمنت السحرة، أتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل ﴿وَيَذَرُكَ﴾ أي يتركك ﴿وَأَلِهَتَكَ﴾ معبوداتك، قيل كان فرعون قد صنع لقومه أصناماً، وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه، ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (١) ﴿قَالَ﴾ مجيباً لهم ﴿سَنُقِيلُ آثَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ كما كنا نفعل من قبل، ليعلم أنا على ما نحن عليه من القهر والغلبة ﴿وَأِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أي غالبون كما كنا، لم يتغير حالنا، وهم مهجرون تحت أيدينا، ولم يذكر حقيقة الحال، وهو كونه خائفاً من موسى.

(١) ذكر المفسرون أن فرعون كان في زمنه للناس آلهة تُعبد، من بقر وأصنام وغير ذلك، وجعل نفسه الإله الأعلى ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ وكان هو يعبد البقر، وروي عن ابن عباس أن فرعون كان يُعبد ولا يُعبد، وكان يقرأ ﴿وَالْأَهْتَكُ﴾ أي يترك عبادتك والتدلل لك.

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ تسليّة لهم، وعدة بحسن العاقبة، حين سمعوا قول فرعون، وتضجّروا منه، تسكيناً لهم ﴿ أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصِيرُوا ﴾ على ما سمعتم من أقاويله الباطلة، وعلى ما نالكم من المكاره ﴿ إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ ﴾ أي الأرض كلها لله ﴿ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني أنه ليس الأمر كما قال فرعون، فإن القهر والغلبة لمن صبر، واستعان بالله، والعاقبة للمتقين أي الظفر والنّصر لمن اتقى الله تعالى.

﴿ قَالُوا ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿ أُوذِينَا ﴾ من جهة فرعون ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا ﴾ بالرسالة ﴿ وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أي رسولاً، يعنون به ما توعدّهم فرعون به من إعادة قتل الأولاد، وسائر ما يفعل بهم، وذلك اشتكاه من فرعون لا أنهم كرهوا مجيئه، لأن ذلك كفر ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام لما رأى شدة جزعهم، مسلماً لهم: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ الذي فعل بكم ما فعل، وتوعدّكم بما توعدّ ﴿ وَيَسْتَخْلِفْكُمْ ﴾ أي يجعلكم خلفاء ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي في أرضهم بعد هلاكهم ﴿ فَيَنْظُرَ ﴾ أي يرى ويعلم ﴿ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ من الإصلاح والإفساد، ليجازيكم على حسب ما يوجبه عملكم.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ ﴿ ١٢٠ ﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ. وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ١٢١ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ شروع في تفصيل مبادي الهلاك الموعود وإيذان بأنه تعالى لم يمهّلهم بعد ذلك، بل رتب أسباب هلاكهم من حال إلى حال، إلى أن حلّ بهم عذاب الاستئصال، والمراد بال فرعون: أتباعه ﴿ بِالسِّنِينَ ﴾ جمع سنة، والمراد به عام القحط والجذب، والمعنى: ولقد أخذنا قوم فرعون بالجذب والقحط، سنة بعد سنة ﴿ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾

بإصابة العاهات زيادة في القحط ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي لكي ينتبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم، ويتعظوا وينزجروا، عمّا هم عليه من العتوّ، والظلم والفساد، فيفزعوا إلى الله، ويرغبوا في فعل الخير، لأن أحوال الشدة ترقق القلوب، وترغب فيما عند الله، كذلك الشدائد والمصائب موجبات للانتباه والاعتبار، لكن لأهل السعادة وأولي الأبصار، فاما أهل الشقاوة فلا ينبههم كثرة النعمة، ولا ترققهم شدة النعمة.

﴿فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ الحسنة: أي السعة والخصب ﴿قَالُوا إِنَّا هَذِهِ﴾ أي لأجلنا، ونحن مستحقوها، ولم يَرَوْا ذلك من فضل الله تعالى عليهم ﴿وَأِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جذب وبلاء وما يكرهون في أنفسهم ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي يتشاءموا بهم، ويقولوا ما أصابنا ذلك إلا بشؤمهم، وهذا شاهد بكمال قساوة قلوبهم، والتطيّر: التشاؤم، والاسم منه طيرة، واشتقاقه من الطير، والأصل في هذا أن العرب كانوا يتفاءلون بالطير، فإن خرج أحدهم لمقصده، ورأى الطير من ناحية يمينه، تيمّن به، ويسمى سانحاً، ويسير إلى مقصده، وإن أتى من ناحية شماله يتشاءم به، ويسميه بارحاً، فيرجع إلى بيته ﴿أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتُمْ﴾ تصديره بكلمة التنبيه، لإبراز كمال العناية بمضمونه، أي سبب خيرهم وشهرهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ تعالى أي في حكمه ومشيتته، المتضمنة للحكم، والمصالح ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم، للإشعار بأن بعضهم يعلم، ولكن لا يعمل بمقتضى علمه، عناداً واستكباراً.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمُوسَى أَدْعُ
لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيُنْزِلَ عَلَيْنَا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ
مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢٧﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ
بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿وَقَالُوا﴾ أي قوم فرعون بعد ما رأوا ما رأوا من شأن العصا والسنين، ونقص الثمرات ﴿مَهْمَاتَانِ﴾ أي أي شيء تحضره لدينا وتأتينا به ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ سَمَّوْهَا آيَةً لتسمية موسى عليه السلام، لا لاعتقادهم، أو قصدوا بذلك الاستهزاء، ولذلك قالوا ﴿لِتَسْحَرْنَا بِهَا﴾ أي لتسحر بها أعيننا، ولتصرفنا عما نحن عليه من الدين، وهذا يدل على كمال الطغيان والجبروت ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدقين لك، ومؤمنين بنبوتك أصلاً، وكان موسى عليه السلام حديداً، ومستجاب الدعوة، فدعا عليهم، فاستجاب الله تعالى دعاءه، ولهذا جاء العقاب سريعاً، قال تعالى مبيناً ما أصابهم من البلاء.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ عقوبة لجرائمهم، والطوفان: اسم لكل شيء يحيط بالجهات ويعم، كالماء الكثير، والقتل الذريع، والموت الجارف، وقد اشتهر في طوفان الماء، وجاء تفسيره بذلك، عن ابن عباس، روي أن الطوفان دام سبعة أيام، فقالوا لموسى: ادع لنا يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فكشف عنهم، فنبت من العشب ما لم يعهد مثله، قالوا: هذا لنا نعمة، فلا والله لا نؤمن لك يا موسى، فنقضوا العهد، فبعث الله تعالى عليهم الجراد ﴿وَالْجَرَادَ﴾ وهو المعروف، سُمي جراداً لجرده ما على الأرض، وهو جند من جنود الله تعالى، يسلطه على من يشاء من عباده، روي عن سلمان الفارسي قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الجراد، فقال: أكثرُ جنودِ الله تعالى، لا آكله، ولا أحرمه»^(١) روي أن الجراد أكلت زروعهم وثمارهم، وعشبهم، فعجوا وضجوا، وقالوا لموسى: ادع لنا ربك لئن كشف الله عنا هذا لنؤمننَّ لك وأعطوه عهداً، فدعا ربه فكشف الله عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يفوا ما عاهدوا عليه، ثم بعث الله تعالى عليهم القمل ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ بضم القاف، وتشديد الميم: هو الشُّوس أو

(١) أخرجه أبو داود في الأطعمة رقم ٣٨١٣، وابن ماجه في أبواب الصيد رقم ٣٢٥٨.

القملُ نفسه الذي يلحق البدن، والبراغيث، كذلك قيل: ولم يُصابوا ببلاء، كان أشدَّ عليهم من القمل، أخذ أشعارهم، ولزم جلودهم، ومنعهم النوم والقرار، فصرخوا بموسى: إنا نتوب فادع لنا ربك!! فدعا ورفع الله عنهم ذلك البلاء، فنكثوا العهد، فأرسل الله عليهم الضفادع، كما قال سبحانه: ﴿وَالضَّفَادِعُ﴾ جمع ضفدع حتى ملأت بيوتهم وطعامهم، وكانت تدخل في فرشهم وبين ثيابهم، وإذا همَّ الرجل أن يتكلم وثب الضفدع في فمه، وجعلت الضفادع تقذف أنفسها بالقدور وهي تغلي، فقالوا: ادع لنا ربك في كشف هذا، فدعا فكشف عنهم، فرجعوا إلى كفرهم وطغيانهم، فبعث الله عليهم الدم ﴿وَالدَّمَ﴾ أي صارت مياههم دماً، فما يستقون من بئر ولا نهر، إلا وجدوه دماً ﴿ءَايَتِي مُفْصَّلَتٍ﴾ أي علامات ظاهرات، فيها عبرٌ وعظات، تدل على انتقام الله منهم. وكانت الآيات تأتي على فترات، تمكث فيهم من السبت إلى السبت، ثم ترتفع عنهم شهراً كما رُوي عن ابن جريج، ومع ذلك استكبروا عن الإيمان، وطاعة الرحمن، فذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي استكبروا عن الإيمان، وكانوا مصرّين على الإجرام، فلم تنفعهم تلك الزواجر والقوارع، وهذا يشير إلى طغيانهم وعتوهم، وإغراقهم في الضلال والطغيان.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي وحين نزل بهم ذلك العذاب المذكور، المفصّل في الآيات المتقدمة ﴿قَالُوا يَكُونُ أَدْعُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي ادع لنا ربك ليكشف عنا البلاء، بحق ما أكرمك به من النبوة، والمراد استعطافه ليدعو لهم بكشف البلاء، ثم قالوا مؤكدين الوعد ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أقسمنا لك بعهد الله، لئن كشفت عنا الرجز، لنؤمنن ولنرسلن معك أتباعك من بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ﴾ إلى حدّ من الزمان ﴿هُم بِلِقَاؤِهِ﴾ أي هم واصلون إليه ولا بد، وهو وقت الغرق، والمراد أنجيناهم من العذاب إلى ذلك الوقت ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ جواب لما أي فلما كشفنا

عنهم ذلك البلاء، فاجأوا النكت من غير تأمل، ونكث العهد: نقضه، وأصل النكت فل طاقات الصوف المغزول، فاستعير لنقض العهد بعد إبرامه.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ يَأْتُهُمْ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٢٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٢٧﴾.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي فإردنا أن ننتقم منهم، لِمَا أسلفوا من المعاصي والجرائم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي البحر العميق الذي لا يدرك قعره ﴿يَأْتُهُمْ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا﴾ تعليل للإغراق، يعني أن سبب الإغراق هو التكذيب بالآيات، والإعراض عنها، وعدم الإذعان والقبول لدعوة موسى عليه السلام ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي لا يلتفتون إليها، ولا يلقون لها بالاً، فلذلك كان الهلاك لهم بالإغراق.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ بالاستعباد، وذبح الأبناء، واستخدام النساء، وهم بنو إسرائيل، ذكروا بهذا العنوان، إظهاراً لكمال لطفه إليهم، في رفعهم من حضيض المذلة، إلى أوج العزة والسيادة، وفي الآية إشارة، إلى أن فضل الله سبحانه عند القلوب المنكسرة ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ يعني أرض الشام التي بارك الله فيها، والأرض المقدسة التي طلب موسى من فرعون أن يرسلهم معه ليذهب بهم إليها ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب، وسعة الأرزاق، وبكونها مساكن الأنبياء عليهم السلام، والأحاديث في فضل الشام كثيرة، منها قوله ﷺ: «طوبى للشام فقيل له ولم قال: إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها»^(١) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ

(١) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٩٤٩ ولفظه عن زيد بن ثابت أن رسول =

إِسْرَءِيلَ ﴿إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ والمعنى: مضى واستمر عليهم ما كان مقدراً من إهلاك عدوهم، وتوريثهم الأرض، والحسنى تأنيث الأحسن، وصفت بذلك لما فيها من الوعد بما يستحسنونه ﴿يَمَاصِبُوا﴾ أي بسبب صبرهم على الشدائد، التي كابدوها من جهة فرعون وقومه، وحسبك بهذا تنويعاً على فضيلة الصبر، وإشارة إلى أن من قابل البلاء بالجزع، وكَلَّه الله تعالى إليه، ومن قابله بالصبر، ضمن الله تعالى له الفرج ﴿وَدَمَرْنَا﴾ أي خربنا وأهلكنا ﴿مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ أي دمرنا الذي كان يصنعه فرعون، في أرض مصر، من العمارات والقصور ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات، أو ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَلْمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٢٦٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦٩﴾﴾.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ شروع في قصة بني إسرائيل، وشرح ما أحدثوه من الأمور الشنيعة، بعد أن أنقذهم الله عز وجل من استعباد فرعون، ومنَّ عليهم من النعم العظام، الموجبة للشكر، تسليّة لرسول الله ﷺ عما رآه من اليهود بالمدينة، فإنهم جرّوا معه على دأب أسلافهم، مع موسى عليه السلام، وجاوز بمعنى: جاز، أي قطعنا البحر بهم، روي أن موسى عليه السلام عبّر بهم يوم عاشوراء، فصاموا شكراً لله تعالى ﴿فَأَتَوْا﴾ أي مروا بعد المجاوزة ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ من العمالقة ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ﴾ أي يواظبون على عبادتها ويسجدون لها، ويعبدونها من دون

= الله ﷻ قال: «طوبى للشام، فقلت: لم ذاك يا رسول الله؟ قال: لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها».

الله ﴿قَالُوا﴾ أي قال بنو الْحُسَيْنِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عندما شاهدوا ذلك ﴿يُمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ نعبدہ ﴿كَمَا كُنْتُمْ عِبَادَةً﴾ أصنام يعبدونها، وهذا يدل على غاية جهل بني إسرائيل، فلذلك ردَّ موسى عليهم بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجب من قولهم هذا، إثر ما شاهدوا من الآيات الكبرى، فوصفهم بالجهل المطلق، وأكدہ بآيٍ، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع!!.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى القوم الذين يعبدون تلك التماثيل ﴿مُتَّبِعُونَ﴾ مكسَّر، مدمَّر، وهالك ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ من الدين، يعني يدمر الله تعالى دينهم الذي هم عليه على يدي، ويجعلها فتاتاً ﴿وَيَطْلُونَ﴾ مضمحل بالكلية ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ما استمروا على عبادتها وإن قصدوا بذلك التقرب إلى الله تعالى، لأنه كفر محض، وإنما بالغ فيه بالمؤكدات، تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا.

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾
وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ أطلب لكم معبوداً غير الله؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى: أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً؟ ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي والحال أنه خصكم بنعم لم يعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء مقابلتهم، حيث قابلوا تخصيص الله إياهم عن أمثالهم، بأن قصدوا أن يشركوا به أحسن شيء من مخلوقاته، تباً لهم على ما يطلبون.

﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١١٠﴾ تذكير لهم من جهته تعالى، بنعمة الإنجاء من فرعون الطاغية الجبار، والفائدة في ذكرها في هذا الموضع التنبيه على أنه تعالى هو الذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة، فكيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غيره؟ حتى تقولوا: (اجعل لنا إلهاً)؟.

﴿١١١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِّمَّقَتُ رَبِّهِ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١٢﴾

﴿١١١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ﴿١١١﴾ أي وعدناه لإعطاء التوراة، والمناجاة، روي أنه عليه السلام وعد بني إسرائيل بمصر، أن يأتيهم بكتاب من الله، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون، سأل موسى ربه، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، فذلك قوله تعالى: ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ والعرب في أغلب تواريخها تذكر الليالي، لأن الليل هو الأصل، والنهار عارض، ولأن الليل غرر الشهور، فأمره أن يصوم ثلاثين، وهو شهر ذي القعدة، ويروى عن ابن عباس يرفعه، لما أتى موسى ربه عز وجل، وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين، كره أن يكلم ربه سبحانه وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول من نبات الأرض شيئاً فمضغه، فقال له ربه: لم أفطرت؟ - وهو أعلم بالذي كان - قال: أي رب كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الرائحة، قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك؟! ارجع فصم عشرة أيام ثم اتني ففعل موسى، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ وهذه العشرة من ذي الحجة، وإنزال التوراة كان في العشر، وكلمه ربه فيها ﴿فِتْنٍ مِّمَّقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ تأكيد وإيضاح، أي تمت المدة أربعين ليلة على وجه التمام والكمال ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ حين توجه إلى المناجاة، حسبما أمر به ﴿أَخْلُفْنِي﴾ أي كن خليفتي ﴿فِي قَوْمِي﴾ وراقبهم فيما يأتون ويذرون إلى أن أرجع ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح في أمورهم،

وعن ابن عباس أنه يريد الرفق بهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولا تتبع من سلك سبيل الإفساد، ولا تطع من دعاك إليه.

والمقصود من هذا الأمر التأكيد، لأن هارون لم يكن ممن يتبع سبيل المفسدين، وذلك أن موسى كان يشاهد كثرة خلاف قومه حالاً بعد حال، فأوصاه في أمرهم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبَقًا فَلَمَّا آفَقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتناه له، أي لتمام الأربعين ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من غير واسطة كما يكلم الملائكة، وسماع كلامه تعالى ليس من جنس سماع كلام البشر، ولا يشبه كلام المخلوقين، وقد كان هذا خصوصية لموسى عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ولما سمع موسى كلامه تعالى، طمع في رؤيته لغلبة شوقه، فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ أي أرني ذاتك، وهو محذوف لأنه معلوم، ولم يصرح به تأدياً، أي مكني من رؤيتك، فأنظر إليك وأراك ﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي﴾ أي لا قابلية لك لرؤيتي، لن تراني بعين فانية ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ استدراك لبيان أنه لا يطبق الرؤية، والمراد من الجبل طور سيناء ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ﴾ ولم يفتته التجلي ﴿فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ إذا تجليت لك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي ظهر له، على الوجه اللائق بجنابه تعالى ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي مذكوكاً متفتتاً، والدك: الدق والانسحاق والتفتت، فأصبح الجبل متفتتاً تذرره الرياح. أخرج أحمد والترمذي والحاكم من طرق عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ الخ قال: هكذا - وأشار بأصبعيه ووضع طرف إبهامه على

أنملة الخنصر - فساخ الجبل، وخرّ موسى صعباً^(١)، وهذا من المتشابهات التي يسلك فيها طريق التسليم، وهو أسلم وأحكم ﴿وَحَرَّ مُوسَى﴾ أي سقط من هول ما رآه ﴿صَعْباً﴾ مغشياً عليه ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ بأن عاد إلى ما كان عليه، بعود الفهم والحس، والإفاقة: رجوع العقل والفهم إلى الإنسان، بعد ذهابهما بسبب من الأسباب ﴿قَالَ﴾ موسى تعظيماً لما رأى ﴿سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذن ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك، وبأنه لا يراك أحد في هذه النشأة، واستدل أهل السنة المجوزون لرؤيته سبحانه بهذه الآية، واستدل بها المعتزلة النفاة على خلاف ذلك، وخلاصة الكلام في ذلك، أن أهل السنة قالوا: يدل على إمكان الرؤية من وجهين: الأول: أن موسى سألها، ولو كانت مستحيلة فالعقل - فضلاً عن النبي - لا يسأل المحال. والثاني: أن فيها تعليق الرؤية على استقرار الجبل، وهو ممكن في نفسه، وما علّق على الممكن ممكن، ولقد تمسك من نفى الرؤية من أهل البدع، والخوارج، والمعتزلة بظاهر هذه الآية، وقالوا: (لن) تكون للتأييد ولا حجة لهم في ذلك، قال الواحدي: كون كلمة (لن) مفيدة لتأييد النفي دعوى باطلة، ويدل على فساده قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ مع أنهم يتمنونه يوم القيامة، ولأنه لو كان للتأييد، لكان ذكر الأبد تكراراً.

﴿قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿١٤٥﴾.

(١) سنن الترمذي كتاب التفسير ٢٤٨/٥ ومعنى: ساخ الجبل أي غاص في الأرض وغاب عنها. وروى الطبري ٩٧/١٣ عن ابن عباس قال: «ما تجلّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر، فصار تراباً، وخرّ موسى مغشياً عليه».

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي قال الله عز وجل تسلياً له وتأنيساً: إن منعتك الرؤية، فقد أعطيتك من النعم العظام ما يكفيك، فقد اصطفتك أي اخترتك وخصصتك على الناس الموجودين في زمانك ﴿بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ أي بما منحتك من الرسالة الإلهية، وتكليمي لك بدون واسطة، وإنما جمع الرسالة ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ لأن ما جاء به من الشريعة ضروب وأنواع، من التذكير والإرشاد، والحلال والحرام، وبيان أنواع المعاملات بين البشر، كما قال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فلهذا جمعت الرسائل ﴿فَخَذَ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي فخذ ما وهبتك من شرف النبوة والتكليم، واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم العظام.

ذكّره تعالى بنعمه على جهة الإخبار، وقنّعه بها وأمره بالشكر عليها، وكأنّه يقول له: لا تتعدها إلى غيرها، ولا تطلب ما لا طاقة لك به!!.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي وكتبنا لموسى في الألواح العشر - وكانت من زبرجد على ما قال ابن عباس - كل شيء ينفع، مما كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم، وكل ما فيه مصلحة لهم ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي إرشاداً لهم ليتعظوا بها وينزجروا، وتفصيلاً لكل شيء يحتاجون إليه من الحلال والحرام. وتقديم الموعظة لأنها الأساس في صلاح الإنسان، فالاهتمام بها أشد، والعناية بها أتم، ألا ترى أن أكثر الفواصل في الكتاب العزيز، جاء على هذا النمط، نحو قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ واستمع إلى سورة الرحمن، وقد تكرر فيها قوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثلاثين مرة، وذلك ليألف السامع بها اتعاضاً وادكاراً، ويجد فيها تنبيهاً واعتباراً!!.

﴿فَخَذَهَا يَقْوَةً﴾ على إضمار القول أي وقلنا له خذ ما في الألواح بجذ وعزم، ونشاط واجتهاد، شأن أولي العزم ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي وأمر بني إسرائيل بالحث على اختيار الأفضل، كالأخذ بالعزائم دون

الرُّخَص، فالفقو أفضل من القصاص، والصبر أفضل من الانتصار، كما قال سبحانه: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١) قال ابن عباس: أمر موسى أن يأخذها بأشد ما أمر بها قومه. ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه إلى قومه، حملاً لهم على الجد في الامتثال بما أمروا به، والرؤية هنا رؤية عينية تتضمن الوعد للمؤمنين، والوعيد للفاستقين، والمراد بدار الفاسقين بلاد مصر، التي كانت تحت سلطان فرعون وزبانيته، والمعنى: سترون منازل الفاسقين - فرعون وقومه - كيف أقفرت منهم، ودمرهم الله لفسقهم وفجورهم، لتعتبروا فلا تكونوا مثلهم، فإن رؤيتها وهي خالية من أهلها، موجب للاعتبار والانزعاج.

﴿سَاصْرِفْ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾^(٢) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَسِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٧﴾.

﴿سَاصْرِفْ عَنْ آيَاتِي﴾ أي سامنع وأصد عن فهم آياتي، والتفكر بما فيها من العظات والعبر ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الذين يعدّون أنفسهم كبراء، ويرون لهم على الخلق مزية، فلا ينتفعون بآيات الله التنزيلية والتكوينية^(٢) ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي يتكبرون بما ليس بحق، والتكبر بالحق لله وحده، كما في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن

(١) سورة الشورى، آية: ٤٣.

(٢) الصبر عن فهم معاني الآيات جائز، لأنه إنما حدث بسوء اختيارهم، والممنوع إنما هو الجبر كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فمن عمي عن طريق الإيمان أعماه الله بسوء اختياره.

نازعني في واحد منهما قذفه في النار»^(١) وأما التكبر على المتكبر فهو بحق، لما في الحكمة المشهورة: «التكبر على المتكبر صدقة» ﴿وَأِنْ يَرَوْا كَلَّآءَآيَةٍ﴾ أي وإن يشاهدوا كل آية قرآنية، أو كل معجزة ربانية ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لتكبرهم وعنادهم، بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد ﴿وَأِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ أي طريق الهدى والسداد ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي لا يتوجهون إلى الحق، ولا يسلكون سبيله أصلاً، لاستيلاء الهوى عليهم، وسبيل الرشـد: طريق الهدى والصلاح ﴿وَأِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ أي طريق الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي يختارونه لأنفسهم مسلكاً، لموافقته لأهوائهم الباطلة، وشهواتهم الحيوانية ﴿ذَلِكَ﴾ أي المذكور من تكبرهم وعدم إيمانهم ﴿بِآيَاتِهِمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على بطلان ما اتصفوا به من القبائح ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ غفلة عناد وإعراض، لا غفلة سهو وجهل.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي ولقائهم الدار الآخرة، وما وعدهم الله به من الحساب والجزاء ﴿حَاطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي بطلت فصارت كأن لم تكن، من صلة الأرحام، وإغاثة الملهوفين، ونحو ذلك ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ أي لا يجزون يوم القيامة ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إلا جزاء ما كانوا يعملونه من الكفر والمعاصي.

﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارًا لَّا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١١٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾

(١) الحديث أخرجه أبو داود بهذا اللفظ في اللباس رقم ٤٠٩٠ ورواه مسلم في كتاب البر والصلة بلفظ «العرز إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني شيئاً منهما عذبت» رقم ٢٦٢٠.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد ذهابه إلى الطور لمناجاة ربه ﴿مِنْ حُلِيِّهِ﴾ التي استعاروها من القبط، حين همّوا بالخروج من مصر، وإضافتها إليهم لأنها كانت في أيديهم، وملكوها بعد هلاكهم. المتخذ هو السامري، ولكنهم رضوا به، فأسند الفعل إليهم، وكان السامري رجلاً صائغاً، ورجلاً مطاعاً في بني إسرائيل، فصاغ لهم ﴿عِجْلاً﴾ وهو ولد البقرة خاصة، والمفعول الثاني محذوف أي إلهاً ﴿جَسَداً﴾ أي بدنأ ذا لحم ودم، خالياً من الروح ﴿لَهُ خَوَاطِرٌ﴾ هو صوت البقر خاصة، كالنباح للكلب، والزئير للأسد، والنهيق للحمار، وقد اتخذته السامري لهم من الحلبي، فشكّل لهم منه عجلاً جسداً لا روح فيه، وقد احتال بإدخال الريح فيه، حتى صار يسمع له خوارٌ أي صوت كصوت البقر، وقيل: إنّ السامري صاغه مجوفاً، ووضع في جوفه أنابيب، وجعله في مهب الريح، فكانت الريح تدخل في تلك الأنابيب، فيسمع لها صوت يشبه خوار العجل، وكانوا كلما خار سجدوا له، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ تقريع على فرط ضلالتهم، وإخلالهم بالنظر، والمعنى: ألم ير الذين اتخذوا إلهاً، أنه لا يقدر على كلام، ولا على إرشاد سبيل، كأحاد البشر، حتى عبده ﴿أَتَّخَذُوهُ﴾ تكرير للذم أي اتخذوه إلهاً، وأقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي إن دأبهم وعادتهم الظلم، فليس يبدع منهم هذا المنكر العظيم.

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسر يعضّ يده غماً، وتقول العرب لكل نادم: سقط في يده، لأن من شأن من اشتد ندمه على أمر أن يعضّ يده، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾^(١) ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ باتخاذ العجل، أي تبنوا

(١) سورة الفرقان، آية: ٢٧.

وتيقنوا، حتى كأنهم رأوه بأعينهم ﴿قَالُوا لَئِنْ لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوبة المكفرة ﴿وَيَغْفِرَ لَنَا﴾ بالتجاوز عن خطيئتنا، واللام في ﴿لَئِنْ﴾ موطئة للقسم، أي والله لئن لم يرحمنا ربنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المغبونين في الدنيا والآخرة، وما حكي عنهم من الندامة والأسى إنما كان بعدما رجع موسى عليه السلام، كما تنطق به آية طه، لكن أريد بتقديمه عليه، ليتصل ما قالوه بما فعلوه.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ الْقَوْمُ اسْتَزَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ شروع في بيان ما جرى من موسى بعد رجوعه من الميقات ﴿غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ الأسف: شديد الغضب وقيل الحزين، أسف أسفاً: حزن وتلهف فهو أسف، أي ولما عاد من الطور إلى قومه، غضوباً وحزيناً، لأن الله تعالى قد أخبره بما فعلوا، قال الواحدي: إذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت، وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت، فعلى هذا كان موسى عليه السلام غضبان على قومه باتخاذهم العجل، حزيناً لأن الله تعالى فتنهم ﴿قَالَ يَسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي بشس ما فعلتم بعدي، حيث عبدتم العجل، والخطاب لمن عبد العجل والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: بشس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم، ومعنى ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ أي من بعد انطلاقي وأثناء غيبي عنكم ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي أعجلتم عن أمر ربكم، وهو انتظار نبيكم موسى؟ روي أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ وإن موسى قد مات!! ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ﴾ أي طرحها من شدة الغضب، لفرط حميته

الدينية، وشدة غضبه لله تعالى، ولم يتمالك أو يتماسك نفسه وهم يطوفون حول العجل ويسجدون. رُوي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله تعالى موسى، ليس المعايين كالمُخْبِر، أخبره ربُّه تبارك وتعالى أنَّ قومه فُتِنُوا بعده، فلم يُلقِ الألواح، فلمَّا رآهم وعابنهم ألقى الألواح، فتكسَّر منها ما تكسَّر»^(١): ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أي بشعر رأس هرون، لأنه هو الذي يؤخذ ويمسك عادة، ولا ينافي أخذه ببلحيته كما وقع في سورة طه فقد جمع بينهما ﴿يَجْرُهُ إِلَيْهِ﴾ ظناً منه أنه قصَّر في كفِّهم، ولم يتمالك نفسه لشدة غضبه، وهرون كان أكبر منه بثلاث سنين، وكان هيئاً ليناً، ولم يقصد موسى بهذا إهانته، بل اللوم على التقصير ﴿قَالَ﴾ أي هرون مخاطباً لموسى ﴿أَبْنَ أُمَّ﴾ ذكر الأم ليرققه عليه، وكانا من أب وأم، وفيه استلطاف برحم الأم إذ هو ألقى القرايات ﴿إِنَّ الْقَوْمَ﴾ الذين عبدوا العجل ﴿اسْتَضَعُّونِي﴾ أي استذلوني وقهروني، ولم يبالوا بي لقلة أنصاري ﴿وَكَاذِبُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أي قاربوا أو همُّوا أن يقتلوني حين نهيتهم عن ذلك، قاله إزاحةً لتوهم التقصير ﴿فَلَا تُشْمِتْ فِيكَ الْأَعْدَاءُ﴾ أي فلا تفعل بي ما يكون سبباً لشماتتهم، والمراد من الأعداء القوم المذكورون ﴿وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي معدوداً في عدادهم بالمؤاخضة، أو بنسبة التقصير.

﴿قَالَ﴾ أي فلما اتضح لموسى عذر أخيه قال ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما فعلت بأخي قبل جليلة الحال ﴿وَلِأَخِي﴾ إن فرط منه تقصير، ضمَّه إلى نفسه في الاستغفار ترضية له، ودفعاً للشماتة عنه ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ بمزيد الإنعام علينا ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وأنت أرحم بنا ممَّا على أنفسنا، فلا غرو في انتظامنا في سلك رحمتك الواسعة.

(١) الحديث أخرجه الطبراني وأحمد في المسند ٢١٥/١.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ (١٥٦) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٧﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ ﴾ إِلَهًا وعبدوه، واستمروا على عبادته كالسامري وأشياعه ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ ﴾ عظيم لما أن جريمتهم أعظم الجرائم ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي مالكم ﴿ وَذَلَّةٌ ﴾ كبيرة ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فإن قيل: إنه تعالى بيّن أن القوم ندموا، بقوله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ والندم توبة، فهل قبل الله توبتهم؟ والجواب ورّد بعده قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ ﴾ لأنهم ما ندموا وإنما خافوا من العقاب، وكان من تمام توبة القوم الأمر لهم بقتل أنفسهم، كما قال سبحانه: ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (١) أي ليقتل البريء المجرم. ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ أي إن كل مفتر في دين الله، فجزاؤه غضب الله، والذلة في الدنيا، عن مالك بن أنس قال: ما من مبتدع إلا وجد فوق رأسه الذلة، وقرأ هذه الآية.

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد عملها ﴿ وَآمَنُوا ﴾ إيماناً صحيحاً خالصاً، ولم يصرّوا على ما فعلوا، بل لزموا فعل الخيرات وعمل الصالحات ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد التوبة، المقرونة بالإيمان الصحيح، والعمل الصالح ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ للذنوب وإن عظمت وكثرت ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغ في إفاضة فنون الرحمة الدنيوية والأخروية، وهذا من أعظم البشارة للمذنبين التائبين.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسْحَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (١٥٨) .

(١) سورة البقرة، آية: ٥٤.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ شروع في بقية الحكاية، وفي هذا النظم الكريم، من البلاغة والمبالغة ما فيه، فقد شبه الغضب بشخص يُرعد ويزمجر، ويريد أن يبطش بخصمه، وصوته يرتفع يريد الانتقام، ثم اختفى هذا الصوت وسكت، ففي العبارة استعارة مكنية لطيفة؛ أي ولما سكن غضبه، باعتذار أخيه، وتوبة القوم ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابُ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي تَسْخِطِهَا﴾ وفيما نسخ فيها وكتب ﴿هُدًى﴾ بيان للحق عظيم ﴿وَرَحْمَةً﴾ جليلة بالإرشاد إلى ما فيه الخير والصلاح ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ أي للخائفين من ربهم الذين يخشون عقابه.

﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَلَكَّأُ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَنَسَاكَتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي اختار من قومه، يقال: اختار الشيء إذا أخذ خيره ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ الميقات الذي وقتناه، بعدما وقع من قومه ما وقع من عبادة العجل. روي أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام بأن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه تعالى، ويسألونه التوبة على من عبد منهم العجل، فاختار منهم سبعين رجلاً، وأمرهم أن يتطهروا ويصوموا، ويطهروا ثيابهم، ثم ذهب بهم إلى ميقات ربه، فلما دنوا إلى الجبل غشيه الغمام، فأقبلوا إليه فدخل موسى بهم الغمام، وخرّوا سجداً،

فسمعوا الأمر والنهي، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ
لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(١) أي عياناً، وهذا من غطرستهم وطغيانهم
﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي الصاعقة حيث رجف بهم الجبل فصعقوا
وماتوا، فلما رأى موسى ذلك أسف عليهم، وعلم أن أمر بني إسرائيل
سيتشعب عليه، إذا لم يرجع بالقوم، فجعل يستعطف ربه ويقول: يا رب
ماذا أقول لبني إسرائيل، إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم؟!

ثم استفهم على جهة الرغبة والتضرع والتذلل ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ
أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَلَئِنِّي﴾ أي لو شئت يا رب أهلكتهم وأهلكتني معهم، قبل
أن أرى ما أرى، فإننا عبيدك وتحت قهرك، تفعل بنا ما تشاء! وهذا
محض استعطاف ورجاء ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾؟ أي أهلكنا وسائر بني
إسرائيل، بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون الجاهلون في قولهم: ﴿أَرْنَا اللَّهَ
جَهْرَةً﴾؟ - نعوذ بالله من خُبث اليهود - ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي ما هذا إلا
ابتلاؤك وامتحانك، تختبر عبادك بما تشاء بالسراء والضراء، و«إن» هنا
نافية بمعنى «ما» والمراد بالفتنة الامتحان والاختبار، كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ
بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(٢) ﴿تُضِلُّ بِهِمَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ
تَشَاءُ﴾ أي بالفتنة تضل من علمت منهم اختيارهم للضلالة، وتهدي بها من
علمت منهم اختيار الهدى وطريق السلامة ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا﴾ أي أنت القائم
بتدبير أمورنا ﴿فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ بإفاضة آثار الرحمة الدنيوية والأخروية
﴿وَأَنْتَ سَيِّدُ الْغَفِيرِينَ﴾ أي أنت يا رب خير من صفح وستر.

﴿وَكَتَبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نعمة وعافية وحياة طيبة ﴿وَفِي
الْآخِرَةِ﴾ أي وكتب لنا أيضاً في الآخرة حسنة، وهي المثوبة الحسنی،

(١) سورة البقرة، آية: ٥٥.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

والجنة ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَيْنَا ﴾ أي تبنا وأبنا إليك، من هاد إذا رجع والمعنى: إنا تبنا ورجعنا عما صنعنا من المعصية العظيمة التي جئناك للاعتذار عنها، فبعد من لطفك وفضلك أن لا تقبل توبة التائبين ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ تعذيبه وليس لأحد الاعتراض عليّ ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي شأنها أنها واسعة، تبلغ كل شيء، فما من مسلم ولا كافر، ولا مطيع ولا عاص، إلا وهو منقلب في الدنيا بنعمتي، وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع، ونسبة سعة الرحمة بصيغة الماضي، إيدان بأن الرحمة مقتضى الذات، وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد ﴿ فَسَاءَ كَيْدُهَا ﴾ أي فسأبتنا وأعینها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوي ﴿ لِلَّذِينَ يَلْقَوْنَ ﴾ أي الكفر والمعاصي، وفيه تعريض بالقوم، كأنه قيل: لا لقومك لأنهم غير متقين ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ خصها بالذكر تشريفاً لها، ولأنها كانت أشق عليهم ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إيماناً مستمراً، من غير إخلال بشيء منها، وفيه تعريض بهم أيضاً، لأنهم كفروا بالآيات العظام التي جاء بها موسى عليه السلام.

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَحْدُثُهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ ﴾ الذي أرسله الله تعالى لتبليغ الأحكام ﴿ النَّبِيِّ ﴾ أي الذي أنبا الخلق عن الله تعالى التقوى وإيتاء الزكاة والإيمان بالآيات، وضم إلى ذلك اتباع النبي ﷺ وباعتقاد نبوته من حيث وجدوا

صفته في التوراة، والمراد بهم من لحق من بني إسرائيل أيام الرسول ﷺ،
فَبَيَّنَ تعالى أن هؤلاء لا يكتب لهم الرحمة، إلا إذا اتبعوا الرسول ﷺ
﴿الْأَمْثِلُ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ، وهو نسبة إلى أمة العرب، لأن
الغالب عليهم ذلك، أو إلى أمه، كأنه على الحالة التي ولدته أمه، وهو
بالنسبة إليه ﷺ صفة مدح، ووصفه بذلك تنبيهاً على أن كمال علمه مع
أमितه إحدى معجزاته ﷺ ﴿الَّذِي يَحْدُوثُهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ﴾ باسمه ونعوته
الشريفة؛ بحيث لا يشكُّون أنه هو، وأن شأنه ﷺ حاضر عندهم لا يغيب
عنهم أصلاً ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ أي في كتبهم السماوية، روي عن
عبد الله بن سلام قال: صفة الرسول الله ﷺ في التوراة: «يا أيها النبي إنا
أرسلناك شاهداً، ومبشراً، ونذيراً، وحرزاً للأمينين، أنت عبيدي ورسولي،
سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ ولا صحَّاب في الأسواق، ولا
يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله تعالى، حتى
يُقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: «لا إله إلا الله» ويفتح بها أعيناً عمياً،
وآذاناً صُمًّا، وقلوباً غُلْفًا»^(١) وجاء من حديث سهل مولى خيشمة قال:
«قرأت في الإنجيل نعتَ محمد ﷺ أنه لا قصير، ولا طويل، أبيض ذو
ضفيرتين، بين كتفيه خاتم، لا يقبل الصدقة، ويركب الحمار والبعير، وهو
من ذرية إسماعيل، اسمه أحمد»^(٢) وجاء من خبر أخرجه البيهقي عن
وهب بن منبه قال: إن الله تعالى أوحى في الزبور، يا داود إنه سيأتي من
بعدك نبي، اسمه أحمد^(٣)، فالرسول عليه الصلاة والسلام مذكور صفته في
الكتب الإلهية، وعلى وجه الخصوص في التوراة والإنجيل، كما جاء في
صحيح البخاري في صفة النبي الأمي في التوراة ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ المعروف: ما استحسنته الشرع، وارتضته العقول

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٥٨٥/٨ قريباً من هذا اللفظ، والرواية المذكورة
للبيهقي والدارمي.

(٢) أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن سهل مولى خيشمة.

(٣) أخرجه البيهقي من رواية وهب بن منبه، وهو أثر موقوف.

السليمة، وكل معروف من جهة المروءة فهو معروف بالشرع، لقوله ﷺ «بُعِثْتُ لأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١) والمنكرُ: ما استقبَّحه الشرع ولم تقبله العقول السليمة، والمعنى: يأمرهم بكل ما فيه خير ومنفعة لهم، وينهاهم عن كل ما فيه أذى وضرر عليهم ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ المراد بالطيبات الأمور الحلال التي يستطيعها الطبع، وبالخبائث: الأشياء المخرمة التي تستقذرها النفس، كالدم، والخنزير، والعقارب، والخنافس، والحيات، والوزغ، وسائر المستقذرات ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الإِصْرُ: الثقل والمراد به التكاليف الشاقة الصعبة، والأغلال جمع غُلٍّ، وأصله الحديدية التي تجمع يد الأسير إلى عنقه، والأغلالُ: استعارةٌ عن الأثقال الشاقة التي تشبه الأغلال، والمعنى: يرفع عنهم الأثقال والتكاليف الشاقة التي كانت عليهم، كقطع الجلد والثوب من أثر البول، ووجوب القصاص دون الدية في القتل، وترك الاشتغال يوم السبت، وقد روي أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلاً يحمل قصباً فضرب عنقه، وجاءت الشريعة الإسلامية برفع جميع تلك الأثقال كما قال ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ»^(٢) ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي فالذين صدقوه وآمنوا برسالته ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي عظموه ووقروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أي قاموا بنصرته علي أعداء الدين، وناصروه على جميع من عاداه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أي اتبعوا القرآن المجيد، والشرع الحنيف الذي جاءهم به من عند الله، شبه الشرع والهدى بالنور، إذ القلوب تستضيء به كما يستضيء البصر بالنور ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات الفاضلة، هم الفائزون بالرحمة الأبدية، الناجون من الشدائد والكربات يوم القيامة، ومعنى الفلاح: النجاح والفوز بالمحسوب.

(١) أخرجه مالك في الموطأ بلفظ «بُعِثْتُ لأَتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ».

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري.

﴿ قُلْ يَتَّابِهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمِيتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

﴿ قُلْ يَتَّابِهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ هذا بيان لعموم رسالته ﷺ إلى جميع الخلق، لأن الخطاب عام لجميع الناس، أي قل يا رسول الله: إني رسول من عند الله بعثني الله إليكم جميعاً، فشرعي واضح، ورسالتي عامة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ روى الشيخان عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحِلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»^(١). ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي المالك لجميع الكائنات، مالك السموات والأرض بالخلق والإبداع، والإحياء والإماتة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ مزيد تقرير لاختصاصه بالألوهية، إذ لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره، فهو القادر على إرسال الرسل إلى خلقه ﴿فَتَمِيتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي فصدقوا بالله وآياته، وصدقوا برسوله، المبعوث إلى جميع خلقه، وذكر الرسول ﷺ بعنوان الرسالة، للمبالغة في إيجاب الامتثال، ووصفه بقوله تعالى: ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ لمدحه ولزيادة تقرير أمره، أي النبي الأمي، صاحب المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ﴾ أي بما أنزل عليه وعلى سائر الرسل

(١) الحديث أخرجه البخاري في التيمم ٣٦٩/١ ومسلم في المساجد رقم ٥٢١ والنسائي ٢١٠/١.

عليهم السلام، من كتبه ووحيه، المصدق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء، والتصريح بالإيمان بالله تعالى، للتنبيه على أن الإيمان به سبحانه لا يصح حتى يؤمن الإنسان بجميع كتب الله ورسله، وإلا لم ينفع صاحبه شيئاً، والدين كل لا يتجزأ ﴿وَأَتَّبِعُوهُ﴾ في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين ﴿لَمَّا كُم تَهْتَدُونَ﴾ أي رجاء لاهتدائكم إلى المطلوب، وفي تعليقه بهما، إيذاناً بأن من صدقه ولم يستمسك بالتزام أحكام شريعته، فهو بمعزل من الاهتداء، مستمر على الغي والضلالة.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ يعني من بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ أي جماعة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي ملتبسين به، أو يهدونهم بكلمة الحق ﴿وَبِهِ﴾ أي وبالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ في الأحكام الجارية فيما بينهم، والمراد بهم الثابتون على الإيمان، القائمون بالحق، من أهل زمانه، ذكّره تعالى تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر، وتزاحم أهل الحق والباطل، أمر مستمر، فمن قوم موسى أناس مهتدون، وأناس ضالون، والكلام مسوق لدفع ما عسى يوهمه تخصيص الرحمة والتفوى، بمُتَّبِعِي رسول الله ﷺ، من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام.

﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَقْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٧﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَسُّهُمْ كَمَا يَمَسُّ السَّاعِقُ فَوَقَّعْنَاهُم مِّمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾ أي وصيرناهم قطعاً، متميزاً بعضهم من بعض أي قوم موسى ﴿أَثْنَقَ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أَسْمَاءً﴾ أي صيرناهم اثنتي عشرة قطعة، وكل سبط أمة عظيمة، وكل واحدة كانت قبائل شتى، والسبط في ولد إسحق كالقبيلة في ولد إسماعيل، وفَرَّقَهُمْ كذلك ليرجع أمر كل قبيلة إلى رئيسهم، ليخفَ أمرهم على موسى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي وأوحينا إلى موسى حين استولى على قومه العطش في التيه، أن يضرب الحجر بعصاه فضربه، فانبجست أي انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد الأسباط والقبائل، لئلا يقتتلوا على الماء ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ أي علمت كل جماعة وكل قبيلة منهم عينهم الخاصة بهم، وهذه إحدى معجزات موسى عليه السلام، حيث تفجرت من الحجر الأصم، عيون الماء الدافق، كما نبع الماء من بين أصابع نبينا المصطفى ﷺ معجزة له ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْفُجْعَمَ﴾ أي جعلنا الغمام يستترهم من حر الشمس وهم في الصحراء، ويقيهم من أذاها، ويسير معهم حيث ساروا ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ أي وأكرمناهم برزق هنيء شهى، من عندنا تكرماً عليهم، وهو «المَنَّاءُ» شيء حلواً لذيذٌ ينزل على الشجر، فيجمعونه ويأكلونه، و«السَّلْوَى» وهو طير لذيذ اللحم، يسمى «طير السَّمَانِي» دون كثرٍ منهم ولا تعب، فطعامهم الحلوى ولحم الطير ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ على إضمار القول، أي وقلنا لهم: كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ، الذي أكرمناكم به من فضلنا ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فكفروا بهذه النعم الجليلة، وما ظلمونا بذلك، ولكن ظلموا أنفسهم حيث عَرَّضُوا بالكفر والجحود، لعذاب الله عز وجل، فكانوا هم الظالمين لأنفسهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أي واذكر يا أيها الرسول حين قلنا لأسلافهم: اسكنوا هذه البلدة المباركة «بيت المقدس» الذي باركنا

حوله بأنواع الخيرات والبركات ﴿وَكُلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي وكلوا من مطاعمها وخيراتها وثمارها من أي جهة ومكان شئتم، وكلوا مما تشتهون من خيراتها ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي قولوا حين دخولكم بيت المقدس تائبين مستغفرين: اللهم حطّ عنا ذنوبنا، وهي كلمة استغفار، كما يقول المؤمن: أستغفر الله العظيم ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي وادخلوا باب بيت المقدس، حال كونكم ساجدين شكراً لله تعالى ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَيْكُمْ﴾ أي نغفو عن جميع ذنوبكم، وسيئاتكم التي اقترفتموها، ونمحو عنكم الخطايا والآثام ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وسنزيد المحسنين الذين أحسنوا عملهم، بطاعة الله، وامثال أوامره، سنزيدهم من فضلنا فوق الغفران دخول الجنان.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي فغيّر الظالمون منهم أمر الله، وقالوا كلاماً لا يليق، حيث قالوا بدل «حطة» حنطة في شعيرة، وعوضاً عن أن يدخلوا ساجدين خشوعاً لله، دخلوا يزحفون على أدبارهم، سخريّة واستهزاءً بأمر الله. روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ فبدّلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم - أي مقاعدهم - وقالوا: حبة في شجرة»^(١).

والحاصل: أنهم خالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا بالسجود عند دخولهم البلدة المقدسة، شكراً لله تعالى، وأن يقولوا: حطة، فبدّلوا السجود بالزحف، وقالوا: «حنطة» بدل حطة استهزاءً، وزادوا فيها حبة في شعيرة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمْكَأُونَ يَظْلِمُونَ﴾ أي فأرسلنا على هؤلاء الظالمين عذاباً هائلاً - وهو الطاعون - بسبب ظلمهم وعدوانهم المستمر، وقد روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً منهم بالطاعون.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣٠٤/٨ من فتح الباري.

﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٤﴾ ۝ ﴾

﴿ وَسَأَلَهُمْ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي واسأل يا محمد اليهود المعاصرين لك، سؤال تقرير وتوبيخ^(١)، والمراد إعلامهم بذلك، لأنهم كانوا يخفونه، والإعلام بما هو من علومهم، التي لا تعلم إلا بتعليم، أو وحي، لتكون لك معجزة عليهم ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ عن خبرها، وما جرى على أهلها، وهي عند ابن عباس «أيلة» بين مدين والطور، وعن ابن شهاب هي طبرية ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قريبة منه ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ يتجاوزون حدود الله، بالصيد يوم السبت، وقد نُهوا عنه ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ حيتان جمع حوت، أي حين تأتيتهم الأسماك يوم السبت، لاعتيادها أحوالهم في عدم التعرض لها في ذلك اليوم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ أي تأتيتهم يوم تعظيمهم لأمر السبت ﴿شُرْعًا﴾ أي ظاهرة على وجه الماء، كما قال ابن عباس، جمع شارع من شرع عليه إذا دنا وأشرف ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي وفي غير يوم السبت - وهي سائر الأيام - لا تأتيتهم، بل تغيب وتختفي حذراً من صيدهم، وكان ذلك بمحض تقدير العزيز العليم ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ أي نعاملهم معاملة المختبر، ليظهر عدوانهم ونؤاخذهم به ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم المستمر، وانتهاكهم لحرمات الله.

(١) كان اليهود المعارضون لرسول الله ﷺ يقولون: إن بني إسرائيل لم يكن فيهم عصيان، ولا معاندة لما أمروا به، فتزلت الآية مويخة لهم، ومقررة ما كان من فعل أهل هذه القرية، فسؤالهم إنما كان على وجه التوبيخ. المحرر الوجيز لابن عطية ١٣/٦.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ أي جماعة من أهل القرية، يعني صلحاؤهم الذين اجتهدوا في موعظتهم، حتى أيسوا من اتعاظهم، قيل: إن أهل القرية، اختلفوا على ثلاث فرق: فرقة اعتدت، وفرقة وعظت، وفرقة قالت للواعظين: ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي مستأصلهم بالكلية ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي مهلكهم بالخسف أو المسخ، لعدم إقلاعهم عما هم عليه من الفسق، والعصيان، قالوه بمحضر من القوم، حثاً لهم على الاتعاض ﴿قَالُوا﴾ أي المقول لهم ذلك ﴿مَعَذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي موعظتنا إنهاء عذر إلى الله تعالى، حتى لا تُنسب إلى تفريط في النهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَقُونَ﴾ أي ولطمعنا في أن يتقوا الله، فينزعوا عما هم فيه من الإجمام.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَيْتٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٧﴾﴾

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي تركوا ما ذكّرهم به صلحاؤهم، ترك الناسي للشيء، وأعرضوا عنه بالكلية، بحيث لم تنجع فيهم تلك المواعظ أصلاً.

والنسيان هنا مجاز عن الترك، لأن الله تعالى لا يؤاخذ الإنسان بالنسيان، وإنما يؤاخذ به بالإهمال والعصيان ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ أي نجينا من العذاب الناهين عن الفساد في الأرض، الواعظين المذكّرين. وقد اختلف السلف في الفرقة الثانية، التي لم تأمر ولم تنه بل سكنت.

فقال ابن عباس: ما أدري ما فعل بالفرقة التي لم تنه ولم تأمر؟

وقال ابن زيد: إنها هلكت مع الهالكين، لأن الله تعالى ذكر أنه نجّى الذين نهوا عن السوء.

وروى القرطبي عن عكرمة أنه قال: «قلت لابن عباس لمّا قال: ما أدري ما فعل بهم؟ ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم فقالوا: ﴿لَمْ تَعْظُون قَوْمًا مَا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؟ فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نجوا، قال: فكساني حُلّة»^(١).

أمّا شمول النص للناهين المحذرين فواضح، وأما شموله للساكنين، فلأنهم أنكروا أيضاً، ولكنهم لما رأوا عدم نفع النصيحة كفّوا، وذلك إنكار بالقلب، وقد نصّ الفقهاء أن الناهي إذا أيقن عدم نفع النصح، لا يَأثم بتركه، لدخوله في باب العيب، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى الغارقين في الشراب، أو الموغلين بالربا والقمار، لتعظهم وتكفّهم عما هم فيه من الضلال، سخرروا وضحكوا عليك، وذهب كلامك معهم سدى^(٢)!!
﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي أخذنا الطغاة الظالمين، بعذاب مؤلم موجه شديد ﴿يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم الدائم المستمر، وصيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي فلما استعصوا عن أمرنا وطاعتنا، وتكبروا، وأبوا ترك ما نُهُوا عنه ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ كُرُونًا فَرْدَةً﴾ أي مُسَخَوًا إلى قردة وجعلناهم صاغرين أذلاء، مبعدين عن كل خير، وترتيب المسخ على العتو ليس لخصوصية الصيد، بل العمدة في ذلك، هو المخالفة للأمر، والاستعصاء عليه عزّ وجلّ، والأمر تكويني لا تكليفي، لأنه ليس في وسعهم حتى يُكَلّفوا به، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٠٧/٧ قال القرطبي: وهذا مذهب الحسن البصري أيضاً، ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة المعتدية لا غير، قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

(٢) النصيحة واجبة للبرّ والفاجر، إلّا إذا كان الضرر الناتج عن النصح أشدّ من سابقه، كما بيّن الشيخ رحمه الله، كالنصيحة للملاحدة والشيعيين، الذين لا يزيد معهم النصح إلّا سخرية واستهزاء، فهؤلاء أمثال الحيوانات لا يُنصَحون ولا يُحَدَّثون!!.

أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(١) والظاهر يقتضي أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد، فاستعصوا وعتوا عن أمر الله، فمسخهم الله إلى قردة تتعاضى. وروي أن الناهين لما يشبوا من اتعاض المعتدين، كرهوا مساكنتهم، فقسموا القرية بجدار، فأصبحوا يوماً ولم يخرج أحد من المعتدين، فقالوا إن لهم شأنًا، فدخلوا عليهم فإذا هم قردة، ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْيَقِينَةِ مَنْ يَسُوءْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧)

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ من الإذن وهو يمعنى آذن أي أعلم ربك يا محمد ﴿لِيَبْعَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي ليسلطن على اليهود، لا المعتدين الذين مُسخوا قردة، إذ لم يبقوا، أي ليسلطن على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْيَقِينَةِ﴾ أي إلى انتهاء الدنيا، وهذا نص في أن العذاب إنما يحصل لهم في الدنيا، مستمراً إلى يوم القيامة ﴿مَنْ يَسُوءْهُمْ﴾ أي يذيقهم ويوليهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كالإذلال، وضرب الجزية، والإهانة، ونحو ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن شاء سبحانه أن يعاقبه في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن آمن وعمل صالحاً.

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمَاءً مِنْهُمْ أَصْلَحُونَ وَمِنْهُمْ دُونِ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) فخلّف من بعدهم خلّف ورثوا الكُتُب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكُتُب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرّسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (١٩) والذين يمسكون بالكُتُب وأقاموا الصلوة إنا لا ننزع أجر الصالحين (٢٠)

(١) سورة النحل، آية: ٤٠.

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمًا﴾ أي فرّقنا بني إسرائيل في الأرض، وجعلنا كل فرقة منهم في قطرٍ من أقطارها، بحيث لا تخلو ناحية منها منهم، حتى لا تكون لهم شوكة قط ﴿وَمِنْهُمْ الْقَصْدِيُّ﴾ وهم من آمن بالله ورسوله، وثبت على دينه في زمانه، قبل مجيء عيسى ابن مريم، ثم الذين آمنوا بالرسول ﷺ بعد بعثته ودخلوا في الإسلام كعبد الله بن سلام رضي الله عنه ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي منحطون عن مرتبة الصلاح، وهم كفرتهم وفسقتهم ﴿وَبَلَوْنَهُمْ﴾ يعني جميعاً الصالح وغيره، وهي بلوى اختبار وامتحان ﴿بِالْحُسْنِ وَالنَّعْمِ﴾ والخصب، والعافية ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ الجذب، والشدة، النقم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما كانوا عليه من الكفر والمعاصي إلى طاعة ربهم.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد الصالحين ﴿خَلْفٌ﴾ بسكون اللام أي بدلٌ سوء، وهو الشائع في الشر، والخلف بفتح اللام في الخير، يقال: جعلك الله خير خلفٍ لخير سلف، والمراد أنه جاء من بعد أولئك الصالحين، جماعة أشراؤ فجار ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ أي انتقل الكتاب إليهم عن آبائهم «التوراة» يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي، ولم يعملوا بها، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ العرض جميع متاع الدنيا إلا الدراهم والدنانير، فإنها عَيْنٌ، وفي الأثر: «الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأخذ منها البرُّ والفاجر».

والأدنى صفة لمحذوف أي الشيء الأدنى، والمراد به الدنيا، وهي من الدنو للقرب بالنسبة إلى الآخرة، والمراد بهذا العرض ما كانوا يأخذون من الرشاوى في الحكومات، وعلى تحريف الكلام ﴿وَيَقُولُونَ سَيُفْقَرُ﴾ أي لن يؤاخذنا الله بذلك، فيتمنون على الله الأماني الباطلة، كما جاء في الحديث الشريف: «الكيس من دَانَ نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني»^(١) ﴿وَلَنْ يَأْتِيَهُمْ عَرَضٌ مِثْلُ مَا أَخَذُوا﴾ في

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٦١ وقال: هذا حديث حسن.

موضع الحال، أي يرجون المغفرة. وهم مصرّون على الذنب، عائدون إلى مثله، غير تائبين عنه، وهذا إخبار عن حرصهم على الدنيا، وإصرارهم على الذنوب والآثام ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي الميثاق المذكور في التوراة ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد أن يقولوا الحق، ولا يكذبوا على الله؟ والمراد به الردُّ عليهم، والتوبيخ لهم على ادعائهم القول بالمغفرة بلا توبة، والدلالة على أنها افتراء على الله تعالى ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أي قرؤوه وتبصّروا بما فيه، فهم ذاكرون لذلك، لأنهم دارسون له، ولكن ضيّعوا العمل به ﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى ويخافون عقابه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ فتعلموا ذلك، ولا تستبدلوا الأدنى، المؤدي إلى العذاب، بالنعيم المقيم؟ وهو خطاب لأولئك المأخوذ عليهم الميثاق، وفي الالتفات تشديد للتوبيخ.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي يتمسكون به في أمور دينهم، يقال أمسك بالشيء، وتمسك به بمعنى اعتصم، والمراد بهم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه، وقال عطاء: هم أمة محمد ﷺ، والكتاب القرآن الجليل ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ تخصيصها بالذكر، لأنها عماد الدين، وأعظم العبادات بعد الإيمان ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أي لا نضيع ثواب المحسنين منهم، وضع الظاهر موضع المضمّر، تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع.

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا لِبَجَلٍ فَوْقَهُمْ كَانَتْ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿٧﴾

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا لِبَجَلٍ فَوْقَهُمْ﴾ أي قلعناه ورفعناه فوقهم، وأصل التثقب الجذب والرفع، أي قلعناه من مكانه ورفعناه عليهم، ﴿كَانَتْ ظُلَّةٌ﴾ أي سقيفة أو سحابة ﴿وَظَنُوا﴾ أي تيقنوا ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم، لأن الجبل لا يثبت في الجذب، وفي الأثر: أن بني إسرائيل أبوا أن يقبلوا

التوراة، فأمر الله جبريل أن يرفع الجبل فوقهم، وقيل لهم: إن قبلتم وإلا ليقعنَّ عليكم، فوقع كل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فرَقاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجدُ إلا على حاجبه الأيسر ﴿خُذُوا﴾ أي وقلنا خذوا ﴿مَاءَ آتَيْنَكُم﴾ من الكتاب ﴿يَقُوقُ﴾ أي بجذ وعزم على تحمل مشاقه ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهي بالعمل به، ولا تتركوه كالمنسي ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بذلك قبائح الأعمال، أو راجين أن تنتظموا في سلك المتقين.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٦﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٧﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ .

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ احتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العام، وتوبيخهم بنقضه، أي واذكر للخلق حين أخذ ربك ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ المراد بهم أولاد آدم جميعاً ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ تنبيه على أن الميثاق قد أخذ منهم، وهم في أصلاب الآباء، ولم يستودعوا بعد في أرحام الأمهات، والتقدير: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ المراد أولادهم على العموم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي أشهد كل واحد، من أولئك الذرية، أن الله ربُّه بما رُكِب في عقولهم، من الإقرار بربوبية الله جلَّ وعلا، وصاروا بمنزلة من قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾ أي خالقكم ومالك أمركم؟ ﴿قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ على أنفسنا بأنك ربنا، لا رب لنا غيرك، والمراد أقرنا بذلك، والكلام عند بعض المفسرين، أنه تمثيل لخلقه تعالى الخلق على مبدأ الفطرة، مستعدين للاستدلال بالأدلة الكونية إلى التوحيد، كما نطق به قوله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة» الحديث. وجعلها مميزة بين الهدى والضلالة، فكانه أشهدهم على أنفسهم وقال لهم: ألسنت بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت

ربنا شهدنا على أنفسنا وأقرنا بوحدانيتك من غير أن يكون هناك أخذ وإشهاد، وسؤال وجواب كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١) إلى هذا ذهب بعض أهل التفسير، منهم الزجاج، والزمخشري، وأبو حيان وأبو السعود، وذهب جمهور المفسرين إلى أن الله أخرج ذرية آدم مثل الذر، وأخذ عليهم الميثاق^(٢)، وجعل الله لهم عقلاً، وفهماً تعقل به، كما قال في النملة ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ وقوله تعالى ﴿أَتَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لثلاث تقولوا يوم البعث والحساب، عند ظهور الأمر وإحاطة العذاب بمن أشرك ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ عن وحدانيته تعالى وأحكامها ﴿غَافِلِينَ﴾ لم تنتبه عليه، فلا سبيل إلى الاعتذار بذلك، إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذكر، من خلقهم على الفطرة السليمة.

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ أو تقولوا في ذلك اليوم ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي إن آباءنا هم اخترعوا الإشراك، وهم سئوه من قبل زماننا ﴿وَكُنَّا﴾ نحن ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ لا نهدي إلى سبيل التوحيد فاقتردنا بهم ﴿أَفَنُهَلِكُنَا﴾ أي أتواخذنا فتهلكنا اليوم بالعذاب ﴿يَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ من آباءنا المضلين

(١) سورة فصلت، آية: ١١.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢٧٥ بعد أن ساق الأحاديث، والآثار، والأخبار الواردة عن السلف قال: فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه، وميَّز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديثين عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرتهم على التوحيد، وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا ولهذا قال ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل من آدم وقال ﴿مَنْ ظَهَرَهُمْ﴾ ولم يقل من ظهره وقال ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خُلَافَ الْأَرْضِ﴾، ثم أفاض في الموضوع رحمه الله تعالى.

والاعتذار بهذا باطل أيضاً، لأن التقليد عند قيام الدلائل، والقدرة على الاستدلال بها، مما لا مساغ له أيضاً .

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التفصيل البليغ ﴿ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ للمنافع الجليلة ليتدبرها العباد ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عما هم عليه من الإصرار على الباطل، وعن الشرك والتقليد الخاسر .

﴿ وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنشَخْ مِنْهَا فٱتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْعَٰوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَسَلْنَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا فَٱقْصِصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا وَٱنْفُسُهُمْ كَآثُوٓا۟ يُظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ .

﴿ وَآتِلْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على اليهود أو على قومك ﴿ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا ﴾ أي خبره الذي له شأن وخطر . وهو كما روى ابن عباس «بلعم بن باعوراء» وكان من بني إسرائيل، وكان قد أوتي علماً ببعض كتاب الله تعالى : ﴿ فَٱنشَخْ مِنْهَا ﴾ من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة، بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره، والتعبير عنه بالانسلاخ فيه إشارة إلى أن الإيمان كان طلاءً، ولم يتمكن من قلبه كما تنسلخ الحية من جلدها، وهو مؤذن بكمال مباينته للآيات الهادية ﴿ فَٱتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي تبعه حتى لحقه وأدركه، فصار قريباً له، وفيه تلويح بأنه أشد من الشيطان غواية، ومبالغة في اللحوق، إذ جعل كأنه أمام الشيطان ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْعَٰوِينَ ﴾ فصار من زمرة الضالين، الراسخين في الغواية، بعد أن كان من المهتدين، بما خالف ربه، وأطاع هواه وشيطانه، روي عن مالك بن دينار أنَّ «بلعم» كان من علماء بني إسرائيل، وكان موسى يقدمه في الشدائد، وينعم عليه،

فبعثه إلى ملك مَدين، يدعوهم إلى الله تعالى، فترك دين موسى، وأُتبع دين الملك فزاع وضلّ.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ في الكلام حذف المفعول لمشيئة أي لو شئنا رفعه لرفعناه إلى منازل العلماء الأبرار، ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي إلى المنازل العالية، بسبب تلك الآيات، بمحض مشيئتنا ولكنها منافية للحكمة التشريعية، المؤسسة على تعليق الجزاء بالأفعال الاختيارية للعباد ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ إلى الدنيا ومال إليها، وأصل الإخلاق: اللزوم للمكان، من الخلود ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في إثارة الدنيا واسترضاء قومه، وإعراضه عن مقتضى الآيات، فانحطّ أسفل السافلين، وهذه الآية أشد الآيات على العلماء، الذين يريدون بعلمهم الدنيا وشهوات النفس. عن كعب بن مالك الأتصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء، على المال والشرف لدينه»^(١).

ثم ضرب الله تعالى مثلاً لهذا الرجل فقال ﴿فَمَثَلُ كَمَلٍ الْكَلْبِ﴾ أي فقصته التي هي مثل في الخسة، كمثل الكلب لما أنه أخس الحيوانات ﴿إِنْ تَحِمَلْ عَلَيْهِ﴾ أي إن تزجره وتطرده ﴿يَلْهَثْ﴾ يدلغ لسانه ﴿أَوْ تَرُكْهُ﴾ غير مطروود ﴿يَلْهَثْ﴾ اللهث: اذلاغ اللسان بالنفس الشديد، وهو في الكلاب طبع، لضعف قلبها، بخلاف سائر الحيوانات، فإنها لا تحتاج إلى التنفس الشديد، إلا عند التعب والإعياء^(٢) ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك المثل ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ومنهم اليهود، حيث أوتوا ما أوتوا في التوراة، من نعوت النبي ﷺ، فصَدَّقُوهُ وبَشَرُوا الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستفتحون به، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وانسلخوا من التوراة

(١) أخرجه الترمذي في الزهد رقم ١٤٨٢ وصحّحه، ورواه النسائي وابن حبان.

(٢) أي مثله في الخسة والدناءة كمثل الكلب، إن طردته وزجرته وجريت وراءه سعى فلهث، وإن تركته على سجيته دون إزعاج لهث، وهو تمثيلٌ بادي الروعة، فائق الجمال، في التصوير والإبداع.

﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أي إذا تحقق أن المثل المذكور مثل هؤلاء المكذبين، فاقصص ذلك عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيقفون على جليلة الأمر، وينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلال.

﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ استئناف مسوق لبيان قبح حال المكذبين، بعد بيان كونه كحال الكلب ﴿الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا﴾ أي هذا المثل السيء. هو مثل لكل من كذب بآيات الله، وجحد نعمة فضل العلم والهداية ﴿وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي ما ظلموا إلا أنفسهم، فإن وبالها لا يتخطاها.

ومن تفكر الأمثال المضروبة في التنزيل، في حق المشركين والأصنام من بيت العنكبوت، والذباب، تحقق له أن مثل علماء السوء، أسوأ وأقبح من ذلك، لما هم فيه من التهالك على الدنيا، مالهها وجاهها، والركون إلى لذاتها وشهواتها، ولذلك مثل لهم بالكلب كما مثل لهم بالحمار، عافانا الله تعالى والمسلمين من ذلك.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌّ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌّ﴾ تحقيق وتأكيد لما تضمنته القصة السابقة، بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهته سبحانه وتعالى، أي من يخلق الله فيه الاهتداء، فهو المهتدي لا غير كائناً من كان، ولو كان الهدى من الله البيان - كما قالت المعتزلة - لاستوى المؤمن والكافر، إذ البيان ثابت في حق الفريقين، فدل أنه من الله عز وجل التوفيق، والعصمة، والمعونة، ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن، وفي الإخبار عمن هداه الله تعالى بالمهتدي، تعظيم لشأن الاهتداء، وتنبية على أنه في نفسه شيء جسيم، ونفع عظيم، لو لم يحصل له غيره لكفاه، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة ﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾ بأن خلق فيه الضلالة، لصرف اختياره نحوها ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالضلالة ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي

الكاملون في الخسران لا غير، وإفراد المهتدي، وجمع الخاسرين للإيذان باتحاد منهاج الهدى، وتفرُّق طرق الضلالة وتسعُّبها.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئَادٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ الذرأ: الخلق، وبذلك فسرهُ ابن عباس، أي والله لقد خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وهم المصرون على الكفر، واللام للعاقبة، كقول الشاعر: «لِدَوَا لِّلْمَوْتِ وَابْتُوا لِّلْجَرَابِ» وتقديم الجن لأنهم أقدم خلقاً، ولا يشكل أنهم خُلِقوا من النار، فلا يشقُّ عليهم دخولها؟ لأننا نقول: إن الغالب عليهم الجزء الناري، لا يأبى تضررهم بها، فإن الإنس خلقوا من الطين، ويتضررون به، على أن النار لم تبق فيهم على ما هي عليه قبل خلقهم منها، كما أن حقيقة الطين لم تبق في الإنس ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي لهم قلوب قاسية علية، لا يفهمون بها الحق ولا يدركون فوائده، وهذا وصف للقلوب بتمام الإغراق في القساوة، فإنها حيث لم يأت منها الفقه، فكانها غير قابلة له رأساً، وحذف المفعول للتعميم، أي لهم قلوب ليس من شأنها أن يفقهوا بها شيئاً ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ المراد بالإبصار والسمع المنفيين، ما يختص بالعقلاء من الإدراك، النافع، لا ما يتناول مجرد الإحساس بالشبح والصوت، كما هو وظيفة الأنعام، أي لا يبصرون بها شيئاً من المبصرات، التي ينتفعون بها لمعرفة عظمة الخالق ﴿وَلَهُمْ أَفْئَادٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ شيئاً من المسموعات النافعة، فيتناول الآيات التنزيلية، وهذا كله للشهادة بكمال رسوخهم في الجهل والغواية ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المذكورون بالأوصاف المذكورة ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ أي كالدواب والبهائم في عدم الفقه والبصر والإدراك، لأن مشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش، مقصورة عليها ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي بل هم أسوأ حالاً من الأنعام، فإنها تدرك

المنافع والمضار، فتجتهد في جلبها وسلبها، وهؤلاء ليسوا كذلك، حيث لا يميزون بين المنافع والمضار، بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم المقيم، ويقدمون على العذاب الأليم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰقِلُونَ﴾ أي الكاملون في الغفلة عما فيه صلاحهم، وما أعد الله تعالى من الثواب والعقاب.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والحُسنى: تأنيت الأحسن، أي الأسماء التي هي أحسنُ الأسماء، لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها، روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها - قال البخاري: المراد به حفظها - دخل الجنة»^(١) ولا يظن أحد أن أسماء الله تعالى منحصرة في هذا المقدار، بل له سبحانه أسماء غيرها استأثر بعلمها^(٢)، ولما كان لا سبيل إلى معرفة ذاته عز وجل، إلا بمعرفة أفعاله، وهذا بحر لا ساحل له، فكذلك لا نهاية لمعرفة أسماء الله الحسنى ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فسمّوه بتلك الأسماء الجليلة ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي اتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنى فاسداً كقولهم: يا أبا المكارم، ويا أبيض الوجه ونحو ذلك، فإن أسماء الله تعالى توقيفية، يُراعى فيها الكتاب والسنة والإجماع، فكل اسم ورد في هذه الأصول،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ٢١٤/١١ ومسلم في الذكر رقم ٢٦٧٧ وزاد مسلم «وإن الله وترٌ يحبُّ الوتر».

(٢) يدل على ذلك ما ورد في الحديث الصحيح: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو ستأثرت به في علم الغيب عندك...» الحديث.

جاز إطلاقه عليه جل شأنه، وما لم يرد فيها لا يجوز إطلاقه وإن صح معناه، والإلحاد في أسمائه تعالى كما فعل المشركون حيث اشتقوا لآلهتهم أسماء منها كالكالات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المئان، كما ينبغي أن يراعى حسن الأدب، فلا يجوز أن نقول يا ضار، ويا خالق القردة على الانفراد، وإن كان الله خالقاً لكل شيء، والمراد بالترك الإعراض وعدم المبالاة بما فعلوا، ترقباً لتزول العقوبة فيهم عن قريب، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿سَيَجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإنه وقع جواباً عن سؤال مقدر، كأنه قيل: لم لا نبالي بالحادهم؟ فقيل: سينزل بهم عقوبة عن قريب.

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومن بعض البشر التي خلقنا، طائفة جليلة يهدون الناس، ويدلونهم على الاستقامة، وبحق يحكمون في الحكومات الجارية بينهم، ولا يجورون، والمراد بهم أمة محمد ﷺ، روى الشيخان عن معاوية قال: قال ﷺ: «لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله تعالى، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك»^(١)، واستدل بالآية على صحة الإجماع، لأن المراد منه، أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة، إذ لو اختص بعهد الرسول ﷺ لم يكن لذكره فائدة.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٨﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ لَا يَذِيرُهُمْ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ وَهُمْ لَا يَخِفُونَ ﴿١٨٩﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩٠﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ ضَالٌّ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٩١﴾﴾

(١) الحديث بهذا اللفظ أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ٢٩٣/١٣ من فتح الباري شرح صحيح البخاري.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ولم تنفعهم هداية الهادين، كاهل مكة وغيرهم، وإضافة الآيات إلى الله لتشريفها واستعظام الإقدام على التكذيب بها ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سنقرّبهم البتة إلى ما يهلكهم قليلاً، قليلاً، والاستدراج من الدرجة، بمعنى النقل درجةً بعد درجة، من سفلي إلى علو أو بالعكس، فيكون استنزالاً، ثم اتسع في كل نقل تدريجي، سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط، والمعنى المراد هو النقل إلى دركات المهالك، ليلبلغ أقصى مراتب العقوبة، ولذا قيل: إذا رأيت الله تعالى ينعم على عبد، وهو مقيم على معصيته، فاعلم أنه مستدرج، والجيلة الإنسانية في أصل الفطرة، سليمة متهيأة لقبول الحق والدين، فإذا أخلد إلى الأرض، واتبع الشهوات، ينزل درجة درجة إلى أسفل السافلين، فيزداد بطراً وطغياناً، إلى أن تحقّ عليه كلمة العذاب ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كذلك، بل يظنون أنه لطف من الله تعالى بهم.

﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ الإملاء: عبارة عن الإمهال أي أمهلهم ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي إن أخذي شديد، وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان، وباطنه خذلان، وهو تقرير للوعيد، وتأكيد له، أي قوي لا يدافع بقوة ولا بحيلة.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ في شأنه ﷺ ليعرفوا حقيقة حاله، الموجبة للإيمان به وبما أنزل عليه، من الآيات التي كذبوا بها، والهمزة للإنكار والتعجب، والتوبيخ ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ يعني الرسول ﷺ ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي من جنون، والجنة بكسر الجيم بمعنى الجنون، والتنكير للتقليل والتحقير، أي كذبوا ولم يتفكروا في أي شيء من جنون كائن بصاحبهم، والتعبير عنه «بصاحبهم» للإيذان بأن طول مصاحبتهم له ﷺ، مما يطلعهم على نزاهته ﷺ عن شائبة الجنون، ففيه تأكيد للنكير، وعن الحسن وقتادة أنه ﷺ صعد على الصفا، فجعل يدعو قريشاً فخذاً فخذاً، يحذّره بأس الله تعالى فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، فنزلت ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ

مُبينٌ ﴿ أَي ما هو إلا رسول منذر، واضح الأمر والإنذار، معروف حاله فقد كان ﷺ يدعوهم إلى الله عز وجل، ويقيم الدلائل القاطعة، بالفاظ فصيحة، وكان ﷺ حسن الخلق، طيب العشرة، نقي السيرة، مواظباً على أعمال حسنة، وصار قدوة للعقلاء، وإماماً للصالحين، والمعلوم بالضرورة أن مثل هذا الإنسان لا يمكن وصفه بالجنون، بل إنما هو نذير مبين أرسله رب العالمين، ثم لما كان أمر النبوة مفرعاً على التوحيد، ذكر سبحانه ما يدل عليه فقال تقدست أسماؤه:

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ما في السموات والأرض من العجائب والمخلوقات، والملكوٓت: الملك الواسع، وهو من أبنية المبالغة كالرهبوت، والجبروت، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، حيث لم يتفكروا فيما يدلُّ عليه من كمال قدرة الصانع، ووحدة المبدع، ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه ذاك الرسول الكريم ﷺ، والتعبير بالنظر هنا، دون التفكير، للإشارة إلى أن الدليل هنا، أوضح منه فيما تقدم، والملكوٓت: الملك العظيم الواسع، أي أولم ينظر أهل مكة، نظر اعتبار واستدلال، في ملكوت السماوات والأرض؟ ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي وفي جميع مخلوقات الله، مما يقع عليه النظر من الأشياء التي لا يمكن حصرها، الدالة على كمال قدرة صانعها، ووحدة مبدعها؟ فإن كل فرد من أفراد الأكوان، دليل واضح على الصانع الديان سبحانه وتعالى وقوله: ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بيان لما خلق الله، وفي ذلك تنبيه على أن الدلالة على التوحيد، غير مقصورة على السماوات والأرض، بل كل ذرة من ذرات العالم، دليل على توحيده سبحانه كما قال العارف:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ ﴾ أي وأن يتفكروا لعلهم يموتون عن قريب، فمناطق الإنكار تأخيرهم النظر، أي فما لهم لا يسارعون إلى التدبر في الآيات التكوينية، الشاهدة على صدق الرسالة المحمدية، قبل مفاجأة

الأجل، وحلول العقاب؟ فعلى العاقل المسارعة والمبادرة إلى التفكير والاعتبار ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ﴾ أي بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ والمعنى: إذا لم يؤمنوا بالقرآن، وهو النهاية في الظهور والبيان، فبأي كلام بعد القرآن يؤمنون؟ وكأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الموت؟.

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَمْ﴾ أي من يحكم الله بضلاله، فلا أحد يهديه، ولا يستطيع أن يضع الإيمان في قلبه ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ويتركهم في الكفر، محيرين لا يهتدون سبيلاً، والعمه في البصيرة كالعمى في البصر. ثم لما تقدم ذكر اقتراب أجلهم، عقبه سبحانه بذكر سؤالهم عن الساعة فقال:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ الساعة: القيامة، وهي من الأسماء الغالبة، وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة، أو لسرعة حسابها، لأنها عند الله كساعة من ساعات الدنيا، والسائل أناس من اليهود قالوا: أخبرنا متى الساعة؟ وعن قتادة أن قريشاً قالوا يا محمد أخبرنا متى الساعة فنحن أقرباؤك^(١) قالوا ذلك استهزاء فنزلت الآية ﴿أَيَّانَ مُرْسِنُهَا﴾ أيان ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام، ومرساها مصدر ميمي، من أرساه إذا أثبته وأقره أي متى إثباتها وتقريرها؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ استأثر به جلّ وعلا، لم يطلع عليه

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢٨٢/٢ نزلت في قريش، وقيل: في نفر من اليهود، والأول أشبه لأن الآية مكية، وكان المشركون يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها، وتكذيباً بوجودها، كما قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟.

مَلَكًا مَقْرَبًا، وَلَا نَبِيًّا مَرْسَلًا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَدْعَى إِلَى الطَّاعَةِ، وَأَزْجَرَ عَنِ
 الْمَعْصِيَةِ كَمَا أَخْفَى وَقْتُ الْمَوْتِ عَنِ الْإِنْسَانِ ﴿لَا يُحِبُّهَا لَوْ قَهَّ إِلَّا هُوَ﴾ لَا يُظْهِرُ
 أَمْرَهَا فِي وَقْتِهَا، إِلَّا هُوَ سَبْحَانَهُ بِالذَّاتِ، لَاقْتِضَاءُ الْحِكْمَةِ التَّشْرِيعِيَةِ إِيَّاهُ،
 وَالتَّجْلِيَةُ: إِظْهَارُ الشَّيْءِ بَعْدَ خَفَائِهِ ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيِ كِبَرَتْ
 وَعَظُمَتْ عَلَى أَهْلِهَا، حَيْثُ لَمْ يَعْلَمُوا وَقْتُ وَقُوعِهَا، وَعَنِ قِتَادَةِ أَنْ
 الْمَعْنَى: عَظُمَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَيْثُ يَخَافُونَ شِدَائِدَهَا،
 وَقِيلَ الْمَعْنَى: ثَقُلْتُ عِنْدَ الْوُقُوعِ عَلَى نَفْسِ السَّمَاوَاتِ، حَتَّى انْشَقَّتْ
 وَكُوِّرَتْ شَمْسُهَا، وَانْتَشَرَتْ نَجُومُهَا، وَعَلَى نَفْسِ الْأَرْضِ حَتَّى سُيِّرَتْ جِبَالُهَا
 وَسُجِّرَتْ بَحَارُهَا، وَالْأَوَّلُ هُوَ الْأَنْسَبُ بِمَا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ لِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ:
 ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أَيِ فُجَاءَةً عَلَى حِينِ
 غَفْلَةٍ، وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ «لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا،
 فَلَا يَتَبَايَعَانَهُ، وَلَا يَطْوِيَانَهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ، فَلَا
 يَطْعَمُهَا...»^(١) الْحَدِيثُ ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أَيِ يَسْأَلُونَكَ عَنْهَا، وَعَنِ
 وَقْتِ قِيَامِهَا كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا، أَيِ مِبَالِغٌ فِي الْعِلْمِ بِهَا، وَالْحَفِيُّ:
 الْمُسْتَقْصِي فِي السُّؤَالِ، فَإِنْ مِنْ بَالِغٍ فِي السُّؤَالِ عَنِ الشَّيْءِ، وَالْبَحْثُ عَنْهُ
 اسْتِحْكَامُ عِلْمِهِ بِهِ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ كَرَرَهُ تَأْكِيدًا لِلْحَكْمِ، وَتَقْرِيرًا لَهُ،
 وَتَمْهِيدًا لِلتَّعْرِيزِ بِجَهْلِهِمْ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيِ لَا
 يَعْلَمُونَ أَنَّ عِلْمَهَا عِنْدَ اللَّهِ، لَمْ يُوْتِهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، فَبَعْضُهُمْ يَنْكُرُهَا رَأْسًا،
 وَبَعْضُهُمْ يَدَّعِي أَنَّ الْعِلْمَ بِذَلِكَ مِنْ مَوْجِبَاتِ الرِّسَالَةِ، فَيَتَّخِذُ السُّؤَالَ عَنْهَا
 ذَرِيعَةً إِلَى الْقُدْحِ فِي رِسَالَتِهِ ﷺ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَعْلَمْ وَقْتُ قِيَامِهَا،
 نَعَمْ عَلِمَ قُرْبَهَا عَلَى الْإِجْمَالِ، فَقَدْ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ أَنَسٍ
 مَرْفُوعًا «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ، وَالْوَسْطَى^(٢) وَفِي

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْفَتَنِ ٧٨/١٣ وَمُسْلِمٌ رَقْمَ ١٥٧ وَهُوَ حَدِيثٌ طَوِيلٌ جَانِعٌ.
 (٢) الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الرِّقَاقِ ٢٩٩/١١ وَمُسْلِمٌ فِي الْفَتَنِ رَقْمَ ٢٩٥١ وَرَوَاهُ
 التِّرْمِذِيُّ رَقْمَ ٢٢١٥.

الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً «إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم، من صلاة العصر إلى غروب الشمس»^(١) والذي ينبغي معرفته القول بحدوث العالم حدوثاً زمانياً، ولا يعلم أوله إلا الله تعالى، وكذلك عمر الدنيا، كل ذلك لا يعلمه إلا الله عز وجل، وجميع ما ورد في هذا الباب، أمور ظنية لا سند يعول عليها.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا أملك لنفسي جلب نفع، ولا دفع ضرر، وهو إظهارٌ للعبودية، والتبري عن ادعاء العلم بالغيوب، وبيان عجز الكل عنه، وإبطال زعمهم الذي بنوا عليه سؤالهم، من كونه ﷺ يعلمها ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ من ذلك فيلهمني إياه ويوفقني له، فإنني حينئذ أملكه بمشيئته تعالى ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ لو كنت أعرف أمور الغيب، وما سيحدث في الدنيا ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أي لحصلت لنفسي الخير الذي أرجوه ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أي وما أصابني شيء من الأذى والضرر، ولكن لا أعلمه فلذلك يصيبني المكروه والأذى، واستشكلت هذه الآية مع ما صح أنه ﷺ أخبر بالمغيبات الجمة، وكان الأمر كما أخبر به وعُدَّ ذلك من أعظم معجزاته ﷺ؟ أجيب بأن المعنى لا أعلم الغيب إلا أن يطلعني الله تعالى عليه، ويقدره لي، فلما أطلعه الله تعالى أخبر به، ليكون ذلك معجزة له، ودلالة على صحة نبوته ﷺ ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي ما أنا إلا عبد مرسل، للإنذار والبشارة، وشأنني تذكير الخلق بالنافع والضار، من

(١) طرف من حديث طويل أخرجه البخاري ٣٦٧/٤ في الإجارة والترمذي رقم ٢٨٧٥ في الأمثال.

الأمور الدينية والدنيوية، لا الوقوف على الغيوب التي لا علاقة بينها وبين الشرائع، أما تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الإنذار ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون بما جئت به، وتخصيصهم بالذكر لأنهم ينتفعون بالإنذار، كما ينتفعون بالبشارة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَمْ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خلقكم جميعاً من نفس واحدة هي آدم أبو البشر ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خلق حواء من جنسها ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي ليستأنس بها، لأن الجنس إلى الجنس أميل، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي جامعها، كُنِيَ به أحسن كناية، وفيه إيماء إلى أن تكثير النوع علة المؤانسة، كما أن الوحدة علة الوحشة ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي محمولاً خفيفاً بادئ الأمر، فإنه عند كونه نقطة، أو علقه أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك، ويجوز أن يراد بالخفة عدم التأذي، أي حملت حملاً خفٍ عليها ليس فيه كرب وشدة ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي استمرت به، والمراد بقيت به كما كانت حيث قامت وقعدت، وهو خفيف عليها، ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي صارت ذات ثقل، بكبر الولد في بطنها ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي آدم وحواء، لئلا يخافا عاقبة الأمر عليه، تضرعاً إليه عز وجل ﴿رَبَّهُمَا﴾ أي مالك أمرهما، الحقيق بأن يخص به بالدعاء، أي دعواه تعالى أن يؤتيهما ولداً صالحاً، ووعداً بمقابلته الشكر، وقالوا ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ أي ولداً سوياً سليم الجسم والخلقة. ﴿لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي الراضين في الشكر لك، المبالغين فيه.

﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحًا﴾ أي فلما وهبهما، الولد الصالح السوي ﴿جَعَلًا﴾ أي جعل هؤلاء الأولاد والنسل، وثنى الضمير باعتبار أن ذلك النسل صنفان: ذكر، وأنثى، وقد جاء أن حواء كانت تلد في كل بطن كذلك ﴿لَهُ﴾ أي الله سبحانه وتعالى ﴿شُرَكَاءَ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فِيمَا أَتَاهُمَا﴾ من الأولاد، أي جعل أولادهما له تعالى شركاء فيما آتيناهم، حيث سموهم بعبد العزى، وعبد مناف، ونحو ذلك، وتخصيص إشراكهم هذا بالذكر في مقام التوبيخ، لما أن مساق النظم الكريم لبيان إخلالهم بالشكر، في مقابلة نعمة الولد الصالح ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه فيه معنى التعجيب، أي تنزهه وتقدس الله عما ينسبه إليه المشركون من الشركاء والأنداد، وضمير الجمع لأولئك النسل، الذين جعلوا لله شركاء، للإيذان بعظم شركهم، و«ما» مصدرية، أي تعالى الله عن إشراكهم. واستشكل هذه الآية، وللعلماء فيها كلام طويل، والأوفق منها ما قيل: إن صدر الآية إلى قوله تعالى: ﴿جَعَلًا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ لآدم وحواء، ثم خص المشركين من أولاد آدم بالذكر، بالتخلص إلى قصة العرب وإشراكهم، ويوضح ذلك تغيير الضمير إلى الجمع ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولو كانت القصة واحدة، ل قيل: فتعالى الله عما يشركان، وكذلك قوله بعده^(١).

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في آدم وحواء، وأن الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلًا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ يعود إليهما، ورووا حديثاً عن سَمُرَةَ مَرْفُوعاً «أَنَّ حَوَاءَ لَمَّا وَلَدَتْ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقَالَ: سَمِّيَ عَبْدُ الْحَارِثِ فَإِنَّهُ يَعِيشُ، فَسَمَّيْتُهُ عَبْدَ الْحَارِثِ فَعَاشَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ... الخ، وهذا القول لا يصح، فإن آدم عليه السلام أحد الأنبياء الكرام، ومن المحال أن يستجيب آدم وحواء لأمر يخدش العقيدة، بل هو شرك بالله، وإنما الصحيح - كما قال الحافظ ابن كثير - أن ذلك كان في ذريته، بدليل قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فالآية وردت حكاية عن ذرية آدم، ممن رزقهم الله الذرية والبنين، فأشركوا مع الله، وسموا أولادهم بأسماء الشياطين، وهذا هو الحق بدليل قوله تعالى بعده ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا!!﴾.

يرشدوكم إلى ما تحصلون به المطالب، وتنجون به من المكاره، لا يتبعوكم إلى مرادكم، ولا يقدرّون على ذلك ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صٰلِمٰتُونَ﴾ أي مستور عليكم في عدم الفائدة، دعاؤكم للأصنام وسكوتكم، فإنه لا يتغير حالكم في الحالين، كما لا يتغير حالهم بحكم أنها جمادات، لا تنطق ولا تعقل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿عِبَادٌ أَشۡتٰلُكُمۡ﴾ أي مائلة لكم في العجز والضعف، وعجزها أظهر من عجزكم، وتشبيهها بهم في ذلك إنما هو لاعترافهم بعجز أنفسهم، وادعائهم لقدرتها عليهم، إذ هو الذي يدعوهم إلى عبادتها، والاستعانة بها ﴿فَادْعُوهُمْ فَلَيَسۡتَجِيبُوا۟ لَكُمۡ﴾ أمر للتعجيز والتفريع، أي فادعوهم في جلب نفع، أو كشف ضرر، فليستجيبوا لكم ﴿إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه.

﴿أَلَهُمۡۤ أَرْجُلٌ يَّمۡشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمۡ أَيْدٍ يَّبۡطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمۡ أَعۡيُنٌ يَّبۡصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمۡ ءَاذَانٌ يَّسۡمَعُونَ بِهَا﴾؟ تبكى إثر تبكى، مؤكدا لما يفيد الأمر التعجيزي، فإن الاستجابة من الهياكل الجسمانية، إنما تتصور إذا كان لها حياة، وقوى محرّكة، وما ليس له شيء من ذلك، فهو بمعزل من الأفاعيل، وقد وُجّه الإنكار إلى كل واحدة من هذه الآلات، تكريراً للتبكى ﴿قُلۡ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمۡ﴾ أمرٌ له ﷺ بأن يناصبهم المحاجة، ويكرر عليهم التبكى، أي ادعوا شركاءكم واستعينوا بها في عداوتي ﴿ثُمَّ كِيدُونَ﴾ جميعاً أنتم وشركاءكم، وبالغوا في ترتيب ما تقدرون عليه من مبادي المكر والكيد ﴿فَلَا تُظۡهِرُون﴾ فلا تمهلوني ساعة بعد ترتيب مقدمات الكيد، فإنني لا أبالي بكم أصلاً.

﴿إِنۢ وَٰلِيَیَ اللَّهُ الَّذِیۡ نَزَّلَ الۡكِتٰبَ﴾ القرآن، تعليل لعدم المبالاة، ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب، للإشعار بدليل الولاية، كأنه قيل: لا أبالي بكم وبشركائكم، لأن وليي هو الله تعالى، الذي نزل الكتاب الناطق بأنه وليي

وناصري ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي ومن عادته تعالى، أن يتولى الصالحين من عباده، فضلاً عن أنبيائه، وهذا تبشيرٌ للصالحين، وهذه الآية مما جربت المداومة عليها للحفظ من الأعداء، وكانت ورد الوالد في الأسحار، وقد أمره بعض الصالحين في المنام بها.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي تعبدونهم، أو تدعونهم للاستعانة ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ﴾ في أمرٍ من الأمور ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾ إذا أصيبوا بحادثة، فهم أعجز عن نفع غيرهم، ودفع الضر عنهم.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ أي إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ فضلاً عن المساعدة والإمداد، وهذا أبلغ من نفي الاتباع ﴿وَتَرَبُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ بيان لعجزهم عن الإبصار وبهذا تم التعليل لعدم المبالاة فلا تكرر أصلاً، والمعنى: وترى الأصنام رأي العين، يُشبهون الناظر إليك، والحال أنهم لا يبصرونك، قيل: إنهم صُنع لهم أعينٌ، مركبة بالجواهر المتألثة، وصورت بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه، وذهب بعضهم إلى أن الخطاب في ﴿تَرَاهُمْ﴾ للمشركين أي وترى المشركين ناظرين إليك، والحال أنهم لا يبصرونك كما أنت عليه، حكى أن السلطان محمود دخل على الشيخ الخرقاني لزيارته، وقال: يا شيخُ ما تقول في حق البسطامي؟ فقال الشيخ: هو رجل من رآه اهتدى، فقال السلطان: وكيف ذلك؟ وأبو جهل رأى رسول الله ﷺ ولم يهتد؟ فقال الشيخ: إن أبا جهل ما رأى رسول الله ﷺ، وإنما رأى يتيم أبي طالب، ولو رأى رسول الله كما كان ﷺ، لخرج من الشقاوة واهتدى.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿١١٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي ما عفا وسهل، وتيسر من أخلاق الناس، وإلى هذا

ذهب ابن عمر، وعن ابن عباس العَفْوُ: ما فَضِّل، روي أنه لما نزلت هذه الآية، كان الرجل يمسك من ماله ما يكفيه، ويتصدق بالفضل، فنسخها الله تعالى بالزكاة^(١) والمراد بالعفو الحقوق التي تجوز المسامحة فيها، ويدخل فيه ترك التشدد في الحقوق المالية، والتخلق بالأخلاق الطيبة، وترك الغلظة، والدعوة إلى الحق بالرفق ﴿وَأُمِرُ بِالْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف والمستحسن من الأفعال، والمعروف: ضد المنكر، والعرف ضد النكر، وهو كل خصلة يرتضيها العقل، ويقبلها الشرع ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فلا تمارهم ولا تكافئهم بمثل أفعالهم، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق، أمرة للرسول ﷺ باستجماعها، أخرج ابن جرير عن الشعبي قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ الآية قال ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله تعالى أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك»^(٢).

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ أي ينخسك منه نخس أي وسوسة تحملك على خلاف ما أمرت به، كاعتراء غضب، والنزغ: النَّخْسُ والغرز، شُبِّهَتْ وسوسته للناس، إغراء لهم على المعاصي، بغرز السائق ما يسوقه، نزغ الشيطان بينهم أفسد وأغرى، أي وإما يحملنك من جهة الشيطان وسوسة ما ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فالتجىء إليه تعالى من شره، في دفعه عنك ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع استعاذتك به قولاً ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم تضرعك إليه قلباً فيعصمك من شره، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة!! قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، ولكن الله أعاني عليه فأسلم» أي انقاد وامتنع عن وسوستي - فلا

(١) الطبري ٣٢٨/١٣ قال: وأولى الأقوال بالصواب أن معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم.

(٢) انظر جامع البيان للطبري ٣٢٩/١٣.

يأمرني إلا بخير»^(١) وهذا الخطاب وإن كان له ﷺ إلا أن المراد: غيره، وهو تأديب عام لجميع المكلفين، ولما ثبت أن لهذه الاستعاذة، أثر في دفع نزغ الشيطان، لزمنا المواظبة عليها في أكثر الأحوال، وفي الآية زيادة تنفير، وفراط تحذير عن العمل بموجب الغضب، وفي الأمر بالاستعاذة بالله تعالى، تهويل لذلك، وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة، التي لا يتخلص من مضرتها، إلا بالالتجاء إلى حرم عصمته عز وجل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٧﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ بيان أن ما أمر به ﷺ من الاستعاذة بالله تعالى، سنة مسلوكة للمتقين، والإخلال بها ديدن الغاوين، أي إن الذين اتصفوا بتقوى الله تعالى ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي لمة منه كما روي عن ابن عباس، وتنوينه للتحقير، المراد وسوسة ما، من طاف يطوف كأنها طافت بهم، ودارت حولهم، فلم تقدر أن تؤثر فيهم، وهذا تأكيد لما تقدم، وبيان لعادة المتقين، أنهم إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي ما أمر الله تعالى به، ونهى عنه، وعرفوا ما حصل لهم من وسوسة الشيطان ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ بسبب ذلك التذكر ﴿مُبْصِرُونَ﴾ مواقع الخطأ، ومكايد الشيطان، فيتحرزون عنها، ويفرون إلى الله عز وجل، فيزدادون بصيرة من الله تعالى.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أي إخوان الشياطين، وهم المنهمكون في الغي، المعرضون عن وقاية أنفسهم ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ الضمير المرفوع للشياطين أي يكون للشياطين مدد لهم فيه، بالترتين والإغراء، وعن ابن عباس

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين رقم ٢٨١٤، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس.

الضمير راجع لشیاطین الجن والإنس ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي ثم لا یكف هؤلاء عن الغی، ولا یقصرون ولا یرعون، والمتقون إذا أصابهم طیف، تذكروا وعرفوا ذلك، ونزعوا عنه، وتابوا واستغفروا، وإخوان الشیاطین مستمرّون فی الضلالة، لا یتذكرون ولا یتوبون.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أَلْجَيْنَاهُ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ﴾ من الآيات من القرآن، أو بآية مقترحة كما روي عن ابن عباس ﴿قَالُوا لَوْلَا أَلْجَيْنَاهُ﴾ أي هلاًّ جمعتها تقولاً من نفسك!! أو هلاًّ طلبتها من الله!! وهو تهكم منهم لعنهم الله تعالى، قال الفراء: يُقال: اجتبيتُ الكلامَ، واختلقته، وارتجلته، إذا افتعلته من قِبَل نفسك، وكذا اخترعته عند أبي عبيدة، أي قالوا: لولا اخترعتها؟ يرون بذلك أن سائر الآيات كذلك ﴿قُلْ﴾ رداً عليهم ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ لست بمخترق لها، أي أتبع ما يوحى إليّ من ربي من غير أن يكون لي دخل في ذلك أصلاً ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن الكريم، أي هذا القرآن ﴿بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي بمنزلة البصائر للقلوب، بها تبصر الحقّ، وتدرك الصواب، فإنه حجج بينة، وبراهين نيرة، تغني عن غيرها، والكلام خارجٌ مخرج التشبيه البليغ، ولمّا كان القرآن الكريم سبباً لبصائر العقول، في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، أطلق عليه اسم البصائر، من باب تسمية السبب باسم المسبّب.

بيّن الله تعالى بهذا أن ظهور القرآن، معجزة بالغة كافية، في دلائل التوحيد والنبوة، فكان طلب الزيادة من باب التعلّث ﴿وَهَدًى وَرَحْمَةً﴾ تنوينهما للتفخيم، وتقديم الظرف عليهما وتعقيبهما بقوله تعالى ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ للإيدان بأنّ كون القرآن الكريم بصائر، متحقّق بالنسبة إلى الكل، وبه تقوم الحجة على الجميع، أما هدى ورحمة فمختص بالمؤمنين، إذ هم المقتبسون من أنواره، والجملة من تمام القول المأمور به.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢١) وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَحْسِنُونَ وَلَمْ يَسْجُدُوا ﴿٢٣﴾

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ إرشاد إلى طريق الفوز بالمنافع الجليلة، التي ينطوي عليها القرآن، أي: وإذا قُرِئ القرآن، الذي ذكرت شؤونه العظيمة ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ استماع تحقيق وقبول، يعني أصغوا إليه أسماعكم، لتفهموا معانيه، وتندبروا مواعظه ﴿وَأَنْصِتُوا﴾ أي اسكتوا في خلال القراءة تعظيماً له، وتكميلاً للاستماع، وراعوها إلى انقضائها، نصت له أي: سكنت مستمعاً، والإنصات: السكوت ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة، التي هي أقصى ثمراته، والآية دليل لأبي حنيفة رحمه الله في أن المأموم لا يقرأ في سرية، ولا جهرية خلف الإمام، لأنها تقتضي وجوب الاستماع، عند قراءة القرآن، في الصلاة وغيرها، وقد قام الدليل في غيرها على جواز الاستماع وتركه، فبقي فيها على حاله في الإنصات للجهر^(١) ويؤيده أخبار جمعة، أخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا»^(٢) وأخرج أيضاً عن جابر أن النبي ﷺ قال: «من كان له إمام، فقراءته له قراءة» وقال الشعبي: أدركت سبعين بديراً، كلهم يمنعون المقتدي عن القراءة خلف الإمام.

﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ﴾ عام في الأذكار كافة، من القراءة والدعاء،

(١) هذا ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة عملاً بالآية الكريمة، وذهب بعض الفقهاء إلى وجوب قراءة الفاتحة وراء الإمام لحديث «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» ومذهب مالك أنه يقرأ في السرية ويسكت في الجهرية، وانظر الأدلة مفصلة في كتابنا روائع البيان في تفسير آيات الأحكام ٧٦/١.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة.

والتسبيح، والتهليل، وغير ذلك، والخطاب للنبي ﷺ، ويدخل فيه أمته ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ فَإِنَّ الْإِخْفَاءَ أَدْخَلَ فِي الْإِخْلَاصِ، وَأَقْرَبُ مِنَ الْقَبُولِ، وقيل: المراد بالذكر في نفسه، أن يكون عارفاً بمعاني الأذكار، لأن الذكر المجرد باللسان، عارياً عن الذكر بالقلب، قليل الجدوى ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي اذكره متضرعاً وخائفاً ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً ما فوق السر، دون الجهر، فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص، والمراد بالجهر رفع الصوت المفرط، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أي اذكره وقت الغدو أي الصباح ﴿وَالْأَصَالِ﴾ جمع الأصيل: وهو الوقت بين العصر إلى المغرب ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن ذكر الله تعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ مكانة لسمو قدرهم وهم ملائكة الملائ الأعلى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ تعالى وطاعته، بل يؤدونه حسبما أمروا به ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ وينزهونه عن كل ما لا يليق به سبحانه وتعالى ﴿وَلَمْ يَسْجُدُوا﴾ أي ويخصّصونه بغاية العبودية والتذلل، ولا يشركون به غيره جلّ شأنه، وهو تعريض بمن عداهم من المكلفين، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: «إن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه»^(١) وروى ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال: كان ﷺ يقول في سجوده: «اللهم سجد لك سوادي، وبك آمن فؤادي، اللهم ارزقني علماً ينفعني، وعملاً يرفعني»^(٢).

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعراف»

(١) أخرجه البخاري ٤٥٩/٢ ومسلم رقم ٥٧٥ وتتمته: «فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد أحداً مكاناً لموضع جبهته في غير وقت صلاة».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة.

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

مدنية وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ النفل: الغنيمَةُ، سُمِّيتَ به لأنها عطية من الله تعالى، زائدة على الأجر في الجهاد من الثواب الأخروي، والمراد هنا الغنائم، عن سعيد بن جبیر قال: سألتُ ابن عباس عن سورة الأنفال، قال: نزلت في بدر، ^(١) وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود، والنسائي، والبيهقي والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال النبي ﷺ: من قتل قتيلاً فله كذا، فأما المشيخة فثبتوا تحت الراية، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم، وقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإننا كنا لكم رداءً، فاختصموا إلى النبي ﷺ فترلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية فقسم ﷺ الغنائم بينهم بالسوية ^(٢)، أي يسألونك يا رسول

(١) أخرجه البخاري ٢٣٠/٨ ومسلم رقم ٣٠٣١ في تفسير سورة الأنفال.

(٢) أخرجه أبو داود رقم ٢٧٣٧ والبيهقي ٢٩١/٦ والحاكم ١٣١/٢ وصحَّحه.

الله عن حكم الأنفال ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي حكمها مختص به تعالى، يقسمها الرسول ﷺ كيفما أمر به ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف في أمر الغنائم، وحاصل الجواب يا أيها المؤمنون إن ما وعدتكم به بإذن الله تعالى، وقد ملكني الله سبحانه هذه الغنائم، وهو أعلم بالحكمة، فاتقوا الله من عدم الرضا بذلك، ومن هنا يعلم حسن الأمر بالتقوى ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ يَبَنِيكُمْ﴾ الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله، وتسليم أمره إلى الله ورسوله ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما يأمر وينهى عنه، فإن في ذلك مصالح لا تعلمونها، وإنما يعلمها الله ورسوله، وذكر الاسم الجليل في الأمرين، لتربية المهابة، وتعليل الحكم، وذكر الرسول ﷺ مع الله تعالى لتعظيم شأنه، وإظهار شرفه والإيدان بأن طاعته طاعة لله عز وجل ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم كاملي الإيمان، فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والالتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين، بالعدل والإحسان، ويؤيد إرادة الكمال قوله سبحانه:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣) ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ إذ المراد به الكاملون في الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرغت لذكره استعظاماً له، وتهيباً من جلاله، وقيل: هو الرجل يهيم بالمعصية، فيقال له: اتق الله، فينزع عنها خوفاً من عقابه، والاطمئنان المذكور في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ لا ينافي الوجَل والخوف، لأنه عبارة عن ثلج الفؤاد بنور المعرفة، وهو بجامع الخوف ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ أي آيات القرآن ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لاطمئنان النفس، ورسوخ اليقين، بتظاهر الأدلة والعمل بموجبها،

والأصوب أن نفس التصديق يقبل القوة، وهي التي عُبِّرَ عنها بالزيادة، للفرق النير بين يقين الأنبياء، وبين يقين آحاد الأمة، وهذا أحد أدلة من ذهب إلى أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص، وهو مذهب الجهم الغفير من الفقهاء والمحدثين، لكثرة الظواهر الدالة على ذلك،^(١) وذهب كثير من المتكلمين إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لأنه اسم للتصديق والإذعان، ولا يتصور فيه الزيادة والنقصان!! ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يفوضون إليه أمورهم، ولا يخشون ولا يرجون إلا إيَّاه، وهذه المراتب الثلاثة من أعمال القلوب، وقد أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح، فقال جلَّ وعلا.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة بحدودها، وأركانها، وشرائطها، في أوقاتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي أعطيناهم من الأموال ﴿يُنْفِقُونَ﴾ أي يتصدقون فيما أمر الله تعالى به، وتدخل فيه الزكاة، والنفقة، وسائر الخيرات.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المتصفون بالصفات الحميدة المذكورة ﴿هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ صدقاً بلا شك، لأنهم حققوا إيمانهم، بأن ضمُّوا إليه أفاضل الأعمال القلبية. روي عن الحسن رحمه الله أن رجلاً سأله أمؤمنٌ أنت؟ قال: إن كنت سألتني عن الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ونحو ذلك فأنا مؤمن، وإن كنت سألت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ الآية فلا أدري أنا منهم، أو لا؟ ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ كرامة، وعلو منزلة رفيعة، درجات كثيرة ومختلفة، فإن قيل: ليس أن المفضل إذا علم حصول درجة عالية للمفاضل، فإنه يتألم قلبه؟ قلنا: إن استغرق كل واحد في سعادته الخاصة به، تمنعه من حصول

(١) الشواهد كثيرة على زيادة الإيمان أو نقصه، منها قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يُسْتَبْشِرُونَ﴾ وقوله جلَّ ثناؤه: ﴿لِيَزِدَّاؤُوا إِيْمَانًا فَوْقَ إِيْمَانِهِمْ﴾.

الحقد والحسد ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة صاف عن كد الاكتساب، وخوف الحساب، لا ينقضي أمدّه ولا ينتهي عدده.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ ﴿٦﴾ يُجَدِّلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٧﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٩﴾

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بسبب الحق الذي وجب عليك، وهو الجهاد، والمراد من البيت مسكنه ﷺ أو المدينة نفسها لأنها مثواه، وإضافة الإخراج إلى الرب إشارة إلى أنه كان بالوحي، ومعنى الآية حالهم هذه في كراهة ما وقع في أمر الأنفال، كحال إخراجك من بيتك في كراحتهم له وهو حق ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ الخروج إما لعدم الاستعداد للقتال، أو للنفرة الطبيعية عنه، وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار، فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة. وقصة بدر على ما روى جماعة أن عير قريش أقبلت من الشام، وفيها تجارة عظيمة، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ، فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقاها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر بمكة، فنادى أبو جهل: النَّجَاءُ النَّجَاءُ فخرج أبو جهل بجمع من أهل مكة، فقبل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع، فقال: لا والله لا نرجع، حتى نرد بدرًا، فننحر الجزور، ونشرب الخمر، وتضرب على رؤوسنا القينات، أي المغنيات، وتهابنا العرب، فمضى بهم إلى بدر، فنزل جبريل فقال: يا رسول الله: إن الله قد وعدكم إحدى الطائفتين، فاستشار النبي ﷺ أصحابه، فقال بعضهم: إنا خرجنا

للعير، فقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: لم نخبرنا عن القتال، وإنما أخبرتنا عن العير فدفع العدو، فتغير وجهه ﷺ فقام عند ذلك أبو بكر وعمر فأحسنا الكلام، ثم قام سعد ابن عباد فقال: يا رسول الله انظر أمر ربك فامضي بنا إلى ما تريد، لا يتخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قام المقداد فقال: «يا رسول الله امضي لما أمرك الله فإننا معك، لا نقول لك، كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك، فتبسم ﷺ وقال: سيروا على بركة الله»^(١) وبهذا تبين أن بعض المؤمنين كانوا كارهين، وبعضهم لم يكن كذلك وهم الأكثر كما تشير إليه الآية الكريمة.

﴿يَجِدُ لَوْلَاكَ فِي الْحَقِّ﴾ في إيثارك الجهاد بإظهار الحق لإيثارهم تلقى العير عليه ﴿بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ الحق لهم بإعلامك أنهم ينصرون أينما توجهوا ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير، وهلاً قلت لنا القتال لنستعد له ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلّة عددهم، وعدم تأهبهم، فقد روي أنهم كانوا ثلثمائة وخمسة عشر رجلاً فيهم فارسان، وكان المشركون ألفاً، قد استعدّوا للقتال.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ بيان لجميل صنع الله عز وجلّ بالمؤمنين، مع ما بهم من قلة الحزم، وكثرة الخوف، أي اذكروا يا معشر المؤمنين وقت وعد الله تعالى إياكم، إحدى الطائفتين، وهما: العير أو النفير ﴿أَنَّهُا لَكُمْ﴾ أي كائنة لكم تصرفون كيف شئتم ﴿وَوَدُّونَ﴾ أي

(١) مقالة المقداد للنبي ﷺ أخرجها البخاري ٢٨٧/٧ في المغازي، وفيها قوله: لا نقول لك كما قال قوم موسى ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا﴾ ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فأشرق وجه النبي ﷺ وسرّه قوله.

تريدون وتحبون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ لقلة عددها، وكثرة مالها، والشوكة مستعار من واحدة الشوك، والشوكة شدة البأس وتطلق على السلاح ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي يثبت ويعلية ﴿يَكَلِّمَنَّهُ﴾ بآياته المنزلة ﴿وَيَقْطَعُ دَائِرَ الْكَافِرِينَ﴾ آخرهم ويستأصلهم، والمعنى: أنتم تريدون الغنيمة، والله عز وجل يريد العزة لكم والنصر، وشأن بين المرادين.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي لهذه الغاية فعل ما فعل، ومعنى إحقاق الحق إظهار حقيقته، وكذا إبطال الباطل ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك أعني إحقاق الحق وإبطال الباطل، والمراد بهم المشركون لا من كره الذهاب إلى النفي لأنه لا جرم منهم.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ الْمَلَأَةِ مَرْدِفٍ﴾ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢﴾

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الاستغاثة: طلب الغوث، وهو التخليص من المكروه، ومن الشدة، وصيغة المضارع لاستحضار صورتها العجيبة، والظاهر أن المستغيثين هم المؤمنون، وقال الزهري إنه رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فقد قال ﷺ: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»^(١) كما دعا على

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٢٥١/٥ وتتمته: يهتف بربه ماداً يديه، مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأنابه أبو بكر فآلقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه فقال: يا نبي الله كفك مناشدتك ربك، إنه سينجز لك ما وعدك، فنزلت: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية.

أناس معينين من صناديد الكفر، الذين آذوه وهو بمكة كما ورد من رواية ابن مسعود: «اللهم عليك بقريش - أي بهلاكهم - اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعُتْبَةَ بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمّية بن خلف، وعُقبَة بن أبي مُعَيْط، قال ابن مسعود: فوالذي بعث محمداً بالحق، لقد رأيتُ الذين سَمَى الرسول ﷺ صرعى ثم سُجِّبُوا إلى قلب بدر...»^(١) الحديث، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ أي فأجاب دعاءكم، عقب استغاثتكم إياه على أتم وجه ﴿أَفِي مُعِدَّتْكُمْ﴾ أي بأني ممدكم أي مرسل إليكم مدداً ﴿يَأْتِي مِنَ الْمَلَكَةِ مَرْوِيَّةٌ﴾ أي متتابعين يردف بعضهم بعضاً وراء كل مَلِكٍ مَلِكٌ آخر، والأكثرون على أن الملائكة قاتلت يوم بدر، وفي الأخبار ما يدل عليه، وقيل: إنهم لم يقاتلوا، وإنما نزلوا ليكثرُوا سواد المسلمين ويثبتوهم، ويدل عليه قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ أي ما جعل الله الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ﴾ أي بالإمداد ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وتسكن إليه نفوسكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي حقيقة النصر على الإطلاق، ليست إلا من عنده عزٌّ وجلٌّ، فعلى المسلم أن لا يتوكل إلا على الله ولا يحسب النصر بالأسباب، ولا ييأس بفقدانها لأن النصر بيد الله، والإعانة منه سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالبٌ لا يُغالب في حكمه ولا يُنازع ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل كل ما يفعله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٣٠١/٧ وتتمته «فألقوا فيها، فوقف النبي ﷺ على القلب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدتُ ما وعدني ربي حقاً، فقال عمر: يا رسول الله، تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ فقال له ﷺ: والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِيْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ ﴾ أي يجعله غاشياً لكم ومحيطاً بكم والنعاس أول النوم قبل أن يثقل ﴿ أَمْنَةً ﴾ أي أماناً مما حصل لكم من الخوف ﴿ مِّنْهُ ﴾ تعالى، أي فتنعسون أماناً كائناً منه تعالى، وكان ذلك النعاس معجزة، لأنه خارق للعادة، لأن حصول النوم، عند الخوف الشديد بعيد عادة، وبالنوم حصلت لهم الراحة، وزال عنهم الكلال والعطش، وتمكنوا من قتال عدوهم، وكان ذلك النوم نعمة في حقهم من الله تعالى ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وكان هذا قبل النعاس كما روي عن مجاهد ﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ من الحدث الأصغر والكبير ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِيْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ أي وسوسته وتخويفه، رُوي عن ابن عباس أن المشركين سبقوا المسلمين إلى ماء بدر، وأصبح المسلمون على غير ماء، واحتلم بعضهم في النوم، وكانت منازلهم على كثيب رمل أعفر، تسوخ فيه الأقدام، فوسوس الشيطان إليهم وقال: يا أصحاب رسول الله، تزعمون أنكم على الحق، وأنكم تصلون على غير وضوء، وعلى الجنابة، وقد عطشتم ولو كنتم على الحق لما سبقكم المشركون إلى الماء، فحزنوا حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى المطر حتى جرى الوادي، وتوضؤوا واغتسلوا، وسقوا الركاب، وملؤوا أسقيتهم، وتلبدت الأرض، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وكان ذلك دليلاً على حصول النصر ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي يقويها بالثقة بلطف

الله تعالى ونصره، بمشاهدة طلائعه، أتى بـ «على» قصداً للاستعلاء وفيه إيماء إلى أن قلوبهم قد امتلأت من ذلك حتى كأنه علا عليها، وفي ذلك من إفادة التمكن ما لا يخفى ﴿وَوُثِّتَ بِهِ﴾ بالماء ﴿الْأَقْدَامُ﴾ فلا تسوخ في الرمل، والضمير للربط أي جعلهم صابرين غير فارين ولا متزلزلين.

﴿إِذْ يُوحَىٰ رُبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أي بآني بينكم على تثبيت المؤمنين ﴿فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المراد بالتثبيت: الحملُ على الثبات في موطن الحرب، والجِدُّ في مقاساة شدائد القتال، وكان الملك يشبّه بالرجل، فيأتي ويقول: إني سمعت المشركين يقولون: لئن حملوا علينا لنُكشِفَنَّ، ويمشي في الصفين ويقول: أبشروا فإن الله تعالى ناصركم، وقال الزجاج: كان بأشياء يلقونها في قلوبهم بالإلهام ﴿سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبُ﴾ الخوف تفسير لقوله تعالى: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين، والرعبُ: الخوفُ وانزعاج النفس، بتوقع المكروه ﴿فَأَضْرَبُوا﴾ أمر للملائكة وقيل: بل أمر للمؤمنين، والآية ظاهرة فيما يدعيه الجمهور، من وقوع القتال من الملائكة ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس، وقيل فوق هنا بمعنى على، أي فاضربوهم على أعناقهم ﴿وَأَضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي أطراف اليدين والرجلين، وقيل: هي الأصابع.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي بسبب كفرهم وعصيانهم أمر رسولهم ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الإظهار في موضع الإضمار، لتربية المهابة، والإشعار بعلّة الحكم، والمراد من المشاقة هنا المخالفة، أي ذلك العذاب واقع عليهم بسبب مخالفتهم لمن لا ينبغي مخالفته بوجه من الوجوه ﴿فَكَرَبَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي يعاقبه الله تعالى، فإنَّ عقاب الله شديد العقاب.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب مع الكفرة، على طريق الالتفات، وهو إشارة إلى القتل والأسر الذي نزل بهم ﴿فَذَوُّوهُ﴾ عاجلاً في الدنيا لأن ذلك

يسير بالإضافة إلى المؤجل، الذي أعدّه لهم في الآخرة، ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ الواو بمعنى مع، أي ذوقوا هذا العذاب العاجل، مع أن لكم عذاب النار في الآخرة أجلاً.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى
فِشْقٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خطاب عام للمؤمنين فيما سيقع من الوقائع والحروب، جيء به في تضاعيف القصة اعتناءً بشأنه ومبالغة في حقهم على المحافظة عليه ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ كثيراً بحيث يرى لكثرتهم كأنهم يزحفون، وهو مصدر زحف الصبي، إذا دبَّ على مقعده قليلاً قليلاً، سمي به الجيش المتوجه إلى العدو، لأنه لكثرتهم يرى كجسم واحد، فيحس حركته في غاية البطء، أي زاحفين نحوكم ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ أي أديباركم فضلاً عن الفرار، بل قابلوهم وقاتلوهم والمعنى: إذا لقيتم الكفار فلا تولوهم الأدبار بالانهزام، وعدل عن لفظ الظهر إلى الأدبار، تقيحاً للانهزام.

﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبُرَهُ﴾ أي يوم اللقاء ﴿دُبُرُهُ﴾ فضلاً عن الفرار ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَالٍ﴾ أي تاركاً موقفه إلى موقف أصح، للقتال منه، أو متوجهاً إلى قتال طائفة أخرى، أهم من هؤلاء، وإما بالفرار للكرّ بأن يخيّل عدوه أنه منهزم، ليغره ويخرجه من بين أعوانه، ثم يعطف عليه وحده، أو مع من في الكمين من أصحابه، وهو من باب خدع الحرب ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِشْقٍ﴾ أي منضمّاً إلى جماعة أخرى من المسلمين ليقاتل معهم ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ أي رجع ﴿بِغَضَبٍ عَظِيمٍ كَإِنَّهُ مِّنَ اللَّهِ﴾ تعالى ﴿وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ﴾ أي ومسكنه الذي يأوي إليه هو نار جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنم

مأوى له، والفرار من الزحف من أكبر الكبائر، وهذا إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف، لقوله تعالى: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ وعلى هذا أكثر أهل العلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَئِنْ أَلَّهَ قُلُوبُهُمْ وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَئِنْ أَلَّهَ رَمَىٰ وَإِلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الفاء جواب شرط مقدر كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك، فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم ﴿وَلَئِنْ أَلَّهَ قُلُوبُهُمْ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَئِنْ أَلَّهَ رَمَىٰ﴾ خطاب للرسول ﷺ، وهو إشارة إلى رميه ﷺ فلما التقى الجمعان، أتاه جبريل فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فتناول ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوهمهم، وقال: شأنت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه، والمعنى: وما فعلت أنت يا محمد، تلك الرمية حقيقة، حين فعلتها صورة، ولكن الله خلقها، حين باشرتها على أكمل وجه، حيث أوصلها إلى أعينهم جميعاً، واستدل بالآية على أن أفعال العباد بخلقه تعالى، وإنما لهم كسبها ﴿وَإِلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ﴾ أي ليعطيهم من عنده تعالى ﴿بَلََاءٌ حَسَنًا﴾ أي عطاء حسناً، بالنصر والغنيمة، والأجر والثواب ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم واستغاثتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى جميع ما ذكر ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ﴾ مضعف ﴿كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ أي المقصد من قتالهم إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين، وإبطال حيلهم وتآمرهم.

﴿إِنْ قَسَتْغِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩).

﴿إِنْ قَسَتْغِيحُوا﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج، تعلقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندَيْن، وأهدى الفِئَتَيْن، وأكرم الحزْبَيْن، والمعنى: إن تستنصروا على الجندَيْن وأهداهما ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ أي جاءكم النصر، سمي إهلاكهم نصراً على طريق التهكم، أي فقد جاءكم الهلاك، فالتهمكم في الفتح، حيث وُضع موضع الهلاك ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾ عن الكفر والحرب، ومعاودة الرسول ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الحرب الذي ذقتم غائلته لما في الانتهاء من السلامة من القتل والأسر ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ لقتال النبي ﷺ ﴿نَعُدْ﴾ لما شاهدتموه من نصر ﴿وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ﴾ أي لن تدفع عنكم ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ جماعتكم التي تجمعونها ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء أو المضار ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فتتكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة، لأن سنة الله عز وجل جارية، في نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي تتولوا ﴿عَنْهُ﴾ عن الرسول ﷺ وأعيد الضمير إليه ﷺ لأن المراد هو الأمر بطاعته، والنهي عن الإعراض عنه، وذكر طاعته تعالى للتمهيد، والتنبيه على أن طاعته ﷺ من

طاعته تعالى، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(١) ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ جملة حالية، واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولي، أي لا تتولوا عنه ﷺ والحال أنكم تسمعون القرآن، الناطق بوجوب طاعته، سماع فهم وإذعان.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أي لا تكونوا بالمخالفة ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ أي كالكفرة والمنافقين الذين قالوا سمعنا بمجرد الادعاء، من غير فهم وإذعان ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي والحال أنهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به، ولا يفهمونه حق فهمه، والمنفي سماعٌ خاص، لكنه أتى به مطلقاً، للإشارة إلى أنهم نزلوا منزلة من لم يسمع أصلاً، بجعلهم كالدواب والأنعام، ولهذا قال بعده:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي إن شر ما يدب على الأرض، أو شر البهائم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿الْأُصُمُّ﴾ الذين لا يسمعون الحق ﴿الْأَبْكَمُّ﴾ الذين لا ينطقون به، وصفوا بهما لأن خلق الأذن واللسان لسماع الحق والنطق به، وحيث لم يوجد منهم شيء من ذلك، صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأساً، ثم وُصفوا بعدم التعقل، بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تحقيقاً لفجاعة سوء حالهم، فإن الأصم الأبكم، إذا كان له عقل، ربما يفهم بعض الأمور بالإشارة، ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبه، وإذا كان فاقداً للعقل أيضاً فهو الغاية في الشرية وسوء الحال وبذلك يظهر كونهم شر الدواب، حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ شيئاً من جنس الخير الذي من جملته صرف قواهم إلى تحري الحق واتباع الهدى ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تدبر وتفهم، ولوقفوا على حقية الرسول ﷺ وآمنوا به وأطاعوه، ولكن علم الله تعالى أن لا خير فيهم فلم يسمعهم، لعدم الفائدة، وإليه أشير بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ

(١) سورة النساء، آية: ٨٠.

﴿أَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تفهم ﴿تَوَلَّوْا﴾ ولم ينتفعوا به، وارتدوا بعد التصديق ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن قبوله عناداً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تكرير النداء مع وصفهم بنعت الإيمان لتنشيطهم إلى الإقبال على الامتثال بما يرد بعده من الأوامر ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بحسن الطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يورثكم الحياة الأبدية، في النعيم الدائم، ومن الجهاد الذي أعزكم الله به، كما روي ذلك عن عروة بن الزبير، وقال قتادة: القرآن لما روي أن النبي ﷺ مرَّ على أبي بن كعب وهو يصلي فدعاه فلم يجب وأسرع في صلاته ثم جاءه فقال ﷺ: «ما منعك من إجابتي؟ قال: كنت أصلي، قال: ألم تخبر فيما أوحى ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: بلى ولا أعود إن شاء الله تعالى»^(١) قيل: إن الدعاء كان لأمر لا يحتمل التأخير، وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، كما إذا رأى أعمى وصل إلى بئر، ولو لم يحذره لوقع فيه ولهلك ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أصل الحول - كما قال الراغب - تغير الشيء وانفصاله عن غيره، وباعتبار التغير قيل: حال الشيء يحول، وباعتبار الانفصال قيل حال بينهما كذا، وهذا غير متصور في حق الله تعالى، فهو بيان عن غاية القرب من العبد، أي يصرف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزمته،

(١) أخرجه النسائي، وفي البخاري ومسلم أن ذلك وقع مع أبي سعيد بن المعلى، دعاه ﷺ وهو يصلي فلم يجبه، ثم أتاه فقال: يا رسول الله كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ ثم قال له: لأعلمنك سورة هي أعظم سور القرآن.. وذكر الحديث، انظر فتح الباري على البخاري ٣٠٧/٨.

ويغيّر مقصده، وفيها تنبيه على أنه تعالى مطلع من مكنونات القلوب، وحث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها، قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت، أو غيره وفي الحديث: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يُصْرَفُه حيث يشاء»^(١) أخرجه مسلم. ويراد به كمال التصرف فيه، كتصرفه في قلب واحد ﴿وَأَنَّهُ﴾ أي الله عز وجل ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، فسارعوا إلى طاعته وإلى طاعة رسوله.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّهُ
اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي لا تختص إصابة عذابها، بمن يباشر الظلم منكم، بل يعُمَّه وغيره، والمراد بالفتنة الذنب والمعصية كإقرار المنكر بين أظهركم، وظهور البدع، والتكاسل عن الجهاد، والخطاب إذا كان عاماً للأمة، وفُسرَت الفتنة بإقرار المنكر، لا يخبيء الأشكال على عموم الإصابة بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ لأنه كما يجب على مرتكب الذنب الانتهاء عنه، يجب على الباقيين رفعه، وإذا لم يفعلوا كانوا أئمين، فيصيبهم ما يصيبهم لإثمهم، لما روي عن أبي بكر الصديق قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِعِقَابٍ»^(٢) ﴿وَعَلَّمُوا أَنَّهُ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره وكذا لمن أقر من انتهك محارمه.

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٥٤ في القدر، وتتمته ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرّف القلوب، ثبّت قلوبنا على طاعتك» ورواه الترمذي رقم ٢١٤١ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعين الرحمن.

(٢) رواه الترمذي رقم ٣٠٥٩ في تفسير سورة المائدة، وأبو داود في الملاحم رقم ٤٣٣٨.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ فَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ
النَّاسُ فَنَافَوْكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ أي في العُدَّة وقلة السلاح والعُدَّة
﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرض مكة، يستضعفكم المشركون
والخطاب للمهاجرين، وقيل: للعرب كافة، فإنهم كانوا أذلاء في أيدي
فارس والروم ﴿فَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ﴾ كفار قريش، أي واذكروا حالكم
وقت فلتكم وذلتكم وخوفكم من اختطافكم ﴿فَنَافَوْكُمْ﴾ إلى المدينة
وجعل لكم مأوى تحصنون به عن أعدائكم ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ على الكفار
أو بمظاهرة الأنصار يوم بدر أو بإمداد الملائكة ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من
الغنائم، وقيل: هي عامة في جميع ما أعطاهم من الأطعمة والمنافع
﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم الجليلة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ في أبي لبابة وذلك لما حاصر
رسول الله ﷺ يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، وسألوا رسول الله ﷺ
الصلح على ما صالح عليه بني النضير على أن يسيروا إلى أريحا فأبى رسول الله ﷺ
إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة،
وكان أبو لبابة مناصحاً لهم، لما أن ماله وعياله كان في أيديهم، فبعثه
إليهم، فقالوا: ما ترى هل ننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه، قال
أبو لبابة: ما زالت قدمي عن مكانهما حتى علمتُ أني قد خنتُ رسول الله ﷺ

فترلت الآية ﴿وَتَحْذَرُوا أَمْنَكُمْ﴾ أي ما اتمتمت عليه من الدِّينِ وغيره فيما بينكم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون وباله .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة من الله تعالى، ليلوكم فلا يحملنكم حبُّهم على الخيانة، كأبي لبابة، ولعل الفتنة في المال أكثر منها في الولد، ولذا قدمت الأموال على الأولاد، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أثر رضى الله عليهم، وراعى حدوده فيهم .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذكرون ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ﴾ بسبب ذلك الانتقاء ﴿فُرْقَانًا﴾ أي هداية ونوراً في قلوبكم، تفرقون به بين الحق والباطل ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي يسترها ويمحو ما سلف منها في الدنيا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالتجاوز عنها في الأخرى، فلا تكرار، وقيل: المراد ما تقدم وما تأخر، لأن الآية في أهل بدر، ففي الحديث «لعل الله تعالى اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(١) ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ تنبيه على أن ما وعدوه على التقوى، فضلٌ منه وإحسان كما إذا وعد السيد عبده إنعاماً على عمله ثم أنه عز وجل لما ذكر بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ النعمة العامة للكل، ذكر نبيه ﷺ النعمة الخاصة به بقوله:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾

(١) طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في المغازي، وانظره كاملاً في فتح الباري ٣٠٥/٧ .

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تذكّار لما مكّرت قريش به ﷺ حين كان بمكة، ليشكر نعمة الله في خلاصه من مكّرههم، والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك، وقد اجتمعوا للمشاورة في شأنك في دار الندوة ﴿لِيُنْشِئُوكَ﴾ بالوثاق وإليه ذهب الحسن ومجاهد، أو بالحس في بيت كما روي عن عطاء ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ كلّهم بسيوفهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة، وذلك على ما ذكر ابن اسحق، أن قريشاً لما رأت أن رسول الله ﷺ قد كان له شيعة وأصحاب، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، فحذروا خروج رسول الله ﷺ فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره، فقال أبو البخترى: رأيي أن تحبسوه، فقال رئيسهم: بش الرأي، يأتيكم من يقاتلونكم من قومه ويخلصه من أيديكم، وقال أبو الأسود: أن تخرجوه من أرضكم، فقال رئيسهم: بش الرأي لأنه يفسد قوماً غيركم ويقاتلونكم، فقال أبو جهل: إني أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً فيضربوه ضربة فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلّهم، فإذا طلبوا العقل، - أي الفدية - عقلناه، فقال رئيسهم: صدق، فتفرقوا على رأيه^(١)، فاتى جبريل فأخبره، وأمره بالهجرة، فبيّت علياً في مضجعه، فخرج هو مع أبي بكر إلى الغار، وإلى هذه الحادثة تشير الآية الكريمة ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي ويحتالون ويتآمرون عليك يا محمد، ويدبر لك ربك ما يبطل مكّرههم، ويفضح أمرهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ أي مكّره تعالى أنفذ من مكّرههم، وأبلغ تأثيراً، فسمى تعالى إبطال تأمرهم، وردّ كيدهم في نحورهم مكراً، على طريق المشاكلة أي أنه تعالى أبطل مكّرههم، فإن مكّره تعالى في خيريته، أبلغ من مكّر الغير في شرّيته^(٢).

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٠/١.

(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢٧٥/٦: ﴿ويمكر الله﴾ هو إبطال لمكّرههم، وردّ له ودفع في صدره حتى لا يتجع، فسمي ذلك كله باسم الذنب الذي جاء ذلك من أجله، ولا يحسن في المعنى إلا هذا، وأما أن ينضاف المكر إلى الله عز وجل على =

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِندِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتُلْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ أي القرآن ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ هذا قول النصر بن الحارث، وإسناده إلى الجمع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاضيههم، أو قول الذين اتتمروا في أمره ﷺ وهذا من فرط عنادهم، وغاية مكابرتهم، إذ لو استطاعوا ذلك لفعلوا، فما منعهم أن يشاؤوا وقد تحدّاهم وقرّعهم بالعجز عشر سنين، فلم يعارضوا سورة منه مع أنفتهم، وفرط استكافهم، وأن يُغلبوا خصوصاً في باب البيان وهم أساطينه وأربابه!! ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا إلا ما يكتبونه من أخبار الماضين من الخرافات والأباطيل.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِندِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتُلْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قائل هذا النصر أيضاً على ما روي عن مجاهد وسعيد بن جبیر، وأخرج البخاري عن أنس بن مالك أنه «أبو جهل»^(١) وأخرج ابن جرير عن محمد بن قيس أن قريشاً قال بعضها لبعض: هل أكرم الله تعالى محمداً من بيننا؟ اللهم إن كان هذا... الخ وهو أبلغ في الجحود من القول الأول، لأنهم عدّوا حقيقته محالاً، فلذا

= ما يُفهم فيه في اللغة، فغير جائز فيه أن يقال: الله يمكر، وإنما قولنا ﴿ويمكر الله﴾ كما تقول في رجلٍ شتم الأمير، فقتله الأمير: هذا هو الشتم، فتسمي العقوبة باسم الذنب، وقوله ﴿خير الماكرين﴾ أي أقدرهم وأقواهم جانباً. اهـ.

(١) فتح الباري على البخاري ٣٠٨/٨.

علّقوا عليها طلب العذاب، الذي لا يطلبه عاقل، والمعنى: إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك، فأمطر الحجارة علينا عقوبةً على إنكاره، أو اتتنا بعذاب أليم سواه، والمراد منه: التهكم، وإظهار الجزم على كونه باطلاً.

﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ جواب لكلمتهم الشنيعة، وبيان لموجب إمهالهم، لأن سنته تعالى أن لا يعذب قوماً عذاب استئصال، ما دام نبيّهم بين أظهرهم، وفيه إشعار بأنهم مرصّدون بالعذاب، إذا هاجر ﷺ ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ والمراد باستغفارهم: إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين المستضعفين بعد الهجرة، وإما دعاء الكفرة بالمغفرة، على معنى: أنهم لو استغفروا لم يُعَذَّبُوا.

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ أي أي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم؟ أي لاحظ لهم في ذلك، وهم معذبون لا محالة، وكيف لا يُعَذَّبُونَ ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي وحالهم الصد عن ذلك حقيقة كما فعلوا عام الحديبية، وحكما كما فعلوا برسول الله ﷺ وأصحابه حتى ألجؤوهم للهجرة وكانوا يقولون: نحن ولاية البيت فنصد من نشاء، ونُدخل من نشاء، فردّ الله عز وجلّ هذا القول بقوله ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي ما كانوا مستحقين ولاية أمره مع شركهم ﴿إِنْ أَوْلِيَائُهُ﴾ أي ما أولياؤه ﴿إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ أي الذين يتقون الشرك ولا يعبدون غير الله، والمراد من المتقين المسلمون، وهذه المرتبة الأولى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية

لهم عليه كأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ويعاند، أو أراد به الكل، كما يُراد بالقلة العدم.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ أي دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة، والمراد بالبيت: المسجد الحرام الذي صدّوا المسلمين عنه، والتعبير عنه بالبيت للإشارة إلى أنه بيت الله تعالى فينبغي أن يعظّم بالعبادة، وهم لم يفعلوا ﴿إِلَّا مُكَّاءً﴾ أي صغيراً وهو فعال بضم أوله كسائر أسماء الأصوات إلا ما شذ كالنداء، من مكأ يمكو إذا صفر ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ تصفيقاً مأخوذاً من الصدى، ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب، أو عدم ولايتهم للمسجد، فإنها لا تليق بمن هذه صلاته، روي أنهم كانوا يطوفون عراً، الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم، يصفّرون فيها ويصفّقون، وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلي يخلطون عليه، ويرون أنهم يصلون أيضاً ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ يعني: القتل، والأسر يوم بدر، وقيل: عذاب الآخرة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الباء للسببية، أي بسبب كفركم وضلالكم، اعتقاداً وعملاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جُزر، أو في أصحاب العير، فإنه لما أصيبت قريش ببدر، قيل لهم: أعينونا بهذا المال على حرب محمد، لعلنا ندرك منه

ثأرنا!! ففعلوا، والمراد بسبيل الله: دينه ﴿فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي ندماً وغماً، لفواتها من غير مقصود، جعل ذاتها تصير حسرة، وهي عاقبة إنفاقها مبالغة، وضمير تكون للأموال على معنى تكون عاقبتها عليهم حسرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ أي في مواطن آخر بعد ذلك في الدنيا آخر الأمر، وهو من دلائل النبوة لأنه خبر قبل وقوعه فكان كما أخبر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أصروا على الكفر من هؤلاء ولم يسلموا ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي يساقون لا إلى غيرها، والمقصود من هذا النص إخبار بأنهم لا يستفيدون من بذل أموالهم إلا الخيبة في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة.

﴿لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي الكافر من المؤمن، أو الفساد من الصلاح، واللام متعلقة بيجشرون، وقد يراد من الخبيث ما أنفقه المشركون لعداوة رسول الله ﷺ ومن الطيب ما أنفقه المسلمون لنصرته ﷺ ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبُ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض، حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه، ليزيد به عذابه، كما يكون في الكافرين (١) ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ كله وأما المال المنفق في عداوة الرسول ﷺ وجعله في جهنم، لتكوى به جباههم وجنوبهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الكفار ﴿هُمْ الْخٰسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿وَقَلْبُهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُوا لِلَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ فَإِنْ اتَّهَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلٰكُمْ نَعِمَ الْمَوْلٰى وَنَعِمَ النَّصِيرُ ﴿٣٠﴾

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَتَّقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي المعهودين، وهم أبو سفيان وأصحابه، أي قل لأجلهم ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ عما هم فيه من معاداة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام ﴿ يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ منهم من ذنوبهم التي من جملتها المعاداة، والإنفاق في الضلال، وهذا يدلُّ على أن الكافر بعد الإسلام، لا يؤاخذ بشيء مما مرَّ، وقال ﷺ «الإسلامُ يجبُ ما قبله»^(١) ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ إلى قتاله ﷺ أو إلى المعاداة، على معنى: إن داوموا عليها ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي عاداتُ الله الجارية في الذين تحزَّبوا على الأنبياء، من نصر المؤمنين عليهم، وخذلانهم وتدميرهم.

﴿ وَقَتْلُهُمْ ﴾ عمَّ الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين في القتال لتحقيق ما يتضمنه قوله سبحانه: ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ من الوعيد ﴿ حَقٌّ لَا تَكُونُ فِتْنَةً ﴾ لا يوجد فيهم شرك، كما روي عن ابن عباس، والحسن، وقيل: المراد حتى لا يفتتن مؤمن عن دينه ﴿ وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلِمَةُ اللَّهِ ﴾ وتضمحل الأديان الباطلة كلها، إما بهلاك أهلها جميعاً، أو برجوعهم عنها خشية القتل ﴿ فَإِنْ أَنْتَهُوا ﴾ عن الكفر بقتالكم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصَيْرٍ ﴾ فيجازيهم على انتهاكهم عنه وإسلامهم.

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن الإيمان ولم ينتهوا عن الكفر ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ ﴾ ناصركم فنفقوا ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿ نِعَمَ الْمَوْلَى ﴾ لا يضيع من تولاه ﴿ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴾ لا يغلب من نصره.

(١) هذا طرف من حديث في قصة وفاة الصحابي «عمرو بن العاص» رضي الله عنه أخرجها مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان رقم ١٢١ وفيه قول النبي ﷺ: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ١٠٥/٩.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ
عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ﴾.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ روي عن الكلبي أنها نزلت في بدر، وهو الذي يقتضيه كلام الجمهور، والغنم بمعنى الربح، وكذلك المغنم، والغنيمة، وفسروها بما أخذ من الكفار قهراً، بقتالٍ أو إيجاف فما أخذ اختلاساً لا يُسمى غنيمة ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيطة، خلاً أنَّ سلب المقتول للقاتل، إذا أنفله الإمام، وكذا الأراضي المغنومة ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ والجمهور على أن ذكر الله للتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ والمراد قسم الخمس على الخمسة الموصوفين في قوله تعالى: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ﴾ وإعادة اللام في ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي ﷺ، وقربة النبي ﷺ من بني هاشم، وبني عبد المطلب، وكيفية قسمتها أنها كانت في عهد النبي ﷺ على خمسة أسهم، سهم له ﷺ، وأربعة أسهم للأصناف الأربعة، وأما بعده ﷺ فسهمه للمسلمين وكذا سهم ذوي القربى، وإنما يعطون لفقرائهم، وقيل: سهم الرسول لولي الأمر بعده، وأما الأخماس الأربعة فتقسم بين الغانمين، للراجل سهم ولل فارس سهمان ﴿إِنْ كُنْتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا﴾ عطف على الاسم الجليل، أي إن كنتم آمنتُم بالله وبما أنزلناه ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أريد به من الملائكة والآيات ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ﴾ أي الفريقان من المؤمنين، والكافرين، سُمِّيَ بالفرقان، لفرقه بين الحق والباطل ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه نصركم مع قلتكم، وكثرة أعدائكم.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢)

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ العُدْوَةُ: شَطُّ الوادي، وأصله من العَدُو والتجاوز، والدنيا تأنيث الأدنى، أي إذ أنتم نازلون بشفير الوادي الأقرب إلى المدينة ﴿وَهُمْ﴾ أي المشركون ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أي البعدى من المدينة، وهي تأنيث الأقصى ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي العيرُ وأصحابها «أبو سفيان» وأصحابه، وهو اسم جمع ركب ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي في مكان أسفل من مكانكم، يعني ساحل البحر، وفائدة هذا التوقيت الإخبار عن الحالة الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عُدَّتِه، وضعف شأن المسلمين، وأنَّ غلبتهم في مثل هذه الحال، ليست إلّا صنعاً من الله تعالى، وباهر قدرته ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي لو تواعدتم أنتم وهم القتال، ثم علمتم حالكم وحالهم، لاختلفتم أنتم في الميعاد هيبةً منهم، ويأساً من الظفر عليهم ﴿وَلَكِنْ﴾ جمع بينكم على هذه الحالة من غير ميعاد ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ حقيق بأن يفعل، وهو نصر أوليائه، وقهر أعدائه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي ليموت من يموت عن حجة عابنها، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها، فلا يبقى محلٌّ للتلعلل بالأعذار، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه.

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيراً لَفَسَلْتُمْ وَلَنَنْزَعْنَكُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّكُمْ عَلَيْهِ إِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٣)
﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (١٤)

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا ﴾ الجمهور على أنه ﷺ أرى ما أرى في النوم، وهو الظاهر المتبادر، وحكمة إراءتهم قليلاً أن يخبر أصحابه، فيكون ذلك تثبيتاً لهم ﴿ وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ ﴾ أي لجبنتم ﴿ وَلَنَنْزَعَنَّ فِي الْأَمْرِ ﴾ أي أمر القتال وتفرقت آراؤكم في الثبات، والفرار ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أي أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿ إِنَّمَا عَلَيُّكُمْ ذَاتُ الْقُدُورِ ﴾ والمراد أنه تعالى يعلم ما سيكون فيها من الجرأة والجبن، والصبر والجزع، ولذلك دبر ما دبر.

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ ﴾ أي إذ يبصركم أيها المؤمنون ﴿ إِذْ أَلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ وإنما قللهم في أعين المسلمين، تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ. قال ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي أترأهم سبعين؟ قال: أراهم مائة ﴿ وَيَقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ حتى قال أبو جهل أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، قللهم في أعينهم قبل التحام القتال، ليجتروا عليهم، ولا يستعدوا لهم، ثم كثروهم حتى يرونها مثلهم، لتفاجئهم الكثرة فتبتهتهم، وتكسر قلوبهم، وهذا من عظام آيات تلك الواقعة، فإن البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً، لكن لا على هذا الوجه، ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إبصار بعض دون بعض ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ كثره لأن المراد بالأمر الأول، القتال على الوجه المحكي، وههنا إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ ﴾ أي تصير ﴿ الْأُمُورُ ﴾ فيصرفها كيف يريد، لا راداً لأمره، ولا معقب لحكمه، وهو الحكيم المجيد.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي حاربتم جماعة، ولم يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء ممّا غلب استعماله في القتال ﴿فَأَنْجِبُوا﴾ للقائهم في مواطن الحرب ولا تفروا ولا تنهزموا ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ مستمدين منه مستعينين به، مترقبين لنصره مستظهرين لذكره ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم من النصره والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد، ويقبل عليه فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال وفي الحديث الشريف «لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا..»^(١) الحديث. وإنما نهى ﷺ عن التمني، لما فيه من صورة الإعجاب، والثوق بالقوة، ويتضمن قلة الاهتمام بالعدو وتحقيرهم، وهذا يخالف الاحتياط.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون، فيندرج فيه ما أمر به ههنا اندراجاً أولياً ﴿وَلَا تَنَزَعُوا﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر وأحد، تنازع القوم أي اختلفوا والتنازع أن يحاول كل واحد من الاثنين، أن ينزع صاحبه مما هو عليه ﴿فَنَفْشَلُوا﴾ فتجنبوا عن عدوكم، وتضعفوا عن قتالهم ﴿وَنَذَّهَبَ بِمَحْكَمٍ﴾ قوتكم ودولتكم، فإنها مستعارة للدولة، من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذه، مشبهة بها في هبوبها ونفوذها ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ على شدائد الحرب ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالإمداد والإعانة.

(١) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ١٠٩/٦ ومسلم رقم ١٧٤٢ في الجهاد أيضاً. .
وتتمة الحديث «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قال النبي ﷺ: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم» وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٥٦٨/٢.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ١٧ ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفُتَيَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ١٨ ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ١٩

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني أهل مكة، حين خرجوا منها لحماية العير ﴿بَطَرًا﴾ فخراً وأشراً ﴿وَرِشَاءَ النَّاسِ﴾ ليشنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة، أتاهم رسول أبي سفيان وقال: ارجعوا فقد سلمت غيركم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدم بدرأ، فنشرب فيها الخمر، وننحر الجزور، ونطعم بها من حضرنا حتى تهابنا العرب، فوافوها ولكن سقوا كأس المنيا بدل الخمر، وكانت أموالهم غنائم، والمقصود من الآية، نهى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم، في البطر والرياء، وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ليمنعوا عن دين الله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فيجازيهم عليه، وفيه وعيد وتهديد.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ بأن شجّعهم على لقاء المسلمين، وزين لهم أعمالهم في معاداة المؤمنين، بأن وسوس إليهم ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ ألقى في روعهم، وخيّل إليهم أنهم لا يغلبون، لكثرة عددهم وعُدّدهم فالقول مجاز عن الوسوسة ومعنى ﴿جَارٌ لَكُمْ﴾ أي معين وحافظ لكم، والجار الذي يجير غيره أي يؤمنه مما يخاف ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْ الْفُتَيَانِ﴾ أي تلاقى الفريقان المسلمة، والكافرة، ورأى

اللعين الملائكة ﴿ نَكْصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ﴾ رجع القهقري، و ﴿ نَكْصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ﴾ مثل يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد، ففي الكلام استعارة تمثيلية، شبه بطلان كيده بعد تزيينه، بمن رجع القهقري عما يخافه ﴿ وَقَالَ إِنِّي بِرِئْءٍ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ تبرأ منهم لما رأى إمداد الله لهم بالملائكة، وخاف عليهم، ويحتمل أن يكون معنى ﴿ أَخَافُ اللَّهَ ﴾ أخاف أن يصيبني بمكروه من الملائكة ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ من كلام اللعين وهو الظاهر، وكذب عدو الله في قوله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ فلو خاف الله لعبده وأطاعه، ولكنه أراد أن يبرز سبب انهزامه من المعركة.

﴿ إِذْ يَكُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي الذين لم يطمئنوا إلى الإيمان بعد، وبقي في قلوبهم شبهة ﴿ غَرَّهُمْ هَؤُلَاءِ ﴾ يعنون المؤمنين الذين مع الرسول ﷺ ﴿ وَبَيْنَهُمْ ﴾ حتى تعرضوا لما لا قدرة لهم عليه، فخرجوا وهم ثلاثمائة وسبعة عشر إلى زهاء الألف، توهماً أنهم ينصرون بسببه، روي عن الحسن أن هؤلاء المنافقين لم يشهدوا القتال يوم بدر، وأهل بدر كانوا خلاصة المؤمنين ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ جواب لهم، ورد لمقاتلتهم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يذل من استجار به، ولا يُخذل من توكل عليه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل بحكمته ما تستعبده العقول، وتحار في فهمه الباب الفحول.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ ﴾ خطاب للنبي ﷺ أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب، والمضارع هنا بمعنى الماضي، لأن «لو» ترد المضارع ماضياً أي ولو رأيت ﴿ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾ بيدر والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو ترى حالهم حين تقبض أرواحهم الملائكة ﴿ يَضْرِبُونَ ﴾

وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴿٥٠﴾ أي يضربون ما أقبل منهم وما أدبر، يعني جميع أجسادهم، ويقولون: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي عذاب النار في الآخرة، فهو بشارة لهم من الملائكة بما هو أدهى وأمر، مما هم فيه، والتعبير ﴿ذُوقُوا﴾ قيل: للتهكم، وفيه نكتة أخرى، وهو أنه قليل من كثير، وأنه مقدمة وبهذا الاعتبار يكون فيه المبالغة، وجواب لو محذوف، أي لرأيت أمراً فظيماً لا يكاد يوصف.

﴿ذَلِكَ﴾ الضرب والعذاب ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْبَاطِلَ﴾ أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب، و«ظلام» لنفي الظلم بأنواعه، وهي للنسبة مثل: البرّاز، والعطار، والنجار، أي لا ينسب إليه الظلم أصلاً.

﴿كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٥١﴾.

﴿كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي داب هؤلاء مثل داب آل فرعون، وهو عملهم وشأنهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٣﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب منوطاً بأعمالهم السيئة ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ أي

ذلك كائن بسبب أن الله تعالى ﴿لَمْ يَكْ مُعِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا﴾ أي لم ينبغ له سبحانه، ولم يصح في حكمته، أن يكون بحيث يغير نعمة أي نعمة كانت أنعم بها ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ من الأقوام ﴿حَقَّ يُعِيرُوا مَا يَأْتُسِيهِمْ﴾ أي ذواتهم من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها، وقت ملابتهم للنعمة، ويتصفوا بما ينافيها، كحال قريش المذكورين، حيث كانوا قبل البعثة عبدة أصنام، مستمرين على حال مصححة، لإفاضة نعم الإمهال، فلما بُعث النبي ﷺ غيروها على أممها حال منها حيث كذبوه ﷺ وعادوه ومن تبعه من المؤمنين، وتحزبوا عليهم، وقطعوا أرحامهم، فغيّر الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الإمهال، ووجه إليهم نبال العقاب والتكال، وأصل ﴿يَكْ﴾ يكن فحذفت النون تخفيفاً لكثرة استعماله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وبسبب أنه تعالى سميع عليم، يسمع ويعلم جميع ما يأتون ويلدرون.

﴿كَذَّابٌ آءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ التكرار للتأكيد، وقيل: الأول فيما فعلوه، والثاني فيما فعل بهم ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ إخبار بترتب العقوبة عليه ﴿يَذُوبُهُمْ﴾ أي معاصيهم المتفرعة على كفرهم ﴿وَأَغْرَقْنَاهُ آءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ عطف على أهلكنا وفيه إيدان بكمال هول الإغراق ﴿وَكُلٌّ﴾ أي كل من الأمم المكذبة ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعصية، وهم الواضعون الكفر والمعصية مكان الإيمان والطاعة، ولذلك أصابهم ما أصابهم.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾ فَإِنَّمَا تَشْقِيهِمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ٥٧﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ بعدما شرح أحوال المهلكين، شرع في بيان أحوال البعض منهم، وجعلوا شر الدواب لا شر الناس، إيماء إلى أنهم بمعزل

من مجانستهم، وإنما هم من جنس الدواب، ومع ذلك شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ في حكمه وقضائه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أصرّوا على الكفر، ولجّوا فيه ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فلا يتوقع منهم الإيمان لأنهم مطبوعون على الكفر عن ابن عباس: هم نفر من عبد الدار.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ المعاهدة هي عبارة عن إعطاء العهد وأخذه من الجانبين، أي أخذت منهم عهدهم بأن لا يعينوا المشركين ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ صيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض، وكونهم على نية في كل حال، أي ينقضون عهدهم ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ من مرات المعاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَنْقُضُونَ﴾ الله في غدرهم، ويستمررون على النقض، ولا يبالون بما فيه من العار والنار، والآية نزلت في يهود بني قريظة، عاهدوا رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه، فأعانوا المشركين بالسلاح فقالوا نسينا، ثم عاهدهم ﷺ فنكثوا ومالؤوا عليه ﷺ يوم الخندق، وركب كعب إلى مكة فحالفهم على حرب رسول الله ﷺ.

﴿فَأَمَّا لَشَفَنَهُمْ﴾ شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم، أي إذا كان حالهم كما ذكر فإما تظفرون بهم ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ﴾ أي ففرق تفريقاً عنيفاً، بأن تفعل بهم من النكاية والتعذيب، ما يوجب أن تنكل ﴿مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ أي من وراءهم من الكفرة، والتشريد: التفريق مع الاضطراب فالمعنى: إن ظفرت بهؤلاء الذين ينقضون العهد مراراً فافعل بهم فعلاً ليخاف من وراءهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ يتعظون بهم، فيرتدعوا عن النقض وعن الكفر.

﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْخَائِنِينَ﴾

﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك ﴿فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي فاطرح إليهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ على طريق مستو، بأن تظهر لهم النقض، كي لا يكون من قبلك شائبة خيانة^(١) ولزوم الإعلام عند أكثر العلماء، إذا لم تنقض مدة العهد، أو لم يستفرض نقضهم له، أمّا إذا انقضت المدة، أو استفاض النقض وعلمه الناس، فلا حاجة إلى ما ذكر، ولهذا غزا النبي ﷺ أهل مكة، من غير نبذ لمعاونتهم بني كنانة، على قتل خزاعة، حلفاء النبي ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ تعليل الأمر بالنبذ، كأنه قيل: وإما تعلمن من قوم خيانة، فانبذ إليهم، ثم قاتلهم، إن الله لا يحب الخائنين، وهم من جملتهم، وعن عمر بن عتبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهدٌ فلا يشدّ عقده، ولا يحلّها، حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء»^(٢).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٠﴾.

(١) قال النحاس في إعراب القرآن ١٩٢/٢: هذا من معجز ما جاء في القرآن، مما لا يوجد في الكلام مثله، على اختصاره وكثرة معانيه، والمعنى: إمّا تخافنّ خيانة من قوم بينك وبينهم عهد، فانبذ إليهم العهد، أي قل لهم: قد نبذت إليكم عهدكم، وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة، فأوجز الله ذلك كله في هذه الآية الكريمة ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ والله دُرّ التنزيل.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١١١/٤ وأبو داود في الجهاد ٨٣/٣ والترمذي في السير ٢٠٣/٥.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي لا يحسبن أولئك الكافرون أنفسهم سابقين، أي مفلتين من أن يُظفر بهم، والاقتصار على دفع هذا التوهم، للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم حول وهمهم، وإنما الذي يمكن أن يدور في خلدكم حب النجاة من الهلاك ﴿إِنَّهُمْ لَا يَعْجِرُونَ﴾ أي لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ في أنهم في قبضة الله عز وجل، لا يعجزون الله من الانتقام في الدنيا أو في الآخرة.

﴿وَأَعِذُوا لَهُمْ﴾ خطاب لكافة المؤمنين، أي أعدوا لقتال الكفار على الإطلاق ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ من كل ما يُتقوى به في الحرب أطلق عليه القوة مبالغة، وإنما ذكر هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد، لا يتأتى في كل زمان، عن عتبة بن عامر أنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ «ألا إنَّ القوةَ الرميَّ، قالها ثلاثاً»^(١) والظاهر العموم، إلا أنه خصَّ الرمي وهو من قبيل قوله ﷺ: «الحجَّ عرفة» فهذا لا ينفي غيره، لأن معنى الآية على وجوب الاستعداد لجهاد العدو، بجميع ما يمكن من الآلات، وكل ذلك من فرض الكفاية، والتاريخ سجّل السيف سلاحاً في الحروب، ومِرت العصور، وتطوّر السلاح إلى السيارات المدرّعة، والطائرات الفاذقة، والغواصات المدمرة، والغازات الخانقة وغيرها، والشعوب الإسلامية مشمولة بهذا النداء الإلهي ﴿وَأَعِذُوا﴾ فالمراد من القوة معنى شامل لأنواع القوى، فقد عمّ الداء العضال، واشتد النكال، وملك البسيطة أهل الكفر والضلال، وتعيّن على أئمة المسلمين الاستعداد التام، ولعل فضل ذلك الرمي، يثبت لهذا الرمي في زماننا، لقيامه مقامه في الذبّ عن بيضة الإسلام ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ اسم للخيال التي تربط

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ٦٤/١٣ بلفظ «ألا إنَّ القوةَ الرميَّ، ألا إنَّ القوةَ الرميَّ، ألا إنَّ القوةَ الرميَّ» كررها ثلاث مرات، ورواه أبو داود رقم ٢٥١٥ وابن ماجه رقم ٢٨١٣ ولم يخرجها البخاري.

في سبيل الله، والرباط بالكسر ما تشدُّ به الدابة، والمراد به هنا: المربوط مطلقاً، إلا أنه استعمل في الخيل، وخصَّ بها لأنها آلة الجهاد في كل زمان، والعطف على القوة للإيدان بفضلها على سائر أفرادها، كعطف جبريل على الملائكة، في قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَرُسُلِهِ، وَجَبْرِيلَ وَمِيكَالَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾^(١) ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ﴾ أي تخوفون به ﴿عَدُوًّا لِلَّهِ وَعَدُوًّا لَكُمْ﴾ وهم كفار مكة خُصُّوا بذلك لغاية عتوهم، ومجاوزتهم الحدَّ في العداوة ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ من غيرهم من الكفرة قيل: هم اليهود، وقيل: المنافقون، وقوله سبحانه: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي يعلمهم على الحقيقة، ويعلم خطرهم وضررهم، وما هم عليه من العداوة ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعداد القتال أو لسائر وجوه الخير ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي يؤدي بتمامه إليكم جزاءه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَنْظُرُونَ﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب، وفي التعبير عن ذلك بالظلم، مع أن له تعالى أن يفعل ما يشاء، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١١)
 وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ
 وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ
 بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣﴾.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ جَنَحَ: مال، أي وإن مالوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾ للصالح والاستسلام ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ للسلم أي فمل إليها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فوض أمرك إليه سبحانه، فإن الله يعصمك من مكرهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتهم، فيؤاخذهم بما يستحقونه، ويردُّ كيدهم في نحورهم.

(١) سورة البقرة، آية: ٩٨.

﴿وَأِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بإظهار السُّلم والمحبة، وإبطان الحرب والكيد ﴿فَأَبَٰسَٰتُكَ اللَّهُ﴾ فاعلم بأن الله كافيك من شرورهم، وناصرك عليهم، فلا تبال بهم ﴿هُوَ﴾ عز وجل ﴿الَّذِي أَيْدُكَ بِصُرُوهٖ﴾ تعليل لكفايته تعالى إياه ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من المهاجرين والأنصار.

﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ مع ما جُبلوا عليه من الحميَّة والعصبيَّة، والتهالك على الانتقام، بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان، حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة ^(١) ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لتأليف ما بينهم ﴿مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لتناهي عداوتهم، وقوة أسبابها ﴿وَلَكِنْ﴾ الله ﴿جَلَّتْ قُدْرَتُهُ﴾ أَلَفَ بَيْنَهُمْ ﴿قَلْبًا وَقَلْبًا﴾ إِنَّهُ عَزِيزٌ ﴿كامل القدرة والغلبة، لا يستعصي عليه سبحانه شيء مما يريد﴾ حَكِيمٌ ﴿يعلم المصالح فيوجدوها بمقتضى حكمته عز وجل، ومن آثار حكمته تدبير أمورهم، على وجه أحدث فيهم التواءم والتحاب، فاجتمعت كلمتهم وصفوفهم.

﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٧﴾ أَلَتْنِ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٨﴾

(١) لا شك أن تأليف القلوب مع ما كانوا عليه من العداوة والبغضاء، من أعظم الآيات الربانية، فقد كانت الدماء تجري بينهم كالأنهار، حتى جاءهم الإسلام فجعلهم إخوة متحابين في الله، وانظر ما كتبه أبو حيان في البحر المحيط ٥١٤/٤ فقد أجاد فيه وأفاد، وكذلك الزجاج في معاني القرآن ٤٦٨/٢.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ شروع في بيان كفايته تعالى إياه، في جميع أموره الظاهرة والباطنة ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي كافيك الله في جميع أمورك ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كفاك وكفى أتباعك الله ناصراً، والآية نزلت في غزوة بدر حيث نصر الله جنده وأولياءه المؤمنين.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ التحريض على القتال: الحث عليه، أي بالغ في حثهم على القتال في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله المأمور به ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِرُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ شرط في معنى الأمر، بمصابرة الواحد للعشرة، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا، بعون الله وتأييده، فالجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى، وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بيان للألف، وهذا القيد معتبر في المائتين أيضاً ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر، لا يشبتون عند اللقاء ثبات المؤمنين، رجاء الثواب، ولا يقاتلون امتثالاً لأمر الله تعالى، بل للحمية الجاهلية.

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ﴾ شق ذلك على المسلمين، حين فُرض عليهم أن لا يفرّ واحدٌ من عشرة، فجاء التخفيف فقال تعالى: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾. فلما خفف الله عليهم من العدة، نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم^(١) والمراد هنا بالضعف ضعف البدن، لا الضعف في الدين وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بتيسيره وتسهيله ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله، ولما كان الصبر شديد الأهمية، ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ إشارة إلى تأييدهم، وأنهم منصورون، لأن من كان الله معه لا يُغلب ولا يُقهر.

(١) فتح الباري على صحيح البخاري ٣١٤/٨ كتاب التفسير.

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْرِخَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ
عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ٦٧
سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ ٦٨ ﴾ فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ٦٩ .

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ ﴾ بيان أنَّ ما يُذكر، سُنَّةٌ مطَّردةٌ فيما بين الأنبياء، أي ما صحَّ وما استقام لنبيٍّ من الأنبياء ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى ﴾ جمع أسير ﴿ حَتَّى يُشْرِخَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يكثر القتل، ويبالغ فيه، حتى يُذل الكفر، ويقل حزبه، ويعز الإسلام، ويستولي أهله، من أئخنه المرضُ إذا أثقله وأئخنته الجراحة أي أوهنته بحيث لا حراك به، وأئخن في الأرض سار إلى العدو وأوسعهم قتلاً ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ حطامها بأخذكم الفداء، والخطاب لأصحاب النبي ﷺ مسوق للعتاب ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة، أو سبب نيل ثواب الآخرة من إعزاز دينه، وقمع أعدائه ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ يُغلب أوليائه على أعدائه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يعلم ما يليق بكل حال، ويخصه بها، كما أمر بالإثخان ومنع عن الافتداء، حين كانت الشوكة للمشركين، وخيَّر بينه وبين المنِّ بقوله تعالى: ﴿ فَمَا مَثًا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ ﴾ لَمَّا تحولت الحال، وصارت الغلبة للمؤمنين، عن ابن مسعود قال: لَمَّا كان يوم بدر، جيء بالأسرى وفيهم العباس، وعقيل بن أبي طالب، فقال رسول الله ﷺ: ما ترون بهؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم لعلَّ الله تعالى أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذبوك، وأخرجوك، وقتلوك، مكثنا منهم نصرب أعناقهم، فدخل النبي ﷺ ولم يزد عليهم شيئاً، ثم خرج ﷺ فقال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَلِيْن قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لِيَشْدُد قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ، حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ مِثْلُ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ومثلك يا

عمر كمثل نوح إذ قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(١) أنتم عائلة فلا يفلتن أحد إلا بفداء. قال عمر: فهُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهُوَ ما قلتُ، وأخذ منهم الفداء، فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فقال ﷺ: على أصحابك في أخذهم الفداء، لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى...﴾^(١) الآية. روي أن الأسارى كانوا سبعين، فيهم العباس، وعقيل بن أبي طالب، وكان الفداء لكل أسير أربعون أوقية، والأوقية أربعون درهماً، فيكون مجموع ذلك ألفاً وستمائة درهم لكل أسير.

﴿لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقٌ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح وهو أن لا يعاقب المخطيء في اجتهاده، أو لا يعذب أهل بدر ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي لأصابكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ أي لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره، لكن الذي تسبب العفو عنه، كل ما ذكر واستدل بالآية على أن الأنبياء عليهم السلام قد يجتهدون ويأتي الوحي على خلافه، ولا يقرون على الخطأ.

﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنائم، روي أنه لما نزلت الآية الأولى، كفَّ أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء، فنزلت هذه الآية، فالمراد مما غنمتم إما الفدية وإما مطلق الغنائم ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أكلاً حلالاً طيباً، وفائدة الإحلال إزاحة ما وقع في نفوسهم منه، بسبب تلك المعاتبة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ فيغفر لكم ما فرط منكم، من استباحة الفداء قبل ورود الإذن ﴿رَجِيمٌ﴾ يرحمكم ويتوب عليكم إذا اتقيتموه.

(١) أخرجه مسلم في إفراده من حديث عمر بن الخطاب ١٣٨٣/٣، ورواه الترمذي مختصراً ٢٥٣/٥.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُومٌ لَمَنَ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُومٌ لَمَنَ فِي أَيْدِيكُمْ﴾ في ملكتكم واستيلائكم، كأن أيديكم قابضة عليهم ﴿مِنَ الْأَسْرَى﴾ الذين أخذتم منهم الفداء ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيماناً وإخلاصاً، ونيةً صحيحة، ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء، والآية نزلت في جميع أسارى بدر، وقيل: إنها نزلت في العباس، وقد روي عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: كنتُ مسلماً، لكن استكروهوني! فقال ﷺ له: إن يكن ما تقول حقاً فالله تعالى يجزيك، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافد نفسك وابني أخويك «نوفل بن الحارث» و«عقيل بن أبي طالب»^(١). وروي عنه أنه قال بعد حين: «لقد أبدلني الله خيراً من ذلك، وإنِّي أنتظر من ربي»^(٢) يعني الموعود بقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن وتاب، والظاهر أن الآية

(١) لما وقع العباس عم النبي ﷺ في الأسر، كان معه عشرون أوقية من ذهب، فأخذت منه ولم تحسب من فدائه، وكلف أن يفدي ابني أخيه نوفل، وعقيل، فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب، وقال النبي ﷺ لأصحابه: أضعفوا على العباس الفداء - أي خذوه مضاعفاً منه - فأخذوا منه ثمانين أوقية، فقال العباس لرسول الله ﷺ: «لقد تركتني أتكفّف الناس ما بقيت»!! فقال له ﷺ: وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل؟ فقال: أيّ الذهب؟ فقال: إنك قلت لها: إنني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولولدك، فقال: يا ابن أخي من أخبرك بهذا؟ قال: ربي أخبرني بذلك، فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم، فأسلم رضي الله عنه، وأمر ابني أخيه أن يسلم، ففهم نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنَ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ الآية وانظر صفوة التفاسير ٥١٣/١.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣٤٩/٢.

عامة لساثر الأسرى على ما تقتضيه صيغة الجمع، ولا يأبى ذلك رواية أنها في العباس، لما قالوا من أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

﴿وَلِنْ يُرِيدُوا﴾ أي الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بما أظهروا من القول، أي نقض ما عاهدوك من ألا يعودوا لمحاربتك، ولا إلى معاودة المشركين ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ﴾ بالكفر ونقض ميثاقهم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل بدر، فهذا كلام مسوق من جهته تعالى لتسليته ﷺ بطريق الوعد له، والوعيد لهم، روي أنه ﷺ لما أطلقهم من الأسر تعاهد معهم أن لا يعودوا إلى محاربته ﷺ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي فإن عادوا للخيانة، فسأمكنك منهم أيضاً، وأقدرك عليهم حسبما رأيت يوم بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما في نياتهم وما يستحقونه من العقاب ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه يفعل بحكمته كل ما يفعله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٧٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ هم المهاجرون، هاجروا من أوطانهم حباً لله ولرسوله ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ بأن صرفوها إلى المجاهدين والسلاح وأنفقوها على المحاولج ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بمباشرة القتال وافتحام المعارك ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ متعلق بجاهدوا، ولعلّ تقديم الأموال، لما أن المجاهدة بالأموال أكثر، وأتمّ دفعاً للحاجة، حيث لا تتصور المجاهدة بالنفس، بلا مجاهدة بالمال، وقيل: ترتيب هذه المتعاطفات في الآية، على حسب الوقوع، فالأول الإيمان، ثم الهجرة، ثم الجهاد بالمال، ثم بالنفس ﴿وَالَّذِينَ ءَاوُوا﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين، وأنزلوهم منازلهم، وبذلوا لهم أموالهم، وآثروهم على أنفسهم ﴿وَنَصَرُوا﴾ ونصروهم على أعدائهم

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في النصره والإرث، وقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة، دون الأقارب، كما هو المروي عن ابن عباس والحسن وقتادة فإنهم قالوا: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجري يرثه أخوه الأنصاري، إذا لم يكن بالمدينة وليٌّ مهاجري واستمر أمرهم على ذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بالنسب ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُم مِّن وَلَدِيَّتِهِمْ مِّن شَيْءٍ﴾ أي من توليهم في الميراث، فلا إرث بينهم، ولا نصيب لهم في الغنمة، ولو كانوا من أقرب أقاربكم ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ إلى المدينة المنورة ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الَّذِينَ قَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ أي فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ مِّنْهُمْ﴾ أي فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين، فإنه لا يجوز نقض عهدهم، بنصرهم عليهم ﴿وَاللَّهُ يَمِيزُ﴾ أي معاهدة، فلا تخالفوا أمره، كيلا يحل بكم عقابه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي في الميراث، وهذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والمؤازرة بينهم وبين المسلمين، ولو كانوا أقارب، ومن هنا ذهب الجمهور إلى أنه لا يرث مسلم كافراً، ولا كافراً مسلماً، لقد كان كفار قريش في غاية العداوة لليهود، فلما ظهرت دعوة الرسول ﷺ، تناصروا وتعاونوا على إيذائه، واشتركوا في العداوة، فصارت هذه الجهة موجبة لانضمام بعضهم إلى بعض ﴿إِلَّا تَفْعَلُوا﴾ أي إن لا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم، وتولي بعضكم لبعض، وقطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي تحصل فتنة عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على العدو، كان العدو ظاهراً، والفساد زائداً ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ في الدين وهو سفك الدماء، والفساد يحصل من اختلاف الأفكار.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي هم المؤمنون الكاملون حقاً، لأنهم حققوا إيمانهم بالهجرة من الوطن، ومفارقة الأهل والسكن، والانسلاخ من المال والدنيا، لأجل الدين والعقبى، وهو كلام مسوق للثناء عليهم، والشهادة بفوزهم بالقدح المعلى من الإيمان ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة لا تبعة ولا منة فيه.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾ أي بعد السابقين إلى الإيمان، والهجرة، والنصرة ﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار، ألحقهم الله تعالى بالسابقين، تفضلاً منه سبحانه، وترغيباً في الإيمان والهجرة، وهي الهجرة الثانية بعد الحديبية، وهم التابعون بإحسان، وفيه إشارة إلى أن السابقين، هم السابقون بالشرف، وأن هؤلاء دونهم فيه، وبهذا القسم صارت أقسام المؤمنين أربعة، والتوارث إنما هو في القسمين الأولين، ولو اتفق كون المؤمنين في بلد، وفي عددهم قلة، وللكفار شوكة، فيلزمهم الهجرة من وطنهم، لأنه قد حصل فيهم مثال العلة في الهجرة الأولى ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ أي ذوو القرابة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ في التوارث من الأجانب، وهو نسخٌ للتوارث بالهجرة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في حكمه في القرآن، أخرج الطبراني عن ابن عباس أنه قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، وورث بعضهم من بعض، حتى نزلت هذه الآية، فتركوا ذلك، وتوارثوا بالنسب، واستدل بها على توريث ذوي الأرحام، الذين ذكرهم الفرضيون، وهم من لا فرض لهم ولا

تعصّب ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومن جملة ما في تعليق التوارث، بالقراءة الدينية أولاً، وبالقراءة النسيئة آخراً، من الحكم البالغة، والله تعالى ولي التوفيق، سبحانه رب العزة عما يصفون وسلام على خير خلقه محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنفال»

سُورَةُ التَّوْبَةِ

مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية

سورة مستقلة ليست بعضاً من سورة الأنفال، وترك التسمية في هذه السورة لا مدخل لرأي أحد فيه، وإنما هو الوحي، ولا مزية في عدم نزولها ههنا^(١)، وليس المقصود ههنا إلا إظهار صفة القهر، ولا يتأدى ذلك مع افتتاح بالبسملة.

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذه براءة واصله من الله ورسوله، وأصل البراءة انقطاع العصمة ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الخطاب في

(١) إنما لم توجد البسملة في هذه السورة، لأنها ابتدأت بالوعيد والتهديد والعذاب، وبسم الله الرحمن الرحيم آية رحمة، ولا تناسب بين الرحمة والعذاب، فهذا هو السر في عدم ذكر التسمية في هذه السورة، وقد سئل علي رضي الله عنه فقل له: لم لم تكتبوا في براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ فقال للسائل: يا بُنَيَّ إن «براءة» نزلت بالسيف، والتسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين.

﴿عَهْدُكُمْ﴾ للمسلمين، وقد كانوا عاهدوا مشركي العرب، بإذن الله واتفاق الرسول ﷺ، فنكثوا إلا بني كنانة وبني ضمرة، وإنما نسبت البراءة إلى الله ورسوله لأنها عبارة عن إنهاء حكم الأمان، وذلك منوط بحكم الله عز وجل، لأنه أمر كسائر الأوامر، واشترك المسلمين في حكمها، إنما هو على طريقة الامتثال بالأوامر، وأما المعاهدة فحيث كان عقداً لا يتحصل في نفسه إلا بمباشرة المتعاقدين، لم يتصور صدورها عنه سبحانه، وإنما الصادر عنه الإذن، والذي يباشرها المسلمون، فنُسبت كل واحدة منهما إلى من هو أصل فيها، وإدراج النبي ﷺ في النسبة الأولى للتنويه بشأنه، وإثارة الجملة الاسمية للدلالة على دوامها على أن في ذلك تفخيماً لشأن البراءة، وتهويلاً لأمرها.

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع الأول، وعشر من ربيع الآخر، لأن التبليغ كان يوم النحر، والمقصود من هذا التأجيل أن يتفكروا، ويحتاطوا لأنفسهم، ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة إلا الإسلام، أو القتل، فيصير هذا داعياً لهم إلى الدخول في الإسلام، روي أنه ﷺ أراد أن يحج سنة تسع، فقيل له: المشركون يحضرون الحج ويطوفون بالبيت عراة، فبعث أبا بكر في تلك السنة أميراً على الموسم، ليقيم للناس الحج، ثم بعث بعده علياً. أخرجه أحمد والترمذي وحسنه عن أنس قال: بعث النبي ﷺ ببراءة مع أبي بكر، ثم دعاه فقال: لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجلاً من أهلي، فدعا علياً فأعطاه إياه ليقراً على الناس صدر براءة، فلما لحق علي قال أبو بكر رضي الله عنه: أمير أو مأمور؟ قال علي: مأمور، فمضيا فلما كان يوم التروية خطب أبو بكر، وعلم الناس مناسكهم، وقام علي يوم النحر عند حجرة العقبه، فقال: أيها الناس إني رسولُ رسولِ الله إليكم فقالوا بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية، من أول سورة براءة، ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، وألا يطوف بالبيت عريان، ولا

يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يُتَمَّ لكل ذي عهد عهده^(١)، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ﴾ بسياحتكم في أقطار الأرض ﴿غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي غير فائتين عذابه، بالهرب والنحْضَن ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا، والعذاب في الآخرة، ووضع اسم الجليل ﴿اللَّهُ﴾ موضع الضمير، لتربية المهابة، وتهويل أمر الإخزاء.

﴿وَأَذَّنَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَنَشِيرِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَعَذَابُ إِلِيمٌ﴾^(٢).

﴿وَأَذَّنَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي إعلامٌ، فعَالٌ بمعنى الإفعال، كالعطاء بمعنى الإعطاء وإنما قال: ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ أي كافة، لأن الأذان غير مختص بقوم، كالبراءة الخاصة بالناكثين، بل هو شامل لجميع الناس ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ يوم العيد، لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه، لما أخرج البخاري وأبو داود وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات، فقال: أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر، قال هذا يوم الحج الأكبر»^(٢) ووصفُ الحج بالأكبر، لأن العمرة تسمى حجاً أصغر، وأما تسمية الحج الموافق يوم عرفة فيه ليوم الجمعة بالأكبر، فلم يذكروها، وإن كان ثواب ذلك الحج

(١) انظر سنن الترمذي ٢٥٧/٥ من كتاب التفسير، ومسنَد الإمام أحمد ٧٩/١ أقول: وإنما بعث ﷺ علياً بعد أبي بكر، من أجل أن عادة العرب قد جرت في عقدها ونقض العهد، أن يتولى ذلك رجلٌ من نفس القبيلة، فلهذا بعث علياً ليؤذن المشركين بذلك، وليس فيه - كما زعم بعض الجهلة - تفضيل عليٍّ على أبي بكر، فقد كان أبو بكر في ذلك العام الإمام، وعليٌّ يأتُمُّ به، وأبو بكر الخطيب، وعليٌّ يُسمع الناس.

(٢) انظر فتح الباري على البخاري ٣٢٠/٨.

زيادةً على غيره ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ من المعاهدين الناكثين ﴿وَرَسُولُهُ﴾ أي ورسوله كذلك بريء من المشركين ﴿فَإِنْ تَبَيَّنَ﴾ من الكفر والغدر بنقض العهد، والالتفات للتهديد ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي التوبة خير لكم في الدارين ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الإيمان والتوبة ﴿فَاعْلَمُوا أَنكُمُ عِزُّ مُعْجِزِ اللَّهِ﴾ لا تفوتونه طلباً، ولا تعجزونه هرباً ﴿وَيَسِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَعْدَاسِ﴾ مؤلم في الآخرة، والتعبير بالبشارة للتهكم والسخرية.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ استدراك من النبذ السابق، كأنه قيل: لا تمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر، لكن الذين عاهدتم من المشركين، ولم ينقضوا عهدهم، فلا تجروهم مجرى الناكثين، في المسارعة إلى قتالهم، بل أتموا إليهم عهدهم، وهم «بنو ضمرة» من كنانة، أمر الله تعالى بإتمام عهدهم، وكان بقي من مدتهم تسعة أشهر ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروط العهد والميثاق ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا﴾ أي ولم يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم ﴿فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ أي أدوا إليهم العهد كاملاً ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي إلى انقضائها، ولا تفاجئوهم بالقتال عند مضي الأجل المضروب للناكثين، ولا تعاملوهم معاملتهم، وهذه الطائفة لما أنفوا النكت، استحقوا من الله تعالى أن يُصان عهدهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ تنبيه على أن مراعاة حقوق العهد، من باب التقوى، وإن كان المعاهد مشركاً، وأن التسوية بين الغادر والوفّي، منافية لذلك.

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ انقضى وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لا بَسَه، يقال: سلخْتُ الإهاب عن الشاة أي كشطته ونزعته عنها، والانسلاخ فيما نحن فيه استعارة حسنة، وفي ذلك مزيد لطف، لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر، كانت حرزاً لأولئك المعاهدين، عن غوائل أيدي المسلمين، فَنِيَطَ قتالهم بزوالها. ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين للعهود، أو الآية على العموم، أي قاتلوا المشركين كافة، واقتلوا الكفار مطلقاً ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ من جِلٍّ وَحَرَمٍ ﴿وَحَذُّهُمْ﴾ أي بالأسر، والأخذ: الأسير، وفُتِّرَ الأسرُ بالربط، لا لا باسترقاق، وقيل: المراد إمهالهم للتخيير بين الإسلام، والقتل ﴿وَأَحْضَرُوهُمْ﴾ أي احبسوهم في القلاع والحصون، حتى يُضْطَرُّوا إلى الإسلام أو القتل ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي كل ممر، لئلا ينسطوا في البلاد، والقعود ليس المراد حقيقة، بل المراد ترقبهم وترصدهم، فالمعنى: ارصدوهم في كل مرصد يُرصد فيه ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ طيبةً بهما أنفسهم، تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم، واكتفى بذكرهما لكونهما رأسَ العبادات البدنية، والمالية ﴿فَخَلَوْا سَبِيلَهُمْ﴾ فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك، وفيه دليل على أن تارك الصلاة، ومانع الزكاة لا يُخلى سبيله، وتخليه السبيل في كلام العرب: كناية عن الترك، ونُقل عن الشافعي أنه استدلَّ بالآية، على قتال تارك الصلاة، وقتال مانعي الزكاة، لأنه تعالى أباح دماء الكفار بجميع الأحوال، ثم حرَّمها عند التوبة عن الكفر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ولعل أبا بكر رضي الله عنه استدلَّ بها على قتال مانعي الزكاة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف، ويشبههم بإيمانهم وطاعتهم.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم ﴿أَسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك عن القتل، وطلب منك جوارك، للتعرف على أمور الدين، بعد انقضاء الأشهر، من المشركين الذين أمرتكم بقتالهم ﴿فَأَجْرُهُ﴾ أي فآمنه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي يتدبر ويطلع على حقيقة الأمر، ويعرف دين الله ﴿ثُمَّ أُتِلْغَ مَا مَنِئْتُمْ﴾ بعد سماع كلام الله، إن لم يؤمن ﴿مَا مَنِئْتُمْ﴾ أي موضع آمنه، وهو ديار قومه، التي يأمنون فيها، ثم يجوز قتالهم وقتلهم فيه، والآية دليل على أن المستأمن، لا يؤذى، وليس له الإقامة في دار الإسلام، ويُمكن من العودة إلى وطنه ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمن ﴿يَأْتِيهِمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإيمان، وما حقيقة الدين الذي تدعوهم إليه، فلا بد من أمانهم، ريثما يسمعون كلام الله تعالى ويتدبرونه، ولا يبقى لهم معذرة، قال الحسن: هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة، واختلف في مقدار مدة الإمهال، فقيل: أربعة أشهر، وقيل: مَفْوُضٌ إلى رأي الإمام، ولعله الأشبه.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ كيف استفهام بمعنى إنكار الوقوع لا الواقع، والمراد بالمشركين الناكثون، لأن البراءة إنما هي في شأنهم، أي على أي حال يوجد لهم ﴿عَهْدٌ﴾ معتد به ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ يستحق أن تراعى حقوقه، ولا يتعرض لهم أخذاً ولا قتلاً؟ أي كيف يكون للمشركين عهد مع إضمار الغدر، فلا تظمعوا في وفائهم وتمسكهم بالعهد ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ أي لكن الذين عاهدتم ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهم المستثنون فيما سلف، والتعرض لكون المعاهدة ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لزيادة بيان عظم شأنها، وحرمة المعاهدة ﴿فَمَا اسْتَقْتَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾

أي مدة استقامتهم لكم، استقيموا معهم بالوفاء بالعهد ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يوفون بالعهود، ويخافون الموعد.

﴿كَيفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾

﴿كَيفَ﴾ تكريرٌ للاستنكار، وفائدة التكرار التأكيد بعدم الثقة بعهودهم ووعودهم، أي كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله وعند رسوله ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ أي لا يراعوا في شأنكم ﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي حلفاً، ولا عهداً، ومعنى ﴿يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يغلبوك وينتصروا عليكم، وأصل الرقوب: النظرُ بطريق الحفظ والرعاية، ومنه الرقيب، ثم استعمل في مطلق الرعاية، والإل: بكسر الهمزة: العهد والقربة، أي لا يخافون الله، ولا يراعونه فيكم، والذمة: الحق الذي يُعاب، ويُذمُّ على إغفاله، وسمي به لأن نقضه يوجب الذم، فالمعنى أن وجوب مراعاة حقوق العهد، على كلٍّ من المتعاهدين، مشروطٌ بمراعاة الآخر لها، فإذا لم يراعها المشركون، فكيف تراعونها أنتم؟ ولما كان تعليق عدم رعاية العهد بالظفر، موهماً للرعاية عند عدمه، بين أنهم في حالة العجز، أيضاً، ليسوا من الوفاء في شيء، وأنَّ ما يُظهِرونه لكم، مداينة لا مُهادنة ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يقولون بأفواههم كلاماً حلواً، بالوعد بالوفاء بالعهد، ويؤكدون ذلك بالأيمان الكاذبة، ويتعللون عند ظهور خلافه، بالمعاذير الكاذبة، وتقيّد الإرضاء بالأفواه، للإيذان بأنَّ كلامهم، مجرد ألفاظ يتفوهون بها، من غير أن يكون لها مصداق في قلوبهم ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ ما يتفوه به أفواههم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ناقضون للعهد ومتمرّدون، ليست لهم مروءة رادعة، ولا عقيدة وازعة، وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التحامي عن الغدر، ووصف الكفرة بالفسق في غاية الذم.

﴿ اشْتَرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ اشْتَرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ﴾ أي استبدلوا بالقرآن وآياته الأمرة بالاستقامة، تركوها وأخذوا بدلها ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ عوضاً يسيراً، وهو اتباع الهوى والشهوات، والجملة كالتعليل لقوله تعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ لأن من فسق وتمرد، اتبع الهوى والشهوات، والركون إلى اللذات ﴿ فَصَدُّوا ﴾ أي صرفوا ومنعوا غيرهم عن الإيمان ﴿ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي عن دينه الموصل إلى الله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بشس ما كانوا يعملونه، والمخصوص بالذم محذوف أي عملهم هذا القبيح.

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ نعى عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين مطلقاً، أي لا يراعون في قتل مؤمن - لو قدروا عليه - عهداً ولا ذمة ﴿ وَأُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بما عُدَّ من الصفات السيئة ﴿ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ المجاوزون الغاية القصوى من الظلم والبغي.

﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ عن الكفر، وسائر العظائم، كنفقض العهد وغيره ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ على الوجه المأمور به ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أي فهم إخوانكم ﴿ فِي الدِّينِ ﴾ أي لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم فعاملوهم معاملة الإخوان، وفيه استمالتهم ما لا مزيد عليه، وبها استدل على تحريم دماء أهل القبلة، وقتال من ترك الصلاة أو الزكاة، قال ابن مسعود: «أمرتم بالصلاة والزكاة، فمن لم يزك فلا صلاة له». ومما يدل عليه ما روي عن أبي هريرة أنه قال: لما توفي النبي ﷺ، واستخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: «كيف تقاتل الناس»، وقد قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» فمن قال: «لا إله

إلا الله» عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه، وحسابه على الله تعالى» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً - أنثى المعز - كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق»^(١) ﴿وَنُقْضَلُ الْآيَاتِ﴾ أي نبئنا والمراد بها الآيات المتعلقة بأحوال المشركين ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيفكرون فيها.

﴿وَإِنْ لَّكُنَّوْا أَتَمَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾^(١٧).

﴿وَإِنْ لَّكُنَّوْا﴾ أي وإن لم يفعلوا ذلك بل نقضوا ﴿أَيْمَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وأظهروا ما في ضمائرهم من الشر ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ بصريح التكذيب، وتقبيح الأحكام، وتوجيه الطعن إلى الدين نفسه، ومن ذلك الطعن بالقرآن، وذكر النبي ﷺ بسوء، فيقتل الذمي به، استدلالاً بالآية ﴿فَقَتَلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ أي قاتلوهم، فوضع ﴿أُئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ موضع الضمير، للدلالة على أنهم أهل الرياسة والتقدم بالكفر، أحقاء بالقتل، وتخصيصهم بالذكر، لأن قتلهم أهم ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ أي لا عهود لهم ولا وعود على الحقيقة، وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا، وفيه دليل على أن الذمي إذا طعن في الإسلام، فقد نكث عهده ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا﴾ أي قاتلوهم إرادة أن ينتهوا، أي ليكن غرضكم من القتال انتهاؤهم عما هم عليه من الكفر، لا مجرد الأذية لهم والترجي من المخاطبين، لا من الله عز وجل.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ٢١٧/١٣ ومسلم في الإيمان رقم ٢٠ وفي رواية «لو منعوني عقالاً» وهو الحبل الذي يربط به البعير.

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ
وَهُمْ بَكْدُكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةٌ آمَحَشُونَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ١٣ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ١٤ وَيَذْهَبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ
اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ .

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ ﴾ تحريض على القتال لأن همزة الاستفهام فيه للإنكار وقد دخل بعدها النفي، ونفي النفي إثبات، فيفيد الحث والتحريض عليه أي فقاتلوا ﴿ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ وهم كفار مكة، نكثوا أيمانهم التي عقدوها في الحديبية مع الرسول ﷺ والمؤمنين، على أن لا يعاونوا عليهم، فعاونوا حلفاءهم «بني بكر» على «خزاعة» حلفاء رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿ وَهَكُمُوا ﴾ أي عزمت قريش ﴿ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ من مكة، حين تشاوروا في أمره بدار الندوة ﴿ وَهُمْ بَكْدُكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةٌ ﴾ بقتال خزاعة، والبادي أظلم. ذكر سبحانه ثلاثة أمور، كل منها يوجب مقاتلتهم لو انفرد، فكيف بها حال الاجتماع؟ ثم زاد ذلك بقوله ﴿ آمَحَشُونَهُمْ ﴾ أي أتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم؟ ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ أي فالله أحق بأن تخشوا عقوبته، بمخالفة أمره، وترك قتال عدوه؟ ﴿ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فقاتلوا أعداءه، فإن قضية الإيمان أن لا يخشى المؤمن إلا منه سبحانه.

﴿ قَتَلُوهُمْ ﴾ أمرٌ بالقتال بعد بيان موجبه، والتوبيخ على تركه ﴿ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ وعدٌ لهم إن قاتلوهم بالنصر عليهم، والتمكن من قتلهم وإذلالهم، تشجيعاً لهم، وتثبيتاً لقلوبهم ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ يعني خزاعة وبطوناً من اليمن وسبأ، قدموا مكة فأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: أبشروا فإن الفرج قريب، والظاهر أنه على العموم، لأن كل مؤمن يسرُّ بقتل الكفار وهوانهم.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم من المكارة والمكايد، وقد أوفى الله بما وعدهم، ووقوع ما أخبر عنه معجزة عظيمة، وفي ذكر الأيدي لتكون البشارة بالتعذيب على الوجه الأتم، الذي يترتب عليه شفاء الصدور، إذ فرق بين تعذيب العدو بيد عدوه، وتعذيب العدو بيد غيره، فالأول أشقى، وأوقع في النفس ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ إخبار بأن بعضهم يتوب عن كفره، ويتوب الله تعالى عليه، فإن القتال كما تسبب لتعذيب أناس، تسبب لتوبة قوم آخرين، فقد أسلم ناس، وحسن إسلامهم، منهم أبو سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وسهل بن عمرو، وهم كانوا أئمة الكفر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق الحكمة والمصلحة، فامتثلوا أمره عز وجل، واغتنموا منافع الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال، أي بل أحسبتم وظننتم أيها المؤمنون ﴿أَنْ تُتْرَكُوا﴾ على ما أنتم عليه، ولا تؤمرون بالجهاد، ولا تمتحنون، ليظهر الصادق من الكاذب ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ علم ظهور ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي ولم يتبين الخُلص منكم، وهم الذين جاهدوا من غيرهم؟ والمعلوم هو الجهاد، إذ لو وقع جهادهم، علم الله تعالى ذلك لا محالة، ومفاد الآية: هل تظنون يا معشر المؤمنين أن يترككم الله بدون امتحان، يتبين فيه الصادق من الكاذب، ولم تجاهدوا أعداءكم فيعلم الله ذلك منكم؟ وهو تعالى يعلم ذلك غيباً، فأراد إظهار ما علم ليجازي على العمل. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً﴾ الوليعة: هي البطانة من غير المسلمين، أي صاحب سر، وهو الذي يطَّلَع على ما في ضميرك من الأسرار، والمقصود من هذا نهى المؤمنين عن

موالاة المشركين، وأن يفشوا إليهم أسرارهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم، ولا يخفى عليه شيء منها.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (١٨)

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا ينبغي لهم، ولا يليق ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ أي شيئاً من المساجد، فضلاً عن المسجد الحرام، وهو المراد هنا وإنما جُمع لأنه قبله المساجد وإمامها، فعامره كعامر الجميع ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ باعترافهم بعبادة الأصنام، وبإظهار آثار الكفر، من نصب الأوثان حول البيت، ونحو ذلك، فإن ذلك شهادة صريحة على أنفسهم بالكفر، وإن أبوا أن يقولوا نحن كفار، والغرض من هذا نفي صحة الافتخار بالعمارة، والسقاية كما كان الجاهلية يفعلون، روي عن الضحاك أنه قال: لَمَّا أَسْرَ الْعَبَّاسُ، غَيَّرَ الْمُسْلِمُونَ بِالشَّرْكِ، وَقَطَعِيَةِ الرَّحِمِ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ تَذْكُرُونَ مَسَاوِئَنَا، وَتَكْتُمُونَ مَحَاسِنَنَا؟ إِنَّا لَنَعْمَرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَنَحْبُبُ الْكَعْبَةَ، وَنُفْرِي الْحَجِيجَ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ ﴿أُولَئِكَ﴾ الَّذِينَ يَدْعُونَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ، مَعَ مَا بِهِمْ مِنَ الْكَفْرِ ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ الَّتِي يَفْتَخِرُونَ بِهَا، فَصَارَتْ هَبَاءً مَثُوراً بِمَا قَارَنَهَا مِنَ الشَّرْكِ ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ لِعَظَمِ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْإِجْرَامِ.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ أي إنما يصح ويستقيم أن يعمرها عمارة يعتد بها ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي نَطَقَ بِهِ الْوَحْيُ، وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرِ الْإِيمَانَ بِالرَّسُولِ ﷺ، لَمَّا عَلِمَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ، قَرِينُهُ وَتَمَامُهُ الْإِيمَانُ بِالرَّسُولِ ﷺ لِأَنَّهُ أَحَدُ جِزَيِ الشَّهَادَةِ ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾

إِذْ لَا يُتَلَقَّى ذَلِكَ إِلَّا مِنْهُ ﷺ، أَيِ إِنَّمَا يَعْمُرُهَا مِنْ جَمْعِ هَذِهِ الْكَمَالَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالْعَمَلِيَّةِ، وَمِنْ عِمَارَتِهَا تَزِينُهَا بِالْفِرَشِّ، وَتَنْوِيْرُهَا بِالشُّرُجِ، وَإِدَامَةِ الْعِبَادَاتِ وَالذِّكْرِ، وَدِرَاسَةِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ فِيهَا، وَتَنْظِيفِهَا، وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ «الْعُدُوُّ وَالزَّوَاخُ إِلَى الْمَسْجِدِ، مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (١) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ (٢) الْآيَةُ ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ أَحَدًا ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ أَيِ لَمْ يَرْهَبْ أَحَدًا غَيْرَ اللَّهِ، غَيْرَ مِبَالٍ بِلُومَةٍ لَائِمٍ، وَلَا خَشْيَةٍ ظَالِمٍ، وَأَمَّا الْخَوْفُ الْجِبَلِيُّ مِنَ الْأُمُورِ الْمَخُوفَةِ، فَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، وَلَا مِمَّا يَدْخُلُ فِي التَّكْلِيفِ ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ﴾ الْمَنْعُوتُونَ بِتِلْكَ النِّعَاتِ الْجَمِيلَةِ ﴿أَن يَكُونُوا مِنْ الْمُحْتَدِينَ﴾ إِلَى مِبَاغِيهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا، وَإِبْرَازِ اهْتِدَائِهِمْ مَعَ مَا بِهِمْ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ فِي مَعْرِضِ التَّوَقُّعِ، لِقَطْعِ أَطْمَاعِ الْكُفْرَةِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ مَا بِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْكَمَالَاتِ، إِذَا كَانَ أَمْرُهُمْ دَائِرًا بَيْنَ «لَعَلَّ» وَ«عَسَىٰ»، فَمَا بَالُ الْكُفْرَةِ، وَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وَإِجْرَامٍ؟ وَفِي الْآيَةِ لُطْفٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي تَرْجِيحِ جَانِبِ الْخَوْفِ، عَلَى جَانِبِ الرَّجَاءِ، وَمَنْعٌ لَهُمْ أَنْ يَغْتَرُّوا بِأَحْوَالِهِمْ، وَيَتَكَلَّبُوا عَلَيْهَا.

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ۞

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة مرفوعاً.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٩٢ وابن ماجه رقم ٧٨٦ والحاكم وصححه.

﴿ أَجَعَلْتُمْ ﴾ في الفضيلة وعلو الدرجة ﴿ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الخطاب للمشركون واستدل بما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: إِنَّ الْمَشْرِكِينَ قَالُوا: عِمَارَةُ بَيْتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْقِيَامُ عَلَى السَّقَايَةِ، خَيْرٌ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، وَقِيلَ: إِنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ فَضَّلُوا السَّقَايَةَ وَالْعِمَارَةَ عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ، وَاسْتَدَلَّ لَهُ بِمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مَنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ، إِلَّا أَنْ أَسْقِيَ الْحَاجَّ، وَقَالَ آخَرُ بَلْ عِمَارَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَقَالَ آخَرُ: بَلِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ مِمَّا قُلْتُمْ، فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مَنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنِّي إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيهَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ^(١) وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَجَعَلْتُمْ أَهْلَ السَّقَايَةِ وَالْعِمَارَةِ، فِي الْفَضِيلَةِ وَعُلُوِّ الدَّرَجَةِ، كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ؟ ﴿ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ لِأَنَّ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ، وَالسَّقَايَةَ، إِنَّمَا تَوْجِبُ الْفَضِيلَةَ، إِذَا كَانَتْ صَادِرَةً عَنِ الْمُؤْمِنِ، أَمَّا إِذَا كَانَتْ صَادِرَةً عَنِ الْكَافِرِ، فَلَا فَائِدَةَ فِيهَا الْبَتَةَ لِأَنَّ اللَّهَ أَحْبَبَ أَعْمَالَهُمْ ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أُرِيدَ بِهِ الْمَشْرِكُونَ، وَبِالظُّلْمِ: الشُّرْكُ، وَمَعَادَاةُ الرُّسُولِ ﷺ، وَهَذَا حُكْمٌ مِنْ تَعَالَى أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ، لَا يُوَفِّقُ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ، إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَسَبِيلِ الرِّشَادِ.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ استئناف لبيان مراتب فضلهم وزيادة في الرد وتكميلاً له، وزيادة الهجرة للإيذان بأن ذلك من لوازم الجهاد، لا أنه اعتبر بطريق التدارك، والظاهر

(١) أخرجه مسلم ٢٦/١٣ وذكره الطبري في جامع البيان ١٦٩/١٤ والسيوطي في الدر المنثور ٢١٨/٣.

من السياق أن المفضل عليه أهل السقاية والعمارة من المشركين أو ممن لم تُستجمع هذه الصفات فيه ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الفاضلة ﴿هُرُاقًا زَوْنًا﴾ بالشواب ونيل الحسنى بالفوز العظيم، أو بالفوز المطلق، كأن فوز ما عداهم ليس بفوز بالنسبة إلى فوزهم.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ يخبرهم ربهم بالخبر السار في الدنيا على لسان رسوله ﷺ، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم وكونه سبحانه هو المبشر ما لا يخفى من اللطافة واللطف ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِنَهُ﴾ تعالى ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ كبير ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ عالية ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم لا نفاد لها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿أَبَدًا﴾ تأكيد للخلود لزيادة توضيح المراد به، إذ قد يراد به المكث الطويل ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره لمن عمل بطاعته، وجاهد في سبيله.

ولمّا وصف تعالى المؤمنين بالإيمان والهجرة والجهاد، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة: بالرحمة، والرضوان، والجنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قل إن كان ءاباؤكم وأبناءؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها ونجعة تخشون كسادها ومسكنٌ ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فترضوا حتى يأتي الله بأمرٍه والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿٧٥﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية على ما روي عن ابن عباس نزلت في المهاجرين، فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا وهلكت أموالنا فترلت، وروي عن أبي

جعفر أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حين كتب إلى قريش يخبرهم بخبر رسول الله ﷺ، أي لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان، ويصدونكم عن الطاعة، لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي إن اختاروه وأصرُّوا عليه إصراراً، لا يرجى معه إقلاع أصلاً ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾ أي واحداً منهم ومن في قوله سبحانه ﴿يُنَكِّمُ﴾ للجنس لا للتبعض ﴿فَأُولَئِكَ﴾ أي المتولون ﴿هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها.

﴿قُلْ﴾ تلوين للخطاب وأمر له ﷺ بأن يثبت المؤمنين، ويقوي عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه، من موالاة الآباء، والأبناء، والإخوان، أي قل يا رسول الله للمؤمنين ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ ولم يذكر الأبناء والأزواج فيما سلف، لأن موالاة الأبناء والأزواج غير معتادة، بل هم تبع، وما هنا في المحبة، وهم أحبُّ إلى كل أحد ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي أقرباؤكم، والعشيرة: القبيلة، ولا واحد لها من لفظها ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها، وُصفت الأموال بذلك، لحصولها بكدِّ اليمين، وعرق الجبين ﴿وَتِجَارَةٌ﴾ أي أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح ﴿فَتُخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بفوات وقت رواجها في أيام الموسم، والكساد: عدم التَّفَاق والزَّواج ﴿وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ تعجبكم الإقامة فيها، من الدور والبساتين ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ نظم حبَّ الجهاد بحبِّ الله ورسوله، تنوياً لشأنه، وتنبيهاً على أنه مما يجب أن يُحِبَّ فضلاً عن أن يُكره، وإيذاناً بأن محبته راجعة إلى محبتهما ﴿فَتَرْتَضُوا﴾ أي انتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ بعقوبة عاجلة أو آجلة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ﴾ لا يرشد ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن الطاعة، الداخلين في موالاة المشركين، وفي الآية الكريمة من الوعيد والتهديد الشديد، ما لا يكاد يتخلص منه، إلا من تداركه لطفٌ من ربه، وإذا وقع التعارض بين مصلحة الدنيا، ومصلحة الدين، وجب على المسلم ترجيح الدين، على أمر الدنيا بهذه الآية.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ الخطاب للمؤمنين خاصة ﴿ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ المَواطِنُ: جمعُ موطن، وهو المشهد من مشاهد الحرب، وهذا امتثانٌ على المؤمنين بالنصرة على الأعداء، التي يترك لها الغيور أحب الأشياء إليه، والمراد بالمواطن «غزوة بدر، وخيبر، وبني النضير، وبني قريظة» ونحو ذلك ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ أي وفي موطن يوم حنين - وهو واد بين مكة والطائف على ثلاثة أميال من مكة - كانت فيه وقعة بين المسلمين وبين هوازن، في شوال سنة ثمان، وكان المسلمون اثني عشر ألفاً، العشرُ الذين حضروا إلى مكة، وألفان انضموا إليهم من الطلقاء، والأعداء كانوا أربعة آلاف، فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن نُغلب اليوم من قلة، إعجاباً بكثرتهم، وقيل: أول من انهزم الطلقاء، مكرراً منهم، وكانوا سبباً للهزيمة، فذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴾ أي فلم تنفعكم تلك الكثرة شيئاً من النفع ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي على سَعَتِها عليكم، لعدم وجدان مكانٍ تستقوون به مطمئنين ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ من الإدبار بمعنى الذهاب إلى خلفه، والمراد الانهزام وقد ظهر منه ﷺ من الشجاعة في تلك الوقعة، ما أبهر العقول، ولم يخطر بباله ﷺ مفارقة القتال، فقال للعباس وكان صَيِّباً صَحْجاً بالنَّاسِ، فناداهم فكروا، ونزلت الملائكة، فالتقوا مع المشركين فانهزموا، وتفصيل القصة في كتب السير^(١).

(١) أخرج البخاري ٢١/٨ في المغازي أن رجلاً قال للبراء بن عازب: أكنتم وليتُم يوم =

وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي طمأنينته ﴿عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي أنزل رحمته التي تسكن القلوب، وتطمئن إليها، اطمئننا بالنصر القريب ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ عامة، الذين ثبتوا، والذين انهزموا، وفيه دلالة على أن الكبيرة لا تنافي الإيمان ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَوْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم يعني الملائكة، واختلف في عددهم، وكذا اختلفوا في أنهم قاتلوا أم لا؟ والجمهور على أن الملائكة لم يقاتلوا إلا يوم بدر، وإنما نزلوا لتقوية قلوب المؤمنين وتأييدهم بذلك ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر ﴿وَذَلِكَ﴾ ما فعل بهم ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ لكفرهم هذا في الدنيا وفي الآخرة أشد من ذلك.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ أي يوفقه للإسلام ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ التعذيب ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يتوب عليه لحكمة تقتضيه ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ يتجاوز عما سلف من الكفر والمعاصي ﴿رَحِيمٌ﴾ يتفضل عليهم، روى البخاري عن المسور بن مخرمة «أن أناساً منهم، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، وبايعوا على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس، وأبؤ الناس، وقد سبي أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا - وقد سبي يومئذ ستة آلاف نفس، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى - فقال ﷺ: اختاروا إمّا ذرايكم ونساءكم، وإمّا أموالكم؟ قالوا: ما كنّا نعدّل بالأحساب شيئاً، فقام النبي ﷺ فقال: إنّ هؤلاء جاؤونا مسلمين، وإنا خيرناهم بين الدّاري والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده شيء وطابت به نفسه أن يرده، ومن لا فليعطنا وليكن قرضاً علينا فنعطيه مكانه، قالوا: رضينا!! فقال ﷺ: «إنا

= حنين عن رسول الله؟ فقال: أشهد على نبي الله ﷺ ما ولى ولكنه خرج شُبّان من أصحابه حُسرًا، ليس عليهم كثير سلاح، فلقوا قومًا رماة، لا يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقًا، ما يكادون يخطئون، فانكشفوا، ولقد رأيت النبي ﷺ على بغلته البيضاء - وأبو سفيان أخذ بزمامها - وهو يقول: أنا النبي لا كذب: أنا ابن عبد المطلب. . اللهم نزل نصرك!! قال البراء: كنّا والله إذا احمرّ البأس نتقي برسول الله ﷺ، وإن الشجاع منا الذي يحاذي به. أخرجه البخاري ومسلم.

لا ندري لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا،
 رفعت إليه ﷺ العرفاء أنهم قد رضوا^(١).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ
 الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ
 فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ قَدِيلُوا الَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا
 يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ
 يَدِهِمْ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ وصفوا بالمصدر مبالغة،
 كأنهم عين النجاسة، لخبث باطنهم، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يجتنبون
 النجاسة، وعن ابن عباس: أنَّ أعيانهم نجسة كالخنزير، وأكثر الفقهاء على
 أنَّ أعيانهم طاهرة ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ لنجاستهم وقيل: المراد به
 النهي عن الحج والعمرة، وإليه ذهب أبو حنيفة، وقاس مالك سائر
 المساجد على المسجد الحرام في المنع، وعند الشافعي وأحمد يمنعون من
 المسجد الحرام خاصة، ورؤي عن عطاء أنهم نُهوا عن دخول الحرم كله،
 فيكون المنع من قرب المسجد الحرام على ظاهره، وبالظاهر أخذ أبو
 حنيفة إذ صرف المنع عن دخول الحرم، إلى المنع من الحج والعمرة،
 ويؤيده قوله سبحانه: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو عام تسعة من الهجرة،
 ويدلُّ عليه نداء عليٍّ يوم نادى ببراءة «ألا يحج بعد عامنا هذا مشرك» وكذا
 قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي فقراً بسبب منعهم، بانقطاع تُجَارِهِم
 عنكم، لما أنهم كانوا يأتون في الموسم بالمتاجر، والعيلة: من عال يعيلُ
 عَيْلَةً إذا افتقر، فهو عائل ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي من عطائه أو

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٣٣/٨ وأبو داود في الجهاد رقم ٢٦٩٣ والنسائي ٦/٢٦٤.

تفضيله بوجه آخر، فقد أرسل الله السماء عليهم مدراراً أغزر بها خيرهم، وأكثر مثيرهم، وأسلم أهل نجد فحملوا إلى مكة الطعام، وما يعاش به، ثم فتح الله عليهم البلاد، وتوجه إليهم الناس من أقطار الدنيا إلى يومنا هذا، فكان إخباره تعالى بهذا معجزة والتقييد بقوله تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أي أن يغنيكم، لتقطع الآمال إلى الله تعالى، ولينبه على أنه تعالى متفضل في ذلك، وأن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أمر المؤمنين بقتال أهل الكتاب، إثر أمرهم بقتال المشركين، وإيمانهم الذي يزعمونه ليس على ما ينبغي، فهو كعدم الإيمان لهم ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ما ثبت بالكتاب والسنة، والمراد بالرسول رسولنا محمد ﷺ والمعنى: إنهم مخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً، لأنهم لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، بل حرفوها وأتوا بأحكام كثيرة من قبل أنفسهم، أتباعاً لأهوائهم، فيكون المراد لا يتبعون شريعتنا ولا شريعتهم، ومجموع الأمرين سبب لقتالهم ﴿وَلَا يَذِيحُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ الثابت الناسخ لسائر الأديان، وهو دين الإسلام، ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الكتاب جنس يشمل التوراة والإنجيل ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي ما يؤخذ من أهل الذمة ﴿عَنْ يَدٍ﴾ بمعنى منقادين عن قهر وذلة ﴿وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ أذلاء حقيرون، مهجورون بسلطان الإسلام، وعزة المسلمين.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَالَهُمْ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ ﴿٢٠﴾ أَخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهِبَنَهُمْ أَزْكَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ استئناف سيق لبيان عدم إيمان أهل الكتاب، وانتظامهم في سلك المشركين ﴿عُزِّرَ ابْنُ اللَّهِ﴾ وإنما قالوا ذلك لأن التوراة لم تبق فيهم بعد وقعة «بخت نصر» فبعث الله إليهم عزيزاً فكتبها من صدره، فطفق يعلمهم التوراة، فقالوا: ما أوتي عزيزاً هذا، إلا لأنه ابن الله، وبالجمل فإِنَّ هذا القول كان شائعاً فيهم، ولا عبرة لإنكارهم، وحكاية الله عز وجل أصدق مما قيل، والآية قرئت حين نزولها عليهم، فلم يكذبوها، مع تهالكهم على التكذيب ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ هو أيضاً قول بعضهم، وإنما قالوه لاستحالة أن يكون ولد بلا أب ﴿ذَلِكَ﴾ ما صدر عنهم من العظيمنتين ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ تأكيد لنسبة القولين المذكورين لهم، ونفي التجوز عنها، وللإشعار بأنه قول مجرد عن برهان، مماثل للخرافة، من غير أن يكون له في الخارج مصداق ﴿يُضْهِتُونَ﴾ أي يشابه قولهم في الكفر والشناعة ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلهم، وهم المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله ﴿فَنَلَّهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك، فإن من قاتله الله هلك، أو تعجيب من شناعتهم ﴿أَنْ يَوْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل؟.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم علماء اليهود، الخبر: واحد أخبار اليهود أي علماؤهم الكبار، ويقال لابن عباس: خبر الأمة ﴿وَرُؤُسَهُمْ﴾ علماء النصارى، والراهب الذي تمكنت الرهبة والخشية في قلبه، وظهرت آثارها في وجهه ولباسه، أي اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرّم الله، وهذا هو التفسير المأثور، روي عن عدي بن حاتم قال: «أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي أطرح عنك هذا الوثن، وسمعه يقرأ في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُؤُسَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، فقلت يا رسول الله: لم يكونوا يعبدونهم؟ فقال ﷺ:

أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟
 فقلت: بلى، قال: فذلك عبادتهم^(١) ونظير ذلك قولهم: فلانٌ يعبد فلاناً
 إذا أفرط في طاعته ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي اتخذته النصراني رباً
 معبوداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتأخيره في الذكر أشنع من
 اتخاذهم الرهبان أرباباً، لأنه مختص بالنصارى، ونسبته إلى أمه للإيدان
 بكمال ركافة رأيهم، والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة ﴿وَمَا أُمَرُوا﴾
 أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا في الكتب الإلهية وعلى السنة الأنبياء
 ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا﴾ أي ليطيعوا ويؤخذوا ﴿إِلَيْهَا وَحِداً﴾ وهو الله عزَّ
 وجلَّ، أمّا طاعة الرسول، وسائر ما أمر الله تعالى بطاعته، فهو في الحقيقة
 طاعة لله عزَّ وجلَّ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، وهو
 تقرير للتوحيد ﴿سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له تعالى، عن أن
 يكون له شريك في العبادة والطاعة، والآية ناعية على كثير من الفرق
 الضالة، الذين تركوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لكلام علمائهم ورؤسائهم،
 والحق أحق بالاتباع، فمتى ظهر وجب على المسلم اتباعه، وإن أخطأه
 اجتهدا مقلده.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ
 وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
 الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ المراد بنور الله حجته النيرة، الدالة
 على وحدانيته تعالى، وتنزهه سبحانه عن الشركاء والأولاد، وشريعته
 القدسية، والقرآن العظيم، الصادع بالحق، وقيل: نبوته ﷺ التي ظهرت
 صبحاً منيراً، والمراد من الإطفاء: الرّد والكذيب، أي يريد أهل الكتاب

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٢٥٩/٥.

أن يردُّوا دلائل الإيمان والتوحيد التي جاء بها محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿بِأَفْوَهِهِمْ﴾ أي بأقوالهم الباطلة الخارجة منها، من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه، وقد قيل: مثلت حالهم فيما ذكر بحال من يريد طمس نور عظيم، منبت في الآفاق بنفخه ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ﴾ أي لا يريد ﴿إِلَّا أَنْ يَنْتَهَ﴾ أي يظهر ﴿نُورُهُ﴾ بإعلاء كلمة التوحيد، وإعزاز دين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ جواب لو محذوف للدلالة ما قبله عليه، أي يتمُّ نوره ولو كره الكافرون ذلك.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمداً ﷺ ﴿بِالْهُدَى﴾ أي القرآن، الذي هو هدى للبشرية ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي الثابت وهو دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي يعلي دين الإسلام ﴿عَلَى الَّذِينَ كُفِرُوا﴾ أي على سائر الأديان بنسخه إياها، حسبما تقتضيه الحكمة ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وَضَعُ الْمُشْرِكِينَ موضع الكافرين، للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول ﷺ إلى الشرك بالله.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ﴾ شروع في بيان حال الأحرار والرهبان في إغوائهم لأتباعهم إثر بيان سوء الأتباع في اتخاذهم لهم أرباباً، وفي ذلك تنبيه للمؤمنين حتى لا يحوموا حول ذلك الحمى ولذا وجه الخطاب إليهم ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ يأخذونها بالرشوة في الأحكام، سمي أخذ المال أكلاً لأنه الغرض الأعظم منه وتقيحاً لحالهم وتنفيراً للسامعين عنهم ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن

سَبِيلِ اللَّهِ ﴿عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ﴾ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴿أَيَّ يَجْمَعُونَهَا وَيَحْفَظُونَهَا سِوَاءَ كَانَ بِالْدَّفْنِ أَوْ بِوَجْهِ آخَرَ، وَالْكَنْزُ: الْمَالُ الْمَدْفُونُ وَقَدْ كَنْزَهُ مِنْ بَابِ ضَرْبٍ، وَفِي الْحَدِيثِ: «كُلُّ مَالٍ لَا تُؤَدَّى زَكَاتُهُ فَهُوَ كَنْزٌ»^(١) وَلَا يَشْتَرُطُ فِي الْكَنْزِ الدَّفْنُ بَلْ يَكْفِي مَطْلَقَ الْجَمْعِ وَالْحِفْظِ ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نَظِمُوا فِي ضَمَنِ الْمُرْتَشِينَ، تَغْلِيظاً، وَدَلَالَةً عَلَى كُونِهِمْ أَسْوَةً لَهُمْ، فِي اسْتِحْقَاقِ الْبَشَارَةِ بِالْعَذَابِ، وَفَسَّرَ غَيْرَ وَاحِدِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: بِالزَّكَاةِ فَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، كَبُرَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ عُمَرُ: أَنَا أَفْرَجُ عَنْكُمْ، فَاَنْطَلَقَ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ: إِنَّهُ كَبُرَ عَلَى أَصْحَابِكَ هَذِهِ الْآيَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَفْرَضِ الزَّكَاةَ، إِلَّا لِطَيْبٍ مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ»^(٢) وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَدَّى زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ»^(٣) ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هُوَ الْكَيْ بِهُمَا.

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أَيَّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَوْقَدُ النَّارُ، فَيَحْمَى عَلَى هَذِهِ الْأَمْوَالِ بِالنَّارِ اللَّاهِبَةِ الْمُسْتَعْرَةِ، حَتَّى تَصْبَحَ حَامِيَةً كَاوِيَةً، وَإِنَّمَا قَالَ ﴿عَلَيْهَا﴾ وَالْمَذْكُورُ شَيْئَانِ لِأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِمَا مَقْدَاراً مُعَيَّناً مِنْهُمَا، بَلْ الْمُرَادُ الْكَثِيرُ مِنْهُمَا، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ لِلْأَمْوَالِ ﴿فَتَكُونُ﴾ أَيَّ تُحْرَقُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ بِلَفْظِ «كُلُّ مَا أُدِّيتْ زَكَاتُهُ وَإِنْ كَانَ تَحْتَ سَبْعِ أَرْضِينَ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ، وَكُلُّ مَا لَا تُؤَدَّى زَكَاتُهُ فَهُوَ كَنْزٌ، وَلَوْ كَانَ ظَاهِراً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ» وَرَوَى الْحَدِيثَ مَرْفُوعاً وَمَوْقُوفاً، وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى ابْنِ عُمَرَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ طَرَفاً مِنْهُ فِي تَرْجُمَةِ بَابٍ فَقَالَ «بَابُ مَا أَدَّى زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ» فَتَحَ الْبَارِي ٢٧١/٣.

(٢) الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي الزَّكَاةِ رَقْمَ ١٦٦٤ وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ ٣٣٣/٤ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ.

(٣) هَذَا الْحَدِيثُ مَوْقُوفٌ عَلَى ابْنِ عُمَرَ، وَقَدْ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ، وَذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ ٣٦٤/٢٥ وَفِي الْبُخَارِيِّ ٣٢٤/٨ عَنْ خَالِدِ بْنِ أَسْلَمٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ، فَقَالَ: هَذَا قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ الزَّكَاةُ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللَّهُ طَهْرَةً لِلْأَمْوَالِ. اهـ.

﴿بِهَاجَاهُتُمْ وَجُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ خُصَّتْ هذه بالذكر، لأن غرض الكائنين من الكنز، أن يكونوا ذوي وجاهة، وأن يتنعموا بالمطاعم الشهية، والملابس البهية، فلوجاهتهم كان الكيُّ بجباههم، ولامتلاء جنوبهم بالطعام، كروا عليها، ولَمَّا لبسوا من فاخر الثياب كُويت بها ظهورهم، وقيل: لأنهم كانوا إذا رأوا الفقير أعرضوا عنه، وطَوَّزُوا كَشْحًا، وولَّوْهُم ظهورهم، فلذلك كويت الجباه والبطون والظهور ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ على إرادة القول أي يقال لهم: هذا ما كنزتم ﴿لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي لنفعتها، فكان عين مضرتها، وسبب تعذيبها ﴿فَذَوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ﴾ أي وبال كنزكم الذي ادخرتموه في الدنيا، ولم تسعفوا به الفقراء.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الَّذِينَ أَلْفِئَةُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي عددها المعتدُّ بها للسنة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه وشرعه ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ بالشهور القمرية، إذ عليه يدور فلك الأحكام الشرعية ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي في ابتداء إيجاد هذا العالم ﴿مِنْهَا﴾ من تلك الشهور ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ أي محرمة فيها الحرب، واحد فرد وهو رجب، وثلاثة سَرْدٌ «ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم» ﴿ذَلِكَ﴾ تحريم الأشهر الحرم ﴿الَّذِينَ أَلْفِئَةُ﴾ المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثته منهما، وكانوا يعظمونها حتى إن الرجل يلقي فيها قاتل أبيه أو أخيه فلا يهيجهُ ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ بهتك حرمتها، وارتكاب حرامها، وتخصيصها بالنهي مع أن ارتكاب المعاصي منهي عنه مطلقاً لتعظيمها، والله سبحانه أن يَمَيِّز بعض الأوقات على بعض، كارتكابها في الحرم، وحال

الإحرام ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ جميعاً وهو حال، فالمعنى: قاتلوا المشركين لا يتخلف منكم أحد عن قتالهم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي معكم بالنصر والإمداد، وإنما وضع المظهر، مدحاً لهم بالتقوى، وإيداناً بأنه المدد في النصر، أي فاتقوا لتفوزوا بولايته ونصره سبحانه.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُواطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٧).

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ وهو مصدر نَسَأَ إذا أَخْرَجَهُ، أي إنما تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر، من معالم الكفر، ومظاهر الضلال، كانوا إذا جاء شهر حرام، وهم محاربون أحلوه، وحَرَّمُوا مكانه شهراً آخر، فيستحلون المحرم ويحرمون صفرًا، فإن احتاجوا أيضاً أحلوه وحَرَّمُوا ربيع الأول، وربما زادوا في عدد الشهور، بأن جعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر شهراً، ليتسع لهم الوقت، ولذلك نص تعالى على العدد المعين، وقد يختلف وقت حجهم لذلك، ولذا قال تعالى: ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ فهو كفر آخر ضَمُّهُ إلى كفرهم ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ضلالاً زائداً على ضلالهم، أي تخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباده وأسبابه ﴿يُحْلُونَ عَامًا﴾ النسِيء من الأشهر ﴿عَامًا﴾ سنة، ويحرمون مكانه شهراً آخر ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ فيتركونه على حرمة، رُوي عن الضحاك أن «جُنَادَةَ الْكِنَانِي» كان مطاعاً في الجاهلية، وكان يقوم على جمل في الموسم، فينادي بأعلى صوته، إن ألَهِتكم قد أحلَّت لكم المحَرَّم فأحلوه، ثم يقوم في العام القابل فيقول: إن ألَهِتكم قد حَرَّمت عليكم المحرم فحرِّموه^(١) ﴿لِيُواطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي ليوافقوا

(١) حكاه الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣٧٠/٢ من رواية ابن عباس، وحكى عن مجاهد قال: «كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم - يعني موسم الحج - على حمار له، فيقول: أيها الناس، إني لا أعاب ولا أجاب، ولا مرد لما أقول، إنا قد =

عدة الأربعة المحرمة ﴿فِيحُلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ بمواطاة العدة وحدها، من غير مراعاة الوقت، فقد استحلوا ما حرّم الله تعالى: ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي زين الشيطان لهم أعمالهم القبيحة، مشتتة للطبع محبوبة للنفس، وقرئ على البناء للفاعل ﴿زَيْنَ﴾ وهو الله تعالى والمعنى: خذلهم وأضلهم، حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسناً ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هداية موصلة إلى الاهتداء، حال اختيارهم الثبات على الباطل، ولا يرشدهم إلى طريق الخير والسعادة، وهم قد صدوا عنه بسوء اختيارهم، فتاهوا في تيه الضلال.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٢٨) ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ﴾ استفهام فيه معنى الإنكار والتوبيخ ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ﴾ أي اخرجوا للجهاد، وأصل النفر الخروج لأمر واجب ﴿أَتَأْتِلْتُمْ﴾ تباطأتم ولم تسرعوا، أي مالكم متثاقلين حين قال لكم رسول الله ﷺ انفروا، وقوله سبحانه: ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ متعلق بأتأتلتم أي أتأتلتم مائلين إلى الأرض، والدنيا وشهواتها الفانية، وكرهتم مشاق الجهاد، المستتعبة للراحة الخالدة، وكان ذلك في غزوة تبوك، بعد رجوعهم من الطائف، استنفرهم ﷺ في وقت قحط وقيط، وقد أدركت

= حَرَمْنَا المحرّم، وأَحْرَزْنَا صفر، وفي عام آخر يقول: إِنَّا قد حرّمنا صفر، وأَحْرَزْنَا المحرّم، فذلك هو النسيء الذي جعله الله زيادة في الكفر.

ثمار المدينة، وطابت ظلالها، مع بُعد الشقة وكثرة العدو، فشئ عليهم ذلك. وذكر ابن هشام: ما خرج رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا ورى غيرها، إلا في غزوة تبوك، فإنه ﷺ بين لهم المقصد فيها، ليستعدوا لها ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ونعيمها الدائم؟ ﴿فَمَا مَتَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فما التمتع بها وفوائدها ومقاصدها ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مستحقر لا يُعْبَأُ به؛ كما جاء في الحديث الشريف: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع؟»^(١) عاتبهم الله على إثارة الراحة في الدنيا، على الراحة في الآخرة، إذ لا تُنال راحة الآخرة إلا بتعب الدنيا!!.

﴿إِلَّا لَنُفِرُوا﴾ أي إن لا تنفروا إلى ما استنفرتم إليه ﴿يُعَذِّبُكُمْ﴾ الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالإهلاك بسبب فظيع، كقحط، وظهور عدو ﴿وَيَسْتَبْدِلُ﴾ بعد إهلاككم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وصفهم بالمغايرة لهم، لتأكيد الوعيد، والتشديد في التهديد، أي قوماً مطيعين، مؤثرين للآخرة على الدنيا ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي ولا تضرون ربكم شيئاً من الضرر، بتثاقلكم عن الجهاد، ولا يقدح بثاقلكم في نصرته أصلاً ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه نصر دينه، ونبيه بدونكم، والنصر بدون سبب ولا مدد.

﴿إِلَّا لَنَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٨٥٨ باب فناء الدنيا وبيان الحشر، والترمذي في الزهد رقم ٢٣٢٤ وابن ماجه في الزهد أيضاً رقم ٤١٠٨ ومعنى اليم: البحر.

﴿إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إن لم تنصروه فسينصره الله، كما نصره حين أخرجه الذين كفروا أي تسبوا لخروجه حيث أذن له في ذلك، حين هُتُوا بقتله، أو حبسه، أو نفيه، في دار الندوة^(١)، فخرج بنفسه ﴿ثَانِيكَ اثْنَيْنِ﴾ أي أحد اثنين، هو واحد والآخر أبو بكر رضي الله عنه، والمعنى: نصره الله تعالى في مثل تلك الحالة، فلا يخذله في غيرها ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ المراد من الغار غار ثور، وهو جبل في الجهة اليمنى لمكة مكثا فيه ثلاثة أيام، يختلف إليهما بالطعام «عامر بن فهيرة» وعلي كرم الله وجهه يجهّزهما، واستأجر لهما دليلاً، فلمّا كانا في بعض الليل من الليلة الثالثة، أتاهم بالإبل، والدليل، فركبوا وتوجهوا نحو المدينة ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ الرسول ﷺ ﴿لَصَحَابِيهِ﴾ أي الصديق رضي الله عنه، قالوا: من أنكر صحبة الصديق فقد كفر، لإنكاره كلام الله تعالى الصريح بالصحة ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالعصمة والمعونة، وفيه بيانٌ عظيم توكله ﷺ، روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «نظرتُ إلى أقدام المشركين، ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا، فقلت يا رسول الله: لو أنّ أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»^(٢) وفيه من الدلالة على علو درجة الصديق، وروي أن المشركين طلعوا فوق الغار، فأشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ فقال ما قال، فأعماهم الله عن الغار، فجعلوا يترددون حول الغار، فلم يروه ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ طمأنينته التي تسكن عندها القلوب ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على الرسول ﷺ ﴿وَأَيْدِيَهُمْ يُجْزَوْنَ لَمْ تَرَوْهَا﴾ الجنود هم الملائكة، أنزلهم الله تعالى ليحرسوه في الغار، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ أي جعل كلمة الشرك، سافلة دينية حقيرة،

(١) انظر قصة مؤامرة المشركين على رسول ﷺ في تفسير سورة الأنفال، الآية ٣٠، من هذا التفسير.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٣٢٥/٨ ومسلم ١٨٥٤/٤ والترمذي ٢٦٠/٥.

وردّ كيدهم في نحورهم، حين تأمروا على قتل رسول الله ﷺ في دار الندوة، حيث نجاه ربّه، على رغم أنوفهم، وحفظه من كيدهم ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ وهي كلمة التوحيد كما قال ابن عباس، ولا يخفى ما في تغيير الأسلوب من المبالغة، لأن الجملة الاسمية، تدلّ على الدوام والثبات، بخلاف غيرها، ولذلك وُسط ضمير الفصل ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالَب، ويعزّ بنصره دين الإسلام ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره، وتدبيره، وحكمه، يدلّ أهل الشرك بحكمته.

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَّحِلَفُونَ بِاللَّهِ لَوْ آسَظَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢).

﴿أَنْفِرُوا﴾ تجديد للأمر بالتّفرّ، بعد التوبّخ على ثقافه وتركه ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي على كل حال، من يُسرّ أو عُسر، ومن صحّة ومرض، وغنى وفقر، وقلة العيال وكثرتهم، وغير ذلك، قيل: لمّا نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسخها الله بقوله ﴿لَيْسَ عَلَيِ الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ الآية ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بما أمكن لكم منهما، والجهاد بالمال: إنفاقه على السلاح، وتزويد الغزاة، ونحو ذلك ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ النفير والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ممّا يُبتغى بتركه من الراحة، والتمتع بالأموال والأولاد ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير فبادروا إليه.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي لو كان غنماً سهل المأخذ، قريب المنال ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي متوسطاً بين القريب والبعيد ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ في النفير، طمعاً بالفوز بالغنيمة ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ﴾ أي المسافة التي تقطع

بمشقة ﴿وَسَيَخْلِفُونَ﴾ أي المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتذرين ﴿يَاللَّهِ﴾ أي سيحلفون بالله قائلين ﴿لَوْ أَسْتَطَعْنَا﴾ من جهة العُدَّة، ومن جهة الصحة، حسبما عنَّ لهم من التعلل والكذب ﴿لَحَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ لما دعوتمونا إليه، وهذا جواب القسم، وهذا من المعجزات لأنه إخبار عما وقع قبل وقوعه، فقالوا كما أخبر القرآن ﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بالحلف الكاذب، لأن الحلف الكاذب إهلاك للنفس، وفي الحديث الشريف: «اليمينُ الفاجرةُ تدعُ الديارَ بلاقع»^(١) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ في ذلك لأنهم كانوا مستطيعين الخروج ولم يخرجوا، وهذه الآيات نزلت في المنافقين.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَسْبِيَنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
الْكَذِبِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ
يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَوَاتٌ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ
يَتَرَدَّدُونَ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ أي لأي شيء أذنت لهم بالقيود، حين استأذنونك واعتلوا بالكاذب؟ وهلاً توقفت؟ وهذا من أطف الكلام، بتصدير العفو في الخطاب، دون ما يوهم العتاب، لمراعاة جانبه ﷺ، واحتج بعضهم بهذه الآية، على صدور الذنب عن الرسول ﷺ، وقالوا: العفو يستدعي سابقة الذنب، وأجيب بأنه ليست معاتبة، بل هو استفتاح كلام، مثل أصلحك الله! قال القاضي عياض: لم يتقدم للنبي ﷺ فيه من الله تعالى نهْيٌ فيُعَدُّ معصية، إنما فعل ذلك باجتهاد، وفيه دليل جواز

(١) طرف من حديث أخرجه البيهقي، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ٦٢٢/٢ ومعنى بلاقع: أي خراباً دماراً، وهذه اليمين تسمى «الْعُمُوس» لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم، وهي يمين فاجرة، لا كفارة لها، لأن ذنبها أعظم من أن يكفر.

الاجتهاد، وإذنه ﷺ إنما كان اعتماداً على ظاهر إيمانهم، والخطأ في ذلك، هو ترك الأولى، الذي هو الثاني، والتوقف إلى انجلاء الأمر، المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿حَقَّ يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الاعتذار من عدم الاستطاعة ﴿وَتَعْلَمَ الْكَذِيبِينَ﴾ أي في ذلك كأنه قيل: لم سارعت إلى الإذن لهم، ولم تتوقف حتى ينجلي الأمر؟ وفي الآية وجوب الاحتراز عن العجلة، ووجوب الثبوت والثبات.

﴿لَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ليس من شأن المؤمنين وعاداتهم، أن يستأذنوك في ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ فإن الخلص منهم، يبادرون إليه من غير توقف، وحيث استأذنك هؤلاء في التخلف، كان ذلك دليلاً على نفاقهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ شهادة لهم بالتقوى، وعدة لهم بالثواب، أي والله عليم بأنهم مؤمنون متقون صادقون.

﴿إِنَّمَا يَسْتَفْذِنُكَ﴾ في التخلف لكرامة الجهاد ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تخصيص الإيمان بالله واليوم الآخر في الموضعين، للإشعار بأن الباعث على الجهاد الإيمان، وعدم الإيمان بهما، فمن آمن بهما قاتل في سبيل دينه وتوحيده، وهان عليه القتل فيه، لما يزوجو في اليوم الآخر من النعيم المقيم، ومن لم يؤمن بمعزل عن ذلك، ﴿وَأَزَايَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي شكّت قلوبهم في الدين ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ وشكّهم المستقر في قلوبهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي يتحIRON، فإن التردد ديدن المتحترين، كما أن الثبات ديدن المتبصرين، والآية نزلت في المنافقين، حين استأذنوا الرسول ﷺ في القعود عن الجهاد بغير عذر، وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُمْ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ ﴾ معك هذا يدل على أن بعضهم قالوا ذلك عند الاعتذار، فقل تكذيباً لهم: لو أرادوه ﴿لَأَعَدُّوْا لَهُمُ﴾ أي للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أي أهبة من الزاد والراحلة والسلاح، وغير ذلك مما لا بد للسفر والجهاد منه ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ يعني نهوضهم للخروج والمعنى: لو أرادوا الخروج لأعدوا عُدَّةً، لأنهم كانوا مياسير، ولكن ما أرادوه، لما أنه تعالى كره انبعاثهم، لما فيه من المفساد، التي ستبين ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي حبسهم بالجبن والكسل، فتشبَّطوا عنه، ولم يستعدوا له ﴿وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَنْعَذِيِّ﴾ تمثيل للإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أي افعدوا مع النساء، والصبيان، والزَّمنَى، وهو ذمٌ بليغ لهم^(١).

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ﴾ أي لو خرجوا مخالطين لكم ﴿مَا زَادَكُمُ﴾ أي ما أورتوكم شيئاً من الأشياء ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ أي فساداً وشرّاً، وعن الضحاك: غدرًا ومكرًا ﴿وَلَا وَضَعُوا يَدَهُمْ﴾ أي ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة، والإيضاع: سير الإبل: إذا أسرع، والخلال أصله الفرجة استعمل ظرفاً بمعنى «بين» والمعنى: ولسَّعُوا بينكم بالنميمة، وإفساد ذات البين ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الفتنة والخلاف فيما بينكم، وهو من أعظم الأمور التي يجب الاحتراز عنها في الحروب، لأن عند حصول الاختلاف في الرأي، يحصل الانهزام ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ﴾ ضعفة يستمعون قولهم، ونَمَّامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم، ولَمَّا كان انضمام المنافقين القاعدين إليهم مستتبعا لخلل كلي، كره الله انبعاثهم، ووجه العتاب على الإذن في قعودهم، مع ما قصَّ الله فيهم، أنهم لو قعدوا بغير إذن، لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الأمر، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم علماً محيطاً، فيجازيهم على ذلك.

(١) هذه الآية في منتهى الذم والتفبيح لهم، على حد قول الشاعر:
دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَزَحَلْ لِثَغْيَتِهَا: واقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ﴾ تشنيت أمرك، وتفريق أصحابك عنك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل غزوة تبوك، في يوم أحد، حين انصرف «عبد الله بن أبي» بمن معه، وقد تخلف بمن معه عن تبوك أيضاً بعد ما خرج ﴿وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ ودبروا لك المكائد والحيل، ودوروا الآراء في إبطال أمرك، وتقليبها مجازاً عن تدبيرها ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ النصر والتأييد الإلهي، الذي وعده الله تعالى لرسوله ﴿وَبَيَّنَّ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي غلب دينه وعلا شرعه ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي على رغم منهم، والآيات لتسليّة الرسول ﷺ والمؤمنين، على تخلف المنافقين، وبيان كراهية الله عز وجل لخروجهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿٤٩﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُنْذِنَ لِي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ ولا توقعني في الفتنة، أي العصيان والمخالفة، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف، أذن له أو لم يؤذن^(١) ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي في نفسها وعينها، وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف، والجرأة على الاعتذارات الكاذبة ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وعيد لهم على ما فعلوا، أي جامعة لهم

(١) الآية نزلت في «الجذ بن قيس» أحد كبار المنافقين، قال للنبي ﷺ لما دعاه لقتال بني الأصفر - يعني الروم - قال يا رسول الله: «أذن لي ولا تفتني»، فوالله لقد عرف قومي أن لا رجل أشدَّ عُجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله وتركه، وانظر قصته في تفسير ابن كثير ٣٧٦/٢.

من كل جانب، والمراد بالكافرين المنافقون، وإيثارُ وضع الظاهر للتسجيل عليهم بالكفر.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَكَتُولُوا وَهُمْ فَرِحُوا﴾ ﴿٥٥﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٦﴾

﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعض مغازيك ﴿حَسَنَةٌ﴾ من الظفر والغنيمة ﴿تَسُوءُهُمْ﴾ تلك الحسنة، أي تورثهم مساءة، لفرط حسدهم وعداوتهم لك ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ من نوع شدة وكرب يفرحوا به ﴿يَقُولُوا﴾ متبجحين بما صنعوا حامدين لأرائهم ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا﴾ أي تلافينا من الأمر ما يهئنا، يعنون به الاعتزال عن المسلمين، والقعود عن الحرب، والمداراة مع الكفرة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل إصابة المصيبة ﴿وَيَكَتُولُوا﴾ أي يعرضوا عن النبي ﷺ ﴿وَهُمْ فَرِحُوا﴾ بما صنعوا من أخذ الأمر بالاحتياط وبما أصابه ﷺ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام السرور.

﴿قُلْ﴾ تبكيئاً لهم ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي لن يحدث علينا إلا ما قدره الله لنا، من نصر أو هزيمة، ومن عز أو ذل، لا يتغير بموافقتكم ومخالفتكم، فالكُتِبَ بمعنى التقدير، واللام للاختصاص، فتدل الآية على أن الحوادث كلها بقضاء الله تعالى ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي ناصرنا ومتولي أمورنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن حقهم أن لا يتوكلوا على غيره، بأن يفوضوا الأمر إليه سبحانه، ولا ينافي في ذلك الأخذ بالأسباب، إذا لم يعتمد عليها فقط، والآية كالتنبية على أن حال المنافقين بالضد، وأنهم لا يتوكلون إلا على الأسباب الدنيوية.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ ﴾ (٥٦) ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٥٧) ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ ﴾ (٥٨) .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا ﴾ إعادة الأمر، لإبراز العناية بشأن الأمور به وأصل «تَرَبَّصُونَ» حذفت إحدى التائين، أي مما تنتظرون أن يقع بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ أي إلا إحدى العاقبتين، اللتين كل منهما حسنى العواقب: النصر، أو الشهادة، فما يزعمونه مضره للمسلمين من الشهادة، أنفع مما يعدونه منفعة من النصر والغنيمة، كما نطق به الحديث الشريف «تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يخرج من بيته، إلا الجهاد في سبيل الله، وتصديق بكلماته، أن يدخله الجنة أو يردّه إلى مسكنه، بما نال من أجر أو غنيمة» (١) وفي رواية أبي داود ومسلم «من أجر وغنيمة» ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى العاقبتين الوخيمتين ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ بقارعة من السماء ﴿أَوْ يَأْتِيَنَا﴾ أو بعذاب بأيدينا وهو القتل ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ الفاء فصيحة، أي إذا كان الأمر كذلك، فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا، والمراد من الأمر التهديد، كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ

(١) الحديث أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الجهاد ١٥٤/٦ ورواه مسلم بلفظ «تضمن الله لمن خرج في سبيله» بأوسع من هذا في باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله رقم ١٨٧٦ وفيه زيادة «والذي نفس محمد بيده، ما من كلم يكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونه لون دم، وريحه ريح مسك..» الحديث.

الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١﴾ ﴿إِنَّمَا مَعَكُمْ مَتَرِيضُونَ﴾ ما هو عاقبتكم فإذا لقي كل منا ومنكم ما يتربصه، لا نشاهد إلا ما يسوؤكم، ولا تشاهدون إلا ما يسرنا.

﴿قُلْ أَنِفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ أمر في معنى الخبر، أي لن تُتقبل منكم نفقاتكم، أنفقتم طوعاً أو كرهاً، كأنهم أمروا بأن يمتحنوا فينفقوا وينظروا هل يتقبل منهم أو لا؟ وقوله: ﴿طَوْعًا﴾ أي من غير إلزام، و ﴿كَرْهًا﴾ أي ملزمين، سمي الإلزام إكراهاً، لأنهم منافقون فكان الإلزام شاقاً عليهم كالإكراه، وقوله سبحانه ﴿إِنكُم كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل له، وما بعده بيان وتقرير له، والمراد بالفسق: العتو والتمرد في الكفر.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ما منعه أن تقبل نفقاتهم شيء من الأشياء إلا كفرهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة في حال من الأحوال ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ إلا حال كونهم متثاقلين، جمع كسلان ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثواباً، ولا يخافون على تركهما عقاباً، وهاتان جملتان داخلتان في حيز التعليل، وإنما جيء بهما لمجرد الذم، وإلا فالكفر وحده كافٍ لعدم قبول الأعمال.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أي لا يروك شيء من ذلك، فإنه استدراج لهم، ووبال عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي يعذبهم بسبب ما يكابدون لجمعها، وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها

(١) سورة الدخان، آية: ٤٩.

من الشدائد والمصائب، فالمال والأولاد عذاب للكافرين^(١)، دون المؤمنين، لأنهم يثابون بمتاعبهما في الدنيا والآخرة، وليس عند الكافرين من الاعتقاد بثواب الله تعالى ما يهون عليهم ما يجدونه ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ وتخرج أرواحهم بشدة وعنف ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين، والجملة في موضع الحال أي حال كونهم كافرين، واستدل بتعليق الموت على الكفر، على أن كفر الكافر، بإرادته سبحانه، وفي ذلك رد على المعتزلة.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ^(٥٦) لَوْ يُحَدِّثُونَ مَلَجَأً أَوْ مَفْرَاجاً أَوْ مَدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ^(٥٧)﴾

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ أي يحلفون أنهم مؤمنون مثلكم ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ لكفر قلوبهم ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين، فيظهرون الإسلام تقية، ويؤيدون كلامهم بالآيمان الفاجرة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ^(٢)﴾ يُقَال: فَرَّقَ فَرَقًا أي خاف.

﴿لَوْ يُحَدِّثُونَ مَلَجَأً﴾ حصناً يلجأون إليه ﴿أَوْ مَفْرَاجاً﴾ سرايب يخفون فيها أنفسهم ﴿أَوْ مَدَّخَلاً﴾ موضعاً يدخلونه ﴿لَوَلَّوْا﴾ أي لصرفوا وجوههم وأقبلوا ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى أحد ما ذكر ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يُسرعون

(١) معنى الآية الكريمة: لا تستحسن أيها السامع العاقل، ولا تفتتن بما أوتي هؤلاء من زينة الدنيا، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة، إنما يريد الله عز وجل استدراجهم ليعذبهم بها في الدنيا، فالله يهلكهم بأموالهم بهذه المخترعات الجهنمية التي يخترعونها، من أنواع الأسلحة الفتاكة، فهم يدمرون ويهلكون بأموالهم، وليس أدل على ذلك من الحرب العالمية الأولى والثانية.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤.

إسراعاً في دخوله، لا يَزدهم شيء، يقال: فرس جموح، وهو الذي لا يثنيه اللجام، وفيه إشعار بكمال عتوهم، وظلمة قلوبهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ (٩٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (٩٩).

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي يعيبك في شأنها ويطعن عليك، نزلت في أبي الجواز المنافق، قال: ألا ترون إلى صاحبكم، إنما يقسم صدقاتكم في رعاء الغنم، ويزعم أنه يعدل؟ وروي عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين، فجاءه رجل من المنافقين فقال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل!! فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: ائذن لي أضرب عنقه؟ قال ﷺ: دعه فإن له أصحاباً يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية..» (١) الحديث ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾ بيان لفساد دينهم، وحرصهم على حطام الدنيا، أي إن أعطوا منها قدر ما يريدون ﴿رَضُوا﴾ بما وقع من القسمة واستحسنوها ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا﴾ ذلك المقدار ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ يفاجئون السخط، يعني أن رضاءهم وسخطهم لأنفسهم، لا للدين والحق، غاير سبحانه بين الجملتين إشارة إلى أن سخطهم ثابت لا يزول، بخلاف رضاهم، وعن الضحاك كان النبي ﷺ يقسم ما آتاه الله من المال، قليله وكثيره، وكان المؤمنون يرضون بما أعطوا ويحمدون الله عليه، وأمّا المنافقون فإن أعطوا كثيراً فرحوا، وإن أعطوا قليلاً سخطوا.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ما أعطاهم الرسول ﷺ من

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٣٠/٨ ومسلم ١٦٥/٧ وله تمة انظرها في الصحيحين.

الغنيمة أو الصدقة، وذكر الله للتعظيم، والتنبيه على أن ما فعله الرسول ﷺ كان بأمره تعالى ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي كفانا فضله وما قسم لنا ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ أي سيرزقنا الله صدقة أو غنيمة أخرى، فيؤتينا أكثر مما آتانا اليوم، حسبما نرجو ونأمل ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ في أن يغنيننا بفضله، والجواب محذوف بناءً على ظهوره أي لكان خيراً لهم وأعود عليهم بالنفع، ثم بين تعالى مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول ﷺ، لإصلاح الدين وأمله، لا لأغراض نفسانية كأغراضهم، فقال عز وجل:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠٦ ﴾

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ أي الزكاة لهؤلاء المعدودين، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم، والفقير الذي له شيء لا يكفيه، والمسكين الذي لا شيء له، فهو أسوأ حالاً من الفقير، لقوله سبحانه: ﴿أَوْ مَسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ ﴿وَالْمَعْمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي الساعين في تحصيلها وجمعها، وهم الذين يبعثهم الإمام، والساعي هو الذي يسعى في القبائل ليأخذ صدقات المواشي في أماكنها، ويُعطى العامل ما يكفيه بالوسط ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقُهُمْ﴾ وهم كانوا ثلاثة أصناف: صنف كان يؤدي لهم رسول الله ﷺ ليسلموا، وصنف أسلموا لكن على ضعف، كعبيدة بن حصن، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، وصنف كانوا يُعطون لدفع شرهم، وفي الهداية أن المؤلفة قد سقط وانعقد إجماع الصحابة على ذلك في خلافة الصديق، وصح أنه ﷺ كان يعطيهم من خمس الخمس، الذي كان خاصاً ماله ﷺ ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وللصرف في فك الرقاب بأن يعاون

المكاتب، وقيل: يباع الرق فيعتق، وبه قال مالك وأحمد، والاحتياط في سهم الرقاب دفعه إلى السيد بإذن المكاتب، وكذا القول في الغارمين يصرف المال إلى قضاء ديونهم ﴿وَالْفَرِمِينَ﴾ الذين تداينوا لأنفسهم في غير معصية، إذا لم يكن لهم نصاب فاضل عن ديونهم، والغارم في اللغة من عليه دين ولا يجد قضاءه، والفقر شرط في الأصناف كلها إلا العامل ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الفقراء الغزاة، وقيل: صرف سهمهم إلى جميع وجوه الخير، من بناء المدارس، وعمارة المساجد، ونحو ذلك، والقول الأول هو الصحيح لإجماع الجمهور عليه ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلَ﴾ أي المسافر المنقطع عن ماله، والاستقراض له خيرٌ من قبول الصدقة، وفي فتح القدير: أنه لا يحلُّ له أن يأخذ أكثر من حاجته، وهذه مصارفُ الصدقات، فللمتصدق أن يدفع زكاة ماله إلى كل واحد منهم، وأن يقتصر على صنفٍ منهم، لأن اللام لبيان أنهم مصارف، لا لإثبات الاستحقاق، وقد روي ذلك عن عمر، وابن عباس، وحذيفة، وهذا مذهبنا، وعند الشافعي لا يجوز إلا أن يصرف إلى ثلاثة من تلك الأصناف، ولنا قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تُخْفُوا وَتُزَوِّجُوا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^(١) وأنه ﷺ أتاه مال من الصدقة فجعله للمؤلفة، ثم أتاه مال آخر فجعله في الغارمين، فدل ذلك على أنه يجوز الاقتصار على صنفٍ واحد ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ مصدر لما دلت عليه الآية، أي فرض الله لهم الصدقات فريضة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه، وبأحوال الناس ومراتب استحقاقهم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، من الأمور الحسنة، وإنما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين، حسماً لأطماعهم.

(١). سورة التوبة، آية: ٢٧١.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ يسمع كل ما يقال له ويصدق، سمي بالجارحة للمبالغة، كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك، نزلت في فرقة من المنافقين، قالوه في حقه ﷺ بأنه يسمع كل ما قيل، من غير أن يتدبر فيه، ويميّز بين ما يليق بالقبول، وبين ما لا يليق به، وإنما قالوه لأنه ﷺ كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا، ويصفح عنهم جليماً وكرمأً، فحملوه على سلامة القلب، وقالوا ما قالوا، سوّد الله وجوههم، وأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تصديق لهم بأنه أُذُنٌ، ولكن لا على الوجه الذي ذموا به بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، ثم فسّر ذلك بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يُصَدِّقُ بِاللَّهِ، وبما جاء من عنده من الآيات البينات، وذلك خير لكم وللعالمين ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدقهم لما علم من خلوصهم، واللام مزيدة للترقية بين الإيمان المشهور، وبين التسليم والتصديق، والإيمان بالله هو نقيض الكفر، فلا يتغدى إلا بالباء، وتصديق المؤمنين فيما يقولونه، فلا يقال إلا باللام، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ وهو تعريض بأن المنافقين أُذُنٌ شرٌّ، يسمعون آيات الله، ولا ينتفعون بها، ويسمعون قول المؤمنين ولا يقبلونه ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي وهو ﷺ رحمةٌ وأبّ رحمة ١١ بطريق إطلاق المصدر على الفاعل مبالغة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي لمن أظهر الإيمان، حيث يقبله ولا يكشف سره، وفيه تنبيه على أنه ﷺ ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم بل رفقاً بكم وترحمأً عليكم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بأي نوع من الإيذاء ﴿هُمَّ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لهم عذاب شديد موجه بسبب ذلك الإيذاء، وهو خبر من الله عز وجل على

نهج الوعيد لغاية التعظيم لمقامه الشريف ﷺ والتنبية على أن أذيته راجعة إلى الله تعالى، موجبة لكمال السخط والغضب.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَبْ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٨﴾.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين، لقد كان المنافقون يتكلمون بما لا يليق، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالإيمان الكاذبة ليرضوا عنهم ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ أي أحق بالإرضاء، بالطاعة والوفاق، ولا يتسنى ذلك إلا بالصدق والمتابعة وتعظيم أمره ﷺ، والابتعاد عن الكذب والإيمان الفاجرة، والمراد ذمهم بالاشتغال فيما لا يعنيههم، والإعراض عما يهتهم ويؤجديهم ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ جوابه محذوف تعويلاً على دلالة ما سبق، أي إن كانوا مؤمنين إيماناً صادقاً، في الظاهر والباطن، فليرضوا الله ورسوله، فإنهما أحق بالإرضاء.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أولئك المنافقون الذين سبق ذكرهم، والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من الجريمة العظيمة، مع علمهم بما سمعوا من الرسول ﷺ وخامة عاقبتها من فنون الإنذارات، وألم تعلم؟ خطابات لمن حاول الإنسان تعليمه مدة، ثم إنه لم يعلم، فيقول له: ألم تعلم؟ وإنما حسن ذلك، لأنه ﷺ طال مكثه بينهم وكثر ترغييه وترهييه وتحذيره لهم، ولذا قيل: ألم يعلموا؟ ﴿أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي من يجاوز الحد في المخالفة لأمر الله ورسوله، والمحادة: من الحد بمعنى الجهة والجانب، كالمشافة من الشق، والمعادة من العداوة بمعناه، فإن كل واحد في جانب غير ما عليه صاحبه ﴿فَأَبْ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي فقد حق أن له نار جهنم ﴿خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ﴾ أي العذاب الخالد ﴿الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي

الذل المقارن للفضيحة، حيث يفتضحون على رؤوس الأشهاد، وهي ثمرات نفاقهم.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (٦٤)

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين في شأن المنافقين، أي يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تكشف عما في قلوبهم من النفاق ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق والأسرار الخفية، فضلاً عما كانوا يُظهرونه فيما بينهم، من أقاويل الكفر والنفاق، ومعنى «تنبيههم» أي أنها تذيب ما كانوا يخفونه من أسرارهم، فتشر بين الناس، فيسمعونها من أفواه الرجال، فكانها تخبرهم بها ﴿قُلِ اسْتَهِزُّوا﴾ أي افعلوا الاستهزاء، وهو أمر تهديد ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ أي مظهر ﴿مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي ما تحذرونه من مخازيكم، المستكنة في قلوبكم، على ملأ الناس، والمراد مظهر كل ما تحذرون ظهوره من القبائح.

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَقَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذِبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٦٦)

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ﴾ عما قالوه ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ روي أن ركبا من المنافقين، مرّوا بين يدي رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقالوا: انظروا هذا الرجل يريد أن يفتح حصون الشام، هيهات، هيهات، فأخبر الله تعالى نبيه فدعاهم فقال: أنتم الذين قلمت كذا وكذا، فقالوا: لا والله ما كنا في شيء من أمرك، وأمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما

يخوض الركب، لنقطع الطريق بحديثنا!! فلما أخبرهم الرسول ﷺ خافوا واعترفوا بأنهم قالوا ذلك على وجه الخوض واللعب، فنزلت الآية ﴿قُلْ أَيْدِيكُمْ وَأَيْدِي رَسُولِي كُنْتُمْ تُسْتَهْزِئُونَ﴾؟ أي قل لهم توبيخاً على استهزائهم: أنتستهزئون بدين الله وشرعه، وكتابه ورسوله؟ فكيف تزعمون الإيمان وأنتم تهزؤون من دين الرحمن؟.

﴿لَا تَعْذِرُوا﴾ أي لا تستغلوا باعتذاراتكم، فإنها معلومة الكذب، لا تنفعكم بعد ظهوره ﴿فَدَّ كَفَرْتُمْ﴾ قد أظهرتم الكفر بإزاء الرسول ﷺ والطعن فيه ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإيمان، وهذا وما قبله، لأن القوم منافقون، فالكفر في باطنهم، ولا إيمان في نفس الأمر لهم ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم عن عقوبة الدنيا العاجلة ﴿نُعَذِّبُ طَائِفَةً يَأْتِيهِمْ كَانُوا بُجُورِينَ﴾ أي مصريين على النفاق ومباشرين على الإيذاء والاستهزاء، واستدل بعضهم بالآية، على أن الجد واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء، ولا خلاف بين الأئمة في ذلك.

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (١٨).

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي متشابهة قلوبهم في النفاق والبعد عن الإيمان، كأبعض الشيء الواحد، والمراد الاتحاد في الحقيقة والصورة، والآية متصلة بجميع ما ذكر من قبائحهم وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ الخ كالدليل، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين، أي يأمرون بالكفر والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ عن

الإيمان والطاعة ﴿وَيَقِضُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الميراث والإنفاق في سبيل الله، وقبض اليد: كناية عن الشح والبخل، كما أن بسطها كناية عن الجود والسخاء، ﴿تَسُوا اللَّهَ﴾ أغفلوا ذكر الله، وتركوا طاعته ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم من فضله ولطفه، والتعبير عنه بالنسيان للمشكلة ^(١) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في التمرد والخروج عن دائرة الخير.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ والتعبير بالوعد للتهكم، نحو قوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿وَالْكَافِرَاتِ﴾ أي المجاهدين ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ مخلدين ﴿فِيهَا﴾ في النار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ عقاباً وجزاء، وفيه دليل على عظم عقابها، فإنه إذا قيل للمعذب: كفى لك هذا، دل على أنه بلغ غاية النكابة ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم وفي إظهار الاسم الجليل إيذاناً بشدة السخط ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا ينقطع أبداً، ولا ينفك عنهم، وهو ما يقاسونه من مرض النفاق، الذي هم منه في بلية دائمة، لا يأمنون ساعة من خوف الفضيحة، ونزول العذاب.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا مَوَالِيًا وَأُولَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَنْتَعِمُوا بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِعْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد، أي أنتم مثل الذين من قبلكم من الأمم المهلكة، فعلتم مثل ما فعل الظالمون من قبلكم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا مَوَالِيًا وَأُولَادًا﴾ تفسير وبيان

(١) المشكلة معناها الانفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، والمراد من الآية أنهم تركوا طاعة الله، فتركهم من هدايته وتوفيقه ورحمته، والله جل وعلا لا يضل ولا ينسى، فالنسيان منهم على ظاهره، والنسيان من الله بمعنى الترك.

لشبههم بهم وتمثيل لحالهم بحالهم، وفيه إيذانٌ بأن المخاطبين أولى وأحقُّ، بأن يصيبهم ما أصابهم ﴿فَاسْتَمْتَعُوا﴾ أي تمتعوا من الدنيا ﴿بِمَخْلَقَتِهِمْ﴾ بنصيبهم من ملاذ الدنيا ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِمَخْلَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقِهِمْ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة، من الشهوات الفانية، والتهائم بها عن النظر في العاقبة، والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية، تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم، واقتفاء أثرهم ﴿وَحُضِّنْتُمْ﴾ أي دخلتم في الباطل، والكذب، والاستهزاء ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي كالذين خاضوا فحذف نونه تخفيفاً ﴿أُولَئِكَ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأفعال الذميمة ﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي ضاعت وبطلت ولم يترتب عليها أثر ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أما في الآخرة فظاهر، وأما في الدنيا، فلأنَّ ما يترتب على أعمالهم فيها من الصحة والسعة وغير ذلك، ليس على طريق المثوبة والكرامة، بل بطريق الاستدراج ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بحبوط الأعمال ﴿هُمْ الْخَسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران، وفي الحديث الشريف: «لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شَبْرًا بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لتبعتموهم، قلنا يا رسول الله: اليهودُ والنصارى؟ قال: فمن»^(١) يعني فمن يراد ممن كان قبلكم غير اليهود والنصارى؟ وفيه معجزة للنبي ﷺ حيث كان كما أخبر.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفَكِاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ أي المنافقين ﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي خبرهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ٢٥٥/١٣ ومسلم في العلم رقم ٢٦٦٩ باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

الذي له شأن، وهو ما فعلوا وما فعل بهم، والاستفهام للتقرير والتحذير أي قد أتاهم خبر ﴿قَوْمٌ نَوْجٌ﴾ أغرقوا بالطوفان ﴿وَعَادٌ﴾ أهلكوا بالريح ﴿وَتَمُودٌ﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ﴾ أهلك رئيسهم نمرود ببعوض وأبيدوا بعده لكن لا بسبب سماوي ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ أهلكوا بالنار يوم الظَّلَّةِ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ الائتلاف: هو الانقلاب، بجعل أعلى الشيء أسفل، المراد بها مدائن قوم لوط ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الدالة على صدقهم فكذبوهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بأن يعذبهم بغير ذنب، والفاء للعطف على مقدر، أي فكذبوهم فأهلكهم الله عز وجل، فما ظلمهم بذلك، وإيثار ما عليه النظم الكريم للمبالغة في تنزيه ساحة الرب عن الظلم، أي وما صبح وما استقام له تعالى أن يظلمهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارتكاب الذنوب، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار ظلمهم، حيث لم يزالوا يُعَرِّضُونَهَا للعقاب، بالكفر والتكذيب.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٦١).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين والمؤمنات، حالاً ومالاً إثر بيان قبح حال أضدادهم، عاجلاً وآجلاً، أي هم إخوة في الدين، يتناصرون ويتعاونون ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي يدعون إلى فعل الخير، وينهون عن الشر والمنكر، على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو في مقابلة «نسوا الله» ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ بمقابلة «ويقبضون أيديهم» ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل أمر ونهي وهو في مقابلة وصف المنافقين بالفسق، فهذه الأمور الخمسة، التي بها يتميز

المؤمنون من المنافقين ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ لا محالة، يفيض عليهم آثار رحمته، من التأييد والنصرة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء عن إنجاز وعده ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يضع شيئاً إلا في محله.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٧).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ هذا في مقابلة الوعيد السابق للمنافقين ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي وعدهم وعداً شاملاً لكل أحد منهم، على اختلاف طبقاتهم في مراتب الفضل كيفاً وكماً، فإن كل أحد منهم فائز بها ﴿وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ﴾ تستطيها النفوس ويطيب فيها العيش ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ العَدْنُ في الأصل: الاستقرار والثبات، يقال: عَدَنَ بالمكان إذا أقام فيه، والمراد به الإقامة على وجه الخلود والدوام، كما قال سبحانه: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ وجنة عدن هي أبهى أماكن الجنات وأسناها ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي قدرٌ يسيرٌ من رضوانه سبحانه ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم من ذلك كله، أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك؟ فيقول: أعطيتكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(١) وفيه دلالة على أن السعادات الروحية، أفضل من السعادات

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٣٦٣/١١ ومسلم في صفة الجنة رقم ٢٨٢٩ والترمذي رقم ٢٥٥٨.

الجسمانية ﴿ذَلِكَ﴾ أي الرضوان ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي يستحق دونه الدنيا وما فيها.

﴿يَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنْفِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُشَسِّمُ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمًا لَا يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿٧٤﴾

﴿يَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدَ الْكُفَّارِ﴾ أي المجاهرين منهم بالسيف ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ وهم غير المظهرين للكفر باللسان، وذلك بنحو الوعظ، وإلزام الحجة ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الفريقين في الجهاد بقسميه، ولا ترفق بهم، وعن عطاء نسخت هذه الآية كل شيء من العفو والصفح، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة، فهذا الحكم ثابت فيه، يُجاهد في الحجة، وتستعمل معه الغلظة ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مسكنهم ودار إقامتهم نار جهنم ﴿وَيُشَسِّمُ الْمَصِيرُ﴾ أي مصيرهم.

﴿يَحْلِفُونَ﴾ أي المنافقون ﴿بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ بيان ما صدر عنهم من الجرائم، الموجبة لما مر من الأمر بالجهاد، والغلظة عليهم، والمفسرون ذكروا فيه سبباً للنزول فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: «عبد الله بن أبي» ﴿لَتِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ فنقلها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه، فجعل يحلف بالله ما قاله فنزلت الآية، وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: جاء رجل فدعاه ﷺ فقال: علام تشمني أنت وأصحابك؟ فانطلق وجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فأنزل الله تعالى الآية ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ هي ما حكي من قولهم ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي وأظهروا ما في قلوبهم من

الكفر، بعد إظهار إسلامهم، وكفرهم كان ثابتاً، والإسلام الحقيقي لا وجود له ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ من الفتك برسول الله ﷺ حين رجع من غزوة تبوك، أخرج البيهقي عن حذيفة بن اليمان، قال: «كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقودُ به، وعمَّار يسوقه، حتى إذا كنا بالعقبة، فإذا باثني عشر راكباً قد اعترضوا فيها، فأنبهتُ رسولَ الله ﷺ، فصرخ بهم، فولَّوا مدبرين، فقال ﷺ: «هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا، كانوا متلثمين، قال: هؤلاء المنافقون»^(١) ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ أي وما كرهوا وما عابوا شيئاً ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج، في ضنك من العيش، فلما قدم رسول الله ﷺ أثروا بالمغانم، ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ عما هم عليه من القبائح ﴿يَكُ﴾ أي التوبة ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ في الدارين ﴿وَإِنْ يَسْتَوَلُوا﴾ بالإصرار على النفاق، ويغرضوا عن التوبة ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر في هذه الدنيا، بأن يسلب الله عليهم المؤمنين ﴿وَالْآخِرَةَ﴾ بالنار وغيرها من أفانين العذاب ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في الدنيا مع سعتها وكثرة أهلها، والمراد بذلك التعميم ﴿مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فينجيهم من العذاب، بالمدافعة، ولا بالشفاعة، وخصَّ ذلك في الدنيا، لأنه لا ولي ولا نصير لهم في الآخرة قطعاً، فلا حاجة لنفيه.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾ (٧٨).

(١) الحديث أخرجه البيهقي في كتاب دلائل النبوة، وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٣٨٦/٢.

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِذَا آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ نزل في «ثعلبة» أتى رسول الله ﷺ وقال: أدعُ الله أن يرزقني مالا، فقال ﷺ: يا ثعلبة قليلٌ تؤدِّي شكره، خير من كثير لا تُطيقه!! فراجعهُ، فقال: والذي بعثك بالحقُّ لئن رزقني الله مالا لأعطينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فدعا له، فاتخذ غنماً، فنمَّت حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع تدريجاً عن الجماعة والجمعة، فسأل ﷺ عنه، فحكى له، فبعث ﷺ مصدِّقين في أخذ الصدقة، فقال: ما هذا إلاَّ جزيَّةٌ فارجعا حتى أرى رأيي، فنزلت^(١)، والمقصود تحذير المسلمين أن يعتادوا مثل هذه الخصال الذميمة.

﴿ فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ﴾ أي منعوا حقَّ الله منه ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ أعرضوا عن طاعة الله سبحانه ﴿ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض عنها، والمراد تولوا بإجرامهم وهم معرضون بقلوبهم.

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ كلُّ شيء جاء بعد شيء، فقد عاقبه وعقبه، أي فجعل الله تعالى عاقبة فعلهم ﴿ نِفَاقًا ﴾ سوء اعتقاد وكفراً مضمراً ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ متمكناً في قلوبهم ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أي يلقون الله ويلقون جزاء عملهم، وهو يوم القيامة ﴿ يَمَّا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ أي يلقون جزاء عملهم، بسبب إخلافهم ما وعدوه تعالى من التصدق والصلاح، وبسبب كونهم مستمرين على الكذب، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع، للإيذان بالاستمرار، وفي الحديث الشريف: «أربعٌ من كنَّ فيه

(١) انظر جامع البيان للطبري ١٩٢/١٠ وتفسير ابن كثير ٣٨٨/٢ وقد نقل هذا عن ابن عباس والحسن البصري. أقول: وهذا غير ثعلبة بن حاطب الصحابي المشهور، فهذا مسلم بدرِّي، وذاك رجل منافق بنص القرآن الكريم: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ أي ومن المنافقين من عاهد الله، وقد اشتبه على البعض الأمر، فأنكر القصة وكذب الرواية، مع أنها مروية في أكثر كتب التفسير، وبالتمييز بين الاثنين ينتهي أمر الشك والتكذيب، وانظر تفسير القرطبي ٢١٠/٨.

كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منها، كانت فيه خصلة من النفاق، حتى يدعها: إذا أوتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر^(١) أي مال عن الحق، وليس الغرض الحصر، بل كل من أبطن خلاف ما أظهر، فهو من المنافقين، واستشكل ذلك بأن هذه الخصال، قد توجد في المسلم، بل في بعض علمائنا اليوم؟ أجيب بأن المعنى: أن هذه الخصال خصال النفاق، وصاحبها يشبه المنافقين في التخلق بها، ويجب على المؤمن أن يجتنب عنها، فإنها في غاية القبح والشناعة.

﴿الرَّيَّانُونَ﴾؟ أي المنافقون الذين عاهدوا الله تعالى، والهمزة للإنكار والتوبيخ ﴿أَبْكَ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي ما أسرّوه في أنفسهم من النفاق، والعزم على الإخلاف وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن، وتقديم السر لأن العلم به أعظم ﴿وَأَبْكَ اللَّهُ عَلَّمَ الْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، حتى ما اجترؤوا عليه من العظائم.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ اللمز: العيب، أي هم الذين يعيبون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي المتطوعين المتبرعين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي في الإنفاق من أموالهم، عن أبي مسعود البصري قال: لما نزلت آية الصدقة كنّا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدّق بشيء كثير، فقالوا

(١) الحديث أخرجه البخاري في الإيمان باب علامات المنافق ٨٤/١، ومسلم رقم ٥٨ في الإيمان أيضاً، وأبو داود رقم ٤٦٨٨ في السنة.

مراء، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا، فنزلت هذه الآية^(١)، وحثَّ النبي ﷺ الناسَ على الإنفاق، فقال: يا أيها الناس تصدَّقوا، فقام عبد الرحمن بن عوف، فقال: عندي ثمانية آلاف تركت منها أربعة لعيالي، وجئت بأربعة أقدمها إلى الله تعالى، ثم قام عاصم بن عدي الأنصاري فقال: يا رسول الله: عندي سبعون وسقاً من تمرٍ، فطعن المنافقون وقالوا: إنما جاء بهذا للرياء والسمعة، ثم قام رجل يكنى «أبا عقيل» فقال: يا رسول الله ما لي من مال، غير أنني آجرت نفسي على صاعين من تمر، فتركت صاعاً لعيالي، وجئت بصاع أقربه إلى الله تعالى، فلمزه المنافقون وقالوا: كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحبَّ أن يُذكر، ويُعطى من الصدقات، فنزلت الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي ويعيبون الذين لا يجدون إلا طاقتهم، وهم الفقراء ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي يستهزئون بهم ويقولون: إنه محتاج إليه، فكيف يتصدق به؟ والمنافقون لا يعلمون أن هذا من موجبات الفضيلة، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي جازاهم على سخريتهم، والتعبير عنها بذلك للمشكلة^(٢) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب مؤلم موجه، فالجملة معطوفة على ما قبلها، وإنما اختلفتا فعلية، واسمية، لأن السخرية في الدنيا وهي متجددة، والعذاب في الآخرة وهو دائم، والتنوين في العذاب للتهويل والتفخيم.

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٣٣٠/٨، ومسلم في الزكاة رقم ١٠١٨، وذكره الطبري بنحوه في جامع البيان ١٩٥/١٠.

(٢) قال النحاس في معاني القرآن ٢٣٦/٣: ومعنى ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي جازاهم على سخريتهم، فسئى الثاني باسم الأول على الازدواج. اهـ أي على سبيل المقابلة لسخريتهم وهذا ما يسمى بالمشكلة أو المقابلة وهي الاتفاق باللفظ مع الاختلاف في المعنى.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠).

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يا رسول الله ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إخبار باستواء الأمرين، في استحالة المغفرة، وتصويره بصورة الأمر للمبالغة، قال المفسرون: لما نزلت الآية المتقدمة في المنافقين، وظهر نفاقهم للمؤمنين، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويقولون: استغفر لنا!! فنزلت ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ المراد من السبعين التكثير دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها في التكثير ﴿ذَلِكَ﴾ امتناع المغفرة لهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فليس عدم قبول استغفاركم، لبخلٍ مثلاً، ولا لقصور فيكم، بل لعدم قابليتهم، بسبب الكفر الصارف عنه، لأنهم كفروا كفراً متجاوزاً للحد، كما يشير إليه وصفهم بالفسق، في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فإن الفسق عبارة عن التمرد، والتجاوز عن حدود الشرع.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١) ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢).

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي المتخلفون عن غزوة تبوك، الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم عن الغزو ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ مصدر ميمي بمعنى القعود، أي فرحوا بقعودهم عن الغزو ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي بعد خروجه ﷺ مخالفة له حين سار وأقاموا فلم يخرجوا معه، أي فرحوا لأجل مخالفته ﷺ ﴿وَكُرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إشاراً للدعة والراحة، لما في قلوبهم

من الكفر والنفاق، وإنما أُوثر ما عليه النظم الكريم، على أن يقول: وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو، إيداناً بأن الجهاد في سبيل الله، مع كونه من أجل الرغائب، قد كرهوه، كما فرحوا بأقبح القبائح، الذي هو القعود خلاف رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض تشيطاً: لا تخرجوا إلى الغزو في الحر، فإنه لا تُستطاع شدته ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ردّاً عليهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وقد آثرونها بهذه المخالفة ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي لو كانوا من أهل الفطنة والفقه، لعرفوا أنها كذلك.


﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في الآخرة، إخباراً عما يؤول إليه حالهم، أي وسيكون بكاء كثيراً حين يلقون في الآخرة جزاءهم^(١) ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من فنون المعاصي، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على الاستمرار التجديدي.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجََا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ﴾

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ فإن ردك الله إلى المدينة، وفيها طائفة من المتخلفين يعني منافقيهم، والرجع إشارة إلى أن ذلك السفر، لما فيه من الخطر فيحتاج الرجوع منه، ولذا أُوثر إن على إذ ﴿فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوة أخرى بعد تبوك، التي ردك الله منها بتأييده عزيزاً ﴿فَقُلْ﴾ لهم إهانة ﴿لَنْ نَخْرُجََا مَعِيَ أَبَدًا﴾ ما دمتُ ودمتم ﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ﴾

(١) معنى الآية: أمر الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ماشاؤوا، فإنهم سيكونون في النار بكاء لا ينقطع، جزاء بما اجتروحوه من الآثام، وهذا المعنى هو الذي ذهب إليه ابن عباس، والحسن، وقتادة، وانظر معاني القرآن للنحاس بتحقيقنا، طبعة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٤٠٨ هـ.

عَدُوًّا ﴿ من الأعداء، وهو إخبارٌ في معنى النهي للمبالغة، وإبعاد لهم من محافل الصحابة، عقوبة لهم ﴾ **﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ﴾** عن الخروج معي وفرحتهم به **﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** أي في غزوة تبوك، والجملة في موضع التعليل لما سلف، أي لأنكم رضيتم بالقعود في أول مرة **﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾** أي المتخلفين كالنساء والصبيان، والعاجزين من الرجال كالمرضى والزمى، والجمع المذكر للتغليب، وتفسيرُ الخالف بالمتخلف هو المأثور عن السلف، وفي الآية دليل على أنَّ الرجل إذا ظهر منه مكْرٌ، وخِداعٌ، وبدعةٌ يجب الانقطاع عنه، وترك مصاحبته.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا نَقَمَ عَلَى قَبْرِهٖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَآثُورًا﴾  **فَلْيَسْقُوتَ** .

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي من المنافقين **﴿مَّتَّ أَبَدًا﴾** وإنما جيء بصيغة الماضي، تنبيهاً على تحقق الوقوع لا محالة، قوله: **﴿أَبَدًا﴾** متعلق بالنهي أي لا تدع لهم، ولا تصلِّ عليهم أبداً، وقد روي في سبب النزول ما أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لَمَّا مَاتَ عبد الله بن أبيّ ابن سلول، دُعي له ﷺ ليصلي عليه، فلمَّا قام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، وثبَّ إليه، فقلت يا رسول الله: أتصلي على ابن أبيّ وقد قال يوم كذا وكذا، أعدَّد عليه، فتبسم ﷺ وقال: أَخْزَ عَنِّي يَا عَمْرُ، فصلَّى ثم انصرف، فلم يَمُكْثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ»^(١) وأخرجه الترمذي وزاد فيه «فما صلي بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله»^(٢) **﴿وَلَا نَقَمَ عَلَى قَبْرِهٖ﴾** أي ولا تقف عند قبره للدفن، أو للزيارة والدعاء، وفي زيارة قبور الكفار خلافٌ، وكثير من القائلين بعدم الجواز،

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٣٣٨/٨ فتح الباري.

(٢) انظر سنن الترمذي كتاب التفسير رقم ٣٠٩٩.

حَمَلَ الْقِيَامَ عَلَى مَا يَعْمُ الزَّيَارَةَ، وَمَنْ أَجَازَهَا اسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ ﷺ: «كَنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، إِلَّا فُزُّوْهُا، فَإِنَّهَا تَذَكَّرُكُمْ الْآخِرَةَ»^(١) والاحتياطُ عدم زيارة قبور الكفار ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ تعليل للنهي على معنى إن الصلاة على الميت والاحتفال به، إنما يكون لحرمته، وهم بمعزل عن ذلك، لأنهم استمروا على الكفر مدة حياتهم ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي متمردون في الكفر، خارجون عن حدود الله.

﴿وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وتقدمت مثل هذه الآية، والحكمة في تجدد النزول، إرادة أن يكون المخاطب، على تيقظ وانتباه، فيما يجب أن يُحذر منه، وهو التعجب، والتفاخر بالأموال والأولاد، فالتكرير هنا للمبالغة في التحذير، ويجوز أن يكون هذا في فريق غير الفريق الأول، والكلام الواحد إذا احتيج إلى ذكره مع أقوام كثيرين في أوقات مختلفة، لم يكن ذكره مع بعضهم مغنياً عن ذكره مع الآخر.

﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾^(A١) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ^(A٧).

(١) أخرجه مسلم رقم ١٩٧٧ في الأضاحي، والترمذي في الأشربة رقم ١٨٧٠ وأبو داود رقم ٣٦٩٨ في الأشربة أيضاً.

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن فيها الإيمان والجهاد ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ بأن آمنوا ﴿بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، والخطاب للمنافقين والمراد أخلصوا الإيمان بالله، وإنما قدم الإيمان لأن الجهاد بغير إيمان لا يفيد أصلاً ﴿أَسْتَعِدَّنَا﴾ أي طلب الإذن منك، وفيه التفات ﴿أُولُوا الظُّلُمِ مِنْهُمْ﴾ أي ذوو الغنى والسعة من المنافقين، وهم من له قدرة مالية، وخصّصوا بالذكر لأنهم المظلومون ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا﴾ أي دعنا ﴿نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ﴾ الذين قعدوا لعذر، كالمرضى، والزمنى، وكالنساء، والصبيان.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ مع النساء، والمرضى، والعجزة الذين تخلّفوا في البيوت ﴿وَطَمَحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوهُ﴾ ما ينفعهم وما يضرهم في الدارين.

﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٨٩﴾

﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد من هو خير منهم، نية واعتقاداً وعملاً، فهو مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَیْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾^(١) وفي الآية تعريض، بأن القوم ليسوا من الإيمان بالله تعالى في شيء ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿لَهُمْ﴾ بواسطة

(١) سورة الأنعام، آية: ٨٩.

ذلك ﴿الْخَيْرَاتُ﴾ منافع الدارين، الظفر والغنيمة، في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة، وقيل: الخيرات: الحور، لقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطالب، كرر اسم الإشارة تنويعاً بشأنهم.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بيان لما لهم من الخيرات الأخروية، عدا الفلاح والرضوان، فقد أعدَّ الله لهم حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، وهذه هي السعادة الكبرى.

﴿وَجَاءَ الْمَعَذِرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَجَاءَ الْمَعَذِرُونَ﴾ أي المعتذرون ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ شروع في بيان أحوال منافقي الأعراب، إثر بيان أحوال منافقي المدينة، والمعذر من عذر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى، وحقيقته أن يوهم أن له عذراً فيما يفعل، ولا عذر له، عذرته فيما صنع: رفعت عنه اللوم، فهو معذور، أي غير ملوم، والاسم العُذْر، والمَعْذِرَةُ، واعتذر طلب قبول معذرتة، والأعراب صيغة جمع لا واحد له وليست جمعاً للعرب، يقال رجل أعرابي إذا كان بدوياً يسكن البادية، فمن استوطن القرى والمدن فهو من العرب خلاف العجم، والأعراب: أهل البدو وهم أسد، وغطفان، وقيل: نفر من بني غفار ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد، وكثرة العيال ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في غيرهم وهم منافقو الأعراب كذبوا الله ورسوله في ادعاء الإيمان ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ من الأعراب أو من المعتذرين فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا، والنار في الآخرة.

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفَقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفَقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ .

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ بيان في الأعذار الحقيقية والضعفاء كالهرمي والزمنى ومن فيه نحافة خلقية لا يقوى على الخروج معها ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ كالعمرى ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفَقُونَ﴾ كجهينة ومزينة ﴿حَرْجٌ﴾ أي إثم وأصله الضيق ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية، بأن يتعهدوا أمورهم، وأمور أهلهم، وإرادة الخير لهم، وبالاحتراز عن الأراجيف، وإثارة الفتنة ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم جناح، ولا على معانتهم سبيل، وإنما وضع «المحسين» موضع الضمير، للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين، وهو من بليغ الكلام، لأن معناه لا سبيل لعاتب عليهم، وهو جار مجرى المثل ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه إشارة إلى أن كل أحد، محتاج للمغفرة والرحمة، إذ الإنسان لا يخلو من تفريط، فلا يقال: إنه نفى عنهم الإثم، فما الاحتياج إلى المغفرة؟.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ هم البكاؤون سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: نذرنا الخروج معك، فاحملنا على الخفاف والدواب لنغزو معك، فقال ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فتولوا وهم يكون ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ وفي إثارة ﴿لَا أَجِدُ﴾ على ليس عندي، من تلطيف الكلام، كأنه ﷺ يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا

يجده ﴿تَوَلَّوْا﴾ جواب إذا، أي انصرفوا، والظاهر أنه لم يخرج منهم أحد، للغزو مع الرسول ﷺ ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ تسيل ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي دمعها، وهو أبلغ من يفيض دمعها، لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فَيَاضاً ﴿حَزَنًا﴾ أي يفيض دمعها للحزن ﴿أَلَّا يَحْذَرُوا﴾ أي لئلا يجدوا ﴿مَا يُنْفِقُونَ﴾ في شراء ما يحتاجون إليه للخروج معك.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بالمعاقبة والمعاقبة ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَنْذِرُونَكَ﴾ في التخلف ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ واجدون للأهبة والركب للغزو، مع سلامتهم، قادرون على الخروج معك ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي رضوا لأنفسهم أن يبقوا مع العجزة والنساء والصبيان، المتخلفين عن الغزو، والسبب هو رضاؤهم بالدناءة، والانتظام في جملة الخوالم إثارة للدعة ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ خذلهم الله حتى غفلوا عن وخامة العاقبة ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ غائلة ما رضوا به، وما يستتبعه عاجلاً وآجلاً.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩١) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٢) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٩٣).

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في التخلف عن الخروج للجهاد في سبيل الله، وقيل الخطاب للنبي ﷺ والجمع للتعظيم، والأولى أن يكون له ولأصحابه ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي من الغزو ومنتهمين ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وإنما لم يقل إلى المدينة، إيذاناً بأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم، لا الرجوع إلى المدينة

﴿قُلْ﴾ لهم يا رسول الله، وتخصيصه ﷺ لما أن الجواب وظيفته ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ بالمعاذير الكاذبة ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لن نصدقكم في ذلك ﴿قَدْ تَبَيَّنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ جمع ضمير المتكلم في الموضعين لحسم أطماعهم من التصديق، وللإيدان بأن افتضاحهم بين المؤمنين كافة، فلن يصدقهم أحد منهم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه؟ فكانه استتابة، وإمهال للتوبة ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ﴾ بالبعث يوم القيامة ﴿إِلَىٰ عِلِيرِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي إليه تعالى، ووضع الظاهر موضع الضمير، للدلالة على أنه تعالى مطلع على سرهم وعملهم، لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم ﴿فَيَنْتَقِمُ﴾ عند ورودكم إليه تعالى ووقوفكم بين يديه ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والمراد من التنبيه المجازاة عليها، وإيثارها عليها للإيدان بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم، وإنما يعلمونها حينئذ.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبة والسين للتأكيد والمحلوف عليه هو ما اعتذروا به، والجملة بدل من يعتذرون ﴿إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي إذا رجعت من تبوك، ومعنى الانقلاب: هو الرجوع والانصراف ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بترك المعاتبة، وتصفحوا عما فرط منهم، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ إعراض اجتناب، وعن ابن عباس يريد ترك الكلام والسلام، كما ينبيء التعليل بقوله سبحانه ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ فذر لخبث باطنهم، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة الاعراض، وترك المعاتبة ﴿وَمَا أَوْهَنْهُمْ جَهَنَّمَ﴾ من تمام التعليل، وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار، لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة ﴿جَزَاءُ﴾ أي يجزون جزاء ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا من فنون السيئات.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي يحلفون بالله لكم على ما اعتذروا ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلونه بهم، لينفعهم ذلك في دنياهم فقط ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ حسبما راموا وقبلتم عذرهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ

الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٩﴾ أَيِ فَإِنْ رِضَاءِكُمْ يَسْتَلْزِمُ رِضَاءَ اللَّهِ، وَرِضَاؤُكُمْ وَحْدَهُ لَا يَنْفَعُهُمْ، إِذَا كَانُوا فِي سَخَطِ اللَّهِ، وَالْمُرَادُ بِهِ نَهْيُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مَصَاحِبَتِهِمْ، وَالْبَعْدُ عَنْهُمْ، كَمَا يَجِبُ الْاجْتِنَابُ عَنِ الْأَرْجَاسِ الْجَسَمَانِيَةِ وَالْآيَةِ نَزَلَتْ - عَلَى مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - فِي جَدِّ بْنِ قَيْسٍ، وَمُعْتَبِ بْنِ قُشَيْرٍ، وَأَصْحَابِهِمَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَكَانُوا ثَمَانِينَ رَجُلًا، أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَجَالِسُوهُمْ، وَلَا يَكَلِّمُوهُمْ، فَامْتَثَلُوا.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩﴾﴾

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ مِنْ أَهْلِ الْمَدَنِ لَغْلَظَةُ طِبَاعِهِمْ، وَقَسْوَةُ قُلُوبِهِمْ، وَتَوَحُّشُهُمْ، وَنَشَاطُهُمْ فِي مَعْزَلٍ عَنِ الْعِلْمِ وَالْعِلْمَاءِ، وَمَا كَانُوا تَحْتَ سِيَاسَةِ سَائِسٍ، وَلَا تَأْدِيبِ مُؤَدِّبٍ، فَتَشَاوَوْا كَمَا شَاؤُوا، فَهَمُّ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالْبَهَائِمِ، رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ سَكَنِ الْبَادِيَةِ جَفَاءً، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفْلًا، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتِنًا ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أَيُّ أَحَقُّ وَهُوَ مَأْخُودٌ مِنْ جَذْرِ الْحَائِظِ بِسُكُونِ الدَّالِّ، وَهُوَ أَصْلُهُ وَأَسَاسُهُ وَيَتَعَدَّى بِالْبَاءِ ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ بَانَ لَا يَعْلَمُوا ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ لِبَعْدِهِمْ عَنْ مَجْلِسِهِ ﷺ، وَحِرْمَانِهِمْ مِنْ مَشَاهِدَاتِ أَنْوَارِ النُّبُوَّةِ وَالْمُعْجَزَاتِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يَعْلَمُ أَحْوَالَ أَهْلِ الْوَبْرِ وَالْمَدْرِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا يَشِيبُ بِهِ مَسِيئَتُهُمْ وَمَحْسَنَتُهُمْ، عِقَابًا وَثَوَابًا.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ أَيُّ يَعِدُّ مَا يَصْرِفُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿مَغْرَمًا﴾ الْغَرَمُ ذَهَابُ الْمَالِ بِغَيْرِ عَوْضٍ، وَغَرَمٌ فِي تِجَارَتِهِ خَسْرٌ، أَيُّ

يعدّ ما يعطيه في سبيل الله مغرمًا، لأنهم لا ينفقونه رجاء ثواب الله تعالى ليكون لهم مغنما، وإنما ينفقونه تقية ورثاء الناس ﴿وَيَرْبِصُ بِكُمْ الدَّوَابُّ﴾ أي دوائر الزمان ومصائبه، لينقلب الأمر عليكم، فيتخلص من الإنفاق، ﴿عَلَيْهِمْ دَايِرَةُ السَّوْءِ﴾ دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين، كقوله تعالى ﴿عُلِّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بعد قول اليهود ما قالوا ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولونه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ على الوجه المأمور به ﴿وَيَسْتَحِذُ﴾ أي يأخذ لنفسه على وجه الاصطفاء والادخار ﴿مَا يُنْفِقُ﴾ في سبيل الله ﴿قُرْنَتِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي سبب قربات، جمع قرينة بمعنى التقرب إلى الله بالعمل الصالح ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي دعاء الرسول ﷺ واستغفاره لهم، لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدق حين أخذ صدقته بالخير والبركة، فالمراد بالصلاة الدعاء، لكن ليس له أن يصلي عليه ويسلم، فلا يفرد به غير الأنبياء والملائكة، قال النووي: علّة منع الصلاة والسلام، لأن ذلك شعار أهل البدع، وأنه مخصوص في لسان السلف بالأنبياء والملائكة، كما أن قولنا عز وجل مخصوص بالله تعالى، فلا يقال: محمد عز وجل وإن كان عزيزاً وجليلاً ﴿أَلَا إِنَّا قُرَيْشٌ لَّهُمْ﴾ شهادة من الله تعالى بصحة معتقدهم، وتصديق لرجائهم، والضمير لنفقتهم، أي ألا إن هذا الإنفاق، قرينة عظيمة تقربهم من رضوان ربهم، و «ألا» أداة استفتاح للتنبيه، والدلالة على الاعتناء بالأمر ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وعدّ لهم بإحاطة الرحمة عليهم، والسين للتحقيق، وهي في الإثبات في مقابلة «لن» في النفي ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تقرير لما تقدم كالدليل عليه والآية نزلت في أسلم، وغفار، وجُهينة، روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «قريش، والأنصار، وجُهينة، ومُزينة، وأسلم، وأشجع، وغفار موالٍ، ليس لهم مولى دون الله ورسوله»^(١).

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٣٩٥ ومسلم في فضائل الصحابة رقم ٢٥٢٠.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ
بِإِحْسَنِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ أي والسابقون الأولون
في الهجرة والنصرة، الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة الأبرار، وهو
بيان لفضائل أشرف المسلمين، والمراد منهم أهل بدر، وأهل بيعة
الرضوان ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنِ﴾ أي سلكوا طريقهم واتبعوهم بالإيمان
والطاعة، إلى يوم القيامة، والمراد بالإحسان كل خصلة حسنة، روي عن
حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن كعب القرظي: ألا تخبرني عن
أصحاب رسول الله ﷺ، فيما كان بينهم من الفتن؟ فقال: إن الله تعالى قد
غفر لجميعهم، وأوجب لجميعهم الجنة في كتابه العزيز، محسنهم
ومسيئهم! فقلت له: في أي موضع؟ فقال: سبحانه الله، ألا تقرأ
﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾؟ ثم قال تعالى:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم، وارتضاء أعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾
بما نالوه من النعمة الدينية والدنيوية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ
تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى
الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ﴾

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ يا أهل المدينة ﴿مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾ يظهرون
الإيمان ويطنون الكفر، من بعض قبائل العرب ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ
الْإِنْفَاقِ﴾ أي لجؤا واستمروا ومهروا فيه، كابن سلول، والجلال، وأبي

عامر الراهب، يُقال: مرد فلان على عمله إذا استمرَّ ودأب وقهر فيه، غير أن مَرَد لا يكاد يستعمل إلا في الشر، ومرد إذا عتا فهو مارد أي ثبتوا في النفاق، ولم يتوبوا عنه، وقوله عز وجل ﴿لَا تَعْلَمُوهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعرفهم بأعيانهم لمهارتهم في النفاق، بحيث يخفى أمرهم على كثير، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم، قال قتادة: ما بال أقوام يتكلفون ويقولون: فلان في الجنة، وفلان في النار، وإذا سألت عن نفسه، قال: لا أدري أنت أعلم بنفسك، وقد تكلفت شيئاً ما تكلف به نبي، قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وقال الله تعالى للرسول ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ ١١.

وهذه الآية أقوى دليل في الرد على من يزعم الكشف، والاطلاع على المغيبات، بمجرد صفاء القلب، وتجرد النفس عن الشواغل ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مُّرتَينَ﴾ وعيد لهم حسبما علم الله فيهم من موجباته والسين للتأكيد، أي سنعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر واتفقوا على أن العذاب الثاني هو عذاب القبر بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ وهو عذاب النار في الآخرة، فالمنافقون يُعَذَّبُونَ ثلاث مرات: مرة في الدنيا، ومرة في القبر، ومرة في النار، لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق، والإغراق فيه حتى صار لهم بمنزلة الطبع.

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿وَأَخْرُونَ﴾ أي ومن أهل المدينة قوم آخرون، لم يكونوا من المنافقين ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أقروا بذنوبهم، التي هي تخلفهم عن الغزو، ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة، قال ابن عباس: هم عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما حضر رجوعه ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان في ممر النبي ﷺ فلما رآهم قال من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء

أبو لبابة وأصحابه، تخلّفوا عنك، وقد أقسموا أن لا يُطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم، فأنزل الله الآية فأرسل ﷺ فأطلقهم^(١)، والاعتراف: الإقرار بالشئ عن معرفة ﴿خَطُّوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ هو إظهار الندم، والاعتراف بالذنب، والخروج إلى المغازي السابقة وغيرها ﴿وَأَخْرَ سَيِّئًا﴾ هو التخلف عن الغزو ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي أن يقبل توبتهم، وهو المدلول عليها بقوله ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ ولأن قبول التوبة يقتضي صدور التوبة عنهم؛ وكلمة عسى للإطماع: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إِنَّ اللَّهَ تعالى كثير المغفرة والرحمة، يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه، وعن أبي عثمان النهدي قال: ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من هذه الآية.

﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٧) ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٨).

﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ﴾ أي خذ يا محمد من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم صدقة تطهرهم بها من الذنوب والأوضار، قال ابن عباس: إنهم لما أطلقوا جاؤوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله: هذه أموالنا التي خُلِفْنَا عنك بسببها، فتصدّق بها عَنَّا، واستغفر لنا فقال ﷺ: ما أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئًا فَتَزَلْتَ الْآيَةَ، ثم أخذ ﷺ منها الثلث كما جاء في بعض الروايات، فليس المراد من الصدقة الزكاة، لكونها مأموراً بها، وإنما هي كفارة لذنوبهم، حسبما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ أي عما تلطخوا به من أوضار التخلف، وقيل: المراد بها الزكاة، والأمر بأخذها دفعاً لتوهم إلحاقهم ببعض المنافقين ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ وتنمي بها حسناتهم،

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٤٠٠/٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وترفعهم إلى منازل المخلصين ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي ادع لهم ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ تسكن إليها نفوسهم، وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ باعتبارفهم والدعاء ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بندامتهم وبما تقتضيه حكمته تعالى.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا؟﴾ الاستفهام للتقرير، أي ألم يعلم أولئك التائبون ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ أي أن الله هو الذي يقبل التوبة عن عباده المخلصين ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي يتقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تأكيد لما عطف عليه، وزيادة تقرير، أي ألم يعلموا أنه تعالى هو وحده المستأثر بقبول التوبة والرحمة، وذلك شأن من شؤونه عز وجل، وعاداته المستمرة؟.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّوكَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْأَغْيَبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْتَشِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا﴾ ما شئتم من الأعمال فظاهره تخيير، وباطنه ترغيث وترهيث ﴿فَسِرِّي اللَّهِ عَمَلَكُمْ﴾ أي أعمالكم لا تخفى على الله خيراً كانت أو شراً ﴿وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين ﴿وَسَتُرَدُّوكَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْأَغْيَبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْتَشِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَمَّا أَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

﴿وَمَّا أَخْرُوتَ﴾ أي ومن المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها، آخرون غير المعترفين المذكورين ﴿مُرْجُونَ﴾ أي مؤخرون وموقوف أمرهم ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي لحكم الله فيهم، والمراد بهم كما في الصحيحين «هلال بن أمية» و «كعب بن مالك» و «مُرَّارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ» وهم قد تخلفوا كسلاً مع الهمم باللاحق، فلم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق، - وحاشاهم -

فقد كانوا من المخلصين، وقد وقف أمرهم خمسين ليلة، لا يدرون ما الله تعالى فاعلٌ بهم^(١) ﴿إِمَّا يَعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ والمقصود تفويض ذلك إلى إرادة الله تعالى، إذ لا يجب على الله سبحانه شيء لا تعذيب العاصي، ولا مغفرة التائب، وقد أمر ﷺ أصحابه ألاّ يسلموا عليهم، ولا يكلموهم، وإنما شدّد عليهم مع إخلاصهم، لأنّ الجهاد كان على الأنصار فرض عين خاصة، لأنهم بايعوا النبي ﷺ عليه وسلم في الخندق.

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً وهؤلاء من أجلتهم، فكان تخلفهم كبيرة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه بهم، فلما رأوا أن أصحاب رسول الله لا تكلمهم أخلصوا نياتهم، وفوضوا أمرهم إلى الله عز وجل، فرحم الله حالهم وقبل توبتهم رضي الله عنهم جميعاً.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضُرَاراً وَكُفُوراً وَتَفَرِّقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجاً
لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدُ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ
تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً﴾ إلى جنب مسجد قباء ﴿ضُرَاراً﴾ أي مضارة لأهل مسجد قباء، أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن جماعة من المنافقين، قال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً وهيئوا ما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهبٌ إلى قيصر ملك الروم، فأتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحن أن تصلي فيه وتدعو بالبركة، فنزلت الآية، وكشف الله أمرهم وفضحهم، وعصم نبيّه من الصلاة فيه، فلما نزلت الآية دعا ﷺ «مالك بن دخشم» و «معن بن عدي» فقال: انطلقا إلى هذا

(١) انظر تمام قصة الثلاثة الذين تخلفوا في صحيح البخاري ٨٨/٦.

المسجد الظالم أهله، فاهدماه وأحرقاه، فخرجوا سريعين حتى دخلاه وفيه أهله، فأحرقاه وتفرق أهله عنه ﴿وَكُفِّرَا﴾ أي ليكفروا فيه ﴿وَتَقَرَّبَا﴾ أي لتقربا بينك المؤمنين الذين كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء، فأرادوا أن يتفرقوا وتختلف كلمتهم ﴿وَلِإِصْدَاقِ﴾ ترقباً وانتظاراً ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وهو أبو عامر الراهب، وكان قد ترهب في الجاهلية وتنصر، وقال للرسول ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلت معهم، فلم يزل كذلك إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن ولئى هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين يحثهم إلى بناء مسجد، فبنوه منتظرين قدومه، فهدم ومات أبو عامر بقنسرين وحيداً، وبقي ما أضمره حسرة في قلوبهم ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا﴾ أي ما أردنا ﴿إِلَّا الْحُسْنَ﴾ أي ما أردنا بينائه إلا الخصلة الحسنى، وهي الصلاة والذكر، والتوسعة على المسلمين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم هذا، وكل مسجد بُني مباحة أو رياء سوى ابتغاء وجه الله، فهو لاحق بمسجد الضرار، وقال عطاء: لما فتح الله على عمر بن الخطاب الأمصار، أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأمرهم أن لا يبنوا في موضع واحد مسجدين، يضار أحدهما الآخر.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾ في مسجد الضرار ﴿أَبَدًا﴾ عن ابن عباس تفسير ﴿لا تقم﴾ أي لا تصل، على أن القيام مجاز عن الصلاة، كما في قولهم: فلان يقوم الليل، أي لا تصل في ذلك المسجد أصلاً حسبما دعوك إليه ﴿لَمَسْجِدِ أُسَسِّ﴾ أي بُني أساسه ﴿عَلَى التَّقْوَى﴾ أي تقوى الله وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ متعلق بأُسَس أي منذ أول يوم ابتدئ بينائه ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ وأحق أفعل تفضيل، أي أحق وأولى بأن تصلي فيه، واختلف فيه، فقيل: إنه مسجد قباء، لما جاء في الحديث الشريف، عن النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا...﴾^(١) الآية،

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٢٦٢/٥ وأخرجه أيضاً أبو داود في الطهارة رقم ٤٤.

وهكذا في رواية عن ابن عباس وعن عروة بن الزبير وسعيد بن جبير، ويدل عليه سياق الآية ولحاظه، وقيل هو مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، قاله عمر، وزيد بن ثابت، ويدل عليه ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه، عن ذلك فقال ﷺ: «هو مسجدي هذا»^(١) ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ أي في هذا المسجد رجال مؤمنون أتقياء وهم الأنصار رضوان الله عليهم. ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ روى ابن خزيمة في صحيحه أنه ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَحْسَنَ الثَّنَاءَ عَلَيْكُمْ بِالطَّهْوَرِ، فَمَا هَذَا؟» قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئا، إلا أننا نُسَّعَ الحجارة بالماء، فقال هو ذلك»^(٢) ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ يرضى عنهم ويدنيه من جنبه تعالى، إثناء المحب لحبيبه.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١١) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٢).

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ التأسيس وضع الأساس، وهو أصل البناء وأوله، ويُستعمل بمعنى الإحكام أي أفمن أسَّس بنيان دينه ﴿عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ أي على قاعدة محكمة هي التقوى، والخوف من الله، وطلب مرضاته بالطاعة ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ الجُرْفُ: ما

(١) أخرجه مسلم ١٠١٥/٢ وأحمد في المسند ٣٣١/٥.

(٢) أخرجه ابن خزيمة، والسيوطي في الدر المنثور ٢٧٨/٣ بنحوه، وذكره الحافظ ابن كثير ٤٠٣/٢.

جرفه السيل من الأرض، واحتفر ما تحته يريد الانهدام، والهاز: المتصدع المشرف على السقوط والمعنى: أضمن أسس بنيان دينه، على قاعدة محكمة، هي التقوى، وطلب الرضاء بالطاعة، خير أم من أسس بنيانه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرعاها، فأدى به ذلك إلى السقوط في النار، كما قال تعالى: ﴿فَأَنهَارُ يَدِي فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي فسقط به البناء وتهدم، وهوى في نار جهنم، شبه الباطل والنفاق في ذهابه واضمحلاله، ببناء بني على حافة هوة سحيقة، فهوى البناء لعدم وجود أساس، ولكونه على حافة الحفرة، وهلك بمن فيه، وهو تشبيه بديع، وتمثيل رائع. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وصلاحهم.

﴿لَا يَزَالُ بُنِيَئُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ أي بناؤهم الذي بنوه وهو مسجد الضرار ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكاً ونفاقاً، والمعنى: إن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم، وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك، ثم لما هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم، لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم أمره، والريبة اسم من الريب بمعنى الشك، وجعل بنيانهم نفس الريبة للمبالغة في كونها سبباً لها، والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي لا يزال بنيانهم ريبة في كل الأوقات، إلا وقت تقطع قلوبهم، فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم ما داموا أحياء ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء التي من جملتها ما ذكر من أحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله وتشريعه.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِمَا كُنْتُمْ يَدْعُونَ﴾ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾

تمثيل لإثابة الله إياهم الجنة، على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وترغيب للمؤمنين في الجهاد ببيان فضله، ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن وأبلغ، مما في هذه الآية، لأنه أبرزه في صورة عقد، عاقده ربُّ العزة جل جلاله، وثمرته الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط، بل كونهم قاتلين أيضاً ﴿فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ لإعلاء كلمته، وجعله مستجلاً في الكتب السماوية، ولم يقل بالجنة مبالغة في تقرر وصول الثمن إليهم، واختصاصه بهم، كأنه قيل: بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم ﴿يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بيان للبيع الذي يستدعيه الاشتراء المذكور، كأنه قيل: كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل: يقاتلون في سبيل الله، وقوله تعالى: ﴿فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ بيان لكون القتال بذلاً للنفس، وإن كانت سالمة وغانمة، فمن قُتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، يعني أن القتل في سبيل الله، والموت فيها سواء في الأجر، وهو الموافق لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ﴿وَعَدَا عَلَىٰ حَقًّا﴾ أي وعداً ثابتاً ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ﴾ يعني هذا الوعد الذي وعده الله للمجاهدين، قد أثبتته في التوراة، والإنجيل، كما أثبتته في القرآن ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟﴾ مبالغة في الإنجاز، وتقرير لكونه حقاً، أي لا أحد أوفى من الله جلَّ وعلا بوعده وعهده!! لأن إخلاف الوعد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق، فكيف بجانب الخلاق العالم جل جلاله؟ ﴿فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ أي فافرحوا به غاية الفرح، فإنه بيع الفاني بالغالي، قال الحسن البصري: بايعهم والله فأغلى لهم الثمن، وانظروا إلى كرم الله! أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها، ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بالثمن وهو الجنة، وإنها والله لصفقة رابحة ﴿وَذَلِكَ﴾ أي البيع ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أعظم منه.

﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُتَكَبِّرُونَ الْمُرْكَبُونَ
الْمُسْتَجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٦)

﴿التَّائِبُونَ﴾ نعت للمؤمنين، والمراد بهم المؤمنون المذكورون
﴿الْعَمِيدُونَ﴾ الذين عبدوا الله مخلصين له تعالى، قال الحسن: أما والله
ما هو بشهر، ولا بسنة، ولكن كما قال العبدُ الصالح: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾^(١) ﴿الْحَمِيدُونَ﴾ لنعمائه، ولما نالهم في السراء
والضراء على كل حال ﴿الْمُسْتَجِدُونَ﴾ أي الصائمون لقوله ﷺ «سياحة
أمتي الصوم»^(٢) وإليه ذهب جلة من الصحابة والتابعين، شبه بها من حيث
إنه يعوق عن الشهوات، أو لأنه رياضة نفسانية، يتوصل بها إلى الاطلاع
على خفايا الملك والملكوت، فشبه الاطلاع عليها بالاطلاع على البلدان،
أو المراد السائحون للجهاد، أو لطلب العلم ﴿الْمُرْكَبُونَ﴾ التَّائِبُونَ
﴿الْمُسْتَجِدُونَ﴾ في الصلاة المفروضة، وقيل هما عبارة عن الصلاة ﴿الْمُرْكَبُونَ﴾
﴿الْمُسْتَجِدُونَ﴾ بالطاعة ﴿وَالْمُسْتَجِدُونَ﴾ عَنِ الْمُنْكَرِ عَنِ الشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي،
الجامعون بين الوصفين: الأوامر، والنواهي ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ المراد
بحدود الله ما بيَّنه وعيَّنه من الحقائق والشرائع ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾
الموصوفين بتلك الفضائل، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على
أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف
المبشِّر به للتعظيم، كأنه قيل: وبشِّرهم بما يجلُّ عن إحاطة الأفهام،
وتعبير الكلام.

(١) سورة مريم، آية ١٩.

(٢) أخرجه ابن جرير عن عائشة موقوفاً، ورواه أبو داود في الجهاد رقم ٢٤٨٦ بلفظ
«سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» وانظر جامع الأصول ٩/٤٨٥.

﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (١١٦) وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا ﴾ أي المشركون ﴿ أُولَىٰ قُرْبَىٰ ﴾ أي ذوي قرابة لهم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ ﴾ أي للنبي ﷺ والمؤمنين ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي المشركون ﴿ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ بأن ماتوا على الكفر، وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم، فإنه طلب توفيقهم للإيمان، والآية نزلت في «أبي طالب» فقد أخرج البخاري ومسلم أنه: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةَ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ عَمٍّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ!!» فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فقال ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحِ عَنْكَ»^(١) فنزلت، والآية على هذا دليل على أن أبا طالب مات كافراً، وهو المعروف من مذهب أهل السنة والجماعة، والشيعه الداهبون إلى موته مؤمناً، أخبارهم عن أهل البيت أوهن من بيت العنكبوت، نعم لا ينبغي للمؤمن الخوض به كالخوض في سائر كفر قريش، فإن له مزية عليهم بما كان يصنعه مع رسول الله ﷺ من محاسن الأفعال.

﴿ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ أزر بقوله: ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي ﴾ بأن

(١) أخرجه البخاري ٢٥٨/٨ في التفسير، ومسلم رقم ٢٤ في الإيمان، والترمذي رقم ٣١٠٠ في التفسير.

توفقه للإيمان، عن عمرو بن دينار قال: لما مات أبو طالب قال له ﷺ: لا تستغفرُ لك، فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، فقالوا: قد استغفر إبراهيم لأبيه، فأنزل سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا﴾ إبراهيم ﴿إِيَّاهُ﴾ بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ رجاء أن يسلم، لعدم تبين أمره، وإلا لما وعدا إياه كما بنىء عنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ﴾ أي لإبراهيم بأن أوحى إليه ﴿أَنَّهُ﴾ أي أَنَّ إياه ﴿عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ أي مستمر على عداوته تعالى، وعدم الإيمان به ﴿تَبَرَّأْتَهُ﴾ عن الاستغفار له ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ يكثر التآوه، وهو كناية عن فرط ترحمه، ورأفة قلبه، تأوه مثل توجع وزناً ومعنى، وأخرج ابن جرير عن عبدالله بن شداد قال: قال رجل: يا رسول الله ما الأوَّاه؟ قال: الخاشع المتضرع ﴿حَلِيمٌ﴾ صبورٌ على الأذى صفوح عن الجناية.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ وليس من عادته سبحانه أن يضلَّ قوماً عن طريق الحق ويجري عليهم أحكامه، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ للإسلام ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمَ﴾ بالوحي صريحاً أو دلالة ﴿مَا يَتَّقُونَ﴾ أي ما يجب اتقاؤه من المحظورات، فلا يتزجروا عما نهوا عنه، وأما قبل ذلك فلا يسمى ما صدر عنهم ضلالاً، ولا يؤاخذون به، فكأنه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل البيان ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي إن الله تعالى عليم بجميع الأشياء فيبين لهم ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من غير شريك له فيه ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾

وَمَا لَكُمْ ﴿﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿﴾ أَيُّ مَنْ غَيْرُهُ ﴿﴾ مِنْ وَلِيِّ ﴿﴾ يَحْفَظُكُمْ ﴿﴾ وَلَا نَصِيرَ ﴿﴾ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الضَّرَرِ، بَيْنَ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ كُلِّ مَوْجُودٍ، وَمَتَوَلَّى أَمْرِهِ وَالْغَالِبُ عَلَيْهِ، وَلَا يَتَأْتَى لَهُمْ وَلَايَةٌ وَلَا نَصْرَةٌ إِلَّا مِنْهُ تَعَالَى، لِيَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ وَيَتَبَرَّؤُوا عَمَّا عَدَاهُ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُمْ مَقْصُودٌ سِوَاهُ عِزِّ وَجَلِّ.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَهْمُ رَوْفٌ رَحِيمٌ﴾

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار، إلا أنه جيء بذكر النبي ﷺ تشريفاً لهم، وقيل: إن توبة الله على النبي ﷺ فُسِّرَ - كما روي عن ابن عباس - بالإذن للمنافقين في التخلف، وأما توبة الله على المهاجرين والأنصار، فلأجل ما وقع في قلوبهم من الميل إلى القعود، لأنَّ الغزوة كانت في وقت شديد، والمعنى: ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة، حتى النبي والمهاجرون والأنصار، لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي في وقتها، وهي حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة، وكانوا في شدة من الظهر، يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي شدة من الزاد تزودوا التمر المسوس، وبلغت بهم الشدة أن قسم التمرة اثنان، وفي شدة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها، وفي شدة زمان من حُمارة القيظ ومن الجذب والقحط، ومن هنا قيل لتلك الغزوة «غزوة العسرة» ولجيشها جيش العسرة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ بيان لتناهي الشدائد وبلوغها إلى ما لا غاية وراءها، وهو إشراف بعضهم إلى أن يميلوا إلى التخلف ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرير

للتأكيد، وفيه تنبيه على أن توبته سبحانه بمقابلة ما قاسوه من الشدائد ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي لطيف رحيم بالمؤمنين، ومن أجل ذلك تاب عليهم.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١١٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١١٩﴾.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ﴾ أي وتاب على الثلاثة ﴿الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ أي تخلفوا عن الغزو، وهم «كعب، وهلال و مُرارة» ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برحبها وسعتها، لإعراض الناس عنهم بالكلية، بأمر الرسول ﷺ، وهو مثل لشدة الحيرة، فلا يجد مكاناً يؤمن فيه، كأنه لا يستقر به قرار، ولا تطمئن به دار ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعها أنس وسرور، وفي هذا ترقى من ضيق الأرض عليهم إلى ضيقهم في أنفسهم وهو في غاية البلاغة ﴿وَزَنُّوا﴾ أي وعلموا وأيقنوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ إلى استغفاره، وإلى الرجوع والإنابة إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق للتوبة بعد خمسين يوماً أو أكثر ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أي ليستقيموا على توبتهم، ويستمرؤا عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي تواب لمن تاب وأناب، ولو عاد في اليوم مائة مرة، الرحيم المتفضل على عباده بأنواع النعم، مع استحقاقهم لأفانين العقاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه وراقبوه في كل ما تأتون وما تذكرون ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم، نية، وقولاً، وعملاً.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ مَا كَانَ ﴾ أي ما صحَّ وما استقام ﴿ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ والأعراب عام لكل سُكَّانِ البوادي ﴿ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ إذا دعاهم عند توجهه إلى الغزو معه، عبَّر عن النهي بصيغة النفي للمبالغة ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أي ولا يصونوا أنفسهم عما لم يصن نفسه عنه، ويكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب، وظاهر الآية وجوب النفير إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو بنفسه، واستدل بها أن الجهاد كان فرض عين في عهده ﷺ، وبه قال ابن بطال، وعلمه بأنهم بايعوه ﷺ عليه، ولا يخفى ما في الآية من التعريض بالمتخلفين رغبة باللذائذ والشهوات، غير مكترئين، بما كابده ﷺ، وجاء أن ناساً من المسلمين تخلَّفوا ثم إن منهم من ندم، فلحق برسول الله ﷺ كأبي خيثمة، فقد روي أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء، فرشت له في الظلِّ، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظلُّ ظليلٌ، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسولُ الله ﷺ في الضحَّى أي - الشمس والحر - والريح، ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومَرَّ كالريح فمَدَّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب وراء السَّراب، فقال ﷺ: كن أبا خيثمة، فكان، ففرح به ﷺ واستغفر له ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما دل عليه من الكلام من وجوب المشايعة ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ شيء من العطش، ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ أي تعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ أي مجاعة، خَمَصَ الشخص خمصاً فهو خميص: إذا جاع ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي

في سبيل إعلاء كلمة الله، وفي طاعته سبحانه ﴿وَلَا يَطْغَوْا مَوْطِنًا﴾ أي ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم، والوطء: الدوسُ بالأقدام ونحوها ﴿يَغِيظُ﴾ يغضب ﴿الْكُفَّارَ﴾ يغضبهم ويطؤه ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ أي لا يأخذون ﴿مِنْ عُدُوِّ تَيْلَافٍ﴾ شيئاً من الأخذ كالقتل، والأسر، والسلب ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي ثواب عظيم، بحكم الوعد والثواب الجميل، والتنوين للتفخيم، دلت هذه الآية على أن من قصد طاعة، كان قيامه وقعوده، وحركته وسكونه، كلها حسنات مكتوبة عند الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم، وهو تعليل وتنبيه على أن الجهاد إحسان، أمّا في حق الكفار، فلأنه سعي في تكميلهم بأقصى ما يمكن، كضرب الطبيب للمريض الجاهل، وأمّا في المؤمنين فلأنه صيانة لهم من سطوة الكفار واستيلائهم.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ ولو تمرة ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان في جيش العسرة ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في مسيرهم وهو كل منفرج في الجبال والآكام ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي أثبت لهم ذلك الذي فعلوه، من الإنفاق، والقطع ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ جزاء أحسن أعمالهم، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء.

﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ أي وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو وجهاد، كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعاً، فإن خروجهم كافة يخلُ بأمر المعاش، روي عن ابن عباس أنه تعالى لَمَّا شَدَّدَ على المتخلفين، قالوا لا يتخلف أحد منا عن جيش وسرية، ففعلوا ذلك، وبقي ﷺ وحده، فنزل ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ لولا هنا تحضيضية وهي مع الماضي تُفيد التوبيخ على ترك الفعل، ومع المضارع تفيد طلبه والأمر به، لكنَّ اللوم على الترك فيما يمكن تلافيه ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ جماعة كثيرة كأهل بلدة أو قبيلة عظيمة ﴿مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ أي جماعة قليلة، وحملُ الفرقة والطائفة على ذلك مأخوذ من السياق ومن البعضية، وإلا فالجوهري لم يفرِّق بينهما ﴿لِيَسْفَقُوا فِي الدِّينِ﴾ ليتكفؤوا الفقاها فيه، فهو لا يحصل بدون جد وجهد ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاها إرشاد القوم وإنذارهم، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه، أن يستقيم ويقيم، لا الترفع على الناس، كما هو ديدن أبناء الزمان، والله المستعان ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي لعلهم يحذرون عقاب الله بامثال أوامره، واجتناب نواهيه، وذهب كثير من الناس إلى أن المراد من النفرة: الخروج لطلب العلم، فالآية ليست متعلقة بما قبلها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أمروا بقتال الأقرب منهم، لأنه من المعلوم أنه لا يمكن قتال جميع الكفار في زمان واحد، فكان من قُرْب أولى، وهذا إرشاد إلى طريق تحصيله على الوجه الأصح، ومن هنا قاتل ﷺ أولاً قومه، ثم انتقل إلى سائر العرب واليهود، وجرى أصحابه على سنته ﷺ إلى أن وصلت سراياهم إلى ما شاء الله،

ولأن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح، ولذا أمر ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وصبراً على القتال، ومجاهدة لهم بشتى أنواع الجهاد، والغلظة هنا بمعنى الشجاعة والشدة، والعنف في القتل والأسر، حتى نُقْلِمَ أظافر الكفر، والفائدة فيها أنها أقوى تأثيراً في الزجر عن القبيح، وهذه هي صفة المؤمن، أنه رفيق بأخوانه المؤمنين، شديد على الكافرين، كما قال سبحانه في وصف أصحاب الرسول ﷺ: ﴿أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وكقوله: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وفي الحديث الشريف «أنا الضَّحُوكُ الْقِتَالُ»^(١) يعني أنه ضحوك في وجه وليه، قتال لهم عدوه. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعصمة والنصرة، وفيه دلالة على أن إقدامهم على الجهاد، بسبب تقوى الله، لإعلاء كلمة الله تعالى، لا بسبب المال والجاه.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من سور القرآن ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي فمن المنافقين كما روي عن قتادة وغيره ﴿مَّن يَقُولُ﴾ استهزاء لإخوانهم المنافقين ليشبتهم على النفاق ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ أي السورة ﴿إِيْمَانًا﴾؟ أي تصديقاً وبقيناً؟ وهذا في مقابلة قول الله عن المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾^(٢) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ جواب من جهة الله تعالى، أي فأما الذين آمنوا بالله، وبما جاء من عنده

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٤١٧/٢ ولم أعثر على من خرَّجه.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢.

﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لتصديقهم بها، وانضمام إيمانهم فيها بإيمانهم السابق ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها لأنها سبب لزيادة كمالهم، وارتفاع درجاتهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ كفر، وسوء عقيدة ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها، وسمي الكفر رجساً، لأنه ألبس الأشياء ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي استحکم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه، وهذا يدل على أن الروح لها مرض، فمرضها الكفر والأخلاق الذميمة، وصحتها العلم والأخلاق الفاضلة.

﴿أُولَٰئِكَ يَرْوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾

﴿أُولَٰئِكَ يَرْوْنَ﴾ يعني المنافقين، الهمة للإنكار والواو للعطف على مقدر أي ألا ينظرون ولا يرون ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي المنافقين ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي يتلون بأصناف البليات بالفحط والمرض وغيرها، ويفضحون بكشف أسرارهم ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ والمراد من المرة أو مرتين التكثير لا العدد، فالفتنة بمعنى البلية والعذاب ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ولا يتعظون بتلك الفتنة الموجبة للتذكر، ولا يتتهون بالتوبة.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وهم في محفل تبليغ الوحي ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون، إنكاراً لها وسخرية، وتلفتوا كراهة سماعها، يتشاورون في إتهام الفرصة، في تدبير الخروج، قائلين إشارة ﴿هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟﴾ من المسلمين إن قمت من حضرة الرسول ﷺ، فإن لم يره أحد قاموا، وإن رآهم أقاموا ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ عن حضرته ﷺ

مخافة الفضيحة، أي انصرفوا جميعاً لعدم تحملهم سماع ذلك، لشدة كراحتهم ولغيظهم ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الإيمان، وهو يحتمل الإخبار والدعاء، والدعاء من الله وعيدٌ لهم، وإعلام بلحوق العذاب بهم ﴿يَأْتَهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ شيئاً فيه نفعهم، لسوء فهمهم، أو لعدم تدبرهم.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ الخطاب للعرب ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم، وقيل الخطاب للبشر على الإطلاق، ومعنى كونه من أنفسهم أنه من جنس البشر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وقرأ ابن عباس والزهري ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ بفتح الفاء من النفاسة، فالمراد من أشرف العرب ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد وشاق عليه، من عزٍّ عليه، بمعنى صَعْبٌ وشَقٌّ ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ العنتُ: المشقة، أي صعب عليه ما يوقعكم في المكروه والمشقة، وهذا من شدة رأفته ورحمته بالامة ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ على إيمانكم وصلاح حالكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قدَّم الأبلغ منهما وهو الرأفة، التي هي عبارة عن شدة الرحمة للفواصل، وهو أمرٌ مرعي في القرآن، وصحح أن الرأفة الشفقة، والرحمة الإحسان، فيكون فيها وصفه ﷺ بدفع الضرر عنهم، وجلب المصلحة لهم، ولم يجمع هذان الاسمان لغيره ﷺ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له ﷺ تسلية له، أي فإن أعرضوا عن الإيمان بك، والتصديق بما جئت ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإنه يكفيك

ويعينك عليهم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق سواه، وهو كالدليل عليه، لأن المتوحد بالالوهية هو الكافي، وهو المعين ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه سبحانه ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يعلم مقدار عظمتة إلا الله عز وجل، والمقصود من ذكره تعظيم جلال الله عز وجل، وختم سبحانه هذه السورة بما ذكر، لأنه تعالى ذكر فيها التكليف الشاق، فأراد أن يسهل عليهم ذلك، ويشجع النبي ﷺ على تبليغه، وقد ورد عن أبي الدرداء موقوفاً «من قال حين يصبح وحين يمسي ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ لم يصبه في ذلك اليوم، ولا تلك الليلة كرب ولا نكبة» وهذه الآية وزدي منذ سنين، وقد جاءت هذه الخاتمة لهذه السورة في غاية الحسن والإبداع، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد عبده، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التوبة»

سُورَةُ يُوسُفَ

مكية وهي مائة وتسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ٢ .

﴿الرَّ﴾ وقد تقدّم الكلام في الحروف المقطعة ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات البينات ﴿ءَايَةُ الْكِتَابِ﴾ أي القرآن المعجز في تشريعه وبيانه ﴿الْحَكِيمِ﴾ صفة للكتاب، ووصف بذلك لاشتماله على الحكم البالغة، فيراد بالحكيم ذو الحكمة، والقرآن أيضاً حاكم يميز الحق والباطل، ويفصل الحلال والحرام، ويقضي بالعدل والإحسان.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أي العرب ﴿عَجَبًا﴾ الهمزة لإنكار تعجبهم، وتعجب السامعين منه، لكونه في غير محله، وإنما قال ﴿لِلنَّاسِ﴾ لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ بتقدير حرف الجر، أي لأن أوحينا ﴿إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ من أعقل رجالهم، دون عظيم من

عظمائهم، وقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولاً، يرسله إلى الناس، إلا «يتيم أبي طالب» وهذا من فرط حماقتهم، وقصور نظرهم، وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة، هذا وإنه ﷺ لم يكن يقصر عن عظائمهم فيما يعتبرونه، إلا في المال وخفة الحال، وما ذكروه من أنه يتيم إن أرادوا أن أصل اليتيم مانع من الإيحاء إليه، فهو أظهر بطلاناً، وما أطف ما قيل إن أنفـس الدُرِّ «اليتيمة» وقيل للحسن: لِمَ جَعَلَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ يَتِيماً؟ فقال: لثلاث يكون لمخلوق عليه مِنَّة، فإن الله سبحانه هو الذي آواه، وأدبه وربَّاه، وأمَّا التقدّم بكثرة المال فلا دخل له في ذلك قطعاً، بل إن الوحي تابع للاستعداد الأزلي، والسبق في إحراز الفضائل، جِبِلَّةً واكتساباً، ولا ريب أن النبي ﷺ في ذلك الشأن، في الغايات القاصية، وما أحسن ما قيل:

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وَمِثْلَكَ قَطُّ لَمْ تَلِدِ النَّسَاءَ
خُلِفْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِفْتَ كَمَا تَشَاءُ

﴿أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ﴾ أن هي المفسرة، أي أوحينا إليك بأن أنذر الناس كافة، وخوفهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا ﴿وَكَثِيرَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بشرهم برحمة الله ورضوانه لصدقهم وإيمانهم ﴿أَنْ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم ﴿قَدَّمَ صِدْقٍ﴾ أي أجراً حسناً بما قدّموا من الأعمال الصالحة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ إذ بالقدم يحصل السبق، والوصول إلى المنازل الرفيعة، وإضافتها إلى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها، وللتنبية على أن مدار نيل ما نالوه هو صدقهم، وأصل القدم: العضو المخصوص، وأطلقت على السبق مجازاً، لكونها سببه وآلته، وأريد من السبق: الفضل والشرف، والتقدم المعنوي، فيعتبر بالصدق عن كل فعل فاضل، ويضاف إليه، كمقعد صدق، ومدخل صدق، إلى غير ذلك، وفسره ابن عباس بالأجر الحسن، وابن مسعود بالعمل الصالح، وقال الزجاج: ﴿قدم صدق﴾ أي منزلة رفيعة، والكل متقارب ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ هم المتعجبون، وإيرادهم ههنا بعنوان الكفر

للتقبيح والتحقير، وترك العطف لجريانه مجرى البيان للجمله التي دخل عليها همزة الإنكار ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي ما أوحى إليه ﷺ في الكتاب المنطوي على الإنذار والتبشير ﴿لَسَجَرٌ مُّثِينٌ﴾ بَيِّنٌ وظاهر، وهذا اعترافٌ من حيث لا يشعرون، بأن ما عاينوه من الرسول ﷺ خارج عن طوق البشر، ولكنهم سموه ساحراً تمادياً في الغيِّ والعناد، كما هو ديدن المكابر اللجوج، وإذا كان في الناس من لا يؤمن بالقرآن، فهذا ليس تقصيراً في هداية القرآن، وإنما العيب فيهم، لأن هدايته كسائر الهداية الطبيعية التي أعرض الناس وعموا عنها، كهداية العقل والبصر ونحوهما، وقد يوقن الرجل أن في عمله مضرة تلحق به، ومع ذلك يعدل عن حكمه، انتهازاً للذة ينالها حسّه أو وهمه، كما هو في مدمن الخمر والمسكرات، فهو كرجل يغمض عينيه ويمشي في طريق لا يعرفها، فيسقط في حفرة، وتتكسر عظامه، هل يُنقّص ذلك من قدر بصره؟

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ كلام مستأنف سبق لبطلان تعجبهم المذكور، بالتنبيه على بعض ما يدلُّ عليها من شؤون الخلق، وأحوال التكوين والتدبير، أي إن ربكم ومالك أمركم، الذي تتعجبون من أن يرسل إليكم رجلاً منكم، هو الله الذي خلق السموات والأرض.. الآية ثم علا فوق العرش علواً يليق بجلاله ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها، لتجيء محمودة العاقبة، والمراد ههنا التقدير على الوجه الأتم، والمراد من الأمر أمر ملكوت السماوات والأرض وغير ذلك، أي يقدر أمر الكائنات، والذي تعجبوا منه

من البعث، والوحي والنبوة والرسالة وقوله سبحانه: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ الاستثناء مفرغ من أعم الأوقات أي ما من شفيع يشفع لأحد، في وقت من الأوقات، إلا بعد إذنه تعالى، وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار، والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة وهو المؤمن ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ﴾ أي الموصوف بتلك الصفات الجليلة، المقتضية للألوهية والربوبية ﴿رَبِّكُمْ﴾ لا غيره إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحدوه بالعبادة، وأخلصوا له الطاعة، ولا تشركوا به شيئاً، من ملك أو نبي، فضلاً عن جمادٍ لا يبصر، ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتفكرون أدنى تفكر، فينبهكم على أنه هو المستحق للربوبية والعبادة، لا ما تعبدونه؟ وإشاراً ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على تفكرون، للإيدان بظهور الأمر، وأنه كالمعلوم، الذي لا يفتقر إلى تفكر، بل إلى مجرد إخطار على الذهن.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي إليه رجوعكم بالبعث والنشور، لا إلى غيره، فاستعدوا للقاءه، والجملة كالتعليل لوجوب العبادة ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لنفسه، أي وعد الله بذلك عباده وعذاً محققاً من الله ﴿حَقًّا﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره، وهو ما دل عليه وعد الله ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي يحيي الخلق ثم يميتهم، ثم يحييهم ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي بعدله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي ويجزي الذين كفروا بشراب من ماء حار، قد انتهى حره، وعذاب أليم، بسبب كفرهم، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على مواظبتهم على الكفر.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ﴾ أي خلقها ذات ضياء، والشمس هي أعظم الكواكب السيارة، كما تدل الآثار، ويشهد له الحس، وفي هذا تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى، ووحدته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، بآثار صنعه في الثَّيَرين، بعد التنبيه على الاستدلال بما مرَّ من إبداع السماوات والأرض، وإرشاد إلى أنه سبحانه حين دَبَّرَ أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع، فلأن يدبِّرَ مصالحهم المتعلقة بمعادهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب أولى وأحرى، أي خلقها الله سبحانه حال كونها ذات ضياء ﴿ وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ أي ذا نور، وسمي نوراً للمبالغة، والضياء أقوى من النور، فلذا جعله الله للشمس، وقد نبه سبحانه بذلك، على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها، والقمر نيراً بعرض لمقابلته الشمس، والاكتساب منها ﴿ وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ ﴾ من حيث سيره، وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره، ومعاينة منازلها، وإناطة أحكام الشرع به، ولذلك علَّلَ بقوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها، ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان تسعاً وعشرين اختفى ليلة واحدة قدَّرها الله سبحانه، ليعلم العباد عدد السنين والشهور والأيام، لإقامة المصالح الدينية والدنيوية، والمراد من الحساب، حساب الأوقات من الأشهر والأيام وغير ذلك مما يتعلق بالمصالح المذكورة ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر من الشمس، والقمر، على ما حكى من الأحوال ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي ما خلق ذلك ملتبساً بشيء من الأشياء، إلا ملتبساً بالحق، مراعيًا لمقتضى الحكمة البالغة ﴿ يُفَصِّلُ

الْأَيَّاتِ ﴿ أَيُّ الْآيَاتِ التَّكْوِينِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ أَوْ جَمِيعِ الْآيَاتِ فَيَدْخُلُ فِيهِ الْمَذْكُورَاتِ ﴾ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ فَإِنَّهُمْ الْمُسْتَفْعُونَ بِهَا، فَيَسْتَدْلُونَ بِذَلِكَ عَلَى شُؤْنٍ مَبْدَعِهَا جَلًّا وَعِلًّا، وَيَعْلَمُونَ مَا فِي تَضَاعِيفِ الْآيَاتِ الْمُنْزَلَةِ فَيُؤْمِنُونَ بِهَا.

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أَيُّ فِي تَعَاقُبِهِمَا بِطُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا وَكَذَلِكَ طُلُوعِ الْقَمَرِ وَأَفْوَلِهِ، وَقَدْ يَرَادُ اخْتِلَافُهُمَا بِحَسَبِ الْأَمَكَةِ، فِي الطُّولِ وَالْقَصْرِ، فَإِنَّ الْبِلَادَ الْقَرِيبَةَ مِنَ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ أَيَّامُهَا الصَّيْفِيَّةُ أَطْوَلُ، وَلَيَالِيهَا أَقْصَرُ مِنْ أَيَّامِ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ مِنْهُ، وَكَرَوِيَّةُ الْأَرْضِ تَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ بَعْضُ الْأَوْقَاتِ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ لَيْلًا، وَفِي مِقَابِلِهِ نَهَارًا ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، وَالنُّجُومِ، وَالسَّحَابِ، وَالرِّيَّاحِ، وَالْأَمْطَارِ ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ مِنَ الْجِبَالِ، وَالْبَحَارِ، وَالْأَنْهَارِ، وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالنَّبَاتَاتِ، وَالْأَشْجَارِ ﴿ لَا يَكُنْتَ ﴾ كَثِيرَةً دَالَّةً عَلَى وَجُودِ الْخَالِقِ وَوَحْدَتِهِ، وَكَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَحُكْمَتِهِ الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا مَا أَنْكَرُوهُ، مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ خَصَّهُمْ لِأَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى النَّظَرِ وَالتَّدَبُّرِ إِنَّمَا هُوَ تَقْوَى اللَّهِ وَالْحَذَرُ مِنَ الْعَاقِبَةِ، فَهُمْ الْوَاقِفُونَ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ آيَاتٌ لَوْجُودِ الْخَالِقِ دُونَ غَيْرِهِمْ.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ لَا يَتَوَقَّعُونَهُ لِإِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ، وَذَهْوُلَهُمْ بِالْمَحْسُوسَاتِ عَمَّا وَرَاءَهَا، وَالْمُرَادُ بِعَدَمِ الرَّجَاءِ عَدَمُ التَّوَقُّعِ مُطْلَقًا أَيُّ لَا

يعتقدون بقاء الله^(١) ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من الآخرة لغفلتهم عنها ﴿وَأَطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ قاصرين همهم على لذائذها وزخارفها، وجوز أن يُراد من الرجاء الأمل، أي لا يؤملون حسن اللقاء بالبعث، والحياة بالحياة الأبدية العالية، ورضوا منها بالحياة الفانية الدنية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ تاركون النظر ولا يتفكرون فيها لانهماكهم فيما يصدهم عنها.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون ﴿بِمَا هُمْ﴾ مسكنهم ومقرهم ﴿النَّارِ﴾ لا ما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمها ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ما واطبوا عليه من الأعمال القبيحة، وأصناف المعاصي والمنكرات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١﴾ دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَجَّيْتَهُمْ فِيهَا مِنْ أَسْرِهِمْ وَأَخْرَجُوا دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي فعلوا الإيمان، وآمنوا بكل ما يجب أن يؤمن به من الملائكة والكتب والرسول ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي الأعمال الصالحة في نفسها اللاتقة بالإيمان ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ يرشدهم ﴿رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك السبيل المؤدي إلى الجنة، وإنما لم يُذكر أنَّ ماوَاهم الجنة، تعويلاً على ظهورها، بملاحظة ما سبق، من بيان ماوى الكفرة، وفي النظم الكريم إشعار بأن مجرد الإيمان، والعمل الصالح، لا يكفي في الوصول إلى الجنة، بل لا بد بعد ذلك من الهداية الربانية بأن يجعل الله لهم نوراً يهتدون به يوم القيامة والمراد بهذا الإيمان؛ الإيمان الخاص المشفوع بالعمل ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري من بين أيديهم

(١) لقاء كناية عن البعث والنشور، أي لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

وهم على سرر مرفوعة، وأرائك مصفوفة ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ منازلهم في الجنة.

﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا﴾ دعاؤهم فيها ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي نترهك يا الله عن صفات النقص، ونسبحك تسييحاً، يقولونه تقديساً لمقامه تعالى، عن شوائب العجز والنقصان، وتلذذاً بذكره، لا عبادة ﴿وَنَحْنُ بَيْنَهُمْ﴾ فيما بينهم ﴿فِيهَا سَلَامٌ﴾ أو تحية الملائكة إياهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾^(١) أو تحية الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾^(٢) ﴿وَعَاخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ أي خاتمة دعائهم ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي دعاؤهم منحصر فيما ذكر، أول كلامهم التسبيح، وآخره التحميد، ويتكلمون بما أرادوا.

﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١١)

﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ هم الذين لا يرجون لقاء الله، أشير إلى بعض عظام معاصيهم، وهو استعجالهم بما وعدوا به من العذاب، تكديباً واستهزاء، وجيء بلفظ الناس تفضيلاً للأمر ﴿الشَّرَّ﴾ الذي كانوا يستعجلون به، فإنهم كانوا يقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾^(٣) ونحو ذلك، ﴿اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أي لو يعجل الله للناس الشر إذ استعجلوه، استعجالهم بالخير ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ لأميتوا وأهلكوا بالمرّة، وما أمهلوا طرفة عين، لكن الإنسان خلق عجولاً، والله

(١) سورة الرعد، آية: ٢٣.

(٢) سورة يس، آية: ٥٨.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

تعالى صبور حلیم، يؤخر للمصالح الجمّة، التي لا يهتدي إليها عقل البشر، ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ كأنه قيل: ولا نعجل لهم العذاب، بل نتركهم إمهالاً واستدرجاً ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ في تمردهم وعتوهم في إنكار البعث والجزاء ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ويتحIRON.

﴿وَلِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿وَلِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ أي أصابه الضر، من مرض، أو فقر، أو قحط وغير ذلك من الشدائد، إصابة يسيرة ﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ أي دعانا لإزالته مخلصاً فيه، واللام تفيد اختصاص حدوثه واستقراره للجانب، ففيه مبالغة زائدة ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أي في جميع الأحوال، لعدم خلو الإنسان عنها عادة ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ أي أزلنا ما نزل به من الضر ﴿مَرَّ﴾ مضى على طريقته، ونسي حال الجهد والبلاء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ كأنه لم يدعنا ﴿إِلَى ضُرِّ﴾ إلى كشف ضر ﴿مَسَّهُ﴾ ذاقه قبل ذلك، وهذا وصف للجنس ممن هو متصف بهذه الصفات ﴿كَذَلِكَ﴾ كما زُين له الإعراض عند الرخاء ﴿زُيِّنَ لِّلْمُسْرِفِينَ﴾ أي للمشركين المجاوزين الحد في الكفر والطغيان ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في الشهوات، والإعراض عن الطاعات، والإسراف: مجاوزة الحد، وسُمُوا أولئك مسرفين، لما أن الله تعالى، إنما أعطاهم القوى والمشاعر، ليصرفوها إلى مصارفها، من العلوم والأعمال الصالحة، وهم قد صرفوها إلى ما لا ينبغي، مع أنها رأس مالهم، ووجه الانتظام مع الآية الأولى، أنه سبحانه أشار في الأولى أن الكفرة يستعجلون نزول العذاب، ويبنّ جلّ شأنه هنا أنهم يكذبون في ذلك، فلو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه، فإنه يتضرع إلى الله تعالى في إزالته عنه، وفي حديث للترمذي عن أبي هريرة: «من سرّه أن يستجيب الله

له عند الشدائد والكُرب، فليكثر الدعاء في الرخاء»^(١) والآثار في ذلك كثيرة.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ ﴾ الأمم الخالية مثل قوم نوح، وهود، وعاد، وأضرابهم ﴿ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ من قبل زمانكم والخطاب لأهل مكة ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ حين ظلموا بالتكذيب، والتمادي في الغي والطغيان، ﴿ وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالحجج الدالة على صدقهم ﴿ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أي وما استقام لهم أن يؤمنوا، لفساد استعدادهم، وخذلان الله لهم، وعلمه تعالى بأنهم يموتون على كفرهم، واللام لتأكيد النفي ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفطيع، الذي هو عذاب الاستئصال بالمرة ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي كل طائفة مجرمة، وفيه وعيد شديد لكفار مكة، لأنهم مشتركون فيما يقتضي الإهلاك.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ وَإِذْ أَتَيْنَا عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتِيَتْ بِشْرًا وَإِنْ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ والمعنى ثم أخلفناكم في الأرض بعد أولئك القرون ﴿ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾؟ أي أي عمل تعملون من الأعمال الحسنة، كقوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ففيه إشعار

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٣٧٩ في الدعوات، ورواه الحاكم في المستدرک ٥٤٤/١ من حديث سلمان الفارسي مرفوعاً وقال: صحيح الإسناد.

بأن المراد من الاستخلاف إنما هو ظهور الأعمال الحسنة، وأما الأعمال السيئة فبمعزل عن ذلك.

﴿وَإِذَا تُخْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٌ﴾ التفات من خطابهم إلى الغيبة، إعراضاً عنهم، وتوجيهاً إلى الرسول ﷺ، بتحديد جنایاتهم المضادة لما أريد منهم بالاستخلاف، والمراد من الآيات الآيات الدالة على التوحيد، وبطلان الشرك، والإضافة لتشريف المضاف، والترغيب للإيمان بها والترهيب عن تكذيبها ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني المشركين وضع الموصول موضع الضمير ذماً لهم بذلك، أي قالوا لمن يتلوها عليهم، وهو رسول الله ﷺ ﴿أَنْتَ بِقُتْرَةٍ مِّنْ غَيْرِ هَذَا﴾ بكتاب آخر نقرؤه، ليس فيه ما نستعده من البعث والثواب والعقاب، أو ما نكرهه من معائب آلهتنا ﴿أَوْ بَدَلُهُ﴾ بأن تجعل مكان الآيات المشتملة على ذلك آيات أخرى ولعلمهم قالوا ذلك كيداً، ليتوصلوا به إلى الاستهزاء به ﷺ، وليس مرادهم أنه لو جاءهم آمنوا ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول لهم ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ أي ما يصح ولا يستقيم أصلاً تبديله ﴿مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ أي من قبل نفسي وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل احتقاراً لهم، لاستلزام امتناعه، امتناع الإتيان بقرآن آخر بطريق الأولى ﴿إِنْ أَتَيْتُ﴾ أي ما أتبع في شيء مما أتى به ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من غير تغيير له في شيء أصلاً، فكانه قيل: ما أفعل إلا أتباع ما يُوحى إليّ، وهو تعليل لصدر الكلام، ولما عرّضوا به بهذا السؤال أن القرآن كلامه ﷺ، ولذلك قيد التبديل في الجواب بقوله: ﴿مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ وسماه عصياناً عظيماً مستتبعا لعذاب عظيم، بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالتبديل والتحريف ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة، وفيه إشعار بأنهم استوجبوه، بهذا الاقتراح الموحى بالسخرية والاستهزاء.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦).

﴿ قُلْ أَوْشَاءَ اللَّهِ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ تحقيق لحقية القرآن، وكونه من عند الله تعالى، والمعنى: إن الأمر كله منوط بمشيئته تعالى، وليس لي منه شيء قط، ولو شاء عدم تلاوتي له عليكم، بأن لم ينزله عليّ، ولم يأمرني بتلاوته ما تلوته عليكم ﴿ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ ﴾ أي ولا أعلمتكم به بلساني ﴿ فَقَدْ لَيْتُ فِيكُمْ عُمَرًا ﴾ مقدار مدة أربعين سنة، بطريق الاستشهاد عليه بما شاهدوا منه ﷺ، في تلك المدة الطويلة، من الأمور الدالة على استحالة ذلك من جهته ﷺ، والمعنى: قد أقمتُ فيما بينكم دهرًا مديدًا، تحفظون أحوالي طرأ ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزول القرآن الكريم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا تلاحظون ذلك، فلا تعقلون امتناع صدوره من مثلي، فإنّ ذلك غير خافٍ، على من له عقل سليم، بل إنّ من كان له أدنى مُسْكُوّة من عقلٍ، إذا تأمل في أمره ﷺ، وأنه نشأ بينهم في مدة طويلة، من غير مصاحبة العلماء، في شأن من الشؤون، ولا مراجعة إليهم في فن من الفنون، ولا مخالطة للبلغاء في المحاوراة والمفاوضة، ولا خوض معهم في إنشاء الخطب والمعارضة، ثم أتى بكتاب بهرث فصاحته كلّ ذي أدب، وحيرت بلاغته مصاقع العرب، واحتوى على بدائع أصناف العلوم، ودقائق حقائق المنطوق والمفهوم، لا يبقى عنده شائبة اشتباه، في أنه وحي منزل من عند الله عزّ وجل.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ استفهام إنكاري معناه النفي، أي لا أحد أظلم ممن افترى عليه سبحانه كلاماً، فقال هذا من عند الله، فإنه أظلم من كل ظالم ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ فكفر بها كما فعل المشركون بتكذيبهم للقرآن ﴿ إِنَّهُ ﴾ ضمير الشأن، وفائدته الإيذان بفخامة مضمون الكلام، وتقريره في الذهن، لأن الضمير لا يفهم من أول الأمر،

فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه، فيتمكن عند وروده فضل تمكّن ﴿لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا ينجون من محذور، ولا يظفرون بمطلوب.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ حكاية لجناية أخرى وهي من عطف القصة على القصة، أي يعبدون متجاوزين الله أحجاراً وأصناماً لا تضر ولا تنفع، لأنها جماد لا يقدر على نفع ولا ضرر، والمعبود الحق ينبغي أن يكون مثيباً ومعاقباً، حتى تكون عبادته بجلب نفع أو دفع ضرر ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ﴾ أي الأصنام ﴿شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ تشفع لنا في الآخرة، إن يكن بعث، وهذا من فرط جهالتهم، حيث تركوا عبادة الموجد، الضار النافع، إلى عبادة ما يُعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع، على توهم أنه ربما يشفع لهم عنده سبحانه، ونظيره في هذا الزمان، اشتغال كثير من الخلق، بتعظيم قبور الأكابر، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم، فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أي أتخبرون الله بما لا وجود له أصلاً، إذ لو كان لعلمه علام الغيوب، وفيه توبيخ لهم وتهكم بهم لما يدعونه من المحال ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي بما لا يعلمه كائناً في السماوات ولا في الأرض ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم، وعن الشركاء الذين يشركونهم به.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بيان بأن التوحيد والإسلام ملة قديمة، اجتمعت عليها الخلائق قاطبة، فطرةً وتشريعاً، وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها العواة، أي وما كان الناس كافة من أول الأمر، إلا متفقين على الحق والتوحيد، من غير اختلاف، رُوي هذا عن ابن عباس، ومجاهد، ويؤيده قراءة ابن مسعود: «إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى الْهُدَى»^(١) وذلك من عهد آدم إلى زمن نوح ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ بأن كفر بعضهم، وثبت آخرون على ما هم عليه، فخالف كل من الفريقين الآخر ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة ﴿لَفُضِّى بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإبقاء المحق، وإهلاك المبطل.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ حكاية لجناية أخرى لهم، والقائلون أهل مكة ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ من الآيات التي اقترحوها، كآية موسى وعيسى، كأنهم لفرط العتو والفساد، لم يعدّوا المعجزات البينات التي ظهرت على يديه ﷺ من الآيات الباهرة، والمعجزات المتكاثرة، لا سيما القرآن العظيم، الباقي إعجازه على وجه الدهر، إلى يوم القيامة، ولو أنصفوا لاستغنوا عن كل آية غيره ﷺ، فإنه الآية الكبرى، ومن رآه وسبر أحواله، لم يكذب شك أنه رسول الله ﷺ ﴿فَقُلْ﴾ لهم في الجواب ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص بعلمه، فلعله يعلم في إنزال الآيات المقترحة، مفسد تصرف عن إنزالها، وكأنه يقول: إن ما طلبوه من أمور الغيب الخفية، التي لا يعرفون عواقبها، وأمر الغيب مختص بالله تعالى وهو الذي يعلم ما به

(١) هذه القراءة محمولة على التفسير، لا على أنها قراءة من القراءات المتواترة، فتنبّه واللهُ يراكم.

الصلاح، لا أنتم ولا غيركم ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ هذا وعيد وتهديد، أي فانتظروا نزول العذاب بكم، إني معكم من المنتظرين لما يفعل الله بكم، بجحودكم الآيات العظام واقتراحكم غيرها.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي أَيْامِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (١١)

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي صحة وسعة ﴿مِن بَعْدِ ضَرَاءَ﴾ كفحط ومرض ﴿مَسْتَهُمْ﴾ أي نزلت بهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم، وإسناد المس إلى الضراء، وإسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة، من الآداب القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ والمراد بالناس: كفار مكة، لما روي أن الله تعالى، سلط عليهم القحط سنين، حتى كادوا يهلكون، فطلبوا منه ﷺ أن يدعو لهم، ووعدوه بالإيمان، فلما دعا لهم، ورحمهم الله، فأخصبت البلاد وكثرت الخيرات، طفقوا يطعنون في آياته تعالى، ويعاندون رسوله ﷺ ويكيدونه ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي أَيْامِنَا﴾ بالطنع فيها والتكذيب بأنها من عند الله، وسمي الاستهزاء والتكذيب مكرًا، لأنه نوع من الكيد الخبيث لإطفاء نور الله، قال مجاهد ﴿مَّكْرٌ فِي أَيْامِنَا﴾ استهزاء وتكذيب، ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي قل لهم: الله أعجل عقوبة، وعذابه أسرع وصولاً إليكم، وتسمية العقوبة بالمكر، لوقوعها في مقابلة مكرهم ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الذين يحفظون أعمالكم ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تحقيق للانتقام وتنبيه على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحفظة، فضلاً على أن يخفى على الله تعالى، وكيفية كتابة ذلك، مما لا يلزم العلم به، وهي تعليل لأسرعية مكره سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (١).

(١) سورة فاطر، آية: ٤٣.

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ أُنْجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي هو تعالى بقدرته الذي يحملكم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن التي تسير فوق سطح الماء، ويجعلكم قادرين على قطع المسافة ﴿ فِي الْبَرِّ ﴾ مشاة أو ركباناً ﴿ وَالْبَحْرِ ﴾ بِالْفُلْكِ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ ﴾ أي في السفن فوق سطح الماء وفي لُجَّةِ البحر ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ بمن فيها عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة، كأنه يذكره لغيرهم، ليتعجب من حالهم، وينكر عليهم ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ أي لينة الهبوب موافقة لمقصدهم ﴿ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ بتلك الريح لطيبها ﴿ جَاءَتْهَا ﴾ جواب إذا، أي فاجأتها واستولت عليها ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ذات عصفٍ، شديدة الهبوب، تكسر كل شيء، يقال: عصفت الريح عصفواً أي اشتدت، وأصل العصف: السرعة، والعاصفُ من باب النسب، كاللابن، والثامر، يستوي فيه المذكر والمؤنث، ولذا لم يقل عاصفة، مع أن الريح مؤنث ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ ﴾ وهو ما علا وارتفع من اضطراب الماء ﴿ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من جميع أمكنة مجيء الموج عادة ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي أيقنوا أنهم أهلكوا وسُدَّتْ عليهم مسالك الخلاص، كمن أحاط به العدو ﴿ دَعَوُا اللَّهَ ﴾ أي أخلصوا الدعاء لله، واستغاثوا به وحده ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ ﴾ من غير إشراك به لعودتهم للفطرة، وزوال المعارض من شدة الخوف ﴿ لَئِنْ ﴾ اللام موطئة للقسم، أي يقولون: والله لئن ﴿ أُنْجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ ﴾ الورطة والأهوال ﴿ لَنَكُونَنَّ ﴾ بعد ذلك أبداً ﴿ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ الموحدين، مؤمنين بك، متمسكين بطاعتك، وشاكرين لنعمتك، وإنما ورد اللفظ بصيغة اسم الفاعل ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ولم يقولوا: لنشكرك، للمبالغة والدلالة على الاستمرار في الشكر والثبوت عليه.

﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَكْفُرُ النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٣) .

﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ ﴾ بإجابة دعائهم ممّا غشّهم من الكربة، والفاء للدلالة على سرعة الإجابة ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فاجزوا الفساد في الأرض، وسارعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعصيان ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ مبطلين فيه، وهو احتراز عن الإفساد بحق، كتخريب قلاع الكفرة ﴿ يَكْفُرُ النَّاسُ ﴾ توجيه الخطاب إلى أولئك الباغين، للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد ﴿ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ ﴾ الذي تتعاطونه ﴿ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ فإن وباله يرجع إليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم، كقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ ﴿ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ منفعة الحياة الدنيا، وهي فانية لا تبقى، ويبقى عقابها، وفيه بيان لكون ما فيها من المنفعة العاجلة شيئاً غير معتد به سريع الزوال ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ في القيامة، أي تتمتعون بمتاع الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا ﴿ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالجزاء عليه، وهو وعيد كقول الرجل لمن توعدّه: سأخبرك بما فعلت، وفي الآية الزجر عن الفساد والبغي، عن أنسٍ قال: قال ﷺ: «ثَلَاثٌ هُنَّ رَوَّاجِعُ عَلَى أَهْلِهَا: الْمَكْرُ، وَالنَّكَثُ، وَالْبَغْيُ، ثُمَّ تَلَا ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ﴿ وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ (١) قال ﷺ: «ما من ذنبٍ أجدرُ أن يُعَجَّلَ اللهُ لصاحبه العقوبة، من البغي، وقطيعة الرحم» (٢).

(١) أخرجه أبو نعيم والديلمي.

(٢) أخرجه البيهقي من حديث أبي بكرة مرفوعاً، وانظر تفسير ابن كثير ٤٢٨/٢.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أُنْزِلَ مِنْهَا سِيلٌ فَلَهَا فُجَعَلَتْهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ يَلَأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ كلام مستأنف، مسوق لبيان شأن الحياة الدنيا، وقصر مدة التمتع فيها، وقرب زمان الرجوع الموعود، شبه حالها العجيبة، في سرعة تقضيها، وانصرام نعيمها، غيب إقبالها، واغترار الناس بها، بحال ما على الأرض من أنواع النباتات، في زوال رونقها ونضارتها، وذهابها حطاماً، بعدما كانت غضة طرية، قد التفت بعضها على بعض، وازينت الأرض بألوانها، بحيث طمع الناس، وظنوا أنها سلمت من الجوائح ﴿ كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ كمثّل مطر نزل من السماء ﴿ فَأَخْلَطَ بِهِ ﴾ أي كثر بسببه واختلط به ﴿ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ فاشتبك حتى خالط بعضه بعضاً ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ ﴾ كالبرّ، والبقل والثمار ﴿ وَالْأَنْعَامُ ﴾ كالكلأ والحشيش ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أي بهجتها وحسنها من النبات، والتزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أي تزينت بأصناف النباتات، وأشكالها، وألوانها المختلفة، كعروس أخذت من ألوان الثياب، والزينة، وتحلّت بها ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا ﴾ أي أهل الأرض ﴿ أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا ﴾ أي متمكنون من حصدها ورفع غلتها ﴿ أُنْزِلَ مِنْهَا سِيلٌ ﴾ أي نزل بها ما قدرناه من العذاب، وهو هلاك زرعها بما يستأصله من الآفات كالبرد، والجراد، والسموم وغير ذلك ﴿ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ فيه الإشارة إلى أنه لا فرق في إتيان العذاب، بين زمن غفلتهم، وزمن يقظتهم ﴿ فُجَعَلَتْهَا ﴾ أي زرعها وسائر ما على الأرض من النبات ﴿ حَصِيدًا ﴾ أي كالمحصول من أصله ﴿ كَأَن لَّمْ يَلَأَمْسِ ﴾ أي كأن لم ينبت زرعها، من غني بالمكان إذا أقام فيه ﴿ يَلَأَمْسِ ﴾ فيما قبله، وهو مثّل في الوقت القريب، والممثّل به هو زوال خضرة النبات فجأة، وذهابه حطاماً بعدما كان غصّاً طريّاً، وزين الأرض حتى

طمع أهلها فيه، وظنوا أنه قد سلم من الجوائح ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التفصيل البديع ﴿فَفَصَّلَ الْآيَاتِ﴾ أي الآيات القرآنية، نوَّضَحَهَا ونبَّيَّنَهَا ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ما في تضاعيفها من العبر، وتخصيص تفصيلها بهم، لأنهم المنتفعون بها.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ ترغيب للناس في الحياة الأخروية الباقية، أي يدعو الناس إلى الجنة، حيث يأمرهم بما يفضي إليها، وسميت الجنة ﴿دَارِ السَّلَامِ﴾ لسلامة أهلها عن كل ألم وآفة، أو لأن الله تعالى يسلم عليهم ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي إلى طريق مستقيم هو الإسلام، والتدرع بلباس التقوى، وفي تعميم الدعوة، وتخصيص الهداية بالمشيئة، دليل على أن الأمر غير الإرادة، وأن المصير على الضلالة لم يرد الله رشده، فالكافر مأمور، وليس بموفق، ومشيئته تعالى تابعة للحكمة، فمن علم أنه لا ينفع فيه اللطف لم يوفقه، لأنه يكون عبثاً، والحكمة منافية للعبث، فهو جلّ وعلا يهدي من ينفعه اللطف.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي العمل، بأن فعلوا المأمور به، واجتنبوا المنهي عنه ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنى، وهي الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي النظر إلى وجه ربهم الكريم جلّ جلاله، وهو التفسير المأثور عن أبي بكر، وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، وروي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ من طرق شتى، روى مسلم عن صهيب بن سنان عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ يقولون: ألم تُبَيِّضْ

وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم^(١) وفيه إثبات رؤية الله للمؤمنين، أكرمنا الله في الجنة بسعادة لقاءه ﴿وَلَا يَرَهُ جُوهُهُمْ﴾ أي لا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ هوانٌ، والتنكير للتحقير، والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار من حزن وسوء، والجملة لبيان أمنهم من المكاره، إثر بيان فوزهم بالمطالب ﴿أُولَئِكَ﴾ أي المذكورون باعتبار اتصافهم بما تقدم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لا زوال فيها، ولا انقراض لنعيمها.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرَهُهُمُ ذَلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أُغْشِيَتْ جُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ لما شرح الله سبحانه أحوال المسلمين، وما أعد لهم من الكرامة شرح في هذه الآية حال من أقدم على السيئات، والمراد من السيئات: الشرك والعصيان ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا﴾ أي جزاء الذين كسبوا السيئات، جزاء سيئة يمثّلها، أي يجازى سيئة بسيئة مثلهما، لا يزداد عليها كما يزداد في الحسنات ﴿وَتَرَهُهُمُ ذَلَّةٌ﴾ أي هوانٌ عظيم، فالتنوين هنا للتفخيم ﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ من عقابه ﴿مِنْ عَاصِرٍ﴾ من مانع يعصمهم من عذابه ﴿كَانَمَا أُغْشِيَتْ﴾ غُطِيَتْ ﴿جُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ لفرط سوادها وظلمتها ﴿مُظْلِمًا﴾ أي كأنما ألبست وجوههم سواداً من الليل المظلم ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الدائمون فيها لا يخرجون منها أبداً.

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ١٨١ وزاد في رواية أخرى: «ثم تلا ﴿هَذِهِ آيَةٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وأخرجه الترمذي برقم ٢٥٥٥.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ الضمير في ﴿ نَحْشُرُهُمْ ﴾ لكلا الفريقين، لأنه المتبادر من قوله تعالى ﴿ جَمِيعًا ﴾ ومن أفراد الفريق الثاني، في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ أي نقول للمشركين من بينهم، والإخبار بحشر الكل في تهويل اليوم أدخل، وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد أفظع ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ أي الزموا مكانكم، والمراد انتظروا حتى تنظروا ما يفعل بكم، وهي كلمة مختصة بالتهديد والوعيد ﴿ أَنْتُمْ ﴾ توكيد للضمير ﴿ وَشُرَكَائُكُمْ ﴾ المراد بها: الأصنام ﴿ فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ففرقنا بينهم، وقطعنا الوصل التي كانت بينهم، وهو من زلت الشيء من مكانه أزيله أي أزلته، والتضعيف للتكثير لا للتعدية ﴿ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ ﴾ أي من عبدوهم من دون الله، من الأوثان والأصنام، فإن أهل مكة إنما كانوا يعبدونها، وهم المعشئون بأكثر هذه الآيات، ونسبة القول لها غير بعيد من قدرته سبحانه، فينطقها الله الذي أنطق كل شيء، في ذلك الموقف المهيب، فتقول لهم: ﴿ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي نتبرأ من عبادتكم لنا، واعتقادكم بالوهيتنا، وإنما تبرؤوا منهم، لأنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم، لأنها الآمرة لهم بالإشراك بالله تعالى.

﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ فإنه العليم الخبير، العالم بكنه الحال، قال شركائهم عند قول المشركين والله إياكم نعبد، فقال الشركاء: فكفى بالله شهيداً ﴿ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ أي ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين، لا نسمع، ولا نبصر، ولا نعقل.

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام المدهش، وهو مقام الحشر وفي ذلك الوقت ﴿تَبَلَّوْا﴾ تُخَبِّرُ وتذوق ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنة كانت أو كافرة، سعيده أو شقية ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾ ما قدمت من العمل، مستتبعا لآثاره، من نفع أو ضرر، وخير أو شر ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ أي وردُّوا إلى الله المتولي جزاءهم ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ ربهم الجليل المتولي لأمرهم ﴿الْحَقُّ﴾ المتحقق في ربوبيته لا ما اتخذه ربا باطلاً، فإن قلت: قد قال الله سبحانه في آية أخرى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ قلنا: المولى في اللغة يُطلق على المالك، وعلى الناصر، فمعناه هنا المالك، وهناك الناصر ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي ضاع وذبح عنهم وظهر ضلاله ﴿مَا كَانُوا يَفْقَهُوْنَ﴾ ما كانوا يدعون أنها آلهة، وضمير الجمع للنفوس المدلول عليها بكل نفس، والعدول إلى الماضي ﴿ضَلَّ﴾ للدلالة على التحقق والثبوت.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لأولئك المشركين ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟ أي منهما جميعاً، من ينزل لكم الغيث والقطر من السماء، ويخرج لكم الزروع والثمار من الأرض؟ الأول بمنزلة الفاعل، والثانية بمنزلة القابل، فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية، ومواد أرضية ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾؟ أي من يستطيع خلقهما على هذه الفطرة العجيبة؟ ومن وقف على تشريحهما، وقف على ما يبهر العقول ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي ومن ينشئ الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، والطير من البيضة، والسنبله من الحبة، والشجرة من النواة؟ وقيل: المراد بالحي والميت، المؤمن والكافر، وعلى هذا القول يكون اللفظ من باب الاستعارة، والأول أولى ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾؟ أي ومن يلي

تدبير أمر العالم جميعاً؟ وهو تعميم بعد تخصيص، وفيه إشارة إلى أن الكل منه سبحانه ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بلا تلغثم ولا تأخير ﴿اللَّهُ﴾ إذ لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه، والاسم الجليل مبتدأ والخبر محذوف، أي الله يفعل ما ذكر من الأفاعيل لا غيره، وهذه الآية صفة لوجوه القدرة، الزاعمين أن الحرام غير رزق الله، بل العبد يرزق نفسه منه، وتلفح وجوه أناس يزعمون أن الذي يدبر الأمر في كل عصر قطبه، وهذا ذهاب إلى القول بوحدة الوجود، وهذا ضلال مبين عند المتكلمين، وأهل الصوفية الحققة ﴿فَقُلْ﴾ عند ذلك يا رسول الله ﴿أَفَلَا نُنْفِقُونَ﴾؟ الهمة لإنكار الواقع، أي أتعلمون ذلك فلا تتقون عذابه، بإشراككم به سبحانه؟.

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾
 ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَذَلِكُمْ﴾ أي ذلكم الذي اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورة ﴿اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ مالكم ومتولي أموركم على الإطلاق ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته، والمتحقق ألوهيته، لأنه هو الذي أنشأكم، ورزقكم، ودبر أموركم ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾؟ فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله، وقع في الضلال، لأنه لا واسطة بين الحق والضلال ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾؟ أي فكيف تصرفون عن الحق إلى الضلال، مع قيام البرهان؟ استفهام إنكاري للإيدان بأن الانصراف من الحق إلى الضلال، ممّا لا يكاد يصدر عن العاقل.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما ثبت أنه ليس بعد الحق إلا الضلال كذلك ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه وقضاؤه العادل ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي على الذين تمردوا في الكفر، وخرجوا عن حد الاستصلاح ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي حقت على أولئك المتمردين كلمة العذاب لأنهم لا يؤمنون.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنْتُمْ تَوَفَّكُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ احتجاج آخر على أحقية التوحيد، وبطلان الإِشْرَک، والسؤال للتبکیت والإِزام، أي هل يوجد من الأوثان والأصنام مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ؟ أي من ينشئ الخلق من العدم، ثم يُفْنِيهِ، ثم يعيده ويحييه؟ ولما كانوا مفحمين لا يستطيعون الجواب، أمر ﷺ أن يكشف لهم باطلهم بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ أي الله يبدأ ويعيد لا غيره من الشركاء، وفُهِمَ الحصر بدلالة الفحوى ﴿فَأَنْتُمْ تَوَفَّكُونَ﴾؟ الإِفْكَ الصِّرف عن الشيء، أي كيف تُقَلِّبون من الحق إلى الباطل؟ وتُصرفون عن الهدى إلى الضلال؟

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ احتجاج آخر على ما ذُكِرَ، جيء به إلزاماً لهم على ضلالهم في عبادة غير الله، والمعنى: هل من يهدي إلى الحق، بإعطاء العقل، وبعثة الرسل، وإنزال الكتب، والتوفيق إلى التدبر بما نصب في الآفاق، والأنفس، هل هو الله سبحانه أم الشركاء؟ ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي الله يهدي له دون غيره، أي قل لهم: إن عجزت آلهتكم عن ذلك، فالله وحده هو القادر على هداية الضال، وإنارة السبيل، وبيان الحق الساطع ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ فالمقصود به التعميم وإن كان الفاعل في الواقع الله عز وجل، والتقدير أفمن يهدي غيره إلى الحق ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي﴾ بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال، وأصله لا يهدي أي لا يهدي بنفسه فضلاً عن هداية غيره ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ أي إلا أن يهديه الله سبحانه ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أي أي شيء لكم، في اتخاذكم هؤلاء شركاء لله

سبحانه، والاستفهام للإنكار التوبيخي، وفيه تعجيب من حالهم ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يقتضي صريح العقل ببطلانه.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٦).

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى، لبيان عدم فهمهم للبرهان النير، أي ما يتبع أكثرهم في معتقداتهم إلا ظناً واهياً، من غير مستند من دليل أو برهان، بل مجرد ظنون وأوهام، وخرافات فاسدة يتبعون بها آباءهم، ووجه تخصيص هذه الاتباع لأكثرهم، للإشعار بأن بعضهم قد يقفون على حقيقة التوحيد، وبطلان الشرك، لكن لا يقبلونه مكابرة وعناداً، وقيل: المراد بالأكثر الجميع ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ عن العلم واعتقاد الحق ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء، وفيه دلالة على وجوب العلم في الأصول الاعتقادية، وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد، وأن إيمان المقلد غير صحيح ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فيجازي عليها، وعيد لهم على أفعالهم القبيحة.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧).

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع، التي من جملتها الحجج البينة بحقيقة التوحيد وبطلان الشرك، أي ما كان هذا القرآن لأن يُفترى من الخلق، وأن يكون صادراً من غير الله تعالى ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولكن الله أنزل هذا القرآن، مصدقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية، كالطورا والإنجيل، ولا يكون كذباً بحال من الأحوال، كيف وهو شاهد على صحتها، وتصديق الكتب له، بأن ما فيه من العقائد الحقّة،

مطابق لما فيها، وهو مشتمل على قصص الأولين، حسبما ذكر فيها، وهو معجز دونها فهو الصالح لأن يكون حجة وبرهاناً لغيره، لا العكس ﴿وَتَقْصِصَ الْكِتَابِ﴾ أي ما كتب وأثبت من الحقائق والشرائع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك أنه كلام الله متفياً منه الرب ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وتصديق من رب العالمين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨)

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ أم منقطعة وهي مقدرة ببل والهمزة لإنكار الواقع، أي بل يقولون افتراه النبي ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهم، إظهاراً لبطلان مقالته: إن كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ في البلاغة، وحسن النظم، وقوة المعنى، فإنكم مثله في العربية والفصاحة، أي فأتوا من عند أنفسكم، أو ممن تقدمكم من فصحاء العرب، كامرئ القيس، وزهير، وأمثالهما، بسورة مماثلة له في صفاته الجليلة، فحيث عجزتم عن ذلك، دلّ على أنه ليس من كلام البشر، بل هو من كلام خالق الكون، رب العزة والجلال ﴿وَادْعُوا﴾ للمعاونة والمظاهرة ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ دعاء والاستعانة به، من أهتكم التي تزعمون أنها ممددة لكم في المهمات، وممن أمكنكم أن تستعينوا به ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي سوى الله تعالى، فإنه وحده قادرٌ على ذلك، ولا يقدر عليه أحد من خلقه، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه اختلقه، فإن ذلك مستلزم لإمكان الإتيان بمثله.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا بَاءَ بِهِمْ فَأَوْيَتْ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩)

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ أي كذبوا القرآن، وسارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبروا ما فيه، ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد، الدالة على كونه كلام رب العالمين، والتعبير عنه بهذا العنوان، دون أن يقال: بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه، للإيدان بكمال جهلهم به، وأنهم لم يعلموه ولم يدركوا ما فيه من وجوه الإبداع والإعجاز، وأن تكذيبهم به، إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي ولم يقفوا بعد على معانيه المنبئة عن علو شأنه، وسطوع برهانه، ولم يتبين لهم إلى الآن تأويل ما فيه، من الإخبار بالغيوب، حتى يظهر أنه صدق أم كذب، والمعنى: إن القرآن معجز من جهة النظم، والمعنى، ومن جهة الإخبار بالغيوب، وهم فاجؤوا تكذيبه، قبل أن يتدبروا نظمهم، ويتفكروا في معناه، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلية ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل تكذيبهم من غير تدبر وتأمل ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم في معجزاتهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ خطاب لسيد الرسل أو لكل من يصلح له، والمراد بالظالمين الذين كذبوا الرسل من السابقين واللاحقين، أي انظر كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك، بسبب ظلمهم وبغيهم؟ فكما أهلك الله أولئك الطغاة، يهلك هؤلاء المكذبين.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي منهم سيؤمن به ويتوب عن الكفر ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي لا يصدق به في نفسه، لفرط غباوته ولسخافة عقله، وعجزه عن التخلص من الشكوك والأوهام التي ألقها، فيموت على كفره، معانداً أو شاكاً ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي بكلا الفريقين، من المعاندين، والشاكين، لاشتراكهما في أصل الإفساد.

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ وإن أصروا على تكذيبك، بعد إلزام الحجة، وأول بذلك، لأن أصل التكذيب حاصل، فلا يصح فيه الاستقبال ﴿ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ فتراهم منهم، فقد أعذرت، والمعنى قل لهم: لي جزاء عملي، ولكم جزاء عملكم ﴿ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي لا تؤاخذون بعلمي، ولا أؤاخذ بعملكم، ومعنى الآية الزجر والردع.

﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٤٢﴾
﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي ومن المكذبين أناس، يستمعون إليك إذا قرأت القرآن، ولكن لا يقبلونه، كالأصم الذي لا يسمع أصلاً، لكونهم مطبوعاً على قلوبهم، بحيث لا سبيل إلى إيمانهم ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾ أي هل أنت تقدر على إسماعهم؟ ﴿ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم، والأصم العاقل، ربما تفرس إذا وصل إلى صماخه دوي، أمّا إذا اجتمع فقدان السمع، والعقل، فقد تم الأمر، وفيه تنبيه على أن استماع الكلام، لفهم المعنى المقصود منه، ولذلك لا يوصف به البهائم، وهو لا يأتي إلا باستعمال العقل السليم، في تدبره وتفكره، وعقولهم لما كانت عليلة، بمعارضة الوهم، ومشايعة الألف والتقليد، تعذر فهمهم الحكم والمعاني الدقيقة، فلم ينتفعوا بمجرد الألفاظ إلا كما تنتفع البهائم من كلام الناعق.

﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ بأبصارهم الظاهرة، ويعاين دلائل نبوتك، ولكن لا يصدقونك، ولا يهتدون بها كالأعمى ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى ﴾؟ أي

هل تقدر على هدايتهم ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَتَّبِعُونَ﴾؟ أي وإن انضمم إلى عدم البصر، عدم البصيرة؟ والمقصود من الإبصار هو الاعتبار، والعمدة في ذلك البصيرة، ولذلك قد يتفطن الأعمى المستبصر، لما لا يدركه البصير الأحمق، فحيث اجتمع فيهم الحُفْمُ والعمى، فقد انسَدَّتْ عليهم أبواب الهداية، إلى طريق الرحمة والجنة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٤٤)
 وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّزِلَتْ سَاعَةٌ مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^(٤٥).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم، ولا يعاقب أحداً بدون ذنب، بل تكفل بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فضلاً منه جلَّ شأنه وكرماً ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليها، كما ظلموا أنفسهم باقترافهم الكفر، حيث عبدوا جماداً وهم أحياء.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي اذكز لهم يوم حشرهم ﴿كَأَن لَّزِلَتْ سَاعَةٌ﴾ أي كأنهم لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ أي شيئاً قليلاً منه، فالساعة مثل في غاية القلة، يستقصرون مدة لبثهم، لهول ما يرون من الكرب والعذاب ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، وهذا تعارف توبيخ وافتضاح، يقول الواحد للآخر: أنت أغويتني وأضللتني!! وليس تعارف محبة ومودة. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أي لقد خسر حقاً هؤلاء الظالمون، الذين كذبوا بالبعث والنشور، والآية شهادة على خسرانهم، والتعجب من، والمراد بقاء الله الحساب والجزاء ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُفِقَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾^(٤٦).

﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقر عينك منهم فذاك، وإلا فالعذاب ينتظرهم، والرؤية بصرية، أي إمّا نرينك بعينك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك، كما أراه يوم بدر ﴿أَوْ نُوَفِّقَنَّكَ﴾ قبل أن نتقم منهم ﴿فَالْيَتَامَىٰ رَجِعُهُمْ﴾ جواب للشرط، والمعنى: إن عذابهم في الآخرة مقرر، عذبوا في الدنيا أولاً ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من الأفعال السيئة التي حُكِيت عنهم، فيجازيهم عليها.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ .

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الخالية ﴿رَسُولٌ﴾ بُعث إليهم ليدعوهم إلى الحق، بشريعة خاصة مناسبة لأحوالهم، ويؤكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (١) ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فبلغهم فكذبوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الرسول ومكذبيه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، فأنجي الرسول، وأهلك الله المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك القضاء، يُجازى كل أحد على قدر عمله، وقيل معنى الآية: لكل أمة رسول يوم القيامة، فإذا جاء رسولهم الموقف، ليشهد عليهم بالإيمان أو الكفر، قضي بينهم بإنجاء المؤمن، وعقاب الكافر، لقوله تعالى: ﴿وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ (٢) وهذا ممّا رواه ابن جرير وغيره عن مجاهد:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي متى هذا العذاب الذي تعدنا به؟ يريدون به العذاب الدنيوي، ويقولون ذلك استبعاداً له واستهزاء به، لا طلباً لوقت مجيئه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ خطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآيات المتضمنة للوعيد.

(١) سورة فاطر، آية: ٢٤.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٩.

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَسْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٤٩).

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ فكيف أملك لكم فاستعجل في جلب العذاب إليكم، ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ الاستثناء منقطع، أي لكن ما شاء الله لي فإنه يحصل بتقديره تعالى، دون أن يكون لي دخل فيه ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الذين أصرؤا على التكذيب ﴿ أَجَلٌ ﴾ لعذابهم يحل بهم عند حلوله ﴿ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ ﴾ أي أجل هلاكهم ﴿ فَلَا يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ عنه ﴿ سَاعَةً ﴾ شيئاً قليلاً من الزمان ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ عليه، فلا تستعجلوا العذاب، فسيجيء وقتكم، وينجز وعدكم.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٥٠) أَتَمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَالْفَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١).

﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله لهم، بعد ما بَيَّنَّتْ لهم كيفية حالكم، وجريان سنة الله تعالى فيما بين الأمم، ونَبَّهَتْهم على أن عذابهم أمر مقرر، لا يتوقف إلا على مجيء أجله المعلوم ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ﴾ الذي حَدَّده لهلاككم، والذي تستعجلونه لجهلكم وحمافتكم، إذا جاءكم هذا العذاب ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي وقت بيات في الليل ﴿ أَوْ نَهَارًا ﴾ أي عند اشتغالكم بمشاغلهم، وإنما لم يقل «ليلاً ونهاراً» ليظهر التقابل، لأن المراد الإشعار بالنوم، والغفلة، والبيات يفيد ذلك، لأنه الوقت الذي يُبَيَّن فيه العدو، ويوقع فيه، ويغتنم فرصة غفلته، وليس في مفهوم الليل هذا المعنى ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾؟ أي شيء من العذاب يستعجلونه؟ وكله مكروه لا يلائم الاستعجال؟ وكان ينبغي أن يفزعوا من العذاب، فضلاً عن أن يستعجلوه.

والمراد بقوله سبحانه: ﴿ أَتَمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ﴾ زيادة التنديم

والتجهيل، أي أبعد ما وقع العذاب، وحلّ بكم حقيقة آمنتكم به، حين لا ينفعكم الإيمان وقوله تعالى: ﴿ءَالْتَنَ﴾ أي قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: الآن آمنتكم به؟ إنكاراً للتأخير، وتوبيخاً عليه ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً واستهزاء.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَقِ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ لتوكيد التوبيخ ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ظلموا أنفسهم بتعريضها للهلاك ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي المؤلم على الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي ما تجزون اليوم ﴿إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي إلا جزاء ما اقترفتموه من أنواع الكفر والمعاصي.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي يستخبرونك فيقولون على طريق الاستهزاء والإنكار ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أي العذاب الموعود ﴿قُلْ إِي وَرَقِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أي قل لهم غير مكترث باستهزائهم: نعم إن ذلك العذاب ثابت لا محالة، أقسم لكم بري، و﴿إِي﴾ بمعنى نعم ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي وما أنتم بمعجزين بركم بهرب أو امتناع من العذاب، لأنكم في قبضته وسلطانه^(١).

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالشرك والتعدي على الغير، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشُّرَكَاءَ لظُلُمَ عَظِيمٌ﴾ ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خزائنها وأموالها

(١) وذهب الطبري إلى أن المعنى: لستم بفارين من العذاب بل هو مدرّكم لا محالة.

ومنافعها فاطبة مع كثرتها ﴿لَاقْتَدَتِ بِهِ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب، من قولهم افتداه بمعنى فداه أي لاقتدت نفوسها به ﴿وَأَسْرُوا﴾ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس، والاسرار: الإخفاء أي أخفوا ﴿النَّدَامَةَ﴾ أي الغم والأسف على ما فعلوا من الظلم ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ عند معاينتهم للعذاب، رأوا ما فيه من فظاعة الحال وشدة الأهوال ﴿وَقُضِيَ﴾ أي حُكم وفُصل ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين النفوس الظالمة ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أصلاً، لأنه لا يُفعل بهم إلا ما يقتضيه جزاء أعمالهم، وقيل: ضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ للظالمين والمظلومين، والمعنى: وقُضيت الحكومة بين الظالمين والمظلومين.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ .

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب، أي إن له سبحانه لا لغيره تعالى، ما وُجد فيهما، فإن من يملك جميع الكائنات، وله التصرف فيها، قادرٌ على ما ذكر ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ما وعده من الثواب والعقاب، كائن لا خلف فيه، أي جميع ما وعده كائنًا ما كان، فيندرج فيه العذاب الذي استعجلوه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ﴾ لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا فهو يقدر عليهما في الأخرى، لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت، قابلة لهما أبداً ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموت إلى حسابه وجزائه.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ فَدَجَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ التفات ورجوع إلى استمالتهم نحو الحق، غُبَّ تحذيرهم من غوائل الضلال، وإيذان بأن جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم وهذا وجه الربط بما تقدم. والقرآن واعظ بما فيه من الترهيب والترغيب، كاشف عن الأعمال حسنها وسيئاتها، ﴿وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ شفاء لما في الصدور من الأدواء القلبية كالجهل، والشرك، والشكوك، والنفاق، وسوء الاعتقاد وغيرها. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ والقرآن هاد إلى الحق واليقين، ورحمة للمؤمنين، حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال، إلى نور الإيمان والإيقان، وتخلصوا من دركات النيران إلى درجات الجنان.

﴿قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه إلى رسول الله ﷺ ﴿يَفْضِلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ﴾ أي بإنزال القرآن الكريم، وهو المراد بالفضل، وبرحمته المراد بها الإسلام، وهذا هو المروي عن ابن عباس قال: فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام، وروي عن مجاهد أن المراد بالفضل والرحمة القرآن، ﴿فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أي إن فرحوا بشيء، فبذلك فليفرحوا، لا بشيء آخر، فإنه أولى ما يفرحون به لا بالمال الزائل ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا من الأموال، والحرث، والأنعام، فإنها صائرة إلى الزوال، والسعادات الروحية أفضل من السعادات الجسمية.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَن تَقْتُلُوا﴾.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لكفار مكة ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ﴾ أي ما قُدِّر لانتفاعكم من الرزق الحلال ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أي قسمتموه إلى حرام وحلال، وقلتم افتراء على الله ﴿هَذِهِ أَنْعَامٌ

وَحَزْتُ حِجْرًا ﴿١٠﴾ وَقُلْتُمْ أَيْضًا كَذِبًا وَبِهَتَانًا ﴿١١﴾ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴿١٢﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَعَ كَوْنِهِ كُلِّهِ حَلَالًا ﴿١٣﴾ قُلْ أَلِلَّهِ أَذِنٌ لَّكُمْ ﴿١٤﴾ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ فَتَقُولُونَ ذَلِكَ بِحُكْمِهِ ﴿١٥﴾ أَمَرَ عَلَى اللَّهِ تَفَتُّوهُ ﴿١٦﴾؟ فِي نِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَالِاسْتِفْهَامِ لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّبَكُّيْتِ كَأَنَّهُ قِيلَ: أَمْ لَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ بَلْ تَفْتَرُونَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَالْآيَةُ زَاجِرَةٌ عَنِ التَّجَوُّزِ فِيمَا يَسْتَلُّ مِنَ الْأَحْكَامِ وَبَاعِثَةٌ عَلَى الْإِحْتِيَاظِ فِيهِ وَأَنْ لَا يَقُولَ أَحَدٌ فِي شَيْءٍ جَائِزٍ أَوْ غَيْرِ جَائِزٍ إِلَّا بَعْدَ إِيقَانٍ، وَإِلَّا فَهُوَ مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لِدُورِ النَّاسِ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٧﴾

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ كلام مسوق من قِبَلِهِ تَعَالَى لِبَيَانِ مَا سَيَلْقَوْنَهُ، أَيُّ مَا ظَنُّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَخَرَّصُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، فَيَحْلُونَ وَيَحْرَمُونَ مِنْ تَلَقُّاءِ أَنْفُسِهِمْ؟ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ظَرْفٌ لِلظَّنِّ أَيُّ أَيُّ شَيْءٍ ظَنُّهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ؟ أَيْحَسِبُونَ أَنْ يَعْاقِبُوا وَلَنْ يُجَازُوا عَلَيْهِ؟ وَالْمُرَادُ تَهْوِيلُ مَا يُصْنَعُ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ، وَهُوَ وَعِيدٌ عَظِيمٌ حَيْثُ أَبْهَمَ أَمْرُهُ ﴿إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لِدُورِ النَّاسِ عَلَى النَّاسِ﴾ بِأَمْهَالِهِمُ وَالْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ بِالْعَقْلِ، وَهَدَايَتِهِمْ بِأَرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ حَيْثُ أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا يَهْمُهُمْ، مِنْ أَمْرِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ مَا لَا تَسْتَقِلُّ عَقُولُهُمْ بِإِدْرَاكِهِ، وَرَغَّبَهُمْ وَرَهَّبَهُمْ، وَشَرَحَ لَهُمُ الْأَحْوَالَ، وَمَا يَلْقَاهُ الْحَاطِرُ عَنِ الرُّشَادِ مِنَ الْأَهْوَالِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تِلْكَ النِّعَمُ الْجَلِيلَةُ، فَلَا يَصْرِفُونَ قَوَاهِمَ وَمَشَاعِرَهُمْ إِلَى مَا خُلِقَتْ لَهُ.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٨﴾

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ما نافية، والخطابُ للنبي ﷺ، والشأن: الأمرُ والحال في أمر هام يُعتنى به ﴿وَمَا تَلُومُهُ﴾ أي وما تقرأ من كتاب الله شيئاً أنزله الله عليك ﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾ مجيد أوحاه الله إليك ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه، يتناول الجليل والحقير، أي أي عمل كان، فعبر في مقام الخصوص بالشأن، لأن عمل العظيم عظيم، وفي الثاني بالعمل العام لأنه يشمل جميع الأعمال ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي إلا كنا شاهدين رقباء عليكم، نحصى عليكم أعمالكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي حين تخوضون وتشرعون فيه، وأصل الإفاضة: الاندفاع بكثرة أو قوة، يعني أن الله سبحانه شاهد عليكم، حين تخوضون في ذلك العمل ﴿وَمَا يَعْرِزُبُ عَنْ رَيْبِكَ﴾ أي لا يبعد ولا يغيب عن علمه الشامل ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ من مزيدة لتأكيد النفي، أي ما يغرب عنه ما يساوي مقدار وزن ذرة، وهي مثل لأقصى الشيء في القلة ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي في دائرة الوجود والإمكان، والمقصود إقامة البرهان على إحاطة علمه سبحانه، وفيه تسلية للمطيعين، وتخويف للمذنبين ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ من الذرة ﴿وَلَا أَكْبَرَ﴾ منها ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ مقرر لما قبله والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ، وقيل: علمه تعالى:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة، بيان على وجه التبشير والوعد، لما هو نتيجة لأعمال المؤمنين، في كل ما يأتون وما يذرون، أي الذين يتولونه بالطاعة، ويتولاهاهم بالكرامة، لا خوف عليهم من لحوق مكروه، ولا هم يحزنون بفوات مأمول والآية كمجمل يفسره قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بكل ما جاء من عند الله تعالى ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى بامثال أمره ونهيهِ، والمراد أنهم جمعوا بين الإيمان، والتقوى، المفضيين إلى كل خير، المنجيين عن كل شر، فملاك أمر الولاية هو «التقوى» المأمور به في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وبه يحصل الشهود والحضور، والقرب، فأولياء الله عز وجل هم المؤمنون المتقون، أخرج أحمد وجماعة عن أبي مالك الأشعري قال: قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا، ليسوا بأنبياء، ولا شهداء، يَغْطِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشَّهَدَاءُ، عَلَى قُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ أَعْرَابِي يَا رَسُولَ اللَّهِ: انْعَتِهِمْ لَنَا، قَالَ: أَنَاسٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ...»^(١) الحديث، وقد أورده ﷺ حسبما يقتضيه مقام الإرشاد، ترغيباً للحاضرين، وأريد بقوله ﷺ: «يَغْطِطُهُمُ النَّبِيُّونَ» الإشارة إلى راحتهم مما يعترى الأنبياء، من الاشتغال بأمهم، وقال بعض المحققين: إِنَّ ذَلِكَ تَصَوِيرٌ عَلَى طَرِيقَةِ التَّمْثِيلِ، وَأَيًّا مَا كَانَ، فَلَا دَلِيلَ فِيهِ أَنَّ الْوِلَايَةَ أَفْضَلُ مِنَ النَّبُوَّةِ، وَقَدْ كَفَرَ مَعْتَقِدُ ذَلِكَ.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو ما بَشَّرَ به المتقين، في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، البشرى في الأصل الخبر بما يظهر السرور في بشرة الوجه، وورد أن البشرى في الحياة الدنيا هي: «الرؤيا الصالحة» فقد أخرج أحمد والترمذي، وابن ماجه عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند، وأورده الطبري وابن كثير، وتتمته «تحابوا في الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ ﷺ: ﴿إِن أَوْلِيَاءَ اللَّهِ...﴾ الآية».

عن قوله سبحانه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له»^(١) وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يَبْقَ بعدي من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن، أو ترى له»^(٢) والراجح أن البشري في الدنيا هي أن تأتيهم الملائكة عند الموت تُبشِّرهم بالرحمة والرضوان، قال الله تعالى: ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ وقيل المراد بالمبشرات العاجلة نحو النصر، والفتح، والغنيمة، والثناء الحسن، والذكر الجميل، ونحو ذلك، روى مسلم عن أبي ذر قال: قيل لرسول الله ﷺ: «أرأيت الرجل يعمل من الخير، ويحمده الناس عليه!! قال: تلك عاجلُ بُشْرَى المؤمن»^(٣) ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ﴿لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَتِ اللَّهِ﴾ أي لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده قطعياً ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ عما كان يلقاه من جهة الأعداء، من الأذية الناشئة من مقالاتهم الرديئة، وتبشير له ﷺ بالنصر والعز، إثر بيان أن له ولأتباعه أمناً من كل محذور، وفوزاً بكل مطلوب، فهو متصل بقوله سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ الآية ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ﴾ تعليلٌ للنهي، أي القوة، والنصرة، والغلبة

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٢٧٤ في كتاب الرؤيا، وأحمد في المسند.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه مسلم.

﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لا يملك أحد شيئاً منها، فهو يقهرهم ويعصمك منهم، وقد كان كذلك ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع ما يقولون في حقك، ويعلم ما يعزمون عليه، وهو مكافئهم بذلك.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُّونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿٦٦﴾

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ﴾ خلقاً، وملكاً، وعبيداً ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي العقلاء من الملائكة والثقلين، وتخصيصهم بالذكر لبيان أنهم مع شرفهم، إذا كانوا عبيداً له تعالى، فما عداهم من الموجودات أولى بذلك ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من غير الله ﴿شُرَكَاءَ﴾ أي ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، شركاء في الحقيقة وإن سموها كذلك ﴿إِنْ يَسْتَعِثُّونَ﴾ أي ما يتبعون يقيناً شيئاً ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي لا يتبعون إلا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمِيَتْهُمَا﴾ ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي إلا يكذبون فيما ينسبونه إليه سبحانه.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ ﴿٦٧﴾

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ مظلماً لتسكنوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لتحركوا فيه لمصالحكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في جعل كل منهما كما وصف ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي دلالات على توحيد الله تعالى ﴿لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ سماع تدبّر واعتبار، وتخصيص هؤلاء بالذكر لأنهم المتفكرون بها.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أُنْقُلُوْا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٦٨ .

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ شروع في ذكر ضرب آخر من أباطيل المشركين، ممن زعم أن الملائكة بنات الله، وكذلك اليهود والنصارى قال الله تعالى لهم ﴿ سُبْحٰنَهُ ﴾ تنزيهاً وتقديساً له عما نسبوه إليه، وتعجبياً من كلمتهم الحمقاء ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ عن كل شيء في كل شيء علةً لتنزهه تعالى، وإيضاحاً بأن اتخاذ الولد، مسبب عن الحاجة، وهو سبحانه الغني عن كل شيء ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي من العقلاء وغيرهم، وهو تقرير لغناه وتحقيق لما عليه لكل ما سواه ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ ﴾ أي حجة ﴿ بِهٰذَا ﴾ بما ذكر من القول الباطل، والاتفات إلى الخطاب، لمزيد المبالغة في التقرير والتوبيخ على جهلهم ﴿ أُنْقُلُوْا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أنفثرون على الله وتكذبون، فتنسبون إليه الشريك والولد؟ وفيه تنبيه على أن كل مقالة لا دليل عليها فهي جهالة، وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعي، وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به.

﴿ قُلْ إِبٰرَ الَّذِينَ يَفْتَرُوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُوْنَ ﴾ ٦٩ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْذِرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ ٧٠ .

﴿ قُلْ ﴾ تلوين للخطاب لبيان سوء مغبتهم، ووخامة عاقبتهم ﴿ إِبٰرَ الَّذِينَ يَفْتَرُوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ بنسبة الولد والشريك إليه سبحانه ﴿ لَا يَفْلِحُوْنَ ﴾ أي لا ينجون من مكروهه، ولا يفوزون بمطلوب.

﴿ مَتَّعْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي يتمتعون مدة حياتهم، كأنه قيل: كيف لا

يفلحون وهم في غبطة ونعيم؟ فقل: ذلك متاع حقير، وقليل في الدنيا، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموت والبعث ﴿ثُمَّ نُنْذِرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ فيبقون في العذاب المؤبد، بسبب كفرهم المستمر، فأين لهم من الفلاح؟ ولما ذكر الله تعالى في هذه السورة، أحوال كفار قريش، شرع في بيان قصص بعض الأنبياء عليهم السلام، تسلياً للرسول ﷺ، وعبرة لغيره.

﴿وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا يَنْتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (٧١).

﴿وَآتَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على المشركين ﴿نَبَأُ نُوحٍ﴾ أي خبره الذي له شأن عظيم، مع قومه الذين هم أمثال قومك، لينتجروا بسماع ذلك عما هم عليه من الكفر والعناد ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ اللام للتبليغ ﴿يَنْقُومِ إِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ أي عظم وشق، لأن من ألف ديناً، يثقل عليه أن يدعى إلى خلافه، ويذكر له ركاكته ﴿عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ أي لبني فيكم، ومكثي بين ظهرائكم ﴿وَتَذِكْرِي بِمَا يَنْتِ اللَّهُ﴾ الدالة على الوحداية، المبطللة لما أنتم عليه من الشرك، وإنما شق عليهم الوعظ، لأن الطباع المشغوفة بالدنيا، الحريصة على طلب اللذات العاجلة، تكون شديدة النفرة على الأمر بالمعروف، والناهي عن المنكر ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ جواب للشرط أي فوضت أمري إليه لا على غيره، وهو عبارة عن إظهار عدم مبالاته عليه السلام باستئصالهم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أجمع الأمر إذا عزم عليه، ويقال: أجمع أمرك ولا تدعه منتشراً أي اعزموا على أمر تفعلونه بي ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ الواو بمعنى مع أي مع شركائكم، التي زعمتم أنها شركاء لله سبحانه، وإسناد الإجماع إلى الشركاء على طريق التهكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ مستوراً، من غمه إذا ستره بل مكشوفاً ومشهوداً، تجاهروني به، وإنما خاطبهم بذلك، إظهاراً لعدم

المبالاة بهم، وثقة به سبحانه، بما وعده من عصمته ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أي امضوا في ما أردتموني ولا تمهلوني، فإني لست مبالياً بكم.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَاءَ لَكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧٦)

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أعرضتم عن تذكيري ونصحي ﴿فَمَا سَاءَ لَكُمْ﴾ في مقابلة وعطي وتذكيري ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ تؤدونه إليّ حتى يدعو ذلك إلى توليتكم، لثقله عليكم ﴿إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ تأكيد لما قبله، أي ما أجري وثوابي على العظة والتذكير، إلا على الله تعالى، يشيني به آمنتهم أو توليتهم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أمرت لأن أكون من المنقادين لحكمه تعالى، فلا أخالف أمره، ولا أرجو غيره، أرشدهم عليه السلام إلى ما فيه سعادتهم وفلاحهم، وبلغ الغاية في التوكل على الله سبحانه، وبرأ ساحته عن السؤال منهم شيئاً من الأجر، ولكن القوم بلغوا الغاية في الكفر والتمرد والعناد.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبَّتْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْتِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٧)

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصروا على ما هم عليه من التكذيب، بعدما ألزمهم الحجة، فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فَجَبَّتْهُ﴾ أي فأغرقنا القوم وأنجيناه من الغرق ﴿وَمَنْ مَعَهُ﴾ من المؤمنين به، وكانوا في المشهور أربعين رجلاً، وأربعين امرأة ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ أي السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي من معه ﴿خَلْتِفَ﴾ في الأرض يخلفون الهالكين بالغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وهم الباقون من قوم نوح، وتأخير ذكر الإغراق عن الإنجاء، لتعجيل المسرة للسامعين ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ المخوفين بعذاب

الله تعالى، والمراد بهم المكذبين، والتعبير عنهم بذلك، للإشارة إلى إصرارهم على التكذيب، حيث لم ينجع الإنذار فيهم، وقد جرت العادة أن لا يهلك الله القوم إلا بعد الإنذار، فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة قوم، كذبوا الرسل عليهم السلام، وكذبوا آيات الله تعالى؟.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أي أرسلنا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد نوح ﴿رَسُولًا﴾ التنوين للتفخيم ذاتاً وصفة أي رسلاً كثيراً، كراماً، منهم: هود، وصالح، وإبراهيم، وغيرهم ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كلُّ رسول إلى قومه خاصة ﴿فَجَاءَهُمْ﴾ أي فأتى كل رسول قومه المخصوص به ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الواضحات المثبتة لدعواهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي فما صح لقوم من أولئك الأقوام، أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر والعناد ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وما موصولة والمراد بها جميع الشرائع التي جاء بها كلُّ رسول، بعد تواتر البينات التي تضطربهم إلى القبول، لو كانوا من أهل العقول ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الطبع المحكم ﴿نَطْبَعُ﴾ نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي المتجاوزين الحدَّ في الكفر والعناد، لانهماكهم في الغي والضلال.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَتْلِيَانَا فَاَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد أولئك الرسل ﴿مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ خُصَّتْ بعثتهما بالذكر، إيداناً بخطر شأن القصة، وعظم وقعها كما في قصة نوح ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي قومه من استعمال الخاص في العام ﴿يَتْلِيَانَا﴾ بالمعجزات الواضحة ﴿فَاَسْتَكْبَرُوا﴾ أي تكبروا عن قبولها، وتعظّموا عن الاتباع، الفاء فصيحة، أي فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا

﴿وَكَانُوا قَوْمًا ثَجَرِمِينَ﴾ أي كانوا معتادين، لارتكاب الذنوب العظام، فلذلك اجترؤوا على ما اجترؤوا عليه، من الاستهانة والتكذيب.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ مَا جَاءَكُمُ السَّحَرُونَ﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ ﴿٧٧﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي فلما جاءهم موسى بالمعجزات الواضحة من اليد، والعصا، وسائر المعجزات البينات ﴿قَالُوا﴾ من فرط عتوهم ﴿إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ مَا جَاءَكُمُ السَّحَرُونَ﴾ أي ظاهر كونه سحرا.

﴿قَالَ مُوسَى﴾ لهم على سبيل الاستفهام التوبيخي ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ الذي هو أبعد شيء من السحر ﴿لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ أي حين مجيئه إياكم، من غير تأمل وتدبر لما تقولون، من أنه سحر مِثْلُ؟ ﴿أَسِحْرٌ هَذَا؟﴾ تكذيب لقولهم وتجهيل لهم، أي أي سحر هذا الذي أمره واضح، لا ترتاب فيه عين مبصرة ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ﴾ تأكيد للإنكار السابق، أي أتقولون إنه سحر، والحال أنه لا يفلح فاعله، وأنا قد أفلحت وظفرت بالحجة؟.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَزَمًا وَجَدْنَا عَلَىٰ آبَاءِنَا وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٨﴾

﴿قَالُوا﴾ بعد أن ألقمهم الحجر، فانقطعوا عن الجواب الصحيح، واضطروا إلى التثبت بذيل التقليد، الذي هو دأب كل عاجز محجوج ﴿أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا﴾ أي لتصرفنا ﴿عَزَمًا وَجَدْنَا عَلَىٰ آبَاءِنَا﴾ من عبادة الأصنام وعبادة فرعون ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبَرِيَاءُ﴾ أي الملك والعظمة والتكبر على الناس باستتباعهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدقين فيما جئتما به وأرادوا بقولهم هذا، إغاظه موسى عليه السلام، وإقناطه عن الإيمان بما جاء به.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ أسند الفعل إليه وحده، لأن الأمر من وظائفه، أي قال لملئه وجماعته ﴿ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴾ في فن السحر ماهر فيه.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ ﴾ عطف على مقدر أي فاتوا فلما جاء السحرة ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ﴾ بعدما قالوا له ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِي وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ ؟ ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ أي ما استقر رأيكم على إلقائه كائناً ما كان من أصناف السحر ولا يخفى ما في الإبهام من التحقير، والإشعار بعدم المبالاة.

﴿ فَلَمَّا أَلْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

﴿ فَلَمَّا أَلْقُوا ﴾ ما ألقوا من العصي والحبال، واسترهبوا الناس وجاؤوا بسحر عظيم ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ مُوسَى ﴾ غير مكترث بهم وبما صنعوا ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ﴾ أي الذي جئتم به هو السحر، لا الذي سَمَّاهُ فرعون من آيات الله سحراً ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ أي إن الله تعالى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدي من المعجزة والسين للتأكيد ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي لا يصلح عمل من سعى في الأرض بالفساد.

﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ ﴾ أي يثبت ويظهره ويقويه بالحجج والبراهين ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ بوعده الكريم ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ذلك والمراد بهم كل من انصف بإجرام من السحرة وغيرهم.

﴿ فَمَاءٌ آمِنٌ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ في الآية حذف، أي فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون.. الخ وإنما لم يذكره إشاراً للإيجاز، أي فما آمن لموسى بمشاهدة تلك الآيات في مبدأ أمره ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةً﴾ طائفة ونفر قليل ﴿مِّن قَوْمِهِ﴾ من بني إسرائيل حيث لم يؤمنوا خوفاً من فرعون ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمُ﴾ التنوين للتعظيم، أي كائنين على خوفٍ عظيم من فرعون وملئه، وضمير الجمع ﴿وملائهم﴾ يرجع إلى الذرية، والجمع باعتبار المعنى، ويؤول إلى أنهم آمنوا على خوف من فرعون، ومن أشراف قومهم ﴿أَن يَقْنِئَهُمْ﴾ أي يعذبهم، وإسناد الفعل إلى فرعون خاصة لأنه الأمر بالعذيب ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَكَاِلٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي متكبر وغالب في أرض مصر، واستعمال العلو في الغلبة مجاز ﴿وَأَنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحد بادعاء الربوبية، وفي الظلم والفساد بالقتل والعتو.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمُ إِن كُنتُمْ ءَامَنُم بِٱللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨١﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللّٰهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٨٢﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لما رأى تخوف المؤمنين منه ﴿يَقَوْمُ إِن كُنتُمْ ءَامَنُم بِٱللّٰهِ﴾ أي صدقتم بالله وآياته ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ﴾ وبه ثقوا، ولا تخافوا أحداً غيره، فإنه كافيكم كل شر وضُرَّ ﴿إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ مستسلمين لقضاء الله، مخلصين له.

﴿فَقَالُواْ﴾ أي قوم موسى مجيبين له من غير تلعثم في ذلك ﴿عَلَى ٱللّٰهِ تَوَكَّلْنَا﴾ عليه اعتمدنا لا على غيره، ويؤخذ من هذا أنهم كانوا مخلصين، ثم دعوا قائلين ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ﴾ أي موضع فتنة، أي لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا.

﴿وَنَحْنَا﴾ أي خلصنا ﴿بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي من أيديهم

وكيدهم، دعاء للإنجاء من سوء جوارهم، وسوء صنيعهم بعد الإنجاء من ظلمهم ولذا عبّر عنهم بالكفر، بعدما وصفوا بالظلم.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا ﴾ أي اتخذوا منزلاً ووطناً ﴿ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتًا ﴾ ترجعون إليها للصلاة والعبادة ﴿ وَاجْعَلُوا ﴾ أنتم وقومكما، ففيه تغليب المخاطب على غيره ﴿ بُيُوتَكُمْ ﴾ تلك فالإضافة للعهد ﴿ قِبْلَةً ﴾ مصلى، وقيل: مساجد نحو القبلة يعني الكعبة، فإن موسى كان يصلي إليها، وكانوا في أول الأمر يصلون في بيوتهم خفية، كما كان المسلمون في أول الإسلام بمكة ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي حافظوا على الصلاة فيها حتى تأمنوا، والصلاة في المساجد أفضل، وأرجى للتضرع ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والجنة.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةً ﴾ هو ما يتزين به من لباس، وحلي، وفرش وأثاث ومراكب ونحوها ﴿ وَأَمْوَالًا ﴾ أنواعاً كثيرة من المال، كما يشعر به الجمع والتنوين ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ عن دينك، والكلام إخبار من موسى، بأن الله تعالى إنما أمدهم بالزينة والأموال، استدراجاً ليزدادوا إثماً، وذكر قوله تمهيداً للتخلص إلى الدعاء عليهم، أي إنك أوليتهم هذه النعمة، ليعبدوك وليشكروك، فما زادهم ذلك إلا طغياناً وكفراً، ليضلوا عن سبيلك، والمقصود عرض ضلالهم

وكفرانهم، فقدّمه للدعاء عليهم ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْرِيهِمْ﴾ الطمسُ: المحقُّ أي أهلكها وبدّدها كما قاله مجاهد فالمراد بالطمس إتلافها ﴿وَأَشَدُّ عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اجعلها قاسية، واطبغ عليها حتى لا تنشرح للإيمان، وهذا دليل على أن الله تعالى يفعل ذلك لمن يشاء، ولولا ذلك لما حَسُنَ من موسى هذا ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ جواب للدعاء ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي إلى أن يروا العذاب الموجه المؤلم، وكان كذلك، فإنهم لم يؤمنوا إلى الغرق، وعن ابن عباس تفسير العذاب الأليم بالغرق، وهذا يدل على أن الدعاء على الغير بالموت على الكفر، لا يكون كفراً، إذا لم يكن على وجه الاستحسان، بل على وجه التمني لينتقم الله منه أشد انتقام.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ أي قد استجبت دعوتكما على فرعون وقومه، وظاهر الآية يدل على أن هارون كان يؤمن على دعاء أخيه، والتأمينُ دعاء، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾، ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه، من الدعوة والزام الحجة، فلا تستعجلان، فإن ما طلبتما كائن في وقته لا محالة، أخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال: يزعمون أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنة ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ﴾ أي طريق الجهلة الذين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بعبادات الله تعالى في تعليق الأمور بالحكم والمصالح، أو سبيل الجهلة في الاستعجال، وعدم الوثوق بوعد الله تعالى.

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكُهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ هو من جاوز المكان إذا تخطاه، أي جعلناهم مجاوزين ﴿الْبَحْرَ﴾ بأن جعلناه يَبْسًا، حتى بلغوا الشط، وفيه إشعارٌ بانفصالهم عن البحر، وبمقارنة العناية الإلهية لهم عند الجواز ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ أي أدركهم ولحقهم ﴿فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ﴾ حتى تراءت الفئتان، وكاد يجتمع الجمعان ﴿بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ أي للبغي والعدوان، وذلك أن موسى عليه السلام، خرج ببني إسرائيل، على حين غفلة من فرعون، فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم، ووصل إلى الساحل، وهم قد خرجوا من البحر، ومسلّكهم باقٍ على حاله، فسلّكه بجنوده أجمعين، فلما دخل آخرهم، غشيهم من اليم ما غشيهم ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ أي لحقه وألجمه وقيل: قارب إدراكه لأن حقيقة اللحق تمنعه من القول ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ﴾ أي بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ ولم يقل كما قال السحرة ﴿آمنا برب العالمين﴾ للإشعار برجوعه عن الاستعصاء، طمعاً في القبول، والانتظام معهم في سلك النجاة ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أسلموا نفوسهم لله تعالى، كرر المعنى الواحد حرصاً على النجاة، وهيهات للإيمان لا ينفعه قبل اليأس.

﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿ءَأَلْتَنَ﴾ أي فليل له: الآن تؤمن؟ أي أتؤمن في حال اليأس، حين أدركك الغرق، وأيقنت بالممات؟ والقائل هو جبريل، فقد روي عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «قال لي جبريل لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر - أي طين ووحل البحر - فأدسّه في في فرعون، مخافة أن تدركه الرحمة»^(١) ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي وقد عصيت الله قبل نزول نعمته بك، والفعل المقدر جيء به لتشديد التوبيخ على تأخير الإيمان إلى هذا الآن،

(١) أخرجه البيهقي والحاكم والترمذي في كتاب التفسير ٢٦٨/٥ وقال: حديث حسن.

بيان أنه لم يكن تأخيرهُ لعدم بلوغ الدعوة إليه ولا للتأمل والتدبر بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والإفساد ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي وقد كنت من المفسدين، الموغلين في الضلال والإضلال!!

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي نخرجك من البحر، وفي التعبير عنه بالتنجية تهكمٌ به ﴿بِبَدَنِكَ﴾ جسدك الذي لا روح فيه، وهو تخيبٌ له ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ عبرة، فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك، وفي تعليل تنجيته بما ذكر، إيذان بأنها ليست لإعزازه، بل لكمال استهانته وتفضيحه، كمن يُقتل ثم يُجرَّ جسده في الأسواق، وقد قرر فحوى الكلام بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ بِلْ مُبَوَّأٍ صَدَقَ وَرَزَقْنَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كلام مستأنف لبيان النعم الفائضة عليهم، وإخلاصهم بشكرها، أي أسكنّاهم بعدما أنجيناهم ﴿مُبَوَّأٍ صَدَقَ﴾ منزل كرامة، صالحاً مرضياً للسكنى ﴿صَدَقَ﴾ وهو أرض الشام، بعد العمالقة وتمكنوا في نواحيها، والمراد من بني إسرائيل ذريتهم، لأنهم ما دخلوا في حياة موسى الشام، وإنما دخلها أبناؤهم ﴿وَرَزَقْنَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي اللذائذ ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في أمر دينهم، بل كانوا متبعين رسولهم ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي إلا بعد ما جاءتهم التوراة التي فيها حكم الله، وهذا ذم لهم لأن اختلافهم كان بسبب الدين، والدين يجمع ولا يفرّق، وقيل: فما اختلفوا في أمر محمد ﷺ، إلا بعد ما علموا صدق نبوته، بنعوته المذكورة في

كتابهم، وتظاهر معجزاته، وهو ظاهر إذا كان المراد من المبوتين ذريتهم، أما الذين كانوا في عصر موسى، فإنهم لم يختلفوا في أمر نبينا ﷺ لينسب إليهم ذلك الاختلاف^(١) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز بين المحق والمبطل، بالإثابة والتعذيب.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١١) ﴿

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ هذا محمولٌ على الفرض والتقدير، كقوله عز وجل ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ومحالٌ أن يكون لله ولد، وقيل: الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره ممن يسمع، أي إن كنت أيها السامع، في شكٍّ مما أنزلنا على لسان نبينا ﷺ ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القصص التي من جملتها قصة فرعون، وأخبار بني إسرائيل ﴿فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هو التوراة، فإن ذلك محقق عندهم، ثابتٌ في كتبهم وروى أنه ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل»^(٢) ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ أي ثبت عندك وأتاك البيان الحق، الذي لا ريب في حقيقته ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ وظهر ذلك بالمعجزات الفاطمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي الشاكين فيه المرتابين، والامتراء: الشكُّ والتردد.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتٍ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٢) ﴿

(١) هذا القول ذهب إليه الطبري ١٦٧/١١ حيث قال: كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته، والإقرار ببعثه، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم، وآمن البعض، فذلك اختلافهم.

(٢) هذا حديث موقوف على قتادة قال: «بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل» انظر تفسير ابن كثير ٢٠٧/٢.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِرَاتِ اللَّهِ﴾ أي بشيء منها ﴿فَتَكُونُوا﴾ بذلك ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ نفساً وعملاً وهذا كله من باب التَّهْيِيجِ والتَّشْيِيتِ، وقطع أطماع المشركين عنه، وقيل: المراد ممن عنده شك وارتياب، وقد كان الناس في أول عصر النبي ﷺ على ثلاثة فرق: مصدِّقون، ومنكرون، ومتوقفون، فخطبهم الله تعالى بهذا الخطاب، وإنما وُحِّدَ الضمير لأنه خطاب لجنس الإنسان، وفيه تنبيه على أنه من خالجه شبهة في الدين، ينبغي أن يسارع إلى حلها، بالرجوع إلى أهل العلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي ثبتت عليهم ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر، ويخلدون في النار ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً نافعاً عند معاينة العذاب، مثل فرعون والطغاة من كفار مكة.

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ واضحة المدلول، مقبولة لدى العقول، لأن سبب إيمانهم مفقود، لكنَّ فقدانه ليس لمنع منه سبحانه وتعالى، بل لسوء اختيارهم ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي عند اليأس كدأب آل فرعون، والذي عليه أهل السنة أنَّ أفعال العباد بأسرها، معلومة له تعالى، ومرادة، ولا يكون إلا ما أراد الله سبحانه، ولا يريد إلا ما عِلِمَ، ولا جبر هناك ولا تفويض، ولكنَّ الأمر بين الأمرين، وإن أردت تحصيل الإيقان، فعليك رسالة المولى الكوراني في هذا الشأن.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ﴾ أي فهلاً كانت قرية من القرى المهلكة ﴿ ءَامَنَتْ ﴾ قبل معاينة العذاب، ﴿ فَتَنَعَهَا إِيْمَانُهَا ﴾ بأن يقبل الله تعالى إيمانهم، فيكشف بسببه العذاب عنهم ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ استثناء منقطع، أي لكن قوم يونس ﴿ لَمَّا ءَامَنُوا ﴾ أول ما رأوا أماراة العذاب، ولم يؤخروا إلى حلوله ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بعدما أظلمهم وكاد يحلُّ بهم ﴿ وَمَتَّعْنَاهُمْ ﴾ بمتاع الدنيا ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ مقدَّر لهم في علم الله تعالى، وكان من قصة هؤلاء القوم، على ما روي عن غير واحد، أن يونس عليه السلام، بُعث إلى أهل «نينوا» من أرض الموصل، وكانوا أهل شرك، فدعاهم إلى الإيمان بالله وحده، فأبوا وكذبوه، فأخبرهم أن العذاب مصيَّبهم إلى ثلاث، فلما كانت الليلة الثالثة، ذهب عنهم من جوف الليل، فلما أصبحوا غامت السماء، غيماً أسود هائلاً، حتى غشيت مدينتهم، فقالوا: إنا لم نجرب عليه كذباً قط، فانظروا فإن بات فيكم الليلة، فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصيَّبكم، فطلبوه فلم يجدوه، فأيقنوا صدقه، فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم، ونسائهم، وصبيانهم، ودوابهم، وأظهروا الإيمان والتوبة، وتضرعوا إلى الله تعالى، وأخلصوا النية، وقالوا في دعائهم: اللهم إنَّ ذنوبنا قد عَظُمَتْ، وجلَّتْ، وأنت أعظم منها وأجلُّ، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله، فرحمهم ربهم واستجاب دعاءهم، وكشف الضر عنهم، والفرق بين إيمانهم وإيمان فرعون، أن فرعون آمن في العذاب، وهم آمنوا قبله، وظاهر الآية أنهم شاهدوا العذاب، وعادة الله عز وجل حينئذ إهلاكهم من غير إمهال، وقبول إيمانهم من خصوصياتهم.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩).

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي لو شاء سبحانه إيمان من في الأرض من الثقلين، لآمن كلهم مجتمعين على الإيمان، لكنه

لم يشأه لكونه مخالفاً لأساس التكوين والتشريع ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾؟ الفاء للعطف على مقدر، كأنه قيل: أربك لا يشاء ذلك، فانت تكرههم؟ ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي ليس لك مشيئة الإكراه، والجبر على الإيمان، لأن الإيمان فعل العبد، وفعله لا يتحقق بدون الاختيار، والآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، وترويح لقلبه الشريف مما كان يحرص عليه من إيمانهم^(١).

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ﴾ أي ما صحَّ وما استقام لنفس من النفوس البشرية ﴿أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي إلا بإرادته وبتسهيله ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ أي الكفر بقرينة ما قبله، عبّر عنه بالرجس لكونه علماً في القبح ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يستعملون عقولهم، بالنظر في الحجج والآيات ولا يعقلونها.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لأهل مكة، حثاً لهم على التدبر في ملكوت السماوات والأرض، وما فيهما من تعاجيب الآيات، ليتضح لك أنهم لا يعقلون ﴿أَنْظَرُوا﴾ أي تفكروا ﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ أي أي شيء

(١) قال ابن عباس: كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكر الأول - أي اللوح المحفوظ - ولا يضل إلا من سبقت عليه الشقاوة في الذكر الأول. تفسير القرطبي ٣٨٥/٨.

بديع فيهما، من عجائب صنعه الدالة على وحدته وقدرته؟ ﴿وَمَا تُغْنِي﴾ وما تنفع ﴿الْآيَاتُ﴾ وهي التي عبر عنها ماذا في السماوات والأرض ﴿وَالنُّذُرُ﴾ بمعنى الإنذارات، أي لا تنفع الآيات والإنذارات ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي عن قوم سبق لهم من الله الشقاء لأنهم لا يعقلون.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي فما ينتظر مشركو مكة وأضرابهم ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي إلا مثل أيام أسلافهم الطغاة ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من مشركي الأمم الماضية، ونزول عذاب الله بهم ﴿قُلْ﴾ تهديداً لهم ﴿فَانظُرُوا﴾ ما هو عاقبتكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لذلك، وحاصله أن الأنبياء كانوا يتوعدون كفار زمانهم بأنواع العذاب، وهم كانوا يكذبون بها ويستعجلونها على سبيل السخرية، وكذلك الكفار في زمنه ﷺ يستعجلونها استهزاء، ف قيل لهم فانظروا ما يحلُّ بكم، وأنا منتظر لنزول ذلك العذاب، لأن وعد الله لا يخلف!

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ عطف على مقدر، كأنه قيل: أهلكنا الأمم ثم ننجي رسلنا المرسله إليهم ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي نجيناهم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي حق ذلك حقاً علينا ﴿نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من كل شدة وعذاب، وفيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الإيمان بالله وقوله ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي إنه كائن لا محالة، كأنه كالواجب عليه تعالى فضلاً منه وكرماً.

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ أوثر الخطابُ باسم الجنس، إظهاراً لكمال العناية بشأن ما بُلغ إليهم ﴿ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ أي إن كنتم في شك من حقيقة ديني الذي أدعوكم إليه، والتعبيرُ بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة، للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل هو الشك، وأما القطعُ بعدم الصحة فلا سبيل إليه ﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ في وقت من الأوقات، لأن العبادة هي غاية التعظيم، فلا تليق لأخص الأشياء من الأصنام، بل تليق بمن في يده الإيجاد والإعدام، فانظروا بعين الإنصاف، لتعلموا أنه حق لا ريب فيه ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ ﴾ أي يقبض أرواحكم عند انتهاء آجالكم، ويبيده وجده محياكم ومماتكم، فلا ينبغي لكم أن تشكوا في ديني، وإنما الشك في عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وأما إلهي فبيده النفع والضرر. ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بما دل عليه العقل، ونطق به الوحي، وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد، ليس إلا بالوحي السماوي والتوفيق الإلهي، وقيل لي:

﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق وهو الإسلام، وإقامة الوجه للدين، كناية عن توجيه النفس بالكلية، إلى عبادته تعالى، والإعراض عن سواه ﴿ وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي لا تكونن منهم، لا اعتقاداً ولا عملاً.

﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي لا تدع من دون الله استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إن عبدته أو دعوته، بدفع مكروهه، أو جلب محبوب ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن لم تعبد به بإيقاع المكروه ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ أي ما نُهيته عنه، كَتَى به تنويعاً لشأنه ﷺ على رفعة مكانه، من أن يُنسب إليه عبادة غير الله تعالى ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ جزاء للشرط، وهذا الخطاب وإن كان في الظاهر للرسول ﷺ، فالمراد به غيره، أي تكون ممن ظلم نفسه لأنك عرضتها لعذاب الله .

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١١٦﴾ .

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ كفقرٍ ومرض، أو شدةٍ وبلاء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ عنك كائناتاً من كان ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وحده، فيثبت عدم كشف الأصنام بالطريق البرهاني فإن رفع المكروه أدنى مراتب النفع ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ أي إن يرد أن يصيبك بخير ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ الذي أرادك به وفيه إيدان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل، من غير استحقاق عليه ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ بالخير بفضلِه ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهو يدل على عموم الفضل ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية، قرر سبحانه في هذه الآية، أن جميع الأشياء مستندة إلى الله تعالى، ومحتاجة إليه، والرحمة والجود فائضٌ منه عز وجل .

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١١٧﴾ .

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن الكريم المنزل من عند رب العالمين ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ بالإيمان

والمتابعة ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي منفعة اهتدائه لها خاصة ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ لأن وبال ضلاله عليها، والمراد تنزيه ساحة الرسالة، عن شائبة غرض عائد عليه ﷺ، من جلب نفع، أو دفع ضرر ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكل إلي أمركم، إنما أنا بشير ونذير.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

﴿وَاتَّبِعْ﴾ اعتقاداً وعملاً وتبليغاً ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ من ربك من الحق المذكور ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على تكذيبهم وأذاهم وعلى ما يعتريك من مشاق التبليغ ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْكَ﴾ فيهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه، لاطلاعه على السرائر والظواهر، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد ﷺ وآله وأصحابه أجمعين.

«تَمَّ بَعُونَهُ تَعَالَى تَفْسِيرُ سُورَةِ يُونُسَ»

سُورَةُ هُودٍ

مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ ﴿١﴾

﴿الرَّ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة^(١)، واختار غير واحد من المتأخرين كونها اسماً للسورة، أي هذه السورة مسمأة بـ: الرَّ ﴿كِتَبٌ﴾ التنوين فيه للتعظيم، أي هذا كتاب عظيم الشأن، جليل القدر، من لدن حكيم خبير ﴿أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ﴾ نظمت نظاماً محكماً، لا يعتريه خللٌ من جهة اللفظ والمعنى، كالبناء المحكم، مصون عن الذلل ﴿ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾ بَيَّنْتُ بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار، وفُصِّلَ فيها ما يحتاج إليه العباد في المعاش والمعاد ﴿مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ أي من عند الله عزَّ وجلَّ.

(١) للمفسرين آراء عديدة في الحروف المقطعة، والأظهر والأرجح منها أنها إشارة إلى إعجاز القرآن، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية التي يتكلمون بها، وانظر الجزء الأول من تفسير سورة البقرة.

﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ في موضع العلة، أي لتركوا عبادة غيره،
وتتمحضوا لعبادته سبحانه ﴿إِنِّي لَكُرْمَةٌ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي أنذركم من عذابه إن
كفرتم، وأبشركم بثوابه إن آمنتم، وقدم الإنذار هنا لأنه هو الأهم.

﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَنِّعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِيَ
كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ثم توصّلوا إلى مطلوبكم بالتوبة،
والمراد بالتوبة: الإخلاص فيها، والاستقرار عليها، وأصل الاستغفار طلب
الغفر أي الستر، ومعنى التوبة: الرجوع، ويطلق الأول - الاستغفار - على
طلب ستر الذنب، والثاني - التوبة - الندم عليه مع العزم على عدم العود،
فلا اتحاد بينهما ﴿يُمَنِّعْكُمْ﴾ في الدنيا ﴿مِّنَّا حَسَنًا﴾ بطيب عيش، وسعة
رزق، في أمن وسرور ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو آخر أعماركم المقدرة لكم
﴿وَيُؤْتِيَ﴾ أي يعطي ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ في دينه أي زيادة في العمل الصالح
﴿فَضْلَهُ﴾ أي جزاء فضله أي عمله الصالح في الآخرة، وهو وعد للموحد
الثائب بخير الدارين. ومسألة إطالة أعمار بعض الناس دون بعض، ليس
من الجود الخاص، كتفضيل الأنبياء عليهم السلام بعضهم على بعض، بل
هي جارية على الشنن العامة، ولذلك كانت عامة في المؤمن والكافر،
والبرّ والفاجر، فهو كمسألة الرزق في سعته وضيقه، قال الله تعالى: ﴿كُلًّا
نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^(١) ثم شرع
في الإنذار فقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ وإن تتولوا أي تعرضوا عما أمرتم به من
التوحيد، والاستغفار، والتوبة وتستمروا على الإعراض ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٠.

بموجب الشفقة أو أتوقع ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ شاق هو يوم القيامة، وفي إضافة العذاب إلى اليوم الكبير تهويلٌ وتفطيع له، وآخر الإنذار عن التبشير، جرياً على سَنَن^(١) تقدم الرحمة على الغضب.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَفِيرٌ﴾.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم إلى الله جلّ وعلا بالموت ثم بالبعث للجزاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَفِيرٌ﴾ فيقدر على تعذيبهم أشدّ العذاب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿أَلَا﴾ أي تنبهوا أيها المؤمنون ﴿إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ﴾ ضمير «إنهم» للمشركين، أي ينثونها عن الحق، وينحرفون عنه، ويعطفونها على الكفر، وعداوة النبي ﷺ ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أي ليطلبوا الخفاء من الله تعالى، وذكر أبو حيان أن الآية نزلت في بعض الكفار، الذين كانوا إذا لقيهم الرسول ﷺ، ثنّوا صدورهم، وردّوا إليه ظهورهم، وغشّوا وجوههم بثيابهم، كراهةً للقاءه، ويظنون أنه يخفى عليه ﷺ ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي ألا حين يأوون إلى فراشهم، ويتغطّون بثيابهم أي يلتحفون بما يلتحف به النائم، وهو وقت كثيراً ما يقع فيه حديث النفس عادة ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بأفواههم، يستوي في علمه تعالى سرّهم وعلّتهم، فكيف يخفى عليه تعالى ما يظهرونه؟ ﴿إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي إنه تعالى مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس في

(١) سَنَن: السَّنَنُ: الطريقة والمثال، يُقال بنّوا بيوتهم على سَنَن واحد، أي على طريقة واحدة، وانظر المعجم الوسيط.

صدورهم، والتعبير بالجملة الإسمية للإشارة إلى أنه سبحانه لم يزل عالماً بذلك، وفيه دليل على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها الخارجي.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا^١ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ^٢﴾

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ غذاؤها ومعاشها لتكفله إياه تفضلاً ورحمة، وإنما أتى بلفظ الوجوب تحقيقاً لوصولها وحملها على التوكل فيه، والمراد من الدابة هنا المعنى اللغوي باتفاق المفسرين، أي وما من حيوان يدب على الأرض، إلا على الله تعالى رزقه، ولا يمنع من التوكل مباشرة الأسباب، مع العلم بأنه سبحانه المسبب لها، ففي الخبر «اعقل وتوكل» وجاء في الحديث الشريف: «إن روح القدس نفث في روعي، أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله تعالى، وأجملوا في الطلب»^(١) ولا ينبغي أن يُعتقد أنه لا يحصل الرزق بدون مباشرة السبب، فإنه سبحانه يرزق الكثير، من دون مباشرة سبب أصلاً كما في قصة مريم ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ محل قرارها في الأصلاب، أو مسكنها في الدنيا ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ موضعها في الأرحام أو القبر^(٢) ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ مذكور في اللوح المحفوظ، أي كل واحد من الدواب، رزقها، ومستقرها، ومستودعها مثبت في اللوح المحفوظ المبين، وهذا تحقيق للعلم، كأنه لما ذكر أنه يعلم ما يسرون، أردفه بما يدل على عموم علمه جلّ وعلا، ثم أتى سبحانه بما يدل على عظيم قدرته من قوله.

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢٧/١٠ وابن حبان، والحاكم، وانظر جامع الأصول ١١٧/١٠.

(٢) قال ابن عباس: مستقرها حيث تسكن في الدنيا، ومستودعها الموضع الذي تموت فيه فتدفن، وقال مجاهد: مستقرها في الرحم، ومستودعها في الصلب، وقد جمع المؤلف بين القولين.

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧)

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من أيام الدنيا ليعلم العباد الثاني ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ قبل خلقهما، ليس تحت العرش غير الماء كما ورد في الحديث الشريف: «كان الله ولم يكن معه شيء، وكان عرشه على الماء»^(١) وفي الآية دلالة على أن العرش والماء خلُقا قبل السماوات والأرض ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ أي خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات، ورتَّب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من أسباب معاشكم ليعاملكم معاملة من يبتليكم أي يختبركم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ فيجازيكم بالثواب والعقاب، والعمل غير مختص بعمل الجوارح، فإن لكل من القلب والقالب عملاً مخصوصاً به، فكما أن الأول أشرف من الثاني، فكذا الحال في عمله، كيف لا، ولا عمل بدون معرفة الله عزَّ وجل ﴿ وَلَئِنْ قُلْتُمْ ﴾ يا رسول الله ﴿ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ للحساب والجزاء، على ما يوجبه قضية الابتلاء، بظهور مراتب الأعمال ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي ليقولن الكافرون منهم ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ أي ما هذا القرآن ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ تمادياً منهم في العناد، أي إنه مثل السحر في الخديعة والبطلان، وإنما نسبوا السحر إلى القرآن، لأنه أخبر عن البعث والنشور، وأتى بالقول الفصل في ضرورة حدوثه.

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ٢٨٦/٦ في قصة وفد اليمن، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اقبلوا بشرى يا أهل اليمن، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، جئنا نسألك عن هذا الأمر!! قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء...» الحديث الخ.

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ۝ ﴾

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ ﴾ الموعود في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ والظاهر العذاب الشامل للكفرة ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي طائفة من الأيام قليلة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ استهزاء ﴿مَا يَحْبِسُهُ؟﴾ أي أي شيء يمنعه من المجيء؟ ومرادهم إنكار المجيء، والسخرية والاستهزاء بمن يعدهم بالعذاب، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ذلك العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا﴾ مدفوعاً ﴿عَنْهُمْ﴾ على معنى لا يرفعه رافع، ولا يدفعه دافع ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاء.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۚ كَفُورٌ ﴿٩﴾ ۝ ﴾

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ أي ولئن أعطيناه نعمة بحيث يجد لذتها في نفسه، والمراد من الرحمة: النعمة من صحة، وسعة، وأمن، ونحو ذلك ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ ثم سلبنا تلك النعمة منه، وإيراد النزع للإشعار عن شدة تعلقه بها، وحرصه عليها ﴿إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾ أي قاطع رجاءه من فضل الله تعالى، لقلة صبره، وعدم ثقته به تعالى ﴿كَفُورٌ﴾ مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ۝ ﴾

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْاءٍ مَسَتْهُ ﴾ كصحة بعد سقم، وغنى بعد

فقر، وفَرَجَ بعد شدة، وأمن بعد خوف، وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق، وعن ملابسة الضراء بالمس، المشعر بكونها في أدنى الأمور والمصائب اليسيرة، مما يدل على أن مراده تعالى إنما هو إيصال الخير، وأنه يريد بعباده اليسر دون العسر، والتعبير بالمس كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي ذهبت عني المصائب التي تسوئني ولم يتوقع زوالها، ولا يشكر عليها كما هو شأن أولئك الأشرار ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ﴾ بَطَرٌ وأشهر، بالنعم مغتر بها، وأكثر ما ورد «الفرح» في القرآن للذم، فإذا قُصد المدح قُيد، كقوله سبحانه: ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾. ﴿فَخُورٌ﴾ متعظم على الناس بما أوتي من النعم، مشغول بذلك عن القيام بحقها، وحاصله أنَّ الغافلين عند البلاء، لا يكونون من الصابرين، وعند الفوز بالنعماء، لا يكونون من الشاكرين.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ لكن الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء، واستسلموا لقضاء الله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ شكراً على آلائه السالفة، ولمَّا تضمن اليأس عدم الصبر، والكفران عدم الشكر، كان المستثنى من ذلك ضده، كأنه قيل: إلا الذين صبروا وشكروا ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ﴾ ثواب لأعمالهم الحسنة ﴿كَبِيرٌ﴾ أقله الجنة، وُصِفَ بذلك لما احتوى عليه من النعيم السرمدي، ورفع التكاليف، والأمن من العذاب، ووجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن، من حيث إن إذاقة النعماء، ومساس الضراء، نوع من باب الابتلاء، وواقع موقع التفصيل من الإجمال، جاء قوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ فالمعنى ليعاملكم معاملة من يختبر البشر.

﴿ فَلَمَّا تَرَاكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَافِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا
أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۖ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
وَكَيلٌ ۝۱۷ ﴾

﴿ فَلَمَّا تَرَاكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ أي لعلك تترك تبليغ بعض ما يوحى إليك، مخافة استهزائهم به والمقصود من ذلك تحريضه ﷺ وتهيجه لأداء الرسالة، وعدم المبالاة بمن عاداه ﴿ وَصَافِقُ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ أي وعارض لك أحياناً ضيق صدرك من تبليغه، خشية التكذيب ﴿ أَن يَقُولُوا ﴾ أي لأن يقولوا تعامياً عن تلك البراهين الساطعة، وتمادياً على العناد على وجه الاقتراح ﴿ لَوْلَا ﴾ أي هلاً ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ ﴾ أي مال كثير من السماء يستعين به في أموره كالمملوك ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدقه ويشهد بنبوته، كما قال طغاة مكة: اجعل لنا جبال مكة ذهباً، وقال آخرون منهم: اثنا بالملائكة ليشهدوا بنبوتك، قال تعالى محدداً مهمته: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ أي ليس عليك إلا البلاغ بما أوحى إليك، غير مبالي بما صدر عنهم، من الرد والتكذيب ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكَيلٌ ﴾ أي حفيظ يحفظ أحوالك وأحوالهم، فتوكل عليه في جميع أمورك، فإنه تعالى فاعل بهم ما يليق بحالهم.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ ۚ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَن
أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ۚ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝۱۸ ﴾

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ ﴾ أي بل يقولون إنه ليس من عند الله تعالى ﴿ قُلْ ﴾ إن كان الأمر كما تقولون ﴿ فَاتُوا ﴾ أنتم أيضاً ﴿ بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ ﴾ في البلاغة، والفصاحة، والجزالة، وحسن النظم، وقوة المعنى ﴿ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ أي فاتوا بعشر سور مماثلة له في البلاغة، مختلقات من عند أنفسكم، إن صحَّ أنني اختلقته من عند نفسي، فإنكم عرب، فصحاء،

بلغاء، تمارسون الخطابة والأشعار، وفيكم ملوك الفصاحة، وأساطين البيان، وهذا التحدي وقع أولاً، فلما عجزوا، تحداهم بسورة مثله، كما نطقت به سورة البقرة، ويونس ﴿وَادْعُوا﴾ للمعاونة ﴿مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾ أي استعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به، من آلهتكم التي تزعمون أنها تنفعكم، والكهنة الذين تلجؤون إلى آرائهم في الملمات، ليساعدوكم في ذلك ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي متجاوزين الله تعالى، فإنه لا يقدر على الإتيان بمثله إلا الله رب العزة والجلال ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنني افتريته على الله.

﴿فَإِلَّا تَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ يَعْلِمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٢).

﴿فَإِلَّا تَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي فإن لم يستجب هؤلاء المشركون لكم، إلى ما دعوتموهم إليه من المعارضة، وتبين عجزهم عنه بعد التحدي لهم ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ يَعْلِمُ اللَّهُ﴾ أي ملتبساً بالوحي بما لا يعلمه إلا الله، ولا يقدر عليه سواه ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ واعلموا أن لا معبود في الوجود إلا الله، وأنه سبحانه لا شريك له في الألوهية ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهل أنتم داخلون في الإسلام، بعد قيام الحجة البالغة؟ المراد بما لا يعلمه غيره، من الكيفيات والمزايا التي بها الإعجاز للبشر.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٩).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بإحسانه وبره وأعماله الصالحة ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي يريد نعيم الدنيا فقط، وما يزئنها ويحسنها من الصحة، والأمن، والسعة في الرزق، وغير ذلك ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ جزاء ما

عملوه من خير، كصدقة، وصلة ﴿فِيهَا﴾ في الدنيا من الصحة، والرياسة، وسعة الرزق، وكثرة الأولاد، وليس المراد بأعمالهم كلها، فإنه لا يجد كل متمم ما يتمناه، فإن ذلك منوط بالمشيئة، الجارية على قضية الحكمة، كما نطق به قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾^(١) ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ﴾ أي لا ينقصون من أجورهم شيئاً وإنما عبر عن ذلك بالبخس، الذي هو نقص الحق، مبالغة في نفي النقص، فلا يدخل تحت الوقوع عن الكريم أصلاً، أمّا في الآخرة فهم في الحرمان المطلق، كما ينطق به قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

﴿أُولَئِكَ﴾ أي المريدون للحياة الدنيا ﴿الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ مطلقاً في مقابلة ما عملوا، لأن همهم كانت مصروفة إلى الدنيا، وقد اجتنوا ثمراتها، ولم يريدوا بها شيئاً آخر، فلا جرم لم يكن لهم في الآخرة إلا النار، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَزَنَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾^(٣) ﴿وَحَبِطَ﴾ بطل ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي ظهر في الآخرة ضياع ما صنعوه من أعمال الخير، إذ شرط الاعتداد بها بالإخلاص، ولم يريدوا وجه الله تعالى ﴿وَبِطُلَّ﴾ في نفسه ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لعدم شرط الصحة، والظاهر أن الآية في مطلق الكفرة، الذين يعملون البر على الوجه الذي لا ينبغي، ومن هنا اشتهر أن الكافر، يُعَجَّلُ له ثواب أعماله في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب،

(١) سورة الإسراء، آية: ١٨.

(٢) سورة الشورى، آية: ٢٠.

لكن ذهب جماعة إلى أنه يُخَفَّفُ بها عنه من عذاب الآخرة، ويشهد له قصة أبي طالب، الذي أخبر رسول الله ﷺ عنه أنه في ضحضاح من نار، وقال: لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ
مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ
مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧).

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ برهان يدل على الحق والصواب، وهو القرآن، لأنه بينة باقية على وجه الدهر ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي ويتبعه ﴿شَاهِدٌ﴾ والتنوين في «بيّنة» و«شاهد» للتفخيم، أي شاهد عظيم يشهد بكونه من عند الله تعالى، وهو الإعجاز في نظمه، في كل مقدار سورة منه ومعنى كون ذلك تابعاً له، أنه وصف له لا ينفك عنه، فلا يستطيع أحد من الخلق، جيلاً بعد جيل معارضته ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن، أو من جهة الله تعالى^(١) فالمعنى: هل من كان يريد الحياة الدنيا، كمن كان على بينة من ربه، ويشهد له شاهد؟ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب التوراة أيضاً يتلوه في التصديق، وتخصيص كتاب موسى بالذكر، لأن اليهود والنصارى مجتمعان على أنه من عند الله، بخلاف الإنجيل ﴿إِمَامًا﴾ أي كتاباً مؤتماً به في الدين، ومقتدى به ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزل عليهم، لأنها الطريق إلى الفوز بخير الدارين ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفة الحميدة

(١) هذا ما اختاره المصنف، وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية الكريمة: أفمن كان على نور واضح وبرهان ساطع من الله عز وجل، وهو النبي ﷺ وأتباعه المؤمنون، وجوابه محذوف تقديره: كمن كان همه الحياة الدنيا؟ لا يستون عند الله، ويتبعه شاهد من الله بصدقه وهو جبريل، ولعل هذا القول أظهر والله أعلم.

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي يصدقون بالقرآن حق التصديق، دون شك أو ارتياب
 ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ من أهل مكة ومن تحزب
 معهم على رسول الله ﷺ ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُمْ﴾ يَرُدُّهَا لَا محالة حسبما نطق به
 قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك
 ﴿مِنْهُ﴾ من القرآن وكونه من عند الله ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي الحق الثابت
 المقطوع بصدقه المنزل من عند الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
 بذلك لقصور أنظارهم، واختلال أفكارهم، ولعنادهم واستكبارهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ
 وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى
 الظَّالِمِينَ﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن نسب إليه ما لا يليق،
 كقولهم: الملائكة بنات الله، وقولهم لألهتهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله،
 والمراد من الآية ذم أولئك الكفرة، بأنهم مع كفرهم بآيات الله، مفترون
 عليه سبحانه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بالظلم البالغ وهو الافتراء
 ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي مالکهم الحق فيفتضحون على رؤوس الخلائق
 ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ عند العرض، وهو جمع شاهد أو شهيد، والمراد بهم
 الخلائق والملائكة الذين يشهدون على أعمالهم ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ
 رَبِّهِمْ﴾ في الدنيا بالافتراء عليه، كأن ذلك أمر واضح غني عن الشهادة،
 وإنما المحتاج تعيين من صدر عنه ذلك، والغرض فضيحتهم في الدار
 الآخرة على رؤوس الأشهاد، والتشهير بهم خزيًا ونكالا ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى
 الظَّالِمِينَ﴾ بالافتراء المذكور، وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة
 ظلمهم، والظاهر أن هذا من كلام الأشهاد، ويؤيده ما أخرجه الشيخان عن
 ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يُدْني المؤمن،
 حتى يَضَعُ كَنَفَهُ عليه - بمعنى سِتْرِهِ - ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول:

نعم، حتى إذا رأى في نفسه أنه هلك، قال الله له: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(١).

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(١١).

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون الناس عن الإيمان واتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصل إلى الله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي ويريدون أن تكون السبيل معوجة، أي دين الله منحرفاً عن الحق والصواب، منسجماً مع أهوائهم ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي هم جاحدون بالآخرة، منكرون للبعث والنشور، فقد جمعوا بين الضلال والإضلال.

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾^(١٢).

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي هؤلاء الفجار ليسوا مفلتين من عذاب الله، بل هم تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ﴾ أي ليس لهم من ينصرهم ويمنعهم من العقاب، أو ينجيهم من عذاب السعير ﴿يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي يضاعف الله لهم العذاب بسبب إجرامهم وطغيانهم ﴿مَا كَانُوا

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٣٥٣/٨ فتح الباري، ومسلم في التوبة رقم

يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ أي سبب مضاعفة العذاب وتشديد العقاب، أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، ولكنهم كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن إِبصار نور الهدى، بكماً عن النطق بكلمة التوحيد، فلم ينتفعوا بما منحهم الله من الحواس، فكانوا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي خسروا سعادة الدنيا والآخرة، باشتراء الضلالة بالهدى، وخسروا راحة أنفسهم لدخولهم نار جهنم المؤبدة، ويا له من خسرانٍ مبین!! وشقاء واضح!! ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ضاع وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة، وبطل ما كانوا يؤملونه من النجاة من عذاب الجحيم، كما قال سبحانه عنه: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ونتيجة لهذا الطغيان فقد حكم الله عليهم بالشقاء فقال:

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ﴾ أي حقاً إنهم يوم القيامة من أخسر البشر، وأشقى البشر، ولا ترى أحداً أوضح خسراناً منهم، لأنهم آثروا الفانية على الباقية، واستعاضوا عن الجنان بلطى النيران^(١).

وبعد أن وضح حال أولئك الأشقياء المجرمين، شرع في شرح أضدادهم وهم المؤمنون، وبيان ما لهم من العواقب الحميدة، ليظهر ما بينهما من التباين العجيب، والمصير المنتظر، حالاً ومآلاً، فقال سبحانه:

(١) قال الحافظ ابن كثير: يخبر تعالى عن مآلهم بأنهم أخسر الناس في الآخرة، لأنهم اعتاضوا عن نعيم الجنان، بحميم آن، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي صدّقوا بكل ما يجب التصديق به، من القرآن وغيره ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي الأعمال الصالحات ﴿ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ اطمأنوا إليه وخشعوا له، وأصل الإخبات: نزول الخبت وهو المنخفض من الأرض، ثم أطلق على الاطمئنان والخشوع، ف قوله سبحانه: ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إشارة إلى جميع أفعال الجوارح ﴿ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ إشارة إلى أعمال القلوب ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ دائمون أبداً، لا يخرجون منها.

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ المؤمن والكافر أي حالهما العجيبة التي تشبه المثل في الغرابة ﴿ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ ﴾ هذا مثل الكافر ﴿ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ وهذا مثل المؤمن، وفيه تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، كما فيه من المحسنات البديعية ما يسمى باللف والنشر، حيث عاد السميع على الأصم، والبصير على الأعمى، ثم الطباق بين الأعمى والبصير ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ هل يستوي الفريقان تمثيلاً وصفة؟ والاستفهام إنكاري معناه لا يستويان مثلاً، فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضياءه، كحال من يتخبط في ظلمات الضلالة، ولا يعرف طريق النور والهداية ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أفلا تتذكرون بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل؟

ثم إنه تعالى شرع في ذكر قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وبيان حالهم مع أمهم، ليزداد عليه السلام تحملاً لما يقاسيه من المعاندين، فقال عز من قائل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ على إرادة القول أي فقال لهم: إني لكم نذيرٌ مبين، أي مخوف من عذاب الله، والاقتصارُ على ذكر كونه نذيراً، لأنهم لم يفتنوا مغام بشارته، بل جابهوه بالتكذيب ﴿مُّبِينٌ﴾ أي موضح لكم موجبات العذاب، ووجه الخلاص منه.

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله وفي هذا تبين لوجه الخلاص، وهو عبادة الله تعالى ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ المراد به يوم القيامة، أو يوم الطوفان، وصف العذاب بالأليم أي المؤلم للمبالغة، فكان العذاب نفسه يتألم من شدته.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا فَرَّكَ إِلَّا بَشْرًا مِّثْلَنَا وَمَا فَرَّكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا فَرَّيْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ وصفهم بالكفر لزمهم، لا لأن بعض أشرافهم ليسوا بكفرة، بل كلهم كفار فجار، كما قال عنهم: ﴿وَلَا يَلْدُوا إِلَّا فَاكِراً كَفَّاراً﴾^(١) ﴿مَا فَرَّكَ إِلَّا بَشْرًا مِّثْلَنَا﴾ أي لا مزية لك علينا تخصك

(١) سورة نوح، آية: ٢٧.

بالنبوة، ووجوب الطاعة ﴿وَمَا تَرْثُكَ آبُكَ﴾ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ ﴿أَرَادُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ ظاهره، وهو ما يكون من غير تعمق، وإنما استرذلوهم مع كونهم من أولي الألباب الراجحة، لفقرهم، وقلة جاههم، فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهر الحياة الدنيا، كان الأشرف عندهم الأكثر مالا وجاهاً، كما ترى بعض المتسمّين بالإسلام، يعتقدون ذلك، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم، ولم يفقهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناح بعوضة، والرفعة لا تكون بالمال والمناصب، والحسب بل بمتابعة الرسل، ومثانة الدين والأخلاق ﴿وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ﴾ أي لك ولمتبعيك ﴿عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ يؤهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة من المال والجاه ﴿بَلْ نَقْضُكُم كَذِبًا﴾ أدرجوا قومهم معه في الخطاب، أي بل نطن إياك في دعوى النبوة، وإياهم في دعوى العلم بصدقك، نطنكم كاذبين، تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبباً للرياسة.

﴿قَالَ يَقْوَرُ أَرَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتْنَقُ مِنْ رَبِّي وَءَالَتْنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ
فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾.

﴿قَالَ يَقْوَرُ أَرَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتْنَقُ مِنْ رَبِّي﴾ أي حجة شاهدة بصحة دعواي ﴿وَأَلَتْنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ بإيتاء النبوة، جيء بها إيذاناً بأنها مع كونها بينة من عند الله تعالى، رحمة ونعمة عظيمة من عنده ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فخفيت عليكم، من العمى ضد البصر، والمراد به هنا الخفاء مجازاً، يقال: حجةٌ عمياء كما يقال: حجة مبصرة، للوضحة الجلية ﴿أَنُلْزِمُكُمْوهَا﴾ أي أنكرهكم على الاهتداء بها؟ ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ أي لا تختارونها ولا تتأملون فيها؟ ومحصول الجواب أخبروني إن كنت على حجة، ظاهرة الدلالة على صحة دعواي، إلا أنها خافية عليكم، أيمكننا أن نكرهكم على قبولها، وأنتم معرضون عنها؟ أي لا يكون ذلك أبداً.

﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنَّ آيَاتِنَا تُفْهِمُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُ
مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ، وإن لم يذكر فمعلوم
مما ذكر ﴿مَا لَا﴾ تودونه إلي بعد إيمانكم، فيكون ذلك أجراً لي في مقابلة
اهتدائكم ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي ما أطلب ثوابي وجزائي إلا من الله
﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ جواب عما لوّحوا به بقولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ
إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَزْدَانُنَا﴾ والمروي عن ابن جريج أنهم قالوا له: يا نوح إن
أحببت أن نتبعك، فاطرد هؤلاء، وذلك كما قالت قريش للنبي ﷺ في
فقراء الصحابة وهو جواب عما لم يذكر في النظم الكريم، لكن فيه نوع
إشارة إليه ﴿إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ﴾ أي إنهم مؤمنون يلاقون ربهم ويفوزون
بقربه، فكيف طردهم؟ ﴿وَلَكِنَّ آيَاتِنَا تُفْهِمُونَ﴾ بأقذارهم، وفي
التماس طردهم، وتجهلون بكل ما ينبغي أن يعلم، ويدخل فيه جهلهم
بمنزلتهم عند الله تعالى.

﴿وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ أي من يصونني ويدفع عني
حلول سخطه؟ والاستفهام للإنكار أي لا ينصرنني أحد من ذلك ﴿إِنْ
طَرَدْتُهُمْ﴾ وهم بتلك الكرامة والزلفى ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتعظون فلا
تذكرون بما ذكر من حالهم، حتى تعرفوا أن ما تأتون به معزل عن الصواب ١٩.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا
أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي
إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ خزائن رزقه حتى جحدتم فضلي ﴿وَلَا

أَعْلَمُ الْغَيْبِ ﴿١﴾ أَي لَا أَدْعِي فِي قَوْلِي: ﴿إِنِّي نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ حَتَّى تَسَارِعُوا إِلَى الْإِنْكَارِ وَالْإِسْتِعْجَالِ، وَمَا ذَكَرْتُ مِنْ دَعْوَى الْإِنْذَارِ بِالْعَذَابِ، إِنَّمَا هُوَ بَوْحِي وَإِعْلَامُ مَنْ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حَتَّى تَقُولُوا مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا، فَإِنَّ الْبَشَرِيَّةَ لَيْسَتْ مِنْ مَوَانِعِ النَّبُوَّةِ، يَعْنِي إِنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ فَقْدَانِ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ ذَرِيعَةً إِلَى تَكْذِيبِي، وَالْحَالُ أَنِّي لَا أَدْعِي شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ وَلَا أَقُولُ فِي شَأْنٍ مِنْ اسْتِرْذَلْتُمُوهُمْ لِفَقْرِهِمْ، وَأَصْلُ الْإِزْدِرَاءِ الْإِعَابَةُ، يُقَالُ: إِزْدَرَاهُ إِذَا عَابَهُ ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ فَإِنَّ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ خَيْرَ الدَّارَيْنِ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ وَهَذَا كَالدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْسُبُونَ أَتْبَاعَهُ مَعَ الْفَقْرِ إِلَى النِّفَاقِ، وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ عَلَى الْقَوْلِ الْمَذْكُورِ، مَعَ أَنَّهُ جَازِمٌ بِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ سَيُؤْتِيَهُمْ خَيْرًا عَظِيمًا فِي الدَّارَيْنِ، جَرِيًّا عَلَى الْإِنْصَافِ، وَإِرْشَادًا لَهُمْ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَايَةِ بِأَنَّ اللَّائِقَ لِكُلِّ أَحَدٍ، أَنْ لَا يَبْتَغِيَ الْقَوْلَ إِلَّا فِيمَا يَعْلَمُهُ يَقِينًا، وَيُبْنِي أُمُورَهُ عَلَى الشُّوَاهِدِ الظَّاهِرَةِ ﴿إِنِّي إِذَا﴾ إِذَا قُلْتُ ذَلِكَ ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لَهُمْ بِحُطِّ مَرْتَبَتِهِمْ، وَفِيهِ تَعْرِيفٌ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ بِأَزْدِرَائِهِمْ.

﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾.

﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا﴾ خَاصَمْتَنَا وَنَازَعْتَنَا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ أَي حَاجَجْتَنَا فَأَطْلَتَهُ، أَوْ أَتَيْتَ بِأَنْوَاعِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْجِدَالَ فِي تَقْرِيرِ الدَّلَائِلِ حُرْفَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَالتَّقْلِيدُ وَالْجَهْلُ، وَالْإِصْرَارُ عَلَى الْبَاطِلِ، حُرْفَةُ الْكُفَّارِ، وَلَمَّا حَجَّجَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَبْرَزَ لَهُمْ بَيِّنَاتٍ وَاضِحَةً الدَّلَالَةِ، بَرَدَ شَبْهَهُمُ الْبَاطِلَةَ، ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْحِيلُ فَقَالُوا عِنْدَ ذَلِكَ ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا﴾ مِنَ الْعَذَابِ الْمَعْجَلِ ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فِي الدَّعْوَى وَالْوَعْدِ، فَإِنْ مَنَظَرْتِكَ لَا تَوَثِّرُ فِينَا.

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾ فإن أمره إليه سبحانه لا إليّ يأتاكم به عاجلاً أو آجلاً ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه .

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾ أي إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، والجملة دليل جواب قوله سبحانه ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ والتقدير إن كان الله يريد أن يغويكم، فإن أردت أن أنصح لكم، لا ينفعكم نصحي، وهذا الكلام صدر عنه إظهاراً للعجز، عن إلزامهم بالحجج والبيّنات، لتماديهم في العناد، وإيداناً بأنّ ما سبق منه ليس بطريق الجدل، بل بطريق النصيحة لهم، والشفقة عليهم، ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادة الله تعالى لإغوائهم ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ أي خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم على أعمالكم لا محالة .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يَنْحَرِمُونَ ﴾

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ ﴾ بل أيقول قوم نوح، إنّ نوحاً افتري ما جاء به مسنداً له إلى الله تعالى؟ ﴿ قُلْ ﴾ يا نوح ﴿ إِنْ افْتَرَيْنَاهُ ﴾ بالفرض البحت ﴿ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي ﴾ أي عقوبة إثمي، وإن كنت صادقاً وكذبتُموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يَنْحَرِمُونَ ﴾ أي من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ، وقوله: ﴿ إِنْ افْتَرَيْنَاهُ ﴾ لا يدل على أنه شاكّ، لأنه قول يُقال على وجه الإنكار، عند اليأس من القبول .

وما يقتضيه كلام ابن عباس أن الآية الكريمة، من تنمة قصة نوح وهو الظاهر، وعن مقاتل أنها في شأن النبي ﷺ مع مشركي مكة .

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ﴾ المصّرّين على الكفر، وهو إقناط له من إيمانهم وإعلام بأنه لم يبق فيهم من يتوقع إيمانه ﴿إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ أي من استمر على الإيمان، وللدوام حكم الحدوث ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي لا تحزن حزن بائس ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء، والايذاء في هذه المدة الطويلة، قيل: إن نوحاً عليه السلام لشدة محبته إلى إيمانهم كان يسأل إيمانهم، فأعلمه ربّه أنه لا يؤمن أحد منهم فقد حان وقت الانتقام منهم.

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منّا وحفظنا، والأعين حقيقة في الجارحة، وهي جارية مجرى التمثيل، حيث مثل للحفظ والرعاية بمن يرقب بعينه صنع الشيء بدقة، والمراد: اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا فهو كناية عن الرعاية والحفظ كما يقال للمسافر: صحبتك عين الله ﴿وَوَحِّينَا﴾ إليك كيف تصنعها، قال مجاهد: أي اصنعها كما نأمرك ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم ﴿إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ محكوم عليهم بالإغراق، فلا سبيل إلى كفه، وفي هذا حكم قاطع لقوم نوح بالهلاك.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ﴾ تقديره وأخذ يصنع الفلك، فهي حكاية حالة

ماضية، لاستحضارها في الذهن، كأنَّ الإنسان يشاهد نوحاً عليه السلام وهو يصنع السفينة الآن ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ استهزؤوا به لعمله السفينة، فإنه كان يعملها في برية بعيدة من الماء، أو لأنهم ما كانوا يعرفونها، فكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرت نجّاراً بعد ما كنت نبياً؟!.

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ إذا أخذكم الغرق في الدنيا وإطلاق السخرية للمشاكله، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ لا في الكيفية، التي لا تليق بشأن النبي وبمنصب النبوة، وقيل: إنها لما كانت لجزائهم من جنس صنيعهم لم تقبح، قال بعضهم: إن في الآية دليلاً على جواز مقابلة نحو الجاهل والأحمق، بمثل فعله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وفيها إشارة إلى أنه بعد أن يش من إيمانهم، لم يبال بإغصابهم، فلذا هددهم بقوله:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يهينه، ويدلّه، ويهلكه وهو عذاب الغرق ﴿وَيَحِلُّ﴾ أي ينزل ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم وهو عذاب الآخرة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ حتى هي التي يبدأ بها الكلام، وهي مع ذلك غاية لقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ الْمَلَكُ﴾ والأمر: واحد الأمور وهو الشأن، أعني نزول العذاب بهم ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها، وفي ذلك عجيب القدرة، ولا تنافي بين هذا وقوله

سبحانه: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ إذ يمكن التفجير وهو غير الفوران، فخصَّ الفوران للتثور، والتفجير وهو للأرض، والتثور تنور الخبز وهو قول الجمهور، وعن ابن عباس وعكرمه الثور هنا: وجه الأرض ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ﴾ أي من كل نوع من الحيوانات المنتفع بها، ليستففع به الذين ينجون من الغرق وذرايهم بعد ﴿زَوْجَيْنِ﴾ وهو تشية زوج، والمراد به الواحد المزدوج بآخر من جنسه ﴿أَتَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى، وحاصل المعنى: احمل ذكراً وأنثى، من كل نوع من الحيوانات، وعن وهب بن منبه قال: ﴿لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ نُوحًا بِالحَمْلِ، قَالَ: كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْأَسَدِ وَالْبَقَرَةِ، وَبَيْنَ الشَّاةِ وَالذِّئْبِ، وَبَيْنَ الْحَمَامِ وَالْهَرَّةِ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ أَلْقَى بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ؟ قَالَ أَنْتَ يَا رَبِّ، قَالَ: فَإِنِّي أُولَفُ بَيْنَهُمْ﴾^(١) والذي يميل القلب إليه أن الطوفان لم يكن عاماً، وأنه لم يؤمر بحمل الحشرات والسباع، بل أمر بحمل ما يحتاج إليه إذا نجا المؤمنون من الغرق ﴿وَأَهْلَكَ﴾ والمراد بأهله: امرأته المسلمة، وبنوه منها وهم: «سام» أبو العرب، و«حام» أبو السودان، «ويافث» أبو الترك، وأزواجهم ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بأنه من المغرقين، يريد ابنه «كنعان» وأمه واعلة فإنهما كانا كافرين وذلك في قوله سبحانه ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وجيء بعلی لكون السابق ضاراً لهم، كما جيء باللام فيما هو نافع كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي والمؤمنين من غيرهم ﴿وَمَاءَ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل تسعة وسبعون، وقيل: ثلاث وثمانون.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجِّرُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤١)
وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ
ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾^(٤٢).

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند، وانظر تفسير ابن كثير ٤٦١/٢ ففيه روايات كثيرة.

﴿وَقَالَ نُوحٌ اٰرْكَبُوا فِيهَا﴾ أي اركبوا في السفينة ﴿بِسْمِ اللّٰهِ بِحَبْرِهَا وَمُرْسَهَا﴾ أي اركبوا فيها قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسالها روي عن الضحاك قال: كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال: ﴿بِسْمِ اللّٰهِ﴾ فتجري، وإذا أراد أن ترسو أي تقف قال: ﴿بِسْمِ اللّٰهِ﴾ فترسو؛ فهذا تعليم من الله عز وجل لعباده ﴿إِن رَّبِّي لَغَفُورٌ﴾ للذنوب والخطايا ﴿رَحِيمٌ﴾ لعباده، ولولا مغفرته ورحمته لما نجاكم من هذه الطامة.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ أي فركبوا وهي تجري بهم وهم فيها ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي في موج من الطوفان، كل موجة منها كالجبال، في تراكمها وارتفاعها، والأمواج العظيمة تحدث عند حصول الرياح الشديدة، فهذا يدل على أنه حصل في ذلك الوقت رياح عاصفة، وهذا الجريان إنما كان قبل أن يتفقم الخطب، كما يدل عليه قوله: ﴿وَقَادَى نُوحٌ اٰبْنَهُ﴾ واسمه كنعان، فإن ذلك إنما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والأرض ﴿وَكَانَ فِي مَعَزِلٍ﴾ أي في مكان منقطع عن أبيه وعن السفينة ﴿يَبْتَغِي اٰرْكَبَ مَعَنَا﴾ في السفينة، يابني بالتصغير من باب التحنن والرافة، وكثيراً ما ينادي الوالد ولده كذلك ﴿وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ في المكان فتهلك مثلهم.

﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ ﴿٥٢﴾

﴿قَالَ سَتَأْتِي﴾ أي سأنضم ﴿إِلَى جَبَلٍ﴾ من الجبال ﴿يَعْصِمُنِي﴾ يحفظني بارتفاعه ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ فلا يصل إليّ زعماً منه أن ذلك كسائر المياه، وأن الماء لن يصل إلى رؤوس الجبال ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي قال له أبوه نوح عليه السلام: لا ناجي ولا معصوم اليوم من عذاب الله، إلا من رحمه الله، زاد اليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام، وعبر عن الماء (بأمر الله) أي عذابه الذي أشير إليه بقوله: ﴿إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾

تفخيماً لشأنه، فإن أمر الله لا يُغالب، وعذابه لا يُرَدُّ، كأنه قيل: لا عاصم من أمر الله تعالى إلا هو، وإنما قيل: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ تفخيماً لشأنه الجليل، كلُّ ذلك لكمال عنايته بتحقيق ما يتوخاه، من نجاة ابنه، ولذا عدل عما يقتضيه الظاهر من الجواب، بقوله لا يعصمك الجبل ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ بين نوح وابنه ﴿فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ﴾ أي فكان من غير مهلة من المغرقين، فانقطع ما بينهما من المجادلة، وفيه دلالة على غرق سائر الكفرة، والحكمة في كفر أرحام الرسل، ككفر والد إبراهيم، وولد نوح، هو تقرير أصل التوحيد، بالفصل بين ما هو لله، وما هو لرسله، وما عليهم إلا البلاغ، لا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١١)

﴿وَقِيلَ﴾ أي بعد تناهي الطوفان ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي﴾ أي انشقي وابتلعي ماءك، استعير له من ازدياد الحيوان ما يأكله، للدلالة على أن ذلك ليس كالنشقان المعتاد التدريجي، وتخصيص البلع بما يؤكل هو المشهور عند اللغويين، فإن البلع حقيقة إدخال الطعام في الحلق، وهو هنا استعارة لغور الماء في الأرض ﴿مَاءَكِ﴾ أي ما على وجهك من ماء الطوفان، دون المياه المعتادة فيها من العيون، والآبار، والأنهار، وعبر عنه بالماء، بعد ما عبر عنه بأمر الله، لأن المقام هنا مقام النقص والتقليل، لا مقام التفخيم والتهويل ﴿وَنَسَمَاءَ أَقْلِي﴾ أي أمسكي عن إرسال المطر، يقال: أفلعت السماء إذا انقطع مطرها ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ نقص وذهب في أغوار الأرض، قال الجوهري: غاض الماء إذا قلَّ، وتفسيره بالنقص مروى عن مجاهد ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي أنجز الموعد من إهلاك الكافرين، وإنجاء المؤمنين ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ واستقرت السفينة بعد أن طافت ستة أشهر ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ جبل بالموصل وقيل: بالشام، والمشهور الأول، روي أنه ركب السفينة عاشر

رجب، ونزل عنها عاشر المحرم، فصام ذلك اليوم وصار سنة ﴿وَقِيلَ بُعْدًا
لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي هلاكاً لهم، يقال: بَعُدَ بُعْدًا، وبعيداً: إذا بَعُدَ بحيث
لا يُرجى عوده، ثم استعير للهلاك، وَخُصَّ بدعاء السوء.

واعلم أن هذه الآية الكريمة، قد بلغت من مراتب الإعجاز أفاصيها،
وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان، وقد أَلَّفَ شيخنا علاء
الدين رسالة في هذه الآية، جمع فيها بدائع، وأظهر من مزاياها الكثير^(١).

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي﴾ وقد وعدتني إنجاءهم ﴿وَإِنَّ
وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ وإن كل وعد تعدّه حق، لا يتطرق إليه الخلف ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ
الْحَاكِمِينَ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم، وهذا النداء منه يقطر منه الاستعطاف،
وجميل التوسل إلى من عهده منعماً ومتفضلاً، في شأنه أولاً وآخرأ، وهو
على طريقة دعاء أيوب عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الصُّرُورَ وَأَنْتَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

(١) هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها، وقد اهتم بإظهار لطائفها وأسرارها العلامة
أبو حيان في البحر المحيط ٢٤٧/٥ حيث قال طيّب الله ثراه: «في هذه الآية أحد
وعشرون نوعاً من البديع: المناسبة بين قوله: ﴿أقلعي وابلعي﴾ والمطابقة بذكر
الأرض والسماء، والمجاز في ﴿سمااء﴾ المراد به مطر السماء والاستعارة في
﴿ابلعي﴾ والإشارة في قوله: ﴿وغيض الماء﴾ فهو إشارة إلى معان كثيرة، والتمثيل
في قوله ﴿وقضي الأمر﴾ عبّر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين، والإرداف
في ﴿على الجودي﴾ قصداً للمبالغة في التمكن، والاحتراس في ﴿بُعْدًا للقوم
الظالمين﴾ وهو أيضاً ذم لهم، والإيجاز وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعباً
للمعاني الجمّة ثم ذكر بقية الوجوه فارجع إليها في تفسيره البحر المحيط، وقد قال
ابن المقفع وهو من أساطين الأدباء والفصحاء: أشهد أن مثل هذا الكلام لا يستطيع
أن يأتي به بشر.

﴿قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٤٦).

﴿قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ولما كان دعاؤه بتذكير وعده مبنياً على كون كنعان من أهله، نفى تعالى أولاً كونه منهم، بقوله ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي من أهل دينك، لأن مدار الأهل هو القرابة الدينية، وقد انقطعت بالكفر، فلا علاقة بين المسلم والكافر، ثم علل عدم كونه منهم بقوله سبحانه ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أصله إنه ذو عمل غير صالح، فحذف «ذو» للمبالغة، بجعله عين عمله للمداومة عليه، ثم لما كان دعاؤه مبنياً على كون «كنعان» من أهله، ونفى ذلك عنه وحقق ببيان علته، وهو أن عمله سيء غير صالح، فلهذا أعقبه بقوله ﴿فَلَا تَسْتَلِنَ﴾ أي إذا وقفت على جليلة الحال فلا تطلب مني ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ما لا تعلم، أصواب هو أم ليس بصواب؟ عوتب عليه السلام بأن مثله في معرض الإرشاد، لا ينبغي أن يشتبه عليه أمر ولده الكافر، فيطلب من ربه نجاته ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي إني أنبهك وأنصحك، خشية أن تكون من الجاهلين، وليس في ذلك وصف له بالجهل، بل فيه تذكير وتحذير، ولذلك استعاذ نوح عليه السلام بالله أن يطلب ما لا يحق له، وأن يقع منه ما نهي عنه، كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ (٤٧).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي يا رب إني أعوذ بك أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله ولا أنه صواب، وهذه توبة منه عليه السلام ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي﴾ أي وإن لم تغفر لي ما فَرَطَ مني من السؤال ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ بقبول توبتي، وبالفضل عليّ ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ أي أكون

خاسراً بسبب ذلك، فإن الذهول عن شكر الله تعالى، لا سيما عند وصول هذه النعمة، التي هي النجاة، وهلاك الأعداء، خسران مبین، وهذا التضرع منه مثل تضرع آدم عليه السلام، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١).

﴿قِيلَ يٰ نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿قِيلَ يٰ نُوحُ﴾ أي قال الله سبحانه لنوح ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ أي انزل من السفينة سالماً من المكاره من جهتنا، وبسلام وتحية منا عليك، كما قال الله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ ومباركاً عليك في نسلك، وما يقوم به معاشك، وهذا منه تعالى إعلام وبشارة بقبول توبته، وخلاصه من الخسران ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ﴾ ناشئة ﴿مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ أي وعلى أمم هم الذين معك، سُمُوا أمماً لتشعب الأمم منهم، فالناس كلهم من نسل نوح ومن هنا سمي نوح آدم الثاني، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ أي وممن معك أمم سنمتعهم في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة والمراد بهم الكفار من ذرية من معه، وعن محمد القرظي قال: «دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة»^(٢) وعن الحسن أنه قال: «ما زال الله تعالى يأخذ لنا بسهمنا، كلما هلكت أمة خلقنا في أصلاب من ينجو بلطفه، حتى جعلنا في خير أمة أخرجت للناس»^(٣) وههنا لطيفة وهي أنه

(١) الأعراف، آية ٢٣.

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٦٤/١٢.

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن البصري.

قد تكرر في هذه الآية حرف واحد وهو الميم مرات^(١)، مع غاية الخفة، ولم تكرر الراء مثله، في قوله:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ وليس قرب قبر حرب قبر

وهذا مع ما ترى فيه من غاية الثقل، وعسر النطق.

فلله تعالى شأن التزليل ما أكثر لطائفه.

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُنْفِقِينَ ﴾.

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أي من بعض الأخبار الغيبية التي لم تشهدا ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ نوحيا إليك بواسطة الوحي، والغرض من ذكر كونها موحاة، هو لإلجاء قومه للتصديق بنبوته، وتحذيرهم مما نزل بالمكذابين ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أي مجهولة عندك وعند قومك، من قبل إيحائنا إليك، وفي ذكرهم تنبيه على أنه ﷺ لم يتعلمه، إذ لم يخالط غيرهم، وأنهم مع كثرتهم لم يسمعه كيف بواحد منهم؟ ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على مشاق الرسالة، وأذية القوم كما صبر نوح ﴿ إِنَّ الْعَذَابَ ﴾ بالظفر في الدنيا، وبالفوز في الآخرة ﴿ لِلْمُنْفِقِينَ ﴾ كما شاهده في نوح عليه السلام، فهي تسلية للنبي ﷺ وتعليل للأمر بالصبر، فكانه قيل: فاصبر فإن العاقبة للصابرين.

﴿ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾.

(١) تكررت الميم في هذه الآية خمس عشرة مرة، وبقيت في جمالها ورويقها من غير نقل، وهذا سرٌّ من أسرار دقائق الإعجاز البياني.

﴿وَالِىَ عَادٍ﴾ معطوف على قوله سبحانه ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في قصة نوح ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي واحداً منهم في النسب، كقولهم يا أخا العرب ﴿هُودًا﴾ عطف بيان لأخاهم، هو هود عليه السلام أرسل إليهم منهم، ليكون ذلك أدعى إلى اتباعه، والمزاد استمالة قوم النبي ﷺ، لأنهم يستبعدون أن واحداً منهم، يكون رسولاً إليهم، فذكر الله أن هوداً كان واحداً من قومه عاد، وأن صالحاً كان واحداً من ثمود، لإزالة ذلك الاستبعاد ﴿قَالَ﴾ هود ﴿يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي خصّوه بالعبادة، ولا تشركوا به شيئاً، وكانوا مشركين يعبدون الأصنام ﴿إِن أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم باتخاذكم الأصنام ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي تكذبون على الله تعالى، فليس له سبحانه نظير ولا شريك.

﴿يَنْقُورِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

﴿يَنْقُورِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ ﴿أَجْرًا إِن أَجْرِي﴾ أي ما أجري ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي خلقتني، فهو خالقي وهو رازقي، وإيراد اسم الموصول للتفخيم، وفيه إشارة إلى أنه عليه السلام غني عن أجرهم ومالهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي ألا تستعملون عقولكم، فتعرفوا المحق من المبطل، والصواب من الخطأ؟

﴿وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَحْرِمِينَ﴾

﴿وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك والعصيان ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والإنابة ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ أي يرسل المطر، كما في قول الشاعر:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَاباً

﴿عَلَيْكُمْ مَذَرَارًا﴾ كثير الدر، متتابعاً من غير إضرار، فمفعال للمبالغة ﴿وَبَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾ منضمة ﴿إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ أي مع قوتكم، وإنما رغبهم بكثرة المطر، وزيادة القوة، لأنهم كانوا أصحاب زرع وثمار، وقيل حبس الله عنهم القطر ثلاث سنين، فوعدهم عليه السلام كثرة الأمطار على الإيمان والتوبة ﴿وَلَا تَنُكَلُوا﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه ﴿بُحَيْرِيبَ﴾ أي مصرين على إجرامكم.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي بحجة تدل على صحة دعواك، وهذا لفرط عنادهم، وعدم اعتدادهم بما جاءهم به من المعجزات ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ أي بتاركي عبادتها ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي لقولك اعبدوا الله وحده ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إقنأط له من الإجابة والتصديق، وقد بالغوا في الإباء، فأنكروا الدليل، ثم قالوا مؤكدين لذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ ثم كرروا عدم إيمانهم بالجملة الاسمية مع زيادة الباء ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مبالغة في الضلال.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبْنَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبْنَاكَ﴾ أي ما نقول إلا قولنا اعتراك أي أصابك، يُقال: عراه إذا أصابه ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ﴾ أرادوا به قاتلهم الله تعالى الجنون، أي أنه جُنَّ بسبب إصابة الأصنام له بالأذى، والتنكير في ﴿بِسُوِّ﴾ للتقليل، كأنهم لم يبالغوا في السوء، كما ينبيء عنه نسبة ذلك إلى بعض آلهتهم دون كلها، ومعنى هذا أنه أفسد عقلك، بعض آلهتنا لسببك إيّاها، وصدك

عن عبادتها، وحطك لها عن رتبة الألوهية ﴿قَالَ﴾ هود عليه السلام مجيئاً لهم: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ﴾ على نفسي ﴿وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من هذه الأوثان والأصنام.

﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي واشهدوا أنتم بأنني بريء مما أنتم تجعلونه شريكاً لله، وهو سبحانه لم يُنزل به سلطاناً، وقد أجاب عليه السلام بهذا على مقاتلهم الشنيعة، المبيتة على اعتقاد كون آلهتهم تضرُّ وتنفع، وصرَّح بالحق، وصدَّع به، حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدرة بـ ﴿إِنِّي﴾. وأكد ذلك بأشهد الله، وأمرهم بأن يشهدوا أنفسهم به ثم أمرهم بالاجتماع مع آلهتهم جميعاً في إيصال الأذى إليه ونهاهم عن الانتظار والإمهال فقال: ﴿فَكِيدُوا فِي جَمِيعَاتِهِمْ لَا تُنْظِرُونَ﴾ إن صح كون آلهتكم مما تقدر على إضرار من يصد عن عبادتها، فإني بريء منها، فكونوا أنتم معها جميعاً وباشروا كيدي، ثم لا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك، فهذا من أعظم المعجزات، فإنه عليه السلام كان رجلاً مفرداً، بين الجَمِّ الغفير، من العتاة الغلاظ الشداد، وقد خاطبهم وحقرهم وآلهتهم، وحثهم، وهيجهم على التصدي لأسباب المعادة، فلم يقدروا على مباشرة شيء، وظهر عجزهم ظهوراً بيناً، كيف لا وقد التجأ إلى ركنٍ منيع رفيع، واعتصم بحبل متين، حيث قال:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي لا أهابكم لاعتمادي على الله، والمعنى: إنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لم تضروني، فإني متوكل على الله، واثق بكلاءته، وهو مالكي ومالككم، ثم أقام البرهان بقوله ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ نسمة تدبُّ على الأرض ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي إلا هو مالك لها، قادر عليها، أن يصرفها على ما يريد، والأخذ بالنواصي تمثيلٌ لذلك

والناصية منبت الشعر في مقدم الرأس، وسمي الشعر الذي عليه «ناصية» للمجاورة، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالذل والخضوع لآخر، قالوا ناصية فلان في يد فلان، أي إنه مطيع له منقاد إليه كالعبد الذليل، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مندرج في البرهان، وهو تمثيل لأنه تعالى مطلع على أمور العباد، مجاز لهم بالثواب والعقاب، كاف لمن اعتصم به، كمن وقف على الجادة، فحفظها ودفع ضرر قطاع الطريق عنها، فالمعنى إنه سبحانه على الحق والعدل، لا يضيع عنده معتصم، ولا يفوته ظالم.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن تتولوا والمراد فإن تستمروا على ما كنتم عليه من التولي والإعراض ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ فقد أديت ما علي من الإبلاغ والزام الحجة، فلا تفريط مني، ولا عذر لكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وعيد لهم بأن الله يهلكهم، ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا﴾ أي لا تضرونه بهلاككم شيئاً، لا ينقص ملكه، ولا يختل أمره ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ رقيب على كل شيء، فلا تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن معجزاتكم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أمرنا بالعذاب، وهو الذي نزل فيهم من الريح العقيم، وهي السموم التي تدخل في مناخرهم، وتخرج من أديبارهم، وتصرعهم على الأرض، حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية، عذبهم الله سبحانه بها سبع ليال، وثمانية أيام متتابعة ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾

وكانوا أربعة آلاف، ولا ينافي ما تقدم من أنه كان وحده، ولذا عُدَّت مواجهته للجَم الغفير معجزة له، والظاهر أن ما كان من المقابلة، إنما هو في ابتداء الدعوة، ومجيء الأمر كان بعده بكثير، وإيمان من آمن كان في البين ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِمَّا﴾ وهي الإيمان الذي أنعمنا به عليهم ورُوي هذا عن ابن عباس والحسن، والجار والمجرور متعلق بنجينا، وهو الظاهر الذي عليه كثير من المفسرين ﴿وَيَجَنَّبُهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو السموم المذكور، والغليظ صفة الريح وهو ضد الرقة، وفيه مناسبة لحال الكفرة، فإنهم كانوا غلاظاً شداداً، روي أن هوداً لما أحسَّ العذاب، اعتزل بالمؤمنين في حظيرة، فكانت الريح تمر بهم لينة باردة، والتي تمر تصيب القوم شديدة مهلكة، وهذه من معجزاته.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أنت اسم الإشارة باعتبار القبيلة، والخطاب لأمة الرسول ﷺ، كأنه قال: سيروا فانظروا إليها، والمقصود الحث على الاعتبار والاتعاظ بأحوالهم ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها، وهي الآيات التي أيد تعالى بها رسله، أو آيات وجوده وتوحيده في الأنفس والآفاق ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ أي عصوا رسولهم، ومن عصى رسولاً فكأنما عصى الكل، لأنهم اتفقوا على التوحيد ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ يعني كبارائهم الطاغين. قال الزجاج: الجبَّار هو الذي يجبر الناس على ما يريد ﴿عَنِيدٍ﴾ أي طاغ إذا ركب الخلاف والعصيان، والمعنى عصوا من دعاهم إلى الإيمان، وما ينجيهم، وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم.

﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ﴾

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي جعلت اللعنة لازمة لهم، وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة، فكانها لا تفارقهم وإن ذهبوا كل مذهب، بل تدور معهم حسبما داروا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي أتبعوا يوم القيامة أيضاً لعنة، حُذفت لدلالة الأولى عليها ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ كفروا نعمه ولم يشكروها بالإيمان ﴿أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، مع أنهم هالكون، تسجيلاً عليهم ﴿قَوْمٌ هُودٍ﴾ عطف بيان لعاد، وفائدته الإيماء إلى استحقاقهم للبعد، بما جرى بينهم وبين هود.

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا كوّنكم منها لا غيره، فإنه خلق آدم من التراب، والنطف تتولد من الدم، وهي من الأغذية، وهي حاصلة من الأرض ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ عمّركم فيها واستبقاكم مدة الحياة ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ قريب الرحمة، كقوله سبحانه ﴿إِنْ رَحْمَةُ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿مُجِيبٌ﴾ دعاء المحتاجين بفضله.

﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَهِمْ مَرِيبٌ﴾

﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ فاضلاً خيراً تقدّمك على جميعنا، ونأمل أن تكون سيداً مطاعاً ﴿قَبْلَ هَذَا﴾ أي الذي باشرته من الدعوة إلى التوحيد، وترك عبادة الآلهة، فلما سمعنا هذا القول منك، انقطع رجائنا عنك ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأوثان على جهة التوعد ﴿وَإِنَّا لَفِي

شَكِّ مَعَاتِدَعُونَا إِلَيْهِ ﴿١٠﴾ من التوحيد ﴿مُشْبِي﴾ أي موقع في الشك والريبة، وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة، وهذا مبالغة منهم في تزييف كلامه.

﴿قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١١﴾﴾

﴿قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتَ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كُنْتُ﴾ في الحقيقة ﴿عَلَى بَيْتَةٍ﴾ حجة ظاهرة ﴿مِنْ رَبِّي﴾ أي مالكي ومتولي أمري ﴿وَءَاتَنِي مِنْهُ﴾ أي من جهته ﴿رَحْمَةً﴾ أي نبوة، وهذه الأمور وإن كانت متحققة، لكنها صُدِّرت بكلمة الشك، اعتباراً لحال المخاطبين، لاستنزاهم عن المكابرة ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي﴾ فمن ينجيني ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي من عذابه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ أي إن عصيت أمره في تبليغ الرسالة، والمنع عن الشرك به تعالى ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ أي لا تفيدونني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ غير أن تجعلوني خاسراً بإبطال أعمالي وتعريض لسخط الله.

﴿وَيَنْقُورِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَيَنْقُورِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي هذه الناقة معجزتي لكم وعلامة على صدقي، فدعوها تأكل وتشرب في أرض الله، ولا تنالوها بأذى فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ عاجل، قريب النزول إن عقرتموها.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٣﴾﴾

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي قتلوها ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا﴾ عيشوا ﴿فِي

دَارِكُمْ ﴿ في منازلكم ﴿ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ﴿ الأربعاء، والخميس، والجمعة، ثم يصحبكم العذاب فتهلكون ﴿ ذَلِكَ ﴿ إشارة إلى العذاب ﴿ وَعَذُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿ أي غير مكذوب فيه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا صَلَاحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴿ عذابنا ﴿ بَنَيْنَا صَلَاحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿ وهم أربعة آلاف ﴿ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴿ أي بسببها ﴿ وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴿ أي ونجيناهم من ذلة ذلك اليوم، وهو الهلاك بالصيحة، وإنما سمي الله تعالى ذلك العذاب خزيًا لأنها فضيحة باقية يعتبر بها الأجيال ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴿ الخطاب للرسول ﷺ ﴿ هُوَ الْقَوِيُّ ﴿ القادر على تنجية أوليائه ﴿ الْعَزِيزُ ﴿ الغالب بإهلاك أعدائه .

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنُودًا ﴿١٧﴾ كَانَتْ يَغْنَوُهَا إِلَّا أَنْ تَمُودًا كَفَرُوا زُرَّهْمُ إِلَّا بَعْدَ إِشْمُودٍ ﴿١٨﴾ .

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنُودًا ﴿ أي خامدين ميتين لا يتحركون .

﴿ كَانَتْ يَغْنَوُهَا ﴿ أي كأنهم لم يقيموا ﴿ فِيهَا ﴿ في دارهم ﴿ إِلَّا أَنْ تَمُودًا ﴿ وضع موضع المضمرة لزيادة البيان ﴿ كَفَرُوا زُرَّهْمُ ﴿ صرح بكفرهم مع كونه معلوماً مما سبق تقيحاً لحالهم، وتعليلاً لاستحقاقهم لقوله: ﴿ إِلَّا بَعْدَ إِشْمُودٍ ﴿ أي هلاكاً لهم .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيفٍ ﴿١٩﴾ .

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ لفظ رسلنا جمع وأقله ثلاثة أي جاءت الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط، جاؤوا إلى إبراهيم بالبشارة، وإنما أسند المجيء دون الإرسال، لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه، بل إلى قوم لوط، وإنما جاؤوه لداعية البشري ﴿يَا بَشَرُ﴾ أي بالبشارة بالولد من سارة بإسحق، ويعقوب من بعده، لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي سلّمنا عليك سلاماً ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي سلام عليكم، وهو أكمل من السلام عليكم، لأن التنكير يفيد الكمال والمبالغة، كأنه قال: سلام كامل تام عليكم^(١) ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ يَعِجْلَ حَنِيزٍ﴾ فما أبطأ إبراهيم عليه السلام عن مجيئه بالطعام وهو عجل مشوي، قيل: مكث إبراهيم عليه السلام خمسة عشر يوماً لا يأتيه ضيف، فاغتم لذلك، ثم جاءه الملائكة فرأى أضيافاً على صورة الغلمان، في غاية الحسن والجمال، لم ير مثلهم، وكان من دأبه إكرام الضيف، ولذا عجل القرى، وهو العجل ولد البقرة، والحنيذ المشوي في أخدود، وفي مجيئه بالعجل كله مع أنهم بحسب الظاهر يكفيهم بعضه، دليل على أنه من الأدب أن يحضر الإنسان للضيف أكثر مما يأكل، وهل كان مهياً قبل مجيئهم، أو أنه هيء بعد أن جاؤوا؟ قيل بالأول لدلالة السرعة بالإتيان، والظاهر أنه هيأه لهم بعد مجيئهم، لأنه أزيد في العناية، وأبلغ في الإكرام.

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي لا يمدّون إليه أيديهم للأكل

(١) ردّ التحية عليهم بأحسن من تحيتهم، لأنه جاء بها جملة اسمية، وهي تدل على الثبوت والاستمرار.

﴿نَعَكْرَهُمْ﴾ أي أنكر ذلك منهم، وخاف أن يريدوا به مكروهاً، لأنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف، ولم يأكل من طعامهم، ظنوا أنه لم يجيء بخير ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ﴾ أي أحسَّ من جہتهم الخوف والفرع، أو أضمر في نفسه ﴿خِيفَةً﴾ أي خوفاً ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ﴾ أي قالت الملائكة: لا تخف فنحن ملائكة ربك، أرسلنا الله لإهلاك قوم لوط المجرمين وما قالوه بمجرد ما رأوا منه مخايل الخوف، بل بعد إظهاره لهم، كما في سورة الحجر: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ ولم يذكر ههنا اكتفاء بذلك.

﴿وَأَمَرَأْتُهُ قَائِمَةً فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧١).

﴿وَأَمَرَأْتُهُ﴾ سارة بنت هاران وهي بنت عمه ﴿قَائِمَةً﴾ وراء الستر، تسمع محاورتهم، أو على رؤوسهم للخدمة وهو مروي عن مجاهد، وكانت نساؤهم لا تحتجب، لا سيما العجائز ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سروراً بهلاك أهل الفساد ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ﴾ أي عقبنا سرورها بسرور أتم منه، على السنة رسلنا، لأن النساء أعظم سروراً للولد من الرجال ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ أي بشروها بإسحاق ولداً منها، ومن بعده مولود يسمى يعقوب، من ولدها إسحق، تعيش إلى أن تراه، وتوجيه البشارة إليها مع أن الأصل في ذلك إبراهيم، لكونها كانت عقيمة حريصة على الولد، وكانت قد تمتته حينما وُلد لها جرجر إسماعيل، وهي كانت محرومة الولد بسبب العقم والشيخوخة.

﴿قَالَتْ يَنْوِلْنِي أَلْدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧٢).

﴿قَالَتْ يَنْوِلْنِي﴾ أي يا عجبا ﴿أَلْدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾؟ بنت تسع وتسعين سنة ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ أي زوجي ﴿شَيْخًا﴾ أي شيخ هرم ابن مائة وعشرين سنة؟

أي كيف ألد وكلانا على حالة منافية لذلك؟ أنا امرأة عقيم مسنة، وزوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً، وإنما قدمت بيان حالها، لأنها أعجب وأغرب، إذ ربما يولد للشيوخ، وأما العجائز فداوهرن العقام ﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما ذكر من حصول الولد من هرمين ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي أمر غريب بالنسبة إلى سنة الله، المسلوكة بين عباده، ومقصدها استعظام نعمة الله عليها في ضمن الاستعجاب، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه، فإنها مؤمنة زوجة خليل الرحمن.

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي أتعجبين من قدرته، وحكمته، وتكوينه؟ أنكروا عليها تعجبها لأنها ناشئة في بيت النبوة، ومهبط الوحي ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ﴾ أي رحمكم الله برحمته الجليلة، التي وسعت كل شيء ﴿وَبَرَكْنَاهُ﴾ أي خيراته النامية الدائمة ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي عليكم يا أهل بيت النبوة «بيت إبراهيم» عليه السلام، واستدل بالآية على دخول الزوجة في أهل البيت، واستدل بالآية على كراهة الزيادة في التحية على «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ أي إنه سبحانه محمود ممجّد، يفعل ما يستوجب الحمد من عباده، ففعل بمعنى مفعول أي محمود ﴿مَجِيدٌ﴾ أي كثير الخير والإحسان.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي ذهب عنه الخوف، واطمأن قلبه بعرفانهم وسبب مجيئهم، والرَّوْعُ: الفزع والخوف ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بالولد، وجواب لما محذوف تقديره أقبل ﴿يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي يجادل

رسلنا في شأنهم، ومجادلته إياهم قوله ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ كما قصه الله سبحانه في سورة العنكبوت ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وعُدَّ قوله مجادلة، لأن ماله كيف تُهلك قرية فيها من هو مؤمن، غير مستحق للعذاب؟ ولذا أجابه بقولهم: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ وكان لوط على شريعة إبراهيم، وقومُه مكلفون بها.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ أي غير عجول على الانتقام، كثير التأسف على الناس، راجع إلى الله بالتوبة والإنابة، والمقصود من ذلك، بيان الحامل له على المجادلة، وهو رقة قلبه، وفرط ترحمه، رجاء أن يدفع الله عنهم العذاب، ويُمهلوا لعلهم يُحدثون التوبة، فقالت الملائكة

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَايِمٌ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ﴾.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي أعرض عن هذا الجدل، فقد جاء أمر ربك بإيصال هذا العذاب، فلا سبيل إلى دفعه ﴿وَلَا يَمْنَعُ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ﴾ أي لا يُرفع لا بجدال، ولا بدعاء، ولا بغيرهما.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ ودخلوا عليه في صُور غلمانٍ مُرْدٍ، حِسان الوجوه، فلذلك ﴿سَيِّئًا بِهِمْ﴾ أي ساءه مجيئهم، لأنهم جاؤوا في صورة شبَّان، فظن أنهم من البشر، فخاف عليهم أن يقصدهم قومه بسوء، فيعجز عن مدافعتهم، روي أنهم أتوا لوطاً نصف النهار، وهو يعمل في أرض له، فاستضافوه فانطلق بهم، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وما

أمرهم؟ قال: أشهد بالله أنها شرُّ قرية في الأرض، فمضوا معه حتى دخلوا منزله، ولم يعلم بذلك أحد، فخرجت امرأته فأخبرت به قومها، وقالت إن في بيت لوط رجالاً، ما رأيت أحسن وجهاً، ولا أنظف ثياباً، ولا أطيّب رائحة منهم، فأسرعوا نحوهم يطلبون الفجور بهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي طاقةً وجهداً، فالمعنى: ضاق صدره بمجيئهم خوفاً عليهم، وهو كناية عن شدة الانقباض، للعجز عن مدافعة المكروه عنهم، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، من عَصَبه إذا شدّه أي يومٌ شديد الهول والمكروه.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوِرُ هُنَا لَأَنْ يَبْقَى هُنَا أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ﴾ أي لوطاً لما علموا بهم وهو في بيته مع أضيافه ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يسرعون لطلب الفاحشة بالضيوف، كان بعضهم يدفع بعضاً ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل وقت مجيئهم، ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ فاحشة اللواط، جهروا بها، ولم يستحيوا منها، حتى جاؤوا مسرعين لها مجاهرين، والمراد من السيئات إتيان الذكور، إلا أنها جُمعت باعتبار تكررها، أو باعتبار فاعلها ﴿قَالَ يَنْفَوِرُ هُنَا لَأَنْ يَبْقَى هُنَا أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فدى بهنّ أضيافه كرمًا وحمية، والمعنى: هؤلاء بناتي تزوجوهن، وكانوا يطلبوهن قبل فلا يجيبهن لخبثهم، وعدم كفاءتهم، وقيل: المراد بالبنات نساؤهم، فإن كل نبي أبٌ لأمته، من حيث الشفقة والتربية، فكان كالأب لهن، وهذا القول هو الصحيح، وأشبهه بالصواب^(١) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الفواحش ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي لا تفضحوني ﴿فِي ضَيْفِي﴾ أي في أضيافي، فإن إخزاء ضيف

(١) قال الحافظ ابن كثير: يرشدهم إلى نساتهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، اهـ.

الرجل إخزاء له، والضيفُ مصدر، ولذا وُصف به المثنى والجمع ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾؟ أي أليس فيكم رجل عاقل، يهتدي إلى الحق ويرعوي عن الباطل القبيح؟!.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ (٧٩).

﴿قَالُوا﴾ معرضين عما نصحهم به، من الأمر بتقوى الله، والنهي عن إخراجهن ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي لا حاجة لنا ولا غرض في بناتك، وعَنَوْا به النكاح وقضاء الشهوة، أي لا رغبة لنا في نكاحهن، وإنما رغبنا في نكاح الشبان ﴿وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ يعنون اللواط وإتيان الرجال، ولما يش من ارعوائهم عما هم عليه من الفجاء والضلال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٨٠).

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ أي لو قويتُ بنفسي على دفعكم، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي لفعلت بكم ما فعلتُ ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي أو أويتُ إلى ناصرٍ عزيز، أتمنع به عنكم، شبهه بركن الجبل في شدته، والركن في الأصل الناحية من البيت أو الجبل، وفي الحديث عن أبي هريرة أنه عليه السلام قال: «رحم الله تعالى أخي لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»^(١) يعني عليه السلام به الله عز وجل، فإنه لا ركن أشد منه. وجاء في الخبر أنه سبحانه لم يبعث بعد لوط نبياً إلا في منعة من عشيرته، وروي أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه، وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوّروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب.

(١) الحديث أخرجه البخاري ٤١١/٦ في الأنبياء، ومسلم رقم ١٥١ في الإيمان.

﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ ﴿٨١﴾

﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ بضرر ولا مكروه، فافتح لهم الباب ودعنا وإياهم، فدخلوا فضرب جبريل عليه السلام وجوههم، فطمس بذلك أعينهم وأعماهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ (١) الآية ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ سريت الليل إذا قطعت، وأسريت لغة الحجاز، وقد جاء سرى وأسرى وهما بمعنى واحد، ولا يقال في النهار إلا سار، والمعنى: سر ليلاً بأهلك ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ بطائفة من الليل والقطعة: الطائفة من الشيء والجمع القطع مثل سدره وسدر ﴿وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا ينظر أحد منكم إلى ورائه، وإنما نهوا عن ذلك، لئلا يروا ما ينزل بقومهم فيرقوا لهم ﴿إِلَّا أَمْرًا نَّكَ﴾ استثناء من قوله سبحانه ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ من العذاب فقال لوط متى يكون هذا العذاب قالوا ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ أي موعد عذابهم وهلاكهم الصبح، فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ تأكيد للتعليل، فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع، للتباعد عن موقع العذاب، وإنما جعل ميقات عذابهم الصبح، لأنه وقت الدعة والراحة، فيكون حلول العذاب حينئذ أفزع وأنسب، بكونه عبرة للناظرين.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾ ﴿٨٢﴾ مَسْؤَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

(١) سورة القمر، آية: ٣٧.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي وقت عذابنا وموعده ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ ضمير عاليها وسافلها لمدائن قوم لوط، المعلومة من السياق، وهي المؤتفكات وهي خمس مدائن، أعظمها سدوم وهي القرية التي كان فيها لوط عليه السلام، روي أن لوطاً سرى بمن معه قبل الفجر، وطوى الله تعالى له الأرض، حتى وصل إلى إبراهيم عليه السلام، ثم إن جبريل عليه السلام اقتلع المدائن فرفعها، ثم قلبها بمن فيها، وما أعظم حكمة الله تعالى في هذا القلب، الذي هو أشبه شيء بما كانوا عليه من إتيان الأعجاز، والإعراض عما تقتضيه الطباع السليمة، وإسناد الجعل إلى الله تعالى إسناداً مجازي، والنكتة في ذلك تعظيم الأمر وتهويله، ويقوي ذلك ضمير العظمة ﴿جَعَلْنَا﴾ وعلى هذا الطراز قوله سبحانه ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي على المدائن وعلى أهلها المجرمين ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر، لقوله تعالى: ﴿حِجَارَةٌ مِّن طِينٍ﴾^(١) ﴿مَنْضُودٍ﴾ أي متتابع في النزول نُضِد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً، كقطر الأمطار.

﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلّمة للعذاب باسم صاحبها باسم من يُرمى بها ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه التي لا يملكها غيره سبحانه، وعن مقاتل المعنى: أنها جاءت من عند ربك ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي الحجارة الموصوفة ﴿مِنَ الظَّلِيلِينَ﴾ من كل ظالم ﴿يَبْعِدُونَ﴾ فإنهم بسبب الظلم مستحقون لها، وفيه وعيد لأهل الظلم كافة، وعن ابن عباس أن المعنى: وما عقوبتهم ممن يعمل عملهم يبعيد، وذهب أبو حيان إلى أن المراد من الظالمين ظالمو مكة، وكانت قريبة إليهم يمرون عليها في أسفارهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لَّكُمْ لَمْرُؤٌ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢).

(١) أشار إلى قوله تعالى في سورة الذاريات ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾.

(٢) سورة الصافات آية ١٣٨.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين ﴿ أَخَاهُ ﴾ من النسب ﴿ شُعَيْبًا ﴾ عليه السلام معطوفة، على قوله سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ أمرهم بالتوحيد أولاً، ثم قال: ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ ﴾ أي المكيال بالمكيال ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ أي الموزون بالميزان، قدّم أمر التوحيد، على النهي عما اعتادوه من البخس، المنافي للعدل، لأن أمر التوحيد ملاك الأمر، والنقص على وجهين: أحدهما: أن يكون الإيفاء من قبلهم فينقصون من قدره، والآخر: أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من الواجب ﴿ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ بسعة تغنيكم عن نقص الكيل والميزان^(١) ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إن لم تنتهوا عن ذلك ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ لا يخلص منه أحد منكم، والمراد به عذاب الاستئصال، أو عذاب يوم القيامة، وتوصيف اليوم بالإحاطة وهي صفة العذاب، تدلُّ على إحاطة كل ما فيه من العذاب، فهو أبلغ من إحاطة العذاب.

﴿ وَيَتَقَوَّمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

﴿ وَيَتَقَوَّمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ صرح بالأمر بالإيفاء،

(١) قال القرطبي ٨٥/٩: ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ أي في سعة من الرزق، وكثرة من النعم ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ أي أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يوم مهلك، لا يفلت منه أحد، والمراد به عذاب يوم القيامة.

بعد النهي عن ضده مبالغةً، وتنبهاً على أنه لا يكفيهم الكفُّ، بل يلزمهم السعيُّ في الإيفاء بالقسط والعدل، والتسوية من غير زيادة ونقصان ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، فإنه أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَوِفِ الْأَرْضَ مُفْسِدِينَ﴾ فإن العتوَّ يعمُّ تنقيص الحقوق، وغيره من أنواع الفساد، والتصريح بهذا النهي بعدما علّم في ضمن النهي، للاهتمام بشأنه، والترغيب لإيفاء الحقوق لأصحابها.

﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (٨٦).

﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ﴾ ما أبقاه الله لكم من الحلال، بعد التنزه عما حرم عليكم ﴿خَيْرَ لَكُمْ﴾ مما تجمعون بالبخس والتطيف، فإن ذلك هباءٌ منثور، بل شر محض، وإن زعمتم أنَّ فيه خيراً، لأن الناس إذا عرفوا إنساناً بالصدق والأمانة، اعتمدوا عليه، ورجعوا إليه، فيفتح له بابُ الرزق، وإذا عرفوه بالخيانة، انصرفوا عنه، فتضيق أبواب الرزق عليه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بشرط أن تؤمنوا، فإن خيريتها مشروط بالإيمان، أو إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ عليكم أعمالكم، وأجازيكم بها، وإنما أنا ناصح مبلغ، وقد أعدرت حين أنذرت.

﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا دَشَتُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧).

﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾؟ من الأصنام، أجابوا بذلك لأنه عليه السلام أمرهم بعبادة الله، ونهاهم عن عبادة الأصنام وغرضهم منه إنكار الوحي، ولكنهم بالغوا في ذلك، وزعموا أن ذلك من الوسوسة والجنون، وقالوا بطريق الاستهزاء ﴿أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ﴾

وقد كان عليه السلام كثير الصلاة، وكانوا إذا رأوه يصلي، يتغامزون ويتصاحكون، وغرضهم من ذلك التعريضُ بِرِكَاکَةِ رأيه - وحاشاه - والاستهزاء به وبآرائه ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا تُحْسِنُونَ﴾ أي وأن نترك فعل ما نشاء في أموالنا؟ أجابوا به أمره بإيفاء الحقوق، وكلمة (أو) بمعنى الواو ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أي إنك لأنت العاقل المتصف بالحلم والرشاد؟ وهذا أسلوب تهكم وسخرية، كأنهم يقولون: ما أحلمك وأرشدك!! كقول خزنة النار ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(١) وكقول الساخر المتهكم بالبخیل الشحيح: لو أبصرك حاتم لتعلم منك الجود والكرم!!.

﴿قَالَ يَقْوِمُ رَبُّكَ إِن كُنتَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ لَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَضَكُم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

﴿قَالَ يَقْوِمُ رَبُّكَ إِن كُنتَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجة واضحة، وبقين ثابت، بما أعطاني الله من النبوة والعلم ﴿مِّن رَّبِّي﴾ من مالك أمري، قاله رداً على مقالتهن، في أنَّ أمره ونهيه غير مستند إلى سند ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ من لدنه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي وأعطاني الله المالَ الحلال، وجواب الشرط محذوف تقديره: فهل يسع لي مع هذا الإنعام أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه؟ ولم يتعرض عليه السلام صريحاً لرد قولهم، المتضمن لرميه - وحاشاه - بالوسوسة، والجنون، والسفه، إيذاناً بأن ذلك مما لا يستحق جواباً، لظهور بطلانه ﴿وَمَا أُرِيدُ﴾ بمنعي إياكم عما أنهاكم عنه، من البخس والتطفيف ﴿أَنْ أَمْلِكَ لَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَضَكُم عَنْهُ﴾ أي وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه، لأستبد به دونكم، فلو كان صواباً لآثرته، ولم أعرض عنه فضلاً عن

(١) سورة الدخان، آية: ٤٩.

أن أنهى عنه، ﴿إِنْ أَرِيدُ﴾ أي ما أريد بما أبشره من الأمر والنهي ﴿إِلَّا أَصْلَحَ﴾ أي إلا أن أصلحكم، بأمرى بالمعروف، ونهني عن المنكر ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي مقدار ما استطعته من الإصلاح، وفيه تنبيه على أن العاقل، يجب أن يراعي في كل ما يأتيه، أحد حقوق ثلاثة: أعلاها حقوق الله، وثانيها: حق النفس، وثالثها: حق الناس ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وما توفيقى لإصابة الحق والصواب إلا بهداية الله ومعونته ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فإنه القادر المتمكن من كل شيء، وما عداه عاجز في حد ذاته، بل ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محض التوحيد ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد، وهو أيضاً يفيد الحصر، وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق من الله تعالى، والاستعانة به في مجامع أمره، والإقبال عليه بكليته، وحسم أطماع الكفار، وإظهار عدم المبالاة بمعاداتهم، وتهديدهم بالرجوع إلى الله للجزاء.

﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾.

﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسبنكم ﴿شِقَاقِي﴾ أي معاداتي أي لا يكسبنكم معاداتكم إياي ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من الرجة والصيحة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ أي وما ديار الظالمين من قوم لوط بمكان بعيد، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم، فاعتبروا بهم، وإنما غيّر أسلوب التحذير، ولم يصرح بما أصابهم، بل اكتفى بذكر قريبهم، إيذاناً بأن ذلك مغني عن ذكره لشهرته، ولما أُنذره عاقبة صنيعهم، عقبه بالحمل على الاستغفار، والتوبة طمعاً في ارجوائهم فقال:

﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنْ رِئِيَ رَجِيمٌ وَدُودٌ﴾.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ﴾ عظيم الرحمة للتائبين ﴿وَوَدُّ﴾ أي يعامل باللطف والإحسان، والودود: البليغ المودة بمن يحبّه، وهذا تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة، وحثّ عليهما، فمن كان رحيماً بالعباد، يحنو عليهم ويعطف، ويعاملهم باللطف والإحسان، وجب عليهم حبّه وطاعته.

﴿قَالُوا يَنْشُعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾

﴿قَالُوا يَنْشُعِبُ مَا نَفَقَهُ﴾ أي ما نفهم ﴿كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾ كوجوب التوحيد، والاعتماد على الله، والخوف من عذابه، قالوه استهزاء بكلامه واحتقاراً به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول؟ وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق، على أحسن وجه، وضائق عليهم الحيل، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلاً، سوى الصدود عن منهاج الحق، والسلوك إلى سبيل الشقاوة، كما هو ديدنُ المحجوج، فجعلوا كلامه المشتمل على الحكم والمواعظ، من قبل ما لا يفهم، وإلا فكيف لا يفهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، ثم هو خطيب الأنبياء^(١)، كما ورد في الحديث الشريف ﴿وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا قوة لك فتمنع منا، إن أردنا بك سوءاً ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ قومك وعزتهم عندنا، ورهط الرجل: قبيلته الأقربون، والظاهر أن مرادهم لولا مراعاة جانب عشيرتك ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي لقتلناك رمياً بالأحجار ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾ أي ولست عندنا بمحترم ولا مكرم، فتمنعنا عزتك عن الرجم، وإنما نكف عن الرجم، للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا.

(١) ذكره الحافظ ابن كثير نقلاً عن الثوري ٤٧٢/٢ قال: كان يقال له خطيب الأنبياء.

﴿ قَالَ يَنْقُورِ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ﴾
 إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٦﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ في جوابهم ﴿ يَنْقُورِ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾؟ أي أقومي أهيبُ عندكم من الله عزَّ وجلَّ؟ أي أتركوني لأجل قومي، ومراعاة لجانبهم، ولا تتركوني إعظماً لجانب الربِّ تبارك وتعالى؟ وهو تكرير للتوبيخ والتفريع ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ ﴾ أي جعلتموه، والضميرُ عائد إلى الله تعالى، وهو الذي ذهب إليه جمهور المفسرين ﴿ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ﴾ أي جعلتم الله كالمنسي المنبوذ وراء الظهر، بإسراككم به، والاستهانة برسوله، لا تطيعونه ولا تعظمونه؟ ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أي بما تعملون من الأعمال السيئة، التي من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه تعالى، وهو تهديدٌ عظيم لأولئك الكفرة الفجرة.

﴿ وَيَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ ﴿٩٧﴾ .

﴿ وَيَنْقُورِ ﴾ ولما رأى إصرارهم على الكفر، قال على طريق التهديد لهم: ﴿ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ على استطاعتكم ﴿ إِنِّي عَمِلْتُ ﴾ على مكانتي ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ وَصَفَ العذاب بالإخزاء تعريضاً بما أوعده به من الرجم، فإنه مع كونه عذاباً فيه خزي وإهانة ﴿ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ﴾ عطف على من يأتيه والمراد القصد إلى الرد على القوم في العزم على تعذيبه، والتصميم على تكذيبه، فكأنه قيل: سيظهر لكم من المعذب أنتم أم نحن؟ ومن الكاذب في دعواه أنا أم أنتم؟ ﴿ وَأَرْتَقِبُوا ﴾ أي انتظروا ما أقول لكم من حلول ما أعدكم به وظهور صدقه ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ أي منتظر ما يحلُّ بكم من العذاب!.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ حَشِيبٌ ﴿١١﴾ كَانُوا يَفْنَوْنَ فِيهَا إِلَّا
بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ
الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ حَشِيبٌ ﴿١١﴾ كَانُوا يَفْنَوْنَ فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ
ثَمُودُ ﴾ أي ولما جاء أمرنا بالعذاب بآهلاكهم، نجينا شعيباً والمؤمنين
معه، بسبب رحمة عظيمة منا لهم، وأخذ أولئك الظالمين صيحة العذاب،
فأصبحوا هلكى خامدين لا حراك بهم، إلا بعداً لهم كما بعدت ثمود،
والعدول عن الإضمار، ليكون أدل على طغيانهم، وليكون أنسب بمن شبهه
هلاكلهم بهلاكهم، لأنهما أهلكنا بنوع من العذاب وهو الصيحة، غير أن
صيححتهم كانت من تحتهم، وصيحة مدنين كانت من فوقهم^(١)، رواه الكلبي
عن ابن عباس.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ بالمعجزات الواضحات، وهي الآيات
التسع ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ هي العصا، والإفراد بالذكر، لإظهار شرفها،
لكونها أبهرها وأشهرها.

﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ تخصيص الملأ بالذكر، مع عموم رسالة

(١) قال الحافظ ابن كثير ٤٧٤/٢: ذكر تعالى في هذه الآية أنهم أتتهم الصيحة، وفي
الأعراف الرجة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم
عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه. وهذه من الأسرار
الدقيقة، والله الحمد والمِنَّة.

موسى عليه السلام للقوم كافة، لأصالتهم في تدبير الأمور، واتباع الغير لهم ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ فاتبعوا أمره بالكفر بموسى، وعصوا أمر الله ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي بذى رشد، وإنما هو غي محض، وضلال صريح أي وما أمر فرعون بصالح حميد العاقبة.

﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْزُودُ﴾.

﴿يَقْدُمُ﴾ كينصُر بمعنى يتقدم ﴿قَوْمُهُ﴾ جميعاً من الملائكة وغيرهم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كما كان قدوة لهم في الضلال والإضلال، يتقدمهم إلى النار ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي يوردهم، وإيثار صيغة الماضي، للدلالة على تحقق الوقوع، شبه فرعون بالفارط أي الوارد الذي يتقدم الواردة إلى الماء، وأتباعه بالواردة، والنار بالماء الذي يردونه، ثم قال: ﴿وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْزُودُ﴾ أي بشس المورد الذي وردوه، فإنه يراد لتبريد الأكباد، وتسكين العطش، والنار بالضد، والآية كالدليل على قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فإن هذه عاقبة من لم يكن في أمره رشد.

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَتَسَّ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

﴿وَأَتَّبِعُوا﴾ أي الملائكة الذين اتبعوا أمر فرعون ﴿فِي هَذِهِ﴾ في الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ عزيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الأمم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أيضاً يلعنهم أهل الموقف قاطبة، فهي تابعة لهم حيثما ساروا ﴿يَتَسَّ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ بشس العون المعان، وأصل الرfid ما يضاف إلى غيره ليمده،^(١)

(١) قال الزجاج: كل شيء جعلته عوناً لشيء ومكداً له فقد رفدته، والمعنى: بشس العون المعان رفدهم وهو اللعنة في الدارين، وذلك أن اللعنة في الدنيا مدد للعذاب ورفد له، وقد رفدت باللعنة في الآخرة، فكانت عوناً ومكداً. اهـ.

والمخصوص بالذم محذوف، أي رفدهم وهو اللعنة الدائمة في الدارين ويكون الرشد بمعنى العطية، كما يكون بمعنى العون، وفسره هنا غير واحد بالعطاء، وجاء تفسيره بالعون في صحيح البخاري، وتسمية اللعنة عوناً من باب الاستعارة التهكمية، وأما كونها معاناً، فلأنها أُرِفِدَتْ في الآخرة بلعنة أخرى.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قصَّ تعالى من أنباء الأمم، والخطاب لرسول الله ﷺ ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى ﴾ المهلكة بما جتته أيدي أهلها ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أي نخبرك عنها بطريق الوحي ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من تلك القرى ﴿ قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ أي عامرٌ باق كالزرع القائم، ومنها خراب دمار مندثر كالزرع المحصود، شبه ما بقي منها آثاره كالحيطان بلا سقوف، بالزرع القائم، وما عفا ومُحِيَ أثره وبطل، بالحصيد الذي قُطِع ودُرس.

﴿ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيهٌ ﴾ .

﴿ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ ﴾ يأن أهلكناهم ﴿ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف ما يوجبها ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ﴾ فما نفعتهم، ولا قدرت أن تدفع عنهم ﴿ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي شيئاً من الإغناء ﴿ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي حين مجيء عذابه ﴿ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيهٌ ﴾ أي غير إهلاك وتخسير، فإنهم إنما هلكوا بسبب عبادتهم لها، والتنبية: الإهلاك، وفي القاموس التَّابُّ، والتنبية: النقص والخسار.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنْكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ أي مثل ذلك الأخذ الأليم، والإهلاك الشديد، الذي مرَّ بيانه عقاب ربك ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي إذا أهلك أهلها وإنما أسند إليها للإشعار بسريان أثرها إليها، ولتكون عبرة لكل ظالم ﴿وَهِيَ ظَلِيمَةٌ﴾ حالٌّ من القرى، وفائدتها الإشعار بأنهم أخذوا لظلمهم، وإنذار كل ظالم، ظلم نفسه أو غيره، من وخامة العاقبة ﴿إِنَّا أَخَذُهُ بِالْأَيْمِ﴾ وجيع ﴿شَدِيدٌ﴾ لا يرجى منه الخلاص، وهو مبالغة في التهديد والتحذير، عن أبي موسى الأشعري قال: قال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية»^(١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في أخذه تعالى للأمم المهلكة أو قصصهم ﴿لَآيَةً﴾ أي عبرة وموعظة ﴿لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ يعتبر بها العاقل لعلمه بأن ما حاق بهم، أنموذج مما أعدَّ الله للمجرمين، فإن من أنكر الآخرة، جعل تلك الوقائع لأسباب فلكية، لا لذنوب المهلكين ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى القيامة وعذاب الآخرة، دلَّ عليه ﴿يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أي يُجمع له الناس للحساب والجزاء، والتعبير للدلالة على ثبات الجمع لليوم، وأنه من شأنه لا محالة، وأن الناس لا ينفكون عنه ﴿وَذَلِكَ﴾ أي يوم القيامة ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ مشهود فيه، يشهده أهل السماوات والأرضين، لا يغيب عنه أحد، ولم يذكر المشهود تهويلاً وتعظيماً.

﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ﴾ أي اليوم الموعود بالجمع والشهود ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي إلا لانتهاة مدة معدودة متناهية، هي مدة انتهاء الدنيا.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣٥٤/٨ ومسلم رقم ٢٥٨٣ في البر والآداب والترمذي رقم ٣١٠٩ في التفسير.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي حين يأتي ذلك اليوم الموعود ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ﴾ أي لا تتكلم نفس بما ينفع وينجي، من جواب أو شفاعة ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي إلا بإذن الله، كقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ ﴿فَمِنْهُمْ﴾ الضمير لأهل الموقف، وإن لم يذكر لأنه معلوم مدلول عليه بقوله ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ﴾ ﴿شَقِيٌّ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد ﴿وَسَعِيدٌ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ أي سبقت لهم الشقاوة وهم الكفار الفُجَّار ﴿فَفِي النَّارِ﴾ مستقرون فيها ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفير إخراج النفس، والشهيق رُده، والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم، وتشبيه صراخهم بأصوات الحمير^(١).

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا بشين فيها ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي ما كاشين في جهنم أبداً على الدوام ما دامت السماوات والأرض، والنصوص دالة على تأييد دوامهم، والآية للتعبير عن التأييد، والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه، على منهاج قول العرب ما لاح كوكب، وما اختلف الليل

(١) المراد تشبيه أصوات أهل النار بأصوات الحمير، فكما أن الحمير لها أصوات منكرة ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ كذلك الأشقياء لهم أصوات منكرة في جهنم، يحصل منها الزفير والشهيق، الذي يشبه أصوات البغال والحمير.

والنهار، وغير ذلك، وقيل المراد سماوات الجحيم وأرضها ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الخلود في النار، لأن بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها، كما نطقت به الأخبار، وقيل: المعنى أنهم مستقرون في النار في جميع الأزمنة إلا زمان مشيئته تعالى لعدم قرارهم فيها، وفائدة الاستثناء دفع توهم كون الخلود أمراً واجباً عليه تعالى، كما ذهب إليه المعتزلة ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي إن ربك يا محمد يفعل ما يريد، من تخليد البعض كالكفار، وإخراج البعض كالفساق، من غير اعتراض عليه، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وجاءت صيغة فَعَّالٌ للمبالغة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوفٍ﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي وأما السعداء الأبرار فإنهم مستقرون في الجنة، ماكنون فيها على الدوام، ما دامت سماوات الجنة وأرض الجنة، حسب مشيئته تعالى، وقد شاء تبارك وتعالى لهم الخلود والدوام، وأعدَّ لعباده المؤمنين الصالحين، من النعيم الروحاني، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهذا قال عقيبه ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوفٍ﴾ أي غير مقطوع، فيعلم منه أن الاستثناء ليس للدلالة على الانقطاع، بل للدلالة على ترادف نعيم ورضوان من الله تعالى.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَؤُلَاءَ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُونَ بِمَا نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَقْصُوفٍ﴾.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَؤُلَاءَ﴾ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال ﴿مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ﴾ أي هم

وَأَبَاؤُهُمْ سِوَاءٌ فِي الشُّرْكِ وَالضَّلَالِ، فَهَمَّ عَلَى الْبَاطِلِ وَالتَّقْلِيدِ الْأَعْمَى لِلآبَاءِ وَمَعْنَى ﴿كَمَا يَغْتَابُ﴾ كَمَا كَانَ يَعْبُدُ، فَحُذِفَ لِدَلَالَةِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ، وَفِيهِ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ عَادَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ لَهُمْ ﴿وَأَنَا لَمُوقُوهُمْ﴾ يَغْنِي هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةَ ﴿نَصِيبُهُمْ﴾ أَيَّ حَظَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ كَأَبَائِهِمْ، أَوْ مِنَ الرِّزْقِ فَيَكُونُ عَذْرًا لِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ مَعَ قِيَامِ مَا يُوْجِبُهُ، وَفِي هَذَا مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى مُزِيدِ فَضْلِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ مَا لَا يَخْفَى، حَيْثُ لَمْ يَقْطَعْ رِزْقَهُمْ مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَتَفْسِيرُ النَّصِيبِ بِالْعَذَابِ مَرْوِي عَنْ ابْنِ زَيْدٍ، وَبِالرِّزْقِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا قُدِّرَ لَهُمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ حَالِ مُؤَكَّدَةٍ مِنَ النَّصِيبِ، أَيَّ وَافِيًا كَامِلًا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ فِي التَّوْرَةِ، وَكَوْنُهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَأَمَّنَ بِهِ قَوْمٌ، وَكَفَرَ بِهِ آخَرُونَ، كَمَا اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فِي الْقُرْآنِ، فَلَا تَبَالَ بِاخْتِلَافِ قَوْمِكَ فِيهِ، وَاصْبِرْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ كَمَا صَبَرَ مُوسَى عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِهِ، حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وَهِيَ كَلِمَةُ الْقَضَاءِ بِإِنْظَارِهِمْ إِلَى الْأَجْلِ الْمَعْلُومِ، عَلَى حَسَبِ الْحِكْمَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى ذَلِكَ ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بِإِنْزَالِ مَا يَسْتَحِقُّهُ الْمُبْطِلُونَ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أَيَّ وَإِنْ كَفَّارِ قَوْمِكَ ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ عَظِيمٍ ﴿مِنْهُ﴾ أَيَّ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿مُرِيبٍ﴾ أَيَّ مَوْجِعٍ لَهُمْ فِي الرِّيبَةِ، لَا يَدْرُونَ أَحَقُّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ؟

﴿وَإِنْ كَلَّا لَأَلْمَأُيُوفِينَهُمْ رَبِّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

﴿وَإِنْ كَلَّا﴾ التَّنَوُّينُ عَوْضٌ مِنَ الْمُضَافِ، أَيَّ وَإِنْ كُلُّ الْمَخْتَلِفِينَ فِيهِ، الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ وَالْكَافِرِينَ ﴿لَأَلْمَأُيُوفِينَهُمْ رَبِّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ أَيَّ أَجْزِيَةِ أَعْمَالِهِمْ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، وَلَا مَ ﴿لَيُؤْفِقِينَهُمْ﴾ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ الْقَسَمِ، أَيَّ وَاللَّهُ

ليوفينهم، وفيها أنواع التأكيدات ١ - (إِنَّ) ٢ - (كُلًّا) ٣ - (اللام) الداخلة على خبر إِنَّ ٤ - حرف (ما) ٥ - (القسم المضمّر) ٦ - (اللام) الداخلة على جواب القسم ٧ - (نون التأكيد) وذلك للمبالغة في وعد الطائعين، ووعيد العصّيين، ثم أردفه بقوله عز وجل ﴿إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي بما يعملونه من الخير والشر ﴿خَيْرٌ﴾ بحيث لا يخفى عليه شيء.

﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ﴾ لما بيّن المختلفين في التوحيد والنبوة، أمر رسوله ﷺ بالاستقامة وهذا أمر للتأكيد، لأن النبي ﷺ كان على الاستقامة ولم يزل عليها، وهو كفولك للقائم: قم حتى آتيك، أي دم على ما أنت عليه، وهي شاملة للاستقامة في العقائد، والأعمال، ومحاسن الأخلاق، قال ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية أشد من هذه الآية، ولا أشق، ولهذا قال ﷺ: «شِيبَتْنِي هُوْدٌ وَأَخَوَاتُهَا» وفي رواية أخرى «شِيبَتْنِي هُوْدٌ، والواقعة، والمرسلات»^(١) ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي ومن تاب من الشرك، وآمن معك من المؤمنين الصادقين ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ أي لا تنحرفوا عما حُدَّ لكم بإفراط، أو تفريط، سمي طغياناً وهو مجاوزة الحد، تغليباً لحال سائر المؤمنين على حاله ﷺ ﴿إِنَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على ذلك، وهو تعليل للأمر والنهي، وفي الآية دلالة على وجوب اتباع المنصوص عليه، من غير انحرافٍ بمجرد الرأي، وإعمال العقل الصرف، فإن ذلك طغيان وضلال.

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير وحسنه ٣٧٥/٥ رقم ٣٢٩٧، ورواه الحاكم وصححه عن ابن عباس، ولفظُ الترمذي قال: قال أبو بكر: «يا رسول الله قد شِيبَتْنَا»، قال شِيبَتْنِي هُوْدٌ، والواقعة، والمرسلات، ﴿وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ و ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾!!.

﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ
مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١١٧)

﴿وَلَا تَزْكُوا﴾ أي ولا تميلوا أدنى ميل، فإنَّ الركونَ: الميل اليسير، كالتزَّيُّ بزيتهم، وتعظيم ذكرهم، ومجالستهم من غير داعٍ شرعي، والقيام لهم ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ والمراد بهم المشركون كما روي عن ابن عباس ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ بركونكم إليهم، وإذا كان الركون إلى من وُجد منه اليسير من الظلم، موجباً لدخول نار السعير، فما ظنُّك بالركون إلى الظالمين، ثم بالميل إليهم كل الميل، ويتهج بالتزَّيُّ بزيتهم، والمشاركة لهم في غيهم، ويمدُّ عينيه إلى ما مُتَّعوا به من زهرة الدنيا؟ وينبغي أن يُعَدَّ ذلك من الذين ظلموا، لا من الراكنين إليهم، بناءً على ما روي أن رجلاً قال لسفيان: إني أخبط للظلمة فهل أعدُّ من أعوانهم؟ فقال له: بل أنت منهم، والذي يبيعك الإبرة من أعوانهم!! وما أحسن ما كتبه بعض الناصحين للزهري حين خالط السلاطين، حيث جاء في نصيحته قوله: «عافانا الله تعالى وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحالٍ ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله تعالى، أصبحت شيخاً كبيراً، وقد أثقلتك نعم الله تعالى، فهَمَّكَ أسرار كتابه، وعَلَّمَكَ من سنة رسوله ﷺ واعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخفُّ ما احتملت، أنك آنت وحشة الظالم، وسهَّلت سبيل الغي، اتَّخذوك قطباً تدور عليك رحي باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسُلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخلون الشك بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك، من جنب ما خربوا عليك، فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام»^(١) ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ﴾ من

(١) الإمام الزهري من كبار المحدثين، وهو على جانب عظيم من الاستقامة والورع، وكان يدخل على الأمراء والسلاطين، فينصَحهم ويعظهم ولا يهاب أحداً منهم، ومع =

أنصار يمتنعون العذاب عنكم ﴿ثُمَّ لَا تُفْصَرُونَ﴾ من جهته سبحانه إذ قد سبق في حكمه أن يعذبكم بركونكم إليهم.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكْرِينَ﴾.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي المكتوبة ﴿طَرَفَيْ النَّهَارِ﴾ غَدُوَّة وَعَشِيَّة، والمراد بصلاة الغدوة صلاة الفجر، وصلاة العشية: الظهر والعصر، لأن ما بعد الزوال العشي ﴿وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ وساعات منه قريبة من النهار، الزُلْفَةُ: القربة، والمراد بها المغرب والعشاء ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يكفرنها ويمنعن من اقترافها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وقيل: يمحونها من دفتر الأعمال، ويشهد له بعض الآثار، والمراد من الحسنات ما يعمُّ الصلاة المفروضة وغيرها من الطاعات والمراد من السيئات عند الأكثر الصغائر، لأن الكبائر لا تُكفَّر إلا بالتوبة، واستدلوا على ذلك بما رواه مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهنَّ - أي من الصغائر - إذا اجتنبت الكبائر»^(١) اختلف العلماء في أمر تكفير الصغائر بالعبادات، هل هو مشروط باجتناب الكبائر على قولين؟ أحدهما: نعم، وهو ظاهر قوله ﷺ، وإليه ذهب الجمهور، وقال بعضهم: لا يُشترط، والشرط في الحديث بمعنى الاستثناء، والتقدير مكفرات لما بينهنَّ إلا الكبائر ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الاستقامة ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾

= ذلك فقد خاف عليه بعض أحيائه، فنصح به بتلك النصيحة الغالية، التي تفيض بالرهبة والخوف عليه من الركون إلى الأمراء والسلاطين، فكيف نقول ببعض علماء عصرنا الذين انخرطوا مع الظلمة إلى الأذقان، أجازنا الله من فتنة السلطان!!
(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٣٣ والترمذي رقم ٢١٤ في كتاب الصلاة.

﴿ذَكَرَى لِلذَّكْرَيْنِ﴾ أي عظة للمتعتبين، وخصَّهم بالذكر لأنهم المنتفعون بها، دون غيرهم من عُمى القلوب.

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

﴿وَاصْبِرْ﴾ على مشاق ما أمرت به، وهو الصبر على طاعة الله تعالى والانتهاز عن محارمه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ عدل عن المضمر، ليكون كالبرهان على المقصود، ودليلاً على أن الصبر والصلاة إحسان، ولا يعتدُّ بهما دون الإخلاص، ومعنى الآية: يوفيهما أجرهم من غير بخس، وهو تعليل للأمر بالصبر، وفُسِّر مقاتل الإحسان بالإخلاص، وعن ابن عباس المحسنون المصلون، وكأنه نظر إلى سياق الكلام، ومن الأسرار العجيبة في البلاغة القرآنية، أن الأوامر بأفعال الخير، أفردت للنبي ﷺ كقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ﴾ وإن كانت عامة في المعنى، والمنامي جُمعت للأمة كقوله سبحانه ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وقوله ﴿وَلَا تَطْفُوا﴾ وما أعظم شأن الرسول ﷺ عند ربه جلَّ جلاله، حيث دفع عنه ما يوهم البغي والطغيان!!

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَهُوتَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ تحضيض فيه معنى التفعُّع أي فهلاً كان ﴿مِن الْقُرُونِ﴾ الكائنة ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ التي أهلكناهم ﴿أُولُوا بَقِيَّةَ﴾ أي ذوو خصلة باقية من الرأي والعقل، وذوو فضل، يقال: فلان من بقية القوم، أي من خيارهم، ومنه قولهم «في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا» ﴿يَنَهُوتَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ الواقع فيما بينهم من الكفر، والمعاصي ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء منقطع، أي لكن قليلاً منهم أنجيناهم، لكونهم ينهون عن

الفساد ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بمباشرة الفساد وترك النهي عنه ﴿مَا أَتَرَفُوا فِيهِ﴾ أي ما نَعَمُوا فيه من الشهوات، وجمع الثروات، والرياسة، وسائر أسباب العيش، ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصل الترف التوسع في النعمة، وقيل: ﴿أَتَرَفُوا﴾ أي طغوا، من أترفهم النعمة ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي مصرّين على الإجرام، وهو بيان لبيان استئصال الأمم المهلكة، وهو فشو الظلم، واتباع الهوى، وترك النهي عن القبائح والمنكرات.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ أي ما صحَّ وما استقام بل استحال في الحكمة أن يهلك الله القرى التي أهلكتها ﴿بِظُلْمٍ﴾ التنكير للتفخيم، وللإيذان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم، والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية، بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه، وإلا فلا ظلم فيما فعله الله بعباده كائناتاً ما كان، لما تقرر من قاعدة أهل السنة (يفعل ما يشاء) و (يحكم ما يريد) ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ الباء للسببية أي لا يهلك الله القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون، أي يتعاطون الحق فيما بينهم وذلك لفرط رحمته، ومسامحته في حقوقه تعالى، وهذه الآية وما في معناها، من قواعد علم الاجتماع البشري، وهو العلم بسُنَنِ الله عز وجل، في قوّة الأمم وضعفها، وبدأ ابن خلدون فجعله علماً مدوّناً، ولكن استفاد غير المسلمين مما كتبه في ذلك، ووسّعوه، فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين، الذين لم يستفيدوا من هداية القرآن العظيم، في إقامة أمر ملكهم وحضارتهم، ولا يزالون معرضين عن هذا الرشد والهداية، على شدة حاجتهم إليها، بعضهم يعزّي نفسه عن ضعف أمته، ويعتذر عن تقصيرها بالقدر، ويسليها بأن هذا من علامات السّاعة، وارتكس بعضهم في حماة جهله بالإسلام، حتى ارتدّوا سرّاً أو جهراً، زاعمين أن تعاليمه

هي التي أضعفتهم، والتمسوا هداية غير هدايته، ليقيموا بها دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝﴾

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي مسلمين كلهم، مجتمعين على الحق عن اختيار، بحيث لا يكاد يختلف فيه، ولكن لم يشأ ذلك ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ بعضهم على الحق، وبعضهم على الباطل، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾^(١).

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝﴾

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي إلا أناساً هداهم الله تعالى من فضله، فاتفقوا على أصول الدين الحق، ولم يختلفوا فيه كالمسلمين أئمة أهل الحق والهدى ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ الإشارة كما روي عن الحسن وعطاء إلى المصدر المفهوم من مختلفين؛ كأنه قيل: وللاختلاف خلق الناس، فحاصل المعنى: أن الله سبحانه خلق أهل الحق، وجعلهم متفقين، وخلق أهل الباطل، وجعلهم مختلفين ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ نفذ قضاؤه، وورد وعيده بأن يملأ جهنم من الجن والإنس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي من عصاتهما والكفرة، والجنة والجن بمعنى واحد، والآية تقتضي بظاهرها دخول جميع الفريقين في جهنم، والمعلوم من الآيات والإخبار خلافه، فالمراد عصاتهما بالقرينة الشرعية والعقلية، لما علم من الشرع أن العذاب مخصوص بهم، ولذا قيل: المراد من الجنة والناس: أتباع إبليس، لقوله سبحانه في سورة ص: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والقرآن الكريم يُفسر بعضه بعضاً.

(١) سورة السجدة، آية: ١٣.

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢١).

﴿وَكَلَّا﴾ أي وكل نبأ فالتنوين للتعويض عن المضاف إليه ﴿نَقْصُ﴾ عَلَيْكَ ﴿أَي﴾ نخبرك به ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أي من أخبار الرسل السابقين مع أممهم ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي ما نشدُّ به قلبك حتى يزيد يقينك، وفائدته التنبيه على المقصود من قصص المرسلين، وهو لزيادة يقينه ﷺ، وثبات نفسه على أداء الرسالة، واحتمال أذى الكفار، بالوقوف على أحوال الأمم السالفة، في تماديهم في الضلال، وما لقي الرسل من جهنهم، من مكابدة المشاق، ولهذا يقال: المصيبة إذا عَمَّتْ خَفَّتْ ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ الأنباء المقتضة عليك ﴿الْحَقُّ﴾ أي الثابت المطابق للواقع، والخبر الصادق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وجاءك في هذه الأخبار أيضاً ما هو عظة وعبرة للمؤمنين الصادقين، وخص المؤمنين بالذكر، لأنهم المتفعون بمواعظ القرآن، وأما الكفار فكالبهائم والأنعام.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ (١٢٢).

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الحق ولا يتعظون به ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على طريقتكم ومنهجكم في عدم الإيمان ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ على حالنا ومنهجنا، وهو الإيمان به، والاتعاظ والتذكر بآياته ومواعظه. ﴿وَانظُرُوا﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ بكم نحو ما نزل بأمثالكم من الكفرة، فالأمر وعيد وتهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣).

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما
﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فيرجع أمرهم إليه لا محالة ﴿فَاعْبُدْهُ﴾
﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك، وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل، تنبيه
على أنه لا ينفع دونها، أي امثل ما أمرت به، ودم على العبادة، وتبليغ
الدعوة، وتوكل عليه في ذلك، ولا تبال بالذين لا يؤمنون ﴿وَمَارُبُّكَ يُغْفِلُ﴾
﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي أنت وهم، فيجازي كلًّا من الفريقين بما يستحقه، من
الثواب أو العقاب، والله تعالى وليُّ التوفيق لا ربَّ غيره، ولا يرجى إلا
خير، ونسأله سبحانه أن ييسر لنا إتمام ما قصدناه، ويوفقنا لفهم معاني
كلامه، على ما يحب ويرضاه، والحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام
على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وجنده وحزبه.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة هود»



سُورَةُ يُوسُفَ

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

سورة يوسف عليه السلام وهي مائة وإحدى عشرة آية مكية. سبب نزولها على ما روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه على أصحابه زماناً، فقالوا يا رسول الله: لو قصصت علينا فنزلت، وقيل: هو تسلياً الرسول عما يفعله به قومه، بما فعلت إخوة يوسف، وقد جاء عن ابن عباس وجابر بن زيد أن يونس نزلت، ثم هود، ثم يوسف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي هذه آيات الكتاب المعجز ﴿الْمُبِينِ﴾؛ أي الظاهر أمره في كونه من عند الله تعالى، المبين لما فيه من الأحكام والشرائع، وخفايا الملك والملوك.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب المنعوت بهذه الأوصاف الجليلة ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربياً، مؤلفاً من هذه الأحرف العربية

التي تعرفونها وتنطقون بها، واستدل جماعة منهم الشافعي وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر، بأن وصف القرآن بكونه عربياً، على أنه لا معرّب فيه، وقالوا: من زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، وقال غيرهم: كان للعرب بعض مخالطة، لأهل سائر الألسنة في أسفار لهم، فعلقت من لغاتهم ألفاظ، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربي الفصيح، وعلى هذا الحدّ نزل القرآن، فأصولها وإن كانت أعجمية، لكنها اختلطت بكلام العرب فصارت عربية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموا معانيه، وتحيطوا بما فيه من البدائع، فتعلموا على أنه خارج عن طوق البشر.

﴿ذَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾

﴿ذَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ نخبرك ونحدثك من قص أثره إذا اتبعه ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي قصصاً هي أحسن القصص، والمراد مضمون هذه السورة، ووجه أحسنيتها اشتمالها على حال حاسد ومحسود، ومالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وعاشق ومعشوق، وحبس وإطلاق، وخصب وجذب، وفراق ووصال، وسقم وصحة، وذلل وعز، وقد أفادت أن لا دافع لقضاء الله تعالى من قدره، وأن الحسد سبب الخذلان، وأن الصبر مفتاح الفرج وفيه مع بيان الواقع، إيهام لما في اقتصاص أهل الكتاب من الخلل، ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في التوراة مع أن شيئاً منها لا يشابه هذه السورة ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ بإيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي هذا القرآن المعجز، الذي من ضمنه هذه السورة ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل إيحائنا إليك هذا القرآن ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي عن هذه القصة، لم تخطر ببالك ولم تفرع سمعك، وهو تعليل لكونه موحى.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ شروع في القصة، ويوسف اسم عبري هو ابن يعقوب، وجده الأعلى إبراهيم، أخرج البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ، ابن الكَرِيمِ ابن الكَرِيمِ، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم»^(١) وقد اجتمع في يوسف مع ما ذكر من النبوة، حسن الصورة، وعلم الرؤيا، ورياسة الدنيا، وحيطة الرعايا في القحط والبلاء ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب عليه السلام ﴿يَا أَبَتِ﴾ أصله يا أبي حذفت الياء فعوض عن الياء تاء التانيث، وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ولذلك لا يجتمعان ولا يقال يا أبتني ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ أي في المنام، من الرؤيا لا من الرؤية لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ فالرؤيا في المنام، والرؤية بالعين، والرأي بالقلب ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ قيل الشمس والقمر أبواه والكواكب أخوته، وتخصيص الشمس والقمر لاختصاصهما بالشرف، وتأخيرهما لأن سجودهما أبلغ وأعلى ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ استئناف كأن سائلاً قال: كيف رأيتهم فأجاب بذلك، وإنما أجري مجرى العقلاء في الضمير، لوصفها بوصف العقلاء أعني السجود، وعبرت الشمس بأبيه، والقمر بأمه، روي ذلك عن قتادة.

﴿ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ يعقوب، ﴿يَبْنَئُ﴾ صغره للشفقة لصغر سنه، لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة ولما عرف يعقوب من هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣٦١ / ٨.

تعالى مبلغاً جليلاً، وينعم عليه بشرف الدارين، خاف عليه حسد الإخوة، فقال له صيانة ﴿لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ﴾ وحقيقتها أن الله سبحانه، يخلق في قلب النائم اعتقادات، كما يخلقها في قلب اليقظان، وقد جعل سبحانه تلك الاعتقادات، علماً على أمور أخرى، يخلقها في ثاني الحال، وقيل: هي أحاديث الملك الموكل بالأرواح إن كانت صادقة، ووسوسة الشيطان والنفس إن كانت كاذبة، ونُسب هذا إلى المحدثين، وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها، فإنها من الله تعالى، فليحمد الله، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ بالله تعالى من شرها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره»^(١) ﴿عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ الذين يخشى غوائلهم، يريد إخوته من أبيه، أما «بنيامين» الذي هو شقيق يوسف، فليس بداخل تحت هذا النهي ﴿فَيَكِيدُوا﴾ أي يفعلوا ﴿لَكَ﴾ فيحتالوا لإهلاكك ﴿كَيْدًا﴾ متيناً لا تقدر على رده، ولا تستطيع دفعه، وليس ذلك من الغيبة المحظورة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ﴾ أي لهذا النوع ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، فلا يالو جهداً في إغواء إخوتك، وحملهم على ما لا خير فيه، من إثارة الحسد فيهم، حتى يحملهم على الكيد، والذي عليه الأكثر سلفاً وخلفاً، أنهم لم يكونوا أنبياء أصلاً. وذكر ابن تيمية أن الذي يدل عليه القرآن، أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء، وليس في القرآن ولا عن النبي ﷺ، بل ولا عن أحد من الصحابة خبرٌ بأن الله تبارك وتعالى، ولما نبهه على أن لرؤياه شأنًا عظيمًا، وحذرهم مما حذرهم، شرع في تعبيرها على وجه إجمالي، فقال تقدست أسماءه:

﴿وَكَذَلِكَ يَجْهِيكَ رَبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَنْتَهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَاسْتَحَقَّ إِنَّ رَبَّكَ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرؤيا ٣٦٩/١٢ والترمذي رقم ٣٤٤٩.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الاجتباء البديع الذي شاهدت آثاره في عالم المثال من سجود تلك الأجرام العلوية لك وعلى وقفه ﴿يَحْيِيكَ رَبُّكَ﴾ يختارك لجناح كبريائه، ويصطفيك للنعمة والملك، ومراده عليه السلام إطاعة أبويه وإخوته له، لكنه لم يصرح به حذراً من إذاعته ﴿وَيَعْلَمُكَ﴾ وهو يعلمك ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ تعبير الرؤيا إذ هي إخبارات غيبية يخلقها الله تعالى في قلب النائم، أو أحاديث الملك، إن كانت صادقة، أو النفس والشيطان إن لم تكن كذلك، أشار بذلك إلى ما سيقع من يوسف من تعبير الرؤيا، وإنما عرف يعقوب ذلك بطريق الفراسة ﴿وَيُثَبِّرُ نَفْسَهُ عَلَيْكَ﴾ بأن يضم النبوة إلى الملك، ويجعله تنمة لها، وفي تعليم التأويل إشارة إلى استنبائه لأن ذلك لا يكون إلا بالوحي، وحاصل المعنى: كما أكرمك بهذه الرؤيا المبشرة الدالة على سجود إخوتك لك، يكرمك بالنبوة والعلم، الذي تعرف به أمثال ما رأيت، وإتمام نعمته عليك ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ وهم أهله من بنيه وغيرهم، إتمام النعمة على يوسف بالنبوة وعلى آل يعقوب باعتبار أنهم يفتنمون آثاره من العز والجاه والمال ﴿كَمَا أَثَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ التعبير عنهما بالأب مع كونهما من أجداده، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام، وإتمام النعمة لإبراهيم بالنبوة، وباتخاذه خليلاً، وبنجائه من النار وعلى إسحق بالنبوة كذلك، وبإخراج يعقوب من صلبه ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يفعل ما ذكر لأنه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء، فيعلم من يستحق الاجتباء، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ﴿حَكِيمٌ﴾ فاعل لكل شيء، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فيفعل على سنن علمه وحكمته.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أي في قصتهم ﴿آيَاتٌ﴾ أي علامات دالة على قدرته تعالى وحكمته ﴿لِلْسَّائِلِينَ﴾ لكل من سأل قصتهم أو للطالبيين للآيات الاعتبارية بها.

﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ أي شقيقه «بنيامين» ﴿ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا ﴾ وإنما قالوا هذا حسداً منهم ليوسف، لما رأوا ميل يعقوب إليه، وكثرة شففته عليه، ولم يُفَرِّقْ مع أن المخبر عنه به اثنان، لأن أفعال التفضيل لا يُفَرَّقُ فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكَر وما يقابله، وجيء بلام الابتداء، لتحقيق مضمون الجملة وتأكيد، أي كثرة حبه لهما، أمرٌ ثابت لا شبهة فيه ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي والحال أننا جماعة، قادرون على الحل والعقد، أحقاء بالمحبة من الصغيرين، والعصبة والعصابة: العشرة فما زاد، سُمُّوا بذلك لأن الأمور تتعصّب بهم أي تُشدُّ فتقوى ﴿ إِنَّ أَبَانَا ﴾ في ترجيحهما علينا في المحبة مع فضلنا عليهما ﴿ لَفِي ضَلَالٍ ﴾ أي خطأ في الرأي^(١)، وذهاب عن طريق العدل ﴿ مُبِينٍ ﴾ ظاهر الحال واضح، وإنما أحبه عليه السلام أكثر منهم، لما رأى عليه من مخايل الخير ما لم ير فيهم، وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا، ولا لوم على الوالد، في تفضيله بعض ولده على بعض في المحبة، لمثل ذلك، وأن المحبة ليست مما تدخل تحت وسع البشر، ظنّ أبناؤه أنّ ما كان منه عن اجتهاد، وأنه قد أخطأ في ذلك، والمجتهد يخطئ ويصيب.

﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾

(١) لم يريدوا الضلال في الدين، الذي يقابل الهدى والإيمان، إذ لو أرادوه لكفروا، وإنما أرادوا أنه في خطأ واضح لإيثاره يوسف وأخاه عليهم في المحبة، فتنبه والله برعائك.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ قال بعضهم مخاطباً للباقيين: اقتلوا يوسف، ويروى أن القاتل شمعون، والباقون كانوا راضين ﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ التنكير للإبهام، أي أرضاً مجهولة بعيدة عن العمران ﴿يَخْلُ﴾ يخلص ﴿لَكُمْ وَجْهٌ أَيْكُمْ﴾ فيقبل عليكم بكليته، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد قتله وطرحه ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ بالتوبة عما جنيتم به من الذنب.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا نَقْتُلُ يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً وهو الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ ﴿لَا نَقْتُلُ يُوسُفَ﴾ وإنما لم يذكر أحدٌ منهم باسمه، سترأ على المسيء، وكلٌ منهم لم يخل عن الإساءة، وإن تفاوتت مراتبها، أظهره في مقام الإضممار، استجلاباً لشفقتهم عليه، واستعظاماً لقتله ﴿وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ أي في قعره وغوره، وغيابة الجب: قعره ﴿يَلْقِظُهُ﴾ يأخذه ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي بعض الذين يسرون في الأرض، قال الهروي: الغيابة في الجب شبه كهف في البئر فوق الماء، يغيب ما فيه عن العيون ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ بمشورتي لم يبت القول تأليفاً لقلوبهم، وتوجيهاً لهم إلى رأيه.

﴿قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾

﴿قَالُوا يَتَّابَانَا﴾ خاطبوه بذلك تذكيراً لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف، ليتسببوا بذلك إلى استنزاله عن رأيه، في حفظه منهم، حين أحسَّ منهم بأمارات الحسد ﴿مَا لَكَ﴾ أي أي شيء لك ﴿لَا تَأْمَنَّا﴾؟ أي لا تجعلنا أمناً ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ مع أنك أبونا، ونحن بنوك، وهو أخونا ﴿وَإِنَّا

لَمْ يَلْتَصِحُوا ﴿مَرِيدُونَ لَهُ الْخَيْرِ، وَمَشْفِقُونَ عَلَيْهِ، لَيْسَ فِينَا مَا يَخْلُ بِذَلِكَ، وَالْإِسْتِفْهَامُ «بِمَالِكَ» فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ، وَالْكَلَامُ ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ سَوْأَلٌ أَن يَخْرِجَ يُوسُفَ مَعَهُمْ، فَلَمْ يَرْضَ أَبُوهُمْ بِذَلِكَ.

﴿ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ﴿١٢﴾

﴿ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا ﴾ إِلَى الصَّحْرَاءِ ﴿ يَرْتَعُ ﴾ أَيِ يَتَسَعَّ فِي أَكْلِ الْفَوَاكِهَةِ وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ الرِّتْعَ هُوَ الْإِتْسَاعُ فِي الْمَلَادُ، قَالَ الرَّاعِبُ: إِنَّ الرِّتْعَ حَقِيقَةٌ فِي أَكْلِ الْبَهَائِمِ، وَيُسْتَعَارُ لِلْإِنْسَانِ إِذَا أُريدَ بِهِ الْأَكْلُ الْكَثِيرُ ﴿ وَيَلْعَبُ ﴾ بِالِاسْتِبَاقِ وَالتَّنَاضُلِ وَنَظَائِرِهِمَا، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ، لِتَحْقِيقِ مَا رَامُوا مِنْ اسْتِصْحَابِ يُوسُفَ، بِتَصْوِيرِهِمْ لَهُ بِصُورَةٍ مَا يَلَائِمُ حَالَهُ ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ مِنْ أَن يَنَالَهُ مَكْرُوهٌ، أَكَّدُوا مَقَالَتَهُمْ بِأَصْنَافِ التَّأَكِيدِ، مِنْ إِيرَادِ الْجُمْلَةِ اسْمِيَّةٍ، وَتَحْلِيلَتِهَا بِإَنَّ وَاللَّامَ، وَإِسْنَادِ الْحِفْظِ لِكُلِّهِمْ وَتَقْدِيمِ «لَهُ» عَلَى الْخَيْرِ، احْتِيَالًا فِي تَحْصِيلِ مَقْصِدِهِمْ.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِمْ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ ﴿١٣﴾

﴿ قَالَ ﴾ يَعْقُوبُ ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِمْ ﴾ أَيِ يَحْزِنُنِي ذَهَابُكُمْ بِهِ لَشِدَّةِ مَفَارِقَتِهِ عَلَيَّ، وَقَلَّةِ صَبْرِي عَنْهُ، وَمَعَ ذَلِكَ ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وَقَدْ لَقِّنَهُمُ الْعِلَّةَ، وَكَمَا قِيلَ: «إِنَّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ»^(١) ﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ لِإِسْتِغْلَالِكُمْ بِالرِّتْعِ وَاللَّعْبِ أَوْ لِقَلَّةِ إِهْتِمَامِكُمْ بِحِفْظِهِ.

﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴾ ﴿١٤﴾

(١) هَذَا مِنَ الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ، يَعْنِي أَنَّ نَطْقَ الْإِنْسَانِ يَكُونُ سَبَبًا لَوُقُوعِهِ فِي الْمَصِيبَةِ وَالْكَرْبِ فَكَأَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَقِّنَهُمْ حِجَّةً فِي الْكِيدِ لِيُوسُفَ.

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ والحال أننا جماعة أقوياء أشداء، جديرة بأن تعصب بنا الأمور العظام ﴿ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ أي لهالكون ضعفاء، مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار، وإنما اقتصرنا على جواب خوف يعقوب من أكل الذئب، لأنه هو السبب القوي في المنع وكانوا يشوقون يوسف لأن يذهب معهم، فرجا هو أيضاً أباه ليذهب معهم، وقد كان يعقوب يحب تطيب قلب يوسف، فاعتز بقولهم وأرسله معهم.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا ﴾ أي عزموا عزمًا مصممًا على ﴿ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ ﴾ هي بئر بين مصر ومدين فأتوا إلى البئر، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه لما عزموا تلطيخه بالدم احتيالاً لأبيه فدلوه فيها ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ أي أعلمناه عند ذلك، تبشيراً له بما يؤول إليه أمره، وإزالة لوحشته، وتسليته له، وكان ذلك على ما روي عن مجاهد بالإلهام ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا ﴾ أي لتخلصن مما أنت فيه من سوء الحال، ولتحدثن إخوتك بما فعلوا بك ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بأنك يوسف لتباين حالك هذا، وحالك يومئذ، بعلو شأنك، وكبرياء سلطانك.

﴿ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾.

﴿ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً ﴾ آخر النهار، من بعد صلاة المغرب إلى العشاء ﴿ يَبْكُونَ ﴾ متباكين بالكذب، يذرفون الدموع الكاذبة^(١)، ولمَّا سمع بكاءهم فزع يعقوب، وقال: ما لكم يا بني وأين يوسف؟.

(١) هذه دموع التماسيح، دبّروا مكيدة لأخيهم يوسف المسكين، ثم جاؤوا في المساء يذرفون عليه الدموع، وهي دموع كاذبة، واختاروا المساء لأن الليل أخفى للويل كما =

﴿ قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَيُتْرَكْنَا يُوَسِّفُ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ
الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ ﴿١٧﴾

﴿ قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ ﴾ أي متسابقين في العدو والرمي
﴿ وَيُتْرَكْنَا يُوَسِّفُ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ أي ما نتمتع من الثياب والأزواد وغيرها مما
يلزم للرعاة ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ أي فافترسه الذئب، عقيب ذلك، فكانهم
قالوا: لم تقتصر في المحافظة عليه، بل تركناه في مأمن عند متاعنا، وما
فارقناه إلا ساعة يسيرة، فكان ما كان ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ بمصدق لنا في
هذه المقالة، الدالة على عدم تقصيرنا في أمره ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ أي
ولو كنا عندك وفي اعتقادك موصوفين بالصدق والثقة، لاتهامنا في يوسف
لشدة محبتك إياه.

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ ﴾ أي جاؤوا فوق قميصه بدم ﴿ كَذِبٍ ﴾ أي
كاذب، وُصف بالمصدر مبالغة، كأنه نفس الكذب. والمعنى: أتوا بدم
كذب فوق قميصه، وكان ذلك الدم دم سخلة ذبحوها، ولطخوا بدمها
القميص، كما روي عن ابن عباس ومجاهد، وعن قتادة أنهم أخذوا ظبيةً
فذبحوها، فلطخوا بدمه القميص، ولما جاؤوا به ألقاه على وجهه وبكى،
وقال: تالله ما رأيتُ كالיום ذنباً أرحم من هذا، أكل ابني ولم يمزق عليه

= يقال في الأمثال، روي أن امرأة تحاكت إلى شريح القاضي فجاءت تبكي بدموع
سخية، فقال الشعبي: أما تراها يا أبا أمية تبكي؟ فقال له شريح: لقد جاء إخوة
يوسف أباهم عشاءً ييكون وهم ظلمة كذبة، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق،
ولا يتأثر ببكاء الباكين!!

قميصه!! فلما علم كذبهم ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أي زينت وسهلت لكم ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور منكراً، لا يوصف ولا يعرف، وأصل التسويل كما قال الراغب: هو تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح بصورة الحسن، وفي الكلام حذف أي لم يأكله الذئب، بل سَوَّلَتْ وزَيَّنَتْ الخ، وعلمه بكذبهم حصل من سلامة القميص، وإنما حزن لما خشي عليه من المكروه، والشدائد غير الموت، وقيل إنما حزن لفراقه وفراق الأحبة مما لا يُطاق ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبرٌ جميل، والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ أي المطلوب منه العون على الصبر على هذه المصيبة ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ الوصف ذكر الشيء بنعته، وهو قد يكون صدقاً وقد يكون كذباً، والمراد به هنا الثاني، كما في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١) بل قيل: إن الصيغة قد غلبت في ذلك، والصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى الجزع، وهي قوية، والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر، فما لم تحصل إعانة الله تعالى، لم تحصل الغلبة، فإن قيل: لما ظهر له كذبهم، فلماذا صبر، ولم يبالغ في التفتيش؟ أجيب: إماماً مَنَعَهُ سبحانه عن التفتيش تشديداً للمحنة، وإماماً عرف بالقرائن أنه لو بالغ في البحث لأقدموا على إيذائه وقتله، فلما وقع في هذه البلية، رأى أن الأصوب الصبر والسكوت، وتفويض الأمر بالكلية إلى الله عز وجل.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوُهُ قَالَ يَبْشَرِي هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^(١٩).

﴿وَجَاءَتْ﴾ التعبير بالمجيء، وإشارته على المرور والإتيان ونحوهما، إيماء كونه عليه السلام في الكرامة والزلفى عند ملك مقدر ﴿سَيَّارَةٌ﴾ أي

(١) سورة الصافات، آية: ١٨٠.

رفقة مسافرون يسيرون من جهة مدين إلى مصر، فترلوا قريباً من الجب، وكان في طريق سيرهم المعتاد، وقيل إنه كان في قفرة بعيدة من العمران، فأخطؤوا الطريق فأصابوه ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الذي يرد الماء ويستسقي لهم ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي أرسلها في الجب ليملاها، وفي الكلام حذف، أي فأدلى دلوه فتعلق بها يوسف فخرج ﴿قَالَ يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ﴾ نادى البشرى بشارة لنفسه ورفقته، كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أوانك، حيث فاز بنعمة عظيمة، والتنوين في غلام للتفخيم لأنه كان من أحسن الغلمان، ﴿وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً﴾ أي أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الناس، ليبيعوه بمصر متاعاً كالْبضَاعَةِ وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً﴾ يدل على أن المراد أنهم أخفوه لأجل البضاعة، وذلك إنما يليق بالوارد وأصحابه، لا بأخوة يوسف كما زعمه البعض ﴿بِضَاعَةً﴾ أي أخفوه بضاعة أي متاعاً للتجارة، والبضاعة قطعة من المال تعد للّجارة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَسْمُوتُونَ﴾ لم يخف عليه إسرارهم، وصرّح غير واحد أن هذا وعيد لأخوة يوسف، على ما صنعوا بأبيهم وأخيهم، وجعلهم عرضة للابتلاء والابتذال، بالبيع والشراء، حين احتاجوا إلى السفر لمصر من أجل الميرة.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ
الزَّاهِدِينَ﴾.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ الضمير المرفوع للسيارة، بمعنى باعوه ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي نقص، وهو مصدر أريد به اسم المفعول، أي منقوص، وقيل: حرام لأنه ثمن الحر ﴿دَرَاهِمَ﴾ أي لا دنائير ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أي قليلة، وكُنِيَ بالعدو عن القلة، قيل كانت عشرين درهماً ﴿وَكَانُوا﴾ أي البائعون ﴿فِيهِ﴾ في بيع يوسف ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ من الراغبين عنه لأنهم التقطوه، والمثلث للشئ متهاون به لا يبالي فيه، يُقال: زهد في الشيء زهداً وزهادة تركه، وأعرض عنه.

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ﴾ فهذا الشراء غير الشراء السابق الذي كان بثمان بخص، والذي اشتراه العزيز كان على خزان مصر واسمه «قطفير» ﴿ لِامْرَأَتِهِ ﴾ راعيل وهو المروي عن مجاهد، وقال السدي: زليخا وقيل اسمها راعيل ولقبها زليخا ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أي اجعلي محل إقامته كريماً مرضياً، وأحسني تعهده. يُقال: ثوى بالمكان أقام فيه، والمثوى: المنزل، وهذا كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ أي لعله يكفيننا بعض المهمات في ضياعنا وأموالنا ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أي نبناه، وكان العزيز عقيماً، وتفَرَّسَ في يوسف مخايل الرشد والنجابة، فأراد أن يقيمه مقام الولد، قال ابن مسعود: «أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرَّس في يوسف، فقال لامرأته أكرمي مثواه، والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها «يا أبت استأجره» وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما» ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التمكين البديع ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي جعلنا له فيها مكاناً، يقال: مكَّنه فيه أي أثبته فيه، ومكَّن له فيه أي جعل له مكاناً فيه، ويستعمل كل منهما في مقام الآخر، والمراد بالمكان هنا المكانة، والمعنى: كما جعلنا له فيها مثوى كريماً، جعلنا له مكانة عالية في قلب العزيز، حتى أمر امرأته بالإحسان إليه، أو جعلنا له مكانة رفيعة في أرض مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أي نوفقه لتعبير بعض المنامات ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ لا يرده شيء، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الأمر كله لله، وبيده لطائف صنعه، وخفايا لطفه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي منتهى اشتداد جسمه وقوته، وهو سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعلم ﴿وَعِلْمًا﴾ أي علم تأويل الأحاديث، وفسر بعضهم الحكمة بالنبوة، والعلم بالتفقه في الدين، وقيل: أراد بالحكمة الحكم بين الناس، وبالعلم العلم بوجوه المصالح، فإن الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز، أمره بأن يحكم بينهم، لما رأى من عقله وإصابته في الرأي ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فإنه تعالى إنما آتاه ما آتاه لكونه محسناً في أعماله، متقناً في عنفوان أمره، قال الحسن: من أحسن عبادة الله سبحانه في شبابه، آتاه الله تعالى الحكمة في اكتهاله.

﴿وَرَزَوْدَتُهُ أَلَّتْ يَهِتَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿وَرَزَوْدَتُهُ أَلَّتْ يَهِتَا﴾ رجوع إلى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز، بعدما أمر امراته بإكرام مثواه، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا﴾ إلى هنا اعتراض جيء به أنموذجاً للقصة، ليعلم السامع من أول الأمر، أن مالفية من الفتن والمحن، له غاية جميلة، وأنه محسن في جميع أعماله، لم يصدر منه في حالتي السراء والضراء ما يخلُ بنزاهته، والمرادة: المطالبة برفق، من رَادَ يَرُودُ: إذا جاء وذهب لطلب شيء، ومنه الرائد لطلب الماء والكلاء، وهي مفاعلة من واحد، نحو: مطالبة الدائن، ومماطلة المديون، ومداواة الطيب، ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين، الفعل، ومن الآخر سببه، فإن هذه الأفعال وقد كانت صادرة من أحد الجانبين، لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر، جعلت كأنها صادرة عنهما، لأن سبب الشيء يقوم مقامه، فكان جماله عليه السلام سبباً

لمراودتها له، ثم كونها في بيتها مما يدعو إلى ذلك، قيل لواحد: ما حَمَلَكَ على ما أنت مما لا خير فيه؟ قال: قُرْبُ الوِساد، وطول السَّواد ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي طلبت من يوسف أن يواقعها، والعدولُ عن التصريح باسمها، للمحافظة على السرِّ، وللاستهجان بذكرها، وإضافة البيت إليها ﴿التي هو في بيتها﴾ لما أن العرب تضيف البيوت إلى النساء، باعتبار أنهن القائمات بمصالحه، أو الملازمات له ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ قيل: كانت سبعة، ولذلك جاء الفعلُ بصيغة التفعيل، وقيل: للمبالغة في الإيثاق ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي أَقْبِلْ وبادِرْ، فقد تهيأتُ لك، وقال الكسائي: تعال، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً، مما تدعيني إليه، وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه، وإشارة إلى أنه منكر، يجب أن يُعَاذَ بالله تعالى للخلاص منه، لأنه قد شاهد بما أراه الله تعالى من البرهان النير، ما هو عليه في حدِّ ذاته من غاية القبح، ونهاية السوء ﴿إِنَّكُمْ رَبِّيَ أَحْسَنَ مَثْوًى﴾ أي هو ربي، أي سيدي العزيز أحسن تعهدي، حيث أَمَرَكَ بإكرامي، فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في حَرَمِهِ؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز، بِالطَّفِّ وجه. وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد، ﴿إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ تعليل للامتناع والمراد بالظالمين كل من ظلم، وقيل: الزناة، وقيل: الخائنون.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَّبَّاهُنَّ رِيءٌ كَذَلِكَ لِنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ﴾ بمخالطته، أي قصدتها عزمًا جازماً، بعدما باشرت مباديها من المراودة، وتغليق الأبواب، ودعوته إلى نفسها بطريق القسر، ولعلها قصدت أفعالاً آخر، من بسط يدها إليه، وقصد المعانقة، وغير ذلك مما يضطره إلى الهرب نحو الباب ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بمخالطتها، أي مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، وشهوة الشباب، ميلاً جبلياً لا يكاد يدخل

تحت التكليف، لا أنه قصدتها قصداً اختيارياً، لأنه بريء من ارتكاب الفاحشة، وكذلك بريء من الهمِّ المحرَّم، وإنما عبر عنه بالهمِّ، لمجرد وقوعه في صحبة همَّها، بالذكر بطريق المشاكلة، لا لشبهه به كما قيل، وقد أشير إلى تباينهما حيث لم يقرنا بلفظ واحد من التعبير، بأن قيل: ولقد همَّا بالمخالطة، أو همَّ كل واحد منهما بالآخر، وصُدِّر الأول بما يقرِّر وجوده من التوكيد القسَمي ﴿وَلَقَدْ﴾ وعقب الثاني بما يعفو أثره، من قوله عز وجل ﴿لَوْلَا أَنْ رَمَّا بُرْهَنَ رَبُّكَ﴾ أي الحجة الباهرة الدالة على قبح الزنا، وسوء سبيله، والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها، وقيل، التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، لكنه وجد البرهان فانتفى الهمُّ^(١)، وما ذكره البعض من أنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلما رأى البرهان من ربه، زالت الشهوة عنه، أو أنه حلَّ الهمَّيان يريد فعل الفاحشة، ورووا روايات شتى، كلها من الأباطيل، تردُّها العقول، ويل لمن لاكها أو سمعها وصدَّقها.

وقال الشيخ أبو منصور الماتريدي: لو كان همُّه كهَمُّها لما مدحه الله، بأنه من عباده المخلصين، ولأنه لو وجد منه أدنى ميل للذُكرت توبته، كما كان لآدم، ونوح، وذي النون، وداود عليهم السلام، فعلم بالقطع أنه ثبت في هذا المقام، وجاهد مجاهدة أولي العزم، ذاكراً دلائل التحريم، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبصير، ومثل ذلك التثبيت ثبُتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾

(١) إلى هذا القول ذهب أبو حيان في تفسيره البحر المحيط ٢٩٥/٥ حيث قال ما نصُّه: نسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لأحد الفساق، والذي اختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همُّ البتَّة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول: «قارفت الذنب لولا أن عصمك الله، وكقول العرب: أنت ظالم إن فعلت هذا، وتقديره: إن فعلت هذا فأنت ظالم، كذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه وجد البرهان فانتفى الهمُّ» اهـ أقول: وهذا هو الحق، وقد أشبعنا البحث تحقيقاً في كتابنا «صفوة التفاسير» وفي كتابنا «قبس من نور القرآن».

السُّوءَ ﴿ خيانة السيد، ومقدمات الزنا، من المسّ بشهوة، والقبلة
 ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي الزنا، لأنه مفرط في القبح، وفيه حجة قاطعة على أنه
 عليه السلام لم يقع منه همّ بالمعصية، ولا توجه إليه قط، وإلا لقل:
 لنصرفه عن السوء والفحشاء، وإنما توجه إليه ذلك من خارج، فصرفه الله
 تعالى عنه، بما فيه من موجبات العفة والعصمة ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
 الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام أي الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته أي اجتنابه،
 وقرأ ابن كثير وأبو عمر بالكسر، أي الذين أخلصوا دينهم لله تعالى، فهو
 منتظم في سلوكهم، بقضية الجملة الاسمية، فانحسم مادة احتمال صدور
 الهمّ بالسوء منه بالكلية.

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ
 مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ وقوله:
 ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ اعتراض جيء به تقريراً لنزاهته عليه السلام،
 والمعنى ولقد همت به وأبى هو، واستبقا الباب، أي تسابقا إلى الباب
 الخارجيّ الذي هو المخرج من الدار، ولذلك وُحِدَ بعد الجمع، في قوله:
 ﴿وَوَغَلَقَتِ الْأَبْوَابُ﴾ لأن إغلاق الأبواب للاحتياط لا يتم إلا بإغلاق
 الجميع، أمّا هربه منها فلا يكون إلا إلى باب واحد، فرّ منها ليخرج،
 وأسرعت هي وراءه لئلا تمنعه عن الخروج، فتعلقت بقميصه من خلفه
 ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ اجتذبت من ورائه فانقدّ قميصه، والقُدّ: الشئ طويلاً
 أي انشق طويلاً نصفين ﴿وَأَلْفَيَا﴾ وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ أي زوجها وكانت المرأة
 تقول لزوجها: سيدي، ولذا لم يقل: سيدهما ﴿لَدَا الْبَابِ﴾ وحين رآته
 المرأة خافت التهمة، فسبقت بالقول ﴿قَالَتْ﴾ لزوجها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ
 بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ من الزنا ونحوه، أي ليس جزاؤه ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

إيهاماً بأنها فَرَّتْ منه، تبرئةً لساحتها عند زوجها، وإغراءه بيوسف انتقاماً منه، والمراد بـ ﴿عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ قيل: الضرب بالسوط، وعن ابن عباس القيد، وإنما بدأت بالسجن لأن المحبَّ لا يشتهي إيلاء المحبوب، إنما أرادت أن يُسجن عندها يوماً أو أقل، لا الحبس الدائم، فإنه لا يُعَبَّرُ بهذه العبارة، بل يقال: يجب أن يُجعل من المسجونين، كما قال فرعون لموسى: ﴿لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾^(١) وقيل: إنها جمعت فيها غرضيها: وهما تبرئة ساحتها، واستنزال يوسف عن رأيه، في استعصائه عليها بإلقاء الرعب في قلبه.

﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾^(٢)

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ أي طالبتني بالجماع لا أني أردت بها سوءاً كما زعمت، وإنما قاله عليه السلام لتتريه نفسه عما أُسند إليه من الخيانة، ودفع ما عرضته من السجن أو العذاب، ولولا ذلك لكتف عليها ولم يفضحها، وفي التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب، مراعاة لحسن الأدب، مع الإيماء إلى الإعراض عنها ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل: هو ابن عمها، وقيل: كان ابن خالها، وإنما ألقى الله سبحانه الشهادة، إلى من هو من أهلها، ليكون أدل على نزاهته وأنفى للتهمة عنه، وكان طفلاً في المهد، أنطقه الله تعالى ببراءته عليه السلام، وقد ورد عنه ﷺ: «تكلم أربعة في المهد وهم صغار: ابنُ ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحبُ جريج، وعيسى ابن مريم»^(٣) ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ﴾ أي من قدام ﴿فَصَدَقَتْ﴾ في قولها أنه يريد بها

(١) سورة الشعراء، آية: ٢٩.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في المسند وابن حبان، والحاكم من حديث ابن عباس

مرفوعاً، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٢٤٧.

الفاحشة، وهي ممانعة تدافع عن نفسها ﴿وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ لأنه يدكُّ على أنها شقت قميصه من قُدَّامه، بالدفع عن نفسها.

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأنه يدكُّ على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فشقت من خلف، وشهادة الطفل الذي أنطقه الله كافية في بيان صدقه، لأنها كانت بتأييد من الله عزَّ وجل، حيث سحر له هذا الطفل وهو في المهد، ليشهد بعفته وصدقه بالحجة الدامغة، وهناك دلائل أخرى كثيرة تشير على صدقه، منها أنه كان مملوكاً، والمملوك لا يتجاسر أن يتسلط على سيده، ومنها أنهم شاهدوا يوسف يغدو هارباً، ومنها أنهم رأوا المرأة قد تزينت ولبست أجمل حُلِيِّها، ومنها أنهم عرفوا يوسف في المدة الطويلة، فلم يروا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذه الجريمة، وغير ذلك، فلما حصلت هذه الأمارات، الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة من المرأة، استحي الزوج وسكت، وعلم صدق يوسف، وكان بليد الحسن، عديم الغيرة.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَذِبِكُنَّ إِنَّ كَذِبَكُنَّ عَظِيمٌ﴾

﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ أي السيد عزيز مصر ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي ثوبه قد شُقَّ من خلف، تنبَّه وعلم حقيقة الحال ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ أي هذا الأمر وهو المراودة وشق الثوب من وراء ﴿مِنْ كَذِبِكُنَّ﴾ أي من احتيالكنَّ أيتها النساء ومكركنَّ، وهذا تكذيب لها وتصديق له عليه السلام، وتعميم الخطاب للتنبيه على أن الكيد خلُقَ لهنَّ عريق ﴿إِنَّ كَذِبَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإنه اللفظ، وأعلق بالقلب، وأشدُّ تأثيراً في النفس، قال بعض الصالحين: إني أخاف من النساء، ما لا أخاف من الشيطان، فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ

الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿١٢٨﴾ وقال عن النساء ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ولأن الشيطان يوسوس سرقة وخفية، وهنَّ يواجهن به الرجال علناً.

﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (١٢٩).

﴿يُوسُفُ﴾ أي يا يوسف، حُذِفَ حرف النداء لقربه وكمال تفتنه للحديث ﴿أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ أي هذا الأمر، واكتمه ولا تحدّث به أحداً، فقد ظهر صدقك، ثم التفت إلى المرأة فقال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ الذي صدر منك، وثبت عليك ﴿إِنَّكَ كُنتِ﴾ بسبب ذلك ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من جملة القوم المتعمّدين للذنب، يقال خطيء إذا أذنب عمداً فهو خاطيء، وأخطأ إذا أراد الصواب فصار إلى غيره، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، والظاهر أن قائل ذلك هو «العزیز» قيل كان رجلاً حليماً، والأصوب أنه كان قليل الغيرة، فلذلك أراد طيَّ بساط الخيانة، فاقصر على هذا القول، لإخفاء الجريمة، وطمس معالمها.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنَّا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٣٠).

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ أي جماعة من النساء، روي عن مقاتل أنهن خمس: امرأة الخباز، وامرأة الساقى، وامرأة البواب، وامرأة السجّان، وامرأة صاحب الدواب ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي أشعن الأمر وأشهرنه في مصر، إغاظَةً لها، وتشهيراً بعملها القبيح، حيث عشقت خادماً، وعبداً مملوكاً لها ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ أريد به «قطفير» لأنه كان على خزائن الملك، وإضافتهن لها إليه بهذا العنوان، دون أن يصرّحن باسمها أو اسمه، ليظهر كونها من ذوات الجاه والسلطان، فيكون عوناً على إشاعة الخبر، بحكم أن النفوس

إلى سماع أخبار ذوي الأخطار أميل ﴿تُرَوِّدُ فَنَنْهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي تطلب موافقته إياها، لتنال شهوتها منه، وإيثارهن صيغة المضارع، ﴿تُرَوِّدُ﴾ للدلالة على دوام المراودة، وتعبيرهن بفتاها - يعني عبدها - للهوان، والإشباع في اللوم، فإن من لا زوج لها من النساء، قبيح منها مراودة الخدم، فكيف بمن هي سيدة في القصر، وزوجة لعزيز مصر، فمراودتها لغيره لا سيما لعبدها، وتماديها في ذلك، غاية الغي ونهاية الضلال، والفتى من الناس الطري من الشبان، ويطلق على المملوك والخدام، وأطلق على يوسف هنا، لأنه كان يخدمها، فهو مملوكها، وكل ذلك للمبالغة في اللوم ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي شق حُبُّه شَغَاف قلبها وهو حجابُه فالمعنى: وصل حُبُّه إلى سويداء قلبها فكاد يحترق ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا﴾ أي لنعلمها علماً، فالرؤية قلبية، واستعمالها بمعنى العلم حقيقة، كاستعمالها بمعنى الإحساس بالبصر ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الرشد، وبعيد عن الصواب ﴿مُيَبِّنٍ﴾ أي واضح لا يخفى كونه ضلالاً على أحد.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِئًا وَهَاتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهنَّ وسوء مقاتلهنَّ، وتسميته مكرراً لكونه خفية منها، كمكر الماكر، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن إلى زيارتها في قصرها ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أي هيات ﴿لَهُنَّ مُتَّكِئًا﴾ ما يتكئن عليه من الوسائد والنمارق، ورتبت لهن مجلس طعام، وشراب، ومن طريقة القوم، أنهم يتكئون للطعام والشراب والحديث، كعادة المترفين ﴿وَهَاتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لتستعمله في قطع ما يعهد قطعه من اللحوم والفواكه ونحوها، وهن متكئات، وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف وهنَّ مشغولات بمعالجة السكاكين، وإعمالها فيما بأيديهن من الفواكه،

وكانت قد خبأت يوسف في مكان آخر ﴿أَخْرَجَ عَلَيْنَ﴾ أي ابرز لهن، والظاهر أنها لم تأمره بالخروج، إلا لمجرد أن يرينه فيحصل مرامها، وقيل أمرته بالخروج للخدمة ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أي فخرج عليهن فرأينه، ﴿أَكْبَرَتْهُ﴾ أي أعظمته، ودهشن عند رؤيته لأنهن رأين الجمال العظيم، بتلك الهيئة الملكية بنور النبوة، فتعجبين ووقعت المهابة في قلوبهن، فنسين أنفسهن ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بما في أيديهن من السكاكين، وفي التعبير عن الجرح بالقطع، ما لا يخفى من الدلالة على كثرة جراحهن، ومع ذلك لم يشعرن بذلك ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي تنزيهاً لله سبحانه، عن صفات العجز، وتعجباً من قدرته جل وعلا على مثل ذلك الصنع البديع، ﴿حَاشَ﴾ أصله حاشا فحذف ألفه الأخير تخفيفاً، وهو اسم بمعنى التنزيه ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ لأن هذا الجمال والكمال غير معهود للبشر، نفين عنه البشرية لما شاهدن من جماله ﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق، والكمال الفائق، والعصمة البالغة، من خواص الملائكة، وغرضهن من هذا وصفه بأنه في أقصى مراتب الحسن والجمال.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرْتُ لَيْسَجَنَّ وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ﴾ الخطاب للنسوة والإشارة إلى يوسف، فوضع «ذلك» موضع «هذا» رفعاً لمنزلة المشار إليه، والمعنى: إن كان الأمر كما قلتن، فذلكنَّ المَلَكُ الكريم الخارج في الحسن عن البشرية هو ﴿الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ أي غيرتني في الافتتان فيه، فهو ذلكن العبد الكنعاني، فالآن قد علمتن من هو؟ وما قولكن فينا؟ ولما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرها، كشفت لهن بقية سرها فقالت: ﴿وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ حسبما قلتن وسمعتن ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ امتنع طالباً للعصمة، وهو يدل على الامتناع البليغ، وفيه برهان نير على أنه لم يصدر عنه شيء مخل باعتصامه من الهم

وغيره، والاستعصام بناءً مبالغته، يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة، ثم إنها بعد أن اعترفت لهن بما سمعته، وأظهرت من إعراضه عنها واستعصامه، ذكرت أنها مستمرة على ما كانت عليه فقالت ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمُرُّهُ﴾ أي أمر به من مطاوعتي ﴿لَيْسَ جَنًّا﴾ أثرت بناء المفعول جرياً على رسم الملوك، وعبرت عن مراودتها بالأمر إظهاراً لجريان حكومتها عليه ﴿وَلَيْكُونَا﴾ بالمخففة ﴿مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ أي الأذلاء في السجن، وإنما بالغت في ذلك، بمحضر من تلك النسوة، لمزيد غيظها لإصراره على عدم بلّ غليلها، ولتعلم يوسف أنها ليست في أمرها على خيفة ولا خفية من أحد، لينصحن له ويرشدنه إلى موافقتها.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ مناجياً لربه عز وجل ﴿رَبِّ السِّجْنُ﴾ الذي أوعدتني بالإلقاء فيه ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أي آثر وأفضل عندي ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ من مواداتها التي تؤدي إلى الشقاء، والعذاب الأليم، وهذا الكلام منه مبني على ما مر من انكشاف الحقائق لديه، وصيغة التفضيل ليست على بابها، إذ ليس له شائبة محبة لما دعت إليه، وإنما هو والسجن شران، أهونهما السجن، وإنما أسند الدعوة إليهن جميعاً، لأن النسوة رعبته في مطاوعتها، وخوفته من مخالفتها، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾ أي وإن لم تدفع ﴿عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إليّ وتحسينه لديّ، بأن تثبتني على العصمة والعفة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي أمل إلى إجابتهن، بحكم الغريزة والقوة الشهوية، وهذا فرغ منه إلى الطاف الله سبحانه، جرياً على سنن الأنبياء والصالحين، في قصر نيل الخيرات، والنجاة من الشرور، على الله تعالى ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين لا يعملون بما يعلمون، فالجهل بمعنى السفاهة ضد الحكمة، لا بمعنى عدم العلم.

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٤)

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ دعاءه على أبلغ وجه، وفي إسناد الاستجابة إلى الرب جلّ وعلا، ما لا يخفى من إظهار اللطف به ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ حسب دعائه، بأن ثبته على العصمة والعفة ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لدعاء المتضرعين إليه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم، وما انطوت عليه نياتهم.

﴿ ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ (٣٥)

﴿ ثُمَّ بَدَأَهُمْ ﴾ أي ظهر للعزیز وأصحابه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ﴾ وهي الشواهد الدالة على براءة يوسف من التهمة ﴿ لَيْسَجُجُنَّهُ ﴾ لإرخاء الستر على القيل والقال، وزوجته هي التي أشارت عليه بذلك، وكان مطواعاً لها، زمامه في يدها، تقوده حيث شاءت، روي أنها لما يئست من يوسف عليه السلام، قالت للعزیز: إِنَّ هَذَا الْغُلَامَ قَدْ فَضَحَنِي فِي النَّاسِ، يخبرهم بأني راودته عن نفسه، وأنا لا أقدر على إظهار عذري، فأرى أن تحبسه لينقطع عن الناس ذكر هذا الحديث، فحبسه إرضاء لها ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أي إلى حين انقطاع كلام الناس، خدعت زوجها وجملته على سجنه، حتى تبصر ما يكون منه، أو يحسب الناس أنه المجرم، فلبث في السجن سبع سنين.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَنِیْ أَعَصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَنِیْ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِیْ خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثًا بَلْ إِلَهُ إِنَّا نَرْنٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦)

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ﴾ أي اتفق أنه أدخل حيثن ﴿ السِّجْنَ فَتَيَانٍ ﴾ من فتیان الملك، أحدهما ساقيه، والآخر خبازه، روي أن جماعة من أهل مصر،

ضمنوا لهما مالا ليسماً الملك، في طعامه وشرابه، فأجاباهم إلى ذلك، ثم إنَّ الساقى نكل عن ذلك، ومضى عليه الخباز فسمَّ الخبز، فلما حضر الطعام قال الساقى لا تأكل فإن الخبز مسموم، وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقى: اشربه فشربه فلم يضره، وقال للخباز كله فأبى، فجربه بدابة فهلكت، فأمر بحبسهما، فاتفق أن أدخلا مع يوسف السجن، والظاهر أن دخولهما مصاحبين له، وأنهم سُجنوا في ساعة واحدة ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ وهو السَّاقى ﴿إِنِّي أَرِنِّي﴾ أي رأيتني في المنام ﴿أَعَصِرُ خَمْرًا﴾ أي عبأ، سماء بما يؤول إليه، لأن الخمر لا تعصر ﴿وَقَالَ الْآخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿إِنِّي أَرِنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ أي تنهش منه ﴿نَبْتًا﴾ أخبرنا ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي بتأويل ما ذكرنا من الرؤيا ﴿إِنَّا نَرَاكَ﴾ أي إنا نعتقدك ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يجيدون تعبير الرؤيا، لما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه، وفضله أو من المحسنين لأهل السجن، فقد كان إذا مرض منهم رجل قام عليه، وإذا ضاق مكانه أوسع له، وقال لأهل السجن: اصبروا تؤجروا، فقالوا له بارك الله عليك، ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك؟! .

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ .

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ﴾ في مقامكما هذا حسب عادتكما ﴿إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي لا يأتيكما طعام إلا بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ أي قبل أن يصل إليكما، وكان يقول لهما: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، فيجدانه كذلك، وإنما لم يكتف بتأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله، لأنه أراد أن يخرج عما في عهده من دعوة الخلق إلى الحق، فمهَّد قبل الخوض في ذلك مقدمة،

تزيدهما علماً بعظم شأنه، وثقة بأمره، توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه، وأورد عليهما ما دلّ على كونه رسولاً من عند الله، واجتهد في أن يدخلهما في الإسلام، ثم أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والمنجمين، بل هو فضلٌ إلهي يؤتاه من يشاء، ممن يصطفيه للنبوّة فقال: ﴿ذَلِكَمَّا﴾ أي ذلك التأويل والإخبار عن المغيبات ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ بالوحي والإلهام، ثم بين أن نيل الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه وامتناعه عن الشرك فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وهو استئناف وقع جواباً عن سؤال، فكأنه قيل: لماذا علمك ربك؟ فقيل: لأنني تركت ملة الكفرة، والمراد بتركها الامتناع عنها رأساً، لا تركها بعد ملاستها، عبّر به عن ذلك استجلاباً لهما، لأن يتركا تلك الملة التي هم عليها ﴿وَهُمْ﴾ أهل مصر ﴿بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي على الخصوص دون غيرهم من الكنعانيين الذين هم على ملة إبراهيم.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعني أنه إنما حاز هذه الكمالات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام، وهي الملة الحنيفة وإنما قال ذلك ترغيباً لصاحبيه بالإيمان والتوحيد، وتمهيداً للدعوة، ولذا أظهر أنه من بيت النبوة، ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه ﴿مَا كَانَتْ﴾ أي ما صحَّ وما استقام ﴿لَنَا﴾ معاشر الأنبياء ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيء كان، من ملك أو جن، أو إنس، فضلاً عن الجماد، ولا أن نشرك به شيئاً من الإشراك ولو قليلاً ﴿ذَلِكَ﴾ أي التوحيد والإيمان ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي والنبوة، وترشيحه لنا لقيادة الأمة وهدايتهم إلى الحق، وذلك مع كونه فضلاً عظيماً علينا بالذات ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ كافة بواسطتنا ﴿وَلَكِنْ

أَكْثَرَ النَّاسِ ﴿المبعوث إليهم﴾ ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يوحدون، عبّر عن عدم التوحيد بعدم الشكر، لأن التوحيد شكرٌ لله عزَّ وجل على تلك النعمة، حيث أعطانا عقولاً ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد، وقد أعطى سائر الناس مثلنا ولكن أكثرهم لا يستعملون تلك القوى فيما خلقت له.

﴿يَصْحَبِي السَّجْنَ ءَازْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

﴿يَصْحَبِي السَّجْنَ﴾ أي يا صاحبي في السجن، ناداهما بعنوان الصحبة التي فيها تصفو المودة، وتخلص النصيحة، ليقبلا عليه، ويقبلا مقالته، وقد ضرب لهما مثلاً، يتضح به الحق عندهما ﴿ءَازْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ لا ارتباط بينهما، مختلفة في الكبر والصغر، واللون والشكل لأن الناحية يجعلها على تلك الصورة ﴿خَيْرٌ﴾ لكما ﴿أَمِ اللَّهُ﴾ أم عبادة الله المعبود بالحق ﴿الوَاحِدُ﴾ المتفرد بالالوهية ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يغالبه أحد؟.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون الله شيئاً ﴿إِلَّا أَسْمَاءَ﴾ فارغة لا حقيقة لها في الخارج، فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ جعلتموها آلهة ﴿أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾ بمحض الجهل والضلال ﴿مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي بتلك التسمية المستتعبة للعبادة ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ حجة تدل على صحتها، وكانوا يقولون: إن الله تعالى أمرنا بهذه التسمية، فرد الله عليهم ﴿إِنَّ الْحُكْمَ﴾ في أمر العبادة ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ عزَّ وجل إذ هو الواجب بالذات،

الموجد للكل، والمالك لأمره، ثم بين ما حكم به فقال: ﴿أَمَرَ﴾ على السنة أنبيائه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الذي دلت عليه الحجج، وتقتضي به قضية العقل ﴿ذَلِكَ﴾ أي تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿الَّذِينَ الْقِيَمُ﴾ الثابت الذي دلت عليه البراهين عقلاً ونقلاً ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين فيعبدون أسماء سموها من عند أنفسهم، معرضين عما يقتضيه العقل والنقل.

وبعد تحقيق الحق، ودعوتهما إليه، شرع في تعبير ما استفسراه فقال:

﴿يَصْحَجِي السَّجَنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

﴿يَصْحَجِي السَّجَنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ وهو الساقى وإنما لم يعينه، ثقة بدلالة التعبير، وحذراً مما يسوؤه ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ﴾ أي سيده ﴿خَمْرًا﴾ كما كان يسقي من قبل ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ أي الخباز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ أي فيقتل ويعلق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه، ولما فسر لهما الرؤيا جحدا وقالوا: ما رأينا شيئا، قال عليه السلام ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي قطع الأمر الذي تستفتيان فيه، وفرغ منه وهو ما يؤول إليه أمركما، والمشهور إن الرؤيا تقع كما تُعَبَّر، ولذا قيل: المنام على طائر إذا قُصَّ وقع.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ يَضَعُ سِنَّينَ﴾.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ﴾ أوتر على صيغة المضارع مبالغة

في الدلالة على تحقيق النجاة، وهو السرُّ في إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال للذي ظنه ناجياً ﴿مَتَّهِمَا﴾ أي من صاحبيه، وإنما ذكر بوصف النجاة تمهيداً لمناط التوصية بالذكر عند الملك ﴿أَذْكُرْنِي﴾ بما أنا عليه من الحال والصفة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ سيدك، وصفني له بصفتي التي شاهدتها ﴿فَأَنسَنُ الشَّيْطَانُ﴾ أي أنسى ذلك الناجي بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالاً يذهل بها عن التذكر، ﴿ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي ذكر يوسف عند الملك بتقدير المضاف أي ذكر أخبار ربه ﴿فَلَيْتَ﴾ أي فمكث يوسف بسبب ذلك النسيان ﴿فِي السِّجْنِ يَضَعُ سِجْنَيْنِ﴾ البضع: ما بين الثلاث إلى السبع، كما روي عن مجاهد، وقال أبو عبيدة: من الواحد إلى العشرة، والمراد به هنا في أكثر الأقاويل سبع سنين، وهي مدة لبثه كلها فيما صحَّحه البعض، وعن النبي ﷺ: «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها ما لبث في السجن ما لبث»^(١) والاستعانة بالعباد في كشف الشدائد مما لا بأس به، فقد قال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ فلا يُعَاتَب عليه السلام في ذلك، إلا أنه اللائق بمناصب الأنبياء ترك ذلك، والذي جربته من أول عمري إلى الآن الذي بلغته فيه إلى السابع والخمسين أن الإنسان كلما عوّل في أمر من الأمور على غير الله، صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة، وإذا عوّل على الله حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، وإذا أراد الله شيئاً هياً أسبابه، ولما دنا خروج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته، وهي كما قصها القرآن.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
وَسَبْعَ سُبُلَاتٍ خُضِرَ وَأَخْرَ يَأْسَتِ يَتَأَيَّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رَأْيِي إِنْ
كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

(١) أخرجه ابن حرير الطبري عن ابن عباس مرفوعاً، وذكره ابن كثير ٤٩٧/٢ وقال: هذا الحديث ضعيف جداً.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ وهو الريان وكان كافراً، ففي إطلاق ذلك عليه دلالة على جواز تسمية الكافر ملكاً ﴿إِنِّي أَرَى﴾ أي رأيتُ، وإيثار صيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية ﴿سَبَّحَ بِقُرْبَتِ سَمَانٍ﴾ ممثلات لحماً وشحمًا ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ أي أكلهنَّ ﴿سَبَّحَ عَجَافٌ﴾ أي سبع بقرات مهزولة جداً، عَجَفَ الفرسُ ضَعُفَ، فهو أعجف، وجمع الأعجف عجافٌ، روي أنه رأى سبع بقرات سمانٍ، خرجن من نهر يابس، ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف، فابتلعت السَّمان، ولم يتبين عليها منه شيء ﴿وَسَبَّحَ سُبُلُكُنَّ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حبها ﴿وَأُخْرٍ﴾ أي وسبعاً آخر ﴿يَأْسَتُ﴾ قد أدركت ولتوت على الخضر حتى غلبتها، ولم يبق من خضرتها شيء ﴿يَتَأَيَّهَا الْمَلَأُ﴾ خطاب للأشراف من أهل العلم، يروى أنه جمع السحرة والكهنة والمعبرين فقال يا أيها الملأ ﴿أَفْتَوْنِي فِي رُؤْيَايَ﴾ هذه أي عبَّروها أو بيَّنوا ما تؤول إليه من العاقبة ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي تعلمون علم التعبير، وهي الانتقال من الصورة المشاهدة في المنام إلى ما هي صورة لها من الأمور الآفاقية والأنفسية الواقعة في الخارج، من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر إذا قطعته وجاوزته.

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلُمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلُمِ بِعَالِمِينَ﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي قال الملأ للملك هي ﴿أَضْغَتْ أَحْلُمٌ﴾ أضغاث جمع ضغث، وهو في الأصل ما جمع من أخلاط النباتات، ثم استعير للرؤيا الكاذبة، واحتلم رأى في منامه رؤيا، والرؤيا، والحُلُم عبارة عما يراه النائم مطلقاً، لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحُلُم على خلافه، وفي الحديث الشريف: «الرؤيا من الله، والحُلُم من الشيطان»^(١) وإنما قالوا أضغاث أحلام بالجمع مع أن الرؤيا ما كانت

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٠٨/١٠ في الطب، ومسلم رقم ٢٢٦٢ في الرؤيا، =

إلا واحدة، للمبالغة في وصف ذلك بالبطلان، كما يقال فلان يركب الخيل ويلبس العمائم، ولا يخفى حسن موقع الأضغاث مع السنايل، فله دُرُّ شأن التنزيل، ما أبدع رياض بلاغته!! ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة وهذا اعتراف منهم بقصور علمهم، مع أن لها تأويلاً.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ۖ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥).

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ من صاحبي يوسف في السجن، وهو الساقى ﴿وَادَّكَرَ﴾ بالبدال وأصله إذتكر، أبدلت التاء دالاً وأدغمت، والمعنى: تذكر ما سبق له مع يوسف عليه السلام ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي طائفة من الزمان ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي أخبركم به بالتلقي عن عند علمه، لا من تلقاء نفسي، ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها، وعقبه بقوله: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى من عنده علمه في السجن، والخطاب للملك والملا، وكان السجن على ماروي عن ابن عباس في غير مدينة الملك، فأرسل إليه فاتاه فقال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُبُلُكٍ خُضِرٍ وَأُخْرَىٰ يَأْكُلْنَ لَعَلَّهُنَّ نَعْلَمُونَ﴾ (٤٦).

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أي يا يوسف ووصفه بالصدّيقية وهي المبالغة في الصدق، حسبما شاهده وجرب أحواله، ولكونه بصدد اغتنام آثاره فهو

= وللحديث تمتة، وهي «إذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه، فينفث حين يستيقظ ثلاث مرات، ويتعوّذ من شرّها، فإنها لا تضرّه».

من براءة استهلال ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أي في رؤيا ذلك، أعاد السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك، ونعم ما فعل، فإن تعبير الرؤيا يختلف باختلاف اللفظ، أي بيّن لنا تفسير هذه الرؤيا العجيبة ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ أي أعود إلى الملك ومن عنده فأنبئهم بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون فضلك فيطلبوك ويخلصوك من محتك، وإنما لم ييت القول بل قال لعلي مجازاة معه عليه السلام على نهج الأدب، واحترازاً عن المجازفة إذ لم يكن على يقين إما لعدم علمهم أو لعدم اعتمادهم.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (١٧)

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ على عاداتكم المستمرة، والدأب العادة المستمرة، وقد أوّل عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، فأخبرهم بأنهم يوظفون على الزراعة سبع سنين وبيالغون فيها إذ بذلك يتحقق الخصب، فالجملة خير لفظاً أمرٌ معنى، ودلهم في تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ في كل سنة ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ كيلا يأكله السوس، فإن إبقاء الحبة في سنبُلها يوجب بقاءها على الصلاح ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي اتركوا ذلك في السنبُل، إلّا ما لا غنى عنه، من القليل الذي تأكلونه في تلك السنين، وفيه إرشاد لهم إلى التقليل في الأكل، وبعد إتمام ما أمرهم به، شرع في بيان بقية التأويل التي يظهر منها حكمة الأمر المذكور فقال:

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ (١٨)

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد السنين السبع المذكورات ﴿سَعً شِدَادٌ﴾ الشدادُ: الصَّعَابُ التي تشدُّ على الناس، أي صعاب على الناس ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ من الحبوب المتروكة في سنابلها، وفيه تنبيه على أن أمره بذلك كان لوقت الضرورة، وفيه تلويح بأنه تأويل لأكل العجاف السَّمانَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِتُونَ﴾ تحززون لبذور الزراعة من الحصن وهو الحرز والملجأ.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدخرة ﴿عَامٌ﴾ لم يعبر عنه بالسنة تحاشياً عن المدلول الأصلي لها من عام القحط، وتنبيهاً من أول الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق والعام كالسنة لكن كثيراً ما يستعمل فيما فيه الرخاء والخصب، والسنة فيما فيه الشدة والجذب ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ من الغيث أي يمطرون، غاث الله البلاد غيثاً أنزل بها المطر أو من الغوث أغاثهم الله: كشف شدتهم، والأول قاله ابن عباس ومجاهد والجمهور ﴿وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾ أي ما من شأنه أن يعصر من العنب، والقصب، والزيتون، ونحوها لكثرتها، وقيل: معنى ﴿يَعْرِضُونَ﴾ يحلبون الضروع، وأحكام هذا العام المبارك غير مستنبطة من رؤيا الملك، وإنما تلقاها من جهة الوحي فبشرهم بها بعدما أول الرؤيا، وأمرهم بالتدبير اللائق، إبانة لعلو كعبه.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَذِبِينَ عَلِيمٌ﴾

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ بعدما جاء السفير بالتعبير، وسمع منه ما سمع واستحسنه، وعرف علمه وفضله ﴿أَتُؤْتِي بِهِ؟﴾ حتى أبصره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾

الرَّسُولُ ﴿ وَقَالَ لَهُ إِنَّ الْمَلِكَ يَرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ، فَأَبَى أَنْ يَخْرُجَ حَتَّى تَظْهَرَ بَرَاءَتُهُ، وَيُعْلَمَ أَنَّهُ سُجْنٌ ظُلْمًا ﴾ قَالَ ﴿ يَوْسُفُ لِلرَّسُولِ ﴿ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أَي سِيدِكَ وَهُوَ الْمَلِكُ ﴿ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أَي فَاسَأَلَهُ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ شَأْنِهِنَّ وَحَالِهِنَّ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ: فَاسَأَلَهُ أَنْ يَفْتَشَ عَنْ ذَلِكَ، حَتَّى لِلْمَلِكِ عَلَى الْجَدِّ فِي التَّفْتِيشِ، لَتَتَبِينَ عَفْتَهُ وَبَرَاءَتَهُ، فَإِنْ السُّؤَالُ عَنِ الشَّيْءِ مِمَّا يَهْجِجُ الْإِنْسَانَ لِلْبَحْثِ، لِأَنَّهُ يَأْتِي مِنَ الْجَهْلِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَتَعَرَّضْ لَامْرَأَةِ الْعَزِيزِ، تَأْدِيبًا وَتَكْرُمًا، وَأَمَّا النِّسْوَةُ فَقَدْ كَانَ يَطْمَعُ بِشَهَادَتِهِنَّ عَلَيْهَا، وَلِذَلِكَ اقْتَصَرَ عَلَى وَصْفِهِنَّ بِتَقْطِيعِ الْأَيْدِي، وَلَمْ يَصْرَحْ بِمَرَاوَدَتِهِنَّ لَهُ، وَقَوْلُهُنَّ «أَطْعَ مَوْلَاتِكَ» وَاکْتَفَى بِالْإِيْمَاءِ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ رَبِّي يَكِيدُ هِنَّ عَلِيمٌ﴾ أَرَادَ بِهَذَا أَنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ، لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، أَوْ اسْتَشْهَدَ بِعِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُنَّ كَدْنَهُ، الْاجْتِهَادُ فِي نَفْيِ التَّهْمِ وَاجِبٌ، قَالَ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَقْفُزُ مَوَاقِفَ التَّهْمِ» فَلَعَلَّهُ خَشِيَ أَنْ يَخْرُجَ غَيْرَ مُتَّضِحٍ بَرَاءَةً سَاحَتِهِ مِمَّا سُجْنُ فِيهِ، حَتَّى لَا يَتَسَلَّقَ الْحَاسِدُونَ إِلَى تَقْبِيحِ أَمْرِهِ وَيَجْعَلُونَهُ سُلْمًا إِلَى حُطِّ قَدْرِهِ، طَلَبَ السُّؤَالُ عَنْ حَالِهِ، وَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَلِكِ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ جَمَعَ النِّسْوَةَ وَامْرَأَةَ الْعَزِيزِ مَعَهُ.

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ لَهُنَّ ﴿ مَا خَطْبُكُمْ ﴾ مَا شَأْنُكُمْ؟ وَالْخَطْبُ أَمْرٌ يَحِقُّ أَنْ يَخَاطَبَ فِيهِ صَاحِبُهُ، وَأَصْلُهُ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَحِقُّ لِعَظَمَتِهِ أَنْ يَكْثُرَ فِيهِ التَّخَاطُبُ ﴿ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ ﴾ وَخَادَعْتَهُ ﴿ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أَي هَلْ وَجَدْتُنَّ مِنْ يَوْسُفَ مِيلًا إِلَيْكَ شَيْئًا مِنْ سُوءٍ وَرَبِيَّةٍ؟ ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تَنْزِيهِهُ لَهُ تَعَالَى وَتَعْجِيبُ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ عَقِيفٍ مِثْلِهِ ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ مِنْ ذَنْبٍ بِالْغِنِّ فِي نَفْيِ جِنْسِ السُّوءِ عَنْهُ بِالتَّكْثِيرِ وَزِيَادَةِ مِنْ ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ ﴾

أي ثبت واستقر الحق وظهر وتبين بعد خفاء ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لا أنه راودني عن نفسي، قيل: أقبلت النسوة عليها يقررنها تأكيداً لنزاهته وكذا قولها ﴿وَأَنْتُمْ لِمَنِ الصَّدِيقَاتُ﴾ أي في قوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ فتأمل أيها المنصف!! هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة، حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها!! «والفضل ما شهدت به الأعداء» ثم رجع الرسول إلى يوسف وأخبره بكلام النسوة وإقرار امرأة العزيز فقال يوسف.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَفِي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك التثبيت المؤدي إلى ظهور حقيقة الحال ﴿لِيَعْلَمَ﴾ أي العزيز ﴿أَفِي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في حرمة كما زعمته ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب أي لم أخنه وهو غائب عني، فالمقصود كمال نزاهته عليه السلام عن الخيانة واجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ أي وليعلم أن الله تعالى ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي لا ينفذه، ولا يسدده بل يبطله، فهداية الكيد مجازاً عن تنفيذه.

ثم إنه عليه السلام أراد أن يتواضع لله تعالى، ويهضم نفسه لثلاث يكون مزكياً لها، وليبين أن هذا بتوفيق الله وعصمته فقال:

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ أي لا أنزّهاها عن السوء من حيث هي هي، ولا أسند هذه الفضيلة إليها، من غير توفيق من الله تعالى، بل إنه بتوفيقه جل شأنه، قاله عليه السلام إبرازاً لسره المكنون في شأن أفعال العباد ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ البشرية التي من جملتها نفسي ﴿لَأَمَّارَةٌ﴾ لكثيرة الأمر ﴿بِالسُّوءِ﴾ أي بجنسه، مائلة إلى الشهوات مستعملة للقوى والآلات في تحصيلها في

كل الأوقات والنفس الواحدة الإنسانية شيء واحد، ولها صفات كثيرة، فإذا مالت إلى العالم الإلهي، كانت نفساً مطمئنة، وإذا مالت إلى الشهوة والغضب، كانت أماراً بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾ الجمهور على أن الاستثناء منقطع، أي لكن رحمة ربي هي التي تصرف عني السوء، ولعل الأولى أن يكون الاستثناء من النفس، أي كل نفس أماراً بالسوء، إلا التي رحمها الله عز وجل، وعصمها عن ذلك كنفي ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ عظيم المغفرة ومبالغ في الرحمة فيعصمها من الجريان على موجب ذلك، وكون تأنيه في الخروج من السجن، لعدم رضاه بملاقاة الملك، وأمره غامض، ففعل ما فعل حتى يتبين نزاهته عليه السلام، وأنه سُجن بظلم، ليتلقاه الملك بما يليق به، من الإعظام والإجلال، وقد وقع.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهَذِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهَذِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ أي أجعله خالصاً لنفسي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ في الكلام إيجاز، أي فأتوا به، فحذف للإيجاز بسرعة الإتيان به، فكانه لم يكن بين الأمر بإحضاره، وبين الخطاب معه زمان أصلاً، والضمير في ﴿كَلَّمَهُ﴾ ليوسف عليه السلام أي فلما كلم الملك يوسف، وشاهد منه ما شاهد، من الدهاء وحسن منطقته، بما صدق الخبر، وعظيم حسن أدبه، وصبره وثباته، فلذلك رغب أن يتخذه خالصاً لنفسه ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ أي ذو مكانة، ومنزلة رفيعة ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كل شيء في المملكة.

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهِنَّ﴾

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر، والمعنى: ولني على أمرها، من الإيراد والصرف ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ أي مبالغ في المحافظة على

منفعة البلاد ﴿عَلَيْهِ﴾ بوجوه التصرف فيها، وفيه دليل على جواز طلب الولاية، إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل، وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان من يد الكافر، والجائر، وفيه أيضاً دليل على جواز مدح الإنسان نفسه بالحق، إذا جهل أمره، وما في الصحيحين عن عبد الله ابن سمرة قال: قال ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكُلتَ إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنتَ عليها»^(١) وارداً في غير ما ذكر، وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده، ولعلَّ إثاره عليه السلام لتلك الولاية، إنما كان للقيام بما هو أهم من أمور السلطنة إذ ذاك، من تدبير أمر السنين، حسبما فُضِّل في التأويل.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التمكين البديع ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ جعلنا له مكاناً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر والتعبير بالتمكين في الأرض، مسنداً إلى ضميره تعالى، من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته، أي مكناً له الأمور، فجلس على سرير الملك، ودانت له البلاد والعباد، وفوض الملك أمره، وأقام العدل في مصر، وأحبّه الرجال والنساء ﴿يَتَّبُوا مِنْهَا﴾ ينزل من قطاعها وبلادها ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها، ودخولها تحت مملكته وسلطانه، فكانها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بعبائنا في الدنيا، من الملك والغنى وغيرهما ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ بمقتضى الحكمة الداعية إلى المشيئة ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفيهم أجورهم عاجلاً وآجلاً، ولدفع توهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ١٢٤/١٣ ومسلم رقم ١٦٥٢ في الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة.

انحصار ثمرات الإحسان فيما ذكر، من الأجر العاجل، قال على سبيل التأكيد:

﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ﴾ أي أجرهم في الآخرة الذي أعدّه الله لهم، وهو النعيم المقيم الذي لا نفاذ له ﴿خَيْرٌ﴾ لهم أي للمحسنين المذكورين ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ نَبّه تعالى على أن المراد بالإحسان، هو الإيمان والثبات على التقوى، المستفاد من جمع صيغتي الماضي والمستقبل، وفي الآية إشارة إلى أن ما أعد الله ليوسف في الآخرة، أفضل مما أعطاه في الدنيا.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ولما اشتد القحط، وعمّ ذلك جميع البلاد، ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس، قال يعقوب عليه السلام لبنيه، بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهزوا له واقتصدوه، لتشتروا منه ما تحتاجون إليه من الطعام، فخرجوا جميعاً غير «بنيامين» وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف مع إخوته وأبويه، وصدق ما أخبره الله تعالى عنه في رؤياه، وكان ابتلاء يوسف في الرؤيا، وكان سبب نجاته رؤيا الملك، أي فجاؤوا ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وهو في مجلس ولايته، وفي زي ملوك مصر ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ لقوة فهمه، وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ، ولكون همته معقودة بمعرفة أحوالهم، لا سيما في زمن القحط، وكان مترقباً لمجيئهم، لما يعرف من تأويل رؤياه ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي والحال أنهم منكرون له لطول عهدهم، وتباين ما بين حاله في نفسه وزيه، ولاعتقادهم أنه هلك، وحيث كان إنكارهم مستمراً أخبر عنهم بالجملة الاسمية، بخلاف عرفانه إياهم فقد كان محققاً، ولذلك أتى بالجملة الفعلية.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتَرُونَ أَنِّي أَؤْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ .

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي أصلحهم بعدتهم من الأمتعة، وأوفر ركابهم بما جاؤوا لأجله من المؤنة والطعام، وأصل الجهاز ما يُعدُّ من الأمتعة للنقلة كعدة السفر، وما تُزفُّ به المرأة إلى زوجها ﴿قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ﴾ لم يقل بأخيكم مبالغة في إظهار عدم معرفته لهم، كأنه لا يدري من هو؟ وإنما قاله لَمَّا سألوا حملاً زائداً لبنيامين فأعطاهم ذلك، واشترط عليهم أن يأتوا به ﴿الْآتَرُونَ أَنِّي أَؤْفِي الْكَيْلَ﴾ أي أتمه لكم، وإيثار صيغة الاستقبال، للدلالة على أن ذلك عادة له مستمرة ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾؟ أي والحال أنني في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم، وكان الأمر كذلك ولم يقله لهم بطريق الامتنان، بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به، والاقتصار على الكيل لأن معاملته معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم وأما الضيافة فليس للناس فيه حق فخصهم لذلك.

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ .

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ من بعد، فضلاً عن إيفائه ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي لا تقربوني بدخول بلادي، وفيه دليل على أنهم كانوا على نية الامتياز مرة أخرى، والظاهر أن ما فعله معهم كان بوحى، وإلا فالبرُّ يقتضي أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه، لكن الله سبحانه أراد تكميل أجر يعقوب عليه السلام في محنته، وهو الفعَّال لما يريد في خليقته.

﴿قَالُوا سَرُّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَعْلُونَ﴾ .

﴿قَالُوا سَرُّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي سنخادعه ونستميله برفق، ونجتهد في

ذلك، وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مثاله ﴿وَإِنَّا لَفَعِلُونَ﴾ ذلك لا محالة ولا نفرط فيه ولا نتوانى.

﴿وَقَالَ لِفَتِيِّنِهِ اجْعَلُوا يَضَعَنَّهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٦).

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفَتِيِّنِهِ﴾ لغلمانه الكياليين ﴿اجْعَلُوا يَضَعَنَّهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ والمراد بها البضاعة التي اشتروا بها الطعام، والزَّخْلُ: كل شيء يُعَدُّ للرحيل من وعاء للمتاع، وجمعه رحال، كالسهم والسهام، أي اجعلوها في أوعيتهم، وإنما فعل ذلك تفضلاً عليهم، وليرجعوا لرد الأمانة، وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه، كما يؤذن به قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ أي يعرفون حق ردها ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ أي رجعوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ فإن معرفتهم لها سبب لعودتهم إلى مصر، لأنهم منزهون عن أكل الحرام، على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في رحالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بأخيهم حسبما أمرتهم به.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٦٧).

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ قالوه قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع، أي حكم بمنعه بعد اليوم، إن لم نذهب بأخيना بنيامين، حيث قال لنا الملك: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ بنيامين إلى مصر ﴿نَكْتَلْ﴾ بسببه من الطعام ما نشاء ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يصيبه مكروه، فلما قالوا ذلك.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٦٨).

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ وقد قلتم في حقه أيضاً ما قلتم، ثم فعلتم ما فعلتم، فلا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أفوض الأمر إلى الله ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظٍ﴾ يعني حفظ الله تعالى خير من حفظكم له ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع عليّ مصيبتين، وهذا ميل منه إلى الإذن والإرسال، لما رأى من المصلحة، ولم يشاهد فيما بينهم وبينه من الحسد، وفيه أيضاً من التوكل على الله تعالى.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَانَا مَا نَبِغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ﴾ أي أوعية طعامهم ﴿وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ﴾ التي كانوا أعطوها ثمناً للطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ تفضلاً وقد علموا ذلك من دلالة الحال ﴿قَالُوا﴾ لأبيهم ﴿يَا بَانَا مَا نَبِغِي﴾ أي ماذا نبتغي ونطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا؟ الداعي إلى امتثال أمره؟ ﴿هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أي هذه بضاعتنا ردها إلينا، بعدما منّ علينا من المنن العظام، ولو كان رجلاً من آل يعقوب لما أكرمنا إكرامه، فهل هناك مزيد فوق هذا الإحسان؟ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي نجلب الميرة والطعام من عند الملك لأهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ حسبما وعدناك ﴿وَنَزْدَادُ﴾ أي بواسطته ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي وسق بعير زائداً على ما أعطيناه سابقاً ﴿ذَلِكَ﴾ ما يحمل أباعرنا ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي مكيل قليل، إشارة إلى ما كيل لهم أولاً، فكانهم قالوا إن ما جئنا به غير كافٍ بنا، فلا بدّ من الرجوع مرة أخرى، ولا يكون ذلك إلا باستصحاب أخينا.

﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾ بعدما عاينت منكم ما عاينت، ممّا أجرى المدامع ﴿ حَتَّى تُؤْتُوا مَوثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أي عهداً موثقاً من الله تعالى، أراد به أن يحلفوا بالله ﴿ لَأَتُنْثِي بِكُمْ ﴾ جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لأتُنْثِي به ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا به ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوثِقَهُمْ ﴾ أي عهدهم من الله تعالى حسبما أراد يعقوب ﴿ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ ﴾ من طلب الموائقة ﴿ وَكَيْلٌ ﴾ مَطْلَعٌ وَرَقِيبٌ على ما نقول، يريد به حثهم على مراعاة ميثاقهم، وتحذيرهم من الغدر، بمعنى أنه موكل إليه تعالى، فإن وفيتم جازاكم بأحسن الجزاء، وإن غدرتم فيه كافأكم بأعظم العقوبات.

﴿ وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

﴿ وَقَالَ ﴾ ناصحاً لهم لما عزم على إرسالهم جميعاً ﴿ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا ﴾ مصر ﴿ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ﴾ نهاهم عن ذلك، حَذْراً من إصابة العين، فإنهم كانوا ذوي جمال، وهيئة حسنة، وقد اشتهروا بين أهل مصر بالزلفى والكرامة عند الملك، فكانوا مظنة لأن يصابوا بالعين إذا دخلوا كوكبة واحدة، وحيث كانوا مجهولين بين الناس، لم يوصهم بالتفرق في المرة الأولى ﴿ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ بيان لما هو المراد بالنهي، وإنما لم يكتف بهذا الأمر، إظهاراً لكمال العناية به، وإصابة العين حق، أثبتها أهل السنة، وهي إنما تكون بتقدير العزيز الحكيم، فقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ...»^(١) يعني إصابة النفس بواسطتها، أمر كائن

(١) أخرجه البخاري ٢٠٣/١٠ بلفظ «العين حق»، ونهى عن الوشم»، ومسلم رقم ٢١٨٧.

لا شبهة في تحققه، وهو كسائر الآثار المشاهدة، نحو النار، والماء، والأدوية، لأن مدار كل شيء المشيئة الإلهية، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وحكمة خلق الله التأثير في العين مجهولٌ لنا، فقد صرحوا بأن الأدعية والرُقى من جملة الأسباب، لدفع أذى العين، وقد كان ﷺ يعوذ الحسن والحسين بقوله: «أعيذكما بكلماتِ الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عينٍ لامة»^(١) ومن الدعاء: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، حصنتُ نفسي بالحي القيوم، الذي لا يموتُ أبداً، ودفعتُ عنها الشوء بألف ألفٍ لا حول ولا قوة إلا بالله» وليس من شرط التأثير أن يكون بالكيفيات المحسوسة، بل قد يكون التأثير نفسانياً، والذي يدل عليه، أن اللوح الذي يكون قليل العرض، إذا كان موضوعاً على الأرض، قَدَر الإنسان على المشي عليه، ولو كان موضوعاً بين جدارين عاليين، لعجز عن المشي عليه، وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط، يوجب سقوطه، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة، ولا يمتنع كون هذا التأثير مؤثراً في سائر الأبدان، وأيضاً إن الإنسان إذا تصور أن فلاناً مؤذٍ له، حصل في قلبه غضب فمبدأ ذلك ليس إلا التصور النفساني ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ﴾ أي لا أنفعكم، ولا أدفع عنكم بتدبيرى ﴿مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيئاً مما قضى عليكم، فإن الحذر لا يمنع القدر، ولم يرد به إلغاء الحذر، كيف لا وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ بل أراد أنَّ ما وصَّاهم به تدبير في الجملة، وإنما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر، بل هو امتثال بأمره، واستعانة به، وهربٌ منه إليه ﴿إِنَّ الْحُكْمَ﴾ أي ما الحكم مطلقاً ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على أحد سواه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في كل ما آتى وأذر، وفيه دلالة على أن ترتيب الأسباب غير

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٤٠٨/٦.

مخل بالتوكل ﴿وَعَلَيْهِ﴾ دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكل.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهُ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٨).

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ من الأبواب المتفرقة من البلد، ودخلوا متفرقين ﴿مَا كَانَ﴾ ذلك الدخول ﴿يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ أي ينفعهم أو يدفع عنهم ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ من جهته تعالى ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيئاً قضاءه تعالى عليهم، أي ولما فعلوا ما وصاهم به، لم ينفعهم ذلك شيئاً، ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ كائنة ﴿فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهُ﴾ أي أظهرها ووصاهم بها، فالمعنى: ما كان ذلك الدخول يغني عنهم من جهة الله شيئاً، ولكن قضاء حاجة حاصلة في نفس يعقوب، وهي خوف إصابة العين ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي يعقوب عليه السلام ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ جليل ﴿لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بالوحي والنبوة حيث لم يعتقد أن الحذر يمنع القدر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أسرار القدر ويزعمون أنه يغني عنه الحذر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩).

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ بنيامين أي ضمّه إليه في الطعام والسكن روي أنهم لما دخلوا عليه قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسستم، فأكرمهم ثم أضافهم، وأجلسهم مثنى مثنى، فبقي بنيامين وحيداً، ثم أنزل كل اثنين بيتاً، فقال: هذا لا ثاني له، فيكون معي، فلما خلا به قال له يوسف: فهل لك من أخ لأملك؟ قال: كان لي

أخ فهلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاً بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل؟ فبكى يوسف وقام إليه وعانقه ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي فلا تحزن ﴿يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير، ولا تعلمهم بما أعلمتك.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسْرِقُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ ووفى لهم الكيل، وهيا لهم أسباب السفر ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ المشربة التي كان الملك يشرب فيها، قيل من ذهب وقيل من فضة مرصعة بالجواهر وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال به الحبوب والأولى أن يقال كان شيئاً له قيمة ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين، والظاهر أنه لم يباشر بنفسه، بل أمر أحداً فجعلها ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين من حيث يشعر أو لا يشعر، وأمهلهم حتى انطلقوا ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى مناد ﴿أَتَتْهَا الْعِيرُ﴾ العير بالكسر: الإبل تحمل الميرة، ثم غلب على كل قافلة لأنها تذهب وتجيء، والمراد أصحابها ﴿إِنَّكُمْ لَسْرِقُونَ﴾ هذا الخطاب إن كان بأمر يوسف عليه السلام فلعله أريد بالسرقة أخذهم له عن أبيه على وجه الخيانة، وإلا فهو من قبل المؤذن بناءً على زعمه، والذي يظهر أن هذا التحايل ورمي البراء بالسرقة وإدخال الهم على يعقوب عليه السلام بوحى من الله تعالى، لما علم سبحانه في ذلك من الصلاح، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ كَذَبْنَا لِيُوسُفَ﴾.

﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي الإخوة ﴿وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي على طالبي السقاية المفهوم من الكلام، أي قالوا مقبلين عليهم ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ أي أي شيء ضاع

عنكم؟ والعدول عن قولهم ماذا سرق منكم؟ فيه إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب، فلذا غيروا كلامهم، حيث تلطفوا بعد ذلك.

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ (٧٧).

﴿قَالُوا﴾ أي في جوابهم ﴿نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾ الصَّوَاعُ: المكيال وهو السقاية، ولم يقولوا: سرقتموه، أو سُرِقَ امتثالاً للأدب، أي قالوا: ضاع منا مكيال الملك المرصع بالجواهر ﴿وَلَمَن جَاءَ بِهِ﴾ من عند نفسه مظهراً له قبل التفتيش ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ كفيل أوديه إلى من رده، وفيه دليل على جواز الجعالة وضمان الجغل.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٨).

﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قسم وفيه تعجيب، كأنهم تعجبوا من رميهم بما ذكر، مع ما شاهدوه من حالهم واشتهارهم بالعفة والصلاح، ولذا قالوا ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ علماً جازماً مطابقاً للواقع ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لنسرق فإن السرقة من أعظم أنواع الإفساد ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أي وما كنا نوصف قط بالسرقة.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٩).

﴿قَالُوا﴾ أي أصحاب يوسف ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي فما جزاء سرقته في شريعتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي في ادعاء البراءة.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٨٠).

﴿قَالُوا﴾ أي الإخوة ﴿جَزَاءُ مَنْ تُحَدِّثُ﴾ أي أخذ من وجد الصواع ﴿فِي رَحْلِهِ﴾ بأن يسترق ويصبح مملوكاً ﴿فَهُوَ جَزَاءُ﴾ تقرير لذلك الحكم، أي فأخذه جزاؤه، كقولك حق الضيف أن يكرم، فهو حقه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿يُخْزَى الظَّالِمِينَ﴾ بالسرقة، تأكيد للحكم المذكور وبيان لقبح السرقة، ولقد قالوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها، وهم عما فعل بهم غافلون.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف، قيل إن أخوة يوسف لما أقروا أنَّ جزاء السارق أن يستعبد سنة، قال أصحاب يوسف لا بد من تفتيش رجالكم، فردوهم إلى يوسف، فأمر بتفتيشها بين يديه، فبدأ ﴿بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ بتفتيش أوعية الإخوة العشرة ﴿قَبْلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ لنفي التهمة، روي أنه لما بلغت النوبة إلى وعاء أخيه قال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى ننظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية ﴿مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ لم يقل منه، قصداً إلى زيادة الكشف والبيان، والوعاء: الظرف الذي يُحفظ فيه الشيء، وكان المراد به هنا ما يشمل الرِّحْل وغيره، لأنه الأنسب بمقام التفتيش ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الكيد العجيب، ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي صنعنا له لأجل غرضه، فالكيد مستعار للحيلة، وهو من الخلق الحيلة ومن الله تعالى التدبيرُ بالحق ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي في حكمه، لأن جزاء السارق في قضائه، إنما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ، دون الاسترقاق سنة، فلم يكن يتمكن من أخذ أخيه ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا حال مشيئته تعالى وإرادته لذلك الكيد، لأنه كان إلهاماً من الله ليوسف،

حتى جرى الأمر على وفق المراد ﴿نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ رفعه أي رتباً كثيرة عالية، من العلم والحكمة، حسبما تقتضيه المصلحة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: فوق كل عالم عالم، إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى.

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ. وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧)

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ﴾ يعنون بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يريدون به يوسف، قالوه كذباً وبهتاناً على يوسف، كما اتهموا أخاه بنيامين، وغرضهم أن عادة هؤلاء السرقة، فعيروه بها عند الغضب ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ﴾ أي أضمر الحزازة التي حصلت له مما قالوا ﴿فِي نَفْسِهِ﴾ لا أنه أسرها لبعض أصحابه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ لا قولاً ولا فعلاً، صفحاً عنهم وحلماً ﴿قَالَ﴾ في نفسه ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا﴾ منزلة حيث سرقتم أخاكم، وألقيتموه في الحب، وكذبتم على أبيكم بأنه أكله الذئب ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي عالم علماً بالغاً إلى أقصى المراتب، بأن الأمر ليس كما تصفون، من صدور السرقة منا، إنما هو افتراء علينا، لم يواجههم بهذا الكلام إنما قاله في نفسه.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨)

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي إن أباه كبير في السن، لا يكاد يستطيع فراقه، يتعلل به عن شقيقه الهالك ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ فلسنا عنده بمنزلته، من المحبة والشفقة ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا

فأتمم إحسانك، فقد عودتنا الجميل والإحسان، يقولون له ذلك استعطافاً واسترحاماً.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي نعوذ بالله ﴿أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ أي أن نأخذ أحداً بجرم غيره، وأخذنا له إنما هو بقضية فتواكم، فليس لنا الإخلال بموجبها وقوله: ﴿مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ دون من سرق، لتحقيق الحق، والاحتراز عن الكذب في الكلام، والمتاع: اسم لما ينتفع به، وأريد به الصواع، وما ألطف استعماله مع الأخذ المراد به الاسترقاق!! ﴿إِنَّا إِذًا﴾ أي إذا أخذنا غيره ولو برضاه ﴿لَظَالِمُونَ﴾ في مذهبكم.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِى أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾ يشسوا من يوسف وإجابته إياهم، وزيادة السنين والثناء للمبالغة، أي يشسوا يأساً كاملاً، واستيقنوا أن الأخ لا يُردُّ إليهم، لما شاهدوه من عوده بالله، ومن تسميته ظلماً ﴿خَلَصُوا﴾ انفردوا عن غيرهم ﴿نَجِيًّا﴾ أي متناجين متشاورين في ما يقولون لأبيهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن وهو «روبيّل» ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ كأنهم أجمعوا على التناجي فقال منكرأ عليهم ألم تعلموا ﴿أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي عهداً وثيقاً، وهو حلفهم بالله تعالى ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا ﴿مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أي ما قدمتموه من الخيانة، ولم تحفظوا عهد أبيكم، وقد قلتم: إنا له

لحافظون ﴿فَلَنْ أُنَبِّحَ الْأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ آتِي﴾
بالانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها على وجه لا يؤدي إلى
نقض الميثاق، أو بخلاص أخي بنيامين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا يحكم
إلا بالحق، والمراد من هذا الكلام، الالتجاء إلى الله تعالى.

﴿أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا
بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٤١)

﴿أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ على ما شاهدنا من
ظاهر الأمر ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه ﴿إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ من سرقة وتيقناه، حيث
استخرج صواع الملك من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ وما علمنا أنه
سيسرق حين أعطيناك الميثاق.

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْلْنَا فِيهَا وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ﴾ (٤٢)

﴿وَسَلِّ﴾ أهل ﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر، والمعنى:
وأرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْلْنَا فِيهَا﴾ وأصحاب العير
التي كنا معهم، فإن القصة معروفة فيما بينهم، وكانوا قوماً من كنعان من
جيران يعقوب ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي
بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٤٣)

﴿قَالَ﴾ يعقوب عليه السلام عندما رجعوا إليه، فقالوا له ما قالوا
﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي سهّلت وزينت، وهو إضراب عما يتضمنه
كلامهم من ادعاء البراءة عن التسبب، كأنه قيل: لم يكن الأمر كذلك، بل

زينت لكم أنفسكم أمراً من الأمور، ومكيدة نفذتموها على أخيكم ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فأمرني صبر جميل ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ بيوسف وأخيه الذي توقف بمصر، وإنما قال هذا، لأنه لما طال حزنه، واشتد بلاؤه، علم أن الله سيجعل له فرجاً عن قريب، لأنه إذا اشتد البلاء وعظم، كان أسرع إلى الفرج ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي العالم بحالي، الحكيم في تدبيره وتصريفه.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَأسَفُ عَلَى يُوْسُفَ وَاتَّيَسَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾

﴿وَتَوَلَّى﴾ أي أعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ كراهة لما جاؤوا به ﴿وَقَالَ يَتَأسَفُ عَلَى يُوْسُفَ﴾ الأسف: أشدُّ الحزن، أضافه إلى نفسه، والمعنى: يا أسفي تعال فهذا أوانك، وإنما تأسف على يوسف، مع أن الحادث مصيبة أخيه، لأن مصيبتَه قاعدة المصيبات وكان آخذاً بمجامع قلبه، ولأن الحزن الجديد، يقوي الحزن القديم، وفي «أسفاً» و«يوسف» تجنبس نفيس من غير تكلف، وهو مما يزيد الكلام الجليل بهجة وحسناً ﴿وَاتَّيَسَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ أي بسببه، والبكاء سبب لابيضاض عينيه، فإن العبرة إذا كثرت محقت سواد العين، وقلبتَه إلى بياض وكدر، قيل إنه قد عمي بصره، وقيل: بل عَشِيَ فهو يدرك إدراكاً ضعيفاً، واستدل بالآية على جواز التأسف، والبكاء عند النوائب، ولعل الكف عن أمثال ذلك، لا يدخل تحت التكليف، فإنه قلَّ من يملك نفسه عند الشدائد، وقد روى الشيخان «أنه ﷺ بكى على ولده إبراهيم»^(١)، وأما المنهي عنه فهو ما يفعله الجهلة من النياحة، ولطم

(١) أشار إلى ما رواه البخاري ١٩٣/٣ ومسلم رقم ٢٣١٥ عن أنس أن رسول الله ﷺ أخذ ابنه إبراهيم، فقبَّله وشمَّه، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرْفان، وقال: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَخْشَعُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ».

الخدود، والصدور، وتمزيق الثياب ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده، ممسك له في قلبه، لا يظهره، فعيل بمعنى مفعول.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِكِ﴾ (٨٥).

﴿قَالُوا﴾ أي الجماعة من أهله ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوُا﴾ أي لا تفتأ ولا تزال ﴿تَذَكَّرُ يُونُسَ﴾ تفجعاً عليه، فحذف حرف النفي، لأن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات كان على النفي، وعلامة الإثبات هي اللام، ونون التأكيد، ولو كان المقصود ههنا الإثبات لقبل لفتنان ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي مريضاً مشفياً على الهلاك، حَرَضٌ من باب تعب أشرف على الهلاك، فهو حَرَضٌ ﴿أَوْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِكِ﴾ من الميتين، أرادوا بذلك منعه عن كثرة الأسف والحزن.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦).

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي﴾ البث أصعب الهم الذي لا يصبر صاحبه عليه، فيبته إلى الناس، أي ينشره، والحزن إذا ستره الإنسان كان همّاً، وإذا ذكره لغيره كان بثّاً، فكأنهم قالوا ذلك بطريق التسلية فقال لهم: إني لا أشكو ما بي إليكم حتى تتصدّوا لتسليتي وإنما أشكو همي وحزني ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى ملتجئاً إلى الله، متضرعاً لدى بابه في دفعه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ من لطفه ورحمته، فأرجو أن يرحمني ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من رؤيا يوسف أنه لا يموت، حتى يخزّ له أخوته سجداً، تحقيقاً للرؤيا.

﴿يَنْبَغِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَقُومُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧).

﴿يَبْنِيْ اَذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا﴾ أي تعرّفوا وهو من الحسّ، أي تعرّفوا من خبرهما بحواسكم، وقيل التحسّس طلب الخير، وبالجميم يكون في الشر، ومنه الجاسوس، أي تطلبوا ﴿مِنْ يُوسُفَ وَآخِيهِ﴾ أي من خبرهما و أمرهما ﴿وَلَا تَأْتِسُّوْا مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ﴾ أي لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه، والرّوْح بالفتح: ما يجده الإنسان من نسيم الهوى، يقال: أراح الإنسان إذا تنفس، ثم استعير للفرج، وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أبهم في قوله ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ إِلَّا الْفَوْمُ الْكَافِرُوْنَ﴾ بالله وصفاته، فإن المؤمن العارف لا يقنط من رحمته تعالى أبداً، واستدل البعض بالآية، على أن اليأس من رحمة الله كفر، وجمهور الفقهاء على أن اليأس كبيرة، ومفاد الآية أنه من صفات الكفار، لا أن من ارتكبه كان كافراً.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يٰٓأَيُّهَا الْعَزِيْزُ مَسَّنَا وَاهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزْجَلَةٍ قَاوِفْ لَّنَا الْكِیْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّٰهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِيْنَ﴾

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي على يوسف بعدما رجعوا إلى مصر، بموجب أمر أبيهم، وأنكر اليهود رجوعهم، وهو الذي تضمنته توراتهم اليوم، ولا يوثق بها لأنها محرّفة على وجه اليقين ﴿قَالُوا يٰٓأَيُّهَا الْعَزِيْزُ﴾ خاطبوه بذلك تعظيماً له ﴿مَسَّنَا وَاهْلَنَّا الضُّرَّ﴾ أي الهزال من شدة الجوع، قالوا ذلك: استرحاماً واستعطافاً ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزْجَلَةٍ﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها، وكنى بها عن الرديء فقد كانت بضاعتهم من متاع الأعراب، صوفاً وشعراً ﴿قَاوِفْ لَّنَا الْكِیْلَ﴾ فأنهم لنا الكيل ولا تنقصه لقلة بضاعتنا أو رداءتها ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بالإيفاء وقبول البضاعة الرديئة، وإنما قالوا تصدّق تواضعاً، وكانهم أرادوا تفضل علينا بذلك ﴿إِنَّ اللّٰهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِيْنَ﴾ أي يُثيب المحسنين المتصدقين أحسن الجزاء والثواب. روي أنهم لما قالوا ﴿مَسَّنَا وَاهْلَنَّا الضُّرَّ﴾ وتضرعوا إليه وطلبوا التصدق، أعطوه كتاب يعقوب

عليه السلام، وقد كتب فيه «من يعقوب بن إسحق بن إبراهيم إلى عزيز مصر، أما بعد: فإننا أهل بيت، موكل بنا البلاء أمّا جدي إبراهيم فإنه ابتلي بالنار فصبر، وجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي إسحق فابتلي بالذبح فصبر، ففداه الله بذبح عظيم، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحبّ الأولاد إليّ فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناى من بكائي عليه، وكنت أتسلى بهذا الغلام الذي أمسكته عندك، وزعمت أنه سارق، وإنّا أهل بيت لا نسرق، ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليّ، وإلا دعوت عليك والسلام». فلما قرأه فاضت عيناه، فقال لهم:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (٨٩)

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه، منها إفراده عن يوسف وإذلاله، حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة وغير ذلك وإنما تعرض لما فعلوا بيوسف لإشراكهما في وقوع الفعل عليهما أي هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ فهل تبتم عن ذلك؟ ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أي هل علمتم قبح ما فعلتموه زمان جهلكم؟ وإنما قال ذلك، نصحاً لهم، وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم، لما رأى من عجزهم وتمسكنهم ما رأى، وهو من أرق القلب، فكشف أمره:

﴿ قَالُوا أَءِذَا كُنَّا أَهْلُ نَارٍ كُنَّا نَسْتَدْعِي اللَّهَ وَهُوَ غَافِلٌ عَنَّا إِنَّهُمْ مَعَ كَثْرَةِ أَعْيُنِهِمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٩٠)

﴿ قَالُوا أَءِذَا كُنَّا أَهْلُ نَارٍ كُنَّا نَسْتَدْعِي اللَّهَ ﴾ استفهام تقرير، ولذلك حُقق بأن ودخول اللام عليه، قالوه استغراباً وتعجباً ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ ﴾ جواباً عن مسألتهم وزاد عليه ﴿ وَهَذَا أَخِي ﴾ من أبي وأمي ذكره تعريضاً لنفسه به،

وتفخيماً لشأنه، وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدْ مَرَّكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾^{٤١} بالسلامة والكرامة، وبالألفة بعد الفاقة، والعزة بعد الذلة، والأنس بعد الوحشة ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ أي يفعل التقوى في جميع أحواله، ويق نفسه عما يوجب سخط الله وعذابه ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البلياء والمحن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أجرهم، وإنما وضع المظهر تنبيهاً على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان.

﴿قَالُوا نَأَلَّهُ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾^{٤٢}.

﴿قَالُوا نَأَلَّهُ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك وفضلك علينا بحسن الصورة، وكمال السيرة، وبالعلم والحلم، والصبر والتقوى، وسائر الفضائل ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ المتعمدين للذنوب إذ فعلنا بك ما فعلنا ولذلك إن الله تعالى أعزك وأذلنا بالتمسكن بين يديك، والخاطيء من خطيء إذا تعمد فعل الذنب، وفي قولهم هذا الاعتراف بما صدر منهم في حقه مع الإشعار بالتوبة، ولذلك أظهر جوابه بالصفح المغفرة.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^{٤٣}.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ﴾ أي لا تأنيب ولا لوم ﴿عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي لا تثريب عليكم اليوم ولا عتاب، بل أصفح عنكم وأغفو ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ دعا لهم بالمغفرة ممّا فرط منهم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضل على التائب بالقبول.

﴿أَذْهَبُوا بِقِمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَيْ يَأْتِ بِصَبْرٍ وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^{٤٤}.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ القميص الذي كان عليه ﴿فَالْقَوُّهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾
يَأْتِي بِصِيرًا ﴿أَي يَأْتِي إِلَيَّ وَهُوَ بَصِيرٌ﴾ وَأَتَوَفَّ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿أَي
بِأَبِي وَأَقْرَبَائِهِ مِنَ النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ
ذَهَبَ بِصَرِهِ، وَعَلِمَ يُوسُفُ ذَلِكَ بِإِعْلَامِهِمْ، أَوْ بِالْوَحْيِ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: كَانَ
أُولَئِكَ الْأَهْلُ نَحْوًا مِنْ سَبْعِينَ إِنْسَانًا، وَقَدْ نَمَوْا فِي مِصْرَ، فَخَرَجَ مِنْهَا مَعَ
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سِتْمِائَةَ أَلْفٍ وَخَمْسَمِائَةَ وَسَبْعُونَ عَلَى مَا قِيلَ.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن
تُقَنِّدُونِ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ من مصر، وخرجت من عمرانها منطلقة إلى بلد
يعقوب، يقال: فصل من البلد إذا انفصل منه، وكان بينهما مسيرة ثمانية
أيام ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لمن عنده ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ
يُوسُفَ﴾ أي لَأَشْمُ رَائِحَةَ يُوسُفَ^(١) ﴿لَوْلَا أَن تَقْنِنُونِ﴾ أي تنسبونني إلى
الْقَنَدِ، وَهُوَ الْخَرْفُ وَنَقْصَانُ الْعَقْلِ مِنَ الْهَرَمِ، وَجَوَابُ «لَوْ» مَحْذُوفٌ
تَقْدِيرُهُ: لَصَدَّقْتُمُونِي.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿قَالُوا﴾ أي قال من كان بحضرته من ذوي قرابته ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي
ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أي لفي ذهابك عن الصواب، في إفراط محبتك ليوسف،
ورجائك للقاءه، قال قتادة: لقد قالوا كلمة غليظة، لا ينبغي أن يقولها
مثلهم لمثله عليه السلام، وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات.

(١) قال ابن عباس: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف، وبينهما مسيرة ثمانية أيام.
اهـ. تفسير القرطبي ٢٥٩/٩.

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ۖ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا ۚ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾ .

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾ قال مجاهد هو «يهودا» قال لإخوته: قد علمتم أنني ذهبت إلى أبي بقميص الدم، فأنا أفرحه كما أحزنته فتركوه، وجاء البشير من بين يدي العير ﴿ أَلْقَنَهُ ﴾ أي ألقى البشير القميص ﴿ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ أي وجهه يعقوب فأخذه فشمه، ثم وضعه على بصره ﴿ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا ﴾ عاد بصيراً بعد أن عمي، ورجعت إليه قوته وسروره بعد الحزن والضعف ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لمن كان عنده، ويحتمل أن يكون خطاباً لبنيه القادمين، أي ألم أقُلْ لكم لا تياسوا من رحمة الله، وهو الأنسب بقوله: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؟ من حياة يوسف وإنزال الفرج.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ ﴿٩٧﴾ .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ طلبوا منه الاستغفار، ونادوه بعنوان الأبوة، تحريكاً للعطف والشفقة، وعللوا ذلك بقولهم ﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ أي اسأل لنا المغفرة على ما ارتكبنا في حقك وحق ابنك، إننا تبنا واعترفنا بذنوبنا، ومن حق من اعترف بذنبه أن يصفح عنه!!

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿٩٨﴾ .

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ روي عن ابن عباس أنه أخر الاستغفار لهم إلى السحر، لأن الدعاء فيه مستجاب، وروي عنه أيضاً إلى سحر ليلة الجمعة. رواه الترمذي وحسنه^(١).

(١) وروى الحافظ ابن كثير ٥٠٨/٢ أن عمر بن الخطاب كان يأتي المسجد، فيسمع إنساناً يقول: «اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فاطعت، وهذا السحر فاغفر لي» فاستمع الصوت =

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوَتُهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ﴿١١﴾ ۝ ﴾

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ﴾ روي أن يوسف عليه السلام جهَّز إلى أبيه جهازاً، ومائتي راحلة، ليتجهز إليه بمن معه، فرحل يعقوب عليه السلام بأهله، وساروا حتى أتوا معالم مصر، وخرج يوسف بأربعة آلاف من الجند، ومن العظماء لاستقباله، فتلقوه، فنظر يعقوب إلى الخيل والناس، فقال يا يهوذا: أهذا فرعون مصر؟ قال: لا يا أبت، ولكن هذا ابنك يوسف، خرج بأشراف مصر يتلقاك، فلما لقيه نزلاً وتعانقاً، وبكى سروراً ﴿ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوَتُهُ ﴾ أي ضمهما إليه حين استقبلوهما، وكان قد أنزلهم في مضرب خيمة، فدخلوا عليه وضمهما إليه، والمراد بهما أبوه وخالته «ليثاً» والخاله تنزل منزلة الأم لشفقتها، كما ينزل العم منزلة الأب ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ ﴾ وكأنه عليه السلام ضرب في الملتقى خارج البلد مضرباً، فنزلوا فيه فدخلوا عليه، فأواهما إليه، ثم طلب منهم الدخول في البلدة، فهنا دخولان: أحدهما خارج البلدة، والثانية في البلدة ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ﴾ من القحط، والشدائد، والمكاره قاطبة.

﴿ وَرَفَعَ أَبْوَتَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾ ۝ ﴾

﴿ وَرَفَعَ أَبْوَتَهُ ﴾ عند نزولهم بمصر ﴿ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ على السرير تكرمة

= فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: إن يعقوب آخر نبيه إلى السحر في قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾.

لهما، فوق ما فعله لإخوته، وهو السرير الذي كان يجلس عليه يوسف،
 والرفع النقل إلى العلو ﴿وَحَرُّوا لَّهُ﴾ أي أبواه وأخوته ﴿سُجَّدًا﴾ أي على
 الجباه كما هو الظاهر، لأن السجود يكون بعد الخور، وكان جائزاً
 عندهم، وهو جار مجرى التحية عندنا، كالقيام، والمصافحة، وتقبيل اليد
 من عادات الناس ﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ التي رأيتها وقصصتها عليك
 ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في زمن الصبا ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ صدقته واقعاً بعينه، كما
 رأيتها في النوم ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ أي أنعم عليّ، والأصل أن يتعدى
 الإحسان بـإلى أو اللام، وقيل الباء بمعنى إلى، وقيل هذا بتضمين لطف
 وهو تضمين للإحسان الخفي ﴿إِذَا أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ بعدما ابتليت به، ولم
 يصرح بقصة الحب حذراً من خجل إخوته ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ لأنهم كانوا
 أصحاب الماشية، وأهل البدو، أي البادية ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرْغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ
 إِخْوَتِي﴾ أفسد بيننا بالإغواء، وقد بالغ عليه السلام في الإحسان، حيث
 أسند ذلك إلى الشيطان ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي لطيف التدبير حتى
 يجيء على وجه الحكمة والصواب، وما من صعب إلا وهو بالنسبة إلى
 تدبيره سهل، اللطيف هنا بمعنى العالم بخفايا الأمور، المدبر لها فإذا أراد
 شيئاً سهّل أسبابه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بوجوه المصالح والتدابير ﴿الْحَكِيمُ﴾
 الذي يفعل كل شيء في وقته على وجه يقتضي الحكمة. روي أن يعقوب
 قال ليوسف: يا بني ما أعقك؟ عندك هذه القراطيس وما كتبت حالك إليّ؟
 قال: أمرني بذلك جبريل قال: أو تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني، فسأله
 فقال جبريل: الله تعالى أمرني بذلك، لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ﴾
 فهلاً خفتني!! وهذا عذر واضح ليوسف في عدم إعلامه به، لكن يبقى
 سؤال بأن يعقوب عليه السلام، كان من أكابر الأنبياء نفساً وأباً، وهدى،
 وكان مشهوراً في البلدان، ثم وقعت له واقعة هائلة في أعزّ أولاده،
 ويوسف ليس بمكان بعيد، فكيف غمّ أمره، ولم يصل إلى أبيه خبره؟
 وأجيب عن ذلك بأنه ليس إلا من باب خرق العادة، واختلف في مقدار
 المدة بين الرؤيا، وظهور تأويلها، فقبل سبعون سنة، وعن سلمان الفارسي

أنها أربعون سنة، وهو قول الأكثرين، والله أعلم بحقائق الأمور، وروي أن يعقوب أقام مع يوسف أربعاً وعشرين سنة، في أهنأ عيش، وأحسن حال، فلما حضرته الوفاة أوصى يوسف بدفنه بالشام، إلى جنب أبيه إسحق، فمضى يوسف عليه السلام بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، ولما تم أمره، وعلم أنه لا يدوم إلا الحي القيوم، تآقت نفسه إلى المُلْك الدائم، فتمنى الموت، فقال ما حكاه عنه القرآن:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ أي بعضاً منه وهو ملك مصر ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أي بعضاً من ذلك، لأنه لم يؤت كل التأويل ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما وخالقهما ابتداءً على غير مثال سابق ﴿ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي ﴾ أي اقبضني ﴿ مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ من آبائي أو بعامة الصالحين من عبادك المؤمنين وتمني الموت حباً للقاء الله تعالى، مما لا بأس به، فقد روى الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه..»^(١) الحديث. نعم تمني الموت عند نزول البلاء منهئ عنه، ففي الحديث الشريف: «لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍ نزل به»^(٢) وقيل: إن يوسف لم يأت عليه أسبوع، حتى توفاه الله تعالى.

(١) هذا طرف من حديث شريف أخرجه البخاري ٣٠٨/١١ ومسلم رقم ٢٦٨٣ وتتمة الحديث «ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه، فقالت عائشة يارسول الله: كلنا يكره الموت! فقال ﷺ: ليس كذلك - أي ليس الأمر كما فهمت - ولكن المؤمن إذا حضره الموت، بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فأحب لقاء الله فأحب لقاءه.. الخ. .»
(٢) الحديث أخرجه البخاري ١٠٧/١٠ ومسلم رقم ٢٦٨٠ وتتمته «فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم آحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف والخطاب فيه للرسول ﷺ ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ من أخبار الغيب الذي لا يحوم حوله شك ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أي أوحيناه إليك يا محمد ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي لدى بني يعقوب ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ وهو إلقاءه في غيابة الجب ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به ويبغون له الغوائل، والمعنى: إن هذا النبأ غيب، لم تعرفه إلا بالوحي، لأنك لم تحضر إخوة يوسف، حين عزموا على ما همُّوا به، من أن يجعلوه في غيابة الجب، ومن المعلوم أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فتعلمته منه، وإنما حذف لعلمه من آية أخرى كقوله تعالى: ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا ﴾ ومكرهم وما دبروه لا يمكن معرفته إلا بطريق الوحي، وأياً ما كان ففي الآية إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق، وهذه القصة وردت على أحسن ترتيب، وأبين بيان، وأفصح عبارة، فعُلم بذلك أنه وحي، إلهي فهو معجزة له ﷺ قائمة إلى آخر الدهر.

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ ﴾ يراد به أهل مكة ﴿ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات القاطعة، الدالة على صدقك ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لإصرارهم على العناد، روي أن اليهود وقريشاً سألوا عن قصة يوسف، ووعدوه أن يسلموا، فلما أخبرهم بها ولم يسلموا، حزن النبي ﷺ لذلك، فنزلت السورة تسلية له ﷺ.

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على تبليغ الوحي والقرآن ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ كما

يفعله حملة الأخبار ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ كافة، والجملة كالتعليل لما قبلها، فالمعنى: إِنَّ هذا القرآن يشتمل على المنافع العظيمة، ثم لا تطلب منهم في مقابلته مالا، فلو كانوا عقلاء لقبلوا وانتفعوا من فوائده، لكنهم لا يعقلون.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ﴾ كآين اسم ككم الخبرية، والمعنى: وكم من الدلائل الدالة على وجود الصانع، وعلمه وحكمته، وكمال قدرته ﴿فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كائنة فيهما من الأجرام الفلكية، وما فيها من النجوم، وتغيير أحوالها، ومن الجبال والبحار، وسائر ما في الأرض من العجائب الفائقة الحصر ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي على الآيات ويشاهدونها، ولا يعباون بها، والمراد ما يرون فيها من آثار الأمم الهالكة، وغير ذلك من الآيات والعبر ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، ولا يلتفتون إليها، كأنهم كالأنعام لا يفقهون ولا يسمعون.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللّٰهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللّٰهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وألوهيته ﴿إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادتهم لغيره تعالى، وعن ابن عباس أن أهل مكة قالوا: الله ربنا والملائكة بناته، وقال عبدة الأصنام: ربنا الله وحده، والأصنام شفعاؤنا عنده، وقالت اليهود: ربنا الله وحده، وعزير ابن الله، وقالت النصارى: ربنا الله وحده والمسيح ابن الله، ومنهم عبّاد القبور، والناذرون لها والمنتظرون النفع والضرر منها، وهم اليوم أكثر من الدود.

﴿أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللّٰهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ أي عقوبة تغشاهم وتشملمهم فلا يفلت منهم أحد ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فجأة من غير سابقة علامة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها، وهو كالتأكيد لاستحقاقهم العذاب.

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ وهي الدعوة إلى التوحيد وسمى الدين سبيلاً لأنه هو طريق الثواب، وفسرها بقوله: ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ ببيان وحجة واضحة غير عمياء ﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ أي أنا وأتباعي ندعو إلى الله على بصيرة ﴿ وَسُبْحَنَ اللَّهُ ﴾ أي أنزهه تنزيهاً عن الشركاء فهو سبحانه واحد أحد، فرد صمد ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي وما أنا منهم في وقت من الأوقات، ولا أشرك به أحداً، إنما أنا مسلمٌ موحد.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا ﴾ رد لقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة، وقيل: المراد نفي استنباء النساء ﴿ نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ﴾ كما أوحينا إليك ﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ أي أهل المدن، لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والقسوة، ونفل عن الحسن أنه قال: لم يُبعث رسولٌ من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجن، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾؟ أي المكذبين للرسول والآيات، فيتعظوا بما حاق بهم من أنواع العذاب ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ ﴾ الحياة الآخرة ﴿ خَيْرٌ لِلَّذِينَ

أَنْفَقُوا ﴿١١٠﴾ عَنْ الشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي ﴿١١١﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١٢﴾ فَتَسْتَعْمِلُوا عُقُولَكُمْ لِتَعْرِفُوا خَيْرِيَّةَ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، فَتَتَوَسَّلُوا إِلَيْهَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَأٍ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْنَانٍ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿١١٣﴾

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ غاية لمحذوف دلٌّ عليه السياق، أي لا يغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء، فإن من قبلهم قد أمهلوا حتى يسر الرسل من النصر عليهم في الدنيا، ويشسوا من إيمانهم، لانهماكهم في الكفر وتماديهم في الطغيان من غير وازع ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ بالتخفيف والبناء للمفعول، والظن بمعنى التوهم، والمعنى: أن مدة التكذيب، والعداوة من الكفار، وانتظار النصر من الله تعالى، قد تطاولت بالرسل وتمادت، حتى استشعروا القنوط من إيمان أقوامهم، ويشسوا من صلاحهم، وأيقن الرسل أن قومهم كذبوهم ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ فجأة، أي لما بلغ الحال إلى الحد المذكور، جاءهم نصرنا بغتة ﴿ فَنُجِّيَ مِنْ نَشَأٍ ﴾ إنجاءه، وهم الرسل والمؤمنون بهم ﴿ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْنَانٍ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي ولا يرُدُّ بطشنا وعذابنا عن القوم المجرمين إذا نزل بهم، ولا يخفى ما في الجملة من التهديد والوعيد، لمعاصري الرسول ﷺ من الكفرة المجرمين.

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١١٤﴾

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ أي في قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم، وفي قصة يوسف مع إخوته ﴿ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي لذوي العقول، المبرأة عن شوائب القدر والكدر، والركون إلى الحسن.

والعبرة: الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد، ومعنى الألباب: العقول ﴿مَا كَانَ﴾ أي القرآن الكريم الموحى إليك ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ أي يُخْتَلَق كما زعم الكفار ﴿وَلَا يَكُن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يحتاج إليه في الدين، أي ما من أمر ديني، إلا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بالواسطة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يُنَالُ بها خير الدارين، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يُصَدِّقُونَ تصديقاً معتداً به، وخصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك، وأما ما عداهم فلا يهتدون بهداه، ولا ينتفعون بجدواه، والله الهادي إلى سواء السبيل، لا رب غيره، ولا يُرجى إلا خيره، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يوسف»

فَهْرَسُ المَجْلَدِ الثَّانِي

٥	٥ - سورة المائدة
٩٣	٦ - سورة الأنعام
١٩٧	٧ - سورة الأعراف
٣١٧	٨ - سورة الأنفال
٣٦١	٩ - سورة التوبة
٤٤٧	١٠ - سورة يونس
٥٠٥	١١ - سورة هود
٥٧١	١٢ - سورة يوسف
٦٣٧	فهرس المجلد الثاني

بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى تَمَّ انْتِهَاءُ الْمَجْلَدِ الثَّانِي وَتَلِيَّةِ الْمَجْلَدِ الثَّالِثِ
وَيَبْدَأُ بِتَفْسِيرِ سُورَةِ الرَّعْدِ

المقتطف من عبود التقياسية

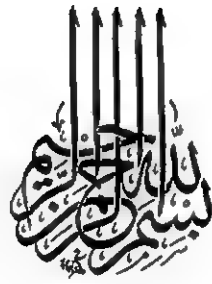
للمرحوم فضيلة الشيخ
مصطفى الطاهر (المنصوري)

حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ
خَادِمُ الْكِتَابَةِ وَالسَّنَةِ
محمد علي الصابوني

المجلد الثالث

الدار الشمسية
بيروت

دار القلم
دمشق



سُورَةُ الرَّعْدِ

مدنية وهي ثلاث وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١.

﴿الْمَرْ﴾ اسم السورة الكريمة، وعن ابن عباس معناه: أنا الله أعلم وأرى، أي ما تعملون وتقولون ﴿تِلْكَ﴾ أي آيات السورة المسماة بـ (المر) أشير به لفخامته ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يعني بالكتاب القرآن العظيم المعجز الذي فاق كل كتاب ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ أي والذي أوحى إليك يا أيها الرسول في هذا القرآن، هو الحق الذي لا يلتبس بالباطل، ولا يحوم حوله الشك، والتعرض لوصف الربوبية، مضافاً إلى ضميره ﷻ من الدلالة على فخامة المنزل، وتشريف المنزل إليه مما لا يخفى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ قيل هم كفار مكة، وقيل: هم اليهود والنصارى، والأولى أن يُراد أكثرهم مطلقاً ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك الحق المبين، لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ٢.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي خلقهن مرتفعات بغير دعائم والعماد ما يسند به ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أي بغير عمد أصلاً حال كونكم ترونها كذلك، لا تستند على شيء، والمراد أنها قائمة بقدرة الله سبحانه وتعالى، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم، تعالى شأنه ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بذاته^(١)، وليس المراد به القصد إلى إيجاد العرش، لأن إيجاده قبل إيجاد السماوات ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ذلّلها لما أراد منهما من مصالح العباد، كالحركة المستمرة على حدٍّ من السرعة، تنفع في حدوث الكائنات وبقائها ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ يسير في المنازل والدرجات حسبما أريد منهما ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره، وتحقق بها مصالح العباد، كما في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ وهو المروي عن ابن عباس، واللام تجيء بمعنى «إلى» أي كل منهما يجري كل يوم، على مدار معين من المدارات اليومية، كالسنة للشمس، والشهر للقمر، والجملة بيان لحكم تسخيرهما ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أمر ملكوته من الإيجاد والإعدام، في العالم العلوي والسفلي، والمراد أنه سبحانه يقضي ويُقدِّر ويتصرف في ذلك حسب الحكمة والمصلحة ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي ينزلها ويبينها مفصلة، والمراد بها آيات القرآن الكريم، أو الآيات الكونية ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ عند معاينتكم لها تتفكرون فيها، وتحققون كمال قدرته ﴿يُلْقِئَ رِيحَكُمْ﴾ بملاقاته ﴿تُوقِنُونَ﴾ فإن من تدبرها حق التدبر، وتحقق كمال قدرته، أيقن أن من قَدَّر على إبداع هذه الصنائع البديعة، قدر على الإعادة والجزاء.

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/٢٦٩: يُمَرُّ كما جاء من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً.

ولمَّا قَرَّرَ الشواهد العلوية، أردفها بذكر الدلائل السفلية، فقال سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ بسطها طولاً وعرضاً، لتثبت عليها الأقدام، وينقلب عليها الحيوان، وقد ثبت بالدلائل القطعية أَنَّ الأرض كروية، وكونها كروية لا ينافي بسطها، لأن الكرة إذا كانت في غاية الكبر، كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ مع أن الناس يستقرون عليها وبينون، ومن علماء المسلمين كالغزالي، والفخر الرازي وأبي السعود، وابن تيمية قالوا بكروية الأرض، وظواهر النصوص أدل على هذا، كقوله تعالى: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ﴾ فهذا يدل على استدارة الأرض، فإن التكوير هو اللفُّ على المستدير، كتكوير العمامة. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبلاً ثوابت، من رسى الشيء إذا ثبت وفي الخبر «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدٌ، فَخَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْجِبَالَ عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ» ﴿وَأَنْهَارًا﴾ ضمها إلى الجبال، وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها، وهو مبني على ما ذهب إليه بعض الفلاسفة، من أن الجبال لتركبها من أحجار صلبة، إذا تصاعدت إليها الأبخرة، احتبست فيها، فتقلب مياهاً، وربما خرقتها فخرجت، والذي تدل الآثار عليه أنها تنزل من السحاب، لكن لَمَّا كان نزولها عليها أكثر، كانت كثيراً ما تخرج الأنهار منها، ويكفي هذا لتشريكهما إلى عامل واحد، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال ﷺ «سَيِّحَانُ، وَجَيْحَانُ، وَالْفَرَاتُ، وَالنَّيْلُ، كُلُّهُنَّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»^(١) وسيحان وجيحان، هما نهران في أرض الترك، وهما غير سيحون وجيحون بالواو، وفي كون هذه الأنهار من الجنة، تشبيه مياهها بمياه الجنة، والإخبار بامتيازها على ما عداها، ومثله

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنة رقم ٢٨٣٩ باب ما في الدنيا من أنهار الجنة.

كثير في الكلام ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات، صنفين اثنين: كالحلو، والحامض، والأسود والأبيض، والصغير والكبير، والحر والبارد، وما أشبه ذلك ﴿يُقَشِّي الْأَلْثَرُ﴾ أي يلبسه مكانه، فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً، وإن احتمل العكس أيضاً فإنَّ الأنسب بالليل، أن يكون هو الغاشي ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكر من مد الأرض، وتثبيتها بالرواسي، وإجراء الأنهار، وإغشاء الليل ﴿لَايَتٍ﴾ باهرة جلّت حكمة صانعها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن التفكير فيها، يؤدي إلى الحكم بأن تكوين كل من ذلك، على هذا النمط الرائق، لا بدّ له من مكوّن قادر حكيم، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَبٍ وَزَرَعَ وَخَبِلَ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ﴾ أي بقاع كثيرة مختلفة الأوصاف بعضها طيبة وبعضها سبخة، وبعضها رخوة، وبعضها صلبة، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر^(١)، وبعضها بالعكس، ولولا تخصيص قادر، موقع لأفعاله على وجه دون وجه، لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية ﴿مُتَجَوِّزَاتٌ﴾ أي متلاصقات والمقصود الإخبار بتفاوت أجزاء الأرض المتلاصقة ﴿وَجَنَّتْ﴾ أي بساتين كثيرة ﴿مِنْ أَعْتَبٍ﴾ أي من أشجار الكرم

(١) المراد من الآية الكريمة بيان قدرة الله العجيبة، فإن الأرض واحدة، والتربة واحدة، والماء واحد، وتخرج الثمار مختلفة في الشكل، والقدر، والطعم، والرائحة، فمنها أبيض ومنها أسود، ومنها حلو ومنها مرّ، ومنها ما له بذر ومنها ما له نوى، ومنها الجيد ومنها الرديء، وخروج الأشجار والثمار المختلفة الأصناف والأشكال، والألوان والطعوم والروائح، مع اتحاد الأصول والأسباب، دلالة ظاهرة على عظمة الله وجلاله، وعلى وحدانيته وكامل قدرته.

﴿وَزَرَعٌ﴾ من كل نوع من أنواع الحبوب، ولعل تقديم ذكر الأعناب على الزرع مع كونها عماد المعاش، لما في صنعة الأعناب مما يبهز العقول، ولو لم يكن فيها إلا أنها مياه متجمدة، في ظروف رقيقة، حتى إن منها شفاف لا يحجب البصر عن إدراك ما في جوفه لكفى ﴿وَنَخِيلٌ﴾ تأخيره لثلاث يقع فاصلة بينها وبين صفاتها، وهي قوله تعالى: ﴿صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ جمع صنو، وهي نخلات أصلها واحد، وغير صنوان مختلفة الأصول، وأصل الصَّنُو المِثْلُ، ومنه قيل: «العم صنو أبيه» ﴿يُسْقَى﴾ أي ما ذكر من القطع، والجنات، والزرع، والنخيل ﴿بِمَاءٍ وَجِدٍ﴾ لا اختلاف في طبعه، سواء كان بماء الأمطار، أو بماء الأنهار ﴿وَنُقُطٌ﴾ أي مع وجود أسباب التشابه بمحض قدرتنا ﴿بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ﴾ آخر منها ﴿فِي الْأَكْلِ﴾ بضم الهمزة والكاف أي فيما يؤكل وهو هنا الثمر والحب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ الذي فُصِّل من القطع والجنات، آيات كثيرة، عظيمة ظاهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعلمون بمقتضى عقولهم، فإن من عقل تلك الأحوال العجيبة، من خروج الثمار المختلفة، في تلك القطع المتلاصقة، مع اتحاد ما تُسقى به، بل وسائر أسباب نموها، لا يتردد في الجزم بأن لذلك صانعاً حكيماً، قادراً مدبراً لها، لا يعجزه شيء، ومن قدر على إبداع ما ذكر، قادر على إعادة ما أبداه. وقال الحسن في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، فينزل من السماء تذكرة، فترق قلوب فتخشع، وتقسو قلوب فتلهو ولا تسمع، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾^(١).

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَذَا كُنَّا تُرَبًّا أَمْ نَأْتِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٢.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾ يا رسول الله من شيء ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي فاعجب من قولهم بعد مشاهدة الآيات، الدالة على عظيم قدرته تعالى، أي فليكن عجبك من قولهم ﴿أَءَذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ إلى آخره، فإنه الذي ينبغي أن يتعجب منه، والاستفهام إنكاري مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار ﴿أَءَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ أي أنعاد خلقاً جديداً بعد الموت؟ وتكرير الهمزة لتأكيد الإنكار، ويجوز أن يكون الخطاب لكل من يصلح له، أي إن تعجب يا من ينظر في هذه الآيات، على قدرة من هذه أفعاله، فازدد تعجباً ممن ينكر قدرته تعالى على البعث؟ ﴿أُولَئِكَ﴾ المنكرون للبعث بعد أن عاينوا من آيات ربهم الكبرى، ما يرشدهم إلى الإيمان لو كانوا يبصرون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ فإن إنكارهم لقدرة تعالى على البعث كفر به، وفيه دليل على أن من أنكر البعث فهو كافر بالله عز وجل ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ مقيدون أي يُغْلَوْنَ يوم القيامة، والأغلال جمع غُل وهو طوق من حديد يجعل في العنق ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها، وتوسيط ضمير الفصل، ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث، بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وذلك يدل على أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة وذلك أنهم استعجلوا بما هُددوا به من عذاب الدنيا استهزاء ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي العافية والسلامة منها أخرج ابن جرير عن قتادة أنه قال في الآية: هؤلاء مشركو العرب، استعجلوا بالشر قبل الخير، فقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١) وإنما سموا العذاب بالسَّيِّئَةِ

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

لأنه ممّا يسوؤهم ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾ المَثَلَةُ بفتح الميم وضم الثاء: نعمة تنزل بالإنسان فيجعل مثلاً ليرتدع به غيره، والمَثَلَةُ العقوبة، الفاضحة، وفسرها ابن عباس بالعقوبة المستأصلة للعضو كقطع الأذن ونحوه، سميت به لما بين العقاب والمعاقب به من المماثلة، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ ﴿وَلِإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ﴾ عظمة ﴿لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمُ﴾ بالكفر والمعاصي، والمعنى: أن ربك لذو ستر على عباده، ومغفرة لذنوبهم، لا يعجل لهم العقوبات وإن كانوا ظالمين لأنفسهم، بل يمهّلهم بتأخيرها، وقال ابن عباس: معناه إنه تعالى لذو تجاوزٍ إن تابوا وآمنوا. ﴿وَلِإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لتحقيق الوعيد، وإن كانوا تحت ستره وإمهاله، والمراد بالناس الجنس، والتخصيص للكفار غير مختار.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم المستعجلون وإنما عدل عن الإضمار ذمّاً لهم، ونعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى، حيث لم يرفعوا لها رأساً، ولم يعدّوها من الآيات وقالوا ﴿لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على الرسول ﷺ ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ مثل آيات موسى وعيسى عناداً ومكابرة، وإلا ففي آية أنزلت عليه ﷺ غُنية وعبرة لأولي الألباب، والتعبير بالمضارع ﴿ويقول﴾ إشارة إلى أن ذلك القول ديدنهم ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ مرسل للإنذار كغيرك من الرسل، وما عليك إلا الإتيان بما يثبت نبوتك، من جنس المعجزات، لا بما يقترحون ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي نبيّ داعٍ إلى الحق، مرشد إليه، بآية تليق به وبزمانه، ثم عقب بما يدل على كمال علمه وقدرته، وشمول قضائه على الحُكم والمصالح، تنبيهاً على أن تخصيص كل قوم بنبي وكل

نبي بجنس معين من الآيات، إنما هو للحكم الداعية إلى ذلك، فقال سبحانه:

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٦٦ ﴾

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ ﴾ أي ما تحمله كل أنثى في بطنها على أي حال هو، من الأحوال الحاضرة والمرتبة ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ أي وما تنقصه وما تزداده في الجثة، كالخديج والنام، وفي المدة كالمولود في أقل مدة الحمل وفي أكثرها، وفيما بينهما وفي الصفة من الذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، وغير ذلك ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء ﴿ عِنْدَهُ ﴾ سبحانه ﴿ بِمِقْدَارٍ ﴾ يقدر لا يجاوزه، ولا ينقص عنه كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ فإنه تعالى خص كل حادث بوقت، وحال معينين، وهما له أسباباً تقتضي ذلك.

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٦٧ ﴾

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ ﴾ الغائب عن الحق ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ الحاضر له، عبّر عنهما بها مبالغة، وقيل: أريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود، وهذا كالدليل لما قبله من قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ ﴾ ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ العظيم الشأن الذي كل شيء دونه ﴿ الْمُتَعَالِ ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته بذاته، وسائر صفاته سبحانه، والمنزه عن نعوت المخلوقات.

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِأَلِيلٍ وَسَارٍ بِالنَّهَارِ ۝٦٨ ﴾

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ ﴾ أخفاه في نفسه ولم يتلفظ به ﴿ وَمَنْ جَهَرَ

بِهِ. ﴿أَظْهَرَ لغيره ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ﴾ مبالغ في الاختفاء كأنه مختفٍ
﴿يَأْتِلُ﴾ وطالب للزيادة ﴿وَسَارِبٌ يَّالْتَّهَارُ﴾ أي ظاهر فيه، من سَرَبَ سُروباً
من باب قعد ذهب في النهار، وقيل: إنه حقيقة في الظاهر.

﴿لَمْ مُعِقِّبْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ آفَلًا مَرَدًّا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ
لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْوَالِي﴾.

﴿لَمْ﴾ أي للإنسان لكلٍ ممن أسرَّ أو جهر ﴿مُعِقِّبْتُ﴾ ملائكة تعقب
في حفظه، وكلاءه، يُقال: عقبه، إذا جاء على عقبه، كأن بعضهم يعقب
بعضاً، بعضهم بالليل، وبعضهم بالنهار، يتعاقبون في حفظه، والتاء في
المعقبة للمبالغة كالعلامة، لأن الملائكة غير مؤنثين، فمعنى معقبات
جماعات كل جماعة منها معقبة ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ﴾ أي محيطة به من
جوانبه، من أمام الإنسان ومن ورائه ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي يحفظونه من
المضارِّ والأخطار بأمره تعالى، ويراقبون أحواله، وقيل «مِنْ» هنا بمعنى
«الباء» أي بأمر الله، وفي الصحيح «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة
بالنهار، فيجتمعون في صلاة الصبح، وصلاة العصر...»^(١) الحديث،
وذكروا أن مع العبد، غير الملائكة الكرام الكاتبين، ملائكة حفظه،
واستشكل أمرُ الحفظ بأن المقدَّر لا بدُّ أن يكون، فالحفظ لأي شيء؟
وأجيب بأن من القضاء والقدر ما هو معلق، فيكون الحفظ منه، يقال: إنه
جلت عظمته جعل أولئك الحفظة أسباباً للحفظ، كما جعل الجفنَّ للعين،
سبباً لحفظها، والعلمُ بأن أفعاله تعالى لا تخلو عن الحكم والمصالح على
الإجمال، مما يكفي المؤمن، ويقال نحو هذا في أمر الكرام الكاتبين، فهم
موجودون بالنص، وقد جعلهم تعالى حفظةً، لأعمال العبد، ونحن نؤمن

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٨/٢ في مواقيت الصلاة، ومسلم رقم ٦٣٢ في المساجد.

بذلك، وإن لم نعلم ما قلمهم؟ وما مدادهم؟ وما قرطاسهم؟ وكيف كتابتهم؟ وما حكمة ذلك؟ مع أن علمه تعالى كافٍ في الثواب والعقاب.

ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر إحاطة علمه بالعباد، وأن لهم معقبات، نبه على لزوم الطاعة ووبال المعصية فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والعافية ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة، ومن الأعمال الصالحة والملكات التي فطر الناس عليها إلى أضدادها لا مجرد تركها، واستشكل ظاهر الآية بما قرر له الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة ومنه قوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ وقوله ﷺ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ يَوشِكُ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِعِقَابٍ»^(١) والحق أن المراد أن ذلك عادة الله الجارية في الأكثر، لا أنه سبحانه لا يصيب قوماً إلا بتقدم ذنب منهم ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ فلا ردَّ له، والسوء يجمع كل ما يسوء الإنسان من مرض، وفقر، وغيرهما من أنواع البلاء ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ سبحانه ﴿مِنْ وَآلٍ﴾ ممن يلي أمرهم، فيدفع عنهم السوء، وفيه إيذان بأنهم بما باشروه من إنكار البعث، واستعجال السيئة، واقتراح الآية، قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة، فاستحقوا حلول غضب الله وعذابه.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصاعقة ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث، وتقديم الخوف لما أن المخوف عليه النفس، والمطموع فيه الرزق المترقب، وعن الحسن أنه قال خوفاً لأهل البحر، وطمعاً لأهل البر

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٠٥٩ في أبواب تفسير القرآن، وابن ماجه في الفتن رقم ٤٠٠٥.

﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ﴾ الغمام المنسحب في الجو ﴿الْقَالَ﴾ بالماء، وهي جمع ثقيلة كأمراة كريمة، ونسوة كرام، وُصف بها السحاب، لكونه اسم جنس في معنى الجمع.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ (١٣).

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾ أي يسبح سامعوه من العباد الراجين للمطر، ملتبسين ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي يقولون سبحان الله وبحمده، وإسناده إلى الرعد لحمله لهم على ذلك، أو يسبح الرعد نفسه، على أن تسيبحه عبارة عن دلالة على تنزيهه تعالى عن الشريك، ولما فيهما من الدلالة على صفات الكمال، وعن ابن عباس «الرَّعْدُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ»^(١) والتجربة دالة على أن للتضرع والدعاء، في انعقاد السحاب، ونزول الغيث، أثراً عظيماً، وهو يابى أن يكون ذلك للطبيعة، فليس كل ذلك إلا بإحداث محدث، حكيم قادر، يخلق ما يشاء، وكان رسول الله ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق، قال: «اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ»^(٢) ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وإجلاله ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ جمع صاعقة والمراد بها هنا النار النازلة من السحاب مع صوت شديد ﴿فَيُصِيبُ﴾ سبحانه ﴿بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ إصابته بها، فيهلكه بذلك ﴿وَهُمْ﴾ أي الذين كفروا وكذبوا الرسول ﷺ ﴿يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ حيث يكذبون الصادق، فيما أخبر عنه، من كمال العلم والقدرة، والتفرد بالألوهية ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٢٧٤/٥ وقال: حديث حسن غريب، ورواه أحمد والنسائي في قصة طويلة عن اليهود، وانظر تمامه في الدر المنثور ٥٠/٤.

(٢) أخرجه الترمذي وإسناده ضعيف، وانظر المنتقى المختار من الأذكار صفحة ٦٨ للإمام النووي.

الْمَحَالِ ﴿ أَي والحال أنه تعالى شديد القوة، والبطش والنكال، والمماكرة لأعدائه، من مَحَل بفلان إذا كايده، وعَرَضَهُ للهلاك، فهو مصدر كالقتال ^(١) .

﴿ لَمْ دَعَوْهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝۱۶ ﴾ .

﴿ لَمْ ﴾ أي الله تعالى ﴿ دَعَوْهُ الْحَقُّ ﴾ أي الدعاء والتضرع المجاب عند وقوعه، والمراد أن إجابة ذلك له تعالى دون غيره، ويؤيده ما بعده، وعن عليّ كرم الله وجهه ﴿ دَعَوْهُ الْحَقُّ ﴾ التوحيد، وعن ابن عباس ما هو أعم من ذلك وقيل دعوة الحق: الدعاء عند الخوف، فإنه لا يُدعى إلا الله سبحانه، وقيل المراد به العبادة، وحاصل المعنى: أن الذي يحق أن يُعبد هو الله تعالى دون غيره، فالوجه أن ذلك وعيد للكفرة، على مجادلتهم الرسول ﷺ بحلول نعمته بهم، وتهديدهم بإجابة دعائه ﷺ إن دعا عليهم ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي من دون الله تعالى، لأن معناه متجاوزين له تعالى، وتجاوزهم إنما هو بعبادتها. ﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء ﴿ لَهُمْ ﴾ أي للمشركين ﴿ شَيْءٌ ﴾ من طلباتهم ﴿ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ ﴾ أي لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة، إلا كاستجابة الماء، لمن بسط كفيه إليه من بعيد، يطلبه ويدعوه ﴿ لِيَبْلُغَ ﴾ أي الماء بنفسه من غير أن يأخذ بشيء من إناء وغيره ﴿ فَاهُ وَمَا هُوَ ﴾ أي الماء ﴿ بِبَالِغِهِ ﴾ أي يبالغ فيه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه، وبسط يده إليه، شبه حال المشركين في دعاء آلهتهم، بحال عطشان قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى

(١) أي أنه تعالى شديد المكر والكيد لأعدائه، يهلكهم من حيث لا يعلمون، فالمحال بمعنى المماحلة أي المكايده.

يديه^(١) ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ في ضياع وخسار وباطل، والمراد بهذا الدعاء دعاء آلهتهم لكشف الضر عنهم.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ ۖ﴾ ﴿١٥﴾

﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿يَسْجُدُ﴾ يخضع وينقاد لا شيء غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الملائكة والثقلين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فإن خضوع الكل لعظمة الله عز وجل، لإحداث ما أَرَادَهُ فيهم، من أحكام التكوين والإعدام، شأؤوا أو أبوا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَه قَانِتُونَ﴾ ﴿وَالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ والمراد بهما الدوام، وتخصيص الوقتين، لأن الامتداد والتقلص أظهر فيهما، والغدو جمع غداة وهي الضحى، والآصال: جمع أصيل، وهو ما بين العصر والمغرب، وقيل: إن المراد حقيقة السجود، فإن الكفرة حالة الاضطراب يخصون السجود به تعالى، قال سبحانه ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٢) ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهاماً وعقلاً تسجد لله تعالى، كما خلق ذلك للجبال، حتى اشتغلت بالتسبيح، وظهر فيه آثار التجلي، واختار المحققون أن مساق الآية، إنما هو أن العالم كله خاضع لما أَرَادَ سبحانه منه، مقصور على مشيئته تعالى، ويدل على هذا تشريك الظلال في السجود، وهي ليست أشخاصاً يُتصور منها السجود بالهيئة فهو تمثيل للخضوع والإذعان.

(١) مثل في منتهى الإبداع والإعجاز، مثل تعالى لحال هؤلاء المشركين، في عبادتهم للأصنام، ودعائهم لها، بحال إنسان اشتد به العطش، فهم على وجه يبحث عن الماء، فلما رأى الماء أخذ يسط كفيه إليه يدعوه ليذهب غلته، والماء جماد لا يحس ولا يشعر بعطشه، فكذلك حال هؤلاء المشركين مع الأصنام، ويا له من تمثيل بدیع ۱۱.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٥.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ
لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ
وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي من خالقهما ومتولي أمرهما؟ أي قل
يا رسول الله لهؤلاء الكفار: من رب هذه الأجرام العظيمة، العلوية
والسفلية؟ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أجب عنهم بذلك، إذ لا جواب لهم سواه، ولأنه
البين الذي لا يمكن المراء فيه، ويجوز أن يكون ذلك تلقيناً للجواب ليين
لهم ما هم عليه من مخالفتهم لما علموه ﴿قُلْ﴾ إلزاماً لهم ﴿أَفَاتَّخَذْتُمْ﴾ أي
أعلمتم أن ربهما هو الله سبحانه فاتخذتم عقيه ﴿مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ عاجزين
﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ﴾ وهي أعز عليهم منكم ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ يستجلبونه أو
يدفعونه عنها، فضلاً عن القدرة على جلب النفع للغير، ودفع الضر عنه،
وهذا دليل ثانٍ على ضلالهم، وفساد رأيهم في اتخاذهم الأولياء، رجاء أن
ينفعوهم ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله تصويراً لأرائهم الركيكة بصورة المحسوس
﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي هل يستوي المشرك الضال الذي يشبه
الأعمى، والمؤمن الموحد الذي هو البصير؟ والمراد لا يستوي المؤمن
والكافر كما لا يستوي الأعمى والبصير^(١) ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾؟
الظلمات هي عبارة عن الكفر والضلال، والنور هو عبارة عن الإيمان

(١) هذا تمثيل لضلال المشركين في عبادة غير الله، والمراد بالأعمى الكافر، وبالبصير
المؤمن، كما أن المراد بالظلمات الكفر والضلال، وبالنور الهدى والإيمان،
والمعنى: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء
الحق، والمشرك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء، فالفارق بين الحق والباطل واضح
وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر ظهور
الفارق بين النور والظلام، والله أعلم بمراده.

والتوحيد، وجمع الظلمات لتعدد أنواع الكفر ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ بل أجعلوا، الهمزة للإنكار ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ سبحانه ﴿فَنَشَبَهُ خَلْقًا عَلَيْهِمْ﴾ أي تشابه عليهم خلق الله وخلقهم، والمعنى: إنهم ما اتخذوا لله شركاء قادرين مثله جلّ وعلا حتى يتشابه عليهم الخلق، فيقولوا هؤلاء الشركاء خلقوا كما خلق الله، فاستحقوا العبادة، ولكنهم اتخذوا شركاء، لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً عما يقدر عليه الخالق، وليس لهم شبهة تصلح أن تكون منشأ لغلطهم، وإذا كان الأمر كذلك، كان فعلهم محض السّفه والجهل ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله تحقيقاً للحق، وإرشاداً لهم إليه ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لا خالق سواه ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد بالالوهية ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب على كل شيء، فكيف يُتوهم أن يكون له شريك؟ وهذا كالنتيجة لما قبله.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرْدٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (١٧)

﴿أَنْزَلَ﴾ الواحد القهار ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ من جهتها ﴿مَاءً﴾ كثيراً وهو ماء المطر ﴿فَسَالَتْ﴾ بذلك ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ أي أنهار، جمع واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة، فأتسع فيه، واستعمل للماء الجاري، وتنكيرها لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار، أو بمقدارها في الصغر والكبر ﴿فَاحْتَمَلَ﴾ أي حمل، وجاء «افتعل» بمعنى المجزّد، كاقترد وقدر، أي رفع وحمل ﴿السَّيْلُ﴾ الماء الجاري في تلك الأودية حمل معه بسبب السيل ﴿زَبَدًا﴾ أي غناء متفخاً يشبه الرغوة، والزبد: هو الغناء الذي يطرحه الوادي إذا تدفق ماؤه ﴿رَابِيًا﴾ أي عالياً متفخاً فوق الماء، يضمحل عمّا قريب، فالحقّ الثابت هو الماء، والزبد الزائل هو الباطل، وذلك شأن الزبد، وهنا

تَمَّ المثل، ثم ابتداءً بمثل آخر فقال سبحانه: ﴿وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ أي ومن الذي يوقد عليه الناس ﴿فِي النَّارِ﴾ لإذابته نحو الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس ﴿أَبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلب زينة فإن أكثر الزين من الذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَّعٍ﴾ وهو ما يتمتع ويستمتع به كالأواني، وآلات الحرب، والحرث، التي تستخرج من النحاس والحديد والرصاص، تذاب فيتخذ منها الأواني وآلات الحروب والحرث ﴿زَيْدٌ مِّثْلُهُ﴾ أي ومنه ينشأ زَيْدٌ مثل زَيْدِ الماء، يعلو عليه إذا أذيب وهو الحَبْتُ، يطفو ولكنه بعدُ خَبْتُ يذهب، ويبقى المعدن الصافي في نقاء، ذلك مثل الحق والباطل، فالباطل يطفو ويعلو ويبدو رايياً متفخاً، لا يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا بقاء، والحق يظل هادئاً ساكناً، ولكنه الباقي في الأرض كالماء الذي فيه حياة، والمعدن الصافي الذي فيه النفع. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع، المشتمل على نكت رائعة ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي يضرب مثل الحق، ومثل الباطل، فمثلُ الحق في ثباته واستقراره، كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض، فنبت به أنواع الخضار والثمار، ومثل الباطل في زواله واضمحلاله، كمثل الزبد والغناء ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ﴾ من كل منهما من السيل وما يوقدون عليه ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ مرمياً به، يقذف به السيل، فيتفرق ويتمزق ويذهب في أطراف الوديان ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ منهما كالماء الصافي، والفلز الخالص من الخبث ﴿فَيَمَكُّهُ﴾ أي يبقى ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فينتفع منه الناس، أمّا الماء فيسلك بعضه في عروق الأرض، إلى العيون والآبار، وأما الفلزات فيصاغ من بعضه أنواع الحلبي، ويتخذ من بعضه آلات وأدوات ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك التمثيل العجيب ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ في كل باب، إظهاراً لكمال اللطف، والعناية في الإرشاد، وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل، وتأكيده لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾.

وبعد ما بيّن الله شأن حال كلٍّ منهما أكمل بيان، شرح مصير كل منهما مآلاً، تكميلاً للدعوة، وترغيباً وترهيباً فقال سبحانه:

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا يَثَبُونَ﴾

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي للمؤمنين الصادقين، الذين استجابوا لله بالإيمان والطاعة ودعاهم إلى الحق بفنون الدعوة التي من جملتها ضرب الأمثال ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة، قاله قتادة والجمهور، وقال مجاهد: لهم الحياة الحسنى، أي الطيبة التي لا يشوبها كدر أصلاً ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ سبحانه، وعاندوا الحق الجلي ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من أصناف الأموال ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لم يشذ منه شاذ في أقطارها ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أي لبذلوا فداء لأنفسهم جميع ما في الأرض، ليتخلصوا به من العذاب، وفيه من تهويل ما يلقيهم ما لا يحيط به البيان ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي يحاسبون بذنوبهم كلها، فلا تقبل حسناتهم، ولا تغفر سيئاتهم ﴿وَمَا وَهُمْ﴾ أي مرجعهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ نار جهنم يخلدون فيها ﴿وَفِيهَا يَثَبُونَ﴾ أي المستقر، والمخصوص بالدم محذوف أي بثست جهنم مهادهم وفراشهم.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَٰئِ﴾
﴿الْأَبْصَارِ﴾

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي القرآن الذي أنزلناه عليك يا محمد وهو النور الوهاج، والإبريز الخالص في المنفعة والجدوى ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ الذي لا حق وراءه فيستجيب له، ويؤمن به، ويعمل بما فيه ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾؟ أي أعمى القلب، لا يشاهد أنوار الدين، ولا يدرك محاسنه، فيبقى حائراً في ظلمات الجهل، يتخبط في مهاوي الضلال؟ وأريد بلفظ العمى زيادة تقبيح حاله، فعبر عنه بالأعمى، فالعالم بالشيء كالبصير، والجاهل به كالأعمى، وليس أحدهما كالآخر، إذ الأعمى إذا أخذ يمشي بغير قائد، إنما يقع في

مهلكة، وإما يفسد ما كان على طريقه، أما البصير فيكون آمناً من الهلاك والإهلاك ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ﴾ أي يتعظ بما ذكر من الآيات ﴿أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾ أي ذوو العقول الخالصة، المبرأة من معارضة الوهم.

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي بما عقدوه على أنفسهم، من الاعتراف بربوبيته تعالى، والعمل بشريعته المطهرة، ويدخل فيه الإتيان بجميع المأمورات، والانهاء عن كل المنهيات ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الموائيق، وفيه تأكيد للاستمرار من صيغة المستقبل.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢١﴾

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ الظاهر العموم في كل ما أمر الله تعالى به، في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ من صلة الرحم، وموالة المؤمنين، والإيمان بجميع الأنبياء، من غير تفريق بين أحد منهم، ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس، من النصح، والإحسان إليهم، ونصرتهم، والندب عنهم، والشفقة عليهم، وإفشاء السلام، وعبادة مرضاهم ونحوها، حتى تدخل فيه حقوق الحيوانات ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعيده سبحانه، والظاهر أن المراد مطلقاً أي يخافون ربهم إجلالاً وتعظيماً، فلا ينتهكون محارمه ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا، وفيه دلالة على فظاعته وشدته، وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام، للاهتمام.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرَهُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَمْ يُغَيِّرْ دَارَ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على كل ما تكرهه النفس، من الأفعال، ومن المصائب المالية والبدنية ﴿أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضاه خاصة، لا رياء، أو سمعة والإنسان يصبر إما ليقال ما أكمل صبره، وإما لثلا يعاب بالجزع، وإما لثلا تحصل شماتة الأعداء، فهذه الوجوه ليست لابتغاء وجه الله تعالى، وأما إذا صبر لعلمه بأنه قسمة القسَام، ورضي بذلك، يصدق عليه أنه صبر ابتغاء وجه ربه، كما أن العاشق يرضى بضرب المعشوق ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة، وداموا عليها، بإتمام أركانها، وشرائطها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي بعضها الذي يجب عليهم إنفاقه، وهو الزكاة ﴿سِرّاً﴾ أي ينفقها في الخفاء خشية الرياء، فإن لم يُنْفَقْ بترك الزكاة، فالأولى أداؤه سرّاً، وإلا فعلائية، أو ينفق سرّاً لمن تمنعه المروءة من أخذه ظاهراً ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمن لم يكن كما ذكر ﴿وَيَذَرُونِ الْهَسَنَةَ السَّيِّئَةَ﴾ أي يجازون السيئة بالإحسان، أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها وفي الحديث الشريف «أتبع السيئة الحسنة تمحها» ﴿أُولَئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة، وليس المراد بهم أناساً بأعيانهم ﴿لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ أي عاقبة الدنيا المحمودة وما ينبغي أن يكون مآل أهلها، وهي الجنة دار السرور، من غير خوف بدخول النار.

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣).

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ بدل من عَقَبَى الدار ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يقيمون فيها ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ جمع أبوي كل واحد منهم، فكأنه قيل: من آبائهم وأمهاتهم ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي زوجاتهم ونسائهم المؤمنات، ليأنسوا بقاء الأهل والأولاد، ويتم لهم السرور ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي أولادهم وأحفادهم، والمعنى: أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم، وإن لم يبلغ مبلغاً من فضلهم، تبعاً لهم، تعظيماً لشأنهم، وتتميماً لسرورهم، وفي التقييد بالصلاح قطع للأطماع الفارغة، لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب، وإنما يلحق الله

الذرية والأولاد بالآباء، لأنه من أعظم موجبات سرورهم، أن يجتمعوا فيتذكروا أحوالهم في الدنيا، ثم يشكرون الله على الخلاص منها، والفوز بالجنة قال الله تعالى في أهل الجنة: ﴿يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾^(١) ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ أي من أبواب المنازل، يدخلون لإتحافهم بأنواع التحف قائلين:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بشارة لهم بدوام السلامة ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي هذه الكرامة العظمى بسبب صبركم، وتخصيص الصبر بما ذكر من الصلاة السابقة، لما أن له دخلاً في كل منها، ومزية زائدة من حيث ملاك الأمر في كل منها، وأن شيئاً منها لا يُعتدُّ به إلا أن يكون لا ابتغاء وجه الرب تعالى ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي فنعم عاقبة الدنيا: الجنة، وقد كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٢).

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ أريد بهم من يقابل الأولين، ويخالفهم في الاتصاف بنقائص صفاتهم ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي من بعد ما أوثقوه من الاعتراف والقبول، قيل الآية نزلت في أهل الكتاب ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الإيمان بجميع الأنبياء الأمرين بالتوحيد، ومن حقوق الأرحام، وموالاته المؤمنين وغير ذلك، مما لا يراعون حقوقه، وإنما لم

(١) سورة يس، آية: ٢٧.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري عن محمد بن إبراهيم ١٣٩/٣.

يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم صريحاً لدلالة النقص والقطع على ذلك ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالظلم وتهيج الفتن، وبالكفر والعصيان ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿الْأَلْعَنَةُ﴾ الإبعاد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عقبي الدار.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ أي يوسعه ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيِّقه، والمراد بالرزق الدنيوي، لا ما يعم الأخروي يقال: قَدَّرَ اللهُ الرزق يقدره من باب ضرب ضيقه على ما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة، من غير أن يكون لأحد مدخل في ذلك، فربما يبسط للكافر ابتلاء واستدراجاً، وربما يضيِّقه على المؤمن، زيادة على أجره فلا يُقال: كيف يكون الكافر مع ما عليه من الضلال في سعة من الرزق؟ فبيّن سبحانه أن سعة رزقهم ليس تكريماً لهم، كما أن تضيق رزق بعض المؤمنين ليس للإهانة لهم، بل لحكم إلهية يعلمها سبحانه ﴿وَفَرِحُوا﴾ أهل مكة فرح أشد وبطر، لا فرح سرور بفضل الله تعالى ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم من نعيمها ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم فيها من النعم ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ في جنب نعيم الآخرة ﴿إِلَّا مَتَعٌ﴾ إلا شيء تافه حقير يتمتع به، كعجالة الراكب وزاد الراعي، يعني شيء قليل النفع، وسريع الفساد، وذلك لا يوجب الفرح^(١). عن عبد الله بن مسعود قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله: لو اتخذنا لك وطاءً - أي فراشاً - لينا - فقال:

(١) المتاع: كل ما يتمتع به الإنسان ثم يضمحل ويفنى، والمراد أن نعيم الدنيا وشهواتها وملاذمها شيء قليل ذاهب، ومتاع حقير بالنسبة لنعيم الآخرة.

«ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا، إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها»^(١).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي هلاً أنزل على محمد آية أي معجزة، كمعجزة العصا لموسى، وإحياء الموتى لعيسى؟ ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ إضلاله باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات، وهو كلام جار مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة، التي أوتيتها ﷺ لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن آية، فإذا جحدوها ولم يعتدوا بها، كان ذلك موضعاً للتعجب، فما أعظم عنادهم، وما أشد كفرهم!! والله تعالى يخلق فيمن يشاء الضلال، لسوء استعداده، كمن كان على صفتكم في المكابرة والعناد، والغلو في الفساد، فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءتته كل آية ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ أي إلى جانبه العلي الكبير، هداية موصلة إليه ﴿مَنْ أَنْابَ﴾ أي أقبل إلى الحق، ورجع عن العناد وأناب إليه سبحانه، والآية صريحة لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة في نسبة الخير والشر إليه عز وجل.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدل ممن أناب أي هم الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسوله، وأيقنوا بالآخرة والحساب والجزاء ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تأنس وتسكن ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي بكلامه المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

(١) الحديث أخرجه الترمذي وصححه رقم ٢٣٧٨.

ولا من خلفه، وإطلاق الذكر على ذلك شائع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ وقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وسبب اطمئنان قلبهم بذلك، علمهم أن لا آية أعظم منه، ولذلك لا يقترحون الآيات كغيرهم، والعدول إلى صيغة المضارع، لإفادة دوام الاطمئنان وتجده، بحسب تجدد المنزل من الذكر ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ﴾ وحده ﴿تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي تأنس وتسكن قلوبهم بذكره، دون غيره من الأمور التي تميل إليها النفوس من الدنيويات، وفيه إشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب معتبرة، حيث لم يطمئنوا بذكر الله، فإن قيل: قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والوجلُّ ضد الاطمئنان!! قلنا: المراد ههنا حصول الطمأنينة لهم، لكونه حقاً وارداً من عند الله سبحانه، والوجلُّ خوفُ الجلالة، والعظمة والهيبة، أي وجلت قلوبهم من هيئته عز شأنه، وذلك دليل الإيمان، فلا تعارض بين الآيات.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أمّا المؤمنون الصادقون، الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي أحسنوا في الدنيا، فيقال لهم ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ عن ابن عباس معناه: فرح، وقرّة عين لهم، وعن الضحاك: غبطة لهم، وعن قتادة حسنى لهم، ويرجع ذلك إلى معنى العيش الطيب لهم ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ المرجع والمقرّ وهي الجنة، وهذا وعدّ من الله تعالى لهم ترغيباً لطاعته.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَسَتْلُوا عَلَيْهِمُ الْآلَاءُ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَآبٍ﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل إرسال الرسل قبلك ﴿أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾ شبه إرساله ﷺ بإرسال من قبله، وإن لم يجر لهم ذكر، لدلالة قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِنْ قَبْلِهَا أُمَّةٌ﴾ كثيرة قد أرسل إليهم رسل، فليس ببدع إرسالك إليها ﴿إِتَّخَلُّوا﴾ لتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الكتاب الذي أوحيناه إليك ﴿وَهُمْ﴾ والحال أنهم ﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي يكفرون بالرحمن رب العزة والجلال، الذي أحاطت بهم نعمته، ووسعت كل شيء رحمته، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة بإرسالك إليهم، وإنزال القرآن عليهم الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية، نزلت في مشركي أهل مكة، حين قيل لهم: اسجدوا للرحمن، قالوا وما الرحمن؟ وأوثر هذا الاسم الدال على المبالغة في الرحمة، للإشارة إلى أن الإرسال ناشئ منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله: إن الرحمن الذي أنكرتم معرفته ﴿هُوَ رَبِّي﴾ أي خالقي ومبلغي إلى مراتب الكمال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري لا على أحد سواه ﴿وَالْيَهُ مَتَابِ﴾ أي توبتي ورجوعي ومرجعكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سِيرَتْ بِهٖ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهٖ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهٖ الْمَوْتِ ۖ بَل لِّلّٰهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِصَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّٰهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ .

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ أي قرآنًا ما، وكتاباً من الكتب السماوية ﴿سِيرَتْ بِهٖ الْجِبَالُ﴾ أي نُقلت من أماكنها وزعزعت من رواسيها، وهذا لبيان عظم شأن القرآن العظيم وتأثيره على النفوس ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهٖ الْأَرْضُ﴾ أي شقت وجعلت أنهاراً وعيوناً أو جعلت قطعاً متصدعة، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ﴾ ﴿أَوْ كَلِمٌ بِهٖ الْمَوْتِ﴾ أي كلم أحد به الموتى، بأن أحياهم بقراءته، فتكلم معهم،

وجواب الشرط محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكونه غايةً في الهداية والتذكير، ونهاية في الإنذار والتخويف، وقال الزجاج: تقديره لما آمنوا، لغلوهم في المكابرة والعناد، وتماديهم في الضلال والفساد، فلو أن قرآنًا فعلت به هذه الأفاعيل العجيبة، لكان هذا القرآن المعجز، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين^(١) ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي له جلٌ وعلا الأمر الذي عليه يدور فلك الأكوان، وجوداً وعدماً، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو إضراب عما تضمنته الشرطية من معنى النفي أي لو أن قرآنًا جعل به ما ذكر، لكان ذلك هذا القرآن العظيم، ولكن لم يفعل سبحانه بل فعل ما عليه الشأن الآن لأن الأمر كله له وحده، روي أن بعض المؤمنين قالوا يا رسول الله: أجب هؤلاء الكفار إلى ما اقترحوه من الآيات، فعسى أن يؤمنوا فقل: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِصِلْ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أفلم يقنط المؤمنون، عن إيمان هؤلاء الكافرين، بعدما رأوا كثرة عنادهم، وبعدها شاهدوا الآيات؟^(٢) ﴿أَنْ تَوْشَّاهُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسِ جَمِيعًا﴾ أي ألم يعلموا أن الله لو شاء هدايتهم لهداهم، وأنه سبحانه لم يشأ ذلك ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي كفار مكة ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا﴾ من الكفر وسوء الأعمال، ﴿قَارِعَةً﴾ أي داهية تقررهم وتقلعهم، بما يحلُّ بهم في كل وقت، من صنوف البلايا والمصائب، في نفوسهم وأولادهم، والقارعة: الشديدة من شدائد الدهر، من القرع وأصله ضرب شيء بشيء بقوة، والمراد بها هنا ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب، من القتل، والأسر، والنهب ﴿أَوْ تَحُلْ﴾ تلك

(١) الغرض تعظيم شأن القرآن، والرد على المشركين الذين كابروا في كون القرآن آية، واقترحوا آية غيرها، فنبههم تعالى أنه آية الآيات، ومعجزة المعجزات.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْسَ﴾ أفلم يعلم ويتبين، وهي لغة هوازن وهذا التفسير منقول عن بعض السلف، ولكن لا ضرورة لإخراج الكلمة عن معناها الأصلي، ما دام يمكن أن يفهما على الوجه المتبادر، فمعنى أفلم يأس أي أفلم يقنط المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة؟ فهو أظهر وأشهر.

القارعة ﴿قَرِيبًا﴾ مكاناً قريباً ﴿مِنْ دَارِهِمْ﴾ فيفزعون منها، ويتطايروا شررها عليهم، وشبه القارعة بالعدو المتوجه إليهم فأسند إليها الإصابة تارة، والحلول أخرى ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ بموتهم أو هلاكهم أو بمجيء القيامة، أو فتح مكة، فإن كلاً منها وعد محتوم، وفيه دلالة على ما يصيبهم عند ذلك من العذاب، ثم حقق ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ الميعاد بمعنى الوعد، لا امتناع الكذب في كلامه تعالى، أي لا يخلف وعده بنصرة أنبيائه.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ﴾ كثيرة خلت ﴿مِن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تسلية لرسول الله ﷺ ووعد للمستهزئين، والإملاء: أن يترك الشيء في دعة وأمن، كما يُملَى للبهيمة في المرعى، والمعنى: إن ذلك ليس مختصاً بك، بل هو أمر مطرد، قد فعل ذلك برسول كائنة من قبلك، فأمهلت الذين كفروا ما فعلوه بهم مدة من الزمن ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي ثم أخذتهم بالعذاب فكيف عقابي لهم؟ أي سأنتقم من هؤلاء أيضاً، كما انتقمتم من أولئك المتقدمين.

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظُنُّهُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ ﴿٣٣﴾

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ﴾ رقيب عليها ومهيمن ﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، فيشبهها إن أحسنت، ويعاقبها إن أساءت، كمن ليس كذلك، بل هو عاجز عن نفسه وهي الأصنام، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾

كَمْ مَنْ لَا يَخْلُقُ؟ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه، وجعلوا له شركاء لا شريكاً واحداً ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تبكيت إثر تبكيت لهم، أي سَمُّوهم من هم؟ وما هي أسماءهم؟ وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة، ويستأهلون الشركة؟ وإنما يقال ذلك في الأمر المستحقر، يعني أنه أخس من أن يُسمَّى ويُذكر ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ؟﴾ أي بل أنخبرونه تعالى ﴿يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي شركاء مستحقين للعبادة، لا يعلمهم سبحانه وتعالى، والمراد نفيها بنفي لازمها على طريق الكناية، لأنه سبحانه إذا كان لا يعلمها وهو الذي لا يَغْرُبُ عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فهي لا حقيقة لها أصلاً، وتخصيص الأرض بالذكر، لأن المشركين إنما زعموا أنه سبحانه له شركاء فيها ﴿أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ﴾ أي بل أتسمونهم شركاء، بظاهر من القول، من غير أن يكون له حقيقة، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب، ينادي على نفسه بالإعجاز، فتبارك الله رب العالمين!! ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إضراب عن الاحتجاج عليهم، كأنه قيل: دع ما ذكر من الدليل، فإنه لا فائدة فيه، لأنه زَيْنَ لهم كفرهم ﴿وَمَكْرَهُمْ﴾ كيدهم للإسلام بشركهم وتمويههم الباطل ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ سبيل الحق بختم الله تعالى على قلوبهم ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ أي يخلق فيه الضلال لسوء اختياره ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يوفقه للهدى ويوصله إلى ما فيه نجاته.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾

﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ شاق ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل، والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب، فإنها إنما تصيبهم عقوبة من الله على كفرهم ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ من ذلك بالشدة والمدة ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ من عذابه سبحانه ﴿مِنْ وَاقٍ﴾ من حافظ يحفظهم من ذلك.

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا نَارٌ لَا تُفْجَأُ ۚ وَفِيهَا مِنْ ثَمَرَةٍ مُشْبَعَةٍ قُلْ إِنَّهَا لَمِنْ أَثَرِ قَوْلِ رَبِّكَ الَّذِي يَقُولُ لِلَّذِينَ لَا يُفْقَهُونَ كَلِمَاتِ اللَّهِ أَنِ ادْعُوا إِلَيْهِمْ بِالْحَقِّ ۚ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ أي صفاتها العجيبة في الغرابة كالمثل ﴿ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار الجنة ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ ثمرها ﴿ دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع أبداً ﴿ وَظُلُّهَا ﴾ أيضاً دائم لا ينسخ كما تنسخ ظلال الدنيا بالشمس ﴿ تِلْكَ ﴾ الجنة الموصوفة بما ذكر ﴿ عَقْبَى ﴾ الَّذِينَ اتَّقَوْا الكفر والمعاصي أي مآلهم ومنتهى أمرهم ﴿ وَعَقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ لا غير، وفيه ما لا يخفى من إطماع المتقين، وإقنات الكافرين.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَصَابٍ ۝ ٦١ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ ﴾ هم المسلمون من أهل الكتاب، كعبد الله ابن سلام وأصحابه، ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً، أو عامتهم، فإنهم يفرحون بما يوافق كتبهم، وعن الحسن وقتادة: المراد بالكتاب «القرآن» وأهل القرآن ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ إذ هو الموعود في التوراة والإنجيل ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أي ومن أحزاب أهل الكتاب وهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن الأشرف، والسيد، والعاقب وأتباعهم، والأحزاب جمع حزب: الطائفة المتحيزة، أي المجتمعة لأمر ما كالحرب ونحوه ﴿ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ أي ينكر بعض القرآن عناداً، مع يقينهم بصدقه لأنه موافق لما عندهم ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله إلهاماً لهم، ورداً لإنكارهم، صادعاً بالحق ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أي قل لهم: إنما أمرت فيما أنزل إليّ بعبادة الله وتوحيده، ولا سبيل لكم إلى إنكاره، لإطباق جميع الأنبياء والكتب الإلهية على ذلك كقوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ

الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً^(١) ﴿١﴾ فما لكم تشركون به سبحانه عزيزاً والمسيح؟ ﴿إِيَّاهُ﴾ أي إلى الله تعالى، وإلى ما أمرت به من التوحيد ﴿أَدْعُوا﴾ الناس، لا إلى غيره، ولا إلى شيء آخر ﴿وَلِئْلَهِ﴾ إلى الله تعالى وحده ﴿مَثَابِ﴾ أي مرجعي للجزاء، وقوله: ﴿أمرت أن أعبد الله﴾ يدل على أن العبادة غاية التعظيم وقوله: ﴿ولا أشرك به﴾ يدل على نفي الإشراك، وقوله: ﴿إليه أَدْعُوا﴾ إشارة إلى نبوته ﷺ وقوله: ﴿والله مآب﴾ إشارة إلى الحشر والنشر.

ثم شرع في رد إنكارهم لفروع الشرائع، ببيان الحكمة في ذلك فقال سبحانه:

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ﴿٧٧﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال البديع حسبما تقتضيه الحكمة ﴿أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي حاكماً يحكم في القضايا والواقعات بالحق، والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم، لتوضيح وجوب مراعاته ﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجماً بلسان العرب، إذ بذلك يسهل فهمه، وإدراك إعجازه بالنسبة للعرب ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي يدعونك إليها كتفريق دينهم، والصلاة إلى قبلتهم، وترك الدعوة إلى الإسلام ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ العظيم الشأن، الفائض عليك من ذلك الحكم العربي ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ من جنبه العزيز، والالتفات وإيراد الاسم الجليل، لتربية المهابة في النفس ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يلي أمرك، وينصرك على من يبغيك الغوائل ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من مصارع السوء، وأمثال هاتيك القوارع والزواجر، إنما هي لقطع أطماع

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٤.

الكفرة، وتهيج المؤمنين على الثبات على الدين، لا للنبي ﷺ فإنه بمكان لا يحتاج إلى باعث أو مهيج، ولذا قيل: الخطاب لغيره.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ كثيرة ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ بشراً مثلك ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نساء وأولاداً، كما جعلناها لك، روي أن اليهود عيّرت رسول الله ﷺ، وقالوا لا نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء، فنزلت ردّاً عليهم، حيث تضمنت أن التزوج لا ينافي النبوة، وأن الجمع قد وقع في رسل كثيرين، وفي تكثير نسائه ﷺ فوائد جمّة، ولو لم يكن فيه سوى الوقوف على استواء سره وعلنه لكفى، لأن النساء من شأنهن أن لا يحفظن سراً كيف ما كان، وروي أنهم طعنوا في نبوته ﷺ بعدم الإتيان بما يقترحونه من الآيات فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ما صح وما استقام ولم يكن في وسع رسول من الرسل، الذين من قبلك أن يأتي بآية مما اقترح عليه إلا بتيسير الله عليه، ومشيتته المبنية على الحكم والمصالح ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أي لكل مدة ووقت من الأوقات ﴿كِتَابٌ﴾ حكم معين يكتب على العباد، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوالهم، في المبدأ والمعاد، ومن قضية ذلك أن تختلف باختلاف أحوال الأمم، كاختلاف العلاج حسب اختلاف المرضى.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ أي ينسخ ما يشاء نسخه من الأحكام، لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ بدله ما فيه المصلحة، أو يبقيه على حاله غير منسوخ، أو يمحو سيئات الثائب، ويثبت مكانه الحسنه،

قال الله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ وعن ابن عباس ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ من أمور العباد، إلا السعادة، والشقاوة، والآجال، فإنها لا محو فيها^(١) وقيل: هو عام في الرزق، والآجل، والسعادة، والشقاوة، ونُسب إلى جماعة من الصحابة والتابعين، كانوا يتضرعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سعداء، وروي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يطوف بالبيت ويقول: «اللهم إن كنت كتبت عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحه، واجعله سعادة ومغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب»^(٢) وقيل: ما من شيء إلا ويمكن تبديله حتى القضاء الأزلي، واستدل لذلك بأمور منها أنه قد صحَّ من دعائه ﷺ في القنوت «وقني شرَّ ما قضيت» وفيه طلب الحفظ من شر القضاء الأزلي، ولو لم يمكن تغييره، ما صحَّ طلب الحفظ منه، ومنها ما صحَّ في حديث التراويح قال ﷺ: «خشيت أن تفرض عليكم» فإن سبق القضاء بأنها ستفرض، لا معنى لهذه الخشية فتفرض، وإن سبق القضاء أن لا تفرض فمحال أن تُفرض^(٣) ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ، إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي

(١) رواه عنه ابن مردويه، وذكره ابن كثير في تفسيره ٥٣٨/٢.

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب، وانظر زاد المسير لابن الجوزي ٣٣٧/٤.

(٣) قال ابن عطية: والذي يتلخص من الآية، أن الأشياء التي قدرها الله تعالى في الأزل، لا يصح فيها محو ولا تبديل، وهي التي كُتبت في أم الكتاب - يعني اللوح المحفوظ - وسبق بها القضاء، وأما الأشياء التي أخبر الله أنه يُبدل فيها وينقل، كمغفرة الذنوب بعد تقررها، وكنسخ آية بعد تلاوتها، ففيها يقع المحو والثبوت، فيما يقبده الحفظة ونحو ذلك، وأما إذا رُدَّ الأمر إلى القضاء والقدر، فقد محا الله ما محا، وأثبت ما أثبت. ١ هـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٨٢/٨.

(٤) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

كِتَابُ^(١) وقال سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾^(٢) وجمهور العلماء على أن هذه الآيات كلها في معنى واحد، روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً «لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي غلبت غضبي»^(٣) وروى البخاري عن عمران بن حصين مرفوعاً: «وكتب في الذكر كل شيء» وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً «كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»^(٤) وزوى أحمد والترمذي عن عبادة بن الصامت مرفوعاً «أول ما خلق الله القلم ثم قال: اكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة»^(٥) ومذهب السلف أن يؤمن بالقلم الإلهي، واللوح المحفوظ، وما كتب القلم في اللوح من مقادير الخلق، ونحو ما ورد، من غير أن نحكم بآرائنا في صفة شيء، وتفسير أم الكتاب بعلم الله تعالى، ممّا رواه عبد الرزاق وابن جرير عن كعب.

﴿وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾

﴿وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ المراد بعض الذي وعدناهم من إنزال العذاب عليهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ لا غير، أي فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة، لا تحقيق ما بلغته من الوعيد ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي علينا حسابهم وجزاؤهم، فلا تهتم بما وراء ذلك، فنحن نكفيك، ونتم ما وعدناك من الظفر، ولا يضرّجك تأخره، فإن ذلك لما

(١) سورة طه، آية: ٥٢.

(٢) سورة يس، آية: ١٢.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ٤٠٤/١٣ ومسلم رقم ٢٧٥١ في التوبة.

(٤) أخرجه مسلم في القدر رقم ٢٦٥٣ والترمذي رقم ٢١٥٧ في القدر أيضاً.

(٥) أخرجه الترمذي في القدر رقم ٢١٥٦ وأحمد في المسند ٣١٧/٥.

نعلم من المصالح الخفية، ثم إنه سبحانه طيّب نفسه ﷺ بطلوع تابشير الظفر، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٤١).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ استفهام إنكاري، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي أنكروا نزول ما وعدناهم ولم يروا ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أرض الكفرة ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بأن نفتحها على المسلمين شيئاً فشيئاً، ونلحقها بدار الإسلام، ونذهب منها أهلها بالقتل، والأسر، والإجلاء، فانتقاص أرضهم وقواهم وازدياد قوة المسلمين، من أقوى العلامة على إنجاز الوعد، نظيره قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١)؟ وأخرج الحاكم عن ابن عباس وصححه أن انتقاص الأرض موتُ أشرافها وكبرائها وذهاب العلماء منها ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ ما يشاء كما يشاء، وقد حكم للإسلام بالعزة والإقبال، وعلى الكفر بالذلة والإدبار، حسبما يشاهده ذوو الأبصار ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي لا رادَّ له، والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فمما قيل يحاسبهم ويجازيهم بأفانين العذاب في الآخرة، وعن ابن عباس معناه سريع الانتقام.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلَهُ الْكَفَرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ﴾ (٤٢).

﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ﴾ خلوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل كفار مكة بأنبيائهم، وبالمؤمنين منهم، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ بأنه لا عبرة بمكرهم، ولا تأثير، ولم يصرح سبحانه لدلالة القصر في قوله تعالى:

(١) سورة الأنبياء، آية: ٤٤.

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ﴾ أي جنس المكر ﴿جَمِيعًا﴾ أي لا وجود لمكرهم أصلاً، إذ هو عبارة عن إيصال المكره إلى الغير، وحيث كان جميع ما يأتون بعلمه وقدرته سبحانه، وأعمالهم مجرد الكسب حسبما بينه سبحانه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ومن قضية عصمة أوليائه، وعقاب الماكرين بهم، ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة إلى مكر الله بهم عين ولا تأثير، على معنى أن ذلك ليس مكرًا بالأنبياء، بل هو بعينه مكر من الله عز وجل بهم، وهم لا يشعرون، حيث لا يحقق المكر السيئ إلا بأهله ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ المراد الجنس أي جميع الكفار، الذين كذبوا برسالة محمد ﷺ حين توفى كل نفس جزاء ما كسبته ﴿لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ أي العاقبة الحميدة من الحزبين، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُ عِلْمِ الْكِتَابِ﴾ ﴿٤٣﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ يقول كفار مكة لرسول الله ﷺ لست يا محمد مرسلًا من عند الله، وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه تعالى قد أظهر على رسالتي من الحجج القاطعة، والبيّنات الساطعة، ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر ﴿وَمَنْ عِنْدُ عِلْمِ الْكِتَابِ﴾ أي علم القرآن، وما عليه من النظم المعجز، وإخباره عن الغيوب، وقيل: المراد بالكتاب التوراة والإنجيل، فالمراد بمن عنده علمها الذين أسلموا من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأضرابه، أخرجهم ابن جرير عن ابن عباس، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بغونه تعالى تفسير سورة الرعد»

سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ

مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾

﴿الرَّكَتَبُ﴾ أي السورة المسماة بـ: ﴿الر﴾ كتاب عظيم ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ وفي إسناد الإنزال إلى ضمير العظمة، ومخاطبته ﷺ مع إسناد الإخراج إليه في قوله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لا يخفى من التفخيم والتعظيم، والمراد من الناس جميعهم، أي أنزلناه إليك لتخرجهم كافة من عقائد الكفر والضلال، إلى الحق المؤسس على التوحيد، الذي هو نور بحث ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقه وتسهيله، وفيه استعارة تمثيلية، بتصوير الهدى بالنور، والضلال بالظلمة، والمنغمس في ظلمة الكفر والضلال لا يتسهل له الخروج إلى نور الإيمان، إلا بتفضل الله تعالى بإرسال الرسل الكرام ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ تخصيص الوصفين بالذكر، للترغيب في سلوكه، ببيان ما فيه من الأمن، والعاقبة الحميدة، وللتنبية على أنه لا يذئد سالكه، ولا يخيب سائله ﴿الحميد﴾ بحمده لنفسه أولاً، وبحمد عباد له أبداً.

﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَمْأَفِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَيُؤْتِلُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

﴿الله﴾ عطف بيان للعزیز لاختصاصه بالمعبود الحق، لأنه أجري مجرى أسماء الأعلام لغلبته، ثم لا يخفى عليك أنه عند الأئمة المحققين علم لا كالعلم ﴿الَّذِي لَمْ يَمْأَفِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ما وجد فيهما، ففيه بيان فخامة الصراط، وإظهاره لتحتّم سلوكه على الناس قاطبة ﴿وَيُؤْتِلُ الْكَافِرِينَ﴾ وعيد لمن كفر بالكتاب، ولم يخرج من الظلمات إلى النور ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ معدّ لهم في الآخرة.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ يختارونها عليها فالسين للطلب، والمحبة مجاز عن الاختيار، وقد جمع الله سبحانه هذين الوصفين، ليبين بذلك أن المحبة للدنيا وحده لا يكون مذموماً، إلا بعد أن يضاف إليه إشارتها على الآخرة، فهذا المذموم ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يصرفون الناس عن دين الله تعالى، والإيمان به ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي يبغون لها فحذف الجار أي يطلبون لها ﴿عِوَجًا﴾ أي زيفاً واعوجاجاً، أي يقولون لمن يريدون صده وإضلاله عن السبيل: هي سبيل زائفة وغير مستقيمة ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، والبعد وإن كان من أحوال الضال، إلا أنه قد وُصف فعله مجازاً للمبالغة، كجذّ جذّه، ثم قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ﴾ دون أن يقول أولئك الضالون ضلالاً، للدلالة على تمكنهم فيه، تمكن المظروف في الظرف، وتصوير اشتغال الضلال عليه من كل جانب.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ في الأمم الخالية من قبلك ﴿مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ أي متكلماً بلغة قومه الذي هو منهم، أو بعث فيهم ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ذلك الرسول ﴿لَهُمْ﴾ لأولئك القوم ما أمروا به، فيتلقوه عنه بيسر وسرعة، ويعملوا بموجبه من غير حاجة إلى الترجمة ﴿فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يخلق فيه الضلال، ويخذله فلا يطف به، لوجود أسبابه المؤدية إليه فيه ﴿وَيَهْدِيَ﴾ أي يخلق الهداية، أو يمنح اللطاف ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق، يعني أن الرسول ليس عليه إلا التبليغ والتبيين، والله الهادي والمضل، يفعل ما يشاء والاتفات بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل، لتفخيم شأنهما ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب على مشيئته ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا لحكمة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ تسلياً وتصبيراً للرسول ﷺ على أذى قومه، بذكر قصص بعض الرسل ﴿بِآيَاتِنَا﴾ وهي المعجزات التي أظهرها الله على يديه، وهي كما قال مجاهد وعطاء: الآيات التسع ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي بني إسرائيل، والمعنى: أرسلناه وقلنا له: أخرج قومك ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من الكفر والجهالة، التي أدتهم إلى أن يقولوا: «يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة» ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائر ما أمروا به ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي بنعمائه وبلائه، كما روي عن ابن عباس واختاره الطبري، وعن أبي بن كعب أنه فسر الأيام في الآية

بنعم الله وآلائه، والالتفات بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل، للإيدان بفخامة شأنها، أي عظمهم بالترغيب والترهيب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في التذكير بها ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ عظيمة تدل على وحدانيته، وقدرته، وعلمه، وحكمته تعالى ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلاء ﴿شُكُورٍ﴾ لنعمائه، فإنه إذا سمع بما نزل على من قبله من البلاء، وأفىض عليهم من النعماء، اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر، وقيل المراد لكل مؤمن، وإنما عبّر بذلك عنهم بذلك، تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان المؤمن، الدال على ما في باطنه، وتخصيص الآية بالصبار الشكور، لأنه المنتفع بها، وتقديم الصبر لما أن الصبر مفتاح الفرج، المقتضي للشكر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بِلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي اذكروا نعمته وقت إنجائه آبائكم ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ المراد بالعذاب ههنا غير المراد في سورة البقرة والأعراف، لأنه مفسر بالتذبيح والقتل هناك ومعطوف عليه التذبيح ههنا، وهو استعبادهم، واستعمالهم بالأعمال الشاقة ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ من حيث إنه إقدار الله تعالى إياهم، وإمهالهم فيه ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ابتلاء منه، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء، والمراد بالبلاء النعمة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ من جملة مقال موسى أي اذكروا نعمة الله، واذكروا إذ تأذن ربكم وهو نعمة من الله عليهم، لما فيه من الترغيب

والترهيب، الباعثين على خير الدنيا والآخرة ﴿تَأَذَّنْ﴾ أي آذن إيداناً بليغاً، لا تبقى معه شبهة، لما في صيغة التفعّل من معنى التكلف أي أعلم إعلماً بليغاً ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء، وإهلاك العدو، وغير ذلك من النعم وقابلتم بالإيمان والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمة إلى نعمة ﴿وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وعصيتُموني ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فأعذبكم على الكفر عذاباً شديداً، ومن عادة أكرم الأكرمين، أن يصرّح بالوعد، ويُعرّض بالوعيد، فلذا لم يقل لأعذبكم كما قال: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وعذابُ الكفر أما في الدنيا فسلب النعمة، وأما في العقبى فتوالي النقم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيْدٌ﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لعله عليه السلام قاله، عندما عين منهم دلائل العناد، وتيقن أنه لا ينفعهم التذكير ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ نعمه تعالى ﴿أَنْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين ﴿فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ﴾ عن شكركم وشكر غيركم ﴿حَمِيْدٌ﴾ مستوجب للحمد بذاته لكثرة أياديه، وهو محمود تحمده الملائكة، بل كل ذرات العالم، كالتعليل لما ذكر، أي إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم، حيث حرمت أنفسكم مزيد الإنعام، وعرضتموها للعذاب الشديد، فالله لا تنفعه طاعة، ولا تضرّه معصية.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِيْ أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِيْ شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ شروع في

الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية، أي ألم يسمعون ما جرى عليهم، ليتدبروا ما أصاب كل واحد منهم، فيقلعوا عما لهم عليه من الشرك، وينيبوا إلى الله عز وجل؟ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد المذكورين ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي إنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون، لأنهم يدعون علمها، وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ يَأْكِينَتِ﴾ بالمعجزات الواضحات، فبين كل رسول منهم لأمة طريق الحق، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ مشيرين بذلك إلى ألسنتهم وما يصدر عنها^(١) ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي على زعمكم، وهي البينات التي أظهرها حجة على صحة رسالتهم، وحاصله أنهم أشاروا إلى جوابهم هذا، كأنهم قالوا هذا جوابنا لكم، وليس عندنا غيره، إقناطاً لهم من التصديق، والأيدي والرد مجاز عن الإشارة، أو وضعوا أيديهم على أفواههم، مشيرين بذلك للرسول أن يكفوا ويسكتوا ﴿وَإِنَّا لَنَبِيُّكَ﴾ عظيم ﴿مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله والتوحيد ﴿مُرِيبٌ﴾ موقع في الريبة، وهو قلق النفس وعدم الاطمئنان، بادروا أولاً إلى الكفر، وهو التكذيب المحض، ثم أخبروا أنهم في شك وهو التردد في دعوة الرسل.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أِنِّي إِلَهُ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

(١) المراد أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مبالغة في السخرية والتكذيب، وتوضيح هذا أنهم لما سمعوا كلام الرسل، عجبوا من ذلك وضحكوا على سبيل السخرية، فعند ذلك وضعوا أيديهم على أفواههم، كما يفعل ذلك من غلبه الضحك، فوضع يده على فمه.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ منكرين عليهم ومتعجبين من مقاتلتهم الحمقى ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي أنتم في شك في شأنه سبحانه، ووجوده، ووحدانيته، وهو أظهر من كل ظاهر؟ أي ليس في الله شك، وحيث كان مقصدهم الدعوة إلى الإيمان، وكان إظهار البينات وسيلة إلى ذلك، لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ واقتصروا على ما هو الغاية القصوى، وهو الشك في وجوده تعالى، ثم عقبوا ذلك بالشواهد الدالة على الوحدانية فقالوا: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما وما فيهما، على نظام أنيق شاهد على وجوده ووحدانيته، ثم نبهوا على عظم كرمه ورحمته فقالوا: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان ببعثه إيانا، ولا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ أي يدعوكم لأجل المغفرة ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي بعضها، وهو ما عدا المظالم، وحقوق العباد، فإن الإسلام يجبته دون مظالم العباد، ولم تجيء مع «مِنْ» إلا في خطاب الكافرين، وقال تعالى في خطاب المؤمنين ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وذلك للتفريق بين الخطابين فالمؤمنون تغفر لهم جميع ذنوبهم تفضلاً وكرماً ﴿وَيُخْرِجَكُم مِّنْ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت سماه الله تعالى، فلا يعاجلكم بعذاب الاستئصال ﴿قَالُوا إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ من غير فضل يؤهلكم لما تدعون من الرسالة ﴿تُرِيدُونَ﴾ بما تتصدون له من الدعوة والإرشاد ﴿أَنْ تَصُدُّونَا﴾ أي أن تصرفونا بتخصيص العبادة لله تعالى ﴿عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ عما استمر عليه آبائنا من غير شيء يوجبه ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ يدل على فضلكم، وعلى صحة ادعائكم النبوة؟ كأنهم لم يعتبروا ما جاؤوا به من البينات، واقترحوا عليهم آية أخرى، تعثتوا ولجأوا.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجازاة معهم في أول مقالاتهم ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما تقولون ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ﴾ أي يتفضل بالنبوة ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعنون أن ذلك عطية من الله تعالى، يعطيها من يشاء من عباده، بمحض الفضل، والبشرية غير مانعة لمشيئته تعالى، ولا يخفى ما في العدول عن قولهم: «ولكن الله من علينا» إلى ما في النظم الجليل، من التواضع منهم عليهم السلام ﴿وَمَا كُنَّا لِنَآيُصِرَّكَ إِذَا تَوَكَّلْنَا﴾ أي ما صَحَّ وما استقام ﴿أَنْ تَأْتِيَكُمُ الْإِسْلَامُ﴾ أي بحجة من الحجج الواضحة، فضلاً عن السلطان المبين، الذي اقترحوه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنه أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى، إن شاء كان، وإلا فلا ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أمر منهم للمؤمنين كافة، وقصدوا به أنفسهم، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله، في الصبر على معاندتكم، ومما يدُلُّ على أنهم قصدوا أنفسهم قولهم:

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْنُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ؟﴾ أي أي عذر لنا أن لا نتوكل على الله؟ ﴿وَقَدْ هَدَانَا﴾ أي والحال أنه قد فعل بنا ما يوجهه حيث هدانا ﴿سُبُلَنَا﴾ أي أرشد كلاً منا سبيله ومنهاجه، الذي شرع له، وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب الاضطراب، قالوا مظهرين لكمال العزيمة ﴿وَلَنَصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْنُمُونَا﴾ أي ولنصبرن على أذاكم لنا بصنوف الأذى ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ خاصة ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي فليثبت المؤمنون المتوكلون على الله، فمن توكل على الله كفاه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ ﴾ أي قال الكفار للرسل الأطهار، متوعدين ومهّدين: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ حلفوا على أن يكون أحد الأمرين: إما إخراجهم من الأوطان، أو عودهم في ملتهم، ولم يقنعوا بعصيانهم الرسل، والعود باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل، أي لترجعن أنتم وأتباعكم إلى ديننا، والأنبياء لم يكونوا على دينهم قط، فإنهم نشأوا على التوحيد، وفي أول الأمر ما أظهروا المخالفة، فالقوم ظنوا أنهم كانوا على دينهم، فلذا قالوا أو لنعوذنَّ ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ ﴾ إلى الرسل ﴿ رَبُّهُمْ ﴾ مالك أمرهم عند تناهي عتوَّ المشركين ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ على إضمار القول، أي قائلاً لنهلكن المشركين المتناهين في الظلم والطغيان.

﴿ وَلَنَسْكَنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١١ ﴾ .

﴿ وَلَنَسْكَنَنَّكُمُ الْأَرْضَ ﴾ أي أراضيهم وديارهم ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد إهلاكهم، جعل الله عزَّ وجلَّ عقوبتهم لقولهم بإخراج الرسل، إخراجهم من الدنيا، وتوريث أرضهم وديارهم للمؤمنين ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الموحى به، وهو إهلاك الظالمين، وإسكان المؤمنين ديارهم، أي ذلك أمرٌ محقق ثابت ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي ﴾ وهو الموقف الذي يقف فيه العباد، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي وعيدي بالعذاب، وفي الآية دلالة على أن من توكل على ربه في دفع عدوه كفاه الله أمر عدوه.

﴿ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ١٢ ﴾ .

﴿ وَأَسْتَفْتَحُوا ﴾ أي سألوا الله النصر والفتح على أعدائهم، والضمير للرسل عليهم السلام، أي استنصر الرسل وطلبوا من الله أن ينصر المحقَّ، ويهلك المضل ﴿ وَخَابَ ﴾ أي خسر وهلك ﴿ كُلُّ جَبَّارٍ ﴾ عات متكبر

عن عبادة الله سبحانه وطاعته ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق، مباہ بما عنده، ففي الكلام إيجاز الحذف، أي استفتحوا ففتح لهم، وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم المعاندون، وإنما ذكر كل جبار عنيد موقع ضميرهم، ذمًا لهم، وتسجيلًا عليهم.

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ (١٦).

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ من بين يديه، فإنه مرصد لها، واقف على شفيرها في الدنيا، مبعوث إليها في الآخرة ﴿وَيُسْقَى﴾ عطف على مقدر كأنه قيل: يلقي فيها ويسقى ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿صَدِيدٍ﴾ هو قيح أو دم مختلط، يسيل من أجساد أهل النار، عطف بيان لما أبهم أولاً، ثم يُبين تهويلاً لأمره، وتخصيصه بالذكر من عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه، وأفظعه، وأشنعه.

﴿يَتَجَرَّرُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (١٧).

﴿يَتَجَرَّرُهُ﴾ يتكلف جرعه أي يشربه جرعة جرعة، لغلبة العطش، واستيلاء الحرارة عليه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ ولا يقارب أن يسيفه فكيف يسيفه؟ بل يغص به فيطول عذابه، تارة بالحرارة والعطش، وتارة بشربه على تلك الحال ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ أي أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب، ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي فتحيط به من جميع الجهات الست، أو من كل مكان من جسده، حتى من أصول شعره، وإبهام رجله، وإطلاق المكان على الأعضاء مجاز ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي والحال أنه ليس بميت حقيقة فيستريح ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ ومن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يستقبل في كل وقت، عذاباً أشدَّ وأشقَّ مما هو عليه، ففيه دفع ما يتوهم من الخفة، بحسب الاعتياد كما في عذاب الدنيا، وقيل: هو الخلود الأبدي في النار.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨)

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ صفتهم وحالتهم العجيبة الشأن التي هي كالمثل في الغرابة ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ أعمالهم التي عملوها في وجوه البر، كصلة الأرحام، وعتق الرقاب، وقرى الأضياف، وغير ذلك ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ فنسفته وطيرته ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي ريحه عاصف أي شديد قوي، وصف به زمانه - اليوم - للمبالغة، كقولهم: نهاره صائم، وليله قائم، شبه به أعمالهم في حبوطها وذهابها هباءً منثوراً^(١) ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من تلك الأعمال ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ لحبوطه، فلا يرون له أثراً من الثواب ﴿ذَلِكَ﴾ ما دل عليه التمثيل من ضلالهم مع حساباتهم أنهم على شيء ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن طريق الحق، والصواب، فإنه الغاية في البعد عن طريق الهدى والرشاد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به أمته والرؤية قلبية ﴿أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي ألم تعلم أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما فيهما ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي ملتبسة بالحكمة الجليلة، والوجه

(١) مثل تعالى لأعمال الكفار، التي عملوها في الدنيا يبتغون بها الأجر، من صدقة وصلة رحم وغيرها، بمثل رمادٍ وهو التراب الناعم، عصفت به الريح فجعلته هباءً منثوراً، فكما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف، كذلك تذهب أعمال الكفار ضياعاً ودماراً.

الصحيح الدال على عظمة الخالق، يعني لم يخلقهما عبثاً وإنما خلقهما لأمر عظيم وغرض صحيح ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم بالمرة ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سواكم خلقاً آخر، أعبد الله منكم وأطوع، رتب تعالى قدرته على ذلك، على قدرته على خلق السماوات والأرض، إرشاداً إلى طريق الاستدلال، فإن من قدر على خلق الأجرام العظيمة، كان على تبديل خلق آخر بهم أقدر، ولذلك قال: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾

﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ أي إذهابكم والإتيان بخلق آخر مكانكم ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي بصعب ولا عسير، بل هو سهل يسير، فإنه عز وجل قادر على جميع الممكنات.

﴿وَيَبْرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهَ لَهَدَيْتَكُمْ سَوْءًا عَلَيْنَا أَجْرٌ عَلْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾

﴿وَيَبْرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يبرزون من قبورهم يوم القيامة، لأمر الله تعالى ومحاسبته، وإنما ذكر بلفظ الماضي لتحقيق وقوعه ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ أي الأتباع جمع ضعيف يريد به ضعاف الرأي والعقل ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي لرؤسائهم الذين أغووه وأضلوه عن دين الله ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل، والإعراض عن نصائحهم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ أريد بالاستفهام التوبيخ والتفريع، والغناء بمعنى الفائدة، وضمن معنى الدفع، ولذا عُدِّي بعن أي إننا اتبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال، فهل أنتم اليوم دافعون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي بعض الشيء الذي حلَّ بنا؟ ﴿قَالُوا﴾ أي المستكبرون جواباً واعتذاراً عما فعلوا بهم ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهَ لَهَدَيْتَكُمْ﴾ للإيمان ﴿لَهَدَيْتَكُمْ﴾ ولكن ضللنا فضلناكم، أي اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا ﴿سَوْءًا عَلَيْنَا أَجْرٌ عَلْنَا﴾ مما لقينا، جزع الرجل إذا ضعف عن حمل ما نزل به ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على ذلك، أي مستو علينا الجزع والصبر،

ولمّا كان عتاب الأتباع من باب الجزع ذبلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك، فقالوا: ﴿ مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ أي من منجى ومهرب من العذاب، والمحيص: المنجى والمهرب.

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِيَّيْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ٢٦

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ ﴾ أي إبليس الذي أضل كلا الفريقين ﴿ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي أحكم وفرغ منه، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قام خطيباً في أشقياء من الثقليين. أخرج ابن جرير عن الحسن قال: إذا كان يوم القيامة، قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ وعداً حقاً، وعد من أطاعه الجنة، ومن عصاه النار، فوفاكم وأنجزكم ذلك ﴿ وَوَعَدْتُكُمْ ﴾ وعد الباطل، وهو أن لا بعث ولا حساب، ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ أي كذبتكم وأخلفتكم الوعد، جعل تبين خلاف وعده، كالإخلاف منه وظهر كذبه ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ من تسلط فالجنتكم إلى الكفر والمعاصي ﴿ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ ﴾ أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة ﴿ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أسرعتم إجابتي باختياركم ﴿ فَلَا تَلُمُونِي ﴾ بوسوستي فقد حذرکم الله مني، وأخبركم عداوتي ﴿ وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ ﴾ حيث استجبتم لي باختياركم، ولم تطيعوا ربكم، لمّا دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج، وليس مراد اللعين التنصل عن توجه اللائمة إليه، بل بيان أنهم أحق بها منه، وفي هذه الآية دليل على أن الإنسان هو الذي يختار السعادة والشقاوة، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين ﴿ مَا أَنَا ﴾

بِمُصْرِخِكُمْ ﴿١﴾ أي بمغيثكم من العذاب، يقال: استصرخني فأصرخته ^(١)، أي استغاثني فأغثته، وأصله من الصراخ وهو مدُّ الصوت، والهمزة للسلب، كأن المغيث يزيل صراخ المستغيث ﴿وَمَا أَنتَ بِمُصْرِخٍ﴾ بمغيثي مما أنا فيه، وإنما تعرض لذلك للتذكير بأنه أيضاً مبتلى بمثل ما ابتلوا به، ومحتاج إلى الإغاثة ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ اليوم ﴿يَمَّا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي كفرت بالذي أشركتموني به، وهو الله تعالى، لطاعتكم إياي فيما دعوتكم إليه من عبادة الأصنام وغيرها ومعنى كفره بإشراكهم، تبرئه واستنكاره له كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ^(٢) ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ابتداء كلام من الله تعالى، وفي حكاية أمثال ذلك لطف بالسامعين، وإيقاظ لهم، حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم.

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ^(٣)

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بإذن الله وأمره، والمدخلون هم الملائكة، ولما ذكر الله تعالى مآل الكفار، ذكر مآل المؤمنين، من إدخالهم الجنة، وفي التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميرهم، مزيد اللطف بهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي تحييتهم الملائكة فيها بالسلام، أو الرب سبحانه يحييهم بالسلام، كما قال سبحانه: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ وهو مشتق من السلامة أي أنهم سلموا من آلام الدنيا وعذاب الآخرة.

(١) الصارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعاونة، والمضرخ هو المغيث. اهـ القرطبي ٣٥٧/٩.

(٢) سورة الممتحنة، آية: ٤٠.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٢١).

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي كيف بيّنه ووضعه في موضعه اللائق به ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ هي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ أي حكم بأنها مثلها، لا أنه صيّر لها مثلها في الخارج كقولك شرف الأمير زيدا كساه حُلَّةً، وكونُ الشجرة طيبة، إما كونها طيبة المنظر، أو طيبة الرائحة، أو طيبة الثمرة، أو طيبة بحسب المنفعة، وإذا اجتمعت فيها هذه الأمور يحصل كمال الطيب ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ أي أعلاها، وسمي الأعلى فرعاً لتفرعه عن الأصل، ولهذا أفرد، ويجوز أن يراد به الفروع، لأنه مضاف والإضافة تَرُدُّ للاستغراق، فكانه قيل وفروعها ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي في جهة العلو.

﴿ تَتَوَقَّى أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٠).

﴿ تَتَوَقَّى أُكْلَهَا ﴾ تعطي ثمرها ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ وقتَه الله تعالى لإثمارها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بإرادة خالقها وتكوينه، والمراد بالشجرة المنعوتة النخلة وروي عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «أخبروني عن شجرة شبه الرجل المسلم، لا يتحات ورقها، تؤتي أكلها كل حين؟ قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فقال ﷺ: هي النخلة، فحكيتها لأبي فقال: يا بني لو كنت قلتها لكانت أحب إلي من حُمُرِ النَّعَمِ»^(١) وقيل: كل شجرة مثمرة، طيبة الشمار، كالنخلة، والتين، والعنب، والرمان، ونحو ذلك، وأنت تعلم

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٩٩/٦ ورواه أحمد في المسند ١٢/٢ ومسلم رقم ٢٨١١ باب «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ النَخْلَةِ».

أنه إذا صح الحديث لا ينبغي العدول عنه، ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادة «أن لا إله إلا الله» بهذه الشجرة المنعوتة، أن أصل تلك الكلمة، هو الإيمان الثابت في قلوب المؤمنين، وما يتفرع منها من الأعمال الصالحة يصعد إلى السماء، وما يترتب على ذلك من ثواب الله ورضاه، هو الثمرة التي تؤتيها كل حين ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإن فيه تصوير المعاني العقلية، بصور المحسوسات، وبه يرتفع التنازع بين الحسن والخيال.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمة الكفر وتكذيب الحق، وما يعم كل كلمة قبيحة عند الله سبحانه ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ كمثل شجرة ﴿خَبِيثَةٍ﴾ كالحنظل ونحوه ﴿اجْتُثَّتْ﴾ اقتلعت من أصلها، وحققة الاجتثاث: أخذ الجثة وهي شخص الشيء كله ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ لأن عروقها قرينة منه ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ استقرار، والكلمة المشبهة هي الإشرار بالله سبحانه، فإن الكفر أول الآفات، ورأس الشقاوات، فخبثه لا يخفى، ليس له حجة ولا قوة، بل هو داحض غير ثابت.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الذي تنبت بالحجة عندهم، وتمكن في قلوبهم، وهو قول: ﴿لا إله إلا الله﴾ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يزيغون إذا افتتنوا في دينهم، كما جرى لبلال وكثير من أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي بعد الموت وذلك في القبر، الذي

هو أول منزل من منازل الآخرة عند سؤال منكر ونكير، وفي مواقف القيامة فلا يتلعثمون إذا سُئلوا عن معتقدتهم هناك، ولا تُدهشهم الأهوال، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ﴾ وفي الآخرة: القبر^(١) ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم فلا يهتدون إلى الحق، فلا يشتون في مواقع الفتن، والمراد بهم الكفرة، ووصفهم بالظلم باعتبار ظلمهم لأنفسهم، باختيار الضلال، فالمراد بالذين آمنوا المخلصون في الإيمان، والراسخون في الإيقان، كما ينبىء عنه التثبيت ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من تثبيت بعض، وإضلال آخرين، من غير اعتراض عليه، حسبما توجه مشيئته، التابعة للحكم البالغة، وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعين، من الفخامة، وتربية المهابة ما لا يخفى.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ
الْبَوَارِ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد مما صنع الكفرة أي ألم تنظر ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي شكر نعمته تعالى، بأن وضعوا موضعها ﴿كَفْرًا﴾ عظيمًا، أو بدلوا نفس النعمة كفرًا، فإنهم لما كفروها سلبت منهم، كأهل مكة، خلقهم الله تعالى، وأسكنهم حرمة، وجعلهم قوام بيته العتيق، ووسّع عليهم أبواب رزقه، وشرفهم برسول الله ﷺ، فكفروا بذلك، فقُحطوا سبع سنين، وقُتلوا وأسروا، فصاروا أذلاء مسلوبي النعمة بعد الرفاهية والعزة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى

(١) الحديث أخرجه ابن مردويه من رواية أبي سعيد الخدري، وروى البخاري عن البراء ابن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ وفي الآخرة» وانظر فتح الباري على البخاري ٣٧٨/٨.

الذين ﴿ قال: هم كفار مكة ﴿ وَأَحْلَوْا ﴾ أي أنزلوا ﴿ قَوْمَهُمْ ﴾ الذين تابعوهم على الكفر ﴿ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ دار الهلاك الذي لا هلاك وراءه، يُقال: بَارَ الشيء يبور بَوْرًا هلك، وأصله فرط الكساد المؤدي إلى الفساد، كما قيل: كَسَدَ حتى فسد، عَبَّرَ به عن الهلاك.

﴿ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا وَيُنْسُ الْفَرَارُ ﴾ (٢٩)

﴿ جَهَنَّمُ ﴾ عطف بيان لها، وفي الإيهام، ثم البيان ما لا يخفى من التهويل ﴿ يَصَلَوْنَهَا ﴾ يفاسون حرها ﴿ وَيُنْسُ الْفَرَارُ ﴾ بشس المقر جهنم مسكنًا ومستقرًا لهم.

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (٣٠)

﴿ وَجَعَلُوا ﴾ أي جعلوا في اعتقادهم ﴿ لِلَّهِ ﴾ الفرد الذي ليس كمثل شيء ﴿ أَدَادًا ﴾ أشباهاً وأمثالاً في العبادة والتسمية ﴿ لِيُضِلُّوهُ ﴾ قومهم الذين يشايعونهم ﴿ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ الذي هو التوحيد، ليقوعوهم في ورطة الكفر والضلال ﴿ قُلْ ﴾ يا رسول الله تهديدًا لأولئك المضلين الضالين ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ بما أنتم عليه من الشهوات، التي من جعلتها كفران النعم، واستتباع الناس في الضلال، وجعل ذلك متمتعاً به تشبيهاً له بالمشتبهات المعروفة، لتلذذهم به كتلذذهم بها ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ الأمر أمر تهديد، وهذا كقول الطبيب لمريض يأمره بالاحتماء فلا يحتمي، كل ما تريد، فإن مصيرك إلى الموت، فإن المقصود منه التهديد، ليرتدع ويقبل ما يقول.

ثم إنه تعالى أمر نبيه ﷺ أن يأمر عباده الصالحين، بالعبادة البدنية، والمالية وبطاعة الله ورسوله فقال تقدست أسماؤه:

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ (٣١).

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ خصهم بالإضافة تنويهاً بهم، وتشريعاً لهم ﴿ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ ومقول القول محذوف، دلّ عليه ﴿ يُقِيمُوا ﴾ أي قل لهم أقيموا الصلاة، وأنفقوا، يقيمون وينفقون ويفعلون بالأمر، لصدق إيمانهم، فهم متى أمروا امتثلوا، ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أي خفية وجهرًا، والأحب في الإنفاق إخفاء التطوع، وإعلان الواجب، والمراد من الأمر حث المؤمن على الشكر لنعم الله عزّ وجل، بالعبادة البدنية والمالية، وترك الركون إلى متاع الدنيا، كما هو صنع الكفرة ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ ﴾ فيبتاع المقصّر ما يتدارك به تقصيره أو يفتدي به نفسه، ﴿ وَلَا خِلَالٌ ﴾ ولا مخاللة أي صداقة فيشفع لك خليل.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ (٣٢).

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ أي أخرج به أنواع الحبوب والثمار، تعيشون به، وهو يشمل المطعوم، والملبوس ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُوكَ ﴾ بأن أقدركم على صنعها واستعمالها، بما ألهمكم كيفية ذلك ﴿ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ ﴾ جرياً تابعاً لإرادتكم حيث توجهتم ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ بمشيئته تعالى، ويندرج في تسخير الفلك تسخير البحر والرياح ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ فجعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم حيث تشربون منها وتسقون بها زروعكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ أي دائمين في الحركة إلى انقضاء عمر الدنيا، وأصل الدأب العادة المستمرة، وتسخير هذين الكوكبين جعلهما منيرين، مصلحين ما نيظ بهما صلاحه، ولولا ذلك ما كان كون ولا حياة، ولا ليل ولا نهار، ولا مأكولات ولا حيوانات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان لسباتكم ومعاشكم وفي إبراز كل من هذه النعم، في جملة مستقلة، تنويه لشأنها، وتنبيه على رفعة مكانها وتنصيب على كون كل نعمة جليلة مستوجبة للشكر.

﴿وَمَا آتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّا الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

﴿وَمَا آتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي أعطاكم من كل شيء سألتموه شيئاً، فإن الموجود من كل صنف، بعض ما في قدرة الله تعالى، ولعل المراد بما سألتموه، ما كان حقيقاً بأن يُسأل لاحتياج الناس إليه. أي أعطاكم من كل ما تحتاجونه، سئل أو لم يُسأل، حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي ما أنعم به عليكم والمراد به الجمع، كأنه قيل: وإن تعدُّوا نِعَمَ الله ﴿لَا تَحْصُوهَا﴾ لا تحصروها ولا تطبقوا عدَّ أنواعها، فضلاً عن أفرادها، فإنها غير متناهية، وإن رمت العثور على حقيقة الحق، فاعلم أن الإنسان لو انقطع ما بينه وبين العناية الإلهية، لما استقرَّ له القرار، وما من فرد من أفراد الناس - وإن كان في أقصى مراتب الفقر - فهو بحيث لو تأملته لوجدته في نِعَمٍ لا تحُدُّ، فإن كنت في ريب من ذلك، فتصوِّرْ مَلِكاً مَلِكاً أقطار العالم، وحاز جميع ما في الدنيا من الأموال، ثم قُدِّرْ أنه قد حُبِسَ عليه النَّفْسُ، أو

حُبِسَ عليه البولُ، وأتاه الموت من كل مكان، أما يعطي ذلك بمقابلة نفسٍ واحد أموال الدنيا بجمالها؟ وهذا من الظهور ما لا يخفى على أحد، فاتضح أنه سبحانه يفيض علينا كلَّ آينِ نِعْمًا لا تتناهى، سبحانه ما أعظم شأنك!! سبحانه ما أعظم سلطانك!! ونحن في معرفتك حائرون، وفي إقامة شكرك قاصرون، نسألك الهداية إلى مناهج معرفتك، والتوفيق لأداء حقوق نعمتك، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ﴿إِنَّكَ الْإِنْسَانَ لَقَلْهُمَ كُفَّارًا﴾ يظلم نفسه بأن يُعرضها للحرمان، بسبب الكفران، وقيل: ظلومٌ في الشدة، يشكو ويجزع، كَفَّارٌ في النعمة، يجمع ويمنع، ويضع نعم الله في غير موضعها و(أل) في الإنسان للجنس، ويدخل في ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفرًا.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي اذكر وقت قول إبراهيم تأكيداً لما سلف من تعجيبه ﷺ ببيان فن آخر من جنایاتهم، حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم، بعدما كفروا بالنعم العامة، وعصوا أباهم إبراهيم حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى، وسأله أن يجعلها بلداً آمناً، ويرزقهم من الثمرات، وتهوي قلوبُ الناس إليهم، فاستجاب الله دعاءه، وجعله حَرَمًا آمناً، يُجَبِّى إليه ثمراتُ كلِّ شيء، فكفروا بتلك النعم العظام، واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ أي مكة ﴿آمِنًا﴾ ذا أمن لمن فيها أي اجعله من البلاد الآمنة ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ بَعْدْنِي وَإِيَّاهُمْ، وأصلُ التجنب جعلُ الشيء على جانب وفيه معنى الإبعاد، وهذا الدعاء مختصُّ بالمؤمنين، لقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ والمرادُ هنا طلب الثبات والدوام على التوحيد والإسلام، أي وثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد والإيمان ﴿أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي اجعلنا من الذين اجتنبوا عبادة الأصنام

فإن قيل: إن الأنبياء عليهم السلام معصومون، فما الفائدة في الطلب؟
أجيب إنما ذُكر هذا هضماً لنفسه، وإظهاراً للحاجة إلى فضل الله سبحانه
في كل المطالب.

﴿ رَبِّ إِنِّي أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَن عَصَانِي فَإِنَّكَ
عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢٦).

﴿ رَبِّ إِنِّي أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ فلذلك سألت منك العصمة،
واستعذت بك من إضلالهن، وإسناد الإضلال إلى الأصنام باعتبار السببية،
لأنهن جمادات لا تعقل، وإنما نسب إليهن الإضلال، لأن الناس ضلوا
بسببهن، فكانهن أضللنهم، كما تقول: ففتتهم الدنيا وغرتهم أي افتنوا
واغترروا بسببها، وهذا تعليل لدعائه، وصدّر بالنداء، إظهاراً للاعتناء به،
ورغبة في استجابته ﴿ فَمَن تَبِعَنِي ﴾ من الناس فيما أَدْعُو إليه، من التوحيد
والإسلام ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أي هو من أهل ديني ﴿ وَمَن عَصَانِي ﴾ أي لم يتبعني،
وعصى أمري في غير الشرك ﴿ فَإِنَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تقدر أن تغفر له
وترحمه، فإنك يا رب غفار الذنوب، رحيم بالعباد.

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا
لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ
الْثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٧).

﴿ رَبَّنَا ﴾ كرر النداء رغبة في الإجابة، والالتجاء إليه تعالى ﴿ إِنِّي
أَتَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أي أسكنت ذرية من ذريتي، والمراد به إسماعيل عليه
السلام وبنيه، وهذا الإسكان بعدما كان بينه وبين أهله ما كان، وذلك أن
هاجر أم إسماعيل، كانت أمة لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام، فلما
ولدت إسماعيل غارت منها فأخرجها وابنها إلى أرض مكة، فوضعها عند

البيت، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى راجعاً فتبعته هاجر، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب؟ فجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذا لا يضيّعنا، ثم رجعت وانطلق عليه السلام حتى إذا كان عند الشيعة، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات المباركات ﴿يُودِ﴾ هو وادي مكة ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فإنها حجريّة لا تنبت، ووصفه في ذلك دون «غير مزروع» للمبالغة، لأن المعنى غير صالح للزراع ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الإضافة للتشريف، وسمي محرّماً لأنه عظيم الحرمه، حرّم الله التعرض له بسوء، فلم يزل مهاباً، نهابه الجبابرة في كل عصر، وسمّاه بيتاً باعتبار ما سيكون بعد ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ اللام لام كي، أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك، والطواف به، والركوع والسجود حوله. وهذا الحصر مستفاد من السياق، فإنه لما قال: ﴿يُودِ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ نفى أن يكون إسمكانهم للزراعة ولما قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أثبت أنه مكان عبادة، ونفى أن يكون إسمكانهم للتجارة والكسب، مع ما في ﴿رَبَّنَا﴾ من الإشارة أن ذلك هو المقصود ﴿فَأَجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ أي أفئدة بعض الناس، و«مِنْ» للتبعية، ولذلك قيل: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم جميع الناس، وأهل فارس والروم ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي تسرع إليهم شوقاً ووداداً وتقبل نحوهم من البلاد الشاسعة، وأول آثار هذه الدعوة، ما روي أنه مرت رفقة من جُزهم تريد الشام، فرأوا الطير تحوم على الجبل، فقالوا: إن هذا الطائر يحوم على الماء، فأشرفوا فإذا هم بهاجر، فقالوا لها: إن شئت كنا معك وأنسناك، وتشركينا في مائك، ونشركك في ألباننا، فأذنت لهم، وكانوا معها إلى أن شبَّ إسماعيل فتزوج منهم، كما هو المشهور ﴿وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي ارزق ذريتي الذين أسكنتهم هناك، يعني وارزقهم كما رزقت سكان القرى، أصحاب الماء والزروع، وإنه ليجتمع فيه الفواكه الربيعية، والصيفية، والخريفية في يوم واحد ﴿لَعَلَّهُمْ

يَشْكُرُونَ ﴿ تلك النعمة، فأجاب الله تعالى دعوته، فجعله آمناً يُجِيبُ إليه ثمرات كل شيء، ولا يخفى ما في دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الأدب، والمحافظة على قوانين الضراعة، وعرض الحاجة، واستئصال الرحمة، ولذا منَّ الله عليه بحسن القبول، واستدل به على أن تحصيل منافع الدنيا إنما هي للاستعانة بها على أداء العبادات.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ ﴾ أي تعلم سرنا كما تعلم علنا، والمعنى: إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا، وأرحم بنا منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب، لكننا ندعوك إظهاراً لعبوديتك، وافتقاراً إلى رحمتك، واستعجالاً لنيل ما عندك، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع، وضمير الجماعة ليس مجرد علمه تعالى بما يخفى وما يعلن، بل بجميع خفايا المُلْكِ والمَلَكُوت، وقد حققه بقوله: ﴿ وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي لا يغيب عليه تعالى شيء في الكائنات، لما أنه عز وجل عالم بالذات، فما من أمر كائن ما كان إلا وجوده في ذاته علم بالنسبة إليه سبحانه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ؟.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ﴾ أي مع كبر سني، ويأسي عن الولد، فعلى بمعنى «مع» والتقييد بذلك استعظماً للنعمة، واستظهاراً لشكرها ﴿ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ روي أنه ولد له إسماعيل تسع وتسعين سنة، وإسحق لمائة واثنتي عشرة سنة، وهذه الرواية عن ابن عباس ﴿ إِنَّ رَبِّي ﴾ أي خالقي ومالك أمري ﴿ لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ أي مجيب الدعاء، من قولك:

سمع الملكُ كلامَ فلان، إذا تلقاه بالقبول، وفيه إشعار بأنه عليه السلام دعا ربه، وسأل منه الولد، فأجابه ووهب له سؤله، حينما وقع اليأس منه، ليكون من أجل النعم، وأحلاها.

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ أي محافظاً عليها، مقيماً لها على الوجه الذي يرضيك، وتوحيد الضمير للإشعار بأنه المقتدى به في ذلك ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة أيضاً ولا يُفَرِّط فيها ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴾ أي استجب دعائي، وتقبل عبادتي.

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿١٢﴾ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط مني من ترك الأولى في باب الدين، مما لا يسلم البشر منه ﴿ وَلِوَالِدَيَّ ﴾ أي لأمي وأبي، وكانت أمه - على ما روي عن الحسن - مؤمنة، وأماً استغفاره لأبيه، فقد قيل: إنه كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله سبحانه، وقالت الشيعة: إن والديه كانا مؤمنين، ولذا دعا لهما، وأما الكافر فالمراد به عمه، وهو قول من لم يدرك النصوص القرآنية، ولم يعرف السنة النبوية ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من ذرية إبراهيم وغيرهم، وهذا من باب ذكر العام بعد الخاص ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أي يثبت ويتحقق، ويقوم الناس لرب العالمين للحساب والجزاء، وفي هذا الدعاء بشارة للمؤمنين، لأنه سبحانه لا يردُّ دعاء خليه.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٣﴾ ﴾ .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ، أي لا تظنن يا محمد أن الله ساهٍ وغافل عن أفعال الظلمة، وفيه

تسلية للمظلوم، وتهديد للظالم، والمراد بالظالمين كفار مكة، ممن عُدَّت مساوئهم، أو جنس الظالمين، وهم داخلون في الحكم، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي يؤخر عقوبتهم، وإنما أسند التأخير إليهم لتحويل الخطاب، ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب وتأخيره للتشديد والتغليظ ﴿لِيَوْمٍ﴾ هائل عسير رهيب ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي تشخص فيه أبصارهم، فلا تفر في أماكنها، من هول ما ترى، يقال: شَخَصَ الرجلُ بصره إذا فتح عينه لا يطرف، وهذا إنما يكون من شدة الهول والفرع.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين إلى الداعي، بالخوف والذل، وأصل الهُطْع: هو الإقبال على الشيء، هَطَعَ الرجل من باب فَتَحَ، إذا أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم مع إدامة النظر، من غير التفات إلى شيء^(١) ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا يرجع إليهم نظرهم، بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي خالية من العقل والفهم، لفرط الحيرة والدهشة، ومنه قيل للدجبان والأحمق: قلبه هواء أي لا قوة ولا رأي فيه، وهذا يكون وقت الحساب، وقيل: عند إجابة الداعي والقيام من القبور.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعَوَتِكَ وَنَسِجِ الرُّسُلِ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾.

(١) هذا هو المشهور عند أهل اللغة لمعنى الإقناع، وهو أن يرفع رأسه مديماً للنظر، وقال المبرد: أقنع الرجل إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلاً وخضوعاً، فهو من الأضداد، قال: ويجوز أن يرفع رأسه مديماً للنظر، ثم يبطأه خضوعاً وذلاً. اهـ وانظر معاني القرآن للنحاس بتحقيقنا ٥٣٩/٣.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ خطاب لسيد الرسل ﷺ والمراد بالناس: الكفار المعبر عنهم بالظالمين، والعدول من الإضمار، للإشعار بأن المراد هو الزجر، عما هم عليه من الظلم، شفقة عليهم، أي خوفهم ذلك اليوم الرهيب، وقيل: الناس جميعاً، فإن الإنذار عام كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والشدائد ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالشرك والتكذيب أي فيقولون، والعدول عنه للتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بأن ما لقيه إنما هو لظلمهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي آخر العذاب عنا، وردنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى زمن قريب لنستدرك ما فات ﴿يُحِبُّ دَعْوَتَكَ﴾ أي نجب الدعوة إليك، وإلى توحيدك ﴿وَتَسْتَجِبْ أَلْرُّسُلُ﴾ أي فيما جاؤوا به أي نتدارك ما فرطنا به من إجابة الدعوة ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ﴾ على إضمار القول أي فيقال لهم توبيخاً: ألم تؤخروا في الدنيا؟ وألم تكونوا أقسمتم بالستكم وحلفتهم بطراً وجهلاً ﴿مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ﴾ مما أنتم عليه، من التمتع بالحظوظ الدنيوية، وأنكم لا تنتقلون من دار الفناء إلى دار البقاء، والغرض أنهم ينكرون البعث بعد الموت، ويقسمون على أن لا حساب ولا جزاء. ذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: «لأهل النار خمس دعوات، يجيبهم الله تعالى في أربع منها، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً: الأولى يقولون: ﴿فَاغْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾؟ فيجيبهم الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخَذَهُ كَفَرْتُمْ﴾ ثم يقولون: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ فيجيبهم جل شأنه: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبِّ دَعْوَتَكَ﴾ فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ الآية ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ نَعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾؟ فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ فيجيبهم الله عز وجل: ﴿اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ فلا يتكلمون بعدها». اللهم إنا نعوذ بك من غضبك، ونلوذ بكنتك من عذابك، ونسألك التوفيق للعمل

الصالح، في يومنا لغدنا، والتقرب إليك بما يرضيك، قبل أن يخرج الأمر من يدنا، عزَّ جارك، وجلَّ ثناؤك، ولا إله غيرك.

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ (٤٩).

﴿وَسَكَنْتُمْ﴾ من السكنى بمعنى التَّبَوُّء والاستيطان، أي سكنتم في ديار الظالمين بعد أن أهلكناكم، فهلاً اعتبرتم بما جرى عليهم!! ﴿فِي مَسْكَنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي، كعاد وثمود سائرين سيرتهم في الظلم والفساد ﴿وَبَيَّنَّ لَكُمْ﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ بينا لكم في القرآن العظيم وعلى السنة الأنبياء ما حلَّ بهم، فلم تعتبروا منهم، فأنتم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٥١).

﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾ أي فعلنا بهم ما فعلنا، والحال أنهم قد مكرُوا في إبطال الحق، وتقرير الباطل ﴿مَكْرُهُمْ﴾ العظيم وجاوزوا فيه كل حدٍّ محدود، والمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فعل بهم ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي جزاء مكرهم الذي فعلوه، وتسميته مكرأ لكونه بمقابلة مكرهم ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في العظم والشدة ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ وعبر عن ذلك بكونه معداً لإزالة الجبال عن مقارها، لكونه مثلاً في ذلك، لشدة المكر، وضخامة السعي في الإجرام، فكأنهم بمكرهم الخبيث يكادون يقتلعون الجبال.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو
 أَنْتِقَامٍ ﴾ (٤٧).

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۚ ﴾ تثبيت له ﷺ على ما هو عليه،
 من الثقة بالله سبحانه، والتيقن بإنجاز وعده تعالى، بتعذيب الظالمين، كما
 يفصح عنه الفاء، لا وعده بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ
 عَزِيزٌ ﴾ أي غالب لا يُماكر، وقادر لا يُدافع ﴿ ذُو أَنْتِقَامٍ ﴾ لأوليائه من
 أعدائه.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ
 الْقَهَّارِ ﴾ (٤٨).

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ أي ينجزه ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ ﴾
 ﴿ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ عطف على الأرض، وتقديره والسموات غير السماوات
 والتبديل قد يكون في الذات، وقد يكون في الصفات، والآية الكريمة
 ليست بنص في أحد الوجهين، روى البخاري عن سهل بن سعد قال: قال
 رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءُ عَفْرَاءٍ - يعني
 شديدة البياض - كقرصة النقي - أي الخبز النقي في اللون - ليس فيها عِلْمٌ
 لأحد»^(١) أي علامة من الأبنية والزراعة والمساكن ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ أي الخلائق
 من أجدانهم ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ لمحاسبته ومجازاته، وذكره بالوصفين،
 للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة، فإن الأمر إذا كان لواحدٍ غَلَّابٌ لا
 يُغَالَبُ، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار.

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٣٢٣/١١ ومسلم رقم ٢٧٩٠ في البعث
 والنشور.

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٥٩ ﴾ .

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي قرن بعضهم مع بعض مع الشياطين، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبُّكَ لَخَشْرَنُهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أيديهم وأرجلهم تُربط إلى رقابهم بالأغلال، كحال الأشقياء في الدنيا. يربطون بالسلاسل والقيود ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي في القيود، جمع صَفْد، والصَّفْدُ: القيْدُ، وقيل الغُلُّ، وأصله الشَّدُّ.

﴿ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ٦٠ ﴾ .

﴿ سَرَابِلُهُمْ ﴾ قمصانهم جمع سربال ﴿مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ وهو أسود متتن تشتعل فيه النار بسرعة، وهو إن سال بنفسه يُقال: زفت وإن كان بالصناعة فقطران، ففي سراويلهم تشبيه بليغ، وذلك أن المقصود أنه تُطلى جلود أهل النار بالقطران، حتى يعود طلاؤه كالسراويل، وذلك ليجتمع عليهم ألوان العذاب: لذعُه، وحَرْقُه، ومنتنه، واللون الموحش على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكلُّ ما وعد الله أو أوعده به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي تملأها وتحيط بها نار جهنم، لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق، ولم يستعملوا في تدبره مشاعرهم وحواسهم، التي خلقت لأجله، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ .

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٦١ ﴾ .

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ ﴾ أي يفعل بهم ذلك ليجزي الله ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ مجرمة بقرينة المقام ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي، جزاءً وفاقاً ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيتمه في أعجل ما يكون من الزمان، وعن ابن عباس المراد سريع الانتقام.

﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا
الْأَلْبَابِ ﴾.

﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى القرآن وما فيه من العظة ﴿ بَلَّغٌ ﴾ كفاية في التذكير والموعظة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي لجميع الخلق من إنس وجن ﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ بهذا البلاغ ﴿ وَلِيَعْلَمُوا ﴾ بالتأمل فيه من الدلائل الواضحة، التي هي إهلاك الأمم، وإسكان الآخرين مساكنهم ﴿ أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ لا شريك له، ولا مثيل، ولا نظير ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي أصحاب العقول السليمة، فيرتدعوا عما يُرديهم من الصفات التي يتصف بها الكفار، وفي تخصيص التذكير بأولي الأبواب، إعلاء شأنهم، لأنهم المنتفعون بالمواعظ والأحكام، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه، إنه سميع مجيب الدعاء.

«انتهى بعونه تعالى تفسير سورة إبراهيم»

سُورَةُ الْحَجَرِ

مكية وهي تسع وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾

﴿الرَّ﴾ اسم للسورة أي هذه السورة مسمّاة بـ: الرَّ^(١) ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي هذه آيات الكتاب الكامل في الفصاحة والبيان، الذي يعجز عنه البشر، الجدير بأن يسمى الكتاب الكامل، في أسلوبه وأحكامه ﴿وَقُرْآنٍ﴾ عظيم الشأن، وتنكيره للتفخيم ﴿مُبِينٍ﴾ أي واضح بين، لا خلل فيه ولا اضطراب، فارق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾

﴿رُبَّمَا﴾ ربّ حرف جر، و «ما» كافة مصححة لدخوله على الفعل، وربّ على كثرة وقوعها في كلام العرب، لم تقع في القرآن إلا في هذه الآية، وهي للتقليل غالباً، وللتكثير نادراً كما في هذه الآية^(٢) ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ

(١) قدّمنا فيما مضى أن الحروف الهجائية في أوائل بعض السور، للتنبيه على إعجاز القرآن، كأنه يقول: هذا الكتاب المعجز العجيب كلام الله تعالى، وهو منظوم من أمثال هذه الحروف المقطعة من ألف ولام وراء وأمثالها فإذا شككتكم فيه فأتوا بمثله.
(٢) أنكر الزجاج أن تجيء «ربّ» للتكثير، وقال: هذا ضدّ ما تعرفه العرب، وهي على أصلها، للتقليل، والآية خارجة مخرج الوعيد، وكذلك قال النحاس في تفسيره =

كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿١﴾ أي سيتمنى الكفار محققاً يوم القيامة أن لو كانوا مسلمين في الدنيا، ويندمون على عدم الإيمان، كما جاء في الحديث الشريف «إن ناساً من أمتي يُعَذَّبون بذنوبهم، ثم يعيِّرهم أهلُ الشرك، ويقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نَفَعكم؟ فلا يبقى موحد إلا أخرجته الله تعالى من النار، ثم قرأ ﷺ الآية» (١).

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٣﴾

﴿ ذَرْهُمْ ﴾ أي دغهم واطرکہم عما هم عليه، إذ لا سبيل إلى ارعوائهم، والمراد التخلية بينهم وبين شهواتهم، كأنه قيل: خلِّهم وشأنهم ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ أي يأكلوا كما تأكل البهائم، ويستمتعوا بدنياهم الفانية ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي يشغلهم الأمل عن التفكير فيما يصيرون إليه ﴿فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءهم يوم القيامة.

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ ﴿٤﴾

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا ﴾ شروع في بيان سر تأخير عذابهم إلى يوم القيامة ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من القرى بالخسف بها وبأهلها، كما فعل ببعضها ﴿إِلَّا وَلَهَا﴾ في ذلك الشأن ﴿كِتَابٌ﴾ أجل مقدّر، مكتوب في اللوح بحيث لا يمكن تبديله، والمراد به أجل إهلاكهم ﴿مَعْلُومٌ﴾ لا يُنسى ولا يغفل عنه.

= معاني القرآن ٨/٤ حيث قال: فأما معنى «رب» ههنا فإنما هي في كلام العرب للتقليل، وأن فيها معنى التهديد، وهذا تستعمله العرب كثيراً لمن تتوعدده وتهدهده، يقول الرجل للآخر: ربما ندمت على ما تفعل، ولا يشكون في ندمه ولا يقصدون تقليله، بل حقيقة المعنى أنه يقول: لو كان هذا مما يقل، أو يكون مرة واحدة لكان ينبغي أن لا تفعله. قال: وأما قول من قال إن «رب» تقع للتكثير فلا يعرف في كلام العرب، والدليل على أنه وعيد وتهديد قوله سبحانه بعده: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾. اهـ وهو كلام نفيس.

(١) الحديث أخرجه الطبراني وابن مردويه، وانظر مختصر ابن كثير ٣٠٧/٢.

﴿ مَا تَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴾ ﴿٥﴾ .

﴿ مَا تَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ من الأمم المهلكة وغيرهم، أجلها المكتوب في كتابها أي لا يجيء هلاكها قبل مجيء أوانه ﴿ وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴾ أي وما يتأخرون عنه برهة من الزمن، واستدل بالآية على أن كل من مات أو قُتل، فإنما هو ميّت بأجله.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ﴿٦﴾ .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ نادوا به الرسول ﷺ والقائلون هم مشركو مكة، وذلك لغاية تماديهم في العتو، خاطبوا به الرسول ﷺ لا تسليماً بنبوته بل استهزاء، أي يا من تدعي الرسالة إنك لتقول قول المجانين، وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلاماً يستبعده: أنت مجنون، وقد سبقهم إلى نظيره فرعون بقوله في حق موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ .

﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ ﴿٧﴾ .

﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا ﴾ كلمة «لو» عند تركبها مع «ما» تفيد ما تفيده عند تركبها مع «لا» من معنى امتناع الشيء لوجود غيره، ومعنى التحضيض، والمراد هنا التحضيض، أي هلاً تأتينا ﴿ بِالْمَلَكَةِ ﴾ يشهدون لك ويساعدونك في الإنذار، كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿ لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾؟ ^(١) ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ في دعواك أنك رسول الله؟ فإن قدرة الله على ذلك محقة!! قال تعالى رداً عليهم:

(١) سورة الفرقان، آية: ٧.

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ الضمير للجلالة من التنزيل، وهذا منسوق منه سبحانه إلى نبيه ﷺ جواباً لهم عن مقالتهن المحكية، ورداً لاقتراحهم الباطل، الصادر عن محض الكبرياء والعناد، فالملائكة لعلو رتبهم، أعلى من أن يكون مقصد خركاتهم، أولئك المعاندين لرسول الله، وإنما لهم مهمة أسمى ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق، أي بالوجه الذي قدّره سبحانه، واقتضته حكمته، والذي اقترحوه من التنزيل، لأجل الشهادة لديهم، ومنزلتهم في العقارة والهوان منزلتهم، لا يكاد يدخل تحت الصحة والحكمة أصلاً، وإنما الذي يدخل في حقهم هو التنزيل في التعذيب والاستئصال، كما فعل بأضربهم من الأمم السالفة، ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ جزاء الشرط المقدر، تقديره: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا أيضاً منظرين، كدأب سائر الأمم المكذبة، مع استحقاقهم لذلك، ومقتضى الحكمة التشريعية والتكوينية، أن يكون الملائكة منزلين بصورة البشر، وتنزيلهم كذلك يوجب اللبس، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُونُ﴾^(١) فلا يتفعون، وما كانوا إذا منظرين لأننا نهلكهم ولا نؤخرهم، لأنه قد جرت عادتنا في الأمم قبلهم، أنا لم نأتهم بآية اقترحوها، إلا والعذاب في إثرها إن لم يؤمنوا، فقد جرى قلم القضاء، بتأخير عذاب هؤلاء حسبما أجمل في قوله تعالى: ﴿ذَرُهُمْ يَأْكُلُوا﴾ فلم يهلكوا.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ﴿٩﴾ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ ردّ لإنكارهم واستهزائهم، أي نحن بعظيم شأننا، وعلو جنابنا نزلنا عليك يا محمد هذا القرآن العظيم، المعجز في

(١) سورة الأنعام، آية: ٩.

بيانه، الساطع في برهانه ﴿وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ﴾ من كل ما يقدح فيه، كالتحريف، والزيادة، والنقصان، وغير ذلك، حتى إن الشيخ المهيب، لو غير نقطة يردُّ عليه الصبيان، ويقولون له: الصوابُ كذا، ولم يحفظ سبحانه كتاباً من الكتب كذلك، وتولَّى حفظ القرآن بنفسه سبحانه، فلم يزل محفوظاً أولاً وآخراً، ومصوناً عن جميع جهات التحريف، مع أن الدواعي من الملحدين، واليهود، والنصارى متوافرة، ومتهالكة على إفساده^(١)، فكان ذلك الحفظ والحماية من أعظم المعجزات، وتحقق بذلك الوعد الرباني، وجاءت الجملة الثانية اسمية ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ للدلالة على دوام الحفظ، فهو محفوظ بحفظ الله إلى قيام الساعة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً، كما روي عن ابن عباس، وإنما لم يُذكر لدلالة السياق والسباق ﴿فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي فرقهم وطوائفهم، وتُطلق على الأعوان، وهي المتفقة على طريقة ومذهب، وأصبح لفظ «الشيعه» يطلق على قوم مخصوصين، يزعمون أنهم أتباع علي رضي الله عنه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

(١) تكفل الله جلّ ثناؤه بحفظ هذا القرآن المجيد، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان، ولا على التبديل فيه والتغيير، كما جرى لغيره من الكتب كالنوراة والإنجيل، المحرّفة بالنص القاطع ﴿يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ وذلك لأن الله تعالى وَكَّلَ حفظها إلى أهلها كما قال سبحانه: ﴿بِمَا اسْتَحَفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي أمروا بصيانه وحفظه، فحزفوا وبدلوا، وأما القرآن العظيم فقد تكفل ربُّ العزة والجلال بحفظه، فلم يستطع أحد من البشر التلاعب فيه، بالتحريف والتبديل على كثرة الأعداء من اليهود والنصارى والملحدين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ أي ما أتى شيعة من الشيعة من رسول خاص بها
﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كما يفعله هؤلاء الكفرة، وفي هذا تسلية
للنبي ﷺ، بأن هذه شنيئة جهال الأمم مع المرسلين، والسبب الذي يحمل
الجهال على هذا أمور:

الأول: أنهم يستقلون التزام الطاعات والعبادات، لغطرستهم
وكبريائهم.

الثاني: أن الرسول يدعوهم إلى ترك ما ألفوه من عاداتهم الرديئة،
وذلك شاق على الطباع.

الثالث: أن الرسول قد يكون فقيرا، فالمتنعمون يثقل عليهم اتّباعه،
ونحو ذلك من الأمور.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾

﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك السلك والإدخال الذي سلكناه في قلوب
أولئك المستهزئين برسلهم، وبما جاؤوا من الكتب ﴿نَسْلُكُكُمْ﴾ أي ندخل
الباطل والضلال ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي في قلوب مشركي مكة، وغيرهم
من الضالين المستهزئين بأنبياء الله، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب الضالين
من قومك، والسلك: إدخال شيء في شيء، كالخيط في المِخِيط، وفيه
دليل على أن الله عز وجل يدخل الضلال في قلوبهم كما اختاروه، لأنهم
من أهل الخذلان، ليس عندهم استعداد لقبول الحق.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي لا يصدقون بالقرآن العظيم، ولو جاءتهم كل آية
بينة ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وقد مضت طريقة الأولين، وعادة الله فيهم
بإهلاك الطغاة المجرمين، حين كذبوا رسلهم واستهزؤوا بهم.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ على هؤلاء المقترحين المعاندين ﴿ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أي باباً يصعدون فيه إلى السماء، ويُسِّرنا لهم الرقي والصعود إليه ﴿ فَظَلُّوا فِيهِ ﴾ في ذلك الباب، يُقال: ظل يفعل كذا إذا فعله نهاراً، كما يقال بات يفعل كذا إذا فعله بالليل ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون فيرون ما فيها من الملائكة والعجائب طول نهارهم.

﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ لَقَالُوا ﴾ لفرط عنادهم، وغلوتهم في المكابرة ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ أي سُدَّتْ من الإحساس، ومنعت عن الإبصار حقيقة، وما نراه تخيل لا حقيقة له، وهو من السكر بالفتح ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ قد سحرنا محمد ﷺ بذلك، كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات، وفي هذه الآية دلالة على أنهم ما كفروا إلا على علم، معاندين باغين، فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه، لكنهم قوم سجيتهم العناد، ثم إنه تعالى بعد أن ذكر حال منكري النبوة، ذكر دلائل التوحيد، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ أي منازل تسير فيها الأفلاك والكواكب العظيمة ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ أي السماء بالنجوم ﴿ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أي للمتفكرين المستدلين بذلك على قدرته تعالى، فتزيينها ظهورها على نظام بديع، مستتبع للآثار الحسنة.

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَآنٍ رَّجِيمٍ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَآنٍ رَّجِيمٍ ﴾ فلا يقدر أن يصعد إلى السماء، ويقف

على أحوالها، والرجيم: المطرود عن الخيرات، المرمي بالنجوم والمراد بحفظها: منعهم عن التعرض لها، والوقوف على ما فيها من أحاديث الملائكة والوحي.

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾.

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ﴾ استراق السمع اختلاسه سراً، شبه به خطفتهم البسيرة من الملائكة الأعلى، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ والمراد بالسمع: المسموع ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ ومعنى أتبعه تبعه، والشهاب الشعلة الساقطة من النار الموقدة، ومن العارض في الجو، والمبين الظاهر أمره للمبصرين. فإن قيل: جعل الكواكب زينة للسماء يقتضي بقاءها، وجعلها رجوماً يقتضي زوالها؟ قلنا: جعلها رجوماً للشياطين، ليس بأجرام الكواكب، بل يشعل من الكواكب، وما ذاك إلا كقبس أخذ من نار، كما قال تعالى: ﴿يَجِدُ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها، والظاهر أن المراد بسطها وتوسيعها ليحصل بها الانتفاع لمن حلها، ولا يلزم من ذلك نفي كرويتها، لما أن الكرة العظيمة لعظمها ترى كالسطح المستوي ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ مقدّر بمقدار معين تقتضيه حكمته، ومستحسن مناسب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَكُمْ لِمُزَاقِينَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس وغيرهما

مما يتعلق به البقاء ﴿وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُمْ رِزْقِينَ﴾ العيال، والخدم، والمماليك، وسائر ما يظنون أنهم يرزقونهم، فإن الله يرزقهم وإياهم، والمعنى: جعلنا لكم معاش، ولمن لستم له برازقين من الخدم والعبيد.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٢١)

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد، ﴿إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي إلا عندنا خزائنه ومستودعاته، والخزائن جمع خزانة بمعنى المخزن، وهو ما يُحفظ فيه نفائس الأموال، شُبِّهَتِ المقدورات التي قَدَّرَهَا الله بنفائس الأموال المخزونة على طريقة الاستعارة التخيلية، وأنه تعالى حافظها والمتولي تدبيرها. ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ﴾ أي وما نوجد وما نكون شيئاً من تلك الأشياء ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي إلا ملتبساً بمقدار معين، تقتضيه الحكمة، وتستدعيه المشيئة، والمراد من الإنزال: الإحداث والإبداع، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وإنما عبر عن إيجاد ذلك بالتنزيل، لما أنه بالفضل من العالم العلوي إلى العالم السفلي، وجيء بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوْحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (٢٢)

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوْحٍ﴾ أي حوامل، شبه الريح التي جاءت بخير، من إنشاء سحب ماطر بالحامل، كما شبه ما لا يكون كذلك بالعقيم، أو ملفحات للشجر، تلقى الشجر فيفتح عن أوراقه وأكمامه، وتلقح السحاب فيدُرُّ بالماء ويمطر ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ بعدما أنشأنا سحباً ماطراً ﴿مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ جعلناه لكم سقياً، تسقون به مزارعكم ومواشيكم، وهو أبلغ من سقيناكم لما فيه من الدلالة على جعل الماء معداً لهم ينتفعون به متى

شاؤوا يُقال: سقيته إذا كان بيدك، وأسقيته إذا جعلته له سقياً ﴿وَمَا أَنْتُمْ لِمُخْتَلَرِينَ﴾ أي ولستم بقادرين على حفظه وخزنه، بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم، في العيون والآبار والأنهار سقياً لكم، مع أن طبيعة الماء تقتضي الغور، فوقوفه ومكوثته في الأرض لا بدّ له من مخصّص، وذلك يدلّ على مدبّر حكيم.

﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها عنها، وقد يعم الإحياء والإماتة لما يشمل الحيوان والنباتات، وتقديم الضمير للحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الباقون إذا ماتت الخلائق كلها، وفيه تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم، كما يتراءى من ظاهر الحال، وتفسير الوارث بالباقي مروي عن سفيان وغيره.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ من تقدم منكم ولادة وموتا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ من تأخر ولادة وموتا، قال ابن عباس: المستقدمون: كلّ من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حيّ ومن سيأتي إلى يوم القيامة^(١) وهو بيان لكمال علمه، بعد الاحتجاج على كمال قدرته، لأنّ القادر على كل شيء، لا بدّ من علمه بما يصنعه.

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣١٠/٢ وهذا القول اختيار ابن جرير الطبري، وعلى هذا القول يكون المعنى: لقد أحطنا علماً بالخلق أجمعين، الأموات منهم والأحياء، من تقدّم منهم ومن تأخر، والغرض بيان كمال علمه سبحانه، بعد الاحتجاج على كمال قدرته.

﴿وَلَا رَيْبَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿وَلَا رَيْبَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ لا محالة للجزاء، وتوسيط الضمير للدلالة على أنه القادر، والمتولي لحشرهم لا غير، وكانوا يستبعدون ذلك، ويقولون: من يحي العظام وهي رميم؟ ﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ﴾ بالغ الحكمة متقن في أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ وسع علمه كل شيء.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي هذا النوع، بأن خلقنا أصله، وأول فرد من أفراده، خلقاً بديعاً، منطوياً على خلق سائر أفراده، والإنسان من الناس اسم جنس، يقع على الذكر والأنثى، والواحد والجمع ﴿مِنْ صَلْصَلٍ﴾ أي طين يابس، يصلصل أي يصوت إذا نُقِرَ، كائن ﴿مِنْ حَمَلٍ﴾ من طين تغير واسودَّ بطول مجاورة الماء ﴿مَسْنُونٍ﴾ أي متين متغير وقيل: مصبوب من سنَّ الماء، إذا صبَّه، أي مفرغ على هيئة الإنسان كما تُفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب، وأصل الإنسان كان تراباً، فُعْجِنَ بالماء، فصار طيناً، فمكث مدة من الزمن فصار حمأً، فخلص فصار سلالةً، فَصُورَ فصار مسنوناً، وبيس فصار صلصالاً، ثم نفخ فيه الروح، فكان بشراً سوياً، فتبارك الله أحسن الخالقين ۝۱۱.

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿وَالْجَانَّ﴾ اسم جمع للجن، وقيل: إبليس فإنه أبو الجن، والقول الأول أصح كما هو الظاهر من الإنسان لأن تشعب الجنس، لما كان من شخص واحد، خُلق من مادة واحدة، كان الجنس بأسره مخلوقاً منها، والجنُّ والجنَّةُ خلافُ الإنس ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل خلق الإنسان ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ أي الريح الحارة التي تقتل، وأكثر ما تهبُّ في النهار،

وسُميت سموماً لأنها تنفذ مسامَ البدن، وقوله من نار باعتبار الغالب، كقوله سبحانه: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ ومساق الآية للدلالة على كمال قدرته.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الظاهر أن المراد جميع الملائكة ملائكة السماء والأرض ﴿إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا﴾ إنساناً والمراد به آدم عليه السلام ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ أي من طين يابس متغير.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ فعلت فيه ما يصير به مستوياً ومعتدلاً، مستعداً ليفان الروح فيه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ النفخ إجراء الريح من الفم وغيره، والإضافة تشريف له، أي وأفضت عليه من الريح التي هي خلق من خلقي، فصار بشراً سوياً، والروح من أمر الله جل وعلا قال الشيخ عبد الرؤوف المناوي: خاضت الفرق غمرة الكلام في الروح، فما ظفروا بطائل، ولا رجعوا بنائل، وفيها أكثر من ألف قول، وليس فيها قول صحيح، بل كلها قياسات عقلية، وجمهور أهل السنة أنها جسم لطيف، متصرف في البدن، حال فيه حلول الزيت في الزيتون، يعبر عنه أنا وأنت، بقاؤه في الجسم حياة، وانفصاله عنها موت، وبالجملة فإن الوقوف على حقيقة الروح أمر عسير، والطريق إليه وعزٌّ، وقد جعلها الله تعالى من أعظم آياته، الدالة على جلال ذاته ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي خرّوا له ساجدين، سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة.

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٢٠).

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ ﴾ لم يشدّ منهم أحد ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ بحيث لم يتأخر واحدٌ منهم ، وليس المأمور به مجرد الانحناء ، بل السجود بالمعنى المتبادر أي اسجدوا له تحية وتعظيماً ، أو اسجدوا لله تعالى على أنه بمنزلة القبلة .

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٢١).

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ استثناء منقطع لأنه كان جنياً ، مغموراً بالوف من الملائكة ، أي لكن إبليس امتنع من السجود استكباراً وعصياناً فعُدّ منهم تغليبا ﴿ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ يَبْنَئُ إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٢٢).

﴿ قَالَ ﴾ عز وجل ﴿ يَبْنَئُ إِبْلِيسُ مَا لَكَ ﴾ أي أي سبب لك ﴿ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ أي مع الملائكة الساجدين لآدم مع أنهم هم ، ومنزلتهم في الشرف رفيعة ، وقد سجدوا له؟ والظاهر أن قول الله تعالى له ذلك لم يكن بواسطة .

﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَافٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٢٣).

﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصح مني وينافي حالي أن أسجد ﴿ لِبَشَرٍ ﴾ جسماني كئيف وأنا روحاني ؟ ﴿ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَافٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ اقتصر ههنا على الإشارة الإجمالية إلى ادعاء الخيرية ، اكتفاء بما صرح به حين قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ وقد أخطأ اللعين ، حيث ظن أن الفضل كله باعتبار

المادة، بل إن ملاك الفضل والكمال، هو التخلي عن المملكات الردية والتحلي بالمعارف الربانية.

﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ (٣٤).

﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا ﴾ الضمير للسماء، وأيد بظاهر قوله تعالى: ﴿ فَأَهْبِطْ مِنْهَا ﴾ ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود من الخير، فإن من يطرد يرمم بالحجر، وقد تضمن هذا الكلام، الجواب عن شبهته، فكأنه قيل: إن المانع لك عن السجود شقاوتك، وبعذك عن الخير، لا شرف عنصرك الذي تزعمه، وفي تفسير ﴿ الرجيم ﴾ بالمرجوم بالشهب، إشارة لطيفة إلى أن اللعين لما افتخر بالنار، عُدب بها في الدنيا، فهو «كعابد النار يهواها وتحرقه».

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٣٥).

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ أي هذا الطرد والتباعد والظاهر أن المراد لعنة الله لقوله سبحانه: وإن عليك لعنتي ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ إنما حد اللعن به لأنه أبعد غاية يضربها الإنسان في كلامهم، كقوله تعالى: ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٣٦).

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي أمهلني وأخرني إلى اليوم الذي يبعث فيه آدم وذريته للجزاء، أراد أن يجد فسحة في الإغواء، ونجاة من الموت، إذ لا موت بعد البعث، فأجابه تعالى إلى الأول دون الثاني.

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٣٧).

﴿ قَالَ ﴾ الرب سبحانه ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ أي إنك من جملة الذين أُخِّرَتْ آجالهم أزلاً، حسبما تقتضيه حكمة التكوين.

﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ﴿٢٨﴾.

﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو النفخة الأولى عند الجمهور، كما رُوي عن ابن عباس.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٢٩﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي بسبب إغوائك إياي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ المعاصي ﴿لَهُمْ﴾ أي لذرية آدم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في الدنيا التي هي دار الغرور ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي لأحملنهم على الغواية ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي كلهم.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام أي الذين أخلصتهم لطاعتك، وطهرتهم من الشوائب، فلا يعمل فيهم كيدي.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ أي حق عليّ أن أراعيه وأحفظه ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ أي لا انحراف عنه، والإشارة إلى ما تضمنه الاستثناء هو تخلص المخلصين من إغوائه.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿٣٢﴾.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ تسلّط وتصرف بالإغواء، والمراد من العباد جند الله المخلصون ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الاستثناء منقطع، وإن إغواءهم ليس بطريق القهر والتسلّط، بل بطريق الاتباع له بسوء اختيارهم، وفيه تفخيم لشأن المخلصين.

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ ﴾ لموعدهم الغاوين أو المتبعين لإبليس ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي جميعاً وهو تأكيد للضمير.

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ يدخلون فيها لكثرتهم، وطبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ ﴾ من الأنواع ﴿ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أي جزء معين حسبما يقتضيه استعداده.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي اتقوا ربهم من الكفر والفواحش وما يخدش الإيمان من الكبائر، وظاهر الآية يقتضي حصول الجنات، لكل من اتقى من ذنب واحد، إلا أن الأمة مجتمعة على أن التقوى عن الكفر، شرط في حصول هذا الحكم، فثبت أن الحكم يتناول جميع القائلين «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ولو كانوا من أهل المعصية ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي في البساتين والحدائق الناضرة، والعيون المتفجرة بالماء السلسيل، ويحتمل أن تكون العيون هذه الأنهار، ويحتمل أن تكون منابع مغيرة لتلك الأنهار، وهو الظاهر.

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ أَمِينٍ ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ على إرادة القول أي يُقال لهم ادخلوها هذه الجنات، وهو أمرٌ من الله تعالى بالدخول في الجنان ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ أي سالمين من الآفات والأسقام والأكدار، ﴿ أَمِينِينَ ﴾ من الموت ومن زوال هذا النعيم، لا يخرجون منها أبداً كما قال سبحانه: ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ ويراد بالأمن في الحاضر والمستقبل.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧).

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ أي حقد ويطلق على الحسد ونحوه من الخصال المذمومة، الكائنة في القلب، عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «يُحْبَسُ أَهْلُ الْجَنَّةِ حَتَّى يُوْخَذَ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ ظُلُمَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ غِلٌّ» (١) ومعنى الآية: طَهَّرَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ التَّحَادُّسِ فِي الدَّرَجَاتِ فِي الْجَنَّةِ، وَنَزَعَ سَبْحَانَهُ مِنْهَا كُلَّ غِلٍّ، وَأَلْقَى فِيهَا التَّوَادَّ وَالتَّحَابَّ ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ وفي كونهم على سرر إشارة إلى أنهم في رفعة وكرامة، وجه بعضهم لبعض، وهذا معنى التقابل، وروي عن مجاهد أن الأسرة تدور بهم حيثما داروا.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (٤٨).

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي تعب بأن لا يكون لهم ما يوجب له من الكد في تحصيل ما لا بد لهم منه، لحصول كل ما يريدونه، من غير مزاوله عمل أصلاً أو بأن لا يعتربهم ذلك وإن باشروا الحركات لكمال قوتهم ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فإن تمام النعمة بالخلود.

﴿نَتَىٰ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩).

﴿نَتَىٰ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ والمراد من «عبادي» قيل مطلقاً،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري بلاغاً، وروي في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يُخْلَصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يُقْتَصَرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا أُذُنُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ». تفسير ابن كثير ٥٧٢/٢.

وقيل: الذين عبّر عنهم بالمتقين، أي أخبرهم بأنني أنا الغفور الرحيم، الساتر لذنوب عباده، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (٥٠)

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أي وأخبرهم أن عذابي شديد وأليم، لمن أصرَّ على المعاصي والآثام، وفي توصيف ذاته تعالى بالرحمة والمغفرة، دون التعذيب، حيث لم يقل «وأنني أنا المعذب المؤلم» ترجيح لجانب الوعد على الوعيد، ويقوّي أمر الترجيح، الإتيان بالوصفين بصيغتي المبالغة^(١)، وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سبحانه، خلق الرحمة يوم خلقها، مائة رحمة، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فيها يتراحمون، ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة، لم ييأس من الرحمة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب، لم يأمن من النار»^(٢).

﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٥١)

﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي الملائكة الذين بشروه بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، وإنما سموا ضيفاً لأنهم كانوا في ذي الضيف.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ﴾ (٥٢)

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي اذكر وقت دخولهم عليه ﴿فَقَالُوا﴾ عند ذلك ﴿سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك سلاماً، أو سلمنا عليك سلاماً ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ﴾

(١) قال في البحر ٤٥٧/٥: وجاء قوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ في غاية اللطف، إذ لم يقل على وجه المقابلة: وأنني المعذب المؤلم، وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والمغفرة.

(٢) أخرجه البخاري ٤٣١/١٠ في الأدب ومسلم رقم ٢٧٥٢ في التوبة.

وَجَلُّونَ ﴿ أَي خائفون، وَجَلَّ من باب تَعَبٍ إِذَا خَافَ، قاله عليه السلام حين امتنعوا من الأكل، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ وإنما لم يذكر هنا، اكتفاء بذكره في غير هذا الموضع، كما لم يذكر هنا رد السلام عليهم.

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ ﴾.

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ أي لَا تَخَفْ ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ تعليل للنهي عن الوجل ﴿ بِغُلَامٍ ﴾ هو إسحق عليه السلام لقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ والتنوين للتعظيم، أي بغلام عظيم القدر ﴿ عَظِيمٍ ﴾ ذو علم كثير، وفي الآية إشارة إلى أنه يكون نبياً، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

﴿ قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴾.

﴿ قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي ﴾ بذلك ﴿ عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ تعجب عليه السلام من أن يولد له ولد مع سنِّ الْكِبَرِ ﴿ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴾ أي بأي شيء تبشرونني؟ فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادةً، بشارَةٌ بغير شيء، وأراد أن يتحقق من الأمر.

﴿ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِيطِ ﴾.

﴿ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بما يكون لا محالة، وباليقين الذي لا لبس فيه ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِيطِ ﴾ من الآيسين من ذلك، فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين، فكيف من شيخ فانٍ، وعجوز عاقر؟ وكأنَّ مقصوده عليه السلام استعظام نعمته عزَّ وجلَّ عليه، في ضمن الاستعجاب العادي، وليس استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه، كما ينبىء عنه قول

الملائكة ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ ولم يقولوا من الممترين، ولذلك جاء الجواب من خليل الرحمن.

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ استفهام إنكاري أي لا يقنط من رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ أي المخطئون طريق المعرفة، فلا يعرفون سعة رحمة الله، وكمال علمه وقدرته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ومراده نفي القنوط عن نفسه، أي ليس بي قنوط، وإنما الذي أقول لبيان حالي، لفيضان تلك النعمة الجليلة، والقنوط بالضم: اليأس من رحمة الله تعالى.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾؟ الخطب الأمر الشديد ينزل بالإنسان ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أيها الرسل الكرام ملائكة الرحمن؟ أي أخبروني ما أمركم الهام العظيم الذي جئتم له سوى البشرى؟.

﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾.

﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ هم قوم لوط، وُصفوا بالإجرام ذمًا لهم لفعالهم الشنيع القبيح.

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أي إلا أتباع لوط وأهله المؤمنين، فسننجيهم من العذاب ﴿إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ﴾ أي مما يُعَذَّب به القوم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي لوط وآله منجون كافة، فلا ينزل بهم شيء من العذاب.

﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدْ رَنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ﴾ استثناء من آل لوط ﴿قَدْ رَنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الباقين مع الكفرة، لتهلك معهم، فإن قيل: كيف أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم، مع أنه لله تعالى؟ أجيب لما لهم من الاختصاص بالله تعالى، كما يقول خاصة الملك دبّرنا كذا، والمدبّر هو الملك.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ﴾ شروع في بيان إهلاك المجرمين، وتنجية آل لوط، أي فلما أتى رسل الله لوطاً عليه السلام.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُّونَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُّونَ﴾ إنما قاله عليه السلام حين ضاقت عليه الحيل، ولم يشاهد من الضيوف عند مقاساة الشدائد من قومه، الذين يريدون بهم ما يريدون، ما هو المعتاد من الإعانة، حيث لم يكونوا مباشرين معه لأسباب المدافعة، لا أنه قاله عند ورودهم له، على معنى إنكم قوم تنكروكم نفسي، وتنفر منكم ولا أعرفكم.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي بالعذاب الذي كنت تتوعدهم به، فيمترون ويكذبونك فيه، وبيّنوا له جلية الأمر، فـ«بل» للإضراب عما حسبه من ترك النصرة عليه، والمعنى: ما خذلناك بل جئناك بما يدمرهم، من العذاب الذي يشكّون فيه.

﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿٦٤﴾

﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين في عذابهم ﴿وَلِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ أي صادقون فيما نقول، عبر عنه بذلك للتنصيص على نفي الامتراء منه.

﴿فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٦٥﴾

﴿فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي في طائفة من الليل، أو في آخره ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أي وكن على أثرهم، تذرهم وتسرع بهم، وتطلّع على حالهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي منك ومنهم ﴿أَحَدٌ﴾ فيرى ما وراءه من الهول، أو فيصبيه العذاب، فالالتفات على ظاهره، وخلاصة ذلك، وفائدة الأمر والنهي: أن يهاجر على وجه يمكنه وأهله، وفيه إرشاد إلى ما هو أدخل في الحزم للسير، وأدب المسافرة، وتنبيه على كيفية السفر الحقيقي، فله تعالى در التزليل!! والطائفة التي لا تحصى ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ إلى حيث أمركم الله بالمضي إليه.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿٦٦﴾

﴿وَقَضَيْنَا﴾ أي أوحينا ﴿إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ أي دابر هؤلاء المجرمين أنهم يستأصلون عن آخرهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي وقت دخولهم في الصبح، حتى لا يبقى منهم أحد، وفي لفظ القضاء، والتعبير عن العذاب بالأمر، والإشارة إليه بذلك، وإبهامه أولاً ثم تفسيره، من الدلالة على فخامة الأمر ما لا يخفى.

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٦٧﴾

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ المدينة «سدوم» وأهلها أولئك القوم المجرمون، والتعبير عنهم بذلك للإشارة إلى كثرتهم، مع ما فيه من الإشارة إلى فظاعة حالهم، فإن اللائق بأهل المدينة أن يكرموا الغرباء، ويحسنوا المعاملة معهم، فهم عدلوا عن هذا اللائق، بل قصدوا الواردين بالفاحشة، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، أي جاء أهل سدوم منزل لوط عليه السلام ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بأضياف لوط طمعاً فيهم، أي يبشّر بعضهم بعضاً، والاستبشار إظهار الفرح والسرور، إذ قيل لهم إن عنده أضياف في غاية الحسن، فطمعوا فيهم، قاتلهم الله.

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾.

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ قاله عليه السلام لأنهم في زيّ الضيف، والتأكيد ليس لإنكارهم، بل لحمايتهم من سوء، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أي فلا تفضحوني عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء، فيعلموا أنه ليس لي عندكم قدر.

﴿وَأَقْبُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾.

﴿وَأَقْبُوا اللَّهَ﴾ في مباشرتكم العمل القبيح ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تذلونني بسببهم، من الخزي وهو الهوان، وإنما لم يصرح بالفاحشة لرعاية مزيد الأدب مع ضيفه، كما قيل: ويرى الحر الموت الدُّ طمعاً منه.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾؟ من أن تجير منهم أحداً، وتمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد، وكان ينهاهم عن ذلك وكانوا

أوعده وقالوا «لَيْسَ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ»^(١) ولما رآهم لا يقلعون عما هم عليه.

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾^(٧٦)

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي نساء القوم تزوجوا بهن بطريق الحلال، ولا تركنوا إلى الحرام إن كنتم تريدون قضاء الشهوة.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٧٧)

﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسم من الله تعالى بعمر نبينا ﷺ، على ما عليه جمهور المفسرين، عن ابن عباس قال: «ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعتُ الله سبحانه أقسم بحياة أحدٍ غيره، قال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾»^(٢) «الْعَمْرُ» بالفتح: البقاء، والحياة، قال الأعشى: «لَعَمْرُ من جَعَلَ الشُّهُورَ عَلامَةً» ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أي لفي غوايتهم التي أزال عقولهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون، فكيف يسمعون نصحك؟.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾^(٧٨)

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ العظيمة الهائلة صيحة جبريل قال ابن جريج: الصيحة مثل الصاعقة، فكل شيء أهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في شروق الشمس، أي وقت إشراف الشمس، والجمع بين «مصبحين» و «مشرقين» باعتبار الابتداء والانتهاء، بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح، وانتهاءه عند الشروق، وقوله تعالى: ﴿مَقْطُوعٌ﴾ بمعنى يُقَطَّعُ عن قريب.

(١) سورة الشعراء، آية: ١٦٧.

(٢) أخرجه البيهقي، وأبو نعيم، وابن مردويه عن ابن عباس، وانظر تفسير ابن كثير ٥٧٥/٢.

﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ آسَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٦﴾ ۞ ﴾

﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ آسَافِلَهَا ﴾ أي قلبنا بهم دورهم، فجعلنا أعالي المنازل آسافلها ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء كالمطر، من طين متحجر، طُبخ بالنار، والتعبيرُ بالمطر يوحي بالشدة والكثرة، كأنه غيثٌ ماطر، وبركانٌ ثائرًا.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٧﴾ ۞ ﴾

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ فيما ذكر من القصة ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ علامات يستدل بها على حقيقة الحق ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قيل للناظرين المعبرين المتأملين بعين الفكر والبصيرة، أخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ»^(١) وكان بعض المالكية يحكم بالفراصة في الأحكام جرياً على طريق إياس بن معاوية.

﴿ وَإِنَّهَا لَلسَّبِيلِ مَقِيمٍ ﴿٧٨﴾ ۞ ﴾

﴿ وَإِنَّهَا ﴾ أي القرى ﴿ لَلسَّبِيلِ مَقِيمٍ ﴾ ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها في ديار المنعذبين.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾ ۞ ﴾

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ فيما ذكر ﴿ لَآيَةً ﴾ عظيمة ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنهم يعرفون أنَّ ما حاق بهم إنما حاق لسوء صنيعهم، وأما غيرهم فيحملون ذلك على اتفاق، أو على الأوضاع الفلكية.

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٢٧ والسيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٣.

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَبُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ﴾.

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَبُ الْأَيْكَةِ﴾ وهو قوم شعيب كانوا يسكنون الغيضة، فبعثه الله إليهم فكذبوه، فأهلكوا بالظلة، والأَيْكَةُ: الشجرة المتكاثفة ﴿لظَّالِمِينَ﴾ متجاوزين الحد في البغي والعصيان.

﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمُ وَإِنَّهُمْ لَا يَمَارِ مُبِينٍ﴾.

﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمُ﴾ جازيناهم على جنائيتهم بالعذاب، روي عن قتادة أنه قال: إنه جلَّ شأنه سلَّط عليهم الحرَّ سبعة أيام، ثم بعث سبحانه عليهم سحابة، فجعلوا يلتمسون الرِّوْحَ منها، فبعث عليهم منها ناراً فأكلتهم، فهو عذاب يوم الظلة ﴿وَإِنَّهُمْ لَا يَمَارِ﴾ أي محلِّي قوم لوط، وقوم شعيب ﴿لِيَامِرِ مُبِينٍ﴾ لبطريق واضح، والإمام اسم لما يؤتمُّ به، سُمِّي به الطريق لأنها مما يؤتم به لأن المسافر يتبع به إلى الموضع الذي يريده.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَبُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَبُ الْحِجْرِ﴾ يعني ثمود، والحجر: اسم واد بين المدينة والشام، كان يسكنه ثمود عن أبي هريرة قال: لَمَّا أَتَى ﷺ الحجر، قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين، ثم قَنَعَ رأسه، وأسرع السير، حتى جاوز الوادي»^(١) ﴿الْمُرْسِلِينَ﴾ حين كذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام، فإن من كذب واحداً من رسل الله سبحانه، فقد كذب الجميع، لاتفاقهم على التوحيد، والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار.

(١) الحديث أخرجه البخاري ٣٧٨/٦ في الأنبياء، ومسلم رقم ٢٩٨٠ في الزهد.

﴿وَأَيُّنَّهُمْ أَيُّنَّا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَأَيُّنَّهُمْ أَيُّنَّا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي معجزاتنا كالناقة، وسقيها، وشربها، ودّرّها، فكانوا لا يعتبرون بها ولا يتعظون، من شقاوتهم وضلالهم.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ من الانهدام والسقوط، ونقب اللصوص، وتخريب الأعداء لها، لأنها محصنة في الجبال، وقيل: آمين من الموت، لا غترارهم بطول الأعمار، ومن نزول العذاب بهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب وقت الصباح، ووقع في سورة الأعراف ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ ووفق بينهما أن الصيحة تفضي إلى الرجفة.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ لم يدفع عنهم ما نزل بهم ﴿فَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الأموال والعدد.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴿٨٥﴾ فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ملتبساً بالحق، والحكمة والمصلحة، بحيث لا يلائم استمرار الفساد، واستقرار الشرور،

ولذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء، دفعاً لفسادهم، وإظهاراً للحق والعدل والإنصاف ﴿وَرَأَتْ السَّاعَةَ لَآئِيَةً﴾ فينتقم الله لك منهم، فالجملة الأولى إشارة إلى عذابهم الدنيوي، والثانية إلى عقابهم الآخروي، وفي كلتا الجملتين تسلية له ﷺ ﴿فَاصْفَحْ﴾ أي أعرض عنهم ﴿الصَّفْحُ الْجَمِيلُ﴾ تحمُّلُ أذيتهم، ولا تعجل بالانتقام منهم، والصفح أبلغ من العفو، وهو ما خلا عن عتاب، وفي أمره ﷺ بذلك، إشارة إلى أنه ﷺ قادر على الانتقام منهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم، وحاصل أمره ﷺ بمخالقتهم بخلق رضي، وحلم وتأن، بأن ينذرهم ويدعوهم إلى الله تعالى قبل القتال، وعلى هذا فالآية غير منسوخة، وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنها منسوخة بآية السيف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لك ولهم ولسائر الموجودات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالك وأحوالهم، فلا يخفى عليه شيء مما جرى بينك وبينهم، فهو حقيق بأن تكلَّ جميع الأمور إليه، ليحكم بينكم، وهو الخلاق العليم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ أي سبع آيات، وهي الفاتحة، روي ذلك عن عمر، وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وروى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال: قال ﷺ: «الحمد لله رب العالمين هي السبعُ المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١) وعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين أم القرآن، وأم

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣٨١/٨.

الكتاب، والسبعُ المثنائي^(١) والمثنائي بيان للسبع وهو جمع مثنى بمعنى مرَّد ومكرَّر، وإطلاق ذلك على الفاتحة لأنها تكرر قراءتها في الصلاة ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ أي ولقد آتيناك القرآن العظيم فهو من عطف الكل على الجزء.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٨﴾

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب، ولا تدم نظرك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ من زخارف الدنيا وزينتها، ومحاسنها وزهرتها ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة: اليهود، والنصارى، والمشركين، فإن ما في الدنيا من أصناف الأموال بالنسبة إلى ما أوتيته مستحقر، لا يعابأ به أصلاً، والخطاب للرسول ﷺ والمراد أمته، لأنه كان أزهد الناس في الدنيا ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث لم يؤمنوا، وكان ﷺ يؤدُّ أن يؤمن كلُّ من بُعث إليه، ويشق عليه بقاء الكفرة على كفرهم، ولذا قيل ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تتأثر على عدم إيمانهم وليس المعنى لا تحزن على تمتعهم بذلك ﴿وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تواضع لهم وارفق بهم، وخفض الجناح: كناية عن اللين والرفق.

﴿وَقُلْ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٨٩﴾

﴿وَقُلْ﴾ يا رسول الله لهم ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي المنذر، المظهر لنزول عذاب الله، إن لم تؤمنوا.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ﴿٩٠﴾

(١) أخرجه أبو داود رقم ١٤٥٨ والترمذي رقم ٣١٢٤ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أي أنزلنا عليك القرآن، كما أنزلنا على أهل الكتاب التوراة والإنجيل.

﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾

﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ أي قسموه إلى حق وباطل، حيث قالوا عناداً وعداوة، بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، وهذا مروي عن ابن عباس^(١) والحسن، وجوز أن يُراد بالمقتسمين جماعة من كفرة قريش، أرسلهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، ليقفوا على مداخل طرق مكة، وينفروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر، والعضة: القطعة من الشيء والجزء منه^(٢) فالمعنى: جعلوا القرآن أجزاء، وفي التعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية، التي هي تفريق الأعضاء من ذي الروح، المستلزم لإزالة حياته، وإبطال اسمه للتخصيص على قبح ما فعلوه.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لسألك يوم القيامة أصناف الكفرة مطلقاً، المتأمرين وغيرهم، سؤال تقريع وتوبيخ.

﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من قول وفعل، ليجزيهم جزاءً موفوراً.

(١) روى البخاري ٣٨٢/٨ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال: «هم أهل الكتاب - اليهود والنصارى - جزأوه أجزاء، فأمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه».

(٢) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ٣٥٥/١: عِضِينَ مأخوذ من الأعضاء أي فَرَّقُوهُ فَرَقاً وجعلوه أعضاء، وفي الصحاح للجوهري: أصله عِضْوَةٌ من عضوته أي فَرَّقَتْه، لأن المشركين فَرَّقُوا أَقَارِبَهُمْ فِيهِ، فجعلوه كذباً، وسحراً، وكهانة، وشعراً.

﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٩٤﴾ .

﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فاجهر به ، من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً ، ولم يزل ﷺ مستخفياً قبل نزول ذلك ، فلما نزلت خرج هو وأصحابه ، روي ذلك عن ابن مسعود ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فلا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم .

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ ﴿٩٥﴾ .

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ بتدميرهم وإهلاكهم ، ودلّ القرآن الكريم على أن الله تعالى أفناهم ، وأزال كيدهم ، وكانوا خمسة من رؤساء الطغيان ، دعا عليهم الرسول ﷺ فأهلكهم الله وكفى رسوله شرهم .

﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾ .

﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ وصفهم بذلك تسلياً لرسول الله ﷺ بإعلام أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به ﷺ ، بل اجتروا على العظيمة التي هي الإشراف بالله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ﴿٩٧﴾ .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ ﴿٩٧﴾ من الشرك ، والظعن في القرآن ، والاستهزاء به وبالرسول ، وكان يضيق صدره ﷺ لأن الجبلية البشرية تضعف عن الاحتمال .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٩٨)

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فافزع إلى الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدر بالتسبيح، متلبساً بحمده، أي قل: «سبحان الله وبحمده» يكفك، ويكشف الغم عنك ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أي المصلين، وفي أمره ﷺ بما ذكر إرشاد إلى ما يكشف به الغم الذي يجده، ولمزيد الاعتناء بأمر الصلاة، جيء بالأمر بها، وقد كان ﷺ إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة، وفي الآية إشارة إلى الترغيب بالجماعة فيها.

﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (٩٩)

﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ أي دم على ما أنت عليه، من عبادته تعالى، وإيثار الإظهار لتأكيد إظهار اللطف به ﷺ ﴿ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ أي الموت فإنه متيقن لحاقه كل حي، والمعنى: فاعبده ما دمت حياً، ولا تُخَلَّ بالعبادة لحظة، فليس المراد ما زعمه بعض الملحدين مما يسمونه بالكشف والشهود، وقالوا: إن العبد متى حصل ذلك، سقط عنه التكليف بالعبادة، وهي ليست إلا للمحجوبين، ولقد خرجوا بذلك من الدين، وجماعة المسلمين، ولم يزل ﷺ ما دام حياً آتياً بمراسم العبادات، فيقال: إنه لم يأت به اليقين حتى توفي؟ وافترى بعضهم أنه ﷺ لم يتضح له ليلة المعراج صبح الكشف والشهود، ولا يتجاسر على ذلك من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، أو حبة خردل من عقل، ينتظم به في سلك الإنسان، ونسأل الله سبحانه أن يحفظنا من سوء القضاء، ويمنَّ علينا بالتوفيق إلى ما يحب ويرضى، وصلى الله على نبينا محمد ﷺ وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر»

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

مكية وهي مائة وثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَّهُ﴾ أي الساعة، عبّر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل، وللايذان بأن إتيانه منوط بحكمه وقضائه، وإتيانه عبارة عن دنوه واقترابه، أو على إتيان مبادئه القريبة، والمعنى: دنا واقترب ما وعدتم به أيها الكفرة، وقرب قيام الساعة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الخطاب للكفرة خاصة، واستعجالهم وإن كان بطريق الاستهزاء، لكنّه حُمل على الحقيقة، ونُها عن بضرب من التهكم، ولما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا والساعة كهاتين، ويشير بأصبعيه السبابة والوسطى»^(١) ولمّا قالوا: إن صحّ مجيء العذاب فالأصنام تخلصنا بشفاعتها، رد ذلك فقال ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرأ عن أن يكون له شريك، فيدفع ما أراد الله بهم من العذاب:

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٦٩١/٨ ومسلم رقم ٢٩٥١ في الفتن، والترمذي رقم ٢٢١٤.

﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنْهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ المراد بالملائكة: جبريل عليه السلام ومن معه من حفظة الوحي ﴿بِالرُّوحِ﴾ أي بالوحي الذي من جملته القرآن الكريم، على نهج الاستعارة، فإنه يحیی القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي حال كونه ناشئاً عن إرادته وأمره ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أن ينزلهم به عليهم من الأنبياء والمرسلين، لاختصاصهم بصفات توهمهم لذلك ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ أي ينزلهم بأن أنذروا أي بهذا القول، والمخاطبون به الأنبياء، والأمر هو الله سبحانه، والملائكة نقلة للأمر أي أعلموا الناس ﴿أَنْهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ خطاب للمستعجلين، أي فخافوا عذابي وانتقامي، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على قدرته ووحدانيته فقال تقدست أسماؤه:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي أوجدهما على ما هما عليه، بالحق الثابت، والحكمة الفائقة على الوجه اللائق ﴿تَعَالَى﴾ تقدس بذاته، لا سيما بأفعاله التي من جملتها إبداع السماوات والأرض ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم المعهود.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أي هذا النوع البشري ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ جماد لا قدرة له، سيال لا يحفظ شكلاً ولا وضعاً ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بعد الخلق ﴿خَصِيمٌ﴾ مجادل عن نفسه، مخاضم لخالفه ﴿مُبِينٌ﴾ واضح الخصومة كأنه قد لُقن بها، لأن النفوس البشرية من أول الفطرة أقل فهماً من سائر الحيوانات،

ألا ترى أنَّ ولد الدجاجة، كما يخرج من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق، فيهرب من الهرة، ويلتجئ إلى الأم، ويميّز بين الغذاء الذي يوافقه أو لا يوافقه، أما ولد الإنسان فإنه لا يميّز حين الولادة بين العدو والصديق، ولا بين الضار والنافع، ثم بعد كبره يقوى عقله، ويعظم فهمه، بحيث يعرف أصناف المخلوقات والفلكيات والعنصریات، فالانتقال من تلك البلادة، إلى هذه الكياسة، نعمة عظيمة من فاعل مختار حكيم، فالواجب عليه أن يعرف خالقه، وتلك النعمة، ويشكر خالقها، وهو على العكس منكّر له، ومخاصم لخالقه، والغرض منه وصف الإنسان بالإفراط في الوقاحة، والتماذي في الكفر والعصيان.

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿وَالْأَنْعَمَ﴾ وهي الأزواج الثمانية، من الإبل، والبقر، والضأن، والمعز ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ وهو ما يدفأ به من لباس معمول، من صوف، أو وبر، أو شعر، فيقي من البرد ﴿وَمَنْفَعٌ﴾ هي دُرُّها، وركوبها، وحملها، والحرارة بها، وغير ذلك، وإنما عبر عنها بالمنافع بها ليتناول الكل ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي ما يؤكل منها من اللحوم، والشحوم، والألبان.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ مع ما فُضِّل من أنواع المنافع ﴿جَمَالٌ﴾ أي زينة في أعين الناس، ووجاهة عندهم ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردونها من مراعيها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تخرجونها بالغداة من حظائرها إلى مسارحها^(١)، وتعيين الوقتين

(١) قدّم الإراحة على السرح، مع أنها مؤخرة، لأن الأنعام وقت الإراحة، أجمل وأحسن من سرحها، لأنها تجيء مألثة البطون، حافلة الضروع.

لأن ما يدور عليه أمر الجمال، من تزيين الأفنية والأكناف بها وبتجاوب ثغائها ورغائها، إنما هو عند ورودها وصدورها.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلَيْفِهِ إِلَّا يَشِقَّ الْآنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ جمع ثقل، وهو متاع المسافر، مثل سبب وأسباب ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ أي عام لكل بلد سحيق ﴿لَّا تَكُونُوا بِلَيْفِهِ﴾ واصلين إليه بأنفسكم لولا الإبل ﴿إِلَّا يَشِقَّ الْآنْفُسَ﴾ الشق: المشقة، أي لم تصلوا إليه إلا بمشقة عظيمة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة، ويسر لكم الأمور الشاقة.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ الخيل اسم جنس للفرس، لا واحد له من لفظه، أي خلق الخيل، والبغال، والحمير ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ تعليل بمعظم منافعها، وإلا فالانتفاع بها بالحمل أيضاً، مما لا ريب في تحقيقه ﴿وَزِينَةً﴾ أي وهي كذلك زينة وجمال، واستدل بعض العلماء بهذه الآية على حرمة أكل لحم الخيل، وعلل ذلك بأنها خلقت للركوب والزينة، وقال البغوي: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم، بل المراد منها تعديد النعمة، والتنبية على كمال قدرته تعالى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أصناف خلأقه مما لا تعلمون كنهه وكيفية خلقه^(١).

(١) ظهرت في هذه الأزمان، وسائل للحمل والركوب كالسيارات والقاطرات، والطائرات النفاثة وغيرها من الآلات الحديثة المخترعة، وكلها من تعليم الله عز وجل للإنسان، =

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنكُمْ
أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ الْقَصْدُ: مصدر بمعنى الفاعل، يقال: سبيلُ
قصدٍ أي مستقيم أي، حقٌ عليه سبحانه وتعالى، بموجب رحمته ووعدته،
بيان الطريق المستقيم، الموصل لمن يسلكه إلى الحق الذي هو التوحيد،
بنصب الأدلة، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه، أي عليه
تعالى تقويمها وتعديلها بحيث يصل سالكها إلى الحق. «مسألة الوجوب
على الله عز وجل» لا يجب عليه سبحانه شيء بحكم غيره، عند أهل
السُّنَّة، إذ لا سلطان فوق سلطانه، فيوجب عليه ويجعله مسؤولاً، ومذهبُ
السلف الصالح في هذه المسألة أنه لا يجب على الله تعالى إلا ما أوجبه
وكتبه على نفسه، وما هو مقتضى صفاته كالعدل والرحمة ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ
عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ والأشاعة
ينقلون عن المعتزلة قولهم: بأنه يجب على الله كذا وكذا، فيدل نقلهم
على أنهم يوجبون على الله تعالى إصلاح من يكون مكلفاً ومسؤولاً، وهذا
حكم غريب وعجيب، مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة، من أنه لا
يجب على الله شيء، إلا ما أوجبه سبحانه تفضلاً منه وكرماً، ثم اعلم أن
تقويم وتعديل السبيل، على الله عز وجل، لكن لا بعدما كانت في نفسها
منحرفة عنه، بل إبداعها ابتداءً على نهج قول القائل: سبحانه من صغر

= فسبحان من أبدع بهذه العبارة القصيرة، ما يتمخض عنه العلم في المستقبل من أنواع
الاختراعات الحديثة، ولو أن القرآن العظيم أخبرهم في ذلك الزمان، أنه ستكون
هناك مراكب فضائية، وعربات لا تجرّها الخيل، وسيطيرون بين السماء والأرض
بالطائرات النفاثة، لسارعوا إلى تكذيب القرآن، ولهذا تدرج معهم بالأسلوب الحكيم
مراعاةً لعقولهم وأفكارهم، وقد قال عليّ رضي الله عنه: «خاطبوا الناس على قدر
عقولهم، أتحيون أن يكذب الله ورسوله؟».

البعوض، وكَبُرَ الفيل، وهذه هي الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة، فإن ذلك ليس بحق على الله تعالى، لا بحسب ذاته، ولا بحسب رحمته، بل هو مغل بحكمته، حيث يستدعي تسوية المحسن والمسيء ﴿وَمِنْهَا﴾ أي بعض السبيل ﴿جَكَارٌ﴾ أي مائل عن الحق لا يوصل سالكه إليه، وهو طريق الضلال، التي لا يكاد يحصى عددها، ومعنى الجور في اللغة: الميل عن الحق، جار عن الطريق: مال، وعن عبد الله بن المبارك: قصد السبيل: السُّنَّةُ، والجار: البدعة ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لو شاء أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد هداية موصلة إليه البتة، مستلزمة لاهتدائكم أجمعين لفعل ذلك، ولكن لم يشأ لأن مشيئته تعالى تابعة للحكمة الداعية إليها، ولا حكمة في تلك المشيئة، لما أن الذي عليه يدور فلك التكليف، وإليه ينسحب الثواب والعقاب، إنما هو الاختيار الجزئي الذي عليه تترتب الأعمال، التي بها يُنَظَّمُ الجزاء.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي مطراً ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي ما تشربونه ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي ومنه يحصل شجر، والمراد به ما ينبت من الأرض، سواء كان له ساق أو لا ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ترعون، من سامت الماشية، وأسامها صاحبها: أرسلها لترعى العُشب.

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ﴾ أي الله تعالى ﴿بِهِ﴾ بما أنزل من السماء ﴿الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ بيان للنعم الفائضة عليهم

من الأرض، وإيثار صيغة الاستقبال، للدلالة على التجدد والاستمرار،
وأنها سنة جارية على مرّ الدهور، ولم يقل «كلّ الثمرات» لأنّ كلّها لا
يكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعضها للتذكّرة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾
أي في إنزال الماء، وإنبات ما فصل ﴿لَايَةً﴾ عظيمة دالة على تفرد
تعالى بالالوهية، لاشتماله على كمال العلم، والقدرة، والحكمة ﴿لِقَوْمٍ
يَنْفَكُرُونَ﴾ فإن من تفكّر في أن الحبة والنواة، تقع في الأرض،
وتصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشق أسفلها فيخرج منه عروق، تنبسط في
أعماق الأرض، وينشق أعلاها ويخرج منه ساق فينمو، ويخرج منه الأوراق
والأزهار والحبوب والثمار، مشتملة على أجسام مختلفة الأشكال،
والألوان، والخواص، والنواة قابلة لتوليد الأمثال مع اتحاد المواد،
واستواء نسبة الطبائع السفلية، والتأثيرات العلوية، بالنسبة إلى الكل، علم
أن من هذه أفعاله وآثاره، لا يمكن أن يشبهه شيء من صفات الكمال،
فضلاً عن أن يشاركه أحسن الأشياء في أخص صفاته التي هي الالوهية،
وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات ختم الآية الكريمة
بالأمر بالتفكر ﴿لَايَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ
بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خلفه، لئلا ينامكم ومعاشكم،
ولعقد الثمار ونضاجها ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِي﴾ أي مسخرة
لمصالحكم ومنافعكم بتسهيله تعالى وتيسيره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر
من التسخير ﴿لَآيَاتٍ﴾ باهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وحيث كانت هذه الآثار
المتعددة - الدالة، بما فيها من عظيم القدرة، على الوحدانية - أظهر جميع
الآيات، وعقلت بمجرد العقل، قيل: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾ ﴿١٣﴾

﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ أي وما خلق ﴿ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ من حيوانٍ ونباتٍ حال كونه ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا ﴾ أي أصنافه، فإن اختلافها غالباً يكون باختلاف اللون، واختلاف المخلوقات مع كثرتها لا يشبه بعضه بعضاً من كل الوجوه فيه دليل على كمال قدرته تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر من التسخيرات ﴿ لَآيَةً ﴾ بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد لا نَدَّ له ولا ضِدَّ ﴿ لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾ أي يتَّعظون فيعتبرون بذلك، ويستدلون على التوحيد، فإن ذلك غير محتاج إلا إلى التذكر.

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿١٤﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾ أي جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب، والغوص، وصيد الأسماك ﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ أي غصاً وهو السمك، ووصفه بالطراوة، للإشعار بلطافته، والتنبيه على وجوب المسارعة إلى أكله، كيلا يتسارع إليه الفساد، وللإيذان بكمال قدرته تعالى، خلقه الله عذباً طرياً، في ماء زعاف، حيث إنه حدث لا بحسب الطبيعة بل بقدرة الله تعالى وحكمته، أظهر الضدَّ من الضدَّ ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً ﴾ كاللؤلؤ والمرجان ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ عبَّر في مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم، لكون لبسهنَّ لأجلهم ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ ﴾ أي السفن ﴿ مَوَاجِرَ فِيهِ ﴾ أي جوارى فيه، مقبلة ومدبرة، ومعتضة، بريح واحدة تشقه في سيرها، من المَخْرَج وهو شقُّ الماء ﴿ وَلِتَبْتَغُوا ﴾ عطف على تستخرجوا أي ولتطلبوا ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة

﴿وَلَمَّا كُمْتُ تَشْكُرُونَ﴾ أي تعرفون حقوق نعمه الجليلة، فتقومون بأداء شكرها، بالإيمان، والطاعة، ففي ركوب السفن قطع لمسافة طويلة، مع أحمال ثقيلة، في مدة قليلة، مع أنها طريق في طريق المهالك.

﴿وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَىٰ أَنْ نَعِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ وَثُبُلًا لَّعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾.

﴿وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَىٰ﴾ أي جبلاً ثوابت ﴿أَنْ نَعِيدَ بِكُمْ﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب، أو لئلا تميد بكم، فإن الأرض قبل أن تُخلق فيها الجبال، كانت كرة خفيفة، وكان من حقها أن تتحرك بأدنى سبب محرك، فلما خلقت الجبال تفاوتت حافاتهما، وتوجهت الجبال بثقلها فصارت كالأوتاد، والله أعلم ﴿وَأَنْهَرَ﴾ أي وجعل فيها أنهاراً ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بها إلى مقاصدكم.

﴿وَعَلَّمَنَّا وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٦﴾.

﴿وَعَلَّمَنَّا﴾ أي معالم يستدل بها المسافرون بالنهار، من جبل، وسهل، ومياه، وريح ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي يهتدون بها بالليل في البراري والبحار، حيث لا علامة غيرها، والمراد بالنجم الجنس، والعرب مشهورون بالاهتداء بالنجوم، ومن الفقهاء من يجعل ذلك، دليلاً على أن المسافر إذا عميت عليه القبلة، فعليه أن يستدل بالنجوم وبالعلامات.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ هذه المصنوعات العظيمة ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ شيئاً أصلاً، وهو تبكيث للكفرة، وتنبيه على كمال قبح ما فعلوه، والمراد بمن لا يخلق الأوثان والأصنام، وكل ما هذا شأنه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ألا

تلاحظون فلا تتذكرون ذلك، فإنه لوضوحه لا يفتقر إلى شيء سوى التذكر.

﴿وَأَن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَأَن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ تذكير إجمالي لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ حيث يستر ما فرطتم من كفرانها، ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ﴾ أي ما تضمرونه من العقائد والأعمال مما كانوا يمكرون ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي تظهرونه منهما من الإيذاء وفيه من الوعيد ما فيه.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي والآلهة الذين يعبدهم الكفار ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ سبحانه ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ من الأشياء أصلاً، أي ليس من شأنهم ذلك ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية، فهم مخلوقون صنعهم البشر بأيديهم، فكيف يكونون آلهة تعبد من دون الله؟ ثم زاد تعالى في التوضيح والبيان فقال:

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَمْوَاتٌ﴾ أي ميتة لا حياة فيها، ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي لا يعتر بها الحياة أصلاً وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي تلك الآلهة ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي

عبدتهم، وهذا على طريق التهكم بهم، لأن شعور الجمادات بديهي الاستحالة.

﴿إِلَهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢).

﴿إِلَهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا يشاركه شيء في الألوهية، فهو واحد أحد، فرد صمد ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وأحوالها التي من جعلتها البعث ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ للوحدانية وللآيات الدالة عليها ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتراف بها، والكفر بالآخرة يؤدي إلى قصر النظر على العاجل، والإعراض عن الدلائل السمعية والعقلية.

﴿لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٢٣).

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً ﴿أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم سرهم وجهرهم، لا تخفى عليه خافية ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد، أي لا يحب جنس المستكبرين، فكيف بمن استكبر عن التوحيد والإيمان؟ عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبَرٍ، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً!! فقال ﷺ: ليس ذاك، إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»^(١).

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٩١ في الإيمان، ومعنى «بطر الحق» أي دفعه وعدم قبوله، و«غمط الناس» أي احتقارهم وازدراؤهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالَُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لأولئك المنكرين المستكبرين ﴿مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ﴾ أي شيء أنزل ربكم؟ أو ما الذي أنزله؟ ﴿قَالَُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء: ما تدعون نزوله أحاديث الأولين وأباطيلهم، وليس من الإنزال في شيء، وهؤلاء القائلون هم المقتسمون، الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون الناس عن رسول الله ﷺ عند سؤال وفود الحجاج عما نزل عليه ﷺ، وعن نبوته ورسالته.

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ أي قالوا ما قالوا، ليحملوا ذنوبهم الخاصة بهم، وهي أوزار إضلالهم ﴿كَامِلَةً﴾ لم يكفر منها شيء، بنكية أصابتهم في الدنيا، كما تكفر أوزار المسلمين، وهذا يدل على أنه سبحانه، قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ أي ومن بعض أوزار من ضل بإضلالهم، وهو وزر الإضلال، لأنهما شريكان في الإجرام ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي يضلونهم غير عالمين بأن ما يدعون إليه طريق الضلال، أو يضلون من لا يعلم أنه ضلال، وفائدة التقييد بها الإشعار بأن مكرهم لا يروج عند ذي لب، وإنما يتبعهم الأغبياء والجهلة، والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذراً، إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المحق والمبطل ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أي بشئ شيئاً يحملونه على ظهورهم يوم القيامة، والوزر: الإثم، جمعه أوزار، مثل حمل وأحمال.

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ
فَفَخَّرَ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا
يَشْعُرُونَ ﴾ (١٦)

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وعبد لهم برجوع مكرهم إلى
أنفسهم، كدأب من قبلهم من الأمم الخالية، الذين أصابهم ما أصابهم من
العذاب العاجل، وهو عام في جميع المبطلين ﴿ فَأَتَى اللَّهُ ﴾ أي قلع الله
بنيانهم من قواعده وأساسه ﴿ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ وهي الأعمدة التي
تعمده فضعفت أركانه ﴿ فَفَخَّرَ عَلَيْهِمْ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ أي سقط عليهم
سقف بنيانهم بعد تهدم القواعد، شُبهت حال أولئك الماكرين، في تدبيرهم
المكائد التي أرادوا بها الإيقاع برسول الله، وفي إبطاله تعالى تلك المكائد،
بحال قوم بنوا بنياناً، وعمدوه بالأساطين، فأتى الخراب للبنيان من قِبَلِ
أساطينه، بأن ضُعضعت أركانه، فسقط عليهم السقف فهلكوا^(١) ﴿ وَأَتَتْهُمْ
الْعَذَابُ ﴾ أي الهلاك والدمار ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه ولا يدرون، ولا
يخطر على بالهم، فالمعنى: إن هؤلاء الماكرين والقائلين للقرآن العظيم
أساطير الأولين، سيأتيهم من العذاب العاجل وهم لا يحتسبون.

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى
الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٧)

(١) الآية مشهد كامل للهلاك والدمار، الذي أصاب أولئك المجرمين، وفيه سخرية بمكر
الماكرين، فقد مثل تعالى لما دبره أولئك الأشقياء، بحال قوم بنوا بنياناً شديد
الدعائم، فخرَّب الله عليهم أصوله وأساسه، فذهب الأساس، وهدمت القواعد،
وسقط عليهم البنيان، فهلكوا وبادوا، وهو تمثيل بادي الروعة فائق الجمال.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ عطف على مقدّر، أي هذا عذاب هؤلاء
وجزاؤهم في الدنيا، ويوم القيامة يخزيهم أي يذلهم بعذاب الخزي على
رؤوس الأشهاد ﴿وَيَقُولُ﴾ الله تعالى لهم تفضيحاً ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِي﴾
أضافهم إليه سبحانه، حكاية لإضافتهم الكاذبة، ففيه توبيخ مع الاستهزاء
بهم ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْكُّونَ فِيهِمْ﴾ ؟ أي تخاصمون الأنبياء في شأنهم، حين
بيّنوا لكم بطلانها، والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة والمدافعة،
على طريق الاستهزاء والتبكيت ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من أهل الموقف،
وهم الدعاة الصادقون، والمؤمنون الذين أُوتوا علماً بدلائل التوحيد،
وكانوا يدعونهم في الدنيا إلى التوحيد، فيجادلونهم ويتكبرون عليهم
يقولون توبيخاً لهم، وتحقيقاً لما أوعدهم به: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ أي
الفضيحة والذل ﴿وَالسُّوءَ﴾ أي العذاب الشديد ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بالله
تعالى، وبآياته ورسله، وكتبه والبعث.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ ۖ قَالُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ
سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٣)

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي على الكافرين المستمرين على الكفر
﴿ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي حال كونهم ظالمين لأنفسهم، وأي ظلم أكبر من هذا
الظلم حيث عرّضوها للعذاب المخلّد، وبدلوا فطرة الله تبديلاً ﴿قَالُوا السَّلَامَ﴾
أي استسلموا وانقادوا، أي فيسلمون حين يعاينون الموت ويتركون
المشاقة، وينزلون عمّا كانوا عليه في الدنيا من الكبر، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا
نَعْمَلُ﴾ في الدنيا ﴿مِنْ سُوءٍ﴾ من شرك، قالوه منكبين لصدوره عنهم،
كقولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (١) وإنما عبروا عنه بالسوء، اعترافاً
بكونه سيئاً ﴿بَلَىٰ﴾ ردّ عليهم من قبل أولي العلم، وإثبات لما نفوه، أي

(١) سورة الأنعام، آية: ٢٣.

بلى كنتم تعملون ما تعملون من الجرائم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أوانه، فلا يفيد إنكاركم وكذبكم على أنفسكم، ثم صرّح بذكر العقاب فقال:

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ادخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً، وذوقوا أصناف عذابها، وهذا يدل على تفاوت منازلهم في العقاب ﴿فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي عن التوحيد كما قال الله تعالى: ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾^(١) وذكرهم بعنوان التكبر، للإشعار بسبب خلودهم فيها، والمعنى: بثست جهنم منزلاً ومقاماً للمتكبرين.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي المؤمنين، وصفوا بالتقوى إشعاراً بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشئ عن التقوى ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾؟ أي أنزل خيراً، وهو هذا الكلام الجامع، قالوه ترغيباً للساائل وهو جواب مطابق للسؤال سبكاً، وللواقع في نفس الأمر مضموناً، وأما الكفرة - خذلهم الله - فقد غيروا الجواب عن نهج الحق، روي أن أحياء العرب، كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد كفه الكفار وأمره بالانصراف، وقالوا إن لم تلقه كان خيراً لك، فيقول: أنا شرٌّ وفيد إن رجعتُ إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد ﷺ فيلقى أصحاب النبي ﷺ فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين ﴿قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي لهؤلاء المحسنين الذين أحسنوا أعمالهم، أو فعلوا الإحسان

(١) سورة النحل، آية: ٢٢.

﴿ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أي مثوبة حسنة مكافأة فيها ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ ﴾ أي مثوبتهم فيها ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما أوتوا في الدنيا من المثوبة ﴿ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي دار الآخرة، حُذِفَ لدلالة ما سبق عليه، وهو كلام مبتدأ مدح الله به المتقين، ووعدهم بذلك ثوابي الدنيا والآخرة.

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أي لهم جنات عدن أي إقامة ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي يدخلونها للإقامة لا يخرجون منها أبداً ﴿ يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا ﴾ في تلك الجنات ﴿ مَا يَشَاءُونَ ﴾ من أنواع المشتبهات وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾^(١) ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي كل من يتقي من الشرك أو المعاصي، ويدخل فيه المذكورون دخولاً أولاً، ويكون فيه بعث لغيرهم على التقوى.

﴿ الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ أي تقبض أرواحهم ملائكة الرحمة ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ أي طيبة نفوسهم بقاء الله، طاهرين من دنس الظلم لأنفسهم، طيبين النفوس ببشارة الملائكة إياهم بالجنة ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي قائلين لهم ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ قال القرطبي: إذا استدعيت نفس المؤمن، جاءه ملك الموت، فقال: السلام عليك يا وليَّ الله، الله تعالى يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ أي جنات عدن، والمراد دخولهم في وقته بعد البعث والحساب، فإن ذلك بشارة عظيمة ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي بسبب

(١) سورة الزخرف، آية: ٧١.

ثباتكم على التقوى والطاعة، فإن قلت: كيف الجمع بين هذا وبين قوله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» المروي في الصحيحين، قال النووي: لا تعارض بين الآية والحديث، لأن معنى الآية أن دخول الجنة بسبب الأعمال، والتوفيق للإخلاص وقبوله بفضل من الله تعالى.

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٣٣).

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي ما ينتظر كفار مكة ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أي ملائكة العذاب لقبض أرواحهم الخبيثة، والتعبير بانتظاره تصوير لهجومه عليهم بمخاوفه، فكانهم يترصدون وروده ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي العذاب الدنيوي لا القيامة ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل فعل هؤلاء، من الشرك والظلم، والتكذيب والاستهزاء ﴿ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ بتعذيبهم وإهلاكهم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا ﴾ أي بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك ﴿ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم، لأن عاقبة ظلمهم راجع إليهم.

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٣٤).

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أي أصابهم عقوبات أعمالهم السيئة ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أي أحاط بهم، والحيق لا يستعمل إلا في الشر ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من العذاب.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٣٥).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي كفرة قريش، وهو بيان لفن آخر من كفرهم والعدول عن الإضممار لتقريعهم ودمغهم بالشرك ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره، لما عبدنا ذلك ﴿نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ الذين نفتدي بهم في ديننا ﴿وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من السوائب والبحائر وغيرهما، وإنما قالوا ذلك تكذيباً للرسول ﷺ، وطعناً في الرسالة، متمسكين بأن ما شاء الله يجب، وما لم يشأ يمتنع، وحيث عبدنا غيره فهو واقع بمشيئته، ولو شاء لمنعنا من ذلك، وهذا عين ما حكاه الله تعالى في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ الآية فأجيب بقوله عز وجل ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك القول الشنيع ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم، أي أشركوا بالله، وحرّموا ما أحلّه، وردوا رسله وجادلوهم بالباطل، حين نهوهم على الخطأ ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ﴾ الذين يبلغون رسالات الله ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي ليست وظيفتهم إلا تبليغ الرسالة، وأما إلجاؤهم إلى الإيمان، فليس ذلك من وظيفتهم، ولا من الحكمة التي يدور أمر التكليف عليها، والفاء للتعليل كأنه قيل: كذلك فعل أسلافهم وذلك باطل، فإن الرسل ليس شأنهم إلا تبليغ أمر الله تعالى ونواهيه، لا تحقيق مضمونهما على الناس قسراً وإلجاءً.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ أي بعثنا في كل أمة من الأمم الخالية رسولا خاصاً بهم، كما بعثنا فيكم الرسول ﷺ ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي بأن اعبدوا الله وحده ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ كل ما يدعو إلى الضلالة ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ إلى الحق الذي هو توحيده وعبادته ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ

حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴿ أَي وَجِبَتْ وَثَبَتْ إِلَى حِينَ الْمَوْتِ لِعُنَادِهِ وَإِصْرَارِهِ عَلَيْهَا، وَعَدَمِ صَرْفِ قُدْرَتِهِ إِلَى تَحْصِيلِ الْحَقِّ ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يَا مَعْشَرَ الْكُفْرَةِ أَيِ امْشُوا فِي أَكْنَافِهَا ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ مِنْ عَادَ وَثُمُودَ، مِمَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ وَالْعَذَابُ، لَعَلَّكُمْ تَعْتَبِرُونَ حِينَ تَشَاهِدُونَ آثَارَ الْهَلَاكِ.

﴿ إِنْ تَحَرَّضَ عَلَى هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

﴿ إِنْ تَحَرَّضَ ﴾ خُطَابُ لِلرَّسُولِ ﷺ ﴿ عَلَى هُدْيِهِمْ ﴾ أَيِ إِنْ تَطْلُبْ هِدَايَتَهُمْ بِجَهْدِكَ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ أَيِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَخْلُقُ الْهِدَايَةَ جَبْرًا وَقَسْرًا، فَيَمُنْ أَصْرًا عَلَى الضَّلَالَةِ، بِسُوءِ اخْتِيَارِهِ، وَالْمُرَادُ بِهِ كُفْرَةُ قَرِيشٍ أَيِ إِنْ تَحَرَّضَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ فَلَسْتُ بِقَادِرٍ عَلَى ذَلِكَ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يَضِلُّ، وَهَؤُلَاءِ مِنْ جَمَلَتِهِمْ ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ يَنْصُرُهُمْ فِي الْهِدَايَةِ، أَوْ يَدْفَعُ الْعَذَابَ.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ شُرُوعٌ فِي بَيَانِ فَنِ آخِرٍ مِنْ أَبَاطِلِهِمْ، وَهُوَ إِنكَارُهُمُ الْبَعْثَ ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ جَاهِدِينَ فِي أَيْمَانِهِمْ ﴿ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾ وَاسْتَدْلُوا بِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا فَنِيَ وَصَارَ عَدَمًا مُحَضًّا، لَا يَعُودُ بَعِينُهُ، بَلِ الْعَائِدُ يَكُونُ شَيْئًا آخَرَ، فَرَّدَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ الْحَقُّ ﴿ بَلَى ﴾ يَبْعَثُهُمْ ﴿ وَعَدًا ﴾ أَيِ وَعْدًا بِذَلِكَ وَعَدًا ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أَيِ وَعْدًا ثَابِتًا عَلَيْهِ إِنْجَازُهُ، لَا امْتِنَاعَ الْخُلْفِ فِي وَعْدِهِ ﴿ حَقًّا ﴾ صِفَةُ أُخْرَى لَهُ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لَجَهْلِهِمْ بِشُؤْنِ اللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ، مِنْ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ، وَغَيْرِهَا مِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى، وَعَدَمِ وَقُوفِهِمْ عَلَى سِرِّ التَّكْوِينِ.

﴿لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿لَيْسَ لَهُمُ﴾ متعلق بما دلَّ عليه «بلى» من البعث أي يبعثهم ليسين لهم بذلك ﴿الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ من الحق المنتظم لجميع ما خالفوه، ممَّا جاء به الشرع المبين ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وليعلم الجاحدون بالله، والمنكرون للبعث ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ في كل ما يقولونه، لا سيما في قولهم ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث، المقتضي له، من حيث الحكمة، وهو التمييز بين المطيع والعاصي، والمحق والمبطل.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ استئناف لبيان كيفية التكوين، أي لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد وعناء، فإننا نقول ﴿لِشَيْءٍ﴾ أي شيء كان عزَّ أو هان ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ أي وقت إرادتنا لوجوده ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ والمعنى: أن إيجاد كل مقدَّر على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث، الذي هو بعضُ منها؟

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ أي في دين الله ورضاه، ولوجهه سبحانه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ الذين ظلمهم كفرة مكة وأخرجوهم من ديارهم، فهاجروا إلى الحبشة، ثم بوأهم الله تعالى المدينة المنورة حسبما وعد بقوله سبحانه ﴿لَنَبْوِثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ تبوئة حسنة، أي نسكنهم مسكناً حسناً خيراً مما فقدوه، قال ابن عباس: بوأهم الله المدينة المنورة، فجعلها لهم دار

هجرة.. والآية تدلُّ على فضل المهاجرين، إلا أنها إذا لم تكن خالصة لله عزَّ وجلَّ لم يكن لها موقع، وكانت بمنزلة الانتقال من بلد إلى آخر ﴿وَلَا جُرْأَلَاخِرَةَ﴾ أي أجر أعمالهم المذكورة في الآخرة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا، وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً، قال له: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله تعالى في الدنيا، وما أدخر في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الضمير للكفار، أي لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم في الدين.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الشدائد، من أذية الكفار، ومفارقة الأهل والوطن وغير ذلك ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ خاصة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون الأمر لله، ويرضون بما أصابهم في الدين، وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام التوكل.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ وهذا ردُّ على كفره قريش حين قالوا: الله أجلُّ من أن يكون له رسول من البشر، فهلاً بعث إلينا ملكاً!! فنزلت الآية أي جرت السُّنة الإلهية حسبما اقتضته الحكمة، بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشراً، يوحي إليهم بواسطة المَلَك، وأوامره ونواهيها، ليبلغوها للناس، ولَمَّا كان المقصود من الخطاب للرسول ﷺ، تنبيه الكفار على مضمونه، صَرَفَ الخطاب إليهم فقل: فإن شككتم فيه ﴿فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي أهل الكتاب وهم العلماء بالتوراة والإنجيل، ليعلموكم ذلك ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وإنما أمروا بذلك، لأنهم يعتقدون أن

أهل الكتاب أهل العلم والذكر، وفيه دلالة على أنه تعالى لم يرسل للدعوة العامة، ملكاً، ولا امرأة ولا صبيّاً، وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ معناه رسلاً إلى الأنبياء، وفيه إشارة إلى وجوب الرجوع إلى العلماء، فيما لا يعلم من الأمور الدينية.

﴿يَا بَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ (٤١).

﴿يَا بَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ الباء متعلقة بمقدّر، وقع جواباً عن سؤال كأنه قال: بِمِ أُرْسِلُوا؟ فقل: أُرْسِلُوا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي بالمعجزات والكتب ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن، سُمِّيَ به لأنه تذكير وتنبية للغافلين ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كافة ويدخل فيه أهل مكة ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في ذلك الذكر، من الأحكام والشرائع وغير ذلك، بياناً شافياً كما ينبىء عنه صيغة التفعيل «نُزِّلَ» ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ أي إرادة أن يتأملوا فينتبهوا للحقائق، وما فيه من العبر، ويحترزوا عما يؤدي إلى مثل ما أصاب الأولين.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٢).

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ هم كفرة قريش، الذين مكروا برسول الله ﷺ، وراموا صدّ أصحابه عن الدخول في الإسلام ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما فعل بقارون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه أي في حالة غفلتهم.

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَغْلِيهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٤٣).

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَغْلِيهِمْ﴾ أي يهلكهم في أثناء أسفارهم ومتاجرتهم ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا.

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي على مخافةٍ وحذرٍ من الهلاك، بأن يهلك قوماً قبلهم، فيتخوفوا، فيأخذهم العذاب وهم متخوفون مترقبون لنزوله، فإنه يكون أشد على النفس، وقيل: التخوف هو التنقص، والمراد منه ما يقع في أطراف بلادهم كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؟^(١) والمراد بذكر الأحوال الثلاثة، بيان قدرة الله سبحانه على إهلاكهم، بأي وجه كان، لا الحصر فيها ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة مع استحقاقكم لها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَتِيوُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ استفهام إنكاري، أي ألم ينظروا ولم يروا ﴿إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي من كل شيء له ظل كالجبل، والشجر، والبناء ﴿يَنْفَتِيوُا ظِلَالُهُ﴾ أي يرجع شيئاً فشيئاً حسبما تقتضيه إرادة الخالق تعالى، فإن النفْيَ مطاوع الإفاءة ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ أي ألم يروا الأشياء التي لها ظلال، متفيئة عن أيمانها وشمائلها، أي عن جانبي كل منها ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ والمراد بسجودها: انقيادها لإرادته تعالى في الامتداد والتقلص وغيرهما، وكان الحسن رحمه الله يقول: ظِلُّكَ يَا بَنَ آدَمَ يسجد لربك، وأما أنت فلا تسجد؟ ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي صاغرون، منقادون لله عز وجل، دخر الشخص دخوراً ذلَّ وهان، والمعنى: ترجع الظلال من جانب إلى جانب، بارتفاع الشمس وانحدارها، تتحرك على مدار معين، بتقدير العزيز العليم، منقاد لما قُدِّرَ لها، ملتصقة بها على هيئة الساجد الخاشع المنيب، منقادة لحكمه تعالى.

(١) سورة الرعد، آية: ٤٦.

إن الله تعالى قد أعطى لكل شيء من المخلوقات، سمعاً، وبصراً، وفهماً، ولساناً، به يسمع كلام الحق، ويصدر شواهد الحق، ويفهم إشارة الحق، فكل شيء يسبح الله بذلك اللسان، ويسجد له بذلك الطوع، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(١) فلا يبعد أن يسجد لله كل شيء، وإن لم نفقه سجوده.

ثم بعدما بيّن سجود الظلال، شرع في بيان سجود المخلوقات فقال:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢).

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي له تعالى وحده، يخضع وينقاد، لا لشيء غيره ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ قاطبة ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كائناً ما كان ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي مما يدبّ فيهما من مخلوقات، ملائكة أو بشر، لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية، سواء كان في الأرض أو في السماء ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي بما فيهم الملائكة الأبرار الأطهار ﴿وَهُمْ﴾ أي الملائكة مع علو شأنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن السجود له عز وجل.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٣).

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي يخافون ربهم مالك أمرهم ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يخافونه خوف هبة وإجلال، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ به من الطاعات، وبعدما بين أن جميع الموجودات يخضعون الخضوع التام الكامل لله عز وجل، أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه للمكلفين عن الإشراك فقال سبحانه:

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونِ﴾ .

﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ تعالى لجميع المكلفين ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي لا تعبدوا إلهين، فإن الإله الحق لا يتعدد، وإنما ذكر العدد، مع أن صيغة التثنية مغنية عن ذلك، للدلالة على أن مساق النهي هي الاثنينية وأنها منافية للألوهية، كما أن وصف الإله بالوحدة، للدلالة على أن المقصود، إثبات الوجدانية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ والنهي عنه هو الإشراف به تعالى، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَلَمْ تُؤَكِّدْهُ، خُيِّلَ إِلَيْكَ أَنَّكَ تَثْبِتُ الْإِلَهِيَّةَ لَا الْوَحْدَانِيَّةَ، فَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ جَاءَ لَفْظُ ﴿وَاحِدٌ﴾ ﴿فَإِنِّي فَارْهَبُونِ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم، لتربية المهابة، وإلقاء الرهبة في القلوب ولذلك قُدم المفعول، وكرر الفعل، أي إن كنتم راهبين شيئاً فإياي فارهبون أي فخافون دون سواي.

﴿وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ .

﴿وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، تعليل لانقياد ما فيهما له سبحانه خاصة ﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ أي الطاعة والانقياد ﴿وَاصِبًا﴾ واجباً، ثابتاً لا زوال له، فهو الإله الحق، الحقيق بأن يُرهَب ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾؟ الهمزة للإنكار، أي كيف تتقون وتخافون غيره، ولا نفع ولا ضرر إلا بيده؟.

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ .

﴿وَمَا بِكُمْ﴾ أي أي شيء نلتموه ممّا يلبسكم ويصاحبكم ﴿مِنْ نِعْمَةٍ﴾ أي نعمَةٍ كانت ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ فهي من الله تعالى، وهو المتفضل بها على عباده ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ أي إذا أصابتكم المكاره، والشدة والأمراض ونحوها ﴿فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ أي تضرعون في كشفه، ليس لكم

غيره تعالى، والجوار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، أي إليه وحده تجأرون، لعلمهم بأنه لا مفزع للخلق إلا هو، فكأنه تعالى قال لهم: فأين أنتم في حال السلامة؟.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ﴾ أي إذا أزال الشدة والضر، والبلاء عنكم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ الخطاب للمشركين، و«من» للبيان كأنه قيل: إذا فريق منكم كافر، وهم أنتم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ والتعرض لوصف الربوبية، للإيذان بكمال قبح ما ارتكبهوه، من الإشراك والكفران بالمنعم المتفضل جلّ وعلا.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة، وإنكار كونها من الله تعالى، لأنهم يضيفون كشف الضر إلى الأسباب، ولا يضيفونها إلى الله تعالى، ألا ترى أن العليل إذا اشتد وجعه، تضرع إلى الله تعالى، فإذا زال أحال زواله إلى الدواء، وهذه الحالة تجري مجرى الصفة اللازمة لجوهر نفس الإنسان ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أمر تهديد أي فعيشوا فيما أنتم فيه، إلى المدة التي ضرب الله عز وجل لكم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمركم وكفركم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَسْتُلْنَ عَمَّا كُتِبَ تَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ هذا تعداد لجناياتهم الشنيعة ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لما لا يعلمون حقيقته، وقدره الخسيس من الجمادات، التي يتخذونها شركاء لله

تعالى، جهالة منهم وسفاهة، ويزعمون أنها تنفعهم وتشفع لهم عند الله ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الزرع والأنعام، تقرباً إلى الأصنام وهي جمادات ﴿تَاللَّهِ لَشَفَّائُنَّ﴾ سؤال توبيخ وتقريع، أقسم تعالى بنفسه على نفسه ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا بأنها آلهة، وتختلفون الكذب على الله، والغرض من الآية التوبيخ لهم على عبادة الأوثان، وهي جمادات لا تضر ولا تنفع.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ هم خزاعة، وكنانة، الذين كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، وإنما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة، لاستتارهم عن العيون كالنساء ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه وتقديس له عز وجل، عن مضمون قولهم الفاجر، وتعجيب من جراتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من البنين!! وهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتِ وَلَكُمْ الْبَنُونَ؟﴾ ثم ذكر تعالى أن الواحد منهم لا يرضى بالبنات لنفسه، فكيف ينسبها لله عز وجل؟.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿٥٨﴾

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾ أي أخبر بولادتها ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ أي صار دوام النهار ﴿مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة والحياء من الناس، والاسوداد كناية عن الاغتمام والتشويش، لأن الإنسان إذا قوي فرحه انشرح صدره، وانبسط روحه، ووصل إلى الأطراف، ولا سيما إلى الوجه، فتلاأ الوجه، وإذا اشتد غم الإنسان، احتقن الروح ولم يبق منه أثر قوي في وجهه، فيصفو ويسود وجهه ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممتلئ حنقا وغیظاً من المرأة.

﴿يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْرِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمُسِكُمْ عَلَىٰ هُوٍ أَمْ يَدُسُّ فِي الرُّبَا أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿يَتَوَرَّى﴾ أي يستخفي ﴿مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا يُثْرِيهِ﴾ أي خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت، والتعبير عنها بـ «ما» لإسقاطها عن درجة العقلاء، ثم تردّد في أمره، محدثاً نفسه في شأنه ﴿أَيَسْكُرُ عَلَى هُوٍ﴾ أي ذلّ وهوان ﴿أَرِيدُكُمْ﴾ أي يخفيه ﴿فِي التُّرَابِ﴾ بالوَاد، دسّه في التراب دسّاً: دفنه فيه، وكلّ شيء أخفيته فقد دسسته، ومنه يقال للجاسوس: دسيس القوم.

قال أهل التفسير: إن مُضَرَّ، وخُزَاعَةَ، وتَمِيمًا، كانوا يدفنون البنات أحياء، والسبب في ذلك، إمّا خوف الفقر، وكثرة العيال، أو الحميّة، فيخافون عليهن من الأسر، ونحوها، وكانوا في الجاهلية إذا قربت ولادة زوجة أحدهم، توارى من القوم، إلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً، ابتهج وسرّ بذلك، وإن كانت أنثى، حزن ولم يظهر أمام الناس أيّاماً، حتى يفكر ما يصنع بها، فإذا أراد أن يستحيها تركها، حتى إذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر، وجعلها ترعى الإبل أو الغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها، قال لأمها: زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، ويكون قد حفر لها حفرة في الصخراء، فإذا بلغ بها تلك الحفرة، دفعها من خلفها في تلك البئر، ثم يهيل التراب على رأسها، وقيل: إنهم كانوا مختلفين في قتل البنات، فمنهم من يرميها من شاهق جبل، ومنهم من يغرقها، ومنهم من يذبحها ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون ما هذا شأنه عندهم، من الهون، والازدراء، والحقارة، لله المتعال عن الصاحبة والولد، وقيل معناه: ألا ساء ما يحكمون في وأد البنات.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ممن ذكرت قبائحهم ﴿مَثَلُ السَّوِّ﴾ أي صفة السوء، الذي هو كالمثل في القبح، وهي إيثار الذكور، ووأد البنات لدفع

العار وخشية الإملاق ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وهو الوجود الذاتي، والغنى المطلق، والجود الواسع، والزاهة عن صفات المخلوقين، فإن قيل: كيف جاء ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ مع قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ؟﴾ قلنا: المثل الذي يذكره الله حق وصدق، والذي يذكره غيره فهو باطل، أي لا تمثلوا لله بالأمثال الباطلة ﴿وَهُوَ الْمَزِيدُ﴾ أي المتفرد بكمال القدرة ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل بمقتضى الحكمة والمصلحة.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (١٦).

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ أي الكفار ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ بكفرهم ومعاصيهم، التي من جعلتها ما عُدَّ من قبائحهم ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي على الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي ما ترك شيئاً من دابة قط بل أهلكها بالمرة، بشؤم ظلم الظالمين، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (١) فإن قيل: لم يصدر عن الدابة ذنب، فكيف يجوز إهلاكها بسبب ظلم الناس؟ أجيب بأنها مخلوقة لمنافع البشر، فهي عذاب للبشر أيضاً ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي إلى وقت معين تقتضيه الحكمة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي فإذا جاء الوقت المحدد لهلاكهم، لا يتأخرون برهة يسيرة من الزمن ولا يتقدمون عليها، ولا يلزم من عموم الناس، وإضافة الظلم أن يكونوا كلهم ظالمين، لجواز أن يضاف إليهم بما شاع فيهم، وصدر عن أكثرهم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ (١٧).

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ﴾ أي ينسبونه إليه سبحانه في زعمهم ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم، مما ذكر من البنات، وأراذل الأموال، ولأصنامهم أكرمها، وهو تكرار لما سبق للتقريع ﴿وَتَصِفُ السِّتْنَهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي تقول الكذب^(١)، وهو ﴿أَنْ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أي العاقبة الحسنى عند الله تعالى وهي الجنة كقوله: ﴿وَلَيْتِنِ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾ فإن قيل: كيف يقولون بذلك، وهم كانوا منكبين للقيامة؟ قلنا: نعم إنهم كانوا منكبين، فلعلهم قالوا: إن كان البعث حقاً فإنه يحصل لنا العاقبة الحسنى، بسبب هذا الدين الحق الذي نحن عليه، وقيل: كان في العرب جمعٌ يقرؤون بالبعث، ولذلك كانوا يربطون البعير على قبر الميت، ويتركونه إلى أن يموت، ويقولون: إن ذلك الميت إذا حُشِر فإنه يُحشَر معه مركوبه فيركب عليه ﴿لَا جَرَمَ﴾ ردٌ لكلامهم ذلك، وإثبات لنقيضه، أي حقاً ﴿أَنْ لَهُمُ﴾ مكان ما أتملوا من الحسنى ﴿الَّتَارَ﴾ التي ليس وراء عذابها عذاب ﴿وَأَنْتُمْ مُقْرَطُونَ﴾ أي مقدّمون إليها ومعجلون، من أفرطته أي قدّمته في طلب الماء، والفرط: بفتح الحين المتقدم لطلب الماء.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عما يناله من جهالة الكفرة، ووعد لهم على ذلك، أي أرسلنا إليهم رسلاً فدعوهم إلى الحق، فلم يجيبوا إلى ذلك ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي قرينهم في الدنيا يغريهم ويغويهم ﴿وَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو عذاب النار.

(١) حكى أن أبا يوسف ردّ الشهادة على واحد من أقرباء هارون الرشيد، فشكى للخليفة فقال هارون: لمّ رددت شهادته؟ قال: لأنني سمعته يوماً بين يديك يقول: عبدك، فإن كان صادقاً، فلا تقبل شهادة للبعد، وإن كان كاذباً فلا شهادة للكاذب!!

﴿ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٦٥﴾ .

﴿ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ أي القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ ﴾ أي ما أنزلناه عليك لعله من العلل إلا لتبين وتوضح ﴿ لَهُمُ ﴾ أي للناس ﴿ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ من التوحيد، والقدر، وأحوال المعاد ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أي للهداية والرحمة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المغتصمون من آثاره، ولا ينفي كونه كذلك في حق الكل.

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿٦٥﴾ .

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ هذا تكرير لما سبق، تأكيداً لمضمونه، وتوطئة لما يعقبه من أدلة التوحيد، لأن المقصود الأعظم من القرآن الكريم تقرير أصول أربعة: الإلهيات، والنبوات، والمعاد، وإثبات الفضاء والقدر، والأحرى بالبيان أولاً تقرير الإلهيات، فلهذا السبب، كلما امتد الكلام في فصل من الفصول، عاد إلي تقرير الإلهيات ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ بما أنبت به فيها من النباتات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي ييسها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في إنزال الماء، وإحياء الأرض الميتة به ﴿ لَآيَةً ﴾ دالة على وحدانيته سبحانه، وعلمه، وقدرته، وحكمته ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سمع إنصاف وتدبر وتفكر، لا سماع الآذان لأن من لا يسمع بقلبه، فكأنه لم يسمع.

﴿ وَإِنَّ لَكُمُ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تُشْفِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ ﴿٦٦﴾ .

﴿ وَإِنَّ لَكُمُ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ وأي عبرة تحار في دركها العقول ﴿ تُشْفِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ أي بطون الأنعام والتذكير لمراعاة جانب اللفظ، فإنه اسم جمع

كالرھط، والقوم، فهو بحسب اللفظ مفرد، وبحسب المعنى جمع، وقال في سورة المؤمنین: ﴿فِي بُطُونِهَا﴾ ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ الفرث، فضالة ما یبقى من العلف في الكرش، المنهضم بعض الانهضام، وكثیف ما یبقى في المِعَى، فإذا خرج من الكرش لا یسمى فرثاً، وذلك أن الحيوان إذا تناول الغذاء، وصل ذلك إلى معدته إن كان إنساناً، وإلى كرشه إن كان من الأنعام، فإذا حصل الهضم الأول فيه، فما كان منه صافياً انجذب إلى الكبد، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذي في الكبد، ينطبخ فيها ویصیر دماً، وهو الهضم الثاني، فالدم یذهب في الأوردة، وهناك یحصل الهضم الثالث، و بین الكبد و بین الضروع عروق كثيرة، فينصبُّ بعض الدم من تلك العروق إلى الضروع، فيبيض لمجاورته لحومها الغددية البيض، ویلدُّ طعمه فیضیر لبناً، ومن تدبَّر في بدائع صنعه تعالى، فيما ذكر من أخلاط، وألبان، والأسباب المولدة لها، وتسخير القوى المتصرفة فيها، كل وقت على ما یلیق به، اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه تعالى، وقدرته، وحكمته، ورافته، ورحمته ﴿لَبَنًا خَالِصًا﴾ صافياً لا یستصحب لون الدم، ولا رائحة الفرث، ومصفى عما یصحبه من الأجزاء الكثيفة ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ سهل المرور في حلقهم، قيل: إنه لم یغص أحد باللبن قط.

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ .

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ﴾ أي. ولكم عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل ﴿وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ والسَّكْرُ مصدر سَمِيَ به الخمر، والسكر يكون من العنب، أو عصير الرطب إذا اشتد وأسكر ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر، والدبس، والزبيب، والخل، والآية إن كانت سابقة النزول على تحريم الخمر، فدالة على كراهتها، وإلا فجامعة بين العتاب والمنة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ باهرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم في الآيات، بالنظر والتأمل، ويعلمون بالضرورة، أن هذه الأحوال لا یقدر عليها أحد إلا الله.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا

يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ .

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ أي ألهمها وركز في أنفسها هذه الأعمال العجيبة، التي يعجز عنها العقلاء من البشر ﴿أَنِ اتَّخِذِي﴾ أي بأن اتخذي ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي أوكاراً، وإنما سمي بيتاً، لما فيه من حسن الصنعة، التي لا يقوى عليها حُذَّاق المهندسين، إلا بآلات وانظار ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي يعرشه الناس، أي يرفعه من كرم أو سقف والمعنى: اتخذي بيوتاً لنفسك من الجبال، والشجر، وإلا فاتخذي ما يعرشونه لك، وإيراد حرف التبعية «من» لما أنها لا تبني في كل جبل، وفي كل شجر، بل في البعض .

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من كل ثمرة تشتهيها حلوها ومرها ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي مسالكه التي برأها، بحيث يحيل فيها بقدرته تعالى، النور المرَّ عسلاً من أجوافك، أو فاسلكي الطرق التي ألهمك في عمل العسل، راجعة إلى بيوتك لا تتوعر عليك ولا تلتبس ﴿ذُلَالًا﴾ جمع ذلول، أي مدللة غير متوعدة، ذللها الله سبحانه وسهّلها لك ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ عدل به عن الخطاب ليظهر منها من تعاجيب صنع الله التي هي موضع العبرة بعدما أمرت بما أمرت ﴿شَرَابٌ﴾ أي عسل لأنه مشروب، واحتج به بقوله كل من زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطرية، فتستحيل في بطنها عسلاً، ثم تقيأ ادخاراً للشتاء وقيل: هو أنه يحدث في الهواء طَلٌّ لطيف في الليالي، ويقع ذلك الطلُّ على أوراق الأشجار والأزهار، فتكون تلك الأجزاء لطيفة صغيرة، والنحل تلتقط تلك الذرات بأفواهها وتذهب بها إلى

بيوتها لتدخر لنفسها غذاءها، والقائلون بهذا فسروا البطون بالأفواه لأن كل تجويف في داخل البدن فإنه يسمى بطناً، وكذا ههنا (من بطونها) أي من أفواهها، والقول الأول أولى وأصح، لأننا نشاهد أنه يوجد في طعم العسل، طعم تلك الأزهار التي تأكلها النحل، وكذلك يوجد لونها وريحها وطعمها فيه أيضاً، لا ما قاله الآخرون من أنه طللٌ، لأنه لو كان طلاً لكان على لون واحد، وطبيعة واحدة، والله أعلم ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ ما بين أبيض، وأصفر، وأسود، لاختلاف سنّ النحل، والفصل، والذي أخذت منه العسل ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية، أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلماً يوجد معجون لا يكون فيه عسل، مع أن التنكير فيه مُشْعِرٌ بالتبعض، ويجوز كونه للتفخيم، فإن قالوا: كيف يكون شفاء للناس، وهو يضر بالصفراء ويهيج المرارة؟ قلنا: إنه تعالى لم يقل إنه شفاء لكل الناس، أو لكل داء، وفي كل حال، بل لما كان شفاءً للبعض، ومن بعض الأدوية، صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء. روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال ﷺ: «اسقه عسلاً»، فسقاه ثم جاء فقال إني سقيته عسلاً فلم يزد إلا استطلاقاً، فقال له ذلك ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: اسقه عسلاً فقال لقد سقيته فلم يزد إلا استطلاقاً فقال ﷺ: «صدق الله، وكذب بطنُ أخيك، فسقاه فبرأ»^(١) اعترض بعض الملحدين على هذا الحديث، فقال: إن الأطباء مجمعون على أن العسل مسهلٌ، فكيف يوصى لمن به الإسهال؟ أجيب بأن المسهل يقطع الإسهال بالتنقية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من أعاجيب آثار قدرة الله تعالى ﴿لَايَةً﴾ عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن من تفكّر في اختصاص النحل بتلك الصنائع الدقيقة، والأفعال العجيبة، جزم قطعاً بأن لها خالقاً قادراً، يلهمها ذلك، ويهديها إليه، وألهمها أيضاً أن

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب ١٣٩/١٠ ومسلم رقم ٢٢١٧ باب التداوي بسقي العسل.

تجعل عليها أميراً نافذ الحكم فيها، ويكون هذا الأمر أكبرها جثة، وهي تطيعه، وتمثل أمره، وألهمها الله تعالى أيضاً، أن جعلت على باب كل خلية بواباً، لا يمكن غير أهلها من الدخول إليها، وأنها تخرج من بيوتها وتدور وترعى ثم ترجع إلى بيتها، ولا تفضل عنها، ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف، بهذه الخواص العجيبة، الدالة على مزيد الذكاء والفتنة، دل ذلك على الإلهام الإلهي.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٧٠).

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ أي أوجدكم من العدم، وأخرجكم إلى الوجود، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ولما ذكر سبحانه وتعالى من عجائب أحوال ما ذكر من الماء، والنبات، والأنعام، والنحل، أشار إلي بعض عجائب أحوال البشر. من أول عمره إلى آخره فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ وقد ضبطوا مراتب العمر في أربع: الأولى: سن النشوء والنماء، ونهايته إلى ثلاثين سنة، والثانية: سن الوقوف وهو يتم بالأربعين، والثالثة: سن الكهولة وهو يتم بالستين، والرابعة: سن الشيخوخة وهو بعد الستين، وطول الأعمار ليس من الجود الخاص، الذي يختص الله به بعض عباده كالرسالة، وإنما طول الأعمار وقصرها، وحدوث الأمراض التي تعرض للبشر، على وفق السن العامة، ولذلك كانت عامة في المؤمن والكافر، فهي كمسألة الرزق، في سعته وضيقه، كما قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِيتُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (١) ﴿ثُمَّ يَوَفِّكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على حكم بالغة، بأجال مختلفة، أطفالاً وشباباً، وكهولاً وشيوخاً ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ﴾

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٠.

قبل موته ﴿إِلَّا أَزْدَلِ الْعُمُرُ﴾ أي أحسنه وأضعفه، وإيثار الرد على البلوغ، للإيذان بأن بلوغه إليه، رجوع في الحقيقة إلى الضعف بعد القوة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾^(١) ولا عمر أسوأ حالاً من عمر الهرم، الذي يشبه الطفل، وقيل: ليس هذا في المسلمين، لأن المسلم لا يزداد في طول العمر، إلا كرامة من عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(٢) عن أنس قال: كان ﷺ يدعو بهذه الدعوات «اللهم إني أعوذ بك من البخل، والكسل، وأزدل العمر، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات»^(٣) ﴿لَيْكُنْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كثير ﴿شَيْئاً﴾ من العلم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقادير أعماركم ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء أرادته، يميت الشاب النشط، ويبقي الهرم الفاني، مع نقصان العقل والقوة، وفيه تنبيه على أن تفاوت الأجال، ليس إلا بتقدير قادر حكيم، ولو كان ذلك مقتضى الطباع، لما بلغ التفاوت هذا المبلغ.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْيِ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(١).

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي جعلكم متفاوتين؛ فمنكم غني ومنكم فقير، وهذا التفاوت غير مختص بالمال، بل هو حاصل في الذكاء، والبلادة، والحسن والقبح، والعقل والحمق، والصحة والسقم، وهذا بحر لا ساحل له، وهذا اعتباراً لحالٍ أخرى من أحوال الإنسان، وذلك أنا نرى أكيس الناس، يفني عمره في طلب المقدر من الدنيا، ولا

(١) سورة يس، آية: ٦٨.

(٢) سورة النين، الآيتان: ٥ و٦.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء رقم ٢٧٠٦.

يتيسر ذلك له، ونرى أجهل الخلق تنفتح عليه أبواب الدنيا، ولو كان السبب الجهد والعقل، لما رأينا هكذا، فعلمنا أن ذلك بسبب قسمة القسَام كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقد كنتُ مصاحباً لبعض الناس في بعض الأسفار، وكان ذلك كثير المال، ربما حضرت الأطعمة الشهية، والفواكه العطرة عنده، وما كان يمكنه تناول شيء منها ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ فيه على غيرهم ﴿بِرَأْيٍ﴾ أي بمعطي ﴿رِزْقِهِمْ﴾ الذي رزقهم إياه ﴿عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ على مماليتهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقية، والمرزوقية ﴿فَهُمْ﴾ أي الملاك والمماليك ﴿فِيهِ﴾ في الرزق ﴿سَوَاءٌ﴾ أي لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم في التصرف، بحيث لا يرضون بمساواة مماليتهم لأنفسهم، وهم أمثالهم بالبشرية والمخلوقية، وهم أسوة لهم في استحقاق الرزق، فما بالهم يشركون بالله سبحانه بعض مخلوقاته، الذي هو بمعزل من درجة الاعتبار؟ وهذا كما ترى مثل ضرب لقباحة ما فعله المشركون، كقوله تعالى: ﴿هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ؟﴾ ﴿أَفِينْعَمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون من الإشراك، فإن ذلك يقتضي أن يضيفوا نعم الله سبحانه إلى شركائهم، ويجحدوا كونها من عند الله تعالى، كما أن أهل الطبايع يضيفون الأشياء إلى الطبيعة.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفِيَالْبَطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٧).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم^(١) ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ وضع الظاهر

(١) لقد شرع الله عز وجل الزواج حفظاً للنسل، وصيانة للبشر من الأمراض والآثام، =

للإيذان بأن المراد جعل لكل منكم، من زوجه لا من زوج غيره ﴿بَيْنَ وَحَفْدَةٍ﴾ جمع حافد، وهو الذي يسرع في الخدمة، ومنه قول القانت: «واليك نسعى ونحفد» أي جعل لكم خدماً يسرعون في خدمتكم والمراد بهم أولاد الأولاد، حَفْدٌ من باب ضرب أسرع وَحَفْدُهُ خدمه، فهو حافد، والجمع حفدة، مثل كافر وكفرة ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من اللذائذ أو من الحلالات ﴿أَفَيَا بَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ﴾؟ الفاء للعطف على مقدر، أي يكفرون بالله الذي شأنه هذا فيؤمنون بالباطل؟ ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ الفائضة عليهم مما لا يحيط به دائرة البيان ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ حيث يضيفونها إلى الأصنام؟ وتقديم الصلة للاهتمام ولرعاية الفواصل.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٦)

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ عطف على ﴿يكفرون﴾ داخل تحت الإنكار، أي يكفرون بنعمة الله، ويعبدون من دونه؟ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أي شيئاً ما، قليلاً أو كثيراً، والرزق الذي يأتي من جانب السماء هو الغيث، أي ما لا يقدر على أن يرزقهم شيئاً من السماوات والأرض ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ولا يمكنهم أن يملكوه، إذ لا استطاعة لهم رأساً، لأنها موات لا حراك بها.

= واحتراماً للعلاقات الاجتماعية، ومعاونة على الحياة بين الزوجين، لتدوم بينهما المودة والرحمة كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ ووضع أحكاماً للزواج منها ولي الأمر وهو الأب أو الأخ أو غيرها من العصبات، ومنها الشهود، ورضى الزوجة البالغة، والمهر، وغير ذلك تقديرأ منه لأهمية الدور العظيم الذي يتم عليه بناء الأسرة، وهذه الشروط وضعها الإسلام لتكون الأعراض مصونة من المجون والعبث، فتدبر حكمة الله سبحانه !!

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ التفات إلى الخطاب للاهتمام بشأن النهي، أي لا تشركوا به شيئاً، والتعبير عن ذلك بضرب المثل، للقصد إلى النهي عن الإشراف به تعالى في شأن من الشؤون، فإن ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة، أي لا تشبهوا بشأنه تعالى شيئاً من الشؤون ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ أي إن الله يعلم فساد ما تقولون، وعظم جرمكم فيما تفعلونه ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي إنه تعالى يعلم كنه الأشياء، وأنتم لا تعلمون، فدعوا رأيكم، وقفوا مواقف الامتثال، لما ورد عليكم من الأمر والنهي، ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الأمثال، إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك، فتقعون في مهاوي الردى والضلال.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي أورد شيئاً يستدل به على تباين الحال، بين الله عز وجل وبين ما أشركوا به ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ وُصف العبد بالمملوكية، للتمييز عن الحر، وبعدم القدرة لتمييزه عن المكاتب والمأذون، واحتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئاً ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا ﴾ أي جانبنا ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي حلالاً طيباً ﴿ فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ ﴾ تفضلاً وإحساناً ﴿ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ إنفاق سر، وإنفاق جهر، والمراد بيان إنفاقه وشمول إنعامه لمن لا يرضى قبوله جهراً، والإشارة إلى أصناف نعم الله الباطنة والظاهرة ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ أي هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بما ذكر؟ فحيث لم يستو الفريقان فما ظنكم برزاق العالمين حيث تشركون به ما لا حياة له من الجماد ولا نفع؟ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي كله

لله، لأنه مولي جميع النعم، لا يستحقه أحد غيره، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما ذكر فيضيفون نعمه تعالى إلى غيره، ويعبدونها لأجلها، ونفي العلم عن الأكثر، إشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك، وإنما لا يعملون بموجبه عناداً.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦)

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ آخر يدل على ما دلَّ عليه المثل السابق، على وجه أوضح ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ الأبكم: هو من وُلد أخرس، وعن الزجاج أنه الذي لا يسمع ولا يبصر ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره، لقلة فهمه، وسوء إدراكه، وهو إشارة إلى عجزه التام ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ أي ثقل عالة على سيده، والكلُّ بالفتح الثقل ﴿عَلَى مَوْلَاهُ﴾ الذي يلي أمره ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ﴾ أي حيث يرسله مولاه في أمر ولو كان مصلحة يسيرة ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي لا يُفْلِحُ ولا ينجح ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ مع ما فيه من الأوصاف المذكورة ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾؟ (١) أي من هو منطيق، فهم، ذو رأي وكفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل

(١) ضرب الله تعالى مثلين بديعين: الأول: ضربه لنفسه سبحانه وللأوثان، فالله هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عباده، ليلاً ونهاراً، والأوثان والأصنام مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لله، ويعبدونها من دون الله، مع التفاوت العظيم بين الإله القادر، والوثن العاجز؟ والمثل الثاني: ضربه الله للصنم الذي يعبد من دونه، ومثل له بصورة رجل أخرس، بليد الحس والذهن، لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، ومع هذا هو عاجز لا يقدر على شيء مطلقاً، أينما أرسلته لا يأتك بخير، ولا يقضي لك حاجة، هل يتساوى مع رجل يبلغ متكلم، ينطق بأفصح بيان، وهو على طريق مستقيم؟

﴿وَهُوَ﴾ في نفسه مع ما ذكر ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي على سيرة صالحة، ودين قويم، وهذا مثل ثانٍ ضربه الله عزَّ وجلَّ لنفسه، ولما يُفيض على عباده من إنعامه، وللأصنام التي هي جمادات لا تنطق ولا تسمع، وهي كلُّ على عابديها، لأنها تحتاج إلى الحمل والخدمة.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِنْ كَلَّمَجِ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا لأحد غيره، أي الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة، بحيث لا سبيل لهم إليها، لا مشاهدة ولا استدلالاً، وفيه إشعار بأن علمه سبحانه حضوري، ولذلك لم يقل: والله علم غيب السموات والأرض ﴿وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ﴾ التي هي أعظم الغيوب، فإن وقت وقوعها مختصُّ به سبحانه، أي ما شأنها في سرعة المجيء ﴿إِلَّا كَلَّمَجِ الْبَصِيرِ﴾ أي كرجع الطرف، من أعلى الحدقة إلى أسفلها ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي بل هو أقرب من ذلك وأسرع ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يعجزه شيء، وقدرته لا حدَّ لها، ومن جملة الأشياء، أن يجيء بها أسرع ما يكون، فهو قادر على ذلك، فيقدر على أن يحيي الخلائق دفعة، كما قدر على إحيائهم متدرجاً، وقد قَرَّبَ العلمُ في هذا العصر، أمر البعث من العقول، بما قَرَّرَه من كون كل ما في العالم، ثابت أصله لا يزول، وإنما هلاك الأشياء وفناؤها، عبارة عن تحليل موادها، وتفرقها، وبما أثبتته من تركيب المواد المتفرقة، وإرجاعها إلى تركيبها الأول في غير الأحياء، بل تصدى بعض علماء الألمان، لإيجاد البشر بطريقة علمية صناعية، بتنمية البذرة التي يولد منها الإنسان، وزعم أنه يمكن باتخاذ وسائل لتغذية المضغنة، في حرارة كحرارة الرحم، أن تتولد فيها الأعضاء، حتى تكون إنساناً، وقد بيَّن تجربته ونظرياته في خطاب قرأه على طائفة إلى علماء الكون، فأعجبوا بنظرياته، ولم ينكر أحد منهم إمكان ذلك، وهذا وإن

أمكن، ولكن أنى لهم أن يتفخوا فيه الروح، ليصبح بشراً سوياً؟ فهل يعجز عنه خالق البشر؟ قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ اللَّهُ الْحَقُّ﴾.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ منتظم معه في أدلة التوحيد ﴿مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي غير عالمين شيئاً أصلاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي جعل لكم هذه الأشياء آلات، تحصلون بها العلم والمعرفة، بأن تحسوا بمشاعركم الأشياء، وتذكروها بأفئدتكم، فإذا أبصر الطفل شيئاً مرة بعد أخرى، ارتسم في خياله ماهية ذلك المبصر، وكذا إذا سمع شيئاً، وكذا القول في سائر الحواس، والأفئدة جمع فؤاد، وهو وسط القلب ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تعرفوا ما أنعم الله به عليكم فتشكروه، فقد جعل لكم السمع، لتسمعوا مواظ الله، والأبصار لتبصروا دلائل الله، والأفئدة لتعقلوا عظمة الله عز وجل.

﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ﴾ أي ألم ينظروا إليها، جمع طائر ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذللات للطيران، بما خلق لها من الأجنحة، والأسباب المساعدة له، وتسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء، وفيه تنبيه على أن الطيران ليس بمقتضى طبيعة الطير، بل ذلك بتسخير الله تعالى ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ أي في الهواء المتباعد من الأرض، والجو: هو الفضاء الواسع بين السماء

والأرض ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو حين قبض أجنحتهن، وبسطها، ووقوفهن ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ عز وجل بقدرته الواسعة، فإن ثقل جسدها، ورقة الهواء يقتضيان السقوط، ولا علاقة من فوقها، ولا دعامة من تحتها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من تسخير الطير للطيران، بأن خلقها خلقة تتمكن بها منه بأن جعل لها أجنحة خفيفة، وأذناً كذلك وجعل أجسادها من الخفة بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذناها، انعدم ثقلها فتخرق ما تحتها من الهواء وتخرق ما بين يديها من الهواء ولأنها لا تلاقيها بحجم كبير ﴿لَا يَنْتَرِي﴾ ظاهرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي من شأنهم أن يؤمنوا بأن المخلوق لا غنى به عن الخالق، وإن كانت هذه الآيات آيات لكل ذوي العقول.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَتَعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ أي لمصلحتكم ومنفعتكم، وهذا نوع آخر من دلائل التوحيد، التي ذكرها الله عز وجل في هذه السورة الكريمة، أي جعل لكم ومن أجل راحتكم ومصلحتكم ﴿مِّنْ بُيُوتِكُمْ﴾ التي تبنيونها من الحجر والمدر ﴿سَكَنًا﴾ أي موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم، وتطمثون به، من غير أن ينتقل من مكانه ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ أخرى مغايرة لبُيُوتِكُمْ، هي الخيام، والقباب، والأخبية، والفساطيط ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفة، يخفُّ عليكم حملها ونقلها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ أي يوم ارتحالكم، في الحمل والنقل، يقال: ظعن ظعنًا أي ارتحل ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وقت نزولكم في المساكن والبناء ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ أي وجعل لكم من أصواف الضأن، وأوبار الإبل، وأشعار المعز ﴿أَثْنَا﴾ أي متاع البيت ﴿وَمَتَعًا﴾ أي شيئاً يتمتع به ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى مدة من الزمان.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ﴾ من غير صنع من قِبَلِكُمْ ﴿ ظِلَالًا ﴾ أشياء تستظلون بها من الحر، كالغمام، والشجر، والجبل، وغيرها، امتن سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبية الحرارة ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ مواضع تسكنون فيها من الكهوف، والمغارات، والسروب ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ جمع سربال، وهو الثوب الذي يلبس، أي جعل لكم ثياباً من القطن، والكتان، والصوف وغيرها ﴿ تَقِيكُمْ الْحَرَّ ﴾ خصه بالذكر اكتفاءً بأحد الضدين، ولأن الوقاية من الحر أهم عندهم ﴿ وَسَرَابِيلَ ﴾ من الدروع والحديد ﴿ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ أي في الحرب من الضرب والطعن، ولقد منَّ الله سبحانه على عباده، حيث ذكر نِعْمَهُ الفائضة على جميع الطوائف، فبدأ بما يخص المقيمين حيث قال: ﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ ثم بما يخص المسافرين بقوله: ﴿ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ ﴾ ثم بما يعمُّ من لا يقدر على الخيام حيث قال: ﴿ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾ ثم لا بدَّ لكل أحد من الستر حيث قال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ ثم قال: ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإنعام ﴿ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ من النعم الظاهرة والباطنة، فتعرفوا حق منعمها، فتؤمنوا به وحده، وتذروا ما كنتم به تشركون ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ أي تنقادون لأوامره جلَّ جلاله، ولتفكروا فيها، فتؤمنوا به، فتسلموا من عذاب الله.

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ فإن أعرضوا عن الإسلام، ولم يقبلوا منك ما ألقى إليهم من البينات، والعبر، والعظات ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ دعوة الله، وقد فعلته، وحسابهم على الله تعالى.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ .

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي يعرفون عن يقين نعم الله تعالى التي أنعم بها عليهم، ويقولون: إنها من عند الله ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها، وقيل: نعمة الله نبوة الرسول ﷺ، عرفوها بالمعجزات، كما يعرفون أبناءهم، ثم أنكروها عناداً، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي المنكرون بقلوبهم غير معترفين بما ذكر.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ .

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد لهم بالإيمان، أو بالكفر والعصيان، وهو نبيها كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ وقيل لا يؤذن في الكلام أصلاً، وهو عندما يقال لهم: ﴿اٰخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يقال لهم: أَرْضُوا رَبَّكُمْ، إذ الآخرة دار الجزاء، لا دار العمل، مأخوذ من العُتْبَى وهي الرضا، عَتَبَ عليه: لَامَهُ في تسخط، وأعتبني أي أزال الشكوى والعتاب، واستعتب طلب الإعتاب، والعُتْبَى اسم من الإعتاب.

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ .

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ الذي يستوجبونه، وهو عذاب جهنم، ووصلوا إليه فعند ذلك ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي

يُمهلون، كقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (١).

﴿وَإِذَارَأَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٨٦).

﴿وَإِذَارَأَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يوم القيامة ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ الذين يدعونهم في الدنيا وهم الأوثان والشياطين ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ أي نعبدهم ونطيعهم، وهذا اعتراف بأنهم كانوا مخطئين، وقالوا ذلك طمعاً في توزيع العذاب بينهم، كما ينبئ عنه قوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَوْا﴾ أي شركاؤهم ﴿إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وإنما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم، لأن الأوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم (٢)، فكأن عبادتهم لم تكن لهم، وإنما عبدوا أهواءهم، ولا يمتنع إنطاق الله الأصنام به، فيزدادون بذلك غماً وندامة، كما قالت الملائكة: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ وكما قال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٨٧).

﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي الذين ظلموا وأشركوا ﴿يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ أي الاستسلام لأمر الله وحكمه، بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي ضاع وبطل ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن الله شركاء، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم.

(١) سورة الأنبياء، آية: ٤٠.

(٢) فإن قيل: كيف أثبت للأصنام نطقاً ونفاه عنها في سورة الكهف: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فالجواب أن هنا النطق بتكذيب المشركين، والمنفي عنها النطق بالإذن بالشفاعة، فلا تنافي بين النصين، والله أعلم.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بالمنع عن الإسلام، والحمل على الكفر ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ الذي كانوا يستحقونه بكفرهم ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ أي زدنا عذابهم، بسبب استمرارهم على الإفساد، وهو الصدُّ المذكور.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ تشية للتهديد وهو نبههم ﴿عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ من جنسهم، قطعاً لمعذرتهم، وفي قوله عليهم إشعار بأن شهادة أنبيائهم تكون بمحضر منهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا رسول الله وإيثار لفظ المجيء على البعث، لكمال العناية بشأنه ﷺ ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي الأمم وشهادتهم كقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾؟ وقيل على أمتك والمراد به يوم القيامة، وتم الكلام ههنا ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي توضيحاً شافياً وبياناً بليغاً ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يتعلق بأمور الدين، ومن جملة ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم، فيكون كالدليل على كونه ﷺ شهيداً عليهم، وكونه تبياناً لكل شيء باعتبار أن فيه نصاً على بعضها، وإحالة لبعضها على السنة، حيث أمر باتباع النبي ﷺ وحثاً على الإجماع، وقال ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(١) وقد اجتهدوا وقاسوا، فكانت السنة، والإجماع، والقياس

(١) الحديث أخرجه رُزَيْن، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، ونسبه لابن عساكر، =

مستنداً إلى تبيان الكتاب، ولم يضر ما في البعض من الخفاء في كونه تبياناً، فإن المبالغة باعتبار الكمية، دون الكيفية ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ للعالمين، فإن حرمان الكفرة من مغنم آثاره، من تفریطهم لا من جهة الكتاب ﴿وَيُثَرِّىَ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة لأنهم المنتفعون بذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ﴾ فيما نزل به تبياناً لكل شيء ﴿بِالْعَدْلِ﴾ بمراعاة التوسط بين طرفي الإفراط، والتفريط، وهو رأس الفضائل كلها، ويندرج تحتها فضيلة الاعتقاد كالتوحيد، المتوسط بين التعطيل والتشريك، وفضيلة الأخلاق كالجود المتوسط بين البخل، والتبذير، والشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن، وفضيلة العمل كأداء الواجبات المتوسطة بين البطالة والترهب، فظهر بهذه الأمثلة أن العدل واجب الرعاية في جميع الأمور^(١)، ومن الكلمات المشهورة «بالعدل قامت السماوات والأرض» والعدل في الحقوق بالتسوية في الخصومة، وترك الظلم، وإيصال كل ذي حق إلى حقه ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ الإتيان بما أمر به على الوجه اللائق، وهو ما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل، أو بحسب الكيفية كما يشير إليه، قول النبي ﷺ: «الإحسانُ: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإن الله يراك» والإحسان في المكافأة أن تحسن إلى من أساء إليك، ومن الإحسان الشفقة

= ورواه ابن عبد البر في جامع العلم ٩/٢ ولا يخلو إسناده من ضعف، وانظر الروايات في جامع الأصول ٥٥٦/٨.

(١) العدل بين العبد وبين الله: إثبات حق الله على حق نفسه، بملازمة جميع الأوامر، والاجتناب عما نهى الله عنه، والعدل بينه وبين نفسه: منعها مما فيه هلاكها وإذلالها والعدل بينه وبين الخلق: بذل النصيحة إليهم وترك الخيانة معهم.

على خلق الله^(١) وأجلها صلة الرحم، ولذا أفرد بالذكر، فقال: ﴿وَلِيَتَّيَّ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وهو تخصيص بعد التعميم اهتماماً بشأنه ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ عن الإفراط في متابعة القوة الشهوانية، كالزنا فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها، وقيل: الفحشاء ما قبح من الفعل، والقول، فبدخل فيه جميع الأفعال القبيحة، والأقوال المذمومة ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما ينكر شرعاً وعقلاً على متعاطيه في إثارة القوة الغضبية ﴿وَالْبَغْيِ﴾ الاستعلاء والاستيلاء على الناس، والتجبر عليهم، وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية، التي هي حاصلة من القوتين: الشهوانية، والغضبية، وليس في البشر شر، إلا وهو مندرج في هذه الأقسام الثلاثة، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هي أجمع آية في القرآن، للخير والشر، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة، لكفت في كونه تبياناً لكل شيء»^(٢) ﴿يَعْظُمُ﴾ بما يأمر وينهى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ طلباً لأن تتعظوا بذلك.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي بكل أمرٍ يجب الوفاء به، من مبايعة للرسول ﷺ أو عهدٍ قطعه على نفسه، وسائر ما يلتزمه الإنسان باختياره ﴿إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ أي حافظوا على حدود ما عاهدتم الله تعالى، وبايعتم به رسول الله ﷺ ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ التي تحلفون بها عند المعاهدة، أو مطلق الأيمان، ونخص الأيمان بالذكر، تنبيهاً على أنه أولى أنواع العهد

(١) روى مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن المقسطين عند الله، على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم وما ولوا».

(٢) أقول: ولهذا يقرأها كل خطيب على المنبر في صلاة الجمعة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ لتكون عظة جامعة للناس كلهم.

بوجوب الرعاية ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها باسم الله عز وجل، وإنما قال: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ للفرق بين الأيمان المؤكدة بالعزم أو بالعقد، وبين اليمين اللغو، يقال في اللغة أكَّد، ووَكَّد، لغتان فصيحتان ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي شاهداً ورقياً، والواو للحال، أي لا تنقضوها وقد جعلتم الله كفيلاً، بسبب ذلك الحلف، فإن الكفيل مراع، ومراقب لحال المكفول به، ومهيمن عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من نقض الأيمان والعهود، فيجازي على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ عامٌ دخله التخصيص، لقوله ﷺ: «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، ثم ليكفر عن يمينه»^(١) ففيه ترغيب وترهيب، والمراد فيجازيكم على ما تفعلون.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيَبْئِنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا﴾ أي ما غزلته، مصدر بمعنى المفعول أي مغزولها ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي من بعد إحكام وإبرام ﴿أَنْكَا﴾ أي أنقاضاً، والمراد تقبيح حال الناقض، بتشبيهه بمن هذا شأنه، وقيل هي امرأة حمقاء اتخذت مغزلاً فكانت تغزل هي وجواربها، من الصباح إلى الظهر، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن، فكان هذا دأبها، وقد ضربه الله مثلاً لكل ناكث للعهد، ومخلف للوعد ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ حال من الضمير أي ولا تكونوا مشابهين لامرأة شأنها هذا، حال كونكم متخذين

(١) الحديث أخرجه الشيخان.

أيمانكم حيلة ومفسدة بينكم، وأصل الدَّخْل، ما يدخل الشيء على سبيل الإفساد ما لم يكن منه، وقيل: الدَّخْل أن يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه ﴿أَنْ تَكُونُ﴾ أي لأن تكون ﴿أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى﴾ أي أزيد عدداً، وأوفر مالاً. هذا والزيادة قد تكون في العدد، أو في القوة، أو بالشرف ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ من جماعة أخرى، أي لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقتلهم، أو لقوة عدوكم، وضعف حلفائكم، وهذا نهى لمن يحالف قوماً، فإن وجد أكثر منهم ترك العهد مع من حالفه، كقريش فإنهم كانوا إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم، نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم ﴿إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ يَهُ﴾ أي يختبركم بكونكم أربى، لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله، وبيعة رسوله، أم تغتروا بكثرتكم، وقلة المؤمنين وضعفهم؟ ﴿وَلَيَبْلُغَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ حين يجازيكم بأعمالكم، فيتميز المحق من المبطل.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ مشيئة قسِرٍ والهاء ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقة على الإسلام ﴿وَلَكِنْ﴾ لا يشاء ذلك لكونه مخالفاً لقضية الحكمة بل ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ إضلاله، حسبما يصرف اختياره ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته حسبما يصرف اختياره إلى تحصيلها ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ﴾ جميعاً يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، وهذا إشارة إلى الكسب الذي عليه يدور أمر الهداية والضلال.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَزَلَ قدمُ بَعْدُ ثبُوتِهَا وَتَذَوُّوا السُّوءَ بِمَا صَدَدَتْكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ تصريح بالنهاي عنه بعد التضمين، تأكيداً ومبالغة في قبح المنهي عنه، أي لا تتخذوا أيمانكم مكرراً وغدراً، وتجعلوها خديعة تغفرون بها الناس، لتحصلوا على بعض منافع الدنيا، قال المفسرون: هذا النهي للذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، لأن الوعيد الذي بعده وهو قوله تعالى ﴿فَتَزَلْ قَدَمُ بَعْدِ ثُبُوتِهَا﴾ لا يليق بنقض غيره أي فتزل عن محجة الحق، بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها بالإيمان، وهذا مثلٌ يُذكر لكل من وقع في بلاء ومحنة، بعد عافية ونعمة، أو سقط في ورطة بعد سلامة^(١) ﴿وَتَذُقُوا السُّوءَ﴾ أي العذاب الدنيوي ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ﴾ أو بصد غيركم لأن من نقض العهد سن سنة سيئة لغيرهم لأمد ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذي ينتظم الوفاء بالعهود والأيمان ﴿وَلَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ذلك الجزاء الذي تدوقونه عقاب شديد.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى وبيعة رسوله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً يريد عرض الدنيا، وهو ما كانت كفرة قريش، يعدون من حطام الدنيا ضعفاء المسلمين، ويشترطون عليهم الارتداد ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من النصر، والتغني، والثواب في الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما يعدونكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم والتمييز وهو تعليل للنهي على طريقة التحقيق.

(١) قال الحافظ ابن كثير ٣٤٥/٢: هذا مثلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحائثة، المشتملة عن الصّدِّ عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام ولهذا قال: ﴿وَتَذُقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٦)

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ﴾ تعليل للخيرية، أي ما تتمتعون به من نِعَم الدنيا - وإن جُلَّ وكثُرَ - ينفدُ ويفنى ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من خزائن رحمته الدنيوية والأخروية ﴿ بَاقٍ ﴾ أي لا نفاد له، أما الأخروية فظاهرة، وأما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالأخروية، فقد انتظمت في سبط الباقيات الصالحات، والآية دليل على أن نعيم الجنة باقٍ وخالد، لا كما زعم بعض الفلاسفة أنه منقطع ﴿ وَلَنَجْزِيَنَ ﴾ بنون العظمة تكرير للوعد المستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ على نهج التوكيد القسمي، مبالغة في الحمل على الثبات في الدين، أي والله لنجزين ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على أذى الكفار، وعلى مشاق التكليف، التي من جملتها الوفاء بالعهود ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ أي لنعطينهم أجرهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي بما كانوا يعملونه من الصبر المذكور، وإنما أضيف إليه «أحسن» للإشعار لكمال حسنه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ (١) لا لإفادة قصر الجزاء، على الأحسن منه دون الحسن، على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم، نعطيهِ الفرد الأعلى منها.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٧)

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي عمل كان، وهو ما كان لوجه الله ورضاه، ليس فيه هوى ورياء ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ ﴾ بيّنه بالتوعين، دفعاً للتخصيص، ومبالغة في بيان شموله لكل ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ قيّده به إذ لا اعتداد بأعمال

(١) سورة آل عمران، آية: ١٤٨.

الكفرة في استحقاق الثواب لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(١) وإنما المتوقع تخفيف العذاب، وتدلل هذه الآية الكريمة، أن الإيمان مغايرٌ للعمل الصالح، لأنه تعالى جعل الإيمان شرطاً، في كون العمل الصالح موجباً للثواب، وشرطُ الشيء مغايرٌ لذلك الشيء ﴿فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا، يعيش عيشاً طيباً، أما إن كان موسراً فظاهر، وأما إن كان معسراً فيطيب عيشه بالقناعة، والرضا بالقسمة، وتوقع الأجر العظيم، كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله، بخلاف الفاجر فإنه إن كان معسراً فهو التعيس، وإن كان موسراً فلا يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهاى بعيشه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ حسبما نفعل بالصابرين، ونعطيهم الأجر الوافي على أحسن الأعمال، مع التجاوز عن السيئات.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي إذا أردت قراءته، وهو من إطلاق اسم المسبب على السبب ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي فاسأله أن يُعِيذك ويجيرك ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ من وساوسه كيلا يوسوس لك عند القراءة، وتخصيص قراءة القرآن، من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة للتنبيه على أهمية القرآن وعظم شأنه، ليستنير بنور القرآن، ويدفع عنه وساوس الشيطان^(٢)، والأمر للندب، وهذا مذهب الجمهور وعند بعضهم للوجوب، وظاهر الآية يدل

(١) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

(٢) هذا هو الهدف من الاستعاذة، أن يدفع القارئ عن نفسه، وساوس الشيطان وهواجسه، ويصفو قلبه عند تلاوة القرآن، فيستنير بنور ضيائه، ويدرك معانيه وأسراره، دون أن يعيث الشيطان بروحه وقلبه، ولهذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يستعِذ في بعض الأحيان بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من نفخه، ونفثه، وهَمْزِهِ» حمانا الله من شر إبليس اللعين!

على أن الاستعاذة بعد القراءة لأن الفاء للتعقيب، ومذهب الجمهور من الصحابة والتابعين على خلافه، فقد اتفقوا على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة، وعن ابن مسعود قال: «قرأت على الرسول ﷺ فقلت: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال ﷺ قل: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» هكذا أقرأني جبريل عليه السلام عن اللوح المحفوظ».

﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١١).

﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَكُمْ﴾ أي للشيطان ﴿سُلْطَنٌ﴾ تسلط وولاية ﴿عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي إليه يفوضون أمرهم، وبه يعوذون في ما يأتون وما يذرون، فإن وسوسته لا تؤثر فيهم، إلا على غفلة، ولذلك أمروا بالاستعاذة.

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (١٢).

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ أي تسلطه وولايته، بدعوته المستتعبة للاستجابة، لا سلطانه بالقسر أو الإلجاء، فإنه منتف عن الفريقين ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي يتخذونه ولياً، ويستجيبون لدعوته ويطيعونه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي بسبب الشيطان مشركون بالله، إذ هو الذي حملهم على الإشراك، وقصر سلطانه عليهم دليل على أن لا واسطة في الخارج، بين التوكل على الله وبين تولي الشيطان، وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم في سلك من يتولى الشيطان، من حيث لا يحتسب، ففيه مبالغة في الحمل على التوكل، والتحذير عن مقابله.

﴿وَإِذَا بَدَأْنَا ءَايَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣).

﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ أي إذا أنزلنا آية من القرآن، مكان آية منه، بأن ننسخها بها ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ﴾ أولاً وآخرأ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، فإن كل وقت مقتضى غير مقتضى الآخر، فكم من مصلحة في وقت تنقلب في وقت آخر مفسدة، الانقلاب الداعية إلى ذلك، وما الشرائع إلا مصالح للعباد، في المعاش والمعاد، تدور حسبما تدور المصالح، كما أن الطبيب يأمر المريض بشربة، ثم بعد مدة ينهأ عنها ويأمره بضدها^(١) ﴿قَالُوا﴾ أي الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ متقول على الله، تأمر بشيء ثم يبدو لك غيره فتنهى عنه، وقد كان المشركون يقولون: إن محمداً يأمر بأمر اليوم، وينهى عنه غداً، ويأتي بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق، وحكاية هذا القول للكفرة ناشئة من نزغات الشيطان ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن في النسخ حكماً بالغة، وإسناده إلى الأكثر لما أن فيهم من يعلم ذلك، وإنما ينكره عناداً.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ أي القرآن ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي جبريل عليه السلام، أي الروح المطهر من أدناس البشرية ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ من عنده تعالى ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي ملاسماً بالحق الثابت الموافق للحكمة ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ على الإيمان بأنه كلامه تعالى، فإنهم إذا سمعوا الناسخ، وتدبروا ما فيه من

(١) مثل آيات الذكر الحكيم، كمثل الدواء يُعطى منه للمريض جرعات، حتى يماثل به إلى الشفاء، ثم يستبدل به الغذاء، فيعطيه ما يناسبه من الأطعمة، ويمنعه من بعض منها، مراعاة لظروفه الصحية، كذلك كان القرآن يتنزل ببعض الأحكام ثم ينسخها بما هو ملائم لظهور الزمن.

رعاية المصالح، رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم ﴿وَهْدَىٰ وَشَرَّكَ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ كان كفار مكة يقولون: إنه أي محمد ﷺ يستفيد هذه الكلمات من إنسان آخر ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يعنون بذلك «جبر الرومي» كان يصنع السيوف بمكة، ويقرأ التوراة والإنجيل وكان ﷺ يمر عليه ويسمع ما يقرأه ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي لغة الرجل الذي يميلون ويشيرون إليه أعجمي، والعجمي: هو الذي لا يفصح في كلامه ﴿وَهَذَا﴾ أي القرآن الكريم ﴿لِّسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ذو بيان وفصاحة، والقرآن معجز بنظمه، كما أنه معجز بمعناه، فإن زعمتم أن بشراً يعلمه معناه، فكيف يعلمه هذا النظم الذي أعجز جميع أهل الدنيا؟ والنشبت بأذيال هذه الخرافات، دليل على كمال عجزهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا يصدقون أنها من عند الله، ويقولون فيها ما يقولون، يسمونها تارة افتراء، وتارة أساطير، وأخرى معلّمة من البشر ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى الحق، وإلى سبيل النجاة لسوء حالهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، وهذا تهديد ووعد لهم.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الآية ردُّ لقولهم: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ ردُّ وَقَلَبَ الأَمْرَ عَلَيْهِمْ، ببيان أنهم هم المفترون، فالمفتري هو الذي يُكَذِّبُ بآيات الله، ويقول: إنه افتراء من صنع البشر، وكلمة «إنما» للحصر، والمعنى: إن الكذب والفرية، لا يقدم عليهما إلا من كان غير مؤمن بآيات الله، لأنه لا يترقَّب عقاباً عليه، ليرتدع عنه، وأما من يؤمن بها، فإنه يخاف من العقاب، فلا يصدر عنه تكذيب وافتراء، وهذا تهديدٌ لهم ووعيد، روي أن النبي ﷺ قيل له: هل يكذب المؤمن؟ قال: لا، ثم قرأ الآية: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿ على الحقيقة، والكاملون في الكذب، إذ لا كذب أعظم من تكذيب آيات الله تعالى ١١.﴾

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَئِن مِّن شَرٍّ بِالكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْتِهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ ﴾ تَلَفُظٌ بِالْفَاظِ الكُفْرِ ﴿ مِّن بَعْدِ إيمَانِهِ ﴾ ابتداء كلام لبيان حال من كفر بآيات الله بعد إيمانه، وحُذِفَ جوابه كأنه قيل: من كفر بالله بعد إيمانه فعليه غضبُ الله ﴿ إِلَّا مَن أَكْرَهَ ﴾ على ذلك بأمر يخاف على نفسه، أو على عضوٍ من أعضائه ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ أي إلا من أكره فكفر والحال أن قلبه مطمئنٌ بالإيمان، ولم تتغير عقيدته، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب، رُوي أن كفرة قريش، أكرهوا عماراً وأبويه على الارتداد، فأباه أبواه فقتلوهما، وهما أول شهيدين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهه عليه، فقيل يا رسول الله: إن عماراً كفر، فقال ﷺ: «كلا إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال: ما

لك؟ إن عادوا لك فعد لهم بما قلت^(١). وفي هذا دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر، عند الإكراه الملجئ، وإن كان الأفضل أن يجتنب عنه، إعزازاً للدين، كما فعل أبواه ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي اعتقده وطاب به صدرًا ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم كائن ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم جرمهم حيث كفروا بعد الإيمان.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الوعيد المذكور ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي آثروها ﴿عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ إلى الإيمان، وإلى ما يوجب الثبات عليه، هداية قسر وإلجاء ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ما داموا مختارين الكفر، فلا يعصمهم عن الزيغ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي الموصوفون بما ذكر ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ فلا يتدبرون ولا يلتفتون إلى المواعظ، ولا يبصرون طريق الرشاد ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أي الكاملون في الغفلة، إذ لا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر العاقبة.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ٤٦٦/١ المختصر، وهي رواية عن ابن عباس، وقد ذكر أن أمه «سُمَيَّة» أول شهيدة في الإسلام، قتلها أبو جهل اللعين، وانظر مختصر ابن كثير ٣٤٨/٢.

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴾ .

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴾ أي حقاً إنهم الخاسرون، إذ ضيعوا أعمارهم، وصرفوها إلى ما يفضي إلى العذاب المخلد، ورأسُ مال الآخرة الإيمان، ومن ضيَّع رأس ماله فهو خاسر.

﴿ ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّنَا لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّنَا لِلَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ إلى دار الإسلام، وهم عمار وصحبه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ أي عذبوا على الارتداد، وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالإيمان ﴿ ثُمَّ جَاهَدُوا ﴾ في سبيل الله ﴿ وَصَبَرُوا ﴾ على مشاق الجهاد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد المهاجرة والمجاهدة ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لما فعل من قبل ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ ينعم عليهم مجازاة لهم على ما صنعوا وتحملوا في سبيل الإسلام.

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِلٍ عَنِ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

﴿ يَوْمَ تَأْتِي ﴾ أي يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِلٍ عَنِ نَفْسِهَا ﴾ أي عن ذاتها تسعى في خلاصها لا يهتئها شأن غيرها، فتقول: نفسي، نفسي، كقوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ ﴿ وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أي تعطى وافيّاً كاملاً ﴿ بِمَا عَمِلَتْ ﴾ جزاء ما عملت ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي لا ينقصون من أجورهم، ولا يزداد في عقابهم.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١١٦).

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي مثل لأهل مكة بقصة قرية كفرت نعمة الله، وجعلها مثلاً لأهل مكة خاصة، لأنهم كانوا في الأمن، والطمأنينة، والخصب، ثم أنعم الله تعالى عليهم بالنعمة العظمى، وهو بعثته ﷺ فكفروا به، وبالغوا في إيذائه، فلا جرم سلط الله عليهم البلاء، وعذبهم بالجوع سبع سنين، حتى أكلوا الجيف، فعذبهم الله بعذاب الدنيا لكفرهم النعم، والآية عامة لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا، فبدل الله نعمتهم بالنقمة ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ أي ذات أمن من كل مخوف، لا يُغار عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ والأمر في مكة كان كذلك، لأن العرب كان يغير بعضهم على بعض، وأما أهل مكة فقد كانوا يحترمونهم، ويخصّونهم بالتعظيم ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾ أي لا يزعج أهلها مزعج، فهم في أمن واطمئنان، ورفاهية وسعادة، الهواء عليل، والصحة وافرة، وكما قيل: ثلاثة ليس لها نهاية: الأمن والصحة والكفاية ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتها والخيرات والأرزاق بسعة وكثرة، وورد النص بصيغة المضارع ﴿يَأْتِيهَا﴾ لأن رزقها متجدد، وكونها آمنة ومطمئنة مستمر ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها لإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام، وهو قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾^(١) ﴿فَكَفَرَتْ﴾ أي أهلها ﴿بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ نعم الأمن والرزق، وإيثار جمع القلة ﴿أَنْعُمُ﴾ للإيذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة؟ ﴿فَأَذَاقَهَا

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

الله ﴿ أَي أذاق أهلها ﴾ ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ شبه أثر الجوع والخوف، والضرر المحيط بهم، باللباس المحيط باللباس فاستعير له لفظ الإذاقة على طريق الاستعارة المكنية، روي أن ابن الرواندي قال لابن الأعرابي: هل يُذاق اللباس؟ قال ابن الأعرابي: لا بأس ولا لباس يا أيها النسّاس، هب أنك تشك أن محمداً ما كان نبياً، أما كان عربياً؟! وكان مقصود ابن الرواندي الطعن في هذه الآية، وهو أن اللباس لا يذاق بل يلبس، فردّ عليه شيخ العربية بأن هذا من أساليب العرب البليغة، وهو من أبلغ الكلام وأفصحها، كما قال الشاعر:

فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

والموت ليس طعاماً حتى يشعر الإنسان بطعمه ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ من الكفر والجحود على وجه الاستمرار بحيث صار كفران النعمة كأنه صنعة لهم.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ﴾ من تنمة المثل أي ولقد جاء أهل تلك القرية ﴿ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي من جنسهم وقومهم، يعرفونه بأصله ونسبه، فأنذرهم سوء العاقبة ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ في رسالته، وفيما أخبرهم به ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ المستأصل لشافتهم بعد ما ذاقوا نبذة منه ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أي حال التباسهم بما هم عليه من الظلم، الذي هو كفران النعمة، وتكذيب

(١) ابن الرواندي هذا كان معروفاً بميله إلى الإلحاد، وفي قلبه ظلمة الشك والضلال، ولهذا ردّ عليه شيخ العربية ابن الأعرابي بهذا الجواب الشديد، الذي فيه غلظة وجفاء.

رسوله، وفيه دلالة على تماديهم في الكفر والعناد، وبه يتم التمثيل، فإن حال أهل مكة - سواء ضرب المثل لهم خاصة، أو لمن سار سيرتهم كافة - مشابهة لحال أهل تلك القرية، من غير تفاوت بينهما، كيف لا، وقد كانوا في حرم آمن، ويتخطف الناس من حولهم، وما يمر ببالهم طيف من الخوف، وكانت تجيء إليهم ثمرات كل شيء، ولقد جاءهم رسول منهم، فكفروا بأنعم الله، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف، حيث أصابهم ما أصابهم، وقد ضاقت عليهم الأرض، بما أصابهم من الجذب، حتى استجدوا برسول الله ﷺ لكشف الضر عنهم، فلما فرّج الله عنهم الكربة، عادوا إلى الكفر والضلال.

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١١٥).

﴿ فَكُلُوا ﴾ مفرّع على نتيجة التمثيل، وتحذير لهم عما يؤدي إلى مثل عاقبته، والمعنى: وقد استبان لكم حال من كفر بأنعم الله تعالى، وتكذيب الرسول، وما حلّ بهم بسبب ذلك، فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعمة، وتكذيب الرسول، كيلا يحلّ بكم مثل ما حلّ بهم، واعرفوا حق نعم الله، وأطيعوا رسوله، وكلوا ﴿ وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ حال كونه ﴿ حَلَلًا طَيِّبًا ﴾ وذروا ما تفترون من تحريم البحائر ونحوها ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ ولا تقابلوها بالكفران ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي تطيعون، إن صحّ زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة، عبادته تعالى !!.

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبُ السِّنُّكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُقْلِحُونَ (١١٦) مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧).

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴾ أي إنما حرم الله عليكم هذه الأشياء الضارة كالميتة، والدم ولحم الخنزير... الخ.

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ أي لا تقولوا الكذب في شأن ما تصفه ألسنتكم، من البهائم بالحل والحرم، فتحللوا وتحرموا من تلقاء أنفسكم، من غير دليل ولا برهان، وتقولوا ﴿ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ وكان العرب في الجاهلية، يحلون أشياء، ويحرمون أشياء من عند أنفسهم، وينسبون ذلك إلى الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ من فصيح الكلام وبليغه، كأن ماهية الكذب، وحقيقته مجهولة، وكلامهم يكشف حقيقته للناس ويعرفه، كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر ﴿ لِفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ فإن مدار الحل والحرم، ليس إلا بأمر الله تعالى، من غير دخل لأحد في التخليل أو التحريم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ في أمر من الأمور ﴿ لَا يَفْلِحُونَ ﴾ أي لا يفوزون بمطالبهم.

﴿ مَتَّعَ قَلِيلٌ ﴾ أي منفعتهم فيما هم عليه، منفعة قليلة ﴿ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي لهم عذاب مؤلم موجه في الآخرة.

لما حصر تعالى المحرمات، بالغ في تأكيد ذلك الحصر بهذه الآية.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ﴾ خاصة دون غيرهم ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ في سورة الأنعام ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بذلك التحريم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا به، وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم، وأن التحريم كما يكون للمضرة، يكون للعقوبة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٩).

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي بسبب جهالة، ليعمّ الجهل بالله وبعقابه^(١)، وعدم التدبر في العواقب، لأنّ السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح، وكل من يفعله إنما يفعله بجهالة، لأن العاقل لا يرضى بفعل القبيح، والجاهل إنما يفعل القبيح للذة الهوى، لا لعصيان المولى ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعدما عملوا، والتصريح به للتأكيد والمبالغة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السوء ﴿رَحِيمٌ﴾ يثيب على طاعته، وتكرار ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ لتأكيد الوعد.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠).

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ على انفراده، لحيازته من الفضائل البشرية، ما لا تكاد توجد إلا متفرقة في أمة جمّة، حسبما قيل:

وليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم في واحد
وهو رئيس أهل التوحيد، وقدوة أصحاب التحقيق، جادل أهل الشرك بينات باهرة، وأبطل مذاهبهم بالبراهين القاطعة، وإيراد ذكره عليه السلام، عقيب تزييف مذاهب المشركين، لأنهم يعترفون به وبحسن طريقته، ليصير حاملاً لهؤلاء على الإقرار بالتوحيد، والرجوع عن الشرك ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ مطيعاً له، قائماً بأمره ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في أمر من أمور الدين، صرّح بذلك مع ظهوره،

(١) الجهل أقبح من الخطأ وفوق الخطأ، فالمجتهد إذا أخطأ لا يسمى جاهلاً، ومن يفعل القبيح فهو الجاهل، الذي يستحق العقاب، ولهذا جاء اللفظ في الآية: ﴿عملوا السوء بجهالة﴾ ولم يقل بخطأ، فتدبر دقائق التعبير القرآني.

ليردّ على كفار قريش في قولهم نحن على ملة أبينا إبراهيم، وعلى اليهود في زعمهم أن إبراهيم كان يهودياً لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

﴿شَاكِرًا لِّلنَّعْمَةِ الَّتِي آتَيْنَاهُ وَهَدَانَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

﴿شَاكِرًا لِّلنَّعْمَةِ﴾ أوثر صيغة جمع القلة، للإيذان بأنه عليه السلام لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة ﴿آتَيْنَاهُ﴾ للنبوة ﴿وَهَدَانَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصل إليه سبحانه، وهو دين الإسلام.

﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمَنَّ الصَّالِحِينَ﴾

﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي حالة حسنة جعلنا له الذكر الجميل في الدنيا، والثناء بين الناس، حتى إنه ليس من أهل دين، إلاّ وهم يحترمونه ويجلّونه ﴿وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمَنَّ الصَّالِحِينَ﴾ أي من أصحاب الدرجات العالية في الجنة.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ مع علو طبقتك، وسموّ رتبتك، وفي «ثُمَّ» تعظيم منزلة نبينا ﷺ، والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله عليه السلام من الكرامة، اتباع رسولنا ملته ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ والمراد بملته الإسلام، الذي عبر عنها آنفاً بالصراط المستقيم، والمأمور به الاتباع في الأصول، دون الشرائع المتبدلة بتبدل الأعصار، ويحتمل أن تكون المتابعة، في كيفية

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٧.

الدعوة إلى التوحيد، وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة، وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ معناه أنه كان من الموحدين في الصغر والكبر، وفيه تعريض بإشراك اليهود والنصارى.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ أي فرض تعظيمه، والتخلي فيه للعبادة، وترك الصيد فيه، وهذا تحقيق لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فإن اليهود كانوا يدعون أن السبت من شعائر الإسلام، وأن إبراهيم عليه السلام كان محافظاً عليه، أي ليس السبت من شعائر شريعة إبراهيم، التي أمرت باتباعها، وإنما شرع ذلك لبني إسرائيل بعد مدة طويلة ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ روي أن موسى عليه السلام أمر اليهود أن يجعلوا في الأسبوع يوماً واحداً للعبادة، وأن يكون ذلك اليوم يوم الجمعة، فأبوا عليه، وقالوا: نريد السبت، فأذن لهم في السبت، وابتلاهم الله بتحريم الصيد فيه، فاصطادوا فيه، فمسخهم الله قردة وخنازير، فاختلافهم في السبت، كان اختلافاً على نبيهم، لأن اليهود طيبتهم التمرد والعصيان ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين المختلفين فيه ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كل فريق، بما يستحقه من الثواب والعقاب.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿ادْعُ﴾ أي ادع يا محمد الناس إلى دين الله، وشريعته القدسية ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي إلى الإسلام الذي عبر عنه بالصراط المستقيم

﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ أي بالمقالة المحكمة الصحيحة، وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾ أي بالأسلوب المقنع، والعبر النافعة، بما يؤثر فيهم وينجع، لا بالقسوة والشدة ﴿وَحَدِّدْ لَهُمُ الْآتِيَ هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة، من الرفق واللين، واختيار الوجه الأيسر، واستعمال المقدمات المشهورة تسكيناً لشغبيهم، وإطفاءً لלהيهم، كما فعله إبراهيم الخليل عليه السلام، فقصر الدعوة على هذين القسمين، وأما الجدل فليس من باب الدعوة، بل الغرض منه إلزام الخصم، ولذا قُطِعَ الجدلُ عن باب الدعوة ﴿إِنَّ رَيْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي هو العالم بحال الضالين وحال المهتدين ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي ما عليك إلا ما ذكر من الدعوة، والمجادلة، وأما حصول الهداية والضلال، بموجب استعدادة المكتسب فالى الله سبحانه، إذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال، وبمن يهتدي إليه، وبعدما أمره ﷺ فيما يختص به من شأن الدعوة، عقبه بخطاب يعمُّ الكمال فقال تقدست أسماؤه:

﴿وَلِنْ عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾

﴿وَلِنْ عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبُوا﴾ أي إن أردتم المعاقبة، على طريقة قول الطيب: «إِنْ أَكَلْتَ فَكُلْ قَلِيلاً» فعاقبوا ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾^(١) أي بمثل ما فعل بكم، عبّر عنه بالعقاب، على طريقة «كما تدين تدان» والمقصود إيجابُ مراعاة العدل، فإن الدعوة المأمور بها لا تنفك عن ذلك ﴿وَلِنْ

(١) نزلت هذه الآية تسلياً للنبي ﷺ حين قُتِلَ عمه حمزة رضي الله عنه، فلما رأى رسول الله ﷺ ما مثل المشركون به، حيث شقوا بطنه، وأخذوا كبده، وقطعوا أنفه، ومثلوا به ويسائر قتلى المسلمين تمثيلاً شنيعاً، قال ﷺ: «أَمَا وَاللَّهِ لئن أظفرنِّي الله بهم لأمثلنَّ بسبعين مكانك...» فنزلت الآية، وانظر كامل القصة في تفسير تنوير الأذهان من روح البيان بتحقيقنا ٣٢٧/٢.

صَبْرْتُمْ ﴿ عَنْ الْمَعَاقِبَةِ بِالْمَثَلِ ﴿لَهُوَ﴾ أَي لَصَبْرِكُمْ ذَلِكَ ﴿خَيْرٌ﴾ لَكُمْ مِنَ الْإِنْتِصَارِ بِالْمَعَاقِبَةِ، وَإِنَّمَا قِيلَ: ﴿لِلصَّابِرِينَ﴾ مَدْحاً لَهُمْ ثُمَّ أُمِرَ ﷺ صَرِيحاً بِمَا تُدْبِإِلَيْهِ غَيْرُهُ، لِأَنَّهُ أَوْلَى النَّاسِ بِعِظَائِمِ الْأُمُورِ، لَزِيَادَةِ عِلْمِهِ ﷺ بِشُؤُونِهِ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ جَلِ ثَنَاؤُهُ:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٧١﴾.

﴿وَأَصْبِرْ﴾ أَي عَلَى مَا أَصَابَكَ مِنْ فِتْنِ الْآلَامِ ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أَي وَمَا صَبْرُكَ عَلَى الشَّدَائِدِ وَالْمَكَارِهِ، إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ وَبِتَوْفِيقِهِ وَتَشْيِئِهِ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَي عَلَى الْكَافِرِينَ بِوُقُوعِ الْيَأْسِ مِنْ إِيْمَانِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أَي فِي ضَيْقِ صَدْرٍ، بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ، وَهُمَا لُغَتَانِ أَي لَا يَضِقُ صَدْرُكَ بِمَكْرِهِمْ، وَبِمَا يَقُولُونَهُ مِنْ السُّفْهِ وَالْجَهْلِ، وَالْفَائِدَةُ فِي هَذَا التَّعْبِيرِ، هِيَ أَنَّ الضَّيْقَ إِذَا عَظُمَ وَقَوِيَ، صَارَ كَالشَّيْءِ الْمَحِيطِ بِهِ، فَذَكَرَ هَذَا اللَّفْظَ بِهَذَا الْمَعْنَى ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أَي مِنْ مَكْرِهِمْ بِكَ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ، فَالْأَوَّلُ نَهْيٌ عَنِ التَّأَلُّمِ بِمَطْلُوبِ فَاتٍ، وَالثَّانِي نَهْيٌ عَنِ التَّأَلُّمِ بِمَحْذُورٍ مِنْ جِهَتِهِمْ آتٍ، وَهُمَا مِنْ لَوَازِمِ الصَّبْرِ، لَزِيَادَةِ التَّأَكِيدِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ تَعْلِيلٌ لِمَا سَبَقَ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْمُرَادُ بِالْمَعِيَةِ الْوِلَايَةِ الدَّائِمَةِ، لَا يَحُومُ حَوْلَ صَاحِبِهَا شَائِبَةٌ شَيْءٍ، مِنْ الْجَزَعِ وَالْحُزَنِ، وَضَيْقِ الصَّدْرِ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَقَدْ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ كِلَا مِنَ الصَّبْرِ، وَالتَّقْوَى، مِنْ قَبِيلِ الْإِحْسَانِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ

تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١) قيل لهزم ابن حيّان عند القرب من الوفاة: أوص، فقال: إنما الوصية من المال، ولا مال لي، ولكنني أوصيكم بخواتيم سورة النحل.

الحق عزيز، والطريق بعيد، والمركب ضعيف، والحقائق مصونة، والأسرار فيما وراء الغيب مخزونة، وبيد الخلق القليل والقال، والكمال ليس إلا لله ذي الكرم والجلال، سبحان ربنا رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل خلقه وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النحل»

(١) سورة يوسف، آية: ٩٠.

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى﴾ سبحان اسم للتسبيح ومعناه: تنزيه الله تعالى من كل نقص وسوء، وتصدير الكلام به، للتنزيه عن العجز عما ذكر بعده، والإسراء معناه السفر ليلاً، وهو ثابت بهذا النظم الكريم، ومفصل بالأحاديث النبوية الصحيحة، وذلك يعطيه قوة اليقين، ومنكر الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كافراً، لأنه أنكر القرآن الكريم، وإنكار المعراج فسق ﴿بِعَبْدِهِ﴾ أجمع المفسرون والعلماء على أن المراد بعبد رسول الله ﷺ ولم يختلف أحد من علماء الأمة في ذلك، وإيثار لفظ «العبد» للإيذان بتمحضه ﷺ في عبادته سبحانه وتعالى، وبلوغه في ذلك غاية الغايات، حسبما يلوح به مبدأ الإسراء ومنتهاه ﴿لَيْلًا﴾ قيده بالليل - والإسراء لا يكون إلا بالليل - للتأكيد، وليدل التنكير على تقليل مدة الإسراء، وأنه تعالى أسرى به في بعض الليل لا في كله ^(١) ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ

(١) إنما ورد اللفظ ﴿لَيْلًا﴾ بالظرف ليفيد أنه كان في جزء وطائفة من الليل، ولو قال أسرى بعبد الليل لأفاد جميع الليل، فتنبه لدقائق أسرار القرآن.

الْحَرَامِ ﴿١﴾ اختلف في مبدأ الإسراء، ف قيل: هو المسجد الحرام، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، روي عنه عليه السلام أنه قال: «بينما أنا في المسجد الحرام، في الحجر عند البيت، بين النائم واليقظان، إذ أتاني جبريلُ بالبراق» ^(١) الحديث، وقيل: أُسري به من دار «أم هانئ» بنت أبي طالب» وهذا قول الأكثر، وعلى هذا القول المراد بالمسجد الحرام الحرمُ أي مكة المكرمة، فإنها كلها حرم وكان قبل الهجرة بسنة، وكان بالروح والجسد، لا كما زعم بعضهم أنه كان روحانياً، والحق أنه كان جسمانياً، على ما ينبىء عنه التصدير بكلمة ﴿سُبْحَانَ﴾ المفيدة للتنزيه، وما في ضمنه من التعجب، فإن الإسراء الروحاني ليس في الاستبعاد والاستنكار، وخرق العادة بهذه المثابة، لأن كثيراً من المؤمنين يسيرون بأرواحهم إلى أقاصي الدنيا، ويشاهدون ما فيها من العجائب، فإذا كان الإسراء بالروح فقط فأين الاختصاص والامتياز؟ ولذلك تعجبت منه قريشُ وأحاله وأنكروه، ولو كان بالمنام لما أنكروه، فالأكثر على أنه أُسري بجسده، والأقلون قالوا: أُسري بروحه. وقال أهل التحقيق: إن العبد اسمٌ لمجموع الجسد والروح، وعلى الأول الجمهور، إذ لا فضيلة للحالم، ولا مزية للنائم، وفي هذا الحكم والاختلاف برهان قويٌّ على قوة الدين الإسلامي، الذي لا يأخذ أتباعه إلا بالوضوح والصراحة التامة، وقال طائفة كان الإسراء إلى بيت المقدس بالجسد، وإلى السماء بالروح، محتجين بأن الله تعالى جعل المسجد الأقصى غاية للإسراء، ولو كان زائداً عليه لذكره، وقال النووي: الذي عليه معظم السلف وأكثر المفسرين والمحدثين أن المعراج كان بجسده في يقظته عليه السلام، والمعروف عند الجمهور أن ليلة الإسراء هي السابعة والعشرون من ليالي رجب، في السنة الحادية عشرة من النبوة، وقيل غير هذا، ولا خطر ولا ضرر في تحديد اليوم، فالعبرة في حدوث الشيء لا

(١) انظر تمام الحديث في صحيح البخاري كتاب التفسير ٣٩١/٨ وفي الإسراء من صحيح البخاري.

وقت وقوعه. ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ أي بيت المقدس، سمي به إذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد، ولُبُغْد المسافة ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ بركات الدين والدنيا، لأنه مهبط الوحي، ومتعبد الأنبياء عليهم السلام، وهو محفوف بالأنهار الجارية، والأشجار المثمرة، فدمشق والأردن، وفلسطين من المدن التي حوله، وجُعل الإسراء إلى بيت المقدس، كالتوطئة لمعراجهِ ﷺ وتقريباً للإسراء إلى قبول السامعين، كما سألوا وقالوا: هل تستطيع أن تصف لنا المسجد؟ قال: نعم، فجلى الله له بيت المقدس، فنعته فقالوا: أما النعت فقد أصاب، ومع ذلك كابروا وجحدوا ﴿لِزُيْمٍ﴾ غاية الإسراء ﴿مِنْ أَيْنُنَا﴾ العظيمة التي من جمعتها ذهابه في برهة من الليل، مسيرة شهر، ومشاهدة بيت المقدس، وتمثل الأنبياء له، ووقوفه ﷺ على مقاماتهم العلية، والالتفات إلى التكلم لتعظيم تلك البركات ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقواله ﷺ ودعائه ﴿الْبَصِيرُ﴾ بأفعاله فيكرمه ويقربه بحسب ذلك، وفيه إيماء إلى أن الإسراء ليس إلا لتكريمته ﷺ، ورفع منزلته، وإلاً فالإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة إلى التقريب، والالتفات إلى الغيبة لتربية المهابة.. حكمة الإسراء: كان ﷺ قد ذهب إلى الطائف، يدعو أهلها إلى الإسلام، فما أحسنوا استقباله، بل أسأؤوا إليه، فرجع حزيناً إلى مكة، لوقوف قريش بالمرصاد في طريق رسالته، فكأنما طاف بنفسه وروحه العالية، وكأنما رأى أنه محوط بأعداء الإسلام من كل جانب، مع قلة أنصاره، فكان في حالة لا يمكن التعبير عنها بالقلم، لشدة حرصه على خير العالم، وعظيم شوقه إلى انتشار الإسلام، وحينئذ كان الإسراء والمعراج، ليبشره الله تعالى عملياً بما يزيل من نفسه عوامل الحزن والأسف، فالإسراء بمثابة «مرسوم ملكي» أُعلن فيه الرسول ﷺ ما هو قريب حصوله من إقبال الناس على دين الله، وقد تسلم ﷺ هذا المرسوم الجليل، في حفلة كاملة، حضرها الأنبياء والمرسلون، والملائكة المقربون، وفيها حُكِمَ كثيرة غير هذا.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي
وَكِيلًا﴾.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة، وفيه إيماء إلى دعوته عليه السلام إلى الطور، وما وقع فيه من المناجاة، أي آتيناه بعدما أسرينا به إلى الطور، ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه للرسول ﷺ، وذكر في هذه الآية إكرامه لموسى عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي ذلك الكتاب ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يهتدون بأنواره ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ أي لا تتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ أي ربًّا تكلون إليه أموركم.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا﴾.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نُصِبَ على الاختصاص، يعني قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلًا، يا ذرية من حملنا مع نوح، والمراد تذكيرهم بإنعامه تعالى، في ذكر إنجاء آبائهم من الغرق، في سفينة نوح عليه السلام، فجميع الناس من ذرية من أنجي في السفينة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا﴾ كثير الشكر في حالاته، روي أنه عليه السلام كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس إلا قال: الحمد لله، وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه، ببركة شكره، وحث للذرية على الاقتداء به.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفِيسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَنَّ
عُلُوكَ كَبِيرًا﴾.

﴿وَقَضَيْنَا﴾ أي أعلمناهم وأوحينا إليهم ﴿إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي في التوراة ﴿لُتْفِيسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ المراد بالأرض أرض فلسطين ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ مخالفة لحكم التوراة أي تفسدًا إفساداً عظيماً مرتين، وذلك بسفك

الدماء، وقتل الأنبياء، وقتل زكريا ويحيى، وقصد قتل عيسى عليهم السلام ﴿وَلَعَنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه بالظلم والعدوان، وتفرطن في ذلك مجاوزاً للحدود.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي حان وقت حلول الغضب لأولى المرتين من الإفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي بعثنا عليكم لمؤاخذتكم بجنایاتكم أناساً جبارين للانتقام منكم، ذوي قوة وبطش في الحروب^(١)، والمقصود هو أنهم لما أكثروا الظلم والمعاصي سلط الله عليهم أقواماً قتلوهم وشردوهم ﴿فَجَاسُوا﴾ أي ترددوا في طلبكم وطافوا ﴿خِلَلِ الدِّيَارِ﴾ في أواسطها فقتلوا كبارهم، وسبوا صغارهم، وحرّفوا التوراة، وخرّبوا المسجد، وذلك تولية بعض الظالمين بعضاً، مما جرت به السُّنة الإلهية ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ لا محالة بحيث لا صارف له.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ﴾ أي الدّولة والغلبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على الذين فعلوا بكم ما فعلوا، حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو، وذلك حين

(١) قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما انتهكوا المحارم، وسفكوا الدماء، سلط الله عليهم بختنصر المجوسي ملك بابل، فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفتنهم هو وجنوده، وهذا أول الإفسادين في الأرض، وقضاء الله على بني إسرائيل ليس قضاء قهر وإلزام، وإنما هو إخبار من الله تعالى بما سيكون منهم، حسب علمه الأزلي سبحانه وتعالى منهم، فهو قضاء علم بما سيحدث، فتنبه والله يردك!.

قتل داود عليه السلام جالوت ﴿وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ﴾ كثيرة بعدما نُهبت أموالكم ﴿وَبَيْنَيتُ﴾ بعدما سُبيت أولادكم ﴿وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي جعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم، والنفيرُ من ينفر مع الرجل لنصرته، جمع نفر، وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا أَجُورَهُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مِمَّا عَصَوْا نَبِيرًا﴾

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾ أعمالكم على الوجه اللائق، وفعلتم الإحسان ﴿أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ لأن ثوابها لها ﴿وَأِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أعمالكم وفعلتم الإساءة ﴿فَلَهَا﴾ أي فعلها وبالحال ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي حان وقت ما وُعد من عقوبة المرة الأخيرة ﴿لِيَسْتَوْفُوا أَجُورَهُمْ﴾ أي بعثناهم ليسؤوا وجوهكم أي ليجعلوها بادية فيها آثار المساءة ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا﴾ أي يهلكوا ﴿مِمَّا عَصَوْا﴾ ما غلبوه واستولوا عليه ﴿نَبِيرًا﴾ فظيماً لا يوصف، وقد سلط الله عز وجل عليهم الروم، فغزاهم «قسطنطين» ملك الروم، ودخل مذبح قرايينهم، فوجد فيه دماً يغلي فقتل على ذاك الدم ألوفاً، فلم يهدأ الدم، ثم قال: إن لم تصدقوني ما تركتُ منكم أحداً فقالوا: إنه دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، فقال: لمثل هذا ينتقم ربكم منكم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ إن تبتم توبة أخرى وانزجرت عما كنتم عليه من المعاصي ﴿وَإِنْ عُدتُمْ﴾ إلى ما كنتم من الفساد مرة أخرى ﴿عُدْتُمْ﴾ إلى عقوبتكم، وقد عادوا فأعاد الله النعمة بتسليط الأكاسرة، وضرب الأتاتوة

عليهم، ونحو ذلك، وعن الحسن فبعث الله تعالى الرسول ﷺ فقتل قريظة وأجلى بني النضير، وضرب الجزية على الباقين، هذا لهم في الدنيا ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ سجنًا لا يقدرّون على الخروج منه أبدًا.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الذي آتيناك يا محمد ﴿يَهْدِي﴾ أي الناس كافة ﴿لِلَّتِي﴾ أي للطريقة التي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي أقوم الطريق وأسدها أعني ملة الإسلام والتوحيد، وترك ذكرها لغاية ظهورها، لا سيما بعد ذكر الهداية، التي هي من روادفها وقوله: ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ يدل على أن هذا الدين أقوم من سائر الأديان ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما في تضاعيفه من الشرائع، والأحكام ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي الأعمال الصالحة التي يحبها الله عز وجل ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ بحسب الذات، وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعدًا.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لا يصدقون بقاء الله، ولا يؤمنون بالبعث والحساب والعذاب ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي أعدنا قلبت الدال تاء ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هو عذاب جهنم أي أعدنا لهم بسبب كفرهم بالآخرة، عذاباً أليماً، وهو أبلغ في الزجر، لما أن إتيان العذاب من حيث لا يحتسب أقطع والآية ترد على القول بالمنزلة بين المنزلتين، التي قال بها المعتزلة، حيث ذكر تعالى المؤمنين وجزاءهم، والكافرين وجزاءهم.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾ المرادُ بالإنسان الجنسُ، حكى عنه حاله في بعض أحيانه، وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو شر من العذاب المذكور كدأب من قال منهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾^(١) ﴿دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي مثل دعائه بالخير ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ أي يسارع إلى طلب ما يخطر بباله، متعامياً عن ضرره، كما هو حاله عند الغضب، يدعو على نفسه، وأهله، وماله بما هو شر، وكان الإنسان بحسب جبلته ﴿عَجُولاً﴾، ضَجراً لا يتأني إلى أن يزول عنه ما يعتريه، ولا ينظر إلى عاقبته قال ابن عباس: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده عند الضجر، بما لا يحب أن يستجاب له: اللهم أهلكه، اللهم دمِّره ونحوه^(٢).

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَانَا تَقْصِيلاً﴾

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ شروع في بيان بعض وجوه ما ذكر من الهداية، بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية، التي كل واحدة منها برهان ثبوت لا ريب فيه، وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودي، إذ منه ينسلخ النهار، وفيه تظهر غرر الشهور، ولترتب آية النهار عليها بلا واسطة، أي جعلنا الليل والنهار بهيأتهم، وتعاقبهما، واختلافهما في الطول والقصر، على وتيرة عجيبة، تحار في فهمهما العقول، آيتين تدلان على أن لهما صانعاً حكيماً، قادراً، عليمًا، تهديان لملة التوحيد، أي جعلناهما علامتين عظيمتين على وحدانية الله، وكمال قدرته جلَّ وعلا.

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/٢٢٥.

ثم إن مصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار، فلو لا الليل لما حصل السكون والراحة، ولو لا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي فمحونا الآية التي هي الليل، فجعلناه مظلماً، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة، أي مشرقاً بالنور والضياء ليحصل به الإبصار، يريد الشمس والقمر، فمحو القمر حيث لم يخلق له شعاعاً، بل هو مستفاد من الشمس، وإبداعها على ذلك وأهل التجارب الفلكية، بينوا أن اختلاف أحوال القمر في مقادر النور، له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي مضيئة يُبصر فيها الأشياء، وأبدعها مضيئة بالذات، تظهر فيها الأشياء المظلمة ﴿لِيَبْتَغُوا﴾ أي لتطلبوا لأنفسكم ﴿فَضْلاً﴾ أي رزقاً، إذ لا يتسنى ذلك في الليل ﴿مِنْ رَّبِّكُمْ﴾ من مربيكم ورازقكم، وفي التعبير عن الرزق بالفضل، وعن الكسب بالابتغاء، دلالة على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير، سوى الطلب، وإنما الإعطاء إلى الله سبحانه، لا بطريق الوجوب عليه، بل بفضله، بحكم الربوبية للعباد ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ أي لتعلموا بتفاوت الليل والنهار من حيث الإظلام والإضاءة ﴿عَكْدَ اللَّيْنَيْنِ﴾ عدد الأيام والشهور والأعوام، لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿وَلِلْحَسَابِ﴾ أي حساب الأوقات أي الأشهر والأيام، ولو لا ذلك لما علم أحد حساب الأوقات، ولم يدر أوقات الشرع، والديون، وغير ذلك ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ تفتقرون إليه في المعاش والمعاد ﴿فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ أي بيناه في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فظهر كونه هادياً للتي هي أقوم.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَعْمَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾ (١٦).

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ﴾ مكلف ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَعْمَهُ﴾ أي عمله الصادر عنه باختياره، كأنه طار إليه من عَشِّ الغيب، ووكر القدر، أو ما وقع له في

القسمة الأزلية، من قولهم طار له سهم كذا ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ تصوير لشدة اللزوم، وكمال الارتباط، أي الزمناء عمله بحيث لا يفارقه أبداً، بل يلزمه لزوم القلادة أو الغل للعنق، فإن كان عمله خيراً، كان كالحلي يزيّنه، وإن شراً كان كالغلّ يشينه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا﴾ مسطوراً فيه ما ذكر من عمله صغيراً أو كبيراً نقيراً أو قطميراً ﴿يَلْقَاهُ﴾ أي الإنسان ﴿مَنْشُورًا﴾ ونظيره: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قال الحسن البصري: «بُسطت لك يا بن آدم صحيفة، ووكل لك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، حتى إذا متَّ، طُويت صحيفتك، وجُعِلت معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة، ويقال لك:

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ قال قتادة: يقرأ ذلك اليوم، من لم يكن قارئاً في الدنيا ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي نفسك والباء زائدة، واليوم ظرف لكفى، وحسبياً تمييز بمعنى الحاسب، أو بمعنى الكافي، ووضع موضع الشهيد.

﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي من اهتدى بهدایتة، وعمل بما فيه من الأحكام، وانتهى عما نهاه عنه فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه، لا يتخطاه إلى غيره ممن لم يهتد، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن الطريقة التي يهديه إليها ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي فإنما وبال ضلاله عليها، لا على من عداه ممن لا يباشره والآية دالة على أن العبد متمكن من الخير والشر، وأنه غير مجبور على

عمل بعينه أصلاً ﴿وَلَا نَزْرُؤُا زُرَّةً وَزَرَ أَخْرَى﴾ أي لا تحمل نفس حامله للوزر، وزر نفس أخرى، حتى يمكن تخليص النفس الثانية عن وزرها، وإنما تحمل كل منهما وزرها، وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْرُمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وأمّا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ الآية من حمل الغير وزر الغير، وانتفاعه بحسنه، فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه، وتضرُّرُ بسيناتها، فإن جزاء الحسنة والسيئة، اللتين يعملهما العامل، لازم له، وإنما الذي يصل إلى من يشفع جزاء شفاعته، لا جزاء أصل الحسنة، وكذا جزاء الضلال مقصوٌّ على الضالين، وما يحمله المضلون إنما هو جزاء الإضلال، لا جزاء الضلال، وإنما خص التأكيد بالجملة الثانية، قطعاً للأطماع الفارغة، حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق، فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم، وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ بيان للعناية الربانية أي وما صح وما استقام منا، في ستننا المبنية على الحكم البالغة، أن نعذب أحداً اكتفاءً بقضية العقل ﴿حَتَّى نَبْعَثَ﴾ إليهم ﴿رَسُولًا﴾ يهديهم إلى الحق، ويردعهم عن الضلال، ويقيم الحجج، ويمهد الشرائع، والمراد بالعذاب المنفي إمّا عذاب الاستئصال وهو المناسب لما بعده، أو الجنس الشامل للدنيوي والأخروي.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١٦).

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي إذا تعلق إرادتنا بإهلاك قرية، بأن نعذب أهلها بعذاب الاستئصال ﴿أَمَرْنَا﴾ بواسطة الرسول المبعوث إلى أهلها ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ متنعميها وجبّاريها، والمترف: المتنعم الذي أبطرته النعمة خصّهم بالذكر لأنهم أسرع إلى الحماقة، وأقدر على الفجور، وعدم التعرض للمأمور به، لظهوره، وأنّ المراد به الحق والخير، لأن الله لا يأمر

بالفحشاء، قال أكثر المفسرين معناه: أنه تعالى أمرهم بالأعمال الصالحة، والقوم خالفوا وفسقوا، ويدلُّ على ذلك ما قبله وما بعده، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي خرجوا عن الطاعة وتمردوا ﴿فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي ثبت وتحقق موجه بحلول العذاب إثر ما ظهر منهم الفسق والطغيان ﴿فَدَمَّرْنَاهَا﴾ بتدمير أهلها ﴿تَدْمِيرًا﴾ لا يكتنه كنهه ولا يوصف.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً ما أهلكنا ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ بيان «كم» وتمييز له، والمراد به الأمم الكافرة ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ من بعد زمانه عليه السلام، كعاد، وثمود، ومن بعدهم، وعدم نظم قوم نوح في تلك القرون المهلكة، لظهور أمرهم، على أن ذكره عليه السلام رمز إلى ذكرهم ﴿وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ﴾ أي كفى ربك ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يحيط علمه بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله التي يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كأعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالأسباب أو بأعمال الآخرة فالمراد بهم الكفرة وأكثر الفسقة وأهل الرياء والنفاق ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ فقط من غير أن يريد معها الآخرة، والمراد بالعاجلة الدنيا، وبياراتها إرادة ما فيها ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا﴾ أي في تلك الدنيا ﴿مَا نَشَاءُ﴾ أي ما نشاء تعجيله له، من نعيمها، لا كل ما يريد ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ تعجيل ما نشاء له وتقييد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لما أن الحكمة لا تقتضي وصول كل طالب لمرامه، وهكذا الحال، ترى كثيراً من هؤلاء الفجار

يتمنون ما يتمنون، ولا يُعطون، فاجتمع عليهم فقر الدنيا، وفقر الآخرة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ مكان ما عجلنا ﴿لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ وما فيها من أصناف العذاب ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله، وهذا زجر عظيم لهؤلاء الضالين الذين يتركون الدين لطلب الدنيا وربما فاتتهم الدنيا، فهم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم، ومن الجهال من ساعدته الدنيا فاغترَّ بها، وظن كون ذلك لأجل كرامته على الله تعالى، كما قال بعض المشركين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ والدنيا قد تحصل للكافر، مع أن عاقبتها المصير إلى عذاب الله.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (١٩).

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ بأعماله ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي السعي اللائق بها، وهو الإتيان بما أمر الله، والانتهاز عما نهى عنه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماناً صادقاً صحيحاً، وإيراد الإيمان بالجملة الحالية ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ للدلالة على اشتراط مقارنته ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة ﴿كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ من الله تعالى أي مقبولاً عنده، فإن شكر الله تعالى، الثواب على الطاعة وعن بعض السلف، من لم يكن معه ثلاث، لم ينفعه عمله: إيماناً ثابت، ونية صادقة، وعملٌ مصيب، وتلا هذه الآية.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هُنُوًا وَهَنُوًا مِنْ عَطَايَ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢٠).

﴿كُلًّا﴾ أي كل واحد من الفريقين ﴿نُمِدُّ﴾ نزيد مرة بعد مرة، ما عَجَّل لأحدهما من العطايا العاجلة، وما أَعَد للآخر من العطايا الآجلة ﴿هُنُوًا﴾ الذين أرادوا الدنيا ﴿وَهَنُوًا﴾ وهؤلاء المشكور سعيهم، ﴿مِنْ عَطَايَ رَبِّكَ﴾ أي من عطائه الواسع، تفضلاً وإحساناً منه جلَّ وعلا ﴿وَمَا كَانَ

عَطَاءُ رَبِّكَ ﴿ دُنِيَا كَانَ أَوْ آخِرِيَا، وَإِنَّمَا أَظْهَرَهُ إِظْهَارًا، لِمَزِيدِ الْاِعْتِنَاءِ بِشَانِهِ ﴿ مَحْظُورًا ﴾ أَي مَمْنُوعًا مَمَّنْ يَرِيدُهُ، بَلْ هُوَ فَائِضٌ بِمُوجِبِ الْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَةِ.

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

﴿ أَنْظِرْ ﴾ بِنَظَرِ الْاِعْتِبَارِ ﴿ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ فِيمَا أَمَدَدْنَاهُمْ بِهِ مِنَ الْعَطَاءِ الْعَاجِلِ، فَمَنْ وَضِعَ وَرْفِيعَ، وَمَالِكٌ وَمَمْلُوكٌ، وَمُوسِرٌ وَصَعْلُوكٌ، تَعْرِفُ بِذَلِكَ مَرَاتِبَ الْعَطَايَا الْآجِلَةِ، وَدَرَجَاتِ تَفَاوُتِ أَهْلِهَا، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى وَجْهَ الْحِكْمَةِ فِي هَذَا التَّفَاوُتِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا ﴾ (١) وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَلَوْا فِيهَا آتَاكُمُ ﴾ (٢) ﴿ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ ﴾ أَي هِيَ وَمَا فِيهَا أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا ﴿ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ لِأَنَّ التَّفَاوُتَ فِيهَا بِالْجَنَّةِ وَدَرَجَاتِهَا وَالنَّارِ وَدَرَكَاتِهَا، رَوَى أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْأَشْرَافِ فَمِنْ دُونِهِمْ اجْتَمَعُوا فِي بَابِ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَخَرَجَ الْإِذْنَ لِبِلَالٍ وَصَهْبٍ، فَشَقَّ عَلَى أَبِي سَفْيَانَ فَقَالَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو: دَعَا إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْرَعُوا وَأَبْطَأْنَا، وَهَذَا بَابُ عَمْرِ فَكَيْفَ التَّفَاوُتُ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ (٣).

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْذُورًا ﴾

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٢.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٥.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٢٤.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ للرسول ﷺ والمراد أمته أو لكل أحد ممن يصلح لهذا الخطاب ﴿فَتَقَعَّدَ﴾ جواب للنهي، والقعود بمعنى العجز من قعد عنه أي عجز عنه ﴿مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ جامعاً على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله، والخذلان ضد النصر والعون، دليلاً قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾؟ جعل الخذلان بمقابلة النصر.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفِي وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي أمر أمراً مقطوعاً به ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ لأن العبادة غاية التعظيم، فلا تحق إلا لمن له غاية العظمة، ونهاية الإنعام ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾ أي وأن تحسنا بهما ﴿إِحْسَانًا﴾ لأنهما السبب الظاهر للوجود والحياة^(١) ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إمّا مركبة من «إن» الشرطية، و«ما» المزيدة لتأكيدهما، ومعنى «عندك» أي في كنفك وكفالتك، وتقديمه على المفعول للتشويق، فإنه مدار تضاعف الرعاية والإحسان، ومعنى ﴿الْكِبَرَ﴾ أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز، فيصيران عندك في آخر العمر، كما كنت عندهما في أول العمر ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفِي﴾ أي لواحد منهما، و«أف» صوت ينبىء عن تضجر، أي لا تضجر بما يستقذر منهما وتستثقل من مؤونتهما، وبهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيها بدلالة النص، وقد خص بالذكر بعضه إظهاراً للاعتناء بشأنه فقيل: ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أي لا ترجرهما عما لا يعجبك

(١) قيل كل الذنوب يؤخر الله تعالى من عقوبتها ما شاء، إلا عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه قبل الممات.

بإغلاظ، والنَهْرُ الزجرُ والغلظة ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي حسناً، جميلاً، ليناً، كما يقتضيه حسنُ الأدبِ معهما، مثل أن يقول يا أباه، ويا أمّاه كدأب إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ مع ما به من الكفر، ولا يدعوهما بأسمائهما، فإنه من الجفاء وسوء الأدب، وديدن الدُّعَارِ والفُجَّارِ.

﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ﴾ هو عبارة عن لين الجانب، والتواضع لهما فإن إعزازهما لا يكون إلاً بذلك، والطائر إذا أراد تربية فرخه، خفض له جناحه، ولهذا صار خفضُ الجناح كناية عن حسن التربية والتواضع فكأنه قيل للولد: اكفّل والدك في حالة العجز والضعف، كما فعلا بك حال صغرك ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ من فرط رحمتك عليهما، لافتقارهما إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمْهُمَا﴾ وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية، ولا تكف برحمتك الفانية ﴿كَأَرْيَانِي صَغِيرًا﴾ أي رحمة مثل رحمتهم لي، ولقد بالغ عزّ وجل في التوصية بهما، حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده سبحانه، ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً، ثم ضمّيق الأمر في باب مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر، مع ما له من موجبات الضجر، وختمها بأن جعل رحمته التي وسعت كل شيء مشبهة بتربيتهما، والدعاء مختص بالأبوين المسلمين، وقيل: إذا كانا كافرين يدعو الله لهما بالهداية والتوفيق، سئل سفيان كم يدعو الإنسان لوالديه؟ فقال: نرجو أن يجزيه إذا دعا لهما في أواخر الشهادات^(١). روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

(١) حقوق الوالدين على الولد كثيرة ومنها: الإنفاق عليهما، والكسوة إن احتاجا إليها، =

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أُمُّكَ، ثم أُمُّكَ، ثم أبوك، ثم أدناك فأدناك»^(١). وروى مسلم عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما، أو كليهما ثم لم يدخل الجنة»^(٢) وروى أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاة لوقتها، قلت: ثم أيُّ؟ قال برُّ الوالدين، قلت: ثم أيُّ؟ قال: الجهادُ في سبيل الله»^(٣).

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ من البر، والعقوق، وكأنه تهديدٌ على أن يضمرا لهما كراهةً واستنقالاتاً ﴿ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾ قاصدين للصلاح والبر، دون العقوق والفساد ﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ تعالى ﴿ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ ﴾ أي الراجعين إلى الله تعالى عما فرط منهم، مما لا يخلو عنه البشر ﴿ غَفُورًا ﴾ لما وقع منهم من نوع تقصير، أو أذية، ويدخل فيه الجاني على الأبوبين.

= والإجابة إن دعياءه، والإطاعة لهما ما لم يأمر بالمعصية لله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والكلام الرفيق اللين، وألا يدعوها باسمهما وإنما يقول: يا أبت، ويا أمي، وأن يمشي خلفهما، والدعاء لهما في كل صلاة وفي جميع الأوقات والأحيان: ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً.

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٩٧١ ومسلم رقم ٢٥٤٨.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥١.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٢٧ ومسلم رقم ٤٧.

﴿وَعَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿وَعَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ المراد بهم المحارم، أقارب الرجل، وبحقهم النفقة، وإذا لم يكن من المحارم، فلا حق لهم إلا المودة، والزيارة، وحسن المعاشرة ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي وآت هؤلاء حقهم من الزكاة، المسكين المعدم، والغريب المنقطع في سفره ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ نهى عن صرف المال في غير الحِلِّ، وغير المحلِّ، فإن التبذير: تفريق الشيء في غير موضعه، مأخوذ من تفريق البذر في الأرض كيف ما اتفق، سئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن التبذير، فقال: إنفاق المال في غير حقه، وقد أنفق بعضهم في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السَّرَف، فقال له المحسن: لا سَرَف في الخير.

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ﴾ تعليل للنهي عن التبذير، والمراد بالأخوة: المماثلة التامة في كل ما لا خير فيه، من صفات السوء، التي من جملتها التبذير ﴿كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي قرناءهم في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْتَسِبْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(١) روي أنهم كانوا ينحرون الإبل، ويبذرون في السمعة، فنهاهم الله عن ذلك، وأمرهم بالإنفاق في القربات ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي مبالغاً في كفران نعمته تعالى، وتخصيص هذا الوصف بالذكر، للإيذان بأن التبذير من باب الكفران.

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦ .

﴿وَأَمَّا تَعْرِضَنَّهُمْ أَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿وَأَمَّا تَعْرِضَنَّهُمْ﴾ أي إن أعرضت عن ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل حياة من التصريح بالردّ بسبب الفقر والقلّة ﴿أَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي لفقد رزق ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ إقامة للمسبّب مقام السبب، فإن الفقد سبب للابتغاء ﴿تَرْجُوهَا﴾ من الله تعالى لتعطيتهم، روي أنه ﷺ كان إذا سئل شيئاً وليس عنده، أعرض عن السائل وسكت حياة، فأمر بتعهدهم بالقول الجميل، لئلا يعتربهم الوحشة ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي سهلاً ليناً، وعدّهم وعداً جميلاً، تطيب به قلوبهم، أو قل رزقنا الله وإياكم من فضله.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ هما تمثيلان لمنع شحّ الشحيح، وإسراف المبدّر، زجراً لهما عنهما، وحملاً على ما بينهما من الاقتصاد الذي هو بين التقتير والإسراف، وهو الكرم كما قيل: «كلا طرفي قُصِدَ الأمرِ ذَمِيمٌ» وحيث كان قبح الشح مقارناً له، روعي ذلك في التصوير بأقبح الصور، وغائلة الإسراف في آخره بين قبحه في أثره، فقيل: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ أي فتصير ملوماً عند الله، وعند الناس، وعند نفسك، إذا احتجبت وندمت على ما فعلت ﴿تَحْسُورًا﴾ أي منقطعاً بك لا شيء عندك من المال.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ تعليل لما مر، أي يوسعه على بعض، ويضيقه على الآخرين، حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة، فليس ما يرهقك من نفاذ ما في يدك إذا بسطتها كل البسط إلا لمصلحتك ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي يعلم سرهم وعلنهم، ويعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم، فهو تعالى يبسط تارة، ويقبض أخرى، فاستثوا بسنته، ولا تقبضوا كل القبض، ولا تبسطوا كل البسط، فالتفاوت في أرزاق العباد، ليس لأجل البخل، بل لأجل رعاية المصالح، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ (١).

﴿وَلَا تَقْلُوبُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قُلُلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾

﴿وَلَا تَقْلُوبُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي مخافة فقر، كانوا يثدّون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فلا تخافوا الفاقة بناء على زعمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم، وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهي المذكور ﴿إِنَّ قُلُلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أي جرماً عظيماً، وذنباً كبيراً، كيف لا، وإن قرابة الأولاد قرابة الجزئية، وهي أعظم الموجبات للمحبة، فإذا أقدم الوالد على هذه العظيمة، دل ذلك على غلظ القلب، وفساد الأخلاق.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

(١) سورة الشورى، آية: ٢٧.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْفَ﴾ بإتيان المقدمات من القبلة، والغمزة، واللمس، والنظر بشهوة، ونحوها فضلاً عن أن تباشروه، وإنما نهى عن قربانه، للمبالغة في النهي عن نفسه، ولأن الاقتراب منه داع إلى مباشرته ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فَاحِشَةً﴾ فعلة ظاهرة القبح، متجاوزة الحد فإن فيه تضييع الأنساب ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي بش طريقاً، لأنه يدفع صاحبه إلى النار، وهو طريق لقطع الأنساب أيضاً.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّكُمْ كَانُمْ مَنْصُورًا﴾.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها، بأن عصمها الله بالإسلام، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ نهى وتحريم، وقوله: ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ تأكيد وتقريب ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بارتكاب ما يبيح الدّم، وذلك بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنى بعد إحصان، وقتل نفس معصومة عمداً، ودلت آية أخرى على حصول سبب رابع وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا﴾^(١) الآية، وروي عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٢) ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير حق يوجب قتله أو يبيحه للقتل، حتى إنه لا يعتبر بإباحة ولي المقتول لغيره، فإن من عليه القصاص إذا قتله غير من له القصاص يقتص من القاتل، ولا يفيد قول الولي أنا أمرته بذلك ما لم يكن الأمر ظاهراً ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ﴾ لمن يلي أمره من الوارث ﴿سُلْطَانًا﴾ أي قوة واستيلاء على

(١) سورة المائدة، آية: ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في الديات ٢٠١/١٢ ومسلم رقم ١٦٧٦ وأبو داود رقم ٤٣٥٢ في الحدود.

القاتل، يؤاخذ به بالقصاص، أو بالدية، حسبما تقتضيه جانيته، وهو مخير إن شاء استقاد منه، وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء عفا ﴿فَلَا يُسْرِفَ﴾ أي الولي ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ في أمر القتل بأن يتجاوز الحد المشروع بأن يزيد عليه المثلثة، أو بأن يقتل غير القاتل من أقاربه، أو بأن يقتل اثنين مكان الواحد، كما كان يفعله أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفاً، فلا يرضون بقتل القاتل وحده، حتى يقتلوا جماعة من أقربائه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُنْصَوِرًا﴾ الضمير للولي على معنى أنه تعالى نصره بأن أوجب له القصاص، أو الدية، وأمر الحكام بمنعونه في استيفاء حقه، فلا ينبغي ما وراء الحق، وظاهر الآية يدل على أن القصاص يجري بين الحر والعبد، وبين المسلم والذمي، لأن أنفسهم داخلة في الآية لكونها محرمة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ
إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ نهى عن قربانه، مبالغة في النهي عن التعرض له، فلما نهى الله عن إتلاف النفوس، أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال، لأن أعز الأشياء بعد النفوس الأموال، وأحق الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم اليتيم، لأنه لصغره وضعفه وعجزه، يعظم ضرره، بإتلاف ماله، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾^(١) ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالطرائق التي هي أحسن الطرق، وهي حفظه واستثماره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حتى يبلغ سن الرشد ويكمل عقله، وهي ثمان عشرة سنة ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ سواء جرى بينكم وبين ربكم، أو بينكم وبين غيركم، ويؤكد هذا النصُّ بسائر الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا

(١) سورة النساء، آية: ٦.

عَاهِدُوا ﴿ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ ^(١) وَالْإِيفَاءُ بِالْعَهْدِ هُوَ الْقِيَامُ بِمَقْتَضَاهُ، وَالْمَحَافَظَةُ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْتَعْمَلُ إِلَّا بِالْبَاءِ، فَرْقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِيفَاءِ الْحَسِّيِّ كإِيفَاءِ الْكَيلِ وَالْوِزْنِ ﴿ إِنََّّ الْعَهْدَ ﴾ أَظْهَرَ لِكَمَالِ الْعَنَاءِ بِشَأْنِهِ ﴿ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴾ أَيِ مَسْئُولًا عَنْهُ، يُسْأَلُ النَّاسُ وَيُعَاتَبُ : لِمَ نَكُثْتَ ؟ .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ ^(٢) .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ أَيِ أَتَمُوهُ وَلَا تُخْسِرُوهُ ﴿ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ أَيِ وَقْتُ كَيْلِكُمْ، وَتَقْيِيدُ الْأَمْرِ بِذَلِكَ، لَمَّا أَنَّ التَّطْفِيفَ هُنَاكَ يَكُونُ ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾ أَيِ زِنُوا بِالْمِيزَانِ الْعَادِلِ السَّوِيِّ، الَّذِي لَا بَخْسَ فِيهِ وَلَا زَيْفَ، وَالْقِسْطَاسُ الْأَصَحُّ أَنَّهُ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ، وَهُوَ مَاخُودٌ مِنَ الْقِسْطِ، وَهُوَ الَّذِي يَحْصُلُ مِنْهُ الْإِسْتِقَامَةُ ﴿ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أَيِ الْعَدْلِ السَّوِيِّ، وَعِنْدَ اسْتِقَامَتِهِ لَا يَتَصَوَّرُ الْجَوْرُ، وَقَدْ أُمِرَ بِتَقْوِيمِهِ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أَيِ إِيفَاءِ الْكَيلِ وَالْوِزْنِ بِالْمِيزَانِ السَّوِيِّ ﴿ خَيْرٌ ﴾ إِذْ هُوَ أَمَانَةٌ تَوْجِبُ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ بَيْنَ النَّاسِ ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ عَاقِبَةٌ وَمَالًا فِي الْآخِرَةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ التَّفَاوُتَ الْحَاصِلَ بِسَبَبِ نَقْصَانِ الْكَيلِ وَالْوِزْنِ قَلِيلٌ، وَالْوَعِيدُ الْحَاصِلُ عَلَيْهِ شَدِيدٌ عَظِيمٌ، فَالْعَاقِلُ مَنْ يَحْتَرِزُ مِنْهُ .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ ^(٣) .

﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ وَلَا تَتَّبِعْ، مِنْ قَفَا أَثَرِهِ إِذَا تَبِعَهُ ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أَيِ

(١) سورة المؤمنون، آية : ٨ .

لا تكن في اتباع ما لا علم لك به، من قول، أو فعل، كمن يتبع مسلماً لا يدري أنه يوصله إلى مقصده، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أي كل واحد من تلك الأعضاء، فأجريت مجرى العقلاء، لما كانت مسؤولة عن أحوالها، وشاهدة على أصحابها ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي كان كل من تلك الأعضاء مسؤولاً عما فعل به صاحبه، ومن الدعاء المأثور «اللهم إني أعوذ بك من شرِّ سمعي، وشرِّ بصري، وشرِّ فؤادي، وشرِّ لساني، وشرِّ قلبي، وشرِّ مَنِّي يعني ماءه وذكره»^(١).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾^(٢).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ﴾ التقييد بها لزيادة التقرير، والإشعار بأن المشي عليها مما لا يليق بالتكبر ﴿مَرَحًا﴾ تكبراً وبطراً واختيالاً وفي سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾^(٢) ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ فيه تهكم بالمختال، وإيداناً بأن ذلك مفارقة مع الأرض، وتكبرٌ عليها، أي لن تخرق الأرض بدوسك ووطأتك عليها ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ﴾ التي هي بعض أجزاء الأرض ﴿طُولًا﴾ حتى يمكن لك أن تتكبر عليها، إذ التكبر بكثرة القوة، وعِظَمُ الجُتَّةِ، وكلاهما مفقود في الإنسان، وكان الآية تقول: إنك أيها الإنسان هزيل ضئيل، لا يليق بك الشموخ والكبرياء، كيف تتكبر وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال؟.

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾^(٢٨).

(١) أخرجه أبو داود، رقم ١٥٥١ والترمذي رقم ٣٤٨٧ والنسائي ٢٥٩/٨.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الأوامر، والنواهي، من الخصال الخمس والعشرين ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ أي كان عمله القبيح الذي نهى عنه، وهي اثنتا عشرة خصلة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ مبغضاً غير مرضي عند الله تعالى.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ أي الذي تقدّم من الأوامر والنواهي ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ أي بعض منه ﴿مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ التي هي من الأحكام التي لا يتطرق إليها النسخ، وهي واجبة الرعاية في جميع الأديان ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي لا تشرك مع الله غيره من صنم أو بشر، وكرره للتنبيه على أن التوحيد، مبدأ الأمر ومنتهاه، وأنه رأس الحكمة وغايته ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أي تلوم نفسك، ويلومك الناس والملائكة ﴿مَدْحُورًا﴾ مبعداً من رحمة الله تعالى، وفي إيراد الإلقاء، ازدراء بالمشرّكين، وجعل لهم من قبيل خشبة، يأخذها آخذ، فيطرحها في النار.

﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا﴾ الإصفاء بالشيء: جعله خالصاً، والهمزة للإنكار، أي أفضلكم على جنابه، فخصّكم بأفضل الأولاد، وآثر لذاته أحسّها؟ وهو توبيخ للعرب في مزاعمهم الباطلة، كما في قوله تعالى: ﴿الْكُفُّ الدَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾؟ وقوله: ﴿أُمُّ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾؟ ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ﴾ بمقتضى مذهبكم الباطل، في إضافة البنات إلى الله سبحانه ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي كلاماً عظيماً في بشاعته وشناعته، مخالفاً لقضايا العقول، بحيث لا يجترأ عليه أحد، حيث تجعلونه تعالى من قبيل الأجسام،

ثم تضيفون إليه ما تكرهون، وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين، ثم تصفون الملائكة الذين هم أشرف الخلائق بالأنوثة، فيا لها من ضلالة ما أقبحها!!.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بيّنا هذا المعنى، وكزّرناه، يعني العبر، والحكم، والأمثال، والأحكام، والحيجج، والأخبار ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ على وجوه من التصريف في مواضع منه ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ ما فيه، ويقضوا على بطلان ما يقولونه، أي كزّرناه ليتعظوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي والحال ما يزيدهم ذلك البيان والتذكير البديع ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق، وإعراضاً عنه، فضلاً عن التذكر، وكان الثوري رحمه الله إذا قرأها يقول: يا ربّ زادني خضوعاً، ما زاد أعداءك نفوراً.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ الْمَرِئَ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي كما يقول المشركون، والمراد بالمشابهة: الموافقة والمطابقة ﴿إِذَا لَأَبْتَغُوا﴾ جواب عن مقالتهم أي لطلبوا ﴿إِلَيَّ الْمَرِئِ﴾ أي إلى من له الملك والربوبية على الإطلاق ﴿سَبِيلًا﴾ بالمغالبة والممانعة، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض، كقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تنزه ذاته تنزهاً حقيقياً ﴿وَتَعَالَى﴾ تباعد وتقدّس ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من العظيمة أن معه آلهة، وأن يكون له بنات ﴿عُلُوًّا﴾ تعالياً ﴿كَبِيرًا﴾ لا غاية وراءه، كيف لا وأنه عزّ وجلّ في أقصى غاية الوجود الذاتي، وما يقولونه من أن له شريكاً وأولاداً، في أبعد مراتب العدم أعني الامتناع!!.

﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤١).

﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ من الملائكة، والإنس، والجن، على أن المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال، ولسان الحال، بطريق عموم المجاز ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء حيواناً كان، أو نباتاً، أو جماداً ﴿ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ أي يقول: سبحان الله وبحمده، أي يتزده الله تعالى بلسان الحال، عما لا يليق بذاته الأقدس، إذ ما من موجود إلا وهو يدلل على أن له صانعاً، عليمًا قادراً، حكيمًا واجباً لذاته، أو يُسَبِّحُه بلسان المقال، فإنَّ كلَّ موجود في الكون، له تسبيح خاص به، ولهذا قال ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أيها المشركون، لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم ذلك، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر، تحول إليه، فحنَّ الجذع فمسح بيده الشريفة عليه»^(١) ففي الأحاديث أن الجمادات والحيوانات تُسَبِّحُ الله عزَّ وجل بطريقة لا نفهمها نحن كما قال تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَاقَاتٌ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾. وقال البعض: تسبيح الجمادات والحيوانات بلسان الحال، والقول الأول أصح لما دلت عليه الأحاديث، وأنه منقول عن السلف ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا ﴾ ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة، مع ما أنتم عليه من موجباتها، من الإشراك، والغفلة ﴿ غَفُورًا ﴾ لمن تاب منكم.

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ (٤٢).

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ الناطق بالتسبيح، ودعوتهم إلى العمل بما فيه

(١) حديث حنين الجذع أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء.

من التوحيد، ورفض الشرك، وغير ذلك من الشرائع ﴿جَعَلْنَا﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على الحكم الخفية ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أوثر الموصول ذماً لهم ﴿حِجَاباً﴾ يحجبهم من أن يدركوا نبوتك ليفهموا قدرك ﴿مَسْتُوراً﴾ مستوراً عن الحسن، يحجب عنهم فهم القرآن وإدراك أسرارهِ الدقيقة.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتَ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّمْ وَلَوْ أَعْلَى أَذْبَرِهِمْ نُفُوراً﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي جعلنا على قلوب هؤلاء الكفار المكذبين بالقرآن، أغطية وحجباً لئلا يفهموا القرآن، كما جعلنا على آذانهم صمماً يمنعهم من استماعه ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتَ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّمْ﴾ أي أفردته بالذكر غير مشفوع بألتهتهم ﴿وَلَوْ أَعْلَى أَذْبَرِهِمْ﴾ رجعوا على أعقابهم أي هربوا ونفروا ﴿نُفُوراً﴾ هرباً من استماع الإيمان والتوحيد، كانت قريش إذا سمعوا من القرآن ذم المشركين وألتهتهم فروا هرباً من سماعه.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تُلِيَعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ أي نحن عالمون بما يدعوهم إلى الاستماع له، وبالغاية التي يستمعون إلى القرآن من أجلها، وهي اللغو، والاستخفاف، والهزاء بك وبالقرآن وأنت تقرأ كتاب ربك ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرف لأعلم، وفائدته تأكيد الوعيد بالإخبار، أي حين يستمعون إليك وأنت تنلو القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ أي وحين يتحدثون ويتناجون به فيما بينهم سراً ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ أي حين يقول أولئك الفجرة عن الرسول ﷺ

﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون إن وجد منكم الاتباع ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي سحر فجنّ.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي مثلك بالشاعر، والساحر، والمجنون ﴿فَضَلُّوا﴾ في جميع ذلك عن منهاج المحاجة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يجدون طريقاً إلى الهدى والرشاد، فيخبطون في كلامهم بدون تبصر.

﴿وَقَالُوا لَوْذَا كُنَّا عِزْلًا وَّرَقْنَا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْذَا كُنَّا عِزْلًا وَّرَقْنَا﴾ استفهام إنكاري، والاستنكار للبعث لما بين غضاضة الحي، ولبوسة الرميم من التنافي، والوفات: ما بولغ دقّه وتفتيته، وقال الفراء: هو التراب ﴿لَوْذَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تحلية الجملة بإن واللام لتأكيد الإنكار، وفيه من الدلالة على غلوهم في الكفر، وتماديهم في الضلال ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي مخلوقاً مجدداً؟ قال الله تعالى رداً عليهم.

﴿قُلْ﴾ أي قل يا أيها الرسول جواباً لهم ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي كونوا من الحجارة والحديد فسيبعثكم الله ويحييكم، والأمر هنا أمر تعجيز وتوبيخ، لا أمر إلزام ليصبحوا من الحجارة والحديد.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي يعظم عندكم عن قبول الحياة فإنكم مبعوثون لا محالة، والمعنى: إنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم،

بعدما صرتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، فليس يبذع أن يردكم الله إلى الحالة الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة، وهو أن تكونوا حجارة، أو حديداً، لكان الله قادراً على أن يردكم إلى حال الحياة، فكيف لا يقدر على إعادتكم إذا صرتم عظاماً ورفاتا؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا؟﴾ مع ما بيننا وبين الإعادة من مثل هذه المباينة؟ ﴿قُلْ﴾ لهم تحقيقاً للحق، وإرشاداً لهم إلى طريقة الاستدلال ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ أي يردكم الذي خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ واختراعكم من غير مثال وكنتم تراباً، فمن قدر على الإنشاء، قدر على الإعادة، ومتى سلمنا بكمال علم الله، وكمال قدرته، زالت هذه الشبهة ﴿فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكُمْ رُءُوسُهُمْ﴾ أي سيحزكونها نحوك، تعجباً وإنكاراً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاء ﴿مَتَى هُوَ؟﴾ أي ما ذكرته من الإعادة ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ﴾ ذلك ﴿قَرِيباً﴾ فإن كل ما آت قريب، و«عسى» للوجوب، فإن قالوا: فكيف يكون قريباً وقد انقرض ما يزيد على ألف عام ولم يظهر؟ قلنا: إذا كان ما مضى أكثر مما بقي كان أقل، فعمر الدنيا طويل، وما بقي منها إلا القليل ۱۱.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ۞

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ من قبوركم إلى الموقف للمحاسبة، وهو النفخة الأخيرة كما قال الله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمَنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (١) وهو إسرافيل عليه السلام ينادي الأموات ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي فتبعثون استعير لها الدعاء، والإجابة، إيذاناً بكمال سرعتهما، وبأن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي متقادين له حامدين له على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها، عن سعيد بن جبیر أن رسول الله ﷺ قال:

(١) سورة ق، آية: ٤١.

«ليس على أهل لا إله إلا الله، وحشة في قبورهم، كأنني بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم، ينفضون التراب عن رؤوسهم» ويقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك»^(١) ﴿وَتَنْظُنُونَ﴾ عندما ترون ما ترون ﴿إِنْ لَيْتُمْ﴾ أي ما لبثتم في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لما ترون من الهول.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾ أي للمؤمنين ولفظ العباد في أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾^(٢) ويمكن أن يراد من العباد الكفار، لأن المقصود من هذه الآيات الدعوة فلا يبعد أن يخاطبوا بالخطاب الحسن ﴿يَقُولُوا﴾ عند مخاطبة المشركين ﴿الَّتِي﴾ أي الكلمة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ ولا يخاشنهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٣) ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ﴾ يفسد ويهيج الشر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فلعل ذلك يؤدي إلى تأكيد العناد، وتمادي الفساد ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أي ظاهر العداوة.

﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ تفسير للتي هي أحسن، وما بينهما اعتراض، أي

(١) الحديث أخرجه الطبراني، وفي رواية يقولون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣٨٢/٢.

(٢) سورة الإنسان، آية: ٦.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

قولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا تصرّحوا بأنهم من أهل النار، فإنه يهيجهم على الشرّ، مع أن اختتام أمرهم غيب، لا يعلمه إلا الله ﴿إِنْ يَشَأْ يُرَحِّمَكُمْ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالإماتة على الكفر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليك أمرهم، تقسرهم على الإيمان وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً، فدارهم ومز أصحابك بالمداراة، والاحتمال، وترك المشاقة.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَايَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وتفاصيل أحوالهم التي بها يستأهلون الاصطفاء، فيختار منهم لنبوته من يشاء، وهو ردّ عليهم إذ قالوا: بعيد أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن يكون العراة الجوّع أصحاب الجنة، دون أن يكون ذلك من الأكابر والصناديد!! ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ بالفضائل النفسانية، لا بكثرة الأموال والأتباع ﴿وَأَيَّنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ بيان لحشية تفضيل داود عليه السلام، فإن ذلك بإيتاء الزبور، لا بإيتاء الملك والسلطنة، وفيه إيذان بتفضيل الرسول ﷺ فإن نعوته الجليلة، وكونه خاتم النبيين، مسطورة في الزبور، وأن المراد بعباد الله الصالحين في قوله تعالى: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ هو الرسول ﷺ وأمته، والزبور يشتمل على مائة وخمسين سورة، كلها دعاء وثناء، ليس فيه أحكام.

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ﴾ إنها آلهة ليس المراد بها الأصنام، لأنه تعالى قال في صفتهم: ﴿يَسْتَفْتُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ فهذه الآية نزلت فيمن عبدوا

الملائكة، والمسيح، وعزير لا في الأوثان ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من الملائكة والمسيح ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون ﴿كَشَفَ الصُّرْعَكُمْ﴾ كالمرض، والفقر، والقحط، ونحو ذلك ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي ولا تحويل ذلك عنكم إلى غيركم، فمن لا يقدر لا يكون إلهاً.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي الآلهة الذين يدعواهم المشركون ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ومالك أمرهم ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ القربة بالطاعة والعبادة ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي يبتغي من هو أقرب منهم، إلى الله تعالى الوسيلة، فكيف بغير الأقرب؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ بها ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ بتركها كدأب سائر العباد، فكيف ترعمون أنهم آلهة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقة بأن يحذره كل أحد، حتى الملائكة والرسل عليهم السلام.

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكَمَةٍ أَوْ مَعَذِبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ كلمة «إن» نافية، و«من» زائدة للتأكيد، والمراد بالقرية القرية الكافرة، أي ما من قرية من قرى الكفار ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي مخربوها البتة بالخسف بها، أو بإهلاك أهلها بالمرّة، لما ارتكبوا من عظام الموبقات المستوجبة لذلك ﴿قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكَمَةٍ﴾ وإنما قيل قبل يوم القيامة، لأن الإهلاك يومئذ، غير مختص بالكافرة، ولا هو بطريق العقوبة، إنما هو لانقضاء عمر الدنيا ﴿أَوْ مَعَذِبُوهَا﴾ أي معذبو أهلها ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بفنون العقوبات الأخروية، حسبما يفصح عنه إطلاق التعذيب، كيف لا وكثير من القرى العاتية، أُخِّرَتْ عقوبتها إلى يوم

القيامة، ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ ما ذكر من الإهلاك والتعذيب ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً لم يغادر منه شيء إلا بين فيه .

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاثِنَا ثُمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ .

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ التي اقترحها المشركون من قلب الصفا ذهباً، وأن تُنحَى الجبال عنهم، ليزرعوا ونحو ذلك ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي الأمم السابقة كذبوا بها حين جاءتهم باقتراحهم، وعدم إرسالها لا لمنع مانع عنه، بل لإفضائه إلى أن يحل بهم مثل ما حلّ بالمكذبين السابقين، بحكم التكذيب، المستدعي للاستئصال، المخالف لما جرى به قلم القضاء، من تأخير عقوبات هذه الأمة إلى الآخرة، لحكم باهرة، من جملتها ما يتوهم من إيمان بعض أعقابهم، ولهذا عبّر عن تلك المنافاة بالمنع، أي ما تركنا إجابتهم إلى ما طلبوا واقترحوا، من إحياء الموتى، وإجراء الأنهار، وإزالة الجبال، إلّا لعلنا بعدم إيمانهم، وأنهم لو أعطوها لكذبوا، كما فعل أسلافهم الأولون، وعند ذلك يستحقون عذاب الاستئصال، والله سبحانه يعلم أنّ من أبنائهم من يؤمن بالله، فلذلك لم يجبههم إلى ما طلبوا، لئلا يهلكوا كما هلك السابقون .

ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال: ﴿وَأَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةِ﴾ بسؤالهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ آية بينة ذات إبطار أو بصائر تدركها الناس ﴿فَظَلَمُوا﴾ فكفروا ﴿بِهَا﴾ ظالمين لأنفسهم ولم يكتفوا بمجرد الكفر بها، بل فعلوا بها ما فعلوا من العقر، وتخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم، وأن لهم من العلم بحالهم حيث يشاهدون آثار هلاكهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي وما نرسل بالآيات الكونية، كالزلازل، والفيضانات، والصواعق، والرعد، إلا تخويفاً للعباد، لما يعقبها من العذاب المستأصل .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فَتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ علماء، فلا يخفى عليه شيء، من أفعالهم الماضية والمستقبلية، من الكفر والتكذيب فلا تبال بهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فَتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ المراد بالرؤيا ما عاينه ﷺ ليلة المعراج، حسبما ذكر في فاتحة السورة الكريمة، والتعبير عن ذلك بالرؤيا لأنها وقعت في الليل، والعرب تقول: رأيت بعيني رؤية، ورؤيا، قال البخاري عن ابن عباس: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، وليست برويا منام»^(١) أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناها عياناً، مع كونها آية عظيمة، وحقيقة ملموسة، إلا فتنة افتن بها الناس، حتى ارتد بعضهم عن الإسلام ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ المراد بلعنها: لعن طاعمها، أو إبعادها عن الرحمة، فإنها تنبت في أصل الجحيم، في أبعد مكان من الرحمة، والعرب تقول لكل طعام مكروه وضار: إنه ملعون، ويعني بها شجرة الزقوم، التي وصفها الله تعالى في سورة الدخان في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ﴾^(٢) أي وما جعلناها إلا فتنة لهم، حيث أنكروا ذلك، وقالوا: إن محمداً يزعم أن الجحيم يحرق الحجارة، ثم يقول ينبت فيها الشجر!! ولقد ضلُّوا في ذلك ضلالاً بعيداً، حيث كابروا قضية عقولهم، فإنهم يرون النعمة تبتلع الجمر فلا تضرها، ويشاهدون المناديل المتخذة من وَبَرِ السَّمْنَدِل تُلقَى في النار، فلا تؤثر فيها ولا تحرقها، ويرون أن في كل شجرة ناراً، فجاز أن

(١) انظر صحيح البخاري كتاب التفسير تفسير سورة الإسراء ٨/ ٣٩٨.

(٢) سورة الدخان، الآيات: ٤٣ - ٤٦.

يخلق في النار شجرة لا تحرقها النار ^(١) ﴿وَتُخَوِّفُهُمْ﴾ بذلك وبنظائرها من الآيات، فإن الكل للتخويف، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ متجاوزاً عن الحد، فلو أرسلنا بما اقترحوه من الآيات، لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها، ولا يزدادون إلا تمادياً في الجهل والعناد، وإذا كان الأمر كذلك وجب في الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أي اذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، فامتثلوا للأمر وسجدوا له إلا إبليس اللعين، تكبر وتجبّر، وعصى أمر ربه، والآية تحقيق لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ الآية، ويعلم من حال الملائكة حال غيرهم، من عيسى وعزير عليهما السلام، ومن حال إبليس حال من يعاند الحق، لأنهم إنما عاندوه لأمرين: الكبر، والحسد، وهذه بليّة للخلق ﴿قَالَ﴾ أي عندما وُيخ بقوله عز وجل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تُسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟﴾ ﴿أَسْجُدُ﴾ وأنا من عنصر عال ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ نصب على نزع الخافض أي أسجد لمن خلقت من طين؟ فاستحق بذلك اللعن والطرود من رحمة الله.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(١) هناك ثياب يلبسها رجال الإطفاء ويقتحمون النار بها فلا تحرقها، فلا يستبعد العاقل على قدرة الله، أن تنبت شجرة في النار ولا تأكلها النار، ونحن نرى في عصرنا غرائب وعجائب من صنع الإنسان، فكيف بخالق الأكوان؟

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ ﴾ الكاف للتأكيد أي أخبرني عن ﴿ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ لم كرمته؟ ومراده الاستحقاق ﴿ لِمَنْ آخَرَتَيْنِ ﴾ حياً ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ واللام للقسمة وجوابه ﴿ لَا خَيْرَ لَكَ فِي ذُرِّيَّتِهِ ﴾ لاستأصلهم بالإغواء كقوله: ﴿ لَا غَوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ منهم، وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى.

﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ .

﴿ قَالَ أَذْهَبَ ﴾ أي امض لشأنك الذي اخترته وهو طرد له، وتخلية ما بينه وبين ما سولت له نفسه ﴿ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ ﴾ أي جزاؤك وجزاؤهم، فغلب المخاطب على الغائب ﴿ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ أي جزاء كاملاً وافراً، لا ينقص لكم منه شيء.

﴿ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ﴿ ١٣ ﴾ .

﴿ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ ﴾ استخف واستعجل، وأزعج من استطعت أن تستفزّه ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ أي بدعائك لهم إلى الفساد ﴿ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي صخ عليهم، من الجلبة وهي الصياح ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ بأعوانك من راجل وراكب، من أهل الفساد، قال ابن عباس: إن له خيلاً ورجلاً من الإنس والجن، فما كان من راكب يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس، ومن كان يقاتل في معصية الله، فهو من رجل إبليس، والرجل: اسم جمع للراجل، كالصحب والركب ويجوز أن يكون استفزازه، تمثيلاً لتسلطه على من يغويه ﴿ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ ﴾ بحملهم على كسبها، وجمعها من الحرام، والتصرف فيها بإنفاقها في المعاصي ﴿ وَالْأَوْلَادِ ﴾ بالحث على التوصل

إليهم بالأسباب المحرمة، والإضلال لهم بالحمل على الأديان الزائغة، والجحرف الذميمة، والأفعال القبيحة ﴿وَعَدُّهُمْ﴾ المواعيد الباطلة، كشفاة الآلهة، والالتكاء على كرامة الآباء، وتأخير التوبة بطول الأمل ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي وما يعدهم إلا خداعاً وتضليلاً بوساوسه الكاذبة.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ الإضافة للتشريف، وهم المخلصون من المؤمنين الصادقين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي تسلط وقدره على إغوائهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك، يتوكلون عليه، للخلاص عن إغوائك، والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكيفية كفايته تعالى لهم، أعني سلب قوته، عن إغوائهم بدفع كيده، ويعصمهم من إغوائه، وقد استشكل بعض المتكلمين، خطاب الرب سبحانه للشيطان، وأمر الله تعالى إياه بإغواء البشر، بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ الآية مع قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ الآية؟.

وإنما يشكل هذا كله على ما جرّوا عليه من جعل الخطاب للتكليف، أمّا إذا جعل الخطاب للتكوين، كما صرح به ابن كثير فلا إشكال^(١)، لأنه عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة الشيطان.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَجِيمًا﴾.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ﴾ الإجزاء السوق حالاً بعد

(١) قال الحافظ ابن كثير ٣٨٧/٢: هذا أمرٌ قَدَرِيٌّ، ومعناه: تسلطٌ عليهم بكل ما تقدر عليه. اهـ أقول: لا يراد به أن الله عز وجل يأمره بإغواء البشر، وفنتهم عن الدين، بطرقه الخبيثة، وإنما هو بيان لصفة طبيعة الشيطان، فتنبّه والله يردك.

حال، أي هو القادر الحكيم، الذي يسوق لمنافعكم الفلّك، ويُجريها في البحر ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ من رزقه الذي هو فضل من قبله، وهذا تذكير لبعض النعم التي هي دلائل التوحيد، والمقصود الأعظم في هذا الكتاب الكريم دلائل التوحيد، فإذا امتد الكلام في فصل من الفصول، عاد الكلام إلى ذكر دلائل التوحيد ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ﴾ أي أزلًا وأبدًا ﴿بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث هبًا لكم ما تحتاجون إليه، والمراد بالرحمة: الرحمة الدنيوية، وفي قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ﴾ الضمير عام في حق الكل.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا بَلَغَكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ خوف الغرق ﴿فِي الْبَحْرِ ضَلَّ﴾ ذهب عن خواطركم ﴿مَنْ تَدْعُونَ﴾ كل من تدعونه من دون الله، من الملائكة، والمسيح أو غيرهم ﴿إِلَّا إِلَهُهُ﴾ وحده، من غير أن يخطر ببالكم أحد منهم، وتدعوه لكشفه، أو ضلَّ من تدعونه من إغاثتكم وإنقاذكم، ولم يقدر على ذلك إلا الله عزَّ وجلَّ ﴿فَلَمَّا بَلَغَكُمُ﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن التوحيد ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ للنعم، والصيغة للمبالغة، أي كثير الكفران لنعم الرحمن.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، أي نجوتم فحملكم ذلك على الإعراض ﴿أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ الذي هو مأمركم أي يقبله الله عليكم ملتبساً بكم، وحاصل المعنى: أن الجوانب كلها بالنسبة إلى قدرته عزَّ وجلَّ سواء، برأ كانت أو بحرأ، ليس جانب البحر وحده، مختصاً بسبب الهلاك، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البرِّ الخسفُ

والزلازل، والفيضانات ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً ترمي بالحصباء أي نمطر عليكم حجارة من السماء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يحفظكم عن ذلك، أو يصرفه عنكم، فإنه لا رادّ لأمره الغالب.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ ﴿٦٩﴾

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي يعيدكم في البحر ﴿تَارَةً﴾ مرة ﴿أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾ أي عاصفاً ﴿مِّنَ الرِّيحِ﴾ وهي التي لا تمرُّ بشيء إلاَّ كسرتة، أو الريح التي لها قصف وهو الصوت الشديد ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ بعد كسر سفينتكم كما ينبيء عنه عنوان القصف ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراككم وكفرانكم لنعمة الإنجاء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي ثائراً متابعاً، يطالبنا بما فعلنا، ذكراً للثأر، كما يفعله الأقوياء.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿٧٠﴾

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي كرمناهم بحسن الصورة، واعتدال القامة، والتميز بالعقل، والإفهام بالنطق، والخط والاهتداء إلى أسباب المعاش، وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة، ومن جملة ذلك أن كل حيوان يتناول طعامه بفمه إلا الإنسان، فإنه يرفعه إليه بيده ﴿وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ على الدواب والسفن، وليس من المخلوقات شيء كذلك ﴿وَرَزَقْنَهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فنون النعم، وضروب المستلذات ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ في العلوم، والإدراكات بما رغبنا فيهم من القوى المدركة، التي بها يتميز الحق من الباطل، والحسن من القبح ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ وهم ما عدا الملائكة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «المؤمن أكرم على الله من الملائكة، لأنهم مجبولون على الطاعة، ففيهم عقل بلا شهوة،

وفي البهائم شهوة بلا عقل، وفي الآدمي كلاهما، فمن غلب عقله شهوته، فهو أكرم من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم ﴿تَفْضِيلًا﴾ عظيمًا، فحقَّ عليهم أن يشكروا هذه النعم، ولا يكفروها، وليس فيه دلالة على أفضلية الملائكة، فإن المراد ههنا بيان التفضيل في أمر مشترك بين جميع أفراد البشر صالحها وطالحها، ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضل في عظيم الدرجة، وزيادة القربة عند الله سبحانه.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاثٍ بِأُمِّهِمْ فَمَنْ أَوْقَىٰ كَتَبَتْهُ يَمِينُهُ
فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَانًا﴾ (٧١).

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاثٍ بِأُمِّهِمْ﴾ أي ندعو كل شخص من بني آدم، وهذا شروع في بيان تفاوت أحوالهم في الآخرة، بحسب أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وقوله سبحانه: ﴿بِأُمِّهِمْ﴾ أي بكتاب أعمالهم فيقال: «يا أهل كتاب الخير، ويا أهل كتاب الشر» ويدل على أن المراد بالإمام هو كتاب الأعمال، قوله سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَخَصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَمَنْ أَوْقَىٰ﴾ يومئذ من أولئك المدعوين ﴿كِتَابَهُ﴾ صحيفة أعماله ﴿يَمِينُهُ﴾ إبانة لخطر الكتاب المؤتمى، وتشريفًا لصاحبه، وتبشيرًا له بما في مطاويه ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى «مَنْ» باعتبار معناه، إيدانًا بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل ﴿يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ﴾ الذي أوتوه على الوجه المبين، ابتهاجًا وتبجحًا بما يرون فيه من الحسنات ﴿وَلَا يَظْلُمُونَ﴾ أي لا يُنقصون من أجور أعمالهم، بل يُؤتونها مضاعفة ﴿فِتْيَانًا﴾ أي قدر فتيل، وهو القشرة التي في شِقِّ النواة، أو أدنى شيء كان، والفتيل مثلٌ في القلة والحقارة.

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٢).

﴿وَمَنْ كَانَتْ﴾ من المدعوين المذكورين ﴿فِي هَذِهِ﴾ الدنيا التي فعل

بهم ما فعل، من فنون التكريم والتفضيل ﴿أَعْمَى﴾ فاقد البصيرة لا يهتدي إلى رشد، ولا يعرف ما أوليناه به من التكريم، فضلاً عن شكرها، والقيام بحقوقها ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ أي لا يهتدي إلى ما ينجي، لأن العمى الأول موجب للثاني، وفيه قولان: الأول: عمى البصيرة، والثاني: عمى العين، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا؟ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى^(١) ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي من الأعمى فاقد البصر، لزوال الاستعداد، وتعطيل الآلات بالكلية.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرٌ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا﴾.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ نزلت في وفد ثقيف إذ قالوا للرسول ﷺ لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصلاً نفتخر بها على العرب، وأن تحرم وادينا كما تحرم مكة وإن قالت العرب لم فعلت فقل إن الله أمرني بذلك فأمسك رسول الله ﷺ عنهم، وداخلهم الطمع فصاح عليهم عمر وقال: أما ترون رسول الله ﷺ قد أمسك عن الكلام، كراهية لما تذكرونه، فأنزل الله هذه الآية والمشركون كانوا يسعون في إبطال أمره ﷺ، فتارة كانوا يقولون: «إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهتك» فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ السورة وعرضوا عليه الأموال الكثيرة، والنساء الجميلة، ليترك الدعوة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا﴾ الآية. أي قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من أوامرنا ونواهيها ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرٌ﴾ لتقول علينا غير الذي أوحينا إليك ﴿وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا﴾ أي لو اتبعتهم على أهوائهم لكنت لهم خليلاً، ولخرجت من ولايتي.

(١) سورة طه، آية: ١٢٥ - ١٢٦.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٦).

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ﴾ على ما أنت عليه من الحق بعصمتنا لك ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ من الركون الذي هو أدنى ميل، أي لولا تثبيتنا لك، لقاربت أن تميل إليهم شيئاً يسيراً، من الميل اليسير، لقوة خدعهم، لكن أدركتك العصمة، فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون إليهم، وهذا صريح في أنه ﷺ ما هم بإجابتهم، ودليل على أن العصمة بتوفيق الله تعالى، وعنايته، وهذا تهيج من الله تعالى له، فلما نزلت كان ﷺ يقول: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفه عين».

﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٧٥).

﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ميل ﴿لَأَذَقْنَاكَ﴾ عذاب الدنيا والآخرة، ضعف ما يُعَذَّب به في الدارين، بمثل هذا الفعل غيرك، لأن خطأ الخطير أخطر، وكان أصل الكلام عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات، بمعنى مضاعفاً وقيل: ضعف الممات «عذاب القبر» ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنك العذاب، وينصرك منا.

«التقليد الأعمى للأجانب»

لقد ضعفت في هذا العصر عصبية المذاهب، ولا سيما في الفروع، فإن الجهل بحقيقته صار عاماً، وبعض العلماء أعماهم التقليد، عن النظر في مصالح الأمة، والسير بالقضاء والإدارة والسياسة، على ما تجددت عليه المصالح، حتى اقتنع بحكامها الجاهلون في أكثر البلاد، بأن الشريعة لم تعد كافية، فصاروا يقلدون الإفرنج فيما اشترعوا لأنفسهم من القوانين،

التي يرونها موافقة لعاداتهم، وآدابهم، وعقائدهم، وتقاليدهم، وإن لم تكن موافقة للمسلمين في شيء من ذلك، ولم يعقلوا ما في هذا التقليد من المفسدات السياسية والاجتماعية، المضعف للأمة في دينها ودنياها، بل حسبوا بجهلهم أنهم بهذا يكونون كالدول الأوروبية، في عزتها وثروتها، فكانت عاقبة هذا الإغواء أن سلبهم أولئك المغوون ملكهم، وجعلوهم أسلحة وآلات بأيديهم يذللون بهم أممهم، فلم يستطيعوا أن يقضوا على استقلال مملكة إسلامية، وقد اجتهد أولئك الطامعون المغوون بإفساد أفكار الشعوب الإسلامية وقلوبها فبنوا فيها الدعاة الفسقة، لتشكيكها في القرآن والنبوة، ومنهم من يشكك في أصل الدين، أي وجود الإله وبعثة الرسل، كما بنوا فيها دعاة السياسة، يرغبونها في قطع الرابطة الدينية، التي تربط بعضها ببعض، واستبدال الرابطة الجنسية أو الوطنية بها، فكانت عاقبة ذلك، وقوع العداوة بين الترك والعرب، غير هؤلاء بفساد أمرائهم وزعمائهم ما بأنفسهم، فغَيَّرَ الله ما بهم، وسلبهم عزهم، وسلطانهم، وهؤلاء هم: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(١) .

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٦١) .

﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ أي أهل مكة ﴿لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ أي ليزعجونك بمعاداتهم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أرض مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ هم المشركون أن يخرجوه منها، فكفهم الله تعالى عنه، حتى أمره بالهجرة، فخرج بنفسه ﷺ ﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ﴾ أي لا يقون ﴿خَلْفَكَ﴾ أي بعدك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا زماناً قليلاً، وقد كان كذلك، فإنهم أهلكوا ببدر بعد هجرته ﷺ بسنة .

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٤ .

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (٧٧).

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي سنَّ الله سنةً، والمعنى: هذه عادة الله جل وعلا مع رسله، أن يهلك كل أمة، أخرجت رسولها من بين أظهرهم، وإضافتها إلى الرسل، لأنها سُنت لأجلهم، على ما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي تغييراً وتبديلاً.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨).

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي حافظ على الصلوات في أوقاتها لكي ينصرك الله، أمره تعالى بالإقبال على عبادته، لكي ينصره عليهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ الآية ﴿لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ الذلوك: هو الزوال، وهو قول عطاء وقتادة، ومجاهد، وأكثر التابعين، والآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها، فذلوك الشمس يتناول الظهر والعصر ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي ظهور ظلمته، وهذا يتناول المغرب والعشاء، وليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار، بل إقامة كل صلاة في وقتها، الذي عُيِّن لها ببيان جبريل عليه السلام ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ أي صلاة الفجر، سميت قرآنًا لأنه ركنه ولطول قراءتها ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهده ملائكة الليل والنهار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفضل صلاةُ الجمع، صلاةُ أحدكم وحده، بخمس وعشرين جزءاً، وتجتمع ملائكة الليل وملائكةُ النهار في صلاة الفجر، ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾» (١).

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٤٥ بنحوه.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ﴿٧٩﴾

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ أي قم بعض الليل ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ أي أزل وألق الهجود عنك أي النوم وتعبد ربك في ظلمة الليل تطوعاً ﴿بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فريضة زائدة على الصلوات المفروضة، خاصة بك، زيادة له ﷺ في الدرجات ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ﴾ الذي يبلغك إلى كمالك بعد الموت الأكبر، كما انبعث من النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ عندك وعند جميع الناس، وفيه تهوين لمشقة قيام الليل عن المغيرة بن شعبة قال: قام رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقليل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة، والفضيلة، وابعته مقاماً محموداً الذي وعده، حلت له شفاعتي يوم القيامة»^(٢)

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ ﴿٨٠﴾

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي﴾ أي القبر ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي إدخالاً مرضياً ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ منه عند البعث ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي إخراجاً مرضياً ملقى بالكرامة وقيل: المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة، ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ حجة تنصرني على من يخالفني، وعزاً ناصراً للإسلام،

(١) أخرجه البخاري رقم ١١٣٠. ومسلم في المناققين رقم ٢٨١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٦١٤.

مظهراً له على الكفر، فأجيبته دعوته ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَغْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ألا إن حزب الله هم الغالبون.

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٨١).

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ الإسلام والقرآن ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ أي ذهب وهلك الشرك والكفر، من زهق روحه إذا خرج ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ أي شأنه أن يكون مضمحلاً، غير ثابت، وهو عِدَّةٌ كريمة بإجابة الدعاء، عن عبد الله ابن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنهما بعود في يده، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يُبْدِئ الباطل وما يعيد»^(١).

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٨٢).

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ لما في الصدور، شفاءً للأمراض الباطنة، والظاهرة، فالأمراض الباطنة إما اعتقادات فاسدة، وإما أخلاق ذميمة، فالقرآن الكريم مشتمل على الدلائل القاطعة لمذاهب الحق، ولإبطال المذاهب الفاسدة، ومشتمل أيضاً على التنفير من الأخلاق المذمومة، والإرشاد إلى الأخلاق المجودة والأعمال الفاضلة، وأما كونه شفاءً، من الأمراض الجسمانية، فإن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض، يدل عليه قوله ﷺ في فاتحة الكتاب «وما يدريك أنها رُقِيَّة»؟^(٢)

(١) أخرجه البخاري ١٤/٨ في المغازي ومسلم رقم ١٧٨١ في الجهاد.

(٢) هذا طرف من حديث شريف أخرجه البخاري في قصة الصحابي الذي رقى بفاتحة الكتاب رئيس قبيلة فسفي بإذن الله، فلما أخبر الرسول ﷺ بذلك، قال له: «وما يدريك أنها رُقِيَّة»؟

ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة بأن لقراءة الرُّقَى المجهولة، التي لا يفهم منها شيء آثاراً في تحصيل المنافع، ودفع المفاسد، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم، المشتمل على ذكر الله، وكبريائه، سبباً لحصول النفع، كان أولى ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي تفريجاً للكروب، وتطهيراً للعيوب، وتكفيراً للذنوب ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ و «مِنْ» بيانية، فإن القرآن كله شفاء ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي لا يزيد القرآن الكافرين المكذبين، إلا شقاءً وبلاءً، وهلاكاً ودماراً، فإن ما بهم من داء الكفر والضلال، حقيق بأن يكون سبباً للشفاء والهلاك، فسماع القرآن الكريم يزيدهم غيظاً وغضباً، وحقداً وحسداً، وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم إلى الأعمال الباطلة والهلاك المؤبد، وإسناد الزيادة للقرآن مع أنهم هم المزدادون في ذلك، بسوء صنيعهم، باعتبار كونه سبباً لذلك، وفيه تعجيبٌ من أمر القرآن العظيم، حيث يكون مداراً للشفاء والهلاك.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِحَيْنِيئِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ

يَتُوسَّ﴾

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ بالصحة والنعمة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا فضلاً عن القيام بموجب الشكر ﴿وَنَسَى بِحَيْنِيئِهِ﴾ تأكيد للإعراض، والنأي بالجانب عبارة عن الاستكبار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ من فقر، أو مرض، أو نازلة من النوازل ﴿كَانَ يَتُوسَّ﴾ أي شديد اليأس من روحنا «ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»، وهذا وصفٌ للجنس باعتبار بعض أفرادهم، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُوْ دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ ونظائره، فإن ذلك شأن بعض الآخرين منهم، وفي إسناد المساس إلى الشر، بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة، إيذانٌ بأن الخير مرادٌ بالذات، والشر ليس كذلك.

﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ .

﴿قُلْ كُلُّ﴾ أي كلُّ أحد منكم ومن هو على خلافكم ﴿يَعْمَلُ﴾ عمله ﴿عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أي على طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلال، والعقلاء اختلفوا في أن النفوس البشرية، هل هي مختلفة بالماهية أم لا؟ منهم من قال بالأول، وقال: إن اختلاف أفعالها وأحوالها لأجل اختلاف جواهرها وماهيتها، ومنهم من قال متساوية في الماهية، واختلاف أفعالها لاختلاف أمزجتها، والمختار عندي هو الأول، والقرآن مشعرٌ بذلك، وذلك لأنه تعالى بيّن في الآية المتقدمة، أن القرآن بالنسبة إلى البعض يفيد الشفاء والرحمة، وبالنسبة إلى الآخرين يفيد الخسار والخزي، ثم أتبعه بقوله: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ ومعناه أن اللائق بتلك النفوس الطاهرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال، وبتلك النفوس الكدرة، أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزي والضلال، كما أن الشمس تعقد الملح، وتلّين الدهن، وتبيض ثوب القصار، وتسود وجهه، فكل أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه، فإن كانت نفسه مشرقة طاهرة خيرة، صدرت عنه أفعال فاضلة، وإن كانت نفسه كدرة خبيثة، صدرت عنه أفعال خسيصة وفاسدة ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ .

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا

قَلِيلًا﴾ .

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ أي ربكم جلّ وعلا أعلم بالمهتدي والضال منكم، وسيجزي كلَّ عامل بعمله، عن عبد الله بن مسعود قال: «بيننا أنا أمشي مع النبي ﷺ، فمر بنفرٍ من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح؟ فقام إليه رجل منهم، فقال يا أبا القاسم: ما الروح؟ فأمسك النبي ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمْتُ مقامي، فأنزل الله

عزَّ وجلَّ ﴿ويسألونك عن الروح...﴾^(١) الآية وعن ابن عباس أن السائل إنما سأل به بتكليف من اليهود، والظاهر أن السؤال كان عن حقيقة الروح، الذي هو يدبّر البدن الإنساني، ومبدأ حياته ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ كلمة «مِنْ» بيانية، أي الروح من إبداع الله عزَّ وجلَّ من غير تولّد من أصل، والأمر بمعنى الشأن والإضافة للاختصاص، أي أمر الروح من جنس ما استأثر الله بعلمه، من الأمور الخفية، التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وما علمكم أيها البشر جميعاً، إلا شيء قليل وضئيل، بالنسبة لعلم الله جلَّ وعلا، وهذا العلم تستفيدونه من طرق الحواس، فإن تعلق المعارف النظرية، إنما هو من إحساس الجزئيات، ولذلك قيل: من فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلْمًا، ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحسُّ، ولا شيئاً من أحواله، التي يدور عليها معرفة ذاته، فثبت أن أكثر الماهية والحقائق مجهولة، والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك مخلوق مجاوز له، ليدلَّ على أنه عن إدراك ذات خالقه أعجز، وما قيل في تعريف الروح أنه جسم دقيق هوائي، في كل جزء من الحيوان، وقال بعضهم: هو الدم، وقال قوم هو نفس الحيوان، بدليل أنه يموت باحتباس النفس، وقال قوم هو جسم لطيف يحيا به الحيوان، كل ذلك مما لا دليل عليه، وإنما هو تكهن، وأولى الأقوال بالصواب أن يوكل علمه إلى الله تعالى، وهو قول أهل السنة.

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا
وَكَيْلًا﴾ (٨١)

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ومنبئ للعلوم، واللام الأولى موطئة للقسَم، و«لنذهب»

(١) الحديث أخرجه الشيخان عن ابن مسعود وانظر فتح الباري ٨/ ٤٠١ كتاب التفسير.

جوابه النائب مناب جزاء الشرط، فالمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن، ومحوناه من الصدور والمصاحف، وهذا وإن كان أمراً مخالفاً للعادة، إلا أنه تعالى قادر عليه ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُكَ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي من يتوكل استرداده، مسطوراً محفوظاً.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (٨٧)

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي إلا أن يرحمك ربك فيردّه عليك، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً، بمعنى: ولكن رحمة من ربك، تركته غير مذهب به، فيكون امتناناً على رسوله، بإبقائه في صدره بعد المنّة بتزيله، وترغيباً في المحافظة على أداء حقوقه ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ بجعلك رسولاً، وإنزال الكتاب عليك، وإبقائه في حفظك، وجعلك سيد ولد آدم، وختم النبيين بك، وإعطائك المقام المحمود، فلما كان كذلك، لا جرم أنعم عليك، بإبقاء العلم في صدرك، وإنزال القرآن عليك.

﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨)

﴿قُلْ﴾ للذين لا يعرفون جلاله قدر التنزيل، ولا يفهمون فخامة شأنه الجليل، بل يزعمون أنه من كلام البشر ﴿لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة، في البلاغة، وحسن النظم، وكمال المعنى وتخصيص الثقلين بالذكر، لأن المنكر لكونه من عند الله منهما لا من غيرهما، لا لأن غيرهما قادر على المعارضة ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ أي لا يأتون بكلام مماثل له، فيما ذكر من الصفات البديعية، وفيهم أرباب البراعة والبيان، وهو جواب القسم ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي ولو اجتمع أرباب الفصاحة والبيان، من الإنس والجان، وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لم

يقدرُوا على ذلك، نزلت الآية الكريمة حين قال المشركون: لو نشاء لقلنا مثل هذا، فكذبهم الله عز وجل، لأنه كلام الخالق، لا كلام المخلوق، وهم أعجز من أن يأتوا بمثل سورة منه!!

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝۸۹﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ .

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كَرَّرْنَا وَرَدَّدْنَا الحجج والبراهين ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي بيَّنا للناس في هذا الكتاب المعجز ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل معنى بديع، هو في الحسن والغرابة، ووقوعه في الأنفس كالمثل، ليتلقوه بالقبول ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ المراد بأكثر الناس أكثر أهل مكة، وهم الكفار، أوتر الإظهار تأكيداً وتوضيحاً ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي إلا تكذيباً للحق وجحوداً لآيات الله .

﴿وَقَالُوا﴾ عند ظهور عجزهم عن معارضة القرآن ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أرض مكة ﴿يَنْبُوعًا﴾ عيناً لا ينضب ماؤها، تتدفق خلال وديان مكة .

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝۹۱﴾ .

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ بستان تستر أشجاره ما تحتها ﴿فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ﴾ أي تجريها بقوة ﴿خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ كثيراً، والمراد سقيها وإدامة إجرائها بقوة وغزارة .

﴿أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝۹۲﴾ .

﴿أَوْ شُقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ جمع كِسْفَةٍ كَقِطْعَةٍ وَقِطْعٍ، لفظاً ومعنى، أي إسقاطاً مماثلاً لما زعمت كما كنت تخوفنا ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي مقابلاً أو كفيلاً بما تقول، وشاهداً يشهد بصحة ما تدّعيه من أنك رسول الله.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ﴾ من ذهب، وأصله الزينة ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أي في معارجها، فحذف المضاف يقال رقى في السلم ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُفَيْكَ﴾ أي لأجل رفيك فيها وحده ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ فيه تصديقك ﴿نَقْرُؤُهُ﴾ نحن بأنفسنا من غير أن يتلقى من قبلك ﴿قُلْ﴾ تعجباً من شدة شكيمتهم، وتنزيهاً لساحة الرب جلّ وعلا من مثل هذه الافتراحات ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ لا ملكاً حتى يتصور لي الرقي في السماء ﴿رَسُولًا﴾ مأموراً من قبل ربي لتبليغ الرسالة كسائر الرسل؟ روي عن ابن عباس «أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة، فبعثوا إلى الرسول ﷺ فجاءهم فقالوا يا محمد: إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب، أدخل على قومه ما أدخلت على قومك!! لقد عبت الدين، وسفّهت الأحلام، وشتت الآلهة، وفرقت الجماعة، فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً، جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد الشرف، سوّدناك علينا، وإن كان هذا الذي بك رثياً تراه، قد غلب عليك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه (وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي) فقال ﷺ: ما بي ما تقولون، وما جئتكم بما جئتكم به لطلب المال، ولا للشرف عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر

لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم^(١)، فلما قال ذلك، تفوهوا بالافتراحات الباطلة وما كانوا يقصدون بتلك الافتراحات، إلا الاستهزاء، واللجاج، والعناد.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ الذين حكيت أباطيلهم يعني أهل مكة ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي النبي والقرآن المعجز، أي ما منعهم الإيمان بعد ظهور الحق، أن يؤمنوا بالقرآن ونبوتك ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أي إلا قولهم ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ منكرين أن يكون رسول الله، من جنس البشر مرسلاً إلى الخلق فلماذا يكون بشراً ولا يكون ملكاً؟! وفيه إيدان بكمال عنادهم، حيث جعلوا بعثة الرسول من البشر، مانعاً لهم من الإيمان، ولم يستبعدوا أن تكون آلهتهم من الحجر!!

﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ﴾

﴿قُلْ﴾ تبياناً للحكمة، وتحقيقاً للحق المزيح للريب ﴿لَوْ كُنَّا﴾ لو وُجد واستقر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بدل البشر ﴿مَلَائِكَةً يَمُشُونَ﴾ كما يمشي بنو آدم ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنين وقارين فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ يهديهم إلى الحق، لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي عنه، لأن الجنس إلى الجنس أميل، وأما عامة البشر فبعث الملك إليهم، معارضاً

(١) انظر تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٣٦٣/٢ بتحقيقنا، ومختصر تفسير ابن كثير ٣٩٩/٢.

للحكمة التي عليها بُني التكوينُ والتشريع، وإنما يُبعث المَلَك من بينهم إلى الخواص، المختصين بالنفوس الزكية، المؤيدين بالقوة القدسية، المتعلقين بالعالم الروحاني، والجسماني، ليتلقوا من جانب، ويلقوا إلى جانب.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْرًا خَيْرًا بَصِيرًا﴾ (١٦).

﴿قُلْ﴾ لهم ثانياً من جهتك ﴿كَفَى بِاللَّهِ﴾ وحده ﴿شَهِيدًا﴾ على أنني أدبت ما عليّ من مواجب الرسالة أكمل أداء، وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وإنما لم يقل: بيننا، تحقيقاً للمفارقة، وإبانة للمباينة ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْرًا﴾ من الرسل والمرسل إليهم ﴿خَيْرًا بَصِيرًا﴾ محيطاً بظواهر أحوالهم وبواطنها، فيجازيكم على ذلك، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتهديد للكفار.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُنْذِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ عَمِيَائٌ وَبُكْمٌ وَأَصْمَاءٌ وَلَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَرْتَ رَبَّنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (١٧).

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ أي من يهده الله إلى الحق بما جاء من قبله من الهدى ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ فهو المهتدي إلى كل مطلوب ﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾ أي يخلق فيه الضلال، بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ﴾ أوثر ضمير الجماعة باعتبار المعنى للفظ «مَنْ» في مقابلة الأفراد، نظراً إلى لفظهما، تلويحاً بوحدة طريق الحق، وقلة سالكيه، وتعدد سبيل الضلال وكثرة الضالين ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ من دون الله تعالى، أي أنصاراً يهدونهم إلى طريق الحق، وإلى طريق النجاة من العذاب، الذي يستدعيه ضلالهم

﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم، إيداناً بكمال الاعتناء بأمر الحشر ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي كائنين عليها سحبا أو يمشون بها كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ روى الشيخان عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليس الله الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا، قادراً أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة حين بلغه: بلى وعرة ربنا»^(١) ﴿عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ روي أن واحداً قال لابن عباس: أليس أنه تعالى يقول: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ وقال: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا﴾ وقال: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ فثبت بهذه الآيات أنهم يرون، ويسمعون، ويتكلمون، فكيف قال ههنا: ﴿عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾؟ قال ابن عباس: أي إنهم لا يبصرون ما يُقَرُّ أعينهم، ولا يسمعون ما يُلدُّ مسامعهم، ولا ينطقون ما يُقبل منهم، لأنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر، ولا ينطقون بالحق، ولا يستمعونه، ويجوز أن يُحشروا بعد الحساب من الموقف إلى النار، عمياً وبكماً وصماً، وقبل ذلك كانوا يسمعون ويبصرون ويتكلمون، فإن إدراكاتهم في بعض المواطن، ممّا لا ريب فيه ﴿مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبَتْ﴾ أي مستقرهم ومقامهم في نار جهنم، كلما سكن لهبها، بأن أكلت جلودهم ولحومهم ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ توقداً بأن بدلناهم جلوداً غيرها، فعادت ملتتهبة، عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة، ليروها عياناً حيث لم يغلموها برهاناً.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا وَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ﴾ أي العذاب المذكور ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم

(١) الحديث أخرجه البخاري ٣٧٧/١١ في الحشر، ومسلم رقم ٢٨٥٩ في الحشر أيضاً.

﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ العقلية، والنقلية، الدالة على الإعادة بعد الإفناء
 ﴿ وَقَالُوا ﴾ منكرين ﴿ أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَقْنَا أَلِفًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أي هل
 سنبعث بعد أن نصبح ذرات متفتتة، وعظاماً نخرة بالية؟

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ
 مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ ٩٩ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ ﴾ من غير مادة مع عظمها ﴿ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ فإنهم ليسوا
 أشد خلقاً منهم، ولا الإعادة أصعب من الإبداء، والمراد بالخلق الإعادة
 كما عبّر عنها بذلك حيث قال: ﴿ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ
 فِيهِ ﴾ والمعنى: قد علموا أن من قدر على خلق السموات والأرض، فهو
 قادر على خلق أمثالهم من الإنس، وجعل لهم ولبعثهم أجلاً محققاً لا ريب
 فيه، هو يوم القيامة ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ ﴾ وضع الظاهر ﴿ الظالمون ﴾ موضع
 الضمير، تسجيلاً عليهم بالظلم، وتجاوز الحد ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي جحوداً
 وعناداً، مع وضوح الحق والدليل.

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَا أَمْسَكُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ ١٠٠ .

﴿ قُلْ ﴾ للكفار الذين طلبوا منك إجراء الأنهار والعيون، في بلدتهم
 لتكثر أموالهم ﴿ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ خزائن رزقه التي أفاضها
 على كافة الموجودات ﴿ إِذَا لَا أَمْسَكُمْ ﴾ أي لبخلتم ﴿ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ أي
 مخافة النفاق بالإنفاق ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ أي مبالغاً في البخل، لأن مبنى
 أمره على الحاجة، والضيئة بما يحتاج إليه، وليس في الدنيا أحدٌ إلا وهو
 يختار النفع لنفسه، ولو أثر غيره بشيء، فإنما يؤثره ليعوض يفوقه، فإذا هو

بخيل، بالنسبة إلى جود الله سبحانه، فإن قيل: قد يوجد في الناس من هو جواد كريم، فكيف يوصف بالبخل؟ قلت: الأصل في الإنسان البخل، لأنه خلق محتاجاً، والمحتاج لا بد أن يحب ما يدفع عنه ضرر الحاجة ويمسكه لنفسه، إلا أنه قد يوجد لأسباب خارجية، مثل أن يحب المدح، أو رجاء الثواب.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَثَّلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ۝﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي لقد أعطينا موسى الكليم تسع معجزات خارقة، واضحة الدلالة على صدق رسالته، وصحة ما جاء به من عند الله، وهي: اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وانفلاق البحر، والأخذ بالسنين أي القحط لآل فرعون، وله خوارق أخرى، منها انفجار الماء من الحجر، وتنق الطور، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها من المعجزات، لم تكن منزلة إذ ذاك، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ روي قول آخر ورد في حديث شريف عن صفوان بن عسال أنه قال: «إن يهودياً قال لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي، نسأله عن تسع آيات؟ فذهبوا إلى النبي ﷺ وسألاه عنها، فقال هن: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تولوا الفرار من الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدوا في السبت، فقام اليهوديان فقَبَلَا يديه وقالوا: نشهد أنك نبيٌّ ولولا أن نخاف القتل اتبعناك»^(١) ﴿فَمَثَّلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أي فاسألهم يا محمد عن تلك الآيات، لتزداد يقيناً بما يوحى إليك، وليظهر صدقك عندهم ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ يعني

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٤٤ وقال: حسن صحيح.

حين جاء موسى عليه السلام إلى فرعون بالرسالة ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ﴾ أي فأظهر عند فرعون ما آتيته من الآيات البيّنات وبلغه ما أرسل به، فقال له فرعون ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾^(١) أي سُحِرْتَ فتخبّط عقلك.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَٰبِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾^(١٠٦).

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ﴾ الآيات التي أظهرها ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما، والتعرض لربوبيته تعالى لهما، للإيدان بأنه لا يقدر على تلك الآيات، إلا خالقهما ومربيهما ﴿بَصَٰبِرٍ﴾ أي بينات مكشوفات، تبصرك صدقي، ولكنك تعاند ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ مصروفاً عن الخير، مطبوعاً على الشر، ولقد قارع عليه السلام ظنه بظنه، وشتان ما بين الظنين، كيف لا وظن فرعون إفاك مبين، وظنه عليه السلام يحوم حول اليقين!!

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا﴾^(١٠٧).

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ﴾ أي أن يستخف موسى عليه السلام وقومه، وينفيهم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أرض مصر، أو من الأرض مطلقاً بالاستئصال ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ أي فعكسنا عليه مكره، واستفززناه وقومه بالإغراق، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله.

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾^(١٠٨).

(١) الظن هنا بمعنى العلم وإنما عبّر بالظن ليقابل قول فرعون له ﴿لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد إغراقهم ﴿لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَتَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يستفزكم منها ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي فإذا جاء وقت قيام القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ مختلطين ثم نحكم بينكم، واللفيف الجماعات المختلفة من أجناس شتى.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق المقتضي لإنزاله، وما نزل إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه، ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيع بالشواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعاصين بالعقاب.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ﴾ أي نزلناه مفروقاً ومنجّماً دلالة على كثرة آياته ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ على مهل وتؤده، فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وعلى حسب الحوادث، نزل به جبريل الأمين، على قلب خاتم المرسلين، وفيه الهدى والشفاء. قال الراوي: اشتكى محمد بن السماك، فأخذنا ماءه وذهبنا به إلى طبيب، فاستقبلنا رجلاً حسن الوجه، طيب الرائحة، نقي الثوب، فقال لنا: إلى أين؟ فقلنا له إلى فلان الطبيب، نريه ماء ابن السماك، فقال: سبحان الله، تستعينون على وليي الله بعدو؟ ارجعوا إلى ابن السماك وقولوا له: ضع يدك على موضع الوجع، وقل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ ثم غاب فلم نره، فرجعنا إلى ابن السماك فأخبرناه بذلك، فوضع يده على موضع الوجع، فقال ما قال الرجل، وعوفي في الوقت.

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ ﴿١٠٧﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ للذين كفروا على وجه التهديد والإنكار ﴿ ءَامِنُوا بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً، وامتناعكم عنه لا يورثه نقصاً، والله تعالى أوضح البينات والدلائل، فاختاروا النعيم المقيم، أو العذاب الأليم، وفيه وعيد وتهديد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي العلماء الذين قرؤوا الكتب السالفة، من قبل تنزيله، وعرفوا حقيقة الوحي، وأمارات النبوة، وتمكنوا من معرفة الحق والباطل، وهم مؤمنو أهل الكتاب، منهم «زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعبد الله بن سلام» ونحوهم ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ ﴾ أي القرآن العظيم ﴿ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ أي يسقطون على وجوههم ﴿ سُجَّدًا ﴾ تعظيماً لأمر الله، وشكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثتك، وتخصيص الأذقان بالذكر، للدلالة على كمال التذلل، وهو كناية عن غاية الخشوع، والمقصود من ذكر هذا اللفظ، مسارعتهم إلى السجود، حتى إنهم يسقطون سجداً لله أي إن لم تؤمنوا به، فقد آمن به من هو خير منكم.

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ في سجودهم ﴿ سُبْحَنَ رَبِّنَا ﴾ عما يقول الكفرة من التكذيب، وعن خُلف الوعد ﴿ إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، أي إن الحال والشأن أن وعد الله حق، واقع لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ كَرَّرَ الخرور لاختلاف السبب، فإن الأول لتعظيم أمر الله، والثاني: لما أثر فيهم من مواظب القرآن، حال كونهم

باكين من خشية الله ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أي القرآن بسماعهم ﴿خُشُوعًا﴾ ﴿لِينْ قَلْبَ وَرَطُوبَةَ عَيْنٍ﴾ كما يزيدهم علماً ويقيناً لله تعالى. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار، عينٌ بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»^(١).

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٢).

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ نزل حين سمع المشركون رسول الله ﷺ يقول: يا الله، يا رحمن، فقالوا: إنه ينهانا عن عبادة إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر، والمراد هنا في الآية: التسوية بين اللفظين، بأنهما عبارتان عن ذات واحدة، والتوحيد إنما هو للذات والدعاء بمعنى التسمية وأو للتخيير ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والتنوين في ﴿أَيًّا﴾ عوض عن المضاف إليه، وأصل الكلام أي ما تدعو فهو حسن، فوضع موضعه ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ للمبالغة، والدلالة على ما هو الدليل عليه، إذ حُسْنُ جميع أسمائه، يستدعي حسن الاسمين الجليلين لدلالتهما على صفات الكمال ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا﴾ أي لا تجهز بالقراءة في صلاتك، بحيث تُسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السبِّ واللغو فيها، ولا تخافت بقراءتها، بحيث لا تُسمع من خلفك من المؤمنين ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي أمراً وسطاً، فإن خير الأمور أوسطها. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ قال: كان ﷺ بمكة إذا صلى بأصحابه، رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فإذا سمعه المشركون سُبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَنَبِيِّهِ ﷺ ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾^(٣) الآية وقيل نزلت الآية

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ١٦٣٩ في فضائل الجهاد.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٤٠٥/٨ ومسلم برقم ٤٤٦ في الصلاة.

في الدعاء، وهو قول عائشة، والنخعي، ومجاهد، ومكحول، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ الآية قالت: «نزل ذلك في الدعاء»^(١) وعن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: مررت بك وأنت تقرأ القرآن، وأنت تخفض من صوتك، فقال: «إني أسمعت من ناجيت، فقال ارفع قليلاً، وقال لعمر: مررت بك وأنت تقرأ وأنت ترفع من صوتك، فقال: إني أوقظ الوُستَّانَ، وأطرد الشيطان، فقال: اخفض قليلاً»^(٢).

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا﴾ كما يزعم النصارى واليهود حيث زعموا المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بناتُ الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كما يقوله الكفار القائلون بتعدد الآلهة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ﴾ أي مانع وناصر ﴿مِنَ الذَّلِيلِ﴾ لاعترازه به، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة ليدفعها به، والمعنى: ليس جلّ وعلا بذليل حتى يحتاج إلى الولي والنصير، وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة، إيذان بأن المستحق للحمد، مَنْ هذه نعوته دون غيره، إذ بذلك يتم الكمال، والقدرة التامة ﴿وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظمه وصفه بأنه أكبر من أن يكون له ولد، وشريك، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الدعاء الحمد لله» وأفضل الذكر «لا إله إلا الله»^(٣).

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة موقوفاً، وانظر فتح الباري ٤٠٥/٨.

(٢) أخرجه الترمذي في المواقيت، وأحمد في المسند ١٠٩/١.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٣٨٠ وابن ماجه رقم ٣٨٠٠ في الأدب.

والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه وبالله العصمة والتوفيق، حسبنا الله
ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير،
والصلاة والسلام على خير خلقه محمد ﷺ، وعلى آله وأصحابه
أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعبونه تعالى تفسير سورة الإسراء»

سُورَةُ الْكَهْفِ

مكية وهي مائة وعشر آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ وفي وصفه تعالى بالموصول
﴿الَّذِي أَنْزَلَ﴾ إيذان بعظم التنزيل الجليل، إذ عليه يدور فلك سعادة
الدارين، وفي التعبير عن الرسول ﷺ بالعبد، تشريف له وتكريم، لأنه
أعلى مراتب الفخار ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ أي شيئاً من العوج، والعوج
بفتحين في الأجساد، خلاف الاعتدال، والعوج بالكسر في المعاني،
والشخص يجب أن يكون كاملاً في ذاته، ثم يكون مكملاً لغيره. وفي قوله
تعالى : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ إشارة إلى كمال في نفسه.

﴿فَيَمَّا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ مَتَكَبِّرِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾

﴿فَيَمَّا﴾ إشارة إلى الثاني لأن القيم عبارة عن القائم بمصالح الغير
فالأرواح البشرية كالأطفال، والقرآن الكريم كالقيم الشفيق، أي قيماً
بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد، على ما ينبىء عنه ما بعده من الإنذار

والتبشير، فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال ﴿لِيُنْذِرَ﴾ أي لينذر الذين كفروا به ﴿بِأَسَاءَ﴾ أي عذاباً ﴿شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ أي نازلاً من قبله تعالى، بمقابلة كفرهم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المصدقين ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ التي بُيِّنَتْ في تضاعيفه ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي بأن لهم بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة وما فيها من النعيم الخالد.

﴿مُكَيِّتِينَ﴾ أي مقيمين على وجه الدوام ﴿فِيهِ﴾ أي في ذلك الأجر ﴿أَبَدًا﴾ من غير انتهاء، وتقديم الإنذار على التبشير، لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عن ضلالهم.

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي وينذر الفجرة الكفرة، المتفوهين بمثل تلك الشناعات العظيمة وهم من كفار العرب، الذين يقولون: الملائكة بناتُ الله، واليهود القائلون: عزيزُ ابنُ الله، والنصارى القائلون المسيحُ ابنُ الله.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾ أي باتخاذهِ سبحانه ولداً ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لهم بذلك شيء من علم أصلاً ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين قلّدوهم فتأهوا جميعاً في تيه الضلالة، ما لهم علم بما قالوه، أهو صوابٌ أم خطأ، بل إنما قالوه عن عمى وجهالة، من غير فكر وروية كما في قوله تعالى: ﴿وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم﴾ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء، لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجنان عظمته وكبريائه ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على

التفوه بها ﴿إِنْ يَقُولُوا﴾ أي ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ أي إلا قولاً كذباً، لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلاً.

﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ عَآثِرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ
أَسَفًا﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ﴾ أي مهلك ﴿نَفْسَكَ عَلَىٰ عَآثِرِهِمْ﴾ غماً ووجداً ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ وعدم إيمانهم ﴿بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿أَسَفًا﴾ أي متأسفاً عليهم. شُبِّهَتْ حاله ﷺ في شدة الحزن، على إعراض القوم عن الإيمان بالقرآن، وكمال التحسر عليهم، بحال من يتوقع منه هلاك النفس، إثر فوت ما يحبه عند مفارقة أحبته، تأسفاً على مفارقتهم، فالغرض تسلية النبي ﷺ لتخفيف حزنه لعدم إيمان الكفار من أهل مكة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ أي إِنَّا جعلنا ما عليها من الزخارف، والرياش، والذهب، والفضة والنبات والمعدن ﴿زِينَةً لِّهَا﴾ ولأهلها أي لِيَتَمَتَّعَ بها الناظرون، ويتنفعوا بها نظراً واستدلالاً، كما زينا السماء الدنيا بالكواكب، فكل ما على سطح الأرض من حيوان، ونبات، ومعدن هو زينة لها وابتلاء، كما أن الأموال والأولاد زينة أيضاً كما قال سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فنجازيهم بالثواب والعقاب حسب امتياز مراتبهم، علماً وعملاً، وحُسْنُ العمل: الزهد فيها، وعدم الاغترار بها، والقناعة باليسير منها، والتأمل في شأنها، وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها، والتمتع بها حسبما أذن به الشرع، لا اتخاذها وسيلة إلى الشهوات، والأغراض الفاسدة، كما يفعله الكفرة والفسقة.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ﴾ فيما سيأتي عند تناهي عمر الدنيا ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ قاطبة من المخلوقات، يافئائها بالكلية ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي تراباً لا نبات فيه، يقال: أرضٌ جُرُزٌ بضمّين أي يابسة لا نبات فيها أي سنحيلها إلى حطام ورُكام، بعد أن كانت بهجة وزينة، حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾

﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به أمته وقريش، لأنهم تعجبوا من قصتهم وسألوا عنها الرسول ﷺ و «أم» منقطعة، مقدّرة بـ «بل» التي هي للانتقال من حديث إلى حديث، أي بل أحسبت؟ ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا﴾ في عيشهم وحياتهم المدة الطويلة من الزمن ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ من بين آياتنا ﴿عَجَبًا﴾ أي آية ذات عجب، والمعنى إن قصتهم وإن كانت خارقة للعادة، ليست بعجب بالنسبة إلى سائر الآيات، فإن آياتنا كلها عجب، فإن من قدر على تخليق السماوات والأرض، ثم تزيين الأرض بأنواع المعادن، والحيوانات، والنباتات، ثم جعلها صعيداً جُرُزاً، كيف يُستبعد عن قدرته، حفظ فتية من الناس مدةً من الزمن في النوم؟ والكهف: الغارّ الواسع في الجبل، والرقيم: هو لوح رصاص، أو حجر، رُقمت فيه أسماءهم.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشْدًا﴾

﴿إِذْ أَوَى﴾ أي اذكر حين التجأ ﴿الْفِتْيَةُ﴾ أي أصحاب الكهف، أوثر

الإظهار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسهم من حال الفتوة، فإنهم كانوا فتية من أشراف الروم، أراد «دقيانوس» أن يجبرهم على الشرك، فهربوا منه فراراً بدينهم ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ بجبلهم واتخذوه مأوى ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ﴾ من خزائن رحمتك ﴿رَحْمَةً﴾ خاصة تستوجب المغفرة، والرزق، والأمن من الأعداء ﴿وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن عليه من مهاجرة الكفار، والمثابرة على طاعتك، وأصل التهئية إحداث هيئة الشيء، أي أصلح ورثب وأتمم لنا من أمرنا ﴿رَشَدًا﴾ إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب، والاهتداء إليه.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ أي ضربنا عليها حجاباً من النوم، يعني أنمناهم إنامة ثقيلة، والضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة ﴿فِي الْكَهْفِ﴾ ظرف مكان لضربنا ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي ذات عدد ووصف السنين بذلك للتكثير، لإظهار كمال القدرة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة، الشبيهة بالموت ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي بعثناهم ليحصل هذا العلم لبعض الخلق، أو هو مجاز عن الاختبار، فالمعنى: بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ أي الفريقين المختلفين منهم في مدة لبثهم، قال الفراء: (الحزبين) الطائفتين من المسلمين، في زمن أصحاب الكهف، وقال مجاهد: الحزبان من الفتية لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ كَمِ لَبِثُمْ﴾ الآية ﴿أَحْصَىٰ﴾ أي أضبط ﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ أي لللبثهم ومكثهم ﴿أَمَدًا﴾ أي غاية ليتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، من حفظ أبدانهم فيزدادوا يقيناً بكمال قدرته وعلمه، والأمد: بمعنى المدى أي المدة من الزمن.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ
هُدًى ﴾ ﴿١٣﴾

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ ﴾ شروع في تفصيل القصة، أي نحن نخبرك بتفاصيل
أحوالهم ﴿عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق، ذكر محمد بن إسحق، أنه قد
مرج أهل الإنجيل، وعظمت فيهم الخطايا، ملوكهم، فعبدوا الأصنام،
وذبحوا للطواغيت، وكان ممن بالغ فيه «دقيانوس» فإنه غلا غلواً شديداً،
وخالف من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام، فلما رأى
الفتية ذلك وكانوا أبناء عظماء أهل مدينتهم، قاموا فتضرعوا إلى الله تعالى،
واشتغلوا بالصلاة والدعاء، فبينما هم كذلك، إذ دخل عليهم أعوان الجبار
فأحضرهم بين يديه، فقال لهم ما قال، وخيّرهم بين القتل وبين عبادة
الأوثان فقالوا: إن لنا إلهاً، لن ندعو من دونه أحداً، فأمر بنزع ما عليهم
من الثياب الفاخرة، وخرج هو إلى «نينوى» لبعض شأنه، وأمهلهم ليتأملوا
في أمرهم فإن تبعوه وإلا فعل ما فعل بسائر المسلمين، فأزمعت الفتية
على الفرار بالدين، والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كل منهم من
بيت أبيه شيئاً وتزودوا فأووا إلى الكهف فجعلوا يصلّون فيه آناء الليل
وأطراف النهار، فضرب الله على آذانهم فناموا، فخرج دقيانوس في طلبهم
بخيله ورجله، فوجدوهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم فلم يطق أحد
أن يدخله، فلما ضاق بهم ذرعاً قال قائل منهم: ابن عليهم باب الكهف،
ودعهم يموتوا جوعاً ففعل، ثم كان من شأنهم ما قصّ الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّهُمْ
فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي إنهم شباب مؤمنون، صادقون في إيمانهم،
صامدون في وجه الطغيان ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ بأن ثبتناهم على ما هم عليه
من الدين.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ
نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ ﴿١٤﴾

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل، والأوطان، والنعم والإخوان، والرد على الجبار ﴿إِذْقَامُوا﴾ بين يدي الجبار من غير مبالاة به، حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ضَمَّنُوا دَعْوَاهُمْ مَا يَحَقُّ فُحْوَاهَا، ويقتضي بمقتضاها، فإن ربوبيته عَزَّ وَجَلَّ تقتضي ربوبيته لما فيهما ﴿لَن نَّدْعُوهُ﴾ لن نعبد أبداً ﴿مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ معبوداً آخر ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي قولاً خارجاً عن حد العقول، مفرطاً في الظلم، يقال: شَطَّتِ الدَّارُ: بَعُدَتْ، وشَطَّ فلان في حكمه: جَارَ وظلم.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانٌ بَيِّنٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ في اسم الإشارة تحقير لهم ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ فيه معنى الإنكار، ودلالة على أن قومهم كانوا من عبدة الأصنام ﴿لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ﴾ أي هلاً يأتون على ألوهية الأصنام ﴿سُلْطَانٌ بَيِّنٌ﴾ بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم، وهو تبكيث لهم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه أي أنه أظلم من كل ظالم.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ
رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ أي وإذ اعتزلتم أيها الفتية قومكم وفارقتموهم في الاعتقاد ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي اعتزلتموهم ومعبودهم ﴿فَأَوَّا﴾ أي التجنوا ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ واجعلوا الكهف مأواكم ﴿يَنْشُرُ لَكُمْ﴾ أي ييسر لكم، ويوسع عليكم ﴿رَبُّكُمْ﴾ مالك أمركم ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ في الدارين ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ﴾ يُسَهِّلْ لَكُمْ ﴿مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين

﴿تَرْفَقًا﴾ ما ترتفقون وتتفنون به، إنما قالوا ذلك ثقة بفضل الله، ولقوة رجائهم، لتوكلهم عليه تعالى.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهم ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (١٧).

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ بيان لحالهم بعدما أَوَّأوا إلى الكهف، والخطاب للرسول ﷺ أو لمن يصلح للخطاب ﴿إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرَ﴾ تتزاور وتنحى، من الزَّور وهو الميل ﴿عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ أي تميل عنه، ولا يقع شعاعها عليهم، والمقصود بيان أنه تعالى صان أصحاب الكهف، من أن يقع عليهم ضوء الشمس، لئلا تفسد أجسامهم ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي جهة يمين الكهف، عند توجه الداخل إلى داخله ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ﴾ أي تراها عند غروبها ﴿تَقَرُّضُهم﴾ أي تقطعهم ولا تقربهم ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي جهة شمال الكهف، أي الجانب الذي يلي المشرق، وكان ذلك بتصريف الله تعالى، على مناجاة خرق العادة كرامة لهم ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ جملة حالية مبينة لكون ذلك أمراً بديعاً أي تراها تميل يميناً وشمالاً، ولا تحوم حولهم مع أنهم في مَنَاسِعٍ من الكهف، معرض لإصابتها، لولا أن صرفتها عنهم يد القدرة ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما صنع الله بهم ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ العجيبة، الدالة على كمال علمه وقدرته ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي من يهده الله إلى الحق، فهو المهتدي الذي أصاب الفلاح، والمراد التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة، ولكن المتفعل بها من وفقه الله تعالى للاستبصار بها ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ﴾ يخلق فيه الضلال، لصرف اختياره إليه ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ﴾ أبداً وإن بالغت في النظر ﴿وَلِيًّا﴾ أي ناصراً ﴿مُرْشِدًا﴾ يهديه إلى ما ذكر من الفلاح، لاستحالة وجوده في نفسه.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آتِكَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ
وَكَلْبُهُمْ بَكِشٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا
وَلَمَلَّيْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴾ (١٨)

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ أي تظنهم أيها الناظر ﴿ آتِكَاطًا ﴾ جمع يَقِطْ، وهو اليقظان الذي لم ينم، لانفتاح عيونهم على هيئة الناظر ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ أي نيام، مستغرقون في نومهم ﴿ وَنُقِلَبُهُمْ ﴾ في رقدتهم ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أي جهة تلي أيماهم ﴿ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أي جهة تلي شمائلهم، كيلا تاكل الأرض ما يليها من أبدانهم ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ هو كلب راع قد تبعهم ﴿ بَكِشٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ أي بموضع الباب من الكهف ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لو عاينتهم، وأصل الاطلاع، الإشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ هرباً مما شاهدت منهم ﴿ وَلَمَلَّيْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴾ أي خوفاً يملأ الصدر ويرعبه من الهيئة، وقيل إن الله تعالى منعهم بالربع لثلا يراهم أحد، قال ابن عباس: غزونا مع معاوية نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف الله لنا عن هؤلاء لنظرنا!! فقال ابن عباس: قد منع عن ذلك من هو خير منك يعني رسول الله ﷺ.

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ
قَالُوا لَيْسَ آيَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ
بِرِزْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ
وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ (١٩)

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أي كما أنماهم وحفظنا أجسادهم من البلى، آية دالة على كمال قدرتنا، بعثناهم من النوم ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً، ويعرفوا حالهم، وما صنع الله بهم، فيزدادوا يقيناً، على كمال قدرة الله تعالى ويستبصروا به أمر البعث، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ هو رئيسهم ﴿كَمْ لَيْسَتْ﴾؟ في منامكم في هذا الكهف؟
 ﴿قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناء على غالب ظنهم، لأن النائم لا يُحصي
 مدة ليله، ولذلك أحالوا العلم إلى الله تعالى ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَتْ﴾
 أي أنتم لا تعلمون مدة ليلكم، وإنما يعلمها الله تعالى، وهذا رد منهم بأجمل
 ما يكون، من مراعاة حسن الأدب ﴿فَأَبَعَثُوا أَحَدَكُمْ﴾ قالوه إعراضاً عن
 التعمق في البحث، وإقبالاً على ما يهمهم حيث شعروا بالجوع الشديد
 ﴿يُورِقِكُمْ هَذِهِ﴾ الورق: الفضة مضروبة أو غير مضروبة، أي أرسلوا واحداً
 منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية ليشتري بها قوتاً لنا، وفيه دليل على
 أن التزود لا ينافي التوكل ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ قيل: المدينة «طرسوس» واسمها
 قبل الإسلام أفسوس ﴿فَلْيَنْظُرْ آيَةً أَزْكَى طَعَامًا﴾ أي أحلّ وأطيب، وأرخص
 وأجود ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أي من ذلك الطعام ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ ولينكف
 اللطف في المعاملة وفي الاستخفاء لئلا يعرف ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي لا يعلمن
 ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ من أهل المدينة، فإنه يستدعي الشعور بنا، والقبض علينا

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ ﴿٢١﴾

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي ليبالغ في عدم الإشعار لأنهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي إن
 يظفروا بكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي يقتلوكم إن ثبتم على ما أنتم عليه ﴿أَوْ
 يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي يدخلوكم فيها كرهاً ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا﴾ أي إن دخلتم
 فيها ولو بالكره، لن تفوزوا بخير ﴿أَبَدًا﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا
 رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ
 بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ ﴿٢٢﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي كما أنماهم وبعثناهم ليزداد يقينهم ﴿أَغْتَرْنَا﴾ أي

أطلعنا الناس ﴿عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا﴾ بما عاينوا من أحوالهم ﴿أَنْتَ وَعَدَ اللَّهُ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿حَقٌّ﴾ صادق لا مردّ له، لأن نومهم وانتباههم، كحال من يموت ثم يبعث ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شك في قيام القيامة، فإن من شاهد أنه جلّ وعلا توفّى نفوسهم، وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثر، حافظاً أبدانها من التحلل والتفتت، لا يبقى له شائبة شك، في أن وعده حق، وأنه يبعث من في القبور ﴿إِذْ يَنْتَظِرُونَ﴾ ظرف لقوله ﴿أَعْرَنَّا﴾ قدّم عليه ذكر الساعة لكمال العناية بذكرها، أي أطلعناهم عليهم حين يتنازعون ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ ليرتفع الخلاف، ويتبيّن الحق، في أمر البعث فمن مقرّ به، وجاحد له، روي أن المبعوث لمّا دخل المدينة، أخرج الدرهم ليشتري به الطعام، فاتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقصّ عليه القصة فقال بعضهم: إنّ آبائنا أخبرونا بأن فتية فروا بدينهم من دقيانوس، فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملك وأهل المدينة، ولما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانكم حتى أدخل أولاً، لئلا يفزعوا، فدخل فعُمّي عليهم المدخل، فبنوا ثمة مسجداً ﴿فَقَالُوا﴾ الفاء فصيحة، أي أعثرنا عليهم فرأوا ما رأوا فماتوا، فقالوا أي قال بعض الناس ﴿أَبْنُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي على باب الكهف ﴿بُنَيْنًا﴾ لئلا يتطرق إليهم الناس ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ من كلام المتنازعين، كأنهم لما رأوا عدم اهتدائهم إلى حقيقة حالهم، من حيث النسب، ومن حيث العدد، ومن حيث اللبث في الكهف، قالوا ذلك، تفويضاً للأمر إلى علام الغيوب، أي الله أعلم بحالهم وشأنهم ﴿قَالَ الَّذِينَ عَلِمُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ وهم الملك والمسلمون ﴿لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ يصلي فيه المسلمون.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الضمير في الأفعال الثلاثة للخائضين، أي سيقول هؤلاء القوم، الخائضون في قصتهم ﴿ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كُلُّهُمْ﴾ أي هم ثلاثة أشخاص، ويصبحون أربعة بانضمام الكلب إليهم ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُلُّهُمْ﴾ أي ويقول البعض: إنهم خمسة سادسهم الكلب ﴿رَجَمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي رمياً بالخبر الخفي الذي لا مطلع عليه، وبالظن من غير يقين ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَنُهُمْ كُلُّهُمْ﴾ أي ويقول البعض إنهم سبعة أشخاص، والثامن هو كلبهم الذي صاحبهم للحراسة ولعل هذا القول هو الأقرب للصواب، لأن ما فيه يرشد إلى ذلك، من عدم نظمه في سلك الرجم بالغيب، ﴿قُلْ﴾ تحقيقاً للحق ورداً على الأولين ﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ أي أعلم بعددهم ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي لا يعلم على وجه الضبط إلا عدد من الناس، قد وفقهم الله تعالى، قال ابن عباس: حين وقعت الواو^(١) انقطعت العدة، وعليه مدار قوله رضي الله عنه: أنا من ذلك القليل^(٢) ﴿فَلَا تَمَارَ﴾ أي إذا عرفت ذلك فلا تجادلهم يعني أهل الكتاب في شأن الفتية ﴿إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ﴾ أي إلا قدر ما تعرّض له الوحي، وهو أن تقص عليهم ما في القرآن، من غير التجهيل لهم، والردّ عليهم ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾ أي في شأنهم ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من الخائضين ﴿أَحَدًا﴾ فإن فيما قصّ الله عليك لمندوحة عن ذلك، وما ذكر من الشواهد لإرشاد المؤمنين إلى صحة القول الثالث، والمعنى حيثئذ: وإن وقفت على أن كلهم ليسوا

(١) الواو زائدة، وقيل: مستأنفة، قال الزمخشري: «هي الواو التي تدخل على الجملة التي وقعت صفةً للنكرة»، تقول: جاءني رجلٌ ومعه آخر.

(٢) يريد ابن عباس رضي الله عنه أن عددهم كان سبعة، وقد عرفهم بالفهم الثاقب قال: كانوا سبعة فإن الله عدّهم حتى انتهى إلى السبعة، ولما ذكر القول الأول والثاني، أردفه بقوله: ﴿رَجَمًا بِالْغَيْبِ﴾ ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء، فكأنه أقرّ قائله، ثم وجود الواو ﴿وِثَامَنُهُمْ كُلُّهُمْ﴾ يدل عليه ولم تذكر الواو في القولين السابقين فتنبه رعاك الله.

على خطأ في ذلك، فلا تجادلهم إلا جدالاً ظاهراً. واختلف الناس في زمان أصحاب الكهف، وفي مكانهم، فقيل: إنهم كانوا قبل موسى عليه السلام، وقيل إنهم دخلوا الكهف قبل المسيح، ثم بعثوا بين عيسى وبين الرسول ﷺ، وقيل: دخلوا الكهف بعد المسيح، أمّا مكان هذا الكهف، ففيه روايات.

أقول: العلمُ بذلك الزمان، وبذلك المكان، ليس للعقل فيه مجال، وإنما يستفاد ذلك من نصّ في الكتاب أو السنة، وذلك مفقود، فلا سبيل إليه، فنكتفي بما ورد في القرآن، من خبر هؤلاء الفتية المؤمنين.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ (٢٦)

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيء ﴿غَدًا﴾ أي فيما يُستقبل، فيدخل الغد دخولاً أولياً، فإنه نزل حين قالت اليهود لقريش: «سألوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فسألوه فقال ﷺ: اثنوني غداً أخبركم، ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي، حتى شقَّ عليه، وكذبتة قريش» هكذا قال المفسرون.

وقيل: من البعيد أن يعد رسولُ الله ﷺ ولم يقل فيه إن شاء الله، بل هذا تهيج وتنبية للمسلمين.

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا﴾ (٢٦)

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء مفرغ من النهي أي لا تقولن في حال من الأحوال إلا حالة ملابسته بمشيئة الله تعالى، على الوجه المعتاد، وهو أن يقال: إن شاء الله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ﴾ بقولك إن شاء الله متداركاً له ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ أي إذا فرط منك نسيانٌ ثم ذكرته، ولو بعد مدة من الزمان. قال

القرطبي: «وهذا في تدارك التبرك، والتخلص من الإثم، وأما الاستثناء المغيّر للحكم، فلا يكون إلا متصلاً، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت مبالغاً في الحث عليه، أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكر المنسي ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي﴾ أي يوفقني ﴿رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا﴾ أي لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف، من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي ﴿رَشْدًا﴾ أي إرشاداً للناس، حيث آتاه من البينات ما هو أعظم من ذلك وأبين.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ أحياء نياماً مضروباً على آذانهم ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ وهو بيان لما أجمل في قوله في الكهف سنين عدداً، أي بقوا ماكثين في الكهف نياماً، ثلاثمائة وتسع سنين، حتى بعثهم الله من النوم، وأطلع الناس عليهم، ليتيقنوا قدرة الله على البعث^(١).

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ يعني إن نازعوك في مدة لبثهم، فقل أنت: الله أعلم بما لبثوا؟ وقد أخبر بمدة لبثهم وهي ثلاثمائة وتسع سنين ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلها ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمِعَ﴾ معناه ما أبصره بكل موجود، وما أسمعاه؟ دلّ بصفته التعجب، على أن شأن علمه سبحانه، خارج عما عليه إدراك البشر، لا يحجبه شيء ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف، والخفي والجلّي

(١) انظر أسباب النزول للواحدي، ومختصر تفسير ابن كثير ٤٠٨/٢ فقد ذكرت فيه الرواية مطوّلة.

﴿ مَا لَهُمْ ﴾ أي لأهل السماوات والأرض ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ تعالى ﴿ مِنْ وَلِيِّ ﴾ يتولى أمورهم وينصرهم ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ ﴾ في قضائه أو في علم الغيب ﴿ أَحَدًا ﴾ منهم، ولا يجعل له فيه مدخلًا.

﴿ وَآتِلْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ .

﴿ وَآتِلْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ أي من القرآن الكريم وقوله: ﴿ آتِلْ ﴾ يتناول القراءة ويتناول الاتباع، فالمعنى: الزم قراءة الكتاب، والزم العمل به ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي لا قادر على تغييره ﴿ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أبد الدهر ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ أي ملجأ تعدل إليه، عند إلمام مُلْتَمَة أو في البيان والرشاد.

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ .

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ أي احبسها وثبتها مصاحبة ﴿ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ دائبين على الدعاء في جميع الأوقات وفي طرفي النهار ﴿ بِالْغَدَاةِ ﴾ أي بالصباح لطلب التوفيق والتيسير ﴿ وَالْعَشِيِّ ﴾ أي المساء لطلب عفو التقصير، والمراد بهم فقراء المؤمنين، مثل صهيب، وعمار، ونحوهما وقيل: أصحاب الصُّفَّة، وكانوا سبع مائة رجل في مسجد رسول الله ﷺ، لا يرجعون إلى تجارة، ولا إلى زرع، ولا ضَرْع، يصلون صلاةً وينتظرون أخرى، فلما نزلت الآية قال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي جعل من أمتي، مَنْ أَمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ»^(١) وروي أن قوماً من رؤساء الكفرة قالوا

(١) أخرجه الطبراني، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٤١٦/٢.

لرسول الله ﷺ: نَحْ هَؤُلَاءِ الْمَوَالِي، الَّذِينَ رِيحُهُمْ رِيحُ الضَّأْنِ، حَتَّى نَجَالِسَكَ، كَمَا قَالَ قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ﴾ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ ﴿يُرِيدُونَ﴾ بِدَعَائِهِمْ ذَلِكَ ﴿وَجَهَهُ﴾ أَيُّ مَرِيدِينَ رِضَاهُ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أَيُّ لَا يَجَاوِزُهُمْ نَظْرُكَ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَالْمُرَادُ نَهْيُهُ ﷺ عَنِ الْإِزْدِرَاءِ بِهِمْ لِرِثَائَةِ زِيهِمْ، طُمُوحاً إِلَى زِيِّ الْأَغْنِيَاءِ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيُّ تَطْلُبُ مَجَالِسَةَ الْأَشْرَافِ وَالْأَغْنِيَاءِ وَصَحْبَةَ أَهْلِ الدُّنْيَا ﴿وَلَا تُطِيعْ﴾ فِي تَنْحِيَةِ الْفُقَرَاءِ عَنِ مَجَالِسِكَ ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ أَيُّ جَعَلْنَاهُ غَافِلاً لِبَطْلَانِ اسْتِعْدَادِهِ لِلذِّكْرِ ﴿عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أَيُّ عَنِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ عَلَى خِلَافِ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ، مِنَ الدُّعَاءِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَفِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الدَّاعِيَ لَهُ إِلَى هَذَا الطَّلَبِ، غَفْلَةُ قَلْبِهِ عَنِ الْمَعْنَوِيَّاتِ، وَانْهَمَاكِهِ فِي الْمَحْسُوسَاتِ، حَتَّى خَفِيَ عَلَيْهِ أَنَّ الشَّرَفَ بِحُلِيَةِ النَّفْسِ، لَا بِزِينَةِ الْجَسَدِ ﴿وَأَتَمَّعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾ أَيُّ ضَيَاعاً وَهَلَاكاً وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ (١) فِي تِلْكَ نَهْيٌ عَنْ طَرْدِهِمْ، وَفِي هَذِهِ أَمْرٌ بِمَجَالَسَتِهِمْ.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ إِنْ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَإِنْ ذَلِكَ الْحَقُّ مِنْ جِهَةِ رَبِّكُمْ ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ أَيُّ فَمَنْ شَاءَ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَكْفُرَ بِهِ فَلْيَفْعَلْ، حَيْثُ جَاءَ الْحَقُّ، وَزَاحَتِ الْعِلَلُ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اخْتِيَارُكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ مَا شِئْتُمْ، وَفِيهِ مِنَ التَّهْدِيدِ، وَعَدَمِ الْمُبَالَاهِ بِهِمْ، وَبِإِيمَانِهِمْ وَجُوداً وَعَدماً مَا لَا يَخْفَى.

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

ثم ذكر جزاء من اختار الكفر فقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي هيأنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ للكافرين بالحق، والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن اختيار الكفر، تجاوز عن الحد، ووضع للشيء في غير موضعه ﴿نَارًا﴾ عظيمة عجيبة ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي حاطها وسورها، شبه به ما يحيط بهم من النار بالسور، والسرادق هو ما يدار حول الخيمة وقيل دخانها ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ من العطش ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ كالحديد والنحاس المذاب أو كعكر الزيت المحمي ﴿يَشْوَى الْوُجُوهَ﴾ إذا قُدِّمَ ليشرب من فرط حرارته ﴿يَتَسَكَّ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي بش ذلك الشراب الذي يغاثون به، وساءت جهنم منزلاً وماوى يرتفق به أهل الجحيم!! وقوله تعالى: ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي موضعاً للاستراحة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (٣٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بيان من اختار الإيمان كأنه قيل: والذين آمنوا بالحق الذي أوحى إليك ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي لا نترك أعمالهم تذهب ضياعاً، بل نجزيهم عليها أفضل الجزاء.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣١).

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المنعوتون ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ التنكير للتفخيم جمع أسورة، وهي جمع سوار ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ خضت الخضرة بثيابهم، لأنها أحسن الألوان، وأكثرها طراوة ﴿مِنْ سُندُسٍ﴾ هو الديباج الرقيق، وقيل: المنسوج بالذهب ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ هو

الديباج الصفيق الغليظ، جمع بين النوعين، للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة وهي السرر في الحجال، ولا يقال للسرير وحده أريكة، وخصر الاتكاء لأنه هيئة المتنعمين ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ ذلك ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي الأرائك متكأ لهؤلاء المتنعمين.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ﴾ أي للفريقين المؤمن، والكافر ﴿مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ لا من حيث أحوالهما في الآخرة، بل من حيث عصيان الكافر، وطاعة المؤمن، مع قلب الأول في نعم الله تعالى، ومكابدة الأخير للفقر والضرورة، مثلاً حال رجلين مقدرين أو محققين، قيل: هما أخوان من بني إسرائيل، اقتسما ثمانية آلاف دينار، فاشتري الكافر بنصيبه ضياعاً، وعقاراً، وصرف المؤمن نصيبه في وجوه الخير والإحسان، قال حالهما إلى ما حكاه الله تعالى ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي بستانين ﴿مِنْ أَعْنَبٍ﴾ من كروم متنوعة ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي جعلنا النخل محيطةً بهما ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ ليكون كل واحد منهما جامعاً للأقوات، والفواكه، على الهيئة الرائقة، التي تسر الناظرين.

﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾.

﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا﴾ ثمرها، وبلغت مبلغاً صالحاً للأكل ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ أي ولم تنقص من أكلها ﴿شَيْئًا﴾ كما يُعهد في سائر البساتين، فإن الثمار غالباً تكثر في عام، وتقل في آخر، وكذا بعض الأشجار يأتي بالثمر في بعض الأعوام دون بعض ﴿وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا﴾ فيما بين الجنتين ﴿نَهْرًا﴾ على حدة، ليكتمل شربهما، ويزيد بهاؤهما.

﴿وَكَانَ لَمْ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿٣١﴾ .

﴿وَكَانَ لَمْ ثَمْرٌ﴾ لصاحب الجنتين ثمر أي أنواع مالٍ سوى الجنتين من ثمر ماله، قال ابن عباس رضي الله عنه: الثمر هو جميع المال، وقال مجاهد الذهب والفضة^(١) ﴿فَقَالَ﴾ الكافر ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي يراجعه في الكلام، من حَارَ إذا رجع ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي أعواناً وأولاداً ذكوراً.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿٣٢﴾ .

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ التي شرحت أحوالها بصاحبه، يطوف به ويفخر بها ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ضارٌّ لها بكفره وظلمه ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي تفتنى ﴿هَذِهِ﴾ أي الجنة ﴿أَبَدًا﴾ لطول أمله، وتمادي غفلته، واغتراره بمهلته، ولعله إنما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره، وترى أكثر الأغنياء تنطق ألسنة أحوالهم بذلك، وإن لم يتلفظوا بذلك.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٣٣﴾ .

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي وما أعتقد أن القيامة كائنة فيما سيأتي ﴿وَلَئِن رُّدِدْتُ﴾ بالبعث كما تقول ﴿إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ﴾ يومئذ ﴿خَيْرًا مِنْهَا﴾ من

(١) الثمر جمع ثمرة وهي المجني من الفاكهة، وإنما ذكر الثمر وإن كانت الجنة لا تخلو منه، للإيدان بكثرة الحاصل في الجنتين، قال ابن كثير ٣٨٤/٢: قيل المراد بالثمر المال، وقيل: الثمار، وهو أظهر ههنا. اهـ.

هذه الجنة ﴿مُنْقَلَبًا﴾ أي مرجعاً وعاقبة، ومدار هذا الطمع، اعتقاد أنه إنما أكرمته الله في الدنيا لاستحقاقه الذاتي، ولم يذُر أنه استدراج.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ (٢٧)

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾؟ أي قال له صاحبه المؤمن وهو يراجعها ويكلمه، ويناقشه الحديث: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ حيث قلت: ما أظن الساعة قائمة، وهذا يدل على أن الشاك في حصول البعث كافر، ثم قال: ﴿بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي في ضمن خلق أصلك آدم عليه السلام ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ فإن خلق آدم عليه السلام منه، متضمن لخلق الإنسان منه ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ هي مادتك القرية، فالمخلوق واحد، والمبدأ متعدد ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ أي عدّلك وكمّلك إنساناً ذكراً!! جعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى، لأن منشأ الشك في كمال قدرته تعالى، ولذا رتب الإنكار على خلقه إياه من التراب.

﴿لَنَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٢٨)

﴿لَنَكُنَّا﴾ أصله «لكن أنا» فحذفت الهمزة، فتلاقت النون فأدغمنا ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ هو ضمير الشأن، وهو استدراك لقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ كأنه قال: أنت كافر ولكني مؤمن، وفيه حذف، أي أقول: هو الله ربي ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ وفيه إيذان بأن كفره بطريق الإشراك.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٢٩)

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ﴾ أي هلاً قلت عندما دخلتها ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي ما شاء الله كائن، والمراد تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها

بمشيئة الله تعالى، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي هلاً قلت ذلك اعترافاً بعجزك، وبأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها، إنما هو بمعونة الله تعالى ﴿إِنْ تَرَوْا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ولأجل ذلك تكبرت عليّ وتعظمت.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ هو جواب الشرط، والمعنى: إن ترني أفقر منك، فأنا أتوقع من صنع الله تعالى، أن يقلب ما بي وما بك، فيرزقني لإيماني، ويسلبك نعمته لكفرك ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي على جنتك ﴿حُسْبَانًا﴾ أي عذاباً ﴿وَمِنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي أرضاً ملساء يزلق عليها القدم.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُمُ طَلَبًا﴾.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض، أطلق المصدر عليه مبالغة ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ﴾ أبداً ﴿لَهُمُ﴾ للماء الغائر ﴿طَلَبًا﴾ أي لا تستطيع طلبه فضلاً عن وجدانه وردّه.

﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ أي أهلك أمواله المعهودة، وأصله من إحاطة العدو، ثم استعير في كل الإهلاك ﴿فَأَصْبَحَ﴾ الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفِّهِ﴾ ظهراً لبطن، وهو كناية عن الندم به، ﴿عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ والجنة

مهشمة محطمة، قد سقطت سقوفها على جدرانها، فأصبحت خراباً يباباً ﴿وَيَقُولُ﴾ أي ويقول الكافر نادماً على صنيعه ﴿يَلْبِثُنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ كأنه تذكّر موعظة صاحبه، وعلم أنه أتى من قبل شركه.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ فِتْنَةٌ يَصُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ (٤٣)

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ فِتْنَةٌ﴾ جماعة ﴿يَصُرُونَ﴾ يقدرون على نصره بدفع الإهلاك ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فإنه القادر على ذلك وحده ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنْتَصِرًا﴾ ممتنعاً بقوته عن انتقام الله تعالى، فإن قيل: فقد ندم على الشرك ورغب في التوحيد، فلم قيل: ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾؟ الجواب: إنما رغب في التوحيد، لأجل حفظ ماله، ولطلب الدنيا، فلهذا ما صار توحيده مقبولاً عند الله تعالى.

﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٤٤)

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وللوقت الذي يريد الله إظهار كرامة أوليائه، وإذلال أعدائه ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ﴾ أي النصرة له وحده، لا يقدر عليها أحد سواه جلّ وعلا ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي الله خير ثواباً لأوليائه، وخير عاقبة لمن آمن به واعتمد عليه.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا﴾ (٤٥)

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في زهرتها، وسرعة زوالها لئلا يطمثوا بها، ولا يعكفوا عليها، أي بين لهم صفتها العجيبة، التي هي في الغرابة كالمثل ﴿كَمَا﴾ أي هي كماء ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ أي اشتبك بسببه ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فالتف وخالط بعضه بعضاً، من كثرته، وتكاثفه

﴿فَأَصْبَحَ﴾ ذلك النبات الملتف إثر بهجتها ورفيفها ﴿هَشِيمًا﴾ مهشوماً مكسوراً ﴿تَذَرُوهُ الرِّيحُ﴾ أي تفرقه وتطيره، وليس المشبه به نفس الماء، بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة، وهي حالة النبات المنبت بالماء، يكون أخضر وارفاً، ثم هشيماً تطيره الريح، كأن لم يغن بالأمس ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإنشاء والإفناء ﴿مُقَدِّرًا﴾ قادراً على كل شيء، بتكوينه وتنميته وإبطاله، وهكذا الدنيا بهاء ثم فناء.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من الدنيا، وتقديم المال على البنين، مع كونهم أعزَّ منه، لعراقته فيما نيط به من الزينة، والإمداد وغير ذلك، والمعنى: إنَّ ما يفتخرون به من المال والبنين شيء يتزين به في الحياة الدنيا، وقد عُلم شأنها في سرعة الزوال ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي أعمال الخير، التي تبقى ثمراتها للإنسان بعد موته من صلاة وصيام، وزكاة وحج، وسائر أعمال الخير، وقيل: «هي سبحانه الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»^(١) ﴿خَيْرٌ﴾ من المال، والبنين ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي في الآخرة، وهو بيان لما تظهر فيه آثار خيريتها ﴿ثَوَابًا﴾ عائدة تعود إلى صاحبها ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ حيث ينال بها صاحبها في الآخرة، كلَّ ما يؤمله في الدنيا.

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

(١) ورد هذا في حديث أخرجه النسائي والحاكم بلفظ «خذوا جُثَّتَكُمْ - أي وقائتكم - من النار، قولوا: سبحانه الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾ أي اذكر حين نقلعها من أماكنها، ونسيّرها في الجو على هيئتها، أو نسيّرها أجزاء بعد أن نجعلها هباءً منبثاً والمراد بتذكره تحذير المشركين مما أمامهم من الدواهي ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ ﴾ أي جميع جوانبها والخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد ممن يأتي منه الرؤية ﴿ بَارِزَةً ﴾ أمّا بروز ما تحت الجبال فظاهر، وأما ما عداه فكانت الجبال تحول بينه وبين الناظر، قبل ذلك، فالآن أضحت قاعاً صافصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ أي جمعناهم إلى الموقف من كل أوب، وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق الحشر، المتفرع على البعث، الذي ينكره المنكرون، وعليه يدور أمر الجزاء ﴿ فَلَمْ تُعَادِرْ ﴾ أي لم نترك ﴿ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ يقال غادره إذا تركه، ومنه الغدر لترك الوفاء.

﴿ وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾

﴿ وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ شبهت حالهم بحال جُنْدٍ عُرِضُوا على السلطان، لا ليعرفهم، بل ليأمر فيهم بما يأمر ﴿ صَفًّا ﴾ مصطفين لا يحجب أحدٌ أحداً والمراد بقوله: ﴿ صَفًّا ﴾ أي صفوفاً كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي أطفالاً، أي غير مختلطيين ولا متفرقين ولا تعرض فيه لوحدة الصف وتعددته، ثم يقال لهم ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ حفاة، عراة، غُرلاً أو ما معكم شيء مما تفتخرون به من الأموال والأنصار، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ (١) ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ إضرابٌ وانتقال من كلام إلى كلام كلاهما للتوبيخ، أي زعتم في الدنيا أنه لن نجعل لكم أبداً وقتاً ننجز فيه ما وعدناه من البعث!! عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٤

رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ حُفَاةً، عُرَاةً، غُرْلًا، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا؟ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ قَالَ: الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهَمَّهُمْ ذَلِكَ»^(١).

وفي رواية النسائي: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُتُوكَ أَحَدًا﴾.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي وضعت صحائف الأعمال، والمراد بوضعها وضعها بأيدي أصحابها، أو في الميزان ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ قاطبة فيدخل الكفرة فيهم دخولاً أولياً ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الجرائم والذنوب ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عند وقوفهم على ما في الكتاب ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾ منادين لهلكتهم التي أهلكوها، مستدعين لها ليهلكوا أي يا حسرتنا وهلاكنا ﴿مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ أي أي شيء له ﴿لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي حواها وضبطها ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا ﴿حَاضِرًا﴾ مسطوراً عتيداً ﴿وَلَا يَظِلُّ رُتُوكَ أَحَدًا﴾ فيكتب ما لم يعمل من السيئات، أو يزيد في عقابه المستحق.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري ٣٧٨/١١ في الرقاق، ومسلم رقم ٢٨٠٦ في المنافقين.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ كلام مستأنف سيق مساق التعليل كأنه قيل ما له لم يسجد؟ فقيل: كان أصله جنيًّا ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي خرج عما أمره ربُّه به من السجود، وهو دليل على أنه كان مأموراً بالسجود مع الملائكة، والتعرض لوصف الربوبية لبيان قبح ما فعله، والمراد بتذكير قصته ههنا التذكير على المتكبرين، المفتخرين بأنسابهم وأموالهم، المستنكفين عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين، ببيان أن ذلك من صنيع إبليس ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ﴾ أي أعقِب علمكم بصدور تلك القبائح منه تتخذونه ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ أي أولاده وأتباعه، قال قتادة: يتوالدون كما يتوالد بنو آدم، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة..» (١) الحديث ﴿أَوَّلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ أي تستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي؟ ﴿وَهُمْ﴾ والحال أنَّ إبليس وذريته ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي أعداء ﴿يَتَّبِعُونَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ أي بنست عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الرحمن، وفي الالتفات إلى الغيبة، مع وضع «الظالمين» موضع الضمير، الإيذان بسخط الله العظيم.

﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْداً﴾

﴿مَا أَشْهَدُكُمْ﴾ أي ما أحضرت إبليس وذريته ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حين خلقتهما قبل خلقهم ﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي ولا أشهدت

(١) الحديث رواه مسلم رقم ٢٨١٣ في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، وتتمه الحديث «يجيء أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتُ شيئاً، ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركتُه حتى فرقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيُدينه منه ويقول: نعم أنت.»

بعضهم خلق بعض، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُتَخِذِينَ الْمُضِلِّينَ﴾ أي متخذهم، وإنما وضع المظهر ذماً لهم ﴿عَضُدًا﴾ أي أعواناً في شأن الخلق، أو في شأن في شؤوني حتى يتوهم شركتهم معي، وفيه تهكمٌ بهم، وإيدان بركاكة عقولهم، حتى لا يفهموا هذا الأمر الجلي، الذي لا يكاد يشبهه على البُله والصبيان، وقيل: الضمير للمشركين، والمعنى: ما أطلعتهم على أسرار التكوين، وما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم، حتى يكونوا قدوة للناس، فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون، فلا يلتفت إلى قولهم، طمعاً في نصرتهم للدين، فإنه لا ينبغي أن اعتضد بالمضلين.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي الله عز وجل للكافرين، توبيخاً وتعجيزاً ﴿نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شفعاؤكم، والمراد بهم كل ما عُبد من دونه تعالى وقيل: إبليس وذريته ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي نادوهم للإغاثة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ إذ لا إمكان، لأنهم أوثان وأحجار، لا يسمعون ولا يبصرون، وفي إيراده مع ظهوره، تهكمٌ بهم، وإيدان بحماقتهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين الداعين والمدعوين ﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكاً يشتركون فيه، وَبَقَ من باب وعد: هَلَكَ والمُوبِقُ مثل مسجد من البوق وهو الهلاك كقول عمر رضي الله عنه: «لا يكن حُبُّكَ كَلْفًا، ولا بغضُكَ تَلْفًا» ويجوز أن يكون المراد من الشركاء الملائكة، وعزير، وعيسى عليهم السلام، والموبق: البرزخ البعيد، أي جعلنا بينهم أمداً بعيداً، لأنهم في جهنم، وأولئك في الجنة.

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

﴿وَرَبَّاءُ الْمُجْرِئُونَ النَّارَ﴾ أي رأى الكفرة الفجرة نار جهنم تتلظى، ووضع المظهر تصريحاً بإجرامهم بذلك ﴿فَقُتِلُوا﴾ أي فأيقنوا، والظن ههنا بمعنى اليقين ﴿أَنْتُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ واقعون فيها الساعة ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي انصرافاً أو مكاناً ينصرفون إليه، لأنها أحاطت بهم من كل جانب.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ليتذكروا ويتعظوا بكل نوع من أنواع المعاني البديعة، الداعية إلى الإيمان، التي هي في الغرابة والحسن، واستجلاب النفس كالمثل، وليلتقوه بالقبول فلم يفعلوا ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ بحسب جبلته ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي أكثر الأشياء التي يأتي منها الجدل، جدل الرجل من باب تعب: إذا اشتدت خصومته، وجادل إذا خاصم، وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل، والمعنى: إن جداله أكثر من جدال كل مجادل. روى الشيخان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طَرَقَهُ وفاطمة ليلاً، فقال: أَلَا تَصْلِيَانِ؟ فقلت يا رسول الله: أنفُسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بَعَثْنَا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت ذلك، ولم يرجع إليَّ شيئاً، ثم سمعته يقول وهو مُوَلٌّ يضرب فخذه بيده: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(١).

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في التهجد ٨/٣ ومسلم رقم ٧٧٥ في صلاة المسافرين.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أي أهل مكة ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ بأن يؤمنوا بالله ﴿إِذْ جَاءَهُمْ
الْهُدَى﴾ أي سببه وهو الكتاب، والرسول ﷺ ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ عمّا
فرط منهم من أنواع الذنوب، التي من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل
﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إلا طلب ستتنا في إهلاك الأولين، وهو
الاستئصال ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي عياناً من المواجهة وقيل: فجأة،
ومعنى الآية: أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن يشاهدوا
العذاب معاناة ومواجهة.

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ وَتُجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ .

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾
للكفرة والعصاة بالعقاب ﴿وَتُجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ أي باقتراحات
الآيات مكابرة وعناداً، بعد ظهور المعجزات ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أي بالجدال
الباطل ﴿الْحَقَّ﴾ أي يزيلوه عن مركزه، ويبطلوه من إحاض القدم وهو
إزلاقها، دحضت الحجة دحضاً من باب نفع بطلت كقولهم للرسول صلوات
الله عليهم ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾
ونحوهما، وهذا يدل على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يجادلونهم
﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ وهو ما يُستهزأ به، أي جعلوا هذه الآيات
موضع استهزاء وسخرية.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا
جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى
فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ؟ وهو القرآن العظيم، والمعنى: لا

أحد أظلم منه ﴿فَاعْرَضَ غَتًّا وَفَسَى مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي لم يتدبرها ولم يتفكرها، ونسي عمله من الكفر والمعاصي، التي من جملتها ما ذكر، من المجادلة بالباطل، والاستهزاء بالحق ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فهم هذا الكتاب العزيز، والانتفاع بما فيه، كما جعلنا على آذانهم صمماً، يمنعهم أن يسمعه سماع تفهم وانتفاع، بسوء أعمالهم، وعظم جرائمهم، والعجب أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ إلى قوله: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ...﴾ متمسك للقدرة الذين ينكرون القدر، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ إلى آخر الآية متمسك الجبرية، وقلّما نجد في القرآن آية لأحدهما، إلا ومعها آية للفرق الآخر، وما ذاك إلا امتحان من الله عز وجل، ألقاه على عباده ليميز العلماء الراسخون، من الخاططين في الآراء خبط عشواء ﴿وَلِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ فلن يكون منهم اهتداء إلى الهدى البتة لغاية ضلالهم، وهذا في أقوام عليم الله عنهم أنهم لا يؤمنون، و﴿إِذَا﴾ جزاء الشرط، وجواب عن سؤال الرسول ﷺ كأنه قال: مالي لا أدعوهم؟ فقل: إن تدعهم الخ فإن حرصه ﷺ على إيمانهم يدل عليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة وهي الإنعام على الخلق، وفي الآية التنبيه على كثرة الذنوب ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ﴾ لو يريد مؤاخذتهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من المعاصي التي من جملتها ما حكى عنهم من مجادلته بالباطل، والاستهزاء بالحق، وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات ﴿لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك، ولكنه سبحانه يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب رحمة بهم ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ أي أجل لهلاكهم وهو يوم القيامة ﴿لَنْ يَجِدُوا﴾ البتة ﴿مِنْ دُونِهِ

مَوِيلًا ﴿ منجا أو ملجأ، يقال: وَالَ: إذا نجا، ووَالَ إليه أي التجأ إليه،
والموئل: المرجع.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ أي قرى عاد، وثمود، وأضرابهما ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي وقت ظلمهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي عيّنّا لهلاكهم وقتاً معيّناً، لا محيد لهم عن ذلك، فلا يغترّوا بتأخير العذاب عنهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أْبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ أي اذكر وقت قوله عليه السلام ﴿لِفَتْنِهِ﴾ وهو يوشع عليه السلام، سُمّي فتاه إذ كان يخدمه ويتعلّم منه، ويسمى التلميذ فتى، وأكثر العلماء على أن المذكور في هذه الآية «موسى بن عمران» صاحب التوراة، وعن كعب الأحبار أنه «موسى بن ميثا» من أولاد يوسف، والأول أصح، لأنه لم يذكر تعالى في كتابه العزيز موسى إلاّ أراد به صاحب التوراة، أخرج الشيخان عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنه: إن نوباً البكالي، يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو «موسى بن عمران» فقال ابن عباس رضي الله عنه كَذَبَ عدوّ الله، حدثنا أبي بن كعب، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى عليه السلام، قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أيّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يرّد العلم إليه تعالى، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه، إنّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى يا رب: فكيف لي به؟ قال: فخذ معك حوتاً فاجعله في مكمل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمّة، فأخذ حوتاً فجعله في مكمل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه

يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما، فاضطرب الحوت في المكنل، فخرج منه فسقط في البحر، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت وانطلقا..^(١) الحديث ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أي لا أزال أسير ﴿حَوْثَ أَبْلَغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ وهو المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام، قيل هو ملتقى بحر فارس والروم، مما يلي المشرق، وقيل: طنجة ﴿أَوْ أَمْضَى حُقْبًا﴾ أو أسير زماناً طويلاً.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا ﴾ أي مجمع البحرين ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ الذي جعل فقدانه أمانة وجدان المطلوب، أي نسيا تفقد أمره، روي أنهما لما بلغا مجمع البحرين، وفيه الصخرة ناما، فاستيقظ يوشع عليه السلام، وتوضأ من تلك العين، فنضح الماء على الحوت فعاش، فوقع في الماء ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ مسلماً كالسرب، وهو النَّقَق.

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا

نَصَبًا ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ مجمع البحرين وسارا الليلة والغد إلى الظهر، وألقي على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك ﴿ قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءَنَا ﴾ أي ما نتغذى به، وهو الحوت كما ينبيء عنه الجواب ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا ﴾ إشارة إلى ما سارا بعد مجاوزة الموعد ﴿ نَصَبًا ﴾ تعباً وإعياء.

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٤٠٩/٨ ومسلم رقم ٢٣٨٠ والترمذي رقم ٣١٤٨.

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ فتاه ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴾ أي التجأنا وأقمنا عندها وذكر الإيواء إلى الصخرة، مع أن المذكور فيما سبق بلوغ مجمع البحرين، لزيادة تعيين محل الحادثة، ولتمهيد العذر فإن الإيواء إليها والنوم عندها، مما يؤدي إلى النسيان عادة، ومراده بالاستفهام تعجب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان، مع كون ما شاهده من العظام التي لا تكاد تُنسى ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ ﴾ وفيه تأكيد للتعجب أي نسيته أن أذكر لك أمره، وما شاهدته منه من الأمور العجيبة ﴿ وَمَا أَنَسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ ﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ أي الشيطان أنساني أن أذكره لك ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ كأنه قيل: حبي واضطرب ووقع في البحر واتخذ سبيله فيه سبيلاً عجباً، وهو كون مسلكه كالطاقة، وأي شيء أعجب من حوت يؤكل منه، ثم صار حياً؟! .

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرت من أمر الحوت ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي نطلبه لكونه علامة على غرضنا ومطلوبنا ﴿ فَأَرْتَدَّا ﴾ أي رجعا ﴿ عَلَىٰ آثَارِهِمَا ﴾ أي طريقهما الذي جاءا منه ﴿ قَصَصًا ﴾ أي يتبعان آثارهما حتى أتيا الصخرة .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا ﴾ التنكير للتفخيم ﴿ مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ الإضافة للتشريف،

والجمهورُ على أنه الخضر، والخضر لقب له، روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ، لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فُرْوَةٍ بِيضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَرُ تَحْتَهُ خَضِرَاءٌ»^(١) ومعناه أنه جلس على قطعة نبات يابسة، فاخضرت تحته كرامة له ﴿وَأَنبَتَهُ رَحْمَةً مِنَّا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي وهبناه نعمة عظيمة، وفضلاً كبيراً رفعنا به قدره، وعلمناه علماً خاصاً من غير واسطة، والعلم الخاص به، هو علم الغيوب.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ استئناف كأنه قيل: فما جرى بينهما؟ فقيل: قال موسى ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ﴾؟ استئناف منه في اتباعه له، على وجه التعلم ﴿مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾؟ أي علماً ذا رشد، ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة، أن يتعلم من إنسان آخر، كما لا يبعد أن العالم الكامل، في أكثر العلوم، يجهل بعض الأشياء، فيحتاج في تعلمها إلى من دونه، وهذا أمر معلوم، وتعلمه منه لا ينقص قدره وشرفه، وفيه دليل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتراجع لمن هو أعلم منه.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿١٧﴾

﴿قَالَ﴾ أي الخضر ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد، وكأنه مما لا يصح، وعلله بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؟ إيداناً بأنه يتولى أموراً خفية المدار، والرجل الصالح - لا سيما صاحب الشريعة - لا يتمالك أن يشمئز

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣١٥١ وقال: حسن صحيح.

عند مشاهدتها، أي وكيف تصبر على أمرٍ ظاهره منكر، يخالف الشرع، وأنت لا تعلم باطنه؟.

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ ﴿٦٩﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ معك غير منكر عليك ما تفعله ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ أي ستجدني صابراً وغير عاصي لأمرك .

﴿ قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ﴿٧٠﴾ .

﴿ قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي ﴾ إذن له في الاتباع بعد الموافقة على الشرط ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ﴾ تشاهده من أفعالي، أي لا تُفَاتِحْنِي بالسؤال عن حكمته، فضلاً عن المناقشة والاعتراض ﴿ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أي حتى أبتدىء أنا ببيانه لك، وفيه إيذان بأن كل ما يصدر عنه فله حكمة، وغاية حميدة، وفي هذا إرشادٌ لأدب المتعلّم مع العالم .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ ﴿٧١﴾ .

﴿ فَانْطَلَقَا ﴾ أي موسى والخضر عليهما السلام على الساحل، يطلبان السفينة، وأما يوشع فقد صرفه موسى إلى بني إسرائيل، قيل: إنهما مرّا بسفينة، فكلّما أهلها، فعرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول أي بغير أجرة ﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ أي حتى إذا ركبا في السفينة، وأصبحت في لجة البحر، عمد الخضر إلى بعض ألواح السفينة، فقلع من ألواحها لوحين، فجعل موسى يسدّ الخرق بشيابه ﴿ قَالَ ﴾ موسى له ﴿ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ أَي فعلت ﴾ شَيْئًا إِمْرًا ﴿ أَي عظيماً هائلاً .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ﴿٧١﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ الخضر عليه السلام ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ تذكير لما قاله له، متضمنٌ للإنكار، على عدم الوفاء بوعدِهِ.

﴿ قَالَ لَا تَأْخُذْ بِمِأَنَاسِيتٍ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ ﴿٧٢﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ لَا تَأْخُذْ بِمِأَنَاسِيتٍ ﴾ أي بنسياني أو بالذي نسيته، وهو وصيته، أراد أنه نسي وصيته، ولا مؤاخذه على الناسي، قال ﷺ «كانت الأولى من موسى نسياناً» ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي ﴾ أي ولا تحملني مشقة ولا تكلفني ﴿ مِنْ أَمْرِي ﴾ وهو اتباعه إياه ﴿ عُسْرًا ﴾ أي لا تعسّر علي متابعتك، ويسرها عليّ بالإغضاء، وترك اللوم والمؤاخذه.

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا ﴾ ﴿٧٣﴾ .

﴿ فَأَنْطَلَقَا ﴾ أي فقبل عذره، فخرجا من السفينة فانطلقا نحو البرّ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ أي فقتله فور لقائه، أمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده، ثم رماه في الأرض جثة هامدة، وقيل: أضجعه فذبحه بالسكين^(١)، والغلام هو الصبي الذي لم يبلغ سن الرشد، والفاء للدلالة على أنه لما لقيه قتله من غير تردّد، ولذلك ﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ أَقْتَلْتَنِي بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي طاهرة من الذنوب، لأنها لم تبلغ الحلم، أو أنه لم يره قد أذنب ذنباً يقتضي قتله ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي بغير قتل نفسٍ محرّمة، ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ

(١) القول الأول أصح، لما ورد في الصحيحين من قوله ﷺ «فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فاخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله» أخرجه الشيخان.

شَيْئًا تَكْرًا ﴿١﴾ أي منكراً فظيماً لا يمكن السكوت عنه، رُوي عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ، طُبِعَ كَافِراً، وَلَوْ عَاشَ لَأَرَهَقَ أَبْوِيهَ طَغِياناً وَكَفِراً»^(١).

﴿ قَالِ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ﴿٧٥﴾ .

﴿ قَالِ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ إنما زيد ﴿ لَّكَ ﴾ لزيادة العتاب على رفض الوصية، وقلة الصبر، حين تكرر منه الاشتزاز، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قيل له: كيف جاز قتله، وقد ورد النهي عن قتل الولدان؟ قال لسائله: إِنَّ عَلِمْتَ مِنْ حَالِ الْغُلَامِ مَا عَلِمَهُ صَاحِبُ مُوسَى فَلَمْ أَنْ تَقْتُلْهُ .

﴿ قَالِ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْهُ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿ قَالِ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أي بعد هذه المرة ﴿ فَلَا تُصَاحِبْهُ ﴾ أي لا تجعلني صاحبك بعدها ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ حيث خالفتك ثلاث مرات، وهذا كلامٌ نادم شديد الندامة، قاله مع شدة حرصه على المصاحبة، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْلَا أَنَّهُ عَجَلَ لَرَأَى الْعَجَبُ»^(٢).

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أُنْيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَآفَاقًا ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ﴿٧٧﴾ .

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٥٠ وقال: حديث حسن صحيح غريب .
(٢) طرف من حديث أخرجه الشيخان عن أبي بن كعب، وهو حديث طويل وشهير، وانظر فتح الباري ٤١١/٨ .

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هي أنطاكية، وقيل: برقة، وقيل: هي بلدة في الأندلس ﴿اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ روي أنهما طافا في القرية، فاستطعماهم فلم يطعموهما، واستضافاهم، فأبوا أن يضيّفوهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ أي يقارب ويداني أن يسقط، فاستعيرت الإرادة المشاركة، للدلالة على المبالغة في ذلك، والانقضاء: الإسراع في السقوط، ومنه انقضاء الطير والكوكب ﴿فَأَقَامَهُمَا﴾ مَسَّحَ بيده فقام، وقيل: نقضه وبناءه، وفي حديث أبيي: فقال الخضر بيده هكذا فأقامه ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿لَوْ شِئْتُ لَتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تحريضاً على أخذ الأجرة، أو تعريضاً بأنه فضول، كأنه لما رأى الحرمان، ومساس الحاجة، واشتغاله بما لا يعنيه، لم يتمالك الصبر، و«اتخذ» افتعل من تَوَخَّدَ بمعنى أخذ، كاتبع من تبع، وليس من أخذ.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿قَالَ﴾ الخضر عليه السلام ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي هذا الوقت وقت الفراق، حسبما هو الموعود ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي سأخبرك وأعلمك، والسينُّ للتأكيد لعدم تراخي التنبئة ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ والمراد من التأويل ههنا المآل والعاقبة، إذ هو المنبأ به، أي سأحدثك عن حكمة هذه الأمور الثلاثة، التي أنكرتها عليّ، ولم تستطع الصبر لأشرحها لك.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ﴾ لضعفاء لا يقدرّون على مدافعة الظلمة ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي يشتغلون في البحر بقصد التكبس من هذه السفينة ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أجعلها ذات عيب ﴿وَكَانَ

وَرَأَوْهُمْ مَلَكٌ ﴿٨٥﴾ أَيُّ أَمَامِهِمْ، وَكَانَ رَجُوعُهُمْ عَلَيْهِ لَا مُحَالَةَ ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾
صَالِحَةً ﴿غَضَبًا﴾ مِنْ أَصْحَابِهَا.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا
وَكُفْرًا﴾ ﴿٨٦﴾.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ ولم يصرح بكفره،
إشعاراً بعدم الحاجة إلى الذكر، لظهوره ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ أي خفنا أن
يغشي الوالدين ﴿طُغْيَانًا﴾ عليهما ﴿وَكُفْرًا﴾ بعقوبه وسوء صنيعه، ويلحق
بهما شراً وبلاءً، أو يعذبهما بدائه، ويضلّهما بضلاله، فيرتدا بسببه، وإنما
خشي الخضر منه ذلك، لأنه تعالى أطلعه على سرّ أمره.

﴿فَارْتَدَّا أَنْ يَبَدِّلَهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ﴿٨٧﴾.

﴿فَارْتَدَّا أَنْ يَبَدِّلَهُمَا رُحْمًا﴾ الإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه، بأن
يرزقهما ﴿خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ﴾ أي أن يرزقهما الله ولدأ صالحاً خيراً من ذلك الولد
الكافر، وفي الآية دلالة على إرادة وصول الخير إليهما ﴿زَكَّوْهُ﴾ أي طهارة
من الكفر والذنوب والأخلاق الرديئة ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمةً وعطفاً على
والديه قيل: أبدلهما الله جارية فزوّجها فولدت له نبياً، فهدى الله على يديه
أمة من الأمم، وقيل: أبدلهما الله بغلام مسلم، ومبنى هذه المسائل، على
أنه متى تعارض ضرران، تُحمّل أهونهما لدفع أعظمهما، الغلام الذي قتل
فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قُتل، ولو بقي لكان فيه
هلاكهما، فليرض العبد بقضاء الله تعالى.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا
وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً
مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿٨٨﴾.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ المعهود الذي بنيته ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾

هي القرية المذكورة، أي كان الجدار الذي بنيته قد خبيء تحته كنز ثمين ليَتِيمَيْنِ في هذه البلدة ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ أي كان تحت ذلك الجدار كنز مدفون من فضة وذهب، روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الكنز ذهباً وفضة»^(١) وما ورد من الذم على كنزهما، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الآية لمن لا يؤدي زكاتها، وسائر حقوقهما ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ أي وكان والدهما صالحاً تقياً، فحفظ لهما الكنز لصالح الوالد، وفي الآية تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصالحهما، وهي تدل على أن صلاح الآباء، يفيد العناية بأحوال الأبناء، روي عن الحسين رضي الله عنه أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بَمَ حفظ الله تعالى مالَ الغلامين؟ قالوا بصلاح أبيهما، قال: فأبي وجدِّي ﷺ خيرٌ منه ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع، أن يكبرا ويشد عودهما، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار وفي إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام ﴿رَبِّكَ﴾ تنبيه له على تحتم الانقياد، والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة، فيما وقع من الأمور المذكورة ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ من تحت الجدار، ولولا أنني أقمته لانقض، وخرج الكنز من تحته، وضاع ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فعلت ما فعلت من الأمور التي شاهدها، رحمة من ربك ﴿وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي﴾ أي وما فعلت ما فعلت من خرق السفينة، وقتل الغلام وبناء الجدار، عن رأيي ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى العواقب المنظومة في سلك البيان ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ﴾ أي ما لم تستطع، فحذفت التاء للتخفيف ﴿عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي ما لم تصبر عليه وعارضت فيها قبل أن أخبرك عنها، وفوائد هذه القصة، أن لا يعجب المرء بعلمه، ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه، فلعل فيه سرّاً لا يعرفه،

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٥٢ وقال: هذا حديث غريب.

وأن يداوم على التعليم، ويراعي الأدب في المقال، وقد زلت أقدام قوم من الضلال، في تفضيل الولي على النبي، وهو كفر جلي، حيث قالوا أمر موسى بالتعلم من الخضر، وهو ولي، والجواب أن هذا ابتلاء في حق موسى عليه السلام، ومن المحال أن يكون الولي ولياً بإيمانه بالنبي، ثم يكون النبي دون الولي، ولا غضاضة في طلب موسى زيادة العلم من ذلك الولي الصالح.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ هم اليهود سألوا رسول الله عن قصة ذي القرنين، وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك، إلى ورود الجواب، وهو ملك مسلم صالح أعطي الملك والحكمة، وأن ملكه بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وهو الذي افتخر به تُبَّع اليماني حيث قال:

قد كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ جَدِّي مسلماً مَلِكاً عَلا فِي الْأَرْضِ غَيْرِ مُفْتَدٍ
بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَنْتَغِي أَسْبَابَ أَمْرِ مَنْ حَكِيمٍ مُرْشِدٍ

قال ابن كثير: والصحيح أنه ما كان نبياً ولا ملكاً، وإنما كان ملكاً عادلاً، داعياً إلى الله تعالى، سائراً في الخلق بالعدل، وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار، واختلف في وجه التسمية، فقيل: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقيل كان في رأسه أو في تاجه ما يشبه القرنين، وأما ذو القرنين الثاني، فإنه الإسكندر بن إقليدس المقدوني باني الإسكندرية، كان متأخراً عن الأول بدهر طويل، أكثر من ألفي سنة، وكان الأول عبداً صالحاً، وملكاً عادلاً، والثاني كان كافراً فاسقاً ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ﴾ سأذكر لكم ﴿مِنْهُ﴾ من ذي القرنين ﴿ذِكْرًا﴾ أي نبأ مذكوراً وحيث كان ذلك بطريق الوحي المتلو حكاية عن جهة الله تعالى قيل سألوه، والسين للتأكيد لا للاستقبال كما قيل.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ (٨٤).

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ التمكين ههنا الإقدار وتمهيد الأسباب، والمعنى: إنا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض، من حيث التدبير والأسباب، وتسهيل السير في الأرض ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مهمات ملكه، ومقاصده المتعلقة بسلطانه ﴿سَبَبًا﴾ أي طريقاً يوصله إليه.

﴿ فَأَنْبَغَ سَبَبًا ﴾ (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عَنْهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦).

﴿ فَأَنْبَغَ سَبَبًا ﴾ أي سلك طريقاً يوصله إلى مقصوده، ومشى باتجاه الغرب.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أي منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يتمكن أحد عن مجاوزته، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي، الذي يقال له أوقيانوس - ﴿وَجَدَهَا﴾ الشمس ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي ذات حماة، وهي الطين الأسود أي ذات حماة، ولعله بلغ ساحل المحيط، فرأها كذلك، إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء، ولذلك قال تعالى ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾ ولم يقل: «كانت تغرب» كما أن راكب البحر، يرى الشمس تغيب في البحر ﴿وَوَجَدَ عَنْهَا﴾ أي عند تلك العين ﴿قَوْمًا﴾ قيل كان لباسهم جلود الوحوش، وطعامهم ما لفظه البحر، وكانوا كفاراً فخيرهم الله عز وجل بين التعذيب، والتعليم ﴿قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذَّبَ﴾ بالقتل ﴿وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي أمراً ذا حسن، وذلك بالدعوة إلى الإسلام، والإرشاد إلى الشرائع.

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴾ (٨٧).

﴿قَالَ﴾ أي ذو القرنين لمن عنده، بعدما تلقى أمره تعالى ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ نفسه ولم يقبل دعوتي، وأصرَّ على ما كان عليه من الظلم العظيم وهو الشرك ﴿فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ﴾ - بالقتل - ﴿ثُمَّ يَرْدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾ - فيها - ﴿عَذَابًا لَّكَرًا﴾ أي عذاباً منكراً، لم يُعهد مثله وهو عذاب النار، وفيه دلالة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحي إليه، وإنما كان بالإلهام.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾
ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بموجب دعوتي ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُ﴾ في الدارين ﴿جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي فله مثوبة الحسنی ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي مما تأمر به ﴿يُسْرًا﴾ أي سهلاً، متيسراً غير شاق، وتقديره ذا يسر.

﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَبًا﴾ أي طريقاً راجعاً من مغرب الشمس إلى مشرقها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾
﴿٩٠﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ يعني الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من معمورة الأرض، قبل بلوغه في اثنتي عشرة سنة ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ هم من الزنج، ليس لهم ستر من اللباس والبناء، لأن أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب، فإذا ارتفع خرجوا إلى معاشهم، وهذا حال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء، وقيل: إنهم كانوا كسائر الحيوانات عراة أبداً.

﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ ﴿١١﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿١٢﴾

﴿كَذَلِكَ﴾ أي أمر ذي القرنين كما وصفناه لك، في رفعة المحل، وبسطة الملك ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الأسباب والعَدَد والعُدَد ﴿خُبْرًا﴾ أي علماً، يعني أن ذلك من الكثرة، بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾ أي طريقاً ثالثاً، معترضاً بين المشرق والمغرب، آخذاً من الجنوب إلى الشمال.

﴿حَقَّ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ﴿١٣﴾

﴿حَقَّ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سدّه، وهما جبلان في آخر الشمال، من ورائهما يأجوج ومأجوج، ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ من ورائهما ﴿قَوْمًا﴾ أمة من الناس ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة، لأن لغتهم غريبة مجهولة.

﴿قَالُوا يَنْدَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ﴿١٤﴾

﴿قَالُوا﴾ بواسطة مترجمهم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم ﴿يَنْدَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ هما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، وقيل: عريان من أجيح النار، وهو ضوءها وشررها، شبهوا به لكثرتهم وشدتهم، وهم من أولاد يافث، والترك منهم ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرضنا بالقتل، والتخريب، وإتلاف الزروع، كانوا يخرجون أيام الربيع، فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي

جُعِلَ من أموالنا ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾؟ يحجزون خروجهم علينا فلا يصلون إلينا؟.

﴿قَالَ مَا مَكْنِيَ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

﴿قَالَ مَا مَكْنِيَ فِيهِ رَبِّي﴾ أي جعلني فيه مكيئاً قادراً، من الملك والمال ﴿خَيْرٌ﴾ أي مما تريدون أن تبدلوه إليّ من الخرج، فلا حاجة بي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي فَعَلَّةٌ وَصُنَاعٌ يحسنون البناء والعمل، وبآلات لا بد منها في البناء للتفريغ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي حاجزاً حصيناً وهو أكبر من السد وأوثق، وهذا فوق ما يرجونه.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ جمع زُبرة كُفِّرَ جمع عُرفة، وهي القطعة الكبيرة من الحديد، وتخصيص الأمر بالإيتاء بقطع الحديد دون سائر الآلات، من الصخور والحطب ونحوهما، لما أن الحاجة إليها أمس، إذ هي الركن في السد، ثم حَقَّرَ الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من الحديد حتى سد ما بين الجبلين ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي بين جانبي الجبلين، يعني آتوه إياها، فأخذ يبني شيئاً فشيئاً، حتى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في السمك ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ أي بالكيران في الحديد المبني ففعلوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ أَيْ المنفوخ فيه ﴿نَارًا﴾ أي كالنار في الحرارة والهيئة ﴿قَالَ﴾ للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة ونحوها ﴿ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ - أي نحاساً مذاباً حتى يلتصق ويتماسك مع الحديد.

﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقْبًا﴾.

﴿فَمَا اسْتَطَعُوا﴾ بحذف التاء تخفيفاً، أي فعلوا ما أمروا به فصار جبلاً صُلْدًا، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه فلم يستطيعوا ولم يقدروا ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوه لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَبَأٌ﴾ لشخه وصلابته، وهذه لخارقة عظيمة، لأن تلك الزبر الكثيرة بالنفخ فيها تكون كالنار، وإفراغ القطر عليها أي النحاس المذاب شبه مستحيل، فكان ما كان، والله على كل شيء قدير. وقيل: بناه من الصخور مرتباً بعضها ببعض، بكلايب من حديد، ونحاس مذاب.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ﴿٩٨﴾

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي قال ذو القرنين لمن عنده من تلك الديار ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى السد، وتمكينه من بنائه ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي أثر رحمة عظيمة ﴿مِنْ رَبِّي﴾ على كافة العباد، لا سيما على مجاوريه، وفيه إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة، بل هو إحسان إلهي محض، وإن ظهر بمباشرة العباد ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وهو يوم القيامة، لا خروج يأجوج ومأجوج كما قيل ﴿جَعَلَهُ﴾ أي السد مع متانته ﴿دَكَّاءَ﴾ مذكوكاً مبسوطاً مسوئاً بالأرض، والدك بالفتح والتشديد: الضرب والكسر وفيه بيان لعظم قدرته، بعد بيان سعة رحمته ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي كل ما وعد به ﴿حَقًّا﴾ أي ثابتاً لا محالة، واقعاً البتة.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَعَلْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ ﴿٩٩﴾

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ كلام مسوق من جنبه سبحانه معطوف على قوله جعله دكاً، ومحقق لمضمونه أي جعلنا بعض الخلائق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ جاء الوعد ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي يضطربون اضطراب أمواج البحر، ويختلط إنسهم وجنهم، حيارى من شدة الهول، وذلك قبل النفخة الأولى، أو تركنا بعض يأجوج ومأجوج يَمُوجُ في بعض آخر، مزدحمين في البلاد

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية ﴿فَجَمَعْتَهُمُ﴾ أي الخلائق ﴿جَمْعًا﴾ أي جمعاً عجبياً، للحساب، والجزاء.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي أظهرناها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ جمعنا الخلائق كافة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً ﴿عَرْضًا﴾ فظيماً هائلاً، وتخصيص العرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة، لأن ذلك لأجلهم خاصة، فهذا يجري مجرى العقاب، لما يتدخلهم من الغم العظيم.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِي غِطَاءٍ﴾ كثيف، وغشاوة غليظة ﴿عَنْ ذِكْرِي﴾ عن آياتي وعن القرآن الكريم ﴿وَكَانُوا﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لفرط تصامهم عن الحق، وكمال عداوتهم للرسول ﷺ ﴿سَمْعًا﴾ أي استماعاً لذكري، وكانوا صُمّاً عنه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية، كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالابصار.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي كفروا بي، والحسبان بمعنى الظن، والهمزة للإنكار والتوبيخ - ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ من الملائكة، وعيسى، وعزير عليهم السلام، وهم تحت سلطاني وملكوتي، وقيل: هي الأصنام سماهم عباداً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ

أَمْثَالُكُمْ»^(١) ﴿مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءٍ﴾ معبودين، فظنوا أنه ينفعهم، بل هم أعداء لهم يتبرؤون منهم ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي هيأناها ﴿لِلْكَافِرِينَ نَزْلًا﴾ أي شيئاً يتمتعون به عند ورودهم، وهو ما يقام للنزول، أي للضيف، مما حضر من الطعام وغيره، وفيه تهكم بهم، وتخطيط لهم في حسابهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ الخطاب الثاني للكفرة على وجه التوبيخ ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟ وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الأعمال الحسنة في نفسها، وفي حسابهم حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها.

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ﴾ أي ضاع وبطل بالكلية ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بالسعي لا بالضلال، لأن بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ أي وهم يظنون والمراد بهم أهل الكتاب قاله ابن عباس، وعن علي هم الخوارج، واللفظ عام يعمهم وغيرهم ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي بطل سعيهم المذكور، والحال أنهم يحسبون أنهم يحسنون في ذلك.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾

﴿أُولَئِكَ﴾ كلام مستأنف من جنبه تعالى لتبيين سبب خسرانهم أي أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعي مع الحساب المذكور ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ - بدلائله الداعية إلى التوحيد والنبوة، عقلاً ونقلاً

(١) سورة الأعراف، آية: ١٩٤.

والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم في الكفر المذكور ﴿وَلَقَائِهِ﴾ بالبعث وأمور الآخرة على ما هي عليه ﴿فَحِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ لذلك حبوطاً كلياً ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ﴾ لأولئك الموصوفين ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنَا﴾ - أي لا نجعل لهم مقداراً واعتباراً، لأن مداره الأعمال الصالحة، وقد حبطت بالكفر. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة، قال اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنَا﴾^(١)».

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم أي الأمر ذلك، وقوله عز وجل ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا﴾ تصريح بأن ما ذكر جزاء لكفرهم، المتضمن لسائر القبائح - ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أي مهزوءاً بهم، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الكفر، بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضاً وهي السخرية والاستهزاء بآيات الله، ورسول الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي آمنوا بآيات ربهم ولقائه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الأعمال الخيرية والطاعات ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في حكم الله ووعده ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ هو البستان، وقال المبرد: الشجر الملتف، والأغلب أن يكون من العنب ﴿نُزُلًا﴾ أي ضيافة وكرامة لهم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٤٧٢٩ ومسلم رقم ٢٧٨٥.

﴿خَلْدَيْنَ فِيهَا لَا يَبْعُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ أي لا يطلبون التحول عنها، إذ لا يتصور أن يكون شيء أغز عندهم منها، حتى تنازعهم إليه أنفسهم، وهذا الوصف يدل على غاية الكمال، لأن الإنسان في الدنيا إذا وصل إلى أي درجة في السعادة، فهو طامع إلى ما هو أعلى منها.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا﴾ وهو ما تمد به الدواة من الحبر، الذي يكتب به ﴿لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ لتحريز كلمات علمه وحكمته ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ لتناهيه لأن كل جسم متناهٍ ﴿قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ والمعنى: من غير أن تنفذ كلمات ربي، لعدم تناهيهما، فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر، وفي إضافة الكلمات إلى الرب من تفخيم المضاف، وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ كلام من جهته تعالى جيء به لتحقيق مضمونه، مع زيادة المبالغة ﴿بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ عوناً وزيادة، أي لو كانت بحور تمدّه ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله. وسبب نزولها أن اليهود لعنهم الله، قالوا للمسلمين: في كتابكم: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ثم تقرأون ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فنزلت، يعني أن ذلك خير كثير، ولكنه قطرات من بحر كلمات الله جلّ وعلا.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم بعد ما بيّنت شأن كلمته تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لا ادعي الإحاطة بكلماته سبحانه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من تلك الكلمات إنما تميزت عنكم بذلك ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ لا شريك له في الخلق و لا في سائر

أحكام الألوهية ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ حسن لقاء ربه، وقيل رؤيته تعالى كما هو حقيقة اللفظ، وإدخال الماضي على المستقبل، للدلالة على أن اللائق بحال المؤمن، الاستدامة على رجاء اللقاء، أي فمن استمر على رجاء كرامته تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ في نفسه خالصاً لا يريد إلا وجهه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ إشراكاً جلياً ولا إشراكاً خفياً كما يفعله أهل الرياء.

عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَمِعَ سَمِعَ الله به، ومن يرائي يرائي الله به»^(١) قوله: «من سَمِعَ سَمِعَ الله به» أي من عمل عملاً ليشتهر بذلك شهر الله بذلك يوم القيامة.

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يقول أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه»^(٢) وقد ورد في فضل هذه السورة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عُصِمَ من فتنه الدجال»^(٣) وفي رواية: من آخرها.

نسأل الله أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، أن يخصنا بالمغفرة والفضل، في يوم الدين، إنه ذو الفضل العظيم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكهف».

(١) أخرجه البخاري ٢٨٨/١١ في الرقاق، ومسلم رقم ٢٩٨٧ في الزهد.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد رقم ٢٩٨٥ باب من أشرك في عمله.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين رقم ٨٠٩ والترمذي في ثواب القرآن رقم ٢٨٨٨.



مكية وهي ثمان وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيَعَصْ ﴿١﴾ ذُكِّرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿كَهَيَعَصْ﴾^(١) قد سلف أن الحروف المقطعة أسماء لسور، أو هي تشير إلى بعض أسماء الله الحسنى.

﴿ذُكِّرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي هذا المتلو، ذكرُ رحمة ربك ﴿عَبْدُ﴾ أي لعبده زكريا نقصه عليك، ومعنى ذكر الرحمة: بلوغها وإصابتها ﴿زَكِرًا﴾ بدل منه أي هذا العبد هو زكريا.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ ظرف (لرحمة ربك) أي حين نادى ربه نداء خفياً في ضراعة وتوسل، وقد راعى عليه السلام حسن الأدب في إخفاء دعائه، فإنه أدخل في الإخلاص، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى

(١) الحروف الهجائية المقطعة، للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، كما هو رأي المحققين، وانظر أول سورة البقرة.

الخلاص عن لائمة الناس، على طلب الولد في أوان الكبر قالوا: كانت
سِنُّه حينئذ مائة وعشرين عاماً، وامرأته ثمان وتسعون سنة.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ
بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾

﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ هذا تفسير الدعاء، أصله ياربي فحذف حرف النداء
والمضاف إليه اختصاراً ﴿ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ الوهن: الضعف، وإسناده إلى
العظم لما أنه عماد البدن وأشد أجزائه صلابة، فإذا وهن كان ما وراءه
أوهن ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ شبه عليه السلام الشيب بشواظ النار،
وانتشاره في الشعر باشتعالها، ثم أخرج مخرج الاستعارة أي عمّ الشيب
رأسي وانتشر انتشار النار في الهشيم، وأسند الاشتعال إلى الرأس، الذي
هو مكان الشيب مبالغة ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ ﴾ أي بدعائي إياك
﴿ شَقِيًّا ﴾ أي كنت مستجاب الدعوة، ولم أكن خائباً في وقت من الأوقات،
بل كلما دعوتك استجبت لي يقال: سعد فلان بحاجته إذا ظفر بها، وشقي
إذا خاب، وهذا توسل منه عليه السلام، بما سلف منه تعالى من
الاستجابة.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن وِرَآئِي وَكَانَتْ أَمْرًا قَاقِرًا فَهَبْ لِي
مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ ﴾ أي من يلي أمره بعد موته عليه السلام، يعني
بني عمه، فخاف أن لا يحسنوا خلافته على أمته ﴿ مِن وِرَآئِي ﴾ أي من بعد
موتي ﴿ وَكَانَتْ أَمْرًا قَاقِرًا ﴾ أي عقيماً لا تلد من حين شبابها ﴿ فَهَبْ لِي
مِن لَّدُنكَ ﴾ أي أعطني من محض فضلك، لا بالأسباب العادية ﴿ وَلِيًّا ﴾
من صليبي يلي أمرك من بعدي.

﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ٦.

﴿يَرْثِي﴾ من حيث العلم، والدين، والنبوة، فإن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون المال كما قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»^(١) ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مرضياً عندك، قولاً وعملاً، فأجاب الله دعاءه.

فقال: ﴿يَنْزَكِرُنَا إِنَّا تَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ٧.

﴿يَنْزَكِرُنَا إِنَّا تَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ هذا جواب الله لندائه الخفي، ووعد بإجابة دعائه عليه السلام، حسبما تقتضيه المشيئة الإلهية المبنية على الحكم والمصالح، فإن الأنبياء عليهم السلام، وإن كانوا مستجابي الدعوة، لكنهم ليسوا كذلك في جميع الدعوات ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ وفي تعيين اسمه، وتخصيصه به، مزيد تشريف، فإن التسمية بالأسامي البديعة، الممتازة عن سائر أسماء الناس، تنويه بالمسمى، قالوا لم يكن له عليه السلام مثل، في أنه لم يعص الله، ولم يهَمْ بمعصية قط، وأنه ولد من شيخ فان، وعجوز عاقر، وأنه كان حصوراً، وسُمِّي يحيى لأنه حي به دين الله.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِيَ غُلَامٌ وَكَأَنِّي آمُرُاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ ٨.

(١) أخرجه البخاري بنحوه وانظر جامع الأصول ٦٤٠/٩.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ من عتا يعتو أسنً وكبر، فهو عات أي بلغت في الكبر والشيخوخة نهاية العمر، فكيف يأتيني مولود؟.

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۚ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أي الله تعالى، أو الملك المبلِّغ ﴿ كَذَلِكَ ﴾ الكاف مقحمة، أي الأمر كذلك، تصديق له ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ﴾ جملة مقررة للوعد، دالة على إنجازه، كأن قيل: قال الله تعالى: مثل ذلك القول البديع، ومثل ذلك الوعد، هو عليّ خاصة هين، وإن كان في العادة مستحيلاً. جاء بلفظ الالتفات، جرياً على سنن الكبرياء، لتربية المهابة، كقول الخليفة: «أمير المؤمنين يرسم لك» مكان «أنا أرسم» ثم التفت من ضمير الغائب إلى ياء العظمة إيذاناً بأن مدار كونه هيناً عليه سبحانه، هو القدرة الذاتية، لا ربوبيته تعالى له خاصة ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ أي أوجدتك من قبل يحيى، والمراد به ابتداء خلق البشر، إذ هو الواقع إثر العدم المحض، وإنما لم ينسب إلى آدم عليه السلام بأن يُقال: وقد خلقت أباك آدم من قبل، ولم يك شيئاً، لتأكيد الاحتجاج، وتوضيح منهاج القياس، حيث نبّه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه من العدم، وكان حال زكريا عليه السلام، أولى بأن يكون معيار الحال ما يشد به نسب الخلق المذكور إليه..

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۚ ﴾

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أي اجعل لي علامة تدل على حمل امرأتي، وقوله «سَوِيًّا» حال من ضمير

المتكلم، أي حال كونك سوي الأعضاء واللسان، ما بك شائبة بكم ولا خرس، ولم يك بك مرض.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي من المصلى، أو من الغرفة، وكانوا من وراء المحراب ينتظرون أن يفتح لهم الباب، فيدخلوه ويصلوا معه، إذ خرج عليهم متغيراً لونه، فأنكروه وقالوا: مالك؟ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أي أوما إليهم لقوله تعالى في آية أخرى ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ أي صلوا أو نزهوا ربكم ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ والمراد بهما صلاة الفجر، والعصر، أو نزهوا ربكم طرفي النهار وقولوا: سبحان الله.

﴿يَخِيحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

﴿يَخِيحِي﴾ أي وهبنا له يحيى، وقلنا له يا يحيى ﴿خُذِ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجهد وحزم ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ يعني الحكمة، والفقه في الدين، روي أنه دعاه الصبيان إلى اللعب فقال: ما للعب خلقتنا.

﴿وَحَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

﴿وَحَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا﴾ أي آتيناه من جانبنا رحمة في قلبه، وشفقة على أبويه ﴿وَزَكَاةً﴾ أي طهارة من الذنوب ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مطيعاً ومتجنباً عن المعاصي، وكان من تقواه أنه عليه السلام لم يعمل خطيئة، ولم يهمل بها قط، فإن قلت: كيف يصح حصول الفطنة والنبوة حال الصبا؟ قلت: لأن أصل النبوة على خرق العادة.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ ﴿١٤﴾

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أي باراً بهما محسناً إليهما ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي لم يكن متكبراً عاقاً لهما أو عاصياً لربه .

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿١٥﴾

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ﴾ من الله تعالى ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطان مما ينال من بني آدم ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من عذاب القبر ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من هول القيامة، وعذاب النار، يقال: أوحشُ المواطن ثلاثة: يوم يولد لأنه يرى نفسه خارجاً من مكانه، ويوم يموت لأنه يرى قوماً ما شاهدهم قط، ويوم يبعث لأنه يرى مشهداً عظيماً، فأكرم الله تعالى يحيى فخصّه بالسلامة في هذه المواطن الثلاثة .

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ﴿١٦﴾

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ خوطب به النبي ﷺ، وأمر بذكر قصة مريم، بعد قصة زكريا عليه السلام، لما بينهما من كمال الاشتباه، أي اذكر للناس نبأها، فإن الذكر لا يتعلق بالأعيان ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ﴾ أي اعتزلت وتنحّت ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ من قومها ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي شرقي بيت المقدس لتتفرغ هنالك للعبادة، ولذلك اتخذ النصارى المشرق قبلة لهم .

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا

سَوِيًّا﴾ ﴿١٧﴾

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحولّت إلى بيت خالتها، وإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في

ذلك المكان في مغتسلها ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي جبريل عليه السلام، والإضافة للتشريف، وإنما سمي روحاً لأنه روحاني، أو لأن الدين يحيى بوحيه - ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي سويّ الخلق، كامل البنية، في صورة آدمي شاب، وضيء الوجه. وإنما تمثل لها بذلك لتأنس بكلامه، وتلقى منه ما يلقي إليها من كلماته تعالى، إذ لو بدا لها على الصورة الملكية، لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته ومحادثته.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ أي أستجير بالرحمن منك، وهذا شاهد عدل، بأنه لم يحضر ببالها شائبة ميل إليه، رغم تمثيله على ذلك الحسن الفائق لابتلائها، ولقد ظهر منها من الورع، والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوان الرحمانية، للمبالغة في العيادة به، واستجلاب آثار رحمته الخاصة، التي هي العصمة مما دهمها ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ جواب الشرط محذوف، أي إن كنت تتقي الله فلا تتعرض لي!! وهذا كقول القائل: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني، كقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرَّبِّإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يريد عليه السلام أنني لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر، وإنما أنا رسول ربك الذي استعذت به ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدرع ﴿زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، مترقياً على الخير والصلاح، ولما علم جبريل عليه السلام

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧٨.

خوفها، قال إنما أنا رسول ربك، وأظهر لها معجزة، عرفت به أنه جبريل عليه السلام، فزال خوفها.

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ﴾ (٢١)

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ كما وصفته ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ ؟ أي والحال أنه لم يباشرني بالنكاح رجل، والمسُّ كناية عن النكاح، ﴿ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ﴾ أي ولم أكن فاجرة زانية تبغي الرجال؟.

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ (٢١)

﴿ قَالَ ﴾ جبريل عليه السلام تقريراً لمقالتها، وتحقيقاً لها ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي الأمر كما قلت ﴿ قَالَ رَبُّكَ ﴾ الذي أرسلني إليك ﴿ هُوَ ﴾ أي هبة الغلام، من غير أن يمَسَّك بشر أصلاً ﴿ عَلَىٰ ﴾ خاصة ﴿ هَيْنٌ ﴾ وإن كان مستحيلاً عادة، لما أني لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط ﴿ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أي نفعل ذلك لنجعل آية لهم، وبرهاناً يستدلون به على كمال قدرتنا، والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الجلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ عظيمة ﴿ مِنَّا ﴾ عليهم يهتدون بهدأته، ويسترشدون بإرشاده ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أي محكماً، قد تعلّق به قضاؤنا الأزلي، وقُدِّر وسُطِّر في اللوح المحفوظ، لا بد من جريانه عليك البتة، فلما اطمأنت إلى قوله دنا منها، فنفخ جيب درعها فوصلت النفخة إلى رحمها.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (٢٢)

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ في الحال وكانت مدة حملها سبعة أشهر، وقيل تسعة أشهر وكان النافخ جبريل عليه السلام، لأن الظاهر من قوله: ﴿ لَأَهَبَ

لَكَ ﴿ أَنَّهُ أَمْرٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِهِ ﴾ ﴿فَأَنْتَبَذَتْ بِهِ﴾ أَيِ فَاعْتَرَلَتْ بِهِ وَهُوَ فِي بَطْنِهَا ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أَيِ بَعِيدًا مِنْ أَهْلِهَا وَرَاءَ الْجَبَلِ.

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ ﴿٢٢﴾.

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أَيِ فَالْجَآءَهَا، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَنْقُولٌ مِنْ «جَاءَ» كَأَتَى فِي أُعْطِيَ، وَالْمَخَاضُ: وَجَعُ الْوِلَادَةِ، مَخَضَتِ الْمَرْأَةُ أَيِ أَخَذَهَا الطَّلُقُ ﴿إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ﴾ أَصْلُهَا، وَكَانَتْ نَخْلَةٌ يَابِسَةٌ، وَكَانَ الْوَقْتُ شَتَاءً، وَلَعَلَّهُ تَعَالَى أَلْهَمَهَا ذَلِكَ، لِيُرِيَهَا مِنْ آيَاتِهِ مَا يَسْكُنُ رَوْعَتَهَا، وَيُطْعِمُهَا الرُّطْبَ الَّذِي هُوَ طَعَامُ النَّفْسَاءِ ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ أَيِ الْوَقْتُ الَّذِي لَقِيتُ فِيهِ مَا لَقِيتُ مِنَ الْكَرْبِ، وَإِنَّمَا قَالَتْهُ مَعَ أَنَّهَا تَعْلَمُ مَا جَرَى بَيْنَهَا وَبَيْنَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتِحْيَاءً مِنَ النَّاسِ، أَوْ حَذَرًا مِنْ وَقُوعِ النَّاسِ فِي الْمَعْصِيَةِ بِمَا سَيَتَكَلَّمُونَ فِيهَا^(١) ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا﴾ أَيِ شَيْئًا تَافَهُأَ شَأْنُهُ أَنْ يُنْسَى ﴿مَنَسِيًّا﴾ أَيِ مَتْرُوكًا لَا يَخْطُرُ بِبَالٍ أَحَدٌ.

﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿فَنَادَتْهَا﴾ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ أَيِ مِنْ مَكَانٍ أَسْفَلَ مِنْ مَكَانِهَا، وَقِيلَ مِنْ تَحْتِ النَّخْلَةِ ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أَيِ نَادَاهَا الْمَلِكُ أَنْ لَا تَحْزَنِي لِهَذَا الْأَمْرِ، وَلَا تَهْتَمِّي بِمَقَالَةِ النَّاسِ ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ أَيِ بِمَكَانٍ أَسْفَلَ مِنْكَ ﴿سَرِيًّا﴾ أَيِ نَهْرًا صَغِيرًا، ضَرَبَ جَبْرِيلُ بَرَجْلَهُ الْأَرْضَ، فَظَهَرَتْ عَيْنُ مَاءٍ عَذْبَةٍ، فَجَرَى جَدُولًا دَافِقًا بِالمَاءِ، وَهَذِهِ آيَةٌ بَاهِرَةٌ عَلَى كَرَامَةِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، وَقَالَ لَهَا:

(١) عَرَفَتْ أَنَّ النَّاسَ لَا يَصْدُقُونَهَا فِي خَبَرِهَا، وَبَعْدَمَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ عَابِدَةً نَاسِكَةً، تَصْبَحُ عَاهِرَةً زَانِيَةً، وَلِهَذَا تَمَنَّتِ الْمَوْتَ، وَقَالَتْ مَا قَالَتْ.

﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾.

﴿وَهَزَى﴾ أي أمليه، هزته هزاً حركته فاهتز ﴿إِلَيْكَ﴾ إلى جهتك ﴿بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ الباء زائدة للتأكيد أي هزى جذع النخلة ﴿تُسْقِطُ﴾ أي تسقط النخلة ﴿عَلَيْكَ﴾ إسقاطاً متواتراً ﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾ أي طرياً شهيماً، قيل: ما للنفساء خير من الرطب، روي أنها هزتها، فجعل الله لها رأساً، وورقاً ورطباً، لتسليتها بذلك، لما فيها من المعجزات الدالة على براءة ساحتها، ومن قَدَر أن يثمر النخلة اليابسة، قدر أن يحبلها من غير فعل.

﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا﴾.

﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي﴾ من الرطب واشربي من الماء السلسيل ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي طيبي نفساً، وانفضي عنك ما أحزنك، فإنه تعالى نزه ساحتك عما اختلج في صدور الناس، بما أظهر لهم من الخوارق، من جري النهر، واخضرار النخلة اليابسة، وإثمارها قبل وقتها، فإنهم إذا رأوا ذلك لم يستبعدوا ولادة ولد بلا فعل، ﴿وَقَرِّي﴾ من القرار فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه، أو من القرِّ فإن العين باردة في السرور، وحارة في الحزن، ولذا يقال: قرّة العين للمحبوب، وسخنة العين للمكروه ﴿فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي آدمياً كائناً ما كان ﴿فَقُولِي﴾ له إن استنطقك ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي صياماً وكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الأكل والشرب، وقيل: كان صيامهم فيه الصمت، وقد نهى الرسول ﷺ عن صوم الصمت فصار منسوخاً ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا﴾ أمرت بأن تخبر بنذرها بالإشارة، وقيل: أمرها أن تقول هذا القول نطقاً ثم تمسك، وإنما أمرت بذلك لكرهه مجادلة السفهاء، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام، فإنه نص قاطع في قطع الطعن، وفيه دلالة على أن تفويض الكلام إلى الأفضل أولى.

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا ﴾ أي جاءتهم بولدها راجعة إليهم، عندما طهرت من نفاسها ﴿ تَحْمِلُهُ ﴾ أي حاملة له ﴿ قَالُوا يَمْرِئٌمُ لَقَدْ جِئْتَ ﴾ أي فعلت ﴿ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أي عظيماً، منكرأ، عجباً، وعبر عنه بالشيء، تحقيقاً للاستغراب، قيل: لما دخلت على أهلها ومعها الصبي، بكوا وحزنوا، لأنهم كانوا أهل بيت صالحين وقالوا ما قالوا.

﴿ يَتَأَخَتْ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ يَتَأَخَتْ هَارُونَ ﴾ تجديد للتوبيخ، عنوا به هارون النبي عليه السلام، لأنها كانت من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وقيل هو رجل صالح كان في زمانهم شبهوها به في الصلاح، عن المغيرة بن شعبة قال: سألت عنه رسول الله ﷺ فقال: «إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم»^(١) ﴿ مَا كَانَ أَبُوكَ ﴾ عمران ﴿ أَمْرًا سَوْءًا ﴾ أي زانياً ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ ﴾ حنة ﴿ بَغِيًّا ﴾ أي زانية، تقرير وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين، فُحْشٌ ومنكر عظيم!

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى عيسى عليه السلام أن كلموه، ولما أشارت إليه غضبوا وتعجبوا ﴿ قَالُوا ﴾ منكرين لجوابها ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ

(١) أخرجه مسلم في الآداب رقم ٢١٣٥ ونسّاه عن المغيرة قال: «لما قدمت نجران سألتوني فقالوا: إنكم تقرأون ﴿يا أخت هارون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ - أي بألف سنة - فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك؟ فقال: إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم، والصالحين قبلهم» ..

صَبِيًّا؟ - ولم نعهد صبيًّا في المهد تكلم! ولما قالوا هذا، اتكأ وأقبل عليهم، وتكلم بكلام فصيح صريح.

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ أنطقه الله عزَّ وجلَّ بذلك، تحقيقاً للحق، وردّاً على من يزعم ربوبيته^(١) ﴿ ءَاتَنِي الْكِتَابَ ﴾ أي الإنجيل ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾.

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

﴿ وَجَعَلَنِي ﴾ مع ذلك ﴿ مُبَارَكًا ﴾ نفعاً، معلماً للخير، والتعبير بلفظ الماضي باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم، فإن ما حكم الله به أزلاً لا بدّ أن يقع، كقوله سبحانه: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ أو يجعل ما شارف الوقوع واقعاً، وروي عن الحسن أنه كان في المهد نبياً، وكلامه من معجزاته، والأظهر أن معناه: سيجعلني نبياً، ويؤتيني الكتاب وقيل: كلّمهم بذلك ثم لم يتكلم، حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ أي حيثما كنت ﴿ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ ﴾ أي أمرني بها أمراً مؤكداً ﴿ وَالزَّكَاةِ ﴾ زكاة المال إن ملكته أو بتطهير النفس ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ في الدنيا.

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾

(١) أوّل كلمة نطق بها السيد المسيح، وهو طفل رضيع ﴿ قال إني عبد الله ﴾ وكان ذلك معجزة له تدل على براءة أمه، وطهارتها من مقارفة الفاحشة، ولا نجد في الأناجيل هذه المعجزة، وهي قوله: ﴿ إني عبد الله ﴾ لأنها تبطل مزاعم النصارى في ألوهية المسيح، ولهذا حذفوها من الأناجيل، مع أنها من سواطع المعجزات والبراهين!!

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾ أي جعلني باراً بها، والتكبير للتفخيم ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي عنيداً متعظماً متكبراً على عباد الله، شقياً في حياتي.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿٣٣﴾.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي وسلام الله عليّ في يوم ولادتي، وفي يوم مماتي، ويوم خروجي حياً من قبري، وفيه تعريض باللعن على من اتهم مريم بالزنا، ونظيره قول موسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿٣٤﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى من فُضِّلَت نعوته الجليلة ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم فيما يصفونه به من دعوى الربوبية ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكّون ويتنازعون، فيقول اليهود: ساحر وابن زنى، والنصارى يقولون: هو ابن الله، وكلا الفريقين مفترّ كاذب.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٣٥﴾.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ أي ما صحَّ وما استقام له تعالى ﴿أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ تكذيب للنصارى ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له تعالى عما بهتوه ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ بلا تأخير، فمن هذا شأنه، كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ وقد نص عيسى على عبودية نفسه، لإزالة التهمة عن الله تعالى.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٣٦﴾.

﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا هو الدين القويم الذي لا يضل سالكه.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ الحزبُ: الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها نَبَّه تعالى على سوء صنيعهم، بجعلهم ما يوجب الاتفاق، منشأ للاختلاف، فإن ما قال عيسى عليه السلام من كونه عبداً لله تعالى، اختلف النصارى بالإفراط والتفريط، فقالت النسطورية: هو ابن الله، وقالت اليعقوبية: هو الله هبط إلى الأرض، وزعم بعضهم أنه ثالث ثلاثة ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم المختلفون في أمر عيسى، عبر عنهم بالموصول، إيداناً بكفرهم جميعاً ﴿مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي من شهود يوم، عظيم الهول، والحساب والجزاء، وهو يوم القيامة، والنصُّ وعيد وتهديد لكل كافر، سواء كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً، فإن الكفر كله ملة واحدة.

﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ﴾ تعجيب من شدة سمعهم وبصرهم، أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب!! ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ للحساب والجزاء، والمراد أنَّ أسمعهم وأبصارهم جديرة بأن يتعجب منهما، بعد أن كانوا في الدنيا صماً وعمياً ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أي في الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لا تدرك غايته، حيث أغفلوا الاستماع والنظر.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي يوم يتحسر الناس قاطبة، أمّا المسيء فعلى

إساءته وأما المحسن فعلى قلة إحسانه ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي فرغ من الحساب، وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة أحد، إلا أري مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ، ليكون عليه حسرة»^(١) ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عما يفعل بهم في الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون به.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي نتفرد بالملك والبقاء، عند تعميم الهلاك والفناء ولا يبقى لأحد غيرنا عليها ملك، ونتوفى الأرض توفي الوارث لإرثه ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي يردون إلينا للجزاء لا إلى غيرنا، وهذا تخويف عظيم، ووعيد شديد.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾.

﴿وَأَذْكُرْ﴾ عطف على أنذرهم ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي في السورة أو في القرآن ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ أي اتل عليهم قصته كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ فإنهم يتمنون إليه، فعساهم باستماع قصته يقلعون عما هم فيه من الشرك والقبائح ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازماً للصدق في كل ما يأتي وما يذر ﴿نَبِيًّا﴾ خبر آخر أي كان جامعاً بين الصديقية والنبوة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِ بِمِثْلِ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٤١٨/١١.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ أي لا يسمع ثناءك وجوارك إليه، ولا يبصر خضوعك بين يديه، أو لا يسمع ولا يبصر من المسموعات والمبصرات شيئاً ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ أي لا يقدر على أن يغنيك في جلب نفع، ودفع ضرر، وقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج، واحتج عليه بحسن الأدب، حيث طلب منه علّة عبادته، ولم يصرح بضلاله، ونّبّه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل، لغرض صحيح، والشيء لو كان حياً، مميزاً، سميعاً، بصيراً، مقتدرّاً على النفع والضرر، ولكنّه كان محتاجاً، لاستنكف العقل السليم عن عبادته، وإن كان أشرف المخلوقات، كالملائكة، والنبين، لما يراه مثله في الحاجة إلى من سواه، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يبصر؟.

ثم دعاه إلى أن يتّبعه، ليهديه إلى الحق القويم، والصراط المستقيم ولكنه كان جاهلاً عنيداً، لم يأبئه للنصيحة والإرشاد.

﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾

﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ لم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير، يكون أعرف بالطريق، فاستماله برفق حيث قال: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي مستقيماً موصلاً إلى أسنى المطالب، ثم ثبطه عما كان عليه بأنه مع خلوه عن النفع، مستلزم للضرر، فإنه في الحقيقة عبادة للشيطان من حيث إنه الأمر، ولهذا قال بعده:

﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾

﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فإن عبادتك

للأصنام عبادة له، إذ هو الذي يسولها لك، ويفريك عليها، ومعلوم أن المطاوع للعاصي عاص، وكل من هو عاصي حقيق بأن تُستردَّ منه النعم.

﴿يَتَأْتِي إِيَّيَ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥﴾.

﴿يَتَأْتِي إِيَّيَ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه، وهو ابتلاؤه بما ابتلي به معبوده، من العذاب الفظيع ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي قريباً له في اللعن المخلد والطرْد والحرمان من دخول الجنان.

﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابِرْهُمْ لِيْن لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي ٤٦﴾.

﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابِرْهُمْ﴾ أي أ معرضٌ ومنصرف أنت عن عبادة إلهي يا إبراهيم؟ قابل استعطافه في الإرشاد، بغلظة العناد، فناداه وأخّره، ولم يقابل قوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾ بـ «يَا بُنَيَّ» وصدّره بالهمزة للإنكار، على ضرب من التعجب، كأنها مما لا يرغب عنها عاقل، ثم هدّده فقال ﴿لِيْن لَمْ تَنْتَهِ﴾ عن مقالك فيها، وعن النهي عن عبادتها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالحجارة ﴿وَأَهْجُرَنِي﴾ أي اتركني ﴿مَلِيًّا﴾ أي زماناً طويلاً، أو بالذهاب عني، وإنما حكى الله تعالى ذلك للرسول ﷺ ليخفف عليه ما كان يصل إليه، من أذى المشركين، فيعلم أن الجهال منذ كانوا على هذه السيرة.

﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ٤٧﴾.

﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ﴾ متاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، أي لا أصيبك بمكروه، ولا أضافك بما يؤذيك، ولكن ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾

أي استدعيه أن يغفر لك، بأن يوفقك للتوبة، ويهديك إلى الإيمان، كما يلوح به قوله تعالى: ﴿وَاعْفُزْ لِأَيِّي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ﴾^(١) والاستغفار للكافر، قبل أن يتبين أنه مات على الكفر، مما لا ريب في جوازه، وإنما المحذور استدعاء المغفرة، مع بقاءه على الكفر، وبعد تبين موته على الكفر، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي حَفِيَّا﴾ أي بليغاً في البر والإلطف، والحفاوة: الرأفة والرحمة والكرم، والمراد أنه يستجيب لي فيما أدعوه وأطلبه منه.

﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾

﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ﴾ المراد بالاعتزال المهاجرة، أي أتباعدُ عنك وعن قومك ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بالمهاجرة بديني، من أرض بابل إلى أرض الشام، حيث لم تؤثر نصائحي فيكم ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أعبدوه وحده ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي خائباً، ضائع السعي، وفيه تعريض لشقايتهم، وفي تصوير الكلام بعسى التواضع، والتنبيه على أن الإجابة تفضل، وأن العبرة بالخاتمة.

﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾

﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بالمهاجرة ابتغاء مرضاة الله، وترك الديار والأوطان ﴿وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة، ليستأنس بهما، لكن لا عقيب المهاجرة، فإن المشهور الموهوب حينئذ «إسماعيل» عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ إثر دعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ولعل تخصيصهما بالذكر لأنهما

(١) سورة الشعراء، آية: ٨٦.

شجرتا الأنبياء ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي كل واحد منهم، جعلنا نبياً، لا بعضهم دون بعض.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا﴾ هي النبوة والمال، والأولاد، وقيل: هو الكتاب، والأظهر أنها عامة لكل خير ديني ودنيوي ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يفتخر بهم الناس، ويشنون عليهم، استجابة لدعوته بقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ والمراد باللسان ما يوجد به الكلام، وإضافته إلى الصدق، ووصفه بالعلو، للدلالة على أنهم أحقاء بما يشئ به عليهم، وأن محامدهم لا تخفى، على تباعد الأعصار، وتبدل الدول والأمصار.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾ قدم ذكره على ذكر إسماعيل، لثلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليه السلام ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي مؤمناً موثقاً اصطفاه الله لنفسه، لأنه أخلص عبادته عن الشرك، والرياء وأسلم وجهه لله ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ نبياً أرسله الله تعالى إلى الخلق، فأنبأهم عنه.

﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ يَحْيَى﴾.

﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي ناديناه من ناحية اليمين من جهة جبل الطور، والجمهور على أن المراد أيمن موسى عليه السلام، لأن الجبل لا يمين له، ومعنى ندائه أنه جاءه الكلام من تلك الجهة ﴿وَفَرَّقْنَاهُ﴾ أي وشرفناه بالمناجاة ﴿يَحْيَى﴾ أي مناجياً، مثل حاله عليه السلام بحال من قرّبه الملك لمناجاته، واصطفاه لمصاحبته.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ من أجل رحمتنا ورافتنا له ﴿أَخَاهُ﴾ لمعاوضة أخيه ومؤازرته، إجابة لدعوته حيث قال: ﴿وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي﴾ ﴿هَارُونَ نَبِيًّا﴾ وكان أكبر من موسى عليه السلام.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لإبراز كمال الاعتناء بأمره ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ وإيراده بهذه الصفة لكمال شهرته به، ونأهيك وعد الصبر على الذبح بقوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ فيه دليل على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ وهو أن يقبل الرجل على نفسه، ومن هو أقرب الناس إليه بالتكميل، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ وقيل أهله أمته، فإن الأنبياء آباء الأمم ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله، وهذا نهاية في المدح.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ وهو سبط شيث عليهما السلام، وجدُّ أب نوح عليه السلام، أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خط بالقلم ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أي ملازماً للصدق.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ بشرف النبوة وعلو الرتبة بالذكر الجميل، عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه رأى إدريس في السماء الرابعة^(١).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة الكريمة ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ بيان للموصول أي هم أنبياء الله الكرام ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ بدل منه بإعادة الجار أي هم من نسل آدم ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي ومن ذرية من حملناه معه، وهم من عدا إدريس عليه السلام لأنه كان قبل نوح ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم الباقون ﴿وَإِسْرَءِيلَ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام والد يوسف الصديق ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ أي من جملة من هديناهم إلى الحق، واجتبيناهم للنبوة ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ البكي جمع بك، كالسجود جمع ساجد، والمراد به سجود التلاوة، وقال بعضهم: الخضوع والخشوع، والظاهر يقتضي سجوداً مخصوصاً عند التلاوة، قالوا: ينبغي أن يدعو الساجد في سجده، بما يليق بآياتها مع الخشوع والخضوع، ومنها الدعاء المأثور «سجد وجهي للذي خلقه وصوّره، وشقّ سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين» وعنه ﷺ: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا».

(١) طرف من حديث الإسراء الذي رواه الشيخان.

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ يقال لعقب الخير خَلَفٌ بفتح اللام، ولعقب الشر ﴿ خَلَفٌ ﴾ بالسكون، أي فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء ﴿ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي تركوها وفَرَطُوا فيها، أو أَخْرَوْهَا عن وقتها ﴿ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ﴾ كشرب الخمر، والزنا، والانهماك في فنون المعاصي ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ شرًّا، فإن كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد، كما قال الشاعر:
فَمَنْ يَلْقَى خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوِ لَا يَغْدِمُ عَلَى الْغِيِّ لَأَيَّمَا
وعن ابن عباس وابن مسعود قالا: هو واد في جهنم، أَعَدَّ للمصريين على الزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، وشاهد الزور.

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ ﴾ يعني إلا من رجع عن كفره، وآمن بشرائطه ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ بموجب الوعد ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ أي لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً، أي إن كفرهم السابق، لا يضرهم ولا ينقص أجورهم.

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي جنات إقامة دائمة في جوار عرش الرحمن، وعدهم الله بها فآمنوا بها، قبل أن يروها تصديقاً لوعده الله، والتعرض لعنوان الرحمة، للإيدان بأن وعدها وإنجازها، لكمال سعة رحمته تعالى، والباء في قوله: ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ متعلقة بمضمرة أي وعدها

إياهم ملتبسة بالغيب أي غائبة عنهم لا يرونها، وإنما آمنوا بها بمجرد الإخبار ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ وَعَدُّكُمْ﴾ أي موعوده كائناً ما كان، فيدخل فيه الجنات، ولما كانت هي مثابة يرجع إليها قال: ﴿مَائِيَّاً﴾ أي يأتيه من وعد له لا محالة.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ (١٦).

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً﴾ أي لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام، ولا ألفاظاً قبيحة نابية، إنما يسمعون فيها التحية والسلام، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها، وفيه تنبيه على أن اللغو، مما ينبغي أن يجتنب عنه ما أمكن ﴿إِلَّا سَلَاماً﴾ استثناء منقطع أي لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم، وتسليم بعضهم على بعض ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ على عادة المتنعمين في هذه الدار، وقيل المراد دوام رزقهم ورفاهية عيشهم، وإلا فليس في الجنة بكرة وعشية، لأنهم في النور أبداً.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً﴾ (١٧).

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ﴾ أي نورثها ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي نبقيا عليهم ونمتعهم بها كما يبقى مال المورث على الوارث، والورثة أقوى لفظ يستعمل في التملك، من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا إبطال ﴿مَنْ كَانَ تَقِيّاً﴾ عن الإشراك، وقيل: يورث المتقون من الجنة، المساكن التي كانت لأهل النار، لو آمنوا وأطاعوا، زيادة في حسرة الكفار.

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا يَكِينُ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ (١٨).

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ هذا حكاية لقول جبريل عليه السلام، حين استبطأ عن رسول الله ﷺ، لما سئل عن أصحاب الكهف، أخرج البخاري

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «يا جبريلُ ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت هذه الآية»^(١) فكان هذا جواب جبريل عليه السلام، والتَّزَوُّلُ: النزولُ على مَهْلٍ، لأنه مطاوع للنزول، وقد يُطلق على مطلق النزول، والمعنى وما ننزل وقتاً بعد وقت، إلا بأمر الله تعالى، على ما تقتضيه حكمته، لأنني عبدٌ مأمور ﴿لَمْ مَّا بَكِنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلَفْنَا وَمَا بَيْنَكَ ذَلِكَ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأزمنة ولا ننتقل من مكان إلى مكان، ولا ننزل إلا بأمره ومشئته ﴿وَمَا كَانَ رَيْكَ تَسْمِيًا﴾ أي تاركاً لك يا محمد يعني أن عدم النزول، لم يكن إلا لعدم الأمر به، لحكمة فيه، لا لتركه لك كما زعمت الكفرة، وفي إعادة اسم الرب مضافاً إلى ضميره ﷺ، فيه تشريف عظيم للنبي ﷺ.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي هو تعالى ربُّ العوالم كلها، رب السموات، ورب الأرض، ورب العرش العظيم، وما بين السماء والأرض والنسيانُ عليه تعالى مستحيل، فإن من بيده ملكوت السموات والأرض كيف يُتصور أن يحوم حول ساحته سبحانه، الغفلة، والنسيان؟ ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية، فاعبده، ولا تحزن لإبطاء الوحي، وهزء الكفرة، فإنه تعالى يراقبك، ويلطف بك ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾؟ أي هل تعلم له شيئاً ومثيلاً، والمراد إنكار الشريك، أي ليس له جلٌّ وعلا من يشابهه ويمثله في الألوهية والخلق، وما يسميه المشركون آلهة فهي آلهة مزيفة.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٤٢٨/٨.

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَءَدَامًا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾.

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَءَدَامًا مِتُّ ﴾ المراد به الجنس، وإسناد القول إلى الكل لوجوده فيما بينهم، وإن لم يقله الجميع، كما يقال: بنو فلان قتلوا، وإنما القاتل واحد منهم، وقيل: المراد به الشقي «أبي بن خلف»^(١) فإنه أخذ عظاماً بالية، وقال: يزعم محمد أنا نُبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذه الحال؟ يقول ذلك بطريق الإنكار والاستبعاد ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أي هل سأبعث من الأرض؟ قاله تكديماً للبعث.

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾.

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ ﴾ من الذكر الذي يُراد به التذكر، والتفكر فيما جرى عليه من شؤون التكوين، أي يقول ذاك ولا يتذكر ولا يتفكر ﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي خلقناه من العدم من قبل هذه الحالة التي هو عليها الآن ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾؟ بل كان عدماً صرفاً حيث خلقناه وهو في تلك الحالة، المنافية للخلق؟ فلأن نبعته بجميع المواد المتفرقة أولى وأظهر.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾.

﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾ قَسَمٌ، باسمه عزَّتْ أسماؤه، مضافاً إلى ضميره ﷻ لتحقيق الأمر، والإشعار بعليته، وتفخيم شأنه ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي لنجمعن

(١) كان الشقي «أبي بن خلف» من طواغيت قريش، ومن صناديد الكفر، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مِنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؟ وقد اشتهر بالسخرية والتهكم بأمر البعث والنشور، حتى مات كافراً في غزوة بدر.

المجرمين المنكرين للبعث والنشور مع الشياطين، بعدما أخرجناهم من الأرض أحياء، إثباتاً للبعث ﴿وَالشَّيَاطِينِ﴾ عطف على الضمير المنصوب أي نجتمعهم مع الشياطين الذين أغووههم، كل مع شيطانه في سلسلة ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ليرى السعداء ما نجاهم الله منه، فيزدادوا غبطة وسروراً، وينال الأشقياء ما ادخروا لمعادهم، فيزدادوا غيظاً وحسرة والجثي جمع جاثٍ يقال: جثا إذا قعد على ركبته، أي لنحضرهم حول جهنم، جاثمين على ركبهم، لما يدهمهم من هول المطلق، وأهل الموقف جاثون، لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾^(١) ولعلمهم يساقون جثاة من الموقف إلى شاطئ جهنم، إهانة لهم، أو لعجزهم عن القيام، لما عراهم من الشدة.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا﴾

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل أمة شايعة ديناً، واتبعت مذهباً ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا﴾ أي من كان أعصى وأعتى منهم، فنظرهم فيها، الأعصى فالأعصى، والأشقى فالأشقى.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي هم أولى بصليها أي دخولها، والصلي كالعتي صيغة وإعلا، ويجوز أن يراد بهم وبأشدهم عتياً رؤساء الشيع، فإن عذابهم مضاعف، لضلالهم وإضلالهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾^(٢).

(١) سورة العنكبوت، آية: ٢٨.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ١٣.

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (٧١).

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ ﴾ التفات لإظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام، أي ما منكم أيها الناس ﴿ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ أي واصلها وحاضر دونها، يمرُّ بها المؤمنون وهي خامدة، وتنهار بغيرهم وأما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (١) فالمراد به الإبعاد عن عذابها، وقيل: ورودها الجواز على الصراط، فإنه ممدود ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ ﴾ أي ورودها إياها ﴿ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ أمراً محتوماً أوجبه الله تعالى على ذاته، وقضى أنه لا بد من وقوعه البتة.

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (٧٢).

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ من الكفر والمعاصي، فيساقون إلى الجنة ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ أي قعوداً على الركب في جهنم حجارة بهم.

﴿ وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ (٧٣).

﴿ وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا ﴾ أي على المشركين آيات القرآن المبين ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ مرتلات الألفاظ واضحات المعاني والإعجاز ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وضع الموصول موضع الضمير، للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا، كافرين بما يتلى عليهم، أي قال الذين مردوا منهم على الكفر والعناد، وهم النضر بن الحارث وأتباعه ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾؟ أي المؤمنين، والكافرين، كأنهم قالوا: أيننا؟ ﴿ خَيْرٌ ﴾ نحن أو أنتم ﴿ مَّقَامًا ﴾ موضع إقامة

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠١.

ومنزلاً ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلساً ومجتمعاً؟ كان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنونها، ويتطيّبون ويلبسون الملابس الفاخرة، ويجلسون في أنديةهم، ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين، وما هذه المقايسة العقيمة، إلا لكونهم جهلة، لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، يريدون بذلك أن خيريتهم إنما كانت لكرامتهم عند الله. فردّ الله عليهم بقوله تقدست أسماؤه:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِعًا﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية المكذّبين لآيات الله أهلكناهم بكفرهم، والقرن: جيل من الناس ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا﴾ أي متاعاً ﴿وَرِعًا﴾ أي وأجمل صورة ومنظراً من هؤلاء، فكما أهلكننا السابقين نهلك اللاحقين.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ ولَمَّا بَيَّنَّ عاقبة أمر الأمم المهلكة، أمر رسول الله ﷺ بأن يجيب هؤلاء، المفتخرين بما لهم من الحظوظ، ببيان مآل أمر الفريقين، أي من كان مستقراً في الضلالة، مغموراً بالغفلة ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أي يمهل بطول العمر، وإعطاء المال، ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية للمد، أي حتى يروا ما يحلّ بهم من عقاب الله ﴿إِمَّا الْعَذَابَ﴾ في الدنيا كالقتل، والأسر، ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ القيامة، وما ينالهم فيها من الخزي والنكال، وهذا تفصيل للموعود ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من الفريقين، بأن يشاهدوا على عكس ما كانوا يقدرونه، فيعلمون أنهم شر مكاناً ﴿وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ أي فئة وأنصاراً، لا أحسن ندياً كما كانوا يدّعونهم ويزعمون أن لهم أعواناً وأنصاراً، ويفتخرون بذلك في الأنديّة.

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيِّنَاتُ الصَّلِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ (٧٦).

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ بيان لحال المهتدين إثر بيان حال الضالين، وأن قصور حظ المؤمن منها، ليس لنقصه بل لأنه تعالى أراد به ما هو خير له ﴿ وَالْبَيِّنَاتُ الصَّلِحَاتُ ﴾ أي الطاعات والأعمال الصالحة، التي تبقى فوائدها ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أي خير مما يتمتع به الكفرة، من النعم الفانية، التي يفتخرون بها، لا سيما أنَّ مآلها النعيم المقيم، ومآل هذه الحسرة، والعذاب الأليم ﴿ وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ أي مرجعاً وعاقبة، وفي التفضيل مع أن ما للكفرة، ليس له خيرية، تهكم بهم، أو على طريقة قولهم «الصف أقر من الشتاء».

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَا وُلْدًا ﴾ (٧٧).

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ روى الشيخان عن خباب بن الارت قال: كنت رجلاً قيناً - أي حدّاداً - في الجاهلية، وكان لي على «العاص بن وائل السهمي» دينٌ فأتيته أنقاضه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر حتى يُميّتك الله، ثم تبعث، قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: بلى، قال: دعني حتى أموت ثم أبعث، فسأوتني ما لا وُلْدًا فأقضيك، فنزلت هذه الآية^(١). والمراد بالآيات هنا آياتُ البعث، والهمزة للتعجب من حاله، أي أنظرت فرأيت الذي كفر بآياتنا الباهرة، التي حقها أن يؤمن بها كل من يشاهدها ﴿ وَقَالَ ﴾ مستهزئاً بها، مصدراً لكلامه باليمين الفاجرة ﴿ لَأُوتِيَنَّكَ ﴾ في الآخرة ﴿ مَا لَا وُلْدًا ﴾ أي انظر إليه فتعجب من حاله!؟.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٤٢٩/٨ ومسلم رقم ٢٧٩٥.

﴿ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ ﴿٧٨﴾ .

﴿ أَطْلَعَ الْغَيْبَ ﴾ رد لكلمته الشنيعة، أي أو قد بلغ من عظمة الشأن، أن ارتقى إلى علم الغيب، الذي استأثر به العليم الخبير، حتى ادَّعى أن يؤتى في الآخرة مالا وولداً، وأقسم عليه؟ ﴿ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾؟ بذلك فإنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين.

﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ ﴿٧٩﴾ .

﴿ كَلَّا ﴾ ردع له عن التفوه بتلك العظيمة، وتنبيه على خطئه
﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أي سنظهر له افتراءه، ونتنقم منه انتقام من كتب جريمة العدو، فإن نفس الكتابة لا تتأخر عن القول، لقوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ مكان ما يدعيه لنفسه، من الإمداد بالمال والولد، أي نطوّل له من العذاب ما يستحقه، أو نزيد عذابه، لافتراءه على الله تعالى، واستهزائه بآياته، وتأكيده بالمصدر، دلالة على فرط الغضب.

﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ ﴿٨٠﴾ .

﴿ وَنَرِثُهُ ﴾ بموته ﴿ مَا يَقُولُ ﴾ أي مسمى ما يقول، وهو ما أوتيه في الدنيا من المال والولد، أي ننزع عنه ما آتياه ﴿ وَيَأْتِينَا ﴾ يوم القيامة ﴿ فَرْدًا ﴾ بلا مال ولا ولد، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادًى ﴾ .

﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ ﴿٨١﴾ .

﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا ﴾ أي اتخذوا الأصنام آلهة من دون الله تعالى ﴿ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ ليتعززوا بهم، بأن يكونوا لهم وسيلة إليه عز وجل وشفعاء.

﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ (٨٧)

﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل، وإنكار لوقوع ما علقوا به أطماعهم الفارغة ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أي ستجحد الآلهة بعبادتهم، بأن ينطقها الله، وتقول ما عبدتمونا؛ ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أي تكون الآلهة أعداء لهم يوم القيامة.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴾ (٨٨)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ مما نطقت به الآيات الكريمة السالفة، وتنبيه على أن جميع ذلك منهم بإضلال الشياطين وإغوائهم، ومعنى إرسال الشياطين عليهم تسليطهم وتمكينهم من إضلالهم ﴿ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴾ أي تغريهم وتهيجهم على المعاصي، والأز، والهز والاستفزاز، معناها شدة الإزعاج.

﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذًّا ﴾ (٨٩)

﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ بأن يهلكوا وتطهر الأرض من فسادهم ﴿ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذًّا ﴾ أي لا تعجل بهلاكهم، فإنه لم يبق لهم إلا أيام قلائل تعدّها عليهم عذّا، قيل: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد؟!.

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدًّا ﴾ (٩٠)

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي نجتمعهم ﴿ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدًّا ﴾ وافدين عليه، كما يفد الضيوف على الملوك، منتظرين لإنعامهم.

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا ﴾ (٩١)

﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما تساق البهائم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ أي عطاشاً، فإن من ورد الماء لا يَرِدُهُ إِلَّا لِعَطَشٍ أَوْ كَالدَّابَّةِ الَّتِي تَرِدُ الْمَاءَ.

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٨٧﴾

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾ الضمير فيه للعباد، أي لا يملك فيه أحد أن يشفع لأحد ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أي لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم، إِلَّا من أمر بذلك، وأذن الله له بالشفاعة، فيكون ترغيباً للناس في تحصيل الإيمان والتقوى.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ أي افترى اليهود والنصارى ومن زعم من العرب أن الملائكة بنات الله، فجعلوا لله ولداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ردُّ لمقاتلتهم الباطلة، وتهويل لأمرها بطريق الالتفات، المنبئ عن كمال السخط، والإدُّ بالكسر: الأمر العظيم المنكر، أي فعلتم أمراً منكراً شديداً، لا يُقَادِرُ قَدْرُهُ.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُزُّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿٩١﴾

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ أي تقرب السموات بعظمتها ﴿يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ أي يتشققن مرة بعد أخرى، من عظم ذلك الأمر ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ أي تكاد تنشق الأرض ﴿وَخُزُّ الْجِبَالُ﴾ أي تسقط وتنهدم ﴿هَذَا﴾ مصدر مؤكد لمحذوف، أي تُهْدُ هَذَا وتتساقط أشد ما يكون تساقطاً، والمعنى: إن هول هذه الكلمة وعظمتها، بحيث لو تصور بصورة محسوسة، لم تتحملها هذه

الأجرام العظام، وتفتت من شدتها، بحيث لولا حلمه تعالى لخربت العالم غضباً على من تفوه بها.

﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أي لأن دعوا له سبحانه ولدًا، ونسبوا له ما لا يليق من الذرية والبنين.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿٩٧﴾.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ والحال أنه لا يليق به تعالى اتخاذ الولد، لاستحالة في نفسه، لأن الولد يقتضي المجانسة، ويكون عن حاجة وهو سبحانه المنزه عن المثل والنظير، والغني عن المعين والنصير، فكيف يتسنى أن يجانس المخلوق الخالق حتى يتوهم أن يتخذ ولدًا؟.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ﴿٩٨﴾.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما منهم أحد من الملائكة والثقلين ﴿إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ إلا وهو مملوك له، يأوي إليه بالعبودية والانقياد، ونسبة الجميع إليه عز وجل نسبة العبد إلى المولى، فكيف يكون بعضه ولدًا؟.

﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ ﴿٩٩﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿١٠٠﴾.

﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ﴾ أي حصرهم وأحاط بهم، بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد من حيلة علمه، وقبضة قدرته ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي عدّ أشخاصهم، وأنفاسهم، وأفعالهم، فإن كل شيء عنده بمقدار.

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ أي كل واحد منهم، سيأتي ربه تعالى منفرداً من الأتباع والأنصار، فإذا كان هذا شأنه تعالى وشأنهم، فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئاً منهم ولدًا، لأنه لا يجانسه شيء من ذلك ولا يناسبه..

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لَمَّا فَصَّلَ قُبَاحَ أَحْوَالِ الْكُفْرَةِ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ مَحَاسِنِ الْمُؤْمِنِينَ، أَيِ صَدَّقُوا اللَّهَ وَفَعَلُوا الْخَيْرَاتِ ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أَيِ سَيُحَدِّثُ لَهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوَدَّةً، مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِأَسْبَابِهَا، سِوَى مَا لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقِيلَ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ وَيُحِبُّهُمْ إِلَى عِبَادِهِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَبْدًا، دَعَا جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحَبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جَبْرِيلُ، فَيُنَادِي جَبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(١) وَالسَّيِّئُ فِي «سَيَجْعَلُ» لِلْإِسْتِقْبَالِ لِأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، فَوَعْدُهُ ثُمَّ أَنْجَزَ وَعْدَهُ حِينَ تَمَكَّنَ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ أَنْصَارُهُ.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ۝﴾

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ أَيِ الْقُرْآنَ ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بِأَنِ أَنْزَلْنَاهُ عَلَى لِسَانِكَ وَالْفَاءُ لِتَعْلِيلِ الْأَمْرِ كَأَنَّهُ قِيلَ: بَلِّغْ هَذَا الْمَنْزِلَ، وَبَشِّرْ بِهِ، فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ بِلسانك العربي المبين ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيِ سَائِرِ أَهْلِ التَّقْوَى ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ أَيِ وَتَخَوْفُ بِهِ قَوْمًا مُعَانِدِينَ، لَجَاجًا وَعِنَادًا، وَاللَّدُّ جَمْعُ الْأَلَدِ، وَهُوَ الشَّدِيدُ الْخُصُومَةُ وَالْجِدَالُ.

(١) الحديث أخرجه البخاري في التوحيد ٤٦١/١٣ ومسلم رقم ٢٦٣٧ في البر والصلة، والترمذي رقم ٣١٦٠ في التفسير، وزاد في حديثه «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾».

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ وعدُّ لرسول الله ﷺ، في ضمن وعيد الكفرة بالإهلاك، أي أهلكنا قبل هؤلاء الكفار قوماً كثيرين معاندين ﴿ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ هل تشعر بأحد منهم وتراه؟ ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ أي صوتاً خفياً، وأصل الركنز الخفاء، والركاز: المال المدفون المخفي أي بادوا جميعاً فلم يبق منهم عين ولا أثر.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم»

سُورَةُ طٰهٍ

مكية وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾

﴿طه﴾ من الفواتح التي تصدر بها السور الكريمة، وعليه الجمهور، وعن ابن عباس معناها يا محمد، وقيل معناها يا رجل لأنه لما نزل الوحي عليه، اجتهد في العبادة حتى كان يراوح في الصلاة بين قدميه لطول قيامه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمره أن يخفف على نفسه.

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ أي ما أنزلناه لتتعب نفسك، وتحملها على الرياضة الشاقة، والشقاء شائع في معنى التعب، أو لتتعب نفسك بالمبالغة في مكابدة الشدائد، في محاورة الطغاة، وفرط التأسف على كفرهم، بل للتبليغ والتذكير، وقد فعلت فلا عليك كفرهم.

﴿إِلَّا نَذْكِرْكَ لِمَن يَخْشَىٰ﴾ ﴿٣﴾

﴿إِلَّا نَذْكِرْكَ﴾ استثناء منقطع، أي لكن أنزلناه تذكرة ﴿لِمَن يَخْشَىٰ﴾ لمن في قلبه خشية ورقة، ويتأثر بالإنذار، وتخصيصها بهم لأنهم المنتفعون بها.

﴿ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾.

﴿ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ أي من الله الذي خلق الأرض والسموات العالية، والعلی جمع العليا تأنيث الأعلى، وصف السماوات به لتأكيد الفخامة، مع مراعاة الفواصل.

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾.

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ أي هو الرحمن، فوصفه بالرحمانية إثر وصفه بالخالقية، للإشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى، وفيه إشارة إلى أن تنزيل القرآن أيضاً من أحكام رحمته، كما في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي هو جلّ وعلا العظيم الشأن، الذي علا فوق العرش علواً يليق بجلاله.

﴿ لَمْ يَأْفِكْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾.

﴿ لَمْ يَأْفِكْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الموجودات الكائنة في الجو كالهواء، والسحاب، والطيور، أي له وحده دون غيره كل ذلك، ملكاً وتصرفاً، وإحياء، وإماتة ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أي ما وراء التراب، ذكره مع دخوله في قوله ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لزيادة التقرير، والثَّرَى: الترابُ النديُّ فإن لم يكن ندياً فهو تراب.

﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾.

﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ ﴾ بيان لإحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء إثر بيان شمول قدرته لجميع الكائنات، أي وإن تجهر بذكره تعالى ودعائه، فاعلم أنه تعالى غني عن جهرك ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي ما أسرته إلى غيرك، أو ما أخطرته ببالك، وأخفى منه، وفيه تنبيه على أن شرع الذكر

والدعاء، والجهر فيهما، ليس لإعلام الله تعالى، بل لغرض آخر، من تهذيب النفس بالذكر، ومنعها عن الاشتغال بالتوافه، وقطع الوسوسة عنها، وضمها بالتضرع والجوار.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (٨)

﴿ اللَّهُ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي ذلك المنعوت بما ذكر هو الله عز وجل ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هو واحد بذاته، وإن افرقت صفاته، رُوي أن المشركين حين سمعوا النبي ﷺ يقول: يا الله، يا رحمن، قالوا ينهانا محمد أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر، وهذا رد لقولهم الفاجر، ثم قال: ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ تأنيث الأحسن، وفضل أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن، لدلالاتها على معاني هي أشرف المعاني وأفضلها.

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ (٩)

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾؟ استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد، وهذا أول ما أخبر به من أمر موسى عليه السلام، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل، وهذا قول الكلبي، ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك في الزمان المتقدم، فكأنه قال: قد أتاك، وهذا قول مقاتل.

﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ (١٠)

﴿ إِذْ رَأَى نَارًا ﴾ أي اذكر وقت رؤيته نارا، رُوي أن موسى عليه السلام، استأذن شعبياً عليه السلام في الرجوع من مدين إلى مصر، ليزور والدته وأخاه، فأذن له فخرج بأهله وماله، وكانت أيام الشتاء، فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام، وامرأته حامل في شهرها، لا يدري أليلاً تضع أم نهاراً، فسار في البرية غير عارف بطرقها، فألجأه المسير إلى

جانب الطور الغربي الأيمن، وذلك في ليلة مظلمة شاتية، شديدة البرد، فأخذ امرأته الطلق، فولدت له ابناً، وتفرقت ماشيته فجعل يقدح زنده فلا يوري، فبينما هو في ذلك، إذ رأى ناراً من جانب الطور وكانت نوراً ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ أي أقيموا مكانكم، أمرهم بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه، والخطاب للمرأة، والجمع للتفخيم، ﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرتها والإيناس: رؤية شيء يؤنس به ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا﴾ أي أجيئكم من النار، بني الأمر على الرجاء، لئلا يبعد بما ليس يستيقن الوفاء به ﴿يَقْبَسُ﴾ نار مقتبسة، وهي المراد بالجدوة في سورة القصص، والقَبَسُ: بفتحين شعلة من نار يقتبسها الشخص ﴿أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي هادياً يدلني على الطريق.

﴿ فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ يَلْمُوسَى ﴾

﴿ فَلَمَّا أَنهَا ﴾ أي النار، وجد ناراً بيضاء، تتوقد في شجرة خضراء، ولم يجد عندها أحداً، فوقف متعجباً من شدة ضوئها، وشدة خضرة الشجرة، فلا النار تغير خضرتها، ولا خضرة الشجرة تُغيّر ضوء النار، فلما دنا سمع تسييح الملائكة، وألقيت عليه السكينة، فعند ذلك ﴿نُودِيَ يَلْمُوسَى﴾.

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى ﴾

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ كرّر الضمير لتحقيق المعرفة، وإماطة الشبهة، روي أنه لما نودي يا موسى، قال: من المتكلم؟ فقال: أنا ربك، فعرف أنه كلام الله عز وجل، لأنه سمعه من جميع جهاته الست، وسمعه بجميع أعضائه، وذلك ليس إلا من آثار قدرة الخلاق العليم، ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أمره سبحانه بذلك، لأن الخفوة تواضع وأدب، ولذلك كان السلف يطوفون بالكعبة حفاة، وقيل: ليباشر الوادي بقدميه تبركاً به ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان لشرف البقعة وقدسيتها، روي أنه

عليه السلام خلعها وألقاها وراء الوادي ﴿طَوَى﴾ وهو اسم علم للوادي ومعناه: بالواد المقدس، المسمى طوى، أي جبل الطور.

﴿وَأَنَا أَخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (١٣).

﴿وَأَنَا أَخَرْتُكَ﴾ أي اصطفتك للنبوّة والرسالة، وهذا يدل على أن النبوّة لا تحصل بالاستحقاق، بل باختياره تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ أي للذي يُوحى إليك، وفيه نهاية الهيبة والجلال، كأنه قيل له: لقد جاءك أمر عظيم، فتأهّب له.

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١١).

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ يدل ما يوحى، ولا ريب في أن اختياره ليس لهذا الوحي فقط ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ وُحْدَنِي وأطعني، ولا تعبد غيري ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ خُصّت الصلاة بالذكر، وأفردت بالأمر، مع اندراجها في الأمر بالعبادة، لفضلها وشرفها، وهذا دليل على أنه لا فريضة بعد التوحيد، أعظم من الصلاة، أي حافظ على الصلاة، وأقمها على الوجه المشروع لتذكرني فيها، وتبقى دائم الصلة بربك، قال مجاهد: إذا صلى العبد ذكر ربه لاشتمالها على جملة الأذكار وقيل: معناه إذا تركت صلاة ثم ذكرتها فأقمها، لما رُوي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاةً فليصلها إذا ذكرها، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾»^(١). قال أبو حنيفة: يجب الترتيب في قضاء الفوائت، ودليله هذه الآية.

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٣٢٤٨ وهو طرف من حديث طويل في قصة رجوع النبي ﷺ من غزوة خيبر، ونوم الصحابة عن صلاة الفجر، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ١٩٣/٥.

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ ﴿١٥﴾

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ أي القيامة كائنة لا محالة، وإنما عبر عنها بالإتيان، تحقيقاً لحصولها، بإبرازها في معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أريد إخفاء وقتها، قيل: معناه قُرْبَ الأمر من الإخفاء^(١) ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ متعلق بآتية وما بينهما اعتراض، أي لتجزى كل نفس بسعيها، من خير أو شر.

﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ ﴿١٦﴾

﴿ فَلَا يَصُدُّكَ ﴾ أي فلا يصرفك ﴿ عَنْهَا ﴾ أي عن ذكر الساعة، وعن تصديقها، والخطاب لموسى عليه السلام والمراد به أمته ﴿ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ أي من لا يصدق بها، وهذا - وإن كان بحسب الظاهر - نهياً للكافر لكنه في الحقيقة نهى له عليه السلام، عن الانصداد عنها، كقوله: لا أرينك ههنا، ويجوز أن يكون من باب النهي عن المسبب وإرادة النهي عن السبب على أن يراد نهيه عليه السلام عن إظهار لين الجانب للكفرة، فإن ذلك سبب لصدهم إياه، كأنه قيل: لا تكن رخواً، بل كن في الدين شديداً وصلباً، فإنَّ صِدَّ الكافر إنما يكون بسبب ضعف الإيمان، فينبغي للمؤمن أن يكون راسخاً في دينه ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أي ما تهواه نفسه، من اللذات الحسية الفانية ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ أي فتهلك، فإن اتباع الهوى مستتبع للهلاك لا محالة.

(١) الأظهر كما قال جهابذة المفسرين أن المعنى: إن الساعة قادمة وحاصلة لا محالة، أكاد أخفيها عن نفسي، فكيف أطلعكم عليها؟ وهذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس، واختاره الإمام الطبري وهو الأظهر والأوضح، لأن «كاد» للمقاربة، قال المبرّد: وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون في كتمان الشيء: كتمته حتى عن نفسي، اهـ.

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ ما استفهامية تتضمن استيقاظاً لما سيظهر فيها من العجائب، فمن أراد أن يظهر من الشيء الحقيق، شيئاً شريفاً، فإنه يأخذه ويعرضه على السامعين، ويقول لهم: هذا الشيء الفلاني، ثم إنه يظهر لهم صفته الفائقة، ليكون عندهم أروع وأبهر، وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ نسبها إلى نفسه، تحقيقاً لوجه كونها بيمينه ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي اعتمد عليها عند الإعياء ﴿وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي أخطب بها الورق وأسقطه على رؤوس غنمي فترعاه ﴿وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي حاجات أخرى غير ذلك، وأراد بها ما كان يستعمل فيه العصا في السفر، كأن يحمل بها الزاد، ويشدُّ بها الحبل، ويستقي بها الماء من البئر، ويقتل بها الحيات، ونحو ذلك، وكأنه عليه السلام فهم أن المقصود من السؤال، بيان حقيقتها وتفصيل منافعها، حتى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة، علم أنها آيات ومعجزات، أحدثها الله تعالى فذكر على التفصيل، وقيل: إنما فصل ذلك تلذذاً بخطاب رب الأرباب، والمقام مقام مباسطة، وكان يكفيه أن يقول: هي عصاي.

﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿قَالَ﴾ الله عز وجل ﴿أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ﴾ لترى شأنها بما لم يخطر ببالك.

﴿فَالْقَنَاهَا﴾ على الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ قيل لما ألقاها انقلبت حية صفراء بغلظ العصا، ثم تورمت وعظمت، فلذلك سماها جاناً تارة، وهي الحية الصغيرة، نظراً إلى المبدأ، وثعباناً مرة وهو أكبر ما يكون من الحيات باعتبار المتهى، وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين، وقيل قد انقلبت من أول الأمر ثعباناً، وهو الأليق بالمقام كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ وإنما شبهت بالجان في الجلادة والسرعة، لا في صغر الجثة.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْضِفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿خُذْهَا وَلَا تَحْضِفْ﴾ فإنه عليه السلام لما رآها حية تسرع، وتبتلع الحجر والشجر، خاف وهرب منها، والحكمة فيها لتكون معجزة لموسى عليه السلام ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أي هيئتها، المتقدمة، أي سعيدها عصا كما كانت.

﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾.

﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أمر عليه السلام بذلك، بعدما أخذ الحية، أي أدخلها تحت عضدك، فإن جناحي الإنسان جنباه، كما أن جناحي العسكر ناحيته، مستعار من جناحي الطائر، وقد سما جناحين لأنه يجنحهما أي يميلهما عند الطيران وفي آية أخرى ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ لأنه إذا أدخل يده في جيبه، كان كمن قد ضم يده إلى جناحه ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي من غير عيب وقبح، كُنِيَ به عن البرص، كما كُنِيَ بالسوأة عن العورة، لما أن الطبائع تعافه وتنفر عنه، روي أنه عليه السلام كان آدم يعني أسمر اللون، فأخرج يده من مدرعته بيضاء، لها نور ساطع يضيء كشعاع الشمس، ثم إذا رَدَّهَا عَادَتْ إِلَى لَوْنِهَا الْأَوَّلِ بِلَا نَوْرٍ ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ أي معجزة أخرى، دالة على صدقك سوى العصا.

﴿لِئُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ ﴿٢٢﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢١﴾ .

﴿لِئُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ أي لنريك بعض آياتنا الكبرى .

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ أي اذهب بهاتين الآيتين، إلى فرعون الجبار، فادعه إلى عبادتي، وحذره نقمتي ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ تعليل للأمر، أي جاوز الحد في التكبر، والعُتُو، حتى تجاسر على دعوى الربوبية، وإنما خص فرعون بالذكر، مع أنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل، لأنه كان متبوعاً .

فلما أمر بما أمر به، وعرف أنه كلف بأمر عظيم، يحتاج إلى صدر فسيح، تضرع إلى ربه . فقال :

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ .

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ سأل أن يوسع صدره، ويفسح قلبه، ويجعله عليمًا بشؤون الحق، وأحوال الخلق، حلماً حمولاً يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد والمكاره، ويتلقاها بصدر فسيح .

﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ وسأله أن يسهل عليه أمره، الذي هو أجلُّ الأمور وأعظمها، وأصعب الخطوب وأهولها، بتوفيق الأسباب، ورفع الموانع .

﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ روي أنه كان في لسانه عليه السلام لُكْنَةٌ^(١)، من جمرة أدخلها فاه في صغره، وذلك أن فرعون حمله ذات يوم، فأخذ لحيته فنتفها فغضب، فشاء منه وأمر بقتله، فقالت آسية: إنه صبي لا

(١) لُكْنَةٌ: أي عِيٌّ وثِقَلٌ في اللسان، يصعب معه الإفصاح في الكلام .

يفرق بين الجمر والياقوت، فأحضرهما بين يديه، فأخذ الجمرة فوضعها في فيه، فاحترق لسانه، وصارت فيه عقدة.

﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (٢٨)

﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ أي كي يفقهوا قولي، أي يفهموا كلامي.

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (٢٩)

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ أي مؤازراً يعاونني في تحمل أعباء ما كلفته.

﴿هَارُونَ أَخِي﴾ (٣٠)

﴿هَارُونَ﴾ عطف بيان لوزير ﴿أَخِي﴾ بدل من هارون، وكان هارون أكبر من موسى وأفصح لساناً.

﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ (٣١)

﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ أي قوَّ به ظهري.

﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ (٣٢)

﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ واجعله شريكى في أمر الرسالة، حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٣)

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة، فإن التعاون يهيج الرغبات، ويؤدي إلى تكاثر الخير، وليس المراد بالتسبيح والذكر، ما

يكون منهما بالقلب، وفي الخلوات، بل ما يكون منهما في تضاعيف أداء الرسالة، وذلك مما لا ريب في تأثيره، في حالي التعدد والانفراد، ولفظُ ﴿كَثِيرًا﴾ في الموضعين نعتٌ لمصدر محذوف، أي ننزهك عما لا يليق بك، من ادعاء الشركة في الألوهية، ونصفك بما يليق بك، من صفات الكمال، تنزيهاً كثيراً.

﴿وَنَذْكُرْكَ كَثِيرًا﴾ (٣٤).

﴿وَنَذْكُرْكَ كَثِيرًا﴾ أي ونذكرك ذكراً كثيراً، من جملة زمان دعوة فرعون، وأوان المحاجة معه، لنخلص من شرّه وطغيانه.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ (٣٥).

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي عالماً بأحوالنا، لا يخفى عليك شيء من أعمالنا، وما دعوناك به يصلحنا ويفيدنا، في تحقيق كلفته من إقامة الرسالة.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ (٣٦).

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ﴾ أي أعطيت ﴿سُؤْلَكَ﴾ أي مسؤولك والمراد بالإتياء تعلق إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب، وحصولها له البتة، فكلها حاصلة له عليه السلام، وإن كان وقوع بعضها مترقياً بعد، كتيسر الأمر، وشد الأزر ﴿يَمُوسَى﴾ تشريف له بشرف الخطاب، إثر تشريفه بقبول الدعاء.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ (٣٧).

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله، وزيادة توطئن نفس موسى عليه السلام بالقبول، وذكرُ تلك النعم بلفظ المنّة، ليعرف

موسى أنها بمحض الكرم والإحسان، وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أي وبالله لقد أنعمنا عليك ﴿مَرَّةً أُخْرَى﴾ أي في وقت غير هذا الوقت.

﴿إِذَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمَمِكَ مَا يُوحَىٰ﴾

﴿إِذَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمَمِكَ﴾ المراد بالإيحاء الإيحاء بواسطة الملك كما أوحى إلى مريم، أو بالإلهام كالإيحاء إلى النحل، أو الإراءة في المنام ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ ما سيأتي، من الأمر بقذفه في التابوت، وقذفه في البحر، أبهم أولاً تهويلاً له، وتفخيماً لشأنه، ثم فُسِّر ليكون أقرَّ عند النفس.

﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾

﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ أي بأن اقذفيه، ومعنى القذف هنا: الوضع، وأما في قوله تعالى: ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ فالمراد الإلقاء في البحر، وهذا التفضيل هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ لا القذف بلا تابوت. ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ لما كان إلقاء البحر إياه بالساحل، أمراً واجب الوقوع، لتعلق الإرادة الربانية به، جعل البحر كأنه عاقل مطيع، أمر بذلك، وأخرج الجواب مخرج الأمر للمكلف بالتنفيذ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ﴾ جواب للأمر بالإلقاء، وتكرير «العدو» للمبالغة، والإشعار بأن عداوته له، مع تحقيقها لا تؤثر فيه، وما هو سبب للهلاك صورة، يشعر بأن هناك لطفاً خفياً مندرجاً تحت قهر صوري، روي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً ووضعته فيه ثم قيرته أي طلته بالزفت وألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر صغير، فدفعه الماء إليه، فأتى إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً ثمة مع آسية بنت مزاحم، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا الصندوق فإذا فيه صبي من

أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبه حباً شديداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ التكرير للتفخيم أي محبة عظيمة كائنة مني، قد زرعتها في القلوب، ولذلك أحبك عدو الله ﴿وَلِنُصْنَعَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره وألقيت عليك محبة لتحب وتلصق ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ أي لترى بمرأى مني، بحفظي ورعايتي، فأنا مراعيك ومراقبك، كما يراعى الرجل بعينه إذا اعتنى به.

﴿إِذ تَمْشِي أُمَّتُكَ فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَّتِ نَفْسًا فَجَنَّتْكَ مِنَ الْغَمِّ ۖ وَفَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِئُ ۖ﴾

﴿إِذ تَمْشِي أُمَّتُكَ﴾ أي حين تمشي أختك وتتبع أثرك حتى تصل إلى قصر فرعون. ﴿فَنَقُولُ﴾ أي لفرعون وأسرة حين رأتهما يطلبان له مرضعة يقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدياً ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ أي يضمه إلى نفسه ويربيه، وذلك إنما يكون بقبوله ثديها، يروى أنه فشا الخبر بمصر، أن آل فرعون أخذوا غلاماً في النيل، لا يرتضع ثدي امرأة، واضطروا إلى تتبع النساء، فخرجت أخته لتعرف خبره، فجاءتهم متكررة فقالت: هل أدلكم على امرأة أمينة ترضعه لكم؟ فجاءت بأمه فقبل ثديها، فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ وفاء بقولنا: إنا رادوه إليك ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك، وإلا فزوال الحزن مقدم على السرور، المعبر عنه بقرة العين ﴿وَقَلَّتِ نَفْسًا﴾ هي نفس القبطي الكافر الذي استغاثه الإسرائيلي عليه قيل: كان عمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ﴿فَجَنَّتْكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي غم قتله خوفاً من اقتصاص فرعون، وصرفنا عنك شر فرعون وزبانيته ﴿وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي ابتليناك ابتلاء وخلصناك مرة بعد أخرى من ضروب الابتلاء والامتحان، منها نجاته من الذبح، ثم إلقاؤه في البحر، ثم أخذ لحية فرعون، ثم قتل القبطي، ثم الهجرة، وكلها

ضروب من الابتلاء ﴿فَلَيْتَ﴾ مكثت عشر ﴿سِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ هي بلدة شعيب عليه السلام ﴿ثُمَّ جِئْتُ﴾ إلى المكان الذي أونس فيه النار، ووقع فيها النداء، وفي كلمة ﴿ثُمَّ﴾ إيذان بأن مجيئه عليه السلام، كان بعد ضلال الطريق، وتفرق الغنم، في الليلة المظلمة، وغير ذلك ﴿عَلَى قَدَرٍ﴾ أي على تقدير قدرته لأن أكلمك، وأستنبك، في وقت قد عينته لذلك ﴿يَكْمُوسِي﴾ تشريف له وتنبية على انتهاء الحكاية.

﴿وَأَصْطَفَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ ﴿٤١﴾

﴿وَأَصْطَفَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ تذكير لقوله ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون، مؤيداً بأخيه بعد تذكير المنن السابق، أي اصطفتيك برسالاتي وبكلامي.

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نُنْيَا فِي ذِكْرِي﴾ ﴿٤٢﴾

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾ أي وليذهب أخوك معك حسبما طلبت ﴿بِآيَاتِي﴾ أي بمعجزاتي التي أيدتك بها من اليد، والعصا، ﴿وَلَا نُنْيَا﴾ ولا تفترأ ولا تقصّراً، والوئى: هو الفتور والتقصير ﴿فِي ذِكْرِي﴾ عند تبليغ رسالتي، فإن الذكر يقع على جميع العبادات، وقيل: لا تنسياني حيثما تقلبتما، واستمدا بذكري العون والتأييد.

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ جمعهما مع غيبة هارون، للتغليب، روي أنه تعالى أوحى إلى هارون بمصر، أن يلتقي بموسى عليهما السلام، ويذهبا إلى فرعون الطاغية الجبار.

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَنِّي مَذْكُورٌ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ أي قولاً لفرعون قولاً لطيفاً رقيقاً، لأن تليين القول، مما يكسر سورة عناد العتاة، وتليين عريكة الطغاة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُ﴾ بما بلغتماه من ذكري، ويرغب فيما رغبتماه فيه ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ عقابي، والفائدة في إرسالهما مع علمه تعالى بأنه لا يؤمن، إلزام الحجة، وقطع المعذرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ (١) الآية.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ﴾ أسند القول إليهما مع أن القائل حقيقة هو موسى بطريق التغليب، إيداناً بأصالته في كل قول وفعل، وتبعية هارون عليه السلام له ﴿أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾ أي يعجل علينا بالعقوبة، ولا يصبر إلى إتمام الدعوة، وإظهار المعجزة، والفرط بفتحيتين: المتقدم في طلب الماء، والإفراط: الإسراف وتجاوز الحد ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ أي يزداد طغياناً فيقول في شأنك ما لا ينبغي، لجرأته وقساوته وفجوره.

﴿قَالَ لَا خَافَا مِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿لَا خَافَا﴾ ما توهمتما من الأمرين ﴿إِنِّي مَعَكُمَا﴾ تسلياً لهما، والمراد بالمعية كمال الحفظ والنصرة ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، وأنا حافظ لكما من شره، والحافظ إذا كان كذلك تم الحفظ.

﴿فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾.

(١) سورة طه، آية: ١٣٤.

﴿ فَأَنبِأَهُ ﴾ أي اذهبوا فادخلا عليه بأمرى ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ أي أرسلنا إليك ربك ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أي أطلق سراح بني إسرائيل من الاستعباد، وليس المراد بتكليفهم أن يذهبوا معهما إلى بلد آخر ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أي بإبقائهم على ما كانوا من العذاب، فإنهم كانوا في أيدي القبط، يستخدمونهم في الأعمال الشاقة، ويقتلون ذكور أولادهم، ويستخدمون نساءهم ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ تقرير لما تضمنته الكلام السابق من دعوى الرسالة، أي قد جئناك بمعجزة تدل على صدقنا ﴿ وَالسَّلَامُ ﴾ المستبوع لسلامة الدارين ﴿ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ بتصدق آيات الله تعالى، الهداية إلى الحق، وليس المراد منه «سلام التحية» بل معناه السلامة على من أسلم واتبع الحق، وفيه ترغيب في اتباعهما على اللطف وجه.

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ ﴾

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا ﴾ من جهة ربنا ﴿ أَنَّ الْعَذَابَ ﴾ الدنيوي والأخروي ﴿ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ ﴾ بآيات الله وبالرسل ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي أعرض عن قبولها، وفيه من التلطف في الوعيد ما لا يخفى، حيث لم يصرح بحلول العذاب به.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ۖ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون بعدما أنبأه وبلغاه ما أمرا به ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ۖ ﴾ لم يصف الرب إلى نفسه لغاية عتوه، بل أضافه إليهما، لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل، بأن قالوا: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ كما وقع في سورة الشعراء، والفاء لترتيب السؤال على ما سبق، أي إذا كنتم رسولني ربكما، فأخبراني من ربكما؟ وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب إليهما، لما أنه الأصل في الرسالة، وهارون وزيره.

﴿ قَالَ رَبِّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مجيباً له ﴿ رَبِّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ لم يريدنا بضمير المتكلم أنفسهما فقط، حسبما أراد اللعين، بل جميع المخلوقات، أي أعطاه صورته وشكله اللائق، بما نيط به من الخواص والمنافع، فخلق اليدَ للبطش، والرجلَ للمشي، واللسانَ للنطق، والعينَ للنظر، والأذنَ للسمع، ونحو ذلك، واستدل عليه السلام على إثبات الصانع، بأحوال المخلوقات، فإنه تعالى خلق الخلق، وأتقن الصنعة، حيث أعطى مخلوقاته كل شيء تحتاج هي إليه ﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ أي هداه إلى طريق الانتفاع بما أعطاه، وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله، إما اختيارياً كما في الحيوانات، أو طبعاً كما في الجمادات والنباتات، ولما كان الخلق متقدماً على الهداية، وسَطَ بينهما كلمة التراخي ﴿ ثُمَّ ﴾ ولقد ساق عليه السلام جوابه على نمط رائق، وأسلوب لائق، حيث بين أنه تعالى عالم، قادر بالذات، خالق لجميع الأشياء، منعم عليها بجميع ما يليق بها، بطريق التفضل، ولذلك بهت الذي كفر، وخاف أن يظهر للناس حقيقة مقالاته، فأراد أن يصرفه إلى ما لا يَغْنِيه بطريق المغالطة.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ القرون الماضية، والأمم الخالية، وما جرى عليهم من الحوادث مما لا دخل له بمنصب الرسالة، فلم يلتفت موسى عليه السلام، إلى ذلك الحديث، بل قال:

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾.

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ لأنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله تعالى، لا أعلم منها إلا ما علمنيه من الأمور المتعلقة بما أرسلت به ﴿ فِي كِتَابٍ ﴾

أي مثبت في اللوح المحفوظ بتفاصيله ﴿لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ أي لا يخطئ ابتداء، ولا يذهب عليه بقاء، بل هو ثابت أبداً في اللوح المحفوظ وليس لحاجته تعالى في العلم به إليه.

ولقد أجاب عليه السلام بجواب عبقرى بديع، حيث كشف حقيقة الحق، مع أنه لم يخرج عما كان بصدد، من بيان شؤونه تعالى، ثم تخلص إليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله تعالى، ما يثبت الألوهية والربوبية فقال:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ ﴿٥٦﴾

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي جعلها كالمهد تمتهدونها، وتستقرون عليها، وهو مصدر سمي به المفعول، أي جعل كل موضع مهذاً لكل واحد منكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طريقاً بين الجبال، والأودية، والبراري، تسلكونها من قطر إلى قطر، لتقضوا منها مآربكم، وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي أنزل لكم من السماء المطر عذبا فراتاً، أحيا به العباد والبلاد ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي فأخرجنا بهذا المطر الذي أنزلناه من السماء، وإنما التفت إلى التكلم، للتنبيه على ما فيه، من الدلالة على كمال القدرة، والحكمة، والإيدان بأنه لا يتأدى إلا من قادر، مُطاع، عظيم الشأن، تنقاد لأمره الأشياء ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي أصنافاً، سُميت بذلك لازدواجها، واقتران بعضها ببعض ﴿مِّنْ نَّبَاتٍ﴾ أي أنواعاً من النباتات المختلفة في أشكالها وأنواعها ﴿شَتَّى﴾ أي متفرقة يعني أنها مختلفة في الطعم، والشكل، والرائحة، والنفع.

﴿كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ ﴿٥٧﴾

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ حال من ضمير فأخرجنا على إرادة القول، أي فأخرجنا منه أصناف النباتات، قائلين: كلوا وارعوا أنعامكم، آذنين بذلك لكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في شؤونه تعالى وأفعاله ﴿لَايَتٍ﴾ التنكير للتفخيم، أي لآيات كثيرة جليلة، واضحة الدلالة، على شؤن الله تعالى: ﴿لِأُولَى النَّهْيِ﴾ جمع نُهيَّة^(١)، سُمي به العقل، لعقله ونهيه عن اتباع الباطل، وتخصيص كونها آيات بهم، باعتبار أنهم المنتفعون بها.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ في ضمن خلق أبيكم آدم عليه السلام وقيل: خلقنا أبدانكم من النطفة، المتولدة من الأغذية الحاصلة من الأرض بوسائط ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء، وإيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للدلالة على الاستقرار فيها ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ بتأليف أجزاءكم المتفتتة ورد الأرواح إليها.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ حكاية إجمالية لما جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعون، وتصديرها بالقسم لإبراز كمال العناية بها، وتفخيم شأنها، أي وبالله لقد أبصرنا فرعون ﴿آيَاتِنَا﴾ حين قال لموسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿كما أظهر له أموراً أخرى كُلَّهَا﴾ أي أريناه جميع الآيات بحيث لم يبق له في ذلك عذر ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى عليه السلام، بعد ما شاهد الآيات، جوراً وعناداً ﴿وَأَبَى﴾ من الإيمان والطاعة.

(١) النهيَّة: العقل جمعها نُهي مثل مُدِيَّة ومُدَي.

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا ﴾ الهمزة لإنكار الواقع، والمجيء لدعوتنا إلى ربك أي أجئنا بعدما غبت عنا، وأقبلت علينا ﴿ لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ من مصر ﴿ بِسِحْرِكَ ﴾ بما أظهرته من السحر ﴿ يَمُوسَى ﴾ وهذا دليل على أنه خاف منه عليه السلام، وإنما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه السلام، بإبراز أن مراده ليس مجرد إنجاء بني إسرائيل، بل إخراج القبط من وطنهم، وحيازة أموالهم وأملأهم، حتى لا يتوجه إلى اتباعه أحد، ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة، وسمى ما أظهره من المعجزات «سحراً» لتجسيرهم على المقابلة، ثم ادّعى أنه يعارضه بمثل ما أتى به عليه السلام، فقال:

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ اللام جواب القسم كأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك، فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي وعداً ﴿ لَا نُخْلِفُهُ ﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد ﴿ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ ﴾ وإنما فوّض اللعين أمر الوعد إلى موسى عليه السلام، للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب، وضيق المجال، ولإظهار الجلادة ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ بالضم أي وسطاً بيننا وبينك، وهو من الاستواء، لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية، أي مكاناً وسطاً مستوياً، حتى يشاهده كل الحاضرين^(١).

(١) هذا ما اختاره الإمام ابن جرير الطبري، أن المراد بقوله تعالى: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي مكاناً وسطاً تستوي مسافته على الفريقين، واختار ابن كثير أن معنى: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي بمكان معين، ووقت معين.

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴾ أي موعدنا للاجتماع في يوم العيد، وكان يوم عيد لهم، يزينون فيه الأحياء والدور، وهو يوم النيروز، وإنما عَيَّنَه ليظهر الحق، ويذهب الباطل على رؤوس الأشهاد، ويشيع ذلك بين الناس، لأنه عليه السلام كان على ثقة من أمره، وعدم مبالاته بهم ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ﴾ وإنما قال يحشر فإنهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم ﴿ ضُحًى ﴾ أي وقت الضحوة، ليكون أبعد من الريبة، وأبين لكشف الحق.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ ﴾ أي انصرف عن المجلس ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أي ما يكيد به من السحرة، وكانوا أربعمائة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحراً ﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ أي الموعد ومعه ما جمعه من كيده، وفي كلمة التراخي، ﴿ ثُمَّ ﴾ إيماؤه إلى أنه لم يسارع إليه، بل بعد تلعمش.

﴿ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ ﴾.

﴿ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ ﴾ أي قال لهم بطريق النصيحة ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأن تدعوا آيات الله تعالى سحراً، كما فعل فرعون ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ فيهلككم بسببه ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ أي هائل ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ ﴾ أي خسر وهلك من كذب على الله، كائناً من كان، أو وقد خاب فرعون المفترى، فلا تكونوا مثله في الخيبة، وفيه تعريض بفرعون الجبار، المدعي للالوهية، والمفتري على الله.

﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ ﴿١٢﴾

﴿فَنَنْزِعُوا﴾ أي السحرة حين سمعوا كلامه فتنازعوا ﴿أَمْرَهُمْ﴾ الذي أريد منهم، من مغالبتة عليه السلام، وتشاوروا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في كيفية المعارضة ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ أي من موسى عليه السلام، وكان نجواهم ما نطق به قوله تعالى:

﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَجِرَانِ يَرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ ﴿١٣﴾

﴿قَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض سراً ﴿إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَجِرَانِ﴾ تفسير للنتيجة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر ﴿يَرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي أرض مصر بالاستيلاء عليها ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ أي أن يغلبا عليكم بطريق السحر، وكان السحرة تلقفوا هذه من فرعون ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب، بإظهار دينهما عليكم، يريدون به ما كان عليه قوم فرعون، ويسمونه ديناً لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾، «والمثلى» تأنيث الأمثل وهو الأفضل.

﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ ﴿١٤﴾

﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ تصريح بالمطلوب أي إذا كان الأمر كذلك، فازمعو كيدكم، واجعلوه مجمعاً عليه، بحيث لا يتخلف واحد منكم ﴿ثُمَّ أَتَوْا صَفًّا﴾ أمروا بذلك لأنه أهيب في صدور الرائيين ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ أي قد فاز بالمطلوب من غلب، قالوه حثاً لهم على بذل المجهود في المغالبة، للانتصار على موسى.

﴿ قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِيمًا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمًا أَنْ تُكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿١٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿١٦﴾ ۝ ﴾

﴿ قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِيمًا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمًا أَنْ تُكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿١٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ الفاء فصيحة، معربة عن مسارعتهم إلى الإلقاء، أي فآلقوا فإذا حبالهم تتحرك وتسعى على بطونها، حتى يظنها موسى من عظمة السحر، أنها حيات تسعى، وإنما خيروهم ببدنهم أو بدنه، لثقتهم بالغلبة عليه، لأنهم كانوا قد برعوا ومهروا في السحر.

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ۝ ﴾

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾ الإيجاس: استشعارُ الخوف، أي وجد في نفسه خوفاً، بمقتضى الطبيعة البشرية، المجبولة على النفرة من الحيات.

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿١٨﴾ ۝ ﴾

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ ﴾ أي لا تخف مما توهمت ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ أي فإنك أنت المنتصر الغالب.

﴿ وَالْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا وَإِنَّمَا صَنَعُوا كِيدٌ سَحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿١٩﴾ ۝ ﴾

﴿ وَالْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ أي ألقى عصاك التي بيمينك، وإنما أوتر الإيهام تهويلاً لأمرها، وتفخيماً لشأنها، وإيداناً بأنها ليست من جنس العصي المعهودة ﴿ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا ﴾ بالجزم جواباً للأمر أي تبتلع ما صنعه من السحر، من لقفه إذا ابتلعه بسرعة، والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير،

والعرب تقول في الكذب: هو كلام مصنوع ﴿إِنَّمَا صَعَوْا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ أي إنما افترعوه هو من باب الشغوة والسحر ﴿وَلَا يَقْلَعُ السَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس، لأن السحر صنعة خسيسة ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ أي حيث كان، وأين أقبل.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ ﴿٧٦﴾

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ أي فخرؤا سجداً لله رب العالمين حين رأوا تلك الآية الباهرة، وأشهرؤا إيمانهم بالله.

﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَاِبِرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ﴿٧٦﴾

﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي قبل أن أسمع لكم ﴿إِنَّهُمْ لَكَاِبِرُكُمُ﴾ في فنكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فتواطئتم على ما فعلتم، فلذلك غلبكم، فهذه شبهة زورها للعين، وألقاها على قومه، لما اعتراه الخوف من اقتداء الناس بالسحرة في الإيمان، ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد ﴿فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي عليها، وإيثار كلمة «في» للدلالة على إبقائهم عليها زماناً مديداً ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ﴾ يريد فرعون نفسه، ورب موسى الذي آمنوا به ﴿عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ أي أدوم، فإن قيل: إن فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية، كيف يعقل أن يهدد السحرة؟ قلنا: إنه كان في أشد الخوف في قلبه، إلا أنه كان يظهر تلك الجلادة تمشية لملكه، وترويجاً لأمره، فإن كثيراً من العجزة، قد يفعل أمثال هذه التهديدات الفارغة.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧٦﴾

﴿ قَالُوا ﴾ غير مكثرين بوعيده ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ ﴾ لن نختارك ﴿ عَلَى مَا جَاءَنَا ﴾ من الله تعالى على يد موسى عليه السلام ﴿ مِنْ أَلَيْسَتْ ﴾ من المعجزات الظاهرة، فإن ما ظهر من العصا، كان مشتملاً على معجزات جمّة، فإنهم عارفون بجلالها ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ أي لن نؤثرك وحقّ الذي فطرنا، وهو قسم بعزة الله وجلاله ﴿ فَأَقِضْ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ جواب عن تهديده أي فاصنع ما أنت صانعه بنا ﴿ إِنَّمَا نَقْضِي ﴾ تعليل لعدم المبالاة بوعيده، أي إنما ينفذ حكمك في ﴿ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي إنما تصنع ما تهواه في هذه الحياة الدنيا فحسب، وهي فانية زائلة، ورغبتنا في النعيم الدائم.

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا ﴾ أي آما بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها من الكفر والمعاصي، ولا يؤاخذنا بها في الدار الآخرة ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه، بإكراهك لنا، وحشرنا من المدائن القاصية ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ ﴾ أي في حد ذاته ﴿ وَأَبْقَى ﴾ أي جزاء وثواباً، وهذا جواب لقوله ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ .

﴿ إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ مَجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ .

﴿ إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ مَجْرِمًا ﴾ بأن مات على الكفر أو المعاصي ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فينتهي عذابه ﴿ وَلَا يَحْيَى ﴾ حياة ينتفع بها.

﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ .

﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا ﴾ به تعالى، وبما جاء من عنده من المعجزات ﴿ قَدْ ﴾

عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ فَأُولَٰئِكَ ﴿ أَي فَاوَلَتْكَ الْمُؤْمِنُونَ الْعَامِلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ لَهُمْ ﴿ بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ﴾ أَلْزَحَتْ أَلْعَى ﴿ أَي الْمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ، وَلَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ اعْتِبَارِ الْإِيْمَانِ، الْمَجْرَدِ عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فِي اسْتِبَاعِ الثَّوَابِ، لِأَنَّ مَا نِيَطُ بِالْإِيْمَانِ الْمَقْرُونِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، هُوَ الْفَوْزُ بِالدرجات العلى، لَا بِالثَّوَابِ مُطْلَقاً، وَهَلِ الشَّجَرُ إِلَّا فِيهِ، فَسَائِرُ الدَّرَجَاتِ لَا يَدُّ أَنْ تَكُونَ لغيرهم مِنْ أَهْلِ الْإِيْمَانِ.

﴿ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾.

﴿ جَنَّتٌ عَدْنٌ ﴾ بَدَلٌ مِنَ الدَّرَجَاتِ ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَي مَآكِنٍ فِي الْجَنَّةِ عَلَى الدَّوَامِ ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى مَا أُوتِيَ لَهُمْ ﴿ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أَي تَطَهَّرَ مِنْ دَنَسِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، بِالْإِيْمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَهَذَا تَحْقِيقُ لَكُونِ ثَوَابِهِ تَعَالَى أَبْقَى، وَقِيلَ: هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ ابْتِدَاءُ كَلَامٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى ﴾ طَوَى فِي الْبَيْنِ ذَكَرَ مَا جَرَى عَلَيْهِمْ، مِنَ الْآيَاتِ الظَّاهِرَةِ عَلَى يَدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَعْدَ مَا غَلَبَتِ السَّحَرَةُ فِي نَحْوِ مِائَتَيْ سَنَةٍ، حَسْبَمَا فَصَّلَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُمْ بِكَوْنِهِمْ عِبَاداً لَهُ تَعَالَى، لِإِظْهَارِ الرَّحْمَةِ، وَالِاعْتِنَاءِ بِأَمْرِهِمْ، أَيِ وَبِاللَّهِ لَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي مِنْ مِصْرَ لَيْلاً ﴿ فَاصْرِبْ لَهُمْ ﴾ أَي فَاتَّخِذْ لَهُمْ ﴿ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ أَيِ يَابِساً مُصَدَّرٌ وَصَفٌ بِهِ الْفَاعِلُ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيِ يَابِساً لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ وَلَا طِينٌ ﴿ لَا تَخَافُ دَرْكًا ﴾ أَيِ آمَنَّا مِنْ أَنْ

يدرككم العدو ﴿وَلَا تَخْشَوْا﴾ الغرق، وتقديم نفي الخوف، للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه، حيث قالوا إنا لمدركون^(١).

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَفَشَّيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشَّيَهُمْ﴾.

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ أي تبعهم بجنوده، روي أن موسى خرج بهم أول الليلة، فأخبر فرعون بذلك، فأتبعهم بعساكره، فلحقهم بحيث تراءى الجمعان، وقال بنو إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فعند ذلك ضرب عليه السلام بعصاه البحر، فانفلق على اثني عشر فرقاً، كالطود العظيم، فعبر موسى بمن معه سالمين، وتبعهم فرعون مع جنوده ﴿فَفَشَّيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشَّيَهُمْ﴾ أي علاهم منه وغمرهم ما غمرهم، من الأمر الهائل الذي لا يقادر قدره، وهو من جوامع الكلم.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ أي سلك بهم مسلكاً أذاهم إلى الخيبة والخسران، في الدين والدنيا ﴿وَمَا هَدَى﴾ أي وما أرشدهم قط، ولا هداهم إلى خير ولا نجاة، وفيه تهكم بفرعون في قوله الفاجر: ﴿وما أهديكُم إلا سبيل الرشاد﴾ فإن قيل: كيف اختار فرعون إلقاء نفسه وعسكره إلى التهلكة؟ قيل: إن جبريل عليه السلام كان على فرس، فقبعه فرس فرعون، وهذا بعيد لأن الملك لا يخوض في أمثال هذه المواضع، بل الأولى أن يُقال: غلب على ظنه السلامة، فأمر بالدخول في البحر.

(١) فإن قيل: الخوف والخشية مترادفان، فلماذا غاير بينهما؟ فالجواب: إن ذلك للبلاغة، ولمراعاة رؤوس الآيات.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْمَعْتَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى ﴿٨٠﴾﴾

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ حكاية لما خاطبهم الله تعالى به، بعد إغراق فرعون وقومه وإنجائهم منهم، وإفاضة فنون النعم الدينية والدنيوية عليهم أي قلنا يا بني إسرائيل ﴿قَدْ أَجْمَعْتَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وقومه ﴿وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي واعدناكم بواسطة نبيكم، إتيان جانبه الأيمن لمناجاة موسى، وإنزال التوراة عليه، وإنما نسبت المواعدة إليهم وهي لموسى، نظراً إلى سراية منافعها إليهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى﴾ وقلنا لهم.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وفي البدء بنعمة الإنجاء، ثم بالنعمة الدينية، ثم بالنعمة الدنيوية، من حسن النظم، ولطف الترتيب، ما لا يخفى ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، والتعدي لما حذَّ الله لكم فيه ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي فيلزمكم عذابي، ويحلُّ عليكم سخطي ﴿وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي تردَّى وهلك وشقى الشقاء الدائم.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ من الشرك والطغيان ﴿وَأَمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي عملاً مستقيماً موافقاً للشرع والعقل ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أي استقام على الهدى، وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان، وحثُّ له على التوبة والإيمان، وإشارة إلى أن من لم يستقم على الهدى، فهو بمعزلٍ من الغفران، ويؤكد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾

والتوبة، والإيمان، والعمل الصالح، قد يتفق لكل أحد، ولا صعوبة في ذلك، إنما الصعوبة في المداومة عليه.

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴾

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴾ حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى من الكلام، عند ابتداء موافاته الميقات، بموجب المواعدة المذكورة أي قلنا له: أي شيء أعجلك منفرداً عن قومك؟ أي عن السبعين الذين اختارهم، وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء، لما في ذلك من إغفالهم وعدم الاعتداد بهم، مع كونه مأموراً باستصحابهم ولذلك أجاب عليه السلام، بنفي الانفراد المنافي للاستصحاب، حيث قال:

﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾

﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي ﴾ يعني أنهم معي وخلفي، يلحقون بي، وليس بيني وبينهم إلا مسافة يسيرة ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ أي وتعجلت إلى الموضوع الذي أمرتني به، لترضى عني بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك، والعجلة مذمومة إلا أنها ممدوحة في الدين، قال الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وفيه دليل على جواز الاجتهاد.

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ أي ابتليناهم بعبادة العجل، من بعد ذهابك من بينهم، وهم الذين خلفهم مع هارون عليه السلام ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ باتخاذ العجل، والدعاء إلى عبادته، وهو منسوب إلى قبيلة يقال لها السامرة، وكان منافقاً قد أظهر الإسلام، وبنو إسرائيل كانوا ستمائة ألف، وما نجا من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ ﴿٨٦﴾

﴿فَرَجَعَ مُوسَى﴾ بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة ﴿إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ﴾ أي شديد الغضب عليهم ﴿أَسِفًا﴾ أي حزيناً بما فعلوا ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾؟ بأن يُعطيكم التوراة فيها هدى ونور ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾؟ أي زمان الإنجاز فأخطأتم بسببه؟ ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؟ من مالك أمركم على الإطلاق، ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ أي وعدي بالثبات على ما أمرتكم به، إلى أن أرجع من الميقات.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أُوزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ﴿٨٧﴾

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾ أي ما أخلفنا وعدنا إياك ﴿بِمَلِكِنَا﴾ أي بإرادتنا واختيارنا بأن ملكنا أمورنا، يعنون أنا لو خُلِّينا وأمورنا، ولم يسؤل لنا السامري ما سؤله لما أخلفناه، فقد كنا مكرهين، والمرء إذا وقع في فتنة لم يملك نفسه ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا﴾ اعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ ﴿أُوزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أي حُمِّلنا أحمالاً من خُلِي القبط، التي استعرناها منهم، حين هممنا بالخروج من مصر، وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم، ثم لم يردوها عند الخروج، ولعل تسميتهم لها أوزاراً، لأنها آثام وتبعات، لأنهم كانوا في حكم المستأمنين، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي، على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذٍ ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أي في النار رجاء، للخلاص عن ذنبها ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أي ما كان منها معه، روي أنهم لما حسبوا أن العدة قد كملت، قال لهم السامري: إنما أخلف

موسى ميعادكم لما معكم من حلّي القوم، وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفرة، ونسجر فيها ناراً، ونقذف كلّ ما معنا فيها ففعلوا.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُمْ خُوارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى
فَنَسِيَ﴾ (٨٨)

﴿فَأَخْرَجَ﴾ أي السامري ﴿لَهُمْ﴾ أي للقائلين ﴿عِجْلاً﴾ من تلك الحلّي المذابة ﴿جَسَداً﴾ من ذهب لا روح له ﴿لَهُمْ خُوارٌ﴾ أي صوت عجل، لأنه جعل فيه منافذ ومخاريق، بحيث إذا دخل فيه الريح، صوّت كصوت العجل ﴿فَقَالُوا﴾ يعني السامري ومن افشّن به أول ما رآه ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أي غفل عنه، وذهب يطلبه في الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامري من جهته تعالى قصداً إلى زيادة تقريرها، لا من جهة القائلين، وإلا لقليل فأخرج لنا.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٩)

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ إنكار وتوبيخ، من جهته تعالى، لحال الضالين والمضلين جميعاً، فيما أقاموا عليه من المنكر، الذي لا يشبهه بطلانه على أحد، والفاء للعطف على مقدر، أي ألا يتفكرون فلا يعلمون ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي كلاماً، ولا يردّ عليهم جواباً، فكيف يتوهمون أنه إله؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي أفلا يرون أنه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرراً، أو يجلب لهم نفعاً؟ فإن قيل: كيف يعقل رجوع ستمائة ألف إنسان عن دين الحق دفعة، إلى عبادة العجل، الذي يُعرف فسادها بالضرورة، ثم إن مثل هذا الجمع رجعوا برؤية موسى عليه السلام وحده؟ قلت: هذا غير ممتنع في حق البُله من الناس، وهؤلاء لا يعرفون الدين، وإنما أفكارهم وآمالهم منحصرة في المنفعة الدنيوية، فإنهم رأوا انقلاب العصا ثعباناً، والتقم كل ما جمّعه السحرة، ثم عاد عصا، ورأوا اعتراف السحرة بأن

ذلك ليس بسحر، ورأوا الآيات التسع مدة مديدة، ثم انفلاق البحر، ثم أنجاهم الله من الغرق، وأهلك أعداءهم، ثم إن هؤلاء لما خرجوا من البحر، رأوا قوماً يعبدون البقر، قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قال بعض اليهود لعلي رضي الله عنه: ما دفتم نبيكم حتى اختلفتم؟ فقال: «اختلفنا عنه، وما اختلفنا فيه، وأنتم ما جفّت أقدامكم من ماء البحر، حتى قلتُم لنبيكم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾» وذلك يدل على شكهم وضلالهم في الدين.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّمَا قُتِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ ﴿٩١﴾

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ﴾ جملة قسمية، مؤكدة لما قبلها من الإنكار، بيان عتوهم، واستعصائهم على الرسول، إثر بيان مكابرتهم لقضية العقول، أي وبالله لقد نصح هارون نبيهم، على كنه الأمر وحذرهم من ضلال السامري ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم وقال لهم: ﴿يَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّمَا قُتِلْتُمْ بِهِ﴾ أي قال لهم يا قوم إنما ابتليتُم بالعجل وفتنكم به السامري، فألقى بكم في الفتنة لا الإرشاد ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ لا العجل، فافتدوا بي وأطيعوا أمري، إرشاد لهم على الحق، إثر زجرهم عن الباطل، والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أي فاتبعوني في الثبات على الدين ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ هذا واتركوا عبادة العجل، وإنما قال هارون عليه السلام ذلك، لأنه كان مأموراً بالنهي عن المنكر، فقابلوا هذه النصيحة بالسفَه.

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ﴿٩٢﴾

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ أي على العجل وعبادته ﴿عَنكِفِينَ﴾ أي مقيمين ملازمين ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ جعلوا رجوعه غاية لعكوفهم بطريق

التسوية، ولما قالوه اعتزلهم هارون مع الذين لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى سمع الصباح والجلبة، وكانوا يرقصون حول العجل، فقال لل سبعين الذين معه: هذا صوت الفتنة، فلما رأى هارون، أخذ شعر رأسه بيمينه، ولحيته بشماله.

﴿ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ (١٧)

﴿ قَالَ يَهْرُونَ ﴾ وهو مغتاظ ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ بعبادة العجل.

﴿ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ (١٧)

﴿ أَلَا تَتَّبِعَنِ ﴾ أي أي شيء منعك، حين رأيت ضلالهم، من أن تتبعني، في الغضب لله تعالى، ومقاتلة من كفر به؟ ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾؟ بالصلاة في الدين، وبالقيام لمصالحهم.

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ (١١) ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (١١)

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ ﴾ حصَّ الإضافة بالأم، استعطافاً وترقيقاً لقلبه، أي يا أخي ويا بن أُمي ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ أي ولا بشعر رأسي، وكان موسى عليه السلام شديداً، متصلياً في كل شيء، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل، ففعل ما فعل ﴿ إِنِّي خَشِيتُ ﴾ أي إني خفتُ إن زجرتهم بالقوة، أن يقع قتال بينهم، فيسفكوا الدماء ويقتل بعضهم بعضاً وكما خشيت لو قاتلتُ بعضهم ببعض، وتفرقوا ﴿ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أي أشعلت الفتنة بينهم، وأراد عليه السلام بالتفريق، ما يستتبعه القتال من التفريق بين صفوف بني إسرائيل، وتمزيق وحدتهم ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ أي وتقول: لم تنتظر أمري فيهم، يعني إني رأيتُ أن الإصلاح في حفظ الدماء، والمداواة معهم، إلى أن ترجع إليهم، لتكون أنت المتدارك للأمر،

لا سيما وقد كانوا في القوة، ونحن على القلة، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾ وفيه دليل على جواز الاجتهاد، فلما فرغ من مخاطبة هارون، وعرف العذر، أقبل على السامري.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِيُّ﴾ ﴿١٥﴾

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِيُّ﴾؟ أي ما مطلوبك مما فعلت؟ وما الذي حملك على ذلك؟ خاطبه بذلك، ليظهر للناس بطلان كيدِهِ، باعترافه.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ﴿١٦﴾

﴿قَالَ﴾ أي السامري مجيباً له ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي رأيت ما لم يره القوم ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ القبضة: المرة من القبض، أي قبضت حفنة من التراب، من أثر فرس جبريل، فطرحتها على العجل فكان له خوار. وعامة المفسرين قالوا: المراد بالرسول «جبريل» عليه السلام، وروي أنه كان رأى أن جبريل عليه السلام، جاء راكباً فرساً، إلى موسى، ليذهب به إلى الطور، وكان كلما رفع الفرس يديه أو رجله، يخرج من تحته النبات، فعرف أن له شأنًا، فأخذ من موطئ قدم الفرس، حفنة من التراب ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي في الحلي المذابة، فكان ما كان ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي زينته وحسنته لي نفسي، فاتبعت هواي، لا لشيء آخر من البرهان العقلي، أو الإلهام الإلهي.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ﴿١٧﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام للسامري ﴿فَاذْهَبْ﴾ أي من بين الناس ﴿فَاتَّكَ لَكَ فِي الْحَيَاةِ﴾ أي ثابت لك في الحياة ما عشت، عقوبة على ما فعلت ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مَسَاسَ﴾ أي لا يمسني أحد ولا أمسه، وذلك أنه تعالى، رماه بداء عقام، لا يكاد يمسُّ أحدًا، أو يمسه إلاَّ حمً من ساعته، حمى شديدة، وكان يصبح بأقصى طوقه: لا مساس وحُرْم من المكالمة والمعاملة مع الناس، وصار أوحش من القاتل، ومن الوحش النافر ولعلَّ السر بتلك العقوبة، أنه لما أنشأ الفتنة، لجمع الناس عليها، وإبعادهم عن دين الله، عوقب بما يضاده، من العزلة عن الناس، وقال مقاتل: إن موسى عليه السلام قال له: اخرج أنت وأهلك، فخرج طريداً إلى البراري، وهذا أحسن وأقرب إلى النظم ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي في الآخرة ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أي لن يخلفك الله ذلك الوعد ﴿وَأَنْظِرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاقِبًا﴾ أي دمت على عبادته مقيماً ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ جواب قسم محذوف أي بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ﴾ أي لنذرينه رماداً ﴿فِي الْيَمِّ﴾ أي في البحر كأنه هباء ﴿تَسْفًا﴾ بحيث لا يبقى منه عين، ولا أثر، ولقد فعل ذلك كله، كما يشهد به الأمر بالنظر، وإنما لم يصرح به، تنبيهاً على كمال ظهوره، واستحالة الخلف في الوعد، المؤكد باليمين، فلما فرغ عليه السلام من أمر العجل، رجع إلى بيان الدين الحق، فقال مخاطباً لبني إسرائيل:

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾ المستحق للعبادة ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده من غير أن يشاركه شيء من الأشياء، بوجه من الوجوه، ولا يدانيه في كمال العلم والقدرة ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم وبه تم حديث موسى عليه السلام.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ إشارة إلى حديث موسى، أي مثل ذلك
الاقتصاص البديع نقص عليك ﴿مِنْ أَمَلٍ مَا قَدْ سَبَقُ﴾ من الحوادث الماضية
الجارية على الأمم الخالية، تبصرة لك، وزيادة في علمك، وتذكيراً
للمستبصرين من أممتك ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي كتاباً مذكراً، منطوياً
على هذه الأقاصيص والأخبار، حقيقاً بالتفكر والاعتبار، وتنكير ﴿ذِكْرًا﴾
للتفخيم.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن ذلك الذكر العظيم، المستتبع لسعادة الدارين،
وأعرض عن الله عز وجل ﴿فَإِنَّهُ﴾ أي المعرض عنه ﴿يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾
أي عقوبة ثقيلة فادحة، على كفره وذنوبه، سماها ﴿وزراً﴾ تشبيهاً في ثقلها
على المعاقب، بالحمل الذي يُفدح الحامل، وينقض ظهره.

﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ أي خالدين في ذلك العذاب، بسبب الوزر الذي
حملوه ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ أي بشس لهم حملاً وزرهم.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ بدل من يوم القيامة ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم
يُنْفَخُ في الصور ﴿زُرْقًا﴾ أي حال كونهم زرق العيون وسود الوجوه، وإنما
جعلوا كذلك، لأن الزرقة أسوأ ألوان العيون وأبغضها إلى العرب، ولذلك
قالوا في صفة العدو: أسود الكبد، وأزرق العين.

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾.

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ الخفت: خفض الصوت وإخفاؤه، أي يقول بعضهم لبعض بطريق المخافة، لما يملأ صدورهم من الرعب والهول ﴿إِنْ لَيْتُمْ﴾ أي ما لبثتم ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ أي عشر ليال في الدنيا، استقصاراً لمدة لبثهم فيها، لما عاينوا الشدائد.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مدة لبثهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي أعدلهم رأياً ﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لكونه أدل على شدة الهول.

﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾.

﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي يسألك عن مآل أمرها يوم القيامة وقيل: لم يُسأل وتقديره: إن سألك، ولذا قُرِنَ بالفاء ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها، والفاء للمسارعة إلى إلزام السائلين.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي يدعها ﴿قَاعًا﴾ خالياً ﴿صَفْصَفًا﴾ مستوياً كأنها على صف واحد والقاع: المستوي من الأرض.

﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾.

﴿لَا تَرَى فِيهَا﴾ أي في الأرض، والخطاب لكل أحد ﴿عِوَجًا﴾ أي اعوجاج ما ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ أي ارتفاعاً، والأمتُ المكان المرتفع، وقيل: النتوء اليسير.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ ﴿١١٨﴾

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ نسفت الجبال ﴿ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ﴾ أي يتبع الناس الداعي إلى المحشر، وهو إسرافيل عليه السلام، يدعو الناس عند النفخة الثانية، ويقول: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، قومي إلى عرض الرحمن، فيقبلون من كل أوب إلى صوبه ﴿ لَا عِوَجَ لَهُمْ ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه بل يستون إليه ﴿ وَخَشَعَتِ ﴾ أي خضعت ﴿ الْأَصْوَاتُ ﴾ هيبة ﴿ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ أي لا تسمع إلا صوتاً خفياً والهمس: أخفى الصوت.

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ﴿١١٩﴾

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب ﴿ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ ﴾ من الشفعاء أحداً ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ أن يشفع له ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ أي ورضي قول الشافع في شأنه، وأما ما عداه فلا تكاد تنفعه، وإن فرض صدورهما عن الشفعاء فكأنه قال تعالى: لا تنفع الشفاعة أحداً من الخلق، إلا شخصاً مرضياً.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عِلْمًا ﴾ ﴿١٢٠﴾

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عِلْمًا ﴾ أي لا تحيط علومهم بمعلوماته جلّ وعلا.

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ ﴿١٢١﴾

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ أي ذلت وخضعت خضوع العناة - وهم الأسارى - في يد الملك القهار، وجوه الخلائق جميعاً للواحد القهار،

وقيل: وجوه الكفار، كقوله تعالى: ﴿سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ قال ابن عباس: أي من أشرك، وقيل: على العموم.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ﴿١١٧﴾.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي بعضاً من الصالحات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالإيمان شرط في صحة الطاعات، والحسنات ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ أي منع ثواب مستحق بموجب الوعد ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا كسراً منه بنقص، وأصل الهضم: النقص والكسر، هضمه هضمًا كسره، وهضم حقه نقصه.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١١٨﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن كله على هذه الوتيرة، وإضماره من غير سبق ذكره، للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركزاً في العقول ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ يفهمه العرب، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز، الدال على كونه خارجاً عن طوق البشر ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي كررنا فيه بعض الوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي كي يتقوا الكفر والمعاصي ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي اتعاضاً واعتباراً، مؤدياً إلى الانتقاء.

﴿فَنَعَلَى اللَّهِ أَلَمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿١١٩﴾.

﴿فَنَعَلَى اللَّهِ﴾ استعظام له تعالى، ولشؤونه التي يصرف عليها عباده، من الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، أي ارتفع بذاته، وتنزه عن مماثلة المخلوقين، في ذاته، وصفاته، وأفعاله ﴿أَلَمَلِكُ﴾ النافذ أمره ونهيه،

الحقيق بأن يُرجى وعده ويُخشى وعيده ﴿الْحَقُّ﴾ في ملكوته وألوهيته ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي يتم، وقد كان ﷺ إذا ألقى إليه جبريل عليه السلام الوحي، يتبعه عند تلفظ كل كلمة، لكمال اعتناؤه بالتلقي والحفظ، فنُهي عن ذلك، وأمر باستفاضة العلم، واستزادته منه تعالى، ف قيل ﴿وَقُلْ﴾ أي في نفسك ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي سل الله عز وجل زيادة العلم، فإنه الموصل إلى طلبتك، دون الاستعجال عند تلاوة الوحي.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتْنَىٰ وَلَمْ يُخْدِلْهُ عَزْمًا﴾ ﴿١١٩﴾

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ كلام مستأنف لبيان أن أساس بني آدم على العصيان، وعرقه راسخ في النسيان، والمعهود محذوف، يدل عليه ما بعده، واللام جواب قسم محذوف، أي وبالله لقد أمرناه ووصيناه، وأوحينا إليه، بأن لا يأكل من الشجرة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا الزمان ﴿فَنَسِيَ﴾ أي نسي العهد، ولم يعتن به، حتى غفل عنه، أي فأنساه الشيطان ﴿وَلَمْ يُخْدِلْهُ عَزْمًا﴾ أي ثبات قدم في الأمور، إذ لو كان كذلك، لما أزلّه الشيطان، وقد كان ذلك منه عليه السلام في بدء أمره، من قبل أن يُجرَّب الأمور، وقيل: ﴿عَزْمًا﴾ أي على الذنب، فإنه أخطأ فيكون إلى المدح أقرب.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ ﴿١٢٠﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي امتنع وتكبر.

﴿فَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوُّكَ وَلِرْوَاحِكَ فَلَا تَخْرِجَكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ ﴿١٢١﴾

﴿ فَقُلْنَا ﴾ عقيب ذلك، تحذيراً من كيد اللعين: ﴿ يَتَّعَادُمُ إِنَّ هَذَا ﴾ الذي رأيت ما فعل ﴿ عَدُوُّكَ وَلِرْوَاجِكَ فَلَا يَخْرُجُكَ ﴾ أي لا يكون سبباً لإخراجكما ﴿ مِنْ الْجَنَّةِ ﴾ والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما منها بالأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها ﴿ فَشَقَّقَ ﴾ جواب للنهي، أي فتشقيان وإسناد الشقاء إليه خاصة، بعد تعليق الإخراج بهما معاً، لأصالته في الأمور، واستلزام شقائه شقاءها مع ما فيه من مراعاة الفواصل، وقيل: المراد بالشقاء: التعب في طلب المعاش، وذلك من وظائف الرجال. ويؤيده قوله تعالى:

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ١١٩ .

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿ ١١٩ ﴾ أي إن لك يا آدم في الجنة ألا ينالك ألم الجوع والعري، وألا يصيبك فيها العطش ولا حرُّ الشمس، لأن الجنة دار الحبور والسرور، وهو تعليلٌ لموجب النهي، فإن اجتماع أسباب الراحة فيها، ونفي نقائصها، التي هي الجوع، والعطش، والعري، والضَّحْوُ أي الإبراز للشمس، للتذكير بتلك الأمور الجليلة في الجنة، والبعد عن أنواع الشقوة، التي حذر منها، ليبلغ في التحامي عن السبب المؤدي إليها.

﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴾ ١٢٠ .

(١) هذه الآية الكريمة من أظهر الدلائل، وأوضح الوجوه على أن الجنة التي أخرج منها آدم هي «جنة الخلد» وليست جنة في الدنيا، فإن وصفها بعدم الجوع، والعطش، والعري وعدم حر الشمس، لا يكون إلا في جنة الخلد في السماء.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي أنهى إليه وسوسته، أو أسرها إليه ﴿قَالَ﴾ في وسوسته ﴿يَتَكَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ؟﴾ أي شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلاً ﴿وَمَلِكٍ لَا يَبَلَى﴾ أي لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه، فالذي رغب الله فيه آدم، رغبه إبليس فيه.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ أي عريا من الثياب التي كانت عليهما، حتى ظهرت عورتهم ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي أخذا يلزقان الورق على سواتهما للتستر، ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ بما ذكر من أكل الشجرة ﴿فَغَوَى﴾ أي ضلَّ عن الرشد، حيث اغتر بقول العدو، وفي وصفه عليه السلام بالعصيان، والغواية، مع صغر زلته، تعظيم لها، وزجر لأولاده عن أمثالها، كأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا بزلة أبيكم التي أخرجته من الجنة، فلا تنهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر، فضلاً عن الكبائر قال ابن قتيبة: يجوز أن يُقال: عصى آدم، ولا يجوز أن نقول: آدم عاص، لأنه إنما يقال لمن اعتاد فعل المعصية، كالرجل يخطئ ثوبه يقال: خاط ثوبه، ولا يقال هو خياط، حتى يعاود ذلك مراراً ويعتاده، ومعلوم أن هذه الزلة لم تصدر عنه عليه السلام إلا مرة واحدة، وإنما وقعت قبل النبوة، فلم يجز بعد أن قِيلَ الله توبته، وشرّفه الله تعالى بالنبوة هذا الاسم عليه، كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر إنه كافر^(١).

﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

(١) هذا وجه بديع في التوجيه لمعصية آدم، وانظر كتابنا: «النبوة والأنبياء» فقد وضحنا بالتفصيل المسألة، وبيننا الوجوه الشرعية في بحث «عصمة الأنبياء».

﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ﴾ أي اصطفاه وقربه إليه بالحمل على التوبة، وفي التعرض لعنوان الربوبية تشريف له ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ أي قَبِلَ توبته حين تاب ﴿وَهَدَى﴾ أي وهداه إلى الثبات على التوبة، والتمسك بأسباب العصمة.

﴿قَالَ أَهِيْطَا مِنْهَا جَمِيْعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٧٦)

﴿قَالَ أَهِيْطَا مِنْهَا جَمِيْعًا﴾ أي قال الله تعالى لآدم وحواء بعد صدور الزلّة: انزلا من الجنة إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي بعض أولادكم عدو لبعض في أمر المعاش والكسب، كما عليه الناس من التجاذب والتحارب، والجمع لما أنهما أصل الذرية ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ في الآخرة، فإن قيل: المتبع لهدى الله، قد يلحقه الشقاء في الدنيا؟ قلنا: المراد لا يضل في الدين، فإن حصل الشقاء بسبب آخر فلا مانع منه وفيه الأجر.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى﴾ (١٧٧)

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي أعرض عن الهدى والإيمان، واتباع الرسل الكرام ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ في الدنيا ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ ضيقاً، وذلك لأنه تعالى يسلب عنه القناعة، والتوكل، فتكون همته مقصورة، على أعراض الدنيا، وهو متهالك على ازديادها، وخائف من انتقاصها، فعيشته ضنك وحالته مظلمة، بخلاف المؤمن القانع، المتوكل، فإنه يعيش عيشاً طيباً، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ مع أنه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر، كما قال الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ الآية، ويوسع ببركة الإيمان كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمُ

بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ وَقِيلَ هُوَ عَذَابُ الْقَبْرِ ﴿٢﴾ وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿٣﴾ أَيِ أَعْمَى الْبَصَرِ لِأَنَّهُ تَعَامَى فِي الدُّنْيَا عَنْ آيَاتِ اللَّهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿٤﴾ وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴿٥﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ ﴿١٢٥﴾

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ أَيِ فِي الدُّنْيَا.

﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴾ ﴿١٢٦﴾

﴿ قَالَ كَذَلِكَ ﴾ أَيِ مِثْلَ ذَلِكَ فَعَلْتَ ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ أَنتَكَ ءَايَتُنَا ﴾ وَاضْحَةٌ نِيرَةٌ ﴿ فَنَسِينَهَا ﴾ فَعَمِيتَ عَنْهَا وَتَرَكْتَهَا تَرِكَ الْمُنْسِي ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ مِثْلَ تَرَكْتَ إِيَّاهَا ﴿ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴾ تَرَكْنَا فِي الْعَمَى وَالْعَذَابِ جِزَاءً وَفَاقًا.

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِثَابِتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ ﴿١٢٧﴾

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أَيِ مِثْلَ ذَلِكَ الْجِزَاءِ ﴿ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ بِأَنَّهُمَا فِي الشَّهَوَاتِ ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِثَابِتِ رَبِّهِ ﴾ بَلْ كَذَّبَ بِهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ ﴾ عَلَى الْإِطْلَاقِ ﴿ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ أَيِ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، وَأَدْوَمَ لِعَدَمِ انْقِطَاعِهِ.

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ ﴿١٢٨﴾

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ الْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ التَّوْبِيخِي وَالْمَعْنَى: أَفَلَمْ يَبَيِّنْ لَهُمْ مَا لَمْ

(١) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

أمرهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي كثرة إهلاكنا للقرون الأولى ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ أي أهلكتناهم وهم في حال أمن وتقلب في مساكنهم وديارهم، أو حال كونهم ماشين في مساكنهم، إذا سافروا، مشاهدين لآثار هلاكهم، مع أن ذلك مما يوجب أن يعتبروا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي إن في إهلاك هذه الأمم الباغية، وفي آثار دمارهم ﴿لَآيَةً﴾ كثيرة، عظيمة، واضحة ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي لذوي العقول الناهية عن القبائح.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي الوعد بتأخير عذاب هذه الأمة، لحكمة تقتضيه ﴿لَكَانَ﴾ عقاب جناياتهم ﴿لِزَامًا﴾ أي لازماً لهم، بحيث لا يتأخر، والالزام مصدر لازم وصف به مبالغته ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي ولولا أجل مسمى لهلاكهم لما تأخر عذابهم أصلاً، وفصله عما عطف عليه، للمسارعة إلى بيان جواب لولا، ولا استقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب^(١).

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فاصبر على ما يقولون من الكفر، والتكذيب ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صل وأنت حامد لربك، الذي يبلغك إلى كمالك، على هدايته وتوفيقه ونزله عما ينسبونه إليه، مما يليق بشأنه الرفيع، معترفاً أنه مولى النعم كلها ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ أي في صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاة الظهر والعصر، لأنهما قبل غروبها ﴿وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي ومن ساعاته، والمراد به

(١) قال الفراء: في الآية تقديم وتأخير والمعنى: ولولا كلمة وأجل مسمى لكان لازماً أي لكان العذاب لازماً لهم، وإنما أخره لتعتدل رؤوس الآيات.

المغرب والعشاء، وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل، فإن القلب فيهما أجمع، والنفس إلى الاستراحة أميل، فتكون العبادة فيهما أشق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنْ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾ ﴿وَأَطْرَافُ النَّهَارِ﴾ أمر بالتطوع في أجزاء النهار ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ أي سيج في هذه الأوقات، رجاء أن تنال عنده تعالى، ما ترضى به نفسك، ويسر قلبك وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أمر الله تعالى عقيب الصبر بالتسبيح، لأن ذكر الله يفيد السلوة والراحة.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿١٣٦﴾

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ من زخارف الدنيا ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي أصنافاً من الكفرة ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي زينتها وبهجتها ﴿لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ﴾ أي لنبتليهم ونختبرهم بهذا النعيم ونعذبهم في الآخرة بسببه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُفْجِئَكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ﴾ أي ما أدخره لك في الآخرة، وما رزقك إياه في الدنيا، من النبوة والهدى ﴿خَيْرٌ﴾ مما منحهم في الدنيا لأنه أجل، ومأمون الغائلة ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنه لا ينقطع نفسه أو أثره.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿١٣٧﴾

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ أمر ﷺ بأن يأمر أهل بيته بالصلاة بعد ما أمره بها، ليتعاونوا على الاستعانة بها على خصاصتهم، ولا يهتموا بأمر المعيشة ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ داوم عليها فإن الوعظ بالفعل، أبلغ من القول ﴿لَا تَسْأَلُكَ

رِزْقًا ﴿ أَي لا نكلفك أن ترزق أحداً ولا أن ترزق نفسك بل نحن نتكفل برزقك ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ وأهلك، ففرغ بالك لأمر البعثة والآخرة ﴿ وَالْعَاقِبَةُ ﴾ الحميدة ﴿ لِلنَّقْوَى ﴾ أي لأهل التقوى وكان النبي ﷺ إذا أصاب أهله ضرر، أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية وليس في الآية رخصة في ترك التكسب، لأنه تعالى قال في وصف المتقين ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ .

ثم إنه سبحانه بعد هذه الوصية، حكى عن شبهتهم، فكأنه من تمام قوله تعالى: ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾، فقال:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ
الْأُولَىٰ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ؕ ﴾ أي هلا يأتينا بآية تدل على صدقه في دعوى النبوة، أو بآية مما اقترحوها، بلغوا من المكابرة والعناد، إلى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات، التي تخر لها صمم الجبال، من قبيل الآيات، حتى اجترأوا على التفوه بهذه العظيمة ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ ؟ من أخبار الأمم، أنهم اقترحوا الآيات، فلما أتتهم ولم يؤمنوا بها، عجلنا لهم العذاب، وهذا رد من جهته تعالى لمقاتلتهم، بإتيان القرآن الكريم، الذي هو أم الآيات وأعظمها وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة، اختصاص مدعي النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادات ولا ريب في أن العلم أجل الأمور وأعلاها، إذ هو أصل الأعمال، ومبدأ الأفعال، ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأولين والآخرين، على يد أمي لم يمارس شيئاً من العلوم، ولم يدارس أحداً أصلاً، فأى معجزة بعد هذا القرآن؟ .

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِّن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ .

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ جملة مستأنفة سقت لتقرير ما قبلها، من كون القرآن بينة لا يمكن إنكارها، ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة، والمعنى لو أنا أهلكناهم في الدنيا ﴿بِعَذَابٍ﴾ متاصل ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل إتيان البينة أو من قبله ﷺ ﴿لَقَالُوا﴾ يوم القيامة ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا﴾ في الدنيا ﴿رَسُولًا﴾ مع كتاب ﴿فَتَنبِئْ بِآيَاتِكَ﴾ التي جاءتنا ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بنزول العذاب ﴿وَفُتِّرَ﴾ بدخول النار اليوم، ولكننا لم نهلكهم قبل إتيانها، فانقطعت معذرتهم، فعند ذلك قالوا: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾.

﴿ قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ فَرِيضٌ فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ (١٢٥).

﴿ قُلْ ﴾ لأولئك الكفرة المتمردين ﴿كُلُّ﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿مُتَرَضٍ﴾ منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم ﴿فَرِيضٌ﴾ أنتم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب إذا جاء أمر الله ﴿مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي المستقيم ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ من الضلالة نحن أم أنتم؟ ليس هو بمعنى الشك والترديد، بل هو على سبيل التهديد، والزجر للكفار، والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا ﷺ وجميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وأصحابهم أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة طه».

سُورَةُ الْاَنْبِيَاءِ

مكية وهي مائة واثننا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿١﴾

﴿أَقْرَبَ﴾ أي دنا ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي المشركين، لأن ما بعده من صفاتهم ﴿حِسَابُهُمْ﴾ أي وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم، والمراد باقتراب حسابهم اقتراب الساعة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ تامة منه، ساهون عنه بالمرة، لأنهم منكرون له، مع اقتضاء عقولهم أن الأعمال لا بد لها من الجزاء ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن الآيات والتذر، والتأهب لذلك اليوم.

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ يُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿٢﴾

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ﴾ من طائفة نازلة من القرآن، تذكّرهم ذلك ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ صفة لذكر، وفيه دلالة على كمال شناعة ما فعلوا ﴿يُحَدِّثُ﴾ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة ﴿إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي إلا استمعوا القرآن حال كونهم مستهزئين به.

﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ ﴿٣﴾

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ حال أخرى، والمعنى: ما يأتيهم ذكر من ربهم في حال من الأحوال، إلا حال استماعهم إياه، لاعبين مستهزئين به، لاهين عنه، لتناهي غفلتهم، وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور، والتفكر في العواقب ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ النجوى: الكلام سرّاً، ومعنى إسرارها مع أنها لا تكون إلا سرّاً، أنهم بالغوا في إخفائها، بحيث لم يشعر أحد بأنهم متناجون ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بذل من ضمير «أسرّوا» منبىء عن كونهم موصوفين بالظلم فيما أسروا به ﴿هَلْ هَذَا﴾ أي قالوا في التناجي: هل هذا يعنون رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾؟ أي من جنسكم، وما أتى به سحر، أنعلمون ذلك؟ ﴿فَتَأْتُونَكَ﴾ أنحضرون ﴿السَّحَرِ﴾ وتقبلونه ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ أي وأنتم تعينون أنه سحر؟ قالوه بناءً على أن الرسول لا يكون إلا ملكاً، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق سحر، فهذا جهل لأن كل ما أتى به الرسول ﷺ من القرآن وغيره، ظاهر الحال لا تمويه فيه، وأنهم قد عرفوا حاله، وعلموا صدقه، إلا أنهم يموهون على ضعفائهم، بمثل هذا القول الكاذب.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ حكاية من جهته تعالى، لما قاله ﷺ بعدما أوحى الله إليه بأحوالهم وأقوالهم، بياناً لانكشاف سرهم، أي قال محمد ﷺ: إن ربي لا يخفى عليه شيء، يعلم قول كل قائل، سرّاً كان أو جهراً، وعلمه تعالى بالسرّ والجهر، على وتيرة واحدة، لا تفاوت بينهما بالجلال والخفاء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي سرّاً كان أو جهراً ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات، التي من جملتها ما أسروه من النجوى، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمٍ بَلْ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾.

﴿بَلْ قَالُوا﴾ إضراب من جهته تعالى، وانتقال من حكاية قولهم السابق، إلى حكاية قول آخر، أي لم يقتصروا على أن يقولوا: هل هذا إلا بشر؟ وأنه سحر؟ ﴿أَضْغَثُ أَحْلَامٍ﴾ أي تخاليط الأحلام، ثم أضربوا عنه فقالوا ﴿بَلْ أَفْتَرْتَهُ﴾ أي اخترعه واختلقه من تلقاء نفسه، من غير أن يكون له أصل، ثم قالوا ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما أتى به شعر، يخيل إلى السامع معاني لا حقيقة لها، وهكذا شأن المبطل المحجوج، متحير لا يزال يتردد من باطل إلى باطل ﴿فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ جواب شرط محذوف، يفصح عنه السياق، كأنه قيل: إن لم يكن كما قلنا، بل كان رسولا من الله تعالى، فليأتنا بآية ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ﴾ أي مثل الآية التي أرسل بها الأولون كاليد، والعصا ونحوهما، حتى نؤمن به، فرد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿مَاءَ أَمْنَتَ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿مَاءَ أَمْنَتَ قَبْلَهُمْ﴾ قبل مشركي مكة ﴿مِّنْ قَرِيَةٍ﴾ من أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم، بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ؟﴾ أي أنهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوه، مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ جواب لقولهم هل هذا إلا بشر، متضمن لرد ما دسوا تحت قولهم: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ﴾ من التعريض بعدم كونه ﷺ مثل أولئك الرسل ﴿نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ بواسطة الملك ما نوحى من الشرائع والأحكام، كما نوحى إليك من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي حسبما يحكيه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحِ

وَالنَّبِيِّينَ ﴿١﴾ الْآيَةُ ﴿فَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾ أي إن كنتم لا تعلمون، فاسألوا الواقفين على أحوال الرسل السالفة، لتزول شبهتكم، وأمّا تعلق بعض الفقهاء بهذه الآية، في أن العامي عليه أن يرجع إلى فتوى العلماء، فبعيدٌ، لأن هذه الآية، خطابٌ مشافهةً، وهي واردةٌ في هذه الواقعة المخصوصة، ومتعلقة باليهود والنصارى^(١).

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ﴿٣﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً﴾ بيانٌ لكون الرسل عليهم السلام، أسوة لسائر أفراد الجنس، في أحكام الطبيعة البشرية، إثر بيان كونهم أسوة في نفس البشرية، أي وما جعلنا الأنبياء كالملائكة، أجساداً لا يأكلون ولا يشربون، بل هم كسائر البشر يمتازون عليهم بالوحي ﴿لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أي وما جعلناهم جسدًا مستغنياً عن الأكل والشرب، بل محتاجاً إلى ذلك ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ المراد بالخلود: المكث المديد كما هو شأن الملائكة، أو الأبدية؛ وهم معتقدون أنهم لا يموتون فالجملة مقررّة لما قبلها من كون الرسول بشراً لا ملكاً، مع ما في ذلك من الرد على قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾؟^(٢)

﴿ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٤﴾

﴿ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ﴾ أي أوحينا، إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم في الوعد الذي وعدناهم، بإهلاك أعدائهم ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ من المؤمنين

(١) أقول: هذه الآية وإن كانت في أهل الكتاب من علماء اليهود والنصارى، إلا أنه يستأنس بها في أن الرجل العامي ينبغي أن يرجع إلى أهل الفقه والعلم فيما أشكل عليه من أمر الدين.

وغيرهم، ممن تستدعي الحكمة إبقاءه، كمن سيؤمن هو، أو من سيؤمن من ذريته، وهو السر في حماية العرب ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أي المجاوزين الحد في الكفر والعصيان، كقوم نوح، وعاد، وثمود.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠﴾

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقيقة القرآن الكريم أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر قريش ﴿كِتَابًا﴾ عظيم الشأن، نير البرهان ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صفة لكتاباً، أي فيه شرفكم وصيتكم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وقيل: فيه موعظتكم، وهو الأنسب بسياق النظم وسياقه، فإن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إنكار توبيخي، فيه بعث لهم على التدبر، والتذكر في أمر الكتاب المبين.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١١﴾

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ نوع تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ وبيان لكيفية إهلاكهم، أي وكثيراً من أهل القرى أهلكناهم إهلاكاً مريعاً، وفي لفظ الفصم الذي هو عبارة عن الكسر، بإبانة أجزاء المكسور، من الدلالة على شدة الغضب ما لا يخفى، بخلاف الفصم وهو كسر بلا إبانة ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي كثيراً قصمنا من أهل قرية، كانوا ظالمين بآيات الله، كافرين بها كدأبكم ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي بعد إهلاكها ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي وخلقنا أمة أخرى بعدهم، ففيه تنبيه على استئصال الأولين بالكلية.

﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ﴿١٢﴾

﴿ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا ﴾ أي أدركوا عذابنا الشديد، إدراكاً تاماً ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي يهربون مسرعين، راکضين دوابهم من فرط الإسراع، والركض: ضرب الدابة بالرجل لتسرع.

﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ ﴾ ﴿١٢﴾

﴿ لَا تَرْكُضُوا ﴾ أي قيل لهم بلسان الملائكة استهزاء: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ﴿ وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ من التمتع والتلذذ، والمترف: الذي أبطرته النعمة ﴿ وَمَسْكِنِكُمْ ﴾ التي كنتم تفتخرون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ ﴾ أي لعلكم تسألون عما جرى عليكم، إذا رُئيتم مساكنكم خالية، فتسألون أين أصحابها؟ وهذا كله من باب السخرية والتهكم بهم، جزاء استهزائهم بآيات الله.

﴿ قَالُوا يَتَوَلَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿١٣﴾

﴿ قَالُوا ﴾ لما يشوا من الخلاص بالهرب، وأيقنوا بنزول العذاب قالوا: ﴿ يَتَوَلَّنَا ﴾ أي يا هلاكنا ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي مستوجبين للعذاب، وهذا اعتراف منهم بالظلم، وباستتباعه للعذاب، ومذمة عليه حين لم ينفعهم الندم.

﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴾ ﴿١٤﴾

﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ ﴾ أي فما زالوا يرددون ذلك، وسميت دعوى لأنهم يدعون على أنفسهم بالويل ﴿ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا ﴾ أي مثل الحصيد، وهو المحصود من الزرع ولذلك لم يجمع ﴿ خَمِيدِينَ ﴾ أي ميتين من خمدت النار، إذا طُفئت، وخمد الرجل: أي مات.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ ﴾ ﴿١٥﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ﴾ إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم، وإبداع بني آدم، مؤسس على الحكم البالغة، المستتعبة للغاية الجليلة، أي وما خلقنا الوجود وما فيه، من سماوات وأرضين ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات التي لا تُحصى أجناسهم، على هذا النمط البديع، خالية عن الحكم والمصالح ﴿لَعَيْنٍ﴾ أي عبثاً وباطلاً، وإنما عبّر عن ذلك باللعب، لكمال نزاهته تعالى عن الخلق، الخالي عن الحكمة، بل إنما خلقناها مشحونة بضروب البدائع، تبصرة للنظار، وتذكرة لذوي الاعتبار، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾^(١).

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَهُمْ آلًا تَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^(١٧).

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَهُمْ﴾ يتلهم به ويلعب. ﴿لَا تَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي من جهة قدرتنا، مما يليق بشأننا من الحور العين أو الملائكة، لا من الأجسام المرفوعة، والأجرام الموضوعة، كديدن الجبابرة، في رفع العروش، وتحسينها، وتسوية الفروش وتزيينها، لكن تستحيل إرادتنا له، لمنافاته الحكمة، فيستحيل اتخاذنا له قطعاً ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ جوابه محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه، أي إن كنا فاعلين لأتخذناه.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾^(١٨).

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو، كأنه قيل: لا نريده بل شأننا أن نغلب الحق الساطع، على الباطل المتزعزع ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي فيمحقه بالكلية، كما فعلنا بأهل القرى الظالمة، وقد استعير لإيراد

(١) سورة ص، آية: ٢٧.

الحق على الباطل، القذف الذي هو الرمي الشديد، بالجرم الصلب، ولمحقه للباطل بالدفع الذي هو كسر الدماغ، دَمَعَهُ إذا كسر عظم دماغه، وهو المؤذي إلى زهوق الروح^(١) ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي ذاهب بالكلية ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ وعيد لكفرة قريش، أي واستقر لكم الويل والهلاك، من أجل وصفكم له سبحانه، بما لا يليق بشأنه الجليل.

﴿وَلَكُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن عِندُمُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿١١﴾.

﴿وَلَكُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له تعالى خاصة جميع المخلوقات، خلقاً وملكاً، وتديراً وتصرفاً، وإحياء وإماتة، من غير أن يكون لأحد في ذلك دخل ﴿وَمَن عِندُمُ﴾ منزلة ومكانة وهم الملائكة بإجماع الأمة، عبّر عنهم بذلك تنزيلاً لهم لكرامتهم منزلة المقربين عند الملوك، بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي لا يتعظمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يعيون فيها، وصيغة الاستقبال للتنبيه على أن عباداتهم بثقلها ودوامها، حقيقة بأن تستحسر منها، ومع ذلك لا يستحسرون.

﴿يَسْتَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾.

﴿يَسْتَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي ينزهونه في جميع الأوقات، فهم في عبادة دائمة في الليل والنهار ﴿لَا يَفْقُرُونَ﴾ أي لا يتخلل تسبيحهم فتور أصلاً، بفراغ أو بشغل آخر، وتسبيحهم جارٍ مجرى التنفس منا.

(١) شبه الحق بشيء صلب، والباطل بشيء هش رخو، واستعار لفظ القذف لغلبة الحق على الباطل، فكأنه رمى بشيء صلب على رأس دماغ الباطل، فشقه وحطمه، ولم يُبق له أثراً؛ ففي الآية استعارة تمثيلية من روائع أساليب البيان.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا ﴾ توبيخ آخر للمشركين، وتسفيه لأحلامهم في عبادة غير الله، من حجارة صماء بكماء، لا تستطيع خلق شيء، والمعنى: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة؟ ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي من مواد الأرض، كالذهب، والفضة، والحجر، والخشب، وتعبد في الأرض؟ ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ أي هم يبعثون الموتى مع حقارتهم وجماديتهم؟ كلاً فإن ما اتخذوها آلهة، بمعزل من ذلك، لا تتصف بالقدرة على شيء، فهي ليست بآلهة على الحقيقة، لأن من صفات الإله الحق القدرة على الإحياء والإماتة، والمراد به تجهيلهم والتهكم بهم.

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ ﴾ إبطال لتعدد الإله، بإقامة البرهان على انتفائه، بل على استحالة، أي لو كان في السماوات والأرض، آلهة غير الله، كما هو اعتقادهم الباطل ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أي لبطلتا بما فيهما جميعاً لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع، وحيث انتفى التالي عُلِمَ انتفاء المقدم قطعاً، بيان الملازمة أن الإلهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد، بالتصرف فيهما على الإطلاق، تغييراً وتبديلاً، وإيجاداً وإعداماً، فبقاؤهما على ما هما عليه، إمّا بتأثير كل منهما وهو محال، وإمّا بتأثير واحد منهما، فالباقي بمعزل من الإلهية قطعاً^(١) ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي نزهوه سبحانه

(١) توضيح ذلك أننا لو فرضنا وجود إلهين في الكون، فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخر نقيضه، فإمّا أن تنفذ إرادة كل منهما، وذلك محال لاستحالة اجتماع النقيضين، وإمّا أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر، فيكون الأول الذي تنفذ إرادته، هو الإله الحقيقي القادر، والثاني هو العاجز الذي لا يقدر على شيء، فلا يصلح أن يكون إلهاً، ولو كان =

عما لا يليق به من الأمور ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ صفة للاسم الجليل، مؤكدة لتنزّهه عز وجل أي خالق العرش العظيم ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي فسبحوه عما يصف به أهل الجهل والإلحاد، من وجود آلهة معه، أو نسبة الزوجة له والولد.

﴿لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ بيان أنه تعالى لعظمته، ليس لأحد من مخلوقاته، أن يناقشه ويسأله عما يفعل، ولو اعترض على السلطان بعض عبيده مع وجود التجانس، وجواز الخطأ عليه لاستتبح ذلك منه، وعدّ سفهاً، فمن هو مالك الملك الحقيقي، وفعله صواب كله، أولى بأن لا يُعترض عليه، فلا يملك أحد أن يقول ياربّ لم فعلت ذلك؟ ﴿وَهُمْ الْعِبَادُ﴾ ﴿يُسْتَلُونَ﴾ عما يفعلون نقيراً أو قطميراً، لأنهم عبيد له تعالى.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ إضراب وانتقال من إظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة، وتبكيّتهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة، وتحقيق أن جميع الكتب السماوية، ناطقة بحقية التوحيد، وبطلان الاشتراك ﴿قُلْ﴾ لهم بطريق التبكيّ ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ما تدعونه من جهة العقل والنقل، فإنه لا صحة لقول لا دليل عليه، لا سيما في مثل هذا الشأن الخطير، وفي ذكر البرهان ضرب من التهكم بهم ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ أي هذا الوحي، المتضمن للبرهان القاطع العقلي، ذكر أمّتي، أي

= في الوجود غير الله سبحانه، لفسد نظام الكون، لما يقع بين الآلهة من التنازع والتصادم، كما لا يصح أن يكون في بلد واحد ملكان، ولا في إدارة واحدة رئيسان، إنما يمكن أن يكون رئيس ونائبه، ورئيس جمهورية ونائبه.

عظمتهم، وذكر الأمم السالفة قد أقمتها، فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم، وانظروا هل في واحد من الكتب السماوية غير الأمر بالتوحيد، والنهي عن الإشراك؟ ففيه تبكيت لهم، متضمن لإثبات نقيض مدعاهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ انتقال من الأمر بتبكيتهم، إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاجة، بإظهار حقية الحق، فإن أكثرهم لا يفهمون الحق ﴿فَهُمْ﴾ لأجل ذلك ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي مستمررون عن الإعراض عن التوحيد، واتباع الرسول ﷺ، لا يرفعون عما هم عليه من الغي والضلال.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ استئناف مقرر من كون التوحيد، ممّا نطقت به الكتب الإلهية، وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام، أي وما أرسلنا قبلك يا محمد رسولا من الرسل، إلّا أوحينا إليه، أنه لا إله ولا معبود بحق، إلّا الله رب العالمين، فخصّوه بالعبادة، ولا تشركوا معه أحداً.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٦١)

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ حكاية لجناية فريق من المشركين وهم حي من خزاعة، يقولون: الملائكة بنات الله، وأضافوا إلى ذلك هذه الفرية، أنه تعالى صاهر الجن، على ما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ (١) ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تنزه بالذات تنزهه اللائق به ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ إضراب وإبطال لما قالوه، كأنه قيل: ليست الملائكة كما قالوا،

(١) سورة الصافات، آية: ١٥٨.

بل هم عبادُ له تعالى ﴿مُكْرَمُونَ﴾ مقرَّبون عنده، وليسوا بأولاد، إذ العبودية تنافي الولادة.

﴿لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِه يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي لا يسبق قولهم قوله تعالى، شأنهم شأن العبيد المؤدبين، الذين لا يفعلون شيئاً بدون إذن ﴿وَهُمْ بِأَمْرِه يَعْمَلُونَ﴾ بيانٌ لتبعيتهم له تعالى في الأعمال، كأنه قيل: هم بأمره يقولون، وبأمره يعملون، لا بغير أمره.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي علمه تعالى محيط بهم، لا تخفى عليه من أمورهم خافية، ولعلمهم بإحاطته تعالى، بما قدَّموا وأخروا، من الأقوال والأعمال، لا يزالون يراقبون أحوالهم، فلا يُقدِّمون على قول، أو عمل، بغير أمره تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ مهابةٌ منه تعالى ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ أي لمن رضي الله تعالى عنه، من أهل التوحيد ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ عزٌّ وجلٌّ ﴿مُشْفِقُونَ﴾ مرتعدون خائفون حذرون والإشفاق: الخوف مع الاعتناء، أشقت من كذا: حذرت وخفت منه، وأشفقتُ على الصغير: حنوتُ وعطفت عليه.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّاكَ إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي من الملائكة ﴿إِيَّاكَ إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ﴾ متجاوزاً إياه ﴿فَذَلِكَ﴾ الذي فرض قوله، وهو فرضٌ محال ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ كسائر

المجرمين، ولا يغني عنهم ما ذكر من صفاتهم السيئة، وأفعالهم المرضية، وفيه الدلالة على عزة جبروته تعالى، واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم في حقهم ما توهمه أولئك الكفرة ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء، نجزي من ظلم بالإشراك بالله، وتعدى الحدود.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٥).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استفهام توبيخ لهم، بتقصيرهم في التدبر في الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالألوهية، والهمزة للإنكار، والرؤية قلبية، أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا﴾ الرتق الضم والالتحام، أي كانتا ذواتا رتق، وكانتا شيئاً واحداً، والرتق: ضدُّ الفتق قال ابن عباس: كانت السماء رتقاً لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات^(١) ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أي فصلنا بينهما بالتنوع والتمييز، وتلاصق الأرض بالسماء، وتباينهما جائزان في العقل، فالفتق عارضٌ مفتقر إلى مؤثر قديم، ولا شك أنه هو الله العلي الكبير، وفي هذه الآية الكريمة دعوة إلى البحث العلمي في مجال الكون الفسيح، ليستدل الإنسان على قدرة الله الباهرة في مخلوقاته. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي جعلنا الماء أصل كل الأحياء، وسبباً للحياة:

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣٤٨/٥ أقول: هذا القول لابن عباس جميل، ولا ينافي ما يقوله علماء الطبيعة أن الأرض والمجموعة الشمسية، كانت قطعة واحدة، فانفصلت الأرض عن المجموعة الشمسية، وتبردت قشرتها فظهرت فيها البحار والأنهار، ويستدلون على صحة ذلك، بما في باطن الأرض من مواد ملتهبة، تقذف بين حين وآخر بالحمم والغازات والبراكين الثائرة، بل في هذا القول سبق علمي للقرآن الكريم كالذي أخبر قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، عن التصاق الأرض بالسموات وبالمجموعة الشمسية.

للإنسان، والنبات والحيوان، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾^(١) أي من نقطة ويدخل في ذكر الماء النباتات والأشجار، لأن الماء من أعظم موادها ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكار بعدم إيمانهم لله وحده، مع ظهور ما يوجهه من الآيات الأفقية والأنفسية، الدالة على تفرده عز وجل بالألوهية.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(٢١)

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي جبلاً ثوابت ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي كراهة أن تميل بهم وتضطرب بالبشر ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض أو في الجبال ﴿فِجَاجًا﴾ أي مسالك واسعة، جمع فج وهو الطريق الواسع ﴿سُبُلًا﴾ وإنما قدم «فِجَاجًا» مع أنه وصف، ليفيد أنه تعالى خلقها، ووسّعها للسبلة، مع ما فيه من التأكيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مصالحهم ومهماتهم.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾^(٢٢)

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ أي محفوظاً من الوقوع بقدرته، أو من استراق السمع بالشهب كما قال الله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾^(٢) ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ الدالة على وحدانيته تعالى، وعلمه، وحكمته، وقدرته، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتدبرون فيها، فييقنون على ما هم عليه من الكفر والضلال.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٢٣)

(١) سورة النور، آية: ٤٥.

(٢) سورة الحجر، آية: ١٧.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بيان لبعض الآيات الكونية، أي خلق الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتصرفوا فيه، والشمس لتكون سراج النهار، والقمر ليكون سراج الليل ﴿كُلُّ﴾ أي كل من الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والليل والنهار ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي يَجْرُونَ ويسبِّحون بسرعة، كالسباح في الماء، والفلك: مدار النجوم، وهو في كلام العرب كل شيء مستدير، وجمعه أفلاك، واختلف العلماء فيه، فقال بعضهم: الفلك ليس بجسم، وإنما هو مدار هذه النجوم، وهو قول الضحاك، وقال الأكثرون: هي أجسام تدور النجوم عليها، وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن، والحق أنه لا سبيل إلى معرفة صفات السماوات إلا بالخبر القاطع.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ ﴿٢٤﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ أي الدوام في الدنيا، لكونه مخالفاً للحكمة التشريعية ﴿أَفَإِنْ مِتَّ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ نزلت حين قالوا: ﴿تَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ كأنه قيل: أفان مِتَّ أفهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك؟.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي ذائقة مرارة الموت ﴿وَتَبْلُوكُم﴾ الخطاب للناس كافة، أي نُعاملكم معاملة من يبلوكم ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ بالبلايا والنعم ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي ابتلاء مصدر مؤكَّد لنبلوكم من غير لفظه ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيرنا، فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال، فهو وعدٌ ووعدٌ.

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا بِتَّخَذُوا مِنْكُمْ الْخُلْدَ﴾ ﴿٢٦﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا بِتَّخَذُونَكُمْ إِلَّا هُزُوءًا﴾ أي وإذا رآك الكفرة المجرمون ما يتخذونك يا محمد إلا مهزوءاً به، كأنه قيل ما يفعلون بك إلا الهزء ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ على إرادة القول، أي يقولون: أهذا الذي يذكر آلِهَتكم بسوء؟ وإنما أطلقه لدلالة الحال، فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ والمعنى: إنهم يعيبون الرسول أن يذكر آلِهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء، والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم كافرون، فهم أحقُّ بالعيب والإنكار، وأن يُهزأ بهم، وتكرار الضمير (هم) للتأكيد.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ جعل لفرط استعجاله، وقلة صبره، كأنه مخلوق من العجل، على سبيل المبالغة، تنزيلاً لما طُبِع عليه من الأخلاق الرديئة، وقلة الصبر بالمخلوق من العجلة، ومن عجلته استعجاله بالوعيد، كقول: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾^(١) الآية ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ تلوين للخطاب بطريق التهديد والوعيد، أي سأريكم نعماتي في الدنيا وعذابي في الآخرة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي فلا تتعجلوا الشيء قبل أوانه، فإن كل ما هو آت قريب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي متى وقت مجيء الساعة، التي كانوا يوعدون؟ وإنما كانوا يقولونه بطريق الاستهزاء، لا طلباً لتعيين وقته بطريق الإلزام ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في وعدكم، والخطاب للرسول ﷺ والمؤمنين، الذين كانوا يتلون الآيات الكريمة، المنبئة عن مجيء الساعة،

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

وجواب الشرط محذوف بدلالة ما قبله، كأنه قيل: فلتأتنا بسرعة إن كنتم صادقين.

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ﴿٢٩﴾.

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه، وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه، وهو الذي هوته عندهم ﴿حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي لو عرفوا فظاعة العذاب الذي يستعجلونه، حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم ولا عن ظهورهم لما استعجلوا الوعيد^(١)، وذلك حين تحيط بهم النار من كل جانب ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي وليس لهم ناصر ينقذهم من عذاب الله.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٤١﴾.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ أي بل تأتيهم القيامة والساعة ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي فتغلبهم وتدهشهم أو تحيرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ عنهم بالكلية ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي يمهلون ليستريحوا طرفة عين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٤١﴾.

(١) جواب «لو» محذوف لأنه أبلغ في التهديد والوعيد، أي لو يعلم هؤلاء الكفار ما سيلقونه من أنواع الكرب والعذاب، لما استعجلوا نزوله، ولكنهم سفهاء جهلة.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلياً للرسول ﷺ عن استهزائهم في ضمن الاستعجال، وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها، أي وبالله لقد استهزى برسول كرام، ذوي عدد كثير من قبلك ﴿فَحَاقَ﴾ أي أحاط ونزل وحلّ، فإن معناه يدور على الشمول واللزوم، ولا يكاد يستعمل إلا في الشر ﴿يَالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ أي من أولئك الرسل عليهم السلام ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي فنزل بهم جزاء استهزائهم، وجنوا ثمرة استهزائهم، هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة، فكذاك حال هؤلاء المستهزين.

﴿قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ يَاللِّيلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ يَاللِّيلِ وَالنَّهَارِ﴾ خطاب للرسول ﷺ، إثر تسليته بما ذكر، وأمر له بأن يقول لأولئك المستهزين أي من يحفظكم بالليل والنهار ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي من بأسه إن أراد بهكم، وهذا كقول الرجل لمن حصل في قبضته: إلى أين مفرك؟ هل لك محيص؟ يقال: كَلَاهُ اللهُ كَلَاءَةً: حفظه ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي لا يخطرونه ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِن دُونِنَا﴾ الهمزة للإنكار والمعنى: ألهم آلهة تمنعهم من العذاب، هم معولون عليها، واثقون بحفظها؟ وفي توجيه الإنكار والنفي إلى الآلهة، لا إلى نفس الصفة، بأن يقال: أم تمنعهم آلهتهم؟ من الدلالة على سقوطها، عن مرتبة الوجود، فضلاً عن رتبة المنع ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي هم لا يستطيعون

أن ينصروا أنفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا، فكيف يتصور أن ينصروا غيرهم؟ وحماية النفس أولى من حماية الغير.

﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١١)

﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ إضراب عما توهموا، ببيان أنه تعالى متعمم بالحياة الدنيا، وأمهاتهم حتى طالت أعمارهم، فحسبوا أن لا يزالوا كذلك، وما حملهم على الإعراض، إلا الاغترار بطول المهلة، فنسوا عهدنا وجهلوا نعمتنا واغتروا، ولذلك عقبه بما يدل على أنه طمع فارغ، حيث قال ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أي ألا ينظرون ولا يرون ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي أرض الكفرة ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بموت أهلها وغلبة المسلمين عليهم، فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا؟ وهو تمثيل لما يُجرّبه الله عز وجل من ديارهم، على أيدي المسلمين، ويضيفها إلى ديار الإسلام، فما هو حول مكة ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾؟ عليه ﷺ والمؤمنين؟ كأنه قيل أبعد ظهور ما ذكر، ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم؟ إن كل ذلك من العبر، التي لو استعملوا عقولهم، لأعرضوا عن جهلهم، وتزينوا بزيينة الإسلام والمسلمين.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ (١٢)

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ﴾ أي إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿بِالْوَحْيِ﴾ الصادق، الناطق بإتيانها، أي إنما شأني أن أنذركم، بالإخبار بذلك، لا بالإتيان بها، فإنها مزاحم للحكمة التكوينية والشرعية ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أمر ﷺ بأن يقول لهم ذلك، توبيخاً وتسجيلاً عليهم بكمال الجهل والعناد، أي ولكنكم أيها المشركون - لشدة

جهلكم وعنادكم - كالصُّم الذين يسمعون الكلام والإنذار^(١)، فلا يتعظون ولا يتزجرون.

﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنُوبُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي ولئن أصابهم شيء يسير خفيف، مما أُنذروا به من عذاب الله، ولو كان أدنى شيء من العذاب، كالهبة، والنسمة، واللفحة ﴿لَيَقُولُنَّ يَنُوبُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي ليقولنَّ معترفين بجريمتهم: يا هلاكنا ودمارنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله، وفي الآية إشارة إلى أن أهل الغفلة والشقاوة، لا ينتبهون حتى يمسهـم أثر من آثار عذاب الله، فينادون عند ذلك بالويل والثبور.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ أي نقيم الموازين العادلة، التي توزن بها صحائف الأعمال ﴿لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ التي كانوا يستعجلونها ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿شَيْئًا﴾ حقاً من حقوقها بل يوفى كل ذي حق حقه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي مقدار حبة، فإن حبة الخردل مثلٌ في الصغر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي أحضرنا ذلك المِثقال للوزن ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا، والغرض منه

(١) شبههم تعالى بالصم - أي الطرش - وهم صحاح الحواس، لأنهم إذا سمعوا ما يندرون به من آيات الله الجليلة، لا تعيه آذانهم، فكانت حالهم كحال الذين عدموا السماع، فلا يستمعون ولا يعون.

التحذير، فإن المحاسب إذا كان في العلم، بحيث لا يمكن أن يشبهه عليه شيء، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء، فحقيق بالعاقل أن يكون بأشد الخوف منه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ المراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر، أي وبالله لقد آتيناهما كتاباً، جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل، وضياءً يستضاء به في ظلمات الجهل، وذكراً يتعظ به الناس، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي عذابه، صفة مادحة للمتقين ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي يخشون عذابه تعالى، وهو غائب عنهم، وقيل: يخافونه في الخلوات، وهذا هو الأقرب ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي خائفون منها وتخصيص إشفاقهم من الساعة للإيذان بهولها وشدتها.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُوهٗ﴾.

﴿وَهَذَا﴾ القرآن الكريم ﴿ذِكْرٌ﴾ يتذكر به من يتذكر ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخيرات، غزير النفع ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ على الرسول ﷺ ﴿أَفَأَنْتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَمْ تُنْكِرُوهٗ﴾ إنكاراً لإنكارهم، كأنه قيل: أبعد ما علمتم أن شأنه كشأن التوراة، منزل من عند الله، أنتم منكرون؟ فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه، كيف يمكنكم إنكاره؟

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكرام، المستند إلى الهداية الخاصة، الحاصلة بالوحي، والاعتدال على إصلاح الأمة ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل إيتاء موسى وهارون التوراة ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أي بأنه أهل لما آتيناه من الوحي والفضل.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ أي اذكر وقت قوله لهم ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾؟ لتقف على كمال رشده، والتماثل: الصورة المصورة، وهذا تجاهل منه عليه السلام، كأنه لا يعرف أنها حجر أو شجر، اتخذوها معبوداً؟ وعبر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف قصداً إلى تحقيرها، وتوبيخاً لهم على إجلالها ومعنى ﴿ عَاكِفُونَ ﴾ أي مقيمون على عبادتها.

﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ .

﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ أجابوا بذلك، لما لم يكن لهم حجة، فالتجأوا إلى التقليد لآبائهم الضالين، ولهذا أبطله بطريق القسم المؤكد حيث قال:

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ عجيب ﴿ مُبِينٍ ﴾ ظاهر بَيِّن، بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك، فالباطل لا يصير حقاً بكثرة المتمسكين به.

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴾ ٥٥ .

﴿ قَالُوا ﴾ لما سمعوا مقالته، استبعاداً لكون ما هم عليه ضلالاً، وتعجباً من تضليله إياهم ﴿ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي بالجدِّ والصدق ﴿ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴾؟ أو تقوله على وجه المزاح؟ ظنوا أن ما قاله لهم على وجه المداعبة.

﴿ قَالَ بَلْ زَكَّرُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ٥٦ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مبيناً عقيدة التوحيد ﴿ بَلْ زَكَّرُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ ﴾ وصفه تعالى بإيجادهن تحقيقاً للحق، وتنبهاً على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية، أي أنشأهن بما فيهن، من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآباؤكم، وما تعبدونه ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ ﴾ الذي ذكرته، من كون ربكم رب السماوات والأرض فقط، دون ما عداه كائناً ما كان ﴿ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي العالمين به على سبيل الحقيقة.

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴾ ٥٧ .

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ ﴾ أي لأجتهدن في كسرها، وإنما قاله سرّاً، وقيل سمعه رجل ﴿ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴾ من عبادتها إلى عيدكم.

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ٥٨ .

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَذًا ﴾ أي قطعاً وخطاماً، من الجذِّ الذي هو القطع، روي أن قومه خرجوا به في يوم عيد لهم، فبدؤوا ببيت الأصنام، وكانت سبعين صنماً مصطفاً، وثمة صنم عظيم من ذهب، وفي عينيه جوهرتان، تضيئان

بالليل، فدخلوه فسجدوا لها، ووضعوا بينها طعاماً، وقالوا إلى أن نرجع تكون الإلهة قد باركت على طعامنا، فذهبوا وبقي إبراهيم عليه السلام، فكسر الكل بفأس، ولم يبق إلا الكبير، وعلق الفأس في عنقه، وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَيْدَهُمْ﴾ أي للأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَٰهٌ﴾ أي إلى الصنم الكبير ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أي يرجعون إليه فيسألونه عن الكاسر، لأن من شأن المعبود، أن يرجع إليه في الملمات.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٩﴾.

﴿قَالُوا﴾ حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ على طريقة الإنكار والتشنيع ﴿إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؟ لجرأته على إهانتها وتحطيمها.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿٦٠﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي بعض منهم مجيبين للسائلين ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي يعيهم، فلعله فعل ذلك بها ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي يطلق عليه هذا الاسم، وكانوا قد سمعوا ما يقول في آلهتهم، ولو لم يكن إلا قوله عليه السلام ﴿ما هذه التماثيل﴾ لكفى ذلك إهانة لها!!

﴿قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ﴿٦١﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي السائلون ﴿فَاتُّوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي بمرأى منهم، بحيث لا يخفى على أحد ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي يحضرون عقوبتنا له.

﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿٦٢﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي أتوا به، ثم قالوا: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا ابْنِ هَيم؟﴾ مخاطبتهم إياه، للتنبيه على أن إتيانهم به عليه السلام أمر محقق، فهو المتهم الأوحده، الذي لا يجرؤ أحد غيره على تكسير الأصنام.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشْتُلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (١٢).

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿بَلْ فَعَلَهُمُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أي حطّمها وهشمها هذا الصنم الكبير، مشيراً إلى الذي لم يكسره، سلك عليه السلام معهم مسلكاً تعريضياً، يؤديه إلى مقصده، الذي هو إلزامهم الحجة، على اللطف وجهه، بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم، العاجزة عن دفع الضر عن أنفسها، مع ما فيه من التوقي من الكذب، والغرض تبكيثهم وإقامة الحجة عليهم، ولهذا قال ﴿فَشْتُلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا، وإنما لم يقل: إن كانوا يسمعون، أو يعقلون، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب، وأن عدم نطقهم أظهر، وتبكيثهم بذلك أدخل، وقد حصل ذلك حسبما نطق به قوله تعالى:

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٤).

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي راجعوا عقولهم، وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه، ولا على الإضرار بمن كسره، فكيف يستحق أن يكون معبوداً؟ ﴿فَقَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض فيما بينهم ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي بعبادة الأصنام، فإن من لا يدفع عن رأسه الفأس، كيف يدفع عن عابديه البأس؟

﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ (١٥).

﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أي انقلبوا إلى المجادلة بالباطل، بعدما استقاموا بالمراجعة، وقد أجرى الله الحق على لسانهم في القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة فأخذوا في المكابرة، أي انقلبوا في الحجة، واحتجوا على إبراهيم، بما هو الحجة له عليهم^(١)، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ أي والله لقد علمت أن ليس من شأنهم النطق، فكيف نسألهم؟

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ﴿١٦﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ميكتاً لهم ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي متجاوزين عبادته تعالى ﴿مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا﴾ من النفع ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إن تركتم عبادته، وتتركون عبادة الواحد الأحد؟!

﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

﴿أَفِ لَكُمْ﴾ أي تباً لكم ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تصجّر من إصرارهم على الباطل، وأنكر عبادتهم لها، بعد اعترافهم بأنها جمادات ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي أليس لكم عقل تعقلون قبح صنيعكم؟ فلما لزمهم الحجة، وعجزوا عن الجواب.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾.

(١) شبه تعالى رجوعهم عن الحق إلى الباطل، بانقلاب شخص في صورته وشكله، بحيث تصبح رجلاه إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل، فكيف يمشي على رجله، وكيف يفكر بعقله؟ وإنه لتمثيل رائع بادي الحسن والجمال.

﴿قَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿حَرِّقُوهُ﴾ فإنه أشد العقوبات ﴿وَأَنْصُرُوا إِلَهَكُمْ﴾ بالانتقام لها ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي للنصر، ولما عجزوا عن المحاجة قالوا ذلك، وهكذا ديدن المبطل المحجوج، روي أنهم لما أجمعوا على إحراقه، حبسوه في بيت، وبنوا له حظيرةً بكوثى، قرية من قرى الأنباط، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾^(١) ثم جمعوا له الحطب، فأوقدوا ناراً عظيمة، حتى إن كانت الطير لتمر بها، وهي في أقصى الجو، فتحترق من شدة وهجها، ولم يكد أحد يحوم حولها، فلما أرادوا أن يلقوه، لم يعلموا كيف يلقونه، صنع لهم رجل المنجنيق، ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام، فقيدوه ووضعوه في المنجنيق، مقيداً ومغلولاً، فرموا به فيها، فجعل الله عز وجل النار روضة عليه، وبستاناً يتنعم فيه فذلك قوله تعالى:

﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي أبردي برداً غير ضار، ولم تحرق النار إلا وثاقه^(٢)، وقيل: كانت النار على حالها، لكنه تعالى دفع عنه أذاها، كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على إبراهيم.

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾.

(١) سورة الصافات، آية: ٩٧.

(٢) فإن قيل: كيف خاطب الله النار مع أنها لا تعقل؟ الجواب: أن خطاب التكوين لا يختص بمن يعقل، مثل قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ وقوله: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ اقْلَعِي﴾ فهذا خطاب التكوين لا يختص بالعقلاء ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أما خطاب التكليف فهذا الذي يشترط فيه العقل ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وهذا خلاصة القول بين الخطاب التكويني والخطاب التكليفي.

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ أي مكرراً عظيماً في الإضرار به ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي أخسر من كل خاسر، حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق، برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق، وهم على الباطل.

﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧١)

﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي من العراق إلى الشام، روي أنه آمن لإبراهيم عليه السلام رجالاً من قومه، حين رأوا ما صنع الله به، وآمنوا به سارة، وتبعه «لوط» وكان ابن أخيه، فخرج مهاجراً إلى ربه، ومعه لوط، وسارة، فنزل حران، ثم خرج منها فقدم مصر، ثم خرج فنزل أرض فلسطين.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٧٢)

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي عطية وهبة زيادة على ما سأل، وهو يعقوب عليه السلام ﴿وَكُلًّا﴾ أي كل واحد من هؤلاء الأربعة ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ بأن وفقناهم للصلاح في الدين والدنيا، فصاروا كاملين، عابدين، صالحين.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (٧٣)

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً﴾ لدعائه عليه السلام بقوله: ﴿وَمِنْ دُرِّيِّي﴾ ﴿يَهْدُونَ﴾ أي الأمة إلى الحق ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ ليحثوهم عليه، فيتم كمالهم، بانضمام العمل إلى العلم ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ وهو من عطف الخاص على العام، دلالة على

فضله أي أمرناهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ﴿وَكَاُنُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾
 موخدين، مخلصين في العبادة.

﴿وَلَوْ طَاءَ أَيْنَنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجِنَهُ مِنَ الْقَرَبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ
 الْخَبِيثُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَسِقِينَ﴾ (٧١).

﴿وَلَوْ طَاءَ أَيْنَنَهُ حُكْمًا﴾ حكمة ونبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء
 عليهم السلام من الوحي ﴿وَبَجِنَهُ مِنَ الْقَرَبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثُ﴾
 يعني اللواط، وصفت بصفة أهلها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَسِقِينَ﴾ تعليل
 له، أي أشراراً، خارجين عن الطاعة.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٠).

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي أدخلناه في أهل رحمتنا ﴿إِنَّهُمْ مِنَ
 الصَّالِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنی.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ
 الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧١).

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ أي دعا الله على قومه بالهلاك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من
 قبل هؤلاء المذكورين ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي دعاءه الذي من جملته قوله:
 ﴿إِنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ﴾ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو
 الطوفان، وأصل الكرب: الغم الشديد.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ
 فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٧٧).

﴿ وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي نصرناه ومنعناه من شر قومه المكذبين الضالين، فنجيناه وأهلكناهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ تعليل لما قبله ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لاجتماع الأمرين، تكذيب الحق، والانهماك في الشر، فإنهما لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى.

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ أي اذكر خبرهما وقت حكمهما ﴿ فِي الْحَرْثِ ﴾ في حق الحرث ﴿ إِذْ نَفَشَتْ ﴾ تفرقت وانتشرت، النفس: أن تنتشر الغنم بالليل، ترعى بلا راع ﴿ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ ليلاً بلا راع، فرعته وأفسدته ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ ﴾ أي لحكم الحاكمين ﴿ شَاهِدِينَ ﴾ أي حاضرين إذ كان بعلمنا، ولا يخفى علينا.

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ الضمير للحكومة أو الفتيا، رُوي أنه دخل على داود عليه السلام رجلان، فقال أحدهما: إن غنم هذا دخلت في حرثي ليلاً، فأفسدته فلم تبقى منه شيئاً، فقاضى له بالغنم، فخرجا فمرا على سليمان، وهو ابن عشر سنين، فأخبراه بذلك، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فسمعه داود فدعاه، وقال له: كيف تقضي؟ فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض، لينتفع بدرّها ونسلها، وتدفع الحرث إلى أرباب الغنم، ليقوم عليه حتى يعود إلى ما كان، ثم يترادّا، فقال: القضاء ما قضيت الحكم بذلك، وكان هذا في شريعتهم، وقال مجاهد: كان هذا صلحاً، وما فعله داود حكماً، والصلح خير.. وفي قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾

سُلَيْمَنٌ ﴿١﴾ دليل على رجحان قوله، ورجوع داود إليه، مع أن الحكم المبني على الاجتهاد، لا ينقض باجتهاد آخر، وإن كان أقوى منه وقال قوم: إن داود وسليمان عليهما السلام حكما بالوحي، فكان حكم سليمان ناسخاً لحكم داود، ومن غرائب أحكام داود وسليمان عليهما السلام، ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه. أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما، فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود، ففضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان فأخبرته، فقال: اتتوني بالسكين أشقّه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، ففضى به للصغرى» (١) ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي كل واحدٍ منهما آتينا حكماً وعِلْماً كثيراً، وهذا يدل على أن خطأ المجتهد، لا يقدح في كونه مجتهداً، روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر» (٢) ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾ شروع في بيان ما يخص بكل منهما من إكراماته تعالى، إثر بيان إكراماته العامة لهما ﴿يُسَبِّحَنَّ﴾ أي يقدّسن الله معه، بصوت يتمثل له ﴿وَالطَّيْرُ﴾ أي والطيور مسخرات له ﴿وَكُنَّا فَلَاحِلِينَ﴾ أي من شأننا أن نفعل أمثاله، فليس ذلك ببدع منا، وإن كان بديعاً عندكم.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي وعلمنا داود صنع الدروع بإلانة

(١) الحديث أخرجه البخاري ٥٥/١٢ ومسلم رقم ١٧٢٠ في الأفضية.
(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ٣١٨/١٣ ومسلم رقم ١٧١٦ في الأفضية.

الحديد له، وهو أول من صنعها، وأتخذها حلقاً، وكانت من قبل صفائح
﴿لِنُخَصِّنْكُمْ﴾ أي لتفكيكم ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي في الحرب حين قتال الأعداء
﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾؟ أمرٌ واردٌ على صورة الاستفهام للمبالغة، أي اشكروا
الله على ذلك.

﴿وَلَسَلَيَمَنَّ الرِّيحُ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾

﴿وَلَسَلَيَمَنَّ الرِّيحُ﴾ أي سخرنا له الريح تنقله من بلد إلى بلد، وتقطع
به المسافات البعيدة، في فترة قصيرة ﴿عَاصِفَةً﴾ أي شديدة الهبوب ﴿تَجْرِي
بِأَمْرِهِ﴾ أي إن أرادها عاصفة كانت عاصفة، وإن أرادها لينة كانت لينة
﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي الشام، وذلك لأنها تجري بسلام
وأصحابه، حيث يشاء ثم يعود إلى منزله بالشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾
فنجربه حسبما تقتضيه الحكمة.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُمْ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ
وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي وسخرنا له من الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُمْ﴾
في البحار بأمره لاستخراج الدر، وما يكون فيها من نفائسها ﴿وَيَعْمَلُونَ
عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي غير ما ذكر كبناء المدن، والقصور، واختراع الصنائع
النفيسة لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ ﴿وَكُنَّا
لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم.

واعلم أن أجسام هذا العالم، إما كثيفة، أو لطيفة، فأكثف الأجسام:
الحجارة، والحديد، وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام،
فأنطق الحجر، ولين له الحديد، وألطف الأشياء الهواء، والنار، وقد

جعلهما الله معجزةً لسليمان عليه السلام، فسخر له الريح، وسخر له الجنّ، لأن الشياطين مخلوقون من النار.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَتَىٰ مَسْنَىٰ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أي واذكر خبر أيوب عليه السلام حين دعا ربه ﴿أَتَىٰ﴾ أي باني ﴿مَسْنَىٰ الضُّرِّ﴾ بالضم خاص، بما في النفس كمرض وهزال ونحوهما ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وصفه تعالى بغاية الرحمة بعدما ذكر نفسه بما يوجبها، واكتفى به عن عرض المطلب، لطفاً في السؤال، وإنما شكى إليه تلذذاً بالنجوى، لا تضرراً منه بالشكوى، والشكاية إليه غاية القرب، كما أن الشكاية منه غاية البعد، وكان عليه السلام من ولد عيص بن إسحق عليه السلام، وكانت أمه من أولاد لوط عليه السلام، استنبأه الله تعالى، وكثر أهله وماله، وكان رحيماً بالمساكين، وكافلاً لليتامي والأرامل، وكريماً للضيف، وشاكراً لأنعم الله تعالى، فابتلاه الله بهلاك أولاده وذهاب أمواله، والمرض في جسمه، روي أن امرأته «رحمة» قالت له يوماً لو دعوت الله تعالى!! فقال: كم كانت مدة الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال أستحي من الله أن أدعوه، وما بلغت مدةً بلاني مدةً رخائي.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ أي أجبنا دعاءه وتضرعه، وأزلنا ما أصابه من ضر وبلاء ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ بأن ولد له ضعف ما كان، وولد له منهم نوافل ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أي رحمة على أيوب، وتذكرة لغيره من العابدين، الصابرين على ما أصيبوا.

﴿وَأَسْمِعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٨٥﴾

﴿وَأَسْمِعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ أي واذكر قصة هؤلاء الأنبياء الكرام، إسماعيل، وإدريس، وذا الكفل عليهم السلام ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من هؤلاء الأنبياء ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على مشاق التكليف، وشدائد الحياة.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٨٦﴾

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي أدخلناهم في الجنة دار الرحمة ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الكاملين في الصلاح والتقوى.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾

﴿وَذَا النُّونِ﴾ أي واذكر صاحب الحوت، وهو «يونس» عليه السلام ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ أي مراغماً لقومه غضبان عليهم، لعدم استجابتهم لدعوته، إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون، ولا يصح أن يقال: مغاضباً لربه، إذ لا يناسب منصب النبوة، روي أنه خرج من بين أظهرهم بعد أن تمادى إصرارهم، مهاجراً عنهم قبل أن يؤمر، وظن أن ذلك يسوغ ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي ظن أن لن نصيِّق عليه، وهو كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيِّق، وليس هذا عقوبة وإنما هو ابتلاء، كما جاء في الحديث الشريف «أشدكم بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»^(١) ﴿فَنَادَى﴾ أي فكان ما كان من المساهمة، والتقام الحوت له،

(١) طرف من حديث رواه البخاري في المرضى، وابن ماجه في الفتن، وأحمد في المسند ١/١٧٣.

فنادى ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي في الظلمات الشديدة المتكاثفة: ظلمة بطن الحوت، والبحر، والليل ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ أي بأنه لا إله إلا أنت يا رب فتداركني برحمتك ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي أنزهك تنزيهاً من أن يعجزك شيء ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بتعريضها للهلكة، حيث بادرت إلى المهاجرة قبل الاستئذان.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه على الطف وجه وأحسنه، روى أبو هريرة مرفوعاً قال: أوحى الله تعالى إلى الحوت أن خذْهُ، ولا تخدشْ له لحماً، ولا تكسرْ له عظماً، ﴿وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات دام في بطنه، وأراد بالغمِّ غمّ الالتقام له ﴿وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء البديع ننجي المؤمنين من الكرب والشدائد، إذا دعونا، واستغاثوا بنا بالإخلاص.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾

﴿وَزَكَرِيَّا﴾ أي واذكر خبره ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ بلا ولد يرثني ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي فحسبي أنت إن لم ترزقني وارثاً.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَـرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيِي﴾ أي رزقناه غلاماً اسمه يحيى، وقد مر كيفية استجابة دعائه في سورة مريم ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد أن كانت عاقراً لا تلد ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الأنبياء عليهم السلام المذكورون جميعاً ﴿كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ تعليل لما فُضِّل من فنون إحسانه تعالى، المتعلقة بالأنبياء المذكورين، أي كانوا يبادرون في وجوه الخيرات، مع استقرارهم في أصل الخير، وهو السرُّ في إيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ ﴿وَيَدْعُوكُمْ رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي ذوي رَغَبٍ وَرَهَبٍ، راغبين للثواب، وخائفين من العقاب ﴿وَكَانُوا لَنَا خُشْعِينَ﴾ أي مخبتين متضرعين، فالمعنى: إنهم نالوا ما نالوا، لاتصافهم بهذه الخصال الحميدة.

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا
وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩١).

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا﴾ أي اذكر خبر التي أعفّت نفسها عن الفاحشة، وعن الحلال والحرام، كما قالت: ﴿لَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ والتعبير بالموصول لتفخيم شأنها، وتنزيها عما زعمه اليهود في حقها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي أحيينا عيسى في جوفها ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ من الروح الذي هو من أمرنا، وقيل: فعلنا النفخ من جهة روحنا جبريل عليه السلام، والإضافة للتشريف ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ أي قصتهما، وحالهما ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ فإن من تأمل حالهما، تحقق كمال قدرته عزَّ وجلَّ.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩١).

﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أي ملة التوحيد والإسلام، أشير إليها بهذه تنبيهاً على

كمال ظهور أمرها في السداد ﴿أَمَّتْكُمْ﴾ أي ملتكم وشريعتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها، وتراعوا حقوقها، والخطاب للناس قاطبة ﴿أُمَّةٌ وَحِدَةٌ﴾ أي غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام^(١) إذ لا احتمال لتبديلها، كفروع الشرائع ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ لا إله لكم غيري ﴿فَاعْبُدُونِي﴾ خاصة لا تعبدوا غيري.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلْتِنَارٍ جُثُوتٌ﴾.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ التفات إلى الغيبة، لينعى على الذين تفرقوا في الدين تقبيح فعلهم، كأنه قيل: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكبوا في دين الله، الذي أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام؟! ثم توعدهم بقوله ﴿كُلُّ﴾ أي كل واحد من الفرق المتحزبة ﴿إِلْتِنَارٍ جُثُوتٌ﴾ بالبعث، فنجازيهم بأعمالهم، وقوله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾ تفصيل للجزاء.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ﴾.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسوله ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا حرمان لثواب عمله، عبّر عن ذلك بالكفران الذي هو شر النعمة، لبيان كمال نزاهته تعالى، ﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ﴾ أي لسعيه ﴿كَنُيُوتٌ﴾ أي مشبوتون ذلك في صحائف أعمالهم.

﴿وَحَرَّمٌ عَلَى قَرِيَّةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

(١) لا اختلاف في أصول الشرائع التي لا تتبدل بتبدل الأعصار، فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم دينهم واحد، وشرائعهم مختلفة، كما قال سبحانه: ﴿إِن الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ أي ممتنع على أهلها ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ قدرنا هلاكها لغاية طغيانهم ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ممتنع البتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء، وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر، لأنهم المنكرون للبعث والرجوع^(١).

﴿حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ﴾ «حتى» للغاية كأنه قيل: يستمرون على ما هم عليه، حتى إذا قامت القيامة، يرجعون إلينا، ويقولون يا ويلنا الخ ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ قبيلتان من الإنس والمراد بفتحها فتح سدها ﴿وَهُمْ﴾ أي يأجوج ومأجوج ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ أي نَشَز من الأرض، أي ارتفاع من الآكام، والتلال ﴿يَنْسِلُونَ﴾ أي يسرعون، وأصله مقاربة الخطوات مع الإسراع، والحَدَبُ بفتحيتين: ما ارتفع من الأرض.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١٧﴾

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ والمراد به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب لا النفخة الأولى ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ جواب الشرط وإذا للمفاجأة ﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مرتفع الأجفان لا تكاد تطرف من هول

(١) هذا وجه في تفسير الآية الكريمة، وروى الحافظ ابن كثير عن ابن عباس أن معنى الآية: ممتنع على أهل قرية أهلكتناهم، أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية. ١ هـ يريد أنه من المستحيل عودتهم إلى الدنيا بعد الهلاك، حتى تقوم الساعة فيرجعون للحساب والجزاء.

ما هم فيه ﴿يَتَوَلَّوْنَا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يقولون يا ويلنا ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ﴾ تامة ﴿مِنْ هَذَا﴾ الذي دهمنا من البعث، ولم نعلم أنه حق ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي لم نكن غافلين عنه، حيث تُبْهِنَا عليه بالآيات والنذر، بل كنا ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ ﴿١٨﴾.

﴿إِنَّكُمْ﴾ خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي أصنامكم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ هو ما يرمى به ويهيج النار، الحَصَبُ بفتحيتين: ما هُبِيَء للوقود من الحطب ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ أي فيها داخلون، والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا، روي أن رسول الله ﷺ تلا الآية، فقال له ابن الزبيري: أليست اليهود عبدوا عزيزاً، والنصارى المسيح، وبنو مليح الملائكة، فردَّ عليه ﷺ فقال: أما علمت أن «ما» لما لا يعقل، على أنهم لا يعبدون هؤلاء بل يعبدون الشيطان..

﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١٩﴾.

﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءَ﴾ أي أصنامهم ﴿إِلَهَةً﴾ كما يزعمون ﴿مَا وَرَدُوهَا﴾ وحيث تبين ورودهم إياها، تعين امتناع كونها آلهة بالضرورة ﴿وَكُلٌّ﴾ من العبداء والمعبودين ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا خلاص لهم عنها.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٠﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي أنين وتنفس شديد ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يسمع بعضهم زفير بعض، لشدة الهول والعذاب وفي السماع نوع أنس فلم يعطوه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا﴾ شروع في بيان حال المؤمنين، حسبما جرت سُنَّةُ التنزيل، من إيراد الترغيب إثر الترهيب ﴿أَلْحُسْنَىٰ﴾ أي الخصلة الحسنی وهي السعادة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول ﴿عَنْهَا﴾ عن الجحيم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ لأنهم في الجنة، وشتان بينها وبين النار.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي لا يسمعون صوتها سمعاً ضعيفاً، كما هو المعهود عند كون الشخص بعيداً، وإن كان صوته في غاية الشدة ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ بيان لفوزهم بالمطالب، إثر بيان خلاصهم من المهالك، أي دائمون في غاية التمتع.

﴿لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَنُلْقِلُهُمُ الْمَلَكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ بيان لنجاتهم من الأفزع بالكلية ﴿وَنُلْقِلُهُمُ الْمَلَكَةَ﴾ أي تستقبلهم مهتئين لهم ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ﴾ أي قائلين هذا اليوم يومكم ﴿الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، وتُبشرون بما فيه من المثوبات.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ الطيُّ: ضدُّ النشر، أي نطوي السماء طياً

﴿ كُتِبَ السَّجِلْ ﴾ وهي الصحيفة أي طياً كُتِبَ الصحف ﴿ لِلْكِتَابِ ﴾ أي للكتب التي كتب فيها، فسجلها بعض أجزائها، وبه يتعلق الطي، فالسماوات تطوى كما تطوى الصحف والسجلات ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ ﴾ أي نعيد ما خلقناه، إعادةً مثل بدئنا إياه، في كونها إيجاداً بعد العدم، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على البداء، واختلفوا في كيفية الإعادة؟ فمنهم من قال: إن الله يفرق الأجزاء، ولا يعدمها، ثم إنه يعيد تركيبها، ومنهم من يقول: إنه تعالى يعدمها بالكلية، ثم إنه يوجد لها بعينها مرة أخرى، وهذه الآية دالة على هذا الوجه، لأنه سبحانه شبه الإعادة بالابتداء، والابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء، بل عن الوجود بعد العدم ﴿ وَغَدَا ﴾ مصدر مؤكد لفعله ﴿ عَلَيْنَا ﴾ إنجازه ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ لما ذكر لا محالة، فاستعدوا له بصالح الأعمال، للخلاص من هذه الأحوال، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إنكم محشورون إلى الله، حفاة، عراة، غُرلاً»^(١).

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾ هو كتاب داود عليه السلام ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ أي من بعد اللوح المحفوظ، أي وبالله لقد كتبنا في كتاب داود بعدما كتبنا وسطرنا في اللوح المحفوظ ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ ﴾ أي أرض الجنة، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَغَدَا وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان وتتمه ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَغَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ألا وإنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إبراهيم عليه السلام، ألا وإنه سيجاء برجالٍ من أمتي، فيؤمر بهم ذات الشمال - أي إلى النار - فأقول أي رب أمتي! فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم بعد أن فارقتهم! فأقول: سُخَّاء، سُخَّاء.

نَبَّأُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ^(١) وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقيل الأرض المقدسة، وهو قول الكلبي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الآية ﴿يُرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أي المؤمنون، وهذا وعدٌ منه تعالى بإظهار دين الإسلام.

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾

﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ أي فيما ذكر في السورة الكريمة، من الأخبار والمواعظ، والوعد والوعيد، والبراهين على التوحيد ﴿لَبَلَاغًا﴾ أي لكفاية وموعظة ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي موحدّين مؤمنين، همّهم الطاعة والعبادة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد بما ذكر، وبأمثاله من الشرائع والأحكام، التي هي مناطٌ لسعادة الدارين ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قاطبة، فإنّ ما بعثت به سببٌ لسعادة الدارين، ومنشأ، لانتظام مصالحهم في النشأتين، ومن لم يغتنم مغنم آثاره، فإنما فرّط في نفسه^(٢).

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي ما يوحى إليّ إلّا

(١) سورة الزمر، آية: ٧٤.

(٢) إن قيل: كيف قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ مع أن النبي ﷺ لم يكن رحمة للكافرين، لأنه أرسل بالسيف عليهم؟ فالجواب أن بعثه رحمة للكفار أيضاً، من حيث أن عقوبتهم أحرّت بسببه، وأمنوا به من عذاب الاستئصال، الذي كان يأخذ الله به المكذبين، من الأمم السابقة، ثم إن تعاليمه ﷺ رحمة لجميع الخلق لو عقلوها!!.

أن معبودكم هو إله واحد، لا شريك له في ملكه، وإنما جاء بصيغة الحصر «إنما» لأن التوحيد هو المقصود الأصلي من البعثة، وأما ما عداه فمن الأحكام المتفرعة عليه^(١) ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؟ أي مخلصون العبادة لله تعالى؟.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿ءَاذَنْتُكُمْ﴾ أي أعلمتكم إعلاماً واضحاً ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي على عدل واستقامة، بالبرهان النير، فلا حجة لكم بعد اليوم، فالمعنى: أعلمتكم ما أمرتُ به، كائنين على سواء في الإعلام، لم أطوه عن أحد منكم، وما فَرَّقْتُ بينكم في النصيح وتبليغ الرسالة ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي ما أدري ﴿أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾؟ من غلبة المسلمين، وظهور الدين؟ ولا متى يكون ذلك العذاب لكم؟.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي يعلم ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام، وتكذيب الآيات والرسول ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من الإخفاء والأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه.

(١) شريعة الرسول ﷺ عادلة كاملة، جاءت لخير البشرية جميعها، وحوث كل الفضائل الخلقية، والاجتماعية، فقد روي عن أبي داود يقول: كتبت عن النبي ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها أربعة آلاف حديث، وثمانمائة حديث، وكيفي للإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث، حديث «الأعمال بالنيات».. وحديث «الحلال بين، والحرام بين».. وحديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنیه» وحديث «لا يكون المؤمن مؤمناً، حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه» ١ هـ.

﴿وَلَا أَدْرِي لَعَلَّكُمْ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَّعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿١١٧﴾

﴿وَلَا أَدْرِي﴾ وما أدري ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لعل تأخير جزائكم ﴿فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾ استدراج لكم، لينظر كيف تعملون ﴿وَمَتَّعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي تمتع إلى أجل مقدر، تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكم البالغة.

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿١١٨﴾

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي احكم بيننا وبين أهل مكة بالعدل ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ﴾ أي كثير الرحمة على عباده ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ أي المطلوب منه المعونة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من الحال فإنهم كانوا يقولون إن الشوكة تكون لهم وإن المتوعد به لو كان حقاً لنزل بهم، إلى غير ذلك مما لا خير فيه، فاستجاب الله دعوة رسوله ﷺ فخيّب آمالهم، وغير أحوالهم، وأصابهم يوم بدر ما أصابهم!! والله أعلم بمزاده، وأسرار كتابه، وصلى الله تعالى على خير خلقه، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنبياء».

سُورَةُ الْحَجِّ

مدنية وهي ثمان وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ خطابٌ يعم حكمه جميع المكلفين، إلى يوم القيامة ﴿آتِفُوا رَبَّكُمْ﴾ أي احذروا عقابه، واعملوا بطاعته، والأمور به مطلق التقوى، الذي هو التجنب عن كل ما يؤثم به، أي احذروا عقوبة مالك أموركم، ومربيكم، رب العزة والجلال ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ إضافتها إلى الساعة، إضافة المصدر إلى فاعلها، كأنها هي التي تزلزل الأشياء، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وعن ابن عباس زلزلة الساعة: قيامها، وعن علقمة والشعبي: أنها قبل طلوع الشمس من مغربها ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ والتعبير عنها بالشيء، إيدان بأن العقول، قاصرة عن إدراك كنهها.

﴿يَوْمَ تَرَوْنها نَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي وقت رؤياكم الزلزلة ﴿تَذْهَلُ﴾ أي تغفل وتنسى مع دهشة ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ أي مباشرة للإرضاع ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ عما بصدد إرضاعها من طفلها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي تلقي جنينها لغير تمام، وهو تمثيل لتحويل الأمر، فالأمر حينئذٍ أشد وأعظم مما وُصف ﴿وَتَرَى النَّاسَ﴾ أي يراهم كل أحد ﴿سُكْرَى﴾ كأنهم سكارى ﴿وَمَا هُمْ بِسُكْرَى﴾ حقيقة ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فيرهقهم هوله، وتطير له عقولهم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ كلام مبتدأ لبيان حال بعض المنكرين للساعة، أي وبعض الناس ﴿مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي في شأنه تعالى، ويقول فيه ما لا خير فيه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بلا علم وحجة، روي أنها نزلت في النضر بن الحارث، وكان كثير الجدال، يقول: لا بعث بعد الموت، والقرآن أساطير الأولين، وهي عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين، والمراد من هذه المجادلة، هو المجادلة في البعث، لأن ما قبل هذه الآية وما بعده في أمر البعث ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي يطيع ويقتدي في عامة أحواله ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ أي متجرد للفساد، عات متمرد والمراد ههنا رؤساء الكفر الصادين عن الحق، الذين يدعون من دونهم إلى الضلال.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي على من تولى الشيطان، واتخذه له صديقاً ﴿أَنَّهُ﴾

أي أن الشأن ﴿مَنْ قَوْلَاهُ﴾ أي اتخذه ولياً وتبعه ﴿فَأَنْتُمْ يُضْلَلُونَ﴾ عن سواء السبيل، لأنه جبل عليه ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي يدعو ويحملة مباشرة على السيئات التي توصله إلى عذاب جهنم المستعرة، وعبر بلفظ ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ على طريقة التهمك، لأن الهداية لا تكون إلى عذاب الجحيم.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِمَوْلَا لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝﴾

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ إثر ما حكى أحوال المجادلين بغير علم أقيمت الحجة الدالة على تحقق ما جادلوا فيه ﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾ من إمكانه وكونه مقدوراً له تعالى، أو من وقوعه ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ أي فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم فإننا خلقنا كل فرد منكم ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ في ضمن خلق آدم عليه السلام منه خلقاً إجمالياً ﴿ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ﴾ أي مني، من النطف الذي هو الصب، وهذا المنى يحصل من الأغذية، التي تتكون من التراب، يقال: نطف أي سال، والنطفة ماء الرجل والمرأة ﴿ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ﴾ أي قطعة من الدم جامدة متكونة من المنى، والعلقة: شيء متجمد من المنى، ينتقل بعد طرده فيصير دماً غليظاً متجمداً، ثم ينتقل طوراً آخر فيصير لحماً، وهو المضغة ﴿ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ﴾ أي قطعة من اللحم متكونة من العلقه ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾ أي مستبينة الخلق ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي لم يستبين خلقها، والمراد تفصيل حال المضغة، وكونها أولاً قطعة لحم، لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت شيئاً فشيئاً ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي خلقناكم على هذا

النمط البديع، لنبين لكم بذلك قدرتنا، وحكمتنا^(١)، مما لا يحيط به العقل، من الدقائق التي من جملتها سر البعث، فإن من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجي، تأملاً حقيقياً، جزم جزماً ضرورياً، بأن من قدر على خلق البشر، من تراب لم يشم رائحة الحياة قط، فهو قادر على إعادته، بل هو أهون في القياس، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ أي ونحن نقر ونثبت في الأرحام بعد ذلك، ما نشاء أن نقره فيها ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو وقت الوضع، وأدناه ستة أشهر، وأقصاه ستان، وفيه إشارة إلى أن بعض ما في الأرحام لا يشاء الله إقراره فتسقطه ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلاً﴾ أي حال كونكم أطفالاً ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ أي ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً، ثم لتبلغوا كمالكم في القوة، والعقل، والتمييز، ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّى﴾ عند بلوغ الأشد أو قبله، أو بعده ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي ليعود إلى ما كان عليه، في أوان الطفولة، من ضعف البنية، وسخافة العقل، وضعف الذاكرة ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً﴾ حجة أخرى على صحة البعث، والخطاب لكل أحد، و(هامدة) حال من الأرض أي ميتة، يابسة، من همدت النار إذا صارت رماداً، وذهب حرّها ولم يبق منه شيء ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المطر ﴿أَهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ انتفخت وازدادت ﴿وَأَلْبَسَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ﴾ صنف ﴿بَهِيحٍ﴾ حسن رائق، يسرّ ناظره، وهذه دلالة كررها الله تعالى في كتابه، لظهورها وكونها مشاهدة.

(١) دلالة تولد الإنسان من النطفة على وجود الصانع، من أظهر الدلائل، لأن حدوث الإنسان، إنما كان بسبب اجتماع أجزاء متفرقة، في بدن الوالدين، بل في جميع العالم، فلما قدر الصانع، على جمع تلك الأجزاء المتفرقة، وجب أن يقال: إنه بعد موته، وتفرق أجزائه، لا بد أن يقدر الصانع، على جمع تلك الأعضاء، وجعلها خلقاً سوياً كما كان ذلك أولاً، فهذا برهان ناصع، ولهذا استدل به القرآن.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٦ .

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة، وإحياء الأرض بعد موتها، لبيان أن ذلك من آثار ألوهيته تعالى ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي ذلك الصنع البديع، حاصل بسبب أنه تعالى هو الحق وحده، في ذاته وصفاته وأفعاله، المحقق لما سواه من الأشياء ﴿وَأَنْتُمْ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي شأنه إحيائها، وأنه قادر على إحيائها، بدءاً وإعادة، وإلاً لما أحياء النطفة، والأرض الميتة مراراً ﴿وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي مبالغ في القدرة فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات، لزم اقتداره على إحيائها كلها.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ٧ .

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ فيما سيأتي، وإثبات صيغة الفاعل للدلالة على تحقق إتيانها، لاقتضاء الحكمة إياه لا محالة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ في ظهور أمرها، ووضوح دلائلها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ للجزاء، وهذه كما ترى من أحكام حكمته وجلاله، أنه تعالى حكيم عادل، لا يخلف ميعاده، وقد وعده بالساعة والبعث، فلا بد أن يفي بذلك.

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ

مُنِيرٍ﴾ ٨ .

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية فيمن يتصدى لإضلال الناس، كما أن الأول فيمن يقلدهم فلا تكرر ﴿وَلَا هُدًى﴾ هو الاستدلال بالأدلة العقلية ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي وحي مظهر للحق، فالمعنى: يجادل في شأنه تعالى، من غير تمسك بمقدمة علمية، ولا بحجة نظرية، ولا برهان سمعي، فهو يجادل بالباطل.

﴿ثَانِي عَطْفِهِ لِضَلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ أي عاطفاً لجانبه، معرضاً متكبراً، فإن ثني العطف كناية عن التكبر ﴿لِضَلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ متعلق بيجادل، فإن غرضه الإضلال عنه، وإن لم يعترف بأنه إضلال، أو معرضاً عن الحق استخفافاً به ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر من القتل والصغار ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي النار الشديدة المحرقة.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ ما ذكر من العذاب الدنيوي والأخروي ﴿بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ أي بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي، والالتفات لتأكيد الوعيد، وكفى عنه باليد، لأن اليد آلة الكسب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب، وإنما هو مجازٍ لهم على أعمالهم، فحكمه عدل.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ﴾ شروع في بيان حال المذبذبين، إثر بيان حال المجاهرين ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ أي على طرفٍ من الدين، وهذا مثلٌ لكونه على قلق، كالذي ينحرف إلى طرف الجيش، إن أحسنَّ بظفر قرٍّ، وإلاَّ قرَّ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ من الصحة والسعة، أي ثبت على ما كان عليه ظاهراً، لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين، الذين لا يلويهم عنه صارف ﴿وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ﴾ أي شيء يُفْتِنُّ به من مكروه يعتريه في

نفسه، أو أهله، أو ماله ﴿أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي ارتدَّ ورجع إلى الوجه الذي كان عليه، من الكفر، روي أنها نزلت في قوم من الأعراب، «كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم، وكان أحدهم إذا صحَّ بدنه، ونتجت فرسه مهراً، وولدت امرأته غلاماً، وكثر ماله، قال: هذا دينٌ حسنٌ، وقد أصبت فيه خيراً واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شراً، وانقلب»^(١) ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ ضَيَّعَهُمَا بذهاب عصمته، وجبوت عمله بالارتداد ﴿ذَلِكَ﴾ خسران الدارين ﴿هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الظاهر الذي لا يخفى على أحد.

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ
الْبَعِيدُ﴾.

﴿يَدْعُوا﴾ استئناف مبين لعظم الخسران ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي يعبد متجاوزاً عبادة الله تعالى ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إذا لم يعبدته ﴿وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبده، أي يعبد جماداً ليس من شأنه الضر والنفع ﴿ذَلِكَ﴾ أي الدعاء والعبادة لغير الله ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن الحق والهدى.

﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾.

﴿يَدْعُوا﴾ استئناف لتقرير كونه ضلالاً بعيداً ﴿لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ أي يعبد وثناً وصنماً ضَرُّهُ في الدنيا - لو سلمنا ضره ونفعه - أكثر من نفعه، لأنه يعبد جماداً لا حسَّ له ولا شعور، فهو يتضرر بعبادته دون أي جدوى أو منفعة، وإيراد صيغة التفضيل مع خلوه عن النفع، للمبالغة

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج عن ابن عباس، وانظر كامل الرواية في جامع الأصول ٢/٢٤١.

في تقييح حاله، أي يقول يوم القيامة حين يرى تضرره بمعبوده، ودخول النار بسببه ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾ الناصر هو ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ ولبس المصاحب هو، وقيل: هذا في الرؤساء، وهذا الوصف بالرؤساء أليق، ولا يستعمل في الأوثان.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿استئناف لبيان حال المؤمنين، العابدين له، إثر بيان غاية سوء حال الكفرة ومآلهم، وأن معبودهم لا يجديهم شيئاً من النفع، بل يضرهم مضرة عظيمة، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعليل لما قبله وتقرير له، أي يفعل كل ما يريد من الأفعال اللاتئة المبنية على الحكم الرائعة التي من جملتها إثابة من آمن وعقاب من أشرك به.

﴿مَنْ كَانَتْ يَطْنُ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿مَنْ كَانَتْ يَطْنُ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الضمير في ﴿ينصره﴾ للرسول عليه الصلاة والسلام تحقيقاً للنصرة، وتقريراً لثبوتها، على أبلغ وجه، وفيه إيجاز بارع، والمعنى: أنه تعالى ناصرٌ لرسوله ﷺ في الدنيا والآخرة، لا محالة، فمن كان يغيبه ذلك، من أعاديهِ وحساده، فليبالغ في است فراغ المجهود، فقصارى أمره أن يختنق خنقاً ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي فليمدد حبلاً إلى سقف بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي ليختنق بحبس مجاريه ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ أي فليتصور في نفسه ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ أي إن فعل ذلك بنفسه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ أي ما يغيبه من النصر؟ كلاً، يعني أنه لا يقدر على

دفع النصره. وإن مات غيظاً، وسمي فعله كيداً على سبيل الاستهزاء^(١).

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحكم البالغة ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن الكريم ﴿آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ﴾ واضحات الدلالة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ به ابتداء ويثبت على الهداية ﴿مَن يُرِيدُ﴾ هدايته وتثبيته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ﴾ قيل هم قوم يعبدون النار، وقيل: الشمس والقمر ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ هم عبدة الأصنام ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيجازي كل ما يليق به، ويدخله المحل المعد له ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل لما قبله، أي عالم بكل شيء، ومراقب لأحواله، ومن قضيته الإحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يَمُنْ بِاللَّهِ فَأَمَّا لَهُ مِن مَّكْرٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

(١) خلاصة معنى الآية: من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله في الدنيا والآخرة، فليمدد بحبل إلى السقف ثم يشق نفسه، ويختنق به، فلينظر هل يشفي ذلك ما في صدره من الغيظ من دعوة الرسول ﷺ؟ قال الحافظ ابن كثير: وهذا القول قول ابن عباس، وهو أظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم، أي فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ الخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية، والمراد بالسجود الانقياد التام لتدبيره تعالى، لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء، وقيل: إن الكل يسجد له، ولكننا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(١) ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ أفردوا بالذكر لاستبعاد ذلك منها عادة ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿وَكَثِيرٌ﴾ معطوف على كثير الأول، للإيذان بغاية الكثرة، ثم يخبر عنهم باستحقاق العذاب، كأنه قيل: وكثير من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي بكفره واستعصائه ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ﴾ بأن كتب عليه الشقاوة، حسبما علمه من صرف اختياره إلى الشر ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ يكرمه بالسعادة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإكرام والإهانة.

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ ﴾ أي فريق المؤمنين، وفريق الكفرة، يختصمان والخصم صفة وُصف بها الفوج، فكانه قيل: فوجان يختصمان ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ أي في شأنه عز وجل ودينه، في ذاته وصفاته، كل من الفريقين له خصومة على الفريق الآخر، فقد تخاصمت اليهود والمؤمنون، فقالت اليهود: نحن أحق بالله، وأقدم منكم كتاباً ونبياً، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله منكم، آمنا بنبينا ونبينا، وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تكفرون به حسداً ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿يُفصل بينهم يوم القيامة﴾ ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ﴾ قدرت على مقادير

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤

جثثهم ﴿يَبَابُ مِنْ نَارٍ﴾ أي نيران هائلة، تحيط بهم إحاطة الثياب بلباسها ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أي الماء الحار الذي انتهت حرارته.

﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾.

﴿يُصْهَرُ بِهِ﴾ يذاب بالحميم الذي يصب ﴿مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ من الشحوم، والأحشاء، والأمعاء ﴿وَالْجُلُودُ﴾ أي تشوى جلودهم فتساقط، إذا صب الحميم على رؤوسهم، لغاية شدة الحرارة.

﴿وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ حَديِرٍ﴾.

﴿وَلَهُمْ﴾ للكفرة أي لتعذيبهم ﴿مَقْلَعٌ مِنْ حَديِرٍ﴾ جمع مقمعة، وهي آلة القمع، أي سياط يُجلدون بها.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أي كلما أشرفوا على الخروج من النار لما يلحقهم ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ أي من غم شديد من غمومها ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ أي في قعرها، بأن رُدُّوا من أعاليها إلى أسافلها، من غير أن يخرجوا منها ﴿وَذُوقُوا﴾ أي قيل لهم ذوقوا ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي النار البالغة في الإحراق.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ بيان لحسن حال المؤمنين، وتصدير الجملة بحرف التحقيق، إيذاناً بمباينة حالهم لحال الكفرة، وإظهاراً لمزيد العناية بأمر المؤمنين ﴿ يُحْكَمُونَ فِيهَا ﴾ من حُلِيَّتِ المرأة إذا ألبستها الحلي ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ جمع سوار، وهو ما يلبس في المعصم ﴿ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ أي الأساور الذهبية ﴿ وَلَوْثُؤًا ﴾ أي ويحلون باللؤلؤ كذلك إكراماً لهم ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أي ولباسهم في الجنة الحرير، وهو أرفع اللباس وأفضله.

﴿ وَهَدُّوْا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوْا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾

﴿ وَهَدُّوْا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أي الكلام الطيب، والقول النافع، إذ ليس في الجنة لغو ولا كذب، فهم في ذكر وتسيح كقولهم: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَغَدَهُ ﴾ ﴿ وَهَدُّوْا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ أي المحمود وهو الجنة، دار الخلد والنعيم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنَكُفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحُكَامِ يُظْلَمِ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بما جاء به رسول الله ﷺ ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي ويمنعون الناس عن طاعة الله والدخول في دينه، كما يمنعونهم عن أداء المناسك في البيت الحرام، قال ابن عباس: نزلت الآية عام الحديبية، لأن قريش صدوا رسول الله ﷺ والمؤمنين عن المسجد الحرام ﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ ﴾ أي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس، كائناً من كان، من غير فرق بين قلبي وآفاقي، وروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إنهما يستويان في سكنى مكة فليس أحدهما أحق بالمنزل الذي يكون فيه من

الآخر، إلا أن يكون واحد سبق إلى المنزل، وهو مذهب أبي حنيفة واحتجوا عليه بالآية الكريمة، وبالخبر، وهو قوله ﷺ: «مكة مباحة لمن سبق إليها» واحتج الشافعي رحمه الله بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ فقد نسب الدور لهم، وقوله ﷺ يوم مكة «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن» وإن أريد بالمسجد الحرام البيت فالمعنى أنه قبله لجميع الناس ﴿سَوَاءٌ أَلَمَكُفِّ فِيهِ وَالْبَادُ﴾ أي المقيم وغير المقيم وفائدة وصف المسجد بذلك، زيادة تشنيع الصادين عنه، والبدو خلاف الحضر ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ﴾ ترك مفعوله ليتناول كل متناول كأنه قيل ومن يرد مراداً ما ﴿يُحْكَمُ﴾ بعدول عن القصد ﴿يُظْلَمُ﴾ بغير حق، وهما حالان مترادفان أي ملحداً بسبب الظلم، كالإشراك، واقتراف الآثام، وكل شيء كان منهياً من قول، أو فعل، روى يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه»^(١) ﴿تَذِقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي نذقه أشد أنواع العذاب الموجع، لأن الكفر والصد من أشد أنواع الإلحاد فيه، وكل من ارتكب ذنباً فهو كذلك.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ أي اذكر وقت جعلنا ﴿مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ مباءة له عليه السلام أي مرجعاً إليه، للعمارة، والعبادة، وقيل (بوأنا) أي بينا مكان البيت فبعث الله سبحانه ريحاً، فكنست له ما حول البيت عن الأساس وقيل: بعث الله سحابة بقدر البيت وقيل يا إبراهيم ابن علي قدرها ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ مفسرة لبوأنا لأنه متضمن لمعنى تعبدنا، أي فعلنا ذلك لثلاث تشرك بعبادتي شيئاً ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ أي وطهر بيتي من الأوثان

(١) أخرجه أبو داود رقم ٢٠٢٠ في المناسك، باب تحريم حرم مكة.

والأقذار ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ﴾ أي لمن يطوف، ويصلي فيه، عبّر عن الصلاة بأركانها، لأن الركوع والسجود أهم أركانها.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٢٧)

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ﴾ أي أعلم وناد فيهم ﴿بِالْحَجِّ﴾ بدعوة الحج، والأمر به، روي أنه عليه السلام «صعد أبا قبيس، فقال: يا أيها الناس حجّوا بيت ربكم، فأسمعه الله تعالى من قُدْر لهم أن يحجّوا، فقالوا لبيك اللهم لبيك» ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي مشاةً على أرجلهم جمع راجل ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركباناً على كل بعير مهزول، أتعبه بُعْدُ السفر ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لضامر، لأنه في معنى الجمع ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ﴾ أي من كل طريق واسع ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد، فمن أتى الحج، فكأنه قد أتى إبراهيم عليه السلام، لأنه مجيب لندائه، يُقال: ضَمَرَ الفرسُ أي هَزَلَ ودَقَّ وَقَلَ لحمه، وقَدَّمَ الرجال على الركبان، إظهاراً لفضيلة المشاة، والحج فريضة لما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس قد فَرَضَ الله عليكم الحجَّ فحُجُّوا» (١).

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَ اللَّهُ فِي أَيَّامِ مَعْلُومَتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (٢٨)

﴿لِيَشْهَدُوا﴾ أي ليحضرُوا ﴿مَنَفَعَهُ﴾ عظمة الخطر، كثيرة العدد، من المنافع الدينية والدنيوية، المختصة بهذه العبادة ﴿لَهُمْ﴾ أي كائنة لهم

(١) طرف من حديث أخرجه مسلم رقم ١٣٣٧ في الحج.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ عند ذبح الهدايا والضحايا، ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ هي أيام النحر، وهي عشر ذي الحجة عند أبي حنيفة وآخرها يوم النحر، وهو قول ابن عباس، وقول أكثر المفسرين، وعند صاحبيه هي أيام النحر، وهو قول ابن عمر ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ وهو يؤيد قولهما، علق الفعل بالمرزوق، وبين بالبهيمة تحريضاً على التقرب، وتنبهاً على الذكر ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي فاذكروا اسم الله على ضحاياكم، وكلوا من لحومها، والأمر للإباحة لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة ﴿الْفَقِيرِ﴾ المحتاج.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي ليؤدوا إزالة وسخهم، قيل: قضاء التَّفَثِ قصُّ الشارب، والأظفار، ونف الإبط، والاستحداد، والتَّفَثُ: الوسخ. تَفَثَ من باب تعب. إذا ترك الأدهان فعلاه الوسخ ﴿وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ﴾ ما يندرونه من البر في الحج، وقيل مواجب الحج ﴿وَلِيَطُوفُوا﴾ أي ليطوفوا طواف الزيارة، الذي هو ركن الحج، ويقع به تمام التحلل، وقيل: طواف الوداع ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي القديم، لأنه أول بيت وضع للناس، أو المعتقد من تسلط الجبابرة، روى مسلم عن جابر بن عبد الله، في قصة حجة الوداع، قال: «وقدم عليّ بُدْنٍ من اليمن، وساق رسولُ الله ﷺ مائة بُدْنَةٍ، فنحر منها رسول الله ﷺ ثلاثاً وستين بُدْنَةً، ونحر عليٌّ ما غَبَرَ - أي ما بقي - ثم أمر من كل بُدْنَةٍ بِيَضْعَةٍ، فجعلت في قِدْرِ وطُبخت، فأكل من لحمها، وشرب من مرقها»^(١).

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الحج، حجة الوداع وهو حديث طويل مشهور، وهذا طرف منه برقم ١٢١٨ وانظر تمامه في جامع الأصول ٣/ ٤٦٠.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآثَعُظْمُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك، هذا وأمثاله يُطلق للفصل بين الكلامين ﴿وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَتَ اللَّهِ﴾ أي أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه من التكليف، وقيل الكعبة، ومعنى التعظيم، العلم بأنها واجبة، والقيام بمراعاتها ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ فالتعظيم خير له ثواباً ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ في الآخرة ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآثَعُظْمُ﴾ أي أن تأكلوها بعد الذبح ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي تحريمه ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ الرِّجْسُ: النجس والقدر، وسمى الأوثان رجساً، لأن عبادتها أخبت من التلوث بالنجاسات ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإن عبادة الأوثان رأس الزور، وكأنه حث على تعظيم الحرمات، وأتبع ذلك بتحريم شهادة الزور، لأنها تعدل الإشراك بالله، كما ورد في الحديث الشريف^(١)، وقيل: هو عمل أهل الجاهلية حيث كانوا يقولون في تلبيتهم «لييك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».

﴿حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

﴿حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ أي مستسلمين لأمر الله غير مشركين به أحداً ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ جملة مؤكدة لما قبلها، وإظهار الاسم الجليل،

(١) أشار إلى الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس عدلت شهادة الزور الإشراك بالله، ثم قرأ ﷻ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾».

لإظهار قبح الإشراك ﴿فَكَانَ آخِرُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي سقط، لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر ﴿فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ﴾ أي فتخطفه الطير، وتمزقه كل ممزق، وتسلبه بسرعة ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ أي تذهب به وتنفذه ﴿فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾ بعيد، لا نجاة له ولا خلاص، شبه الإيمان بالسماء في علوه، والذي أشرك بالساقط منه، والأهواء الرديئة بالطير المختطفة، والشيطان بالريح التي تهوي في المهاوي المتلفة.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعْبَكَ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك ﴿وَمَنْ يُعْظِمَ شَعْبَكَ اللَّهُ﴾ أي الهدايا والأضاحي فإنها من معالم الحج وشعائره تعالى، كما ينبىء عنه قوله: ﴿وَالْبُذْنُ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وهو الأوقى لما بعده، وقيل شعائر الله: أعلام دينه، وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجل القربات، وأن يختارها حسناً سماناً غالية الأثمان، روي أن عمر رضي الله عنه أهدى نجبية طلبت منه بثلاثمائة دينار ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي فإن تعظيمها ﴿مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي من أفعال ذوي تقوى القلوب، وتخصيصها بالإضافة لأنها مراكز التقوى، التي إذا ثبت فيها الإيمان وتمكنت، ظهر أثرها في سائر الأعضاء فإن قال قائل: ما الحكمة أن الله تعالى بالغ في تعظيم ذبح الحيوانات؟ فالجواب قوله تعالى:

﴿لَكَرْفِهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

﴿لَكَرْفِهَا﴾ أي في الهدايا وقيل في شعائر الله ﴿مَنَافِعُ﴾ هي درها ونسلها وصفوها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت نحرها والتصدق بلحمها والأكل منه ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا﴾ أي وجوب نحرها منتهية ﴿إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي إلى ما يليه من الحرم، فالحرم كله مكان لنحر الهدي وذبحه.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَالَّذِينَ لَا هُدًى لَهُمْ فَلَهُمْ أَشْلُمُوا وَيَشْرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ (٢١)

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي لكل أهل دين ﴿ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ أي متعبداً وقرباناً، يتقربون به إلى الله عز وجل ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ خاصة دون غيره، فالمقصود الأصلي من المناسك، تذكّر المعبود ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ عند ذبحها، بين تعالى أنه يجب أن يكون الذبح لوجهه تعالى، وعلى اسمه، لأنه هو الخالق الرازق، لا كما كان المشركون يذبحون للأوثان ﴿ فَإِنَّهُمْ كَالَّذِينَ لَا هُدًى لَهُمْ ﴾ الخطاب للكل تغليفاً، ﴿ فَلَهُمْ أَشْلُمُوا ﴾ اخلصوا له العبادة والطاعة، ولا تشوبوه بالإشراك ﴿ وَيَشْرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ تجريد للخطاب إلى الرسول ﷺ، أي المتواضعين أو المخلصين في عبادتهم لله.

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢٥)

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ لإشراق أشعة جلاله عليها، وخافت منه تعالى هيبة ﴿ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ من مشاق التكاليف، ومؤونات النوائب ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي ينفقون بعض أموالهم ابتغاء مرضاة الله.

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣١)

﴿ وَالْبُدْنَ ﴾ جمع بدنة وإنما سميت الإبل بُدْنًا لعظم بدنها ﴿ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ ﴾ سخرناها لكم ﴿ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ ﴾ من أعلام دينه التي شرعها

الله تعالى ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي منافع دينية، ودنيوية ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي عند ذبحها بأن تقولوا: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم منك وإليك» ﴿صَوَّافٌ﴾ أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت بعد النحر، ووقعت على الأرض، وهو كناية عن الموت ﴿فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ﴾ الراضي بما عنده، وبما يُعطى من غير مسألة، والمراد به المتعفف الذي لا يسأل الناس ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي السائل وهو الذي يريك نفسه، ويتعرض لك، والمعتَر: هو الذي يطيف بالناس ويطلب منهم ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التسخير ﴿سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ مع عظمها ونهاية قوتها، فلا تستعصي عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا الله على إنعامه.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَنَكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ﴾ أي لن يبلغ مرضاته، ولن يصل إليه سبحانه شيء من ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدق بها ﴿وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ المهرقة بالنحر، من حيث إنها لحوم ودماء ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ ولكن يصيبه تقوى قلوبكم، التي تدعوكم إلى الامتثال بأمره تعالى، وتعظيمه، والإخلاص له ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ تكرير للتذكير، والتعليل بقوله ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي لتعرفوا عظيمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره، فتوحدوه بالكبرياء ﴿عَلَىٰ مَا هَدَنَكُمْ﴾ أي أرشدكم إلى طريق تسخيرها ولمعالم دينه، ومناسك حجه ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي المخلصين في كل ما يأتون وما يذرون.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي يدفع عنهم بأس المشركين، هذه بشارة للمؤمنين بأن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم، وصيغة المفاعلة للمبالغة أي يدافع عنهم مرة بعد أخرى، حسبما تجدد منهم الإضرار بالمسلمين كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ تعليل لما في ضمن الوعد الكريم، وإيدان بأن دفعهم بطريق القهر والخزي، أي أن الله يبغض كل خوان في أماناته، وهي أوامره ونواهيه، وكفور لنعمته.

﴿أُذِّنْ لِّلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

﴿أُذِّنْ﴾ أي رُحِّصْ ﴿لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ﴾ أي يقاتلهم المشركون، والمأذون فيه محذوف، لدلالة المذكور عليه، أي أذن لهم بالقتال دفاعاً عن أنفسهم، فإن مقاتلة المشركين إياهم، دالة على الإذن لهم بالقتال ﴿بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ أي بسبب أنهم ظلموا، وهم أصحاب النبي ﷺ، كان المشركون يؤذونهم، وكانوا يأتونه ﷺ بين مضروب ومشجوج، ويتظلمون إليه فيقول ﷺ لهم: اصبروا فإنني لم أؤمر بالقتال، حتى هاجروا، فأنزلت الآية، وهي أول آية نزلت في القتال، بعدما نهى الله تعالى عنه، فيما يزيد على سبعين آية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وعدُّ لهم بالنصر، وتأكيد لما مر من العدة بالدفع وتصريح بأن المراد به ليس مجرد تخليصهم من أيدي المشركين، بل تغليبهم وإظهارهم عليهم، والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم، واردة على سنن الكبرياء، وتأكيد به بكلمة التحقيق واللام، لمزيد تحقيق مضمونه، وزيادة توطين نفوس المؤمنين.

(١) سورة المائدة، آية: ٦٤.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوْمُوعُ وَبِيعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ﴾ يعني مكة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي بغير ما يوجب إخراجهم ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي بغير موجب سوى التوحيد، الذي ينبغي أن يكون موجباً للإقرار والتمكين، دون الإخراج من الديار والأوطان، ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ﴾ ؟ الآية على طريقة قول النابغة:

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوقٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ بتسليط المؤمنين على الكافرين ﴿لَفَسَدَتِ الصَّوْمُوعُ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل ﴿صَوْمُوعُ﴾ للرهبانية المتخذة في الصحراء ﴿وَبِيعُ﴾ هي معابد النصارى في البلد ﴿وَصَلَوْتُ﴾ كنائس اليهود، سميت بها لأنها يُصَلَّى فيها ﴿وَمَسَجِدُ﴾ للمسلمين ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي ذكراً كثيراً وهي صفة مادحة للمساجد، خُصِّتْ بها، دلالة على فضلها، وفضل أهلها^(١) ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أي والله لينصرن الله من ينصر رسوله ودينه، ولقد أنجز الله وعده، حيث سلَّط الله المهاجرين والأنصار، على صناديد العرب، وأكاسرة

(١) فإن قيل: أي مَنَّى على المؤمنين في حفظ الصوامع والكنائس؟ فالجواب أن المراد من الآية الكريمة، لهدمت صوامع في زمن عيسى، وكنائس في زمن موسى، ومساجد في زمن النبي ﷺ، فالامتنان في الآية على أهل الأديان الثلاثة لا على المؤمنين خاصة، وكان الآية تقول: لولا دفاع الله عن المؤمنين في كل زمان، لهدمت معابد أهل الأديان جميعها.

العجم، وقياصرة الروم، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي قوي على كل ما يريد، لا يعجزه شيء، وعزيز لا يمانعه شيء ولا يدافعه.

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ۝ ﴾

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وصف من الله عز وجل للذين أخرجوا من ديارهم، بما سيكون منهم من حسن السيرة، عند تمكينه تعالى إياهم في الأرض، منبئاً عن عِدَّة كريمة، على أبلغ وجه، وعن عثمان رضي الله عنه قال: «هذا ثناء والله قبل بلاء» يريد أنه تعالى أثنى عليهم، قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين، لأن الله عز وجل أعطاهم التمكين، ونفذ الأمر، مع السيرة العادلة ﴿وَلِلَّهِ﴾ خاصة ﴿عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه وتقديره فقط.

﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ متضمنة للوعد بإهلاك من يعاديه، أي وإن تحزن على تكذيبهم إياك، فاعلم أنك لست وحدك في ذلك ﴿فَقَدْ كَذَّبْتَ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل تكذيب قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ كذبوا رسلهم: نوحاً، وهوداً، وصالحاً.

﴿ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۚ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴾ كَذَبُوا رَسُولَهُمْ أَيْضًا، وَإِنَّمَا

حذف لكمال ظهور المراد، أو لأن المراد، نفس الفعل ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ غير النظم الكريم، وبنى الفعل للمجهول، للإيدان بأن تكذيبهم له، كان في غاية الشناعة، لكون آياته في كمال الوضوح، أي وكُذِّبَ موسى مع وضوح آياته، وعظيم معجزاته، فما بالك بغيره؟ حتى بنو إسرائيل قد كذبوه مرة بعد أخرى، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي أمهلتهم حتى انصرفت آجالهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي أخذت كل فريق من المكذبين، بعد انقضاء مدة الإمهال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم؟ بتغيير النعمة نقمة، والحياة هلاكاً، والعمارة خراباً؟.

﴿فَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ مُعْطَلَةٍ وَقَصَرٍ مَشِيدٍ﴾.

﴿فَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي أهلكننا كثيراً من القرى، بإهلاك أهلها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي وأهلها ظالمون بكفرهم وتكذيبهم لرسول الله ﴿فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ مُعْطَلَةٍ﴾ أي وكم بئر عامرة في البوادي تركت لا يستسقى منها، لهلاك أهلها ﴿وَقَصَرٍ مَشِيدٍ﴾ أي مرفوع البنيان، أخليناه من ساكنيه، أفليس في ذلك عبرة للمعتبرين؟.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حث لهم على أن يسافروا، ليروا مصارع المهلكين، فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فيها، ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار، جعلوا غير مسافرين، فحثوا على ذلك ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ﴾ بسبب ما شاهدوه ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يعقل من التوحيد ﴿أَوْ

ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴿ مَا يَجِبُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ الْمَهْلَكَةِ ﴾ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ الضمير للقصة وفي تعمى ضمير راجع إليه، وقد أقيم الظاهر مقامه ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما هو في عقولهم، باتباع الهوى، والانهماك في الغفلة، وذكر الصدور للتأكيد، كأنه قال: لا عمى في أبصارهم، فإنهم يرون بها، لكن العمى في قلوبهم، لأنهم لم ينتفعوا بما أبصروه.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أي ويستعجلك المشركون بالعذاب سخريه واستهزاء فيقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟﴾ وفي ذلك دلالة على أنه ﷺ كان ينذرهم بالعذاب إن استمروا على كفرهم ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي لن يخلف الله وعداً أبداً، فلا بد من مجيئه حتماً، والجملة حالية كأنه قيل: كيف ينكرون مجيء العذاب، والحال أنه تعالى لا يخلف وعده؟ وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه ولو بعد حين؟ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ الآية سبقت لبيان خطئهم في الاستعجال ببيان سعة ساحة حلمه تعالى، لأنه حلیم لا يعجل العقوبة، والمدة القصيرة عنده تعالى، مدد طوالاً عندهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ ويتخذون تأخير العذاب ذريعة إلى إنكاره، ويجترئون على الاستعجال به، ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها ما عنده تعالى من المقدار، فيوم واحد من أيام عذابه، في طول ألف سنة من سنيكم، ولهذا قال بعده.

﴿وَكَأَنِّ مِّنْ قَرْيَةٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا إِلَيْهَا الْمَصِيرُ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي وكم من أهل قرية ﴿أَمَلَيْتُهَا﴾ كما أمليت لهؤلاء، حتى أنكروا واستعجلوا به استهزاء، كما فعل هؤلاء ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي والحال أنها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب والنكال بعد الإمهال ﴿وَالْيَ الْمَصِيرُ﴾ أي إلى حكمي، مرجع الكل جميعاً، لا إلى أحد غيري.

﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٤٩﴾

﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي أنذركم إنذاراً بيناً، من غير أن يكون لي دخل، حتى تستعجلوا مني العذاب، وإنما اقتصر على الإنذار، مع أنه بشير للمؤمنين ومنذر للمشركين، لأن الحديث عن المشركين المستهزين، وإنما ذكر ثواب المؤمنين بعده زيادة في غيظ الكافرين.

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٥٠﴾

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يدخل فيه كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يدخل فيه أداء كل ما يجب، وترك كل محذور ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لما وقع منهم من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هي الجنة، والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله، بين الله تعالى أن من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، يجمع الله له بين المغفرة، والرزق الكريم.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٥١﴾

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا﴾ بالرد، والطعن، حيث سموها شعراً، وسحراً، وأساطير الأولين ﴿مُعْجِزِينَ﴾ أي سابقين في زعمهم لإطفاء نور الله، طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم، وأصله من عاجزه إذا سبقه، لأن كلاً

من المتسابقين، يريد إعجاز الآخر، عن اللحاق به ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي ملازمو النار الموقدة، وأهلها وأصحابها.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الرسول من بعثه الله بشريعة جديدة، والنبي يعثه، ويشمل من بعثه لتقرير شريعة سابقة ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ أي هيا في نفسه ما يهواه ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ في تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ فيبطله ويذهب به، بعصمته عن الركون إليه، وإرشاده إلى ما يزيحه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَتِهِ﴾ ثم يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في شؤون الحق ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بكل ما من شأنه أن يعلم ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما يفعل بما يحقق المصالح^(١).

(١) الغرض من هذه الآية، أن الأنبياء والرسل عليهم السلام، وإن عصمهم الله عن الخطأ في العلم، فلم يعصمهم من جواز السهو عليهم، بل حالهم في ذلك كحال سائر البشر، وأما ما قيل: إنه ﷺ كان في نادي قومه، يقرأ سورة النجم، فلما بلغ قوله: ﴿وَمِنَّا الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ جرى على لسانه «تلك الغرائق العلى. وإن شفاعتهن لثرتجى» ففرح به المشركون، حتى شايعوه بالسجود، لما سجد في آخر السورة، ثم نبهه جبريل عليه السلام، فاغتم فعزاه الله عز وجل بهذه الآية، فهذا كلام باطل مردود على قائله، وقد ولع به كثير من المستشرقين، فخبثوا في الحديث فيه وأرضعوا، للطعن في الوحي، ومن أعجب العجب، أن يأخذ به بعض المفسرين من المسلمين، وهو مردود عند المحققين، ولذلك لم يتردد ابن إسحق، حين سئل عنه في أن قال: «إنه من وضع الزنادقة» والذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا، فأسندوه إلى هذه الآية، وآية: ﴿وَلَا كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيتَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً﴾^(١).

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٣.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ علة لما ينبئ عنه ما ذكر من إلقاء الشيطان في حق الرسول ﷺ، أي ليجعل تلك الشبهة والوساوس التي يلقيها الشيطان

= والاحتجاج بهذه الآيات، احتجاج مقلوب، فقصة الغرائق المكذوبة تقضي بأن الرسول ﷺ ركن إلى قريش بالفعل، والآية هنا تقول: إن الله ثبته فلم يفعل، على أن الاحتجاج بها يتنافى مع عصمة الرسل، في تبليغ رسالاتهم، ويتنافى مع تاريخ الرسول ﷺ، وكل ما فيها احتجاج متهافت، وأما الآيات التي نحن في تفسيرها، فلا صلة لها بحديث الغرائق البتة، وأول ما يدل على أن هذه القصة موضوعة، اضطراب روايتها، وانقطاع سندها، واختلاف ألفاظها، فقايل يقول: إن النبي ﷺ كان في الصلاة، وآخر يقول: قرأها وهو في نادي قومه، وآخر يقول: قرأها وقد أصابته سته، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وغير ذلك، ولم يروها أحد من أهل الصحة، ولا أسندها ثقةً بسند صحيح، أو سليم متصل، وإنما رواها المفسرون، والمؤرخون المولعون بكل غريب، الملققون من الصحف كل صحيح وسقيم، وقد قامت الدلائل على صدقه ﷺ، وأجمعت الأمة على عصمته، ونزاهته من مثل هذا، ومن الإخبار عن شيء من التبليغ بخلاف ما هو به، لا قصداً، ولا سهواً، ولا غلطاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاجِفُونَ﴾ فكيف يجوز الغلط عليه ﷺ في التلاوة، وهو معصوم منه؟ ودليل آخر أقوى وأقطع، وهو سياق سورة النجم، وعدم احتماله لمسألة الغرائق، لأن هذا السياق صريح، في أن اللآلئ والعزى، أسماء سمّاها المشركون، هم وآباؤهم، ما أنزل الله بها من سلطان، وإن في هذا السياق، من الفساد، والاضطراب، والتناقض، ومدح اللآلئ والعزى وذمها، في أربع آيات متعاقبة، ما لا يسلم به عقل، ولا يقول به إنسان، مع أن وصف العرب لآلهتهم، بأنها الغرائق، لم يرد في نظمهم، ولا في خطبهم، ولم يُقل عن أحد، أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم، وإنما أورد الغزنيق، على أنه لطائر مائي، ولا شيء في ذلك ممّا يلائم معنى الآلهة، أو وصفها عند العرب، فلا أصل إذن لمسألة الغرائق وكلها أخبار باطلة.

﴿فِتْنَةً﴾ محنة وابتلاء ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي شك ونفاق ﴿وَالْفَاسِقِينَ قُلُوبُهُمْ﴾ المشركين فيزدادوا به ظلمة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي الفريقين المذكورين في عداوة شديدة، ومخالفة تامة، فوضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالظلم.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي هو النازل من عنده تعالى ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي بالقرآن، بأن يشبتوا على الإيمان، ويزدادوا إيماناً، بردّ ما يلقي الشيطان ﴿فَتُخْبِتَ﴾ أي فتطمئن ﴿لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد، والخشية، والإذعان لما فيه من الأوامر والنواهي، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في الأمور الدينية، فيتأولون ما يتشابه في الدين، بالتأويلات الصحيحة، فلا تلحقهم حيرة ولا شبهة ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بالنظر الصحيح الذي يوصلهم إلى ما هو الحق.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ﴾ أي في شك وجدال ﴿مِنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي حتى تأتيتهم القيامة فجأة من حيث لا يشعرون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ لا يوم بعده، كأن كل يوم يلد ما بعده، كما يقال: الليلة الحبلى، فما لا يوم بعده يكون عقيماً، والمراد به الساعة أيضاً، كأنه قيل: أو يأتيتهم عذابها، فوضع ذلك موضع ضميرها، لمزيد التهويل.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿الْمَلِكُ﴾ أي السلطان الفاهر، والتصرف على الإطلاق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿لِلَّهِ﴾ وحده بلا شريك، بحيث لا يكون فيه لأحد تصرف، لا صورة ولا معنى ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المؤمنين به، والممارين فيه ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تفسير للحكم المذكور، أي فالذين آمنوا بالقرآن الكريم، ولم يماروا فيه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ امتثالاً بما أمروا في تضاعيفه ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي مستقرون فيها.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي أصرّوا على ذلك واستمروا ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي يُهانون به، مع الخزي والصغار.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعة الله، وطلب رضاه ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ في تضاعيف المهاجرة، روى مجاهد أنها نزلت في طوائف، خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة، فتبعهم المشركون فقاتلهم، وظاهر الكلام للعموم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ﴾ جواب لقسم محذوف ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي لا ينقطع أبداً، من نعيم الجنة، وإنما سوى بينهما في الوعد، لاستوائهما في القصد، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ فإنه يرزق بغير حساب، مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه أحد.

﴿لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُّذَخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿لِيُدْخِلَنَّهُمْ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ﴾ ﴿مُذَخَلًا﴾ هو الجنة ﴿يَرْضَوْنَهُ﴾ فإنهم يرون فيها، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيرضونه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال معادهم ﴿حَلِيمٌ﴾ بامهال من قاتلهم.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك، والجملة للتقرير ما قبله، والتنبيه على أن ما بعده كلام مستأنف ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ أي ولم يزد في الاقتصاص، ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة ﴿لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ على من بغى عليه لا محالة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ﴾ أي مبالغ في العفو والغفران، وفيه تحريض على العفو والمغفرة، وتنبيه على أنه تعالى قادر على العقوبة ومع ذلك يعفو. قيل: نزلت في قوم من المشركين، لقوا قوماً من المسلمين في المحرم، فقال بعضهم لبعض: إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام، فاحملوا عليهم، فناشدهم المسلمون أن يكفوا عن قتالهم، لحزمة الشهر فأبوا وقتلوهم، فذلك بغية عليهم، وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٦١﴾

﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك النصر للمظلوم ﴿يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي بسبب أنه قادر على ما يشاء، ومن شأنه

المدافلة بين الأشياء المتضادة، بإدخال الليل في النهار وبالعكس، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بكل المسموعات ﴿بَصِيرٌ﴾ بجميع المبصرات.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (١٢).

﴿ذَلِكَ﴾ أي الاتصاف بما ذكر، من كمال القدرة والعلم ﴿يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ الواجب لذاته، الثابت في نفسه، وصفاته وأفعاله، فهو وحده المعبود الحق، وهو الخالق الرازق، العالم بكل المعلومات ﴿وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلهاً ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ المعدوم الذي لا يقدر على شيء، الباطل في ألوهيته ﴿وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ على جميع الأشياء ﴿الْكَبِيرُ﴾ عن أن يكون له شريك، لا شيء أعلى منه شأنًا أو أكبر سلطاناً.

﴿لَمْ تَرَ أَنْتَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾
﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣).

﴿لَمْ تَرَ أَنْتَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ استفهام تقرير، كما يفصح عنه رفع فتصبح، أي فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يسها وجذبها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل لطفه، وعلمه إلى كل ما جلَّ ودقَّ ﴿خَبِيرٌ﴾ بما يليق من التدابير وأحوال العباد.

﴿لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ﴾ (١٤).

﴿لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً، وتصرفاً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ﴾ عن كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ المستوجب للحمد، بصفاته، وأفعاله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي جعل ما فيها من الأشياء مذلة لكم، معدة لمنافعكم، تتصرفون فيها كيف شئتم ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي بإذنه ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ أي من أن تقع، بأن خلقها على هيئة متداعية لا تستمسك بنفسها ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي بمشيئته تعالى، وفيه ردٌّ على من زعم استمسакها بذاتها، فإنها متساوية في الجسمية كسائر الأجسام فتكون قابلة للميل الهابط فتقبله كقبول غيرها ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث هيا لهم أسباب معاشهم، وفتح عليهم أبواب المنافع، وأوضح لهم مناهج الاستدلال، بالآيات التكوينية والتزيلية.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ عند البعث ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي جحود للنعم، مع ظهورها، لا يعرف نعمة الإنشاء المبدئ للوجود، ولا الإفناء المقرب إلى الموعود، ولا الإحياء الموصول إلى المقصود.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي لكل أمة معينة، من الأمم الخالية والباقية

﴿جَعَلْنَا﴾ أي وضعنا وعيناً ﴿مَنْسَكًا﴾ أي شريعة خاصة ﴿هُمْ نَاسِكُونَ﴾ عاملون به بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها إلى شريعة أخرى، وهو رد لقول من يقول: إن الذبح ليس بشريعة الله، إذ هو شريعة كل أمة ﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْآمْرِ﴾ أي فلا تلتفت إلى قولهم، زعماء منهم أن شريعتهم التوراة والإنجيل، فإنهما كانا شريعتين لمن مضى من الأمم، وأهل هذا العصر أمة مستقلة منسكهم القرآن المجيد ﴿وَادْعُ﴾ ادع الناس كلهم ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيدهِ وعبادته، وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿إِنَّكَ لَمَلَكٌ هُدًى مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي طريق موصل إلى الحق واضح مستقيم، موصل إلى جنات النعيم، وهو دين الإسلام الخالد.

﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٨﴾

﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ﴾ تعنتاً كما يفعله السفهاء بعد ظهور الحق، ولزوم الحجة عليهم ﴿فَقُلِ﴾ لهم على سبيل الوعيد ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأباطيل، ومنها المجادلة فيجازيكم عليها أسوأ الجزاء.

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٩﴾

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي يفصل بين المؤمنين منكم، والكافرين ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بالثواب والعقاب، كما فصل بالحجة والآيات في الدنيا ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، فيظهر حينئذ الحق من الباطل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ لتقرير أي قد علمت ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

أي لا يخفى عليه شيء من الأشياء، التي من جملتها ما يقوله الكفرة وما يعملونه ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي ما في السماوات والأرض ﴿فِي كِتَابٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، وقال أبو مسلم: معنى (الكتاب) الحفظ والضبط ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من العلم والإحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي هيّن، فإن علمه وقدرته مقتضى ذاته، فلا يخفى عليه شيء، ولا يعسر عليه مقدور.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٧١)

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ أي ما لم يرد به حجة ولا برهان ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي ليس لهم علم بجواز عبادته، فهم إنما يعبدون الأصنام بمجرد الجهل، ومحض التقليد ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم ﴿مِنْ نَصِيرٍ﴾ يساعدهم بنصرة مذهبهم، أو بدفع عذابهم.

﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِإِنتِبَاحٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُّونَ يُسْطَوْنَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ يَشْرُونَ ذَلِكَُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ﴾ (٧١)

﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ من القرآن ﴿بِإِنتِبَاحٍ﴾ أي حال كونها واضحات الدلالة، على صدق الرسول، وكونها من عند الله عز وجل ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ﴾ أي الإنكار، والكرهية، والشر ﴿يَكَادُّونَ يُسْطَوْنَ﴾ أي يكادون يبطشون بهم من فرط الغيظ، والسطو: شدة البطش والوثوب ﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا﴾ يعلم النبي ﷺ

وأصحابه ﴿قُلْ﴾ رداً عليهم، وإقناعاً عما يقصدونه من الإضرار ﴿أَفَأُنَبِّئُكُمْ﴾ أي أخبركم ﴿بِشَرِّينَ ذَلِكَ﴾ الذي فيكم من غيظكم على التالين ﴿النَّارُ﴾ أي هو النار ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَلْسَ الْأَمْصِرُ﴾ أي وعدها الله لكل كافر فاجر، ويشت النار مرجعاً لهم.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٦﴾

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ﴾ أي بُيِّنَ لكم حال مستغربة، وقصة بديعة رائعة حقيقة بأن تسمى مثلاً، تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة، وأريد بذلك ما حكى عنهم، من عبادتهم للأصنام ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ للمثل استماع تدبر وتفكر ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بيان للمثل يعني الأصنام ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي لا يقدرון على خلقه مجتمعين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين، وتخصيص الذباب لصغره، وضعفه، واستقذاره ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً﴾ بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب، أي إن يأخذ الذباب منهم شيئاً ﴿لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ مع غاية ضعفه، ولقد جُهلوا غاية التجهيل، في إشراكهم بالله، القادر على جميع المقدورات، تماثيل هي أعجز الأشياء، وبين ذلك بأنها لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلها، وتعجز عن ذبّه عن نفسها، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ أي عابد الصنم ومعبوده، أو الذباب الطالب والصنم المطلوب منه، ولو حَقَّقَتْ وجدت الصنم أضعف من الذباب بدرجات، وعابدوه أجهل من كل جاهل وأضل.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٧٦﴾

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته، حيث أشركوا

به أحسن الأشياء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على خلق الممكنات بأسرها، وإفناء الموجودات عن آخرها ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع الأشياء، فكيف يتخذ العاجز شبيهاً به؟ فسبحان الله، الأوهام لا تصوره، والأفكار لا تقدره، والعقول لا تمثله، والأزمنة لا تدركه، والجهات لا تحيط به، صمدي الذات، سرمدي الصفات ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي﴾ يختار ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ كجبريل وميكائيل وغيرهما، يتوسطون بينه تعالى وبين الأنبياء بالوحي ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي يختار الله من الناس رسلاً، وهم الذين يختصون بالنفوس الزكية، المؤيدون بالقوة القدسية، المتعلقون بكلا العالمين الروحاني والجسماني، يتلقون من جانب ويلقون إلى جانب، ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق، عن التبتل إلى جانب الحق، فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم، ويعلمونهم شرائعه وأحكامه مثل «إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد» عليهم السلام.

كأنه تعالى لمَّا قرّر وحدانيته في الألوهية، بيّن أن له عبداً مصطفىون لتبليغ الرسالة، وشرائع الدين ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي هو الرقيب على العباد، يعلم أحوالهم وأعمالهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي مرجع أفعال العباد فيجازيهم عليها، فقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ﴾ الخ إشارة إلى العلم التام، وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ﴾ الخ إشارة إلى التفرد في الحكم، ومجموعها يقتضي نهاية التجبُّب عن المعاصي.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ
وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٧٧)

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي صلوا لربكم خاشعين، وعبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أعظم أركانها، أو اخضعوا لله وخزوا سجداً، وفيه دليل على أن هذه السجدة للصلاة، لا للتلاوة، لأنه تعالى قرن السجود بالركوع، وهو قول الحسن، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير وأبي حنيفة، ومالك، وروي عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس أنهم قالوا في الحج سجدتان، وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد، ويدل عليه ما روي عن عتبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله: أفني الحج سجدتان؟ قال: «نعم»^(١) ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بسائر ما تعبدكم به، أخلصوا له العبادة ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ وتحروا ما هو خير وأصلح، في كل ما تأتون وما تذرّون، كنوافل الطاعات، وصلة الأرحام، ومكارم الأخلاق، وغير ذلك من أعمال البر ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي افعلوا هذه كلها، وأنتم راجون للفلاح، كي تفوزوا وتسعدوا.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي
الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا
لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٧٨)

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي جاهدوا الله تعالى، ومن أجله أعداء دينه، ومعنى ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ استفراغ الطاقة فيه وألاً يخاف في الله

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود من رواية عتبة بن عامر.

لومة لائم، وأن يكون الجهاد خالصاً لله، لتكون كلمة الله هي العليا، لقوله ﷺ «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»^(١) ﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ﴾ أي هو اختاركم لدينه، ونصرته لا غيره، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرْجٍ﴾ أي من ضيق وشدة، بتكليف ما يشق عليكم إقامته، فليس في دين الإسلام، ما يصعب أو يستحيل فعله، فقد بعث ﷺ «بالحنيفية السمحة» فيها اليسر والسهولة، كقصر المسافر للصلاة، والتيمم عند فقد الماء، وتشريع الدية في القتل الخطأ. الخ ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أعني بالدين ملة أبيكم وإنما جعله أباهم، لأنه أب الرسول ﷺ، وهو كالأب لأُمَّته، أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته فغلبوا على غيرهم ﴿هُوَ سَمَكُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ في الكتب المتقدمة ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي وفي القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ يوم القيامة ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بطاعة من أطاع، وعصيان من عصى ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل لهم ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي ثقوا بالله في أموركم ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم ومتولي أموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ إذ لا مثل له، في الولاية والنصرة ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي نعم الناصرُ اللهُ عزَّ وجلَّ، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربَّ العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحج».

(١) الحديث أخرجه الشيخان البخاري، ومسلم.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

مكية وهي مائة وثمان عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١).

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ كلمة «قد» ههنا لإفادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت، والفلاح: هو الفوز بالمراد أي قد فازوا بكل خير، وَنَجَوْا من كل ضرر، حسبما كان متوقعا من حالهم، فإن إيمانهم، وأعمالهم الصالحة، من دواعي الفلاح، بموجب الوعد الكريم ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ المصدّقون بما علّم من دين نبينا ﷺ، من التوحيد، والنبوة، والبعث، ونظائرها.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (٢).

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ الخشوع: الخوف والتذلل، وقيل: هو ترك الالتفات في الصلاة، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة، فقال: هو اختلاسٌ يختلسه الشيطان من صلاة العبد»^(١) والاختلاس: هو الاختطاف، ورأى ﷺ مصليا

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٩٤/٢ في صفة الصلاة، وأبو داود رقم ٩١٠ باب الالتفات في الصلاة.

يعبث بلحيته، فقال: «لو خشع قلبُ هذا، لخشعتُ جوارحه»^(١) وقال ﷺ: «لا يزال الله مقبلاً على العبد، وهو في صلاته، ما لم يلتفت، فإذا التفت انصرف عنه»^(٢).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ أي عن الكذب، والباطل، وكل ما لا يعينهم وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي في عامة أوقاتهم، ينزهون أسماعهم عن كل باطل، وإقامة الإعراض مقام الترك، ليدل على تباعدهم عنه رأساً.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ مؤدون، ولفظ ﴿فاعِلُونَ﴾ يدل على المداومة بخلاف مؤدون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْوَاحِهِمْ حَافِظُونَ﴾

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْوَاحِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ممسكون لها عن الحرام، والفرج: اسم لسواة الرجل والمرأة.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ غَيْرُ مُلَوِّمِينَ﴾

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(٢) أخرجه أبو داود رقم ٩٠٩ والنسائي ٨/٣ باب التشديد في الالتفات في الصلاة، وصححه الحاكم.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ أي لا يرسلونها على أحد إلا على أزواجهم وفيه إيذان بأن قوتهم الشهوية داعية لهم إلى ما لا يخفى، وأنهم حافظون لها، وبذلك يتحقق كمال العفة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي سراريهم، والآية في الرجال خاصة، لأن المرأة لا يجوز أن تستمتع بمملوكها ﴿فَأَنَّهُمْ خَيْرٌ مُّلْكُمِ﴾ تعليل لما يفيد الاستثناء، من عدم حفظها منهن، فإنهم غير ملومين على عدم حفظها منهن؛ بل يُباح لهم الاستمتاع بهنّ من غير محذور.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من أربع من الحرائر، وما شاء من الإماء ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي الكاملون في العدوان، وفيه ما يدل على تحريم المتعة، لأنها ليست زوجة له، ولأنهما لا يتوارثان بالإجماع.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ لما يؤتمنون عليه، من جهة الحق والخلق ﴿رَاعُونَ﴾ قائمون عليها وحافظون لها على وجه الإصلاح.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ المفروضة عليهم ﴿يُحَافِظُونَ﴾ أي يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها، وليس فيه تكرير لما أن الخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَرِثُونَ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿هُمُ الْوَرِثُونَ﴾ أي الأحقاء بأن يسموا وُراثاً دون من عداهم.

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرثونه، وتفسير لها بما سيلقونه منها، تفخيماً لسانها، لاستحقاقهم الفردوس بأعمالهم، حسبما يقتضيه الوعد الكريم. والفردوس: هو أعلى الجنة، لما روي عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجة ودرجة، كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تَجَرَّ أنهار الجنة، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس»^(١) ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبداً ولا يموتون.

روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: قرأ الرسول ﷺ: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ إلى عشر آيات من أولها ثم استقبل القبلة وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، اللهم أرضنا وارض عنا، ثم قال: لقد أنزل الله عليّ عشر آياتٍ من أقامهن دخل الجنة»^(٢) وتلا الآيات.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ شروع في بيان مبدأ خلق الإنسان، والمراد بالإنسان الجنس، أي وبالله لقد خلقنا جنس الإنسان، في ضمن خلق آدم عليه السلام خلقاً إجمالياً ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ من خلاصة سُلت من بين الكدر، والسلالة: الخلاصة ﴿مِنْ طِينٍ﴾ أي كائنة من طين، و«من» بيانية، وذلك لأن الإنسان إنما يتولد من الأغذية، والأغذية تتولد من صفو الأرض، فالإنسان بالحقيقة من سلالة من طين، وقيل: المراد بالطين آدم عليه السلام، لأنه خلق منه.

(١) أخرجه الترمذي في صفة الجنة رقم ٢٥٣٣ وأحمد في المسند ٣٣٧/٥.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٧٣ ورواه أحمد في المسند.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي جعلنا نسله ﴿نُطْفَةً﴾ بأن خلقناه منها وجعلنا السلالة نطفة ﴿فِي قَرَارٍ﴾ أي مستقر، وهو الرحم، عبّر عنها بالقرار مبالغة ﴿مَّكِينٍ﴾ أي حصين، سُمّي مكيناً لمكانتها في نفسها، وحفظها فيه بدقة.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي دماً جامداً، بأن أحلنا النطفة البيضاء إلى علقه حمراء ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي قطعة لحم ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ بأن صلّبناها عموداً للبدن، على أوضاع مخصوصة، تقتضيها الحكمة ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ من بقية المضغة ما يليق به من اللحم، على المقدار اللائق به وهيئة مناسبة له، وحيث كان اللحم يستر العظم، جعله كالكسوة له ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي خلقاً مبيناً للخلق الأول، حيث جعله حيواناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره عجائب فطرة، وغرائب حكمة ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فتعالى شأنه في علمه الشامل، وقدرته الباهرة، والالتفات إلى الاسم الجليل، لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذكر من أحكام الألوهية ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي أحسن المقدرين تقديراً، فحذف المميّز لدلالة الخالقين عليه، والمراد أحسن من خلق وأبدع الخلق!! .

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي بعد ما ذكر من الأمور العجيبة ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ لسائرون إلى الموت لا محالة، عند انقضاء آجالكم.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ أي عند النفخة الثانية ﴿ تُبْعَثُونَ ﴾ من قبوركم، للحساب والمجازاة، بالثواب والعقاب.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ ﴾ أي خلقنا في جهة العلو فوقكم يا بني آدم ﴿ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ أي سبع سماوات، سُمِّيَتْ بذلك لأن بعضها فوق بعض، ولأنها طرائق الملائكة ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ ﴾ عن جميع المخلوقات من البشر ﴿ غَافِلِينَ ﴾ أي مهملين أمرها، بل نحفظها وندبرها، حتى تبلغ نهايتها في الحياة.

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِمْ لَقَادِرُونَ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ هو المطر أنزلناه بحسب الحاجة ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ أي بتقدير لائق، لا كثيراً فيتلف ويفسد، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والشمار، إنما أنزلناه بمقدار ما علمناه لمصالحهم ﴿ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي جعلناه ثابتاً قاراً فيها ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِمْ ﴾ أي على إزالته بالإفساد، أو التغيير في الأرض، بحيث يتعذر استنباطه ﴿ لَقَادِرُونَ ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله، فقتدوا هذه النعمة بالشكر كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ۚ ﴾

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحٍ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا ﴾ في الجنات ﴿ فَوَاحٍ كَثِيرٌ ﴾ تتفكهون بها ﴿ وَمِنْهَا ﴾ أي من الجنات ﴿ تَأْكُلُونَ ﴾ أي لكم في ثمرتهما أنواع من الفواكه: الرطب، والعنب، والتمر، والزبيب، والعصير، والدبس، وغير ذلك.

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَّالِكِينَ ﴾ .

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ ﴾ أي وشجرة الزيتون المباركة التي تنبت حول جبل الطور، وتخصيصها بالذكر، لاستقلالها بمنافع عديدة ﴿ تَنبُتُ بِالذَّهْنِ ﴾ أي تنبت بثمر الدهن يعني الزيت ﴿ وَصَبِغٍ لِلَّالِكِينَ ﴾ أي وإدام للالكلين، والصَّبِغُ: ما يُصْبَغُ به ويختص بكل إدام مائع، كالخل ونحوه، وإنما أضيفت الشجرة إلى هذا الجبل، لأنها منه تشعبت في البلاد، وانتشرت، ومعظمها هناك.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ أي تعتبرون بحالها، وتستدلون بها على عظمة الله وجلاله، وهذا بيانٌ للنعم الفائضة من جهة الحيوان ﴿ لِّتُنْقِضُوا مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ تفصيل لما فيها من مواقع العبرة، والمراد بالبطن الجوف أو عن العلف الذي يتكون منه اللبن، أي نخرج من بطونها لبناً سائغاً ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ غير ما ذكر من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي لحومها، فتتفعون بأعيانها كما تتفعون بما يحصل منها.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي على الأنعام، والمراد بها خاصة الإبل، لأنها هي المحمول عليها عندهم ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وفي الجمع بينها وبين الفلك في إيقاع الحمل عليها، مبالغة في تحملها للحمل، وهو الداعي إلى تأخير ذكر هذه المنفعة، لأنها سفائن البر، قال ذو الرمة «سفينة بر تحت خدي زمامها» يريد ناقته، فإنها تحمله وتحمل أثقاله وزاده.

ولما بين تعالى دلائل التوحيد، أردفها بالقصص للعتظة والاعتبار فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي ما لكم إله غير الله تعالى، وفي إيراد قصة نوح عليه السلام إثر قوله: ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ من حسن الموقع ما فيه، إذ كانت نجاته ونجاة المؤمنين معه، بواسطة الفلك والآية شروع لبيان إهمال الأمم السابقة، وتركهم النظر والاعتبار، فيما عدّد من النعم، وعدم تذكّرهم بتذكير رسلهم، وما حاق بهم من العذاب، تحذيراً للمخاطبين ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تتقون عذابه، الذي يستوجبه ما أنتم عليه؟

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي هو بشر مثلكم،

يأكل ويشرب، وهو مشارك لكم في جميع الأمور، وصفوه بذلك، مبالغة في إنزال رتبته العالية، وحطها عن منصب النبوة ﴿يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يريد أن يطلب الفضل عليكم، مع كونه مثلكم، يقولون ذلك، إغراء لهم على معاداته ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لأرسل رسلاً من الملائكة ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي بمثل هذا الكلام، الذي هو الأمر بعبادة الله وحده ﴿فِي آبَاءِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي الماضين قبل بعثته عليه السلام، قالوه لفرط غلوهم في التكذيب.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَدْعُوهُ فَتَرْتَبُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿٧٥﴾

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ يَدْعُوهُ﴾ أي جنون ولذلك يقول ما يقول ﴿فَتَرْتَبُوا بِهِ﴾ أي فاحتملوه واصبروا وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لعله يفيق مما فيه وإلا قتلتموه، رضوا بالالوهية للحجر، ولم يرضوا بالنبوة للبشر.

﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُون﴾ ﴿٧٦﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام بعدما يشس من إيمانهم ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾ بإهلاكهم فإنه حكاية إجمالية لقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِكْرًا﴾ ﴿بِمَا كَذَّبُون﴾ أي بسبب تكذيبهم إياي.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنْثُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ﴿٧٧﴾

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي أجبنا دعاءه وأوحينا عند ذلك إليه ﴿أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ﴾ أن مفسرة لما في الوحي من معنى القول ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبساً

بحفظنا، كأنّ معه عليه السلام منه عزّ وجلّ خُراساً يكلؤونه بأعينهم من التعدي ﴿وَوَحَيْنَا﴾ وتعليمنا لكيفية صنعها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا والمراد بمجيئه كمال اقترابه، أي إذا جاء وقت عذابنا ﴿وَفَكَارَ الشُّورُ﴾ هو التَّوَرُّ الذي يُخْبِزُ فيه، وقيل: هو وجه الأرض، روي ذلك عن ابن عباس قيل له: إذا فار الماء من التنور، اركب أنت ومن معك، فلما نبع منه الماء، أخبرته امرأته فركبوا ﴿فَأَسْلَفَ فِيهَا﴾ أي ادخل فيها، يقال: سلك فيه أي دخل فيه، قال الله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟﴾ ﴿مِنْ كُلِّ﴾ أي من كل صنف ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي فردين مزدوجين ذكر وأنثى ﴿اثنَيْنِ﴾ فإنه نص في الفردين، وذلك لثلا ينقطع ذلك الحيوان ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أهل بيتك أو من آمن معك ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي سبق من الله تعالى القول بإهلاكه، وإنما جيء بعلی، لأن السابق ضار، كما جيء باللام في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ لكونها نافعا ﴿وَلَا تَحْطِئُنِي﴾ بالدعاء لهم لإنجائهم ﴿فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي.

﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَجَّحَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ﴾ أي إذا تمكنتم ﴿أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَجَّحَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي﴾ من السفينة إلى الأرض ﴿مُنْزَلاً مُبَارَكاً﴾ أي إنزالاً مباركاً، يستتبع خيراً كثيراً ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ثناء مطابق لدعائه، أمره بأن يُشَفِّعه به، مبالغة وتوسلاً به إلى الإجابة، إذ بالشكر تدوم النعم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ﴿٣١﴾ .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما فعل بنوح وقومه ﴿لَآيَاتٍ﴾ جليلة يستدل بها أولو الأبصار، على عظمة الواحد القهار ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي لمختبرين بهذه الآيات عبادنا، لننظر من يعتبر ويتذكر، بآيات الله الباهرة.

﴿فَرَأَيْنَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ .

﴿فَرَأَيْنَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ هم «عاد» حسبما روي عن ابن عباس، وعليه أكثر المفسرين، وهو الأوفق لما هو المعهود في سائر السور الكريمة، من إيراد قصة هود، إثر قصة قوم نوح.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ .

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾ لم يأتهم من غير مكانهم، ولم يكن غريباً عنهم، بل إنما نشأ من بين أظهرهم، كما ينبيء عنه قوله تعالى ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي من جملتهم نسباً ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ أي أفلا تخافون عذابه وانتقامه إن كفرتم؟.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِفْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ .

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِفْقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي بمعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ونعمناهم ووسعنا عليهم في

الدنيا ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي ما هو إلا إنسان مثلكم وليس برسول ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ تقرير للمماثلة، وإيثار مثلكم على مثلنا، للمبالغة في تهوين أمره، والخط من شأنه.

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ ﴾ أي امتثلتم بأوامره ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ عقولكم، حيث أذللتم أنفسكم بطاعة شخص مثلكم.

انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق، الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسراناً، دون عبادة الأصنام؟.

﴿ أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴾

﴿ أَعِدُّكُمْ ﴾ أي أعددكم بالحياة بعد الموت؟ والغرض زجرهم عن اتباعه، بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان به ﴿ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا ﴾ أي أصبحتم عظاماً نخرة، مجردة عن اللحم والأعصاب ﴿ أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴾ من القبور أحياء.

﴿ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴾

﴿ هَيَّاتَ هَيَّاتَ ﴾ أي بُعد، بُعد هذا الذي توعدونه، من الإخراج من القبور بعد موتكم، التكرير للتأكيد ﴿ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴾ أي لما يخبركم عنه من البعث، والحساب، والجزاء.

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ أصله ما الحياة إلا حياتنا، فأقيم الضمير مقام الأولى، للدلالة الثانية عليها، حذراً من التكرار، وإشعاراً بإغنائها عن

التصريح، كما في «هي النفس تتحمل ما حُمِلَتْ» ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ لم يريدوا بقولهم هذا «نموت ونحيا» الشخص الواحد، لأنهم منكرون للبعث، بل أرادوا أن البعض يموت، والبعض يحيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٨﴾.

﴿إِنَّ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدّعيه من إرساله إلينا رسولا، وفيما يعدنا من البعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدقين له فيما يقوله!!

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ ﴿٣٩﴾.

﴿قَالَ﴾ أي هود عليه السلام، عند يأسه من إيمانهم، متضرعا إلى الله عز وجل ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونَ﴾ أي بسبب تكذيبهم لي.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصْبِحَنَّ نَادِمِينَ﴾ ﴿٤٠﴾.

﴿قَالَ﴾ تعالى إجابة لدعائه ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي عن زمان قليل ﴿لِّيُصْبِحَنَّ﴾ ليصيرن ﴿نَادِمِينَ﴾ على ما فعلوا من التكذيب.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُشَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤١﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ لعلهم حين أصابتهم الريح العقيم، أصيبوا في تضاعيفها بصيحة هائلة أيضاً، روي أن شداد بن عاد حين أتم إرم سار

إليها بأهله فلما دنا منها بعث الله صيحة من السماء فهلكوا، وقيل: الصيحة نفس العذاب الذي نزل بهم، قال قائلهم:

صَاحَ الزَّمَانُ بِآلٍ بَرَزَكَ صَيْحَةً خَرُّوا لِشِدَّتِهَا عَلَى الْأَذْقَانِ ﴿يَا لِحَقٍّ﴾ أي بالأمر الثابت، الذي لا دافع له، وبالعَدْلِ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُشَاءً﴾ أي كغشاء السيل وهو حميله ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهو من المصادر التي لا يكاد يستعمل ناصبها أي بعدوا بعداً، أي هلكوا واللام لبيان من قيل له بعداً، فبعداً بمنزلة اللعن، ذُكِرَ على وجه الاستخفاف والإهانة.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ (٤٧)

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد هلاكهم ﴿قُرُونًا آخَرِينَ﴾ هم قوم صالح، ولوط، وشعيب، عليهم السلام وغيرهم.

إن الله سبحانه يقص القصص في القرآن، تارة مفصلاً، وتارة مجملاً كما هنا، والمعنى: ما أخلى الديار من المكلفين بل خلق بعدهم أمماً آخرين.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِخُونَ﴾ (٤٨)

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِخُونَ﴾ أي ما تتقدم أمة على الوقت الذي عُيِّنَ لهلاكها، ولا تتأخر عنه.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤٩)

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ «ثم» للتراخي، يعني أن إرسال كل رسول، متأخر عن إنشاء قرن مخصوص بذلك الرسول، كأنه قيل: ثم أنشأنا من بعدهم

قرونًا، قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولاً خاصاً به ﴿تَتَرَى﴾ أي متواترين واحداً بعد واحد، ومنه جاؤوا تترى أي متتابعين ﴿كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولُهَا كَذِبُهُ﴾ في أول الملاقاة، وفيه تشنيع عليهم بكمال ضلالهم، حيث كذبت كل واحدة منهم رسولهم ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ في الهلاك، حسبما تبع بعضهم بعضاً في مباشرة أسبابه، التي هي الكفر، والتكذيب، وسائر المعاصي ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي لم يبق منهم إلا حكايات، يعتبر بها المعترفون، وهو جمع أحداثته، وهي ما يتحدث به تلهياً وتعجباً، أي جعلناهم قصصاً تُروى، وأحاديث يتحدث بها تعجباً ﴿فَبَعَثْنَا لِقَوْمِهِمُ الْيُوسُفَ﴾ أي فهلاكاً ودماراً لقوم لا يؤمنون بالله.

اقتصر هنا على وصفهم بعدم الإيمان، أما القرون الأولى فحيث نقل عنهم الغلو في الكفر والعدوان، وصفوا بالظلم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١٥).

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ هي الآيات التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي حجة واضحة ملزمة للخصم، تدلُّ على صدقهما وتأييد الله لهما بالبراهين القاطعة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ (١٦).

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أشراف قومه ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الانقياد ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبرين ومتمردين على الله ورسوله.

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ﴾ (١٧).

﴿فَقَالُوا﴾ أي قالوا فيما بينهم ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾؟ يعنون موسى وهارون عليهما السلام ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعنون بني إسرائيل ﴿لَنَا عِيدُونَ﴾؟ أي

خادمون، منقادون لنا كالعبيد، كأنهم قصدوا التعريض بشأنهما، وخطب رتبتهما، بناء على زعمهم الفاسد، المؤسس على التقدم في نيل الحظوظ الدنية، من المال والجاه، كدأب قريش، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(١) ؟ وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة، هو السبق في إحراز الملكات السنية، بالقوة القدسية، مع صفاء الجوهر الذاتي، فأنى لهم هذا خذلهم الله !.

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أي فاستمروا على تكذيبهما، وأصرُّوا واستكبروا
﴿ فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ في البحر.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا ﴾ قوم ﴿ مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة بعد إهلاكهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى طريق الحق، بالعمل بما فيها.

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ دالة على عظيم قدرتنا، بولادته منها من غير ميسس بشر ﴿ وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ﴾ إلى أرض مرتفعة هي بيت المقدس ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ أي مستقر يستقر عليها ساكنوها، وكانت ذات ثمار وزروع، لأجلها يستقر فيها الناس ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ أي وماء معين ظاهر يجري على وجه الأرض، معن الماء جرى، فهو معين.

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

نَبَّهَ سَبْحَانَهُ عَلَى كَمَالِ نَعْمِهِ عَلَيْهِمَا، بِهَذَا اللَّفْظِ عَلَى اخْتِصَارِهِ.

﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ خُوطِبَ بِهِ كُلُّ رَسُولٍ فِي عَصْرِهِ، وَلَيْسَ إِبَاحَةُ الطَّيِّبَاتِ مِنْ خَصَائِصِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَلْ هُوَ شَرِيعٌ قَدِيمٌ، أَيْ وَقَلْنَا لِكُلِّ رَسُولٍ: كُلْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفِيهِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى بَطْلَانِ مَا عَلَيْهِ الرِّهَابِيَّةُ، مِنْ رَفْضِ الطَّيِّبَاتِ ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أَيْ عَمَلًا صَالِحًا مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ الشَّرِيفِ، وَتَقْدِيمُ قَوْلِهِ: ﴿كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ كَالدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، لَا يَدُ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقًا بِأَكْلِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَاجَازِيَكُمْ عَلَيْهِ.

﴿وَلِإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

﴿وَلِإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ أَيْ خَافُوا عَذَابِي وَعِقَابِي، وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ دَاخِلٌ فِيْمَا خُوطِبَ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مَسْوَوقٌ لِبَيَانِ أَنَّ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ وَالتَّوْحِيدِ، مِمَّا أُمِرَ بِهَا كَافَّةُ الرُّسُلِ وَالْأُمَمِ، فَمَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ، يَشْعُرُ بِأَنَّهُ صَارَ أَحَدًا لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّ أُمَّتَهُ هِيَ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، لَا الْعَرَبِيَّةُ، وَلَا الْفَارْسِيَّةُ، وَلَا التُّرْكِيَّةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وَقَالَ ﷺ فِي خُطْبَةِ الْوُدَاعِ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، إِلَّا بِالتَّقْوَى» الْحَدِيثُ..

وَالْيَوْمَ حَدَّثَتِ الْعَصْبِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ الَّتِي حَرَمَهَا الْإِسْلَامُ، بَعْدَ أَنْ ضَعُفَ الْعِلْمُ وَالْدِّينُ، حَتَّى قَامَ بَعْضُ الْأَعَاجِمِ يَفْتَخِرُ بِسُلْفِهِ مِنَ الْوَثْنِيِّينَ وَالْمَجُوسِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ أَيْ فَاحْذَرُوا مَخَالَفَتَكُمْ أَمْرِي، وَالْأَمْرَ فِي حَقِّ الرُّسُلِ لِلتَّهْيِيجِ، وَفِي حَقِّ الْأُمَمِ لِلتَّحْذِيرِ وَالْإِجَابِ.

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥٦)

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي تقطعوا أمر دينهم مع اتحادهم، وجعلوه أدياناً مختلفة ﴿ زُبُرًا ﴾ أي قطعاً، جمع زبور بمعنى الفرقة، أي أدياناً مختلفة ﴿ كُلُّ حِزْبٍ ﴾ من المتحزبين ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ من الذي اختاروه ﴿ فَرِحُونَ ﴾ مسرورون، ومعتقدون أنهم على الحق.

﴿ فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٥٧)

﴿ فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ ﴾ شبه ما هم فيه من الجهالة، بالماء الذي يغمر القامة، لأنهم مغمورون فيها، والغمرة: الانهماك في الباطل، والخطاب للرسول ﷺ، أي اتركهم على حالهم ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ هو حين موتهم، فهو وعيد لهم، والمراد به الحالة التي تقتن بها الحسرة والندامة.

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُضَاهُهُمْ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴾ (٥٨)

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُضَاهُهُمْ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴾ أي نعطيهم إياه.

﴿ سَارِعُ لَهْمٌ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٥٩)

﴿ سَارِعُ لَهْمٌ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾؟ أي يحسبون أنما نسارع به لهم، فيما فيه خيرهم وإكرامهم، معاجلةً بالثواب على حسن صنيعهم؟ ﴿ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يشعرون بشيء أصلاً، كالبهائم التي لا فطنة لها ولا شعور، ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراجٌ لهم، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ﴾ (١) الآية.

(١) سورة التوبة، آية: ٨٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ﴾. بيان من له المسارعة في الخيرات، إثر إقناط الكفار عنها ﴿مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ﴾ أي من خوف عذابه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي حذرون وخائفون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٨).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ﴾ المنزلة على رسوله ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بتصديقها ولا يفرقون بين كتبه ورسله.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ رَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ رَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ شركاً جلياً ولا خفياً، ولا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويخلصون له العمل طلباً لمرضاته.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦٠).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا﴾ أي يعطون ما أعطوه من الصدقات والخيرات، وأنواع القربات والصالحات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي وهم خائفون مشفقون ألا يتقبل الله منهم، من قوة إيمانهم، وفرط إحسانهم، روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهم الذين يشربون الخمر، ويسرقون، ويخافون ربهم؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يقبل منهم: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾^(١) ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي لأنهم يوقنون أنهم إلى الله عز وجل صائرون، للمجازاة.

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٧٤ والحاكم ٣٩٤/٢ وصححه.

﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَاهِقُونَ﴾ (١١).

﴿أُولَئِكَ﴾ أي أولئك المنعوتون ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي في نيل الخيرات الموعودة، كما في قوله تعالى: ﴿فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ وقد غيّر الأسلوب، حيث لم يقل: نسارع لهم في الخيرات، بل أسند المسارعة إليهم، إيماءً إلى كمال استحقاقهم، لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم ﴿وَهُمْ لَهَا سَاهِقُونَ﴾ أي ينالونها قبل الآخرة، حيث عجلت لهم في الدنيا.

﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٢).

﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي ولا نكلف أحداً من العباد ما لا يطيق، تفضلاً منا وإحساناً، والآية سبقت للتحريض على ما وصف من فعل الطاعات، ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده ما ليس في وسعهم، وما عليهم إلا أن يبذلوا طاقتهم ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ أي صحائف الأعمال يقرؤونها عند الحساب ﴿يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ أي تظهر فيه أعمالهم، وكأنها تنطق عليهم بما عملوا، كقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١) أي عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل أحد، على ما هي عليه، وقوله تعالى: ﴿يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ أي يظهر الحق، ويبين للناظر كما يبينه النطق للسامع، فيظهر هنالك جلائل أعمالهم ودقائقها، ويترتب عليها أجزيتها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يظلمون بنقص ثواب، أو بزيادة عذاب، بل يجزون بقدر أعمالهم.

(١) سورة الجاثية، آية: ٢٩.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ (١٣).

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ الضمير للكفرة ﴿قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ﴾ أي في عماية وغطاء، وغفلة غامرة، عن هذا القرآن ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ﴾ خبيثة كثيرة ﴿مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر، من كون قلوبهم في غفلة، وهي: فنون كفرهم ومعاصيهم ﴿هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ أي مستمرّون عليها، لا يكفون عنها، ولا ينزجرون.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ (١٤).

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ أي متنعّميهم، وهم الذين أكرمهم الله بالمال والبنين، أي لا يزالون يعملون أعمالهم السيئة، إلى أن أخذنا رؤساءهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ هو القتل، والأسر، والجوع الذي أصابهم بالقحط، حتى أكلوا الكلاب والجيف ﴿إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ أي فاجتوا الصراخ بالاستغاثة من الله عز وجل، وتخصيص مترفيهم، مع عموم العذاب للكل لغاية ظهور أمرهم، فإذا كان المترفون ذاقوا العذاب، فلأن يلقاها من عداهم من الأتباع والخدم أولى.

﴿لَا تَجْتَرُوا يَوْمَئِذٍ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ﴾ (١٥).

﴿لَا تَجْتَرُوا يَوْمَئِذٍ﴾ أي لا تستغيثوا اليوم من العذاب ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ﴾ فإنكم لا تمنعون من عذابنا، وهو تعليل للنهي عن الجوار، ببيان عدم نفعه، أي لا تلحقكم من جهتنا نصرّة تنجيكم.

﴿فَذَٰكَكَ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُونَ﴾ (١٦).

﴿فَذَٰكَكَ﴾ تعليل لعدم النصر ﴿ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُونَ﴾ أي تعرضون عن سماعها أشدّ الإعراض، فضلاً عن تصديقها.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهَجُّونَ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ على المسلمين ﴿بِهِ﴾ أي بالبيت الحرام وبالحرَم، تزعمون أنكم حماة وخدامه ﴿سِمِرًا﴾ أي تسمرون بذكر القرآن، والظعن فيه، حيث كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن بالانتقاص ﴿تَهَجُّونَ﴾ من الهُجر وهو الفحش، هَجَرَ المريضُ في كلامه خَلَطَ وهذَى، والهُجر بالضم الفحش.

﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ﴾ أي القرآن، والهمزة للإنكار، أي أفعلوا ما فعلوا من النكوص، والاستكبار، والهجر، فلم يتدبروا القرآن المعجز، ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم، وصحة الاستدلال، والإخبار عن الغيب أنه الحق من ربهم، فيؤمنوا به ﴿أَمْ جَاءَهُمْ﴾ أم منقطعة وما فيه من معنى بل للإضراب، والانتقال عن التوبيخ إلى توبيخ آخر، أي بل أجاءهم من الكتاب ﴿مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ حتى استبدعوه، واستبعدوا نزوله، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال، يعني أن مجيء الكتب من جهته تعالى، سُنَّةٌ قديمة له تعالى، لا يكاد يتسنى إنكاره، وأن مجيء القرآن على طريقته، فمن أين ينكرون ويعتقدون أن مجيء الرسل، أمرٌ على خلاف العادة، فقد عرفوا بالتواتر، أن الرسل عليهم السلام بعثوا إلى الأمم.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُوا﴾ ﴿٢٩﴾

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ إضراب من التوبيخ إلى توبيخ بوجه آخر، والهمزة لإنكار الوقوع أيضاً، أي بل ألم يعرفوا رسولهم ﷺ بالأمانة، والصدق، وحسن الأخلاق، وكمال العلم، مع عدم التعلم من أحد، مما

حاز به الكمالات اللانقة بالأنبياء عليهم السلام؟ ﴿فَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا﴾ أي جاحدون لنبوته، فهو تأكيد لما قبله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرُوهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي بل يقولون به جنون، مع أنه أرجح الناس عقلاً وأثقبهم ذهنًا، وأتقنهم رأيًا، وأوفرهم رزانة ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ إضراب عما سبق، أي ليس الأمر كذلك في حق القرآن والرسول، بل جاءهم محمد بالصدق الثابت، الذي لا تخفى صحته وحسنه على عاقل، ولا مدخل للباطل عليه بوجه من الوجوه ﴿وَكَثُرُوهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ أي ومع وضوح الأمر، فإن أكثر المشركين يكرهون الحق، لما في جبلتهم من الزيغ والانحراف حيث علموا أنهم لو أقروا ﷺ لزال مناصبهم ورياستهم، ولذا كرهوا هذا الحق الأبلج، وزاغوا عن الطريق الأنهج، وتخصيص أكثرهم بهذا الوصف، لا يقتضي عدم كراهة الباقيين للحق المبين، وإنما ذكر الأكثر لأن من اهتدى منهم أقل من القليل.

﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ بَلْ أَيْتَنَّهُمْ يَذَكِّرُهُمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي لو كان ماكرهوه من الحق الذي من جملته ما جاء به ﷺ، موافقاً لأهوائهم الباطلة ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية، لأن مناط النظام ليس إلا ذلك، وفيه من تنويه شأن الحق، والتنبيه على سمو مكانه، ما لا يخفى!! ﴿بَلْ أَيْتَنَّهُمْ يَذَكِّرُهُمْ﴾ انتقال من تشنيعهم بكراهة الحق، تشنيعهم بالإعراض عن الرغبة فيما فيه خيرهم وسعادتهم، والمراد بالذكر القرآن الذي هو فخرهم وشرفهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَذِكْرَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ والمعنى: بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم، الذي كان يجب

عليهم أن يقبلوا عليه أكمل إقبال، لأن الرسول ﷺ منهم، والقرآن بلغتهم، وهو أعظم شرف لهم ﴿فَهَرَّ﴾ بما فعلوا من الإعراض والعناد ﴿عَنْ ذِكْرِهِمْ﴾ أي شرفهم خاصة ﴿مُقَرَّضُونَ﴾ بسوء اختيارهم، ووَضَعَ الظاهر بدل الضمير، لمزيد التشنيع عليهم.

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴾ ﴿٧٦﴾

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾ جُعِلَ وأجراً على أداء الرسالة، انتقالاً إلى التوبيخ بوجه آخر، كأنه قيل: أم يزعمون أنك تسألهم على أداء الرسالة أجراً، فلذلك لا يؤمنون بك؟ والخَرْجُ، والخَرَجُ: ما يحصل من غلة الأرض، ولذلك أطلق على الجزية ﴿فَخَرَّاجُ رَيْكَ خَيْرٌ﴾ أي رزقه في الدنيا، وثوابه في الآخرة خير لك يا محمد، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ أي هو تعالى أفضل من تَكْرَم فأعطى ورزق.

﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿٧٧﴾

﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ هو دين الإسلام، الذي تشهد العقول السليمة باستقامته، ليس فيه شائبة اعوجاج، ولقد ألزمهم الله عز وجل، وأزاح علّهم، في هذه الآيات، وبين انتفاء ما عدا كراهتهم للحق، وقلة فطنتهم بمصالحهم، وما يسعدهم وينجيهم من عذاب الله.

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُوكَ ﴾ ﴿٧٨﴾

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ وصفوا بذلك تشبيهاً لهم، بما هم عليه من الانهماك في الدنيا، وزعمهم أن لا حياة إلا الحياة الدنيا، وإشعاراً بعلّة الحكم، فإن الإيمان بالآخرة، من أقوى الدواعي إلى طلب الحق،

وسلوك سبيله ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكْبِتُ﴾ أي عن جنس الصراط لعادلون عنه، فضلاً عن الصراط المستقيم، نكب عن الطريق: عدل ومال عنه.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٥).

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ أي فحط وجذب ﴿لَلَجُّوا﴾ أي لتمادوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار، وعداوة الرسول والمؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عامهين عن الهدى، ومتحيرين، روي أنه لما أسلم «ثمame بن أثال» ولحق باليمامة ومنع الميرة عن أهل مكة، وأخذهم الله بالسنين، حتى أكلوا الميتة والكلاب والحشرات، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ يرجوه الدعاء لكشف الضر، فتزلت الآية.

والمعنى: لو كشفنا عنهم ما أصابهم برحمتنا، لارتدوا إلى ما كانوا عليه، من الإفراط بالكفر والعصيان، وقد كان الأمر كذلك، فقد عادوا إلى الفجور والطغيان بعد أن أغاثهم الله بدعاء رسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضِرُّعُونَ﴾ (٧٦).

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ هو ما نالهم يوم بدر، وما أصابهم من فنون العذاب، من جملتها القحط المذكور، واللام جواب قسم محذوف، أي وبالله لقد أخذناهم بالعذاب العاجل ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي لم يخضعوا لله، بل أقاموا على العتو والاستكبار ﴿وَمَا يَضِرُّعُونَ﴾ أي وليس من عاداتهم التضرع إليه تعالى^(١).

(١) هكذا كان شأن الفجرة من طغاة مكة، لم يخضعوا لله ولم يستجيبوا لدعوة رسوله، وما رؤي منهم لينٌ وتوجه إلى الإسلام، وأما ما أظهره أبو سفيان من الاستكانة له =

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ (٧٧).

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ هو عذاب الآخرة، كما ينبىء عند التهويل بفتح الباب، والوصف بالشدة ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ متحIRON آيسون من كل خير، كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (١) أْبْلَسَ إبْلَاسًا: سَكَتَ وَأَيْسَ.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨).

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ ﴾ لتسمعوا بها الآيات التنزيلية ولتشاهدوا بها الآيات التكوينية، وخصَّهما بالذكر لأنهما يتعلق بهما كثير من المنافع الدينية والدنيوية. ﴿ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ لتفكروا بها ما تشاهدونه وتعتبروا وتستدلوا بها إلى غير ذلك ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي شكرًا قليلًا تشكرون تلك النعم العجيبة، لأن العمدة في شكرها استعمالها فيما خلقت لأجله والإذعان لمانحها، وأنتم تُخْلُون بذلك إخلالاً عظيماً، وليس المراد أن لهم شكرًا وإن قلَّ، وما مزيدة للتأكيد بمعنى حقاً.

﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٧٩).

﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ ﴾ أي خلقكم وبثكم ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالتناسل ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي تجمعون يوم القيامة لا إلى غيره، فما لكم لا تؤمنون به ولا تشكرونه؟

= تعالى، فإنما هو نوع خنوع إلى أن يتم له غرضه، فحاله كما قيل عن بعض الطغاة المتجبرين: إذا جاع صَغَا، وإذا شبع طغَا، وأكثرهم مستمرون على هذا الشأن.
(١) سورة الروم، آية: ١٢.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٨٠).

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ من غير أن يشاركه في ذلك شيء من الأشياء ﴿ وَلَهُ ﴾ خاصة ﴿ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ وهو المؤثر في اختلافهما أي تعاقبهما ازدياداً وانتقاصاً ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟ أي ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الكل منا!؟.

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ (٨١).

﴿ بَلْ قَالُوا ﴾ كفار مكة عطف على مضمر، أي فلم يعقلوا، بل قالوا ﴿ مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ أي أبأؤهم ومن دان بدينهم.

﴿ قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَلَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٨٢).

﴿ قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَلَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أي سنعود إلى الحياة مرة أخرى؟.

﴿ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٨٣).

﴿ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا ﴾ أي البعث ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ متعلق بالفعل من حيث إسناده إلى آبائهم لا إليهم، أي وَعِدَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي ما هذا إلا خرافات وأباطيل الأمم السابقة، وأكاذيبهم التي سَطَرُوها، جمع أسطورة كأعجوبة والأساطير: الأباطيل، واحدها إسطورة وأسطورة، كأنهم قالوا: إن هذا الوعد كما وقع منه ﷺ، فقد وقع قديماً، ولم يوجد مع طول العهد، فظنوا أن الإعادة تكون في دار الدنيا.

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤١﴾

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ﴾؟ من المخلوقات وأورد «مَنْ» ولم يقل «ما» تغليياً للعلاء على غيرهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ شيئاً فأخبروني به، وفيه استهانة بهم وسخرية، وتقرير لجهلهم، ولذلك أخبر بجوابهم، قبل أن يجيبوا.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ لأن بديهية العقل، تضطرهم إلى الاعتراف بأنه خالقها ﴿قُلْ﴾ عند اعترافهم ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ فتعلمون أن من فطر الأرض ومن فيها ابتداءً، قادر على إيجادها ثانياً؟ فإن البدء ليس بأهون من الإعادة، بل الأمر بالعكس في قياس العقل! وفيه الترغيب في التدبر، ليعلموا بطلان ما هم عليه.

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾؟ أعيد الرب تنوياً لشأن العرش، ورفعاً لمحلّه عن أن يكون تبعاً للسموات، وجوداً وذكراً.

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ ﴾ إفحاماً لهم وتوبيخاً ﴿أَفَلَا نُنْقِطُ﴾؟ أي أفلا تخافون عذابه؟ وكيف تنكرون قدرته على البعث وهو الخالق المبدع جلّ وعلا؟!.

﴿ قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿ قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر، أي ملكه التام، والملكوت: الملك الواسع، والواو والتاء للمبالغة، فتنبىء عن عظم الملك ﴿ وَهُوَ يُحْيِي ﴾ يغيث غيره إذا شاء ويحرسه ﴿ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أي ولا يغيث أحد عليه، أي لا يمنع أحد منه إذا أراد بسوء ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك !! .

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ ﴿٨٩﴾ .

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أي لله ملكوت كل شيء، وهو يجبر ولا يجار عليه ﴿ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ ؟ فمن أين تخدعون وتصرفون عن الرشد، إلى ما أنتم عليه من الغي؟ فإن من لا يكون مسحوراً مختل العقل، لا يكون كذلك .

﴿ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ﴿٩٠﴾ .

﴿ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أي جنناكم بالأمر الصادق القاطع، الذي لا محيد عنه من التوحيد، والوعد بالبعث ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فيما قالوا من الشرك، وإنكار البعث .

﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ﴿٩١﴾ .

﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ كما يقوله النصارى، والقائلون بالملائكة بنات الله، وهم مشركو مكة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ يشاركه في الألوهية كما يقوله عبدة الأوثان وغيرهم ﴿ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ

إِلَهُمْ بِمَا خَلَقَ ﴿١٠٩﴾ أَيُّ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَزْعُمُونَ، لَذَهَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا خَلَقَهُ، وَاسْتَبَدَّ بِهِ، وَامْتَازَ مُلْكُهُ عَنْ مُلْكِ الْآخَرِينَ، وَوَقَعَ بَيْنَهُمُ التَّغَالُبُ وَالتَّحَارُبُ، كَمَا هُوَ الْجَارِي بَيْنَ الْمُلُوكِ ﴿١١٠﴾ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿١١١﴾ أَيُّ لَغَلَبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَلَمْ يَكُنْ يَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَلَمْ يَكُنْ بِيَدِهِ وَاحِدَهُ مُلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ نَزَّهَ تَعَالَى ذَاتَهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ مِنْ إِثْبَاتِ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ، وَحَيْثُ لَمْ يُرَ أَثَرُ التَّمَايُزِ، وَالتَّغَالِبِ، فِي مُلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَلِمَ أَنَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ، بِيَدِهِ مُلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ.

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١١٣﴾

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ﴿١١٤﴾ هَذَا دَلِيلٌ آخَرٌ عَلَى انْتِفَاءِ الشَّرِيكِ، بِنَاءً عَلَى تَوَافُقِهِمْ فِي تَفَرُّدِهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ رَتَّبَ عَلَيْهِ بِالْفَاءِ ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ فَإِنْ تَفَرَّدَ تَعَالَى بِذَلِكَ، مُوجِبٌ لِتَعَالِيهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ، أَوْ شَبِيهٌ، أَوْ نَظِيرٌ.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١٧﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿١١٨﴾

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿١١٩﴾ أَيُّ مَا تَعِدُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا. ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾ أَيُّ قَرِيناً لَهُمْ، فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ شُؤْمِ الْكُفْرِ، وَفِيهِ إِيْذَانٌ بِكَمَالِ فَظَاعَةِ مَا وَعَدُوهُ مِنَ الْعَذَابِ، وَكَوْنِهِ بِحَيْثُ يَجِبُ أَنْ يَسْتَعِيدَ مِنْهُ الْإِنْسَانُ. ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ ﴿١٢١﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿لَقَدِيرُونَ﴾ وَلَكِنَّا نُوَخِّرُهُ.

﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾

﴿ادْفَعْ بِأَلْفِي هَيَّ أَحْسَنُ﴾ بالخصلة التي هي أحسن، وهي الصفح، والإعراض، والصبر ﴿السَّيِّئَةُ﴾ يعني أذاهم، لكن لا بحيث يؤدي إلى وهن في الدين، وهو أبلغ من «ادفع بالحسنة السيئة» لما فيه من التنصيص على التفضيل، كأنه قال: ادفع بالحسنة السيئة، قيل هي منسوخة بآية السيف، والصحيح أنها محكمة، إذ المداراة محثوث عليها، ما لم تؤدَّ إلى تُلُم دين، أو نقصان مروءة ﴿تَحْنُ أَغْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي بما يصفونك به من الكهانة، والسحر، والكذب على الله، وفيه وعيد لهم، وتسلية للرسول ﷺ، وإرشاد له إلى تفويض أمره إليه تعالى.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (١٧)

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي وساوسهم، وأصل الهمز: النخس، شُبَّه حَثَم للناس على المعاصي، بهمز الراءض للدابة حتى تسرع، فالشياطين يُهَيِّجُونَ الكفار والفجَّار، على الكفر والعصيان.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (١٨)

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي في شيء من أموري، وتخصيص حال الصلاة، وقراءة القرآن، وحلول الأجل، لأنها أخرى الأحوال بأن يخاف عليه، عن جبير بن مطعم عن أبيه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة قال: «الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من نفخه، ونفثه، وهمزه»^(١) قيل: نفخه: الكبر، ونفثه: الشَّعْر، وهمزه: الجنون.

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه، وابن ماجه رقم ٧٩١ باب الاستعاذة في الصلاة.

﴿ حَقٌّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾

﴿ حَقٌّ ﴾ متعلق بـيصفون، وما بينهما اعتراض مؤكد للإغضاء عن السفهاء بالاستعاذة من الشيطان، أن يزيله عن الحلم، ويغريه على الانتقام، أي يستمرون على الوصف المذكور حتى ﴿ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ وظهر له أحوال الآخرة ﴿ قَالَ ﴾ تحسراً على ما فرط فيه من الإيمان والطاعة ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ أي ردني إلى الدنيا، والواو لتعظيم المخاطب.

﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ أي فيما ضيعت من عمري ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن طلب الرجعة، واستبعاد لهم ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي قوله: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ لا محالة لتسليط الحسرة عليه ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾ أي أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة وهو القبر ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ يوم القيامة، وهو إقناط كلي عن الرجعة لما أنه لا رجعة يوم البعث إلى الدنيا، بل إلى الآخرة.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ النفخة الثانية، التي يقع عندها البعث ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ تنفعهم لزوال التراحم، والتعاطف، من فرط الحيرة، واستيلاء الدهشة، بحيث «يفتر المرء من أخيه، وأمه، وأبيه، وصاحبته، وبنيه» ولا أنساب يفتخرون بها ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ كما يفعلون اليوم ﴿ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً، لاشتغال كل بنفسه، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ لأن هذا عند ابتداء النفخة وذلك بعد المحاسبة ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي من زادت حسناته على سيئاته، فهو الفائز بالسعادة، ومن كثرت سيئاته وقلّت حسناته، فهو الشقي الخاسر، المخلّد في نار جهنم.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي تحرقها، واللّفح كالنفخ إلا أنه أشد تأثيراً منه، وتخصيص الوجوه بذلك، لأنها أشرف الأعضاء ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ من شدة الاحتراق، والكلوح: تقلّص الشفتين عن الأسنان، والعبوسة^(١).

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتِنَّا عَلَيْكُمْ فَنَكُتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتِنَّا عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول، أي يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً: ألم تكن آيات القرآن تنلّ عليكم ﴿فَنَكُتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ أي في الدنيا تكذبون بها وتسخرون؟.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ التي اقترفناها بسوء اختيارنا ﴿وَكُنَّا﴾

(١) ورد تفسير الكلوح عن النبي ﷺ، في الحديث الذي يرويه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «تشويه النَّارُ، فتقلّص شفته العليا، حتى تبلغ وسط رأسه، وتسرخي شفته السفلى، حتى تضرب سُرَّتَه» أخرجه الترمذي رقم ٣١٧٥ وأحمد في المسند ٨٨/٣.

بسبب ذلك ﴿قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ عن الحق، وهذا كما ترى اعتراف منهم، بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنهم لو كانوا مجبورين على ما صدر عنهم، لما سألوا الرجعة إلى الدنيا، ولما وعدوا الإيمان والطاعة.

﴿قَالَ اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

﴿قَالَ اخْشَوْا فِيهَا﴾ أي اسكتوا سكوت هوان، من خسأت الكلب إذا زجرته فخساً أي ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي باستدعاء الإخراج من النار، وهو آخر كلامهم، ثم لا كلام لهم بعد ذلك، إلا الشهيق والزفير.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ هم المؤمنون المستضعفون، الذين كان المشركون منهم يسخرون، وقيل: هم أهل الصفة.

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَآءً حَتَّىٰ أَنسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾.

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَآءً﴾ أي اسكتوا عن الدعاء بالإخراج من النار، لأنكم كنتم في الدنيا تستهزئون بالداعين من عبادي ﴿حَتَّىٰ أَنسَوَكُم ذِكْرِي﴾ من فرط اشتغالكم باستهزائهم ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي تسخرون منهم وتضحكون عليهم، لأنكم لا تؤمنون ببقاء الله، ولا تفكرون في حساب ولا جزاء.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي جازيتهم على ما تحملوا في سبيل دينهم ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بسبب صبرهم على أذيتكم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي هم الفائزون بالنعيم الأبدي. فجوزوا أحسن الجزاء.

﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ الله تعالى ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؟ أي كم مكثتم أحياء في الأرض التي تريدون أن ترجعوا إليها؟.

﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصاراً لمدة لبثهم فيها، بالنسبة إلى خلودهم في النار، ولأنها منقضية، والمنقضية في حكم المعلوم ﴿فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ أي الحاسبين المتمكنين من العد.

قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب، المدة التي مكثوها في الدنيا.

﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُم كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ تصديقاً لهم في ذلك ﴿إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُم كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كنتم من أهل العلم والفهم، لعلمتم قلة لبثكم فيها، والغرض تعريفهم قلة أيام الدنيا، في مقابلة أيام الآخرة.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ بغير حكمة، حتى أنكرتم البعث
﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء؟.

﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
الْكَبِيرِ﴾ (١١٦).

﴿فَتَعَلَى اللَّهِ﴾ استعظام له تعالى، أي ارتفع بذاته وتنزه عن المماثلة
في ذاته وصفاته ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ الذي يحق له الملك على الإطلاق ﴿لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإن كل ما عداه عبده وهو الكبير المتعال ﴿رَبُّ الْعَرْشِ
الْكَبِيرِ﴾ الذي يحيط بالأجرام، وهو أعظم المخلوقات، ووصف العرش
بالكرم، لأنه ينزل منه الوحي، والخير، والبركة.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ
إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧).

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ يعبده ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفة لازمة جيء به
للتأكيد، وتنبيهاً على أن التدين بما لا دليل عليه باطل ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ
رَبِّهِ﴾ فهو مجاز له على قدر ما يستحقه، كأنه قيل: إن عقابه بلغ إلى
حيث لا يقدر أحد على حسابه إلا الله عز وجل ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾
أي لا يفوز ولا ينجح الجاحد المكذب، وضع الظاهر لأن «مَنْ» في معنى
الجمع، بدأت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين، وختمت بنفي الفلاح
عن الكافرين، ليظهر التفاوت الكبير بين الفريقين.

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ (١١٨).

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ أمر الرسول ﷺ بالاستغفار،
إيداناً بأنه من أهم الأمور الدينية، حيث أمر به من قد غفر له ما تقدم من

ذنبه وما تأخر، روى البغوي بسنده أن رجلاً مصاباً، مُرَّ به على ابن مسعود رضي الله عنه فراقه في أذنه ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ إلى آخر السورة، فبرأ.

نحمد الله حمد الشاكرين، ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المؤمنون».

سُورَةُ النُّورِ

مدنية وهي أربع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١).

﴿سُورَةُ﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن، من جوامع سور القرآن ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ أي أوحينا بها إليك يا محمد في هذا الكتاب العزيز ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً، وإنما قال ذلك، لأن أكثر ما في هذه السورة، من باب الأحكام والحدود ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا﴾ في تضاعيف السورة ﴿آيَاتٍ﴾ التي نيطت بها الأحكام المذكورة ﴿يَبَيِّنُ﴾ ووضحت الدلالة على أحكامها، وتكرير الإنزال لإبراز كمال العناية بشأنها ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون فتعملون بموجبها عند وقوع الحوادث.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَاؤُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ شروع في تفصيل ما ذكر من الآيات البينات، الزانية

هي المرأة المطاوعة للزنا، لا المزنية بها كرهاً، وتقديمها على الزاني لأنها الأصل في الفعل، يكون الداعية فيها أوفر، ولولا تمكينها منه لم يقع^(١) ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً﴾ بيان لذلك الحكم، وكان هذا عاماً في حق المحصن وغيره، وقد نسخ في حق المحصن قطعاً، لأنه ﷺ رجم ماعزاً وغيره، فيكون من باب نسخ الكتاب بالسنة، وروي عن علي رضي الله عنه قال: «جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ» والجلد ضرب الجلد بالسوط ونحوه، وفيه إشارة إلى أنه لا يُبالغ فيه، والخطاب للأئمة، لأن إقامة الحد من الدين، وهو على الكل، إلا أنهم لا يمكنهم الاجتماع فينوب الإمام منابهم، أو من يوكله ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي رحمة ورقة في طاعته، وإقامة حدّه، فتعطلوه أو تسامحوا فيه، وقد قال ﷺ: «لو أن فاطمة بنت رسول الله سرقَتْ لقطعْتُ يَدَها»^(٢) ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من باب التهيج، فإن الإيمان يقتضي الجِد، في طاعته تعالى، وذكرُ اليوم الآخر لتذكير ما فيه من العقاب، في مقابلة المسامحة ﴿وَلَسْهَدَ عَذَابُهُمَا﴾ أي لتحضره زيادة في التنكيل، فإن التّفصيح قد ينكل أكثر مما ينكل التعذيب ﴿طَائِفَةٌ﴾ المراد به جمع يحصل به التشهير ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أقلها ثلاثة، وتسميته عذاباً دليل على أنه عقوبة.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾^(٣) هذا

(١) فإن قيل: لم قُدِّمت المرأة في حد الزنا، وأُخِّرت في السرقة ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾؟ فالجواب أن الزنى بدافع الشهوة وهي في المرأة أقوى، والسرقة من الجِرة والقوة وهي في الرجل أقوى.

(٢) هذا طرف من حديث شهير رواه البخاري.

(٣) إنما قُدِّم الرجل هنا ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ﴾ لأن هذه الآية في حكم النكاح، والرجل هو =

حكمٌ مؤسسٌ على غالب المعتاد، جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزانيات، بعد زجرهم عن الزنا بهنَّ، وقد رَغِبَ بعضُ ضَعْفَةٍ وفقراء المهاجرين، في نكاح الموسرات من بغايا المشركين، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك، فنُفِّرُوا عنه، ببيان أنه من أفعال الزناة، وخصائص المشركين، كأنه قيل: الزاني لا يرغب إلا في نكاح الزانية، فلا تحوموا حوله، كي لا تنتظموا في سلكها، أو تتسموا بسماتها، فالآية في التزهيد في نكاح البغايا، وهو نظير قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ ورُوي أن «مِرثد الغنوي» كانت له صديقة في الجاهلية، يقال لها: «عناق» فلما أتاها بمكة، دعتة إلى نفسها، فقال مرثد: إن الله حَرَّمَ الزنا، قالت فانكحني، فقال: أسأل رسول الله ﷺ، قال: فَأَتَيْتُ الرَّسُولَ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَلَنْكَحَ عَنَاقًا؟ فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ؟ فَدَعَانِي فَقَرَأَهَا عَلَيَّ وَقَالَ: «لَا تَنْكِحُهَا»^(١) وقال قومٌ: المراد من النكاح هو الجماع، وهذا قول الضحاك ورواية عن ابن عباس، وقال سعيد بن المسيب وجماعة: إن حكم الآية منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ﴾ أي نكاح الزانيات ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لما فيه من التشبه بالفسقة، والتعرض للتهمة، والتسبب لسوء المقالة، والطعن في النسب، وغير ذلك من المفاسد، ما لا يكاد يليق بأحد من الأراذل، فضلاً عن المؤمنين، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم مبالغة^(٢).

= الأصل فيه، لأنه الراغب والطالب، فلذلك قُدِّمَ على الزانية، بخلاف الآية السابقة فإن فيها حكم الزانيين، والمرأة فيه هي الأصل، لأنه لولا رضاها لما حدثت الجريمة.

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٧٦ والنسائي ٦٦/٦ وأبو داود رقم ٢٠٥١ كلاهما في النكاح.

(٢) ليس في الآية ما يدل على تحريم نكاح الزاني أو الزانية، وإنما مقصد الآية تشنيع الزنى، وتبشيع أمره، بأنه لا يليق إلا بالأشرار الخبيثاء، فالفاسق الخبيث الذي من =

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ بيان لحكم العفاف، إذا نُسِنَ إلى الزنا، ويعتبر في الإحصان ههنا العفة عن الزنا، والحرية، والبلوغ، والإسلام، وفي التعبير بالرمي، المنبئ عن صلاية الآلات، وإيلام المرمي إيذان بشدة تأثيره فيهن، وكونه رجماً بالغيب، وقد أجمع العلماء على أن المراد الرمي بالزنى، بأن يقول يا زانية، أو زنت، أما التعريض كقوله: «أما أنا فما زنتُ وليست أُمِّي زانية» فليس بقذف، وعدم التصريح للاكتفاء بإيرادهن عقيب الزواني، ووصفهن بالإحصان، كأنه قيل: والذين يرمون العفاف بالزنا ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يشهدون عليهن بما رموهن به ﴿فَاجْلِدُوهُنَّ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ لظهور كذبهم وافتراءهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء، وتخصيص رميهن بهذا الحكم، مع أن حكم رمي المحصنين كذلك، لشيوع الرمي فيهن، والتهمة لهن أشنع وأبشع ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ أي وزيدوا في عقوبتهم بعدم قبول شهادتهم، هدرًا لكرامتهم، والغرض منه الزجر، لأنه مؤلم للقلب، وقد آذى المقدوف، فعوقب بإهدار منافعه جزاءً وفاقاً ﴿أَبَدًا﴾ مدة حياتهم وإن تابوا وأصلحوا، لأنه تنمة الحد، كأنه قيل: فاجلدوهم، وردُّوا شهادتهم، فبقي كأصله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله، لإتيانهم بالذنب الكبير، والجرم الشنيع، وهو مقرر لما قبله، ومبين لسوء حالهم عند الله عز وجل.

= شأنه الخبث والزنى، لا يرغب في نكاح الفاضلات الصالحات من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله، أو في مشركة نجسة، والفاسقة الخبيثة الزانية لا ترغب في نكاح الرجال الصالحاء الأفاضل، إنما ترغب في فاسق فاجر مثلاً، وكما قيل: «إن الطيور على أشكالها تقع» وإذا زنى شاب ثم تاب وأراد الزواج بمن زنى بها سترًا عليها، فقد سئل عنها ابن عباس فقال: «أوله سفاح، وآخره نكاح، والحرام لا يحرم الحلال» فأفتى بجواز النكاح بالزانية، وبه أخذ الجمهور.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء من الفاسقين، كما ينبيء التعليل الآتي ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد ذلك الذنب العظيم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم التي من جملتها ما فرط منهم بالتلافي، ومنه الاستحلال من المقدوف ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فحينئذ لا يؤاخذهم الله بما فرط منهم، ولا ينظمهم في سلك الفاسقين، وقد علق الشافعي رحمه الله الاستثناء بالنهاي، وجعل الأبد عبارة عن مدة القذف، فتنتهي بالتوبة، فتقبل شهادته.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي يقذفون زوجاتهم بالزنا ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ﴾ يشهدون بما رموهن به من الزنا ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ جعلوا من جملة الشهداء، إبطاناً بعدم إلغاء قولهم بالمرة، وبذلك ازداد حسن إضافة الشهادة إليهم، في قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ أي شهادة واحد منهم ﴿أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا.

﴿وَالْخُمُسَةُ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ .

﴿وَالْخُمُسَةُ﴾ أي الشهادة الخامسة، التي هي في مقابلة التزكية للشهود، وفيها تحقيق الخبر، وإظهار الصدق من الكذب، والبت في هذه القضية الخطيرة، بأن يقول في المرة الخامسة ﴿أَنَّ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا، فإذا لاعن الزوج حُبست الزوجة، حتى تعترف أو تلاعن، والحكمة من هذا التشريع الخاص بالزوجين، أن الرجل إذا رأى من زوجته ما يريبه، أو رأى معها أجنبياً، فإن قتله عوقب، ولا

يمكنه الصبر، وطلب اليئنة منه في مثل هذه الحالة متعذر، فلذلك شرع اللعان بين الزوجين، صيانة للغرض والشرف.

﴿وَيَذَرُوهَا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾

﴿وَيَذَرُوهَا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ أي العذاب الدنيوي وهو الرجم ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ أي تقول أربع مرات: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا.

﴿وَالْخُمُسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

﴿وَالْخُمُسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ﴾ الزوج ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماني به من الزنا، وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها، لما أنها مادة الفجور، ولأن النساء يستعملن اللعن، فربما يجترئن على التفوّه به، لسقوط وقعه عن قلوبهن، بخلاف غضبه تعالى، وسبب نزول هذه الآية ما روي عن سهل بن سعد الساعدي، أن عويمر العجلاني جاء رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أرايت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، أيقنته أم كيف يفعل، فقال ﷺ: «قد أنزل الله تعالى فيك وفي صاحبك قرآناً، فاذهب فأت بها، قال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ»^(١) والفرقة بائنة عند أبي حنيفة ومحمد، ولا تقع الفرقة حتى يفرّق القاضي بينهما، وعند أبي يوسف وزفر والشافعي هي فرقة بغير طلاق، توجب تحريماً مؤبداً.

(١) أخرجه البخاري ٣٢١/٩ في الطلاق ومسلم رقم ١٤٩٢ في اللعان.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ متروك الجواب للتعظيم، أي لفضحكم، وعاجلكم بالعقوبة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي مبالغ في قبول التوبة، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه، التي من جملتها ما شرع لكم في موضوع اللعان، لأنه تعالى لو لم يشرع اللعان لهم، لوجب على الزوج حدُّ القذف، مع أن الظاهر صدقه، لأنه أعرف بحال زوجته، وأنه لا يفترى عليها لاشتراكهما في الفضيحة، وبعدما شرع لهم ذلك، لو جعل الله شهادته موجبة لحد الزنا عليها، لفات النظر لها، ولو جعل شهادتها موجبة لحد القذف عليه، لفات النظر له، ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة والرحمة، فجعل شهادات كل منهما، مع الجزم بكذب أحدهما، دائرة لما توجه إليه من العذاب الدنيوي، وفي ذلك من الحكم البالغة، وآثار الفضل والرحمة، ما لا يخفى، سبحانه ما أعظم شأنه، وأوسع رحمته، وأدق حكمته!!.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسِبُهُم شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ سبب نزولها ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً، أقرع بين أزواجه، فأياها خرج سهمها خرج بها، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأقرع بيننا في غزوة غزاها «غزوة بني المصطلق» فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، فكنت أحمل في هودج، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل، ودنونا من المدينة، أذن ليلةً فقامت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني، أقبلت إلى رحلي فلمست

صدري، فإذا عَقد لي من جَزَع أَظْفَار - نوع من الخرز وهو حجر اليماني - قد انقطع، فرجعت فالتمسته. فحبسني ابتغاؤه، قالت وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساء إذ ذاك خِفَافاً، وكنتُ جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدتُ عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فيمَّمْتُ أي قصدتُ - منزلي، الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينما أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فممت، وكان «صفوان بن المعطل السلمي» قد عَرَّس - التعريس نزول المسافر في آخر الليل - من وراء الجيش، فأدلىج - والإدلاج سيرُ آخر الليل - فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأيته، وكان يراني قبل أن يضرب الحجاب عليّ، فاستيقظتُ باسترجاعه - أي بقوله: «إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون» - حين عرفني فخمرتُ وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعتُ منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها، فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرّسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأنِي..»^(١) الحديث. قوله تعالى: ﴿جَاؤُوا بِالْإِفْكِ﴾ أي بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، والمراد ما قذفت به الصديقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وفي لفظ المجيء، إشارة إلى أنهم أظهروا من عند أنفسهم، من غير أن يكون له أصل ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة منهم «عبد الله بن أبيّ، وزيد بن رفاعه، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش» ومن ساعدهم ﴿مَنْكُرٌ﴾ أي من جماعة المسلمين، وابن أبيّ وإن كان رئيس المنافقين، فقد كان ينسب إلى الإيمان في الظاهر ﴿لَا تَقْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ خطوب به رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعائشة،

(١) أخرجه البخاري ١٩٨/٥ في الشهادات، وفي تفسير سورة التور، ومسلم في التوبة رقم ٢٧٧٠ باب حديث الإفك.

وصفوان، تسلية لهم، والضمير للإفك ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم، وظهور كرامتكم على الله تعالى، بإنزال ثمان عشرة آية في نزاهة ساحتكم، وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ﴾ أي من أولئك العُصبة ﴿مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ بقدر ما خاض فيه ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ أي معظمه ﴿مِنْهُمْ﴾ من العصبة وهو «ابن أبي» رأس النفاق فإنه بدأ به وأذاعه بين الناس ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة، أو في الدنيا أيضاً فإنهم جلدوا ورُدَّتْ شهادتهم، وصار ابنُ أبي مطروداً، ومشهوداً عليه بالنفاق، و«حسان» أعمى وصار مشلول اليدين، ومسطح صار مكفوف البصر، وكانت هذه عقوبة دنيوية عاجلة.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ تلوين للخطاب، وصرف له عن رسول الله ﷺ وذويه، إلى الخائضين بطريق الالتفات، لتشديد التوبيخ، أي هلاً حين سمعتم هذا الافتراء والبهتان، ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي ظنوا بإخوانهم المؤمنين الخير، ولم يسرعوا إلى التهمة، وبخاصة في أهل بيت النبوة، وفيه عتاب شديد، وزجر بليغ فإن وصف الإيمان يحملهم على إحسان الظن بالمؤمنين، فإخلالهم بموجب ذلك الوصف أقبح وأشنع، أي كان الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات، أول ما سمعوه خيراً، فإن مقتضى الإيمان ألا يصدق مؤمنٌ على أخيه سوءاً، ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تردد ﴿وَقَالُوا﴾ في الحال ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر كونه إفكاً، كما يقول المتيقن المطلع على الحال. قال ابن الزبير: ذلك معاتبَةٌ للمؤمنين، إذ المؤمن لا يفجر بأمه، وعائشة رضي الله عنها أم المؤمنين، فكيف بالصديقة بنت الصديق، أم المؤمنين، حرَّم رسول الله ﷺ؟ وروي أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه قالت له امرأته: أما

تسمعُ ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم، وذلك الكذب المكشوف، أكنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، فقال: «فعايشةُ والله خيرٌ منك» يريد أنها بريئة وطاهرة مطهرة من الزور والبهتان.

﴿لَوْلَا جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ (١٣).

﴿لَوْلَا جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي هلاً جاء الخائضون بأربعة شهداء، يشهدون على ما قالوا ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الخائضين ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه ﴿هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ الكاملون في الكذب، فإن ما لا حجة عليه كذب عند الله، ولذلك رتب الحدُّ عليه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٤).

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب للقدفة جميعاً ﴿وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا﴾ من فنون النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ من ضروب الآلاء التي من جملتها العفو بعد التوبة ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك، والإبهامُ لتحويل أمره، والاستهجان بذكره، يقال: خاض في الحديث، وخاض فيه ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر دونه الجلد، لعظم جرمه.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ يَا أَفْوَهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (١٥).

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ بحذف إحدى التائين، أي لمسكم ذلك العذاب العظيم

وقت تلقيكم إياه من المخترعين له ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، والتلقي، والتلقف، والتلقن، معان متقاربة، خلا أن في الأول معنى الاستقبال، وفي الثاني معنى الخطف، وفي الثالث معنى الحذق والمهارة ﴿وَيَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي تقولون قولاً مختصاً بالأفواه، من غير أن يكون له مصداق، ومنشأ في القلوب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ سهلاً، لا تبعة فيه ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ والحال أنه عنده عز وجل ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره في الإثم واستحقاق العذاب، وفيه دلالة على أن لا يجوز الإخبار إلا مع العلم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(١) وإن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها، فهذه ثلاثة آثام في حادثة الإفك، عُلق بها مسُّ العذاب العظيم: ١ - تلقي الإفك بالستهم، ٢ - والتحدث به من غير تحقق، ٣ - واستصغارهم لذلك وهو عند الله عظيم.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ من المخترعين أو المشيعين ﴿قُلْتُمْ﴾ تكذيباً لهم ﴿مَا يَكُونُ لَنَا﴾ أي ما يمكننا ﴿أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ وما يصدر عنا ذلك بوجه من الوجوه، فإن قذف آحاد الناس محرّم شرعاً، فضلاً عن التعرض للصديقة رضي الله عنها ﴿سُبْحَنَكَ﴾ تعجبٌ ممن تفوّه به، وتنزيه له تعالى عن أن تكون حرّم نبيّه فاجرة ﴿هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ أي زورٌ يبهت من يسمع، لعظمته في المبهوت عليه، واستحالة صدقه.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

﴿يَعْظُمُ اللَّهُ﴾ أي ينصحكم ﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ أي يزجركم من أن تعودوا لمثله ﴿أَبَدًا﴾ أي مدة حياتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان وازع عنه، وفيه تهيج على الامتناع عن قذف المؤمنات.

﴿وَيَبِّئُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

﴿وَيَبِّئُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ الدالة على الشرائع، ومحاسن الآداب، لتعظوا، وتتأدبوا بها، أي ينزلها كذلك، لا أنه يبينها بعد أن لم تكن كذلك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع تدابيره وأفعاله، ولهذا شرع من العقوبة، ما يضمن الحفاظ على الأعراض.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ أي يريدون ويقصدون ﴿أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ أي تنتشر الخصلة المفرطة في القبح، وهي الرمي بالزنا أو الزنا نفسه، فالمراد بشيوعها شيوع خبرها، ويتصدون مع ذلك لإشاعتها ﴿فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي يحبون الفاحشة في حق المؤمنين ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ما ذكر ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ من الحدِّ وغيره ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ من عذاب النار ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ جميع الأمور، التي من جملتها ما في الضمائر ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما يعلمه تعالى.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ تكرير للمنة بترك المعالجة بالعقاب، للتنبيه على كمال عظم الجريمة، وجواب «لو» محذوف لدلالة ما قبله عليه، كأنه قال: لهلكتم أو لعذبكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي لكن الله رؤوف رحيم لا يعاجل بالعقوبة، وتغيير سبكه، وتصديره بحرف التحقيق

«أَنَّ» لبيان اتصافه تعالى بالرفقة والرحمة على الدوام، لا بيان حدوثهما بهم في هذه الحالة.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ولَمَّا بَيَّنَّ اللهُ سبحانه ما على أهل الإِفْكَ، شرع بتحذير المؤمنين فقال: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي لا تسلكوا مسالكه، في كل ما تأتون وما تزدرون، من الأفاعيل التي من جملتها إشاعة الفاحشة بالمؤمنات ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وضع موضع ضميرهما لزيادة التقرير ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ أي فإن الشيطان يأمركم بكل قبيح، وبما تنهى بالفظاعة والشناعة^(١) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي لولا فضله عليكم بالتوفيق للتوبة والإنابة، وشرع الحدود المكفرة للخطايا ﴿مَا زَكَا﴾ أي ما طهر من دنسها ﴿مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي أبد الدهر ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي﴾ أي يطهر ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه، وحمله على التوبة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ مبالغ في سماع الأقوال ﴿عَلِيمٌ﴾ بجميع المعلومات، لا تخفى عليه خافية.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

(١) سَلَّطَ اللهُ تعالى الشيطان على البشر للابتلاء، فلم تأثيرات ظاهراً، قال الله تعالى: ﴿زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَالَهُمْ﴾ وباطناً قال الله تعالى: ﴿الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ فبرحمته تعالى لا يراهم البشر، لخبث صورتهم.

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي لا يحلف، نزلت في شأن الصديق رضي الله عنه، حين حلف أن لا ينفق على «مسطح» بعد أن تكلم في عائشة، وكان ينفق عليه، لكونه ابن خالته، وكان من فقراء المهاجرين ﴿أُولَ الْأَفْضَلِ مِنْكُمْ﴾ أي في الدين، وكفى به دليلاً على فضل الصديق وشرفه ﴿وَالسَّعَةِ﴾ في المال ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ على أن لا يؤتوا ﴿أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفات لموصوف واحد، تنبيهاً على أن كلا منها علة مستقلة، لاستحقاق الإيتاء، أي أن لا يؤتوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين، شيئاً مما كانوا يعطونهم من المال والإحسان، لذنوب فعلوه ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ ما فرط منهم ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ بالإغضاء عنهم ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟﴾ بمقابلة عفوكم، وصفحكم، وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة، مع كمال قدرته على المؤاخذة، فلما قرأها الرسول ﷺ على أبي بكر رضي الله عنه قال: بل أحبُّ أن يغفر الله لي، وردَّ لمسطح نفقته^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي العفاف بالفاحشة ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ عنها على الإطلاق، بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها، ولا من مقدماتها أصلاً، ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي المتصفات بالإيمان الحقيقي، مع طهارة القلب، والمراد بهن زوجات رسول الله ﷺ الطاهرات، للتغليظ الذي ورد من ذكر اللعن في حق من قذفهن، قال ابن عباس: «هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة»^(٢). ولا ريب في أن رمي غير أمهات

(١) انظر سبب النزول مفصلاً في كتابنا «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام».

(٢) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٤٣٠/٣.

المؤمنين ليس بكفر، فيجب أن يكون المراد إياهم، فإنهم قد خصصن من بين سائر المؤمنات، فجعل رميهم كفراً، إبرازاً لكرامتهم، وحماية لحمى الرسالة، من أن يحوم حوله أحد بسوء، فمن أذنب ذنباً ثم تاب منه، قبلت توبته، إلا من خاض في أمر عائشة رضي الله عنها، وهل هو إلا لتحويل أمر الإفك، والتنبيه على أنه كفر غليظ، ولهذا قال ﴿لَعْنُوا﴾ أي بما قالوه في حقهن ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين، والملائكة أبداً ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ما ذكر من اللعن الأبدي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هائل، لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية، سئل سعيد بن جبير عن قذف مؤمنة، هل يلعنه الله تعالى في الدنيا والآخرة، قال: ذاك لعائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ متصل بما قبله، أي في ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - تشهد على الإنسان جوارحه وأعضاؤه ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فتتلق الألسنة، والأيدي، والأرجل، بما اقترفت من سيئ الأعمال، وقبيح الفعال، ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها، أنه تعالى ينطقها بقدرته، فتخبر كل جارحة منها ما صدر عنها، ففيه من ضروب التهويل، بالإجمال والتفصيل، ما لا مزيد عليه.

﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾

﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة، يعطيهم الله جزاءهم الثابت العادل، وافياً كاملاً ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند معاينتهم الأحوال، حسبما نطق به القرآن الكريم ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي العادل الثابت، الذي لا يظلم أحداً شيئاً، الظاهر عدله في تشريعه وحكمه ﴿الْمُبِينُ﴾ المظهر للأشياء كما هي في نفسها، ولو تتبع ما في القرآن

المجيد من آيات الوعيد، لا تجد شيئاً منها فوق هذا التشديد، وما ذاك إلا لإظهار منزلة النبي ﷺ وإبراز رتبة الصديقة في النزاهة عما نسب إليها.

﴿ الْحَيْثُ لِلْحَيْثِينَ وَالْحَيْثُوكَ لِلْحَيْثِيَّاتِ وَالطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ
وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴾

﴿ الْحَيْثُ ﴾ من النساء ﴿ لِلْحَيْثِينَ ﴾ من الرجال، أي مختصات بهن
﴿ وَالْحَيْثُوكَ ﴾ من الرجال ﴿ لِلْحَيْثِيَّاتِ ﴾ من النساء، لأن المجانسة من
دواعي الانضمام ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ ﴾ من النساء ﴿ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ من الرجال
﴿ وَالطَّيِّبُونَ ﴾ منهم ﴿ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ منهن، وحيث كان ﷺ أطيب الأطيبين،
تبين كون الصديقة رضي الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة، واتضح
بطلان ما قيل في حقها، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا
يَقُولُونَ ﴾ أي أولئك الموصوفون بعلو الشأن، مُبَرَّءُونَ مما يقوله أهل الإفك
في حقهم، وقيل معنى الآية: الخيئات من القول، للخيئين من الرجال
والنساء، أي لا ينبغي أن يقال في حق غيرهم، وكذا الخيئون من
الفريقين، أحقاء بأن يقال في حقهم خباث القول، والطيبات من الكلم
للطيبين من الفريقين فمآله تنزيه الصديقة أيضاً ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة
﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ هو الجنة، وإلى هنا تمت قصة أهل الإفك ثم بين تعالى
آداب دخول البيوت، فقال تقდست أسماؤه:

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا
وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا ﴾ وبعد ما فصل الزواجر عن الزنا،
وعن رمي العفاف، شرع في تفصيل الزواجر عمّا يؤدي لأحدهما، من

مخالطة الرجال بالنساء، ودخولهم عليهن، وتعليمهم الآداب الجميلة، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ أي لا تدخلوا على أحد في مسكنه وبيته الذي يسكنه وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ خارج مخرج العادة، التي هي سكنى كل أحد في ملكه، وإلا فالمؤجر والمعير أيضاً، منهيان عن الدخول بغير إذن ﴿حَقَّ تَسْتَأْذِينًا﴾ أي تستأذنون من أصحابها، من الاستئناس بمعنى الاستعلام، من أنس الشيء إذا أبصره، أنست شيئاً علمته وأنسته أبصرته ﴿وَقَسِمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ عند الاستئذان، بأن تقولوا السلام عليكم، أَدْخَلَ؟ فإن أذن له دخل وإلا رجع، لما روي عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يُؤذن له، فليرجع»^(١) وروي عن كُزَّز بن حنبل قال: دخلتُ على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستاذن، فقال ﷺ: «ارجع فقل السلام عليكم، أَدْخَلَ؟»^(٢) وروى عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أستاذن على أمي؟ قال: «نعم» فقال الرجل: فإنني خادمها، فقال ﷺ: «استأذن عليها، أتحبُّ أن تُرى عُرْيَانَةً؟»^(٣) ﴿ذَلِكَ﴾ أي الاستئذان مع التسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أن تدخلوا بغتة، وخير من تحية الجاهلية، كقولهم حَيَّيْتُمْ صباحاً، أو مساءً ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تذكروا وتنعظوا، وتعملوا بموجبه.

﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٣/١١ ومسلم رقم ٢١٥٣ في قصة جرث لأبي موسى الأشعري مع عمر رضي الله عنهما، فطلب عمر منه البيئة، وهذذه بالعقوبة إن لم يأت بها.

(٢) أخرجه أبو داود رقم ٥١٧٧ في الأدب وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٩٦٣/٢ والطبري في تفسيره ١١٢/١٨.

﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ أي ممن يملك الإذن من أهل البيت، وعبارة النص هو النهي عن دخول البيوت الخالية، لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس إخفاءه، مع أن التصرف في ملك الغير محظور مطلقاً، وأمّا حرمة دخول ما فيه النساء، والولدان، فثابت بدلالة النص، لأن الدخول حيث حُرِّم مع ما ذكر من العلة، فلأن يحرم عند انضمام ما هو أقوى - أعني الاطلاع على العورات - أولى ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ واصبروا ﴿حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ من جهة من يملك الإذن عند إتيانه ﴿وَأِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَأَرْجِعُوا﴾ أي إن أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع فارجعوا، ولا تُلحُّوا بتكرير الاستئذان، وكل ما يؤدي إلى الكراهة، من قرع الباب بعنف، والتصحيح بصاحب الدار، وغير ذلك، فإنه مما يقدح في المروءة ﴿هُوَ﴾ أي الرجوع ﴿أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي أطهر وأنفع لدينكم ودنياكم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرّون، فيجازيكم عليه.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أطلع في بيت قوم، بغير إذنهم، فقد حلّ لهم أن يفتقروا عينه»^(١).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا﴾ أي بغير استئذان ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أي غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة، بل ليمتّع بها من يضطر إليها، كالرباط، والخانات، والحوانيت، ونحوها، فإنها معدة لمصالح الناس كافة، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾ أي فيها حق تمتع لكم،

(١) الحديث أخرجه البخاري في الديات ٢٤٣/١٢ فتح الباري، ومسلم في الآداب رقم ٢١٥٨ وفي الحديث الشريف «كلّ عين باكية يوم القيامة، إلّا عين غُضّت عن محارم الله، وعين سهرت في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله» أخرجه الترمذي.

كالاستظلال من الحرِّ والبرد، وإيواء الأمتعة، والبيع والشراء، والاغتسال، وغير ذلك مما يليق بحال البيوت، فلا بأس بدخولها بغير استئذان ممن يتولى أمرها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل للفساد.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠).

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ شروع في بيان أحكام شاملة للمؤمنين، يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجاً أولياً، ومفعول الأمر أمرٌ آخر، وقد حذف تعويلاً على دلالة جوابه، أي قل لهم غضوا ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي بصرفوا أبصارهم عما يحرم النظر إليه، ويقتصروا على ما يحلُّ، وإنما خصَّ المؤمنين بذلك، لأن هذه الأحكام كالفروع للإسلام، والمؤمنون مأمورون بها ابتداء ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ إلّا على أزواجهم، أو ما ملكت أيمانهم، وتقييد الغضِّ «بمن» التبعيضية، دون الحفاظ، لما في أمر النظر من السعة^(١)، وقيل: المراد بالحفظ ههنا خاصة هو الستر ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من الغضِّ والحفظ ﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾ أي أظهر لهم من دنس الريبة ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء، فليكونوا على حذر منه، في كل ما يأتون وما يذرون، وفيه ترغيبٌ وترهيب، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٢) قال أبو العالية: كلُّ ما في القرآن من حفظ الفرج، فهو الحفاظ عن الزنا، إلّا ههنا فإنه تعالى أراد به الاستتار، حتى لا يقع بصرُ الإنسان عليه، روي عن أبي سعيد الخدري أن

(١) فإن قيل: ما فائدة قوله «من» في غَضِّ البصر، دون حفظ الفرج؟ فالجواب: فائدته أن حكم النظر أخفُّ من حكم الفرج، إذ يحلُّ النظر إلى بعض أعضاء المحارم، ولا يحلُّ إلى شيء من فروجهن، فأمر الفروج أعظم وأخطر.

(٢) سورة غافر، آية: ١٩.

رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تُفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»^(١). وعن جرير بن عبد الله قال: «سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة، قال: اصرف بَصْرَكَ»^(٢) وعن بريرة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ لعلي: «لا تُتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الثانية»^(٣).

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحلُّ لهنَّ النظرُ إليه من الرجال، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة، إذ أقبل ابنُ أمِّ مكتوم، فقال ﷺ: احتجبا منه، فقلنا يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال: أفعميا وان أنتما؟ أَلستما تبصرانه؟»^(٤)

(١) الحديث رواه مسلم رقم ٣٣٨ باب تحريم النظر إلى العورات.

(٢) رواه مسلم رقم ٢١٥٩ باب نظر الفجأة.

(٣) رواه أبو داود رقم ٢١٤٥ في النكاح والترمذي رقم ٢٧٧٧ في الأدب.

(٤) أخرجه الترمذي رقم ١٧٧٩ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستر والتصون عن الزنا، وتقديم الغض لأن النظر يريد الزنا، ورائد الفساد ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحلي، والخضاب، والزينة ما تضعه المرأة من حلي، أو كحل، أو خضاب، وفيه من المبالغة في النهي عن إبداء موضعها ما لا يخفى ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاوله الأمور التي لا بدَّ منها عادة، فإن في سترها حرجاً بيناً، وقيل: المراد بالزينة: مواضعها، على حذف المضاف، وما يعم المحاسن الخلقية، والمستثنى هو الوجه والكفان، لأنهما ليسا بعورة، والأظهر أن هذا في الصلاة، لا في النظر، فإن كل بدن الحرة عورة، لا يحل لغير الزوج والمحرم، النظر إلى شيءٍ منها، إلا لضرورة كالمعالجة، وتحلُّ الشهادة ﴿وَلْيَضْرِبْنَ حُجُورَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ كانت النساء على عادة الجاهلية، يسدن خمرهنَّ من خلفهنَّ، فتبدو نحورهنَّ مكشوفةً عارية، وتظهر قلائدهنَّ من جيوبهنَّ، فأمرن بإرسال خمرهنَّ إلى جيوبهنَّ^(١)، سترأ لما يبدو منها ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي مواضع الزينة، كالعنق، والأذن، والصدر، والمعصم، فإن هذه أماكن الزينة ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهنَّ، وقلة توقع الفتنة من قبلهم، لما في طباع الفريقين من النفرة عن مماسة القرائب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ المختصات بهنَّ بالصحة، والخدمة، من حرائر المؤمنات، فإن الكوافر لا يتخرجن عن وصفهن للرجال، ولأن الله تعالى قال: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ والذميَّة والكافرة ليست من نسائنا، ولأنها أجنبية في الدين، كتب عمر رضي الله عنه إلى

(١) الحُمْرُ: جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة رأسها، والجيوبُ جمع جيب، وهو ما جيب من القميص، أي قطع لإدخال الرأس، والمعنى: وليلقين مقانعهن على جيوبهن، ليسترن بذلك شعورهن، وأعناقهن عن الأجانب، وفيه دليل على أن صدر المرأة ونحرها عورة، لا يجوز للأجنبي النظر إليها.

أبي عبيدة أن يمنع نساء أهل الكتاب، أن يدخلن الحمام مع المسلمات ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي من الإماء، فإن عبد المرأة، بمنزلة الأجنبي منها، قال سعيد بن المسيب: لا تغرنكم سورة النور، فإنها في الإماء دون الذكور وقيل: من الإماء، والعبيد، وهو ظاهر القرآن، روي ذلك عن أم سلمة وعائشة، وروى أنس «أن النبي ﷺ أتى إلى فاطمة بعبد، قد وهبه إياها، وعلى فاطمة ثوبٌ إذا قَنَعَتْ به رأسها لم يبلغ رجلها، وإذا غَطَّتْ به رجلها، لم يبلغ رأسها، فلما رأى ﷺ ما تلقى، قال: إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلارك»^(١) ﴿أَوْ التَّائِبِينَ غَيْرَ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ أي غير أولي الحاجة إلى النساء، وهم الشيوخ الهرمون وقيل: هم البُله الذين يتبعون الناسَ لفضل طعامهم، ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء ﴿أَوْ الطِّفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ أي الأطفال الصغار لعدم تمييزهم ولعدم بلوغهم حدَّ الشهوة ﴿وَلَا يَضُرُّنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِعَلَمَ مَا يُخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ولا يضربن بأرجلهن الأرض، فيعلم أنهن ذوات خلخال، فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن، ويوهم أن لهن ميلاً إليهم، وفي النهي عن إبداء صوت الحلي، بعد النهي عن إبداء عينها من المبالغة، والزجر عن إبداء مواضعها ما لا يخفى، وإذا كان سماع صوت خلخالها للأجانب حراماً، كان رفع صوتها بالكلام، أو الغناء بحيث يسمعه الأجانب حراماً بطريق الأولى، لأن صوتها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها. ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله ﷺ إلى الكل، لإبراز كمال العناية بأمر التوبة، لما أنه لا يكاد يخلو أحد من المكلفين، عن نوع تفريط وتقصير في إقامة موجبات التكليف، لا سيما إذا كان المأمور به الكف عن الشهوات، وفي قوله تعالى: ﴿أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد للوجوب، وإيداناً بأن وصف الإيمان موجب للامتثال حتماً ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ أي لكي تنالوا رضى الله، وتفوزوا بسعادة الدارين.

(١) الحديث أخرجه أبو داود من حديث أنس، وانظر تفسير ابن كثير ٢٩٦/٣.

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيِّمَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢١).

﴿وَأَنْكِحُوا﴾ بعدما زجر الله تعالى عن السفاح ومباديه، أمر بالنكاح ورغب فيه، فإنه مع كونه مقصوداً لبقاء النوع الإنساني، هو مزجرة عن ارتكاب الفاحشة، وأجمع السلف على أن الأمر للندب، وقيل في الآية دليل على أن تزويج الأيامي للأولياء، قلنا: الرجل لا يلي على الرجل الأيّم إلا بإذنه من الأحرار، وكذا لا يلي على المرأة إلا بإذنها، لأن الأيّم ينتظمهما ﴿الْأَيِّمَ مِنْكُمْ﴾ جمع أيّم، وهو من لا زوج له من الرجال والنساء والأَيِّمُ: العَزَبُ رجلاً كان أو امرأة، فيقال رجلٌ أيّم، وامرأة أيّم، والمعنى: زوجوا من لا زوج له ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ الخطاب للأولياء والسادات، واعتبار الصلاح في الأرقاء، لأن من لا صلاح له منهم، بمعزل من أن يكون خليفاً بأن يعتني مولاه بشأنه، بل حقه أن لا يستبقه عنده، فإذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة الأولياء لهم، وقيل: المراد هو الصلاح للنكاح، والقيام بحقوقه ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي لا يمتنع فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة، فإن فضل الله يغنيه عن المال، فإنه يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب، وفيه وعدٌ منه سبحانه بالإغناء، لكن مشروط بالمشيئة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ (١) ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ غني ذو سعة، لا ينقصه إغناء الخلائق، إذ لا نفاذ لنعمته، ولا غاية لقدرته ﴿عَلِيمٌ﴾ بسيط الرزق لمن يشاء ويقدر، حسبما تقتضيه الحكمة، والمصلحة. عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعها المرأةُ الصالحة» (٢).

(١) سورة التوبة، آية: ٢٨.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٤٦٧.

﴿وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ
يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ
مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِغَاءِ إِنْ أَرَدَنْ تَحْصَنًا لِنَبْتَغُوا
عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٣).

﴿وَلَيْسَتَعَفِيفَ﴾ إرشاد للعاجزين عن مبادئ النكاح وأسبابها، أي
ليجتهد في العفة وقمع الشهوة ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي أسباب النكاح
﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ عدة كريمة بالتفضل عليهم بالغنى، ولطف بهم،
وتقوية لقلوبهم بأن فضله تعالى أولى بالصلحاء، عن ابن مسعود رضي الله
عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة
فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع، فعليه
بالصوم، فإنه له وجاء» (١) ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ أي والذين يطلبون
المكاتبة، ليتحرروا من رِقِّ العبودية، والكتاب مصدر كَاتَبَ كالمكاتبة، أي
يطلبون المكاتبة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ عبداً كان أو أمة، وهي أن يقول
المولى لمملوكه: كاتبك على كذا درهماً تؤديه إليّ وتعتق، ويقول
المملوك قبلته، أو نحو ذلك فإن آداه إليه عتق ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ والأمر فيه
للندب، لأن الكتابة عقد يتضمن الإرفاق، فلا تجب كغيرها، ويجوز حالاً
ومؤجلاً، وعند الشافعي لا يجوز إلا مؤجلاً ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي أمانة
ورشداً، أو قدرة على أداء المال، بتحصيله من وجه حلال، وصلاًحاً في
الدين ﴿وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾ أي ببذل شيء من أموالكم، وفي
حكمه حط شيء من مال الكتابة، ويكفي فيه أقل ما يتمول، وعن علي
حط الربع، وعن ابن عباس الثلث، وهو للندب عندنا، وعند الشافعي
للو جوب، وإضافة المال إلى الله تعالى، ووصفه بإيتائه للحث على الامتثال

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٠٦/٤ ومسلم في النكاح رقم ١٤٠٠.

بالأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾^(١) وقيل هو أمر بإعطاء سهمهم من الصدقات، فالأمر للوجوب، وقيل: هو أمر ندب للعامة، بإعانة المكاتبين، بالتصدق عليهم، ويحل ذلك للمولى وإن كان غنياً، لتبدل العنوان حسبما ينطق به قوله ﷺ في حديث بريرة: «هو لها صدقة، ولنا هدية» ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ أي إماءكم، وهذه العبارة في هذا المقام ﴿فتياتكم﴾ لها حسنٌ موقع، لقوله تعالى ﴿عَلَى الْبَغَاءِ﴾ وهو الزنا من حيث صدوره عن النساء، لأنهن اللاتي يتوقع منهن ذلك غالباً، دون العجائز والصغار ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس لتخصيص النهي عند إرادتهن التعفف عن الزنا، لبيان شناعة عادتهن الجاهلية، حيث كانوا يكرهونهن على البغاء، وهنَّ يردن التعفف عنه، مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور، روى مسلم عن جابر قال: كان عبد الله بن أبيّ ابن سلول يقول لجاريته: اذهبي فابغنا شيئاً، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ﴾^(٢) الآية، وفيه تفحيح لحالهم وبيان ما كانوا عليه من الفجور ﴿لِيَبْغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لا تفعلوا ما أنتم عليه، من إكراههن على البغاء، لطلب المتاع السريع الزوال، الدنيء الكسب ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ أي ومن يجبرهنَّ على الزنا، فعقوبة المُكْرَه تقع على من أكرهه، والله يغفر زلة المُكْرَه على الفعل ﴿عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ أي لهنَّ لعدم رضاهنَّ، ولا يرد عليه أن المكرهه غير آئمة، فلا حاجة إلى المغفرة، لأن الإكراه لا ينافي المؤاخذه بالذات، ولذا حرم على المُكْرَه القتل، وأوجب عليه القصاص.

(١) سورة الحديد، آية: ٧.

(٢) أخرجه مسلم في التفسير رقم ٣٠٢٩ وأبو داود رقم ٢٣١١ في الطلاق، باب تعظيم الزنى.

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾ أي وبالله لقد أنزلنا إليكم، في هذه السورة الكريمة، آيات مبينات لكل ما بكم من حاجة إلى بيانه، من الحدود، والآداب وسائر الأحكام ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي وأنزلنا مثلاً كائناً من أمثال الذين مضوا من قبلكم، من القصص العجيبة ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ تتعظون به، وتترجون عما لا ينبغي من المحرمات، وسائر ما يخل بمحاسن الآداب ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فهم المتفنعون، وإن كانت للكل.

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَوْرٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي الله جلّ وعلا منور الكائنات، بنوره يهتدي أهل السماوات والأرض، وهذا تمثيل، حيث مثل لهديته بالنور الوضاء، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ وكثيراً ما يُطلق النور على الهدى، والظلام على الكفر، كقوله سبحانه: ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾. قال ابن عباس في تفسير الآية: أي هادي أهل السماوات والأرض، فهم بنوره يهتدون، وبهده من حيرة الضلالة يعتصمون ﴿ مِثْلُ نُورِهِ ﴾ أي نوره الفائض منه تعالى على الأشياء وهو نور الإيمان في قلب العبد المؤمن^(١) أي صفة نوره العجيبة

(١) فإن قيل لم مثل سبحانه، نور معرفة الله تعالى، في قلب المؤمن، بنور المصباح، =

﴿ كَشَكُوفٍ ﴾ أي كصفة كوة غير نافذة في الجدار، مثلها في الإنارة والتنوير ﴿ فِيهَا مَصْبَاحٌ ﴾ سراج ضخيم ثاقب ﴿ أَلْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ أي قنديل من الزجاج الصافي الأزهر ﴿ أَلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ متلألئ، وقاد، شبيه بالدر في صفائه وزهرته، شبهه بالكوكب دون الشمس والقمر لأنهما يلحقهما الخسوف والكسوف بخلاف الكواكب ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ ﴾ أي يبدأ بإقاد المصباح من شجرة ﴿ مُبْرَكَةً ﴾ أي كثيرة المنافع تنبت في الأرض المباركة ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ في إبهامها، ووصفها بالبركة، ثم الإبدال منها، تفخيم لشأنها ﴿ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ﴾ كالتي على ربوة أو في صحراء واسعة، فتقع عليها الشمس، حالتي الطلوع والغروب ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ أي هو في الصفاء والإنارة، بحيث يضيء بنفسه، من غير مساس نار أصلاً ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ كلمة «لو» في أمثال هذه المواضع، لبيان تحقق ما يفيد الكلام ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ أي ذلك النور نور عظيم، كائن على نور، فهو نور متضاعف، فإن المصباح إذا كان في مكان متضابق كالمشكاة كان أضواؤه له، وأجمع لنوره، بخلاف المكان المتسع، والقنديل أعون شيء على زيادة الإنارة، كذلك الزيت، روي عن ابن عمر رضي الله عنه في هذه الآية أنه قال: «المشكاة جوف الرسول، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي جعله فيه، لا شرقية ولا غربية أي لا يهودية ولا نصرانية، يوقد من شجرة مباركة أي شجرة إبراهيم عليه السلام» ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ﴾ أي يهدي هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ﴿ مَنْ يَشَأْ ﴾ هدايته من عباده، بأن يوفقهم لفهم ما فيه من دلائل حقيقته، وكونه من عند الله تعالى من الإعجاز والإخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات الإيمان به ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ﴾ في تضاعيف الهداية وفي باب الإرشاد، ولذلك مثل نوره المعبر به عن القرآن المبين، بنور المشكاة، تقريباً إلى أفهامهم، وتسهيلاً لسبيل

= دون نور الشمس؟ فالجواب لأن المقصود تمثيل النور في القلب، والقلب في الصدر، والصدر في البدن، فناسب التمثيل له بنور المصباح في كوة الجدار.

إدراكهم، ليعتبروا فيؤمنوا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً كان أو باطناً، والفترة الإنسانية قد يعترها الزيف في الأكثر، فلا بد من هاد ومرشد، ولا مرشد فوق كلام الله تعالى، فتكون منزلة الآيات القرآنية عند عين العقل، بمنزلة نور الشمس عند عين الباصرة، وبهذا يظهر معنى قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾^(١).

﴿ فِي يُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾^(٣٦).

﴿ فِي يُوتٍ ﴾ المراد بالبيوت المساجد كلها، حسبما روي عن ابن عباس، وقيل: هي المساجد التي بناها الأنبياء عليهم السلام، كالكعبة، وبيت المقدس، ومسجد المدينة، وتنكيرها للتفخيم ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ أي أمر بنائها رفيعة لعبادة الله تعالى فيها ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ﴾ المراد باسمه تعالى ما يعم طرق العبادة، أي يعبد فيها الله بذكره، وتلاوة آياته البينات، ومجالس الفقه، وخلق الذكر، الخ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ أي يُنْزَهُ ويقُدَّس، ويصلي فيها لله سبحانه ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي في الصباح والمساء وسائر الأوقات.

﴿ رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَحِزَّةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾^(٣٧).

﴿ رِجَالٌ ﴾ خصَّ الرجال بالذكر، لأن النساء لسن من أهل التجارة ﴿لَا لُئْلِيهِمْ﴾ صفة للرجال مفيدة لكمال تبتلهم إلى الله تعالى، واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح ﴿تَحِزَّةٌ﴾ أي لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة

(١) سورة التغابن، آية: ٨.

﴿وَلَا يَبِيعُ﴾ أي لا يلهيهم البيع والشراء عن عبادة الله وإن كان في غاية الربح ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ بالتسبيح والتحميد ﴿وَلِقَاءِ الصَّلَاةِ﴾ أي إقامتها لموافقتها من غير تأخير ﴿وَالْإِنَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي المال الذي فرض إخراجها للمستحقين، وإيراده ههنا لكونه قرينة للصلاة لا يفارقها، على أن محاسن أعمالها غير منحصرة فيما يقع في المساجد، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ يعني هؤلاء الرجال وإن بالغوا في ذكر الله وطاعته، فإنهم مع ذلك خائفون، وليس خوفهم مقصوراً على كونهم في المساجد ﴿نَنَقُلُّ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ أي تضطرب وتتغير في. أنفسها من الهول، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي يفعلون ما يفعلون، من المداومة على العبادات ليجزيهم الله ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم، حسبما وعد لهم، بمقابلة حسنة واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي يتفضل عليهم بأشياء لم توعدهم ولم تخطر ببالهم ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي وهو سبحانه يعطي عطاءً واسعاً، بلا حد ولا عد، من شاء من عباده، وفيه التنبيه على أن مناط الرزق المذكور، محض مشيئته تعالى، لا أعمالهم المحكية.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٣٩﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما ذكر تعالى جزاء المؤمن وماله، ذكر جزاء الكافر وخسرانه، أي وأما الكافرون الجاحدون لفضل الله ﴿أَعْمَلُهُمْ﴾ أي فإن أعمالهم التي هي من أعمال البر، كصلة الأرحام، وسقاية الحاج، ونحو ذلك ﴿كَمَرٍ﴾ وهو ما يُرى في الفلوات، فيظن أنه ماء من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة ﴿يَقِيعَةً﴾ أي كائن في قاع، وهي الأرض المنبسطة المستوية ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ أي يظنه العطشان من بعيد ماء جارياً، وهذا تكميل للتشبيه في شدة الخيبة، عند ميسس الحاجة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ﴾ أي إذا جاء العطشان ما حسبه ماء ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ أي لم ير شيئاً، لا ماء ولا شرباً، وإنما شاهد سراباً فعظمت حسرته ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُمُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي وجد الله له بالمرصاد فوقه جزاء عمله، وهكذا إذا جاء الكفرة يوم القيامة، بأعمالهم التي كانوا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة، لم يجدوها شيئاً، ووجدوا الله، أي حكمه وقضائه عند المجيء، فأعطاهم حسابهم وعذابهم وافيّاً كاملاً، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(١) وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾^(٢).

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ كلمة «أو» للتنويع، مثلت أعمالهم القبيحة، التي ليس فيها شائبة خيرية، بظلمات كائنة ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ أي عميق، منسوب

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٤.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ١٨.

إلى اللج وهو معظم ماء البحر البعيد القعر ﴿يَغْشَاهُ﴾ أي يستره ويغطيه بالكلية ﴿مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي يغشاه أمواج متراكمة، بعضها على بعض ﴿مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ أي فوق ذلك الموج، سحب ظلماني، ستر أضواء النجوم، وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها، حتى كأنها بلغت السحاب ﴿ظُلُمْتُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هي ظلمات ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي متكاثفة، وهذا بيان لكمال شدة الظلمات، كما أن قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ بيان لقوة النور ﴿إِذَا أَخْرَجَ﴾ أي من ابتلي بها ﴿يَكْذِبُ﴾ وجعلها بمرأى منه قريبة من عينه لينظر إليها ﴿لَّيَكْذِبَنَّهَا﴾ وهي أقرب شيء منه لشدة الظلمة ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ أي ومن لم يشأ الله أن يهديه لنوره، الذي هو القرآن، ولم يوفقه للإيمان به، بسبب أفعالهم وأفكارهم الشنيعة ﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ نُورٍ﴾ أي فما له هداية ما من أحد أصلاً، وفي كيفية هذا التشبيه وجوه: أحدها ثلاث ظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الأمواج، وظلمة السحاب، وللکافر ظلمات ثلاث: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل، وثانيها شبه بها ظلمة قلبه، وظلمة سمعه، وظلمة بصره، فهو كالأعمى الأصم الأبكم، وكالبهيمة التي لا تعقل ما يفعل بها^(١).

(١) ضرب الله سبحانه مثلين للكفرة ولأعمالهم: المثل الأول يقتضي بطلان أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وظنوها أعمالاً صالحة، فلم ينتفعوا بها، فشبه أعمالهم في ضياعها وفقدان ثمرتها، بسراب في مكان منخفض، ظنه العطشان ماءً، فقصدته وأتعب نفسه في الوصول إليه، حتى إذا جاء إلى مكان السراب الذي تخيَّله، لم يجد سراباً ولا ماءً، وظهرت له الحقيقة أنه سراب، ففقد أمله في النجاة، كذلك الكافر يظن أن عمله نافع، حتى إذا أفضى للآخرة وجده هباءً منثوراً، وإلى هذا المثل الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ الآية، أما المثل الثاني فقد شبه تعالى أعمال الكفار بالظلمات المتكاثفة التي لا يرى معها الإنسان شيئاً، وبخاصة إذا كان في وسط البحر، وغطت ظلمات السحاب كل شيء حوله، وعلاه الموج من كل مكان، فصار الظلام حوله شبحاً مخيفاً، بحيث لا يكاد يرى يده وهي أقرب شيء إليه، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ كظلمات في بحر لجي =

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿١١﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ خوطب به النبي ﷺ، للإيذان بأنه تعالى قد أفاض عليه ﷺ أعلى مراتب النور، وبيّن له أسرار الملك والملكوت، أدقها وأخفها، والهمزة للتقرير، أي قد علمت علماً يقينياً بالوحي والاستدلال ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ ﴾ أي ينزهه تعالى على الدوام، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، ينزهه عن كلّ ما لا يليق بشأنه الجليل من نقص ﴿ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ما فيهما من العقلاء وغيرهم، فإنّ كلّ موجود من الموجودات، من حيث ماهيته ووجوده، يدلّ على وجود الصانع الواجب الوجود، المتصف بصفات الكمال، وقد نبه على كمال قوة الدلالة، بما يخصّ العقلاء من التسبيح، الذي هو أقوى مراتب التنزيه، تنزيلاً للسان الحال، منزلة لسان المقال، كأنّ كلّ شيء عاقل ناطق، ومخير صادق، يسبح الله تعالى، وخلق العقلاء أشدّ دلالة على وجود الصانع تعالى، لأن الغرائب في خلقهم أكثر، وهي العقل، والنطق، والفهم ﴿ وَالطَّيْرِ ﴾ تخصيها بالذكر، لاستقلالها بصنع بارع، حيث تسبح في جو السماء تسبح الله ﴿ صَفَّتٍ ﴾ أي تسبّحه تعالى، حال كونها صافات أجنتها، فإن إعطائه تعالى للأجرام الثقيلة، ما تتمكن به من الوقوف في الجو، والحركة كيف تشاء، حجة نيرة، وآية بيّنة، دالة على كمال قدرة الصانع جلّ وعلا ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ ﴾ أي كل من الملائكة، والإنس، والطير، قد أرشده الله وهداه لطريقته ومسلكه في عبادة ربه، والضمير يعود إلى الطير ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي عالم بما يفعلونه، لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم

= يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب ﴿ الآية، وإنه لنشبهه بدیع في منتهی الجمال والروعة، فالکافر کلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وقيل: الضمير، يعود على الله، أي قد علم الله صلاة كل واحد، ممّا في السماوات والأرض، وتسبيحه، ولا غرابة أن تسبح الطير، والأشجار، والأنهار، فكلّ ما في الكون يسبح الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(١) وقال بعض المتفلسفة: إذا كانت الطير عارفة بالله، كانت كالعقلاء، لكنها ليست كذلك، لأنها أشد نقصاناً من الصبي، الذي لا يعرف، وإذا ثبت أنها لا تعرف الله، استحال كونها مسبحة له بالنطق، فثبت أنها لا تسبح الله إلّا بلسان الحال، وللدرد على هذا نقول: إنا نشاهد أن الله تعالى ألهم بعض الحيوانات، أعمالاً لطيفة، يعجز عنها العقلاء، وإذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يُلهمها معرفته، ودعائه، وتسبيحه، فتأمل في العنكبوت كيف يأتي بالحيل، في اصطياد الذباب، وفي النحل وما لها من الرياسة، وبناء البيوت، وانتقال الكركي واللقاق من أطراف العالم، والخطاف صانع جيد في اتخاذ العش، وناقر الخشب ينقر الموضع الذي يعلم أن فيه دوداً ونحو ذلك، فإلهامه تعالى لكل نوع من المخلوقات علوماً دقيقة، لا يكاد يهتدي إليها جهابذة العلماء، مما لا سبيل إلى إنكاره، فلماذا ينكر الجاحد تسبيح الطيور والأشجار؟.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إلى الله وحده مصير الخلائق جميعاً، فيجازيهم على أعمالهم، واللفظ مع وجازته، فيه دلالة على تمام علم المبدأ، والمعاد.

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ﴾ أي يسوقه إلى حيث يشاء ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أي بين أجزائه، بضم بعضها إلى بعض ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا ﴾ أي متراكماً، والركم جمعك شيئاً فوق شيء، حتى تجعله مركوماً ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أي المطر إثر تراكمه ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ من فتوقه ﴿ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي ينزل من الغمام، فإن كل ما علاك سماء ﴿ مِنْ جِبَالٍ ﴾ أي من قطع عظام تشبه الجبال في العظم، كائنة ﴿ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ أي ينزل من السماء من جبال، فيها بعض برد، والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت إن كانت قليلة وكان في الهواء ما يحلل ذلك البخار، فحينئذ ينحل وينقلب هواء، وإن كان كثيراً ولم تحللها حرارة، فبلغت الطبقة الباردة من الهواء، واجتمع هناك صار سحاباً، وإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً، وإلا نزل برداً، وكل ذلك مستند إلى إرادة الله تعالى، ومشيئته المبينة على الحكم، والمصالح ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أي بما ينزله من البرد ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يصيبه به فيناله ما يناله من ضرر، في نفسه وما له ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يصرفه عنه، فينجو من غائلته ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ ﴾ أي ضوء برق السحاب ﴿ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴾ أي يخطفها من فرط الإضاءة، وسرعة ورودها، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة، من حيث إنه توليد للضد من الضد، لأن البرق لا بد أن يكون من نار، والثَّارُ ضد الماء.

﴿ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ بالمعاقبة بينهما، وينقص أحدهما وزيادة الآخر ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما فُصِّلَ آنفاً ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ لدلالة واضحة على

وجود الصانع، ووحدته، وكفاله قدرته ﴿لَأُولَىٰ الْأَبْصَارِ﴾ أي لمن له بصرٌ وبصيرة، وهذا من الدلائل على ربوبيته ووحدانيته.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ أي كل حيوان يدبُّ على الأرض ﴿مِّن مَّاءٍ﴾ هو أحد العناصر الأربعة، أو من ماء مخصوص هو النطفة، فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل، فجميع الحيوان سوى الملائكة والجن مخلوق من نطفة ﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كالحية والديدان، وتسمية حركتها مشياً، مع كونها زحفاً، بطريق الاستعارة ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس، والطيور ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ كالذباب، والوحش ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ مما ذكر ومما لم يُذكر على ما يشاء من الصور، والهيئات، والحركات، والطباع مع اتحاد العنصر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل الله ما يشاء كما يشاء، من الصور والأعضاء.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾ وهو القرآن وما فيه من الدلائل البينات، لكل ما يليق بيانه من الأحكام الدينية، والأسرار التكوينية ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أن يهديه، بتوفيقه للنظر الصحيح فيها، وإرشاده إلى التأمل في مطاويها ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإسلام، الموصل إلى الحق، وإلى الفوز بالجنة.

﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧).

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ نزلت في «بشر» المنافق، وكان قد خاصم يهودياً في أرض، وكان اليهودي يدعو إلى رسول الله ﷺ، والمنافق يجره إلى كعب ابن الأشرف زعيم المنافقين، فيأبى أن يتحاكم إلى الرسول ﷺ ﴿ ءَأَمَنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ أي أطعنا أمر الله ورسوله ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّى ﴾ عن قبول حكمه ﴿ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي من بعدما صدر عنهم من ادعاء الإيمان ﴿ وَمَا أُولَئِكَ ﴾ أي وما أولئك الذين يدعون الإيمان والطاعة ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام، أي من المعهودين بالإخلاص.

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٤٨).

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي إلى حكم الله ﴿ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ لأنه ﷺ المباشرة حقيقة، والحكم حكم الله سبحانه ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة، لكون الحق عليهم، وعلمهم بأنه ﷺ يحكم بالحق، وهو شرح للتولي والإعراض.

﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ (٤٩).

﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ لا عليهم ﴿ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أي منقادين والإذعان: الإسراع في الطاعة والانقياد، أي يسرعون لجزمهم أنه ﷺ يحكم لهم، لأنهم في هذه الحالة على حق.

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَمْ يَكُنْ لَهُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٥٠).

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾؟ أي كفر ونفاق ﴿أَمْ أَرَابُؤُا﴾؟ في نبوته ﷺ مع ظهور حقيقتها ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾؟ أي أم أنهم يخافون أن يجور رسول الله ﷺ عليهم في الحكم؟ ثم أضرب عن الكل، وحكم بأن المنشأ شيء آخر من شنائعهم حيث قال: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي بل هم ظلمة فجرة، كاملون في الظلم والعناد، ولذلك يعرضون عن حكم الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥١).

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية بيان لحقيقة الإيمان، وصفة المؤمن، أي إنما كان الواجب عليهم، والقول الصادر عن المؤمنين الصادقين ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بينهم وبين خصومهم، ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي أن يقولوا سمعاً وطاعة، ويسارعوا إلى قبول حكمه ﷺ وهكذا شأن المؤمن ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدق القول ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هم الفائزون في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٥٢).

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ استئناف جيء به لتقرير مضمون ما قبله، أي ومن يطع أمر الله وأمر رسوله، في كل فعل وعمل، ويقبل بحكم الرسول ﷺ مع التسليم والإذعان ﴿وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقْهُ﴾ أي يخاف الله تعالى على ما مضى من ذنوبه، ويتقه فيما يستقبل ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم، لا من عداهم، وهي جامعة لأسباب الفوز والسعادة، وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية شافية، فتليت له هذه الآية، لأنها جمعت أصول الإيمان، والطاعة، وأسباب السعادة!

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ﴾

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ حكاية لبعض آخر من أكاذيبهم مؤكد بالآيمان الفاجرة، أي أقسموا بالله بالغين أقصى مراتب اليمين في الشدة ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ أي بالخروج إلى الغزو ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي ليخرجن معك للجهاد، وحيث كانت مقاتلتهم هذه كاذبة، أمر ﷺ بردها ﴿قُلْ﴾ رداً عليهم ﴿لَا تُقْسِمُوا﴾ أي لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة، وأفعالكم تكذب أقوالكم ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة، لأن طاعتكم طاعة نفاقية، لا إيمانية، لأنها باللسان دون القلب، وإنما عبر عنها «بمعروفة» للإيذان بأن كونها كذلك، مشهورة ومعروفة لدى كل أحد ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، التي من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب، وما تضمرونه من النفاق والضلال.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ كرر الأمر لإبراز كمال العناية به، فإن شأن المؤمن الاستجابة لله ورسوله وطاعتهما ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ خطاباً للمأمورين بالطاعة، من جهته تعالى، واردة لتأكيد الأمر بها، والحمل عليه، بالترهيب والترغيب، أي إن تتولوا عن الطاعة ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي ما أمر به من التبليغ، ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أي ما أمرتم به من الطاعة، والتسليم، ولعل التعبير بالتحميل، للإشعار بثقله، وكونه مؤنة باقية في عهدتهم، كأنه قيل: وحيث توليتم عن ذلك، فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي

وإن أظعنتم أمره فقد اهتديتم إلى طريق النجاة والسعادة، وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله، لا وضع الإيمان في قلوب الناس.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ
بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ استئناف مبينٌ لتفاصيل ما أجمل فيه من الوعد، أي وعد الله عباده المؤمنين، كل من اتصف بالإيمان، لا من آمن من طائفة المنافقين فقط ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي وعملوا في هذه الدنيا الأعمال الصالحة ابتغاء وجه الله وطلباً لرضوانه ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ليجعلنهم خلفاء، متصرفين في الأرض، تصرف الملوك في ممالكهم ﴿كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هم بنو إسرائيل، استخلفهم الله عز وجل في فلسطين، بعد إهلاك الجبابرة ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ أي وليجعلن دينهم ثابتاً، عزيزاً مكيناً، عالياً على كل الأديان، وهو الدين الذي ارتضاه لهم بقوله: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ بحيث يستمرون على العمل بأحكامه، ويرجعون إليه في كل شؤونهم، والتعبير عن ذلك بالتمكين الذي جعل الشيء مكاناً لآخر، للدلالة على كمال ثبات الدين، ورضانة أحكامه، وتشبيهه بالأرض في الثبات والقرار، مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ أي من الأعداء ﴿أَمْنًا﴾ حيث كان أصحاب النبي ﷺ قبل الهجرة خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة، وكانوا يصبحون في السلاح، ويمسون كذلك، حتى قال رجل منهم: ما يأتي يوم علينا، نأمن فيه؟ فأنزل الله هذه الآية، وأنجز وعده له، وأظهرهم على جزيرة العرب، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم، وفيه من الدلالة على صحة

النبوة، للإخبار بالغيب ﴿يَعْبُدُونِي﴾ أي يوحّدونني ويخلصون لي العبادة، لا يعبدون إلهاً غيري، وهو مفيدٌ لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ أي يعبدونني غير مشركين معي في العبادة أحداً ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي اتصف بالكفر، ولم يتأثر بما مرّ من الترغيب والترهيب، فإن الإصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد، كفر مستأنف، زائدٌ على الأصل، أو كفر بعد الإيمان ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي بعد ذلك الوعد ﴿فَأُولَئِكَ﴾ البعداء عن الحق ﴿هُمْ أَفْلِسُونَ﴾ أي الكاملون في الفسق والطفيان، والاستخلاف الذي وُصف، إنما كان في أيام، أبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم، وحصل له التمكين، والأمن، وظهور الدين.

قال الروافض: نحمله على الأئمة الإثني عشر، وهو باطلٌ، لأن قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ﴾ يدلُّ على أن هذا الخطاب كان مع الحاضرين في زمن النبي ﷺ وما بعدهم به من القوة والشوكة لم يوجد في الأئمة الاثني عشر، وقال أهل التفسير أول من كفر بهذه النعمة، الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه فلما فعلوا ذلك غيّر الله تعالى حالهم، وأدخل عليهم الخوف، حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً متحابين.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي أدوا يا معشر المؤمنين الصلاة التي فرضها الله عليكم، وادفعوا زكاة أموالكم إلى الفقراء والمساكين، وأطيعوا نبيكم محمداً ﷺ في سائر ما أمركم به، لتنالوا رحمة الله.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَدَّعَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لَمَّا بَيَّنَّ حَالَهُمْ مِنْ أَطَاعَةِ ﷺ، عَقَّبَ ذَلِكَ ببيان حال من عصاه، ومآل أمره، تكميلاً لأمر الترغيب والترهيب، والخطاب إما للرسول ﷺ، أو لكل أحد ممن يصلح له، كائناً من كان ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا تحسبهم معجزين الله عزَّ وجلَّ، عن إدراكهم وإهلاكهم، في قطرٍ من أقطار الأرض بما رحبت، وإن هربوا فيها كل مهرب ﴿وَمَا أَوْثَقُ النَّارُ﴾ معطوف على جملة مقدرة كأنه قيل: لا تحسبن الذين كفروا معجزين ربهم في الأرض، فإنهم مدركون ومأواهم النار، وفي إيراد النار بعنوان كونها مأوى، إثر نفي قوتهم بالهرب، من الجزالة ما لا غاية وراءه، فالله دُرُّ شأن التنزيل ﴿وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ جواب لقسم مقدَّر، أي وبالله لبس المصير والمسكن نار جهنم، والجملة جوابٌ مقرر لما قبله.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْزِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ رجوع إلى بيان تنمة الأحكام السابقة، بعد تمهيد ما يوجب الامتنال بالأوامر والنواهي، الواردة فيها، روي أن غلاماً لأسماء بنت أبي مرثد، دخل عليها في وقت كرهته، فنزلت ﴿لِيَسْتَفْزِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والجواري، وظاهر قوله تعالى: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يدخل فيه البالغون، والصغار، وعن ابن المسيب رحمه الله قال: لا يغرنكم قوله: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ لا ينبغي للمرأة أن ينظر عبداً إلى قرطها، وشعرها، وشيء من محاسنها، وعن ابن عباس أن المراد

الصغار ﴿وَالَّذِينَ لَا يَلْبِغُوا الْحُلُمَ﴾ أي الصبيان القاصرون عن درجة البلوغ، والتعبير عنه بالحلم، لكونه أظهر دلائله ﴿مِنْكُمْ﴾ أي من الأحرار ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ أي ثلاث أوقات في اليوم واللييلة، لأنه تعالى فسرها بالأوقات، وإنما قيل ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ لأنه تعالى أراد مرة في كل وقت ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ثياب النوم، ولبس ثياب البقطة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ﴾ التي تلبسونها في النهار، وتخلعونها لأجل القيلولة ﴿مِنْ الظَّهِيرَةِ﴾ وهي شدة الحر، عند انتصاف النهار، والتصريح بوضع الثياب في هذا الحين، لما أن التجرد عن الثياب فيه قليل، أمّا في الوقتين المذكورين، فالتجرد متحقق ومعروف لا يحتاج إلى التصريح ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ ضرورة أنه وقت للتجرد عن اللباس، والالتحاف باللحاف ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾ أي ثلاث أوقات هي التي يبدو فيها انكشاف العورة، وقيل للسوءة عورة: لقبح النظر إليها، وكل شيء يستره الإنسان أنفةً وحياءً، عورة أطلقت على الأوقات المذكورة مبالغة، كأنها نفس العورة ﴿لَكُمْ﴾ أي كائنة لكم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي المماليك والصبيان ﴿جُنَاحٌ﴾ أي إثم في الدخول بغير استئذان، لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر، والإطلاع على العورات ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد كل واحدة من تلك العورات، وهي الأوقات المتخللة بين كل اثنين منهن ﴿طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بيان للعذر وتعليل له، أي لأنهم خدّمكم يطوفون عليكم للخدمة، ولو كَلَّفُوا بالاستئذان في كل مرة، لضاق الأمر عليهم، ومعنى الطواف: الدّوران، أي يمضون ويجيئون عليكم لخدمتكم، ولهذا رخص تعالى لهم في ترك الاستئذان، وهي المخالطة الضرورية، وفيه دليل على تعليل الأحكام ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على الأحكام، يعني ينزلها بينة واضحة الدلالة عليها، لا أنه تعالى بينها بعد أن لم تكن كذلك ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بجميع المعلومات، فيعلم أحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم، معاشاً ومعاداً.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ .

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ لما بيّن حكم الأطفال، في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة، عقب بيان حالهم بعد البلوغ، أي إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجانب سن الرشد ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي فليسأذنوا في جميع الأوقات ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كرره للتأكيد والمبالغة في أمر الاستئذان.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ .

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي النساء العجائز اللاتي قعدن عن الحيض، والحمل، ﴿وَالْقَوَاعِدُ﴾ جمع قاعد، لأنها من الصفات المختصة بالنساء، كالحائض ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي إذا بلغن في السن، بحيث لا يرغب فيهن الرجال لكبرهن، وهي العجوز التي إذا رآها الرجل لم يشتتها، أما من فيها بقية جمال فهي محل الشهوة، فلا تدخل في حكم هذه الآية، وإنما خصهن الله بذلك، لأن التهمة مرتفعة عنهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي الثياب الظاهرة كالجلباب ونحوه، والملحفة التي فوق الخمار، وأما الخمار فلا يجوز إزالته ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي غير مظهرات للزينة التي أمر الله بإخفائها في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ وأصل التبرج التكلف في إظهار ما يخفى ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ﴾ بترك الوضع ﴿خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ من الوضع لبعده من التهمة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم خفايا

النفوس، فيسمع ما يجري بينهن وبين الرجال ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فيعلم مقاصدهن، وفيه من الترهيب والوعيد ما يكفي اللبيب.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَلَائِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الحرج في اللغة: الضيق، ومعناه هنا الإثم، وقد كان هؤلاء الطوائف، الأعمى، والأعرج، والمريض، يتخرجون من مؤاكلة الأصحاء، حذراً من استقذارهم إياهم، وخوفاً من تأذيتهم، بأفعالهم وأوضاعهم، وقيل: كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام، فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم، أو إلى بعض من سماهم الله تعالى في الآية الكريمة، فكانوا يتخرجون من الأكل معهم، ويقولون: ذهب بنا إلى بيت غيره، وكذا كانوا يتخرجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو، وخلفوا هؤلاء الضعفاء في بيوتهم ودفَعُوا إِلَيْهِمْ مَفَاتِحَهَا، وأذنوا لهم أن يأكلوا مما فيها، مخافة أن لا يكون إذنتهم عن طيب نفس، فقليل لهم: ليس على الطوائف المعذورة إثم ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي عليكم وعلى ما يماثلكم من المؤمنين حرج ﴿أَنْ تَأْكُلُوا﴾ أنتم وهم معكم ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي البيوت التي فيها عيالكم، فيدخل فيها بيوت الأولاد، لأن بيتهم كبيتهم،

لقلوه (ﷺ): «أنت ومالك لأبيك» ولأنه سبحانه عدّد الأقارب، ولم يذكر الأولاد، وإذا كان السبب في الرخصة هو القرابة، كان الذي هو أقرب منهم أولى ﴿أَوْ بُيُوتَ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتَ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتَ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتَ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتَ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتَ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتَ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتَ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاحِشُهُ﴾ من البيوت التي تملكون التصرف فيها، بإذن أربابها، على الوجه الذي مرّ بيانه، ومثله وكيل الرجل في ضيعته أو ماشيته، لا بأس عليه أن يأكل من أثر ضيعته، ويشرب من ماشيته ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي أو بيوت صديقكم وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية، فإنهم أرضى بالتبسط، وأسرّ به من كثير من الأقرباء، ويحكي عن الحسن البصري رحمه الله أنه دخل داره، وإذا حلقة من أصدقائه، قد أخرجوا من تحت سريره، سلالاً من أطايب الأطعمة، وهم مكبّون عليها يأكلون، فتهلّلت أسارير وجهه سروراً، وضحك وقال: هكذا وجدناهم، يريد كبراء الأصحاب رضي الله عنهم، والصديق: يقع على الواحد والجمع، والصديق الصادق اشتقاقه من الصدق، لأنه أخلص الودّ والنصح لصاحبه، وهذا فيما إذا علّم رضاء صاحب البيت، بصريح الإذن أو بقرينة دالة عليه، وخُصّص هؤلاء بالذكر، لاعتبادهم التبسط فيما بينهم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ حكم آخر من جنس ما قبله، فقد كان الرجل منهم لا يأكل وحده، ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه، فإن لم يجد من يؤاكلة لم يأكل شيئاً، فرخص لهم في أن يأكلوا كيف شاؤوا. أشتاتاً جمع شتّ بمعنى مفترق، والشتات: الفرقة، أي ليس عليكم جناح أن تأكلوا مجتمعين، أو متفرقين ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾ من البيوت المذكورة، وهو بيان للآداب الاجتماعية ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم، كقلوه تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية، وإن دخلتم بيوتاً فارغة، أو مسجداً فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي ثابتة بأمره، ومشروعة من لدنه ﴿مُبْرَكَةٌ﴾ باركها الله تعالى لزيادة

الخير والشواب ودوامها ﴿طَيِّبَةً﴾ تطيبُ بها نفسُ المستمع، وصفها بالبركة، لأنها دعوة مؤمن لمؤمن، يرجى بها زيادة الخير، وطيب الرزق ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ تكرير لتأكيد الأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ما فيها من الأحكام الشرعية، وتعملوا بموجبها.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إنما ذكر الإيمان بالله ورسوله، مع تضمنه «المؤمنون» تقريراً لما قبله، وتمهيداً لما بعده، وإيداناً بأن حقيقة الإيمان، الإيمان بهما معاً ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان، الذين آمنوا بالله ورسوله، وأطاعوهما في جميع الأحكام، وإذا كانوا معه ﷺ على أمرٍ مهم، كالحروب، وغيرها، من الأمور الداعية إلى الاجتماع من أهل الآراء والتجارب، ووصف الأمر بأنه «جامع» للمبالغة في أهمية الأمر ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي لم يتركوا مجلسه عليه السلام ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ في الذهاب فيأذن لهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿هَذَا توكيد لما تقدم تفخيماً وتعظيماً لشأن الرسول ﷺ، أي إن الذين يستأذنونك يا محمد أولئك المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان، وهذا يفيد أن المستأذن مؤمن، وأن الذهاب لغير إذنه ليس كذلك ﴿فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ﴾ أي فإذا استأذنتك هؤلاء المؤمنون لبعض شؤونهم ومهامهم الضرورية ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي لبعض ما يعرض لهم من المهام ﴿فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ إذا علمت في ذلك حكمة ومصلحة، واستدل به على أن بعض الأحكام، مفوضة إلى رآيه ﷺ ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ﴾ لأن الاستئذان وإن كان لعذر قوي، لا يخلو من نوع تقصير، لتقديم

أمر الدنيا، على أمر الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ مبالغ في مغفرة خطايا العباد ﴿رَحِيمٌ﴾ مبالغ في آثار الرحمة عليهم، وينبغي أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم وعلمائهم في الدين، يظاهرونهم، ولا يترفقون عنهم.

قيل: نزلت يوم الخندق حيث كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم، من غير استئذان من النبي عليه الصلاة والسلام.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٣).

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ أي لا تجعلوا دعوته، وأمره إياكم لما فيه عز الدين، وصلاح الأمة ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي لا تقيسوا دعوته إياكم إلى شيء من الأمور، على دعوة بعضهم بعضاً في جواز الإعراض، والتساهل في الإجابة، والرجوع بغير إذن، وتكون الآية كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (١) الآية، وقيل: لا تجعلوا دعاءه ﷺ ربه، كدعائكم، فإن دعاءه ﷺ مستجاب لا مرد له عند الله عز وجل، وقيل: المعنى: لا تجعلوا نداءه كنداء بعضهم بعضاً، باسمه، ورفع الصوت، ولكن وقروه وعظموه، فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، يا أبا القاسم، مع خفض الصوت والتواضع، فتعظيمه تعظيمٌ لله عز وجل لأنه رسوله (٢). ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٢) الآية إنما وردت في بيان مقام الرسول ﷺ ووجوب التأدب في حضرته، وفي مخاطبته، فالغرض توقيف النبي وإجلاله، وليس الغرض أن دعاءه ﷺ مستجاب لا مرد له، فذلك أمر مقطوع به، ولكنه بعيد عن فحوى الآية، قال الفراء في معانيه ٢/٢٦٢: أي لا تدعوه بقولكم يا محمد، كما يدعو بعضهم بعضاً، ولكن وقروه =

الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ ﴿١٦﴾ وعيد لمخالفتي أمره ﷺ، والتسلل: الخروج من البين بطريق المراوغة والخفية، و «قد» للتحقيق، أي يعلم الذين يخرجون من الجماعة، قليلاً قليلاً، على سبيل الخفية، لئلا يراه أحد ﴿لِيُؤْذَا﴾ أي ملاوذةً بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج، وهكذا كان المنافقون ينصرفون عند حفر الخندق، ويثقل عليهم المقام في المسجد يوم الجمعة، فيخرجون في استتار ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي يخالفون أمره ﷺ بترك مقتضاه، ويتركون منهجه، وسنته وطريقته، والضمير للرسول ﷺ لأنه المقصود بالذكر ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة شديدة في الدنيا بقتل، أو زلازل، أو تسليط سلطان جائر ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الآخرة وكلمة «أو» لمنع الخلوة دون الجمع، وإعادة الفعل للاعتناء بالتهديد والتحذير، واستدل به على أن الأمر للإيجاب، فإن ترتب العذابين على مخالفته ﷺ يوجب الامتثال به حتماً.

﴿الْآيَاتِ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿الْآيَاتِ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الموجودات بأسرها، ملكاً، وخلقاً، وتصرفاً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع التي من جملتها الموافقة والمخالفة، والإخلاص والنفاق، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين، وإن اجتهدوا في سترها؟ ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يعلم يوم يرجع المنافقون للجزاء والعقاب ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ من الأعمال السيئة التي من جملتها مخالفة الأمر، ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض

= وعظموه، فقولوا يا نبي الله، ويا رسول الله، وكذلك قال الحافظ ابن كثير ٩٦/٦ وهو الأنسب بالسياق والله أعلم.

ولا في السماء، لأن الكلَّ خلقه وملكه. وفي الأثر عن عائشة رضي الله عنها «لا تُنزلوا النساء الغُرَف، وعَلِّموهنَّ الغزل، وسورة النور» وروي أن ابن عباس رضي الله عنه قرأ سورة النور على المنبر في الموسم، وفسَّرها على وجهٍ لو سمعتِ الرومُ به لأسلمت. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله تعالى على الرسول ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النور»

فَهْرَسُ المَجْلَدِ الثَّالِثِ

٥	١٣ - سورة الرعد
٣٩	١٤ - سورة إبراهيم
٧١	١٥ - سورة الحجر
١٠٣	١٦ - سورة النحل
١٧٣	١٧ - سورة الإسراء
٢٣٧	١٨ - سورة الكهف
٢٨٩	١٩ - سورة مريم
٣٢٥	٢٠ - سورة طه
٣٧٣	٢١ - سورة الأنبياء
٤١٧	٢٢ - سورة الحج
٤٥٥	٢٣ - سورة المؤمنون
٤٩٣	٢٤ - سورة النور
٥٤٣	فهرس المجلد الثالث

بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى تَمَّ انْتِهَاءُ الْمَجْلَدِ الثَّالِثِ وَتَلْيَهُ الْمَجْلَدُ الرَّابِعُ
وَيَبْدَأُ بِتَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَرَّاقِ

المقتطف من عبود التقياسية

للمرحوم فضيلة الشيخ
مصطفى الطهراني (النصوري)

حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ
خَادِمُ الْكِتَابَةِ وَالسُّنَّةِ
محمد علي الصابوني

المجلد الرابع

الدار الشمسية
بيروت

دار القلم
دمشق



سُورَةُ الْفُرْقَانِ

مكية وهي سبع وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ .

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ «تبارك» كلمة تعظيم، لم تستعمل إلا لله وحده، والمستعمل الماضي فحسب، والبركة: النماء والزيادة، حسية كانت أو معنوية، وتأتي بمعنى التمجيد والتعظيم، والفرقان مصدر فَرَّقَ بين الشيئين، سُمي به القرآن لفرقه بين الحق والباطل، أي تعالى وتعظم وتكاثر خير الله، الذي نَزَّلَ القرآن العظيم، الفارق بين الحق والباطل ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ محمد ﷺ نبياً ورسولاً ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الثقلين يتناول جميع المكلفين إلى يوم القيامة ﴿نَذِيرًا﴾ أي منذراً بالقرآن للإنس والجن، ومخوفاً لهم من عذاب الله، والإنذار: إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبارٌ فيه سرور.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ دَرُؤُ نَذِيرًا﴾ ﴿٢﴾ .

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي المالك لجميع ما في السموات والأرض ﴿وَلَمْ يَخْذَ وَلَدًا﴾ أي وليس له ولد كما زعم اليهود، والنصارى، والمشركون حيث جعلوا الملائكة بنات الله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أي في ملك السموات والأرض، وإفراده بالذكر، للتصريح ببطلان زعم القائلين بتعدد الآلهة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي أحدث كل موجود، إحدائاً جاريةً على سنن التقدير، حسبما اقتضته إرادته ﴿فَقَدَرُ﴾ أي هياه لما أراد به ﴿تَقْدِيرًا﴾ بديعاً لا يُقادر قدره، كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك، والنظر والتدبر في أمور المعاش، واستنباط الصنائع المتنوعة، وهكذا أحوال سائر الأنواع.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ الإضمار من غير ذكرهم، للثقة بمعرفتهم بدلالة ما قبله من نفي الشريك. أي اتخذ المشركون لأنفسهم آلهة متجاوزين الله الذي ذكر بعض شؤونه الجليلة ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ أي لا يقدرُونَ على خلق شيء من الأشياء أصلاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ كسائر المخلوقات وعبدتهم، ينحتونهم ويصورونهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ بيان لما لم يدل عليه ما قبله من مراتب عجزهم، فإن بعض المخلوقين ربما يملك دفع الضرر، وجلب النفع في الجملة كالحيوان، وهؤلاء لا يقدرُونَ دفع الضرر، ولا جلب النفع لأنفسهم، فكيف يملكون شيئاً منها لغيرهم؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ أي لا يقدرُونَ على إماتة أحد ولا إحياء أحد، والإله يجب أن يكون قادراً على ذلك، وفيه إيذان بغاية جهلهم.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَيْنَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَيْنَاهُ ﴾ شروع في حكاية أباطيلهم، أي وقال كفار قريش: ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ ﴾ أي على اختلافه ﴿ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ يعنون اليهود، بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الماضية، وهو يعبر عنها بتعليمهم ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا ﴾ والتنوين للتفخيم، أي جاؤوا بما قالوا ظلماً هائلاً، حيث جعلوا الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إفكاً مفترئاً من قبل البشر، وهو من جهة نظمه الرائق، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته، لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته، من جهة اشتماله على الحكم الخفية، والأحكام المستتعبة للسعادة الدنية والدنيوية، والأمور الغيبية بحيث لا تناله عقول البشر ﴿ وَزُورًا ﴾ أي كذباً كبيراً لا يبلغ غايتها حيث نسبوا إليه ﷺ ما هو بريء منه .

﴿ وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

﴿ وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي وقالوا في حق القرآن أيضاً إنه خرافات الأمم السابقين ﴿ اكْتَتَبَهَا ﴾ أي طلب أن تكتب له ﴿ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ ﴾ أي تُقرأ عليه ليحفظها من أفواه من يُمليها عليه، لكونه أمياً لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي دائماً صباحاً ومساءً، انظر إلى هذه الرتبة من الجرأة قاتلهم الله أنى يؤفكون .

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي قل رداً عليهم، وتحقيقاً للحق، إنه أنزله من يعلم السرّ، فلو كذب عليه لانتقم منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾^(١) فهذا القرآن الكريم المعجز في بيانه، أنزله الذي لا يغيب عن علمه شيء، وأودع فيه فنون الحكّم والأسرار، على وجهٍ بديع، لا تحوم حوله الشبهات، وقد جعلتموه إفكاً مفترىً من قبيل الأساطير، واستوجبتم أن يصبّ عليكم الله سوط العذاب، لكنه تعالى رحيم بالعباد، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي مستمر على المغفرة والرحمة، فلذلك لا يعجل بعقوبتكم على ما تقولون في حقه ﷺ.

﴿ وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾^(٧).

﴿ وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ ﴾؟ شروع في حكاية جنائياتهم المتعلقة بخصوصية الرسول ﷺ، و«ما» استفهامية، بمعنى إنكار الوقوع ونفيه، وفي هذا تصغيرٌ لشأنه ﷺ، وتسميتهم «رسولاً» بطريق الاستهزاء ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ أي أي شيء حصل لهذا الذي يدّعي الرسالة، حال كونه يأكل الطعام كما نأكل؟ ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾؟ لابتغاء الأرزاق كما نفعله، يعنون أنه إن صحّ ما يدعيه، فما باله لم يخالف حاله حالنا؟ وهل هو إلا لعمّهم، وركاكة عقولهم، وقصور أنظارهم؟ فإن تمييز الرسل عمن عداهم، ليس بأمور جسمانية، وإنما هو بأمور روحانية، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي على صورته وهيبته ﴿فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ تنزل منهم من اقترح أن

(١) سورة الحاقة، آية: ٤٤ - ٤٥.

يكون مَلَكًا، مستغنياً عن الأكل والشرب، إلى اقتراح أن يكون معه مَلَكٌ يصدِّقه، ويكون عوناً له في الإنذار.

﴿ أَوْ يُلقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ۞ ﴾

﴿ أَوْ يُلقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ تنزل آخر إلى اقتراح أن يُلقى إليه من السماء كنز، يستظهر به، ولا يحتاج إلى طلب المعاش، ويكون دليلاً إلى صدقه ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ تنزل ثالث إلى اقتراح أيسر منه، وأقرب من الوقوع، وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ ﴾ هم القائلون الأولون، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم، تسجيلاً عليهم بالظلم أي قالوا للمؤمنين ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما تتبعون ﴿ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ قد سحر فغلب على عقله.

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ۞ ﴾

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل ﴾ استعظام للأباطيل التي اجترؤوا على التفوه بها، أي انظر يا محمد كيف قالوا في حقك تلك الأقاويل السخيفة، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال، واخترعوا تلك الصفات البعيدة من الوقوع ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عن طريق الهدى والحق، حيث لم يأتوا بشيء يمكن صدوره عمن له أدنى عقل وتميز ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أي فلا يجدون طريقاً موثقاً إلى الحق، بعد أن ضلوا عنه.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿١٠﴾ ۞ ﴾

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي ﴾ أي تكاثر وتزايد خير الله الذي ﴿ إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ ﴾ في الدنيا عاجلاً شيئاً ﴿ خَيْرًا ﴾ لك ﴿ مِنْ ذَلِكَ ﴾ الذي اقترحوه من أن يكون لك جنة ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي لو شاء لأعطاك حدائق وبساتين تسير فيها الأنهار، لا جنة واحدة كما قالوا ﴿ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ أي قصوراً وبيوتاً مشيدة، وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين، للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل، واستغنائهما عن الجواب، لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة، وإنما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير، فإن بعض الأنبياء قد أوتوا في الدنيا مع النبوة ملكاً عظيماً، ولكن آخره للرسول ﷺ إلى الآخرة، لأنه خير وأبقى.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ (١١).

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ إضراب عن توبيخهم، بحكاية جناياتهم السابقة، أي بل كذبوا بالقيامة وبالحساب والجزاء، ولذلك أقدموا على السخرية والاستهزاء ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أي أعدنا لهم ناراً عظيمة، شديدة الاشتعال، بسبب تكذيبهم بها.

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ (١٢).

﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ أي إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد، ونسبة الرؤية إليها، للإيذان بأن التغيظ والزفير منها، لهيجان غضبها عليهم، عند رؤيتها إياهم حقيقة أو تمثيلاً، وقوله تعالى: ﴿ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ فيه مزيد تهويل لأمرها ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ أي صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها، بصوت المغتاط وزفيره، وهو صوت يُسمع من جوفه، هذا ويمكن أن يخلق الله تعالى فيها حياة، فترى وتغيظ، وتزفر.

﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ (١٣).

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ صفة لمكاناً مفيد لزيادة شدة عذابها، ولقد جمع الله على أهل النار أنواع البلاء، حيث ضمَّ إلى العذاب الشديد الضيق، فإن الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة، وهو السر في وصف الجنة بأنَّ عرضها السموات والأرض ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ حال، أي إذا أُلْقُوا مكاناً ضيقاً، حال كونهم مقرَّنين قد رُبِطت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ﴾ في المكان الهائل ﴿ثُبُورًا﴾ أي يتمنون هلاكاً، وينادونه يا ثبوراه، تعالَ فهذا أوانك.

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ على تقدير القول، أي يُقال لهم: لا تقتصروا على ثبور واحد ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي لا تدعوا اليوم بالهلاك على أنفسكم مرة واحدة، بل ادعوا مرَّات ومرَّات، فإن ما أنتم فيه من العذاب الشديد، يستوجب تكرير الدعاء في كل وقت وحين.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾.

﴿قُلْ﴾ تقريراً لهم وتحسيراً على ما فاتهم ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي قل لهم؛ أذلك الذي ذُكر من السعير، الذي أُعدَّ لمن كَذَّب بالساعة، خيرٌ؟ ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي وعدما الله للمتقين لربهم في الدنيا، وإضافة الجنة إلى الخلد، للتمييز عن جنات الدنيا ﴿كَانَتْ﴾ تلك

(١) ليس في العذاب والسعير شيء من الخير، وإنما ورد هذا بأسلوب السخرية والتهكم، وفي مثل هذا الموطن يحسن التقرير، كما إذا أعطى السيد عبده مالاً، فتمرَّد وطفى، واستكبر عن قضاء الحاجة، فيضربه سيده ضرباً شديداً، ويقول له على سبيل التوبيخ: أهذا أطيب أم ذاك؟ فهذا سخرية واستهزاء بأولئك الأشقياء!!

الجنة ﴿لَهُمْ﴾ أي جزاء لهم في وعد الله وحكمه، لأن ما وعد الله تعالى، فهو كائن لا محالة، فحكى تحقيقه ﴿جَزَاءً﴾ على أعمالهم حسبما مر من الوعد الكريم ﴿وَمَصِيرًا﴾ ينقلون إليه.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ (١٦).

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي ما يشاؤون من فنون الملاذ والمشتهيات، وأنواع النعم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ﴾ وفيه تنبيه على أن كل المرادات، لا تحصل إلا في الجنة ﴿خَالِدِينَ﴾ دائمين أبداً، فإن قلت: قد يشتهي الإنسان شيئاً، وهو لا يحصل في الجنة، كأن يشتهي الولد ونحوه، قلت: إن الله تعالى يزيل ذلك الخاطر، عن أهل الجنة، ولعل كل فريق يقتنع بما أتيح له من الدرجات، ولا تمتد أعناقهم إلى فوق ذلك ﴿كَانَتْ﴾ الوعد المذكور ﴿عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ أي موعوداً حقيقياً بأن يسأل لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ (١٧).

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي اذكر لهم بعد التقريع يوم يحشرهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي يجمعهم ومعبودهم والأصنام التي عبدت من دون الله ﴿فَيَقُولُ﴾ الله عز وجل للمعبودين تقرباً للعبدة ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ بأن دعوتهم إلى عبادتكم؟ كما في قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ؟﴾ ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي ضلوا بأنفسهم، لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن المرشد النصيح، وفائدة سؤالهم مع علمه تعالى بالمسؤول عنه، ليبيّن عبثهم ويوبّخهم على الإشراك.

﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ (١٨).

﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ ﴾ تعجباً مما قيل لهم، لأنهم إما ملائكة، وإما أنبياء معصومون، أو جمادات لا تقدر على شيء، أي تنزيهاً عن الأنداد ﴿ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا ﴾ أي ما صح وما استقام لنا ﴿ أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ ﴾ أي متجاوزين إياك ﴿ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ نعبدهم، فما يحق لنا ولا لأحد من المخلوق، أن يعبد غيرك، ولا أن يشرك معك سواك، فأنت ربنا وأنت سندنا ﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ ﴾ أي ما أضللناهم، ولكنك متعتهم وآباءهم بأنواع النعم، ليعرفوا حقها ويشكروها، فاستغرقوا في الشهوات ﴿ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ أي غفلوا عن ذكرك، وعن تذكر آلائك، والتدبر في آياتك ﴿ وَكَانُوا ﴾ باختيارهم للأعمال السيئة ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ أي هالكين، مصدر وصف به القوم، كأنهم أصبحوا نفس الهلاك.

﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ (١٩).

﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أي فقال الله تعالى توبيخاً لهم: فقد كذبكم المعبودون أيها الكفرة ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أي في قولكم إنهم آلهة ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي ما تملكون ﴿ صَرْفًا ﴾ دفعاً للعذاب عنكم، أي لا بالذات، ولا بالواسطة ﴿ وَلَا نَصْرًا ﴾ أي فرداً من أفراد النصر لا من جهة أنفسكم ولا من جهة غيركم، وفيه ضربٌ من التهكم، حيث كانوا يزعمون أن المعبودين يدفعون عنهم العذاب، وينصرونهم ﴿ وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ ﴾ أيها المكلفون كدأب هؤلاء، حيث ركبوا المكابرة والعناد، واستمروا على ما هم عليه من الفساد ﴿ نُدِقْهُ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ وهو عذاب النار.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ جواب عن قولهم ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ والمعنى: ما أرسلنا أحداً قبلك من المرسلين، إلا آكلين وماشين، فلم يكن ذلك منافياً لرسالتهم ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أي بعض كفار الأمم ﴿لِبَعْضٍ﴾ أي بعض الرسل ﴿فِتْنَةً﴾ أي ابتلاءً ومحنة، كأنه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة، من الأمم الكافرة، فتنة لرسولها المبعوث إليها، وإنما لم يصرح بذلك تعويلاً على شهادة الحال، أما تعميم الخطاب لجميع المكلفين فيأباه قوله تعالى: ﴿أَنْتَصِرُونَ﴾؟ فإنه غاية للجعل المذكور، وليس ابتلاء كل أحد معيّنًا بالصبر، فالمراد بهم الرسل^(١)، فيحصل به تسليته ﷺ، فالمعنى جرت سنتنا بموجب حكمتنا، على ابتلاء المرسلين بأمرهم، لنعلم صبركم ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ وعد كريم، للرسول ﷺ بالأجر الجزيل، لصبره الجميل، مع مزيد تشريف له.

(١) ما ذهب إليه المؤلف أن الفتنة خاصة بالرسول، وليست لجميع المكلفين، قول مرجوح، والأظهر - والله أعلم - أن الآية عامة لجميع الناس، وفي مقدمتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والمعنى: جعلنا بعضكم أيها الناس ابتلاءً ومحنة لبعض، ابتلى الله الغني بالفقر، والشريف بالوضيع، والصحيح الجسم بالسقيم، والضعيف بالقوي، وهكذا ليختبر صبر الناس؛ ولهذا قال: ﴿أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾؟ فالابتلاء عام لجميع الخلق، قال الحسن البصري: «يقول الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان، ويقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان» ويؤيد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿لِيَبْلُوكُم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۚ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۖ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ﴾ شروع في حكاية بعض آخر، من أقاويلهم الباطلة، وبيان بطلانها، ووضع الموصول موضع الضمير، للتنبيه على أن مثل هذا القول لا يصدر عن معتقد المصير إلى الله عز وجل ﴿ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ أي الرجوع إليه تعالى بالبعث أي وقال الذين لا يتوقعون الرجوع أصلاً إلينا، والرجاء بمعنى الخوف أي لا يخافون البعث ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِكَةُ ﴾ أي هلاً أنزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمد ﷺ ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ أي نشاهد الله جلّ وعلا فيخبرنا بأن محمداً رسوله، وكلا القولين ناشئ عن غاية غلوهم، في المكابرة والعتو ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي في شأنها، حتى اجترؤا على التفوه، بمثل هذه العظيمة ﴿ وَعَتَوْا ﴾ أي تجاوزوا الحد والظلم ﴿ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ أي بالغاً أقصى غايته، حيث أمّلوا نيل مرتبة المفاوضة الإلهية، من غير توسّط الرسول أو الملك، كما قالوا: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ۚ ﴾ ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات، فذهبوا في الاقتراح كل مذهب، وفيه الدلالة على غاية قبح ما هم عليه والعتو والاستكبار لا يثبت، إلا إذا طلبه الإنسان على سبيل التعنت، ومما يدل عليه أن موسى عليه السلام طلب الرؤية، وما وصفه الله تعالى بالاستكبار، والعتو، لأنه سألها شوقاً، وهؤلاء طلبوها تعنتاً واستهزاءً، ولذا وصفهم بذلك.

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَتِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ۖ ﴾

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَتِكَةَ ﴾ عند الموت، أو يوم القيامة ﴿ لَا بُشْرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي لا يبشر يومئذ المجرمون، والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشري، والمجرمين وضع موضع الضمير، تسجيلاً عليهم

بالإجرام مع الكفر، والمراد بالمجرمين هنا الكفار، الذين بلغوا غاية الإجرام، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عند مشاهدتهم ما يحق بهم ﴿جِئْرًا مَّحْجُورًا﴾ وهي كلمة يتكلمون بها عند لقاء عدوٍّ موفور، أو هجوم نازلة هائلة، يضعونها موضع الاستعاذة، حيث يطلبون من الله أن يمنع عنهم المكروه، فكان المعنى: نسال الله أن يمنع ذلك عنا منعاً ويحجره عنا حجراً، يعني أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم، وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم، وفزعوا منهم، وقالوا ما كانوا يقولونه، وقيل: تقولها الملائكة إقناطاً لهم، بمعنى: حراماً محرماً عليكم العفو والغفران، والجنة والرضوان، والأول أظهر.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ بيان لحال ما يعملونه في الدنيا، من مكارمهم، كقَرَى الضيف، وصلة الرحم، بتمثيل حالهم وحال أعمالهم، بحال قوم خالفوا سلطانهم، واستعصوا عليه، فقدم إلى ديارهم وأموالهم فأقبل عليها بالإفساد، والتحريق، بحيث لم يدع لها عيناً، ولا أثراً، أي عمدنا إليها وأبطلناها بالكلية، والهباء: شبه غبار، يُرى في شعاع الشمس، ومنثور صفته أي متفرق، أي جعلنا أعمالهم الصالحة كالغبار المنثور في الجو، شبه تعالى أعمالهم المحبطة، في الحقارة والضَّيَاع بالغبار المتطاير في الجو، لأنهم ما عملوها لوجه الله.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ هم المؤمنون الذين وعدهم الله جنة الخلد ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ المستقرُّ: المكان الذي يستقر فيه أكثر الأوقات للتجالس والتحدث ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ المقيِلُ: المكان الذي يُؤوى إليه للاستراحة، سُميت بذلك، لما أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالباً، ولا نوم في الجنة، ولكنه سمي مكان استراحتهم مقيلاً،

على طريق المقارنة والتشبيه لحال الفريقين، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم، والكفار في دركات الجحيم.

﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِيمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (٢٥).

﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ﴾ أي تفتتح، وأصله تشقق ﴿السَّمَاءُ بِالْغَمِيمِ﴾ أي بسبب طلوع الغمام منها، هو الغمام الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾^(١) ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ عجباً بصحائف أعمال العباد.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٢٦).

﴿الْمَلِكُ﴾ أي السلطنة القاهرة، والاستيلاء العام ﴿يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ ثابت ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ فائدة التقييد أن ثبوت الملك له تعالى خاصة يومئذ فتخضع له الملوك وتذل له الجبابرة، أما في الدنيا فيكون لغير الله تعالى تصرف صوري في الجملة ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم الرهيب ﴿يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي شديد الهم والبلاء، وأما للمؤمنين فيكون عليهم بفضل الله ورحمته هيناً يسيراً^(٢)، كما قال تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ (٢٧).

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٠.

(٢) كما قال المصطفى ﷺ عن يوم القيامة، حين سُئِلَ ما أطول هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن، حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة، يصلّيها في الدنيا» رواه أحمد.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ عضُّ اليدين والأنامل ونحوها، كناية عن الغيظ والحسرة، والمراد بالظالم «عقبة بن أبي معيط» وكان يكثر المجالسة للنبي ﷺ، فدعاه يوماً إلى ضيافته، فأبى ﷺ أن يأكل من طعامه، حتى ينطق بالشهادتين، ففعل، وكان «أبي بن خلف» صديقه، فعاتبه، وقال: وجهي من وجهك حرام إلا أن ترجع إلى دينك فارتد، وإما أن يُراد جنس الظالم وهو داخل فيه، والمقصود الزجر للكل عن الظلم ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي﴾ «يا» للتنبيه أو المنادى محذوف، أي يا هؤلاء ليتني ﴿أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي طريقاً واحداً منجياً وهو طريق الحق، ولم أكن ضالاً.

﴿يَوَيْلَ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾.

﴿يَوَيْلَ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يريد من أضله في الدنيا، فإن أريد بالظالم «عقبة» ففلان كناية عن «أبي بن خلف» وإن أريد به الجنس، فهو كناية عن كل ضال، قالت الرافضة: هذا الظالم هو رجل بعينه، وإن المسلمين غيروا اسمه وكنموه، وذكروا فاضلين من أصحاب رسول الله، ولأن المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم، وذلك لا يحصل إلا بالعموم، وقول الرافضة لا يتم إلا بالطعن في القرآن، وإثبات أنه غير، ولا نزاع أنه كفر. وكذا المراد بقوله (فلاناً) ليس شخصاً واحداً، بل كل من أطيع في معصية الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(١).

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾.

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ الآية بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرتة،

(١) سورة النبأ، آية: ٤٠.

أي والله لقد أضلني عن ذكر الله وعن الشهادة ﴿يَعْدِلْ ذَآءَ فِي﴾ وتمكنت منه ﴿وَكَاكَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ أي مبالغاً في الخذلان، يصاحبه ويواليه حتى يوصله إلى الهلاك، ثم يتركه ولا ينفعه، وحكم الآية عام، في كل متحابين اجتماعاً على معصية الله، عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلُ الجليس الصالح، والجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكبر، فحامل المسك إما أن يُحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكبر إما أن يُحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»^(١) وعن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»^(٢).

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه، وبيان ما يحق بهم في الآخرة، وإيراده ﷺ بعنوان الرسالة، لتحقيق الحق، والرد على نحورهم حيث كان ما حكى عنه قد جافى رسالته ﷺ، أي قالوا كيت وكيت وقال الرسول إثر ما شاهد منهم غاية العتو، بطريق البث إلى ربه عز وجل ﴿يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ الذين حكى عنهم ما حكى من الشنائع ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ أي متروكاً بالكلية، ولم يؤمنوا به، ولم يتأثروا بوعيده.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

(١) أخرجه البخاري في البيوع باب بيع المسك ٢٧١/٤ ومسلم في البر رقم ٢٦٢٨ باب استحباب مجالسة الصالحين.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٤٨٣٣ والترمذي في الزهد رقم ٢٣٧٩ وإسناده حسن.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ تسليّة للرسول ﷺ، وحملٌ له على الاقتداء بمن قبله من الأنبياء، أي كما جعلنا لك أعداء من المشركين، كذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا من مجرمي قومهم، فاصبر كما صبروا ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ وعد كريم له ﷺ بالظفر، والنصر على أعدائه، ونظيره قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ القائلون هم مشركو قريش، وإيرادهم بعنوان الكفر، لذمهم به، وللإشعار بعلّة الحكم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾ أي هلاً أنزل كل القرآن على محمد ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾؟ وبطلان هذه الكلمة الحمقاء، مما لا يكاد يخفى على أحد، لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به، لا يختلف بنزوله جملة، أو متفرقاً، فينثني صحته، وآية كونه من عند الله، نظمه المعجز، الباقي على مر الدهور، ومن ضرورة تغير بعضها، تغير ما يطابقها، على أنّ فيه فوائد جمّة، قد أشير إلى بعض منها بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ فإنه استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم، وبيان الحكمة في التدرّج، أي مثل ذلك التنزيل المفرّق، الذي قدحوا فيه، نزلناه تنزيلاً، ليتقوى به فؤادك على تحمل نزوله، ثم إن فيه تيسير الحفظ، وفهم المعاني، وضبط الأحكام، والوقوف على تفاصيل ما روعي فيها من الحكيم والمصالح، على أنها منوطة بأسبابها، وكذلك عامة ما ورد في القرآن المجيد، من الأخبار وغيرها، متعلقة بأمور حادثة من الأقاويل والمقترحات، ومنها أنها لو نزلت دفعة واحدة على الخلق، يثقل

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٤.

عليهم إجراء أحكامها ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي فصلناه تفصيلاً بديعاً، وبَيَّنَّاه للناس على أكمل الوجوه.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣).

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي لا يأتونك بكلام عجيب، هو مثل في البطلان، يريدون به القدح في القرآن، وفي حقك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ في مقابلته بالجواب الحق، الذي يحسم الباطل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (١) ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي أنه في غاية ما يكون من الحسن في حد ذاته، فهو أحسن بياناً وتفصيلاً من كل كلام قرؤوه.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٣٤).

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ صفة للذين أوردوا هذه الاقتراحات على سبيل التعتن أي هؤلاء هم المجرمون، الذين يساقون ويسحبون إلى النار على وجوههم ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي هم شرٌّ منزلاً ومصيراً، وأخطأ ديناً وطريقاً، لأنهم على الباطل والضلال، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ (٢).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ (٣٥).

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٨.

(٢) سورة المائدة، آية: ٦٠.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ بعد الحديث عن التوحيد، والنبوة، وأحوال القيامة، ذكر تعالى القصص على السُّنَّة المَعْلُومَة في طريقة القرآن لتأكيد ما مر من التسليية، والوعد بالهداية والنصر، كأنه قيل: لست يا رسول الله بأول من أرسلناه فكُذِّب، وآتيناه الآيات فرُذِّ، فقد آتينا موسى التوراة، وقوَّيناه بأخيه، ومع ذلك فقد كُذِّب ورُذِّ، واللام جوابُ القسم، أي وبالله لقد آتينا موسى الكتاب يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ أي وأَعْنَاهُ بأخيه هارون فأرسلناه معه وزيراً، يؤازره ويعاونه في تبليغ الدعوة.

﴿فَقُلْنَا أَذْهَبًا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

﴿فَقُلْنَا﴾ لهما حينئذ ﴿أَذْهَبًا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي اذهبا إلى فرعون الطاغية وقومه المكذبين، بالآيات الباهرات، هي المعجزات التسع ﴿فَدَمْزَلْنَهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي فذهبا إليهم فكذبوهما، فدمرناهم، فاقصر على ذكر أولها وآخرها، لأن المقصود من القصة، وهو إلزام الحجة، ببعثة الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم لهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي ودمرنا قوم نوح ﴿لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾ أي وأغرقنا قوم نوح بالطوفان، لما كذبوا رسولهم نوحاً، وجعلناهم عبرة لمن يعتبر، وإنما قال (الرسل) بالجمع، مع أنهم كذبوا نوحاً وحده، لأن في تكذيبه تكذيبهم جميعاً، لاتفاقهم على التوحيد ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ استئناف مبين لكيفية تدميرهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي جعلنا قصتهم ﴿لِلنَّاسِ آيَةً﴾ عظيمة يعتبر بها

كُلُّ مَنْ شَاهَدَهَا، أَوْ سَمِعَهَا ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أَي لِهَم، وَالْإِظْهَارَ لِلْإِذَانِ بِتَجَاوُزِهِمُ الْحَدَّ، فِي الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وَهُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ، وَيَحْتَمِلُ الْعَذَابَ الدُّنْيَوِيَّ وَالْآخِرَوِيَّ، عَلَى جَمِيعِ الظَّالِمِينَ، فَيَدْخُلُ فِي زَمْرَتِهِمْ قَرِيشٌ.

﴿وَعَادًا وَثُمُودًا وَأَصْحَبَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾.

﴿وَعَادًا وَثُمُودًا وَأَصْحَبَ الرَّسِّ﴾ هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَذَّبُوهُ، فَهَمَّ حَوْلَ الرَّسِّ - وَهِيَ الْبُئْرُ الَّتِي لَمْ تُطَوَّرْ بَعْدَ - إِذْ انْهَارَتْ فَخَسَفَ بِهِمْ وَبَدَارَهُمْ وَأَهْلَكُوا بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ﴿وَقُرُونًا﴾ أَي أَهْلُ قُرُونٍ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أَي بَيْنَ تِلْكَ الْأُمَمِ الطَّاعِيَةِ الْمَكْذُوبَةِ ﴿كَثِيرًا﴾ لَا يَعْلَمُ مَقْدَارَهَا إِلَّا الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ أَهْلَكْتَاهُمْ.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرَّأْنَا تَنْبِيْرًا﴾.

﴿وَكُلًّا﴾ أَي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ﴿ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ﴾ أَي بَيَّنَّا لَهُمُ الْقِصَصَ الْعَجِيبَةَ الزَّاجِرَةَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَلَمْ يَهْلِكْهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْإِنْذَارِ ﴿وَكُلًّا﴾ أَي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ﴿تَبَرَّأْنَا تَنْبِيْرًا﴾ عَجِيبًا هَائِلًا، لَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَتَأَثَرُوا بِذَلِكَ، وَتَمَادَوْا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرَانِ وَالْعُدْوَانِ، وَأَصْلُ التَّبْيِيرِ: التَّفْيِثُ، وَمِنْهُ التَّبَرُّ لَفَتَاتِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوْءَ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأَنَفَةٌ مَسْقُوقَةٌ لِبَيَانِ مَشَاهِدَاتِهِمْ لِآثَارِ هَلَاكِ بَعْضِ الْأُمَمِ الْمَتَّبِرَةِ، وَعَدَمِ اتِّعَازِهِمْ بِهَا، أَيِ وَبِاللَّهِ لَقَدْ أَنَّى قَرِيشٌ فِي مُتَاجِرِهِمْ إِلَى الشَّامِ، عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي ﴿أَمْطَرْنَا﴾ أَي أَهْلَكْتُ ﴿مَطَرًا﴾

السَّوَةِ ﴿بالحجارة، وهي قرى قوم لوط، وكانت خمس قرى، ما نجت منها واحدة﴾ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنها ﴿توبيخ لهم على تركهم التذكر، عند مشاهدة ما يوجبه، أي أفلم يكونوا يرونها في مرورهم، ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب؟﴾ بَلْ كَانُوا ﴿إضراب عما قبله من عدم رؤيتهم للمهلكين﴾ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿أي إنهم لا يعتبرون ولا يتعظون، لأنهم كانوا ينكرون النشور، المستتبع للجزاء الأخروي، فكيف يتذكرون ويتعظون بما شاهدوه من آثار الهلاك؟ ولذلك مرت بهم مدن المهلكين، كما مرت بهم ركابهم!!﴾

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ ﴿١١﴾ .

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا﴾ أي وإذا رآك المشركون يا محمد، ما يتخذونك إلا مهزوة به، يسخرون منك ويهزؤون، ويقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾؟ أي يستهزئون بك يا محمد قائلين: أهذا الذي أرسله الله رسولاً؟ والإشارة للاستحقار، وذكر الرسول في معرض التسليم، مع كونهم في غاية النكير لبعثته ﷺ، إنما جاء بطريق التهكم والاستهزاء وذلك جهل عظيم منهم، وسخافة وحماقة، فإنهم يستحقون أن يهزأ بهم، ثم إنهم لو فاحتهم قلبوا القضية، واستهزؤوا بالرسول ﷺ.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿إِن كَادَ﴾ إن مخففة من «إن» وضمير الشأن محذوف، أي إن الحال أنه كاد ﴿لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي ليصرفنا عن عبادتها، صرفاً كلياً، بحيث يبعدنا عنها، لا عن عبادتها فقط، والعدول إلى الإضلال لغاية

ضلالهم ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي لولا أن ثبتنا عليها، وهذا اعتراف منهم بأنه ﷺ قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة، وإقامة الحجة، إلى حيث شافوا أن يتركوا دينهم، والآية تدلُّ على أنهم كانوا كالمجانين، لأنهم استهزؤا به ﷺ أولاً، ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا بقوة الحجة، وكمال العقل ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم، أي سوف يعلمون في الآخرة ﴿حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ الذي يستوجبه كفرهم وعنادهم ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؟ أي من هو أخطأ طريقاً، وأضلُّ ديناً، أهم أم محمد ﷺ؟ وفيه من الوعيد، والتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم، وإن أمهلهم، فإن عاقبة الكفر الوبال.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾؟ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من شناعة حالهم، فقد كان الواحد منهم يعبد حجراً، ينحته بيده ويطيئه ويعبده، فإذا رأى حجراً أحسن منه، هجر إلهه ورمى به وعبد الثاني، كما قال ابن عباس رضي الله عنه ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؟ إنكار واستبعاد لكونه ﷺ حفيظاً عليه، بزجره عما هو عليه من الضلالة، وإرشاده إلى الحق، كأنه قيل: أبعدما شاهدت من غلوّه في طاعة الهوى، تقسره على الإيمان؟ وهذا تئيس من إيمانهم، وإرشاد للرسول ﷺ ألا يتأسف عليهم، فإنهم في الجهل بالمنافع، وقلة النظر في العواقب، مثل البهائم التي لا تدرك شيئاً من مصالحها.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾؟ إضراب وانتقال عن إنكار المذكور، إلى إنكار أنهم ممن يسمع أو يعقل، أي بل أنتحسب أن

أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات، أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ، فتعني بشأنهم، وتطمع في إيمانهم؟ ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي ما هم في عدم الانتفاع، بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات، وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات، إلا كالبهائم التي هي مثل في الغفلة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي بل هم أبشع حالاً، وأسوأ مآلاً من البهائم والدواب، لما أنها تنقاد لصاحبها الذي يعلفها، وتعرف من يحسن إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها، وهم لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم، فهم أضل من الحيوانات.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ إلى صنع ربك، وإبداع خلقه؟ وهو بيان لبعض دلائل التوحيد، والخطاب للرسول ﷺ في الظاهر، وعام في المعنى، لأن المقصود بيان نعم الله تعالى، وجميع المكلفين مشترك فيه، أي ألم تنظر إلى بديع صنعه تعالى؟ وحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى، لأن تأثير قدرة الله تعالى غير مرئي ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي كيف بسط تعالى الظل، ومدّه وقت النهار، ليستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس ووهجها؟ إذ لولا الظل في النهار، لأحرقت الشمس الإنسان والثمار، وكذّرت حياة الإنسان، ولكنه تعالى رحيم بالعباد، يهيء لهم سبل الراحة، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ الجملة اعترضت بين المعطوفين، للتنبيه من أول الأمر، على أنه لا مدخل فيما ذكر للأسباب العادية، وإنما المؤثر فيه المشيئة الإلهية، أي لو شاء سكونه لجعله ثابتاً في مكان لا يزول ولا يتحول عنه، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان، ومن جهة إلى جهة، حتى يستفيد البشر والزرع من الظل والشمس، وحاصله بيان كمال قدرته تعالى، بنسبة جميع الأمور الحادثة إليه سبحانه بالذات ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ

عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿ أَي جعلناها علامة، يُستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله، ومعنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس، لما عرف الظل، والأشياء تُعرف بأضدادها.

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ۞ ﴾

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا ﴾ وفي بيان كون القبض والمد، مزيد دلالة على الحكمة الربانية، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا﴾ للتنصيص على كون مرجعه إليه تعالى، كما أن حدوثه منه تعالى ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي على مهل، قليلاً قليلاً، لا دفعة واحدة، لئلا تختل المصالح، وتعدم المنافع.

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَاسَاً وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ۞ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي ﴾ بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى، ونعمته الفائضة على الخلق، وتلوين الخطاب لتوفية المقام حقَّ الامتتان، وهذا هو النوع الثاني من دلائل القدرة الباهرة، وآثار عظمة الله ووحدانيته، في الإتيان والإبداع ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَاسَاً﴾ أي جعل لكم الليل كاللباس، يستركم بظلامه، كما يستركم اللباس ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحة للأبدان، بقطع المشاغل، وأصل السُّبات: القطع أي وجعل النوم الذي يقع في الليل، قاطعاً للأعمال الشاقة التي يكابدها الإنسان في النهار، وعبر عنه بالسُّبات، الذي هو الموت، لما بينهما من المشابهة، في انقطاع أحكام الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾^(١) ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي زمان انتشار، ينتشر فيه الناس للمعاش، وفي الآية إشارة إلى أن النوم واليقظة، أنموذج للموت، والبعث.

(١) سورة الأنعام، آية: ٦٠.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿٤٨﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي مبشرة بنزول المطر غوثاً للعباد ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي وأنزلنا من السحاب الذي ساقته الرياح، ماء طاهراً مطهراً تشربون منه، وتتطهرون به، والطهور: هو الطاهر في نفسه، المطهر لغيره، ووصف الماء به، إشعاراً بتمام النعمة، فإن الماء الطهور، هنا: وأنفع، هذا هو النوع الثالث من آثار الوجدانية والقدرة.

﴿لِنُخْصِيَ بِهِ بَلَدَةً مِّمَّا وَشَقِيقُهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًا كَثِيرًا﴾ ﴿٤٩﴾

﴿لِنُخْصِيَ بِهِ﴾ أي بما أنزلناه من الماء ﴿بَلَدَةً مِّمَّا﴾ بإنبات النبات، وإخراج الزرع والثمار، والتذكير لأن البلدة بمعنى البلد، فالمراد به القطعة من الأرض، عامرة كانت أو غامرة ﴿وَشَقِيقُهُ﴾ أي ذلك الماء الطهور، عند جريانه في الأودية، واجتماعه في المنابع والآبار ﴿مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًا كَثِيرًا﴾ أي أهل البوادي، الذين يعيشون بالحياض، والمراد بالأناسي البشر الكثيرين.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٥٠﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ أي وبالله لقد كررنا هذا القول في القرآن وغيره من الكتب السماوية ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الناس، من المتقدمين والمتأخرين ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ ليتفكروا ويعرفوا بذلك، كمال قدرته تعالى، ويقوموا بشكر نعمه، وقيل: الضمير للمطر، وتصريفه بينهم: إنزاله في بعض البلاد دون

غيرها، والأول أظهر ﴿فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ أي أبى أكثر البشر، ممن سلف وخلف ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي لم يفعلوا إلا كفران النعمة، وقلة الاكتراث لها عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، في إثر سماء من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم!! قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي، وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي، وكافر بالكواكب، وأما من قال: مُطِرْنَا بِنُوءِ كَذَا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»^(١).

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ أي نبياً يُنذر أهلها، فيخفف عليك أعباء النبوة، ولكن لم نشأ ذلك فلم نفعله بل قصرنا الأمر عليك، حسبما ينطق قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ إجلالاً لك، وتفضيلاً لك على سائر الرسل.

﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾

﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم، وكما أثرتك على جميع الأنبياء، فآثر رضائي على جميع الأهواء، وقابل ذلك بالثبات، والاجتهاد في الدعوة، وإظهار الحق، أريد بهذا تهيبه ﷺ وتهيبج المؤمنين، كأنه تعالى نهى الرسول الله عن المداراة معهم، لما أنه ﷺ كان يود أن يدخلوا في الإسلام، ويجتهد في ذلك بتأليف قلوبهم ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن، بتلاوة ما فيه من الزواجر والمواعظ ﴿جِهَادًا

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء وفي الصلاة ٢/٢٧٧، ومسلم في الإيمان رقم ٧١، وأبو داود في الطب رقم ٣٩٠٦، وانظر جامع الأصول ١١/٥٧٦.

كَبِيرًا ﴿ فَإِنَّ دَعْوَةَ كُلِّ الْعَالَمِينَ، عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ، جِهَادٌ كَبِيرٌ لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِالْجِهَادِ: الْقِتَالُ، وَالْأَقْرَبُ الْأَوَّلُ، لِأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، وَالْأَمْرُ بِالْقِتَالِ وَرَدَّ بَعْدَ الْهَجْرَةِ.

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ (٥٦).

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ هذا هو النوع الرابع من أدلة القدرة والوحدانية، أي خلأهما متجاوزين متلاصقين، بحيث لا يتميزان، من مَرَجَ دَابَّتَهُ إِذَا خَلَّاهَا، وَأَصْلُ الْمَرَجِ: الْإِرْسَالُ وَالْخِلَاطُ ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ قَامِعٌ لِلْعَطَشِ لِفَايَةِ عَذُوبَتِهِ ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ بَلِيغٌ الْمَلُوحَةِ ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ حَاجِزًا غَيْرَ مَرْتَبِيٍّ مِنْ قُدْرَتِهِ تَعَالَى، وَهُمَا فِي الظَّاهِرِ مُخْتَلِطَانِ، وَفِي الْحَقِيقَةِ مُفَصَّلَانِ ﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ وَتَنَافَرًا مَفْرُطًا، كَأَنَّ كِلَا مِنْهُمَا يَتَعَوَّذُ مِنَ الْآخَرِ، وَوَجْهَ الْاسْتِدْلَالِ هَهُنَا أَنَّ الْعَذُوبَةَ وَالْمَلُوحَةَ، إِنْ كَانَتْ بِطَبِيعَةِ الْأَرْضِ أَوْ الْمَاءِ، فَلَا يَدُ مِنَ الْاسْتَوَاءِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، فَلَا يَدُ مِنَ قَادِرٍ حَكِيمٍ، يَخْصُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَجْسَامِ، بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَقِيلَ: الْمَرَادُ بِالْبَحْرِ الْعَذْبِ: النَّهْرُ الْعَظِيمُ، كَالنَّيْلِ وَالشُّطِّ، وَبِالْمِلْحِ: الْبَحْرُ الْكَبِيرُ، وَبِالْبَرْزَخِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْأَرْضِ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ (١).

(١) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْمَاءَ بَيْنَ: الْحَلْوِ، وَالْمَالِحِ، فَالْحَلْوِ كَالْأَنْهَارِ وَالْعَيُونِ وَالْأَبَارِ، وَالْمَالِحُ كَالْبَحَارِ الْكُبَارِ الَّتِي لَا تَجْرِي، وَجَعَلَ بَيْنَ الْعَذْبِ وَالْمَالِحِ حَاجِزًا، وَهُوَ الْيَابِسُ مِنَ الْأَرْضِ، وَمَانِعًا أَنْ يَصِلَ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ، أ. هـ. وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَقُولُ: وَهُوَ الْأَظْهَرُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فَالْمَرَادُ بِالْعَذْبِ الْفُرَاتُ مِيَاهُ الْأَنْهَارِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ بَحَارٌ حَلْوَةٌ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّغْلِيْبِ حَيْثُ أُطْلِقَ عَلَى النَّهْرِ اسْمُ الْبَحْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ٥٤ ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ هذا هو النوع الخامس من آثار القدرة والوحدانية، والمراد بالماء: النطفة، أي هو تعالى بقدرته خلق من النطفة إنساناً سمياً بصيراً ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ أي قسمه قسمين: ذوي نسب أي ذكوراً ينتسب إليهم، وذوات صهر أي إناثاً يُصاهرُ بهنَّ، كقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾^(١) ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ أي مبالغاً في القدرة، حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة، بشراً ذا أعضاء مختلفة، وطباع متباعدة، وربما يخلق من نطفة واحدة، توأمين: ذكراً، وأنثى.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ٥٥ ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٥٦ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ الذي شأنه ما ذكر ﴿ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ أي ما ليس من شأنه النفع والضرر، وهو الأصنام أو كل ما يعبد من دونه تعالى ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ ﴾ معصية ﴿ رَبِّهِ ﴾ الذي ذكرت آثار ربوبيته ﴿ ظَهِيرًا ﴾ يظهر الشيطان بالشرك والعصيان، أو يظهر بعضهم بعضاً، على إطفاء نور الله تعالى.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للكافرين.

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَٰهًا ٥٧ ﴾ سَبِيلًا ٥٨ .

(١) سورة القيامة، آية: ٣٩.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من جهنكم ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي إلا فعل من يريد، أن يتقرب إلى الله، بالإيمان والطاعة، فصور ذلك بصورة الأجر، من حيث إنه مقصود بالذات، شفقة عليهم، وقيل: الاستثناء منقطع، أي لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْهِىَ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْهِىَ الَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي اعتمد في جميع أمورك وأحوالك على ربك الواحد الأحد، الذي لا يموت، توكل عليه في الاستكفاء عن شروهم، والإغناء عن أجورهم، فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه، دون الأحياء الذين من شأنهم الموت، فإنهم إذا ماتوا، ضاع من توكل عليهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ ونزّهه عن صفات النقصان، مثباً عليه بنعوت الكمال، طلباً لمزيد الإنعام، أي قل سبحان الله وبحمده ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ أي حسبك أن الله تعالى مطلع على أعمال العباد، ما ظهر منها وما بطن ﴿خَبِيرًا﴾ أي مطلعاً عليها بحيث لا يخفى عليه شيء منها، فيجزئهم جزاءً وافياً، فلا عليك إن آمنوا، أو كفروا.

﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَبِّحْ بِهِ خَبِيرًا﴾.

﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تعطيل، وُصف تعالى بصفة الفعلية، بعد وصفه بالأبدية، لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى ﴿الرَّحْمَنُ﴾ مرفوع على المدح، أي هو الرحمن، وهو في الحقيقة وصف للحي المذكور

﴿فَسْتَلْ بِهِ﴾ أي بتفاصيل ما ذكر إجمالاً ﴿خَيْرًا﴾ هو الله سبحانه وتعالى، الخبير بالأشياء، العالم بالحقائق، يطلعك على جلية الأمر، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُبْثِّكَ مِنْهُ خَيْرٌ﴾^(١).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ قالوه لأنهم كانوا لا يطلقونه على الله تعالى، أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى، ولذلك قالوا ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟﴾ أي أنسجد لما تأمرنا بالسجود له، من غير أن نعرف أن المسجود له ماذا؟ ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي زادهم الأمر بالسجود للرحمن استكباراً، ونفوراً عن الحق والإيمان، وهذا من شدة الطغيان، وهذا يشبه قول الطاغية فرعون لموسى عليه السلام: ﴿وما ربُّ العالمين؟﴾ كأنه لا يعرف أن هناك خالقاً للبشر.

﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾

﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ هي البروج الاثني عشر، سميت به، وهي القصور العالية، لأنها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة، وقال الحسن ومجاهد: البروج هي النجوم الكبار، كالزهرة والمشتري وعطارد

(١) هذا القول مروي عن مجاهد، ورجح بعض المفسرين أن المعنى: فاسأل عنه من هو خبيرٌ عارف برحمته وجلاله، والمراد به من عنده اطلاع على الكتب السماوية من أهل العلم، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ والله أعلم.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ هي الشمس لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾
﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ مضيئاً بالليل، وهو البدر الساطع.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي ذوي خلفه، يخلف كل منهما الآخر، أو بأن يتعاقبا يأتي هذا بعد هذا ﴿لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي يتذكر آلاء الله تعالى، ويتفكر في بدايع صنعه، فيعلم أنه لا بد لها من صانع حكيم ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أو أراد أن يشكر الله تعالى على ما فيهما من النعم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾^(١) الآية روي أنه جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: فأتتني الصلاة الليلة، قال: أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله تعالى ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾^(٢)!!

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خُلص عباد الرحمن، وأحوالهم الدنيوية والأخروية، والإضافة للتشريف ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ

(١) سورة القصص، آية: ٧٣.

(٢) يروي أن عمر فعل هذا بنفسه، أطال صلاة الضحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تفعله!! فقال: فأتني شيء من وردي - أي صلاتي - بالليل، فأحببت أن أقضيه، وتلا هذه الآية، ذكره الحافظ ابن كثير ٣/ ٣٣٦.

عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴿٦٤﴾ بسكينة وتواضع، دون مَرَح واختيال، وهو مصدر وصف به مبالغة ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي السفهاء ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾ أي قالوا قولاً يسلمون به من الأذية والإثم، والمراد به الإغضاء عن السفهاء، وترك مقابلتهم في الكلام، وهذا مستحسن شرعاً، ومروءة وعقلاً.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ وتخصيصهم بالبيتوتة، لأن العبادة بالليل أحمَد، وأبعد من الرياء، أي ساجدين لربهم وقائمين، يُحيون الليل كله، أو بعضه، وفي الحديث عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة، فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة، فكأنما صلى الليل كله»^(١).

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في أعقاب صلاتهم، وفي عامة أوقاتهم ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي شراً دائماً، وهلاكاً لازماً، وفيه مدح لهم، ببيان أنهم مع حسن معاملتهم مع الخلق، واجتهادهم في عبادة الحق، يخافون العذاب، ويبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم، غير محتفلين بأعمالهم، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾^(٢).

(١) رواه مسلم في المساجد رقم ٦٥٦ وأبو داود في الصلاة رقم ٥٥٥ والترمذي في الصلاة أيضاً رقم ٢٣١ باب فضل صلاة العشاء والفجر بالجماعة.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٦٠.

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي بنست جهنم منزلاً، ومكان إقامة لمن يدخلها ويسكنها.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ﴿٦٧﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ أي لم يجاوزوا حدَّ الكرم ﴿ وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ أي ولم يضيّقوا تضييق الشحيح، وقيل: الإسراف: هو الإنفاق في المعاصي، والتقتير: منع الواجبات والقرب ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ أي بين الإسراف والتقتير، وسطاً وعدلاً، سُمِّي قواماً لاستقامة الطرفين، وهو ما يقام به الحاجة، ولا يفضل عنها ولا ينقص، قيل لعالم: ما البناء الذي لا سرف فيه؟ قال: ما سترك من الشمس والمطر، فليل له: وما الطعام؟ قال ما سدّ الجوعة، وقيل: ما اللباس؟ قال: ما ستر عورتك، ووقاك من البرد^(١).

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ ﴿٦٨﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ أي لا يعبدون معه تعالى إلهاً آخر ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ أي حرّم قتلها ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي بسبب الحق المزيل لحرمتها، كالقصاص، أو الزنى بعد الإحصان، أو الردة عن الإسلام، أو السعي في الأرض بالفساد ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ أي لا يفعلون

(١) روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ملأ ابنُ آدم وعاءَ شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإذا كان لا محالة - أي لا بدَّ - فاعلاً، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشربه، وثلثٌ لنفسه» رواه الترمذي.

فاحشة الزنى، ولا شيئاً من هذه القبائح التي جمعهن الكفرة، حيث كانوا مع إشراكهم مداومين على قتل النفس المحرمة، التي من جملتها المؤودة، ومكبين على الزنا، لا يرفعون عنه أصلاً ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ وهو جزاء الإثم في الآخرة، كالوبال والنكال، وزناً ومعنى، والأثم هو الإثم وجزاؤه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله: «أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: أن تدعو الله نداءً وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك!! قال: ثم أي؟ قال أن تزني بحليلة جارك، فأنزل الله تعالى تصديقاً له ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾^(١) الآية.

﴿يُضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾^(٢).

﴿يُضَعَفُ﴾ بدل من «يَلْقَى» لاتحادهما في المعنى، إذ مضاعفة العذاب هي لقاء الآثام ﴿لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ﴾ أي في ذلك العذاب المضاعف ﴿مُهَانًا﴾ ذليلاً مستحقراً جامعاً للعذاب الجسماني والروحاني، ومضاعفة العذاب لانضمام المعاصي إلى الكفر.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٣).

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ﴾ أي أولئك الموصوفون بالتوبة، والإيمان، والعمل الصالح ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة، ويثبت مكانها لواحق

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٣٧٨/٨ ومسلم في الإيمان رقم ٨٦ باب كون الشرك أقبح الذنوب.

طاعاتهم، ولم يرد به تبديل السيئة بعينها حسنة ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من المحو والإثبات.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي ومن تاب عن المعاصي، بتركها بالكلية، والندم عليها، ودخل في الطاعات، فإن الله يتقبل توبته، ويكون مرضياً عند الله تعالى، يمحو الله زلته، ويرفع درجته، ومعنى المتاب: التوبة التامة، وهي الجمع بين ترك القبيح، وفعل الجميل، وكان المعنى أن توبته صادقة، لا غش فيها ولا زغل.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي لا يقيمون الشهادة الكاذبة، فيشهدون بالباطل شهادة الزور، أو لا يحضرون محاضر الكذب، فإن مشاهدة الباطل مشاركة فيه ﴿وَإِذَا مَرُّوا﴾ على طريق الاتفاق ﴿بِاللَّغْوِ﴾ أي ما يجب أن يلغى ويُطرح، ممّا لا خير فيه ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معرضين عنه، مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه، والخوض فيه، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش، والكناية عما يُستهجن التصريح به، عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشرāk بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال يكررها، حتى قلنا ليته سكت»^(١) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخّم وجهه، ويطوف به في الأسواق.

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٢٦٥٤ ومسلم رقم ٨٧.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٧٢).

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي والذين إذا وُظِّفوا بآيات القرآن، المنظوية على المواعظ والأحكام، أكبوا عليها سامعين بآذان واعية، وعيون راعية، وإنما عبَّر عن ذلك بنفي الصمِّ ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون، حيث يتعمدون ويعرضون عن آيات الذكر الحكيم.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتَنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (٧٤).

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتَنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي اجعل لنا ذرية صالحة تقر بهم أعيننا، وذلك بتوفيقهم للطاعة، وحيازة الفضائل، فإن المؤمن إذا ساعده أهله في طاعة الله، وشاركوه فيها، يُسر بها قلبه، وتقرُّ بهم عينه، لما يشاهده من مشايعتهم له في مناهج الدين، وتوقع لحقوقهم به في الجنة، حسبما وعد الله بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي اجعلنا بحيث يُقتدى بنا في إقامة وظائف الدين، بإفاضة العلم، والتوفيق للعمل، وتوحيد ﴿إِمَامًا﴾ لأنَّ المراد واجعل كلَّ واحد منّا إماماً، وفي الآية ما يدلُّ على أن الرياسة في الدين، يجب أن تطلب، ويُرغب فيها، وقرَّة العين: أن يصادف قلبه من برضاه، فتقر عينه به عن النظر إلى غيره.

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَحَجَّةً وَسَلَامًا﴾ (٧٥).

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المتصفين بتلك الفضائل الجليلة، والصفات النبيلة ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ الغُرْفَةُ: الدرجة العالية من المنازل، أي يُثابون أعلى منازل الجنة، وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ﴾ ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي بصبرهم على المشاق من مَضَض الطاعات، ورفض الشهوات، وتحمل المجاهدات ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا﴾ من جهة الملائكة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي تُحييهم الملائكة، ويدعون لهم بطول الحياة، والسلامة من الآفات، ويمكن أن يكون السلام من الله تعالى، لقوله سبحانه: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ وقيل: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، الذي هو تحية الإسلام.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي حسنت الجنة موضع قرار وإقامة، وهي في مقابلة قوله تعالى عن جهنم: ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي ما أسوأ ذاك، وما أحسن هذا؟.

﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

﴿قُلْ﴾ أمرٌ للرسول ﷺ بأن يبين للناس، أنَّ الفائزين بتلك النعماء، إنما نالوها بما عُدُّد من محاسنهم، ولولاها لم يُعتد بهم أي قل لهم ﴿مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي ما يكثرث ولا يحفل بكم ربي، ولا يعتني بشأنكم، لولا دعاؤكم وعبادتكم له، ولولا ذلك لكتنم وسائر البهائم سواء، ولكنه سبحانه شفيق على العباد، ولذلك أرسل إليكم الرسل، وأنزل الكتب ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي فقد كذبتم بما أخبرتكم به، وخالفتموه

أيها الكفرة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكون جزاء التكذيب، أو أثره لازماً،
يحيق بكم لا محالة، لكفركم وضلالكم، وتكذيبكم لآيات الله.
والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، والصلاة والسلام على
سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان»

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مكية وهي مئتان وسبع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسّم﴾.

﴿طسّم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه منظوم ومركب من أمثال هذه الحروف، وقيل: اسم للسورة الكريمة، فهي تسمى سورة طسم.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى السورة ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي آيات الكتاب الواضح الجلي، المعجز في بيانه، الظاهر إعجازه وصحته، أو المبيّن للأحكام الشرعية.

﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ﴾ لعلّ للإشفاق، أي أشفق على نفسك، ونظير هذه

الآية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾^(١) ﴿أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لعدم إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا به.

﴿إِنْ شَأْنُ نُزْلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٍ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(٢).

﴿إِنْ شَأْنُ نُزْلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ استئناف مسوق لتعليل النهي عن التحسر المذكور، ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى، فلا وجه للطمع فيه، والتأثر من فواته ﴿آيَةٍ﴾ أي ملجئة لهم إلى الإيمان ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ أي منقادين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُنْذَرٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾^(٣).

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُنْذَرٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بيان لشدة تمردهم، وعدم ارعوائهم عن الكفر والتكذيب، أي ما يأتيهم من موعظة، من مواعظ القرآن الكريم تذكروهم بالله وتخوفهم عقابه، إلا جددوا إعراضاً عنها، على وجه التكذيب والاستهزاء.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهٖ يَسْتَهْزِءُونَ﴾^(٤).

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي كذبوا بالقرآن تكذيباً مقارناً للاستهزاء به، ولم يكتفوا بذلك، بل طعنوا فيه، فجعلوه تارةً سحراً، وأخرى شعراً، ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعبر ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهٖ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي فقد بلغوا النهاية في السخرية والتكذيب، فسوف يأتيهم عاقبة القرآن، الذي كانوا به يستهزئون، من العقوبات العاجلة والآجلة، وفي الآية تهويلٌ للعقاب، لأن النبا لا يُطلق إلا على أمرٍ وخبرٍ خطير، كقوله سبحانه: ﴿عَمَّ يُتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾. ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه، وباهر قدرته

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

في مخلوقاته ومصنوعاته، الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته، فقال سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَأَيْنَاهَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَأَيْنَاهَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾؟ أي أولم ينظروا إلى عجائب الأرض، كم أخرجنا فيها من كل صنف، حسن محمود، كثير الخير والمنفعة، مما يأكل الناس والأنعام؟ والاستفهام للتوبيخ على تركهم التدبر والاعتبار، قال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إِنَّ في ذلك الإنبات لآية عظيمة باهرة، تدل على وحدانية الله وقدرته، ونهاية سعة رحمته، وما كان أكثر قومه عليه الصلاة والسلام مؤمنين، مع ظهور الدلائل الساطعة، لغاية تماديهم في الكفر والضلالة.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي وإن ربك يا محمد هو العزيز أي الغالب القاهر، القادر على الانتقام من الكفرة، الرحيم أي المبالغ في الرحمة بخلقه، حيث يمهلهم ولا يعجل لهم العقوبة مع قدرته عليهم. ثم شرع تعالى في ذكر قصة موسى مع فرعون الطاغية الجبار، فقال سبحانه:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلِذَٰلِكَ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ أي اذكر يا محمد لأولئك المعرضين عن الإيمان، المكذبين بآيات الرحمن، من قومك، وقت ندائه تعالى وكلامه لموسى، ليلة رأى الشجرة والنار، حين رجع من مدين، وذكرهم بما جرى على قوم فرعون، بسبب تكذيبهم إياه، وحذّره أن يصيبهم مثل ما أصابهم ﴿أَنۢ أَنتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي بأن انت هؤلاء الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، واستعباد بني إسرائيل، وذبح أبنائهم.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَا يَسْقُونَ﴾

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من القوم الظالمين أي هم قوم فرعون العتاة الجبابرة ﴿الْأَيْسِقُونَ﴾؟ أي ألا يخافون عذاب الله وعقابه؟ وفيه تعجيب من غلوهم في الظلم، أي انتهم زاجراً لهم فقد آن لهم أن يتقوا، وهي كلمة حث وإغراء على التقوى.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾

﴿قَالَ﴾ متضرعاً إلى الله تعالى ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ من أول الأمر.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ أي يضيق صدري من تكذيبهم لي، وفي لساني عقدة، فأخشى ألا أستطيع أن أبلغهم دعوتك على الوجه الأكمل، ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أي اجعل أخي هارون رسولاً وأرسله معي ليكون عوناً لي في تبليغ الرسالة، رُبَّ عليه السلام استدعاء ذلك على الأمور الثلاثة: خوف التكذيب، وضيق الصدر، وازدياد الحُبسة في لسانه، وليس ذلك من التعلل والتوقف في الأمر، وإنما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال به، وتمهيد عذر فيه.

﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ﴾ أي تبعه ذنب، والمراد به قتل القبطي، وتسميته ذنباً بحسب زعمهم، كما ينبيء عنه قوله: ﴿وَلَهُمْ﴾ ﴿فَأَخَافُ﴾ أي إن أتيتهم وحدي ﴿أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ بمقابلته قبل أداء الرسالة، وهو طلب دفع البلية قبل وقوعها، لا للتعلم أيضاً.

﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيْتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا﴾ حكاية لإجابته تعالى إلى المطلبين: الدفع عن الخوف، وضم أخيه المفهوم من توجيه الخطاب إليهما، كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن، فاذهب أنت ومن استدعيت وفي قوله: ﴿بِأَيْتِنَا﴾ أي اذهب أنت وأخوك هارون بالمعجزات التي أيدتك بها وهي اليد، والعصا ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ أي معكما، أجراهما مجرى الجماعة، وهو جائز في اللغة، وقيل: المراد مع موسى وهارون وفرعون، فمع موسى وهارون بالعون والنصر، ومع فرعون بالقهر والكسر، وفيه مزيد تسلية لهما بضممان الحفظ والنصرة كقوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ وحيث كان الموعد بمحضر من فرعون، اعتبر في المعية أي سامعون ما يجري بينكما وبينه، مثل حاله عز وجل بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم، يستمع ما يجري بينهم، ليمد أوليائه مبالغة للوعد بالإعانة.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ أي فأتيا فرعون الطاغية الجبار، واثقين بالنصر والتأييد ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإفراد الرسول لاتحاد مطلبهما أو لأنه مصدر بمعنى الرسالة وصف به، أي إننا مرسلون من رب العالمين إليك.

﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَابِي إِسْرَءِيلَ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَابِي إِسْرَءِيلَ ﴾ ومعنى إرسالهم: تخليتهم ليذهبوا معهما إلى الشام، ورفع يد الظلم والعدوان عنهم.

﴿ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ فرعون لموسى عليه السلام بعدما أتياه وقال له ما أمرا به ﴿ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون واستأذنا في الدخول فقال البواب لفرعون: إن ههنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلنا نضحك، فأديا إليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام. فقال عند ذلك ﴿ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِينَا ﴾ أي في قصرنا ومنزلنا ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ أي مكثت بين ظهرانينا سنين عديدة، ونحن نحسن إليك ونزعاك!! يروى أنه لبث فيهم اثنتي عشرة سنة، وفرّ منهم على إثر ذلك، بعد قتله القبطي، فخرج إلى أرض مدين.

﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكَ الْيَاقِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكَ الْيَاقِي فَعَلْتَ ﴾ يعني قتل القبطي، فبعدما عدّد عليه نعمته، وبيّحه بما جرى عليه من قتل خبّازه، وعظّم ذلك ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي بنعمتي، حيث عمدت إلى قتل رجل من خواصي، فأساءت إلى من أحسن إليك.

﴿ قَالَ فَعَلْنَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿ قَالَ فَعَلْنَهَا إِذَا ﴾ قال مجيباً له، مصداقاً في القتل، ومكذباً فيما نسبته

إليه من الكفر ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الجاهلين، أو من المخطئين^(١)، لا من الكافرين كما زعمت، لأن موسى لم يتعمد قتله، بل أراد تأديبه.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢١).

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي فهربت منكم حين خفت على نفسي أن تصيبوني بمضرة أو تقتلوني ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ حكمة وفهماً ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ واختارني رسولاً إليك، فإن آمنت سلمت، وإن جحدت هلكت !! ردّ أولاً بذلك ما وبخه به قدحاً في نبوته، ثم كرّر على ما عدّه نعمة وهو في الحقيقة نعمة فقال:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٢٢).

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؟ أي تمنّ بها عليّ ظاهراً، وهي في الحقيقة نعمة، فتعبيدك بني إسرائيل، وقصدك إياهم بذبح أبنائهم، وأنه السبب في وقوعي عندك، ولو تركتهم لرباني أهلي، ولم يلقوني في اليم، أو تلك نعمة تمنّها عليّ؟ وتوحيد الخطاب في تمنّها، وجمعه في ما قبله، لأن المنّة منه خاصة، والخوف والفراؤ منه ومن ملئه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣).

(١) فإن قيل: كيف قال موسى: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ والنبي لا يكون ضالاً؟ والجواب أنه عليه السلام أراد به الخطأ أي وأنا من المخطئين لأنني لم أتعمد قتله، وإنما أردت دفعه، ولم يقصد الضلال عن الهدى، لأنه معصوم منذ الصغر، وقال ابن عباس: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الجاهلين لأنني كنت في حالة غضب.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لَمَّا سَمِعَ مِنْهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ الْمُتَيْنَةَ، وَشَاهَدَ تَصْلِبَهُ فِي أَمْرِهِ، وَعَدِمَ تَأْثِرَهُ بِمَا قَدَّمَ، شَرَعَ فِي الْإِعْتِرَاضِ عَلَى دَعْوَاهُ، فَبَدَأَ بِالِاسْتِفْسَارِ عَنِ الْمُرْسِلِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ حِكَايَةً لِمَا وَقَعَ فِي عِبَارَتِهِ، أَيْ أَيُّ شَيْءٍ رَبُّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي ادَّعَيْتَ أَنَّكَ رَسُولُهُ؟ مَنْكَرًا لِأَنَّهُ يَكُونُ لِلْعَالَمِينَ رَبٌّ سِوَاهُ، حَسْبَمَا يَعْرِفُ عَنْهُ قَوْلُهُ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ وَهُوَ سُؤَالٌ عَنِ الْجِسْمِيَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُنْزَعٌ عَنْهَا، يَرِيدُ اللَّعِينُ الْمَغَالِطَةَ، أَيْ مَا هِيَ حَقِيقَةُ اللَّهِ؟ وَمَنْ أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ أَمِنْ ذَهَبَ أَمْ فُضَّةٌ أَمْ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ؟ فَهَذَا أَجَابَهُ مُوسَى بِذِكْرِ أَعْمَالِهِ وَأَثَارِهِ.

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾

﴿قَالَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَيُّ هُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ الْمَالِكُ لَجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا قَالَهُ حَسْبًا لِمَادَةِ تَزْوِيرِ اللَّعِينِ، وَتَشْكِيكِهِ بِحَمْلِ الْعَالَمِينَ عَلَى مَا تَحْتَ مَمْلَكَتِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أَيُّ إِنْ كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ الْأَشْيَاءَ بِالْإِدْلِيلِ، فَكُفَى خَلْقُ الْأَشْيَاءِ دَلِيلًا عَلَى خَالِقِهِ!! سَأَلَ اللَّعِينُ عَنِ الْمَاهِيَةِ ﴿مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ؟ وَمَا هُوَ شَكْلُهُ وَجَنْسُهُ؟ وَهَذِهِ مَغَالِطَةٌ مِنْهُ، فَأَجَابَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَسْلُوبِ الْحَكِيمِ، مُنْبِهًا إِلَى آثَارِ قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ جَلًّا وَعَلَا.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾

﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ عِنْدَ سَمَاعِ جَوَابِهِ، خَوْفًا مِنْ تَأْثِيرِهِ فِي قُلُوبِ قَوْمِهِ ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟ تَعْجِيبٌ لَهُمْ مِنْ جَوَابِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ أَمْرٌ حَقِيقٌ بِأَنَّهُ يُتَعْجَبُ مِنْهُ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَلَا تَسْتَمِعُونَ مَا يَقُولُهُ؟ فَاسْتَمِعُوهُ وَتَعْجَبُوا مِنْهُ؟ حَيْثُ أَسْأَلُهُ عَنِ اللَّهِ، فَيُجِيبُنِي عَنْ صِفَاتِهِ، وَيُرِيدُ

بذلك السخرية من موسى، بأنه لا يحسن الجواب، مع أن كلام فرعون هو كلام الأحمق، الذي لا يحسن حقيقة السؤال، ولو كان له عقل لقال «ومن رب العالمين» ولهذا أكد موسى عليه السلام بالجواب القاطع.

﴿ قَالَ رَبِّكُمْ رَبِّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّكُمْ ﴾ خطأ له من ادعاء الربوبية إلى مرتبة الربوبية ﴿ وَرَبِّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي هو المستحق للربوبية، ربكم ورب آبائكم السابقين، فوجودكم دليل على وجوده، وأنتم جميعاً عبيد له سبحانه، لأنه هو الذي خلقكم وصوّرکم، ولا يمكن أن يتوهم مثله، فهو واحد أحد، فرد صمد.

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون من سفاهته لَمَّا واجهه موسى عليه السلام بما ذكر، اغتاض من ذلك، وخاف من تأثيره على قومه، فأراهم أن ما قاله عليه السلام، ممّا لا يصدر عن العقلاء، سداً لهم عن قبوله، فقال مؤكداً ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ليفتنهم بذلك ويصرفهم عن قبول الحق، أي إن هذا الرسول لمجنون لا عقل له، أسأله عن شيء، فيجيبني عن شيء!! وسماه رسولاً بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مخاطبيه (رسولكم) ترفعاً من أن يكون رسلاً إلى نفسه.

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ تكميلاً لجوابه الأول، وتفسيراً له، وتنبيهاً على جهلهم، وعدم فهمهم لمعنى مقالته فإن بيان ربوبيته تعالى للسموات والأرض وما بينهما هو مظهر الألوهية، فالله عزّ وجلّ هو المتصرف في الكون، يقلب الليل والنهار، ويسير الشمس

والقمر، وهذا هو الطريق الأمثل لمعرفة ربوبيته تعالى، فإن ذكر المشرق والمغرب، منبئاً عن شروق الشمس وغروبها، على نمط بديع، تشاهدون كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق، ويحركها على مدار غير المدار الذي قبله، على وجه نافع ينتظم أمور الكائنات، ويجعلها تغرب من الغرب، وهذا مشاهد يبصره العاقل والجاهل، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العقل والفهم، علمتم أن الأمر كما قلته^(١)، وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر، بحيث لا يشبهه على من له عقل في الجملة، فلما تحير فرعون، ولم يتهياً له أن يدفع الحجة، رجع إلى الاستعلاء، متوعداً بالبطش والعنف، وهذا منطق الطغيان عندما لا يجد البرهان.

﴿قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾

﴿قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ لم يقنع منه عليه بترك دعوى الرسالة، حتى كلفه أن يتخذه إلهاً، لغاية عتوه في دعوى الألوهية، وهذا صريح في أن تعجبه وتعجبيه من الجواب الأول، ونسبته إلى الجنون كان لنسبته عليه السلام الربوبية إلى غيره، واللام في (المسجونين) للعهد أي لأجعلنك ممن عرفت أحوالهم في سجوني، حيث كان يطرحهم في هوة عميقة، حتى يموتوا، ولذلك لم يقل لأسجنتك.

(١) هذه من أبلغ الحجج التي تقصم ظهر الباطل، كقول إبراهيم الخليل في مناظرة النمرود الذي أعطاه الله الملك ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب؟ فبهت الذي كفر﴾ وكان موسى يقول لفرعون الجبار إن كنت حقاً إلهاً فبدل نظام الحياة، واجعل الشمس تشرق من المغرب وتغرب من المشرق، فهذا هو السر في قوله: ﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ وقد تلطف موسى ولابن أولاً طمعاً في إيمانهم، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله: ﴿إن كنتم تعقلون﴾ في مقابلة قول فرعون: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ وكأنه يقول: أنتم المجانين لا أنا.

﴿ قَالَ أُولَٰؤِ هَٰؤُلَاءِ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ قَالَتِ يٰٓأَيُّهَا الْمَلَأَ الْأَرْضَ الْعِبَادُ لَهُمْ آلَافُ سَنَةٍ ﴾ (٣٠) قَالَ فَاتِّبَعِي بِهِ إِنْ كُنْتِ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ أُولَٰؤِ هَٰؤُلَاءِ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ؟ أي أنفعل بي ذلك ولو جئت بشيء جلّي واضح على صدق دعواي، يريد به المعجزة، فإنها جامعة بين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يديه، وعلى وجود الصانع وحكمته.

﴿ قَالَ فَاتِّبَعِي بِهِ إِنْ كُنْتِ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴾ أي اتبنا بما يدل عليه كلامك !! .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴾ أي تتلأأ كالشمس الساطعة لها شعاع من غير ضرر.

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ؟ بهر سلطان المعجزة، وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية، إلى حضيض الخضوع لعبيده فيقول ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ؟ يطلب منهم مؤامرتهم ومشاورتهم، بعدما كان مستقلاً في الرأي، وأظهر استسعار الخوف، من استيلائه على ملكه، ونسبة الإخراج والأرض إليهم ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ لتنفيرهم عن موسى عليه السلام.

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الدَّائِنِ حَشِيرِينَ ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي أخر أمرهما ولا تباغت قتلها خوفاً من الفتنة
﴿ وَأَتَّبِعْ فِي الدَّائِنِ حَشِيرِينَ ﴾ أي وأرسل الشرطة يحشرون السحرة، ويجمعونهم
لك من أطراف المملكة.

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿ يَأْتُوكَ ﴾ أي الحاشرون ﴿ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ صيغة «سَحَّار»
للمبالغة، أي فائق في فن السحر ماهر في صنعه.

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ هو اليوم الذي عيّنه موسى عليه
السلام بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ أي وقت الضحى في أول أيام العيد.

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ أي ألا تجتمعون لهذا الأمر الجليل؟
والمراد منه استعجالهم، حثاً لهم على المبادرة إليه.

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْفَٰلِغِينَ ﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ ﴾ أي نتبعهم في دينهم ﴿ إِنْ كَانُوا هُمُ الْفَٰلِغِينَ ﴾ أي إن
غلبوا موسى، وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة، وإنما هو أن لا
يتبعوا موسى عليه السلام.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْفَٰلِغِينَ ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْتِيَنَّكَ عَظِيمًا ﴾ ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ ؟
أي إذا غلبنا موسى، فهل تكرمنا بإكرام جزيل؟.

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿ ٤٢ ﴾ .

﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ لكم ذلك ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ عندي إذا غلبتم موسى، أجعلكم من خاصتي ومن جلسائي.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ ﴿ ٤٣ ﴾ .

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلْقُونَ ﴾ أي بعد ما قال له السحرة ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَهَا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ أي ألقوا ما أنتم ملقون من السحر، فسوف ترون عاقبة أمركم، أراد عليه السلام التهاون في الأمر، وترك المبالاة بهم، ثقة بنصر الله له، ولتظهر المعجزة على رؤوس الأشهاد، بعد أن يبذلوا كل جهودهم لغلبته.

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ ﴿ ٤٤ ﴾ .

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ قالوا ذلك، لفرط اعتقادهم في أنفسهم، وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر، ومرادهم أنا سنتنصر ونغلب موسى، ونقسم على ذلك بعزة فرعون.

﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ﴿ ٤٥ ﴾ .

﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ أي تبتلع بسرعة الحبال والعصي ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي ما يقلبونه من وجهه بتمويههم، فيخيلون حبالهم وعصيتهم أنها حيات تسعى.

﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ۖ ﴾

﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿ أَي خَرُّوا سَجْدًا قَائِلِينَ: آمنا بالرب الحقيقي، الذي أخبرنا عنه موسى وهارون لا ما يزعمه فرعون المفتري على الله. ﴾

﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لِمُ قَتَلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۚ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ لَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صِلَابَكُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ﴾

﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لِمُ قَتَلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أَي قَبْلَ أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ أَي إِنَّهُ رَئِيسُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ، فَتَوَاطَأْتُمْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ، أَرَادَ فِرْعَوْنُ بِهَذَا الْكَلَامِ التَّلْبِيسَ عَلَى قَوْمِهِ، كَيْلًا يَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ آمَنُوا عَنْ بَصِيرَةٍ، وَظَهَرَ حَقُّ ﴿ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ لَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صِلَابَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ هَدَّدَهُمْ بِالْقَتْلِ وَالصَّلْبِ تَخْوِيفًا لَهُمْ لِيَرْجِعُوا.

﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ۖ ﴾

﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ﴾ أَي لَا ضَرَرَّ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ ﴿ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ تَعْلِيلُ لِعَدَمِ الضَّرَرِّ، أَي لَا ضَيْرَ بَلْ لَنَا نَفْعٌ عَظِيمٌ، فِيمَا تَتَوَعَّدُنَا بِهِ مِنَ الْقَتْلِ، لِأَنَّهُ لَا بَدَ لَنَا مِنَ الرَّجُوعِ إِلَىٰ رَبِّنَا، فَيُثَبِّتُنَا بِالصَّبْرِ عَلَىٰ مَا فَعَلْتَ بِنَا، وَيَجَازِينَا عَلَى التَّوْحِيدِ.

﴿ إِنَّا نَنْطَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴾

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لأن كنا أول المؤمنين بالله، من أتباع فرعون الكفار، ولما ثبتوا على الإيمان، نفذ فيهم فرعون حكم الإعدام، فقتلهم ليبقى له ملكه.

قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء برة.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾ أي أخبرنا موسى بطريق الوحي، أن فرعون يتبعكم وجنوده مصبحين ﴿ فَأَسْرَ ﴾ أي سز بالليل بمن معك، حتى لا يدرككم قبل الوصول إلى البحر.

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَيْنِ ﴾.

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ ﴾ حين أخبرهم بمسيرهم ﴿ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَيْنِ ﴾ أي جامعين للعسكر ليتبعوهم، فلما اجتمعوا قال:

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾.

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ الشرذمة طائفة قليلة، استقلهم وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً، فأرسل في أثرهم ألف ألف.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴾ أي فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا بمخالفتهم لنا.

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾.

﴿وَأَنَّا لَجَبَّعٌ حَذِرُونَ﴾ ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر، واستعمال الحزم في الأمور، اعتذر بها إلى أهل المدائن، لئلا يُظن به ما يكسر من قهره وسلطانه.. قال تعالى مبيِّناً عاقبتهم الوخيمة:

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ أي أخرجنا فرعون وقومه الظالمين ﴿مِّن جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي بساتين كانت ممتدة على حافتي النيل، فيها الأنهار الجارية.

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ومن أموالهم الوفيرة، ومنازلهم البهية.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإخراج العجيب أخرجناهم ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي ملكناها إياهم على طريقة تملك مال الموروث، بعد إغراق فرعون وقومه.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ﴾.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾ أي فلاحقوهم ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في وقت شروق الشمس أي طلوعها.

﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ﴾ أي تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ أي سيدرکنا جنود فرعون ويقتلوننا، جاؤوا

بالجملة الاسمية، مؤكدة بحرفي التأكيد «إن» و«اللام» للدلالة على تحقق الإدراك واللاحق، وتحقيق الهلاك والفناء.

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (١١)

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ كَلَّا ﴾ أي ارتدعوا عن ذلك، فإنهم لا يدركونكم، فإن الله وعدكم الخلاص منهم ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي ﴾ بالنصرة والهداية ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ إلى طريق النجاة منهم بالكلية، روي أن قوم موسى عليه السلام قالوا يا كليم الله: أين أمرت، وقد غشنا فرعون والبحر أمامنا؟.

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٢)

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ هو بحر القلزم، ويُعرف موضعها بالسويس، وهو بحر مظلم موحش لا خير فيه ﴿ فَانْفَلَقَ ﴾ (١) أي فضربه فانفلق، فصار اثني عشر فرقا، بعدد الأسباب ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ﴾ حاصل بالانفلاق ﴿ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ كالجبل الثابت في مقرّه، فدخلوا في شعابها، كل سبط في شعب منها، لئلا يتزاحموا ويتخاصموا في اقتحام الطريق.

(١) لما انفلق البحر جعله الله يساً لموسى عليه السلام والمؤمنين، وصار فيه اثنا عشر طريقاً، ووقف الماء بينها كالطود العظيم، وأمر الله موسى أن يترك البحر على حاله كما قال سبحانه: ﴿ وَاتْرَكَ الْبَحْرَ زَهَوًّا إِنَّهُمْ جِنْدٌ مَغْرُقُونَ ﴾ فلما خرج موسى ومن معه، وتكامل دخول أصحاب فرعون، أمر الله البحر أن يطبق عليهم فغرقوا فيه، فقال بعض المؤمنين من أصحاب موسى: ما غرق فرعون، فأمر الله البحر أن يطرح جثته، حتى نظروا إليه فتحققوا هلاكه، وكان ذلك اليوم، يوماً عظيماً من أيام الله الخالدة، ولهذا صامه موسى والمؤمنون معه، شكراً لله على نجاتهم، وإهلاك أعدائهم، ويصادف هذا اليوم يوم العاشوراء الذي حضّر النبي ﷺ على صيامه.

﴿وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٤﴾

﴿وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ﴾ أي قربنا هناك فرعون وجماعته، قربنا بعضهم من بعض، وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد ﴿الْآخِرِينَ﴾ فرعون وعساكره حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم، وأصبحوا جميعاً في البحر.

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٥﴾

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أي أنجينا موسى والمؤمنين جميعاً، بحفظ البحر على تلك الهيئة، إلى أن عبروا.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ بإطباقه عليهم، أغرقناهم في البحر، جزاء كفرهم وتكذيبهم بآيات الله.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧﴾

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في جميع ما قُصِّلَ من القصة ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون، ويقيسوا شأن الرسول ﷺ بشأن موسى عليه السلام، كيلا يحلّ بهم مثل ما حلّ بأولئك ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ مصدّقين لرسول الله، مع كل الآيات والنذر، وفيه تسلية للنبي ﷺ ووعد لمن عصاه.

﴿وَلِإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٨﴾

﴿وَلِإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الغالب على كل ما يريده، والمبالغ في الرحمة لعباده.

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾.

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على المشركين ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي خبره العظيم الهام، حسبما أوحى إليك، لتقف على عدم إيمانهم، بما يأتيهم من الآيات، شأنهم شأن جميع المكذبين، وهذه هي القصة الثانية في هذه السورة الكريمة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي أي شيء تعبدونه؟ سألهم عن ذلك، ليني على جوابهم، أن ما يعبدونه بمعزل، من استحقاق العبادة بالكلية.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنكِفِينَ﴾.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنكِفِينَ﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا أصناماً، بل أطنبوا فيه قصداً إلى إبراز ما في نفوسهم من الافتخار بذلك، والمراد بقولهم ﴿فَنَظَّلُهَا﴾ الدوام والاستمرار على عبادتها.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ﴾ أي هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾؟ أي في الوقت الذي كنتم تدعونها فيها؟.

﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾.

﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ بسبب عبادتكم لها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾؟ أي يضرركم بترككم لعبادتها، إذ لا بدَّ للعبادة من جلب نفع، أو دفع ضرر.

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٧٤﴾

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ اعترفوا بأنها بمعزل عن السمع، والنفع والضرر، وأظهروا أن لا سند لهم سوى التقليد أي ما علمنا وما رأينا منهم مما ذكر من الأمور، بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، فافتدينا بهم.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٥﴾

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أي أنظرتهم وتأملتم فيما فعلتم؟ ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي ما تعبدونه من هذه الأوثان والأصنام، هل فيها شيء من صفات الإله القادر؟

﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ ﴿٧٦﴾

﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ أي السابقون.

﴿فَأَنبَهُمُ عَذُوِّي إِلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٧﴾

﴿فَأَنبَهُمُ عَذُوِّي﴾ أي فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم، لما أنهم يتضررون من جهتهم، فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه، لكنه عليه السلام صَوَّر الأمر في نفسه تعريضاً بهم، فإنه أنفع في النصيحة من التصريح، ويكون ادعى إلى القبول ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناء منقطع أي لكن رب العالمين ليس كذلك، بل هو وَلِيِّي في الدنيا والآخرة، يتفضلُ عليّ بأنواع النعم. ثم فصل ذلك بقوله:

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾

﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ صفة لرب العالمين أي الله الذي أوجدني وخلقني،

هو الذي يهديني إلى سبيل الرشاد، لا هذه الأصنام الصماء ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي يهديني وحده إلى كل ما يهمني ويصلحني، من أمور الدين والدنيا، هداية متجددة على الاستمرار، متدرجة من مبدأ إيجاده، إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩).

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي يرزقني الطعام والشراب، فهو الخالق وهو الرازق، لا هذه الأصنام والأوثان؟!

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠).

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي وإذا حلّ بي المرض فهو سبحانه الذي يشفيني منه، ونسب المرض إلى نفسه، والشفاء إلى الله تعالى، مع أنها منه تعالى جميعاً، لمراعاة حسن الأدب، كما قال الخضر عليه السلام ﴿فَارْذُتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وقال: ﴿فَارَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ وكل ذلك مراعاة للأدب مع الله سبحانه، في نسبة الخير إليه، والشر إلى الإنسان، أو الشيطان.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (٨١).

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أي هو تعالى المحيي المميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، يميتني عند انتهاء أجلي، ثم يبعثني يوم الحساب والجزاء.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢).

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه،

وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي، ويكونوا على حذر، وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه، أنه لا يصلح للألوهية إلا من يفعل هذه الأفعال الجليلة.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ ﴾

﴿ رَبِّ هَبْ لِي ﴾ بعدما ذكر عليه السلام فنون الألفاظ الفاضلة عليه من الله، من مبدأ خلقه إلى يوم بعثته، حمله ذلك على مناجاته تعالى طلباً للمزيد، وقد ابتدأ بالثناء على الله، وذكر بعد ذلك الدعاء، وفيه تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات ﴿حُكْمًا﴾ أي الحكمة التي هي الكمال في العلم والعمل، بحيث يتمكن به من خلافة الحق، ورياسة الخلق ﴿وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ ووقفني لما يرشحنى للانتظام في زمرة الكاملين، الراسخين في الصلاح، واجمع بيني وبينهم في الجنة، ولقد أجابه تعالى حيث قال: ﴿وَلَئِنَّ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَّ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾

﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ المراد باللسان: الثناء العاطر، والذكر الحسن، وضع اللسان موضع القول، لأن القول يكون به، أي جاهاً، وحُسن صيت في الدنيا، بحيث يبقى أثره إلى يوم الدين، وقد أجابه تعالى، ولذا لا ترى أمة من الأمم إلا وهي محبة له عليه السلام.

﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾

﴿ وَاجْعَلْنِي ﴾ في الآخرة يوم لقائك الكريم ﴿مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أي من الباقيين المخلدين فيها.

﴿ وَاعْفِرْ لِي إِنِّي إِذْ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾

﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان ﴿إِنَّكَ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي الحائذين عن سبيل الهدى.

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٨٧﴾

﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ أي لا تُذِلَّنِي ولا تُهَيِّئْ، يوم تبعث الخلائق للحساب، وهذا تواضع منه أمام عظمة الله وجلاله، وكل ذلك مبني على هضم النفس منه عليه السلام ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي الناس كافة للحساب والجزاء.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ﴾ جيء به تأكيداً للتحويل، وتمهيداً لما يعقبه من الاستثناء ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أي لا ينفع مال، وإن كان مصروفاً إلى وجوه البر، ولا بنون وإن كانوا صلحاء.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿٨٩﴾

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ عن مرض الكفر والنفاق، ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالإيمان.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٩٠﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، أي قُرِبَتْ الجنة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للمؤمنين الصالحين المتقين لربهم، قُرِبَتْ لهم بحيث يشاهدونها من الموقف، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن، ويعرفون بأنهم المحشورون إليها، فتفتح لهم أبوابها، وتُقَرَّبُ منهم ليشاهدوها، كما قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ مَفْتُحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾.

﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ٩١.

﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أي الضالين عن طريق الحق، الذي هو الإيمان والتقوى، أي جعلت بارزة لهم، بحيث يرونها مع ما فيها من الأحوال الهائلة، ويوقنون أنهم مواقعوها.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ٩٢.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ في الدنيا.

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصِرُونَ﴾ ٩٣.

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنها شفعاؤكم في هذا الموقف؟ ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿أَوْ يَنْصِرُونَ﴾؟ بدفعه عن أنفسهم؟ وهذا سؤال تقرّيع وتبكيت، ولا يتوقع لهم جواب ولذلك قيل:

﴿فَكَبَّكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ ٩٤.

﴿فَكَبَّكِبُوا فِيهَا﴾ أي ألقوا في الجحيم على وجوههم، مرة بعد أخرى، والكببة تكرير الكبّ، لتكرير معناه، كأن من ألقى في النار ينكبّ مرة بعد أخرى، حتى يستقرّ في قعرها ﴿هُمْ﴾ أي آلهتهم ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ وفي تأخير ذكرهم رمز إلى أنهم رأوا آلهتهم المزعومة وهي تهوي إلى قعر الجحيم، ليشاهدوا حالها ومآلها.

﴿وَحُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ ٩٥.

﴿وَحُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ أي الشياطين الذين كانوا يغفونهم، ويوسوسون إليهم، ويحسنون لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام ﴿أَجْمَعُونَ﴾ ليجتمعوا في العذاب جميعاً، حسبما كانوا مجتمعين على الضلال في الدنيا.

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾^(٩٦) .

﴿ قَالُوا ﴾ أي العبداء ﴿ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي قالوا معترفين بخطئهم، في انهماكهم في الضلال، متحسرين على أنفسهم، والحال أنهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون، ويلعن بعضهم بعضاً.

﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(٩٧) .

﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ «إِنْ» مخففة، أي إن الشأن كنا في ضلال واضح، لا خفاء فيه، ووصفهم له بالوضوح، لإظهار ندمهم وتحسرهم، وبيان عظم خطئهم مع وضوح الحق.

﴿ إِذْ تُسْوِيَكُمْ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ ﴾^(٩٨) .

﴿ إِذْ تُسْوِيَكُمْ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي تالله لقد كنا في غاية الضلالة، إذ نسويكم أي نغديكم أيها الأصنام برب العالمين.

﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُومُونَ ﴾^(٩٩) .

﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُومُونَ ﴾ منهم، والمعنى: وما صدر عنا ذلك الضلال إلا بسبب إضلالهم، والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم وهم رؤساؤهم كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾^(١) .

﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾^(١٠٠) .

﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء عليهم السلام.

(١) سورة الأحزاب، آية: ٦٧.

﴿وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ﴾ ﴿١١١﴾

﴿وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ﴾ الحميم من الاحتمام، وهو الاهتمام الذي يهتفه ما يهتمك، أي وليس لنا صديق مخلص الود، ينقذنا من عذاب الله.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٢﴾

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ لو للتمني كأنه قيل: فليت لنا كَرَّةً أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب التمني.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٣﴾

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر من نبأ إبراهيم عليه السلام ﴿لَآيَةً﴾ لآية عظيمة دالة على أن ما تتلوه عليهم يا محمد، وحي صادق نازل من جهته تعالى، وعظة لمن أراد أن يتبصر بها، ويعتبر، فإنها جاءت على أنظم ترتيب، وأحسن تقرير، والتنبيه على دلائلها، وحسن دعوته للقوم، وكمال إشفاهه عليهم، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً، وإيقاظاً لهم، ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ومع كل هذه البراهين، لم يؤمن أكثر الناس، بل كذبوا وجحدوا واستهزؤوا.

﴿وَلِإِنَّ رَيْكَ لَكُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١١٤﴾

﴿وَلِإِنَّ رَيْكَ لَكُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبُوءَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١١٥﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ تكذيبهم المرسلين، باعتبار إجماع الكل على التوحيد، فمن كذب رسولا فقد كذب سائر المرسلين، ولهذا السر جاء اللفظ بالجمع، مع أنهم كذبوا رسولهم نوحاً.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ ﴾ إذ ظرف للتكذيب، أي حين قال لهم نوح عليه السلام ﴿ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ أخوهم في النسب لا في الدين ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي ألا تخافون عقاب الله، حيث تعبدون غيره؟.

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿ ١١٨ ﴾ .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ﴾ من جهته تعالى ﴿ أَمِينٌ ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم .
﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ فيما أمركم به من التوحيد، والطاعة لله .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿ ١١٩ ﴾ .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على نصحي ودعائي لكم إلى الإيمان ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي أجراً أصلاً ﴿ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي ما أجري وثوابي إلا على الله تعالى، الذي بعثني لهدايتكم .
﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ التكرير للتأكيد، كأنه قال: عرفتم رسالاتي وأماناتي، فاتقوا الله وأطيعوا أمري .

﴿ قَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَةً ﴾ وَأَتَّبِعْكَ الْآزْدَلُونَ ﴿ ١٢٠ ﴾ .

﴿ قَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَةً ﴾ أي الأقلون جاهاً ومالاً .

﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٧﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي وما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر، وبناء الأحكام عليها، دون التفتيش عن بواطنهم، والشق عن قلوبهم.
﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أي ليست محاسبة أعمالهم والتفتير عن كیفيتها البارزة والكامنة ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ فإنه المطلع على السرائر ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب عما أوهمه كلامهم.
﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كالعلة له، أي ما أنا إلا رسول مبعوث لأنذر المكلفين، وأزجرهم عن الكفر والمعاصي، فكيف يتسنى لي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١٢١﴾﴾

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحَ﴾ عما تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ من المرميين بالحجارة، قالوه في آخر الأمر، فعند ذلك حصل اليأس.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ أي كذبوني ولم يؤمنوا بي، وأصرُّوا على ذلك، ولم يزد هم دعائي إلا فراراً.

﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحَا وَتَجَنَّى وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ أي احكم بيننا بما يستحقه كل منا، واحكم بيننا بحكمك العادل، والفتاح: الحاكم، لأنه يفتح المستغلق ﴿ وَيَجْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من إجرامهم ومن شؤم أعمالهم.

﴿ فَأَجْنَيْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَائِكِ الْمَشْحُونِ ﴾.

﴿ فَأَجْنَيْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ حسب دعائه ﴿ فِي الْفَلَائِكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي المملوء بهم، وبما لا بد لهم منه من الطعام، واللباس، وأنواع الحيوان.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ أي بعد إنجائهم أغرقنا الباقين من قومه.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ تصدير القصص به، للتنبيه على أن مبنى البعثة، هو الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة، وأن الأنبياء مجمعون على ذلك، وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع.

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ (١٢٨)

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ أي مكان مرتفع من الأرض، وقيل بكل طريق، والرَّيْعُ بالكسر: الطريق، والمكان المرتفع ﴿ ءَايَةً ﴾ أي بناءً شامخاً هائلاً كالعلم، للمباهاة والفخر، ولمجرد اللهو واللعب، وإظهار الجَلَد والقوة؟ ولهذا قال بعده ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ أي بينائها، أو بناءً يجتمعون إليه، ليعبثوا بمن مرَّ عليهم في الطريق، إلى هود عليه السلام.

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (١٢٩)

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ أي قصوراً مُشَيَّدةً، وحصوناً تفتخرون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي راجين أن تخلدوا في الدنيا، عاملين عمل من يرجو ذلك، فلذلك تُحكَمون ببنائها.

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ رَبَّطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ (١٣٠)

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ ﴾ أي أخذتم أخذ العقوبة ﴿ رَبَّطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ أي متسلطين، غاشمين، بلا رافة ولا نظر في العاقبة، أي أنهم مع ذلك السُّرف، والحرص، فإن معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين، فدلَّ ذلك على أنَّ حب الدنيا استولى عليهم، بحيث خرجوا عن حد العبودية، وهاموا حول ادعاء الربوبية، وطغَوْا وفجروا.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (١٣١)

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ وتركوا هذه الأفعال، واتبعوني فيما أدعوكم إليه، فإنه أنفع لكم.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبِنَ ﴿١٢٣﴾ وَحَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾ .

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنواع النعماء، أجملها أولاً ثم فصلها بقوله:

﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبِنَ﴾ بإعادة الفعل لزيادة التقرير.
﴿وَحَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾ أي بساتين وأنهار جارية.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تقوموا بشكر هذه النعم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإن كفران النعمة مستتبع للعذاب، كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال الله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ .

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ .

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي يستوي عندنا وعظك وتذكيرك وعدمه، فإننا لن نرعوِي عما نحن عليه، ومرادهم المبالغة في قلة اعتدادهم بوعظه ونصحه.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ .

﴿إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا الذي جئنا به، وتدعونا إليه ﴿إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي عاداتهم، كانوا يُلقَقُونَ مثله ويسطرونه، وقد سمعنا مثل هذا مراراً وتكراراً، أننا سنموت ثم نحيا، وما هذه إلا خرافات وأباطيل الأولين.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ على ما نحن من الأفعال، فلا بعث ولا حساب، ولا جزاء ولا عذاب.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩).

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي أصروا على ذلك ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بسببه بريح صرصر عاتية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ومع هذه البراهين القاطعة، لم يؤمن أكثر الناس، لشدة عتوهم وضلالهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٤٠).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٤٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٤).

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ هذه كلمة كل رسول، يذكر بها قومه، بالغاية من بعثته ورسالته.

﴿أَتُزَكُّونَ فِي مَا هُمْ بِأَمِينٍ﴾ (١٤٥).

﴿أَتُزَكُّونَ فِي مَا هُمْ بِأَمِينٍ﴾ أي في الدنيا ﴿أَمِينٍ﴾ إنكار ونفي لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة، والمعنى أيتركم ربكم في هذه الدنيا آمينين، مخلدين في النعيم، كأنكم باقون في الدنيا على الدوام.

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (١٤٦) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ (١٤٧).

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ أي في بساتين وعيون جارية، وسهول فسيحة، فيها أنواع الزروع والنخيل؟ والهضيم: اللين اللطيف الثمر وطلع هضم: دخل بعضه في بعض، والطلع بالفتح: ما يطلع من النخلة، ثم يصير ثمرًا، والغرض توبيخهم على ترك شكر هذه النعم، كأنه يقول: أتتركون في كل ذلك النعيم دون حساب ولا جزاء؟.

﴿ وَتَنجِثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ (١٤٩).

﴿ وَتَنجِثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ أي بطرين معجيين بصنيعهم من غير حاجة إلى سكنها؟ وظاهر هذه الآيات، يدل على أن الغالب على قوم صالح عليه السلام، هو اللذات الحالية، وهي طلب المأكول والمشروب، والمساكن الحصينة.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُتَسْرِفِينَ ﴿ ١٥١ ﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (١٥٢).

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُتَسْرِفِينَ ﴿ أي الكبراء المجرمين الذين أسرفوا في العصيان. ﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ بالكفر والظلم، وهم الذين عقروا الناقة.

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ (١٥٣).

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ أي الذين غلب على عقولهم فيخلطون، والمسحر مبالغة من المسحور، الذي أثر فيه السحر تأثيراً بليغاً.

﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١٥٤).

﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي لست إلا رجلاً مثلنا، فكيف تزعم أنك رسول الله؟ ﴿ فَأَتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾ أي اثبتنا بمعجزة تثبت لنا رسالتك، وصحة دعواك

﴿ قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ لِّمَا شِئْتُمْ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَّوْمٍ مَّعْلُوْمٍ ۝۱۵۹ ﴾

﴿ قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ ﴾ أي بعد أن أخرجها الله تعالى من الصخرة، بدعائه عليه السلام حسبما مرّ تفصيله ﴿ لِّمَا شِئْتُمْ ﴾ نصيب من الماء، تشرب ماءكم يوماً، ويوماً تشربون أنتم الماء ﴿ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَّوْمٍ مَّعْلُوْمٍ ﴾ فاقنعوا بشربكم، ولا تزاحموها على شربها.

﴿ وَلَا تَسْهَوْا يَسُوْرَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيْمٍ ۝۱۶۰ فَعَقَرُوْهَا فَاصْبَحُوْا نٰدِيْمِيْنَ ۝۱۶۱ ﴾

﴿ وَلَا تَسْهَوْا يَسُوْرَ ﴾ كضرب وعقر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيْمٍ ﴾ أي يهلككم الله عاجلاً.

﴿ فَعَقَرُوْهَا فَاصْبَحُوْا نٰدِيْمِيْنَ ﴾ أسند العقر إليهم كلهم، لما أنّ عاقرها عقر برأيهم، ولذلك عمّهم العذاب، وقوله تعالى: ﴿ فاصبحوا نادمين ﴾ خوفاً من حلول العذاب، لا توبة وندماً، ولذلك لم ينفعهم الندم.

﴿ فَآخَذَهُمُ الْعَذَابُ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ اَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِيْنَ ۝۱۶۲ وَاِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ ۝۱۶۳ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُّوطَ الْمُرْسَلِيْنَ ۝۱۶۴ اِذْ قَالَ لَهُمْ اٰخُوهُمْ لُوطُ اَلَا نُنْفِقُوْنَ ۝۱۶۵ اِنِّیْ لَكُمْ رَسُوْلٌ اٰمِيْنٌ ۝۱۶۶ فَاٰتَوْا اِلٰهَ وَاَطِيعُوْا ۝۱۶۷ وَمَا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ اَجْرٍ اِنْ اَجْرِيْ اِلَّا عَلٰی رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ ۝۱۶۸ ﴾

﴿ فَآخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ قد مر الكلام أن تكرر هذه الآيات، للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة. ﴾

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ ﴾ أي أتاتون الذكور من الناس، مع غلبة النساء وكونهن ألبق بالاستمتاع ﴿ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي من بين من عداكم من العالمين، لا يشارككم فيه غير الحيوانات.

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَيْكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾.

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَيْكُم ﴾ لأجل استمتاعكم ﴿ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ من للبيان إن أريد جنس الإناث وهو الظاهر ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ أي متجاوزون الحد في جميع المعاصي، وهذا من جملة ما، ومتجاوزين حد الشهوة حيث زادوا على الحيوانات بالاستمتاع بالذكور.

﴿ قَالُوا لَيْنَ لَّمْ تَنْتَه يَلُوطَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾.

﴿ قَالُوا لَيْنَ لَّمْ تَنْتَه يَلُوطَ ﴾ عن تفبيح أمرنا أو نهينا عنه ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أي من المنفيين من قريتنا، وكانوا يخرجون من أخرجوه على عنف وسوء حال.

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أي من المبغضين أشد البغض، وهو أبلغ من أن يقال: «إني لعملكم قال» لدلالته على أنه من زمرة الراسخين في بغضهم، ولعلّه أراد إظهار الكراهة في مساكنتهم، والرغبة في الخلاص من سوء جوارهم، ولذلك أعرض عن محاورتهم، وتوجّه إلى الله عز وجل قائلاً.

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٦٩).

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من شؤم عملهم، وغائلته.

﴿ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٧٠).

﴿ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أهل بيته ومن تبعه في الدين، بإخراجهم من بيتهم عند مشاركة حلول العذاب بهم.

﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ ﴾ (١٧١).

﴿ إِلَّا عَجُوزًا ﴾ هي امرأة لوط ﴿ فِي الْغَيْرِينَ ﴾ من الباقيين في العذاب، لأنها كانت مائلة إلى القوم، بقيت في القرية ولم تخرج، فهلكت مع الهالكين.

﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴾ (١٧٢).

﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴾ أي أهلكناهم أشد هلاك، بقلب ديارهم وقراهم.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ (١٧٣).

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ غير معهود، قيل أمطر الله على شذاذ القوم حجارة ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ أي لمن أنذرهم لوط عليه السلام.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية: الغوطة ذات الأشجار والثمار، وهي بقرب مدين، يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام، وكان مختبئاً عنهم، ولذا لم يقل تعالى «أخوهم» بل كان من نسب أهل مدين.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُوْنَ ﴿١٨٠﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨١﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨١﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُوْنَ﴾ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لا أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة، وما أجري وثوابي إلا على الله تعالى.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي أتموا الكيل للناس على الوجه الأكمل ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي حقوق الناس بالتطفيف والبخس.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿وَزِنُوا﴾ أي الموزونات ﴿بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي بالميزان العادل.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي لا تُنقصوا شيئاً من حقوقهم، أي حق كان، وهذا تعميم بعد تخصيص، لغاية انهماكهم فيها ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقتل، والغارة، وقطع الطريق.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي والخلائق الأولين، وهم من تقدم من الخلائق. الجيل بكسرتين الخليفة، والطبيعة يُقال: جَبَلَهُ الله على كذا، أي فطره عليه.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾ أي المسحورين.

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾.

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ إدخال الواو بين الجملتين، للدلالة على أن كلا من التسخير، والبشرية، منافي للرسالة، مبالغة منهم في التكذيب ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ في دعوى النبوة والرسالة.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك ولم يكن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب؛ فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه.

﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ من الكفر والمعاصي، وبما تستحقون من العذاب.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٨٩).

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي ظلوا على تكذيبه وأصروا عليه ﴿ فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ حسبما اقترحوا، وفي إضافة العذاب إلى «يوم الظلة» دون نفسها، إيذان بأن لهم يومئذ عذاب آخر ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي شديد هائل، عظيم في الشدة والهول.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٩٠) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٩١).

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ هذا آخر القصص السبع، المذكورة على سبيل الاختصار، تسلياً للرسول ﷺ، وتهديداً للمكذبين به، فإن كل هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أناهم من جهته تعالى، وما كان أكثرهم مؤمنين، بعدما سمعوها، واستمروا على ما كانوا عليه من الضلال، وهذا نهاية الطغيان.

﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٩٢).

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي هذا القرآن المعجز وما ذكر فيه من الآيات الكريمة، الناطقة بالقصص الإلهي ﴿ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي منزل من جهته تعالى، وإنزاله من أحكام تربيته تعالى للعالم ورأفته بالكل.

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (١٩٣).

﴿ نَزَّلَ بِهِ ﴾ أي أنزله ﴿ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ جبرائيل عليه السلام، فإنه أمين وحيه تعالى، وموصله إلى أنبيائه.

﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ ﴿١٩٨﴾

﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ أي روحك لأن المعاني الروحانية، تنزل أولاً على الروح، ثم تنتقل منه إلى القلب، لما بينهما من التعلق، أي أثبتته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله تعالى: ﴿ سَتُفْرِتُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ وإنما قال: ﴿ على قلبك ﴾ وإن كان إنما أنزله عليه، ليؤكد به أن ذلك المنزل، محفوظ للرسول، متمكن في قلبه، لا يُمحى، ولأن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فلذلك أودعه الله في قلبه، دون سمعه وسائر حواسه، لأن القلب مكان الحفظ والإدراك ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ أي أنزله لتنذر الكافرين بما في تضاعيفه من العقوبات لينزجروا عن غيهم.

﴿ يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ ﴿١٩٩﴾

﴿ يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ واضح المعنى، لثلاث يبقى لهم عذر، ولو نزل بغير لغتهم العربية، لقالوا: ما فائدة كلام لا نعرفه ولا نفهمه؟ فلذلك أنزله الله عز وجل باللسان العربي الفصيح، الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً، حجة على صدق الرسول الأمي، فقد كان العرب فرسان البلاغة، وملوك البيان، وجاءهم القرآن بما أخرسهم وأعجزهم عن مجاراته.

﴿ وَإِنَّكُمْ لَفِي زُجْرٍ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٢٠٠﴾

﴿ وَإِنَّكُمْ لَفِي زُجْرٍ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي وإن ذكر القرآن وخبره، لفي الكتب المتقدمة، للأنبياء السابقين، فإن أحكامه التي لا تحتمل النسخ، من

التوحيد، وما يتعلق بالذات والصفات، مسطورة فيها، وكذا ما في تضاعيفه من المواعظ والقصص.

﴿أَوْ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ أَنْ يَعْلَمُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

﴿أَوْ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدر، كأنه قيل: أغفلوا عن ذلك، ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل من رب العالمين، وأنه لفي كتب الأولين ﴿أَنْ يَعْلَمُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؟ أي أن يعرفوه بنعوته المذكورة في كتبهم، ويعرفوا ما أنزل عليه؟ عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: بعث أهل مكة إلى اليهود - وهم بالمدينة - يسألونهم عنه ﷺ فقالوا: إن هذا لزمأنه، وإننا لنجد في التوراة نعته وصفته.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾ أي القرآن كما هو بنظمه الرائق المعجز ﴿عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ الذي لا يقدرّون على التكلم بالعربية، فقرأه على كفار مكة، قراءة صحيحة فصيحة لما آمنوا، والآية لبيان تماديهم بالمكابرة والعناد.

﴿فَقَرَأْهُمْ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَقَرَأْهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ قراءة صحيحة خارقة للعادة ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ مع إعجاز القرآن بانضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء، لفرط عنادهم ومكابرتهم.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿كَذَلِكَ سَلَكَنتَهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك السلك البديع سلكناه، أي أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، ففهموا معانيه، وعرفوا فصاحته، وأنه خارج عن القوى البشرية، من حيث النظم المعجز، ومن حيث الإخبار عن الغيب، وقد انضم إليه اتفاق علماء أهل الكتب، على تضمينها للبشارة بإنزاله، وبعثه من أنزل عليه بأوصافه.

﴿لَا يُؤْمِنُوكَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿لَا يُؤْمِنُوكَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ مسوق لبيان أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور، الداعية إلى الإيمان به، بل يستمرون على ما هم عليه، حتى يروا العذاب الأليم، الملجئ إلى الإيمان به، حين لا ينفعهم الإيمان.

﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾.

﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ تحسراً على ما فات من الإيمان، وتمنياً للإمهال، لتلافي ما فرطوا في جنبه.

﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾.

﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ بقولهم تارة: ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وتارة بقولهم: ﴿إِثْنَا بِمَا تَعْدُنَا﴾ أي أفيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار، عند نزول العذاب، فيستعجلون بعذابنا؟ وبينهما من التناهي ما لا يخفى،

لأنهم كانوا يستعجلون العذاب في الدنيا، وعند نزول العذاب في الآخرة، يطلبون النظر والإمهال.

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ ﴿٢١٩﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ أي أخبرني، والخطاب لكل من يصلح له ﴿ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ متطاولة بطول الأعمار، وطيب المعاش.

﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ ﴿٢٢٠﴾ .

﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب.

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ ﴾ ﴿٢٢١﴾ .

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ ﴾ أي أي شيء أغنى عنهم ﴿ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ ﴾ أي كونهم ممتعين ذلك التمتع المديد؟ والاستفهام للإنكار والنفي^(١).

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ ﴿٢٢٢﴾ .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ من القرى المهلكة ﴿ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ قد أُنذروا أهلها، إلزاماً للحجة.

﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿٢٢٣﴾ .

(١) معنى الآية الكريمة: أ رأيت إن متعناهم تلك السنين الطويلة، مع وفور الصحة، ورغد العيش، ثم جاءهم العذاب الذي وعدوا به، ماذا ينفعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم، وطيب معاشهم؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف الحزن، أو دفع العذاب؟

﴿ذَكَرْنِي﴾ أي ليكون إهلاكهم تذكراً، وعبرة لغيرهم، فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي وما كنا ظالمين في تعذيبهم، لأننا أقمنا الحجة عليهم، وأعذرنا إليهم ببعثة الرسل، وإنزال الكتب، والتعبير عنه بذلك، لبيان كمال نزاهته تعالى عن الظلم.

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ رد لما زعمه الكفرة، في القرآن الكريم، من أنه من قبيل ما يلقيه الشيطان على الكهنة، بعد تحقيق الحق، ببيان أنه نزل به الروح الأمين.

﴿وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

﴿وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ﴾ أي ما يصح وما يستقيم لهم ذلك ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك أصلاً.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ أي الشياطين عن سماع كلام الملائكة ﴿لَمْعَزُولُونَ﴾ لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة، في صفاء الذات، والاستعداد لقبول فيضان نور الحق، كيف لا ونفوسهم ظلمانية شريرة، فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن الكريم، المنطوي على الحقائق الراققة، التي لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ خطوب به الرسول ﷺ، مع

استحالة صدور المنهي عنه عنه ﷺ تهييجاً، وحثاً على ازدياد الإخلاص، ولطفاً لسائر المكلفين، ولأن من شأن الحكيم، إذا أراد أن يؤكد الخطاب، يوجهه إلى الرؤساء في الظاهر، وإن كان المقصود هم الأتباع.

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٩)

﴿وَأَنْذِرْ﴾ العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي ﴿عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الأقرب منهم، فالأقرب، لأن الاهتمام أولاً بشأنهم أهم، روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون من قريش، حتى اجتمعوا فقال ﷺ: «أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي، تريد أن تغير عليكم أكتنم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، فقال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾»^(١).

﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٢٠)

﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لئن جانبك لهم، وتواضع، مستعاضاً من حال الطائر، فإنه إذا أراد أن ينحط، خفض جناحه، والمراد تواضع لأتباعك المؤمنين.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّي مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢١)

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٣٨٥/٨ ومسلم في الإيمان رقم ٢٠٨ باب قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ لم يتبعوك ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مما تعملونه من الكفر والإجرام.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾.

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أي الذي يقدر على قهر أعدائه، ونصر أوليائه، يكفيك شرًّا من يعصيك.

﴿ الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴾.

﴿ الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ إلى التهجد في ظلمة الليل.

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴾.

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴾ أي ويرى حركاتك مع المصلين في الجماعة في قيامك، وركوعك، وسجودك.

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما تقوله ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما تخفيه.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴾.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴾؟ أي هل أخبركم على ما تنزل الشياطين؟ وهذا ردُّ عليهم حين قالوا: إنما يأتيه بالقرآن الشياطين.

﴿ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾.

﴿ تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي تنزل على كل كذاب فاجر، مبالغ في الكذب والعدوان، وحيث كانت ساحة رسول الله ﷺ، منزّهة عن أن يحوم حولها، شائبة شيء من تلك الأوصاف، اتضح استحالة تنزيلهم عليه ﷺ.

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴾.

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ أي الأفاكين، يلقون السمع إلى الشياطين، فيتلقون منهم أوهاماً وأباطيل، لا حقيقة لها، فيضنون إليها بحسب تخيلاتهم الباطلة، خرافات لا يطابق أكثرها الواقع، وذلك قوله تعالى ﴿ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴾ أي فيما قالوه من الأقاويل، ومآله وأكثر أقوالهم كاذبة.

﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾.

﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في حق القرآن الكريم، من أنه من قبيل الشعر، وأن رسول الله ﷺ من الشعراء، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله ﷺ، بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يُلقي الشيطان على الكهنة، والمعنى: إن الشعراء ﴿ يَتَّبِعُهُمْ ﴾ أي يجاريهم ويسلك مسلكهم ﴿ الْغَاوُونَ ﴾ الضالون عن السنن، الجائرون فيما يأتون وما يذرون، لا يستمرون على وتيرة واحدة، في الأقوال والأفعال والأحوال.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ ألم تر أن الشعراء في كل وادٍ من أودية القليل والقال يهيمون على وجوههم، لا يهتدون إلى سبيل معين بل يتحiron، ديدنهم تمزيق الأعراض المحمية، والقدح في الأنساب الطاهرة، والتفريط في المدح والهجاء، وكما قيل: أعذب الشعر أكذبُه.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٢٦﴾ .

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ من الأفاعيل، غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم، فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم، من اتصف بمحاسن الصفات الجليلة، وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة، وحاز جميع الكمالات القدسية، وهو النبي المعصوم محمد رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه؟.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ﴿٢٢٧﴾ .

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله، ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد، والثناء على الله تعالى، والحث على طاعته، والحكمة والموعظة الحسنة، ولو وقع منهم في بعض الأوقات ذمٌ وهجو، وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممن هجأهم. روى الشيخان عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم قريظة لحسان: «اهج المشركين، فإن جبريل معك»^(١) وروى البخاري عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر حكمة»^(٢) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد، يقوم عليه قائماً، يفاخر عن

(١) أخرجه البخاري ٤٥٣/١٠ في الأدب ومسلم رقم ٢٤٨٦ في فضائل الصحابة «باب فضل حسان».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، ٤٤٥/١٠، وأبو داود رقم ٥٠١٠ باب ما جاء في الشعر.

رسول الله ﷺ وينافح، ويقول رسول الله ﷺ: «إن الله يؤيد حسان بروح القدس، ما نافح عن رسوله»^(١).

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، لما في ﴿سيعلم﴾ من تهويل وفي ﴿الذين ظلموا﴾ من الإطلاق والتعميم، وفي ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ من الإبهام والتهويل، أي أي مرجع يرجعون إليه؟. يعني أن الذين ظلموا أنفسهم، وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات، سيعلمون بعد ذلك أي منقلب ينقلبون إليه؟

والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد النبي الأمي الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشعراء»

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥٠١٥، والترمذي رقم ٢٨٤٩ باب ما جاء في إنشاء الشعر، وروى بعضه البخاري وانظر جامع الأصول ١٧٤/٥.

سُورَةُ النَّاسِ

مكية وهي ثلاث وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

﴿طَسَّ﴾ بالتفخيم، والكلام فيه كالذي مرَّ في نظائره^(١) ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى نفس السورة، لأنها التي نوهت بذكر اسمها، أي هذه الآيات المنزلة عليك يا محمد، هي ﴿ءَايَتُ الْقُرْآنِ﴾ أي آيات القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه ﴿وَكِتَابٍ﴾ أي كتاب عظيم الشأن ﴿مُبِينٍ﴾ أي ظاهر إعجازه وصحته، موضح لما في تضاعيفه من الحكم والأحكام، أبان الله فيه الأحكام، وهدى الأنام.

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال من الآيات، مصدرانٍ أقيما مقام الفاعل للمبالغة، كأنهما نفس الهدى والبشارة، أي هادية ومبشرة لهم، تزيدهم

(١) أن المراد بالحروف المقطعة، هو الإشارة والتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، فهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، وانظر أول سورة البقرة من هذا التفسير.

هدى، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٣).

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ صفة مادحة لهم ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ كأنه قيل: هؤلاء الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات، هم الموقنون بالآخرة حق الإيقان، لا من عداهم، فإن تحمل المشاق في العبادات، إنما يكون لخوف العقاب، ورجاء الثواب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ بيان لأحوال الكفرة، أي الذين لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب والعقاب ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع، محبوبة للنفس كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ (١) كما ينسج عنه قوله ﷺ: «حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» (٢) ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي يتحيرون ويترددون في الاشتغال بها، من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضرر.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ (٥).

﴿أُولَئِكَ﴾ أي الموصوفون بالكفر والعَمَى ﴿الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

(٢) هذا طرف من حديث أخرجه مسلم في صفة الجنة رقم ٢٨٢٢ ولفظه «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» وأخرجه البخاري في الرقاق ٢٧٤/١١ بلفظ «حُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».

في الدنيا، كالقتل، والأسر ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ﴾ أي أشد الناس خسراناً، لفوات الثواب، واستحقاق العقاب.

﴿وَلِئَلَّا لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿٦﴾

﴿وَلِئَلَّا لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ أكدّه بحرفي التأكيد، «إِنَّ» و «اللَّام» لإبراز كمال العناية بمضمونه، أي لتعطاه بطريق التلقية والتلقين ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي أيّ حكيم، وأيّ عليم، وفي تفخيمهما تفخيمٌ لشأن القرآن، وتنصيبٌ على علوّ طبقته ﷺ، ومعرفته، والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق، فإنّ من تلقى العلوم والحكم، من مثل ذلك الحكيم العليم، يكون علمه في رصانة العلم والحكمة، وهذه الآية كالتمهيد لما يسوق بعدها من الأفاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنيْ ءَاسْتُ نَارًا سَتَاتِيكُمْ مِنْهَا يُخَبِّرُ أَقْوَامُكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ﴿٧﴾

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ عند مسيره من مدين إلى مصر، في وادي طوى، وقد غشيتهم ظلمة الليل، فبدا له من جانب الطور نار ﴿إِنِّيْ ءَاسْتُ نَارًا سَتَاتِيكُمْ مِنْهَا يُخَبِّرُ﴾ أي عن حال الطريق، وقد كانوا ضيّعوه وقوله: ﴿لأهله﴾ يدل على أنه لم يكن مع موسى غير أهله، والجمع للتعظيم مبالغة في التسلية ﴿أَقْوَامُكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي بشعلة نار مقبوسة، أي مأخوذة من أصلها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ رجاء أن تستدفئوا بها، وذلك يدل على حاجة بهم إلى الاصطلاء، وهذا لا يكون إلا في برد شديد.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ﴾ أي من جانب الطور ﴿أَنْ بُرِكَ﴾ أي قُدِّس وجُعِلت فيه البركة والخير ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ أي من في مكان النار، وهي البقعة المباركة المذكورة، في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾^(١) والمراد بمن في النار الملائكة، ومن حول مكانها موسى عليه السلام ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي ومن حول مكانها، وتصدير الكلام بذلك، بشارة بأنه قد قُضِيَ له أمر عظيم، تنشر بركاته في أقطار هذه البقعة، وقيل هذه تحية من الله تعالى لموسى بالبركة ﴿وَسُبِّحَنَّ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ تعجب لموسى عليه السلام من ذلك، أي تقدَّس وتنزه الرب الجليل، العليُّ الشأن، رب الخلائق أجمعين، وسأل موسى من المنادي فجاءه الجواب.

﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ذكرُ «العزیز» و«الحکیم» تمهيد للمعجزات التي سيظهرها الله على يديه، أي أنا القوي القادر، الفاعل كل ما أفعله بحكمة بالغة، ودقة فائقة.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْرِياً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي نودي أن بورك، وأن ألق عصاك ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ هناك محذوف، كأنه قيل: فألقاها فانقلبت حية تسعى، فلما أبصرها متحركة بسرعة ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي حية خفيفة سريعة الحركة ﴿وَلَّى مُدْرِياً﴾ من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولم يرجع على عقبه بعد الفرار، وإنما اعتراه

(١) سورة القصص، آية: ٣٠.

الرعب، لظنه أن ذلك لأمر أريد به، كما ينبيء عنه قوله تعالى ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ﴾ أي أقبل ولا تخف لأنك بحضرة قدسي ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُلُونَ﴾ أي لا يخافون حين يُوحى إليهم، لأنهم رسلي الذين اصطفتيتهم، فإنهم حينئذ مستغرقون في مطالعة شؤونه تعالى، لا يخطر ببالهم خوف من أحد أصلاً، وأما في سائر الأحيان، فهم أخوف الناس منه سبحانه وتعالى، أو لا يكون لهم عندي سوء عاقبة ليخافوا منه.

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١)

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ استثناء منقطع، أي لكن من ظلم من سائر الناس وارتكب ذنباً، فإنه يخاف، إلا إذا تاب وبَدَّل عمله السيئ بالعمل الحسن، فإن الله تعالى عظيم المغفرة، واسع الرحمة له، نبيه تعالى على أن من آمنه الله بالنبوة، لا ينبغي أن يخاف من أحد، لا من جبار ولا من حية.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَيْضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢)

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَيْضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي آفة كبرص ونحوه ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أي ضمن تسع معجزات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي مرسلاً إلى فرعون ﴿وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال أي خارجين عن حد الطاعة والإيمان، إلى الكفر والطغيان.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٣)

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا﴾ أي فلما رأوا تلك المعجزات، وظهرت على يد موسى عليه السلام ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي بَيِّنَةً واضحة، اسم فاعل أطلق على

المفعول، إشعاراً بأنَّ وضوحها ظاهر، كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يُبصر ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتَمِتٌ﴾ أي واضح سحريتها.

﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤).

﴿وَحَدِّثُوا بِهَا﴾ أي كذبوا بها ﴿وَاسْتَيْقِنَتْهَا﴾ الوار للحال، أي وقد استيقنتها أي علمتها ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ علماً يقينياً ﴿ظُلُمًا﴾ أي ظلماً من أنفسهم حيث سموها سحراً ﴿وَعُلوًّا﴾ أي استكباراً عن الإيمان بها ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر بعين الاعتبار، نهاية أولئك الطاغين، من الإغراق ثم الإحراق.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ أي لقد أعطينا داود وابنه سليمان عليهما السلام، علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين، علم كلام الطير، والنمل، والدواب، وخصصناهما بخصائص جلية من تسخير الإنس والجن والشياطين، ووهبناهما مع النبوة المُلْك، فضلاً منا ونعمة، أي آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم، من علم الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما يختص بكل منهما ﴿وَقَالَا﴾ أي كل منهما شكراً لما أوتيته من العلم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فضّلنا بما أوتينا من العلم، على كثير من الخلق، وفيه دليلٌ على فضل العلم، وشرف أهله، حيث شكرا على العلم، وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبروا دونه ما أوتيا من المُلْك، وتحريضٌ للعلماء على أن يحمدا الله تعالى، على ما آتاهم

من فضله، ويتواضعوا، ويعتقدوا أنهم وإن فُضِّلوا على كثير، فقد فُضِّل عليهم كثير، وفوق كل ذي علم عليم.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيَهَا النَّاسُ غُلْمًا مَّنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٦).

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ أي ورثه النبوة والعلم، دون سائر بنيهِ، وكانوا تسعة عشر ﴿وَقَالَ﴾ تشهيراً لنعمة الله بذكر المعجزات التي أُوتِيَهَا ﴿يَتَاءَتِيَهَا النَّاسُ غُلْمًا مَّنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ المنطق: كل ما يُصَوِّت به، يقال: نطقَتِ الحمامةُ، وكل صنف من أصناف الطير يتفاهم بأصواته، والذي علمه سليمان عليه السلام من منطق الطير، هو ما يفهم بعضه من بعض، أي غُلْمًا فَهَمَ ما يقوله كلُّ طائر، وعرفنا صوت كل حيوان، حكى أنه عليه السلام مرَّ بببليل يشدو ويرقص، فقال لأصحابه أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله أعلم! قال: يقول: أَكَلْتُ نِصْفَ ثَمَرَةٍ، فعلى الدنيا العَفَاءُ، أي الانقراض والفناء، وصاح طاووس فقال: يقول: كما تَدِينُ ثُدَان، وصاح خُطَّاف فقال: يقول: قَدَّمُوا خَيْرًا تَجِدُوهُ، والمراد بكل شيء كثرة ما أُوتِي، وقال ابن عباس رضي الله عنه: كل ما يَهْمُهُ من أمور الدنيا ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي هو فضل وإحسان من الله تعالى واضح علينا، قاله شكرًا لا فخرًا.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودٌ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٧).

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودٌ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ أي جُمع له عساكره من الجن، والإنس، والطير، وتقديم الجن في البيان، للإيذان بكمال قوة سلطانه، لما أن الجنَّ عاتيةٌ، بعيدةٌ من الحشر والتسخير ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أوائلهم على أواخرهم، ليكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد، ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف، كما هو المعتاد في العساكر.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُم لَّا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١١).

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ ﴾ واد في الشام كثير النمل، والمراد بالإتيان عليه قطعه، أي أشرفوا على قطع الوادي واجتيازه ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ جواب إذا كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي، فَوَّتْ منهم، فصاحت صيحة نَبَّهَتْ بها النمل، فتبعها في الفرار، فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم، ولهذا أمرتهم بما يؤمر به العقلاء ﴿ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُم ﴾ ولا يمتنع أن يخلق الله فيها النطق، وفيما عداها العقل والفهم ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ ﴾ نهى في الحقيقة للنمل، عن التأخر في دخول مساكنهم، وإن كان يحسب الظاهر نهياً له عليه السلام عن الحطْم، كقولهم: لا أرينك ههنا، أي لا يدوسنكم ويكسرنكم جنود سليمان بأقدامهم ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي وهم لا يشعرون بكم، ولا يريدون إهلاككم عن عمد، كأنها شعرت عصمة الأنبياء من الإيذاء والظلم فقالت ذلك^(١).

﴿ فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١١).

(١) نَبَّهَتْ هذه النملة، ثم حَذَّرَتْ، ثم اعتذرت بقولها: ﴿وهم لا يشعرون﴾ لأنها علمت أنه نبي رحيم، لا يصدر منه ومن جنوده الأذى عن عمد، فيألها من نملة ذكية، فقولها: ﴿يا أيها النمل﴾ تنبيه: ﴿ادخلوا مساكنكم﴾ إرشاد: ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾ تحذير: ﴿وهم لا يشعرون﴾ اعتذار، وهذا غاية الفهم والعقل!! والنمل تعرف كثيراً من منافعها، ومن ذلك أنها تكسر الحبة قطعيتين لثلاث تنبت، وإذا وصلت النداءة إلى الحبة، تخرجها من جحرها إلى الشمس حتى تجف، فسبحان من ألهمها الفهم والذكاء!!

﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ يعني تبسم شارعاً في الضحك، بمعنى أنه قد تجاوز حد التبسم، وأكثر ضحك الأنبياء التبسم، تبسم تعجباً من حذرهما، واهتدائها إلى تدبير مصالحتها، ومصالح بني جنسها، وابتهاجاً بما خصّه الله تعالى به، من إدراك همسها، وفهم مرادها ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أي اجعلني أزعج شكر نعمتك عندي، وأربطه بحيث لا ينفك عني، حتى لا أنفك عن شكرك أصلاً، أدرج فيه ذكر أبويه تكثيراً للنعماء، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه مستوجب للشكر ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي وفقني لعمل الخير والصالحات، إتماماً للشكر، واستدامة للنعمة ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي في جملتهم، أدخلني الجنة التي هي دار الصالحين.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَآئِيتِ﴾.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ أي تعرّف أحوال الطير، فلم ير الهدد بينها ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدُودَ﴾ أي ما لي لا أراه ههنا؟ لسائر ستره؟ ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْفَآئِيتِ﴾ أي بل هو غائب ذهب بغير إذني.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل كان تعذيبه للطير بتنف ريشه وتشميسه، وقيل: بالتفريق بينه وبين إلفه ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ ليعتبر به أبناء جنسه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة تبين عذره، قيل: إنه عليه السلام، لما أتم بناء بيت المقدس، تجهز للحج بجنده، فوافى الحرم، وأقام به ما شاء، ثم عزم على السير إلى اليمن، فوافى صنعاء،

فراها أرضاً حسنة، فتزل ليصلي بها، ولم يجد الماء، فكان الهدهد رائده،
لأنه يحسن طلب الماء، فتفقدته لذلك فلم يجده.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ
بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي مكث زماناً غير مديد، يريد به الدلالة على
سرعة رجوعه، فلما رجع حدثه عما لقي في غيبته ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ
بِهِ﴾ أي علمت ما لم تعلم، وبلغت ما لم تبلغ أنت ولا جنودك،
ولا خفاء في أنه لم يرد الإحاطة بحقائق العلوم، حتى يكون إثباتها لنفسه،
بين يدي نبي الله تجاوزاً عن دائرة قدره، بل أراد به الأمور المحسوسة،
التي لا تعد الإحاطة بها فضيلة، والغفلة عنها نقیصة، لعدم توقف إدراكها
على العلم، بل على مجزء الإحساس وقد علم أنه عليه السلام لم يشاهده،
فعبر عنه بما ذكر، لترويج كلامه عنده، وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره
﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ أي بخبر خطير محقق، فسر إبهامه، وأراه أنه
كان بصدد إقامة خدمة مهمة له، حيث عبر عنه بالنبا، الذي هو الخبر
الخطير، و«سبأ» اسم لحي سُموا باسم أبيهم الأكبر، ثم سميت مدينة
مأرب سبأ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، ثم أنشأ يخبره عما رأى
من عجائب فقال:

﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَاءَ تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ
عَظِيمٌ﴾

﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَاءَ تَمْلِكُهُمْ﴾ هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك،
وكان أبوها ملك اليمن، ولم يكن له ولد غيرها، فغلبت بعده على
الملك، ودانت لها الأمة، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس

والكواكب ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ قَوْمٍ﴾ من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك من الجند، والخيل، والمال ﴿وَلَمَّا عَزَّشَ عَظِيمٌ﴾ أي لها سرير ضخم مكلل بالدر والياقوت، واستعظام الهدهد لعرشها، مع ما كان يشاهده من ملك سليمان، لما مرَّ من ترغيبه في الإصغاء إلى حديثه، وتوجيه عزيمة عليه السلام لقتالها، ولذلك عقبه بما يوجب غزوها، لكفرها وكفر قومها، حيث قال:

﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢١).

﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ أي يعبدون الشمس ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي يعبدون ويسجدون لها من دون الله ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ التي هي عبادة الشمس وسجودهم لها، والسير في طريق الضلال ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي سبيل الحق والصواب ﴿فَهُمْ﴾ أي فهم بسبب إغواء الشيطان ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي لا يهتدون إلى الله وتوحيده، ثم قال الهدهد متعجباً:

﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥).

﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ أي يسجدون للشمس، ولا يسجدون لله الخالق العظيم؟ ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يُظهر ما هو مخبوء ومخفي فيهما، وهو يتناول جميع الأرزاق، والأشياء، وتخصيص هذا الوصف بالذكر، لما أنه أرسخ في معرفته تعالى، والإحاطة بكمال القدرة والعلم، بمشاهدة آثاره التي من جملتها ما أودع الله في الهدهد من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض، والخبء: ما خفي في غيره، وإخراجه: إظهاره ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي ويعلم السر والعلن، لا تخفى عليه

خافية، إلى أنه تعالى يخرج ما في الإنسان من الخفايا، كما يخرج ما في العالم من الخبايا، وإلى هنا انتهى حديث الهدهد.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ؟ أي هو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال، ربُّ العرش العظيم، الذي أحاط بالكرسي وبالسماوات والأرض، المستحق للعبادة والسجود، فكيف يتركون عبادة هذا الخالق، العظيم الشأن، إلى عبادة الشمس من دون الله؟ وخصَّ العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات، فهو أعظم من السماوات والأرض وما بينهما، وإذا كان الكرسي قد أحاط بالسماوات والأرض بنص القرآن الكريم ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ وهو بالنسبة إلى العرش كحلقة ألفت في صحراء، لا يعلم مداها إلا الله، فكيف بالعرش العظيم؟ ولهذا وُصف بالعظيم في آيات كثيرة كقوله سبحانه: ﴿قل من ربُّ السموات السبع وربُّ العرش العظيم﴾؟

﴿قَالَ سَنْنَظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿سَنْنَظُرُ﴾ فيما ذكرته من النظر بمعنى التأمل أي ستعرّف بالتجربة ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؟ هل أنت صادق أم كاذب فيما تقول؟ ومساق هذه الأقاويل على ترتيب أنيق، يستميل قلوب السامعين، فكتب سليمان عليه السلام كتاباً إلى بلقيس ملكة سبأ، ثم دفعه إلى الهدهد، وقال له:

﴿أَذْهَبَ يَكْتَبِي هَذَا فَأَلْفَه إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿أَذْهَبَ يَكْتَبِي هَذَا﴾ أي اذهب بهذا الكتاب، وأوصله إلى ملكة سبأ

وجندها، وتخصيصه إياه بالرسالة، دون غيره من أبناء الجن الأقوياء، لما عاين فيه من مخايل العلم والفراصة، ولثلا يبقى له عذر أصلاً ﴿فَالْفِئَةُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي تنحّ إلى مكان قريب، تتوارى فيه ﴿فَانْظُرْ﴾ أي تأمل وتعرّف ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول، وصورة الكتاب «من عبد الله سليمان بن داود، إلى ملكة سبأ، بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين» وطبعه بالمسك وختمه.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْاِ فِيَّ أَلْفَىٰ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿قَالَتْ﴾ أي بعدما ذهب الهدد بالكتاب، فألقاه إليها، وتنحى عنهم حسبما أمر به، وإنما طوى ذكره إيذاناً بكمال مسارحته إلى ما أمر به وإشعاراً باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره، روي أنه وجدها راقدة في قصرها، وغلقت الأبواب، فدخل في كوة، وطرح الكتاب على نحرها، فانتبهت فزعة، وكانت قارئة، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، فعند ذلك قالت لأشرف قومها ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْاِ فِيَّ أَلْفَىٰ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ وصفته بالكرم لكونه من عند ملك كريم.

﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ استئناف وقع جواباً لسؤال مقدر، كأنه قيل: ممن هو؟ وماذا مضمونه؟ فقالت: إنه من سليمان ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أي مكتوب فيه.

﴿أَلَا تَعْلَوْنَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

﴿أَلَا تَعْلَوْنَ عَلَيَّ﴾ أي لا تتكبروا عليّ كما يفعل جبابرة الملوك ﴿وَأَتُونِي

مُسْلِمِينَ ﴿ أَي مُؤْمِنِينَ، مستسلمين لدعوة الله، وهذا الكلام في غاية الوجازة، مع كمال الدلالة على المقصود، وكذلك جميع كتب الأنبياء، لأنهم أعطوا بياناً وحكمة، والمعنى: لا تمتنعوا من الإجابة، فإن تركها من العلو والتكبر.

﴿ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي أَمْرٍ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ (٣٢).

﴿ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي أَمْرٍ ﴾ أي أجيبوني في أمري الذي قد أهتمني، وعبرت عن الجواب بالفتوى، تهويلاً للأمر ﴿ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا ﴾ أي من الأمور المتعلقة بالملك ﴿ حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ أي إلا بمحضركم قالت ذلك استمالَةً لقلوبهم، لئلا يخالفوها في الرأي والتدبير.

﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ (٣٣).

﴿ قَالُوا ﴾ في جوابها ﴿ نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً ﴾ في الأجساد، والآلات، والعدد ﴿ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي نجدة وشجاعة في الحرب ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ أي هو موكلٌ إليك ﴿ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ ؟ نكن في الخدمة مطيعين لأمرِك، فلما أحسَّت منهم الميل إلى الحرب، شرعت في تزييف مقالتهم، المبنية على الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام.

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٤).

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً ﴾ من القرى عنوة على منهاج الحرب

﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بتخريب عمارتها، وإتلاف ما فيها من الأموال ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذْلَةً﴾ بالقتل، والأسر، والطرْد من الوطن وغير ذلك ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيد لما وصف من حالهم، بأن ذلك من عاداتهم المستمرة.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٣٥﴾.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ تقرير لرأيها، بعدما زُيِّفَ آراءهم، أي وإني سأرسل إليهم رسولا بهدية ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ حتى أعمل بما يقتضيه الحال، كانت بلقيس امرأة ليبية عاقلة، قد ساست الأمور وجربتها فبعثت «منذر بن عمرو» وضمت إليه رجلاً من قومها أصحاب عقل ورأي، وأرسلت معهم هدية ثمينة، جارية وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت وقالت: إن كان نبياً ردّ الهدية ولم يأخذها، ولم نأمنه على بلادنا، وإن كان ملكاً أخذ الهدية وسكت.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أَتَمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَاءَ اتْنَيْنِ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ﴿٣٦﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ أي الرسول ﴿سُلَيْمَنُ قَالَ﴾ مخاطباً للرسول، والمرسل، تغليبا للحاضر على الغائب، وتعميمها لبلقيس وقومها، مع تشديد الإنكار ﴿أَتَمِدُّونِي بِمَالٍ﴾ وهو إنكار لإمدادهم إياه بالمال، مع علو شأنه، وسعة سلطانه، أي أنصانعوني وتغرونني بالمال؟ ﴿فَمَاءَ اتْنَيْنِ ۚ اللَّهُ﴾ مما رأيتم آثاره من النبوة والملك ﴿خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَكُم﴾ أي من المال الذي أعطاكم إياه، فلا حاجة لي إلى هديتكم ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إضراب عما ذكر من إنكار الأموال، إلى التوبيخ بفرحهم فرح افتخار وامتنان، أي أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا.

﴿ اَرْجِعْ اِلَيْهِمْ فَلَنَايِنَهُمْ يَجْنُوْا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا اَذَلَّةً وَهُمْ صٰغِرُوْنَ ﴿٢٧﴾ ۞ ﴾

﴿ اَرْجِعْ ﴾ أيها الرسول ﴿ اِلَيْهِمْ ﴾ أي إلى بلقيس وقومها ﴿ فَلَنَايِنَهُمْ يَجْنُوْا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أي لا طاقة لهم بمقاومتها ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا ﴾ أي من سبأ ﴿ اَذَلَّةً ﴾ أي حال كونهم اذلة ﴿ وَهُمْ صٰغِرُوْنَ ﴾ أي أسارى مُهانون.

﴿ قَالَ يٰٓاَيُّهَا الْمَلٰٓئِكَةُ اَيُّنِيْ بِعَرْشِهَا قَبْلَ اَنْ يَّاْتُوْنِيْ مُسْلِمِيْنَ ۞ ﴾

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام لما دنا مجيء بلقيس إليه، يروى أنه لما رجعت رسلها إليها، وأخبروها بما ردَّ عليهم سليمان، قالت: قد علمتُ والله ما هذا بملك، ولا لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان: إني قادمة إليك بعظماء قومي حتى أنظر ما أمرك؟ فأراد عليه السلام أن يريها بعض ما خصَّه الله تعالى به من العجائب، الدالة على عظيم القدرة، وصدقه في دعوى النبوة فقال: ﴿ يٰٓاَيُّهَا الْمَلٰٓئِكَةُ اَيُّنِيْ بِعَرْشِهَا قَبْلَ اَنْ يَّاْتُوْنِيْ مُسْلِمِيْنَ ﴾؟ أي قال سليمان لأشرف من حضره من جنده، أيكم يأتيني بسريرها المرصع بالجواهر، قبل أن تصل إليَّ مع قومها مسلمين؟ وأراد بذلك إطلاعها على بدائع المعجزات، في أول مجيئها.

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ اَنَاۡ اَنِيكَۡ بِهِۦ قَبْلَ اَنْ تَقُوْمَ مِنْ مَّقَامِكَ وَاِنِّيْ عَلَيَّهٖ لَقَوِيْۙ اٰمِيْنَ ﴿٢٨﴾ ۞ ﴾

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ أي قال مارد من مردة الجن ﴿ اَنَاۡ اَنِيكَۡ بِهِۦ قَبْلَ اَنْ تَقُوْمَ مِنْ مَّقَامِكَ ﴾ أي من مجلسك للحكومة، وكان يجلس للحكومة، إلى نصف النهار، أي أنا آتي به في أقل من نصف نهار ﴿ وَاِنِّيْ عَلَيَّهٖ لَقَوِيْۙ ﴾ لا يثقل عليَّ حمله ﴿ اٰمِيْنَ ۞ ﴾ على ما فيه من الجواهر والنفائس.

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾
 فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ
 فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ؕ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ .

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أي قال بعض الصالحين من أتباع سليمان، وهو «آصف بن برخيا» وكان رجلاً صديقاً يقرأ الكتب الإلهية، ويعلم الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به أجاب: أنا آتيك بعرشها^(١) قبل تحريك جفحك للنظر إلى شيء، وهذا غاية في الإسراع ومثل فيه، ولما لم يكن بين هذا الوعد وإنجازه مدة استغنى عن التأكيد، وطوى ذكر الإتيان به، وجرىء بالفاء الفصيحة حيث قيل ﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾ أي رأى العرش حاضراً لديه، ﴿ قَالَ هَذَا ﴾ أي حضور العرش في المدة القصيرة ﴿ مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾^(٢) أي تفضله عليّ من غير استحقاق مني ﴿ لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ ﴾ أي ليختبرني أشكر إنعامه، وأقوم بحقه ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ أم أجدد فضله وإحسانه ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي منفعة الشكر لنفسه، لأنه يستجلب به المزيد كما قال سبحانه: ﴿ لئن

(١) فإن قيل: كيف قدر على الإتيان بالعرش مع أنه غير نبي؟ الجواب يجوز أن يُخصر غير النبي بكرامة، كما خُصت مريم، بأنها كانت ترزق من فاكهة الجنة، وذكرها لم يُرزق منها، ولم يلزم من ذلك فضلها على زكريا، مع أن كرامة التبّع من جملة كرامة المتبوع.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ٦٧٢/٢: ومن ههنا يظهر أن سليمان عليه السلام أراد بإحضار هذا السرير، إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك، وما سحر له من الجنود، الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، لأن هذا خارق عظيم، أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها، قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجته بالأغلاق والأقفال، فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، قال آصف كاتب سليمان: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فإذا هو حاضر عنده. اهـ.

شكرتم لأزيدنكم ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي لم يشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَفِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بترك تعجيل العقوبة، وبالإيعام عليه مع ترك الشكر، ولما قُرب وصول ملكة سبأ إلى بلاده، أمر بأن تُغيّر بعض ملامح عرشها امتحاناً لها.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٤١).

﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿نَكِّرُوا﴾ أي غيروا هيئته بوجه من الوجوه ﴿لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ﴾ بالعزم على أنه جواب الأمر ﴿أَتَهْتَدِي﴾ إلى معرفته ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾؟ أي أم لا تهتدي إلى معرفة عرشها الذي نقلناه، وأراد بذلك اختبار عقلها وذكاها.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا

مُسْلِمِينَ﴾ (٤٢).

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ بـلقيسُ سليمان، عليه السلام، وقد كان العرشُ بين يديه ﴿قِيلَ﴾ من جهة سليمان بالذات، أو بالواسطة ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾؟ لم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير، من مغايرة بعض صفاته مع اتحاد الذات ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فانبأت عن كمال فهمها، ورجاحة عقلها، حيث لم تقل: هُوَ، ولم تقطع وتجزم بأنه غيره ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ من تنمة كلامها، كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها، وإظهار معجزة لها، فقالت: أوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك، من قبل هذه المعجزة، التي شاهدناها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من ذلك الوقت^(١)، وفيه من الدلالة على كمال رزانة رأيها ما لا يخفى.

(١) هذا القول مرجوح، والأصح والأظهر ما قاله مجاهد، أنه من قول سليمان عليه السلام، أي قال سليمان تحدثاً بنعمة الله: لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة، العلم بالله =

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿ وَصَدَّهَا ﴾ أي صدّها ومنعها من التقدم إلى الإسلام، عن عبادتها القديمة للشمس ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ أي إنها كانت من قوم راسخين في الكفر، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها، وهي بين ظهرانيهم، إلى أن دخلت تحت ملك سليمان.

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ۖ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ وهو القصر الفخم، وكلُّ بناءٍ عالٍ مرتفع يسمى صرحاً، أي قيل لبلقيس: ادخلي هذا القصر المنيف المشيد، روي أنه عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى قصراً صحنه من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء وألقى فيها السمك ونحوه، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، فلما أبصرته ظنته ماء ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ﴾ أي ظنته لُجَّةً ماءً، - أي ماءً غمرأً كثيراً - وكشفت عن ساقها لتخوض فيه لئلا تبطل أذيالها ﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ ما توهمتم ماءً ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾ أي مملس مسوّى ﴿ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ أي من الزجاج، والقارورة: إناء من زجاج جمعها قوارير ﴿ قَالَتْ ﴾ حين عاينت تلك الخارقة ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بما كنت عليه من الشرك بعبادة الشمس ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ تابعة له، فدخلت في الإسلام، كما أسلم سليمان

= وبوحدانيته وقدرته، وكنا مسلمين لله قبلها، فتحن أسبقُ منها علماً وإسلاماً، وهي كانت قد صدّها ومنعها من عبادة الله وحده، ما كانت تعبد من دون الله لأنها كانت من قوم كافرين، وهذا ما اختاره شيخ المفسرين ابن جرير، والحافظ ابن كثير، قال: ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح. اهـ.

﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وصفه بالربوبية لإظهار تفرده تعالى لاستحقاق العبادة، وربوبيته لجميع الموجودات.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٩)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ اللام جواب قسم محذوف، أي وبالله لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب وهو نبي الله صالح عليه السلام، يدعوهم إلى الله، وقد كانوا مشركين يعبدون الأصنام ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي بأن اعبدوا الله رب العالمين، الذي لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ففاجئوا التفرق والاختصام، حيث آمن فريق، وكفر فريق.

﴿قَالَ يَنْفَوِرْ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٠)

﴿قَالَ﴾ عليه السلام للفريق الكافر منهم، بعدما شاهد منهم نهاية العتو والعناد ﴿يَنْفَوِرْ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي لِمَ تستعجلون بالعقوبة السيئة، فتقولون اثنتا بما تعدنا؟ ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي قبل التوبة فتأخرونها إلى حين نزول العذاب؟ وقد كانوا لجهلهم يقولون: إن وقع إيعاده، ثُبْنَا حينئذ، وإلا فنحن على ما كنا عليه ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ أي هَلَا تستغفرون الله تعالى قبل نزول العذاب ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبول التوبة، إذ لا إمكان للقبول عند نزول عذاب الله.

﴿قَالُوا أَطِيعْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالَ طَاعْتِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٥١)

﴿قَالُوا أَطِيعْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ﴾ أي تشاء منا بك وبأتباعك المؤمنين،

وأصله تطيّرنا أي تشاءمنا، وكانوا قد تابعت عليهم الشدائد، وأصابهم القحط والجوع حتى كادوا يهلكوا، فلذلك تشاءموا من دعوته ﴿قَالَ طَطِيرْكُمْ﴾ أي السبب الذي ينالكم ما ينالكم من الشر ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ هو عملكم السيئ المكتوب عنده، فهو سبب شؤمكم لا نحن ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم، ولذلك تقولون ما تقولون!!.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ديار ثمود وهي الحِجْرُ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة أشخاص وهم الذين سَعَوْا في عقر الناقة، وكانوا عتاة مغرقين في الإجرام ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ لا في المدينة فقط، شأنهم الإفساد وإيذاء العباد، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي لا يفعلون شيئاً من الإصلاح، وبعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح.

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض، في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه السلام، وكان ذلك عندما أُنذِرهم بالعذاب ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي تحالفوا بالله على قتله، مقول لقالوا ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي لنباغتن صالحاً وأهله ليلاً لنقتلهم، والبيات مهاجمة العدو ليلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ أي ولي صالح عليه السلام ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي ما حضرنا محل هلاكهم، فضلاً أن نتولى إهلاكهم ﴿وإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ من تمام القول أي ونحلف لهم إنا لصادقون قال ابن عباس: أتوا دار صالح عليه السلام شاهرين سيوفهم ليقتلوه، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم.

﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا﴾ أي دبروا مكيدة لقتل صالح عليه السلام ﴿وَمَكْرَنَا مَكْرًا﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم ^(١) ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من حيث لا يحتسبون.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿فَانْظُرْ﴾ أي فتفكر ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بحيث لم يشذ منهم شاذ، روي أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر، في شعب يصلي فيه، فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء ليصلي قتلناه، فبعث الله صخرة من الهضاب، فطبقت الصخرة على فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم؟ ولم يدروا ما فعل بقومهم؟ وهلك الباقون في أماكنهم بالسيحة.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ أي خالية وساقطة متهدمة يقال: خوت

(١) المكر من الله بمعنى الجزاء، أي جازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم، ساء مكرأ بطريق المشاكلة، كقوله سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ مع أن ردَّ العدوان، والانتصاف من الظالم، ليس قبيحاً، فهو مجرد اتفاق في اللفظ مع اختلاف في المعنى، قال الحافظ ابن كثير ٦٧٥/٢: أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام، واتفقوا على قتله غيلة ليلاً، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين. اهـ.

الدار، أي خلت من أهلها، وخوت النجوم سقطت ﴿يَمَا ظَلَمُوا﴾ أي بسبب ظلمهم المذكور ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذُكِرَ من التدمير ﴿لَايَةً﴾ أي لعلبة عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يتصفون بالعلم والفهم.

﴿وَأَجْمَعْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ﴾ ﴿٥٣﴾

﴿وَأَجْمَعْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صالحاً ومن معه من المؤمنين ﴿وَكَانُوا يَنْقُوتُ﴾ الكفر والمعاصي انقاء مستمراً فلذا نجوا.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿وَلُوطًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي الفعل المتناهية في القبح ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جملة حالية لتأكيد الإنكار، فإن تعاطي القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع، أي تفعلونها والحال إنكم تعلمون بكونها كذلك، وقيل: يبصرها بعضكم من بعض، لما كانوا يعلنون بها.

﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ تكرير للتوبيخ، وبيان لما يأتونه بطريق التصريح ﴿مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي متجاوزين النساء ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي تفعلون فعل الجاهلين بقبحه وعاقبته، أو الجهل بمعنى السفاهة، أي بل أنتم قوم سفهاء، لا تميزون بين الحسن والقبيح.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنطَهُرُونَ﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَاهَا مِّنَ الْغَيْرِ ﴿٥٧﴾ .

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنطَهُرُونَ﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَاهَا ﴿٥٧﴾ أَي قَدَرْنَا إِنَّهَا ﴿٥٨﴾ مِّنَ الْغَيْرِ ﴿٥٩﴾ أَي الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ لِأَنَّهَا كَافِرَةٌ .

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ أَي أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ مُتَابِعَةً، كَانَتْ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ كَالْمَطَرِ عِنْدَ انصِابِهِ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِالصَّيْحَةِ وَالْحِجَارَةِ، فَبَشِّرْ هَذَا الْعَذَابَ الَّذِي أَمْطَرُوا بِهِ، وَهُوَ حِجَارَةٌ مِنْ سَجِيلٍ مَنْضُودٍ .

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ .

﴿قُلِ﴾ بَعْدَ أَنْ قَصَّ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ رَسُولِهِ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَبَيَّنَّ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ، وَبَطْلَانَ الْكُفْرِ، وَأَنَّ مِنْ اقْتَدَىٰ بِهِمْ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ تَرَدَّى، أَمَرَ رَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ يَحْمَدَهُ تَعَالَىٰ، عَلَىٰ مَا أَفَاضَ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ فَقَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ اللَّهُ خَيْرٌ؟ أَيِ هَلْ اللَّهُ الَّذِي ذُكِرَتْ شُؤُونُهُ، الْخَالِقُ الْمَبْدُءُ، الْحَكِيمُ، خَيْرٌ أَمْ الْأَصْنَامُ الَّتِي عِبُدُوهَا؟ ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟ أَيِ مَا يُشْرِكُونَهُ بِهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ؟ وَالْغَرَضُ تَبْكِيتُ الْكُفْرَةِ، وَتَسْفِيَةُ آرَائِهِمْ، إِذْ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّهُ لَيْسَ فِيمَا أَشْرَكُوا بِهِ شَائِبَةٌ خَيْرٍ حَتَّىٰ يَوَازِنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ لَا

خير إلا خيره، ولا إله غيره، وكان ﷺ إذا قرأها قال: «بل الله تعالى خير وأبقى، وأجل وأكرم».

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبْشِرُوا شَجَرَهَا ۖ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أم منقطعة، والمعنى: بل أم من خلق السماوات والأرض، وأبدع الكائنات بجميل صنعه، وباهر قدرته؟ ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ أي لأجلكم ومنفعتكم ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي مطراً ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أي بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي ذات حسن ورونق، يتتهج به النظار ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبْشِرُوا شَجَرَهَا﴾ فضلاً عن ثمرها، وسائر صفاتها البديعة ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ أي إله آخر مع الله حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى في العبادة؟ وهذا تبكيت آخر لهم، حيث يسؤون بين الخالق الرازق، والصنم الأصم، ولهذا قال: ﴿بَلٌّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي بل قوم عادتهم العدول عن طريق الحق، والانحراف عن الاستقامة.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ بحيث يستقر عليها الإنسان، والدواب، بإبداء بعضها من الماء، وتسويتها حسبما تدور عليه منافعهم، وجعلها متوسطة في الصلابة والرخاوة ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ جارية ينتفعون بها ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالات ثوابت تمنعها أن تميد بأهلها ويتكون فيها معادن، وينبع في حضيضها الينابيع، ويتعلق بها من المصالح ما لا يُحصى

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي جعل بين المياه العذبة والمالحة، فاصلاً ومانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد ماء البحار ماء الأنهار ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ في الوجود، وفي إبداع هذه البدائع؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون الحق فيشركون مع الله غيره، ولا يفهمون أن ما هم عليه من الشرك باطل.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم مَخْرَجًا﴾
﴿الْأَرْضِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ (١٢)

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وهو الذي أحوجته شدة من الشدائد، ونوازل الدهر، إلى الضراعة إلى الله تعالى، واللام للجنس، لا الاستغراق، حتى يلزم إجابة كل مضطر ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ وهو الذي يعتري الإنسان مما يسوء، فإنه لا يقدر أحد على كشف ما بالإنسان من فقر إلى غنى، ومرض إلى صحة، وضيق إلى سعة، إلا القادر على كل شيء ﴿وَيَجْعَلُ لَكُم مَخْرَجًا﴾ بأن ورثكم سكنهاا والتصرف فيها ممن قبلكم ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ الذي يفيض على كافة الأنام هذه النعم الجسم ﴿قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ أي تذكر أ قليلاً، أو زماناً قليلاً تذكرون.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا﴾
﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٣)

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي في ظلمات الليالي فيهما، في الأسفار والقفار، ومشتبهات الطرق، يقال: طريقة ظلماء وعمياء، للتي لا منار بها ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا﴾ وهي المطر ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ الذي دبر أمور هذه العوالم بحكمته، وأبدع خلقها بقدرته؟ ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزهه وتقدس المنفرد بالألوهية عما يشركون معه من حجارة صماء، لا تسمع ولا تستجيب، وسواء من دحاها أو رجاها.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١﴾﴾

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؟ بعد الموت بالبعث؟ والكفرة وإن أنكروا الإعادة، فهم محجوجون بالحجج الدالة عليها ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟ أي بأسباب سماوية وأرضية ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾؟ حتى يجعل له شريكاً في العبادة؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ في تلك الدعوى.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ بعدما حَقَّقَ تفرد بالالوهية، ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة، والرحمة الشاملة، عقبه بذكر اختصاصه بعلم الغيب، تكميلاً لما قبله، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي متى يُنشرون من القبور، والضمير للكفرة.

﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أصله تدارك ومعناه: تلاحق وتدارك، بمعنى جهلوا علمها، ولا علم عندهم من أمرها حتى انقطع ولم يبق لهم علم بذلك أصلاً، ثم أضرب عن بيان عدم علمهم، إلى بيان ما هو أسوأ منه، وهو خيرتهم في ذلك حيث قيل ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ من نفس الآخرة كمن تحير في أمر لا يجد عليه دليلاً، ثم أضرب عن ذلك إلى بيان ما هم فيه أشد وأفظع من الشك، حيث قيل:

﴿عَمُونَ﴾^(١) بحيث لا يكادون يدركون دلالتها، لاختلاف بصائرهم بالكلية، وفيه نكتة، وهي أنه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم، فلذلك عداه «بمن» دون «عن» لأن الكفر بالعاقبة والجزاء، هو الذي جعلهم كالبهائم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ ﴿١٧﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بيان لجهلهم بالآخرة، وعماهم عنها، والمراد بهم كفار مكة، ووضع الموصول موضع ضميرهم، لذمهم، والإشعار بعلّة حكمهم الباطل في قولهم ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾؟ أي أنخرج من القبور إذا كنا تراباً؟

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي لقد وعدنا محمد بالبعث، كما وعد آباؤنا من قبله في الأزمنة المتقدمة، ثم لم يُبعثوا ولن يُبعثوا، ولو كان البعث حقاً لحصل ﴿إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا إلا خرافات وأساطير الأولين، سطرّوها وكتبوها كذباً.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي تفكروا واعتبروا كيف صار مآل المكذبين المجرمين؟ ألم يهلكهم الله ويدمرهم؟

(١) خلاصة معنى الآية: أن المشركين لا يصدّقون بالآخرة، وهم شاكّون في وقوعها ووجودها، بل هم في عمية وجهل كبير بأمرها، فلماذا يسألون عن الساعة، وهم لا يؤمنون ولا يصدّقون بالآخرة؟

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿٧١﴾ .

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ أي في حرج صدر ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من مكروهم، فإن الله يعصمك من الناس.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي العذاب العاجل الموعود ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إخباركم بإتيانه، والجمع باعتبار شركة المؤمنين في الإخبار بذلك.

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ .

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ أي تبعكم ولحقكم، واللام مزيدة للتأكيد، و«عسى» و«لعل» و«سوف» في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها، وإنما يطلقونها إظهاراً للوقار، وإشعاراً بأن الرمز من أمثالهم، كالتصريح ممن عداهم، وعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي ما تتعجلونه من العذاب.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لذو إفضال وإنعام على الناس، ومن جملة إنعامه تأخير عقوبة هؤلاء، على ما يرتكبونه من المعاصي ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يعرفون حق النعمة فلا يشكرونه، بل يستعجلون بجهلهم وقوعه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تخفيه قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الأفعال والأقوال، التي من جملتها استعجال العذاب، فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم، ولكن له وقتٌ مقدّر، وفيه إيذان بأن لهم قبائح غير ما يظهرونه، وأنه تعالى يجازيهم على الكل.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ أي من خافية ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ سَمِيَ الشَّيْءُ الَّذِي يَغِيبُ وَيُخْفَى غَائِبَةً، وخافية، والتاء للمبالغة، كالعاقبة والعافية ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي هذا القرآن المنزل عليك يا محمد، يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من الدين، ومن جملته ما اختلفوا في شأن المسيح، وتحزبوا فيه أحزاباً، وركبوا متن العتو والغلو، في الإفراط والتفريط، ووقع بينهم التناكر في أشياء، كأحوال الجنة، والنار، وعزير، والمسيح، حتى بلغ المشاقة، إلى حيث لعن بعضهم بعضاً، وقد نزل القرآن الكريم ببيان الحقائق القاطعة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿وَإِنَّهُمْ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وإن القرآن لهداية لقلوب أهل الإيمان، ورحمة لهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين بني إسرائيل ﴿ بِحُكْمِهِ ﴾ أي بحكمته وبعده ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فلا يرد حكمه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بجميع الأشياء .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ الذي هذا شأنه ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أي إنك يا محمد على الدين الحق، الواضح المنير، والعاقبة لك بالنصر على أعدائك .

﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْقُلُوبَ إِذَا وَلَوْ مَدْرِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أي لا تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالموتى، لا حسَّ لهم ولا فهم ولا عقل، وإنما شُبِّهوا بالموتى، لعدم تأثرهم بما يُتلى عليهم ﴿ وَلَا تَسْمِعُ الْقُلُوبَ ﴾ أي الدعوة إلى أمر من الأمور، وتقيد النفي بقوله تعالى: ﴿ إِذَا وَلَوْ مَدْرِينَ ﴾ لتكميل التشبيه، وتأکید النفي، فإنهم مع صَمَمِهِمْ معرضون عن الداعي، مولون أدبارهم، فسماعهم في هذه الحالة أبعد .

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ أي وليس بوسعك أن تصرف عُمَى القلوب عن كفرهم وضلالهم، والآية كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ فإن الاهتداء منوط بصفاء القلب ﴿ إِنْ تَسْمِعُ ﴾ أي ما تسمع سماعاً يُجدي السامع نفعاً ﴿ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي إلا من يصدق وينقاد لأمر الله، ويؤمن بآياته ﴿ فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ مخلصون لله جلَّ وعلا من قوله سبحانه: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أي أخلص في إيمانه وعمله .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (١)

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ المراد بالقول: مجيء الساعة، وما فيها من الأهوال، التي كانوا يستعجلونها، وبوقوعه: قيامها وحصولها وقد يراد بالوقوع دئوها، كما في قوله تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي إذا دنا وقرب وقت قيام الساعة، وظهرت أمارات القيامة، التي كانوا يكذبون بها ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ وهي الجساسة، وفي التعبير عنها باسم الجنس، وتأکید إبهامه بالتنوين التفضيمي ﴿ دَابَّةً ﴾ من الدلالة على غرابة شأنها، روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة»^(١) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجا، طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتهما، فالأخرى على إثرها قريباً»^(٢) ﴿ تُكَلِّمُهُمُ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي تكلمهم بأنهم كانوا لا يوقنون بآيات الله، الناطقة بمجيء الساعة، قيل: تكلمهم بالعربية الفصحى، بلسان عربي فصيح فتقول: ألا لعنة الله على الظالمين، الذين لا يؤمنون بآيات الله، وتكلمهم ببطلان الأديان، سوى دين الإسلام، ووصفهم بعدم الإيقان، مع أنهم كانوا جاحدين بها، للإيدان بأنه كان من حقهم أن يوقنوا بها، ويعتقدوا بصحتها.

﴿ وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤٧ في كتاب الفتن.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤١ في الفتن أيضاً وأبو داود في الملاحم رقم ٤٣١٠.

﴿وَيَوْمَ نَخَشُّهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ قَوْجًا﴾ المراد بهذا الحشر، هو الحشر للعذاب، بعد الحشر لكافة الخلق، أي واذكر لهم وقت جمعنا من كل أمة من أمم الأنبياء عليهم السلام، جماعة كثيرة ﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ بَيِّنَاتِنَا﴾ أي فوج المكذبين بها ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا في موقع التوبيخ والمناقشة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ أي إلى موقف السؤال ﴿قَالَ﴾ الله تعالى موبخاً لهم ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾؟ الناطقة بلفاء يومكم هذا؟ ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾؟ جملة حالية مؤكدة للإنكار، أي أكذبتهم بها بادي الرأي، غير ناظرين فيها نظراً، يؤدي إلى العلم بكنهها؟ وهذا نص في أن المراد بالآيات فيما سلف، هي الآيات القرآنية، لأنها منطوية على دلائل الصحة، وشواهد الصدق التي لم يحيطوا بها علماً ﴿أَمْ آذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أم أي شيء كنتم تعملون في الدنيا؟ كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والتكذيب، مع أنهم ما خلقوا إلا للإيمان والطاعة، يُخاطبون بذلك تبكيتاً، ثم يُكَبُّون في النار.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي حلَّ بهم العذاب، الذي كانوا ينكرونه ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي بسبب ظلمهم، وهو تكذيبهم بآيات الله ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ باعتذار، لانقطاعهم عن الجواب بالكلية، وابتلائهم بشغل شاغلٍ من العذاب الأليم.


﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسِكُنَا فِيهِ وَلَنَهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ ﴿ الرُّؤْيَى قَلْبِيَّةٌ لَا بَصَرِيَّةٌ، أَي أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ، بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِظْلَامِ ﴿ لَيْسَتْ كُنُوفٌ فِيهِ ﴾ أَي لَيْسَتْ رِيحُوا فِيهِ بِالنَّوْمِ وَالْقَرَارِ ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أَي لِيَبْصُرُوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِضَاءَةِ، طَرُقَ التَّقْلِبَ فِي أُمُورِ الْمَعَاشِ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ فِي جَعْلِهِمَا كَمَا وَصَفَا ﴿ لَا يَلْتَمِسُ ﴾ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ دَالَّةٌ عَلَى صِحَّةِ الْبَعْثِ، وَصَدَقَ الْآيَاتِ الْنَاطِقَةُ بِهِ، دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ، كَيْفَ لَا، فَإِنَّ مِنْ تَأَمُّلٍ فِي تَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَشَاهِدٌ تَبْدُلِ الظُّلْمَةِ الْمَحَاكِيَةِ لِلْمَوْتِ، بِضِيَاءِ النَّهَارِ الْمَضَاهِي لِلْحَيَاةِ، قَضَى بِأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالذِّكْرِ ﴿ لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لِأَنَّهُمْ الْمُتَتَفَعُونَ بِتِلْكَ الدَّلَائِلِ الْكُونِيَّةِ.

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ نَفْخَةُ الْفَزَعِ ^(١) ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ الْمُرَادُ بِهِ مَا يَعْتَرِي الْكُلَّ عِنْدَ الْبَعْثِ، بِمُشَاهَدَةِ الْأُمُورِ الْهَائِلَةِ، مِنَ الرَّعْبِ وَالْهَوْلِ، أَي لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا خَافَ وَفَزِعَ، وَإِيرَادَ الْمَاضِي (فَزَعٌ) لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَحَقُّقِ وَقُوعِهِ إِثْرَ النَّفْخِ ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ أَنْ لَا يَفْزَعُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَالشَّهَدَاءِ ﴿ وَكُلُّ ﴾ أَي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَبْعُوثِينَ عِنْدَ النَّفْخِ ﴿ أَتَوْهُ ﴾ أَي حَضَرُوا الْمَوْقِفَ لِلسُّؤَالِ ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ أَي صَاغِرِينَ، ذَلِيلِينَ.

(١) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ ٦٨٤/٢: وَهَذِهِ «نَفْخَةُ الْفَزَعِ» ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ «نَفْخَةُ الصَّعَقِ» وَهُوَ الْمَوْتُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ «نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» وَهُوَ النُّشُورُ مِنَ الْقُبُورِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ. أَهْ وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَكُونُ النَّفْخُ فِي الصُّورِ ثَلَاثًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ 

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾ وقت النفخة ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي ثابتة في مكانها، من جَمَدَ في مكانه إذا لم يبرحه ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي في السرعة، تراها رأي العين ساكنة والحال أنها تمرُّ مرَّ السحاب، تسيِّرها الرياحُ سيراً حثيثاً، وذلك أن الأجرام العظام، إذا تحركت لا تكاد تتبين حركاتها، وهذا ممَّا يقع بعد النفخة الثانية، عند حشر الخلق، ليشاهدها أهل المحشر^(١)، وهي وإن اندكت وتصدَّعت عند النفخة الأولى، لكن تسييرها بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾^(٢) ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أي صَنَعَ الله ذلك صُنْعًا ﴿الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي أحكم خلقه، وسوَّاه على ما تقتضيه الحكمة، المستتبعة للغاية الجميلة ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تعليل لكون ما ذكر صنْعاً محكماً له تعالى، ببيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها، مما يدعو إلى إظهارها،

(١) في هذا القول نظر، والصحيح أن هذا إنما يكون في الدنيا لا في المحشر، فالآية الكريمة تشير إلى إبداع الله في صنعه وتدبيره، الكواكب، والأرض، والشمس، والقمر، كلها تسبح في هذا الفضاء الواسع، دون أن تنقلب الأرض بمن فيها، أو تصطدم النجوم بعضها ببعض، بدليل قول الله تعالى ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وقوله ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ففي الآية الكريمة إشارة رائعة، إلى حركة الأرض ودورانها، وهي سبق علمي فريد، لم يعرفه البشر إلا في عصر اختراع المراكب الفضائية، التي دارت حول الأرض، ووصلت إلى القمر، وصوّرت لنا الأرض وهي تشرق وتغرب عليهم، كما تشرق الشمس وتغرب على سكان الكوكب الأرضي، وانظر كتابنا «حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية سبق إليها القرآن» ففيه روائع وبدائع تثبت إعجاز القرآن من الناحية العلمية، وسبقه للمكتشفات والمخترعات العصرية.

(٢) سورة طه، آية: ١٠٥ - ١٠٧.

وبيان كقيفيتها على ما هي عليه من الحسن والسوء؁ وترتيب أجزيتها عليها؁ بعد بعثهم وحشرهم؁ أي هو تعالى عليم بما يفعل العباد؁ وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ ﴿٨٩﴾

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا﴾ أي من جاء منكم؁ يوم القيامة بالحسنة؁ فله من الجزاء ما هو خير منها؁ إما باعتبار إضعافها؁ وإما باعتبار دوامها ﴿وَهُمْ﴾ أي الذين جاؤوا بالحسنات ﴿مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ وهو الفرع الحاصل من مشاهدة العذاب؁ بعد تمام المحاسبة؁ وهو الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ وهم آمنون لا يعترهم ذلك الفرع؁ ولا يلحقهم ضرره أصلاً؁ وأما الفرع الذي يعترى كل من في السماوات والأرض؁ فإنما هو التهيّب والرعب في ابتداء النفخة؁ من معاينة فنون الدواهي والأهوال؁ فلا يكاد يخلو منه أحد.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٠﴾

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ قيل: هو الشرك ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي ألقى فيها على وجوههم في النار منكوسين ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي هل تعاقبون وتنالون جزاءكم؟ على إضمار القول؁ أي تقول لهم خزنة جهنم ذلك ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟ في الدنيا من سيء الأعمال.

﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩١﴾

﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أمر ﷺ أن يقول بعد

ما بيّن لهم، أحوال المبدأ والمعاد، تنبيهاً لهم على أنه قد أتمّ أمر الدعوة، بما لا مزيد عليه، ولم يبقَ له ﷺ بعد ذلك شأن، سوى الاشتغال بعبادة ربه، غير مبالٍ بهم، ضلّوا أم رُشّدوا، والبلدة هي «مكة» المعظمة، وتخصيصها بالإضافة لتفخيم شأنها، وشناعة ما فعلوا فيها، ألا ترى أنها مع كونها محرّمة، من أن تنتهك حرمتها، باختلاء خلاها، وعضد شجرها، وتنفير صيدها، أنهم قد استمروا فيها على تعاطي أفجر أنواع الفجور، حيث تركوا عبادة ربه، ونصبوا فيها الأوثان، وعكفوا على عبادتها، قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَيْءٌ﴾ خلقاً، ومِلْكاً، وتصرفاً، من غير أن يشاركه أحد في شيء منها ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أي أن أثبت على ما كنت عليه ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي من الذين أسلموا وجوههم لله خالصة، من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ؟﴾ (١).

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (١٧).

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ أي أواظب على تلاوته وأن أقرأه على الناس، بطريق تكرير الدعوة، فيكون ذلك تنبيهاً على كفايته في الهداية والإرشاد، من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ﴾ حينئذ بالإيمان به والعمل بما فيه ﴿فَلَنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي فإنما منافع اهتدائه، عائدة إليه لا إلى غيره ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بالكفر به، والإعراض عن العمل بما فيه ﴿فَقُلْ﴾ في حقه ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ وقد خرجت عن عهدة الإنذار، فليس عليّ من وباله شيء، وإنما وباله على نفس المنكر المكذّب، إذ ما على الرسول إلاّ البلاغ المبين.

(١) سورة النساء، آية: ١٢٥.

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَّرِكُمْ وَأَيَّنَّهٖ فَنَعَرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٣﴾

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على ما أفاض عليّ من نعماء، التي أجلها نعمة النبوة ﴿ سَيَّرِكُمْ وَأَيَّنَّهٖ ﴾ أي سيرىكم في الدنيا آياته الباهرة، التي نطق بها القرآن، كخروج الدابة، وسائر أشراط الساعة ﴿ فَنَعَرِفُونَهَا ﴾ أي فتعرفون أنها آيات الله تعالى، حين لا تنفعكم المعرفة، وقوله تعالى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ كلام من جهته تعالى مقرر لما قبله، ومتضمن للوعد والوعيد. والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بغونه تعالى تفسير سورة النمل»

سُورَةُ الْقَصَصِ

مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسّم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾

﴿ طسّم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ الواضح إعجازه .

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ ﴾ أي نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام، لأنه كان يتلوه على الرسول ﷺ حتى يحفظه، ويجوز أن تكون التلاوة مجازاً عن التنزيل ﴿ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ ﴾ أي بعض نبئها ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالصدق ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تخصيصهم بذلك، لأنهم هم المستفعدون به .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّهُمُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي تجبر وطفى في أرض مصر، وجاوز الحدود في الظلم ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أي فرقاً وأصنافاً في استخدامه

وأغرى بينهم العداوة ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿يُذَيِّعُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ وذلك أن كاهناً قال له: يولد في بني إسرائيل مولودٌ، يذهب ملكك على يده، وما ذلك إلا لغاية حمقه، إذ لو صدق فما فائدة القتل؟ وإن كذب فما وجهه؟ ﴿وَسَتَّخِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي يترك البنات أحياء للخدمة ﴿إِنَّكَ كَانَتْ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي الراسخين في الفساد.

﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾

﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي نتفضل بإنجائهم من بأسه ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدى بهم في أمور الدين، بعد أن كانوا أتباعاً مسخرين للآخرين ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ أي وارثين لملك فرعون وقومه، يرثون ملكهم، ويسكنون مساكنهم.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ﴾ أي نسلطهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر والشام يتصرفون فيها كيفما يشاؤون ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ﴾ من أولئك المستضعفين ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ويجتهدون في دفعه، من ذهاب ملكهم، فأراهم الله ما كانوا يحذرون.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَاعْلَبِيهِ فِي الْمِصْرَ وَلَا تَخَفِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿أَنْ أَرْضِعِي﴾ ما أمكن إخفاءه، وفيه دلالة على أنها أرضعته وليس في القرآن حد ذلك^(١) ﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ﴾ بأن يحس به الجيران عند بكائه ﴿فَكَأَلَيْبِهِ فِي الْمِيَمِ﴾ أي في البحر، وهو نهر النيل ﴿وَلَا تَخَافِ﴾ عليه من الغرق ﴿وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢) تعليل للنهي، أي ونجعله رسولا نرسله إلى هذا الطاغية الجبار.

﴿فَالْقَلْبَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَّنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾

﴿فَالْقَلْبَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ﴾ أي فآلقته في الميم فآلقته، أي أخذه أخذ اعتناء به، وصيانة له، فنظرت آسية فإذا هي بصبي صغير في مهده، فألقى الله محبته في قلبها، وهم فرعون بقتله، فاستوهبت آسية فتركه لها ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ اللام لام العاقبة، أي ليصير الأمر إلى ذلك، أن يصير عدوا لهم لا لأنهم أخذوه لهذا، كقول القائل: «لِدُوا للموت، وابنُوا للخراب» ﴿وَحَزَنًا﴾ أي سببا لحزن فرعون وهلاكه ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَّنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ في كل ما يأتون وما يذرون، فلا غرو أن قتلوا لأجله ألوفاً، ثم أخذه يرثونه، ويفعل الله بهم ما كانوا يحذرون.

(١) فإن قيل: ما فائدة الأمر بإرضاعه، والأم بطبيعة الفطرة ترضع ولدها؟ فالجواب أن الله أمر بإرضاعه حتى يألف لبنها فلا يقبل ثدي غيرها.

(٢) هذه الآية: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى...﴾ من معجزات الإعجاز والإيجاز، لاشتمالها على أمرين، ونهيين، وخبرتين، وبشارتين، في أسهل نظم، وأسلس لفظ، وأوجز عبارة، أما الأمران فهما: أرضعيه، وألقيه، والنهيان: لا تخافي، ولا تحزني، والخبران: أوحينا، وخفت، والبشارتان: إنا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين، فما أبدع هذا الإعجاز.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١١﴾

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي قالت لفرعون حين أخرجه من التابوت، وخاطبته بلفظ الجمع ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ تعظيماً، ليساعدها فيما تريده ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم، فيما صنعوا من الالتقاط، وأن هلاك فرعون وأتباعه سيكون على يدي هذا الغلام.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢﴾

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا﴾ أي خالياً من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون^(١)، كقوله تعالى: ﴿وَأَفْنَدْتُهُمُ هَٰوَاءَ﴾ وهو قول صاحب الكشاف، وقيل: فارغاً من الهم والحزن لغاية وثوقها بوعده الله تعالى، وهو قول أبي عبيدة، أو لسماعها أن فرعون عطف عليه وتبناه وهو قول أبي مسلم ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أي إنها كادت لتظهر أمر موسى، وأنه ابنها، من فرط الحيرة والدهشة ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بإلهام الصبر ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من المصدقين بوعده الله، الواثقين بحفظه تعالى لهذا الوليد.

(١) وقيل إن المعنى: أن قلبها صار خالياً من كل شيء في الدنيا، إلا من ذكر ولدها موسى، لم يعد في قلبها إلا هم أمره ونجاته، وهذا القول مروى عن ابن عباس، والأظهر - والله أعلم - أن معنى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أن عقلها طار من فرط الجزع والغم، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أي كادت تصيح وا ابنه، وهذا القول ذكره القرطبي عن مالك رحمه الله، ولعله هو الأصح والأظهر.

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١١).

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ ﴾ التعبير عنها بأخوته دون أن يقال: لبنتها، للتصريح بمدار المحبة الموجبة لامثال الأمر ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أي ابتغي أثره وتتبعي خبره، قصصت الأثر تتبعته ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي أبصرته عن بُعد، وهم لا يشعرون أنها تقصه وتتعرف حاله، وأنها أخته.

﴿ وَحَرَّمَآ عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ ﴾ (١٢).

﴿ وَحَرَّمَآ عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ تحريم منع لا تحريم شرع، وذلك يحتمل أنه تعالى أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء، أو وضع لبن أمه لذة فلما تعودها كان يكره لبن غيرها ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل قصها أثره وقد دخلت بين المراضع، ورأته لا يقبل ثدياً ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ ﴾؟ أي لا يقصرون في إرضاعه وتربيته، روي أن هامان لما سمعه منها قال: إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله، فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون، فأمرها فرعون بأن تأتي بمن يكفله، فأتت بأمه، وموسى على يد آسية يبكي، وهي تعلله، فدفعته إليها، فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال: من أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلاً ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح، وطيبة اللبن، لا أوتى بصبي إلاً قبلني، فأقره في يدها، وأجرى عليها العطاء بسخاء، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وذلك قوله تعالى.

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣).

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بوصول ولدها إليها ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ لفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ لا خُلف فيه لمشاهدة بعضه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك، فيرتابون فيه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٥).

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي المبلغ الذي تكتمل فيه الرجولة، ويكمل فيه عقل الإنسان، وهو سنُّ الأربعين، ويروى أنه لم يُبعث نبيٌّ إلا على رأس الأربعين، والحكمة فيه ظاهرة لأنه إذا انتهى إلى أربعين تكامل عقله وأخذ في الازدياد ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ أي اعتدل قدره وعقله، فالأشدُّ: عبارة عن كمال القوة البدنية، والاستواء: كمالُ القوة العقلية ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ أي علم العلماء والحكماء، لأن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يدل على أنه إنما أعطاه العلم، مجازاة على إحسانه، والنبوة لا تكون جزاءً على العمل.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٥).

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ أي مصر من قصر فرعون ﴿عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ﴾ في وقت لا يعتاد دخولها أو لا يتوقعونه فيه، قيل: كان وقت القبلولة ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ من أهل المدينة ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي ممن شايعه على دينه، أي من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي مخالفه ديناً من القبط ﴿فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ﴾ أي سألَه أن يغيبه بالإعانة، وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ﴾ أي ضرب القبطي بجُمُوع كفه

وقيل: الوكز ضرب في الصدر، وكزه من باب وعد، أي ضربه ودفعه، وقال الكسائي: وكزه أي لكمه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتله، أصله أنهى حياته ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ لأنه لم يؤمر بقتل الكفار، أو لأنه كان مأموناً فيما بينهم، ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ، وإنما عدّه من عمل الشيطان، وسماه ظلماً، واستغفر منه، جرياً على سنن المقربين في استعظام ما فرط منهم، وإن كان من محفّرات الصغائر ﴿إِنَّكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة والإضلال.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتله ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ ذنبي ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ المبالغ في مغفرة ذنوب عباده، ورحمتهم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ هذا استعطاف، أي بحق إنعامك عليّ اعصمني، فلن أكون معيماً لمن تؤدي معونته إلى الجرم، وفيه دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾
﴿قَالَ لَكَ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي يستغيثه برفع الصوت من الصراخ ﴿قَالَ لَكَ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي بين الغواية، تسببت لقتل رجل، وتقاتل اليوم!

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أُتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١٩).

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ ﴾ موسى ﴿ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ أي لموسى وللإسرائيلي ﴿ قَالَ يَمْوَسَىٰ ﴾ الإسرائيلي طائفاً أنه عليه السلام سيبطش به، حسبما يوهمه تسميته إياه غريباً ﴿ أُتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ قالوا: لما سمع القبطي قول الإسرائيلي، علم أن موسى هو الذي قتل ذلك الفرعوني، فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، فأمر فرعون بقتل موسى، وقيل: قاله القبطي ^(١) ﴿ إِنْ تُرِيدُ ﴾ أي ما تريد ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ وهو الذي يبطش، ويقتل، ولا ينظر في العواقب ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ بين الناس بالقول والفعل.

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنَّكَ أَلَمَّا يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّصِيحَةِ ﴾ (٢٠).

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ آخرها ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ أي يُسرع، وهو مؤمنٌ من آل فرعون ﴿ قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنَّكَ أَلَمَّا يَأْتِمِرُونَ بِكَ ﴾ أي يتشاورون بسببك ﴿ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّصِيحَةِ ﴾ أي يريدون قتلك، فأنصحك أن تخرج من هذا البلد بسرعة، فأنا لك ناصح أمين.

(١) القول الأول أظهر، وهو الذي حكاه ابن كثير في تفسيره ٣/ ٣٩٤ حيث قال: ولما عزم على البطش بذلك القبطي، اعتقد الإسرائيلي لحوره وضعفه، أن موسى إنما يريد قتله لما سمعه يقول ﴿ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ فقال له: ﴿ أُتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ فلقفها القبطي من فمه، ثم ذهب إلى فرعون فأخبره بذلك اهـ.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢١﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا﴾ أي من المدينة ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ لحقوق الطالبين ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي خلصني منهم، واحفظني من شرهم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿٢٢﴾.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ نحو مدين وهي مدينة شعيب عليه السلام سميت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام، ولم تكن تحت سلطان فرعون، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ توكلًا على الله، وثقة بحسن توفيقه، وكان لا يعرف الطرق وقيل: خرج حافيًا لا يعيش إلا بورق الشجر.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقْيَ لَنَا حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ أي وصل ﴿مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وهو بئر كانوا يسقون منها ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ أي فوق شفيرها ﴿أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ﴾ جماعة كثيفة ﴿يَسْقُونَ﴾ أي مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي أسفل من مكانهم ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي تمنعان ما معهما من الأغنام من الماء، لئلا تختلط بأغنامهم، والدُّودُ: الطرْدُ والدفع ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام لهما حين رآهما وما هما عليه من التأخر والدود ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي ما شأنكما فيما أنتما عليه من التأخر؟ ولم لا تباشران السقي كدأب هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا لَا سَقْيَ

حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴿٢٤﴾ حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ مُوَاشِيَهُمْ عَنِ الْمَاءِ، حَذَرًا مِنْ مَزَاحِمَةِ الرِّجَالِ ﴿٢٥﴾ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٦﴾ فَلَا نَسْقِي حَتَّى يَنْصَرِفَ الرِّعَاءُ بِمَوَاشِيَهُمْ.

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ رحمة عليهما لكونهما على الضعف والعفة، وإنما رضي شعيب عليه السلام لابتتيه بسقي الماشية، لأنَّ هذا الأمر في نفسه ليس بممنوع شرعاً، وأحوال أهل البدو، غير أحوال أهل الحضرة، خصوصاً إذا كانت حالة ضرورة ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ وفيه دلالة على أنه سقى لهما في شمس، وحر ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أي أي شيء أنزلته إلي من خير فأنا محتاج إليه، وحمله الأكثر على الطعام بمعونة المقام.

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحَدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ آئِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحَدَاهُمَا ﴾ قيل هي كبراهما، أي جاءته عقيب ما رجعتا إلى أبيهما، روي أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس، وأغنامهما بطاناً، قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا، فقال لإحدهما اذهبي فادعيه لي ﴿ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ أي كانت على استحياء، تمشي مشية الحرائر، بخجل وحياء، وتنكير استحياء للتفخيم ﴿ قَالَتْ إِنَّكِ آئِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ أسندت الدعوة إلى أبيها، وعللتها بالجزاء، لئلا يوهم كلامها ريبة، وفيه دلالة على كمال عقلها وعفتها، روي أنه عليه السلام أجابها، فانطلقا حتى أتيا دار شعيب عليه السلام

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ أي ما جرى عليه ﴿ قَالَ ﴾ شعيب عليه السلام ﴿ لَا تَخَفْ فُجِرْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم، أن موسى عليه السلام إنما أجاب المستدعية من غير تلثم، ليتبرك برؤية شعيب عليه السلام، ويستظهر برأيه، لا لياخذ بمعروفه أجراً، ألا يرى إلى ما رُوي أن شعيباً عليه السلام لما قدّم إليه طعاماً، قال: إنا أهل بيت، لا نبيع ديننا ببغال الأرض ذهباً، ولا نأخذ على المعروف ثمناً، ولم يتناول حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، فتناول بعد ذلك.

﴿ قَالَتْ إِحْدَهُمَا يَتَأَتَّى آسْتَجِرُهُ إِبْرَ خَيْرَ مَنْ آسْتَجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾.

﴿ قَالَتْ إِحْدَهُمَا يَتَأَتَّى آسْتَجِرُهُ إِبْرَ خَيْرَ مَنْ آسْتَجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ وهي التي استدعته إلى أبيها وهي التي زوجها من موسى عليه السلام، روي أن شعيباً عليه السلام قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت ما شاهدت منه، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «أفرس الناس ثلاث: بنت شعيب، وصاحب يوسف، وأبو بكر في عمر».

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنِكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِجٍّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ شعيب عليه السلام ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنِكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ﴾ أي تكون أجيراً لي ﴿ ثَمَنِي حَبِجٍّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا ﴾ في الخدمة ﴿ فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ أي فهو من عندك بطريق التفضل، لا من عندي بطريق الإلزام عليك، وهذا من شعيب عليه السلام عرض رأي على موسى لا

إنشاء عقد ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ﴾ بالزام تمام العشر واستيفاء العمل ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في حسن المعاملة، ولين الجانب، وإيفاء العهد.

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي ذلك الذي قلته ثابت بيننا لا يخرج عنه واحد منا ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ﴾ أي أكثرهما أو أقصرهما ﴿قَضَيْتَ﴾ وفيتك بأداء الخدمة فيه ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي لا عدوان عليّ بطلب الزيادة على ما أديت، ولا إثم عليّ فيه ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ والله على ما نقول من الشروط الجارية بينهما شاهدٌ وحفيظ، عن سعيد بن جبير قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة أيّ الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ قلت: لا أدري؛ حتى أقدم على خبر العرب فأبأس له فقدمت على ابن عباس رضي الله عنهما فسأله فقال: «قضى أكثرهما - يعني العشر - وأطيبهما؟ إن رسول الله إذا قال فعل»^(١) فالفقهاء استدلوا به على أن العمل قد يكون مهراً كالمال، وعلى أن إلحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز من الآية الكريمة.

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في الشهادات ٥/٢١٣.

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ أي فبعد العقد، وياشر موسى ما التزمه، فلما أتمَّ الأجل ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِيهِ ﴾ نحو مصر قيل مكث موسى عشر سنين، ثم استأذن العود إلى مصر من شعيب عليه السلام ﴿ وَأَنسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ من يدلني على الطريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾ أي عود غليظ وشعلة من النار والجذوة: الجمرَةُ الملتهبة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي تستدفئون بها.

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْوِسَ إِيَّيَّ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ النار التي أبصرها، رأى النور في هيئة النار، فلما دنا منها شملته أنوار القدس، وأحاطت به جلايب الأنس ﴿ نُودِيَ ﴾ أي أتاه النداء فخطوب بالطف خطاب ﴿ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ أي جانبه الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾ إنما وصف البقعة بكونها مباركة، لأنه حصل فيه ابتداء الرسالة والتكلم ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ بدل اشتغال من الشاطيء لأنها كانت ثابتة على الشاطيء ﴿ أَن يَمْوِسَ إِيَّيَّ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم الجليل، وهذا وإن خالف لفظاً لما في طه، والنمل، لكنه موافق له في المعنى المراد، وفي النمل: ﴿ نُودِيَ أَن بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ وقال في طه: ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾. فلا منافاة، لأنه تعالى ذكر الكل، إلا أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء.

﴿ وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا نُتَنَزَّ كَأَنَّهَُا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾.

﴿ وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أي ألقها من يدك، فألقاها فإذا هي حية تسعى

﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ في سرعة الحركة، مع عظم جثتها ﴿ أَللَّهُ لِيُزِيَكُمْ ﴾ منهزماً من الخوف ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي لم يلتفت، فقليل له ﴿ يَلْمُوسُ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفُ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴾ من المخاوف، فإنه لا يخاف لدي المرسلون.

﴿ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾

﴿ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ أي أدخل يدك في جيبك، وفي طه: ﴿ وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ وفي النمل: ﴿ وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ أي عيب كالبرص ونحوه ﴿ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ أي يدك المبسوطتين استعارة من حال الطائر، فإنه إذا خاف نشر جناحيه، وإذا أمن ضمهما إليه، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، لأن الغرض في أحدهما خروج اليد البيضاء، وفي الثاني زوال الخوف ﴿ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ أي من الخوف، فالخائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه ﴿ فَذَانِكَ ﴾ إشارة إلى العصا، واليد ﴿ بُرْهَنَانِ ﴾ أي حجتان نيرتان ﴿ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أي خارجين عن طاعة الله تعالى.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ بمقابلتها، يعني ذلك القبطي، الذي قتله في مصر، لما رآه يعتدي على الإسرائيليين.

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ لأنه كان في لسانه حُجْسة، إمَّا في أصل الخِلقة، وإمَّا لأجل أنه وضع الجمرة في فيه، عندما كان صغيراً في حجر فرعون ﴿فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ معيناً وهو اسم لما يُعان به، كالذِّفء اسمٌ لما يُدفا به، والرَّدءُ وزان حِمْل: المعين ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بتلخيص الحق، وتقرير الحجة وتوضيحها، المفيد، لا مجرد قوله صدقتك ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي أخاف إن لم يكن لي أحد معين أن يكذبوني، لأنهم يكادون لا يفقهون قولي.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتَا وَهَمَنَ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ﴾ أي سنقوي ﴿عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ وكان هارون بمصر، وقوة الشخص على مزاوله الأمور بشدة اليد، وشدتها بشدة العضد ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي تسلطاً وغلبة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستيلاء أو محاجة ﴿بِأَيِّدِنَا﴾ متعلق بمحذوف قد صرح في مواضع أخرى أي اذهبا بآياتنا ﴿أَنْتَا وَهَمَنَ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ أي الغلبة والنصر لكما ولأتباعكما على فرعون وقومه، وقلب العصا كما أنها معجزة، فهي أيضاً تمنع وصول ضرر فرعون إلى موسى، لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة، زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما، والمراد بالغلبة هنا: الحجة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَبَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَبَيِّنَاتٍ﴾ أي واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام، والمراد بها العصا، واليد ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي سحر مختلق، موصوف بالافتراء ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي ادعاء النبوة واقعاً في أيامهم.

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّيْٓ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّيْٓ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ ﴾ يريد به نفسه عليه السلام ﴿ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾؟ أي العاقبة المحموده، وهي الجنة قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَقِبَى الدَّارِ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يفوزون بالهدى في الدنيا، وحسن العاقبة في العقبى.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيَّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطْلُعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَا أَظُنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيَّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ قاله اللعين بعد ما جَمَعَ السحرة، وتصدَّى للمعارضة، فكان من أمرهم ما كان، وكانت عادة اللعين متى ظهرت حجة موسى عليه السلام، أن يتعلق في دفع تلك الحجة، بشبهة يروّجها على أغمار قومه، كقوله: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾؟. على أنه كان عارفاً بالله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ﴾ أي اصنع آجراً، وأول من اتخذ الآجر فرعون ﴿فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا﴾ أي قصراً رفيعاً ﴿لَّعَلِّي أَطْلُعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى﴾ كأنه توهم أنه لو كان موجوداً لكان جسماً في السماء، يمكن الرقي إليه، والطلوع، والاطلاع: الصعود ﴿وَإِنِّي لَا أَظُنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ في دعواه أن له إلهاً، وأنه أرسله إلينا رسولاً، وقد تناقض المخذول، فإنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ ثم أظهر حاجته إلى هامان، وأثبت لموسى إلهاً، قال أهل السير: جَمَعَ هامان العمال، وطبخ الآجر والجص، وأمر بالبناء فبنوه ورفعوه، حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، وأراد الله أن يفتنهم فيه، فلما فرغوا منه سقط على العمال فهلكوا جميعاً.

﴿وَأَسْتَكْبَرُوا وَجُودُهُمْ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَهَانَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٩).

﴿وَأَسْتَكْبَرُوا وَجُودُهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾
بغير استحقاق ﴿وَزَنُّوا أَنَّهُم إِلَهَانَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بالبعث والجزاء.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠).

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ﴾ الذين بلغوا من الكفر والعتو أقصى الغايات
﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ وفيه تفخيم شأن الأخذ، كأنه تعالى أخذهم مع
كثرتهم، وطرحهم في اليم أي البحر، والفرض منه تصوير أن كل مقدور
وإن عَظُم، فهو حقير بالقياس إلى قدرته تعالى: ﴿فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾؟ تنبيهاً للناس ليعتبروا بها.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصُرُونَ﴾ (٤١).

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي صيرناهم في عهدهم ﴿أَيْمَةً يَدْعُونَ﴾ الناس
﴿إِلَى الْكُفْرِ﴾ أي إلى ما يؤدي إليها، من الكفر والمعاصي، أي قُدوة
يقندي بهم أهل الضلال ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصُرُونَ﴾.

﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (٤٢).

﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَةً﴾ أي طرداً وإبعاداً من الرحمة، ولعناً
من اللاعنين، حيث تلعنهم الملائكة والمؤمنون، خَلَفاً عن سلف ﴿وَيَوْمَ

الْقِيَمَةُ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤١﴾ أي من المطرودين المبعدين عن رحمة الله عز وجل.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ هم أقوام نوح، وهود، وصالح، ولوط عليهم السلام، والتعرض لبيان إيتائها بعد إهلاكهم، للإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه، فإن إهلاك القرون الأولى، من موجبات اندراس معالم الشرائع وأحكامها المؤدي إلى اختلال نظام العالم، وحاجته إلى نظام جديد، كأنه قيل: ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة إلى إيتائها ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي أنواراً لقلوبهم، تُبصر بها الحقائق، وتُمَيِّز بها بين الحق والباطل ﴿وَهُدًى﴾ أي هداية إلى الشرائع والأحكام ﴿وَرَحْمَةً﴾ حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ليكونوا على حالٍ يُرجى منه التذكر .

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ شروع في بيان أن إنزال القرآن الكريم، واقع في زمان شدة مساس الحاجة إليه، وقد صدر بتحقيق كونه وحياً صادقاً من عند الله، ببيان أن الوقوف على ما فُضِّل من الأحوال، لا يتسنى إلا بالمشاهدة، أو التعلم ممن شاهدها، وحيث انتفى كلاهما، تبين أنه وحي من علام الغيوب لا محالة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَفْلَامَهُمْ﴾ أي وما كنت يا رسول الله بجانب الجبل الغربي، الذي وقع فيه الميقات ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ أي عهدنا إليه وأحكمنا أمرنا له بالنبوة وبالوحي ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ من جملة الشاهدين للوحي،

وهم السبعون المختارون للميقات، حتى تشاهد من أمر موسى ما تشاهد، فتخبر به الناس.

﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا ﴾ أي ولكن خلقنا بين زمانك، وزمان موسى، قرونًا كثيرة ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ وتمادى الأمد، فتغيرت الشرائع والأحكام، والأخبار، واندرست العلوم، فاقضى الحال لتشريع جديد، فأوحينا إليك، فحذف المستدرك، اكتفاءً بذكر ما يوجبه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا ﴾ أي مقيماً ﴿ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ﴾ أي تقرأ عليهم بطريق التعلم منهم ﴿ آيَاتِنَا ﴾ الناطقة بالقصة ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ إياك وموحين إليك تلك الآيات، ولولا ذلك لما علمتها أنت ولا قومك.

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي وقت ندائنا لموسى، وتكليمنا إياه ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي ولكن أرسلناك بالقرآن، لرحمة عظيمة كائنة منا لك وللناس ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾ أي لتخوف أهل مكة وكفارها عذاب الله ﴿ مَّا أَتَتْهُمْ ﴾ صفة لقوماً أي لم يأتهم ﴿ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى، وهي خمس مائة وخمسون سنة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يتعظون بإنذارك.

﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمُ مُّصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ يَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ﴾ عقوبة ﴿يَمَّا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ أي بما اقترفوا من الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُوا﴾ عطف على أن تصيبهم، أي فيقولوا عند ذلك ﴿رَبَّنَا لَوْلَا﴾ أي هَلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ مؤيداً من عندك بآيات ﴿فَنَنْتَعِ أَيْدِيكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بها، والمعنى: لولا قولهم هذا، عند إصابة عقوبة جناباتهم، ما أرسلناك، لكن لما كان قولهم ذلك محققاً، أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أُولَٰئِكَ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفُورٍ﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ﴾ أهل مكة ﴿الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وهو القرآن العظيم المنزل عليك يا محمد ﴿قَالُوا﴾ تعنتاً واقتراحاً ﴿لَوْلَا أُوتِيَ﴾ يعنون الرسول ﷺ ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ من الكتاب المنزل جملة وهو التوراة ﴿أُولَٰئِكَ يَكْفُرُوا﴾ ردُّ عليهم، وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً مخضاً، لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق، أي ألم يكفروا ﴿بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل هذا القول، كما كفروا بهذا الحق ﴿قَالُوا سِحْرَانِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هما يعنون ما أوتي رسول الله ﷺ، وما أوتي موسى عليه السلام ﴿تَظَاهَرَا﴾ تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر، وذلك أنهم بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود، فسألوهم عن شأنه ﷺ، فقالوا وجدناه في التوراة بنعته، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود، قالوا ذلك ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفُورٍ﴾ تصريح بكفرهم بهما، وقرىء (ساحران).

﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا يَكْتُبِ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿ قُلْ فَاتَّبِعُوا يَكْتَسِبَ مَن عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِثْمَالًا ﴾ ﴿ مِمَّا أَوْتِيَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ ،
 والتوراة ﴾ ﴿ اتَّبِعْهُ ﴾ ﴿ جواب للأمر ، أي إن تأتوا به أتبعه ، وهذا من الشروط
 التي يراد به الإلزام ، لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين ، أمرٌ بيِّنُ
 الاستحالة ﴾ ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ في أنهما سحران مختلفان ، وفي كلمة
 ﴿ إِن ﴾ مع امتناع صدقهم ، نوعٌ تهكم بهم .

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ
 اتَّبَعَ هَوْنَهُ يَغْيِرْهُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ ٥٥ ﴾ .

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أي فإن لم يفعلوا ما كلفتهم من الإتيان
 ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ الزائغة ، من غير أن يكون لهم تمسك بشيء
 ما ، إذ لو كان لهم ذلك لأتوه ، ﴿ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوْنَهُ يَغْيِرْهُدَىٰ مِنَ
 اللَّهِ ﴾ استفهامٌ إنكاري أي لا أضل ممن اتبع هواه ، وتقييد اتباع الهوى ،
 بعدم الهدى من الله ، لزيادة التقرير ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ ٥٥ ﴾
 الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى والشهوات ، والإعراض عن
 الآيات الهادية البينات .

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ ٥٦ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ أي أنزلنا القرآن عليهم ، متواصلاً بعضه إثر
 بعض ، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، ومتتابعاً ، وعداً ووعداً ،
 وقصصاً وعبراً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ فيؤمنوا بما فيه .

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ ٥٧ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل إتياء القرآن ﴿ هُم بِهِ
 يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام وأشباهه ، قال ابن

عباس: نزلت في ثمانين من أهل الكتاب، آمنوا برسول الله ﷺ وصدقوا في دعوى الإيمان.

﴿وَإِذَا يُنَالَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ
مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٥٣﴾

﴿وَإِذَا يُنَالَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾ أي الحق الذي كنا نعرف حقيقته ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ لما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدمة أي مؤمنين بأنه سيبعث.

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرة على إيمانهم بالقرآن، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بنبِيِّه، وآمنَ بمحمد ﷺ، والعبْدُ المملوك إذا أدَّى حقَّ الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها ثم تزوجها، فله أجران»^(١) ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بصبرهم وثباتهم على الإيمان بالرسول والقرآن ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي ويدفعون بالطاعات المعصية ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٥٥﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري في العتق ١٢٦/٥ ومسلم رقم ١٥٤ في الإيمان.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ القول القبيح، وذلك أن المشركين كانوا يسبونهم ويقولون: تبا لكم، تركتم دينكم ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي عن اللغو تكريماً كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ للشاتمين ﴿لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي لنا طريقتنا من الحلم والصفح، ولكم طريقتكم من الوقاحة والسفاهة، وكل على طريقته ﴿سَلَّمْ عَلَيْكُمْ﴾ بطريق المتاركة، وليس بتسليم وتحية، بل هو براءة ومفارقة، قال الزجاج، لم يريدوا التحية وإنما أرادوا المتاركة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ وقال بعضهم: نسخ ذلك بالأمر بالقتال، وهو بعيد، لأن ترك المسافهة مندوبٌ، وإن كان القتال واجباً ﴿لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي لا ينبغي صحبتهم ولا نجازيتهم بالباطل.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ﴾

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي﴾ هداية موصلة إلى البغية لا محالة ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ من الناس، ولا تقدر أن تدخله في الإسلام، وإن بذلت فيه غاية المجهود، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ولا تنافي بينهما، فإن الذي أضافه إليه الدعوة والبيان، والذي نفى عنه هداية التوفيق، وشرح القلب للإسلام، وهو نور يُقذف في القلب، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يهديه ممن يستأهل فيدخله في الإسلام ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي المستعدين لذلك، عن أبي هريرة قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية نزلت في رسول الله ﷺ، حيث راود عمه أبا طالب على الإسلام والجمهور على ذلك، فإنه لما احتضر جاءه رسول الله ﷺ وقال: يا عم: قل: (لا إله إلا الله) كلمة أحاجُّ

بها لك عند الله، قال له: يا ابن أخي، قد علمت أنك صادق، ولكني أكره أن يقال فزع عند الموت. (١)

﴿ وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ تُخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٧)

﴿ وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ تُخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل حيث أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق، لكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب، أن يتخطفونا من أرض مكة، فردَّ الله عليهم بقوله تعالى: ﴿ أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾؟ أي ألم نعصمهم ونجعل بلدهم حرماً ذا أمنٍ لحرمه البيت الحرام، الذي تتناحر العرب حوله، وهم آمنون؟ ﴿ يُجِئُ إِلَيْهِ ﴾ أي يجمع ويحمل إليه ﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من كل أوب ﴿ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ فإذا كان حالهم ما ذكر، وهم عبدة أصنام، فكيف يخافون التخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت العتيق، حرمة التوحيد؟ وكيف يكون الحرم آمناً لهم في حال كفرهم، ولا يكون آمناً لهم في حال إسلامهم؟ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي جهلة لا يتفنون له، ولا يتفكرون.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٥٨)

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي وكثير من أهل القرى كانت حالتهم كحال هؤلاء في الأمن، وسعة العيش والدعة، حتى أشركوا فدمرنا عليهم، وخرَّبنا ديارهم، فالإصرار على الكفر، يزيل النعم، لا

(١) انظر صحيح البخاري ٥٠٦/٨ فقد ذكر القصة كاملة، وأن أبا طالب أبى أن يقول لا إله إلا الله، وفيه نزلت ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾.

الإقدام على الإيمان ﴿فَإِنَّكَ مَسْرُكُهُمْ﴾ خاوية بما ظلموا ﴿لَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ زَنْدًا مِنْهُنَّ﴾ أي من بعد تدميرهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا المارة، يوماً أو بعض يوم، ولم يبق من يسكنها إلا قليلاً، من شؤم معاصي المهلكين ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَيْنَتْنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ أي ما صح وما استقام في سنته تعالى المبنية على الحِكم، والمصالح، أن يهلك القرى قبل الإنذار، بل كانت عادته أن لا يهلكها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ أي في أصلها وعاصمتها، وخص الأم أي العاصمة ببعثة الرسل، لأنه يبعث للأشراف وهم سكان المدن، ولكون أهلها أفطن وأنبل ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَيْنَتْنَا﴾ الناطقة بالحق، ويدعو إليه بالترغيب والترهيب، وذلك لإلزام الحجة، وقطع المَعذرة، بأن يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك؟ والالتفات إلى نون العظمة لتربية المهابة، وإدخال الروعة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي وما كنا مهلكين لأهل القرى، بعدما بعثنا رسولاً يدعوهم إلى الحق، في حال من الأحوال، إلا حال كونهم ظالمين، بتكذيب رسلنا، والكفر بآياتنا.

﴿وَمَا أَوْتَيْنَا مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

﴿وَمَا أَوْتَيْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ من أمور الدنيا ﴿فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي فهو شيء شأنه أن يتمتع به، ويتزين أياماً قلائل ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب

﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك، لأنه لذة خالصة عن شوائب الألم ﴿وَأَبْقَى﴾ لأنه أبدي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ هذا الأمر الواضح، فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ ﴿١١﴾

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ أي بالجنة، فإن حسن الوعد بحسن الموعود، فهو مدركه لا محالة، لاستحالة الخلف في وعده تعالى ولذلك جاء بالجملة الاسمية، المفيدة لتحقيقه البتة ﴿كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الذي هو مشوب بالآلام، منغص بالأكدار، مستتبع للتحسر على الانقطاع ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ ثم أحضرناه يوم القيامة للحساب والعذاب، وتخصيص لفظ ﴿مُحْضَرِينَ﴾ بالذين أحضروا للعذاب، أمرٌ عرف من القرآن، وصار مقروناً بالعذاب الإلهي.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاؤِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿١٢﴾

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي ينادي الله الكفار نداء توبيخ ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاؤِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟ أنهم شركائي عبدتموهم من دون الله؟

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٣﴾

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وهم شركاؤهم من الشياطين، ورؤساؤهم الذين أطاعوهم في كل ما أمروهم به، ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أنه ثبت مقتضاه بدخول جهنم بقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١﴾ ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي ما أكرهناهم على الغي، وإنما أغويناهم بالوسوسة والتسويل، لا بالإلحاح والإكراه، فغوا باختيارهم ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم، ومما اختاروه من الكفر ﴿مَا كَانُوا مِنَّا بِعَبِيدٍ﴾ وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، ويطيعون شهواتهم.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١٢﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣﴾ فَعِمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ إما تهكماً بهم أو تبكيتاً لهم ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي الأصنام لتخليصكم من العذاب ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لفرط الحيرة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ قد غشيهم ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ لوجه من الوجوه، لَمَا لَقُوا ما لقوا من الكرب والبلاء.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾؟ الذين نهوهم عن الشرك، أي ماذا أجبتهم رسلي؟ هل صدقتموهم أم كذبتموهم؟.

﴿فَعِمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي فصارت كالعَمَى عنهم لا تهتدي إليهم، وأصله فعموا عن الأنباء، وقد عكس للمبالغة، أي خفيت عليهم الحجج، وأظلمت عليهم الأمور، فهم حيارى واجمون، لا يعرفون ما يقولون ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب، لفرط الدهشة والفرع.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿١٥﴾﴾.

(١) سورة هود، آية: ١١٩.

﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ ﴾ من الشرك ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ فَسَقَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ أي الفائزين بالمطلوب عنده تعالى، و «عسى» للتحقيق^(١) على عادة الكرام، أو للترجي من قبل الطالب، أي راجياً الفلاح من ربه الكريم.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١٨)

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أن يخلقه ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ ما شاء اختياره من غير إيجاب عليه، ولا منع له أصلاً ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ أي ما كان لأحد من العباد اختيار، فهو الخالق المختار، والواحد القهار، فكما أن الخلق إليه، فكذلك الاختيار له ﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيهاً له أن ينازعه أحد، أو يزاحم اختياره، نزلت هذه الآية، جواباً لقول المشركين، حين قالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾^(٢) ؟

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (١٩)

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي هو جلّ وعلا العالم بما تخفيه صدورهم، من الكفر والعداوة للرسول ﷺ ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وما يظهرونه على ألسنتهم من الطعن فيه ﷺ.

(١) قال ابن كثير ٤٠٨/٣: وعسى من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومثته لا محالة. اهـ أقول: الترجي الوارد في القرآن بمثزلة التحقّق، لأنّه وعدٌ كريم من ربّ رحيم، وهو جلّ وعلا لا يخلف وعده.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٣١.

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٧١)

﴿ وَهُوَ اللَّهُ ﴾ أي المستحق للعبادة وحده ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا أحد يستحقها إلا هو سبحانه ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ لأنه المولي للنعم كلها، عاجلها وآجلها، على الخلق كافة، يحمده المؤمنون في الدنيا، ويحمدونه في الآخرة بقولهم: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ ابتهاجاً بفضلِهِ، والتذاذاً بحمده ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ أي القضاء النافذ في كل شيء ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالبعث إلى حكمه وقضائه.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّتِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١)

﴿ قُلْ ﴾ تقريراً لما ذكر ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّتِيلَ سَرْمَدًا ﴾ أي دائماً من السرد، وهو المتابعة والاطراد، والميم زائدة، ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثة سرّد، وواحد فرّد ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ ﴾؟ أي من هو الإله الذي يقدر على أن يأتيكم بالنور والضياء؟ وعليه يدور أمر التبيك والالزام، كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾^(١) ونظائره ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾؟ هذا الكلام الحق، سماع تدبر واستبصار، حتى تدعوا له، وتعملوا بموجبه، فالمعنى: أخبروني من يقدر على هذا غير الله تعالى؟

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧٢)

(١) سورة تبارك الملك، آية: ٣٠.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ أي جعل النهار دائماً مستمراً دون انقطاع، في وسط السماء ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ﴾ للاستراحة من متاعب الأشغال، ولعل تجريد الضياء عن ذكر منافعه، لكونه مقصوداً بذاته ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ هذه المنفعة؟ وإنما قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ و ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ لأن الغرض من ذلك الانتفاع، فلما لم ينتفعوا نزلوا مرتبة من لا يسمع ولا يبصر.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٢)

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتعرفوا نعمة الله في ذلك، فتشكروه عليها. جمع تعالى الليل والنهار، ثم قال ﴿لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ فأعاد السكّن إلى الليل، وطلب الرزق إلى النهار، بطريقة «اللف والنشر المرتب»، وهذا من لطيف علم البديع

﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ﴾ (٧٤)

﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقرير إثر تقرير، للإشعار أنه لا شيء أجلب لغضب الله، من الإشراك بالله.

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ
لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٥)

﴿وَنَزَعْنَا﴾ عطف على يناديهم، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق، أي أخرجنا ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿شَهِيدًا﴾ أي نبياً يشهد

عليهم بما كانوا عليه، أو هم الشهداء الذين يشهدون على الناس في كل زمان ﴿فَقُلْنَا﴾ لكل أمة من تلك الأمم ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم تدينون به ﴿فَعَلِمُوا﴾ يومئذٍ ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركه فيها أحد ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي غاب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا من الآلهة المزعومة، من الأوثان والأنداد.

﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَايَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَىٰ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۖ﴾

﴿إِنَّ قُرُونًا﴾ قيل كان ابن عم موسى عليه السلام وأعلم بني إسرائيل، ولكنه نافق كما نافق السامري ﴿كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ أي من جماعته وعشيرته ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي تناول عليهم بالكبر والعلو ﴿وَءَايَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أي الأموال المدخرة ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ أي مفاتيح صناديقه، وهو جمع مفتاح بالكسر، وهو ما يُفتح به، والمعنى: آتيناه من الكنوز ما إن مفاتيح خزائنه ﴿لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَىٰ الْقُوَّةِ﴾ ناء به الحمل: إذا أثقله، والعصبة الجماعة الكثيرة، أي يثقل على الجماعة أصحاب القوة، حمل مفاتيح خزائنه، لكثرتها وثقلها، فضلاً عن حمل الخزائن والأموال ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تبطر، والفرح في الدنيا مذمومٌ مطلقاً، لأنه نتيجة جهالة حال الدنيا، أن ما فيها من اللذة زائل لا محالة، والمراد بالفرح هنا: فرح البطر والأشر، والتكبر على عباد الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي بزخارف الدنيا، والذين لا يشكرون الله على فضله وإنعامه.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۖ﴾

﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا أَمَرَكَ اللَّهُ﴾ من الغنى والثروة ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي ثواب الله، بصرفه إلى ما يكون وسيلة إليه، بأن تتصدق به على الفقراء، وتصل الرحم، وتصرفه إلى أبواب الخير ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي لا تترك ترك المنسي ﴿نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو أن تحصل منها ما يكفيك ﴿وَأَحْسِنْ﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بما أنعم عليك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ نهى عما كان عليه من الظلم والبغي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أُولَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾

﴿قَالَ﴾ مجيباً لناصره ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ كأنه يريد الرد على قولهم: ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي إنما فضلت به على الناس، بالمال والجاه، لمعرفة بوجوه المكاسب، وبسبب ذكائي ومهارتي ﴿أُولَمْ يَعْلَمِ﴾ توبيخ له من جهته تعالى، على اغتراره بقوته، وكثرة ماله فالمعنى: ألم يقرأ في التوراة، ولم يعلم ما فعل الله بأضرابه، من أهل القرون السابقة، حتى لا يغتر بما اغتروا به؟ ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا يسألون سؤال استعلام، بل يعذبون بها بغتة، فالله عز وجل عالم بجرائمهم، ولا حاجة أن يسألهم عنها، كما قال سبحانه: ﴿يُعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسِيْمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ أي فخرج عليهم في زينته، بأبهى الحلل، وأجمل الخيل، مع خدمه وحشمه، في موكب حافل باهر ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ جرياً على الرغبة في السعة واليسار ﴿ يَلْبِثَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوفِيَ قَدْرُونُ ﴾ أي ياليت لنا مثل هذا الثراء والغنى الذي أعطيه قارون ﴿ إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ تعليل لتمنيهم وتأكيد له، أي ذو نصيب وافر من الدنيا، ومكانة عظيمة من الجاه.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلَحُ إِلَّا الَّذِينَ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أي العقلاء من أهل العلم والفهم، الذين لا تخدعهم المظاهر البراقة ﴿ وَيَلَكُمْ ﴾ دعاء شاع في الزجر عما لا يرتضى، أي ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا التمني والكلام الفارغ ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أي ثوابه تعالى في الآخرة ﴿ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ فلا يليق بكم، أن تمنوه غير مكتفين بثواب الله تعالى ﴿ وَلَا يُفْلَحُ ﴾ أي هذه المنزلة والفضيلة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ﴾ على أمر الله، والمعرضون عن زينة الدنيا وشهواتها.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فَتَةٍ يَصُورُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْمُنتَصِرِينَ ﴾

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ فإنه لما أشر، وبطّر، وعتا، خسف الله به وبداره الأرض، جزاء على عتوه. وطغيانه ﴿ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فَتَةٍ ﴾ أي جماعة مشفقة ﴿ يَصُورُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ بدفع العذاب عنه ﴿ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ أي الناجين من العذاب، الممتنعين منه، لأنه لا نصير لهم ولا معين.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿وَأَصْبَحَ﴾ و صار ﴿الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ﴾ منزلته من الدنيا ﴿بِالْأَمْسِ﴾ منذ زمان قريب، ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ﴿يَقُولُونَ وَيَكَابُ﴾ «وي» كلمة تنبيه على الخطأ والندم، يستعملها النادم بإظهار ندامته، وكان للتشبيه، والمعنى: ما أشبه هذا الأمر، يعني أن القوم قد تنبّهوا على خطئهم في تمنّيه، وتندّموا على ذلك ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسّع الرزق على من يشاء، ويضيّق الرزق على من يشاء، يفعل كل واحد منهما بمنحض مشيئته، لا لكرامة توجب البسط، ولا لهوان يقتضي القبض ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي لولا أن الله لطف بنا بعدم إعطائه إيانا ما تمنّينا ﴿لَخَسَفَ بَنَّا﴾ كما خسف بقارون ﴿وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لنعمة الله تعالى، أي اعجبوا من فعل الله أيها القوم، فإنه لا يفوز ولا يظفر بالسعادة، الكافرون.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة تعظيم وتفخيم، كأنه قيل: تلك التي سمعت خبرها، وبلغك وصفها ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي غلبة وتسلطاً ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ أي ظلماً وعدواناً على العباد كدأب فرعون وقارون ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون ما لا يرضاه الله، من الأفعال، والأقوال.

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(A8)

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي مثل ما كانوا يعملون، أخبر تعالى أن السيئة لا يضاعف جزاؤها فضلاً منه ورحمة، وأن الحسنة تضاعف أضعافاً كثيرة، مبالغة في التحذير من عمل السيئات.

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ^(A9)

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ ﴾ أي أوجب وأنزل ﴿ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد تلاوة ﴿ الْقُرْآنَ ﴾ وتبليغه، والعمل به، ﴿ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ أي لرادك بعد الموت إلى معادٍ، تمتد إليه أعناق الهمم، وترنو إليه أحداق الأمم، وهو المقام المحمود، الذي وعدك به، وقيل: هو مكة المعظمة، فقد نزلت عليه في مهاجرة، حين بلغ الجحفة، وذلك أقرب وهو قول أكثر المفسرين ^(١) ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى ﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر ﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وما يستحقه من العذاب والإذلال، يعني بذلك نفسه ﷺ، والمشركين، وهو جواب لكفار مكة، لما قالوا للرسول ﷺ: إنك لفي ضلال مبين، وتقرير للوعد السابق.

(١) هذا وعدٌ من الله عزَّ وجلَّ بفتح مكة، وعودة المصطفى ﷺ إليها بعد أن هاجر منها، وهذه الآية من أعلام النبوة، فإنه خبرٌ عن غيب، وقد وقع كما أخبر عنه القرآن، حيث رجع رسول الله ﷺ إلى مسقط رأسه، ظافراً منتصراً بعد سنوات قليلة من هجرته، والمعنى: إن الذي أنزل عليك القرآن يا محمد، لرادك إلى مكة كما أخرجك منها، وهذا القول مروي عن ابن عباس والضحاك، وهو الأشهر والأظهر، والله أعلم.

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي سيردك إلى معادك كما ألقى إليك الكتاب، وما كنت تطمح أن تنال النبوة، وينزل عليك القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ولكن ألقى إليك رحمة منه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ أي معيناً للكافرين بمداراتهم، ولا إجابة إلى طلباتهم.

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿وَلَا يَصُدُّكَ﴾ أي الكافرون ﴿عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ عن قراءتها والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وفرضت عليك ﴿وَأَدْعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى عبادته وتوحيده ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بمساعدتهم في الأمور.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ هذا وما قبله للتهيج، والإلهاب، وقطع أطماع المشركين عن مساعدته ﷺ لهم، روي عن ابن عباس أنه قال: «الخطاب في الظاهر للرسول ﷺ، والمراد به أهل دينه» والعصمة لا تمنع أن ينتهي عن القبح من لا يمكن صدوره عنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي إلا ذاته جلّ وعلا، فإن كل ما عداه كائناً ما كان، عرضةً للهلاك والفناء ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي القضاء النافذ في الخلق ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عند البعث للجزاء لا إلى غيره، والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على خير خلقه نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص»

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

مكية وهي تسع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ .

﴿الْم﴾ الكلام فيه كالذي مرَّ. ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ الحسبانُ: الظنُّ، نزلت في قوم من المؤمنين، كان كفار مكة يؤذونهم ويعذبونهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، فتداركهم الله بالتسليّة بهذه الآية، وحكمها عام في جميع البشر ﴿أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؟ أي أحسبوا أنفسهم متروكين بلا فتنة، بقولهم ﴿آمَنَّا﴾ والمعنى: إنكار الحسبان المذكور، وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكليف، كالمهاجرة والمجاهدة، ورفض ما تشتهيه النفس، وفنون المصائب في الأنفس والأموال، ليمتيز المخلص من المنافق، ويجازيهم بحسب أعمالهم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ

الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي اختبرنا ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فالابتلاء سُنَّةٌ قديمة، مبنية على الحكم والمصالح، جارية بين الأمم كلها فإن الأمم الماضية، قد

أصابها من ضروب الفتن والمحن، ما هو أشد مما أصاب هؤلاء فصبروا فمنهم من يوضع المنشار على رأسه، فيفرق نصفين، ومنهم من يمشط بأمشاط الحديد، ما يصرفه ذلك عن دينه ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في قولهم آمنا ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ في ذلك، أي فوالله ليميز الله بين الصادق والكاذب، بين الذين صدقوا في الإيمان، والذين هم كاذبون فيه، ويرتب عليه أجزيته من الثواب والعقاب.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ الكفر والمعاصي، فإن العمل يعم أفعال القلوب، والجوارح ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾؟ أي يفوتونا، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوى أعمالهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بش الذي يحكمونه؟! فإنه سبحانه يعذب ويثيب، يحكم الوعد والإيعاد، والإمهال لا يفضي إلى الإهمال.

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاقِيَهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أي يتوقع ملاقة جزائه، ثواباً أو عقاباً، وملاقة حكمه يوم القيامة، والمشهور في الرجاء هو توقع الخير لا غير ﴿فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ﴾ أي الوقت المضروب للقاءه ﴿لَاقِيَهُ﴾ لا محالة والجواب محذوف، أي فليختر من الأعمال ما يؤدي إلى حسن الثواب كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم الظاهرة الباطنة، وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى.

﴿ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿وَمَنْ جَاهَدَ﴾ في طاعته تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لعود منفعتها إليها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ أي لا حاجة له إلى طاعتهم، وإنما أمرهم بمجاهدة الهوى والشیطان لمنفعتهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي نمحو الكفر بالإيمان، والمعاصي بالتوبة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام، والآية تدل على أن الأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان، لأن تكفير السيئات معلق عليها، وهي ثمرة الإيمان، ومثال هذا شجرة مثمرة لا شك أن عروقها، وأغصانها منها، والماء الذي يجري عليها والتراب حوالها غير داخل فيها، لكن الثمرة لا تحصل إلا بهما.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي أمرناه بأن يفعل بهما ما يحسن من المعاملات، فإن «وصى» تجري مجرى «أمر» معنى وتصرفاً، يقال: وصيت فلاناً بكذا، أي أمرته بتعهده ومراعاته ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي بالوهيته، عبّر عن نفيا بنفي العلم بها، للإيدان بأن ما لا يعلم صحته، لا يجوز اتباعه، وإن لم يعلم بطلانه، فكيف بما علم بطلانه؟ ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ أي مرجع من آمن منكم، ومن أشرك، ومن برّوا واتلديه ومن عوّ ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلّا منكم بعمله إن خيراً فخير،

وإن شراً فشر، وفيه لطيفة، وهي أن الله تعالى يقول: لا تظنوا أنني غائب عنكم، بل أنا حاضر معكم، وأعلم ما تفعلون، فأنبئكم بجميعه. روي أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما أسلم، وكان باراً بأبويه، قالت له أمه: ما هذا الذي أحدثت؟ والله لا آكل، ولا أشرب، حتى ترجع إلى ما كنت عليه، ولبثت ثلاثة أيام، فقال لها: «يا أماه والله لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً، لا أترك ديني لشيء أبداً، فإن شئت فكلي، وإن شئت فدعي، فلما يئست منه أكلت وشربت» ^(١) ففيه نزلت هذه الآية الكريمة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي في زمرة الراسخين في الصلاح، وهو منتهى درجات المؤمنين.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ أي في سبيله بأن عذبهم الكفرة على الإيمان ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أي ما يصيبه من أذيتهم ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الشدة والهول، فيرتد عن الدين، ولا يصبر عليه، وما علم أن تعذيب الناس لا يكون مديداً، وعذاب الله مديد، وأن المشقة إذا كانت

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ص ١٩٥ وصفوة التفسير ٤٥١/٢ وقد روى الترمذي قصة سعد في سننه ٣١٩/٥ وقال: حديث حسن صحيح، وفيه قال: «فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها، شجروا فاهاً - أي فتحوا فمه - فنزلت هذه الآية ﴿وَوَحَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية.

مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ﴿وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فتح وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ بضم اللام ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي متابعين لكم في الدين، فأشركونا في المغنم، وهم ناس من ضعفة المسلمين، كانوا إذا مسَّهم أذى الكفار وافقوهم على الضلال، وكانوا يكتُمونه من المسلمين، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾؟ أي بأعلم منهم بما في صدورهم، من الإخلاص والنفاق.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (١١).

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالإخلاص ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي ليجزيهم بما لهم من الإيمان والنفاق.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٢).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستتمالة، أي قالوا مخاطبين لهم ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ أي اسلكوا طريقنا التي نسلكها في الدين ﴿وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ﴾ أي إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها، وهذا قول صناديد قريش لمن آمن، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ «مِنْ» الأولى للتبيين، والثانية مزيدة، والتقدير وما هم حاملين شيئاً من خطاياهم التي التزموا أن يحملوها كلها ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حيث أخبروا بأنهم قادرون على إنجاز ما وعدوهم به.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٣).

﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْثِقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ بيان لما يستتبعه قولهم ذلك في الآخرة، من المضرة لأنفسهم، بعد بيان عدم منفعة لمخاطبيهم، والتعبير عن الخطايا بالأثقال، للإيذان بغاية ثقلها، وكونها فادحة، واللام جواب قسم محذوف، أي وبالله ليحملن أثقال أنفسهم كاملة، وأثقالاً أخرى مع أثقالهم، لأنهم تسببوا بالإضلال، من غير أن ينقص من أثقال من أضلوه شيء، وفي الحديث الشريف «من سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١) ﴿وَلَيْسَتُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ سؤال تقريع ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي يختلقون في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل، التي من جملتها كذبهم هذا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ شروع في بيان فتنة الأنبياء عليهم السلام بأذية أمهم، إثر بيان، فتنة المؤمنين بأذية الكفار، تأكيداً للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا، بمجرد الإيمان بلا ابتلاء، أي ولقد بعثنا رسولنا نوحاً إلى قومه الضالين ﴿فَلَبِثَ﴾ أي أقام ومكث ﴿فِيهِمْ﴾ أي فيما بينهم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يدعوهم إلى توحيد الله جلّ وعلا كأنه جلّ وعلا قال: مكث بينهم تسعمائة وخمسين سنة، وهذه المدة الطويلة التي عاشها كانت معجزة له عليه السلام، لأن البشر لا يعيشون مثلها، ولمّا أدركته الوفاة، قيل له: كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ عقيب نهاية المدة المذكورة، والطوفان يطلق على كل ما يطوف بالشيء، على كثرة

(١) هذا طرف من حديث طويل في قصة الأعراب الفقراء مجتأبي النمار، وحث النبي ﷺ لأصحابه على الصدقة، وقد أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٦٧٤ فانظره بكماله هناك.

وشدة، من المسيل، والريح، وقد غلب على طوفان الماء ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي والحال أنهم مستمرون على الظلم، لم يراعوا عما هم عليه من الكفر والمعاصي.

﴿فَأَنبِئَنَّهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٥)

﴿فَأَنبِئَنَّهُ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ﴾ أي من ركب فيها معه من أولاده وأتباعه، وكانوا ثمانين، نصفهم ذكور ونصفهم إناث ﴿وَجَعَلْنَهَا﴾ أي الحادثة ﴿ءَايَةً﴾ أي عبرة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ يتعلمون بها.

﴿وَإِذْ هَبْنَا دُورَ الْقَوْمِ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٦)

﴿وَإِذْ هَبْنَا﴾ نصب بالعطف على نوحاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي أرسلناه حين تكامل رشدُه، وترقى من مرتبة الكمال، إلى مرتبة التكميل، حيث تصدَّى لإرشاد الخلق إلى طريق الحق ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أن تشركوا به شيئاً ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي مما أنتم عليه ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر، وتميزون ما هو نافع ممّا هو ضار.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٧)

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ أي إنما تعبدون من دونه تعالى أوثاناً، هي في نفسها تماثيل وصور مصنوعة لكم، ليس فيها وصف غير ذلك ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي تكذبون كذباً حيث تسمونها آلهة ﴿إِنَّ الَّذِينَ

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ أَي هَذِهِ الْأَوْثَانُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ﴾ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴿ أَي لَا تَقْدِرُ عَلَى أَنْ تَرْزُقَكُمْ شَيْئًا مِنَ الرِّزْقِ ﴾ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴿ كُلُّهُ فَإِنَّهُ هُوَ الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ ﴾ وَأَعْبُدُوهُ ﴿ وَحْدَهُ ﴾ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ ﴿ عَلَى نِعَمَائِهِ، مُتَوَسِّلِينَ إِلَى مَطَالِبِكُمْ بِعِبَادَتِهِ، مُقَيَّدِينَ لَهَا بِالشُّكْرِ، لِأَنَّهُ الْمُنْعَمُ عَلَيْكُمْ بِالرِّزْقِ ﴾ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ أَي بِالْمَوْتِ، لَا إِلَى غَيْرِهِ.

﴿ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أَمْرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾
الْأَمِيرُ ﴿ ١٨ ﴾ .

﴿ وَإِنْ تَكْذِبُوا ﴾ أَي وَإِنْ تَكْذِبُونِي فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ مِنَ الْبَعْثِ ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أَمْرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ تَعْلِيلٌ لِلْجَوَابِ، أَي فَلَا تَضُرُونِي بِتَكْذِيبِكُمْ، فَإِنْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْأَمْرِ قَدْ كَذَبُوا الرِّسْلَ، فَلَمْ يَضُرَّهُمْ تَكْذِيبُهُمْ شَيْئًا، وَإِنَّمَا ضَرُّوا أَنْفُسَهُمْ، حَيْثُ تَسَبَّبُوا لِحُلُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ الْأَمِيرُ ﴿ أَي وَلَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا تَبْلِيغُ أَوْامِرِ اللَّهِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ هِدَايَةُ النَّاسِ.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾
يَسِيرٌ ﴿ ١٩ ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ﴾ الْوَائِلُ لِلْعُطْفِ عَلَى مُقَدَّرِ، أَي أَلَمْ يَنْظُرُوا وَيَعْلَمُوا، عَلِمًا جَارِيًا مَجْرَى الرُّوْيَةِ فِي الظُّهُورِ، كَيْفِيَّةَ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى ابْتِدَاءً لِلْبَشَرِ مِنَ الْعَدَمِ ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ ﴾ أَي ثُمَّ يَرْدُّهُ إِلَى الْوُجُودِ بَعْدَ الْفَنَاءِ، لِيَسْتَدْلُوا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ عَلَى الْإِعَادَةِ فِي الْحَشْرِ؟ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أَي مَا ذَكَرَ مِنَ الْإِعَادَةِ ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إِذْ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى شَيْءٍ، فَإِنْ مِنْ نَحْتِ حَجَارَاتٍ، وَوَضَعَ شَيْئًا بِجَنْبِ شَيْءٍ فَفَرَّقَهَا ثُمَّ أَرَادَ إِعَادَتَهَا، فَإِنْ إِعَادَتَهَا أَمْرٌ يَسِيرٌ عَلَيْهِ .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أي سيروا فيها فانظروا كيف بدأ الله الخلق، أي كيف خلقهم ابتداءً على أطوار مختلفة، وطبائع متغايرة، مع اختلاف الأشكال، والصور، والألوان، ثم هو تعالى ينشئهم عند البعث نشأة أخرى، كما بدأهم يعيدهم، والتعبير عن الإعادة بالنشأة الآخرة، المشعرة بكون البدء نشأة أولى، للتنبيه على أنهما شأن واحد من شؤون الله تعالى، لا فرق بينهما إلا بالأولية، والآخرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل لما قبله، أي لا يعجزه شيء، فهو المحيي المميت، القادر القاهر، الذي يقول للشيء كن فيكون.

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ يُعَذِّبُ ﴾ أي بعد النشأة الآخرة ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ أن يعذبه، وهم المنكرون للبعث ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ أن يرحمه وهم المصدقون بلقاء الله ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أي تردون أو ترجعون للحساب والجزاء لا إلى غيره.

﴿ وَمَا أَنشَأْنِي وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿ وَمَا أَنشَأْنِي ﴾ له تعالى عن إجراء حكمه عليكم ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي في التواري في الأرض، أو بالنحوص في السماء، التي هي أفسح منها لو استطعتم الرقي فيها؟ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾

أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْقُذُوا^(١) ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يحرسكم بما يصيبكم من بلاء.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي بدلائله التكوينية والتزليلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ أي بالبعث والنشور الذي تنطق به تلك الآيات ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته ﴿ يَكُونُونَ مِنْ رَحْمَتِي ﴾ أي يياسون منها يوم القيامة، فإنهم لما أشركوا، أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة، وصيغة الماضي للدلالة على تحقيقه ﴿ وَأُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بالكفر وباليأس ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يُقَادَرُ قَدْرُهُ بكفرهم.

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ليس المراد أنه لم يصدر عنهم إلا هذه المقالة، كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم، بل إن ذلك هو الذي استقرَّ عليه جوابهم، بعد الجدل والمحاورة، وإلا فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل ما لا يحصى، والقائلون هم الرؤساء أي قالوا لاتباعهم ذلك ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ ﴾ تعالى ﴿ مِنَ النَّارِ ﴾ أي فأنقذه في النار، فأنجاه الله تعالى منها، بأن جعلها برداً وسلاماً على إبراهيم، كما بيّنه تعالى في موطن آخر ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في إنجائه منها ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عجيبة، منها حفظه تعالى من حرّها، وإخمادها في زمان يسير، وإنشاء

(١) سورة الرحمن، آية: ٣٣.

روضة في مكانها ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون بكمال قدرة الله، وخص المؤمنين بالذكر، لأنهم هم المتفعون بالتأمل فيها، وأما من عداهم فهم عنها غافلون.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (٢٠).

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام مخاطباً لهم ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ أي من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي في هذه الحياة الدنيا، على عبادتها ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تنقلب الأمور، فتصبح المودة تباغضاً ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي الإنسان يكفر بالأوثان، ويتبرأ القادة من الأتباع ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم﴾ أي يلعن الأتباع ﴿بَعْضًا﴾ يعني الرؤساء ﴿وَمَاْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي هي منزلكم الذي تأوون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها.

﴿فَقَامَنَ لَهٗ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢١).

﴿فَقَامَنَ لَهٗ لُوطٌ﴾ أي صدقه في جميع مقالاته، وأول من آمن له لوط حين رأى النار لم تحرقه، وهو ابن أخيه ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ أي من قومي ومن سواد الكوفة ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ إلى حيث أمرني ربي، يعني توجهي إلى الله تعالى لا إلى الجهة. ولما بالغ عليه السلام في الإرشاد، ولم يهتد قومه، وحصل اليأس، وجبت المهاجرة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يفعل فعلاً إلا وفيه حكمة ومصلحة. روي أنه عليه السلام هاجر مع لوط وامرأته سارة ابنة عمه إلى حَرَّانَ، ثم منها إلى فلسطين، وهنالك استوطن فيها.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
وَعَائِيتَهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولداً من عجوز عاقر، ولذا لم يذكر
إسماعيل ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ فكثر منهم الأنبياء ﴿وَالْكِتَابَ﴾ أي
جنس الكتاب المتناول للكتب الأربعة ﴿وَعَائِيتُهُ أَجْرُهُ﴾ بمقابلة هجرته إلى
الله ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بإعطاء الولد، واستمرار النبوة فيهم، والثناء عليه إلى آخر
الدهر ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الكاملين في الصلاح. ولما أتى
إبراهيم عليه السلام بالتوحيد، دفع الله تعالى عنه عذاب الدنيا وهو
الإحراق بالنار، وأعطاه الثواب العاجل جزاء صبره على الابتلاء، وكان
وحيداً فبدّل الله وحدته بالكثرة، حتى ملئت الدنيا من ذريته.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنفُسٌ مَّا سَبَقَكُمْ
بِهَآ مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ .

﴿وَلَوْطًا﴾ عطف على إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنفُسٌ
الْفَنَاحَةُ﴾ وهي اللواطه ﴿مَّا سَبَقَكُمْ بِهَآ مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾
بيانٌ مقررٌ لكمال قبحها، أي ما فعل هذه الفعلة القبيحة أحد من الخلق
قبلكم، لأنها تشمئز منها الطباع، وتنفر منها النفوس الزكية حتى البهائم،
لا تتعاطاها.

﴿أَيُّكُمْ لَأَنفُسٌ الرِّجَالِ وَتَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ
الْمُنْكَرُ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٧٩﴾ .

﴿إِيْنَكُمْ لَتَأْتُوْنَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُوْنَ السَّبِيْلَ﴾ أي تتعرضون للسبابة بالفاحشة حيث روي أنهم كانوا كثيراً ما يفعلون بالغرباء ذلك، ويقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال ﴿وَتَأْتُوْنَ فِيْ كَادِيْكُمْ﴾ أي في مجلسكم الجامع لأصحابكم، والنادي مجلس القوم، ولا يقال فيه ذلك إلا والقوم مجتمعون فيه، وإذا تفرقوا زال عنه هذا الاسم ﴿الْمُنْكَرُ﴾ كالجماع، وحلّ الإزار، والسباب، والفحش في المزاح، وغيرها مما لا خير فيه، من الأفاعيل المنكرة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِيْنَ﴾ أي فما كان جوابهم إلا هذه الكلمة، أي لم يصدر عنهم في هذه المرة، إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء: اتنا يالوط بالعذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً!!

﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِيْ عَلَى الْقَوْمِ الْمَفْسِدِيْنَ﴾

﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِيْ﴾ بإنزال العذاب الموعود ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمَفْسِدِيْنَ﴾ بابتداع الفاحشة، ولما يش عليه السلام من صلاحهم، طلب النصرة، ولأنهم كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه، وصفهم بالمفسدين، إشعاراً بأنهم أحقاء بأن يُعَجَّلَ لهم العذاب، وما طلب نبيُّ من الأنبياء هلاك قوم، إلا إذا علم أن موتهم خير من وجودهم، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاْجِرًا كَفَّارًا﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيْمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوْا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوْا ظَالِمِيْنَ﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيْمَ بِالْبَشْرَى﴾ بالبشارة بالولد ﴿قَالُوا﴾ لإبراهيم ﴿إِنَّا مُهْلِكُوْا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي قرية سدوم، ﴿إِنْ أَهْلَهَا كَانُوْا

ظَلَمِينَ ﴿ تَعْلِيلٌ لِلْإِهْلَاكِ بِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الظُّلْمِ وَالْفُسَادِ، وَحِينَ ذَكَرُوا
الْبَشْرَى مَا عَلَّلُوا، وَعَلَّلُوا الْإِهْلَاكَ، لِأَنَّ ذَا الْفَضْلَ لَا يَكُونُ فَضْلُهُ بَعْوَضَ،
وَالْعَادِلُ لَا يَكُونُ عَذَابُهُ إِلَّا عَلَى جَرَمٍ.

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا
أَمْرَاتُكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِ ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ فكيف تهلكونها؟
﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ ﴾ أرادوا أنهم غير غافلين عن مكان لوط
فيها، وأنهم مهتمون بشأنه وشأن أهله، حسبما ينبىء عنه تصدير الوعد
بالقَسَمِ، أي والله لننجينه ﴿ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِ ﴾ أي
الهالكين، الباقيين في العذاب، لأنها كانت كافرة.

﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا
تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتُكَ كَانَتْ مِنَ
الْغَيْرِ ﴾ ﴿٣٣﴾

﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴾ الملائكة المذكورون بعد مفارقتهم
لإبراهيم عليه السلام ﴿ سَيِّئًا بِهِمْ ﴾ أي اعتراه المساء بسببهم، مخافة أن
يتعرض لهم قومه بسوء ﴿ وَضَافَ بِهِمْ ذُرْعًا ﴾ أي ضاق صدره بشأنهم، لأنهم
حسان الوجوه، جاؤوه بصورة أضياف ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي المرسلون حينما
شاهدوا عليه مخايل التضجر من جهتهم ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ من قومك علينا ﴿ وَلَا
تَحْزَنْ ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ مما يصيبهم من العذاب ﴿ إِلَّا
أَمْرَاتُكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِ ﴾ أي من الهالكين الباقيين في العذاب.

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ﴾ ﴿٣٤﴾

﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أي عذاباً مؤلماً من السماء، سُمِّيَ بذلك لأنه يُهلك المعذب، من قولهم: ارتجز البعير إذا ارتعش واضطرب ﴿يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر.

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا ﴾ أي من القرية ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ هي قصتها العجيبة، وآثار ديارهم الخربة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم في الاعتبار.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أي وارسلنا إلى مدين نبياً كريماً، هو شعيب عليه السلام ﴿فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأحوال ﴿وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تسعوا بالإفساد في الأرض، بأنواع البغي والعدوان.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ الرجفة: الزلزلة الشديدة وفي سورة هود عليه السلام: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام، فإنها موجبة للرجفة بسبب تموجات الهواء، وما يجاورها من الأرض ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي بلدهم أو منازلهم ﴿جِثِيمِينَ﴾ ميتين باركين على الرُّكَب.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ يُنَبِّئُكُمْ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ أي أهلكنا عادًا وثمودًا ﴿وَقَدْ يُنَبِّئُكُمْ لَكُمْ﴾ أي قد ظهر لكم إهلاكنا إياهم ﴿مِّنْ مَّسْكِينِهِمْ﴾ بالنظر إليها عند اجتيازكم بها، وكان أهل مكة يمرون عليها، في أسفارهم إلى الشام، فيصرونها وهي خراب ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ من فنون الكفر والمعاصي ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوي الموصل إلى الحق ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ متمكنين من النظر والاستدلال، ولكن لم يفعلوا ولجؤا في طغيانهم يعمهون، حتى هلكوا.

﴿وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيْنَ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عن عبادة الله ﴿وَمَا كَانُوا سَاقِيْنَ﴾ أي مفلتين من عذاب الله، من قولهم: سبق طالبه إذا فاتته ولم يدركه.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ أي فكل واحد من المذكورين عاقبناه بجنايته ﴿فَمِنْهُمْ﴾ تفصيل للأخذ ﴿مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي عاصفًا، وهم قوم لوط أهلكهم الله بحصباء من السماء، فدمرهم عن آخرهم، وجعل ديارهم عاليها سافلها ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كمدین وثمود ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ

خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴿٤٠﴾ كَفَارُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا ﴿٤٢﴾ كَقَوْمِ نُوحٍ وَكَفَرَعُونَ وَجِيشَهُ
﴿٤٣﴾ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ﴿٤٤﴾ بِمَا فَعَلَ بِهِمْ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٦﴾
بالشرك، وتكذيب الرسل، والطغيان، حيث أذلّوا أنفسهم في عبادة الأوثان.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ
الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ يَتًّا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي فيما اتخذوه معتمداً
ومتكللاً، في اعتمادهم عليها، ورجائهم نفعها ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ
يَتًّا﴾ كمثال العنكبوت بنت لها بيتاً، لا يغني عنها في حرٍّ أو بردٍ،
وَنَسَجَتَهُ وهو ضعيف، يكاد يطير من لفحة هواء، ولهذا كان سريع الزوال
﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ حيث لا يرى شيء يدانيه، في
الوهن، والتفاهة، والحقارة، ولهذا يقال في الأمثال «أوهى من بيت
العنكبوت» ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من الأشياء، لجزموا أن دينهم
أوهن من ذلك، لأن المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق، والرزق، ودفع
الضرر، وجبر النفع، فإن من لا يكون كذلك، فهو والمعدوم سواء.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي هو تعالى العالم بما
يعبدون من دونه، لا يخفى عليه ذلك، وسيجازيهم على كفرهم، سواء
منهم من عبد الحجر أو البشر ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز في ملكه،
الحكيم في صنعه، وفيه تجهيلٌ لهم، حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا
قدرة، وتركوا عبادة القادر الحكيم.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ﴾ أي هذا المثل وأمثاله ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي نبينها للناس تقريباً لما بُعد من أفهامهم ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ على ما هي عليه من الحسن واستتباع الفوائد ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ الراسخون في العلم، المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي، والتمثيل يؤثر في النفس تأثير الدليل، ودلت الآية على فضل العلم.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي محققاً مراعيّاً للحكم والمصالح، والمقصود من خلقهما إفاضة الخير على العباد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ دالة على ما ذكر من شؤونه سبحانه، وفيه دلائل على عظم قدرته وعبرة للمعتبرين ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خُصُّوا بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك.

﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ تقريباً إلى الله تعالى بقراءته، فإن القارئ المتأمل، قد ينكشف له بالتكرار، ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه، وتذكيراً للناس بما فيه من الأحكام، ومحاسن الآداب والأخلاق ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي داوم على إقامتها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى﴾ أي من شأنها وخاصيتها، أن تنهى الناس وتمنعهم ﴿عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾

ومعنى نهيهما عنهما، لأنها مناجاة لله تعالى، فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته، وإعراضٍ عن كل معاصيه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الصلاة رادعٌ ومزدجر عن معاصي الله، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف، ولم تنهه عن المنكر، لم تزده صلاته من الله تعالى إلا بُعْداً» والمصلي يناجي ربه، فيستحيل أن يترك طاعة الله ويطيع الشيطان، والمصلي يلبس لباس التقوى فيتجنب قاذورات الفحشاء، ومن أقام الصلاة، عصمه الله تعالى عن المنكر والفحشاء ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي والصلوة أكبر من سائر الطاعات، فينبغي أن تكون على أبلغ وجوه التعظيم، وإنما عبر عنها به كما في قوله تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله، هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات، ونهاية عن السيئات، وقيل: معناه ولذكّر الله إياكم برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله، إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من سائر الطاعات، فيجازيكم أحسن المجازاة.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن، كمقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشغبة بالنصح، على وجه لا يدل على ضعف، وأهل الكتاب

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٧٠٠ في الذكر والدعاء والترمذي في الدعوات رقم ٣٣٧٥.

لما آمنوا بالله، وبأنزال الكتب، والحشر، فلمقابلة هذا يجادلون بالأحسن، بخلاف المشرك ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد فإنه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال النبي ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم».. (١) ﴿وَتَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي مطيعون له خاصة، وفيه تعريض لحال الفريقين حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله عز وجل.

﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْتَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال الموافق لإنزال سائر الكتب ﴿أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن العظيم ﴿فَالَّذِينَ ءَانَيْتَهُمُ الْكِتَابَ﴾ كعبد الله ابن سلام وأصحابه ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي يصدقون بالقرآن وبمن أنزل عليه ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أي من العرب أو أهل مكة ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ عبّر عن الكتاب بالآيات، لظهورها وقيام الحجة عليها، بأنها من عند الله ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ المتوغلون بالكفر والتكذيب.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِمِصْرَةٍ إِذَا لَا تُرْتَابَ الْمُبْطُلُونَ﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ١٢٩/٨ تفسير سورة البقرة.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي من قبل إنزالنا إليك الكتاب، ما كنت تقدر أن تتلو شيئاً من كتاب ﴿وَلَا تَخْطُمُ﴾ أي ولا تقدر أن تخطه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ حسبما هو المعتاد، وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفى، ﴿إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط، لارتابوا وقالوا: لعلة التقطه من كتب الأوائل، وحيث لم تكن كذلك، لم يبق في شأنك منشأ ريب أصلاً، لأن ظهور كتاب جامع لأنواع العلوم الشريفة، من أمي لا يعرف القراءة والكتابة، خارق للعادة.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي القرآن الكريم ﴿آيَاتٌ يَبَيِّنُ﴾ واضحات، ثابتة راسخة ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من غير أن يلتقط من كتاب، فمن خصائص القرآن، كون آياته بينات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات ولا كانت تقرأ إلا من المصاحف ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ المتجاوزون للحد في الشر والفساد، والمكابرة والعناد، بعد وضوح إعجازها.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليه السلام، ونحو ذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ينزلها حسبما يشاء، من غير دخل لأحد في ذلك قطعاً ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار، وإبانه بما أوتيته من الآيات، وليس لي أن أقول أنزل علي آية كذا.

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ كلام مستأنف وارد من جهة تعالى، رداً على اقتراحهم، أي أولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات، الكتاب الناطق بالحق والصواب ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾؟ في كل زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة، لا تزول ولا تضمحل ﴿ إِنْ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الكتاب العظيم، الباقي مرّ الدهور ﴿ لَرَحْمَةٌ ﴾ أي نعمة عظيمة ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ أي تذكرة وموعظة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لمن هممه الإيمان دون التعتُّت كأولئك المقترحين.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ بما صدر عني وعنكم بتبليغ ما أرسلت به إليكم، ومقابلتكم بالكذب، والتعتُّت، وهذا إنذار وتهديد ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي من الأمور التي من جملتها شأني وشأنكم ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ وهم الذين آمنوا بالطواغيت والأوثان والرهبان ﴿ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي المغبونون في صفقتهم، حيث اشتروا الكفر بالإيمان، والآية من قبيل المجادلة بالتي هي أحسن، حيث لم يصرح بنسبة الإيمان بالباطل، والكفر والخسران إليهم، بل بالإبهام.

﴿ وَاسْتَعْجِلُونَا بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٥٣﴾ .

﴿وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ على طريق الاستهزاء بقولهم متى هذا الوعد؟ ونحو ذلك ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم، وبَيَّنَّه في اللوح المحفوظ ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ المعين لهم حسبما استعجلوا به، وقيل المراد بالأجل يوم القيامة ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ أي وبالله ليأتيَنَّهُم العذاب الذي عين لهم، عند حلول الأجل (بغته) أي فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي يستعجلون بالعذاب، والحال أن محل العذاب سيحيط بهم، تنزيلاً لحال السبب منزلة المسبب، لإحاطة الكفر والمعاصي بهم.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ﴾ الذي أشير إليه بإحاطة جهنم، يكون من الأهوال ما لا يفي به المقال ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي من جميع جهاتهم ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي تعملونه في الدنيا على الاستمرار، التي من جملتها الاستعجال مع الاستهزاء، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملونه للمبالغة، بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب.

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾.

﴿يَعْبَادِي﴾ خطاب تشريف لبعض المؤمنين، الذين لا يتمكنون من إقامة أمور الدين كما ينبغي، لممانعة من جهة الكفرة، وإرشاد لهم إلى الطريق الأسلم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ أي إذا لم يتسهل

لكم العبادة في بلد، ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فيها، فهاجروا حيث يتسنى لكم ذلك.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ جملة مستأنفة جيء بها حثاً على المسارعة في الامتثال بالأوامر، أي كل نفس من النفوس، واجدة مرارة الموت ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي فراجعة إلى حكمنا بحسب أعمالها، فمن كانت عاقبته هذه، فلا بد له من التزود والاستعداد لها.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ ﴿٥٨﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ أي لننزلنهم ﴿ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ أي علالي قصور الجنة، ونسكنهم منازل رفيعة في الجنة ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ أي نعمت تلك المساكن العالية أجراً للعاملين.

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي صبروا على أذية المشركين، وشدائد المهاجرة، وغير ذلك ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيما يأتون ويدرون، ولا يتوكلون إلا على الله تعالى.

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿وَكَايْنِ﴾ وكم ﴿مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق حملها لضعفها لا تدخره وإنما تصبح ولا معيشة عندها ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي إنها لا تطيق الكسب لضعفها ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم، لأن رزق الكل بأسباب، هو المسبب لها وحده، فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة، ولولا أن الله يرزقكم لكتتم أعجز من الدواب، التي لا تحمل رزقها^(١)، قيل: لا يذخر من الحيوانات قوتاً: إلا ابن آدم، والفأرة، والنمل ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ المبالغ في السمع، يسمع قولكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ المبالغ في العلم، فيعلم ضمائركم.

رُوي أن النبي ﷺ لما أمر المؤمنين بالهجرة من مكة إلى المدينة، قالوا: كيف نخرج وليس لنا بها دار، ولا مال؟ فأنزل الله هذه الآية، وفي الحديث الشريف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خُمَصاً، وتروح بَطَاناً»^(٢).

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنِّي يُؤْفِكُون﴾

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ أي أهل مكة، إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره، ولا إلى التردد فيه، لما تقرّر في

(١) القصد من الآية: التقوية لقلوب المؤمنين، إذا خافوا الفقر والجوع، عند الهجرة من أوطانهم، فكما يرزق الله الحيوانات الضعيفة، مع عجزها وضعفها، كذلك يرزق المؤمنين إذا هاجروا من أوطانهم، نصرةً لدين الله، فلا ينبغي لأحد أن يخاف الفقر، إن هاجر في سبيل الله، فالله هو الخالق وهو الرازق.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٣٤٥ في الزهد، ومعنى خمَصاً أي جاعاً، وبطاناً أي شباعاً.

العقول من أن كل صنعة لا بد لها من صانع، وكل مخلوق لا بد له من خالق، وهو الله واجب الوجود ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ إنكار واستبعاد لتركهم العمل بموجبه، أي فكيف يصرفون عن الإقرار بتفردة تعالى في الألوهية، مع إقرارهم بتفردة تعالى بالخلق والتسخير؟

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أن ييسط له ﴿مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي يقدر ويضيّق لمن يشاء أن يقدر له منهم، كائناً من كان ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم من يليق بيسط الرزق فييسطه له، أو يضيّق عليه، حسب ما يوافق الحكمة والمصلحة، فيفعل كلا منهما في وقته.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُم مِّن نَّزَلٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُم مِّن نَّزَلٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لأنهم يعترفون بأن الموجد للممكنات بأسرها، هو الله تعالى، ثم إنهم يشركون به تعالى؟ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن جعل الحق بحيث لا يجترىء المبطلون على جحوده، وأنه تعالى عصمك من أمثال هذه الضلالات، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً من الأشياء، حيث يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق، ويعبدون غيره.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوَ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ ﴾ أي لهي دار الحياة الحقيقية، لامتناع جريان الموت والفناء عليها ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة الدارين، لما آثروا دار الفناء على دار البقاء.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٦٥).

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ ﴾ أي فإذا ركبوا في البحر، ولقوا شدائده ﴿ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي لا يدعون غير الله تعالى، لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو سبحانه ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي آثروا المعاودة إلى الشرك، قيل: كان أهل الجاهلية، إذا ركبوا البحر، حملوا الأصنام، فإذا اشتدت الريح ألقوها في البحر، وقالوا: يا رب، يا رب، يا مغيث أغثنا!!.

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٦).

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ أي يفاجئون الأشراك ليكونوا كافرين بما أعطيناهم من نعمة الإنجاء ﴿ وَلِيَتَمَنَّعُوا ﴾ بسبب الشرك ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوء تدبيرهم، عند تدميرهم، وهو وعيد وتهديد.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِمَّا وَبَّخَطَفُ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (٦٧).

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي ألم ينظروا ويشاهدوا ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا ﴾ أي بلدهم مكة المكرمة ﴿ حَرَمًا مِمَّا وَبَّخَطَفُ النَّاسِ ﴾ مصوناً من النهب والتعدي، سالماً أهله من كل سوء ﴿ وَبَّخَطَفُ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ يعني العرب يسبي بعضهم بعضاً، وكانوا

حوله في تغاور وتنأهب ﴿أَفَيَا بَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي أبعد ظهور الحق ووضوحه، يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن؟ ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ وهي المستوجبة للشكر، وتقديم الصلة في الموضعين، لإظهار كمال شناعة ما فعلوا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (١٨).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعم أن له شريكاً؟ أي هو أظلم من كل ظالم ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالرسول أو بالقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُهُ﴾ وفي «لَمَّا» تسفيهٌ لهم، بأنهم لم يتأملوا فيه، بل سارعوا إلى التكذيب بدون تريث ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾؟ أي ألا يستوجبون الإقامة في جهنم، وقد فعلوا ما فعلوا؟ فمستقرهم ومسكنهم نار جهنم.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩).

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي في شأننا ولوجهنا، خالصاً لمرضاة الله سبحانه ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سبل السير إلينا، والوصول إلى جنابنا، ونثبتهم على الهداية والإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ معية النصر والمعونة في الدنيا، والمغفرة والثواب في العقبى، والله أعلم بأسرار كتابه، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. والحمد لله رب العالمين

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت»

سُورَةُ الرُّومِ

مكية وهي ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَلَمُ﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ .

﴿الْعَلَمُ﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ﴿٢﴾ أي أدنى أرض العرب منهم، وهي أطراف الشام، أو أدنى أرض الروم إلى فارس ﴿وَهُمْ﴾ أي الروم ﴿مِنْ﴾ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴿٣﴾ أي من بعد مغلوبيتهم ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس ويقهرونها.

﴿فِي يَضْعَ سِنِينَ﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ .

﴿فِي يَضْعَ سِنِينَ﴾ أي في فترة قصيرة لا تتجاوز بضعة أعوام، والبضْعُ: ما بين الثلاث إلى التسع، وسبب نزول هذه الآية، على ما ذكره المفسرون، أنه كان بين فارس والروم قتال، وكان المشركون يودُّون أن تغلب فارسُ الرومَ، لأن فارس كانوا مجوساً، والمسلمون يودُّون غلبة

الروم، لكونهم أهل كتاب، فغلبت فارسُ الرومَ، فبلغ ذلك الخبرُ المسلمين بمكة، فسقَّ عليهم، وفرح به كفار مكة وقالوا: قد ظهر إخواننا من أهل فارس، على إخوانكم من أهل الروم، فلنغلبنَّ عليكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية معجزة للرسول ﷺ حيث أخبر عن أمرٍ غيبي، وشاهدة بكون القرآن من الله تعالى ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي في أول الوقتين وفي آخرهما، حين غلبوا، وحين يغلبون، فالمعنى: إن كلاً من كونهم غالبين أو مغلوبين، ليس إلا بأمر الله وقضائه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ يغلب الرومُ، ويحلُّ ما وعد الله به ﴿يَفْرَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿يَنْصُرِ اللَّهُ﴾ من غلبتهم، وقيل: نصر الله: إظهارُ صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين، من غلبة الروم على فارس ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من يشاء أن ينصره من عباده ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المبالغ في العزة والغلبة، ينتقم من أعدائه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة لأوليائه وأحبابه.

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لنفسه، كأنه قيل: وعد الله وعداً بظهور الروم عليهم ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي وعداً كان، مما يتعلق بالدنيا والآخرة، لاستحالة الكذب عليه تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من شؤونه تعالى وحكمته.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ زخارفها وأحوالها الموافقة لشهواتهم، كآمر معاشهم، كيف يكسبون؟ ومتى يزرعون؟ ومتى يحصدون؟ وتنكير ﴿ظَاهِرًا﴾ للتحقير، أي يعلمون ظاهراً حقيراً من الدنيا ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ أي وهم عمي عن أمر الآخرة، التي هي الغاية القصوى، ومن الناس من ينقر الدرهم بطرف ظفره، فيعرف جوده وزيفه، وهو لا يعرف كيف يصلي، أي يعلمون ظاهرها ولا يعلمون باطنها، وهي مضارها وفناؤها، وإيرادها جملة اسمية، للدلالة على استمرار غفلتهم، وتشبيهاً لهم بالحيوانات، المقصور إدراكها بظاهرها.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ﴿١٩٧﴾

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ فإنها أقرب إليهم من غيرها، ومراة يتجلى فيها للمستبصر، ما يتجلى له في الممكنات بأسرها، ليتحقق له قدرة مبدعها ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ الذي يحق أن يثبت، أي ما خلقهما إلا بالحكمة البالغة، والغرض الصحيح، الذي يدل على وجود صانعها ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي بأجل معين، قلّده الله تعالى لبقائها، وهو وقت قيام الساعة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ توضيح مقرر لما قبله ببيان السبب أي وأكثر الناس غير مقتصرين على الغفلة، وعدم التفكير، بل هم منكرون لقاء حسابه تعالى، يحسبون أن الدنيا أبدية، وأن الآخرة لا تكون.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١٩٨﴾

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ توبيخ لهم على عدم اعتبارهم، بمشاهدة أحوال أمثالهم، الدالة على عاقبتهم، فقد سافروا في أقطار الأرض وشاهدوا ولم يعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمرود ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا ﴿وَأَنَارُوا الْأَرْضَ﴾ أي قلبوها للزراعة والحرث. ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ بفنون العمارات ﴿أَكْثَرِمًا عَمَرُوهَا﴾ أي أكثر من عمارة هؤلاء لها، وفيه تهكم بهم، حيث كانوا مغترين بالدنيا، مع ضعف حالهم، وهم أهل واد غير ذي زرع ﴿وَحَاءَ تَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم بالآيات الواضحات، والمعجزات الساطعات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي فما كان الله ليهلكهم من غير جرم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكنهم كذبوا رسلهم واقترفوا ما يوجب هلاكهم، فدمرهم الله ولم تنفعهم قواهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾

﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا﴾ أي عملوا السيئات، وارتكبوا الجرائم في هذه الحياة الدنيا، ووضع الاسم الموصول ﴿الَّذِينَ اسْتَوُوا﴾ موضع ضميرهم، للتسجيل عليهم بالإساءة وللإشعار بعله الحكم ﴿الْأَسْوَاءِ﴾ أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة على رسوله، ومعجزاته الظاهرة ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي كانوا يسخرون منها ولا يؤمنون.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد الموت بالبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى موقف الحساب والجزاء، والالتفات للمبالغة في الترهيب.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٧)

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ التي هي وقت الإعادة للحساب ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي يسكتون متحيرين ويأسون، يقال: ناظرته فأبلس، أي أيس من أن يحتج، وسكت تحيراً.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (١٨)

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ يجيرونهم من عذاب الله، كما كانوا يزعمونه في الدنيا ﴿وَكَانُوا﴾ أي سيكونون ﴿بِشُرَكَائِهِمْ﴾ أي بالهتهم ﴿كَافِرِينَ﴾ أي وكفروا بالهتهم حين يؤسوا منهم.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ (١٩)

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ أعيد لهويله ﴿يُنْفِرُونَ﴾ أي جميع الخلق، لا المجرمون خاصة، وذلك بعد تمام الحساب.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (٢٠)

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ المراد بها الجنة، والروضة كل أرض ذات نبات، وماء، ورونق ونضارة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ أي يُسْرُونَ سروراً تتهلل له وجوههم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (٢١)

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي وأما الذين جحدوا بآياتنا، وكذبوا بالبعث والحساب ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما فُصِّل ﴿فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ﴾ على الدوام، لا يغيبون عنه أبداً.

﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُسَوِّتُ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾

﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُسَوِّتُ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أمر سبحانه عباده بتنزيه الله تعالى، عن كل ما لا يليق بشأنه، أي فسبحوا الله في هذه الأوقات.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ واحمدوه في المساء والصباح، وفي العشي والظهيرة، فهو سبحانه المحمود بذاته وصفاته، في السماء والأرض، أي يحمده أهل السماء والأرض، وفي الحديث الشريف: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان للرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١) وقيل: المراد به الصلاة أي صلوا لربكم في الصباح والمساء، وفي الظهيرة والليل، قيل لابن عباس رضي الله عنهما: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم وتلا هذه الآية.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾
﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿١٩﴾

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان. والشجرة من النواة، والنواة من الشجرة ﴿وَيُحْيِي

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ١٧٥/١١ ومسلم في الذكر رقم ٢٦٩٤ وقد ختم الإمام البخاري صحيحه بهذا الحديث الشريف.

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿٧٠﴾ أَيُّ بَعْدَ يَسْهَى ﴿٧١﴾ وَكَذَلِكَ ﴿٧٢﴾ أَيُّ مِثْلُ ذَلِكَ الْإِخْرَاجِ
﴿تُخْرِجُونَ﴾ أَيُّ مِنْ قُبُورِكُمْ، كَمَا بَدَأَكُمْ يَعِيدَكُمْ.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
تَنْتَشِرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ أي البراهين الدالة على أنكم تبعثون، دلالة أوضح
مما سبق، فإن دلالة بدء الخلق على الإعادة، أظهر من دلالة إخراج الحي
من الميت، ومن إحياء الأرض، ولهذا قال ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ﴾ أي في ضمن
خلق آدم عليه السلام ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ أي من تراب لم يشم رائحة الحياة قط،
ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه، في ذاتكم وصفاتكم ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾
أي فجئتم بعد ذلك، وقت كونكم بشراً ﴿تَنْتَشِرُونَ﴾ في الأرض، عقاء
ناطقون، آدميون من لحم ودم.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا
وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٧٤﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ الدالة على ما ذكر من البعث والجزاء ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ﴾
أي لأجلكم ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم ﴿أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي
لتألفوا بها، وتميلوا إليها، وتطمثوا بها، فإن المجانسة من دوام المؤانسة،
كما أن المخالفة من أسباب التنافر، والإنسان يجد بين الزوجين من
التراحم، ما لا يجده بين ذوي الأرحام، وليس ذلك بمجرد الشهوة، فإنها
قد تنتفي، وتبقى الرحمة لأنها من الله جلّ وعلا ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي
بين الأزواج ﴿مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي تواداً وتراحماً من غير أن يكون بينكم
سابقة معرفة، ولا رابطة مصححة للتعاطف ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر من
خلقهم، وإلقاء المحبة بينهم ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في
تضاعيف تلك الأفاعيل، المبنية على الحكم البالغة.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ النَّسِيبَ لَكُمْ وَالْوَنُكُورَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢٢)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته وكمال قدرته ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على عظمتها وكثافتها ﴿وَأَخْلَفَ النَّسِيبَ لَكُمْ﴾ أي لغاتكم، بأن علم كل صنف لغته، وألهمه وضعها، كما ميّز بين نطقكم، فإنك لا تكاد تسمع منطقيين متساويين من كل وجه ﴿وَالْوَنُكُورَ﴾ كيباض الجلد وسواده، وتخطيطات الأعضاء وهياكلها، بحيث يقع بها التمايز بين الأشخاص، حتى إن التوأمين - مع توافق موادهما وأسبابهما في التخليق - يختلفان في شيء من ذلك، وإن كانا في غاية التشابه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكر من خلق السموات، واختلاف الألسن، والألوان ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في عددها ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي للمتصفين بالعلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَغْضِبُهُنَّ إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٢٣)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي في الزمانين: في الليل، ووقت الظهيرة بالنهار، لاستراحة القوى النفسانية، والقوى الطبيعية ﴿وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ أي وابتغائكم بالنهار من رزق الله^(١)، فالليل للراحة والسكون،

(١) ينبغي للعبد أن لا يرى الرزق من كسبه ومهارته، بل يراه كله من فضل ربه، ولهذا قرن تعالى الابتغاء في كثير من المواضع بالفضل، منها قوله تعالى: ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ وقوله سبحانه: ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة لبتغوا فضلاً من ربكم﴾ فالرزق رزق الله، والخلق خلق الله وصدق الله العظيم ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾.

والنهار لطلب الكسب والرزق ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي شأنهم أن يسمعوا الكلام، سماع تفهم واستبصار، حيث يستدلون بذلك على شؤونه تعالى.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصواعق ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث من أجل الزرع ﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يبسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قدرة الله تعالى فإنها من الظهور بحيث يكفي في إدراكها، مجرد العقل، عند استعماله في استنباط أسبابها.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي بإقامته، وتدبيره، وحكمته قيامهما بأمره تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للبعث ﴿دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من قبوركم، وهو أن يقول: قوموا للحساب والجزاء، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين، إلا قامت تنظر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ والمراد تشبيه سرعة حصول ذلك، على تعلق إرادته سبحانه بلا توقف.

﴿وَلَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لُحْنُونٍ﴾.

﴿وَلَمْ يَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَلْبُونُ﴾ أي منقادون خاشعون خاضعون لجلال الله، مقرون له بالعبودية، مطيعون له سبحانه في الحياة والبقاء، والموت والبعث^(١)، وإن عصوا في العبادة.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد هلاكهم للبعث ﴿وَهُوَ﴾ أي البعث ﴿أَهْوَتْ﴾ أي أيسر ﴿عَلَيْهِ﴾ أي عندهم، لأن الإعادة عندهم أسهل من الإنشاء، فلم أنكرتم الإعادة؟ ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ﴾ أي الوصف الأعلى العجيب الشأن، كالقدرة التامة، والحكمة العامة ﴿الْأَعْلَى﴾ الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه فيه ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي على السنة الخلاق ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر الذي لا يعجز عن شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يجري الأفعال على مقتضى حكمته.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَكُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ منتزعا من أحوالها التي هي أقرب الأمور

(١) ليس على الله عز وجل شيء صعب، وشيء هين، فالكل على الله سهل يسير، ولكنه سبحانه خاطب البشر بما يعقلون ويفهمون، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء، في حكمهم وتقديرهم، فلقد ركوا إذا أن من قدر على الخلق أولاً قادر على الإعادة ثانياً، فالبعث أهون عليه حسب منطق البشر، والغرض من الآية إلزام الكفار بالحجة حيث يقرّون أن الله هو الخالق، ثم ينكرون قدرته على إحياء الموتى.

إليكم، مثل ضربه الله عزَّ وجلَّ، لمن جعل له شريكاً من خلقه، ثم يَبْنِ المثل فقال تعالى ﴿هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي من مماليككم يا معاشر الأحرار ﴿مِنْ شُرَكَاءَ﴾ من مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي ومعناه، هل ترضون لأنفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر أن يشاركوكم ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من الأموال وغيرها ﴿فَأَنْتُمْ﴾ والعبيد ﴿فِيهِ﴾ في ذلك الرزق ﴿سَوَاءٌ﴾ من غير تفضيل بين حر، وعبد ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أي خائفاً بعضكم بعضاً مشاركته في المال، تخافون عبيدكم فيها ﴿كَخِيفَتَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ يعني كما يخاف بعضُ الأحرار بعضاً، فيما هو مشترك بينهم، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف ترضون لربِّ الأرباب أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء؟ ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل هذا التفصيل ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نبينها، لأن التمثيل يكشف عن المعاني ويوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال. ولَمَّا لم ينزجروا أضرب عنهم فقال:

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ
اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢١).

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالإشراك ﴿أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي جاهلين لا يكفهم شيء عن ضلالهم ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ فمن يقدر على هداية من أضله الله تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يخلصونهم من الضلالة، وينجونهم من عذاب الله.

﴿فَاقْمْ وُجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا
بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ (٢٢).

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي فقوم وجهك له، غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا، وهو تمثيل لإقباله على الدين، والاهتمام به أي أخلص دينك لله ﴿فِطَرَتِ اللَّهِ﴾ أي الزموا فطرة الله ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي خلقهم عليها، فالمعنى: إنه خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر، فمن غوى منهم فبسبب شياطين الجن والإنس، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، ثم قال اقرؤوا: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾»^(١) ﴿لَا بَدِيلَ لِمَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ أي لا يقدر أحد أن يغيره، قال الزجاج: معناه لا تبديل لدين الله، ويدل عليه ما بعده ﴿ذَلِكَ الْبَرُّ الْقَتِيُّ﴾ أي المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي جهلة لا يتفكرون فينحرفون عن دين الله وهدايته.

﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢)

﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إليه تعالى بالتوبة، وإخلاص العمل، وهو حال من الضمير في: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن الأمر له ﷺ أمر لأُمَّته، فكانه قال: فأقيموا وجوهكم متبیین إليه، ودليله قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ممن يشرك به غيره في العبادة.

(١) هذا طرف من حديث أخرجه الشيخان «البخاري ومسلم» وتماه: ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء؟ ثم قال ﷺ: وافرؤوا إن شئتم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ وانظر جامع الأصول ٢٦٨/١.

﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٣٢).

﴿ مِنَ الَّذِينَ ﴾ بدل من المشركين بإعادة الجار ﴿ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ جعلوه أدياناً مختلفة، لاختلاف أهوائهم ﴿ وَكَانُوا شِيعًا ﴾ أي صاروا فرقاً، كلٌ واحدة تشايح إمامها، الذي أضلها، وهم اليهود، والنصارى، والمجوس، وعبداء الأوثان، ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي مسرورون، راضون بما عندهم، يحسبون باطلهم حقاً، وكل فرقة تزعم أنها على شيء، ونعوذ بالله من تفرق الأهواء.

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٣٣).

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ أي راجعين إليه سبحانه بالتضرع والدعاء ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ أي خلاصاً من تلك الشدة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ ﴾ الذي كانوا دعوه منيبين إليه ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ أي فاجؤوا بالإشراك؛ وتخصيصه ببعضهم، لما أن بعضهم ليسوا كذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ (١) الآية.

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَايَنَّاهُمْ فَيَمَنُّوا أَيْنَ لَهُمْ مَلَكُوتُ يَوْمَئِذٍ لَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣٤).

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَايَنَّاهُمْ ﴾ اللام فيه للعاقبة، أي ليكفروا بنعم الله التي أكرمهم بها ﴿ فَيَمَنُّوا ﴾ الالتفات فيه للمبالغة ﴿ فَيَمَنُّوا ﴾ عاقبة تمتعكم بنعيمها الفاني.

(١) سورة لقمان، آية: ٣١.

﴿ أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَكْفُرُونَ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ (٣٥)

﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا ﴾ الالتفات للإيدان بالإعراض عنهم ﴿ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ حجة واضحة قاهرة على شركهم ﴿ فَهُمْ يَكْفُرُونَ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ أي بإشراكهم به تعالى، فالمعنى: أهم يتبعون الأهواء بغير علم، أم لهم دليل على ما يقولون؟

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (٣٦)

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾ أي نعمة من صحة، وسعة، ونحوهما فرحوا بطراً وأشراً، لا حمداً وشكراً ﴿ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي جذبٌ أو خوف ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فاجؤوا بالقنوط من رحمة الله، وهو خلاف وصف المؤمن لأن المؤمن من يشكر ويرجو، ويعبد الله في الشدة والرخاء، مخلصاً لله تعالى.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٧)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسع الرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشاء، حسب الحكمة والمصلحة فما لهم لم يشكروا، ولم يكونوا في السراء والضراء كالمؤمنين؟ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ يستدلون بها على كمال القدرة والحكمة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يؤمنون بحكمة الخالق الرازق.

﴿ فَكَانَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣٨)

﴿ فَكَانَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ تخصيص الأقسام الثلاثة،
 لبيان من يجب الإحسان إليهم، والمقصود ههنا الشفقة بهم، والخطاب
 للرسول ﷺ أو لمن يصلح له ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ ذاته تعالى،
 ويقصدون بمعروفهم إياه خالصاً لوجهه ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ حيث
 حصل لهم النعيم المقيم.

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبُّوٓا۟ فِيٓ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُّوٓا۟ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم
 مِّن زَكَاوٰتٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٔٓئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (٢٩).

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبُّوٓا۟ فِيٓ أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ أي ليزيد مالكم ويكثر عن
 طريق الربا ﴿ فَلَا يَرِبُّوٓا۟ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي لا يبارك الله فيه ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاوٰتٍ
 تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أي ذاته خالصاً لوجهه ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أي هم
 الذين لهم الضعف من الأجر والثواب، ونظيرُ المضعف، المقوي،
 والموسر، لذي القوة واليسار، كأنه قال: هم أهل الإضعاف الذين
 يستحقون مضاعفة الأجر.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن
 شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٦١).

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّنْ
 يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ أثبت له تعالى لوازم الألوهية وخواصها، ونفاها
 عما اتخذه من الشركاء، أي الله سبحانه هو وحده الخالق الرازق، خلقكم
 من العدم، ثم يبعثكم بعد الموت، فهل من آلهتكم المزعومة من يفعل
 شيئاً من ذلك؟ ﴿ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزهه وتقديسه عن أن يكون
 له مثيل أو نظير، في الخلق والإبداع.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ
بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ .

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كالجذب، وكثرة الحرق، والغرق،
ومحو البركات، وكثرة المضار، وقلة المطر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي
بشؤم معاصيهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ
أَيْدِيكُمْ﴾ ^(١) ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي بعض جزائه، وتماثيه في الآخرة
﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عما كانوا عليه من الشرك والمعاصي، ثم أكد تسبب
المعاصي لغضب الله بقوله سبحانه:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ .

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ ليشاهدوا آثارهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أي ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم .

﴿فَاقْرَءْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ
يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿فَاقْرَءْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ﴾ أي الدين المستقيم الذي لا عوج فيه،
وهو الدين الحق دين الإسلام، خاطب النبي ﷺ، ليعلم المؤمن فضيلة ما
هو مكلف به، فإنه أمر به أشرف الأنبياء ﷺ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي
لا يقدر أحدٌ على رده ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ أي لتعلق إرادته سبحانه بمجيئه ﴿يَوْمَئِذٍ
يَصَّدَّعُونَ﴾ أصله يتصدعون أي يتفرقون فريق في الجنة، وفريق في السعير .

(١) سورة الشورى، آية: ٣٠ .

﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ (١٤).

﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي وبال كفره، وهو النار المؤبدة ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ ولم يقل من آمن لأن العمل الصالح يكمل الإيمان ﴿ فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أي يسوون ويهيئون لهم منزلاً في الجنة، مأخوذ من تمهيد الفراش، وهو فرشته وتهيئته بما يحقق الراحة.

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ ﴾ (١٥).

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ ﴾ أي ليجزي المؤمنين المتقين أفضل الجزاء، من فضله وكرمه، بسبب صالح أعمالهم ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ أي لا يحب الجاحدين لفضل الله، بل يكرههم ويمقتهم.

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٦).

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ بالمطر ﴿ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي وليكرمكم بإنزال الغيث الذي يحيي البلاد والعباد، وفي الرياح فوائد: منها إصلاح الهواء، ومنها إثارة السحاب، ومنها جريان الفلك بها، وزكاء الأرض، وغير ذلك ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بتجارة البحر ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي ولتشكروا نعم الله الجليلة عليكم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ
أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٧).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ كما أرسلناك إلى قومك، ﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فجاء كل رسول قومه بالمعجزات الواضحات، والحجج الساطعات فأمن بهم قوم، وكفر بهم قوم ﴿فَأَنْتَقَمْنَا﴾ أي فكذبوهم فانتقمنا من الكفرة المجرمين ﴿مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أي كفروا، بالإهلاك في الدنيا، وفي قوله تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مزيد تشريف للمؤمنين، والإشعار بأن الانتقام من الكفرة لأجلهم، روي عن أبي الدرداء أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يردُّ عن عرض أخيه، إلَّا كان حقًّا على الله، أن يردَّ عنه نار جهنم، يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية ^(١).

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي هو جلَّ وعلا بقدرته يبعث الرياح فتحرك السحاب، وتسوقه أمامها ﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ تارة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ في جوِّها ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ خفيفاً أو كثيفاً، مطبقاً أو غير مطبق ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾ تارة أخرى أي قطعاً ﴿فَيَرَى الْوَدْقَ﴾ أي المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أي أصاب المطر بلادهم وأراضيهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ يُسِرُّون ويفرحون بنزول الغيث، وفوجئوا بالاستبشار بمجيء الخصب.

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الأدب رقم ٤٨٨٤ بلفظ «ما من مسلم يخلد امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة، ويُنتقص فيه من عرضه، إلَّا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته.. وما من مسلم ينصر مسلماً في موضع يُنتقص فيه من عرضه، ويُنتهك فيه من حرمة، إلَّا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته».

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ (٤٩).

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ تكرير «قبل» للتأكيد والإيذان بطول عهدهم بالمطر، واستحكام يأسهم منه ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي آيسين من رحمة الله، فإنهم إذا حبس عنهم المطر قنطوا، وإذا نزل المطر بطروا، وتكبروا على ربهم.

﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥٠).

﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي فانظر أيها العاقل نظر تبصّر وتدبر، إلى آثار نعمة الله، المترتبة على تنزيل المطر، من النبات، والأشجار، وأنواع الشمار ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ أي كيف يحييها الله تعالى ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد يسها ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي الذي قدر على إحياء الأرض ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ أي لقادر على إحيائهم كما يحيي الأرض الميتة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ أي ولئن أرسلنا على الزرع، بعد خضرته ونموه،

ريحاً ضارة مفسدة، وإنما قال ﴿ريحاً﴾ لأنها مهلكة ومدمرة، وتسمى النافعة ريحاً، والضارة ريحاً، لأن النافعة كثيرة الهبوب، والضارة قليلة كريح السموم ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أي فرأوا الزرع والنبات ﴿مُضْفَرًا﴾ بعد خضرته وانتعاشه ﴿لَظَلُّوا﴾ اللام جواب القسم أي لاستمروا أي وبالله لئن أرسلنا ريحاً حارة، أو باردة، فضربت زرعهم بالصفار، فرأوه مضفراً ليظللن ﴿مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي يجحدون ما سلف من النعمة، من غير تلعم، وفيه

ذمهم لسرعة تزلزلهم، فإن النظر السوي يقتضي أن يتوكلوا على الله، ويلجؤوا إليه بالاستغفار إذا احتبس القطر عنهم، ولا يئسوا من رحمة الله، وأن يصبروا على بلائه.

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ ﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أي لا تسمع هؤلاء الكفار لأنهم كالموتى، لانسداد مشاعرهم عن الحق ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ ﴾ قيد الحكم به لأن الأصم إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز والإشارة، فإذا ولى، لا يسمع ولا يفهم، فقد جمعوا لخصلي السوء: نبؤ أسمعهم عن الحق، وإعراضهم عن الإصغاء إليه، ولو كان أحدهما فيهم لكفاهم ذلك بلاء.

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ سئاهم عمياً لفقدهم المقصود من الإبصار، أو لعمى قلوبهم ﴿ إِنْ تُسْمِعُ ﴾ أي ما تسمع ﴿ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى التدبر فيها، ويلقاها بالقبول ﴿ فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون لأوامر الله تعالى.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ وهو النطفة ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ وذلك عند بلوغكم الحلم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ أي هرمًا ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ المبالغ في العلم والقدرة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثْبِتُ سَاعَةً كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ .

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثْبِتُ﴾ أي ما مكثوا في الدنيا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ استقلوا مدة لبثهم نسياناً أو كذباً ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الصرف عن الصدق ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق في الدنيا، ويقولون: ﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ أي قال العقلاء من أهل العلم والإيمان ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في علمه وقضائه ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ ردّوا بذلك ما قالوه، وأيدوه باليمين، كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو البعث الموعود، الذي كانوا ينكرونه، فرد العالمون مقاتلتهم وبكتوهم بالإخبار بوقوعها، حيث قالوا ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذي كنتم توعدون في الدنيا ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق، فتستعجلون به استهزاء.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي عذرهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يُدْعون إلى ما يقتضي استعتابهم، أي فلا يقال لهم أرضوا ربكم بالتوبة والطاعة، كما دُعوا في الدنيا إليه.

﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي وبالله لقد بينا للناس في هذا القرآن العظيم، ما يحتاجون إليه من المواعظ، والأمثال، والأخبار، ما يوضح الحق، ويزيل اللبس ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ من آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك ﴿يَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لفرط عتوهم وعنادهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي ما أنتم إلا مزورون تدجلون علينا وتكذبون.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الطبع ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يطلبون العلم، ولا يتحرون الحق، بل يَصُرُّون على خرافات اعتقدوها، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق، ويوجب تكذيب المحق.

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ .

﴿فَأَصْبِرْ﴾ على ما تشاهد منهم من السخرية والتكذيب ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بنصرتك، وإظهار دينك على الدين كله، ولا بد من إنجاز وعده، وإظهار دينه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ﴾ لا يحملنك على الخفة والقلق مما تلقاه منهم من الأفعال السيئة، والأقوال الباطلة ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بما تتلو عليهم من الآيات، ولا تترك الصبر لتكذيبهم وإيذائهم. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيد المرسلين، وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الروم»

سُورَةُ الْقَبَائِرِ

وهي أربع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَمَّ نَكَ عَآئِثُ الْكُتُبِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ .

﴿الْعَمَّ نَكَ عَآئِثُ الْكُتُبِ الْحَكِيمِ﴾ أي المحكم من التغيير والتبديل،
والمحكم في تشريعه وأحكامه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه .

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٢﴾﴾ .

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أي هداية ورحمة للمؤمنين الذين أحسنوا
العمل في الدنيا واتقوا الله .

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ .

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ تخصيصُ
الثلاث لفضلها، وتكرير الضمير للتوكيد .

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٥﴾

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بجميع أنواع السعادة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿٦﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أي يستبدل ما يُلهي عن طاعة الله، ويصد عن سبيله، مما لا خير فيه ولا فائدة، كالأحاديث المضحكة، والأساطير التي لا اعتداد بها، والغناء الماجن، وسائر ما لا خير فيه من فضول الكلام، نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري أخبار العجم، ويحدث بها قريشاً ويقول: إن محمداً يحدث بعاد، وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن، وقيل: هو شراء المغنيات، وحملهن على معاشرة من أراد الإسلام لمنعه عن الدخول فيه، عن أبي أمامة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبعوا القينات والمغنيات، ولا تشتروهن، ولا تعلموهن، ولا خير في تجارة فيهن، وثمرهن حرام، وفي مثل هذا نزلت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾» (١) الآية ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي عن دينه الحق، أو عن قراءة كتابه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بغير حجة أو برهان ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ ويتخذ السبيل سخرية ﴿أُولَئِكَ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لإهانتهم الحق، بإيثار الباطل، وترغيب الناس فيه.

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٩٣، وابن ماجه في التجارات رقم ٢١٦٨ باب ما لا يحل بيعه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

﴿ وَإِذَا نُتِلَ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

﴿ وَإِذَا نُتِلَ عَلَيْهِ ﴾ أي على المشتري ﴿ ءَايَتُنَا ﴾ أي آيات القرآن الكريم ﴿ وَلَّى ﴾ أي أعرض عنها غير معتد بها ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ مبالغاً في التكبر، لا يعبأ بها ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي كحال من لم يسمعها ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أي مشابهاً بمن في أذنيه ثقل وصمم، لا يقدر أن يسمع، والوقر: الثقل والصمم الذي يمنع من السمع ﴿ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فأنذره بالعذاب المفرط في الألم، والأسلوب أسلوب تهكم وسخرية، لأن البشارة لا تكون بالعذاب.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي صدقوا الله ورسوله، وآمنوا بما أنزل الله على رسوله من الآيات البينات ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي فعلوا الخيرات، فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ أي لهم نعيم الجنات، فعكس للمبالغة، وفي توحيد العذاب، وجمع الجنات، إشارة إلى أن الرحمة واسعة، أكثر من الغضب.

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ مصدران مؤكّدان، لأن قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ في معنى وَعَدَ اللَّهُ ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ لا يغلبه شيء، فيمنعه عن إنجاز وعده، ووعيده ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضَ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ١١ ﴾

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ أي خلقها بغير دعائم، حال كونكم ترونها كذلك ﴿ وَالْأَرْضَ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي كيلا تضطرب بكم ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أي من كل أنواع الحيوانات... والدواب ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ من كل صنف كثير المنفعة، وكأنه تعالى استدلل بذلك على عزته، التي هي كمال القدرة، وحكمته التي هي كمال العلم، ومهد به قاعدة التوحيد، وقررها بقوله سبحانه:

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١٢ ﴾

﴿ هَذَا ﴾ أي ما ذكر من خلق السماوات والأرض وما فيهما من البدائع ﴿ خَلْقُ اللَّهِ ﴾ أي مخلوقاته ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ ﴾؟ مما اتخذتموهم شركاء له تعالى في العبادة؟ ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ إضراب عن تبكيثهم بما ذكر، إلى التسجيل عليهم بالضلال المبين.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ١٣ ﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ وهو لقمان الحكيم عاش حتى أدرك داود عليه السلام، والجمهور على أنه كان حكيماً، ولم يكن نبياً، ومن حكمته أنه صحب داود عليه السلام أياماً، وكان يسرد الدروع، فلم يسأله عنها، فلما أنمها ولبسها قال: «نعم لبؤس الحرب» ومن أقواله: «الصمتُ حكمة»

وقليل فاعله» ومنها «القلب واللسان، هما أطيب شيء إذا طابا، وأخبث شيء إذا خبثا» قيل له: فبم بلغت ما بلغت؟ قال: «بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعني» ومنها قوله: «ليس مالٌ كصحة، ولا نعمة كطيب نفس» قيل للقمان: أي الناس أشرف؟ قال: «الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً» ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ أي اشكر الله تعالى ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ﴾ له تعالى ﴿فَلِنَمَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن منفعة تعود عليه ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن كل شيء، فلا يحتاج إلى الشكر، حتى يتضرر بكفران الكافر ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بالحمد، وإن لم يحمده أحد، أو محمود يحمده جميع المخلوقات.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣).

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ أي وهو ينصحه ويرشده ﴿يَبْنَىٰ﴾ تصغير إشفاق ورحمة ﴿لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً، بشراً أو صنماً، ولا تعبد غير الله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل للنهي، وسماه ظلماً لأنه وضع العبادة في غير موضعها. بدأ بالأقرب وهو ابنه، وبالأهم وهو المنع من الشرك، الذي هو أعظم الذنوب على الإطلاق.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ (١٤).

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ﴾ أي أمرناه أمراً مؤكداً، وعهدنا إليه بهذه الوصية، وهي الإحسان إلى والديه، وجاء هذا في أثناء وصية لقمان، تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال: وقد وصيناه بمثل ما وصي به، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك، فإنهما معاً اقترا ذكركهما مع الله تعالى في استحقاق التعظيم والطاعة، لا يجوز طاعتهما في الإشراك بحال

من الأحوال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي ضعفاً فوق ضعف، لأنها لا تزال يتضاعف ألمها، إذ الحمل ضعف، والطلق ضعف، والرضاعة ضعف ﴿وَفَصَّلْنَا فِي عَامَيْنِ﴾ وهي مدة الرضاع، أي وطاقمه في تمام عامين ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾ تفسير لوصينا أي وصينا بشكرنا ﴿وَلَوْلَا ذِكْرُ﴾ أي ويشكر والديه، لأن الوجود في الحقيقة من الله تعالى، والوالدان سبب لوجوده، فجعل الشكر بينهما ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي الرجوع إلي لا إلى غيري، فأجازيك على ما صدر عنك.

﴿وَلِإِن جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٥﴾

﴿وَلِإِن جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ بشركته له تعالى في استحقاق العبادة ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ﴾ أي وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف، صفة يرتضيها الشرع، وتقتضيها المروءة ﴿وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ بالتوحيد، والإخلاص في الطاعة ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مرجعك ورجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ﴾ عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلا منكم بما صدر عنه من الخير والشر.

﴿يَبْقَىٰ إِلَهُهَا إِن تَكُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٦﴾

﴿يَبْقَىٰ﴾ شروع في حكاية بقية وصايا لقمان ﴿إِلَهُهَا﴾ أي إن الخصلة من الإساءة والإحسان ﴿إِن تَكُ﴾ مثلاً في الصغر ﴿مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي وزن حبة الخردل ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لو كانت في غاية الصغر، في أخفى مكان وأحرزه، كجوف الصخرة، أو

كانت السيئة التي يفعلها الإنسان في العالم العلوي، أو السفلي ﴿يَأْتِيهَا اللَّهُ﴾ أي يحضرها الله ويحاسب عاملها عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفي ﴿خَيْرٌ﴾ بكنهه، عالم ببواطن الأمور، والغرض من الآية: التمثيل بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد.

﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧).

﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ بعدما أمره بالتوحيد، في ضمن النهي عن الشرك، ونبّهه على كمال علم الله تعالى وقدرته، أمره بالصلاة، التي هي أكمل العبادات، تكميلاً له من حيث العمل، بعد تكميله من حيث الاعتقاد، وهذا دليل على أن التوحيد والصلاة، مأمور بهما في سائر الأمم ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك ﴿وَأَصِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ من الشدائد والمحن، لا سيما فيما أمرت به ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ أي مما فرضها الله تعالى، والجملة تعليل لوجوب الامتثال، بما سبق من الأمر والنهي، فهذه الخصال من عزائم الأمور، التي حضّ وحثّ عليها رب العزة والجلال.

﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨).

﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تمل، ولا تولهم صفحة وجهك، كما هو ديدن المتكبرين، من الصَّعَر وهو داء يصيب البعير، فيلوى منه عنقه يقال: صَعَرَ خَدَّهُ أي أماله عن الناس، إغراضاً وتكبراً ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هو البطر مصدر وقع موقع الحال أي فرحاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي يكره كل متكبر يفخر على غيره، وهو تعليل للنهي عن التكبر والخيلاء.

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩).

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ﴾ أي توسط بين البطء والإسراع، أما الإسراع فهو من الخيلاء، وأما البطء فهو علامة الضعف، وكلا الطرفين مذموم، بل ليكن مشيك بين السكينة والوقار ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي اخفض من صوتك ولا ترفعه عالياً، فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل، ولهذا عقبه بقوله: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي أوحشها، على تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالبهاائم، وفي الآية إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال.

﴿الَّذِينَ تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (٢٠).

﴿الَّذِينَ تَرَوْنَ﴾ رجوع إلى سنن ما سلف، قبل قصة لقمان، من خطاب المكلفين، أي ألم تروا أيها الناس رؤية قلبية، كأنها مشاهدة بالبصر، إلى ما أنعم الله به عليكم ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي محسوسة ومعقولة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ في توحيدهِ وصفاته ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بغير علم مستفاد من الدليل ﴿وَلَا هُدًى﴾ من جهة الرسول ﷺ ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أنزله الله سبحانه، بل بمجرد التقليد، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبِغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢١).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ يريدون به عبادة الأصنام ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ ﴾ أي يدعو آباءهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ ؟ أي أتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم إلى ما هم عليه من الشرك والضلال ؟ .

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ . ﴿٢١﴾

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ بأن فوّض إليه نفسه بكليته، ومعنى التسليم حيث عُدّي باللام قصد معنى الإخلاص، كما في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أي خالصاً له، ومعناه مع ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ التفويض إليه تعالى ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ في أعماله ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ ﴾ أي تمسك وتعلق ﴿ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أي بحبل الله المتين، والآية على التمثيل كأنه تمسك بحبل متين لا ينقطع ﴿ وَإِلَى اللَّهِ ﴾ لا إلى أحد غيره ﴿ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ لكل صائر إليه فيجازيه أحسن الجزاء .

﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهَا ۚ إِلَيْنَا رُجْعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ . ﴿٢٢﴾

﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ أي ومن لم يؤمن بالله، ولم يُسلم له وجهه ﴿ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهَا ﴾ فإنه لا يضرّك في الدنيا والآخرة ﴿ إِلَيْنَا رُجْعُهُمْ ﴾ لا إلى غيرنا ﴿ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي، ونأخذهم بالعذاب والعقاب ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي لا يخفى عليه سرهم وعلايتهم، فيفعل بهم على حسب ما يستحقون .

﴿ نُمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ . ﴿٢٣﴾

﴿نُفِعْتُهُمْ﴾ تمتعاً ﴿قَلِيلًا﴾ زماناً قليلاً، أي نمهلهم ليمتعوا بنعيم الدنيا، إلى انقضاء آجالهم ﴿ثُمَّ نَضَّطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يثقل عليهم تحمُّله، ثقل الأجرام الغلاظ، حيث يُضْمُّ إلى الإحراق الشدَّة، والتضييق، شبه تعالى إلزام التعذيب، باضطرار المضطر إلى الشيء المكروه، الذي لا تحبه النفس.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون عظمة الله وجلاله، وقدرته على الخلق والإحياء، فلذلك ينكرون وحدانيته وجلاله.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي هو جلّ وعلا المستغني عن الخلق وعبادتهم، المحمود في صنعه وآلائه.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ أي لو ثبت كون الأشجار التي في الدنيا صارت كلها أقلاماً ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد نفاده ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي مداد، والخلائق يكتبون بتلك الأقلام، وبذلك المداد كلمات الله عز وجل ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ لأنها لا نهاية لها، كما في قوله

تعالى: ﴿لَنفَعِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعجزه شيء أرادته ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر، فلا تنفذ كلماته المؤسسة عليهما.

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي إلا كخلقها وبعثها، في سهولة التأتي، إذ لا يشغله تعالى شأن عن شأن، لأن مناط وجود كل شيء، تعلق إرادته العليا مع قدرته الذاتية، حسبما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُنَا لَيْشَاءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي يسمع كل مسموع، ويبصر كل مبصر، لا يشغله إدراك بعضها عن بعض، فكذلك الخلق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، وقيل: عامٌ لمن يصلح للخطاب وهو الأوفق، أي ألم تعلم أيها الإنسان علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية ﴿أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي يدخل ظلمة الليل على ضوء النهار، ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل، ويزيد في هذا فيطول، ويُنقص من هذا فيقصر، ولهذا يطول النهار في بعض الفصول وينقص، وتلك آية كونية. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ﴾ داخل معه في حيز الرؤية، فإن من شاهد مثل هذا الصنع الرائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه عزَّ وجل، محيطاً بجلالِ أعماله، ودقائقها.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطِلُ ﴾ أي ذلك الوصف الذي وُصف به، من عجائب قدرته وحكمته، التي يعجز عنه الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله؟ إنما هو بسبب أنه تعالى هو الحقُّ الثابتُ إلهيته، ولأجل بيان بطلان إلهية ما يدعونه من دونه تعالى ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أي وبيان أنه تعالى هو المرتفع على كل شيء، فهو العليُّ في صفاته، الكبير في ذاته.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ﴿٢١﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾ أي بإحسانه ولطفه في تهيئة أسبابه، وهو استشهادٌ آخر على باهر قدرته، فقد سخر البحر لتجري فيه السفن الكبار، تحمل الأغذية والبضائع، من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة، تجري بهذه السفن الريح، والريخ من نعم الله تعالى ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ أي بعض آياته، وبعض دلائل وحدته ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي إن فيما ذُكر، لآيات عظيمة، ودلائل باهرة، لكل من يبالغ في الصبر على المشاق، وفي الشكر على نعمائه تعالى، وهما صفتا المؤمن، فكانه قيل: لكل مؤمن، صابر شاكر.

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظَّلِيلِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَلَغْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ ﴾ أي علاهم وأحاط بهم الموج ﴿ كَالظَّلِيلِ ﴾ كما

يُظَلُّ الجبلُ، والسحابُ، يعني أن الموج الذي جاءهم كثيف مخيف، كالجبال هولاً وشدة ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي استغاثوا بالله، وأخلصوا الدعاء لله، لزوال ما ينازع الفطرة، من الهوى، والتقليد، وبما دهاهم من الهول والخوف الشديد ﴿فَلَمَّا بَجَدْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ﴾ أي مقيم على القصد السوي، الذي هو التوحيد، وفي الآية حذف تقديره: ومنهم جاحد، بدليل قوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا...﴾.

نزلت في عكرمة بن أبي جهل، هرب عام الفتح إلى البحر، فجاءهم ربح عاصف، فقال عكرمة: لئن أنجانا الله من هذا، لأرجعنَّ إلى رسول الله ﷺ فأبايعه على الإسلام، فسكت الريح، ورجع عكرمة إلى مكة، وأسلم وحسن إسلامه^(١). ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي غدار، والختر: أشدُّ الغدر ﴿كُفُورٍ﴾ أي مبالغ في كفران النعمة، يجحد فضل الله، ويكذب بآياته، وقليل من عباد الله الشكور!!.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي خافوا يوماً شديداً عصيباً، لا يقضي عنه شيئاً من التبعات، ولا يدفع عنه مضرة ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ أي ولا ولد يدفع ويقضي عن والده شيئاً، ولا يتحمل عنه جنايته، وفيه قطع طمع من توقع من المؤمنين، أن ينفع أباه الكافر في الآخرة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بـالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن إخلافه

(١) الآية على العموم، فهي تعم كل كافر جاحد لفضل الله وإنعامه، وما ذكر من سبب النزول لا يمنع العموم، فإن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، كما ذكر في علم الأصول.

أَصْلًا ﴿فَلَا تُغُرِّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرِّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي فلا تخدعكم الحياة الدنيا بزيتها ومقاتنها ولذاتها، فتشغلكم عن طاعة الله وعبادته، ولا يخدعكم الشيطان المبالغ في الغرور للإنسان، بأن يحملكم على المعاصي، ويقول لكم: إن الله غفور رحيم، يغفر الذنوب جميعاً، فتركنا إلى وساوسه وأباطيله. والإنسان قد يكون ضعيف العقل، فيغترُّ بأدنى شيء من بهرج، وقد يكون قويَّ الجأش متين العقل، ولكن إذا جاءه غارٌّ، وزين وحسن له ذلك الشيء قد يغتر، فقال الله تعالى: ﴿فَلَا تُغُرِّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ للدرجة الأولى من البشر، وقال: ﴿وَلَا يَغُرِّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الإشارة إلى الثانية ليكون الإنسان محفوظاً من الاثنتين: فتنة الدنيا، وفتنة الشيطان اللعين.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي علم وقت قيامها، والمراد بالساعة مجيء يوم القيامة، فلا يعلمه أحد إلا الله، عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله» وتلا هذه الآية^(١). يحكى أن أبا جعفر المنصور رأى في منامه صورة ملك الموت، فسأله عن مدة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبّر لها المعبرون بخمس سنوات، وبخمس أشهر، فاستدعى أبا حنيفة رحمه الله وسأله عن الرؤيا، فقال له: هو يشير إلى هذه الأشياء الخمس في الآية التي لا يعلمها إلا الله، وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ الآية. ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ في أيامه المقدرة له وبالكمية التي يريدتها الله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أي يعلم سبحانه أذكر أم أنثى؟ أتأم أم ناقص؟ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣٩٥/٨ وفي الاستسقاء.

مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴿١﴾ من خير أو شر، ربما تعزم على شيء فتفعل خلافه ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ﴿٢﴾ كما لا تدري في أي وقت تموت^(١)، ونسبة العلم إلى الله، والدراية إلى العبد، للإيذان بأنه وإن بذل وسعه في التعرف لم يعرف، لأنه لم ينصب له دليل، ثم لما في معنى الدراية من معنى الحيلة، والمعنى: إنها لا تعرف وإن أعملت حيلتها، يُقال: دريتُ الشيء أي عرفته وعلمته، أمّا المنجّم الذي يخبر بوقت الغيث، والموت، فإنه يقول ذلك بالقياس، والنظر، وهو كذاب في هذا، ولهذا ورد في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً أو عرافاً فصَدَّقَهُ بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ يعلم بواطنها، كما يعلم ظواهرها، لا تخفى عليه سبحانه خافية.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة لقمان»

(١) فإن قيل: لماذا لم يقل: «وما تدري نفس بأي وقت تموت» وإنما قال: ﴿بأي أرض تموت﴾ مع أن البحث عن وقت موت الإنسان؟ فالجواب: أن وجود الإنسان في مكان ما في وسع الإنسان واختياره، واعتقاد علم مكان موته أقرب، ومع ذلك لا يعرف الإنسان موطن موته، ولا المكان الذي ستكون منيته فيه، فكيف يعرف وقت وفاته، هذا من باب أولى مستحيل، وإذا كانت وفاة إنسان في بلد ما فقدره الله له، جعل الله إليه حاجة في ذلك البلد، حتى يتم القضاء المبرم، والله تعالى أعلم.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَلَّمَ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ .

﴿الْعَلَّمَ﴾ الحروف الهجائية المقطعة، للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، كما وضعناه في أول سورة البقرة.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تنزيل بمعنى المُنزَل، أنزله عليك ربُّ العزة والجلال، أي هذا القرآن العظيم، لا شك أنه من عند الله، أنزله عليك يا محمد ربُّ العزة والجلال.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ .

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون يعني كفار مكة ﴿أَفْتَرَنَاهُ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه؟ وقد ردَّ الله عليهم ذلك، حيث جيء بأم المنقطعة، إنكاراً له وتعجباً منه، لغاية ظهور بطلانه، واستحالة كونه مفترى، ثم أضرب عنه إلى بيان حقيقة ما أنكروه، فقال سبحانه ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ بإضافة اسم

الرب إلى ضميره ﷺ تشريعاً له، ثم أيد ذلك ببيان غايته فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فإن بيان غاية الشيء وحكمته، مما يقرب وجود الشيء ويؤكدده، وقد كانت قريش أضل الناس، وأحوجهم إلى الهداية، بإرسال الرسل، حيث لم يُبعث إليهم رسول قبله، أو قبل زمانه، إذ كانوا أهل الفترة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي كي يهتدوا إلى الدين الحق، والترجي معتبر من جهته ﷺ، أي لتنذرهم راجياً لاهتدائهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ﴾ أي ما لكم إذا جاوزتم رضائه، أحد ينصركم أو يشفع لكم ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي ينجيكم ويخلصكم من بأسه وعذابه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ألا تسمعون هذه المواعظ فتذكرون بها فتؤمنون؟ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الأخبار الموهمة للتشبيه، من الصورة، واليد، والنزول، والاستواء على العرش، وما يجري مجراها، إن الحق فيها هو مذهب السلف أعني مذهب الصحابة والتابعين، ومن بلغه حديث من هذه الأحاديث يجب عليه سبعة أمور: التقديس، ثم التصديق، ثم الاعتراف بالعجز، ثم السكوت، ثم الإمساك، ثم الكف، ثم التسليم لأهل المعرفة. أما التقديس فأعني به تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها، وأما التصديق فهو الإيمان بما قيل، وأنه حق على الوجه الذي قاله سبحانه وأراد، وأما الاعتراف بالعجز فهو أن يُقر بأن معرفة مراده ليست على قدر طاقته، وأن ذلك ليس من حرفته، وأما السكوت فإن لا يسأل عن معناه، ويعلم أن سؤاله بدعة، وأن في خوضه مخاطرة في دينه، وأما الإمساك فإن لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف

والتبديل، والزيادة فيه والنقصان، بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ، وأمّا الكفّ
فأن يكفّ عنه البحث والتفكر فيه، وأمّا التسليم لأهله فإن لا يعتقد أن
ذلك خفيّ على الأنبياء والعلماء، كما قال الإمام أحمد: آيات الصفات
وأحاديث الصفات، تُمرّ كما جاءت، نؤمن بالآية والخبر، ونكلّ الكيفية
في الصفات إلى علم علام الغيوب.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ
أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي يدبر أمر الدنيا، وينزل ما دبره
وقضاه، بأسباب سماوية، من الملائكة وغيرها، نازلة بآثارها وأحكامها إلى
الأرض ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي يصعد ذلك الأمر إليه ليحكم فيه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ
مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي برهة من الزمان، والمراد بيان طول امتداد
ما بين تدبير الحوادث، وحدثها من الزمان وقيل: يدبر أمر الدنيا جميعاً
إلى قيام الساعة، ثم يعرج الأمر كله إليه عند قيامها في يوم كان مقداره
ألف سنة، وسئل عنها ابن عباس رضي الله عنه فقال: «أيام سمّاها الله
تعالى، لا أدري ما هي! والله أعلم بمراده».

﴿ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الله عز وجل، باعتبار اتصافه بما ذكر من الخلق،
والاستواء والتدبير، أي ذلك العظيم الشأن ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي هو
العالم للآخرة والدنيا، ولما هو غائب عن الخلق ومشاهد لهم، فيدبر
أمرهما حسبما تقتضيه الحكمة ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾
على عباده، يدبّر لهم شؤون الحياة.

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿٧﴾

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ أي اتقن وأحكم كلَّ مخلوقٍ خلقه، إذ ما من مخلوقٍ خلقه الله، إلا وهو مرتَّبٌ على ما اقتضته الحكمة، وأوجبه المصلحة، وقيل: أحسن بمعنى ألهم، فالمعنى: ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه، فيؤول إلى معنى قوله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ^(١) ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ على وجه بديع تحار العقول في فهمه، حيث برأ آدم عليه السلام، على فطرة عجيبة، منطوية على فطرة سائر أفراد الجنس، انطواءً إجمالياً، فخلق من ترابٍ مجبول بالماء حتى صار طيناً، وبس هذا الطين فصار صلصالاً له رئةٌ وصوت، ثم نفخ فيه الروح فصار بشراً سوياً.

﴿ ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴾ ﴿٨﴾

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ أي ذريته ﴿مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ أي حقير وضعيف، وهو المنيُّ والممتهنُّ، السَّلاةُ: النُّسلُ والولدُ، سُمِّيت به لأنها تنسل منه أي تنفصل.

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٩﴾

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ أي عدَّله بتكميل أعضائه في الرحم، وتصويرها على ما ينبغي ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ﴾ إضافة الروح إليه سبحانه إضافة تشريف، كييت الله، والنصارى يفترون على الله الكذب، ويقولون: بأن عيسى روح الله، فهو ابن الله، ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله، أي ونفخ فيه

(١) سورة طه، آية: ٥٠.

من روحه التي هي ملكه اختص بها علام الغيوب ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي خلق لمنفعتكم تلك الحواس، لتعرفوا أنها مع كونها في أنفسها نعمة جليلة، وسائل إلى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية، الفائضة عليكم، وتشكروها بأن تصرفوا كلاً منها إلى ما خلق له، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَلَا مَا فَشَكُرُوا﴾ بيان لكفرهم بتلك النعم، على أن القلة بمعنى النفي، أي لا تشكرون ربكم على نعمه الجليلة، التي تتقبلون فيها.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾

﴿وَقَالُوا﴾ أي منكرو البعث، والقائل «أبي بن خلف» رأس الطغيان، وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به ﴿إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي صرنا تراباً وغبنا فيها بالدفن ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ استفهام إنكاري أي أنبعث ويجدد خلقنا؟ ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ انتقال إلى بيان ما هو أبلغ، وهو كفرهم بلقاء ربهم، وبجميع ما يكون في العاقبة.

﴿قُلْ يَتَوَفَّنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

﴿قُلْ يَتَوَفَّنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ قُل بياناً للحق، وردّاً على زعمهم الباطل: يقبض ملك الموت أرواحكم، ويستوفي نفوسكم، هو وأعوانه فلا يترك منكم أحداً، لا كما تزعمون أن الموت من الأحوال الطبيعية العارضة للحيوان، بموجب الجبليّة، أي يقبض أرواحكم ملك الموت ﴿الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي يقبض أرواحكم، قال مجاهد: جعلت له الأرض مثل الطشت يتناول منها حيث يشاء، وقيل: ملك الموت يدعو الأرواح فتجيئه، ثم يأمر أعوانه بقبضها، والله تعالى هو الأمر، وهذا وجه الجمع بين هذه الآية،

وبين قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾ ^(١) ﴿ثُمَّ إِلَيْكَ رُجُوكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للحساب والجزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ^(١٢)

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد سامع ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ وهم القائلون. ﴿أَنذَا ضَلَلْنَا﴾ أو جنس المجرمين الذين ارتكبوا صنوف الجرائم في الدنيا ﴿نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي مطرقو رؤوسهم من الحياء والخزي، عند ظهور قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون يا ربنا ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي صرنا ممن يبصر ويسمع، وكنا من قبل عمياً وصماً، لا ندرك شيئاً ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ حسبما تقتضيه أوامرك الإلهية، ونعبدك ولا نشرك بك أحداً ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إذ لم يبق لنا شك بما شاهدنا، وكل ذلك طمعاً للإجابة إلى ما سألوه من الرجعة، وأننى لهم ذلك؟.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ^(١٣)

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ أي لو تعلقت مشيئتنا بأن نعطي كل نفس ما تهتدي به إلى الإيمان، والعمل الصالح، لفعلنا ﴿لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ لأعطيناها إياه في الدنيا، التي هي دار الكسب إلى الإيمان، والعمل الصالح، لكن

(١) لا تعارض بين هذه الآيات ولا منافاة، فالله تبارك وتعالى هو المتوَفَّى، ومَلِك الموت «عزرائيل» يتولى قبضها بنفسه، ومعه أعوانه يساعدونه في الأمر، فصحت الإضافات كلها إلى الله سبحانه، وإلى ملك الموت، وإلى أعوانه.

لم نعطهم ذلك، لَمَّا علمنا منهم اختيار الكفر^(١) ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي سبقت كلمتي حيث قلت لإبليس عند قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي لأملأن جهنم بالعصاة المجرمين من الجن والإنس جميعاً، وفي تخصيص الإنس والجن، إشارة إلى أنه عصم ملائكته من العصيان، ودخول النيران.

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١﴾

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ الباء للإيذان بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد، بل هو بسبب نسيانهم الدار الآخرة، وعدم العمل لها، أي ذوقوا هذا العذاب المخزي الأليم في دار الجحيم، بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي تركناكم في العذاب، ترك المنسي بالمرّة ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تكرير للتأكيد والتشديد، أي وذوقوا العذاب الخالد الدائم، بسبب ما كنتم تعملونه من فنون الكفر والمعاصي، وتكذيبكم بآيات الله.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٢﴾

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي إنما يصدق بآياتنا، ويعتقد بها، المؤمنون الصادقون المتقون، لا الكفرة المجرمون ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أي وعظوا بها ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي سقطوا على وجوههم سجداً خوفاً من عذاب الله

(١) توضيح معنى الآية الكريمة: لو أردنا هداية جميع الخلق لفعلنا، ولكن ذلك ينافي حكمتنا، لأننا نريد منهم الإيمان بطريق الاختيار، لا بطريق الإكراه والإجبار، ولذلك لم نجبر أحداً على الإيمان!!

﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي نزهوه عن كل ما لا يليق به، متلبسين بحمده تعالى على نعمائه، التي أجلها الهداية بإيتاء الآيات، والتوفيق للاهتمام بها ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي والحال هم خاضعون لجلال الله تعالى، لا يستكبرون عن السجود والتسبيح، والتحميد عن ابن عمر قال: «كان رسول الله يقرأ السورة التي فيها السجدة، فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد أحدنا مكاناً لوضع جبهته، في غير وقت الصلاة»^(١) وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدة، فسجد لها، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويلتي أمر ابنُ آدمَ السجدة، فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيتُ فلي النار»^(٢).

﴿لَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(١٦)

﴿لَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ أي ترتفع، وتتنحى ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي عن الفرش ومواضع النوم، وهم المتهجدون بالليل، وقال عطاء: هم الذين يصلُّون العشاء والفجر في جماعة، بدليل قوله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»^(٣) وأشهر الأقاويل أن المراد منه صلاة الليل، لما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان، شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»^(٤) ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي داعين له تعالى ﴿خَوْفًا﴾ من سخطه ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير والحسنات.

(١) أخرجه البخاري ٤٥٩/٢. ومسلم رقم ٥٧٥ باب سجود التلاوة.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٨١ في كتاب الإيمان.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٦٥٦ في المساجد وأبو داود رقم ٥٥٥ في الصلاة.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الصوم.

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٧).

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ من النفوس، لا مَلَكٌ مَقْرَبٌ، ولا نَبِيٌّ مرسل، فضلاً عمن عداهم ﴿ مَّا أُخْفِيَ لَهُم ﴾ أي لأولئك المتقين الصالحين ﴿ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ممَّا تَقَرَّبَ أَعْيُنُهُمْ ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ روى الشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقروا ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم ﴾ الآية (١)».

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ (١٨).

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾؟ أي أبعد ظهور ما بينهما من التباين، يُتَوَهَّم كَوْنُ المؤمن الذي حُكِّيت أوصافه الفاضلة، كالفاسق (٢) الذي حُكِّيت أوصافه القبيحة؟ ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أي لا يتساوون عند الله في الشرف والمثوبة، والمال والعزاء.

﴿ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٩).

﴿ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ تفصيلٌ لمراتب

(١) أخرجه البخاري ٢٣٠/٦ في بدء الخلق ومسلم رقم ٢٨٢٤ وانظر جامع الأصول ٤٩٤/١٠.

(٢) المراد بالفاسق هنا: الكافر، لأنه تعالى قابل به المؤمن، وأخبر أيضاً أنه يُخَلَّدُ في النار، ولا يستحقُّ التخليد فيها إلا الكافر: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُم النَّارُ﴾ وأما الفسقة من المؤمنين العصاة، فلا يخلدون في نار الجحيم، ونظير هذه الآية قوله سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾؟ المراد بالمجرمين الكفار لمقابلتهم بالمسلمين.

الفريقين في الآخرة، وإضافة الجنة إلى المأوى، لأنها المأوى الحقيقي، وقيل: هي جنة من الجنات تأوي إليها أرواح الشهداء ﴿تَزَلُّوا﴾ أي ثواباً ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الصالحة في الدنيا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ خرجوا عن الطاعة ﴿فَمَأْوَاهُمُ﴾ أي منزلهم ومسكنهم ﴿النَّارُ﴾ نار جهنم، مكان الجنة للمؤمنين ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ اللفظ عبارة عن الخلود فيها، فلا خروج ولا عودة في الحقيقة، وكلمة «في» للدلالة على أنهم مستقرون فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم إهانة لهم، وزيادة في غيظهم ذوقوا عذاب جهنم الدائم ﴿الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أي بعذاب النار على الاستمرار في الدنيا، وهذا دليل على أن المراد بالفاسق الكافر، إذ التكذيب يُقابل الإيمان.

﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢١﴾

﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ عذاب الدنيا، وهو ما عوقبوا به من القتل، والأسر، والقحط ونحو ذلك، وقيل: العذاب الأدنى عذاب القبر ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ وهو عذاب الآخرة، لأنه شديد ومديد، بخلاف عذاب الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل الذين يشاهدون ممن بقي منهم، يتوبون عن الكفر.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾؟ استفهام إنكاري أي هو أظلم من كل ظالم، لأنه عرف الحق ثم صدَّ عنه ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كل من اتصف بالإجرام، وإن هانت جريمته ﴿مُنْفِقُونَ﴾ فكيف ممن هو أظلم؟

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة، وعبر عنها باسم الجنس ﴿الْكِتَابَ﴾ لتحقيق المجانسة بينها وبين الفرقان، والتنبيه على أن إتياءه لرسول الله ﷺ كإتيائه لموسى عليه السلام، واختار من بين الرسل «موسى» لقربه، وإنما لم يختار عيسى عليه السلام للاستدلال، لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته، وأما النصاري فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام، فتمسك بالمجمع عليه ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ أي من لقاء الكتاب الذي هو الفرقان، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ والمعنى: إنا آتيناك من الكتاب، مثل ما آتيناه لموسى، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب الذي آتيناه لموسى ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي هداية لبني إسرائيل من الضلالة والجهالة.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَا أَمْرُنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ﴾ أي جعلنا منهم قادة يقتدى بهم في فعل الخيرات، ويهتدى بهم إلى طريق الحق ﴿يَا أَمْرُنَا﴾ أي بأمرنا إياهم بذلك، وبتوفيقنا لهم إلى الطاعة ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ أي لَمَّا صبروا جعلناهم أئمة، والمراد صبرهم على مشاق الطاعات، ومقاساة الشدائد في نصره

الدين ﴿وَكَاثُوا بِتَائِبَاتِنَا يُؤْقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر، والمعنى: كذلك لنجعلن الكتاب الذي آتيناك هدى لأمتك، ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية، وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٥).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ﴾ أي يقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المؤمنين والمشركين ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيميز بين المحق وبين المبطل ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمور الدين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢٦).

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؟ أي أولم يبين الله لأهل مكة؟ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي كثرة من أهلكناهم من القرون الماضية، مثل: عاد، وثمود، وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ أي يمرون في متاجرهم على ديارهم، ويشاهدون آثار هلاكهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في عددها ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾؟ هذه الآيات، سماع تدبر وتفكر؟.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٧).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾؟ أي التي جُرز نباتها، أي قطع ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ بالماء من تلك الأرض ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من ذلك الزرع ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ كالتبن، والعصف، والورق، وبعض الحبوب المخصوصة

بها ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحبوب التي يقتات بها الإنسان والثمار ﴿أَفَلَا يَبْصُرُونَ؟﴾ أي ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك؟ ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى؟.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ كان المسلمون يقولون: إن الله تعالى سيفتح لنا على المشركين، وكان أهل مكة إذا سمعوه يقولون تكذيباً واستهزاء ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي النصر علينا أي في أي وقت يكون؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ في أن الله ينصركم علينا؟.

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيئاً لهم، وتحقيقاً للحق ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي يوم القيامة، وهو يوم الفصل، والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم، للتنبيه على أنه ليس مما ينبغي أن يسأل عنه، لكونه أمراً بيناً، وإنما المحتاج إلى البيان عدم نفع ذلك الإيمان، كأنه قيل لا تستعجلوا، فكأنني بكم قد آمتتم، فلم ينفعكم إيمانكم في ذلك اليوم العصيب؟.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبال بتكذيبهم ﴿وَانْتَظِرْ﴾ النصر عليهم وهلاكهم ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ بك حوادث الزمان، روي عن أبي هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿أَلَمْ تَنْزِلُ الْكِتَابَ﴾ و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾»^(١) وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ

(١) أخرجه مسلم رقم ٨٧٩ في الجمعة، وأبو داود رقم ١٠٧٤ في الصلاة.

كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿أَلَمْ تَنْزِلُ الْكِتَابَ﴾ و ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة»

* * *

(١) أخرجه الترمذي في سننه.

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

مدنية وهي ثلاث وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ أَنَّ اللَّهَ لَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُتَنَفِّقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ﴾ ناداه بالنبي تعظيماً له، ولتعليم الناس بأنه رسول الله
﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ والمراد بالتقوى الثبات عليه، والازدياد منه، فإن له ﷺ باباً
واسعاً في تقوى الله ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ المجاهرين بالكفر ﴿وَالْمُتَنَفِّقِينَ﴾
المضمرين له، ولا تساعدهم على شيء، واحترز منهم، فإنهم أعداء الله
والمؤمنين، والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، فهو تحذير للمؤمنين كافة
من طاعة أهل الكفر والنفاق. وروي أن أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل
وأبا الأعور، قدموا المدينة بعد قتال أحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان
على أن يكلموه، فنزلوا على «عبد الله بن أبي ابن سلول» وجاء معهم ابن
أبي فقالوا لرسول الله ﷺ وعنده عمر: ارفض ذكر آل هنتا، وقل إنها تشفع
وتنفع، ونَدْعُكَ وربك، فشق ذلك على النبي ﷺ والمؤمنين، فقال عمر
رضي الله عنه يا رسول الله ائذن لي في قتلهم!! فقال ﷺ: «إني أعطيتهم
الأمان» فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله، فأمره النبي ﷺ أن يخرجهم من

المدينة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والمفاسد ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكم في فعله وصنعه، إلا بمقتضى الحكمة والمصلحة.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي اعمل بما يوحيه إليك ربك، من الشرع القويم، والدين الحكيم، واستمسك بالقرآن المنزل عليك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ الخطاب للرسول ﷺ والجمع للتعظيم، وقيل: الخطاب له وللمؤمنين، والجملة تعليل للأمر، أي لا تخفى عليه خافية من أعمالكم، يعلم المطيع من العاصي، والبرّ من الفاجر، وسيجازيكم عليها.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فوض جميع أمورك إليه تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي كفى به حافظاً، موكولاً إليه كل الأمور.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَاءِ تَظَاهِرُونَ مِنهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ هذا مثلّ ضربه الله تعالى، تمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَاءِ تَظَاهِرُونَ مِنهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ الآية وتنبهاً على أن كون المظاهر منها أمّاً، وكون الدّعيّ ابناً أي بمنزلة الأم والابن، في الآثار والأحكام في الاستحالة بمنزلة اجتماع القلبين في جوف واحد، وقد كانت العرب تزعم أن اللبيب الأديب الأريب، له قلبان في جوفه، ولذلك قيل لأبي معمر ذو القلبين، فردّ الله

سبحانه هذا الزعم الكاذب، أي ما جمع الله تعالى قلبين في رجل واحد، وذكر الجوف لزيادة التقرير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَغْمِي الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(١) ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي ما جمع الزوجية والأمومية في امرأة واحدة، ولا التبني والبنوة في رجل واحد، بمعنى نفي الجمع بين حقيقة الزوجية، وأحكام الأمومة، ونفي الجمع بين حقيقة الدعوة، وأحكام البنوة، لإبطال ما كانوا عليه من إجراء أحكام الأمومة على المظاهر منها، وإجراء أحكام البنوة على الولد المتبني ﴿ذَلِكَكُمْ﴾ إشارة إلى ما يفهم من الظهار، والتبني ﴿قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة في الأعيان، إذ الابن والأم يكون بالولادة حقيقة، لا بالقول قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْتَصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي باطل ليس له حقيقة ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي المطابق للواقع ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي طريق الحق والاستقامة.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أي انسبهم إلى آبائهم الذين ولدوهم حقيقة ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي أعدل، أي الدعاء لآبائهم بالغ في العدل والصدق في حكم الله تعالى ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فتنسبهم إليهم ﴿فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم فيه، فادعوهم بالأخوة الدينية ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ أي فيما فعلتم مخطئين، بالسهو أو النسيان، أو سبق اللسان، ومثله قول القائل لغيره: يا

(١) سورة الحج، آية: ٤٦.

بني بطريق الشفقة، أو يا أبي بطريق التعظيم ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولكن الجناح والإثم فيما تعمدت قلوبكم بعد النهي ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لعفوه عن المخطيء ورحمته بالعباد. روى الشيخان عن ابن عمر قال: إِنَّ «زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ» مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ما كنا ندعوه إلا «زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ»^(١) حتى نزل القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ...﴾ الآية، فصرنا نقول بعد ذلك: زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ. وَرُوي عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وقاصٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ ادْعَى أَبًا فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرَ أَبِيهِ، فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ»^(٢).

﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾

﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي في كل أمر من أمور الدين والدنيا، كما يشهد به الإطلاق، فيجب عليهم أن يكون ﷺ أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقه أثر لديهم من حقوقها لأنه ﷺ لا يأمرهم ولا يرضى منهم، إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس، وفي قراءة ابن مسعود «وَهُوَ أَبُّ لَهُمْ» أي في الدين، فإن كل نبي أب لأمة، من حيث إنه أصل فيما فيه الحياة الأبدية، ولذلك صار المؤمنون إخوة، وسبب النزول أن النبي ﷺ كان يخرج إلى الجهاد، ويأمر أصحابه بالخروج، فيقول البعض: نستاذن من آبائنا وأمهاتنا، فنزلت الآية

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٥١٧/٨، ومسلم في فضائل الصحابة، رقم ٢٤٢٥.

(٢) أخرجه البخاري ٤٦/١٢ في الفرائض ومسلم رقم ٦٣ في الإيمان.

﴿وَأَزْوَاجَهُمْ أَمْهَنَهُمْ﴾ أي منزلات منزلة الأمهات في التحريم، واستحقاق التعظيم، وأمّا فيما عدا ذلك، كالإرث، والخلوة، والنظر، فهنّ كالأجنبيات، ولهذا لم يتعدّ التحريم إلى بناتهن ﴿وَأُولَ الْأَرْحَامِ﴾ أي ذوو القربات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوراث، وهو ناسخ لما كان في صدر الإسلام من التوراث بالهجرة، والموالة في الدين ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه، فيما أنزله وفرضه الله تعالى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين، ومن المهاجرين بحق الهجرة ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا﴾ أي إلا أن تحسنوا إلى إخوانكم، من الفقراء المهاجرين، فلا حرج فيه، وقيل: المراد بفعل المعروف: الوصية، أي إلا أن توصوا إليهم عند الموت ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي مكتوباً ومسطراً في اللوح المحفوظ أو القرآن العظيم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي اذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم، بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدين الحق ﴿وَمِنْكَ﴾ أي ومنك يا محمد ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وتخصيصهم بالذكر، للإيدان بمزيتهم، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأولو العزم من الرسل، وتقديم نبينا ﷺ عليهم للإبانة عن فضله الجليل وإمامته لجميع الرسل ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً مؤكداً موثقاً أن يلتزموا بتبليغ الرسالة، وإنما فعلنا ذلك.

﴿لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي يوم القيامة، ووضع «الصادقين» موضع ضميرهم، للإيدان من أول الأمر، بأنهم صادقون فيما سُئلوا عنه،

وإنما السؤال لحكمة تقتضيه، أي ليسأل الأنبياء، الذين صدّقوا عهودهم، عما قالوه لقومهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ (١) ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وهياً الله للكافرين العذاب، عذاباً مؤلماً موجعاً، يذوقونه في نار جهنم.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ اِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ اِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي الأحزاب وهم قريش، وغطفان، ويهود بني قريظة، والنضير، كانوا زهاء اثني عشر ألفاً، فلما سمع ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة، بإشارة «سلمان الفارسي» رضي الله عنه، فحضر معسكره، والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام، واشتد الخوف ونَجَمَ النِّفَاقُ، حتى قال «معتب بن قشير» المنافق: «كان محمد يعدنا كنوز كسرى، وقصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط» ومضى على الفريقين قريب من شهر، لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة، واشتد الأمر والخوف على المؤمنين، بالغاً ما بلغ، حتى بعث الله على المشركين ريحاً باردة، في ليلة شاتية، فأفعدتهم، وسقت التراب في وجوههم، وأطفأت نيرانهم، وقلعت خيامهم، وماجت الخيل بعضها في بعض، فقال «طليحة بن خويلد الأسدي»: أمّا محمد فقد بدأكم بسحر، فالنَّجاة النَّجاة، فانهزموا، وفرّوا من غير قتال، فذلك قوله تعالى: ﴿فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي ريحاً شديدة عاصفة مدمرة ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة، وقذف في قلوبهم الرعب ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق، وترتيب مبادئ الحرب ﴿بَصِيرًا﴾ إشارة إلى أنه تعالى علم التجاءكم إليه، ولذلك فعل ما فعل.

(١) سورة المائدة، آية: ١٠٩.

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝ ﴾

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ أي من أعلى الوادي، من جهة المشرق، وهم بنو غطفان ومن تَابَعَهُمْ من أهل نجد، وانضمَّ إليهم يهود بني قريظة وبني النضير ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ أي من أسفل الوادي من جهة المغرب، وهم قريش ومن شايِعَهُمْ من أوباش العرب ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ أي مالت عن سَنَنِهَا، وانحرفت عن مستوى نظرها، حَيْرَةً لشدَّة الرُّوع ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ لأن الرثة تنتفخ من شدة الفزع، أي زالت عن أماكنها حتى كادت تبلغ الحناجر، والآية تمثيلٌ لاضطراب القلوب، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة ﴿ وَنَظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ أي تظنون بالله أنواع الظنون، حيث ظنَّ المخلصون بالله أنه ينجز وعده، في إعلاء دينه، كما يعرب عنه قولهم: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ والمنافقون خافوا وزلزلوا، وظنُّوا ما حكى عنهم مما لا خير فيه.

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ ﴾

﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك الزمان الهائل ﴿ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي عوملوا معاملة من يُختبر، فظهر الراسخ من المتزلزل ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ من الهول والفزع، والابتلاء ليس لاستبانة الأمر له تعالى، بل لإظهاره لغيره.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝ ﴾

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي ضعف اعتقاد، وهم قوم لا بصيرة لهم في الدين، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليه ﴿ مَا

وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴿١٣﴾ بِإِعْلَاءِ الدِّينِ، وَالظَّفَرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ﴿١٤﴾ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٥﴾ أَيِ وَغْدِ غُرُورٍ، وَالْقَائِلُ «مَعْتَبُ بْنُ قُشَيْرٍ» وَإِخْوَانُهُ فِي النِّفَاقِ وَالضَّلَالِ، وَهُمْ طَائِفَةٌ كَانُوا يَنْظَاهِرُونَ بِالْإِيمَانِ، وَهُمْ يَبْطِنُونَ الْكُفْرَ، وَلِهَذَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِثْلُ هَذَا الْكَلَامِ.

﴿وَلِإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَّاهِلُ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ﴿١٦﴾.

﴿وَلِإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ هُم أَوْسُ بْنُ قَيْظِي وَأَتْبَاعُهُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَأَشْيَاعُهُ ﴿يَتَّاهِلُ يَثْرِبَ﴾ يَثْرِبُ اسْمُ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ، أَيِ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَقَدْ نَهَى ﷺ أَنْ تَسْمَى بِيثْرِبٍ كِرَاهَةً لَهَا، وَقَالَ هِيَ: طَيْبَةٌ أَوْ طَابَةٌ، كَانَهُمْ ذَكَرُوهَا بِذَلِكَ مُخَالَفَةً لَهُ ﷺ ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ لَامَوْضِعُ إِقَامَةٍ لَكُمْ، يَرِيدُونَ مَعَ سَرِّ النَّبِيِّ ﷺ ﴿فَارْجِعُوا﴾ إِلَى مَنَازِلِكُمْ بِالْمَدِينَةِ، مَرَادُهُمُ الْأَمْرُ بِالْفِرَارِ، لَكِنْهُمْ عَبَرُوا عَنْهُ بِالرُّجُوعِ تَرْوِيجًا لِمَقَالِهِمْ ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ﴾ وَهُمْ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سُلَيْمَةَ ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أَيِ غَيْرِ حَصِينَةٍ، مَعْرُضَةٌ لِلْعُدُوِّ وَالسَّرَاقِ، وَالْعَوْرَةُ فِي الْأَصْلِ: الْخَلْلُ، أَطْلَقَتْ عَلَى الْمَحَلِّ مَبَالِغَةً ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ وَالْحَالُ إِنَّهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ، بَلْ هِيَ حَصِينَةٌ ﴿إِنْ يُرِيدُونَ﴾ أَيِ مَا يَرِيدُونَ ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ مِنَ الْقِتَالِ.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا بَيْسِيرًا﴾ ﴿١٧﴾.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ إِلَى بُيُوتِهِمْ ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أَيِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِ الْمَدِينَةِ وَأَطْرَافِهَا ﴿ثُمَّ سَأَلُوا﴾ أَيِ طَلَبَ مِنْهُمْ ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أَيِ الرِّدَّةَ، وَالرُّجُوعَ إِلَى الْكُفْرِ، وَمُقَاتِلَةَ الْمُسْلِمِينَ، مَكَانَ مَا سَأَلُوا مِنَ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ ﴿لَآتَوَّاهَا﴾ أَيِ لَأَعْطَوْهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، غَيْرِ مُبَالِينِ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا﴾ بإجابتها يعني الفتنة وما أخروها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثما يسع السؤال والجواب من الزمان.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ﴾ هم قوم من المنافقين غابوا عن وقعة بدر، ورأوا ما أعطى الله تعالى أهل بدر من الكرامة، فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي مسؤولاً عن الوفاء به، وجديرًا بالوفاء.

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ فإنه لا بد لكل شخص من حتف أنف، أو قتل سيف، في وقت معين سبق به القضاء ﴿وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإن نفعكم الفرار مثلاً، فتمتعتم بالتأخير، لم يكن ذلك التمتع إلا زماناً قليلاً، لأن الموت مآل كل حي.

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾؟ أي من يستطيع أن يمنعكم من الله عز وجل، سواء قدر هلاككم ودماركم، أم قدر بقاءكم ونصركم؟ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم الضرر.

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ
الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٨) .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ﴾ أي المثبطين للناس عن رسول الله ﷺ،
وهم المنافقون ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ من منافقي المدينة الذين كانوا يقولون
للأنصار: لا تقاتلوا وأسلموا محمداً إلى قريش ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ وهذا يدل على
أنهم عند هذا القول خارجون عن المعسكر ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ ﴾ أي الحرب
والقتال ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إتياناً قليلاً، أو زماناً قليلاً، لأنهم يخرجون مع
المؤمنين رياء، يوهمونهم أنهم معهم، ولا تراهم يبارزون ويقاتلون إلا شيئاً
قليلاً، إذا اضطروا إليه .

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِاللِّسَنِ حَدًّا أَشِحَّةً
عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
سِيرًا ﴾ (١٩) .

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أي بخلاء عليكم بالمعاونة، والشفقة، والنفقة في
سبيل الله ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ
الْمَوْتِ ﴾ أي ينظرون نظراً كائناً كنظر المغشي عليه، من معالجة سكرات
الموت، حذراً وخوفاً ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ ﴾ وحُرزت الغنائم ﴿ سَلَفُوكُمْ ﴾ أي
أذوكم ونالوا منكم ﴿ بِاللِّسَنِ حَدًّا ﴾ أي خاطبوكم مخاطبة شديدة، وقالوا
أعطونا قسمتنا، فإننا ساعدناكم، وقاتلنا معكم، والسَّلَى: البسطُ بقهر اليد،
أو باللسان، وسَلَفَه بلسانه خاطبه بما يكره ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴾ على المال
والغنيمة، يعني إنهم قليلو الخير في الحاليتين، كثيرو الشر في الوقتين
﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ﴿ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ في الحقيقة،
بل باللسنة ﴿ فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ﴾ أي أبطلها بسبب كفرهم ونفاقهم ﴿ وَكَانَ

ذَلِكَ ﴿ أَيِ الْإِحْبَاطِ ﴾ ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ هَيِّنًا وَسَهْلًا عَلَى اللَّهِ، لَأَنهَا فَقَدَتْ
عَنْصَرَ الْإِخْلَاصِ لِأَنهَا كِبَاءٌ عَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ.

﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ وَلَئِنْ بَأَتِ الْأَحْزَابُ يَوْمَئِذٍ لَوْ أَنَّهُمْ
بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ .

﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ أَيِ هَؤُلَاءِ لَجِبْنَهُمْ، يَظُنُّونَ أَنَّ الْأَحْزَابَ لَمْ
يَنْهَزُوا وَلِلذَلِكَ فَزُّوا إِلَى دَاخِلِ الْمَدِينَةِ ﴿ وَلَئِنْ بَأَتِ الْأَحْزَابُ ﴾ كَرَّةً ثَانِيَةً
﴿ يَوْمَئِذٍ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ ﴾ أَيِ تَمَتُّوا أَنَّهُمْ خَارِجُونَ إِلَى الْبَدْوِ،
حَاصِلُونَ بَيْنَ الْأَعْرَابِ ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ كُلُّ قَادِمٍ مِنْ جَانِبِ الْمَدِينَةِ ﴿ عَنْ
أَنْبَائِكُمْ ﴾ عَمَّا جَرَى عَلَيْكُمْ ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ ﴾ هَذِهِ الْكُرَّةُ وَلَمْ يَرْجِعُوا
﴿ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ رِيَاءً أَوْ خَوْفًا مِنْكُمْ.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أَيِ خِصْلَةٍ حَسَنَةٍ حَقَّقَهَا أَنْ
يُؤْتَى بِهَا وَيُقْتَدَى - فِي جِهَادِهِ، وَإِخْلَاصِهِ، وَصَبْرِهِ ﷺ -، كَالثَّبَاتِ فِي
الْحَرْبِ وَمُقَاسَاةِ الشَّدَائِدِ، بَلْ هُوَ فِي نَفْسِهِ قُدُوةٌ يَحِقُّ أَنْ يَتَأَسَّى بِهِ ﷺ
﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ ﴾ أَيِ ثَوَابِهِ أَوْ لِقَائِهِ، وَالرَّجَاءُ يَحْتَمِلُ الْأَمَلَ وَالْخَوْفَ
﴿ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ أَيِ أَكْثَرِ مَنْ ذَكَرَ رَبَّهُ، بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ، فِي
الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَالشَّدَةِ وَالرَّخَاءِ.

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ بيان لما صدر عن خُلص المؤمنين، بعد حكاية ما صدر عن المنافقين، أي ولما شاهدوهم ﴿قَالُوا هَذَا﴾ مشيرين إلى ما شاهدوه من كثرة الأعداء، وشدة البلاء ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ الآية، وقوله ﷺ: «سَيَشْتَدُّ الْأَمْرُ بِاجْتِمَاعِ الْأَحْزَابِ عَلَيْكُمْ» ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي ظهر صدقهما في البلاء والنصرة، والثواب، وإظهار الاسم الجليل للتعظيم، وهو في مقابلة قول المنافقين: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وقولهم: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ليس إشارة إلى ما وقع، فإنهم كانوا يعرفون صدق الله ورسوله، قبل الوقوع، وإنما هي إشارة إلى بشارة صدق الله تعالى لهم، في جميع ما وعد، مثل فتح مكة، وفتح الروم، والانتصار في بدر، فيقع الكل ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي ما رآه من كثرة الأحزاب ﴿إِلَّا إِيْمَانًا﴾ بالله ﴿وَسَلِيمًا﴾ لأوامره، ومقادره.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثبات مع الرسول ﷺ في الحروب، والمقاتلة لأعداء الله، وطلب الشهادة، ومعنى ﴿صَدَقُوا﴾ أتوا بالصدق، وهم رجال من الصحابة رضوان الله عليهم ثبتوا وقاتلوا مع الرسول ﷺ حتى استشهدوا ﴿فَمِنْهُمْ﴾ تفصيل لحال الصادقين ﴿مَّنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ أي مات أو قتل في سبيل الله، والتَّحَبُّ: النَّذْر، استعير للموت، لأنه كنذر لازم في عُنق المسلم، كحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضير رضي الله عنهم، فإنهم قد قضوا نذورهم واستشهدوا ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي بعضهم ﴿مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ أي ينتظر الشهادة كعثمان، وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك، فإنهم مستمررون على نذورهم وهو الثبات مع الرسول ﷺ والجهاد حتى الموت ﴿وَمَا بَدَّلُوا﴾ عطف على صدقوا، أي ما

بدلوا عهدهم ﴿تَبْدِيلًا﴾ بل ثبتوا على العهد، مراعين فيه عزة المسلم، وفيه تعريضٌ بأهل النفاق، ومرضى القلوب.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ متعلق بمضمر كأنه قيل: وقع جميع ما وقع ليجزي الله ﴿الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي بما صدر عنهم من الصدق والوفاء، قولاً وفعلاً ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ﴾ بما صدر عنهم من الأعمال والأقوال ﴿إِنْ شَاءَ﴾ تعذيبهم وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل اليأس من إيمانهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي لمن تاب وأناب، وفيه بعث إلى التوبة.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ﴾ شروع في حكاية بقية القصة، وتفصيل تنمة النعمة، أي وردَّ الله الأحزاب خائبيين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾ أي لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ أي غير ظافرين بخير القتال ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي لم يحوجهم إلى القتال ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداث كل ما يريد ﴿عَزِيمًا﴾ غالباً على كل شيء.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ أي عاونوا الأحزاب ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم بنو قريظة ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي من حصونهم العتيدة، وهي ما يُتحصن به

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي الخوف الشديد، بحيث أسلموا أنفسهم للقتل، وأهلهم وأولادهم حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ من غير أن يكون من جهتهم حراك، فضلاً عن المخالفة، روي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ، صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعوا السلاح، فقال له: أتنزع السلاح أنت وأمتك، والملائكة ما وضعوا السلاح!! إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، وأنا عامدٌ إليهم فمززل بهم الحصون فأذن في الناس أن لا يصلوا العصر إلا ببني قريظة، فحاصرهم ﷺ إحدى وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، فقال ﷺ: تنزلون على حكمي، فأبوا، فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فحكم سعد بقتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم ونسائهم، فقال له ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماواته»!! فذلك قوله تعالى:

﴿وَأُورِثَكُمُ أَرْضَهُمُ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْشُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾

﴿وَأُورِثَكُمُ أَرْضَهُمُ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْشُوهَا﴾ يعني وأورثكم أرضاً لم تقبضوها بعد، وهي خير لأنها فتحت بعد قريظة، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على كل ما أراد، فقد شاهدتم بعض مقدوراته جلّ وعلا.

﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لِّأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾

﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لِّأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي السعة والتنعم فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ وزخارفها ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أي أقبلن باختياركن لأحد الأمرين ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أعطكن المتعة، وتستحب لكل مطلقة ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي

أطلقكُنَّ ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي طلاقاً من غير ضرار وبدعة، روي أنهن سألن النبي ﷺ ثياب الزينة، وزيادة النفقة، فنزلت، وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه، لم يؤذن لأحد منهم، فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فأذن له، فوجد رسول الله ﷺ جالساً وحوله نساؤه واجماً - ساكتاً - فقال: لأقولن شيئاً أضحك به النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله: لو رأيت بنت خارجة - يعني زوجة عمر - سألتني النفقة - أي طلبت مني التوسعة في الإنفاق - فقمْتُ إليها فوجأتُ عنقها، فضحك النبي ﷺ فقال: هنَّ حولي كما ترى يسألن النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة فوجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة فوجأ عنقها، وكلاهما يقولان: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟ قلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً حتى نزلت هذه الآية، فقال: يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً، أحبُّ أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أباي؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية قالت: أفيك أستشير أباي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة» (١).

﴿وَلَيْنَ كُنْتَن تَرُدَّتْكَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَلَيْنَ كُنْتَن تَرُدَّتْكَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي تردن الرسول ﷺ، وذكر الله للإيذان بجلالة قدره ﷺ عنده تعالى ففي مرضاة الرسول رضي الله سبحانه وتعالى ﴿وَالْذَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي نعيمها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ﴾ بمقابلة إحسانهن ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يُقَادَر قدره وهي الجنة التي فيها ما لا عين

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الطلاق رقم ١٤٧٨.

رأت ولا أذن سمعت، و«مِنْ» للتبيين، لأنهن كلهن محسنات رضوان الله عليهن^(١).

﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ بكبيرة ﴿مُبَيَّنَةٍ﴾ ظاهرة القبح، والمراد منها كل ما اقترفن من الكبائر، وقيل: عصيانهن لرسول الله ﷺ، ونشوزهن وطلبهن منه ما يشق عليه ﷺ، والغرض مجرد التحذير لا أن منهن من أتت بفاحشة، فإن الله تعالى صان أزواج الرسول ﷺ عن القبائح ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي يعدن ضعف العذاب لغيرهن، أي مثليه، لأن الذنب منهن أقبح، فإن زيادة القبح تابعة لزيادة فضل المذنب، والنعمة عليه، ولذلك جعل حد الحر ضعف حد الرقيق، وعُوتب الأنبياء عليهم السلام بما لا يعاتب به الأمم، وكون ذلك يسيراً على الله، أي لا يمنعه عن التضعيف كونها من نساء النبي ﷺ، بل يدعوه إليه لمراعاة حقه ﷺ.

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا﴾ أي ومن يدم على

(١) سبب نزول آية التخيير أن النبي ﷺ لما نصره الله في غزوة الأحزاب، وفرق عنه جموع المشركين، وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، وخشين أن يوزعها بين المسلمين، فقعدن حوله وقلن يا رسول الله: بنات كسرى وقبصر في الحلي والحلل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق!! وآلمن قلبه ﷺ بهذه المطالبة وبهذه الكلمات، فنزلت آية التخيير.

الطاعات ﴿تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مرة على الطاعة والتقوى، ومرة على طلبهنّ رضا رسول الله، بالقناعة، وحسن المعاشرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ في الجنة، زيادة على أجرها المضاعف، أي رزقاً مرضياً جليلاً القدر.

﴿يَلْبَسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (٣٦).

﴿يَلْبَسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أي لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، في الفضل والشرف ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ أي اتصفتن بالتقوى كما هو اللائق بحالكنّ ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي لا ترققن الكلام أمام الرجال، ولا تجبن بالكلام الرقيق اللين، على سنن المربيات الفاجرات^(١) ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي فجور وريبة ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي بعيداً عن الريبة بجِدٍّ وخشونة.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٣٣).

(١) إذا كان القرآن الكريم يمنع المسلمة، أن تتلاين في كلامها مع الرجال الأجانب، لئلا يطمع بها الفساق والفجّار، فكيف بمن تثير الغرائز والكوامن، بالغناء الماجن الخالي من العفة، الذي كله ميوعة وانحلال، ودعوة إلى العهر والفجور، وتختلط فيه أصوات المغنّين والمغنّيات مع آلات الموسيقى والطرب، في الحفلات الساهرة الداعرة، وتنقله الإذاعة والتلفاز، ثم نسمع من بعض أدعياء العلم من يبيع ذلك، بحجة أن صوت المرأة ليس بعورة، وأن غناء المرأة ليس بحرام!! إذاً فما هو الحرام في نظرهم؟ اللهم إنا نعوذ بك من شر هذا الزمان، الذي فسق فيه كثير من الشبان، وطمغت فيه النساء وجاوزن حدّ الاحتشام، وأصبح فيه المنكر معروفاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي الزمْنَ بيوتكن يا نساء النبي، ولا تتسكعن في الطرقات، وأصله اقررن، يقال: قرَّ الشيء أي استقرَّ بالمكان وثبت فيه ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ﴾ أي لا تبخترن في مشيكن، وهو التكسُّرُ والتغشُّج، والتبخر، وإظهار الزينة والمحاسن للرجال ﴿تَبْرَجَ الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى﴾ أي مثل تبرج نساء الجاهلية قبل الإسلام، فقد كانت المرأة تلبس درعاً من اللؤلؤ، فتمشي وسط الطريق، تعرض نفسها على الرجال ﴿وَأَقَمْنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ﴾ أمر بهما لفضلهما على غيرهما، وكونهما أصلي الطاعات البدنية، والمالية ﴿وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في كل الأمور والأحوال، لا سيما فيما أمرتن به، ونهيتن عنه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي الذنب المدنس لعرضكم، وهو تعليل لأمرهن ونهيهن ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي يا أهل بيت النبي ﷺ، مراداً بهم من حواهم بيت النبوة ﴿وَيُطَهِّرَكُمُ﴾ من أوضار الأوزار والمعاصي ﴿تَطْهِيراً﴾ بليغاً، فعرض المقترف للإثم يتلوث كما يتلوث بدنه بالأرجاس، وهذه الآية - كما ترى - آية بينة، على كون نساء النبي ﷺ أهل بيته، وقاضية ببطلان رأي الشيعة في تخصيصهم «أهل البيت» بفاطمة وعلي، وابنيهما رضي الله عنهم، وما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرج النبي ﷺ ذات غداة، وعليه مرطٌ مُرْجَلٌ^(١) من شعر أسود، فجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه، ثم جاء علي فأدخله فيه، ثم جاء الحسن فأدخله فيه، ثم جاء الحسين فأدخله فيه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمُ تَطْهِيراً﴾ إنما يدلُّ على كونهم من أهل البيت، لا على أن ما عداهم ليسوا كذلك، والنصُّ في القرآن قاطع.

﴿وَأَذْكُرْتَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾

(١) أي كساء أسود فيه بعض النقوش، والحديث أخرجه مسلم.

﴿وَأَذْكُرْتُ﴾ أي اذكرون للناس بطريق العظة والتذكير ﴿مَا بَيْنَ يَدَيْ يَوْمِي﴾ كُنْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴿من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله للدلالة على صدق النبوة، وكونه حكمة منظوية على فنون العلوم والشرائع، وهو تذكير لهنَّ بما أنعم الله عليهنَّ، حيث جعلهن أهل بيت النبوة، ومهبط الوحي، وما شاهدنه من أنوار الوحي، مما يوجب قوة الإيمان﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا ﴿عالماً بغوامض الأشياء﴾ خَيْرًا ﴿عالماً بحقائقها، وبواطنها، يعلم ما يصلح في الدين، ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته ﷺ﴾.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الداخلين في الإسلام، المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والإناث ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ المصدقين بما يجب أن يُصدق به من الفريقين ﴿وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ﴾ أي المداومين على الطاعات، القائمين بها ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ في القول والعمل ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على الطاعات وعن المعاصي ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ المتواضعين بقلوبهم، وجوارحهم ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ بما يجب في مالهم ﴿وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ﴾ الصوم المفروض فرضاً، ونفلًا ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ عن الحرام ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة ﴿مَغْفِرَةً﴾ لما اقترفوا من الصغائر،

لأنهن مكفرات بها ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على ما صدر عنهم من الطاعات، والآية وعدٌ لهن، أي لنساء النبي ﷺ ولجميع المؤمنين والمؤمنات، عن أم عُمارة الأنصارية قالت: «أتيتُ النبي ﷺ فقلت: مالي أرى كلَّ شيءٍ إلى الرجال، وما أرى النساء يُذكرن بشيء؟ فتزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾ الآية»^(١).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي وما صحَّ وما استقام لرجل من المؤمنين، ولا لمرأة من المؤمنات ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ أي إذا قضى رسول الله، وذكرُ الله للتعظيم وللإشعار بأن قضاءه ﷺ قضاء الله تعالى، نزلت هذه الآية في «زينب بنت جحش» بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة، فأبت هي وأخوها عبد الله فتزلت، فلما سمعا الآية رضىا، وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ، فأنكحها زيداً وساق رسول الله ﷺ إليها مهرأ عشرة دنانير، وخماراً، ودرعاً، وملحفة ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا، بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه ﷺ ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أمر من الأمور، ويعمل برأيه ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ طريق الحق والسعادة ﴿ضَلَالًا مُبِينًا﴾ بين الانحراف عن سنن الصواب، لأن ردَّ أمر النبي ﷺ ضلال وفسق.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٢٠٩ في كتاب التفسير وقال: حديث حسن غريب.

﴿وَلَا تَقُولُ﴾ أي اذكر وقت قولك ﴿لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقك لحسن تربيته ﴿وَأَتَعَمَّتْ عَلَيْهِ﴾ من فنون الإحسان، التي من جملتها تحريره وعتقه وهو «زيد بن حارثة» تبناه رسول الله ﷺ قبل النبوة، ثم أعتقه وزوجه بزینب رضي الله عنها فكانت تتكبر عليه فجاء ذات يوم إلى الرسول ﷺ وقال له: أريد أن أفارق صاحبتني، فقال ﷺ له: مَا لَكَ أَرَأَيْتَ مِنْهَا شَيْءٌ؟ قال: لا والله، ما رأيتُ منها إلا خيراً، ولكنها لشرفها تتعظم عليّ فقال له ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ في أمرها فلا تطلقها تعللاً بتكبرها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي وتضمّر في نفسك ما سيظهره الله من رغبة الزواج بها بعد أن يطلقها؟ وأصح ما في هذا الباب ما روي عن سفيان بن عُيينة عن علي بن زيد قال: سألني زين العابدين «علي بن الحسين» قال: ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ الآية فقال علي بن الحسين إن الله عز وجل قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه، وأن زيدا سيطلقها، فلما جاء زيد وقال ما قال، وقال ﷺ لزید: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ فعاتبه الله تعالى، وقال: لم قلت: أمسك وقد أعلمتُك أنها ستكون من أزواجك؟ وهذا أولى وأليق لشأن الرسول ﷺ، وهو مطابق للتلاوة أيضاً، لأن الله تعالى أعلم أنه سيبيد ويظهر ما أخفاه، ولم يظهر غير تزويجها منه، فقال تعالى: ﴿زَوَّجْنَاهَا﴾ فلو كان الذي أضمره ﷺ إرادة طلاقها وتزويجها منه، كما قيل لكان يظهر ذلك، لأنه لا يجوز أن يُخبر أنه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره، فدلّ على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجته، وإنما أخفى ذلك رسول الله ﷺ حياة، لأنه كم من شيء يتحفظ الإنسان منه، ويستحي من اطلاع الناس عليه، وهو في نفسه مباح وحلال!! وكم من أمر لا عيب فيه عند الله، وربما كان الدخول في ذلك المباح سُلماً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين، كإبطال حكم التبني وهو إنما جعل الله طلاق زيد لها، وتزويج النبي ﷺ إياها، لإزالة حرمة التبني، وإبطال تشريعه الجاهلي كما قال الله تعالى: ﴿لَكَيْلًا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾

وأما ما ذكره بعض الجهلاء في تفسير هذه الآية، من وقوع محبتها في قلب النبي ﷺ، عندما رآها، وإرادته طلاق زيد لها، فيه أعظم الخطأ، ونسبة ما لا يليق بمنصبه ﷺ من مدّ عينيه لما نُهي عنه من زهرة الحياة الدنيا ﴿لَا تَمْدَنَّ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وإقدام عظيم من قائله، وقلّة معرفته بحق النبي ﷺ وبفضله، وكيف يقال رآها فأعجبته، وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذ ولدت، والحال أنها رضيت له ﷺ قبل تزويج نفسها لزيد، ولو أعجبته لتزوجها في هذا الوقت، ولم يزوجها لزيد، فدعوى وقوع محبتها في قلب النبي ﷺ دعوى باطلة مكذوبة، وهي من دسائس أعداء الإسلام، والله عزّ وجلّ فعل كما أراد، وكان كما يشاء، ولا رادّ لأمر الله وحكمه ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ﴾ تعبيرهم إياك بنكاح مطلقة دعيّة ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ وحده، ليس هذا إشارة إلى أن النبي ﷺ خشي الناس، ولم يخش الله، بل المعنى: الله أحق أن تخشاه وحده، ولا تخش أحداً معه، وأنت تخشاه وتخشى الناس أيضاً، فاجعل الخشية له وحده كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ قال عمر وابن مسعود وعائشة: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشدّ عليه من هذه الآية، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لو كنتم رسول الله ﷺ من الوحي شيئاً لكنتم هذه الآية» (١) ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مَتْنَهَا وَطَرًا﴾ أي حاجة، فإذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همّة، قيل: قضى منه وطره، والوطر: الحاجة، والمعنى: فلما لم يبق لزيد فيها حاجة، أي طلقها وانقضت عدتها، وذكر قضاء الوطر ليعلم أن زوجة المتبنّي تحلّ بعد الدخول بها ﴿زَوَّجْنَاهَا﴾ المراد بتزويجها منه ﷺ جعلها زوجته بلا واسطة عقد، ويؤيد هذا ما روي أنها كانت تقول لنساء النبي ﷺ: إن الله تولّى نكاحي، وأنتن زوجكن أولياؤكن ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق ومشقة ﴿فِي أَزْوَاجٍ أَدْعَبَ إِلَيْهِنَّ إِذَا قُضُوا مِنْهِنَّ وَطَرًا﴾ أي

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٠٥.

في حق تزوجهن، فإن لهم في رسول الله أسوة حسنة، وفيه دلالة على أن حكمه ﷺ وحكم الأمة سواء، وإشارة إلى أن هذا التزويج منه ﷺ لم يكن لقضاء الشهوة، بل لبيان حكم من أحكام الشريعة الغراء بفعله عليه السلام ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي ما يريد تكوينه من الأمور ﴿مَفْعُولًا﴾ محملاً مكوّناً لا محالة، فقد زوّجك الله بها، وأبطل حكم التبنّي بهذا التشريع الإلهي.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ ﴿٣٨﴾.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما صحّ وما استقام في الحكمة، أن يكون على الرسول ضيق ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي فيما قسم له وأمر له وقدر، من قولهم فرض له في الديوان كذا، وفرض القاضي النفقة: قدرها، والمراد به هو نكاح زينب، وتعدد النساء، وغيره ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ أي سنّ الله ذلك سنة، والسُنَّةُ: الطريقة والسيرة الحميدة جمعها سُنَنٌ، مثل غُرْفَةٍ وَغُرْفٌ ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي مضوا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من الأنبياء عليهم السلام، حيث وسّع عليهم في باب النكاح وغيره ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي قضاء مقضياً، وحكماً مبتوتاً.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ ﴿٣٩﴾.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ صفة للذين خلوا ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أي يخافونه في كل ما يأتون وما يذرون، لا سيما في أمر التبليغ، حيث لا ينقصون حرفاً، ولا تأخذهم في ذلك لومة لائم ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي ولا يخافون أحداً سواه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي كافياً للمخاوف، فينبغي أن لا يُخشى غيره.

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ أي على الحقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده، من حرمة المصاهرة وغيرها، نزلت لما تزوج رسول الله ﷺ زينب، قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه فنزلت هذه الآية تأكيداً لإبطال شريعة التبني ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾ أي ولكن كان رسول الله، وكلُّ رسول أبٌ لأُمَّته، لكن لا حقيقة بل مجازاً، بمعنى أنه شفيقٌ، ناصح لهم كالوالد، وسبب لحياتهم الأبدية، لا ولادة بينهم وبينه ﷺ، وزيد منهم، وليس للتبني حكم شرعي كحكم الأبناء ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ أي كان آخرهم الذي ختموا به، فهو خاتمهم وأفضلهم على الإطلاق، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِن مَّثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِن قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَنِيَانًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيَتَعَجَّبُونَ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ؟ فَأَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(١) ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة^(٢).

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ ﴾

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ بما هو أهله من التهليل، والتحميد،

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٤٠٧/٦ ومسلم رقم ٢٢٨٧.

(٢) فإن قيل: كيف يكون خاتم النبيين، وعيسى عليه السلام سينزل بعده كما ثبت في الصحيحين؟ فالجواب أن عيسى نبي قبله، وحين ينزل في آخر الزمان يحكم بشريعة محمد ﷺ لا بشريعته، فيبقى نبينا خاتم النبيين، ومعنى الآية لا يتنبأ نبي بعده ولا ينزل الوحي على أحد بعده، والله أعلم.

والتفديس ﴿ذَكَرًا كَثِيرًا﴾ يعم الأوقات والأحوال، فالذكر يحيي القلوب، كما تحيا الأرض بالمطر.

﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

﴿وَسَبِّحْهُ﴾ نزهوه عما لا يليق به ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي أول النهار، وآخره، واللفظ إشارة إلى المداومة على الذكر، كأنه قال: سبحوا ربكم دائماً وأبداً، في الليل والنهار، والصباح والمساء.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي يعتني بكم بالمغفرة، والتزكية، والرحمة، وهو استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله، وتحريض للمؤمنين على الذكر والتسبيح، فإن صلاته تعالى - مع عدم استحقاقهم لها - ممّا يوجب عليهم المداومة من ذكره تعالى، وتسبيحه ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي وملائكته يصلون عليكم أيضاً بالدعاء والاستغفار وطلب الرحمة كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. (١) الآية. والمراد بصلاة الله والملائكة معنى عام مجازي، هو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاحهم، ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي يعتني بأموركم هو وملائكته، ليخرجكم من ظلمات الكفر والعصيان، إلى نور الإيمان والعرفان ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي كان بكافة المؤمنين رحيماً، وفيه بشارة لجميع المؤمنين، وإشارة إلى أن الآية غير مختصة بالسامعين وقت الوحي.

(١) سورة المؤمن، آية: ٦.

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (٤٤)

﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أي تحية الله لهم ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أي يوم لقائه عند البعث، أو عند دخول الجنة ﴿ سَلَامٌ ﴾ تسليم من الله عز وجل، تعظيماً لهم، أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾^(١) الآية ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ أي هيا لهم جزاء حسناً، وهو دخول الجنة، وما فيها من النعيم المقيم الخالد.

﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٤٥)

﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا ﴾ على من بُعثت إليهم، تراقب أحوالهم، وتشاهد أعمالهم، وتؤديها يوم القيامة فيما لهم وما عليهم ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ بالجنة للابرار ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ بالنار للکفار الفجار.

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (٤٦)

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى الإقرار به، وبوحدانيته، وبسائر ما يجب الإيمان به ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أي بتيسيره وأمره سبحانه وتعالى، لا من تلقاء نفسك ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ يستضاء به في ظلمات الجهل، ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية.

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ (٤٧)

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وبشر المؤمنين منهم خاصة ﴿ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ على مؤمني سائر الأمم، في الرتبة والشرف.

(١) سورة الرعد، آية: ٢٣.

﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ﴾ الجاحدين وحادانية الله المتظاهرين بالإسلام كذباً وزوراً، لا تطعمهم فيما يدعونك إليه، من المساهلة والملاينة في أمر الدين ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الآية نهى عن مداراتهم في أمر الدعوة، والمسامحة في الإنذار ﴿وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ أي لا تبال أذيتهم لك، بسبب تصلبك في الدعوة والإنذار، فالله يصرف عنك ضررهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في كل ما تأتي وما تذر فإنه تعالى يكفيك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليه الأمور، في كل الأحوال.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّجُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أي تجامعوهُنَّ، والخلوة الصحيحة كالجماع ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ﴾ أي تستوفون عددها، والإسناد إلى الرجال، للدلالة على أن العدة حق الأزواج، كما أشعر به قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم للكتابات للتنبيه على أن المؤمن من شأنه أن لا ينكح إلا مؤمنة، وأن يتخير لنطفته امرأة صالحة ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أي إن لم يكن مفروضاً لها في العقد، فإن الواجب لها حينئذ نصف المفروض دون المتعة، فإنها مستحبة عندنا، وقيل: إنها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية ﴿وَسِرَّجُوهُنَّ﴾ أي أخرجوهنَّ من منازلكنَّ ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من غير ضرار، ولا منع حق.

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلْلِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ﴾ أي مهورهن فإنها أجور الأَبْضَاعِ، وإتاؤها ليس لتوقف الحل عليه، لأنه يصح العقد بلا تسمية، ويجب مهر المثل، بل لإيثار الأفضل والأولى له ﷺ ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أي وأبنا لك النساء اللاتي تملكن بطريق الغنيمة «المملوكات» في الحرب ﴿ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلْلِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ ويحتمل تقييد الحل بذلك في حقه ﷺ خاصة، ويعضده قول أم هانئ بنت أبي طالب: «خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله تعالى هذه الآية، فلم أحل له لأنني لم أهاجر معه» ﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً ﴾ أي وأحللنا لك أيضاً امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك ﴿ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أي إن ملكته نفسها بطريق الهبة، وأراد الرسول ﷺ نكاحها بدون مهر، وهذه من خصائصه ﷺ ولهذا قال تعالى: ﴿ خَالِصَةً لَكَ ﴾ أي خاصة لك يا محمد، فلا تصح الهبة في النكاح لغيرك ﴿ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي إن الإحلال المذكور، غير متحقق في حقهم، وإنما المتحقق في حقهم الإحلال بمهر المثل ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي على المؤمنين ﴿ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ أي في حقهن من شرائط العقد وحقوقه، ما لم يفرض عليه ﷺ، تكرمة له، أي قد علمنا ما ينبغي أن يفرض عليهم في حق أزواجهم ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي ما أوجبنا من الأحكام في ملك اليمين بالشراء وغيره من وجوه الملك، وخصصناك

ببعض الخصائص توسعة عليك ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما يعسر التحرز عنه ﴿رَحِيمًا﴾ ولذا وسع الأمر في الحرج.

﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَشَاءٍ مِنْهُنَّ وَتَتَوَقَّىٰ إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ وَمِنْ أَنْبَغَيْتٍ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ٥١﴾.

﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَشَاءٍ مِنْهُنَّ﴾ أي تؤخرها وتترك مضاجعتها ﴿وَتَتَوَقَّىٰ﴾ أي تظمئ ﴿إِلَيْكَ﴾ أو تطلق من تشاء منهن، وتمسك ﴿مِنْ نَشَاءٍ وَمِنْ أَنْبَغَيْتٍ﴾ أي طلبت بالرجعة ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في شيء مما ذكر، وهذه قسمة جامعة، لأنه ﷺ إما أن يطلق أو يمسك، فإذا أمسك ضاجع أو ترك، وإذا طلق فإما أن يخلي أو يبتغيها. وقد كانت التسوية بينهما في القسم، واجبة عليه ﷺ، فلما غار بعضهن على النبي ﷺ، نزلت هذه الآية وسقط عنه الوجوب، وصار الاختيار إليه فيهن، يفعل كيف يشاء، وكان ذلك من خصائصه ﷺ ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من التفويض إليه ﷺ ﴿أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي أقرب إلى قرّة عيونهن، ورضاهن، فإن سوّيت بينهما وجدن ذلك تفضلاً منك، وإن رجحت بعضهن، علمن أنه بحكم الله تعالى، فنطمئن نفوسهن به ﴿وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من الضمائر والخواطر فاجتهد في إحسانها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ فيعلم ما تبدونه وتخفونه ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ٥٢﴾.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي من بعد هؤلاء التسع، اللاتي خيرتهن

فاخترتك، ورضاهن بما آتيتهن ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ﴾ أي تبدل ﴿بِهِنَّ﴾ أي بهؤلاء التسع، بأن تطلق واحدة منهن، وتنكح مكانها أخرى ﴿مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي حسن الأزواج المستبدلة ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي لا بأس أن تبادل بجاريتك ما شئت، فأما الحرائر فلا، وأراد الله بذلك لهن كرامة، وجزاء على ما اخترن ورضين، عندما نزلت آية التخيير وهن التسع اللاتي توفي ﷺ عنهن، وهن «عائشة بنت أبي بكر» و«حفصة بنت عمر» و«أم حبيبة بنت أبي سفيان» و«سودة بنت زمعة» و«صفية بنت حُيَيٍّ»، و«ميمونة بنت الحارث»، و«زينب بنت جحش» و«رملة بنت أبي سفيان» و«جويرية بنت الحارث» رضوان الله عليهن ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ حافظاً ومهيماً وهو تحذير عن مجاوزة حدوده تعالى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ شروع في بيان ما يجب مراعاته على الناس، من حقوق النبي ﷺ، إثر بيان ما يجب مراعاته من الحقوق المتعلقة بهن ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو من أعم الأوقات، أي لا تدخلوها في وقت من الأوقات، إلا وقت أن يؤذن لكم ﴿إِلَى طَعَامٍ﴾ أي إلا أن تدعوا إلى طعام، وفيه إشعار بأنه لا ينبغي المجيء على الطعام بغير دعوة، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ أي غير منتظرين وقت نضجه وإدراكه ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾

أي إذا دعيتم إلى وليمة وأذن لكم في الدخول فادخلوا، وفيه دلالة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ أي فتفرقوا ولا تمكثوا فتثقلوا على أهل المنزل، وهو خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه ﴿وَلَا مُسْتَغْنِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي وغير جالسين بعد الطعام، ليستأنس بعضهم لحديث بعض ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ أي ذلك الاستئناس واللبث الذي تفعلونه ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ بتضييق المنزل عليه وعلى أهله، وصدّه عن الاشتغال بما يعينه ﴿فَلْيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ﴾ أي من إخراجكم ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أي لا يترك تأديبكم، وهذا أدبٌ أدَّبَ الله به الثقلاء، فوردت الآية جامعة لآداب الضيافة والوليمة، روى الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، وكان أول ما نزل في متبني رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش، حين أصبح النبي ﷺ بها عروساً، فدعا القوم فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا، وبقي رهطٌ عند النبي ﷺ، فأطالوا المكث، فقام النبي ﷺ فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا فمشى النبي ﷺ ومشيت معه، حتى جاء عتبة حجرة عائشة رضي الله عنها، ثم ظنَّ أنهم قد خرجوا فرجع ورجعتُ معه حتى إذا دخل على زينب، فإذا هم جلوسٌ لم يقوموا، فرجع النبي ﷺ ورجعت حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظنَّ أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعتُ معه، فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه بالستر وأنزل الله آية الحجاب^(١)، وهي هذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضمير لنساء النبي ﷺ المدلول عليهن بذكر بيوته ﷺ ﴿مَتَعًا﴾ أي شيئاً يُتَمَتَّع به ﴿فَسَلُّوهُنَّ﴾ أي المتاع ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي ستر، فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله ﷺ متنقبة كانت أو غير متنقبة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي سؤال المتاع من وراء

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٤٠٥/٨ ومسلم رقم ١٤٢٨ في النكاح، باب زواج النبي ﷺ بزینب.

الحجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ أي أكثر تطهيراً من الخواطر الشيطانية ﴿وَقُلُوبُهُنَّ وَمَا كَانَتْ لَكُمْ﴾ أي وما صحَّ وما استقام لكم ﴿أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي أن تفعلوا في حياته فعلاً يكرهه ويؤذيه ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ الآية ردُّ عن من قال: لئن مات محمد، لا تزوجن فلانة يعني إحدى زوجاته، فتزلت ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر، من إيذائه، ونكاح أزواجه من بعده ﷺ، ﴿كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي أمراً عظيماً وخطأً جسيماً، وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله، وإيجاب حرمة حياً وميتاً، ما لا يخفى.

﴿إِنْ تُبْذُوا شَيْئًا أَوْ تَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿إِنْ تُبْذُوا شَيْئًا﴾ مما لا خير فيه كنكاحهن على ألسنتكم ﴿أَوْ تَخْفَوْهُ﴾ في صدوركم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم على المعاصي البادية والخافية، وفيه مزيد تهويل، ومبالغة في الوعيد.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أَسْرَائِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أَسْرَائِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ﴾ روي أنه لما نزلت آية الحجاب، قال الآباء والأبناء يا رسول الله أو نكلمهن أيضاً من وراء الحجاب، فتزلت وإنما لم يذكر العم الخال لأنهما بمنزلة الوالدين، ولذلك سمي العم وأباً في قوله تعالى: ﴿وَالْأَبَانُكَ إِبرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ والمراد من ﴿نِسَائِهِمْ﴾ أي النساء المؤمنات، وإنما قال نساءهن لأنهن من أجناسهن ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من العبيد، والإماء، وقيل: من الإماء خاصة ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما

أُمرتَنَ به ونُهيتَنَ عنه، لا سيما عند العبيد، وفيه دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي لا تخفى عليه خافية.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي يعتنون بإظهار شرفه، وتعظيم شأنه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أي اعتنوا أنتم أيضاً بذلك، فإنكم أولى به ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي قائلين: اللهم صل على محمد وسلم، أو نحو ذلك، والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقاً، من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه، وقيل: يجب ذلك كلما جرى ذكره، والمعتمد قول الكرخي قال: إنها واجبة مرة، وأما كلما ذكر فمستحبة، أفاده في مجمع الأنهر. وأما في الصلاة في التشهد فهي واجبة، وقد سأل بعض الصحابة الرسول عن كيفية الصلاة والسلام عليه فقال: قولوا «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وإفراد الغير بالصلاة من أهل البيت فمكروه، وهو من شعائر الروافض، كقولهم: علي عليه الصلاة والسلام، لأنه شعار ذكر الرسول ﷺ، ولذا كره أن يقال: محمد عز وجل، مع كونه عزيزاً وجليلاً، بل يكتفى بقول محمد ﷺ أو عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أريد بالإيذاء في حق الله تعالى، وصفه

بما لا يليق به جلّ وعلا، كنسبة الزوجة والولد، وفعل ما يكرهه من الكفر، والمعاصي، لاستحالة حقيقة التأذي في حقه تعالى، وقيل هو كقول اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقول النصارى ﴿ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وقول المشركين: الملائكة بناتُ الله، والأصنام شركاؤه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأمّا إيذاء الرسول فهو قولهم: شاعر، مجنون، ساحر، وطعنهم في نكاح صفية، وزينب، والنيل منه ﷺ بالقدح والذم ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بحيث لا ينالون فيهما شيئاً من الرحمة والهداية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ يهينهم ويدلهم مع الإيلام الشديد.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي يقولون فيهم ما يتأذون به، من قول أو فعل، وتقييده بقوله تعالى: ﴿بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي بغير جناية يستحقون بها الأذية، للإيذان بأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق، وأما أذى هؤلاء، فممنه ما هو حق كالحدّ والتعزير، ومنه ما هو باطل ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي ظاهراً بيناً، نزلت في أهل الإفك، وقيل: في الفساق الذين يتبعون النساء، إذا برزن للحاجة، والظاهر العموم، وإذا كان لا يحل لك أن تؤذي كلباً، أو خنزيراً، فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات؟.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَنْهُمْ مِنْ جَلِيلٍ إِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرِفَنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَنْهُمْ مِنْ جَلِيلٍ﴾

بعدما بيّن سوء حال المؤذنين أمر النبي ﷺ بأن يأمر زوجاته وبناته وسائر نساء المؤمنين، بالتستر والاحتشام، ليدفع عنهن السنة الفسقة اللثام، فقال سبحانه: ﴿قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي يغطّين بها وجوههن، والجلباب هو الرداء الذي يستر جميع بدن المرأة، كالمحفة والعباءة التي تشتمل بها المرأة، وكل ما يُستتر به، أي يغطّين بها وجوههن وأبدانهن، إذا برزن لداعية من الدواعي ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من التغطي ﴿أَدَقَّ﴾ أي أقرب ﴿أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ أي يعرفن أنهم حرائر وعفاف، فلا يتبعهن الفجار، ويمكن أن يقال: المراد يعرفن أنهم لا يزني، لأن من تستر وجهها، مع أنه ليس بعورة، لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها، فيعرفن أنهم مستورات لا يمكن الزنا بهن ﴿فَلَا يُؤْذَنُ﴾ من جهة أهل الرية بالتعرض لهن ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهم من التفريط ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده حيث يراعي مصالحهم بتشريع ما يحفظ كرامتهم.

﴿لَنْ تَرِيَنَّهُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿لَنْ تَرِيَنَّهُ الْمُتَنَفِقُونَ﴾ عما هم عليه من النفاق ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي فجور وهم الزناة ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ من الفريقين من نشر أخبار السوء، وغير ذلك من الأراجيف الملققة المستتبعة للأذية ﴿لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنأمرك بقتالهم وإجلالهم، ولنحرضك على ذلك ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ أي ثم لا يساكنونك ولا يعودون إلى مجاورتك ﴿فِيهَا﴾ في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي زماناً قليلاً ريثما يتأهبوا للخروج.

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا﴾.

﴿مَلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم أي مطرودين من رحمة الله عز وجل

﴿أَيْنَمَا تَقِفُوا أَخِذُوا وَقْتِكُمْ نَفْتِيلًا﴾ أي أينما وجدوا وأدركوا قُتِلُوا تفتيلاً، لكفرهم ونشرهم أخبار السوء والفساد.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿١٢﴾.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ في الأمم الماضية، وهي أن يقتل الذين نافقوا وعادوا الأنبياء، وسعوا في توهين أمرهم، بالإرجاف ونحوه ﴿وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي ولن تتغير سنة الله أو تبدل، بل يجريها بمجرى واحد في الأمم، وفي جميع الأزمان.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿١٣﴾.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي عن وقت قيامها، كان المشركون يسألونه استعجالاً واستهزاء ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي لا يطلع عليه ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي أي شيء يعلمك بوقت مجيئها؟ ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي شيئاً قريباً، وفيه تهديد للمستعجلين.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿١٤﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ على الإطلاق، أي أبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة الانتقاد، يقاسونها في الآخرة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٥﴾.

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي مقيمين في نار جهنم أبد الآبدين، وهذا يردُّ على من زعم فناء النار، فإن قوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾ يدل على الدوام والاستمرار ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحفظهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يخلصهم من عذاب الله.

﴿ يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾.

﴿ يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أي يوم تصرف وجوههم فيها من جهة إلى جهة، كاللحم المشويّ يقلب على النار، وتخصيص الوجوه بالذكر، لما أنها أكرم الأجزاء، ففيه مزيد تفتيح، فإن الإنسان يدفع عن وجهه الضربة اتقاء بيده، أو يطأطئ رأسه كي لا يصيب وجهه، ولذلك ذكر هنا الوجه تفتيحاً وتشنيعاً ﴿يَقُولُونَ﴾ متحسرين على ما فاتهم ﴿يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فلا نبتلى بهذا العذاب.

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴾.

﴿ وَقَالُوا ﴾ عطف على يقولون وهو ضرب اعتذار للتشفي من الزعماء ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ يعنون قاداتهم الذين لقنوهم الكفر، والتعبير عنهم بعنوان السيادة لتقوية الاعتذار وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة ﴿وَكِبَرَاءَنَا﴾ فاضلونا السبيل بما زينوا لنا من الأباطيل، وزيادة الألف لإطلاق الصوت وفائدتها الوقف.

﴿ رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعَفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَمُ لَعْنَا كَبِيرًا ﴾.

﴿ رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعَفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ لأنهم ضلُّوا أو أضلُّوا، أي اجعل عذابهم مثل العذاب الذي نحن فيه مرتين ﴿وَالْعَنَمُ لَعْنَا كَبِيرًا﴾ أي شديداً وعظيماً.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوُا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبَاحُهَا ۖ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوُا مُوسَىٰ﴾ نزلت في شأن زيد وزينب وما سمع فيه من مقالة الناس ﴿فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ أي فأظهر براءته مما قالوا في حقه ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبَاحُهَا﴾ ذا وجاهة ومنزلة عظيمة.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذررون ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي صدقاً وصواباً، قاصداً إلى الحق.

﴿يُضِلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۖ﴾.

﴿يُضِلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ بالقبول، ويوفقكم للأعمال الصالحة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي يجعلها مكفرة، باستقامتكم في القول والعمل ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ﴾ في الدارين ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ يعيش في الدنيا حميداً، وفي الآخرة سعيداً.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۖ﴾.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ لما بين الله تعالى عظم طاعة الله ورسوله، عقب ذلك ببيان عظم شأن التكليف الشرعية بطريق التمثيل، وعبر عنها بالأمانة، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد، وأمرهم بمراعاتها وأدائها، وعبر عن

اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذُكر من السماوات والأرض، بالعرض عليهنَّ لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها، بالإيلاء والإشفاق منها، لتسهيل أمرها وكأنها من الأجسام الثقيلة، التي تستعمل فيها القوى الجسمانية والمعنى: إن تلك الأمانة في عظم الشأن، بحيث لو كُلفت هاتيك الأجسام العظام، التي هن مَثَلٌ في القوة والشدة مراعاتها، وكانت ذوات شعورٍ، لأبَيَّنَ قبولها، وأشفقن منها، والأمانة جميع ما أمروا به ونُهِوا عنه، وكان العرض تخييراً لا إلزاماً، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها، والجمادات كلها خاضعة لله، مطيعة لأمره، ساجدة له تعالى ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ عند عرضها عليه، أي تكلفها والتزمها، مع ما فيه من ضعف البنية، ورخاوة القوة ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ تَطْلُومًا﴾ حيث لم يف بها، ولم يراعِ حقها ﴿جَهُولًا﴾ بكنهه عاقبتها، وهذا وصفٌ للجنس باعتبار الأغلب.

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٧٦﴾

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أي ليعذب الكفرة من أهل النفاق، والمشركين والمشركات عبَاد الأوثان، الذين ضيَّعوا الأمانة بعدما قبلوها ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي ويرحم أهل الإيمان، ويعود عليهم بالتوبة والغفران، لأنهم حفظوا الأمانة، وراعوا حقها ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ حيث تاب على فرطاتهم، وأثابهم على طاعتهم، فهو سبحانه الغفور الرحيم، البر الكريم، نسأله تعالى المغفرة والرضوان.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحزاب»

سُورَةُ سَبِّحَا

مكية وهي أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ
وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي جميع الموجودات له خلقاً، وملكاً، وتصرفاً فهو الخالق والمالك لكل ما في السموات والأرض. الجميع ملكه وتحت تصرفه وسلطانه، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي وله الحمد بأجمعه في الآخرة، لا يستحقه أحد سواه، لأنه المنعم المتفضل على عباده بأنواع النعم الجزيلة، والفرق بين الحمدتين، مع كون نعمتي الدنيا والآخرة بطريق التفضل، الأول على نهج العبادة، والثاني على وجه التلذذ، وإنما يحمد أهل الجنة ربهم سروراً بالنعيم، بقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَغَدَهُ﴾ و ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدين والدنيا، ودبرهما حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿الْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء ومكنوناتها.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ ﴾ ﴿٢﴾

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يعلم سبحانه ما يدخل فيها من الغيث، والكنوز، والدفائن، والأموات والحبوب، ونحوها ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أي وما يخرج من الأرض من الزروع، والنباتات، والثمار، والمعادن، ومياه العيون والآبار ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من الأمطار، والملائكة، والكتب الإلهية ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي وما يصعد إليها من الملائكة، والأعمال الصالحات، والأرواح الطاهرات ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ ﴾ للحامدين على ما ذكر من نعمه ﴿ الْعَفُورُ ﴾ للمفرطين في ذلك بلطفه وكرمه.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمِ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿٢﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ أي وقال المشركون من كفار مكة: لا قيامة ولا بعث ولا نشور، وإنما عبروا عنه بقولهم ﴿ لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها فاستبطأوا مجيئها بطريق الهزاء والسخرية، كقولهم: ﴿ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ ﴾؟ ﴿ قُلْ بَلَىٰ ﴾ رد لكلامهم، أي قل لهم يا محمد مؤكداً ومحدّثاً ﴿ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ أي أقسم لكم بالله العظيم لتأتينكم الساعة، وهو تأكيد له على أتم الوجوه ﴿ عَلَيْهِ الْغَيْبُ ﴾ أي هو سبحانه العالم بما خفي عن الأبصار، وغاب عن الأنظار، وفائدة اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذرٌ ما أصلاً، فإنهم يعرفون أمانته ﷺ ونزاهته عن وصمة الكذب، فضلاً عن اليمين الفاجرة، وإنما لم يصدّقوه، عناداً ومكابرة ﴿ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ ﴾ أي لا يغيب عن الله ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي كائنة فيهما ﴿ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ﴾

أي منه ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ والغرض أن الله سبحانه لا تخفى عليه ذرة في الكون، فكيف تخفى عليه أحوال البشر؟

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي ليشب المؤمنين الذين أحسنوا العمل في الدار الدنيا، ويجزيهم أحسن الجزاء، وهي علة لقوله تعالى: ﴿لَتَأْتِيَٰنَكُمْ﴾ وبيان لما يقتضي إتيانها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات الجليلة ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم، فلما يخلو عنها البشر ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تعب فيه، ولا من عليه، ولا تنغصص ولا كدر.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ
أَلِيمٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا﴾ بالقدح فيها، وصدّ الناس عن التصديق بها ﴿مُعْجِزِينَ﴾ أي مسابقين كي يفوتونا ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ﴾ أي من سئء العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ شديد الإيلام والإيجاع.

﴿وَيَرَىٰ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ
وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

﴿وَيَرَىٰ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ﴾ أي يعلم أولو العلم من علماء الأمة المحمدية، أو ممن آمن من علماء أهل الكتاب ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي القرآن العظيم الموحى إليك يا محمد ﴿هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي هو الحق الذي لا يأتيه الباطل، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم، الذي هو التوحيد، والتدرع بلباس التقوى.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٧)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هم كفار قريش، قالوا مخاطباً بعضهم لبعض ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ ﴾؟ يعنون الرسول ﷺ، وإنما قصدوا بالتنكير: السخرية، قاتلهم الله ﴿ يُنْبِئُكُمْ ﴾ أي يحدثكم بأعجب العجائب ﴿ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ ﴾ أي إذا متم، ومُزِقْت أجسادكم كل تمزيق، بحيث صرتم تراباً ورُفَاتاً، ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾؟ أي مستقرون فيه، يعني أنكم تبعثون خلقاً جديداً؟.

﴿ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ (٨)

﴿ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾؟ أي أهو مفتر على الله كذباً، فيما ينسب إليه تعالى من ذلك؟ ﴿ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أي جنون يوهمه ذلك؟ قال الله تعالى ردّاً عليهم: ليس بالرسول ﷺ من الافتراء والجنون شيء ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ يعني منكري البعث ﴿ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ أي بل هم في اختلال العقل، وغاية الضلال، لأن من يسمي المهتدي ضالاً فهو الضال، ومن يسمي الهادي مجنوناً فهو الأجنُّ، والرسول عليه الصلاة والسلام في غاية العقل والكمال.

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَهُمْ خَفِيفٌ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ نَسِطٌ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ (٩)

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ استئناف مسوق لتحويل ما اجتروا عليه، من تكذيب آيات الله، واستعظام ما قالوا في

حقه ﷺ، وأنه من العظائم الموجبة لنزول أشد العذاب من غير تأخير، أي فعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل، المستتبع للعقوبة، فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم، بحيث لا مفر عنه ولا محيص ﴿إِنْ شَأْ﴾ على موجب جنایاتهم ﴿تَخْصِفُ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ كما خسفناها بقارون ﴿أَوْ سُقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا﴾ أي قطعاً ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ كما أسقطناها على أصحاب الأيكة بما ارتكبه من الجرائم، وإنا لقادرون على عذابهم ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر من السماء والأرض، من حيث إحاطتهما بالناظر، وما تدلان عليه من قدرة الله، وعظمته ﴿لَا يَذَّ﴾ واضحة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ شأنه الإنابة إلى ربه، فإنه إذا تأمل فيما يراه، وتأمل قدرة الله، ينزجر عن القبائح، وفيه حث لهم على الإنابة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي آتيناه لحسن إنابته، وصحة توبته ﴿فَضْلًا﴾ أي نوعاً من الفضل على سائر الناس فيندرج فيه النبوة، والكتاب، والمُلْك، والصوت الحسن ﴿يَجِبَالُ﴾ بدل من آتيناه بتقدير قلنا ﴿أَوِي مَعَهُ﴾ من التأويب، أي رجعي معه التسبيح إذا سَبَّح، فكان كلما سَبَّح عليه السلام، يُسمع من الجبال ما يسمع من المسبِّح، معجزة له ﴿وَالطَّيْرُ﴾ عطف على فضلاً، بمعنى وسَّعْنا له الطير، فعكفت من فوقه تسبِّح معه، وفي تنزيل الجبال والطير، منزلة العقلاء، مطيعين لأمره تعالى، من الفخامة المعبرة عن عظمة شأنه تعالى ما لا يخفى، وإنما ذكر الجبال والطير، لأن الصخور للجمود، والطير للنفور، يستبعد منهما الموافقة، فإذا وافقاه فغيرها أولى، ثم إن من الناس من لن يوافقه وهم القاسية قلوبهم، التي هي أشد قسوة من الحجارة ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ أي جعلناه ليناً في نفسه كالشمع، يصرفه في يده كيف يشاء، من غير إحماء

بنار، ولا ضرب بمطرقة، أو جعلناه بالنسبة إلى قوته التي آتيناها إياها ليناً كالشمع، بالنسبة إلى سائر القوى البشرية، وهو في قدرة الله تعالى يسير، فإن الحديد يلين بالنار، وينحل حتى يصير كالمداد الذي يكتب به فأى عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله؟ قيل: إنه عليه السلام طلب من الله تعالى، أن يغنيه عن الناس، فالآن له الحديد، وعلمه صنعة اللبوس، وهي الدروع.

﴿إِنْ أَعْمَلْ سَيعَتٍ وَقَدِرْ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَليحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١).

﴿إِنْ أَعْمَلْ﴾ أي أمرناه فقلنا أن أعمل ﴿سَيعَتٍ﴾ أي الدروع الواسعة، وهو أول من اتخذها، وكانت قبل ذلك صفائح ﴿وَقَدِرْ فِي السَّرْدِ﴾ السرد: نسج الدروع، أي اقتصد في نسجها، بحيث تتناسب حلقتها ومساميرها ﴿وَأَعْمَلُوا صَليحاً﴾ أي وأكثروا من فعل الخيرات، وعموم الخطاب لعموم التكليف له ولأهله، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي إني مطلع على أعمالكم مراقب لها، ومن يعمل للملك شغلاً، ويعلم أنه بمرأى من المَلِك، يحسن العمل ويتقنه.

﴿وَلِسَلِّمَنَّ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلَّنَا لِمُ عَيْنِ الْقَطْرِ وَمَنْ أَلَجِّنَ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٢).

﴿وَلِسَلِّمَنَّ الرِّيحَ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح، وكانت ريحاً مخصوصة، لا هذه الرياح المعهودة فإنها لمنافع عامة، ويدل عليه أنه لم يُقرأ إلا على التوحيد، فما قرأ أحد الرياح ﴿غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ﴾ أي جريها بالغداة مسيرة شهر، وبالعشي كذلك، وعن الحسن رحمه الله كان

يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر، ثم يروح بكابل ﴿وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ أي النحاس المذاب، وكان ذلك باليمن، أي أذبنا له عين النحاس، أذاب الله النحاس لسليمان، كما ألان الحديد لداود عليهما السلام، ﴿وَمِنَ الْجِنِّ﴾ أي وسخرنا له من الجن ﴿مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي بأمره تعالى وتسخيره ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومن يعدل منهم عما أمرناه به، من طاعة سليمان ﴿نَذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي عذاب النار في الآخرة، وقيل: في الدنيا، فمن زاغ منهم يحرقه الله تعالى.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾ تفصيل لما ذكر من عملهم ﴿مِنْ مَحْرِبٍ﴾ بيان لما يشاء أي من قصور حصينة، ومساكن رفيعة شريفة، سُميت بذلك لأنه يحارب عليها ﴿وَتَمَثِيلٍ﴾ ما يكون في المحارب من النقوش، وفيها تماثيل وصور لأنواع من المخلوقات، على عادة الملوك والعظماء، قال الحسن: لم تكن يومئذ محرمة، وقد حرمت في شريعتنا سداً للذريعة^(١)، لئلا تُعبد من دون الله ﴿وَجَفَانٍ﴾ أي قصاع ضخمة جمع جفنة، وهي آلة الأكل ﴿كَالْجَوَابِ﴾ أي كالحياض الكبيرة جمع جابية، وهي الحوض الكبير الواسع قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل لكثرة جنده ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ ثابتات لعظمتها، ذكر في حق داود آلة الحرب، وفي حق سليمان عليهما السلام آلة السلم، وهي المساكن، والمآكل وذلك لأن داود قتل الملوك الجابرة، وهياً لابنه الملك، وجمع له المال فكان في زمانه العظمة بالإطعام والإنعام ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ حكاية لما قيل لهم

(١) انظر كتابنا «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام» حول حكم التماثيل والصور ٣٧٩/٢ فيه بحث نفيس مفصل.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ أي المتوفرون على أداء الشكر، بقلبه ولسانه وجوارحه، ومع ذلك لا يوفي حقه، لأن التوفيق للشكر نعمة أخرى تستدعي شكراً آخر، روي أن داود عليه السلام جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من الساعات، إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، خاشعاً متضرعاً إلى الله.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي حكمنا على سليمان عليه السلام بالموت، وأمنناه فعلاً، وإنما حكى تعالى أمر موته، بعد أن حكى عظمة سليمان، وتسخير الريح، والجن، لينبئه أنه لم ينج من الموت، مع ما أعطي من الملك الباهر، وعلى أن الموت لا بد منه لكل حي ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي الجن ﴿عَلَى مَوْتِهِ﴾ أي على موت سليمان عليه السلام ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ هي دويبة تنخر الخشب وتأكله وهي الشوسة ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ أي عصاه ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ علماً بيناً بعد التباس الأمر عليهم ﴿أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون، لعلموا موته، حيثما وقع، ولم يلبثوا بعده حولاً وهم لا يدرون موته روي أنه لما حان أجله، سأل ربه أن يعمّي عليهم موته، فقام يصلي متكئاً على عصاه، فقبض الله روحه، وهو متكئ عليها، فبقي كذلك، والجن فيما أمروا به من الأعمال الشاقة، حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتاً، وكان عمره عليه السلام ثلاثاً وخمسين سنة.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لِلرَّبِّ بَلَدَةً طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ أي لأولاد سبأ بن يشجب بن قحطان ﴿فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ وهي باليمن، يقال لها «مأرب» بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ﴿ءَايَةٌ﴾ عظمة دالة على وجود الخالق جلّ وعلا وقدرته، المجازي لكل محسن ومسيء ﴿جَنَّاتٍ﴾ المراد بهما روضتان من البساتين ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي جماعة عن يمين بلدهم، وجماعة عن شمالها، كل واحدة كأنها جنة واحدة، أو بستان كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكاية لما قيل لهم على لسان نبيهم، تكميلاً للنعمة، وتذكيراً لحقوقها حيث لم يمنعهم من أكل ثمرها خوف ولا مرض ﴿بَلَدٌ طَيِّبٌ﴾ كانت أطيب البلاد هواء، وأخصبها تربة، ليس فيها بعوض ولا ذباب، ولا ما يعكر الصفو ﴿وَرَبِّ غَفُورٌ﴾ أي وربكم الذي رزقكم ما فيها، رب غفور، يغفر زلة من يشكره.

﴿فَاعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَقٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

﴿فَاعْرَضُوا﴾ عن الشكر، بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه، قيل: أرسل الله تعالى إليهم ثلاثة عشر نبياً فدعواهم إلى الله تعالى، وأنذروهم فكذبوهم، وقالوا ما نعرف الله علينا نعمة، فقولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي السيل، المدمر المخرب، الذي لا يطاق لشدته وكثرته، فغرق بساتينهم ودورهم، وذلك بثقب السد الذي كان يحبس عنهم السيول الذي بنته الملكة «بلقيس» بين الجبلين بالصخر والقار، فلما هدم السدّ جاء السيل وعلا على دورهم وأموالهم فغرقها ومزقوا كل ممزق، حتى صاروا مثلاً عند العرب، يقولون: ذهبوا أيدي سبأ ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أي أذهبنا جنيتهم وآتيناهم بدلها ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكُلٍ خَمْطٍ﴾ الأكل: الثمر، والخمط: المرّ البشع أي ثمر بشع، فإن الخمط كل نبت أخذ طعماً من مرارة، لا يمكن أكله ﴿وَأَثَلٍ وَشَقٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

الأثل: شجر لا ثمر له، ووصف السدر بالقلة لما أن جناه لا يؤكل أصلاً وهو عارٍ عن النفع، أي وشيء من الأشجار التي لا ينتفع بثمرها، كشجر الأثل والسدر، وحاصله كانت أشجارهم خير الأشجار، فصيرها الله تعالى من شر الأشجار، بسبب أعمالهم الخبيثة، وتسمية البذل بجنتين للتهكم، بين الله به دوام الخراب، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس، تكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة، وإذا تُركت سنين تصير كالغيضة والأجمة، وتنت فيها المفسدات، ولا خير فيها.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾

﴿ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من التبديل ﴿جَزَيْنَهُمْ﴾ أي بذلك الجزاء الفظيع ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ بسبب كفرانهم النعمة، حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضدها ﴿وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أي ما نجازي هذا الجزاء، إلا للمبالغ في الكفر، الجاحد لفضل الله.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالٍ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾

﴿وَجَعَلْنَا﴾ حكاية لما أوتوا من النعم البادية، في أسفارهم ومتاجرهم، تكملة لقصتهم، وإنما لم يُذكر الكلّ معاً، لما في التكرير من زيادة تنبيه وتذكير، وهو عطف على ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَيِّئًا﴾ لا على ما بعده، أي جعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم، من فنون النعم ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي القرى الشامية ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي متواصلة يُرى بعضها من بعض، لتقاربها، ظاهرة للمسافرين، فكانوا في متعة في أسفارهم، كما كانوا في رغد من عيشهم، وهي أربعة آلاف قرية من سبأ إلى الشام ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين، يليق بأبناء السبيل، فقد كان الغادي يقيل في بلدة، والرائح منها

بيت في الأخرى، إلى أن يبلغ الشام ﴿مِيرُؤَافِيهَا﴾ أي وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى ﴿لِيَالِيَّ وَأَيَّامًا﴾ متى شئتم من ليل ونهار ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا تخافون عدوًّا، ولا جوعاً، ولا عطشاً، وإن تطاولت مدة سفركم، ولا تحتاجون إلى حمل زاد ولا ماء، لكثرة الخيرات والمياه، فكانوا يسرون آمنين مطمئنين لا يخافون شيئاً.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أي بطروا النعمة، وسئمو طيب العيش، فطلبوا الكدَّ والتعب، كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل، مكان المنِّ والسلوى، وسألوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز وقفاراً، ليركبوا فيها الرِّاوحل، ويتطاولوا على الفقراء، فعجل الله لهم الإجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة، وجعلها بلقعا لا يُسمع فيها دأع ولا مجيب ﴿وَوَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث عرَّضوها للسخط والعذاب ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم، متعجبين من أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ﴾ أي فرقناهم كلَّ فريق، وشرَّدناهم في البلاد، قيل: لما غرقت بلادهم، تفرقوا في البلاد، حتى لحقت «غسان» بالشام، و«أنمار» بيشرب، و«حزام» بتهامة، و«الأزد» بعمان، وفي عبارة التمزيق من تهويل الأمر، وشدة الإيلام والتأثر ما لا يخفى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكر من قصتهم ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي عظيمة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي شائه الصبر على البلاء، والشكر على النعماء.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي حقَّق على أهل سبا ظنه أنه يغويهم، كما قال اللعين: ﴿فَعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ وقوله تعالى ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾

بيان لذلك، أي فاتبعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة، وكفروا نعمة الله ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إلا فريقاً هم المؤمنون، فإنهم لم يتبعوه، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(١).

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾^(٢).

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي لإبليس على الذين صار ظنه فيهم صدقاً ﴿مِّن سُلْطَانٍ﴾ من تسليط واستيلاء بالوسوسة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي لإحكمة جليلة، هي أن نظهر علمنا للعباد، ليعلموا المؤمن من الكافر، والخبيث من الطيب، ولیميزوا بينهما، والمراد بقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي لنظهر للخلق علمنا، وإلا فالله عز وجل عالم بما كان وما سيكون ﴿مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي يؤمن بالآخرة، ممن هو شك فيهما، والمراد من حصول العلم، حصول متعلقه مبالغة ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾^(١) أي محافظ عليه، رقيب على العباد، لا تخفى عليه خافية من أفعالهم، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢) واعلم أنَّ علمه تعالى من الأزل إلى الأبد، محيط بكل معلوم، وعلمه لا يتغير، ولكن هو كاشف يكشف ما خفي على البشر، ولذلك يُقال: هو علم إظهار لا علم بدء أي بداية، فالله يتلى العباد ليظهر لهم الحقائق، مثاله: إن المرأة يظهر فيها صورة زيد، ثم إذا قابلها عمرو تظهر صورته، والمرأة لا تتغير في ذاتها، ولا تتبدل في صفاتها، وإنما التغير في الخارجيات، فكَذلك ههنا وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ إشارة إلى أنه ليس بملجئ، وإنما هو علامة خلقها الله، ليتبين للعباد ما هو في علمه تعالى.

(١) سورة الحجر، آية: ٤٢.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٣.

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿ قُلِ ﴾ لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين، عاد إلى خطاب أهل مكة، أي قل للمشركين إظهاراً لبطلان ما هم عليه ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أي زعمتموهم آلهة ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي ادعوهما فيما يهتمكم من جلب نفع، أو دفع ضرر لعلهم يستجيبون لكم، إن صَحَّ دعواكم؟ ثم أجاب عنهم إشعاراً بتعين الجواب فقال ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ من خير أو شر ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي في أمر من الأمور، في السموات ولا في الأرض، وليسوا بقادرين على شيء في الكون بأجمعه ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ أي لآلهتهم ﴿ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ ﴾ أي من شركة، لا خلقاً، ولا ملكاً، ولا تصرفاً ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ أي الله تعالى ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من آلهتهم ﴿ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ يعينه في تدبير أمرهما، يريد أنهم في هذه الصفات من العجز، فكيف يصحُّ أن يدعوا كما يدعى، ويَزَجُوا كما يُرجى؟.

﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ ﴾ قاله تكديباً للكفار، حيث قالوا: هؤلاء شفعائنا عند الله ﴿ حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قلوب الشفعاء، من الملائكة، والرسل، والتفزيغ: إزالة الفزع، كأنه قيل: يتربصون في موقف الاستئذان، ويتوقفون على وَجَلٍ وفزع، حتى أزيل الفزع عن قلوبهم وظهرت لهم تباشير الإجابة ﴿ قَالُوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾؟ في شأن الإذن ﴿ قَالُوا ﴾ أي الشفعاء ﴿ الْحَقُّ ﴾ أي قال ربنا القول الحق، وهو الإذن للمستحقين لها ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أي وهو المنفرد بالعلو والكبرياء جلّ وعلا.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿قُلْ﴾ أمر ﷺ بتبكيك المشركين، بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما، وأن الرزاق هو الله تعالى، وحيث كانوا يتلعثمون أحياناً مخافة الإلزام، قيل له ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾؟ إذ لا جواب سواه عندهم أيضاً، فهم مقرّون به بقلوبهم. كما أنهم عند الضر يقولون ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ﴾ وأما عند الراحة فهم غافلون عن الله، فلذلك قال لرسوله ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى المناظرات العلمية، وذلك لأن أحد المتناظرين، إذا قال للآخر: هذا الذي تقول خطأ، أو أنت مخطئ، يغضبه، وعند الغضب يكون عناد الفكر، وأما إذا قال له: أحدنا لا يشك أنه مخطئ، والتمادي في الباطل قبيح، والرجوع إلى الحق أحسن، فإنه لا يغضب، ويجهتد في النظر ويترك التعصب، وهذا أبلغ من التصريح، لأنه في صورة الإنصاف، المسكت للخصم الألد، وقد ذكر تعالى في الهدى كلمة (على) وفي الضلال كلمة (في) لأن المهتدي كمن ركب جواداً يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في الظلام لا يرى شيئاً^(١).

(١) هذا نهاية الإنصاف مع الخصم، فمن المعلوم أن من عبد الله وحده كان مهتدياً، ومن عبد غيره من جماد كان ضالاً، ففي قوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ غاية التلطف في الدعوى، والإنصاف مع المعاند، وفيه تعريض بضلالهم، وهو أبلغ من الرد بالتصريح، وكذلك في الآية بعدها ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ملاطفة وتنزل في المجادلة إلى غاية الإنصاف، حيث أسند الإجرام لنفسه، والعمل إلى المشركين المجادلين، والله در التنزيل!!

﴿ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾ .

﴿ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ هذا أدخل في الإنصاف، وأبلغ في الإخبات، حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم، والعمل إلى المخاطبين، مع أن أعمالهم أكبر الكبائر. فذكره بلفظ العمل، لئلا يحصل الإغصاب، وقوله: ﴿ لَا تَسْأَلُونَ وَلَا نَسْأَلُ ﴾ زيادة حث على النظر.

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ﴾ يوم القيامة، عند الحشر والحساب ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ ثم يحكم بيننا بالعدل، بأن يدخل المحقين الجنة، والمبطلين النار ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ ﴾ أي الحاكم الفيصل في القضاء، الذي لا يظلم أحداً، والفتح حقيقة في فتح المغلق، ومجاز في فتح الحُكْم المغلق ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما ينبغي أن يقضي به.

﴿ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٧٧﴾ .

﴿ قُلْ أَرُونِي ﴾ أي أعلموني ﴿ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ ﴾ أي ألحقتموهم ﴿ بِهِ ﴾ بالله تعالى ﴿ شُرَكَاءَ ﴾ أريد بأمرهم ذلك إظهار خطئهم العظيم، أي أرونيها لأنظر بأيِّ صفة ألحقتموها شركاء بالله، الذي ليس كمثله شيء، في استحقاق العبادة؟ وفيه مزيد تبكيت لهم، بعد إلزام الحجة عليهم ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن المشاركة ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الموصوف بالغلبة القاهرة، والحكمة الباهرة، فأين شركاؤكم التي هي أحسن الأشياء من هذه الرتبة العالية؟! .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ مسألة التوحيد، شرع في بيان الرسالة، أي وما أرسلك يا محمد إلا لعموم البشر ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيحملهم جهلهم على ما هم عليه من الغي والضلال.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ من فرط جهلهم ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾؟ بطريق الاستهزاء، يعنون به العذاب الموعود، الذي كان يخوفهم به سيد الخلق ﷺ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ مخاطبين لرسول ﷺ والمؤمنين.

﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ ﴾

﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ ﴾ أي وعد يوم ﴿لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ﴾ عند مفاجأته ﴿سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ﴾ وفي هذا الجواب مبالغة في التهديد.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب القديمة الدالة على البعث، قيل: إن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله ﷺ، فأخبروهم أنهم يجدون نعته في كتبهم، فغضبوا فقالوا

ذلك ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ ﴾ أي المنكرون للبعث ﴿ مَوْفُوتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في موقف المحاسبة، ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ أي يتخاصمون ويتحاورون، كما يكون عليه حال جماعة، أخطأوا في أمر، يقول بعضهم لبعض: «كان ذلك بسببك». ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ أَتَّضِعُّوهُ ﴾ أي يقول الأتباع، بدأ بهم لأن الضال أولى بالتوبيخ ﴿ لِلَّذِينَ أَتَّكَبَرُوا ﴾ في الدنيا واستبقوهم في الغي والضلال ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ ﴾ أي لولا إضلالكم وصدكم لنا عن الإيمان ﴿ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ باتباع الرسول ﷺ.

﴿ قَالَ الَّذِينَ أَتَّكَبَرُوا لِلَّذِينَ أَتَّضِعُّوهُ أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴾.

﴿ قَالَ الَّذِينَ أَتَّكَبَرُوا لِلَّذِينَ أَتَّضِعُّوهُ ﴾ أي قال الرؤساء جواباً للمستضعفين من الأتباع: ﴿ أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾؟ منكرين لكونهم هم الصادون عن الإيمان ﴿ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴾ أي راسخين في الإجرام لاختياركم، وإيثاركهم الضلال على الهدى، ولم تصلوا بسبينا.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَتَّضِعُّوهُ لِلَّذِينَ أَتَّكَبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَتَّضِعُّوهُ لِلَّذِينَ أَتَّكَبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي لم يكن إجرامنا هو الصادة لنا عن الإيمان، بل صدنا مكرهم الدائم بالليل والنهار ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أي حين دعوتكم لنا إلى الكفر بالله، وأن نجعل له شركاء، وزينتم لنا ذلك، ولولا تزيينكم لنا الباطل ما كفرنا ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي أضمر

الفريقان الندامة، على ما فعلا من الضلال والإضلال، وأخفاها كل منهما عن الآخر، مخافة التعيير ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وجعلنا السلاسل الحديدية في أعناق الكفرة الفجار، زيادة على تعذيبهم بالنار، فتركوا الندم والمحاورة، ودفعوا في نار الجحيم. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؟ أي لا يجزون إلا بما كانوا يعملونه من القبائح وسوء الأعمال.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِءِ كَافِرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي متنعموها ورؤساؤها ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِءِ كَافِرُونَ﴾ هذا تسلية لرسول الله ﷺ، مما مُنِيَ به من قومه، وتخصيص المتنعمين، مع أن غيرهم أيضاً قالوا ذلك، لأن الأغنياء المستكبرين، هم الأصل في ذلك، ولأن الداعي إليه التكبر والمفاخرة، ألا ترى أن المستضعفين قالوا للمستكبرين: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾؟

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ أي وقال الطغاة المترفون من أغنياء مكة: نحن أكثر أموالاً وأولاداً من هؤلاء الضعفاء المؤمنين، ولن يعذبنا الله، لأنه أكرمنا في الدنيا، فلا يهيننا في الآخرة على تقدير وقوعها، وقاسوا أمور الآخرة على أمور الدنيا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي ويضيق على من يشاء أن يضيقه عليه، من غير أن يكون لأحد دخل، فربما يوسع على العاصي، ويضيق على المطيع، وربما يعكس

الأمر، وقد يوسع على شخص تارة، ويضيق عليه أخرى، حسبما تقتضيه مشيئته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيزعمون أن مدار التوسعة هو الشرف والكرامة، ومدار التضيق هو الهوان، وكثيراً ما يكون استدارجاً للكافر، كما قال سبحانه ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْفَضْلِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي وليست أموالكم ولا أولادكم تقربكم عندنا قربة، وهو رد على قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ فإن المال والولد لا يقربان إلى الله تعالى، ولا اعتبار بالتعزز به ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي لا تقرب أحداً، إلا المؤمن الصالح، الذي أنفق أمواله في سبيل الله، وعلم أولاده الخير، ورباهم على الصلاح، ورشحهم للطاعة ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المنعوتون بالإيمان والصلاح ﴿لَهُمْ جَزَاءُ الْفَضْلِ﴾ يعني تُضاعف حسناتهم، الواحدة عشرأ فما فوقها ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الصالحات ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ أي في غرفات الجنة ﴿ءَامِنُونَ﴾ من جميع المكاره، وفيه إشارة إلى دوام النعيم، فإن من تنقطع عنه النعمة لا يكون آمناً.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِلَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِلَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي وأما الكفار الذين يسعون للصدّة عن سبيل الله، يظنون أنهم يعجزوننا ويفوتوننا، فهم في العذاب مخلّدون، لا يجديهم ما عوّلوا عليه نفعاً.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لِمَا أَنفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٩)

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لِمَا أَنفَقْتُمْ﴾ أي يوسع على من يشاء، ويضيّق على من يشاء ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي وما أنفقتم في سبيل الله، قليلاً كان أو كثيراً، فإن الله سبحانه يعوّضه عليكم، إما عاجلاً أو آجلاً، أما في الدنيا فبالمال، من حيث لا يحتسب الإنسان، أو بالقناعة وهي كنز لا يفنى، وأما في الآخرة فبالثواب الذي كل خلف دونه، وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تبارك وتعالى: «أَنْفِقْ يُنْفِقْ عَلَيْكَ»^(١) وقال ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ومَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، يقول أحدهما: اللهم أعط مُنْفِقاً خَلْفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط مُمْسِكاً تَلْفاً»^(٢) ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي هو تعالى خير المعطين لعباده، فإن غيره وسط في إيصال رزقه، لا حقيقة لرازيقته، فإن العبد إذا أعطى غيره شيئاً، فإن الله هو المعطي، ولكن لأجل صورة العطاء منه سُمي المعطي، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط: فرس، وإنسان.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِنَّا كَرُّوا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٤٠)

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي المستكبرين، والمستضعفين، وما عبد من دون الله ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِنَّا كَرُّوا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ تقريباً للمشركين على

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٢٦٥/٨ ومسلم في الزكاة رقم ٩٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ٢٤١/٣ ومسلم رقم ١٠١٠ في الزكاة أيضاً باب في المنفق والممسك.

نهج قوله تعالى: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ﴾ وإقناطاً لهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة، من شفاعتهم.

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (٤١).

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي أنت الذي نواله من دونهم، لا موالاة بيننا وبينهم، كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم، ثم أ ضربوا عن ذلك، ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله تعالى ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ الضمير الأول للمشركين، والثاني للجن، أي أكثر هؤلاء الكفار، مصدقون بأقوال الشياطين، يزعمون أن الملائكة تشفع لمن عبدها، وما هو إلا ظن وتخمين.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ (٤٢).

﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي ففي يوم القيامة يوم الحساب والجزاء ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لأن الأمر في ذلك اليوم لله وحده، إذ الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو الله وحده ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ونقول للمشركين ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ في الدنيا، فحينئذ يكون من الأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال.

﴿وَإِذَا نُتِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٤٣).

﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِتَنَزُّلٍ﴾ أي وإذا تلى عليهم بلسان الرسول ﷺ آياتنا الناطقة بحقيقة التوحيد، وبطلان الشرك ﴿قَالُوا مَا هَذَا﴾ يعنون الرسول ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ﴾ أي ليس إلا بشراً مثلكم يريد أن يمنعكم عما كان عليه آبائكم فيستبعضكم بما يستدعيه، من غير أن يكون هناك دين إلهي، وإضافة الآباء إلى المخاطبين لتحريك عرق العصبية منهم، مبالغة في تثبيتهم على الشرك ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا﴾ يعنون القرآن الكريم ﴿إِلَّا أَفْكٌ﴾ أي كلام مصروف عن وجهه، لا مصداق له في الواقع ﴿مُفْتَرًى﴾ أي مكذوب بإسناده إلى الله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي قال الكفرة المتمردون بجرائمهم على الله قالوا عن القرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ من غير تدبر، ولا تأمل فيه ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا القرآن إلا سحر واضح ظاهر، لا يخفى على لبيب!! وكلامهم هذا عجيب، فلم يقولوه عن بصيرة، وإنما عن ظن وتخمين، ولهذا ردَّ الله عليهم بقوله:

﴿وَمَاءَ آيَاتِهِمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿وَمَاءَ آيَاتِهِمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي يقرؤون فيها ما يقولون ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أي وما بعثنا قبلك يا محمد رسولا ينذرهم عذاب الله، ويعرفهم الحقيقة بوجه من الوجوه، فمن أين ذهبوا هذا المذهب الضال؟ وكيف حكموا هذا الحكم الظالم؟ وهذا غاية التجهيل لهم. ثم هددهم بقوله تعالى:

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَرَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المتقدمة كما كذبت هؤلاء الضالون ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَرَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة، وطول العمر، وكثرة المال والأولاد ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ

نَكِيرٌ؟ أي إنكارى عليهم بالهلاك والتدمير؟ ولم يغنِ عنهم ما كانوا عليه من القوة والبأس، فليحذر هؤلاء من مثل ذلك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفَرْدَىٰ ثُمَّ نَنْفَكُرُوا مَا بَصَاحِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابِ شَدِيدٍ﴾ (١٦).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَحْدَةٍ﴾ أي ما أُرشدكم إلا بخصلة واحدة؛ هي ما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ ليس المراد به القيام على القدمين، بل النهوض بالهمة أي أن تنصبوا للأمر وتهتموا به، خالصاً لوجه الله، وطلباً للحق، معرضين عن المماراة والتقليد، والحمية والعصبية ﴿مَشْنَىٰ وَفَرْدَىٰ﴾ أي متفرقين، اثنين اثنين، وواحداً واحداً، فإن الجمع الكبير يشوش الأفهام، ويخلط الأفكار بالأوهام، وفي تقديم ﴿مَشْنَىٰ﴾ إيذان بأنه أوثق، وأقرب إلى الاطمئنان، لأنهما يتفكران، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه، نظر الصدق والإنصاف، حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق، والفرْدُ يتفكر في نفسه، يعدل وإنصاف، ويعرض فكره على عقله، فعقله يؤديه إلى الحق، ثم ليفكر في نفسه، هل رأى في هذا الرجل أثر الجنون؟ أو جرَّب عليه كذباً قط؟ ﴿ثُمَّ نَنْفَكُرُوا﴾ في أمره ﷺ وما جاء به، لتعلموا حقيقته وحقيقته، وأن مثل هذا الأمر العظيم، الذي تحته ملك الدنيا والآخرة، لا يتصدى لإعادته إلا مؤيد من عند الله، مرشح للنبوّة، واثق بحجته، وإذ قد علمتم أنه ﷺ أرجح العالمين عقلاً، وأصدقهم قولاً، وأنزههم نفساً، وأفضلهم علماً، وأحسنهم عملاً، وأجمعهم للكمالات البشرية، وقد انضم إلى ذلك معجزات، تخوّل لها صمُّ الجبال، وإذ علمتم ذلك تبين أنه ﴿مَا بَصَاحِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾ أي ما بمحمد الذي صاحتموه، شيء من آثار الجنون، كما افترت عليه!! ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ﴾ أي ينذركم ويخوفكم بعذاب أليم ﴿بَيْنَ يَدَيِ عَذَابِ شَدِيدٍ﴾ وهو عذاب الآخرة.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي أي شيء سألتكم من أجر على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفى السؤال رأساً، كقول من لم تعطه شيئاً: إن أعطيتني شيئاً فخذهُ ﴿إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هو سبحانه مطلع على حقيقة الأمر، يعلم صدقي، وخلوص نيتي، وبأنني لا أطلب، الأجر إلا منه، وكفى به شهيداً ۱۱.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي الوحي يلقيه وينزله على من يجتبيه من عباده، ويرمي به الباطل فيدمغه، كقوله سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾. (١) ﴿عَلَمُ الْغُيُوبِ﴾ أي هو سبحانه العالم بخفيات الأمور.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ﴿٤٩﴾

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي الإسلام والتوحيد ﴿وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ﴾ أي زهق الشرك، بحيث لم يبق أثره، ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي ظهر، لأن كل ما جاء فقد ظهر، والباطلُ خلاف الحق، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي لا يفيد شيئاً في الأولى، ولا في الآخرة، فلا إمكان بوجوده أصلاً.

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٨.

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَفِئْتُ
إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾ عن طريق الحق كما زعمتم ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ فإن وبال ضلالي عليها، لأنه بسببها، لا يضرّ غيرها، وذلك لأن كفار مكة، كانوا يقولون له: إنك قد ضللت حين تركت دين آبائك!! ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَفِئْتُ﴾ لأن الاهتداء بهدائته وتوفيقه، وفيه تقرير الرسالة، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ وقال في حق الرسول ﷺ ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَفِئْتُ﴾ يعني ضلالي على نفسي كضلالكم، وأما اهتدائي فليس كاهتدائكم، وإنما هو بالوحي المبين، وإذ أوحى الله إليّ هذا القرآن، فأنا على الهداية التامة بفضل الله ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع قول كل من المهتدي والضال ﴿قَرِيبٌ﴾ مني ومنكم، يجازيني ويجازيكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا﴾ عند البعث، وجواب «لو» محذوف للتهويل، أي لرأيت أمراً هائلاً فظيماً ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ أي لا مهرب ولا مخلص ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي من الموقف إلى النار.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا﴾ حين عاينوا العذاب ﴿بِهِ﴾ بالرسول ﷺ وبالقرآن، وقد مرّ ذكره ﷺ في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاطُشُ﴾ التناوش: التناول السهل، أي ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلاً؟ ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد، فكيف يعودون إليها ليؤمنوا؟ وهو تمثيل حالهم، في الاستخلاص بالإيمان، بعدما فات عنهم، بحال من يريد أن يتناول الشيء من بعيد، ويده لا تصل

إليه، وقد بعدت الدنيا عن الآخرة، بمفاوز، فكيف يصلون إلى الإيمان، وهم في عرصات الآخرة؟ والتوبة كانت تقبل في الدنيا وقد ذهبت؟.

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ ﴾

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ﴾ أي بالرسول ﷺ وبالحق الذي جاء به الرسول ﷺ ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل ذلك، في أوان التكليف في الدنيا ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ أي ويرمون بالظن في الأمور الغيبية، ويتكلمون بما لم يظهر لهم، في الرسول ﷺ ودعوته، من المطاعن حيث يقولون: لا بعث، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار ﴿ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي من جهة بعيدة لا يرون ما يرمونه، وهو تمثيل لحالهم في ذلك، بحال من يرمي شيئاً لا يراه، من مكان بعيد، فكيف يصيبه؟ والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف: هو يقذف ويرجم بالغيب، على جهة التمثيل، لمن يرمي ولا يصيب الهدف.

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ۖ ﴾

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أي وحيل بين الكفار وبين ما يشتهون، من نفع الإيمان، والفوز بالجنان، والعودة إلى الدنيا ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي كما فعل بأشياءهم وأمثالهم، من كفره الأمم الدارجة ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ أي لأنهم كانوا في الدنيا في شك وارتياب، من أمر البعث والحساب، موقع لهم في الريبة والتهمة، وقوله: ﴿ مُرِيبٍ ﴾ من باب التأكيد، أي كانوا في شك واضح جلي، كما تقول: هذا شعر شاعر، وحكمة حكيم. والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم يعونه تعالى تفسير سورة سبأ»

سُورَةُ فَطْرٍ

مكية وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى
وَتِلْكَ وَرُبْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١﴾ .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما، من الفطر بمعنى الشق، كأنه شقَّ العدم بإخراجهما منه ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا﴾ أي جاعلهم وسائط بينه تعالى، وبين أنبيائه، يبلغون إليهم رسالاته، بالوحي، والإلهام، والرؤيا الصادقة ﴿أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾ أي ذوي أجنحة يطفرون ﴿مَّتَنَّى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ﴾ أي ذوي أجنحة متعددة، متفاوتة في العدد ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي يزيد سبحانه في خلق كل ما يشاء أن يزيده، بموجب مشيئته تعالى، والآية تتناول كل زيادة في الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وحسن الوجه، والصوت، وحصانة العقل، وجزالة الرأي، وذلاقة اللسان، وما أشبه ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل للحكم المذكور، أي إنه تعالى قادر على كل شيء، له الخلق، والأمر، والسلطان، فلذلك لا يعجزه شيء أراد، من خلق الملائكة بهذه الصور العجيبة، والأجنحة العديدة.

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ ﴾ أي أي شيء يمنحه الله تعالى، من خزائن رحمته من نعمة، أو صحة، أو أمن، أو علم، أو نبوة إلى غير ذلك ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ أي لا يقدر أحد على منعها وإمساكها عن عباده ﴿ وَمَا يُمْسِكُ ﴾ أي أي شيء يمسكه الله ويحبسه عن عباده ﴿ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ ﴾ أي لا أحد يقدر على إرساله ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد إمساكه له جلّ وعلا ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة، والمصلحة، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا رادّ لما قضيت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ»^(١) الجدّ: الغنى، الحديث.

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي إنعامه عليكم، أي راعوها واحفظوها، بمعرفة حقها، والاعتراف بها وشكر المنعم عليها، ولما كانت نعم الله تعالى - مع تشعب فنونها - منحصرة في نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء، نفى أن يكون في الوجود شيء غيره تعالى، يصدر عنه إحدى نعمتين، بطريق الاستفهام الإنكاري فقال: ﴿ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ ﴾ أي هل خالق مغاير له تعالى موجود ﴿ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي بالمطر والنبات ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله جلّ وعلا، فاعبدوه واشكروا له

(١) الحديث أخرجه مسلم في الصلاة رقم ٤٧٨ والنسائي في الافتتاح ١٩٨/٢.

﴿فَأَنفِ ثُؤَفْكُوبَ﴾ أي فكيف تُصرفون بعد هذا البيان، عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان ومن أين تكذبون فتزعمون أن الآلهة ترزقكم؟

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ١.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي وإن استمروا على أن يكذبوك، بعدما أقمت عليهم الحجة، فتأس بأولئك الرسل، في المصابرة على ما أصابهم من قومهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتنكير الرسل للتفخيم، أي رسل أولو شأن خطير، وذوو عدد كثير ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ لا إلى غيره، فيجازي كلًّا بما يستحقه، وهذا مبالغة في الوعد والوعيد، والترغيب والتهديد.

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُودُ﴾ ٢.

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُودُ﴾ تكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير، أي لا تخدعكم الدنيا بزخارفها ونعيمها، ولا يخدعكم الشيطان بوساوسه وأمانيه، فإنه كذاب خداع ماهر.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ٣.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي عداوته قديمة لا تكاد تزول ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بمخالفتكم له، وكونكم على حذر منه، فالطريق في عداوته الثبات على الجادة، والاتكال على العبادة ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ تقرير لعداوته، وتحذير من طاعته، بالتنبيه على أن غرضه في دعوة شيعته إلى

اتباع الهوى، ليس لتحصيل منافعهم الدنيوية، كما هو مقصد المتحابين في الدنيا، بل هو توريطهم وإلقاؤهم في العذاب المخلد.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين أطاعوا الشيطان، وصاروا من حزبه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُقادر قدره ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لا غاية له، لكبر جهادهم، وهو الجنة دار السعادة والخلود.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ تقرير لما سبق أي أبعد كون حالهما كما ذكر، يكون من زُيِّنَ له الكفر، من جهة الشيطان، كمن استقبحه واختار الإيمان، والعمل الصالح ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ﴾ بيان أن الكل بمشيئته تعالى فإنه يضل ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يضله، لصرف اختياره إليه، فيرده أسفل سافلين ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يهديه، بصرف اختياره إليه، فيرفعه إلى أعلى عليين ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾ أي فلا تهلك نفسك عليهم، حسرة على عدم إيمانهم، وإصرارهم على التكذيب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي هو سبحانه العالم بما يصنع هؤلاء من القبائح والجرائم، ومجازيهم عليها فلا تتأثر على عدم إيمانهم.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ مَحَابًا فَسُقْنَتُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار، وذلك لأن الهواء قد يسكن وقد يتحرك، وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى اليسار، وقد ينشئ السحاب وقد لا ينشئ، وقد يكون نافعا، وقد يكون ضارا، فهذه الاختلافات دليل على مدبر ومقدر جليل ﴿فَتَنِي رُسُلَنَا﴾ أي فتحيج وتحرك السحاب ﴿فَسَقَنَهُ﴾ أي فنسوقه ﴿إِلَى بَلَدٍ مَّتَنٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالمطر النازل منه ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يسها ﴿كَذَلِكَ النَّشُورُ﴾ أي مثل إحياء الموات إحياء الأموات، روي عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله: كيف يحيي الله الموتى؟ فقال: «هل مررت بوادي أهلك ممحلا، ثم مررت به يهترئ خضرأ؟ قلت: نعم، قال كذلك يحيي الله الموتى»^(١).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ أي الشرف وعزة الدنيا والآخرة، ويريد أن يعلم أن العزة والقدرة والمنعة، لمن هي؟ ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي فله وحده لا لغيره، فالكفار يتعززون بعبادة الأصنام، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾^(٢) وكانوا يطلبون العزة عند الأصنام ف قيل لهم: إن تطلبوا العزة في الحقيقة فهي كلها لله، وأما هذه الأصنام فلا عزة بها، بل عليها ذلة، فمن كان معبوده وربّه حجارة أو خشباً، ماذا يكون هو؟ إنه ذليل، لأن ذلة السيد ذلة للعبد ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ بيان لما يطلب به العزة، وهو التوحيد والعمل الصالح، أي من

(١) الحديث أخرجه أبو داود، وابن ماجه، وأحمد في المسند ١٢/٤.

(٢) سورة مريم، آية: ٨١.

أراد العزة، فليعمل عملاً صالحاً، فإنه هو الذي يرفع العبد ويشرفه ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ السيئات صفة لمصدر محذوف، أي يمكرون المكرات السيئات، ويحتالون بالمكر والخديعة لإطفاء نور الله، والكيد للإسلام والمسلمين، كما فعلوا في دار الندوة، حيث تآمروا على الرسول ﷺ بالحبس، أو القتل، أو الإخراج، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾^(١) الآية ﴿لَهُمْ﴾ بسبب مكراتهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يقادر قدره ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ﴾ وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم، للإيدان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد واشتغالهم بذلك، أي ومكر أولئك المفسدين ﴿هُوَ يَبْزُورُ﴾ أي يبطل ولا ينقذ صاحبه ولقد أبادهم الله تعالى ببدر، فجمع عليهم مكراتهم، وحقق فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٢).

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً، ذكراناً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ إلا مثبتة بعلمه، تابعة لمشيئته ﴿وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أي وما يمد في عمر أحد ﴿وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمرِهِ﴾ أي لا يجعل من الابتداء ناقصاً، وقيل الزيادة والنقصان في عمر إنسان واحد، مثل أن يكتب إن حج فلان فعمره ستون، وإلاً فأربعون، وعن قتادة: المعمر من يبلغ ستين سنة، والمنقوص من يموت قبل الستين ﴿إِلَّا فِي

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٠.

(٢) سورة فاطر، آية: ٤٣.

كَتَبَ ﴿ هُوَ اللّٰهُ الْمَحْفُوظُ ، وَقِيلَ : صَحِيفَةُ كُلِّ إِنْسَانٍ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ مِنْ الْخَلْقِ وَمَا بَعْدَهُ ﴾ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لَا اسْتَغْنَاهُ عَنِ الْأَسْبَابِ .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِيَتَنَبَّهُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ مَثَلٌ ضُرِبَ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، أَيْ كَمَا لَا يَتَسَاوَى مَاءُ الْبَحْرِ وَمَاءُ النَّهْرِ ، فَهَذَا مَاءٌ حَلْوٍ شَدِيدُ الْحَلَاوَةِ ، وَذَلِكَ مَاءٌ مَالِحٌ شَدِيدُ الْمَلُوحَةِ ، كَذَلِكَ لَا يَتَسَاوَى الْمُؤْمِنُ مَعَ الْكَافِرِ ، وَلَا الْبِرُّ مَعَ الْفَاجِرِ ، وَالْفُرَاتُ : الَّذِي يَكْسِرُ الْعَطَشَ ، وَالسَائِغُ الَّذِي يَسْهَلُ انْحِدَارُهُ ، وَالْأُجَاجُ : الَّذِي يُحْرِقُ بِمَلُوحَتِهِ ﴿ وَمِنْ كُلٍّ ﴾ أَيْ وَمِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ وَالْمُرَادُ بِالْحِلْيَةِ : اللُّلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ ﴾ أَيْ فِي كُلِّ مِنْهُمَا ﴿ مَوَازِيرَ ﴾ جَمْعُ مَاخِرَةٍ ، أَيْ شَوَاقٍ لِلْمَاءِ بِجَرِيهَا ، يُقَالُ : مَخَرَتِ السَّفِينَةُ الْمَاءَ أَيْ شَقَّتْهُ ﴿ لِيَتَنَبَّهُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ بِالسَّفَرِ وَالتَّجَارَةِ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ لَتَشْكُرُوا رَبَكُمْ عَلَى إِنْعَامِهِ وَإِفْضَالِهِ ، بِتَسْخِيرِ ذَلِكَ لَكُمْ .

﴿ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ .

﴿ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى فَاعِلِ الْأَفَاعِيلِ الْمَذْكُورَةِ ، أَيْ ذَلِكُمْ الْعَظِيمُ الشَّانُ ، الَّذِي أَبَدَعَ هَذِهِ الصَّنَائِعَ

البديعة الله ﴿رَبِّكُمْ﴾ أي خالقكم وموجدكم ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي له الملك، والسلطان، والتصرف الكامل في الخلق ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأصنام التي تعبدونها ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أي لا يملكون شيئاً ولو بمقدار القطمير، وهي القشرة الرقيقة الملتفة على النواة، فإذا كان له الملك كله، فلا معبود إلا هو لذاته جلّ وعلا.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أي إن دعوتهم هذه الأصنام، لم يسمعوا دعاءكم، ولم يستجيبوا لندائكم، لعجزها عن ذلك، لأنها جمادات ليس من شأنها السماع ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ بالفرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لعجزهم عن السمع والقدرة لأنها جمادات ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ﴾ أي يجحدون بإشراككم وعبادتكم إياهم بقولهم: ﴿مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تعبدون﴾ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ أي ولا ينبئك أيها المخاطب إلا الله الخبير، والمعنى: إن هذا الذي أخبرتكم به، من حال الأوثان، هو الحق، لأنني خبير بما أخبرت به.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي أنتم الفقراء على الحقيقة في أنفسكم، المحتاجون إلى الله على الدوام، في جميع أحوالكم، وفي حركاتكم وسكناتكم، وتعريف الفقراء للمبالغة، كأنهم لكثرة افتقارهم، هم الفقراء فحسب ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ المستغني على الإطلاق، المنعم على سائر الموجودات، حتى استحق عليهم الحمد.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بيان لغناه، وفيه بلاغة كاملة، وبيانها أنه تعالى قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته، سبحانه بخلاف الشيء المحتاج إليه، فإن المحتاج لا يقال فيه: إن يَشَأْ فلانٌ هدم داره، ثم زاد بيان الاستغناء بقوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي ويأتي بقوم آخرين خير منكم، ليسوا على صفتكم، بل مستمرون على العبادة.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بَعِيزٌ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من الإذهاب والإتيان ﴿عَلَى اللَّهِ بَعِيزٌ﴾ أي ليس بصعب، ولا متعسر، لأنه على كل شيء قدير.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي لا تحمل نفس أئمة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي إثم نفس أخرى، كما يأخذ جبابرة الدنيا الولي بالولي، والجار بالجار، بل إنما تحمل كل منهما وزرها، ألا ترى كيف كذب الله المشركين في قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١) وأما في قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ

(١) سورة العنكبوت، آية: ١٢.

أَثْقَالِهِمْ^(١) فهو حمل أثقال إضلالهم، مع أثقال ضلالهم، وكلاهما أوزارهم، ليس فيها أوزار غيرهم ﴿وَلَا تَدْعُ مُمْقِلَةٌ﴾ أي نفس أثقلتها الأوزار ﴿إِلَى حِمْلِهَا﴾ أي لحمل بعض أوزارها ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أي لم تُجب بحمل شيء منه ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعو المستغاث به ﴿ذَاقِرِيَّةً﴾ ذا قرابة من الداعي، كأخ، أو ابن، أو عم، فكل إنسان يريد نجاة نفسه، حتى إن الأم لتتعلق بالابن فتقول: يا بنيّ احمل عني بعض أوزاري، فيقول: لا أستطيع، نفسي، نفسي ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي إنما تنذر بهذا القرآن والذكر ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي يخشون عذابه وهو غائب عنهم، أو عن الناس في خلواتهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي راعوها كما ينبغي، أي إنما ينتفع من إنذارك هؤلاء من قومك، دون من عداهم من أهل التمرد والطغيان ﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ أي تطهر من أضرار الأوزار والمعاصي، بالتأثر من هذه الإنذارات ﴿فَلَنَمَّا يَتَذَكَّرَ لِنَفْسِهِ﴾ لاقتصار نفعها عليها، كما أن من تدس بها، لا يتدنس إلا عليها ﴿وَالَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ لا إلى أحد غيره، فيجازيهم على أعمالهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي الكافر والمؤمن، والجاهل والعالم.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ أي ولا الباطل ولا الحق، وجمع «الظلمات» مع أفراد النور، لتعدد فنون الباطل، واتحاد الحق.

(١) سورة العنكبوت، آية: ١٣.

﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ (٢١).

﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ أي ولا الثوب ولا العقاب، أو الجنة والنار وإدخال لا على المتقابلين لتأكيد نفي الاستواء، والحرور من الحر، غلب على السموم، وقيل: السموم ما يهبُّ نهاراً، والحرور ما يهبُّ ليلاً.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (٢٢).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين، أبلغ من الأول، فإن الأعمى قد يكون فيه بعض النفع، بخلاف الميت، فإنه لا نفع فيه مطلقاً، فشبه تعالى المؤمنين بالأحياء، والكافرين بالأموات، لأنهم مثل الأموات لا يسمعون ولا يستجيبون^(١). ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أن يسمعه، ويوفقه لفهم آياته، والاتعاظ بعظاته ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات، وإقناطه ﷺ من إيمانهم.

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٢٣).

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي ما عليك إلا الإنذار، وأما الإسماع والهداية فليس من وظائفك، ولا حيلة لك إليه، في المطبوع على قلوبهم.

(١) ورد تمثيل المؤمن بالحي، والكافر بالميت، في مواضع عديدة من القرآن كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ وقوله سبحانه: ﴿لَيَنْزِلُنَّ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ الآية، فالميت لا نفع فيه، ولا خير يرجى منه، كذلك الكافر لا يفقه ولا يفهم الغاية من وجوده، فهو بهيمة في صورة إنسان، وشبح ميت في صورة آدمي يمشي ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بعثناك بالهدى والدين الحق ﴿ بَشِيرًا ﴾ بالوعد الحق للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ بالوعيد الحق للكافرين ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أي وما من أمة من الأمم الدارجة، في الأزمنة الماضية ﴿ إِلَّا خَلَا ﴾ أي مضى ﴿ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ من نبي أو رسول، ينذر قومه، لئلا يبقى لأحد حجة بعد الرسل.

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ أي استمروا على تكذيبك، فلا تبال بهم وتكذيبهم ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم العاتية ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالمعجزات الظاهرات، الدالة على نبوتهم ﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴾ كصحف إبراهيم عليه السلام ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ كالنوراة، والإنجيل، والفرقان.

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي أخذتهم بأشد أنواع العقاب، جزاء كفرهم وتكذيبهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري بالعقوبة عليهم؟ ألم يكن شديداً فظيماً؟ وفيه مزيد تهويل للعقاب.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ أي مختلفة الأشكال، والألوان، والطعوم، من تفاح، وعنب، وتين ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ

جَدُّهُ ﴿ أَي طَرَقٌ مُخْتَلِفَةُ اللَّوْنِ، ذَاتِ حِجَارَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ ﴾ بِضْرٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ
 أَلْوَانُهَا ﴿ بِالشَّدَّةِ وَالضَّعْفِ وَالْحُمْرَةِ، وَالْبَيَاضِ، وَالسَّوَادِ ﴾ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿
 كَأَنَّهُ قِيلَ: مِنَ الْجِبَالِ طَرَقٌ وَحِجَارَةٌ مُخْتَلِفَةُ اللَّوْنِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لَوْنٌ
 وَاحِدٌ، وَلَفْظُ «غَرَابِيبُ» تَأْكِيدٌ لِمُضْمَرٍ، يَفْسِّرُهُ مَا بَعْدَهُ، فَإِنَّ غَرِيبَ تَأْكِيدٍ
 لِلْأَسْوَدِ، كَالْفَاعِ لِلْأَصْفَرِ، وَالْقَانِي لِلْأَحْمَرِ، يَقَالُ أَسْوَدٌ غَرِيبٌ أَي شَدِيدُ
 السَّوَادِ، وَالآيَةُ إِشَارَةٌ إِلَى عِلْمِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا
 يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ ﴾ كاخْتِلَافِ الشَّامِ
 وَالْجِبَالِ، فَهَذَا أَبْيَضُ الْبَشَرَةِ، وَهَذَا أَحْمَرٌ، وَهَذَا أَسْوَدٌ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ
 عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ أَي إِنَّمَا يَخْشَاهُ تَعَالَى الْعَالَمُونَ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَمَّا أَنَّ مَدَارَ
 الْخَشْيَةِ، مَعْرِفَةُ الْمُخْشَى، وَالْعِلْمُ بِشُؤْنِهِ، فَمَنْ كَانَ أَعْلَمَ بِهِ تَعَالَى، كَانَ
 أَخْشَى مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ لِلْمُتَنَطِّعِينَ، الْمُتَشَدِّدِينَ فِي أَمْرِ الدِّينِ: «أَمَّا وَاللَّهِ
 إِنِّي لَا تَقَاسِمُ اللَّهَ، وَأَخْشَاكُم لَه» ^(١) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:
 قَالَ ﷺ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَزَهَّوْنَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَا أَعْلَمُهُمْ
 بِاللَّهِ، وَأَشَدَّهُمْ لَهُ خَشْيَةً» ^(٢) ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ تَعْلِيلٌ لِلْخَشْيَةِ، أَي أَنَّهُ
 تَعَالَى مُعَاقِبٌ لِلْمَصْرِِّ عَلَى الطُّغْيَانِ، وَغَفُورٌ لِلتَّائِبِ عَنِ الْعِصْيَانِ.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا
 رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ فِجْرَةً لَّنْ نَّكُفِّرَهُمْ ﴾ .

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في النكاح ٤/١١ ومسلم رقم ١٤٠١
 باب استحباب النكاح.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأدب ١٢٥/١٣ ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٥٦.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي يداومون على قراءة القرآن، ومتابعة ما فيه، حتى صارت سمة لهم وعنواناً ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حثٌ على الإنفاق كيفما يتهيأ، وقيل: السر في المسنونة، والعلانية في المفروضة ﴿يَرْجُونَ تَجَرَّةً﴾ تحصيل ثواب الطاعة ﴿لَّنْ تَكْبُرَ﴾ أي لن تكسد، ولن تهلك بالخسران، جيء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات، الدائرة بين الربح والخسران، لأنه اشتراء باق بفان، والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين، عدة قطعية بحصول مرجوهم.

﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ﴾ أي أجور أعمالهم المذكورة ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تعليل لما قبله، أي إنه غفور لفرطانهم، شكور لطاعتهم ومجازيهم عليها.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهو القرآن الكريم ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه أنه كلام رب العزة والجلال، فإنه حق وصدق وتاليه محقٌ وصادق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية كالطورا والإنجيل ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي محيط ببواطن أمورهم وظواهرها، فلو كان في أخوالك ما ينافي النبوة، لم يُوحَ إليك مثل هذا الحق، وتقديم الخبر للتبنيه على أن العمدة هي الأمور الروحانية.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ ﴾ أي ثم أَوْرَثْنَا القرآن العظيم هذه الأمة المحمدية، التي اخترناها علي سائر الأمم ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم، أو الأمة بأسرهم، فإن الله اصطفاهم علي سائر الأمم ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ بالتقصير في العمل به ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ وهو الذي عمل عملاً صالحاً، وآخر سيئاً ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي سَبَّاقٌ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وعمل الصالحات بتيسره تعالى، وفيه تنبيه علي عِزَّةِ مَنْالِ هذه الرتبة وفي المراتب الثلاثة أقوال: ١ - الظالم لنفسه: من رجحت سيئاته وزادت علي حسناته، والمقتصد: هو الذي تساوت سيئاته وحسناته، والسابق بالخيرات من كثرت حسناته ورجحت علي سيئاته، ٢ - وقيل: الظالم صاحب الكبيرة، المقتصد صاحب الصغيرة، والسابق المحفوظ بحفظ الله عن المعاصي، ٣ - وقيل: الظالم التالي للقرآن غيرُ العامل به، والمقتصد: الذي يتلو القرآن في بعض الأوقات، ويقصُرُ في بعض الصالحات، والسابق بالخيرات هو المتمسك في العمل بكتاب الله ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى السبق بالخيرات ﴿ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ أي لا ينال إلا بتوقيفه تعالى أو إشارة إلى الميراث، والاصطفاء.

﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾.

﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٍ ﴾ أي جنات إقامة ينعمون فيها بأنواع النعيم ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ جمع الضمير لأن المراد بالسابقين: الجنس، وقيل الداخلون

هم الفرق الثلاث، لما روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «هؤلاء كلهم في الجنة»^(١) والقول الأول أقوى، لقرب ذكر السابقين، ولأنه ذكر إكرامهم، فالمكرّم هو السابق وتخصيص حال السابقين بالذكر، وإن لم يدلّ على حرمان الفريقين الآخرين، من دخول الجنة، لكن فيه تحريض على السعي في إدراك شاو السابقين ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي يزينون في الجنة بأنواع الحلّي والزينة، من الذهب، واللؤلؤ، والحرير.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾

﴿وَقَالُوا﴾ أي ويقولون، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة، أو من حزن الموت، وأحوال يوم القيامة ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ أي للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ دار الإقامة ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ من إنعامه إذ لا واجب عليه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي كلال وملل، إذ لا تكليف فيها، والفرق بينهما أن النَّصَب نفس المشقة والكلفة، واللغوب: ما يحدث منه من الفتور والكلال.

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأحمد في المسند، وانظر الأحاديث الواردة في تفسير ابن كثير ٥٦٣/٣.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا يحكم عليهم بموت ثان ﴿فَيَمُوتُوا﴾ ويستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلما خبت زيد إسعارها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ مبالغ في الكفر والإجرام، حتى يتمنون الموت ولا يُجابون كما قال تعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا مُتُونَ﴾^(١).

﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ والاصطراخ من الصراخ، وهو صياح المعذب بجهد ومشقة، استعمل في الاستغاثة، لجهر المستغيث بصوته ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمار القول، أي يقولون: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً، يقولونه للتحسر على ما عملوه من غير الصالح ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾؟ جواب من جهته تعالى، والهمزة للإنكار، أي ألم نمهلكم ونعمركم عمراً طويلاً، يتذكر فيه من تذكَّر قيل: هو أربعون سنة، وقيل ستون سنة، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرئ آخر أجله، حتى بلغ ستين

(١) سورة الزخرف، آية: ٧٧.

سنة»^(١) ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ والمراد به الرسول ﷺ، وقيل: الشيب والأول هو الأظهر ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ يدفع العذاب عنكم، وهو أمر إهانة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا تخفى عليه خافية فيهما ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبله لأنه إذا علم مضمرات الصدور، وهي أخفى ما يكون، كان أعلم بغيرها، فلو قال قائل: الكافر ما كفر إلا أياماً معدودة، فكان ينبغي أن لا يُعَذَّب إلا مثل ذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ كان يعلم أن في قلب الكافر تمكُّن الكفر، بحيث لو دام إلى الأبد، لما أطاع الله وبقي على كفره، فلذلك يستمر عذابه.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ﴾ قاله تعالى تقريراً لقطع حجتهم، أي نبهكم بمن مضى، وأمركم على لسان الرسل بما أمركم به، وجعلكم خلائف تخلفون من سبقكم، جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وأباح لكم منافعها، لتشكروا الله بالتوحيد، والطاعة ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ بعد هذا كله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي وبال كفره لا يتعداه إلى غيره ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ بيان لوبال الكفر، وهو مقت الله تعالى إياهم أي بغضه الشديد لهم ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي خساراً في الآخرة، لأنه

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٦٤١٩.

خسر سعادته، والتكرير لزيادة التقرير، فإنَّ العمر كرأس مال، من اشترى به رضا الله ربح، ومن اشترى به سخطه خسر.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُم كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ۝﴾.

﴿قُلْ﴾ تبكيئاً لهم ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي آلهتكم، والإضافة إليهم لأنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه، من غير أن يكون له أصل ما ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أي جزء خلقوا من الأرض؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي شركة مع الله تعالى، في خلق السماوات، ليستحقوا بذلك شركة الألوهية؟ ﴿أَمْ آتَيْنَهُم كِتَابًا﴾ ينطق بأننا اتخذناهم شركاء ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ أي حجة ظاهرة من ذلك الكتاب، وفيه إيماء أن الشرك أمر خطير، لا بد في إثباته من تعاضد الدلائل ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لما نفى أنواع الحجج، أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه، وهو تغيير الأسلاف للأخلاف، وإضلال الرؤساء للاتباع، بأنهم شفعاء يشفعون لهم يوم القيامة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ استئناف مسوق بيان غاية قبح الشرك، أي يمسكهما كراهة زوالهما، ويمنعهما أن تزولا، لأن الإمساك المنع ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ أي ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد إمساكه تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ غير معاجل بالعقوبة للكفرة

والعصاة، مع استحقاقهم للعقاب ﴿عَفُورًا﴾ يغفر لمن تاب وأناب منهم، ورجع إلى ربه بالصدق واليقين.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي حلف المشركون بالله أشد الأيمان وأبلغها، أنه لو جاءهم رسول ليكون أسبق الناس إلى الإيمان به، وذلك أنه بلغ قريشاً قبل مبعث الرسول ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدي من إحدى الأمم، أي من أهل الكتاب الذين كذبوا رسلهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو أشرف الرسل محمد عليه الصلاة والسلام ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ أي مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعداً عن الحق، لأنهم قبل الرسالة، كانوا كافرين بالله، وبعدها صاروا كافرين بالله والرسول، وكانوا يقولون: لو جاءنا رسول لآمنا به، فلما جاءهم أفضل الرسل كذبوا برسالته.

﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي للاستكبار في الأرض ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ وهو جميع ما كان يصدر منهم، من القصد إلى إيذائه، ومنع الناس من الدخول في الإيمان ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ أي لا يحيط ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وهو الماكر، وقد حاق بهم، وفي المثل: «من حفر لأخيه جباً، وقع فيه منكباً» فإن قال قائل: كثيراً ما نرى أن الماكر يمكر، ويغلب الخصم بالمكر، والآية تدل

على عدم ذلك، والجواب أن الأمور بعواقبها، فالممكور به في الحقيقة هو الفائز، والهالك هو الماكر، وذلك مثل راحة الكافر، ومشقة المسلم ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بأن يضع موضع العذاب الرأفة والرحمة ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بأن ينقله من المكذبين إلى العابدين المتقين، فالمعنى: إن سنة الله تعالى، هي الانتقام من مكذبي الرسل، لا يبدلها في ذاته، ولا يحولها عن أوقاتها.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (٤٤).

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي كانوا أقوى من أهل مكة ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ليسبقه ويفوته شيء ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي مبالغاً في العلم والقدرة، يعلم أعمالهم فيعاقبهم بموجبها.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِيهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ (٤٥).

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ جميعاً ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من السيئات ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِيهَا﴾ على الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي من نسمة تدب عليها، من بني آدم من شؤم معاصيهم ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ فيجازيهم عند ذلك

بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي قوله تعالى: ﴿كَانَ عِبَادَهُ
بَصِيرًا﴾ تسلية للمؤمنين، يعني إذا جاء الهلاك، فالله بعباده بصير، لا
يهلك جميع الخلق، بل يعلم من يستحق العقوبة والجزاء، ومن يستحق
الكرامة والنجاة، والله أعلم بمراده، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى
آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فاطر»

* * *

سُورَةُ يُسِّى

مكية وهي ثلاث وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَّ ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ .

﴿يُسَّ﴾ اسم للسورة، وعن ابن عباس أن معناه يا إنسان^(١)، قالوا المراد به رسول الله ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن، ومعنى ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي المتضمن للحكمة، والمحكم الذي أحكم في نظمه ومعانيه، لأنه كلام الحكيم جلّ وعلا.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣﴾ .

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواب للقسم، والجملة للرد على قول الكفرة في حقه ﷺ: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ وهذه الشهادة من جملة ما أشير إليه بقوله تعالى في جوابهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾^(٢).

(١) قدمنا في أول سورة البقرة، أن الحروف المقطعة إنما وردت للتنبيه على إعجاز القرآن .

(٢) سورة الرعد، آية: ٤٣ .

﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ ﴾ .

﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ عبارة عن الشريعة بكمالها، أي أنت يا محمد على شريعة واضحة، ودين قويم، هداك ربك إليه، فاثبت على هذا الدين .

﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ ﴾ .

﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ التنزيل مصدر بمعنى المفعول، أي منزل من رب العزة والجلال، العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه، فهو منزل من عند الله، لا كما زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به .

﴿ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ ﴾ .

﴿ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ أي لم ينذر آبائهم الأقربون، لتطاول مدة الفترة ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ عن الإيمان والرشد .

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ ﴾ .

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي والله لقد ثبت وتحقق عليهم، لكن لا بطريق الجبر، بل بسبب إصرارهم على الكفر، والمراد بالقول قوله تعالى لإبليس ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ٨ ﴾ .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ تقرير لتصميمهم على الكفر، بتمثيل حالهم بحال الذين غلت أعناقهم ﴿ فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ ﴾ أي فالأغلال متتهية إلى أذقانهم، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق، ولا يطأطئون رؤوسهم له، لأن المغلول تكون يدهاء مجموعة في الغل إلى عنقه ﴿ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴾ رافعون

رؤوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحق، أو ينظرون إلى جهته.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تمتع للتمثيل، أي وجعلنا مع ما ذكر من أمامهم سداً عظيماً، ومن ورائهم سداً كذلك، فغطينا بهما أبصارهم، بحيث لا يبصرون شيئاً، فالآية إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله في الأنفس والآفاق.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي يتساوى عندهم إنذارك لهم أو عدمه، لأن قلوبهم ممتة، فلا يؤثر فيها تذكير ولا تخويف.

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن بالتأمل فيه، ولم يصر على اتباع الشيطان ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ أي خاف عقابه وهو غائب عنه، أو خاف في سريرته ولم يغتر برحمته، فإنه منتقم قهار، كما أنه رحيم غفار، كما نطق به قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾^(١) ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ عَظِيمَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لا يُقَادَر قدره.

(١) سورة الحجر، آية: ٤٩ - ٥٠.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ ﴾ أي نبعثهم بعد مماتهم، وعن الحسن: إحيائهم: إخراجهم من الشرك إلى الإيمان، فهو حيثنجد عِدَّةً كريمة بتحقيق المبشّر به ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أي ما أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها ﴿ وَآثَرَهُمْ ﴾ التي أبقوها من الحسنات، كعلم علموه، أو كتاب ألفوه، أو بناء بنوه كالمسجد، والرباطات، والقناطر، وغير ذلك من وجوه البر، ومن السيئات، كتأسيس قوانين الظلم، وترتيب مبادئ الشر، والفساد بين العباد، عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١) وقيل: هي آثار خُطى المشائين إلى المساجد، ولعل أنها من جملة الآثار ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في اللوح المحفوظ.

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ ﴾ أي بيّن لأهل مكة ﴿ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ أي اجعل أصحاب القرية مثلاً لهؤلاء في الغلو والكفر، أي طبق حالهم بحالهم

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٠١٧ في قصة الضعفاء العراة من مضر الذين قدموا على رسول الله ﷺ يلبسون أكسية من الصوف البالية، ودعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى تقديم العون لهم، فتسارعوا في عمل الخير فقال ﷺ «من سنَّ في الإسلام..» الحديث.

والقرية أنطاكية على المشهور ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ نسبة إرسالهم إليه تعالى، بناءً على أنه كان بأمره تعالى، وهما يوحنا وبولس، وقيل غيرهما ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي فبادروا إلى تكذيبهما في الرسالة ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي قوينا، يقال عزَّز المطر الأرض إذا لبَّدها ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو شمعون ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ مؤكدين كلامهم لسبق الإنكار، وذلك أن أهل أنطاكية كانوا عبدة أصنام فأرسل عيسى عليه السلام اثنين من الحواريين، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنمات له وهو حبيب النجار، فسألهما فأخبراه، فقال: أمعكما آية؟ فقالا نشفي المريض!! وكان له ولد مريض فمسحاه، فبرىء فأمن حبيب، وفشا الخبر فشفي على أيديهما خلق كثير، وبلغ حديثهما إلى الملك، فقال لهما: ألكما آلهة سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وآلهتك؟ فحبسهما، ثم بعث عيسى عليه السلام «شمعون» فدخل متكرراً، وعاشر أصحاب الملك حتى استأنسوا به، وأوصلوه إلى الملك، فأنس به، فقال له يوماً: سمعت أنك حبستَ رجلين، قال: فهل سمعتَ ما يقولانه؟ قال لا، فدعاهما فقال شمعون: من أرسلكما قالوا: الله الذي خلق كل شيء، قال: وما آيتكما؟ قالوا: ما يتمنى الملك فدعا بغلام أكمه - أي أعمى - فدعوا الله فأبصر الغلام، فقال له شمعون: أرأيت لو سألتَ إلهك حتى يصنع مثل هذا، فيكون لك وله شرف؟ فقال الملك: إنَّ إلهنا لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، فدعاه إلى الإيمان، لكنه لم يؤمن، واستمر على تعذيب المؤمنين هو وزبانيته فصاح عليهم جبريل فهلکوا.

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ﴿١٥﴾

﴿قَالُوا﴾ أي أهل أنطاكية مخاطبين للثلاثة ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه، جعلوا كونهم بشراً دليلاً على عدم الإرسال، وهذا عام من المشركين ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ مما تدعونه من الوحي والرسالة ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دعوى رسالته، وفيما تزعمونه.

﴿قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنََّّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنََّّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ استشهدوا بعلم الله تعالى، وهو يجري مجرى القسم، وفيه إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب، لم يسأموا ولم يتركوا، بل أعادوا ذلك.

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلِّغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٧﴾

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلِّغُ الْمُبِينُ﴾ أي ما علينا إلا تبليغ رسالة الله، وخرجنا عن عهده، فلا مؤاخذه علينا بعد ذلك، وهذه تسلية لأنفسهم، وحث لهم على النظر والاستدلال.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾

﴿قَالُوا﴾ لما ضاقت عليهم الحيل ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي تشاءمنا بكم، جرياً على ديدن الجهالة، حيث يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم، وإن كان مستجباً لكل شر، ويتشاءمون بما لا يوافقها، وإن كان مستتبعاً لسعادة

الدارين، وقد روي أنه حُبس عنهم القطر، فقالوا: أصابنا ذلك بشؤمكم ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ عن مقاتلكم هذه ﴿لَتَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي لنقتلنكم رمياً بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وجيع اليم.

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (١٩).

﴿قَالُوا﴾ أي الرسل ﴿طَائِرُكُمْ﴾ سبب شؤمكم ﴿مَّعَكُمْ﴾ لا من قبلنا، وهو سوء عقيدتكم، وقبح أعمالكم ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ أي وعظمت بما فيه سعادتكم، وجواب الشرط محذوف أي إن ذكرتم تطيرتم، وتوعدتم بالرجم والتعذيب ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي ليس الأمر كذلك، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في الكفر والعصيان، ولذلك توعدتم، وتشاءمتم بمن يجب إكرامه.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوْرُ اثْبَعُوا﴾
الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ هو «حبيب النجار» وكان في غار يعبد الله، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، فلما بلغه أن قومه كذبوا الرسل، وقصدوا قتلهم جاءهم مسرعاً وقال أتسألون عمّا جئتم به أجراً؟ قالوا: لا ﴿قَالَ يَنْفَوْرُ اثْبَعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ تعرض لعنوان الرسالة حثاً على اتباعهم، كما أن خطابهم «يا قوم» لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصحه.

﴿اثْبَعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢١).

﴿اثْبَعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة، وصفهم بما يرغبهم

في اتباعهم، من التنزه عن الغرض الدنيوي ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إلى خير الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ تلطف في الإرشاد، بإيراده في معرض المناصحة لنفسه، وإخلاص النصيح، حيث أراهم أنه اختار لهم ما اختار لنفسه، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم، إلى عبادة غيره، كما ينبيء عنه قوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغة في التهديد، ثم عاد إلى النصيح والتذكير فقال:

﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون﴾.

﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ إنكار ونفي لاتخاذ الآلهة، على الإطلاق وقوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ﴾ إشارة إلى وجود الإله، وقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ إشارة إلى نفي غيره، فتحقق معنى لا إله إلا الله ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أي لا تنفعني شفاعتهم شيئاً من النفع ﴿وَلَا يُنْقِذُون﴾ بالمظاهرة والنصرة.

﴿إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٌ مُبِينٌ﴾.

﴿إِنِّي إِذَا﴾ أي إذا اتخذت من دونه آلهة ﴿لَفِيَ ضَلَالٌ مُبِينٌ﴾ فإن إشراك ما ليس من شأنه النفع، ولا دفع الضر، بالخالق المقتدر، الذي لا قادر غيره، ضلالٌ بَيِّنٌ لا يخفى.

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون﴾.

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ خطاب منه للرسول، بطريق التلوين، وإنما أكدّه لإظهار صدوره عنه، بكمال الرغبة، والنشاط، كأنه قال: ربكم الذي أرسلكم آمنتم به ﴿فَاسْمَعُونَ﴾ أي اسمعوا إيماني، واشهدوا لي به عند الله تعالى، وقيل: الخطاب للكفرة، شافهم بذلك، إظهاراً للتصلب بالدين، وعدم المبالاة بالقتل أي آمنتم بربكم أيها السامعون فأنا لا أخافكم ولا أخشاكم.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ قيل له ذلك لما قتلوه، إكراماً له بدخولها حينئذ، كسائر الشهداء، وقال الحسن: لمّا همّوا بقتله رفعه الله إلى الجنة، فلما دخل الجنة ورأى نعيمها ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ما أكرمني الله به من النعيم الخالد، في جنة الفردوس الأعلى.

﴿يَا غَفَرُ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

﴿يَا غَفَرُ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ وإنما تمنى علم قومه بحاله، ليحملهم ذلك على اكتساب مثله، بالتوبة عن الكفر، والدخول في الإيمان والطاعة، جرياً على سنن الأولياء، في كظم الغيظ، والترحم على الأعداء، قال ابن عباس: نصح قومه في حياته، ونصحهم بعد مماته.

ثم إنه تعالى لما بيّن حاله، بيّن حال المخالفين له، فقال تقدست أسماؤه:

﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾.

﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد قتله، أو رفعه ﴿مِنْ جُنْدٍ﴾

مِنْ السَّمَاءِ ﴿٢٩﴾ لِإِهْلَاكِهِمْ بَلْ اكْتَفَيْنَا أَمْرَهُمْ بِصِيحَةٍ مَلَكٌ، وَفِيهِ اسْتَحْقَارٌ لَهُمْ
وَلِإِهْلَاكِهِمْ ﴿٣٠﴾ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٣١﴾ أَيُّ وَمَا صَحَّ فِي حِكْمَتِنَا أَنْ نُنْزِلَ جُنْدًا لِإِهْلَاكِ
قَوْمٍ حَبِيبٍ، لِأَنَّهُمْ أَذَلُّ وَأَهْوَنُ مِنْ أَنْ يَرْسِلَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ لِإِهْلَاكِهِمْ.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ خَعِيدُونَ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿إِنْ كَانَتْ﴾ أَيُّ مَا كَانَتْ ﴿إِلَّا صِيحَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ صَاحَ بِهَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ ﴿فَإِذَا هُمْ خَعِيدُونَ﴾ أَيُّ مَيِّتُونَ هَالِكُونَ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى سُرْعَةِ
الْهَلَاكِ، أَيُّ مَيِّتُونَ خَامِدُونَ كَمَا تَخْمَدُ النَّارُ، شُبَّهُوا بِالنَّارِ الْخَامِدَةِ، لِأَنَّ
الْحَيَّ كَالنَّارِ السَّاطِعَةِ، وَالْمَيِّتَ كَالرَّمَادِ الَّذِي انْطَفَأَتْ نَارُهُ فَاصْبَحَ خَامِدًا،
قَالَ لِبَيْدٍ:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْئِهِ يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ

﴿يَنْحَسِرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٣٣﴾

﴿يَنْحَسِرُهُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ أَيُّ يَا أَسْفَا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ لِرِسْلِ اللَّهِ،
وَهَذَا نِدَاءٌ عَلَيْهِمْ كَأَنَّمَا قِيلَ لَهَا: تَعَالَيْ يَا حَسْرَةَ، فَهَذِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي
حَقَّقَهَا أَنْ تَحْضُرِي فِيهَا، وَهِيَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ
إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فَإِنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالنَّاصِحِينَ، أَحْقَاءُ بِأَنْ يَتَحَسَّرَ عَلَيْهِمْ
الْمُتَحَسِّرُونَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ جَاءَهُ مَلِكٌ فِي بَادِيَةٍ، وَعَرَفَهُ نَفْسُهُ، وَطَلَبَ مِنْهُ
أَمْرًا هِينًا فَكَذَّبَهُ، وَلَمْ يَجِبْهُ إِلَى مَا دَعَاهُ، ثُمَّ أَتَى بِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ عَلَى
سُرِيرٍ مَلِكِهِ، فَعَرَفَهُ أَنَّهُ ذَلِكَ الْمَلِكُ، فَكَيْفَ تَكُونُ نِدَامَتُهُ؟ فَكَذَلِكَ الرِّسْلُ،
هُمْ مَلُوكٌ وَأَعْظَمُ مِنْهُمْ، بِإِعْزَازِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُمْ، جَاؤُوا وَعَرَفُوا أَنْفُسَهُمْ،
وَكَانَ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ أَمْرًا هِينًا، نَفَعُهُ عَائِدٌ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ ظَهْوَرِ
الْبَاسِ، تَظْهَرُ عَظَمَتُهُمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَكُونُ النِّدَامَةُ الشَّدِيدَةُ، وَكَيْفَ لَا وَهُمْ
لَمْ يَقْنَعُوا بِالْإِعْرَاضِ، حَتَّى آذَوْا وَاسْتَهْزَؤُوا وَاسْتَهَانُوا!!!

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ألم يعلموا ويخبروا، والخطاب لأهل مكة الذين كذبوا سيد الرسل ﴿كَرَّاهِلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي كثرة إهلاكنا لمن قبلهم، من المذكورين المكذبين لرسولهم ومن غيرهم من الضالين ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي كونهم غير راجعين إليهم بعد الهلاك، فكما أنهم مضوا وانقرضوا إلى حيث لم يعودوا، فكذلك هؤلاء يهلكون وينقرضون ثم لا يعودون إلى الدنيا، ألا يتبهون ويتعظون!!

﴿وَأَن كُلَّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿وَأَن كُلَّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي محضرون يوم القيامة للعقاب والجزاء، و«لما» بمعنى «إلا» والمعنى: ما كلكم إلا مجموعون لدينا، محضرون للحساب والجزاء، فالكل يفيد معنى الإحاطة، والجميع معنى الاجتماع، ولما بيّن الله الإهلاك، بيّن أنه ليس من أهلكه الله تركه، بل بعده جمعٌ وحساب، ونعم ما قيل:

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرْكُنَا لَكَانَ الْمَوْتُ رَاحَةً كُلَّ حَيٍّ
وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا بُعِثْنَا وَنُسْأَلُ بَعْدَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ

﴿وَأَيُّهُ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿وَأَيُّهُ لَّهُمُ﴾ للكفرة ﴿الَّتِي تَحْيَا﴾ أي اليابسة، وهي أدلة تدل على كمال قدرته تعالى على إحياء الموتى ﴿أَحْيَايْنَاهَا﴾ بالمطر ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ جنس الحبوب، يعني الحنطة، والشعير، والعدس، وما أشبههما ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ وتقديم الصلة للدلالة، على أن الحب معظم ما يؤكل ويُعاش به، وإذا قلَّ جاء القحط.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنِ الْعُيُونِ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي من أنواع النخيل والعنب
﴿وَفَجْرْنَا فِيهَا﴾ أي وأخرجنا فيها ينابيع من الماء العذب، والتفجير
كالتفتيق، شق الشيء شقاً واسعاً ﴿مِنِ الْعُيُونِ﴾ أي بعضاً من العيون.

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي ليأكلوا من ثمرات ما ذكر من الجنات التي
فيها من أنواع الحبوب والفواكه ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي وليأكلوا من الذي
عملته أيديهم، وهو ما يتخذ منه كالعصير، والدبس ونحوهما ﴿أَفَلَا
يَشْكُرُونَ﴾؟ إنكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة، والفاء
للعطف على مقلّد، أي أيتنعمون بها ولا يشكرونها؟

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ
وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿سُبْحَنَ الَّذِي﴾ تنزيه لله جلّ وعلا، أي تنزه وتقدس الله العلي
الجليل، الذي خلق الأصناف كلها، المختلفة الألوان، والأشكال،
والطعوم، وفي لفظ «سبحان» استعظام لما ذكر، من بدائع آثار قدرته،
وتشنيع على المشركين حيث تركوا شكر المنعم، ولم يقنعوا بالترك، بل
عبدوا غيره، وأتوا بالشرك فقال: سبحان الذي ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي
الأصناف والأنواع^(١) ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ المراد به كل ما ينبت فيها، من

(١) لقد جاء القرآن بالمعجزة الكونية الباهرة، وكشف لنا الستار عن أمر لم يكن يعرفه =

الأشياء المذكورة وغيرها ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي الذكر والأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ مما لم يطلعهم الله تعالى بعد عليه، لعدم قدرتهم على الإحاطة به، ولما لم يتعلق بذلك شيء من مصالحهم الدينية والدنيوية، وفي الآية معنى لطيف، وهو أنه تعالى إنما ذكر كون الكل مخلوقاً، لينزه الله تعالى عن الشريك، فإنَّ المخلوق لا يصلح شريكاً للخالق، فعلى هذا فلا تشركوا بالله شيئاً مما تعلمون، فإنكم تعلمون أنه مخلوق، ومما لا تعلمون فإنها عنده تعالى مخلوق أيضاً.

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَلَيْلٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ﴾ تدل على قدرتنا ﴿أَلَيْلٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ﴾ أي نزيله عن مكانه ونكشفه، مستعار من سلخ الجلد، وهو إزالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال، والأغلب في الاستعمال تعليقه بالجلد، يقال: سلخت الإهاب من الشاة، ولما استدل الله بأحوال الأرض، استدل في هذه الآية بالليل والنهار، وفي الليل سكون الناس، وهدوء الأصوات، وفيه النوم كالموت، ويكون بعده طلوع الشمس، كالنفخ في الصور، فيتحرك الناس كما قال تعالى في الأرض: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ فذكر من الزمانين

= البشر إلا حديثاً، وهي أن الزوجية منبثة في كل ذرات الكون، في الإنسان، والحيوان، والنبات، والذرة، والكهرباء، وغير ذلك، وليست قاصرة على الإنسان والحيوان كما هو المعروف، فقد ثبت أن بين النبات أعضاء مذكرة، وأعضاء مؤنثة، وأن الذرة مؤلفة من زوجين من الإشعاع الكهربائي، وكذلك الكهرباء فيه الموجب والسالب، وهذا لم يُعرف إلا حديثاً في عصر النهضة العلمية، وقد سبق القرآن إلى هذا حين قال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وهو لفظ يفيد العموم، وهنا قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ فسبحان من أنزل كتابه المعجز، السابق للإكتشافات الكونية، على النبي الأمي، المؤيد بالحجج القاطعات، والمعجزات الباهرات، الدالة على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام.

أشبههما بالموت، وهما: الأرض الميتة، والليل المظلم ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام مفاجأة، وفيه رمز إلى أن الأصل هو الظلام، والنور عارض.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ لحِدِّ مَعَيْنِ ينتهي إليها دورها وجريانها، وهو يوم القيامة، فشبّه بمستقر المسافر إذا قطع سيره ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك الجري البديع، المنطوي على الحِكم الرائعة، التي تحار في فهمها العقول والأفهام ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ أي الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿الْعَلِيمِ﴾ أي المحيط علمه بكل معلوم.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ﴾ أي قدرنا مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل كل ليلة في واحدٍ منها، لا يتخطاها ولا يتقاصر عنه، فإذا كان في آخر منازلها وهي الثامنة والعشرين، يستتر ليلتين، أو ليلة إذا نقص ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ﴾ كالشمرخ المعوج، من الانعراج وهو الاعوجاج ﴿الْقَدِيرِ﴾ العتيق وهو العود الذي عليه شماريخ العدق إلى منبته من النخلة، والقديم الذي أتى عليه الحول، فإذا قدم ييس، وتقوَّس، واصفرَّ، فشَبَّه القمر به في ذبوله، ونحوله، واصفراره.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا﴾ لا يصحُّ لها ولا يتسهل ﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ في سرعة السير، فإن ذلك يخلُّ بتكون النباتات، وعيش الحيوانات، ولا في

المكان بأن تنزل في منزله أو في سلطانه، فتطمس نوره، وإيلاء حرف
النفي ﴿لَا الشَّمْسُ﴾ للدلالة على أنها مسخرة، لا يتيسر لها إلا ما قُدِّر لها
﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ﴾ أي كل من الشمس والقمر يسيران بانسباط وسهولة، وفق
نظام دقيق، وضعه العليم الحكيم.

﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾.

﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم
وتخصيصهم بالذكر، لما أن استقرارهم في السفن أشق، ولأن منافع
ذرائعهم نفعٌ لهم، مثاله من أحسن إلى ولدٍ إنسان وفرَّحه، فرح بفرحه
أبوه، وقيل المراد سفينة نوح عليه السلام، وحمل الله ذرياتهم فيها إنه
حمل فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلاهم ذرياتهم، وهو أدخل في الامتنان
وأدخل في التعجيب، أما إن قلنا: إن المراد جنس الفلك، فهو أظهر، لأن
سفينة نوح لم تكن بحضرتهم، ولم يعلموا من حُمل فيها، وأما جنس
الفلك فإنه ظاهر لكل أحد، ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي
فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾^(١) ﴿فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء
والشحن يدل على كمال المنفعة، وعلى عظم القدرة والإرادة، لأن الفلك
المشحون أثقل الثقال، ليس حفظه فوق الماء إلا إرادة الله تعالى.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ﴾ من مثل الفلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل فإنها
سفائن البر، ومما يماثل الفلك من السفن والزوارق، وجعلها أي السفن
مخلوقة لله تعالى، مع كونها من مصنوعات البشر، لأن الله علّم الإنسان

(١) سورة لقمان، آية: ٣١.

صنعها، وأصلها بقدرته تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَاضْغَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾^(١).

﴿وَلِنْ نَّشَأْ نُغْرِقَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾^(١٧).

﴿وَلِنْ نَّشَأْ نُغْرِقَهُمْ﴾ أي لو أردنا لأغرقناهم في البحر، فإنهم معترفون بمضمونه كما ينطق قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٢) الآية. وفي الآية إشعارٌ بأنه قد تكامل ما يوجب إهلاكهم من معاصيهم، ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ أي فلا مغيث لهم يحرسهم وينجيهم من الغرق، أو يدفعه عنهم قبل وقوعه ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ أي ينجون بعد وقوعه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١٨).

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي لا يُغاثون ولا يُنقذون لشيء من الأشياء، إلا لرحمة عظيمة من قبلنا، داعية إلى الإغاثة والانقياد ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي وتمتعاً لهم إلى زمان انتهاء آجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١٩).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي وإذا قيل لهم بطريق الإنذار ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي احذروا سنخ الله وعذابه، واعتبروا بما حلّ بالمكذبين من الرقاع النازلة على الأمم الخالية قبلكم، والعذاب المعدّ في الآخرة!! وجواب «إذا» محذوف تقديره: وإذا قيل لهم ذلك أعرضوا، دلّ عليه قوله

(١) سورة هود، آية: ٣٧.

(٢) سورة لقمان، آية: ٣٢.

تعالى بعده: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ومن أخبر بعذاب وإن لم يقطع بصدق المخبر، يتقيه احتياطاً، ومن لم يتق ذلك فهو في غاية الجهل، ونهاية الغفلة ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ راجين أن ترحموا، فتنجوا بذلك من عذاب الله الشديد.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجديدي و«مِنْ» الأولى مزيدة لتأكيد العموم، والثانية تبعيضية، وإضافة الآيات إلى اسم الرب، لتفخيم شأنها المستتب لتحويل ما اجترؤوا عليه في حقها، والمراد بالآيات، الآيات التكوينية، الشاملة للمعجزات، وغيرها، فالمعنى: ما تظهر آية من الآيات، الشاهدة بوحدانيته تعالى، إلا كانوا عنها معرضين، ومن كذب بالبعض هان عليه تكذيب الكل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لأهل مكة ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي بعض ما أعطاكم الله من فضله على المحتاجين، فإن ذلك يرد البلاء، ويدفع المكاره، عبر عنها بذلك ترغيباً في الإنفاق على منهاج قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾^(١) فيه إشارة إلى أن البخل قبيح، وأبخل البخل من يبخل بمال الغير ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالصانع عز وجل، وهم الطغاة الزنادقة، كانوا بمكة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تهكماً بهم، وبما كانوا عليه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى ﴿أَنْطَعِمُ﴾ حسبما تعظوننا به ﴿مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أي على

(١) سورة القصص، آية: ٧٧.

زعمكم، إيهاماً بأن الله لما كان قادراً أن يطعمهم، ولم يطعمهم، فنحن أحقّ بذلك، ولم يقولوا «أنفق» بل قالوا «أنطعم»؟ للمبالغة في المنع، كما يقول القائل لغيره: أعط زيدا ديناراً فيقول: لا أعطيه درهماً فضلاً عن الدينار، فكذلك ههنا، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيث تأمرونا بما يخالف مشيئة الله، وأن تنفق أموالنا على من أفقرهم الله.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٨﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي متى إنجازه فيما تعدونا به، من قيام الساعة، مخاطبين رسول الله ﷺ والمؤمنين.

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ ﴿١٩﴾

﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخة الأولى في الصور ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ أي تعمهم بالأخذ، تصل إلى من في مشارق الأرض ومغاربها مفاجأة ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم، لا يخطر ببالهم شيء من أمرها، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْغَةً﴾ فلا يغتروا بعد ظهور علاماتها، ولا يزعموا أنها لا تأتيهم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيء من أمورهم، إن كانوا بين أهلهم ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ إن كانوا خارج بيوتهم، بل يموتون حيث يسمعون الصيحة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ولتقومن الساعة، وقد نثر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه،

ولتقومنَّ الساعةُ وقد انصرف الرجل بلبن لقَحْتَه فلا يَطْعُمُهُ، ولتقومنَّ الساعةُ وهو يُليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»^(١).

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾^(٢) أي ينفخ فيه، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، وبين الأولى والثانية أربعون سنة، لما روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون.. الحديث قالوا يا أبا هريرة أربعين يوماً، أو شهراً، أو سنة؟ قال: أبيت»^(٣) ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي من القبور جمع جدث ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مالك أمرهم ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون الخُطى بطريق الإِجبار، دون الاختيار.

﴿قَالُوا يَتَوَلَّيْنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿قَالُوا﴾ في ابتداء بعثهم من القبور ﴿يَتَوَلَّيْنَا﴾ احضر فهذا أوانك ﴿مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا﴾ أي مضجعنا وفيه رمزٌ وإشعار بأنهم لاختلاط عقولهم، يظنون أنهم كانوا نياماً، وعن ابن عباس أن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون، فإذا بعثوا وشاهدوا من أهوال القيامة ما

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن وأشراط الساعة، ٨٢/١٣ ومسلم رقم ٢٩٢٢ في الفتن أيضاً، ومعنى اللَّفْحَة بفتح اللام: الناقة القريبة العهد من النتاج، وليط بمعنى يصلحه ويدهنه بالطين.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٨.

(٣) أخرجه البخاري ٥٥١/٨ في تفسير سورة الزمر، ومسلم ٢٩٥٥ في الفتن.

شاهدوا دعوا بالويل والثبور ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ هو جواب من قبل الملائكة تذكيراً لكفرهم، وتنبيهاً على أن الذي يهمهم هو السؤال عن نفس البعث، دون الباعث أي قالوا: بَعَثَكُمْ الرحمن الذي وعدكم في كتبه، وأرسل إليكم الرسل يخبرونكم عنه، ولكنكم كذبتهم به وكفرتهم.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾.

﴿إِنْ كَانَتْ﴾ أي ما كانت النفخة التي حكيت آنفاً ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ حصلت من نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ أي جميع الخلائق ﴿لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ من غير إمهالٍ طرفة عين، وفيه من تهوين أمر البعث والحشر، والإيذان باستغنائهما عن الأسباب ما لا يخفى.

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٧﴾.

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس، بَرَّة أو فاجرة ﴿شَيْئًا﴾ من الظلم ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إلا ما كنتم تعملونه في الدنيا من الكفر والمعاصي، وهذه حكاية لما سيقال لهم، حين يرون العذاب، تحقيقاً للحق، وتقريعاً لهم.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾ ﴿٥٨﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾ أي متنعمون بنعيم دائم خالد من الفكاهة بمعنى النعيم، وهم مشغولون عن أهوال القيامة، باللذة والسرور، لا بالويل والثبور، والمراد به ما هم فيه من فنون الملاذ، التي تلهيهم عما عداهم بالكلية، لا يفكرون في أهل النار، لئلا يتنغص

نعيمهم، قال ابن عباس: «شغلوا بافتضااض الأبقار، وسماع الأوتار، عن أهلهم من أهل النار، لا يذكرونهم لئلا يتنفصوا»^(١).

﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَّكِئُونَ ﴾.

﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَّكِئُونَ ﴾ أي هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة، متكئون على السرر المزينة بالسائر الحريرية وهو بيان لكيفية شغلهم وتفكههم، وتكميلهما بما يزيدهم بهجة وسروراً من شركة أزواجهم لهم، فيما هم فيه من الظل والأرائك.

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴾.

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ ﴾ أي لهم فيها فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه ﴿ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴾ أي ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون، من أسباب البهجة والسرور، وقال الزجاج: هو من الدعاء أي ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾.

﴿ سَلَامٌ ﴾ أي ولهم سلام يقال ﴿ قَوْلًا ﴾ أي قولاً كائناً ﴿ مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ أي يُسلم عليهم من جهته تعالى، وهو أكمل الأشياء، لا شيء فوقه، وذلك مطلوبهم ومتمناهم.

﴿ وَامْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾.

﴿ وَامْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي تميّزوا وانفصلوا يا معشر الكفرة

(١) انظر تفسير البحر المحيط ٣٤٢/٧.

المجرمين عن عبادي المؤمنين، امتازوا عنهم أيها المجرمون إلى مصيركم المشؤوم، قال الضحاك: «لكل كافر بيتٌ من النار، يكون فيه، لا يرى ولا يُرى» وهذا على خلاف ما للمؤمنين، من الاجتماع بالإخوان، ولا عذاب فوق الفراق، وقيل: يُمَيِّزون بسيماهم، كما في قوله تعالى: ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾.

﴿أَلَمْ آعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىْ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿أَلَمْ آعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىْ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ هذا من جملة ما يقال لهم بطريق التقرير، والعهد: الوصية بأمر فيه خير ومنفعة، والمراد ههنا ما كلفهم الله تعالى به على ألسنة الرسل عليهم السلام، من الأوامر والنواهي، والمراد بعبادة الشيطان: طاعته فيما يوسوس به، عبّر عنها بالعبادة للتحذير ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، تعليل للمنع عن عبادته.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ أي اعبدوني وحدي، ولا تشركوا بعبادتي أحداً، وتقديم النهي على الأمر لما أن حق التخلية التقديم على التحلية، كما أن الطبيب يقول للمريض: لا تأكل من ذاء، ثم يقول له: تناول الدواء الفلاني ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى معصية الشيطان، وطاعة الرحمن ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والتذكير للتفخيم.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِثْلًا كَثِيرًا ﴾ الجِثْلُ: الخلق الكثير، والمعنى: وبالله لقد أضل منكم خلقاً كثيراً، عن ذلك الصراط المستقيم، فأصابهم لأجل ذلك ما أصابهم من العقوبة ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾؟ أي أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم، فلم تكونوا تعقلون؟.

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١٦).

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ يخاطبون به عند إشرافهم على سفير جهنم، أي كنتم توعدونهم على ألسنة الرسل، بمقابلة إطاعة الشيطان الذي أغواكم.

﴿ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (١٦).

﴿ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ ﴾ أمر تنكيل وإهانة كقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ أي ادخلوها وقاسوا فنون عذابها ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي بكفركم المستمر في الدنيا.

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٦).

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ ختماً يمنعها عن الكلام، وذلك أنهم حين يسمعون قوله تعالى: ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ينكرون كفرهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فيختم الله على أفواههم، فلا يقدرُونَ على الإنكار ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ بإنطاقها كما ينطق من كان في المهد، لأن ذلك في قدرة الله يسير، أما الإسكات فلا خفاء فيه، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة، فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها، لأن الله تعالى قادرٌ على

الممكنات، وقد جعل الله الكلام للأيدي، والشهادة للأرجل، لأن الأفعال تستند إلى الأيدي قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فإن الأيدي كالعاملة، والشاهد ينبغي أن يكون غيره، فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود على الإنسان، واللسان هو الناطق وقال تعالى: ﴿نُحْتِمُ﴾ ولم يقل: نُنْطِقُ أيديهم، لئلا يكون النطق بالإجبار، وقال: ﴿وَتُكَلِّمُنَا﴾ أي باختيارها بعدما يقدِّرها الله تعالى على الكلام، روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا عند الرسول ﷺ، فضحك فقال: هل تدرون ممَّا أضحك؟ قلنا الله ورسوله أعلم!! قال: من مخاطبة العبد ربِّه، فيقول: ياربِّ ألم تُجرني من الظلم؟ قال يقول: بلى، قال: فيقول: فإنني لا أجزى على نفسي إلاَّ شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهداء، قال: فيُختم على فيه، ويقال لأركانه انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْداً لَكُنَّ وَسُخْفاً، فَعَنْكُنَّ كنت أناضل»^(١) قوله لا أجزى أي لا أقبل شاهداً سوى نفسي.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي لو نشاء أن نطمس على أعينهم لأعميناهم وأذهبنا أبصارهم ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي فبادروا إلى الطريق ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ؟﴾ أي لا يبصرونه فكيف إذا لم يكونوا على الصراط.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾

(١) الحديث أخرجه مسلم وانظر جامع الأصول.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ بتغيير صورهم وإبطال قواهم ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أي مكانهم، أي لمسختناهم مسخاً يجمدهم مكانهم، لا يقدر أن يبرحوه، بإقبال ولا إدبار، ولا رجوع، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ولا رجوعاً، فوضع موضعه الفعل لمراعاة الفاصلة، وقدم الطمس على المسخ، ليكون الكلام بالتدرج، كأنه قال قائل: الأعمى قد يهتدي إلى الطريق، بآمارات عقلية أو حسية، فارتقى وقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ وليس الغرض مجرد بيان قدرته تعالى، على ما ذكر من الطمس والمسخ، بل لبيان أنهم أحقاء بأن يفعل بهم في الدنيا تلك العقوبة، وأن المانع من ذلك ليس إلا عدم تعلق المشيئة الإلهية به، كأنه قيل: لو نشاء عقوبتهم بما ذكر لفعلناها، ولكننا لم نشأها جرياً على سنن الرحمة، والحكمة الداعيتين إلى إمهالهم.

﴿وَمَنْ تُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمَنْ تُعَمِّرْهُ﴾ أي نطل عمره ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ التنكيس: جعل الشيء أعلاه أسفله، أي نقله فيه، ونخلقه على عكس حالته، فلا يزال يتزايد ضعفه، وتتناقص قوته، ويتغير شكله وصورته، حتى يعود إلى حالة شبيهة بحال الصبي، في ضعف الجسد، وقلة العقل ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي أفبرون ذلك، فلا يعقلون أن من قدر على تنكيس الإنسان، وإعادته إلى حالة الطفولة، يقدر على ما ذكر من الطمس والمسخ، وإن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ﴾.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ رد لما كانوا يقولونه في حقه ﷺ من أنه شاعر، وما يقوله شعر أي ما علمناه الشعر بتعليم القرآن، على معنى أن القرآن ليس بشعر، فإن الشعر كلام متكلف موضوع، ومقال مزخرف مصنوع،

منسوج على منوال الوزن والقافية، مبني على خيالات وأوهام واهية، فأين ذلك من التنزيل الجليل، المتزّه عن مماثلة كلام البشر، المشحون بفنون الحكّم والأحكام الباهرة، الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة، ومن أين اشتبهت عليهم الشؤون، واختلطت بهم الظنون، قاتلهم الله أنى يؤفكون؟ ﴿وَمَا يَلْبِغِي لَهُ﴾ وما يصح له الشعر، ولا يتأتى له لو طلبه، لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدهض، وأما قوله ﷺ: «أنا النبي لا كذب: أنا ابن عبد المطلب» وقوله: «هَلْ أَنتَ إِلَّا أَصْبُعُ دَمِيتِ، وفي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ» فمن قبيل الاتفاقات الواردة من غير قصد، كما يتفق في كثير في خطب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة، ولا يسميها أحد شعراً، لأن صاحبه لم يقصد الوزن ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى، وإرشاد للثقلين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي كتاب سماوي، بيّن كونه كذلك، فارق بين الحق والباطل، يُنال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين^(١).

﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

﴿لِيُنذِرَ﴾ أي لينذر الرسول بهذا القرآن ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي من كان مؤمناً عاقلاً متأملاً في خلق الله، فإن الكافر الغافل بمنزلة الميت، فإن الحياة الأبدية بالإيمان ﴿وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ﴾ أي وتجيب كلمة العذاب ﴿عَلَى﴾

(١) كم بين القرآن وبين الشعر من فارق؟ فالشعر أعذبه أكذبه، وهو قرآن إبليس وكلامه كما يقولون، وقد كان ﷺ يحب من الشعر ما كان مشتملاً على حكمة، أو وصف جميل من مكارم الأخلاق، أو نصرة الإسلام والدين، أو ثناء على الله ونصيحة للمسلمين، وكان أبغض الحديث إليه الشعر، أي ما كان فيه كذب وهجو وقبح، وأما ما روي من أنه عليه الصلاة والسلام كان يضع لحسان في المسجد منبراً فيقوم عليه يهجو من كان يهجو رسول الله والمؤمنين، فذلك من قبيل المجاهدة لأعداء الله، لأنه كان أشدّ عليهم من وقع النبيل.

الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ أي المصيرين على الكفر والعناد، وجعلهم في مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم - لكفرهم وعدم تأملهم - أمواتٌ في الحقيقة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي لأجلهم وانتفاعهم ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي مما تولينا إحداثه بالذات، وذكر الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة، تفيد مبالغة في التفرد في الإحداث والخلق ﴿أَنْعَمًا﴾ الأنعام: هي الإبل، والبقر، والغنم، وهي الحيوانات المأكولة، وخصّها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة، وكثرة المنافع، ولأنها أكثر أموال العرب ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أي فهم مالكون لها بتمليكنا إياها لهم، حيث خلقناها لمنافعهم ومصلحتهم.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي صيرناها منقادة لهم، بحيث لا تستعصي عليهم، في شيء مما يريدون بها، حتى الذبيح ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي فبعض منها مركوبهم وعليها تحمل أثقالهم ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي وبعض منها يأكلون لحمه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ آخر غير الركوب، والأكل، كالجلود، والأصواف، والأوبار، والحراثة بالثيران ﴿وَمَشَارِبٌ﴾ من اللبن ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي أيتمتعون بها، فلا يشكرون المنعم بها عليهم؟.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ .

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي متجاوزين الله تعالى، الذي شاهدوا تفرده بتلك القدرة الباهرة، وتفضله عليهم بهاتيك النعم المتظاهرة ﴿آلِهَةً﴾ من الأصنام، أشار تعالى إلى زيادة ضلالهم، وكان الواجب عليهم عبادة الله، وشكر النعمة، فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع، وتوقعوا منه النصرة؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ رجاء أن ينصروا من جبهتهم، فيما حلَّ بهم من مصائب.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ .

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي لا تقدر آلهتهم على نصرهم ﴿وَهُمْ﴾ أي المشركون ﴿لَهُمْ﴾ أي لآلهتهم ﴿جُنْدٌ مُنْحَضُونَ﴾ يشيعونهم عند مساقهم إلى النار كقوله تعالى: ﴿إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾^(١) وهؤلاء المشركون كالجند والخدام للأصنام، يمنعون منهم ويدفعون عنهم، فهم لهم بمنزلة الجند، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم.

﴿فَلَا يَخْزُنَاكَ قَوْلُهُمْ إِنْآ نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿فَلَا يَخْزُنَاكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي فلا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، وسخريتهم بك، واتهامهم لك بأنك شاعر أو ساحر، وهذه تسليّة للرسول ﷺ يسّليه بها ربه، تخفيفاً عن الآلام والأحزان التي كان يكابدها ﷺ من المشركين والمراد بـ ﴿قَوْلُهُمْ﴾ الإلحاد في الدين، أوفيك بالتكذيب ﴿إِنآ نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم من المكر، والخيانة،

(١) سورة الأنبياء، آية: ٩٨.

والعداوة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بالسُّتْهم من الأذى، أي نجازيهم بجميع جنائياتهم،
الخافية والبادية، التي لا يعزُب عن علمنا شيء منها.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾؟ أي ألم يتفكر الإنسان، ولم يعلم علماً يقينياً، أنا خلقناه من نطفة قدرة، خسيصة خارجة من قناة النجاسة، وقوله: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ إشارة إلى وجه الدلالة، وذلك لأن خلقه لو كان من أشياء مختلفة، كأن يقال: العظمُ خلق من جنس صلب، واللحم من جنس رخو، وكذلك الحال في كل عضو، لَمَا كان خلقه من نطفة متشابهة الأجزاء، وهو مختلف الصور؟ فدلَّ هذا على الاختيار والقدرة، وإذا قال الجاهل إنه استحال وتكوَّن جسماً آخر، لكن من أين جاءت القوة الناطقة «اللسان» والقوة الفاهمة «العقل»؟ ومن أين تقتضيهما النطفة القدرة؟ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي بيَّن الخصومة، أي فهو على مهانة أصله، ودناءة أوله، يتصدى لمخاصمة ربه، وينكر قدرته على إحياء الميت، بعدما رُمَّت عظامه؟ روي أن «أبي بن خلف» أتى النبي ﷺ بعظم بالٍ يفتته بيده، وقال أترى يا محمد الله يحيي هذا بعد ما رُمَّ؟ فقال ﷺ له: نعم وبيعثك ويدخلك النار. وهذا وإن كان سبب النزول، لكن الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فكل إنسان ينكر الله أو الحشر فهذه الآية رد عليه، وقيل معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ هو بعدما كان ماءً مهيناً، رجلاً مميز، ناطقٌ عاقل، قادرٌ على الخصام، فهو حينئذ معطوف على ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ ويكون من تتمات شواهد صحة البعث^(١).

(١) القول الأول أظهر، بدليل قوله تعالى بعده ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ فإنه دليل المكابرة والخصومة، والمجادلة بالباطل.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨)

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أي أورد في شأننا قصة عجيبة، هي في الغرابة والبعد عن العقول، كالمثل، وهي إحياءنا العظام، استبعادها وعدّها من قبيل المثل، وأنكرها أيما إنكار، وقاس قدرتنا على قدرته ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي خلقنا إياه على الوجه المذكور ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ﴾؟ أي قال منكرًا له أشد الإنكار، مؤكداً له بقوله ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؟ أي بالية أشدّ البلاء، بعيدة من الحياة!! والمنكرون للحشر، لم يذكروا فيه دليلاً ولا شبهة، واكتفوا بالاستبعاد، وقالوا: ﴿أَنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ ﴿أَنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟ ﴿أَنَا لَمَدِينُونَ﴾؟ إلى غير ذلك، فكذلك ههنا قالوا: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فبدأ الله الردّ على استبعادهم بقوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد، فهلاً يستبعدون خلق الإنسان الناطق العاقل، من نطفة قدرة، لم تكن محل الحياة أصلاً؟ ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محلّ كانا فيه؟

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩)

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي قل يا محمد لهذا الكافر الفاجر، توبيخاً له وتسكيناً: يخلقها ويحييها الذي أوجدها أول مرة من العدم، وأبدع خلقها من غير شيء، يعني: كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً، كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً. وأما استبعادهم لمن تفرقت أجزاؤه، في مشارق العالم ومغاربه، وصار بعضه في أبدان السباع، كيف يجمع؟ فقال تعالى في الرد على هذا الاستبعاد: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو سبحانه مبالغ في العلم، بتفاصيل كفيات الخلق والإيجاد، إنشاء وإعادة، محيط بجميع الأجزاء المتفتة المتبددة، لكل شخص من الأشخاص، أصولها وفروعها، وأوضاع بعضها من بعض، من الاتصال

والانفصال، والاجتماع والافتراق، فيعيد كلاً من ذلك على النمط السابق مع القوى التي كانت قبل. ثم إنه تعالى عاد إلى تقرير ما تقدّم من دفع استبعادهم فقال:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ (٨٠).

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي الذي خلق لأجلكم ومنفعتكم من الشجر الأخضر ناراً، وهو المرخ والعفار، يقطع الرجل منهما غصنين، مثل السواكين، وهما خضروان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار، فتندح النار بإذن الله، وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر، مع ما فيه من المائبة المضادة لها، كان أقدر على إعادة الغضاضة، إلى ما كان غضاً فطراً عليه اليبوسة والبلاء، فالنار في الشجر تناسب الحياة في البشر، فبان لطف قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾ ثم قال تعالى:

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾
﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١).

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي أليس الذي أنشأها أول مرة؟ وأليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴿بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فإن بديهة العقل، قاضية بأن من قدر على خلقهما، فهو على خلق الناس أقدر، كما قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾^(١) ﴿بَلَىٰ﴾ جواب من الله تعالى،

(١) سورة غافر، آية: ٥٧.

وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكاري ﴿وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ أي بلى هو قادر على ذلك، وهو المبالغ في الخلق والعلم.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي لا يحتاج الله إلى أكثر من أن يقول للشيء كن فيكون، وهذا إظهار لفساد تمثيلهم، حيث ضربوا لله مثلاً، وقالوا لا يقدر أحد على مثل هذا، فقاوسوا قدرة المخلوق على قدرة المخلوق، عجباً يضربون الله المثل الأدنى وله المثل الأعلى!!

﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾

﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تنزيه له تعالى عما وصفوه، وتعجب مما قالوا في شأنه تعالى معللاً بكونه مالِكاً للملك كله، والمَلَكُوتُ: مبالغة في الملك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيره، وفيه من الوعد والوعيد مالا يخفى. وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْرَؤُوا عَلَى مَوْتَاكُمْ يَسَّ»^(١) ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يس»

(١) أخرجه أبو داود في سننه

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكية وهي مائة وثمانان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۖ فَالزَّجَرِيتِ زَجْرًا ۖ فَالتَّلِيَّتِ ذِكْرًا ۖ﴾

﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۖ فَالزَّجَرِيتِ زَجْرًا ۖ فَالتَّلِيَّتِ ذِكْرًا ۖ﴾ هذه الأوصاف الثلاثة، صفاتٌ لموصوف واحد، وهم الملائكة الأبرار الأطهار، وصفوا بالصفات لأنهم يقفون صفوفاً لأداء العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ وكما قال ﷺ في حديث جابر بن سمرة «أَلَا تَصِفُّونَ كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: يتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصُّون في الصف»^(١) وأما وصفهم بالزاجرات فإنهم يزجرون السحاب، أو يزجرون الشياطين عن التعرض لبني آدم، أو عن استرقاق السمع، وأما وصفهم بالناليات فالمراد به التلاوة على الأنبياء وغيرها من التسبيح، والتحميد، والتقديس. أقسم تعالى بهذه الطوائف من الملائكة، الصفات قوائمها في الصلاة، الناليات آيات الله، على أن الله واحد لا شريك له، وفي الحلف بالشيء تعظيم للمحلف به،

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وانظر جامع الأصول ٦١٥/٥.

والحكمة في القسم بهذه الأشياء، التنبيه على شرف ذواتها، فإن قيل: الحلف إن كان لإثبات المطلوب عند المؤمن، فهو مقر به، وعند الكافر لا يقر به، فهذا الحلف عديم الفائدة؟ فالجواب: أنه تعالى قرّر التوحيد، وصحة البعث بالدلائل اليقينية، فذكر القسم تأكيداً لما تقدم، لا سيما أنّ إثبات القضية بالحلف، طريقة مألوفة عند العرب، ولما أقسم على التوحيد، ذكر عقبيه ما هو الدليل وهو قوله: ﴿رب السماوات﴾ الآية كبرهان على قدرته ووحدانيته.

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾.

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب للقسم، والجملة تحقيق للحق الذي هو التوحيد.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ هو البرهان الناطق، فإن وجودها وانتظامها، على هذا النمط البديع، من أوضح دلائل وجود الصانع، وعلمه، وقدرته، ووحدته، والمراد بالمشارك مشارق الشمس في السنة، وهي ثلاث مائة وستون، تشرق كل يوم في واحد، وبحسبها تختلف المغارب، ولذا اكتفى بذكرها مع أن الشروق أدل على القدرة، وأبلغ في النعمة، وأما قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ فالمراد بهما مشرقا الصيف والشتاء، ومغرباهما.

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾.

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي القرية منكم ﴿بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾ فإن الكواكب بأنفسها، وأوضاع بعضها من بعض زينة، والإنسان إذا نظر في الليلة

المظلمة إلى السماء، ورأى هذه الكواكب، مشرقة متألثة على سطح أزرق، أبصر غاية الجمال والزينة.

﴿وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾.

﴿وَحِفْظًا﴾ معطوف على زينة باعتبار المعنى، كأنه قيل: إنا خلقنا الكواكب، زينةً للسماء، وحفظاً ﴿مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ أي خارج عن الطاعة متمرد على ربه، وهو أخبث الجن وأشرس، لأن الجن فيهم المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، والمارد أخبث أقسام الجن.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ﴾ أصل «يَسْمَعُونَ» يتسمعون، فادغمت التاء في السين وشددت، والتسمع ضَمَّنْ معنى الإصغاء، يقال سمعتُ حديثه، وإلى حديثه، المعدَّى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدَّى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك، والملا الأعلى الملائكة، لأنهم يسكنون السماوات، والإنس والجن هم الملا الأسفل، لأنهم سكان الأرض، أي لا يطلبون السماع والإصغاء إليهم ﴿وَيُقَذَّفُونَ﴾ أي يرمون ﴿مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانب السماء، إذا قصدوا الصعود إليها.

﴿نُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾.

﴿نُحُورًا﴾ أي للدحور، وهو الطرد عن السماع مع الإهانة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي عذاب شديد دائم، وهو عذاب الآخرة، ففي الدنيا الرجم، وفي الآخرة السعير.

﴿إِلَّا مَن خِطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَائِبٌ﴾.

﴿إِلَّا مَن خِطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ الخطف : الاختلاس، والمراد اختلاس كلام

الملائكة مسارقة، يعني أخذ شيء من كلامهم بسرعة ﴿فَاتَّبَعُوا بِشَهَابٍ﴾ أي تبعه ولحقه، والشهاب ما يرى كأن كوكباً انقض من السماء ﴿ثَاقِبٌ﴾ أي مضيء في الغاية، كأنه يثقب الجو بضوئه، ولا يقال: إن الشيطان من النار فلا يحترق، لأنه ليس من النار الصّرف، كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص، مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها.

﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾

﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ﴾ أي سل أهل مكة ﴿أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي أقوى خلقه أو أصعب خلقاً وأشقّه؟ ﴿أَمْ مَن خَلَقْنَا؟﴾ من الملائكة والسماء والأرض؟ ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ لاصق، لزج، وهذه شهادة عليهم بالضعف، لأن ما يصنع من الطين، غير موصوف بالصلابة والقوة، وقد علموا أن الإنسان الأول إنما تولد منه، لاعترافهم بقصة آدم عليه السلام، وشاهدوا تولد كثير من الحيوانات منه، ومادتهم الأصلية هي الطين اللازب، وهما باقيان، وقدرة الفاعل ذاتية، لا تتغير، فمن أين استنكروا أن يُخلقوا من تراب مثله، حيث قالوا: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟﴾.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من قدرة الله تعالى، على خلق هذه الخلائق العظيمة، وإنكارهم البعث، وقيل: عَجِبَ النبي ﷺ أنه كان يظن أن كل من يسمع القرآن، يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن وسخروا منه، عجب من ذلك ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ من تعجبك وتقيرك للبعث والنشور.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي دأبهم المستمر أنهم إذا وُعظوا بشيء من المواعظ ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لا يتعظون، لغاية بلاذتهم، وقصور فكرهم، والقوم كانوا

يستبعدون الحشر، إلى حيث كانوا يسخرون ممن يصدّق به، فلا طريق إلى إزالة هذا الاستبعاد عنهم إلا من وجهين: أحدهما أن يُذكر الدليل الدال على صحة الحشر، فذكر الدليل، ولكنهم لشدة بلادتهم وجهلهم، لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان، والوجه الثاني: أن يثبت الرسول ﷺ رسالته بالمعجزات، لأولئك المنكرين، ولم ينتفعوا بهذا الطريق أيضاً، ولهذا عقبه بقوله سبحانه:

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أي معجزة تدل على صدق القائل بالبعث ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي يبالغون في السخرية، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها، لأنهم ألقوا السخرية والتكذيب.

﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَقَالُوا إِن هَذَا﴾ أي ما هذا الذي نراه من الآيات الباهرة ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر سحرته، واضح أنه عمل ساحر، لا يخفى على أحد أمره.

﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا﴾.

﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا﴾ أي كان بعض أعضائنا تراباً، وبعضها عظماً نخرة ﴿لَوْ كُنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي أنبعث بعد موتنا وفنائنا؟ وتكرير الهمزة والتصدير بيان واللام، لتأكيد الإنكار.

﴿أَوَّابًا وَأَنَا الْوَلُونَ﴾.

﴿أَوَّابًا وَأَنَا الْوَلُونَ﴾ أي أيعت أيضاً أبائنا الأولون؟ أي الأقدمون، فمرادهم زيادة الاستبعاد، بناءً على أنهم أقدم، فبعثهم أبعد على زعمهم.

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (١٨) .

﴿ قُلْ ﴾ تبكىنا لهم ﴿ نَعَمْ ﴾ ستبعثون ﴿ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي صاغرون وإنما اكتفى به في الجواب، لقيام المعجزات على صدق المخبر عن وقوعه، فكان قوله: ﴿ نَعَمْ ﴾ دليلاً قاطعاً على الوقوع.

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (١٩) .

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي تستصعبون البعثة، وما هي إلا صيحة واحدة، ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور، من زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة، لأنها تزجر الموتى عن الرقود في القبور ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ قائمون من مراقدهم أحياء ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ أي يبصرون كما كانوا قبل الموت.

﴿ وَقَالُوا يَتَوَلَّىٰ هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ (٢٠) .

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي المبعوثون ﴿ يَتَوَلَّىٰ ﴾ أي ياهلاكنا أخضر فهذا أوان حضورك ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أي اليوم الذي تُجازى فيه بأعمالنا.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (٢١) .

﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ هو كلام الملائكة جواباً لهم، بطريق التوبيخ، أي هذا يوم الفصل بين الخلائق، الذي كنتم تسخرون منه وتكذبون به.

﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) .

﴿ أَحْشَرُوا ﴾ اجمعوا ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي أشركوا بالله، وهو خطاب من

الله تعالى للملائكة ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ﴾ أي أشباههم، ونظراءهم، كعابد الصنم مع عبده، وأهل الخمر مع أهل الخمر، والزاني مع الزناة ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام ونحوها، زيادة في تحسيرهم، وتخجيلهم، وفيه دليل على أن ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم المشركون ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي عرفوهم طريق جهنم، ووجهوهم إليها، وفيه تهكم بهم، لأن الهداية تكون إلى السعادة والنعيم، لا إلى دركات الجحيم!!

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم في الموقف، عند صراط الجحيم ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ أي سَيَسْأَلُونَ عن جرائمهم والوقوف ليس لعفو عنهم، ولا ليستريحوا، بل ليسألوا عما ينطق به قوله تعالى:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي يقال لهم بطريق التوبيخ: ما لكم لا ينصر بعضهم بعضاً، كما كنتم تزعمون في الدنيا؟ وهو وقت إنجاز العذاب، وشدة الحاجة إلى النصرة.

﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾.

﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي منقادون، خاضعون لظهور عجزهم، وانسداد الحيل عليهم.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ هم الأتباع والرؤساء، ﴿يَسَاءَ لَوْ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً، سؤال توبيخ بطريق الخصومة.

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿قَالُوا﴾ أي الأتباع للرؤساء ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ في الدنيا ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي عن أقوى الوجوه بالقوة والإجبار، تزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن الهدى، كأنكم تنفعوننا، فتبعناكم.

﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿قَالُوا﴾ أي الرؤساء أو القراء ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لم نمنعكم عن الإيمان، بل لم تؤمنوا باختياركم مع تمكنكم منه، وآثرتم الكفر عليه.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ من قوة وتسلط عليكم، نسلبكم به اختياركم ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي مختارين للطغيان.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ﴾ ﴿٣١﴾

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ أي ثبت علينا ﴿قَوْلُ رَبِّنَا﴾ وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١) ﴿إِنَّا لَذَٰبِقُونَ﴾ أي العذاب الذي ورد به الوعيد.

﴿فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غُٰوِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

(١) سورة ص، آية: ٨٥.

﴿ فَأَعْوَيْتَكُمْ ﴾ أي فدعوناكم إلي الغي، فاستجبتم لنا باختياركم ﴿ إِنَّا كَاغِبُونَ ﴾ فلا عتاب علينا في تعرضنا لإغوائكم.

﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (٣٣).

﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ أي الأتباع والمتبوعين ﴿ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ حسبما كانوا مشتركين في الغواية والضلالة، الجميع في نار جهنم.

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣٤).

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الفعل الذي تقتضيه الحكمة التشريعية ﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ المتناهين في الإجرام، وهم المشركون، وهذا يدل على أن لفظ «المجرم» المطلق، مختص في القرآن الكريم بالكافر، لقوله سبحانه:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣٥).

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ بالدعوة والتلقين ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن القبول، وعن قول «لا إله إلا الله» ويعظم عليهم أن يتركوا الأصنام والأوثان.

﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لِلَّهِ تَارِكُونَ ﴾ (٣٦).

﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لِلَّهِ تَارِكُونَ ﴾ الهتنا لشاعر تجنون؟ يعنون الرسول ﷺ، قاتلهم الله أنى يؤفكون، قال الله تعالى رداً عليهم:

﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣٧).

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي ليس الأمر كما يفترون، بل جاءهم محمد عليه السلام بالتوحيد، والإسلام، الذي هو الحق القاطع، الذي أجمع عليه كافة الرسل عليهم السلام، فأين الشر والجنون من ساحته الرفيعة؟

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾.

﴿إِنَّكُمْ﴾ بما فعلتم من الإشراك والتكذيب والاستكبار ﴿لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ والالتفات لإظهار الغضب عليهم.

﴿وَمَا تُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَمَا تُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا، من الشرك والتكذيب.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من ضمير ذائقوا، والمعنى: إنكم لذائقوا العذاب، لكن عباد الله المخلصين ليسوا كذلك.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إليهم، للإيذان بأنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص، عمن عداهم ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ أي معلوم الخصائص من حسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة، ونحوها من نعوت الكمال.

﴿فَوَكَهَهُمْ مِّكْرُمُونَ﴾.

﴿فَوَكَهَهُمْ﴾ أي ذلك الرزق فواكه، وتخصيصها بالذكر، لأن أرزاق أهل

الجنة كلها فواكه، أي ما يؤكل فيها لمجرد التلذذ، لا لدفع الجوع، لأنهم مستغنون عن القوت، لكون خلقتهم محكمة، محفوظة من التحلل، المحوج إلى البذل ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ عند الله تعالى لا يلحقهم الهوان، ويصل إليهم رزقهم بغير تعب ولا نصب.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (١٢)

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي في جنات ليس فيها إلا نعيم.

﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (١٤)

﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ أي متواجهين، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض، لدوام الأُنس والسرور.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ (١٥)

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ في الخدمة ﴿بِكَأْسٍ﴾ بإناء فيه خمر، أو بخمر، فإن الكأس تطلق على نفس الخمر، وعن الأخفش «كل كأس في القرآن فهي الخمر» ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي كائنة من شراب معين، وهو الجاري على وجه الأرض، تراها العيون، وصف تعالى به الخمر، لأنها تجري في الجنة في أنهار، كما يجري الماء، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّدُنْهُ لِلشَّارِبِينَ﴾^(١).

﴿بَيَظَاءَ لَّدُنْهُ لِلشَّارِبِينَ﴾ (١٦)

﴿بَيَظَاءَ﴾ خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ﴿لَّدُنْهُ لِلشَّارِبِينَ﴾ وصفها بلذة للمبالغة، كأنها نفس اللذة، لأن من شربها بليتد بها لذة غامرة.

(١) سورة محمد، آية: ١٥.

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي غائلة كما في خمر الدنيا، ومن مفسد خمر الدنيا صداع الرأس، والقيء، ووجع المعدة، وكثرة البول، والسكر ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ أي يسكرون، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله، أفرد هذا بالنفي مع اندراجهِ فيما قبله، لما أنه من معظم مفسد الخمر.

﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْإِطْرِفِ عَيْنٌ ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْإِطْرِفِ ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن، لا يَمُدُّنَ طرفاً إلى غيرهم ﴿ عَيْنٌ ﴾ نجل العيون، والتَّجَلُّ: سعة العين أي حسان الأعين عظامها، مع غاية الحسن والجمال.

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أي مصون ومستور، شبهن ببياض النعام، لأنها تكنها بالريش من الريح والغبار، فيكون لونها أبيض مخلوطاً بأدنى صفرة، ويقال: هذا أحسن ألوان الأبدان^(١).

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ .

(١) أخبر تعالى عن نساء أهل الجنة، أنهن عفيفات، قصرن أعينهن عن النظر إلى غير أزواجهن، وهنَّ مع العفة واسعات العيون، جميلات اللون، كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه، وهذا قول ابن عباس، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ والغرض أنهن مع هذا الجمال الباهر، مصونات كاللؤلؤ في أصدافه، مع رقة، ولطف، ونعومة، اللهم لا تحرمنا نعيم الجنة، ومتعنا بالحوور العين، يا أرحم الراحمين.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ ﴾ يعني أهل الجنة ﴿ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يتحدثون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا، كما قال القائل:
وما بقيت من اللذات إلا أحاديث الكرام على المدام

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ (٥٦).

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ في تضاعيف محاوراتهم ﴿ إِنِّي كَانَ لِي ﴾ في الدنيا ﴿ قَرِينٌ ﴾ أي صاحب لا يؤمن باليوم الآخر.

﴿ يَقُولُ أَأَنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ﴾ (٥٧).

﴿ يَقُولُ ﴾ لي على طريق التوبيخ بما كنت عليه من الإيمان، والتصديق بالبعث ﴿ أَأَنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ﴾؟ أي بالبعث، ويقول تعجباً.

﴿ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْلًا أَوَدَا لَمَيُّونَ ﴾ (٥٧).

﴿ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْلًا أَوَدَا لَمَيُّونَ ﴾؟ أي لمبعوثون ومجزيون؟ من الذين بمعنى الجزاء، يقول هذا على سبيل الاستهزاء والإنكار.

﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّظْلِعُونَ ﴾ (٥٨).

﴿ قَالَ ﴾ أي ذلك القائل، بعدما حكى لجلسائه مقالة قرينه في الدنيا ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُّظْلِعُونَ ﴾؟ أي إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين، يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاها، بمعنى هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار، لأريكم ذلك القرين؟.

﴿ فَأَطْلَعَ قَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ (٥٩).

﴿ فَأَطْلَعَ ﴾ عليهم ﴿ قَرَاهُ ﴾ أي قرينه ﴿ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ أي في وسطها.

﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرِينَ ﴾ (٥٦)

﴿ قَالَ ﴾ أي القائل لقرينه شامتاً به ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرِينَ ﴾ أي والله لقد قاربت أن تهلكني بإغوائك لي.

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴾ (٥٧)

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي ﴾ بالهداية والعصمة ﴿ لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴾ أي من الذين أحضروا العذاب، معك في النار، ثم يخاطبه مستهزئاً ساخراً، كما كان الكافر يسخر منه في الدنيا فيقول له:

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴾ (٥٨)

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴾؟ أي هل لا تزال على اعتقادك، بأننا لن نموت إلا مودة واحدة، وأنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء؟ وهو أسلوب ساخر لاذع، يظهر فيه التشفي من ذلك الصديق الكافر، الذي كان يسخر منه في الدنيا.

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٥٩)

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي الأمر العظيم الذي نحن فيه ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي هو السعادة الكاملة، والفوز بالكرامة، التي لا يوازيها شيء من أمور الدنيا ونعيمها.

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ (٦٠)

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ أي يقول تعالى: لنيل هذا المرام الجليل، يجب أن يعمل العاملون، لا للحظوظ الدنيوية.

﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿أَذَلِكْ﴾ أي أذلك الرزق المعلوم ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ أي خير ضيافة وتكريماً ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾؟ أم شجرة الزقوم التي في جهنم؟ والأسلوب أسلوب تهكم وسخرية، لأن النُّزْل في اللغة: الضيافة التي تقدّم للضيف، وأي ضيافة لمن يكون طعامه الزقوم؟ والزقوم طعام أهل النار، وهي شجرة خبيثة مرة، كريهة الرائحة ٩١.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً﴾ أي محنة وعذاباً ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ في الآخرة، وابتلاء في الدنيا، فإنهم لما سمعوا أنها في النار استهزؤوا، وقالوا: كيف يمكن ذلك، والنار تحرق الشجر؟ وصارت تلك الشبهة سبباً لتماديهم في الكفر، ولم يعلموا أن من قدر على أن يخلق الزبانية ويمنع النار عن إحراقهم، أقدر على خلق الشجر فيها، وحفظه من الإحراق!! ثم قال تعالى:

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ منبتها في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتھا.

﴿طَلَعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿طَلَعُهَا﴾ ثمرها سمي طلعاً لطلوعه أول الإثمَار ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ في تناهي القبح والهول، وهو تشبيه بالمخيّل، كتشبيه الفائق في الحسن بالملك، وتشبيه القبيح الصورة بالشیطان، والعرب إذا رأت منظراً قبيحاً قالت: كأنه شیطان، لما استقرّ في الأذهان، من قبح صورة الشيطان.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا كُؤُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ ﴿٦٦﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا كُؤُونَ مِنْهَا﴾ أي من الشجرة أو من طلعتها ﴿فَمَا لَوْ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ لغلبة الجوع، أو للقسر على أكلها وإن كرهوها، ليكون ذلك باباً من العذاب.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿٦٧﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي بعد ما شبعوا منها وغلبيهم العطش، وطال استسقاؤهم كما ينبيء عنه كلمة «ثم» ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الشوب اسم ما يشاب به أي لشراباً من غساق، أو صديد، مشوباً بماء الحميم، يقطع أمعاؤهم، كما قال تعالى ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٨﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ أي مصيرهم ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي إلى دركاتهما، فإن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولها، وهذا يدل على أن الحميم خارج عن الجحيم، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب، كما تورد الإبل إلى الماء، ثم يوردون إلى الجحيم للاحتراق فيها.

﴿إِنَّهُمْ أَفْوَاءٌ أَبَاءُ هُمْ ضَالِّينَ﴾ ﴿٦٩﴾.

﴿إِنَّهُمْ أَفْوَاءُ﴾ أي وجدوا ﴿أَبَاءُ هُمْ ضَالِّينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب بتقليد الآباء، أي وجدوهم ضالين في نفس الأمر.

﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْعَوْنَ﴾ ﴿٧٠﴾.

﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْعَوْنَ﴾ يسرعون من غير أن يتدبروا أنهم على الحق،

أو على الباطل، والإهراج: الإسراع، ولو لم يوجد في القرآن آية، غير هذه الآية، في ذم التقليد لكفى.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧١)

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قومك ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم السالفة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٧٢)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي أنبياء أولي عدد كثير، وذوي شأن خطير، بينوا لهم بطلان ما هم عليه، وأنذروهم عاقبته الوخيمة، ولكن الضالين لم يلتفتوا إلى الإنذار.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٣)

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ من الهول والفظاعة، والخطاب لكل أحد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم، أي ألم نهلكهم إهلاكاً فظيعاً، ونجعلهم عبرة للعباد؟.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٧٤)

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي إلا الذين آمنوا، بتوفيقهم للإيمان والعمل الصالح، وأخلصوا لله دينهم، فأولئك نجوا من العذاب، وهذه الآية لتسلية النبي ﷺ، ليكون له أسوة بالرسول، حتى يصبر كما صبروا، ويستمر على الدعوة إلى الله.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ (٧٥)

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحَ﴾ أي دعانا مستغيثاً، واللام جواب قسم محذوف، وكذا ما في قوله تعالى: ﴿فَلَنَعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي وبالله لقد دعانا نوح، حين يشس من إيمانهم فأجبناه أحسن الإجابة، فوالله لنعم المجيبون نحن، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص، سبب لحصول الإجابة، والجمع دليل العظمة والكبرياء.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦)

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي من الغرق والطوفان، الذي عم قومه الكافرين.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (٧٧)

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ أي الذين ركبوا معه في السفينة من أولاده وأتباعه المؤمنين، وكل من سواهم هلكوا وفنوا، وعن سَمُرَة بن جندب، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال: «هم سام، وحام، ويافث» (١).

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨)

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمم هذه الكلمة، وهي:

﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٧٩)

﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ﴾ أي أبقينا له ثناء جميلاً، فيمن بعده من الأنبياء

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٣٠ وقال: حديث حسن غريب، وفي رواية أخرى «سام» أبو العرب، و «حام» أبو الحبش، و «يافث» أبو الروم.

والأمة يسلمون عليه تسليماً ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ أي باقية ومستمرة هذه التحية أبداً في العالمين.

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٨٠)

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لما فعل به من التكرمة السنية، من إجابة دعائه، وإبقاء ذريته، وتسليم العالمين عليه، أي مثل ذلك الجزاء الكامل، نجزي الكاملين بالإحسان.

﴿ إِنَّمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨١)

﴿ إِنَّمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي كان مخلصاً في العبودية لله، كامل الإيمان واليقين، وفي هذا إظهار لجلالة قدر الإيمان.

﴿ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ﴾ (٨٢)

﴿ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ﴾ وهم كفار قومه.

﴿ وَآتَتْ مِنْ شَيْعَنِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴾ (٨٣)

﴿ وَآتَتْ مِنْ شَيْعَنِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴾ أي وممن شايعه في أصول الدين، وسار على منهاجه وسنته، إبراهيم عليه السلام وما كان بينهما، إلا نبیان: هود، وصالح عليهما السلام، وكان بين نوح وإبراهيم عليهما السلام ألفان وستمائة وأربعون سنة.

﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٨٤)

﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ ﴾ أي حين جاء ربه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ خالص من الشرك،

والشك، ومن كل دنس المعاصي، كالغل، والغش، والحقْد، والحسد،
يحب للناس ما يحب لنفسه.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٨٥)

﴿ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟ أي شيء تعبدونه؟

﴿ أَيْفَكَاةَ إِلَهِةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (٨٦)

﴿ أَيْفَكَاةَ إِلَهِةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ ؟ أي أنريدون آلهة من دون الله للإفك
والكذب والزور؟

﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٧)

﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي بمن هو حقيق بالعبادة، لكونه رباً
للعالمين، فما ظنكم به، ماذا يفعل بكم، بعد أن أشركتم به وعبدتم غيره؟
هل يترككم بدون عقاب؟

﴿ فَتَنْظَرْ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ (٨٨)

﴿ فَتَنْظَرْ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ حين سألوه ألا تخرج معنا إلى عيدنا؟ فنظر
في النجوم.

﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ (٨٩)

﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أي مشارف للسقم، وهو الطاعون، وكان أغلب
الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى، ويفرون من المطعون، وأراد عليه
السلام القول: إني سقيم القلب لكفركم، كما يقال: أنا مريض القلب من
كذا فهربوا منه وتركوه وذلك قوله تعالى:

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ .

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي هاربين مخافة العدو .

﴿فَرَاغَ إِلَاءَ الْهَنَيمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ .

﴿فَرَاغَ إِلَاءَ الْهَنَيمِ﴾ أي ذهب إليها في خفية ﴿فَقَالَ﴾ للأصنام استهزاء ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟ أي من الطعام الذي بين أيديكم؟ وكانوا يضعون الطعام أمام أصنامهم لتبارك لهم فيه .

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ .

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ أي ما لكم لا تجيبوني على سؤالي؟ .

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ .

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي فمال مستعلياً عليهم ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي يضربهم ضرباً شديداً بيده اليمنى، لأن اليمين أقوى الجارحتين، وقوة الآلة تقتضي قوة الفعل، وقيل: ﴿بِالْيَمِينِ﴾ أي بسبب الحلف وهو قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ .

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ ﴿٩٤﴾﴾ .

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ إلى إبراهيم عليه السلام، بعدما رجعوا فرأوا أصنامهم مكسرة، وبحثوا عن كاسرها فظنوا أنه هو ﴿يَزِفُونَ﴾ أي يسرعون من زفيف النعام، وهو ابتداء عذوها .

﴿قَالَ اتَّعَبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ أي بعدما أتوا به عليه السلام وجرى بينه وبينهم من المحاورات ما جرى ﴿ اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي ما تنحتونه من الأصنام؟.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي والله خلقكم وخلق أعمالكم، وهو دليلنا في خلق الأفعال، أي الله خالقكم وخالق أعمالكم، فلم تعبدون غيره؟.

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْغَيِّمِ ﴾ ﴿٩٧﴾.

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْغَيِّمِ ﴾ في النار الشديدة، المستعرة المحرقة، وهي شدة التاجع.

﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ﴿٩٨﴾.

﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ لما قهرهم بالحجة قصدوا ما قصدوا، لئلا يظهر عجزهم للعامة ﴿ جَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أي الأذلين، بإبطال كيدهم، بجعل النار عليه برداً وسلاماً، فصار هو الغالب عليهم، وهم الأذلاء المدحورون.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ ﴿٩٩﴾.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أي مهاجر إلى حيث أمرني ربي، لا تجرد لعبادته تعالى، قاله بعد خروجه من النار ﴿ سَيِّدِينَ ﴾ أي إلى ما فيه صلاح ديني، ودلت الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء يجب المهاجرة منه، فلما قدم عليه السلام الأرض المقدسة، سأل ربه فقال:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿١٠٠﴾.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي بعض الصالحين، يعيني على الدعوة، ويؤنسني في الغربة، يعني الولد، لأن لفظ الهبة خاص به.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ فإنه صريح في المبرر به، وعين ما استوهمه، ولقد جمع فيه بشارات ثلاث: بشارة أنه غلام، وحليم، وأنه يبلغ سن الرشد لأن الصغير لا يوصف بذلك.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُاْ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَأْتِيَ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ﴾ أي فوهب الله له الولد فنشأ، فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿يَبْنَؤُاْ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أي أرى هذه الصورة بعينها، وقيل: إنه رأى ليلة التروية، كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله تعالى، فمن ثمة سمي يوم عرفة، ثم رأى مثل ذلك في الليلة الثالثة، فهم بنحره فسمي اليوم يوم النحر، والغلام الذي أمر بذبحه هو إسماعيل عليه السلام، إذ هو الذي وُهب له إثر المهاجرة، وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لا يحسن إلا عند عدم الولد، فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول، وإسماعيل متقدم في الوجود على إسحق، فثبت أن المخاطب هو إسماعيل، ومما يدل عليه قوله سبحانه في سورة هود: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾. فكيف يؤمر بذبح إسحق وقد وعده بالنافلة أي ولدٍ ولدٍ فيه؟ ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؟ أي فانظر في الأمر ما رأيك فيه؟ وإنما شاوره فيه وهو أمر محتوم، ليعلم ما عنده فيما نزل، ويكتسب المثوبة والثناء الحسن في الدنيا، وليظهر صبره في طاعة

الله عزَّ وجلَّ، وقد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم ﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما تؤمر به، وقد علم أن الأنبياء لا يقدمون على مثل ذلك إلا بالأمر ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ على الذبح، وإنما علق الأمر بمشيئة الله تعالى، على سبيل التبرك.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (١١٢)

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي استسلما لأمر الله تعالى، وانقادا له، يقال: سَلِمَ لأمر الله، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي صرعه على شقه، فوق جبينه على الأرض، وهو أحد جانبي الجبهة، وكان ذلك عند الصخرة من منى.

﴿وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعْنِي أَهْلُ بَيْتِي وَمَنِ اتَّبَعْنِي﴾ (١١٣)

﴿وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعْنِي أَهْلُ بَيْتِي وَمَنِ اتَّبَعْنِي﴾ بالعزم على الإتيان بالمأمور به، أي قد حققت ما أمرناك به في المنام، والسبب في هذا التكليف، إظهار كمال طاعة إبراهيم، فلما ظهر منه كمال الطاعة، ومن ولده كمال الانقياد، قال تعالى له:

﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٤)

﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ يعني حصل المقصود من تلك الرؤيا ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي كما جزينا هذين المحسنين، فكذلك نجزي كل المحسنين، وهو تعليل لتفريج تلك الكربة بإحسانهما.

﴿إِن كُنْتُمْ تَحِبُّونَ﴾ (١١٥)

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أي الابتلاء البين، الذي يتميز فيه المخلص من غيره، والمحنة البينة إذ لا شيء أصعب من مثل هذا التكليف الشاق.

﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠٧)

﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ﴾ بما يذبح بدله فيتم به الفعل ﴿عَظِيمٍ﴾ أي عظيم الجثة سمين، يفدي به الله نبياً ابن نبي، من نسله سيد المرسلين ﷺ، وكان كبشاً من الجنة.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٠٨) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٠٩) ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٠) ﴿إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١١) ﴿وَنَشَرَّنَاهُ بِنِيعَةٍ﴾ (١١٢) ﴿بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٣).

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّكُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَنَشَرَّنَاهُ بِنِيعَةٍ مِنَ الصَّالِحِينَ * بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ، وفي ذكر الصلاح بعد النبوة، تعظيم لشأنه، وإيماء إلى أنه الغاية لها، لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل^(١).

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (١١٣).

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل، وأفضنا عليهما بركات الدنيا والدين ﴿وَمِنْ

(١) فإن قيل كيف قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ مع أن مرتبة الرسل فوق مرتبة المؤمنين؟ فالجواب: تنبيهاً لنا على جلالة قدر الإيمان وشرفه، وترغيباً في تحصيله والثبات عليه.

ذَرَّتَهُمَا مُحْسِنٌ ﴿﴾ في عمله بالإيمان والطاعة ﴿وَفَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿مُبِيتٌ﴾ ظاهر ظلمه، وفيه تنبيه على أن النسب لا تأثير له في الهداية والضلالة، وأن الظلم في أعقابهما لا يعود إليهما بنقيصة.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ﴿١١٨﴾

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أي أنعمنا عليهما بالنبوة، وغيرها من النعم الدينية والدنيوية.

﴿وَبَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿١١٩﴾

﴿وَبَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ هو تسلط آل فرعون عليهم بألوان العذاب.

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ أي هما وقومهما على عدوهم ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ عليهم، بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين.

﴿وَأَيَّلْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١٢١﴾

﴿وَأَيَّلْنَاهُمَا﴾ بعد ذلك ﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي البليغ في البيان والتفصيل، وهو التوراة، التي أنزلها الله هدى لبني إسرائيل.

﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١٢٢﴾

﴿وَهَدَيْنَاهُمَا﴾ بذلك ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي الطريق الموصل إلى الحق والصواب، بما فيه من الأحكام.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْيَرَيْنِ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ۞ ﴾

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْيَرَيْنِ ۞ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۞ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۞ ﴾ مَرَّ تَفْسِيرُهَا .

﴿ وَإِنَّ إِيْلَاسَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ۞ ﴾

﴿ وَإِنَّ إِيْلَاسَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ ﴾ قال أكثر المفسرين هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقال محمد بن إسحق: هو إيلياس بن ياسين، بن فنحاص، بن العيزار، من نسل هرون عليه السلام.

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ۞ ﴾

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ ﴾ أي ألا تخافون عذاب الله في عبادتكم غيره؟ .

﴿ أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ ۞ ﴾

﴿ أَدْعُونَ بَعْلًا ۞ ﴾ أتعبدونه، وتطلبون الخير منه، وهو اسم صنم لأهل بعلبك ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ۞ ﴾ أي وتتركون عبادة ربكم أحسن الخالقين؟ .

﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ رَبَّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ۞ ﴾

﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ رَبَّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ۞ ﴾ أي الذي هو خالقكم وخالق آبائكم من قبلكم؟ والتعرض لربوبيته تعالى لأبائهم، لتأكيد إنكار تركهم لعبادة الله تبارك وتعالى .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ ﴾

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ ﴾ بسبب تكذيبهم ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي في العذاب.

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨ ﴾ وَتَرْكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٢٩ سَلَّمَ عَلَيَّ إِلَى يَاسِينَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ وَتَرْكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَيَّ إِلَى يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّمِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿قرأ أي تركنا عليه الشفاء العاطر في الأمم بعده، سلاماً منّا على إلياس وآله المؤمنين الطيبين، نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين، والباقون إلياسين، والمراد في القراءتين إلياس، قال الزجاج: كما قال ميكال، وميكائيل، كذلك يقال إلياس، وإلياسين.

﴿ وَإِنَّ لُوْطًا لِّمِنَ الرُّسُلَيْنِ ۝١٣٣ إِذْ بَخَّعَتْهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ۝١٣٦﴾

﴿ وَإِنَّ لُوْطًا لِّمِنَ الرُّسُلَيْنِ ﴾ إِذْ بَخَّعَتْهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِينَ * ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿أي أهلكناهم أشد الإهلاك، حيث قلبنا ديارهم، فجعلنا عاليها سافلها. وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، ولفظ التدمير يشير إلى أشد أنواع الإهلاك وأفظعه.

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧﴾

﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على منازلهم في متاجرهم إلى الشام، فإن سدوم في طريقهم ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾؟ داخلين في الصباح.

﴿وَبِالْأَيْلِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾.

﴿وَبِالْأَيْلِ﴾ أي ومساء، أو نهراً وليلاً ﴿أَفْلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أنشاهدون ذلك فلا تعقلون؟ حتى تعتبروا به، وتخافوا أن يصيبكم ما أصابهم؟ وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام، لأنه تعالى سلّم في آخر السورة على جميع الأنبياء المرسلين في قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فأغنى هذا عن السلام عليهما.

﴿وَإِنْ يُوَسَّسْ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿١٤٠﴾.

﴿وَإِنْ يُوَسَّسْ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي هرب، وأصله الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه، بغير إذن ربه، حسن إطلاقه عليه ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي المملؤ بالرجال والمتاع.

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ ﴿١٤١﴾.

﴿فَسَاهَمَ﴾ أي فقارع أهله ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي فصار من المغلوبين بالقرعة، روي أنه عليه السلام لما وعد قومه بالعذاب، فتأخر عنهم، خرج من بينهم، قبل أن يأمره الله تعالى، فركب السفينة فوقفت، فقالوا: فيها عبد آبق، وفيما يزعم البحارون أن السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر، فافترعوا فخرجت القرعة عليه فآلقوه في البحر.

﴿فَالْقَمَّةُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿١٤٢﴾.

﴿فَالْقَمَّةُ الْخَوْتُ﴾ أي فابتلعه حوت عظيم الجثة ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي وهو آت بما يلام عليه.

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ ﴿١٤٧﴾ .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح، مدة عمره، أو في بطن الحوت.

﴿ لَلَيْثِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿١٤٨﴾ .

﴿ لَلَيْثِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لبقّي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، يوم البعث والنشور، وفيه حث على الإكثار من الذكر، فمن أقبل على الله في السراء، أخذ بيده عند الضراء ومكث في بطن الحوت ثلاثة أيام، قاله مقاتل، وقال الحسن: لم يلبث إلا قليلاً.

﴿ فَنبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ ﴿١٤٩﴾ .

﴿ فَنبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه، بالمكان الخالي عما يغطيه، من شجر أو نبت، روي أن الحوت سار في البحر رافعاً رأسه، يتنفس فيه يونس، ويسبح الله، حتى انتهى إلى البر، فلفظه سالماً، لم يتغير منه شيء^(١) ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ مما ناله، قيل: صار بدنه كبذن الطفل حين يولد، من حرارة جسم الحوت.

﴿ وَأَبْلَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴾ ﴿١٥٠﴾ .

(١) سبب ذلك أن يونس عليه السلام ضاق صدره بتكذيب قومه له، فأنذرهم بعذاب قريب، وغادرهم مغاضباً لهم لأنهم كذبوه، فقاده الغضب إلى شاطئ البحر، حيث ركب سفينة مشحونة، فنوءتها الرياح والأمواج في وسط البحر، فقال الملاحون: ههنا عبد آبق من سيده، ولا نجاة لنا إلا بإلقائه لننجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس عليه السلام، ولم يعرف أهل السفينة قدره وأنه نبي، فآلقوه في البحر، فالتقمه الحوت فوراً، قال عطاء: أوحى الله إلى الحوت، أني قد جعلت بطنك له سجنًا، ولم أجعله لك طعاماً، فلذلك بقي سالماً لم يتغير منه شيء!!.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ أي فوقه مظلة ﴿شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ وهو كل ما ينسبط على الأرض، والأكثر على أنه الدباء، وقيل: التين، وقيل: الموز يستظل بأغصانه، ويفطر على ثماره، وكان ذلك معجزة له، فأنبتته الله تعالى لأجله.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ هم قومه الذين هرب منهم، وهم أهل نينوا، والمراد إرساله السابق قوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي في مرأى الناظر، والمراد به هو الوصف بالكثرة.

﴿فَتَأْمُرُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

﴿فَتَأْمُرُوا﴾ أي بعدما عاينوا علائم حلول العذاب، إيماناً خالصاً، وجدّدوا الإيمان بمحضره ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ إلى أجلهم المسمى، وهو انتهاء أعمارهم.

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمَ آلَ بُنَاتٍ أَلَيْسَ لَهُنَّ بَنُونَ﴾.

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمَ آلَ بُنَاتٍ أَلَيْسَ لَهُنَّ بَنُونَ﴾؟ لما ذكر تعالى أفاصيص الأنبياء الكرام، عاد إلى شرح مذاهب المشركين، وبيان قبحها وسخافتها، فقال: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمَ﴾ أي فاستخبر قومك على سبيل التوبيخ والتجهيل وسلهم: كيف جعلوا لله جل وعلا البنات ولأنفسهم البنين؟ وذلك في قولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالة أخرى، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وذلك باطل، من وجهين:

الأول: أن العرب يستنكفون من البنت، والشيء الذي يستنكف المخلوق منه، كيف يمكن إثباته للخالق؟ أي فاستخبرهم أليكن البنات، اللاتي هن أوضاع الجنسين، ولهم البنون الذين هم أرفعهما؟ فإن ذلك مما لا يقول به من له أدنى شيء من العقل.

والثاني: إثبات أن الملائكة إناث، وهذا أيضاً باطل، لأن طريق العلم،
إمّا الحسّ، وإمّا الخبر، وإمّا النظر، أما الحسّ فمفقود ههنا،
لأنهم ما شاهدوا كيفية خلق الله للملائكة، وهو قوله تعالى:

﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ (١٥٠)

﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا ﴾؟ أي بل أخلقنا الملائكة الذين هم
من أشرف الخلائق، وأبعدهم من صفات الأجسام، ورذائل الطبائع إناثاً،
والأنوثة - في نظرهم - من أخس الصفات؟ ﴿ وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ استهزاء
بهم، وتجهيل لهم، فإن أمثال هذه الأمور، لا تعلم إلاّ بالمشاهدة، إذ لا
سبيل إلى معرفتها بالعقل، وأما الخبر والنظر فمفقود أيضاً، فثبت بطلان
زعمهم.

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَلِإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾ * ﴿ وَلَدَ اللَّهُ وَلِإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي إن المشركين
من كذبهم وافترائهم، ينسبون إلى الله الذرية والولد، وهم كذبة كفر،
يهرفون بما لا يعرفون، والآية مسوقة لإبطال أصل مذهبهم الفاسد، ببيان
أن مبناه ليس إلاّ الإفك الصريح، والافتراء القبيح.

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ (١٥٢)

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾؟ إثبات لإفكهم، وتقرير لكذبهم، فيما
قالوا ببيان استلزامه لأمر بيّن الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى البنات على
البنين، أي هل اختار تعالى لنفسه البنات وفضلهن على البنين؟

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (١٥٤).

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾؟ بهذا الحكم الظالم الذي يقتضي بطلانه بديهياً العقل.

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٥٥).

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؟ أي أتلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه؟.

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٥٦).

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ ﴾؟ أي هل لكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء، بأنَّ الملائكة بناته تعالى؟ ضرورة أن الحكم بذلك، لا بدَّ له من سند حسِّي، أو عقلي، وحيث انتفى كلاهما، فلا بد من سند نقلي.

﴿ فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٥٧).

﴿ فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي فأتوني بهذا الكتاب المنزل من عند الله إذا كنتم صادقين؟ وفي هذه الآيات من الإنباء عن السخط العظيم، وتسفيه أحلامهم، ما لا يخفى.

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ (١٥٨).

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا ﴾ أي جعل المشركون الفجار بين الله عزَّ وجلَّ، وبين الجنة قرابةً ونسباً، حيث زعموا أن الله نكح من الجن، فولدت له الملائكة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ودعواهم محض الكذب والبهتان، ولذلك ردَّ تعالى عليهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي وبالله لقد علمت الجنة والشياطين، أن الله يُحضرهم النار، ويعذبهم بها، ولو كانوا منسوين له تعالى، لَمَا عَذَّبَهُمْ؟!.

﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٥٩)

﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس، عما يصفه به هؤلاء الظالمون، فالله واحد أحد، فرد صمد، لا شريك له، ولا ذرية، ولا بنين، وليس بينه وبين أحد نسب ولا قرابة.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٦٠)

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع، أي لكن عباد الله المخلصين يتزهدون الله عما يصفه به هؤلاء الضالون.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ (١٦١) ﴿مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِقَاتِلِينَ﴾ (١٦٢)

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ * ﴿مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِقَاتِلِينَ﴾ أي فإنكم ومعبودكم أيها المشركون، لستم بفاتنين عليه تعالى أحداً، أي لستم بقادرين أن تضلوا أحداً من عباد الله، إلا من قضى الله عليه الشقاوة.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ (١٦٣)

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ أي إلا من هو داخلها، لعلمه تعالى بأنه يصير على الكفر، بسوء اختياره، ويصير من أهل النار لا محالة، وأما المخلصون منهم فأنتم بمعزل عن إضلالهم.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١٦٤)

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الجمهور على أنهم الملائكة، وصفوا بذلك أنفسهم للمبالغة في العبودية، للتنبيه على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله، لأن مبالغتهم في العبودية، تدل على اعترافهم بالمعبود جل وعلا، أي وما منا ملك من الملائكة، إلا وله مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعدها، منزلة

مقصورة عليه لا يتجاوزها، خضوعاً لعظمته، وخشوعاً لهيبته، وتواضعاً لجلاله، والآية رُدُّ على من عبد الملائكة، فهم عبيد الله وليسوا شركاء مع الله، فكيف يُعبدون من دون الله؟.

﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ ^(١٦٥)

﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ في مواقف الطاعة، ومواطن الخدمة.

﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ ^(١٦٦)

﴿وَأَنَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ المقدِّسون لله سبحانه وتعالى، عن كل ما لا يليق بجناب كبريائه.

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾ ^(١٦٧)

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾ إن هي المخففة وضمير الشأن محذوف واللام هي الفارقة، أي إن الشأن كانت قريش تقول قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام.

﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ^(١٦٨)

﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي كتاباً من كتب الأولين، كالتوراة والإنجيل.

﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ^(١٦٩)

﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي لأخلصنا العبادة لله تعالى، ولمَّا خالفنا

كما خالف اليهود والنصارى أنبياءهم، وهذا كقولهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾^(١).

﴿فَكْفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(١٧٠).

﴿فَكْفَرُوا بِهِ﴾ فجاءهم ذكر عظيم، هو أشرف الأذكار، والمهيمن عليها، وهو القرآن الكريم، فكفروا وكذبوا به، وقالوا عنه أساطير الأولين ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة كفرهم، وما يحلُّ بهم من الانتقام.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْثَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾^(١٧١).

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْثَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وعدنا لهم بالتُّصرة، والغلبة.

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾^(١٧٢) ﴿وَلَئِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(١٧٣).

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾^(١٧٢) ﴿وَلَئِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(١٧٣) أي لهم الغلبة على أعدائهم في الدنيا والآخرة، ولا يقدر انهزامهم في بعض المشاهد، فإن قاعدة أمرهم، وأساسه الظفر، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء، فالحكم للغالب، وإن لم ينصروا في الدنيا، نصروا في الآخرة.

﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾^(١٧٤).

﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم واصبر على ما ينالك يا محمد ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهو الموعد لنصرك عليهم وهو يوم بدر، وقيل يوم الفتح.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾^(١٧٥).

(١) سورة فاطر، آية: ٤٢.

﴿وَأَنصِرْهُمْ﴾ على ما ينالهم حينئذٍ من القتل والأسر، وسوء الحال، والمراد بالأمر بإبصارهم: الإيذان بغاية قربهِ ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما يقع حينئذٍ وسوف للوعيد، أي فسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم بالقرآن، وسخريتهم من الرسول عليه السلام.

﴿أَفَعَدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٦).

﴿أَفَعَدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي يستعجلون عذاب الله؟

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ﴾ (١٧٧).

﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ بفنائهم بغتة، صوره كأنه جيش عرمرم قد هاجمهم، فأناخ بفنائهم، فشنَّ عليهم الغارة، وقطع دابرهم بالمرة ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي فبئس صباح الكافرين، الذين أُنذروا بالعذاب.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ غزا خيبر فلما دخل القرية قال: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ﴾ قالها ثلاث مرات» (١).

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ (١٧٨).

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ كثره تأكيداً للتهديد.

﴿وَأَنصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٩).

﴿وَأَنصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ إثر تسليته، وتأكيده

(١) الحديث أخرجه البخاري ٩٠/٢ من فتح الباري.

لوقوع الميعاد، أي انتظرهم وما يبصرونه من أنواع المضار في الدنيا والآخرة، فسوف يبصرون عاقبة كفرهم وتكذيبهم.

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٧)

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ﴾ تنزيه الله تعالى عن كل ما يصفه المشركون، مما لا يليق بجناب كبريائه ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ والإضافة لاختصاص العزة به تعالى، إذ لا عزة ولا غلبة إلا لله جل وعلا ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يصفه به المشركون من الزوجة والولد.

﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨٧)

﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ تشریف لهم، وإيدان بأنهم سالمون عن كل المكارة، فائزون بجميع المآرب.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨٧)

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما أفاض عليهم، وعلى من اتبعهم من النعم، وحسن العاقبة، والغرض منه تعليم المؤمنين أن يقولوه، لما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى، من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه، إذا قام من مجلسه ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(١).
والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة والعافية في الدنيا والآخرة.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصفات»

(١) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً عن علي رضي الله عنه، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٢٩٥/٥.

سُورَةُ صَّٰٓءٍ

مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ١ .

﴿صَّ﴾ قيل اسم للسورة، وقيل: اسم للحرف، وقيل هو مفتاح اسمه «الصمد»^(١) ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ الواو للقسم، والذكر بمعنى الشرف والنباهة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾^(٢) أي أقسم بالقرآن ذي الشرف الرفيع، وذو الشأن والمكانة الجليلة وجواب القسم محذوف تقديره أقسم بالقرآن إنه لمعجز، وإن محمداً لصادق.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ٢ .

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إضراب عن ذلك كأنه قيل: لا ريب فيه

(١) الراجع عند أئمة التحقيق من المفسرين، أن الحروف المقطعة - حروف الهجاء - في أوائل السور الكريمة، إنما وردت للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف التي ينطقون بها، وانظر ما كتبناه حول هذا الموضوع في كتابنا «صفوة التفاسير» ٧/١.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٤٤.

قطعاً، وليس عدم إذعان الكفرة له، لشائبة ريب فيه، بل هم في استكبار وشقاق لله ولرسوله، ولذلك لا يذعنون له، والتشكير في ﴿عزة وشقاق﴾ للدلالة على شدتهما، أي هم غطرسة وكبرياء، ومعاداة لله ورسوله شديدة.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مِنْ مَنَاصِرَ﴾.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم، ببيان ما أصاب مَنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَالْمَعْنَى: وكثيراً أهلكنا من القرون الخالية ﴿فَنَادَوا﴾ عند نزول بأسنا، استغاثة وتوبة، لينجوا من ذلك، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾^(١) ﴿وَلَا تَجِئْ مِنْ مَنَاصِرَ﴾ أي نادوا طلباً للنجاة، والحال أن ليس الحين ﴿جِئْ مِنْ مَنَاصِرَ﴾ أي نجاة، و«لا» هي المشبهة بليس، زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد، وخُصِّصَتْ بِنَفْيِ الْأَحْيَانِ، والمناصير: المنجا، والغوث يُقال: ناصه إذا أغاثه.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ﴾ أي من أن جاءهم ﴿مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ من جنسهم وهو محمد رسول الله ﷺ، عجبوا من بعثته، وعدُّوا ذلك أمراً عجيباً، خارجاً عن احتمال الوقوع ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وإيداناً بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولون، إلا المتوغلون بالكفر والفسق ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾ فيما يظهره من الخوارق ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يسنده إلى الله تعالى من الإرسال والإنزال.

﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُجْتَبٍ﴾.

(١) سورة المؤمنون، آية: ٦٤

﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾؟ أي أزعم أن الرب المعبود واحد لا إله إلا هو؟ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي بليغ في العجب، والعجب الذي له مثل، والعُجَابُ الذي لا مثل له، فهو أبلغ من العجب، وذلك لأنه خلاف ما ألفوه هم وآباؤهم، الذين أجمعوا على ألوهية الأوثان، وواظبوا على عبادتهم، كابراً عن كابر، فكان مدار أمور دينهم هو التقليد والاعتقاد، فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجباً بل محالاً، روي أنه لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، شقَّ ذلك على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم، فأتوا أبا طالب، فقالوا أنت شيخنا، وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل إليه أبو طالب يدعو إلى المجلس، فلما أتى النبي ﷺ، قال له: يا ابن أخي هؤلاء قومك، يسألونك العدل فلا تمل كلَّ الميل على قومك، فقال ﷺ: ماذا تسألونني؟ قالوا ارفضنا وارضضْ ذكر آلِهتنا، وَنَدَعْكَ وَآلِهَكَ!! فقال ﷺ: أتعطوني كلمة واحدة، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟ قالوا: نعم وعشراً، فقال: قولوا: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فقاموا وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾^(١).

﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي من قريش من مجلس أبي طالب، بعدما أسكتهم الرسول ﷺ بالجواب المفحم، وشاهدوا تصلبه في الدين، ويئسوا مما كانوا يرجونه من المصالحة على الوجه المذكور، أي خرجوا من المجلس يقول بعضهم لبعض: ﴿أَنِ امْشُوا﴾ أي قاتلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أي واثبتوا على عبادتها ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي هذا الذي شاهدناه من محمد، أمر مدبّر، يريد من ورائه

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٧.

أن يصرفكم عن دين آبائكم، لتكون له العزة والسيادة، فاحذروا أن تطيعوه فيفسد عليكم دينكم.

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ مَلَكَةَ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ الذي يقوله ﴿ فِي آلِ مَلَكَةَ الْآخِرَةِ ﴾ أي في الملة النصرانية، التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، أو يريدون ليس هذا في الملة التي كان عليها آبائنا^(١) ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ أي ما هذا ﴿ إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ أي كذب اختلقه من تلقاء نفسه.

﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾

﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ أي القرآن ﴿ مِنْ بَيْنِنَا ﴾؟ ونحن رؤساء الناس، ومرادهم إنكار كونه منزلاً من عنده عز وجل، كقولهم: ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وأمثال هذه المقالات، دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد، والتكالب على حطام الدنيا ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ أي هم في شك من القرآن والوحي، لميلهم إلى التقليد، وإعراضهم عن النظر، في الأدلة المؤدية إلى العلم بحقيقته، فهم مذبذبون بين الأوهام، ينسبونه تارة إلى السحر، وأخرى إلى الاختلاق، ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أي بل لم يذوقوا عذابي، فإذا ذاقوه تبين لهم حقيقته؛ وفي «لَمَّا» دلالة على أن ذوقهم على شرف الوقوع.

(١) قال ابن عباس: يعنون بالملة الآخرة دين النصرانية، فليس عندهم التوحيد بل التثليث، وقال مجاهد وقتادة: يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدركنا عليه آبائنا.

﴿ أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ ٩ .

﴿ أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾؟ بل أعندهم خزائن رحمته تعالى، يتصرفون فيها حسبما يشاؤون؟ ويتحكمون فيها بمقتضى آرائهم، فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم؟ والحال أن النبوة عطية من الله تعالى، يتفضل بها على من يشاء من عباده، لا مانع له فإنه ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ أي الغالب الذي لا يُغالب ﴿ الْوَهَّابِ ﴾ الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء .

﴿ أَمْرٌ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ ١٠ .

﴿ أَمْرٌ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾؟ أي ألهم ملك هذه العوالم، العلوية والسفلية، حتى يتكلموا في الأمور الربانية، ويتحكموا في التدابير الإلهية، التي استأثر بها رب العزة والجلال؟ ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ جواب شرط محذوف، أي إن كان لهم ما ذكر من الملك، فليصعدوا في المعارج التي يتوصل بها العرش، ويدبروا أمر العالم، وينزلوا الوحي إلى من يختارون؟ وفيه من التهكم بهم، ما لا غاية وراءه .

﴿ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ ١١ .

﴿ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أي هم جند من الكفار، المتحزبين على الرسل، مهزومون مكسورون عمّا قريب، فمن أين لهم التدابير الإلهية؟ فلا تبال بما يقولون يا محمد، و«ما» مزيدة للتقليل والتحقيق، نحو أكلت شيئاً ما، والإشارة في ﴿ هُنَالِكَ ﴾ إلى فتح مكة، والمعنى سيصيرون مهزومين في مكة .

﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴾ ١٢ .

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ ذكر تعالى الأشقياء الفجار ممن كذبوا الرسل، وهم قوم نوح، وعاد قوم هود، وفرعون الطاغية الجبار، ووصف فرعون بذي الأوتاد أي ذي الملك الثابت، والمباني الضخمة العظيمة^(١)، قال الشاعر:

وَلَقَدْ غَنُوا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ
وقيل: إنه كان ينصب الخشب في الهواء، وكان يمد يدي المعذب ورجليه إلى تلك الخشب الأربعة، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتداً، ويتركه معلقاً في الهواء حتى يموت.

﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾.

﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء عليهم السلام، وفيه تنبيه على أن مشركي مكة ضرب من أولئك الأحزاب.

﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي ما كل أحد من آحاد أولئك الأحزاب، إلا كذب الرسل، لأن تكذيب واحد منهم تكذيبٌ لهم جميعاً، لاتفاق الكل على الحق ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي ثبت ووقع على كل منهم عقابي.

(١) هذا القول مروى عن الضحاك، وقد رجحه ابن عطية، ويدل عليه قوله سبحانه ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْوْنَ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنِينَ﴾ فالمراد بالمقام الكريم: الدور والقصور الفخمة، وكذلك قال الزمخشري إن ذلك استعارة في ثبات الملك، واستشهد بقول الأسود بن يعفر «في ظلِّ مُلْكٍ ثابت الأوتاد».

﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهُمِنْ فَوْاقِ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ وَمَا يَنْظُرُ ﴾ أي ينتظر ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ أي كفار قريش أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هي النفخة الثانية، أي ليس بينهم وبين حلول ما أُعِدَّ لهم من العقاب، إلا هي، حيث أخرت عقوبتهم الشديدة إلى الآخرة ﴿ مَّا لَهُمِنْ فَوْاقِ ﴾ أي من توقف مقدار فواق، وهو مقدار ما بين الحلبتين، لأن الناقة تُحلب ثم تترك سوية يرضعها الفصيل، لإدراار اللبن، ثم تحلب ثانية، يعني إذا جاء وقت الصيحة لم تستأخر هذا القدر من الزمان، وهو عبارة عن الزمان اليسير.

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ وَقَالُوا ﴾ كفار مكة ﴿ رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة: يا ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب، الذي توعدنا به، ولا تؤخره إلى يوم الحساب، والْقِطُّ: القطعة من الشيء، والحِظُّ والنصيب.

﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ من أمثال هذه المقالات الباطلة ﴿ وَادْخُرْ ﴾ أي تذكر ﴿ عَبْدًا دَاوُدَ ﴾ أي تذكر قصته، وصن نفسك أن تزل فيما كلفت به من مصابرتهم، وتحمل أذيتهم ﴿ ذَا الْأَيْدِ ﴾ المراد بالأيد: القوة، وهي قوة في الدين، أي ذا القوة على أداء العبادة، والاحتراز عن المعاصي ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي رجَّاع إلى مرضاة الله تعالى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ الصَّيَامِ إِلَى اللَّهِ، صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا،

ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله، صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه^(١).

﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (١٨)

﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ أي تسبح بتسبيحه، وتسبح الجبال حقيقة وكان معجزة لداود عليه السلام ﴿ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ أي في المساء والصباح.

﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ (١٩)

﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أي مجموعة حوله، روي أنه عليه السلام كان إذا سبَّح، جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير، فسبحت بتسبيحه، وذلك حشرها ﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أي كل واحد من الجبال والطير، لأجل تسبيحه، رجَّاع إلى التسبيح.

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَءَاثَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ (٢٠)

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ ﴾ أي قوَّيناه بالهيبة والنصرة، وكثرة الجنود ﴿ وَءَاثَيْنَهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أي النبوة، وكمال العلم، وإتقان العمل ﴿ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ أي الكلام البين الفصيح الذي ينبه المخاطب على المرام، من غير التباس.

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ (٢١)

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ استفهام معناه التعجب، والشويق إلى استماع ما في حيزه من الأنباء البديعة، والخصم يُطلق على الواحد، وما فوقه، كالضيف ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ أي صعدوا علو المحراب من سوره،

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ١٣٣١، ومسلم رقم ١٨٩.

والسور الحائط المرتفع، ونظيره تسنمه إذا علا سنامه، وتذراه إذا علا ذروته.

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ (٢٢).

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ أي خاف منهم، لأنهم نزلوا عليه من فوق، على خلاف العادة، في غير يوم الحكومة، لأنه عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء، يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للوعظ، ويوماً للاشتغال بخاصة نفسه ﴿ قَالُوا ﴾ إزالة لفزعه ﴿ لَا تَخَفْ خَصِمَانِ ﴾ أريد بهما شخصان أي فوجان متخاصمان ﴿ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ هو على الفرض وقصد التعريض إن كانوا ملائكة وهو المشهور ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ ولا تجاوز الحد في الحكومة ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ إلى وسط طريق الحق، وهو العدل، فقال عليه السلام تكلمنا فقال أحدهما.

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ (٢٣).

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي ﴾ أي في الدين أو في الصحبة، والتعرض لذلك لبيان قبح ما فعل به صاحبه ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ هي الأنثى من الضأن، وقد يكنى بها عن المرأة ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ وحقيقية اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وقيل: اجعلها كفلي أي نصيبي ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أي وغلبني في مخاطبته إياي بحاجة بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده.

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَيَّ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ .

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَيَّ نِعَاجِهِ ﴾ جواب قسم محذوف قصد به عليه السلام المبالغة في الإنكار، ولعله قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه، أو على تقدير صدق المدعي ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي ليتعدى غير مراعى لحق الصحبة والشركة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ منهم فإنهم يتحامون عن البغي والعدوان ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ أي وهم قليل، و«ما» مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ الظن مستعار للعلم لما بينهما من المشابهة الظاهرة، أي فعلم عليه السلام أنه تعالى ابتلاه وامتحنه بتلك الحكومة هل يتنبه بها وقيل لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، ثم صعدا إلى السماء فعلم الأمر ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ إثر ما علم أن ما صدر عنه خطأ ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أي ساجداً على تسمية السجود ركوعاً، أو خرّاً للسجود راعياً أي مصلياً ﴿ وَأَنَابَ ﴾ رجع إلى الله بالتوبة.

«فصل»

وفي هذه القصة ثلاثة أقوال:

القول الأول: وحاصل كلامهم أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال حتى قتل زوجها ثم تزوج بها، فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين، في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضاً لتلك الواقعة عليه، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً، ثم تنبّه لذلك، فاشتغل بالتوبة!! والذي أدين الله به وأذهب إليه، أن ذلك باطل، ويدل عليه وجوه:

الأول: أن هذه الحكاية لو نُسبت إلى أفسق الناس لاستنكف منها،

والرجل الخبيث الذي يقرر تلك القصة، لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه، وربما يلعن من نسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يليق بالعاقل نسبة هذا الإلـك، بمن خصّصه الله تعالى بنبوته، واثمنه على وحيه، وشرفه على كثير من خلقه، وأمر أفضل خلقه محمداً ﷺ، بأن يقتدي به في مكارم الأخلاق.

الثاني: أن الله تعالى وصف داود عليه السلام بالصفات العشرة المذكورة قبل القصة ووصفه بصفات كثيرة بعدها وكل واحدة من هذه الصفات دالة على براءة ساحته عليه السلام عن تلك الأكاذيب.

والثالث: أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود وتعظيمه، ومؤخرتها أيضاً دالة على ذلك، فلو كانت الوسطة دالة على القبايح والمعائب، لجري مجرى أن يقال: فلان عالي الدرجة في طاعة الله، يقتل ويزني، وقد جعله الله خليفة في أرضه، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل، فكذا ههنا.

والرابع: أن داود عليه السلام قال: ﴿وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا﴾ استثنى الذين آمنوا عن البغي، فلو قلنا: إنه كان موصوفاً بالبغي، لزم أن يقال: إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه، وذلك باطل.

الخامس: لو فعل ذلك لكان ظالماً فكان يدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَلَا لعنةُ اللهِ على الظالمين﴾ فثبت بهذه الوجوه أن القصة التي ذكروها فاسدة، باطلة، فإن قال قائل: إن بعض المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة، فكيف الحال فيها؟ الجواب: أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة، وبين خبر الآحاد، كان الرجوع إلى الدلائل أولى، وأيضاً الأصل براءة الذمة، وأيضاً إذا تعارض دليل التحليل والتحريم، كان جانب التحريم أولى، وفي نوع هذه الواقعة لا يقول الله تعالى لنا لِمَ لَمْ تَسْعُوا

في تشهير هذه الواقعة، وأما بتقدير كونها باطلة، فإن علينا في ذكرها أعظم العقاب.

القول الثاني: في كيفية هذه القصة فيه وجهان:

الأول: أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه، ثم خطبها داود فآثره أهلها، فكان خطؤه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن، مع كثرة نسائه، ويدل على صحة هذا الوجه قوله: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ﴾ فدلَّ هذا أنه كان بينهما في الخطبة.

الوجه الثاني: أنه كان أهل زمان داود عليه السلام، يسأل بعضهم بعضاً أن يطلق امرأته حتى يتزوجها، وكانت عاداتهم في هذا معروفة، كما أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بهذا المعنى، فطلب داود من أوريا النزول عنها، فاستحيا أن يرده ففعل، وهي أم سليمان، فقليل له: هذا وإن كان جائزاً في ظاهر الشريعة، إلا أنه لا يليق بك، فهذان الوجهان لو حملنا هذه القصة على واحد منهما، لم يلزم في حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل.

القول الثالث: وهو أن نقول: روي أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود، وكان له يوم يشتغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً، فخافوا فوضعوا كذباً فقالوا خصمان بغى... إلخ.

وليس في القرآن ما يمكن أن يُحتج به في إلحاق الذنب بـداود إلا ألفاظ أربعة - ﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّهَا فَتْنَاءُ﴾ ٢ - ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ ٣ - ﴿وَأَنَابَ﴾ ٤ - ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ﴾ نقول: وهذه الألفاظ لا تدل على ما ذكروه إنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم إلا أنه مال إلى الصفح طلباً لمرضاة الله، وكانت هذه الواقعة فتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء، ثم استغفر ربّه ممّا همّ به من

الانتقام، وتاب، فغفر له، فكان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَوَظَنَ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ﴾ الخ إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه لا يلزم إسناد الذنوب إلى داود عليه السلام، وأما إذا قلنا: الخصمان كانا ملكين وما كان بينهما مخاصمة، وما بغى أحدهما على الآخر، كان قولهما خصمان بغى الخ كذباً فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين: ١ - إسناد الكذب إلى الملائكة، ٢ - وإسناد القبائح إلى رجل كبير من الأنبياء، فكان قولنا أولى، والله أعلم بأسرار كلامه^(١).

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ﴾.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي ما استغفر منه ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي لقربة وكرامة بعد المغفرة ﴿وَحُسْنَ مَّكَابٍ﴾ أي حسن مرجع في الجنة، ومثل هذه الخاتمة، إنما تحسن في حق من صدر منه عمل كثير في الخدمة والطاعة، وتحمل أنواع الشدائد في الانقياد، أما إذا كان المذكور هو الإقدام على الجرم والذنب، فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به، قال مالك ابن دينار: إذا كان يوم القيامة، أتني بمنبر رفيع ويوضع في الجنة، ويقال: يا داود مجدي بذلك الصوت الحسن الذي كنت تمجدني به في الدنيا.

(١) ما نقله بعض المفسرين من الأخبار الإسرائيلية، كلها أقوال باطلة واهية، لا يصح نسبتها إلى نبي كريم كداود عليه السلام، وخلاصتها أنه رأى زوجة أحد قواده، فأحبها وعشقها، وأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في إحدى المعارك فلما قتل خطبها وتزوجها، فهذه فرية ما فيها مرية، وكما نقل المؤلف عن الإمام الفخر الرازي بطلان هذه الرواية من عدة وجوه، وهذا هو الذي ندين الله عز وجل به أن القصة كلها باطلة، وقد حققنا ذلك في كتابنا صفوة التفاسير ٥٤/٣ ونقلنا عن علي رضي الله عنه قوله: «من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص - يعني أهل القصص والأخبار - جلده مائة وستين جلدة، وهو حد الفرية على الأنبياء» وارجع إلى تفسير ابن كثير، والفخر الرازي، فقد أجادا في هذا الموضوع وأفادا.

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي قلنا له: يا داود إننا قد
استخلفناك على الملك فيها، والحكم فيما بين أهلها، وفيه دليل على أن
حاله بعد التوبة، كما كانت قبلها، لم تتغير قط، وهذا من أقوى الدلائل
على فساد القول الأول المشهور، لأن من كان ساعياً في سفك دم المسلم،
وراعباً في انتزاع زوجته منه، فتفويضُ خلافة الأرض من جهة الله تعالى
إليه بعيدٌ جداً ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ بحكم الله تعالى، فإن الخلافة مقتضية
له حتماً ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أي هوى النفس في الحكومات، وغيرها من أمور
الدين والدنيا، وهو يؤيد أن خطأه عليه السلام كان بالمبادرة إلى تصديق
المدعي، وتظلم الآخر قبل مسأله ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيكون الهوى أو
اتباعه سبباً لضلالك، عن دلائله التي نصبها على الحق، تكويناً وتشريعاً
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تعليل لما قبله، أي إن الذين ينحرفون عن
دين الله وشرعه المستقيم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا﴾ أي بسبب نسيانهم
﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أي لهم عذاب شديد يوم الحساب، بسبب تكذيبهم به، وعدم
اعتقادهم بقاء الله، وقيل: المعنى: بما تركوا الإيمان بيوم الحساب، أو عدم
العدل في القضاء. روي عن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لبعض أكابر
العلماء وهو- أبو زرعة- هل سمعت ما بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه
القلم، ولا يكتب عليه معصية؟ فقال له: يا أمير المؤمنين: الخلفاء أفضل
أم الأنبياء؟ إن الله جمع لداود بين الخلافة والنبوة، ثم توعدده في كتابه
فقال: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا
تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية، فكانت موعظة بليغة^(١).

(١) ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢٠١/٣ من المختصر.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ أي وما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات، على هذا النظام البديع، الذي تحار في فهمه العقول، خلقاً باطلاً، أي خالياً عن الغاية والحكمة، بل منطوياً على الحِكم البالغة ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما نفي، أي خلقها باطلاً ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مظنونهم فإن جحودهم للبعث والجزاء، الذي يدور عليه فلك التكوين، قولٌ منهم ببطلان الحكمة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بسبب هذا الظن الباطل ﴿مِنَ النَّارِ﴾ أي فويل لهم من عذاب النار المترتب على ظنهم وكفرهم.

﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ﴾ أم منقطعة وما فيها من معنى «بل» لإنكار التسوية بين الفريقين على أبلغ وجه ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بل أنجعل المؤمنين المصلحين، كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض؟ ﴿أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ إضراب وانتقال بلزوم ما هو الأظهر منه استحالة، أي أم نجعل الأبرار الأخيار، كالأشرار الفجار؟ هذا لا يمكن في عدل الله وحكمته؟

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿كِتَابٌ﴾ أي هذا كتاب يعني القرآن ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ كثير المنافع والخيرات ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ أي أنزلناه ليتفكروا في آياته المعجزة العجيبة

فيقفوا على ما فيها ويعملوا بها ﴿وَلَسَدَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي وليتعض به ذوو العقول السليمة.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ أي نعم سليمان كما ينبيء عنه تأخره عن داود، مع كونه مفعولاً صريحاً لوهبنا ولأن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تعليل للمدح أي رجّاع إلى الله بالتوبة والإنابة.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيفَتُ الْجِيَادُ﴾

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ أي اذكر حين عرضت عليه خيله ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ هو من الظهر إلى آخر النهار ﴿الصَّفِيفَتُ﴾ الصافن الخيل الذي يقوم على ثلاث قوائم، وأقام الأخرى على طرف حافر، وهي من الصفات المحمودة في الخيل، ولا يكاد يتفق إلا في العرابي الخالص ﴿الْجِيَادُ﴾ صفة أخرى، وهو الذي يسرع في جريه، وذكر تعالى الصفون، والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين، واقفة، وجارية، أي إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً وخفافاً في جريها، روي أنه عليه السلام غزا وأصاب ألف فرس فقعد يوماً بعدما صلى الظهر على كرسيه، فاستعرضها فلم تزل تُعرض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن ورود كان له من الذكر، فاغتم لما فاتته، فاستردها فعقرها تقرباً لله تعالى، وقيل: لما عقرها أبدله الله تعالى خيراً منها، وهي الريح تجري بأمره إلى حيث شاء.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ قاله عند غروب الشمس، اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها عن ذكر الله، وندماً عليه، وتمهيداً

لما يعقبه من الأمر برُدّها وعقرها، والتأكيد للدلالة على ندمه عن صميم القلب ومعنى ﴿أَحْبَبْتُ﴾ آثرتُ كقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبُوا عَمَلِيَ عَلَى الْهُدَى﴾ والخير المال الكثير، والمراد به الخيل التي شغلته ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها وقال ﷺ: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة»^(١) ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي غربت الشمس تشبيهاً لغروبها في مغربها بتواري المخبئة بحجابها، وإضمارها من غير ذكر، للدلالة العشي عليها، وقيل: الضمير للصفات أي حتى توارت الخيل بحجاب الليل أي بظلامه.

﴿رُدُّوَهَا عَلَى فُطْفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

﴿رُدُّوَهَا عَلَى﴾ من مقالة سليمان عليه السلام ﴿فُطْفِقَ مَسْحًا﴾ الفاء فصيحة مفسحة عن جملة قد حذفت إيداناً لسرعة الامتثال بالأمر، أي فردوها عليه فأخذ يمسح السيف مسحاً ﴿بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي بسوقها وأعناقها يقطعها، ويتصدق بلحومها على الفقراء، وإنما فعل ذلك كفارة لها، وكانت الخيل مأكولة في شريعته فلم يكن إتلافاً، وقيل: مسحها بيده استحساناً لها، وإعجاباً بها، وحبسها في سبيل الله. قال الأكثرون: إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر، بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل، استردّها وعقر سوقها وأعناقها، تقرباً إلى الله تعالى، وعندي أن هذا بعيد، ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه لو كان معنى مسح السوق قطعها لكان معنى ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾ قطعها.

الثاني: القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة ١ - ترك الصلاة، ٢ - الاشتغال بحب الدنيا، ٣ - أنه

(١) رواه أحمد في المسند.

خاطب رب العالمين بقوله: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ وهذه الكلمة لا يذكرها الرجل إلا مع الخادم الخسيس، ٤ - عقر الخيل في سوقها وهو منهى عنه، ٥ - إنه بعد الإتيان بهذه الذنوب لم يشتغل بالتوبة، فهذه أنواع من الذنوب نسبوها إلى سليمان عليه السلام، مع أن لفظ القرآن لم يدل على شيء منها، بل ينادي على هذه الأقوال بالرد والإبطال، والتفسير المطابق لألفاظ القرآن أن نقول: إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين الإسلام، ثم إنه عليه السلام لما احتاج إلى الغزو أمر بإحضار الخيل، وذكر إنني لا أحبها لأجل الدنيا، إنما أحبها لأمر الله تعالى، ثم أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يرُدُّوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه، طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك إمّا تشريفاً لها وإبانة لعزتها، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو، وإما أراد أن يُظهر أنه في ضبط السياسة والملك، يتصنع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ أظهر ما قيل في فتنته عليه السلام ما روي مرفوعاً، أنه قال: «لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة، تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يقل: إن شاء الله تعالى، فطاف عليهنَّ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة بشق رجل، والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»^(١) ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى الله تعالى.

(١) أخرجه البخاري ولم يذكر أنه تفسير للآية الكريمة، فيحتمل أنه تفسير، ويحتمل أنه قصة.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ .

﴿قَالَ﴾ بدل من أنا ب وتفسير له ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أي ما صدر عني من الزلة ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ لا يتسهل لغيري، يكون مختصاً بي ليكون معجزة دالة على نبوتي ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء، تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معاً.

﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ أي فذلّلناها لطاعته إجابة لدعوته ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ أي بأمر سليمان وهو بيان لتسخيرها له ﴿رُخَاءً﴾ أي لينة طيبة، لا تزعج ولا تخالف إرادته ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي حيث قصد وأراد.

﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ .

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي وسخرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي منهم من يبني له القصور الشاهقة، ومنهم من يغوص في البحر لاستخراج الدرر والجواهر.

﴿وَعَآخِرِينَ مَّقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ .

﴿وَعَآخِرِينَ مَّقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي وآخرين من الشياطين - وهم المردة - مربوطون بالقيود والسلاسل، لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان، كأنه عليه السلام، فصلّ الشياطين إلى عملة، وإلى مردة قرّن بعضهم مع بعض في السلاسل، لكفهم عن الشر والفساد، وإلى غواصين يغوصون البحار، لاستخراج الياقوت والمرجان.

﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٩)

﴿ هَذَا ﴾ أي الأمر الذي أعطيناك من الملك، والبسطة، والتسلط ﴿ عَطَاؤُنَا ﴾ الخاص بك ﴿ فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ أي فأعط من شئت، وامنع من شئت ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي لا حساب عليك في ذلك، لأنك مطلق اليد في التصرف بهذا الملك الواسع.

﴿ وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلٌ وَحَسَنَ مَتَابٍ ﴾ (٤٠)

﴿ وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلٌ وَحَسَنَ مَتَابٍ ﴾ أي وإن له عندنا لمكانة رفيعة، ومنزلة سامية، مع ما له من الملك العظيم الواسع في الدنيا.

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ (٤١)

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ هو ابن عيص بن إسحق عليه السلام ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ أي دعا ربه وتضرع إليه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ ﴾ بتعب ومشقة ﴿ وَعَذَابٍ ﴾ أي ألم شديد، يريد مرضه، وما كان يقاسيه من فنون الشدائد وهو المراد بالضر في قوله تعالى: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ فقد حصل عنده نوعان من المكروه: الغم الشديد بسبب زوال الخيرات، والألم في جسمه، ولذا قيل ﴿ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ والإسناد إلى الشيطان مراعاة للأدب، وإن كانت الأشياء كلها، خيرها وشرها من الله تعالى، ولأن الشيطان يغيره على الكراهة والجزع، فالتجأ إليه تعالى في أن يكفيه ذلك، بكشف البلاء، ومراعاة للأدب، وليس هذا تمام دعائه عليه السلام، بل من جملته ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فاكفَى ههنا عن ذكره بما في سورة الأنبياء، ولما انقضت مدة ابتلائه قلنا له بواسطة جبريل:

﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ (٤٢)

﴿أَرْكَضُ بِرَجْلِكَ﴾ أي اضرب بها الأرض، فاضرب بها فنبعت عين
فاغتسل منها، وعين باردة فشرب منها، والركض: الدفع القوي بالرجل
﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ تغتسل به، وتشرب منه، فيبرأ ظاهره وباطنه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ أي فاغتسل وشرب ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ كما في
سورة الأنبياء ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ أي بجمعهم بعد تفرقهم ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾
فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي لرحمة عظيمة
عليه من قبلنا ﴿وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ ولتذكيرهم ليصبروا على الشدائد كما
صبر، ويلجؤوا إلى الله تعالى فيما يحيق بهم كما لجأ، ويعلموا أن عاقبة
الصبر الفرج.

﴿وَحَذَّ يَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

﴿وَحَذَّ يَدِكَ ضِعْفًا﴾ أي وقلنا له: خذ بيدك حزمة من قضبان خفيفة
فيها مائة عود ﴿فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ﴾ أي لتبر في يمينك، روي أن زوجته
«رحمة بنت إفرائم بن يوسف» ذهبت لحاجة فأبطأت عليه، فحلف إن
برىء ضربها مائة^(١)، فحلل الله يمينه بذلك، ولقد شرع الله سبحانه هذه

(١) سبب حلفه أن زوجته كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتد به البلاء، وطالت
المدة، وسوس إليها الشيطان إلى متى تصبرين، فجاءت إلى أيوب وفي نفسها
الضعف، فقالت: إلى متى نصبر على هذا البلاء؟ ادع الله أن يشفيك، فغضب من هذا
الكلام، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأراد الله أن يعصم نبيه أيوب عليه
السلام من الذنوب الظلم، والحنث، وأن لا يضيع أجر إحسان المرأة مع زوجها،
وأن لا يكافئها بالخير شرًا، وتبقى ببركتها هذه الرخصة في الأمم إلى يوم القيامة.

الرخصة رحمةً عليه وعليها، لحسن خدمتها إياه، ورضاه عنها، وهي رخصة باقية في الحدود عند أبي حنيفة والشافعي، وقال مالك وأحمد: لا يبزُّ به ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابه في النفس، والأهل، والمال، وليس في شكواه إخلال بذلك، فإنه كالتمني للعافية، وكمن اشتكى من عدوه إلى حبيبه، والشكاية من العدو إلى الحبيب لا تقدح في الصبر ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي أيوب ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تعليل لمدحه، أي رجاء إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَرِ﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَرِ﴾ أي أولي القوة في الطاعة، والبصيرة في الدين.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ أي جعلناهم خالصين لنا، بخصلة عظيمة الشأن، كما ينبىء عنه التكرير التفيخي ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ بيان للخالصة بعد إبهامها، أي تذكرهم للدار الآخرة دائماً.

قال مجاهد: «جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم همٌّ غيرها»، وذلك لأن مطمح أنظارهم جوار الله عزَّ وجلَّ، والفوز ببقائه، ولا يتسنى ذلك إلا في الآخرة، وإطلاق الدار للإشعار بأنها هي الدار في الحقيقة، وإنما الدنيا معبر.

﴿وَلَهُمْ عِنْدَنَا لِمَنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿وَلَهُمْ عِنْدَنَا لِمَنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي لمن المختارين من أمثالهم.

﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿وَأَذْكُرْ إِسْتَعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلَّ﴾ أي كلهم ﴿مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ المشهورين بالخيرية والفضل، فاقتد بهم في الصبر، وتحمل الأذى من الأعداء.

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ﴾.

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم من الآيات، الناطقة بمحاسنهم ﴿وَذِكْرٌ﴾ أي شرفٌ لهم، وذكُرٌ جميل، يُذكرون به أبداً وعن ابن عباس: هذا ذكر من مضى من الأنبياء عليهم السلام ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ﴾ أي حسن مرجع ومنقلب، يرجعون إليه في الآخرة، والمراد بالمتقين الجنس، وهم داخلون في الحكم، أو المذكورون من الأنبياء، عبّر عنهم بذلك، مدحاً لهم بالتقوى، التي هي الغاية من الكمال.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي هي جنات إقامة في دار الخلد والنعيم، وهو بيان لحسن مآب ﴿مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ أي قد فُتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدومهم، فيدخلونها محفوفين بالملائكة، على أجمل هيئة، وأحسن حال، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(١) سورة الزمر.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ الاختصار على دعاء

(١) سورة الزمر، آية: ٧٣.

الفاكهة، للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ، دون التغذي، فإنه لا جوع ولا عطش في الجنة.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ أَنْرَابٌ﴾.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ﴾ أي قصرن أنظارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم ﴿أَنْرَابٌ﴾ أي هنّ في سنّ واحد، سنّ الصبا والشباب، ليس فيهن عجائز، بنات ثلاث وثلاثين، كما هو سن أزواجهن.

﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أي يقال لهم: هذا جزاؤكم الذي وعدتم به في الدنيا ليوم الجزاء والحساب.

﴿إِنَّ هَذَا الرِّزْقُ مَا لَكُمْ مِنْ تَفَادٍ﴾.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما ذكر من النعم والكرامات ﴿الرِّزْقُ﴾ أعطيناكموه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ تَفَادٍ﴾ أي ليس له انقطاع أبداً بل هو دائم، كلما أخذ منه شيء، عاد مثله في مكانه.

﴿هَذَا وَارِكٌ لِلظَّالِمِينَ لَشَرِّ مَتَابٍ﴾.

﴿هَذَا﴾ أي الأمر هذا ﴿وَارِكٌ لِلظَّالِمِينَ لَشَرِّ مَتَابٍ﴾ شروع في بيان حال الأشقياء المجرمين، بعد بيان حال السعداء المتقين.

﴿جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْيَهَادُ﴾.

﴿جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا﴾ أي يدخلونها ويصلون سعيها ﴿فَيَنْسُ الْيَهَادُ﴾ أي

بشست جهنم فراشاً ومهاداً لهم يفترشونه، شبه ما تحتهم من النار بالفراش، فهو فراشٌ لكن لا راحة فيه، لأنه من نصف جهنم.

﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴾.

﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ أي ليدوقوا هذا، إنه العذاب الأليم فليذوقوه، وليهناؤا به ﴿ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴾ إنه الحميم الذي يقطع الأمعاء بحرارته، والصديد الذي يسيل من جلود أهل النار.

﴿ وَءَاخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾.

﴿ وَءَاخَرُ مِنْ شَكْلِهِ ﴾ أي هذا العذاب الذي أُعدَّ لهم هو الحميم، أي الماء الحار الذي انتهى إلى درجة الغليان، والعَسَاق: وهو ما يسيل من جلود أهل النار من الصديد والدم، ومذاق آخر من مثل هذا المذاق، في الشدة والكدر ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ أي أجناس، كالزمهرير، والزُّقُوم، والسَّمُوم.

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرَجًا بِهِمْ إِنَّمَا صَلَّوْا النَّارَ ﴾.

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ﴾ حكاية ما يقال من جهة الخزنة للرؤساء الطاغين، إذا دخلوا النار، واقتحمها معهم فوج، كانوا يَتَّبِعُونَهُمْ في الكفر والضلالة، والاقْتِحَامُ: الدخول في الشيء بشدة ﴿ لَا مَرَجًا بِهِمْ ﴾ هو من تمام كلام الخزنة، بطريق الدعاء على الفوج، أي لا رَحْبَتْ بِهِم الدار ﴿ إِنَّمَا صَلَّوْا النَّارَ ﴾ تعليل لاستحقاقهم الدعاء، وقيل: هذا من كلام الرؤساء الطغاة، للأتباع الأشقياء، إذا قالت لهم الملائكة، هذا فوج من أتباعكم، معكم في نار جهنم، يدخلونها كما دخلتموها، قال الرؤساء: لا أهلاً بهم ولا مرحباً!! فيقول الأتباع:

﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَاءَ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيُسْ أَلْقَرَارُ﴾ ﴿٦٠﴾ .

﴿قَالُوا﴾ أي الأتباع عند سماعهم ما قيل ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَاءَ بِكُمْ﴾ أي بل أنتم أحق بالخزي واللعنة ﴿أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا﴾ أي أنتم قدمتم لنا هذا العذاب، وكنتم سبباً فيه ﴿فَيُسْ أَلْقَرَارُ﴾ أي فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم.

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَاباً ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ ﴿٦١﴾ .

﴿قَالُوا﴾ أي الأتباع أيضاً معرضين عنهم إلى الله تعالى ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَاباً ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأْتِيهِمْ عَذَاباً ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾^(١) أي عذاباً مضاعفاً، بأن يزيد عليه مثله.

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ ﴿٦٢﴾ .

﴿وَقَالُوا﴾ أي الرؤساء الكفرة ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾؟ يعنون فقراء المسلمين، الذين كانوا يستردلونهم، ويسخرون منهم.

﴿أَتُخَذَتْهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ رَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿٦٣﴾ .

﴿أَتُخَذَتْهُمْ سِخْرِيًّا﴾ صفة أخرى لرجالاً ﴿أَمْ رَاغَتْ﴾ أي مالت ﴿عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ فلا نراهم أي ما لنا لا نراهم في النار؟ كأنهم ليسوا فيها، أم هل أراهم أبصارنا فلا نراهم؟

(١) سورة الأعراف، آية: ٣٨.

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿٦٦﴾ .

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي حُكي من أحوالهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بد من وقوعه البتة وهو قوله تعالى ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أي في النار، وإنما سماه تخاصماً، لأن قول القادة للأتباع ﴿لا مرحباً بهم﴾ وقول الأتباع: ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ باب المخاصمة، لأن فيه تقييحاً، وتشنيعاً، وتلاعناً، ودعاء بعضهم على بعض.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿٦٧﴾ .

﴿قُلْ﴾ أمر لرسول الله ﷺ أن يقول للمشركين ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ من جهته تعالى، أنذركم عذابه ﴿وَمَا مِن إِلَهٍ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشراكة أصلاً ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء سواه، وكونه تعالى قهاراً، يدلُّ على وحدانيته.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ ﴿٦٨﴾ .

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات، فكيف يتوهم أن يكون له شريك منها؟ ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب في أمرٍ من أموره ﴿الْغَفَّارُ﴾ المبالغ في المغفرة، وفي هذه النعوت الوعد والوعيد.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٦٩﴾ .

﴿قُلْ﴾ تكرير الأمر، للإيذان بأنه أمر جليل، له شأن خطير ﴿هُوَ﴾ أي ما أنبأتكم به من أني منذر، وأنه تعالى واحد أحد، متصف بما ذكر، هو خبرٌ هام، ونبأٌ عظيم الشأن. والأظهر أن الضمير يعود على القرآن،

كما يشهد به آخر السورة، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي هذا القرآن الذي جئتكم به، هو نبأ عظيم وارد من جهته تعالى.

﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٦٨﴾

﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ استئناف ناع عليهم سوء صنيعهم، ببيان أنهم لا يقدرونه قدره الجليل، حيث يعرضون عنه مع عظمته.

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٦٩﴾

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أي من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم، لولا الوحي المنزل علي؟ وفي ذلك حجة بينة، دالة على أن ذلك النبأ، بطريق الوحي من عند الله تعالى، لأنه ﷺ لم يسلك طريق العلم، ولا قراءة الكتب ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ما كان لي فيما سبق علم بحال الملائكة الأعلى، وقت اختصامهم، فإن قلت: كيف يجوز أن يقال: إن الملائكة اختصموا مع الله تعالى بسبب قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾؟ قلت: لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب، وذلك يشبه المخاصمة في الحوار، وهو علة لجواز المجاز فعبّر عن الحوار بالخصام.

﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٧٠﴾

﴿إِنْ يُوحَىٰ﴾ أي ما يُوحى ﴿إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما يُوحى إليّ ما يُوحى من الأمور الغيبية، إلا لأنما أنا نذير مبين من جهته تعالى، أرسلني الله إليكم لأنذركم عذابه.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٧١﴾

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ أي اذكر حين أخبر ربك الملائكة، بأنني سأخلق إنساناً من تراب مبلول، وهو الطين، والمراد به أبونا آدم عليه السلام.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُم سَاجِدِينَ ﴾ (٧٢)

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُم سَاجِدِينَ ﴾ أي اسجدوا له سجود تحية وتكريم.

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٧٣) ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٧٤)

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٧٣) ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ ﴾ أي تعظم ﴿ وَكَانَ ﴾ أي صار بسبب استكباره وعصيانه لأمر الله ﴿ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي أصبح كافراً ملعوناً، مطروداً من رحمة الله عز وجل.

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ۖ اسْتَكْبَرْتَ ۖ أَتَمَ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (٧٥)

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ۖ ﴾ أي لما خلقته بيدي فكرومته، ونفخت فيه الروح بنفسي من غير توسط الأب والأم؟ ﴿ اسْتَكْبَرْتَ ۖ أَتَمَ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ أي المستحقين للتفوق على آدم بمآثر خاصة، تستحق به التكريم؟

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (٧٦)

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ فانا أشرف منه وأفضل .

﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَچِيمٌ ﴾ (٧٧) .

﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا ﴾ أي اخرج من السماوات ﴿ فَإِنَّكَ رَچِيمٌ ﴾ أي مطرود من كل الخير والكرامة .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾
﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿ أي إلى وقت النفخة الأولى ، وهو الوقت الذي قَدَّرَهُ الله لفناء الخلائق .

﴿ قَالَ فِعِزَّنَاكَ لِأَعْوِيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ .

﴿ قَالَ فِعِزَّنَاكَ ﴾ أي فبسلطانك وجلالك ، أقسمُ لك يا رب ﴿ لِأَعْوِيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿ وهم المؤمنون الصادقون ، الذين اصطفتيهم لنفسك ، فلا قدرة لي عليهم !!

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ (٨٤) .

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ أي لا أقول إلا الحق ، فالحق قَسَمِي .

﴿ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٥) .

﴿ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لا ملأَنَّ جهنم من

المتبوعين والأتباع أجمعين، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨٦)

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على تبليغ ما أوحى إليّ من أجرٍ دنيوي ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي المتصنعين بما ليسوا من أهله، حتى أنتحل النبوة، وأنقول القرآن، وكلُّ من قال شيئاً من تلقاء نفسه فقد تكلف له، روي عن مسروق قال: دخلنا على ابن مسعود رضي الله عنه فقال: أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم؟ فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾^(١) والغرض من الآية: أن هذا الدين الذي أدعوكم إليه، ليس يحتاج في معرفة صحته، إلى التكاليفات الكثيرة، بل هو دينٌ يشهد صريح العقل بصحته، فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله تعالى، وتقديسه عن كل ما لا يليق به، منزهاً عن الشريك والأضداد، ومتصفاً بكمال الصفات، ثم أدعوكم إلى الإقرار بالبعث والنشور، فكل ذلك حقٌ لا مرية فيه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٧)

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو يعني القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي الإنس والجن وسائر الخلق.

(١) الحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة ص ٥٤٧/٨ باب ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ وله تمة.

﴿وَلَتَعْلَمَنَّ بَّأَمْرُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ﴿٨٨﴾

﴿وَلَتَعْلَمَنَّ بَّأَمْرُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي ولتعلمن خبره وصدقه عن قريب عند ظهور الإسلام، وبعد الموت، والله تعالى أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ص»

* * *

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

مكية وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ ﴾

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هذا القرآن العظيم تنزيل من الله جلّ وعلاً ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ أي القاهر الذي لا يُغلب، ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ أي الذي يفعل كل شيء بحكمة وتدبر، والتعرض لوصفي العزة، والحكمة، للإيدان بظهور أثرهما في الكتاب، على أساس الحكم الباهرة.

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝٢ ﴾

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي متضمناً الحق الذي لا ريب فيه، والصدق الذي لا يشوبه هزل أو باطل، والمراد بالكتاب هو القرآن، وإظهاره لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه ﴿ فَاَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أي من شوائب الشرك والرياء. ولفظ «التنزيل» يشعر بأنه تعالى أنزله نجماً نجماً، على سبيل التدرّج، ولفظ «الإنزال» يشعر بأنه تعالى أنزله دفعة واحدة، فكيف الجمع بينهما؟ والجواب: أن المعنى: إِنَّا حَكَمْنَا حَكْماً كَلياً جازماً،

بأن يوصل إليك هذا الكتاب، وهذا هو الإنزال، ثم أوصلناه إليك يا محمد نجماً نجماً على وفق المصالح، وهذا هو التنزيل.

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الخ تحقيق لحقية ما ذكر من إخلاص الدين الذي هو عبارة عن التوحيد، وبطلان الشرك، أي ألا فانتبهوا، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، لأنه المتفرد بالألوهية ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ أي المشركون ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ كالملائكة، وعيسى، والأصنام، يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى، بل شابوها بعبادة غيره، يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله قربة، ويشفعوا لنا عنده ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الخلائق ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين الذي اختلفوا فيه، بالتوحيد والإشراك، وادعى كل منهم صحة ما انتحله، وحكمه تعالى فيه إدخال المخلصين الجنة، والمشركين النار ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ أي لا يوفق للاهتداء إلى الحق ولكنه يخذله ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي راسخ في الكذب مبالغ في الكفر، فإنهما فاقدان للبصيرة.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ استئناف لتحقيق الحق، وإبطال كذبهم بأن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك، أي لو أراد الله أن يختار لنفسه ولداً ﴿لَاصْطَفَىٰ﴾ أي لا اتخذ ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي من جملة ما يخلقه ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أن يتخذه، إذ لا موجود سواه، إلا وهو مخلوق له، ومن اليقين أن

المخلوق لا يماثل خالقه، حتى يمكن اتخاذه ولداً ﴿سُبْحَانَكُمْ﴾ أي تنزهه عن ذلك تنزهاً بليغاً ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي الواحد في ذاته، القاهر لعباده، فكيف يكون له ولد، والوحدانية تنافي المماثلة، والقهارية تنافي الحاجة إلى الذرية؟.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ
النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
مُسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدالة على تفرده بما ذكر من الصفات الجليلة ﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ يغشى كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللباس، والتكوير: اللف والليّ ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي الغالب القادر على كل شيء، والمبالغ في المغفرة، ولذلك لا يعاجل بالعقوبة، وقد اتفق علماء المعقول من المسلمين على كروية الأرض، وظواهر النصوص أدل على هذا، ويدل عليه تعقيب الليل النهار لأن الأرض تدور على محورها تحت الشمس، فيكون نصفها مضيئاً بنورها دائماً ونصفها الآخر مظلماً، وهذا معلوم بالقطع في هذا العصر^(١).

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِينَ ۚ أَرْوَجُ بَخْلُكُمْ فِي بُطُونِ أَمْهَنِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثَ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَاتِنٌ تُصْرِفُونَ ۝﴾.

(١) انظر كتابنا «حركة الأرض حقيقة علمية أثبتها القرآن» ففيه أدلة ساطعة على الموضوع.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ المراد بالنفس: نفسُ آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء ففيه ثلاث آيات مترتبة: خلق آدم، وخلق حواء، ثم تشعب الخلق منهما ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ أي قضى وأحدث لكم، بأسباب نازلة من السماء كالأمطار، وأشعة الشمس والكواكب ﴿مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ذكراً وأنثى، هي: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ في أطوار مختلفة دالة على القدرة الباهرة ﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي خلقاً مدرجاً نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم إلى تمام الخلق ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، أو ظلمة الصلب، والبطن، والرحم ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي ذلكم العظيم الشأن الذي عُدَّت أفعاله ﴿اللَّهُ﴾ جل جلاله ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعده ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ على الإطلاق، في الدنيا والآخرة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِذَا تَصَرَّفُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادته تعالى، مع وفور موجباتها ودواعيها، إلى عبادة غيره من غير داع إليها.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ به تعالى بعد مشاهدة ما ذكر من فنون نعمائه، ومعرفة شؤونه الموجبة للإيمان والشكر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي فإن الله غني عن إيمانكم وشكركم، ولا يرضى منكم الكفر وهو قول السلف، قالوا: كفر الكافر غير مرضي لله تعالى، وإن كان بإرادته، والرضا: عبارة عن مدح الشيء، والثناء على فعله، والله تعالى لا يمدح الكفر، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد، وقد بان الفرق، وعدم رضاه بكفر عباده، لأجل منفعتهم، ودفع مضرتهم، رحمة عليهم، لا لتضرره تعالى به ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا﴾ فتؤمنوا ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي يرضى الشكر لأجلكم، لأنه سبب

لفوزكم بسعادة الدارين، لا لانتفاعه تعالى به ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي لا تحمل نفس حاملة للوزر، حمل نفس أخرى، وهذا بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره أصلاً ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ مَرْجِعُكُمْ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿فِيَلْتَشْكُمُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي تعملونه في الدنيا، أي يجازيكم بذلك، ثواباً وعقاباً، وهذا تهديد للعاصي، وبشارة للمطيع ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بمضمرات قلوبكم، فكيف بالأعمال الظاهرة؟.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ كرب وبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً إليه مما كان يدعو في حالة الرخاء لعلمه، وهذا وصف للجنس بحال بعض أفرادهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي أعطاه نعمة عظيمة من جنبه تعالى ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل التخويل والعطاء ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي شركاء في العبادة ﴿لِّيُضِلَّ﴾ أي الناس بذلك ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الذي هو التوحيد ﴿قُلْ﴾ تهديداً لذلك الضال ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي من ملازميها والمعذبين فيها.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَرَبُّهُ رَحِيمٌ﴾
رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ﴾ من تمام الكلام كأنه قيل له تأكيداً للتهديد: أنت

أحسن حالاً ومالاً، أم من هو قائم بموجب الطاعات، ودائم على أداء وظائف العبادات؟ ﴿ءَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي في ساعاته، حالتي السراء والضراء، لا عند مساس الضر فقط ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أي جامعاً بين الوصفين المحمودين، وأثناء الليل ساعات الليل، أوله، ووسطه، وآخره، وفي هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل لأنه استر عن العيون فيكون أبعد من الرياء ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ أي يخاف من عذاب الآخرة ﴿وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ فينجو بذلك مما يحذره، ويفوز بما يرجوه، ودلت الآية الكريمة على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته ويحذر عقابه، .
روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب، وهو في حالة الموت، فقال له: كيف تجدك؟ قال: أرجو الله يارسول الله، وأخاف ذنوبي، فقال ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو منه، وآمنه مما يخاف»^(١) والرجاء إذا جاوز حده يكون أمناء، والخوف إذا جاوز حده يكون يأساً، وكلاهما محذور، قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿لَا يَنَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢) ﴿قُلْ﴾ بياناً للحق، وتنبيهاً على شرف العلم والعمل ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ أي يعلمون حقائق الأحوال، كالقانت المذكور، والذين لا يعلمون شيئاً ما، وقيل هو وارد على سبيل التشبيه، أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون، لا يستوي القانتون والعاصون، بدأ الآية بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين، وأنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل، إنما يفيد إذا واطب عليه الإنسان، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم، قال صاحب الكشاف أراد ﴿الذين يعلمون﴾ الذين سبق ذكرهم،

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٩٨٣ في الجنائز، وابن ماجه رقم ٤٢٦١ في الزهد.

(٢) سورة يوسف، آية: ٨٧.

وهم القانتون، وهو تنبيه على أن من لم يعمل فهو غير عالم، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يعملون بها، فهم عند الله جهلة ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ أي إنما يتعظ بهذا أصحاب العقول، الخالصة عن شوائب الخلل.

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١١).

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أمر رسول الله ﷺ بتذكير المؤمنين، وحملهم على التقوى، وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة، ومزيد اعتناء بشأن الأمور به، فإن نقل عين أمر الله تعالى، أدخل في إيجاب الامتثال به ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ بامثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ تعليل للأمر، أي لمن أحسن عمله وسار في طريق الهداية ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص، وهو الذي عبر عنه ﷺ حين سئل عن الإحسان، بقوله: أن تعبد الله كأنك تراه ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي حسنة عظيمة، وهي الجنة ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فمن تعسر عليه التوفر على التقوى والإحسان في وطنه، فليهاجر الى حيث يتمكن فيه، كما هو سنة الأنبياء والصالحين، فإنه لا عذر له في التفريط أصلاً ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ ترغيب في التقوى الأمور بها، أي إنما يوفى الذين صبروا على دينهم، وحافظوا على حدوده، ولم يفرطوا في مراعاة حقوقه ﴿أَجْرَهُمْ﴾ بمقابلة ما كابدوا من الصبر ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي لا يحصى ولا يُحصَر.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (١١).

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي عن كل ما ينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك، قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للرسول ﷺ: ما-

يحملك على هذا الدين، ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات ملتك؟
فأنزل الله هذه الآية.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١١)

﴿وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة، كأنه ﷺ يقول: إني لست من الملوك الذين يأمرهم الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك، بل كل ما أمرتكم به، فأنا أول الناس شروعا فيه، وأكثرهم مداومة عليه.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٢)

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وصف بالعظمة لعظمة ما فيه، من الدواهي والأهوال، والمقصود منه زجر الغير عن المعاصي، لأنه ﷺ مع جلالة قدره، إذا كان خائفاً من المعاصي فغيره أولى.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لِّمُذْنَبِي﴾ (١٣)

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لِّمُذْنَبِي﴾ أمر ﷺ بالإخبار بامتناله للأمر، إظهاراً لتصلبه في الدين، وحسماً لأطماعهم، وتمهيداً لتهديدهم، فإن قيل: ما معنى التكرير؟ قلنا: هذا ليس بتكرار، لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى بالعبادة، والثاني إخبار بأنه لا يعبد غير الله، لأن قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ لا يفيد الحصر، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ﴾ يفيد الحصر، يعني الله أعبد لا أعبد أحداً سواه.

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١٤)

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ﴾ أن تعبدوه ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ تعالى، وليس أمراً، بل المراد الزجر والتوبيخ، وقيل له ﷺ: خالفتَ دين آبائك، فقد خسرت، فنزلت ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي الكاملين في الخسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالضلال، ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالإضلال، باختيار الكفر بدل الإيمان، أي أضاعوهما ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ حين يدخلون النار، حيث عرّضوهما للعذاب السرمدي ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي هو الخسران الواضح الفادح الذي لا خسران مثله، وفي تصديرها بحرف التنبيه، والإشارة بذلك، وتوسيط ضمير الفصل، وتعريف الخسران، ووصفه بالمبين، مبالغة خالدة للتفسير عن عبادة غير الله.

﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٦﴾.

﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ﴾ نوع بيان لخسرانهم، بعد تهويله بطريق الإبهام، أي لهم كائنٌ من فوقهم ظلل كثيرة متراكمة، بعضها فوق بعض، كائنة ﴿مِنْ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أيضاً ﴿ظُلَلٌ﴾ هي في الدرجات للآخرين، أي أطباق كثيرة بعضها تحت بعض، والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب، ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ﴾^(١) ﴿ذَلِكَ﴾ أي العذاب الفظيع الذي ﴿يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ويحذرهم إياه، بآيات الوعيد، ليجتنبوا مما يوقعهم فيه ﴿يَعْبُدُونَ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ ﴿١٧﴾.

(١) سورة الأعراف، آية: ٤١.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ المراد به الشيطان، وقيل: الأصنام، والأوثان، وكلُّ ما يعبد من دون الرحمن ﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ بدل اشتمال منه ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي أقبلوا إليه معرضين عما سواه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ بالثواب على أسنة الرسل من الملائكة عند حضور الموت، وعند الوضع في القبر، وعند الحشر، وعند الدخول في الجنة، بالروح والراحة والريحان، وهذه البشارة تكون بزوال المكروهات، ويحصل المرادات، قال الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ أي أبشروهم بالنعيم المقيم في دار الجنان.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ هم الموصوفون بالاجتناب والإنابة بأعيانهم، لكن وضع عباد موضع ضميرهم، تشريفاً لهم بالإضافة إليه سبحانه، فإذا اعترضهم أمران: واجبٌ وندب اختاروا الواجب، حرصاً على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثواباً، أو يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن، أما في المعاملات مثل أنه تعالى شرع القصاص، والدية، والعفو، فيؤثرون العفو، لأنه تعالى قال: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو الرجل يجلس مع القوم، ويسمع الحديث فيه محاسنٌ ومساوئ، فيحدث بأحسن ما سمع، ويترك ما سواه ﴿أُولَئِكَ﴾ المنعوتون بالمحاسن الجميلة ﴿الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ للدين الحق ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي هم أصحاب العقول السليمة، المستحقون للهداية، لا غيرهم من المكذبين الضالين.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾؟ هم عبدة الطاغوت،

كما يلوح به التعبير عنهم بمن ﴿حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ فإن المراد بها قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾. الخ وضع موضع الضمير ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ للتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب، بمنزلة الواقع في النار، وأن اجتهاده ﷺ في دعائهم إلى الإيمان، سعي في إنقاذهم من النار.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رِبَّهُمْ هُمْ عُرِفُوا مِنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ (٢١).

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رِبَّهُمْ هُمْ عُرِفُوا مِنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ﴾ أي لهم درجات عالية في جنات النعيم، بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة في الجحيم، أي لهم علالي بعضها فوق بعض ﴿مَبْنِيَّةٌ﴾ محكمة البناء، يعني الغرف العالية وإن كانت فوق بعضها، لكنها في القوة والشدة متينة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ من غير تفاوت بين العلو والسفل ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد، أي وعدهم الله وعداً ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ لأن خُلف الوعد نقص، استحال عليه سبحانه، روي عن أبي سعيد الخدري عن الرسول ﷺ أنه قال: «إن أهل الجنة ليرآؤون أهل الغرف من فوقهم، كما يترآؤون الكوكب الدرّي، الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم، فقالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين»^(١) قوله الغابر: أي الباقي في الأفق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً لَوْنُهُ ثُمَّ يَهْبِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطّاً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢١).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تمثيل الحياة الدنيا في سرعة

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٣٦٦/١١ ومسلم رقم ٢٨٣٠ في الجنة.

الزوال، تحذيراً من الاغترار بزهرتها، بإنزال الماء وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى ﴿فَسَلَكْهُ﴾ أي فادخله ﴿يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي عيوناً ومجاري كالعروق في الأجساد، نابعة فيها ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَنُهُ﴾ أي يخرج بهذا الماء، أنواع الزروع، والفواكه، والثمار، كما يخرج به أنواع الحبوب، من بر وشعير وغيرهما ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ﴾ أي يتم جفافه ويشرف أن يثور من منابته ﴿فَتَرْثُهُ مُصْفًى﴾ من بعد خضرته ونضرتة ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلَاءً﴾ فتاتاً متكسرة، كأن لم يغن بالأمس ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿لَذِكْرَى﴾ لتذكيراً عظيماً ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوب الخلل، يتذكرون بذلك فلا يغترون ببهجتها، ويجزمون على قدرة الله على كل شيء، والحطام: ما يجف ويتفتت، ويكسر من النبات.

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوِيلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ شرح الصدر: عبارة عن تنوره بنور الإسلام، فإن الصدر محل للقلب، الذي هو منبع الروح، فانشراحه مستدع لاتساع القلب، واستضاءته بنوره ﴿فَهُوَ﴾ بموجب ذلك ﴿عَلَى نُورٍ﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ هو اللطف الإلهي الفائض عليه، عند مشاهدة الآيات التكوينية، والتنزيلية، والتوفيق للاهتمام بها إلى الحق ﴿قَوِيلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ من أجل ذكره، وهو أبلغ من أن يكون «عن ذكر الله» لأن القاسي من أجل الشيء، أشد تأبياً من قبوله من القاسي عنه، أي إذا ذكر الله عندهم أو آياته، اشمأزوا من أجله، وازدادت قلوبهم قساوة، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أي بعد عن الحق ﴿مُبِينٍ﴾ أي ظاهر كونه ضلالاً، والنفس إذا كانت خبيثة، فسماعها لذكر الله لا يزيدها إلا قسوة، كحرارة الشمس تلين الشمع، وتعقد الملح، فكذلك القرآن يلين قلوب المؤمنين. عند سماعه، ولا يزيد الكافر إلا قسوة وغلظة.

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَشِعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَهْدِ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿٢٢﴾.

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ هو القرآن الكريم أحسن الحديث لفظاً ومعنى، ليس من جنس الشعر، ولا من جنس الخطب، ولا من جنس الرسائل، بل نوع يخالف الكل، وكل ذي طبع سليم، يستطيعه ويستلذه ﴿كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ أي تشابه معانيه في الصحة والأحكام، وتناسب ألفاظه في الفصاحة والبيان، وتكامل نظمه في الإيجاز والإعجاز ﴿مَثَانِي﴾ هو جمع مثني بمعنى مرّدد ومكرّر، لما تثنى قصصه وأنباءه، وأوامره ونواهيه، فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين، مثل الأمر والنهي، والعام والخاص، والمجمل والمفصل، والجنة والنار، ونحو ذلك، وقيل: لأنه يثنى في التلاوة ﴿نَقَشِعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي تضطرب وتفرع خوفاً مما فيه من الوعيد، روي عن العباس أن النبي ﷺ قال: «إذا اقشعر جلد المؤمن من خيفة الله، تحانت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها» ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي إذا ذكرت آيات الوعيد اقشعرت جلود الخائفين من الله، وإذا ذكرت آيات الوعد والرحمة لانت جلودهم وسكنت قلوبهم، قال قتادة: هذا نعت أولياء الله، الذين نعتهم الله به، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما ذلك في أهل البدع، وهو من الشيطان، وروي عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدي أسماء بنت أبي بكر الصديق: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى، تدمع أعينهم، وتقشعرت جلودهم، قال عبد الله: فقلت لها: إن ناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن، خرّ أحدهم مغشياً عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، رُوي أن ابن عمر مرّ برجل ساقط، فقال: ما بال هذا قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن يسقط فقال ابن عمر: إِنَّا لَنَخْشَى اللَّهَ وَمَا نَسْقُطُ! ﴿ذَلِكَ﴾ أي

الكتاب الذي شرح أحواله ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يهديه بصرف مقدوره إلى الهداء ﴿وَمَنْ يَضِللِ اللَّهُ﴾ أي يخلق فيه الضلالة بصرف قدرته إلى مباديها، وإعراضه عما يرشده إلى الحق ﴿فَالَهُمْ مِنْ هَادٍ﴾ يخلصه من الضلال.

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوَّةَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٢٤).

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوَّةَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ حذف الخبر كما حذف في نظائره، والتقدير: أفمن يتقي بوجهه شدة العذاب، كمن أمِنَ من العذاب؟ والإنسان إذا لقي مخوفاً استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه، لأنه أعز أعضائه، والذي يُلقي في النار، يُلقي مغلوله يداه إلى عنقه، فلا قدرة له على الانتقاء أصلاً إلا بوجهه، وهذا أبشع أنواع العذاب ﴿وَقِيلَ﴾ من جهة خزانة النار ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ أي لهم، وضع المظهر للتسجيل عليهم بالظلم ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا على الدوام، من الكفر والمعاصي.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَنْتَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٥).

أي من قبل كفار قريش، أي كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة ﴿فَاَنْتَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من الجهة التي لا يحسبونها، ولا يخطر ببالهم إتيان الشر منها.

﴿فَاَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦).

﴿فَاَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ أي الذل والصغار ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كالقتل

والإجلاء، ونحو ذلك من فنون النكال ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعد لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدة ودوامه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً لعلموا ذلك، واعتبروا به.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمور الدين ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كي يتذكروا به، ويتعظوا ببيانه.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي لا اختلال ولا تناقض فيه، فهو أبلغ من المستقيم، وقيل: المراد بالعوج الشك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يخافون عقاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ للموحد والمشارك، إيراد الأمثال القرآنية، للتذكر والاعتاظ بها، وتحصيل التقوى أي جعل الله تعالى مثلاً للمشارك ﴿رَجُلًا﴾ أي عبداً ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ أي يتشارك في هذا العبد جماعة ﴿مُتَشَكِّسُونَ﴾ متنازعون، متخالفون، يأمر هذا بشيء، وينهى ذلك عنه، والشكس: السيء الخلق، المخالف للناس، ولا يرضى بالإنصاف، وهذا مثل المشارك، يعبد آلهة شتى ﴿وَرَجُلًا﴾ أي وجعل للموحد مثلاً عبداً ﴿سَلَمًا﴾ خالصاً ﴿لِرَجُلٍ﴾ لفرد معين ليس لغيره عليه سبيل أصلاً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي صفة وحالاً، وهو إنكار واستبعاد لاستوائهما لأن العبد المشترك فيه، لا

يدري أيهم يُرضي بخدمته، وعلى أيهم يعتمد، فهو في التحير وتوزع قلبه، ومن كان له سيد واحد، فهتفه واحد، وقلبه مجتمع ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية إنما هو بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جلية، موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، مع كمال ظهوره، فيبقون في ورطة الشرك والضلال.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠)

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي سيموت، فلا خلود لأحد في الدنيا ﴿وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ سيموتون، أي إنكم جميعاً في صدد الموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (٣١)

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم بأنك بلغتكم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ، وهم قد لجؤا في المكابرة والعناد في الدنيا، وقيل: المراد الاختصام العام بين الأنام، عن عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه قال لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: «يا رسول الله أنكون على الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: نعم»^(١) وعن أبي سعيد الخدري في هذه الآية قال: كنا نقول: «ربنا واحد، وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلمّا كان يوم صفين، وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا نعم هو هذا».

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٢)

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي هو أظلم من كل ظالم، من

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٢٣٦ وفيه: فقال الزبير: إن الأمر إذاً لشديد.

افترى على الله سبحانه كذباً، بأن أضاف إليه الشريك والولد ﴿وَكَذَّبَ
بِالصَّدَقِ﴾ أي بالأمر الذي هو عين الحق ونفس الصدق، وهو ما جاء به
الرسول ﷺ ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ أي في أول مجيئه، من غير تدبر فيه ولا تأمل
﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي أليس لهؤلاء الذين افتروا على الله
سبحانه وسارعوا إلى التكذيب، مأوى ومسكن في جهنم؟ بالصدق في أول
الأمر.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٣٢)

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هو الرسول ﷺ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُتَّقُونَ﴾ أي الموصوفون بما ذكر من المجيء بالصدق، والتصديق به،
هم المنعوتون بالتقوى التي هي أجل الرغائب.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣١)

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم كل ما يشاؤون، في الآخرة، لا
في الجنة كما قيل، لما أن بعض ما يشاؤون من تكفير السيئات، والأمن
من الفزع الأكبر، وسائر أهوال القيامة، إنما يقع قبل دخول الجنة ﴿ذَلِكَ﴾
الذي ذكر من حصول كل ما يشاؤون ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٠)

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي وعدهم الله زوال المضار، وحصول
المسار، ليكفر عنهم بموجب ذلك ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ خصَّ الأسوأ
للمبالغة، أي أعمالهم السيئة مهما عظمت، ويجوز أن يكون بمعنى
السيئ، أي يكفر عنهم الأعمال السيئة ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

يَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ أي ويعطيهم ثوابهم، بأفضل محاسن أعمالهم، زيادة للأجر، لفرط إخلاصهم فيها.

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ﴿٦١﴾

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ استفهام إنكار للنفي، مبالغة في الإثبات كأن الكفاية من التحقق والظهور، بحيث لا يقدر أحد على أن ينكرها والمراد بالعبد رسول الله ﷺ، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ، عما قالت له قريش: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، ويصيبك مضرتها، كما قال قوم هود لنبيهم: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي الأوثان التي اتخذوها آلهة، من دون الله تعالى ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ أي يضلله عن طريق الهدى ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الحق.

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ ﴿٦٢﴾

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ يصرفه عن مقصده، إذ لا راد لفعله، ولا معارض لإرادته، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب لا يُغالب ﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾ من أعدائه.

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ﴿٦٣﴾

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لوضوح الدليل على تفرده بالخالقية ﴿قُلْ﴾ تبكيئاً لهم ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ﴾

اللَّهُ يَضُرُّ هَلْ هُنَّ كَشِفَتْ ضُرُّهُ ﴿١﴾ أي بعدما تحققت أن خالق العالم هو الله عز وجل، فأخبروني عن آلهتكم إن أرادني الله بضر، هل هنَّ يكشفن عني ذلك الضر؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ أي أرادني بنفع ﴿هَلْ هُنَّ مُتْسِكَتٌ رَحْمَتِهِ﴾؟ فيمنعها عني؟ وتعليق الضر والرحمة بنفسه ﷺ، للرد في نحورهم، حيث كانوا خوِّفوه مضرة الأوثان ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ في جميع أموري ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا على غيره أصلاً، لعلمهم بأن كل ما سواه، تحت ملكوته تعالى.

﴿قُلْ يَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾.

﴿قُلْ يَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾ أي على مكاني، فحذف للاختصار، وللإشعار بأن حاله ﷺ لا تزال تزداد قوة، بنصر الله وتأييده، ولذلك توعدّهم بكونه منصوراً عليهم، بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أينا الضالُّ؟.

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿٤١﴾.

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإن خزي أعدائه، دليلٌ غلبته ﷺ، وقد أخزاهم الله تعالى في الدنيا، كما في يوم بدر وغيره ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم، وهو عذاب النار، والمقصود التخويف.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٤١﴾.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ﴾ أي لأجلهم، فإنه مناط مصالحهم في المعاش والمعاد ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً به ﴿فَمَنِ اهْتَكَيْ﴾ بأن عمل فيه

﴿فَلَنَفْسِهِ﴾ أي إنما نفع به نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بأن لم يعمل بموجبه ﴿فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لما أن ويا ل ضلاله مقصورٌ عليها ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكَيلٍ﴾ لتجبرهم على الهدى، وما وظيفتك إلا البلاغ.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٢)

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي يقبضها من الأبدان، بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها، إما ظاهراً وباطناً كما عند الموت، أو ظاهراً فقط كما عند النوم ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ ولا يردها إلى البدن ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ أي النائمة إلى بدنها عند التيقظ ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو المضروب لموته، قيل: لكل إنسان نفسان: نفسٌ بها الحياة، ونفسٌ بها التمييز، فالتّي تُتَوَفَّى في المنام هي نفس التمييز، لا نفس الحياة، إذ لو زالت لزال معها التنفس، والنائم يتنفس ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي فيما ذكر من التوفي ﴿لَآيَاتٍ﴾ عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى، وحكمته، ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في جلال الله وعظمته وقدرته، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد، إلا أن الموت انقطاع تام، والنوم انقطاع ناقص، ومثل هذه التدابير لا يمكن أن تكون إلا عن تدبير القادر، العليم، الحكيم.

﴿أَمْ أَمْتًا خَدُّوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣)

﴿أَمْ أَمْتًا خَدُّوا﴾ أي بل اتخذ الكفار ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من دونه تعالى ﴿شُفَعَاءَ﴾ تشفع لهم عنده تعالى ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟ أي قل لهم أتخذونها شفعاء، ولو كانوا لا

يملكون شيئاً من الأشياء، ولا عقل لهم؟ وجواب «لو» محذوف لدلالة المذكور عليه.

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّمْ يَكُنْ لَكُمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٤)

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ أي هو مالكما، لا يستطيع أحد شفاعته ما، إلا أن يكون المشفوع له مرضياً عنه والشفيع مأذوناً له وكلاهما مفقود ههنا ﴿لَّمْ يَكُنْ لَكُمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ تقرير له وتأكيد، أي له ملكهما وما فيهما، لا يملك أحد أن يتكلم في أمر بدون إذنه ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة لا إلى أحد سواه.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٥)

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ دون آلهتهم ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ونفرت، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَتْ رَبُّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نَفُورًا﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ فرادى مع ذكر الله تعالى ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لفرط اقتنائهم بها، ونسيانهم حق الله تعالى، ولقد بولغ في بيان حالهم حيث إن الاستبشار هو أن يمتلىء القلب سروراً حتى تنبسط له بشرة الوجه، والاشمئزاز أن يمتلىء غيظاً وغماً حتى ينقبض جلد وجهه.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٦)

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي التجيء إليه

تعالى بالدعاء، إذا تحيرت في أمر الدعوة، وضجرت من شدة المكابرة والعناد، فإنه القادر على الأشياء بجملتها ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الهدى والضلالة، وهذا يشمل كل مكابر ومعاند، وكل مؤمن وجاحد، عن أبي سلمة قال: سألت عائشة رضي الله عنها أي شيء كان نبي الله ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: «اللهم رب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك، فيما كانوا فيه يختلفون، فاهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾^(٦٧).

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي لو كان لهم جميع ما في الأرض من الأموال ومثله معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب، وهيهات أن ينفعهم ذلك، وهذا وعيد شديد ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي ظهر لهم من فنون العقوبات، ما لم يكن في حسابهم، ولم يخطر على بالهم.

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾^(٦٨).

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا﴾ سيئات أعمالهم حين تعرض عليهم

(١) الحديث أخرجه مسلم.

صحائفهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي جزاؤه .

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبار عن الجنس بما يفعله غالب أفرادهم، أي أنهم يشمزون عن ذكر الله تعالى، فإذا مسهم ضرر دعوا من أشمازوا عن ذكره ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا﴾ أعطيناه إياها تفضلاً ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على علم مني بوجوه كسبه، أو أعطاه لما عليم أني له أهل ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة، وابتلاء، واستدراج، وهو رد لما قاله، وتغيير السبب للمبالغة فيه، والإيذان بأن ذلك ليس من باب الإيتاء المنبئ عن الكرامة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك، وفيه دلالة على أن المراد بالإنسان هو الجنس .

﴿فَذَقَالهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿فَذَقَالَهَا﴾ الضمير لقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كفارون حيث قال: ﴿أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا .

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ جزاء سيئات أعمالهم ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ المشركين، أو المفرطون في الظلم والعتو ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كما أصاب أولئك، والسين للتأكيد، وقد أصابهم حيث فُحطوا

سبع سنين، وقتل صناديدهم يوم بدر ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي فائتين من عذاب الله، لأن مرجعهم إليه تعالى.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي أقالوا ذلك ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي آيات دالة على أن كل ما يحدث بتقدير الله جل وعلا، كما قال الشاعر:

فَلَا السَّعْدُ يَقْضِي بِهِ الْمُشْتَرِي وَلَا النُّحْسُ يَقْضِي عَلَيْنَا زُحْلٌ
وَلَكِنَّهُ حُكْمُ رَبِّ السَّمَاءِ وَقَاضِي الْقَضَاةِ تَعَالَى وَجَلُّ

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أفرطوا في الجناية عليها، بالإسراف في المعاصي، وإضافة العباد إليه لتخصيص المؤمنين به، على ما هو عرف القرآن الكريم ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي لا تياسوا من مغفرته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لمن يشاء فيما عدا الشرك ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ يستر عظام الذنوب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بكشف فظائع الكروب، والآية دالة على كمال الرحمة والغفران، نسأل الله تعالى الفوز بها، والنجاة من العصيان بفضلِهِ وَرَحْمَتِهِ.

﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لِمَن قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي اخلصوا له العمل ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي إن لم تنوبوا قبل نزول العقاب ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي تمنعون منه .

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ .

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي اتبعوا القرآن العظيم، بامثال أوامره، واجتناب نواهيه، والزموا هديه، فهو أحسن كتاب أنزل إليكم من ربكم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بمجيئه، لتتداركوا وتأنهوا له .

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لِمِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ﴾ بالآلف بدلاً من ياء الإضافة، أي، احضري هذا أوان حضورك ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ﴾ أي على تفريطي وتقصيري ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي في جانبه، وفي حقه وطاعته ﴿وَإِن كُنتُ لِمِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي المستهزئين بدين الله وأهله، أي فرطت وأنا ساخر .

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ بالإرشاد إلى الحق ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الشرك والمعاصي .

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنِّي كُنتُ مِنْ الدُّنْيَا فَكُنتُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ في العقيدة والعمل و«أو» للدلالة على أنه لا يخلو عن هذه الأقوال، تحسراً وتعللاً، بما لا طائل تحته وقوله تعالى:

﴿ بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ أَيْتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾.

﴿ بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ أَيْتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ رد من الله تعالى عليه، أي قد جاءتك آياتي، وبينت لك الهداية من الغواية، لكن تركت ذلك، واستكبرت عن قبوله، وآثرت الضلالة على الهدى، فلا عذر لك.

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه تعالى كاتخاذ الولد ﴿ وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ بما ينالهم من الشدة والهول، والذل والخزي ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾؟ أي منزل ومقام ﴿ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ عن الإيمان والطاعة؟ بلى لهم مسكن وماوى في دار الجحيم.

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِيقَاتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ عن الشرك والمعصية أي ينجيهم من جهنم ﴿ بِمِيقَاتِهِمْ ﴾ بفلاحهم وفوزهم بما يشتهون، أي ينجيهم الله تعالى من مثنى المتكبرين، ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾ أي لا

يصيبهم الهلع والجزع، ولا تمسهم نار جهنم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا يمس أبدانهم أذى، ولا قلوبهم حزن.

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿١٧﴾.

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي خالق جميع الأشياء، وموجد جميع المخلوقات، وكل شيء يجري من خير وشر، وإيمان وكفر، بقضاء منه، لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لأسبابها ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولى التصرف فيه كيفما يشاء.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١٣﴾.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لا يملك أمرها، ولا يتمكن من التصرف فيها غيره، لأن الخزائن لا يتصرف فيها، إلا من بيده مفاتيح الخزائن، والمقاليد هي المفاتيح جمع مقلاذ وهو المفتاح ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المعنى: إن الله تعالى هو الخالق لجميع الأشياء، والمتصرف فيها كيفما يشاء، بيده مقاليد العالم العلوي والسفلي، والذين كفروا بآياته التكوينية والتنزيلية هم الخاسرون أشد الخسران، لأنهم باعوا آخرتهم بدنياهم.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿١١﴾.

﴿قُلْ﴾ لمن دعاك إلى دين آبائك ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ أي أبعد مشاهدة هذه الآيات، غير الله أعبد؟ و ﴿تَأْمُرُونِي﴾ اعتراض، للدلالة على أنهم أمروه به، لفرط غباوتهم، وقد وصفهم بالجهل، لأن الدليل القاطع، قد قام بأنه تعالى هو المستحق للعبادة لا غيره، فمن عبد غيره بعد ذلك فهو جاهل.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿٦٥﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ من الرسل ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ كلام وارد على طريقة الفرض، لتهيج الرسل عليهم السلام، وإقنات الكفرة، والإيذان بشناعة الإشراك، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به الناس، أو أمته الذين آمنوا به، تخويفاً لهم من عقوبة الإشراك.

﴿ بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ﴿٦٦﴾ .

﴿ بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ ﴾ ردُّ لما أمره به ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لإِنعام ربك عليك بنعمة الإيمان والقرآن.

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرَكُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾ .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما قدروا عظمته تعالى، ولا عظموه حق تعظيمه، حيث جعلوا له شريكاً، هذه الأشياء الخسيسة، ووصفوه بما لا يليق بشؤونه الجليلة ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ تنبيه على عظمته، وكمال قدرته، ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه، على طريقة التمثيل والتخييل، فالكون كله خاضع لإرادته وتديره، كقولهم شابت لمة الليل، والقبضة المرة من القبض، وهي المقدار المقبوض بالكف ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرَكُونَ ﴾ أي تنزهه عن الشريك والنظير، والزوجة والولد.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ﴾ ﴿٦٨﴾ .

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ﴾ أي فإذا جميع الخلائق الأموات، يقومون من القبور، ينظرون إلى الحشر الأكبر.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ .

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ ليس هي التي تفعد عليها الآن، بدليل قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ بل هي أرض أخرى، يخلقها الله تعالى، لمحفل يوم القيامة ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقام فيها من العدل، سماه نوراً لأنه يزين البقاع، ويظهر الحقوق، كما يسمى الظلم ظلمة، أو بنور خلقه فيها، بلا توسط أجسام مضيئة، ولذلك أضيف إلى الاسم الجليل، كبيت الله، وأراد بالأرض عرصات القيامة ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ الحساب والجزاء وصحائف الأعمال ﴿وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم، من الملائكة والمؤمنين ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بين العباد بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ .

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي جزاء أعمالها، من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يفوته شيء من أفعالهم.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ
 أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ
 وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى
 الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي سيقوا إليها بالعنف والإهانة، أفواجاً متفرقة، والزُّمَرُ: جمع زمرة وهي الجماعة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وكانت قبل ذلك مغلقة، فتحت فجأة لتستقبلهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ توبيخاً، والخزنة: حفظة جهنم وهم الملائكة الموكّلون بتعذيب أهلها ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ؟﴾ أي من جنسكم من البشر ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا؟﴾ أي وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار، واستعمال لفظ يوم في أوقات الشدة مستفيض، وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع، لأنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل، وتبليغ الكتب ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أتونا وتلوا علينا وأنذرونا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾ حيث قال الله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقد كنا ممن تبعه، كذّبت الرسل، وقلنا: ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا تكذبون.

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بثست جهنم منزلاً ومأوى للمتكبرين، عن الإيمان بالله وتصديق رسوله.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ
 أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ ۖ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ مساق إعزاز وتشريف للإسراع بهم إلى دار الكرامة، وقيل: سيقت مراكبهم، إذ لا يُذهب بهم إلا راكبين، ﴿زُمَرًا﴾ أي متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل، وعلو الطبقة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وجواب «إذا» محذوف للإيذان بأن لهم حينئذ من فنون الكرامات ما لا يحيط به البيان، وفيه دليل على أن أبواب الجنة، تفتح لهم قبل مجيئهم، كأنه قيل: حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها، بدليل قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَذْنٍ مُّفْتَحَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ﴾^(١) ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ من جميع المكاره والآلام ﴿طِبْتُمْ﴾ أي طهرتم من دنس المعاصي، أو طبتم نفساً بما أتيح لكم من النعيم ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي ادخلوا جنة النعيم والخلود، ماكثين فيها أبداً دون خروج ولا انتهاء.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ﴾ بالبعث والثواب ﴿وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه، أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه ﴿نَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي يتبوا كل واحد منا في أي مكان أَرَادَهُ من جنته الواسعة، على أن فيها مقامات معنوية لا يتمانع واردةها ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي نعم ثواب المطيعين الجنة.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِئِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(١) سورة ص، آية: ٥٠.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ﴾ أي محدقين، محيطين ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ بحافته وجوانبه ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي ينزهونه تعالى عما لا يليق به، ملتبسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي ذاكرين له تعالى بوصفي جلاله واکرامه، تلهذاً به، وفيه إشعار بأن أقصى درجات العليين، وأعلى لذائذهم، هو الاستغراق في شؤونه عز وجل ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بين الخلق، بإدخال بعضهم الجنة، وبعضهم النار ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على ما قضى بيننا بالحق، والقائلون هم المؤمنون، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والله أعلم بمراده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه جل وعلا تفسير سورة الزمر»

سُورَةُ عَافٍ

مكية وآيها خمس وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾

﴿حَمْدٌ﴾ بتفخيم الألف وتسكين الميم وهو اسم للسورة.
﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾﴾

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ سائر ذنب المؤمنين، الغَفْرُ: هو الستر، أي يستر ذنب المسيء، ويتوب على التائب، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ والتوب مصدر كالنوبة ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ على المخالفين ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ ذي الفضل والإنعام على العارفين، والطول: الفضل بترك العقاب المستحق، والإنعام الذي تطول مدته على صاحبه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، فهو الموصوف بالوحدانية، التي لا يوصف بها غيره، فيجب الإقبال على طاعته، في أوامره، ونواهيه ﴿إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ فحسب، لا إلى غيره، فيجازي كلاً من المطيع والعاصي بما يستحقه.

﴿ مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي
الْبَلَدِ ﴾^(١)

﴿ مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي بالظعن فيها، واستعمال المقدمات
الباطلة، لإدحاض الحق كقوله تعالى بعده ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْخِلُوا بِهِ
الْحَقَّ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بها، وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة
شبهة، فضلاً عن الظعن فيها، وأما الجدال فيها بحل مشكلاتها، وكشف
معضلاتها، واستنباط حقائقها، وتوضيح مناهج الحق، وإبطال شبه أهل
الزيغ والضلال، فمن أعظم الطاعات، وأكبر جهاد في سبيل الله^(١)
والمقصود بالآية الأول، وهو الاختلاف والظعن في آيات الله بإثارة الشبهة،
كما روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال ﷺ: «إنما
هَلَكَ من كان قبلكم، باختلافهم في الكتاب»^(٢) ﴿فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾
أي فلا يغررك إمھالهم، وإقبالهم في دنياهم، وتقلبهم في أسفارهم
بالتجارات المربحة، فإنهم مأخوذون عن قريب.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ
أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْخِلُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ
كَانَ عِقَابِي ﴾^(٣)

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي الذين تحزبوا على
الرسول، وناصروهم العداء، وهم عاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم

(١) الجدال في القرآن نوعان: جدال في تقرير الحق، وإبطال شبه الضالين، فهو جهاد
وعمل ممدوح، وهو حرفة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَجَادَلِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾
وجدال لتقرير الباطل، وبث الشبهة والأباطيل، وهذا هو المراد بالآية هنا، وهو جدال
الكفرة في الآيات.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٢٦٦٦ باب النهي عن المتشابه في القرآن.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من تلك الأمم العاتية ﴿بِرُسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا منه، فيصيبوا به ما أرادوا، ويبطشوا به وبأتباعه، من تعذيب أو قتل، من الأخذ بمعنى الأسر ﴿وَجَعَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ الذي لا حقيقة له أصلاً ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أي ليطلوا ويزيلوا به ﴿الْحَقَّ﴾ الذي جاءت به الرسل صلوات الله عليهم ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ بسبب ذلك أخذ عزيز مقتدر، بالهلاك السريع ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟ أي فكيف كان عقابي الذي عاقبتهم به؟ فإن آثار دمارهم عبرة للناظرين.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كما وجب وثبت حكمه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذبة المتحيزة على رسلهم، وجب أيضاً ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي كفروا بك وتحزبوا عليك ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي لأنهم مستحقو أشد العقوبات وأفظعها، التي هي عذاب النار أبداً. روي أن عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً من أهل الشام، فقبل له: تتابع في هذا الشراب يعني الخمر، فقال عمر لمكاتبه: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام عليك، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمَّ﴾. تنزيل الكتاب» إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ وختم الكتاب، وقال لرسوله لا تدفعه إليه حتى تجده صاحباً، ثم أمر مَنْ عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرأها ويقول: وعدني الله أن يغفر لي، وحذّرني من عقابه، فلم يبرح يردها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النزوع والترك، وحسنت توبته، فلماً بلغ عمر أمره، قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحاكم زلّ، فسددوه، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوان الشياطين عليه^(١).

(١) انظر كتاب سيرة عمر بن الخطاب للشيخ الطنطاوي.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٧﴾

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ وهم سادة الملائكة، وحملهم إياه حفظهم وتدبيرهم له كما قال سبحانه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي يتزهدون الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، حامدين له على نعمائه، والجملة استئناف مسوق للتسلية، ببيان أن أشرف الملائكة، مشابرون على ولاية الرسول والمؤمنين، ونصرتهم، كأنه تعالى يقول: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَ يبالغون في العداوة، فلا تبالٍ بهم، فَإِنَّ حَمْلَةَ الْعَرْشِ، ومن حوله معك، ويبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إيماناً حقيقياً، والتصريح به لإظهار فضيلة الإيمان، وإبراز شرف أهله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فإن المشاركة في الإيمان، أقوى المناسبات وأتمها، وأدعى الدواعي إلى النصح والشفقة ﴿رَبَّنَا﴾ على إرادة القول، أي يقولون ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي وسعت رحمك وعلمك كل شيء، وفي وصفه تعالى بالرحمة والعلم، مزيدٌ تعظيم للرب جلّ وعلا وتقديم الرحمة، لأنها المقصودة بالذات هنا ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي الذين علمت منهم التوبة الصادقة، واتباع سبيل الحق ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ واحفظهم من نار جهنم.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٨﴾

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ عطف على قهم ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي صلاحاً مصححاً لدخول الجنة في

الجملة، وإن كان دون صلاح أصولهم، أي وأدخل معهم هؤلاء، ل يتم سرورهم بهم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور ﴿الْحَكِيمُ﴾ أي الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي العقوبات عقوبات المعاصي، بمعنى احفظهم من فعل المعاصي، وهو تعميم بعد تخصيص ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ﴾ أي ومن تقي المعاصي في الدنيا، فقد رحمته في الآخرة ﴿وَذَلِكَ﴾ إشارة إلى دخول الجنة، والوقاية من نار الجحيم ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا مطمع وراءه لطامع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ شروع في بيان أحوال الكفرة بعد دخولهم النار، وهم الذين يجادلون في آيات الله ﴿يُنَادُونَ﴾ أي من مكان بعيد، وهم في النار، والمنادي هم خزنة جهنم، يقولون لأهل النار، وقد مقت بعضهم بعضاً، بسبب الضلال والإضلال، ولعن بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِيَلْعَنَ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾^(١) فيقال عند ذلك لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ المقت: أشدُّ البغض، أي لبغض الله الشديد لكم في الدنيا، أعظم من بغضكم اليوم لأنفسكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي حين كنتم تدعون من جهة الأنبياء ﴿إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ اتباعاً لأهوائكم، واقتداءً لأخلائكم المضلين.

(١) سورة العنكبوت، آية: ٥٥.

﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنِي وَأَحْيَيْتَنَا أَتَيْنِي فَأَعَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (١١)

﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنِي وَأَحْيَيْتَنَا أَتَيْنِي﴾ أي إمامتين، وإحياءتين، أو موتيتين وحياتين، أرادوا بالإماتة الأولى خلقهم أمواتاً، كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ (١) وبالثانية إمامتهم عند انقضاء آجالهم، وبالإحياءتين الحياة الأولى، في الدنيا، وإحياء البعث واحتج أكثر العلماء بهذه الآية على إثبات عذاب القبر كما نصت عليه السنة النبوية أيضاً ﴿فَأَعَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فلما شاهدوا البعث، اعترفوا بذنبهم، ليتوسلوا بذلك إلى ما علّقوا به أطماعهم، من الرجعة إلى الدنيا، كما قد صرّحوا به، حيث قالوا: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ وهو الذي أرادوه بقولهم ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي هل تردنا إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ قالوه مع نوع استبعاد له، واستشعار يأس منه، وتنكير ﴿سَبِيلٍ﴾ للإبهام، أي من سبيل ووسيلة للخروج من النار؟.

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (١٢)

﴿ذَلِكُمْ﴾ جواب لهم باستحالة ما يرجون، أي ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي بسبب أن الشأن ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ﴾ في الدنيا، أي عبد ﴿وَحْدَهُ﴾ أي منفرداً ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده ﴿وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي بالإشراك به، وتسارعوا فيه، وحيث كان حالكم كذلك ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ الذي لا يحكم إلا بالحق، ﴿الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ الذي ليس كمثله شيء، لا في ذاته،

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨.

ولا في صفاته، ولا في أفعاله، والمشبّهة استدلووا بالعلو في الجهة، والكبير في الجنة، وكل ذلك باطل.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ ﴿١٣﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ من السحاب، والرعد، والبرق، والصواعق، ونحوها الدالة على شؤونه العظيمة، الموجبة لتفرد بالألوهية ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي سبب رزق وهو المطر، وإفراذه بالذكر مع كونه من جملة الآيات، لكونه من آثار رحمته، وجلائل نعمته، الموجبة للشكر، وصيغة المضارع في الفعلين ﴿يريككم﴾ و ﴿ينزل﴾ للدلالة على تجدد ذلك، حيناً بعد حين، فإن أهم المهمات، رعاية مصالح الأديان، ومصالح الأبدان، فالله سبحانه راعي مصالح الأديان بإنزال الآيات، ومصالح الأبدان بإنزال الأرزاق، وعند حصولهما يحصل الإنعام التام، على أكمل الجهات ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات الباهرة، والنعم الكثيرة، ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أي من يرجع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة، ويتفكر فيما أودعه الله في تضاعيف مصنوعاته، من شواهد قدرته الكاملة، ونعمته الشاملة، الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى، ومن ليس كذلك فهو بمعزل من التذكر والانتعاظ.

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٤﴾.

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فاعبدوه أيها المؤمنون، مخلصين له دينكم ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ذلك، وغاظهم إخلاصكم.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (١٥)

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أي عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرفعة والمقام العالي، ويحتمل أن يكون المراد منه الرافع، لأنه تعالى يرفع درجات الأنبياء، والأولياء في الجنة، ورافع درجات العلماء، فللملائكة درجات معينة، كما قال: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾^(١) وقال في حق العلماء: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٢) ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي مالكة وخالقه، فهو صاحب العرش العظيم الذي لا يعلم سعته إلا الله، ذكره تعالى إيذاناً بعلو شأنه، وعظيم سلطانه، الموجبين لتخصيص العبادة به، وإخلاص الدين له ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي ينزل الوحي على من شاء من خلقه، فالمراد بالروح «الوحي الرباني» سمي روحاً لأنه يسري إلى النفس كسريان الروح في الجسد، ذكره تعالى بعد بيان إنزال الرزق الجسماني، لأنه لا بد من غذاء الروح، وغذاء الجسد، وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي بسبب أمره بالخير ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي على أنبيائه ورسله، وهم الذين اصطفاهم للرسالة، وتبلغ أحكامه إلى عباده ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ وهو يوم القيامة، لأنه يتلاقى فيه أهل السماوات والأرض، والظالم والمظلوم.

﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٦)

﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ﴾ أي خارجون من قبورهم، ظاهرون لا يسترهم شيء،

(١) سورة الصافات، آية: ١٦٤.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١١.

كما جاء في الحديث «يحشرون عُرَاة حُفَاة» ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي شيء ما من أعمالهم، وأحوالهم، الجلّة والخفية، ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ حكاية لما يقع حينئذ من السؤال والجواب، أي يقال لمن الملك؟ أي ينادي مناد لمن الملك؟ فيجيبه أهل المحشر، لله الواحد القهار، وقيل: المجيب والسائل هو الله تعالى، ينادي الله جل وعلا، لمن الملك اليوم، فيسكت الخلائق هيبةً لله وفزعاً، فيجيب تعالى نفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٧).

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي في ذلك اليوم - يوم الحشر بين العباد -، تجازى كل نفس من النفوس، البرّة والفاجرة، بما كسبت من خير أو شر ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، لأنه تعالى ليس بظلام للعبيد ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي سريع حسابه، إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق قاطبة في أقرب زمان، كما يرزقهم في ساعة واحدة، يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة، وقد ورد في الخبر «لا يتصف النهار حتى يقبل - أي يستريح - أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار»^(١).

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ (١٨).

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾ أي يوم القيامة، سميت بها لأزوفها وهو القرب،

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي ٣٠١/١٥ والقبولولة هي الاستراحة وقت الظهيرة.

غير أن فيه إشعاراً بضيق الوقت، أَرَفَ الرِّحِيلُ: أي قَرَّبَ، والإنسان عند معاينة ملائكة العذاب يعظم خوفه، فكأنَّ قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف، ولهذا قال: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ بدل من يوم الآزفة، فإنها ترتفع من أماكنها فتلتصق بحلوقهم، ولا تخرج فيستريحوا بالموت ﴿كَظِيمٍ﴾ أي ممتلئين همماً وحسرة، كاظمين على الغم والكربة ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ﴾ أي قريب مشفق أو صديق مخلص ﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ أي ولا شفيع يشفع لهم، لينقذهم من العذاب.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١٩)

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ النظرة الخائنة بمسارقة النظر، قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالساً مع الناس، فتمر المرأة فيسارعهم النظر إليها ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ من الضمائر والأسرار.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢٠)

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق، فلا يقضي بشيء إلا وهو حق وعدل ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئاً﴾ أي لا يحكمون بشيء أصلاً، لأنها جمادات، والجماد لا يقال في حقه يقضي، أو لا يقضي ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين، وقضائه بالحق، وهو وعيدٌ للخلق.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُدُّوهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ (٢١)

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المكذبة كعاد وثمود ﴿ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي قدرة وتمكناً من التصرفات ﴿ وَءَاثَارًا ﴾ مثل القلاع الحصينة، والمدائن المتينة ﴿ فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُلِّهِمْ ﴾ أخذاً وبيلاً ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ يقيهم من العذاب، وينجيهم من الهول والكرب.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

﴿ ذَلِكَ ﴾ ما ذكر من الأخذ ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالمعجزات الباهرات، والآيات الساطعات الظاهرات ﴿ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ ﴾ متمكن مما يريد غاية التمكن ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي عقابه شديد، وعذابه وجيع، لا يؤبه عند عقابه عقاباً.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَمُطَلِّي مُبِينٍ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ وهي معجزاته ﴿ وَمُطَلِّي مُبِينٍ ﴾ أي وحجة قاهرة تدل على صدقه.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَفِرْعَوْنَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴾.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَفِرْعَوْنَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴾ فيما أظهره من المعجزات، وفيما ادعاه من الرسالة، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وبيان لعاقبة من هم أشد من كفار مكة.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٢٥)

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ وهو ما ظهر على يده من المعجزات ﴿ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ كما قال فرعون (سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم) وهذا القتل غير القتل الذي وقع في ولادة موسى عليه السلام، وكان فرعون قد كفَّ عن قتل الولدان، فلَمَّا بُعث عليه السلام، وأحسَّ بأنه وقع ما وقع، أعاده عليهم، غيظاً وحنقاً، زعماً منه أنه يصددهم بذلك عن دين موسى عليه السلام ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي في ضياع، وفي تخبط وخسران، بعيد عن نور الإيمان.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (٢٦)

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ أي اتركوني لأقتل لكم موسى، يقوله لقومه كأنه يستشيرهم في قتله، وفي الطاغية خبت وجبروت، فقد كان فرعون سفاكاً للدماء لأهون الأشياء، فكيف لا يقتل من أحسَّ منه بأنه يثُلُّ عرشه؟ والظاهر أن فرعون لعنه الله، كان قد استيقن أنه نبي، ولكن كان يخاف إن همَّ بقتله أن يعاجله الله بالهلاك، وكان قوله هذا تمويهاً على قومه ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ تجلُّد منه، وإظهار لعدم المبالاة بدعائه، ولكنه أخوف ما يخافه لعلمه بصدقه ﴿ إِنِّي أَخَافُ ﴾ إن لم أقتله ﴿ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أي أن يغيّر ما أنتم عليه من الدين، الذي هو عبادة الأصنام ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ أي يشير الفتن والأحداث في بلدكم.

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (٢٧)

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لقومه حين سمع بما يقوله من حديث قتله ﴿إِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ صدر كلامه بيان تأكيداً له، وإظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه، وخص اسم الرب المنبئ عن الحفظ والتربية، وإضافته إليه وإلى قومه حثاً لهم على موافقته في العيادة، والتوكل عليه، فإن في تظاهر النفوس تأثيراً قوياً في استجلاب الإجابة، لأن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة، قوي ذلك جداً، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلاة بالجماعة، ولم يسم فرعون لتعميم الاستعاذة من كل طاغية متكبر.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ كان ابن عم لفرعون، آمن بموسى سرّاً وكان من الأقباط ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ من فرعون وملكه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أي أتقصدون قتله ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ أي لأن يقول ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أي وحده، من غير روية وتأمل في أمره ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أضافه إليهم استنزالاً لهم عن رتبة المكابرة، ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ لا يتخطى كذبه أحداً منكم فيحتاج في دفعه إلى قتله ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾^(١) أي ينزل بكم

(١) إنما ذكر البعض تلطفاً بهم، مبالغاً في نصحتهم، وإلا فهو موقن بأن العذاب الذي أوعدهم به موسى سينزل بهم كله، وإنما لم يقل يصيبكم كل العذاب، لئلا يعلموا أنه على دينه، وأنه متعصب لموسى عليه السلام.

بعض ما وعدكم به، إن تعرضتم له بسوء، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف، وعدم التعصب، ولذلك قدّم كونه كاذباً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاج آخر ذو وجهين:

أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذاباً، لما هداه الله إلى البينات.

وثانيهما: إن كان كذلك خذله الله فلا حاجة إلى قتله، وقد عرض به بكلامه على فرعون، بأنه مسرف كذاب، لا يهديه الله سبيل الصواب، ما زاد موسى عليه السلام في دفع فرعون، على الاستعانة بالله، فقيض الله تعالى إنساناً أجنياً، حتى ذبّ عنه تلك الفتنة والشر، ولقد جربت في أحوال نفسي، أنه كلما قصدني شرير بشر، لم أتعرض له، واكتفي بتفويض ذلك الأمر إلى الله تعالى، فإنه سبحانه يقيض أقواماً لا أعرفهم يبالغون في دفع ذلك الشر عني.

﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ٢١﴾

﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ أي غالبين على بني إسرائيل ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر، لا يقاومكم أحد في هذا الوقت ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ أي من أخذه وعذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ بقتل موسى ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعدما سمع نصحه ﴿مَا أُرِيكُمْ﴾ أي ما أشير عليكم ﴿إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ أي ما استصوبه من قتله ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي الصواب، يقول ذلك متظاهراً بالجلد والشجاعة، ولقد كذب حيث كان مستشعراً للخوف الشديد، ولكنه كان يتجلد، ولولاه لما استشار أحداً!!

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ٢٢﴾

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ في تكذيبه والتعرض له بالسوء

﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أي مثل أيام الأمم الماضية، كيف أهلكهم الله بشتى أنواع العذاب، بالفرق، والريح العاتية، والصيحة المدمرة.

﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ﴾ (٣١).

﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر وإيذاء الرسل ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب، وفيه مبالغة حيث نفى إرادة الظلم، ومن كان بعيداً عن مجرد الإرادة، كان عن الظلم أبعد.

﴿وَيَنْقَوْمِرَ إِيَّيْ أَخَافَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (٣٢).

﴿وَيَنْقَوْمِرَ إِيَّيْ أَخَافَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ خوَّفهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي، و ﴿يوم التناد﴾ يوم القيامة، حيث ينادي فيه المجرمون بالويل والشور.

﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٣).

﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ أي منصرفين من الموقف إلى النار، أو فارين عنها ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ يعصمكم من عذابه ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى طريق النجاة.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ﴾ (٣٤).


﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل موسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحة ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ من الدين ﴿حَقًّا إِذَا هَلَكَ﴾ بالموت ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ ضمناً إلى تكذيب رسالته، تكذيب رسالة من بعده، وإنما قالوا ذلك على سبيل التشهي والتمني، من غير حجة ولا برهان، وجعلوه أساساً في تكذيب الأنبياء ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإضلال ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في عصيانه ﴿مُرْتَابٌ﴾ في دينه، شاكٌ فيما تشهد به الآيات.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾


﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي بغير حجة صالحة للتمسك بها، بل بالتقليد الأعمى ﴿أَتَتْهُمْ﴾ أي جاءهم من عند الله ﴿كَبْرُ مَقْتًا﴾ أي عظم بغضاً ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي عند الله وعند المؤمنين، وفيه ضربٌ من التعجب والاستعظام، كأنه يقول: ما أعظمه؟ ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الطبع ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتباب، والمجادلة بالباطل، قالوا: كمال السعادة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة لخلق الله، والتكبر كالمضاد للتعظيم، والتجبر كالمضاد للشفقة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَكُنْ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُغُ الْأَسْبَبَ﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَكُنْ ابْنُ لِي صَرَحًا﴾ أي بناءً شامخاً ﴿لَعَلِّي أَتْلُغُ الْأَسْبَبَ﴾ أي الطرق الموصلة إلى السماوات العلى.

﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ الْإِلَٰهَ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَا أَظُنُّهُ كَذِبًا
وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ
إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ .

﴿أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ﴾ بيان لها، أي طرق السموات وما يؤدي إليها
﴿فَأَطَّلَعَ الْإِلَٰهَ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَا أَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ في ادعائه بوجود إله
﴿وَكَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ فانهمك فيه وكان
لا يروعني بحال ﴿وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي سبيل الرشاد، والفاعل في الحقيقة
هو الله تعالى، والمزِين هو الشيطان بوسوسته، كقوله تعالى: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾^(١) وقرئ بالفتح على أن فرعون
صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التموهيات والشبهات، ويؤيده قوله
تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي في خسارة وهلاك، ونظيره
﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ﴾ أي خسران.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ
الرَّشَادِ﴾ .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ﴾ من آل فرعون، نادى قومه ثلاث مرات،
ناصحاً ومذكراً، وهو إنما تعلم هذا من موسى عليه السلام ﴿يَنْقُومِ
اتَّبِعُونِ﴾ فيما دلتكم عليه ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي سبيلاً يصل
سالكه إلى المقصود، وفيه تعريض بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغي
والضلال، لأنه إنما يدعو قومه إلى الظلم والطغيان.

(١) سورة النمل، آية: ٢٤.

﴿يَقْوِمُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ ﴿٣٩﴾

﴿يَقْوِمُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ﴾ أي تمتع يسير، لسرعة زوالها
﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ لخلودها ودوام ما فيها.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٤٠﴾

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلاً منه سبحانه ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير تقدير وموازنة بالعمل، بل أضعافاً مضاعفة، فضلاً من الله، وجعل العمل عمدة، والإيمان أساساً، للإيدان بأنه لا عبرة بالعمل بدونه، ولهذا جاءت الجملة اسمية ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

﴿وَيَقْوِمُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٤١﴾

﴿وَيَقْوِمُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾؟ كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سَنَةِ الغفلة، واعتناءً بالمنادى له.

﴿تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ فيه معنى التعجب، كأنه يقول: أنا أعجب من حالكم هذه، أدعوكم إلى النجاة والسعادة، وتدعونني إلى النار والجحيم، بسبب الكفر بالله العظيم؟ ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ﴾ أي بشركته

له سبحانه في المعبودية ﴿عَلَّمَ﴾ أي بربوبيته، والمراد نفي المعلوم، والإشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان موجب للعلم بها ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ﴾ أي أدعوكم إلى عبادة الواحد الأحد، الجامع لجميع صفات الألوهية، من كمال القدرة، والإرادة، والتمكن من المجازاة على التعذيب والغفران.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبْكَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (١٣).

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي حقاً ثابتاً، أنه لا شك في بطلان ما أنتم عليه، من دعوة آلهتكم إلى عبادتها، لأنها جمادات، ليس لها ما يقتضي القدرة على شيء، لا تقدر على تفريج كربة ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى بالموت، عطف على ما تدعونني داخل في حكمه، وكذا قوله: ﴿وَأَبْكَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي في الضلال والطغيان، كالإشراك بالله، وسفك الدماء ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي ملازموها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٤).

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ أي سيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب ﴿مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ قاله لما توعدوه بالقتل ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فيحرس من يلوذ به من المكاره.

﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ (١٥).

﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا﴾ أي شدائد مكرهم، وما هموا به من

إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم، قيل نجا مع موسى عليه السلام ﴿وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي نزل بفرعون وقومه، وعدم التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره، ضرورة أنه أولى منهم بذلك العقاب ﴿سَوْءَ الْعَذَابِ﴾ أي نزل بهم أسوأ أنواع العذاب، ثم فسره بقوله:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٤٧)

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ المراد بعرضهم على النار إحراقهم بها، من قولهم: عُرِضَ الأسارى على السيف، إذا قُتِلوا به ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وذكر الوقتين للتأيد، كأنه يقول: عذابهم مستمر ما دامت الدنيا، روى الشيخان عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ، عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١) فَذَلِ هَذَا عَلَى أَنَّ الْعَذَابَ مُسْتَمِرٌّ، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يقال للملائكة: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي يقال لهم: أَدْخِلُوا فِرْعَوْنَ وقومه نار جهنم ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي هي أشد من كل عذاب نالوه قبل ذلك، وهذه الآية دليل على عذاب القبر، لأن عرض النار عليهم كان بعد الموت، وقبل البعث.

﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ (٤٧)

﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ﴾ أي اذكر لقومك وقت تخاصمهم فيها

(١) أخرجه البخاري ١٩٣/٣ في الجنائز، ومسلم رقم ٢٨٦٦ باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، والترمذي رقم ١٠٧٢ باب ما جاء في عذاب القبر.

﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم رؤساؤهم أكابر مجرميها ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي أتباعاً، كخَدم في جمع خادم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ﴾ أي دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾؟ بالدفع أو بالحمل؟.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي نحن وأنتم فيها، فكيف نغني عنكم؟ ولو قدرنا على إزالة العذاب، لرفعناه عن أنفسنا ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي قضى قضاء لا مردَّ له، ولا معقب لحكمه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ من الضعفاء والمستكبرين جميعاً، حين اشتد عليهم العذاب ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي لحراسها، ووضع جهم موضع الضمير للتهويل، ولبيان أنهم في أبعد دركات الجحيم ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ أي ولو مقدار يوم واحد من هذا العذاب، واقتصارهم على هذا، دون رفعه رأساً، أو تخفيف قدر كثير منه، لأن ذلك عندهم شبيه بالمستحيل، ولا يدخل تحت أمانهم.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي الخزنة توبيخاً ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؟ أي أما كانت الرسل تأتيكم في الدنيا بالحجج الواضحة، الدالة على سوء حال ما كنتم عليه؟ أرادوا بذلك إلزامهم، وتوبيخهم على إضاعة أوقات

الدعاء ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي أتونا بها فكذبناهم، كما نطق به قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾^(١) ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإن الدعاء للكاذبين، مما يستحيل منا ﴿وَمَا دَعَوْا إِلَّا كُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي دعاؤكم لا ينفع ولا يُسمع، لأنه دعاء الكافر الفاجر، وما دعاء الكافر إلا في ضياع وبطلان، وهو من تنمة كلام خزنة جهنم.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ﴾

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة، ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق للكفار من صورة الغلبة امتحاناً، إذ العبرة إنما هي بالعواقب، وهذا الكلام مسوق من جهته تعالى، لبيان أن ما أصاب الكفرة من لوازم ما تقتضيه الحكمة، وهي نصره الرسل الكرام وأتباعهم في الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي القيامة، عبّر عنها بذلك، للإشعار بكيفية النصر، وأنها تكون عند جمع الأولين والآخرين، بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ
الدَّارِ﴾

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ﴾ أي يوم لا ينفع المجرمين اعتذارهم لأنه باطل ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي البعد عن الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي جهنم.

(١) سورة الملك، آية: ٩.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْثَقْنَا بِقِيَامِهِ إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ﴾ ما يهتدي به من المعجزات، والصحف،
والشرائع ﴿ وَأَوْثَقْنَا بِقِيَامِهِ إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴾ التوراة التي أنزلها الله على
موسى .

﴿ هُدًى وَذِكْرَى لِلأُولَى الْأَلْبَبِ ﴾ .

﴿ هُدًى وَذِكْرَى ﴾ أي هداية وتذكرة، أو هادياً ومذكراً ﴿ لِلأُولَى
الْأَلْبَبِ ﴾ لذوي العقول السليمة .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ .

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذى المشركين ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ الذي
ينطق به قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ
الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١) أو وعده الخاص بك، أو جميع
مواعده تعالى ﴿ حَقٌّ ﴾ لا يحتمل الإخلاف أصلاً، واعتبر بحال موسى
وفرعون ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ أي تدارك لما فرط منك من ترك الأولى،
فإنه تعالى كافيك في نصره دينك، وإظهاره على الدين كله ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ أي دم على التسبيح، ملتبساً بحمده .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي
صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

(١) سورة الصافات، آية: ١٧١ - ١٧٣ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ ﴾ في ذلك من جهته تعالى، وتقييد المجادلة بذلك، للتنبيه على أن التكلم في أمر الدين، لا بد من استناده إلى سلطان مبین، وهذا عام لكل مجادل مبطل، وإن نزل في مشركي مكة ﴿ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ أي ما في قلوبهم إلا تكبر عن الحق، وتعظم عن التفكير والتدبر، يمنعهم من اتباعك، حسداً وبغضاً ﴿ مَا هُمْ بِبَالِغِيٍّ ﴾ صفة لكبر، أي ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر، ولا بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أي فالتجئ إليه تعالى، من كيد من يحسدك، وفيه رمز إلى أنه من همزات الشياطين ﴿ إِنَّهُمْ هُمُ السَّكِيمُ ﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ تحقيق للحق، وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه، من أمر البعث، على مناج قوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ (١)؟ وهم يعتقدون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض، ولا يؤمنون بالبعث، ولما وصف الله جدالهم، ذكر لهذا مثلاً فقال: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ والقادر على الأكبر، قادر على الأصغر، لامحالة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن خلق الأصغر، أسهل من خلق الأكبر، لقصورهم في النظر والتأمل، لفرط غفلتهم، واتباعهم لأهوائهم.

(١) سورة يس، آية: ٨١.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي الغافل والمتبصر، والعالم والجاهل، والمؤمن والكافر ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أي ولا يستوي البرُّ والفاجر، ولا المحسن والمسيء ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكر أ قليلاً بمعنى: ما أقل من يتذكر منكم؟!.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي في مجيئها، لوضوح شواهداها، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أي الكفار الذين ينكرون البعث ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقصور أنظارهم، وقصرها على ظواهر ما يحسُّون بها.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾ أي اعبدوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي أثبكم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين ذليلين، وإن فسر الدعاء بالسؤال، كان الأمر الصارف عنه، منزلاً منزلة الاستكبار عن العبادة، أو المراد بالعبادة الدعاء فإنه أفضل أبوابها، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر:

«الدعاء هو العبادة، وقرأ ﴿وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ..﴾ الآية» (١).

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ بأن خلقه بارداً مظلماً، ليؤدي إلى ضعف الحركات، وهدوء الحواس، لتستريحوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي مضيئاً لتبصروا فيه مصالحكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي فضل عظيم، لا يدانيه ولا يوازيه فضل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لجهلهم بالمنعم، واعتقادهم أن هذه النعمة ليست من الله، ثم إن النعمة إذا دامت واستمرت نسي الإنسان كونها نعمة، فإذا ابتلي بفقدان شيء منها، عرّف قدرها، مثل أن يتفق لبعض الناس - والعياد بالله - أن يحبس بعض الظلمة، في بئر عميقة مظلمة، مدة مديدة، فحينئذ يعرف ذلك الإنسان، قدر نعمة الهواء الصافي، والضوء، ورأيت بعضهم يُعذَّب بمنعه عن الاستناد والنوم.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنٍ تُوَفَّكُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي هو سبحانه المتفرد بالخلق ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو، وهذه أخبار مترادفة، أي هو الجامع بين الربوبية، والألوهية، والوحدانية، والخالقية لكل شيء ﴿فَآَنٍ تُوَفَّكُونَ﴾ أي فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟.

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ١٤٧٩ في الصلاة، والترمذي رقم ٣٢٤٤ في التفسير، وقال: حديث حسن صحيح.

﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي مثل ذلك الإفك والصرف العجيب، يُصرف عن الإيمان كل من جحد بآياته تعالى، أي آية كانت، ويُصرف عن الهدى والحق، إلى العمى والضلال!!.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً
وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ
رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ أي جعل الأرض ممهدة صالحة لسكنائكم، تبنون عليها الدور والقصور، وجعل السماء كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم، فضلاً منه وكرماً ﴿ وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴾ أي صوَّركم أحسن تصوير، حيث خلقكم منتصبين القائمة، ولم يخلقكم منكوسين كالبهائم، وجعل صوركم أحسن الصور ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي اللذائذ ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي ذلكم الفاعل لما ذكر ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي بالكمهم ومربيهم، والكلُّ تحت ملكوته، مفتقر إليه في ذاته، وسائر أحواله، بحيث لو انقطع فيضه عنه ثانية، لانعدم بالكلية.

﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴾ المنفرد بالحياة الذاتية الحقيقية ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، إذ لا وجود يدانيه، في ذاته، وصفاته، وأفعاله ﴿ فَادْعُوهُ ﴾ فاعبدوه خاصة ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي مخلصين الطاعة والعبادة، من الشرك الجلي، والخفي ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي قائلين: الحمد لله رب العالمين، حمداً له على نعمة الخلق والإبداع.

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي
الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٦٦﴾ .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي قل يا محمد:
إن ربي العظيم الجليل نهاني أن أعبد هذه الآلهة المزعومة، التي تعبدونها
من الأوثان والأصنام، وذلك حين طلب الكفار منه ﷺ عبادة الأوثان قيل
هذا ﴿ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾ من الحجج والآيات الكونية، والتنزيلية
﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بأن أخلص له ديني.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً
طِفْلاً ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَتَّكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ
قَبْلُ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَ مُسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي
هو جل وعلا الذي أوجدكم أيها الناس من العدم، فخلق أصلكم آدم من
تراب، ثم خلق ذريته من النطفة من الماء المهيّن، وجعل الإنسان يمرّ في
أدوار وأطوار، من النطفة، إلى العلقة، إلى المضغة، إلى اكتمال نمو
الطفل، ثم يخرج من بطن أمه طفلاً صغيراً ضعيفاً، ﴿ ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ
ثُمَّ لِيَتَّكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل الشيخوخة
﴿ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَ مُسَمًّى ﴾ وهو وقت الموت ﴿ وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي لكي
تعقلوا ما في ذلك من الحكم والعبر.

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ﴿٦٨﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي يحيي الأموات، ويميت الأحياء، ويفعل
الإحياء والإماتة ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فلا يحتاج في تكوينه

إلى مُدَّة، وتجشم كلفة، وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى في المقدورات عند تعلق إرادته بها.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَاجِدُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصَرَّفُونَ ﴾ (٦٩).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَاجِدُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصَرَّفُونَ ﴾؟ تعجب من أحوالهم، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن، وبسائر الكتب، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين، المجادلين في آيات الله تعالى الواضحة، الموجبة للإيمان، كيف يصرفون عن التصديق بها، مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها؟.

﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٠).

﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ ﴾ أي بالقرآن والكتب السماوية، فإن تكذيبه تكذيب للكل، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق، كما أن صيغة المضارع في الأولى، للدلالة على تجدد المجادلة ﴿ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ من الوحي والشرائع ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة ما فعلوا من الجدل والتكذيب عند عقوبتهما.

﴿ إِذِ الْأَغْطَلُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (٧١).

﴿ إِذِ الْأَغْطَلُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ أي يسحبون بها.

﴿ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ (٧٢).

﴿ فِي الْحَمِيمِ ﴾ أي يُجْرُونَ في الماء الحار ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ أي يحرقون، والمراد بيان أنهم يُعَذَّبُونَ بأنواع العذاب.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَتَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَتَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ أي أين الأوثان التي عبدتموها من دون الله تعالى؟ .

﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أي غابوا عنا، بل تبين لنا أنا لم نكن نعبد شيئاً، جحدوا عبادتهم لحيرتهم واضطرابهم ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الضلال ﴿ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم في الآخرة .

﴿ ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي الإضلال ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي بسبب أنكم كنتم تبصرون وتكبرون ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بالشرك والظلمان ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي تتوسعون في البطر والأشر، وتكبرون عن عبادة الله .

﴿ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْتَسْ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

﴿ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أي أبوابها السبعة، قال الله تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ ^(١) ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ مقدراً خلودكم فيها ﴿ فِئْتَسْ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي عن الحق، والتعبير بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود الدائم، فهي المأوى والمسكن لهم .

(١) سورة الحجر، آية: ٤٤ .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٧).

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أي فاصبر يا محمد على إيدائهم، وعلى ضروب ما ترى منهم من بلاء، فعما قريب ستري ما يحلُّ بهم ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بتعذيبهم ﴿ حَقٌّ ﴾ كائن لا محالة ﴿ فَكَيْمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ وهو القتل والأسر ﴿ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴾ يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم، ولن يُفْلِتُوا من عقابنا.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِشَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٧٨).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ فإنَّ عدد الأنبياء كبير مائة وأربعة وعشرون ألفاً كما ورد في الحديث الشريف، والمذكور أفراد معدودة، أي منهم من أخبرناك عن قصصهم وأخبارهم مع أممهم، ومنهم من لم نخبرك عن قصصهم وأحوالهم ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ أي ما صحَّ لرسول من الرسل ﴿ أَنْ يَأْتِيَ بِشَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي أن يأتي قومه بشيء من المعجزات، إلاَّ بأمر الله تعالى وإذنه، فإن المعجزة على شعب فنونها عطايا من الله تعالى، قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته، المبنية على الحكم البالغة، وهذا ردُّ على كفار قريش، حيث قالوا للنبي ﷺ: إن كنت رسولاً فاجعل لنا جبل الصفا ذهباً، وأجر لنا الأنهار في فجاج مكة!! ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿ فُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ بإنجاء المحق وإثابته، وإهلاك المبطل وتعذيبه ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي المتمسكون بالباطل، فيدخل فيه المعاندون، المقترحون للمعجزات على سبيل التعتُّت.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿٧٩﴾ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ ﴾ قيل هي للإبل خاصة، أي خلقها لأجلكم ومصلحتكم، وقيل: هي الأزواج الثمانية «الإبل، والبقر، والغنم، والماعز» وهو الأصح ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ كالإبل ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كالغنم والبقر.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ ﴿٨٠﴾ .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أخر كالأبناها، وأوبارها، وجلودها ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بحمل أثقالكم من بلد إلى بلد ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي وعلى هذه الإبل في البر، وعلى السفن في البحر، تحملون أنتم وذرياتكم، وإنما قرن سبحانه بين الإبل والسفن، لما بينهما من المناسبة المتينة، حتى سميت الإبل «سفن البر».

﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ ﴿٨١﴾ .

﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ دلالة الدالة على كمال قدرته، ووفور رحمته ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي أي آية من تلك الآيات الباهرة ﴿تُنْكِرُونَ﴾؟ فإن كلاً منها من الظهور، بحيث لا يكاد يجترئ على إنكارها من له عقل.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَعَارَافًا فِي الْأَرْضِ فَمَا عَصَوْا عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾ .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا

أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴿٥٧﴾ أَي كَانُوا أَكْثَرَ عِدَدًا مِنْ كِفَارِ مَكَّةَ، وَأَقْوَى مِنْهُمْ قُوَّةً ﴿٥٨﴾ فَمَا أَخَفَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٩﴾ أَي أَيِّ شَيْءٍ أَغْنَى عَنْهُمْ مَكْسُوبُهُمْ؟ لَمْ تَعْصِمَهُمْ قُوَّةٌ، وَلَا كَثْرَةُ، وَلَا عِمْرَانٌ، يَعْنِي لَوْ سَارُوا لَعَرَفُوا، أَنَّ عَاقِبَةَ الْمُتَكَبِّرِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ، لَيْسَتْ إِلَّا الْهَلَاكُ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرَ عِدَدًا وَعُدَدًا.

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٥٧).

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بِالْمَعْجَزَاتِ الْوَاضِحَاتِ ﴿٥٧﴾ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴿٥٨﴾ أَي الْعِلْمَ بِأُمُورِ الدُّنْيَا الْخَالِي عَنْ نُورِ الْهَدَايَةِ وَالْوَحْيِ وَهُوَ مَا لَهُمْ مِنَ الْعَقَائِدِ الزَّائِغَةِ، وَتَسْمِيَّتِهَا عِلْمًا لِلتَّهْكُمِ بِهِمْ، وَالْمَرَادُ بِفَرَحِهِمْ ضَحْكُهُمْ وَاسْتَهْزَاؤُهُمْ بِهِمْ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿٥٩﴾ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٠﴾ أَي نَزَلَ وَأَحَاطَ بِهِمْ جَزَاءُ كُفْرِهِمْ وَاسْتَهْزَائِهِمْ بِالرُّسُلِ وَالْآيَاتِ.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّمْهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ (٥٨).

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّمْهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أَي فَلَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ آمَنُوا، وَخَضَعُوا، وَاسْتَسْلَمُوا، وَقَالُوا آمَنَّا بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ، يَعْنُونَ بِذَلِكَ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ، الَّتِي عَبْدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٥٩).

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا ﴾ لا امتناع قبوله حينئذ، لأن النافع هو الإيمان الاختياري، لا الاضطراري ﴿ سَلَّمَ اللَّهُ إِلَيْكَ قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادَتِهِ ﴾ أي سن الله تعالى ذلك، سنة ماضية في العباد ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس والعذاب. يا من تقاصرت عن الإحاطة بجليل أسرار كبرياته أفهام المتفكرين، لا تجعلنا بفضلك ورحمتك في زمرة الخاسرين، ولا تجعلنا يوم القيامة من المخذولين والمحرومين، فإنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وصلوات الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة غافر»

سُورَةُ فَصَّلَاتٍ

مكية وهي أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ﴾ المراد به المنزّل، والتعبير عن المفعول بالمصدر، مجاز مشهور، يقال: هذا الدرهم ضربُ السلطان أي مضروبه، أي هذا القرآن العظيم منزل ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته الأكوان، وعمّ فضله جميع الخلق من إنس وجان، ونسبة التنزيل إلى «الرحمن الرحيم» للإيدان بأنه محقق للمصالح الدينية، والدنيوية، وواقع بمقتضى الرحمة الربانية، حسبما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعني أنه كتاب منزل من ربّ العزّة والجلال، يمقتضى رحمته للعباد.

﴿كِتَابٌ فَصَّلْتَ أَيْتُهُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

﴿كِتَابٌ فَصَّلْتَ أَيْتُهُمْ﴾ أي ميزت بحسب النظم والمعنى، في أساليب مختلفة، ومعان متغايرة، من أحكام، وقصص، ومواعظ، وأمثال، ووعد، ووعيد، وبالجملة فمن أنصف، علم أنه ليس في بدء الخلق، كتاب اجتمع

فيه من العلوم المختلفة، مثل ما في القرآن الكريم ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزلناه بلسان العرب قرآنًا عربيًّا، واضحاً جليًّا، معجزاً في فصاحته وبيانه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي معانيه لكونه على لسانهم، وقيل: لأهل العلم لأنهم هم المتفعلون به.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿بَشِيرًا﴾ لأهل الطاعة ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأهل المعصية ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبره مع كونه على لغتهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفكر وتأمل، حتى يفهموا جلالة قدره، فيؤمنوا به.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْءَاذَانَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونُ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ لرسول الله ﷺ عند دعوته إياهم إلى الإيمان، والقرآن ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي أغطية متكاثفة ﴿مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْءَاذَانَا وَقْرٌ﴾ أي صمم، وأصله الثقل ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ غليظ يمنعنا عن التواصل، وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ﴿فَأَعْمَلْ﴾ أي على دينك، وفي إبطال أمرنا ﴿إِنَّا عَمِلُونُ﴾ أي مستمرون على ديننا، وقيل: في إبطال أمرك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ﴾ تلقينٌ للجواب عنه ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾ أي لست من جنس مغاير لكم، حتى يكون بيني وبينكم حجاب وتباين، بل إنما أنا

بشر مثلكم مأمور بما أمرتم به ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ حيث أخبرنا جميعاً بالتوحيد، جامع بيني وبينكم، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ تعالى بالتوحيد، والإخلاص في العمل ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا﴾ مما كنتم عليه من سوء العقيدة، وسوء العمل ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ترهيب وتنفير لهم عن الشرك، إثر ترغيبهم في التوحيد، والاستقامة في العمل.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي هلاك ودمار للمشركين، وصَفهم بذلك لزيادة التحذير عن منع الزكاة، حيث جعل من أوصاف المشركين أنهم لا يؤتون الزكاة، وقيل معناه: لا يفعلون ما يَزَكِّي أنفسهم، وهو الإيمان، والطاعة.

وسعادة الإنسان مربوطة بأمرين: ١ - التعظيم لأمر الله. ٢ - والشفقة على خلق الله.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي وهم منكرون للآخرة، جاحدون للقاء الله، لا يؤمنون بالبعث والنشور. أثبت تعالى الويل، لمن كان موصوفاً بصفات ثلاثة.

١ - أن يكون مشركاً وهو ضد التوحيد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

٢ - كونه ممتنعاً من الزكاة، وهو ضد الشفقة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

٣ - كونه منكراً للقيامة وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وإذا كان الإنسان في هذه المراتب الثلاثة؛ كان في نهاية الجهل والضلالة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لا يمنُّ به عليهم، لأنه تعالى لَمَّا سَمَّاهُ أَجْرًا، فَإِنَّ الْأَجْرَ لَا يُوجِبُ الْمَنَّةَ، وقيل: ﴿غير ممنون﴾ أي دائم غير مقطوع، ومن إكرام الله للمؤمن، أنه إذا مرض، أو عجز عن الطاعة، كتب له أجره كاملاً، لما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان العبد يعمل عملاً صالحاً، فشغله عنه مرض، أو سفر، كتب الله تعالى له كصالح ما كان يعمل، وهو صحيح مقيم»^(١).

﴿قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إنكار وتشنيع لكفرهم، و «إن»، و «اللام» لتأكيد الإنكار، وإنما علق كفرهم بالموصول حيث قيل: ﴿بالذي خلق الأرض﴾ لتعظيم شأنه تعالى، واستعظام كفرهم، والتعجيب منه، فكانه يقول من قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة، كيف يُعقل الكفر به، وإنكار قدرته على الحشر، وبعثة الأنبياء؟ وكيف يُعقل جعل هذه الأصنام الخسيسة ندّاً له؟ وقوله تعالى: ﴿في يومين﴾ أي حكم وقدر بأنها ستوجد في مقدار يومين ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي وتجعلون له أنداداً، والحال أنه لا يمكن أن يكون له ندٌّ واحد ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك العظيم الشأن، الذي فعل ما ذكر ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي خالق جميع الموجودات.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْلٌ أَوْ يَوْمٌ﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٩٥/٦ وأبو داود في الجنائز رقم ٣٠٩١.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِّن فَوْقِهَا﴾ أي كائنة من فوقها، وهي الجبال، مرتفعة عليها، ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أُنْقَال، وكلها مفتقرة إلى خالق، وحافظ، وما ذاك إلا الله رب العالمين ﴿وَبَرَكْنَا فِيهَا﴾ أي قَدَّرَ أن يكثر خيرها، بأن يخلق أنواع الحيوانات، وأصناف النباتات ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي حكم بالفعل بأن يوجد لأهلها، من الأنواع المختلفة، أقواتها المناسبة لها، على مقدارٍ معيَّن، تقتضيه الحكمة ﴿فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي قَدَّرَ حصول الأمور المذكورة في الأرض في يومين، فصار مع اليومين الأولين في أربعة أيام ﴿سَوَاءً﴾ أي تلك الأيام الأربعة، أيام كاملة مستوية، لا زيادة فيها ولا نقصان ﴿لِلسَّالِبِينَ﴾ أي لأجل من سأل، في كم خلقت الأرض وما فيها؟.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (١١).

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ شروع في كيفية التكوين، إثر بيان كيفية التقدير، ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها، لاعتنائه تعالى بأمر المخاطبين، وترتيب معاشهم، قبل خلقهم، مما يحملهم على الإيمان، ويزجرهم عن الكفر، ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي دخان مرتفع من الماء وهو بخار الماء المتصاعد من الأرض حين خلقت، كما ذكره الحافظ ابن كثير ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ التي قدر وجودها، ووجود ما فيها ﴿اِئْتِيَا﴾ أي كونا على وجه معيَّن، وفي وقت مقدر، أو استجيبا لأمر طائعتين أو كارهتين، ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما، واستحالة امتناعهما من ذلك أي طائعتين أو كارهتين، وقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي منقادين، تمثيل لكمال تأثرهما بالذات وحصولهما كما أمرتا به^(١).

(١) لنقف وقفة قصيرة عند هذا التعبير المعجز، فإنَّ فيه سرّاً عجبياً، يفوق الخيال في =

﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ
الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ تفصيل لتكوين السماء المجل، أي خلقهن خلقاً محكماً، وأتقن أمرهن، حسبما تقتضيه الحكمة ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي في وقتٍ مقدَّر بيومين، فكان خلق الكل في ستة أيام، حسبما نصَّ عليه في مواضع من التنزيل ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي خلق في كل منها من الملائكة والنباتات، وغير ذلك، مما لا يعلمه إلا الله تعالى، وأوحى إلى كل منها ما يليق بها من التكليف ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ من الكواكب، فإنها ترى مثلثة عليها، كأنها فيها، والالتفات إلى نون العظمة للاعتناء بالأمر ﴿وَحِفْظًا﴾ أي وحفظناها من الآفات، أو من المسترقة للسمع حفظاً ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذُكر ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ المبالغ في القدرة والعلم، وما أحسن هذه الخاتمة، لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة تامة، وعلم محيط.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٧﴾﴾

= روعة الجمال، فالآية الكريمة، تشير إلى انقياد هذا الكون إلى خالقه ومبدعه، انقياد العبد لسيده، والجندى لقائده، وقد عبّر عن هذه الطاعة والاستسلام، بتمثيل رائع بديع، يجعل من الجماد وكأنه إنسان عاقل، يؤمر فيلبي الأمر، ويكلف بشيء فيسمع ويطيع، على حدِّ قول العرب: «قال الحائط للمسمار لِمَ تَشَقِّنِي؟ قال: سلَّ من يدقني» والغرض من الآية هنا، تصوير نفوذ قدرته سبحانه في المخلوقات، بصورة العبد المطيع، الذي لا يقوى على مخالفة أمر سيده، فكلُّ ما في الكون من شمس، وقمر، ونجوم، وجبال، وبحار، وأنهار. إلى آخره مستسلمٌ لأمر الله، متقادٌ لحكمه وتديره، ويمكن أن يخلق الله في السموات والأرض القدرة على الكلام والجواب، إن حملنا اللفظ على الحقيقة لا على المجاز، لأن الله على كل شيء قدير، فكما أنطق الإنسان ينطق الجماد والحيوان!

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي عذاباً هائلاً، شديد الوقع، كأنه صاعقة، مثل صاعقة عاد وثمود.

﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ﴾ أي حين جاءتهم الرسل يدعونهم إلى الإيمان، ويخوفونهم من الكفر والإشراك ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي من جميع جوانبهم، واجتهدوا بهم من كل جهة، من جهات الإرشاد والنصيحة، تارة بالرفق، وتارة بالعنف، وتارة بالتشويق، وأخرى بالترهيب، والتحذير عما سيحيق بهم، من عذاب الدنيا والآخرة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ أي إرسال الرسل ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لأرسلهم، بذلك، فآمنا بهم، وأنتم بشر مثلنا، فكيف نصدق أن الله أرسلكم؟ ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ على زعمكم، وفيه ضرب تهكم بهم ﴿كَافِرُونَ﴾ لا نؤمن بكم ولا بما جئتم به.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ شروع في حكاية ما يخص كل واحدة من الطائفتين، من الجناية والعذاب، أي فأما قبيلة عاد الطغاة الفجرة ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي فتعظموا فيها على أهلها، بغير استحقاق للتعظيم والولاية ﴿وَقَالُوا﴾ معترزين بشدتهم وقوتهم، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام، وشدة القوة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي أغفلوا، ولم ينظروا، ولم

يَعْلَمُوا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي قدرة، فإنه تعالى قادر بالذات قوي على ما لا يقدر عليه غيره، ومفيض القوى على الغير ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي أنكروها وهم يعرفون حقيقتها، كما ينكر الإنسان الوديعة، فجمعوا بين الاستكبار وبين الإنكار، فكانوا فسقة كفرة^(١).

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَبْلُوهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾^(١٦).

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي باردة تهلك، من الصِرِّ وهو البرد، أي تهلك من شدة بردها، أو شديدة الصوت، تصوّت في هبوبها، من من الصرير، قيل: إنها الدبور ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ مشؤومات غير مباركات، جمع

(١) روي أن أبا جهل قال ذات يوم في ملأ من قريش: لقد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر، فأتانا بخبره، فقال «عتبة بن ربيعة»: والله ما يخفى عليّ شيء من هذه، فأرسلوني إليه فأتاكم بحقيقة أمره، فأرسلوه فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد: أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ فبم تشتم آلهمنا وتضلّلنا؟ فإن كنت بما جئت به تريد الرئاسة، عقدنا لك اللواء فكنت رئيساً، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد النساء زوجناك عشر نسوة من أجمل بنات قريش - ورسول الله ﷺ ساكت - فلما فرغ عتبة قال له عليه السلام: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع - بسم الله الرحمن الرحيم - ﴿حَمَّ﴾ تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته... ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فَأَمْسَكَ عْتَبَةَ عَلَى فَمِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنْشَدَهُ الرَّحْمَنُ أَنْ يَكْفَ عَمَّا يَقُولُ، فَقَدْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْهَلَكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى قَوْمِهِ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ خَبْرَهُ، فَلَمَّا احْتَبَسَ عَنْهُمْ قَالُوا: مَا نَرَى عْتَبَةَ إِلَّا قَدْ صَبَأَ - أَي دَخَلَ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ - فَجَاؤُوا إِلَى مَنْزِلِهِ وَقَالُوا: يَا عْتَبَةُ مَا حَبَسَكَ عَنَّا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ كَلِمَتُهُ فَسَمِعْتُ مِنْهُ كَلَاماً مَا هُوَ بِشَعْرٍ، وَلَا سِحْرٍ، وَلَا كِهَانَةٍ، فَنَاشَدْتُهُ الرَّحْمَنَ أَنْ يَكْفَ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا إِذَا قَالَ شَيْئاً لَمْ يَكْذِبْ، فَخَفْتُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكُمْ الْعَذَابُ!!

نحسة من نَحِسٍ نَحْسًا، نَقِضُ سَعْدًا سَعْدًا قِيلَ: كن آخر شوال من يوم الأربعاء ﴿لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الذي هو الذل والاستكانة، لأنهم استكبروا، فقابلهم الله تعالى بالخزي والهوان، والذل والصغار ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ وهو في الحقيقة وصف للمعذب، وقد وصف به العذاب للمبالغة ﴿وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧).

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ﴾ فدللناهم على الحق، بنصب الآيات التكوينية، وإرسال الرسل ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ أي اختاروا الضلالة على الهدى ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ الهون: الهوان، وصف به العذاب مبالغة ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ باختيارهم الضلالة على الهدى.

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ (١٨).

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ وهم صالح عليه السلام ومن آمن من قومه، من تلك الصاعقة.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩).

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ التعبير عنهم بأعداء الله، لزمهم والإيذان بعله ما يحق بهم، من ألوان العذاب، والمراد من النار موقف الحساب، إذ هناك تتحقق الشهادة الآتية، والتعبير عنه بالنار، للإيذان بأنها عاقبة حشرهم، وأنهم على شرف دخولها ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا، ثم يساقون إلى جهنم.

﴿ حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهَا ﴾ إذا حضروها، وشاهدوا أهوالها وسعيرها ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الكفر والعصيان، بأن ينطقها الله تعالى، وعن ابن عباس المراد بشهادة الجلود: شهادة الفروج، وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها في قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ ﴾ فإنَّ ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحاً، وأجلب للخزي مما يشهد به السمع والبصر.

﴿ وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

﴿ وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي أنطق كل ناطق، وأقدرنا على بيان الواقع، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فإن من خلقكم أولاً وأعادكم ثانياً، لا يتعجب من إنطافئه لجوارحكم، وينبغي أن يعلم المؤمن، أن عليه من جوارحه رقيباً، يشهد عليه يوم القيامة.

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ ﴾ أي يقال لهم على طريق التوبيخ والتفريع: ما كنتم تستخفون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش، مخافة ﴿ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ بذلك، كما كنتم تستخفون من الناس مخافة الافتضاح عندهم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأساً ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ

اللَّهُ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ من القبائح المخفية، فلا يظهرها في الآخرة،
ولذا اجترأتم على ما فعلتم.

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ﴾ أي أهلكم وأذلكم
﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ بسبب ذلك الظن السوء ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي من الذين خسروا
سعادتهم وأهلهم، وذلك تمام الخسران والشقاء.

﴿فَإِنْ يَصِيرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ
الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَإِنْ يَصِيرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي محل سكن وإقامة، ومنزل دائم
لهم في جهنم ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي يسألوا العتبي وهو الرجوع إلى ما
يحبونه من إرضاء الله عز وجل ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي المجابين إليها
المرضي عنهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُغْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا
مِنْ مَحِيصٍ﴾^(١) يعني أنهم إذا أرادوا أن يرضوا ربهم، فما هم من
المجابين إلى ذلك فقد مضت الدنيا دار التكليف والابتلاء، وقبول
الاعتذار.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ
عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّهِمْ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا
خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

(١) سورة إبراهيم، آية: ٢١.

﴿وَقَيَّضْنَا﴾ أي هيأنا ويسرنا ﴿لَهُمْ﴾ للكفرة في الدنيا ﴿قُرْنَاءَ﴾ جمع قرين أي أخذاناً من الشياطين، يستولون عليهم استيلاء المالك لعبده ﴿فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ أَعْيُنُهُمْ﴾ من أمور الدنيا، واتباع الشهوات ﴿وَمَا خَلَقَهُمْ﴾ من أمور الآخرة، حيث أخبروهم أن لا بعث ولا حساب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(١) ﴿وَحَقٌّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب، وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿فِي أَمْرٍ﴾ أي كائنين في جملة أمم، من الأشقياء المجرمين ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْخَلْقِ وَالْإِنْسِ﴾ على الكفر والعصيان، كذاب هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير للفريقين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم، أو قال بعضهم لبعض ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ لأنهم علموا أن القرآن كلام بليغ مؤثر، وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه، وأحاط فهمه بمعانيه، وقضى عقله بأنه كلام حق، فدبروا مكيدة لمنع الناس عن استماعه ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي ارفعوا أصواتكم عند قراءته لتشوشوا على القارئ ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي تغلبونه على دينه، قال ابن عباس: «قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول».

﴿فَلَنُذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي فوالله لنذيقن هؤلاء الكفار المستهزئين بالقرآن ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ لا يقادر قدره ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم، وعن ابن عباس: عذاباً شديداً في الدنيا، وأشوأ العذاب في الآخرة.

﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ ﴾.

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر، أسوأ الجزاء ﴿ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ ﴾ أي جزاء معذ أعدائه ﴿ النَّارُ ﴾ هو نار جهنم، وهو عطف بيان للجزاء ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ أي لهم في النار، دار مخصوصة هم فيها خالدون ﴿ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ ﴾ أي بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا، ويلغون فيها.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهم متقبلون فيما ذكر من العذاب ﴿ رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ يعنون فريقي الشياطين، الحاملين لهم على الكفر والمعاصي من الإنس والجن، والشياطين على ضربين: جنّي، وإنسي، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ (١) ﴿ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ أي ندوسهما بالأقدام انتقاماً منهما وتشفياً ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أي ذلاً ومهانة، جزاء إضلالهم إيانا.

(١) سورة الأنعام، آية: ١١٢.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي قالوه اعترافاً بربوبيته، وإقراراً بوحدانيته ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أي ثبتوا على الإقرار ومقتضياته، واستقاموا على توحيد الله وطاعته. واعلم أن الكمالات النفسانية محصورة في نوعين: العلم اليقيني، والعمل الصالح، ورأس المعارف اليقينية ورئيسها: معرفة الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ ورأس الأعمال الصالحة أن يكون الإنسان مستقيماً، غير مائل نحو الإفراط والتفريط، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾. وكان الحسن البصري رحمه الله إذا تلا هذه الآية، قال: «اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة» ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ من جهته تعالى بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام، كما أن الكفرة يغويهم ما قيص لهم من قراء السوء، بترزين القبائح، وقيل: تنزل عند الموت بالبشرى، وإذا قاموا من قبورهم والأظهر العموم ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي إن الله تعالى كتب لكم الأمن من كل غم، فلن تذوقوه أبداً ﴿وَأَبْشِرُوا﴾ أي سورا ﴿بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على السنة الرسل، وهذا من بشاراتهم عند الموت، والقبر، والبعث، وللملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية، بالإلهامات والمكاشفات، كما أن للشياطين تأثيرات بإلقاء الوسوس، وولاية الملائكة باقية تصير بعد الموت أقوى وأبقى، لأن جوهر النفس من جنس الملائكة، وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس.

﴿نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أعوانكم في أموركم، نلهمكم الحق، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم في الدنيا، ولعل ذلك عبارة عما

يخطر ببال المؤمنين، المستمرين على الطاعة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ نمدكم بالشفاعة، ونتلقاكم بالكرامة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهُجْ أَنْفُسُكُمْ﴾ من فنون الطيبات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ما تتمنون من أنواع اللذائد والشهوات، وما تطلبه نفوسكم من كل ما يخطر ببالكم.

﴿تُزَلَّ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾.

﴿تُزَلَّ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أي ضيافة وكرامة من رب العزة والجلال، وما يعطونه مما لا يخطر ببالهم، كالنزل للضيف، فما ظنك بما بعده من الألفاظ؟.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى توحيده وطاعته، بقوله وفعله ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ابتهاجاً بأنه منهم، واتخاذ الإسلام ديناً له.

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة، في الآثار، والأحكام، والعاقبة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، كالإحسان إلى من أساء، فإنه أحسن من العفو ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي إذا فعلت ذلك، هنا صار عدوك المشاق، مثل الولي الشفيق، قيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان عدواً فصار ولياً بالمصاهرة، واللفظ يقتضي العموم.

﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ﴿٣٥﴾

﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا ﴾ أي هذه الخصلة، التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان
﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي على تحمل المكاره، وتجرع الشدائد، وكظم الغيظ،
ونحو ذلك ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الخير، وكمال النفس.

﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ ۖ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٣٦﴾

﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ ﴾ أي وإن صرفك الشيطان عما وُصِّيت
به، من الدفع بالتي هي أحسن ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ من شره ولا تطعه ﴿ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ ﴾ باستعاذتك ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بِنبيك وأفعالك.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على شؤونه العظيمة ﴿ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ ﴾ كل منها مخلوق من مخلوقاته، مسخر لأمره ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ لأنهما من مخلوقاته مثلكم، وإنما قال ذلك، لأن أناساً
يسجدون لهما ويعبدونهما من دون الله، وهم عبَاد الشمس ﴿ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ
الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ الضمير للأربعة، أي واسجدوا للخالق الذي خلق هذه
الأمياء وأبدعها ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فإن السجود أقصى مراتب
العبادات، فلا بد من تخصيصه به سبحانه.

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ
لَا يَسْتَمِعُونَ ﴾ ﴿٣٨﴾

﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ عن الامتثال بالأمر ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لََّهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي دائماً ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ﴾ أي لا يفترون ولا يملون.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ
إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي يابسة، مستعار من الخشوع وهو التذلل ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ أي المطر ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي تحركت بالنبات، وقيل: تزخرفت ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بما ذكر بعد موتها ﴿لَمُحْيٍ الْمَوْتِ﴾ بالبعث ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جعلتها الإحياء ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة، لا يُعجزه شيء من الأرض ولا في السماء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون عن الاستقامة، فالملحد هو المنحرف، وفي العرف اختص بالمنحرف عن الحق إلى الباطل، والمنحرف عن الدين ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ بالطمع فيها، والتحريف، والتأويل الباطل ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أي لا يغيب أمرهم عنا، وهو تهديد فيجازيهم بالحادهم ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ﴾ الاستفهام بمعنى التقرير ﴿أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ من الأعمال المؤدية إلى الإلقاء في النار، وفيه تهديد شديد ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكِثَبٌ عَزِيزٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي كذبوا بالقرآن لأول وهلة، دون

أن يفكروا في آياته وإعجازه، وخبر «إن» محذوف للتهويل، كأنه قال: سيجازون جزاء لا يكاد يوصف لشدة وهوله ﴿وَأَنْتُمْ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ﴾ أي كثير المنافع، عديم النظير، منيع لا تتأتى معارضته.

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤١)

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات، وقيل: معنى (الباطل) الزيادة أو النقصان ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي هو منزل من إله حكيم في تشريعه، حميد أي محمود من عباده وخلقه، مستحق للحمد والثناء.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤٢)

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ تسليية للرسول ﷺ عما يصيبه من أذية الكفار، أي ما يقال في شأنك وشأن ما أنزل إليك، إلا مثل ما قد قيل في حق الرسل من قبلك، مما لا خير فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ﴾ لأنبيائه وأوليائه المؤمنين ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم، ففوض أمرك إليه، فإنه ينتقم لك منهم.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٤٣)

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم، لكان لهم أن يقولوا: كيف أنزلت الكلام العجمي إلى القوم العرب؟ أما لما أنزلناه بلغة العرب وهم من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنكم ادعاء أن

قلوبكم في أكنة، وفي آذانكم وقر؟ ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي هلا بينت آياته بلسان نفقهه؟ ﴿أَعَجَبِي وَعَرَفِي﴾؟ والمعنى: أكلام أعجمي، والرسول عربي؟ أو المرسل إليه عربي؟ فالمقصود بيان أن آيات الله تعالى على أي وجه جاءتهم، وجدوا فيها متعتاً وطعناً يتعللون به ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن هادٍ للمؤمنين، يهديهم إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، وشفاء لهم من داء الجهل والضلالة، وكل من آتاه الله تعالى طبعاً مائلاً إلى الحق، وهمة تدعوه إلى بذل الجهد في طلب الدين، فإن القرآن يكون في حقه هدى وشفاء، أما كونه هدى فلأنه دليل على الخير، ويرشد إلى كل السعادات، وأما كونه شفاء فإنه شفاء له من مرض الكفر والجهل، وأما من كان في بحر الخذلان، وتائهاً في مفاوز الحرمان، ومشغولاً بمتابعة الشيطان، كان هذا القرآن في آذانه وقرأ، وعليه عي، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي ظلمة وشبهة ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء الموصوفون بما ذكر ﴿يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هذا تمثيل لهم في عدم استماعهم له، بمن ينادي من مسافة نائية، لا تُكادُ تُسمع من مثلها الأصوات.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ تسلياً للرسول ﷺ ببيان أن الاختلاف في شأن الكتب، عادة قديمة للأمم، غير مختص بها قومك، أي وبالله لقد آتينا التوراة لموسى، فاختلف فيها، وهكذا حال قومك في شأن ما آتيناك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ في أمتك المكذبة، وهي الوعد بتأخير عذابهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخَّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المكذبين، كما فعل بمكذبي الأمم السالفة

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي كفار قومك ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿مُريب﴾ أي موقع لهم في الشك والاضطراب.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ
لِّلْعَالَمِينَ﴾

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ فنفع عمله لنفسه، لا لغيره ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرره لا على غيره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله بتزليل ترك إثابة المحسن، وتعذيبه بغير إساءة، منزلة الظلم، وما كان الله ليعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يؤاخذ به إلا بجرمه، لأنه منزّه عن الظلم.

﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ
أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءِي قَالُوا ءَآذَنَّاكَ مَا مِنَّا
مِنْ شَيْءٍ﴾

﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي إليه سبحانه وحده، معرفة وقت القيامة، لا يعلمها إلا الله جل وعلا ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامٍهَا﴾ أي من أوعيتها جمع كَمٍّ بالكسر، وهو وعاء الثمرة، والجمع لاختلاف الأنواع ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ حملها وجنينها في بطنها ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أي تلد حملها ﴿إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ أي ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضع، ملابساً بشيء من الأشياء، إلا ملابساً بعلمه المحيط، أي يعلم سبحانه بجزئياته، مثلاً عدد أيام الحمل، وساعاته، وأحواله من الذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، ونحو ذلك، فإن قيل: أليس إن المنجمين قد يتعرفون كثيراً من أحوال العالم؟ قلنا إن أصحاب هذه العلوم، لا يمكنهم القطع، وإنما هم يظنون، والمذكور في هذه الآية الجزم واليقين ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءِي﴾ أي بزعمكم، كما نص في قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَ

شركائي الذين زعمتم ﴿ وفيه تهكم بهم ﴾ ﴿ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ ﴾ أي أخبرناك ﴿ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ أي من أحد يشهد لهم بالشركة، إذ تبرأنا منهم، لما عاينا الحال، وما منا أحدٌ إلا وهو موحدٌ لك.

﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجٍّ ﴾ ﴿ ٤٨ ﴾ .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ ﴾ أي يعبدون ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ في الدنيا ﴿ وَظَنُوا ﴾ أي ايقنوا ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ نَجٍّ ﴾ أي مهرب.

﴿ لَا يَسْتَعْمِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ ﴿ ٤٩ ﴾ .

﴿ لَا يَسْتَعْمِلُ ﴾ أي لا يملُ ولا يفتر ﴿ الْإِنْسَانُ ﴾ أي الكافر، بدليل قوله: ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ ﴿ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ أي من طلب السعة في النعمة، وأسباب المعيشة الهنيئة ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أي العسر والضيق ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ وهذا وصف للجنس بوصف غالب أفرادهِ، واليأسُ من رحمة الله كفر.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنِيبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ ﴿ ٥٠ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتهُ ﴾ بتفريجها عنه ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ أي حقي أستحقه، لما لي من الفضل والعمل ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أي تقوم فيما سيأتي ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي ﴾ على تقدير قيامها ﴿ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ أي للحالة الحسنى من الكرامة، وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له، وأن نعم الآخرة كذلك ﴿ فَلَنُنِيبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورها الحقيقية ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ لا يقادر قدره، ولا يُبلغ كنهه.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ

عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ عن الشكر ﴿وَنَسَى بِجَانِبِهِ﴾ أي ذهب بنفسه، وتباعد بكليته، تكبراً وتعظماً، والجانب مجاز عن النفس، ويجوز أن يراد به ثنى عطفه ويكون عبارة عن الغطرسة والكبرياء ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي كثير، مستعار مما له عرض متسع، للإشعار بكثرته واستمراره، وهو أبلغ من الطويل، إذ الطول أطول الامتدادين فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله؟

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ۖ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ

هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي من أضل منكم؟ وضع الموصول موضع الضمير، تعليلاً لمزيد ضلالهم.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۚ

أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ الدالة على حقيقته وكونه من عند الله ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ هو ما أخبرهم به الرسول ﷺ من الحوادث الآتية، وأثار النوازل الماضية، وما يسره الله تعالى له ولخلفائه من الفتوح، والظهور على آفاق الدنيا، والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب، على وجه خارق للعادة فإن قيل: إن استيلاء بعض البلاد، لا يدل على كون المستولي محققاً قلنا: إنا لا نستدل بمجرد الاستيلاء، بل نستدل به من حيث إنه ﷺ أخبر، فهذا إخبار

عن الغيب ومعجزة ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي وفيما حلّ بين أهل مكة ﴿حَتَّى يَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ﴾ القرآن ﴿الْحَقُّ﴾ لا ريب فيه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾؟ كلام وارد لتوبيخهم، أي أولم يكفهم برهاناً على صدقك، ﴿أَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ أي ألم يغنهم عن إرائة الآيات المبيّنة لحقيقة القرآن، ولم يكفهم في ذلك، أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء؟.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي في شك عظيم من ذلك، يشكّون بالبعث والجزاء ﴿أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي عالم بجميع الأشياء، يعلمها بتفاصيلها وظواهرها وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية منهم، وهو مجازيهم على كفرهم لا محالة، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على خاتم النبيين، وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فصلت»

سُورَةُ الشُّورَى

مكية وهي ثلاث وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقٌ ۝﴾

﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقٌ﴾ اسمان للسورة ولذلك فُصِّل بينهما، وقيل: اسم واحد، والفصل ليناسب سائر الحواميم.

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي مثل ما في هذه السورة من الآيات، أوحى الله إليك في سائر السور، وإلى مَنْ قَبْلَكَ من الرسل، لدعوة الناس إلى التوحيد، وما فيه صلاح العباد، والنبوة والمعاد، فلا تكن في شك من أمر الدين.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝﴾

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ استئناف مقرر لعزته وحكمته تعالى، أي جميع ما في الكون خلقه وملكه، وهو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالعظمة والكبرياء.

﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ أي يتشققن من عظمة الله، ومن شناعة ما يقوله المشركون من دعاء الولد، كما في سورة مريم ^(١) ﴿ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ أي يُبْتَدَأُ التفطر من جهتهن الفوقانية، وتخصيصها لما أن أعظم الآيات من تلك الجهة ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ ﴾ يزهونه عما لا يليق به متلبسين ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين، كما في آية أخرى ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهو عام يراد به الخاص، وقيل: هو على العموم، طمعاً في إيمان الكافر، وتوبة الفاسق ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ إذ ما من مخلوق، إلا وله حظ عظيم، من رحمته تعالى .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي شركاء وأنداداً ﴿ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم، فيجازي بها ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي لست بموكل بهم، أو بموكل إليك أمرهم، وإنما وظيفتك الإنذار .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَأَرْبَبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ .

(١) وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً لداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً . ﴾ الآيات .

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإحياء البديع ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أي أهلها وهي مكة، سميت بهذا إجلالاً لها، لأن فيها البيت، والعرب تسمي أصل كل شيء أمّه ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني بلاد الأرض كلها، من العرب والعجم، كما صرح به قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ الآية ﴿وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْبَعْثِ﴾ أي يوم القيامة، لأنه يومٌ يجمع فيه الخلائق ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي بعد جمعهم في الموقف، ثم يفرقون بعد الحساب إلى النعيم، أو الجحيم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ من يشاء أن يدخله فيها، ويدخل في عذابه من يشاء أن يدخله فيه، ومشيتته تعالى تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لاستعداده، فمن علم منه استحقاق الهدى يهديه، ومن علم منه اختيار الضلالة يضلّه، ولا جبر ولا إكراه على أحد ولا إجبار، بل هناك محض الاختيار ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾^(١) ولهذا قال سبحانه ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ للإيدان بأن الإدخال في العذاب بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته تعالى، والمعنى: لو شاء الله مشيئة قدرة، لقصرهم على الإيمان، ولكنه شاء مشيئة حكمة، وبنى أمرهم على ما يختارون، ليدخل المؤمنين في رحمته، وترك الظالمون بغير ولي ولا ناصر، لسوء اختيارهم.

(١) سورة الكهف، آية: ٢٩.

﴿ أَرِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿٩﴾ .

﴿ أَرِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي بل اتخذوا متجاوزين الله، أولياء من الأصنام والأوثان؟ ﴿ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ جواب شرط محذوف، أي إن أرادوا ولياً، فالله هو الولي، لا وليّ سواه ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ ﴾ كالتقرير لكونه حقيقة بالولاية ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ دون من لا يقدر على شيء أصلاً.

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ ﴿١٠﴾ .

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون، من أمور الدين أو أمور الدنيا ﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي فالحكم فيه إلى الله جلّ وعلا، هو الحاكم فيه بكتابه أو بقضاء رسوله ﷺ ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ ﴾ الحكيم العظيم الشأن ﴿ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أي مالكي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي في مجامع أموري خاصة، لا على غيره ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع إليه في كل ما ظهر لي من معضلات الأمور، لا إلى أحد سواه.

﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي خالقها ومبدعها ابتداءً على غير مثالي ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي من جنسكم ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ أي زوجات من الادميات ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ أي وخلق لكم من الأنعام أصنافاً، وذكوراً وإناثاً، ﴿ يَذُرُّكُمْ ﴾ أي يكثركم بسببه بطريق التوالد، ولذلك خلق الذكر والأنثى، من الذرة بمعنى البث والنشر ﴿ فِيهِ ﴾ أي فيما ذكر من التدبير، فإن جعل الناس والأنعام أزواجاً، يكون بينهم توالد، كالمنيع للتكثير

لنسل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس مثله، تعالى شيء، في شأن من الشؤون، التي من جملتها هذا التدبير البديع، والمراد من مثله ذاته تعالى، كما في قولهم: «مِثْلَكَ لا يفعلُ كذا» على قصد المبالغة، في نفيه عنه، أي ليس كذاته شيء جلّ وعلا ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ المبالغ في العلم، بكل ما يُسمع ويُبصر، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ فمعناه: وله الوصف الأعلى، الذي ليس لغيره مثله، وهو وصف الجلال والكمال.

﴿لَمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٢)

﴿لَمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بيده جلّ وعلا مفاتيح أرزاق العباد ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع الرزق على من يشاء، ويضيّق على من يشاء ﴿إِنَّكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في الإحاطة به.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣)

﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾ أي بيّن وأظهر ﴿لَكُمْ﴾ الخطاب للمسلمين من أمة محمد ﷺ، ﴿مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ من مشاهير الأنبياء عليهم السلام، على أن تخصيصهم بالذكر لعلو شأنهم، ولاستماله قلوب الكفرة إليهم، لاتفاق الكل على نبوة بعضهم، فما من نبي إلا مأمور بما أمروا به، وهو عبارة عن التوحيد، ودين الإسلام، وما لا يختلف باختلاف الأمم والأعصار، ولم يرد الشرائع، فإنها مختلفة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً

وَمِنْهَا جَاءَ ﴿١﴾ ﴿أَنْ أَمِئُوا الَّذِينَ﴾ أي دين الإسلام، الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي لا تختلفوا فيه كما اختلف اليهود والنصارى فضلوا وزاغوا، فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ورفض عبادة الأصنام، واستبعده حيث قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٢) ﴿اللَّهُ يَجْتَنِي إِلَيْهِ﴾ أي يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد، من هو أهل له، وفيه استعداد للخير والإيمان ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يجتبيه إليه، وهو من صرف اختياره إلى ما دعي إليه، كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أي يقبل إليه حيث يمدّه بالتوفيق والألطف.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مُرِيبٌ﴾

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بأن الفرقة ضلال، شروع في بيان أهل الكتاب، عقب الإشارة إلى أحوال أهل الشرك، وعن ابن عباس رضي الله عنه هم «اليهود والنصارى» أي ما تفرقوا في الدين، الذي دُعوا إليه، إلا من بعدما جاءهم العلم بحقيقته، بما شاهدوا في رسول الله ﷺ والقرآن، من الدلائل الحقة، حسبما وجدوه في كتابهم ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسداً وحمية، وطلباً للرياسة، لا لأن لهم شبهة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بالإمهال ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لعجل الله لهم العقوبة في الدنيا، وأهلكهم بعذاب الاستئصال، لاستيجاب

(١) سورة المائدة، آية: ٤٨.

(٢) سورة ص، آية: ٥.

جناياتهم لذلك ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي وإن كفار مكة الذين أُوْرثوا القرآن، من بعد ما أُوْرث أهل الكتاب كتابهم ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من القرآن ﴿مُريبٍ﴾ موقع لهم في الريبة، ولذلك لا يؤمنون به.

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

﴿فَلِذَلِكَ﴾ أي فلأجل ما ذكر من التفرق والشك، الذي حدث لأهل الكتاب ﴿فَادْعُ﴾ أي الناس كافة إلى إقامة ذلك الدين، والعمل بموجبه، فإن تفرقهم، وكونهم في شك في الدين، سبب للدعوة إليه ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ عليه وعلى الدعوة إليه ﴿كَمَا أُمِرْتُ﴾ وأُوحِي إِلَيْكَ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي كتاب من الكتب المنزلة، لا كأولئك الضالين الذين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ في تبليغ الشرائع والأحكام، وفصل القضايا عند المحاكمة، والمعنى: أمرني ربي أن أعْدِلَ بينكم إذا تخاصمتم إليَّ ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي خالفنا جميعاً ومتولي أمورنا، لا يتخطانا جزاء أعمالنا، ثواباً كان أو عقاباً ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لا محاجة ولا خصومة، لأن الحق قد ظهر وبان، كالشمس في رابعة النهار، ولا يبقى للمحاجة حاجة، سوى المكابرة ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فيظهر هناك حالنا وحالكم، فإن قيل: كيف يليق بهذه المجاورة، ما فعل بهم من القتل والإجلاء؟ قلنا: هذه كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين، المتفق على صحته بين كل الأنبياء، وفيه التوحيد، والإقرار بنبوة الأنبياء، والتصديق بالكتب المنزلة، فلما لم يقبلوا هذا الدين، فحيثنذ فات الشرط، فلا جرم فات المشروط.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَسْتَجِيبَ لَهُمْ جَهَنَّمُ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٦﴾

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أي في دين الله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾ أي من بعد ما استجاب له الناس، ودخلوا في الإسلام، والمراد بالموصول ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ﴾ اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يقولون: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونبوة موسى والتوراة، معلومة بالاتفاق، ونبوة محمد ليست متفقاً عليها ﴿جَهَنَّمُ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي زائلة باطلة بل لا حجة لهم أصلاً، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة، مجازاة معهم على زعمهم الباطل ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي عليهم غضب من الرحمن، وعذاب شديد في الآخرة .

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ﴿١٧﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً به في أحكامه وأخباره وتشريعه ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ والشرع العادل الذي توزن به الحقوق، ويسوى بين الناس ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي أي شيء يجعلك عالماً ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ﴾ التي يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق ﴿قَرِيبٌ﴾ أي قريب مجيئها، والمعنى: إنها على جناح الإتيان فاستمسك بالكتاب، واعمل به، وواظب على العدل.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿١٨﴾

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجال إنكار واستهزاء ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون منها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي الكائن لا محالة ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي يجادلون فيها، من

المزية بمعنى الشك ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، فإن قيام الساعة غير مستبعد، عن قدرة الله تعالى، والعقول تشهد على أنه لا بد من دار جزاء.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩).

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ أي بليغ البر بهم، يفيض عليهم من فنون لطافه، ما لا تكاد تناله أيدي الأفكار والظنون ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يرزقه كيف يشاء، فيخص كل من عباده، بنوع من البر، على ما تقتضيه مشيئته المبنيّة على الحكم البالغة ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة، الغالب على كل شيء ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يُغلب.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ الحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض، ويستعمل في ثمرات الأعمال، أي من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ نضاعف له ثوابه، إلى سبعمائة فما فوقها، ونزد له في تسهيل سبيل الخيرات والطاعات ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله ﴿حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ وهو متاعها وطياتها ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي شيئاً منها، حسبما قسمنا له، لا ما يريده، كما قال في سورة بني إسرائيل: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ إذ كانت همته مقصورة على الدنيا، فليس له حظ من الثواب، والنعيم في الآخرة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢١).

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ؟﴾ أي بل لهم شركاء من الشياطين، والهمزة

للتقريب وللتقريب ﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾ بالتسويل والتزيين ﴿مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ﴾
 اللَّهُ ﴿كَالشِّرْكَ وَالْعَصْيَانِ﴾ وقيل: شركاؤهم، أي أوثانهم، وإضافتها إليهم،
 لأنهم الذين جعلوها شركاء لله، وإسناد الشرع إليها وهي جمادات إسنادٌ
 مجازي، لأنها سبب ضلالهم وافتنانهم، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ
 كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأخير
 الجزاء، لعُجلت لهم العقوبة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المؤمنين والكافرين،
 بتعجيل العقوبة للكفار ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب موجه
 مؤلم يوم القيامة، والعذاب الأليم غالب في عذاب الآخرة.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ .

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ يوم القيامة، والخطاب لكل أحد ممن يصلح له
 ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من السيئات ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ﴾
 بِهِمْ أي وباله لاحق بهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا ﴿وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي مستقرون في أطيب
 بقاعها، وأعلى منازلها ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم ما يشتهون من
 فنون المستلذات، حاصل لهم عند رب كريم ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر
 من حال المؤمنين، أي ذلك النعيم ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي ذلك الذي
 أكرمهم الله به، هو النعيم الأكبر، الذي لا يُقادر قدره.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
 أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّرِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 شَكُورٌ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي يبشرهم به ربهم ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على ما أنا من التبليغ والبشارة ﴿ أَجْرًا ﴾ أي نفعاً ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أي إلا أن تودوني لقرابتي منكم، وقيل: الاستثناء منقطع، والمعنى: لا أسألكم أجراً قط، لكن أسألكم المودة في القربى ﴿ وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أي ومن يكتسب حسنة، نزد له في الحسنة حُسْنًا، بمضاعفة الثواب فيها ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب ﴿ شَكُورٌ ﴾ لمن أطاع، لا يضيع عنده عمل العامل، ولهذا يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، ويشكر للمحسن إحسانه، والشكور المبالغ في الشكر، الذي يعتد بالطاعة، ويجزل عليها الثواب الكبير.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُمْ عَلَيْهَا لِلصُّدُورِ ﴾

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾؟ بل يقولون ﴿ افْتَرَىٰ ﴾ أي اختلق محمد ﷺ ﴿ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بدعوى النبوة، وإنزال القرآن؟ والهمزة للإنكار التوبيخي، كأنه قيل أنتجروون أن ينسبوا مثله ﷺ إلى الافتراء، لا سيما الافتراء على الله، وهو أعظم الافتراء وأفحشه؟ فمثله لا ينسب إلى الكذب، مع اعترافهم له من قبل بالصدق والأمانة ﴿ فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ استشهاد على بطلان ما قالوا، ببيان أنه صلى الله عليه وسلم لو افترى على الله، لمنعه من ذلك قطعاً، كأنه قيل: لو كان هناك افتراء عليه تعالى، وشاء عدم صدوره عنك، يختم على قلبك بحيث لا يخطر ببالك معنى من معانيه، وحيث لم يكن كذلك، بل تواتر الوحي، تبين أنه من عند الله تعالى ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي ومن عادته تعالى أن يمحو الباطل، ويثبت الحق بوحيه، كقوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ وهذا عِدَّةٌ لرسول الله ﷺ بأن الله يمحو الباطل الذي هم عليه، ويثبت الحق الذي هو القرآن ﴿ إِنَّهُمْ عَلَيْهَا لِلصُّدُورِ ﴾ فيجري عليها أحكامها من المحو

والإثبات، والغرض من الآية أنك لو افتريت على الله الكذب - - كما يزعم المجرمون - لختمنا على قلبك، فأنسيناك هذا القرآن، وسلبناه من صدرك، ولكنك لم تفتّر على الله كذباً، ولهذا أيدناك وسدّدناك!! ففي الآية تكذيب لدعوى المشركين.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢٥)

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ أي هو سبحانه بفضلہ وكرمه، يتقبل التوبة من عباده، إذا أقلعوا عن المعاصي، وأنابوا إلى الله بصدق وإخلاص، كما ورد في الحديث الشريف «إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(١). ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ صغيرها وكبيرها لمن يشاء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ كائناً ما كان، فهو الرقيب المطلع على الأعمال، وسيجازيكم عليها.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (٢٦)

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي يستجيب الله لهم دعاءهم، كما استجابوا لطاعته، والمراد بإجابة دعائهم: الإثابة على طاعاتهم ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ على ما سألوا واستحقوا بموجب الوعد، والتخصيص بالمؤمنين هل يدلُّ على أنه تعالى لا يجيب دعاء الكافر؟ قيل: نعم، لأن الإجابة تعظيم، وقيل: يجوز لقوله تعالى: ﴿أم من يجيب المضطر إذا دعاه﴾؟ وفائدة التخصيص، أن إجابة دعاء المؤمنين، تكون على سبيل

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٥٣١ وقال: حديث حسن، والغرغرة أن تصل الروح إلى الحلقوم، عند الموت والاحتضار.

التشريف، وإجابة ودعاء الكافرين، على سبيل الاستدراج ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في نار جهنم.

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ يُعِبَادُهُ خَيْرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢٧).

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لتكبروا وأفسدوا، ولعلا بعضهم على بعض، بالاستيلاء، كما عليه الجبلة البشرية ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ أن ينزله، مما تقتضيه مشيئته ﴿إِنَّهُ يُعِبَادُهُ خَيْرٌ بَصِيرٌ﴾ أي محيط بخفايا أمورهم، فيقدر لكل واحد منهم ما يليق بشأنه، فيفقر ويغني، ويمنع ويعطي، حسبما تقتضيه الحكمة، وقد قيل: ثلاثة ليس لها نهاية: الأمن والصحة والكفاية.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٢٨).

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ ﴾ أي المطر الذي يغيثهم من الجذب، ولذلك حُصِّنَ الغيثُ بالنافع منه، فإن المطر قد يضرُّ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي يشعوا منه، وتقريده بذلك، مع تحققه بدونه أيضاً، لتذكر كمال النعمة، فإن حصول النعمة بعد اليأس أوجب لكمال الفرح، وأدعى للشكر، ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه في كل شيء، من السهل، والجبل، والنبات، والحيوان ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بالإحسان، ونشر الرحمة ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد لا غيره، وقيل لعمر رضي الله عنه: اشتد القحط، وقنط الناس، فقال: مُطَرُوا، أراد هذه الآية.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَائِبَةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (٢٩).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على ما هما عليه من تعجيب الصانع، فإنها تدل على شؤونه العظيمة ﴿وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي من حي فيما يدب على الأرض، أو يطير في الجو، وهذا يشمل الإنس، والجن، والملائكة، وقد يجوز أن يكون للملائكة مشي مع الطيران، فيوصف بالديب، والديب في اللغة: المشي الخفيف ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ أي على حشرهم بعد البعث ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ أي في الوقت الذي يشاء ﴿فَدِيرٌ﴾ متمكن منه، لا يعجزه شيء.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي مصيبة كانت، فهي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها، والخطاب مع من يفهم ويعقل، فلا يدخل فيه البهائم والأطفال ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ من الذنوب، فلا يعاقب عليها، والآية مخصوصة بالمجرمين، فإن ما أصاب غيرهم لأسباب أخرى، منها تعريضه للثواب، بالصبر عليه، عن علي رضي الله عنه أنه قال: هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن، لأن الكريم إذا عاقب مرة، لا يعاقب عليه ثانياً.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ولستم فائتين من عذاب الله، ولا هاربين من قضائه، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يحميكم منها ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم وفي الحديث الشريف

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يصيبُ المؤمنَ شوكةٌ فما فوقها، إلا رفعه الله بها درجةً، وحطَّ عنه بها خطيئة»^(١).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَاقِ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ﴾ السفن الجارية ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَاقِ﴾ أي كالجبال وكلُّ شيء مرتفع عند العرب فهو علم.

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ التي تجريها ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي فيبقين ثوابت على ظهر البحر، أي غير جاريات ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكر من تسيير السفن الضخمة فوق سطح الماء ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في العدد، دالة على ما ذكر من شؤونه تعالى ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي لكل مؤمن صابر شاكِر، فإن الإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر.

﴿أَوْ يُوقِعَهُنَّ يَمًا كَسْبًا وَيَعْفَ عَنْ كَثِيرٍ﴾.

﴿أَوْ يُوقِعَهُنَّ يَمًا كَسْبًا﴾ أي يرسلها، عواصف فيغرقن مع ركبها ﴿يَمًا كَسْبًا﴾ من الذنوب، وإيقاع الإيقاع عليهن، مع أنه حال أهلهن، للمبالغة والتهويل ﴿وَيَعْفَ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي ينجي آخرين، بطريق العفو عنهم.

(١) الحديث أخرجه البخاري ٩٠/١٠ في المرضى باب ما جاء في كفارة المرض، ومسلم رقم ٢٥٧٢.

﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ﴾ ﴿٣٥﴾

﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ عطف على علة مقدره، أي لينتقم منهم ويعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل، إذا توسطوا البحر، وغشيتهم الرياح من كل جانب ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ﴾ أي لا ملجأ لهم، ولا مهرب من العذاب.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٣٦﴾

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ مما ترغبون وتتنافسون فيه ﴿فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي فهو متاعها، تتمتعون به مدة حياتكم ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ لخلوص نفعه ودوامه ﴿وَأَبْقَى﴾ زماناً حيث لا يزول ولا يفنى ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا على غيره، فإنهم يعتمدون على الله وحده.

﴿وَالَّذِينَ يَخْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿وَالَّذِينَ يَخْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ﴾ أي الجرائم الكبيرة ﴿وَالْفَوَاحِشِ﴾ أي الزنى ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي يصفحون عمّن أساء إليهم وأغضبهم، وبناء «يغفرون» على ضميرهم للدلالة على أنهم الأحقاء بالمغفرة، لعزة منالها.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿٣٨﴾

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي استجابوا لأمر ربهم، بالإيمان

والتوحيد، نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله إلى الإيمان فاستجابوا له ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي في سبيل الخير.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩).

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم، من فرط تدبرهم وتيقظهم، كراهة التذلل للأعداء، وهو وصفهم بالشجاعة، بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران، فإن كلا منهما فضيلة محمودة في موقع، ورذيلة مذمومة في موقع، فإن الحلم عن العاجز محمود، وعن الظالم المتغلب مذموم، وعليه قول الشاعر:
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا

بيّن الله تعالى أن هذه الخيرية، إنما تحصل لمن كان موصوفاً بصفات عديدة:

١ - أن يكون من المؤمنين. ٢ - من المتوكلين على الله. ٣ - من المجتنبين للفواحش. ٤ - من المنقادين لأمر الله. ٥ - من المنتصرين لدينه.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ بيان لوجه كون الانتصار من الفضائل الحميدة، مع كونه في نفسه إساءة إلى الغير، بالإشارة إلى أن البادي هو الذي فعله لنفسه، فإن الأفعال مستتبعة لأجزيتها حتماً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفيه تنبيه على حرمة التعدي، وإطلاق السيئة على الثانية،

لأنها تسوء من نزلت به ^(١) ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عن المسيء إليه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين من يعاديه، بالعفو والإغضاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿فَأَجْرُ عَلَى اللَّهِ﴾ عِدَّةٌ مبهمَةٌ، منبئة عن عظم شأن الموعود ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي البادئين بالسيئة، والمعتدين في الانتقام.

﴿وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾ ^(٢)

﴿وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي بعد ما ظلم دون عدوان ﴿فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذه، لأنهم فعلوا ما أباح لهم.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ^(٣)

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي إنما المؤاخذه والعقوبة على الذين يبدؤون بالعدوان، أو يعتدون في الانتقام، ويتكبرون على عباد الله، تجبراً وفساداً ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر، من الظلم والبغي ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ^(٤)

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ لمن ظلمه، ولم ينتصر لنفسه، وفوض أمره إلى الله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي من فضائل الأعمال التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن، وهذه في الأمور التي لا يؤدي العفو فيها إلى الشر، كمن اعتاد العدوان على الناس، فإن

(١) مقابلة السيئة بالسيئة، لكيلا يتبعج الشر ويطنى، حين لا يجد من يردعه عن الظلم والعدوان.

العفو عنه يزيد في ضلاله وطفغيانه، بل يجب أن يُردع ويُزجر، بعقاب يكفّه عن الظلم والعدوان.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ٤٤﴾.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من ناصر يتولاه، من بعد خذلانه تعالى إياه ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي حين يرونه، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿يَقُولُوا﴾ أي يسألون ربهم، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا قائلين ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ﴾ أي إلى رجعة ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾؟ حتى نؤمن، ونعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل؟.

﴿وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ٤٥﴾.

﴿وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على النار، والخطاب في الموضعين لكل من يتأتى منه الرؤية ﴿خَشِيعَاتٍ مِنَ الدُّلِّ﴾ أي متذللين متضائلين ممّا دهاهم ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يسارقون النظر خوفاً وفزعاً، يبتدون نظرمهم إلى النار، من تحريك لأجفانهم ضعيف، كالمصبور ينظر إلى السيف، فإن قيل: أليس إنه تعالى قال: إنهم يُحْشَرُونَ عمياً؟ قلنا يكونون في الابتداء هكذا، ثم يُجعلون عمياً يسحبون إلى جهنم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي المتصفين بحقيقة الخسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ﴾ أي ضيّعوا أنفسهم وأهلهم بالتعريض للعذاب الخالد ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ هذا من تمام كلام المؤمنين، أو تصديق من الله تعالى لهم، أي انتبهوا فإن الظلمة المشركين، في عذاب دائم لا ينقطع.

﴿ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (٤٦)

﴿ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ برفع العذاب عنهم، حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي غيره تعالى ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يؤدي سلوكه إلى نجاة في الدارين، لأنه انسدت عليه طرق النجاة، فكيف يهتدي إلى طريق السعادة، وقد حاد عن هداية الله؟.

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّكَيرٍ ﴾ (٤٧)

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ أي أجبوا ربكم إذا دعاكم إلى الإيمان على لسان نبيه، قبل أن يأتي من الله يوم شديد رهيب ﴿ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي لا يردّه الله بعدما حكم به، وهو يوم القيامة ﴿ مَا لَكُم مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي من مفرّ تلتجئون إليه حينئذ ﴿ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّكَيرٍ ﴾ أي من إنكار لما اقترفتموه، لأنه مدون في صحائف أعمالكم، وتشهد به عليكم جوارحكم، وقيل: المعنى: ليس لكم من ينكر ما ينزل بكم من العذاب، لا من أنفسكم ولا من غيركم، لأن أحداً لا يملك الاعتراض على الله جلّ وعلا.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَرَحَ بِهَا وَإِنْ نُّصِيبُهُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ (٢٨)

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ أي فإن لم يستجيبوا، وأعرضوا عما تدعوهم إليه ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ أي رقيباً أو محاسباً لهم على أعمالهم ﴿ إِنْ

عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْعُ ﴿١﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ رسالة ربك، وقد فعلت ﴿وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ (١) أي نعمة من الصحة، والغنى، والأمن ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أي بطر وتكبر، وأريد بالإنسان الجنس، بدليل قوله سبحانه: ﴿وإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ﴾ أي بلاء من مرض، أو فقر، أو خوف ﴿يَمَاقِدْهُمْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي مبالغ في الكفران لنعم المولى جل وعلا، ينسى النعمة حالاً، ويذكر البلية ويستعظمها، ولا يتأمل سببها، بل يزعم أنه أصابه بغير استحقاق لها.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ﴾ (١٩).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له التصرف فيهما، وفي كل ما فيهما كيفما يشاء، بالخلق والإيجاد ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ مما نعلمه ومما لانعلمه ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً﴾ من الأولاد ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ﴾ منهم، من غير أن يكون في ذلك مدخل لأحد أصلاً.

(١) أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان الجحود لنعم الرحمن، فهو يبطر عند حصول النعمة، ويضجر عند فواتها وزوالها، وفي الآية سرٌّ بدیع من لطائف الأسرار البيانية، فإن «إذا» تفيد التحقيق، و «إن» تفيد الشك، فذكر تعالى النعمة بقوله: ﴿وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ للإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول، بخلاف النعمة والبلاء فإنه على الشك والتقليل، ولهذا قال سبحانه ﴿وإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ﴾ يعني على فرض حصول السيئة كالمرض، والفقر، والبلاء، فإن الإنسان كافر جاحد لنعمة الله، فالنعمة محققة الوقوع، والنقمة محتملة النزول، ونعم الله في الدنيا وإن كانت عظيمة وجليلة، ولكنها بالنسبة إلى نعيم الآخرة تافهة وحقيرة، كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سمّاها الله عُرٍّ وجلٍّ ذوقاً ﴿إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ فنبه تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الضئيل الحقير في الدنيا، فإنه يفرح بها ويعظم غروره، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المني، وذلك لجهله بحال الدنيا، وبحال الآخرة، فافهم أسرار القرآن.

﴿ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

﴿ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْثَاءً ﴾ أي يقرن بين الصنفين، فيهبهما جميعاً، فيجمع للإنسان بين البنات والبنين، والذكور والإناث ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً ﴾ يعني يجعل أحوال العباد، في حق الأولاد، مختلفة على ما تقتضيه المشيئة فيهن، ولعل تقديم الإناث، لأنهن أكثر، لتكثير النسل، أو لتطيب قلوب آبائهن ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ مبالغ في العلم والقدرة، فيفعل ما فيه حكمة ومصلحة^(١)، والعقم يطلق على الذكر والأنثى، فقد يكون الرجل عقيماً لا يأتيه أولاد، وقد تكون المرأة عقيماً لا تلد، وليس العقم خاصاً بالنساء.

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ أي ما صح لفرد من أفراد البشر ﴿ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ إِلَّا وَحِيًّا ﴾ بأن يوحى إليه، ويلهمه ويقذف في قلبه، كما أوحى إلى أم موسى، أو بأن يسمعه كلامه من غير أن يبصر السامع من يكلمه، وهو المراد من قوله: ﴿ أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾ فإنه تمثيل له بحال المَلَكِ المحتجب، الذي يكلم بعض خواصه، من وراء الحجاب، يسمع صوته ولا يرى شخصه، كما كلم موسى، وهذا أيضاً وحي، قال تعالى: ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ أو بأن يكلمه بواسطة المَلَكِ وذلك قوله تعالى:

(١) ليست السعادة في أن يرزق الله الإنسان ذكراً أو أنثى، وإنما السعادة في صلاح الأولاد ونجاتهن، ليكونوا قرة عين لآبائهن، وقد أحسن الشاعر حين قال: نَعْمُ الْإِلَهِ عَلَى الْعِبَادِ كَثِيرَةٌ وَأَجْلُهُنَّ نَجْسَابُهُ الْأَوْلَادُ

﴿أَوْرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي مَلَكًا ﴿فَيُوحِيَ﴾ ذلك المَلَك إلى المرسل إليه، الذي هو الرسول البشري ﴿يَاذِينِهِ﴾ أي بأمره تعالى وتيسيره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ أن يوحى إليه، وهذا هو الذي يجري بينه تعالى، وبين الأنبياء عليهم السلام، في عامة الأوقات ﴿إِنَّهُمْ عَلِيُّ﴾ متعال عن صفات المخلوقين، لا يتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم، إلا بأحد الوجوه المذكورة ﴿حَكِيمٌ﴾ يجري أفعاله على سنن الحكمة، فيكلم تارة بواسطة، والأخرى بدونها، إما إلهاماً وإما خطاباً، وسبب نزول هذه الآية، أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألا تكلم الله، وتنتظر إليه، كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فنزلت الآية ردّاً عليهم ذلك الافتراء، فما رأى موسى ربه ولا نظر إليه، وإنما سمع كلامه من وراء حجاب ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وحين طلب موسى رؤية ربه ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي﴾ أنظر إليك قال لن تراني ﴿الآية﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ هو القرآن، الذي هو للقلوب، بمنزلة الروح للأبدان، حيث يحييها حياة أبدية ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي﴾ قبل الوحي ﴿مَا أَلَكْتُبُ﴾ أي أي شيء هو؟ ﴿وَلَا الْإِيمَنُ﴾ أي الإيمان بتفاصيل الأمور، التي لا تهتدي إليها العقول، لا الإيمان بما يستقل به العقل، لأنه ﷺ قبل النبوة كان يوحد الله تعالى، ولا يأكل ما ذُبح على النصب، ويُبغض الأصنام، وكان يتعبد على دين إبراهيم عليه السلام، ولم يتبين له شرائع دينه، إلا بعد الوحي إليه ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي الروح الذي أوحيناه إليك ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾ هدايته ﴿مِّنْ عِبَادِنَا﴾ هو الذي يصرف اختياره، نحو الاهتداء به ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى﴾ أي وإنك يا محمد، لتدل وترشد الناس ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، دين الله الخالد!!.

﴿ صَرَّطَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾

﴿ صَرَّطَ اللَّهُ الَّذِي ﴾ بدل من الأول، وإضافته إلى الاسم الجليل، لتفخيم شأنه، وتأكيد وجوب سلوكه ﴿ لَمْ يَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي له كل ما في الكون ملكاً، وخلقاً، وعبيداً ﴿ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ أي أمور ما فيهما، لا إلى غيره، ففيه من الوعد للمهتدين، والوعيد للضالين الظالمين. والله أعلم بمزاده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشورى»

سُورَةُ الزَّخْرُفِ

مكية وهي تسع وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

﴿حَمْدٌ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿أي أقسم بالقرآن البين الواضح الجلي.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي جعلنا ذلك الكتاب، قرآنًا عربيًّا، لكي تفهموه، وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق، والمعنى الفائق، وتقفوا على ما يتضمنه، من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حق النعمة في ذلك.

﴿وَإِنَّكُمْ فِي أُمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَإِنَّكُمْ فِي أُمْرِ الْكِتَابِ﴾ أي في اللوح المحفوظ، فإنه أصل الكتب السماوية ﴿لَدَيْنَا﴾ أي عندنا ﴿لَعَلِيَّ﴾ أي رفيع القدر، بين الفضل ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة، ومكانة فائقة، وفي الإقسام بالقرآن على علو قدره، براعة بدیعة، وإيدان بأنه من علو الشأن، بحيث لا يحتاج في بيانه،

إلى الاستشهاد عليه بالإقسام بغيره، بل هو بذاته كافٍ في الشهادة على ذلك، من حيث الإقسام به، كما أنه كافٍ فيها من حيث إعجازه.

وبعدما بين علو شأن القرآن، وحقق أن إنزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به، ويعملوا بموجبه، عقب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه، فقال سبحانه:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ﴾ أي أنهم لكم فننحّي الذكر عنكم، ونعتبركم كالبهائم، فلا نعظكم ولا نذكركم بالقرآن؟ وفيه إشعار باقتضاء الحكمة، توجه الذكر إليهم، وملازمته لهم، كأنه يتهافت عليهم ﴿صَفْحًا﴾ أي إعراضاً عنكم ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ أي لأجل إسرافكم في المعاصي والإجرام، ومجاوزتكم الحدّ في الضلالة، على معنى أن حالكم وإن اقتضى تخليتكم وشأنكم، حتى تموتوا على الكفر والضلالة، لكننا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نهديكم إلى الحق، بإرسال الرسول الأمين، وإنزال الكتاب المبين.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ تقرير لما قبله، ببيان أن إسراف الأمم السالفة، لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم لهدايتهم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذا تسلية للرسول ﷺ، أي هذه عادة الأمم الضالين، ما جاءهم رسول إلا سخروا منه واستهزؤوا، فلا ينبغي أن تحزن وتتأذى من قومك، بسبب تكذيبهم لك.

﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٨﴾

﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ أي من هؤلاء المسرفين، وصفهم بالبطش لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولوية، أي كانوا أعتى وأطغى من قومك كفار مكة، ومع ذلك أهلكهم الله ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي سلف في القرآن قصتهم، وفيه وعد ووعد^(١)

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٩﴾

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ أي يُسندن خلقها إلى من هذا شأنه، في الحقيقة ونفس الأمر، لا أنهم يعبرون عنه بهذا العنوان، وسلوك هذه الطريقة، للإشعار بأن اتصافه تعالى بجلال الصفات، وبما يستلزمه ذلك من البعث والجزاء، أمرٌ بيِّن لا ريب فيه، وأن الحجة قائمة عليهم، شاؤوا أو أبوا، والمقصود بيان أنهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى، يعبدون غيره جهلاً منهم وسفهاً، وينكرون قدرته على البعث والجزاء، فإذا سئلوا عن خلق السموات والأرض، اعترفوا بأن الخالق هو الله، ثم هم يعبدون غيره.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ﴿١٠﴾

(١) الغرض من الآية أن الله عز وجل لا يترك هؤلاء الكفار، على كفرهم وفجورهم، وضلالهم، دون أن يبعث إليهم من ينصحهم ويذكّرهم، رحمة بهم، وإن كانوا هم معرضين عن الإيمان، مسرفين في العصيان، لأن لطف الله ورحمته بالعباد، تقتضي التذكير والتبصير، قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفِعَ، حين رده أوائل هذه الأمة، لهلكوا جميعاً، ولكن الله برحمته كرّره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة!!

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي بسطها لكم تستقرون فيها، وتبنون وتنامون ﴿وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا﴾ أي طرقاً تسلكونها في أسفاركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم، أو بالتفكير إلى التوحيد الذي هو المقصد الأسمى.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (١١)

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾ أي بمقدار تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكيم والمصالح، ويقدر ما يحتاج إليه أهل تلك البقعة ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ﴾ أي أحيينا بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ أي خالياً عن النماء والنبات، مقفراً من الزروع والثمر ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإحياء، وهو إخراج النبات من الأرض ﴿تُخْرَجُونَ﴾ أي تُبعثون من قبوركم أحياء.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢)

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي أصناف المخلوقات، من الحيوان والنبات، وكل ما سوى الله تعالى فهو زوج، كالفوق والتحت، واليمين واليسار، والذكر والأنثى ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي ما تركبونه تغليباً للأنعام على الفلك، فإن الركوب متعدد بنفسه.

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣)

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي لتستعلوا على ظهور ما تركبونه، من السفن والأنعام ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي تذكروها بقلوبكم معترفين

بها، ثم تحمدوا ربكم عليها بالستكم ﴿وَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمُؤْمِرِينَ﴾ أي مطيقين، قال أبو عبيدة: فلان مقرن لفلان أي ضابط له، أي ما كنتم مطيقين لها وضابطين لحركاتها، لولا تسخير الله عز وجل.

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (١٤)

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي راجعون، وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلبسه من المسير، ويتذكر منه المسافرة العظمى، التي هي الانقلاب إلى الله تعالى، فيبني أموره على تلك الملاحظة، فإن الإنسان لا يزال في سفر، حتى يستقر به القرار، إما في الجنة أو في النار.

روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر، حمد الله تعالى، وسبح وكبر ثلاثاً، ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا، البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب، في الأهل والمال»^(١).

﴿وَجَعَلُوا لِمِنْ عَبَادِهِ جُزْءًا إِنَّا لِلْإِنْسَانِ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥)

﴿وَجَعَلُوا لِمِنْ عَبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي وقد جعلوا له سبحانه، بعد ذلك الاعتراف بخلق السموات والأرض ولداً، وإنما عبر بالجزء، لمزيد استحالته في حق الواحد الأحد، من جميع الجهات، والمقصود منه التنبيه على سخافة عقولهم، وقلة محصولهم ﴿إِنَّا لِلْإِنْسَانِ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر الكفران، مبالغ فيه، ولذلك يقولون ما يقولون.

(١) أخرجه مسلم رقم ١٣٤٢، والترمذي رقم ٣٤٤٤، وأبو داود رقم ٢٥٩٩.

﴿ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ يَالْبَنِينَ ﴾ ﴿١٦﴾

﴿ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾؟ هذا بيان لبطلان جعلهم ذلك الولد من أحسن صنفه في نظرهم، والهمزة للإنكار والتعجب منهم ﴿ وَأَصْفَنَكُمْ يَالْبَنِينَ ﴾؟ أي واختار لكم أفضلهما؟ وتنكير «بنات» وتعريف البنين، لتربية ما اعتبر فيهما من الحقارة، والفخامة، أي هل خصصكم واختار لكم البنين، واتخذ لنفسه البنات؟ ما لكم كيف تحكمون؟ أفلا تعقلون؟

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ﴿١٧﴾

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ﴾ أي وإذا بشر أحدهم بالأنثى، التي نسبها إلى الله وجعلها له مثلاً ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أي صار وجهه كأنه أسود من سوء ما بُشِّرَ به ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مملوء من الكرب والكآبة كأنه فعل جريمة يستحق العقاب عليها.

﴿ أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْحَلِيَِّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْحَلِيَِّةِ ﴾ أي أوجعلوا ما شأنه أن يُربى في الزينة، وهو عاجز عن أن يتولى أمره بنفسه؟ ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ ﴾ أي في الجدل الذي لا يكاد يخلو عنه الإنسان في العادة ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي غير قادر على تقرير دعواه، وإقامة حجته، لنقصان عقله، وضعف رأيه؟

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ ﴿١٩﴾

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ بيان لتضمن كفرهم المذكور، لكفر آخر، وهو جعلهم الملائكة الذين هم أكمل الخلق، وأكرمهم

وأكرمهم على الله إنائاً، ونسبتهم إلى الله حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وهؤلاء كفروا بثلاثة أشياء: ١ - بإثبات الولد لله، ٢ - وبأن هذا الولد بنت، ٣ - والحكم على الملائكة بالأنوثة ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ ؟ أحضروا خلق الله إياهم، فشاهدوهم إنائاً حتى يحكموا بأنوثتهم؟ وهو تجهيل لهم وتهكم بهم ﴿سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ﴾ هذه في ديوان أعمالهم ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ يوم القيامة عن هذا الكذب والافتراء.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١٠).

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي لو شاء عدم عبادتنا للملائكة ما عبدناهم، أرادوا بذلك أن ما فعلوه حق، مرضي عند الله تعالى، وأنهم إنما يفعلونه بمشيئته تعالى، ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ أي بما أرادوا بقولهم الباطل ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يستند إلى سند ما ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يكذبون لأنهم أرادوا بالمشيئة الرضا، أو قالوا هذا القول استهزاء لا اعتذاراً، وجعلوا المشيئة حجة لهم، وظنوا أن الله تعالى لا يعذبهم على أي شيء فعلوه ولما أظهر وجوه فساد دعواهم من طريق العقل، أضرب عنه إلى إبطال أن يكون لهم من جهة النقل، فقال تقدست أسماؤه:

﴿أَمْ أَلَيْسَ لَكُمْ كِتَابٌ مِّن قَبْلِهِ فَمِمَّ يُسْتَمْسِكُونَ﴾ (١١).

﴿أَمْ أَلَيْسَ لَكُمْ كِتَابٌ مِّن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل القرآن، ينطق بصحة ما يدعونه؟ ﴿فَمِمَّ يُسْتَمْسِكُونَ﴾ بذلك الكتاب ﴿وَعَلَيْهِ مَعُولُونَ﴾.

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (١٢).

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي على طريقة ودين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ

ءَاثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٢﴾ أي لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية، سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم، تقليداً أعمى، دون بصر ولا نظر.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي الأمر كما ذكر من تشبههم بذيل التقليد ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ استئناف مبين بأن التقليد ضلالٌ قديم، وتخصيص المترفين للإيدان بأن التنعم، وحب الرئاسة، هو الذي صرفهم عن النظر، إلى فساد التقليد.

﴿قَالَ أُولَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي قال كل نبي لأمة ﴿أُولَوْ جِئْتُكُمْ﴾ أي أتقننهم بآبائكم الجهلة ولو جئتكم ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ بدين أهدى وأرشد ﴿وَمِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ﴾؟ من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء، وإنما عبر عنها بذلك مجازة معهم على سلك الإنصاف ﴿قَالُوا﴾ أي قالت كل أمة لنبئها ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ قبل أن ينظروا ويفكروا فيه، إقناطاً للنذير.

﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم على الكفر والضلal بالاستئصال ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فلا تكثر بتكذيب قومك.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أي واذكر لهم وقت قال ﴿إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ براء مصدر نعت به مبالغة، يستوي فيه الواحد والمتعدد، والمذكر والمؤنث، أي إنني بريء من عبادتكم ومعبودكم.

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ (٧٧).

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء منقطع، أي غير الذي فطرني ﴿فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾ أي يرشدني لدينه، ويوفقي لطاعته، وسيثبتني على الهداية، والسين للتأكيد دون التسويف، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٨).

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي جعل إبراهيم عليه السلام «كلمة التوحيد» التي تكلم بها ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي في ذريته حيث وصّاهم بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ﴾ الآية فلا يزال فيهم من يوحد الله، ويدعو إلى توحيدهِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي جعلها باقية في عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحّد.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ (٧٩).

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ﴾ بل تمتع منهم هؤلاء المعاصرين للرسول ﷺ من أهل مكة ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ بالمد في العمر والنعمة، ولم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم، فاعتزوا بالمهلة، وانهمكوا بالشهوات، وغفلوا بها عن كلمة التوحيد ﴿حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر الرسالة بالمعجزات الباهرة، وكان الواجب أن يجعلوه سبباً لزيادة الشكر، فجعلوه سبباً لزيادة الكفر.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ ازدادوا كفراً وعتوا، وضموا إلى كفرهم معاندة الحق، والاستهانة به، حيث ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ فسموا القرآن سحراً، واستحققوا الرسول ﷺ، وكذبوه.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢١﴾

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ ؟ أي من إحدى القريتين مكة أو الطائف ﴿عَظِيمٍ﴾ أي بالمال والجاه، كالوليد بن المغيرة من مكة، و«عروة بن مسعود» من الطائف، ولم يتفوهوا بهذه العظيمة، حسداً على نزوله على الرسول ﷺ دون عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته، بل استدلالاً على عدمها، بمعنى أنه لو كان قرآناً، لنزل على هؤلاء، بناءً على أن منصب الرسالة منصب جليل، لا يليق إلا بمن له جلالة، من حيث المال والجاه، ولم يدروا أنها وثبة روحانية، لا يترقى إليها إلا خواص المختصين، بالنفوس الزكية، أما المتمتعون بالحفظ الدنيوية، فهم من استحقاق تلك الرتبة بآلاف منزل، قال الله تعالى رداً عليهم.

﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ ٢٢.

﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ﴾ ؟ إنكار فيه تجهيل لهم، وتعجيب من تحكمهم في شؤون الوحي ﴿رَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ ؟ أي النبوة يعني أيدهم مفاتيح الرسالة والنبوة، فيضعونها حيث شاؤوا؟ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي أسباب معيشتهم، قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكيم والمصالح، ولم نفوض أمرها إليهم، فمن أين لهم أن يتحكموا في أمر النبوة، التي

هي أعلى المراتب وأقدسها؟ ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق، وسائر مبادئ المعاش ﴿دَرَجَاتٍ﴾ متفاوتة، حسبما تقتضيه الحكمة، فمن ضعيف وقوي، وفقير وغني، وحاكم ومحكوم ﴿لِنَتَّخِذَ بَعْضَهُمَ بَعْضًا سَخِرَاءً﴾ أي ليستعمل بعضهم بعضاً في مصالحهم، حتى يتعاشوا ويصلوا إلى مرافقهم، لا لكمال في الموضع، ولا لنقص في المقر، ولو فوضنا أمرها إلى تدبيرهم لهلكوا ﴿وَرَحِمْتُ رَيْكَ﴾ أي النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، لأن منافع الدنيا على شرف الانقضاء، وثمرات الرحمة تبقى أبد الآباد!!

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بيان لحقارة متاع الدنيا، ودناءة قدره، عنده عَرٌّ وجلٌّ، والمعنى: إن حقارة شأن المتاع، بحيث لولا أن يرغب الناس، لحبهم الدنيا في الكفر، إذا رأوا أهله في سعة وتنعم، فيجتمعوا عليه، لأعطيناه بحذافيره، من هو شرُّ الخلاق، وأدناهم منزلة، وذلك قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي للكفار خاصة ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾ أي متخذة منها ﴿وَمَعَارِجَ﴾ من فضة، أي مصاعد إلى المساكن العالية، كالدرج والسلالم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يعلون السطوح والعلالي.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أي وجعلنا لبیوتهم ﴿أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ﴾ من فضة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على السرر ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ تكرير ذكر «بيوتهم» لزيادة التقرير.

﴿ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٥)

﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ أي وزينة عظيمة من كل شيء، من الذهب، والفضة وسائر أنواع الجواهر. ﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي وما كل ما ذُكر إلا شيء يتمتع به في الحياة الدنيا عما قريب يزول ﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي والآخرة وما فيها من أنواع الملاذ والنعم للمؤمنين المتقين، الذين يتقون الكفر والمعاصي، فتبيّن بهذا أن المال والجاه، حقيران عند الله تعالى، وأنهما على شرف الزوال، وأن العظيم هو العظيم في باب التقوى، والإيمان، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا عند الله، تزن جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(١) فإن قيل: لمّا بيّن الله أنه لو فتح على الكافرين أنواع النعم، لصار ذلك سبباً لاجتماع الناس على الكفر، فلم لم يفعل ذلك بالمسلمين، وكانوا يجتمعون على الإسلام؟ قلنا: لأن الناس على هذا التقدير، كانوا يجتمعون لطلب الدنيا، فهذا إيمان المنافقين، فلا بد أن يكون كل من دخل الإسلام، يدخل لطلب رضوان الله تعالى وثوابه، فحيثُذ يكون مسلماً صادقاً في دينه، وأما في طلب الدنيا فلا يظهر حقيقة إسلامه.

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (٢٦)

﴿ وَمَنْ يَعْشُ ﴾ أي يتعام، يقال: عَشَى يَعْشَى إذا كان في بصره آفة، وَعَشَى يَعْشُو إذا تعامى بلا آفة ﴿ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ وهو القرآن، وإضافته إلى «الرحمن» للإيذان بنزوله رحمة للعالمين، والمعنى: ومن يتعام ويعرض عن القرآن، لفرط اشتغاله بزهرة الحياة الدنيا، وانهماكه في الشهوات،

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٣٢١ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿نُقِضَ لَهُ﴾ أي انضم إليه ونسلط عليه ﴿شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ أي فهو له ملازم، ومصاحب لا يفارقه، ولا يزال يوسوس إليه ويغويه، والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا، وذلك أن من حاز المال والجاه، صار كالأعشى عن ذكر الله، وإذا ازداد جبهما زاد العشى حتى يصير كالعمى.

﴿وَلَا تَنصُرُوهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿وَلَا تَنصُرُوهُمْ﴾ أي الشياطين المضلين ﴿لَا تَنصُرُوهُمْ﴾ أي قرناءهم ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ المستبين الذي يدعو إليه القرآن الكريم ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي ويظن الكفار ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي الشياطين ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ إلى سبيل مستقيم، وإلا لما اتبعوهم^(١).

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرِينُ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي كل واحد منهم، مع قرينه يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ أي قال الكافر مخاطباً لقرينه ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ في الدنيا ﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي بعد ما بين المشرق والمغرب، أي تباعد كل منهما عن الآخر، فغلب ههنا المشرق على المغرب ﴿فَيَتَسَّ الْقَرِينُ﴾ أنت، وقوله: ﴿وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ، من جهة الله عز وجل، توبيخاً.

﴿وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة تمنىكم ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ أي

(١) الأظهر أن الضمير يعود إلى الكفار أنفسهم، أي وإن الكفار يظنون أنهم مهتدون باتباعهم طريق الشياطين.

لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا، باتباعكم إياهم في الكفر والمعاصي ﴿أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي اشتراككم في العذاب، كما كنتم مشتركون في سببه في الدنيا، على معنى: أن اشتراكهم في العذاب لا يخفف عنهم البلاء، لأن المكروب يجد راحة التأسي بغيره، وهؤلاء لا يجدون ذلك، فقد حُرِّمُوا أهون أنواع العزاء.

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ كان ﷺ يبالي في المجاهدة لدعوة قومه، وهم لا يزيدون إلا غيًّا وتعامياً، عما يشاهدونه من شواهد النبوة، فنزلت هذه الآية، وهذا تسلية للرسول ﷺ، لأن اليأس إحدى الراحةتين. ثم وعد تعالى أن ينتقم منهم، وذلك أيضاً يوجب التسليّة، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ﴾؟ إنكار وتعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم، وهم قد استغرقوا في الكفر والضلال بحيث صار ما بهم من العشى عمى، مقروناً بالصمم!! ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؟ مدار الإنكار، هو تمكنهم في الضلال، المفرط، بحيث لا ارعواء لهم عنه، لا توهم القصور من قبل الهادي ﷺ، ففيه رمز إلى أنه لا يقدر على ذلك، إلا الله تعالى وحده.

﴿فَأِمَّا تَرَاهُمْ فِي سَعَةٍ مُنْقَشِقِينَ﴾

﴿فَأِمَّا تَرَاهُمْ فِي سَعَةٍ مُنْقَشِقِينَ﴾ أي فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ﴿فَأَمَّا تَرَاهُمْ فِي سَعَةٍ مُنْقَشِقِينَ﴾ لا محالة في الدنيا والآخرة.

﴿أَوْ نُزِيلُكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقَدِّرُونَ﴾

﴿أَوْ نُزِيلُكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ أي العذاب الذي وعدناهم إياه ﴿فَأَمَّا تَرَاهُمْ فِي سَعَةٍ مُنْقَشِقِينَ﴾

مُقْتَدِرُونَ ﴿﴾ بحيث لا مناص لهم من تحت ملكنا وقهرنا، ولقد أراه ﷺ بعض ذلك يوم بدر، ويوم أحد.

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ .

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ أي فتمسك بالقرآن الذي أنزل عليك، بمراعاة شرائعه وأحكامه، سواء عجلنا لك الموعود، أو أخرناه ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي على طريقٍ سوي لا عوج له، وهو طريق التوحيد، ودين الإسلام.

﴿ وَإِنَّمْ لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّمْ لَذِكْرُ ﴾ أي القرآن العظيم الذي أوحى إليك، لشرف عظيم ﴿ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أي لك يا محمد خاصة، ولأمتك عموماً، إذ أنزل عليهم أشرف الكتب السماوية ﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ يوم القيامة عنه، وعن قيامكم بحقوقه.

﴿ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

﴿ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ أي واسأل أممهم وعلماء دينهم، كما في قوله تعالى: ﴿ فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾ وفائدة هذا التنبيه على أن المسؤول عنه، عين ما نطقت به ألسنة الرسل قال القراء: إنما يخبرهم عن أتباع الرسل، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء عليهم السلام ﴿ أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ أي هل أمرنا بعبادة الأوثان، وهل جاء ذلك في دين من أديانهم، والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على

التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع، حتى يكذب ويُعادى فيبين الله تعالى أن إنكار عبادة الأصنام، ليس من خواص دين الإسلام، بل كان جميع الأنبياء مطبقين على إنكاره!!.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أريد بذكر قصة موسى تسليية الرسول ﷺ، والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد، أي استهزؤوا بها أول ما رأوها، ولم يتأملوا فيها بل ضحكوا سخرية واستهزاء.

﴿وَمَا تُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَمَا تُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ ﴿٤٨﴾﴾ من الآيات الباهرة، من ألوان العذاب كالطوفان، والجراد ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي إلا وهي في غاية الكبر والظهور ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ أي وعاقبناهم بأنواع العذاب الشديد ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الكفر، إلى دين التوحيد.

﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ ﴿٤٩﴾﴾ نادوه بذلك في مثل تلك الحالة لغاية عتوهم، وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر، لاستعظامهم علم السحر ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ بعهده عندك من النبوة، أو

من استجابة دعائك ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي لمؤمنون على تقدير كشف العذاب عنا بدعوتك كقولهم: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾^(١).

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾.

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ عهدهم، مرّ في الأعراف.

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُورِ آلِيسَ لِي مُلْكٌ مِّصْرَ وَهَٰذِهِ
الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ ﴾ بنفسه رؤساء القبط ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ في مجتمعهم، بعدما انكشف العذاب عنهم، مخافة أن يؤمنوا ﴿قَالَ يَنْقُورِ آلِيسَ لِي مُلْكٌ مِّصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أنهار النيل ومعظمها أربعة أنهر: نهر الملك، نهر طولون، نهر دمياط، نهر تنيس ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أي من تحت قصري في جناني وبساتيني ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك، يريد به استعظام ملكه، روي عن الرشيد أنه لما قرأها قال: لأوليئها أخس عبيدي!! فولأها الخصب وكان خادمه على وضوئه، فخرج إليها فلما شارفها قال: أهى القرية التي افتخر بها فرعون، والله إنها أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه.

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثٌّ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾.

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ مع هذه المملكة ﴿مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثٌّ﴾ ضعيف، حقير من المهانة وهي القلة، أي لا عزّ له ولا سلطان ولا مال، يقصد به موسى

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣٤.

عليه السلام ﴿وَلَا يَكَاذُبِينَ﴾ أي الكلام، قاله افتراء عليه، وتنقيصاً له في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من لُكنة، وقد كانت ذهبت عنه كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾.

﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ مَقْتَرِينَ﴾ ﴿٥٢﴾

﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ﴾ أي فهلاً ألقى الله إليه أسورة من ذهب، كرامة له ودلالة على نبوته، وقد كانوا إذا سوَّروا رجلاً سوَّروه وطوقوه بطوق من ذهب، وأسورة ﴿مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ مَقْتَرِينَ﴾ أي يمشون معه يعينونه، ويصدقونه في دعواه.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٥٣﴾

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ فاستفهم، وطلب منهم الخفة في مطاوعته، واستخف بعقول قومه ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الكبير.

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَاَعْرَقْنَاهُمْ اٰجَمِينَ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾ أي أغضبونا أشد الغضب، من أسف إذا اشتد غضبه ﴿اٰنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَاَعْرَقْنَاهُمْ اٰجَمِينَ﴾ أي أهلكناهم بالغرق في البحر.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِِّلْآخِرِينَ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار، يسلكون مسلكهم في استجلاب غضب الله ﴿وَمَثَلًا لِِّلْآخِرِينَ﴾ أي عظة لهم، أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال، فيقال: مثلهم كمثل قوم فرعون.

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ ضربه ابن الزبيري حين جادل رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ حيث قال: أهذا لنا ولآلهتنا، أو لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: لكم ولجميع الأمم، فقال اللعين: خصمتك ورب الكعبة، أليس النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيزاً، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضيْنَا أن نكون معهم!! ففرح قومه وضحكوا، وارتفعت أصواتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ من أي ذلك المثل ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي يرتفع لهم جلبة وضجيج، فرحاً وجدلاً.

﴿ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي كفرة قريش ﴿ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي عيسى خير من آلهتنا، فإذا كان هو في النار، فلا بأس أن نكون مع آلهتنا في النار؟ وقد روي أنه ﷺ ردَّ عليه بقوله: ما أجهلك بلغة قومك!! أما تعلم أن «ما» لما لا يعقل!! يعني أن اعتراضه في غير محله، لأن الآية الكريمة وردت بلفظ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ و «ما» في اللغة لما لا يعقل، ولو كان النص «إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ» لكان هناك احتمال للاعتراض، على أن الآية بعدها وردت بالاستثناء ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْنا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي ما ضربوا لك ذلك المثل، إلا لأجل الجدل والخصام، لا لطلب الحق، حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانه. القائلون بدم الجدل تمسكوا بهذه الآية، والآيات الكثيرة تدل أن الجدل الذي يفيد تقرير الحق ممدوح، وتصرف هذه الآية على الجدل الذي يوجب تقرير الباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي شداد الخصومة، مجبولون على اللجاج والعناد، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ

قوم بعد هُدى، كانوا عليه، إلا أوتوا الجدَل، ثم تلا ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ الآية^(١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي بالنبوة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أمراً عجيباً، حقيقة بأن يسير ذكره كالأمثال، حيث خُلق من أم بدون أب، كما خلق آدم عليه السلام، وفيه تنبيه على بطلان رأي من رَفَعه عن رتبة العبودية، إلى رتبة الألوهية، لأنه مخلوق ومولود كسائر الأولاد.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ الخ هذه الآية لتحقيق أن مثل «عيسى» ليس ببدع من قدرة الله، وأنه تعالى قادر على أبداع من ذلك، بحيث لو نشاء ﴿لَجَعَلْنَا﴾ أي لخلقنا بطريق التوالد ﴿مِنْكُمْ﴾ أي وأنتم رجال ليس من شأنكم الولادة ﴿مَلَائِكَةً﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مستقرين فيها، أو لجعلنا بدلکم ملائكة ﴿يَخْلُقُونَ﴾ أي يخلقونكم يسكنون في الأرض.

قال مجاهد: ملائكة يعمزون الأرض بدلاً منكم.

﴿وَلَئِنْ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

﴿وَلَئِنْ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ﴾ أي إن عيسى عليه السلام بمنزلة شرط من أشراف

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٥٠ وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه رقم ٤٨ باب اجتناب البدع والجدل، وأحمد في المسند ٢٥٢/٥.

الساعة، لأن الله عز وجل ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، فنزوله علامة على قربها، وقرأ ابن عباس «لَعَلَّكُمْ» للساعة، وهو العلامة ﴿فَلَا تَمْتَرُوا بِهَا﴾ فلا تشكّن في وقوعها ﴿وَأَتَّبِعُونِ﴾ أي وقل لهم يا محمد اتبعوا هديي، وشرعي، وما جئتكم به من عند الله ﴿هَذَا﴾ أي الذي أدعوكم إليه ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي دين قويم موصل إلى الحق.

﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٢).

﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ عن اتباعي ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بين العداوة، حيث عرّضكم للبلية.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٣).

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات، وبالشرائع البينات ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أي بالحكمة الإلهية وبالشرعة الواضحة ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو ما يتعلق بأمر الدين، لا بأمر الدنيا، لأن بيانه ليس من وظائف الأنبياء، كما قال ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(١) ﴿فَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفتي ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أبلغه عنه تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ أي أنا وأنتم عبيد لله مأمورون بعبادته،

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٣٦٣ عن عائشة أن النبي ﷺ مرّ بقوم يُلْقِحُونَ النخل، فقال: «لو لم تفعلوا لصلح، فخرج شبيصاً - أي رديئاً - فقال لهم ﷺ: أنتم أعلم بأمر دنياكم» وانظر جامع الأصول ١١/٧٦٤.

وفيه ردُّ على النصارى الذين اعتقدوا بألوهيته ﴿هَذَا﴾ أي التوحيد، والعمل بالشرائع ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ أي الفرق المتحيزة بعد عيسى عليه السلام، فصاروا شيعاً وأحزاباً في شأنه ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من اليهود والنصارى فقال اليهود لعنهم الله: زنت أمه فهو ولد الزنى، وقال بعض النصارى: عيسى هو الله، وبعضهم قال: هو ابن الله، وزعم أكثرهم أن الله وعيسى وأمه آلهة، وهو ثالث ثلاثة، فاتهم الله أنى يؤفكون، ولهذا قال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي من المختلفين في عيسى عليه السلام الذين قالوا عنه ما كفروا به ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي فجأة وهم مشغولون بأمور الدنيا وهو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها.

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

﴿الْأَخِلَاءُ﴾ المتحابون في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ تأتيهم الساعة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لانقطاع ما بينهم من علائق الخلّة، ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإن خلعتهم في الدنيا لما كانت في الله، تبقى على حالها، بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار خلعتهم من الثواب، ورفع الدرجات.

﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦٨﴾

﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله تشریفاً لهم.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٦٩﴾

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي صدّقوا بالقرآن وآيات الرحمن ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي مخلصين في إيمانهم وطاعتهم، وعن مقاتل، إذا بعث الله الناس فرع كل أحد، فينادي منادٍ يا عبادي فيرفع الخلائق رؤوسهم على الرجاء، ثم يتبعها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فينكس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي نساؤكم المؤمنات ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي تسرون سروراً يظهر أثره على وجوهكم.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَآشِئُهُمُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٧١﴾

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ أي بعد دخولهم الجنة ﴿بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ جمع صحفة، والصحفة: إناء كالقصعة جمعها صِحَافٌ ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب وهو كوز لا عروة له وهو القدح ﴿وَفِيهَا مَآشِئُهُمُ الْأَنْفُسُ﴾ من فنون الملاذ ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أي تستلذه وتفرّج بمشاهدته ورؤيته ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إتماماً للنعمة، فإن كل نعيم له زوال، ونعيم الآخرة دائم، والالتفات للتشريف.

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة، شبه جزاء الأعمال بالميراث، لأنه يخلفه للعامل عليه.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب الأنواع والأصناف، لا بحسب الأفراد فقط ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي بعضها، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، وإنما ذكر تعالى التنعم بالمطاعم والملابس، وهو حقير بالنسبة إلى سائر نعم الجنة، لما كان بهم من الشدة والفاقة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي الراسخون في الإجرام، وهم الكفار، حسبما ينبيء عنهم إيرادهم في مقابلة المؤمنين.

﴿لَا يَفْرُغُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسَوْنَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿لَا يَفْرُغُهُمْ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف العذاب عنهم ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي في العذاب ﴿مُبْسَوْنَ﴾ أي آيسون من النجاة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ لتعريض أنفسهم للعذاب الخالد.

﴿وَنَادَوْا بِمَمْلِكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَنَادَوْا بِمَمْلِكٍ﴾ وهو خازن النار ﴿لِّيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي ليمتنا حتى

نستريح، من قضى عليه إذا أماته، والمعنى سل ربك أن يقضي علينا، وهذا لا ينافي ما ذكر من إبلاسه، لأنه جوار وتمنٍ للموت، لفرط الشدة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ تُكْثِرُونَ﴾ في العذاب أبداً لا خلاص لكم منه، بموتٍ ولا بغيره.

﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ (٧٨).

﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ في الدنيا بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهو توبيخ من جهته تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ﴾ أي أكثركم كاره لدين الله ﴿كَذِبُونَ﴾ لا يقبلونه وينفرون عنه.

﴿أَمْ أَمْرُؤَا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩).

﴿أَمْ أَمْرُؤَا أَمْرًا﴾ كلام ناع على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله ﷺ، والهمزة للإنكار، أي أأبرم وأحكم مشركو مكة أمراً، من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدنا حقيقة لا هم، كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ وكانوا يتناجون في أنديةهم ويتشاورون في أموره ﷺ، فنزل قوله تعالى.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٨٠).

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ أي بل يحسبون ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي ﴿بَلَىٰ﴾ نحن نسمعها ونطلع عليها ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ أي يكتبون ما صدر عنهم التي من جملتها سرهم ونجواهم، وعن يحيى بن معاذ «من ستر من الناس ذنوبه، وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية، فهذا من أمارات النفاق».

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴾ ﴿٨١﴾ .

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴾ أي لهذا الولد، لأنه ﷺ أعلم الناس بشؤونه تعالى، وبما يجوز عليه وبما لا يجوز، وأولاهم بمراعاة حقوقه، ومن موجبات تعظيم الوالد، تعظيم ولده^(١). والمقصود من هذا الكلام، بيان بآني لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة، إن قام دليل على ثبوت هذا الولد، إلا أنه لم يوجد، بل الدليل القاطع على عدمه، وفيه من الدلالة على كون رسول الله ﷺ على قوة يقين، في باب التوحيد، ما لا يخفى.

﴿ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾ .

﴿ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي ممّا يصفونه به من الزوجة والولد، وفي إضافة اسم الرب إلى العرش أعظم الإجماع، تنبيه على أنها وما فيها تحت ملكوته وربوبيته، فكيف يُتوهم أن يكون شيء منها جزءاً منه سبحانه، وفي تكريم اسم الرب تفخيم لشأن العرش.

﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾ .

﴿ فَذَرَهُمْ ﴾ حيث لم يدعنا للحق، بعدما سمعوا هذا البرهان الجلي ﴿ يَخُوضُوا ﴾ في أباطيلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ في دنياهم، فإن ما هم فيه من الأفعال والأقوال، ليست إلا من باب الجهل واللعب ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي

(١) الآية الكريمة على الفرض والتقدير، أي إن كان لله ولد، فأنا لا أستكف عن عبادته، ولكنه سبحانه منزّه عن الولد، لأنه ليس له صاحبة، كما قال سبحانه ﴿بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ؟﴾ ثم الولد ينبغي أن يشبه أباه، فالله لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، فكيف يكون عيسى ابناً لله، وهو يأكل ويشرب ويحدث الحدث؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً!!

يُوعَدُونَ ﴿ يعني يوم القيامة، فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا، وما يُفعل بهم، والمقصود منه التهديد.

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٨٤﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ﴾ ^(١) أي معبود بالحق في السماوات والأرض ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أي الحكيم بصنعه، العليم بخلقه كالدليل لما قبله.

﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٨٥﴾ .

﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي تمجّد وتقدس الله مالك السماوات والأرض، وما بينهما من المخلوقات، من الملائكة، والإنس والجن ﴿ وَعِنْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ التي تقوم فيها القيامة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء، والالتفات للتهديد.

﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي يدعونهم ﴿ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ ﴾ كما يزعمون ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ الذي هو التوحيد، أي المؤمن الموحد فهو الذي تنفع شفاعته، لا القسس، والكهّان، والأوثان ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإخلاص.

(١) لا يقتضي هذا تعدد الإله، لأن المراد بالإله هنا المعبود، أي هو جلّ وعلا معبود في الأرض كما هو معبود في السماء، يعبدُه أهل السماء وأهل الأرض.

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ ﴾ أي سألت العابدين ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لتعذر الإنكار فيه، من فرط ظهوره ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ مع كونهم يعترفون بكون الكل مخلوقاً له تعالى.

﴿ وَقِيلَ لَهُ يَكْرَبُ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿ وَقِيلَ لَهُ ﴾ أي وقول الرسول، بالجر عطف على الساعة، أي عنده علم قوله ﷺ والقول والقال، والقبل، كلها مصادر ﴿ يَكْرَبُ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بك وبالقرآن فافعل بهم ما شئت، قيل له.

﴿ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٨٩﴾ .

﴿ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن دعوتهم ﴿ وَقُلْ ﴾ لهم ﴿ سَلَامٌ ﴾ أي أنا هاجر لكم وتارككم، فهو سلام مباركة، لا سلام تحية ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ حالهم البتة وإن تأخر، وهذا وعيدٌ من الله تعالى لهم، وتسليّة للرسول ﷺ، والله أعلم بمراده، والحمد لله على نعمائه والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

«انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف»

* * *

سُورَةُ الدُّجَانِ

مكية وهي تسع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

﴿حَمْدٌ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي أقسم لكم بالقرآن العظيم، الواضح
البيّن.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب المبين، وهو القرآن ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ هي
ليلة القدر^(١) قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وأطبّقوا على أن ليلة
القدر في رمضان، لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي

(١) أما القائلون بأن «الليلة المباركة» هي ليلة النصف من شعبان، فليس لهم دليل يعوّل
عليه، من كتاب أو سنة، فإن صحَّ شيء عن رسول الله ﷺ فلا مزيد عليه وعلى
الرأس والعين، وإلا فالحق ما عليه الجمهور أنها ليلة القدر، كما صرّح به الكتاب
العزیز، وأنها في شهر رمضان المبارك، والله أعلم.

ابتدأ فيه إنزاله، أو أنزل جملة إلى السماء الدنيا، من اللوح المحفوظ، ثم نزل به جبريل عليه السلام في وقت الحاجة إليه ﷺ، وصفها تعالى بالبركة، لما أن نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده، لكفى به بركة، وكفى لها شرفاً!! وأيضاً لما فيها لما من نزول الملائكة، والرحمة، وإجابة الدعوة، وفضيلة العبادة، وقسمة الأرزاق ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ استئناف مبين لما أنزلناه، أي لأن من شأننا الإنذار من العقاب.

﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾

﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ استئناف، لبيان فضل هذه الليلة، ففيها تُفصل الأمور المحكمة، والملتبسة بالحكمة، وهذا يدل على أنها ليلة القدر، ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل كل أمر حكيم، من أرزاق العباد، وآجالهم، وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة. وفي الآية بيان لعظم القرآن بحسب ذاته، لأن تعالى أقسم به، ووصفه بكونه مبيناً، وبحسب شرف الوقت أنزله في ليلة مباركة، وبحسب شرف منزله، وهو رب العزة والجلال، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾

﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أي أعني أمراً حاصلاً من عندنا، على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الرسل لهداية البشر.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي إنا أنزلنا القرآن، لأن من عادتنا إرسال الرسل إلى العباد، لأجل إفاضة رحمتنا عليهم، فالأوامر الصادرة منه تعالى، من

باب الرحمة، فإن الغاية من تكليف العباد هو تربيتهم وتعريفهم للمنافع ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ يسمع أقوال العباد ﴿الْعَلِيمُ﴾ أي يعلم أحوالهم.

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ ﴿٧﴾

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ ﴾ أي رب الكون كله، سمائه وأرضه ﴿إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم مريدين اليقين، فاعلموا أنه الله عز وجل.

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٨﴾

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ إذ لا خالق سواه فهو المحيي المميت، خالق الخلق، رب الأولين والآخرين.

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ ﴿٩﴾

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ﴾ أي غير موقنين في إقرارهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أي لا يقولون ما يقولون عن جد وإذعان، بل مخلوطاً بهزء ولعب.

﴿ فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿١٠﴾

﴿ فَأَرْتَقِبْ ﴾ أي فانتظر ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي يوم شدة ومجاعة، وذلك أن قريشاً لما استعصت على رسول الله ﷺ، دعا عليهم، فقال: اللهم اشدّد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فأخذتهم سنة حتى أكلوا الجيف، والعظام، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض مثل الدخان، وذلك قوله تعالى:

﴿ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿١١﴾

﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي يحيط بهم ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي قاتلين ذلك، وهذا قول ابن عباس، وابن مسعود، وهو اختيار الفراء، والزجاج، وأكثر العلماء، وعن علي: هو دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة، يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فهو كالسكران.

روي أن أبا سفيان ونقرأ معه، مشوا إلى رسول الله ﷺ، وناشدوه الله والرحم، إن دعا لهم، وكشف الله عنهم العذاب، أن يؤمنوا، وذلك قوله تعالى حاكياً قولهم:

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (١٦)

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ومن فسر الدخان من الأشرار، قالوا: تصوّر المعذبون به من الكفار والمنافقين الدخان، فاستغاثوا وقالوا ربنا... إلخ.

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ (١٧)

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ أي كيف يتذكرون ويوفون بما وعدوه من الإيمان، عند كشف العذاب عنهم؟ ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أي والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر، وموجبات الاعتاظ ما هو أعظم منه، حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، وبيّن لهم مناهج الحق، بإظهار آيات ظاهرة، ومعجزات قاهرة.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ خَبِيثٌ﴾ (١٨)

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ عن ذلك الرسول، ولم يقنعوا بالتولي، ﴿وَقَالُوا﴾ في حقه ﷺ ﴿مُعَلِّمٌ خَبِيثٌ﴾ قالوا تارة معلم يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف،

وأخرى مجنون، فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم، أن يتأثروا بالعِظة؟ وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضَفًّا، - أي تذلل - وإذا شبع طغى.

﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ (١٥).

﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ، وما بينهما اعتراض، أي إنا نكشف العذاب المعهود عنكم، زماناً قليلاً، إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتو والفساد.

ومن فسر الدخان بأنه من أشراط الساعة قال: فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوماً، وحيثما يكشفه عنهم يرتدون، والأول هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم، فإن قوله تعالى ﴿أنى لهم الذكرى﴾ وقولهم ﴿معلم مجنون﴾ يؤيده، واحتج القائلون بالثاني، ببعض الأحاديث الشريفة منها: ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بادرُوا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، ودابة الأرض، والدجال، وخويصة أحدكم، وأمر العامة»^(١) أي قبل ظهور ست آيات وعلامات، وقوله «وخويصة أحدكم» أي ما يختص به الإنسان في نفسه أو أهله أو ماله، فيشغله، ويريد بأمر العامة القيامة الكبرى، وقيل الفتنة التي تعم الناس، واستدلوا أيضاً بما روي عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال ﷺ: «إنها لن تقوم - أي الساعة - حتى تتروا عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف، ونار تخرج من اليمن»^(٢). وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خمس قد

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٤٧ في الفتن.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن رقم ٢٩٠١.

مضين: اللزأ، والروم، والبطش، والقمر، والدخان^(١). عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إن قاصاً يقص، ويزعم أن آية الدخان تجيء، فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منها كهيئة الزكام، فقال: يا أيها الناس اتقوا الله، من علم منكم شيئاً فليقل به، ومن لا يعلم شيئاً فليقل: الله أعلم، إن رسول الله ﷺ لما دعا قريشاً فكذبوه، واستعصوا عليه، قال: اللهم أعني عليهم بسبع كسيع يوسف، فأخذتهم سنة حصت^(٢) كل شيء، حتى أكلوا الجلود، وأميتة من الجوع، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى كهيئة الدخان، فذلك قوله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾^(٣).

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ يوم القيامة، وقيل يوم بدر ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ أي يومئذ نتقم منهم أشد أنواع الانتقام.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي امتحنا ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بإرسال موسى يعني عاملناهم معاملة المختبر، وأوقعناهم في الفتنة، بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ أي كريم على الله، وكريم في نفسه، لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا من سرّاة قومه وكرامهم.

﴿أَن أَدُؤَا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾

(١) أخرجه البخاري ٥٧٤/٢ في تفسير سورة الدخان.

(٢) أي أفنت وأكلت كل شيء.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٥٧٣/٨.

﴿ أَنْ أَدُورَ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ ﴾ أي بأن أدوا إلي بني إسرائيل، أي سلموا إلي قومي كقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ ﴾ ^(١) ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ قد ائتمنني الله تعالى على وحيه، وصدّقني بالمعجزات.

﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ^(١٥).

﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي لا تتكبروا على الله تعالى بالاستهانة بوحيه وبرسوله ﴿ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها، وهي معجزة العصا واليد.

﴿ وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ ^(٢٠).

﴿ وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أي النجاة إليه، وتوكلت عليه ﴿ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ أي من أن ترجموني أي تقتلوني، قيل: لما قال: ﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ توعدوه بالقتل، والمعنى: إني عائد بربي من كيدكم وشرككم، فهو غير مبالٍ بما كانوا يتوعدونه به من الرجم.

﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴾ ^(٢١).

﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴾ أي فإن لم تؤمنوا لي فكفّوا أذاكم عني، ولا تتعرضوا لي بشر وسوء، فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحكم.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ ^(٢٢).

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ بعدما أصروا على تكذيبه ﴿ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ أي

(١) سورة طه، آية: ٤٧.

مَصْرُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَالْإِجْرَامِ، فَانْتَقَمَ مِنْهُمْ، فَإِنْ قِيلَ: الْكُفْرُ أَعْظَمُ مِنَ الْجَرَمِ، فَلَيْمَ قَالَ ﴿تُجْرِمُونَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ كَافِرُونَ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْكَافِرَ قَدْ يَكُونُ عَدْلًا فِي دِينِهِ، وَقَدْ يَكُونُ مَعَ كُفْرِهِ مُجْرِمًا، مُرْتَكِبًا لِأَنْوَاعِ الْكِبَائِرِ وَالْجَرَائِمِ، وَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِجْرَامِ، وَسَرَعَانَ مَا كَانَتْ اسْتِجَابَةُ الدَّعَاءِ!! قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لَهُ:

﴿فَأَسْرِ بِعَبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ (٢٣)

﴿فَأَسْرِ بِعَبَادِي لَيْلًا﴾ بِإِضْمَارِ الْقَوْلِ، أَيِ أَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُخْرِجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِاللَّيْلِ، عَلَى غَفْلَةٍ مِنَ الْعَدُوِّ، لِيَنْجُوا مِنْ شَرِّ فِرْعَوْنَ وَاتِّبَاعِهِ ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ أَيِ يَتَّبِعُكُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودُهُ، بَعْدَمَا عَلِمُوا خُرُوجَكُمْ.

﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ (٢٤)

﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أَيِ سَاكِنًا عَلَى هَيْئَةٍ بَعْدَ مَا جَاوَزَتْهُ ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ أَيِ سَيُغْرَقُونَ فِي الْبَحْرِ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ النِّجَاةَ.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٢٥)

﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ أَيِ كَثِيرًا تَرَكُوا بِمِصْرَ ﴿مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بَسَاتِينَ وَحَدَائِقَ غَنَاءَ، وَعُيُونٌ جَارِيَةٌ بِالْمَاءِ.

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (٢٦)

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أَيِ مَزَارِعَ وَاسِعَةٍ، فِيهَا أَنْوَاعُ الْخَضِرَةِ وَالشُّمَارِ، وَمَسَاكِنَ وَدُورَ وَقُصُورَ أَنْيَقَةٍ.

﴿وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فِتْكَيْنَ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿وَنَعْمَ﴾ أي تنعم، والنعمة بالفتح ما يتنعم به الإنسان، وبالكسر من الإِنعام ﴿كَانُوا فِيهَا فِتْكَيْنَ﴾ متنعمين، تفكّه بالشي أي تمتع به.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ قيل هم بنو إسرائيل، وقيل: غيرهم لأن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر^(١).

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ أي فما حزن على فقدهم أحد، ولا تأثر بموتهم مخلوق، لأنهم فجرة أشقياء، وبكاء السماء كناية عن الحزن والتفجع عليهم، وفيه تهكم بهم، وبحالهم المتنافية لحال من يعظم فقدّه، فيقال: بكّت عليه السماء والأرض، وقيل: بكاء السماء حقيقة؛ لما رُوي عن أنس رضي الله عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مؤمن إلا وله بابان: بابٌ يصمد فيه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه، ثم تلا ﷻ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾. (٢) الآية، وقيل: تقديره ما بكى عليهم أهل السماء والأرض.

(١) القول الأول هو الصحيح، أن الذين ورثوا ديار قوم فرعون هم بنو إسرائيل، لقوله تعالى في سورة الشعراء ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعِوْنٍ وَكَنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾. كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴿فَالنَّصِ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْوَارِثِينَ كَانُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْقَوْلُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا إِلَى مِصْرَ غَيْرُ صَحِيحٍ، وَهِيَ أَخْبَارُ إِسْرَائِيلِيَّةٍ.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٣٥٤/٥.

﴿ وَلَقَدْ بَجْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (٢٠)

﴿ وَلَقَدْ بَجْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ أي من استعباد فرعون إياهم، وقتل أبنائهم.

﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُمْ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢١)

﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴾ أي من عذاب فرعون ﴿ إِنَّهُمْ كَانَ عَالِيًا ﴾ أي متكبراً، جبّاراً، ﴿ مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي مسرفاً في الشر والفساد.

﴿ وَلَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٢)

﴿ وَلَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ ﴾ أي بني إسرائيل ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ بأنهم أحقّاء بالاختيار ﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي عالم زمانهم.

﴿ وَءَايَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَتْؤًا مُّبِينٌ ﴾ (٢٣)

﴿ وَءَايَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ ﴾ كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغيرها ﴿ مَا فِيهِ بَلَتْؤًا مُّبِينٌ ﴾ أي اختبار ظاهر، لننظر كيف يعملون؟.

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴾ (٢٤)

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴾ يعني كفار قريش، لأن الكلام فيهم، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على تماديهم في الإصرار على الضلالة، والتحذير من حلول مثل ما حلّ بهم.

﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴾ (٢٥)

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى﴾ أي ما العاقبة إلا الموتة الأولى، المزیلة للحياة الدنیویة، ولیست الموتة إلا هذه الموتة، دون التي تعقب حياة القبر، كما ترعمون، ثم صرّحوا فقالوا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ أي بمبعوثین.

﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٦﴾

﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا﴾ خطاب لمن وعدهم بالبعث بعد الموت ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فیما تعدون به من قیام الساعة، فأحيوا لنا من مات من أجدادنا.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ ردّ لقولهم، وتهديد لهم، والمعنى: هل كفار قريش خيرٌ في القوة والمنعة ﴿أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ﴾ هو «تُبْعَ الحِمْيَرِي» وكان مؤمناً وقومه كافرين، ولذلك ذمهم الله تعالى دونه، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تسبُّوا تُبْعاً فإنه كان قد أسلم»^(١) سُمِّيَ تُبْعاً لكثرة أتباعه، وقيل لملوك اليمن «التبابعة» لأنهم يتبع بعضهم بعضاً، كل ملك يتبع صاحبه الذي قبله، كما يسمى في الإسلام خليفة ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ والمراد منهم عاد وثمود، وأضرابهم من كل جبار عنيد ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بيان عاقبة أمرهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم حيث أهلكوا بسبب إجرامهم، مع ما كانوا في غاية القوة، فلأن يهلك هؤلاء أولى.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَإِيعَابٍ﴾ ﴿٣٨﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَإِيعَابٍ﴾ أي للعبث واللغو.

(١) أخرجه أحمد في المسند.

﴿ مَا خَلَقْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٩).

﴿ مَا خَلَقْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الذي هو الإيمان والطاعة، والبعث والجزاء
﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الأمر كذلك.

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤٠).

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ أي يوم القيامة لأن فيه فصل الحق عن الباطل،
والفصل بين العباد ﴿ مِيقَتُهُمْ ﴾ أي وقت مواعدهم للحساب ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾
أي الأولين والآخرين، برهم وفاجرهم.

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٤١).

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعِي ﴾ أي لا يفيد ولا يدفع ﴿ مَوْلَى ﴾ أي ناصر وولي قرابة أو
غيرها ﴿ عَنْ مَوْلَى ﴾ أي عن أي قريب له ﴿ شَيْئًا ﴾ قليلاً من الإغناء ﴿ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴾ أي لا يقدر على نصرته ولو كان قريبه، ولا ينفعه أي نفع،
ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾.

﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤٢).

﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾ بالعفو عنه، وقبول الشفاعة في حقه ﴿ إِنَّهُ هُوَ
الْعَزِيزُ ﴾ أي الغالب الذي لا يُنصر من أراد تعذيبه ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ لمن أراد أن
يرحمه من أهل الإيمان.

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴾ (٤٣).

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴾ أي الشجرة اللعينة التي تنبت في قعر جهنم.

﴿طَعَامُ الْأَثِيرِ﴾ ﴿٤٤﴾.

﴿طَعَامُ الْأَثِيرِ﴾ أي كثير الآثام، والمراد به الكافر، لدلالة ما قبله وما بعده.

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ﴿٤٥﴾.

﴿كَالْمُهْلِ﴾ أي كالنحاس المذاب الذي انصهر واشتدت حرارته
﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ أي يفور في بطون أهل النار، كغليان القدر بالطعام.

﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ ﴿٤٦﴾.

﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ الماء إذا اشتد غليانه فهو حميم.

﴿خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٤٧﴾.

﴿خَذُوهُ﴾ على إرادة القول، والخطاب للزبانية ﴿فَأَعْتَلُوهُ﴾ أي
جرّوه، والعتل: الأخذ بمجامع الشيء وجرّؤه بقهر وعنف ﴿إِلَى سَوَاءِ
الْجَحِيمِ﴾ أي وسطه.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ﴿٤٨﴾.

﴿ثُمَّ صُبُّوا﴾ أي ألقوا الماء الحار ﴿فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ أي
فوق رأس ذلك الشقي الفاجر، من هذا الماء الحميم، الذي تناهت
حرارته.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ﴿٤٩﴾.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي ويقال له على سبيل السخرية

والاستهزاء: ذق هذا العذاب فإنك أنت المعزَّز المكرَّم، روي أن أبا جهل قال للرسول ﷺ: علام تهددني؟ ما بين بطاحها لا أعز ولا أكرم مني، فوالله لا تستطيع أنت ولا ربك، أن تفعل بي شيئاً، فقتله الله يوم بدر وأذله، ويقال له في القيامة: ذق إنك أنت العزيز الكريم.

﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي العذاب ﴿ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ أي تشكُّون فيه .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ آمِنٍ ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ عن الكفر والمعاصي ﴿ فِي مَقَامٍ ﴾ أي في مكان إقامة، وهي قصور الجنة ﴿ آمِنِينَ ﴾ يأمن صاحبه من الآفات، والانتقال عنه، والمسكن إنما يطيب بشرطين: ١ - أن يكون آمناً عن جميع ما يخاف. ٢ - وأن تكون أسباب النزهة فيه كاملة.

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي في حدائق وبساتين ناضرة، وعيون جارية، وهذا يدل على اشتماله على طيبات المأكَل والمشارب.

﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ ﴿٥٣﴾ .

﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ أي من أنواع ملابس الحرير، الرقيق منه والسميك ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ في المجالس، ليستأنسوا بذلك. فإن قيل الجلوس على هذا الشكل موحش، لأن كل واحد منهم يطَّلِع على ما يفعله الآخر، قلنا: أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا.

﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي قرناهم بزوجات من الحور العين، والحُورُ: جمع حوراء وهي البيضاء، والعِينُ جمع عيناؤ وهي عظيمة العينين.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكْهَةٍ آمِنِينَ﴾.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكْهَةٍ﴾ أي يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه، لا يتخصص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿آمِنِينَ﴾ من كل ما يسوؤهم، ويكدر صفوهم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ بل يستمرون على الحياة الأبدية ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ التي ذاقوها في الدنيا ﴿وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي نجَّاهم الله من عذاب جهنم الفظيع.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني كل ما وصل إليه المتقون، الخلاص من عذاب النار، والفوز بالجنة، إنما حصل لهم بفضل الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، إذ هو خلاصٌ من المكاره، ونيلٌ لكل المطالب، وذلك النعيم تكرمة من الله عزَّ وجلَّ لهم.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي إنا أنزلنا الكتاب المبين بلغتك، كي يفهمه قومك، ويتذكروا ويعملوا بموجبه.

﴿ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿ فَأَرْتَقِبْ ﴾ فانتظر يا محمد ما يحل بهم ﴿ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ إنهم ينتظرون هلاكك، وسيعلمون لمن تكون العاقبة، ولمن يكون النصر والظفر؟ وفيه وعد للرسول ووعد للمشركين، والله أعلم بمراده، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرسول الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان»

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

٤٥ رَتَبَهَا ٣٧ آيَاتُهَا

مكية وهي سبع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾

﴿حَمْدٌ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن منزل من رب العزة والجلال، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، لا كما زعم المشركون أنه من وضع محمد.

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وللكافرين، إلا أنه لما انتفع المؤمن دون الكافر، أضيف للمؤمنين، ونظيره ﴿هدى للمتقين﴾ فإنه هدى لكل، كما قال سبحانه ﴿هدى للناس﴾ نبه تعالى على الآيات التكوينية، والأنفسية، والآفاقية، أما السماوات والأرض فإنهما منظومتان على فنون الآيات البديعة، من نجوم زاهرات، وشمس وقمر، والأرض وما فيها من جبال وبحار، وأنواع المخلوقات العجيبة، وأما الآيات في الأنفس فقد ذكرها في قوله:

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ١

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ ﴾ أي من نطفة، ثم من علقه، متقلبة في أطوار مختلفة، إلى تمام الخلق ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أي فيما ينشره ويفرقه وينوعه، من دابة تدب على وجه الأرض ﴿ ءَايَاتٌ ﴾ دلائل على الصانع المختار ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه.

﴿ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ إما تعاقبهما وإما اختلافهما طولاً وقصراً ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ ﴾ أي من مطر، وهو سبب الرزق، عبّر عنه بذلك تنبيهاً على كونه آية من جهتي القدرة، والرحمة ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزروع، والنبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي بعد يبسها وعرائها عن آثار الحياة، ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ﴾ من جهة إلى جهة، ومن حال إلى حال، ولها منافع أخرى، ومن جعلتها سوق السفن في البحار ﴿ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وتنكير آيات في المواقع الثلاثة، للتفخيم كما وكيفاً.

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَابِئِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ٢

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبسة بالحق ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ ﴾ من الأحاديث ﴿ بَعْدَ اللَّهِ ﴾ أي بعد كتاب الله ﴿ وَءَابِئِهِ ﴾ أي بعد آيات الله ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون إن لم يؤمنوا بهذا القرآن؟

﴿ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ ٣

﴿ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ أي كذاب ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي كثير الآثام والجرائم.

﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةُ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ صفة أخرى لَأَفَّاكَ ﴿تُنَلَّى عَلَيْهِ﴾ أي تقرأ عليه وهي في غاية البيان والوضوح ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي يقيم على كفره، وبصر على طغيانه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ أي مستكبراً عن الإيمان، مستمراً على الطغيان، معجباً بما عنده من الأباطيل، نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري من أحاديث العجم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، والآية وردت بعبارة عامة، ناعية عليه، وعلى كل من يسير سيرة، هذا العمل المشين ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي كأنه لم يسمعها، فخفف فحذف ضمير الشأن ﴿فَبَشِيرَةُ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره واستكباره، والبشارة للتهكم.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا﴾ أي إذا بلغه من آياتنا شيء، وعلم أنه من آياتنا ﴿أَخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي الآيات كلها مهزوءاً بها، من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزاء، ولم يقل اتخذه للإشعار بأنه خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى كل أفَّاكَ ﴿لَهُمْ﴾ بسبب جنایاتهم المذكورة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي عذاب شديد مؤلم، مع الذل والإهانة.

﴿مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

﴿مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ جَهَنَّمَ﴾ أي من قدامهم لأنهم متوجهون إلى ما أُعِدَّ لهم ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ أي ولا يدفع عنهم ﴿مَا كَسَبُوا﴾ من الأموال والأولاد ﴿شَيْئًا﴾ من عذاب الله ﴿وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ﴾ أي ما عبدوا من الأصنام، وتوسيط حرف النفي مع أنَّ عدم الإغناء من الأصنام أظهر

مبني على زعمهم، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم ﴿وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُقادر قدره.

﴿ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴾

﴿ هَذَا هُدًى ﴾ أي القرآن الكريم في غاية الكمال من الهداية، كأنه نفسها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾ أي من أشد أنواع العذاب، وتنوين العذاب في المواقع الثلاثة للتفخيم.

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ﴾ بأن جعله أملس السطح، يطفو عليه ما يتخلل كالأخشاب، ولا يمنع الغوص ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي لتسير فيه السفن بتدبيره وإذنه وأنتم راكبوها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتجارة، والغوص، والصيد، وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ من الموجودات، بأن جعلها مداراً لمنافعكم ﴿مِّنْهُ﴾ أي كائناً منه تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة وكثيرة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في بدائع صنع الله تعالى.

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ أي يعفوا ويصفحوا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾

أي عن الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعتقدون بحساب الله وجزائه، نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك أن مشركاً من بني غفار شتمه بمكة، فهم عمر أن يبطش به، فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يصفح عنه ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ليجازي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الآثام والإجرام، وبما كانوا يكسبون من قبيح الفعال.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥).

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي من فعل خيراً في هذه الحياة فنفعه لنفسه، ومن فعل شراً فضرره عائد عليها، لا يكاد يسري إلى غيره، وهذا ترغيب منه تعالى في العمل الصالح، وزجر عن العمل الباطل ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي مالك أموركم ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي الحكمة وفصل الخصومات بين الناس ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ حيث كثر فيهم الأنبياء، بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين إشارة لفضلها على نعم الدنيا ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ كالمن والسلوى، وأنواع اللذائذ، والثمرات ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ أي عالم زمانهم، فامة محمد ﷺ أفضل الأمم بالنص القاطع ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

﴿وَعَايَنَاهُمُ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٧).

﴿وَأَتَيْنَهُم بِبَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أي دلائل ظاهرة في أمر الدين ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في ذلك الأمر ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بحقيقته، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لرسوخه ﴿بَغْيًا يَنْهَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، والمقصود أن يبين أن طريقة كفار مكة، كطريقة من تقدم في جحود النعم، والتكبر والعناد.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أي أمر الدين ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ بإجراء أحكامها في نفسك، وفي غيرك، من غير إخلال بشيء منها ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم رؤساء قريش يقولون: ارجع إلى دين آبائك، وهذه آراء الجهلة النابعة من الشهوات.

﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩﴾

﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ مما أراد بك إن اتبعتهم ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لا يوالىهم إلا من كان مثلهم ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين أنت قدوتهم، فذم على ما أنت عليه، وأعرض عما سواه بالكلية.

﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي هذا القرآن نور وضياء، وهدى وشفاء، ورحمة لمن آمن به، واستمسك بهدايته.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢١).

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ ﴾ استئناف مسوق لتباين حال المسيئين، وحال المحسنين، إثر بيان حال الظالمين والملتقين، و «أم» منقطعة وما فيه من معنى «بل» للانتقال من بيان الأول إلى الثاني ﴿اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الاجتراح الاكتساب، ومنه الجوارح ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ أي نصيِّرهم في الحكم والاعتبار، وهم على ما هم عليه من مساوئ الأحوال ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؟ وهم فيما هم من محاسن الأعمال، ونعاملهم معاملتهم في الكرامة؟ ﴿سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي محيا الفريقين ومماتهم؟ كلاً لا يستوون في شيء منهما، فإن هؤلاء في عز الإيمان والطاعة في المحيا، وفي رحمة الله ورضوانه في الممات، وأولئك في الكفر والمعاصي في الدنيا، وفي لعنة الله والعذاب في الممات، شتآن بينهما، فلا يتساوى المؤمنون الأبرار مع الكفرة الفجار!! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء حكمهم هذا، وظنهم الباطل، قال الكلبي: نزلت هذه الآية، في عتبة، وشيبة، والوليد، قالوا للمؤمنين: لو كان ما تقولون حقاً، لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، لأننا أفضل حالاً منكم في الدنيا!! فأنكر الله عليهم، وبَيَّن أنه لا يمكن أن يتساوى المجرم مع المحسن، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٢).

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٢).

(١) سورة السجدة، آية: ١٨.

(٢) سورة القلم، آية: ٣٥ - ٣٦.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالعدل والأمر الحق، فإن خلق الله لهما بالحق المقتضي للعدل، يقتضي تفضيل المحسن على المسيء، في المحيا والممات وانتصار المظلوم من الظالم، وإذا لم يطرَد ذلك في المحيا، فهو بعد الممات حتماً ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطف على ما قبله، أي لأجل إظهار الحق، ولتجزى كل نفس بما فعلت في الدنيا، وهذا لا يتم إلا إذا حصل البعث ﴿وَهُمْ﴾ أي النفوس المدلول عليها كل نفس ﴿لَا يَظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، وتسمية ذلك ظلماً، لبيان غاية تنزهه تعالى عنه.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٣)

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾؟ تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى، فكانه عبده، أي أنظرت فرأيته فإن ذلك مما يقتضي منه العجب!! لأنه كان أحدهم يستحسن حجراً فيعبده، فإذا رأى أحسن منه رفضه وكسره، وعبد الآخر ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ أي خذله ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي عالماً سبحانه باختياره الضلالة، وتبديله لفطرة الله، التي فطر الناس عليها ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ بحيث لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكر في الآيات والنذر ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً﴾ مانعة عن الاستبصار والاعتبار ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾؟ أي من بعد إضلاله إياه، بموجب تعاميه عن الهدى، وتماديه في الغي؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي ألا تلاحظون فتعتبرون وتتعضون؟

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢١)

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يصيينا الموت والحياة فيها،

وليس وراء ذلك حياة بعد موتنا، ولا بعث ولا نشور ﴿وَمَا يُهْلِكُ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي إلا مرور الزمان، وتعاقب الأيام، وكانوا يزعمون أن المؤثر في هلاك الأنفس، مرور الزمان، وينكرون قبض الأرواح ويضيفون الحوادث إلى الدهر، وما نالهم من الشدائد إليه كذلك، ويسبون فاعلها، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»^(١) أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ أي بما ذكر من إسناد الحياة والموت إلى الدهر ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مستند إلى عقل، أو نقل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي قصارى أمرهم الظن والتقليد، من غير أن يكون لهم شيء يصح أن يتمسك به في الجملة.

﴿وَإِذَا نُنَاقِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْسَوْنَ مَا كَانُوا يَحْجَتُّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَنْتُمْ بِآيَاتِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿وَإِذَا نُنَاقِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْسَوْنَ﴾ آياتنا الناطقة بالحق، واضحات الدلالة على البعث والنشور ﴿مَا كَانُوا يَحْجَتُّهُمْ﴾ أي ما كان متمسكاً لهم شيء من الأشياء ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَنْتُمْ بِآيَاتِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إلا هذا القول الباطل، الذي يستحيل أن يكون من قبيل الحجة، وتسميته حجة لسوقهم إياه مساق الحجة، فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً امتناعه مطلقاً.

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ بعد البعث ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ للجزاء ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي في جمعكم، فإن من قدر على البدء، قدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجزاء لا محالة، والإتيان بآبائهم حيث كان منافياً

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٢٩٩/٥.

للحكمة التشريعية، امتنع إيقاعه في الحال ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك من قوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا يعلمون قدرة الله على الإماتة والإحياء، ولذلك ينكرون البعث والجزاء.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةُ يُومِيزُ بَحْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيان لاختصاص الملك والتصرف فيهما بالله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةُ يُومِيزُ بَحْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي الكافرون بالبعث، لأن الحياة والعقل والصحة رأس المال، والتصرف فيها لطلب السعادة الأبدية، والكفار قد اتعبوا أنفسهم في هذه الحياة، وما وجدوا منها إلا الخسران.

﴿وَرَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَرَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً﴾ أي باركة على الركب ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي إلى صحيفة أعمالها ﴿الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم: اليوم تنالون جزاء أعمالكم، من خير أو شر ١١.

﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ من تمام ما يقال لهم، وحيث كان كتاب كل أمة مكتوباً بأمر الله، أضيف إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه ﴿كِتَابُنَا﴾ وتهويلاً لأمره، ومن حيث اشتماله على أعمال كل أمة، أضيف إليها ﴿تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ ﴿يُنْطِقُ عَلَيْكُمْ﴾ أي يشهد عليكم ﴿بِالْحَقِّ﴾ من غير زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ أي إنا كنا فيما قبل نستكتب الملائكة ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في الدنيا من خير أو شر.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أي يدخلهم في جنته التي هي مكان تنزل الرحمة ﴿ ذَلِكَ ﴾ الإدخال في الرحمة ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ أي السعادة التي لا سعادة وراءها.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِنِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِي فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (٢١).

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِنِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الإيمان بها ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ كان همكم في الدنيا الإفساد والإجرام؟!.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَنْذِرُ مَا نَنْذِرُ مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَئُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴾ (٢٢).

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ أي ما وعدكم من الأمور الآتية ﴿ حَقٌّ ﴾ واقع لا محالة ﴿ وَالسَّاعَةُ ﴾ التي هي أشهر ما وعد به ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي في وقوعها ﴿ قُلْتُمْ ﴾ لغاية عتوكم ﴿ مَا نَنْذِرُ مَا السَّاعَةُ ﴾ أي شيء هي، استغراباً لها ﴿ إِنَّ نَظْنَئُ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أي ما نعتقد بها إلا ظناً ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴾ لإمكانه، ولعل هؤلاء غير القائلين ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴾.

﴿ وَيَذَاهُمُ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٢٣).

﴿ وَيَذَاهُمُ ﴾ أي ظهر لهم حينئذ ﴿ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ على ما هي عليه، من الصورة المنكرة الهائلة، وعابنوا وخامة عاقبتها، أو جزاءها فإن جزاء السيئة سيئة ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي جزاءه.

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَفِيسْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴾ (٢٤).

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ ﴾ أي نترككم في العذاب ترك المنسي ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي تركتم العمل له ولم تبالوا به ﴿ وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴾ أي ما لأحد منكم ناصر يخلصكم منها.

﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُمُ اخْتَدَمْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ هُزُؤًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ ﴾

﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُمُ ﴾ أي هذا العذاب بسبب أنكم ﴿ اخْتَدَمْتُمْ ءَايَتِ اللَّهِ هُزُؤًا ﴾ مهزوءاً بها ﴿ وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا ﴾ من النار، والالتفات للاستهانة بهم ﴿ وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ ﴾ أي لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم، أي يرضوه، لفوات أوانه.

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ﴾ خاصة، إذ الكلُّ منه نعمة، ودالة على كمال قدرته ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تكرير الرب للتأكيد، وليبيان أن ربوبيته لكل منها بطريق الأصالة، ويوحى بالعظمة والجلال، فهو ربُّ الكائنات، وخالق الأرض السموات، الذي تفرد بالخلق والتدبير.

﴿ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لظهور آثارها فيهما ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العزيز الذي لا يُغلب، والحكيم في كل ما قضى وقدر، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية»

فَهْرَسُ الْمَجْلَدِ الرَّابِعِ

٥	٢٥ - سورة الفرقان
٤٣	٢٦ - سورة الشعراء
٩٣	٢٧ - سورة النمل
١٣١	٢٨ - سورة القصص
١٦٧	٢٩ - سورة العنكبوت
١٩٥	٣٠ - سورة الروم
٢١٧	٣١ - سورة لقمان
٢٣٣	٣٢ - سورة السجدة
٢٤٧	٣٣ - سورة الأحزاب
٢٨٧	٣٤ - سورة سبأ
٣١٣	٣٥ - سورة فاطر
٣٣٥	٣٦ - سورة يس
٣٦٧	٣٧ - سورة الصافات
٤٠٥	٣٨ - سورة ص
٤٣٧	٣٩ - سورة الزمر
٤٦٩	٤٠ - سورة غافر
٥٠٣	٤١ - سورة فصلت

٥٢٧	٤٢ - سورة الشورى
٥٥١	٤٣ - سورة الزخرف
٥٧٩	٤٤ - سورة الدخان
٥٩٥	٤٥ - سورة الجاثية
٦٠٧	فهرس المجلد الرابع

بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى تَمَّ انْتِهَاءُ الْمَجْلَدِ الرَّابِعِ وَكَانَ الْمَجْلَدُ الْخَامِسُ
وَيَبْدَأُ بِتَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَحْقَافِ

المقتطف من عبود التقياسية

للمرحوم فضيلة الشيخ
مصطفى الطاهر (المصري)

حَقَّقَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ
خَادِمُ الْكِتَابَةِ وَالسُّنَّةِ
محمد علي الصابوني

المجلد الخامس

الدار الشمسية
بيروت

دار القلم
دمشق



سُورَةُ الْاِحْقَافِ

مكية وهي خمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۝٣ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ۝٤﴾

﴿حَمْدٌ ۝١ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي بتقدير أجل مسمى، ينتهي إليه أمر الكل، وهو يوم القيامة، وهذا يدل أن إله العالم، ما خلق هذا العالم ليبقى مخلداً، بل إنما خلقه ليكون داراً للعمل، ثم يفنيه ثم يعيده، فيقع الجزاء في الدار الآخرة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ أي والحال أنهم معرضون عما خُوفوا به، لا يستعدون لحلوله، ولا يتفكرون ولا يتدبرون!

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَادِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُكْفَرُ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٥﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ توبيخاً لهم، أي أخبروني ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ أي ما تعبدون

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام ﴿أَرُونِي﴾ تأكيد لـ: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أرشدوني وأعلموني ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾؟ أي شركة مع الله ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي في خلقها وملكها وتدبيرها؟ فإن البشر بمعزل عن الخلق والتدبير، وإن كانوا من الأحياء العقلاء، فما ظنكم بالجمادات؟ ﴿أَتَتُونِي بِكِتَابٍ﴾ تبكيت لهم، أي اتنوني بكتاب سماوي كائن ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي القرآن الناطق بالتوحيد ﴿أَوْ أَتَنَزَّلَ مِنْ عَلِيمٍ﴾ أي بقية من علم من علوم الأولين، شاهدة باستحقاقهم العبادة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم، فإنها لا تكاد تصح، ما لم يقيم عليها برهان.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ إنكار ونفي لأن يكون أحد يساوي المشركين في الضلال، أي هم أضل من كل ضال، حيث تركوا خالقهم السميع، القادر، الخبير، المجيب، إلى عبادة مصنوعهم العاجز، العاري عن السمع، والقدرة، والاستجابة، ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ غاية لنفي الاستجابة، أي لا يستجيبون لهم أبداً ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ﴾ أي لا يسمعون ولا يفهمون دعاء العابدين، وفيه تهكم بهم وبعبدتهم ﴿غَفِلُونَ﴾ لأنهم إما جمادات، وإما عباد مشغولون بأحوالهم.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ عند القيامة ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي مكذبيين، بلسان الحال، أو المقال، على ما يروى أنه تعالى يحيي الأصنام، فتتبرأ عن عبادتهم أو يراد بهم كل من يعبد من الملائكة، والجن، والإنس وغيرهم.

﴿وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِنِشَآءٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ

مُبِينٌ ﴿٧﴾

﴿وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِنِشَآءٍ﴾ أي مبینات للحق، واضحات ظاهرات أنها كلام العزيز الحمید ﴿قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي قال الكفرة المجرمون عن القرآن المبین ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ في أول ما جاءهم من غیر تدبر ولا تفكير ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي هذا سحر واضح، لا شبهة فيه، یسحركم به محمد.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ﴾؟ انتقال من شناعتهم السابقة، إلى حكاية ما هو أشنع منها، أي بل أيقولون افترى محمد القرآن؟ ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لا تقدرون أن تردوا عني عذاب الله، إذ لا ريب في أنه تعالى يعاجلني بالعقوبة، فكيف أجتريء عليه، فأعرض نفسي للعقوبة؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي هو جلّ وعلا أعلم بما تخوضون وتندفعون فيه، من القدح في وحي الله، والظعن في آياته ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ حيث يشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالجحود والعناد ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب وأناب، وفيه وعد بالغفران والرحمة لهم إن رجعوا عن الكفر والضلال.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ البِدْعُ: بمعنى البدع كالخِلْ بمعنى الخليل، وهو ما لا مثل له، كانوا يقترحون عليه ﷺ آيات عجيبة،

ويسألونه عن المغيبات، عناداً ومكابرة، فأمر ﷺ أن يقول لهم: ما كنت بديعاً من الرسل، قادراً على ما يقدر عليه الله، حتى آتيكم بكل ما تقتبحونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ فِي وَلَا يَكُمُ﴾ أي أي شيء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان؟ وعن الحسن أن المعنى: لا أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا، من الحوادث والأحداث الدنيوية، دون ما سيقع في الآخرة، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة، وقد ورد به الوحي الناطق، بتفاصيل ما يفعل بالجانبين ﴿إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يُوحى إليّ ربي، وهو جواب عن اقتراحهم إخبارهم عن المغيبات ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذركم عقاب الله حسبما أوحى إليّ ﴿مُتَيْنٌ﴾ بين الإنذار، بالمعجزات الباهرة، عن خارجه ابن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» (١).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ، فَقَامَنَ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ أي ما يوحى إليّ من القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ حال بإضمار «قد» وُسِّطت بين أجزاء الشرط، مسارعةً إلى التسجيل عليهم بالكفر ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي شهد رجل من علماء بني إسرائيل، وهو «عبد الله بن سلام» الواقف على أسرار الوحي، بما أوتي من التوراة ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أي مثل القرآن من المعاني المنظوية في التوراة، المطابقة لما في القرآن، من

(١) أخرجه البخاري في الجناز ١١٤/٣ ومناسبته أن «عثمان بن مظعون» لما توفي وكُفِّن في أثوابه، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال لها النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ ثم قال ﷺ: والله ما أدري. الحديث.

التوحيد، والوعد والوعيد، وغير ذلك، روي أنه لما آمن عبد الله بن سلام قال: يا رسول الله: إن اليهود قوم بُهتٌ، وإن علموا بإسلامي بهتوني، فجاءت اليهود، فقال لهم النبي ﷺ: أي رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خيرنا، وابن خيرنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، فقال ﷺ: رأيتم إن أسلم عبد الله؟ فقالوا: أعاده الله من ذلك، فخرج عليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: شؤنا وابن شؤنا^(١) ﴿فَأَمَّنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ جواب الشرط محذوف، والمعنى: أخبروني إن كان من عند الله، وشهد بذلك أعلم بني إسرائيل، فأمن به، واستكبرتم عن الإيمان به، من أضل وأظلم منكم؟ بقرينة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وصفهم بالظلم، للإشعار بعله الحكم، فعدم هدايتهم لظلمهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾^(١).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حكاية لبعض آخر من أقاويلهم الباطلة، في حق القرآن والمؤمنين به ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي قالوا لأجل إيمان المؤمنين ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي ما جاء به محمد من القرآن والدين ﴿خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ فإن معالي الأمور لا ينالها أيدي الفقراء والرعاة!! قالوا: وعامة من يتبع محمداً فقراء، مثل عمار، وصهيب، وابن مسعود، وغيرهم رضي الله عنهم، قالوه زعماً منهم أن الرياسة الدينية مما تُنال بأسباب دنيوية كما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلَيْنِ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمَيْنِ﴾؟ وغاب عنهم أنها منوطة

(١) الحديث أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ ١٩٧/٧.

(٢) سورة فصلت، آية: ٥٢.

بكلمات نفسانية، وملكات روحانية، لا بأمور دينية دنيوية ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي وإذا لم يهتدوا بالقرآن قالوا ما قالوا ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ غير مكتفين بنفي خيريته ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي كذب قديم، كما قالوا أساطير الأولين.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيٍّ لِّنَذِرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢).

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل القرآن ﴿كِتَابٌ مُّوسَىٰ﴾ وهو ردّ لقولهم ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ فإن كونه مصدقاً لكتاب موسى، مقرر لحقيقته قطعاً كأنه تعالى قال: الذي يدل على صحة القرآن، أنكم لا تنازعون في أن الله أنزل التوراة على موسى، والتوراة مشتملة على البشارة بمقدم رسول الله ﷺ، فإذا سلّمتم كون التوراة إماماً فاقبلوا حكمه في النبي حقاً ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالان من كتاب موسى، أي إماماً يقتدى به في دين الله، كما يقتدى بالإمام ورحمة من الله تعالى لمن آمن به وعمل بموجبه ﴿وَهَذَا﴾ الذي يقولون في حقه ما يقولون ﴿كِتَابٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية ﴿لِسَانِ عَرَبِيٍّ﴾ أي أنزله الله بلسان عربي ﴿لِّنَذِرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي إنذاراً وتخويفاً للظالمين ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي المقصود من إنزال هذا الكتاب إنذار المعرضين، وبشارة المطيعين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي استقاموا على التوحيد والإيمان، وطاعة الرحمن.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالهم الصالحة خلدوا في الجنة .

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَّلَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ بأن يحسن ﴿بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أي يحسن إليهما إحساناً كما أحسنا إليه في صغره ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ دلت الآية على أن حق الأم الفطام، لأنه تعالى خصَّ الأم بالكره ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصَّلَتْهُ﴾ وهو الفطام والمراد به الرضاع ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ تمضي عليها بمعاناة المشاق لأجله ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي اكتهل واستحكم قوته وعقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قيل لم يبعث نبيٌّ قبل أربعين لأنه سنُّ اكتمال العقل ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أي نعمة الدين وغيرها ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ التكبير للتفخيم والتكثير ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل الصلاح سارياً في ذريتي، راسخاً فيهم، قال ابن عباس: «أجاب الله دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأعنت تسعة من المؤمنين، ولم يُرد شيئاً من الخير، إلا أعانه الله تعالى عليه، وأجاب الله دعاءه في ذريته، فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعاً، فاجتمع له لإسلام أبويه، وأولاده، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة» ولذلك قيل: إنها نزلت فيه ﴿إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ﴾ عما لا ترضاه ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أخلصوا لك أنفسهم .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿أُولَئِكَ﴾ المنعوتون بما ذكر ﴿الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ من الطاعات فإن المباح حسن ولا يشاب عليه ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي خطيئاتهم ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أي كائنين في عدادهم ﴿وَعَدَ الصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد، لأن قوله: «نقبل» و«نتجاوز» وعد من الله لهم بالنقبل والتجاوز، أي وعدهم الله بذلك وعداً صادقاً ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ على السنة الرسل في الدنيا.

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِي لَكُمْ أَنِ اتَّعَدَانِي أَن أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِغِيَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَايِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ﴾ لما وصف الله تعالى البار بوالديه وصف العاق في هذه الآية، أي قال لوالديه عند دعوتهما إلى الإيمان ﴿أَفِي لَكُمْ﴾ أي قبحاً لكم على هذه الدعوة، والآية في الكافر العاق لوالديه، المكذب بالبعث، وما روي من أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه، يرده ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ فإنه رضي الله عنه من أفاضل المسلمين ﴿أَتَّعَدَانِي أَن أَخْرَجَ﴾ أن أبعث من القبر بعد الموت ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ أي وقد مضت قرون من الناس قبلي، ولم يبعث منهم أحد ﴿وَهُمَا يَسْتَفِغِيَانِ اللَّهَ﴾ يسألان أن يغيبه ويوفقه للإيمان ﴿وَيْلَكَ﴾ أي قائلين له ﴿ءَايِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي البعث، أضافه إليه تعالى، تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على خطئه في إسناد الوعد إليهما ﴿فَيَقُولُ﴾ تكذيباً لهما ﴿مَا هَذَا﴾ الذي تسميانه وعد الله ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي خرافات وأباطيل الأمم السابقة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ (١٨).

﴿أُولَئِكَ﴾ القائلون هذه المقالات الباطلة ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ﴾ كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ قد ضيعوا فطرتهم الأصلية، باتباع الشيطان فخسروا حياتهم وسعادتهم الآخروية.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٩).

﴿وَلِكُلِّ﴾ من الفريقين المذكورين ﴿دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ مراتب من أجزية ما عملوا، من الخير والشر، والدرجة غالبية في مراتب المثوبة، وإيرادها ههنا بطريق التغليب^(١) ﴿وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب.

﴿وَبِئْسَ يَعْزُزُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبَتْ طَبِئَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٢٠).

(١) الدرجات في اللغة هي الطبقات من المراتب، وغلب استعمال الدرجات في الخير كقوله: ﴿هَمَّ دَرَجَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ وفي الآية هنا إضمار تقديره: ولكل فريق منهم درجات أودركات، حذف الثاني اختصاراً لدلالة المذكور عليه.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي يعذبون بها من قولهم عرض الأسارى على السيف أي قتلوا ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ فلم يبق لكم بعد ذلك شيء منها ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي الهوان ﴿بِمَا كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ ﴿فَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي بسبب استكباركم ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي وبفسقكم المستمرين، ولما وُبِّحَ الله تعالى الكافرين بالتمتع بالطيبات، أثر النبي ﷺ وأصحابه والصالحون بعدهم اجتناب اللذات في الدنيا، رجاء ثواب الآخرة، روى الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «دخلتُ على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكئٌ على رمالٍ حصير، قد أُرِّر في جنبه، فقلت: أستاذنُّ يا رسول الله؟ قال: نعم، فجلستُ فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت فيه شيئاً يردُّ البصر، إلا أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم، ولا يعبدون الله!! فاستوى جالساً ثم قال: أفي شك أنت يا ابنَ الخطاب، أولئك قوم عُجِّلَتْ لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت: استغفر لي يا رسول الله..»^(١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين، حتى قبض رسول الله ﷺ»^(٢) وروى البخاري عن عائشة أيضاً قالت: «كان يأتي علينا الشهر والشهران، وما يؤقد فيه نار، إنما هو الأسودان: التمر، والماء»^(٣) إلا أن هذه الآية لا تدل على المنع من التمتع، لأنها وردت في حق الكافر، لأنه يتمتع ولم يؤد شكره، بخلاف المؤمن، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؟ نعم إن الاحتراز أولى، لأن النفس إذا اعتادت التمتع، صعب عليها الاحتراز، فربما حمله ذلك على فعل ما لا ينبغي.

(١) الحديث أخرجه البخاري ٥٠٣/٨ في التفسير ومسلم في الطلاق رقم ١٤٧٩.

(٢) الحديث أخرجه البخاري الأطنمة ٤٧٨/٩ ومسلم في الزهد رقم ٢٩٧٠.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٢٨٢/١١.

﴿وَإِذْ كُنَّا نُنَادِي بِأَنذَرِ قَوْمَهُ بِأَلْحَقَافٍ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١).

﴿وَإِذْ كُنَّا﴾ لكفار مكة ﴿أَلْحَقَافٍ﴾ أي هوداً عليه السلام ﴿إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ﴾ أي وقت إنذاره إياهم ﴿بِأَلْحَقَافٍ﴾ جمع حَقَف وهو التل العظيم من الرمل، قال قتادة: كانوا حياً باليمن أهل رمل، بأرضي يقال لها: الشحر، مشرفين على البحر. ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ﴾ أي الرسل ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي من قبل هود، ومن بعده، والجملة اعتراضٌ وَسَطٌ بين «أُنذِر» وبين قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ والمعنى: إن هوداً قد أُنذَرهم بذلك، وأعلمهم أن الرسل الذين بُعثوا قبله، والذين سيبعثون بعده، كلهم منذرون نحو إنذاره.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأْفِكَ عَنِ ءَالِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢).

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأْفِكَ عَنِ ءَالِهَتِنَا﴾ أي لتصرفنا عن عبادة آلهتنا ﴿فَأَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فأتينا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقاً في كلامك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَنْكُنَّ أَرْبَكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ (٢٣).

﴿قَالَ﴾ هود عليه السلام ﴿إِنَّمَا أَعْلِمُ﴾ أي العلم بوقت نزول العذاب ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وحده، لا أعلم لي بوقت نزوله ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إليكم، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَلَنْكُنَّ أَرْبَكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ حيث تصرّون على كفركم، وتطلبون العذاب من جهالتكم وسفاهكم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٤)

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا ﴾ أي ولما شاهدوا سحاباً يعرض في الأفق ﴿ مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ ﴾ أي متوجهاً نحو أوديتهم، استبشروا ﴿ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِرُنَا ﴾ قال المفسرون: كان قد حُبِس عنهم المطر، فلما رأوه مستقبل أوديتهم، استبشروا، وقالوا: هذا سحاب مبارك ممطرننا، أي يأتينا بالمطر ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي قال هود عليه السلام رداً عليهم: ليس الأمر كذلك، بل هو ﴿ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ﴾ من العذاب ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي ريح عاصفة مدمرة، فيها عذاب فظيع مؤلم.

﴿ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢٥)

﴿ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي تهلك كل شيء من أموالهم، ونفوسهم، وحيواناتهم، ونباتاتهم، بأمر الله ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴾ أي فجاءتهم الريح فدمرتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، لأن الريح العاتية لم تبق منهم إلا الآثار ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي نعاقب من كان كافراً مجرمًا.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَفُؤَادَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا فُؤَادُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٢٦)

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ ﴾ أي ملكناهم وأقدرناهم ﴿ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ أي في الذي لم نمكنكم يا أهل مكة فيه، من السَّعة، والبسطة، وطول

الأعمار، وسائر مبادئ التصرفات، كقوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ (١) ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ أي آلات الإحساس والفهم، ليستعملوها فيما خلقت له، ويستدلوا بها على شؤون منعمها ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواعظ الرسل ﴿وَلَا أَبْصَرُهُمْ﴾ حيث لم يجتعلوا بها الآيات التكوينية المنصوبة في صحائف العالم ﴿وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيئاً من الإغناء ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي حيث كانوا يكفرون بآيات الله وينكرونها، وهو كالتعليل لهلاكهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي نزل بهم العذاب، وأحاط بهم من كل جانب، وهو العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاءً.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢)

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ يا أهل مكة كبلاد ثمود باليمن، وقرى قوم لوط بالشام أهلكتناها مع أهلها ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ كررناها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي، ولكنهم لم ينتفعوا بذلك.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِنْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٣)

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي فهلاً نصرتهم آلهتهم الذين عبدوها من دون الله، واتخذوهم قربة بينهم وبين الله عز وجل؟ حيث كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾

(١) سورة الأنعام، آية: ٦.

﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفيه تهكم بهم وبآلهتهم المزعومة ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عنهم، وفيه تهكم آخر بهم، كأن عدم نصرهم لغيتهم ﴿وَذَلِكَ﴾ أي ضياع آلهتهم وامتناع نصرهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي أثر إفكهم وكذبهم على الله، وهو اتخاذهم إياها آلهة ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ عطف على إفكهم وأثر افترائهم بقولهم إنها آلهة، وإنها تشفع لهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ أي وجهناهم إليك، وأقبلنا بهم نحوك ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال الراغب: والجنُّ: مخلوقات مستترة عن الحواس، وهم من الروحانيين، وذلك أن الروحانيين ثلاثة: أخيارهم الملائكة، وأشرارهم الشياطين، وأوساط، فيهم أخيار وأشرار، وهم الجن، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ وقد دلَّ الكتاب وأخبار الأنبياء على وجود الجن، واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة، وغاية ما فيه وجود أشخاص بيننا لا نراهم، وليس ذلك مما يمنع وجودهم، فإن من المقطوع به أن الروح، والعقل في البدن، ولا نراهما ^(١) ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي لاستماع القرآن ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن ﴿قَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿أَنصِتُوا﴾ أي اسكتوا لنسمعه ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي أتم ﷺ وفرغ عن تلاوة القرآن ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي

(١) الجنُّ مخلوقات غيبية كالملائكة، يختلفون عنهم في أصل الخلقة، فأصلهم من نار، والملائكة من نور، وهم مكلفون كالإنس بتوحيد الله وطاعته وعبادته، وجميع الجن داخلون في دائرة المسؤولية، وقد بلغهم ﷺ دعوة الإسلام، فأمن البعض وكفر البعض، فالإيمان بهم واجب، ولا ينكر وجودهم إلا غبيٌّ جاهل، لأن هناك أشياء كثيرة موجودة ولا نراها كالميكروبات والجراثيم، والروح والعقل كما أشار إليه المصنف رحمه الله.

رجعوا إلى قومهم مصممين إنذارهم عذاب الله، وداعين لهم إلى الإيمان، وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم، فعند ذلك:

﴿ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٠ ﴾

﴿ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ قالوه لأنهم كانوا على اليهودية ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أرادوا به الكتب السماوية ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إليه، وهو الشرائع والأعمال.

﴿ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنَ عَذَابِ أَلِيمٍ ٣١ ﴾

﴿ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ وهو الرسول ﷺ ﴿ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ أرادوا به ما سمعوه من الكتاب، والإيمان بالرسول الذي نزل عليه القرآن ﴿ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعض ذنوبكم، وهو ما كان في خالص حق الله تعالى، فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان ﴿ وَيُجِرَكُمْ مِنَ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ أي ينقذكم من عذاب شديد مؤلم، معد للكفرة، واختلف العلماء في حكم مؤمن الجن، فقال قوم: ليس لهم ثواب إلا نجاتهم من النار، والأكثر على أنهم في حكم بني آدم ثواباً وعقاباً، وتمام الكلام في سورة الجن.

﴿ وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٣٢ ﴾

﴿ وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ هذا ترهيب بعد الترغيب، أي ومن لم يؤمن بالله، ويستجب لدعوة رسوله ﷺ فليس بمعجز له تعالى بالهرب، وإن هرب كل مهرب ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ بيان لاستحالة

نجاته بواسطة الغير، أي وليس له من ينقذه ويخلصه من عذاب الله تعالى، من أنصار ولا أعوان، ولا من عبدهم من دون الله ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الموصوفون بعدم الإجابة ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي ظاهر كونه ضلالاً، بحيث لا يخفى على أحد، حيث أعرضوا عن الاستجابة لدعوة الله.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ مَخْلِقِينَ
يَقْدِرْ عَلَىٰ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ابتداءً من غير مثال ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ مَخْلِقِينَ﴾ أي لم يتعب، ولم يعجز ولم يضعف بذلك أصلاً ﴿يَقْدِرْ﴾ خبر لأن، كأنه قيل: أوليس الله بقادر ﴿عَلَىٰ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ ولذا أجيب بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقرير للقدرة على وجه عام، أي لا يعجزه شيء، فكما خلقهم يعيدهم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي ذكركم يوم يعرضون على نار جهنم ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي يقال لهم: أليس هذا العذاب الذي ترونه حقاً؟ وفيه سخرية بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده حيث كانوا يقولون ﴿وما نحن بمعذبين﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أكدوا جوابهم بالقسم، كأنهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقيقتها كما في الدنيا، وأننى لهم ذلك؟ ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم وجحودكم للحساب والجزاء.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فُهِلَّ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿فَاصْبِرْ﴾ الفاء جواب شرط محذوف، أي إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذكر، فاصبر على ما يصيبك يا محمد من جهتهم ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ﴾ أي أولو الثبات والحزم ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ فإنك من جملتهم، بل من أكابرهم، والمراد بأولو العزم: أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وصبروا على تحمل مشاقها، ومشاهيرهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، وقال ابن زيد: كلهم ذوو عزم، وحزم، واختاره الرازي على أن «مِنَ» للتبيين ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أي لكفار مكة بالعذاب، فإنه على شرف النزول بهم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ يسيرة ﴿مِّنْ نَّهَارٍ﴾ استقصروها لما يشاهدونه من شدة العذاب ﴿بَلَّغٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هذا الذي وُعِظتم به تبليغٌ من الرسل ﴿فُهِلَّ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾؟ أي الخارجون عن الطاعة وعن الإيمان، وقال الزجاج: لا يهلك مع رحمة الله وفضله، إلا القوم الفاسقون.

والله أعلم بمراده، والحمد لله على نعمائه، والصلاة والسلام على نبيه وعلى آله وصحبه، وعلى العلماء العاملين بستته، والحمد لله رب العالمين.

«تم بمعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف»

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

مدنية وآيها ثمان وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ (١).

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي امتنعوا عن الدخول في الإسلام، وصدّوا غيرهم عنه، وهو عام في كل من كفر وصدّ الناس عن دين الله ﴿أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي أبطلها وجعلها ضائعة لا أجر لها ولا ثواب، بمعنى أنه تعالى حكم ببطلانها وضياعها، فإن ما كانوا يعملونه من أعمال البر، كصلة الرحم، وقرى الأضياف وغيرها، ليس لها أثر في الآخرة، لعدم مقارنتها للإيمان، فإن الإيمان شرط لقبول العمل، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (١) وإذا لم يقبل العمل، لا يكون له وجود بالكلية.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (٢).

(١) سورة النحل، آية: ٩٧.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿وَعَمِلُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ خُصَّ بالذكر مع اندراجہ فیما قبلہ، تنویہاً بشأنہ، وتنبيہاً على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنه أصل في الكل، ولذا أكد بقوله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بطريق حصر الحقية فيه ﴿كَفَرُوا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي سترها بالإيمان والعمل الصالح، ومحاسنها وغفرها لهم ﴿وَأَصْلَحَ بِاَلْحَمِّ﴾ أي حالهم في الدين والدنيا، بالتأييد والتوفيق، وقيل: قلوبهم، لأن القلوب إذا صلحت صلح الجسد كله.

﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾.

﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي ذلك الإضلال لأعمال الكفار، بسبب أنهم سلكوا طريق الضلال ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ أي يبين للناس ﴿أَمْثَلَهُمْ﴾ أي أحوال الفريقين، وأوصافهم الجارية في الغرابة مجرى الأمثال، وهي اتباع الأولين الباطل وخسرانهم، واتباع الآخرين الحق وفوزهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخَسَّمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبَلَّوْا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فإذا لقيتم في المحاربة الكفار أعداءكم وقوله: ﴿لَقِيتُمْ﴾ يدل على أن القصد من جانب المؤمنين، بخلاف إذا لقيكم، ﴿فَضَرْبِ الرِّقَابِ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً، ففيه اختصار، وتأكيده ببلغ، وتهويل لأمره، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه، وذلك بضرب الرأس، فإذا أبين عن بدنه، كان أسرع للموت

﴿حَقَّ إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أي أكثرتم قتلهم، وأنقلتموهم بالقتل والجراح ﴿فَشُدُّوا
الْوَتَاقَ﴾ أي فأسروهم واحفظوهم، والوَتَاق بالفتح: القيد، والحبْل، وهو
اسم لما يوثق به أي يربط به ﴿فَلِمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِنَّا فَلَئَنَّا﴾ أي فلِإِذَا تَمَنُّونَ مِنَّا بَعْدَ
ذلك أو تفدون فداءً، والمعنى: التخيير بين الاسترقاق، والمنِّ، والفداء.

وقال مجاهد: ليس اليوم مَنْ ولا فداء، إنما هو الإسلام، أو ضرب
العنق ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أوزار الحرب: آلتها وأنقالها التي لا تقوم إلا
بها، من السلاح، والكراع، وأسند وضعها إليها وهو لأهلها إسناداً
مجازياً، والمعنى إنهم لا يزالون على ذلك أبدأً إلى أن لا يكون مع
المشركين حرب، بأن لا تبقى لهم شوكة ﴿ذَلِكَ﴾ أي افعلوا ذلك ﴿وَلَوْ
يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي لانتقم منهم ببعض أسباب الهلكة والاستئصال
﴿وَلَكِنْ﴾ لم يشأ ذلك ﴿لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي ليختبر إيمانكم وثباتكم،
ولذلك أمركم بالقتال، وبلاككم بالكافرين لتجاهدوهم، فتستوجبوا ثواب الله
العظيم ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي استشهدوا ﴿فَلَنُؤْتِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي فلن
يضيّعها، بل يوفيهم ثواب أعمالهم.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ في الدنيا إلى أرشد الأمور، وفي الآخرة إلى الثواب
والجنة ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي ويرضى أعمالهم ويقبلها.

﴿وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾

﴿وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ بذكر أوصافها، بحيث يعلم كل أحد منزله،
كأنه ساكنه منذ خلق.

﴿يَنبَأُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَصُرُوا اللَّهَ﴾ أي دينه ورسوله ﴿يَصُرُّكُمْ﴾ الله تعالى على أعدائكم، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب، فالمؤمن ينصر الله بخروجه للقتال وإقدامه، والله ينصره بتقوية قلبه، وثبتت أقدامه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّاهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّاهُمْ﴾ التعس: الهلاك والعثار والسقوط، تعس: أكب على وجهه، وهذا زيادة في تقوية قلوبهم، كأنه قال تعالى: ولكم الثبات، ولهم الزوال به ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾.

﴿ذَلِكَ يَأْنَهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَخْطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ الشقاء وضلال الأعمال ﴿يَأْنَهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ أي القرآن لما فيه من التوحيد، والأحكام، المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمانة بالسوء ﴿فَأَخْطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي أذهبها وأضاعها.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَالْكَافِرِينَ أَمَثَلَهَا﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؟ أي أقعدوا في أماكنهم، فلم يسيروا فيها، فينظروا كيف كان من قبلهم من الأمم المكذبة، فإن آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم ﴿دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ﴾ أي أهلكهم الله واستأصلهم وخرّب ديارهم ﴿وَالْكَافِرِينَ أَمَثَلَهَا﴾ أي ولهؤلاء الكافرين أمثال عقوباتهم، وعاقبتهم الوحيمة.

﴿ذَلِكَ يَأْنَ اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي ذلك المذكور من العقوبة بسبب أنه تعالى ناصر المؤمنين بسبب إيمانهم، وأن الكافرين لا ناصر لهم يدفع ما حلّ بهم من العذاب، ولا يخالف هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ فإن المولى هناك بمعنى المالك، وههنا بمعنى الناصر، فإنه تعالى مولى المؤمنين والكافرين من جهة الملك والتصرف، ومولى المؤمنين خاصة من جهة النصرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بيان لحكم ولايته لهم، وثمراتها الأخروية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ﴾ أي يتتفعون في الدنيا بمتاعها الفاني، ولذائذها وشهواتها، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم، ويأكلون ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي كالبهائم، غافلين عن عواقبهم ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي ونار جهنم مقامهم ومنزلهم في الآخرة.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي وكم من أهل قرية، هم أشد قوة من أهل مكة، الذين كانوا سبباً لخروجك من بينهم، وصفُ القرية الأولى بشدة القوة؛ للإيذان بأولوية الثانية بالإهلاك، ووصفُ الثانية بإخراجه ﷺ؛ تلميح لعظم جناياتهم ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي فلم ينصرهم أحد، ولم يستطع دفع العذاب عنهم، وهذه تسلية للرسول ﷺ، أي كذلك نفعل بالمجرمين من قومك.

﴿أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ يَنبَغٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ ۖ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ يَنبَغٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ تقرير لتباين حال الفريقين المذكورين، أي هل من هو على حجة وبصيرة، وثبات ويقين من أمر الدين، وبرهان نير، وهو القرآن الكريم ﴿كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائفة، وانهمكوا في الضلالات؟ .

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ بيان محاسن الجنة الموعودة للمؤمنين، أي صفة الجنة التي وعدّها الله لعباده المؤمنين المتقين، وأحوالها العجيبة الشأن ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي غير متغير الطعم والرائحة، يقال: آسِنَ الماءُ إذا فسد وتغيّر ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ﴾ أي أنهار من حليب في غاية الجودة والمساغ، لم يحمض بطول المقام، لأن الحليب سريع الفساد ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي لذيذة ليس فيها كراهة طعم، ولا غائلة سُكْرٍ ولا خُمار، وإنما هي تلذذ محض، وإنما قال: ﴿لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص، فربّ طعام يتلذذ به شخص، ويعافه الآخر ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصًّى﴾ لا يخالطه الشمع، وفضلات النحل ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ مع ما ذكر ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي من كل صنف من الثمرات، ولما كان في الجنة الأكل للذة لا للحاجة، ذكر الثمار ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي ولهم مغفرة عظيمة، فإن قيل: لا يدخل أحد الجنة إلا بعد المغفرة فكيف قال ولهم مغفرة؟ الجواب أن المراد بالمغفرة رفع التكليف عنهم فكل ما تشتهي نفسه حلال من الجنة ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أمَّن

هو خالد في هذه الجنة، كمن هو خالد في النار؟ كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي ماء حاراً قد بلغت حرارته النهاية، مكان تلك الأشربة اللذيذة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي ففقطع أحشاءهم من شدة حرارته.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون في نفوسهم الكفر والعصيان، كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ، فيسمعون كلامه، تهاوناً به وتغافلاً عنه، ولا يراعونه حق رعايته ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أي ما الذي قاله محمد الساعة؟ على طريق الاستهزاء، وإن كان بصورة الاستعلام، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لعدم توجههم نحو الخير أصلاً ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة، فلذلك فعلوا ما فعلوا ممّا لا خير فيه، والمعنى إنهم لما تركوا اتباع الحق، أمات الله قلوبهم، فلم تفهم، فعند ذلك اتبعوا أهواءهم الباطلة.

﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُولُهُمْ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا﴾ إلى طريق الحق ﴿زَادَهُمْ﴾ أي المسموع لأنهم فهموه وكانوا مهتدين، فزادهم الله هدى، حتى ارتقوا من درجة المهتدين، إلى درجة الهادين ﴿هُدًى﴾ بالتوفيق والإلهام ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُهُمْ﴾ أي أعانهم على تقواهم وألهمهم رشدهم.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ط فَذَٰلَٰهَا أَسْرَاطُهَا فَاَنّٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُنَهُمْ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ ﴾ أي القيامة ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي تباغتهم بغتة ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي علاماتها، جمع شرط وهي العلامة، كمبعثته ﷺ، وانشقاق القمر، وقيل: قطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللثام، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيُظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيُظْهَرَ الزِّنَا، وَيَقْلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ»^(١) ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ بيان استحالة نفع التذكر حينئذ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي كيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة، وحينئذ لا ينفعهم ندم ولا توبة ١١.

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفَرَ لِذَنبِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أي إذا علمت أن مدار السعادة هو التوحيد، ومناط الشقاوة هو الإشراك والعصيان، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، والعمل بموجبه ﴿ وَاسْتَغْفَرَ لِذَنبِكُمْ ﴾ بما يصدر عنه من ترك الأولى، عبر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولإرشاده إلى التواضع، وهضم النفس ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي لذنوبهم بالدعاء لهم، وترغيبهم فيما يستدعي الغفران ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في الدنيا، فإنها مراحل لا بد من قطعها لا محالة ﴿ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ في العقبى فإنها مواطن إقامتكم، وقيل: المعنى يعلم جميع أحوالكم.

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن ١٣/١٤.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ ۖ﴾

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ حرصاً منهم على الجهاد ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي هلاً نُزِّلَتْ سورة فيها ذكر الجهاد، وفريضة الجهاد، لا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال، وعن قتادة: كلُّ سورة فيها ذكر القتال، فهي محكمة لم تنسخ ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي تشخص أبصارهم جنأ وهلعاً، كدأب من أصابته غشية الموت، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ﴾ أي فويل لهم مشتق من الويل، وقيل معناه: الموت أولى لهم، والأول أصح، لأن الويل معناه الهلاك، أي هلاك لهم ودمار.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ﴾

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: طاعة لك يا محمد، وأمرٌ معروفٌ خير لهم ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي فإذا جدَّ الجدُّ، وفُرض القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي فلو أخلصوا في إيمانهم، واتباعهم الرسول ﴿لَكَانَ﴾ الصدق ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ من التفاعس والعصيان.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ﴾

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي فلعلكم إن أعرضتم عن الإسلام، أن

ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام.

قال قتادة: كيف رأيت القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟!.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ (٢٣).

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء اختيارهم ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات الكونية.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤).

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؟ أي ألا يلاحظون ما فيه من المواعظ والزواجر، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات؟ ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؟ فلا يكاد يصل إليها ذكر أصلاً، و «أم» بمعنى «بل» وهو انتقال من توبيخهم على التدبر في الآيات، إلى التوبيخ على ظلمة القلوب وقسوتها، والمعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة متحجرة، كأنها مكبلة بأقفال حديدية، فلا يصل إليها نور، ولا ينفذ إليها قرآن، وهذا كما تقول عن إنسان مؤذ: هذا ليس بإنسان هذا وحش، وهذا ليس بقلب بل حجر!!.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ
الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ (٢٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ بالدلائل الظاهرة، وهم المنافقون، أي من بعد أن وضح طريق الهدى بالدلائل الظاهرة، والمعجزات الواضحة

﴿الْشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي الشيطان سهّل لهم ركوب العظائم، من الفواحش والمنكرات ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ ومدّ لهم في الأمانى والآمال.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ (٢١).

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا﴾ يعني المنافقين ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي اليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ، مع علمهم بأنه من عند الله تعالى، حسداً وطمعاً في نزوله عليهم ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ عبارة عما حكى عنهم بقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين، نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ (١) الآية، وهم بنو قريظة والنضير، وإنما كانوا يقولون لهم ما يقولون سرّاً، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي إخفاءهم، وما دبّروه من الكيد والدرس، والتأمر على الإسلام والمسلمين، قالوا ذلك لليهود سرّاً، فكشفه الله وفضحهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوتُ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ (٢٧).

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُوتُ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ ؟ أي فكيف يفعلون إذا توفتهم الملائكة، وجاءتهم ومعهم مقامع من حديد، يضربون بها وجوههم وظهورهم؟

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٢٨).

(١) سورة الحشر، آية: ١١.

﴿ ذَلِكَ ﴾ العذاب الهائل ﴿ يَأْتِيهِمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ اتَّبَعُوا مَا ﴾
 أَخْطَأَ اللَّهُ ﴿ من الكفر والمعاصي ﴾ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴿ أي ما يرضاه من
 الإيمان والطاعة ﴾ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿ أي أبطلها وأزهدتها .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ هم المنافقون الذين فُضِّلَتْ
 أحوالهم، وصفوا بوصفهم السابق، لكونه مداراً لما نُعي عليهم، بقوله
 تعالى ﴿ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴾؟ جمع ضغن، وهو الحقد الشديد، مثل
 جمل وأحمال، والمعنى: أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين،
 أنه تعالى لن يخرج أحقادهم، ولن يُبرزها للرسول ﷺ وللمؤمنين، فتبقى
 أمورهم مستورة؟ ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿ ٣٠ ﴾ .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ ﴾ لعرفناكم بدلائل تعرفهم بأعيانهم ﴿ فَلَعَرَفْتَهُمْ ﴾
 بِسِمَتِهِمْ ﴿ بعلاماتهم التي نسمهم بها، وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما
 خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، شيء من المنافقين، كان يعرفهم
 بسماهم» وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴿ أي من فحوى كلامهم وأسلوبهم
 ﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿ فيجازيكم بحسب قصدكم، وهذا وعد ووعد .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ ﴾
 علماً فعلياً يتعلق به الجزاء ﴿ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ ﴾ أي الثابتين الذين لا

يؤلّون الأدبار ﴿وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يخبر به عن أعمالكم، فيظهر حسنها وقيحها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَلُهُمْ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي عن الدخول في الإسلام ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ أي حاربوا الرسول وخرجوا عن طاعته، ومنهم الذين أطعموا المشركين يوم بدر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ بما ظهر على يديه من المعجزات، ونزل عليه من الآيات ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ بكفرهم وصدّهم عن سبيل الله ﴿شَيْئًا﴾ من الأشياء ﴿وَسَيُحِيطُ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي مكائدهم التي نصبوها في إبطال دينه؛ ومشاقّة رسوله، فلا يصلون بها إلى ما كانوا يرغبون من الغوائل.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بما أبطل هؤلاء أعمالهم بالكفر والنفاق، وليس فيه إحباط الطاعات بالكبائر، أي داوموا على ما أنتم عليه ولا ترتدوا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ حكم يعمّ كل من مات على الكفر، وإن صح نزوله في أصحاب القليب أي قليب بدر لأن العبرة يعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿ فَلَا تَهْتَفُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾

﴿ فَلَا تَهْتَفُوا ﴾ أي لا تضعفوا يا معشر المؤمنين ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ ﴾ أي ولا تدعوا الكفار إلى الصلح خَوَرًا ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أي وأنتم الأعزة الغالبون لأنكم مؤمنون ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ فإن كونهم مؤمنين، وكونه تعالى ناصرهم، من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل، وهذا كقوله تعالى: ﴿ لَا غَلِيظٌ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ وقوله: ﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ﴿ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي لن يضيعها، من الوتر الذي هو الفرد، أي لن ينقص شيئاً من ثواب أعمالكم.

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ﴾ أي ما الحياة الدنيا إلا فانية زائلة، لا قرار لها ولا ثبات، تشبه لعب الأولاد، فلا ينبغي أن تكون مانعاً للمؤمن عن الجهاد، خوفاً من فواتها، فما عند الله خير للأبرار. ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ ﴾ أي ثواب إيمانكم وثواب تقواكم كاملاً ﴿ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أي ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم بحيث يخلُ أداؤها بمعاشكم، وإنما اقتصر على نَزَر يسير منها، تؤدونها إلى فقرائكم.

﴿ إِنْ يَسْتَلِكُمْ هَا فَيَحْفَفْكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَصْفَنَكُمْ ﴾

﴿ إِنْ يَسْتَلِكُمْ هَا ﴾ أموالكم ﴿ فَيَحْفَفْكُمْ ﴾ أي يجهدكم بطلب الكل فإن الإحفاء والإلحاف هو المبالغة في الإلحاح ﴿ تَبْخُلُوا ﴾ لو طلبها لبخلتم، كيف وأنتم تبخلون باليسير، فكيف لا تبخلون بالكثير؟ ﴿ وَيُخْرِجْ أَصْفَنَكُمْ ﴾

أَضَعْنَكُمْ ﴿١﴾ أي أحقادكم، أي يخرج ما في قلوبكم من البخل، وكرهة الإنفاق، لأن الإنسان جُبِلَ على حبِّ المال، ومن نوزع في حبيبه ظهرت سرائر نفسه، فمن رحمته تعالى أنه لم يكلفكم بما لا تطيقون.

﴿ هَآأَنُتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ .

﴿ هَآأَنُتُمْ هَؤُلَاءِ ﴾ أي أنتم هؤلاء المخاطبون ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والإنفاق في سبيل الله، يعمُّ نفقة الغزو، والزكاة وغيرهما ﴿ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ ﴾ أي ناس يبخلون ﴿ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ فإن كلاً من نفع الإنفاق، وضرر البخل، عائد إليه، كمن بخل بأجرة الطبيب، وثمن الدواء، وهو مريض ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أي مستغن عنكم وعن إنفاقكم ﴿ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ أي وأنتم محتاجون إليه، فإن امتثلتم فلکم، وإن توليتم فعليكم ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا ﴾ أي وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يخلف مكانكم قوماً آخرين ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ في التولي عن الإيمان، والبخل في الإنفاق، بل يكونوا أسخياء كرماء.

والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بمعونه تعالى تفسير سورة محمد»

سُورَةُ الْفَتْحِ

مدنية وآياتها تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ .

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ المراد به فتح مكة شرفها الله، والتعبير عنه بصيغة الماضي للإيذان بتحقيقه لا محالة، تأكيداً للتبشير، وقيل: هو صلح الحديبية، فإنه وإن لم يكن فيه حرب، لكن أصاب رسول الله ﷺ ما لم يصب في غزوة^(١)، ووقع في الحديبية معجزة عظيمة، هي أنه كان بها بثراً، نُزِحَ ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة، فمضمض رسول الله ﷺ، ثم مَجَّ فيها، فذَرَّتْ بالماء، حتى شرب من كان فيها من الجيش ﴿ فَتَحًا مُبِينًا ﴾ أي فتحاً بيناً، ظاهراً، فارقاً بين الحق والباطل.

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفتح «صلح الحديبية» لما ترتب على هذا الصلح من الآثار العظيمة، من بيعة الرضوان، ومن الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع قريش، ومن دخول كثير في الإسلام، إلى غير ما هنالك من أمور عظيمة، وإلى هذا القول ذهب الحافظ ابن كثير رحمه الله.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿٧﴾

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ غاية الفتح من حيث إنه مترتب على سعيه ﷺ في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي جميع ما فرط منك من ترك الأولى، وتسميتها ذنباً بالنسبة إلى منصبه الجليل ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين، وضم النصر إلى النبوة، وغيرهما مما أفاض الله عليه من النعم الدينية والدنيوية ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرياسة، وأصل الاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه، ما جعل كثيرين من المشركين يدخلون في دين الله.

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٣﴾

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ أي نصراً فيه عزة ومَنعة، يجمع لك فيه بين عز الدنيا والآخرة.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٤﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ بيان لما أفاض عليهم من مبادئ الفتح، من الثبات والطمأنينة، أي أنزلها ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بسبب الصلح والأمن، إظهار نعمة الله تعالى عليهم، بتيسير الأمن بعد الخوف ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي يقيناً منضمّاً إلى يقينهم، بفسوخ العقيدة في القلوب، والتوكل على علام الغيوب ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبر أمرها حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالغاً في العلم

بجميع الأمور ﴿حَكِيمًا﴾ في تقديره وتدبيره، فكان قادراً على إهلاك عدوه، ولم يفعل، بل أهلكهم بأيدي المؤمنين، ليكون لهم الثواب العظيم بقتال المشركين، كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي دبر ما دبر، من تسليط المؤمنين، ليعرفوا نعمة الله في ذلك، ويشكروها فيدخلهم الجنة ﴿وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي يغطيها ولا يظهرها ويمحوها عنهم فلا يؤاخذهم بها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من الإدخال والتكفير ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يُقَادَر قدره، لأنه منتهى ما تمتد إليه أعناق الرجال.

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وفي تقديم المنافقين، دلالة على أنهم أحق من الكفار بالعذاب، لأنهم كانوا أشد على المؤمنين، بحيث لا يمكن التحرز عنهم ﴿الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ﴾ أي ظن الأمر السوء، وهو أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين، وأن المشركين يستأصلونهم فلا يرجعون إلى ديارهم ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي ما يظنونه ويربصونه بالمؤمنين، فهو نازل بهم، ودائر عليهم ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي سخط عليهم أشد السخط، لكفرهم ونفاقهم، وأبعدهم عن رحمته ﴿وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي وأعدَّ لهم في الآخرة ناراً عظيمة مستعرة هي نار جهنم، وبشت جهنم مرجعاً ومنقلباً لأهل النفاق والضلال.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿٧﴾ .

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ كرر الآية تأكيداً، وفائدتها التنبيه على أن الله تعالى جنود الرحمة، وجنود العذاب، وأن المراد ههنا جنود العذاب، كما ينبىء عنها التعرض لوصف العزة، فذكرهم أولاً لبيان جنود الرحمة لأن الحديث عن المؤمنين، وذكرهم ثانياً لبيان إنزال العذاب، لأن الحديث عن المنافقين والكافرين.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ﴿شَهِيدًا﴾ على أمتك، لقوله تعالى ﴿ويكون الرسولُ عليكم شهيداً﴾ ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ على الطاعة ﴿وَنَذِيرًا﴾ على المعصية.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٩﴾ .

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ وأمة ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تقوّوه بتقوية دينه ورسوله، والتعزيز نصرٌ مع تعظيم ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تعظموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي وتنزهوا ربكم^(١) ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي غدوة وعشيّاً بمعنى دائماً في الصباح والمساء.

(١) على هذا القول تكون الضمائر كلها راجعة إلى الله عز وجل، وهذا اختيار البيضاوي وأبي السعود، واختار جمع من المفسرين أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وتعزروه وتوقروه﴾ عائد على النبي ﷺ، أي تنصروا الرسول وتقوّوه، وتحترموه وتجلّوه، والضمير في قوله: ﴿وتسبحوه﴾ عائد على الله عز وجل، وهذا قول الضحّاك، واختاره القرطبي وكثير من المفسرين.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمًا ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ أي على قتال قريش تحت الشجرة ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ أي أن مبايعتك هي مبايعة الله، لأن المقصود توثيق العهد، بمراعاة أوامره ونواهيه، وأصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه، من بذل الطاعة للإمام، والوفاء بالعهد، والمراد بهذه البيعة «بيعة الرضوان» بالحديبية، وفي هذا تشريف للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله عز وجل ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي نصرته إياهم فوق نصرهم إياه، ويد رسول الله التي تعلق أيدي المبايعين كأنها يد الله^(١)، كما قال سبحانه: ﴿ مَنْ يَطْعِ الرُّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، فما نكث أحد منا ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أي فمن نقض عهده، فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ ﴾ أي ومن وفى بعهده ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ هو الجنة.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنْتَهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ أي

(١) قال ابن كثير: أي هو تعالى حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ (أنظر مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٢).

المتخلفون عن الخروج معك، وهم أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، تخلفوا عن رسول الله ﷺ، حين استنفر من حول المدينة من الأعراب، ليخرجوا معه عند إرادته المسير إلى مكة، عام الحديبية معتمراً، حذراً من قريش أن يتعرضوا له بحرب، أو يصدّوه عن البيت، وأحرم ﷺ وساق معه الهدى، ليعلم أهل مكة أنه لا يريد الحرب، فقال المتخلفون: يذهب إلى قوم غزوه في عُقر داره، وقتلوا أصحابه، وظنوا أنه يهلك، فلا ينقلب إلى المدينة، فأوحى الله تعالى إليه ﷺ بما قالوا: وبما تعلّلوا به، ومنه قولهم ﴿سَخَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا﴾ ولم يكن من يخلفنا فيهم ويحميهم ﴿فَأَسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الله تعالى، ليغفر لنا تخلفنا عنك، حيث لم يكن ذلك باختيار، بل عن اضطرار، فأكذبهم الله تعالى فقال ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي إن الذي خلفهم ليس ما يقولون، وإنما هو النفاق، والشك في الدين، فطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادق عن حقيقته ﴿قُلْ﴾ ردّاً لهم عند اعتذارهم إليك ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي فمن يقدر على شيء من النفع ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً﴾ أي ما يضركم من هلاك الأهل والمال، حتى تتخلفوا عن الخروج لحفظهما، ودفع الضرر عنهما ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ أي ومن يقدر على شيء من الضرر، إن أراد بكم ما ينفعكم من حفظ أموالكم وأهلكم؟ فأى حاجة إلى التخلف، لأجل القيام بحفظهما؟ وهذا تحقيق للحق، ورد لهم بموجب ظاهر مقالته الكاذبة ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي ليس الأمر كما تقولون، بل كان الله عالماً بما تعملون، مطلعاً على أخباركم.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْئًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (١١)

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ﴾ الخ بدل مفسر لما فيه الإبهام، أي بل ظننتم ﴿أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ بأن يستأصلهم المشركون بالمرة، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم، فلأجل ذلك تخلفتم، لا

كما ذكرتم ﴿وَرَبِّكَ ذَلِكِ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقبلتموه، واشتغلتم بشأن أنفسكم، غير مباليين بهم، لأن الشبهة قد يزيناها الشيطان للإنسان كما فعل بكم ﴿وَوَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ المراد به إما الظن الأول، والتكرير لتشديد التوبيخ، والتسجيل عليه بالسوء، أو ما يعثه وغيره من الظنون الفاسدة ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي هالكين عند الله، مستوجبين لسخطه وعقابه.

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ومن لم يعتقد بالله وبرسوله بطريق الصدق والإخلاص ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي هيئنا لهم ناراً حامية مسعرة، تحرق القلوب والجلود، وإتما وصفهم بالكفر، إيداناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر، وأنه مستوجب للسعير بكفره، بين الله تعالى بأن ظنهم الفاسد يفضي إلى الكفر، وحرّضهم على الإيمان والتوبة من ذلك الظن السيئ.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾
﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما يتصرف في الكل كيف يشاء ﴿يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من غير دخل لأحد في شيء منهما، وجوداً وعدماً، وفيه حسم لأطماعهم في استغفاره ﷺ لهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يشاء.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لَتَأْخُذُواهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي المذكورون ﴿إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِنَأْخُذُوهَا﴾ أي مغنم خيبر، لتحوزوها، حسبما وعدكم إياها ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها، حيث كان لهم طمع في الغنيمة، أوضح الله تعالى كذبهم بهذه الآية، حيث لا يشتغلون بأموالهم وأهلهم في هذا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ بأن يشاركوا في الغنائم، التي خصها أهل الحديبية، فإنه ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست ثم غزا خيبر في أوائل المحرم ففتحها، وغنم أموالاً كثيرة خصها بهم، حسبما أمر الله تعالى، فالمراد وعده تعالى بغنائم خيبر لأهل الحديبية ﴿قُلْ﴾ إقناطاً لهم ﴿لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ أي لا تتبعونا، فإنه نفي في معنى النهي للمبالغة ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي عند الانصراف من الحديبية ﴿سَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي ليس ذلك النهي حكم الله، بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنائم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ إلا فهماً قليلاً، وهو حرصهم على حطام الدنيا، وهذا رد لقولهم، ووصف لهم بالجهل في أمور الدين.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقْنِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ﴾ كرر ذكرهم بهذا العنوان، مبالغة في ذمهم، وإشعاراً بشناعة التخلف ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، ﴿تُقْنِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة أبداً، أو الإسلام لا غير ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ عن الدعوة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعف جرمكم، بتكرير التخلف والكذب

في الأقوال. ولما نزلت هذه الآية، قال أهل الأعذار كيف حالنا يا رسول الله؟ فأنزل الله.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧).

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ أي في التخلف عن الغزو، لما بهم من العذر، فإن التكليف يدور على الاستطاعة ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ وفي نفي الحرج عن الطوائف المعدودة، مزيد اعتناء بأمرهم، لا في سائر الأعضاء، فلا مانع في الكر والفر ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما ذكر من الأوامر والنواهي ﴿يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي موجعاً مؤلماً.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (١٨).

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ هم الذين بايعوا رسول الله على أن يناجزوا قريشاً ولا يفروا، وبهذه الآية سميت «بيعة الرضوان» روي أنه ﷺ لما نزل الحديبية بعث عثمان بن عفان إلى أهل مكة فأخبرهم أنه ﷺ لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً للبيت الشريف، فوفروه وقالوا لو شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ، واحتبس عندهم، فأرجف بأنهم قتلوه فقال ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة، على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا، وكانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين، عن جابر رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ: «لا يدخل النار

أحد ممن بايع تحت الشجرة»^(١) ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من الإخلاص لله ولرسوله ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي فأنزل الطمأنينة والأمن، وسكون النفس بالربط على قلوبهم، وقيل بالصلح ﴿وَأَنبَهُمْ فَتَحَارَبُوا﴾ هو فتح خيبر.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٩﴾

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ أي وأكرمهم بغنائم كثيرة من خيبر ينالونها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي منيعاً لا يُغالب، مراعياً لمقتضى الحكمة في أحكامه وقضاياه، وفيه إشارة إلى كثرة الفتوحات التي ستكون.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿٢٠﴾

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وهو ما يفينه الله على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المقدرة لكل واحدة منها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي غنائم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد، وغطفان، حيث جاؤوا لنصرتهم، ففد الله في قلوبهم الرعب فنكصوا ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمانة يعرفون بها صدق رسول الله ﷺ، في وعده إياهم، ما ذكر من المغانم، وفتح مكة، ودخول المسجد الحرام ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة و يقيناً، وثقة بفضل الله، وللتوكل عليه.

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ﴿٢١﴾

(١) أخرجه مسلم.

﴿وَأُخْرَى﴾ أي ومغانم أخرى ﴿لَمْ تَقْدَرُوا عَلَيْهَا﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي استولى عليها بقدرته تعالى ووهبها لكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لأن قدرته ذاتية، لا تختص بشيء دون شيء.

﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُوثَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٢).

﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أهل مكة، ولم يقع الصلح بينكم وبينهم ﴿لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ﴾ منهزمين ﴿ثُمَّ لَا يَحْدُوثَ وَلِيًّا﴾ يحرسهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ بَدِيلًا﴾ (٢٣).

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي سنَّ الله تعالى غلبة أنبيائه سنة قديمة، فيمن مضى من الأمم، وهو قوله تعالى: ﴿لَا غَلْبَ لَنَا أَنَا وَرُسُلِي﴾ ﴿وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ بَدِيلًا﴾ تغييراً، لأنَّ سنته تعالى لا تبدل ولا تتغير.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٤).

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي أيدي كفار مكة ﴿عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي في داخلها ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مقاتلتهم، والكف عنهم، لتعظيم البيت الحرام ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيكم بذلك ويجازيهم.

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا ۖ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّارْتَعْلَمُوهُمْ ۖ أَنْ تَطَّوَّهُمْ ۖ فَتَضْيِبِكُمْ مِنْهُمْ مَّعْرَةٌ ۚ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ ﴾

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا ﴾ حال من الهدي أي محبوساً ﴿ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ ﴾ أي من أن يبلغ مكانه، الذي يحل فيه نحره، وبه استدل أبو حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم، روي أن خيامه ﷺ كانت في الحديبية، ومصلاه في الحرم، وهناك نحرت هداياه ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّارْتَعْلَمُوهُمْ ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين ﴿ أَنْ تَطَّوَّهُمْ ﴾ أن توقعوا بهم وتقتلوا منهم ﴿ فَتَضْيِبِكُمْ مِنْهُمْ ﴾ أي من جهتهم ﴿ مَّعْرَةٌ ﴾ أي مشقة ومكروه، ويلحقكم ذنب بقتلهم، والمعرة: الإثم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي غير عالمين بهم، وجواب «لولا» محذوف، للدلالة الكلام عليه، والمعنى: لولا كراهة أن تهلكوا أناساً من المؤمنين المؤمنات بين الكافرين، لما كفَّ أيديكم عنهم ﴿ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وهم المؤمنون فإنهم كانوا خارجين من الرحمة الدنيوية التي من جملتها الأمن، وأما الرحمة الآخروية فهم وإن كانوا غير محرومين منها، لكنهم قاصرون في إقامة مراسم العبادة كما ينبغي، فتوفيقيهم لإقامتها على الوجه الأتم إدخال لهم في الرحمة الآخروية ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ لو تميز المسلمون من الكافرين ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ بقتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم.

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ ۚ الْحَمِيَّةُ ۖ فَانْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۖ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۖ ﴾

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي كفرة قريش، فوضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم ﴿فِي قُلُوبِهِمُ اللَّعِيَّةَ﴾ الأنفة والتكبر، أي جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم ﴿حِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل من الحمية، أي حمية الملّة الجاهلية ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الطمأنينة والوقار على قلب الرسول والمؤمنين، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين؛

روي أن رسول الله ﷺ لما نزل الحديدية، بعثت قريش «سهل بن عمير وحويطب، ومكرز» على أن يعرضوا على النبي ﷺ، أن يرجع من عامه ذلك، على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك، وكتبوا بينهم كتاباً، فقال ﷺ لعلي اكتب: «باسم الله الرحمن الرحيم» فقالوا: لا نعرف هذا!! اكتب: «باسمك اللهم» ثم قال له: «اكتب هذا ما صالح رسول الله أهل مكة»، فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدّدناك عن البيت، اكتب هذا ما صالح محمد بن عبد الله أهل مكة فقال ﷺ، اكتب ما يريدون، فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك، ويبطشوا بهم، فأنزل الله السكينة عليهم، فتوقروا وتحملوا حتى لا يدخلهم ما دخلهم من الحمية ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ أي ألهمهم الثبات على كلمة الشهادة: «لا إله إلا الله» والإخلاص والوفاء لها بطاعة الله والرسول ﷺ، وفي الآية لطائف قال الله تعالى في الكافر: «جعل» وفي حق المؤمن «أنزل» إشارة إلى أن الحمية في نفسها مذمومة، وبالإضافة إلى الجاهلية، تزداد قبحاً، وكانت مجعولة في الحال، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة، فأنزلها الله فهي حسنة، وإضافة الله فيها أحسن، فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين، على المؤمنين سكينة حتى لم يغضبوا، ويتحلوا بالصبر، فهو من فضل الله تعالى ﴿وَكَانُوا﴾ أي المؤمنون ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي المستأهلين لها، لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبه نبيه، أهل الخير والصلاح ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم كل شيء فيسوقه إلى مستحقه.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه، روي أن رسول الله ﷺ رأى قبل خروجه إلى الحديبية، كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا رؤوسهم وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه، ولم يعين له وقتاً ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم، فلما تأخر ذلك، قال «عبد الله بن أبي» وأصحابه المنافقون: ما حلقنا ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام؟! فنزلت الآية رداً عليهم أي أراه الرؤيا الصادقة ﴿بِالرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ أي صدقاً ملتبساً بالحق، ليست من قبيل الأضغاث والأحلام ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ جواب قسم محذوف، أي والله لتدخلن ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليق الدخول بالمشيئة لتعليم العباد الأدب في الحديث ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي مجلقاً بعضكم، ومقصراً آخرون ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أي بعد ذلك من عدو في رجوعكم، وقوله ﴿آمين﴾ في حال الإحرام ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة، ما لم تعلموا أنتم من الحكمة، الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علماً فعلياً ﴿فَجَعَلَ﴾ لأجله ﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي من دون تحقق دخول المسجد الحرام ﴿فَتَحَاتُّرِبًا﴾ وهو فتح خبير، والمراد إنجازه من غير تسويف، ليستدل به على صدق الرؤيا، ولتستريح إليه قلوب المؤمنين.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ أي أرسله بالهداية التامة، الشاملة الكاملة، هادياً للناس إلى سبيل السعادة والنجاة ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وبدین

الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليعليه على الأديان كلها، ويرفعه على سائر الشرائع السماوية، وفيه فضل تأكيد، لما وعدهم به من الفتح، وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه سبحانه سيفتح لهم البلاد، وقد حقق ذلك سبحانه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن محمداً ﷺ رسوله، وعلى أن دين الإسلام حق.

﴿ثُمَّ حَمَدُ رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَبَّيْتُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَكَازَرُوهُ فَاسْتَغَلَّظَ فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿ثُمَّ حَمَدُ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي ذلك الرسول، المرسل بالهدى ودين الحق، هو محمد رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي أصحابه ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ أشداء جمع شديد، ورحماء جمع رحيم، والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم بالشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين بالرحمة، والرأفة، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿تَرَبَّيْتُمْ رُكْعًا سَجْدًا﴾ تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين، لمواظبتهم على الصلاة في أكثر أوقاتهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي ثواباً ورضاء ﴿سِيمَاهُمْ﴾ أي علامتهم ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾ في جباههم ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ من التأثير الذي يؤثره كثرة السجود، فقد استنارت وجوههم في النهار، من كثرة صلاتهم بالليل، مع الخشوع والتواضع ﴿ذَلِكَ﴾ أي وصفهم العجيب الشأن، الجاري في الغرابة مجرى الأمثال ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي وصفهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الركوع والسجود ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ تكرير المثل لتأكيد غرابته ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ﴾ أي كزرع أخرج فراخه ﴿فَكَازَرُوهُ﴾ فقواه حتى صار غليظاً، من

المؤازرة بمعنى المعاونة ﴿فَاسْتَعَاظَ﴾ فصار غليظاً بعدما كان دقيقاً ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ﴾ أي فاستقام على أصوله ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ بقوته، وكثافته، وغلظه، وحسن منظره، وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحابه ﷺ، كانوا قلّة في بدء الإسلام، ثم كثروا واستحكموا، فترقى أمرهم يوماً فيوماً، بحيث أعجب الناس شأنهم ودينهم، وكامل قوتهم، وجاء في الإنجيل «سيخرج قومٌ يبنّون نبات الزرع، يأمرّون بالمعروف، وينهون عن المنكر» ﴿لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ علة لما دلّ عليه تشبيههم بالزرع، من نمائهم واستحكامهم، أي ليدخل الغيظ إلى قلوب الكفار بهم ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فإن الكفار إذا سمعوا بما أعد الله للمؤمنين في الآخرة، مع ما لهم في الدنيا من العزة والكرامة، غاظهم ذلك أشد الغيظ، و«مِنْ» للبنيان وقال ابن جريج: من الشطأ الذي أخرجه الزرع، الداخلون في الإسلام، إلى يوم القيامة، روي عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم»^(١) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً، ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه»^(٢).

والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«ثم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح»

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

مدنية وهي ثمان عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَأَنفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وصفهم بالإيمان لتنشيطهم، والإيذان بأن ما في النداء يستدعي مزيد اعتنائهم، لأن الإيمان داعٍ إلى المحافظة عليه، ووازع عن الإخلال به، وفي هذه السورة إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ﴿لَا تَقْدُمُوا﴾ أي لا تقدّموا أمراً من الأمور، ولا تشيروا برأي من الآراء ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لا تفعلوا شيئاً، ولا تقطعوا بأمر قبل أن يحكم الله ورسوله به، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب، وإذا مشوا معه لا يمشون أمامه، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل قبله، تعظيماً لمقامه الشريف ﷺ (١) ﴿وَأَنفُوا اللَّهَ﴾ في كل ما تأتون وما تذكرون، من الأقوال والأفعال ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم.

(١) في الآية الكريمة استعارة لطيفة، حيث شبه حال المؤمنين مع رسول الله عليه الصلاة =

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُمْ
بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إعادة النداء للمبالغة في الإيقاظ، بشأنه
﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي لا تبلغوا بأصواتكم حداً يبلغه ﷺ
بصوته، بل ينبغي أن تغضوا منها، بحيث يكون كلامه عالياً على
كلامكم، لأن رفع الصوت دليل على قلة الاحتشام، وترك الاحترام،
ومن يرفع صوته عند غيره، يجعل لنفسه اعتباراً زائداً وعظمة ﴿وَلَا
تَجْهَرُوا لَهُمْ بِالْقَوْلِ﴾ إذا كلمتموه ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي جهراً كأننا
كالجهر الجاري فيما بينكم، بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته ﷺ،
وتعهدوا في المخاطبة الحديث القريب من الهمس، كما هو الدأب عند
مخاطبة المهيب المعظم، وحافظوا على مراعاة مقام النبوة، ولا تخاطبوه
باسمه وكنيته، بل بالنبي والرسول، فقولوا يا نبي الله، ويا رسول الله ﴿أَن
تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي خشية أن تبطل أعمالكم الصالحة وتضيع، بسبب عدم
أدبكم مع الرسول، المبعوث رحمة للعالمين وعلة للنهي، أي لا تجهروا
خشية ﴿أَن تَحْبَطَ﴾، وليس المراد بما نهى عنه ما يقارنه الاستخفاف
والاستهانة، فإن ذلك كفر، بل ما يكون أثناء المحاوره، من الرفع
والجهر، حسبما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ﴿وَأَنتُمْ لَا
تَشْعُرُونَ﴾ أي بحبوطها، وفيه مزيد تحذير لهم مما نهوا عنه.

= والسلام، بحال ملكٍ عظيم كان يمشي مع الحاشية والأنباع، فتقدم للسير أمامه بعض
أفراد الحاشية، وكان الأدب يقتضي أن يسيروا خلفه لا أمامه، وهكذا شأن الصحابة
مع رسول الله عليه السلام لا ينبغي لهم أن يعرضوا أمراً، أو يقطعوا حكماً في حضرة
النبي ﷺ، ولهذا جاء الأمر عاماً يشمل كل شأن من شؤون الحياة.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أي يخفضونها في مجلسه، مراعاة للأدب، أو خشية من مخالفة النهي ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى المتخلفين بالأدب من الصحابة الكرام، الذين يخفضون أصواتهم في مجلس الرسول عليه السلام ﴿ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ أي جربها للتقوى، وأخلصها للتقوى وجعلها صفة راسخة فيها، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمُ شَعَائِرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يُقَادِرُ قَدْرَهُ لَغَضِّهِمْ أَصْوَاتَهُمْ، وسائر طاعاتهم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ أي من خارجها ومن خلفها، والمراد بها حجرات أمهات المؤمنين، ومناداتهم أن جماعة من الأعراب، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وهو راقد وقت الظهيرة، فنادوه من وراء الحجرات: يا محمد اخرج إلينا، حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم ﷺ ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ إذ لو كان لهم عقل، لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا ﴾ أي لو ثبت صبرهم وانتظارهم ﴿ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي تفاتحهم بالكلام، وفيه بيان لحسن الأدب ﴿ لَكَانَ ﴾ الصبر المذكور ﴿ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ من الاستعجال، لما فيه من حسن الأدب، وتعظيم الرسول، الموجبين للثناء والثواب ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ بليغ المغفرة والرحمة، إن تابوا وأصلحوا.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ المجيء بالنبا الكاذب، يورث كون الإنسان فاسقاً ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي فتعرفوا وتفحصوا الأمر، روي أنه ﷺ بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق ليأتي بزكاة أهلها، فلما سمعوا به خرجوا لاستقباله، فحسب أنهم مقاتلوه فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا، ومنعوا الزكاة، فهم ﷺ بقتالهم، فنزلت ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ ملتبسين بجهالة حالهم ﴿فُتُصْحَبُوا﴾ أي تصبروا بعد ظهور براءتهم ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ في حقهم ﴿نَادِمِينَ﴾ مغتمين غمّاً لازماً، متمنين أنه لم يقع، وتنكير الفاسق، والنبا للتعميم، كأنه قال: أي فاسق جاءكم، بأي نبأ تبينوا، أي تطلبوا انكشاف الحقيقة وثبتوا من صحة الخبر.

﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاسِخُونَ ﴿٧﴾﴾ .

﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي فاتقوا الله أن تقولوا باطلاً، فإن الله تعالى يخبره فتفتضحوا ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ أي لو أطاعكم في أغلب ما تشيرون عليه، لوقعتم في الجهد والمشقة، المؤدي إلى الهلاك، وفيه إيذان بأن بعضهم زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق، تصديقاً لقول الوليد، وأنه ﷺ لم يطع رأيهم ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ أي ولكنه تعالى جعل الإيمان محبوباً لديكم ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي وحسنه في قلوبكم حتى رسخ حبه فيها، وأصبح طبيعة وسجية ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أي وبغض إلى نفوسكم أنواع الضلال، من المعاصي

والآثام مما لا خير فيه، حتى اجتنبتموها ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾
الموافقون للرشد الموفقون لفعل الخيرات.

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي نفصلاً منه تعالى عليكم حبب إليكم
الإيمان، وكره إليكم العصيان ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ مبالغ في العلم، فيعلم أحوال
المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما يفعل بموجب الحكمة
والمصلحة.

﴿وَلِإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدَلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

﴿وَلِإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ أي تقاتلوا، والجمع باعتبار المعنى
﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى
الْأُخْرَىٰ﴾ ولم تتأثر بالنصيحة ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ﴾ أي ترجع ﴿إِلَىٰ أَمْرِ
اللَّهِ﴾ إلى حكمه، وإلى ما أمر به ﴿فَإِن فَاءَتْ﴾ إليه واقتلعت عن القتال
حذراً من قتالكم ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ بفصل ما بينهما على حكم الله
تعالى، ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما، عسى يكون بينهما قتال في وقت
آخر، وتقييد الإصلاح بالعدل، لأنه مظنة الحيف، لوقوعه بعد المقاتلة،
وقد أكد ذلك حيث قال: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أي اعدلوا في كل ما تأتون وما
تذرون ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ فيجازيهم أحسن الجزاء، وفيها دلالة على
أن الباغي المقاتل، لا يخرج بالبغي عن الإيمان، وأنه يجب معاونة من

بُغِي عليه، بعد تقديم النصيح والسعي في المصالحة، ولفظة «إن» إشارة إلى ندرة الوقوع بين المسلمين، وإلى أنه ينبغي أن لا يقع منهم، ولم يقل «منكم» تبعيداً لهم عنهم، وقال ههنا (بالعدل) ولم يقل هناك فأصلحوا بالعدل، لأن الإصلاح هناك بإزالة الاقتتال، وذلك يكون بالنصيحة، أو التهديد والزجر، والإصلاح ههنا بإزالة آثار القتل من ضمان المتلفات، وهو حكم، فقال: (بالعدل) لئلا يؤدي إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي إنهم منتسبون إلى أصل واحد، وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ﴿ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ لأن الأخوة الدينية، موجبة للإصلاح، وتخصيص الاثنين بالذكر، لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية، لتضاعف الفتنة والفساد فيه، فالمعنى: ولو كان بين الرجلين من المسلمين أدنى اختلاف، فاسعوا في الإصلاح ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في كل ما تأتون وما تزدرون من الأمور التي من جملتها ما أمرتم به من الإصلاح ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ راجين أن ترحموا على تقواكم. عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»^(١).

(١) أخرجه أبو داود في الأدب. رقم ٤٨٩٣ والترمذي رقم ١٤٨٦ في الحدود.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بَلِّسَ إِلَا تُمْ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ﴾ أي جماعة منكم ﴿مِنْ قَوْمٍ﴾ آخرين منكم، والقوم هنا الرجال خاصة، إذ لو كانت النساء داخلة في قوم، لم يقل ﴿ولا نساء﴾ ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي عسى أن يكون المسخور منهم عند الله، خيراً من الساخرين، ويمكن أن يقال المراد من قوله: ﴿أن يكونوا﴾ أن يصيروا، فإن من استحقق إنساناً لفقره، أو ضعفه، لا يأمن أن يفتقر هو، ويستغني الفقير، ويضعف هو، ويقوى الضعيف ﴿وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ﴾ أي ولا تسخر نساء مؤمنات من نساء مؤمنات^(١) ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ﴾ أي المسخور منهن ﴿خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي من الساخرات، فإن مناط الخيرية ليس ما يظهر للناس، من الصور والأشكال، إنما هو الأمور الكامنة في القلوب، ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب، كما جاء في الحديث الشريف «رَبِّ أَشْعَثُ أَغْبَرُ، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»^(٢) ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ولا يعيب بعضكم على بعض، فإن المؤمنين كنفس واحدة، فإذا عاب المؤمن مؤمناً، كأنما عاب نفسه، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ ولا يدع

(١) لم يقل تعالى: لا يسخر رجل من امرأة، ولا امرأة من رجل، وإنما قال: ﴿قَوْمٍ مِنْ قَوْمٍ...﴾ ولا نساء من نساء، أي لا يسخر رجال من رجال، ولا نساء من نساء، للإشعار بأن مجالسة الرجل للمرأة مستقبح شرعاً، لما يجزئ إليه من المفساد، فالمجتمع الإسلامي نظيف، لا اختلاط فيه بين الذكور والإناث كما هو الحال عند غير المسلمين، ولأن الإنسان إنما يعيب من يلبسه ويخالطه، فالرجال يلتقون بالرجال، وربما عاب بعضهم بعضاً، والنساء بالنساء، ولذلك جاء التحذير للرجال والنساء، فافهم أسرار الكتاب العزيز.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٦٢٢ .

بعضكم بعضاً بلقب السوء، فإن النبز مختصٌّ به عرفاً، كمن يعيب غيره بالقصر، أو يهزأ عليه فيقول: يا أقرع أو يا أعرج، فالتلقيب المنهي عنه، هو ما يتداخل المدعو به كراهةً، لكونه ذماً له، فأماً ما يحبه فلا بأس به، كما قيل لأبي بكر رضي الله عنه: الصديق، ولعمر رضي الله عنه: الفاروق، ولم يقل تعالى «ولا تلامزوا» لأن اللماز إذا لَمَزَ، فالملموز قد لا يجد في الحال عيباً يلزمه به، وأماً في النبز وهو الرمي فلا يعجز كل واحد عن الإتيان به، فإن من نبز غيره بالثور، وهو ينبره بالحمار، وغير ذلك.

﴿يَسْأَلُ الْإِثْمُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ الاسم هنا بمعنى «الذكر» يقال: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم؛ أي بشئ الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق، بعد دخولهم الإيمان واشتجارهم به، والمعنى: بسئ أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن كان مؤمناً، بسبب هذه الأفعال، ويكون كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ وكان بعض الناس يقول في شتمه لمن أسلم من اليهود يا «يهودي» ويا فاسق، فنهوا عنه، وقيل: نزلت في «صفية بنت حُيَيٍّ» أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يقتلن لي بنت يهودي، فنزلت الآية^(١) ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ﴾ عما نهى عنه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعريض النفس للعذاب.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَجْتَبَا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾

(١) أشار إلى ما رواه أحمد في المسند ١٢٦/٣ عن أنس بن مالك قال: بلغ صفية أن حفصة قالت لها: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: قالت لي حفصة: أنت ابنة يهودي، فقال النبي ﷺ: إنك لابنة نبي - يريد موسى عليه السلام - وعمك لنبي - يريد هارون عليه السلام - وإنك لتحت نبي، فبم تفخر عليك؟ ثم قال: اتق الله يا حفصة... الحديث.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ أي ابتعدوا عن التهمة وإساءة الظن بالمؤمنين، وكونوا على جانب منه، وإيهام الكثير لإيجاب الاحتياط، والتأمل في كل ظن، فلا يسارع المؤمن بل يتأمل ويتحقق، قبل أن يظن السوء بأخيه المؤمن ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ تعليل للأمر بالاجتناب، أي إن في بعض الظن إثم يلحق صاحبه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، كما أمركم المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، التقوى ههنا، التقوى ههنا، (ويشير إلى صدره) بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم، على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله»^(١) ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين، والتجسس: التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، ومنه الجاسوس ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته، واغتابه اغتياًباً إذا ذكره بما يكره، والاسم الغيبة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قلنا: الله ورسوله أعلم؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره، قلت: أرايت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»^(٢) ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيل وتصوير على أفحش وجه، وأشنعه، طبعاً، وشرعاً، مع مبالغات من فنون شتى، الاستفهام التقريري، وإسناد الفعل إلى أحد الأخوين (لحم أخيه) وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتيال بأكل لحم الإنسان^(٣)، وجعل المأكول أخاً للآكل، وكونه ميتاً، وتعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك، أي

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ والبخاري رقم ٦٠٦٥ وروى الترمذي بعضه رقم ١٩٢٨.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٨٩ باب تحريم الغيبة، «بهته»: أي قلت فيه البهتان وهو الباطل.

(٣) طرف من حديث أخرجه أبو داود رقم ٤٨٧٨.

فتحققت كراحتكم له باستقامة العقل، فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره، من الغيبة باستقامة الدين، وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان، كلحمه ودمه، لأن قلبه يتألم إذا ذكر بسوء، كما يتألم جسده إذا قُطع لحمه، والعرض أشرف من اللحم^(١)، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»^(٢) ﴿وَأَقْوُوا اللَّهَ﴾ بترك ما أمرتم باجتنابه، والندم على ما صدر عنكم من قبل ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ مبالغ في قبول التوبة، وإفاضة الرحمة، حيث يجعل التائب كمن لم يذنب، وإن كثرت ذنوبه، والكذب والافتراء هما في غاية القبح، فلم ينه عنهما اكتفاء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن وصفهم بالإيمان، يمنعهم عنهما، وهما دأب الكافر، وإنما منعهم عما يكثر وجوده في المسلمين.

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣)

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ أي من آدم وحواء، وخلقنا كل واحد منكم من أب وأم، فالكل سواء في ذلك، فلا وجه للتفاخر بالنسب، قيل: لَمَّا كان يوم الفتح، أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة وأذن، فقال بعض الناس: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ فنزل جبريل فأخبر رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وزجرهم

(١) جاء التعبير القرآني بأبداع التمثيل البياني، فقد مثل تعالى للمغتتاب بالشخص الذي جلس على ميتة ينهش من لحمها، وهذا اللحم أولاً لحم إنسان، وهذا الإنسان أخوه، ثم هو ميت، فإن أكل لحم الميتة هو المتناهي في كراهة النفوس، ونفور الطباع، وبإله من تمثيل مُريع، بلغ الذروة في القبح والشناعة، والفظاعة.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٤٨٧٨ في الأدب.

عن التفاخر بالأنساب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشعب: الجمع العظيم، المنتسبون إلى أصل واحد، سميت شعوباً لأن القبائل تتشعب منها كتشعب أغصان الشجرة، والشعبُ يجمع القبائل، والقبيلة هي الجماعة التي يربطها حسب أو نسب، وهي تجمع البطون والأفخاذ، ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ليعرف بعضكم بعضاً، ويعرف الإنسان نسبه فلا ينتسب أحد إلى غير آبائه، لا للتفاخر بالآباء، والتفاضل في الأنساب، والسخرية تفضي إلى التناكر ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب، كأنه قيل: إن الأكرم عند الله هو الأتقى، فإن تفاخرتم فتفاخروا بالتقوى، فإنها تكمل النفوس، وبها تتفاضل الأشخاص، وختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي يعلم التقى والشتى، والصالح والطالح، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمِنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ أي بعض الأعراب، نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سنة جدب، فأظهروا الإسلام، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ أتيناك بأثقال وعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، يريدون الصدقة، ويمنون عليه ﷺ ما فعلوا ﴿ءَأَمِنَّا قُلْ﴾ لهم ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ إذ الإيمان هو التصديق مع طمأنينة القلب، ولم يحصل لكم ذلك، وإلا لما منتهم بإيمانكم وأفعالكم!! وهذا كان معجزة للنبي ﷺ حيث أطلع الله رسوله على الغيب، وذلك كالتاريخ، لنزول الآية، لا للاختصاص بهم، لأن من أظهر فعل المتقين، وأراد أن يصير له ما للأتقياء من الإكرام، لا يحصل له ذلك، لأن التقوى من عمل القلب، والله تعالى خبير بما في الصدور ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ للاحتراز من النهي عن التلفظ بالإيمان، أي فإن كنتم

تقولون شيئاً، فقولوا أمراً عاماً، لا يلزم منه كذبكم، وهو أسلمنا، فإن الإسلام بمعنى الانقياد حصل ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم، ولم تذوقوا حلاوته بعد^(١)، ﴿وَأِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالإخلاص، وترك النفاق، وفيه تحريض على الإيمان الصادق ﴿لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ﴾ أي لا ينقصكم شيئاً من أجورها، يقال: لات يليت، ليتاً: إذا نقص ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿رَحِيمٌ﴾ بالفضل عليهم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي لم يشكوا ويتزلزلوا في إيمانهم، بل ثبتوا على اليقين، فهي كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في طاعة الله على تكثير فنونها من العبادات البدنية والمالية ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين صدقوا في دعوى الإيمان لا غيرهم.

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي أتخبرونه بتصديق قلوبكم؟ والتعبير عنه بالتعليم لتشنيعهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ حال من مفعول «تَعْلَمُونَ» مؤكدة لتشنيعهم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي مبالغ في

(١) قال الحافظ ابن كثير: وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه السورة ليسوا منافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم. فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فادبهم الله في ذلك، ولو كانوا منافقين لعُتِمُوا وفُضِحُوا - اهـ.

العلم بجميع الأشياء، التي من جملتها ما أخفوه من غرض إظهارهم الإيمان، وفيه مزيد تجهيل، وتوبيخ لهم.

﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي يعدون إسلامهم منة عليك ﴿قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي لا تعدوا إسلامكم منة عليّ، فإن نفع ذلك عائد عليكم ﴿بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي لو صح ادعاؤكم بالإيمان، فله المنة عليكم، حيث بين لكم الطريق ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمان، وجوابه محذوف، يدل عليه ما قبله، أي فله المنة عليكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما غاب فيهما، فكيف يخفى عليه حالكم؟ ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سركم وعلايتكم والله أعلم بمراده، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات»

سُورَةُ قُورَيْشٍ

مكية وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَقْرَانِ الْمَجِيدِ﴾ ١

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَقْرَانِ الْمَجِيدِ﴾ المجيد أي ذي المجد والشرف على سائر الكتب، أو لأنه كلام المجيد جلّ وعلا، فهو ممجّد.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ٢

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي لأن جاءهم منذر منهم، أي من جنسهم، وهو إضراب عما ينبيء عنه جواب القسم المحذوف، كأنه قيل: والقرآن المجيد أنزلناه إليك، لتندر به الناس ولم يؤمنوا به، وهو رجل منهم، عرفوا أمانته، وعدالته، وأصالته، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحاً لقومه، خائفاً أن يناله مكروه، وإذا علم أن مخوفاً أظلمهم، لزمه أن ينذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف؟ ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ تفسير لتعجبهم، أي هذا شيء في منتهى الغرابة والعجب.

﴿إِنَّا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ٣

﴿أَوَدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي أحيان نموت ونصير تراباً، نرجع إلى الحياة مرة ثانية، ونبعث بعد موتنا؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي ذلك رجوع مستحيل، بعيد غاية البعد.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ رد لاستبعادهم، فإن علمه تعالى عام ولطيف، حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى، ويعلم أجزاء كل واحد منهم، وقادر على الجمع والتأليف، فليس الرجوع منه ببعيد ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي حافظ لتفاصيل الأشياء كلها، وهو اللوح المحفوظ، الذي أحصى تفصيل كل شيء، مكتوب موتهم، ومكثهم في القبر، ومبعثهم يوم القيامة، والحفيظ بمعنى «الحافظ» قد ورد في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي بحافظ.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ إضراب وانتقال، من بيان شناعتهم السابقة، إلى بيان ما هو أشنع منه وأقطع، وهو تكذيبهم للنبوة، الثابتة بالمعجزات الباهرة، وسخريتهم وتكذيبهم للقرآن الكريم ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ حين جاءهم في أول وهلة، من غير تأمل وتفكر ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي مضطرب، لا قرار له، حيث يقولون تارة: شاعر، وطوراً ساحر، ومرة كاهن، لا يثبتون على شيء واحد، وكان الواجب عليهم أن ينتقلوا من الشك إلى اليقين والقطع بصدقه، لعلمهم بأمانته، واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهرهم، ولظهور المعجزات على يديه، فلما غيروا حصل الاضطراب.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ

فُرُوجٍ﴾

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾؟ أي أغفلوا ولم ينظروا حين كفروا بالبعث؟ ﴿ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ بحيث يشاهدونها كل وقت ﴿ كَيْفَ بَيَّنَّهَا ﴾ أي رفعناها بغير عمد ﴿ وَزَيَّنَّهَا ﴾ بما فيها من الكواكب المنيرة، المترتبة على نظام بديع ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ أي فتوق، لسلامتها من كل عيب وخلل، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّ الْمَوْتَى ﴾ (١).

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾.

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ بسطناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبلاً ثوابت ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسن يسرُّ به من رآه.

﴿ تَبَصُّرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾.

﴿ تَبَصُّرَةً وَذِكْرَى ﴾ أي فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ أي راجع إلى ربه، متفكر في بدائع صنعه، والفرق بين التبصرة والتذكرة، هو أن فيها آيات مستمرة، منصوبة في مقابلة البصائر، كخلق السماء وزينتها، وآيات متجددة عند الناس، كإنبات كل زوج من أنواع الزروع.

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾.

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا ﴾ أي كثير المنافع، فيه حياة كل شيء، وهو المطر ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ كثيرة، أي أشجاراً ذوات ثمار ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ أي حب الزرع، الذي شأنه أن يُحصَد، البر، والشعير، وأمثالهما.

(١) سورة الأحقاف، آية: ٣٣.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ نَضِيدٌ﴾

﴿وَالنَّخْلَ﴾ عطف على الجنات، وتخصيصها بالذكر لبيان فضلها على سائر الأشجار ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ أي طوالاً مستويات، مرتفعات، يقال: بَسَقَتِ النخلة بسوقاً طال، فهي باسقة ﴿لِّمَا طَلَعَ﴾ هو ما يطلع من ثمر النخيل ﴿نَضِيدٌ﴾ متراكب بعضه على بعض، والمراد تراكم الطلع، أو كثرة ما فيه من الثمر، وفيه استدلال بالأشجار، تنمو وتزيد، فكذلك بدن الإنسان بعد الموت، ينمو ويزيد.

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مِّمَّنَّا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أي لِرزقهم، علة لقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعْنَا﴾ وفي تعليقه بذلك، تنبيه على أن الواجب على العبد، أن يكون انتفاعه بذلك، من حيث التذكر والاستبصار، أهم وأقدم من تمتعه من حيث الرزق، ولهذا قال أولاً: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ وقال ثانياً: ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ مطلقاً، لأن الرزق حاصل لكل أحد، غير أن المنيب يأكل ذاكراً وشاكراً، وغيره يأكل كالأنعام ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مِّمَّنَّا﴾ أي أرضاً مجدبة، لا نماء فيها فجعلها بحيث تربو، وتنبت أنواع النباتات، وصارت تهتز بها، بعدما كانت جامدة هامدة ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي مثل تلك الحياة البديعة، حياتكم بالبعث من القبور، وفي التعبير عن إخراج النبات بالإحياء، وعن إحياء الموتى بالخروج، تهوين لأمر البعث، وتقريب إلى أفهام البشر.

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّ وَشُعُوبٌ أُخَرُ﴾

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل المشركين ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ شيخ الأنبياء، بدأ به لأنه أطول الأنبياء عمراً وأكثرهم بلاء ﴿وَأَصْحَابُ الرَّيِّ وَشُعُوبٌ أُخَرُ﴾

﴿وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ ١٢.

﴿وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ﴾ أي فرعون وقومه، ليلائم ما قبله وما بعده ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ سمّاهم إخوانه لأنه عليه السلام صاهرهم وتزوج منهم.

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ ١٣.

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو ملك باليمن أسلم دعا قومه إلى الإسلام ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد منهم ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ فيما أرسل به من الشرائع، أي كل قوم من الأقوام المذكورين، كذبوا رسولهم، وكذبوا جميعهم جميع الرسل ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ أي فحل عليهم وعيدي، وهي كلمة العذاب.

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ١٤.

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر، كأنه قيل: أفصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه، حتى يُتوهم عجزنا عن الإعادة؟ وهذا جواب لقولهم: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي إذا لم نعجز عن الخلق الأول، فكيف نعجز عن الثاني؟ ﴿بَلْ هُمْ﴾ أي قريش ﴿فِي لَبْسٍ﴾ وشك وشبهة ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول، بل هم في شبهة في خلق مستأنف، لما فيه من مخالفة العادة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ١٥.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي ما تحدّث به نفسه، وهو ما يخطر بالبال من حديث النفس ﴿وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي أعلم بحاله ممن كان

أقرب إليه، ﴿مِنْ جَلِّ الْوَرِيدِ﴾ والوريدُ: العرق الذي هو مجرى الدم، يجري فيه الدم ويصل إلى القلب، سمي وريداً لأنَّ الروح تردده، وهو المسمَّى بالشريان الوريدي، والآية تمثيل لشدة قرب الله من عبده، وليس هناك اتحاد وحلول، تعالى الله عن ذلك.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (١٧)

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي إنه لطيف، يتوصل علمه إلى ما لا شيء أخفى منه، وهو أقرب من الإنسان من كل قريب، وذلك حين يتلقى المَلَكَانِ الحفيظان (١) ما يتلفظ به، وفيه إيذان بأنه غني عن استحفاظ الملكين، فإنه أعلم منهما، ومطلع على ما يخفى عنهما، لكنَّ الحكمة اقتضت ذلك، لعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ في الكلام حذف تقديره: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه، وقيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح، فهو كالظل للإنسان، يلازمه حيث كان.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١٨)

﴿مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ما يتكلم به من خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أي مَلَكٌ يرقيب ما صدر عنه، لما أن كلا منهما رقيب لما فوض إليه ﴿عَتِيدٌ﴾ أي معدٌّ ومهيأٌ لكتابة ما أمر به، يكتبان ما فيه أجر، أو وزر، ويحتمل أن يقال المتلقيان المَلَكَانِ، اللذان يأخذان روحه من ملك الموت، أحدهما

(١) قال مجاهد: وكلُّ الله بالإنسان - مع علمه بأحواله - ملكين بالليل، وملكين بالنهار، يحفظان عمله، ويكتبان أثره، إلزاماً للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ - ١٨ - تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٣.

يأخذ أرواح الصالحين، وينقلها إلى دار السرور إلى يوم النشور، والآخر يأخذ أرواح الطالحين، وينقلها إلى الويل والثبور، وعنده ملكان آخران كاتبان لأعماله، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فالشاهد هو القعيد، والسائق هو المتلقي.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ أي بحقيقة الأمر، أي بما يؤول إليه أمره، من السعادة والشقاوة، وسكرة الموت: شدته الزاهية للعقل ﴿ذَلِكَ﴾ أي الموت ﴿مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي تميل وتنفر عنه.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية ﴿ذَلِكَ﴾ أي وقت ذلك النفخ ﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي يوم إنجاز الوعيد، وتخصيص الوعيد بالذكر لتهويله.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البرة والفاجرة ﴿مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي معها ملكان أحدهما يسوقها إلى المحشر، والآخر يشهد بعملها، وقال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشاهد جوارحه، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ...﴾ الآية.

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أي يقال له: لقد كنت أيها الإنسان في غفلة من هذا اليوم العصيب ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ الغطاء: الحجاب

المغطّي وهو الغفلة، والانهماك في الشهوات، وقصر النظر عليها ﴿فَبَصَّرُكَ الْيَوْمَ حَرِيدٌ﴾ أي فبصرك اليوم قوي نافذ، لزوال المانع.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ (٢٣)

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ الجمهور على أنه المَلَك الكاتب الموكل به ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ﴾ قال الملك الموكل به، مشيراً إلى كتاب عمله: هذا مكتوب عندي ﴿عَيْنِي﴾ أي مهياً للعرض.

﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِدٍ﴾ (٢٤)

﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد، أو للملكين من خزانة النار، ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِدٍ﴾ أي كل كافر معاند للحق.

﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ (٢٥)

﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة، أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله، والمراد بالخير: الإسلام الذي هو خير محض، كأنه قال: كفر بالله ولم يقنع بكفره حتى منع الخير عن الغير. قيل: إن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم، غشوم ﴿مُرِيبٍ﴾ شاك في الله، وفي دينه ويوقع الغير في الريب باللقاء الشبهة.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (٢٦)

﴿الَّذِي﴾ بدل من كل كفار ﴿جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ تكرير للتوكيد.

﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾.

﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي الشيطان المقيض له، فكان الكافر قال: رب هو أطعاني، فقال قرينه ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ ﴾ أي ما كان ابتداء الإضلال مني، لكنه طغى واختار الضلالة على الهدى ﴿ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أي ضلال بعيد عن الحق، فاعتته عليه بالإغواء، من غير قسر والجاء.

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ أي في موقف المحاسبة، إذ لا فائدة في ذلك ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ أي سبق أن أنذرتكم على الطغيان، فلا تطمعوا في الخلاص اليوم.

﴿ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلِيمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

﴿ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ أي ما يبدل حكمي، ولا يغير كلامي، بعقاب أهل الكفر والإجرام ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلِيمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي وما أنا بمعذب للعبيد بغير ذنب من قبلهم.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِإِجْهَمَ هَلْ أَمْتَلَأْتَ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِإِجْهَمَ ﴾ سؤال وجواب جيء بهما على منهاج التمثيل، لتحويل أمرها، والمعنى: إنها مع اتساعها، وتباعد أقطارها، يُطرح فيها من الإنس والجن حتى تمتلئ ﴿ هَلْ أَمْتَلَأْتَ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ لغيظها على العصاة تطلب زيادتهم، وهذا الكلام ربما يقع قبل إدخال الكل، ويمكن أن يكون الأمر على الحقيقة، بأن يخلق الله للنار قدرة على الكلام، ويسألها فتجيب، والله على كل شيء قدير.

﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ﴿٢١﴾

﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِمُتَّقِينَ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين، أي قُرِبَتْ للمُتَّقِينَ، بحيث يشاهدونها من الموقف، فيستهجون بأنهم محشورون إليها، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي مكاناً غير بعيد.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى الجنة أي مقولاً لهم ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي رجاء إلى الله تعالى ﴿حَفِيفٍ﴾ أي حافظ لما استودعه الله من حقوقه.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَلِيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَلِيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ وصف القلب بالإجابة، لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى خالصاً، أي جاء بقلب طيب سليم، خالص من شوائب الضلال والإشراك.

﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿أَدْخُلُوهَا﴾ أي يقال لهم ادخلوها ﴿بِسَلَامٍ﴾ أي بسلامة من العذاب والهموم والأكدار ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي ذلك هو البقاء الدائم في الجنة، الذي لا انتهاء له، لأنه لا موت في الجنة ولا فناء.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي لهم في الجنة من كل ما تشتهيه أنفسهم كائناً ما كان ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ وهو ما لا يخطر ببالهم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحْيِصٍ﴾ (٣٦)

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل كفار قريش ﴿مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي قوة كعاد وأضرابها ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي تفرقوا في البلاد، وجالوا في أكنافها ﴿هَلْ مِنْ مَحْيِصٍ﴾ أي هل من مهرب من الموت؟ أي لم يجدوا محيصاً، بل ماتوا وصاروا إلى أمر الله.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧)

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر في السورة ﴿لَذِكْرٍ﴾ أي تذكرة وموعظة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي قلب سليم يدرك كنه ما يشاهده من الأمور، ويتفكر فيها، فيعلم أن مدار دمارهم هو الكفر، فيرتدع عنه ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي إلى ما يتلى عليه ليقف على جليلة الأمر ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي حاضر الفكر والقلب، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٨)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا﴾ أي خلقناهما مع عظمتهم في مقدار ستة أيام وما أصابنا ﴿مِنْ لُغُوبٍ﴾ أي من إعياء ولا تعب، وهذا رد على جهلة اليهود في زعمهم أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على ظهره على العرش، فهو يوم استراحة الرب، فكذبهم الله تعالى.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي ما يقوله المشركون في شأن البعث، من الإنكار والاستبعاد، فإن من فعل هذه الأفاعيل قادر على بعثهم، والانتقام منهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي نزهه تعالى عن العجز، حامداً له تعالى على ما أنعم به عليك من النبوة والهداية ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ الفجر ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ العصر، والظهر.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ العشاءان والتهجد، وقيل: أراد بالتسبيح الصلاة ﴿وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ﴾ النوافل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من سَبَّحَ الله في دُبُرِ كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وكَبَّرَ الله ثلاثاً وثلاثين، ثم قال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت ذنوبه، وإن كانت مثل زَبَدِ البحر»^(١).

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مَن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٣١﴾

﴿وَأَسْمِعْ﴾ أي لما يوحى إليك، من أحوال القيامة، وفيه تهويلٌ لأمر المخبر به ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ﴾ أي إسرافيل عليه السلام، فيقول: أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿مِّن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكل.

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٥٩٧.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ وهي النفخة الثانية ﴿بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي يوم يسمعون الصيحة، ملتبسة بالحق الذي هو البعث، يخرجون من القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ أي يُحيي الخلائق ونميتهم في الدنيا، من غير أن يشاركنا في ذلك أحد ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ للجزاء في الآخرة.

﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ﴾ أي تتصدع الأرض فتخرج الموتى من قبورهم ﴿عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ مسرعين جمع سريع، كالكرام جمع كريم ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ﴾ أي بعث وجمع ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي هين.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من نفي البعث، وتكذيب الآيات، وغير ذلك مما لا خير فيه ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي بمتسلط تفسرهم على الإيمان، وإنما أنت مذكر ﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي فعظ بهذا القرآن وخوف من يخاف وعيدي، وأما من عداهم فنحن نفعل بهم ما توجبه أعمالهم من فنون العذاب. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ق»

سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ

مكية وآيها ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَّتِ ذَرَوْا ۝١﴾ .

﴿وَالذَّارِيَّتِ ذَرَوْا﴾ أي الرياح التي تذرّو التراب وغيره، ذرت الرياح الشيء نسفته وفرقته .

﴿فَالْحَمِلَاتِ وَفَرَا ۝٢﴾ .

﴿فَالْحَمِلَاتِ﴾ أي السحب الحاملة للمطر ﴿وَفَرَا﴾ ثقلاً من الماء .

﴿فَالْجَارِيَّتِ يُسْرَا ۝٣﴾ .

﴿فَالْجَارِيَّتِ يُسْرَا﴾ أي السفن الجارية في البحر، ويسراً صفة لمصدر محذوف، أي جرياً ذا يسر وسهولة .

﴿فَالْمَقْسَمَتِ أَمْرًا ۝٤﴾ .

﴿فَالْمَقْسَمَتِ أَمْرًا﴾ أي الملائكة التي تقسم الأمور، من الأمطار،

والأرزاق وغيرها، أقسم الله تعالى بهذه الأشياء، لشرف ذواتها، ولما فيها من الدلالة على عجب صنعه تعالى، وقدرته، ثم ذكر الجواب فقال:

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾.

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أي الموعود وهو البعث، وعد صادق وحق.

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَفَّيْهُمُ ﴾.

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَفَّيْهُمُ ﴾ أي الجزاء على الأعمال، لواقع وكائن، لأن من قدر على إبداع هذه البدائع، فهو قادر على البعث والجزاء.

﴿ وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾.

﴿ وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ عن ابن عباس: ذات الخلق المستوي، وقيل: ذات الطرائق المحكمة، والبيان المتقن.

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾.

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أيها المشركون جواب القسم ﴿ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ أي متخالف ومتناقض، وهو قولهم في حقه ﷺ تارة شاعر، وأخرى ساحر، وأخرى مجنون، وفي شأن القرآن الكريم: تارة شعر، وأخرى سحر، وأخرى أساطير الأولين.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي يصرف عن القرآن وعن الإيمان بالرسول عليه السلام من صرف، إذ لا صرف أفزع منه وأشد.

﴿قِيلَ الْخَرَاصُونَ﴾ ١٠ .

﴿قِيلَ الْخَرَاصُونَ﴾ دعاء عليهم كقوله تعالى: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾؟ وأصله الدعاء بالقتل، والهلاك، ثم جرى مجرى اللعن ﴿الخراصون﴾ الكذابون، وهم أصحاب القول المختلف، كأنه قيل: قُتِلَ هؤلاء الخراصون الأفاكون، ولعنوا على ما قالوا من الكذب والبهتان، في حق الرسول والقرآن.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ ١١ .

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ من الجهل والضلال يغمرانهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به.

﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الْيَوْمِ﴾ ١٢ .

﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الْيَوْمِ﴾ أي متى يكون يوم الجزاء، لكن لا بطريق الاستعلام، بل بطريق الاستعجال والاستهزاء.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ﴾ ١٣ .

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ﴾ جواب للسؤال، أي يقع يوم هم على النار، يحرقون ويعذبون بها وتقول لهم خزنة النار:

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ١٤ .

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي عذابكم ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ بطريق الاستهزاء.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لا يبلغ كنهها ولا يُقادر قدرها .

﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ مِنْهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ مِنْهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي قابلين لما أعطاهم، راضين به على معنى أن كل ما آتاهم حسن مرضي يُتلقى بحسن القبول ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ أي لأعمالهم الصالحة فلذلك نالوا ما نالوا، من الفوز العظيم .

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أي كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل، وفيه مبالغة في تقليل نومهم، هجع هُجوعاً: نام بالليل .

﴿ وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَغْفِرُوا لَهُمْ يَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ﴾ أي هم مع قلة نومهم، وكثرة تهجدهم، يداومون على الاستغفار في الأسحار، كأنهم أمضوا ليلهم باقتراف الجرائم .

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾ أي نصيب وافر قد أوجبه على أنفسهم تقريباً إلى الله تعالى وإشفاقاً للناس ﴿ لِّلسَّائِلِ ﴾ لمن يسأل لحاجته ﴿ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أي المتعفف الذي يحسبه الناس غنياً، فيحرم الصدقة لتعففه .

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ دلالات واضحة على شؤونه تعالى، حيث إنها مدحوة كالبساط الممهّد، وفيها سهل وجبل، وبر وبحر، وعيون متفجرة، ومعادن دفيئة، والنباتات، وأنواع الأشجار، وأصناف الثمار، ودواب منبثة، قد رُتّب كلها ودُبّر لمنافع ساكنيها ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي للموحّدين، الذين سلكوا الطريق السويّ، بعيون باصرة، وأفهام نافذة.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ آيات إذ ليس في العالم شيء إلا في الأنفس له نظير، يدل دلالة على ما انفرد به، من الهيئات النافعة، والمناظر البهية، والتركيبات العجيبة، والتمكن من الأفعال البديعة، واستنباط الصنائع المختلفة، واستجماع الكلمات المتنوعة، وحسبك بالقلب والدماغ، وما ركز فيه من العقل والفكر، وبالألسن والنطق، وما في تركيبها ولطائفها، من الآيات الدالة على حكمة مبدعها، ومدبرها، وقدرة صانعها، فتبارك الله أحسن الخالقين!! ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أي ألا تنظرون فتبصرون قدرة الله بعين البصيرة؟.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي أسباب رزقكم ومعاشكم وهو المطر، فإنه سبب الأقوات ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثواب، لأن الجنة في السماء.

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾.

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ أي أقسم لكم برب السماء والأرض إنما

توعدون من الرزق، والبعث، والجنة والنار، لحق ﴿مَثَلُ مَا أَنْكُم تَنْطِقُونَ﴾ أي كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون، ينبغي أن لا تشكوا في حقيقته.

﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٥)

﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾؟ تفخيم لشأن الحديث، وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله ﷺ بغير طريق السوحي ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ أي المعظمين عند الله، وعند إبراهيم، حيث خدمهم بنفسه وبزوجته، وإكرام إبراهيم عليه السلام لهم، ببشاشة الوجه أولاً، وبالإجلاس في أحسن المواضع ثانياً، وتعجيل القرى ثالثاً.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ (٢٥)

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي أنتم قوم منكرون، أنكرهم عليه السلام لأن أوضاعهم وأشكالهم تخالف أشكال أهل البلدة، إذ قدموا عليه في صورة شبان حسان، عليهم مهابة عظيمة، خلاف ما عليه الناس، وإنما قاله في نفسه، من غير أن يشعرهم بذلك، لا أنه خاطبهم جهراً لأن فيه من عدم الأنس ما لا يخفى، ولو سألهم من أول الأمر عن حقيقتهم، لكشفوا أحوالهم عند ذلك، ولم يتصد لمقدمات الضيافة، قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ فدل على أن إنكارهم كان حاصلًا بعد تقريره العجل لهم لياكلوا منه.

﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ (٢٦)

﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي ذهب إليهم على خفية من ضيفه، فإن من أدب المضيف أن يبادره بالقرى، من غير أن يشعر به الضيف، حذراً من أن يكفه ويمنعه، راغ فلان إلى كذا مال إليه سراً ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ الفاء

فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت، بدلالة الحال عليها، أي فذبح عجلًا فشواه فجاء به.

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢٧).

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ بأن وضعه لديهم، وهذا من آداب المضيف أن يقدم الطعام إلى الضيف، ولا يحوجهم إلى السعي إليه ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ منه؟ إنكاراً لعدم تعرضهم للأكل.

﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (٢٨).

﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ﴾ أي أضمر في نفسه ﴿خِيفَةً﴾ لتوهم أنهم جاؤوا للشر، قيل: «من لم يأكل طعامك، لا يحفظ ذمامك» أي ذمتك وكرامتك ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله، فعرفهم وأمن منهم، وقيل: مسح جبريل عليه السلام العجل، فقام ولحق بأمه ﴿وَبَشَّرُوهُ﴾ في سورة الصافات ﴿وبشرناه﴾ أي بواسطتهم ﴿بِغُلَامٍ﴾ وهو إسحق عليه السلام عند الجمهور ﴿عَلِيمٍ﴾ أي يكمل علمه إذا بلغ، وفيه بشارة بحياته حتى يكون من العلماء النابغين.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (٢٩).

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ سارة رضي الله عنها لما سمعت بشارتهم، وكانت في زاوية تنظر إليهم ﴿فِي صَرْفٍ﴾ أي في صيحة وضجة، من الصرير وهو شدة الصياح ﴿فَصَكَتْ وَجْهَهَا﴾ أي لطمته من الحياء، وقيل: ضربت بأطراف أصابعها جبينها، كما يفعله المتعجب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي أنا عجوز عاقر، فكيف ألد؟.

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٠).

﴿قَالُوا كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك القول الكريم ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ أي قضى الله وحكم، وإنما نخبرك به عنه تعالى، لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أي الحكيم في صنعه، العليم بشؤون خلقه، فيكون قوله حقاً، وفعله متقناً لا محالة، ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط، بل مع إبراهيم أيضاً، حسبما شرح في سورة الحجر.

﴿قَالَ فَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٢﴾.

﴿قَالَ فَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي لإهلاك المجرمين من قوم لوط.

﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَ مِّنْ طِينٍ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي بعدما قلنا قراهم، وجعلنا عاليها سافلها حسبما فصل في سورة هود ﴿حِجَابَ مِّنْ طِينٍ﴾ أي طين متحجّر، هو السجيل.

﴿مُّسَوِّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُؤْسِفِينَ﴾ ﴿٢٤﴾.

﴿مُّسَوِّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُؤْسِفِينَ﴾ أي المجاوزين الحد في الفجور.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ حكاية من جهته تعالى، لما جرى على قوم لوط، بطريق الإجمال، أي: فباشروا ما أمروا به فأخرجنا ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي في قوم لوط ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن آمن بلوط عليه السلام، وفيه بيان القدرة والاختيار، فإن البلاء والعذاب يصيب البر والفاجر، فلما ميز الله دلّ على الاختيار.

﴿فَأَوْحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمَسْلُومِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿فَأَوْحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي غير أهل بيت ﴿مِّنَ الْمَسْلُومِينَ﴾ قيل هم لوط وأهل بيته وكانوا نحو ثلاثة عشر شخصاً، وفيه إشارة إلى أن الكفر والفسق إذا فشيا، لا تنفع عبادة المؤمنين عن رفع البلاء، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة، وفيه شذمة يسرفون، فالحكم للغالب في البلاد والعباد.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ أي علامة دالة على ما أصابهم من العذاب، هي تلك الأحجار التي رُموا بها، وجعل عاليها سافلها ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي من شأنهم أن يخافوه، لسلامة فطرتهم، دون من عداهم، من ذوي القلوب القاسية.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿وَفِي مُوسَى﴾ أي وجعلنا في قصة موسى آية وعبرة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة ظاهرة، هي ما ظهر على يديه من المعجزات الواضحة.

﴿فَتَوَلَّىٰ رُكْنِهِ وَقَالَ سَحَرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿فَتَوَلَّىٰ رُكْنِهِ﴾ أي بما يتقوى به من ملكه وعسكره، فإن الركن اسم لما يُركن إليه الشيء ﴿وَقَالَ سَحَرٌ﴾ أي هو ساحر ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كأنه نسب ما ظهر على يديه عليه السلام من الخوارق إلى الجن، وتردّد في أنه حصل ذلك بسعيه وباختياره، وهذا التردّد دليل الافتراء والبهتان.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ جُودُوهُمُ فَنَبَذْنَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُمْ مِلْمٌ ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ جُودُوهُمُ فَنَبَذْنَهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ أي فأغرقناهم في البحر، وفيه من الدلالة على عظم شأن القدرة الربانية، كأنه قيل: واتخذ أوليائه وأركانه وعساكره فلم ينفعوه، وأخذه الله عز وجل وأتباعه، وألقاهم جميعاً في البحر ﴿ وَهُمْ مِلْمٌ ﴾ أي آيات بما يلام عليه، من الكفر والعصيان.

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ أي وفي إهلاك عاد آية وعبرة ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ وصفت بالعقم لأنها أهلكتهم، وقطعت دابرهم، أو لأنها لم تتضمن لهم خيراً، من إنشاء مطر، أو إلقاح شجر، وهي النكباء أو الدبور.

﴿ مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿ مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ ﴾ أي جرت عليه ﴿ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ هو كل ما رمى أي بلى وتفتت، من عظم، أو نبات، أو غير ذلك، والمعنى: ما ترك من شيء هبّت عليه، من أنفسهم وأنعامهم، وأموالهم، إلا أهلكته، وجعلته كالهشيم البالي، فإن قيل: الجبال والصخور أنت عليهما، وما جعلتهما كالريم؟ نقول: المراد أنت عليه قصداً، وهو قوم عاد، ودورهم، ومواشيهم، وأموالهم.

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ﴿٥٣﴾ .

﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ أي وجعلنا في ثمود وإهلاكهم آية وعبرة ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ

تَمَتُّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١﴾ وهو قوله تعالى: ﴿تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ (١) بعد عقرهم الناقة.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ بيان لسبب الإهلاك، أي فاستكبروا عن الإيمان بالله، وطاعة رسولهم، وعقروا الناقة، قيل: قال لهم «صالح» عليه السلام: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمرة، واليوم الثالث مسودة، ثم يصبحكم العذاب ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي فأخذتهم الصيحة المهلكة، صيحة العذاب، والصاعقة: النازلة من الرعد، وكل عذاب مهلك قيل: لما رأوا العلامات التي بيّنها صالح عليه السلام، عمدوا إلى قتله، فنجاه الله من شرهم ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليها لأنها كانت نهاراً.

﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾ ﴿٤٥﴾.

﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾ أي بغيرهم، كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٤٦﴾.

﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح وجعلنا هلاكهم عبرة ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ أي من قبل هؤلاء المهلكين ﴿إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن الحدود، فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿٤٧﴾.

(١) سورة هود، آية: ٦٥.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ بقوة، وهو بيان للوحدانية، وما تقدم كان بياناً للحشر ﴿وَأَنَا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة؛ قاله ابن عباس أو ﴿لموسعون﴾ السماء وما بينها وبين الأرض^(١).

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ مهدناها وبسطناها ليستقروا عليها ﴿فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾ أي الفارشون لها نحن.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأجناس من الإنسان، والحيوان، والنبات ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي نوعين، ذكراً وأنثى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكروا، فتعرفوا أنه خالق الكل، وأنه المستحق للعبادة، وأنه قادر للإعادة، فتعملوا بمقتضاه.

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِمَةٌ لِّذِي مَبِينٍ﴾ ﴿٥٠﴾

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي فاهربوا إلى الله، الذي هذه شؤونه بالإيمان والطاعة، تنجوا من عقابه، وتفوزوا بثوابه، وقوله: ﴿فقرُّوا﴾ ينبىء عن

(١) انظر إلى عظمة الكون بعين البصيرة والعقل، لترى عظمة الخالق جل وعلا الكبير المتعال، فإن هذه الأرض التي نعيش فوق سطحها - على سعتها - ما هي إلا ذرة صغيرة تسبح في هذا الكون الفسيح، الذي لا يعلم ضخامته وسعته إلا الله رب العالمين، خالق الإنسان ومبدع الأكوان، وتمعن وأنت تقرأ هذه الآية الكريمة ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَأَنَا لَمُوسِعُونَ﴾ عظمة الكون وما فيه من المجرات والكواكب، لتسبح الله مع المسيحين بقلبك ولسانك!!

سرعة الإهلاك ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى، أي إنني لكم من جهته تعالى منذر، بين كوني منذراً، وفي أمره تعالى للرسول ﷺ، بأن يأمرهم بالهرب إليه تعالى من عقابه، وتعليله بأنه ﷺ ينذرهم من جهته تعالى، لا من تلقاء نفسه، وعد كريم بنجاتهم من المهروب، وفوزهم بالمطلوب.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي ولا تشركوا مع الله أحداً من بشر، أو صنم، أو حجر ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من الإشراف بعبادة غير الله ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي منذر واضح أمري، أخوفكم عقابه تعالى، وفيه تأكيد لما قبله، لكن لا بطريق التكرير كما قيل، بل بالنهي عن سببه، وإيجاب الفرار منه.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ﴾.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ هذه تسليية للرسول ﷺ، أي كما كذبك قومك يا محمد، فقالوا عنك إنك ساحر أو مجنون، كذلك قال المكذبون الأولون لرسولهم، ما أتاهم ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ من رسل الله ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ في حقه ﴿سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ﴾ أي رموهم بالسحر أو بالجنون، لجهلهم بمقام النبوة.

﴿أَتَوْاصُوا بِبُيُوتِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾.

﴿أَتَوْاصُوا بِبُيُوتِهِمْ﴾ إنكار وتعجيب من حالهم، واجتماعهم على تلك الكلمة الشنيعة، أي هل أوصى بعضهم بعضاً بالسخرية والتكذيب ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ إضراب عن توصيهم بذلك، لأنهم لم يتلاق بعضهم مع بعض، في زمان واحد، بل حملهم على ذلك الطغيان والفجور، وهذه الآية دليل على أن كل رسول كُذِّب.

﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾.

﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ﴾ أي فأعرض عن جدالهم، فقد كثرت الدعوة، فلم يجيبوا عناداً ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ أي فلست على التولي، بعدما بذلت المجهود، بمسؤول عند الله ولا ملوم فقد بلغت الرسالة، وهذه تسليية أخرى للرسول ﷺ.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَذَكِّرْ﴾ أي افعِل التذكير والموعظة ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنها تزيدهم بصيرة، وقوة في اليقين.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي وما خلقت البشر والجن، إلا ليعرفوا ربهم ويعبدوه، فالمراد بالعبادة توحيد الله، ومعرفة دلائل وجوده، وطاعته سبحانه وتعالى، في كل ما أمر ونهى، وقيل: المعنى إلا ليؤمنوا بعبادتي، كما في قوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ وعن مجاهد واختاره البغوي معناه: إلا ليعرفوه، والمعتبر هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى، لا ما يحصل بغيزها كمعرفة الفلاسفة.

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾.

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ بيان لكون شأنه تعالى متعالياً عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم، في تحصيل معاشهم، وتهيئة أرزاقهم، أي ما أريد أن أصرفهم في تحصيل رزقي، ولا رزقهم، بل أفضّل عليهم برزقهم، وبما يصلحهم ويعيشهم من عندي، فليشتغلوا بما خلّقوا له من عبادتي، وفي الآية تعريض بأصنام

المشركين، حيث كانوا يحضرون لها المآكل، فربما أكلتها الكلاب، ثم
بالت على الأصنام.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ﴿٥٨﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ أي المتكفل بأرزاق العباد، الذي يرزق كل من
يفتقر إلى الرزق، وفيه تلويح بأنه تعالى غني عنه وعن العبادة ﴿ذُو الْقُوَّةِ
الْمَتِينُ﴾ أي شديد القوة، الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد، وهم
كفار مكة ﴿ذُنُوبًا﴾ أي نصيباً وافراً من العذاب ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي مثل
نصيب أسلافهم المجرمين من العذاب، وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة
الماء بالذنوب، وهو الدلو العظيم المملوء ﴿فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ أي لا يطلبوا
مني أن أعجل لهم في المجيء به، فإنه واقع لا محالة، إن عاجلاً أو
أجلاً، يقال استعجله، أي حثه على العجلة وأمره بها، وهو جواب
لقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم
بالكفر، وإشعاراً بعلّة الحكم ﴿مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة
الذي وعدهم الله عز وجل به في قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾؟ الذين فجزوا لهم
العذاب الدنيوي، لأن الشيء إذا خرج عن الانتفاع به، لا يحفظ ويخلى
المكان عنه، ألا ترى أن الدابة التي لا يبقى متفعلاً بها يخلى عنها المكان

وتذبح، والطعام الذي يتعفن يفرغ منه الإناء ويرمى، فكذلك الكافر إذا ظلم فحسن إخلاء العالم عنه، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات»

* * *

سُورَةُ الطُّورِ

مكية وهي تسع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكُنْتَ مَسْطُورٍ ٢﴾ .

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكُنْتَ مَسْطُورٍ ٢﴾ مكتوب على وجه الانتظام، فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة، والمراد به القرآن الكريم، أو اللوح المحفوظ.

﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣﴾ .

﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣﴾ الرُّقُّ الجلدُ الذي يُكتب فيه، استعير لما يكتب فيه الكتاب من الصحيفة.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾ .

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾ أي الكعبة المشرفة، وعمارتها بالحُجَّاج، والعُمَّار، والمجاورين.

﴿وَالسَّعْفِ الْمَرْفُوعِ ٥﴾ .

﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾ أي السماء المحكمة البناء، ولا يخفى حسن موقع العنوان المذكور.

﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾

﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾ أي المملوء أو الموقد، من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ والمراد به الجنس.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي إِنَّ العذاب لنازلٌ حتماً بالكفار، الذي أوعدوا به.

﴿مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾

﴿مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ من مزيدة للتأكيد، أي ليس هناك من يدفعه عنهم، وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها، لما أنها أمور عظام، تنبئ عن عظيم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته، الدالة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد وضبطها، الشاهدة بصدق أخباره التي من جملتها المقسم عليها.

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ المور: الاضطراب، والتردد في المجيء والذهاب، وقيل: هو تحرك في تموج، أي تتحرك وتضطرب اضطراباً عجبياً، وهو الزلزال الذي يكون عند قيام الساعة ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَسِيرُ الْجِبَالِ سِيرًا﴾ (١٠)

﴿وَسِيرُ الْجِبَالِ سِيرًا﴾ أي تزول عن وجه الأرض، فتصير هباءً منثوراً، والسبب لمورها وسيرها، قدرة الله، لأن الأرض، والسماء، والجبال، كلها كان لعمارة الدنيا، والانتفاع منها، ولا عود إلى الدنيا فلم يبق فيها نفع، وتأکید الفعل ﴿موراً﴾ و ﴿سيراً﴾ للإيدان بغرابتها، وخروجها عن الحدود المعهودة، أي موراً عجيبياً، وسيراً بديعاً، لا يدرك كُنْهها، وعلماء الطبيعة يقولون: إن زلزلة الأرض، ببخار يجتمع تحت الأرض، فيحرك الجبال، وما عرفوا أسرار القدرة الإلهية في تدمير الظالمين^(١).

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١١)

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي إذا وقع ذلك فويل لهم، ففيه إشارة بأمان أهل الإيمان، لأنه لما قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ولم يبين بأنه موقعه بمن؟ فلما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ علم المخصوص به، فمن لا يكذب لا يعذب، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ (١٢)

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ هذا ليس وصفاً للمكذبين، وإنما هو للذم، كما تقول: «الشیطان الرجیم» ولا تريد فصله عن الشیطان الذي ليس برجیم.

(١) كثرة الزلازل نذيرٌ بقرب الساعة، وخراب الدنيا، كما جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال:

«إن من أشراط الساعة - أي علاماتها - أن يتقارب الزمان، ويفشو الجهل، ويقل العلم، وتكثر الزلازل، وتظهر الفتن، ويكثر الهزج، قالوا: وما الهزج يا رسول الله؟ قال: القتل، القتل»..

﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ ﴿١٣﴾

﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ الدُّعَى: الدفع العنيف، أي يدفعون إليها دفعاً عنيفاً شديداً، بَأَن تُغَلَّ أيديهم على أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، فيدفعون إلى النار، ويدل هذا على هول النار، لأن خزنتها لا يقربون منها، وإنما يدفعون أهلها إليها من البعيد، فيقال لهم.

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿١٤﴾

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا، ومعنى التكذيب تكذيبهم بالوحي الناطق بها، وعدم الإيمان بالبعث، والجنة والنار.

﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾

﴿أَفَسِحْرُ هَذَا؟﴾ يعني كنتم تقولون للوحي والقرآن: هذا سحر، فهل هذا العذاب الذي تذوقونه سحر أيضاً؟ ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ؟﴾ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا، حيث كنتم تقولون: ﴿إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ؟﴾ وهذا تفرغ، وتهكم بهم، ولا ظلم بعذابهم، فإن الله تعالى قال: من كفر ومات كافراً، أعذبه عذاباً أبداً، ومن آمن أثيبه أبداً، فالكافر اختار الكفر بعدما سمع، فاختر عذابه أبداً.

﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿أَصْلَوْهَا﴾ أي ادخلوها وقاسوا شدتها ﴿فَاصْبِرُوا﴾ على عذابها ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ عليه، فإنه لا محيص عنها ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي الأمران سيان: الصبر وعدمه، في عدم النفع، لا يدفع العذاب، ولا يخففه ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أي إنما تعاقبون وتعذبون بسبب أعمالكم القبيحة وكفركم بآيات الله، ولما كان الجزاء واقعاً حتماً، كان الصبر وعدمه سواء، في عدم النفع، لأن الصبر له مزية في العاقبة، بأن يجازى عليه الصابر، ولا عاقبة له هناك، لأنها دار الجزاء، لا دار الابتلاء.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ أي في أية جنات، وأي نعيم؟ على أن التنوين للتفخيم، أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين على أنه للتنويع.

﴿فَلِكِهِمْ مِمَّا أُنْهَمُ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَلِكِهِمْ ﴿١٨﴾﴾ أي ناعمين متلذذين ﴿مِمَّا أُنْهَمُ رَبُّهُمْ ﴿١٨﴾﴾ وهذا يفيد زيادة قدر النعم، حيث هي من عند ربهم ﴿وَوَقَّهَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ وإظهار كلمة الرب للتشريف والتكريم.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴿١٩﴾﴾ أي يقال لهم كلوا واشربوا ﴿هَنِيئًا ﴿١٩﴾﴾ أي لا تنغيص فيه ولا كدر، وفيه إشارة إلى خلو المأكول والمشروب، عما يكون فيهما من المفاسد في الدنيا ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ بسببه وبمقابلته.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴿٢٠﴾ مصطفة ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي وأكرمناهم بزوجات حسان، من الحور العين، بيضي واسعات العيون، بين الله تعالى أسباب النعيم على الترتيب، فأول ما يكون المسكن، ثم الأكل والشرب، ثم الفرش، ثم الزواج، فكل ذلك مهياً لأهل الجنة، دون تعب.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٢١).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ أي لحقهم أولادهم وشاركوهم في الإيمان، والتكبير ﴿بِإِيمَانٍ﴾ للإشعار بأنه يكفي في الإلحاق، المتابعة في أصل الإيمان. وإن لم يكونوا كأبائهم في الأعمال الصالحة ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي في الدرجة، لما روي عن ابن عباس أنه قال: «إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه، لتقر بهم عينه، ثم تلا هذه الآية» شفقة الأبوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة ولهذا طيب الله قلوب عباده بالجمع بينهم، فإن خالف دينه دين أبيه، صار له من حيث الشرع أب آخر ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ﴾ أي وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق ﴿مِنْ عَمَلِهِمْ﴾ من ثواب عملهم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضل^(١) ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي كل امرئ مرهون عند الله تعالى بعمله، فإن كان عمله صالحاً فكف، وإلا أهلكه، وقيل: المؤمن لا يكون مرهوناً بعمله، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾^(٢) وهو قول مجاهد.

﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٢٢).

﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي وزدناهم على ما كان لهم من

(١) جمع الله لأهل الجنة أنواع السرور، بسعادتهم بأنفسهم ودخولهم الجنة، وبتزويجهم بالحوور العين، وبالمؤانسة مع الإخوان في الجنة، وبالمآكل واللذائذ، والمشارب الهنيئة، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم، وبالخلود الدائم في دار النعيم كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

(٢) سورة المدثر، آية: ٣٨ - ٣٩.

مبادئ التنعم، وقتاً فوقتاً، ما يشتهون من فنون النعماء، من الفواكه، ولحم الطير.

﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيٌّ﴾.

﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا﴾ أي يتعاطون فيها هم وجلساؤهم، بكمال رغبة واشتياق، كما ينبىء عنه التعبير بالتنازع ﴿كَأْسًا﴾ أي خمرًا تسمية لها باسم محلها ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي في شربها، حيث لا يتكلمون في أثناء الشرب بلغو الحديث، وسقط الكلام ﴿وَلَا تَأْنِيٌّ﴾ ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله، أي ينسب إلى الإثم لو فعله، كما هو ديدن الشاربين في الدنيا، وإنما يتكلمون بالحكم، وأحسن الكلام، ويفعلون ما يفعله الكرام.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ بالكأس ﴿غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ أي ممالك مخصوصون بهم^(١) ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في الحسن والصفاء ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ مصون في الصدف لم تمسه الأيدي.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً آخر، عن

(١) أفاد التكرير في قوله سبحانه: ﴿غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ أن كل من يدخل الجنة، يجد له خدماً لم يعرفهم، وليس في الجنة من يقوم بالخدمة لنفسه، فحال أهل الجنة كحال الملوك والعظماء، يجدون من يخدمهم لكن هنا بالوظيفة والمال، وهناك بالملك والتشريف، وإذا كان الخدم كاللؤلؤ المكنون في البياض والصفاء، فكيف بحال المخدومين؟ اللهم لا تحرمننا نعيم الجنة.

أحواله وأعماله، وما استحق به نيل هذه الكرامة في الجنة، تلذذاً واعترافاً
بالنعمة والفضل العظيم.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿قَالُوا﴾ أي المسؤولون، وهم كل واحد منهم في الحقيقة ﴿إِنَّا
كُنَّا قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين من عذاب الله تعالى،
معتنين بطاعة الله، وجليلين من العقابة.

﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِنَا﴾ بالرحمة أو التوفيق للحق ﴿وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾
أي عذاب النار، النافذة في المسام نفوذ السموم.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٧٨﴾﴾

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي نعبد وننصرع إليه،
ونسأله الوقاية من نار جهنم ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن العطوف على عباده
﴿الرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة الذي إذا عبد أثاب، وإذا سئل أجاب، وفيه
إشارة إلى أنهم يعلمون ما جرى عليهم، في الدنيا ويذكرونه، وكذلك
الكافر، فتزداد لذة المؤمن، حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى
النعيم، وحسرة الكافر حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا بَجْنُونٍ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فذكر يا محمد بالقرآن بما أنزل إليك من الآيات
والذكر الحكيم، ولا تكثرث بما يقولون ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ برحمة ربك
وإنعامه عليك بالنبوة والعصمة ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا بَجْنُونٍ﴾ كما زعموا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتَنُونِ﴾ ﴿٣٥﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون هو ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتَنُونِ﴾ أي ننتظر به حوادث الدهر، وصروفه، حتى يهلك ويموت فنستريح منه، ومرادهم أنهم يتربصون موته عليه الصلاة والسلام.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ ﴿٣٦﴾

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي أتربص هلاككم كما يتربصون هلاكي.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ﴾ أي عقولهم ﴿بِهَذَا﴾ أي بهذا التناقض في المقال، فإن الكاهن يكون ذا فطنة، ودقة نظر في الأمور، والمجنون مختل فكره، والشاعر ذو كلام موزون مخيل، فكيف تجتمع أوصاف هؤلاء في شخص واحد؟ والمعنى: أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان؟ وفيه سخرية وتهكم بهم وبعقولهم ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ مجاوزون الحد في المكابرة والعناد، ولا يحومون حول الرشد والسداد، ولذلك يقولون ما يقولون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٨﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه، والتقول: التكلف في القول، ولا يستعمل إلا في الكذب ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فكفرهم وعنادهم يرمون بهذه الأباطيل، مع علمهم ببطلان قولهم.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٩﴾

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ مثل القرآن في نظمه، وحسنه، وبيانه، مثله من حيث النظم، ومن حيث المعنى ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فيما زعموا، فإن صدقهم في ذلك يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله، بقضية مشاركتهم له ﷺ في البشرية والعربية، مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والبيان.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥)

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي أم أحدثوا من غير محدث، ومن غير رب ولا خالق؟ ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٣٦)

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أم هم الذين خلقوا السموات والأرض؟ وهو أسلوب تهكمي لاذع، فما أحد يجرؤ أن يقول هما من خلقي، بل كانوا إذا سئلوا: من خلقكم؟ وخلق السموات والأرض؟ قالوا: الله ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي هم غير موقنين بأن الله واحد أحد، فرد صمد، بل لا يوقنون أصلاً بشيء ما.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ (٣٧)

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ﴾ من النبوة والرزق حتى يقسموا النبوة على من شاؤوا، ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ الغالبون على الأمور يدبرونها كيفما شاؤوا، حتى يدبروا أمر الربوبية.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ يَسْتَعِينُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعِينُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٣٨)

﴿أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ﴾ منصوب إلى السماء ﴿يَسْتَعِينُونَ فِيهِ﴾ صاعدين إلى كلام

الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب، حتى يعلموا ما هو كائن من الأمور التي يتقولون فيها رجماً بالغيب، إن ادعوا ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة، تصدق استماعه.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾؟ فيه تسفيه لهم، وإشعار بأن من هذا رأيه، لا يُعدُّ من العقلاء، فضلاً عن أن يترقى بروحه إلى عالم الملكوت فيطلع على الغيوب، والالتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ﴿٤٠﴾

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ رجوع إلى خطابه ﷺ وإعراض عنهم، أي بل تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة ﴿فَهُمْ﴾ لذلك ﴿مِنْ مَغْرَمٍ﴾ من التزام ماليٍّ فادح ﴿مُثْقَلُونَ﴾ محملون الثقل فلذلك لا يتبعونك.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ﴿٤١﴾

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي يحكمون فيه حتى يتكلموا في ذلك بنفي أو إثبات.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ هو كيدهم برسول الله ﷺ في دار الندوة بمكة ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يحيق بهم كيدهم ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله عن إشراكهم، نزه تعالى نفسه عما يقولون^(١).

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا﴾ أي قطعة ﴿مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ لتعذيبهم ﴿يَقُولُوا﴾ من فرط طفيتانهم وعنادهم ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ قد رُكِمَ أي جُمع بعضه على بعض، ولم يصدقوا أنه كِسْفٌ ساقط للعذاب.

﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْقَوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ﴾

﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْقَوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ﴾ أي حتى يعانوا يوم هلاكهم، يوم تصيبهم الصعقة، والمراد بها القتل يوم بدر، لا النفخة الأولى كما قيل، إذ لا يصعق بها، إلا من كان حياً حينئذ.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي شيئاً من الإغناء، وعدم نفع كيدهم، يستدعي استعمالهم له، ظمناً في الانتفاع به، وليس ذلك إلا ما دبروه في أمره ﷺ من الكيد، الذي من جملة خروجهما لحربه يوم بدر، أما النفخة الأولى فليست مما يجري في مدافعة الكيد والحيل، وقيل: هو يوم موتهم

(١) كررت في هذه السورة الكريمة ﴿أَمْ﴾ خمس عشرة مرة، وكلها لإلزامات، وليس للمخاطبين بها عنها جواب، وهي في جميع الآيات منقطعة؛ بمعنى «بل» و «الهمزة» أي بل يقولون شاعر... بل يقولون كاهن... إلخ ومعنى الهمزة الإنكار، فهو استفهام إنكاري، واستفهم تعالى مع علمه بهم وبما يقولون، تقييحاً عليهم، وتوبيخاً لهم، كقول الشخص لغيره: أتعرف هذا أم أنت جاهل؟ مع علمه بجهله، وما أبدع هذه السخرية والازدراء بقول المشركين!!

وانتقالهم من النعيم إلى الجحيم ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ من جهة الغير في دفع العذاب عنهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٧).

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي وإن لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابًا﴾ آخر ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ دون ما لاقوه من القتل، وهو القحط الذي أصابهم سبع سنين، وما وراءه وهو عذاب القبر، وعذاب الآخرة ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كما ذكر.

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٤٨).

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه، بإمهالهم إلى اليوم الموعود، مع مقاساة الأحزان ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي في حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك، وجمع العين ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ للتعظيم والتفخيم للإيذان بغاية الاعتناء بالحفظ ﴿وَسَبِّحْ﴾ نزهه تعالى عما لا يليق به ملتبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على نعمائه الجليلة التي لا تُحصى ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكان قمت، قال سعيد بن جبیر وعطاء: أي قل حين تقوم من مجلسك «سبحانك اللهم وبحمدك» وعن ابن عباس: حين تقوم من منامك، وقال الضحاك والربيع: إذا قمت إلى الصلاة فقل «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك».

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ (٤٩).

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أفراد لبعض الليل بالتسبيح، لما أن العبادة فيه أشق على النفس، وأبعد من الرياء، كما يلوح به تقديمه على الفعل ﴿وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ أي وقت إدبارها من آخر الليل، أي صلُّ لربك في آخر

الليل، حين تدبر وتغيب النجوم بضوء الصبح، قال ابن عباس: هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، للحديث الشريف: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»^(١). والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعمونه تعالى تفسير سورة الطور»

* * *

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود، وانظر جامع الأصول ١٠/٦.

سُورَةُ النَّجْمِ

مكية وهي اثنتان وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ المراد به إما نجم الثريا، فإنه اسم غالب له، ومنه قولهم: «إذا طلع النجم عشاء». ابتغى الراعي كساءً أو جنس النجوم ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي إذا نزل، وفي القَسَم بذلك على نزاهته ﷺ عن شائبة الضلال والغواية، من البراعة البديعة وحسن الموقع، ما لا غاية وراءه، ومن شأن النجم أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا، كأنه قيل: أقسم بالنجم الذي يهتدى به إلى سواء السبيل.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ أي ما ضلَّ محمد وما عدل عن طريق الحق، الذي هو مسلك الآخرة، وما اعتقد باطلاً قط، أي هو في غاية الهدى والرشد، وهناك فرق بين الضلال والغى، فالضلال في مقابلة الهدى، والغى في مقابلة الرشد، أي ما ضلَّ في قوله، ولا غوى في فعله، قال الله تعالى: ﴿وَأِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا

سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾ والخطاب لقريش، والمراد نفي ما ينسبون إليه ﷺ، وإيراده ﷺ بلفظ ﴿صاحبكم﴾ للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة، وباتصافه بغاية الهدى والرشاد، فإن طول صحبتهم له ﷺ، ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي ما يصدر نطقه بالقرآن، عن هواه ورأيه أصلاً.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي ما الذي ينطق به ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ من الله تعالى، قوله ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة مؤكدة، رافعة لاحتمال المجاز، مفيدة للاستمرار التجديدي ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ دليل على أنه ﷺ ما ضلّ وما غوى، ردّاً عليهم أقوالهم الباطلة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾ أي ما هو إلاّ وحْيٌ من عند الله، ليس بقول كاهن ولا شاعر.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ أي مَلَكٌ شديد قواه، وهو جبريل عليه السلام، فإنه الوسطة بين الله ورسله، ومن قوته أنه اقتلع قري قوم لوط، ثم قلبها بهم، وصاح صيحة بثمود، فأصبحوا جاثمين.

﴿ذُومِرَقَ فَاَسْتَوَىٰ﴾

﴿ذُومِرَقَ﴾ أي حصافة في عقله ورأيه، ومثانة في دينه، وقيل ذو منظر حسن ﴿فَاَسْتَوَىٰ﴾ أي فاستقام على صورته التي خلقه الله تعالى

عليها، دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي، وذلك أنه ﷺ أحب أن يراه في صورته التي جُبل عليها، وكان ﷺ بحراء، فطلع له جبريل عليه السلام من المشرق فسَدَّ الأرض من المغرب، ومَلَأَ الأفق، فخرَّ ﷺ مغشياً عليه، فرجع جبريل في صورة الأدميين فضمه إلى نفسه، قيل: ما رآه أحد من الأدميين غير النبي ﷺ فإنه رآه مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء، وقيل: استوى بقوته على ما جعل له من الأمر.

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾.

﴿وَهُوَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ أي أفق الشمس، أو أفق السماء.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي أراد الدنو من النبي ﷺ ﴿فَتَدَلَّى﴾ أي استرسل من الأفق الأعلى، فدنا من النبي ﷺ حتى صار أمامه.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.

﴿فَكَانَ﴾ أي مقدار امتداد ما بينهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ على تقديركم كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ والمراد تمثيل ملكة الاتصال، وتحقيق استماعه لما أوحى إليه، بنفي البعد الملبس، وقال الضحاك: دنا محمد من ربه. روي عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: فأين قوله تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾؟ قالت: ذلك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته^(١).

(١) أخرجه الشيخان، ورواية البخاري ٦٠٦/٨ قالت عائشة لمسروق: «من حدثك أن محمداً رأى ربّه فقد كذب، ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين».

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ فَأَوْحَىٰ ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ أي إلى عبد الله محمد ﷺ، وإضمماره قبل الذكر لغاية ظهوره، كقوله ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ ﴿ مَا أَوْحَى ﴾ أي من الأمور العظيمة التي لا تفي بها العبارة، أو فأوحى الله تعالى حيثنذ بواسطة جبريل ما أوحى إلى عبده محمد ﷺ.

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ ﴾ فؤاد رسول الله ﷺ ﴿ مَا رَأَىٰ ﴾ أي ما رآه ببصره، من صورة جبريل عليه السلام، أي لم يشك في أن ما رآه جبريل، لأن الأمور القدسية، تدرك أولاً بالقلب، ثم تنقل منه إلى البصر، فعلم رسول الله ﷺ أنه جبريل وليس بخيال.

﴿ أَفْتَمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ أَفْتَمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾؟ أي أنكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة.

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي وبالله لقد رأى جبريل في صورته مرة أخرى في المعراج.

﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ هي شجرة نبق في السماء السابعة، عن يمين العرش، ثمرها كقلال هجر، وورقها كآذان الفيل، تنبع من أصلها الأنهار

التي ذكرها الله تعالى في كتابه، والمنتهى موضع الانتهاء، إليها ينتهي علم الخلائق، ولا يعلم أحد ما وراءها، من مَلِكٍ أو رسول.

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ (١٥)

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ أي الجنة التي يأوي إليها المتقون، أو أرواح الشهداء.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (١٦)

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ الغشيان بمعنى التغطية والستر، أي ولقد رآه عند السدرة، وقت ما غشيها ما غشيها، مما لا يحيط به الوصف، كيفاً ولا كمّاً، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، استحضاراً لصورتها البديعة، وللإيدان بأن استمرار الغشيان بطريق التجدد، كما يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها، ويزورونها كما يزور الناس الكعبة، وقيل يغشاها سبحات أنوار الله عز وجل.

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (١٧)

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه ﴿وَمَا طَغَى﴾ وما تجاوزه مع ما شاهد من الأمور العجيبة المذهلة، وثبت في ذلك المقام العظيم، الذي تحار فيه العقول.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (١٨)

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ أي والله لقد رأى الآيات، التي هي كبراهها، حين عُرج به إلى السماء، فأُري من عجائب الملك والملكوت، ما لا يمكن أن يوصف.

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴾ * وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ﴿ أي أخبروني بهذه الأصنام كل شيء؟ وهي أصنام كانت لهم «فاللات» كانت لثقيف بالطائف، على صورة رجل كان يلبث السوق ويطعمه الحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، وسميت صورته باسمه. و «العزى» تأنث الأعز كانت لغطفان، وهي شجرة سمرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن وليد فقطعها. و«مناة» صخرة لهزيل وخزاعة، فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين، سميت مناة لأن دماء المناسك تمنى عندها، أي تراق، ثم إنهم كانوا مع عبادتهم لها، يقولون: إن الملائكة، وتلك الأصنام بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فقل لهم توبيخاً وتبكيماً: ﴿أفأرأيتم﴾ إلخ والهمزة للإنكار، والمعنى: أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمة الله تعالى، في ملكه وملكوته، ورأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها، جعلتموها شركاء لله تعالى؟.

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾ توبيخ مبني على التوبيخ الأول، بنسبتهم إليه تعالى الإناث، مع اختيارهم لأنفسهم الذكور، أي ألكم يا معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو «الذكور»، وله تعالى النوع المذموم - في نظرهم - وهو الأنثى؟.

﴿ تِلْكَ إِذْ أَسْمَتُ ضَيْرَىٰ ﴾

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى القسمة ﴿إِذَا قَسَمَةُ ضَيْرَىٰ﴾ أي جائرة حيث جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه، ضيرى من الضير وهو الجور.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ أي ما الأصنام إلا أسماء محضة، ليس فيها من معنى الألوهية شيء ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ أي جعلتموها آلهة، وهي مجرد تسميات ألقيت على جمادات، لا تضر ولا تنفع، وما هي إلا أسماء، خالية عن المسميات ﴿أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة ﴿مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي من برهان تتعلقون به ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ ألا توهم أن ما هم عليه حق توهماً باطلاً ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أي ما تشتهي أنفسهم الأماراة بالسوء ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ أي جاءهم الرسول من عند الله عز وجل بالبيان الساطع، والبرهان القاطع، على أن الله واحد لا شريك له، وفيه تأكيد على بطلان اتباع الظن، وهوى النفس، فإن اتبعهما من أي شخص قبيح، وممن هداه الله تعالى بإرسال الرسل، وإنزال الكتب أقبح.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ انتقال من بيان أن ما هم عليه، غير مستند إلا إلى توهمهم، وهوى أنفسهم، إلى بيان أن ذلك مما لا يجدي نفعاً أصلاً، أي ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه، حتى يطمع في شفاعة الآلهة التي لا تكاد تكون تحت الوجود.

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أي فالملك كله لله عز وجل فإن أمور الآخرة والأولى لله تعالى، وله الحكم فيهما، وليس لأحد أن يتحكم في شيء منهما.

﴿ وَكَرَّمَن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ ﴿٢١﴾

﴿ وَكَرَّمَن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعُهُمْ شَيْئًا ﴾ أي وكثير من الملائكة لا تغني شفاعتهم عند الله شيئاً من الإغناء، في وقتٍ من الأوقات ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ ﴾ لهم في الشفاعة ﴿ لِمَن يَشَاءُ ﴾ أن يشفعوا له ﴿ وَيَرْضَى ﴾ ويراه أهلاً للشفاعة، من أهل التوحيد والإيمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان، فهم مجرومون من الشفاعة، فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر، فما ظنكم بحال الأصنام؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ وبما فيها من العقاب ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ ﴾ يسمون كل واحد منهم ﴿ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴾ فإن قولهم: الملائكة بنات الله، هي تسمية الأنثى، والعرب الجاهليون رأوا ثاء التأنيث في لفظ الملائكة، فقالوا إنها أولاد مؤنثة، وحكموا بأنهم بنات الله.

﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي يسمونهم والحال أنه لا علم لهم بما يقولون أصلاً ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ ﴾ في ذلك ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ الفاسد ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ ﴾ أي جنس الظن كما يلوح به الإظهار في موقع الإضمار ﴿ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ من الإغناء، فإن الحق لا يدرك إلا بالعلم، والظن لا اعتداد به في شأن المعارف الحقيقية، ولا يقوم مقام العلم اليقيني.

﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي فأعرض عن عبدة الأوثان، من المشركين الضالين، عمن أعرضوا عن ذكرنا، وهو القرآن المنطوي على علوم الأولين والآخرين ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ راضياً بها، قاصراً نظره عليها، والمراد النهي عن دعوته إلى الهداية، فإن من أعرض عما ذكر، وانهمك في الدنيا، بحيث كانت هي منتهى همته، لا تزيده الدعوة إلا عناداً، وإصراراً على الباطل.

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿ذَلِكَ﴾ أي التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا ﴿مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي غاية علمهم ورأيهم، لا يجاوزونه إلى غيره حتى تجديدهم الدعوة والإرشاد، والمراد من العلم مطلق الإدراك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى﴾ أي إن ربك يا محمد هو العالم بالشقي، والتقي، وهو العالم بمن أصرَّ على الضلال، وبمن هو أهل للهداية، فيعطي كلاً بحسبه، وفيه وعد ووعد.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ﴿٣١﴾ .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً، لا لغيره أصلاً ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي ليجازي المجرمين بعقاب ما عملوا من الضلال، وبسبب ما عملوا ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي اهتموا ﴿بِالْحُسْنَى﴾ أي بالثمرة الحسنة التي هي الجنة، وبهذا يتبين المصير من المحسن، فمن

لا يجتنب الكبائر هو المسيء، ومن يجتنب الكبائر وما حرّم الله تعالى فهو المحسن.

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ ﴿٢٧﴾

﴿الَّذِينَ﴾ أي هؤلاء المحسنون هم الذين ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ صيغة الاستقبال للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره ﴿كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ أي الذنوب الكبيرة ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي التي قبحها واضح ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ أي إلا ما قلّ وصغُر، فإنه مغفور ممن يجتنب الكبائر، اللمم بفتحتين هو الصغائر من الذنوب، التي لم يذكر الله تعالى عليها حدّاً، ولا عذاباً، والكبائر هي التي ذنبها عظيم، والفواحش: هي التي قبحها واضح ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، على أن إخراج الصغائر عن حكم المؤاخذه، ليس لخلوها عن الذنب في نفسها، بل لسعة المغفرة الربانية ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي بأحوالكم يعلمها على التفصيل ﴿إِذْ أَنْشَأَكُمْ﴾ في ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ إنشاءً إجمالياً ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ﴾ وقت كونكم مستترين ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ على أطوار مختلفة مرتبة، لا يخفى عليه حال من أحوالكم، فكيف تخفى عليه أعمالكم في الدنيا؟ فهو تعالى يعلم التقى والشقي، والبرّ والفاجر. ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي فلا تمدحوا أنفسكم وتنسبوا إلى التقى والصالح على سبيل الإعجاب، فإن النفس خسيصة، إذا مدحت اغترت وتكبرت، وإذا كان الله أعلم بأحوالكم فأبي حاجة إلى تركية النفس؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ أي هو تعالى العالم بمن أخلص العمل، واتقى ربه في السر والعلن، فاكتفوا بعلمه تعالى عن علم الناس، وبجزائه عن ثناء الناس، وهذا إذا كان بطريق الإعجاب، أو للرياء، وأما من اعتقد أن ما عمله من الأعمال الصالحة بفضل الله تعالى وتوفيقه، ولم يقصد به

التمدح، لم يكن من المزكين أنفسهم، فإن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر الله تعالى.

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ (٣٢)

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾؟ عن اتباع الحق، والثبات عليه، قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان قد اتبع النبي ﷺ على دينه، فعُيِّرَ بعض المشركين، وقالوا: أتركت دين الأشياخ؟ قال: إني خشيت عذاب الله!! فضمن له الرجل أن يتحمل عنه العذاب، إن أعطاه بعض ماله، فارتدَّ وأعطى للذي عُيِّرَ بعض الذي ضمن له من المال، ومنعه تمامه.

﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ (٣١)

﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا ﴾ أي شيئاً قليلاً مما تعهَّد له به من المال. ﴿ وَأَكْدَى ﴾ أي قطع العطاء، من قولهم أكدى الحافر إذا بلغ الكُدْيَةَ، أي الصلابة من الأرض، كالصخرة، وقيل: نزلت في العاص بن وائل، والأول أشهر.

﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يُرَى ﴾ (٣٥)

﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يُرَى ﴾؟ أي أعند هذا الكافر علم بالأمور الغيبية، حتى يعلم أن صاحبه يحمل عنه العذاب؟.

﴿ أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ (٣٦) ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ (٣٧)

﴿ أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ أي حقوقه تعالى أي وفَّى وأتم وبألف بالوفاء بما عاهد الله تعالى، وتقديم موسى لما أن صحفه التي هي التوراة أشهر عندهم.

﴿أَلَا نَزُرُ وَزِرَةً وَزِرَةً﴾ ﴿٣٨﴾.

﴿أَلَا نَزُرُ﴾ أي لا نؤاخذ ﴿وَزِرَةً وَزِرَةً﴾ أي لا تحمل نفس ذنب غيرها، ولا تُعاقب بجرم فعله أحد غيرها، إلا إذا كان أمراً به.

﴿وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿٣٩﴾.

﴿وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ أي ليس للإنسان إلا عمله وسعيه، وأما شفاعة الأنبياء والملائكة، ودعاء الأحياء للأموات، وصدقتهم عنهم، وغير ذلك من الأمور النافعة للإنسان، مع أنها ليست من عمله قطعاً، فهي ثمرة الإيمان والصلاح، وهذا فضل من الله على المؤمن، ويشهد له ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أُمي تُوفيت، أينفعها إن تصدقتُ عنها؟ قال: «نعم»^(١) وما جاء في الأخبار من أن الصدقة والحج ينفعان الميت، فلكون النايي له كالنائب عنه.

﴿وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى﴾ ﴿٤٠﴾.

﴿وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى﴾ أي يعرض عليه، ويكشف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه، وفيه بشارة للمؤمنين، لأنهم يرون أعمالهم الصالحة، فيفرحون، وعقاب للكافرين، لأنهم يرون ويحزنون، فإن قيل: العمل كيف يرى؟ قيل: على صورة جميلة أو قبيحة، أو مجاز عن الثواب والعقاب.

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلَى﴾ ﴿٤١﴾.

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٨٩/٥ ورواه مسلم رقم ١٦٣٠ ولفظه عن أبي هريرة أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «إن أُمي مات ولم يوص، أفينفعه أن أتصدق عنه؟ قال: نعم».

﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ أي يجزى الإنسان سعيه ﴿ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَ ﴾ أي الأثم والأكمل.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ أي انتهاء الخلق، ورجوعهم إليه تعالى، لا إلى غيره، كقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ والمخاطب بهذا إماماً عامّاً، تقديره: وإلى ربك أيها السامع، فعلى هذا فهو تهديد للمسيء، وحثٌ للمحسن، وإما الرسول ﷺ فعلى هذا، ففيه تسلية له ﷺ فالمعنى: لا تحزن فإن إلى ربك المنتهى والرجوع، فيجازيك على صبرك أحسن الجزاء.

﴿ وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكُ وَأَبْكِي ﴾.

﴿ وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكُ وَأَبْكِي ﴾ أي هو الذي خلق الفرح والحزن، والسرور والغم، فأضحك في الدنيا من أضحك، وأبكى من أبكى.
وقال مجاهد: أضحك المؤمنين، وأبكى الكافرين في العقبى.

﴿ وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾.

﴿ وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ لا يقدر على الإمامة والإحياء غيره، فإن أثر القاتل نقض البنية، وإنما يحصل الموت عنده، بفعل الله تعالى على العادة، وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء.

﴿ وَأَنْتُمْ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿١٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَنْتُمْ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ من نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿ أي تُدْفَق في الرحم، وفيه تنبيه على كمال القدرة، لأن النطفة متناسبة الأجزاء، يخلق الله تعالى

منها أعضاء مختلفة، وطباعاً متخالفة، وخلق الذكر والأنثى أعجب، وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء، وإنما هو بقدره الله، لا بفعل الطبيعة.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّفْسَ الْأُخْرَى﴾ (٤٧)

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّفْسَ الْأُخْرَى﴾ أي الإحياء بعد الموت، وفاءً بوعدده، وهو قول أكثر المفسرين، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ (٤٨)

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ أي أغنى الإنسان ثم رضاء بما أعطاه، قال ابن عباس: أعطى فأرضى. وقيل المعنى: أغنى من شاء، وأفقر من شاء^(١)، وفيه إشارة إلى فساد قول بعض الناس، من أن الغنى بكسب الإنسان وجهده، أو ببخته وطلابه.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّرَعِ﴾ (٤٩)

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّرَعِ﴾ هو كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر، وكانت خزاعة تعبدها، سنّ لهم عبادتها أبو كبشة رجلاً من أشrafهم.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ (٥٠)

(١) هذا قول ابن زيد ثم قرأ: ﴿يسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء. أقول: ولعل هذا القول أرجح، للتناسق البديع بين الآيات ﴿أضحك وأبكى﴾ و ﴿أمات وأحيا﴾ فيكون معنى ﴿أغنى وأقنى﴾ أي أغنى وأفقر، فيتم التناسق بين الآيات، والله أعلم.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ وهم قوم هود عليه السلام، وعاد الأخرى عاد إرم.

﴿وَتَمُودًا أَبْنَى﴾.

﴿وَتَمُودًا أَبْنَى﴾ أي ما أبقي أحداً من الفريقين، بل أهلكهم ودمّرهم عن بكرة أبيهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي أهلكهم من قبل إهلاك عادٍ وتمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ أي أظلم من عاد وتمود، لأنهم كانوا يؤذونه ويضربونه، وينقرون الناس عنه، ثم عتوهم على الله تعالى بالمعصية والطغيان، وما أترّ فيهم دعاؤه قريباً من ألف سنة.

﴿وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَى﴾.

﴿وَالْمُؤَنَفَكَةَ﴾ هي قرى قوم لوط، ائفكت بأهلها أي انقلبت بهم ﴿أَهْوَى﴾ أي أسقطها إلى الأرض، بعد أن رفعها إلى السماء، وقيل: كانت عماراتهم مرتفعة، فأهواها بالزلزلة.

﴿فَفَشَّنَهَا مَا غَشَّى﴾.

﴿فَفَشَّنَهَا مَا غَشَّى﴾ من فنون العذاب، وفيه من التهويل ما لا غاية وراءه.

﴿فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكَ تَمَارَى﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ أي تُشكِّك، والخطاب لكل إنسان مشرك، أي فبأي نعم الله، الدالة على وحدانيته وقدرته، تشكك أيها الإنسان وتكذب؟ وإسناد تتمارى إلى الواحد، باعتبار تعدده، بحسب تعدد متعلقه، وتسمية الأمور المعدودة آلاء، مع أن بعضها نِقَم، لما أنها أيضاً نعم، من حيث إنها نصرَةٌ للأنبياء، والمؤمنين، وفيها عظات وعبر للمعتبرين.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ أي ما ذكر من أخبار المهلكين، إنذار من قبيل الإنذارات المتقدمة، التي سمعتم عاقبتها، وهذا الرسول منذر من المنذرين الأولين علمتم به.

﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ﴾.

﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ﴾ أي دنت الساعة، الموصوفة بالدنو في قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وقعت الواقعة﴾.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي ليس لها نفس قادرة على كشفها وردّها إذا غشيت الخلق.

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾.

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي القرآن العظيم ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكاراً وعناداً.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾.

﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء مع كونه أبعد شيء من ذلك؟ ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حزناً على ما فرطتم من شأنه، وخوفاً من أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة.

﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾.

﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ أي لاهون غافلون، أو مستكبرون، من سَمَدَ البعير إذا رفع رأسه، قال الراغب: السامد: اللاهي الرافع رأسه، والسمود: اللهو. قيل: كان المشركون إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء واللهو ليشغلوا الناس عن استماعه.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي اسجدوا لله العظيم الجليل الذي خلقكم، وخصوه بالعبادة بدل أن تسخروا وتضحكوا، فأمامكم أهوال وشدائد، لا ينجي منها إلا الإيمان، والخضوع والخشوع للرحمن!!
والصلاة على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم»

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

مكية وهي خمس وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (١).

﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ أي قربت القيامة، التي كل يوم يزداد قربها
﴿ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ أي انشق نصفين، وعن ابن مسعود: رأيت حراء بين فلقتي
القمر (١).

وعن عثمان بن عطاء عن أبيه أن معناه سينشق يوم القيامة، ويردّه
قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ (٢).

(١) قال ابن الجوزي: إن قوماً شذّوا فقالوا: سينشق يوم القيامة، وهذا القول الشاذ لا
يقاوم الإجماع، ولأن قوله تعالى: ﴿ وَأَنْشَقَّ ﴾ لفظٌ ماضٍ، وحمله على المستقبل
يفتقر إلى قرينة، وليس ذلك موجوداً، وفي قوله سبحانه ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ دل
على أنه قد حدث ذلك. ١هـ من زاد المسير ٨٨/٨.

والجمهور على الأول، وهو المروي في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه «أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر مرتين»^(١) ولا يقال: لو انشق لما خفي على أهل الأقطار، لأنه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم، وأنه حصل في الليل، ومعظم الناس نيام وغافلون، ومما هو المشاهد أن كسوف القمر وغيره يحدث في السماء، ولا يتحدث به إلا بعضُ الناس، ولا علم عند غيرهم بذلك، والمؤرخون تركوه لأنهم قالوا إنه مثل خسوف القمر، والقرآن أثبت وأدل دليل، وأقوى مثبت له، وإمكانه لا يُشك فيه، وقد أخبر عنه الصادق، فيجب اعتقاد وقوعه.

﴿وَلَنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ أي وإن ير المشركون معجزة واضحة ساطعة، دالة على صدق الرسول، يعرضوا عن الإيمان ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ويقولوا سحر مستمر، مطرد دائم، يأتي به على مر الزمان، وقولهم ﴿مستمر﴾ يدل على أنهم رأوا قبله آيات آخر مترادفة، ومعجزات متتابعة، حتى قالوا ذلك.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾

﴿وَكَذَّبُوا﴾ أي الرسول ﷺ، وما عاينوه مما أظهره الله تعالى على يده من المعجزات، كما كذبوا بانشقاق القمر ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي زينها الشيطان لهم، وقالوا سحر أعيننا، والقمر بحاله^(٢)، وذكرهم بلفظ

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٨٢/٧ ومسلم رقم ٢١٥٩ وتمة الحديث «حتى رأوا حياءً بينهما».

(٢) طلب المشركون من رسول الله ﷺ معجزة جليلة، تدل على صدق نبوته، وخشوا بالذكر أن يشق لهم القمر، وأعطوه العهد والميثاق على أن يؤمنوا برسالته، ويتبعوه إن أجابهم إلى ما طلبوا، فدعا رسول الله ﷺ ربه فأجاب الله دعاءه وانشق القمر فلقطين وكانت ليلة بدر، فجعلوا يعركون أعينهم وينظرون فيرونها متشققة إلى نصفين، نصف على جبل الصفا، ونصف على جبل قيعان، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: =

الماضي، للإشعار بأنها من عاداتهم القديمة، من ردِّ الحقِّ بعد الظهور ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي وكل أمر من الأمور مستقر، أي منتهٍ إلى غاية، يستقرُّ عليها لا محالة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ أي في القرآن ﴿مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أي أنباء القرون الخالية، الذين كذبوا رسلهم وعاقبتهم الوحيدة ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ما فيه واعظ لهم وزاجر عن التمادي في الباطل، وهو أنباء المهلكين بسبب التكذيب.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أي هذا القرآن العظيم، حكمة بالغة من ربِّ العزة والجلال ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾؟ أي فماذا تنفع الإنذارات، والزواجر، عن قوم أصمُّوا آذانهم عن سماع كلام الله، وهو الحكمة البالغة؟ فالمراد بالنُّذُر الإنذارات، والتخويف بالمواعيد.

﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَّكِرٍ﴾.

﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ﴾ لعلمك بأن الإنذار لا يؤثر فيهم حينئذ، فمن ينصح شخصاً ولا يؤثر فيه النصيح، يعرض عنه ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ﴾ أي يوم يدعو

= سحر محمد أعيننا!! فقال أبو جهل: اصبروا حتى يقدم علينا المسافرون، فإن رأوا مثل ما رأيتم فقد صدق، وإلا فهو سحر، فلما قدم المسافرون سألوهم فقالوا: رأيناه انشق في الليلة الفلانية، وفزعنا من ذلك، فقال أبو جهل اللعين والمشركون معه: سحر محمد الناس جميعاً، وهذا سحر مستمر أي دائم، فأنزل الله: ﴿وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾.

إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَى شَيْءٍ مُّكْتَرٍ﴾ أي منكر، فطبع، تنكره النفوس، لعدم العهد بمثله، وهو هول القيامة.

﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾.

﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ خشوع الأبصار: سكونها على حال لا ينقلب يمنة ويسرة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَزِيدُ الْيَهُودَ طَرَفُهُمْ﴾ وهو كناية عن الذلة والهوان، لأن ذلة الدليل، وعزة العزيز، تظهران في عيونهما ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموج والانتشار في الأمكنة، والجراد مثل في الكثرة.

﴿مُتَهَاطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾.

﴿مُتَهَاطِعِينَ﴾ أي حيارى، فزعين، مسرعين، مادي أعناقهم ناظرين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ الذي يدعوهم إلى الحشر، أي إلى صوت الداعي ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي صعب شديد، وفي إسناد القول إلى الكفار، تلويح بأن المؤمنين ليسوا كذلك، بل هو سهل يسير عليهم كقوله تعالى: ﴿على الكافرين غير يسير﴾.

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾.

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي فعل التكذيب قبل تكذيب قومك، قوم نوح ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي كذبوا عبدنا نوحاً شيخ الأنبياء عليهم السلام ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ أي لم يقتصروا على مجرد التكذيب، بل نسبوه إلى الجنون ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي وزجر عن التبليغ، بأنواع الأذية، من زجر العبد إذا نهته عن فعل شيء، ولم يكتفوا بذلك بل توعدوه بالقتل، رمياً بالحجارة فقالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۝١٠ ﴾ .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ﴾ أي فانتقم لي منهم، وذلك بعد يأسه منه، وسرعان ما استجيب الدعاء، قال تعالى:

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ۝١١ ﴾ .

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ﴾ منصبٌ بقوةٍ وغزارة، وهو تمثيلٌ لكثرة الأمطار، وشدة انصبابها، قيل: لم ينقطع المطر أربعين يوماً.

﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ ۝١٢ ﴾ .

﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أي جعلنا الأرض كلها، كأنها عيونٌ منفجرة ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ ﴾ أي ماء السماء، وماء الأرض، والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين، لم يكن بطريق المجاورة والتقارب، بل بطريق الاختلاط والاتحاد ﴿ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ ﴾ أي على حالٍ قد قدرها الله من الأزل، وقضائها بإهلاك المكذبين غرقاً، ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين، فأهلكهم الله بمطلوبهم، بالماء الذي به حياة البشر.

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ۝١٣ ﴾ .

﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أي أخشاب عريضة ﴿ وَدُسْرٍ ﴾ ومسامير، جمع دسار، والدُسْرُ: هو الدفع الشديد بقهر.

﴿ نَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا ۝١٤ ﴾ .

﴿ نَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا، أي محفوظة بحفظنا ﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا ﴾ أي كُفر به، فعلنا ذلك جزاء لنوح عليه السلام، لأنه كان نعمة كفرها.

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ١٥ .

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا ﴾ أي السفينة أو حادثة الطوفان ﴿ آيَةً ﴾ يعتبر بها من يقف على خبرها، وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة، وقيل: على الجودي، دهرأ طويلاً ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ أي هل من معتبر بتلك الآية الجديرة بالاعتبار؟ وأصله مذتكر، روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قرأت على رسول الله ﷺ ﴿ فهل من مدكر ﴾، فردّها عليّ يقول ﴿ فهل من مدكر ﴾ (١).

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ ١٦ .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾؟ استفهام تعظيم ووعيد، أي كان على كيفية هائلة، لا يحيط بها الوصف، والنذر: أي الإنذارات التي فيها تخويف.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ١٧ .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ جملة قسميّة، وردت في أواخر القصص الأربع، تقريراً لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي التُّذُرُ ﴾؟ وتنبيهاً على أن كل قصة منها، مستقلة بإيجاب التذكر والتدبر، كافية في الازدجار، أي وبالله لقد سهلنا القرآن لِقومك، بأن أنزلناه على لغتهم، وشحناه بأنواع المواعظ والعبر، وصرّفنا فيه من الوعيد والوعد، للتذكر والاتعاظ ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ إنكار ونفي للمتعظ على أبلغ وجه، أي فهل من معتبر ومتعظ بما فيه من العبر والمواعظ؟.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٦١٨/٨ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ أي هود عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له، دوماً للاختصار، ومسارعة إلى ما فيه بيان الازدجار، من العذاب الأليم، وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ لتوجيه قلوب السامعين، نحو الإصغاء إلى ما يُلقى إليهم قبل ذكره لتهويله وتعظيمه، كأنه قيل: كذبت عاد فهل سمعتم كيف كان عذابي وإنذاري لهم؟ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ ﴾ أي أرسلنا إليهم ريحاً باردة، شديدة الصوت، في يوم مشؤوم ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ أي استمرَّ شؤمه، أو مستمر عليهم إلى أن أهلكهم الله .

﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ ﴾ أي تقلعهم عن أماكنهم، روي أنهم دخلوا الشُعَاب، والحفر، فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴾ أي المنقطع عن مغارسه، وقوله تعالى:

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ ﴾ .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ تهويلٌ لهما وتعجيب من أمرهما، أي ألم يكن هائلاً فظيماً؟ .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴾ أي فهل من متعظ ومعتبر بزواج

القرآن؟ وفائدة التكرار، أن يجدد عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين، ادكاراً واتعاضاً، وأن يستأنفوا تيقظاً وانتباهاً، إذا سمعوا الحث على ذلك، وهذا حكمه التكرار في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ وكذلك تكرار القصص في أنفسها، لتكون العبرة حاضرة للقلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ﴾ أي الإنذارات والمواعظ التي سمعوها من صالح عليه السلام، أو بالرسل عليهم السلام، فإن تكذيب أحدهم تكذيب للكل، لاتفاقهم على أصول الشرائع.

﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾.

﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ أي واحداً من جنسنا من آحاد الناس، لا من أشرافهم ﴿إِنَّا إِذَا﴾ أي على تقدير اتباعنا له ﴿لَفِيَ ضَلَالٍ﴾ عن الصواب ﴿وَسُعْرٍ﴾ أي جنون، فإن ذلك بمعزل عن مقتضى العقل.

﴿أَلَمْ لَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ يَلِينَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ﴾.

﴿أَلَمْ لَقِيَ الذِّكْرُ﴾ أي الوحي ﴿عَلَيْهِ مِنْ يَلِينَا﴾ وفيما من هو أحق منه بذلك؟ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ﴾ أي بطر متكبر، حمله بطره على التعظم علينا بما ادعاه، يقال: أشِرَ أشراً، أي بَطِرَ وتكَبَّرَ.

﴿سَيَعْلَمُونَ خُذَا مِنْ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾.

﴿سَيَعْلَمُونَ خُذَا مِنْ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ﴾ حكاية لما قاله تعالى لصالح عليه السلام، وعداً له، ووعيداً لقومه، والمراد بالغد وقت نزول العذاب،

والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده، أي سيعلمون البتة عن قريب،
من الكذاب الأشر؟

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَرِ ۖ ﴾ (٢٧)

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ ﴾ أي مخرجوها من الصخرة حسبما
سألوا، امتحاناً لهم، فانتظرهم وتبصّر ما يصنعون؟ ﴿ وَأَصْطَرِ ﴾ على أذيتهم
فإن الله ناصرك عليهم.

﴿ وَبَيْنَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ ۖ ﴾ (٢٨)

﴿ وَبَيْنَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أي مقسوم لها يوم، ولهم يوم، و «بينهم»
لتغليب العقلاء ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ ﴾ أي يحضره صاحبه في نوبته.

﴿ فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ۖ ﴾ (٢٩)

﴿ فَنادَوْا ﴾ نداء المستغيث ﴿ صَاحِبَهُمْ ﴾ هو «قدار بن سالف» كان
أشجعهم ﴿ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم، غير مكترث له،
فأحدث العقر بالناقة، والتعاطي: تناول الشيء بتكلف.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۖ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ
الْمُخْطَرِ ۖ ﴾ (٣٠)

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً ﴿ هي صيحة جبريل
﴿ فَكَانُوا ﴾ فصاروا ﴿ كَهَشِيمِ الْمُخْطَرِ ﴾ أي كالشجر اليابس، الذي يتخذه من
يعمل الحظيرة، أو كالخشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته
في الشتاء.

﴿ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ أي هل من معتبر ومتعظ؟

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴾ ﴿٣٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالُ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٩﴾ .

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴿ أي ريحاً تحصبهم، أي ترميهم بالحصباء وهي الحجارة ﴾ إِلَّا عَالُ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿ وهو آخر الليل وقت السحر .

﴿ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أي إنعاماً منا عليه، فكان الإنجاء فضلاً منه تعالى ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة، وذلك الإنجاء كان فضلاً، كما أن ذلك الإهلاك كان عدلاً، والعضو الفاسد يُقطع .

﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ ﴾ لوط عليه السلام ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أخذتنا الشديدة بالعذاب ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴾ فكذبوا بالإنذار والوعيد متشككين فيه .

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٍ ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾ أي قصدوا الفجور بهم ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أي أعمينا أعينهم فجعلناهم لا يبصرون، روي أنهم لما عالجوا باب لوط ليدخلوا، قالت الملائكة: خلّهم يدخلوا إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْنَا،

فصففهم جبريل عليه السلام صفقة، فتركهم يترددون، ولا يهتدون إلى الباب عمياناً ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ أي فقلنا لهم على ألسنة الملائكة: ذوقوا عذابي وإنذاري الذي كنتم به تستهزئون.

﴿وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ (٢٨).

﴿وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ لا يفارقهم حتى يسلمهم إلى النار.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ (٢٩).

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ حكاية لما قيل لهم، من جهة الله تعالى، تشديداً للعذاب.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٣٠).

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي هل من متعطرٍ ومعتبر؟.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ (٣١).

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ صدرت قصتهم بالتوكيد القسمي، لإبراز كمال الاعتناء بشأنها، لعظم ما فيها من الآيات وكثرتها، وهول ما لاقوه من العذاب، والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك، أي وبالله لقد جاءتهم الإنذارات.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾ (٣٢).

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ وهي الآيات التسع ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ﴾ أي لا يُغالب ﴿مُقْتَدِرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿ أَكْفَرَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ (١٢)

﴿ أَكْفَرَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ ﴾؟ إكفاركم يا معشر العرب خير من أولئك قوة، وشدة وعدة ومكانة؟ والمعنى: أنه أصابهم ما أصابهم، مع ظهور خيرتهم منكم، فيما ذكر، فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك وأنتم أسوأ حالاً منهم، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾؟ انتقال من التبكيت إلى توبيخ آخر، أي أم لكم براءة وأمن من العذاب في الكتب السماوية المنزلة ولذلك تصرون على ما أنتم عليه.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ (١٣)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾؟ تبكيت آخر، أي بل يقولون نحن جمع كبير، واثقون بكثرتنا وقوتنا، منتصرون على محمد وصحبه؟

﴿ سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (٢٥)

﴿ سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ ﴾ رد وإبطال لذلك أي سيهزم جمعهم البتة ﴿ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ أي الأدبار، والتوحيد لإرادة الجنس، وهو من دلائل النبوة، وقد وقع ذلك يوم بدر، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو في قبّة يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك، ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم أبداً، ووُتِبَ في الدرع وهو يقول: ﴿ سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (١).

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴾ (٤٦)

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٦١٩/٨.

﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي ليس هذا تمام عقوبتهم، بل الساعة موعد أصل عذابهم، وهذا من طلائعه، يعني: إن عذاب الدنيا ليس لإتمام المجازاة، فإتمامها بالعذاب الدائم ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ أي في أقصى غاية من الداهية والمرارة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ ﴿٤٧﴾.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ في هلاك ونيران مسخرة.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ﴿٤٨﴾.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ أي يجزؤون ﴿فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ ويقال لهم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي حر النار وألمها، و«سقر» علمٌ لجهنم، واسم من أسمائها.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ﴿٤٩﴾.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي ملتبساً بقدر معين، اقتضته الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين، أو مقدر مكتوب في اللوح قبل وقوعه. عن عبد الله بن عمر وابن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق كلها، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»^(١).

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ﴿٥٠﴾.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أي كلمة واحدة سريعة التكوين، وهي قوله

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٥٣ في القدر، والترمذي رقم ٢١٥٧ في القدر أيضاً.

تعالى: كن، فإذا أراد شيئاً قال له: «كن» فهناك شيان: الإرادة، والقول، والإرادة قَدَرٌ، والقول قضاء ﴿كَلِمَةٍ بِالْبَصَرِ﴾ في اليسر والسرعة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ﴾ ﴿٥١﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي أشباههم في الكفر من الأمم ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ﴾ متعظ يتعظ بما صنع بهم.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿٥٢﴾

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ من الكفر والمعاصي مكتوب ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ في ديوان الحفظ.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ ﴿٥٣﴾

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ من الأعمال مسطورٌ فيها؛ نظيره قوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾^(١) ؟

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي في حدائق وبساتين وأنهار جارية.

﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضي ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ أي مقربين

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

عنده، عند ملك لا يُقادر قدر ملكه وسلطانه، فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته، سبحانه ما أعظم شأنه، والعندية عندية منزلة وكرامة لا مسافة ومماسة، والله أعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر»

* * *

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

مكية وآياتها ست وسبعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿الرَّحْمَنُ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢﴾

﴿الرَّحْمَنُ﴾ لما عدّد في السورة السابقة، ما نزل بالأمم السالفة من النقم، عدّد في هذه السورة الكريمة، ما أفاض على كافة الأنام، من فنون نعمه الدينية، وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بموجب الشكر، وبدأ بتعليم القرآن، فقال تقدست أسماءه:

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ لأنه أعظم النعم شأنًا، وأرفعه مكانة، كيف لا وهو مدار السعادة الدينية، والدنيوية، جمع الله فيه العلوم والمعارف، وبيّن فيه الهدى والضلال، وشرفه على سائر الكتب السماوية، فهو أفضلها وإمامها، وإسناد تعليمه إلى اسم الرحمن، للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة، وقد اقتصر على ذكره تنبيهاً على أصالته، وجلالة قدره.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤﴾

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * والجمل الثلاث أخبار مترادفة للرحمن وإخلاء الآخرين عن العاطف، لورودها على منهاج التعديد، كما

تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرك بعد قلة، فما تنكر من إحسانه؟ والبيان هو التعبير عما في الضمير، وليس المراد بتعليمه مجرد تمكين الإنسان من بيان نفسه، بل منه ومن فهم بيان غيره أيضاً، إذ هو الذي يدور عليه تعليم القرآن.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحَسَابٍ﴾

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحَسَابٍ﴾ أي يجريان بحساب مقدر، في بروجها ومنازلها، بحيث تنتظم بذلك أمور الكائنات السفلية، وتختلف الفصول والأوقات، وتعلم السنون والحساب.

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾

﴿وَالنَّجْمُ﴾ أي النبات الذي ينجم، أي يطلع من الأرض ولا ساق له، وقيل: نجوم السماء، والأول أظهر ﴿وَالشَّجَرُ﴾ الذي له ساق ﴿يَسْجُدَانِ﴾ أي ينقادان له تعالى فيما يريد بها طبعاً، انقياد الساجدين من المكلفين طوعاً.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ أي خلقها مرفوعة، محلاً ورتبة، حيث جعلها منشأ أحكامه، ومنزل أوامره، ومحل ملائكته، فنبّه بذلك على كبرياء شأنه، وعظم ملكه وسلطانه ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي شرع العدل، وأمر به بأن يُوفى لكل ذي حق حقه، والمراد به الميزان الذي يعرف به مقادير الأشياء، من وزن ومكيال ونحوهما، فالمعنى: خلقه موضوعاً على الأرض، حيث علق به أحكام عبادته، من التسوية والتعديل، في أخذهم وإعطائهم، فالميزان نعمة، وعدم ظهور نعمته، لكثرتة وسهولة الوصول إليه، كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما إلا عند فقدهما.

﴿الَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾.

﴿الَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي لئلا تطغوا فيه، ولا تجاوزوا الإنصاف وإنما قال: ﴿في الميزان﴾ ولم يقل في الوزن، ليشمل الأخذ والإعطاء، ولولا التساوي في الحقوق لأوقع الشيطان بين الناس البغضاء؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي قوموا وزنكم بالعدل والإنصاف ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي لا تنقصوه، والميزان ذكره الله تعالى ثلاث مرات، كل مرة بمعنى آخر، فالأول هو الآلة، والثاني بمعنى المصدر، أي لا تطغوا في الوزن، والثالث للمفعول، أي لا تنقصوا الموزون؛ كرّر لفظ الميزان، تشديداً للتسوية به، وتأكيداً للأمر باستعماله عدلاً.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ أي خفّضها وبسطها ﴿لِلْأَنَامِ﴾ أي للخلق ليستقروا عليها، ويتفنعوا بما فيها من خيرات، بالزراعة، والبناء وإخراج المعادن.

﴿فِيهَا فَكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ﴾.

﴿فِيهَا فَكِهَةٌ﴾ أي فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به، من النعم التي لا تحصى ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ﴾ هي أوعية الثمر جمع كِمّ بكسر الكاف والكِمّ وعاء الطلع، وغطاء النور، والجمع أكمام، ذكر تعالى النخل، لأنها أعظمها وأكثرها نفعاً، فهو غذاء كامل.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾

﴿وَالْحَبُّ﴾ هو ما يُتَغَذَّى به، كالحنطة، والشعير ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ هو ورق الزرع وقيل التبن ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ هو الريحان المعروف، ذو الرائحة الطيبة، والمراد به كل مشموم طيب الريح، كالورد، والياسمين، والفل، سمي ريحاناً لرائحته الطيبة الزكية (١).

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى: ﴿لِلْأَنَامِ﴾ وسينطق به قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ والفاء لترتيب الإنكار، على ما فُصِّل من فنون النعماء، الموجبة للإيمان والشكر، والتعرض لعنوان الربوبية، المنبئة عن المالكية، والتربية لتأكيد النكير، ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى كفرهم بها، إما بإنكار كونه نعمة في نفسه، كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية، وإما بإنكار كونه من الله تعالى، مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه، كالنعم الدنيوية، أي فإذا كان الأمر كما فُصِّل، فبأي فرد من أفراد آلاء مالِككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان، مع أن كلاً منها ناطق بالحق، شاهد بالصدق؟ كُثِّرَت هذه الآية في هذه السورة، في إحدى وثلاثين موضعاً، تقريراً للنعمة وتنبهياً على

(١) ذكر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنواع النعم التي خلقها لعباده، فذكر الفاكهة أولاً، ونكّر لفظها ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ لأن الانتفاع بها نفسها كالنخيل، والرمان، والعنب، والكمثرى إلخ، ثم ثنى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرها وهو التمر ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ لكثرة الانتفاع بها من ليف، وسعف، وجريد، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان، من بُرّ، وشعير، وكل ما له سنبل، وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم، ليجمع بين اللذة بالغذاء، واللذة بالروائح الطيبة، فسبحان من أنزل القرآن بأفصح بيان!!

وجوب شكر المنعم، والاعتراف له بالفضل والإحسان، ثم فصل هذه النعم الجليلة، وبدأ بخلق الإنسان؛ فقال:

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝۱۴ ﴾

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ ﴾ الصلصال: الطين اليابس، الذي له صلصلة، وهو الصوت منه إذا نقر ﴿ كَالْفَخَّارِ ﴾ أي الطين المطبوخ بالنار، وهو الخزف، وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام في أطوار وأدوار، من تراب، ثم جعله طيناً، ثم حمأ مسنوناً، ثم صلصالاً، ولا اختلاف بين الآيات، لاتفاقهن معنى، فهي مراحل وأطوار.

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝۱۵ ﴾

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ ﴾ أي الجن، أو أبا الجن إبليس ﴿ مِنْ مَّارِجٍ ﴾ من لهب صافٍ ﴿ مِّن نَّارٍ ﴾ بيان للمارج، فإنه في الأصل للمضطرب، من مرج إذا اضطرب.

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝۱۶ ﴾

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله ممّا أفاض عليكما من سوايغ النعم تكذبان يا معشر الجن والإنس؟

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝۱۷ ﴾

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أي الذي فعل ما ذكر من الأفاعيل البديعة، ربّ مشرقَي الصيف، والشتاء، ومغربيهما.

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝۱۸ ﴾

﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ مما في ذلك من فوائد لا تحصى، من اعتدال الهواء، واختلاف الفصول، وحدث ما يناسب كل فصل في وقته، وغير ذلك.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي أرسلهما من مرجت الدابة إذا أرسلتها، والمعنى أرسل البحر الملح، والبحر العذب ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي يتجاوران.

﴿يَنْتَهَمَا بَرْحٌ لَا يَتَّبِعَانِ﴾

﴿يَنْتَهَمَا بَرْحٌ﴾ أي حاجز من قدرة الله تعالى، أو من الأرض، يعني أن الماءين، من شأنهما أن يكون مكانهما واحداً، ثم إنهما بقيا في مكانين متميزين، فذلك برهان القدرة، على أن الماءين إذا تلاقيا لا يمتزجان في الحال، بل يبقيان زماناً، كالماء المسخن إذا غمس في ماء بارد، إن لم يمكث فيه زماناً لا يمتزج بالبارد، لكن إذا زاد مجاورتها فلا بد من الامتزاج ﴿لَا يَتَّبِعَانِ﴾ أي لا يبغي أحدهما على الآخر، بالممازجة وإبطال الخاصية.

﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ليس منهما شيء يقبل التكذيب.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ اللؤلؤ: الدُّرُّ، والمرجان: الخرز الأحمر، لما التقيا وصارا كالشيء الواحد ساعً أن يقال يخرجان منهما وظاهر كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من بعض الناس، ممن لا يوثق بقوله

أن الغواصين ما أخرجوه إلا من المالح، والصواب أنه يخرج من بعضها كبعض أنهار الهند ثبت ذلك قطعاً.

﴿فَبِأَيِّ آءِآلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٦﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ آءِآلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ﴾ أي السفن الجارية المرفوعات الشراع، أو المصنوعات، اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال الشاهقة، جمع عَلم وهو الجبل الطويل.

﴿فَبِأَيِّ آءِآلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ آءِآلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ؟﴾ من خلق مواد السفن، والإرشاد إلى أخذها، وكيفية تركيبها، وإجرائها في البحر، بأسباب لا يقدر على خلقها إلا الله سبحانه وتعالى^(١).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي على الأرض من الحيوانات، أو من الثقلين هالك لا محالة.

﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ذاته عز وجل، والوجه يستعمل في العرف

(١) في الآية إرشاد وتنبية إلى أن الفلك - أي السفن - في البحر، لا يملك أمرها في الحقيقة أحد، وكل الخلق مؤمنهم وكافرهم يعترف بالعجز والضعف، ويتنظر رحمة الله عز وجل، فأحوالهم وأرواحهم في قبضة قدرة الله، وقد كانوا يقولون: لك الفلك ولك الملك، كما قال سبحانه عنهم: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ثم بعد ذلك ينسون نعمة الله!!

لحقيقة الإنسان ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي ذو الاستغناء المطلق، والفضل التام، وهذه من عظام صفته تعالى، كما رُوي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الْطُّوَا بِيَاذَا الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ»^(١) ومعنى الطُّوَا، أي الزموا وأكثروا من هذا الدعاء، وفي وصفه سبحانه بعد ذكر فناء الخلق، وبقائه تعالى، إيذان بأنه يفيض عليهم بعد فنائهم أيضاً آثار لطفه وكرمه.

﴿فَيَأْتِي الْآءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾

﴿فَيَأْتِي الْآءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ ؟ فإحيائهم بالحياة الأبدية، والإثابة بالنعيم السرمدي، أجلُّ النعم، وأعظم الآلاء، قال يحيى بن معاذ: حبذا الموت، فهو الذي يقرب الحبيب إلى الحبيب.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قاطبة ما يحتاجون إليه، في ذاتهم، وموجوداتهم وسائر أحوالهم سؤالاً مستمراً، بلسان المقال، أو بلسان الحال، فإنهم كافة لو انقطع ما بينهم، وبين العناية الإلهية من العلاقة، لم يشمُوا رائحة الوجود أصلاً، فهم في كل آن مستمرّون على الاستدعاء والسؤال، والمراد من السؤال ما يدل على الحاجة، نطقاً كان أو غيره ﴿كُلُّ يَوْمٍ﴾ أي في كل وقت من الأوقات ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ من الشؤون التي من جملتها إعطاء ما سألوا، فإنه تعالى لا يزال ينشئ أشخاصاً ويفني آخرين، ويأتي بأحوال ويذهب بأحوال حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكيم

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٢٣. والحاكم في المستدرک ٤٩٨/١ وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد.

والمصالح، روي أنه ﷺ تلاها فقليل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين^(١). وفيه ردٌّ على اليهود حيث يقولون: إن الله لا يقضي يوم السبت.

﴿فَيَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿فَيَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ مع مشاهدتكم لما ذكر من إحسانه.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿٣١﴾

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أي ستجرد لحسابكم وجزائكم، وذلك يوم القيامة، عند انتهاء شؤون الخلق، فعبر عنه بالفراغ لهم بطريق التمثيل، وقيل: هو مستعار من قول المتهدد لصاحبه: سأفرغ لك، أي سأتجرد للإيقاع بك، والمراد التوفر على النكاية فيه، والانتقام منه ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ هما الإنس والجان لثقلهما على الأرض.

﴿فَيَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿فَيَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ رَيْكُمَا تَكْذِبَانِ﴾؟ التي من جملتها التنبية على ما سيلقون يوم القيامة للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب والعذاب.

﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ﴿٣٣﴾

﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ﴾ هما الثقلان، خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير، ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة، فخوطبوا بما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ٢٩٣/٤.

ينبىء عن ذلك، لبيان أن قدرتهم لا تفي بما كُلِّفوه ﴿إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾ أي إن قدرتم ﴿أَنْ تَنْقُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أن تهربوا من قضائي، وتخرجوا من ملكوتي، ومن أقطار السماوات والأرض ﴿فَأَنْقُذُوا﴾ منها، وخلِّصوا أنفسكم من عقابي ﴿لَا تَنْقُذُونَ﴾ أي لا تقدرّون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَانِي﴾ أي بقوة وقهر، وأنتم عن ذلك بمعزل بعيد، وهذا الخطاب الظاهر أنه في الآخرة، روي أن الملائكة تحيط بجميع الخلائق، فإذا رآهم الإنس والجن هربوا، فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدّم تفسيره.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ﴾

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ﴾ هو لهب خالص، وقيل: المختلط بالدخان ﴿مِّنْ نَّارٍ﴾ والتنكير للتفخيم ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي دخان، وقيل صُفْرٌ مذاب يصبُّ على رؤوسهم، ويحتمل أن يكون للاختصاص، فالنار للإنس، والنحاس للجن ﴿فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ أي لا تمتنعان، ولا يكون لهما ناصر منه.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟ فإن بيان العاقبة لطف ونعمة، والانتقام من الكفار من عدد الآلاء.

﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾

﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي انصدعت، وانفكَّ بعضها من بعض لقيام الساعة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ فصارت كلون الورد الأحمر ﴿كَالدِّهَانِ﴾ أي كدهن

الزيت، كما قال تعالى: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو عكر الزيت، وجواب إذا محذوف، أي يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال.

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٨).

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟ مع عظم شأنها.

﴿فَيَوْمِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (٢٩).

﴿فَيَوْمِذٍ﴾ أي يوم تنشق السماء ﴿لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ لأنهم يُعرفون بسيماهم، وذلك حينما يخرجون من قبورهم، ويحشرون إلى الموقف على اختلاف مراتبهم، وضمير ذنبه للإنس لتقدمه رتبة، أي لا يُسأل أحد من المجرمين عن ذنبه، لأنهم يُعرفون بسيماهم، فلا يحتاج إلى سؤالهم.

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١).

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟ مع كثرة منافعها، فإن الإخبار بما ذكر مما يزرهم عن الشر، المؤدي إليه.

﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (١١).

﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي يُعرفون بسواد الوجوه، وزرقة العيون، وبما يعلوهم من الكآبة والحزن ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي يجمع بين نواصيهم وأقدامهم، في سلسلة من وراء ظهورهم، وقيل: تسحبهم الملائكة؛ تارة تأخذ بالأقدام، وتارة بالنواصي.

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (١٢).

﴿فَإِيَّاءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي هذه النار التي كان يكذب بها الأشقياء المجرمون.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ﴾

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي بين النار التي يحترقون بها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حار ﴿ءَانِ﴾ بلغ النهاية في الحرارة، يُصَبُّ عليهم، وَيُسْقَوْنَ منه، وقيل: إذا استغاثوا من النار، أغيثوا بالحميم.

﴿فَإِيَّاءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿فَإِيَّاءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقد أشير إلى كون هذه الأمور من الآلاء.

﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ءَانِ﴾

﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ شروع في تعداد الآلاء الفائزة عليهم في الآخرة، أي ولمن خاف قيامه بين يدي ربه جنتان، واعلم أن ما عُدَّ فيما بين هذه الآية، وبين خاتمة السورة الكريمة، من فنون الكرامات، كما هي في أنفسها آلاء جليلة، واصله إليهم في الآخرة، كذلك حكاياتها الواصلة إليهم في الدنيا آلاء عظيمة، لكونها داعية لهم إلى السعي في تحصيل ما يؤدي إلى نيلها، من الإيمان والطاعة، وأن ما فَضِّلَ من فاتحة السورة إلى قوله تعالى: ﴿سَفَرُغْ لَكُمْ﴾، وبين هذه الآية، من الأحوال الهائلة التي ستقع في الآخرة؛ فليست هي من قبيل الآلاء، وإنما الآلاء حكاياتها، الموجبة للانزجار عما يؤدي إلى الابتلاء بها، من الكفر والمعاصي، وقوله تعالى: ﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب، يوم يقوم الناس لربِّ العباد، وإضافته إلى الرب للتفخيم، وقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي جنة للخائف الإنسي، وجنة للخائف الجنّي، فإن الخطاب للفريقين، أو

لكل واحد جنتان: جنة لفعل الطاعات، وأخرى لترك المعاصي، أو جنة يثاب بها، وأخرى يُتفضل عليه بها.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿﴾ صفة لـ «جنتان» وما بينهما اعتراض، والأفنان جمع فَنَن، أي ذواتا أغصان، وتخصيصها بالذكر لأنها التي تورق وتثمر، وتمد الظل.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ * أي فبأي نعمة من نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ * ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ * صفة أخرى لجنتان، أي في كل واحدة منهما عينٌ تجري، كيف يشاء صاحبها، وعن ابن عباس والحسن: تجريان بالماء الزلال، إحداهما التسنيم، والأخرى السلسيل.

﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ * أي فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان: غريب، ومعروف.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُّشْكَيْنَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ * مُّشْكَيْنَ ﴿﴾ أي مضطجعين في جنان الخلد،

والاتكاء من الهيئات الدالة على صحة الجسم، وفراغ القلب، لأن العليل يضطجع، أو يستلقي أو يستند على حسب ما قَدَّرَ عليه، وأما الاتكاء فهو علامة الرفاهية والنعيم ﴿عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي فرش وثيرة بطائنها من ديباج، وهو الحرير السميك، المزِين باللؤلؤ، وهذا يدل على نهاية الرفاهية، ومتى كانت بطائنها كذلك، فما ظنك بظواهرها؟ ﴿وَحَقَّى الْجَنَنَيْنِ دَانٍ﴾ أي ما يجتنى من أشجارها من الثمار، قريب يناله القائم، والقاعد، والمضطجع.

﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ لَمْ يَطْمِئْنَنَّ الْإِنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾﴾

﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ﴾ أي في الجنان والقصور ﴿قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ﴾ أي نساء يقصرون أبصارهنَّ على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، إنه تعالى لم يذكر النساء، إلا بأوصاف، تارة حور عين، وتارة عرباً أتراباً، وتارة قاصرات الطرف، إشارة إلى تخدُّرهنَّ، وإعظاماً لهنَّ في أعين الرجال ﴿لَمْ يَطْمِئْنَنَّ الْإِنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي لم يمسَّ الإنسيات أحد من الإنس، ولا الجنَّيات أحد من الجن قبل أزواجهن، وفيه دليل على أن الجن يُطمثون، والطمثُ: الجماعُ.

﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَانَتْهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾

﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَانَتْهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ صفة لقاصرات الطرف، أي مشبهات بالياقوت، في حمرة الوجنة، والمرجان، أي صفار الدُرِّ في بياض البَشَرَةِ وصفائها، فإن صفار الدُرِّ أنصع بياضاً من كبارهِ، ولا يبعد أن يقال: هو مؤكدات لما مضى، لأنهن لما كنَّ ممتنعات عن الاجتماع بالإنس والجن، فهن كالياقوت في معدنه، والمرجان في صدفه.

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾﴾ .

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ؟ أي ما جزاء الإحسان في العمل، إلا الإحسان في الثواب.

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ .

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ أي ومن دون تلك الجنتين، الموعودتين للخائفين المقربين، جنتان أخريان، لمن دونهم من أصحاب اليمين، ولا شك أن مقام السابقين المقربين أعظم وأرفع.

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ .

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مُدْهَامَتَانِ صفة لـ «جنتان» أي خضراوان تضربان إلى السواد، من شدة الخضرة، وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النباتات والرياحين.

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ .

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ أي فوارتان بالماء، والنضج أكثر من النضج وهو الرش.

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُومَانٌ ﴿٦٨﴾﴾ .

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُومَانٌ عطف الأخيران لفضلهما، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء، وللرمان فاكهة ودواء.

﴿فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ .

﴿فَيَأْتِيءُ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فَبَيْنَ﴾ في الجنان ﴿خَيْرَتٌ حَسَنٌ﴾ فاضلات الأخلاق، وحسان الخلق والخلق.

﴿فَيَأْتِيءُ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحِيَامِ﴾ ﴿٧٦﴾.

﴿فَيَأْتِيءُ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحِيَامِ﴾ أي مخدرات، يقال: امرأة مقصورة الطرف، قيل: إن الخيمة من خيامهن درة مجوفة.

﴿فَيَأْتِيءُ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿لَمْ يَطْمِئْنَنْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿٧٧﴾.

﴿فَيَأْتِيءُ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿لَمْ يَطْمِئْنَنْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي لم يغشهن ولم يجامعن أحد قبل أزواجهن.

﴿فَيَأْتِيءُ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مُتَكِينٌ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حَسَانٍ﴾ ﴿٧٨﴾.

﴿فَيَأْتِيءُ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مُتَكِينٌ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ﴾ أي مستندين على وسائل خضر من وسائل الجنة، والوسادة هي المخدة ﴿وَعَبَقَرِيٍّ حَسَانٍ﴾ العبقرى منسوب إلى العبقر، وهي الطنافس الشخان، جمع عبقرية، أي طنفسة سمكة مزينة بأنواع النقوش، قال الخليل: كل شيء نفيس يسمى عند العرب عبقرياً، ومنه قول النبي ﷺ في عمر: «فلم أر عبقرياً يفري فزيه» (١).

(١) طرف من حديث رواه البخاري ٣٦٥/١١ ولفظه «بينما أنا نائم رأيتني على قليب - أي بئر - عليها دلو، فتزعت منها ما شاء الله، فأتاني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليرychني، فتزع ذنوبين - أي دلوين - وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، فجاء ابن الخطاب فأخذها منه، فلم أر عبقرياً من الناس، يفري فزيه، حتى روي الناس، =

﴿ فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تَبَرَّكَ أَمُّ رَبِّكَ ﴿ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ .

﴿ فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تَبَرَّكَ أَمُّ رَبِّكَ ﴿ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى، فيه تقرير لما ذكر في السورة الكريمة، من آلائه الفائضة على الأنام، أي تعالى اسمه الجليل، وارتفع عما لا يليق بشأنه من العجز والضعف وتضييع أجر العاملين ﴿ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أي ذو العظمة والكبرياء، والفضل والإكرام لأوليائه، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الرحمن»

= وَضَرَبُوا بِعِطْفَيْنِ ۝ ١٥ أَيُّ حَتَّى اسْتَقَى النَّاسُ، وَأَرَوَّأَ إِلَهُمُ، وَالْحَدِيثُ إِشَارَةٌ إِلَى الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِي زَمَنِ عُمَرَ، وَإِلَى مَدَّةِ خِلَافَتِهِمَا، فَقَدْ قَصُرَتْ مَدَّةُ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَطَالَتْ مَدَّةُ خِلَافَةِ عُمَرَ، حَتَّى تَيْسَّرَتْ لَهُ الْفَتْوحُ، وَأَفَاءَ اللَّهِ عَلَيْهِ الْغَنَائِمُ، وَكَتُوزَ كَسْرَى وَقِصْرَ.

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

مكية وهي ست وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ ﴾

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ ﴾ أي إذا قامت القيامة، وذلك عند النفخة الثانية، والتعبير عنها بالواقعة، للإيدان بتحقق وقوعها لا محالة، كأنها واقعة في نفسها، مع قطع النظر عن الوقوع، كأنه قيل حدثت الحادثة، والواقعة اسم للقيامة، وانتصاب إذا بمضمر ينبيء عن الهول، كأنه قيل: إذا وقعت الواقعة، يكون من الأحوال، ما لا يفني به المقال.

﴿ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ ﴾

﴿ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ ﴾ أي لا يكون عند وقوعها نفسٌ تكذب على الله، ولا تكذب في نفيها كما تكذب اليوم.

﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝ ﴾

﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝ ﴾ أي هي خافضة لأقوام، رافعة لآخرين، وهو تقرير لعظمتها، وتهويل لأمرها، فإن الوقائع العظام شأنها كذلك.

﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾

﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ أي زُلزِلت زلزلاً شديداً، بحيث ينهدم ما فوقها من بناء، وجبل، ويندك كل صرح وعمران.

﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴾

﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴾ أي فُتَّتْ حتى صارت مثل السوق الملتوت، أو سِطَتْ وسُيِّرَتْ، من بَسَّ الغنم إذا ساقها، كقوله تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾.

﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴾

﴿ فَكَانَتْ ﴾ أي فصارت بسبب ذلك ﴿ هَبَاءً ﴾ أي غباراً ﴿ مُنْبَثًا ﴾ أي منتشراً، متطائراً في الجو.

﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾

﴿ وَكُنْتُمْ ﴾ خطاب لجميع الخلائق، السابقين واللاحقين ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ أي أصنافاً ﴿ ثَلَاثَةً ﴾ فكل صنف يكون مع صنف آخر في الوجود أو في الذكر فهو زوج، صنفان في الجنة، وصنف في النار، كما وضحته الآية الكريمة.

﴿ فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾

﴿ فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ وهم الذين يؤتون صحائف أعمالهم بالإيمان ﴿ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ تعجب من حالهم في السعادة، وتعظيم شأنهم، كأنه قيل: ما هم؟ وأي شيء هم، في حالهم وصفتهم؟.

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ٩

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ٩؟ والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين، في الفخامة والفضاعة، كأنه قيل: فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال، وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال، سُمُّوا أصحاب اليمين، لكون أيمانهم تستنير بنور من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ ولأنهم يُعطون كتبهم بأيمانهم.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ١٠

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ هم القسم الثالث من الأزواج الثلاثة، ولعل تأخير ذكرهم، مع كونهم أسبق الأقسام، وأقدمهم في الفضل، ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم، أي والسابقون إلى طاعة الله، هم السابقون إلى رحمته، وقيل: الذين سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات.

﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ١١

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى السابقين ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ الذين قربت إلى العرش درجاتهم، فهم في ظل العرش وجواره.

﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ ١٢

﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ أي كائنين في جنات نعيم، يستمتعون بما تشتهيهِ الأنفس.

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٣

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي هم جملة من الأولين، وهم الأمم السالفة، من

لن آدم عليه السلام، إلى نبينا صلوات الله عليهم أجمعين، والثلة: الأمة من الناس الكثيرة.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤)

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أي من هذه الأمة، وقد روي مرفوعاً أن الأولين والآخرين ههنا، متقدموا هذه الأمة ومتأخروهم، وهذا ظاهر لأن الخطاب لا يتعلق إلا بالموجودين.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ (١٥)

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ الموضونة: المنسوجة بالذهب، المشبكة بالدر والياقوت، القوية اللحمة والسدى.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ﴾ (١٦)

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، وهو وصف لهم بحسن العشرة، ومنتهى الأخلاق والآداب، أي إن أحداً لا يستدبر أحداً.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ (١٧)

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يدور حولهم للخدمة ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي غلمان، مبقون أبداً على هيئة الولدان وطراوتهم. قيل: هم أولاد أهل الدنيا، وقيل: أولاد الكفار خدام أهل الجنة، والصحيح أنهم ولدان خلّقوا في الجنة، لخدمة أهل الجنة، كالحور العين، والعربُ تسمي الغلام وليداً ما لم يحتلم، والأمة وليدة.

﴿يَا كُؤُوبٌ وَأَبَارِيقُ وَكَأْسٌ مِّن مَّعِينٍ﴾ (١٨)

﴿يَا كُؤَابَ وَأَبَارِيْقَ﴾ سميت إبريق لبريق لونها، وقيل: لأنها يُرى باطنها كما يرى ظاهرها ﴿وَكَأْسِيْنَ مَعِيْنِ﴾ أي خمر جارية من العيون.

﴿لَا يَصْدَعُوْنَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُوْنَ﴾ (١٩).

﴿لَا يَصْدَعُوْنَ عَنْهَا﴾ أي بسببها، وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها ﴿وَلَا يُزْفُوْنَ﴾ أي لا يسكرون، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله.

﴿وَفَكَهْمُهُ مِمَّا يَتَخَيَّرُوْنَ﴾ (٢٠).

﴿وَفَكَهْمُهُ مِمَّا يَتَخَيَّرُوْنَ﴾ يختارونه ويأخذون خيره وأفضله.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٢١).

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي يتمنون ويحبون، كما ورد في الحديث «إنك لتنظر إلى الطير فتشتهيه، فيخز بين يديك مشوياً»^(١).

﴿وَحُورٌ عِيْنٌ﴾ (٢٢).

﴿وَحُورٌ عِيْنٌ﴾ أي ويؤتون حوراً جميلات، واسعات العيون.

﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ (٢٣).

﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ في الصفاء والنقاء الذي لم تُغيّر لونه الشمس والهواء.

﴿جَرَاهُ يَمًا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤).

(١) أخرجه البيهقي، وانظر تفسير الحافظ ابن كثير ٣٠٨/٤.

﴿جَزَاءٌ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي يفعل بهم ذلك كله، جزاء بأعمالهم، أما الزيادة فلا يدركها أحد.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءٌ وَلَا تَأْتِيًا﴾ ٢٥

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءٌ﴾ أي باطلاً ﴿وَلَا تَأْتِيًا﴾ أي لا يأتون ما هو سبب التأثيم، والمعنى: لا يسمعون في الجنة باطلاً من القول، ولا فاحشاً من الكلام، فحياتهم كلها أنس وسرور، ومُتعة ولذة.

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا﴾ ٢٦

﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي إلا أن يقولوا ﴿سَلَمًا سَلَمًا﴾ أي أنهم يفشون السلام بينهم.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ٢٧

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ١٩ استفهام للتعظيم لحالهم، وكرامتهم في الجنة.

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ ٢٨

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي هم في سدر غير ذي شوك، لا كسدر الدنيا وهو شجر النبق، كأنه خُضد شوكة أي قطع.

﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ ٢٩

﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ﴾ الطلح: شجر الموز، وله أزهار كثيرة، طيبة الرائحة فإن قيل: ما الحكمة، وأية نعمة تكون في كونهم في سدر، وهو من

أشجار البوادي وله شوك^(١) ؟ أجيب: بأن الجنة تمثل بما كان عند العرب عزيزاً، وله نفع لهم، أو لأنعامهم، والإشارة إلى جميع ما بينهما كما يقال: فلان مَلِكُ الشرق والغرب، أي وما بينهما، والأشجار أوراقها على أقسام كثيرة، وورق السَّدر في غاية الصغر، وورق الطلح في غاية الكبر، ففي الآية وقعت الإشارة إلى جميع الأشجار، نظراً إلى الأوراق، كما ذكر النخيل والأعناب لشهرتهما عند العرب.

﴿وَزَلَّيَّمْدُوْر﴾ (٣٠)

﴿وَزَلَّيَّمْدُوْر﴾ ممتد منبسط لا يتقلص، ولا يتفاوت الظلُّ، ولا ينقبضُ، لأنه ليس ظل الأشجار، بل ظلٌّ دائم يخلقه الله تعالى.

﴿وَمَآءٌ مَّسْكُوْبٌ﴾ (٣١)

﴿وَمَآءٌ مَّسْكُوْبٌ﴾ يسكب لهم أينما شاؤوا، وكيفما أرادوا بلا تعب، أو مصبوب سائل، يجري على الأرض، كأنه شبّه ومثّل حال السابقين في التنعم بأكمل ما يتصور لأهل المدن، ومثّل حال أهل اليمن بأكمل ما يتصور لأهل البوادي، إيذاناً بالتفاوت بين الحالين.

﴿وَفَنَكِهَةٌ كَثِيْرَةٌ﴾ (٣٢)

﴿وَفَنَكِهَةٌ كَثِيْرَةٌ﴾ بحسب الأنواع والأجناس.

(١) روى البيهقي والحاكم أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، إن الله تعالى ذكر في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟! فقال: وما هي؟ قال: السَّدرُ، فإن له شوكة!! فقال رسول الله ﷺ: أليس الله يقول ﴿وسدرٍ مخضود﴾؟ خَضَدَ الله شوكه - أي نزع وقطعه - فجعل مكان كل شوكة ثمرة، وإن الثمرة من ثمرة تفتق عن اثنين وسبعين لونا من الطعام، ما فيها لون يشبه الآخر!!»

﴿لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ ﴿٣٣﴾

﴿لَا مَقْطُوعَةَ﴾ في وقتٍ من الأوقات، كفواكه الدنيا، بل دائمة مستمرة دون انقطاع ﴿وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ عن تناولها بوجه من الوجوه، لقربها منهم.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ ﴿٣٤﴾

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر، أو مرفوعة على الأسرة، وقيل: الفرش: النساء، حيث يكنى بالفراش عن المرأة، وارتفاعها كونهنَّ على الأرائك، قال الله تعالى: ﴿هُنَّ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ﴾^(١) ويدل عليه قوله تعالى بعده.

﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً﴾ ﴿٣٥﴾

﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً﴾ أي خلقناهنَّ خلقاً جديداً.

﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ ﴿٣٦﴾

﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي كلما أتاهن أزواجهن، وجدوهن أبكاراً.

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ﴿٣٧﴾

﴿عُرُبًا﴾ جمع عَرُوب، وهي المحببة إلى زوجها، الحسنَةُ التبَّعِلُ ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات في السن، بنات ثلاث وثلاثين سنة، وكذا أزواجهن، لأنه لا هَرَمَ، ولا شيخوخة في الجنة.

(١) سورة يس، آية: ٥٦.

﴿لَا صَحَابَ الْيَمِينِ﴾ ﴿٣٨﴾.

﴿لَا صَحَابَ الْيَمِينِ﴾ أي جعلناهم نساء لأصحاب اليمين.

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾.

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ أي هم أمة من الأولين، وأمة من الآخرين، هذا في أصحاب اليمين.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ ﴿٤١﴾.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ ١٩ الشمال والمشأمة واحد، وهم الذين يأخذون كتبهم بشمالهم، والاستفهام للتهويل والتفطيع، أي وأصحاب الجحيم هل تدري ما هو حالهم.

﴿فِي سُمُورٍ وَحِمِيرٍ﴾ ﴿٤٢﴾.

﴿فِي سُمُورٍ وَحِمِيرٍ﴾ أي حرٌّ نارٍ ينفذ في المسام، والسموم ریح حارة تهب بالنهار فتمرض، أو تقتل.

﴿وَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُورٍ﴾ ﴿٤٣﴾.

﴿وَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُورٍ﴾ أي من دخان أسود، وأصله من الحم، وهو الفحم هواؤه الذي يهب عليهم سموم، وماؤه الذي يشربونه حميم.

﴿لَّا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ ﴿٤٤﴾.

﴿لَّا بَارِدٌ﴾ كسائر الظلال ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ فيه خير ما، نفی لصفتي الظل عنه، يعني أنه ظل حار، وضار، لا نافع، ثم بيّن تعالى يَمَ استحقوا ذلك العذاب، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي منعمين ومنهمكين في الشهوات، فلا جَرَمَ عَذَّبُوا بنقائضها.

﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى لَيْسَتِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى لَيْسَتِ الْعَظِيمِ﴾ أي الذنب العظيم، وهو الشرك بالله، لأنه نقض عهد الميثاق.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيِّدَا مَتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَلَّا نَلْمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ﴾ لغاية عتوهم ﴿أَيِّدَا مَتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَلَّا نَلْمَبْعُوثُونَ﴾؟ أي هل سنُخلق مرة أخرى؟ وهو المرجع للإنكار، وتقييده بالوصف المذكور، وهو تحول أجسادهم إلى التراب والعظام النخرة، لتقوية الإنكار للبعث، بتوجيهه إليه في حالة منافية له بالكلية، فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت، وإن كان البدن على حاله.

﴿أَوَّابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿أَوَّابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾؟ يعنون أن بعث آبائهم الذين بُلُوا، أبعد من الوقوع.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ ﴿٤٩﴾

﴿قُلْ﴾ رداً لإنكارهم، وتحقيقاً للحق ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ من الأمم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم.

﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿٥٠﴾

﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد البعث ﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ هو ما وَقَّتَ الله به الدنيا، وهو يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَآ الضَّآلُّونَ الْمُكْذِبُونَ﴾ (٥١).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ الخطاب للكفرة ﴿أَنتَآ الضَّآلُّونَ الْمُكْذِبُونَ﴾ أي الضالون عن الهدى، المكذبون بالبعث والجزاء.

﴿لَا كِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ﴾ (٥٢).

﴿لَا كِلُونَ﴾ بعد دخول جهنم ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ﴾ مِن الأولى للابتداء، والثانية للبيان، أي مبتدئون الأكل من شجر هو الزقوم.

﴿فَآلِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (٥٣).

﴿فَآلِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ أي بطونكم من شدة الجوع.

﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّحِيمِ﴾ (٥٤).

﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ عقيب ذلك ﴿مِنَ اللَّحِيمِ﴾ أي الماء الحار الذي اشتدت حرارته.

﴿فَشَرِبُونَ شُرَبَ الْهِيمِ﴾ (٥٥).

﴿فَشَرِبُونَ شُرَبَ الْهِيمِ﴾ أي لا يكون شربكم شرباً معتاداً، بل يكون مثل شرب الهيم، وهي الإبل التي بها الهَيْام، وهو داءٌ يصيبها فتشرب ولا تزوي، جمع أهيم، والمعنى: أنه يُسَلِّطُ عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم، فإذا ملؤوا منه بطونهم، سُلِّطَ عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم، فيشربون شرب الهيم.

﴿ هَذَا نُرْلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿ هَذَا نُرْلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي هذا الذي ذُكِرَ من العذاب هو ضيافتهم، فإذا كان نزلهم ذلك، فما ظنك بما لهم، بعدما استقرَّ لهم القرار في النار؟ وفيه من التهكم بهم ما لا يخفى، فإن النزل معناه الضيافة، وهل الحميم والزقوم ضيافة فيها تكريم؟ فإن النزل للكرامة، وهذا العذاب للإهانة.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴾ أي نحن الذين خلقناكم أيها الناس، وأوجدناكم من العدم، فهلأ تصدقون بالبعث والنشور؟

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ أي ما تقدفون في الأرحام من الطُف؟

﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أي هل أنتم الذين تخلقونه وتصورونه بشراً سوياً؟ ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾؟ له من غير دخل شيء فيه، فلم لا تصدقون على أنه يعيدكم؟

﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ ﴿٦٠﴾ .

﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ ﴾ أي قسمناه عليكم ووقتنا موت كل أحد بوقت معين، حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنيَّة على الحكم البالغة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي لا يسبقنا أحد فيهرب من الموت، أو يغير وقته، وإنَّا قادرون.

﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ .

﴿عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ أي أن نذهبكم، ونأتي مكانكم بغيركم، في أسرع حين من الخلق ﴿وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الخلق والأطوار، يعني إنا نقدر على الأمرين على الخلق ممّا يماثلكم وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم؟

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٢﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ هي خلقهم من نطفة ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتذكرون أنّ من قدّر عليها، قدر على النشأة الأخرى؟ فإنه أقلّ صنعا لحصول المراد!! وفيه دليل على صحة القياس.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿١٣﴾

﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ ذكر تعالى بعد دليل الخلق، دليل الرزق ﴿مَا تَحْرُثُونَ﴾ أي تبدرون حبه.

﴿أَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ﴿١٤﴾

﴿أَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ﴾ أي تنبتونه ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ المنبتون.

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ﴿١٥﴾

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا﴾ هشيماً، منكسراً، متفتتاً، بعد ما أنبتناه ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون من سوء حاله، وتندمون على تعبكم فيه، والتفكُّهُ: التمتع بصنوف الفاكهة، وقد استعير للتفكه بالحديث، فإن قال معاند: نحن نحراث وهو بنفسه يصير زرعاً، لا بفعلنا، ولا بفعل غيرنا، نقول: لو سلّم هذا الباطل، فما تقول في سلامته عن الآفات التي تصيبه قبل ظهور الحب؟ أو تدفعونها عنه، أو هذا الزرع يدفع عن نفسه لو أراد الله تلّقه وهلاكه؟

﴿ إِنَّا لَمَعْرُومُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾

﴿ إِنَّا لَمَعْرُومُونَ ﴾ أي قائلين إِنَّا لملزمون غرامة ما أنفقنا.

﴿ بَلْ لَنَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾

﴿ بَلْ لَنَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي حُرِمنا رزقنا، غرِمنا ثمن الحب، وحُرِمنا من الرزق، فلا حظ ولا نصيب لنا فيه.

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾؟ عذباً فراتاً، ونخصيصة هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه، لأن الشرب أهم المقاصد المنوط بها.

﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ ﴿٦٩﴾

﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾؟ من السحاب، جمع مُزْنَة وهي السحابة الممطرة ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾؟ له بقدرتنا.

﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٧٠﴾

﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ أي ملحاً زعافاً لا يمكن شربه ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي فهلاً تشكرون ربكم على فضله وإنعامه؟

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ ﴿٧١﴾

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد، والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر فتخرج منه النار.

﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾

﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَخْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ لها بقدرتنا؟ والتعبير عن خلقها بالإنشاء، المنبىء عن بديع الصنع، المعرب عن كمال القدرة والحكمة، لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر، التي لا تخلو من النار، حتى قيل: في كل شجر نارٌ، واستمجد المرخُ والعُفار.

﴿نَخْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَعْنَا لِلْمُقْوِينَ﴾ (٧٦)

﴿نَخْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي تذكيراً لنار جهنم، حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ويذكروا ما أوعدوا به من نار جهنم، وفي الحديث الشريف «ناركم هذه التي توقدون، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم»^(١) وقيل: المعنى: جعلناها تبصرةً لأمر البعث، فإنه ليس بأبدع من إخراج النار من الشيء الرطب ﴿وَمَتَعْنَا لِلْمُقْوِينَ﴾ أي ومنفعة للذين يتزولون القواء، وهو القفر، وتخصيص المسافرين بذلك، لأنهم أحوج إليها، فإن المقيمين ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦)

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ الفاء في ﴿فَسَبِّحْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما عدّد من بدائع صنعه تعالى، الموجبة لتسبيحه، عما يقول الجاحدون بوحدانيته، الكافرون بنعمته مع عظمها وكثرتها، وتعجبياً من أمرهم في غمط تلك النعم الباهرة، مع جلالة قدرها، أي فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى العظيم، قل: سبحان الله العظيم، سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخرها لنا بحكمته!!

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٣٨/٦ باب صفة النار، ومسلم رقم ٢٨٤٣ باب في شدة حر نار جهنم.

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴾ ﴿٧٥﴾ .

﴿ فَلَا أَقْسِمُ ﴾ أي فأقسم و «لا» مزيدة للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ وهو قول أكثر المفسرين، وأما ما قيل: إن المعنى: فلا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، فيأباه تعيين المقسم به، وتفخيم شأن القسم به ﴿بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ أي بمساقطها وهي مغاربها، وتخصيصها بالقسم، لما في غروبها من الدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير، أو بمنازلها ومجاريها، فإن له في ذلك من الدليل على عظيم قدرته، وكمال حكمته، ما لا يحيط به البيان.

﴿ وَإِنَّكُمْ لَقَسَمْتُمْ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمًا ﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿ وَإِنَّكُمْ لَقَسَمْتُمْ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمًا ﴾ اعتراض قصد به المبالغة، في تحقيق مضمون الجملة القسمية وتأكيده.

﴿ إِنَّكُمْ لَقَرَأْتُمْ كَرِيمًا ﴾ ﴿٧٧﴾ .

﴿ إِنَّكُمْ لَقَرَأْتُمْ كَرِيمًا ﴾ أي كثير النفع، لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد، وكريم عند الله تعالى.

﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ ﴿٧٨﴾ .

﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ مصون من غير المقربين من الملائكة، لا يطلع عليه من سواهم، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: مصون من التبديل والتحريف، ويراد به المصحف الشريف.

﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ﴿٧٩﴾ .

﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أي القرآن. المراد بالمطهرين الملائكة،

فالمراد بهم المطهرون من الأحداث، فيكون نفياً بمعنى النهي، أي لا ينبغي أن يمسه إلا من كان على طهارة.

﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٨٠﴾ .

﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ صفة للقرآن، أي منزل من عند الرحمن.

﴿ أَفِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ ﴿٨١﴾ .

﴿ أَفِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ الذي ذكر نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه، وهو القرآن الكريم ﴿ أَنْتُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ مُدْهِنُونَ ﴾ أي متهاونون به، كمن يدهن في الأمر، أي يلين جانبه ولا يتصلب، تهاوناً به.

قال ابن عباس: أي مكذبون، والمدهن والمداهن الكذاب والمنافق، والإدهان: الجري في الباطل، ثم قيل للمكذب: مدهن.

﴿ وَتَفْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾ .

﴿ وَتَفْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ أي حظكم ونصيبكم ﴿ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴾ أي تضعون التكذيب موضع الشكر.

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ ﴿٨٣﴾ .

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ لولا للتحضيض، أي فهلاً إذا بلغت الروح الحلقوم، وتداعت إلى الخروج، عند معالجة سكرات الموت.

﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ ﴿٨٤﴾ .

﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ أيها الحاضرون تنظرون إلى ما هو فيه من الغمرات، وهو يودّع الحياة.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ تُبْصِرُوا﴾ (A6).

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ علماً وقدره وتصرفاً ﴿مِنْكُمْ﴾ حيث لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدة، من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها، وأسبابها، ولا أن تقدروا على دفع أدنى شيء منها، ونحن المتولون لتفاصيل أحواله بملائكة الموت ﴿وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ تُبْصِرُوا﴾ أي لا تدركون بذلك لجهلكم بشؤوننا.

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (A7).

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي غير مربوبين ومملوكين، من دان السلطان رعيته: إذا سأسهم، والدينُ الجزاء، أي غير مجزيين يوم القيامة، وأصل التركيب للذل والانقياد.

﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (A8).

﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي إن كنتم غير مربوبين ومجزيين، فهلاً ترجعون الروح إلى مقرها، عند بلوغها الحلقوم؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في اعتقادكم أن لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء^(١)! وقال الطبيعي: البقاء بالغذاء، وزوال الأمراض بالدواء، فما بال الطبيعي لا يقدر على أن يرجع النفس من الحلقوم؟.

(١) الغرض من الآية: بيان عجز البشر عن رد الموت، أو دفعه عنهم، وكأن الآية تقول للمكذبين الكفار: إن كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا إله يجازي العباد، فهلاً تردون روح من يعزُّ عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ وإذا لم يمكنكم ذلك وهو أمر مستحيل، فاعلموا أن الأمر بيد ربِّ الأرباب.

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي فأما إن كان المتوفى من السابقين في الخيرات والدرجات، عبر عنهم بأجل وأشرف أوصافهم.

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ ﴿٨٩﴾ .

﴿ فَرَوْحٌ ﴾ أي فله استراحة، وفسر بالرحمة، أي بالحياة الدائمة ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ أي رزق طيب ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ أي ذات تنعم.

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ﴿٩٠﴾ .

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ عبر عنهم بالعنوان السابق، إذ لم يذكر لهم في ما سبق وصف سواه، كما ذكر للفريقين الآخرين.

﴿ فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ﴿٩١﴾ .

﴿ فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض، والالفتان للتشريف، ويحتمل أن يكون المعنى: فسلام لك يا رسول الله منهم، فإنهم في سلامة، لا يهتك أمرهم.

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ ﴿٩٢﴾ .

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ وهم أصحاب الشمال، وصفوا به، ذمًا لهم، وإشعاراً بسبب ما ابتلوا به من العذاب.

﴿ فَتَرَى مِنْ جَمِيرٍ ﴾ ﴿٩٣﴾ .

﴿ فَتَرَى ﴾ أي فله ضيافة كائنة ﴿ مِنْ جَمِيرٍ ﴾ يشرب منها بعد أكل الزقوم.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ (١٤)

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي إدخال في النار المستعرة، وقيل: ذلك ما يجده في القبر من سموم النار، وفي هذه الآية إشارة إلى أن الكفر كله ملة واحدة، وأن أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين، لأنهم غير مكذبين.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ (١٥)

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي الذي ذكر في هذه السورة الكريمة ﴿هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي حق الخبر اليقين، وذلك نوع تأكيد، يقال: هذا من حق الحق، وصواب الصواب، أي غايته ونهايته.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (١٦)

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي فتنزه ربك عن الظلم والعجز، فهو الذي يجازي العباد بالحق والعدل. روي عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»^(١) وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة، لم تصبه فاقة أبدًا»^(٢)

(١) أخرجه أبو داود ٢٠٠/١ وأحمد في المسند ١٥٥/٤.

(٢) أخرجه ابن عساكر وله قصة لطيفة ذكرها الحافظ ابن كثير ٣٠٢/٤ وهي: أن عبد الله ابن مسعود لما مرض مرضه الذي توفي فيه، عاده الخليفة عثمان بن عفان، فسأله: ما تشتكي؟ - يريد ما هو الداء الذي نزل بك - قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا أمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا أمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك!! - وكان عنده خمس بنات - فقال له ابن مسعود: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي بقرآن كل ليلة =

والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين.
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الواقعة».

* * *

= سورة الواقعة، وإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة، كلَّ ليلة،
لم تصبه فاقة أبدًا» اهـ.

سُورَةُ الْحَٰدِثِ

مكية وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ التسيبح أسند ههنا إلى غير العقلاء، وأريد به معنى عاماً، شاملاً لما نطق به لسانُ المقال، كتسيبح الملائكة، والمؤمنين، ولسانُ الحال كتسيبح غيرهم، فإن كل فرد من أفراد الموجودات، يدلُّ بحدوثه على الصانع القديم، الواجب الوجود، المتصف بالكمال، المنزه عن النقصان، وهو يسبِّح بطريقة لا نعلمها، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(١) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغلب الحكم في صنعه وتدبيره.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي التصرف الكلي فيهما من الموجودات

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿يُخْفِي وَيُبَيِّنُ﴾ أي القادر على الإحياء والإماتة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، أي مبالغ في القدرة، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ أي السابق على سائر الموجودات، لما أنه مبدئها ومبدعها ﴿وَالْآخِرُ﴾ أي الباقي بعد فنائها ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ وجوداً لكثرة دلائله الواضحة ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ حقيقة فلا تحوم حوله العقول، لكونه غير مدرك بالحواس ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عالم بكل ذرة في الكون، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي يعلم سبحانه كل صغيرة وكبيرة، ما يدخل في باطن الأرض من بذور وأمطار، وما يخرج منها من زروع وثمار، وما ينزل من السماء من أرزاق وأقوات، وما يصعد إليها من ملائكة وأعمال ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ بالعلم والقدرة^(١)، وبالفضل والرحمة، وهو تمثيل لإحاطة علمه تعالى بهم، أينما داروا، وحيثما ساروا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لإحاطة علمه تعالى بأعمالهم.

(١) المراد بالمعينة هنا معيئة العلم، لا معيئة الذات، كما نبّه عليه الحافظ ابن كثير ٣٤٥/٤ حيث حكى الإجماع على ذلك.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٦﴾.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تكرر للتمهيد لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي إليه وحده لا إلى غيره مرجع حساب الخلائق.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٧﴾.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي يدخل كلاً من الليل والنهار في الآخر، فيطول هذا مرة ويقصر مرة، وهو المدبر للأكوان ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بمكنوناتها، وبما يضمرونه، العالم بالسرائر والضمائر.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٨﴾.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطاب لكفار قريش، أي وخذوا الله وأطيعوه، وصدقوا بالله ورسوله ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ أي جعلكم خلفاء في التصرف فيه، عبّر عما في أيديهم بذلك، تحقيقاً للحق وترغيباً لهم في الإنفاق، فالمنفق في تصرفه في هذه الأموال بمنزلة الوكيل، يسهل عليه الإنفاق منه ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي ثواب عظيم هو الجنة.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي أي شيء حصل لكم، وأي عذر لكم في ترك الأمان؟ ﴿وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ حال من ضمير ﴿لا تؤمنون﴾ لتوبيخهم على الكفر، أي وأي عذر لكم في ترك الإيمان، والرسول يدعوكم إليه بالحجج والآيات ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم،

بالإيمان من قبل، وذلك بنصب الأدلة على وحدانيته ووجوده!! ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم حقاً مصدقين بربكم، فهذا أخرى الأوقات لإيمانكم!!

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَتَّبِعْ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٩﴾

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَتَّبِعْ﴾ حسبما يعرض لكم من المصالح، نزل عليه آيات واطحات ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليخرجكم الله من ظلمات الكفر، إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يهديكم إلى سعادة الدارين، بإرسال الرسل، وتنزيل الآيات.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٠﴾

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ توبيخ لهم على ترك الإنفاق المأمور به، بعد توبيخهم على ترك الإيمان، بإنكار أن يكون لهم في ذلك أيضاً عذر، أي وأي شيء لكم أن لا تنفقوا فيما هو قربة إلى الله تعالى؟ ما هو له في الحقيقة، وإنما أنتم خلفاؤه، في صرفه إلى مستحقه؟ ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تأكيد للتوبيخ، فإن ترك الإنفاق بغير سبب قبيح منكر، ومع تحقق ما يوجب الإنفاق، أشد في القبح، وأدخل في الإنكار، كأنه قيل: وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله، والحال أنه لا يبقى لكم منها شيء، بل تبقى كلها لله تعالى؟ وإظهار الاسم الجليل، لزيادة التقرير، وتربية المهابة ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾^(١) بيان لتفاوت

(١) في الآية حذف تقديره: لا يستوي من أنفق وقاتل قبل الفتح، ومن أنفق وقاتل بعد الفتح، وإنما حذفه للدلالة ما بعده عليه.

درجات المنفقين، حسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق، أي لا يتساوى عند الله من أنفق ماله في سبيل الله، وقاتل أعداء الله نصرته لدينه، قبل فتح مكة، ومن أنفق وقاتل بعد فتح مكة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى من أنفق قبل الفتح وقاتل ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ أي أرفع منزلة ﴿مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا﴾ لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا، قبل عزة الإسلام، وقوة أهله، عند تمام الحاجة إلى النصره بالنفس والمال، وهم السابقون الأولون، من المهاجرين والأنصار، الذين قال ﷺ فيهم: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدكم ولا نصيفه»^(١) ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أي وكل واحد من الفريقين، وعده الله المثوبة الحسنَى، وهي الجنة، لا الأولين فقط ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بظواهره، فيجازيكم بحسبه.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَكُمْ وَلَهُ أُجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيله تعالى، رجاء أن يعوّضه، فإنه كمن يقرضه؟ وحسنُ الإنفاق بالإخلاص فيه، وتحري أكرم المال، وأفضل الجهات والإعطاء بطيب نفسه ﴿فَيُضْعِفُهُ لَكُمْ﴾ أي فيعطيه أجره أضعافاً ﴿وَلَهُ أُجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وذلك الأجر كريم في نفسه، حقيقٌّ بأن يتنافس فيه المتنافسون، وإن لم يضاعف، فكيف وقد ضوعف أضعافاً كثيرة؟.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ بُحْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْآتَنُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري ٢٨/٧ ولفظه: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مدَّ أحدكم ولا نصيفه» أي نصف المد. وانظر جامع الأصول ٥٥٣/٨.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ ثَوْرُهُمْ﴾ أي تكون أنوارهم ساطعة، ووجوههم مضيئة كإضاءة القمر، حين يَمرون على الصراط، وأنوارهم تتلألأ ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم بأيمانهم ﴿بُشِّرْنَكُمْ الْيَوْمَ﴾ أي يقال لهم: بشراكم، أي ما تبشرون به اليوم ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ما ذكر من النور والبشرى بالجنات المخلدة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا غاية وراءه.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِ مِنْ ثَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا﴾ أي انتظرونا، يقولون ذلك، لما أن المؤمنين يُسرع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف على ركاب تُزف بهم، وهؤلاء مشاة ﴿نَقْتِسِ مِنْ ثَوْرِكُمْ﴾ أي نستضيء منه ﴿قِيلَ﴾ من جهة المؤمنين تهكمًا بهم وسخرية ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ أي إلى الدنيا ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فالتمسوا النور، بتحصيل مبادئه من الإيمان والعمل الصالح، وإنما قالوه تخبياً لهم، وتهكمًا بهم ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ أي بين الفريقين ﴿بِسُورٍ﴾ أي حائط ﴿لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ﴾ أي باطن السور، وهو الجانب الذي يلي الجنة ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ﴾ من جهته ﴿الْعَذَابُ﴾ أي النار.

﴿يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾﴾

﴿يُنَادُوهُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين من وراء هذا السور ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾؟ في الدنيا، يريدون موافقتهم لهم في العبادات والغزوات ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ كنتم معنا بحسب الظاهر ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ محتموها

بالنفاق وأهلكتموها ﴿وَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وَأَزْتَبْتُمْ﴾ في أمر الدين ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِيَّ﴾ الفارغة، من جملتها الطمع في انتكاس أمر الإسلام ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي الموت ﴿وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ﴾ الكريم ﴿الْفُرُورُ﴾ أي غركم الشيطان، بأن الله عفو كريم لا يعذبكم.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُوْخِذُ مِنْكُمْ قَدِيَّةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾ (١٥).

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُوْخِذُ مِنْكُمْ قَدِيَّةٌ﴾ أي فداء ما يفتدى به ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ولا من الكفار ﴿مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ﴾ لا تبرحونها أبداً ﴿هِيَ مَوْلَانَكُمْ﴾ أي أولى بكم، لما أسلفتم في الدنيا، وعن ابن عباس: هي مصيركم ﴿وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾ أي النار، قرناؤهم الشياطين، وجيرانهم الكفار، وطعامهم الزقوم، وشرابهم الحميم.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١٦).

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ روي أن المؤمنين كانوا مجذبيين بمكة، فلما هاجروا أصابوا الرزق وفتروا عما كانوا عليه فنزلت، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى إلا أربع سنين. والمعنى: ألم يَجِءْ وقت للمؤمنين، أن تخشع قلوبهم لذكره تعالى، وتطمئن به، ويسارعوا إلى طاعته بالامتثال لأوامره، والانتهاز عما نهوا عنه، من غير توان ولا فتور، من آنى الأمر إذا جاء وقته ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي القرآن، ومعنى الخشوع له: الانقياد التام لأوامره ونواهي، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ نهى عن مماثلة أهل الكتاب، في قسوة القلوب، فيما

حكى عنهم بقوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا التوراة والإنجيل، خشعوا لله، ورقّت قلوبهم، فطال عليهم الزمان، وزالت عنهم الرقة وقست قلوبهم باتباع الشهوات ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَيَسْقُوتُ﴾ أي خارجون عن حدود دينهم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٧).

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة، بإحياء الأرض الميتة بالغيث، للترغيب في الخشوع والتحذير من القساوة، والمعنى: اعلموا أن الله يحيي الأرض القاحلة المعجدة بالمطر، فكما يحيي الأرض بالمطر، كذلك يحيي القلوب القاسية بالحكمة ونور الإيمان ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي وضحنا وفصلنا هذه الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١٨).

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ أي المتصدقين والمتصدقات ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ﴾ أي تصدّقوا لوجه الله وابتغاء ثوابه، هم الذين يضاعف الله لهم الأجر والثواب، ولهم الجنة دار النعيم جزاء إحسانهم وإخلاصهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١٩).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ كافة ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول ﴿هُمْ﴾ الصَّادِقُونَ ﴿قال مجاهد: كلُّ من آمن فهو صديق، وقرأ هذه الآية، أي أولئك بمنزلة الصديقين﴾ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿أي والذين استشهدوا في سبيل الله﴾ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴿أي لهم مثل أجرهم ونورهم، وقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوة المماثلة﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿لا يفارقونها أبداً.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرِيهِ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعٌ الْفُورُ ﴿٢٠﴾﴾

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ بعدما بيّن حال الفريقين في الآخرة شرح حال الدنيا، التي اطمأن بها الكفار، من محقرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء، فضلاً عن الاطمئنان بها، وأنها مع ذلك سريعة الزوال ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾ أي الحُرَّاث، أو الكافرين بالله لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا ﴿نَبَأُهُ﴾ أي النبات الحاصل ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ﴾ أي يجفُّ بعد خضرته ونضوته ﴿فَتَرِيهِ مُصْفَرًّا﴾ بعد ما رأيته ناضراً مونقاً وإنما لم يقل فيصفو، إيذاناً بأن اصفراره مقارن لجفافه ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ هشيماً متكسراً.

وبعدما بيّن حقارة أمر الدنيا، تزهيداً فيها، وتنفيراً عن العكوف عليها، أشار إلى فخامة شأن الآخرة، وعظم ما فيها من اللذات والآلام، ترغيباً في تحصيل نعيمها، وتحذيراً من عذابها فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكفار، لأنه من نتائج الانهماك في شهوات الحياة الدنيا ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة للمؤمنين ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ

الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعَ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ أي لمن اطمأن بها، ولم يجعلها ذريعة إلى الآخرة. الحياة نعمة بل هي أصل لجميع النعم، وهي غير مذمومة، لأنه تعالى عَظَّمَ الْمُنَّةَ بَخْلَقِ الْحَيَاةِ فَقَالَ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾؟ فدل هذا أن الحياة الدنيا غير مذمومة، بل المراد أن من صرفها إلى طاعة الشيطان فذلك المذموم.

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

﴿سَابِقُوا﴾ أي سارعوا مسارعة المتسابقين في الميدان ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ عظمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي إلى موجباتها من الأعمال الصالحة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي كعرضهما، وإذا كان عرضها كذلك، فما ظنك بطولها؟ ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فيه دليل أن الجنة مخلوقة بالفعل، وأن الإيمان شرط لدخولها ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وُعد من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ من غير إيجاب ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا غاية وراءه.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كجذب، وزلزال، وعامة في الزروع والثمار ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ كمرض، وآفة ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ إلا مكتوبة، مثبتة في علم الله وفي اللوح المحفوظ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أي نخلق المصيبة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي إثباتها في كتاب ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العدة والمدة.

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾.

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي أخبرناكم بذلك، لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نعم الدنيا ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا ﴾ فرح المختال الفخور^(١) ﴿ بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أي أعطاكم الله منها، فإن من علم أن الكل مقدّر، يفوت ما قدّر فواته، ويأتي ما قدّر إتيانه لا محالة، لا يعظم جزعه على ما فات، ولا فرحه بما هو آت، والمراد به نفي الأسى المانع عن التسليم لأمر الله تعالى، والفرح الموجب للبطر والاختيال، ولذلك عقبه بقوله: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي لا يحب كل متكبر، يفخر على الناس بما أعطاه الله من مالٍ أو جاه.

﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ ﴾ بدل من كل مختال، فإن المختال بالمال يضنُّ به غالباً ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي يُعرض عن أوامر الله، ولم ينته عما نهى عنه، ويبخل عن الإنفاق في سبيل الله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي فإن الله غنيٌّ عنه، وعن إنفاقه، محمود في ذاته، لا يضره الإعراض عن شكره، بالتقرب إليه بشيء من نعمه، وفيه تهديد، وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق.

(١) ليس المراد بالنهي عن الحزن والفرح، اللذين لا ينفك عنهما الإنسان، فإنه ليس من أحدٍ إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبتَه صبراً، وغنيمته شكراً، وإنما المراد الحزن المخرج لصاحبه عن الصبر، والتسليم لقضاء الله، والفرح الملهي عن الشكر، فهذا هو الذي تَبَّ إليه القرآن.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي الأنبياء إلى الأمم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والمعجزات الساطعات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي جنس الكتاب الشامل لجميع الكتب السماوية ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ أي بالعدل، والمراد بإنزال الميزان: إنزال أسبابه، والأمر بإعداده، وكذا قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ أي خلقناه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وذلك أن أوامره تعالى وقضاياه، تنزل من السماء بوحيه وأمره، وبتعليمه وإرشاده، وبذلك تعلم الإنسان إخراج الحديد وصنعيته ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي قوة شديدة، لأن آلات الحروب تتخذ منه ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما من صنعة إلا والحديد أو ما يُعمل بالحديد آلاتها، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ علماً يتعلق به الجزاء ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ باستعمال السيوف والرماح والدبابات، والمدافع، في مجاهدة أعدائه، وقوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي غائباً عنهم وغائبين عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ جيء به تحقيقاً للحق وتنبهاً على أن تكليفهم بالجهاد ليس لحاجته في إعلاء كلمته، بل إنما هو لينتفعوا به، ويصلوا إلى الثواب، وإلا فهو غني بقدرته وعزته، في كل ما يريده.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ تكرار القسم للاعتناء بالأمر، أي وبالله لقد أرسلناهما، خُصّاً بالذكر، لأنهما أبوان للأنبيا عليهم السلام ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ بأن استنبأناهم، وأوحينا إليهم الكتاب

﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي من الذرية ﴿مُتَّبِعُونَ﴾ إلى الحق، ومؤمن بالكتاب والرسول
﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ أي خارجون عن الطريق المستقيم.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ
الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا
مَا كُنْتُمْ عَلَيْهَا إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا
الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٢٧).

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ
الْإِنْجِيلَ﴾ أي أرسلنا رسولا بعد رسول، حتى انتهى إلى عيسى بن مريم، وأنزلنا عليه
الإنجيل ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي جعلنا في قلوب
أتباعه الرقة والرحمة، للتراحم والتعاطف بينهم، يعني أنهم كانوا متوادين
متراحمين بعضهم مع بعض، كأصحاب رسول الله ﷺ ﴿وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾
أي ورهبانية مبتدعة من عندهم، وهي المبالغة في العبادة بالرياضة،
والانقطاع عن الناس، ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان، والراهب هو
الخائف، فعلان من رهب، كخشيان من خشي، وسبب ابتداعهم إياها، أن
الجبابة ظهوروا عليهم بعد رفع عيسى عليه السلام، فخافوا أن يفتنوا في
دينهم، فاختاروا الرهبانية في قلوب الجبال ﴿مَا كُنْتُمْ عَلَيْهَا إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ أي لم
نفرضها عليهم ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع، أي ولكنهم ابتدعوها
ابتغاء رضوان الله تعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ من حيث إن النذر عهد
مع الله لا يحل نكته، لا سيما إذا قصد به رضاء الله تعالى، وأنهم لم
يراعوها بل ضيعوها وضموا إليها التثليث والاتحاد ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا
مِنْهُمْ﴾ إيمانا صحيحا، وهو الإيمان برسول الله ﷺ، بعد رعاية رهبانيتهم
لا مجرد رعايتها، فإنها بعد البعثة لغو محض، وضلال بحث، وأنى لها
استباع الأمر؟ ﴿أَجْرَهُمْ﴾ أي ما يخص بهم من الأجر ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
فَسِقُونَ﴾ أي خارجون عن حد الاتباع والطاعة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بالرسول المتقدمة ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ أي بمحمد رسول الله ﷺ، وفي إطلاقه إيدان بأنه عَلمٌ فرد في الرسالة، لا يذهب الفهم إلى غيره ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي نصيبين ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ لإيمانكم بالرسول ﷺ، وبمن قبله من الرسل، لكن لا على معنى أن شريعتهم باقية بعد البعثة، بل على أنها كانت حقة قبل النسخ ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يوم القيامة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي مبالغ في الرحمة والمغفرة لكل من تاب وأناب.

﴿لَيْسَ يَعْلَمَ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿لَيْسَ يَعْلَمَ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ متعلق بمضمون الجملة الطلبية، التقدير: إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله، يؤتكم كذا، لئلا يعلم الذين لم يسلموا من أهل الكتاب أي ليعلموا، و «لا» مزيدة كما ينبيء عنه قراءة ليعلم ﴿إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي ليعلموا أنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضله، أن يتصرفوا في أعظمه وهو النبوة، فيخصونها بمن أرادوا، فالنبوة فضل من الله يعطيه من يشاء من خلقه ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ في ملكه وتصرفه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله، وقد جوز أن يكون الأمر بالتقوى والإيمان لغير أهل الكتاب، فالمعنى: اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم، برسول الله ﷺ، يؤتكم ما وعد، من آمن من أهل الكتاب من الكفلين، والله أعلم بأسرار

كتابه^(١)، وصلوات الله وسلامه على خير خلقه محمد، و على آله وصحبه
أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحديد»

* * *

(١) الآية ردُّ على اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يقولون: الرحي والرسالة في بني
إسرائيل، ولهذا لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ، فردَّ الله عليهم ذلك الافتراء الكاذب،
والزعم الباطل، وبَيَّن أن فضله ليس محصوراً في طائفة، وليس بيد أحد، حتى
يحجبه عن خلقه، وإنما أمر النبوة والرسالة بيد الرحمن وحده، يجعلها فيمن يشاء
من عباده ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ وكفى بهذا خزيّاً للمفترين من اليهود
والنصارى!!.

سُورَةُ الْمُحْجَاةِ

مدنية وآيها اثنتان وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ
تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١).

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي تراجعك يا محمد الكلام في شأنه، وفيما صدر عنه في حقها من الظهار ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي تتضرع إلى الله تعالى، وهي «خولة بنت ثعلبة» امرأة أوس بن الصامت؛ راودها فأبت، فغضب فظاهر منها، وكان به إلمام بالنساء وشدة الحرص والتوقان، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أوساً تزوجني وأنا شابة غنية، ذات أهل ومال، حتى إذا أكل مالي، وأفنى شبابي، وكبر سني، ونثرت بطني - أي كثر ولدي - وتفرق أهلي، ظاهر مني، ولنا أولاد صغار، إن ضممتهم إليّ جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا!! فقال لها ﷺ: «ما أراك إلا قد حرمت عليه؟» فقالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقاً وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إليّ، فاغتمت وشكت إلى الله تعالى، فنزلت هذه الآيات الأربع، وفي كلمة «قد» إشعار بأن الرسول ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن ينزل الله تعالى حكم الحادثة، ومعنى «سمع» إجابة دعائها، لا مجرد علمه تعالى به

﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي يعلم تراجعكما الكلام، والجملة جارية مجرى التعليل لما قبله، فإن إلحاحها في المسألة ومبالغتها في التضرع إلى الله تعالى، وعلمه تعالى بخالها من دواعي الإجابة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي مبالغ في العلم بالمسموعات والمبصرات، ومن قضيته أن يسمع تحاوركما، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة «خولة» إلى رسول الله ﷺ وكلمته في جانب البيت، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﴿قد سمع الله﴾ (١) الآية. وكان الظهار من طلاق أهل الجاهلية، وكان ذلك أول ظهار في الإسلام، وهذه الواقعة تدل على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق، ولم يبق له في مهمته أحد سوى الخالق، كفاه الله تعالى وفرّج كربته.

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ﴾

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ شروع في بيان شأن الظهار، وحكمه شرعاً، والظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، أي أنت حرام علي كما تحرم أمي، وألحق به الفقهاء تشبيهها بجزء محرم منه، وفي «منكم» مزيد توبيخ لعادة أهل الجاهلية، فقد اشتهر هذا عند العرب ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي ما نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة، فهو كذب بحت ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي ما هن ﴿إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ فلا تُشَبَّه بهن في الحرمة إلا من ألحقها الشرع بهن كالمرضعات، وأزواج النبي ﷺ، وأما الزوجات فأبعد شيء عن الأمومة ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ﴾ بقولهم ذلك ﴿مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً ٣٧٢/١٣ والنسائي ١٨٦/٦ وصححه الحاكم في المستدرک.

على أن مناط التأكيد، ليس صدور القول عنهم، فإنه أمر محقق، بل كونه منكراً، أي عند الشرع، والعقل، والطبع، كما يشعر به تنكيره ﴿وَزُورًا﴾ كذباً وباطلاً مجاناً للحق ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي مبالغ في العفو والمغفرة، فيغفر لماسلف بالمتاب عنه.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ نُوعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي والذين يقولون ذلك القول المنكر ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي إلى ما قالوا، بالتدارك والتلافي، لا بالتقرير والتكرار، فإن اللام و «إلى» تتعاقبان كقوله تعالى: ﴿بِأَن رَّبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فتداركه، أو فعلية إعناق رقبة، أي رقبة كانت، وعند الشافعي يشترط فيها الإيمان والفاء للسببية، ومن فوائدها الدلالة على تكرر وجوب التحرير، بتكرر الظهار ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ أي من قبل أن يستمتع كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر جماعاً، ولمساً، ونظراً إلى الفرج بشهوة، وإن وقع شيء من ذلك قبل التكفير، يجب عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفر، وفيه دليل على حرمة ذلك قبل التكفير ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الحكم المذكور ﴿تُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي تُزَجَرُونَ به عن ارتكاب المنكر المذكور، فإن الغرامات زواجر عن تعاطي الجنايات، والمراد بذكره ليس تعريضكم للثواب، بمباشرتكم لتحرير الرقبة، بل هو لزجركم عن مباشرة ما يوجب ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال التي من جملتها التكفير وما يوجب ﴿خَيْرٌ﴾ أي عالم بظواهرها وبواطنها.

﴿فَمَنْ لَمْ يَحْذَ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿فَمَنْ لَرَيْحَةٍ﴾ أي الرقة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ أي فعلية صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ ليلاً أو نهاراً، أي من قبل الوطء والاستمتاع بها ﴿فَمَنْ لَرَيْسَطَعٍ﴾ أي الصيام لسبب من الأسباب ﴿فَأُطْعِمَ سِتِينَ مَسْكِينًا﴾ لكل مسكين نصف صاع من بُرٍّ، أو صاع من شعير، ويجب تقديمه على الوطء، لكن لا يستأنف إن مس في خلال الإطعام ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرَّ من البيان والتعليم للأحكام، والتنبيه عليها، أي فعلنا ذلك ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وتعملوا بشرائعه، وترفضوا ما كنتم عليه في جاهليتكم ﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ لا يجوز تعديها ﴿وَاللَّكَفِيرِينَ﴾ أي الذين لا يعملون بها ﴿عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ عبر عنه بالكفر للتغليظ، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كِتُوتًا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يعادونهما ويشاقونهما بمخالفة أوامرهما، وورود المحادة في أثناء ذكر ﴿حُدُودِ اللَّهِ﴾ من حسن الموقع، ما لا غاية وراءه ﴿كِتُوتًا﴾ أي أخذوا وقهروا وخذلوا ﴿كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي كما خذل وأخزي من قبلهم، من كفار الأمم المعادين للرسول عليهم السلام ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي والحال قد أنزلنا آيات واضحة فيمن حادَّ الله ورسوله، دالة على صدق الرسل، وصحة ما جاؤوا به ﴿وَاللَّكَافِرِينَ﴾ أي بتلك الآيات أو بكل ما يجب الإيمان به ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يذهب بعزهم.

(١) سورة آل عمران، آية: ٩٧.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ٦ .

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي يحشرهم كلهم للحساب والجزاء
﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من القبائح على رؤوس الأشهاد، تخجيلاً لهم،
وتشديداً لعذابهم ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أي ضبطه الله عدداً لم يفته منه شيء
﴿وَنَسُوهُ﴾ أي وقد نسوه لكثرتهم وتهاونهم به، وإنما تحفظ معظمات الأمور
﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه أمر من الأمور قط .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى
ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا
هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٧ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أي ألم تعلم علماً يقيناً متاخماً للمشاهدة أنه تعالى
يعلم ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الموجودات ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى
ثَلَاثَةٍ﴾ أي ما يقع من نجوى ثلاثة، أي من مسارتهم ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ من
حيث إن الله سبحانه وتعالى مطلع على نجواهم ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ أي ولا
نجوى خمسة ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وتخصيص العدد بالذكر لبناء الكلام
على أغلب عادات المتناجين، وقد عمَّ الحكم بعد ذلك فقيلاً ﴿وَلَا آدَنَى مِنْ
ذَلِكَ﴾ أي مما ذكر كالاثنتين ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ كالسنة وما فوقها ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾
والمراد من كونه تعالى معهم، كونه تعالى عالماً بكلامهم، وضميرهم
وسرهم، يعلم ما جرى بينهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ من الأماكن، فإن علمه تعالى
بالأشياء، ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة، قريباً وبعداً
﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ تفضيحاً لهم، وإظهاراً لما يوجب عذابهم
﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن نسبة ذاته تعالى إلى الكل سواء، فأين المفرُّ إذا
كان الله مع كل إنسان بعلمه، في السرِّ والجهر؟ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْآثِمِ وَالْعَادُونَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيُتْسَ الْأَمِصِيرُ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ ﴾ نزلت في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون فيما بينهم، ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، فنهاهم رسول الله ﷺ، ثم عادوا لمثل فعلهم القبيح، والخطاب للرسول ﷺ، والهمزة للتعجب من حالهم، وصيغة المضارع ﴿يَعُودُونَ﴾ للدلالة على تكرار عودهم ﴿بِالْآثِمِ﴾ أي بما فيه إثم في نفسه ﴿وَالْعَادُونَ﴾ للمؤمنين ﴿وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ ﷺ وذكره بعنوان الرسالة لزيادة التشنيع عليهم، واستعظام معصيتهم له ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ فيقولون: السام عليك، وهو دعاء عليه بالموت ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي فيما بينهم ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي هلا يعذبنا الله بذلك، لو كان محمد نبياً؟ قال تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً ﴿يَصَلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿فَيُتْسَ الْأَمِصِيرُ﴾ أي بثست نار جهنم مسكناً وماوى لهؤلاء الفجار.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَجُوا بِالْآثِمِ وَالْعَادُونَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَلْتَجُوا بِالْإِثْمِ وَالنَّقْوَى وَأَنْفُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ ﴾ في أنديةكم وخلواتكم ﴿فَلَا تَلْتَجُوا بِالْآثِمِ﴾ كما يفعله المنافقون واليهود ﴿وَالْعَادُونَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَلْتَجُوا بِالْإِثْمِ وَالنَّقْوَى﴾ أي بما يتضمن خير المؤمنين، وبإداء الفرائض والطاعات ﴿وَأَنْفُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وحده لا إلى غيره، فيجازيكم على أعمالكم.

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّمَا النَّجْرَى مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ فإنه المزين لها، والحامل عليها ﴿ لِيُخْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي ليحزن المؤمنين، ويسوءهم، ويوهمهم أنها في نكبة أصابتهم ﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ ﴾ أي وليس التناجي بضار المؤمنين ﴿ شَيْئًا ﴾ أي أي شيء من الضرر ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي بمشيئته ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فلا يبالون بنجواهم، فإنه تعالى يعصمهم من شره وضرره.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١١).

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا ﴾ أي توسعوا في المجالس وليفسح بعضكم لبعض ﴿ فِي الْمَجَالِسِ ﴾ والمراد مجلس الرسول ﷺ، كانوا يتضامون تنافساً في القرب منه ﷺ، وحرصاً على استماع كلامه فأمروا بأن يوسعوا لإخوانهم، لأن الرجل الرفيع القدر قد يكون متأخراً عن الصف الأول، والحاجة داعية إلى تقدمه، ثم يُقاس على ذلك سائر المجالس ﴿ فَافْسَحُوا ﴾ أي توسعوا ولا تتضايقوا ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ في كل ما تريدون التفسح فيه، من المكان، والرزق، والصدر، والقبر ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا ﴾ أي انهضوا للتوسعة، أو ارفعوا عن المجلس ﴿ فَانْشُرُوا ﴾ أي فانهضوا أو لا تشبطوا ولا تفرطوا ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ ﴾ بالنصر، وحسن الذكر في الدنيا، والإبواء إلى غرف الجنان في الآخرة ﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ منهم خصوصاً درجات عالية، بما جمعوا بين فضيلتي العلم والعمل، وفي الحديث الشريف: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» (١) ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من الخير والشر، وفيه تهديد لمن خالف أمر الرسول.

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٦٨٢ باب فضل الفقه على العبادة، وهو حديث =

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَنِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ أي إذا أردتم مناجاته في بعض شؤونكم المهمة، ﴿فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَنِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ أي فتصدقوا قبلها، وفي هذا الأمر تعظيم لمقام الرسول ﷺ، ونفع الفقراء، والزجر عن الإفراط في السؤال، والتمييز بين المخلص والمنافق، واختلف في أنه للندب أو للوجوب، لكنه نسخ بقوله تعالى: ﴿أَشْفَقْتُمْ﴾ الآية، وهو وإن كان متصلاً به تلاوة، لكنه متراخ عنه نزولاً ﴿ذَلِكَ﴾ أي التصدق ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي لأنفسكم من الريبة، وحب المال، وهذا يشعر بالندب، لكن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ينبيء عن الوجوب، لأنه ترخيص لمن لم يجد، وقد كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ.

﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَنِكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذَا لَّمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿أَشْفَقْتُمْ﴾ أي أخفتم من تقديم الصدقات ﴿أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَنِكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ جمع الصدقات لجمع المخاطبين ﴿فَإِذَا لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتم به، وشق عليكم ذلك ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخص لكم أن لا تفعلوه، فإن قيل: ظاهر الآية يدل على تقصير المؤمنين في ذلك التكليف؟ قلنا: ليس الأمر كذلك، لأن القوم كلّفوا به، فمن ترك المناجاة لا يكون مقصراً، أما قوله تعالى: ﴿أَشْفَقْتُمْ﴾ فلا يمتنع أنه تعالى علم ضيق صدر كثير منهم لو دام الوجوب ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي فإذا فرطتم فيما أمرتم به من تقديم الصدقات، فتداركوه بالمثابرة على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة

= مشهور وطويل، أوّلُه «من سَلَكَ طريقاً يبتغي فيه علماً، سلك الله له طريقاً إلى الجنة». الحديث.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأوامر، فإن القيام بها، كالجابر لما وقع في ذلك من التفريط ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهراً وباطناً، وهذا وعد ووعيد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤).

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب من حال المنافقين، الذين يتخذون اليهود أولياء وينقلون إليهم أسرار المؤمنين، أي ألم تنظر ﴿إِلَى الَّذِينَ قَالُوا﴾ أي والوا ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود، كما أنبا عنه قوله تعالى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ أي يقولون: والله إنا لمسلمون، وقد كانوا يشتمون الرسول، ويكيدون للمسلمين، فإذا قيل لهم إنكم فعلتم ذلك، خافوا على أنفسهم، فيحلفون: والله إنا ما قلنا وما فعلنا ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من فاعل يحلفون، مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا، فإن الحلف على ما يعلم أنه كذب، في غاية القبح، كمن يحلف اليمين الغموس.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٥).

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيما مضى من الزمان، فتمرنوا على سوء العمل، وأصرُّوا عليه.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٦).

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الفاجرة التي يحلفون بها عند الحاجة ﴿جُنَّةً﴾ أي وقايةً وسترة، دون دمائهم وأموالهم ﴿فَصَدُّوا﴾ أي الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بالثبیط لمن لقوا لمنعهم من الدخول في الإسلام، وتضعيف أمر المسلمين عندهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم، وهو الإذلال

والإهانة، وقيل: الأول عذاب القبر، وهذا عذاب الآخرة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (١).

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧).

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من عذابه تعالى ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي ملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون لا يخرجون منها أبداً.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٨).

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ﴾ أي يحلفون لله تعالى يومئذ أنهم مسلمون ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ﴾ في الدنيا ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿أَنَّهُمْ﴾ بتلك الأيمان الفاجرة ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من جلب منفعة، أو دفع مضرة، كما كانوا عليه في الدنيا، حيث كانوا يدفعون بها عن أرواحهم وأموالهم، ويستجرون فوائد دنيوية ﴿أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ البالغون الغاية في الكذب.

﴿أَسْتَعِذَّ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٩).

﴿أَسْتَعِذَّ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي استولى عليهم ﴿فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ بحيث لم يذكروه بقلوبهم، ولا بالسننهم ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبايح ﴿حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ أي جنوده وأتباعه ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

(١) سورة النحل، آية: ٨٨.

حيث فَوَّتُوا على أنفسهم النعيم المقيم، وأخذوا العذاب الأليم، وعلامة استحواذ الشيطان على الإنسان أن يشغله بأشياء ظاهرة، من الملابس والمآكل، ويشغل قلبه عن ذكر الله، بتدبير الدنيا وجمعها، ولسانه عن الذكر والقراءة، بالكذب وقبيح الأقوال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يخالفون أمر الله وأمر رسوله، ويعادون دين الله بالإعراض عنه، والاستهزاء به وبأحكامه ﴿أُولَئِكَ﴾ بما فعلوا من التولي، والموادة لأعداء الله ﴿فِي الْأَذَلِّينَ﴾ أي في جملة من هو أذل خلق الله.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ أي قضى وحكم وأثبت في اللوح المحفوظ ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي بالحجة، أو بالسيف، وما يجري مجراه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قويٌّ على نصر أنبيائه وأوليائه، عزيز: أي قاهر لا يُغلب في مراده.

﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(١) سورة الصافات، آية: ١٧١.

﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾
الخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد، أي لا تصادف قوماً جامعين بين
الإيمان بالله، واليوم الآخر، وبين مادة أعداء الله ورسوله، على معنى أنه
لا ينبغي أن يتحقق ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾
أي من حادَّ الله ورسوله ﴿ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي
آباء المومنين، فإن قضية الإيمان أن يهجر الجميع بالمرة ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة
إلى الذين لا يوادونهم وإن كانوا أقرب الناس إليهم ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾
﴿الْإِيمَانَ﴾ أي أثبت، ورسَّخ فيها، فهم المؤمنون الصادقون في إيمانهم
﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي من عند الله وهو نور القلب، وتأيد الرحمن.
﴿وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّتُ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ رضي الله
عنهم جارٍ مجرى التعليل، لما أفاض عليهم من آثار رحمته ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾
بما أوتوه عاجلاً وآجلاً ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ تشریف لهم ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾
﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة الدارين، عن ابن عباس قال:
نزلت هذه الآية في «أبي عبيدة بن الجراح» قتل أباه يوم أحد و «عمر بن
الخطاب» قتل خاله يوم بدر، و «مصعب بن عمير» قتل أخاه يوم بدر»^(١)
قال سهل: من صحَّح إيمانه، وأخلص توحيده، لا يأنس بمبتدع ولا
يجالسه، ويظهر من نفسه العداوة، ومن داهن مبتدعاً لطلب عزِّ الدنيا،
أذله الله، والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى
آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المجادلة»

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣٥٢/٤.

سُورَةُ الْحَشْرِ

مدنية آيها أربع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي نزه الله كل ما في الكون من بشر، ونبات، وجماد، وهو الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ ﴿٢﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ بيان لبعض آثار عزته تعالى، والضمير راجع إليه تعالى، وفيه إشعار بأن في الإخراج حكمة باهرة، روي أنه ﷺ لما قدم المدينة صالح بني النضير، وهم رهط من اليهود، وعاهدهم أن لا يكونوا له ولا عليه، فلما كان يوم أحد نكثوا فخرج «كعب بن الأشرف» في أربعين راكباً إلى مكة، فحالفوا قريشاً عند

الكعبة، على قتاله ﷺ، فأمر ﷺ «محمد بن مسلمة» الأنصاري فقتل كعباً غيلة، ثم صَبَّحَهُم بِالْكَتَائِبِ فَقَالَ لَهُمْ اخْرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَمَهَلُوهُ عَشْرَةَ أَيَّامٍ لِيَتَجَهَّزُوا لِلْخُرُوجِ، فَدَسَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَأَصْحَابُهُ إِلَيْهِمْ: الْأَخْرَجُوا مِنَ الْحَصُونِ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَنَحْنُ مَعَكُمْ، فَحَاصَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِحْدَى وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَأَيَسُوا مِنْ نَصْرِ الْمُنَافِقِينَ، طَلَبُوا الصَّلْحَ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ إِلَّا الْجَلَاءَ عَلَى أَنْ يَحْمِلَ كُلُّ ثَلَاثَةِ آيَاتٍ عَلَى بَعِيرٍ مَا شَاءُوا مِنْ مَتَاعِهِمْ، فَجَلُّوا إِلَى الشَّامِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ﴿لَا أَوَّلَ لِلْخَشْرِ﴾ الخشر هو إخراج الجمع من مكان إلى مكان، وهم أول من أخرج من جزيرة العرب إلى الشام، وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله عنه إياهم من خيبر ﴿مَا ظَنَنْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَنْ يَخْرُجُوا﴾ من ديارهم بهذه الذلة، لشدة بأسهم، وقوة منعهم ﴿وَوَظَّنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي ظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، لاعتقادهم أنهم في مَنعة، لا يُبَالِي معها بأحد ﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ﴾ أي أمر الله وقدره المقدور لهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ ولم يخطر ببالهم، وهو قتل رئيسهم، فإنه مما أضعف قوتهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي أثبت فيها الخوف الذي يرعبها أي يملؤها فزعاً ﴿يُخْرِجُونَ يَوْمَهُم بِآيَاتِهِمْ﴾ ليسدوا بها أفواه الأزقة، ولئلا يبقى بعد جلائهم مساكن للمسلمين ﴿وَأَيَّدَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث كانوا يخربونها إزالة لمتحصنهم، وتوسيعاً لمجال القتال ﴿فَأَعْتَبُوهَا﴾ يَتَأَوَّلُوا الْأَبْصَرَ فاتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة، واتقوا مباشرة ما أداهم إليه من الكفر والطغيان، وفي الآية دليل على جواز القياس.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُوهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ أي الخروج عن أوطانهم مع الأهل ﴿لَعَذَّبُوهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي، كما فعل بنو قريظة ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾

عَذَابُ النَّارِ ﴿ وهو لبيان أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا بالجلاء، لا نجاة لهم من عذاب الآخرة بنار الجحيم.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٤١﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما حاق بهم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ ﴾ وَمَن يُشَاقِ اللَّهَ ﴿ أي خالفوه وفعلوا ما فعلوا مما حكى عنهم والاقتصار على ذكر مشاقته تعالى لتضمنها مشاقته ﷺ وليوافق قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ۝٤٢﴾ .

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾ اللينة: النخلة الكريمة، أي أي شيء قطعتم من نخلة كريمة ﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا ﴾ كما كانت من غير أن تتعرضوا لها بشيء ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي بأمر الله تعالى وإرادته ﴿ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي وليذل اليهود ويغيظهم، واستدل به على جواز هدم ديار الكفرة، وقطع أشجارهم، روي أن اليهود قالوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد، فما بال قطع النخل، وكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء، فنزلت هذه الآية.

﴿ وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِثْلُ مَا أَوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِن خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٣﴾ .

﴿ وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ أي ما أعاده إليه من مالهم، وفيه إشعار بأنه كان حقيقاً بأن يكون له ﷺ، وإنما وقع في أيديهم بغير حق، فأعاده الله تعالى إلى مستحقه، لأنه تعالى خلق الناس، وخلق ما خلق ليتوسلوا به

إلى طاعته، فهو جدير بأن يكون للمطيعين ﴿وَمَتَّعَهُمْ﴾ من أهل النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي لم تسرعوا الخيل ولم تتعبوا في تحصيله، من الوجيف وهو سرعة السير ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ هي ما يركب من الإبل خاصة، كما أن الراكب عندهم راكبها لا غير، وأما راكب الفرس فإنما يسمونه فارساً، ولا واحد لها من لفظها، وإنما الواحدة منها راحلة، والمعنى: ما قطعتم لها شقة بعيدة، ولا لقيتم مشقة شديدة، ولا قتالاً شديداً، وذلك لأنه كانت قراهم على ميلين من المدينة، فمشوا إليها وما كان فيهم راكب إلا النبي ﷺ، فافتتحها صلحاً، من غير أن يجري بينهم مسابقة، كأنه يقول: وما أفاء الله على رسوله منهم، فما حصلتموه بكّد اليمين، وعرق الجبين ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي سننه تعالى جارية على أن يسלט رسله على من يشاء من أعدائهم، تسليطاً خاصاً، وقد سلت النبي ﷺ على هؤلاء تسليطاً غير معتاد، من غير أن تقتحموا مضايق الخطوب، فلا حق لكم في أموالهم، فالأمر فيه مفوض إليه ﷺ يضعه حيث يشاء، قيل: إن الصحابة طلبوا من الرسول ﷺ أن يقسم الفيء كما قسم الغنيمة، فذكر الله تعالى الفرق بين الأمرين، فقسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة منهم لفقرهم، وعن بعض المفسرين أن هذه الآية ما نزلت في فيء بني النضير، لأنهم أوجفوا عليهم وحاصروهم، بل هو في «فدك» لأن أهل فدك انجلوا عنها، فصارت تلك القرى والأموال في يد رسول الله ﷺ من غير حرب، فكان ﷺ يأخذ من غلة فدك نفقته، ونفقة من يعوله، ويجعل الباقي في السلاح والخيل ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء.

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أعاد عين العبارة الأولى، لزيادة

التقرير والبيان، أي ما جعله الله غنيمة للمسلمين بغير قتال، وهو ما يسمى بالفِيء ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِنِ السَّبِيلِ﴾ ﴿٨﴾ اختلف في قسمة الفيء، فقليل يصرف حق الله إلى عمارة الكعبة المشرفة، وسائر المساجد، وقيل: يُخَمَّس لأن ذكر الله للتعظيم، ويصرف سهم الرسول إلى العساكر والثغور وإلى مصالح المسلمين ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ ﴿٩﴾ بضم الدال، وهي ما يدول للإنسان أي يدور من المال والغنى والغلبة، أي كيلا يكون محبوساً ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أي كيلا يكون الفيء شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم، فلا يصيب الفقراء منه شيء، كما كان الأمر في الجاهلية، حيث كانوا يقولون: من عَزَّ بَزَّ، أي من غلب سلب المال والدولة: اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم ﴿وَمَا أَتَيْنَكُمُ الرَّسُولُ﴾ أي وما أعطاكم الرسول من الأمر ﴿فَخُذُوهُ﴾ أي فتمسكوا به فإنه واجب عليكم ﴿وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ﴾ أي نهاكم عن فعله ﴿فَأَنْتَهُوا﴾ أي فكفوا عنه، وعن تعاطيه واجتنبوه ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فيعاقب من يخالف أمره أو نهيه، والآية عامة في كل ما أمر رسول الله ﷺ ونهى عنه، والفيء داخل فيها.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ﴿٩﴾

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ أي إنما كان الفيء خاصاً بهؤلاء الفقراء المهاجرين لحاجتهم واضطرارهم ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ حيث اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من الوطن، فخرجوا منه ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي طالبين منه تعالى رزقاً في الدنيا، ومرضأة في الآخرة، وصفوا أولاً بما يدل على استحقاقهم للفيء، من الإخراج من الديار والأموال، وثانياً بما يوجب تفخيم شأنهم ويؤكدده، وهو أن خروجهم لم يكن للدنيا، وإنما كان نصرة للدين وطلباً لمرضاة الله ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما فُضِّل من الصفات الحميدة ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي الراسخون في الصدق حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهوراً بيناً.

إنه تعالى وصفهم بأمور: ١ - أنهم فقراء ٢ - مهاجرون ٣ - أخرجو من ديارهم ٤ - يبتغون من فضله تعالى ٥ - ينصرون الله ٦ - أولئك هم الصادقون.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْجَوْنَ مِنْ هَاجَرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ كلام مسوق لمدح الأنصار بخصال حميدة، من جملتها محبتهم للمهاجرين، ورضاهم باختصاص النبي بهم أحسن رضا، ومعنى تبوئهم الدار أنهم اتخذوا المدينة ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ مباءة، وتمكنوا فيها أشد تمكن، على تنزيل الحال منزلة المكان، وقيل المعنى: تبوؤوا دار الهجرة، ودار الإيمان، سمي المدينة بالإيمان لكونها منشأ ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل هجرة المهاجرين، فإنهم أسلموا في ديارهم، وآثروا الإيمان، وابتنوا المساجد، قبل قداوم النبي ﷺ بسنتين ﴿يُخْجَوْنَ مِنْ هَاجَرٍ إِلَيْهِمْ﴾ حتى شاركوهم أموالهم، وأنزلوهم منازلهم، ونزل من كانت له امرأتان عن إحداهما، حتى يتزوج بها رجل من المهاجرين ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾ أي في نفوسهم ﴿حَاجَةً﴾ أي شيئاً محتاجاً إليه، بمعنى الضيق والنقمة على إخوانهم المهاجرين ﴿مِمَّا أُوتُوا﴾ أي مما أولي المهاجرون من الفيء وغيره ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي يقدمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من أسباب المعاش ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي ولو كان بهم فقر وحاجة، وكان النبي ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين، ولم يعط الأنصار شيئاً إلا ثلاثة نفر لفقرهم، قال لهم رسول الله ﷺ: إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة، فقالت الأنصار: بل نقسم من أموالنا وديارنا، ونؤثرهم بالغنيمة، ولا

نشارككم فيها، فترلت الآية تثني عليهم ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ ومن يوق بتوفيق الله تعالى بخل نفسه حتى يخالفها ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى «مَنْ» باعتبار معناها العام ﴿هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفاتزون بكل مطلوب والناجون عن كل مكروه، عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»^(١).

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم التابعون بإحسان، وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة، ولذلك قيل إن الآية قد استوعبت جميع المؤمنين ﴿يَقُولُونَ﴾ إلخ مسوق لمدحهم لمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين، ومراعاتهم لحقوق الأخوة في الدين؛ أي يدعون لهم ويقولون ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ أي لإخواننا في الدين، الذي هو أعز وأشرف عندهم من النسب، وصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا﴾ أي حقداً وحسداً ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الإطلاق ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي مبالغ في الرأفة والرحمة، فحقيق بأن تجيب دعاءنا، بين الله تعالى أن من جاء بعد المهاجرين والأنصار، يذكرون السابقين بالدعاء والرحمة، فمن لم يكن كذلك، بل ذكرهم بسوء كان خارجاً من جملة أقسام المؤمنين، بحسب نص هذه الآية، عن عروة بن الزبير قال: قالت عائشة رضي الله عنها: «يا ابن أخي!! أمروا أن يستغفروا لأصحاب رسول

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٥٧٨ باب تحريم الظلم.

الله ﷻ، فسبُّوهم، فأولئك شرار الخلق عند الله»^(١) وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مدَّ أحدكم ولا نصيفه»^(٢).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة، وتعجيب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين وأقوالهم، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد ﴿ يَقُولُونَ ﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ﴿ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ والمراد بإخوتهم توافقهم في الكفر، وموالاتهم لهم في الضلال ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ من دياركم قسراً ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ جواب القسم، أي والله لئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم أينما ذهبتم ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ أي في شأنكم ﴿ أَحَدًا ﴾ يمنعنا من الخروج معكم ﴿ أَبَدًا ﴾ وإن طال الزمان ﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ أي لنعاوننكم على عدوكم ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في مواعيدهم المؤكدة بالآيمان الفاجرة، وفيه إخبار بالغيب.

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَارُ لَهُمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴾

(١) الحديث أخرجه مسلم في التفسير رقم ٣٠٢٢ وفي رواية للترمذي «إذا رأيتم الذين يسبُّون أصحابي، فقولوا: لعنة الله على شرکم».

(٢) الحديث أخرجه البخاري ٢٨/٧ ومسلم رقم ٢٥٤١ في فضائل الصحابة.

﴿لَئِنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ تكذيب لهم في كل واحد من أقوالهم على التفصيل، بعد تكذيبهم على الإجمال ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ﴾ وكان الأمر كذلك فإن ابن سلول وأصحابه أرسلوا إلى «بني النضير» ذلك سرًا، ثم أخلفوهم، وفيه حجة بينة لصحة النبوة، وإعجاز القرآن ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَيُؤْلَفَنَّ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ أي المنافقون بعد ذلك، أي يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم، ثم قال تعالى للمؤمنين:

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٣)

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً﴾ أي أشد خشية وخوفًا ﴿فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي رهبتهم في السر أشد مما يظهرونه لكم من رهبة الله، فإنهم كانوا يدعون عندكم رهبة عظيمة من الله تعالى ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من كون رهبتهم منكم أشد من رهبة الله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي شيئاً حتى يعلموا عظمة الله تعالى وجلاله، فيخشوه حق خشيته.

﴿لَا يُقْلِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بِأَسْهُمٍ يَبْتَنُّهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٤)

﴿لَا يُقْلِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي اليهود والمنافقون، لا يقدرّون على قتالكم مجتمعين، في موطن من المواطن ﴿إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق لفرط جنهم واهلهم ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي من وراء الأسوار والحيطان، دون أن يظهروا أمامكم ويبارزوكم، لفرط رهبتهم ﴿بِأَسْهُمٍ يَبْتَنُّهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي ما ذكر من رهبتهم منكم، ليس لضعفهم وجنهم في

أنفسهم، فإن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد، وإنما جنبهم بالنسبة إليكم بما قذف الله تعالى في قلوبهم من الرعب ﴿تَحَسَّبْتَهُمْ جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين ومتفقين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَقِيَّةٌ﴾ متفرقة، لا ألفة بينهم، لافتراق عقائدهم، واختلاف مقاصدهم ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من تشتت قلوبهم ﴿يَأْتُهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً حتى يعرفوا الحق، ويتبعوه، وتطمئن به قلوبهم، وتتحد كلمتهم، وهذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل اليهود كفار مكة الذين خرجوا لقتال رسول الله ﷺ في بدر ﴿قَرِيبًا﴾ أي في زمان قريب ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾ أي سوء عاقبة كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فحال اليهود هكذا، وأما حال المنافقين، فهو ما نطق به قوله تعالى.

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي مثل المنافقين الذين غرّوا الكفار كمثل الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ إغراء على الكفر ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ فهذا التبري يكون يوم القيامة، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أخاف عذاب الله وانتقامه، إن كفرت به، وهو كاذب في هذا القول، لأنه لو خاف الله لما عصاه.

﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٧﴾

﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ أي عاقبة الكافر والشيطان ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ﴾

فِيهَا ﴿ أَي دَائِمِينَ فِي النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ ﴾ وَذَلِكَ ﴿ أَي الْخُلُودِ فِي النَّارِ ﴾ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿ أَي عِقَابُهُ كُلِّ ظَالِمٍ فَاجِرٍ، مُنْتَهَكٍ لِمَحَارِمِ اللَّهِ .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٨) .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فِي كُلِّ مَا تَأْتُونَ وَمَا تَذَرُونَ ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أَيِ أَيِّ شَيْءٍ قَدَّمَتْ مِنَ الْأَعْمَالِ، لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، عِبْرَةً عَنْهُ بِالْغَدِ لِدُنُوهِ وَقَرَبِ مَجِيئِهِ، أَوْ لِأَنَّ الدُّنْيَا كَيَوْمٍ، وَالْآخِرَةُ غَدُهُ، وَتَنْكِيرُهُ لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّهْوِيلِ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ تَكَرُّارٌ لِلتَّأْكِيدِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ مِنَ الْمَعَاصِي، وَفِيهِ تَحْرِيزٌ عَلَى الْمُرَاقَبَةِ .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١٩) .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أَي نَسُوا حَقُّهُ وَمَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَمْ يَرَاعُوا أَمْرَهُ وَنَوَاهِيَهُ ﴿ فَأَنْسَاهُمْ ﴾ بِسَبَبِ ذَلِكَ ﴿ أَنْفُسُهُمْ ﴾ أَي جَعَلَهُمْ نَاسِينَ لَهَا، فَعَاشُوا كَالْبَهَائِمِ وَالْأَنْعَامِ، حَتَّى لَمْ يَسْمَعُوا مَا يَنْفَعُهَا، وَلَمْ يَفْعَلُوا مَا يَخْلُصُهَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أَي الْكَامِلُونَ فِي الْفُسُوقِ وَالْعَصْيَانِ .

﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٢٠) .

﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ الَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَاسْتَحَقُّوا الْخُلُودَ فِي نَارِ السَّعِيرِ ﴿ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ أَي لَا يَتَسَاوَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ

الْفَائِزُونَ ﴿ أَيُّ هُمُ السَّعْدَاءُ ، الْفَائِزُونَ بِكُلِّ مَطْلُوبٍ ، فَالْجَمْلَةُ مَبْنِيَّةٌ لِكَيْفِيَّةِ
عَدَمِ الْاِسْتِوَاءِ .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ
اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ۞ .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ
جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ ، مَعَ كَوْنِهِ عِلْمًا فِي الْقِسْوَةِ ، وَعَدَمِ التَّأَثُّرِ مِمَّا يَصَادِمُهُ ، أَيُّ
لِرَأْيَتِهِ مُتَشَفِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ وَتَخْيِيلٌ ، لَعَلُّو شَأْنَ الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ ، وَقُوَّةُ تَأْثِيرِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أُرِيدَ بِهِ تَوْبِيخُ الْإِنْسَانِ عَلَى قِسْوَةِ قَلْبِهِ ، وَعَدَمِ تَخَشُّعِهِ عِنْدَ
تِلَاوَتِهِ ، وَقِلَّةِ تَدَبُّرِهِ فِيهِ .

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ۞ .

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ ﴾ أَيُّ مَا غَابَ عَنِ
الْحَسَنِ وَمَا حَضَرَ لَهُ ، وَتَقْدِيمُ الْغَيْبِ لَتَقْدِمِهِ فِي الْوُجُودِ ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ
الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ .

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيُّ لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ سِوَاهُ ، كَرَرَهُ لِإِبْرَازِ
الْإِعْتِنَاءِ بِأَمْرِ التَّوْحِيدِ ﴿ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ﴾ الْبَلِغُ فِي التَّزَاهَةِ ، النَّزَاهَةُ فِي
الذَّاتِ ، وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ ، وَالْأَحْكَامِ ، وَالْأَسْمَاءِ ﴿ السَّلَامُ ﴾ ذُو السَّلَامَةِ

من كل نقص ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي واهب الأمن ﴿الْمُهَيِّمُ﴾ أي الرقيب الحافظ ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب ﴿الْجَبَّارُ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراد ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الزوجة والولد، والشريك والنظير.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ﴾ المقدر للأشياء على مقتضى حكمته ﴿الْبَارِئُ﴾ الموجد لها بريئاً من التفاوت ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفيتها كما أراد ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ لدلالاتها على المعاني الحسنة ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي ينزهه تبارك وتعالى جميع ما في الكون، ناطقه وجامده، بلسان الحال أو المقال، وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه. عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وَكَلَّ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ، يَصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يَمْسِيَ، فَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيداً، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يَمْسِي كَانَ كَذَلِكَ»^(١) والله أعلم بالصواب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحشر»

* * *

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن رقم ٢٩٢٣ وقال: هذا حديث غريب، ورواه الدارمي ٤٥٨/٢ وانظر جامع الأصول ٨/٤٨٢.

سُورَةُ الْمُتَحَنِّنِ

مدنية وآيها ثلاث عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآبِئْتُمْ مَرْضَاتِي لَنُيَسِّرَنَّ لِلْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه دليل على أن الكبيرة لا تسلب اسم الإيمان عن صاحبها ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ نزلت في «حاطب بن أبي بلتعة» وذلك أنه لما جهز رسول الله ﷺ لغزوة الفتح، كتب حاطب إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذركم، وأرسله مع سارة مولاة بني المطلب، فنزل جبريل عليه السلام بالخبر على رسول الله ﷺ، روى البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب قال: بعثني ﷺ أنا والزيبر، والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة^(١) معها كتاب فخذوه منها، قال: فانطلقنا تتعادي بنا خيلنا، حتى أتينا الروضة فإذا نحن

(١) طعينة أي امرأة مسافرة.

بالظعينة، فقلنا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب!! فقلنا: لتُخرجي الكتاب أو لتلقيني الثياب، فأخرجته من عقاصها - ضفائر شعرها - فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه «من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ فقال: يا رسول الله لا تعجل عليّ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين، لهم قرابات، يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلته كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا أرضى بالكفر بعد الإسلام!! فقال ﷺ: إنه قد صدقكم، فقال عمر: دغني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعلّ الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم! ففاضت عينُ عمر رضي الله عنه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾^(١) الآية ﴿تَلْقَوْنَ﴾ حال من الضمير في ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ والتقدير: لا تتخذوهم أولياء ملقين ﴿إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ أي تطلعونهم وتلقون إليهم أخبار النبي ﷺ، بسبب المودة التي بينكم وبينهم ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي وقد كفروا بدينكم وقرآنكم ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليل للنهي عن الموالاة، أي يخرجون رسول الله من وطنه، ويخرجونكم من مكة لإيمانكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَآيَةً مَرْضَاتِي﴾ أي لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي ﴿فُسِّرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ كلام وارد على نهج العتاب والتوبيخ، أي تفشون إليهم الأخبار بسبب المودة ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي والحال أنني أعلم منكم بما أخفيتم، ولم يقل «بما أسررتم» لأن الإخفاء أبلغ من الإسرار، دل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي أخفى من السرّ ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي وما أظهرتموه، فأنا عالم بسريرتكم

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣/ ٢٠٠، والترمذي رقم ٣٣٠٥.

وعلا نيتكم، ومطلع رسولى على ما تسرون، فأئى طائل لكم فى الإسرار؟! ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى إلقاء المودة إليهم، فقد أخطأ طريق الصواب.

﴿إِنْ يَنْفَقُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿إِنْ يَنْفَقُوكُمْ﴾ أى يظفروا بكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ﴾ أى يظهرن لكم ما فى نفوسهم من خالص العداوة، ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ بالقتل، والشتن، والأسر ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أى تمنوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم، فإن موادة أمثالهم خطأ عظيم منكم، وصيغة الماضي لتحقق ودادتهم الكفر قبل ذلك.

﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قرابانكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين تولون الكفار من أجلهم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بجلب نفع، أو دفع ضرر ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم، كما فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الآية، فما لكم ترفضون حق الله، مراعاة لحق من يفر منكم غداً ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

﴿فَذَ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة في التبرؤ من الأهل أي خصلة حميدة، حقيقة بأن يُؤتسى ويُقتدى بها ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي من أصحابه المؤمنين به ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمُ﴾ المشركين ﴿إِنَّا بُرَاءُ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي من الأصنام ﴿كُفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي بدينكم وبمعبودكم ﴿وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ﴾ بالأفعال ﴿وَالْبَغْضَاءَ﴾ بالقلوب ﴿أَبَدًا﴾ هذا دأبنا لا نتركه ما دمت على الكفر ﴿حَتَّى تَوَمَّنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ وتركوا ما أنتم عليه من الشرك، فتنقلب العداوة حينئذ ولاية، والبغضاء محبة ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَفْقِرَنَّ لَكَ﴾ استثناء من قوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فإن استغفاره لأبيه الكافر، وإن كان جائزاً عقلاً وشرعاً، لوقوعه قبل أن يتبين له أنه من أصحاب الجحيم، كما نطق به النص: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فهذا ممَّا لا ينبغي أن يُؤتى به أصلاً ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ من تمام المستثنى أي أستغفر لك، وليس في طاقتي إلا الاستغفار ﴿رَبَّنَا عَلَيْنَا نُوَلِّئُكَ﴾ من تمام ما نقل عن إبراهيم عليه السلام، أي وقولوا في دعائكم كما قال إبراهيم: ربنا عليك اعتمادنا في جميع أمورنا ﴿وَلِإِنَّكَ لَأَنْتَ﴾ أي أقبلنا ورجعنا ﴿وَلِإِنَّكَ لَلْصَبِيرُ﴾ أي المرجع في جميع أمورنا.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنوننا بعذاب لا نحتمله ﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منا ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يذل من التجأ إليه، ولا يخيب رجاء من توكل عليه، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي قدوة حسنة في معاداة الكفار، في إبراهيم ومن معه من المؤمنين، كرهه للمبالغة في الحث على التآسي به عليه السلام، ولذلك صدر بالقسم ﴿لَئِنْ كَانَ بَرُّكُمْ إِلَّا عَنِ الْآخِرِ﴾ أي لمن كان صادق الإيمان، يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه، وفائدته الإيذان بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر، لا يترك الاقتداء بهم، وأن تركه من مخايل عدم الإيمان بهما، كما ينبيء قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتُولا فَاِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فإنه مما يوعد بأمثاله الكفرة، ولما نزلت هذه الآية، وتشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين، أطمعهم تعالى في تحول الحال إلى خلافه، فقال سبحانه:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَادْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَادْتُمْ مِنْهُمْ﴾ أي من أهل مكة من أقربائكم ﴿مَوْدَّةً﴾ بأن يوفقهم الله للإيمان، فلما يسر الله فتح مكة، أسلم قومهم، وتم بينهم التحاب، تحقيقاً لوعده الله الكريم، و «عسى» وعد من الله تعالى على عادات الملوك ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على تحويل الحال، وتقليب القلوب، وتسهيل أسباب المودة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي يغفر لكم ما فرط منكم، في موالاتهم من قبل.

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ أي

تكرمهم، وتحسنوا إليهم، قولاً وفعلاً ﴿وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ ولا تظلموهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي العادلين، وإذا نهى الله تعالى عن الظلم في المشرك، فكيف في المسلم؟.

﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي إنما يحذركم الله من موالاة من حاربكم، وقتلكم، وأذاكم بسبب الدين، وأخرجكم من وطنكم ﴿وَلَا تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي وأعانوا أعداءكم الكفار عليكم أن تتخذوهم أولياء وأنصاراً وأحباباً ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية في غير موضعها.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَايَتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَاسْتَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ أَتَفْقَهُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ من بين أظهر الكفار ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختبروهن، بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهن للسانهن في الإيمان، سمّاهن مؤمنات لطقهن بكلمة الشهادة، يروى أن رسول الله ﷺ كان يقول للتي يمتحنها: «قولي بالله الذي لا إله إلا هو، ما خرجت من بغض زوج، وما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله» نزلت الآية بعد صلح الحديبية، وكان الصلح قد وقع على أن يردّ على أهل مكة من جاء مؤمناً منهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، بياناً أن

ذلك في الرجال لا في النساء، لأن المسلمة لا تحل للكافر ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ منكم لأنه المطلع على ما في قلوبهن ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ بعد الامتحان ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ علماً يمكنكم تحصيله، وتبلغه طاقتكم، بعد الاستدلال بالعلام والدلائل، وهو الظن الغالب، وتسميته علماً للإيدان بأنه جار مجرى العلم، في وجوب العمل به، وما يفضي إليه الاجتهاد كذلك جار مجرى العلم ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ إلى أزواجهن الكفرة، لقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي لا حلّ بين المؤمنة والمشرک، لوقوع للفرقة بينهما، بخروجها مسلمة ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ التكرير لتأكيد الحرمة، أو لأن الأول لبيان زوال النكاح، والثاني لبيان امتناع النكاح الجديد ﴿وَمَا أَنفَقُوا﴾ أي وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور، وذلك لأن الصلح جرى على أن من جاءنا منكم رددناه، فلما تعذر ردّهن عليهم لورود النهي عنه، لزم ردّ مهورهن، روي أنه ﷺ بعد صلح الحديبية جاءته «سُبَيْعة بنت الحارث» مسلمة، فأقبل زوجها المخزومي طالباً لها، فنزلت الآية، فاستحلفها رسول الله ﷺ فحلفت، فأعطى زوجها ما أنفق، وتزوجها عمر رضي الله عنه ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ فإن إسلامهن حال بينهن وبين أزواجهن الكفرة ﴿إِذَا مَا يَأْتِيَنَّوهُنَّ أَجْرُهُنَّ﴾ أي مهورهن، لأن المهر أجر البضع، وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله على أن لا عدة على المهاجرة ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ﴾ جمع عصمة، أي لا يكن بينكم وبين المشركات عصمة، ولا علاقة زوجية، والكوافر جمع كافرة، وهي التي بقيت في دار الحرب، أو لحقت بها، نهى الله تعالى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، قال الزهري: لما نزلت هذه الآية، طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا بمكة مشركتين ﴿وَسَتَلَوْا مَا أَنَفَقْتُمْ﴾ من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار ممن تزوجها ﴿وَلَسَتَلَوْا مَا أَنَفَقُوا﴾ من مهور أزواجهم المهاجرات ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكر ﴿حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي شرعه العادل بينكم وبين أعدائكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة.

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَقَبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (١١)

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ﴾ أيها المؤمنون، أي وإن انفلت ﴿شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي أحد من أزواجكم إلى الكفار فلحقن بهم مرتدات، وإيقاع ﴿شيءٍ﴾ موقعه للتحقير، ﴿فَعَقَبْتُمْ﴾ أي فجاءت عُقبتكم أي نوبتكم، من أداء المهر، والعُقبة بالضم: التوبة، جمعه عُقَب، مثل عُرفة وعُرف، شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين، من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة، وأداء هؤلاء أخرى، بأمر يتعاقبون فيه، كما يتعاقب الناس في الركوب ﴿فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ من مهر المهاجرة التي تزوجتموها، ولا تؤتوا زوجها الكافر، وقيل معناه: إن فاتكم شيء فأصبتم من الكفار عقبى هي الغنيمة، فاتوا بدل الفات من الغنيمة، روي أنه لما نزلت الآية السالفة أدى المؤمنون ما أمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن المشركين، وأبى المشركون أن يؤدوا شيئاً من مهور الكوافر، إلى أزواجهن المسلمين، فنزلت هذه الآية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الإيمان به تعالى، يقتضي التقوى منه والخوف والحذر، قال ابن عباس: لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة، فأعطى رسول الله ﷺ أزواجهن مهور نساتهن من الغنيمة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ﴾ أي فاصدات للمبايعة، نزلت يوم الفتح، فإنه ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال، شرع في بيعة النساء، وهو على

الصفة فجاءته النساء فقال ﷺ: «أبايعهن ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ من الإشرak ﴿وَلَا يَتَرَفَّقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي لا يفعلن جريمة السرقة والزنى ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أريد به وأد البنات ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كانت المرأة تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هو ولدي منك، كُتِبَ عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها، لأن بطنها الذي تحمله بين يديها، ومخرجه بين رجليها ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي فيما تأمرهن بمعروف، والتقيد بالمعروف، للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق، وقال ابن المسيب: ممّا تأمرهنّ به، وتنهاهن عنه، كالنوح، وتمزيق الثياب، وجزّ الشعر، ولا تحدث الرجال إلا إذا كان ذا رحم محرم، ولا تخلو برجل غير محرم، وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر، لكثرة وقوعها فيما بين النساء ﴿فَبَايَعَهُنَّ﴾ أي على ما ذكر وعلى سائر أركان الدين ﴿وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ﴾ زيادة على ما في ضمن المبايعه، فإنها عبارة عن طلب الثواب، بمقابلة الوفاء بالأمر المذكورة من قبلهن ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة، فيغفر لهن ويرحمهن، إذا وفين بما بايعن عليه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية، وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط» (١).

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (١٣)

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هم عامة الكفرة،

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٦٣٦/٨ وفيه قول عائشة رضي الله عنها: «ما يبايعهنّ إلا بقوله: قد بايعتُك على ذلك، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعه».

وقيل: اليهود، لما روي أنها نزلت في بعض فقراء المسلمين، كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم ﴿قَدْ يَسْأَلُونَ مِنَ الْآخِرَةِ﴾ من ثوابها، لكفرهم بها أو لعلمهم بأنهم لا خلاق لهم فيها لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة ﴿كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي كما يبس منها الذين ماتوا منهم، لأنهم وقفوا على حقيقة الحال، وشاهدوا حرمانهم من نعيمها وقيل: المعنى كما يسأوا من موتاهم أن يبعثوا أو يرجعوا إلى الدنيا أحياء. والله أعلم بالصواب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الممتحنة»

* * *

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مدنية وآيها أربع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي مجد الله ونزهة كل ما في الكون من ملك، وإنسان، ونبات، وجماد، وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ روي أنهم قالوا قبل أن يؤمروا بالجهاد: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه، فلمَّا نزلت آية الجهاد، تباطأ بعضهم، فنزلت هذه الآية (١) ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي لأي شيء تقولون نفعل، ما لا تفعلون من الخير والمعروف؟ والتوبيخ في الحقيقة

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٣٠٩ قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ، ورواه أحمد في المسند، وانظر تفصيل الروايات في تفسير ابن كثير ٣٨١/٤.

على عدم فعلهم، وإنما وجهها إلى قولهم، تنبيهاً على تضاعف معصيتهم،
 بيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط، بل الوعد به أيضاً، ولو
 قيل لم لا تفعلون ما تقولون، لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢﴾

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ اختير لفظ المقت، لأنه
 أشد البغض، ومن استوجب مقت الله لزمه العذاب، أي عظم فعلكم هذا
 بغضاً عنده سبحانه، أن تتحدثوا بما لا تعملون.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَلَيْنٌ
 مَرْصُوضٌ﴾ ﴿٤﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أي يصفون أنفسهم
 للقتال صفاً، وهذا صريح في أن ما قالوه، عبارة عن الوعد بالقتال، لا
 عما يقوله الممتدح أو غيره ﴿كَانَهُمْ بَلَيْنٌ مَرْصُوضٌ﴾ أي لاصق بعضهم
 ببعض كقطعة واحدة (١).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ
 اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٥﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ كلام مقرر لما قبله، من شناعة ترك
 القتال، أي اذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال، وقت قول موسى لبني

(١) شبههم تعالى في ثباتهم وصمودهم أمام الأعداء، بالبناء المحكم الرصين، الذي
 رُصِفَتْ حجارتُه، فُرِصَ بعضها إلى بعض، حتى صار متماسكاً، كالسد المنيع، الذي
 لا يتفكك ولا يتزعزع، ولا تؤثر فيه الأعاصير، وهو تشبيه رائع بديع ولهذا قال:
 ﴿كَانَهُمْ بَلَيْنٌ مَرْصُوضٌ﴾ !!

إسرائيل، حين نذبهم إلى قتال الجبابرة بقوله: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فلم يمتثلوا أمره، وعصوه حيث قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ فأذوه كل الأذية ﴿يَقُولُونَ لِمَ تُوَدُّونَنِي﴾ بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به؟ هذا هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم، ويرتضيه الذوق السليم، وأما ما قيل إنهم كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من طلبهم رؤية الله، وغير ذلك، فمما لا تعلق له بالمقام ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بما جئتكم به من المعجزات الواضحة، أي والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً مستمداً بمشاهدة ما ظهر على يدي من المعجزات، أني رسول الله إليكم ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ أي أصرُّوا على الزيف عن الحق ﴿زَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي صرفها عن قبول الحق، لصرف اختيارهم نحو الغي والضلال، وفيه تنبيه على عظم إيذاء الرسول فإنه يؤدي إلى الكفر، وزيف القلوب عن الهدى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة، ومنهاج الحق.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِمَا فِي بَيْتِي مِنْ بَعْدِي أَمْسَهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي أرسلت إليكم حال كونني مصدقاً لرسالة موسى، ولما جاء في التوراة ﴿وَمُبَشِّرًا بِمَا فِي بَيْتِي مِنْ بَعْدِي أَمْسَهُ أَحْمَدُ﴾ أي ومبشراً بمن يأتي من بعدي من رسول اسمه أحمد، ويسمى أيضاً محمد^(١)، وجاء في الإنجيل تسميته بالفارزقلط

(١) ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» أخرجه الشيخان، ومعنى العاقب الذي لا نبي بعده.

ومعناه الرسول الهادي، ففي إنجيل «يوحنا»: «هكذا وأنا أطلب لكم إلى أبي، حتى يمنحكم ويعطيكم «الغازقليط» وهو روح الحق اليقين» هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربية، وفي مكان آخر: «أما الغازقليط روح القدس، يرسله أبي باسمي، ويعلمكم، ويمنحكم جميع الأشياء» ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ مشيرين إليه ﷺ وتسميتهم سحراً للمبالغة، ويؤيده قراءة ﴿هذا ساحر﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٧﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾؟ أي أيُّ الناس أشد ظلماً ممن يدعى إلى الإسلام، فيضع موضع الإجابة الافتراء على الله، بقوله: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾؟ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم لظلمهم.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨﴾.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أي يريدون أن يطفئوا دينه، ويبطلوا شريعة الإسلام ﴿بِأَفْوَهِهِمْ﴾ بطعنهم فيه، شبهت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ أي مبلغه إلى غايته بنشره في الآفاق وإعلائه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ذلك، فالإسلام منتصر رغم أنوف الكافرين.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ﴿٩﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ بالقرآن أو المعجزة ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي الملة الحنيفية ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جميع الأديان

له، ولعمري لقد فعل ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك، فقد حقق الله وعده، فانتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلا فوق جميع الأديان، والله الحمد والمثنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ عرض في معنى الأمر، كأنه يقول: آمنوا بالله وجاهدوا في سبيله بالأموال والأنفس ﴿عَلَىٰ تَجَرَّةٍ﴾ هي التجارة بين أهل الإيمان، وبين الله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ ﴿تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ نزلت هذه الآية، حين قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه؟. ثم بيّن تعالى تلك التجارة. فقال:

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ والمراد به الأمر، جيء بلفظ الخبر، إيذاناً بأن ذلك لا يُترك ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم لما تأخرتم عن البذل والجهاد.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب للأمر، المدلول عليه بلفظ الخبر ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي قصوراً عالية مريحة في

جنت إقامة ﴿ذَلِكَ﴾ ما ذكر من المغفرة، وإدخال الجنة ﴿الْفَوْزَ الْعَظِيمَ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيَسِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ أي تجارة أخرى ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ وفي تحبونها تعريضٌ بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ هو ربح التجارة ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ هو فتح مكة، وفتح فارس والروم ﴿وَيَسِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يارسول الله بشرهم، بما وعدتهم على ذلك عاجلاً وآجلاً.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَن أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَلِيفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَلِيفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ ﴿١٤﴾

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ أي أنصار دينه، أمر بإدامة النصر، والثبات عليه، أي ودوموا على ما أنتم عليه من النصر ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَن أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟﴾ أي من جندي متوجهاً إلى نصر دين الله والتشبيه باعتبار المعنى، أي انصروا دين الله، كما نصر الحواريون دين الله ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي نحن أنصار دينه ﴿فَآمَنَتْ طَلِيفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بعبسى عليه السلام ﴿وَكَفَرَتْ طَلِيفَةٌ﴾ به عليه السلام ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بالحجة القاطعة، أو بالحرب، وذلك بعد رفع عيسى عليه السلام ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ فصاروا غالبين، والله ولي المؤمنين، والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصف»

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

مدنية أيها إحدى عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي هو جلّ وعلا برحمته وحكمته، بعث في العرب رسولاً من جملتهم، أمياً مثلهم، لا يقرأ ولا يكتب، وسموا أميين لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون، والحكمة في اقتصاره على ذكر الأميين، مع أنه رسول إلى كافة الخلق، تشریف العرب بأن خاتم النبيين ﷺ بُعث منهم، وليس من بني إسرائيل ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن المبين، من حفظه لا من الكتاب

المنزل ﴿وَرَزَّكِيَّهِمْ﴾ أي يطهرهم من الشرك، وخبائث الجاهلية ﴿وَعَلَّمَهُمْ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمهم القرآن العظيم، والسنة النبوية المطهرة،
الركنان الأصليان للشريعة الإسلامية الغراء، ولو لم يكن سوى القرآن
العظيم معجزة معه لكفاه ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي وقد كانوا قبل
بعثة النبي في ضلال واضح، وكفر وجهالة، وهو بيان لشدة الحاجة إلى
نبي يرشدهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي وبعث خاتم النبيين إلى قوم آخرين،
لم يكونوا في زمانهم، وسيجيئون بعدهم، وهم جميع من أسلم إلى يوم
القيامة، والمعنى: لم يلحقوا بهم وسيلحقون بهم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي
هو سبحانه القوي الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه، حيث اختاره من
بين كافة البشر.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ذلك الشرف والفضل، الذي خصَّ
الله به العرب، من نزول القرآن بلغتهم، وإرسال خاتم الرسل إليهم، هو
فضل الله يعطيه لمن يشاء من خلقه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو جلَّ
وعلا ذو الفضل الواسع، على جميع خلقه في الدنيا والآخرة.

ثم شرع تعالى في ذم اليهود، الذين أكرمهم الله بالتوراة، فلم ينتفعوا
بها ولم يطبقوها، وشبههم بالحمار الذي يحمل الأسفار، فقال سبحانه:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةُ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ
أَسْفَارًا يَتْسَى مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي مثل اليهود الذين أُعطوا التوراة، وكُلّفوا بالعمل بها، ثم لم يطبقوها ولم يعملوا بما فيها ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أي مثلهم كمثل الحمار، الذي يحمل الكتب الضخمة النافعة، ولا يناله منها إلا التعب والعناء، شبههم تعالى والتوراة في أيديهم، وهم لا يعملون بها، بالحمار يحمل الكتب، وليس له إلا نقل الحمل من غير فائدة، فهو يتعب في حملها ولا ينتفع بما فيها ﴿يَسْ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بشس هذا المثل، الذي ضرب لليهود، مثلاً للقوم الذين كذبوا بآيات الله، الدالة على نبوته ﷺ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفق للخير، ولا يرشد للإيمان، من كان فاسقاً ظالماً، عاصياً لأمر الله، يضع التكذيب في موضع التصديق.

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمْ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَتَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمْ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود، الزاعمين أنهم أولياء الله وأحبابه، إن كنتم حقاً أحبابه كما تدعون ﴿فَتَمْنُوا الْوَتَّ﴾ أي فتمنوا من الله أن يميّتكم، لِتُنْقَلُوا من دار البلاء إلى دار الكرامة، والآية ردٌّ على قولهم: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وتكذيب لهم في هذه الدعوى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في محبتكم وولايتكم لله، فإن من أيقن أنه من أهل الجنة، أحب لقاء الله، لينال الفوز والسعادة، بجوار ملك الملوك، ربّ العزّة والجلال.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ولا يتمنون الموت بحالٍ من الأحوال، بسبب ما أسلفوه من الكفر والمعاصي، وتكذيب الرسول عليه السلام، وهذه من معجزات القرآن، حيث أخبر عنهم خبراً جازماً قاطعاً

بعدم تمنى الموت، وقد وقع ما أخبر عنه، وفي الحديث الشريف: «لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات». ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي عالم بهم، وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي.

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد، إن هذا الموت الذي تهربون منه، ولا تجسرون أن تتمنوه، فإنه آتيكم لا محالة، ولا ينفعكم الفرار منه، لأنه قدر محتوم، ولا يغني حذر عن قدر ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ثم ترجعون إلى رب العزة والجلال، الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم القبيحة.

ثم شرع تعالى في بيان أحكام فريضة الجمعة فقال تقდست أسماؤه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ثُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ثُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أي إذا سمعتم الأذان ينادي به لصلاة الجمعة ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي فامضوا وامشوا إلى الخطبة والصلاة، واتركوا البيع والشراء، وسائر الأعمال الدنيوية، لتناولوا رضوان الله ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك السعي للصلاة، وترك البيع والشراء، والتجارة والعطاء، خير لكم وأنفع من تجارة الدنيا، فإن نفع الآخرة خير وأبقى، قال الحسن البصري: والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكنه سعي بالقلوب، والعزائم، والخشوع.

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١٠).

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ أي أدبتم الصلاة وفرغتم منها ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أمر بإباحة لإقامة مصالحكم ﴿ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أي اطلبوا الرزق أو زيارة أخ في الله، وعن بعض السلف أنه كان يقول: «اللهم أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني وأنت خير الرازقين» ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ أي اشكروه على ما وفقكم لأداء فريضته، واذكروه في مجامع أحوالكم، ذكراً كثيراً وزماناً كثيراً ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ كي تفوزوا بخير الدارين، وتسعدوا بنيل رضوان الله.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوِ وَمِنَ النَّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١١).

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ أي تفرقوا عنك إليها وتقديره: وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهواً انفضوا إليه، فحذف أحدهما للدلالة المذكور عليه، عن جابر رضي الله عنه أنه قال: «بينما نحن نصلي مع الرسول ﷺ، إذ أقبلت عير - أي جمال - تحمل طعاماً، فانفلتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فنزلت هذه الآية» (١).

وقال الحسن: أصاب أهل المدينة جوعٌ وغلاءٌ سِعَرٌ، فقدم دحية الكلبي قبل أن يسلم، وكان معه أنواع التجارة من الشام، والنبي ﷺ يخطب، فلما رآوه قاموا إليه، وكانوا إذا أقبلت العير، استقبلوها بالطبل، والتصفيق، وهو المراد باللهو هنا ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ أي على المنبر (٢) ﴿ قُلْ مَا

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٦٤٢/٨ باب «وإذا رأوا تجارة».

(٢) هذا إنما حدث منهم، لأن الصلاة كانت قبل الخطبة، كما تَبَّه عليه الحافظ ابن كثير =

عِنْدَ اللَّهِ ﴿ مِنْ الثَّوَابِ ﴾ ﴿ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ الْجَنَّةِ ﴾ فَإِنْ ذَلِكَ نَفْعٌ مُحَقَّقٌ مُخَلَّدٌ،
بِخِلَافِ مَا فِيهِمَا مِنَ النِّفْعِ الْمَتَوَهَّمِ ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴾ اطلبوا منه تعالى
الرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.

«تم بغونه تعالى تفسير سورة الجمعة»

* * *

= رحمه الله، وإلا فمحالٌ على أصحاب رسول الله، أن يتركوا الصلاة، ويخرجوا من
أجل التجارة، ثم أصبحت الخطبة قبل الصلاة، كما هو عليه الحال الآن، بأمر الله
جلَّ وعلا.

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

مدنية آياتها إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ أي حضروا مجلسك، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ ﴾ أرادوا شهادة واطأت فيها قلوبهم ألسنتهم ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ مؤكداين كلامهم بأن واللام، للإيدان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم القلب ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ اعتراض مقرر لمنطوق كلامهم، أي والله يعلم أن الأمر كذلك أنك رسول الله ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ في ادعاء الصدق، لأنهم لم يعتقدوا ذلك، وأضمرنا خلاف ما أظهروا، وهذا يدل على أن حقيقة الإيمان بالقلب، وكل من أخبر عن شيء واعتقد خلافه فهو كاذب، والإظهار في موضع الإضمار، لذمهم، وبيان كذبهم.

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي وقاية من السبي، والقتل، واتخاذها جُنَّةً عبارة عن تهيئتهم لها إلى وقت الحاجة، ليحلفوا بها، ويتخلصوا عن المؤاخذة ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي منعوا الناس عن الإسلام، بالتفجير، وإلقاء الشُّبُه، ومنع الناس عن الجهاد ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من نفاقهم، وصدُّهم، وفي «ساء» معنى التعجب، الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما وصف من حالهم في النفاق، والكذب، والصد عن سبيل الله ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ أي نطقوا بكلمة الشهادة، فأمنوا بألسنتهم، وكفروا بقلوبهم، ثم ظهر كفرهم، بما شوهد منهم من شواهد الكفر ودلائله ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ فختم عليها حتى لا يدخلها الإيمان ولا يتدبرون ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ حقيقة الإيمان، لأنهم تمرنوا على الكفر والضلال.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدٌ يُخْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنُلْقِيَهُمْ فِي النَّارِ أَنَّى يَصُفُّونَ ﴾

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل من يسمع، أي إذا نظرت إليهم أعجبتك أجسامهم، لضخامتها ومناظرها فقد كان عبد الله بن أبي بن سلول رجلاً جسيماً، صبيحاً، فصيحاً، وطائفة من المنافقين في مثل صفاته، فكانوا يحضرون مجلس النبي ﷺ، ويعجب الناس بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ لفصاحتهم، وحلاوة كلامهم ﴿ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدٌ ﴾ شَبَّهوا في جلوسهم، بخشب

منصوبة، مستندة إلى الحائط، في كونهم أشباحاً خالية من العلم والخير، والخُشْب لا تعقل ولا تفهم، فكَذلك أهل النفاق في حسن صورهم، وقلة جدواهم ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي واقعة عليهم، وضارة لهم، لفزعهم ورعبهم، فقد كانوا على وَجَل من أَنْ يُنزل الله فيهم ما يهتك أسرارهم، ويبيح دماءهم وأموالهم ﴿هُمْ أَعْدُو﴾ أي هم الكاملون في العداوة، لأن أعدى الأعداء العدو المداحي، الذي يكاشرِك، وتحت ضلوعه الداء الدفين ﴿فَأَحْذَرُكُمْ﴾ ولا تغترز بظواهرهم، فإنهم وإن كانوا معك، عيون لأعدائك ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي أهلكهم الله ولعنهم، كيف يعدلون عن الحق، إلى الضلال والباطل؟.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسُهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ عند ظهور جنائتهم بطريق النصيحة ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي تعالوا إلى رسول الله ﷺ، فاعتذروا لديه ليطلب لكم المغفرة من الله، وذلك حين نزل القرآن بصفة المنافقين، مشى إليهم عشائره من المؤمنين، فقالوا لهم: ويلكم افتضحتم بالنفاق، فأتوا رسول الله واسألوه أن يستغفر لكم، فأبوا ﴿لَوَّأْ رُءُوسُهُمْ﴾ أي أداروها وعطفوها استكباراً عن ذلك ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرضون عن الناصح، وعن طلب الاستغفار ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتذار، لغاية ضلالهم ونفاقهم.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ يستوي لديهم إذا جاؤوا معتذرين من جنائياتهم ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إذا أصروا أو لم يأتوا وأصروا على قبائحهم، واستكبروا عن الاعتذار والاستغفار ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ما داموا

على النفاق، وإصرارهم على الفسق ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^١ الخارجين عن الطاعة، لانهماكهم في الكفر والفسق، والمراد إما هم بأعيانهم، وإما الجنس وهم داخلون فيه.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا^٢ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ^٣﴾.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ للأنصار ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ يعنون الفقراء المهاجرين ﴿حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ أي ينفروا عنه ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وله سبحانه الأرزاق، ويبيده تعالى مفاتيح الرزق، فلا يعطي أحد أحداً شيئاً إلا بإذنه، ولا يمنعه إلا بمشيئته، وفيه رد وإبطال لما زعموا ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك لجهلهم فيهدون بما يزين لهم الشيطان، روي أن «جهجاه» أجير عمر رضي الله عنه و «سنان» أجير عبد الله بن أبي، اقتتلا من أجل الماء، فلطم جهجاه سناناً، فغضب له ابن سلول فقال عبد الله: أفعلوها؟ والله ما مثّلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: «سَمَنْ كَلَبَكَ يَأْكُلُكَ» أما والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضر من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، والله لو أمسكتهم عنهم فضل طعامكم، لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم، حتى ينفضوا عن محمد، ويعتزلوا عن متابعتة، فنزلت الآية الكريمة^(١).

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَ^٤ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذْلَ^٥ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ^٦﴾.

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿لَيُخْرِجَ^٤﴾

(١) أخرجه الترمذي بنحوه في كتاب التفسير رقم ٣٣١٥.

الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ﴿ عَنِ بِالْأَعَزُّ نَفْسَهُ، وبالأذل جانب المؤمنين، وإسناد القول المذكور إلى المنافقين، لرضاهم به، فرد عليهم بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي والله الغلبة والقوة، ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين، لا لغيرهم، كما أن المذلة والهوان، للشيطان وذويه، من الكافرين والمنافقين ﴿وَلَكِنَّ الْمُتَفَقِّهِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم، ولو علموا ما قالوا هذا الهذيان، قال أصحاب السير: فلما نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي، لم يلبث إلا أياماً قلائل حتى مات على نفاقه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١٠﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ﴾ أي لا تشغلكم ﴿أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ أي لا يشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها، والاعتناء بمصالحها، والتمتع بها ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ عن الصلاة، أو عن القرآن وسائر العبادات المذكورة بالمعبود، والمراد نهيمهم عن التلهي بها، وتوجيه النهي إليها للمبالغة ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي التلهي بها، والتغافل عنها ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران، حيث باعوا الباقي بالفاني.

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١١﴾

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي بعض أموالكم، ادخاراً للآخرة، والمراد الإنفاق الواجب ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي من قبل أن يرى دلائل الموت، ويعاين ما ييشر، ويتعذر الإنفاق ﴿فَيَقُولَ﴾ عند تيقنه بحلوله ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ أي هلاً أمهلتنى ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي إلى زمان قليل

﴿فَاصْدَقْ﴾ أي فاتصدق، وهو جواب «لولا» أي فأزكي مالي ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من المؤمنين المحسنين.

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١﴾

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا﴾ أي لن يمهلها عن الموت ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ آخر عمرها ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجازٍ عليها، والله أعلم.

والصلاة على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المنافقون»

سُورَةُ النَّجَّاتِ

مكية وآياتها ثمان عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ لا لغيره، إذ هو
المبدى لكل شيء، وهو القائم به، والمهيمن عليه، وهو المولى لأصول
النعم وفروعها، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى
الكل سواء.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرْتُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ خلقاً بديعاً، حاوياً لجميع مبادئ الكمالات
العلمية والعملية، ومع ذلك ﴿فَنُكِرْتُمْ كَافِرٌ﴾ أي فبعضكم مختار للكفر،
كاسب له، على خلاف ما تستدعيه خلقته ﴿وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ مختار للإيمان
كاسب له، حسبما تقتضيه خلقته، وكان الواجب عليكم جميعاً، أن تكونوا
مختارين للإيمان، شاكرين لنعمة الخلق، وتقديم الكفر لأنه الأغلب ﴿وَاللَّهُ

يَمَا تَعْمَلُونَ بِصِيرُ ﴿ أي عالم وبصير بكفركم، وإيمانكم، فيجازيكم بذلك، وفيه رد لقول من يقول بالمنزلة بين المنزلتين.

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿٢﴾

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي جعلكم أحسن المخلوقات وأبهاها، حيث زينكم بصفوة أوصاف الكائنات، فإن قيل: وقد كان من أفراد هذا النوع مشوه الصورة، سمج الخلقة؟ نقول: لا سماجة ثمة، لكن الحسن كغيره من المعاني، على مراتب، فانهطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها، أمرٌ نسبي، لا يخرجها عن الجمال، فهو داخل في حيز الحسن، وإذا ما قارنا صورة أي إنسان بصورة القرد والحمار، كان بلا شك أجمل جميع المخلوقات. ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ في النشأة الأخرى.

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿٣﴾

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي هو محيط بجميع المضمرات في صدور الناس.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٤﴾

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ألم يأتكم أيها الكفار نبأ الذين كفروا ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ كقوم نوح، وهود، ولوط ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ ﴾ أي جزاء أعمالهم الخبيثة، وهو ما لحقهم من العذاب في الدنيا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة، لا يُقادر قدره.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْهُدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ۖ وَأَسْتَغْنَىٰ اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ۖ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا، وما سيذوقونه في الآخرة ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ بسبب أنه ﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿ فَقَالُوا أَبَشِّرْهُدُونَنَا ﴾ أنكروا وتعجبوا أن يكون الرسول بشراً، أي قال كل قوم في حق رسولهم: أبعث الله بشراً؟ كما قالت ثمود: ﴿ أَبَشِّرْهُدُونَنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ﴾ وقد أجمل فأسند القول إلى جميع الأقسام وأريد بالبشر الجنس، أنكروا أن يكون الرسول بشراً، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً؟ ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ بالرسول ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ عن الإيمان، وعن التدبر في البيِّنات ﴿ وَأَسْتغْنَىٰ اللَّهُ ﴾ أي أظهر الله استغناؤه عن إيمانهم، حيث أهلكهم ﴿ وَاللَّهُ غَفِيٌّ ﴾ عن العالمين ﴿ حَمِيدٌ ﴾ أي مستحق للحمد، وإن لم يحمده حامد.

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثَ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ ثُمَّ لَنُنْبِتَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ۖ ﴾

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ المراد بالموصول كفار مكة ﴿ أَنْ لَنْ يُبْعَثَ ﴾ أي أنهم لم يبعثوا ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ ﴾ أكد الإخبار باليمين، لأن التهديد به أعظم في القلب، فكانه قيل لهم: ما تنكرونه كائن لا محالة، أَقْسِمُ لكم بربي ﴿ ثُمَّ لَنُنْبِتَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أي لتحاسبنَّ ولتجزونَّ بأعمالكم من خير أو شر ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ البعث والجزاء ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لتحقق القدرة.

﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ۖ ﴾

﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فآمنوا لئلا ينزل بكم ما نزل بهم من العقوبة ﴿ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ يعني القرآن الكريم، فإنه

بإعجازه بين بنفسه، مبين لغيره، كما أن النور كذلك ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الامتثال بالأمر، أو عدمه ﴿خَيْرٌ﴾ أي مجاز لكم عليه.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ١١

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ أي ليوم عظيم، يجمع فيه الأولون والآخرون، من الإنس والجن، والسابقين واللاحقين، لأجل ما فيه من الحساب والجزاء ﴿ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾ أي يوم غبن الناس بعضهم بعضاً، والغبن هو فوت الحظ من السعادة، وضياح ما كان يؤمله الإنسان، وتخصيص النعابين بذلك اليوم، للإيدان بأن الخسارة الحقيقية إنما تكون في الآخرة، فيظهر حينئذ غبن كل كافر، اشترى الضلالة بالهدى، وكل مؤمن بتقصيره في الإحسان ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي عملاً صالحاً إلى أن يموت على ذلك ﴿يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، لانطوائه على النجاة من أعظم المهلكات، والظفر بأجل الطلبات.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ١٢

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على البعث ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي بش المسكن والمسكن نار جهنم، والآيتان بيان لكيفية التغابن، وتفصيل له.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ١٣

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي بعلمه وتقديره ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ ﴾ ويرى المصيبة من الله ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ للثبات، والرضا، والصبر ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم إيمان المؤمن، ويهدي قلبه إلى ما ذكر.

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١٢).

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ كرر الأمر للتأكيد ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي عن إجابة الرسول ﷺ فيما دعاكم إليه ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي وقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وهو تعليل للجواب المحذوف، أي فلا بأس عليه، لأن مهمته التبليغ، وقد أداها امتثالاً لأمر ربه.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فليتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١٣).

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هو المستحق للعبادة، لا غيره ﴿ وَعَلَى اللَّهِ ﴾ خاصة دون غيره ﴿ فليتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي فليعتمد المؤمنون عليه في جميع أمورهم.

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن آزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُّوا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٤).

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن آزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُّوا لَكُمْ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم، وقالوا: لمن تتركونا؟ فلما أتوا رسول الله ﷺ، رأوا الناس قد فقَّهوا في الدين، فهمُّوا أن يعاقبهم،

فأنزل الله هذه الآية^(١) ﴿فَاَحْذَرُوهُمْ﴾ أي أن تطيعوهم وتركوا الهجرة ﴿وَلَا تَعْفُوا﴾ عن ذنوبهم بترك المعاقبة، القابلة للعفو، بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا، ﴿وَتَصَفَحُوا﴾ أي تعرضوا عن التوبيخ ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ وتستروا ذنوبهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي يعاملكم بمثل ما عملتم من الصفح والمغفرة.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي بلاء ومحنة، لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة، وقد يقع الإنسان بسببهم في المعصيات ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أثر محبة الله، على محبة الأولاد والأموال، عن بريدة قال: كان ﷺ يخطبنا، فجاء الحسن والحسين يمشيان ويعثران، فنزل ﷺ عن المنبر، فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال صدق الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرتُ إلى هذين الصبيين، يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما^(٢).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْنَنَفٍ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي ابدلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم، وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أي مواعظه ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أوامره ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ مما رزقكم ربكم، في الوجوه التي أمركم بالإِنفاق فيها، خالصاً لوجهه الكريم ﴿خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ أي افعلوا ما هو خير لها وأُنفع، وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر، وبيان لكون

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٣١٧ وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٧٧٤ وقال: حديث حسن غريب.

الأمور المذكورة خيراً لأنفسهم ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
أي الفائزون بكل مطلوب ومحبوب.

﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ﴾ (١٧).

﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بصرف المال فيما أمر به، مقروناً
بالإخلاص، وطيب القلب، وذكرَ القرضَ تلطفاً في الاستدعاء ﴿يُّضَاعِفْهُ
لَكُمْ﴾ بالواحد عشرة، إلى سبعمئة وأكثر، إلى ما شاء الله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾
ببركة الإنفاق ما فرط منكم ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ أي يعطي الجزيل بمقابلة النزر
القليل ﴿حَلِيمٌ﴾ أي لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم.

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨).

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ﴾ أي يعلم ما استتر ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ما انتشر وظهر،
يعني لا تخفى عليه خافية ﴿الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ المبالغ في القدرة والحكمة،
والله أعلم.

والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وأصحابه
أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التغابن»

* * *

سُورَةُ الطَّلَاقِ

مدنية وهي اثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ تخصيص النداء به ﷺ مع عموم الخطاب لأمته، لتشريفه، وإظهار جلالته منصبه، أو المعنى: يا أيها النبي قل لهم، فأضمر القول، والمعنى: إذا أردتم تطليقهن كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي مستقبلات لها، فإن المرأة إذا طلقت في طهر، يعقبه القرء الأول من أقرائها، فقد طُلِّقَت مستقبلَةً لعدتها، والمراد أن يطلقن في طهر، لم يقع فيه جماع، ثم يُخْلَن حتى تنقضي عدتهن، وهذا أحسن الطلاق، عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ، فتغيظ منه ﷺ، ثم قال: «مُرَّةً فليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم

تطهر، فإن بدا له أن يطلقها، فليطلقها قبل أن يمسه^(١) ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي اضبطوها، وأكملوها ثلاثة أقراء كوامل، وخوطب الأزواج لغفلة النساء، وقيل للعلم ببقاء زمان الرجعة، ومراعاة أمر النفقة والسكنى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدة عليهن والإضرار بهن، وفي وصفه تعالى بربوبيته لهم، تأكيد الأمر، ومبالغة في إيجاب الاتقاء ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي من مساكنهن عند الفراق إلى أن تنقضي عدتهن، وإضافتها إليهن وهي لأزواجهن لتأكيد النهي، ببيان كمال استحقاقهن لسكنائها، كأنها أملاكهن، وفيه دليل على أن السكنى واجبة لهن، وحكمتها لئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث، وللاحتياط مخافة أن تنكر المرأة المراجعة، فتتكح زوجاً غيره ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ﴾ بأنفسهن إن أردن ذلك، فإن الإذن بالخروج في حكم الإخراج ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ قيل: هي الزنا، فيخرجن لإقامة الحد عليهن، وقيل: إلا أن يفحشن على الأزواج، فيحل حينئذ إخراجهن لسوء خلقهن، فأخراجهن وخروجهن في عدتهن معصية ﴿وَتِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي عيَّن لها لعباده ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ بأن أخل بشيء منها، على أن الإظهار في موضع الإضمار تهويل أمر التعدي، والإشعار بعلّة الحكم في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي أضرب بها ﴿لَا تَدْرِي﴾ أيها المخاطب ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ بأن يُقلب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، فالظلم عبارة عن ضرر دنيوي يلحقها، بسبب تعديه، أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوي والأخروي، وقوله: ﴿لا تدري﴾ خطاب للمتعدّي بطريق الالتفات، لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي، لا للنبي ﷺ كما توهم. عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أبغض الحلال

إلى الله الطلاق»^(١) وعن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتُ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»^(٢).

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوْيَ عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾.

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي شارفن آخر عدتهن ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ فراجعوهن ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بحسن معاشرة وإنفاق وحسن سيرة ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ بإيفاء الحق، واتقاء الضرر، مثل أن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً لعدتها، أي فأنتم بالخيار، إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف، وإن شئتم المفارقة واتقاء الضرر ﴿ وَأَشْهِدُوا ﴾ عند الرجعة والفرقة جميعاً، قطعاً للتنازع، وهذا أمر ندب كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ وروي عن الشافعي أنه للوجوب في الرجعة ﴿ ذَوْيَ عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ من المسلمين ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ أيها الشهود خالصاً لوجهه سبحانه، لا لغرض من الأغراض، سوى إقامة الحق، ودفع الضرر ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى الحق على الإشهاد ﴿ يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إذ هو المنتفع به، والمقصود تذكيره ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ فطُلِقَ لِلنِّسَاءِ، ولم يضار المعتدة، ولم يخرجها من مسكنها، واتقى ربه في الأمور التي أمر بها الشرع ﴿ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ مما عسى يقع فيه من الغموم، والوقوع في المضايق، ويفرّج عنه ما يعتريه من الكروب.

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٢١٧٨ في الطلاق، مراسلاً، وموصولاً.
(٢) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٢٢٢٦ والترمذي رقم ١١٨٧ في الطلاق.

﴿وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

﴿وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي من وجه لا يخطر بباله، ويجوز أن يكون المعنى على العموم، أي ومن يتق الله في كل ما يأتي وما يذر، يجعل له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة، روي أنها نزلت في «عوف بن مالك» أسر الأعداء ابناً له، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أسر العدو ابني، وشكا إليه الفاقة، فقال له ﷺ: «أتق الله واصبر، وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله» ففعل فبينما هو في بيته، إذ قرع ابنه الباب، ومعه مائة من الإبل غنمها من المشركين^(١) ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يكل أمره إليه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي كافيه في جميع أموره ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ أي يبلغ ما يريد، لا يفوته مراد، ولا يعجز من مطلوب ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ تقديرًا وتوقيتًا، وهذا بيانٌ لوجوب التوكل على الله، وتفويض الأمر إليه، لأن الإنسان إذا علم أن كل شيء، من الرزق ونحوه، لا يكون إلا بتقديره، لم يبق أمامه إلا التسليم إليه تعالى.

﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ آتَيْتُمْ فَعِدَّتِهِنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾.

﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ لكبرهن وانقطاع دم الحيض عنهن، وقدره بخمس وخمسين سنة، قيل: لما نزلت: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ سألوا رسول الله ﷺ عن عدة اللائي لم يحضن، فنزلت

(١) ذكر هذه القصة ابن جرير الطبري، ورواها الحافظ ابن كثير في تفسيره من رواية السدي ٤٠٦/٤.

﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ أي شككتم وجهلتكم كيف عدتهن، وقيل: إن ارتبتم في دم
 البالغات مبلغ اليأس أهو دم حيض أم استحاضة ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي
 فهذا حكمهن ﴿وَأَلَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ لصغرهن فعدتهن أيضاً كذلك، فحذف ثقة
 بدلالة ما قبله عليه ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ أي منتهى عدتهن ﴿أَنْ يَضَعْنَ
 حَمْلَهُنَّ﴾ سواء كن مطلقات، أو متوفى عنها أزواجهن، عن سبيعة
 الأسلمية أنها ولدت بعد وفاة زوجها بليالٍ قالت سبيعة: «فأتيت رسول
 الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فإتاني بأني قد حلت حين وضعت حملي،
 وأمرني بالتزوج إن بدا لي»^(١) وعند علي وابن عباس عدتها أبعد الأجلين
 ﴿وَمَنْ يَنْقِ اللَّهَ﴾ في شأن أحكامها ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ أي يسهل عليه
 أمر الدنيا والآخرة، ويوفقه للخير.

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَنْقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سِتًّا تَهُ وَيُعْظِمُ لَهُ أَجْرًا﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام ﴿أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي
 أنزله إليكم لتعملوا به ﴿وَمَنْ يَنْقِ اللَّهَ﴾ بالمحافظة على أحكامه ﴿يَكْفِرْ عَنْهُ
 سِتًّا تَهُ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَيُعْظِمُ لَهُ أَجْرًا﴾ بالمضاعفة.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكُنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِنُضَيْقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ
 كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَضَاتُوهُنَّ
 أَجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ بِأَيْتِنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى﴾.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ مسكناً ﴿مِنْ حَيْثُ سَكُنْتُمْ﴾ أي بعض مكان سكناكم ﴿مِنْ
 وَجْدِكُمْ﴾ أي مما تطيقونه، والوجد؛ الوسع والطاقة ﴿وَلَا تَضَارُّوهُنَّ﴾ أي في

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٦٥٣/٨.

السكنى ﴿لِصَّيْقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ وتلجئوهن إلى الخروج، ببعض الأسباب، من إنزال من لا يوافقهن أو يشغل مكانهن ﴿وَلَا كُنَّ﴾ أي المطلقات ﴿أُولَتْ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجن من العدة، وأما المتوفى عنهن أزواجهن، فلا نفقة لهن ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يعني هؤلاء المطلقات بعد انقطاع الزوجية ﴿فَتَأْتَوْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع، وهو دليل على أن اللبن وإن خلق لمكان الولد، فهو ملك لها، والأم يجوز لها أن تأخذ الأجر، وفيه دليل أن حق الرضاع على الأزواج في حق الأولاد ﴿وَأَتِمُّوا إِلَيْنَا بِمَعْرُوفٍ﴾ أي ليأمر بعضكم بعضاً بجميل، في الإرضاع، والأجر، ولا يكن من الأب مماكسة، ولا من الأم معاصرة، لأنه ولدهما ﴿وَلَا تَعَاوَنَا﴾ أي تضايقتن فلم ترض الأم بما ترضع الأجنبية، ولم يزد الأب على ذلك ﴿فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى﴾ أي فستوجد له امرأة أخرى، وفيه معاتبة للأم على المعاصرة، أي سيجد الأب امرأة ترضع له ولده، إن عاصرت أمه.

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ أي فلينفق كل من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه على المطلقات والمرضعات ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا﴾ أعطاهها من الرزق، جلّ أو قلّ، فإنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وفيه تطيب لقلب المعسر، وترغيب له في بذل مجهوده، وقد أكد ذلك بالوعد حيث قال: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ عاجلاً أو آجلاً.

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نَّكَرًا﴾.

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي كثير من أهل قرية ﴿عَنَّتْ﴾ أي عصت وأعرضت

﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ واستمرت على العتو والعتاد ﴿فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ باستقصاء الذنوب، وشدة العقاب ﴿وَعَذَّبَهَا عَذَابًا ثَكْرًا﴾ أي منكرًا عظيمًا، والمراد به عذاب الآخرة.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا﴾.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي عقوبة كفرها ومعاصيها ﴿وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا﴾ أي خساراً وهلاكاً، لا خسران مثله.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْآلَتِيبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكرر للوعيد، وبيان لكونه مترقباً يخوف الله كفار مكة، أن ينزل بهم ما نزل بالأمم الخالية ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْآلَتِيبِ﴾ يا ذوي العقول السليمة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عطف بيان ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أن أنزل إليكم القرآن الكريم.

﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا﴾.

﴿رَسُولًا﴾ أي وأرسل إليكم رسولاً هو النبي ﷺ ﴿يَتْلُوا﴾ أي الرسول ﴿عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي حال كونها مبينات لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام ﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ اللام متعلقة بـ ﴿يتلوا﴾، أي ليخرج الله الذين عَلِمَ منهم أنهم يؤمنون ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الضلالة إلى الهدى، ويمكن أن يكون المعنى: ليخرجهم من الظلمات التي تحدث لهم بعد الإيمان ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي يصدق بوجود الله

ووجدانيته، ويعمل عملاً صالحاً ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي ماكثين في دار النعيم أبداً ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا﴾ فيه معنى التعجيب والتعظيم، أي ما أكرمه، وأعظمه من رزق!!

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي مثلهن في العدد أو في الإبداع والإتقان واختلف في كيفية طبقات الأرض، قال الجمهور: إنها سبع أرضين طباقاً، بعضها فوق بعض، وقال الضحاك: مطبقة من غير فتوق، بخلاف السماوات، ولا يوجد في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع، إلا هذه الآية ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي يجري أمر الله وحكمه بينهن، فينزل المطر، ويخرج النبات، ويخلق الخلق على اختلاف هيئاته ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فعل ذلك لتعلموا أن من قدر على ما ذكر، قادر على كل شيء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ لاستحالة صدور ذلك عن غير الخالق المبدع، والله أعلم بمراده.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطلاق»

سُورَةُ التَّحْثِثِ

مدنية وآيها اثنتا عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَلَّغْ مَرَضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ اختلفوا في الذي حرّم النبي ﷺ على نفسه، قيل: حرّم «مارية» وهو قول الحسن، ومجاهد، وقتادة، والشعبي، ومسروق، وقيل: حرّم العسل!! لما روي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب فيشرب عندها عسلاً، فتواطأت أنا وحفصة، أن آتينا دخل عليها النبي ﷺ، فلتقل له: إني أجد منك ريح مغاير، أكلت مغاير؟ فدخل على إحدهما فقالت ذلك له، فقال: بل شربتُ عسلاً عند زينب، ولن أعود له، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ إلى قوله تعالى ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾^(١) قولها فتواطأت أي اتفقت، مغاير وهو صمغ حلو، وله رائحة كريهة، قال النسائي: هذا الحديث صحيح جيد غاية الجودة، وقال الأصبلي: هذا أصح وأولى بظاهر كتاب الله

(١) الحديث أخرجه البخاري ٦٥٦/٨ في كتاب التفسير، ومسلم رقم ١٤٧٤ في الطلاق.

﴿تَبْنِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسير لتحرم، وهذا التحريم تحريم امتناع عن الانتفاع بذلك، مع اعتقاده أن ذلك حلال، أي تطلب رضا أزواجك بترك ما أحلَّ الله لك؟ ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ قد غفر لك هذه الزلة ﴿رَجِيمٌ﴾ قد رحمك ولم يؤاخذك بها، قال بعض العلماء: الصحيح في نزول الآية أنها في قصة العسل لا في قصة «مارية» المروية في غير الصحيحين، من أنه ﷺ أسرَّ إلى حفصة تحريمها على نفسه فأفشت السرَّ.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد قدر الله لكم ما تحللون به أيمانكم، وشرع لكم تحليلها بالكفارة، ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم فيشرعه لكم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ وهي حفصة رضي الله عنها ﴿حَدِيثًا﴾ أي حديث تحريم العسل، أو مارية القبطية وأمر الخلافة ﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾ أي أخبرت حفصة عائشة بالحديث، وأفشته إليها ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي أطلع الله النبي ﷺ على إفشاء حفصة للسرِّ على لسان جبريل عليه السلام ﴿عَرَفَ﴾ أي النبي ﷺ حفصة ﴿بَعْضُهُمْ﴾ بعض الحديث الذي أفشته، قيل هو حديث الإمامة ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ عن تعريف بعض، قيل هو حديث مارية، والمعنى: أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم الأمة، وأعرض عن ذكر الخلافة، لأنه ﷺ كره أن ينشر في الناس ﴿فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ﴾ أي نبأ النبي ﷺ حفصة بما أفشت من السر إلى

﴿قَالَتْ﴾ حفصة للنبي ﷺ ﴿مَنْ أَبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَاتِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي أخبرني بذلك الله عز وجل، العليم بالسرائر، الخبير بالضمائر.

﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (١).

﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ﴾ خطاب لحفصة وعائشة رضي الله عنهما، على الالتفات للمبالغة في العتاب، وقد روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن المرأتين اللتين قال الله تعالى فيهما ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ﴾ حتى حجَّ عمر، وحججتُ معه، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان اللتان قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَوْبَا﴾ قال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس - قال الزهري: كرهه والله ما سأله عنه - قال: هما عائشة وحفصة، قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ففطق نساؤنا يتعلمن من نسائهم...» الحديث (١) ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت ووجد منكما ما يوجب التوبة، من ميل قلوبكما عما يجب عليكما من تكريم رسول الله ﷺ، وحب ما يحبُّه، وكراهة ما يكرهه ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ بإسقاط إحدى التائين، أي تتعاوننا عليه بما يسوءه، من الإفراط في الغيرة، وإفشاء سره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ﴾ وإنما أفرد جبريل تعظيماً له ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أتباعه وأعدائه، وعن ابن مسعود وأبي بن كعب أراد بصالح المؤمنين أبا بكر، وعمر رضي الله عنهما، وبه قال عكرمة ومقاتل، وهو اللائق بتوسيطه بين جبريل والملائكة، فإنه جمع بين الظهير المعنوي، والظهير الصوري، كيف لا وإن جبريل ظهير له يؤيده بالتأييدات الإلهية،

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في التفسير ٦٥٨/٨ ومسلم رقم ١٤٧٩ في الطلاق، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول لابن الأثير الجزري ٤٠٠/٢.

وهما وزيراه وظهيراه في تدبير أمور الرسالة، وتمشية أحكامها الظاهرة، ولأن بيان مظاهرتهما له أشد تأثيراً في قلوب بتيتهما، بخلاف ما إذا أريد به جنس الصالحين من المؤمنين ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ مع تكاثر عددهم ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي بعد نصره الله وناموسه الأعظم وصالح المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ أي فوج معين له، كأنهم يد واحدة على من يعاديه، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه؟

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ مُسْلِمَةً مُّؤْمِنَةً قَيَّنَتْ نَيْبَتٍ عِندَاتٍ سَيِّحَتٍ نَّيْبَتٍ وَأَبْكَارًا﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ﴾ أي يعطيه ﷺ بدلكن ﴿أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ﴾ على التغليب، أو تعميم الخطاب ﴿مُسْلِمَةً﴾ خاضعات لله تعالى منقادات له ﴿مُؤْمِنَةً﴾ مصدقات ﴿قَيَّنَتْ﴾ مصليات بالليل، ومواظبات على الطاعة، ﴿نَيْبَتٍ﴾ من الذنوب ﴿عِندَاتٍ﴾ متعبدات أو متذللات لأمر الرسول ﷺ ﴿سَيِّحَتٍ﴾ صائحات، سُمي الصائم سائحاً، لأنه يسبح في النهار بلا زاد ﴿نَّيْبَتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وفيه إشارة إلى أن تزوج النبي ليس على حسب الشهوة، بل على حسب ابتغاء مرضاة الله تعالى^(١).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْاٰ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْاٰ أَنفُسَكُمْ﴾ بالانتهاء عما نهاكم الله عنه، والعمل بطاعته ﴿وَأَهْلِكُمْ﴾ بالنصح والتاديب ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي حطبها

(١) إنما دخلت الواو في قوله: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ دون سائر الصفات، لامتناع اجتماعهما في ذات واحدة، فإن المرأة لا تكون بكرًا وثيباً في آن واحد، بخلاف بقية الصفات ولهذا عطفت هنا بالواو ﴿وَأَبْكَارًا﴾ فتدبر أسرار القرآن!!

الحجارة والناس ﴿عَلَيْهَا﴾ يلي أمرها وتعذيب أهلها ﴿مَلَكُكُمْ﴾ وهم الزبانية ﴿غَلَاظُ شِدَادٍ﴾ غلاظ الأقوال، شداد الأفعال، أقوياء على البطش ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ أي لا يخالفون أمر الله جلّ وعلا ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي يؤدّون ما يؤمرون به، ولا يتشاقلون عنه.

أمر تعالى المؤمنين، باتقاء هذه النار المعدة للكافرين، كما نصّ في سورة البقرة، للمبالغة في التحذير

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ﴾ أي يقال لهم ذلك، عند إدخال الملائكة إياهم النار، والنهي عند الاعتذار، لبيان أن العذر لا ينفعهم ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء أعمالكم القبيحة في الدنيا، من الكفر والمعاصي.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي بالغة في النصح، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم، فيأتوا بها على طريقتها، وذلك أن يتوبوا عن القبائح لقبحها، نادمين عليها، مغتمّين لارتكابها، عازمين على أنهم لا يعودون، ويردّوا المظالم، ويستحلوا الخصوم، ويداوموا على طاعة الله تعالى ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ورود صيغة الإطماع ﴿عسى﴾ للجري على سنن الكبرياء، والإشعار بأنه تفضل منه سبحانه، والتوبة غير موجبة له، وأن العبد ينبغي

أن يكون بين خوفٍ ورجاء، وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ ظرف ليدخلكم، أي يوم لا يذلهم ولا يهينهم، بل يكرمهم ويرفع مقامهم، عمن أخزاهم الله من الكفار، والفساق، واستحماد إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم ﴿تُورِثُهُمْ يُسَعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي على الصراط ﴿وَيَأْتِيَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ إذا طغى نور المنافقين ﴿رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا﴾ يدعون به تقرباً إلى الله تعالى، مع تمام نورهم، وقيل تفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم، فيسألون إتمامه تفضلاً ﴿وَأَعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي استر ذنوبنا وامحها عنا، فإنك القادر على كل شيء، وأنت يا رب أهل الفضل والغفران.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُشَسِّ الْمَصِيرُ﴾

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالحجة، والوعظ البليغ ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ أي استعمل الخشونة معهم فيما تجاهدكم به من الكلام ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُشَسِّ الْمَصِيرُ﴾ أي مسكنهم جهنم، وبشس المرجع والمصير نار جهنم، أن تكون مسكنهم ومأواهم.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ضرب المثل في أمثال هذه المواقع، عبارة عن إيراد حالة غريبة، ليعرف بها حالة أخرى، مشكلة لها في الغرابة، مثل الله عز وجل حال الكفار، في أنهم يعاقبون على كفرهم، ولا ينفعهم ما كان بينهم وبين المؤمنين، من النسب والمصاهرة، وإن كان نبياً، بمثل امرأتي نوح ولوط ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

عِبَادِنَا صَالِحِينَ ﴿ أَي كَانَتَا فِي عَصْمَتِي نَبِيَّيْنِ، مَتَمَكِّنِينَ مِنْ تَحْصِيلِ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ بِالنِّفَاقِ وَلَمْ تَزْمِنَا بِاللَّهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: « مَا بَغَتْ امْرَأَةً نَبِيًّا قَطُّ، وَخِيَانَتُهُمَا فِي الدِّينِ، أَنَّهُمَا أَسْرَتَا النِّفَاقَ، وَأَظْهَرَتَا الْإِيمَانَ. ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا ﴾ أَي فَلَمْ يَغْنِ أَزْوَاجُهُمَا النَّبِيَّانِ ﴿ عَنْهُمَا ﴾ بِحَقِّ الزَّوْجِ ﴿ مِنْ اللَّهِ ﴾ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴿ شَيْئًا ﴾ أَي شَيْئًا مِنَ الْإِغْنَاءِ ﴿ وَقِيلَ ﴾ أَي وَيُقَالُ لَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿ أَدْخَلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ أَي ادْخُلَا نَارَ جَهَنَّمَ مَعَ سَائِرِ الْكُفْرَةِ الْمُجْرِمِينَ، فَقَطَعَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ طَمَعًا مِنْ يَرْتَكِبُ الْمَعْصِيَةَ، وَيَتَكَلَّى عَلَى صَلَاحٍ غَيْرِهِ ^(١).

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَي جَعَلَ حَالَهَا مَثَلًا لِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ، فِي أَنَّ صَلَةَ الْكُفْرِ لَا تَضُرُّ الْمُؤْمِنَ، إِذَا كَانَ صَادِقَ الْإِيمَانِ، وَذَلِكَ فِي مِثْلِ حَالَةِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ أَعْدَى أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ فِي أَعْلَى غُرَفِ الْجَنَّةِ ﴿ امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ وَهِيَ أَسِيَّةُ بِنْتُ مَزَاحِمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَمَّا ظَهَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَغَلَبَتِ السَّحَرَةُ، آمَنَتْ بِهِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ إِسْلَامُهَا، أَوْتَدَ يَدَيْهَا وَرَجَلَيْهَا بِالْأَوْتَادِ، وَأَلْقَاهَا فِي الشَّمْسِ ﴿ إِذْ قَالَتْ ﴾ وَهِيَ تَعَذِّبُ ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا ﴾ أَي ابْنِ لِي قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ، أَسْكَنَهُ بَعْدَ مَفَارِقَتِي الدُّنْيَا، وَأَرَادَتْ بِهِ الدَّرَجَةَ الْعَالِيَةَ فِي جَنَّاتِ الْخُلْدِ ﴿ فِي الْجَنَّةِ ﴾ رَوَى أَنَّهُ لَمَّا قَالَتْ ذَلِكَ، أُرِيَتْ بَيْتَهَا فِي الْجَنَّةِ، وَانْتَزَعَ رُوحَهَا ﴿ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أَي مِنْ نَفْسِهِ الْخَبِيثَةِ، وَعَمَلِهِ السَّيِّئِ ﴿ وَنَجِّنِي

(١) وَفِي ذَلِكَ مِبَالِغَةٌ فِي الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ، وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْفَعُهُ عَادَةُ صَلَاحٍ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْغَيْرُ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ وَالصَّلَاحِ.

مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ من القبط التابعين له في الظلم والطغيان، وفيه دليل أن الالتجاء إلى الله تعالى عند المِحْنِ، من سِرِّ الصالحين.

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الْإِسْمَاءُ الْكُنْيَاءُ﴾

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ عطف على امرأة فرعون أي وضرب الله مثلاً للذين آمنوا، مريم بنت عمران، وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة، مع كون قومها كفاراً ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي عفت عن اقتراف الفاحشة مع الرجال ﴿فَنَفَخْنَا﴾ أي فنفخ جبريل بأمرنا ﴿فِيهِ﴾ في الفرج ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ الإضافة إضافة تملك وتشريف، كبيت الله، وناقية الله، أي من روح خلقناه بلا توسط، فحملت بعبسى عليه السلام ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ بالصحف المنزلة على إدريس وغيره ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهَا﴾ يعني الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَتِينِ﴾ أي المطيعين لله عز وجل، وهم رهطها وعشيرتها، لأنهم كانوا أهل بيت صلاح، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»^(١) والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التحريم»

(١) أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٨٧٨ وقال: حديث حسن صحيح.

سُورَةُ الْمَلِكِ

مكية وهي ثلاثون آية

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من القرآن سورة، ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له، وهي تبارك الذي بيده الملك»^(١) وعن ابن عباس مرفوعاً: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ اليدُ هنا: كناية عن القدرة التامة، والاستيلاء الكامل، فهو سبحانه مالك الملك، يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء^(٢) ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة عليه، يتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكم البالغة.

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن رقم ٢٨٩٣ وأبو داود في الصلاة رقم ١٤٠٠.
(٢) الآية الكريمة: ﴿بيده الملك﴾ تمثيل لعزته تعالى وجلاله، وتصرفه الكامل في جميع الأمور، كما نقول: الدولة بيد السلطان، أي هو المتصرف في شؤونها، قال ابن عباس في تفسير الآية: ﴿بيده الملك﴾ قال: يعزُّ من يشاء، ويذل من يشاء، ويحيي ويميت، ويعني ويفقر، ويعطي ويمنع. اهـ وهو الصحيح في معنى الآية الكريمة.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْغَفُورُ﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ شروع في تفصيل بعض أحكام الملك، وآثار القدرة، وبيان ابتنائهما على قوانين الحكم والمصالح، والمراد بالموت: الموت الطارئ، وبالحياة الحياة التي تكون قبل الموت، وقدم الموت لكونه السابق، لقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ ولأنه ادعى إلى حسن العمل، ولأن الأشياء في الابتداء، في حكم الموتى، كالتراب، والنطفة، والعلة، ونحو ذلك، ثم طرأت عليها الحياة، وقيل: أراد موت الإنسان، وحياته بعد البعث من القبور، والموت نعمة كالحياة، لأنه الفاصل بين حال التكليف، وحال المجازاة، وهو القنطرة للعبور إلى دار الخلود، فإن الدنيا جسرٌ ومعبرٌ للآخرة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة المختبر بالتكليف بالأوامر والنواهي ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أخلصه وأصوبه، فالخالص أن يكون لوجه الله، والصواب أن يكون على السنة، والمقصد الأصلي من الابتلاء، هو ظهور إحسان المحسنين، مع تحقق أصل الإيمان، وفيه من الترغيب في الترقى إلى معارج العلوم، ومدارج الطاعات، والزجر عن نواقضها ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يفوته من أساء العمل ﴿الْغَفُورُ﴾ لمن تاب وأناب.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ
الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي الذي أبدع خلق السموات، فجعلها سبع سموات ﴿طِبَاقًا﴾ أي متطابقة بعضها فوق بعض، سماء فوق سماء ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل مخاطب ﴿مِن تَفَوتٍ﴾ أي من اختلاف، ومن عيب، وحقيقة التفاوت عدم التناسب من

الفوت، وقيل: التفاوت: الفطور، بدليل قوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ هل ترى من فطور؟ فالمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت في الدلالة على حكمة صانعها ﴿فَأَرْجِعْ الْبَصَرَ﴾ أي كرّر النظر إلى السماء، فانظر إليها، مرة بعد مرة، متأملاً فيها، حتى يتضح لك ذلك ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أي صدوع وشقوق، جمع فطر، وهو الشق، والمراد به الخلل.

﴿ثُمَّ أَرْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾

﴿ثُمَّ أَرْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي رجعتين آخرين في ارتياد الخلل، والمراد بالثنائية التكرار والتكثير، كما في لبيك وسعديك، أي رجعة بعد رجعة، وإن كثرت ﴿يَنْقَلِبْ﴾ أي ينصرف ويرجع ﴿إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي بعيداً ومحروماً من إصابته ما التمسه من العيب والخلل، كأنه طرد عنه طرداً بالصغار ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي كليل من طول المعاودة، وكثرة المراجعة، ولم ير فيها خلاً، لأن الله أتقنها وأحكمها.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ بيان لكون خلق السماوات، في غاية الحسن، إثر بيان خلوها عن شائبة القصور، وتصدير الجملة بالقسم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها، أي وبالله لقد زيننا أقرب السماوات إلى الأرض، وهي التي يراها الناس ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ أي بالكواكب المضيئة بالليل، إضاءة السراج، من النجوم السيارات والثوابت، تراءى كأنها مركوزة فيها، مع أنها في هذا الفضاء الواسع، الذي لا يعرف مقدار سعته إلا الله رب العزة والجلال ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ وجعلنا لها فائدة أخرى، هي رجم أعدائكم الشياطين، بانقضاض الشهب المقتبسة من نار الكواكب ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي للشياطين ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ في الآخرة، وهي النار الموقدة، فإن

قيل: إن الشهب كانت موجودة قبل بعثة النبي ﷺ، فكيف أصبحت رجوماً للشياطين؟ فالجواب عن ذلك: أنا لا ننكر أن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي ﷺ إلا أن ذلك لا ينافي أنها بعد مبعث النبي ﷺ قد توجد بسبب آخر، وهو دفع الجن عن استراق السمع، قيل للزهري: أكان يُرمى في الجاهلية بالشهب؟ قال: نعم، قيل: أفرأيت قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ قال: غَلَطْتُ واشتد أمرها حين بُعث النبي ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ من الشياطين وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع والمقر.

﴿إِذَا الْقَوُافِيهَا سَمِعُوا لِهَا شَيْقَاقَ وَهْيَ تَقُورُ﴾.

﴿إِذَا الْقَوُافِيهَا﴾ أي طرحوا في جهنم ﴿سَمِعُوا لِهَا﴾ أي لجهنم ﴿شَيْقَاقَ﴾ صوتاً منكراً كصوت الحمار ﴿وَهْيَ تَقُورُ﴾ أي تغلي بهم غليان الرجل بما فيه، هذا من فور الغضب، يقال: تركتُ فلاناً يفور غضباً، ويتأكد هذا بقوله تعالى:

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي تتميز وتتفرق ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي من شدة الغضب عليهم، يقال: فلان يتميز غيظاً إذا وصفوه بالإفراط فيه، كما في قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ وهو تمثيل لشدة اشتعالها ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعة من الكفرة ﴿سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ بطريق التوبيخ والتفريع، ليزدادوا عذاباً فوق عذاب ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟ أي ألم يأتكم رسول يخوفكم من هذا العذاب؟.

﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝ ﴾

﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ﴾ أي قال كل فوج من الأفواج قد جاءنا نذير فأنذرنا، وتلا علينا ما نزل الله عليه ﴿ فَكَذَّبْنَا ﴾ ذلك النذير، في كونه نذيراً من جهته تعالى ﴿ وَقُلْنَا ﴾ في حق ما تلاه من الآيات إفراطاً في التكذيب ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ ﴾ على أحد ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ مما تقولون من وعد ووعيد وغير ذلك ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ﴾ أي ما أنتم في ادعاء أنه تعالى نزل عليكم آيات تنذروننا بما فيها ﴿ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ أي بعيد عن الحق والصواب.

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ ﴾

﴿ وَقَالُوا ﴾ أيضاً معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمع أو يعقل ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ الإنذار من الرسل، فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتماداً على ما لاح من صدقهم من المعجزات ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ عقل متأمل، ونفهم ونتفكر في حكمه تفكر المستبصرين ﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ في جملة أهل النار، وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة الشرع والعقل، وأنهما حجتان ملزمتان.

﴿ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ ﴾

﴿ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ بكفرهم، في تكذيبهم الرسل، حين لا ينفعهم الاعتراف ﴿ فَسُحْقًا ﴾ مصدر وقع موقع الدعاء، أي فبعداً لهم وهلاكاً، سحقهم الله سحقاً، وأبعدهم الله من رحمته، ومن دار كرامته ﴿ لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ هم الشياطين، والداخلون في عدادهم من الكفار والفجار.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي يخافون ربهم ولم يروه، وكفوا عن المعاصي، قبل معاينة العذاب ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ.

﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ﴾ بيان لتساوي السر والجهر، بالنسبة إلى علمه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾^(١) قال ابن عباس: نزلت في المشركين، كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم، كي لا يسمع إله محمد، فيخبره بما تقولون، فقل لهم: أسروا ذلك القول، أو اجهروا به، فإن الله يعلمه، ولا تخفى عليه سبحاته خافية. واللفظ عام لجميع الخلق، أي فاحترزوا من المعاصي سرّاً، كما تحترزون جهراً، وتقديم السر على الجهر، لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر، إذ ما من شيء يُجهر به، إلا وهو مضمر في القلب يتعلق به الإسرار غالباً، فيتعلق علمه تعالى به ﴿إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بضمائرها، قبل أن تترجم الألسنة عنها، كأنه قيل: إنه تعالى مبالغ بمضمرات جميع الناس، وأسرارهم المستكنة في صدورهم.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ إنكار ونفي لعدم إحاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر، أي ألا يعلم السر والجهر، من أوجد جميع الأشياء التي هما من جملتها؟ ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ حال من فاعل يعلم مؤكده للإنكار، اللطيف أي العالم بدقائق الأشياء، الخبير بحقائق الأمور.

(١) سورة الرعد، آية: ١٠.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ
وَلِئِلَهِ الشُّكْرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ أي لينة سهلة، يسهل عليكم السلوك فيها ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي في جوانبها وفي جبالها وطرقها ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ والتمسوا من نعم الله تعالى فيها ﴿وَلِئِلَهِ الشُّكْرُ﴾ أي المرجع، فيسألکم عن شكر ما أنعم به عليكم.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ يعني الملائكة الموكلين بتدبير هذا العالم، أو الله على تأويل من في السماء أمره وقضاؤه، وقال ابن عباس: «عقاب من في السماء، وهو متعال عن الخلق»^(١) ﴿أَن يُخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ أن يغور بكم الأرض بعدما جعلها لكم ذلولاً، تمشون في مناكبها، وتأكلون من رزقه، لكفرانكم تلك النعمة ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي تضطرب وتتحرك، على خلاف ما كانت ثابتة عليه.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ
نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ حجارة من السماء، كما

(١) قال ابن تيمية في الفتاوى ١٤٣/٣: ويصان جلّ وعلا عن الظنون الكاذبة، مثل أن يُظن أن ظاهر قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ أن السماء تقلّعه - أي هو محصور فيها - أو تنظّله، فهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض!!

فعل بقوم لوط، وأصحاب الفيل ﴿فَسْتَعْمَلُونَ﴾ عن قريب عند الموت، وفي الآخرة ﴿كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ كيف إنذاري وعقابي للمكذبين؟.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿١٨﴾

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل كفار مكة، كقوم نوح، وعاد، وأضرابهم، والالتفات لإبراز الإعراض عنهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم؟ إذ أهلكتهم بإنزال العذاب، وفيه من المبالغة في تسلية الرسول ﷺ وتشديد التأكيد لقومه ما لا يخفى.

﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ فَوَقَّهَتْ صَفْنَئَ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ ﴿١٩﴾

﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ﴾ أي أغفلوا ولم ينظروا؟ ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ جمع طائر ﴿فَوَقَّهَتْ﴾ في الهواء ﴿صَفْنَئَ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن، وهو السر في إيثار «يقبضن» الدال على التجدد على قابضات، والطيران في الهواء، كالسباحة في الماء ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ في الجو عن الوقوع ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ الشامل برحمته لكل شيء، وإلا فالثقل يتسفل طبعاً ولا يعلو ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيف إبداع المبدعات، وتدبير المصنوعات.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ﴾ تبكيت لهم، بنفي أن يكون لهم ناصر من عذابه تعالى، أي من هذا الذي يستطيع أن يدفع عنكم عذاب الله، إن أراد الله تعالى إهلاككم؟ هل آلهتكم المزعومة تستطيع نصرتكم وحمايتكم؟

و«أم» منقطعة مقدرة ببل، المفيدة للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل، فيما يشاهدونه من أحوال الطير، إلى تبكيت آخر ﴿يَصْرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أي ينصركم متجاوزاً نصر الرحمن؟ فهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا؟﴾ ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ لَا فِي عَذَابٍ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أي ما هم إلا في غرور، في زعمهم أنهم محفوظون من النوائب، بحفظ آلهتهم لهم، وزعمهم هذا ضلال واضح بين.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ ﴿٢١﴾

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ أي الله عز وجل ﴿رِزْقَهُ﴾ بإمساك المطر، وإنبات الزرع، فمن يستطيع أن يمنحكم أسباب الرزق، إن منعها الله عنكم؟ هل هناك إله غير الله يقدر عليه؟ وأسباب الرزق متعددة: الماء، والهواء، والشمس، والرياح، والشجر، والثمر، وكلها بيد الخلاق جلّ وعلا، ولهذا ختم الله الآية بقوله سبحانه: ﴿بَلْ لَجُوا﴾ أي تماردوا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ أي في عناد واستكبار عن الحق ﴿وَنُفُورٍ﴾ فالتعو بسبب حرصهم على الدنيا، والنفور بسبب جهلهم بالدين، والمعنى: بل تمارد الكفار في الطغيان، وأصرروا على الكفر والعصيان.

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ﴾ هذا مثل ضرب به الله للمشرك والموحد، توضيحاً لحالهما، والفاء لترتيب سوء حالهم، وخرورهم في مهاوي الغرور، وعدم اهتدائهم إلى جهة يتوهم فيها رشد في الجملة، والمعنى: أفمن يمشي وهو يعثر كل ساعة، ويخر على وجهه في كل خطوة، لتوعر طريقه، واختلال قواه، أهدى إلى المقصد الذي يؤثّه، وهو الكافر الذي أكبّ على الكفر والمعاصي ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أي يمشي قائماً معتدلاً، يبصر الطريق سالماً من العثر والخرور ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على

طريق مستو لا عوج فيه، ولا انحراف؟ وهو المؤمن المستمسك بدين الإسلام^(١).

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٢)

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ أي خلقكم خلقاً بديعاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتسمعوا آيات الله، وتتغظوا بمواعظها ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ لتنظروا بها آثار قدرته، وتروا الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله تعالى ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتفكروا بها وتعتبروا، خصّها بالذكر، لأنها آيات العلم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي باستعمالها فيما خلقت لأجله، فشكر نعم الله، صرفها في مرضاته.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٣)

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي خلقكم وبشكم وكثركم فيها لا غيره ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة للجزاء.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٤)

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الكافرون للمؤمنين استهزاء ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟﴾ أي متى

(١) هذا تمثيل رائع، وتصوير بديع، جمع بين جمال التمثيل، وروعة التعبير، وكأنه يقول: هل من يمشي كالدابة، منكس الرأس، أعمى القلب والعين، لا يبصر يمينا ولا شمالا، ولا يرى ما أمامه، فهو يخطو خط عشواء، ويتعثر بين حين وحين في مشيه، لأنه لا يبصر الطريق، هل هذا أهدي أم من يمشي منتصب القامة، يبصر طريقه، ويرى ما أمامه فهو آمن من العثار، لأنه يمشي في وضوح النهار، يسير على طريق مستقيم، لا اعوجاج له ولا النواء؟ أيهما أهدي سبيلاً، وأحسن دليلاً؟ قال ابن عباس: هذا مثل لمن سلك طريق الضلالة، ولمن سلك طريق الهدى ١١.

يكون الحشر والجزاء الذي تعدوننا به؟ كما ينبىء عنه قوله سبحانه ﴿وإليه تحشرون﴾ أو ما وعدوا به من العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يخاطبون به النبي ﷺ والمؤمنين، والجواب محذوف، أي إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به، فبينوا لنا وقته؟.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَلْهَمْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَلْهَمْتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي العلم بوقته عند الله عز وجل، لا يطلع عليه غيره ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ أي مخوف أنذركم عذاب الله، ووقوع الموعود لا محالة ﴿مُبِينٌ﴾ أي أبين لكم الشرائع.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الفاء فصيحة معربة عن تقدير جملة، كأنه قيل: وقد أتاهم الموعود فرأوه، فلما رأوه ﴿زُلْفَةً﴾ أي قريباً منهم ﴿سَيِّتَتْ﴾ أي ساءت رؤية الموعود ﴿وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ واسودت بأن علتها الكآبة، وغشيتها القتر، وظهرت عليها آثار الاستياء من الذل والهوان ﴿وَقِيلَ﴾ تشديداً لعذابهم، والقائلون هم الزبانية ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ أي تسألون تعجيله، إنكاراً واستهزاء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾ أي إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين، والتعبير عنه بالإهلاك، لما أنهم كانوا يدعون عليه وعلى المؤمنين بالهلاك ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا، فنحن في جوار رحمته،

متربصون لإحدى الحسنين ﴿فَمَنْ يُحْيِرْ﴾ ينجي ﴿الْكَاذِبِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي مؤلم، أي من يحميكم من عذاب الله المؤلم الوجيع؟ ومن الذي يجبركم وينجيكم من غضبه وانتقامه؟ هل تظنون أن الأصنام تخلصكم من عذاب الله؟.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ الذي أدعوكم إليه، مولى النعم كلها ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ أي صدقنا به وحده، ولم نكفر به كما كفرتم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره كما فعلتم أنتم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؟ أي فسوف تعلمون من هم أهل الشقاء والضلالة، منا ومنكم؟ وهذا تهديد شديد.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض، أي ذاهباً في أعماقها ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ أي جارٍ متدفق، فائض سهل المأخذ، فلا بد أن يقولوا: هو الله، فيقال لهم حينئذ: فلم تجعلون الأصنام شريكاً له؟ تليت هذه الآية عند ملحد، فقال: نأتي به بالمعول، فنام تلك الليلة ثم استيقظ وقد ذهب ماء عينه!! والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الملك»

سُورَةُ الْقَلَمِ

مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾

﴿ت﴾ بالسكون على الوقف، من أسماء الحروف الهجائية المقطعة، مثل: ألف، ولام، وميم، ذكر للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، والبشر مع ذلك عاجزون عن الإتيان بمثله، وأما قول الحسن: إنه الدواة، وقول ابن عباس: إنه الحوت، فمشكل ﴿وَالْقَلَمِ﴾ الواو للقسم، وأريد بالقلم الجنس، لكثرة منافعه، ولو لم يكن له مزية، سوى كونه آلة لتحرير كتب الله عز وجل، لكفى به فضلاً، وموجباً لتعظيمه^(١) ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الضمير لأصحاب القلم، كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم.

(١) في القسم بالقلم والكتابة، إشادة بفضل العلم والعلماء، وتنبيه على قيمة الكتابة والدراسة، فإن القلم أخو اللسان، وهو نعمة من الرحمن على عباده، فالإنسان من بين سائر المخلوقات، هو الذي خصّه الله وشرفه بمعرفة القراءة والكتابة، ليفصح عمّا في ضميره، ولا يمكن لسائر الحيوانات أن تتفاهم عن طريق المراسلة والكتابة، إنما تتفاهم بالأصوات، وحسبك دليلاً على شرف القلم، أن الله عز وجل أقسم به هنا، كما أن أول آيات الوحي المنزل فيها إشادة بالقراءة والكتابة: ﴿الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ ﴾

﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ ﴾ أي بإنعامه عليك بالنبوة، أنت يا محمد بريء من الجنون، وهو جواب لقولهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ إنه تعالى وصفه ﷺ بثلاثة أنواع من الصفات:

الأولى: نفي الجنون عنه، بنعمه الظاهرة، من الفصاحة التامة، والعقل الكامل، والسيرة المرضية وللاتصاف بكل مكرمة، فوجود هذه النعم ينافي حصول الجنون.

والثانية: الأجر الكبير الدائم.

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي إن لك في دعاء الخلق إلى الله تعالى، المنزلة الرفيعة العالية، والثواب الكبير غير المقطوع، وإحراز هذا المقام ينافي الجنون.

والثالثة: الخُلُقُ العظيم الذي خصَّ به الرسول ﷺ.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ أي أنت يا محمد على جانب عظيم، من الأدب الرفيع، والخلق الكريم، ولقد نسبوه إلى الجنون - وحاشاه - حسداً وعداوة، ومكابرة، مع جزمهم بأنه ﷺ في غاية الغايات القاصية، من حصانة العقل، ورزانة الرأي، ولما كانت أخلاقه الحميدة كاملة، وصفها الله تعالى بأنها عظيمة، وفيها دققة أخرى، وهي كلمة «على» للاستعلاء، فدلَّ اللفظ أنه ﷺ مستعلي على خُلُقٍ عظيم، كما رُوي عن البراء رضي الله عنه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خُلُقاً..» الحديث. وحقاً!! لقد تمثلت الأخلاق الفاضلة في شخصه الكريم

فالصدق، والبر، والحلم، والحياء، والصبر، والشجاعة، والعزة، والتواضع، والعفة، والوفاء، كل أولئك كانت من صفاته البارزة، التي قرّبت به إلى القلوب، فتعلّق الناس به، وتركوا في حبه جاهليتهم وآباءهم وأبناءهم.

﴿فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ﴾

﴿فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ﴾ أي عن قريب ترى ويرون من هو المجنون؟ هل أنت أم هم؟ وهذا وعد له، ووعد له، والمراد به يوم القيامة، سيظهر بجلاء أمرك وأمرهم، وقيل: في الدنيا بظهور الإسلام، واستيلائك عليهم، وصيرورتك مهيباً ومعظماً في قلوب العالمين.

﴿يَا أَيَّتُكُمُ الْمَفْتُونُ﴾

﴿يَا أَيَّتُكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي المجنون، والباء مزيدة، أو بأي الفريقين بفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين، في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم، كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنَ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ تعليل لما قبله من ظهور جنونهم، بحيث لا يخفى على أحد، أي هو أعلم بمن ضل عن سبيله المؤدي إلى سعادة الدارين، وهام في تيه الضلال، متوجهاً إلى الشقاوة الأبدية، وهذا هو المجنون الذي لا يفرّق بين النفع والضرر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي هو أعلم بالعقلاء المهتدين إلى سبيله، الفائزين بكل مطلوب، والناجين من كل محذور، فيجزى كلا من الفريقين، حسبما يستحقه من العقاب والثواب، وإعادة ﴿هو أعلم﴾ لزيادة التقرير.

﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ٨

﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي كفار مكة، وهذا تهيج له للتصميم على معاداتهم، فقد أرادوا منه أن يعبد الله مدة، وآلهتهم مدة، ويكفوا عنه غوائلهم!! والمعنى: دم يا محمد على ما أنت عليه، من عدم طاعتهم، وإنما عبّر بالطاعة للمبالغة في الزجر، والنهي عن مداونتهم ومداراتهم، استجلاباً لقلوبهم، كما ينبيء عنه قوله تعالى:

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ٩

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي تمنوا لو تبلى لهم يا محمد، وترك بعض ما لا يرضونه، وتسامحهم في بعض الأمور، فهم يدهنون حينئذ طمعاً في إدهانك.

﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ ١٠

﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل، وتقديم هذا الوصف على سائر الأوصاف، لكونه أدخل في الزجر ﴿مَّهِينٍ﴾ أي حقير الرأي والتدبير، من المهانة وهي الحقارة، نزلت في الوليد بن المغيرة.

﴿هَمَّازٍ مَشَّامٍ بِنَمِيمٍ﴾ ١١

﴿هَمَّازٍ﴾ أي عيَّاب، طعان، مغتاب ﴿مَشَّامٍ بِنَمِيمٍ﴾ نقال للحديث على وجه السعاية والإفساد.

﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ ١٢

﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ بخيل ممسك عن الإنفاق، ويمنع الناس عن الخير والإنفاق ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز في الظلم حدّه ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام.

﴿عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِمٌ﴾.

﴿عُتِّلَ﴾ غليظ، جاف، لثيم النفس ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي بعدما عُدَّ من الصفات المذمومة ﴿زَيْنِمٌ﴾ هو ولد الزنا، روي أنه دخل على أمه، وقال لها: «إن محمداً وصفني بعشر صفات، وجدتُ تسعاً فيّ، فأما الزنيم فلا علم لي به، فإن أخبرتني بحقيقته، وإلاّ ضربت عنقك!! فقالت: إنَّ أباك عثين، وخفتُ أن يموت ويذهب ماله إلى غيره، فدعوت راعياً إلى نفسي، فأنت من ذلك الراعي!! ولا غرابة فالنطفة إذا خبثت خبث الناشء منها.

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي لا تطعه مع هذه المثالب والمعائب، لأن كان ذا مال وبنين، أي ليساره وحظه من الدنيا.

﴿إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي يقول عن القرآن العظيم: إنه خرافات وأباطيل الأولين!!.

﴿سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾.

﴿سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ كنى عن الأنف بالخرطوم، إذلالاً له وإهانة، لأن الخرطوم للخنزير، أي سنكويه على أنفه، مهانة له، وعَلَمًا يُعرف به، وتخصيصُ الأنف بالذكر، لأن الوسم عليه أشنع وأشنع.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَتَوْا لِيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أي أهل مكة بالقحط، بدعوة رسول ﷺ ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ

الْجَنَّةِ ﴿وَهُمْ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، كَانَتْ لِأَبِيهِمْ هَذِهِ الْجَنَّةُ، قَرِبَ صَنْعَاءَ بِالْيَمَنِ، فَكَانَ يَأْخُذُ مِنْهَا قُوَّةَ سَنَةٍ، وَيَتَصَدَّقُ بِالْبَاقِي، وَكَانَ يَنَادِي الْفُقَرَاءَ وَقْتَ الصُّرَامِ وَيَتْرَكُ لَهُمْ مَا أَخْطَأَهُ الْمَنْجَلُ، وَمَا أَخْطَأَهُ الْقُطَافُ مِنَ الْعَنْبِ، فَكَانَ يَجْتَمِعُ لَهُمْ شَيْءٌ كَثِيرٌ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُوهُمْ قَالَ بَنُوهُ إِنَّ فَعَلْنَا مَا كَانَ يَفْعَلُ أَبُونَا، ضَاقَ عَلَيْنَا الْأَمْرُ، فَحَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَقْبَمُوا لِصِرْمَتِهَا مُصْبِحِينَ﴾ لِيَقْطَعْنَهَا دَاخِلِينَ فِي الصَّبَاحِ.

﴿وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ ﴿١٨﴾

﴿وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ أي لا يقولون إن شاء الله، أو لا يستثنون حصة المساكين، كما كان يفعل أبوهم.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ﴾ ﴿١٩﴾

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أي على الجنة ﴿طَائِفٌ﴾ أي فجاءها بلاء من السماء ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ من جهته تعالى ﴿وَهُمْ نَائِبُونَ﴾ غافلون عما جرت به المقادير، والطائف لا يكون إلا ليلاً، أي طرقها طارقٌ من عذاب الله. قال الكلبي: أرسل الله تعالى عليهم ناراً، فأحرقت الشجر والثمر.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ كالبسنان الذي صرمت ثماره، بحيث لم يبق منها شيء، فعيل بمعنى المفعول..

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ ﴿٢١﴾

﴿فَتَنَادَوْا﴾ أي نادى بعضهم بعضاً ﴿مُصْبِحِينَ﴾ عند الصبح الباكر.

﴿ أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿ أَنْ أَغْدُوا ﴾ أي اخرجوا في الصباح الباكر، قبل أن ينتبه الفقراء، ومعنى الغدو: الذهاب في الصباح المبكر ﴿ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ﴾ يعني الثمار، والزرع، والأعقاب ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قاطعين له.

﴿ فَأَنْطَلِقُوا وَهَرَبَتُمْ يَخْفَتُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ فَأَنْطَلِقُوا ﴾ أي ذهبوا ﴿ وَهَرَبَتُمْ يَخْفَتُونَ ﴾ أي يتسارون فيما بينهم، لئلا يسمع المساكين.

﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا ﴾ أي الجنة ﴿ الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ أي لا تمكنوه من الدخول.

﴿ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرٍّ قَدِيرٍ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرٍّ ﴾ أي على قصد وعزم، وقيل: على نكد من حاردت السَّنة إذا لم يكن فيها مطر، وحاردت الإبل إذا منعت دَرَّها ﴿ قَدِيرٍ ﴾ عند أنفسهم على صرامها.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أي أول ما رآوها محترقة ﴿ قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴾ أي ضللنا طريق جنتنا وما هي بها، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا:

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿بَلْ نَحْنُ مُخْرَجُونَ﴾ أي حرمتنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ ﴿٢٨﴾.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أعقلهم وأعدلهم رأياً ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ لولا تذكرونه وتتوبون إليه من خبث نيتكم؟.

﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٢٩﴾.

﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي بمنعنا المساكين، فتكلموا بعد خراب البصرة- أي البستان-، وأقرؤوا على أنفسهم بالظلم في منع المعروف.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً، فإنَّ منهم من أشار بذلك، ومنهم من استصوبه، ومنهم من سكت، ومنهم من أنكره، فأصبح كل واحد يحيل باللائمة على الآخر!! ثم اعترفوا جميعاً بأنهم تجاوزوا الحدَّ.

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٣١﴾.

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا﴾ دعوا على أنفسهم بالويل ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي متجاوزين حدود الله، في حق الفقراء والمساكين، ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا:

﴿عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُدْخِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ ﴿٣٢﴾.

﴿عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُدْخِلَنَا﴾ أي يعطينا بدلاً منها، ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي من هذه الجنة ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ أي طالبون الخير، وراجون العفو منه تعالى.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣).

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي مثل ذلك العذاب الدنيوي الذي ذكرناه، نعذب من سلك سبيلهم ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ أي أعظم وأشدُّ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أنه أكبر، لاحترزوا عما يؤديهم إليه.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (٣٤).

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ أي جنات ليس فيها إلا التمتع، الخالص عن شائبة الزوال، وما ينغصه من الكد والتعب.

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥).

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ تقرير لما قبله، وردُّ لما يقوله الكفرة، فإنهم كانوا يقولون: إن صَحَّ أَنَا نُبْعَثُ، لم يكن حالنا وحالهم، إلا مثل ما هو في الدنيا، يعطينا الله ويكرمنا، كما أكرمنا في الدنيا.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٦).

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ١٢ تعجيب من حكمهم، واستبعاد له، وإشعاراً بأنه صادرٌ من اختلال فكر وعقل، وهو التسوية بين المطيع والعاصي.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (٣٧).

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ نازل من السماء ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ أي تقرأون.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ (٣٨).

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي ما تتخيرونه وتشتهونه.

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ (٣٩).

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا ﴾ أي عهود مؤكدة بالآيمان ﴿ بَلِغَةٌ ﴾ متناهية في التوكيد ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ إن لكم لما تحكمون أي ثابتة لكم إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدها، حتى نعطيكم ما تحكمون، أم هو مجرد الافتراء على الله؟!

﴿ سَلَّمْتُ إِلَيْهِمْ بِالذِّكْرِ ﴾ (٤٠).

﴿ سَلَّمْتُ إِلَيْهِمْ بِالذِّكْرِ ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أي سلمهم مثبتاً لهم ﴿ إِلَيْهِمْ بِالذِّكْرِ ﴾ الحكم الخارج عن العقول ﴿ زَعِيمٌ ﴾ أي كفيل وضامن؟.

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (٤١).

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ يشاركونهم في هذا القول ﴿ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في دعواهم، إذ لا أقل من التقليد، وقد نبه تعالى في هذه الآية على أن ليس لهم شيء، يتوهم أن يتشبثوا به حتى التقليد.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٤٢).

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ الجمهور على أن الكشف عن الساق، عبارة عن شدة الأمر وصعوبته، والمعنى يوم يشتد الأمر ويصعب، ولا كشف ولا ساق، ولكن كنى بها عن الشدة، ومثله قول العرب: كشفت الحرب عن ساقها، وحمي الوطيس ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ أي يدعى الكفار إلى السجود لله رب العالمين، لا تكليفاً، ولكن توبيخاً وتعنيفاً، على تركهم إياه في الدنيا، وتحسيراً لهم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لزوال القدرة عليه، لأن ظهر أحدهم يصبح طبقاً واحداً، فلا يقدر على الانحناء أو السجود.

﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ زَهَقَهُمْ ذُلُّهُ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ وَهُمْ سَلَامُونَ ﴾ (٤٣).

﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ ﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿ زَهَقَهُمْ ﴾ أي يغشاهم وتلحقهم ﴿ ذُلُّهُ ﴾ أي صغارٌ وهوان ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ ﴾ على ألسن الرسل ﴿ إِلَى الشُّجُودِ ﴾ في الدنيا ﴿ وَهُمْ سَلَامُونَ ﴾ أي وهم أصحاب متمكنون منه، فلا يجيبون إليه، وكذلك يدعون إلى الصلاة، بالأذان والإقامة في الجماعة، فلا يلبثون إليها، وفي هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة.

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٤).

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثِ ﴾ أي دعني والمكذبين بالقرآن، وخل بني بينهم، ولا تشغل قلبك بهم، فسأنتقم لك منهم، وليس هناك مانع يمنع الله من عذابهم، ولكنه أسلوب العرب في الوعيد والتهديد، كما يقول الإنسان: دعني وهذا الظالم لأكفيك شره. وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتهديد للمكذبين ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ أي نأخذهم بطريق الاستدراج خطوة خطوة، يقال: استدرجه إليه استنزله درجة درجة، حين يورطه فيه، واستدراجهم بالإمهال، وإدامة الصحة، وازدياد النعمة، فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد المعاصي ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إنه استدراج بل يزعمون أنه إيثار على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب هلاكهم.

﴿ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (٤٥).

﴿ وَأَمْلِي لَهُمْ ﴾ أي أمهلهم فلا أعجلهم بالعقوبة، ليزدادوا إثماً ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أي قوي شديد، لا يدفع بشيء، وتسميته كيداً لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للهلاك، ولا يجوز أن يسمى الله كائداً، ماكراً، مستدرجاً، لأن صفات النقص لا تنسب إليه تعالى، وأسماءه توقيفية.

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ (٤٦).

﴿ أَمْ قَسَتْ لَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾؟ أي هل تطلب منهم أجراً حتى ينقلهم ذلك ويمنعهم من الإيمان؟

﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (١٧)

﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ ﴾ أي اللوح المحفوظ أو المغيبات ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ منه ما يحكمون.

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ (١٨)

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وهو إمهالهم، وإن أمهلوا لم يهملوا ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ أي كيونس عليه السلام، في العجلة والغضب على القوم ﴿ إِذْ نَادَىٰ ﴾ أي حين دعا ربه في بطن الحوت: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ أي مملوء غيظاً وغماً، من كظم السقاء إذا ملاه، أي لا يكن حالك كحال هذو وقت ندائه، أي لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر، والمغاضبة، فتبتلى ببلائه.

﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ رَعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ (١٩)

﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ رَعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي رحمة، وهو التوفيق للتوبة، وقبولها ﴿ لَنُبِذَ ﴾ أي لطرُح من بطن الحوت ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ بالفضاء الواسع ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ أي وهو ملام على ما ارتكب، يعني لولا هذه النعمة، لنبذ بالعراء مع الذم له، لكن الله أنعم عليه بالتوبة والإنابة، فلم يلحقه شيء من الذم.

﴿ فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢٠)

﴿ فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُ ﴾ أي اصطفاه واختاره لنفسه ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي جعله من الكاملين في الصلاح.

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ

لَمَجْنُونُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ أي إنهم من شدة عداوتهم لك، ينظرون إليك ويكادون أن يصرعوك بأعينهم، ويهلكونك بنظرات مسمومة قاتلة لشدة بغضهم، والإصابة بالعين حق، ومن الناس من أنكر ذلك، ولا يستبعد أن يكون لبعض النفوس خاصية في التأثير، فلاحتمال العقلي قائم، والدلائل السمعية ناطقة بذلك، روى مسلم والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق»، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين»^(١) وقيل: العين حق تدخل الرجل القبر، والجمل القدر، وقال الحسن: دواء من أصابته العين أن يقرأ عليه هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي وقت سماعهم القرآن تتلوه عليهم، لأنهم كانوا يكرهون سماعه أشد الكراهية، ويحدّون النظر إليه ﷺ بالبغضاء ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لغاية حيرتهم في أمره ﷺ، وجهلهم بحاله ﴿إِنَّهُمْ لَمَجْنُونُونَ﴾ لتنفير الناس عنه، وحيث كان مدار حكمهم الباطل، ما سمعوه منه ﷺ، ردّ الله ذلك ببيان علو شأنه، فقال تعالى:

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي وليس هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي موعظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ أي للإنس والجن، فكيف يُنسب من نزل عليه القرآن للمجنون؟ والآية مفيدة لبطلان قولهم، وتعجيب السامعين من جرأتهم على تفوّه ذلك، والله أعلم بمراده. والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القلم»
* * *

(١) أخرجه مسلم رقم ٢١٨٨ في باب الطب، والترمذي رقم ٢٠٦٣.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

مكية وهي إحدى وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ .

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ الساعة الواجبة الوقوع يعني القيامة، التي هي آتية لا ريب فيها، التي تتحقق فيها الأمور، من الحساب والجزاء.
﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ الأصل الحاقة ما هي؟ أي أي شيء هي؟ فوضع الظاهر موضع الضمير، لزيادة التهويل.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ أي أي شيء أعلمك ﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ تأكيد لهولها، ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات، على معنى أن عظم شأنها وشدتها، بحيث لا تكاد تبلغه دراية أحد لأنها أعظم من ذلك.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ ﴿٤﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ أي بالحاقة، فوضعت القارعة موضعها لأنها من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تفرع الناس بالأفزع والأهوال،

فلما ذكرها وفخمها، ذكر من كذب بها، وما حلّ بهم، تذكيراً لأهل مكة، وتخويفاً لهم، من انتقام الله عزّ وجلّ منهم، لتكذيبهم سيد المرسلين.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِطَاغِيَةِ﴾

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِطَاغِيَةِ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة، وهي الصيحة الشديدة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُحْتَظِرِ﴾.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أي ريح شديدة العصف، كأنها عتّت على خزنتها، فلم يستطيعوا ضبطها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا بِخُلْدٍ حَاقِيَةٍ﴾

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي سلّطها عليهم بالقدرة القاهرة ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر، وهي أيام العجوز سميت بذلك لأن عجوزاً من عاد، توارت في سرب، فانتزعتها الريح فأهلكتها ﴿حُسُومًا﴾ أي متتابعة متوالية، لا تفر ولا تنقطع، تستأصل الناس استئصالاً ﴿فَتَرَى﴾ أيها المخاطب ﴿الْقَوْمَ﴾ إذا كنت حاضراً حينئذ ﴿فِيهَا﴾ في تلك الليالي والأيام ﴿صَرْعَى﴾ موتى قد صرعه الموت، فأصبحوا جثثاً هامدة، جمع صريع ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي يشبهون ﴿أُعِجَزُوا﴾ أصول ﴿خُلْدٍ﴾ جمع نخلة ﴿حَاقِيَةٍ﴾ بالية وساقطة على الأرض.

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ؟﴾ أي فهل ترى أحداً من بقاياهم، أو من نفسٍ باقية؟.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ أي من تقدّمه من الأمم ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ أي قوم لوط، وهم الذين انقلبت بهم ديارهم، حيث جعل الله عاليها سافلها، ولذا سميت بالمؤتفكات ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي بالأفعال ذات الخطأ العظيم، وهي الشرك، والتكذيب بالبعث.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصت كل أمة رسولها، حين نهاهم عما كانوا يتعاطونه من القبائح ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ الله عز وجل ﴿أَخَذَةً رَابِيَةً﴾ أي زائدة شديدة، كما زادت قبائحهم في القبح.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ﴾.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ أي ارتفع وزاد عن حدّه وقت الطوفان، بسبب إصرار قوم نوح على فنون الكفر والمعاصي ﴿حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي حملنا آبائكم وأنتم في أصلابهم، والمراد بحملهم فيها، رفعهم فوق سطح الماء، وحفظناكم حال كونكم في السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا، وفيه تنبيه على أن مدار نجاتهم محض عصمته تعالى، إنما السفينة سببٌ صوري.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ أي الفعلة، وهي إنجاء المؤمنين ﴿تَذْكِرَةً﴾ أي عبرة

وتحفظها ﴿أَذُنٌ وَعِيَّةٌ﴾ من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه، بتذكّره وإشاعته، والتفكير فيه، والوعى: أن تحفظ الشيء في نفسك، والإيعاء أن تحفظه، في غيرك، وَعَيْتُ العلم والحديث وعياً، أي حفظته.

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هي النفخة الأولى، وهو شروع في بيان نفس الحاقة، وكيفية وقوعها، إثر بيان عِظَم شأنها.

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾﴾

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي قلعت ورفعت عن أماكنها، بمجرد قدرة الله تعالى، وارتطم بعضها ببعض ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي دُقْنَا وكُسِرَتَا، أي فُضِرَتِ الأرض والجبال إثر رفعهما، بعضها ببعض، ضربة واحدة، فيصير الكل هباءً منبثاً، وذرات متناثرة، وإذا كان هذا حال الجبال، فكيف بحال الرجال في ذلك اليوم العصيب؟

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي نزلت النازلة، وقامت القيامة.

﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي فُتِحَتْ أبوابها لنزول الملائكة ﴿فَهِيَ﴾ أي السماء ﴿يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة، ساقطة القوة.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي والملائكة على جوانبها، جمع رجا بالقصر:

الناحية، وجمعه أرجاء، مثل سبب وأسباب، قال الضحاك: تكون الملائكة على حافتها، حتى يأمرهم الرب تبارك وتعالى، فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ من الملائكة، روي أنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين، فيكونون ثمانية وعن ابن عباس والضحاك ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، قال بعضهم: وجود العرش لبيان عظمته تعالى، لا لاحتياجه إليه، لأن الله تعالى كان ولم يكن شيء معه، ثم خلق العرش، فالعرش والكرسي مظاهر عظمة الله وجلاله، فعلمنا أنه تعالى خاطبهم فيما يتعارفون، فخلق لنفسه بيتاً يزورونه هو الكعبة المشرفة، وجعل في ركن البيت حجراً، وهو يمينه في الأرض، كما جاء في الحديث الشريف، وليس أنه عز وجل مسكنه في البيت، ويمينه فيه، وهو تمثيل لعظمته تعالى، بما يشاهد من أحوال السلاطين، يوم خروجهم على الناس، للقضاء العام، وإلا فسؤونه سبحانه أجل من كل ما تحيط به تلك العبارة والإشارة.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ للحساب والسؤال، أي تسألون وتحاسبون، عبّر عنه بذلك، تشبيهاً بعرض السلطان العسكر، لتعرف أحوالهم، وهذا - وإن كان بعد النفخة الثانية - لكن لما كان اليوم، اسماً لزمان متسع، تقع فيه النفختان، والصعقة، والنشور، والحساب، صحّ جعله ظرفاً للكل ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي تعرضون على ملك الملوك جلّ وعلا، غير خاف عليه تعالى سرّ من أسراركم، وإنما العرض لإفشاء الحال، والمبالغة في العدل، وفيه أعظم الزجر والوعيد، وهو خوف الفضيحة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبُ يُيَمِّنُهُ ۖ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَوْفَىٰ أُكْتِبُ﴾

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبُ يُيَمِّنُهُ﴾ تفصيل للعرض ﴿فَيَقُولُ﴾ سروراً به

وابتهاجاً، لما يرى فيه من الخيرات، خطاباً لجماعته وأقربائه ﴿هَآؤُمْ﴾ اسم فعل أمر أي خذوا ﴿أَقْرَءُوا كِتَابِيَّةً﴾ والهاء فيه وفي حسابيه، وماليه، وسلطانيه، للسكت، تثبت في الوقف، وتسقط في الوصل، واستحسن الوقف عليها.

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكِي حِسَابِيَّةٍ﴾

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكِي حِسَابِيَّةٍ﴾ أي علمت، وإنما أجرى الظن مجرى العلم، لأن الظن الغالب، يقوم مقام العلم، في العبادات والأحكام، أي إني كنت أظن أنني ألقى حسابي، فيؤاخذني ربي بسيئاتي، فقد تفضل عليّ بالعفو، ولم يؤاخذني بها، فخذوا اقرأوا كتابيه، قال تعالى:

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي ذات رضا، يرضى بها صاحبها، لكونها صافية عن الشوائب، دائمة مقرونة بالتعظيم، فالشيء إنما يكون مرضياً به، إذا كان مشتملاً على هذه الصفات.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة لأنها في السماء، أو الأبنية.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾

﴿قُطُوفُهَا﴾ أي ثمارها جمع قطف، وهو ما يجتنى بسرعة ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي قريبة من مريدها، ينالها القائم، والقائد، والمتكى، ويقال لهم:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ والجمع باعتبار المعنى ﴿هَنِيئًا﴾ أي أكلًا وشرباً لا مكروه فيهما ولا أذى ﴿يَمَّا اسْلَفْتُمْ﴾ بمقابلة ما قدمتم من الأعمال الصالحة، وكلُّ عمل صالح قدمته، وكل من تقدمك فهو سلف ﴿فِي الْأَيَّامِ الْغَالِيَةِ﴾ أي الماضية من أيام الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابُكُمْ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَرَأُوتَ كِتَابِيَّةٍ﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابُكُمْ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ لما يرى من قبح العمل، وسوء العاقبة، ولما حصل من الخجل والافتضاح ﴿يَلَيِّنِي لَرَأُوتَ كِتَابِيَّةٍ﴾ وهذا ينبّهك أن العذاب الروحاني، أشدُّ من العذاب الجسماني.

﴿وَلَرَّ أَذْرٍ مَا حِسَابِيَّةٍ﴾.

﴿وَلَرَّ أَذْرٍ مَا حِسَابِيَّةٍ﴾ أي يا ليتني لم أعلم ما حسابي.

﴿يَلَيِّنَهَا كَأَنَّ الْقَاضِيَةَ﴾.

﴿يَلَيِّنَهَا﴾ يا ليت الموت منها ﴿كَأَنَّ الْقَاضِيَةَ﴾ القاطعة لأمري، ولم أبعث بعدها، ولم ألق ما ألقاه والضмир في ﴿يَا لَيْتَهَا﴾ يرجع للحياة الدنيا، أي يا ليت الحياة الدنيا، كانت الموتة النهائية، ولم أخلق حياً، تمنى الموت لأنه رأى تلك الحالة، أشنع وأمرّ مما ذاقه من الموت.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ أي لم ينفعني ما جمعته في الدنيا من المال والاتباع، على أن «ما» نافية، أو استفهامية للإنكار، أي شيء أغنى عني ما كان لي من اليسار؟.

﴿هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ (٢٩)

﴿هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ أي زال عني سلطاني، فلا المال أغنى ونفع، ولا السلطان بقي أو دفع، فيقول الله تعالى لخزنة جهنم:

﴿خُذُوهُ فَعْلُوهُ﴾ (٣٠)

﴿خُذُوهُ فَعْلُوهُ﴾ أي شدوه بالأغلال، فاجمعوا يديه إلى عنقه.

﴿ثُمَّ لَجِّيمٌ صَلَوَةٌ﴾ (٣١)

﴿ثُمَّ لَجِّيمٌ صَلَوَةٌ﴾ أي أدخلوه النار المتأججة، نار الجحيم وهي النار العظمى، لأنه كان يتعظم على الناس، ليكون الجزاء على وفق المعصية.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٣٢)

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ﴾ وهي حلقات منتظمة، كُرُّ حلقة منها في حلقة ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أي أطولها بذراع المَلَك، وليس الغرض التقدير بهذا المقدار، بل الوصف بالطول، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ يريد به مرات كثيرة، قال الحسن: الله أعلم بأيّ ذراع ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أي فادخلوه فيها، بأن تلقوه على جسده، وهو مرهق لا يقدر على حركة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٣٣)

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ تعليل، وذكر العظيم للإشعار بأنه تعالى هو المستحق للعظمة، فمن تعظم على الله، استوجب أعظم العقوبات.

﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (٣٤)

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ولا يحث على إطعامه، فضلاً عن أن يبذل من ماله، وذكر الحَضُّ للإشعار بأن تارك الحَضِّ بهذه المنزلة، فكيف تارك الفعل وتخصيص الأمرين بالذكر، لأن أقبح الذنوب: الكفر بالله، وأشنع الرذائل: البخلُ وقسوة القلب، وفيه دلالة على عظم جرم حرمان المساكين، لأنه تعالى عطفه على الكفر.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾ أي قريب يحميه ويرفع عنه ما يحترق له قلبه، لأن الأولياء يفرون منه، كقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾^(١).

﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ﴾.

﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ﴾ غسالة أهل النار، من الغسل، والنون زائدة، وأريد به هنا ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم^(٢)، وقيل: هو شجر يأكله أهل النار.

﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾.

﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أي الكافرون، الذين يتعدون حدود الله.

(١) سورة غافر، آية: ١٨.

(٢) إن قلت: كيف قال هنا ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾ وقال في موضع آخر ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ وفي آخر ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ فالجواب: إن العذاب أنواع، والمعذبون طبقات، فمنهم من يكون طعامه الغسلين، ومنهم من يكون طعامه الزقوم ومنهم طعامه الضريع، ويمكن أن يكون طعامهم جميع ذلك، فتارة يأكلون من هذا، وأخرى من ذلك، والله أعلم.

﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ﴿ ﴾ بالمشاهدات والمغيبات، وذلك يتناول الخالق والمخلوق، والدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤١﴾ ﴾

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ على الله، هو محمد ﷺ يبلغه عن الله، فالمراد بالرسول هنا النبي ﷺ، وقيل: جبريل عليه السلام، على معنى أن الذي نزل بالقرآن من عند الله هو جبريل، والقول الأول هو الأظهر، لأن الله تعالى ذكر بعده، أنه ليس بقول شاعر، ولا كاهن، والقوم ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر، والكهانة، بل كانوا يصفون به الرسول ﷺ، فهو كلام الله أظهره في اللوح المحفوظ، وكلام الرسول ﷺ بمعنى أنه أظهره، وقرأه على الخلق.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ كما تدعون تارة ﴿ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴾ إيماناً قليلاً.

﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ ﴾ كما تدعون تارة أخرى ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴾ أي تذكر أقل، والقلّة في معنى العدم، يقال: هذه الأرض قلما تنبت، أي لا تنبت أصلاً والمعنى: لا تؤمنون ولا تذكرون أصلاً.

﴿ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

﴿ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي تنزيل من عند الرحمن، رب الخلق أجمعين.

﴿ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴾ أي ادعى علينا شيئاً لم نقله، سَمَّى الافتراء تقولا لأنه قول متكلف .

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ أي بيمينه . .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ أي نياط قلبه بضرب عنقه وهو تصويرٌ لإهلاكه بأفطع ما يفعله الملوك، وهو أن يأخذ الجلاد بيمينه، ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه، وقال ابن عباس ﴿باليمن﴾ أي بالقوة والقدرة .

﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

﴿ فَمَا مِنْكُمْ ﴾ الخطاب للناس ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ من زائدة ﴿ عَنْهُ ﴾ أي عن المقتول ﴿ حَاجِزِينَ ﴾ أي دافعين، أي ليس أحد منكم يحجزه ويمنعه مثلاً .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنهم هم المنتفعون به .

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴾ أي نعلم من يكذب بالقرآن من المجرمين، فيجازيهم على تكذيبهم .

﴿وَإِنَّكُمْ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٠﴾

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ أي القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ في الآخرة إذا رأوا ثواب المؤمنين وسعادتهم في الجنة.

﴿وَإِنَّكُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ ﴿٥١﴾

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ القرآن ﴿لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ لعين اليقين لا يحوم حوله ريب.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٥٢﴾

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبح بذكر اسمه العظيم، تنزيهاً له تعالى عن افتراءات أهل الضلال، وعما يقوله هؤلاء السفهاء، والله أعلم بمراده. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم يعونه تعالى تفسير سورة الحاقة»

* * *

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

مكية وهي أربع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أي دعا داع ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي استدعاه، والسائل هو «النضر بن الحارث» فإنه قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أو أبو جهل فإنه قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ سأله استهزاء^(١)، وصيغة الفاعل للدلالة على تحقق وقوعه.

﴿لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ﴾

﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي دعا للكافرين واستعجل بعذاب واقع على الكفار ﴿لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ﴾ أي ليس لذلك العذاب رادٌّ إذا نزل.

(١) استعجل مشركو قريش نزول العذاب عليهم، وطلبوا من الرسول ﷺ حين خَوْفِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ، أَنْ يَعْجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، قالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء كما قال سبحانه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فتزل أول هذه السورة، رداً على أولئك السفهاء.

﴿مِنْ آلِهَ ذِي الْمَعَارِجِ﴾

﴿مِنْ آلِهَ﴾ أي واقع من عند الله ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أي ذي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة، بالأوامر والنواهي، وتنزل بأمره سبحانه ووحيه.

﴿تَقْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾

﴿تَقْرُجُ﴾ أي تصعد ﴿الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ أي جبريل عليه السلام زعيم الملائكة ورئيسهم ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه سبحانه، ومهبط أمره، وقيل هو من قبل قول إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ أي إلى أمر ربي ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مما يعدّه الناس، وهو بيان لغاية طوله، بحيث لو قدر قطعها في زمان، لكان ذلك الزمان مقدار خمسين ألف سنة، وقيل: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ متعلق بواقع، فالمراد به يوم القيامة، واستطالته إمّا لأنه كذلك في الحقيقة، لأن يوم القيامة له أول، وليس له آخر، أو لشدة على الكفار، وأيّاً ما كان، فذلك في حق الكافر، أمّا في حق المؤمن فلا، لما روي عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا»^(١).

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾

﴿فَاصْبِرْ﴾ متعلق بسأل سائل، لأن استعجال العذاب من الكافرين،

(١) أخرجه أحمد في المستند ٧٥/٣ والبيهقي، وابن حبان، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٢٦٤/٦.

على وجه الاستهزاء والتكذيب، وكان ذلك يضجر رسول الله ﷺ، فأمر بالصبر عليه ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ بلا جزع ولا شكوى.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾.

﴿إِنَّهُمْ﴾ الكفار ﴿يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ مستحيلًا أو بعيدًا عن الإمكان، فلذلك يسألون به.

﴿وَنَرْنَهُ قَرِيبًا﴾.

﴿وَنَرْنَهُ قَرِيبًا﴾ أي كائنًا لا محالة، هينًا في قدرتنا، والجملة تعليلٌ للأمر بالصبر.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ أي ذلك العذاب الذي يستعجلونه، سيرونه يوم تصبح السماء سائلة كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، ويكون من الأحوال والأهوال ما لا يوصف.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي كالصوف المصبوغ ألوانًا، لأن الجبال مختلفة الألوان، فيها الأحمر، والأبيض، والأسود، فإذا فُتَّت وطُيِّرَتْ في الجو، أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.

﴿وَلَا يَسْتَلُّ حِمِيمٌ حَمِيمًا﴾.

﴿وَلَا يَسْتَلُّ حِمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي لا يسأل قريب قريبًا عن أحواله، ولا

يكلّمه، لابتلاء كل منهم بما يشغله عن ذلك، وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ الآية.

﴿يُصَرُّوهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ بِبَنِيهِ﴾ ﴿١١﴾

﴿يُصَرُّوهُمْ﴾ أي يبصر بعضهم بعضاً، فيرى الرجل أخاه وصديقه، فلا يخفون عليهم، وما يمنعهم من التساؤل، إلا تشاغلهم بحال أنفسهم ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمِ﴾ أي يتمنى المشرك وقيل كل مذنب، وهو مستأنف لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه، بلغ إلى حيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه، فضلاً أن يهتم بحاله، ويسأل عنها ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ بِبَنِيهِ﴾ أي العذاب الذي ابتلوا به يومئذ.

﴿وَصَصَّجَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ ﴿١٢﴾

﴿وَصَصَّجَتِهِ﴾ أي زوجته ﴿وَأَخِيهِ﴾ أي أخيه الذي ولدته أمه.

﴿وَفَصَّيَلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ ﴿١٣﴾

﴿وَفَصَّيَلَتِهِ﴾ أي عشيرته الأذنين ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ أي تضمه في النسب إليها.

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يَنْجِيهِ﴾ ﴿١٤﴾

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين والخلائق ﴿ثُمَّ يَنْجِيهِ﴾ ثم للاستبعاد، يعني لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك لفعله، وهيئات.

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَّلَىٰ﴾ ﴿١٥﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للمجرم وتأنيب له، ودلالة على أن الافتداء لا ينجيه
﴿إِنَّمَا﴾ أي النار، دلّ ذكر العذاب عليها ﴿لَظَى﴾ وهي عَلمٌ للنار، منقول
من اللَّظَى بمعنى اللهب.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ (١٦)

﴿نَزَّاعَةً﴾ قَلَاعَةٌ ﴿لِّلشَّوَى﴾ أي أطراف الإنسان كاليدَيْن، والرجلين،
أو جمع شِوَاة، وهي جلدة الرأس.

﴿تَدْعُوا مَن أَذْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ (١٧)

﴿تَدْعُوا﴾ بِأَسْمَائِهِمْ يَا كَافِرُ، يَا مُنَافِقُ، إِلَيَّ إِلَيَّ^(١) ﴿مَن أَذْبَرَ﴾ عن الحق
﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الطاعة، فكان عاصياً فاجراً.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ (١٨)

﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَى﴾ فجعله في وعاء ولم يؤدِّ حق الله فيه،
وتشاغل به عن الدين، وعبادة ربِّ العالمين.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩)

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي شديد الحرص، قليل الصبر، ويفسِّره
الآتي، وهو قوله:

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ (٢٠)

(١) قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم، بلسان صحيح فصيح، تقول:
إِلَيَّ يَا كَافِر، إِلَيَّ يَا مُنَافِق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطيرُ الحبَّ - اهـ تفسير ابن كثير.

﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أي الضرر ﴿ جُرُوعًا ﴾ أي يكثر الجزع والضجر.

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (٢١).

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ ﴾ السعة ﴿ مَنُوعًا ﴾ أي كان مبالغاً في المنع والإمساك، ينسى فضل الله عليه، فيشح ويبخل.

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ (٢٢).

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ استثناء من المطبوعين على القبائح الماضية.

﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ (٢٣).

﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ ﴾ أي الصلوات الخمس المفروضة ﴿ دَائِمُونَ ﴾ أي لا يشغلهم عنها شاغل.

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ (٢٤).

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ أي نصيب معين، هي الزكاة لأنها مقدرة معلومة، أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه، يؤديها في أوقات معلومة.

﴿ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴾ (٢٥).

﴿ لِّلسَّائِلِ ﴾ الذي يسأل لحاجته ﴿ وَالْمَحْرُورِ ﴾ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم.

﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّومِ الْدِّينِ ﴾ (٢٦).

﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّومِ الْدِّينِ ﴾ أي يوم الجزاء، يصدقون بأعمالهم بالطاعات البدنية والمالية، طمعاً في المثوبة الأخروية.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٧).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي خائفون على أنفسهم، مع ما لهم من الأعمال الفاضلة كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي خائفة ألا يتقبل الله عملها الصالح.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ (٢٨).

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي لا ينبغي لأحد أن يأمن عذابه جلّ وعلا، فالأمور بخواتيمها، والخشية من الله دليل الإيمان ﴿وخائفون﴾ إن كنتم مؤمنين.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (٢٩).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ﴾ يحفظونها عن الزنى والفواحش.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (٣٠).

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي غير مؤاخذين لأنها فيما أباحه الله لهم.

﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ ذِرَّةً ذَاكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (٣١).

﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ ذِرَّةً ذَاكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي فمن طلب غير الزوجة وملك اليمين، فأولئك هم المعتدون، المجاوزون الحد في الطغيان والإجرام.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ (٣٢).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ أي يؤدون الأمانات، ويحفظون العهود.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَشْهَدَتُهُمْ قَائِمُونَ﴾ (٣٢)

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَشْهَدَتُهُمْ قَائِمُونَ﴾ يقيمونها بالعدل، بلا ميل إلى قريب أو شريف، ولا يكتمونها، وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات، لإبانة فضلها، لأن في إقامتها إحياء الحقوق.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٣٣)

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يراعون شرائطها، ويكملون فرائضها، وسننها، وآدابها، كرّر ذكر الصلاة لبيان أنها أهم العبادات، وتكرار الموصولات، لتتزيل اختلاف الصفات، منزلة اختلاف الذات، إيذاناً بأن كل واحد من الأوصاف المذكورة، نعتٌ جليلٌ على حياله، له شأن خطير، حقيق بأن يفرد له موصوفٌ مستقل.

﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ (٣٤)

﴿أُولَئِكَ﴾ أي أصحاب هذه الصفة ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي مستقرون في قصور عالية في جنان النعيم ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ فيها بأنواع الإكرام.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَك مُّهْطِعِينَ﴾ (٣٥)

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كتب مفصلاً اتباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه، أي ما لهؤلاء الكفرة المجرمين ﴿قِبَلَك﴾ أي حولك ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين، نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه، ويستهنئون به ويكذبونه.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ (٣٦)

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ أي عن يمينه ﷺ وعن شماله ﴿عِزِينَ﴾ أي فرقاً شتى جمع عِزَّة، وأصلها عزوة والعِزَّة وزان عِدَّة: الطائفة من الناس يأتون متفرقين، يقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم، فنزل قوله تعالى:

﴿أَيُّطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾.

﴿أَيُّطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بلا إيمان؟ وهو إنكار لقولهم المذكور.

﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن هذا الطمع ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ من نطفة قدرة، لا تناسب عالم القدس، فمن لم يستكمل بالإيمان والطاعة، ولم يتخلق بالأخلاق الملكية، لم يستعد لدخولها، فمن أين لهم أن يطمعوا في دخول الجنة، وهم مكبون على الكفر والفسوق والفجور؟

﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾.

﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ﴾ مطالع الشمس ﴿وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ مغاربها، والمعنى: إذا كان الأمر كما ذكر، فأقسم برب المشارق والمغارب.

﴿عَلَىٰ أَن تُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

﴿عَلَىٰ أَن تُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي على أن نهلكهم، ونأتي بخلق أمثل منهم، وأطوع لله تعالى، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي ولسنا بعاجزين عن ذلك.

﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيُلْبَعُوهَا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾.

﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيَبْعًا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ أي دعهم في غيهم وضلالهم، يتلهون بالدنيا الفانية، حتى يُلَاقُوا ذلك اليوم العصيب الرهيب الذي ينتظرهم، وهو أمر يحمل بين جنباته الوعيد والتهديد.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ (١٢)

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي يخرجون من القبور ﴿سِرَاعًا﴾ أي مسرعين إلى الداعي ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ﴾ وهو كل ما نُصِبَ وُعِدَ من دون الله تعالى^(١)، أو إلى شيء منصوب كالعلم والراية ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون الخطأ.

﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقَهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٣)

﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقَهُمْ ذَلَّةٌ﴾ أي ذليلة أبصارهم، يغشاهم الدل والهوان من كل مكان ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي ذلك هو اليوم الذي وُعدوا به في الدنيا، وهم يكذبون به ويهزؤون، فاليوم يرون عقابهم وجزاءهم. والله تعالى أعلم بمراده.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعبارة تعالى تفسير سورة المعارج»

(١) في هذا التشبيه تهكمٌ وسخرية لاذعة، تتناسق مع وصفهم في الدنيا، فقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب والأصنام في الأعياد ليعبدوها، وها هم يسارعون اليوم إلى نار الجحيم ليقترحوها ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي يسرعون، فما أروع من تصويره!

سُورَةُ نُوحٍ

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ ﴾

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أي بأن قلنا له: أنذر وخوف قومك الكافرين.

﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هو عذاب الآخرة، أو الدنيا.

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢ ﴾

﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي أنا لكم منذر، موضح لحقيقة الأمور، أضافهم إلى نفسه، إظهاراً للشفقة عليهم.

﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُونَ ٣ ﴾

﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُونَ ﴾ أي اعبدوا الله وحده، وذروا عبادة الأوثان، وخافوا عقابه، وأطيعوني فيما أَدْعُوكم إليه.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي بعض ذنوبكم، وهو ما سبق، فإن الإسلام يمحو ما قبله ﴿وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو أقصى ما قُدِّرَ لهم بشرط الإيمان والطاعة، أي يمهلكم إلى انتهاء أعماركم، دون عقوبة ولا عذاب، وأما العمر فمحدود لا يزيد ولا ينقص، وإنما المراد تأخيرهم لاستكمال أعمارهم، دون عقاب ولا عذاب ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ أي ما قُدِّرَ لكم، على تقدير بقائكم على الكفر ﴿إِذَا جَاءَ﴾ وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي لا يتأخر نزوله. فبادروا إلى الإيمان قبل فوات الأوان!! ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو عرفتم ما يحلُّ بكم من الندامة، عند انقضاء الأجل، ما عبدتم هذه الأوثان.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ أي قال نوح مناجياً ربه، حاكياً ما جرى بينه وبين قومه، بعدما بذل في الدعوة غاية المجهود، قال يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي دائماً بلا فتور، في الصباح والمساء، والليل والنهار.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ ﴿٤٢﴾.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ أي فلم يزدهم دعائي لهم إلا نفاراً وإدباراً.

﴿وَلِإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِيْءَ إِذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ ﴿٤٣﴾.

﴿وَإِنِّي كُنَّا دَعْوَتُهُمْ لِنُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغَعُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ﴾ لكيلا يسمعوا كلامي ﴿وَاسْتَغْفِرُوا ثِيَابَهُمْ﴾ أي وتغبطوا بثيابهم لئلا يبصروني، أولئلا يعرفهم فيدعوههم ﴿وَأَصْرُوا﴾ على الكفر والمعاصي ﴿وَاسْتَكَبَرُوا﴾ عن اتباعي ﴿أَسْتَكْبَارًا﴾ أي شديداً، وذكر المصدر دليل على فرط استكبارهم.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعْوَتُهُمْ جِهَارًا﴾.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعْوَتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي دعوتهم دعاء جهاراً.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَلْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَلْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ خلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السر، أي فدعوتهم تارة بعد تارة، على وجوه متخالفة من السر والعلن.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتائبين، وكأنه لما أمرهم بالعبادة، قالوا: إن كنا على حق فلا نتركه، وإن كنا على باطل، فكيف يقبلنا الله؟ فأمرهم بما يمحو معاصيهم، ويجلب إليهم الخير، ولذلك وعدهم بما هو أوقع في قلوبهم، وأحب إليهم، من الفوائد العاجلة.

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾.

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ أي المطر ﴿عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ كثير الدَّر، أي غزيراً متتابعاً.

﴿وَيُمِدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

﴿وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ﴾ أي يزدكم ويكثركم بالرزق ﴿وَنَبِّنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ أي بساتين وحدائق غناء ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ﴾ فيها ﴿أَنْهَارًا﴾ جارية لمزارعكم وبساتينكم وهذا كله مما يميل إليه طبع البشر، وقيل: لَمَّا كَذَبُوا بعد تكرار الدعوة، حبس الله عنهم القطر، وأعقم أرحام نسايتهم أربعين سنة، فوعدهم أنهم إن آمنوا أن يرزقهم الله الخصب، والعيش الرغيد، ويدفع عنهم ما كانوا فيه من الضيق.

﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (١٢)

﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؟ أي ما لكم أيها القوم لا ترهبون عظمة الله وجلاله؟ وهو إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله وقاراً.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (١٣)

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ الطُّورُ بالفتح: الحالة والهيئة، والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين في أطوار متباينة، عناصر، ثم أغذية، ثم أخلاطاً، ثم نطفاً، ثم علقاً، ثم مُضْغاً، ثم عظماً ثم لحماً، ثم أنشأكم خلقاً آخر، فإن التقصير في توفير من هذه شؤونهم مما لا يكاد يصدر عن العاقل.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (١٤)

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي بعضها فوق بعض، كتطابق بناية ذات أدوار.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ (١٥)

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي في السماء الدنيا منوراً لوجه الأرض، في ظلمة الليل، ونسبته إلى الكل مع أنه في السماء الدنيا، لما أنها محاطة

بسائر السماوات^(١) ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ يزيل ظلمة الليل، ويبصر أهل الدنيا في ضوءها وجه الأرض، ويشاهدون الآفاق، كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي أنشأكم منها، كما يخرج النبات من الأرض، فاستعير الإنبات للإنشاء، لكونه أدل على الحدوث، والتكون من الأرض، ولم يقل إنباتاً، لأن الإنبات صفة لله تعالى، غير محسوسة لنا.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بعد الموت بالدفن ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث ﴿إِخْرَاجًا﴾ محققاً لا ريب فيه، أكدّه بالمصدر، دلالة على أن الإعادة محققة، لا شك فيها.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتقبلون عليها كما يتقبل الرجل على بساطه^(٢)، فهي فسيحة واسعة، ممتدة الأرجاء، كالفراش والبساط.

(١) صَحَّ كون القمر في السماوات مع أنه ليس داخلها، بل تحت السماء الأولى، بدليل قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وأقربها إلينا القمر، ذلك لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف، كما نقول: عليّ في المدينة، وهو في جزء منها، وليس في جميع أنحاء المدينة، فالقمر تحت السماء الأولى، وهو مع جميع الكواكب محاط بالسماوات السبع، فكأنه فيها، ولهذا نقول: إن وصول الإنسان للقمر ممكن، وقد حدث فعلاً، وليس فيه اختراق للسماوات، فتنبه إلى معاني الآيات رعاك الله.

(٢) ليس معنى الآية أن الأرض منبسطة غير كروية، بل المعنى أن الله سبحانه قد جعلها فسيحة واسعة، ممتدة الأرجاء، كالبساط الذي يفرشه الناس، ليست كلها جبلاً =

﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ ﴿٢٠﴾

﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا﴾ أي طُرُقًا ﴿فِجَاجًا﴾ أي واسعة أو مختلفة تنتقلون من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالٌ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٢١﴾

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ مناجياً له تعالى ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي تمادوا على عصياني وتكذبي، مع ما بالغت في إرشادهم بالعظة والتذكير ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالٌ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي استمر فيهم السفلة والفقراء، على اتباع رؤسائهم، الذين أبطرتهم أموالهم، وغرتهم أولادهم، فصار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة.

﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿٢٢﴾

﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ أي كبيراً في الغاية، متناهياً في المكر والدهاء، ومكرهم احتياليهم في الدين، وتحريش الناس على أذى نوح عليه السلام، وصد الناس عن الإيمان به.

= وودياناً، بل فيها السهول الفسيحة، ليبني عليها الإنسان ويزرع، وكروية الأرض أمر مقطوع به، عرفه علماؤنا الأقدمون، وقد سئل ابن تيمية كما في الفتاوى ٥٨٨/٦ عن السماوات والأرض، هل هما جسمان كرويان؟ فأجاب لا أعلم في علماء المسلمين المعروفين، من أنكر ذلك، إلا من لا يؤبه له من الجهال، واستدل بآية ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وبآية ﴿يَكُورُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ﴾ وقال: التكوير هو التدوير. الخ وقال الألوسي ٧٦/٢٩: وكرويتها، كالأمر اليقيني، والكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحاً، أهد.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ
وَقَسْرًا﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ أي الرؤساء لسفلتهم ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي عبادة آلهتكم على وجه العموم ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ صنم على صورة رجل ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾ صنم على صورة امرأة ﴿وَلَا يَغُوثَ﴾ وهو على صورة أسد ﴿وَيَعُوقَ﴾ على صورة فرس ﴿وَقَسْرًا﴾ هو على صورة نسر، أي هذه الأصنام الخمسة على الخصوص، وكأنها كانت أكبر أصنامهم، وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب، كما روى البخاري عن ابن عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح، في العرب بعد، أما «ود» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأما «نسر» فكانت لحمير، أسماء رجال صالحين من قوم نوح. . .» (١) الحديث.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أي الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ أي خلقاً كثيراً ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ أي هلاكاً ودماراً.

﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾.

﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ﴾ أي بسبب خطيئاتهم المعدودة ﴿أُعْرِقُوا﴾ بالطوفان ﴿فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ المراد عذاب القبر فهو عقب الإغراق، وإن كانوا في الماء،

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير ٦٦٧/٨.

فالآية دالة على إثبات عذاب القبر، لأن فاء التعقيب تدل على هذا، ولا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلا بطل معنى الفاء، التي تفيد معنى الترتيب والتعقيب، فإن قيل: إنا نشاهد أنهم ماتوا في الماء؟ فالجواب إن هذا الإشكال إنما جاء لاعتقاد أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل، وهذا خطأ، لما أن الإنسان هو الذي كان موجوداً من أول العمر، ثم أجزأوه دائماً في التحلل والذوبان، ومعلوم أن الباقي غير متبدل، فالإنسان عبارة عن ذلك الباقي، وتنكير النار لتعظيمها وتهويلها ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ أي لم يجد أحد منهم، واحداً من الأنصار، وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى، وبأنها غير قادرة على نصرهم، وهذه الآية حجة على كل من عوّل على شيء غير الله تعالى.

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾.

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أي أحداً يدور في الأرض، وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام، يقال ما بالدار ديار.

﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾.

﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ ﴾ أي إن تركتهم يارب ولم تهلكهم ﴿ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ عن طريق الحق ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أي إلا من سيفجر، وسيكفر، وإنما قاله لاستحكام علمه، بما يكون منهم، ومن أعقابهم، واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة.

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾.

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ توجه نوح عليه السلام لربه، بهذا الدعاء الخاشع المنيب، فبدأ بالدعاء لنفسه

أولاً، ثم لأبويه ثانياً، ثم لمن زار بيته ثالثاً، ثم عمّم الدعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وهذا توجيه لكل مسلم أن يدعو بالمغفرة لنفسه، ولوالديه، ولجميع إخوانه من المؤمنين والمؤمنات ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بُهَارًا﴾ أي إلا هلاكاً وخساراً، فاستجاب الله دعاءه، فأهلكهم جميعاً. والله أعلم بمراده.

وصلّى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه اجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة نوح»

* * *

سُورَةُ الْجِنِّ

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ١.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾ أن الأمر والشأن ﴿اسْتَمَعَ﴾ أي القرآن كما ذكر ﴿نَفَرٌ﴾ أي جماعة ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي المخلوقين المستورين عن الأنظار، المكلفين كالإنس بالإيمان والعبادة، وفيه دلالة على أنه ﷺ ما رآهم، ولم يقرأ عليهم، ولم يشعر باستماعهم، وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته، فسمعوها، فأخبره الله بذلك، والحاصل من الكتاب والسنة، أن الجن موجودون، متعبدون بالأحكام الشرعية، على النحو الذي يليق بخلقتهم وبحالهم، وأن النبي ﷺ رسول إلى الإنس والجن، فمن دخل في دينه، فهو من المؤمنين، ومن كفر به فهو من الشياطين ﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم لما رجعوا إليهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ في صلاة الفجر ﴿قُرْءَانًا﴾ كتاباً مقروءاً ﴿عَجَبًا﴾ أي عجباً، بديعاً، مبيناً لسائر الكتب، في حسن نظمه، وصحة معانيه، والعجيب ما يكون خارجاً عن العادة، وعجباً مصدر يوضع موضع العجيب، وهو أبلف من العَجِيب^(١).

(١) لما حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، رجعوا إلى قومهم =

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ أي يهدي من تمسك به إلى الحق والصواب، وإلى التوحيد ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ بالقرآن ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا﴾ بالله ﴿أَحَدًا﴾ من خلقه، أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به، وهذا يدل على أنهم كانوا من المشركين.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي عظمته وجلاله ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي تعالت عظمته من أن يتخذ زوجة، ولا ولدًا، لأنهم لما سمعوا القرآن، ووقفوا للتوحيد والإيمان، تنبهوا فيما اعتقده كفر الجن، من تشبيه الله تعالى بخلقه، من اتخاذ الصاحبة والولد، فزهوه عنه.

﴿وَأَنْتُمْ كَانَتْ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾.

﴿وَأَنْتُمْ كَانَتْ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أي جاهلنا إبليس، أو مرده الجن ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أي قولاً ذا شطط، وهو البعد ومجاوزة الحد، يريدون به الكفر، لبعده عن الصواب.

= فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، قالوا: فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الأمر الذي حدث؟ فانطلقوا نحو تهامة - يعني مكة - فرأوا رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، واستمعوا إلى الرسول وهو يقرأ القرآن، فتأثروا به بالغ التأثير، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك رجعوا إلى قومهم منذرين ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجيبًا﴾ وأنزل الله عز وجل على نبيه هذه السورة الكريمة ﴿قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾. ﴿السورة...﴾ وانظر تمام الحديث في صحيح البخاري ٦٧٠/٨ من كتاب التفسير.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وهو اعتذار منهم عن تقليدهم سفيهم، أي كنا نظن أن لن يكذب أحد على الله تعالى أبداً، ولذلك اتبعناهم، فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم قد كذبوا على الله، ونسبوا إليه ما لا يليق به سبحانه.

﴿وَأَنفَرَكُم مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

﴿وَأَنفَرَكُم مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ﴾ كان الرجل من العرب، إذا نزل بمخوف من الأرض، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، يريد به كبير الجن ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ﴾ أي فزاد الرجال العائذون الجنَّ ﴿رَهَقًا﴾ أي كبراً وعتواً، والرَّهَقُ: الإثم والطغيان.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾ أي الإنس ﴿كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ أيها الجن، على أنه كلام بعضهم لبعض ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أي أن لن يبعث الله أحداً بعد الموت فقد أنكروا البعث كما أنكروا الموت يا معشر الجن.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَهَا مِثْلَ شِحْرَسَ شِدَادًا وَشُهَبًا﴾.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي طلبنا بلوغ السماء ﴿فَوَجدْنَهَا مِثْلَ شِحْرَسَ﴾ أي حراساً اسم جمع، ولذلك قيل ﴿شِدَادًا﴾ ولو نظر إلى معناه لقليل: شِدَاداً، وهم الملائكة الذين يمنعونهم عن استراق السمع ﴿وَشُهَبًا﴾ جمع شهاب أي شهاباً محرقة تقذف من يحاول الاقتراب منها.

﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِيعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ ١٠.

﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ﴾ أي قبل هذا ﴿مِنْهَا﴾ أي من السماء ﴿مَقْعِدَ اللَّسْمِيعِ﴾ لاستماع أخبار السماء، خالية عن الحرس والشهب ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ أي يجد شهاباً راصداً له، يصده عن الاستماع بالرجم، وقال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعث رسول الله ﷺ، ولكن لم يكن مثل ما كان بعد مبعثه، في شدة الحراسة، وكانوا يسترقون في بعض الأحوال، فلما بُعث ﷺ مُنعوا من ذلك أصلاً.

﴿وَأَنَا لَا تَذَرِي أَشْرًا أُريدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْرَ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ١١.

﴿وَأَنَا لَا تَذَرِي أَشْرًا أُريدُ﴾ بهذا، أي بعدم استراق السمع ﴿بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْرَ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؟ خيراً ورحمة، ونسبة الخير إلى الله، دون الشر، من الآداب الشريفة القرآنية، نطق بها الجن، حيث نسبوا الخير إلى الله، ولم ينسبوا الشر إليه^(١)، كقول إبراهيم عليه السلام ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(٢).

﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَادُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ قِدْدَا﴾ ١٢.

﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الموصوفون بالتقوى، المائلون إلى الخير

(١) الخير ينسب إلى الله خلقاً وتقديراً، والشر لا ينسب إليه أدباً وإجلالاً، وإن كان كل من الخير والشر، بتقدير من الله سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وكما ورد في الحديث الشريف «وَأَنْ تَوْمَنَ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى».

(٢) سورة الشعراء، آية: ٧٩ - ٨٠.

والصلاح، حسبما تقتضيه الفطرة السليمة، لا إلى الشر والفساد، كما هو مقتضى النفوس الشريرة ﴿وَمَنَادُونَ ذَلِكَ﴾ أي قوم أشرار دون ذلك، فيدخل فيه الكافر وغيره، وهذا بيان حالهم قبل استماع القرآن، وأما حالهم بعد الاستماع فسيحكي ﴿كُنَّا طَائِفًا﴾ أي مذاهب ﴿قِدْدًا﴾ أي متفرقة ومختلفة، جمع قِدَّة من قَدَّ إذا قطع، والقِدَّة: الطريقة والفرقة من الناس.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ الظنُّ هنا بمعنى العلم واليقين، أي علمنا وأيقنا الآن، بعد سماعنا القرآن ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لن نعجزه كائنين في الأرض، أينما كنا فيها، إن أراد بنا سوءاً أو مكروهاً ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أي ولن نعجزه هاربين منه إلى السماء، فنحن في قبضة الله وسلطانه حيثما كنا، ولن نفلت من عقابه إن كفرنا به.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدَىٰءَ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْصًا وَلَا رَهَقًا﴾.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدَىٰءَ﴾ أي القرآن ﴿ءَآمَنَّا بِهِ﴾ أي آمنا بالله تعالى من غير تردد ﴿فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يخاف ﴿بَحْصًا﴾ أي نقصاً من ثوابه ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي ظلماً أو مكروهاً يغشاه، وفيه دليل على أن من حق الإيمان أن يجتنب المظالم.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي الجاثرون عن طريق الحق،

وهو الإيمان والطاعة ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي طلبوا هدى، والتحري طلب الأحرى أي الأولى، أي توخَّوْا رَشَدًا عظيمًا، يبلغهم إلى دار الثواب.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (١٥)

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وقوداً لجهنم، وفيه دليل على أن الجن يُعَذَّبون في النار، والله قادر أن يعذب النَّارَ بالنار.

﴿وَالْوِاسِقُونَ أَعْلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ (١٦)

﴿وَالْوِاسِقُونَ أَعْلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي وأنه الحال والشأن أن لو استقام الإنسان والجنُّ عَلَى الطَّرِيقَةِ طريقة الإسلام، وأطاعوا الله ورسوله ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ أي كثيراً وافرأ، ينبت لهم الزرع، ويخرج لهم الضرع، وتخصيصه بالذكر، لأنه أصل المعاش والسعة.

﴿لِنَفْنِئَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (١٧)

﴿لِنَفْنِئَنَّهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم ونبليهم في هذه التوسعة، أيشكرون أم يكفرون؟ ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ عن القرآن أو التوحيد ﴿يَسْلُكْهُ﴾ أي ندخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي شاقاً، صعباً، شديداً، يعلو المعذب ويغلبه، لا يجد معه الإنسان الراحة والسعادة، يقال: تصعدني الأمر، أي شقَّ عليّ، ونظير هذه الآية، قوله تعالى: ﴿سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا﴾.

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨)

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ هذا من جملة الموحى به، أي المساجد مختصة به تعالى، وعبادته^(١) ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾ أي لا تعبدوا فيها ﴿مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ أي غيره، فهي بيوت الله، بنيت لذكره وعبادته وتوحيده، لا ليمدح فيها الملوك والعظماء.

﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

﴿وَأَنْتُمْ﴾ وهو الموحى به ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ يعني الرسول ﷺ، وإنما ذكر لفظ العبد للتواضع، فإنه واقع موقع كلامه عن نفسه، وللإشعار بما هو المقتضي لقيامه وعبادته، ولأنه أحب الأسماء إليه ﷺ وذلك حين كان يصلي ببطن نخلة ﴿كَادُوا﴾ أي الجن ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي متراكمين من ازدحامهم عليه، حرصاً على استماع القرآن، وتعجباً مما رأوا من عبادته، واقتداء أصحابه به قياماً، وركوعاً، وسجوداً، ولأنهم رأوا ما لم يروا مثله، وسمعوا ما لم يسمعوا بنظيره.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ أي أعبد ربي ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ﴾ أي بربي في العبادة ﴿أَحَدًا﴾ فليس ذلك ببدع، ولا مستنكر يوجب التعجب أو الإطباق على عداوتي.

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾.

(١) كما روي في الحديث الشريف «إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن حقاً على الله أن يكرم من زاره فيها» أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود مرفوعاً، كما في الفتح الكبير ٣٨٥/١.

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي مضرة ولا نفعاً، وإنما الضائر والنافع هو الله تعالى.

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخْرِعَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ﴿٢٢﴾

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخْرِعَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ إن أرادني بسوء ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ مُلْتَجِئًا التَّجْءُ إليه، وهذا بيان لعجزه ﷻ عن شؤون نفسه، بعد بيان عجزه عن شؤون غيره، والْمُلْتَحَدُ: اسم الموضع وهو الملجأ.

﴿إِلَّا بَلَّغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِهِۦ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ﴿٢٣﴾

﴿إِلَّا بَلَّغًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي لا أملك لكم ضراً ولا رشداً، لكن أبلغ بلاغاً فإنما أنا مرسل ومبلغ، والبلاغ بمعنى التبليغ ﴿وَرِسَالَتِهِۦ﴾ التي أرسلني بها ربي ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي مخلصين في النار بلا نهاية.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَّاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ ﴿٢٤﴾

﴿حَتَّىٰ﴾ يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال، كأنه قيل: لا يزالون على ما هم عليه حتى ﴿إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ من فنون العذاب في الآخرة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند حلول العذاب بهم ﴿مَنْ أَضَعُفٌ نَّاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهم أم المؤمنون؟.

﴿قُلْ إِن أَدْرِيٓ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِّلرَّحْمَنِ أَمَدًا﴾ ﴿٢٥﴾

﴿قُلْ إِن أَدْرِيٓ﴾ أي ما أدري ﴿أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ؟﴾ من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لِّلرَّحْمَنِ أَمَدًا﴾ أي غاية بعيدة، فإنه رد لما قاله المشركون عند سماعهم

ذلك متى يكون ذلك الموعود؟ إنكاراً له واستهزاء به، فقل: قل لهم إنه كائن لا محالة، وأما وقته فما أدري متى يكون؟.

﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦).

﴿عَلِمَ الْغَيْبِ﴾ أي هو سبحانه عالم الغيب ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ أي فلا يطلع ﴿عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ من خلقه اطلاعاً كاملاً موجباً لعين اليقين.

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢٧).

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ أي إلا من ارتضاه من رسله الكرام، فيطلعه على بعض الأمور الغيبية، كما أطلع عيسى عليه السلام على بعض المغيبات لمعجزة له ﴿وَأَنْبِئَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وفي هذا إبطال الكهانة والتنجيم ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ﴾ أي يدخل ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي من بين يدي المرتضى ﴿رَصَدًا﴾ أي حفظة من الملائكة، يحفظونه من الشياطين، ويعصمونه من وساوسهم، حتى يبلغ الوحي الإلهي.

﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَتْلَفُوا رِسَالَتِي رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (٢٨).

﴿لِيَعْلَمَ﴾ أي ليعلم الله تعالى ﴿أَنَّ قَدْ أَتْلَفُوا﴾ أي الرسل ﴿رِسَالَتِي رَبِّهِمْ﴾ كاملة بلا زيادة ولا نقصان، ورسالات ربهم عبارة عن الغيب والوحي، والمعنى: ليعلم الله موجوداً حال وجوده، كما كان يعلمه قبل وجوده ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي أحاط علم الله تعالى بما قام به الرسل، ﴿وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي وأحصى الله وضبط ما خلق، وعرف كل شيء.

خَلَقَهُ، حَتَّى الْقَطْرُ وَالرَّمْلُ، فَلَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي هَذِهِ الْكَائِنَاتِ، وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، عَلَى وَجْهِ الدَّقَّةِ وَالتَّفْصِيلِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ.

وَصَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

«تَمَّ بِعَوْنِهِ تَعَالَى تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجِنِّ»

* * *

سُورَةُ الْمُرْمَلِ

مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ﴾ أي المتزمل وهو الذي تزمل في ثيابه، أي تلفف بها، وكان ﷺ نائماً بالليل فأمر بالقيام للصلاة، وذلك أول ما جاء جبريل عليه السلام بالوحي عليه، فرجع إلى خديجة وهو يقول: زملوني، زملوني، وتخصيص وصف التزمل بالخطاب، للملاطفة والتأنيس.

﴿قُرْآنٌ لِّلَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

﴿قُرْآنٌ لِّلَّيْلِ﴾ أي قم إلى الصلاة وداوم عليها، وكان قيام الليل فريضة في ابتداء الإسلام عليه ﷺ، روى مسلم عن سعد بن هشام قال: «انطلقتُ إلى عائشة، فقلت: «أنبئني عن خُلُقِ رسول الله ﷺ، قالت: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قلت بلى، قالت: فَإِنْ خُلِقَ رسول الله ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ، فقلت: فقيام رسول الله ﷺ يا أم المؤمنين؟ قالت: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْمُرْمَلَ؟ قلت: بلى، قالت: فَإِنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ الْقِيَامَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا، حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ وَأَمْسَكَ اللَّهُ خَاتَمَتَهَا اثْنِي

عشر شهراً في السماء، ثم أنزل التخفيف في آخر السورة، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة^(١) ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ استثناء من الليل، أي إلا القليل منه.

﴿نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾.

﴿نِصْفَهُ﴾ بدل من الليل الباقي، أي قُمْ نصف الليل لعبادة ربك ﴿أَوْ انْقُصْ مِنْهُ﴾ أي انقص القيام من النصف إلى الثلث ﴿قَلِيلاً﴾ أي نقصاً قليلاً، بحيث لا ينحط إلى نصف النصف.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي زد القيام على النصف المقارن له فالمعنى: تخييره ﷺ بين أن يقوم نصفه، أو أقل منه، أو أكثر ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ﴾ في أثناء القيام، أي اقرأه على تؤدة، وتبيين حروف، بحيث يتمكن السامع من عدّها ﴿تَرْتِيلاً﴾ بليغاً يعين الإنسان على فهم كلام الله، والترتيل: تنسيق الشيء، أمره تعالى بترتيل القرآن، حتى يتمكن الخاطر من التأمل، في حقائق تلك الآيات، فعند ذكر الله يستشعر عظمته، وعند ذكر الوعد والوعيد، يحصل الرجاء والخوف، وحينئذ يستنير القلب بنور المعرفة والمناجاة، عن سهل بن سعد أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن قبل أن يقرأه أقوام، يقيمونه كما يقام السهم، يتعجل أجره ولا يتأجله»^(٢) وفي رواية «لا يجاوز تراقيهم».

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين رقم ٧٤٦، وهو طرف من حديث طويل، فيه أحكام شرعية كثيرة.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة رقم ٨٣١ باب ما يجزئ الأمي والأعجمي من القراءة، ولفظه كما في أبي داود: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نفتريء - أي نتبارى في القراءة فقال: الحمد لله، كتاب الله واحد، وفيكم الأحمر وفيكم الأبيض، وفيكم الأسود، اقرأوه قبل أن يقرأه أقوام، يقيمونه كما يقام السهم». الحديث.

﴿ إِنَّا سَأَلْنَاكَ قَوْلًا قَلِيلًا ﴾ .

﴿ إِنَّا سَأَلْنَاكَ ﴾ سنزل عليك يا محمد قرآنًا عظيمًا جليلاً، وإيثار الإلقاء لقوله تعالى ﴿ قَوْلًا قَلِيلًا ﴾ أي كلاماً جليلاً، عَظُمَ قدره، وَكَبُرَ خطره، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنه: كلاماً عظيماً، ووجهُ النظم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل، فكأنه قال إنما أمرتك بصلاة الليل، لأننا سنلقي عليك قولاً عظيماً، فلا بدَّ أن تسعى في جعل نفسك، مهياً مستعدة، لذلك القول العظيم، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل، ولقد كان رسول الله ﷺ يلاقي عند نزوله شدة، لأنه كلام الجبار جلّ وعلا، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصمُ عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً» قولها «يفصم» أي ينفصل، و«يتفصد» أي يجري عرقه كما يجري الدم من الفصد.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ .

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ أي العبادة التي تنشأ بالليل، أي تحدث، أو ساعات الليل، وكان زين العابدين يصلي بين العشائين ويقول: هذه ناشئة الليل وهو قول سعيد بن جبير والضحاك والكسائي، وقالوا: لأن ناشئة الليل التي منها يبتدىء سواد الليل ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ أي هي أشد كلفةً على المصلي من صلاة النهار، فلا بد من الاعتناء بالقيام، ثم أهي أشد موافقة من الخشوع والإخلاص، فكأنه تعالى قال: أمرتك بصلاة الليل، لأن موافقة القلب واللسان فيه أكمل، والخواطر إلى المكاشفات الروحانية أتم ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ أي وأشد مقالاً، وأثبت قراءة لحضور القلب، وهدوء الأصوات، والحاصل أن عبادة الليل أشد نشاطاً، وأتم إخلاصاً، وأبعد عن الرياء، وأكثر بركة وثواباً.

﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ .

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ أي تقلباً وتصرفاً في مهماتك، واشتغالا بشواغلِكَ فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة، فعليك بها في الليل، وهذا بيان للداعي إلى قيام الليل.

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ﴿٨﴾

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي دم على ذكره ليلاً ونهاراً، على أي وجه كان، من تسييح، وتهليل، وتحميد، وصلاة، وقراءة، ودراسة علم ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي انقطع إليه تعالى بمجامع الهمة، واستغراق العزيمة في مراقبته تعالى، والتبتل: الانقطاع إلى الله تعالى، وطلب الخير منه دون غيره، وحيث لم يكن ذلك إلا بتجريد نفسه ﷻ عن العلائق الصادرة عما سواه قيل: تبتيلاً.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ ﴿٩﴾

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي هذا الخالق هو المالك لمشارك الأرض ومغاربها ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي إذا علمت أنه ملك المشرق والمغرب ولا معبود إلا هو، فاتخذه كافياً لأمرتك، واعتمد عليه جلّ وعلا.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ ﴿١٠﴾

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر على أذى هؤلاء السفهاء المجرمين، على ما يقولون في ذات الله من الصاحبة والولد، وفيك من الساحر والشاعر ﴿وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بأن تجانبهم وتداريهم، وتكل أمورهم إلى ربهم، كما يعرب قوله تعالى:

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ ﴿١١﴾

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ أي دعني وإياهم، ووكل أمرهم إليّ فإني أكفيكمهم

﴿أُولَى النَّعْمَةِ﴾ أي أرباب التنعم يريد صناديد قريش ﴿وَمَهْلَهْزَ قَلِيلًا﴾ أي أمهلهم زماناً قليلاً.

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحَجِيمًا﴾.

﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ للكافرين ﴿أَنْكَالًا﴾ جمع نكل وهو القيد الثقيل ﴿وَحَجِيمًا﴾ أي ناراً محرقة.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ينشب في الحلق ولا يكاد يساغ كالضريع والزقوم ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً، لا يقادر قدره، ولا يدرك كنهه.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ﴾ أي تضطرب وتزلزل وهو يوم القيامة ﴿وَالْجِبَالُ﴾ مع صلابتها وارتفاعها ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا﴾ رملاً مجتمعاً من كسب الشيء إذا جمعه الفعيل بمعنى المفعول ﴿مَّهِيلًا﴾ مشوراً.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ يا أهل مكة ﴿شَهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد يوم القيامة بما صدر عنكم ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ وهو موسى عليه السلام، وعدم تعيينه لعدم دخوله في التشبيه، وكونه معلوماً من سياق الآيات.

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦ ﴾

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ كما عصيتم الرسول محمداً ﷺ ﴿ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ جيء به للتنبيه على أنه سيحقق بهؤلاء، ما حاق بأولئك لا محالة، والوبيلُ: الوخيمُ وزناً ومعنى.

﴿ فَكَيْفَ تَنْفُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧ ﴾

﴿ فَكَيْفَ تَنْفُونَ ﴾ أنفسكم ﴿ إِنْ كَفَرْتُمْ ﴾ إن بقيتم على الكفر ﴿ يَوْمًا ﴾ أي عذاب يوم ﴿ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ ﴾ من شدة هوله ﴿ شِيبًا ﴾ شيوخاً جمع أشيب بطريق التمثيل، فهو كناية عن الشدة والمحنة، وليس المراد أن هول ذلك اليوم، يجعل الولدان شيباً حقيقة، لأن إيصال الألم والخوف إلى الصبيان، غير جائز يوم القيامة، فالموضوع من باب التشبيه، والهموم والأحزان، إذا تفاقمت على المرء أضعفت قواه، وأسرع فيه الشيب.

﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۝١٨ ﴾

﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ ﴾ أي منشق بشدة ذلك اليوم، أي السماء على عظمها وإحكامها، تنفطر لشدة ذلك اليوم، فما ظنك بغيرها من الخلائق؟ ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ أي وعد الله تعالى يكون لا محالة.

﴿ إِنْ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝١٩ ﴾

﴿ إِنْ هَٰذِهِ ﴾ أي الآيات الناطقة بالوعيد ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي موعظة بليغة ﴿ فَمَنْ شَاءَ ﴾ أن يتعظ ﴿ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ بالتقوى والخشية والعمل الصالح، فإنه المنهاج الموصول إلى مرضاته سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلَاثِيَهُ وَطَافِيَةً مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَلَّنْ نَحْضُوهُ قَنَابَ عَلَيْكَ فَأَقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مَنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَعُونَ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ﴾ أي أقلَّ منهما، فاستعير الأدنى وهو الأقرب، للأقل، لأن المسافة بين الشيتين إذا دنت، قلَّ ما بينهما ﴿وَنِصْفَهُ وَثُلَاثِيَهُ﴾ أي تقوم نصفه، وثلثه ﴿وَطَافِيَةً مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي جماعة من أصحابك ﴿وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي والله جلَّ وعلا هو العالم بمقادير ما تقومون وما تنامون، لا يعلم مقادر ساعاتها كما هي إلا الله ﴿عَلِمَ أَلَّنْ نَحْضُوهُ﴾ أي علم أن لن تطيقوا قيامه على هذه المقادر، إلا بشدة ومشقة ﴿قَنَابَ عَلَيْكَ﴾ أي فعاد عليكم بالعفو، والتخفيف، برفع التبعة كما رفع عن النائب، فإذا كان الأمر كما ذكر ﴿فَأَقْرَءُوا﴾ في الصلاة، والأمر للوجوب ﴿مَا يَسَّرَ﴾ عليكم ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أو فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل، عبّر عن الصلاة بالقرآءة كما عبّر عنها بسائر أركانها، قيل: كان التهجد واجباً على التخيير المذكور فعسر عليهم القيام به فنسخ به، ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ أي من يشق عليه قيام الليل، وهي حكمة أخرى مقتضية للترخيص والتخفيف ﴿وَأَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يسافرون للتجارة وطلب الرزق ﴿يَلْتَعُونَ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي يطلبون رزقه بالتجارة ﴿وَأَخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني الغزاة والمجاهدين، سوَّى بين المجاهد والمكتسب، لأن كسب الحلال جهاد، روي عن ابن مسعود أنه قال: «أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين، صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه، كان عند الله بمنزلة الشهداء،

ثم قرأ: ﴿وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْشُرُ مِنْهُ﴾ كرر الأمر بالتيسير لشدة احتياطهم، وللتأكيد ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أدوا الصلوات الخمس المفروضة عليكم ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ الواجبة في أموالكم ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ بالإنفاقات في سبيل الخيرات، وإنما أضافه إلى نفسه، لثلا يمن على الفقير فيما يتصدق به ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ من الحلال، والإخلاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾ أي تجدوا ثوابه ﴿عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ مما خلفتم ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ في مجامع أحوالكم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يستر ويخفف، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين
والحمد لله رب العالمين.

«ثم بعونه تعالى تفسير سورة المزمل»

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ

مكية وهي ست وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يحدثُ عن فترة الوحي، فقال في حديثه: فبينما أنا أمشي، سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ رأسي، فإذا الملكُ الذي جاءني بحراء، جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فجثتُ منه رُعباً، حتى هويتُ إلى الأرض، فجثتُ أهلي فقلتُ: زملوني، زملوني، فدثروني، فأنزل الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي يا أيها المتلففُ بشيابه، من الدُّثار وهو كل ما كان من الثياب فوق الملابس الداخلية، وأصله المتدثر، فأدغم.

﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾

﴿قُمْ﴾ من مضجعك قيام عزم وتصميم ﴿فَأَنْذِرْ﴾ أي فحذر قومك من عذاب الله كقوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ أو مطلقاً للتعميم، حسبما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ والمراد فاشتغل بفعل الإنذار.

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي خُصَّ ربك بالتكبير، وهو التعظيم، ويروى أنه لما نزلت قال ﷺ: «الله أكبر» وأيقن أنه الوحي، لأن الشيطان لا يأمر بذلك، فإن قلت: وما كانت الصلاة واجبة في ذلك الوقت، قلنا: لا يبعد أنه ﷺ كانت له تطوعاً فأمر بأن يكبر فيها، أو للدلالة على أن المقصود أولاً أن يكبر ربه وينزهه من الشرك، فإنه أول ما وجب.

﴿وَبِأَبْكَ فَطَهِّرْ﴾

﴿وَبِأَبْكَ فَطَهِّرْ﴾ وذلك بصيانتها عن النجاسة، وغسلها بعد تلطخها، وبتقصيرها، فإن طولها يؤدي إلى جر الذبول على القاذورات، وهو أول ما أمر به ﷺ من رفض العادات المذمومة، وقيل: هو أمرٌ بتطهير النفس، مما يستقذر من الأفعال، يقال: فلانٌ طاهرٌ الثوب والذيل، إذا وصفوه بالنقاء عن المعائب ومدانس الأخلاق.

﴿وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ﴾

﴿وَالرَّجْزَ﴾ أي عبادة الأوثان وما يؤدي إليها ﴿فَاهْجُرْ﴾ اثبت على هجره، لأنه ﷺ كان بريئاً من ذلك، وأصلُ الرجز: العذاب، سميت الأوثان رجزاً لأنها تؤدي إلى العذاب، وقال الفخر الرازي: الرجز اسم للقبیح المستقذر.

﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾

﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تعط مستكثراً، أي راثياً لما تعطيه كثيراً،

لأن الكريم يستقل ما يعطي وإن كان كثيراً، وقيل: معناه لا تمنن على الله بعملك فتستكثره^(١).

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾^(٧).

﴿وَلِرَبِّكَ﴾ أي لأمره ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذية المشركين لأجل أمر ربك.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾^(٨).

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ أي نفخ في الصور، وهو من النقر بمعنى التصويت، والفاء للسببية، كأنه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل، يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك.

﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾^(٩).

﴿فَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ذلك اليوم الشديد ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي فيوم الحساب يوم عسير.

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَسِيرٌ﴾^(١٠).

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَسِيرٌ﴾ تأكيد لعسره عليهم، مشعرٌ بيسره على المؤمنين، واختلف في كون المراد به النفخة الأولى أو الثانية، والحق أنها الثانية إذ هي التي يختص عسرها بالكافرين.

(١) هذا قول الحسن البصري واختاره ابن جرير الطبري، وروي عن ابن عباس أن المعنى: لا تعط العطية تلمس أكثر منها، وهذا وإن كان حلالاً بالنسبة لعامة المسلمين، لكنه مغلٌ بمنصب النبوة، لأن هدف الأنبياء أسمى وأعلى من أن تكون الدنيا غاية وهدفاً لهم، وأما غير الأنبياء فذلك جائز لهم للحديث الشريف «تهادوا تحابوا».

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ (١١)

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ نزلت في «الوليد بن المغيرة» أي ذرني وحدي معه، فإنني أكفيكه، أو هو حال من العائد المحذوف، أي من خلقته فريداً لا مال له، ولا ولد، وكان يقول: أنا الوحيد وليس في العرب نظيري.

﴿ وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ (١٢)

﴿ وَجَعَلْتُ لَمْ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ أي مبسوطاً، كثيراً، واسعاً، فقد كان له الزرع، والضرع، والتجارة.

﴿ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴾ (١٣)

﴿ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴾ أي أولاداً حضوراً معه بمكة، لا يفارقونه، ولا يحتاج أن يرسلهم في مصالحه لكثرة خدمه، و كان له عشرة بنين، فأسلم منهم ثلاثة: خالد، وعمارة، وهشام.

﴿ وَمَهَّدْتُ لَمْ تَمْهيدًا ﴾ (١٤)

﴿ وَمَهَّدْتُ لَمْ تَمْهيدًا ﴾ وبسطت له الجاه والرياسة حتى لُقِّبَ «ريحانة قریش» والوحيد.

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ (١٥)

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ على ما أوتيته و «ثم» ههنا معناه التعجب، كما تقول لصاحبك: أنزلتك ذاري، وأطعمتك، ثم أنت تشتمني؟! وهو استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه، فيرجو أن أزيد في ماله وولده من غير شكر.

﴿كَلَّا إِنَّكُمْ كَأَن لَّيْتِنَا عِنْدَ﴾ (١٦).

﴿كَلَّا﴾ ردع له وقطع لرجائه، فلم يزل بعد نزول الآية، في نقصان من المال والجاه حتى هلك ﴿إِنَّكُمْ كَأَن لَّيْتِنَا عِنْدَ﴾ أي معانداً للقرآن وجاحداً، وكان كفره كفر عناد، وهو أن يعرفه بقلبه وينكره بلسانه، وهذا أقبح الكفر.

﴿سَأَرْهِفُهُمْ صَعُودًا﴾ (١٧).

﴿سَأَرْهِفُهُمْ صَعُودًا﴾ أي سأغشيه عقبة شاقة المصعد، بدل ما يطمع فيه من الزيادة في العطاء، وهو مثل لما يلقي من الشدائد.

﴿إِنَّكُمْ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ (١٨).

﴿إِنَّكُمْ فَكَّرَ﴾ أي فكَّر ماذا يقول في شأن القرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه ما يقول وهياه.

﴿فَقُلَّ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (١٩).

﴿فَقُلَّ﴾ أي لُعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾! تعجيب من تقديره، أي قاتله الله وأخزاه على تلك الكلمات. السفهية التي ردَّدها في نفسه، والغرض منه الاستهزاء به، على كلامه السخيف. روي أن الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلو عليه، فقالت قريش والله لقد صبأ الوليد، والله لو صبأ لتصبأ قريش كلها فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعد عنده حزيناً، وكلمه بما أحماه، فقام فاتاهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه

شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً؟ وتزعمون أنه كذاب، فهل جريتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك اللهم لا، ثم قالوا فما هو؟ ففكر فقال ما هو إلا ساحر، فارتجّ النادي فرحاً، وتفرقوا معجبين بقوله، فنزلت فيه الآيات.

﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ﴿٢٠﴾.

﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كرهه للتأكيد، و «ثُمَّ» يشعر بأن الدعاء الثاني أبلغ من الأول أي قاتله الله ما أروع تفكيره؟.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ﴿٢١﴾.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي أجال النظر في القرآن مرة بعد مرة.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ ﴿٢٢﴾.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قَطَّبَ وجهه، لمّا لم يجد فيه مطعناً، ولم يدر ماذا يقول؟ ﴿وَبَسَرَ﴾ زاد في التقبض والكلوح، قال الليث: عبس إذا قَطَّبَ ما بين عينيه، فإن أبدى عن أسنانه في عبوسه قيل: كلح، فإن اهتم لذلك وفكّر فيه قيل: بسر.

﴿ثُمَّ أَذْبَرَ وَأَسْتَكْبَرَ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿ثُمَّ أَذْبَرَ﴾ أي أدبر عن الحق والإيمان ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾ أي تكبر عن قبول ما جاء به الرسول ﷺ وعن اتباعه، وإيراد «ثم» في المعطوفات، لبيان أن بين الأفعال المعطوفة تراخياً.

﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ ﴿٢٤﴾.

﴿ فَقَالَ إِنَّ هَذَا ﴾ أي ما هذا ﴿ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴾ أي يُروى عن السحرة والفاء للدلالة على أنه خطرت هذه الكلمة بباله، ففتوه بها، من غير تلبث وتفكر.

﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ (٢٥).

﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أي ما هذا القرآن إلا كلام البشر، تأكيد لما قبله، ولذلك لم يعطف عليها.

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ (٢٦).

﴿ سَأُصْلِيهِ ﴾ أي سأدخله ﴿ سَقَرَ ﴾ علم لجهنم وقيل آخر دركاتها.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ (٢٧).

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ ؟ أي وما أعلمك أي شيء هي ؟.

﴿ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴾ (٢٨).

﴿ لَا تَبْقَى ﴾ أي هي لا تبقى لحماً ﴿ وَلَا تَذَرُ ﴾ عظماً إلا أهلكته.

﴿ لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ (٢٩).

﴿ لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ أي هي لواحة للبشر جمع بشرة، وهي ظاهر الجلد، أي مسودة للجلود ومحرقة لها، وقيل: تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سواداً من الليل، وقيل تلوح للناس^(١)، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾.

(١) هذا القول هو الأظهر والأرجح أي أن نار جهنم تلوح وتظهر لأنظار الكفار والفجار، من مسافات بعيدة كما قال سبحانه: ﴿ وَيُزَيِّزُ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ ﴾ وأما القول الأول =

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي ملكاً يلي أمرها، وهذا العدد إنما صار سبباً لفتنة الكفار من وجهين: ١ - يستهزئون ويقولون: لمَ لم يكونوا عشرين ٢ - ويقولون كيف يكونوا وافين بتعذيب أكثر خلق العالم من أول الخلق إلى يوم القيامة، فمدار هذين السؤالين عدم الاعتراف بكمال قدرة الله تعالى ومن آمن واعترف بكونه قادراً على جميع المقدورات، وعلم أن أحوال القيامة على خلاف أحوال الدنيا، زال عن قلبه هذه الاستبعادات!! وقد كان ﷺ يعلم من حال كفار قريش، أنه متى أخبرهم بهذا العدد يستهزئون به، فلما ذكره علم كل عاقل أن مقصوده منه إنما هو التبليغ، وأنه لا يبالى في ذلك بتكذيب المكذبين.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ ﴿٣١﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أي المدبرين لأمرها، الفائتين بتعذيب أهلها ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ ليخالفوا جنس المعذبين، لأن الجنسية مظنة الرأفة والرحمة، ولأنهم أقوى الخلق، وأشدُّهم بأساً، روي أنه لما نزل قال أبو جهل لقريش: أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشد:

= أنها محرقة للجلود، مسودة لها، وأن البشر جمع بشرة وهي ظاهر جلد الإنسان، فأئى فائدة في هذا بعد قوله تعالى: ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ إذا كانت تأكل اللحم والعروق والعظام والجلود؟

أنا أكفيكم سبعة عشر، فاكفوني أنتم اثنين؟ فترلت الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ما جعلنا عددهم، وهو تسعة عشر، وليس المراد مجرد جعل عددهم، ذلك العدد المعين، بل ذكره في القرآن، إذ بذلك يتحقق افتنانهم، باستبعادهم واستهزائهم به، وعليه يدور ما سيأتي من استيقان أهل الكتاب، وازدياد المؤمنين إيماناً ﴿لَيْسَتِيقَنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليكتسبوا اليقين بنبوته ﷺ، وصدق القرآن، لموافقته لما في كتابهم، فأهل الكتاب يقرؤون في كتابهم أن عدد الزبانية تسعة عشر، لكنهم ما كانوا يعملون على ذلك، لعلمهم تطرق التحريف إلى هذين الكتابين، فلما سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ، قوي إيمانهم بذلك ﴿وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ أي يزداد إيمانهم بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصدقهم أنه كذلك ﴿وَلَا يَزَابَ﴾ أي ولا يشك ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ في عددهم، وهو تأكيد لما قبله من الاستيقان، ونفي لما قد يعتري المستيقن من شبهة ما ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك أو نفاق فيكون إخباراً بما سيكون بعد الهجرة، وعلى هذا تصوير الآية معجزة ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ المصرون على التكذيب ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي أي شيء أراد الله بهذا العدد، المستغرب استغراب المثل، والذي يشبه المثل في الغرابة ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما أضل الله من أنكر عدد الخزنة، وهدى من صدق به كذلك ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، لصرف اختياره، إلى جانب الضلال ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته، لصرف اختياره عند مشاهدة تلك الآيات، إلى جانب الهدى، وفيه دليل خلق الأفعال، ووصف الله تعالى بالهداية والإضلال ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ﴾ جموع خلقه على ما هم عليه، وكأن القوم استقلوا ذلك العدد، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ فهب أن هؤلاء تسعة عشر، ولكل واحد منهم من الأعوان والجنود، ما لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وفي هذا العدد حكمة لا يعلمها إلا هو ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا سبيل لأحد حصر الممكنات والاطلاع على حقائقها ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي وما سقر وصفتها وعدة الخزنة ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي تذكرة وموعظة للناس.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ (٣٢)

﴿كَلَّا﴾ ردع لمن أنكرها، أي ليرتدع هؤلاء السفهاء عن السخرية والاستهزاء، فليس كما زعموا أنهم يصارعون الملائكة، ثم أقسم لهم ببعض الآيات الكونية فقال ﴿وَالْقَمَرِ﴾ أي أقسم به لعظم منافعه.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ (٣٣)

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ ولى وذهب.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ﴾ (٣٤)

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ﴾ أضياء وكشف.

﴿إِنِّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ﴾ (٣٥)

﴿إِنِّهَا﴾ أي جهنم. ﴿لأَحَدَى الْكُبَرِ﴾ أي لإحدى البليات، أو الدواهي الكبرى، ومعنى كونها إحداهن، أنها من بينهن واحدة في العظم، كما تقول: هو أحد الرجال.

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ (٣٦)

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ تمييز، أي لإحدى الكبر إنذاراً، تنذره بما وراءهم من خطر.

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (٣٧)

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي نذيراً لمن شاء منكم أن يسبق إلى الخير فيهديه الله تعالى، أو لم يشأ ذلك فيضله، وقد تمسك بهذه الآية،

من يرى أن العبد غير مجبور على الفعل، وأنه متمكن من فعل نفسه، وهم المنكرون للقدَر، وجوابه أن فعل العبد، معلق على مشيئته تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٢٨).

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ التاء ليست بتأنيث رهن، لأن فعلاً يستوي فيه المذكر والمؤنث، لا تدخله التاء، وإنما هي اسم بمعنى الرهن، والمعنى: كل نفس مرهونة عند الله تعالى.

﴿إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٣٩).

﴿إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ فإنهم فاكون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم، كما يفك الراهن رهنه بأداء الدين.

﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ﴾ (٤١).

﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ﴾ أي هم في جنات النعيم، في حدائق وبساتين، يتساءلون عن الكفار والفجار.

﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤١).

﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي يسألونهم عن أحوالهم، وعن سبب دخولهم النار، وسؤالهم لهم إنما هو سؤال تعنيف وتوبيخ، لإدخال الحسرة على قلوبهم، لا سؤال استفسار، فهم عارفون بالسبب الذي أدخلهم نار جهنم، وهذا كما يقال لإنسان قاتل أو سارق: ما الذي أدخلك في السجن؟.

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (٤١).

﴿ مَا سَأَلَكَ كَرِيهُ سَقَرٌ ﴾؟ أي يسألونهم قائلين: أي شيء أدخلكم في نار جهنم؟ ولماذا صرتم من أهل الجحيم؟

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ (٤٢).

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ لله تعالى في الدنيا.

﴿ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴾ (٤٤).

﴿ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴾ كما يطعم المسلمون، وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخظة.

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ (٤٥).

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ أي نشرع بالباطل مع الشارعين فيه.

﴿ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٤٦).

﴿ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي نكذب بيوم الجزاء والحساب.

﴿ حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ ﴾ (٤٧).

﴿ حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ ﴾ أي حتى جاءنا الموت، أي وكنا مع ذلك كله مكذبين بالقيامة إلى آخر العمر.

﴿ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ (٤٨).

﴿ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ لو شفَعُوا لهم جميعاً من الملائكة، والنبيين، والصالحين، لأنها للمؤمنين دون الكافرين، وقال ابن مسعود

رضي الله عنه: تشفع الملائكة، والنبيون والشهداء والصالحون فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلا: ﴿قَالُوا لِمَ نَكَ مِنَ الْمَصْلِينَ﴾ الآيات.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩).

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؟ وهي القرآن، أي فإذا كان الأمر على ما ذكر، فأئني شيء حصل لهم، معرضين عن القرآن، مع تعاضد موجبات الإقبال عليه.

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٥٠).

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ أي حمر الوحش ﴿مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ أي شديدة النفار.

﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (٥١).

﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ القسورة: الأسد، وفيه من ذمهم وتهجين حالهم ما لا يخفى، فقد شبههم بالحرر الوحشية النافرة، التي هربت من الأسد، من شدة الخوف والفرع، فكذلك ينفرون من الداعي محمد ﷺ الذي يدعوهم إلى الخير والفلاح.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ (٥٢).

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ عطف على مقدر، كأنه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرة، بل يريد كل واحد منهم، أن يؤتى قراطيس تنشر وتقرأ، كما قالوا: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ﴾ نُؤمر فيه باتباعك.

﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ (٥٣).

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن تلك الإرادة، وزجر عن اقتراح الآيات ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة.

﴿كَلَّا إِنَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

﴿كَلَّا﴾ حقاً ﴿إِنَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بليغة كافية.

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ انتفع به، وحاز بسببه سعادة الدارين.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفْرِ﴾

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وهو تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله تعالى ﴿هُوَ أَهْلُ الْقُوَى﴾ تحقيق بأن يتقوى عقابته، ويؤمن به ويُطاع ﴿وَأَهْلُ الْغَفْرِ﴾ وتحقيق بأن يغفر ذنوب عباده، سيما المتقين منهم.

والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المدثر»

سُورَةُ الْقِيَمَةِ

مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ ١

﴿لَا أُقْسِمُ﴾ إدخال «لا» النافية، على فعل القسم للتأكيد، شائع في كلامهم، كقولك: لا والله ما ذاك، كما تقول: والله ما ذلك، لكنه أبلغ في الرد مع إثباتها، وقيل: هي للنفي لكن لا لنفي الإقسام بل لنفي ما ينبيء هو عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه، كأن معنى لا أقسم بكذا لا أعظمه بإقسامي به حق إعظامه فإنه حقيق بأكثر من ذلك ﴿يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي بيوم الحساب والجزاء، وهو يوم الحشر الأكبر، كما قال سبحانه: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾.

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ ٢

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ الجمهور على أنه قسم آخر، وعن الحسن أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة، أي النفس المتقية التي تلوم على التقصير في التقوى، قال ابن عباس رضي الله عنه: إن كل نفس تلوم صاحبها يوم القيامة، سواء كانت برة، أو فاجرة، أما البرة فتلوم صاحبها

لَمْ لَمْ يزد من فعل الخير، وأما الفاجرة لَمْ لَمْ تشتغل بطاعة الله، والمناسبة بين القيامة وبين النفس اللوامة، لأن المقصود من القيامة، إظهار أحوال النفوس، أعني سعادتها أو شقاوتها، وجواب القسم «لتبعثن» يدل عليه قوله تعالى..

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَنُ أَنَّنِجْمَعُ عِظَامُهُ﴾ ٣

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَنُ﴾ الكافر المنكر للبعث والنشور ﴿أَنَّنِجْمَعُ عِظَامُهُ﴾؟ بعد تفرقها، ورجوعها رفاتاً، مختلطاً بالتراب وبعدها نسفتها الريح، أو ألقتها في البحار.

﴿بَلَىٰ قَدَرَيْنَ عَلَىٰ أَن سُويَ بَنَانُهُ﴾ ٤

﴿بَلَىٰ﴾ نجمعها ﴿قَدَرَيْنَ﴾ حال أي نجمعها قادرين على جمعها، وإعادتها كما كانت ﴿عَلَىٰ أَن سُويَ بَنَانُهُ﴾ كما كانت في الدنيا، بلا نقصان وتفاوت مع صغرهما، فكيف بكبار العظام؟.

﴿بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَنُ لِيَفْجَرَأَمَامَهُ﴾ ٥

﴿بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَنُ﴾ عطف على أيحسب ﴿لِيَفْجَرَأَمَامَهُ﴾ أي ليدوم على فجوره فيما يستقبل من الزمان، ولا يرعوي عنه.

﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ٦

﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؟ أي متى يكون يوم القيامة؟ استبعاداً أو استهزاء.

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ ٧

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ أي تحير فرعاً، مأخوذ من بَرِقَ الرجل، إذا نظر إلى

البرق فدهش بصره، ثم يستعمل في كل حيرة، ومتى تحصل هذه الحالة؟
قيل: عند البعث، وقيل: عند رؤية جهنم، قال تعالى: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
الْأَبْصَارُ﴾.

﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ ٨.

﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أي ذهب ضوءه وأظلم.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ ٩.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي التقيا في الطلوع من المغرب.

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ ١٠.

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ الكافر المكذب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ تقع هذه الأمور
﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ؟﴾ أي أين المهرب؟.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ١١.

﴿كَلَّا﴾ ردُّ لكلامه السابق وهو طلب المفر، أي لا ملجأ لهم يهربون
إليه ﴿لَا وَزَرَ﴾ هو اسم للملجأ، ومعنى الآية: أنه لا شيء يعصمهم من أمر
الله تعالى.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ ١٢.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خاصة ﴿يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ مستقر العباد من الجنة أو النار.

﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ١٣.

﴿يُبَيِّتُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي يخبر كل امرئ برأ كان أو فاجراً، بما قدّم قبل موته، وما أخّر بعد موته، من سنة حسنة، أو سيئة يُعمل بها.

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (١٤).

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ شاهد والهاء للمبالغة.

﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾ (١٥).

﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ﴾ أي ولو أتى بكل معذرة، وجادل عن نفسه، لأنه لا ينفعه ذلك، أي ينبأ الإنسان بأعماله، وهو شاهد على نفسه، لأن جوارحه تنطق بذلك.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦).

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ﴾ أيها الرسول ﴿لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ بالقرآن قبل أن يتم وحيه، مخافة أن ينفلت منك.

﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُكُمْ وَقُرْآنُكُمْ﴾ (١٧).

﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُكُمْ﴾ في صدرك ﴿وَقُرْآنُكُمْ﴾ وإثبات قراءته في لسانك وهو تعليل للنهي.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَمِعْ﴾ (١٨).

﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ بلسان جبريل عليه السلام، وإسناد القراءة إلى نون العظمة للمبالغة في إيجاب الثاني ﴿فَاسْتَمِعْ﴾ أي فأنصت إلى قراءته، واستمع إليه، حتى يفرغ جبريل من التلاوة.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٩).

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي فاتبع قراءته، وتفكّر فيه، حتى يرسخ في ذهنك، ثم نبين ما أشكل عليك من معانيه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ (١) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان ممّا يحرك به شفتيه (٢)، قال ابن عباس: أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، فحرّك شفتيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ الآية قال: فاستمع وأنصت، ثم علينا أن نقرأه، قال: فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل عليه السلام بعد ذلك استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرأه» (٣).

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (٢٠).

﴿كَلَّا﴾ ردع عن إنكار البعث ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي بل أنتم يا بني آدم لما خلقتُم من عجل، وجلبتُم عليه، تعجلون في كل شيء، ولذلك تحبون عاجلة الدنيا وشهواتها.

﴿وَنَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾ (٢١).

﴿وَنَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلا تعملون لها.

﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢).

(١) سورة طه، آية: ١١٤.

(٢) أي كان كثيراً ما يفعل ذلك، ويلقى من ذلك صعوبة وشدة.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة القيامة ٥٢٣/٨ وفي بدء الوحي ٢٨/١ ومسلم في كتاب الصلاة رقم ٤٤٨.

﴿رُجُوءٌ﴾ هي وجوه المؤمنين ﴿يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ أي حسنة ناعمة، بهيئة مضيئة، يشاهد عليها نضرة النعيم، يقال: نضرتُ الوجه بالضم نضارة وهي الحسن.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي تنظر إلى ربها عياناً، بلا كيفية، ولا جهة ولا ثبوت مسافة، تراه مستغرقة في مطالعة جماله، وجمهور أهل السنة، يتمسكون بهذه الآية، في إثبات أن المؤمنين، يرون الله تعالى يوم القيامة، والمعتزلة قالوا: معناه منتظرة إلى إنعامه، ورُدَّ بأن الانتظار لا يسند إلى الوجه، مع أن الانتظار لا يليق في دار القرار، وقال الأزهري: العرب لا تقول: نظرتُ إلى الشيء بمعنى انتظرته، وإنما تقول نظرتُ فلاناً، أي انتظرته، ومما يشهد لقول أهل السنة ما رواه الشيخان عن جرير بن عبد الله قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: «إنكم سترون ربكم عياناً، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته...»^(١) الحديث.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي كالحة شديدة العبوسة، وهي وجوه الكفرة، أظلمت ألوانها، وعدمت آثار السرور، لأنها قد أيقنت أن العذاب نازل بها.

﴿تَنْظُرُونَ أَن يُفْعَلَٰ بِهَا فَاكِرَةٌ﴾

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٥٤ ومسلم رقم ٢٨٢٩ وهو حديث طويل في رؤية المؤمنين لربهم في جنة النعيم.

﴿ تَنْظُرُ ﴾ أي تتوقع وتستيقن، والمراد بالوجوه أربابها ﴿ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا ﴾ أمر عظيم من العذاب ﴿ فَافِرَةٌ ﴾ تقصم فقار الظهر.

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ (٢٦).

﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك، وتنبهوا لما بين أيديكم من المخاطر والأهوال ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ الروح ﴿ التَّرَاقِيَ ﴾ أي العظام المكتنفة لثغرة النحر.

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ (٢٧).

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أي قال من حضر: من يرقيه؟ أي أي طبيب يداويه وينجيه مما نزل به؟.

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ (٢٨).

﴿ وَظَنَّ ﴾ أي أيقن المحتضر أنه سيفارق الأهل والمال والولد، وعبر بالظن لأن الإنسان ما دام يبقى روحه متعلقاً ببدنه، فإنه يطمع في الحياة ﴿ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ أن هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا، والآية دالة على أن الروح باقية بعد موت البدن، لأنه تعالى سمى الموت فراقاً، والفراق صفة تستدعي الموصوف.

﴿ وَاللَّفَتِ اللَّسَاقُ بِالسَّاقِ ﴾ (٢٩).

﴿ وَاللَّفَتِ اللَّسَاقُ بِالسَّاقِ ﴾ أي التوت ساقه بساقه عند حلول الموت فلا يقدر على تحريكهما، لأن الموت قد دبَّ فيهما، قال الحسن البصري: «ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليهما جوالا».

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (٣٠).

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أي إلى ربك المرجع والمآب، لا إلى غيره.

﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا وُصِّلَ﴾ (٣١).

﴿فَلَا صَدَقَ﴾ أي فلم يصدق بالقرآن ولم يؤمن بالرسول ﴿وَلَا وُصِّلَ﴾ ولم يصل للرحمن ما فرض عليه، والضمير للإنسان المذكور في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ وفيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بالفروع في حق المؤاخذه.

﴿وَلَكِنَّ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ (٣٢).

﴿وَلَكِنَّ كَذَبَ﴾ ما ذكر من الرسول والقرآن ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الطاعة.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمِطُّ﴾ (٣٣).

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمِطُّ﴾ يتبختر افتخاراً بذلك.

﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ (٣٤).

﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ أي ويل لك أيها الشقي الفاجر على هذا الطغيان، وهو دعاء عليه بالهلاك.

﴿ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ (٣٥).

﴿ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ أي ثم ويل لك على طغيانك وفجورك، وفيه تكرار الدعاء عليه.

﴿ اَيْحَسْبُ الْاِنْسَانُ اَنْ يَتْرَكَ سُدًى ﴾ (٣٦).

﴿ اَيْحَسْبُ الْاِنْسَانُ اَنْ يَتْرَكَ سُدًى ﴾ أي أيطن الإنسان أن يترك مهملًا، فلا يكلف، ولا يجازى، ولا يعاقب؟.

﴿ اَلْزَيْكُ نُطْفَةٌ مِّنْ مَّيِّ يُمْنَى ﴾ (٣٧).

﴿ اَلْزَيْكُ نُطْفَةٌ مِّنْ مَّيِّ يُمْنَى ﴾ أي أما كان هذا الإنسان نطفة حقيرة، يُراق ويصب في الرحم؟.

﴿ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ (٣٨).

﴿ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً ﴾ أي قطعة دم جامد ﴿ فَخَلَقَ ﴾ أي فخلقه الله بقدرته ﴿ فَسَوَّى ﴾ أي فعدله وكمّل نشأته، وجعله إنساناً سوياً؟.

﴿ فَعَمَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ (٣٩).

﴿ فَعَمَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ أي فعمل هذا المخلوق صنفين اثنين: ذكراً وأنثى.

﴿ اَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَدِيرٍ عَلٰى اَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (٤٠).

﴿ اَلَيْسَ ذَٰلِكَ ﴾ العظيم الشأن، الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿ بِقَدِيرٍ عَلٰى اَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾؟ أي بقادر على إعادة الإنسان بعد فثاته، وهو أهون من البدأ، في قياس العقل؟ بلى إنه على كل شيء قدير. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم ﴿والتين والزيتون﴾ فأنتهى إلى آخرها، فليقل: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين» ومن قرأ ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمٍ﴾

الْقِيَامَةِ ﴿فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا فَلْيَقُلْ بَلَى، وَعِزَّةَ رَبِّنَا، وَمَنْ قَرَأَ وَالْمُرْسَلَاتِ
فَبَلِّغْ﴾ فَبَأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿فَلْيَقُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾^(١)

والله اعلم بمراده، والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى
آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القيامة»

* * *

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٨٨٧ في الصلاة، والترمذي في التفسير رقم ٣٣٤٤.

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

مكية وهي إحدى وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ﴿١﴾

﴿هَلْ أَتَى﴾ أي قد مضى ومرّ، وهو استفهام للتقرير والتقريب، فإن «هل» بمعنى «قد» والأصل أهل أتى؟ كما تقول: هل رأيت صنيع فلان؟ وقد علمت أنه قد رآه ﴿عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ قبل زمان قريب ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي طائفة محدودة من الزمن، بعيدة الأجل ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ بل كان شيئاً منسياً لا يفطن له، والمراد بالإنسان الجنس، والغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان محدث، فلا بد له من محدثٍ قادر، وهو الخالق، المبدع، الحكيم!

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٢﴾

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ فالإظهار لزيادة التبيين والتقريب ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي أخلاط، من ماء الرجل وماء المرأة، مأخوذ من مشجت الشيء إذا خلطته، وصف تعالى النطفة به، لما أن المراد بها مجموع المائتين، ولكل منهما أوصاف مختلفة، من الرقة، والغلظ، واللون ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي مريدين

ابتلاءه بالتكاليف الشرعية، والأوامر والنواهي الإلهية ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾
ليتمكن من استماع الآيات التنزيلية، ومشاهدة الآيات التكوينية، وإنما
خصهما بالذكر، لأنهما أعظم الحواس وأشرفها.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ بإنزال الآيات، ونصب الدلائل، والآية دالة على
أن إعطاء الحواس، كالمقدم على إعطاء العقل، والأمر كذلك، والمراد
بالسبيل ههنا: سبيل الخير، والشر، ومعنى هديناه أي عرفناه ﴿إِمَّا شَاكِرًا
وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي إمّا مؤمناً أو كافراً، أي مكناه وأقدرناه على سلوك
الطريق، الموصل إلى البغية في حالتيه، وإيراد الكفور لمراعاة الفواصل،
والإشعار بأن الإنسان قلماً يخلو من كفران، وإنما المؤاخذه عليه الكفر
المفرط.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَآ وَسَعِيرًا﴾

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي هيأنا في جهنم ﴿لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَآ﴾ أي
يقادون بالسلاسل، فتشد بها أرجلهم، وبالأغلال تشد أيديهم إلى رقابهم
﴿وَسَعِيرًا﴾ أي ناراً موقدة يحرقون بها، وهذا من أعظم أنواع التهيب،
وتقديم وعيدهم لأن تصدير الإنذار أهم وأنفع، وختمه بذكر المؤمنين
أحسن وأوقع.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ شروع في بيان حسن حال الشاكرين، وإيرادهم بعنوان
البر، للإشعار بما استحقوا به ما نالوه من الكرامة ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ أي
كأس من الخمر ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ ما يُمزج بها ويخلط ﴿كَافُورًا﴾ هو

اسم عين في الجنة، ماؤها في بياض الكافور، هي كافور لذيق ليس فيه مضرة، وليس ككافور الدنيا.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿٦﴾

﴿عَيْنًا﴾ أي هذا الكافور يتدفق من عين جارية في الجنة ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي منها أو هو محمول على المعنى، أي يتلذذ بها، وقيل: الضمير للكأس والمعنى: يشربون من العين بتلك الكأس ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ أهل الإيمان ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ ﴿٧﴾

﴿يُوفُونَ﴾ تفصيل لما ينبىء عنه اسم الأبرار، كأنه قيل ماذا يفعلون حتى نالوا تلك الرتبة العالية؟ فقيل: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم، فكيف بما أوجب الله تعالى عليهم؟ ﴿بِالنَّذْرِ﴾ ما نذروه في طاعة الله ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ﴾ أي شدائده وأحواله ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ أي فاشياً منتشراً، ممتد البلاء، من استطار الحريق والفجر، وهو أبلغ من طار، وفيه إشعار بحسن عقيدتهم، واجتنابهم عن المعاصي.

﴿وَيُطْعَمُونََ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنَاتِهِمْ وَأَسِيرًا﴾ ﴿٨﴾

﴿وَيُطْعَمُونََ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ﴾ أي على حب الطعام والحاجة إليه، كما في قوله تعالى: ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ أو على حب الله وهو الأنسب لما سيأتي لوجه الله ﴿مَسْكِنَاتِهِمْ وَأَسِيرًا﴾ أي أسير كان فدخل فيه المملوك، والمسجون، وإطعام الطعام كناية عن الإحسان إلى المحتاجين، بأي وجه كان، وتخصيص الطعام لأنه أشرف أنواع الإحسان، لأن قوام الأبدان بالطعام، ولا حياة إلا به.

﴿ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۝٩﴾ .

﴿ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ ﴾ على إرادة القول أي قائلين ذلك بلسان الحال أو بلسان المقال، وهو بيان من الله تعالى عما في ضمائرهم، لأن الله علمه منهم فأننى عليهم ^(١) ﴿ لَوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أي لطلب ثوابه ﴿ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً ﴾ أي مكافأة تجازوننا به ﴿ وَلَا شُكْرًا ﴾ محمداً تحمدوننا به، وهو تقرير وتأكيد لما قبله.

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ۝١٠﴾ .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا ﴾ أي عذاب يوم ﴿ عَبُوسًا ﴾ تعبس فيه الوجوه وتكلح، من فظاعة أمره، وشدة هوله، أو يشبه الأسد العبوس في الشدة ﴿ قَتَطِيرًا ﴾ أي شديداً، فلذلك نفعل بكم ما نفعل، رجاء أن يقينا ربنا بذلك الإحسان شره.

﴿ فَوَقَّهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ .

﴿ فَوَقَّهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ أي صانهم من شدائده، وحماهم من عذابه، بسبب خوفهم وتحفظهم عنه ﴿ وَلَقَّاهُمْ ﴾ أي أعطاهم بدل عبوس الفجار ﴿ نَضْرَةً ﴾ أي حسناً في الوجوه ﴿ وَسُرُورًا ﴾ فرحاً في القلوب.

﴿ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ .

﴿ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على الطاعة واجتناب المعبصية، وعلى الفقر والجوع، مع الوفاء بالنذر ﴿ جَنَّةً ﴾ بستاناً فيه مآكل هنيئة، يأكلون منه ما شاؤوا ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ ملبساً بهياً من الحرير، يلبسونه ويتزينون به.

(١) قال مجاهد: أما والله ما قالوه بالسنتهم، ولكن الله علم بما في قلوبهم، فأننى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي مضطجعين في الجنة على الأسرة، المزينة بأفخر الزينة والستور، جمع أريكة وهي السرير المزخرف ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ أي لا يصيبهم ولا يمسه ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ الزمهرير أشد البرد، والمعنى أنه يمر عليهم هواء معتدل، لا حار محمّ، ولا بارد مؤذ.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّنَّهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ﴾ أي قريبة منهم ﴿ظِلُّنَّهَا﴾ ظلال أشجارها زيادة في نعيمهم، على معنى أنه لو كان هناك شمس مؤذية، لكانت أشجارها مظلة عليهم مع أنه لا شمس ولا قمر، وإنما هي أنوار تتلألأ ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي سخرت ثمارها للقائم، والقاعد، والمتكئ أي سهل أخذها، ليسهل قطعها دون عناء وتعب، من غير تسلق للأشجار، وتعرض للأخطار.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَنَاتٍ مِّنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يدور عليهم خدمهم ﴿بِبَنَاتٍ﴾ جمع إناء، وهو وعاء الماء ﴿مِّنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ وهو جمع كوب، وهو إبريق لا عروة له، ولا أذن له.

﴿قَوَارِيرًا مِّنْ فَضَّةٍ قَدَرُهَا نَقِيرًا﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿قَوَارِيرًا مِّنْ فَضَّةٍ﴾ أي تكونت جامعة بين صفاء الزجاج، وشفيفها، وجمال الفضة وبياضها، والغرض من ذكر هذه الآية، التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة، إلى قارورة الدنيا، كنسبة الذهب إلى رمل الدنيا، وأن المراد بالقوارير ليس هو الزجاج، فإن العرب تسمي ما استدار، ورقّ

وصفاً، من الأواني التي تجعل فيها الأشربة قارورة. ﴿قَدَرُوهَا نَقِيرًا﴾ أي إنهم قدروها في أنفسهم، وأرادوها على مقادير وأشكال معينة، موافقة لشهواتهم، فجاءت حسبما قدروها.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ (١٧)

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ أي الأبرار ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿كَأْسًا﴾ خمرًا ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ أي ما يشبه الزنجبيل في الطعم، وكان الشراب الممزوج به أطيب ما تستطيعه العرب والذ.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ (١٨)

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى﴾ أي يشربون في الجنة من عين تسمى ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ سميت بالسلسيل، لسلاسة انحدارها في الحلق، وسهولة مساعها، ليس فيها لدعة الزنجبيل، فيشعر الشاربون بطعمه، ولكنهم لا يشعرون بحرقته ولذعته.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا﴾ (١٩)

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا﴾ شبهوا لحسنهم، وصفاء ألوانهم، وانبثائهم في مجالسهم، وانعكاس أشعة بعضهم إلى بعض، باللؤلؤ المنثور أي المتفرق^(١)، فإن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً كان أجمل وأحسن.

(١) الحكمة في تشبيههم باللؤلؤ المنثور أن اللؤلؤ إذا لم يُثقب، يكون أشد صفاء وأحسن منظرًا، وأجمل ما يكون إذا كان منثوراً أي متفرقاً هنا وهناك، لوقوع شعاع بعضه على بعض، فإذا كان الخادم كاللؤلؤ، يشع بالجمال والبهاء، فكيف يكون المخدم من أهل الجنة؟ اللهم لا تحرمنا الجنة ونعيمها.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ﴾ أي إن بصرك أينما وقع في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ أي أبصرت نعيمًا لا يكاد يوصف ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ واسعاً لا غاية له ولا نهاية.

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي تعلقوهم ثياب الحرير، الرقيق منه والثخين ﴿وَحُلُّوا﴾ أي ألبسوا للزينة والبهجة ﴿أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ أي أساور فضية لا تشبه فضة الدنيا، مع أنواع أخرى من الحلبي من ذهب ولؤلؤ ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ هو نوع آخر يفوق النوعين السالفين، كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى رب العالمين، ووصفه بالطهورية، فإنه يطهر باطنهم من الأخلاق الذميمة، والعادات القبيحة، كالحسد، والغِلِّ، والبغضاء، كما قال سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ الآية، ولذلك ختم به مقالة ثواب الأبرار ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ طاهراً من الأقدار والأدران، لم تمسه الأيدي.

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي يقال لهم إن هذا الذي نَعَّمْتُمْ به من فنون الكرامات ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ لأعمالكم الحسنة ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ أي محموداً مرضياً عندنا، جوزيتكم عليه أحسن الجزاء، والغرض من ذكر هذا أن يزداد سرورهم بالنعيم الدائم في دار الخلود.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ أي مفرقاً ومنجماً لحكم بالغة تقتضي تفريقه، كما يعرب عنه تكرير الضمير، مع إن المفيدة للتأكيد.

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ باحتمال الأذى منهم، فإن له عاقبة حميدة ﴿ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ ﴾ أي من الكفرة ﴿ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أي كل واحد من مرتكب الإثم والكفر، «أو» بمعنى «ولا» أي ولا تطعم آثماً ولا كفوراً.

﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي داوم على ذكر ربك في جميع الأوقات في الصباح والمساء، وصل له، وأكثر من عبادته وطاعته في كل وقت وحين.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ ﴾ أي تقرب إلى ربك بقيام الليل، مستغرقاً في مناجاته، وأكثر من العبادة في جناح الظلام ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ أي وتهجد له زماناً من الليل طويلاً، فهو الزاد لك لنصرك على الأعداء، فمن كان الله معه فهو الغالب.

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ أي الكفرة ﴿ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ وينهمكون في لذاتها الفانية ﴿ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ ﴾ أي أمامهم لا يستعدون لذلك اليوم العصيب، وينبذون وراء ظهورهم ﴿ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ أي شديداً، عسيراً، هو يوم القيامة، فلا يستعدون له ولا يعملون، وهو كالتعليل لما أمر به ونهى عنه.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ لا غيرنا ﴿وَشَدَدْنَا﴾ أي أحكمتنا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ أي خلقهم فربطنا مفاصلهم بالأعصاب ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ إهلاكهم أهلكناهم ﴿بَدَلْنَا﴾ أمثالهم ﴿بِدِيلَا﴾ أمثالهم في الخلقة ممن يطيع الله، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾^(١).

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي الآيات تذكير وعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي تقرب إليه بالطاعة، واتباع الرسول.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ اتخاذ السبيل، ولا تقدرُونَ على تحصيله، في وقت من الأوقات ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا وقت مشيئته تعالى تحصيله لكم، إذ لا دخل في مشيئة العبد إلا في الكسب، وإنما التأثير والخلق بمشيئة الله تعالى، وإنما يشاء الله ذلك ممن علم الله منه اختياره ذلك، وهذه الآية من جملة الآيات التي تلاطمت فيها أمواج الجبر، والقدر، فالقدر يتمسك بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ والجبري يقول: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بيان لكون مشيئته تعالى مبنية على أساس العلم والحكمة، فلا يشاء إلا ما يستدعيه علمه، وتقتضيه حكمته.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي يدخل في رحمته وجنته من يشاء أن

(١) سورة محمد، آية: ٣٨.

يدخله فيها، وهو الذي يصرف مشيئته نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى، حيث يوفقه لما يؤدي إلى دخول الجنة، من الإيمان به والطاعة ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الظالمون هم الفجار الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ما ذكر، أي ويعذب الظالمين عذاباً شديداً مؤلماً في دركات الجحيم.

والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بغونه تعالى تفسير سورة الإنسان»

* * *

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

مكية وهي خمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْمُصَفَّتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَرْقَتِ ﴿٤﴾ فَالْمُلَقَّاتِ ﴿٥﴾ فَالْمُلَقَّاتِ ﴿٦﴾ فَالْمُلَقَّاتِ ﴿٧﴾ فَالْمُلَقَّاتِ ﴿٨﴾ فَالْمُلَقَّاتِ ﴿٩﴾ فَالْمُلَقَّاتِ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْمُصَفَّتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَرْقَتِ ﴿٤﴾ فَالْمُلَقَّاتِ ﴿٥﴾ فَالْمُلَقَّاتِ ﴿٦﴾ فَالْمُلَقَّاتِ ﴿٧﴾ فَالْمُلَقَّاتِ ﴿٨﴾ فَالْمُلَقَّاتِ ﴿٩﴾ فَالْمُلَقَّاتِ ﴿١٠﴾﴾

* ذكر المفسرون في هذه الكلمات الخمس وجوها:

الأول: المراد بأسرها الملائكة، الذين أرسلهم الله تعالى بأوامره، فعصفت في مضيئهن عصف الرياح، في امتثال أمره سبحانه، ونشر الشرائع في الأرض، ففرقن بين الحق والباطل، فألقين إلى الأنبياء ذكراً، إعداراً وإنذاراً للخلق، تنزل بالوحي للإعذار للعباد، لئلا يبقى لأحد حجة عند الله.

الثاني: أن المراد بأسرها آيات القرآن، المرسلة بكل عرف وخير إلى الرسول ﷺ، فعصفت سائر الكتب والأديان، بالنسخ ونشر آثار الهدى في قلوب العالمين، وفرقن بين الحق والباطل، فألقين ذكر الحق فيما بين العالمين.

الثالث: المراد بأسرها الرياح، أرسلن متتابعة، فعصفن بالمشركين، وهي رياح العذاب، ورياح الرحمة نشرن السحاب في الجو، ففرقن فألقين ذكراً أي تسببن له، فإن العاقل إذا شاهد هبوبها وآثارها، ذكر الله تعالى. الرابع: أنه ليس المراد من هذه الكلمات شيئاً واحداً بعينه، فعلى هذا والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفاً. والناشرات نشرأ. الرياح «فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكراً» الملائكة، ويمكن أن يقال: والمرسلات ملائكة الرحمة، والعاصفات ملائكة العذاب، والثلاثة الباقية الآيات القرآنية، والله أعلم^(١)، ومعنى «عُزْفاً» أي متتابعة، «وَعُذْرًا» من عذر إذا محى الإساءة، و «نُذْرًا» من أنذر إذا خوَّف، وهذه كلها أقسام، وجوابه قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ أي إن الذين توعدهم من مجيء القيامة، كائن لا محالة ثم ذكر متى يقع فقال تعالى:

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي محيت، ومُحِقَتْ وذهب بنورها.

(١) اختلف علماء السلف اختلافاً كبيراً في تفسير هذه الآيات الخمس، فبعضهم حملها جميعاً على الرياح - رياح الرحمة، ورياح العذاب - وبعضهم حملها جميعاً على الملائكة، وبعضهم فصل فيها، فجعل الآيتين الأوليين في الرياح، لأن وصف الريح بالعصف - وهو شدة الهبوب - حقيقة لغوية، يقال: عصفت الريح إذا هبَّت مع صوتٍ شديد، ولا يقال في الملائكة عصفت، والآيات الثلاث الباقية «والناشرات نشرأ...» الخ فهي في الملائكة التي تنزل بالوحي على رسل الله، فتفرق بين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، وهذا ما رجحه الحافظ ابن كثير، وهو الأظهر والأقرب، والله أعلم.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ أي صدعت وفتحت فكانت أبواباً.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾ أي جعلت كالحب الذي ينسف بالمنسف، كقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُنْتَتْ ﴿١١﴾﴾

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُنْتَتْ﴾ أي وُقَّتْ ومعنى توقيت الرسل، تبين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمَ أُبُلَّتْ ﴿١٢﴾﴾

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمَ أُبُلَّتْ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل، أي لا إله إلا يوم عظيم أُخِّرَتْ وأمهلت الرسل؟ ثم بيّن ذلك فقال:

﴿يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ أي اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي أي شيء جعلك دارياً ما هو؟ فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التهويل.

﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي في ذلك اليوم الهائل.

﴿أَلَمْ تَنْهَكَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٦).

﴿أَلَمْ تَنْهَكَ الْأَوَّلِينَ﴾ كقوم نوح، وعاد، وثمود، لتكذيبهم للرسول؟.

﴿ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ (١٧).

﴿ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ من نظرائهم السالكين لمسلكهم، في الكفر والتكذيب، كقوم شعيب، ولوط، وهو وعيدٌ لكفار مكة.

﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (١٨).

﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الفعل الفطيع ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي نفعل بكل من أجرم، لأن عموم العلة يقتضي عموم الحكم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٩).

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله، وأنبيائه، والمعاد، وليس فيه تكرار، لما أن الويل الأول لعذاب الآخرة، وهذا لعذاب الدنيا، مع أن التكرار للتوكيد حسن شائع في كلام العرب^(١).

﴿أَلَمْ تَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ (٢٠).

﴿أَلَمْ تَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ أي من نقطة قدرة، مهينة حقيرة؟.

(١) كررت هذه الآية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ في هذه السورة عشر مرات، لمزيد التخويف والترهيب، والتكرار في مقام الترغيب أو الترهيب مستحسن، لا سيما إذا تغايرت الآيات السابقة على المرات المكررة كما هنا.

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ هو الرحم.

﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي إلى مقدار معلوم من الوقت، قَدَرَهُ اللهُ تعالى وهو تسعة أشهر أو أقلّ منها، أو أكثر بقليل.

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ أي قدرنا على خلقه وتصويره، والمراد بالقدرة إيجاد المقدور بالفعل ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ أي فنعم القادرون نحن على الخلق والإعادة، حيث خلقناهم في أحسن صورة وهيئة.

﴿وَبَلِّغْهُمْ يَوْمَئِذٍ الْكَذِبِينَ﴾.

﴿وَبَلِّغْهُمْ يَوْمَئِذٍ الْكَذِبِينَ﴾ بنعمة التوحيد، وقدرة الجبار.

﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾.

﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ وعاء، والكِفْتُ الجمعُ والضم، أي ألم نجعلها تجمعكم وتحتضنكم.

﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾.

﴿أَحْيَاءَ﴾ أي تجمعكم أحياء على ظهرها ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ وتحتضنكم في بطنها أمواتاً، والتكثير فيهما للتفخيم، بمعنى أنها جامعة لما يحتاج الإنسان إليه في حياته، من المآكل والمشارب، والأبنية، لأن كل ذلك من

الأرض، وفي مماته حيث تضمه في بطنها بعد الموت، فهي كالأم تحتضن أولادها.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسَى شَمِخَتْ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ (٢٧)

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسَى﴾ أي جبلاً ثوابت ﴿شَمِخَتْ﴾ أي عاليات ﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أي عذباً بأن خلقنا فيها أنهاراً، ومنايع عذاباً.

﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٨)

﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأمثال هذه النعم العظيمة.

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٩)

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم يومئذ للتوبيخ والتقريع: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون في الدنيا من العذاب، ثم فسرهُ بقوله:

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (٣٠)

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ﴾ أي ظل دخان جهنم، كقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّمَنْ يَخْمُومُ﴾ ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ أي يتشعب لعظمه ثلاث شعَب، كما هو شأن الدخان العظيم.

﴿لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهِبِ﴾ (٣١)

﴿لَا ظِلِيلٍ﴾ أي لا مظل من حر ذلك اليوم، وحرُّ النار، وتسميته ظلاً من باب السخرية والتهكم ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهِبِ﴾ أي غير مغني لهم من حر اللهب شيئاً.

﴿ إِنَّمَا تَرْمِي بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ ﴾ (٣٧).

﴿ إِنَّمَا ﴾ أي النار ﴿ تَرْمِي بِشَكْرِ ﴾ هو ما تطاير من النار ﴿ كَالْقَصْرِ ﴾ كالبناء العظيم، والقصر الشامخ.

﴿ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴾ (٣٨).

﴿ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ ﴾ أي كأن شرر جهنم الإبل الصفرة، ﴿ صُفْرٌ ﴾ جمع أصفر، أي كأن الشرر يشبه الجمل الأصفر في اللون وسرعة الحركة، فإذا كان هذا حال الشرر، فكيف يكون حال النار، الملتهبة في فظاعتها وشدتها؟.

﴿ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ الْمَكْذِبِينَ ﴾ (٣٩).

﴿ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ الْمَكْذِبِينَ ﴾ أي هلاك ودمار للكفرة الفجار، المكذبين بيوم القيامة، ذلك اليوم العصيب الرهيب.

﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ (٤٠).

﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى وقت دخولهم النار ﴿ يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ فيه بشيء، لما أن السؤال والجواب قد انقضى قبل ذلك، ويوم القيامة طويل له مواطن ومواقيت، ينطقون في وقت دون وقت، أو لا ينطقون بحجة تنفعهم.

﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (٤١).

﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أي لا يكون لهم إذن واعتذار، ليعتذروا، فقد مضى وقت الاعتذار، ﴿ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ﴾.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بآيات الجبار.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين الحق والباطل، وبين أهل الجنة وأهل النار
﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ أي جمعناكم فيه يا معشر المكذبين، مع من تقدمكم من
الأمم السالفة، ممن كذبوا رسلهم، لنحكم بينكم جميعاً.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِدُونِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِدُونِ﴾ أي إن كان لكم حيلة في دفع العذاب،
فاحتالوا على تخليص أنفسكم من العذاب، وهذا تقرير لهم على كيدهم
للمؤمنين في الدنيا، وإظهار لعجزهم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث ظهر أن لا حيلة لهم في الخلاص.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونِ ﴿٤١﴾﴾

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الذين خافوا ربهم، واتقوا عذابه، بطاعته وامتثال
أوامره، وهم في مقابلة المكذبين ﴿فِي ظِلِّ وَعُيُونِ﴾ في ظلال الأشجار
الوارفة، والعيون الجارية، في جنات النعيم.

﴿وَفَوْكَهَ مَائِشَتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَفَوَكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي لذينة ومشتهاة، مستقرون في أنواع الترف،
وفنون التمتع، يتنعمون بأنواع الفواكه والثمار.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣).

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي مقولاً لهم ذلك ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي
تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤٤).

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي نجازي من أحسن عمله، وأخلص نيته،
والغرض منه تحسير الكفار على ما فاتهم من النعم العظيمة، بأنهم لو
كانوا من المتقين، لفازوا بمثل ذلك الجزاء الكريم.

﴿وَلِيْلُ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٥).

﴿وَلِيْلُ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالجنة ونعيمها.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ (٤٦).

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ خطاب للمكذبين على وجه التهديد، أي كلوا من
لذائد الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية ﴿إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ أي كافرون
ومكذبون، تستحقون العذاب والإهانة، شأنكم كشأن البهائم، ملء بطونها،
ونيل شهواتها.

﴿وَلِيْلُ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤٧).

﴿وَلِيْلُ يَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالنعم حيث عرّضوا أنفسهم للعذاب الدائم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي اسجدوا وصلُّوا لله لا يقبلون، يسجدون للأصنام والأوثان، ويأبون السجود للرحمن.

﴿وَبَلَّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ فَيَأَيَّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَبَلَّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ فَيَأَيَّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي بعد القرآن الناطق بأحاديث الدارين، وأخبار النشأتين، على نمط بديع، ودلائل لطيفة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي إذا لم يؤمنوا بالقرآن فبأي شيء يؤمنون؟

والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على رسولنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المرسلات»

سُورَةُ النَّبَاِ

مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾

﴿عَمَّ﴾ أصله «عن» ما، حُذفت الألف تخفيفاً وما فيه من الإبهام، لفخامة شأن المسؤول عنه، أي عن أي شيء عظيم يتساءلون؟ ومعنى ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً، والمراد بهم الكفرة من أهل مكة، بطريق الاستهزاء، كانوا يتساءلون عن البعث، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ لأنه تهديد، والتهديد للكفار، أو السائل والمجيب هو الله عز وجل، نظيره: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(١) وإيراد الكلام في معرض السؤال والجواب، أقرب إلى التفهيم والإيضاح ثم قال تعالى:

﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾

﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم، قال الأكثرون: هو

(١) سورة غافر، آية: ١٦.

البعث، بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١). وقيل: عن محمد ﷺ.

﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾

﴿الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ فمن جازم باستحالة، يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ومن شك يقول: ﴿مَا نَذَرِي مَا السَّاعَةُ﴾ ومنهم من ينكر المعاد الجسماني، كجمهور النصاري الذين يقولون: إن النعيم والعقاب روحاني، ولا بعث للأجساد.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهذا صريح في أن المراد اختلاف الجاهلين به والمنكرين له، وهو أمر البعث بعد الموت ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر عن التساؤل والسخرية ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون عياناً، أن ما يتساءلون عنه حق، وهذا تعليل للردع، والسين للتقريب والتأكيد، والمعنى: ليرتدعوا عما هم عليه، فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال، إذا حلَّ بهم العذاب.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كرهه للتشديد، وثم يشعر أن الثاني أبلغ من الأول وأشد، وقيل: الأول عند النزع، والثاني عند البعث.

﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾

(١) سورة المطففين، آية: ٤.

﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ﴾ استئناف مسوق لتحقيق النبأ، ومن هنا اتضح أن المتساءل عنه هو «البعث» والمعنى: قل لهم يا محمد: ألم يخلق الله هذه الخلائق العجيبة؟ فلم تنكرون قدرته على البعث؟ وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات؟ والهمزة للتقرير ﴿مِهْدًا﴾ أي فراشاً، فرشناها لكم حتى سكتموها.

﴿وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا﴾.

﴿وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا﴾ أي غرائز تشبه الأوتاد للأرض، لئلا تميد بكم.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي ذكراً وأنثى، ليسكن كل من الصنفين إلى الآخر، وينتظم أمر المعاش، ويتسنى التناسل، أو المراد منه «متقابلين» كالحسن والقيبح، والطول والقصر، والأضداد، وهذا دليل ظاهر على كمال القدرة، والإنسان إنما يعرف قدر الشباب عند الشيب، وقدر الأمن عند الخوف، وذلك أبلغ في تعريف النعم.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي راحة لأبدانكم، قاطعاً لأعمالكم، والنوم يشبه الموت لما بينهما من المشاركة التامة، في انقطاع أحكام الحياة^(١) كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ قال الزجاج: لا يليق الموت بهذا

(١) جعل الله النوم راحة لأبدان البشر، وغذاء لأرواحهم، وبدون النوم يهلك الإنسان، وتخور قواه، وفي النوم تذكير للعباد بالموت، كما أن في اليقظة بعد النوم تذكير لهم بالبعث من القبور.

المكان، لأن الأشياء المذكورة من جلائل النعم، وقال ابن الأعرابي: أي نوماً منقطعاً لا دائماً، فإن النوم بمقدار الحاجة من أنفع الأشياء.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللباس.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي سبباً لتحصيل الكسب والمعاش، تبعثون فيه من نومكم، كما في قوله تعالى: ﴿وجعل النهار نشوراً﴾ يتنشر فيه الناس للعمل.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ﴾ أي وشيدنا فوقكم سبع سماوات، قوية الخلق، محكمة البناء، والتعبير عن خلقها بالبناء، مبني على تنزيلها منزلة القباب المضروبة فوق رؤوسكم ﴿سَبْعًا﴾ أي سبع سماوات ﴿شِدَادًا﴾ جمع شديدة أي محكمة قوية.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ هذا الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخلق، خلا أنه مختص بالإنشاء التكويني، وفيه معنى التقدير والتسوية، والوهَّاجُ: الوَقَاد المتلألئ، الذي يلتهب من شدة وهجه وحرارته، والمراد به الشمس، والتعبير عنها بالسراج من روافد التعبير عن خلق السماوات بالبناء.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ أي السحاب إذا أعصرت أي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر، ﴿مَاءً مَّجَاجًا﴾ أي ماء دافقاً، منصّباً بكثرة، وشدة يقال: ثَجَّ الماء إذا تدفق بكثرة وغزارة.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ (١٥)

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا﴾ أي بالماء، لنبت حباً يُقَنَات به، كالْبُرِّ، والشعير، والعدس، والذرة ﴿وَنَبَاتًا﴾ وكلاً يُعْتَلَف، وأنواع الزروع، غذاء للإنسان والحيوان.

﴿وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا﴾ (١٦)

﴿وَجَعَلْنَا﴾ أي الأشجار المتكاثفة المظلمة بالتفاف أغصانها ﴿أَلْفَافًا﴾ وهي جمع لف، أي ملتفاً بعضها على بعض من كثرة أغصانها.

واعلم أن فيما ذكر من أفعاله عَزَّ وجل، دلالة على صحة البعث والنشور من وجوه:

الأول: باعتبار قدرته، فإن من قدر على إنشاء هذه الأفعال البديعة، كان على الإعادة أقدر.

الثاني: باعتبار علمه وحكمته، فإن من أبدع هذه المصنوعات، على نمط رائع، لغاية جليلة، يستحيل أن يفنيها بالكلية، ولا يجعل لها عاقبة باقية.

الثالث: باعتبار نفس الفعل، فإن اليقظة بعد النوم، أنموذج للبعث بعد الموت، وكذا إخراج النبات من الأرض الميتة، كأنه قيل: ألم نفعل هذه الأفعال البديعة العجيبة، الدالة على حقيقة البعث، فما لكم تخوضون فيه إنكاراً وتساءلون عنه استهزاء؟

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا﴾ (١٧).

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ أي يوم الحساب والجزاء، الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، وفيه تفصيل لكيفية وقوعه، وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب ﴿كَانَ﴾ في علم الله تعالى ﴿مِيقَتَنَا﴾ أي وقتاً محدوداً، ومنتهاً معلوماً، لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتأخر.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (١٨).

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ بدل من يوم الفصل، ولا ضير في تأخير الفصل عن النفخ، فإنه زمان ممتد، يقع في مبدئه النفخ، وفي بقيته الفصل ﴿فَتَأْتُونَ﴾ الفاء فصيحة أي فتخرجون من قبوركم، فتأتون إلى الموقف، عقيب ذلك، من غير لبث أصلاً ولا إمهال ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي أمماً، كل أمة مع إمامها، أو زمراً وجماعات مختلفة، حسب اختلاف أعمالهم.

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (١٩).

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ أي تشققت السماء وتصدعت، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أي كثرت أبوابها المفتحة، لنزول الملائكة نزولاً غير معتاد، كأن الكل صار أبواباً، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾.

﴿وُسِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (٢٠).

﴿وُسِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ أي نسفت في الجو بعد قلعها من مقارها، فصارت كأنها هباء، وذلك أن الأجسام العظام، إذا تحركت لا تكاد تبين حركاتها، وإن كانت في غاية السرعة، لا سيما من بعيد، فتبدل الأرض، وتُسِيرُ الجبال على تلك الهيئة الهائلة، عند حشر الخلائق بعد النفخة الثانية

ليشاهدوها، ثم تُفَرَّق في الهواء ﴿فَكَانَتْ سَرَّابًا﴾ أي فصارت بعد تسييرها مثل السراب في عين الناظر، وهي وإن اندكت وانصدعت عند النفخة الأولى، لكنَّ تسييرها وتسوية الأرض، إنما يكونان بعد النفخة الثانية، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا. يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ ^(١) الآية، والداعي إسرافيل عليه السلام، فإن اتباعه لا يكون إلا بعد النفخة الثانية.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي موضع رصد، يرصد فيه خزنة النار الكفار، وخزنة الجنة يستقبلون المؤمنين عندها، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْجِعُ فِيهِمْ إِنْ كَانُوا عَلَىٰ شَاكْرٍ﴾ ^(٢) الآية. ^(١) الآية، ^(٢) الآية.

﴿لِلطَّاعِينَ مَنَاقِبَ﴾

﴿لِلطَّاعِينَ﴾ أي كائناً للطاعين، والمراد منهم من تكبَّر على ربه وطغى ﴿مَنَاقِبَ﴾ أي مرجعاً يرجعون إليه.

﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابَ﴾

﴿لَيْثِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين مقيمين في جهنم ﴿أَحْقَابَ﴾ أي دهوراً متتابعة، كلما مضت حقبة تبعثها حقبة أخرى، إلى غير نهاية، فإن «الحقب» لا يكاد يستعمل إلا حيث يراد به تتابع الأزمنة، فليس فيه ما يدل على تناهي تلك الأحقاب، ولو أريد بالحقب ثمانون سنة، أو سبعون ألف سنة، فإن هذا إن دلَّ فمن قبيل المفهوم، فلا يعارض المنطوق الدال على

(١) سورة طه، آية: ١٠٥ - ١٠٨.

أبدية خلود الكفار في النار، والحَقْبُ: الدهر جمعه أحقاب، مثل قفل وأقفال.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (٢٤).

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ في النار ﴿بَرْدًا﴾ أي ماءً بارداً، أو هواءً بارداً، وقال ابن عباس: البرد: النوم، وهو قول الأخفش، والكسائي، والفراء، وقطرب، وإنما سُمِّيَ النومُ برداً، لأنه يبرِّد صاحبه، فإن العطشان ينام فيبرد، ومن أمثال العرب «منع البردُ البردَ» أي أصاب من البرد ما منع النوم، والقول الأول أولى، لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة المشهورة، فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ بارداً يسكن عطشهم.

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (٢٥).

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ أي لکن يذوقون فيها ماءً حاراً، يحرق ما يأتي عليه ﴿وَغَسَّاقًا﴾ أي ماءً منتناً يسيل من صديد أهل النار.

﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ (٢٦).

﴿جَزَاءً﴾ أي جُوزوا جزاء ﴿وَفَاقًا﴾ أي موافقاً لأعمالهم. فإن قيل: كيف يكون هذا العذاب الأبدي، البالغ في الشدة، وفاقاً للإتيان فترة من الكفر؟ والجواب: لأنهم كانوا مصرين على الباطل، ولو خلدوا في الدنيا لبقوا على الكفر، فلما كانت أفعالهم وإصرارهم كذلك، كان اللائق بهم العقوبة العظيمة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ (٢٧).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي لا يخافون محاسبة الله تعالى إياهم، تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ التي جاءت بها الأنبياء عليهم السلام، وصيغة فعال بمعنى تفعيل مطرّد في كلام الفصحاء، أي تكذيباً مفرطاً.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها أعمالهم ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ أي ضبطناه ﴿كِتَابًا﴾ مؤكد لأحصيناه، لما أن الإحصاء والكتابة من باب واحد، بمعنى مكتوباً في اللوح، أو في صحف الحفظة، والمعنى: أنا عالم بجميع ما فعلوه، وأجازيهم جزاءً، وفاقاً.

﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

﴿فَذُوقُوا﴾ متسبّب عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات، والالتفات شاهد على شدة الغضب ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ كلمة لن للتأكيد في النفي دالة على المبالغة في التعذيب، قيل هذه الآية أشدّ ما في القرآن على أهل النار، كلما استغاثوا من نوع من العذاب، أغيثوا بأشدّ منه.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ شروع في بيان محاسن أحوال المؤمنين، أي الذين يتقون عن الكفر، وسائر أعمال الكفرة ﴿مَفَازًا﴾ أي فوزاً وظفراً، ونجاة من كل مكروه، ويصح أن يراد به هنا الجنة، أي لهم الفوز بجنات النعيم، لأنه تعالى فسر المفاز بما بعده، وهو قوله تعالى:

﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ أي لهم بساتين ناضرة، فيها من جميع الأشجار والثمار.

﴿ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ جمع كاعب، وهنّ النواهد اللواتي تكعبت تُذْيِهْنَ، أي استدارت وبرزت حتى صارت كالكعب ﴿ أَزْرَابًا ﴾ أي مستويات في السن، متقاربات في الجمال، على ثلاثة وثلاثين سنة.

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿ وَكَأْسًا ﴾ أي كأساً من الخمر ﴿ دِهَاقًا ﴾ ملآنًا، يقال: أدهق الحوض: ملأه، وقيل: صافية.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا ﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة في حالة شربهم ﴿ لَغْوًا ﴾ أي باطلاً ﴿ وَلَا كِدًّا ﴾ أي لا ينطقون بلغو، ولا يكذب بعضهم بعضاً.

﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿ جَزَاءً ﴾ كائناً ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ بمقتضى وعده الكريم، والتعرض للربوبية مع الإضافة إلى ضميره مزيد تشريف له ﷺ ﴿ عَطَاءً ﴾ تفضلاً منه إذ لا يجب عليه شيء^(١) ﴿ حِسَابًا ﴾ صفة لعطاء أي كافياً وافياً، يقال: حسبك درهم أي

(١) كونه «جزاء» يستدعي الاستحقاق، وكونه «عطاء» يستدعي عدم الاستحقاق، فكيف =

كافيك ومنه قوله: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» قال ابن قتيبة: يقال: أعطيت فلاناً عطاء حساباً أي أكثر له، وأصل هذا أن يعطيه حتى يقول: حسبي^(١).

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿ رَبِّ ﴾ بالجر بدل من ربك أي خالق ومبدع ﴿ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الخلق والأشياء ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ أي الذي عمّت رحمته كل شيء، وهي صفة الرب وفي ذكر ربوبيته تعالى للكل، ورحمته الواسعة، إشعار بمدار الجزاء المذكور ﴿ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ الضمير لأهل السماوات والأرض ﴿ مِنْهُ ﴾ خطاباً أي لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم، لغاية العظمة والكبرياء، من غير إذنه سبحانه، لأن اليوم رهيب وعصيب، وذلك لا ينافي الشفاعة بإذنه تعالى.

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ أي جبريل عليه السلام عند الجمهور، وهو المختار لأن القرآن الكريم، دلّ على أن هذا الاسم اسم جبريل، لقوله سبحانه: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ والذي نزل بالوحي على رسل الله هو جبريل عليه السلام، والكلام صحيح من جبريل، ويصحّ أن يؤذن له، لأنه رئيس الملائكة وكبيرهم، ولهذا عطف عليه الملائكة،

= التوفيق بينهما؟ والجواب أن ذلك الاستحقاق صدر بحكم الوعد، لأن الله لا يخلف الميعاد، فصار كأنه واجب عليه، ونظراً لأنه لا يجب على الله شيء أخبر تعالى أنه عطاء محض من خالق الأرض والسما، فتنبه رعاك الله ١١.
(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص: ٥١٠.

وهو من باب عطف العام على الخاص، تنبيهاً على جلالة قدر الخاص ﴿وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ وظاهر قول المفسرين أنهم يقومون صفيين، وقال بعضهم: يقومون صفوفاً، لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رُؤُكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وذكر قيامهم واصطفافهم، لتحقيق عظمة سلطانه وكبريائه، وتهويل يوم البعث الذي عليه مدار الكلام ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي الخلائق في ذلك اليوم، خوفاً وإجلالاً لعظمته تعالى، والمعنى: أن أهل السماوات والأرض، إذا لم يقدرُوا يوماً أن يتكلموا بشيء، فكيف يملكون خطاب رب العزة والجلال؟ ﴿إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ إظهاره في موضع الإضمار للإيذان بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة، لا أن أحداً يستحقه عليه سبحانه وتعالى ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي لا يتكلمون إلا عند حصول الشرطين ١ - الإذن ٢ - بأن يكون المشفوع له ممن يقول صواباً في الدنيا، بأن قال «لا إله إلا الله» فكان مؤمناً موحداً، ومات على التوحيد.

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ (٣٩)

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، أي ذلك ﴿الْيَوْمُ﴾ العظيم، الذي يقوم فيه الروح والملائكة ﴿الْحَقُّ﴾ أي الثابت وقوعه، المتحقق لا محالة أنه حق، لأنه يحصل فيه أداء جميع الحقوق إلى أصحابها، ويزهق كل باطل، وفيه تبلى السرائر ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ الفاء فصيحة تفصح عن شرط محذوف، كأنه قيل: وإذا كان الأمر كذلك فمن أراد ﴿اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ الذي ذكر شأنه العظيم ﴿مَآبًا﴾ أي مرجعاً بالعمل الصالح.

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ (٤٠)

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ﴾ أيها الكفار بما ذكر في السورة، من الآيات الناطقة بالبعث، وما بعده من الدواهي، وبسائر القوارع في القرآن، وإنما ذكر

الإنذار، لأنه تعالى بهذا الوصف، قد خوف وهو معنى الإنذار ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾^(١) هو عذاب الآخرة، وقربه لتحقيق إتيانه حتماً، لأن كل ما هو آتٍ قريب، لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾، ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ﴾ أي عذاباً كائناً يوم ينظر المرء أي يبصر الكافر والمؤمن، وكل إنسان ما فعل في الدنيا، فاللفظ عام يشمل كل إنسان ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَا﴾ أي من خير أو شر، وتخصيص الأيدي بالذكر، لأن أكثر الأعمال تقع بها ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير للذم ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ أي في الدنيا فلم أخلق، ولم أكلّف، أو ليتني كنت تراباً في هذا اليوم، ونظيره ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي موته في الدنيا ولم يُبعث، وقوله تعالى: ﴿يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ وقيل: تحشر الحيوانات، يوم القيامة، فيقتص للجّماء من القرناء، ثم يردها الله تراباً، فيودّ الكافر حينئذ أن يكون كالبهائم تراباً، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على نبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النبأ»

(١) أشار إلى الحديث الشريف الذي أخرجه مسلم في صحيحه «لتؤدّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء». والجلحاء التي لا قرون لها، والقرناء التي لها قرون.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مكية، وآياتها ست وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ ١ ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ ٢ ﴿وَالسَّابِقَاتِ سَبَاقًا﴾ ٣ ﴿وَالسَّيِّئَاتِ سَيِّئًا﴾ ٤ ﴿وَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ٥ .

لا وقف إلى هنا، ولزم هنا، لأنها لو وصلت لصار ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ ظرفٌ للمدبرَات، وقد انقضى تدبير الملائكة في ذلك اليوم!! واختلفت عبارات المفسرين في هذه الآيات هل هي صفات لشيء واحد، أم لأشياء مختلفة؟ واتفقوا على أن المراد بقوله: ﴿وَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ وصفٌ لشيء واحد، وهم الملائكة، وفي الآيات وجوه:

الأول: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يعني الملائكة تنزع أرواح الكفار بشدة وعنق، أغرق في الشيء: بالغ فيه.

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ أي الملائكة تنشط نفس المؤمن بسهولة ولين، نشط في عمله خفَّ وأسرع، وإنما خصَّ النزع بنفس الكافر، والنشط بنفس المؤمن، لأنَّ النزعَ جذبٌ بشدة، والنشط جذبٌ برفق.

﴿وَالسَّابِقَاتِ سَبَاقًا﴾ هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، كالفرس الجواد إذا أسرع في جريه، يقال له: سابح.

﴿فَالسَّيِّئَاتِ سَبَقًا﴾ هم الملائكة تسبق بالأرواح إلى محلها.

الوجه الثاني: هي الأرواح.

الوجه الثالث: النجوم تنزع من أفق إلى أفق.

الوجه الرابع: خيل الغزاة.

الوجه الخامس: النازعات: ملك الموت، الناشطات: الأرواح، السابحات: السفن، السابقات: نفوس المؤمنين إلى الخيرات.

هذه الوجوه المنقولة عن المفسرين، غير منقولة عن رسول الله ﷺ نصاً، بل ذكروها لكون اللفظ محتملاً لها، والذي يليق بشأن التنزيل هو القول الأول.

﴿فَالْمُدْرَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة الموكلون بتدبير شؤون الكون والناس.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ الرجف: شدة الحركة، والراجفة التي يرتجف ويتزلزل لها كل شيء، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ وهي النفخة الأولى، التي يموت منها جميع الخلق.

﴿تَبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾

﴿تَبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي الواقعة التي تردف الأولى، وهي النفخة الثانية، والأولى تمت الخلق، والثانية تحيهم، وبينهما أربعون سنة، واليوم عبارة عن الزمان الممتد الذي يقع فيه النفختان، واعتبار امتداده مع أن البعث لا يكون إلا عند النفخة الثانية، لتحويل اليوم، ببيان كونه موقعاً لدهيتين عظيمتين، لا يبقى عند وقوع الأولى حيٌّ إلّا مات، ولا عند وقوع الثانية ميتٌ إلّا بُعث.

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي قلوب منكري البعث في ذلك اليوم، أي يوم البعث ﴿ وَاجِفَةٌ ﴾ أي مضطربة، خائفة، فزعة.

﴿ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً ﴾ ﴿٩﴾ .

﴿ أَبْصَرُهَا ﴾ أي أبصار أصحابها ﴿ خَشِيعَةً ﴾ أي ذليلة لهول ما ترى.

﴿ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ ﴿١٠﴾ .

﴿ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾؟ حكاية لما يقوله المنكرون للبعث، أي يقول هؤلاء الكفرة الآن - أي في الدنيا - إذا قيل لهم: إنكم تبعثون، منكربن له، متعجبين منه، أنردُّ بعد الموت، فترجع كما كنا أحياء بعد الفناء؟ والمراد بالحافرة الحالة الأولى، يعنون الحياة، أي أنردُّ إلى الحياة، من قولهم: رَجَعَ فلانٌ في حافرتِه، أي في طريقته التي جاء منها فحفرها، أي أثر فيها بمشيهِ، وتسميتها حافرة لأنها تُعيد البشر إلى حياتهم الأولى، ومعنى الآية: أنرد إلى أول حالنا؟ ثم زادوا استبعاداً فقالوا:

﴿ أَيْنَا كُنَّا عِظْمًا نَخْرَةً ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿ أَيْنَا كُنَّا عِظْمًا نَخْرَةً ﴾ أي بالية، والمعنى: أنرد إلى الحياة بعد إذ صرنا عظاماً بالية؟ نخِر العظم نخراً إذا بلي وتفتَّت، أي أئذا كنا عظاماً بالية، نردُّ ونُبعث من جديد، مع كونها أبعد شيء من الحياة؟.

﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ أي قالوا بطريق الاستهزاء، مشيرين إلى ما أنكروه من الردة

في الحافرة ﴿تِلْكَ إِذَا كَرَّ خَاسِرَةٌ﴾ أي رجعة ذات خسران، أو خاسر أصحابها، والمعنى: إنها إن صَحَّتْ فنحن إذا خاسرون، لتكذيبنا بها.

﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣)

﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله تعالى، فإنها سهلة في قدرته تعالى، فما هي إلا صيحة واحدة، يريد النفخة الثانية، من قولهم: زَجَرَ البعير إذا صاح عليه، عبَّرَ عنها بها، تبييناً على كمال اتصالها بها، كأنها عينها.

﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٤)

﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض، بعد أن كانوا أمواتاً في جوفها، قال الراغب: الساهرةُ وجهُ الأرض، وهي أرضٌ بيضاء مستوية، سُمِّيت ساهرة، لأن من شدة الخوف يطير النوم.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥)

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي قد أتاك ﴿حَدِيثُ مُوسَى﴾ كلام مستأنف وارد لتسليته ﷺ بطريق التشويق والترغيب لسماع القصة، كما يقول الإنسان لآخر: هل تدري ما حدث؟ يريد لفت انتباهه، وترغيبه لسماع القصة والخبر، كأنه قيل: أليس قد أتاك حديثه؟

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى﴾ (١٦)

﴿إِذْ نَادَاهُ﴾ أي حين ناداه ﴿رَبُّهُ﴾ أي دعاه وكلمه ربُّه ﴿بِالْوَادِ الْقَدَسِ﴾ أي المبارك المطهر ﴿طُوًى﴾ أي المسمى «طوى» في أسفل جبل طور سيناء.

﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (١٧).

﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ على إرادة القول، أي قائلاً له: اذهب إلى فرعون
﴿ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أي جاوز الحد في الظلم والطغيان.

﴿ فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَٰهٌ أَن تَزْكَىٰ ﴾ (١٨).

﴿ فَقُلْ هَلْ لَّكَ ﴾ أي بعدما أتته هل لك رغبة وتوجه ﴿ إِلَٰهٌ أَن تَزْكَىٰ ﴾ أي
إلى أن تتطهر من الشرك والعصيان، بالطاعة والإيمان؟ بحذف إحدى
التاءين من تزكى، وهذه الكلمة جامعة لكل ما يدعوه إليه، لأن المراد:
هل لك إلى أن تفعل ما تصير به زاكياً عن كل ما لا ينبغي.

﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ (١٩).

﴿ وَأَهْدِيكَ ﴾ أي أرشدك إلى معرفته عز وجل فتعرفه؟ وهذا هو
المقصود الأعظم من البعثة، ودلت الآية على أن معرفة الله مقدمة على
طاعته، لأنه ذكر الهداية وجعل الخشية مؤخرة عنها، ونظيره قوله تعالى:
﴿ أَنْ أَتَذْكُرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ أي فتنقيه وتخشى
عقابه، جعل الخشية غاية للهداية، لأنها ملاك الأمر، من خشي الله أتى منه
كل خير، ومن لا يخاف اجترأ على كل شر، أمر عليه السلام بأن يخاطبه
بالاستفهام، الذي معناه العرض ليستدعيه بالتلطف بالقول، ويستنزله
بالمداواة من عتوه، وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا
لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (١).

﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ (٢٠).

(١) سورة طه، آية: ٤٤.

﴿فَآرِئُهُ آيَةَ الْكُبْرَى﴾ أي المعجزة الكبرى، والفاء فصيحة تفصح عن جُمْلٍ قد طُويت، تعويلاً على تفصيلها في السورة الأخرى، فإنه عليه السلام ما أراه إيّاها عقيب هذا الأمر، بل بعدما جرى من المحاورات، إلى أن قال: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ والإراءة بمعنى التبصير أو التعريف، فإن اللعين حين أبصرها عرفها، وادعى سحريتها، ونسبتها إلى موسى بالنظر إلى الظاهر، كما أن نسبتها إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ بالنظر إلى الحقيقة، والمراد بالآية الكبرى: قلبُ العصا حية.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ ﴿٢١﴾.

﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون بموسى عليه السلام وسمّاه ساحراً، وسمى ما جاء به سحراً ﴿وَعَصَى﴾ الله تعالى، وأصرَّ على إنكار وجود رب العالمين، كذب باللسان والجَنَان، وعصى بأن أظهر التمرد والتجبر.

﴿ثُمَّ أَذِرْ يُسْعَى﴾ ﴿٢٢﴾.

﴿ثُمَّ أَذِرْ﴾ أي ولّى مدبراً فرعاً مرعوباً من هول ما رأى ﴿يُسْعَى﴾ أي يجتهد في مكائده، وكان طياشاً خفيفاً، سقيم الفهم.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿فَحَشَرَ﴾ أي فجمع السحرة والجنود، والأتباع، وقام فيهم خطيباً ﴿فَنَادَى﴾ في المجمع بنفسه.

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ﴿٢٤﴾.

﴿فَقَالَ﴾ لهم ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ لا رب فوقى، وكانت لهم أصنام

يعبدونها، واللعين كان دهرياً، منكراً للصانع والبعث، وقيل: إنه بعد انقلاب العصا صار كالمعتوه لا يدري ما يقول.

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ (٢٥)

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ النكالُ بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم، وهو التعذيب، أي فأهلكه الله وقصمه، ونكّل به تنكيلاً، عقوبة له على مقاتلته الفاجرة، الأولى وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ والآخرة وهي قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ (٢٦)

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في الذي فعل فرعون، وما فعل به ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي لعظة عظيمة ﴿لِمَنْ يَخْشَى﴾ أي لمن من شأنه أن يخشى، ويخاف عقاب الله!!

﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ (٢٧)

﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ لما ختم هذه القصة، رجع إلى مخاطبة منكري البعث، والخطاب هنا لأهل مكة، المنكرين للبعث بناءً على صعوبته في زعمهم، بطريق التوبيخ، أي أخلقكم بعد موتكم أشق وأصعب في تقديركم؟ ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾ على عظمها وانطوائها على تعاجيب البدائع، التي تحار فيها العقول؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟﴾ ﴿بَنَاهَا﴾ أي الله عز وجل، وفي عدم ذكر الفاعل، فيه من التنبيه على تعينه وتفخيم شأنه ما لا يخفى.

﴿ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴾ (٢٨)

﴿رَفَعَ سَمَكَهَا﴾ أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض، وذهابها إلى العلو، مديداً ورفيعاً، وامتداد الشيء إذا أخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عُمُقاً، وإذا أخذ من أسفله إلى أعلاه سمي سَمَكاً ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ أي فسَوَّاهَا على أبداع نظام مستوية، وتَمَّمَهَا بما يتم به كمالها، من الكواكب، والنجوم وغيرهما، من قولهم سَوَّى فلان أمره إذا أصلحه، قالوا: وهذا يدل على كون السماء كرة حتى تكون التسوية الحقيقية حاصلة، وأيُّ ضررٍ في الدين كونها كرة؟.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٢٩).

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي جعله مظلماً، وإنما أضيف إليها لأن الليل والنهار، إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي أبرز نهارها، عبّر عنها بالضحى، لأنه أشرف أوقاتها وأطيبها، فكان أحق بالذكر في مقام الامتنان، وهو السرُّ في تأخير ذكره عن ذكر الليل، وفي التعبير عن إحداثه بالإخراج، لأن النهار ينبثق من ظلمة الليل، فكانه يخرج من وكره.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣٠).

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أي بسطها ومهّدها للسكنى، وأصل الدحو الإزالة للشيء من مكان إلى مكان، ومنه يقال إن الصبي يدحو بالكرة أي يقذفها فإن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن الأرض خلقت بعد السماء؟ والجواب: خلق الله الأرض أولاً مجتمعة، ثم رفع السماء ثانياً، ثم دحا الأرض ثالثاً، وذلك لأنها كانت كرة مجتمعة، ثم إنه تعالى بسطها مهياً لنبات الأقوات وهو الذي بيّنه بقوله:

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٣١).

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾ وهذا الاستعداد لا يحصل للأرض، إلا بعد وجود السماء، لأن الأرض كالأمّ، والسماء كالأب، وما لم يحصل لم تتولد الأولاد، والحيوانات والنباتات والمعادن، وقيل: معناه: والأرض مع ذلك دحاها، كقوله تعالى: ﴿عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ﴾ أي مع ذلك فالأقرب أن يحمل بعدية الدحو عنها، على البعدية في الذكر ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ بتفجير العيون وإجراء الأنهار ﴿وَمَرْعَهَا﴾ أي كلاًها ونباتها، طعاماً للإنسان والحيوان، والسكنى لا تتأتى بمجرد البسط، بل لا بدّ من تسوية أمر المعاش، من المأكل والمشارب.

﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا﴾.

﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا﴾ أي أثبتها وأثبت بها الأرض، وفي هذا تحقيق للحق، وتنبية على أن الرسو، ليس من مقتضيات ذواتها، بل هو بإرسائه عزّ وجلّ، ولولاه لما ثبتت في نفسها، فضلاً عن إثباتها للأرض، ثم بيّن تعالى الصلة والحكمة فقال:

﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَ كُمْ﴾.

﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَ كُمْ﴾ أي تمتيعاً لكم ولأنعامكم، لأن فائدة ما ذكر، واصله إليهم وإلى أنعامهم، والمراد بالمرعى ما يعمّ ما يأكله الإنسان والحيوان.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ الطامة: الداهية التي تطمّ، أي تعلو على سائر الدواهي، وهي القيامة.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ تفسير للطامة، أي يتذكر فيه كل أحد ما عمله، من خير أو شر، بأن يشاهده مدوّنًا في صحيفة أعماله، وقد كان نسيه من فرط الغفلة، وطول الأمد.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ أي أظهرت إظهاراً بيّناً لا يخفى على أحد ﴿لِمَن يَرَى﴾ لكل راء من المجرمين، فراوها رأي العين.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ أي فاما من عتا وتمرد عن الطاعة، وجاوز الحد في العصيان.

﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي فضل الحياة الفانية على الآخرة، باتباع الشهوات المحرّمة، ولم يستعد للآخرة بالعبادة، وتهذيب الأخلاق.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي مأواه ومرجعه نار جهنم، لا مسكن ولا مأوى له سواها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي مقامه بين يدي ربه، لعلمه بالمعاد ﴿وَنَهَى

النَّفْس ﴿الْأَمَارَةُ بِالسُّوءِ﴾ عَنِ الْهَوَى ﴿عَنِ الْمِيلِ إِلَى الْمَحَارِمِ وَالشَّهَوَاتِ﴾،
بحكم الجبلة البشرية، ولم يعتد بمتاع الحياة الدنيا، ولم يغتر بزخارفها،
علماً منه بوخامة عاقبتها.

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (١١).

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ليس له سواها، وانظر إلى المقابلة اللطيفة،
فقد ذكر تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ﴾ مقابل قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ وقوله:
﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ مقابل قوله: ﴿وَوَآثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإنها من
محاسن علم البديع.

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا﴾ (١٢).

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ المشركون كانوا يسمعون القيامة، ووصفها
بالأوصاف الهائلة، مثل أنها صاخة، طامة، قارعة، فقالوا على طريق
الاستهزاء ﴿أَيَّانَ مُرْسِنُهَا﴾ أي متى إرساؤها؟ أي متى إقامتها؟ يريدون متى
يقيمها الله تعالى؟ ومتى تقع وتكون؟

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ (١٣).

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ أي في أي شيء أنت يا محمد، حتى تذكر لهم
وقتها؟ ليس علمها عندك حتى تخبرهم عن وقتها، والآية إنكار ورد لسؤال
المشركين عنها، فإنها مما استأثر الله بعلمه؟

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ (١٤).

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ أي منتهى علمها، أي العلم بكنهها وتفاصيل
أمرها، ووقت وقوعها إلى الله عز وجل، لا يعلم متى تكون إلا هو، وإنما
وظيفتهم أن يعلموا باقترابها وقد حصل لهم بمبعثك.

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا ﴾ (١٥).

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا ﴾ أي لم تبعث لتعليمهم وقت الساعة، وإنما بعثت لتنذر من يخاف شدائدنا، والآية تقرير لما قبله، وتحقيق لما هو المراد منه، وبيان لوظيفته ﷺ في ذلك الشأن، لأن إنكار كونه ﷺ في شيء من ذكراها، ممّا يوهم بظاهره أن ليس له أن يذكرها بوجه من الوجوه، فأزاح ذلك، ببيان أن المنفي عليه ﷺ ذكرها لهم بتعيين وقتها، حسبما كانوا يسألونه، فالمعنى: إنما وظيفتك ما أمرت به، من بيان اقترابها، وما فيها من صنوف الأحوال، كما تحيط به خبراً.

﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ (١٦).

﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ تقرير وتأكيد لما ينبيء عنه الإنذار، من سرعة مجيء المنذر به، أي كأن هؤلاء الكفار حين يشاهدون أهوال القيامة ﴿ لَمْ يَلْبِسُوا ﴾ أي لم يملأوا في الدنيا ﴿ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ أي إلا عشيّة يوم، أو ضحاه، فلما ترك اليوم أضيف ضحاه إلى عشيّة، يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم عشيّة يوم أو ضحى يوم، من هول ما يرونه، وزمان المحنة يُعبّر عنه بالعشيّة، وزمان الراحة يُعبّر عنه بالضحى، فيقولون: كأن عمرنا في هاتين الساعتين، نظيره قوله تعالى: ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ﴾ (١١) !! والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النازعات»

* * *

(١) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

سُورَةُ عَبَسَ

مكية وآياتها إحدى وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾﴾

﴿عَبَسَ﴾ أي كَلَحَ وقَطَبَ وجهه ﴿وَتَوَلَّى﴾ أي أعرض بوجهه .

﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ أي لأن جاءه الأعمى ، أجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولى هو الرسول ﷺ ، والأعمى هو «ابن أم مكتوم» واسمه «عبد الله بن شريح بن مالك» أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش «عتبة ، وشيبة ، وأبو جهل ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة» يدعوههم إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ، فقال له : يا رسول الله أقرئني وعلمني ممّا علّمك الله تعالى !! وكُرِّر ذلك ، وهو لا يعلم تشاغله ﷺ بالقوم ، فكره الرسول مجيئه ، وعبس وأعرض عنه ، فتزلت ، فكان ﷺ يكرمه بعد ذلك ويقول له إذا رآه : «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» واستخلفه على المدينة مرتين ، وكان رضي الله عنه من المهاجرين الأولين وقيل : قُتِلَ شهيداً بالقادسية ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى ، الحديث (١) .

(١) رواه الترمذي في التفسير رقم ٣٣٢٨ وذكر تمام القصة ، وقال : حديث حسن غريب ، وصححه ابن حبان رقم ١٧٦٩ .

﴿وَمَا يَذْرِبُكَ لَعَلُّكَ يَرْكَ﴾.

﴿وَمَا يَذْرِبُكَ﴾ أي وأي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى، حتى تعرض عنه؟ ﴿لَعَلُّكَ يَرْكَ﴾ أي لعله يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه منك من العلم والمعرفة، وكلمة «لعل» مع تحقق التزكي، واردة على سَنَن الكبرياء، على أن الإعراض عنه عند كونه مرجوً التزكي ممّا لا يجوز، فكيف إذا كان مقطوعاً به؟.

﴿أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾.

﴿أَوْ يَذْكُرُ﴾ أي يتعظ بالقرآن ﴿فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أي موعظتك، أي إنك لا تدري ما هو مترقب منه تزك أو تذكر، ولو دريت الحقيقة ما فرط ذلك منك.

﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَفَى﴾.

﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَفَى﴾ أي أعرض عن الإيمان، وعما عندك من العلوم، التي ينطوي عليها القرآن.

﴿فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّى﴾.

﴿فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّى﴾ أي تصدّى وتعرض بالإقبال عليه، والاهتمام بإرشاده، وفيه مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبته، فإن الإقبال على المدير، ليس من شيم الكرام، وفيه إشارة إلى أن من تصدّى لتزكيتهم من الكفرة، لا يرجى منهم التزكي.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَ﴾.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزُكِّيَ﴾ أي وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام، حتى يبعثك الحرص على إسلامهم، إلى الإعراض عن الأعمى ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ فليست مهمتك إلا تبليغ دعوة الله، لا تطهيرهم من دنس الشرك.

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ أي حال كونه مسرعاً، طالباً لما عندك من أحكام الرشد.

﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾

﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ أي يخشى الله تعالى، ويتقي محارمه.

﴿فَأَن تَعَنَّ لِلَّهِ﴾

﴿فَأَن تَعَنَّ لِلَّهِ﴾ أي تشاغل!! يلهيك شأن الصناديد، ومثلك لا ينبغي أن يتصدى للمستغني، ويتلهى عن الفقير، الطالب للخير، روي أنه ﷺ ما عبس بعد ذلك في وجه فقير، ولا تصدى لغني قط.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع، أي لا تعد إلى مثله ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي السورة، أو الآيات موعظة، يجب الاتعاظ بها، والعمل بموجبها.

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ أي اتعظ بالقرآن، والضميران للقرآن، وتأنيث الأول

لثأنيث خبره، والضمير في «ذَكَرَهُ» عائد إلى التذكرة أيضاً، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ، قال صاحب النظم: التذكرة: القرآن، كما قال في موضع آخر: ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾.

ثم وصف جلاله القرآن بقوله:

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾.

﴿فِي صُحُفٍ﴾ أي كائنة في صحف، منتسخة من اللوح المحفوظ والقول الثاني: أنها صحف الأنبياء عليهم السلام، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ يعني إن هذه التذكرة، مثبتة في صحف الأنبياء ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله تعالى.

﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾.

﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ القدر ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ منزهة عن مساس أيدي الشياطين أو عما ليس من كلام الله.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي كتبة من الملائكة الأبرار، جمع سافر من السفر وهو الكتب.

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

﴿كِرَامٍ﴾ أعزاء على الله تعالى ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء جمع بار، أي مطيعين له تعالى.

﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾.

﴿قُلْ الْإِنْسَانُ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات، قال المفسرون: نزلت الآية في «عتبة بن أبي لهب» والمراد ذمُّ كل غني ترفع على فقير بسبب الغنى ﴿مَا أَكْفَرُوا!﴾ تعجب من إفراطه في الكفران، وبيان لاستحقاقه للدعاء عليه.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ﴾ ﴿١٨﴾

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتُمْ﴾ أي من شيء حقير مهين، كأنه قيل: أي سبب في هذا العجب والترف، أوله نطفة قدرة، وآخره جيفة مذرة وفيما بين الوقتين حمال للعدرة، وهو استفهام ومعناه التقرير والتحقير ولذلك أجاب عنه.

﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقْتُمْ فَقَدْ رَمُّوهُ﴾ ﴿١٩﴾

﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقْتُمْ فَقَدْ رَمُّوهُ﴾ أي فهيأ لما يصلح له ويليق به من الأعضاء، والأشكال ونظيره قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُءُوهُ تَقْدِيرًا﴾.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرُهُ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرُهُ﴾ ثم سهّل خروجه من بطن أمه، وبيّن له سبيل الخير والشر.

﴿ثُمَّ أَمَّا نَفْسُهَا فَكَرُمُهَا﴾ ﴿٢١﴾

﴿ثُمَّ أَمَّا نَفْسُهَا فَكَرُمُهَا﴾ أي جعله ذا قبر يُؤارى فيه تكرامة له، ولم يتركه مطروحاً على وجه الأرض، ملقى للسباع والطير، كسائر الحيوانات يقال: قَبِرَ الميت إذا دفنه، وأقبره إذا أمر بدفنه أو مكّن فيه، وعدّ الإمامة من النعم، لأنها وُصلة - في الجملة - إلى الحياة الأبدية.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرْنَاهُ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُهُ﴾ أي أحياء بعد موته، وفيه إشعار بأن وقت البعث غير متعين في نفسه، وإنما هو موكول إلى مشيئته تعالى.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُو﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن ترفعه وتكبره، وعن كفره ﴿لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُو﴾ بيان لسبب الردع، أي لم يقض ما أمره الله به، من الإيمان والطاعة، ولم يفعل ما كلف به من العبادات وعمل الصالحات، ومساق الآيات الكريمة، لبيان غاية جناية الإنسان، وتحقيق كفرانه المفرط، المستوجب للسخط العظيم، ويراد به الإنسان الكافر، لأنه هو الذي جحد فضل الله.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ شروع في تعداد النعم المتعلقة ببقائه، بعد تفصيل النعم المتعلقة بحدوثه، أي فلينظر هذا الإنسان الجاحد لفضل ربه وإنعامه، نظر تفكر واعتبار، إلى أمر معاشه وحياته.

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ يعني المطر من السحاب صبًّا عجيبيًّا.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي بالنبات شقًّا بديعاً، لائقاً بوضعها بما يشقها من النبات، صغيراً وكبيراً، وشكلاً وهيئة.

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾

﴿قَابُثًا فِيهَا حَبًّا﴾ أي فأخرجنا من الأرض المشقوقة بالنبات، أنواع الحبوب التي يتغذى بها الإنسان، حَبًّا يقتات الناس به ويدّخرونه.

﴿وَعِنْبًا وَقَضْبًا﴾.

﴿وَعِنْبًا﴾ أي وعنباً شهياً لذيذاً يأكلونه، وهو غذاء من وجه، وفاكهة من وجه، فلهذا أتبعه الحب ﴿وَقَضْبًا﴾ أي رطباً من أنواع الخضار، تقطع مرة بعد أخرى كالسبانخ، والبقدونس، والنعنع، سميت بمصدر، «قَضَبَهُ» أي قطعه مبالغة، كأنها لتكرر قطعها نفس القطع.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ شجرة الزيتون ﴿وَنَخْلًا﴾ شجرة النخيل، وخصّ الزيتون والنخل بالذكر، لكثرة فوائدهما.

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾.

﴿وَحَدَائِقَ﴾ جمع حديقة بساتين، وهي كل ما أحيط عليه من الشجر ﴿غُلْبًا﴾ عظاماً، وصف به الحدائق، لتكاثرها وكثرة أشجارها، أو لأنها ذات أشجار غلاظ.

﴿وَفَنَكِهِةً وَأَبَّاءً﴾.

﴿وَفَنَكِهِةً﴾ أي أنواع الفواكه والثمار، مما تشتهيهِ النفوس من المأكولات ﴿وَأَبَّاءً﴾ أي مرعى لدوابكم، ويراد به العشب، رطبُه ويابسه.

﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلَآتِيَكُمْ﴾.

﴿مَنْعًا لَكُمْ﴾ أي منفعة لكم، والالتفات لتكميل الامتنان ﴿وَلَا تَغِيكُزْ﴾ أي لمواشيكم.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ﴾ (٣٢).

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ﴾ شروع في بيان أحوال معادهم، إثر بيان مبدئهم ومعاشهم، والصلاة: صيحة القيامة، لأنها تصخ الآذان، أي تصمها، وهي الداهية العظيمة التي تعم الناس ويراد بها النفخة الأخيرة. قال الزجاج: الصخ: الطعن، والصك، لأنها تصخ الآذان بشدة صوتها.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَدِيقِهِ * وَبَنِيهِ﴾ (٣٦).

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَدِيقِهِ * وَبَنِيهِ﴾ أي يعرض عنهم ولا يصاحبهم، ولا يسأل عن حالهم لتبعات بينه وبينهم، أو لاشتغاله بنفسه، وتأخير الأحب فالأحب، كأنه قيل: يفر من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبه وبنيه، والمراد من الفرار التبعاد.

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (٣٧).

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي يكفيه في الاهتمام به، ويشغله عن غيره، وقد ورد عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «تحشرون حفاة، عراة، غرلاً، فقالت امرأة: يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: يا فلانة ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾»^(١).

(١) أخرجه الترمذي في القيامة رقم ٢٤٢٥ وقال: حديث حسن صحيح، ورواه البخاري في =

﴿وُجُوهُ يَوْمَ يُدْفَنُ مُسْفَرَةٌ﴾.

﴿وُجُوهُ يَوْمَ يُدْفَنُ﴾ بيان لانقسامهم إلى السعداء والأشقياء، بعد ذكر وقوعهم في داهية دهياء ﴿مُسْفَرَةٌ﴾ أي وجوههم مضيئة مشرقة، من أسفر الصبح إذا أضاء، عن ابن عباس أنه من قيام الليل، وعن الضحاك من آثار الوضوء، وقيل: لِمَا اغْبَرَّتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

﴿صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾.

﴿صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي أصحاب هذه الوجوه وهم المؤمنون، ضاحكون مستبشرون عند الفراغ من الحساب.

﴿وُجُوهُ يَوْمَ يُدْفَنُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾.

﴿وُجُوهُ يَوْمَ يُدْفَنُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ غبار وكدورة، أي سوادٌ ودخانٌ من لفح جهنم، اللهم الذي نزل بهم.

﴿تَرْهَقُهَا قَرَّةٌ﴾.

﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي تعلوها وتغشاها ﴿قَرَّةٌ﴾ أي سواد وظلمة، جَمَعَ اللَّهُ فِي وَجُوهِهِمْ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْغَبَرَةِ، كَمَا جَمَعُوا بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْفَجْورِ.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾.

= الرقاق ٣٣٤/١١ باب الحشر، ولفظه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس حفاة، عراة، غرلاً - أي غير مختونين - فقلت يا رسول الله: الرجال والنساء جميعاً، ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض» وفي رواية للنسائي ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أي الجامعون بين الكفر والفجور، الكفر في حقوق الله، والفجور في حقوق العباد، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة عبس»

* * *

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

مكية وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي لفت، من كورت العمامة إذا لففتها. كار الرجل العمامة كوراً أدارها على رأسه، وكورها بالتشديد مبالغة، على أن المراد بذلك، إمّا رفعها وإزالتها من مقرّها، أو لف ضوئها، كما وصفت النجوم بالانكدار، ونحوه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعن النبي ﷺ أنه قال: «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة»^(١).

(١) جاء في الحديث الشريف، أن من علامات الساعة الكبرى، طلوع الشمس من مغربها، كما ورد في الصحيحين، وقد يتساءل الإنسان كيف تطلع الشمس من مغربها؟ والجواب أن ذلك غير ممتنع على قدرة الله تعالى، بل هو أمر منطقي معقول عند علماء الفلك، فإن الأرض تدور من الغرب إلى الشرق، فإذا انعكس دورانها، فأصبحت تدور من الشرق إلى الغرب، صار طلوع الشمس من المغرب بدل المشرق، وفي هذا إيذان بانتهاء الحياة، على ظهر هذا الكوكب الأرضي، فسبحان من كورها ودورها، وحديث طلوع الشمس من مغربها لعله من أدل البراهين على حركة الأرض ودورانها، وانظر كتابنا «حركة الأرض حقيقة علمية أثبتها القرآن».

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ ﴿٧﴾.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أي انقضت، وقيل تناثرَتْ وتساقطت، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ وقيل: انكدارها انطماسُ نورها، من كَدر الماء من باب تعب زَالَ صفاؤه.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ ﴿٨﴾.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عن وجه الأرض أي عن أماكنها، بالرجفة الحاصلة، لا في الجو، فإن ذلك بعد النفخة الثانية.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ ﴿٩﴾.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ جمع عشراء، وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر، وهو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة، وهي أنفس ما تكون عند أهلها ﴿عُطِّلَتْ﴾ أي تُرِكَت مهملة، عطّلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ﴿١٠﴾.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ﴾ أي الدواب دواب البر ﴿حُشِرَتْ﴾ أي جمعت من كل ناحية، قال قتادة: يحشر كل شيء حتى الذئاب للقصاص، فإذا قضى بينها ردت تراباً، والمراد أنها تتجمع من الهول، وقد كانت شاردة في الشعاب والجبال، فأصبحت لا تأوي إلى أوكارها.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ ﴿١١﴾.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي أُحميت وأوقدت فأصبحت ناراً تضطرم،

وأصبحت مياهها نيراناً تحيط بالبشر، أو ملئت بتفجير بعضها بعضاً، حتى تعود بحراً واحداً^(١).

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قرنت الأرواح بأجسادها، أو قرنت كل نفس بشكلها، ونفوس المؤمنين بالصالحين، ونفوس الكافرين بالشريرين، وقيل: كل امرئ بشيعته، المسلمون بالمسلمين، والنصارى بالنصارى، واليهود باليهود.

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ﴾

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ﴾ أي المدفونة حية، وكانت العرب تند البنات مخافة الفقر، أو لحوق العار بهم من أجلهن، فقد كان الرجل منهم إذا ولدت له بنت، ذهب بها إلى الصحراء، وقد حفر لها حفرة، ويلقيها فيها، ويهيل عليها التراب، وقيل: كانت الحامل إذا قربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمت بها، وإن ولدت ابناً حبسته ﴿سُئِلَتْ﴾ سؤال تلطف بها وتوبيخ لقاتلها، لتقول: وُئدتُ بلا ذنب.

﴿يَايَ ذُنُبٍ قُنِلَتْ﴾

﴿يَايَ ذُنُبٍ قُنِلَتْ﴾ لتدل على قاتلها، وإظهار كمال الغيظ والسخط لوأندها.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾

(١) القول الأول هو الأظهر لقوله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾ أي الموقد ناراً.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني صحائف الأعمال، فإنها تُطوى عند الموت، وتُنشر وقت الحساب، فتقع صحيفة المؤمن في يده ﴿في جنة عالية﴾ وتقع صحيفة الكافر ﴿في سموم وحميم﴾.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ (١١).

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أي قلعت وأزيلت، كما يُكشط الإهاب عن الذبيحة، والغطاء عن الشيء المستور به.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ (١٢).

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي أوقدت بإقداً شديداً.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْزِلَتْ﴾ (١٣).

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْزِلَتْ﴾ قُرِبَتْ من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَأُنْزِلَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿عَمِلَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ (١٤).

﴿عَمِلَتْ نَفْسٌ﴾ جواب «إذا» على أن المراد بها زمان واحد ممتد، مبدؤه النفخة الأولى، ومنتهاه فصل القضاء، أي كل نفس برة أو فاجرة ﴿مَّا أَحْضَرَتْ﴾ من خير أو شر، والمراد بحضورها: حضور صحائفها، وما فيها من خير أو شر، كما ينطق عنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية، وتنكير النفس للإيدان، بأن ثبوته لجميع أفرادها قاطبة.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ﴾ (١٥).

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ﴾ بالكواكب الرواجع، من خَسَّ إذا تأخر، أي أقسمُ بالنجوم الساطعة المضيئة، التي تختفي بالنهار وتظهر بالليل، سميت خُنُوساً لأنها تختفي عن الأبصار، وهي ما سوى النيرين، من السيارات، ولذا وصفها بقوله.

﴿الْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾.

﴿الْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ السيارات التي تختفي تحت ضوء الشمس، من كنس الوحش إذا دخل كناسه، وهو بيته، تستر كما تستتر الظباء في كهوفها.

﴿وَالْأَيْلِ إِذَا عَسَّعَسَ﴾.

﴿وَالْأَيْلِ إِذَا عَسَّعَسَ﴾ أي أقبل بظلامه، أو أدبر، وهو من الأضداد وقيل إقبال ظلامه أوفق لقوله تعالى:

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا نَنَفَسَ﴾.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا نَنَفَسَ﴾ لأنها أول النهار، والصبح إذا أقبل، يقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نَفَساً له مجازاً^(١).

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن الكريم، الناطق بما ذكر من الدواهي الهائلة

(١) انظر إلى روعة الإبداع في التعبير «والصبح إذا تنفَّس» ففيه تشبيه النور الذي يأتي به الصبح، بنسمات الهواء العليل، التي تحيي النفس، فالصبح حيٌّ يتنفس، أنفاسه النور، والحركة، والضياء، وكأنه نائم يغطُّ في سبات عميق، ثم يستيقظ فيستنشق الهواء العليل، وإنما جاءت روعة التعبير، من جمال الاستعارة البديعة.

﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ أي جبريل عليه السلام، وإنما أضيف إليه، لأنه هو الذي نزل به، وأنه قاله عن الله تعالى ﴿كَرِيمٍ﴾ عند ربه، ومن تكريمه أنه تعالى جعله.. واسطة بينه وبين رسله.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي قدرة على ما يكلف به، لا يعجز عنه ولا يضعف، لقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ وكان من قوته أنه اقتلع قري قوم لوط، فرفعها إلى السماء، ثم قلبها، وأنه صاح صيحةً بشمود، فأصبحوا جاثمين ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي عند الله تعالى عندية إكرام، لا عندية مكان ﴿مَكِينٍ﴾ أي ذي جاه، ومنصب ومكانة.

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾

﴿مُطَاعٍ﴾ في ملائكته ﴿ثَمَّ﴾ أي في هناك السماوات، يطيعه من فيها ﴿أَمِينٍ﴾ على الوحي ورسالات السماء.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ يعني الرسول ﷺ، والتعرض لعنوان المصاحبة، للتنبيه على شناعة الافتراء، كأنه يقول: هذا الذي تزعمون أنه مجنون، هو صاحبكم الذي صاحبتموه أربعين سنة، وعرفتم عقله وفضله، فكيف تزعمون أنه مجنون؟ أفلا تعقلون؟

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِآلَافٍ الْمَلِئِينَ﴾

﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ أي رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام على صورته. ﴿بِآلَافٍ الْمَلِئِينَ﴾ بمطلع الشمس.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ أي على الوحي، وغيره من الغيوب ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي ببخيل، من الضن وهو البخل، ضنٌ بالشيء بخل، فهو ضنين، أي لا يبخل بالوحي، كما يبخل الكهان رغبة في الحلوان، بل يعلمه كما علّم.

﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٌ رَّجِيمٌ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٌ رَّجِيمٌ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وقيل: كانوا يقولون إِنَّ شَيْطَانًا يَلْقِيهِ عَلَى لِسَانِهِ، فنفى الله تعالى ذلك عنه ﷺ.

﴿فَإِنَّ تَذْهَبُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿فَإِنَّ تَذْهَبُونَ﴾ أي فأي طريق تسلكونه في تكذيبكم للرسول؟ كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً: أين تذهب؟ أي أين تذهب عقولكم بهذا المنطق السخيف؟.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي تذكرة وموعظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ أي للخلق أجمعين.

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾ بدل من العالمين ﴿أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أي لمن شاء الاستقامة، ويتحرى الحق، وإبداله من العالمين، لأنهم هم المنتفعون بالتذكير.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ الاستقامة ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإن مشيئتك لا تستتبع الاستقامة، بدون مشيئته تعالى ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مالك الخلق كله، ومربيهم أجمعين، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكويد»

* * *

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

مكية وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ (١).

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ انشقت لتزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالسَّعَابِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ وقوله: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ (٢).

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ تساقطت متفرقة على وجه الأرض.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (٣).

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فتح بعضها على بعض، فصار الكلُّ بحراً واحداً، فاختلط العذب بالأجاج، أو تفجرت فاشتعلت باللسنة النيران كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي اشتعلت نيرانها، من السَّجَر بمعنى الالتهاب، والاحتراق.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ ﴿٤﴾

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ أي قلب ترابها وأخرج موتاها، ونظيره بُحِثَ لفظاً ومعنى.

﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ ﴿٥﴾

﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي كل نفس برؤها وفاجرها، وجواب إذا ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أي ما أسلفت من عملٍ خير أو شر، علمت ذلك عند نشر الصحف.

﴿يَتَأْتِيَهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمُ﴾ ﴿٦﴾

﴿يَتَأْتِيَهَا الْإِنْسَنُ﴾ قيل الخطاب لمنكري البعث، أو يتناول جميع العصاة، وهو الأقرب، لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ ﴿مَّا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمُ﴾ أي أي شيء خدعك وجزأك على عصيانك، وقد علمت ما بين يديك من الدواهي وما سيكون؟ قال عمر: غرّه جهله، وغرّه حمقه، وعن الحسن: غرّه شيطانه، والتعرض لعنوان كرمه تعالى، للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مداراً لاغتراره، حسبما يغويه الشيطان، ويقول له: افعل ما شئت فإن ربك كريم، قد تفضل عليك في الدنيا وسيفعل مثله في الآخرة، فإنه قياس عقيم، وتمنية باطلة، بل هو مما يوجب المبالغة في الإيمان والطاعة، والاجتناب عن الكفر والعصيان، كأنه قيل: ما حملك على عصيان ربك؟ وذكّر «الكريم» للمبالغة في المنع عن الاغترار، فإن محض الكرم لا يقتضي إهمال الظالم، وتسوية المطيع والعاصي، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر والانتقام!!

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ﴾ ﴿٧﴾

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَ﴾ صفة ثانية مقررة للربوبية، منبهة على أن من قدر على ذلك بدءاً قدر عليه إعادة، والتسوية جعلُ الأعضاء سليمة سوية، معدة لمنافعها وعدلٌ بعضها ببعض، بحيث لم تتفاوت، أي صيرك متناسب الخلق، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، وإحدى العينين أوسع، يمشي قائماً لا كالبهائم، ثم أنطق لسانك بالذكر، وقلبك بالعقل، وروحك بالمعرفة، وسرك بالإيمان، وشرّفك بالأمر والنهي، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلاً.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ما زائدة للتوكيد، أي ركبك في أي صورة اقتضتها مشيئته، من الصور المختلفة في الحُسن، والطول، والقصر، واختلاف الصور والهيئة، يدل على قدرة الصانع تعالى.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الغفلة عن الله وعن الاغترار بكرم الله ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ إضراب عن جملة مقدرة، كأنه قيل: وأنتم لا تردعون عن ذلك، بل تجرؤون على أعظم من ذلك، حيث ﴿بِالَّذِينَ﴾ أي بالجزاء والبعث والنشور، وهذه علة الغرور.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ يحفظون أعمالكم وأقوالكم من الملائكة وهو تحقيق لما يكذبون به، وردّ لما يتوقعون من التسامح والإهمال، أي تكذبون بالجزاء والحال أن عليكم حافِظين.

﴿كَرَامًا كُنِينَ﴾

﴿ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴾ أي كراماً عند الله، يكتبون أقوالكم وأعمالكم.

﴿ يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١٧)

﴿ يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ من خير أو شر، وفي تعظيم الكاتبين تفخيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأمور، حيث يستعمل هؤلاء الكرام، وفيه إنذار وتهويل للمجرمين، ولطف بالمتقين، وهي أشد آية على الغافلين، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (١٨)

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ بيان لما يكتبون لأجله ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي لفي الجنة دار السرور والحبور، يتنعمون فيها بما لذ وطاب.

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (١٩)

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ ﴾ أي الكفار ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ أي لفي النار، وفي تنكير النعيم والجحيم، من التفخيم والتهويل ما لا يخفى.

﴿ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ (٢٠)

﴿ يَصَلُّونَهَا ﴾ أي يدخلونها ويقاسون سعيها ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به.

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ (٢١)

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ أي لا يخرجون منها، كقوله تعالى: ﴿وما هم بخارجين منها﴾ وقيل معناه وما كانوا غائبين عنها بل يجدون سمومها في

قبورهم حسبما قال ﷺ «القبر إما روضة من رياض الجنان، أو حفرة من حفر النار»^(١).

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ١٧

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾؟ خطاب للنبي ﷺ، لأنه ﷺ ما كان عالماً بذلك قبل الوحي، وفيه تفخيم لشأن يوم الدين الذي يكذبون به، أي أي شيء جعلك دارياً ما يوم الدين؟ لو لم نعرفك أحواله.

﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ١٨

﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ كُرِّر للتأكيد والتحويل.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ١٩

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي لا تستطيع دفعاً عنها، ولا نفعاً لها بوجه من الوجوه، وإنما تملك الشفاعة بالإذن، وفيه بيان إجمالي لشأن يوم الدين، قال ابن عباس: كلُّ ما في القرآن من قوله: ﴿وما أدراك﴾ فقد أراه، وكلُّ ما فيه من قوله: ﴿وما يدريك﴾ فقد طوى عنه ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أي: لا أمر إلا لله دون غيره، وفيه تقريرٌ لشدة هولهِ، أي الحكم والقضاء بين الخلائق يومئذ بيد الله لا يملكه غيره. والله أعلم بمراده.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانفطار»

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٤٦٢ في صفة القيامة بلفظ «إنما القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار».

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

مكية وهي ست وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾

﴿وَبَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ الذين يبخسون حقوق الناس في الكيل والوزن، لأن ما يبخس طفيف، أي حقير، روي أنه ﷺ قدم المدينة، وكان أهلها أبخس الناس كيلاً، فنزلت، فأحسنوا الكيل.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ إذا اشتروا من الناس، وكالوا لأنفسهم، أو وزنوا، وهي صفة للمطففين، شارحة لكيفية تطفيفهم، والاكتيال: الأخذ بالكيل، والاتزان: الأخذ بالوزن ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي يأخذونها وافية، والمراد بالاستيفاء ليس أخذ الحق وافياً، بل أخذ الوافر حسبما أرادوا، بكبس الكيل، وتحريك المكيال، والاحتتيال.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي إذا كالوا للناس، أو وزنوا لهم، فحذف

الجار ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي ينقصون وعدم التعرض للمكيل والموزون، لأن مساق الكلام لبيان سوء معاملتهم، في الأخذ والإعطاء، لا في خصوصية المأخوذ. واختلف العلماء في مقدار التطفيف، فقال بعضهم: هذه الآية دالة على الوعيد، فلا تتناول إلا إذا بلغ نصاب السرقة، وقال الآخرون: بل ما يصغر ويكبر داخل تحت الوعيد، وهذا هو الأصح حتى إن العزم عليه أيضاً من الكبائر، أمر المكيل والميزان عظيم، لأن عامة الخلق يحتاجون في المعاملات إليهما، فلهذا عظم الله تعالى أمره. قال أعرابي لعبد الملك بن مروان: قد سمعت ما قال الله تعالى في المطففين؟ أراد بذلك قد توجه على المطفف الوعيد العظيم في أخذ التطفيف، فانت تأخذ الكثير، بلا كيل ولا وزن!!.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ؟ يعني يوم القيامة، أدخل الهمزة على «لا» النافية توبيخاً، وفيه إنكار وتعجيب من حالهم، في الاجترار على التطفيف، ولو ذرة، فإن من يظن ذلك، وإن كان ظناً خفيفاً لا يكاد يتجاسر على أمثال هاتيك القبائح، فكيف بمن يثقنه!!.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقومون من قبورهم لحكمه وقضائه، وفي هذا الإنكار والتعجيب، ووصفه تعالى برب العالمين، ووصف اليوم بالعظيم، من البيان البليغ لعظم الذنب، في التطفيف وأمثاله، ما لا يخفى.

﴿كَذَٰلِكَ إِن كُتِبَ الْفَجَارِ لِفِي سِجِّينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ ردع عن التطفيف، والغفلة عن البعث، ثم أتبعه وعيد

الفجار ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ﴾ أي صحائف أعمالهم ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ كتاب جامع لأعمال الفجرة من الثقلين، وأصله من السجن وهو الحبس والتضييق، لأنه سبب الحبس في جهنم، فالمعنى إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ الذين من جملتهم المطففون، أي كتابة أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدون، وفيه قبائح الشياطين والكفار من الثقلين.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾؟ إنما قال ذلك تعظيماً لأمر السجين وتهويلاً له.

﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾.

﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي مسطور أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه.

﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْكَذِبِينَ﴾.

﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿لِلْكَذِبِينَ﴾ بالبعث.

﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي بيوم الجزاء.

﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ أي متجاوز للحد في الطغيان، غالٍ في التقليد الأعمى، حتى استبعد قدرة الله على الإعادة ﴿أَثِيمٍ﴾ أي منهمك في الشهوات، بحيث شغلته عما وراءها، وحملته على الإنكار.

﴿إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ إِيشَاقُ قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿ إِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمُ ابْنَتَا قَالِ اسْطِيطِرُ الْأَوَّلَيْنِ ﴾ أي خرافات وأباطيل الأمم السابقة للبعث والحساب والجزاء.

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع للفاجر الأثيم عن ذلك القول الباطل، وتكذيب له فيه ﴿ بَلْ رَانَ ﴾ أي بل طبع الله ﴿ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ على قلوب المكذبين ﴿ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من المعاصي والفصائح وفيه بيان لما أدى بهم إلى التفوه بتلك العظيمة، أي ليس في آياتنا ما يصح أن يقال في شأنها مثل هذه المقالات الباطلة، بل ركب على قلوبهم، وغلب عليها ما كانوا يكسبونها من الكفر والمعاصي، حتى صارت كالصدأ في المرأة، فَحَالَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً، نُكْتُ فِي قَلْبِهِ نَكْثَةً سَوْدَاءَ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ، وَاسْتَغْفَرَ، وَتَابَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(١)، وَالرَّيْنُ: الصَّدَأُ، رَانَ الشَّيْءُ عَلَى فُلَانٍ غَلَبَهُ، ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى الْغَطَاءِ، فَمَرَاتِبُ الظُّلْمَةِ عَلَى الْقَلْبِ مُخْتَلِفَةٌ، فبَعْضُهَا يَكُونُ رَيْنًا، وَبَعْضُهَا طَبْعًا، وَبَعْضُهَا إِفْقَالًا.

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُورُونَ ﴾.

﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن الغي والضلال ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعني المكذبين ﴿ عَنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي عن النظر إلى ربهم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لَمَّحْجُورُونَ ﴾ أي ممنوعون، فلا يرونه بخلاف المؤمنين، قال الزجاج: والآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم، وإلا لا يكون التخصيص مفيداً.

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير ٤٠٤/٥ وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد في المسند.

قال مالك : لَمَّا حَجَبَ أَعْدَاءَهُ لَا بَدَّ أَنْ يَتَجَلَّى لِأَوْلِيَائِهِ .

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ (١٦)

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ ثم بعد كونهم محجوبين عن الله ، لداخلون النار .

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (١٧)

﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾ إذا دخلوها توبيخاً من جهة الزبانية ﴿ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا فذوقوا عذابه .

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ (١٨)

﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن التكذيب أي ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار .
﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ ﴾ ما كتب فيه أعمالهم الصالحة ، والأبرار المطيعون لله ،
المتقون لمحارمه ﴿ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ هو علم لديوان الخير ، الذي دُونَ فيه كل
ما عملته الأبرار ، وصلحاء الثقلين ، من العلو ، لأنه سبب لارتفاع
الدرجات في الجنة .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ (١٩) ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ (٢٠) ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٢١)

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي تحضره الملائكة ،
ويشهدون على ما فيه يوم القيامة .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (٢٢)

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ شروع في بيان محاسن أحوالهم .

﴿ عَلَى الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ عَلَى الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ ﴾ ينظرون إلى كرامة الله ونعمه، وإلى أعدائهم كيف يعذبون.

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ تَعْرِفُ ﴾ يارسول الله ﴿ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ بهجة التنعم، وبريقه وطراوته، والخطاب لكل أحد ممن له حظ من الخطاب.

﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿ يُسْقَوْنَ ﴾ في الجنة ﴿ مِنْ رَحِيقٍ ﴾ شراب خالص لا غش فيه ﴿ مَخْتُومٍ ﴾ ختم على ذلك الشراب، ومنع أن تمسه الأيدي، تكريماً له، وهناك خمر آخر، تجري في الأنهار، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ ﴾ إلا أن هذا المختوم أشرف من الجاري.

﴿ خِتَمُهُمْ بِمِسْكِ ﴾ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ .

﴿ خِتَمُهُمْ بِمِسْكِ ﴾ تختم أوانيهم بمسك، ولعله تمثيل لكمال نفاسته ﴿ وَفِي ذَلِكَ ﴾ الرحيق ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ فليرغب الراغبون، كقوله تعالى: ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ وأصل التنافس التغالب في الشيء النفيس.

﴿ وَمِنْ أَمْزَجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ وَمِنْ أَمْزَجُهُمْ ﴾ أي ما يمزج به ذلك الرحيق ﴿ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ سميت بالتسنيم، لأنها أرفع شراب في الجنة، أو لأنها تأتيهم من فوق، وتنصب في أوانيهم.

﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي يشربون منها، قال ابن عباس: يشرب منها المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أي كفروا، يعني رؤساء قريش أبا جهل، والوليد، والعاص، وأصحابهم ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الذين آمنوا، مثل عمار وخباب وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ﴿يَضْحَكُونَ﴾ في الدنيا استهزاء بهم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿وَإِذَا مَرُّوا﴾ أي فقراء المؤمنين ﴿بِهِمْ﴾ أي بالمشركين وهم في أنديتهم ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ أي يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم إليهم سخريه.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ ﴿٣١﴾

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا﴾ من مجالسهم أي رجعوا ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي رجعوا فرحين، متلذذين بذكرهم، والسخرية منهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي المؤمنين أينما كانوا ﴿قَالُوا﴾ يعني الكفار ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي أصحاب رسول الله ﷺ ﴿لَضَالُّونَ﴾ أي خدع محمد هؤلاء فضلّوا، وتركوا اللذات لما يرجونه في الآخرة، نسبوا المسلمين إلى الضلال.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ أي وما أرسل الكفار ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين ﴿حَافِظِينَ﴾ أي يحفظون عليهم أحوالهم، ويرقبون أعمالهم، ويشهدون برشدكم وضلالهم؟ وهذا تهكم بهم، وسخرية واضحة، كأنه تعالى يقول: أنا ما أرسلتهم وكلاء ورقباء على عبادي.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ برسول الله ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ على الكفار ﴿يَضْحَكُونَ﴾ كما ضحكوا منهم في الدنيا، مجازاةً لهم، حين رأوهم أذلاء مغلولين في النار، قد غشيهم فنون الهوان والصغار، بعد العزة والكبرياء، التي كانوا عليها في الدنيا.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ أي هم جالسون على أسرة الذهب، المكلمة بالدر والياقوت، ينظرون إلى الكفار، ويضحكون عليهم، كما كانوا يفعلون في الدنيا.

﴿هَلْ ثَوَّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿هَلْ ثَوَّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؟ والثوب والإثابة بمعنى: المجازاة، والثواب: الجزاء، أي هل جوزوا ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ بالمؤمنين في الدنيا؟ بمعنى: هل نالوا جزاءهم بأفعالهم وإجرامهم؟ والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.
«تم بعونه تعالى تفسير سورة المطففين»

* * *

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

مكية وهي خمس وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ أي تصدعت وتشققت بالغمام كقوله تعالى: ﴿ويوم تشق السماء بالغمام﴾ وذلك عند قيام الساعة، وهي من علاماتها.

﴿وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾

﴿وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ سمعت وأطاعت، وأجابت ربها إلى الانشقاق، ولم تمتنع، أي انقادت لتأثير قدرته من غير ممانعة ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي جُعِلَتْ حقيقة بالاستماع والانقياد، والمعنى: انقادت لربها، وهي جديرةٌ بذلك، وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي بسطت وسويت باندكاك جبالها وأكامها، بحيث صارت ﴿قاعاً صافصفاً. لا ترى فيها عرجاً ولا أمتاً﴾ أوزيدت سعة، ولا بد

من الزيادة في طولها وعرضها، لأن الخلق الأولين والآخرين سيحشرون على ظهرها.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الكنوز والموتى، كقوله تعالى: ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ والتحقيق أن الله تعالى هو الذي أخرج تلك الأشياء، والأرض وُصفت بذلك على سبيل التوسع ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ أي خلت غاية الخلو حتى لم يبق شيء من باطنها، كأنها تكلفت في ذلك.

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلي ﴿وَحُقَّتْ﴾ وهي حقيقة بذلك، وجوابه محذوف للتهويل، أي لقي الإنسان من الشدائد والأهوال، ما لا يتصوره الخيال!!.

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ﴾ خطاب للجنس ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي جاهدٌ إلى لقاء ربك، وهو الموت وما بعده، والكَدْحُ: جهد النفس في العمل، بحيث يؤثر فيها ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ المراد جزاء الكدح، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، أي ستلقى جزاءك على عملك كاملاً وافياً، فإمّا أن تكون من أهل النعيم، أو من أهل الجحيم. إن الإنسان لا ينفك في هذه الحياة، من أولها إلى آخرها، عن الكدح والمشقة، ولما كانت كلمة «إلى» لانتهاة الغاية، فهي تدل على وجوب انتهاء الكدح والمشقة، بانتهاء هذه الحياة، فنرجو من فضل الله تعالى، أن يكون الانتهاء، إلى السعادة والرحمة بعد الموت.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينٍ ﴾ ﴿٧﴾

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ ﴾ أي أعطى ﴿ كِتَابُهُ بِيَمِينٍ ﴾ كتاب حسنة.

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ﴿٨﴾

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أي سهلاً هيناً، لا مناقشة فيه ولا عذاب، و «سوف» من الله تعالى واجب، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من حوسب عُذْبٌ» فقلت: أوليس يقول الله عز وجل: ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ فقال: إنما ذلك العَرَضُ، ولكن من نوقش عُذْبٌ^(١).

﴿ وَنَقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ ﴿٩﴾

﴿ وَنَقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ المراد من أهله: أهل الجنة.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ ﴿١٠﴾

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابُهُ ﴾ أي أعطى كتاب سيئاته ﴿ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ أي يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره، وقال في سورة الحاقة: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ ﴾.

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴾ ﴿١١﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٢١٣/٣ ومسلم رقم ٢٨٧٦ وهذه رواية أبي داود في الجنائز رقم ٣٠٩٣ ورواية البخاري بلفظ «إنما ذاك العرض، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك».

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ يقول: يا ثبوره، والثبورُ: الهلاكُ لأنه يعلم أنه من أهل النار، فيدعو بالهلاك على نفسه، قال تعالى: ﴿دَعُوا هَٰذَاكَ ثُبُورًا﴾.

﴿وَيَصَلِّي سَعِيرًا﴾ (١٧)

﴿وَيَصَلِّي سَعِيرًا﴾ أي يدخل ناراً مسعرة، فإنه يدعو الثبور، ثم يدخل النار وهو في النار أيضاً يدعو الثبور.

﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا﴾ (١٧)

﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا﴾ فيما بين أهله وعشيرته في الدنيا مسروراً مترفاً، بطراً كديدن الفجار، الذين لا يهمهم ولا يخطر ببالهم أمور الآخرة، ولا يتفكرون في العواقب.

﴿إِنَّكُمْ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (١٨)

﴿إِنَّكُمْ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أي ظنَّ أن لن يرجع إلى ربه، تكديباً منه بالبعث والْحَوْرُ: هو الرجوعُ، ومنه حديث «أعوذ بك من الحَوْر بعد الكور» أي الرجوع إلى النقص بعد الكمال.

﴿بَلَىٰ إِنْ رَبُّكَ كَانَ بِبَصِيرَةٍ﴾ (١٩)

﴿بَلَىٰ﴾ أي ليس الأمر كما ظن، بل سيرجع إلينا، ويبعث ويحاسب ﴿إِنْ رَبُّكَ كَانَ بِبَصِيرَةٍ﴾ أي عالماً بأعماله، فلا يهمله بل يجازيه، ولا بدَّ من رجوعه وحسابه، وجزائه عليها، فهذا زجر لكل المكلفين عن جميع المعاصي.

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ (١٦).

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ الشَّفَقُ: الحمرة من بعد غروب الشمس التي ترى في الأفق، وهذا هو المشهور في اللغة وقال مجاهد: الشَّفَقُ: النهار كله، لأنه عطف الليل عليه.

﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ (١٧).

﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي جمع وضم ما كان منتشراً بالنهار من الخلق فكانه تعالى أقسم بجميع المخلوقات.

﴿ وَالْقَمَرَ إِذَا آتَقَ ﴾ (١٨).

﴿ وَالْقَمَرَ إِذَا آتَقَ ﴾ أي اجتمع وتمّ نوره، وذلك في الأيام البيض، وذلك ليلة ثلاثة عشر إلى ستة عشر.

﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ (١٩).

﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ أي لتلاقنَّ حالاً بعد حال، كل واحدة منها مطابقة لأختها في الشدة والفضاعة، أولها الموت، وما بعده من مواطن القيامة، وقيل: الطباق جمع طبقة، وهي المرتبة وهو الأوفق للركوب، أي لتركبن أحوالاً بعد أحوال.

﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٠).

﴿ فَمَا لَهُمْ ﴾ أي كفار مكة ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ برسول الله، ويوم القيامة، أي أي شيء يمنعهم عن الإيمان مع تعاضد موجداته ١٩.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٢١﴾

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي لا يخضعون لله تعالى بالتوحيد ولا يسجدون لتلاوته؟ فهم أرباب الفصاحة والبلاغة، وعند سماعهم القرآن لا بد أن يعلموه معجزاً، وإذا علموا ذلك لا بد أن يخضعوا، قيل: قرأ النبي ﷺ ذات يوم ﴿واسجد واقترب﴾ فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفر، فنزلت هذه الآية، وعن رافع قال: «صليت مع أبي هريرة رضي الله عنه العَتَمَةَ - يعني صلاة العشاء - فقرأ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد، فقلت: ما هذه؟ قال: سجدتُ بها خلف أبي القاسم، فلا أزال أسجدُ فيها»^(١) وبه احتج أبو حنيفة على وجوب السجدة، قال ابن عباس والحسن: المراد من السجود الصلاة، وقال أبو مسلم: الخضوع، وقال الآخرون: المراد نفس السجود.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي كفار مكة ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بالبعث والقرآن، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته، فالمعنى: إن الدلائل الموجبة للإيمان وإن كانت ظاهرة، لكن الكفار يكذبون بها، فكيف يكذبون وبين أيديهم هذا الكتاب المعجز؟

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي بما يجمعون في صدورهم، ويضمرون

(١) أخرجه البخاري في سجود القرآن ٤٥٩/٢ ومسلم رقم ٥٧٨ في المساجد والموطأ ٢٠٥/١ في القرآن.

من الكفر والحسد، والتكذيب وأصل الكلمة من الوعاء، يقال: أوعيثُ المال إذا جمعته.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ أي فبشر هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون به ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي وجيع مؤلم، في غاية الشدة والغلظة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لهم ثواب في الآخرة دائم غير مقطوع.

والله أعلم بمراده والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشقاق»

سُورَةُ الْبُرُوجِ

مكية وهي اثنان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ١.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وهي البروج الاثنا عشر، وقيل: النجوم سميت بروجاً لظهورها، وأصل التركيب للظهور، وإنما حُسِّنَ القسم بالبروج، لما فيها من عجيب حكمة الباري، وفيها سير الشمس والسيارات.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ ٢.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ هو يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ٣.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أي شاهد في ذلك اليوم ومشهود فيه، وتنكيرهما للإبهام في الوصف، أو للمبالغة، وقيل: الشاهد الرسول ﷺ، والمشهود يوم القيامة، قال الله تعالى عن القيامة: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾.

﴿ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴾

﴿ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴾ أي لُعْن، والأظهر أنها دعائية، دالة على الجواب، كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء أنكم؛ أي يا كفار مكة ملعونون، كما لُعْن أصحاب الأخدود، لما أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين، على ما هم عليه من الإيمان، وتصبيرهم على أذية الكفار، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب، حتى يتأسوا بهم ويصبروا، والأخدود هو الشق العظيم في الأرض جمعه أخاديد، وفي قصتهم روايات مختلفة، إلا أنها متفقة في أنهم قوم من المؤمنين خالفوا قومهم، أو ملكاً كافراً، فألقاهم في الأخدود^(١)، وتلك الواقعة كانت مشهورة عند قريش، فذكر

(١) القصة كما وردت في مسند أحمد، وصحيح مسلم «أن ملكاً جباراً ظالماً، ادّعى الربوبية، وكان له ساحر يستعين به، فلما كبر الساحر، طلب من الملك أن يأتيه بغلام شاب ليعلمه السحر، حتى لا يذهب ملكه، فبعث له غلاماً، وكان هذا الغلام يمرُّ في طريقه على رجل عابد زاهد، فتعلّق قلب الغلام به، فأسلم على يديه، ووصل الصلاح بالغلام إلى درجة عظيمة، حتى صار مستجاب الدعوة، لا يأتيه مريضٌ فيدعو الله له إلا شفاه، وصار من شدة صلاحه يرى الأعمى والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأمراض، وكان للملك وزيرٌ أعمى، سمع بأمر هذا الغلام، فأتاه بهدايا ثمينه عظيمة، وقال له: هذه الهدايا كلها لك إن أنت شفيتني!! فقال له الغلام: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله ربّ العالمين، فإن أنت آمنت بالله ربّي، دعوت الله لك فشفاك، فأمن بالله تعالى، فدعا الله له فشفاه الله تعالى، فأصبح بصيراً، فجاء الوزير إلى الملك وعينه تبصران، فتعجب الملك منه وقال له: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: وهل لك ربٌّ غيري؟ فقال له: أنت عبد مثلي ضعيف لا تقدر على شيء، وربّي وربك هو الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام، فجاء بالغلام، فقال له الملك قد بلغ من سحرك أنك تُبْرِئ الأعمى والأبرص، فقال له الغلام: أنا لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله رب العالمين، فأخذه فلم يزل يعذبه، حتى دلّ على العابد فجاءه بالعابد فقيل له: إرجع عن دينك؛ فأبى، فأمر الملك به فنشر بالمنشار حتى صار شقتين، ثم أتى بالغلام فطلب منه أن يرجع =

الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله، تنبيهاً لهم على ما يلزمهم من الصبر على دينهم.

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ﴾.

﴿النَّارِ﴾ بدل اشتمال من الأخدود ﴿ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ وصف لها بأنها عظيمة، لهبها من الحطب الكثير، وأبدان الناس.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾.

﴿إِذْ هُمْ﴾ يعني الكفار ﴿عَلَيْهَا﴾ على ما يدنو منها من حافات الأخدود ﴿قُعُودٌ﴾ أي جلوس على الكراسي في مكان مشرف عليها، وكانوا يعرضون المؤمنين على النار، فمن كان يترك دينه تركوه، ومن يصبر على دينه ألقوه في النار.

﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾.

﴿وَهُمْ﴾ الكفار ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإحراق ﴿شُهُودٌ﴾ يشهدون على ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب، وهم حضور لا يرقون لهم، لغاية قسوة قلوبهم، هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم، وتنطق به الروايات المشهورة، وقد روي أن الجبابة لما ألقوا المؤمنين في النار، وهم حولها، عَلِقَتْ بهم النار، فأحرقتهم، ونجى الله عز وجل المؤمنين منها سالمين، وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنس، والواحدي، وعلى هذا حَمَلَا قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ حَرِيقٌ﴾.

= عن دينه فأبى، فأمر الملك أن يصعدوا به على رأس جبل عال فيلقوه منه، فلما صعدوا به الجبل، دعا الغلام ربه فقال: اللهم اكفني من شرهم بما شئت، فزلزل بهم الجبل فماتوا وجاء الغلام يمشي إلى الملك.. الخ وانظر تمام الحديث في صحيح مسلم.

﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾

﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ﴾ من المؤمنين، أي وما أنكروا وما عابوا منهم ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ استثناء مفصّل عن براءتهم عما يعاب وينكر، أي وما كان لهم ذنب أو جرم عند هؤلاء الفجار، إلا لأنهم آمنوا بالله، وكفروا بالطاغوت، وهذا فضيلة وليس بذنب.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا تأكيد للاستثناء بمناط إيمانهم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وعدّ لهم، ووعد شديد لمعذبيهم، فإن علمه تعالى بجميع الأشياء، التي من جملتها أعمال الفريقين، يستدعي توفير جزاء كل منهما.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي امتحنوهم في دينهم ليرجعوا عنه، والمراد إما أصحاب الأخدود، وإما على الإطلاق، وهذا أولى، لأن اللفظ عام، فال تخصيص برك للظاهر ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ لم يرجعوا عن كفرهم وفتنتهم، فإن ما ذكر من الفتنة في الدين، لا يتصور عن غير الكافر ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أي الزائد في الشدة، وفي الحرارة، وهي نار أخرى بسبب فتنتهم للمؤمنين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أي الذي يصغر عنده الدنيا وما فيها.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٧).

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ استئناف خوطب به النبي ﷺ إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه، كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية، مع إضافة لضميره ﷺ، البطش: الأخذ بعنف ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي بالغ أقصى أنواع الشدة، ووصفه بالشدة، فقد تضاعف، وهو أخذه بالظلمة والجسارة أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿إِنَّهُمْ هُمُ يُبْذَوْنَ وَيُعِيدُ﴾ (١٨).

﴿إِنَّهُمْ هُمُ يُبْذَوْنَ﴾ الخلق ﴿وَيُعِيدُ﴾ بعد الموت، من غير دخل لأحد في شيء منهما، ففيه مزيد تقرير لشدة بطشه.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ (١٩).

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ أي الساتر للعيوب، والعافي عن الذنوب ﴿الْوَدُودُ﴾ المحب لمن أطاع.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (٢٠).

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي خالقه، أي صاحب العرش العظيم، المحيط بالسموات والأرض، خلقه ليدل على وجوده، دون احتياج إليه، ولهذا قال بعده ﴿الْمَجِيدُ﴾ أي العظيم في ذاته وصفاته.

﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿١٦﴾

﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ بحيث لا يتخلف عن إرادته مراد، وفيه دلالة على خلق أفعال العباد.

﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ ﴿١٧﴾

﴿هَلْ أُنْتُكَ﴾ أي قد أتاك يا رسول الله، وهو تقرير لشدة بطشه بالظلمة العصاة، والكفرة العتاة، متضمنٌ لتسليته ﷺ بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجنود، والمقصود بيان أن حال المؤمنين مع الكفار في جميع الأزمنة مستمرٌ كذلك ﴿حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ أي خبر الجموع الطاغية في الأمم الخالية.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ ﴿١٨﴾

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بدل من الجنود لأن المراد بفرعون قومه، والمعنى: قد عرفت بتكذيبهم للرسول وما حاق بهم، فتسلَّ واصبر وأنذرهم أن يصيبهم مثل الطغاة المجرمين.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ ﴿١٩﴾

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قومك ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ لا يدعون عنه، إضراب عن مماثلتهم لهم وبيان لكونهم أشد منهم كفراً فإنهم مستقرون في تكذيب شديد للقرآن الكريم، مع وضوح أمره.

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى، بقوم أحاط بهم العدو من كل جانب، فسدَّ عليهم المسالك، والمراد من هذه الإحاطة بيان قرب هلاكهم.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ أي كتاب شريف، وحيد في النظم والمعنى.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ أي مصون عن التبديل والتحريف، ووصول الشياطين إليه! والله أعلم بمراده.

والصلوات والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البروج»

* * *

سُورَةُ الطَّارِقِ

مكية وهي سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ١.

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ الكوكب البادي بالليل، والمراد به كواكب السماء النيرة، يقال: طَرَقَ النجم طروقاً طَلَعَ، وكل ما أتى ليلاً فقد طَرَقَ، وهو طارق.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ٢.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام، أي أي شيء أعلمك ما الطارق؟.

﴿النَّجْمِ الثَّاقِبِ﴾ ٣.

﴿النَّجْمِ الثَّاقِبِ﴾ أي المضيء كأنه يثقب الظلام، فينفذ فيه، وهو النجم الذي يهتدى به في ظلمات البر والبحر، ويوقف به على أوقات الأمطار.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ ٤.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ برة أو فاجرة ﴿لَّمَّا عَلَيَّاهَا حَافِظٌ﴾ جواب القسم، و «إِنْ» نافية و «لَّمَّا» بمعنى إلا، أي ما كلُّ نفسٍ إلا عليها حافظ، مهيمن، رقيب، وهو الله عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنه: هم الحفظة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾ الآية للتنبيه على أن كل نفس عليها حافظ، يحصي عليها كل ما يصدر عنها، من قول وفعل، وأنه ينبغي على الإنسان أن يتفكر في مبدأ فطرته حق التفكير، حتى يتضح له، أن من قدر على إنشائه من مواد، لم تشم رائحة الحياة قط، فهو قادر على إعادته، فيعمل ليوم الإعادة، ما ينفعه ويجديه، ولا يملئ على حافظه ما يرديه ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ من أي شيء خلقه ربّه، استفهام وجوابه قوله تعالى:

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾.

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ والدَّفَقُ صبٌّ فيه دفع، والمراد بالماء الممتزج من الماءين في الرحم، كما ينبت عنه قوله تعالى:

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ من بين صلب الرجل، وترائب المرأة، وهي عظام صدرها، وقيل: إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبها، لأنه تعالى بيّن أن الإنسان مخلوق من ماء دافق، والذي يوصف بذلك ماء الرجل، ثم هو يلتقي بماء المرأة «البويضة» في الرحم.

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾.

﴿إِنَّهُ﴾ الضمير للخالق تعالى، وقوله ﴿خُلِقَ﴾ يدلُّ عليه، أي إن الذي خلقه ابتداءً مما ذكر ﴿عَلَّامٌ غُيُوبٍ﴾ أي على إعادته بعد موته ﴿لَقَائِرٌ﴾ لا يعجز عنه، فالذي بدأ خلقه يعيده.

﴿يَوْمَ بَثَّى السَّرَائِرُ﴾.

﴿يَوْمَ بَثَّى السَّرَائِرُ﴾ أي تكشف ما أسرَّت به القلوب، من العقائد والنيات، وما أخفي فيها من الأعمال ويميز ما طاب منها وما خبث.

﴿فَأَلْهَمَ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

﴿فَأَلْهَمَ﴾ أي للإنسان ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ في نفسه يمتنع به ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ينتصر

به.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي المطر، وسمي به لعوده كل حين، ويجوز أن يراد بالسماء السحاب، والعرب كانوا يعرفون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض.

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّنْعِ﴾.

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّنْعِ﴾ هو ما يتصدع عنه من النبات، والله تعالى جعل كيفية خلق الحيوان، دليلاً على المبدأ والمعاد، وذكر في هذا كيفية خلق النبات، فالسماء ذات الرجوع كالأب، والأرض ذات الصدع كالأم، وكلاهما من النعم العظام.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ يفصل بين الحق والباطل، مبالغ في ذلك، كأنه نفس الفصل.

﴿وَمَا هُوَ بِالْمُزَلِّ﴾ (١٤)

﴿وَمَا هُوَ بِالْمُزَلِّ﴾ إنه جِدُّ كله، وليس فيه شيء من اللهو والباطل والعبث، ومن حق البشر أن يهتدوا به.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥)

﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني مشركي مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يعملون المكاييد في إبطال أمر الله، يعني يحتالون بالمكر، وذلك في دار الندوة حيث تشاوروا في صدِّ الناس عن رسول الله، وتآمروا على قتله.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (١٦)

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أجازيهم جزاء كيدهم، باستدراجي لهم من حيث لا يعلمون، ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله إلا على وجه الجزاء.

﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَتَهْلِكُمْ رُيْدًا﴾ (١٧)

﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا تشغل بالانتقام منهم ولا تدعُ عليهم بالهلاك، فعَمَّا قليل سترى ما يحلُّ بهم ﴿أَتَهْلِكُمْ رُيْدًا﴾ أي إمهالاً يسيراً وفي تقييده برويداً، من تسليته ﷺ ما لا يخفى!! والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطارق»

سُورَةُ الْأَعْلَى

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي نزه ربك عز وجل عن صفات العجز والنقص، وعما يقوله الظالمون مما لا يليق به سبحانه من النقائص، والقبائح، كالزوجة، والولد، وجعل الملائكة بنات الله، فهو العلي الكبير الذي لا أحد أكبر منه ولا أعلى، فإنه تعالى أعلى وأجل وأعظم من إدراكنا، فإنه العالي على كل شيء بملكه وسلطانه وقدرته.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾﴾

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي خلق كل شيء فسوى خلقه، بأن جعل له ما به يتأنى كماله، ويتسنى معاشه على إحكام واتساق، لأنه صادر عن عالم وحكيم.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾﴾

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ أجناس الأشياء، وأنواعها، وأفرادها ومقاديرها وصفتها

وأفعالها وآجالها ﴿فَهْدَى﴾ أي فوجّه كلّ واحد منها إلى ما يصدر عنه، وينبغي له، طبعاً أو اختياراً، ويسّره لما خلق له، بخلق الميول والإلهامات، ولو تتبعّت أحوال النباتات والحيوانات، لرأيت في كل منها ما تحار فيه العقول.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾

﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد خضرته ﴿غُثَاءً﴾ أي يابساً، هشيماً ﴿أَحْوَى﴾ أي أسود بالياً، بعد أن كان أخضر زاهياً، وفي الآية تمثيل للحياة الدنيا، فإنها بعد هذا الجمال والزهاء، ستصير إلى الزوال والفناء.

﴿سَنُقَرِّطُكَ فَلَا تَنْسَى﴾

﴿سَنُقَرِّطُكَ﴾ أي علي لسان جبريل عليه السلام، أو سنجعلك قارئاً بالهام القراءة، والآية بيان لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله ﷺ، إثر بيان هدايته العامة للمخلوقات، وهي هدايته ﷺ لتلقي الوحي، وحفظ القرآن، والسين للتأكيد، أي سنجعلك تقرأ القرآن فلا تنساه ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ أصلاً من قوة الحفظ، ليكون ذلك آية أخرى لك، وهذه الآية تدل على المعجزة من وجهين:

١ - أنه كان أمياً فحفظه لهذا الكتاب من غير دراسة وكتبة، معجزة واضحة.

٢ - هذه أوائل ما نزل بمكة، فهذا إخبار عن أمر عجيب، سيقع في المستقبل، وقد وقع.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ (٧)

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ نسيانه أي لا تنسى مما تقرأه شيئاً، إلا ما شاء الله أن تنساه أبداً، بأن تُنسخ تلاوته، وقيل: المراد به النسيان في الجملة على القلة والتدرة، كما روي أنه ﷺ أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أبيُّ أنها نُسخَت، فسأله فقال ﷺ نسيتهَا، وقالت عائشة رضي الله عنها سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ بسورة بالليل، فقال: «يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا، آية كنتُ أنسيتها من سورة كذا وكذا»^(١). وقيل هذا الاستثناء لم يقع ولم يشأ الله تعالى أن ينسيه شيئاً، وفائدة هذا الاستثناء أن يعلم أن عدم النسيان من فضل الله تعالى ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ تعليل لما قبله، أي يعلم ما ظهر وما بطن، من الأمور التي من جملتها ما أُوحِيَ إليك، فينسي ما شاء إن شاءه، ويبقى محفوظاً ما شاء إبقاءه، لما نيظ بكل منهما من مصالح دينكم.

﴿وَيُتِّعُكَ لِلْإِسْرَى﴾ (٨)

﴿وَيُتِّعُكَ لِلْإِسْرَى﴾ أي نوفر لك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى، في كل باب من أبواب الدين، علماً وتعليماً، واهتداءً وهداية، فيندرج تيسير طريق تلقي الوحي، والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة، مما يتعلق بتكميل نفسه ﷺ، وتكميل غيره، كما تفصح عنه الفاء في قوله تعالى: ﴿فذكر﴾ ودلت هذه الآية على أنه سبحانه، فتح عليه ﷺ من أبواب التيسير، ما لم يفتحه على أحد غيره، كيف لا، وقد كان صبيّاً لا أب له ولا أمّاً، نشأ في قوم جُهاًل، ثم إنه تعالى جعله قدوة للعالمين، وهادياً للخلق أجمعين.

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾

﴿فَذَكِّرْ﴾ أي عَظْ بالقرآن الناس، حسبما يسرناك بما يوحى إليك، واهداهم إلى ما في تضاعيفه من الأحكام الشرعية، كما كنت تفعله ولما تكمّل ﷺ أمر بدعوة الخلق بقوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ لأن التذكير يقتضي تكميل الناقصين ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ قيل: هو أمرٌ بالتذكير على الإطلاق، والمعنى: عَظْ أنت إن نفعت أو لم تنفع، أو الإشعار بأن التذكير إنما يجب إن ظن نفعه، ولذلك أمر بالإعراض عن من تولى.

﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾

﴿سَيَذَكِّرُ﴾ أي سيعتظ ويتنفع بها ﴿مَنْ﴾ من شأنه أن ﴿يَخْشَى﴾ الله في الجملة، فيزداد خشيةً بالتذكير، فيفكر في أمر ما تذكّر به، فيقف على حقيقته فيؤمن به.

والناس في أمر المعاد على ثلاثة أقسام:

- ١ - من قطع بصحته.
- ٢ - من ظن.
- ٣ - من أنكر، فالأولان تكون الخشية لهما، ولما كان الانتفاع بالذكرى مبنياً على الخشية في القلب، وصفات القلب مما لا اطلاع لأحد عليها إلا الله تعالى، وجب تعميم التذكير تحصيلاً للمقصود.

﴿وَيَنْجِئَهَا الْأَشَقَى﴾

﴿وَيَنْجِئَهَا﴾ ويتباعد عن الذكرى فلا يقبلها ﴿الْأَشَقَى﴾ الكافر أو الأشقى من الكفرة، لتوغله في عداوة النبي ﷺ، قيل: نزلت في الوليد، وعتبة، والعبرة لعموم اللفظ، لا لخصوص السبب.

﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾

﴿الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى﴾ نار جهنم، والصغرى نار الدنيا.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (١٣).

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ أي لا يموت فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة يتلذذ بها، بل هو في عذاب دائم لا ينقطع، وإنما قيل «ثم» لأن هذه الحالة أفظع من دخول النار نفسها، والعرب تقول للمبتلى «لا هو حي ولا ميت».

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي تطهر من أدناس الكفر والمعاصي، وروي عن أبي سعيد الخدري في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ قال: أعطى صدقة الفطر، وخرج إلى العيد فصلّى، وكان ابن مسعود يقول: رحم الله امرءاً تصدّق ثم صلّى، ثم يقرأ هذه الآية، وفيه إشكال، فالسورة مكية، ولم يكن في مكة عيد، ولا زكاة الفطر.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (١٥).

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ بقلبه ولسانه، وبه يُحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح ﴿فَصَلَّى﴾ الصلوات الخمس قاله ابن عباس، واختاره ابن جرير، وعن الضحاك «ذكر اسم ربه» في طريق المصلّى ﴿فَصَلَّى﴾ صلاة العيد، والصحيح قول ابن عباس، لأن أصل الصلاة مشروع من بدء الإسلام.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦).

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إضراب عن مقدّر ينساق إليه الكلام، كأنه قيل: لا تفعلون ذلك، بل تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، والمخاطب به

الكافرون، أو الناس جميعاً فإن السعي للدنيا أكثر، والمراد بإيثار الدنيا هو الرضاء والاطمئنان بها، والإعراض عن الآخرة بالكلية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾^(١).

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٧)

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي الآخرة أفضل في نفسها وأدوم، ونعيمها لذيد بالذات، خالص عن الغوائل، وعدم التعرض لبيان تكدر نعيم الدنيا بالمنغصات، لغاية ظهوره.

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨)

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي إن هذه المواعظ المذكورة في هذه السورة ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي مثبتة في الصحف القديمة، المنزلة على إبراهيم وموسى، والقرآن جامع لشؤون الدنيا والدين، وخلاصة الكتب المنزلة على رسل الله.

﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (١٩)

﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ بدل من الصحف الأولى، وفي إيهامها، ووصفها بالقدم، ثم بيانها وتفسيرها، من تفخيم شأنها ما لا يخفى، والله أعلم بمراده. وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعلى»

(١) سورة يونس، آية: ٧.

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

مكية وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١).

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ استفهامٌ أريد به التعجب بما في حيزه، والتشويق إلى استماعه، والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة، التي حقها أن يتناقلها الرواة، من كل حاضر وبادٍ ﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ يعني القيامة.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ (٢).

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي وجوه الكفار^(١)، وهو استئناف وقع جواباً عن سؤال، نشأ عن الاستفهام، كأنه قيل من جهته ﷺ: ما أتانني؟ فقيل: وجوه يومئذٍ ﴿خَاشِعَةٌ﴾ أي ذليلة لما اعترى أصحابها من الخزي والهوان.

(١) المراد بالوجوه الأعيان والذوات، فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، كما يقال: جاءك وجوه القوم أي أعيانهم ورؤسائهم.

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾

﴿عَامِلَةٌ﴾ أي تعمل في النار، وهو جزؤها السلاسل والأغلال، والصعود والهبوط في تلال النار ﴿نَاصِبَةٌ﴾ قيل هم أصحاب الصوامع «الرهبان»^(١) ومعناه: نصبت في أعمالها من الصوم الدائب، والتهجد الواصب.

﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾

﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ أي تدخل ناراً متناهية في الحر.

﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِقَةٍ﴾

﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِقَةٍ﴾ أي تسقى ماء حاراً من عين متناهية الحرارة، وصل حرّها درجة النهاية.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ هو نبت يكون بطريق مكة تسميه قريش الشبرق، إذا كان رطباً تأكل منه الإبل، وإذا يبس صار كأظفار الهرة، والعذاب ألوان والمعذبون طبقات، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع، فلا تناقض بين الآيات، وقال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده، ويتضرعون إلى الله طلباً للخلاص منه.

(١) قال البخاري قال ابن عباس ﴿عاملة ناصبة﴾ يعني النصارى، انظر كتاب التفسير ٧٠٠/٨ ومراد ابن عباس أن الرهبان منهم يجهدون أنفسهم في العبادة - بزعمهم - ثم يَصْلُونَ نار جهنم في الآخرة.

﴿لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ ﴿٧﴾.

﴿لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ وصف للضريع، أي منفعةُ الغذاء منتفية عنه وإنما هو شيء يضطرون إلى أكله، وتحقيق ذلك أنَّ جوعهم وعطشهم، ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشأة، بل جوعهم أنه تعالى يسلط عليهم الجوع، بحيث يضطروهم إلى أكل الضريع، فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش، فيضطروهم إلى شرب الحميم، كما قال تعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ﴿٨﴾.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ شروع في حديث أهل الجنة، وتقديم حكاية حال أهل النار، لأنه أدخل في تهويل الغاشية ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ أي ذات بهجة وحسن، وإشراق ونضارة.

﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ ﴿٩﴾.

﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي رضيت بعملها وطاعتها، لما رأت ما أداها إليه من الكرامة، وأورثها الفردوس الأعلى، فحق لها أن ترضى.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ﴿١٠﴾.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي هم في حدائق وبساتين، مرتفعة قدرأ ومكاناً.

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ ﴿١١﴾.

﴿لَا تَسْمَعُ﴾ أي الوجوه ﴿فِيهَا لَغِيَةً﴾ أي في الجنة كلمة ذات لغو، فإن كلامهم أذكأر وحكم، والجنة دار الطهر والسلام.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (١٢)

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي فيها عيون كثيرة، يجري ماؤها ولا ينقطع.

﴿فِيهَا سُرٌّ مَرْفُوعَةٌ﴾ (١٣)

﴿فِيهَا سُرٌّ مَرْفُوعَةٌ﴾ رفيعة القدر، مكلّلة بالزبرجد والياقوت، عليها الحور العين ينتظرون أزواجهن.

﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ (١٤)

﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ بين أيديهم معدة للشرب.

﴿وَمَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ (١٥)

﴿وَمَنَارِقُ﴾ أي وسائد يستندون إليها للراحة، جمع نمرقة ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضها إلى جنب بعض، مساند ومطارج، أينما أراد أن يجلس جلس على واحدة، واستند إلى أخرى.

﴿وَزَرَائِي مَبْنُوءَةٌ﴾ (١٦)

﴿وَزَرَائِي﴾ أي بُسُطٌ عِزَاضٌ فاخرة جمع زربية وهي شبه الطنافس ﴿مَبْنُوءَةٌ﴾ أي مبسوطة في أنحاء الجنة.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧)

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾؟ لَمَّا نعت الله تعالى ما في هذه السورة، عَجِبَ من ذلك الكفرة وكذبوه، فذكّرهم الله عجائب صنعه فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ أي نظر اعتبار، والهمزة للإنكار والتوبيخ ﴿إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خلقاً دالاً

على قدرته تعالى، معدولاً به عن سنن خلقه سائر الحيوانات، في عظم جثتها، وشدة قوتها، وعجيب هيئتها، يتأتى ما يصدر عنها، من الأفاعيل الشاقة، كحملها الأحمال الثقيلة، والقيام بها بما يعجز عنه العصبة أولو القوة، ثم صبرها على الجوع والعطش، وتحتمل العطش إلى عشر فصاعداً، واكتفائها باليسير، ورعيها بكل ما يتيسر، وانقيادها للإنسان، حيث يستعملها كل صغير وكبير.

﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي بلا عمد بحيث لا يناله الفهم والإدراك.

﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصباً رصيناً لا تميل ولا تميد.

﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ تمهيداً وتسوية، حسبما يقتضيه صلاح أمور الخلائق، والمعنى: أفلا ينظرون نظر التدبُّر والاعتبار، إلى كيفية خلق هذه المخلوقات، الشاهدة بحقيقة البعث والنشور، ليرجعوا عما هم عليه من الإنكار، وتخصيص هذه الأربعة بالاعتبار، لأن هذا خطاب للعرب أولاً، وأكثرهم يكون في البوادي، لا يرون سوى هذه الأشياء.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فعظهم يا محمد وخوفهم بأي الذكر الحكيم، واقتصر على التذكير، ولا تلح عليهم، ولا يهتمك أنهم لا ينظرون ولا يتذكرون ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ليس عليك إلا التبليغ.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (٢٢).

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي لست بمتسلط عليهم تجبرهم على ما تريد.

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (٢٣).

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ استثناء منقطع، أي لكن من تولى منهم، وأعرض عن الوعظ والتذكير، وكفر بالله العلي القدير.

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ (٢٤).

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ أي عذاب الآخرة، ويحرقه بنار جهنم الكبرى.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٢٥).

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي رجوعهم بعد الموت لا إلى أحد سوانا.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٢٦).

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ فنحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم جزاء أمثالهم، و«على» لتأكيد الوعيد، لا للوجوب، إذ لا يجب على الله شيء والله تعالى أعلم.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بغونه تعالى تفسير سورة الغاشية»

سُورَةُ الْفَجْرِ

مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ﴾ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ .

﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر، وهو الصبح، أو بصلاة الفجر، وهذا كقوله تعالى: ﴿والصبح إذا أسفر﴾ ﴿والصبح إذا تنفس﴾ ﴿والنهار إذا تجلَّى﴾ أقسم الله به، لما يحصل فيه من انقضاء الليل، وظهور الضوء، وانتشار الناس والحيوانات، في طلب الأرزاق، وذلك يشبه نشر الموتى من قبورهم، وفيه عبرة لمن تأمل.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ أي عشر ذي الحجة، أو العشر الأوائل من محرم، أو العشر الأواخر من رمضان، وتنكيرها للتفخيم.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ ٣ .

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ شفع كل الأشياء ووترها، والشفع معناه: الزوج، والوتر: الفرد، والأشياء كلها إما شفع، وإما وتر، فكأنه تعالى أقسم بجميع الأشياء.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾ ٤ .

﴿وَأَلِيلٌ إِذَا يَسَّرَ﴾ إذا يمضي، والتقييد بذلك، لما في التعاقب من قوة الدلالة، على كمال القدرة ووفور النعمة، وقيل معنى ﴿يَسَّرَ﴾ يسرى فيه، كما يقال: ليل نائم أي ينام فيه.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما أقسمت به من هذه الأشياء، وهذا تحقيق وتقدير لفخامة شأن المقسم به، وتنبيه على أنه خليق بأن يؤكد به الإخبار، على طريقة قوله تعالى: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ ﴿قَسَمٌ﴾ أي مقسم به ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ أي عقل، سمي به لأنه يحجر صاحبه، أي يمنعه عن فعل القبيح، كما سمي عقلاً، ونهية، أي هل في القسم بهذه الأشياء، قسم مقنع لذي عقل؟ والمقسم عليه محذوف وهو «ليعذبن» يدل عليه ﴿ألم تر كيف فعل﴾ إلى ﴿فصَبَّ عليهم﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وإن كان في الظاهر خطاباً للنبي ﷺ، لكنه عام لكل من عَلم ذلك، أي ألم تعلم أيها المخاطب علماً يقينياً، كيف عذب ربك عاد، فيعذب هؤلاء أيضاً؟ وإنما أطلق لفظ الرؤية ههنا على العلم، لأن أخبار عاد، وثمود، وفرعون، كانت منقولة بالتواتر، والعلم الضروري جار مجرى الرؤية ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي صنيع ربك ﴿بِعَادٍ﴾ يعني قوم عاد الجبارين.

﴿إِرمَ ذَاتَ الْعِمَادِ﴾

﴿إِرمَ﴾ عطف بيان لعاد، على تقدير مضاف، أي سبط إرم، للإيذان بأنهم عاد الأولى، الأقوياء الأشداء ﴿ذَاتَ الْعِمَادِ﴾ أي ذات البناء الرفيع الطويل، القائم على الأعمدة الضخمة.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ﴾.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ﴾ أي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم وشدتهم، وضخامة أجسامهم، روي أنه كان لعاد ابنان «شديد» و «شدّاد» فمَلَكا ثم مات شديد، وخلص الأمر لشدّاد، فسمع بذكر الجنة، فبنى إرم في صحارى عدن، وسماها إرم، فلما تمت سار إليها بأهله، فلما كان منها على مسيرة يوم، بعث الله صيحة من السماء فهلكوا.

﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾.

﴿وَتُمُودَ﴾ عطف على عاد ﴿الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ﴾ أي قطعوا صخور الجبال، واتخذوه بيوتاً، قيل: أول من نحت الجبال والصخور ثمود، كقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾. ﴿بِالْوَادِ﴾ أي نقبوا الصخر بوادي القرى.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ﴾.

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ أي وكيف أهلك فرعون ﴿ذِي الْأَوْدَادِ﴾ أي ذي الجنود الكثيرة، وقيل: كان له أوتاد يعذب الناس بها، كما فعل بأسية حين آمنت.

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾.

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ أي طغى كل واحد منهم في بلادهم، وكذا الكلام في قوله تعالى:

﴿فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾.

﴿فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ بالكفر، والقتل، والظلم.

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ (١٣).

﴿ فَصَبَّ ﴾ أي فأنزل عاجلاً ﴿ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ وهو عبارة عما حلَّ بكل منهم من فنون العذاب، وتسميته سوطاً، للإشارة إلى أن ذلك بالنسبة إلى ما أعدَّ لهم في الآخرة، بمنزلة السوط عند السيف، والتعبير عن إنزاله بالصبِّ، للإيدان بكثرته، واستمراره وتتابعه، فإنه عبارة عن إراقة شيء مائع.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاصٍ مُرْصِدٍ ﴾ (١٤).

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاصٍ مُرْصِدٍ ﴾ المرصّد: هو المكان الذي يترقب فيه الإنسان عدوه، ويرصده للفتك به، واسم الفاعل راصد، وهو تمثيل لإرصاده العباد وأنه عالم بما يصدر منهم، وحافظه ويجازيهم عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفيه إشارة إلى أن كفار قومه ﷺ، سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب.

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ (١٥).

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ ﴾ متصل بما قبله كأنه قيل: إنه تعالى بصدد مراقبة عباده، فأما الإنسان فلا يهमे ذلك، وإنما مطمح أنظاره الدنيا ولذائها ﴿ إِذَا مَا ابْنَلَهُ ﴾ اختبره بالغنى واليسر ﴿ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ ﴾ بالمال ﴿ وَنَعَّمَهُ ﴾ بما وسَّع عليه ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ فضّلني بما أعطاني من المال والجاه^(١)، حسبما كنت أستحقّه، ولا يخطر بباله، أنه فضلٌ تفضّل به عليه، ليلوه أيشكر أم يكفر؟.

(١) لا يقول ذلك شكراً لله، واعترافاً بالنعمة، وإنما يقوله مفتخراً به على غيره، ومستندلاً به على علوّ منزلته، كما قال قارون ﴿ إِنَّمَا أُوتِيته على علم عندي ﴾ فهو قول يراد به الاعتزاز والافتخار، لا شكر الجبار.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّ أَهْنِنِ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ﴾ بالفقر ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ﴾ فضيَّق عليه ﴿رِزْقُهُ﴾ معيشته ﴿فَيَقُولُ رَبِّ أَهْنِنِ﴾ بالفقر، وضيَّق المعيشة، ولا يخطر بباله أن ذلك ليلوه أيصبر أم يجزع، مع أنه ليس من الإهانة في شيء، بل التقير والتضييق قد يؤدي إلى كرامة الدارين، والتوسعة وقد تفضي إلى خسرانهما، وحصول النعمة في الدنيا والآلها، لا يدل على الاستحقاق، فإنه تعالى كثيراً ما يوسِّع على العصاة والكفرة، على سبيل الاستدراج، وقد يضيِّق على الصديقين لما أذخره لهم في الآخرة، والحقيقة لا يطلع عليها إلا الله.

﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإنسان عن مقالته المحكية، وتكذيب له في كلتا الحالتين، أي ليس الإكرام والإهانة في كثرة المال وقلته، بل الإكرام في التوفيق للطاعة، والإهانة في الخذلان ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ الالتفات إلى الخطاب، للإيدان باقتضاء جنابته لمشافهته بالتوبيخ، وتشديد التقرع، أي بل لكم أحوال أشدُّ شراً مما ذكر، وأدل على تهالككم على المال، حيث يكرمكم الله بكثرة المال، فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم.

﴿وَلَا تَخْضَوْنَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ .

﴿وَلَا تَخْضَوْنَ﴾ ولا تحثون أنفسكم وغيركم ﴿عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي على إطعامه.

﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾﴾ .

﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ﴾ أي الميراث ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ اللَّمُّ مصدر بمعنى أكلاً لاماً، أي أكلاً بشره وأصل اللَّمُّ الجمعُ، ومنه قولهم: لَمَّ الله شمله

أي جمع عليه شمله، أي تأكلون الميراث أكلاً شديداً، تجمعون فيه بين الحلال والحرام، فقد كانوا لا يورثون النساء، ولا الصبيان، ويأكلون ميراثهم مع ما ورثوه من أقاربهم، وآكل اللحم هو الذي يأكل كل شيء يجده، لا يسأل أحلال أم حرام؟ وهو ذمٌ لهم على الشراة على المال.

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (٢٠)

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كثيراً شديداً مع الحرص والشهرة، وقصر الهمة على تحصيلها والأتكال عليه، يقال: جم الشيء: كثر، فهو جمٌّ، ومال جمٌ أي كثير.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (٢١)

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك، وإنكار لفعلهم أي لا ينبغي أن يكون الأمر كذلك ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي إذا زلزلت دكاً بعد دك أي كرر عليها الدك حتى عادت هباء منبثاً، وذلك عند النفخة الثانية، أي إذا دُكَّت وكسرت مرة بعد مرة أخرى.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٢٢)

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي تنزل ملائكة السماء، فيصطفون صفاً بعد صف، محدقين بالجن والإنس.

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ (٢٣)

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ قيل إنها برزت لأهلها، كقوله تعالى: ﴿وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ أي

يتذكر ما فرط منه بمشاهدة آثاره، فيقول: ﴿يَا لَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكْذِبَ بِآيَاتِ رَبَّنَا﴾ ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ وأين له منفعة الذكرى وقد فات أوانها؟.

﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (٢٤).

﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ يقول يا ليتني عملت لأجل حياتي هذه، أو وقت حياتي في الدنيا أعمالاً صالحة أنتفع بها اليوم.

﴿فَيَوْمِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ (٢٥).

﴿فَيَوْمِذٍ﴾ أي يوم إذ يكون ما ذكر من الأحوال والأقوال ﴿لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ﴾ أي كعذابه ﴿أَحَدٌ﴾ أي لا يتولى عذاب الله أحد، لأن الأمر لله وحده في ذلك اليوم.

﴿وَلَا يُؤْتِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ (٢٦).

﴿وَلَا يُؤْتِقُ﴾ بالسلاسل والأغلال ﴿وَوَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ أي كعذابه تعالى في الشدة، والضمير لله تعالى، أو للإنسان وهو الكافر، أي لا يُعَذِّبُ أَحَدٌ من مثل ما يعذبه الكافر، فإن عذاب الله له شديد ﴿والله شديد العقاب﴾.

﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧).

﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ﴾ حكاية لأحوال من اطمأن بذكر الله تعالى، إثر حكاية أحوال من اطمأن بالدنيا ﴿الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الأمانة التي لا يستفزها خوف ولا حزن، وهي النفس المؤمنة التي سكنها ثلج اليقين، فلا يخالجها شك، وصفت هنا بالاطمئنان، لأنها تترقى في معارج الأسباب، إلى ربّ الأرباب، فتكون بجوار قدسه، أي يقول الله تعالى ذلك على لسان الملك عند تمام الحساب، واعلم أن الله تعالى ذكر النفس في القرآن تارة مطلقاً، وتارة وصفها بالسوء، وتارة باللّوامة، وتارة بالمطمئنة.

﴿ اَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿ اَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي ارجعي إلى ثواب ربك وجنته، حال كونك ﴿ رَاضِيَةً ﴾ من الله تعالى بما أوتيت من النعيم المقيم ﴿ مَرْضِيَّةً ﴾ عند الله تعالى بما عملت.

﴿ فَأَدْخِلْنِي فِي عَبْدِي ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿ فَأَدْخِلْنِي فِي عَبْدِي ﴾ أي في زمرة عبادي، أي انضمي إلى عبادي المقربين.

﴿ وَأَدْخِلْنِي جَنَّاتِ ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿ وَأَدْخِلْنِي جَنَّاتِ ﴾ معهم وانتظمي في سلك المقربين ﴿ مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً ﴾ واستضيئي بأنوارهم القدسية، وهذا تكريم لهم من الله عظيم، بدخول جنات النعيم، والله أعلم بمراده.

وصلّى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعبونه تعالى تفسير سورة الفجر»

سُورَةُ الْبَلَدِ

مكية وهي عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١﴾

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أقسم سبحانه وتعالى بالبلد الحرام وهي مكة في قول جميع المفسرين، لأن الله تعالى جعلها حرماً آمناً، وجعل البيت قبله لأهل المشرق والمغرب، وأمر الناس بحج ذلك البيت، وحرّم فيه الصيد، فهذه الفضائل لما اجتمعت في مكة أقسم الله بها.

﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝٢﴾

﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ قيّده بحلّوله ﷺ، إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأنّ شرف المكان بشرف أهله، وليبيان أنه ﷺ مع جلالة قدره، وعظم حرّمته، قد استحلوا إيذاءه في هذا البلد الحرام، وتعرضوا له بما لا خير فيه.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ الوالد آدم عليه السلام ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ذريته وقيل:

المراد العموم، أي أقسم لكم بكل والد ومولود، وهذا حسن لأنه مضمون الجواب، من حيث شموله لكل أقسم تعالى بآدم وذريته، إذ هم أعجب خلق الله على وجه الأرض، لما فيهم من البيان، والنطق، والتدبير، واستخراج العلوم والفنون.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي في تعب ومشقة، فإنه لا يزال يقاسي فنون الشدائد، والكبد بفتحين: المشقة، وهو تسليية لرسول الله ﷺ مما كان يكابده من كفار قريش والإنسان لا يزال في الشدائد، مبدؤها الرحم، ومنتهاها الموت.

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، والضمير لبعض صناديد قريش، الذين كان ﷺ يكابد منهم ما يكابد، كالوليد وأضرابه، وقيل: يراد به أبو الأشد بن كِلدة، وكان شديد القوة، مغترأ بقوته وكان ييسط له الأديم - الجلد - فيقوم عليه، ويقول من أزالني عنه فله كذا، فيجذبه عشرة فينقطع الأديم قطعاً ولا تزل قدماءه، والمعنى: أيظن هذا الأحمق أن لن تقوم القيامة ولن يقدر أحد على الانتقام منه.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾

﴿يَقُولُ﴾ أي يقول ذلك الصنديد ﴿أَهْلَكْتُ﴾ أنفقت ﴿مَا لَا بَدَأَ﴾ أي كثيراً، جمع لبدة، وهو ما تلبّد من شعر أو صوف والمراد ما أنفقه سمعة ومفاخرة ومعاذة للرسول ﷺ.

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق، يعني أيظن أن الله لم يره، ولن يسأله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ عَيْنَيْنِ﴾

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ عَيْنَيْنِ﴾؟ يبصر بهما.

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾

﴿وَلِسَانًا﴾ يعبر به عما في ضميره ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما ثغره، ويستعين بهما على النطق، والأكل، والشرب، والنفخ، وغيرها.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي طريق الخير، والشر، المفضيين إلى الجنة أو النار، وهذه الآية كالأية ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

﴿فَلَا أَفْتَحُمُ الْعَقَبَةَ﴾

﴿فَلَا أَفْتَحُمُ الْعَقَبَةَ﴾ الاقتحام: الدخول في الأمر الشديد، أي فلم يشكر تلك الأيادي باقتحام العقبة وهو الدخول في أمر شديد، عبّر عنها بالعقبة، وهو الطريق في الجبل، لصعوبة سلوكها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ أي أي شيء أعلمك ما اقتحام العقبة؟

﴿فَلِكُ رَقَبَةٍ﴾

﴿فَكَرَبَّةٍ﴾ أي هو إعتاق رقبة، فككت الأسير إذا خلصته من الرق، وكانت عادة العرب في الأسارى، شد رقابهم وأيديهم، فسمي إطلاق الأسير فكاكاً.

﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾ ﴿١٤﴾.

﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾ أي ذا مجاعة.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ﴿١٥﴾.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي ذا قرابة، اجتمع حق اليتيم، والقرابة، فإطعامه أفضل.

﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾ ﴿١٦﴾.

﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾ يعني قد لصق بالتراب من فقره، فالمعنى: إن الإنفاق على هذا الوجه، مرضي نافع عند الله، لا أن يهلك ماله في الرياء والفخار.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ ﴿١٧﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي كان مع ذلك مؤمناً، صادق الإيمان، فإنه إن لم يكن منهم، لم ينتفع بهذه الطاعات ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على الطاعات، وعلى المحن التي تصيب الإنسان في حياته، فالدنيا ابتلاء ومحن، ولا يصبر على البلاء إلا صادق الإيمان، وهذا يدل على أنه يجب على المرء أن يدل غيره على طريق الحق، ويمنعه من سلوك طريق الشر والباطل ما أمكنه ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ تحاثوا

﴿بِالْمَرْحَمَةِ﴾ بالترحم على عباده فيما بينهم، إشارة إلى الشفقة على خلق الله، قال بعض المحققين: إن الأصل في التصوف أمران: صدق مع الحق، وخلق مع الخلق.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِثْنَةِ﴾ (١٨)

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿أَصْحَابُ الْمِثْنَةِ﴾ أي اليمين الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويسعدون بدخول جنات النعيم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ (١٩)

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي آيات القرآن، وكذبوا الرحمن، واستهزؤوا برسوله ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي الشمال أو الشؤم.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ (٢٠)

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ مطبقة، من أوصدت الباب إذا أطبقته وأغلقتها، أي عليهم نار مغلقة مطبقة، لا يستطيعون الخروج منها، ولا الفكاك عنها، والله أعلم.

والصلاة والسلام على رسولنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البلد»

سُورَةُ الشَّمْسِ

مكية وهي خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ ١.

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ أي ضوءها إذا أشرقت وهو أول وقت ارتفاع النهار، والضُّحوة مثله، جمعه ضُحى، مثل قرية وقرى.

﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ ٢.

﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ أي تبعها في الضياء والنور، وذلك بعد غروبها في النصف الأول من الشهر، إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة، ثم يكبر ويكبر حتى يصبح بدرًا منيرًا.

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ ٣.

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ أي جلى الشمس: أظهرها للرائين، أو جلى ظلمة الليل بنوره وضياهه الباهر، فجعل الأرض منيرة ساطعة، بعد أن كانت مظلمة قاتمة والظاهر أنَّ الضمير في ﴿جَلَّاهَا﴾ عائد إلى الشمس، لأن

النهار عبارة عن نور الشمس، فكلما كان النهار أوضح كانت الشمس أجلى ظهوراً، لأن قوة الأثر تدل على قوة المؤثر.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ ٤

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي الشمس فيغطي ضوءها، أو الآفاق أو الأرض.

﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ ٥

﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ أي ومن بناها، وإنما أوشرت «ما» على «من» لإرادة معنى الوصف كأنه قيل والشيء القادر الذي بناها، فإن قيل: ما الفائدة في ذكره هذه الأوصاف؟ فالجواب أنه تعالى لما وصف الشمس بالصفات التي تدل على عظمتها، أتبعه بيان ما يدل على حدوثها، وحدث جميع الأجرام السماوية، فنبه تعالى على تلك الدلالة بهذه الأوصاف.

﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَعْنَهَا﴾ ٦

﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَعْنَهَا﴾ أي بسطها وسطحها، فجعل فيها السهول الفسيحة، وجعلها ممتدة ممهدة صالحة لسكنى الإنسان مع أنها كروية الشكل.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ٧

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أي عدل خلقها، وتنكير نفس للتكثير، وقيل «ما» بمعنى المصدر، أي والسماء وبنائها، والأرض وبسطها، والقول الأول هو الأصح والأظهر، لأن الله أقسم بالمخلوق والخالق، فأقسم بهذه الأشياء العظام لأنها تدل على عظمة خالقها.

﴿ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (٨).

﴿ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أي فأعلمها طاعتها، ومعصيتها، أي أفهمها أن أحدهما حسن، والآخر قبيح، ومكنها من اختيار أيهما شاءت، وتقديم الفجور لمراعاة الفواصل، والتعليم والتفهيم غير الإلهام، فالإلهام مستعمل فيما يقذفه الله تعالى في قلب العبد، لأنه كالإبلاغ، فالإلهام أن يوقع الله في قلب العبد شيئاً.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (٩).

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ أي فاز وأفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وأعلاها بالتقوى، وهو جواب القسم.

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (١٠).

﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ أي خسر وخاب، وتكرار «قد» لابرار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه ﴿ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ أي من نقصها وأخفاها بالفجور، عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها» (١).

﴿ كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ (١١).

﴿ كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ أي بطغيانها، إذ الحامل لهم على التكذيب طغيانهم.

(١) الحديث أخرجه مسلم في الذكر رقم ٢٧٢٢ ولفظه «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها..» الحديث، وأخرجه النسائي في الاستعاذة ٢٦٠/٨ والترمذي في الدعوات رقم ٣٥٦٧.

﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقَّهَا﴾.

﴿إِذْ أَنْبَعَتْ﴾ أي حين قام بعقر الناقة ﴿أَشَقَّهَا﴾ أشقى ثمود وهو «قُدار بن سالف» ويضرب به المثل يقال: أشأم من قُدار، وهذا يتأكد بقوله تعالى: ﴿فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ هو ومن تصدى معه لعقر الناقة من الأشقياء، فإن أفعَل التفضيل إذا أضيف، يصلح للواحد والمتعدد وهذا يؤكد بقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي رسول الله صالح عليه السلام، لما هموا بعقرها، قال لهم ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ أي احذروا ناقة الله فلا تمسوها بسوء، وأضيفت إلى الله، لأنها آية دالة على توحيده، وعلى نبوة رسوله صالح عليه السلام ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ أي واحذروا أن تمنعوها من شربها ﴿لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي في وعيده بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْسُوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي ضربوا قوائمها بالسيف فقتلوا، وأسند القتل إليهم لرضاهم به ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي فأنطق الله عليهم العذاب، ويقال: دمدمت عليه أي سويت عليه، الأرض، أي أهلكهم الله هلاك استئصال ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم المحكي عنهم، والتصريح بذلك، مع دلالة الفاء عليه، للإنذار بعاقبة الذنب، ليعتبر به كل مذنب ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي الدمدمة بينهم، فلم يفلت منهم أحد، من صغير وكبير.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَهَا﴾ ﴿١٥﴾

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَهَا﴾ أي عاقبتها، كما يخاف سائر المعاقبين، وذلك أنه تعالى لا يفعل فعلاً إلاّ بحق، وكلُّ من فعل بحق، فإنه لا يخاف عاقبة فعله، ثم إنه تعالى عظيم كبير يفعل ما يشاء ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، والله أعلم بمراده.

وصلاة الله وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشمس»

سُورَةُ اللَّيْلِ

مكية وهي إحدى وعشرون آية

قيل نزلت هذه السورة في أبي بكر رضي الله عنه وإنفاقه، وفي أمية بن خلف وبخله وكفره لكن معانيها عامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾﴾.

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾ أي يغشى الشمس أو النهار، أو كل ما يواريه ظلامه، أقسم الله بالليل لأنه سَكَنُ لكافة الخلق.

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾﴾.

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾ تبين بطلوع الشمس.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾﴾.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ أي والقادر العظيم القدرة، الذي قدر على خلق الذكر والأنثى، من ماء واحد، والذَّكَرُ والأنثى يتناول جميع ذوي الأرواح، لأن كل حيوان إما ذكرٌ أو أنثى.

﴿إِنْ سَعَيْكَ لَشَقَّ﴾ ١.

﴿إِنْ سَعَيْكَ لَشَقَّ﴾ هذا جواب القسم، وشئى جمع شئت، مثل مرضى ومريض، أي مختلفة في الخير وفي الشر.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى﴾ ٥.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ﴾ أي أعطى حقوق ماله ﴿وَاتَّقَى﴾ ربه فاجتنب محارمه.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ ٦.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ بالملة الحسنى وهي ملة الإسلام، وآمن بقاء الله والجنة.

﴿فَسَيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ ٧.

﴿فَسَيَسِّرُكَ﴾ فسنهيته في الدنيا ﴿لِلْيُسْرَى﴾ وهو العمل بما يرضاه ربه، وللخصلة التي تؤدي إلى يسر وراحة، والأعمال بالعواقب، فكل ما أدت عاقبته إلى يسر وراحة، فإن ذلك من اليسرى، وكل ما أدت عاقبته إلى عسر فهو من العسرى.

﴿وَأَمَّا مَنْ يَخْلَ وَاسْتَفْتَى﴾ ٨.

﴿وَأَمَّا مَنْ يَخْلَ﴾ بماله فلم يبذله في سبيل الخير ﴿وَاسْتَفْتَى﴾ أي زهد فيما عنده تعالى، كأنه مستغنى عنه، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ ٩.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أي وكذب بالجنة ونعيمها وبلقاء الله.

﴿فَسَيُسِّرُهُ لِّلْعُسْرَى﴾

﴿فَسَيُسِّرُهُ لِّلْعُسْرَى﴾ أي للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة، كدخول النار ومقدماته لاختياره لها، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة فقال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة»، فقالوا: يا رسول الله: أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فيصير لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة، فيصير لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى﴾. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَيُسِّرُهُ لِّلْعُسْرَى...﴾^(١) الآيات.

﴿وَمَا يَتْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾

﴿وَمَا يَتْنِي عَنْهُ﴾ أي أي شيء يغني عنه ماله؟ وهو استفهام إنكاري ﴿مَالُهُ﴾ الذي يبخل به ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ أي إذا هلك وتردى في قعر جهنم؟ ما الذي ينفعه ماله الذي يبخل به وتركه لوارثه؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ أي إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَبِينَ لَهُمْ طَرِيقَ الْهُدَى، وما يؤدي إليه، وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه، حيث بيّنا حال من سلك طريق الهداية، وطريق الضلالة، ترغيباً وترهيباً.

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٢١٦/٣.

﴿وَإِن لَّنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ (١٢) ﴿﴾

﴿وَإِن لَّنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أي لنا ما في الدنيا والآخرة، والتصرف فيهما،
كيفما نشاء، فنفعل فيهما ما نشاء.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٣) ﴿﴾

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أي خوفتكم ﴿نَارًا تَلَظَّى﴾ أي تتلظى، يعني تتلهَّب
وتتوقد.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ (١٤) ﴿﴾

﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ أي لا يلزمها مقاسياً شدتها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أي الكافر،
فإن الفاسق وإن دخلها لم يلزمها.

﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (١٥) ﴿﴾

﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي كذب الرسل، وأعرض عن الإيمان والطاعة.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ (١٦) ﴿﴾

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ وسيبعد عنها ﴿الْأَتَقَى﴾ أي المبالغ في اتقاء الكفر
والمعاصي، فلا يحوم حولها فضلاً عن دخولها.

﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (١٧) ﴿﴾

﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ للفقراء ومصارف الخير ﴿يَتَزَكَّى﴾ أي يطلب أن
يكون عند الله زاكياً لا يريد به رياء، وسمعة.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ (١٩).

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أي ليس لأحد عنده نعمة، من شأنها أن تجزى وتكافأ، فيقصد بإيتاء ما يؤتي مجازاتها.

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ (٢٠).

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ استثناء منقطع، أي إلا أن يفعل فعلاً يبتغي به وجهه ربه، فيجازى عليه، أي ما ينفق إلا ابتغاء وجه الله وطلباً لمرضاته.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (٢١).

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ وعد بالثواب الذي يرضيه وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يعطيك ربك فترضى﴾ أي وبالله لسوف يرضى، وهو وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه، على أكمل الوجوه، إذ به يتحقق الرضا. وأجمع المفسرون من أهل السنة، على أن المراد من الأتقى هو «أبو بكر الصديق» رضي الله عنه، والشيعه بأسرهم يقولون هو «علي بن أبي طالب»، ولا يمكن حملها على علي، لأنه قال في وصف هذا الأتقى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ وهذا لا يصدق على علي، لأنه كان في تربية النبي ﷺ لأنه أخذه من أبيه، وكان يطعمه ويسقيه، ويكسوه ويربته، وكان ﷺ منعماً عليه نعمة يجب جزاؤها، أما أبو بكر فلم يكن للنبي ﷺ عليه نعمة دنيوية، بل أبو بكر كان ينفق على الرسول ﷺ، فثبت أن الآيات نزلت في أبي بكر لا في علي رضي الله عنهما جميعاً، والله أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الليل»

* * *

سُورَةُ الضُّحَى

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَى ﴾ ١ .

﴿ وَالضُّحَى ﴾ المراد به وقت الضحى، وهو وقت ارتفاع الشمس، وصدر النهار وقيل: أريد به النهار، بدليل قوله تعالى: ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ﴾ في مقابلة ﴿ بَيَاتَا ﴾ .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ ٢ .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ أي إذا اشتد ظلامه، وغطى كل شيء بظلامه، وهدأت فيه الأصوات .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ ٣ .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ جواب القسم أي ما تركك ربك منذ اختارك ﴿ وَمَا قَلَى ﴾ أي وما أبغضك منذ أحبك، روي أن الوحي تأخر عن رسول الله ﷺ أياماً، فقال المشركون: إن محمداً ودَّعه ربُّه وقلاه، فنزلت السورة رداً عليهم، وتبشيراً له ﷺ بالكرامة، روي عن جندب بن سفيان البجلي قال:

اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل ﴿والضحى﴾ (١) السورة.

والمرأة في الحديث هي العوراء امرأة أبي لهب، وتُدعى أم جميل.

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أي ما وعد الله لك في الآخرة، من المقام المحمود، والخير الموعود، خير مما أعجبك في الدنيا، فإنها باقية خالصة عن الشوائب، وهذه فانية مشوبة بالمضار، ثم ما أوتي ﷺ من شرف النبوة لا يعادله شرف، ولا هديته فضل، وقيل: المراد بالآخرة عاقبة أمره ﷺ، أي نهاية أمرك خيرٌ من بدايته، لا تزال تتزايد قوة، كأنه تعالى وعده بأنه سيزيده كل يوم عزّاً إلى عزّه (٢).

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ عِدَّةٌ كريمة، شاملة لما أعطاه الله تعالى في الدنيا، من كمال النفس، وعلوم الأولين والآخرين، وظهور الأمر،

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٢١٧/٣، وقد ذكر اسمها الحافظ ابن كثير في تفسيره، وهي في رواية ابن أبي حاتم.

(٢) انقطاع الوحي عن رسول الله ﷺ مدة من الزمن، فيه لطفٌ بالنبي الكريم، كما أن انقطاع نور الشمس بالليل عن الناس، فيه لطف بالبشر، حيث يخلد الناس إلى الراحة والهدوء، وكما أن غياب الشمس لا يكون على الدوام، بل يعقبه نور الصباح، كذلك أمر الوحي، فهو إبطاء يعقبه عود وازدياد، فلذلك أقسم الله بالضحى، وهو وقت الإشراق والنور، وبالليل وهو وقت اشتداد الظلام، ووقت التهجد والتقرب من الحي القيوم، فالأمر إذاً علوّ شرف، وازدياد حب، وإشراق بعد ظلمة ليل دامس، لبشرق قلب النبي عليه الصلاة والسلام بأنواع الوحي الإلهي، ونوره الوضاء، ويزداد شوقاً إلى اللقاء.

وإعلاء الدين، بالفتوحات الواقعة في عصره ﷺ، وفي أيام خلفائه وفشو الدعوة والإسلام، في مشارق الأرض ومغاربها، وفي الآخرة من الثواب، ومقام الشفاعة، والأحاديث الواردة في الشفاعة، دالة على أن رضى الرسول ﷺ إنما هو فى العفو عن أمته المذنبين.

﴿ اَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيْمًا فَآوَىٰ ﴾ ﴿٦﴾

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾؟ ألم تكن يتيماً حين مات أبوك فأواك؟ فقد مات أبوه عبد الله فكفله جده عبد المطلب، فلما مات عبد المطلب، كفله عمه «أبو طالب» إلى أن قوي واشتد، وتزوج خديجة رضي الله عنها، وذلك إيواءه تعالى له.

﴿ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي غير عالم، ولا واقف على معالم النبوة، وأحكام الشريعة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ الآية، وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ضلَّ في شعاب مكة، وهو صبي صغير، فرآه أحد الناس فردَّه إلى جده، ولا يجوز أن يفهم به عدول عن الحق، ووقوع في غيٍّ، لأنه ﷺ كان من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان، وقاذورات أهل الفسق والعصيان ﴿فَهَدَى﴾ فعرفك القرآن والشرائع.

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ ﴿٨﴾

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ أي فقيراً والعيلة بالفتح: الفقر، وهي مصدر يعيل، فهو عائل، فقد أغناه الله بمال خديجة، وبما حصل من ربح التجارة.

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ فلا تغلبه على ماله لضعفه، ولا تحقره.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ فلا تزجره فابذل قليلاً، أو ردّ جميلاً، قال ابن أدهم: نِعَمَ القَوْمُ السائلون، يحملون زادنا إلى الآخرة، وقال إبراهيم النخعي: السائل يريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم، فيقول: أتبعثون إلى أهليكم بشيء؟ وقيل: المراد بالسائل ههنا الذي يسأل عن الدين.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي بشكرها وإشاعتها، وإظهار آثارها، وأحكامها^(١)، وأريد بها ما أفاضه الله تعالى عليه، من فنون النعم، التي من جملتها ومعظمها «نعمة النبوة» فقد اندرج تحت الأمر تعليمه للشرائع والأحكام، حسبما هداه الله تعالى إليه، والله أعلم بمراده. وصلى الله تعالى عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الضحى»

* * *

(١) أنعم الله على عبده ورسوله محمد ﷺ بنعم ثلاثة، وأوصاه بوصايا ثلاث مقابلها: الأولى: قوله سبحانه: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ وقابلها بالوصية بقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾. الثانية: قوله سبحانه: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ وقابلها بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾. الثالثة: قوله سبحانه: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ وقابلها بقوله: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾. وكأن الآيات الكريمة تقول: كنت يتيماً، وضالاً، وعائلاً، فأواك الله، وهداك، وأغناك، فتعطف على اليتيم، وترحم على السائل، وأرشد الضالين إلى طريق الرشاد!!

سُورَةُ الشَّرْحِ

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِي نَزَّلَ الشَّرْحَ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾

﴿الَّذِي نَزَّلَ الشَّرْحَ لَكَ صَدْرَكَ﴾؟ لَمَّا كَانَ الصَّدْرُ مَحَلًّا لِأَحْوَالِ النَّفْسِ، وَمَخْزَنًا لِسِرَائِرِهَا، مِنَ الْعُلُومِ وَالْإِدْرَاكَاتِ، عَبَّرَ بِشَرْحِهِ عَنْ تَوْسِيعِ دَائِرَةِ تَصَرُّفَاتِهَا، بِتَأْيِيدِهَا بِالْقُوَّةِ الْقُدْسِيَّةِ، وَتَحْلِيلِهَا بِالْكَمَالَاتِ الْإِنْسِيَّةِ، أَيْ أَلَمْ نَفْسُحِهِ حَتَّى حَوَى عَالَمِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَجَمَعَ بَيْنَ مَلَكَتَيْنِ الْإِسْتِفَادَةِ، وَالْإِفَادَةِ، وَقِيلَ أُرِيدَ بِهِ مَا رَوَى أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي صَبَاحِهِ فَاسْتَخْرَجَ قَلْبَهُ، فغسله! الحديث. روى مسلم عن أنس رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج منه عََلَقَةً، فقال: هذا حظُّ الشيطان منك، ثم غسله في طستٍ من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه»^(١) الحديث، لا يقدر أحد على أن يجيب عنه بغير بلى، وزيادة الجار والمجرور «لك» للإيذان بأن الشرح لمنفعته ﷺ ومصالحه، فكأنه قيل

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٢٦١.

شرحنا، فإن قيل: هذه من المعجزات، فلا يجوز أن تتقدم نبوته ﷺ؟
 فالجواب: تقديم المعجز على زمان البعثة جائز، وهو المسمى بالإرهاص،
 والقول الأول أن الشرح هو تنويره بالحكمة، وتوسيعه لتلقي ما يوحى
 إليه، هو المراد بالآية الكريمة على ما ذهب إليه الجمهور.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ وخففنا عنك أعباء النبوة، عطف على ما أشير
 إليه، كأنه قيل: قد شرحنا صدرك، ووضعنا عنك وزرك أي الحمل
 الثقيل.

﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾

﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي أثقله حتى سمع نقيضه، وهو صوت الرّجل
 عند الانتقال من ثقل الحمل، مثل به حاله ﷺ مما كان يثقل عليه
 ويغتمه، من هموم وأكدار، بسبب تفجعه على عدم إيمان قومه، بالحمل
 الثقيل الذي يقصم له الظهر.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ بأن قرّناه بذكر الله في كلمة الشهادة، فلا يُذكر الله
 إلا ويذكر معه الرسول، وملأنا العالم من أتباعك، كلهم يشنون عليك،
 ويحفظون سنتك، فذكرك وشفرك باقٍ إلى يوم القيامة.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تقرير لما قبله، ووعده كريم، بتيسير كل عسير
 له ﷺ، وللمؤمنين، وفي كلمة «مع» إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر، كأنه
 مقارن لليسر.

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تكرر للتأكيد أو عدة مستأنفة كثواب الآخرة.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من دعوة الخلق إلى الله ﴿فَانصَبْ﴾ أي فاجتهد في عبادة ربك، شكراً لما عَدَدْنَا عليك من النعم السابقة، وقيل إذا فرغت من صلاتك، فاجتهد في الدعاء.

﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾.

﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ﴾ وحده ﴿فَارْغَبْ﴾ بالسؤال منه ولا تسأل غيره، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشراح»

سُورَةُ التِّينِ

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْزَيْتُونِ وَالْأَمِينِ﴾

﴿وَالْزَيْتُونِ وَالْأَمِينِ﴾ أقسم بهما لأنهما عجيبان من بين الأشجار، التين فاكهة طيبة لا فاضل لها، وغذاء لطيف، سريع الهضم، ودواء كثير النفع، أما الزيتون فهو فاكهة وإدام، ودواء، وقيل: هما جبلان من الأرض المقدسة، والصحيح هو الأول، قال ابن عباس: هو تينكم الذي تأكلون وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربه، يقال: سينين، وسيناء، عَلَمَانِ للموضع الذي هو فيه، وكل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سينين وسيناء.

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أمانته أنه يحفظ من دخله، كما يحفظ الأمين ما

يؤمن عليه، وهي مكة شرفها الله تعالى، وحرسها، كما وصفها الله تعالى بقوله ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ بمعنى ذي أمن.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ جواب القسم، أي جنس الإنسان في أحسن ما يكون، من التقويم والتعديل، صورة ومعنى حيث برأه الله تعالى: مستوي القامة، متناسب الأعضاء، متصفاً بالحياة والعلم، وعن يحيى بن أكثم أنه فسر «التقويم» بحسن الصورة.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ﴾ في الآخرة ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي جعلناه من أهل النار، الذين هم أقبح من كل قبيح، وأسفل من كل سافل، لعدم جريانه على موجب ما خلقناه عليه من الصفات، وقيل: رددناه إلى أَرذل العمر.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهم لا يُرَدُّونَ إلى أسفل السافلين ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير منقطع، على طاعتهم وصيرهم على ابتلاء الله تعالى بالشيخوخة والهرم، أو لا يُمنُّ به عليهم.

﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾

﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾ أي فأي شيء يكذبك أيها الإنسان بالبعث؟ ﴿بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي بعد ظهور هذه الدلالة الناطقة بالحساب والجزاء؟ وظهور الدلائل والبراهين عليه؟

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ أليس الذي فعل ما ذُكر، بأحكم الحاكمين، صنعاً، وتديراً، حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء؟ فهي وعيد للكفار، وأنه تعالى يحكم عليهم بما يستحقونه من العذاب، والله أعلم بمراده.

وصلّى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التين»

* * *

سُورَةُ الْعَلَقِ

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

﴿أَقْرَأْ﴾ أي ما يوحى إليك، فإن الأمر بالقراءة يقتضي المقروء قطعاً وهذه السورة أول ما نزل من القرآن، إلى قوله تعالى ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ كما ينطق به حديث عائشة المتفق عليه المشهور ﴿بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ مفتتحاً باسمه تعالى، أو مستعيناً به، كأنه قيل: قل باسم الله ثم اقرأ ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أي الذي حصل منه الخلق، لا خالق سواه، أو خلق كل شيء، وصف الرب بهذا الوصف، لتذكير الناس، أول النعماء الفائضة، والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان، على ما هو عليه من الحياة، وما يتبعها من الكمالات، قادر على تعليم القراءة للحَيِّ، العالم المتكلم.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أفراد ما هو أشرف وأظهر صنعاً وتدبيراً، لاستقلاله ببدايع صنعه ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أي دم جامد يشبه الدودة الصغيرة «العلقة»، وتخصيصه بالذكر من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية، مع كون النطفة،

والتراب، أدل منه، لبيان كمال قدرته تعالى، بإظهار ما بين حالته الأولى والآخرة، من التباين البين، ولمراعاة الفواصل، ولما كان خلق الإنسان أول النعم الفائضة عليه ﷺ منه تعالى، وأقدم الدلائل الدالة على وجوده تعالى، وصف ذاته بذلك، فقال تقدست أسماؤه ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أي خلق جميع المخلوقات.

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾

﴿ اقْرَأْ ﴾ تكرار للمبالغة ﴿ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ أي وربك العظيم الجليل الكريم، الذي لا يوازيه ولا يدانيه كريم، وكيف لا وكل كريم ينال بكرمه نفعاً: إمّا مدحاً، أو ثواباً، أما الرب تعالى فإنه لا يفعله إلا لمحض الكرم.

﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾

﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ أي علّم بواسطة القلم، فكما علّم القارىء بواسطة الكتابة والقلم، يعلمك بدونهما، والقلم صياد يصيد العلوم، يبكي ويضحك، بركوعه يسجد الأنام، وبحركته تبقى العلوم على مر الأيام، القلم قوام الإنسان، وقوام العالم، فسبحانه من قادر بسواده جعل الدين منوراً، كما أنه جعلك بالسواد مُبْصِراً.

﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ أي علم الإنسان به وبدونه، من الأمور الكلية والجزئية، والجلية والخفية، ما لم يخطر بباله، وفي حذف المفعول من الدلالة على كمال قدرته تعالى، وكمال كرمه، والإشعار بأنه تعالى يعلمه من العلوم، ما لا تحيط به العقول، وما لا يخفى.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله، للمبالغة في الزجر، وقوله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ بيان للمردوع، وهذا إلى آخر السورة نزل في «أبي جهل» وهو الظاهر ﴿لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ أي ليجاوز الحد، ويستكبر على ربه، ويروى أنه قال: ليس بمكة أكرم مني، رداً لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ فبدل أن يشكر، يطغى ويفجر، وهذا شأن الكافر.

﴿أَنْ رَّاهُ اسْتَغْنَى﴾

﴿أَنْ رَّاهُ اسْتَغْنَى﴾ أي يطغى لأنه رأى نفسه مستغنياً عن الله بالمال، وتعليل طغيانه برؤيته، لا بنفس الاستغناء، للإيذان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد، بأن الله كما أغناه في الدنيا، سوف يغنيه في الآخرة، إن كان هناك عودة ورجوع.

﴿إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعُ﴾

﴿إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعُ﴾ تهديد للطاغي وتحذير له من عاقبة الطغيان، والالتفات للتشديد في التهديد، والرجعى مصدر بمعنى الرجوع، كالبشرى، أي إن إلى ربك رجوع الكل، بالموت والبعث، لا إلى غيره، فسترى حينئذ عاقبة الطغيان. فإن قيل: قال الله لموسى: ﴿اذهب إلىٰ فرعون إنه طغى﴾ وذكر في أبي جهل ﴿لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ فأكد باللام فما السر؟ الجواب: إن فرعون بسلطته ما كان ليتعرض لقتل موسى، وأما أبو جهل مع قلة جاهه كان يقصد قتل الرسول ﷺ فزاد في الطغيان على فرسون الأحمق.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ أي أرايت أبا جهل ينهى النبي ﷺ عن الصلاة؟ وهذا تقبيح لحاله، وتعجيب منها، وإيدان بأنها من الشناعة والغرابة، بحيث يجب أن يراها كل من يأتي منه الرؤية، ولفظ العبد وتنكيره لتفخيمه ﷺ، والرؤية هنا بصرية، أخرج البخاري عن ابن عباس قال: قال «أبو جهل» لئن رأيتُ محمداً يصلي عند البيت، لأطأن على عنقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «لو فعله لأخذته الملائكة»^(١) وهذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة، روي عن علي رضي الله عنه أنه رأى في المصلي أقواماً، يصلون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيتُ رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل له: ألا تنهاهم عن هذا؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ وقال أبو يوسف لأبي حنيفة رحمه الله: أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع اللهم اغفر لي قال: يقول «ربنا لك الحمد» ويسجد، ولم يصرح له بالنهي خشية النهي عن الخير.

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ أي إن كان ذلك العبد على طريقة سديدة، فيما ينهى عنه من عبادة الأوثان، والدعوة لعبادة الرحمن.

﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾

﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ أو كان آمراً بالمعروف والتقوى، داعياً إلى الهدى والرشاد، كيف تزجره وتنهيه؟

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٧٢٤/٨.

﴿أَوْهَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي أخبرني إن كان ذلك الناهي مكذباً بالحق، متولياً عنه، والرؤية في الآيتين قلبية، معناها أخبرني، والخطاب لكل من يصلح للخطاب، والمعنى: أخبرني عن شأن ذلك الشقي الذي ينهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وعن الطاعة كيف يكون مصيره؟.

﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ أي ألم يعلم بأن الله تعالى يطلع على أحواله، فيجازيه بها، حتى اجتراً على ما فعل؟.

﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل، عن نهيه عن عبادة الله ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ أي عما هو فيه، واللام للقسَم، أي والله لئن لم ينته عن إجرامه وطغيانه ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي لناخذنً بناصيته ولنسحبته بها إلى النار، والسفْعُ: القبضُ على الشيء، وجذبه بعنفٍ وشدة.

﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾.

﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من الناصية ﴿كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ على الإسناد المجازي، أي صاحب هذه الناصية كاذب، فاجر، خاطيء أي كثير الذنوب والإجرام.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي فليدع هذا الشقي أهل ناديه ليعينوه، قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله.

﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾.

﴿سَنَدُّ الزَّيْنَةِ﴾ أي سندعو نحن خزنة جهنم ليجروه إلى النار، وهي في الأصل الشَّرَط، واحدها زبينة من الزين، وهو الدفع، والمراد ملائكة العذاب.

﴿كَلَّا لَا تُطِيعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ﴿١٩﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للناهي أي ليس الأمر على ما هو عليه أبو جهل ﴿لَا تُطِيعُهُ﴾ واثبت أنت على طاعتك لله ﴿وَاسْجُدْ﴾ وواظب على سجودك وصلاتك، غير مكترث به ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ وتقرب إلى ربك بالسجود، روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء»^(١)، والله أعلم بمراده.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العلق»

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٤٨٢ في الصلاة، وأبو داود رقم ٨٧٥، والنسائي ٢٢٦/٢.

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (١).

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ تنويه بشأن القرآن الكريم، إجلالاً لمحلّه، بإضماره كأنه حاضر في جميع الأذهان، وأسند إنزاله إلى نون العظمة المنبئ عن كمال العناية به، وتفخيم وقت إنزاله بقوله تعالى ﴿ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ أي ليلة تقدير الأمور وقضائها، والقدر بمعنى التقدير، أو سميت بذلك لشرفها على سائر الليالي، وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان، لما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يجاور العشر الأواخر من رمضان، ويقول: تحرّوا ليلة القدر، في العشر الأواخر من رمضان»^(١) وقال الحسن: هي ليلة سبعة عشر من رمضان، لأنها ليلة كانت صبيحتها وقعة بدر، والجمهور يرى أنها مختصة بـرمضان، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ واختلفوا في تعيينها قيل: هي الليلة

(١) أخرجه البخاري في التراويح والاعتكاف، ومسلم في الاعتكاف رقم (١١٨٣) ومالك في الموطأ ٣١٦/١.

الأولى، وقال الحسن السابعة عشرة، وعن أنس الحادية والعشرون، وقال محمد بن إسحق الثالثة والعشرون وقال أبي بن كعب وجماعة من الصحابة السابعة والعشرون، وهو المشهور. والمراد بإنزاله فيها، إما إنزاله كله إلى السماء الدنيا، كما روي عن ابن عباس، وإما ابتداء إنزاله كما نقل عن الشعبي.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾؟ أي لم تبلغ درايتك غاية فضلها، لأن علو قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق، ولا يدريها إلا علام الغيوب.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي ليلة القدر أفضل وأكبر عند الله من عبادة ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، روي لرسول الله ﷺ أن رجلاً لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المؤمنون منه، فأعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي.

﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾

﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ إلى الأرض في تلك الليلة ﴿وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ جبريل عليه السلام ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بأمر ربهم ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ من الخير، والبركة، قضاء الله عز وجل لتلك السنة إلى قابل.

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾

﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ ما هي إلا سلامة، أي لا يقدر الله تعالى فيها إلا السلامة والخير، أو ما هي إلا سلام، لكثرة ما تُسَلِّم الملائكة فيها على المؤمنين

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ إلى وقت طلوع الفجر، فكلها خير وبركة، ورحمة وأمان، يحفظ الله فيها العباد من الشرور والآفات، إكراماً لتتزل كتابه العظيم، والله أعلم بمراده.

وصلّى الله على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القدر»

* * *

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

مدنية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
 الْبَيِّنَةُ﴾.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى، وإيرادهم بذلك العنوان، للإشعار بعلّة ما نسب إليهم من الوعد باتّباع الحق، فإن مناط ذلك، وجدانهم له في كتابهم ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ عبدة الأصنام ﴿مُنْفَكِينَ﴾ منفصلين عن الكفر^(١)، ومتّهمين عنه، أو عما كانوا عليه من الوعد باتّباع الحق، والإيمان بالنبي المبعوث في آخر الزمان، وهذا الوعد من أهل الكتاب مما لا ريب فيه حتى أنهم كانوا يستفتحون ويقولون: «اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان» ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ حتى أتتهم الحجة الواضحة، وهي بعثة الرسول ﷺ فإنه مبين للحق.

(١) أي ما كانوا متّهمين عمّا هم عليه من الكفر، حتى تأتيتهم الحجة الواضحة، وهي بعثة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلما بُعث الرسول الكريم، اضطربت الخواطر والأفكار، وتشكّك كل في دينه ومذهبه، ودلّ على هذا قوله تعالى بعده: ﴿مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾

﴿رَسُولٌ﴾ بدل من البينة، عبّر عنه ﷺ بالبينة للإيذان بغاية ظهور أمره، وكونه ذلك الموعود في الكتابين، وأن ذاته كانت بيّنة على نبوته، وأن مجموع الأخلاق الحاصلة فيه كان بالغاً حد الإعجاز، وإن معجزاته في غاية الكثرة والظهور، ولذلك سماه الله سراجاً منيراً ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي رسول كائن من عند الله تعالى ﴿يَتْلُو﴾ أي يقرأ عليهم ﴿صُحُفًا﴾ أي أوراقاً ﴿مُطَهَّرَةً﴾ منزّهة عن الباطل.

﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾

﴿فِيهَا﴾ أي في الصحف ﴿كُتِبَ﴾ مكتوبات، وقيل: الكتب الأحكام، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ أي حكم، وفي الحديث «لأقضي بينكما بكتاب الله» أي بحكم الله تعالى ﴿قِيمَةٌ﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والصواب، مستقلة بالحجة والدلالة.

﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾

﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ في أمر الرسول ﷺ، والكلام مسوق لغاية التشنيع على أهل الكتاب ببيان أن ما نسب إليهم من الانفكاك، لم يكن لاشتباه ما في الأمر، بل كان بعد وضوح الحق، وتبين الحال، وانقطاع الأعذار بالكلية، وهو السر في وصفهم بإيتاء الكتاب، المنبئ عن تمكنهم من مطالعته، والإحاطة بما في تضاعيفه من الأحكام والأخبار التي من جملتها نعت النبي ﷺ ﴿إِلَّا مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ أي إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة، الدالة على أن رسول الله ﷺ هو الموعود في كتابهم، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، بغياً وحسداً.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾.

﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي والحال أنهم ما أمروا بما أمروا في كتابهم، إلا لأجل أن يعبد الله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير شرك ونفاق، أي جاعلين دينهم خالصاً له تعالى، ففعل اليهود والنصارى، ليس بعبادة، وإن تضمن نهاية التعظيم، لأنه غير مأمور به ﴿حُنَفَاءَ﴾ مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام مؤمنين بجميع الرسل الكرام ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي يؤدوا الصلاة بشروطها، ويدفعوا الزكاة إلى مستحقيها من الفقراء والمساكين ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي دين الملة القيمة. بين الله تعالى في هذه الآية، أنه لا بد من العلم، والإخلاص، والعمل، ثم قال: وَذَلِكَ المجموع هو ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾، أي البيئنة المستقيمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ بيان لحال الفريقين في الآخرة، بعد بيان حالهم في الدنيا، وذكر المشركين لثلاث يتوهم اختصاص الحكم لأهل الكتاب، ومعنى كونهم فيها أنهم يصيرون إليها يوم القيامة، وإيراد الجملة الاسمية للإيذان بتحقيق مضمونها لا محالة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ واشتراك الفريقين في دخول دار العذاب، لا ينافي تفاوت عذابهم، فإن جهنم دركات، وعذابها ألوان ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما هم فيه ﴿هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي هم شر الناس، وشر الخليقة على الإطلاق، فيكون في حيز التعليل لخلودهم في النار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بيانٌ لمحاسن أحوال المؤمنين، إثر بيان حال الكفرة، جرياً على السُّنة القرآنية، من شفع الترهيب بالترغيب ﴿أُولَئِكَ﴾ أي المنعوتون بما هم عليه من الإيمان والطاعة ﴿هُمُ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أي هم خير الخليقة التي خلقها الله، وهم السعداء الأبرار.

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾

﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ بمقابلة ما لهم من الإيمان والطاعة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي﴾ بغير أخذود ﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ متنعمين بفنون النعم، الجسمانية والروحانية وفي تقديم مدحهم بخير البرية، في مقابلة ما وصفوا به، وبيان كونه من عند الله، وتأكيد الخلود بالأبدية من الدلالة على حسن حالهم ما لا يخفى ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول أعمالهم التي قدموها ابتغاء وجه الله ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أعطاهم من الخيرات والكرامات، والثواب العظيم في دار النعيم، حيث أعطوا ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من الجزاء والرضوان ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ فإن المخشية ملاك الأمر، والباعث على كل خير، وهو من خصائص العلماء بشؤون الله تعالى، ووصفهم بأنهم ﴿خير البرية﴾ يدلُّ على فضل المؤمنين من البشر، على الملائكة، لأن البرية: الخلق، فكان الآية تقول: إنهم خير المخلوقات على الإطلاق، ويدخل في المخلوقات الملائكة، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البيّنة»

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي حركت الأرض تحريكاً عنيفاً متكرراً متداركاً، أي الزلزال المخصوص، على مقتضى المشيئة الإلهية، وذلك عند النفخة الثانية، لقوله تعالى:

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا﴾.

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا﴾ أي كنوزها وموتاتها، وإظهار الأرض لزيادة التقرير، أو الإيماء بتبدل الأرض غير الأرض.

﴿وَقَالَ الْإِنْسَنُ مَا لَهَا﴾.

﴿وَقَالَ الْإِنْسَنُ مَا لَهَا﴾ لما بهرهم من الأمر الفظيع، أي قال كل فرد من أفراد الناس، المؤمن بقوله بطريق الاستعظام للخطب، والكافر بالتعجب من أمر القيامة وأهوالها.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الرهيب ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي تشهد بما فعل على ظهرها، حيث ينطقها الله تعالى، فتخبر بما عمل عليها من خير أو شر، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فقال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد، أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها»^(١).

﴿يَا أَيُّهَا رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا﴾

﴿يَا أَيُّهَا رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ أي تحدث الأرض بما جرى بسبب إحياء ربك لها، بأن أمرها أن تنطق بكل ما حدث وجرى فوق سطحها.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ﴾

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ يقع ما ذكر ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ من القبور إلى الموقف، ثم ينصرفون عنه يقال: صَدَرَ القومُ صدوراً، أي انصرفوا ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي متفرقين - بحسب مراتبهم - بيض الوجوه آمنين، وسود الوجوه فزعين، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ ﴿لِيُرَوْا﴾ أي لكي يروا ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ أي جزاء أعمالهم.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣٣٥٠ وقال: حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه الحاكم في المستدرک ٥٣٢/٢ وأحمد في المسند ٣٧٠/٢.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ أي فمن يفعل من الخير، ولو شيئاً قليلاً مثل وزن الذرة من التراب، يجد ثوابه عند الله في الآخرة.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ أي ومن يفعل من الشر ولو شيئاً قليلاً وزن الذرة، يجد جزاءه عليه^(١)، والمراد بالرؤية وجود ما يعادلها من خيرٍ أو شر، فـ«مَنْ» الأولى مختصة بالسعداء، والثانية بالأشقياء، وحسنات الكافر محبطة بالكفر، وسيئات المؤمن المجتنب عن الكبائر معفوة، والله أعلم بمراده.

وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزلزلة»

(١) وقيل: معنى الآية أن من يعمل مثقال ذرة من فريق السعداء خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة من فريق الأشقياء يره.

سُورَةُ الْعَادَاتِ

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَّتِ ضَبْحًا﴾ ١.

﴿وَالْعَادِيَّتِ ضَبْحًا﴾ أقسم الله سبحانه بخيل الغزاة، التي تعدو نحو العدو عدوًّا^(١)، والضُّبْحُ: صوتُ أنفاسها إذا عدت وأسرعت في الجري، وهو صوت ليس بصهيل، ولا حمحمة، ولكنه صوت نفس، والمراد بالعاديات عند أكثر المحققين، أنها الخيل، لأن ألفاظ هذه الآية تنادي أن المراد بها الخيل، أقسم الله تعالى بفرس الغازي، لما فيه من منافع الدنيا والدين، وتنبهًا على فضلها وفضل رباطها في سبيل الله، وإنما قال: «ضبحًا» لأنه أمانة يظهر به التعب على الخيل، فكأنه قال إن الفرس مع ضعفه لا يترك طاعتك، فلتكن في طاعة مولاك كذلك.

(١) الحكمة من القَسَم بالخيل المذكورة لينوّه بشأنها، ويعلي بقدرها في نفوس المؤمنين، ليعتنوا بتدريبها على الكرّ والفرّ، وليعتنوا بالفروسية التي هي درع الحرب، ليكون كل واحد مستعدًّا للجهاد، ولهذا قال المصطفى ﷺ: «الخيْلُ معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» رواه البخاري ومسلم.

﴿فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾ ٢ .

﴿فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾ الإبراء: إخراجُ النار، والقَدْحُ: الصكُّ يقال: قدح فأورى، أي فالتى توري النار من حوافرها.

﴿فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا﴾ ٣ .

﴿فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا﴾ والإغارة سرعة الهجوم على العدو وقت الصباح، وهو الوقت المعتاد في الغارات، يعدون ليلاً لثلاً يشعر بهم العدو، ويهجمون عليهم صباحاً لأخذهم على غفلة وعلى حين غرة.

﴿فَأَثَرَنَ بِهِ نَقْعًا﴾ ٤ .

﴿فَأَثَرَنَ بِهِ نَقْعًا﴾ فيهجن بذلك الوقت غباراً، وتخصيص إثارته بالصبح، لأنه لا يظهر ثورانه بالليل، وبهذا ظهر أن الإبراء واقع في الليل، والله در شأن التنزيل.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ ٥ .

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ أي فوسطن بذلك العدو والجري ﴿جَمْعًا﴾ أي توسطن جموع الأعداء، ووسطه بمعنى توسطه.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ٦ .

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي لكفور جاحد لإنعام الله، أي إنه لنعمة ربه لشديد الكفران، وأصل الكنود منع الحق والخير، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً، والمراد بالإنسان الكافر بدليل قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾.

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾.

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ الإنسان على كنوده وجحوده ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يشهد على نفسه، لظهور أثره عليه.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أي المال كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي شديد الحب للمال، حريص على جمعه، مجد في طلبه، ولعل وصفه بهذا الوصف القبيح، بعد وصفه بالكنود للإيماء إلى أن من جملة الأمور، الداعية للمنافقين إلى النفاق، حب المال، لأنهم بما يظهرون من الإيمان، يعصمون أموالهم، ويحوزون من الغنائم نصيباً.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي الإنسان الكافر ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ إذا أُثير وُبُعث ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي من في القبور من الموتى، و «ما» بمعنى «مَنْ» وفيها تهديد ووعيد، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدّر، أي أيفعل ما يفعل من القبائح، ولا يلاحظ ما سيحلّ به إذا بُعثر ما في القبور؟.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ من الأسرار الخفية التي من جملتها ما يخفيه المنافقون، والتحصيل في اللغة: تمييز ما يحصل، ومعنى حصل، أي أظهره محصلاً مجموعاً.

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ﴾ أي المبعوثون كنى عنهم بضمير العقلاء، بناءً على تفاوتهم في الحالين ﴿بِهِمْ﴾ أي بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاضلها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ يكون ما ذكر ﴿لَّخَيْرٍ﴾ أي عالم بظواهر ما عملوا، وبواطنه، علماً موجباً للجزاء، متصلاً به، كما ينبىء عنه تقييده بذلك اليوم، وإلا فمطلق علمه تعالى محيط بما كان وما سيكون، والله أعلم بمراده، وبأسرار كتابه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بمؤنه تعالى تفسير سورة العاديات»

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿ الْقَارِعَةُ ١ ﴾

﴿ الْقَارِعَةُ ١ ﴾ القرع: هو الضرب الشديد، بحيث يحصل منه صوت شديد وقوارع الدهر شدائده، والقارعة من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تفرع القلوب والأسماع، بفنون الإفزع والأهوال، وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال.

﴿ مَا الْقَارِعَةُ ٢ ﴾

﴿ مَا الْقَارِعَةُ ٢ ﴾ مدار إفادة الهول ههنا هو كلمة ما القارعة أي شيء عجيب في الفخامة والفضاعة هي؟ ووضع الظاهر موضع الضمير تأكيداً للتهويل.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ ﴾

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ ﴾ أي هل تعلم وهل تدري ما هي القارعة؟ إنها أمر عظيم، وكرب جسيم، لا يعلم حقيقتها إلا علام الغيوب.

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ﴿٤﴾

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ شَبَّهَهُم بِالْفَرَاشِ فِي الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، والفراش هي التي تراها تنهافت في النار، وفي آية أخرى شبه بالجراد المنتشر.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ﴿٥﴾

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أي الصوف المندوف في تفرق أجزائها، وتطايرها في الجو، وكلا الأمرين من آثار القارعة، بعد النفخة الثانية، وهي وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى، لكن تسييرها، وتسوية الأرض، بعد النفخة الثانية.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿٦﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ﴿٧﴾

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿٦﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي فاما السعداء الأبرار، الذين رجحت حسناتهم فهم في معيشة طيبة، وسعادة كاملة مرضية، يرضاها صاحبها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿٨﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي زادت سيئاتهم بأن لم يكن لهم حسنة يُعَبَأُ بها، أو ترجحت سيئاته.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ ﴿٩﴾

﴿فَأُمُّهُ﴾ أي فمأواه، وعبر عن المأوى بالأم؛ لأن أهلها يأوون

إليها، كما يأوي الولد إلى أمه ﴿هَكَوِيَّةٌ﴾ هي من أسماء النار، من هوى، يهوي من باب ضرب سقط من أعلى إلى الأسفل.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ﴾

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ﴾ الضمير يعود إلى الهاوية، والهاء للسكت، وإذا وصل القارئ حذفها، ثم فسرها فقال:

﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾

﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ أي نار بلغت النهاية في الحرارة، وهو تقرير لها بعد إبهامها، والإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة، نعوذ بالله منها، ومن جميع أنواع العذاب، ونسأل الله التوفيق وحسن المآب، والله أعلم بمراده. وصلى الله تعالى على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القارعة»

* * *

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿الْهَنَكُمُ التَّكْوِيْنُ﴾ ١.

﴿الْهَنَكُمُ﴾ أي شغلکم، وأصله الصرفُ إلى اللھو، ألھاني الشيء شغلني ﴿التَّكْوِيْنُ﴾ التباہي بالکثرة، في الأموال والأولاد عن طاعة الله، عن مطرف بن عبد الله عن أبيه، قال: «انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ ﴿الھاکم التَّکْوِيْنُ﴾ فقال: يقول ابنُ آدم: مالي، وهل لك من مالک إلا ما أكلت فأفنیته، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضیت»^(١)؟ أي أنفدت العطاء وبذلتہ.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ٢.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي حتى أدركتم الموت على تلك الحالة،

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٣٥١ في التفسير وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه مسلم في كتاب الزهد رقم ٢٩٥٨ بلفظ يقول العبد: «مالي، مالي، وإنما له من ماله ثلاث... الحديث. وأخرجه النسائي في الوصايا ٢٣٨/٦.

وأصبحتم من أهل القبور، فمُتُّم ودفنتم في المقابر، أو عُدِّدوا أسماء الموتى، روي أن بني عبد المناف، وبني سهم من قريش، تفاخروا فقال كل من الفريقين: نحن أكثر منكم سيدياً، وأعظم نفراً، فكثَّروهم بنو عبد مناف - أي زادوا عليهم في الكثرة - فقال بنو سهم: إن البغي أفنانا في الجاهلية، عُدُّوا مجموع أحيائنا وأمواتنا، مع مجموع أحيائكم وأمواتكم، ففعلوا فزاد بنو سهم، فعبر عن بلوغهم ذَكَر الموتى، بزيارة القبور، تهكماً بهم^(١)، وإنما حذف الملهي عنه للتعظيم، أي ألهاكم التكاثر عن الدين، هب أنكم أكثر منهم عدداً فماذا ينفع؟.

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ كَلَّا ﴾ ردع وتنبية على أنه لا ينبغي للناظر أن تكون الدنيا جميع همّه، والمعنى: ليس الأمر كما يتوهم هؤلاء من أن السعادة بكثرة العدد، قال الحسن: لا يغرنك كثرة من ترى حولك، فإنك تموت وحدك، وتُبعث وحدك، وتُحاسب وحدك، وتقريره ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبور، قال علي رضي الله عنه: هذه الآية تدل على عذاب القبر.

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وفي «ثُمَّ» دلالة على أن الثاني أبلغ من الأول، أو الأول في القبر، والثاني عند النشور.

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾

﴿ كَلَّا ﴾ تكرار الردع للإنذار والتخويف ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جواب لو

(١) القول الأول هو الأظهر وهو الصواب أي حتى جاءكم الموت وأصبحتم في عداد الموتى، وانظر تفسير ابن كثير ٥٨٢/٤.

محذوف، أي لو تعلمون ما في أيديكم ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي كعلمكم ما
تستيقنون من الأمور، لشغلكم ذلك عن التكاثر بزخارف الدنيا، ولما
خُذعتم بها عن الآخرة.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي والله ستشاهدون الجحيم عياناً و يقيناً،
وترونها رأي العين بأبصاركم بعد الموت.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تكرر للتأكيد، أو المراد بالأولى المعرفة، وبالثانية
المشاهدة ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي الرؤية التي هي نفس اليقين، فإن علم
المشاهدة أعلى مراتب اليقين.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ والخطاب لكل من آلهته دنياه عن
دينه، كمن قَصَرَ همته على استيفاء اللذات، ولم يعيش إلا ليأكل الطيب،
ويلبس اللين، ويقطع أوقاته باللهو والطرب، لا يعبأ بالعلم والعمل، فأما
من تمتع بنعمة الله، وتقوى بها على طاعته، فهو بمعزل من ذلك، وفي
الآية تهديد عظيم للعلماء، فإنها دلت على أنه لو حصل اليقين بما في
التفاخر من الآفة، لتركوا، فالويل للعالم الذي لا يكون عاملاً بعلمه، والله
أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكاثر»

سُورَةُ الْعَصْرِ

مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ﴾

﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى ﴿والصلاة الوسطى﴾^(١) وقيل: ورب العصر، وعن ابن عباس هو الدهر، وقيل: أراد بالعصر زمن رسول الله ﷺ لفضله على سائر الأعصار، وجواب القسم، قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ أي جنس الإنسان، ويدل عليه الاستثناء، ﴿إلا الذين آمنوا﴾ والمعنى: أقسم لكم على شقاء البشر وخسرانهم، وهذا حكم ظاهر، ولنجعل الدنيا في هذا دليلاً، فالأرض يسكنها نحو ألف ألف مليون من البشر، أربعون في المائة منهم وثنيون، يشركون بالله، ويعبدون

(١) وفي الحديث الصحيح «من فاتته صلاة العصر، فكأنما وتر أهله، وماله» أي أصابته داهية عظيمة كحريق أو غرق، ففقد الأهل والمال.

الأصنام، ويقدمون أعز ما لديهم من نفس ومال في سبيلها، وثلاثون في المائة مسيحيون، يخلطون في دينهم، ويؤلهون البشر، وواحد منهم في المائة يهود، وهم يظنون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقد ران على قلوبهم الغلظة والقسوة، واستولى عليهم الحرص والشهوة، وأكثر من عشرين في المائة منهم المسلمون، الجمهرة منهم يخالفون الله ورسوله، ويسيروا في طريق التقليد، ويتعدون عن تعاليم دينهم الخالد، فالإنسان حقت عليه كلمة الله، وصار في خسر وفساد، وبعد عن الإيمان، وضياء الإسلام، فإن قيل: إنه تعالى قال في سورة التين ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ فهناك يدل على أن الابتداء من الكمال إلى النقصان، وههنا يدل على أن الابتداء من النقصان إلى الكمال ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾؟ والجواب المذكور في التين أحوال البدن، وههنا أحوال النفس، وعن بعض السلف قال: تعلمت معنى السورة من بائع ثلج، كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله، فقلت هذا معنى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ فإن الإنسان لا ينفك عن خسران، والخسران تضييع عمره.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا، وهم في تجارة لن تبور، وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم^(١) ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ بيان لتكميلهم لغيرهم، أي وصى بعضهم بعضاً

(١) في هذه الآيات وعيدٌ شديد للبشر، لأنها حكمت بالخسران على جميع الناس، إلا من كان آتياً بهذه الأمور الأربعة: وهي: ١- الإيمان ٢- العمل الصالح، ٣- التواصي بالحق، ٤- التواصي بالصبر، وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه من فعل الخير، فكذلك يلزمه الدعاء إلى الدين، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب لغيره ما يحبه لنفسه.

بالاستمساك بالحق، وهو الدين أجمعه، والخير كله، من توحيد الله وطاقته، والالتزام بشريعته ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أي تحاثوا وأوصى بعضهم بعضاً ﴿بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعة، التي يشق على النفس أدائها، وعلى ما يبلو الله تعالى به عباده، وتخصيص هذا بالذكر، مع اندراجه تحت التواصي بالحق، لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة، التي هي فعل ما يرضى به الله تعالى، والثاني عن رتبة العبودية التي هي الرضاء بما فعله الله تعالى، فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تشوق إليه، من فعل أو ترك، بل هو الرضا بما ورد منه تعالى ظاهراً وباطناً، وإنما ذكر سبب الربح دون الخسران، اكتفاءً ببيان أن ما عداه يؤدي إلى الخسران والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العصر»

* * *

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

مكية وهي تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ .

﴿وَيْلٌ﴾ أي شدة عذاب ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ الذي يعيب الناس من خلفهم ﴿لُّمَزَةٍ﴾ أي من يعيبهم مواجهة، وبناء فُعْلَةٌ للدلالة على أن ذلك عادة مستمرة، وكذلك اللَّعْنَةُ، والضُّحْكَةُ، قيل: نزلت في «الأخنس» فإنه كان ضارياً بالغيبة، وقيل في الوليد، واختصاص السبب، لا يستدعي خصوص الوعيد بهم، بل كل من اتصف بوصفهم القبيح، فله ذنوب مثل ذنوبهم، والمغتتاب، والعَيَّاب، والمستهزئ، والمقلد بأقوالهم وأصواتهم ليضحكوا، هذه الوجوه متقاربة، راجعة إلى أصل واحد، وهو الطعن، وإظهار العيب قد يكون باللفظ، وقد يكون بالإشارة، وكلها داخلٌ تحت النهي.

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ .

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ بدل من كل، وإنما وصفه الله بها لأنه يجري

مجرى السبب، لأن ظنه أن الفضل في المال، ولأجل ذلك يستنقص غيره.
﴿وَعَدَّكُمْ﴾ أي جعله عدة لحوادث الدهر، أو عدّه مرة أخرى.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ ٢.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي تركه خالداً في الدنيا لا يموت، قال الحسن: ما رأيت يقينا لا شك فيه، أشبه بشك لا يقين فيه، من الموت.

﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ ٣.

﴿كَلَّا﴾ ردع له عن حسبه ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾ أي والله ليطرحن بسبب تعاطيه للأفعال المذكورة ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ أي في النار الموجعة، التي تحطم وتكسر كل ما يلقى فيها، كما أن شأنه كسر أعراض الناس.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ ٤.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾؟ تعجيب وتعظيم لشأنها.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ ٥.

﴿نَارُ اللَّهِ﴾ أي هي نار الله ﴿الْمُوقَدَةُ﴾ بأمر الله عز سلطانه، وفي إضافتها إليه سبحانه، ووصفها بالإيقاد، من تهويل أمرها ما لا مزيد عليه.

﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقَةِ﴾ ٦.

﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقَةِ﴾ أي تعلو أوساط القلوب، وتشتمل عليها، وتخصيصها بالذكر، لأن الفؤاد أطف ما في البدن، وأشد تألماً، ولأنه محل العقائد الزائغة.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ ٨ .

﴿إِنَّهَا﴾ أي النار ﴿عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ أي مطبقة، من أوصدت الباب إذا أطبقته.

﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ ٩ .

﴿فِي عَمَدٍ﴾ جمع عماد ﴿مُمَدَّدَةٍ﴾ أي توصد عليهم الأبواب، وتمدد على الأبواب العُمد، استيثاقاً في استيثاق، إيذاناً بالخلود إلى غير نهاية اللهم أجرنّا منها يا خير مستجار، والله أعلم بمراده.

وصلّى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الهمزة»

* * *

سُورَةُ الْفِيلِ

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، والهمزة لتقرير رؤيته والرؤية علمية أي أسمعت الأخبار به متواتراً فقامت لك مقام المشاهدة ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ تعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل، لا بنفسه بأن يقال: ألم تر ما فعل ربك الخ، لتحويل الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة عجيبة، دالة على عظم قدرة الله تعالى، وعزة بيته، وشرف رسوله ﷺ فإن ذلك من الإرهاصات، لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها ﷺ، وتفصيلها أن «أبرهة الأشرم» ملك اليمن، بنى بصنعاء كنيسة، وأراد أن يصرف إليها الحجاج، فخرج رجل من كنانة، فدخل فيها ليلاً، وتعوّط ولطخ بالعذرة قبلتها، فبلغ ذلك أبرهة، فقال: من اجتراً عليّ، فقبل: صنّع ذلك رجلٌ من العرب، فحلف أبرهة ليسيّر إلى الكعبة حتى يهدمها، فخرج مع جيشه ومعه فيل، كان قوياً عظيماً، واثنان عشر فيلاً غيره، فلما بلغ المغمّس أمر بالغارة على إبل الناس، فجمع أنعام أصحاب الحرم، وأصاب لعبد المطلب ماتني بغير، فخرج إليه عبد المطلب، فعظم

في عين أبرهة، لأنه كان جسيماً وسيماً، فأكرمه ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال له عبد المطلب: حاجتي أن ترد عليّ مائتي بعير، فلما ذكر حاجته قال: سقطت من عيني!! جئت لأهدم البيت الذي هو دينك، ودين آبائك، وشرفكم، فألهاك عنه ذود أخذ لك؟ فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وللبيت رب سيحبيه، فأمر بإبله فردت عليه، فأخبر قريشاً الخبر، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، وأصبح أبرهة بالمغمس، وقد تهياً بالدخول، فأرسل الله عز وجل طيراً من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار، حجران في رجله، وحجر في منقاره، أمثال الحمص والعدس، فلما غشين القوم أرسلنها عليهم فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ أَجْنًا فَنسَافِكُ بِهِ إِلَيْكُم مَّاءً وَيَجْعَلُ لَكُم مِّنْهُ شُرَاكًا ۚ سِيقَافٌ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۚ﴾

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ أَجْنًا﴾؟ بيان لما فعله الله تعالى بهم، والهمزة للتقرير، ﴿كَيْدُهُمْ﴾ في تخريب الكعبة ﴿فِي تَضَلُّلٍ﴾ أي في تضيع وإبطال، بأن دمرهم وأفناهم^(١).

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ جماعات، جمع إبالة وهي الحزمة الكبيرة شبهت بها الجماعات من الطير في تضامها.

(١) كان إهلاك أبرهة الأشرم وجيشه عام مولد النبي ﷺ السعيد، إرهاباً بنبوته، إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المذكور، من خوارق العادات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد أهلك الله أبرهة وجيشه بأضعف جنوده، وهي الطير التي ليس من عادتها أن تقتل، كما أهلك عاداً بالريح العقيم، وفي ذلك عبرة للمعتبرين!!

﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾.

﴿ تَرْمِيهِمْ ﴾ أي ترمي عليهم ﴿ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾.

﴿ جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾.

﴿ جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ كزرع أكله الدود، أو كورقٍ أكلته الدواب ثم رائته. ولا يمكن أن يقال: إنه من الأخبار الضعيفة، لأنه لم يكن بين عام الفيل، ومبعث الرسول ﷺ إلا نَيْفٌ وأربعون سنة، ويوم تلا رسول الله ﷺ هذه السورة، كان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة، ولو كان النقل ضعيفاً لشافهوه بالتكذيب، ولمّا لم يكن كذلك، علمنا أنه لا سبيل للطعن فيه والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفيل»

* * *

سُورَةُ قُرَيْشٍ

مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾ متعلق بقوله ﴿فليعبدوا﴾ أمرهم أن يعبدوه لإيلافهم، وقيل: بمضمر تقديره: فعلنا ما فعلنا من إهلاك أصحاب الفيل، لإيلاف قريش، أي من أجل اتلافهم واجتماعهم على شكر الله

﴿إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾

﴿إِلَافِهِمْ﴾ بدل من الأول، تفخيماً لأمر الإيلاف، وتعظيم المنة فيه، والاسم الألفة، تألف القوم: اجتمعوا وتحابوا، والمعنى: إن هذه الألفة إنما حصلت بتدبير الله تعالى، فمن أجل تيسير الله وتسهيله على قريش رحلتهم في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ وكانت لقريش رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله، فلا يتعرض لهم أحد بسوء، فلما

أهلك الله أصحاب الفيل، ازداد موقع أهل مكة في القلوب هيبة واحتراماً، ولذلك لم يتعرض لهم أحد بسوء، فذكّرهم تعالى بهذه النعمة الجليلة.

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ يعني الكعبة المشرفة، وفي الكلام معنى الشرط، إذ المعنى: إِنَّ نَعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ غَيْرَ مُحْصَوْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ لَسَاءَتْ نَعْمُهُ، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة. والإنعام على قسمين: ١ - دفع الضر ٢ - جلب النفع، والأول أهم، يبين الله الأول في سورة الفيل، والثاني في هذه السورة.

﴿ الَّذِينَ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾

﴿ الَّذِينَ أَطْعَمَهُمْ ﴾ أي أغدق عليهم النعم، بعد شظف العيش، وشدة الفقر ﴿ مِنْ جُوعٍ ﴾ شديد قبلهما ﴿ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ عظيم، وهو خوف التخطف في بلدهم وأسفارهم، فقد ذكّرهم تعالى بنعمتين عظيمتين هما: نعمة الغنى واليسار، ونعمة الأمن والاستقرار، فإن لم يكن لهم سوى هاتين النعمتين لكفاهم ذلك اعترافاً بفضل الله عليهم، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة قريش»

سُورَةُ الْمَاعُونِ

مختلف فيها وهي سبع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّبِ ﴿١﴾﴾

﴿أَرَأَيْتَ﴾ استفهامٌ أريد به تشويق السامع، إلى معرفة من سيق الكلام له، والتعجيب منه ﴿الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّبِ﴾ أي بيوم الجزاء والحساب، والخطابُ لرسول الله ﷺ، وقيل: لكل عاقل، والرؤية بمعنى المعرفة، أي هل عرفتَ الذي يكذب بالحساب والجزاء؟ هل عرفت من هو، وما هي أوصافه؟

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ جواب شرط محذوف، والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بالدين؟ إن لم تعرفه، فهو الذي يدفع اليتيم، دفعاً عنيفاً، قيل: هو أبو جهل، كان وصياً ليتيم، فجاءه يسأله من مال نفسه، فدفعه، وقيل: في رجل من المشركين، نحر جزوراً، فسأله يتيم لحماً فقرعه بعصاه، وإذا كان الإنسان منكراً للقيامة، لم يترك شيئاً من المشتبهات، فإنكار القيامة كالأصل لجميع الكفر والمعاصي.

﴿ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾^(٣).

﴿ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ أي لا يحض غيره على إطعام المسكين، الذي عضه ألم الجوع، لعدم اعتقاده بالجزاء، وإذا كان هذا حال من ترك حث غيره، فما ظنك بحال من ترك ذلك، مع القدرة عليه؟.

﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾^(٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ^(٥).

﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ أي غافلون عنها غير مباليين بها يؤخرونها عن أوقاتها، وتلك هي صلاة المنافقين؟.

﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾^(٦).

﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ أي هم المرائون بأعمالهم، يرون الناس أعمالهم ليروهم الثناء عليها، وقال ابن عباس رضي الله عنه: هم المنافقون، يتركون الصلاة إذا غابوا، ويصلون في العلانية، والمؤمن قد يسهو في صلاته، فيتداركها في الحال والمنافق لا يبالي.

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾^(٧).

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ أي الزكاة أو ما يتعاور عادة من القدر، والدلو، والمقدحة، ونحوها، وهو قول أكثر المفسرين عن ابن مسعود، قال: «كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو، والقدر»^(١) والله أعلم بمراده. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بغونه تعالى تفسير سورة الماعون»

(١) أخرجه أبو داود في سننه رقم ١٦٥٧ في الزكاة، وإسناده حسن.

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۝١ ﴾

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۝١ ﴾ أي الخير المفرط، والكثرة الكثيرة، من العلم والعمل، وشرف النبوة، الجامعة لخير الدارين، والكوثر نهر من أنهار الجنان، وخير كثير جمعه كواثر، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما لكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهرٌ وعدنيه ربي عزَّ وجلَّ»^(١).

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝٢ ﴾

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ۝٢ ﴾ أي فاعبد ربك الذي أعزَّك بإعطائه، خالصاً لوجهه، أداءً لحقوق شكرها، فإنَّ الصلاة جامعة على جميع أقسام الشكر، وقيل المراد بها صلاة العيد «يوم النحر» ﴿ وَأَنْحَرْ ۝٢ ﴾ لوجهه وباسمه مخالفاً لعبدة

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في التفسير ٥٦٣/٨ ومسلم في الصلاة رقم ٣٣٥٧.

الأوثان، انحز البُذُن التي هي خيار أموال العرب، وتصدق بها على المحاوِج.

﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾

﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ﴾ أي إن مبغضك يا محمد من قومك بمخالفتك لهم من أولئك الفجرة ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي المنقطع عن كل خير، لا أنت، لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين أولادك، فتبقى ذريتك وحسن صيتك، وآثار فضلك إلى يوم القيامة، نزلت في «العاص بن وائل» وذلك أنه رأى النبي ﷺ خارجاً من المسجد، وهو داخل، فالتقيا وتحدثا، وأناس من صناديد قريش، جلوس في المسجد، فلما دخل العاص قالوا: من هذا الذي كنت تحدثت معه؟ فقال: ذلك الأبتَر، يعني به النبي ﷺ، وكان قد توفي إبراهيم لرسول الله من خديجة رضي الله عنها، فقال الأشقياء: إن محمداً هو الأبتَر، لأنه لا عقب له، فنزلت هذه السورة توضح أن مبغضيه ﷺ هم المبتورون من كل خير، والله أعلم بمراده.

وصلّى الله على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكوثر»

* * *

سُورَةُ الْكَافُرُونَ

مكية وهي ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُوتَ﴾

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُوتَ﴾ روي أن رهطاً من قريش قالوا يا محمد: هلمّ فاتَّبِعْ ديننا سنة، ونتبع دينك سنة، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فتزلت، ففгда إلى المسجد الحرام وفيه ملأ من قريش فقرأها عليهم فأيسوا من مسابرة، وانقطع طمع الكافرين الفاجرين.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي ما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم. أي لم يعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام؟ فأنابريء من آلهتكم ومعبوداتكم.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي وما عبدتم في وقت من الأوقات إلهي

الذي أنا على عبادته، فأنتم لا تزالون على ضلال، فلا مساومة بيننا ولا وفاق.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ في الحال، والمراد لا أعبد ما تعبدونه أبداً حيث، لا أعبد آلهتكم الآن، ولا في ما يُستقبل من الزمان.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾ أي ولا أنتم في المستقبل عابدون إلهي الحق، فلا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة^(١).

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أنتم عليه ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ ولي توحيدي وإخلاصي، فليس فيه إذن في الكفر، بل المقصود التهديد، كقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ كأنه يقول: لكم شرككم وأصنامكم، ولي توحيدي وإيماني، فدينكم الكفر والإشراك، وديني التوحيد والإخلاص، والله تعالى أعلم بمراده.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بغونه تعالى تفسير سورة الكافرون»

(١) السورة وردت بصيغة التأكيد عن طريق التكرار، لأن الكفار راجعوا النبي ﷺ مراراً، فحسن التوكيد والتكرار في هذا الموطن، والقرآن نزل بلسان العرب، على أساليب كلامهم وخطابهم، ومن مذاهبهم التكرار لإرادة التوكيد والإفهام، كما أن مذاهبهم الاختصار لإرادة التخفيف والإيجاز.

سُورَةُ النَّصْرِ

مدنية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ المراد بالنصر: الظفر وإعانة الله، والإظهار على العدو ﴿وَالْفَتْحُ﴾ يعني فتح مكة، وقيل جنس نصر الله، ومطلق الفتح وإنما عبّر بالمجيء تجوزاً، للإشعار بقرب النصر، فكان مترقباً لوروده، مستعداً لشكره، روي أنها نزلت قبل الفتح، وعليه الأكثر، وكان فتح مكة لعشر مضيئ من شهر رمضان، سنة ثمان من الهجرة، ومع النبي ﷺ عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وطوائف العرب، وأقام بها خمس عشرة ليلة، وحين دخلها وقف على باب الكعبة، ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر جنده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم قال: يا أهل مكة: ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء فاعتقهم، وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم، فعفا عنهم، ثم بايعوه على الإسلام.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾ أي أبصرتهم أو علمتهم ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي في ملة الإسلام التي لا دين يضاف إليه تعالى غيرها ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي جماعات جماعات كثيفة، كأهل مكة، والطائف، واليمن، وسائر قبائل العرب، روي أنه ﷺ لما فتح مكة، أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا: إذا ظفر بأهل الحرم، فلن يقاومه أحد، وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكُمْ كَانَتْ تَوَابًا﴾.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فقل سبحان الله حامداً له، أي فتعجب لتيسير الله تعالى، ما لم يخطر ببال أحد، وأحمده على جميل صنعه ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ تواضعاً له ودم على الاستغفار، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما صلى رسول الله ﷺ بعد ما نزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلا ويقول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه» وقال الحسن: إنه تعالى أعلم رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأمره بالتسبيح والاستغفار، ليختتم بالزيادة في العمل الصالح ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ تَوَابًا﴾ لمن استغفر، والتواب كثير القبول للتوبة، والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النصر»

سُورَةُ الْمَسَدِ

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾

﴿تَبَّتْ﴾ أي هلكت أو خسرت، والتبابُ: الخسرانُ كما قال تعالى: ﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ وتباً له، أي هلاكاً ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ هو «عبد العزى بن عبد المطلب» وإنما كناه والتكنية تكرمة لاشتغاره بكنيته، أو استكره ذكر اسمه، وإيثار التباب على الهلاك لما روي في الصحيحين عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، ونادى يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فقال: أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جرّبنا عليك إلا صدقاً، قال ﷺ: فلإني لكم نذيرٌ بينَ يدي عذابٍ شديد!! فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت تبّت يدا أبي لهب^(١) السورة ﴿وَتَبَّ﴾ أي وهلك كله، ومعنى ﴿وَتَبَّ﴾ وكان ذلك وحصل له الهلاك والدمار، وذلك على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله.

(١) صحيح البخاري ٢٢٢/٣.

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ ﴾

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ ﴾ أي لا يغني عنه حين حلّ به الهلاك ماله وما كسبه، من الأرباح والمنافع، وعن ابن عباس ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ ولده، وروي أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فانا أفتدي منه نفسي، يمالي، وولدي!! وقد خاب أمله، وما حصل ما تمناه، فافترس ولده أسدً في طريق الشام، وقد كان ﷺ دعا عليه وقال: «اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك» فافترسه الأسد، وكان أبو لهب قد هلك نفسه بالعدسة، فاجتنبه أهله مخافة العدوى، فبقي ثلاثاً حتى أنتن، ثم استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه، فكان الأمر كما أخبر به القرآن، فهو إخبارٌ بالغيب، طابقه وقوعه.

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۖ ﴾

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۖ ﴾ سيدخل نار جهنم لا محالة، بعد هذا العذاب العاجل، فالنار ذات اللهب، للشقي أبي لهب.

﴿ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۖ ﴾

﴿ وَأَمْرَأَتُهُ ۖ ﴾ هي أم جميل بنت حرب، أخت أبي سفيان، عمة معاوية، كانت تحمل حزمة من الشوك، والحسك، والسعدان فتنترها بالليل في طريق النبي ﷺ، وقيل: كانت تمشي بالنمائم، فتفسد بين الناس، أي توقد بينهم النار ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ وعن قتادة أنها مع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها.

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ۖ ﴾

﴿ فِي جِيدِهَا ۖ ﴾ أي في عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ﴾ أي حبلٌ من ليفٍ

وشوك، تُعَذَّب به يوم القيامة، لوضعها الشوك في طريق الرسول ﷺ فإن قيل: إن رسول الله ﷺ كان نبي الرحمة، وصاحب الخلق العظيم، فكيف يليق أن يشافه عمه بهذا؟ فالجواب: كان ﷺ لا يسامح أحداً في شيء من باب الدين، ولو كان يدهن أحداً في باب الدين، لَفَعَلَهُ مع عمه، فلما لم تحصل معه، انقطعت الأطماع، وعلم كل أحد أنه ﷺ لا يسامح أحداً في شيء يتعلق بالدين أصلاً، والله أعلم بمراده.

وصلّى الله تعالى على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين،
والحمد لله رب العالمين.

«نم بعونه تعالى تفسير سورة المسد»

* * *

سُورَةُ الْاِخْلَاصِ

مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو ضمير الشأن، ومدار وضعه مع عدم ذكره، الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد، كأنه قيل: الشأن هذا، وهو أن الله واحد، لا ثاني له، ولا يحتاج إلى شريك، والذي سألتموني عنه هو الله أحد، إذ روي أن قريشاً قالوا يا محمد: صف لنا ربك، أمن ذهب هو؟ أم من فضة، أم من ياقوت؟ فتزلت، ولفظ «الأحد» يدل على مجامع صفات الجلال، كما دل لفظ «الله» على جميع صفات الكمال وقال ثعلب: إن «أحد» لا ينبيء عليه العدد ابتداءً كما يقال واحد، واثنان ولا يقال: رجل أحد، كما يقال رجل واحد، ولذا اختص به تعالى، فالأحدية تتضمن نفي الوالد والولد، ونفي النظير والشبيه، ونفي الكثرة والعدد، فهي صفة الذات الإلهية.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ هو فَعَلَ بمعنى المفعول من صمد إليه إذا قصده

وهو السيد المصمود إليه في الحوائج، والمعنى: وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق وقيل الصمد الدائم الباقي، الذي لم يزل ولا يزال، وقيل: الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وتكرار الاسم الجليل، للإشعار بأنه من لم يتصف بذلك، فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية، بيّن أولاً ألوهيته عز وجل، المستتعبة لكافة نعوت الكمال، ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد، ثم صمديته المقتضية لاستغناؤه الذاتي عما سواه، وافتقار جميع المخلوقات إليه، وروى البخاري في إفراده عن أبي وائل قال: الصمد هو السيد الذي انتهى سؤده، وهي رواية عن ابن عباس أيضاً.

﴿لَمْ يَكِلْذَ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾

﴿لَمْ يَكِلْذَ﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة، وقد دل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَنْى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تُكُنْ لَهُ صَاحِبَةً؟﴾ ولعل الاختصار على لفظ المضارع لوروده رداً على من قال الملائكة بنات الله، والمسيح ابن الله، أو يطابق قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ لأن كل مولود محدث وجسم، وهو تعالى قديم ليس بجسم، لا أول لوجوده.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ولم يكافئه أحد، أي لا يماثله أحد، وقوله تعالى ﴿أحد﴾ يبطل مذهب النصارى في التثليث، والصابئين في النجوم، ويبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله تعالى، وقد ورد في فضل هذه السورة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»^(١) وعن سهل بن سعد قال: جاء رجل

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٣/٩ ولفظه عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً =

إلى النبي ﷺ، وشكا إليه الفقر، فقال: إذا دخلت بيتك فسلم، إن كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد، فسلم على نفسك، واقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ مرة واحدة، ففعل الرجل، فأدّر الله عليه رزقاً والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. اللهم احشرونا في زمرة العالمين بك، العاملين لك، الراجين لثوابك، الخائفين من عقابك، المكرمين بقلائك آمين يا معين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإخلاص»

= سمع رجلاً يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ يردّها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له - وكان الرجل يتقالها - فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن».

سُورَةُ الْفَلَقِ

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ١

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ الصبح، وهو قول الأكثر، والفلق: بفتحتين ضوء الصبح، وقيل: كل ما يفلقه الله تعالى، كالأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن الأمطار، والحب والنوى عما يخرج منهما وغير ذلك، وفي العياذ باسم الرب، المضاف إلى الفلق، المنبىء عن النور، عقيب الظلمة، والسعة بعد الضيق، عذبة كريمة بإعادة العائد، مما يعود منه، وتقوية لرجائه، بتذكير بعض نظائره، ومزيد ترغيب في الجدد والاعتناء، بقرع باب الالتجاء إليه تعالى.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ٢

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شر ما خلقه من الثقلين وغيرهم، خص عالم الخلق بالاستعاذة منه، لانهصار الشر فيه، فإن عالم الملكوت خير كله وعالم الخلق وشره اختياري، كالكفر، والظلم، والطغيان.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ٣

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ﴾ الغاسقُ: الليل ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي اعتكر ظلامه، وأصله الامتلاء، يقال غسقت العينُ: إذا امتلأت دمعاً، والغاسق هو الليل إذا عظم ظلامه، عن عائشة قالت: إن رسول الله ﷺ نظر إلى القمر فقال: «يا عائشة استعيزي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب» وقيل: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ دخل في المحاق وهو آخر الشهر، ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي دخل ظلامه في كل شيء، وتقييده به، لأن حدوثه فيه أكثر، والتحرز منه أصعب وأعسر، ولذلك قيل: «الليل أخفى للويل»، وإنما أمر بالاستعاذة من شر الليل، لأن في الليل تخرج السباع والهوام، والسارق والمكابر، ويقع الحريق، وتنتشر الأرواح المضرة، الجن والشياطين.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ النفاثات النساء السواحر، اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها، ويرقن، وهو دليل على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر، والنفث: النفخ مع ريق، ومنهم من قال النفخ فقط، ومنه قوله ﷺ: «إن جبريل نفث في روعي» والعقد جمع عقدة، وإنما جمع لأنه كلما كان اجتماع السحرة على العمل الواحد، كان التأثير أكثر وأشد، وتعريفها للإيذان بشمول الشر لجميع أفرادهن.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ إذا أظهر حسده، وعمل بمقتضاه، لأنه إذا لم يظهر فلا ضرر يعود منه على من حسده بل هو الضار لنفسه، والله أعلم بمراده. وصلى الله على نبيتنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بغونه تعالى تفسير سورة الفلق»

سُورَةُ النَّاسِ

مكية وهي ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ١.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي مربيهم ومصلحهم، ودافع ما يضرهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ٢.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ أي مالك جميع الخلق، ملوكاً وأتباعاً، وهو عطف بيان، جيء به لبيان أن تربيته تعالى إياهم، ليست بطريق تربية سائر الملوك لما تحت أيديهم، بل بطريق الملك الكامل، والتصرف الكلي.

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ ٣.

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ أي هو تعالى ربهم ومعبودهم، الذي لا ربَّ لهم سواه وتخصيص الإضافة بالناس، مع انتظام جميع العالمين في سلك ربوبيته، وملكوته، وألوهيته، للإرشاد إلى مناجاة الاستعاذة المرضية عنده تعالى.

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ٤.

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ هو اسم بمعنى الوسوسة كالزلال بمعنى الزلزلة، والمراد به «الشيطان» سُمي بفعله مبالغةً، كأنه نفس الوسوسة ﴿الْخَنَاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتأخر، إذا ذكر الإنسان ربه، لما روي عن سعيد بن جبیر: إذا ذكر الإنسان ربه، خنس الشيطان وولّى، وإذا غفل رجع ووسوس إليه.

﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾

﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ أي قلبهم، يغريهم بالكفر والمعاصي والفجور، ليوقعهم في نار الجحيم، وفي الحديث الشريف «إن الشيطان واضع خطمه - أي خرطوم - على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله تعالى خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس»^(١).

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، أي هذا الوسواس الخناس هو من شياطين الإنس والجن، ليفتنوا بني آدم ويضلّوهم، كما قال الله تعالى: ﴿شَیَاطِینَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ یُوحِیْ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ والجنة بكسر الجيم بمعنى الجن، نعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن، وعصمنا الله من الغفلة عن ذكره إنه سميع مجيب الدعاء.

«ما ورد في فضل المعوذتين»

١ - روى مسلم عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «ألم ترَ آيات

(١) أخرجه الحافظ الموصلي، وأخرجه البخاري تعليقاً عن ابن عباس، وانظر تفسير ابن كثير ٦١٥/٤.

أنزلت هذه الليلة، لم يُر مثلهنَّ قطُّ؟ ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾^(١).

٢ - وروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه، ثم ينفث فيهما فيقرأ قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات»^(٢).

٣ - وعن عائشة رضي الله عنها «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى، يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث، فلما اشتدَّ وجعُه، كنتُ أقرأ عليه، وأمسحُ عنه بيديه، رجاء بركتهما»^(٣).

٤ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل، وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو يتنفق منه آناء الليل، وأطراف النهار»^(٤).

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأقوالنا، ومن شر ما علمنا وما لم نعمل، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، ونبيه وصفيه، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وصلى الله على محمد، وعلى آله مصابيح الأنام، وأصحابه مفاتيح دار السلام، والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا وليَّ العصمة والإرشاد، وهادي الغواة إلى سنن الرشاد، بارئ البرية، مالك الرقاب، عليك توكلي، وإليك متاب، أنت المغيث لكل حائر ملهوف، والمجير من كل هائل مخوف، أحتمي بحرَمِك

(١) أخرجه مسلم رقم ٨١٤ في المسافرين، والترمذي رقم ٢٩٠٥ في ثواب القرآن.

(٢) أخرجه البخاري ٥٦/٩ في فضائل القرآن، ومسلم رقم ٢١٩٢ في السلام.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الفضائل ٦٠/٩ ومالك في الموطأ ٩٤٣/٢.

(٤) أخرجه الشيخان البخاري ٦٥/٩ في فضائل القرآن، ومسلم رقم ٨١٥ في المسافرين.

المأمون، من غرائب ريب المنون، وألتجئ إلى حرك الحريز، وآوي إلى
 ركنك العزيز، وأسألك من خزائن برك المخزون، في مكان سر
 المكنون، خير ما جرى به قلم التكوين، من أمور الدنيا والدين، وأعوذ
 بك من فنون الفتن والشور، لاسيما الاطمئنان بدار الغرور، والاغترار
 بنعيمها وزهرتها، والافتتان بزخارفها وزينتها، فأعذني بحمايتك، وأعني
 بعنايتك، وأفض علي من شوارق الأنوار الربانية، وبوارق الآثار السبحانية،
 ما يخلصني من العوائق الظلمانية، ويجردني من العلائق الجسمانية،
 وهذب نفسي من دنس الطبائع والأخلاق الردية، ونور قلبي القاسي بلوامع
 الإشراق، ليستعد للعبور على سرائر الإنس ويتيهاً للحضور في حظائر
 القدس، وثبني على مناهج الحق والهدى، وأرشدني إلى مسالك البر
 والتقوى، واجعل أعز مرامي ابتغاء رضاك، وأشرف أيامي يوم لقاءك، يوم
 يقوم الناس لرب العالمين، واحشرنني مع الذين أنعمت عليهم من النبيين،
 والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله
 رب العالمين.

الحمد لله على التمام، والصلاة والسلام على أفضل الرسل الكرام
 بعون الله العزيز الجليل، وعليه الاعتماد والتعويل، إنه قريب قدير مجيب،
 وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، وقد انتهى تحرير هذا
 المقتطف بفضل عرّ وجلّ في بلدة «صوفيا» من بلاد بلغاريا في اليوم الثاني
 من شهر ذي الحجة الشريفة لسنة ثلاث وثمانين وثلاث مائة وألف من
 هجرة من له العز والشرف، وأنا الفقير المحتاج إلى عفو به. ولطفه
 الكثير، المصطفى الحصن المنصوري، والحمد لله في البدء والختام، وآخر
 دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

«تم تفسير القرآن الكريم بعونه تعالى»
